3 me Année, No. 126.

Lundi-2-12-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٢٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة

فى الجمـــال ...

— ٣ —

إذا عرفت الجوهر الذى يتحقق به الجمال الطبيعى (١) سهل عليك أن تعرف الجوهر الذى يقوم عليه الجمال الصناعى ، لأنه إما وحيه و إما نموذجه . فالجمال الصناعى يتعلق بالفكرة التى يوحيها إليك الفن عن الفنان ثم عن الفن نفسه إذا كان ابتكارياً ، و بالفكرة التى يوحيها إليك الفن عن الفن نفسه وعن الفنان ثم عن الطبيعة إذا كان تقليديا . ولننظر بادئ الأمر فيم تنشأ منه عاطفة الجمال فى الفن الابتكارى كالريازة (٢) مثلا . ففى أى بَنِيَّة من البنايا تجد الوحدة ، والتنوع ، والترتيب ، والتناظر (٣) ، والتناسب ، والتوافق ، تؤلف منها كُلاًّ منتظما فى ذلك شك ؛ ولكنك لا تجد فى ذلك الشكل جمالا إذا لم يكن من العظمة أو الوفرة أو الذكاء على درجة تثير فى نفسك الاعجاب والدهش . وهل تجد فى العمارة البسيطة مهما اتسق بناؤها واتفقت أجزاؤها ما تجـد فى معابد الفراعين من الجمال والجلال والروعة ؟ خذ بنظرك قصراً من قصور القاهرة الحديثة شِيد على قَدَر عادى من العناصر الجمالية

(١) انظر العددين ١٢٢ و ١٢٣ (٢) فن العمارة (٣) السيمترية

الثلاثة ، ثم أطل الوقوف أمامه ما شئت ، تجد الفن فيه نازلا على حكم القواعد الموضوعة . ولكنه عيي صامت لا يحدثك لا عن نفسه ولا عن صانعه ؛ ثم قف تلك الوقفة أمام معبد الكرنك أو هيكل الأقصر أو هرم الجيزة ، تجد نفسك المسبوهة المشدوهة موزعة بين سمو الفن في ذاته ، وعظمة الفنان في حقيقته . لا جرم أن هذه الأبنية الضخمة الفخمة أقل تناسقاً وتوافقاً من تلك . ولكن القوة التي أقامت هذه الأعمدة . ورفعت تلك الصخور ، ونصبت هذه التماثيل ، وصنعت تلك المحاريب ؛ والوفرةَ التي تراها في الشكول المختلفة ، والصور الناطقة ، والرسوم الدقيقة ، والكتابة الرمزية ، والأصباغ الحية ، والمادة العجيبة ؛ والذكاء الذي يروعك في ابتكار الوسائل الميكانيكية لنقل هذه الأجرام الهائلة من مناحتها في الجبل ، إلى مثابتها في الجو ، لتصارع الفناء الذي لا يفتر ، وتصارع الدهر الذي لا يبيد : هي التي حققت فيها ذلك الجمال ، وألقت عليها هذه الروعة ، وربطت في ذهنك بين فكرتك عن الصنيع وفكرتك عن الصانع . ولو كانت نسبة الذكاء فيها على مقدار نسبة القوة . لبلغت ما لم تبلغه نواطح السحاب الأمريكية من الغاية التي ينقطع دونها الدرْك !

على أن الجمال الطبيعي قد يقوم في بعض مظاهره على القوة والوفرة دون الذكاء ، كما ترى في العواصف والبراكين ، ولكن الذكاء إذا أعْوَزَ في الفن الصناعي ذهبت عاطفة الجمال فيه بدداً بين التنافر والغرابة ، إذ الطبيعة مجهولة الأسرار محجوبة المقاصد ؛ وقد استراحت عقولنا منذ النشأة إلى أن تلتمس لجهالتها العالل ، وتفترض لسفاهتها الحكمة : وليس كذلك الفنان ، فانه مسئول أمام العقل عن العلة التي أجهد من أجلها قوته ، والغاية التي بدّد في سبيلها ثروته . وحسبه من الذكاء ماينفي عنه العبث ؛ فاذا تيسرت له عظمة القوة في ظاهر من النظام ، كفاه ذلك في إنشاء الاعجاب واتّقاء النقد ، لأن القوة والوفرة هما المصدران الأولان لنشأة الجمال في الفن

على أن فكرة القوة تختلف اختلافاً شديداً عن فكرة الجهد ؛ فكلما قلت الدلائل على هذه ، كثرت الدلائل على تلك . فالخفة والظرافة والأناقة والسراح من صفات الجمال ، لأنها تظهر من القوة أكثر مما تظهر من الجهد ؛ ولكن إنشاء مقامة من الحروف المعجمة أو الحروف المهملة كما صنع الحريري ، أو كتابة سورة من القرآن على حبة من الرز كما يصنع الخطاط السوري ، عمل لا يحدث في النفس شعور الجمال ، لأنه يدل على الجهد أكثر مما يدل على القوة ، ويدعو إلى الرثاء أكثر مما يدعو إلى الدهش . وفي التفصيل المحكم من كلام الله ، وفي السهل الممتنع من كلام الناس ، كل الفروق بين القوة والجهد

كذلك لا يستعجم الفرق بين الوفرة الصَّناع وبين الزخرف الأخرق : فان سر الابداع في الوفرة أنها تضع اللون في مظهره ، والحسن في جوهره ، والمعنى في لفظه ، والشيء في مكانه ؛ أما الزخرف الأخرق فسَرَفٌ لا ينبئ عن غنى ، ورهق لا يسفر عن قدرة ، ولجب لا يبلغك من ورائه نغم ! هو كل ما يملك الصانع من ثروة نثرها أمام عينيك في غير لباقة ولا تحفظ ، ليخفي بالرياء حقيقة العجز ، ويدفع بالزور تهمة العوَز

***

إن ما قلته في الريازة ينطبق على الخطابة والموسيقى وسائر الفنون الابتكارية التي تفصح عن قوى كبيرة ووسائل وفيرة . فالخطيب الذي يبلبل الآراء بقوة كلامه . ويسترقُّ الأهواء بسحر بيانه ، ويملك على الشعب نوازع القلوب فيرسله على رأيه ، ويُصَرِّفه على إرادته ، قد أوتي من القوة في الفن والعبقرية ما يحمل النفوس على الاعجاب بقدرته والانقياد لأمره . كذلك الموسيقى الذي يصبي المشاعر بسحر أنغامه ، والشاعر الذي يسبي العقول بقوة أسلوبه وسمو إلهامه ، كلاهما يعلن الجمال في قوة الفن التي يفرضها ، ووفرة الوسائل التي يعرضها ، وذكاء الروح الذي يفيض على عمله النظام والانسجام والمناسبة . والقوة والوفرة هما كذلك روح هذا الجمال وسره : فاذا كان الانفعال الذي ينشئه الصوت أو القصيدة لطيفاً يحدث اللذة ، ولكنه ضعيف لا يحدث الطرب ، مدحت قريحة الفنان وأطربت عذوبة الفن ، ولكن الاطراء شيء آخر غير هتاف الاعجاب يبعثه سمو العبقرية وقوة الالهام في روائع الموسيقى وبدائع الشاعر

(للبحث بقية)

احمد حسن الزيات

أمس وغـــداً

للأستاذ أحمد أمين

قرأت مرة أن سرياً أمريكياً كان له مصانع ومتاجر، كأضخم ما يكون من مصانع ومتاجر، أصابتها النار فأتت عليها، وقدرت الخسائر بملايين الدولارات

وكان هذا السرى في السابعة والستين من عمره، ليس له قوة الشباب، ولا أمل الشباب، ولا طموح الشباب؛ وكانت ثروته الضائعة ثروة العمر، ومجهود العمر، ونتيجة العمر

أتى اليه «مكاتب» يسأله عن هـذه الكارثة وأسبابها ومقدارها فأجابه: «لست أفكر في شيء من ذلك، إنما علك عليّ كل فكرى الآن: ماذا أنا صانع غداً»

يعجبني هذا الاتجاه العملي في التفكير، فانه دليل الحياة، وعنوان القوة، ومبعث النشاط؛ فما دمتَ حياً ففكر دائماً في وسائل الحياة، ووسائل السعادة في الحياة؛ وتلك كلها أمامك لا خلفك، وفي الغد لا في الأمس

لقد دل هذا السرى باجابته على أنه يقتني عقلية أقومَ مما رعته النار، ونفسية خالدة لا تفنى بفناء المال

إن الحياة الناجحة تفكر في الغد، والحياة الفاشلة تبحث في الأمس. وقديماً قالوا: «إذا أفلس التاجر فتش في دفاتره القديمة». وقال الشاعر وقد رأى بني تغلب لا يعملون عملا جديداً مجيداً، ويكتفون برواية قصيدة قالها عمرو بن كلثوم التغلبي في مدحهم:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمةٍ ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسئوم

ولأمر ما خلق الله الوجه في الأمام ولم يخلقـه في الخلف، وجعل العين تنظر إلى الأمام ولا تنظر إلى الخلف، وأراد أن يجعل لنا عقلاً ينظر إلى الأمام وإلى الخلف معاً، وأن يكون نظره إلى الخلف وسيلة لحسن النظر إلى الأمام؛ فعكس قوم الفطرة الانسانية ونظروا بعقولهم إلى الخلف وحده، وقلبوا الوضع فجعلوا النظر إلى الخلف غاية لا وسيلة

من هؤلاء الذين نُكِّسوا في الخَلق من إذا حدثتهم فيما هم صانعون غداً حدثوك عما صنعه آباؤهم الأولون، وكيف حاربوا وكيف انتصروا، وكيف سادوا العالم، وكيف وكيف. وهذا حق لو اتخذ وسيلة لعمل مستقبل، واستُحثت به الارادة لعمل مستقبل، وضُرب مثلا لمعالجة مشاكل المستقبل؛ أما أن يكون غرضاً في نفسه فحديث العجزة ومن أصيبوا بأنيميا «الفكر» وضعف الارادة

وممن نُكّسوا في الخلق هؤلاء الذين يثيرون العداوات القديمة والأحقاد القديمة بين رجال الأمة وقادتها؛ فاذا طالبتهم أن ينظروا إلى الأمام، ويتكيفوا بما يتطلبه المستقبل، أبوا إلا أن يذكروا لك تاريخ الأمس، وحزازات الأمس، وسخائم الأمس، وما دروا أنهم بهذا يعطلون مصلحة المستقبل وخير المستقبل، أو دروا ولكنهم الماكرون الخادعون. فليس يصح أن ينظر في الأمس إلا لتجنب أغلاط الأمس في المستقبل، والانتفاع بصواب الأمس وخطئه في المستقبل

وممن نكسوا في الخلق هؤلاء الذين جمدت عقولهم فاعتقدوا أن كل شيء كان خيره في الأمس وشره في الغد؛ فخير النحو ما وضعه سيبويه، وخير البلاغة ما قاله الجاحظ، وخير الفلسفة ما قاله ابن سينا وابن رشد والفارابي، وخير عصور الدين ما سبق من العصور، وخير الأخلاق أخلاق آبائنا، وأنه لم يبق في هذا الزمن إلا الحثالة من كل علم وأدب ودين وخلق، وأن العالم في ذلك كله سائر إلى التدهور دائماً، فأمس خير من اليوم، واليوم خير من الغد. فهذه العقلية لا تنفع للحياة وإنما تنفع للصوامع؛ ولا تنفع للجهاد وإنما تنفع للفناء؛ ولا تنفع لمن أرادوا أن يتبوءوا مكاناً في الحياة وانما تنفع من أرادوا أن يتبوءوا مكاناً في القبور. إن النحو الذي ننشـده هو في المستقبل لا في الماضي؛ واللغة التي تصلح لنا وتؤدي مطالبنا في الحياة هي في المستقبل لا في الماضي؛ والأدب الذي يمثل نزعاتنا حق تمثيل هو في المستقبل لا في الماضي؛ والأخلاق التي تلائم الموقف الاجتماعي الذي نقفه اليوم هي في المستقبل لا في الماضي؛ وليس لنا من الماضي إلا ما يصلح للمستقبل بعد غربلته وابعاد ما تعفن منه. إن موقفنا بين الماضي والمستقبل يجب أن يكون كموقف وجهنا فينا؛ وضعه الطبيعي في الأمام؛ ولكن الانسان قد يلوى عنقه وينظر إلى الوراء إذا دعت الضرورة، ثم يعود سيرته الأولى من النظر إلى الأمام ويسير لوجهه ويمضي قُدُماً لشأنه؛ ولن ترى انساناً طبيعياً

لوى عنقه دائماً ، ونظر الى الخلف دائماً

وممن نُكسوا فى الخلق هؤلاء الذين وقفوا ينتظرون القدر ؛ أولئك لم ينظروا للمستقبل ، ولكن ينظرون الى ما يفعل بهم المستقبل ؛ أولئك أحجار ينفعلون ولا يفعلون ، ويتأثرون ولا يؤثرون ؛ وإنما مستقبلك فى يدك ولك دخل كثير فى صياغته ، فان شئت تكن فقيراً ، وإن شئت تكن غنياً – الى حد كبير – وإن شئت تكن سعيداً ، وإن شئت تكن شقياً ؛ وليس يستسلم للقدر إلا من فقد إرادته وأضاع إنسانيته

لقد أتى على الناس زمان كان الاستسلام للقدر عنوان « الولاية » ورمز القداسة ، وكلما أمعن الانسان فى التجرد عن الدنيا أمعن الناس فى تعظيمه وتبركوا به ولثموا يده ؛ ولكن هذا تقدير الماضى ؛ أما تقدير اليوم والمستقبل فالولاية والقداسة فى العمل ، والولى أو القديس هو المصلح ، وهو الذى يبنى المجد بعمله لأمته وللأنسانية ؛ وهو الذى يواجه العمل فى شجاعة وإقدام ، لا الذى يفر من الميدان ؛ وهو الذى يرسم خطة العمل وينفذها ، لا الذى يعزى عن الكوارث ويعود المرضى ويلطف وقع البؤس ؛ وهو الذى يشق الطريق لمحو الفقر عن الفقراء والبؤس عن البؤساء ، لا الذى يذرف الدمع ويوصى بالصبر على احتمال الفقر من غير حث على العمل ، والتفكير فى طرق الخلاص من البؤس ؛ وليس الولى والقديس من يحلم بل من يعمل

مضى الزمن الذى كنا نرصد فيه النجوم لنتطلب السعادة من سلطانها ، ونجتنب الشقاء فى أوقات نحسها ، وأصبحنا نشعر بأن النحس نحس الخلق وموت الارادة ، والسعادة حياة النفس وتفتح الأمل ، والمشى فى مناكب الأرض ، وإعمال اليد والعقل فى جلب الرزق ، وجلب الخير ، ودفع الشر ، ودفع البؤس والفقر

***

خير لك إن كنت فى ظلمة أن تأمل طلوع الشمس غداً من أن تذكر طلوعها أمس ؛ فلكل من الظاهرتين أثر نفسى معاكس للآخر ، ففى ترقبك طلوع الشمس غداً الأمل والطموح الى ما هو آت ، وفى هذا معنى الحياة ؛ وفى تذكرك طلوعها أمس حسرة على ما فات ، وألم من خير كنت فيه الى شر صرت فيه ، وفى ذلك معنى الفناء

وفرق كبير بين من يُلطم اللطمة فلا يكون له وسيلة إلا البكاء ، وتذكُّر اللطمة ثم البكاء ، ثم تذكر اللطمة ثم البكاء ، وبين من يلطم اللطمة فيستجمع قواه للمكافحة . والحياة كلها لطمات ، وأعجز الناس من خارت قواه أمام أول لطمة فهرب . ولو أنصف الناس لقوموا الناس بمقدار كفاحهم ، لا بمقدار فشلهم ونجاحهم

***

شر ما ألاحظ فى الشرق حنينه الشديد الى الماضى ، لا أمله القوى فى المستقبل ، واعتقاده أن خير أيامه ما سلفت لا ما قدمت ، وإعجابه الشديد بأعمال الماضين واهمال المعاصرين ؛ له منظاران : منظار مكبِّر يلبسه إذا نظر الى الماضى ، ومنظار مصغِّر اسود يضعه إذا نظر الى الحاضر والمستقبل . يلذه أن يطيل البكاء على الميت ، ولا يلذه أن يتدبر فيما يجب أن يفعله الأحياء ؛ يستسهل النفقات مهما عظمت على الميت ، ويستكثر نفقات الطبيب وأثمان الدواء للمريض . يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تدل على عظم الماضى ، ولا يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تبعث الأمل فى المستقبل ؛ ففى أعماق نفوسهم أن قول القائل : « ما ترك الأول للآخر » خير من القول : « كم ترك الأول للآخر » . ويلوكون دائماً : « لا جديد تحت الشمس » ، ولا يعجبهم أن تقول إن كل ما تحت الشمس فى جدة مستمرة ، والمستقبل مملوء بالجديد . وإذا رأوا كلمة فى كتاب قديم تدل – ولو دلالة كاذبة – على نظرية جديدة طاروا بها فرحاً ، لأن ذلك يلائم ما فى نفوسهم من تعظيم الماضى وتحقير الحاضر والمستقبل . هم يعيشون فى أحلام ، ولا يريدون أن يعيشوا فى حياة واقعة ، وحول هذه المعيشة الحالمة ينسجون دائماً ما يوافقها ويمازجها ويسايرها ؛ يكتفون بالأمل أن ينعموا بالآخرة ؛ وماذا عليهم لو عملوا لينعموا فى الدنيا والآخرة ؟

أحمد أمين

فى العدد القادم

ابتداء من العدد القادم سننشر فصولا قيمة فى (نظرية النسبية الخصوصية) تتناول الكلام (١) فى الزمان ونسبيته ، (٢) وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية ، (٣) مبادئ الميكانيكا الحديثة ، (٤) مبادئ الديناميكا الجديدة ، (٥) كون منكوفسكى والفاصلات الفراغية والزمانية ، بقلم الدكتور الفاضل الأستاذ اسماعيل أحمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية

٢ - المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ورأيتُ المجنونين يدخلان معاً فكأنما سدَّا الباب وسوَّياه بالبناء ، وتركا الغُرفةَ حائطاً مُصمتاً لا بابَ فيه مما اعتراني من الضيق والحرج ؛ وقلت في نفسي : إنه لا مذهبَ للعقل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه ، فأرى أن أدَعهما وأكونَ أنا أصرِّفُهما ؛ وبا ربما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين ما لا يأتي مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره ؛ غير أني خشيتُ أن أكون أنا المجنون بينهما ، ثم لا آمن أن يَثِب أحدهما بالآخر إذا خطرتْ به الخطْرةُ من شيطانه ، فرأيت أن يكونَ لي ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقّ به العونُ فلا أقلّ من أن يطول به الصبر . . وكان إلى قريب مني الصديق ا . ش . فأرسلت في طلبه

أما هذا المجنونُ الثاني الذي جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من قبل ، وهو كالكتاب الذي خُلِّطت صحفُه بعضها في بعض فتداخلتْ وفسد ترتيبها ، وانقلب بذلك العلمُ الذي كان فيها جهلاً وتخليطاً يثبُ الكلام بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لا صلة لها بما قبلها ولا ما بعدها

وهو طالبٌ أزهريّ كان أكبر همّه أن يصير حافظاً كالحفاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء ، فجعل يستظهرُ كتاباً بعد كتاب ومتْناً بعد متن ؛ وكانت له أذُنٌ واعيةٌ فكل ما أفرغ فيها من درس أو حديث أو خبر ، نزلَ منها كالنقر على آلةٍ كاتبة ، فينطبعُ في ذهنه انطباعَ الكتابة لا تُمحى ولا تُنسى

ثم اتّاتَ هذه اللُّوثةَ وهو يحفظ متناً في فقه الشافعي رضي الله عنه ، فغبرَ سنين يتحفظُه ، كلما انتهى إلى آخره نسيه من أوله ؛ فيعود في حفظه وربما أثبتَ منه الشيء بعد الشيء ، ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول ؛ فلا يزال هذا دأبه لا يملُّ ولا يجد لهذا العنَاء معنى ، ولا يزال مقبلاً على الكتاب يجمعه ثم لا يزال الكتابُ يتبدّدُ في ذاكرته .

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلى في داره للحفظ وأجمع أن لا يدع هذا المتن أو يحفظه كأنْ فيه الموضعَ الذي فارقه عقله عنده ، وبذلك رجع المسكين آلة حفظ ليس لها مساك ؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر ، ثم يلقيه في البحر ، لينزح البحر . . .

* * *

وجاء ا . ش . فقلت له وأومأتُ إلى المجنون الأول : هذا نابغة القرن العشرين

قال : وهل انتهى القرنُ العشرون فيعرف مَن نابغتُه ؟

فقلت للمجنون : أجبه أنت . فسأله : وهل بدأ القرنُ الواحد والعشرون ؟ قال لا

قال : فإن هذا الذي إلى جانبي نابغةُ القرن الواحد والعشرين . . . فكما جاز أن يكون هو نابغةَ قرن لم يبدأ ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته

قلتُ : ولكنك زدتَ المشكلة تعقيداً من حيث توهمتَ حلها . فكيف يكون ممك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة ؟

فنظر نظرةً في الفضاء ، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى اللاشيء . . . ثم قال : هذه الأمورُ لا تشتبه إلا على غير العاقل . . . وكيف لا يكون بيني وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقدّمه في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة . . . ؟

قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : مما حفظناهُ عن الحسن : أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو أدركوكم لقالوا شياطين . . .

فضحك الأول وقال : إنه تلميذي

قال الثاني : لقد صدق فهو أستاذي ولكنه حين ينسى لا يذكّره غيري . . .

قلت : لا غرو ؛ « فمما حفظناه » عن الزُّهري : إذا أنكرت عقلك فاقدحه بعاقل . . .

فغضب نابغة القرن العشرين وقال : ويحٌ لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحد للفضل ، مع جنونه وخبله . أيذكّرني وهو منذ كذا وكذا سنةً يحفظ متناً واحداً لا يمسكه عقله إلا كما يُمسك الماء الغرابيل ؟ صدق والله من قال : عدوٌ عاقل خيرٌ ؛

خير ؛ خير . فقال الثانى : خير من صـديق جاهل ، هأنذا قد ذكرتك من نسيان ، وهأنت ذا رأيت

فضحك النابغة وقال : ولـكنى لم أرد أن أقول هذا ، بل أريد أن أؤلف كلاماً آخر . . . . . . عدوٌ عاقل خيرٌ ، خيرٌ ، خيرٌ ؛ خير من مجنون جاهل . . . .

***

ورأيت أن فى التقاء مجنونين شيئاً طريفاً غيرَ جنونهما ، وصح عندى أن المجنون الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورِهما فنٌّ ظريف من التمثيل إذا وَجدا من يُبصِّر فهما فى الحديث ، ويستخرج ما عندهما ، ويستكشفُ منهما قصتهما العقلية ... ...

ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أُذُنٌ فى غير الأذُن ، وعينٌ فى غير العين ، وأنفٌ بغير الأنف ؛ إذ تتلق أدمغتهم أصواتاً وأشباحا وروائح من ذات نفسها لا من الوجود ، وتدركها بالتوهم لا بالحاسة ، فتتخلَّقُ هواجسهم خَلْقاً بعد خَلق ، وتخطر الكلمة من الكلام فى ذهن أحدهم فيخرج منها معناها يتكلم فى دماغه أو يمشى أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعل أفعالاً أخرى

وبينا أنا أُدير الرأى فى اخراج فصل تمثيلىّ من الحوار بين هذين المجنونين (١) ، إذ قال (نابغة القرن العشرين) : صَهْ ، إن جرس « التلفون » يدق

قال ا . ش : لا أسمع صوتاً وليس ههنا تلفون

فاغتاظ المجنون الآخر وقال : إنك تتقحمُ على النوابغ ولست من قدرهم ، وما عملك إلا أن تنكر ، والانكارُ ، ويلك ، أيسر شيء على المجانين وأشباه المجانين ، والعامة وأشباه العامة ؛ وقد أنكرت نبوغه آنفاً وأراك الآن تنكر « تلفونه » ......

قال ا . ش : وأين التلفون وهذه هى الغرفة بأعيننا ؟

فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال : صه ويحك لقد خلطت علىّ ؛ إن الجرس يدقّ مرة أخرى وأنا لا أريد أن أكلمها حتى يطول انتظارُها ، وحتى تدق ثلاث مرات ، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينها فى صوتك ولغطك

قال المجنون الآخر : هى صاحبته التى يهواها وتهواه ؛ وقد استهامها وتيَّمها وحيّرها وخبّلها ، حتى لا صبر لها عنه ، فوضعت له تلفوناً فى رأسه ... ...

قال « النابغة » : وهذا التلفون لا يُسمعنى صوتها فقط ، بل هو ينشِقنى عطرها أيضاً . وقد تكلمنى فيه الملائكة أحياناً ، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فانها غيورٌ تخشى سطواتها على اللائى تغار منهن ؛ ولولا ذلك لـكلمتنى فى هذا التلفون إحدى الحور العين ... ...

قلنا : أو تغار منها الحورُ العين ؟

قال المجنون الثانى : بل الأمر فوق ذلك ، فان الحور العين يشتُمنها ويلعنها ؛ « فما حفظناه » هذا الحديث : لا تؤذى امرأةٌ زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ؛ فانما هو عندك دخيلٌ يوشك أن يفارقك الينا

قال (نابغة القرن العشرين) : ويلى على المجنون ! إنه يريد أن يخلوَ له موضعى فهو يتمنى هلاكى وانتقالى وشيكا من هذه الدنيا . وهو يقول بغير علم لأنه أحمق ليس له عُقدةٌ من العقل ، فيزعم أنها تؤذينى ، ولوهى آذتنى لغضبت قبل ذلك ، ولوغضبت لرفعت التلفون . صه إن الجرس يدق

***

قال ا . ش : إن للنوابغ لشأناً عجيبا ، ففى مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجتـه وتركت له غلاما فتزوج أخرى وهو يعيش فى دار أبيه . فلما كان عيـد الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يعطه . وهو رجل يحفظ القرآن فذكر قصة ابراهيم عليه السلام ورؤياه فى المنام أنه يذبح ابنه ، يُخيِّل اليه أن هـذا باب الى النبوة وأن الله قد أوحى اليه ، فأخذ الغلام فى صبيحة العيـد وهمّ بذبحه . ولو لا أن صرخ الغلام فأدركه الناس فاستنقذوه ...

قال (نابغة القرن العشرين) : هـذا مجنون وليس بنابغة ؛ بل هذا من جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حدته . وقد رأيته فى البيمارستان حين كنت أنا فى المستشفى ... فـكان يزعم أنه ائتمر فى ذبح غلامه بارادة الله . ولو كانت إرادةَ الله لنفذت بالذبح ، ولو كان الأمر وحياً لنزل عليه من السماء كبش يذبحه ...

---

(١) سيأتى هذا الفصل التمثيلى فى مقال آخر

وهكذا أنا فى المنطق (نابغة القرن العشرين)

ثم إنه أشار الى المجنون الثانى وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأ كثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة كاملة

قلت : ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلمَ عدْتَ فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدا لى أنه يتمنى هلاكى ليكون هو نابغة القرن العشرين . فمعنى الكلام الآن : أنه لو عاش خمسا وستين سنة « يحفظ المتن » لما بلغ مبلغى من العلم . هذا رجل نصفه ميتٌ جنوناً موتاً حقيقياً ، ونصفه الآخر ميت جهلاً بالموت المعنوى

قال ا . ش : حسبُهُ أن يقلدك تقليدَ العامِى لأمامه فى الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فانه تلميذك

قال المجنون الثانى « مما حفظناه » : لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار ... ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر ... ولما رأيته ناسياً فذكرته ونبهته أن الصلاة لا تجوز بالشعر ، التفت الى وهو راكع فسبَّنى وشتمنى وصرخ فىَّ وقال : ما شأنك بى هل أنا أصلى لك أنت ...

فغضب « النابغة » وقال : والله إنْ تحسبوننى إلا مجنونا فتريدون أن يقلدنى هـذا الأحمقُ الذى ليس له رأىٌ يمسكه .. ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليد نابغة القرن العشرين

قلنا : هذا عجيب ، وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لا أعدّكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك

قال ا . ش : هذا لم يُعرف مثلُه فكيف نعرفه ، ولم يتوهمه أحد فكيف نتوهمُه ؟

وقلت أنا : لعلك رأيت نفسك فى الرؤيا

قال : لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتَها ؛ وهذا نصف الصواب ؛ وما دمت أستاذى ، فلو أننا اختلفنا فى رأى لكان خلافك لى صوابا لأنه منك ، وكان خلافى لك صوابا لأنه منى ؛ فأنت (غير مخطىء) وأنا مصيب ، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظلُّ أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . .

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) فى الرؤيا ولكنى رأيته فى المرآة عند الحلاّق . . . ورأيته يقلدنى فى كل شىء حتى فى الاشارة والقَوْمة والقَعْدة ، ولكنى صرختُ فيه وسبَبْتُهُ ففتح فمه ثم خافنى ولم يتكلم . . .

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأ كثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة

قال ا . ش : لقـد قلتَـها مرتين كلتاهما بمعنى واحد ، فما معناك فى هذه الثالثة ؟

قال : هذا الغِرُّ يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى ، ويستدلُّ بذلك بأنى صليتُ بالشعر وأنى شتمته وأنا راكع ؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا راكع ثواب له . . . ولو كان نابغةً لعلم أن الشعر كان فى مدح دولة النحاس باشا وأولى النُّهى

قلنا : ولـكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو فى مدح دولة النحاس باشا

قال : لم أصلِّ به ولـكن خطر لى وأنا أصـلى أنى نسيتُ القصيدة فأردت أن أتحقق أنى لم أنسها .... فاذا أنا نابغة القرن العشرين فى الحفظ وهى ستة أبيات . لا كهذا المعتوه الذى صبر على المتن صبرَ الغريب على الغُربة الطويلة ومع ذلك لم يحفظه

قال ا . ش : فأمْلِ علينا هذا الشعر . فأملى عليه (١)

يا حليـف السُّهْـد قل لى أين مَنْ فى الدهر خالْ
إن تـكن تهوى غزالاً أكحل العينين مالْ
أنا أهواها ولـكن لا سـبيل إلى الوصالْ
منذ ولَّت قلتُ مهلاً منـذ غابت فى خيـالْ
أنا مجنونٌ بليلى ليلَ يا ليـلى ! تعـالْ

قلنا ولـكن ليس هذا مدحا . فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أنى أقول فى الغَـزَل ، أما المديح فهو :

شغف الورى بمناصب وأمانى وشغفت يا نحاس بالأوطان
حسبوا الحياة تفاخرا وتنعما وحسبتها لله والأوطان

ثم أُرْتِجَ عليه فسكت . قال المجنون الآخر : انها ستة أبيات ، وقد نسيت أربعة ، ولست أريد أن أذكرك

فقال (النابغة) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى ..

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه

ونظر إلى اللاشىء فى الفضاء ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتغى فى المدح غيرَ أولى النُّهى أو صادق[١] أو شوقى أو مطران

ثم أمر ا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، أنظر إلى فوق ؛ فنظر ، ثم قال انظر إلى تحت ؛ فنظر ثم سكت

قال ا . ش : وبعد ؟ قال : وبعدُ فان الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت . . .

***

وكان الضجر قد نال منى ، فرجوت ا . ش . أن يلبث معهما وأذنت لنابغة القرن العشرين أن يلقانى فى الندىّ وانصرفت

قال ا . ش وهو يُنَبِّئنى : فما غبت عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بى الظلم ، وإن (الرافعى) رجل عَسُوفٌ ظالم لأنى أكتب له كل مقالاته التى ينشرها فى (الرسالة) ... وأجع نفسى لها ، وأجهدُ فى بيانها ، وأذيب عقلى فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحلَها ويضع توقيعه عليها ويبعث بها الى المجلة ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ولا يدفع لى عن كل مقالة إلا قرشين[٢] ...

قال ا . ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هـذه المقالات الى المجلة فتقبض فيها الذهب ، قال : إن هناك أسراراً أنا مُحْصِيها وكاتمها ، ولا ينبغى أن يعلمها أحد فانهـا أسرار ... قال له : فدع (الرافعى) واكتب لى أنا هذه المقالات وأنا أعطيك فى كل مقالة ذَهَبَين لا قرشين

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعى ، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعى كلاَمه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لـكان هذا حطاً من قدر نابغة القرن العشرين . وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار ...

قلت : ثم جاء المجنونان فى العـشِيَّة الى الندىّ

(لها بقية)

إلى الأستاذ ح . ع فى بغداد : سرنى كتاب الصديق الـكريم ، ولـكن ما قصة الحجر الأخضر الذى يشبه الزمرد ؟

الرافعى

---

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين . .

(٢) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيرا فجعلها عشرين قرشاً ....

١ — الصقالبة فى الرواية العربية وفى الدولة الأندلسية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يعن العرب فى فتوحاتهم الأولى بتمييز الأمم والأجناس الأجنبية تمييزاً واضحا ، وإذا استثنينا الفرس والروم والقبط والبربر والقوط ، فان هذا التصنيف للأمم والأجناس الأجنبية يتخذ فى الرواية الاسلامية صفة التعميم الغامض ، فنجد كلمات « الأعاجم » و« النصارى » و« الفرنج » تطلق على أمم وأجناس متباينة لا يمكن تحديدها وتمييزها إلا على ضوء الحوادث والظروف ؛ بل نجد كلمة « الروم » ذاتها تطلق فى الرواية الاسلاميـة الأولى على الرومان وعلى سكان الدولة الشرقيـة (الدولة البيزنطيـة) اليونانيين وأحيانا على سكان المستعمرات الرومانية مثل الشام وطرابلس ؛ وتطلق كلمة الفرنج لا على أمة الفرنج (الفرنـكيين) وحدها ، بل على معظم الأمم والممالك النصرانية التى كانت تعيش يومئذ فى غرب أوروبا وفى وسطها ؛ ولم تعن الرواية الاسلاميـة بالتصنيف والتحديد فى هذا الميدان إلا منذ القرن الثالث الهجرى ، وفى القرن الرابع نجد هـذا التصنيف القومى أكثر وضوحا سواء من حيث اللفظ أو المعنى ، فنجد الرواية الاسلاميـة تحدثنا عن الفرنج واللمان (الألمان) والبلغار والروس والصقالبة ، وعن انـكبردية (بلاد اللومبارد) وافرنسة وبرطانية ؛ وهذا التقدم فى تصنيف الأجناس والأمم يرجع الى تقدم مماثل فى الجغرافية الاسلاميـة ، وإلى تقدم العلائق والصلات الدبلوماسـية والتجارية بين الأمم الاسلامية والأمم النصرانية

وقد كانت كلمة « الصقالبـة » من أغمض الـكلماتَ التى أطلقت فى الرواية الاسلامية على الأجناس الأجنبية الدخيلة ؛ ولم يبق اليوم ثمة غموض فى تعريف البلدان والأمم الصقلبية ، فهى تشمل قسما من بلاد البلقان وتشمل صربيا ورومانيا وروسيا حتى الشرق الأقصى وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا ؛

وبعبارة أخرى هي الأمم التي تعرف اليوم بالأمم « السلافية » أو السلافونية « Slavs ; Slavonians » . ولـكن كلمة « الصقالبة » في الرواية الاسلامية كانت بعيدة جدا عن أن تشمل مثل هـذا التصنيف الواسع ، ومع أننا نراها مستعملة في الرواية الاسلامية منذ القرن الثاني للهجرة ، فانها لبثت دائما لفظاً غامضا متباين المعنى . فمثلا يستعملها البلاذري ، وهو من أقدم رواة الفتوح الاسلامية في أكثر من مناسبة ؛ فيقول لنا إن المنصور « نقل أهل الحصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط ونصارى من المصيصة وكان مروان أسكنهم إياها [(١)] » ؛ ومن الصعب أن نضبط المعنى الذي ينصرف اليه لفظ « الصقالبة » في هـذا العصر المتقدم . بيد أنه يلوح لنا أن الـكلمة كانت تطلق حتى القرن الثالث على سكان بلاد الخزر (قزوين) والقوقاز وما اليها ، ثم اتسع معناها نوعا وأطلقت على سكان البلقان المتـاخمين للدولة البيزنطيـة مثل البلغار ؛ وقد كان الصقالبة في الواقع يستعمرون هذه الأنحاء في تلك العصور ، وكانت لهم في بلغاريا مملـكة « صقلبية » حقيقية . وكان معنى الكلمة أوضح وأدق في الغرب الاسلامي ، في الأندلس وصقلية والمغرب ، حيث كانت تطلق على الأجناس الصقلبية الحقيقية التي تسكن حوض الدانوب الشرقي والأوسط وألمانيا وضفاف الادرياتيك ، ويؤتى منها الى الأندلس والمغرب بالخصيان والأسرى [(٢)] ؛ ويعرف الشريف الادريسي بلاد الصقالبة بأنها هي شبه جزيرة البلقان ، وهو في الواقع معنى أقدم من عصر الادريسي ، بيد أن الادريسي يشير على ما يظهر الى التحديد السياسي حيث كانت مملـكة الصقالبة (بلغاريا) تسود يومئذ بلاد البلقان [(٣)]

وعرف الصقالبة وعرفتهم القصور الاسلامية في عصر مبكر جدا ، فمنذ الدولة الأموية نجدهم في بلاط الخليفة وفي الجيش ؛ ولـكن نفوذهم الحقيقي في القصور الاسلاميـة يبدأ منذ القرن الرابع الهجري ، فنراهم عندئذ يتقلبون في الوظائف والمهام العليا بعد أن كانوا يقتصرون على تقلد الوظائف والمهام الصغرى في البلاط وداخل القصر ، مثل وظائف الخدمة السلطانية والنظر على الشؤون المنزلية المحضة كشؤون المائدة والثياب والرياش ، ونراهم يسـيطرون على شؤون الدولة العليا ، فيتولون الوزارة والقيادة والوصاية أحيانا ويسود نفوذهم في القصر وفي الحـكومة . وقد كان هذا النفوذ يرجع في الغالب الى سياسة الدول والأسر ، تعمل لرعايته وإيثاره لبواعث سياسية واجتماعية ؛ وسنقتصر هنا على معالجة مركز الصقالبة ونفوذهم في الأندلس حيث كانت لهم دولة وكان لهم أيما نفوذ

— ٢ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالي والصقالبـة واتخاذهم أداة وبطانة ؛ وكانت الظروف العصيبة التي أحاطت بقيام الدولة الأموية في الأندلس ، والخطوب والثورات الجمـة التي تفجرت حول عبد الرحمن الداخل والتي أثارها خصومه ومنافسـوه من زعماء القبائل العربية ، هي التي حملته على الاسترابة بالعرب وعلى اصطفاء البربر والموالي الذين آزروه وقت المحنـة ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته [(١)] ؛ وقد حافظ خلفاء الداخل على هـذه السياسة في جوهرها منذ البداية لشعورهم بأهميتها وضرورتها لمقاومة نفوذ القبائل الخصيمة التي كانت تتقاسم السلطان والنفوذ قبل قيـام الدولة الأموية ؛ وظهر الصقالبة بكثرة لأول مرة في البلاط الأندلسي في عهد الحكم المنتصر حفيـد عبد الرحمن الداخل (١٨٨ ـ ٢٠٦ هـ) ؛ وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك الباذخ ، فغص البلاط الأموي في عصره بالخدم والحشم من المماليك والصقالبة حتى بلغ عددهم زهاء خمـسة آلاف [(٢)] وأخذ نفوذ أولئك الصقالبـة يقوى شيئاً فشيئاً داخل القصر والبطانة . بيد أنه لبث مدى حين بعيدا عن شؤون الدولة العليا قاصرا على شؤون القصر والخاص

وفي عهد الناصر قوي نفوذ الصقالبة وازدهر ؛ وكان الناصر يجري على سـنة سلفه عبد الرحمن الداخل في الاسترابة بالقبائل

---

(١) فتوح البلدن ـ مصر ـ ص ١٢٠ (٢) ويرى البعض أن كلمة صقالبة العربية مشتقة في الأصل من كلمة Esclave الإفرنجيـة (الفرنسية) ومعناها الرقيق والأسير (راجع رينو Invasions des Sarrazins en France ص ٢٣٧ والمراجع) (٣) قارن المستعرق بارتولد Ency. de l'Islam: Slaves:

(١) راجع نفح الطيب ـ مصر ـ ج ١ ص ١٥٦ (٢) ابن الأبار ج ٦ ص ١٢٨

العربية ذات العصبية والبأس وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ؛ وكان يعمن في الاستئثار بالسلطة حتى لقد ألغى وظيفة الحاجب ، وجمع مقاليد الحكم كلها فى يده ؛ وعهد بالمناصب الكبيرة الى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ؛ وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ؛ وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من النفوذ ما لا يوليه سواهم [1]

ومنذ أواسط عهد الناصر يبدأ نفوذ الصقالبة الحقيقى فى بلاط قرطبة . وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق فى الأندلس كما قدمنا على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية الحقيقية ؛ ولكنها غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون فى البطانة وفى الجيش ؛ ولما استحكم نفوذ الصقالبة واستأثروا بحماية الخليفة والقصر ، أضحت الكلمة تطلق منذ عهد الحكم المستنصر على الحرس الخلافى [2] وقد انتهت الينا عن صقالبة الأندلس فى هذا العصر رواية شاهد عيان هو الرحالة البغدادى ابن حوقل الذى زار قرطبة والزهراء فى أواخر عهد الناصر أو أوائل عهد ابنه الحكم المستنصر وبحث أحوال الصقالبة وكتب عنهم فى رحلته ما يأتى :

« وبالأندلس سلاح كثيرة ترد إلى مصر والمغرب ، وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبى فرنجة وجليقية . والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد ؛ وجميع ما يسبى الى خراسان من الصقالبة فباق على حالته ، ومقر على صورته . وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطرابذنده يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وأفرنجة وانكبرده وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله » [3] ، ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسيين كانوا مزيجا من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين (أهل افرنجة) واللومبارديين (اهل انكبردة) والايطاليين (من قلوريه) وكذلك الروس وهم أهل القسم الأول من بلاد الصقالبة . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا من الجنسين بواسطة خوارج البحر (القرصان) وتجار الرقيق ، وتحملهم سفن القرصان أو سفن البنادقة إلى مختلف ثغور البحر الأبيض ؛ وكانت الكنيسة تقاوم هذه التجارة المثيرة وتحرمها ؛ بيد أنها كانت تجرى فى رومة عاصمة النصرانية ذاتها ؛ وفى معظم الثغور الايطالية . وكانت الحرب مصدرا آخر لجلب هؤلاء الصقالبة ، ففى كثير من الغزوات الاسلامية المنظمة لأمم النصرانية ؛ وفى الحملات والغزوات البحرية الناهبة كان المسلمون يغنمون كثيراً من السبى والأسرى صغارا وكبارا ، ومنهم الصقالبة الذين يخدمون جنداً مرتزقة فى معظم الجيوش النصرانية ؛ هذا عدا الرقيق والأسرى من مختلف الجنسيات والأمم يتدفقون على الثغور والعواصم الاسلامية عقب كل فتح أو غزوة ناجحة [1] وكان الصقالبة يختارون فى الغالب أطفالا من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادئ الاسلام ؛ وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد ، وبلغوا فى عهد الناصر قسطا وافرا من السلطان والنفوذ ، واحتلوا الوظائف الكبرى فى القصر وفى الادارة والجيش ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ؛ وفاق عددهم فى عهد الناصر أى عهد آخر حتى قدر بعض المؤرخين عددهم يومئذ فى القصر والبطانة بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى ستة آلاف وثمانين ، وفى رواية ثالثة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ؛ وعلى أى حال فقد كان منهم الحرس الخلافى ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يعد لهم فى السلطان والنفوذ ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم [2] بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ودرى صاحب الشرطة ؛ ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص [3]

(١) Dozy : Hist des Musulmans d'Espagne ; II P 153

(٢) Lévy - Provencal : Ency de l'Islam - Slaves

(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥

(١) راجع رينو — الكتاب المشار اليه ص ٢٣٧ — ٢٣٩

(٢) Dozy ; idib ; II p. 153 — وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣ — ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١

من ذكريات لبنان

الحـــذاء الذهبي

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« استيقظت ! »

وكانت قد أغفت ، وهى قاعدة على دكة تحت شجرة صنوبر ، وذراعها على سور النافورة ، ويسراها على حجرها ، ثم فركت عينيها فقلت :

« والآن أرجو أن يلهمها الله ألاّ تغير جلستها ، فانها هكذا أحلى ! »

فحطت ساقاً عن ساق ، وتناولت حقيبتها الصغيرة وفتحتها ونظرت فى المرآة ، ثم أخرجت منديلاً ، وجعلت تلمس به وجهها فى مواضع فقلت :

« ولها جيد جميل أيضاً ـ وأناملها مخضبة . . . الآن صرت لا أرى عيباً فى قول من يقول إن هذا من دم العشاق ! »

فابتسمت وقالت ـ كأنها تحدث نفسها ـ « ماذا يقول هذا الرجل ؟ »

فقلت ، وأنا أنكث الأرض بعود صـغير فى يدى : « إنه يسأل : أتراك زوجته ؟ »

فزوت ما بين عينيها وقالت : « زوجته ؟ زوجة من ؟ »

قلت : « زوجتى أنا ! »

فصاحت : « إيه ؟ »

قلت : « زوجتى . . . تعرفين الكلمة ؟ . . يتهجونها هنا بالزاى والواو والجيم ، وأتهجاها أنا بالحاء والباء و . . . »

وكانت تنظر إلىّ مبهوتة ، ثم ابتسمت وسألتنى :

« هل تعني أنك لا تستطيع أن تعرف زوجتك حين تراها ؟ »

فأهملت السؤال وقلت : وأنا أشير بالعود الذى فى يدى :

« إنك هى . . . أو أنت عيناها ، وجيدها وساقاها . . . »

فخيل إليها أنها فهمت وقالت : « أوووه ! ألك زمان طويل لم تراها ؟ »

قلت : « طويل جداً . . . ربع ساعة ! »

فصدمها هذا فقطبت وقالت : « إنك تسخر مني » ومدت يدها إلى الحقيبة

فقلت : « لا تعجلى ! ألم أقل إنك هكذا أحلى ؟ وعلى ذكر ذلك أسألك : كيف يمكن أن تأكلى بهذا الفم الصغير ؟ »

فقالت : « إنى ذاهبة . . . اسمح لى »

قلت : « إنها ذاهبة ؟؟ هل سمع أحـد بمثل هذا ؟ ليت شعرى كيف تستطيع أن تمشى فى مثل هذا الحذاء الدقيق ؟ ثم تجيء زوجتى فتوسعني تأنيباً ! »

وكانت تهم بالقيام ، فترددت ، ثم سألتنى :

« من أنت ؟ إنى أريد أن أعرف »

فقلت ، وعيني إلى الأرض : « إنها تسأل ؟ بداية حسنة على كل حال ـ خطوة فى الطريق القويم ـ ومتى رأيت امرأة تعنى بأن تسأل من يكون الرجل ، فاعلم بأن الأمل فى . . . . »

فانتفضت ثمة وقالت وهى عابسة : « سأذهب »

ولكنها لم تـكد تخطو خطوة واحدة حتى صرخت وارتدت فانحطت على الدكة ، وانحنت فمدت يديها إلى قدمها اليمنى ، فأسرعت إليها أسألها ما الخبر ، وكانت قد خلعت الحذاء ودست فيه أصبعين تتحسس بهما ، فقالت : « مسمار ! ماذا أصنع ؟ »

فأخذت الحذاء ونظرت فيه ثم قلت : « من كان يتصور أن هذا الحذاء الصغير يمكن أن يسكنه مسمار ضخم كهذا ؟ والآن هل يمكن أن يكون فى حقيبتك عتلة أو معول أو فأس أو أى شىء أصغر أو أكبر ندق به هذا المسمار الملعون ؟ »

فقالت وهى تضحك : « لا تمزح من فضلك ! »

وكان لهذه السياسة غير بعيد أسوأ الأثر فى انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ؛ وكانت هزيمة الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة (الانديجا) أمام نصارى الشمال (٣٢٧ هـ ـ ٩٣٩ م) ترجع من وجوه كثيرة الى هذا الانحلال المعنوى الذى سرى إلى الجيش من جراء الاحقاد القومية والطائفية (١)

للبحث بقية

(النقل ممنوع) محمد عبد الله عنان

(١) Dozy ; idib ; II p. 153

قلت: « هذا أحسن - نعم يجب أن نضحك إذا لم نستطع أن نفعل ما هو خير من ذلك ؟

فقالت: « ولكن ألا تستطيع شيئاً ! »

وتلفتت فقلت: « أستطيع أن أضع النعل على وجهي ، وأقبض على رأس المسمار بأسناني ، وأشد . . . هكذا »

فصاحت بي وهي تتلوى من الضحك « أرجو .. أرجو .. »

فقلت: « أعرف ما تريدين بغير حاجة إلى رجاء ... أن أحملك إلى حيث تقصدين »

ففاض الابتسام ، واعتدلت في جلستها وقالت: « أتظن أني أسمح لك بذلك ؟ مستحيل ! »

قلت: « ولم لا ؟ إنك أخف من الريشة ، وفي وسعي - بعد قليل من التدرب - أن أظهر بك على المسرح ، وأمشي بك على الحبل ، محمولة على أسناني »

فضحكت ثم قالت. « إنك فظيع ! »

قلت: « بالعكس . . . إني لطيف جداً . . . »

فقاطعتني ضاحكة وقالت: « دع لطفك الآن . . . »

- قبل أن تعترف به ؟ هذا مطلب بعيد !

- وقل لي ما العمل ؟

فقالت: « العمل أن تجلس حيث أنت - وإن كنت سأحرم منظرك الفاتن وأعود أنا إلى « القهوة » ثم أكر إليك بالحذاء في يدي - لا في رجلي - بعد أن نطرد هذا الطفيلي »

* * *

وانحدرت إلى حيث « القهوة » وعثرت مرتين أو ثلاثا ، فآمنت أن العجلة من الشيطان ، ولكني مع ذلك ، وعلى الرغم مما أصابني ، ظللت أعدو كأن ورائي ألف كلب من كلاب الصيد ، وحرت بين أشجار القهوة فوقفت أنادي: « يا حاج الياس ! يا حاج الياس ! »

فأقبل علي اثنان من أعوانه ؛ فأشرت اليهم بالحذاء وطلبت شيئاً أخرج به المسمار

وكانت زوجتي - مع أولادنا - على مقربة مني ، وكانت تراني ولا أراها ، فقالت: « ما هذا ؟ »

فدرت حتى واجهتها وقلت ، وأنا أمشي اليها:

« هذا ؟ آه ! هذا حذاء جميل ... ... »

فدهشت وسألتني: « من أين جئت به ؟ أين وجدته ؟ »

قلت: « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم ... » صدق الله العظيم ... خذي جربيه ! اخلعي هذا ... »

وانتزعت حذاءها الأيمن ، وذهبت أعدو به

* * *

« ولكن هذا ليس حذائي ؟ »

قلت: « يا فتاتي المتبطرة .. هو حذاء والسلام .. تستطيعين أن تلبسيه وتمشي به وتقطعي اربعمائة متر ، ثم تخلعيه لا شاكرة ولا مشكورة ، ثم تلبسي حذاءك الجميل ، وتقعدي به كما أنت الآن ... رشيقة أنيقة ... فاتنة الجيد ... ساحرة العينين ... وتروحي تهذري مع زوجتي التي تصب على رأسي الآن أحر اللعنات ... ومن يدري ؟ إذا لم تعجلي قبل أن يطنى بها الحنق والسخط ، فقد تلقي بحذائك في البركة ... إن النساء هكذا ... حذاؤك جميل ، ولكن كل امرأة تعتقد أن حذاءها هي أجمل وأنفس .... هيا بنا ! »

فوقفت وهي تقول: « ولكني لا أستطيع أن أمشي به ... واسع ... »

قلت: « لا تذمي زوجتي - أعني قدمها ، فانها جميلة ... ثم إن المشي في حذاء واسع خير من المشي في حذاء في جوفه مسمار .. تعالي بالله قبل أن يغرق في البركة »

فتوقفت وصوبت عينها الى قدميها وقالت: ولكنه فضي وحذائي ذهبي ؟ »

قلت: قوس قزح ... تعالي ... أترانا في معرض أزياء هنا ؟ نحن في هذه الجنة المغروسة على جبال « الشوير » ولا أحد معنا ولا ثالث لنا إلا .... إلا الهوى ... كآدم وحواء ... وعلى ذكر ذلك أظن أن حواء كانت تلف ذراعها بذراع آدم إذ يسيران في الجنة »

* * *

وقالت زوجتي ونحن مقبلان عليها:

« لم أر مثلك أبدا في الدنيا ! »

قلت: « صدقت يا امرأة ! وأين تجدين في هذه الدنيا نظيري »

قالت محتجة: « تخطف حذائي وترمي لي هذا !! ... »

وأشارت بازدراء إلى حذاء الفتاة ، وكان ملقى على الأرض

فقلت : هس ! إن اللص منى ، أعنى المسئولة عن الجريمة والمحرضة على ارتكابها »

فصاحت الفتاة وضربت بكفها على صدرها : « أنا ؟ »

ونظرت زوجتى الى قدمى الفتاة ثم نهضت وأقبلت عليها وقالت ، وهى تمد اليها يديها :

« أوه ! لم أ كن أعرف ؟ ولـكن كيف استطعت أن تمشى فيه ؟ إنه واسع ... ورجلك أصغر ... وأجمل أيضاً ! »

فالتفت إلى الفتاة وقلت : « أتسمعين ياهذه ؟ إنها تقر لرجلك بالمزية ! وجيـدها ؟ أليس ساحراً يا امرأة ؟ ألست معذوراً إذا اشتهيت أن آكله ؟ وعيناها ؟ وهذا الفم المجيب الذى لا أدرى كيف يتسع للـكلام ، وان كان قد اتسع جدا لذم حذائك يا امرأة ! »

فريعت الفتاة وصاحت : « أنا ذممته ؟ حرام عليك ! »

فقلت : نعم ... جدا ... قلت انه واسع عظيم ، وانه يذكرك بالباخرة تايتانك ، وانه يسع جيشاً عرمرما من الأقدام الـكبيرة الغليظة ، وانه ...

وكانت زوجتى تضحك ، أما الفتـاة فقد خيل الىّ أنها ستسقط على الأرض

وقالت زوجتى : « فظيع ! ألا تقفل هذه البوابة ! لا تنبأى به يا حبيبتى ولا تلتفتى اليه ... انه هكذا دائماً ... والآن خذى هذا المسمار واحتفظى به للذكرى »

فقلت : « وأنا ؟ ما أجرى على التعب ؟ لقد قطعت كيلومترا فى الذهاب والاياب ـ قطعته عدوا . . . وهذه الأحذية على راحتى الطاهرة .... »

فقالت زوجتى : « جزاؤك أن تقعد مع الأولاد ، ونذهب نحن نتمشى .... »

قلت : « هذا جزاء سمار . . لا بأس ! مجنون من يصنع معروفاً فى بنت من بنات حواء .... »

فقالت زوجتى : هذا رأيك ؟ إذن لن أدعوها إلى العشاء معنا ! »

فصحت : « لا لا لا . . . انما أعنى بنتا من بنات آدم »

فضحكت الفتاة ، ورمتنى زوجتى بفستقة . . . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذى ضجر بالطب لجهله أسـباب الداء ثم ادعائه علاجه ؟ الذى شغله البحث فى أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؟ الذى حقق أحـلام بستور وأثبت أن المـكروب ينتج الأمراض ، وأن لـكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؟ الذى علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط ؟ الذى كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الانسان والحيوان ؟ الرجل الذى كشف مكروب الـكوليرا على أرض مصر فى أجسام ضحاياها . البطل الذى نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده ، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده ، فأسر منها على هواه ، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً

المترجم

كان كوخ قد اعتزم أن يسيح فى الأرض ويضرب فى مجاهلها ضرباً ، ثم خاب ، وها هو ذا يبدأ سياحات غريبة فى مجاهل أشد غرابة . إنى أحياناً أقرن كوخ بلوفن هوك فأجد الأول أعجب وأغرب فى صيادته المكروب وأكثر انهماكاً ، وأجد كليهما على السواء عصاميا فى كسب العلم . كان كوخ رجلاً فقيراً يرتزق من صناعة الطب ، وكل ما عرف من العلم هو ما تضمنته مقررات الطب فى مدارسه ، وعلم الله ما كان فى هذه الدراسة شىء يعلم ممارسة التجارب ويدرب فى فن التجريب . ولم يكن لدى كوخ من أدوات التجربة غير ذلك المكرسكوب الذى أهدته إليه زوجه المخلصة إيمى فى عيد ميلاده ، أما عدا هذا من الأدوات فكان عليه أن يحتال لتدبيره وتصميمه وأن يصنعه بيده من قطع الخشب وخيوط القِـنَّـب وشمع الأختام . وترك يوماً مكرسكوبه وفترانه وجاء زوجـَه يخبرها فى تحمّـس بالجديد المعجب الذى وجد ، فما

كان من السيدة الطيبة إلا أن قلصت قصبة أنفها فى اشمئزاز ظاهر وقالت له : ولـكن يا روبرت ، إنك كريه الرائحة جداً

بعدئذ وجد طريقة أكيدة ينقل بها مرض الجمرة إلى الفئران . لم يكن لديه مِحْقن يحقن به الدم القاتل فيها فى سهولة ، ولـكن بعد خيبات ولعنات وخسارة عدد طيب من الفئران السليمة ، اهتدى إلى أن يأخذ فِلقاً من الخشب فينظفها جيداً ثم يسخنها فى الفرن ليقتل ما قد يكون عليها من المكروبات العادية ، ثم يغمسها فى قطرات من دم الأغنام التى قتلتها الجمرة ، ثم يدخل أطرافها بما عليها من الدم فى جرح جَرَحه بمشرط نظيف فى أذناب تلك الفئران . ولا تسألني كيف قبض عليها فسكّنها وهى تترعّص وتتلوى بين يديه . وكان يضع هذه الفئران فى أقفاص وحدها ثم يغسل يديه ، ويخرج ليعود طفلاً مريضاً على سبيل تخليص الذمة ، ورأسه لا يزال مليئاً بالأشتات من كل شيء : « أيموت هذا الفار بداء الجمرة ..... نعم يا مدام اشميت ، يستطيع ابنـك أن يعود إلى المدرسة فى الأسبوع القادم ..... أرجو ألا يكون هذا الدم الملوث بالجمرة دخل إصبعى من الجرح الذى فيه ... » . هكذا كانت حياة كوخ موزعة بين بحثه وطبه

وأصبح الصباح ، وجاء كوخ إلى المعمل البيتى الذى صنعه بيده ، فوجد الفار ملقى على ظهره وأرجله فى السماء ، وقد تصلب جسمه وانتفش شعره ووقف على جلده وكان بالأمس منبسطاً على ظهره فى ملاسة ونعومة . وبعد أن كان أبيض صار أزرق رصاصياً ، فأحمى كوخ سكاكينه فى النار ، وربط الفار المسكين على شريحة من الخشب ، وشق بطنه فكشف عن رئتيه وكبده ، وشرّحه حتى وصل إلى كل ركن من جسمه وحدق فيه : « نعم . نعم . إن باطنه يشبه باطن الشاة المجمورة .... وهذا طحاله ، ما أسوده وما أضخمه !... إنه يكاد يملأ كل بطنه .... » وأسرع كوخ فشق الطحال المتضخّم يجرى منه الدم الأسود ، فأخذ منه قطرات ووضعها تحت مجهره ، وتمتم أخيراً لنفسه : « ها هى العِصىّ وها هى الخيوط بعينها ... إنها تكاد تملأ دم الفار كما ملأت دم الشاة » وفرح كوخ فرحاً شديداً لأنه أيقن أنه بذلك استطاع أن ينقل إلى الفئران أمراض الشياه والأبقار والانسان ، والفئران قليلة الثمن ، صغيرة فى اليد ، سهل تناولها عند التجريب . وفى الشهر الذى جاء من بعد ذلك لم يكن لـكوخ عمل إلا حقن فأر حى من بعد فأر ميت . يأخذ قطرة الدم من طحال الفأر الميت فيحقنها فى ذيل فأر حى صحيح . ثم يصبح الصباح فيجد هذا الفأر قد مات من داء الجمرة ، فيمتحن دمه فيجد به الملايين من تلك الخيوط المتخالطة والعصى المتكاثرة يجدها ساكنة لا حراك بها ، صغيرة متضائلة لا يزيد طولها على جزء من ألفين من المليمتر الواحد

وأخذ كوخ يتفكر : « هذه العصى لا حركة فيها ، ولـكن مع هذا لا بد ان تكون حية . إن قطرة الدم التى أحقنها فى الفأر ليس بها غير مئات من هذه العصى ، ولـكنها لا تلبث فى دمه أربعاً وعشرين ساعة حتى تكون قد تكاثرت فبلغت البلايين ، ويكون الفأر قد مرض بها ومات .... ولـكن كيف السبيل إلى رؤيتها وهى تتكاثر ! ؟ كيف السبيل وجلد الفأر لا يَشُفّ عما تحته ؟ ! وأخذ هذا السؤال يرن فى أذنه وهو يجس نبض مرضاه وينظر فى ألسنتهم . فاذا جاء العشاء أكل عشاءه سريعاً ، وغمغم لزوجته تحية المساء لتنام ، وذهب هو إلى تلك الغرفة الصغيرة قد ملأتها رائحة الفيران والمطهّرات الـكيميائية وأغلقها على نفسه ، ثم أخذ يفكر كيف يكثّر تلك العصى خارج جسم الفأر . وكان كوخ فى هـذا الوقت لا يدرى شيئاً عن أحساء الخمائر التى صنعها بستور ولا عن قباباته ؛ أو إن هو درَى ، فالنزرَ القليل منها ؛ لذلك كانت تجاربه لتكثير تلك العصىّ تجاربَ المبتكرِ الأول ، فيها التواءٌ وفيها تعقّد ؛ كانت كتجارب الرجل الأول يريد أن يصطنع لنفسه ناراً

قال كوخ : « سأحاول أن أكثر هذه الخيوط فى سائل أقرب ما يكون إلى سوائل الجسم ، سائل مصنوع من مادة الأجسام نفسها » . وأتى بعين ثور وأخرج منها بعض مائها ، ووضع فى هذا الماء فُتَيْتَةً كسن الدبوس من طحال فأر قتله المرض . ثم قال : « هذا غذاء لا شك مستطاب لهذه الخيوط ، ولـكن لعلها تتطلب غير الغذاء الطيب حرارة أجسام الفئران كذلك » وصنع بيديه مِدْفئاً غير جميل وسخنه بمصباح زيت ، ثم وضع فى هذا الدفأ المرتَجَل شريحتين متلاصقتين من الزجاج الرقيق كان قد وضع بينهما سائل عين الثور وفُتَيْتَة الطحال . وذهب لينام . ولـكنه لم ينم . ففى منتصف الليل قام ليخفّض فتيلة المصباح بمدفئه ، وكان قد ملأه منها الدخان . وبدل أن يعود

فينام ، أخذ ينظر العصىّ بين شريحتى الزجاج مرة بعد أخرى . وخال أحياناً أنه رآها تتكاثر ، ولكنه لم يكن على يقين من ذلك ، لأن مكروبات أخرى من التى تسبح وتثب وجدت سبيلها بين الشريحتين على عادتها ، وزادت فى تكاثرها على عصىّ صاحبنا الدقيقة المهلكة وطغت عليها

قال كوخ لنفسه : « هذا عمل غير نافع ! هذه العصىّ لابد من تكثيرها هى وحدها خالصة نقية من كل مكروب آخر » وأخذ يفكر فى الوصول الى هذا حتى أكدّه الفكر . وأخذ يحتال ويتدبّر حتى صار الاحتيال همّا والتدبّر غمّا

وذات يوم تراءت له طريقة يروض بها عصيّه وهو يرقبها . طريقةٌ غايةٌ فى البساطة غاية فى السهولة لا تحتاج للفكر الكثير قال كوخ : « سأضع تلك العصى فى ، قطرة عالقة ، فلا يصلها من المكروبات الغريبة شىء » . ثم جاء بقطعة صغيرة رقيقة مفرطحة من الزجاج الرائق ، وسخنها حتى يقتل ما قد يكون عليها من المكروب ، ثم وضع عليها قطرة من سائل عين ثور سليم قضى عليه الجزّار حديثا ، ثم غمس فى هذه القطرة قطعة غاية فى الصغر من طحال فأر مات من داء الجمرة حديثاً . وبعد ذلك جاء بشريحة كبيرة غليظة مستطيلة من الزجاج ، كان قد نقر فى وسطها نقرة عميقة واسعة ، ودهن سطحها مما يلى حافة النقرة بشىء من الفَزْلين vaselins ، ثم قلب هذه الشريحة الكبيرة السميكة على الأخرى الصغيرة الرقيقة التى عليها سائل العين وطحال الفأر بحيث تقع النقرة فوق القطرة ولا تمسها ، فالتصقت الزجاجتان بالفزلين فكانتا كقطعة واحدة . ثم عاد فقلبهما معا فى سرعة وحذق فصارت قطعة الزجاج الصغرى هى العليا وتعلّقت منها قطرة السائل بما فيها من الطحال وعصيّه الكثيرة ، وقد انحبست فى تلك النقرة انحباساً كاملا فلا تستطيع المكروبات الأخرى الدخول اليها . تلك هى « قطرته العالقة » . ولعلّ كوخا لم يقدّر كل التقدير هذه الطريقة الجديدة ، ولم يدرك كل الادراك مكانها من تاريخ بحث المكروب ومحاربة الانسان أسباب الموت . وسواء قدّرها أو فاته تقديرها فقد كانت ساعة من أخطر الساعات تلك التى أخطرت هذه الفكرة على باله ، ساعة لا يَعْدِلها إلا تلك التى رأى فيها لوفن هوك أحياءه الصغيرة فى ماء المطر أول مرة

ووضع كوخ « قطرته العالقة » تحت مكرسكوبه وجرّ كرسيّه وجلس وهو مضطرب ينظر ما تكشف له العدسة وهو يقول لنفسه : « لا يستطيع شىء أن يدخل الى تلك القطرة ، وهى ليس بها إلا العصىّ ، فلأرقبها علّى أعلم من أمر نموها شيئاً ، فكشفت له العدسة عن مجال أغبر لم يجد فيه غير قطع الطحال وقد نسلت وتقطّعت وتراءت ضخمة تحت المجهر ، وغير عصية هنا وعصـية هناك طافية بين نسائل الطحال ؛ وظل ينظر ساعتين ، وينظر فى الساعة الواحدة خمسين دقيقة ، ولكن لم يحدث شىء . وأخيراً بدأت الرواية التى اصطبر لمرآها طويلة ، وأخذت صورة المجال تحت بصره تتغير وتتبدل كأنما امتدت لها بالسحر يد ساحر ، واهتز صاحبنا واضطرب ، وجرت فى ظهره رعدة بعد أخرى كلما اختلفت صورة المجال تحت عينه . إن العصىّ الطافية القليلة أخذت فعلا فى التكاثر ! ففى هذا المكان توجد الآن اثنتان حيث كانت واحدة . وتلك عُصَيّة أخرى تطول بطيئة ولكنها تطول كثيرا ، وهى فى استطالتها تنثنى كالأفعى وتنال أطراف المجال : ولم تمض ساعتان حتى كثرت تلك العصىّ كثرة غطّت على قطع الطحال فاختفت وبلغت أعدادها الملايين فأصبحت فى اختلاطها وتداخلها وتلبّدها ككرة من غَزْل ، انحلّ فاختلط فلا رجاء فى تسليكه إلا أنه غزل حىّ ، غزل صامت قاتل

وتنفس كوخ الصُّعَداء : « الآن أعلم أن هذه العصىّ حية والآن أعلم أنها تتكاثر بالملايين فى فئرانى الصغيرة المسكينة ، وفى الشياه ، وفى الأبقار . فالعُصيّة الواحدة (البَشِلّة الواحدة) أصغر من الثور بلايين المرات ، فاذا هى دخلت الثور نمت وتعددت وصارت ألوفا تنسل ألوفا تنتشر فى نواحى الحيوان الكبير فتتحشى بها رئته ويكتظ بها مخّه وينسدّ بها دمه ، لا عن ثأر لها عنده ، أو كراهة لها فيه

أصبح كوخ لا يعى الزمن ، ولا يهتم لواجباته ، ولا يصغى لمرضاه إذ ينتظرونه طويلا فيملون فيشكون . فكل هذه الأمور فقدت حقيقتها من نفسه ، وأصبح رأس كوخ لا يعى إلا صوراً مخيفة من خيوط الجمرة وهى فى اختلافها واختلاطها . وأخذ يعيد تلك التجربة التى يخلق فيها من البشلّة الواحدة ألوف الألوف من البشلات . فأعادها ثمانى مرات فى ثمانية أيام متتابعات.

فبدأ بأن أخذ غمسةً يسيرة جداً من « قطرته العالقة » وهى تمج بتلك المُمصيّات فزرعها فى قطرات نقية جاء بها من سائل عين ثور سليم . فوجد بكل قطرة من هذه ألوفاً من هذه المصيات . ثم أخذ من هذه القطرات الحادثة ليزرع فى قطرات جديدة نقية من عين ثور . وهلم جرا حتى استتم له من ذلك ثمانى زرعات

قال كوخ : » لقد نسّلْتُ هذه البَشِلات ثمانى ذُرّياتٍ متعاقبات ، كلها خالصة من كل مكروب غريب ، خالصةٌ من طحال الفأر الذى اختلطت به أولا . وهذه البشلات فى هذه الذرية الأخيرة هى أحفاد البشِلاّت الأولى التى قتلت الفأر . فهل ياترى تقتل هـذه البشلات الأخيرة الفأر والشاة كما كانت تفعل أمهاتها الأولى ؟ ... ... أفتنمو يا ترى هذه البشلات فى الفئران وفى الشياه إذا أنا حقنتها فيها ؟ أهى ياترى سبب الجمرة الذى لا مرية فيه ؟ »

وأخذ كوخ قُطَيرةً يسيرة من « قطرته العالقة » ـ وكانت تتراءى للعين العادية عكرة مما تمج به من المكروب ـ ونشرها على فِلقةٍ من الخشب صغيرة ، ثم غرس هـذه الفلقة تحت جلد فأر صحيح ونجا هو فلم يمسسه سوء . نجّاه منه تلك العناية الآلهية التى تقوم الى جانب البحاث الجريئين المهورين وتحرسهم وتدفع عنهم بمشيئة الله شر ما هم فيه

وفى اليوم التالى كان كوخ قائما على هذا المخلوق الصغير وقد دبّسه الى لوحة تشريحه ، وقد انحنى عليه عن قصر فى البصر ليراه من قريب . ثم أخذ يحمى مشارطه فى النار وقد ملأه الرجاء . ولم تمض دقائق ثلاث حتى كان جالسا الى مكرسكوبه ينظر منه قطعةً صغيرة من طحال الفأر قد وضعها بين رقيقتين من الزجاج ثم تمتم لنفسه : « لقد تحقق المأمول ، فهاهى الخيوط ، هاهى المُصيّات وتلك البشلاّت الصغيرة التى فى قطرتى العالقة ، تلك البشلات التى أوجدتها بالتنسيل سلالاتٍ متعاقبة ثمان ، لها من القدرة على القتل مقدار ما لتلك التى يأخذها الآخذ مباشرة من طحال الشاة النافقة من داء الجمرة »

رأى كوخ هذه البَشِلات أول ما رأى فى دم تلك البقرة التى نفقت من داء الجمرة زمانا مضى ، يوم كان مجهره جديداً وبده تضطرب عليه من قلة التجربة والمران ، واليوم يرى نفس هذا المكروب فى دم الفأر المسكين ، وهو هو نفسه المكروب الذى ربّاه فى سلسلة طويلة من الفئران ، وفى عدد كثير متعاقب من قطراته العالقة

ها هو ذا كوخ يُثبت أول مثبت أن النوع الواحد من بعض المكروب يسبب نوعا واحداً من الأمراض ، وأن هذه المخلوقات الصغيرة قد تعتدى فى حقارتها على مخلوقات كبيرة عظيمة فى ضخامتها فتوردها موارد الموت سريعا . سبق كوخ كل الرجال فى إثبات هذا ، وسبق فيه بستور كذلك ، وهو الذى على سننه جرى وبهديه اهتدى . رمى كوخ بخيطه وصنارته ليصطاد تلك الأسماك الضئيلة فى المحيط الأعظم وهو واسع بهيم . وتقفّاها وتحسس بها وهو لا يعلم من صفاتها شيئاً ، ولا من عاداتها شيئاً ، وهو لايدرى من جرأتها وشراستها شيئاً وهو لا يعرف متى ولا بأى سهولة تثب عليه من مراصدها ومخابئها ؛ والشىء إذا دق هذه الدقة فكل مكان مخبأ وكل طريق مرصد

يتبع

أحمد زكى

أندلسيات :

٢ـ قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

يتشابه الفتح بن خاقان وأبو الحسن بن بسام فى أنهما كانا متعاصرين ، وفى أنهما تصديا للكلام على أدباء الأندلس من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء والملوك ممن عاصرهما ومن كان قبل عصرهما ، وفى أنهما كانا يرسلان الى معاصريهما يعرفانهم عزمهما ويسألانهم إنفاذ شىء من منثورهم ومنظومهم ليذكراه فى كتابيهما : الأول فى قلائد العقيان ومطمح الأنفس ، والثانى فى الذخيرة . قال العماد الكاتب صاحب خريدة القصر : حدثنى الصاحب الكبير العالم جمال الدين بن أكرم قال : لما عزم ابن خاقان على تصنيف كتاب قلائد العقيان جعل يرسل الى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة ويُعرفه عزمه ويسأله إنفاذ شىء من شعره ونظمه ونثره ليذكره فى كتابه . وكانوا يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفذون اليه ذلك وصُررَ الدنانير ، فكل من أرضته صلته ، أحسن فى كتابه وصفه وصفته . وكل من تغافل عن بره هجاه وثلبه . وكان ممن تصدى له وأرسل اليه أبو بكر بن باجه المعروف بابن الصائغ ، وكان وزير ابن فلويت صاحب المرية . وهو ـ أى ابن الصائغ ـ أحد الأعيان وأركان العلم والبيان . شديد العناية بعلم الأوائل ، مستول على أهل الأشعار والرسائل ، وكانوا يشبهونه فى المغرب بابن سينا بالمشرق ، وله تصانيف فى المنطق وغيره ، فلما وصلته رسالته تهاون بها ولم يعرها طرفه ، ولا لوى نحوها عطفه ، وذكر ابن خاقان بسوء بلغه ، فجعله ختم كتابه ، وصيّره مقطع خطابه . وقال : هو رمد جفن الدين الخ وبلغ ذلك ابن الصائغ ، فأنفذ له مالاً استكفّه به واستصلحه ؛ وصنف ابن خاقان كتابا آخر سمّاه مطمح الأنفس وصله بقلائد العقيان افتتحه بذكر ابن الصائغ وأثنى عليه فيه ثناء جميلاً الخ وكذلك نرجىء الكلام على ما كان بين ابن خاقان وبين لفيلسوف ابن باجه أو ابن الصائغ إلى ما بعد الفراغ من الموازنة بين ابن خاقان وبين ابن بسام ... وقد ظهر لك مما أوردناه هنا من كلام العماد أن ابن خاقان كان يرسل الى أعيان الأندلس ليرسلوا اليه آثارهم ، وكذلك كان يفعل ابن بسام صاحب الذخيرة ... قال المراكشى صاحب المعجب : فمما أختار له ـ أى لأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال أحد كتاب الأندلس البلغاء النابهين ـ فصول من رسالة كتب بها مراجعا لبعض إخوانه عن رسالة وردت عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ، وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن على بن بسام صاحب كتاب الذخيرة ... وهذا هو محل الشاهد ... ودونك الآن فصولا من هذه الرسالة ـ أى رسالة ابن أبى الخصال الى ابن بسام فانها من طرف الأندلسيين . قال : وصل من السيّد المسترقّ ، والمالك المستحق ، وصل الله إنعامه لديه ، كما قصر الفضل ، كتابه البليغ ، واستدراجه المُريغ [1] . فلولا أن يصلد زند اقتداحه [2] ، ويرقد طرف افتتاحه ، وتقبض يد انبساطه ، وتغبن صفقة اغتباطه ، للزمت معه قدرى ، وصنت سريرة صدرى . ولكنه بنفثات سحره يُسمع الصّمّ ، ويستنزل العُصْم ، ويقتاد الصعب فيصحب ، ويستدر الصخور فتحلب ، ولما لجأنى ابتداؤه ، وقرع مسمعي نداؤه ، . فزعت الى الفكْر ، وخفق القلب بين الأمن والحِذْر ، فطاردت من الفِقَر أوابد قَفْر ، وشوارد عُفْر ، تُغبرُ فى وجه سائقها ، [3] ولا يتوجه اللحا قلوجيهها ولا لاحقها ، فعلمت أنها الاهابة والمهابة ، والاصابة والاسترابة ، حتى أيأستنى الخواطر ، وأخلفتنى المواطر ، إلا زبرجا يعقب جوادا ، [4] وبهرجا لا يحتمل انتقادا . وأنىّ لمثلى والقريحة مزجاة [5] ، والبضاعة مزجاة [6] ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكتاب [7] . ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لِمثلى فيه قِدْح ، ولا تحصّل لى فى سوقه ربح ... وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه النُّتف الأخيرة . وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ، وأنا أخشى القَدْح فى اختيارك ، والاخلال بمختارك ... الى أن يقول : وعذرا أعزك الله فانى خططت ما خططته والنوم مغازل ، والقَرّ منازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول صولة الحجاج ، فطورا تسدّده سنانا ، وتارة تحركه لسانا ، وآونة

---

(١) يريد المخادع (٢) صلد الزند يصلد بكسر اللام صوت ولم يخرج نارا (٣) غبر فى وجهه سبقه (٤) يريد السحاب الرقيق لا ماء فيه (٥) من الأرجاء وهو التأخير (٦) قليلة (٧) ظرف وخفة روح

تطويه حبا به ، وأخرى تنشره ذؤابه ، وتقيمه إبرة لهب ، وتعطفه بُرَة ذهب . أو حمَة عقرب . وتقوسه حاجبَ فتاة ذات غمزات ، وتسلطه على سليطه ، وتزيله عن خليطه ، وتخامه نجما ، وتمده رجما ، وتسلّ رُوحه من ذُبالِه ، وتميده الى حاله ، وربما نصبته أذن جواد ، ومسخته حدق جراد . ومَشقته حروف بَرق ، بِكفّ وَدق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلا حظّ منه للمين ، ولا هداية فى الطرس لليدين ، والليل زنجيّ الأديم ، تبرى النجوم ، قد جللنا ساجُه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال للحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت ، أو خُضبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صافح خيشومُه ذَنَبه ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه . والتوى التواء الحُباب ، واستدار استدارة الحَباب (1) ، وجَلدَه الجليد ، وصمد أنفاسه الصعيد ، فحِماه مُباح ، ولا هرير ولا نباح ، والنار كالرحيق ، أو كالصديق ، كلاهما عنقاء مُغرب ، أو نجم مُغَرِّب ، استوى الفصل ، ولك فى الأغضاء الفضل ، والسلام ...

***

وقد حدثنا الفتح فى قلائده أنه هو الآخر كتب إلى أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال مستدعياً من كلامه ما يثبته فى الديوان ـ يريد قلائد العقيان ـ وينبته فيه زهر بستان ، فكتب اليه ابن أبى الخصال رقعة يقول فيها : الحذر ـ أعزك الله ـ يؤتى من الثقة ، والحبيب يؤذى من المقة ؛ وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلمحة ، وأقنع من ثنائك وهو المسك بنفحة ، فما زلت تعرضنى للامتحان ، وتطالبنى بالبرهان ، وتأخذنى بالبيان ، وأنا بنفسى أعلم ، وعلى مقدارى أحوط وأحزم ، والمُعيدى يُسمع به لا أن يُرى ، وإن وردت أخباره تترَى فشخصه مقتحم مزدرى ، ولا سيما من لا يجلى ناطقا ، ولا يبرز سابقاً ، فتركه والظنون ترجمه ، والقال والقيل يقسمه ، والأوهام تحله وتحرمه ، وتخفيه وتخترمه ، أولى به من كشف القناع ، والتخلف عن منزله الامتناع ، وفى الوقت من فرسان ، هذا الشان ، وأذمار هذا المضمار ، وقطان هـذه المناهل ، وهداة تلك المجاهل ، مَن تحسد فقره الكواكب ، ويترجل اليه منها الراكب ، فأما الأزاهر فلقلاة فى رباها ، ولو حلت عن المسك حباها ، وصيغت من الشمس حلاها ، فهى من الوجد تنظر بكل عين شكرى ، لا نكرى ، وإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبثوثة ، وبدائعهم منثوثة ، وخواطرهم على محاسن الكلام مبعوثة ، فما غادرت متردما ، ولا استبقت لمتأخر متقدماً ، فعندها يقف الاختيار ، وبها يقع المختار ، وأنا أنزه ديوانه النزيه ، وتوجيهه الوجيه ، عن سقط من المتاع ، قليل الامتاع ، ثقيل روح السرد ، مهلك صر البرد ، إلا أن يعود به جماله ، ويحرس نقصه كماله ، وهبه أعزه الله قد استسهل استلحاقه ، وطامن له أخلاقه ، أترانى أعطى الكاشحين فى اتبابه يدا ، وأترك عقلى لهم سدى ، وما إخالك ترضاها لى مع الود خطة خسف ، ومهواة حتف ، لا يستغل غبينها ولا يبل طعينها .... الخ الخ فهى رسالة طويلة وإن كانت على طولها ممتعة جميلة .....

موازنة ومفاضلة

والآن فلنعرض للموازنة بين الفتح وبين ابن بسام مادام بينهما هذا التشابه الذى ذكرنا .... قال الحجارى صاحب المسهب : وهو ـ الفتح ـ وأبو الحسن بن بسام الشنتمرى مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلما مفيداً ، واطنابا فى الأخبار ، وامتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تملقاً وتمشقاً بالأنفس ... هذا هو كل ما عثرنا عليه للمتقدمين من مفاضلة بين هذين الفاضلين ، ونحن فنقول : إن المتفقد لكتاب الذخيرة لابن بسام ، وكتابى القلائد والمطمح لابن خاقان ، يتبين له أن الفتح فى الحق أضخم عبارة ، وأجزل أسلوباً ، وأقدر على التنميق والتزويق والتهويل ، ويغلب ذلك على أكثر تراجمه ؛ وقد يتعمل حتى يرى أثر التقعر محساً ملموسا ، وهو مع هذه الجزالة والضخامة ، أقل تقييدا وعلما مفيداً . دع تقصيره فى تراجمه من ناحية التحقيق التاريخى فلا هو يذكر اسم المترجم كاملا ولا نسبه ولا بلده ومنشأه ، ولا تاريخ مولده ووفاته ، فكأنه يترجم مترجميه لناس يعرفونهم كل المعرفة ، وانما الذى ينقصهم هو أن يلموا ببعض آثار أولئك المترجمين المعروفين ، وأن يقفوا على بلاغة الفتح

(1) الحباب الأولى بضم الحاء الحية والثانية بفتحها الطل الذى يصبح على النبات وحباب الماء نفاخاته وفقاقيعه التى تطفو عليه

٥ ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراق

أسباب الحرب

لقد ظهر لنا من المباحث السابقة أن الطليان اعتبروا الحبشة مستعمرة طليانية ، وحملوا الدول الأوربية على الاعتراف بذلك بعد نشرهم المعاهدة وذيولها ، واستفادوا من حاجة البريطانيين اليهم فتقدموا إلى كاسيلا واستولوا قبل ذلك على عدوى

ومع أن منليك كان يتظاهر بعدائهم عنـــد منحه امتياز السكة الحـديدية للفرنسيين وإذابته العملة النقدية التى ضربها الطليان فى بلادهم لم يتمكن الطليان من التضييق عليه لأنهم كانوا مكلفين بمساعدة البريطانيين فى قتالهم المهـدى ، ولم يرض البريطانيون بأن يترك الطليان جبهة السودان ويتقدموا بقواتهم على الأحباش

والحقيقة أن السياسة البريطانية من حيث أهـدافها العامة لم ترغب ألبتة فى توسع نفوذ الطليان فى الحبشة وتوطيد كلمتهم فيها لأنها كانت ترمى إلى احتلال مصر والسودان والمحافظة عليهما بترك حراسة جبال الحبشة بيد أهلها الأحباش

أما النجاشى منليك فكان يرمى إلى توحيد المملـكة وتقويتها ثم اعلان استقلالها للعالم . ولا شـك فى أن رغبة الطليان فى توطيد نفوذهم فى الحبشة وسعى نجاشى الحبشة لاستقلال البلاد أديا حتما إلى الاختلاف بين ايطاليا والحبشة برغم المعاهدة وذيولها وسترى كيف حدث هذا الاختلاف فادى إلى الحرب بينهما .

والحقيقة هى أن بريطانيا لم تـكد تقض على حركة المهدى فتبق ايطاليا حرة فى العمل إلا وشرع الطليان بحشد قواتهم فى مستعمرة أريترة للتوغل فى بلاد الحبشة

ولما تأكد منليك من قدرة جيشه البالغ عدده زهاء ١٤٥٠٠٠ أعلن استقلال الحبشة الى جميع الدول . ولمجاملة ايطاليا طلبت ألمانيا وفرنسا من النجاشى أن يرسل هذا البـلاغ بواسطة ايطاليا

فبلغ منليك ملك ايطاليا أن المادة السابعة عشرة من معاهدة أوكسالى لا ترغمه على توسـيط ايطاليا فى جميع علاقاته بالدول الأوربية ، والنص الحبشى من المعاهدة صريح فى هذا الباب ، فهو يخول للنجاشى حق طلب التوسـيط إذا أراد ذلك . لذلك رجا من ملك ايطاليا أن يخبر الدول الأوربية بذلك لـكى لا يحدث سوء تفاهم فى المستقبل

والواقع أن المعاهدة كانت مكتوبة باللغة الأمحرية والمـادة السابعة عشرة منها تنص على ما يلى : « جلالة امبراطور الحبشة مختار فى استخدام الوكلاء الطليان » . أما الطليان فلما ترجموا المعاهدة إلى لغتهم وضعوا كلمة « الاجبار » بدلا من « الاختيار » فجاء النص الطليانى كما يلى : « جـلالة امبراطور الحبشة مكلف باستخدام الوكلاء الطليان »

فانتبه الساسة الطليان الى خطئهم ، فلما تيقنوا أن القلم لم يجد نفعاً فى الحصول على رغباتهم فى بلاد الحبشـة قرروا استخدام السيف ، مع أن منليك لم يرغب فى الحرب فى تثبيت عـلاقاته بايطاليا . فتظاهر الفرنسيون بالولاء للطليان ، بينما كانوا فى الخفاء يؤيدون النجاشى ، لأن توسع نفوذ الطليان فى بلاد الحبشة يخالف مرماهم . وكان الحاكم الفرنسى فى المستعمرة الصومالية همزة الوصل

وبراعتــه ، وحذقه ومهارته ، وكيف يرفع من يبغى أن يرفعه ويخفض من يريد أن يضعه ، ومن هنا لا تعد كتب الفتح كتب تراجم بالمعنى المعروف ، وانما هى بكتب المختارات أشبه . أما ابن بسام صاحب الذخيرة فهو وإن كان أكثر تقييداً وعلما مفيدا ، واطنابا فى الأخبار ، وامتاعا ـ من هذه الناحية ـ للأسماع والأبصار ـ كما يقول الحجارى ـ وإن كان أقل تزويقا وتهويلا وإن كان أعف لسانا ، وأنزه بيـانا ، إلا أنه هو الآخر يقارب الفتح فى اغفاله تاريخ من ترجم له مولدا ووفاة ونسبا وبلدا ومنشأ ، ومَثَل الاثنين فى ذلك مثل الثعالبى صاحب يتيمة الدهر ، ومثل الثلاثة العماد الـكاتب صاحب خريدة القصر وجريدة أهل العصر والباخرزى صاحب دميـة العصر وعصرة أهل العصر ، كل أولئك يجتزئون ببلاغاتهم عن تحقيقاتهم ، فـكانت كتبهم لذلك نوعا غريبا بين أسفار الأدب فى لغـة العرب ، فلا هى بالمختارات المحضة ولا هى بالتراجم الوافية ، ولا هى من قبيل العقد والـكامل وما اليهما . ولعل أول من ابتكر هذا النوع هو الثعالبى

« للقصة بقية » عبد الرحمن البرقوقى

بين الحكومة الفرنسية والحكومة الحبشية ، أما الحكومة الروسية فلم تعترف بالمعاهدة وكانت تساعد الحبشة بارسال الضباط وأصحاب المهن والرهبان والسلاح اليهم

فرأى رئيس الحكومة الطليانية « كريسبى » إرسال رجل محنك الى بلاط النجاشي عسى أن يقنعه ويزيل الخلاف . فأرسل الكونت « انطونلى » إلا أن هـذا لم يتمكن (رغم ذلاقة لسانه ووعيده) من اقناع منليك الذى كان جوابه للوزير الطلياني ما يلي :

« مادام قد حدث غلط فى نص المادة السابعة عشرة فالأولى أن نلغيها تماما ، ولنتذاكر من جديد على نص المعاهدة ؛ ثم إن بلادى محتاج إلى منفذ إلى البحر فلنقرر هذا أيضا »

ولم يغير منليك رأيه ولم يحـد عن فكره . فكان فى جميع مذاكراته مع الوزير المفوض يؤيد هذا الطلب عينه . وأخيراً بلغ الحكومة أن المادة السابعة عشرة من المعاهدة ملغاة . وفى الوقت عينه أعاد الأربعة ملايين فرنك اليها . وكان من نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بين ايطاليا والحبشة وانتهت الى الحرب

ساحة الحركات

تقرب سلسلة الجبال من مصوع وتسيطر على سهلها الضيق وفى امتدادها الى الشمال تكون موازية للشاطىء . أما فى امتدادها إلى الجنوب فتبعد عنه ، وتتكون منها صحراء الدناكل التى تشح المياه فيها ، وهذه الصحراء وعرة ذات مفازات ووديان وروابِ

وهذه السلسلة ذاتها تتصل بالسلاسل الأخرى التى تتكون منها معاقل الحبشة الداخلية

جرت الحركات على طرفى الحـدود فى جنوبى « أسمرة » عاصمة أريترة بعد مصوع . والأرض فى هذه المنطقة جبلية وهى واقعة على سفوح السلسلة الأولى التى تؤلف الضلع الغربى للمثلث ، والارتفاعات فيها تتفاوت بين ١٥٠٠ و٢٥٠٠ متر . والانحدارات فى السفوح الشرقية على ما نعلم مائلة شديدة الوعورة ، وتسلقها صعب ، والأرض متقطعة بوديان وفيها وهاد ومضايق . والروابى يعلو بعضها بعضاً ، والكثير منها مكسو بالغابات والأحراج . أما الطرق فمسالك وعرة يصعب على الحيوانات المحملة السير فيها

والمنطقة بأجمعها تصلح للدفاع أكثر منها للهجوم . ولا تمكن الحركة فيها بقوات كبيرة ما لم يكن السير فيها بأرتال مختلفة متباعدة تفرقها الودن والمضايق عن بعضها فتصعب المواصلة بينها . وفضلا عن ذلك فالمياه فيها شحيحة ومواد الاعاشة قليلة ، الأمر الذى يقتضي تجهيز القوات بوسائل النقل الكثيرة والسير فيها يقتضى بطبيعة الحال اتخاذ تدابير الحماية . لذلك لا يجوز أبداً تطويل الأرتال لأنهـا تمسى أهدافا ملائمة للمباغتة . والخلاصة أنها من أفضل الأراضى الصالحة للحروب الصغرى بالكمين والمباغتة فهى من هذه الوجهة تفيد الأحباش الذين يعرفونها حق المعرفة ويعلمون بنجدها وغورها فضلا عن تعودهم على اقليمها

والطرق التى تربط مستعمرة اريترة بهذه الساحة تبدأ من ساحل البحر وتمتـد الى الجنوب الغربى فالى الجنوب ، منها طريق شمالى يبدأ من مصوع ويمر بأسمرة بعد أن يتسلق الجبال ويدخل الهضبة . وارتفاع اسمرة ٢٣٧٢ متراً . وقبل أن يقطع نهر مارب الفاصل للحدود يمر بقرية «غوندت» ثم يصل الى عدوة وارتفاعها ١٩٦٥ مترا وهى واقعة بالقرب من أكسوم والى شرقيها

والطريق الثانى يبدأ من زولا على خليج عدولى . وبعد أن يمر بقريتى « حلبى » و « كواتيت » يقطع الحدود الى جنوبى سنافة ويصل الى قلعة ادجرات وهى من المراكز الحبشية الخطيرة ، فيتوجه الطريق بعـد ذلك الى الجنوب ويمر بقلعة « مكا » الى أن يصل الى « هرر » ويجرى فى هذه الساحة تابعا نهر عطبرة وهما مارب وتكاسه

ومن جملة الأهداف التى كان يتوخاها الطليان فى حركاتهم استمالة الرؤوس الى جانبهم واثارة الحروب الداخلية فى الحبشة لكى يسهل عليهم التغلب على العدو

فكانوا على اتصال برأس مقاطعة تيجرى ، وبعد هذه المقاطعة تأتى مقاطعة أمحرة الداخلية ، وفى جنوبيها مقاطعة شوعا المختصة بالنجاشى ، وهى خلف مقاطعة غوجام الداخليـة ، وفى جنوبى هذه المقاطعات أرض الغالا فى منتهى البلاد الحبشية

فيتضح من ذلك أن الحركة يجب أن تجرى بمراحل لاحتلال المقاطعات على التوالى ، وهذه المقاطعات جميعاً وعرة منيعة

قوات الفريقين — الجيش الحبشى

استخدم الطليان رئيساً لتجسس أحوال الحبشة وبالنظر إلى المعلومات التى توصل إليها هذا الضابط من أن أنفس مقاطعات تيجرى وأمحرة وغوجام زهاء ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة . أما أنفس

مقاطعة شوعا وحدها فتبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ نسمة وهذا مما يجعل لهذه المقاطعة مركزاً خطيراً يتجلى بحكمها على المقاطعات الأخرى

ولما لم يكن للحبشة جيش منظم فمن البديهى أن تقدر القوات بالرجال المسلحين الذين يجهزهم المقاطعات المذكورة وعلى هـذا الأساس تبلغ قوة الجيش ما يلى :

رجل	
٢٠,٠٠٠	جيش تيجرى
٣٥,٠٠٠	جيش امحرة
٢٠,٠٠٠	جيش غوجام
٧٠,٠٠٠	جيش شوعا
١٤٥,٠٠٠	المجموع

ونقصد بالجيش القوة الجاهزة التى يستطيع أن يستخدمها الرأس أو ملك المقاطعة ، متى شاء بمعنى أنها مستعدة للعمل فى كل وقت . أما عند الاقتضاء فيمكن إخراج قوات أخرى بكل سهولة لأن الأحباش جميعاً جنود بالطبع لا فرق بين شابهم وشيخهم .

أضف إلى ذلك مقاطعة الغالا وعاصمتها هرر التى تبلغ نفوسها زهاء ٠٠٠ ر٠٠٠ ر٣ نسمة ومع أنها بعيدة عن ساحة الحركات إلا أنها تستطيع أن تجهز جيش النجاشى بالخيالة .

ولدى الجيش الحبشى أربعون مدفعاً على أنواع مختلفة . والأحباش جنود بالطبع فيتحملون السير الطويل دون تعب ، ويعسكرون ويسيرون بلا جلبة ولا ضوضاء ، ويحصلون على معيشتهم بالتكاليف الحربية ولا يستخدمون وسائل لذلك . فالجندى يحمل أرزاقه معه وهى مقدار قليل من الذرة . والأرزاق التى تكفى الجندى الأوربى ثلاثة أشهر يعيش بها الحبشى سنة كاملة . فالحبشى من هذه الجهة قانع بما يتيسر له .

والوحدة السوقية فى الجيش الحبشى هى الفرقة أو القوة التى يخرجها الرأس أو الملك . وهذه القوة تختلف باختلاف مساحة مقاطعة الرأس أو الملك فيتفاوت مقدارها بين ٥٠٠٠ و٠٠٠ر١٠ رجل أو أكثر

والملك أو الرأس يجهز جنوده بالسلاح والحكومة تمده بالسلاح والعتاد عند الاقتضاء . ومع ذلك نرى أن بعض جنود الأحباش يدبر بنفسه أمر سلاحه وعتاده .

وقد علمنا أن الطليان دون أن يحسبوا حساب المستقبل جهزوا النجاشى بأسلحة حديثـــة فنحوه ٥٠٠٠ بندقية و ٠٠٠ ر٢٠٠ طلقة فى المرة الأولى و ٠٠٠ ٣٨ بندقية و ٢٨ مدفعاً فى المرة الثانية . أما البريطانيون فكانوا قد أهدوا الى رأس تيجرى ٩٠٠ بندقية . وإذا أضفنا الى ذلك السلاح الذى استطاع أن يشتريه منليك فى المدة الأخيرة علمنا أن لدى الأحباش عدداً كبيراً من البنادق الصالحة للاستعمال

ومن عادة النساء الحبشيات أن يرافقن الجيش فيحملن مواد الاعاشة والماء لرجالهن ويهيئن الطعام لهم فى المعسكر ويداوين الجرحى ويشجعن الجنود على القتال

أسلوب التعبئة عند الأحباش

يمتاز الأحباش بالهجوم السريع وبالشدة . ويحسن المشاة الرمى فلا يطلقون النار إلا من مسافات قريبة حرصا على ذخيرتهم ، وعند ما يقتربون من أعدائهم يحملون عليهم صارخين فيستعملون سيوفهم العريضة فى الحملة وجهاً لوجه ، وبرغم وعورة الأرض يحسن الأحباش الركوب . وإذا ما وقع فى أيديهم بغل أو جواد ينقلب المشاة حالاً إلى خيالة ، ويسير المشاة بسرعة . ويستخدم الأحباش على الأغلب الخيالة فى المجنبة ، وذلك للالتفاف حول العدو وقطع خط الاتصال عليه وإذا ما انتصروا عليه قضوا عليه القضاء المبرم بقتل رجاله جميعاً . أما فى الدفاع فيحسن الأحباش الاستفادة من الأرض ويعمدون إلى الكمون والمباغتة بنجاح

الجيش الطليانى

يتألف الجيش الطليانى من القوات الطليانية والأهلية المرابطة فى مستعمرة أريترة والقوات التى يمكن جلبها من إيطاليا

واستخدم الطليان فى بادىء الأمر السودانيين والصوماليين وبقايا الجنود المصريين فى المستعمرة بعد أن جعلوا نواة القوة من الطليان

وكانت القوة بعد الاحتلال بثلاث سنوات مؤلفة من ألفى جندى ، وفى سنة ١٨٩٤ نسق الطليان جيش المستعمرات بتأليفه من وحدات طليانية ووحدات أهلية بقيادة الضباط وبعض ضباط الصف الطليان

وكانت القوة الطليانية فى بادىء الأمر مؤلفة من فوج مشاة وفصيل مدفعية . أما القوات الأهلية المختلطة فكانت مؤلفة من بطارية وفصيل هندسة ووحدة درك وجنود نقلية

(يتبع) طه الهاشمي

المشـــكلة* . . . !

للأستاذ كامل محمود حبيب

دخل الشاب مستأذناً ؛ فخلع طربوشه ، وألقى عصاه ، ثم جلس مبهوراً تتتابع أنفاسه ، ويزدحم الكلام على شفتيه ، لا يكاد يبين معنى من معنى ، أو يستقر خاطره على شيء ؛ فما استبنت إلا قوله يختتم الحديث في كلمات متقطعة منهوكة : « نعم ، وقعت المشكلة ! وقعت المشكلة ! فأين أجد الخلاص ؟ » ، وكنت قد وقفت عند قول أستاذنا الرافعي في مقاله بمجلة « الرسالة الغراء : » « ووقعت المشكلة . . . » فعرفت ما يعني صاحبي ، وهو كان صاحبَ هذا الحديث ، ومحورَ رحاه ، على أن الرحى لم تطحن إلا قلبه هو ، وكان قد كتب إلى أستاذنا يطلب الخلاص ، فأين رأى الخلاص من نُصح طبيبه . . ما أمرَّ الدواء لو يجدي ، وما أقسى الطبيب . . ! وقلتُ في نفسي : « وا أسفا لهذا الشاب !! أثقُل عليه أن صفحة من صفحات قلبه قد نُشرتْ ، وهو كان يحمل الهم كله في صدره فما يثقل عليه ؟ ويل للشاب من الشيخ ، فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه ، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته . فأين يلتقيان ؟

ثم استوى الشاب في مجلسه وقد اطمأن قليلاً وسرِّي عنه بعض ما كان فيه من اضطراب وقلق ، ثم قال : « أترى ما فعل بي أستاذنا ؟ لقد كنتُ – باديء الرأي – في عينه مهذباً ، متعلماً . ذا رأي وبصر ؛ فما هي إلا دَوْرة الكلام فإذا أنا ساقط ، مرذولٌ ، ضعيف الرأي ! أفترى على الشاب من حرج أن يحلق في سمائه ، يفتش عن قلبه الطائر حتى يرى ضالته . . ؟ والطائر الغِرِّيد – يا صديقي – ينقب عن أنثاه التي تساكنه عُشَّه ، وترعى أفراخه . أفيكون لأبيه أن ينتقي له أنثاه من بين عصافير الغاب ، أم تراه هو . . . ! أو تحسبها هي تستقر إليه إذا لم تر في ظل جناحه الرأفة والحنان والحب ! أرأيتَ يا صديقي ؟ أرأيت هذا الطير ، يطير عن أنثاه إلى غيرها ، وهو نفسه الذي تملَّقها ، وفتنه ما فيها من أنوثة وجمال ؛ وهو نفسه الذي اختارها لتشاركه حياة الطير ، وزقَّها وزقته ، وبادلها وبادلتــه الحب والحنان ؛ أم كان ينتقص من حريته ، ويسلب رأيه لو كان تعلم . . . ؟

إن الذي تعلم منا ، قد تعلم ليمسك بمفتاح القيد الذي ضُمتْ به إحدى رجليه إلى الأخرى ، وشُدتْ إحدى يديه إلى الثانية ، وماذا يكون وراء العلم إن لم يكن هذا ؟ . وإذا كان الرجل يقول : « هذا أبي ، وتلك أمي ، وهؤلاء أهلي » لينتسب اليهم ، أفيخرج عن أهله إن هو قال : « وهذه زوجتي ؟ » وإذا كنتُ رجلاً تنفذ إليه المرأة بين الشيطان والحيوان منه ، ويصده عنها الرجل الذي في عقله ، أفكنتُ غيرَ الرجل الذي يريد أن يتم القصة التي أتمها الله لآدم بحواء ؟ وهل قال الله لآدم : « هـذه متسماة عليك ؟ » أم قال للملك الحب : « ضع سحرك ، وابذر لغرسك ؟ » فهمَّ آدم ليعانق حواء ، وهمت هي لتعانقه ، فبـدت الطبيعة أجمل ما تكون في عين رجـل وامرأة ، ورأى بعين الحب التي تشع نظراتها من القلب ، وهو كان يرى بعين الجسد فما وراء نظرته معنى ولا عاطفة . ثم خلق من حبهما شاعراً ، وأديباً ، وفيلسوفاً ، وعبقرياً و . . . وعاشقاً وعاشقة

قلتُ : ويْ ! كأنك قد طرت من الدنيا فلم تهبط إلا في الفردوس ؛ كأنك لا ترى أنك في حجرة إن لم تكن ضيقة فهي ليست بالواسعة !

* * *

واندفع الشاب في خياله ، وكأنه أراد أن يجمع إلى كتبه التي يطالعها ؛ ويرى الجمال في صفحاتها ، صفحة أخرى من جمال الطبيعة ، وثالثة من جمال المرأة ؛ وظن الجمال في عقله عند الكتاب ، وفي نظره تحت ظل شجرة وارفة على ضفاف الوادي ، في قلبه عند امرأة جميلة يميل اليها ويحبها ويرافقها إلى حيث يشبه الطائر الذي تحدَّث عنه ؛ وفي أذنه عند زقزقة العصافير ، وفي حديث هذه الفتاة التي يزعم عندها الجمال والرقة والعقل ؛ وفي شَمِّه عند نسيم الصباح وشذى هذه المحبوبة التي عرفها وهيَّمها وهيمته ، وخُيل إليَّ أن تماويذها قد فعلت فيه ، وأن نارها قد نالت منه ، وأنه قد أسلس لها وانقاد ، فقلتُ : أما أنت

* جواباً على مقالة الأستاذ الرافعي (المشكلة) المنشورة بالعدد ١٢٣

منها فكالذى نُوِّم فهو يسير على غير ارادته ، أو سُحر فهو ينظر بغير عينيه ، أو التاث فهو يمشى فى غير طريقه ؛ وإن كان أستاذنا قد قال : فما عليك أن يرفع هذا السحر عنك ، ولـكنّ فى كلماته سحراً من نوع آخر . . .

قال : والذى يذهب بعقلى أن يقول الناس : إنك مسحور أو بك لوثة ؛ وقد تعلمت ـ فيما تعلمت فى حياتى ـ أن أفكر بعقل الفيلسوف ، وأن أطير فى سماء الخيال إلى حيث أقع ؛ ولئن كان الخيال قد أضر بى قليلا ، إنه لقد شبّ مني بمقدار ما شب عقلى معى ، فـكان عقلى وخيالى ، ثم كانت حياتى وكلاها دراسة عميقة فلسفية ـ فحجب عقلى خيالى حيناً ، ثم عاد خيالى للظهور مع هذه ، ولـكنه لم يحجب عقلى ، وكانت هى عقلا إلى عقلى ، ولبست خيالاً إلى خيالى ؛ فـكان عقلى أولاً ثم خيالى الصغير ، وكانت تقول : « أنا لك بعد عملك ومستقبلك ، ولست لك إلا أن تكون رجلا فذا » فتدفعنى بكلماتها وقلبها وعقلها إلى المثل الأعلى . فياضيعة الأمل إن خاب هذا المثل ، ورُدِدْتُ إلى منزلى لأرى فيه مصيبتى ! ! وياخيبة الرجاء إن صرتُ كذلك الحداد أو النجار أو الحوذى ، أو ... أو غيرهم ممن لا يرون فى الحياة إلا أنها اللقمة والثوب والمأوى ، ثم ... ثم ذلك الضجيج البيتى الذى يصبح فيه هو وزوجته ويمسى ، والذى يشب عليه أبناؤهما فيأخذون من سوء الخلق ، وضعة الأخلاق ، وسفالة الطبع ، والشقاق ، والتنابذ ، مما رأوا عليه أبويهم

إن أستاذنا ليقول : إنها فتاة الشعر والخيال ، وما هى كذلك ، وما قابلتها مرة ، أو حاولت ذلك إلا بعد أن أخلع عنى خيالى ، لأخاطبها بلسان الفيلسوف ، وعقل الحكيم ، وكم أردت أن أقول لها : « أى فتاتى ... ... » لأندفع معها فى غزل رقيق ، فـكانت تنظر إلى بعين تقول منها : « ليست هذه لغتنا ... » فأرتد لأقول : « ولقد قرأت ... ... » ثم أخلو لنفسى لأشبع رغبتى فى الحديث الآخر ... بيني وبين نفسى ... !

قلت : أفترى أن الفيلسوفة العالمة تستطيع أن تـكون زوجاً وربة دار ، وأن تـكون أمًّا ومدبرة بيت ؟ وهل تراها تنشئ لك الحياة التى قدّرتها فى خيالك ؟ إن الحياة ـ ياصديقى ـ شىء غير هذا كله ، وإنك لن بيت فيه الدين والاحتشام والشهامة ؛ أفليس من ذلك كله أن تمسك عليك زوجك التى اختار أبوك ، وأن تمنحها من نفسك ما يمنح الزوج ؟

قال : إنك تنحو منحى أستاذك . أفتريد أن تضيف الى همومى هماً آخر ، وأنا جئتك أستعينك على همى ... ! لقد كان أستاذك فى مقاله كالذى ينزع سكيناً هو أغمدها فى صدرى ليداوى جُرحاً هو الذى بلغ به هذا العمق العميق ، حتى إذا ما التأم أو كاد ، عاد فنـكأه ، ثم عاد ثالثة ليداويه ... ! وصاحبتى التى اصطلحتما عليها لم تـكن منى إلاّ بمنزلة المنظار من عين الأعشى ينظر من خلاله الى هذا العالم فيرى ما يراه ذو العين الصحيحة ؛ ولم تـكن من قلبى إلا بمنزلة الاطمئنان من قلب المضطرب ، ولم تـكن من عقلى إلا بمنزلة الطبيعة تفتح فيـه طرقاً معبدة ؛ ولم تـكن من حياتى إلاّ بمنزلة الصديق الوفىّ . ولعلك تذكر يوم أن كتبتُ اليك وكنتَ بعيداً : « لقد أبللت من مرضى ... » . كان أخى فى منأى عنى ، ووقفتْ زوجتى بجوار سريرى ، لا تعرف كيف تَصُبّ الدواء فى فنجانة ، ولا متى يكون . وهَفَتْ نفسى إلى التى أحبها حين خُيِّل الى أنى أموت فـكتبتُ اليها والححتُ ؛ فزارتنى على استحياء ، ثم ألححتُ فوقفتْ منى موقف الطبيب من مريضه ... ثم كتبتْ الى أهلى تقول : « إن ابنـكم يحتاج الى من يقوم عليه ... » كتبت ذلك حين رأت أن فى زيارتها شيئاً ، ثم ... ثم لم تعُد

ولما أبللتُ وخرجتُ للقائها قالت : لقد كنت قاسـياً ، وما استطعتُ أن أرفض حين رأيتُ الخطر . وما كان أجدر بى وبك ألا نقطع هـذه المرحلة . يالشقائى بك ! وياالشقاء زوجك بك ! لقد أصبت قلبين بسهم .

وقالت لى وقلتُ لها ، ثم افترقنا ، وأردت أن أهب إلى التى فى دارى بعض نفسى فأشعرها بأننا أنثى ورجل ؛ فارتد قلبى عنها ، ثم أرغمته فارتد أخرى ، وأظلم منزلى من بهجة العزوبة ومن جمال الزواج معاً . وأصبحت الدار التى جمعتها لسكناى هى جحيمى ، ففررتُ إلى الشارع وإلى عملى ؛ وشعرت الأخرى أنها لا تملك فى هذا المنزل ما تملـكه الزوجة ففرّتْ الى حجرتها وإلى خادمتها ؛ واعتزلتها ، واعتزلتنى ؛ ورجعنا إلى ما كان ، حين كان بيننا (الباب المغلق) سنوات تسعاً

قلت إن أولى الناس باحسان المحسن ، هو القريب ، فالجار الجنب ، فالصاحب بالجنب ؛ وقد عرفتك محسنا ، وهذه من ذوى قرابتك ، وأقرب اليك من جارك ؛ أفلا تكون محسناً معها ؟

قال : لقد كنتُ أستطيعه لو وجدت النور . إنها لظلام وظلام ، وظلام ... أما الظلام الأول ففى منزلى ، وأما الظلام الثانى ففى قلبى ، وأما الظلام الثالث ففى عقلى ... !

* * *

وصمتَ وصمتُ ؛ وكان كأنه يسترجع الذكرى ، ذكرى أيام خلت ، ذاق فيها حلاوة العيش ، وسعادة الرضى ، وكأن حياته بماضيها ومستقبلها قد جمعت فى أشهر كانا فيها ...

ثم التفت إلىّ كالمذعور وقال : أما أننى كنتُ معها غير الرجل الذى فيه الرجولة فقط ، وأما أنها كانت معى غير الأنثى التى فيها الأنوثة فقط - فلا . إلاّ أنها كانت توحى إلىّ بكلام هو من لغة السماء ، وتصب فىّ حياة هى حياة أهل الخلد ؛ وكنتُ إلى ذلك مطمئناً وقد اطمأنت هى أيضاً اليه . وقنعتُ وقنعتْ . والناس يرون فى الحب الفاحشة ولا يرون فيه المجد . والذى يعيش فى حياته بلا حب كالشجرة العانس . ليس إلاّ هى فى الحديقة ، ولا سبيل الى أن تجد الشجرة الأخرى . فلا هى بالذابلة الجافة ، ولا هى بالمثمرة ؛ ولكنها بارتفاعها وفقرها تقول : « أنا ... أنا الموجود الذى لا وجود له . » فما أسرع ما تمتد اليها يد لتقتلعها ، وحين ترى نفسها وقد نالتها فأس الحطاب تقول « .. أنا .. ويلى ! .. أنا الضائعة » . ان الذى لا يحب الجمال ولا يلتمسه فى امرأة ؛ ثم يفاخر غيره بذلك ، إنه لا يقول للناس « أنا لا أحب ولا أقدّر الحب . » بل يقول « أنا .. ما أنا فى الأحياء ! .. أنا .. أنا ميت الأحياء » والضعف الذى يراه فى الذين عرفوا الحب وآمنوا به ، إنما هو ضعف فى إنسانيته هو لا فى إنسانيتهم ، والذى لا يدرك الجمال فى المرأة لا يدركه فى الطبيعة ؛ لأن المرأة هى المنظار المكبر الذى ينظر الرجل من ورائه إلى ما حوله . وإلا فهو لا يرى موضعه من الأحياء .. »

أنا .. أنا انسان ولا أستطيع أن أقول إن كلّ شىء جميل ، وإن كان فى القبح جمال فقد يكون فى الجمال قبح ؛ ولكن هذه التى يقولون عنها انها جميلة ... ثم أرغمونى عليها وأرغموها علىّ لا أرى فى قبحها جمالاً ولا فى بؤس الحياة معها فناً ...

قلت : ويك : لقد اصطرعت فى نفسك عوامل رانت على بصرك وتركتك فى بيداء من الوهم والخيال ، كأنك تريد أن تخلع ثوبك ؛ وقد يكون فى الذى تخلعه جمال !

قال : أمّا أن أظلّ شريداً ، فلا . وأما أن أحتمل مع عبثى عبثاً آخر ، فلا . وأمّا أننى أهتم بنفسى ، فنعم . وماذا يضيرنى ويضير هذا العالم بما فيه أهلى وأهلها إذا لبست فوق ثوبى القديم ثوباً آخر ، فيخفى عن عينى وعين الناس هذا القبيح الذى كنت ألبس ؟

* * *

ثم تركنى ، وأنا أقول : واأسفا لهذا الشاب ! ! أثقُل عليه أنّ صفحة من صفحات قلبه قد نُشرت وهو كان يحمل الهمّ كله فى صدره فما يثقل عليه ؟ ويلٌ للشاب من الشيخ فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه ، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته . فأين يلتقيان !

كامل محمود حبيب

٤ – عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

تتمة

وانتظمت جيوش معاوية واتخذت سبيلها الى الشام لتثأر لعثمان الشهيد ... ولم يعد فى نفس أحد منهم شك فى أن عليا هو قاتل عثمان ... وأن حربه والانتقام منه فرض واجب على المسلم الصادق الأمين ، ومضى معاوية وعمرو على حصانيهما يتحدثان فى الطريق وإن معاوية ليحس خطر هـذا الرجل الصامت الى جانبه ... إنه ليعجب من هذا العقل الكبير الذى لا يقصر عن غاية ولا يعجز عن أمر ... وإنه ليخشاه ويرى سلطانه مهددا بوجوده ... ولكنه يحتاج اليه ولا يكاد يستغنى عنه فى هذه الملحمة المقبلة ... ولم يكن عمرو ليفكر فى غير ذلك ! ولكنه لم يكن منصرفا اليه هذا الانصراف كله ... فهو يعرف حاجة معاوية اليه ولا يخشى منه أمراً ... بل هو يفكر فى أمر آخر ، إنه ليفكر فى على وقوته ... ويحسب حسابها ويسأل نفسه ، ترى ما ذا أفعل لو انتصر علىّ على وهو أمر معقول جدا ... وإن عليا لفارس العرب وسيف الله البتار ؛ وإنه لصاحب الأيام البيض الخوالد والغزوات الزهر الباقيات ، وإن معه لنفرا من الفرسان الصناديد الذين يخشى منهم أى خشية .. فيهم الأشتر النخعى وفيهم من أصحاب الرأى ابن عباس ، وإن فى هؤلاء لغناء ومنعة من الفشل ... فما ترى ابن العاص فاعلا والأمر خطر والبلاء شديد ؟

وانتهت الجيوش إلى ضفاف الفرات ، واقتربت من طلائع على وعسكرت فى موضع سهل ومنعت الماء عن على ... وباتت قوات على عطشى حتى عيل صبرها فحملت على الشآميين فأجلتهم عن موضع الماء ... وبات الشآميون عطشى فندبوا من يسأل عليا الماء فأجاب ! ... وتلك كانت علة الرجل التى انتهت به الى الهزيمة فى ذلك الميدان ، فكيف يثبت الطيب للخبيث ، والرقيق للقاسى ، والإيمان للحيلة والدهاء ! (١) وزاد الأمر بلاء أن عمرا أدرك موضع الضعف من على ، وستراه سباقا الى الاستفادة من إيمان على وشهامته ... انظر اليه قبيل صفين ... إنه يدور بعينيه فى معسكر على ليختار الدهاة والخبثاء ويتصل بهم ويشككهم فى أمرهم ... هذا الأشعث بن قيس يتفاهم مع عمرو ، وهذا أبو موسى يبدأ يشك فى حق على ... ثم تبدأ الدعاية القوية فى جيش على نفسه فتقعد همم الناس وتفتر عزماتهم ... ويرون قتال أعداء على تعبا لا طائل وراءه ، وإن عليا ليلزم جنوده شدة لا يطيقونها ، وإنه ليمنيهم بالجنة دون الغنائم والأسلاب ؛ وهؤلاء جنود الشام عليهم النعمة ظاهرة والخير وافر : وذلك عدل من معاوية ، وكياسة من عمرو ! ثم انظر إلى ميدان صفين : كيف تهم طائفة من أصحاب على فتكتسح العدو اكتساحاً وتكاد تأتى على معاوية ، وكيف تتقاعس طائفة أخرى حتى تكاد تفر من الميدان ، وكيف يلقى على مقاومة من أنصاره ومعارضة من قواده . لقد تغيروا . لقد داخل نفوسهم الشك فى عدالة قضيته ؛ وإنهم ليرون ظل عثمان ماثلا على خلافة على ثقيلاً رهيباً . بلى وهذا الأشعث يقعد عن الفتى ، وهذا الأشتر يمضى ، حتى تكاد الهزيمة تحيق بمعاوية . ويشتد الأمر بجند الشام وينظر عمرو حواليه ، فاذا الأمر مقضى ، وإذا الهزيمة قاضية ، فينحى على معاوية ويلومه لوماً شديداً . لقد بدا له أنه « خسر الصفقة » وأن السوق قد أتت بغير ما كان يقدر . إنه لثائر مغضب يلوم معاوية ، فيشتد فى لومه ، وإنه ليعتبره مسئولاً عن الخسارة التى حاقت به ، وإنه ليصارحه برأيه ويعكنون سره ويقول له : « يا معاوية : أحرقت قلبى بقصصك ؛ ما أرى أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه ! لا والله ، إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها ، وايم الله لتقطعن لى قطعة من دنياك أو لأنابذنك . » (١) وإنه لينـدم على ما أتى من انضمامه ، وقد نسى قدر على وقوة جنوده ؛ والآن انضح له الحق فهو يلوم ويندم ، ولكن ماذا يجدى ، وإن الخطر ليقترب ، وان جنود على لتكاد تمس جفاء معاوية ؛ وإنه ليركب حصانه ، ويهيب بعمرو : « الله ... الله ... فى الحرمات والنساء والبنات : هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا » ، ولكن كيف يسرع ابن العاص إلى مخبآته ، ويطوى

(١) ابن قتيبة « الامامة والسياسة » ج ١ ص ١٧٢

(١) رواه الذهبى ، وأنا أشك فى صدق الجزء الأخير من « وايم ... » لأنه كان قد سبق للاثنين الاتفاق قبل الشروع فى العمل

خيامه ويلوى هارباً ، وما بعد ؟ ... إنه لينظر بعيداً ، وإنه ليرى علياً متعقباً إياهم حتى يقبض عليهم فى عقر دارهم ... كان هذا أمراً يخيف ابن العاص ... فانظر كيف يستغيث وكيف يحتمى بكتاب الله ... لقد عرف أن فى بعض رجال على ميلاً إلى المهادنة وترك القتال . فرأى الاستفادة منهم ... ثم أخذ يسأل نفسه قائلاً : ترى أى شيء يجله هؤلاء القوم فى هذه اللحظة التى تنكروا فيها لكل شيء ؟ فتجيبه نفسه : كتاب الله ... فيجيبها : فلنعتصم منهم بكتاب الله ، ولنرفع المصاحف على الرماح ؟ فيجيب نفسه ... بلى ... هو الرأى الصواب . فترفع المصاحف على الأسنة ويراها أصحاب على ، وكأنما كانوا يترقبون فرصة يكفون فيها عن القتال فيرون فى هذا حجة كافية ، ويكفون ويحتجون بكتاب الله ، ويدور على بعينه فى معسكر عدوه ليرى مطلع هذه البدعة فيجد أنه عمرو . وهنا ينكشف لعينيه سرها .. إنها خدعة . . إنها حيلة ، ولكن قومه لا يسمعون . وها هى صفين تنفض ، والأشتر يؤمر بالرجوع ، وينجو معاوية ، ويحول ابن العاص المعركة من حرب السيوف لحرب الفكر واللسان لكى يشل قوة على ، ولكى يكون هو فى ميدانه الصالح له . ثم انظر اليه يتدخل حتى فى اختيار على لمندوبه ... إنه ليتصل بالخونة من أنصار على ويوعز اليهم فيرفضون عبد الله بن عباس لأنه فتى ذكى مخلص لقضية على . ثم يرفضون الأشتر لأنه متفان فى خدمة ابن أبى طالب ، ولكنهم يؤيدون الأشعرى لأن عمرا يعرف أن بينه وبين على شيئاً ، وأن التفاهم قد يجدى معه كثيراً ، وينفض الجمع ليلتقى فى دومة الجندل

ترى فيم يفكر ابن العاص فى هذه الفترة ... فى مصر وأمورها ... لأنها ستعود اليه بعد قليل ... إنه يكيد لواليها الجديد قيس بن سعد بن عبادة الانصارى فيشيع فى حزب على أن قيساً قد انضم لحزب معاوية ، فيعزله على ويضع مكانه الأشتر النخعى فيموت الأشتر مسموما عند « مسروره » بالقلزم فى ٥ رجب ٣٧ ... أترى لعمرو يداً فى ذلك ؟

ثم يكون التحكيم الذى لم يرو التاريخ مثله أبدا ، والذى لم يوفق مؤرخ فى روايته على أصله أبداً ، والذى يرفض العقل أن يقبله فى صورته التى وصلت الينا ... ولكننا نستطيع أن نفهم منه كيف كان الناس ينظرون إلى عمرو ! وكيف اعتبرته الأجيال أشد الناس لؤما وأكثرهم خبثا ... لقد وفق عمرو توفيقاً عظيما ... ولم يكن توفيقه راجعا الى مهارته فى الكيد وحدها ، بل الى وجود الضعاف والخونة فى صفوف خصمه وحسن استفادته من هؤلاء ... هذا هو يتدخل فى انتخاب مندوب على ويرضى أخيراً عن أبى موسى الأشعرى لا لأنه أبله أو شيخ كما يزعم الرواة ، بل لأنه غير راض الرضى كله عن على ... ولأنه قابل للفتنة مستعد للمساومة ؛ وهذا عمرو يخلو به ساعات طوالا يتحدث اليه فى الأمر : ويتفنن فى إقناعه ... وينفذ اليه من شتى السبل حتى يوفق الى تشكيك الرجل فى عدالة قضية على ، بل الى اتهامه بقتل عثمان ... فاذا خلص من هذا فقد أفهمه أن لعثمان أولياء يطلبون ثأره من القاتلين ... وأن الأولياء هم معاوية وعامة آل أمية ... فاذا خلص الى هذا فقد أقنع خصمه بعدالة ثورة معاوية ... ثم يسأله : فماذا ترى ؟.. فيصمت الشيخ فيقول عمرو : إننا نرضى بتنازل على ثمنا لدم عثمان ؛ فلا يرى أبو موسى حرجا فى ذلك ... ويطرب لذلك عمرو ، فقد خسر منافسه الخلافة ولم يخسر هو شيئاً ... وهو إنما يرجو أن يخلع الخلافة عن على ليصير هو ومعاوية صنوين ... ثم إنه يعرف أن أنصار على ملتفون حوله لأنه خليفة ، فاذا زالت عنه الخلافة تفرقوا ... وقد أفلح ... بل إن أنصار على ليتفرقون قبل خلعه فى التحكيم ... ويصبح معسكره فوضى ... وينفض الخوارج ويتفرقون ويحاربهم فى النهروان ... كل هذا يرضى عمرا لأن فيه إضعافا للخصم ، فاذا تم الأمر ونزعت الخلافة لم يصبح لعلى بعد ذلك شيء ويذهب أمره هباء

ثم يعلن الحكمان ما وصلا اليه : لقد رأينا خلع على [١] ... لقد ثارت الفتنة واضطرب الأمر وأسقط فى يد على وأنصاره ... وقد كسب عمرو كل شيء وأصبح على عاجزا عن استنهاض هم جنوده لحرب معاوية ... وقد قوى أنصار هذا الأخير نخافهم الناس واتحد جند معاوية وقوى أمرهم واشتد ساعده بهم ، واستطاع أن يفصل عن على بلاده جزءا جزءا حتى إذا قتل سنة ٤٠ هـ لم يكن قد بقى فى يده من الأمر شيء

هكذا فعل عمرو : فرق الصفوف وأشاع الفتنة وأقام هذه الفوضى التى لم يخلص الاسلام منها الى أواخر أيامه . . .

(١) هذا ما نراه ولا يعقل أن يكونا أعلنا خلع على ومعاوية لأن معاوية لم يكن خليفة فيخلع

لكي يصل الى شيء واحد . . مصر . . لقد باع الحق وارتهن الفضيلة ، وساوم على طمأنينة الدولة الاسلامية ليكسب شيئاً واحدا ، هو مصر بخيرها وبركاتها

وانظر اليه لقد أسرع الى مصر فى ستة آلاف مقاتل ، يقطع بهم سيناء على عجل سنة ٣٨ هـ ، فاذا أشرف عليها فقد أرسل يهدد محمد بن أبى بكر الصديق ليخلى بينه وبين مايريد . ولكن محمداً رفض ، ولم يدر أن غريمه قد باع الدنيا والآخرة بهذا الذى يمارضه فيه ؛ والتقى الجمعان ، وفر محمد وتبعه معاوية بن حديج وقتله فى المنشاة

ثم انظر صراعه مع معاوية على مصر . إن الأول ليستكثر عليه هذا البلد الغنى الطيب ، وإنه ليراه غير أهل لتلك النعمة الوارفة . فانه لجالس ذات يوم فى نفر من صحبه وفيهم عمرو فيقول :

– ما أعجبُ الأشياء ؟ فيجيب يزيد ابنه :

– أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض . . . وقال آخر :

– حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل . وقال عمرو :

أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق . فيسرع معاوية ويقول :

– بل أعجب الأشياء أن يعطى الانسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف

بلى فهو أعجب الأشياء ... وهل يستحق عمرو مصر وهو لا يخاف (الله)

ذلك رأى معاوية فى عمرو ... ثم انظر الى معاوية يحترس من عمرو فى كتاب توليته فيكتب : « على ألا ينقض شرطٌ طاعة ...» فيمسك عمرو بالقلم ويبدلها : « على ألا تنقض طاعةٌ شرطاً »

وعاش عمرو بعد ذلك ما شاء الله له أن يعيش ، وأنجاه الله من يد قاتله لكى ينعم قليلا بالشجرة الخضراء التى خسر فى سبيلها كل شيء . وتردد بين مصر والشام كثيراً ، ليجلس الى معاوية . . ثم ليخلو إلى أولاده ، وكانت مصر قد صارت له طعمة ، فاطمأن باله وترك الكفاح والجلاد ، ولكنه لم ينس الكسب والخسارة الى آخر أيامه ؛ فانه لجالس مع معاوية يوماً إذ سأله هذا ما بقى منك يا عمرو ؟ فيجيب : «مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته . . »

أجل لازال فى سن السبعين يفكر فى غرس المال والاصابة من ثمرته وغلته ؛ وهكذا ينبغى أن يفهمه الناس ، فان اجتهاده فى السياسة ونبوغه فى الحرب كان مصدرهما شيئاً واحدا : الرغبة فى الكسب والربح . . وقد انتهت جهوده الى شيء واحد ، لا هو الملك ولا هو الثواب . . بل ليست هى الآخرة نفسها وإنما هى مصر . . أغنى ولايات الدولة وأوفرها مالا . وقد مات وخلف ألف ألف درهم كما يقول المسعودى ودورا عديدة كان يملكها فى مصر والشام

(تم البحث)

حسين مؤنس

وزارة المعارف العمومية

ادارة السجلات والامتحانات

اعلان

عن بعض مقررات امتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان لسنة ١٩٣٦

١ — كشف ببيان ما قررت الوزارة مطالعته ودراسته من كتاب : A Further Approach to Shakespeare على طلبة امتحان الشهادة الثانوية قسم ثان أدبى سنة ١٩٣٦

٢ — كشفان ببيان قطع المطالعة المقررة على طلبة السنتين الرابعة والخامسة وقطع المحفوظات الفرنسية المقررة على الطلبة فى جميع السنوات الدراسية سنة ١٩٣٦

٣ — كشف ببيان قطع المحفوظات الانجليزية المقررة على طلبة امتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان سنة ١٩٣٦

الكشوف الموضحة بعاليه أرسلت الى المدارس الثانوية الأميرية والحرة لاتباع ما جاء بها خاصاً بامتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان سنة ١٩٣٦

ويمكن للطلبة المتقدمين للامتحان المذكور من الخارج هذا العام الاطلاع على هذه الكشوف باحدى المدارس المذكورة

الصحـــراء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

أرُحْبُكِ أم صمتٌ على الأرض غالب
غدا مُصْحِرٌ من روعه وهو هائب

كصمت الخشوع المطرقين تروعهم
مقابرُ صرعى للردى وخرائب

وصمتٍ لِذِى المحراب فى بيت ربه — يقاربه فى صمتـه ويخاطب
توَقَّعَ من قد غاله الصمت هاتفاً — يكلمه من فرط ما الصمت راعب
كمخترق الظلماء لاح لعينه — إذا جال فيها اللحظُ ما هو غائب

حَرِىّ أن يناجى النفس فيك أخو الحجا
ويخشع صمتاً راكب فيـك ذاهب

ويخشع من رُحْبٍ كأنْ لامدى له — حكى أبداً ما حَدَّهُ الدهرَ حاسب
ويخشع أنْ لاشىء إلا مجانسٌ — فلم يُلفَ إلا مُشبِهٌ أو مناسب
وكم راع رأى العين إن كان لا يُرَى — سوى الشِّبْهِ يتلوه الشبيه المصاقب
حكى خدعة الآمال آلك رافعاً — على الأفق بُشْرَى كذَّبتها العواقب
سراب الأمانى فى الحياة خديعةٌ — وقد تُهلِكُ المرءَ المنى والرغائب
ومن ضل فى خرق من العيش لبه — كمن خذلته فى الفيافى المذاهب
تَفَتَّحُ أبواب الجحيم عن اللظى — كأن شواظ القيظ يسفيه دائب
سموم كدُفَّاعِ البراكين أو لظى الـ — حرائق يصلاه الحصا والنجائب
ويصلاه ركبٌ خال دنيا تقلَّصت — عن النار لو يسعى جحيمٌ مقارب

ويَسْوَدُّ وجـه الأفق حتى كأنما
ذُكاء دجت أو يكسف الشَّمسَ حاجب

وكم حار ركبٌ من فجاءة صحوة
كما راع مرأى الحسن والعُرْى سالب

إذ الجو كالبِلَّوْرِ أُخْلِصَ لونه
وصب عليـه من سنا الشمس ساكب

كذلك غب الغيث ريمان بهجة — كأن طلاء قطره وهو صائب
كأن ضياء فى سواد سَحابَةٍ — تكاثر حتى ثَقَّبَ الدجنَ ثاقب
تَفَجَّرَ ينبوع من النور غامر — كما غمر الأرضَ المياه السوارب
ضياء ترى المألوفَ من كل منظرٍ — به فاذا المألوف منـه الغرائب
وما فرحة الولهان عاد حبيبه — بأصدق منها فرحةً وهو آيب
نهارك أم ليل الدرارىِّ نائل — من اللب نيلاً لم تنله الكواعب
أديم سماء يُبْرِزُ الشهبَ صَفْوُه — فأحسبها تدنو به وتقارب
أما يخشع السُّمَّار من كثرة الدنى — ويذهل من رحب الفضاء المراقب
يبيت يناجى النجم والنجم سامر — فتُفْضى إليه بالحِوارِ الكواكب
كأن لحاظ النجم من لحظ عاقل — وأن رقيباً فى السماء يراقب
يسائله عن عيشـه أين سره — كأن وراء النجم ما هو طالب
إذا خط فيك الدهر سطراً محوته — كذا اليم، لا يقوى على اليم كاتب
وتُرْقِل فيك اليعملات وإنما — سفائن لج البيد تلك الركائب
وللبحر أمواج وللبيـد مثلها — إذا هب إعصارٌ على الركب كارب

فيغرق فى لجٍ من الترب حائن
كما احتشدت فوق السفين السوارب

ورحبك رُحْبُ البحر يطويك هائب
ويركبـه ذو مطلب وهو هائب

بأفقكما للشهب رهب وروعة — جلالكما شِبْهٌ وشِبْهٌ مقارب
وذى دولة فى اليم قد دال أمره — وآخر أردته لديك المطالب
ويصغر عيش المرء فى اليم مثلما — تضاءل فيك عيشه والرغائب
لِمَحْلِكِ يلقى مكرم الضيف ضيفه — بخير، وأما خصمه فهو سالب
وتشحذه الأخطار حتى كأنما — بنوك سيوف ينتضيها المحارب
لقد صقلتها نار قَيْنٍ وصيقل — كما صقلتهم فى الحياة النوائب
تَنَسَّكْتِ فى بُرْدِ التقشف لم يَلِنْ — معاشٌ ولا ترجى لديك الأطايب

عبد الرحمن شكرى

لُبْنَان

[تهدى إلى أخى الأستاذ على الطنطاوى]

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

غابَ لُبنانُ فى رَقيقٍ من الغيْـ   ـمِ كما غابَ فى مدَى اليمّ زورقْ
ضفَرَ الثلجَ والسحائبَ تاجاً   واختفى فى الضبابِ ثمّ تعلّقْ
هِضابُ الشمُّ اكتستْ ورقَ الخُلْـ   ـدِ وطافَ الربيعُ فيها وأحدقْ
الروابى توسّدتْ راحةَ السُّحْـ   ـبِ ونامتْ على وشاحٍ مرقّقْ
الذُّرَى البيضُ فى العَلاءِ نسورٌ   حوّمتْ تكشفُ الخفىَّ المغلَّقْ
شرعتْ فى الفضاءِ أجنحها الزُّهْـ   ـرَ فأسنى بها الوجودُ وأشرقْ



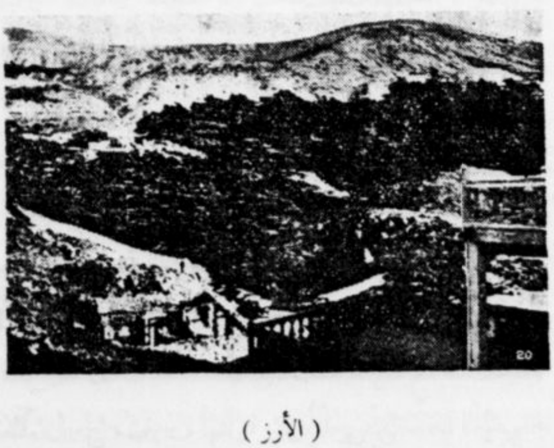
جونيه (من قرى لبنان)

القُرى غلغلتْ بأخبيةِ الغَيْـ   ـبِ وضاعتْ بينَ الغمامِ المنمّقْ
تَرَفٌ مِلْؤُه فتونٌ وسحرٌ   ونعيمٌ ضافٍ وحُلْمٌ مُزوّقْ
الينابيعُ ضاحكاتٌ من الزهْـ   ـوِ ترامَى فيها السَّنا وتألّقْ
غرّدتْ قصّةً من النغمِ الحُلْـ   ـوِ ومن سجعةِ الحمامِ المطوّقْ
ضجّتِ الربوةُ الأنيسةُ بالشّدْ   وِ وغنّى السفحُ الحبيبُ وزقزقْ
نمّشتْ بالغابِ موجةُ أنسٍ   فشذا الأرزُ والصنوبرُ صفّقْ
يتراءى البحرُ البعيدُ كحُلْمٍ   مُبهمٍ راجفِ الخيالِ ملفّقْ
سَرَقتْه السماءُ فى الأفقِ النا   ئِى فمَنْ أبصرَ الخضمّاتِ تُسْرَقْ
وبَدا فى رباعِ « زحلةَ » وادٍ   برعمَ الحبُّ فى حِماهُ وأورقْ
بأفيائه الألطافِ الحوانى   سَرَبَ النهرُ كاللُّجينِ المطرَّقْ
وترامى الصَّفْصافُ فى مائه الرّقْـ   ـراقِ يَسْجُو على الضِّفافِ ويَغْرَقْ
وعلى السفحِ تستريحُ الدَّوالى   فى نِظامٍ حُلْوٍ ونهجٍ مُنسَّقْ



(وادى زحلة)

والعناقيدُ بينهنّ نشاوَى   ثمِلاتٌ من الرحيقِ المعتَّقْ
رنّتِ الخمرُ فى ظروفٍ من النُّو   رِ وكادَ الشذا يُشَمُّ ويُنشَقْ
ذاكَ « صِنّينُ » فيلقٌ فى السموا   تِ وفى الأرضِ جاثمٌ منه فيلقْ
هُوَ جارُ النسورِ حطَّ على الغيْـ   ـمِ وأسرى إلى العلاءِ وحلّقْ
والسهولُ الفِساحُ دُنيا من الإلْـ   ـهامِ تَنْدَى من الطيوبِ وتعبقْ
والمساءُ الساجى البهىُّ رُسُومٌ   ورُؤًى كلُّها تحبُّ وتَعْشَقْ
والقطيعُ المِمْراحُ غنّاهُ راعيـ   ـهِ فأصغى مستمهلاً وتشوّقْ
هدهدتْه الربابُ فانسابَ كالنّهْـ   ـرِ وأهوى من الربى يتدفّقْ
مَلأَ الكونَ بالثُّغاءِ فما تَسْـ   ـمَعُ إلّا صدًى يطنُّ ويزعقْ
عادَ والليلُ مُتْعَبٌ هبطَ الأرْ   ضَ وأغفى على الجبالِ وأطبقْ



(الأرز)

إيهِ لبنانُ يا نشيدَ الأناشيـ   ـدِ ويا صورةَ النعيمِ المحقّقْ

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

جنازة السلام

بمناسبة الحرب بين ايطاليا والحبشة

للأستاذ محمود غنيم

أرأيت إذ وُلِدَ السـلامْ فنَمَوْهُ من قبل الفطامْ
وضعته « أُورُبَّا » لنـا ياليت « أوربا » عُقَام
طفـــلٌ برىءٌ ذاق مِنْ يد أمِّهِ كأسَ الحِمام
نحروا الغـــلامَ ضحيةً فى عيد ميلاد الغـــلام
لهفى عليــه ممزَّقَ الـْ أوصال مُنْتَثِرَ العظام
عصفت به ريحُ الوغى عصـفاً وغطّاه القتام
فمضى شهيـــداً ما له قبرٌ يُزارَ ولا مقـام
ليس السـلامُ بسائد ما دام فى الدنيـا حُطام
ما الناسُ إلا الناسُ فى عصر الضياء أو الظـلام
سيَّان مَنْ سكنَ القصو رَ الشمَّ أو سـكن الخيام
بِسِوَى الدمّ المسفوح لا يُرْوَى لظامئهم أوام
وأَحَبُّ ما وقعت عليـ ـه عيونُهم جُثَثٌ وهام
وهُوَ ابنُ آدمَ ينتشى من حُمْرَة الدم والمدام
الذئب كالانسان لو يتعـلم الذئبُ النظـام
فـكلاهما وحشٌ حد يد النّاب يلتمس الطعام
سِيَّان عنـــد الفتكِ نا بُ الليث أو حدُّ الحسام
قالوا السـلامُ فقلت ما أقوى اللسانَ على الـكلام
وتعاهــدوا فسألتُهم ما حدُّ مَنْ خَفَرَ الذمام
أبغصن زيتون نجا زى أم بصارم الانتقام (١)
قالوا السـلامُ فقلتُ كم قد حارب الرُّسْلُ الـكرام
لا «الفاتيكانُ» من الحرو بِ نجا ولا البيتُ الحرام
قد كانت الخلفاء تُصـ ـلَبُ بين زمزمَ والمقام (٢)
كلٌّ يُشيرُ إلى السـلا مِ بعين ذئبٍ لا تنام
وأمامهُ أسـطوله ووراءه الجيشُ اللُّهام
فَقَدَ المهنّدُ عرشَـه والمُلْكُ ليس له دوام
نارٌ وغازٌ فاتكٌ بدلَ الأَسنَّة والسِّهام
شـبح المنيَّة جاثمٌ فوقَ المياهِ أو الرغام
أو فى الفضـاء مرفرفٌ بجناحه مثـلَ الحمام

* * *

جبَّارَ رُوماَ سـوف تَلْـ ـبَسُ تاج قَيْصَرَ فى المنام
أتريدُ ويحـك أن تُؤَ خِّرَ أَهْلَ جيلِكَ ألفَ عام
ولّى زمانُ القيصر يَّةِ والقياصرةِ العِظام
أوَ ما رأيتَ الحـكم با ت الآن فى أيدى الطَّغام
ولقـد مشَيتَ القهقرَى ومشى الزمانُ إلى الأمام
أإذا صفا جوُّ السـلا مِ زَفَرْتَ فانتشر الغمام
زُحماكَ هـل تشكو إليـ ـكَ الأرضُ من هول الزحام
لم تَخْبُ نارُ الفتنـة الـ ـكبرى وجُرْحُ الـكون دام (٣)
ولقـد تحديْتَ الأنا مَ فـكنت سخريةَ الأنام
أسرفتَ ويحـك فاتئد ماذا جنى أبناء حام (٤)
لا تحسبَنَّ مرابضَ الْـ آسادِ سهلةَ الاقتحام
هـذى مآقيهم فمن لك بالبواذخ من شمام
ها هم خصومُك حول شَـ ـطِّ المَنْشِ إن شئتَ الخصام
القابضون على جنيـ ـفَ ورهطِها مثلَ السوام
قالوا الحصارُ فأذعنت « والقول ماقالت حذام »
أخـذوا على روما المسا لكَ فهْى فى ضيق المسام

(١) يشير بذلك إلى أن فكرة السلام لا يمكن توطيدها بدون الحرب
(٢) يشير إلى حادثة قتل ابن الزبير وصلبه بعـد إطلاق المنجنيق على الـكعبة التى اعتصم بها
(٣) يشير إلى الحرب العظمى
(٤) يشير إلى ما تشير اليه الخرافة من أن الاحباش وغيرهم من السود من نسل حام بن نوح

عالَمٌ أَنْتَ للهَوَى والأَمانِى يُشْتَهَى السِّحْرُ فى حِماكَ فيُخْلَقْ
دَرَجَ الحُبُّ فى ثَرَاكَ نَقِيًّا وَلَهُ فِتْنَـةٌ تَرُوعُ وَرَوْنَقْ
وَبِأعْطَافِكَ الرِّقَاقِ الحَوَاشِى وَقَفَ الحُسنُ خاشِعاً ثُمَّ أَطْرَقْ

* * *

... وتَطَلَّعْتُ مِنْ مَشَارِفِ لُبْنَا نَ أُنَاجِى مِنْ صَفْحَةِ الغَيْبِ جِلَّقْ
تِلْكَ مَأْوَى رَغَادَتِى وَخَيَالِى وَبِهَا قَلْبِىَ اللَّهِيفُ مُعَلَّقْ

أنور العطار

القصص

أقصوصة عراقية :

أبو جاسم

للأستاذ محمود ا . السيد

— ١ —

حدثني صديقي ابراهيم والذكرى تؤلمه ، قال :

« كنت في المدرسة الثانوية — السلطانية العثمانية — قبل احتلال الجيش البريطاني بغداد بسنة أو أقل ، أصاحب طالباً من ذوي الذكاء الواعد والخلق الجميل . كنت في السادسة عشرة من العمر . وكان هذا الصديق — واسمه علي بن حسن — خير عونٍ لي في المدرسة . وكنت أعجب بذكائه .. وكان طليقاً جريئاً يسمو على أقرانه بكثير من المزايا والصفات

وكان الى جانبنا طالب آخر يكمل لنا « ثالوثاً » مقدساً بالأخاء والود اسمه عبدالعزيز . وهو من أبناء الطبقة العاملة . كان أكبرنا سناً ، وأقلنا تهذيباً ، وأجرأنا قلباً ، يقلدني وعلياً في الاعتزاز والتفاخر برجال التاريخ الاسلامي العربي : أجدادنا الأولين . وذلكم كان ديدننا في ذلك العهد : فجر الحرب العالمية الاستعمارية الكبرى وضحاها

وكان أكثرنا حباً لبغدادنا وإيغالاً فيها . . . يعاشر خارج المدرسة فتيةً من أبناء طبقته المكدودة فيشاركهم فيما يعتقدون من باطل العقائد والخرافات . وكان يرى — فيما يرى من غريب الآراء — أن القبعة العسكرية « الأنورية » التي ابتدعتها الحكومة الاتحادية إبان الحرب لرجالها ولطلبة المدارس ، قبعة أفرنجية ، حرام على المسلمين لبسها ، وأن رباط العنق رمز للصليب . ولم يلبس القبعة حتى آخر يوم من أيامه في المدرسة ، فكان الطالب الوحيد البارز من بين الطلبة بطربوشه الأحمر القديم . أما أنا وعلي فقد لبسنا القبعة تلك لأننا لم نستطع أن نشذ عن الجماعة شذوذه .

وكان هذا الصديق الجريء يقضي أغلب أوقاته في منازعة الطلبة وتحديهم ، فكنت أنصحه راجياً منه أن ينصرف عنهم وعن منازعتهم الى التوفر على دروسه فما كان النصح يجدي

وكان يؤسفني أنه عُرف آخر الأمر بأنه شكِس سيئ الخلق ، وإن كان في الحقيقة طيب السريرة خيّراً . ولعلهم كانوا يعيبون عليه كرهه للبس القبعة « الأنورية » لغير ماسبب معقول . وكانوا يتخذونه وطربوشه القديم الذي أوشك أن يبلى هزواً ؛ وهذا ما كان يهيجه . ولم يزده عقاب المدرسة إياه على شغَبه إلا جرأة واستمراراً في الشغب والنزاع والخروج على « النظام »

وكما كان يكره القبعة ، كان يكره الحكومة — الاتحادية — أشدّ الكره ، لأنها حين اضطرمت نار الحرب جندت أخاه الكبير وأرسلته مع من أرسلت من أبناء العراق الى سوح الوغى في القوقاز ، ففقدت أسرته بذلك قوامها وسبب حياتها ، كان قائماً مقام أبيه الشيخ الكبير الذي لا يستطيع عملا ، وكان يحسب أنه لاحقٌ به في العاجل القريب

* ضاق نطاق هذا العدد عن الصور الرائعة التي يجلوها الأستاذ دريني خشبة من (صور هوميروس) فمعذرة إلى قرائها المعجبين بها . وسنوالى نشرها من العدد القادم

عَجَبي على باغٍ يقو ... لُ لمن بغى : هـذا حرام
اسـتَعْمَرُوا فتلثّموا ... وخرجتَ مكشوفَ اللثام
رمتَ التَّنَمُّرَ مثلهم ... فظهرت في ريش النّعام
شَرَرٌ بروما طار يو ... شِكُ أن يكون له ضِرام
الشعبُ هُدِّدَ بالطّوى ... والجيشُ بالموت الزؤام
يتساءل الأقوامُ هـل ... « نيرونُ » بعد الموت قام
زعزعتَ أركان السلا ... مِ فَذُقْ مرارة الانهزام

كوم حماده — محمود غنيم

وظاهر أن هذا المسلك الذى سلكه عبد العزيز يومئـذ كان يجب أن يؤدى إلى شر . وكان يجب أن يكون مصيره « الطرد » من المدرسة والحرمان من العلم . وكان متوقعاً كذلك أن ينالنى بعض الأذى من أجله ، فقد كان المدرسون والطلبة ـ إلا القليل منهم ـ يناوئوننا معاً ويكرهوننا ويعادوننا أشد عداء . .

واشتدت الحرب فى العراق . وطغى سيل الغزاة الفاتحين . غلب البريطانيون ، وأصبحوا على أبواب بغداد ، فتنكرت الأيام للناس ، وجندت الحكومة طلبة الصفوف العالية ، وأكبت على طلبة الصفوف التالية الأخرى تعلمهم كما تعلم الجند فنون الحرب والضرب وتقحمهم فى أشق الرياضات العسكرية لتلحقهم بهم . وهنا كان صحبنا الطلبة جميعاً — فى مدرستنا — جبناء ، يملأ قلوبهم الرعب والخوف

أما عبد العزيز فقد استيقظ فى نفسه من جراء ذلك شعور بغض المدرسة ، بغض للخروج مع الطلبة — على ما كانوا يفعلون فى كثير من الأحيان — إلى استقبال القواد وحضور الحفلات الحكومية ، بغض لمدرس الرياضة الذى أرسل الينا آنئذ من الجيش ، وهو ضابط فظ بدين ، ذو شاربين غليظين منتصبين كالصياصى ... وكان يخشاه

وكان ـ من بعد ـ حين يخرج من بيته صبحاً يتلكأ فى الذهاب الى المدرسة ، ويحاول أن يتمارض لكى ينقطع عنها أياماً قليلة أو كثيرة . كان يغادر البيت كل صبح ، وكأنه ـ كما كان يقول لى ـ يساق إلى سجن لا الى دار علم وعرفان

وجاءنا إذ ذاك مدير للمدرسة جديد . وهو رجل عنيد ، كان يحسبنا مجموع دُمى من الشمع يسهل عليه اذابتها ثم صنعها ثانية على الغرار الذى يريد . وكان أول من لفت نظره اليه من الطلبة : عبد العزيز ؛ فقد أثار سلوكه اهتمامه وعنايته ، وراح يرهبه ويعالج تأديبه وتهذيبه بالعصا . وأذكر أن طالباً من أبناء الضباط الذين جاءوا بغداد فى أواخر أيام الحرب من البلاد الشمالية ، سفهه ذات يوم ثم عيّره بالعامية والفقر ، فقابله بالصفع والضرب الموجع المهين ، فما كان نصيبه من المدير إلا الاهانة و « الطرد » . وبذلك أسدل الستار على حياته المدرسية ، وألجئ الى التشرد والعطلة ! وا أسفاه ! !

ولقيته بعد ذلك فألفيته جزعاً ، وقص على قصة النزاع بينه وبين ذلك الطالب ـ ولا أذكر اسمه الآن ـ قال :

« غادرت البيت صبحاً وأنا كئيب محزون ، لأن أمى التى لا تفتأ تذكر أخى الجندى ليلاً ونهاراً بالحسرات والدموع ، وأبى المقبل على آخرته غير آسف على شىء فى الدنيا ، وهو يحبه حباً جماً ، لم يصل اليهما كتاب منه منذ شهر وبعض شهر . فأفرغ ذلك صبرهما بل أفقدهما الرشد . وإذ كنت أمشى فى الشارع فاجأنى خمسة من الشُّرَطِ يعدون وراء رجل علمت من بعد أنه جندى هارب . وصرخ أحدهم قائلاً : « خائن : قف ! » ثم أطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم فأردوه . وسقط تعباً جريحاً يلهث وعيناه تنظران الى السماء . ووقفت على مقربة منه أنظر اليه فى لهفة وفَرَق ؛ وهو ملقىً وقد اصفرّ لونه وجللت وجهه سحابة من قَتَر الطريق ، وتشنجت أعصابه من الخوف ، وأقبل الشُّرَط يتراطنون يريدون أن يحملوه ... أعرضت عن هذا المشهد الذى آلمنى أشد إيلام وانصرفت صامتا ، ولحظت أن الشمس تملأ الأرجاء نوراً ، فعرفت أننى تأخرت عن موعد الدرس الأول . وكنت أمشى متباطئاً ذاهلاً ، فما انتبهت إلا وأنا على باب غرفة صفى ... طرقت الباب طرقاً خفيفاً مرة فمرتين وحاولت الدخول فجابهنى المعلم ناهراً إياى بقوله : « أخرج ، اخرج ، اندفع يا حمار ! » أو كنت حماراً فى اصطبل أبيه ؟ ! وكنت حتى حين خروج الطلبة من الصف إثر الفراغ من الدرس ثائراً مهتاجا ، فلقينى ذلك النذل فلاغانى فلكمته ، وماذا كان يجب على أن أفعل ؟ وسحقاً للمدرسة بعد أن ينالنى من هؤلاء فيها أذى ! »

* * *

وقال صديق ابراهيم وقد حدثنى بحديثه هـذا بعد انتهاء الحرب ومرور سبعة أعوام على نهايتها :

« ثم احتـل البريطانيون بغداد ، وفرقت صروف الزمن بيننا ـ بعد ذلك ـ إذ رحل بى أبى وأسرتنا كلها الى الحلة ، فأقمنا فيها قرابة سنين أربع ، فلما عدنا اليها لم أسمع لصاحبى عبد العزيز ذكرا »

— ٢ —

وكتبت هـذا الحديث لطرافته عام ١٩٢٩ . ثم مضت على ذلك أعوام ثلاثة ، فبدا لى يوما أن أسأل ابراهيم :

« هلا بحثت فى هذه المدة الطويلة الماضية عن رفيقك القديم ؟ رفيق المدرسة وطريدها عبد العزيز ؟ »

فأجابنى وهو شاعر بما يتضمنه سؤالى من ملامة :

« لقد بحثت عنه فى الأيام الأخيرة ، فبلغنى من أنبائه ، أنه كان هاجر قبل مدة غير محدودة بالضبط الى البصرة ، ليتكسب فيها ويعيش عاملاً لدى إحدى الشركات الأجنبية ، فانه أضحى فى عُنفوان شبابه ، وبلغ السن التى يستقل فيها المرء بالكفاح والجهاد فى سبيل الحياة ، وان أخاه الجندى المحارب لما يعد ، وهلكت أمه ومات أبوه فقيراً معدماً ، لم يترك له إلا ديونا وداراً ، بل كوخاً باعه الدائنون ؛ ولم يف ثمنه بعشر معشار تلك الديون . ولم يكن متعلماً حرفة ، ونسى ما تعلمه فى المدرسة العثمانية من مبادىء العلوم . وكان يزاول بعض الأعمال الشاقة التافهة التى يزاولها العمال الذين هم من أدنى الدرجات ؛ ولا يأخذون عليها أجراً يستحق ذكراً . هذا كل ما سمعته عنه . ولا يعلم أحد على التحقيق أذهب الى البصرة أم الى جهة أخرى »

قلت :

« أو لا ترى من واجب الوفاء إتمام البحث عنه لاستئناف الصلة به والوقوف بجانبه فى معترك الحياة ؛ فى هذا المجتمع الذى طغت فيه المادية والأنانية والفردية ، المجتمع الجائر القاسى الذى لا يرحم الفقير ، وأن تنفعه وتعينه على اكتساب الرزق ، فانك موسر بعض اليسر . »

قال :

« وهل تحسب عبد العزيز الشاغب فى المدرسة ، الذى لم يعرف سوى عزة النفس والأباء فى أيامه الماضية عُدة وخلُقاً ، والذى لم يستعن أحداً من صحبه يوماً لو وجدته الآن لمدّ لى ولأمثالى يده فى إبداء حاجة واستعانة مهما كان معسراً تنقض ظهره الشدة والفاقة ؟ كلا . أنا لا أحسب ذلك ؛ بل أحسب أن تلك الفترة من أيام مُراهقته وفاتحة شبابه ، كانت مقدمة وعنواناً لما كان مقبلاً عليه من أيام شبابه ورجولته »

ثم سكتَ وسكتُّ

وبعد شهرين أو ثلاثة أقبل علىّ يزورنى فى دارى ، وما عتم أن راح يحدثنى عن رفيق صباه عبد العزيز الذى عثر به آخر الأمر فقال :

« ولقد وجدته آخر الأمر وصافحته ... ولكن أين ؟ احزر أين وجدته ؟ فى السجن ! ولا تستغرب ؛ فقد ذهبتُ يوم الجمعة ـ أمس ـ الى هناك لأزور صديق الصحافى عبد الصمد الذى سجن متهماً بنشر ما لا تجيز الحكومة نشره ، وإذ كنت أدخل الحجرة التى يُسمح بمقابلة السجناء فيها ألفيتنى أمامه وجهاً لوجه . وكان يكلم زائراً غريباً يرتدى بزة العامة ، ربما كان صديقاً له . ولم أعرفه إلا بعد تأمل فيه قليل ، لأن سحنته قد غيرتها السنون ؛ وحييته فحيانى وبسم لى ، ثم سألنى : « أو قد نسيتنى يا ابراهيم يا حبيبى ؟ يا رفيق الأيام الحلوة التى لن تعود ! وهل نسيتنى علىّ كذلك ؟ وكيف هو ؟ .... الخ » ودمعت عيناه من شدة الفرح بلقياى ، وكان طليقاً جريئاً ، كما كان فى المدرسة ، فى محادثته السجانين وصاحبى الصحافى عبد الصمد الذى لم يكن يعرفه من قبل ، ورأيت أن لهجته فى الكلام أصبحت عامية سوقية خالصة ، تميزها التعابير والألفاظ التى تجرى — عادة — على ألسنة هؤلاء الذين عرفوا بفعال « الشقاوة » — كما نسميها — التى تظهر فيها ، فى أغلب الأحيان ، شجاعة نادرة فى غيرهم و « أريحية » ونجدة وكرم على فقر ، وجرأة فى اجترام الجرائم ، وكراهية شديدة لكل من يمت إلى الأجنبى الغاصب بصلة باقية من عهد الاحتلال المظلم ، على ما تعرف . ولا أدرى كيف أدركت أنه محكوم عليه بعقاب السجن لاجترامه جريمة قد لا يفخر المرء بها عندنا ، فلم أشأ أن أسأله عما أدى به الى حاله تلك . ومن الغريب أنه لم يكن يرى فى أمره غرابة ؛ وكأنه كان معلوماً عندى ما اجترم فلم يخبرنى به ؛ وسرعان ما راح يودعنى ، إذ كانت الفرصة المسموح بها لزيارة المسجونين ضيقة جداً ، متمنياً أن يلاقينى عقب خروجه من السجن ، و « أن يكون تحت النظر » على حد تعبيره الشعبى الرمزى الجميل ، « فانه لا يزال على وده القديم ، وذلك الصاحب الذى لا ينسى الصحب على طول الزمان ، ولا يرضى عن الوفاء بديلا » . وترك المجلس لى ولصاحبى منصرفاً عنا فى لباقة وحسن أدب ، كما ينصرف الواحد منا عن اثنين لديهما سر ، ولم يكن لدينا ـ فى الحقيقة ـ سر غير أمره . فاننى كنت فى أشد الشوق الى سماع قصته ، وبتعبير أصح : قصة جريمته من صاحبى عبد الصمد ؛ وقد أحجمت عن سؤاله عما أدخله السجن ساعة لقيته لكى لا أجرح منه شعوراً طالما كنت أقدره ، بل اقدسه فى أيامنا التى خلت ، فى أزهى زمان وأحلاه ، زمان الدرس والتحصيل . وقال لى

عبد الصمد : « هذا فتى باهر الخصال يا أخى ، ولا أرى فائدة فى أن أقص قصته عليك فى اسهاب وتفصيل ، فهو الآن مجرم محكوم عليه بالسجن ثلاث سنين لأنه جرح رجلاً من الأجانب ، كان يحترف عملاً فنياً لدى شركة أجنبية فى البصرة ؛ وكان عبد العزيز « يشتغل » هناك بيده كعامل لا شأن له ، ورئيسه ذلك الأجنبى ، على أنه كان شخصاً مخيفاً بين العمال ، خشن الطباع ، شرساً ، كذلك قالوا عنه . وليس فى حادثته التى طوحت به الى السجن ما يستغرب منه ومن أمثاله فى العراق اليوم ، فقد انتهره ذلك الأجنبى ذات يوم ، وشتمه وأهانه ، لأنه أخطأ فى عمله بعض الخطأ ، فما كان منه إلا أن قابل اهانته اياه بطعنة بمديته ، فجرحه ، ولم يصب منه مقتلاً . انتهت قصته . أما هو فما يزال يذكر الحادثة غير مكترث بما صار اليه من جرائها ، فهو يرى لها سبباً من أسباب التفاخر بالجرأة والشجاعة ، ولا سيما أن المجنى عليه أجنبى من بقايا الذين جاءوا فى الحرب فى « الحملة » على العراق ، وهو يقول لنا عنه فى سذاجة ويكرر قوله مرارا : « ليته كان من أبناء أمتنا أمثالى ، إذن والله لما جرحته ، لما جرحته » ، فانظر الى رقة شعوره وشدة كرهه للأجانب الذين أرهقوا البلاد فى الحرب الاستعمارية الكبرى وبعدها . . . . والعبرة ليست فيما حدثتك ، بل فيما أرى عند هذا العبد العزيز الذى لقبوه فى السجن بأبى جاسم كما يلقب العراقيون عادة فتيانهم ذوى « الأريحية » والنجدة والشجاعة ، مجرمين كانوا أو غير مجرمين ، من فلسفة القوة والأمل والتفاؤل والاستهزاء بصروف الحياة ، فاننى ـ وقد خصنى بصداقته وترحابه منذ أن دخلت السجن ـ قد أسفت على حالى كثيرا ، وطالما اسودت الدنيا فى وجهى يأساً وتشؤماً ، فلا أكاد أسمع نصائحه الساذجة فى ظاهرها ، وضحكاته ذات الرنين العالى ، وأغانيه الشعبية التى يرسلها من نفس زاخرة بالأحلام والآمال ، حتى تتفرجُ نفسى من اليأس ، وتبدد عنى سحب التشاؤم والأسى ؛ فوالله ما نفعتنى فى هذه الأيام العابسة الكتب وفلسفاتها المهذبة المصقولة ، بقدر ما نفعتنى نصائح وضحكات وأغانى هذا الصديق الجديد فى السجن ، بل فى مدرسة الرجال والأبطال ، على ما يسميه ؛ وأنا ناقل لقوله فما علىَّ من لوم ، فالناس تسمى السجن مدرسة المجرمين »

***

قال محدثى ابراهيم :

ثم زايلت السجن وكلى أسف على حياة صاحبى القديم ، التى أحسبها ضائعة بعد هذه الحال التى صار اليها ؛ وهذا ما كنت أتوقعه منذ طرد من المدرسة السلطانية العثمانية . تلكُ مقدمةٌ هذه نتيجتها ... وفى نيتى أن أزوره يوم الجمعة القادم »

قلت وأنا مصغ له فى غير أسف :

« ولكن عبد العزيز أبا جاسم ، وهو جدير بلقبه هذا ، كان شريفاً من قبل ، شريفاً من بعد ؛ ورب مجرم معذور ؛ فاما أنه كان فقيرا وسوف يغدو كما كان ، فما فى الفقر من عيب . وما ضاعت حياة من كان مثله إباء وعزة نفس .... »

العراق — الأعظمية محمود . أ . السيد

البريد الأدبي

تولستوي لمناسبة الاحتفال بذكرى وفاته

تحتفل روسيا السوفيتية خلال شهر ديسمبر باحياء ذكرى كاتب روسيا وفيلسوفها الأكبر ليون تولستوي ، وذلك لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاته . ولقد محت الثورة البلشفية كثيرا من معالم روسيا وذكرياتها وتقاليدها القديمة ، ولكن روسيا السوفيتية ما زالت تحرص على رعاية الآداب والعلوم والفنون ، وما زال هذا الحرص يتجلى فى كل موقف ومناسبة ، وذكرى تولستوي تتبوأ فى الأدب الروسي بل وفى الأدب العالمى أسمى مكانة ، وما زالت الثورة البلشفية تنحني اجلالا لذكرى هذا الذى رفع الأدب الروسي الى السماكين ، واتشح بنوع من القدسية تجمل ذكراه وتراثه فوق كل ثورة وكل انقلاب

توفى تولستوي منذ خمسة وعشرين عاما ، فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ ؛ وكان مولده سنة ١٨٢٨ فى قرية ياسينا بوليانا من أعمال مقاطعة تولا فى أسرة قديمـة عريقة فى النبل ؛ وتوفيت والدته وهو فى الثانية من عمره ، ثم توفى أبوه وهو فى التاسعة من عمره ؛ فكفلته واخوته إحدى عماته ، وتلقى معهم تربية خاصة على يد معلم فرنسى ؛ وفى سنة ١٨٤٣ أرسل الى جامعة قازان ليدرس فيها ؛ ولكنه لم يبد براعة خاصـــة فى الدرس ، فقضى بها حينا ، وغادرها ملولا ، وانكب على اللهو بضعة أعوام ؛ ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره انتظم فى سلك الجيش فى قسم المدفعية وأرسل الى القوقاز ، واشترك فى حرب القرم تحت إمرة البرنس جورنشا كوف ، وقاتل فى موقعة سلستريا سـنة ١٨٥٤ ، وفى موقعة سباستبول سنة ١٨٥٥ . وكان تولستوي قد ظهر فى عالم الأدب قبل ذلك ببضعة أعوام ، فكتب فى بعض المجلات الكبرى ، وكتب كتبه الثلاثة الأولى وهى « الطفولة » (سنة ١٨٥٢) ثم « الحداثة » (سنة ١٨٥٣) ثم « الشباب » . كتبها فى القوقاز قبل أن ينزح الى ميدان الحرب ، ووصف فيها طفولته وحداثته وشبابه فى صورة مؤثرة . وفى أثناء الحرب ، وتحت قصف المدافع كتب تولستوي عدة صور وقطع حربية قوية أسماها « قصص سباستبول » وفيها ظهرت روعة مواهبه الأدبيـة ، فطارت شهرته وكان بدء مجده الخالد . وفى « قصص سباستبول » تبدو شخصية تولستوي قوية ، ويبدو اجلاله للحقيقة والشمائل الانسانية والحب الأخوى ؛ ويبـدو مقته لكل مظاهر الطغيان والعنف . ولما انتهت الحرب عاد الى بطرسبرج تسبقه شهرته ، واتصل فيها بكل مجتمع رفيع وشخصية بارزة ؛ واتصل بأقطاب الكتابة والأدب ، ولاسيما تورجنيف وجوتشاروف وتكراسوف ، وتوثقت علائقه بتورجنيف مدى حين ، ولكنهما لم تلبث أن فترت لاختلافهما فى كثير من الآراء والمبادىء . ذلك أن تولستوي كان ثورى المبدأ والعقيدة ، يحرر العبيد فى ضيعته ، ويغدق العطاء للفقراء ؛ ولكنه كان فى أعماق نفسه « انفراديا » وكان بعيدا عن الحركة الاشتراكية التى كانت تجرف روسيا يومئذ ويتزعمها جناح قوى من الكتاب والأدباء . هذا إلى أن تولستوي كان عبد الحقيقة يصورها فى تفكيره وفى كتابته ؛ بينما كان أولئك الكتاب يكتبون غير ما يعتقدون ، ويفعلون غير مايقولون . وقد كانت كتب تولستوي صورة صادقة لشخصه ومبادئه ، وكل ما فيها مستمد من حياته ومن نفسه ؛ وهذا ما يقرره تولستوي نفسه فى بعض كتاباته إذ يقول : « إن الحقيقة هى بطلة مؤلفاتى ، وهى دائما نفثة روحى وكل جوارحى »

وفى سـنة ١٨٦٢ تزوج تولستوي من صوفيا بيرس ؛ ولم يمض قليل على هذه الحياة الهادئة حتى كتب تولستوي أعظم كتبه قصة « الحرب والسلام » وظهرت لأول مرة سنة ١٨٦٩ ثم كتب قصته الخالدة « حنه كارنينا » وظهرت سنة ١٨٧٧ ؛ وفى هـذين الكتابين يصل تولستوي الى ذروة قوته وروعته . وفى القصـة الأولى أعنى « الحرب والسلام » يصف تولستوي حوادث الغزوة النابوليونية لروسيا ؛ ومما يلفت النظر أنه يصف

فيها والدته فى شخص الأميرة مارى . وقد رأينا أن تولستوى فقد والدته وهو فى الثانية ، ولكنه مع ذلك يؤكد لنا أنها تركت فى ذهنه صورة قوية وأنه احتفظ فى ذهنه الفتى بكثير من ذكرياتها وصورها . وأما قصة حنا كارنينا ، وهى فيما يرى النقدة أعظم كتب تولستوى ، فهى القصة الخالدة لزواج نكد ، وما يترتب على مثل هذا الزواج من المحن ؛ وهى القصة الخالدة لزواج عادى وما يحيط به من العوامل والظروف . هى قصة فتاة تزوجت فى سن العشرين رجلا يكبرها بعشرين عاما ، وعاشت معه ردحاً من الزمن أمينة مخلصة ؛ ولكنها فى الثلاثين اضطرمت بفورة من الهوى فأحبت ضابطا فتى جميلا واستسلمت اليه ؛ ولما ارتاب زوجها فى الأمر اعترفت له لأول وهلة ؛ وأدرك الزوج بعد التفكير أنه يحمل تبعة هذه الجناية ، لأنه جنى على امرأة شابة فتزوجها وهو ليس أهلاً لحبها ، وكأنه اختلسها اختلاسا وارتكب بذلك جرما يعاقب عليه ؛ وعلى ذلك فقد شعر أنه يستحق ما أصابه ، وترك زوجه الفتية (حنه) وفارقها ، وعاش بلا أسرة . ولكن هل كانت حنه سعيدة بهذه الحرية ؟ كلا ، فقد شعرت هى الأخرى بإثمها ؛ وسرعان ما دب الفتور الى حبيبها ، وأضحت تشعر أنها غدت عبئا ثقيلا عليه ، وهكذا حطمت حياتها . وأما العاشق (فرونسكى) فقد كان فتى جم العبث والأهواء ، وكان يهوى حنه هوى الفورة والساعة ؛ ولكنه شعر أنه أثم أيضا وأن إثمه يوجب عليه أن يبقى إلى جانب تلك التى حطم حياتها ففر معها الى الخارج وقضى بذلك على مستقبل زاهر كان فى انتظاره ، ثم كانت خاتمة المأساة ذات يوم فى حلبة السباق إذ سقط المحب القديم من فوق ظهر جواد كان يمتطيه فقتل لساعته .

تلك هى الفلسفة الانسانية الرائعة التى يبسطها لنا تولستوى فى أعظم كتبه. وفى سنة ١٨٨٠ نشر تولستوى كتابه « اعترافى » وفيه يبسط لنا آراءه ونظرياته الدينية . وفى هذا الميدان كما فى غيره يبدو تولستوى فى صور مختلفة متناقضة ، فبينا نراه الرجل المؤمن العريق فى الايمان إذا بنا نراه ملحدا منكرا ، وإذا بنا نراه وثنيا وطائفيا . وكتب تولستوى بعد ذلك عدة كتب ورسائل أخرى يغلب عليها طابع التصوف ، منها « ايفان اليتش » و « الكورتيس سوناتا » و « مملكة الله فى قلبك » و « ما هو الدين » . وساح تولستوى فى ألمانيا وسويسرا وغيرهما وكتب صور سياحته فى كتابين : أحدهما يسمى « لوسرن » والآخر « مذكرات نخليودو » وغدا تولستوى فى كهولته فيلسوفا ومصلحا اجتماعياً يحرر عبيد ضيعته ، ويقسم أرضه بين الفلاحين ويعنى بتربيتهم وإرشادهم ، ويغيث البؤساء والمنكوبين ؛ ومن أثر ذلك أنه نزل عن أملاكه لزوجه وأولاده ، وحاول أن يعيش عيشة الزهد والتقشف مثل ما يعيش أفقر أبناء الريف . وكان ذلك سببا فى تنغيص حياته العائلية ، وفى تسميم علائقه بزوجته . ولما شعر فى أواخر حياته أنه غدا بين أسرته كالغريب المنبوذ ، فر من منزله سرا . وكان قد تبوأ ذروة مجده منذ أعوام طويلة وغدا يكتنفه نوع من القداسة ، وكان قد أشرف على نهاية حياته الحافلة فتوفى بعد ذلك بقليل فى بلدة استابوفو فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ ، واختفت بذلك شخصية من أعظم شخصيات الأدب الحديث

وكان تولستوى شاعراً وفيلسوفاً وناقداً وفناناً ، وكانت حياته كلها حياة كفاح واضطراب ، ولكنها متناقضات مدهشة ؛ فمن ارستوقراطية عريقة ، الى ديمقراطية ساذجة ؛ ومن إيمان مؤثر إلى إلحاد مطبق ؛ ومن شغف بالنساء إلى احتقار لهن ؛ ومن إنسانية فياضة إلى أنانية عميقة . بيد أن تولستوى كان يسمو بروحه ومشاعره إلى أنبل ما يمكن أن تسمو اليه النفس الانسانية ؛ وقد كان لفلسفته وكتبه أثر عميق فى تطور المشاعر الروسية ، وفى تكوين النفس الروسية الحديثة

وقد بلغت مؤلفات تولستوى فى الطبعة الروسية زهاء مائة مجلد ، وترجمت إلى كثير من اللغات الحية ؛ وترجم له كثيرون من أكابر الكتاب فى مختلف الأمم

رسالة ملوكية ضخمة

من أنباء استانبول الأخيرة أن السلطات المختصة قد وجدت فى محفوظات متحف الدولة رسالة ملوكية ضخمة من الورق المشمع وطولها تسعة أمتار وعرضها سبعة ؛ وظهر من البحث أنها رسالة أرسلها شاه الفرس فى القرن السادس عشر الى السلطان سليمان الأكبر . وقد تقرر أن تعرض لأنظار الجمهور

موت زعيم كريم ، ابراهيم بك هنانو

وا أسفاه ! ! فى الساعة التى اشتبهت فيها معالم السياسة فى سورية ، فتدسست الأمانى الخوادع إلى الشعب ، وتفرقت السبل الجوامع بالزعامة ، يغيب القطب الهادى ، ويُهدَم المنار الدالُّ ، ويخبو الضرام المذكى ، ويخفت الصوت المجمّع ، ويموت الزعيم هنانو ؟ ! رُوِّعت سورية من شمالها إلى جنوبها بنعى هذا الزعيم الكريم ، ونالها من خطبه ما غلب على الصبر ومنع من القرار ، فهبت كلها تندبه وترثيه ، وتبكى بطالها وأملها ودليلها فيه . والحق أن الفقيد العظيم كان مثلاً نادراً فى الزعامة البريئة الجريئة المخلصة : كان صلباً فى الرأى على قدر إيمانه ، ومتمرداً على الباطل على سواء حقه ، ومهيمناً على الشعب بقوة نفسه ونبل غرضه . جرد على الواغل الدخيل جيشاً من الوطنية الصابرة والحمية الثائرة والعروبة الغضبى ، ثم صمد له بالعدد القليل بعد سقوط دمشق سنة كاملة لم يلن لمغمز ولم ينكل عن خطة ، حتى آل أمره إلى فلسطين فسلمته حكومتها إلى فرنسا نحو كم وبرى ؛ ومن ذلك اليوم كان معقد آمال السوريين يفزعون إليه فى المعضلات ، ويستنيرون برأيه فى المشكلات ، وينضوون إلى رايته فى المواقع . كان رحمه الله على خلق الزعماء أولى العزم والرسالة : نظر إلى أمته نظر الحكيم المصلح فألف بين قلوبها ووفق بين ميولها وقرب بين عقائدها ، ثم دافع عن مرافقها دفاع المؤمن النزيه ، فلم يسف إلى دنىء المطامع ، ولم يفتتن بمظاهر الجاه ، ولم يطامح إلى عزة السلطة ، وإنما ظل جنديا يقود ، ومحاميا يذود ، وخطيبا يرأب بلسانه صدوع الفرقة ، حتى أضناه الجهاد المستمر ، وأقعده المرض الخامس ، فكان زعيما بالفكرة ، قائداً بالمبدأ ، مرشداً بالقدوة . ثم قبضه الله إليه فأحدث ذلك الفراغ المخيف ، وهز أمته تلك الهزة العنيفة ، لأن الزعماء الذين يصوغهم الله على هذا الطراز يكونون فى النهضات الاجتماعية من أممهم مكان السماط من حبات العقد ، ينظمون وحدتها ، ويجمعون كلمها ، ويمسكون نظامها ، ويعقدون أمانيها ؛ فاذا قطعت المنون ذلك الخيط ذهب العقد بَدَادِ ما لم يكن له من الله ناظم وعاصم — سقى الله بصيب الرحمة ثراه ، وعزى فيه الأمة العربية خير العزاء

الاحتفال بالجاحظ

فى السنة القادمة (١٣٥٥ هـ) يتم أحد عشر قرنا لوفاة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ؛ ويا حبذا لو تقدم علماء العراق وأدباؤه الى الاحتفال بذكراه فى مدينة البصرة ، واشتركت الأقطار العربية كلها بتمديد مناقب أعظم رجل جمع بين علوم الدين والدنيا فى الاسلام .

محمد كرد على

جوائز نوبل

ذكرنا فى العدد الماضى أن جائزة نوبل للطب والفسلجة قد منحت عن هذا العام الى العلامة الألمانى الدكتور هنز شبيمان من أساتذة كلية فريبورج . ونضيف اليوم أن جائزة نوبل للكيمياء قد منحت للأستاذ چوليو الفرنسى من أساتذة جامعة باريس ولزوجته السيدة كورى چوليو ، وهى ابنة مدام كورى الكيميائية البارعة التى اشتهرت بمباحثها واكتشافاتها فى الراديوم وخواصه . ومنحت جائزة نوبل للطبيعيات للأستاذ چيمس سادويك الانكليزى ومن أساتذة جامعة كمبردج اعترافا بفضله فى اكتشاف « النوترون » . وقيمة كل جائزة من هذه الجوائز الشهيرة كما أسلفنا سبعمائة ألف فرنك (نحو تسعة آلاف جنيه)

وأما جائزة نوبل عن الآداب فلم يتقرر منحها هذا العام ، وتقرر أن يعاد النظر فى أمر منحها فى العام القادم . وقد سبق أن عطل منح هذه الجائزة زهاء خمس عشرة سنة من ١٩٠١ الى سنة ١٩١٤ ، ثم استؤنف منحها بعد ذلك

النقد

١ - تاريخ الاسلام السياسى

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

بعض مآخذ تاريخية

لأستاذ كبير

الدكتور حسن ابراهيم حسن من الشبان المصريين الذين يحملون فى مادة التاريخ الاسلامى طائفة غير قليلة من الألقاب العلمية الضخمة ما بين مصرية وأجنبية ، ثم هو قد زاول تدريس التاريخ الاسلامى فى الجامعتين المصرية والأزهرية سنين طوالاً أخرج فيها من الآثار المؤلفة والمترجمة شيئاً كثيراً ؛ وقد طلع على الناس فى هذه الأيام بسفر ضخم فى تاريخ الاسلام السياسى تناول الكلام فيه على عصر الجاهلية ، وعصر النبوة ، وعصر الخلفاء الأربعة ، وعصر بني أمية

تلقاء هذه الألقاب الضخمة ، والخبرة الواسعة ؛ وتلقاء جلال العصر الاسلامى القديم ، استشرفت نفسى لمطالعة كتاب الدكتور الأخير منذ علمت بظهوره ؛ ولم أكد أصل إلى نسخة منه حتى عكفت على قراءته ؛ وقد قرأته من أوله إلى آخره . وإنى مع اعترافى بالمجهود الكبير الذى أنفقه الدكتور فى كتابه ، قد تبين لى فى الكتاب من السقط والزلل ما لا يحسن السكوت عليه ، لذلك عمدت إلى نشر ما تيسر لى نشره من الاستدراك خدمة لمادة ناشئة فى معاهدنا العلمية ، هى مادة التاريخ الاسلامى ، واستحثاثاً للمؤلف على تدارك أمره فى مادة هو متخصص فيها ، وضناً بما لمصر من حسن السمعة العلمية فى الأقطار الشرقية أن يتطرق اليه ضعف أو وهن . وإنى قاصر كلمتى اليوم على إيراد شيء من مآخذ الكتاب التاريخية تاركاً بقية المآخذ لكلمات أخرى أنشرها تباعاً على صفحات « الرسالة » الغراء

***

يطلق المؤلف فى ص ٣٤ كلمة « أقيال » على ملوك العرب وساداتهم ، مع أن هذا اللقب خاص بملوك اليمن أو من دونهم من أمراء المخاليف اليمنية

يقول المؤلف فى ص ٣٦ : «وكان للعرب نظام ثابت للزواج : فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى أمر زواجهن . وينبغى ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هـذه الطريقة » ولو قصر المؤلف هذه الحال على الحجاز لاستقام قوله ؛ أما وهو يعمم الحكم فكلامه لا يطابق الواقع ؛ والدليل على ذلك حديث البخارى المنسوب إلى عائشة ، والذى يبين الأنحاء الأربعة للأنكحة فى الجاهلية (البخارى جـ ٧ ص ١٥)

يذكر المؤلف فى ص ٤٥ أخذاً بظاهر الرواية العربية ، أن الفرس كانوا زاهدين فى ملك اليمن ؛ والصحيح الثابت أنهم كانوا حراصاً عليـه ليحدوا من نفوذ خصومهم الروم والأحباش فى تلك البلاد

يقول المؤلف فى ص ٤٥ فى وصف وهرز قائد الحملة الفارسية على اليمن : « ويصفه المؤرخون ـ ومنهم المستشرق نولدكه ـ بأنه قد بلغ من الكبر عتياً لدرجة أن جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر » والوارد فى الروايات أن حاجبيه هما اللذان كانا قد سقطا على عينيه لكبره فكان يعصب له حاجباه ليحسن الابصار (الطبرى جـ ٢ ص ١١٩)

يقول فى ص ٥٨ « ويستفاد من أخبار العرب أن بنى جفنة استولوا على سورية » ، ولو استبدل « بادية الشام » بسورية لاستقام قوله

يقول المؤلف فى ص ٦١ — ٦٢ « وكان لكل قبيلة رئيس منهم حسب نظام القبيلة المسمى Patriarchal State الذى كان مألوفاً لدى العرب فى جاهليتهم ، وكان لهذا النظام مثيل بجزيرة قرسقة

(كورسيكا) » واستعمال لفظ أجنبي لنظام عربي لا محل له هنا كما أن التنظير بين بلاد العرب وبين قورشقة خاصة يبدو غريباً ونابياً فى هذا المقام

يزعم المؤلف فى ص ٦٣ أن الحجاز « ظل محافظاً على استقلاله أيام الاسكندر المقدونى الذى صده العرب حين أغار على ملك الفرس » فمتى ، وأين ، وكيف صد العرب الاسكندر المقدونى يا دكتور ؟ لاشك أنك إن فصلت ما أجملت فى عبارتك تكشف عن ناحية خطيرة مجهولة من تاريخ الفاتح المقدونى الكبير

يقول المؤلف فى ص ٦٨ فى سياق كلامه على قريش « واتخذوا جزءا من الأرض المجاورة أولوه احترامهم ، واعتبروه مقدسا ، وبنوا به بيتاً حراماً لايحل فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته » وهذا كلام يضر قائله ولا ينفعه ، وإنى أنصح للدكتور أن يبادر الى التبرؤ منه وإلقاء تبعته على قائله الأصلى . فالدكتور لا شك يعرف أن إبراهيم الخليل هو البانى للكعبة ، وأن قريشاً كانت تحتمى بالبيت والحرم ، بدلا من أن تحميهما ، بدليل قوله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » (سورة العنكبوت)

يقول المؤلف فى ص ٨٧ فى صدد الكلام على الحنيفية ببلاد العرب : « ويطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون » وهنا أيضاً أنصح للمؤلف أن يبرأ من هذا القول فليس معنى التحنف « التوبة والاعتراف »

ويقول فى ص ٩٧ بعد أن يورد أسماء السابقين الأولين الى الاسلام : « وقد سموا السابقين الأولين كما سمى من أسلم بعدهم بالمستضعفين » وظاهر أن ليس التأخر فى الاسلام هو السبب فى وصف المستضعفين بالاستضعاف إنما السبب فى ذلك أمر آخر يعرفه من يقرأ الجزء الأول من سيرة ابن هشام بشىء من الروية والتفكير

ويقول فى ص ١٢٩ ـ ١٣٠ : « ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين فى نفوس أصدقائه وأتباعه ويحثهم على الخضوع والاذعان لارادة الله ، ومن ثم سمى هذا الدين بالاسلام لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لارادة الله تعالى . والذين يدينون به يسمون المسلمين ، أى الذين يخضعون لأمر الله ورسوله » وعلى فرض صحة هذا القول ماذا كان يسمى الاسلام والمسلمون قبل بناء المسجد وطوال العصر المكى ؟

ويقول فى ص ١٣١ : « وأحل (الاسلام) الدعوة الدينية محل الوحدة القومية » ثم يقول بعد : « وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد فى تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية » والظاهر أن المؤلف ينقل هنا عن أصل أجنبى ، وأن المراد بالوحدة القومية والجنس هنا اعاهو « القبيلة »

ويقول فى ص ١٣٤ : « فقد تزوج (الرسول) ... صفية بنت حُيَيّ سيد بنى النضير ليتم له إسلام قومها ، لا لتأثير جمالها كما يقولون فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك » وهذا الكلام إن دل على شىء فانما يدل على قلة الاطلاع الصحيح وعلى سذاجة التفكير وإلا فهل كان الرسول لا يزال يطمع فى إسلام اليهود بعد الذى جرى بينه وبينهم من الأحداث الجسام بالمدينة وخيبر ؟ ثم متى كان التأثر البرىء بالجمال دليلاً على نزول النفس وعدم سموها ؟

ويقول المؤلف فى صفحة ١٥٤ : « سرية بنى الرجيع » ويعيد ذلك القول فى هامش صفحة ١٧٤ ظنا منه أن هناك قبيلة تسمى (بنى الرجيع) والواقع أنه انما يريد « بنى لحيان » الذين كان لهم ماء يسمى (الرجيع) وقعت عنده الحادثة المعروفة فى كتب السيرة

ويقول فى صفحة ١٧٠ : « وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم (اليهود) كانت أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها » ولو عكس المعنى فقال : « كانت أحزم وأشد » لكان كلامه منطبقا على الواقع من غير نزاع

ويقول فى صفحة ١٨٣ فى صدد الكلام على غزوة الطائف : « وأقام الرسول على حصارهم (ثقيف) حتى إذا دنا شهر ذى القعدة وهو من الأشهر الحرم فك الحصار عنهم ليرجع اليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم » ومع أن الأشهر الحرم لا تمنع من مباشرة القتال فى الاسلام فان الرسول لما رأى أن الحرب طالت بينه وبين ثقيف علم أنه لم يؤذن له فيها وأمر ذلك الى أبى بكر وعمر ثم ارتحل عن الطائف تاركا أمر اسلامها للزمن . وقد صحت فراسته فقد جاءه وفد ثقيف باسلامها فى رمضان سنة ٩ ه

ويسمى المؤلف فى صفحة ٢١١ نابليون بـ « الفتى الطليانى » وذلك تعبير لا يليق صدوره ممن يتخصص فى التاريخ

فى صفحة ٢٤٠ ـ ٢٤١ يزعم المؤلف أن القصيدة التى مطلعها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

قالها قائلها فى رثاء عمه ، والصحيح الثابت من سياق القصيدة نفسها أنهـا قيلت فى رثاء خال الناظم لا عمه وذلك بدليل قول الشاعر :

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل

والظاهر أن المؤلف شغل بنقل شرح التبريزى على القصيدة عن تفهمها وتبين من قيلت فيه

ويقول فى صفحة ٢٤٧ فى كلامه على أبى بكر الصديق : « وكنى بأبى بكر لمبـادرته الى الاسلام » ولست أدرى ما الذى أبقاه المؤلف بعد هذا القول لجهلة المبشرين ومتعسفى المستشرقين ؟

ويقول فى ص ٢٧٨ : « لقد رحب الفرس بالعرب حبا فى الخلاص من ظلم الحـكام أولا ورغبة فى معافاتهم من الخـدمة العسكرية ثانياً . . » وهو كلام بعيد عن الواقع بعـد السماء عن الأرض

يظهر المؤلف فى هامش ص ٢٩٥ ضجره من اضطراب تاريخ فتح العرب الشام ويقول « وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع لأن ذلك ليس من شأننا » فهل ترى يادكتور أن من شأنك أن تنقل شرح التبريزى على قصيدة تأبط شرا ، وأن ليس من شأنك أن ترتب وقائع فتح العرب للشام ؟

ويقول فى ص ٣١٠ عند كلامه على فتح عمرو الاسكندرية : « وهزم الروم براً وبحراً » وقد أخطأ هنا من وجهين . فان عمرا أو غيره من العرب لم يهزم الروم براً وبحراً عند الاسكندرية ، وإنما استولى عليها بمعاهدة بابليون التى تمت بينه وبين المقوقس (أنظر كتاب فتح العرب مصر لبطلر) ثم كيف استطاع عمرو أن يهزم الروم بحراً ؟ هل كان معه أسطول يا ترى ؟

يزعم المؤلف فى صفحة ٣١٤ أن المؤرخين لم يجزموا برأى فى أمر حريق مكتبة الاسكندرية . والصحيح أنهم فعلوا . فقد جزم بطلر بأن العرب لم يحرقوها ، وجزم جورجى زيدان فى تاريخه بأنهم أحرقوها

يقول فى ص ٣٣٠ ضمن كلامه على عثمان بن عفان : « وكان يصوم الدهر » ، والعقل الناقد يرفض هذا القول وإن كان وارداً فى كتاب قديم . هـذا فوق ماورد فى الأثر من النهى عن صوم الدهر

يقول فى ص ٣٤١ أن عثمان ترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون ، وتلك دعوى لا يقوم على صحتها دليل

يقول فى ص ٣٥٣ أن قتلة عثمان ضربوا عنقه وأن بعضهم قطع بالسيف أصبع نائلة زوج عثمان ، والخليفة المظلوم قتل دون أن يضرب عنقه ، وأن أصابع يد نائلة أطنت بالسيف لا أصبع واحدة

يقول فى ص ٣٦٥ : « ولما توفى عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون الشورى الذى سنه عمر » وعمر لم يسن قانوناً للشورى وإنما عين ستة نفر يختار المسلمون من بينهم خليفتهم

فى ص ٣٩٨ يتابع المؤلف المستشرق الانجليزى نيكلسن فى قوله فى انتصار معاوية فى أمر الخلافة : « اعتبر المسلمون انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للارستقراطية الوثنية التى ناصبت الرسول وأصحابه العداء » والأمر هنا ليس أمر وثنية وإسـلام إنما هو أمر أحزاب سياسـية تتنافس فى الحـكم وفاز بعضها فى النهاية

وهو يتابع فى ص ٤٢٥ السـيد أمير على فى قوله فى وقعة الحرة « ولا غرو فقد حول جند الشام المسجد الجامع الى اصطبل لخيولهم وهدموا الحرم والأماكن المقدسة لسلب ما فيها من أثاث ومتاع » وهذا كله غير ثابت

يقول فى ص ٥٠٧ عند كلامه على المرجئة : « وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب هذا المذهب المشهور الذى لا يزال باقياً الى اليوم » واتهام الامام الأعظم بالارجاء أمر قديم وقد كفانا مؤنة تفنيده السلطان أبو المظفر عيسى الأيوبى فى رده على الخطيب البغدادى

(يتبع) مؤرخ



3 me Année, No. 127.

Lundi 9-12-1935

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

فى الجمـــال ...

— ٤ —

ذلك إجمال القول فى الفن الصناعى المرتجَل ؛ أما الفن الصناعى المنقول فالسر فيه أن يبعث فى ذهنك فكرتين : فكرة عن الطبيعة المقلَّدة ، وفكرة عن الفنان المقلِّد . فتماثيل فِدْياس ، وصور رفائيل ، تجمع بين الجمالين : جمالِ المثال فى أصله ، وجمالِ الفن فى تقليده . كذلك فى وصف مغرب الشمس لابن الرومى تجد الاعجاب الناشئ عن القوة والوفرة والذكاء موزعا بين الصورة الناطقة التى أبدعتها الطبيعة ، وبين المحاكاة الصادقة التى أخرجتها القريحة

***

إن روعة الجمال الطبيعى آتية من ناحية الحرية فى الطبيعة ؛ وحرية الطبيعة هى قانونها العام ، لاتقوم عظمتها إلا به ، ولا تتجلى فخامتها إلا فيه ؛ فالغيضة اللَّفّاء أجل مظهراً فى النفس من الحديقة المنمنمة ، وشلالات النيل أجمل منظراً فى العين من النوافير المنظمة ؛ لأن الجمال المطلق يملأ خيالك بالتأمل الحالم ، وذهنك بالتفكير الرفيع ، وشعورك بالطرب الباسط ؛ ومظنة العبودية فى الحى

أو فى الجماد تضيف إليه معنى من الحقارة والقبح يحطه ويشوهه . ولكن الجمال الصناعى لابد أن يتقيد بالقواعد ويتحدد بالأصول ؛ فاذا لم يكن الفنان من البراعة بحيث يخفى تلك القيود ، ويحجب هذه الحدود ، ويظهر السمة الدالة على الطبع المرسل والالهام الحر ، همدت فى فنه الحياة ، وخبا فى جماله السحر ، وضاقت فى عمله الفكرة

ليس الجمال فى الفن المعنوى أو الحسى أن تحاكى الطبيعة محاكاة الصدى ، وتمثلها تمثيل المرآة ، وتنقلها نقل الآلة ؛ تلك هى التبعية التى تنفى الذكاء ، والعبودية التى تسلب القوة ؛ إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة ؛ وإنما براعة الفنان أن يزيد فى ترتيب صورها بالذكاء ، وفى تنويع تفاصيلها بالوفرة ، وفى توجيه مقاصدها بالعظمة ، وفى بيان تعبيرها بالحياة ، وفى سلطان تأثيرها بالقوة ، وفى حقيقة وقائعها بالسحر الموهم والوشى الخادع

انظر إلى تعاجيب الطبيعة وتهاويل الفلك ، من العواصف والصواعق والبراكين ، تجدها فى ذاتها جليلة رائعة ، ولكنك تجدها فى فن الشعراء والمصورين والمثالين أجل وأروع . لقد وضعوا فيها شهوات النفوس ، وسلطوا عليها تصادم الأهواء ، وصوروها للأذهان فى عالم من الآلهة الكَمَلَة فى قواها المختلفة ، تتنافس فى العجائب ، وتتصارع بالأهوال ، وتتفانى على اللذة . وسحر الفن الاغريقى فى صمته وفى نطقه قائم على تجميل الظواهر المروعة فى الطبيعة ، بالنوازع المتضاربة فى النفس

ومن المعلوم فى بدائه العقل أن يكون ما يقلده الفنان فى الطبيعة حقيقاً بالتقليد ، حتى يمكن الجمع بين جمال الشئ فى أصله ، وبين جماله فى نقله ؛ فالمصور الذى يرسم وضعاً من أوضاع الرأس ، أو معنى من معانى الوجه ، أو لوناً من ألوان الحياة ، يكون أسمى فى الفن من المصور الذى يتحامل على براعته حتى يصور أرنبا تكاد من دقة التقليد أن تلحظ وثبته وتعد وبره . والشاعر الذى يصف عاطفة من عواطف القلب ، أو ظاهرة من ظواهر الكون ، يكون أبلغ فى فنه من الشاعر الذى يجهد قريحته فى وصف حادثة من هَنَوات الحوادث لا تقوم فى ذاتها على فائدة ولا لذة

قد يكون الشىء المنقول فى حقيقته قبيحا ، ولكن صدق التعبير عنه ، ودقة التصوير فيه ، والتماس المنفعة منه ، تجعل تقليده جميلا ، كالوجه الشتيم يرسمه المصور المبدع بريشته ، والخلق الذميم يصوره الشاعر المفلق بقلمه ؛ والملهاة المسرحية موضوعها رذائل الناس ونقائص المجتمع ، ولكنها ارتفعت إلى أوج الفن الجميل بتحليلها العميق ، وتصويرها الدقيق ، وغايتها النبيلة . كذلك الحوادث المؤلمة والمناظر المحزنة والمواقف المؤثرة ليس فيها من الجمال شىء . ولكن استبطان الفنان لدخيلة البائس ، وتصويره الفاجعة ماثلة مثول الواقع ، وإعانته الحقيقة على التأثير بالجمل النفاذة ، والصور الأخاذة ، والظلال الرهيبة ، يجعل تقليدها من أجمل الأشياء ، ويضع المأساة من الفن موضع الواسطة من العقد

فأنت ترى أن التقليد لا يثير الاعجاب فى نفسك ، ولا يُشيع اللذة فى شعورك ، إلا باعتماده على الفن ؛ والفن لا يتحقق جماله إلا بالعظمة فى عمله ، والسعة فى وسائله ، والحكمة فى غايته : فاذا قلدت أصوات الطبيعة من غير تأليف ولا تنسيق ولا معنى ، وأقمت شلالا من الماء والحجر تضارع به شلال أسوان ، وسردت بالكلام الموزون حادثة عادية من حوادث اليوم ، أخطأك الفن وانزوى عنك الجمال ؛ لأنك صغرت الطبيعة ، وحقرت الواقع ، وتعلقت بالتافه ، واستعنت بالمادة ، من غير قوة ولا ثروة ولا علة . ولو أنك رحت تستقرى مفاتن الجمال فى الطبيعة ، أو فى الفن ، أو فى الأثر الذى ينشأ من ائتلاف الطبيعة والفن ، لما وجدتها فى غير ما يعلن القوة والوفرة والذكاء مجتمعة أو متفرقة

ولعلك واجد ما يدعم هذه الفكرة عن الجمال فى قول (شيشرون) : « إن الطبيعة أبدعت الأشياء على صورة تجعل ما يكون منها جمّ المنفعة يكون كذلك جليل المكانة موفور الجمال . إن جلالة هذا المعبد نتيجة لازمة لمنفعته ؛ فلو أنك تخيلت (الكابتول)[1] قائماً فى السماء على هام السحب ، لما وجدت له جلالا فى نفسك ما لم يكن قيامه هناك علة لسقوط المطر »

وهل المنفعة التى أرادها شيشرون فى صنع الطبيعة وفى نتاج الفن إلا الذكاء الذى أردناه فى الجمال وقصدنا به حكمة الغرض وانتظام الخطة ؟

احمد حسن الزيات

(١) الكابتول معبد وقلعة أقيما على هضبة من هضاب روما السبع

٣ ـ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وكنا فى النَّدىِّ ثلاثةً : أنا وا . ش وس . ع ؛ وقد هيَّأت تدبيراً توافَقْنا عليه لتحريك هذين المجنونين وتدوين ما يجىء منهما . فلما أقبلا تحفَّينا بهما وألطَفْناهما ، وقمنا ثلاثتنا ببسطهما وإكرامهما ، حتى حسبا أن فى كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة . . . . . ورأيتُ فى عينىْ « نابغة القرن العشرين » ـ وهو أعينُ أنجلُ[1] ـ ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أنثى أعشقها أنا .... فكان مُسَدَّدا فكِهَ اللسانِ تُستَمْلَحُ له النادرةُ وتُستظرفُ منه الحركة

ولما تمكن منه الغرور واحتاج الجنونُ كما يحتاج الجمالُ إلى كبريائه إذا حاطته الأعيُن ـ أدار بصره فى المكان ثم قال : أفٍّ لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندىّ فى ضوضائه ورعاعِه وغوغائه . إن هؤلاء إلا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة . هذا الجالسُ هناك . هذا الواقف هنالك . هذا المسْتَوْفِز . هذان المتقابلان . هؤلاء المتجمّعون . هذا كله خيالُ حقيقة فى رأسى . ما هى ؟ ما هى ؟

هذا التصايحُ المنكَر . هذا الضرب بحجارة النّرد . هذه الزحمةُ التى انغمسنا فيها . هذا المكان الهائج من حولنا . هذا كله خيال حقيقة فى رأسى . هى ، هى ، هى

فانزعج المجنون الآخر ، ووَقع فى تَهاويل خياله . ونظر الينا تدورُ عيناه ، وتوجّس شرا ، ثم زاغ بصره الى الباب ، واستوْفزَ وجمع نفسَه للقيام ؛ فلما رأى صاحبُه ما نزل به ، قَهْقَهَ وأمعن فى الضحك وقال : إنما خوَّفتُــه الصبيانَ والضرب ليثبت لكم أنه مجنون . . .

فَحَردَ الآخرُ واغتاظ وجعل يُتمتم بينه وبين نفسه .

قال « النابغة » ما كلامٌ تَطنّ به طنينَ الذبابة أيها الخبيث ؟

قال : « مما حفظناه » أن من علامات الأحمق أنه إذا استُنْطق تَجلَّفَ ، وإذا بكى خار ، وإذا ضحك نَهَقَ . . . كما فعلت أنت الساعةَ تقول هاء ، هوء ، هى . . .

فتغير وجه « النابغة » ، ونظر اليه نظرةً منكَرة ، وهمَّ أن يقتحم عليه وقال : أيها المجنون . لماذا تضطرنى إلى أن أجيبك جواب مجنون . . . لا نجوت إن نجوتَ منى

فأسرع ا . ش . وأمسك به واعترض من دونه س . ع .

وقال له : أنت بدأتَه والبادىء أظلم

قال : ولكن ويحه كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف لم يجد إلا هذا يقوله ؟ أنابغة القرن العشرين أحمق ، وقد أوْحــدَهُ الله فى القرن العشرين ؟ لهمَمْتُ واللهِ أن أكسرَ الذى فيه عيناه فما يقول إلا أنى أحمق القرن العشرين

***

قلتُ : إن كان هذا هو الذى أغضبك منه ، ففى الحديث الشريف : ليس من أحدٍ إلا وفيه حَمْقَةٌ ، فَبها يعيش . والحياة نفسها حماقة منظَّمة تنظيما عاقلا ؛ وما يُقبِل الانسان على شىء من لذاتها إلا وهو مقبلٌ على شىء من حماقاته ؛ وأمتعُ اللذة ما طاش فيه العقل وخرج من قانونه ؛ ولولا هــذا الحمق فى طبيعة الانسان لما احتمل طبيعةَ الحياة . أليس يُخيَّل اليك أن أكثرك غائب عن الدنيا وأقلك حاضرٌ فيها ، وأن يقظتك الحقيقية إنما هى فى الحلُم وما يشبه الحلُم ، كأنك خُلقتَ فى كوكب وهبطتَ الى كوكبنا هذا ، فما فيك له ولا فيه لك إلا القليلُ يلتئم بعضُه ببعضه ، وأكثركما متَنافر أو متناقِض أو متراجع ؟

قال : بلى

قلت : فهذا القليل هو الحَمْقَةُ التى بها تعيش ، وهو أرضيَّةُ الأرض فيـــك . أما سماويةُ السماء فبعيدةٌ لا تحتملها طبيعة الأرض . ولهذا يعيشُ أهلِ الحقيقة عيشَ المجانين فى رأى المغرورين الذين غرّتهم الحياة الفانية ، أو المخدوعين الذين خدعتهم الظواهر الكاذبة ؛ فكلما أتوا عملاً من الأعمال السامية انتهى إلى الحمق معكوساً أو محوّلاً أو معدولاً به . ولعل هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديث الشريف : أكثر أهلِ الجنة البُله

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » . أكثر أهل الجنة البُله

فقال (النابغة) : المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت . ألا

---

(١) أى واسع العين أنجلها ، وقد مر وصفه فى المقالة الأولى

فلتعلم أنك من بُلَهَاء البيمارستان لا من بُلْه الجنة

قال : ثم إن الموت لا بد آتٍ على الناس جميعاً فيسلبهم كل ما نالوه من الدنيا ويُلحقُ من نال بمن لم ينل ؛ فمنذا الذى يُسرُّ بأن ينال مالا يبقى له إلا أن يكون سروره من حماقته ؛ ومنذ الذى يحزن على أن يفوته مالا يبقى له إلا أن يكون حزنه حماقةً أخرى ؟ وأى شىء فى الحب بعد أن ينقضى الحبُّ إلا أنه كان حماقةً ضَرَبت فى الحواس كلها حتى ملأت النفس ؛ ثم ملأت النفس حتى فاضت على الزمن . ثم فاضت على الزمن حتى خبَّلت العاشق تخبيلاً لذيذاً تصغر فيه الأشياء وتكبر ويجمل الواقع فى النفس غير الواقع فى دنياها ؟ يُشبِّه كلُّ عاشقٍ حبيبته بالقمر : فهب القمر سمع هذا وفهمه وعَناه أن يجيب عنه ، فماذا عساه يقول إلا أن يعجب من هذا الحمق فى هذا التشبيه ؟

***

فهدأ (النابغـة) وسكن غضبُه وقال : صدقت ولهـذا أنا لا أشبه حبيبتى بالقمر .

قلت : فبماذا تشبّهها ؟

قال : لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبّه أنت حبيبتك .

قلت : وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر

قال : فبماذا تشبهها ؟ قلت : حتى أعلم بماذا تشبه أنت ...

قال : هذا لا يُرضى منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ولك حبائبُ كثيراتٌ عدد كتبك ، وقد أعجبتنى منهن تلك التى فى (أوراق الورد) وأظنك أحببتها فى شهر مايو من سنة ... من سنة ...

قال المجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ هأنذا قد نبهتك

قال : ياويلك ! إن (أوراق الورد) ظهرت من بضع سنين ، إنما أنت من بُلهاءَ البيمارستان لا من بُله أوراق الورد ... ماذا كنت أقولُ ؟

قال ا . ش . كنت تقول : هـذا لا يرضى منك ولك حبائب كثيرات .

قال : نعم لأنك إذا شبهت واحدة منهن بالقمر انتهى القمر وفرغ التشـبيه فيظل الأخْرَيَات بلا قمر ... ثم إن كلمة القمر لا تعجبنى ، فلونها أدكنُ مُغبرٌّ (١) يضرب أحياناً الى السـواد ...

(١) الدكنة لون بين الحمرة والسواد

فاذا عشقتُ زنجيـةً فههنا محلُّ التشبيه بالقمر ... أما البيضُ الرعابيب فتشبيههن بالقمر من فساد الذوق

قال س . ع : وللألفاظ ألوانٌ عندك ؟

قال : لو كنتَ نابغة لأبصرتَ فى داخلك أخْيِلةً من الجنة . ألم يقل أستاذُنا آنفاً عن (نابغة القرن العشرين) إنه هبط من كوكب الى كوكب ؟ فنى كوكبنا الأول يكون لنا سَمْعٌ ملوَّن وحِسٌ ملوَّن ، نسمع قرع الطبل أزرق ، ونفخ البوق أحمر ، ورنين النغم الحلو أخضر (١) ، والوجودُ كله صور ملونةٌ سواءٌ منه ما يُرى وما يُحس وما هو مستخفٍ وما هو ظاهر

ثم أومأ إلى المجنون الآخر وقال : واسمُ هـذا الأبله كلفظ الحبر لا أسمعُهُ إلا أسود ...

***

وسكت « النابغة » وسكتنا ؛ فقال له س . ع . مالك لا تتكلم ؟ قال : لأنى أريد السكوت . قال : فلماذا تريد السكوت ؟ قال : لأنى لا أريد أن أتكلم ...

وتحرك فى نفسه الغيظ من المجنون الآخر فرمى بعينه الفضاء ينظر اللاشىء وقال : إذا أصبح كلُّ النساء ذواتِ لحى أصبح هذا عاقلاً ... فدقَّ الآخر برجله دقاتٍ ممدودة ؛ فثار (النابغة) وقال : من هذا يشتمنى ؟

قال س . ع . لم يشتمك أحد ، هذا خَفْقُ رِجلٍ على الأرض .

قال : بل شتمنى هذا الخبيث وسمى لا يَكْذِبنى أبداً ، وأنا رجل ظَنُونٌ أسىء الظن بكلٍّ أحد ، وعلامةُ الحازم العاقل سوء ظنه بالناس . فهبه كما قلت قد خَفَق بنعله أو خبط برجله فهو يعلم ما يعنى من ذلك وأنا أسمع مايعنيه . لقد طفح الشعرُ على قلبى فلا بد لى من هجائه ، ولا بد أن أذبحه ولو بالـكلام ، فانى إذا هجوته رأيتُ دمه فى كلماتى ، وأريد أن أجمله كالمعز التى كانت عندنا وذبحناها

ثم انتزع قلم س . ع . وقال : هـذه هى السكين . ولـكن أسألك يا أستاذى أن تذبحه أنت بكلمتين وتصفَ له جنونه فقد

(١) هذا واقع وليس من الخيال فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة ؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات فهو يصبغها بلونه . أفادنا هذه الفائدة دكتورنا محمد الرافعى

عَزَب عني الشعر . إن خفقة رجل على الأرض تستطير الأرانب فزعاً فينفرن إلى أجحارهن ويتهارين ، وما كانت أبيات الشعر فى ذهنى إلا أرانب . . .

أنتم لا تعرفون أن من كان حصيفاً نبيهاً مثلى كان دقيق الحس ، ومن كان فدماً غبياً مثل هذا كان بليد الحس غليظاً كثيفاً . فاذا أنا استشعرت البرد رأيتني قد سافرت الى القطب الشمالى ؛ أما هذا المجنون فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عباءته أو لحافه . . . . إذ هو لا يعرف جغرافيا ولا يدرى ما طحاها

قلت : هذا منك أظرف من نادرة أبى الحارث . قال : وما نادرة أبى الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأتى بخوان عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفه قبلهما ، والرشيد ملك عظيم لا يأكل أكل الجائع وإنما هو التشعيث من هنا وهناك . فكان رغيفه لا يزال باقياً . فصاح أبو الحارث فجأة : ياغلام ، فرسى . ففزع الرشيد وقال : ويلك مالك ؟ قال : أريد أن أركب الى هذا الرغيف الذى بين يديك . .

قال (النابغة) : ولكن فرقاً بين أبى الحارث وبين (نابغة القرن العشرين) ، فان من العجائب أنى ربما نظرت الى الرجل وهو يأكل فأجد الشبع حتى كأنه يأكل ببطنى لا ببطنه . ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لى أبداً حين أكون جائعاً

أما هذا المجنون الذى أمامنا فربما أبصر الحمار على ظهره الحمل فيشعر كأن الحمل على ظهره هو لا على ظهر الحمار . .

قال الآخر : « مما حفظناه » أنه سرق لأعرابى حمار ، فقيل أسرق حمارك ؟ قال نعم وأحمد الله . فقيل له على ماذا تحمده ؟ قال على أنى لم أكن عليه حين سرق . . فأنا إذا رأيت حمارا مثقل الظهر حمدت الله على أن الحمل لم يكن علىّ ، لا كما يقول هذا . ثم دق برجله دقات . .

فاستشاط (النابغة) وقال : أسمعتم كيف يقول إنى مجنون ، ثم لا يكتفى بهذا بل يقول إنى حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغى أن تتكافأ وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك ، فان من تواضع النوابغ أن يشعروا ببؤس الحيوان ، فاذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له ، فاذا دخلتهم الرقة صار خيال الحمل حملا على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك . حكى الجاحظ عن ثمامة قال : كان (نابغة) يأتى ساقية لنا سحراً فلا يزال يمشى مع دابتها ذاهباً وراجعاً فى شدة الحر أيام الحر ، وفى البرد أيام البرد ، فاذا أمسى توضأ وقال : اللهم اجعل لنا من هذا الهم فرجاً ومخرجاً ؛ فكان كذلك إلى أن مات

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » ثمرة الدنيا السرور ولا سرور للعقلاء ، فلو لم يكن هذا أعقل العقلاء لما محق سروره فى الدنيا هذا المحق الى أن مات غماً رحمه الله

* * *

قال س . ع . فاعف الآن عن صاحبك ولا تذبحه بالهجاء

قال : لقد ذكرتنى من نسيان ، وهذا المجنون يرى نسيانى من مرض عقلى ، وكان الوجه لو تهدّى الى الحقيقة أن يراه شذوذا فى العقل أى نبوغا عظيما كنبوغ ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يعرف فى كم من الزمن تسلق البيضة ؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة ثم نسى نسيان النبوغ فألقى الساعة فى الماء على النار ، وثبتت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هى الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنونا كما يزعمنى ، فان المجانين يرون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التى يعملونها

وأنا فليس يهيجنى شىء ما يهيجنى كلمات ثلاث : أن يقال لى مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رغب فى صحبتى فليتجنب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر . . .

قال ا . ش . فاذا قيل لك مثلا . مثلا . أى على التمثيل : مغفل . . .

فحك رأسه قليلا وقال : لا ، هذه ليست من قدرى (1) . . .

قلت : فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقائق ، كذلك القرن الذى قطع فرد البقرة فرساً ؟

قال وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً ، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده . فقيل له ما هذا ؟ قال فرس اشتريته . قالوا : ياماثق هذه بقرة أما ترى قرنيها ؟

فرجع الى منزله فقطع قرنيها ثم قادها اليهم وقال لهم : قد أعدتها فرساً كما تريدون . . .

قال (النابغة) هذا غير بعيد ، فقد رأيتنا حين ذبحنا العنز

(١) نص عبارته (دى مش أدى) . . .

وكسرنا قرنها أعدناها كابة سوداء ، فتقذرتها وعفنت لحمها ولم أطعم منها

ثم أومأ الى الآخر وقال : هذا لا يدرى ما نطحاها ، وهو مثل العنز تحسب قرنها للقتال والنطاح ومنهما تمسك للذبح .

فقل فى هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين)

قال الآخر : أيرضيك أن أقول فى المعنى لا فيك أنت ... ؟

قال نعم ، فكتبت هذه الأبيات على ما يريد النابغة :

قل لعنز ناطحاها لقتال سلحاها
مالها قد طرحاها فى يدين ذبحاها

***

شيمة منى نحاها عقل غر فلحاها
ليس يدرى ماطحاها بل يرى شمس ضحاها
حجرا مثل رحاها ويرى الليل محاها
ظلما طالت لحاها

***

وسر (النابغة) وازدهى وجعل يقول طالت لحاها ، طالت لحاها ؛ وما كان هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر فمجىء ساعى (البريد المستعجل) الى الندى وفى يده رسالة عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان بندى كذا

وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فتطاولت أعناق الناس ورفعوا أبصارهم ينظرون الى (نابغة القرن العشرين) وقد مد يده يتناول الرسالة وكأنه ملك من القدماء أسقط له كتاب بالفتح العظيم وبضم دولة الى دولته

ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضها ونحن فى دهشة من أمره ؛ فنظر فيها المجنون الآخر وقال له : هذا عجيب يا أخى كيف هذا ؟ إن هذا لا يصدق . إنك لم تلقها فى صندوق البريد إلا منذ ساعة ... ...

(لها بقية) مصطفى صادق الرافعى

المبشرون : كتب الينا فاضل يذكر بعض سخافات المبشرين نقلها من أحد كتبهم وسألنا الرد عليهم فأبلغ الرد على هؤلاء تجنبهم وإهمال كل ما يكتبون إذ هم مصابون بجنون الفكرة الدينية ؛ ومثلهم فى كل ما يكتبونه عن الاسلام مثل رجل أمريكى (نابغة) ... يريد أن يقيم لك البرهان على أن الجمل العربى إنما هو مصنوع فى مصانع فورد .... الرافعى

٢ — الصقالبة فى الرواية العربية وفى الدولة الأندلسية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٣ —

ونلاحظ أنه بينما كان نفوذ الصقالبة يقوى ويشتد فى بلاط قرطبة وفى الدولة الأموية فى الأندلس ، إذا بنفوذ الصقالبة يغزو بلاطا إسلاميا آخر ودولة إسلامية أخرى هى الدولة الفاطمية ؛ ومما يدعو إلى التأمل أن يزدهر النفوذ الصقلبى فى البلاط الفاطمى فى نفس العصر ، أعنى فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وفى ظروف مماثلة ؛ وقد قامت الدولة الفاطمية فى المغرب بمؤازرة القبائل المغربية القوية ، واستأثر زعماؤها مدى حين بمناصب الثقة والنفوذ ؛ ولكن تطوراً وقع فى السياسة الفاطمية ؛ ومنذ عهد المعز لدين الله يغزو نفوذ الصقالبة البلاط الفاطمى ويغالب نفوذ المغاربة ؛ وقد كان جوهر الصقلى أعظم أعوان المعز وكبير قادته من أصل صقلبى ، وكان له فى الدولة وفى الجيش أعظم نفوذ ؛ وفى عهد العزيز سما نفوذ الصقالبة وساد فى القصر وفى الوزارة ؛ وبلغ ذروة قوته فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الذى تولى الملك صبياً وتولى الوصاية عليه صقلبى هو برجوان ؛ وفى عهد وصايته القصير سيطر الصقالبة على القصر والدولة ، واستأثر بمناصب النفوذ والحكم نفر من الفتيان الصقالبة مثل يانس وميسور ويمن وغيرهم ؛ ولكن الحاكم لم يلبث أن تخلص من هذا النفوذ الخطر بمقتل برجوان ونكبة الفتيان الصقالبة ، وبذلك انهار نفوذ الصقالبة فى البلاط الفاطمى [1]

وكان ذلك فى أواسط القرن الرابع وفى أواخره حيث كان يزدهر نفوذ الصقالبة فى بلاط قرطبة فى عهد الناصر حسبما بينا ، ثم فى عهد ولده الحكم المستنصر من بعده . ولما توفى الناصر كان نفوذ الصقالبة أشد ما يكون بسطة فى القصر وفى الحكومة ؛ وكان فتيان القصر الصقالبة وهم المعروفون بالخلفاء الأكابر أول من أخذ البيعة

(١ المقريزى (مصر) ج ٣ ص ١٧ و ١٨ و ج ٤ ص ٦٨

للحكم المستنصر ؛ وكان حاجب الحكم ، جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي أقوى وأعظم رجل فى الدولة[1] ؛ وكان الحرس الخلافى المكون من الفتيان الصقالبة سياج البيعة الخلافية وأبرز مظاهرها ؛ وكان من وزراء الحكم أيضاً زياد ومحمد ابنا أفلح الصقلبي صاحب الخيل فى عهد الناصر[2] ؛ وفى عهد الحكم غدا الحرس الخلافى كل شيء فى القصر ، وغدا عصمة الخلافة والخليفة يسهر على سلامة عرشه وشخصه ، ويحميه من المؤامرات والدسائس الخارجية ؛ وكان أولئك الجند الصقالبة يعتدون بقوتهم وسلطانهم ويمرحون فى العاصمة ويسيئون أحياناً إلى أهلها ، وكان الحكم يخشى بأسهم ويغضى عن تصرفهم وسوء سلوكهم[3] ؛ وكان عدد الحرس الخاص من الفتيان الصقالبة يبلغ زهاء الف ، بيد أنهم كانوا يتمتعون بوفرة فى الوجاهة والثراء ، ويملكون الضياع الشاسعة ، ويسيطرون على كثير من الأتباع والحاشية[4]

وهكذا أصبح الحرس الخلافى أو الفتيان الصقالبة فى بلاط قرطبة أصحاب الحول والقوة ، وغدوا عاملا يحسب العرش حسابه ، بل غدوا قبل بعيد حكماً فى مسألة العرش وولاية العهد ، مثلما غدا الحرس التركى فى بلاط بغداد . ولما توفى الحكم (سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٧٦ م) كان الصقالبة هم سادة الموقف وأصحاب الكلمة فى ولاية العرش والخلافة . وكانت زعامتهم بيد فائق النظامى صاحب البرد والطراز ، وجوذر صاحب الصاغة والبيازرة ، واليهما كان أيضاً أمر الغلمان الفحول خارج القصر . وكان رأى الصقالبة أن يصرف النظر عن تولية ولى العهد هشام بن الحكم ، وهو يومئذ غلام فى نحو الحادية عشرة حتى لا يفقدوا نفوذهم فى ظل وصاية جديدة ، وأن يولى الخلافة أخو الحكم المغيرة بن عبد الرحمن الناصر فيكون لهم بذلك فضل يمكنهم من توطيد نفوذهم وسلطانهم عليه ؛ ولكن الحاجب جعفرا المصحفى أدرك مايضمره الصقالبة من وراء هذا المشروع ولم يقرهم على ائتمارهم بولى العهد ؛ ونظم البيعة لهشام ولى العهد بمعاونة الوزير محمد بن أبى عامر ؛ ودبر الاثنان مقتل المغيرة بن الناصر خشية مناوأته ، وتولى ابن أبى عامر تنفيذ الجريمة ، وبذا استقر هشام المؤيد فى العرش الخلافى ، وانهار مشروع الصقالبة ؛ ودبت الوحشة على أثر ذلك بين الصقالبة والحاجب جعفر ، فأخذ يتحين الفرصة لسحقهم ؛ وكان ابن أبى عامر يستميل الصقالبة ويداريهم بادئ ذى بدء حتى تمكن نفوذه فى القصر وفى الجيش ؛ وعنـــدئذ اتفق مع الحاجب على نكبة الصقالبة وتشريدهم ، ولم يدخر فى ذلك وسيلة ظاهرة أو مستترة حتى شرد زعماؤهم واستصفيت أموالهم وأخمدت شوكتهم ، ونفى زعيمهم فائق إلى الجزائر الشرقية (جزائر البليار)[1] ، وفى ذلك يقول شاعر معاصر هو سعيد الشنتريني :

أخرج من قصر امام الهدى ... كل فتى منبسط جائر
فمن رأينا منهم قال لا ... مساس قبل الناس بالشاكر
نخف ظهر الملك المرتضى ... قد خف من ثقلهم الظاهر
وسال ماء العلم من وجهه ... مذ مال عن حبلهم الخائر
فلازم الميدان فى قصره ... مع الوزير الخير الطاهر

ولما سما أمر ابن أبى عامر وسحق كل خصومه ومنافسيه واستبد بالسلطة ، رأى أن يتخذ من البربر بطانة له وخولا وأن يستعين بهم على العرب ، فقدمهم فى الحكومة والجيش ، وعمل على تمزيق القبائل العربية ؛ وكانت العصبية العربية قد اضمحلت منذ بعيد ، فلم تلق تلك السياسة الجديدة معارضة تذكر ؛ وهكذا احتل البربر مكان الصقالبة فى الالتفاف حول السلطة العليا والتمتع برعايتها ، بيد أن الصقالبة لم يفقدوا كل نفوذ بعد ، فقد استمر عدد كبير منهم يشغل وظائف الخاص بالقصر ؛ ولما أنشأ ابن أبى عامر حاضرته المعروفة بالزاهرة ، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور ، عاد إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ منهم إلى جانب البربر حاشية وبطانة ؛ وحشد منهم كثيراً فى الجيش[2] ؛ والظاهر أن هذه الطائفة أعنى الصقالبة كانت تتمتع بصفات وخلال خاصة تجعلها أداة لينة صالحة فى يد السياسة القوية الحازمة ، وإذا كان الصقالبة قد بدوا فى أحيان كثيرة خطرا على الدولة والعرش فقد كان ذلك من أثر السياسة التى تمد لهم فى السلطة وتسمح لهم باستغلالها ، وتغضى عن صلفهم وتمردهم ؛ وقد

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٠ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٨
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ — ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٤
(٣) Dozy ; ibid II P. 255
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٧

(١) البيان المغرب ص ٢٨٠ و ٢٨١ ـ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ ـ Dozy ; ibid ; II 207
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨

كانت هذه حال الصقالبة فى عهد الحكم المستنصر وحين وفاته ، فقد بلغ من سلطانهم ونفوذهم أن اعتزموا التصرف فى أمر العرش طبق أهوائهم ، ولولا أن سحقتهم يد ابن أبى عامر القوية لاستمر سلطانهم المطلق . بيد أن ابن أبى عامر لم يجد بأسا بعد أن أخمد شوكتهم وشرد زعماءهم من أن يستخدمهم أداة لتنفيذ إرادته ، بل لم يجد بأسا من أن يرفع بعضهم الى أسمى المناصب ، كما حدث فى شأن مولاه الفتى واضح الصقلبي ، فقد منحه حكم الولايات الجنوبية وولاه قيادة الجيش الذى بعثه لمحاربة أقوى وأخطر خصومه زيرى بن عطية البربرى حاكم المغرب الأقصى ؛ وقد كان لواضح هذا وعصبته الصقالبة شأن عظيم فيما تلا من الحوادث والخطوب

— ٤ —

ولم يستطع الصقالبة فى ظل حكومة المنصور القوية أن يتدخلوا فى شؤون الدولة أو يؤثروا فى سيرها وتوجيهها ؛ فلما توفى الحاجب المنصور (٣٩٣ هـ - ١٠٠٢ م) ، وانهارت الدولة العامرية بعدئذ بقليل ، رأى الصقالبة الفرصة سانحة للعمل ، فانضموا إلى الحزب الأموى الذى عمل لاسقاط الدولة العامرية وسحق البربر الذين آزروها ومكنوا لها ؛ ولما ظفر محمد بن هشام زعيم هـذا الحزب ببغيته واستولى على قرطبة وتلقب بالمهدى ، انضم اليه الفتى واضح وعصبته الصقالبة واتخذ واضحا لحجابته وانضم فريق آخر من الصقالبة بزعامة خيران العامرى وزميله عنبر إلى سليمان المستعين خصيم المهدى ومنافسه ، وجرت بين الفريقين مواقع جمة ، واستتب الأمر للمهدى ؛ ولكن الصقالبة لم يخلدوا إلى السكينة ورأوا صالحهم فى إبعاد المهدى عن العرش ، فتفاهم الصقالبة من الحزبين وائتمر واضح وخيران بالمهدى فقتله الصقالبة فى الحمام (سنة ٤٠٠ هـ) وأخرج واضح الخليفة المؤيد هشام المحجور عليه ، وكان سجينا بالقصر منذ أيام المنصور ، وأجلسه على العرش ؛ وتولى واضح حجابته ، واستأثر بكل رأى وسلطة ؛ وقبض على ناصية الأمور فى قرطبة مدى حين ؛ ولكن سليمان المستعين لم يلبث أن هاجم قرطبة فى جموعه البربر ثم دخلها رغم كل ما اتخذه له واضح من الأهبة لمقاومته ، وفتك جنده بالسكان أيما فتك ، واقتحموا مدينة الزهراء وخربوها (٤٠١ هـ) ؛ فعندئذ رأى واضح السلامة فى خيانة المؤيد واللحاق بالمستعين ؛ ولكن الجند الصقالبة وقفوا على نيته فى الوقت المناسب فقتلوه ؛ واستمر الصقالبة فى الدفاع عن قرطبة وعن المؤيد وعرشه ، والمستعين يحاول استمالتهم عبثا ، واضطرمت الحرب بين الفريقين مدى حين ، وانتهت باستيلاء سليمان على قرطبة فى مناظر هائلة من السفك والعيث (٤٠٣ هـ) وانهار سلطان الصقالبة بانهيار عرش المؤيد ؛ وبدأ سلطان البربر ، واستأثروا بحكم الثغور والنواحى ، وانتثر عقد الخلافة وانقسمت الأندلس الى دويلات وإمارات صغيرة ، وبدأ عهد الطوائف

بيد أن الصقالبة لم ينسحبوا نهائيا من الميدان ، ولم يختفوا نهائيا كعامل يؤثر فى سير الحوادث فقد اجتمع فلهم حول زعيم منهم ، من صنائع الدولة العامرية ، هو خيران العامرى ؛ واستقر خيران بعصبته ومن لحق به من خصوم المستعين والبربر إلى المرية بعد أن استخلصها من يد البربر ؛ وفى الوقت نفسه عبر على بن حمود حاكم سبتة فى جيش من البربر الى الأندلس محاولا أن يشق له خلال الاضطراب طريقا ، وتفاهم مع خيران العامرى والصقالبة وتحالفا على محاربة المستعين ، ثم زحفا بجموعهما على قرطبة ، ونشبت بين الفريقين حرب رائعة هزم فيها سليمان وأسر ثم قتل مع أفراد أسرته ؛ وجلس على بن حمود على العرش وتلقب بالمتوكل (٤٠٧ هـ) . ولجأ فى الحال الى سياسة الأرهاب والشدة ، ولم يترك أى مجال أو سلطة للصقالبة ، فسخط عليه خيران وتركه ، وأظهر الخلاف عليه . وأثار المتوكل ببطشه وشدته زعماء العرب ، واشتدت عليه النقمة ، ولم يلبث أن قتله الصقالبة فى الحمام (أواخر سنة ٤٠٧ هـ) وبذلك استطاعوا أن يؤثروا فى سير الحوادث كرة أخرى

ولما توفى المتوكل خلفه أخوه القاسم بن حمود وتلقب بالمأمون ، وعدل عن سياسة الشدة إلى اللين والمسالمة ، واستمال خيران العامرى الذى استعصم بالمرية ، وأقطع زميله زهيرا العامرى ولاية جيان ؛ وكانت الحوادث تتطور بسرعة ، وكان الخلاف يضطرم فيما بين آل حمود ؛ فانتهز الزعماء العرب تلك الفرصة وتفاهموا مع الصقالبة ضد آل حمود والبربر ، واستخلصوا قرطبة من يد المتغلبين عليها ؛ بيد أن نجم الصقالبة كان بدأ بالأفول ، ولم يكن يستطع يومئذ إلا غرارا ؛ وكانت دولتهم قد انهارت فى الواقع وتفرقوا بين مختلف الصفوف والأحزاب ؛ وكانت آخر مظاهر سلطتهم أن تولوا الحجابة لادريس بن حمود الذى استقر فى مالقة وتلقب بالمتأيد بالله ، فتولى حجابته نجا الصقلبي مدى حين ، ولكن دون عصبية ظاهرة

وكان هـذا آخر العهد بتدخل الصقالبة فى سير الحوادث الأندلسـية بصورة بارزة . ومن ذلك الحين يختفون من ميـدان الشؤون الأندلسية كقوة فعالةلها أثرها الحاسم فى توجيه الحوادث ، ومن ذلك الحين يبزغ نجم البربر ؛ وتتحول المعركة الداخليـة الى نضـال مزدوج ، نضال ملوك الطوائف فيما بين أنفسهم ، ثم نضالهم ضد العدو المشترك أعنى أسبانيا النصرانية ؛ ثم يجىء دور البربر فى السـيادة المطلقة بسرعة ، فتنهار دول الطوائف الصغيرة تحت ضرباتهم القوية ، وتسقط الأندلس فى يد المرابطين ثم يفتتحها الموحدون ، فتستمر سيادة البربر عصراً آخر ؛ ثم تنهض مملـكة غرناطة فى تلك الغمار والخطوب المصيبة فتسطع فى الأندلس حتى يحل الصراع الأخير .

تم البحث

محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

مذاهب الفلسفة

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

للأستاذ زكى نجيب محمود

لقد لبثت الفلسفة دهراً طويلا تسبح فى سماء الفكر المجرد ، فلا تصغى بآذانها الى الحياة العملية التى تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً . ولا تحفل بالواقع الذى تراه الأبصـار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها ـ فى الأعم الأغلب ـ على جوهر الأشياء فى ذاتها ، وأخذت تسائل: ما المـادة وما الروح وما مبعثهما ؟ ولـكنها باءت بعـد طول الـكدح والعناء بالفشل والإفلاس ... حتى جاء الفكر الأمريكى الحديث الذى يقدس العمل ويمقت البحث النظرى المجدب العقيم ، وأراد أن ينحو بالفـكر نحوا جديداً ، فلا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقـد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) الذى اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة . وأنّ له فضل الصياغة والتعبير . أما رسالته التى قصد إلى أدائها بمذهبه فهى فى أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولا ، ثم على السير بالحياة نحو السمو والـكمال ثانيا

إنه لمن الغفلة والشطط أن نُؤتى هذه القوة العقلية فنبددها فى البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غنـاء فيه للانسان ولا رجاء ؛ إن العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها ، فلينصرف الى أداء واجبه ، وليضرب فى معمعان الحياة العملية الواقعة ، فليست مهمته أن يصور ويشـبه عالم الغيب المجهول ، الذى لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الاسباب ، وليكن مقياسه الذى يفصل به بين الحق والبـاطل هو مقدرة الفكرة المعينة على إنجاز أغراض الانسان فى حياته العملية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، ذلك الذى تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته . وكل شيء يؤثر فى الحياة تأثيرا منتجا يجب أن يكون فى اعتبارنا هو

الحقيقة ، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يُعَوِّل مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها ؛ فان كان الرأى مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وهماً باطلا

والواقع أن معظم النـاس يتبعون فى حياتهم العملية أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء مايعين على تحقيق أغراضهم التى يقصـدون اليها ، أو ما يعمل على رقى الانسانية وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة فى الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعـد عن متناول الدهماء) ولـكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث فى حياة الناس روحا قوية ، وتفسح أمامهم فى الأمل الجميل الذى تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذى لولاه لضقنا ذرعاً بفداحة عبئها . . فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها فى أداء مهمته ؛ فسلوكنا العملىّ هو فى الواقع الذى يوجه أفكارنا ، وليست أفكارنا هى التى توجه أعمـالنا . ولقد قال موسولينى يوماً إنه يدين لوليـام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتكم فى سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى انتاجا

وإن نيتشه ليذهب فى هذا الاتجاه إلى أقصاه ، فيقرر أن الباطل إذا كان وسـيلة ناجحة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأى لا يمنع قبوله مادام عاملا من عوامل بقـاء الفرد وحفظ النوع ؛ فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة إلى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية فى رأس الجندى فيطوح بنفسه بين براثن الموت ، ولو حكم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود فى سبيل أبنائهم ، ولو استرشـدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأى بذل أو عطاء ، ولـكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة ، فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة ، ولولا ذلك لظلت الانسانية فى حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير

ولا يقتصر الأمر فى ذلك على عامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التى تعين على المضى فى بحثهم ، دون أن ينهض الدليل العقلى على صحة تلك الآراء التى اتخذوها أساساً لأبحاثهم ، فلا يدرى العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الـكهرباء ، ولـكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته ؛ وهذا بعينه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفى لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا فى حياتنا توجيها صحيحا ، فلا يعنينا فى كثير أو قليل أن نعلم ما هى الـكهرباء فى ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها ، فحسبنا من معناها آثارها ، وليكن معنى الـكهرباء هو ماتعمله وما تؤديه ، وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المسائل الفكرية التى أرهقت الفلسفة بغير طائل ؛ فلندع جانبا كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما الى ذلك ، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التى تنشأ عنها فى حياتنا اليومية العملية ، فان لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظا جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

وهكذا يريد مذهب الذرائع أن تـكون كل فـكرة وسـيلة لسلوك عملى معين ، أعنى أن تـكون الفكرة تصميما لعمل يقوم به الانسان ، أو لا تـكون على الاطلاق ؛ فالفـكرة التى تحيا فى الذهن وحده ليست جديرة بهـذا الاسم ، ولا خير فيها إلا ان كانت مرشدا للانسان فى حياته وسلوكه ، فيـكون مثلها مثل اللون الأحمر أو الأخضر على السكة الحديدية يراهما سائق القطار فيوجهان تصرفه توجيها معينا ، أو كالعلامات الموسيقية كل قيمتها فى توجيه حركات الموسيقىّ ، فان لم تُفد ذلك كانت عبثا صبيانيا لا يعنى شيئاً ؛ فيجب على هذا الأساس أن تـكون كل فـكرة فى أذهاننا مرشداً عملياً يرسم لنا سلوكنا ويضع لنا القواعد التى ينبغى أن نسـير على مقتضاها فى حياتنا اليومية . أو بمعنى آخر تـكون أساساً لعادة معينة . ففـكرة الجاذبيـة مثلا معناها محصور فى تـكوين عادات معينة أستعين بها فى سلوكى ، فأعرف كيف أنظم علاقاتى بالأشـياء تنظيما ملائما ، فأحمل كوب الماء مثلا وفمه الى أعلى حتى لا ينسكب الماء بفعل الجاذبية ؛ وأمشى معتدل القامة خشية السقوط بفعل الجاذبية ، وأشيد مسكنى مستقيم الجدر لئلا ينهار بفعل الجاذبية ، وهلم جرا . أما إن كانت حياتى لا تتأثر بهذه الفـكرة ، وكنت لا أصادف لها آثارا فيما أصادف من تجارب ، كانت فى اعتبارى وهما وخطأ ، بغض النظر عن حقيقة وجودها فى العالم الخارجى أو عدم وجودها ؛ فالرأى الصحيح هو ما ييسر لى سبيل الحياة ويعمل على توفيقها

ونجاحها ، والرأى الخاطئ هو ما يفعل عكس ذلك ، أو ما لا أرى له أثرا فى الحياة

وظاهر أن نظرية التطور تؤيد هـذا المذهب وتدعمه ، لأن العقل عندها ليس إلا عضوا كسائر الأعضاء يتذرع به الانسان فى تنازع البقاء ، وأنه لو لم يكن العقل أداة من أدوات البقاء لما وجد أصلا ؛ وإذن فالفـكرة التى تنشأ فيه لا تـكون صادقة بمقدار مماثلتها للحقيقة الواقعة فى الخارج ، كلا ، بل مقياس صدقها هو فى مقدرتها على إجابة الظروف المحيطة بنا على النحو الذى يمكن لنا فى البقاء . ولتوضيح ذلك نقول إنه من المعلوم أن الأشياء الخارجية فى ذاتها ليس لها ألوان ، إنما الألوان من صنع أعيننا ، ولـكنى ما دمت أستطيع بفكرة اللون التى فى ذهنى (وإن لم تـكن موجودة فى الخارج) أن أميز الأشـياء فأعرف التفاحة الناضجة مثلا باحمرارها ؛ والفجة باخضرارها ، ففكرة اللون صحيحة صادقة . كذلك قل فى الصوت ، فليس للأصوات وجود فى الخارج ، إنما هى أمواج تقصر حينا وتطول حينا ، حتى إذا ماقرعت الأذن ، ترجمتها هذه بما نعهد من أصوات ، ولـكن ماذا يعنينى من عدم مماثلة فـكرة الصوت فى ذهنى للأمواج الخارجية فى الهواء ، ما دمت أعرف أن هـذا الصوت المعين يدل على سيارة قادمة فأنجو بحياتى من الخطر ؟ إن فـكرة الصوت حقيقية ما دامت تعمل على نجاح الحياة وبقائها ... إن الحياة كما يعرفها سبنسر هى ملاءمة حالات الانسان الداخلية بالظروف الخارجية ، وإذن فالعقل الصالح للحياة هو ذلك الذى يدرك اختلاف الظروف الخارجية لنعدل من سلوكنا بما يلائم الموقف الجديد ، وليس يعنينا بعد ذلك فى كثير ولا قليل أن تـكون الصورة الذهنية التى رسمها لنا العقل من الأشياء الخارجية ، مطابقة لأصلها أو مشوهة محرفة ، فالحقيقة العليا فى الوجود هى الاحتفاظ بالبقاء أولا ، ثم الارتفاع بالحياة نحو الكمال . فـكل ما يؤدى الى ذلك هو حق صريح . وفى ذلك يقول « ديوى » العالم الامريكى المعروف : إن الفكر أداة لترقية الحياة وليس وسيلة الى معرفة الأشياء فى ذاتها . ويقول «شلر» : إن الحقيقة هى ما تخدم الانسان وحده . وكلا الرجلين من دعاة هذا المذهب

ونحن نجمل فيما يلى ثلاثة الشروط التى يضعها مذهب الذرائع لصدق فـكرة ما :

١ ـ فأولا يجب أن يكون للفكرة قيمة فورية Cash-value ، ومعناها أن الانسان يجب أن يشاهد صحة رأيه أو خطأه فى تجربته العملية ، فان جاءت هذه التجربة العملية موافقة للفـكرة كانت الفـكرة صحيحة وإلا فهى خاطئة

٢ ـ وثانياً أن تكون الفكرة منسجمة مع سائر أفـكارى وآرائى . فلا يكفى أن تـكون كل فكرة صحيحة على حدة بالنسبة لقيمتها الفورية ، ولـكنها يجب كذلك ألا تناقض الأفـكار الأخرى . فلا يجوز مثلا أن أفرض نوعا من الذرات فى علم الطبيعة ، ثم أفرض نوعا آخر منها فى علم الـكيمياء ، حتى ولو كان كل منهما صحيحا فى ميدانه الخاص — فاذا وجدنا أمامنا فكرتين عن شيء ما ، كل منهما صحيح بالنسبة لقيمته الفورية ، وجب أن نختار إحداهما على أساس البساطة ، فأبسط الفكرتين أصحهما ؛ فمثلا لما أتى كوبرنيك برأيه الجديد عن الـكون يعارض به رأى بطليموس القديم ، كانت كلتا الفـكرتين صادقة إذا قيستا إلى ما ينجم عنهما من النتائج العملية فى حياة الناس ، ولـكن ما دامت فـكرة كوبرنيك أقل تعقيدا من الأولى ، كان لزاما أن يقع عليها اختيارنا

٣ ـ ولا بد للفـكرة بعد هذا وهذا أن تطمئن لها نفس الانسان وترضى ما دام ذلك لا يتعارض مع القيمة العمليـة . فالعقيدة الدينية مثلا ، على الرغم من أن ليس لها قيمة فورية فى حياتنا إلا بمقدار ضئيل ، إلا أنها واجبة ، لأنها تخلع على حياتى صبغة من التفاؤل ، وهى فى الوقت نفسه تنسجم مع الأفـكار الأخرى ولا تتعارض معها . ومعنى ذلك أنه اذا تساوت ظروف فـكرتين ، ثم كانت إحداهما تبعث التفاؤل والأخرى تبعث التشاؤم ، كانت الأولى بالنسبة لنا أصدق وأصح . فالمؤمن والملحد كلاهما لا تؤثر عقيدته فى شؤون حياته : ولـكن الأول متفائل يرجو الآخرة ، والثانى متشائم لا يرجو شيئا ؛ إذن فالايمان أصدق من الالحاد وأحق ، لأنه أجدى على الانسان وأنفع

تلك هى الحقيقة فى عرف هذا المذهب ؛ ولقد يعترض بحق أنها قد تؤدى الى التنافر بين الناس ، والى عدم انسجامهم فى سلك المجتمع ، لأن كل فرد سينتقى لنفسه الرأى الذى ينفعه بغض النظر عما يتخذه سواه من آراء ؛ وإذن ففلسفة الانسان ستعتمد على

مزاجه وظروفه ، ولكننا نسارع فنقول إن مذهب الذرائع قد أحس فى نفسه بهذا النقص ، فحاول أن يوفق بين قواعده وبين مصلحة الجماعة لا الفرد ، فقرر أن الرأى الصحيح هو الذى يكون له فائدة عملية لأكبر عدد ممكن من الناس ، بل ويحسن أن تشمل نتائجه النافعة الانسانية بأسرها ، وإذن فلا ينبغى أن نحكم على رأى بالصواب أو بالخطأ إلا بعد تجربة اجتماعية طويلة الأمد . ولكن يؤخذ على مذهب الذرائع وجوه أخرى من النقص نرجو أن نعرضها فى مقال تال

زكى نجيب محمود

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذى ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه ؛ الذى شغله البحث فى أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؛ الذى حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض ، وأن لكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؛ الذى علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط ؛ الذى كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الانسان والحيوان ؛ الرجل الذى كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر فى أجسام ضحاياها . البطل الذى نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده ، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده ، فأسر منها على هواه ، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً

المترجم

— ٣ —

كان كوخ مستقرّ النفس ، بارد العاطفة ؛ فلما نجا من هذه المخاطر بسلام ، وأصاب بها ما أمّل من نجاح ، لم يَدُرْ بخلده أنه أصبح فى عداد الأبطال ، ولم يخطر بباله أن ينشر أبحاثه فى الناس . واليوم إذا أنجز الرجل الباحث عملا بارعاً كهذا ، وكشف عن أسرار لها مثل هذه الخطورة ، استحال عليه أن يَعقد لسانه فلا يتحدث بها

وظل يسخّر نفسه فى العمل تسخيراً ، ويذلها فيه تذليلا ، وهو فى ذلك ساكت صامت ، حتى ليكاد المرء يتهم هذا الطبيب الريفىّ الألمانى العبقرىّ بأنه لم يدرك مقدار الجمال والخطر الذى كان فى تلك التجارب التى أجراها وحيداً فى عزلته وانزوائه

نعم تابع العمل وصابره ، فلا بد له أن يعلم فوق الذى علمه ؛ فأخذ يحقن الخنازير الغينية والأرانب ، والشياه أخيراً ، بذلك السائل ذى المظهر الطاهر والمخبر القاتل من قطراته العالقة . ولم تكد تدخل هذه الآلاف القليلة من المكروب إلى دم هذه الحيوانات حتى يتضاعف عددها بلايين المرات بسرعة واحدة ، وبفظاعة واحدة ، فى الفأر الصغير والشاة الكبيرة على السواء ؛ ولا تمضى ساعات حتى تعج بها أنسجة كانت سليمة تزدحم فى الشرايين الصغيرة والأوردة الرفيعة حتى تختنق بها ، وحتى يستحيل الدم الأحمر القانى إلى دم رهيب أسود - فتنفُق الشياه ، وتفنى الخنازير والأرانب

كان كوخ فى الأطباء واحدا من سوادٍ كثير ، فلم يكن له اسم ، ولم يكن لحاله ذكر ، ولكنه فارق هذا السواد بغتة ، وارتفع مُصعِداً إلى صفوف الأمجاد الخالدين من الباحثين ؛ وكان كلما مهر فى اصطياد المكروب ساءت عنايته بمرضاه بقدر ذلك ؛ صاحت أطفالٌ رُضّعٌ فى ضِياع بعيدة ، ولكن الطبيب لم يحضر ؛ واحتدّ الألم فى أضراس فلاحين ، فاصطبروا على أوجاعهم ساعات مُضنيات ، ولكن دون جدوى ؛ واضطُرّ كوخ أخيراً أن يحول نصيباً من مرضاه على طبيب آخر ؛ وقد لحظ زوجته من رؤيته وزاد همها ، وودّت اليه ألا يخرج إلى مرضاه وبه رائحة كيميائياته وحيواناته . أما هو فلم تصله شكوى زوجه ، ولا صوت مرضاه ، فلو أنهم وهم القريبون منه صاحوا له من وراء النصف الأبعد للقمر ما زادوا ولا نقصوا فى اسماعهم اياه - ذلك أن قضية خفية جديدة ساورت رأسه ، وملكت لبه ، وأسهرته الليالى ، قال لنفسه :

هذه البشلات تموت وشيكا على قطعة الزجاج تحت المجهر ،

فأنّى لها وهي بهذا الضعف أن تنتقل في الطبيعة من حيوان مريض بالجمرة إلى حيوان جدّ سليم ؟

وكان فلاحو أوربا والبيطريون فيها يؤمنون بخرافات غريبة عن أسباب هذا المرض ، وعن تلك القوة الخفية لهذا الوباء ، وقد أُصلِيت كالسيف فوق رقاب أغنامهم وأبقارهم لا يدرون متى يهبط عليها بالقتل المروع الذريع . أما هذه البشلات الصغيرة الضئيلة التي لا يبلغ طول الواحدة منها جزءاً من ألف من المليمتر ، فلن يتصور عاقل أنها سبب هذا المرض الفظيع

قال البقارون والغنامون لكوخ : « ياسيدنا الدكتور ، هب أن مكروباتك الصغيرة تقتل أبقارنا وأغنامنا ، فقل لنا بالله إن كان هذا حقاً ، كيف أن القطيع يكون سليما في مرتع ، يأكل ويشرب ، ويثب ويلعب ، فاذا نقلناه إلى مرتع آخر ، كثير العشب ، وافر النعمة ، امتنع أكله ، وذهب لعبه ، وتساقطت وحداته ، وماتت سريعاً كأنها الذباب »

كان كوخ يعلم أن هذه الوقائع حقا لا كذب فيها ، كان يعلم أن في أوڤرن Auvergne بفرنسا جبالاً خضراء لا تذهب اليها قطعان الأغنام حتى يأخذها الموت واحدة واحدة ، أو عشرة عشرة ، حتى ومائة مائة ، بسبب هذا الداء الأسود داء الجمرة ؛ واجتمع الفلاحون حول نيرانهم في ليالي الشتاء الباردة وأخذوا يتهامسون : « إن حقولنا ملعونة مسكونة »

وحار كوخ في أمره — وكيف تقوى هذه البشلات الدقيقة على العيش سنوات عديدة في مثل هذا الشتاء ، فوق هذه الحقول ، وعلى تلك الجبال ؟ كيف يكون هذا ؟ وهو حين أخذ شيئاً من طحال فأر وبيء ، ونشره على شريحة من الزجاج ، وأخذ ينظر اليه من المجهر ، وجد المكروب قد عجز عن الحياة ، فانبهمت حدوده ، وانتشر جرمه ، واختفت صورته اختفاء ؛ نعم كيف يكون ، وهو لما وضع من بعد هذا على المكروب فوق شريحة الزجاج سائلا من عين ثور ، وهو نعم الغذاء الطيب ، لم ينم المكروب ، لم يتكاثر ، وهل تتكاثر الأموات ؟ ثم هو لما جفف هذا الدم الوبيء ، وحقنه في فئران ، ظلت في أقفاصها تلهو وتمرح ناعمة بالحياة ؛ إذن هذه المكروبات ماتت ؛ نعم ماتت هذه المكروبات التي كانت تقتل الشاة السمينة والبقرة الضخمة الكبيرة على السواء

وتساءل كوخ : « هذه المكروبات تموت على زجاجاتي النظيفة اللامعة في يومين اثنين ، فكيف استطاعت أن تواصل الحياة على الحقول زماناً طويلا ؟ »

وذات يوم وقع بصره على حَدَث غريب تحت مجهره — تحولٍ عجيب أدّى به إلى حل الطلسم الذي أعجزه . وجلس كوخ على كرسيه بمعمله الصغير في بروسيا الشرقية وكشف السر المخبوء في حقول فرنسا وجبالها ؛ وحكاية ذلك أنه جاء بقطرة من قطراته العالقة ، وهي حبيسةٌ في نقرتها الضيقة من شريحة الزجاج ، وتركها في مدفأ درجة حرارته كدرجة جسم الفأر ، وخلفها هناك أربعا وعشرين ساعة ، فلما عاد قال : « لابد أن يكون المكروب قد نما في القطرة واستطال خيوطاً طويلة كطول تلك التي تنمو في أجسام الفئران » . ونظرَ في المكرسكوب فوجد غير الذي أمّله . وجد أن الخيوط بعد أن استكملت طولها ، أخذت حدودها تنبهم ، وتنقط الخيط بأجسام بيضاوية لمت كحبات الزجاج ، وانتظمت على طوله كعقد اللؤلؤ ، بَرَق واستقام

استاء كوخ أول الأمر ، فسخط ولعن ، وحسب أن غريباً من المكروب دخل إلى مكروبه فأفسده ، ولكنه لما أعاد النظرة وجد حُسبانه الأول خاطئاً ، فالحبات اللامعة كانت في داخل خيوط المكروب ، وهذه الخيوط نفسها هي التي تحولت إلى تلك الحبات . وجفف كوخ قطرته العالقة ، وحفظ ما بقي منها على الزجاج شهراً أو بعض شهر . ثم شاء القدر أن يعود فينظر اليها من خلال عدسته ، فوجد العقود لا تزال على لمعانها ؛ فخطر له أن يُجري شيئاً من التجارب عليها . فأتى بقطرة صافية من عين ثور ، فأسقطها على تلك المكروبات التي استحالت عقودا ، وأخذ ينظر اليها فاذا بالحبّات تنمو فتصير إلى بشلات ، ثم إلى خيوط طويلة مرة أخرى . عام رأس كوخ اختلاطا واندهاشاً

قال : « إن هذه الحبات البارقة الغريبة قد عادت فاستحالت بشلات تارة أخرى ، فهذه بذور المكروب ، صوره الأمتن التي تصمد للحر الشديد والبرد القارص والجفاف القاتل ...... لابد

أن المكروب على هذه الصورة يستطيع البقاء طويلا فى الحقول ، لا بد أن البشلات تستحيل إلى هذه البذور »

وقام كوخ عندئذ بجملة من التجارب الدقيقة البارعة ، أجراها ليمتحن صحة ظنه فى هذه البذور ، فاستخرج طحالات من فئران مجورة ، استخرجها الآن بحذق ظاهر بعد الخبرة والمران ، ورفع هذه الأطحلة ، وفيها الموت ، على مشارط وعلاقط طهرت فى النار ، واحتاط ما استطاع الحيطة ألا تمسها مكروبات من التى تسبح على ضلال فى الهواء ، وحفظها يوميا فى درجة حرارة كالتى لجسم الفأر . فلم يكذب ظنه ، فخيوط المكروب استحالت الى حبات من البذور بارقة كالزجاج ، وتلا هذه بتجارب عديدة حبسته طويلا فى حجرته الصغيرة القذرة ، خرج منها على أن هذه البذور تبقى حية أشهراً كثيرة ، وأنها من بعد ذلك تنفقص على التو عن تلك البشلات القاتلة إذا هى وضعت فى قطرة من سائل عين ثور ، أو إذا هى أُدخلت على فلقة خشب فى قاعدة ذنب فأر

قال كوخ : « إن هذه البزور لا تتكون فى حيوان وهو حى أبدا ، وانما تظهر فيه بعد وفاته إذا احتُفِظ بجسمه حارا » . وأثبت ذلك اثباتاً جميلا بأن وضع أطحلة وبيئة فى ثلاجة ، ثم عاد اليها بعد أيام فأخذ منها وحقن الفئران ، فلم يصبها سوء ، فكأنما حقن فيها لحماً طازجاً سليما

وكان العام عام ١٨٧٦ ، وكان كوخ قد بلغ الرابعة والثلاثين خرج لأول مرة من عُشّه ، من قرية فُلِشْتَين Wollsttein ليخبر الدنيا فى شىء من الفأفأة ، أنه قد ثبت ثبوتاً قاطعاً بعد طول الشك أن المكروبات أسباب الأدواء . لبس كوخ أفخر ثيابه ، ووضع على عينيه نظاراته وقد تأطر الذهب حولها ، وحزم مجهره ، وعددا من القطرات العالقة فى محابسها من الزجاج وقد تنفشت بمكروب الجمرة القاتل ، وأضاف إلى متاعه قفصاً أخذ يهتز ببضع عشرات من الفئران البيض الصحيحة ، وركب القطار ووجهته بلدة برسلاوة Breslau ليعرض فيها مكروب الجمرة الذى كشفه ، وليبين للأشهاد كيف يقتل هذا المكروب فئرانه ، وكيف أنه يستحيل تلك الاستحالة الغريبة فيصير عقوداً كالسُّبَح – وأراد بخاصة أن يطلع الأستاذ كُون Cohn على كل هذا ، وهو أستاذ النبات بجامعة برسلاوة ، وكان يكتب أحياناً الى كوخ مشجماً حامداً

أعجب الأستاذ كون بتجارب كوخ التى أجراها وحيداً لا يسمع به أحد ، وعلم أنها ذات خطر كبير لم يفطن له كوخ نفسه ، وتصور فى ابتسام وخبث ما يكون من أثرها فى نفوس جهابذة الجامعة وأعلامها ، وهم ماهم من رفعة القدر وشيوع الذكر ، وكوخ هو ماهو من الضعة والخمول ، فبعث اليهم يدعوهم لحضور الليلة الأولى للمعرض الذى يقيمه طبيب القرية الصغير

— ٤ —

ولبوا الدعوة ، نعم لبوها ليستمعوا إلى هذا الذى جاء من أقصى الريف يحدثهم عن العلم ؛ ولعلهم جاءوا رعاية لحرمة الأستاذ الشيخ كون . ولقيهم كوخ ، ولم يحاضرهم فى الذى أتى له ، فلم يكن قط ممن يحسن صناعة الكلام . انعقد لسانه ، ولكن يده انطلقت ثلاثة أيام ولياليها ترى هؤلاء السفسطائيين ما كان من أبحاثه طوال تلك السنين ، وما كان فيها من تلمس فى الظلام ، وتحسس فى دياجير المجهول ، وما كان فيها من عثرات تبعتها نهضات ، ومن نهضات تلتها عثرات ؛ فلم ينزل أحد من كبريائه ، ولم يهدئ من ادعائه ، نزولَ هؤلاء الجهابذة وهدوءهم ، وقد كانوا أتوا فى كثرتهم يستمعون لرجلنا القليل ، وقد كانوا طامنوا أنفسهم على التسامح ، وألا يأخذوا عليه المآخذ ، بل يدعونه يُرسل القول ارسالا ، فما عند مثله يطاب الجدل ، ولا ان هم فى منزلته يثار النقاش . ولم يجادل كوخ قط ولم يتفيهق قط ، ولم يحلم الأحلام ، ولم ينطق عند الغد بصنوف النبوءات ، وإنما ظل يضرب فِلَق الخشب فى ذيول الفئران فكانت كالسهام سرعة ودقة ، وفتح أساتذة البثلجة[1] Pathology عيونهم وسعها لما رأوه يتناول تلك البشلات والبزور والمكرسكوب بيد صَناع لا تكون لعالم إلا فى ستينه . كان انتصاراً رائعاً روعة الصباح الضاحى

وكان من بين هؤلاء الأساتذة الأستاذ كون هايم Cohnkeim وكان من أشهر علماء أوربا فى دراسة الأمراض ، فلم يستطع صبرا على الذى سمع ورأى ، وخرج ثائراً من صالة العرض وذهب إلى

(١) علم الأمراض

معمله واندفع على التو الى حيث يعمل الشباب من مساعديه فى أبحاثه ، فصاح فيهم : « أبنائى ، دعوا ما بأيديكم وانصرفوا فاستمعوا الى الدكتور كوخ ، فان هذا الرجل كشف كشفاً عظيما » واسترجع الأستاذ أنفاسه

قال الطلاب : « ولكن ياسيدنا الأستاذ مَنْ كوخ هذا فما لنا به من علم ؟ »

قال الأستاذ : « مهما يكن من أمره ، فالكشف الذى أتاه عظيم ، كشفٌ غايةٌ فى الدقة ، غايةٌ فى البساطة ، غايةٌ فى العجب . وكوخ هذا ليس أستاذاً ... ولم يتعلم قط كيف يجرى الأبحاث ... وإنما تعلمه من ذات نفسه ، وصنع كل ما صنع بمجهوده وحده »

قال الطلاب : « ولكن ما هذا الكشف ياسيدنا الأستاذ ؟ »

قال الأستاذ : « أقول لكم اذهبوا ، واذهبوا جميعاً ، وانظروا بأعينكم ، واسمعوا بآذانكم ، فانه عالِم الله أخطر كشف فى عالم المكروب ... كشف نتضاءل جميعاً إلى جانبه .... اذهبوا . اذهبوا .. » .

ولم يتم الأستاذ قوله إلى تلاميذه حتى كانوا قد خرجوا من الباب واختفوا عن بصره فلم يسمعوا آخر نبراته ، وكان من بينهم بول إرليس Paul Ehrlich (١)

قال بستور قبل هذا اليوم بسبع سنوات : « إن الانسان فى مقدوره محو الأمراض المعدية من على ظهر البسيطة » ؛ وعندئذ قال أحكم أطباء ذلك العصر : « إنه رجل مأفون » ؛ ولكن فى هذه الليلة خطا كوخ بالدنيا أول خطوة فى تأويل الحلم الذى ارتآه بستور . وختم كوخ حديثه الى الأساتذة الأمجاد قال : « إن أنسجة الحيوانات التى تموت بداء الجمرة لا تعدى بهذا الداء إلا إذا هى حملت بشلاته أو بزور هذه البشلات ، سواء أكانت هذه الأنسجة صابحة أو فاسدة ، متعفنة أو جفت أو مضى عليها عام . وفى وجه هذه الحقيقة يجب أن يزول كل ظلٍّ من شك فى أن هذه البشلات هى سبب هذا الداء » ختم حديثه الى الأساتذة بهذا القول حتى لكأن تجاربه التى أراها اياهم لم يكن بها كفاية من اقناع ؛ وزاد على ما قال بأن أبان لمستمعيه ، وقد أخذتهم الدهشة ، طريقاً لمكافحة هذا الوباء ، طريقاً أرته تجاربه اياه لمحو هذا الداء ، قال : « إن كل حيوان يموت بالجمرة يجب اعدام جثته فى الحال ، فاذا لم يكن فى الامكان حرقها ، فلا أقل من دفنها عميقة فى الأرض حيث البرودة شديدة فلا تأذن للبشلات أن تستحيل الى بزور تقاوم شدة الحياة وجبروتها طويلا ..... »

وهكذا علم كوخ الناس فى هذه الثلاثة الأيام كيف يبدأون فى محاربة المكروب ويدفعون عن أنفسهم أسباب المهالك التى تكمن لهم خفية فى الظلام ؛ وهكذا بدأ فى حمله الأطباء على الاقلاع عن اللعب الهازل بالحبوب والملق فى مداهمة الأدواء ، واحلال العلم والمنطق محل السحر والخرافات

وقع كوخ بذهابه الى مدينة برسلاوة فى زمرة من رجال أمناء كرماء مخلصين ، بذلوا له من صداقتهم ومن عونهم الشىء الكثير ، نخص بالذكر منهم الأستاذين كون Cohn وكون هايم Cohnheim ، ذلك لأنهما أولا لم يسرقا أبحاثه ، ولصوص العلم ليسوا أقل عددا من اللصوص فى مناشط الحياة الأخرى . وثانياً لأنهما صيّحا له وهتفا هُتافاً تردد أصداؤه فى أوربا ، حتى لأوجس بستور خيفة على مكانه سيدا لبُحّاث المكروب ، وأخذ هذان الرجلان يرسلان الكتاب تلو الكتاب الى مصلحة الصحة الامبراطورية ببرلين يعرفانها بأمر هذا الرجل الجديد ، مفخرة ألمانيا ؛ وصنعا ما صنعا لتمكناه من ترك عيادته ، وهى لا تكسبه غير البلادة ، وتيسير الرزق والمال له ليفرغ لدرس المكروب ودفع أدوائه . ومن يدرى ماذا يكون من أمر كوخ لو أنه جاء برسلاوة فلم يجد بها غير الزجر والمهانة والصدود ، إذن لعاد الى قريته واكتفى بمعاودة صناعته من جس النبض والنظر فى ألسنة المرضى ، ولما كان من أمره الذى كان . إن رجل العلم لا ينجح إلا أن يكون فيه بعض خُلُق الدلالين وأرباب المعارض ــ وهكذا كان اسبلانزانى الفخم العظيم ، وهكذا كان بستور الحساس الصخاب ــ وإلا أن يكون له من أرباب الجاه وذوى السلطان من يحميه بجاهه ، ويدفعه ويزجه فى معترك الحياة ؟

يتبع — أحمد زكى

(١) هو العالم المكروبى الشهير ، وسنترجم له

نظرية النسبية الخصوصية

البحث الأول

الزمان ونسبيته

للدكتور اسماعيل أحمد أدهم
عضو أكاديمية العلوم الروسية

— ١ —

لنتصور قطاراً يتحرك من محطة القاهرة الساعة الثامنة ، فما معنى تحركه الساعة الثامنة ؟ لا خلاف فى أن معناه أن آونة تحرك القطار وحادثة وقوف العقرب الكبير فى الساعة على الرقم « ١٢ » والصغير على الرقم « ٨ » متوافقان

ولقد يجول بخاطر الكثيرين أن فى هذا البيان الكشف عن حقيقة الزمان . وهذا ظن صحيح فيه من الوثوق الشىء الكثير لو كان العالم كله الساعة وما حولها . ولكن مثل هذه الفكرة هل تنطبق على حادثتين : الأولى حدثت فى مكان قصى عن مكان الأخرى ؟ فمثلا لو فرضنا حادثة مثل الحادثة « ا » حدثت فى الشمس ، وحادثة أخرى مثل الحادثة « ب » حدثت على الأرض ؛ فهل فى الامكان النظر فى توافقيهما ؟

إن الاجابة على مثل هذه الأسئلة تتطلب منا أن نذكر أن مسألة التواقت مسألة ترجع لتساوى سير حركة الساعات فى مختلف الأمكنة ، وهذا الأمر يرجعنا الى واسطة التعيين

لنفرض كرة مثل « ك » بها نقطتان ثابتتان ، الأولى « ا » والثانية « ب » ، وبكل نقطة من هاتين النقطتين توجد ساعة ، ولنرمز لساعة النقطة الأولى بالرمز « س١ » ، ولساعة النقطة الثانية بالرمز « سب » ، ولنفرض أن المسافة بين هاتين النقطتين هى « م » ؛ فلكى نوحّد سير الساعتين نجد أمامنا إحدى طريقتين نسلك إحداهما لتوحيد سير ساعتى النقطتين : الطريقة الأولى تنحصر فى نقل الساعة « س١ » والساعة « سب » إلى مكان واحد ، ثم ضبطهما هنالك على زمان واحد ، ثم اعادة كل ساعة الى المكان الأول . والطريقة الثانية تستند على إشارة ضوئية من النقطة « ا » الى « ب » مثلا ، فتضبط بناء عليها الساعة « سب » زمانها حسب زمان الساعة « س١ »

وهاتان الطريقتان لا زالتا مستعملتين إلى يومنا الحاضر فى حياتنا العملية ؛ فالسفن تتبع الطريقة الأولى عند ما تضبط وقت ساعاتها حسب أزمنة الموانئ التى ترسو عليها ؛ وتتبع الطريقة الثانية بمراجعتها أزمنة ساعاتها وكرونومتراتها خلال سيرها باشارات التليفون اللاسلكى لتصحح الفروق الناشئة فى الزمن من اختلاف خطوط الطول والعرض على سطح الكرة الأرضية . ويمكننا استناداً إلى هذه الظاهرة تقرير اختلاف الزمان ؛ غير أن هذا التقرير لا تكون له قيمة علمية إلا بعد تعميمه على الأكوان

فلنفرض فى كون مثل « ك » ساعة مثل « س » ، فهل فى الامكان جعل ساعتين مثل « س١ » و « س٢ » فى كونين مثل « ك١ » و « ك٢ » تتحركان حركة انتقالية مستقيمة متساوية فى الزمان مع زمان الكون « ك » ؟

الاجابة عن هذه المسألة خارجة عن نطاق علم الطبيعة (Physics) مادامت هذه الأكوان يتحرك بعضها إزاء بعض حركات انتقالية ؛ ومهما كانت هذه الفروق المتولدة من هذه الحركات ضئيلة فمسألة تساوى الزمان فى هذه الأكوان أو عدم تساويه لا يمكن معرفتها إلا بالرجوع الى الاشارات الضوئية . والاستناد على الأمواج النورية فى تقرير تواقت الزمان قائم على ثبات سرعة النور ، وهى وإن كانت سرعة محدودة إلا أنها سرعة فوق كل سرعة

وقضية ثبات سرعة النور تجرنا إلى معرفة حركات الأكوان الطالقة خلال الفضاء الأثيرى

بيان : اختصرت هذا البحث من كتابى :
Die Grundlangen der Relativitaetsthearie; Leipzig. 1934 ، الذى أحاول نقله مختصراً إلى العربيـة تحت عنوان : « نظرية النسبية وقيمتها العلمية » وقد أوشكت على الانتهاء من جزئه الأول فى ٢٨٠ صفحة ، وسيقدم إلى الطبع عن قريب . ومقال اليوم أول أربع مقالات ستليه :
١ : وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية
٢ : مبادئ الميكانيكا الحديثة
٣ : مبادئ الديناميكا الجديدة
٤ : كون مينقو فسكى والفاصلات الفراغية والزمانية
وستكون هذه المقالات الخمس زبدة النسبية الخصوصية

اذا أرسلنا شعاعة نور فى اتجاه سرعة الأرض فستكون سرعة هذه الشعاعة بالنسبة للمشاهد الذى أرسلها من فوق الأرض :

« ٣٠٠,٠٠٠ كم — سرعة الأرض فى الفضاء الأثيرى »

وفى حالة ارسال شعاعة النور فى عكس اتجاه سرعة الأرض فستكون سرعة الشعاعة متضخمة بسرعة الأرض بالنسبة لمرسلها

« ٣٠٠,٠٠٠ كم + سرعة الأرض فى الفضاء الأثيرى »

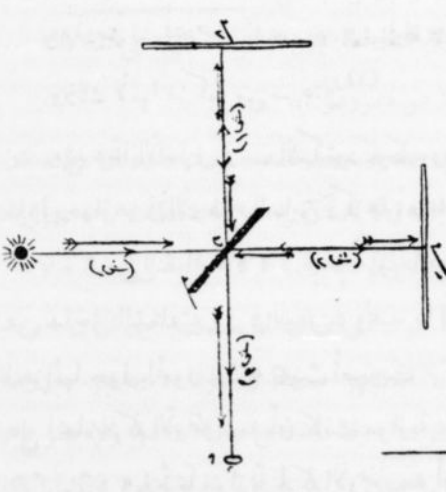
وكل التجارب التى أجريت فى هذا الصدد أسفرت عن نتيجة سلبية

— ٣ —

لنفرض شعاعة نور مثل « س » تقع على مرآة نرمز لها بالرمز « م » ، وهذه المرآة نصف عاكسة ، فتنشق شعاعة النور « س » شعاعتين : المعكوسة «س١» والمكسورة «س٢» ، وقد وضعت المرآة «م» بالنسبة لاتجاه الشعاعة «س» بحيث يحمل الشعاعتين «س١» و «س٢» متعامدتين إحداهما على الأخرى ؛ ولنفرض أنه قد وضعت فى خط سير هاتين الشعاعتين وعلى بعد ثابت من المرآة «م» مرآتان أخريان ، الأولى «م١» والثانية «م٢» بحيث تردان الشعاعتين «س١» و «س٢» إلى المرآة «م» ؛ وهنالك عند التقائهما ثانية تمكسان عكساً نصفياً فيتحد الجزء المعكوس من الشعاعة «س٢» مع الجزء المكسور من الشعاعة «س١» فى الشعاعة الأخيرة «س٣» ، فاذا ما سارت الشعاعتان مسافة واحدة من نقطة افتراقهما إلى نقطة التقائهما ثانية : أعنى إذا كانت المسافة من « م » الى « م٢ » تعادل المسافة من « م » الى « م١» تعادلا تاماً ، فانك إذا ما وضعت عينيك فى الوضع « د » شاهدت الشعاعة « س٣ » كاملة لا نقص فيها ؛ أما إذا كانت المسافة « م — م١ » تنقص أو تزيد على المسافة « م — م٢ » بما يعادل نصف موجة النور أو حاصلا صحيحاً لنصف موجة النور ، فان الشعاعتين تكونان قد سارتا منذ انفراجهما إلى اتحادهما ثانية غير متعادلتين ، فينجم عن ذلك تداخل نورى بين حركة الموجتين يشف عن نظام تداخلى يتظاهر فى شكل حلقات من النور والظلمة (١)

ولو فرض وأزحنا « م١ » أو « م٢ » قليلاً بمعنى أننا غيرنا تعادل المسافتين « م — م١ » و « م — م٢ » ألفينا هذه الحلقات تتحرك ، أو قل تتقلص شيئاً فشيئاً إلى أن تختفى فى الوسط المشترك بينهما ، ثم تظهر حلقات جديدة من خارج النظام ، ويكون عدد ما يختفى معادلا عدد ما يظهر من الحلقات ؛ ومن مقدار تغير « م — م١ » أو « م — م٢ » نستطيع حساب الحلقات الواجب اختفاؤها على هذا النوال . لهذا لو كان هنالك راصد مشاهد لهذا النظام ، وطفقت حلقاته تتقلص بغتة ، أمكنك أن تحكم يقيناً إن كانت المسافة « م — م١ » أو « م — م٢ » قد شرعت فى التغير ؛ وإذا حسبت عدد الحلقات المختفية استطعت التنبؤ بمقدار تغير المسافتين

أجرى (١) الدكتور ميكلصون Michelson ، والأستاذ مورلى Morley تجربتهما بحيث كانت حركة الشعاعة موازية لحركة الأرض « ع » حول محورها مثلاً ، أى وضعت « م١ » بحيث تكون المسافة « م — م١ » ممتدة شرقا غربا ، فتكون لذلك الشعاعة « س١ » متعامدة على اتجاه حركة الأرض حول محورها ، أى تكون ممتدة شمالا جنوبا فى الاتجاه « ع »



شكل بيانى رقم «١» من كتاب :
Louis-Gustave du pasquier : Le principe de la Relativité et les théories d'Einstein. p. 44 7 ig : 6.

ولكن عند ماتنفصل الشعاعتان « س١ » و « س٢ » عند النقطة « ن » تسير كلتاهما بسرعة واحدة بالنسبة للفضاء الأثيرى ، لأنهما كلتيهما تموج أثيرى ، والاختلاف لا يكون إلا باسنادهما إلى شيء آخر ، وليكن الجهاز : « جهاز ميكلصون —

1 : Louis Gustave du Pasquier : Le principe de la Relativité et les theories d' Einstein., Paris 1922., P 86 — 112.

(١) التجربة التى قضت على الأثير ١٩٣١ المقتطف ، شارل مالك

مورلي» فتكون سرعة «سر۱» بالنسبة للجهاز غير سرعة «سر۲» بالنسبة له ، لأن هذه الآلة تدور مع الأرض في دورانها حول محورها ، والشعاعة «سر۱» متعامدة على السير بينما الشعاعة «سر۲» موازية له ؛ فمن هذا الاعتبار ينتج أن سرعة «سر۲» بالنسبة لجهاز ميكلصون عند ما تكون الشعاعة «سر۲» سائرة نحو «م۲» هي :

صه — ع .... «معادلة ١»

حيث أن «صه» رمز لسرعة الضوء المنطلقة خلال الأثير ، و «ع» رمز لسرعة الأرض حول محورها . وعند ما تنعكس الشعاعة «سر۲» عن «م۱» تصبح سرعتها بالنسبة للجهاز هكذا :

صه + ع .... «معادلة ٢»

أما الشعاعة «سر۱» فلها نفس السرعة في سيرها نحو «م۲» لأنها مركبة من سرعتين متعامدتين مثلا ، ولكنها في ذهابها وإيابها في كلتا الحالتين ستكون متعامدة على اتجاه سير الآلة أو الجهاز ، وستكون مقدار هذه السرعة :

$\sqrt{صه^{2} + ع^{2}}$ .... «معادلة ٣»

وذلك لأنها مركبة من سرعتين[1] .

على هذا الأساس رتب الدكتور ميكلصون وزميله الأستاذ مورلي جهازهما في الأوضاع السابق ذكرها ، وأخذا يرقبان الشعاعة «سر» من النقطة «ى» فارتسم أمامهما نظام متداخل ناجم عن تداخل الشعاعتين في بعض ، وعند ما أديرت الآلة بكامل أجزائها حول المحور «ه» بحيث أصبحت «م ـ م۱» متعامدة على اتجاه حركة الأرض بعد أن كانت موازية ، واتخذت الشعاعة «م ـ م۲» وضعاً موازياً لحركة الأرض بعد أن كانت متعامدة . فكان المنتظر أن هذا التغيير يسفر عن تغير سرعة الشعاعتين بالنسبة للآلة في الزمن الذي تستغرقه كل من الشعاعتين في سيرها من المركز «ه» إلى المرايا العاكسة ورجوعها إلى «ه» ثانية . ومن البديهي أن الزمن الذي تستغرقه الشعاعة «سر۲» في وضعها الجديد أقل من الزمن الذي استغرقته وهي في وضعها القديم ؛ أعني أن شعاعة النور في سيرها في اتجاه متعامد ـ بشرط أن تنعكس الشعاعتان وترتدا إلى مصدرهما ، وإدارة الجهاز حول محوره تسعون درجة ـ لا بد وأن تسفر عن ابطاء الشعاعة الواحدة في رجوعها إلى «ه» واسراع الشعاعة الأخرى في هذا الرجوع[1] .

هذا الابطاء والاسراع يؤثران في النظام الداخلي ، إذ تنقص بعض الحلقات وتختفي حلقات الوسط وتبدو حلقات جديدة تتسرب للنظام من طرفه الخارجي . ذلك لأن تباطؤ الموجة الواحدة في رجوعها يفضي الى تداخل جديد مع حركة الموجة الثانية التي أسرعت في الرجوع[2] .

ولما كانت سرعة الأرض حول محورها معلومة ، وسرعة النور في الفضاء الأثيري معلومة كذلك ، فمن المستطاع قياس الفاصلتين «م ـ م» و«م ـ م۲» واستخراج طول موجة النور ، وبذلك يصبح من الممكن حساب التأخير اللازم حدوثه إذا ما أديرت الآلة ومقدار التغير اللازم طروؤه على عدد الحلقات من تقلص واحتجاب

على مثل هذا الأساس العلمي الدقيق أجريت تجربة ميكلصون ، ولكنها أسفرت عن نتيجة سلبية إذ لم تتغير الحلقات ووصلت الشعاعتان معاً . ثم أعيدت التجربة مع الدقة الشديدة ولكن لم تسفر عن نتيجة[3]

(بقية البحث في العدد القادم)

اسماعيل أحمد أدهم

(1): A. A. Michelson and E. W. Morley : The American Journal of Science and arts, Mew-Haven 31 (1886) P. 337., and (3) 22 (1881) p. 120.

(1): A. A. Miehelson an. E. W. Morley: Philosophical Magazine of London., Edinburgh and Dublin. (5) 24. (1887) p. 449.

(2): M. Fitzgerald: Annalen der Pluysik., Leipzig. (4) 1907 p. 137.

(٣) اعتمدنا في الكتابة عن تجربة ميكلصون إلى حد كبير على نص ما كتبه الأستاذ شارل مالك في مقتطف اكتوبر ١٩٣١ تحت عنوان «التجربة التي قضت على الأثير» وقد اعتمدنا على هذا النص العربي لدقته

ترلسات:

٣ـ قصة الفتح بن خاقان

للاستاذ عبد الرحمن البرقوقى

هلاوه الفتح

نقول إن ابن بسام كان أعفّ لسانا، وأنزه بيانا. أما الفتح ابن خاقان فقد كان مقذعا هجاء الى أنه كان مداحا فصالا[1]، فمن أرضاه وألهاه، مدحه وفتح لهاه؛ ومن لا يرضخ له من ماله بما يرضيه، هجاه وأقذع وولغ فيه. وربما دسّ له لدى أولى الأمر وضبرّاهم عليه. ومن ذلك ما كان منه مع فيلسوف الأندلس أبى بكر بن الصائغ وطبيبها الأكبر أبى العلاء بن زهر كما سيمر بك قريبا ... وقد كان مع ذلك سكيراً معربدا الى هنوات أخرى لقد يندى لها جبين الأدب، وقعدت به عن بلوغ المراتب التى بلغها أمثاله ومن هو دونه. قال الوزير لسان الدين بن الخطيب فى حق الفتح: كان آية من آيات البلاغة لا يُشَق غباره، ولا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعانى وثيقها، لعوبا بأطراف الكلام، معجزا فى باب الحلى والصفات، إلا أنه كان مجازفا مقدوراً عليه[2]، لا يملّ من المعاقرة والقصف حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره، ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره. واغلا فى عليته[3] ... وقال ابن بشكوال فى الصلة: وكان ـ الفتح ـ معاصرا للكاتب أبى عبدالله بن أبى الخصال، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبته. وجاء فى النفح أن الفتح قصد يوما الى مجلس قضاء أبى الفضل عياض ـ صاحب الشفاء ـ مخمّرا، فتنسم بعض حاضرى المجلس رائحة الخمر، فأعلم القاضى بذلك، فاستثبت وحدّه حداً تاما.

(١) هو الذى يمدح الناس ليعطوه

(٢) المجازفة المخاطرة يقال جازف بنفسه إذا خاطر بها يرجع الى المساهلة كأنه ساهل بها وهو مجاز ومما استدركه الزبيدى شارح القاموس. ولعل ابن الخطيب يريد أن الفتح كان مستهترا جريئا على فعل ما لا يليق بمثله. ومقدورا عليه يريد ـ لعله ـ أنه ضعيف الارادة لا يقدر على ضبط نفسه

(٣) فى عليته أى فى قصره وداره فيكون الضمير للأمير، أو فى سرواته وإشرافه فيكون الضمير الى البلد

وبعث اليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة ... فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه: عزمت على إسقاط القاضى أبى الفضل من كتابى الموسوم بقلائد العقيان، قال: فقلت له: لا تفعل، وهى نصيحة، فقال: وكيف ذلك؟ فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تتركها مؤرخة، إذ كل من ينظر فى كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه فى العلم والصيت، فيسأل عن ذلك فيقال له، فيتوارث العلمَ عن الأكابرِ الأصاغرُ؛ قال: فتبين ذلك وعلم صحته وأقرّ اسمه فى (القلائد)

ولقد أزلفنا أنه هجا الفيلسوف ابن الصائغ وأقذع فى ترجمته له فى القلائد، ثم مدحه وأثنى عليه فى المطمح؛ وقد حدثنا الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سبب هجائه إياه أولا، قال: وحدثنى بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجه أبى بكر آخر فلاسفة الاسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به فى تكذيبه إياه فى مجلس اقرائه إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس، ووصف حليا، ـ وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون، فقال له: فمن تلك الجواهر إذن الزُّمُرّدة التى على شاربك ... فثلبه فى كتابه بما هو معروف ...

أما مدحه إياه بعد إذ هجاه فقد ذكر لنا العماد أن ذلك كان منه بعد أن أنفذ إليه مالا استكفّه به واستصلحه ... وإليك نتفاً مما كتبه فى القلائد هاجيا، ثم مما كتبه فى المطمح مادحا: قال فى القلائد: «هو ـ أى ابن الصائغ ـ رَمَدُ عين الدين، وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفا وجنونا، وهجر مفروضا ومسنونا، فما يتشرع، ولا يأخذ فى غير الأضاليل ولا يشرع، ناهيك من رجل ما تطهّر من جنابة، ولا أظهر مخيلة إنابة، ولا استنجى من حدث، ولا أشجى فؤاده بتوار فى جدث، ولا أقرّ بباريه ومصوّره، ولا فرّ بتباريه فى ميدان تهوره، الاساءة اليه أجدى من الاحسان، والبهيمة عنده أهدى من الانسان، نظر فى تلك التعاليم، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفض كتاب الله الحكيم العليم. الخ الخ[1]». وقد أورد له متعمداً أبياتا ليست من جيد شعره. وأين هذا من تحليته له

(١) راجع قلائد العقيان

فى المطمح بقوله فيه ماهذا بعضه : « نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوّجت بمصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فننا وتهدّل ، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذى هو للايمان شقيق ، والجد ، الذى يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، الخ الخ » . وأورد له شعرا جيدا . وكل أولئك تراه فى ترجمتنا لهذا الفيلسوف الأندلسى العظيم . . . أما ما كان من الفتح من الكيد للفيلسوف الكبير والطبيب النطاسى الأشهر والوزير الخطير أبى العلاء زهر لدى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، فقد جاء فى نفح الطيب ما نصه : « وكان بينه — أى بين أبى العلاء زهر — وبين الفتح صاحب القلائد عداوة » . ولذلك كتب فى شأنه إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ما صورته :

أطال الله بقاء الأمير الأجل سامعا للنداء ، رافعا للتطاول والاعتداء ، لم ينظم الله الملك بلبتك عقدا ، وجعل لك حلا للامور وعقدا . وأوطأ لك عقبا ، وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا ، الا أن تكون للبرية حائطا ، وللعدل فيهم باسطا ، حتى لا يكون منهم مَن يضام ، ولا ينال أحدهم اهتضام ، ولتقصر يد كل معتد فى الظلام . وهذا ابن زهر الذى أجررته رَسَنا ، وأوضحت له الى الاستطالة سُنَنا ، لم يَتَعدّ من الأضرار إلا حيث اشتهيته ، ولا تمادى على غيّه إلا حين لم تنهه أو ألهيته ، ولما علم أنك لا تنكر عليه نكراً ، ولا تغيّر له متى مامكر فى عباد الله مكرا ، جرى فى ميدان الأذية مِلء عنانه ، وسرى إلى ماشاء بعدوانه ، ولم يراقب الذى خلقه ، وأمدّ فى الحظوة عندك طلقه ، وأنت بذلك مرتهن عند الله لأنه مكّنك لئلا يتمكن الجور ، ولتسكن بك الفلاة والغور ، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل فى كل طريق ، وأخفق به كل فريق ، وقد علمت أن خالقك الباطش الشديد يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما تخفى عليه نجواك ، ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك ، وستقف بين يدى عدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم ، قد علم كل قضية قضاها ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فبم تحتج منى لديه ، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زهر منجيك فى هذا المقام ، أو يحميك من الانتقام ، قد أوضحت لك المحجة ، لتقوم عليك الحجة ، والله النّصير ، وهو بكل خلق بصير ، لا رب غيره والسلام ... هذا جانب من خلائق الفتح : تحوُّل وتقلُّب ، ونقض لما أبرم ، وإبرام لما نقض ، وهجاء ثم مدح ، ومدح ثم هجاء ، ومناوأة للفلاسفة ، واستعداء للملوك والأمراء عليهم ، الى ما أشرنا اليه آنفاً من خلعه العذار واستهتاره ، وإدمانه المعاقرة وفسوقه ، حتى كان ذلك سبباً — كما يقول المؤرخون — فى تخلفه عن لداته وقعوده عن بلوغ عليا الرتب التى بلغوها . ومن هنا كان حبه المال حبا نال من كرامته ونقص من قيمته وصيّره شهرة لدى العلماء والأمراء وسائر العلية والسروات . ومما يؤخذ عليه أيضا غروره واعتداده بنفسه إلى أقصى حد ؛ ولا أدل على ذلك من قوله فى خطبة قلائده : «الحمد لله الذى راض لنا البيان حتى انقاد فى أعنتنا ، وشاد مثواه فى أجنتنا ، وذلل لنا من الفصاحة ما تصعب فملكناه ، وأوضح لنا من مشكلاتها ما تشعب فسلكناه ، فصار لنا الكلام عبدا يجيب إذا ناديناه ، ومهما يصيب الغرض إذا رميناه »

وبعد فقد كان هذا الأديب الألمى الموهوب من أولئك الأدباء الذين أدركهم داء الانحطاط ، ومثله كثير بين أدباء العرب والعجم والمشرق والمغرب قديماً وحديثاً ... وهذا الصنف من الأدباء والفنانين جدير بالرحمة والرثاء ، لأن عبقريتهم هى سر انحطاطهم ، إذ العبقرية فى الحق شعبة من الجنون كما شرح ذلك لمبروزو وماكس نوردو وغيرهما . وقد كان انحطاط هذا الأديب سببا فى قتله ... وفى أنفة مؤرخ كبير وأديب نابغ هو ابن الأبار القضاعى من ترجمته والتعرض لذكره ، فقد قال هذا ابن الأبار فى معجم أصحاب الصدفى : إنه لم يكن مرضيا وحذفه أولى من إثباته . ولذا لم يذكره فى التكملة . أما قتله فقد قال ابن سعيد فى المغرب — بعد كلام — مانصه : « وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجّه ، فوجد فى فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولا ... ... » ... وقال ابن دحية إنه قتل ذبحا باشارة على بن يوسف بن تاشفين ...

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقى

٦ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي



كانت القوة كلها مؤلفة من أربعة أفواج وسرية خيالة وبطرية جبلية . وكان لدى كل سرية مشاة يبلغ عددها (٢٠٠) جندى ، أربعة طليان وهم رئيس وملازمان وضابط صف . أما الملازمان الآخران فمن الأهلين . ونظراً الى التنسيق الجديد بلغت القوة فى المستعمرة ما يلى :

١٧١	ضابطاً طليانياً
١٤٠٠	جندى طليانى
٣٧	ضابطاً أهلياً
٤٤٠٠	جندى أهلى
٦٫٠٠٨	المجموع

وفى سنة ١٨٩٥ أحدث الحاكم العام الجنرال « باراتيرى » احتياطاً من الجنود المسرحين يتألف من ثمانى سرايا تبلغ قوتها ١٧٠٠ جندى

وأطلق الطليان على الجندى الأهلى اسم « عسكرى »

ولما توترت العلاقات أنجد الطليان جيش المستعمرة بقوات أخرى جلبوها من إيطاليا . وفى الشهر الأخير من سنة ١٨٩٥ بلغت النجدة أربعة أفواج قوة كل منها ٦٠ جنديا . ثم جعلوا القوة الأهلية ثمانية أفواج بعد أن كانت أربعة أفواج . وزادوا قوة السرية فيها من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جندى ، وهكذا بلغت قوة الجيش ١٤٫٠٠٠ ، منها ٢٫٨٠٠ جندى طليانى

وباضافة قوة الاحتياط إلى ذلك أصبحت قوة الجيش ١٨٫٠٠٠ جندى ، وفى معركة عدوى كانت قوة الجيش كما يلى :

(ا) لواء الجنرال « البرتونة » وكان مؤلفاً من أربعة أفواج أهلية وبطريتين طليانيتين وبطرية أهلية

(ب) لواء الجنرال « دابورميدا » وكان مؤلفاً من ستة أفواج طليانية وفوج أهلى وأربع بطريات طليانية

(حـ) لواء الجنرال « اربعوندى » وكان مؤلفا من خمسة أفواج طليانية وسريتين أهليتين وبطريتين طليانيتين

(د) لواء الجنرال « اللانا » وكان مؤلفاً من ستة أفواج طليانية وفوج أهلى وبطريتين طليانيتين سريتى الرمى وسرية هندسة

فالجيش كان مؤلفاً من ثلاثة وعشرين فوجا ، وسريتى مشاة ، واثنتى عشرة بطرية ، وسريتى هندسة ؛ وكان مجموع القوة : ٥١٠ ضباط ، و١٢٫٤١١ جنديا إيطاليا ، و٧٫٣٣٠ جنديا أهلياً و٦٤ مدفعاً ، ومجموع رجاله ٢٠٫٢٥١ رجلا ، وهكذا يصيب كل ألف جندى ٣٫١١ مدفعاً ، وكانت هذه النسبة جيدة فى ذلك الزمن

أسلوب التعبئة الطليانية

كانت كتب التعليم الطليانية شائعة فى جيش المستعمرة ، إلا أن بعض أحكامها عدل نظراً الى حالة العدو . وكان بعض هذا التعديل ، الحركة فى ميدان المعركة بالنظام المنظم ، والانتشار بصف واحد ، على أن يكون الجنود متجانبين دون فرجات

وظهر من حركات البريطانيين على المهدى أن هذا الأسلوب لا يفى بالمرام تجاه صولة الأحباش الذين يظهرون شجاعة فائقة فى حملاتهم ، فاستفادت القيادة الطليانية من حركات البريطانيين وقررت أن تترك قدمات احتياط فى الخلف لتنجد الخط الأول عند الحاجة أو لتكون متأهبة للطوارئ . إلا أن الضباط

لم يتعودوا هذا الأسلوب تماما لما وقعت معركة عدوى ، ولاسيما أنهم كانوا قد تدربوا على أساس التعبئة الأوربيـة قبل مجيئهم الى المستعمرة

ليس من السهل دخول القتال فى مستعمرة بعيدة عن الوطن ما لم تنظم أمور السوقيات ؛ والظاهر من تدابير الطليان أنهـم لم يضعوا خطة ناجحة لشؤون النقلية ولم يمهروا فيها ، فاتخـذوا الميناء « مصوع » قاعدة للحركات وأرســلوا اليها القطعات والتجهـيزات على التعاقب دون ترتيب . فكانت التجهيزات ومواد الاعاشة تـكدس هنا وهناك بصورة يصعب نقلها من الميناء إلى الداخل

والأغرب من كل ذلك أن الحـكومة الطليانية كانت ترغب فى إدارة رحى الحرب دون انفاق المـال . ولما طلب الجنرال باراتيرى المال أجابه رئيس الحـكومة « كريسبى » بأن نابليون الأول كان يحارب حروبه بمال العدو ؛ قال هذا ناسياً أن الساحة التى يتحرك الجيش فيها هى أرض قفراء لا ماء ولا أقوات كافية فيها

الشروع فى القتال

توترت العـلاقات فى مايو ١٨٩٤ . وفى آخر شهر من هذه السنة ظهرت علائم التمرد فى جنوبى أسمره . وكان المحرض على ذلك رأس تيجرى « منيفسيا » ، ولمـا سمع الطليان أنه يجمع الجنود طلبوا منه تسريحهم فلم يجب طلبهم

وعلى أثر ذلك تقدمت القوة السفرية المـكلفة بستر أسمرة ومصوع بقيادة الجـنرال « باراتيرى » الى شمالى نهر مارب وعسكرت هناك

وفى ١٣ يناير ١٨٩٥ عـبر « منيفسيا » نهر بلزة فتقدم الجنرال نحوه ونشبت المعركة فى كواتيت . ورتب باراتيرى ثلثى قوته مع البطرية الجبلية فى الخط الأول ، وترك باقى القوة فى الخط الثانى لحماية جانبه الأيسر

وكان الأحباش يسعون للالتفاف حول هذا الجانب إلا أن إرسال الوحدات الأهلية للنجدة ، وثبات الطليان فى الجبهة ، واشتراك جميع القوات فى القتال على التدريج مما ساعد باراتيرى على الاحتفاظ بموقفه ، وتوقف القتال بعـــد الظهر واستمرت المناوشات الخفيفة الى المساء وانسحب الأحباش ليلا

وشرعت القوات الطليانية فى المطاردة فى ١٥ يناير ١٨٩٥ وتقدمت طول النهار ولحقت بالأحباش فى سنافة . وبعد اطلاق بضع طلقات انسحب الأحباش ، وتقـدم الطليان على طريق الهضبة دون أن يضطروا الى عبور الأنهار ، ودخلوا ادجرات فى ٢٥ أبريل ١٨٩٥ . وفى شهر مايو بدأ موسم الأمطار الغزيرة فتوقفت الحركات

أما الأحباش فأخذوا يجمعون قواتهم لمقاتلة الطليان ، وكانوا يأملون أن يتم الحشد فى الخريف ، فشرع الأحباش فى الهجوم على الطليان لاخراجهم من البلاد . أما الطليان فأنجزوا تحـكيم موقع ادجرات فى شهر يونيو . والموقع كما نعلم يرتفع عن سطح البحر ٢٥٤٥ مترا وهو صالح لاقامة الأوربيين من حيث الهواء . وهو أيضا موقع خطير فى حد ذاته . ففيه تلتقى الطرق الممتدة إلى مقاطعة شوعا ومقاطعة أمحرة ، فضلا عن كونه واقعا فى نقطة ملتقى الجبال ، ومنه تتشعب سلسـلة عدوى التى تفصل حوض « تكاه » وتوابعه عن حوض « مارب » وتوابعه

وقرية عدوى عاصمة المقاطعة ، وعلى مسافة خمسة وعشرين كيلومترا منها تقع أكسوم العاصمة الدينية ، حيث يتوج عواهل الحبشة . واحتل الطليان عدوى أيضا فى شهر أبريل ، وبذلك استولوا على خط (ادجرات ـ عدوى) فسيطروا على المسالك المؤدية اليه ، وجعلوا حوضى النهرين تحت نفوذهم

واستمروا على التقدم من ادجرات سالـكينَ المرتفعات التى تفصل بين أحواض الماء ، ودخلوا قصبة « مكلة » أيضاً وحكموها

وعلى هذا الأسلوب تحركوا بحذر وشيدوا القلاع على طول الخط بمراحـــل ٣ الى ٥ أيام . وكان من الضرورى الاهتمام بالمواصلات التى تربط هـذه القلاع بالساحل . ولا شك فى أن توسيع دائرة احتلالهم على هذه الصورة جعلهم ضعفاء فى كل محل ، لأن القوة لم تكن تكفى لحراسة خطوط المواصلات ، والدفاع عن هذه القلاع وتهيئة قوة سيارة تتحرك عند الحاجة لضرب الأحباش ، لأن القوة لم تزد حينئذ على ١٨٫٠٠٠ رجل . أما الخط الذى انتشرت عليـه القوة فيبدأ من « كسلا » ويمر بخط « كون ـ اسمره ـ ادجرات » وينتهى فى « مكلة » . وكانت الأخبار تؤيد تأهب الأحباش للمعركة الفاصلة . ولم يكتف الطليان

بنشر قواتهم على ذلك الخط الطويل بل أوفدوا قوة ستر مؤلفة من فوج أهلى وفصيلة مدفعية الى جنوبى « مكلة » فى مرحلتين الى (امبا ـ الاغى)

وفى نهاية السنة هاجم الأحباش هذا الموقع فدافعت القوة دفاعا مستميتاً ، ولم يتلق آمرها أمر الانسحاب إلا متأخراً بعد أن قضى الأحباش على قوته وغنموا مدفعيته ، بينما كان الموقف يتطلب أن يبلغ هـذا الآمر واجبه الأصلى وهو الدفاع الرجعى دون دخول قتال فاصل

وكانت القوة الحبشية مؤلفـة من ٣٠٫٠٠٠ رجل يقودها الرأس « ما كونين » والد الرأس « تفرى »

وكان الجنرال « ارعوندى » بكوكبه (بقسمه الأكبر) فى مكلة ، ولـما تيقن أن الأحباش سوف يهاجمونه وأنه لا يستطيع الدفاع أمامهم قرر الانسحاب ، فانسحب بسرعة الى «اداجاموس» ثم إلى «ادجرات» وترك فى مكلة فوجاً أهلياً مع مدفع جبلى فقط

أما النجاشى منليك فكان مهتما بجمع الجيش ليملى إرادته على الطليان ويهيء سبيل الخـلاص لبلاده . وبعد أن جمع المـال المطلوب من مقاطعة الغالا ، وأنجد جيشه بخيالة الغالا ، وصل إلى اديس أبابا وأعلن إلى الجميع أن الحبشة لا تحتاج إلى أحد بل عد يدها إلى الله ، فتولى قيادة جيشه بنفسه وجمع جميع الرؤوس فى « بروميدا » وصرح لهم ولجميع المشايخ والأشراف برغبته فى طرد الطليان من البلاد وانقاذها من مخالب الاستعمار . فوافقه الرؤوس على ذلك بالاجمـاع ، وكان المشهد مما يثير الحماسـة فى الصدور ، وكانت قوة الجيش الحبشى مع قوة جيش « ما كونين » تبلغ ١٦٠٫٠٠٠ رجل . فحاصر ما كونين قلعة مكلة وأخـذ يدكها بنار مدافعه ، وقطع عليها طرق الماء . فاضطرها إلى التسليم فى ٢٥ ديسمبر ١٨٩٦ ووافق النجاشى على عودة الأسرى الطليان الى بلادهم لينشروا الرعب فى قلوب الطليان الآخرين

ولـما انتشرت أخبار انتصار الأحباش فى المستعمرة ساد القلق والرعب فى قلوب الناس ، وفكر الطليان فى الدفاع عن ميناء مصوع أيضاً . وقررت القيادة حشد جميع القوات فى ادجرات لصد تقدم الأحباش ما عدا الحاميتين اللتين فى كرن وكسلا ، وكانت قوة الحامية منها مؤلفة من فوج وسرية خيالة وفصيل مدفعية

(يتبع) طه الهاشمى

مؤتمر القلوب

للأستاذ السيد محمد زياده

سألت نفسى بعد تأمل وتفكير : « ماذا يكون لو أمكن كلُ إنسان أن ينكمش حتى يختفى فى قلبه ، وأمكن قلبه أن يتسع حتى يحويه ؛ فيظهر للناس عارياً لا يكسوه إلا الشفاف ، ويصبح الشخصُ المنطوى على قلب قلباً منطوياً على شخص ، وتمشى القلوب وتتنقل ، وتدب حيث تحب ؟ أتنكشف السرائر ، وتسفر الخفايا ، وتباح الأسرار ؛ ويستطيع كل قلب أن يعرف ما له عند الآخر بغير حاجة الى رسول بينهما قد يصـدق وقد يكذب ، ويتبين المرء ما يكنّـه له حبيبه أو صـديقه خاليا من الزيف والرياء ؟ »

وكان سؤالا غريبا جديدا ، فحيرنى الجواب عليه ؛ ثم رأيتنى فى الرؤيا أجرب هذا ... فانقبضتْ أطرافى الى بدنى ، وانحصر بدنى فى قلبى ، فأصبحت قلبا ومضيت لشؤونى فى الحياة ؛ ووجدتنى مقبلا عليها بتلهف وشوق كما يقبل على الحرية سجين أطلقوه . فهو يندفع اليها بقوة ، ويتقلب على رحبها بشغف ، كأنه يريد أن يجنح فيها فيملأها . وهى تتلقاه هاشة باشـة ، وتتفتح له حيث اتجه ، وكأنها تريد أن يمتزج بها فيصير منها

ثم وجدُتنى هنا وهناك طلْقاً موزّعا متحيرا لا أستقر ، ولا أعرف كيف أستقر ، ولا أفهم معنى الاستقرار . وزعمت أنى لم أوجد فى الحياة الا لأتحسس الجمال وأتلمس الحب ، وخيّل إلى وهمى أن الجمال فى كل لحظة يناديني ، وأن الحب فى كل بقعة ينتظرنى ؛ فجننتُ بالجمال والحب ، وحلّقتُ فى سمائهما بأجنحة الخيال حتى كدت أتحطم أو تحطمتُ . . بين شقاء يجرُّنى اليه الهجر ، وشقاء يجرنى اليه الوصال

ورأيت العيون من حولى تلهمنى بنظرات هى التعجب والاستغراب ، وكأنها تتخاطب قائلة : « ما لهذا القلب لا يهدأ ؟ » حتى كادت تشعرنى بأنى وحدى أصفق للجمال وأخفق بالحب . ولـكنى لم أحفل بالنظرات ولم أهب العيون ، وسرت فى طريق كما أنا قلباً مهوماً شديد الخفقان

ثم رأيتُنى مدعواً إلى مؤتمر دعيتْ اليه القلوب جميعا ؛

ففرحتُ بهـذه الدعوة ونشطت إلى الائتمار . وتوافدنا نحن القلوب يسابق بعضنا بعضا ، ويحمل كل منا فى أعماقه ما يحمل

* * *

فهـذا قلب صاف لا رنق فيه ولا غبار عليه ؛ وهذا قلب درِنٌ غلب على بعضه الدرنُ وغلب على بعضه النقاء ؛ وهذا قلب أسخمُ لم يبق فيه أثر لطبيعته ؛ وهـذا قلب كبير ؛ وهذا قلب صغير

ووقفتُ أرنو إلى ذلك الحشد الحافل وأستمتع بما فيه من مشاهدَ غريبة كانت محجوبة عني أو كنتُ محجوباً عنها ؛ وأخذ كلُّ قلب يتطلع إلى القلوب حوله ، ويستمتع استمتاعى وكأنه يحس ما أحسه من دَهَش يصحبه فرح ، ومن رَهَب تصحبه لذة

ورأيتُ على بعد غير سحيق من مكانى قلبا تقلص أديمُه ، وشاه مظهرُه ؛ فدلَّنا على باطن غاسق كالليل ؛ والقلوب كلها نافرة منه صادفة عنه ، كأنه قتاد يشوك من يقربُه ، أو مخلوق وحشى يلتهم من يلمسه . وهو فى مكانه يوزع عليها نظرات ممتعضة ساخطة ملأى بالتمرد والتوعد . فسألتُ : « ما لهذا القلب لا يجد منا صاحبا ولا نجد فيه أهلاً للصحبة ؟ » فقالوا : هـذا قلب رجل لا يعيش إلا ليبثَّ الفساد بين قلوب عارفيه ، ولا يستريح حتى يشى بين صـديقين متفقين ، أو يعكر ما بين حبيبين ناعمين ، أو يسىء إلى أحدٍ ما . فتراه يبتسم لهـذا ، ويداعب ذاك ، ويوسوس إلى ذلك ؛ حاسـباً أن فى ابتسامته ودعابته وريائه ستاراً لحقده وخبثه وخسته ؛ ولـكن هيهات . . فـكلنا يعرف ما فى جوفه ، وكلنا يحتقره وينبذه ويلعنه ، وكلنا يود الآن لو يسحقه فيريح الوجود من وجوده

ورأيت فى ناحية أخرى قلبا شفَّ لونه ، وأضاءت سحنته ، فدلَّتنا على دخيلة بيضاء كالشمس ، والقلوب كلها ــ إلا ذلك القلب الداكن وأمثاله ــ متهافتة عليه ، متوددة اليه ، تصافحه وتحييه ؛ فيصافحها ويلاقيها بتحيات زكيات ملأى بالبر والقناعة ــ فسألت : « ما لهذا القلب لا يجدمنا قاليا ولا نجد منه داعيا للقلى ؟ » فقالوا : « هذا قلب رجل تقى كريم يعرف الله ويخشاه ، نصب نفسه لهداية الناس ، وقضى أيامه يجاهد الرذيلة ليحيي الفضيلة ، ويكره الشر ، ويحب الخير . فطالما سعى ليوفق بين صديقين مختلفين ، أو يصلح ما بين حبيبين تاعسين ، أو يحسن إلى أحد ما ؛ فتراه يرشد هذا ، ويعلم ذاك ، وينتزع الغواية من ذلك ، صادقا فى كل ما قال وكل ما فعل ، مصلحاً أينما حل . فكلنا يعرف فضله ويقدره ويحترمه ويود لو يرفعه فيجعله فى السماء

ولفتَ بصرى قلبٌ غلا دمه ، وتصاعد البخار من فتحاته ، وكاد ينـدلع اللهب من جنباته ؛ حتى خلتُـه تنُّوراً تنصهر فيه جدرانُه جزءاً فجزءاً ، ويشتد أزيزه كلما استعر جوفه . يروح ويغدو بين القـلوب هائجاً كالمشرَّد ، حائراً كالضال ، لا تفتر قواه ولا ينقطع خفوقه . فتساءلنا عما به فوجدناه قلب محب فارقه حبيبه فبرَّح به الشوق ، وأضناه الألم ؛ فهو ظمآن لهفان يبحث عنه بيننا علَّه يلقاه فينقع اللقاء غلته ، ويبرد لهفته . فقلت : آه ! ! ما أعظم سلطان الحب . . آمنت بأن فى الحياة قلوباً تحار حيرتى وتكابد ما أكابد

وكان بين القلوب قلبٌ خالٍ كالبيضة إذا أفرختْ ، سافر كالمرأة إذا تهتكتْ ، باهت كالشمس إذا تنقبتْ بالسحاب . فكان أشبه شىء بالاسفنجة ؛ وأعجبنى منظره الفاتر الخالى من كل قرائن الحياة ، لأنه شاذ بفتوره وخلوه منها ، وأخذتُ أراقبه مليا لأقف على سره لو كان لمثل هذا القلب سر ؛ فوجدته إمعة يظل ساكنا كالنائم فلا يتحرك حتى يحركه غيره ، ولا يتوجه حتى يوجهه غيره ، ولا يعمل إلا ما يمليه عليه غيره

يدنو منه قلب من تلك القلوب السوداء هامساً موسوسا فلا يلبث حتى يسودّ ويتشكل بشكله ، ثم يدنو منه قلب من تلك القلوب البيضاء الناصعة محدثاً مبشراً ، فلا يلبث حتى يبيضّ ويتشكل بشكله ، وهكذا هو فى كل أحواله مقود لا إرادة له ولا صفة

فسألتُ عنه فقيل لى : هـذا قلب شاب ساذج أبله مغرور بنفسه ، مخدوع بغروره ، لم ينكبه الدهر ، ولم تكرثه العوادى ؛ فعاش كما تراه سلبيا من الشر ومن الخير ، بعيداً عن الحزن وعن الفرح ، وحسب أنه عاش كذلك برغبته وقدرته ، وأنه استطاع أن يهزأ بالأحـداث لأنه فوق متناولها ؛ ولم يعرف أن الله خلقه ضعيفاً فأنكره الدهر ، وهزأت بوجوده الأحداث

ووقع بصرى على قلب تراه واقفاً فلا تحسبه واقفاً لدأبه على الدق والتوثب ، ولا تفهم من خفقانه المتواصل معنى خفقان القلوب . وإنما تفهم معنى الجبروت والصولة والعربدة ! ! ينظر

الينا شزرا ويتطلع إلى محيطنا باستخفاف ؛ ثم يصرف عنا بصره ويتطلع إلى أبعد من محيطنا باستخفاف ؛ كأنه لا يشعر بنا وكأنه يعتبر الكون أضيق من أن يسع قوته وعظمته ، فلا يروح ولا يغدو إلا في تيه وخيلاء ، ولا يقف إلا وقفة المتمرد المتحفز ، وهو مع هذا أبكم ، أصم ، أعمى ، كافر ، لا يؤمن بالرحمة ، قاس لا يعرف الآلام ؛ فهو أشبه شيء بكرة من الحديد

قلت : قلب من هذا القلب القوى المتكبر ؟ قالوا : قلب رجل شجاع جبار لا يهاب الصعاب ، ولا يرضى الاستكانة ، ولا يعرف التسامح ، مفطور على الكبر والعظمة واستصغار الكبائر ؛ واستضعاف الأقوياء ، واستعباد الضعفاء . فهو يعتقد أنه مخلوق للغلبة والانتصار

***

ونظرتُ على يميني فرأيت قلبا استحق منى أن أطيل النظر اليه لما هو فيه من هم وكآبة ، وقطعت فترة طويلة من الوقت شاخصاً إليه ، متأملاً مشفقاً وأنا أحس أنه بائس وأن بيني وبينه صلة من البؤس مهما يكن بؤسُه ثم ملت اليه وسألته : ماذا بك أيها القلب الحزين الباكى ، ومالى أراك ساكنا ساكنا ... تبدو فى سكونك كاليائس المقشعر من يأسه ، وكأن بك تستكثر على نفسك أن تعيش لأنك برم بالعيش ! ! إنك منا ولكنك غريب عنا ؛ لا تخالطنا كما نتخالط ولا تحادثنا كما نتحادث ؛ فما رأيتك منذ رأيتك إلا زافراً تكبت الزفرات ، أو مستعبراً تخبأ العبرات ، وأحسب أنك نكبتَ فى حب فمشت فى ذكرياته ، وأن تلك الذكريات التى وصلتْ ما بينك وبين الماضى قطعت ما بينك وبين الحاضر : فماذا بك ، وقلب من أنت ؟

فانتفخ ، ثم صعدت من فوهته زفرة ملتهبة ، ثم صمت قليلا ، ثم رنا إلىّ طويلا ، ثم قال : دعني لمأساتى فلهب لا يحرق إلا من ألقى فيه

قلت : ولكنى أريد أن أعرف مأساتك ؛ فعسى أن أعينك أو أواسيك أو أتوجع لك

فصعدت من فوهته زفرة أخرى وقال : أواه ... هذا شعور جديد فى الحياة أو جديد فى حياتى أنا فقط ، وهذه كلمات لم أسمع مثلها منذ حين . فيالك من قلب طيب !

إن مأساتى هى أنني بحياتى مأساة فى الحياة ! ! لقد كنت محبا واليوم قد مات الحب ، بل أنا محب ؛ كنت هانئا ، واليوم قدمات الهناء ... بالأمس كنت قلب فتاة عذراء مؤمنة ، واليوم أنا قلب امرأة متخالعة متماجنة ... امرأة مومس أقدمت على الدعارة مكرهة ، ثم مستسلمة ، ثم راضية ، ... امرأة ساقطة تبيع عرضها فى سوق الفجور (الرسمى) كل يوم لكل من يدفع الثمن ...

مسكينة هذه البائسة المجروحة التى تحملنى بين حناياها بائساً مجروحا ! ! إنها تحاول كثيراً أن تسكتنى وتخفينى ، ولو استطاعت لقطعت ما بينى وبينها من شؤون وصلات ، لتخلو لشؤون وصلات ذلك العالم الداعر الكافر الذى تعيش فيه بين ذبائح الانسانية وهدّامى البشرية ، وأنا فى صدرها أتتاع وأتألم وأبكى وليست لى دموع إلا الدماء أستوردها من بدنها فيهزل قوامها ، وهزال قوامها يذبل شبابها ، وذبول شبابها يضيع جمالها ، وجمالها هو حياتها الفانية التى لا خير فيها

الرجال يحدثونها دائماً عن مواضع الفتنة ومواطئ اللذات فيها ، فلا تسمع رجلا واحدا يحدثها عن مواطن الحسرة ومدافن الذكريات فى أعماق نفسها ، ويسألونها كل يوم عن شهوة بعد شهوة ، ولا يسألونها : أى حزن دخيل ثقيل تحملين ، وكيف تتعذبين ! ! إنها تضاحكهم وتداعبهم ترويجاً لخلاعتها بينما تباكينى وتناجينى تفريجاً لكآبتى ، وهى فى ذلك مضطرة إلى التظاهر بأنها امرأة بلا قلب ولا ضمير ، وإلا اتهموها بأنها تحمل قلباً حياً وضميراً مستيقظاً ، وعدوها بذلك خائنة لحرفتها غير حافظة لنعمتها

لقد حبستنى وحرّمتْ على أن يسمعنى أو يشعر بى أحد ، وما جئت إلى هنا إلا خلسة منها . فهى الآن فى أحط أوقاتها بين أحط الرجال

ولكنى لا ألومها فأنا الجانى الأول عليها ، ... لقد قادنى الحب فقدتها أنا الى مممة العواطف ، ثم قادتها العواطف المطلقة إلى مغانم الشهوات ، ثم قادتها الشهوات الغريرة الى مساقط الفساد ، ثم إلى الهاوية التى لا مقيل لها منها إلا الموت

وبكى وبكيت له ورحت أواسيه بالقول لأن مأساته أكبر من أن أعالجها بالعمل

(البقية فى العدد القادم) السيد محمد زياده

عـــويل الدم

[مهداة الى الأستاذ الزيات]

من وحي مقالة : « على هامش الموضوع »

بقلم جورج وغريس

« في يوم مشئوم ، في بلد مجهول ، جرى دم الشهداء على أديم الغبراء ، وظل سحابة يومه شاهد الأرض للسماء ؛ وفي الصباح الباكر مر عابر السبيل ، فألفى الدماء قد استحالت إلى كلمات ، فأخذ يلتقطها بيد مرتجفة ويلقيها في سلال حمراء وسوداء ... وهاؤم اقرأوا تلك الكلمات .. .. »

***

لقد قالوا للسان اصمت فتكلمنا

نحن القطرات المتساقطة من عيون الفناء ، وحيث سقطنا ستظل الحقيقة قائمة الى الأبد

إنما يعيش الانسان بالدم الذي يجرى في عروقه ، فان مات شهيدا عاش الناس بما يلقيه من الدم في عروقهم

لقد كذبت معاجم اللغة في كلمتين : « قعقعة السلاح » وصوابها « قعقعة الدم »

ليس معنى الموت الموت دائماً ، فقد يكون معناه الحياة أحياناً

أليس غريباً أن نهتف للحق مرتين : مرة في حنايا القلب ، ومرة من ثنايا الأرض ؟

لو أننا عدنا إلى حيث أتينا ثم خُيرنا في مصيرنا ما اخترنا غير هذا المصير

لقد فهمنا حاجة الأرض فأطفأنا ما بها من ظمأ . . . .

أيها الثرى الجائع .... لقد أتخمك الشبع !

لقد قالوا لنا عيشوا في معاقلكم فانطلقنا منها أحرارا لما أحجم القوم تقدمنا ، وحين أطفأ الناس أنوارهم أتينا لهم بالمشاعل

نحن مادة الحياة أينما حللنا ... عشنا في القلوب فخفقت ، ولمسنا الأرض فنبضت . .

ليت الانسان يفهم أن للحياة معني غير الذي دارت عليه أيام الأنام ، والحياة بغير هذا المعنى لا معنى لها

انصتوا أيها الباكون حولنا واستمعوا ، فان قيثارتنا ترسل أنغامها السحرية

ان تفجرنا من القلوب أو جمدنا في العروق فنهايتنا واحدة : الأرض مثوانا وهي الأم الرءوم

أليست تلك أرض الوطن ... ؟ لقد خالطنا حبها فاختلطنا برغامها وتوغلنا في أعماقها وأضفنا الى تربتها عنصراً جديداً لن يزول إلى الأبد ... ... أليس في كيميائها « المادة لا تفنى ؟ ... »

للمظالم البشرية سهام مسمومة وللنفس الشريفـــة دم كريم ... ... إن أصاب ذلك الدم سهم من تلك السهام أبت كرامته أن يعيش إلى جواره فيفلت من مكانه ناقماً عليه ثائراً على عداونه

جبلت نفس الظالم من صخر لا قلب له ولا دم . فهو ينتقم لتلك الطبيعة الناقصـة . فان صادف قلبا أرهقه ، وإن لاقى دما أهرقه .

لا تقوم في نفس ابن آدم نزعة إلى الشر إلا ويكون مبعثها شيطان فيه . ولا يجيء منه الخير إلا يكون مصدره الانسانية في الانسان . ونحن ـ وا أسفاه ـ نتيجة صراع بين النزعتين في نفسين مختلفتين

تضافرت الفضائل فغلبتها التضحية ، وتنافرت الرذائل فجمعتها الأنانية

ياعابر السبيل .. اخلع نعليك ، فان الأرض التي تطؤها مقدسة !

يا عابر السبيل ... نحن غرباء مثلك ، مطاردون مثلك ، وقد أحاطتنا الحياة بهوانها حتى زجرتنا عن محيطها ، وقذفت بنا الى الأرض قطرة حارة وزفرة متأججة تحرق الأديم وتلفح

الوجوه . فان بلفتك أنفاسنا المحترقة نخذ من حرارتها قوة لأنشودتك ، ومن فيض آلامها املأ أنغامك سحرا وجلالا وروعة ... ...

يا عابر السبيل ... ... لا تخش أن يكون سبيلك سبيلنا وطريقك طريقنا ... فانما السبيل للمجد وعر والطريق اليه شائك ، فلا تكتئب أو تحزن فمن وخزات ألمك تعيش الكرامة ، ومن زفرات بكائك يشتق الخلود آيته ...

نحن الورود الحمراء التى سقتها الدموع وأنبتتها الأهوال . ستميش جذورنا فى أعماق الصخرة وتصمد أعوادنا المخضلة فى وجه العاصفة ، وتتفتح أكمامنا للأجيال فتملأ النسمات بأريج عاطر ينعش الأنف ويغذى القلب ويثير الفؤاد

لنا فى أذن الأجيال همسات ، أسمعوها يا هؤلاء لأولادكم وأحفادكم إن كان لكم ولهم آذان . واكتبوها على شغاف قلوبكم وقلوبهم بحروف من عصارة تلك القلوب . فان كانت دما نقيا رفعكم ورفعهم ، وإن كانت دما مارقا خذلكم وخذلهم

(اسكندرية) جورج وغريس

أحلام وذكريات

للآنسة فردوس مصطفى

من مشكاة الطفولة اللاهية الغافلة كان قلبي الخلي يطل على قوافل الحياة فيراها ويحس بها غير ما يراها ويحس بها الآن ، وكان احساسه بها حينذاك احساسا قوى الفطرة جامح الغفلة يبهره من قافلة الحياة تناسقها ومظاهرها غير مدرك سرها وجوهرها . وكان يرقبها طوال الأعوام الثلاثة عشر ، حتى إذا ما تحول إحساسه بها الى بعض ادراكه لها نشأ عن هذا الادراك الحسي شعور جديد دفع به إلى السير مع القافلة ، فاندمج فيها ولم يعد يراها ، ولكنه بدأ يعرف سرها ويدرك مداها . وعند ما أذكر أحلام الأعوام الثلاثة عشر ، وقد كانت كلها أحلاما ، أشعر بالماضي يجذبني نحوه وبالحنين يعاودني اليه ؛ فأحلام الصغار وأمانيهم أسباب تصل ما بينهم وبين الحياة بسبائك من الذهب ، ولأحلام الكبار وأمانيهم أسباب تصل ما بينهم وبين الحياة بحبائل من النصب ، وياشد ما يهفو القلب الى القفزات المرحة فى رحبة المدرسة ، والى تلك الدمى المتراصة فى الدار من مختلف اللعب ، والى فساتين الأعياد الزاهية الألوان ؛ كل ذلك له أثر فى القلب ، لأنه بدء علوقه وأول صباباته . فلما شب عن طوقه وبارح مشكاته أصبحت له صبابات غير تلك الصبابات ، وأماني وأحلام غير تلك الأماني والأحلام ، بذل فيها من دمه ونعيمه الشيء الكثير ، فثار على الحياة يثأر لدمه الغالى ونعيمه الذاهب ؛ وللقلب حين يثور فلسفة يحتار فى غاياتها العقل ؛ وللقلب حين يثور أفانين يقصر عن إدراكها الفكر ، ولكنها فلسفات وأفانين هى أقرب الى السماء منها الى الأرض ؛ تدمجه فى الروح الخالص فلا يشعر بما على الأرض من مادة طاغية ، ولا يحس من بهرج الحياة وظاهرها بسعادة خاوية . فهناؤه فوق المادة ، ونعيمه موصول بالسماء ، وبين الفينة والفينة يعاوده الحنين الى ذكريات الطفولة وأحلامها ، والى المشكاة وأيامها ، فيخيل اليه أنه يستطيع أن يطل على الحياة كما كان يطل ، وأن يرقب القافلة كما كان يرقب ، ولكن هيهات !

فردوس مصطفى

عجز التجارب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

ما زاد مُرُّ حياتى غير أشجانى … فزودتنى رجحاناً كنقصان
يا دهر لا تُنْسِنِى فى ضيق عادية … محاسن العيش من صبر وغفران
وقوِّنِى بتجاريب أزاولها … فانها لم تزدنى غير عرفان
وكيف يُلهِمُ خُبْرٌ صَبْرَ مصطبر … يَدْرِى له الخبرُ عرفاناً بايهان
يزيده العمر من وَهْيٍ ومن كِبَرٍ … ما زاده العمر من خُبْرٍ بِحِدْثَانِ
فكيف ينفع تجريبٌ ومانحه … يومى جلادة أعصاب وجثمان
بعض التجارب يُنْسِى بعضها زمناً … إذا تعاور لبَّ المرء ضدان
فان تيقظ فى تجريب طارقة … فانما هو يقظانٌ . كوسنان
ضرورة العيش أن ينسى ليذكرما … يغدو يعالج من أمرٍ له ثان
فالمرء ما عاش من حال لثانية … مُنَقَّلٌ بين نسيانٍ ونسيان
فإنْ تذكَّرَ أمراً واحداً أبداً … قضى الحياة غريراً جد غفلان
وإن تنامى فلا نَفْعٌ لخبرته … وكيف يُجْدِيه مَنْسِيٌّ بغنيان
فان تذكر منسياً تبادهه … منه فجاءة ما يقضى الجديدان
كأنه مُستَجَدٌّ لم يُلِمّ به … ولم يُحَوَّلْ إلى طبع وديدان
ورب طبع بلا خُبْرٍ وتجربةٍ … أسخى على المرء من خبر وعرفان
ذُخْرُ التجارب ذخرٌ لا رواج له … ولم يُخَصّ بأرباح وأثمان
ذخر الأقاصيص مسحوراً ومُخْتَزَناً … فليس للعين منه غير ريعان
إلاَّ تجارب علمٍ يُستَجَدُّ بها … مايملأ العيش من حسن وإحسان
لولا انتفاعك من عادٍ مُفَضَّلَةٍ … قد تجتبيها مع التجريب فى آن
لما خُدِعْتَ بأشباهٍ إذا اختلطت … فعادةُ المرء والتجريبُ أمران
والخُبْرُ ليس بنافٍ عادةً شنأت … ولا يُداوَى به من وهى أبدان
يزيدك الخُبْرُ علماً بالحياة وما … تُغْرِى به الناس من شرٍّ وطغيان
حتى تسير على مجرى سجيتهم … فلا يزيدك فيها غير إمعان
فإن أبيت سجايا الناس من شمم … قضيت عيشك فى هم وأحزان
إلاَّ إذا ما لبست الدهرَ عافيةً … فهيأت لك من صبر وغفران

عبد الرحمن شكرى

السجينة

للأستاذ فخرى أبو السعود

لك الله كم ذا تطمحين وأعزف … وأثنيك عما تبتغين وأصرف
ويا نفس كم أزوَرُّ عما اشتهيتِه … وأعنى بما لا تشتهين وأكلف
وأحجم عما رمتنى فيه مُقْدماً … وأُقدِمُ فيما تكرهين وأسرِف
وأُبدى سوى ما تضمرين مكتّماً … جوى لك فى الجنبين لا يتكشف
تُجنِّين تهياماً ووجداً ولهفة … وأُظهر أنى الزاهد المتعفف
وتخفين إشفاقاً وأُبدى جِلادة … وأَغلُظ يا نفسى عليك وأعنُف
وأكظم غيظاً قد أطاشك فرطه … وأُجمل للباغى المسىء وألطف
كأنك فى الجنبين منىّ سجينةٌ … تعذَّب فى ظلمائها وتحيَّف
وتُكبح عما تشتهيه وتبتغى … وتُقمع أشواقٌ لها وتَشَوُّف
ظلمتك لم أظلِم سواكِ من الورى … وما من خلالى قسوة وتعجرُف
ظلمتك ، لا يا نفسُ بل تظلمينني … وأَصفح عما تُسلِفين وأصْدِف
أما كلَّ يوم مذهبٌ لك شائق ؟ … أما كل حين مأربٌ بك مُلْحف ؟
أما كل آن غايةٌ إثْرَ غاية … أُكلَّفُ فى إدراكها ما أكلَّف ؟
وسيان محمودُ العواقب نافع … لديك ومذمومُ المغبة مُتْلِف
أما تشتهين اليوم ما يُجْتَوَى غداً … ويُقْلَى لديك اليوم ما كان يشغَف ؟
وهل أنا مُسطيعٌ رضاك لو أننى … على العالمين الحاكم المتصرف ؟
ولو أننى عمْرى أُجاريك لم أعِشْ … عن النّهج إلا حائداً أتعسف
كلانا أيا نفسى بلاء لخدنه … نعم وكلانا ناقم ومعنِّف
نعيش كأنّا اثنان لم يتعارفا … وما لهما فى الدهر شمل يُؤلَّف
ظلمتكِ خدناً صاحباً وظلمتِنِي … فهَلّ فراقاً آتياً هو أنصف

فخرى أبو السعود

أُغنيـــة

بين يدي الشمس تشرق تحت السحاب

للأستاذ ابراهيم ابراهيم على

وجهُ منْ يا فجر هذا ما بدا   من وراء الغيب فى الأفق الجميلْ ؟!
سحَرَ الطيرَ ، فغنّى وشــدا   وترامت بهجة الدنيا تسيل
لهبٌ يندى على الكون ندى !   ناضر الجمرة كالخد الأسيل !
وجمالٌ فى جمالٍ فى جمالْ

يةٌ للحق فى عليــائها   تختفى فى السحب شيئاً وتبين
يقف العقــل لديها تائهاً   وهى أم العقـل والصبح المبين
غيمة واحـــدة تلهو بها   تحجب الغرّاء حيناً بعـد حين
أفسحرٌ ، ليت شعرى ، أم دلال ؟

أفهزلٌ ذاك يا أم الحيـاه ؟   لعبٌ فى الأفق، لهوٌ فى السحاب !
ها هو الكون جميعاً يا فتاه   يرقب الأضواء من خلف الحجاب
يسكبُ النور ، ولكن لا نراه !   ثم يبـدو من ثنيّات الضباب
فى العلا نورٌ وفى الأرض ظلالْ !

بل هو الجدّ ، ولا هزل هنا !   بل هو الحق ، ولا حق سـواه
بل هو الله ، تجـلى ودنا   وتباركتَ قديماً يا إله !
تبعث الشمس كأطياف المنى   كالرؤى يوماً ، ويوماً كالمياه
وجمالاً فى جمالٍ فى جمالْ

(قليوب)   ابراهيم ابراهيم على
المحامى

حنَين

للأستاذ رفيق خورى

واهاً على زمنٍ ما كان أقصرَهُ   فديتهُ بدمى لو صانه الزمنُ
نفضتُ منه يدى والحرصُ يُمسكه   والمرءُ حيثُ أراد الدهر مرتهَنُ
إن الذين دعتهم نيَّـةٌ قذُفٌ   سر الضمير ، وقد فارقتهمْ علنُ
لا يستجيبون للمضنَى ، فدىً لهمُ
نفسى ، وكنتُ إذا ناديتُهمْ أذِنوا (١)
أ كلما لاح برقٌ من ديارهمُ   أجابه من دموعى عارضٌ هتِن ؟
ما حيـلةُ المرء فى الدنيا بنافعةٍ   إذا أُريد به الترنيقُ والحَزَنُ
ضَلّ الفؤادُ الذى طار الفراقُ به   لهفى على هائم ما إنْ له سكن
يا ليتَ شعرى يدانينا السرور كما   كنا ، ويجمعنا بعد النوى وطن ؟

حمص   رفيق خورى

(١) أذنوا : أى سمعوا

القصص

صور من هوميروس

١٦ - حروب طروادة

فزع الآلهة . . .

للاستاذ دريني خشبة

قلق زيوس من اعتزام أخيل اقتحام الحرب

وكيف لا يقلق سيد الأولمب وكل من الفريقين يصلى له، ويطلب منه العون، ويتوسل اليه أن يُظفره بعدوه، فتنجاب هذه الغاشية التي صرّعت الرجال، وضرجت أديم الثرى بدماء الأبطال ! !

ودعا اليه أربابه فعقد منهم مجلساً للمشورة ؛ فانتظمهم ديوان الأولمب، وحفلت بهم ذروة جبل إيدا، وطفق الاله الأكبر يقلّب الرأى على جميع وجوهه، ويبحث المسألة من شتى أطرافها، والأرباب فيما بين ذلك يحملق بعضهم في وجوه بعض، وتضطرم في أفئدتهم نيران العداوة والبغضاء ؛ لأنهم كانوا جميعاً وقلوبهم شتى ! فهذا فريق منهم يعطف على طروادة، ويشيد بذكر طروادة، بل منهم من اشترك في بناء طروادة وإقام أسوارها، وتحصين صياصيها ؛ والطرواديون من أجل هذا قد أخلصوا العبادة لهؤلاء، وأقاموا لهم الهياكل المشيدة، والمعابد المنيفة، وهم في طويل الأحقاب والآباد ما يفترون عن عبادتهم والأخبات لهم، وتقديم القرابين والضحايا بأسمائهم

وفريق آخر من الآلهة يعتبر الشعب الهيلاني شعبه الخاص ؛ فهو لذلك يحدب عليه، ويرجو الخير له، وهو أبداً يستأذن سيد الأولمب فيحارب في صفوفهم، ويشد أزرهم، ثم الهيلانيون يخلصون العبادة لهذا الفريق، وهم أبداً يتملقون بهم، ويقيمون المعابد لهم في كل حنية من جبالهم، وبكل منعرج من شعابهم، ومنهم كل مثّال صناع اليد، مرهف الحس، رفيع الذوق ؛ وهم لذلك قد ملأوا المعابد والهيا كل بتماثيل الآلهة، حتى ما تقع العين على أجمل منها !

وفريق ثالث لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ينقم على هذه الحرب الشعواء التي سُعِّرت لغير ما سبب يستأهل كل تلك الضحايا ويستحل كل هذه المهج ؛ وهذا الفريق يحنق على طروادة ويحنق على هيلاس على السواء . ويود لو يأذن سيد الأولمب فيزلزل بهما الأرض، أو يرسل عليهما كِسَفاً من السماء، فلا يبقى على أحد منهم أبداً ! !

واتفق الآلهة على أن يذهب فريق منهم فيكون في صفوف الطرواديين يرشدهم، ويدفع عنهم عادية أخيل، ثم يذهب فريق آخر فيكون في صفوف الهيلانيين يفل من نشاطهم، ويكسر من سورتهم، حتى تكون الحرب بين الجمعين سجالاً ؛ وإلى أن يرى الآلهة في شؤون خلقهم رأياً آخر

وانطلقت حيرا مليكة الأولمب، ومينرفا ربة الحكمة، ثم هرمز رسول الآلهة وقائد الأرواح إلى هيدز . وفلكان الحداد وإله النيران، الذي فضحه مارس في زوجه، ونبتيون رب البحار العتيد الذي روّع الطرواديين في هذه الحرب أيما ترويع

انطلق هؤلاء فكانوا في صفوف الهيلانيين

وانطلقت ڤينوس إلى صفوف الطرواديين، وراح في أثرها أبوللو وأمه لاتونا وديان ومارس وإكسانثوس، وفئة غير هؤلاء من عشاق ڤينوس

وانبث الآلهة ينفخون في أبواق الحرب

وصاح أخيل في شياطين الميرميدون صيحة داوية . زادتها مينرفا قوة، فما تركت فؤاداً إلا زلزلته، وما غادرت نفساً إلا تركتها ترجف من خوف وفزع

وكان أبوللو ينظر الى أخيل فيتميز من الغيظ، ويود لو يبطش به بغدرة من غدراته التي أودت بيتروكلوس من قبل، ولكنه أحس بفرائصه ترتعد، وفقاره يندك من الرعب، لما رأى حول

أخيل من هذه الأرباب المتعطشة للدماء ، لا سيما هذا الالـه الوحش نپتيون الذى يرسل من عينيه بركانين من الغضب يضطرمان اضطراماً

وآثر أپوللو أن يستخفى فى زى ليكاون بن پريام وصورته ، وأن يذهب من فوره إلى إينياس العظيم مستشار طروادة وأبسل شجعانها بعد هكتور ، فيثيره على أخيل ، ويلهب فيه نخوة الجاهلية التى ســداها التفاخر بالأنساب ، ولحمتها التباهل بالأحساب ، والتبجح بأنا ابن من سمك السماء ، ودحا الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج !

واستطاع أبوللو أن يهوّن على إينياس من شأن أخيل ، وأن يحقر فى ناظريه خطبه ، واستطاع ببيانه الوسيقى ، وطلاقته السحرية ، أن يدفعه إلى ناحية أخيل ، الذى وقف مكانه يقذف الرعب فى قلوب الطرواديين وأحلافهم ، باحثاً عن غريمه البغيض ، هكتور بن پريام ، يود لو يخلى بينه وبينه فيبطش به ، ويشفى هذا اللظى الذى يتأجج فى جوانحه ، بما قتله أعز أصدقائه ، وأحب الناس اليه

ووقف إينياس تلقاء أخيل ، فتبسم زعيم الميرميدون ، ووعظ المحارب أن ينثنى فلا يلق حتفه ، وذكره بما حدث بينهما قديماً ، حين ساق أخيل قطعان اينياس السائمة فى سفح جبل إيدا ؛ وما كان من فرار اينياس ، هذا الفرار المضحك ، الذى أشمت به الأعداء ، وأثار عليه سُخرية الأصدقاء والأوداء !

ولـكن اينياس ، الذى كان ما يزال مأخوذاً بسحر أبوللو وموسيقاه ، أبى واستكبر ، وهز أعطافه ، ثم أخذته العزة بالأثم ، وانطلق يقذف فى وجه أخيل بهذا التفاخر الذميم الذى لا يجدى فى حلبة الحرب نفعاً ، ولا يجر على صاحبه مغنماً ، يوم لا حكم إلا المرهف البتار ، ولا قول إلا ما يقول الفيلق الجرار

والتحم المحاربان العظيمان !

وارتطم الصخر بالصخر ، وثار النقع فى الميدان وأظلم حتى قد تهاوت كواكبه ، ونظر الجمان نظرة القلق الحيران ، وأخذ الذهول يضرب أطنابه على الساحة الحمراء ، ونظروا فرأوا اينياس يستجمع كل قوته ، ويقذف برمحه العظيم فترده درع فلـكان ، وإن تكن الطعنة قد شـقت منها طبقتين ، وفترت ، فلم تصل الى فؤاد أخيل

وهنا !

اشتعلت نيران الدنيا فى عينى زعيم الميرميدون ، وذاب فى أعصابه حمم من الغضب ، وأرسل بدوره رمحه الهائل يرن على درع اينياس فلا يصيبه بأذى ، ولـكنه ، لعظم الطعنة ، يصرعه ويطرحه فوق أديم الثرى فريســة رخيصة لغوائل الردى ، وضربات الرقاق البيض

وينحنى أخيل من عربته الفخمة ، فيتناول حجراً عظيماً ، قد يتعب عشرة من صناديد الرجال فى حمله ، ثم يرفع الحجر ليقذ به جمجمة اينياس . . .

ولـكن ! . . . . . .

لا ! ينبغى ألا يقتل إينياس ، لأنه ابن زيوس سيد الأولمب ، وهو لو قتل لم يرض به أبوه ألف ألف أخيل ، وألف ألف ميرميدون كملأ أخيل ! . . .

هكذا قدّر نپتيون ! وقـُتل نپتيون كيف قدر ! !

لقد أرسلها إلى حـيرا ، مليكة الأولمب التى كانت قريبةً تشهد الحدث الأعظم ، قولةً غير صادقة إلا فى زعم نپتيون !

وعارضت حيرا فى تدخل نپتيون ، ولـكنه ، لشدة حبه أخيل ، لم يسعه إلا أن يسرع إليـه فينشر أمام ناظريه ضبابةً كثيفة حجبت عنهما هدف إينياس ، ثم انكفأ يحمله بعيداً من أخيل ، حتى انتهى الى صفوف الطرواديين الخلفية ، فسجاه على العشب الأخضر ، وأخذ فى نصحه ألا يجازف بنفسه أمام أخيل كرةً أخرى ! !

وكان الجمان ينظران إلى إينياس محمولاً فى الهواء . . فيأخذ العجب منهما كل مأخذ ! !

* * *

وامّحت الضبابة ، وبطل السحر ، ونظر أخـيل فلم يعثر لأينياس على أثر ، وشـدهه أن ينجو خصمه من قتلة محققة ، فيُلقى فى روعه أن إينياس سليل الآلهة كما ادعى منذ لحظة ؛ ثم يشدهه أكثر تجانن الميرميدون والهيلانيين على السواء ، بعد إذ رأوا إلى إينياس محمولا فى الهواء !

ويحضهم أخيل على خوض المعمعة ، ويستطيع بحماسياته أن يلهب فى صدورهم روح الاقدام . . .

ويكون هكتور فى هذه اللحظة قائماً فى جنوده يحضهم هو الآخر ويطمئنهم أن الآلهة معهم فلا يخافون ولا يحزنون . ويراه أخيل فيختنق قلبه ، ويملو صدره ويهبط كأنه الخضم الغاضب . ويدفع عربته نحوه ، فتندفع الخيل ، وكأن النيران تنـدلع من عيونها وأنوفها . . . . .

وكان أبوللو إلى جانب هكتور ، فلم يرض له أن يلاقى أخيل

الذى ما خاض المعمعة الا ليثأر لصديقه بتروكلوس

وكاد هكتور لا يأبه لكلام أبوللو ، وتقدم فعلا لبقى حيل ، ولكن الاله الكبير زجره زجراً شديداً ، ثم أمره بالتقهقر فى الحال ... فانسحب بطل طروادة ، وترك أخيل يحرق الأرم مكانه ، إذ أفلته هذا الصيد الثمين ! !

وانقض أخيل يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة فصرع إيفتيون المظيم ابن عذراء البحر ، ثم ثنّى بالكمىّ الكبير دعوليون ، شج رأسه فانبثق الدم يتفجر منه ، وبرز المخ ، وذهبت روحه إلى هيدز ! ثم ثلّث ببطل الأبطال هبوداماس ، شكه شكة فتركه يخور كخوار الثور ، مسوقا إلى مذبح الآلهة ... ثم انقض على بوليدور بن بريام ، ملك طروادة ، فطعنه فى ظهره طعنة صرعته ، ونشرت ظلام الموت فى عينيه ، فهوى إلى الأرض يئن أنينا مؤلما ، أبكى الجند ... وأحزن أخيل نفسه...

لقد كان بوليدور أحب صغار بريام اليه ، وكان يجرى فيسابق الريح ، وينازل القروم الصيد فيصرعهم عشرات ووحداناً ، فيا حزن أبيه الملك عليه بعد اليوم ! !

وكأن ظلام الموت الذى خيّم على عيني بوليدور امتد حتى ظلل عينى هكتور ! ولم تكن الحياة رخيصة فى نظر بطل طروادة مثلها اليوم ، فقد فجعه أخيل فى بوليدور ، فلا بد أن يفجع ذيتيس وبليوس ، والدى أخيل ، فى أخيل نفسه ...

وألهب جياده فاندفعت بعربته ناحية أخيل ...

واستبشر زعيم الميرميدون حين رأى هكتور يسرع ناحيته قدما ، وذكر أنه قاتل بتروكلوس فدارت به الأرض ، وذكر أن بتروكلوس ينتظر ثأره ميتا ولا بد أن يعود أخيل اليه به ، فتقدم نحو هكتور وقال له :

« هلم يا بن بريام فتعجل قتلتك ، وودع الحياة الحلوة التى لن تهنأ بها بعد اليوم ! ! » وتجهم هكتور ، وكلم أخيل فاعترف أنه أقوى منه ، وأطول فى مواقف الحرب باعاً ، ولكنه حذره من الغرور ؛ « ومن يدرى ؟ ! هل أوحت اليك السماء أنك تقتل هكتور ؟ وهل أخذت على المقادير والأقضية عهداً ألا يصرعك هكتور ... » ثم انقض بن بريام فأرسل حربته الظامئة إلى صدر أخيل ، ولولا أن مينرڤا كانت إلى جانبه تحرسه ، ولولا أنها زحزحته قليلا فتفادته الطعنة ... لكان أخيل حديثاً من الأحاديث

وبهت أخيل ، ثم صاح صيحة رجف لها جانب الجبل ، وجاوبتها أسوار طروادة ، ورددت أصداءها أجواز السماء ؛ وانقض على هكتور يود لو يقتلعه من عربته فيخبط به الأرض ، وتذهب روحه بعدها إلى الجحيم ! ...

وكان أبوللو إلى جانب هكتور هذه المرة ، كما كان إلى جانبه دائما ؛ وراع الاله الأكبر أن يهجم أخيل تلك الهجمة التى يعجز عن مثلها مارس الجبار نفسه ...

وذهل أبوللو ماذا يصنع ، ليقى بطله من رمح أخيل ؟ ! ثم ذكر ما صنعه نبتيون من أجل اينياس ، فنشر ضبابةً كثيفةً أمام ناظرى أخيل ، وتقدم إلى هكتور فحمله ، وذهب به الى حيث يكون بنجوة من مصير محزن ، كان يوشك أن ينتهى اليه . . . . .

وظل أخيل يطعن الضبابة ، مشدوه اللب حيران ! !

طعنها مرةً ، ثم مرةً ثانيــة ، ثم ثالثة ، ثم ما كاد يطعنها الرابعة حتى امحت وبطل السحر ، وانكشف له الميدان يضج بالجند ، ويمج بعدة الحرب ، ولكنه مع ذاك ، وغير ذاك . . . . خلو من هكتور ! ! .. ..

« جميل يا هكتور ! ! صل للاله الذى أنقذك اليوم منى ! صل لربك أبوللو ! لقد أنجاك من قتلة بينة ، وموتة محققة . . . صل له يا هكتور ! ولكن ثق أننا سنلتقى بعدها ، ولا أدرى هل ينقذك الهك عندها ؟ ! إن لى أربابى التى تحمينى ، والتى إن فوجئت بغادر مثلك فهى تنجينى . . . . . سنلتقى يا هكتور . . . . فصل الآن لأبوللو واشكر له ..... »

***

وثار أخيل فكان زوبعة !

وطفق يصرع أبطال طروادة ، فطعن دريوبس طعنــة اخترمت حياته ، ثم جندل دعاخوس وأسرعت روحه إلى أمواج ستيكس المنصهرة ، وتقدم فأطاح رأس دردانوس العتيد ، وجال جولة هنا وجولة هناك ، فكانت المنايا تتعثر أنىّ ذهب ، وأيان صار ، فهذا تروس البطل ماقى على الأرض والدم ينبثق من كبده ، وموليوس الصنديد زائغ العينين يتوجع مما ألم به ، وإخكلوس ابن أجينور تساقط نفسه حشاشات ، ثم ديكاليون الذى دوخ الجيوش وروع الأبطال ، وبث اليتم فى كل دار ... ها هوذا فوق الثرى صعيداً جرزاً ، وجثماناً يتدفق الدم من جراحه ... نهاية حمراء لحياة حمراء ... كلها حرب وتقتيل !

ورجموس ! !

البريد الأدبي

كتاب عن المسألة الحبشية

أثارت المسألة الحبشية واعتداء الاستعمار الايطالى على الحبشة نشاط المؤرخين والـكتاب كما أثارت اهتمام الساسة والرأى العالمى، وظهرت فى الآونة الأخيرة عدة كتب ومباحث تاريخية وسياسية واقتصادية وعسكرية عن إيطاليا والحبشة وكل ما يتعلق بتلك المشكلة الخطيرة التى ما زال يضطرب لها العالم كله منذ أشهر. وكان مما ظهر أخيراً فى ذلك الموضوع كتاب للكاتب الانكليزى اميل بيرنز عنوانه « الحبشة وايطاليا »[١] واميل بيرنز كاتب اشتراكى، وكتابه حملة قوية على الاستعمار الغربى، وأحدث فوراته ونزعاته أعنى الاستعمار الايطالى. ويقول الـكاتب فى مقدمته إنه يقصد بما يكتب أن يبين الأسباب الدفينة التى تجثم وراء الحوادث ووراء ستار المظاهر الدبلوماسية؛ والحوادث الظاهرة هى اعتداء ايطاليا المسلح على الحبشة، وعمل انـكلترا وفرنسا السياسى فى عصبة الأمم أو خارجها، وليس هذا العمل فى

(١) Abyssinia anb Itaiy

رجوس بن ربوس! الذى شد رحله من تراقية لينصر الطرواديين على بنى وطنه . . . قائداً جموعه التى لا حصر لها؛ مؤلباً القبائل والأنخاذ على الأرض التى أنجبته، والآلهة التى نشأته . . . . لماذا؟ لا سبب معقول!! ولـكنه طيش الملك وغروره وكبرياؤه . . . ولأن الهيلانيين لم يختاروه قائدا لهم فى هذه العشوزنة الزبون!!

لقد امتشق أخيل سيفه، وأصلته على رأس رجوس، ثم أهوى به، فخر الخائن يتشحط فى دمه . . . . وانتهت بموته حياة ذميمة

وزلزل قلب أريثوذ . . . حارس رجوس وسائسه . . . فود لو فر بعربة سيده، لولا أن عاجله أخيل بضربة قدت أضالعه، وذهبت بروحه إلى حيث ذهبت روح مولاه . . . . ؟

(لها بقية)

دريني خشبة

نظر اميل بيرنز سوى مؤامرة استعمارية

ويستمد اميل بيرنز أدلته من حوادث التاريخ الحبشى منذ سبعين عاما؛ فتاريخ الحبشة يحفل خلال هذه الحقبة بمشاريع انـكلترا وفرنسا وايطاليا ودسائسها المستمرة، وكل تغالب الأخرى فى سبيل الحصول على النفوذ الأوفر فى الحبشـة؛ والرأسمالية الاستعمارية من وراء السياسة تحاول أن تضع قدمها فى تلك الأرض الغنية. وليس عمل إيطاليا الا اعتداء فى سبيل الاستغلال والسلب؛ ذلك أن أحدا فى العالم لم يصدق أن إقدام إيطاليا على اتخاذ هذه التدابير العسكرية كان من باب الضرورة والتحوط وليست لها صبغة اعتدائية، وأنها ليست إلا ضمانا للسلام والأمن ضد أمة همجية، ولم يدهش إنسان بعد ذلك أن يرى هذه الاجراءات تتخذ فجأة صبغة الغزو المسلح، وأن تتحدى إيطاليا رأى العالم المتمدن كله، ولم تقم الدول الاستعمارية الأخرى بعمل حاسم لمنع هذا الاعتداء، وإذا كانت قد فعلت شيئاً فذلك لأن الموقف النبيل الذى وقفه النجاشى كان مثارا لاعجاب العالم وعطفه

وقد كانت الحبشة فريسة الاعتداء المدبر، وكان لايطاليا أن تحمد الفرصة السانحة من كل وجه وخصوصا لأن موقف الحكومة القومية الانكليزية فى تأييد سياسة النازى (الهتلريين) فى ألمانيا قد دفع فرنسا إلى أحضان إيطاليا وانتهزت إيطاليا هذه الفرصة لتضمن تأييد فرنسا لها فى افتراس الحبشـة. بل لقد حاولت انـكلترا أن تعمل على اقتسام الحبشـة مع إيطاليا، ومن أجل ذلك قدمت مشروعها بالتنازل عن زيلع الى الحبشة

ويتناول المؤلف بعد ذلك العوامل الاقتصادية التى دفعت بالحـكومة الفاشستيـــة إلى اعتدائها، ويسرد الأدلة على أن « التمركز المالى » هو الذى يدفع الى هذه النزعة الامبراطورية ثم يتحدث بعد ذلك عن « الفاشستيـة وعصبة الأمم » ويبين لنا كيف أن الرأسماليـة من وراء كل حركة وإجراء تعمل باسم

الأقليات وباسم الانتدابات ؛ وكيف أن الرأسمالية الخصيمة تحاول أن تقضى على أى مشروع للصلح يتضمن أى مغنم للرأسمالية الفاشستية ، وهذا بصرف النظر عن قضية الحبشة وعدالتها . والآن تسنح فرصة بديعة لسحق الفاشستية ونظمها الطاغية ، ولكن هل تنتهز الدول هذه الفرصة ؟ ويقول لنا الكاتب إن الواقع أن حكومة انكلترا القومية إن هى إلا حكومة فاشستية بمعنى الكلمة لا ينقصها سوى الاسم .

ويعرض المؤلف نظرياته وأدلته بقوة ووضوح ولا سيما فيما يتعلق بالمسألة الايطالية الحبشية ، ويسبغ على عرضه صبغة اشتراكية واضحة ولكن معقولة متزنة ، وكتابه يعتبر من خير الكتب التى أخرجت أخيراً فى موضوعه ، ويمتاز بالنسبة للشعوب الشرقية بأنه حملة قوية منظمة على الاستعمار وأساليبه تثلج صدر كل شرقى يرى أساليب الاستعمار الهمجية تعمل فى وطنه وأمته

ذكرى غزوة بدر الكبرى

تألفت بالقاهرة لجنة من الشباب للاحتفال بذكرى غزوة بدر الكبرى فى ١٧ من رمضان لأنها أول نصر حاسم فى تاريخ الاسلام . وستكون الحفلة برياسة الدكتور محمد حسين هيكل . ومن خطبائها الأساتذة الدكتور محمد حسين هيكل ، الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، السيد محمد الغنيمى التفتازانى ، الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، محمد افندى عبد الباقى سرور نعيم ، الشيخ أحمد البهى مندوب الأزهر ، أحمد أفندى شوقى مندوب كلية الحقوق

وسيكتب فى هذا الموضوع الأساتذة محمد جاد المولى بك ، أحمد حسن الزيات ، حفنى محمود ، محمد على غريب ، عبد الحميد المشهدى .

كتاب (محمد) للأستاذ توفيق الحكيم

كتب الأستاذ توفيق الحكيم رسالة إلى أحد أصدقائه الفرنسيين فى اكتوبر سنة ١٩٣٤ ، جاء فيها عن كتابه (محمد) ما يأتى : « إن كتابى عن محمد (ص) لا يزال فى طور التحضير والتهيئة ، وعسى أن أتمه فى الشتاء المقبل . وسأبرز فيه النبى الكريم متكلما بكلامه المأثور ، فى صورة تستوعب حياته المجيدة ، كما يتصورها الفنان ، لا كما يفهمها العالم والمؤرخ . . . »

الصقالبة فى الرواية العربية

الى الأستاذ المحقق محمد عبد الله عنان

قد قرأت لحضرتكم فى عدد الرسالة (رقم ١٢٦) مقالا تحت هذا العنوان ، وفيه عبارة لابن حوقل عن صقالبة الأندلس ، جاء فيها : « فنصف بلدهم (الصقالب) يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقة وإفرنجة وانكبردة وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير » . ثم استنتجتم من ذلك أن لفظة الصقالبة كانت تطلق على سكان هذه البلاد المذكورة ، والذى يغلب على ظنى أن هذه العبارة لم يرد بها ذلك ، بل المراد وصف الطريق التى كان يسلكها سبى الصقالبة ، حتى يصل إلى الأندلس ، فهل عند الأستاذ ما ينفى هذا الظن ؟

(قنا) عطية الشيخ

الانسان والكون — آراء علمية جديدة

ألقى العلامة الطبيعى الانكليزى الأشهر سير جيمس جينس أخيراً محاضرة عن « الانسان والكون » حمل فيها بشده على مادية العلم القديمة ، وقال إنه يعتقد أن الانسان ليس آلة صماء ، وانه يناضل فى الواقع من أجل مصيره ، وانه قد أحرز أخيراً نجاحاً لا شك فيه . بيد أنه ما زال عليه أن يناضل من أجل مركزه فى المجتمع ، فاذا أخفق فى هذا النضال فقد يستأصل ويقضى عليه كما قضى على أجناس وفصائل أخرى من قبل ، وفى هذه الحالة يكون الانسان ضحية جنس آخر من صغار المخلوقات ، ربما كان هو الميكروبات التى لا يراها لصغرها

وإذا نجح الانسان فى هذا الصراع واستطاع أن يظفر بتوطيد مركزه ، فان مواهبه وكفاياته قد تتسع وتزيد تدريجياً حتى يتحول إلى شىء آخير غيرما هو اليوم عليه وربما كان شيئاً أرفع مما هو عليه . وقد تختلف عنا سلالتنا بعد عشرة ملايين سنة كما نختلف نحن عن أسلافنا المنحطين منذ عشرة ملايين سنة . وشر ما يخشاه الجنس الانسانى هو الهزيمة والعدم ، وخير ما يؤمله هو أن يغدو قنطرة منسية للطريق إلى أشياء أسمى

وقد لاح فى وقت ما ان نظرية « النسبية » قد وضعت حداً لكل الآمال التى تساور الانسان فى جعل العالم أكثر رفاهة وسعادة وجمالاً وأكثر نبلاً وعدالة طبق مثله الخاصة

أما الآن فلدينا أسباب كثيرة تحملنا على العودة إلى اعتقادنا فى أن الماضى والحاضر والمستقبل لها فى الواقع معنى موضوعى وليست هواجس تهجس فى عقولنا ، وبعبارة أخرى يجب علينا أن نعتقد أن الزمن إنما هو حقيقة مادية

واستعرض السير جينس بعد ذلك ما وصل إليه العلم فى شأن « الذرّة » وما يقال من أنه لا يمكن سير الذرات ، وأن سير الطبيعة يقوم على غير نظام وتقرير سابق ؛ ومن رأيه أن العلم عاجز عن أن يقدم أى تحديد أو أى تدليل على مسألة « الحير » القديمة ؛ وقد يكون الانسان أو لا يكون آليًّا ، ولـكن العلم لا يستطيع أن يبرهن على أنه ليس آلياً ، ثم هو لا يستطيع أن يبرهن أنه آلى قال ؛ وإذا استعرضنا تاريخ العلوم فى جملته ، فانا نرى المعارف العلمية ما تزال ترغم الانسان على أن يخفض من تقدير نفسه ومركزه فى الـكون حتى بدء القرن الحالى ، أما أنا فأرى أن التيار قد أخـذ يتطور ، واننا على ضوء المعلومات التى ترتبت على نظرية النسبية والـكمية ، نستطيع أن ننظر إلى مركزنا فى شىء من التفاؤل لم يسمح به العصر الفيكتورى »

شرعية الانتحار

يعرض فى القريب العاجل على مجلس اللوردات الانكليزى مشروع قانون فريد فى نوعه ، يراد به تقرير شرعية الانتحار ، أو بعض أنواع القتل ؛ ففى العهد الأخير وقعت فى انكلترا عدة حوادث رنانة مؤثرة ؛ قتل فيها الابن اباه ، والزوج زوجته ، والعاشق حبيبته ، ولم يكن قتلا عاديا أو له صفة الجريمة ، بل كان قتلا ميمثه الاشفاق والحب ، وكان فى الغالب بناء على طلب المجنى عليه ؛ وكان المجنى عليه أو القتيل فى معظم الأحوال يشكو مرضا لا يرجى برؤه ويعانى آلاما مروعة يريد أن يتخلص منها بالخلاص من حياته ، فيطلب الى أحب الناس اليه أن يقوم بهذه المهمة الاليمة . وقد وقعت عـدة حوادث من هذا النوع ، وقدم « الجناة » أو الذين ارتكبوا القتل بهذه الطريقة الى القضاء فحكم القضاء فى الغالب بالبراءة إزاء الظروف المؤثرة التى وقع فيها القتل ، وإزاء انعـدام نية الجريمة من جانب المتهم ولـكن بعض « الانسانيين » وأنصار هذا النوع من الاعدام يخشون أن يقسو القضاء فيعامل المتهمين فى هذه الحوادث بالشدة وينال قصاصه المؤلم ، لأن الانتحار يعتبر فى القانون الانكليزى جريمة ويعاقب كل من اشترك فيه أو ساعد عليه ؛ ولذلك رأى بعض اللوردات أن يقدم الى المجلس مشروع قانون يبيح القتل فى مثل هذه الأحوال ، وقد روعى فى هذا المشروع أنه توجد حالات أليمة يشـتد فيها المرض والألم على الفريسـة فيتمنى كل من حولها لها الخلاص من هذا المذاب ، ويعتبرون من واجبهم المقدس أن يلبوا طلبها فى الاجهاز عليها وانقاذها من ذلك الجحيم ؛ ولـكن روعى من جهة أخرى أنه قد توجد حالات يتمنى فيها أهل المريض المعذب وفاته بسرعة ليحظوا بالارث والثراء ؛ وقد ينتهزون فرصة آلامه ، وهذيانه فينتزعون منه اقراراً كتابياً بطلب الموت ، ثم يجهزون عليه ؛ ويتذرعون بهذا الاقرار للافلات من العدالة ؛ ففى هذه الحالة يتطلب القانون الجديد أن يقع مثل هذا الاقرار على يد موظف عمومى ، وذلك بعد أن يصدر الطبيب المختص قراره بأن المريض لا يرجى برؤه وانه يعانى آلاما لا يمكن احتمالها مع الحياة ؛ ويشترط مشروع القانون أيضا أن الذى يقوم بعملية الاعدام أو الاجهاز على الفريسة طبيب مرخص له بذلك

وهكذا يراد أن يشرع حق الانتحار ، وأن يمنح حق الاعدام فى ظروف معينة ؛ وسنرى ما اذا كان مجلس اللوردات يقر هذا القانون المدهش

معرض الفن الصينى

افتتح أخيراً فى لندن فى « برلنجتون هاوس » معرض الفن الصينى الذى كانت تتخذ العدة لافتتاحه منذ أشهر . وقد عرضت فى هذا المعرض تحف وآثار صينية نفيسة يرجع الـكثير منها إلى نحو ثلاثة آلاف سنة . ومعظم هـذه التحف الرائعة ملك للصين ولـكن الحـكومة الوطنية الصينية ارتضت أن تعيرها للسلطات الفنية البريطانية بعـد مفاوضات طويلة ؛ ونقلت المعروضات فى طرادة بريطانية مسلحة وأخذت إلى لندن لتعرض هنالك على أنظار العالم المتمدن . وتدل هذه التحف على أن الصين كانت قبل آلاف السنين تتمتع بحضارة رائعة تضارع فى ازدهارها وروعتها حضارة مصر القديمة ، وتدل على أن الفنون الصينية بلغت مبلغا عظيما من الافتنان . وقد كان الابتـكار يقترن لدى الفنان الصينى مع الصبر وتخير النماذج الفائقة . وأقدم التحف المعروضة هى آنية للمراسيم الدينية صنعت من البرونز ويرجع صنعها إلى سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد ؛ وكان البرونز أول مادة استعملت فى الفن الصينى ؛ ولم يبدأ النحت البوذى الا فى القرن الرابع أو الخامس الميلادى . وقد كان افتتاح المعرض الصينى حادثا فنيا عظيما فى انكلترا ، وهرعت الجماهير الحاشدة لرؤيته من أنحاء الجزر البريطانية وأمم القارة الأوربية

الكتب

كتاب التشريح المرضى والجنائى

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى

بقلم الدكتور محمد الرافعي

لا أسهل فى العلوم من اختصارها ، ولا أيسر من اخراج الكتاب الضخم مُحَصَّلا فى جزء لطيف . وقد كانت هذه طريقة علمائنا المتقدمين ؛ فليس من كتاب ذى خطر إلا وقد اختصروه مرة أو مراراً ، يريدون إما تقريبه من الأذهان وإما حصر فوائده ، وإما جعله كالمذكرات . وقد يعجز بعض العلماء عن التأليف ويريد مع ذلك أن يكون مؤلفاً فيجد مادته من الكتب المطوّلة يؤلف منها ما يسميه المختصر أو الموجز أو نحو ذلك . وهذا كله سهل ، بل بعضه أسهل من العبث إلا فى الطب ، وخصوصاً حين يكون الاختصار فى فرع من فروعه التى اختص بها علماؤها كهذا الكتاب الذى نحن بصدده

إن وضع كتاب مختصر فى فرع من الفروع الطبية وخصوصاً باللغة العربية هو عمل من أشق الأعمال ، وأدقها إذا أريد أن يكون الكتاب مع اختصاره وافياً فى موضوعه ، محققاً لفائدة الأصل المطوّل ، جامعاً لفوائد جديدة تعطى الكتاب حكم التأليف مع تسميته المختصر . ومادام الطب شرحا للجسم المعجز فى تركيبه وأعماله ودقائقه المحيرة للعقول ؛ فالتأليف فيه لا ينتهى ، واختصار المؤلفات فيه لا يكاد يوفّق إليه إلا النوابغ المحيطون أوسع إحاطة ، والمتمرنون تمريناً طويلا ، والمتتبعون لكل جديد

ومن هؤلاء مؤلف كتاب (التشريح المرضى والجنائى) الدكتور محمد زكى شافعى ، مدير المكتب الفنى بمصلحة الصحة العمومية بمصر . وقد قال فى مقدمة كتابه هذا : « لقد اشتغلت حوالى العشرين عاما بالطب الشرعى ، ولا أزال أعمل الآن مراجعة بعض الأعمال الخاصة به ، وكثيرا ما استرعى نظرى أن الحاجة ماسة أشد مساس الى كتيب خاص بالتشريح المرضى والجنائى ، يرجع اليه الطبيب الكشاف إذا أعوزه الأمر للاطلاع العاجل ، فانه كثيراً ما يجد نفسه فى مأزق حرج ، إذ يطلب إليه – وهو بعيد عن مراجعه – الفصل فى مسائل فنية دقيقة الخطورة ، يتوقف على الاجابة عليها مصير متهم قد يكون بريئاً

ولقد كنت أشعر بهذه الحاجة فى أثناء ممارستى للتشريح ، ولا سيما فى الجهات التى أكون فيها بعيداً عن مراجعى ، وكل الأطباء يدركون دقة هذا الموقف

ولقد عرضت على زميلى « الدكتور لبيب شحاته » أن نعمل على سد هذا النقص ، فوضعنا معا هذا الكتاب ، وتوخينا فيه أن يكون عملياً أكثر منه نظريا ، وجعلناه واضح العبارة ، سهل المأخذ ، حتى ينتفع به كل مشتغل بالطب الشرعى ، وانتقينا أحدث المعلومات ، وأرجحها قبولا لدى جمهرة الأطباء الشرعيين ولذلك اضطرتنا الحال إلى الاطلاع على مراجع عديدة علاوة على المذكرات الشخصية »

ومع أن الكتاب كما يصفه حضرة مؤلفه فقد وقع فى ٤٩٠ صفحة ، وبلغت المراجع التى اعتمد عليها واضماه عشرين مرجعا ، يضاف اليها اختبار المؤلف وتحقيقه مدة عشرين سنة ، وذلك فضلا عن رجوعه فى بعض مسائل كتابه الى كثير من الأساتذة المختصين ، بحيث جاء الكتاب عظيم الفائدة للمشتغل بالطب الشرعى ، وللطبيب المشرح ، ولمن يتصلون بالحوادث الجنائية من القضاة ورجال النيابة والمحامين فهؤلاء جميعاً يهتدون فيه الى أدق المسائل الفنية بأيسر طريقة وأسرع وقت ، ويصيب كل منهم غرضه الفني أو القضائى . وقلما يحتاج مع هذا الكتاب إلى الأصول المطولة إلا فى التدريس ، على أنه فى التدريس ذو قيمة ثمينة إذا جمل للطالب كالتذكرة التى يدون فيها خلاصة علمه . هذا وإن ضم التشريح المرضى الى التشريح الجنائى فى كتاب واحد عمل فني بديع لم يُسبق اليه .

وأنا وقد درست هذا العلم على الفحول من رجاله فى فرنسا ، لا يسعنى إلا أن أهنئ الدكتور محمد زكى شافعى ، ومساعده الفاضل الدكتور لبيب شحاته بكتابهما وبما وفقا فيه ، فهو توفيق يستحق التهنئة العلمية

الدكتور محمد الرافعى
خريج جامعة ليدن بفرنسا

لباب الآداب لابن منقذ

تحقيق وتعليق الأستاذ احمد محمد شاكر

للأستاذ محمد بك كرد على

بنو منقذ أصحاب قلعة شيزر من عمل حماة فى الشام كانوا معروفين على عهد الحروب الصليبية بالفروسية والسياسة والأدب والأمارة ، وقد خلد أسامة بن منقذ (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ) أحد رجال هذا البيت بأدبه ذكر آله فى التاريخ . ولما طبع له العلامة درنبرغ كتاب « الاعتبار » فى سنة ١٨٨٤ م بمدينة ليدن فى هولاندة اشتهر أسامة بين الأدباء فى الشرق والغرب ، لما حوى كتابه من أخبار البطولة والشجاعة ، ولأنه صُنّف على غير مثال . وقد طبع له درنبرغ أيضا كتاب العصا وغيره فى باريز ، وعُني بجمع أخباره بالفرنسية وخدمه وأولع به

والآن طبع الأديب لويس سركيس فى القاهرة كتاب « لباب الآداب » لأسامة أيضاً ، وتولى تحقيقه والتعليق عليه الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وحلاه بفهارس الأعلام وأيام العرب والأماكن والقوافى ، وشكله تقريبا بالشكل الكامل ، فقرّب فوائده من يد المستفيد ، وأضاف الى ما طبع من كتب الأدب القديم سفراً آخر قال فى وصفه إنه من أجود كتب الأدب ، وإن فيه أقوالا من نثر ونظم لم يجدها فى كتاب غيره من الكتب المطبوعة

قسم المؤلف كتابه الى عدة أبواب فيها عظة وتعليم وأهداه لابنه الأمير مرهف ، وجعل أبوابه فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار والصمت وحفظ اللسان والقناعة والحياء والصبر والرياء والاصلاح بين الناس والتعفف والتحذير من الظلم والاحسان وفعل الخير والصبر على الأذى ومداراة الناس وحفظ التجارب وغلبة العبادة والبلاغة . وهناك فصول من كلام رسول الله والصحابة وغيرهم ، ومن كلام سليمان الحكيم وبرسين الحكيم وافلاطون ، ونوادر فيثاغورس وسيخانس ، ومحاسن شعر الحكماء ، وأبواب فى المديح والتشبيه ومشى النساء والخفر والشيب والاعتذار والعتاب والمراثى والغزل والحكمة . يبدأ المؤلف كل فصل بآيات كريمة ويشفعها بما ورد من الأثر ثم الشعر ثم أقوال الحكماء فى هذا المعنى

وذكر المعلق على الكتاب أنه وقعت فى طبعته هذه بعض أغلاط ، مع كل ما عانى فى تصحيحه ، جاء بعضها سهواً منه ، وبعضها من خطأ النظر ، وبعضها من الأغلاط المطبعية التى لا يتنزه عنها كتاب . ونحن نقيم من كلامه هذا عذرا لكل من أحيا كتاباً للقدامى ؛ وليس من الانصاف أن يُحمل على كل من ارتكب خطأ من هذا القبيل بعد بذل الجهد ، فقد تسرع الناظر فى هذا الكتاب وقال (ص ٢٦) إن كتاب العصا هو كتاب القضاء لا العصا ، وليس فى جريدة مؤلفات أسامة كتاب فى القضاء وإنما هو كتاب العصا المطبوع . وذكر (ص ٢٢) (الأمير معين الدين أَز وزير شهاب الدين محمود) وليس فى التاريخ الاسلامى من اسمه أز ، وإنما هو اتسز وهى كلمة تركية معناها لا لحم له ، أو الرجل الضرب الخفيف اللحم غير الجسيم . واتسز هذا هو مملوك جد مجير الدين أرتق بن محمود ابن بورى بن طغتكين ، وكان عاقلاً ديناً محسناً لعسكره (راجع كتابنا « خطط الشام » م ٢ ص ٢١) . ومن ذلك فى صفحة ١٩٢ (تباة البلد) قال ولعلها جمع تاب بوزن غاز وغزاة من قولهم تبا اذا غزا وغنم وسبى . ونحن أميل أن تكون (ُتنَّاة البلد) أى سكانه من تنأ تنوءا أقام ، ويقولون (الطراء والتناء) أى النزلاء والمقيمون وهى الأولى بالمقام

وتسرع أيضاً (ص ٢٨) ونقل ظن بعض أهل العلم أن كتاب « الأدب والمروءة » الذى نشرناه فى مجلة المقتبس ، ثم ضممناه الى الطبعة الثانية من « رسائل البلغاء » فى سنة ١٣٣١هـ ١٩١٣ هو لصالح بن عبدالقدوس لا لصالح بن جناح كما ذكر ناشره أستاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله ؛ قال « ولعله – أى صالح ابن عبدالقدوس – أخفى نفسه بهذا الاسم فى بعض الأوقات خوف الطالب » . والحقيقة أن كتاب الأدب والمروءة هو لصالح بن جناح ترجم له ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ، فقال إنه صالح بن جناح اللخمى الشاعر أحد الحكماء ؛ حكى عنه أبو عثمان الجاحظ أنه ممن أدرك الأتباع بلا شك ، وكلامه مستفاد فى الحكمة . وقد أخذ عنه الجاحظ فى نيسابور وقال عنه دمشق ؛ ونشر ابن

النقد

٢ - تاريخ الاسلام السياسي

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

بعض مآخذ تاريخية وجغرافية

لأستاذ كبير

أتيت في كلمتي السابقة على قليل من المآخذ التاريخية التي تورط فيها مؤلف « تاريخ الاسلام السياسي » وقد لحظ بعض الذين قرأوها أنه كان الأفضل ألا أورد هذه المآخذ مسرودة على نحو ما فعلت بل أن أوردها مقرونة بأسبابها الجوهرية . وأجيب عن هذه الملحوظة التي لها وجاهتها العامة بأن من المفيد في نقد كتب التاريخ أن ينصب النقد أولا على الوقائع مجردة . فان التاريخ من الناحية التحليلية البحتة يقوم على الوقائع التاريخية التي هي مادته الأولية . وبمقدار تزود المؤرخ من هذه المادة الأولية وتمكنه منها احاطة ، وتقويما ، وفهما ، تكون متانة أحكامه التي يستنبطها وافتراضاته التي يذهب اليها ، والعكس بالعكس . وإذا فلا بأس أن أمضي في كلمتي هذه في إتمام ما أخذت فيه في كلمتي السابقة من الاتيان على أجسم ما في الكتاب من المآخذ التاريخية ، مقفياً على أثر ذلك بإيراد شيء مما وقع فيه المؤلف من الأغلاط الجغرافية ، والتاريخ والجغرافيا صنوان مؤتلفان ، وهما ظرفا الزمان والمكان لما يسمى بوقائع التاريخ

* * *

قال المؤلف في ص ٣٤٠ في معرض الكلام على الوقعة البحرية العظيمة المعروفة في كتب العرب بذات الصواري :

« وفي سنة ٣١ هـ نشب القتال بين ابن أبي سرح وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين في البحر الأبيض المتوسط ، على مقربة من الاسكندرية ، وكان النصر للعرب في هذه الحرب ، وقد عرفت هذه الموقعة بوقعة السواري أو ذات السواري » والمؤلف يخطيء هنا من حيث زمان الوقعة ومكانها ، فأما من حيث الزمان فالوقعة قد ذكر في المصادر العربية أنها كانت سنة ٣١ هـ ولكن هنالك رواية أخرى تجعلها في عام ٣٤ هـ ، وقد ظهر من المصادر اليونانية أنها تؤيد الرواية الثانية ، وإذاً يتعين الأخذ بها واطراح الأخرى . وأما من حيث مكان الوقعة فالمصادر اليونانية تعينه فتجعله قريبا من ساحل آسيا الصغرى الجنوبي لا قريبا من اسكندرية مصر (انظر تاريخ العصور الوسطى لكمبردج ج ٢ ص ٣٥٣) والمؤلف لاشك يتابع في كلامه هنا السير وليم ميور الذي يأخذ عن المؤرخ الانجليزي جبون ، وكلا هذين المؤرخين أصبح قديما ولا يصح التعويل عليه بصفة مطلقة

جاء في ص ٣٧٠ عن وقعة الجمل المشهورة « ونشب القتال وعائشة راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكرا واقتتل الناس حوله سبعة أيام حتى صار كالقنفذ من النشاب » والصحيح أن وقعة الجمل لم تدم أكثر من سحابة يوم واحد . فان السبئية من أصحاب علي أجمعوا انشاب القتال حتى لا يتم صلح بين الفريقين . وقد حملوا بالفعل ليلا على جيش عائشة وما تعالى النهار حتى كان الفريقان قد اشتبكا في وقعة دامية ولم يكد النهار ينصرم حتى كان جمل عائشة

عساكر طائفة من شعره الجميل . وبذلك انتفى ظن بعض أهل العلم أن كتاب الأدب والمروءة هو لصالح بن عبد القدوس بل هو لرجل عربي دمشقي ينسب الى لخم من أتباع التابعين ومن أساتيذ عالم الأمة الجاحظ

ومثل هاته الهنات المعدودة لا تقدح في كتاب طويل وقع في خمسمائة صفحة ، الله أعلم كم قاسى ناشره من المتاعب حتى استخرجه من خطوط قديمة سقيمة . وليس لنا بعد هذا إلا الشكر نقدمه للأستاذ شاكر على عنايته وتجويده

محمد كرد علي

قد عقر وأخـذت عائشة وانتهت الوقعة . ولعمرى إن جيشاً يرشق كله أو بعضه بالسهام جمـلا ساعة واحدة لحرى بأن يحيل الجمل كالقنفذ، ولا يقتضى الأمر سبعة أيام !

ومن الخطأ الجسيم ما وقع فيه المؤلف عند ما أراد أن يبدى رأيه فى خروج عائشـة وطلحة والزبير على على ، فهو يقول فى ص ٣٧٢ « نرى أنه لا مبرر لعمل طلحة والزبير وعائشـة مادام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحـدود ولاسيما وقد وعدهم على ابن أبى طالب بالنظر فى أمر عثمان والبحث عن قاتليه والقصاص منهم عند ما تستقر الأمور . على أننا نرى من جهة أخرى أن مجرد قبول على فى جيشـه أعوان ابن سـبأ الذين قتلوا عثمان فى الوقت الذى يطالب الناس فيه بدمه كاف لأن تحوم الظنون حوله وتبرر اتهامه بالاشتراك فى دمه » فالمؤلف ينظر هنا الى كل من الفريقين من وجهة نظر الآخر ، وقد خرج من الموضوع ولا رأى له على التحقيق . والوضع الصحيح للمسألة هو ألا مبرر مطلقاً لخروج عائشة وصاحبيها ، وأما على فلعل أصدق وصف له فى الفتن التى اضطر الى خوض غمارها أنه كان على اخلاصه مغلوبا على أمره .

ويقول المؤلف فى هامش ص ٤٥٠ تعليقا على كلامه على ضرب الحجاج الـكعبة بالمجانيق : « لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الـكعبة وإنما اضطر الى قتال ابن الزبير فحدث ما حدث من غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الـكعبة جعل هدفه هذه الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الـكعبة ، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعا فى الدين » وهذا تخيل عجيب للحال ، فان مجرد استحلال القتال فى الحرم فضلا عن رمى الـكعبـة بالمجانيق عمل ينطوى فى نفسه على حط كثير من شأن الأمكنـة المقدسـة من غير نزاع . على أن الأمر كان أمر سياسة قبل كل شيء وبنو أمية كانوا إذا تعارضت المصلحة السياسية وأى اعتبار آخر رجحوا جانب المصلحة السياسية كائنا ما كان ذلك الاعتبار الآخر ، وتاريخهم كله يشهد بذلك . وقد يكون من المضحك أن يقال إن الحجاج جعل الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الـكعبة هدفا لمجانيقه : أفما كان من الممكن الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها ثم تنقض الـكعبة وتبنى على أسسها القديمة ؟ ثم هل كانت هذه الزيادة متميزة عن سائر بنية الـكعبة بحيث يمكن نقضها دون هدم الـكعبة ؟ كلا ثم كلا ! لقد كان الهدف الحقيقى للمجانيق هو ابن الزبير نفسه ، ولما جعل ابن الزبير الـكعبة حائلا بينه وبين المجانيق ضربت الـكعبة .

ويقول المؤلف فى ص ٤٧١ وقد اسـتعرض أشهر فرق الخوارج فى العصر الأموى : « وإن الناظر الى مبادئهم ليجد أنهم اشتطوا جميعاً فى الحـكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الـكفار عبدة الأوثان » وهـذا الحـكم على إطلاقه غير صحيح فهو إن صدق على بعض فرق الخوارج كالأزارقة لا يصـدق على بعضها الآخر كالأباضية

ومن الخطأ الجسيم الذى وقع فيـه المؤلف متابعته مؤرخا متوسط المـكانة التاريخية هو السيد أمير على الهندى فى الـكلام على نظام الامارة على البلدان فى العصر الأموى . يقول المؤلف نقلا عن هـذا المؤرخ : « إن هناك نقصا قد تطرق إلى النظام الادارى فى عهد بنى أميـة وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد . وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الاقامة فى حواضر ولاياتهم . أما فى عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسـند الى بعض أفراد البيت المالك والى كبار رجال البلاط فـكانوا يبقون فى دمشق ويعينون من قبلهم رجالا يقومون بحكم الولايات نيابة عنهم . وكان من أهم أغراض هؤلاء الأمراء على حساب بيت المال ، وإرضاء هؤلاء الولاة بما كانوا يدرونه عليهم من الأموال » ونبادر الى القول بأن هـذا النقل غير دقيق فالسيد أمير يؤرخ النقص الذى تطرق الى النظام الادارى من عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان أى من عام ١٠١ هـ فى حين أن كلام الناقل يجعل تطرق النقص منسحبا على العصر الأموى كله

ومع ذلك فـكلام السيد أمير على لا ينطبق على الواقع ، فانه إذا كانت الولاية على الأمصار قد أسندت فى بعض الأحوال إلى أمراء من بنى أمية كمسلمة ومروان بن محمد فان ذلك إنما كان لما عرفوا به من الـكفاية الممتازة لا لقرابتهم من الخلفاء . ثم إنه لم يكن لبنى أمية بلاط بالمعنى الصحيح يولى كبار رجاله على الأمصار كما أن الأمراء لم يكونوا يقيمون بالعاصمة ويسـتنيبوا غيرهم على الأمصار ، إنما كانوا يقيمون فى حواضر الأقاليم نفسها .

هكذا كان خالد القسرى أمير العراق ، ونصر بن سيار أمير خراسان وحنظلة بن صفوان أمير مصر . وإذا انتفت الاستنابة فلا نيابة ولا إزراء ولا رشوة . ولا شك أن السيد أمير على كان يفكر وهو يكتب هذا الكلام فى نظام الولاية على الأقاليم فى العصر العباسى الثانى عند ما غلب الأتراك على الدولة العباسية ، وهو خلط لا مبرر له

ويتكلم المؤلف (ص ٥٧٦) على نظام «العدول» فى معرض الكلام على نظام القضاء فى عصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية فيقول « وقد دعت سنة التقدم والارتقاء إلى اتخاذ الشهود (المحلفين) حين فشت شهادة الزور ، إذ جرت العادة أن تقبل شهادة من يتقدم لأدائها ، سواء أكان ممن عرف بالخير أو بالشر . فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول ، عرفوا بحسن السمعة والفقه ، فصاروا من هيئة المحكمة ، يعمل برأيهم القاضى فيما له علاقة بالتقاضيين

وكان من اختصاصاتهم أيضا الشهادة على ما يصدره القاضى من الأحكام وانه غير مخالف لأحكام الشريعة الاسلامية » لا شك ان المؤلف تناول هذا الوضوع لاعتقاده أن نظام العدول وجد فى العصر الذى اتخذه موضوعا لكتابه . وهو اعتقاد خطأ فأول ما سمع عن نظام العدول انما كان زمن الرشيد أى فى الدولة العباسية (انظر كتاب تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١٣٢) ثم ان كلام المؤلف لا يجلو هذا النظام على حقيقته وفيه تخليط كثير (راجع الكتاب المذكور)

ويقول المؤلف فى ص ٦٢٧ وهو يتكلم على الجامع الأموى بدمشق : « وقد تأنق الوليد فى بناء هذا المسجد حتى قيل انه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين وما ذلك إلا ليتقرب إلى الله بهذا العمل الدينى الجليل » . والمؤلف ينقل هنا عبارة المستشرق فون كريمر ، وفون كريمر يعتمد على ابن الفقيه . ووجه المبالغة غير المعقولة فى تقدير نفقات الجامع ظاهر . وكان ينبغى العدول من رواية ابن الفقيه والأخذ برواية أخرى متواترة قال بها الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى . ومؤداها أن النفقة استغرقت خراج الشام وحده سبع سنوات

***

وبعد فلو أردنا استقصاء الأغلاط التاريخية الواردة فى كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » لطال الأمر . فنكتفى بهذا القدر . ونختم كلمتنا اليوم بايراد أغلاط جغرافية جرى بها قلم المؤلف

فبلدة (صحار) تكتب بالصاد المهملة لا بالسين كما كتبت على خريطة جزيرة العرب الواردة فى أول الكتاب ، وبلدة عينتاب تكتب بالياء المثناة بعد العين (انظر نفس الخريطة) ، وإذا أريد تعيين وادى أوطاس فلا يقال انه بين مكة والبصرة (ص ٣١) فالتعيين على هذا النحو وعدمه سواء . ولا يقال فى تحديد ملك الغساسنة « انه كان حول دمشق وتدمر . وكانوا يجولون فى الجهات الجنوبية لدمشق وخاصة لبنان وفلسطين والبلقاء وحوران » فماذا بقى للروم من الشام (ص٥٦) . ولا يقال ان الطبيعة وهبت نهر اليرموك أسراراً وألغازاً (ص ٢٨٩) ، وإلا فماتلك الألغاز والأسرار ؟ ومن أقبح الخطأ أن يقال ص٣٣٥ « وقد أنشأ معاوية أسطولا حارب البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية فى آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتى قبرص ورودس » فعمورية لا تقع على البحر ولكنها فى صميم آسيا الصغرى . كما أن هرقلة ليست واقعة على البحر الاسود ولكنها فى شرق آسيا الصغرى مما يلى منطقة الثغور الاسلامية . (الخريطة ص٢٧٤) ثم ان خريطة الأندلس ملأى بالخطأ والتحريف

مؤرخ

3 me Année, No. 128.

Lundi 16-12-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع البدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٢٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٤ — ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

بين الأمس واليوم

١٧ رمضان

يوم الاتحاد والجهاد والنصر

كان الاسلام المهاجر من مكة الجاهلية لا يزال خافض الجناح فى يثرب؛ وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يزالون تحت البلاء: يمتحن الله صبرهم بالألم، ويختبر إيمانهم بالفتنة، ليمحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة، ويَعْلم الذين يصطفيهم لجهاد الرسالة؛ فالقرشيون يُؤَلِّبون عليهم القبائل، واليهود ينصبون لهم الحبائل، والمنافقون يدسون لهم الغدر فى الملَق. فلما أذن الله لدينه أن يعود ولمجده أن يسود ولنوره أن يتم، أرسل جنوده الثلثمائة إلى وادى بدر، يتعاقبون على سبعين نِضواً من أباعر المدينة، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة، وبعزة المؤمن على الذلة، وبعفة الزاهد على الفاقة؛ ويسيرون فى استغراق الصوفى المدَلَّه إلى ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين: العِير أو النفير، وإحدى الحُسْنَيَيْن: النصر أو الشهادة؛ ولكن العير الذى يفهق بالثراء الضخم نجا به أبو سفيان على الساحل، فلم يبق إلا مكة الغاضبة لثروتها وسطوتها ودينها قد نزلت بالعُدْوة

القصوى من الوادى مع أبى جهل ! تسعمائة وخمسون من فلذات كبدها أرسلتهم فى الخيل والحديد يجيشون على محمد بالغل ، ويفورون على صحبه بالحفيظة ، ويرون الاسلام فى هذا العدد القليل والمظهر الهزيل قد أمكنهم من نفسه ، ودلهم على مصرعه

***

التقى الجمعان فى صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين ، وكان المشركون على كثرتهم وعُدَّتهم صفوة قريش ، فموقف الاسلام من الشِّرك كان يومئذ موقف محنة . كان بين العُدْوتين فى بدر مفرق الطرق ، فإما أن يقود محمد زمام البشرية فى سبيل الله فتنجو ، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك . وقفت مدنية الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب ، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبى جهل على الكثيب ! ! فكان طريق وعقبة ، ونور وظلمة ، وإله وشيطان ! فاما أن يتمزق تراث الانسانية على هذا الصخر ، ويتبدد نور الله فى هذا القفر ؛ وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر ، ويتصل الماضى بالمستقبل من هذه الطريق ، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة !

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذى وعدتنى ! اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبَدَ فى الأرض ! » ذلك كان دعاء الرسول أمام العريش ووجهه إلى القبلة ، ويداه إلى السماء ، ورداؤه من الذهول فى الله يسقط عن منكبيه فيرده الصدِّيق ويقول : بعض هذا يا نبى الله فان ربك منجز وعده ! وماهى إلا خفقة من خفقات الوحى حتى نزل الوعد بالنصر ، وجاءت البشرى بالجنة ، فغاب المسلمون فى إشراق عجيب من الايمان ، لا يرسم فى أخيلتهم إلا الحُور ، ولا يصور فى عيونهم إلا الملائكة ؛ وقذف الله فى قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر ، وانجاب القَتَم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب ، وانكشفت المعجزة الالهية عن انتصار ثلثمائة على قرابة ألف ! !

موقعة بدرٍ الكبرى لا تذكر بخطتها وعدتها ونفقتها وعديدها فى تاريخ الحرب ، فلعلها فى كل ذلك لا تزيد على معركة بين حيين فى مدينة ؛ إنما تذكر بنتائجها وآثارها فى تاريخ السلم ، لأنها كانت حكما قاطعاً من أحكام القدر غيَّر مجرى التاريخ ، وعدَّل وجهة الدنيا ، ومكَّن للعرب فى دَوْرهم أن يُبلغوا رسالة الله ، ويؤدوا أمانة الحضارة ، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة ، ولكنه كان ثمرة من ثمار الايمان والصدق ؛ والايمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح ، وفيها الأمل والمَثَل ، وفيها الحب والايثار ، فلا تبالى العدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر !

بهذا الايمان الصادق خلق الله من الضعف قوة فى بدر والقادسية واليرموك ؛ وبهذا الايمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة عمرانا طبق الأرض بالخير ، وملكا نظَّم الدنيا بالعدل ، ودينا ألَّف القلوب بالرحمة

***

بهذا الشعور القدسى الذى يحس وينهض ويقود ، وبهذا اليقين النفسى الذى يجاهد وينتصر ويسود ، وقف الشباب المصرى الباسل من دخلاء الجيش ، موقف البدريين من كفار قريش ، يشقون بهتافهم أذن الأصم ، ويقرعون باحتجاجهم ضمير المصِرّ ، ويجدعون بثباتهم أنف المستكبر ! لا ينكلون أمام الرصاص ، ولا يرهبون وحشة السجن ، ولا يجزعون عند الفاجعة . وعاطفة الوطنية كعقيدة الدين : فناء فى الغيرية ، واندماج فى الجمعية ، وتوجيه الأمل الطموح الى المقصد الأعلى ؛ وأجمل ما فى وطنية الشباب المصرى اليوم ، هو أجمل ما كان فى عقيدة الشباب العربى أمس : اتحاد قائم على الألفة ، وتضامن مبنى على الوحدة ، ومزاج مركب من الشعور الدافق والايمان الصادق والتفكير المنظم

إن اليوم السابع عشر من رمضان سيظل يوماً مشهوداً فى تاريخ الأمة العربية بنزول القرآن وغلبة الحق ، وفى تاريخ الأمة المصرية بنصرة الشباب ووحدة الأحزاب وعودة الدستور

أحمد حسن الزيات

٤ ـ المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وضاق «نابغةُ القرن العشرين» بحُمق المجنون الآخر؛ ورآه داهية دَوَاهٍ كلما تعاقل أو تحاذق لم يأتِ له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو؛ فلا يبرحُ يُجرِّعُه الغيظَ مرةً بعد مرة، ولا يزال كأنه يسبُّه في عقله؛ فأراد أن يحتالَ لصرفه عن المجلس، فدفع اليه الرسالة التي جاء بها (البريد المستعجل)، وقال له: خذ هذه فاذهب فألقِها في دار البريد، فسيجيء بها الساعي مرة أخرى، ثم تذهب الثانية فتلقيها، ويعود هو فيجيء بها، وتكونُ أنت تذهب ويكون هو يجيء فنضحك منه ويضحكون . . . .

قال س . ع: ولكن كم يذهب هذا وكم يجيءُ ذاك؟

فغمزه (النابغة) بعينه أن اسكت؛ فتغافل س . ع . وقال: كم تريد أن يجيءَ الساعي ليهتف بنابغة القرن العشرين؟

قال المجنون الآخر: هذا هو الرأي، فلست قائماً حتى أعرف كم مرةً أذهب، فان الساعي لا يجيءُ إلا راكباً، وأنا لا أذهب إلا راجلا، وإن لي رجلي انسان لا رجلي دابة

قال (النابغة): سبحان الله! بقليل من الجنون يَخرجُ من الانسان مجنونٌ كامل مُستَلَبُ العقل. بَيْدَ أنه لا يأتي النابغةُ إلا من كثيرٍ وكثير، ومن النبوغ كله بجميع وسائله وأسبابه على تعدُّدها وتفرّقها وصعوبة اجتماعها لانسان واحد (كنابغة القرن العشرين) فهو الذي توافتْ اليه كلٌّ هذه الأسباب، وتوازنت فيه كل تلك الخلال. إنه ليس الشأنُ في العلم ولا في التعليم؛ ولكنما الشأنُ في الوهبة التي تبدع الابتكار كوهبة (نابغة القرن العشرين)؛ فيها تجيءُ أعماله منسجمةً دالة بنفسها على نفسها؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتلائمة مع كونها متميزة دالة بنفسها على نفسها .. هذا س . ع . كان الأولَ بين خرّيجي مدرسة دار العلوم، مدرسة الأدب والعربية والمنطق والتحذلق وبلاغة اللسان وصحة النظر، وهو يعرف أن الكتاب يُلقى في البريد وعليه طابعٌ واحد، فيصل الى غايته بهذا الطابع؛ ثم يرى بعيني رأسه أربعة طوابع على هذه الرسالة المعنونة باسم (نابغة القرن العشرين) فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل اليّ أنا أربع مرات .. ..

فطرب المجنون الآخر واهتزّ في مجلسه، وصفّق بيديه، وقال: «مما حفظناه» هذا الحديث: يحاسِبُ اللهُ الناس على قدر عقولهم؛ فلا تؤاخذ س . ع . فان مدرسة دار العلوم تعلمهم «فيها قولان»، وفيها ثلاثة أقوال، وفيها أربعة أوجه؛ ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طوابع .. ..

ثم التفت الى س . ع . وقال له: لا عليك، فأنا صاحبُه وخَليطُه وحاملُ عِلمه وراويةُ أدبه وأكبر دُعاتِه وثقاته، وما علمتُ هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة

قال ا . ش: فاذا كان هذا، فان لقائلٍ أن يقول: لماذا لم يضع على كتابه عشرة من الطوابع فيجيءُ به الساعي عشر مرات

قال (النابغة): وهذا أيضاً . . .

وما شرٌّ الثلاثةِ أمَّ عمروٍ بصاحبك الذي لا تصحبين؛ إن الشمعة في يد العاقل تكون للضوء فقط، ولكنها في يد المجنون للضوء ولاحراق أصابعه ... كم الساعة الآن؟

قلنا: هي التاسعة

قال: ومتى ينصرف أهل هذا الندىّ؟

قلنا: لتمام الثانية عشرة

قال: فاذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة، فهي أربعُ مرات إلى أن ينفضّ المجتمعون هنا، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قومٌ عرفوا (نابغة القرن العشرين)، وجاء قوم غيرهم فيعرفونه. وأما بعد ذلك فلا يجد الساعي هنا أحداً ولا تكون فائدة من مجيئه

فصفّق المجنون الآخر وقال: هذا وأبيك هو التهدّي إلى وجه الرأي وسداده، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذي يقوم على أصول الحساب والجغرافيا . . . «ومما حفظناه» هذا الحديث: لا مالَ أعودُ من العقل . فأربعة طوابع، لأربع مرات، في أربع ساعات، وما عدا ذلك فاسرافٌ وتبذير، ولا مال أعودُ من العقل . . .

***

ورضى (النابغة) عن صاحبه وقال له : لئن كانت فيك ضعفة إن فيك لبقية تعقل بها . . . ثم أخذ منه الرسالة ودسها في ثوبه . قلنا : ولكن ألا تفضها لنعرف ما فيها ؟

فضحك وقال : أنى جاريتكم في باب المطايبة والنادرة ، وجاريت هذا الأبله في باب جنونه وحمقه – تحسبون أن الأمر على ذلك ، وأن الرسالة فارغة إلا من عنوانها ، وأن نابغة القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين كما قال سعد باشا : (جورج الخامس يفاوض جورج الخامس) . . . ؟ لحق والله أن العقل الكبير الذي يأبى الصغائر هو الذي تأتى منه الصغائر أحياناً لتثبت أنه عقل كبير ، وهكذا تسخر الحقيقة من كبار العقول (كنابغة القرن العشرين)

فغضب المجنون الآخر وهم أن يتكلم . فقال له (النابغة) : أنت كاذب فيما ستقوله

قلنا : ولكنه لم يقل شيئاً بعد ، فكما يجوز أن يكون كاذباً يجوز أن يكون صادقاً

قال : وسيخطىء في رأيه الذي يبديه

قلنا : ولم يبد شيئاً من رأيه

قال : ولا يعرف الحقيقة التي سيتكلم عنها

قلنا : ويحك أدخلت في عقل الرجل أم تعلم الغيب ؟

قال : لا هذا ولا ذاك ولكنه قياس منطقي يتوهم اطراده . إنه سيقول إني مجنون . . .

فأخرج الآخر لسانه ... قال (النابغة) : تباً لك لقد رأيت الكلمة في لسانك كأنها مكتوبة بحروف المطبعة . ويحك يا مرقعان (1) ألا تعرف أن لك دماغاً مخروقاً تسقط منه أفكارك قبل أن تتكلم بها ، ولولا أنه مخروق لحفظت المتن ! إن كل تخطئة لي منك هي اعتراف لي منك بصواب

فنظر اليه الآخر نظرة كان تفسيرها في حواجبه إذ مط حواجبه (2) ورقصها . فقال (النابغة) : ونظراته خبيثة ، ملحة الطعم ، مزعوقة كماء البحر المر ، أخذ من البحر وأضيف إلى ملحه الطبيعي ملح . أكاد أتهوع من هذه النظرة فأقيء الآن فهمت معنى قولهم : « ملحة في عين الحسود » فإن الملح لا يغلبه إلا الملح ، كالحديد بالحديد يفلج . هاتوا كأساً من معتقة الخمر ثم لينظر فيها الخبيث هذه النظرة فإن الخمر لابد مستحيلة شربة ملح انجليزى . . . هذا الأبله ثقيل الدم كأن دمه مأخوذ من مستنقع . . . أهذا الذي لا يستطيع أن يقول لشيء في الدنيا : هو لي ، إلا الفقر والجنون والخرافة – يكذب ما في الرسالة التي جاء بها البريد المستعجل ولا يصدق أنها مرسلة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الذاهب العقل هو كالجبان المنقطع في وحشة القفر في ظلام الليل ، إذا توجس حركة ضعيفة انقلبت في وهمه قصة جريمة ملؤها الرعب وفيها القتل والذبح . ولهذا يخشى ما في الرسالة التي جاءت من صديقي صاحب السمو . هلم اقرأوا الرسالة

وفضضنا الغلاف فإذا ورقتان ممهورتان بتوقيع أمير معروف إحداهما صك بألف جنيه تدفع (لنابغة القرن العشرين) ، والثانية أمر بالقبض على المجنون الآخر ... وإرساله الى المارستان

* * *

وذهبت أصلح بينهما فقلت : إن في الحديث الشريف : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ مر به رجل ، فقال بعض القوم هذا مجنون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مصاب ، إنما المجنون المقيم على معصية الله

فقال صاحب المتن : « مما حفظناه » : إنما المجنون المقيم على معصية الله

قلت : وليس فيكما مقيم على معصية الله . . .

قال المجنون : « مما حفظناه » وليس فيكما مقيم على معصية الله

قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامي . قال (النابغة) أنبأتكم أن هذا الأبله يضل في داره كما يضل الأعرابي في الصحراء ؛ وأن الأسطول الانجليزى لو استقر في ساقية يدور فيها ثور ، لكان ذلك أقرب الى التصديق من استقرار العقل في رأس هذا الأبله ؟

فاحتدم الآخر وهم أن يقول « مما حفظناه » ولكني أسكته وقلت (للنابغة) : إنك دائماً في ذروة العالم فلا غرو أن ترى المحيط الأعظم ساقية . والنوابغ هم في أنفسهم نوابغ ، ولكنهم في رأى الناس مرضى بمرض الصعود الخيالي إلى ذروة

(1) المرقعان والرقيع الأحمق الذي يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له

(2) هما حاجبان ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا وهو كثير في العربية

العالم . ومن هذا يكون المجانين هم المرضى بمرض النزول الحقيقى إلى حضيض الآدمية . فهناك يعملون فتكون أفكارهم من أعمالهم، ثم تكون عقولهم من أفكارهم ، فيكون هـذا هو الجنون فى عقولهم . وذلك معنى الحديث : إنما الجنون المقيم على معصية الله

قال (النابغة) : لعمرى إن هذا هو الحق . فنبوغُ العقل مرضٌ من أمراض السموّ فيه ؛ فالشاعر العظيم مجنون بالكون الذى يتخيّله فى فكره ، والعاشق مجنون بكون آخر له عينان مكحولتان ؛ والفيلسوفُ مجنون بالكون الذى يدأب فى معرفته ؛ ونابغة القرن العشرين مجنون ... لا . لا . قد نسينا ! . ش فهو مجنون و س . ع فهو مجنون

وكلُّ الناس مجنونٌ بليلى وليلى لا تُقِرُّ لهم بذا كا

ومن حقّ ليلى ألا تقر لهم إذ هى لا تقر إلا لنابغة القرن العشرين وحده . وما أعجبَ سحرَ المرأة فى الكون النفسانىّ للرجال ؛ أما فى الكون الحقيقى فهى أنثى كإناث البهائم ليس غير . وأعقلُ الرجال من كان كالحمار أو الثور أو غيرهما من ذكور البهائم . فالحمار لا يعرف الحمارة إلا أنها حمارة ، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظمون شعراً ولا يكتبون « أوراق الورد » .. ... وإناث البهائم أمَّاتٌ (1) لا غير ، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباءً ؛ فهذه الذكورة طفيليةٌ فى الدنيا ، والطفيلىُّ لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها فيكون صاحب نوادر وأضاحيك وأكاذيب . ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضُروبا من الخداع والأكاذيب والأضاحيك والحيل والغفلة والبلاهة . وإذا نظرنا اليه من أوله فهو عشق ، أما آخره فهو آخر الحيلة والأكذوبة ، وهو قول الطفيلى قد شبعتُ وقد رويت ... ويحكم أين أولُ الكلام ؟

قلنا : أوله ما أعجب سحر المرأة فى الكون النفسانى للرجال

قال : نعم هذا هو . إنه سحر لا أعجب منه فى هذا الكون النفسانى إلا سحر الذهب . فلو مُسِخت المرأةُ الجميلة شيئاً من الأشياء لكانت سبيكةً ذهبية تلمع . ولهذا يُوجدُ الذهبُ اللصوص فى الدنيا ، وتوجد المرأةُ الجميلة لصوصا آخرين ، فيجب أن يصان الذهب وأن تصان المرأة

(1) يقال فى غير العاقل أمات وفى العاقل أمهات

قلت : ولكن أليس من المال فضة وهى توجد اللصوص كالذهب ؟

قال : نعم ، وفى النساء كذلك فضة وفيهن النحاس . ولو أنت ألقيت ريالاً فى الطريق لأحدثتَ معركةً يختصم فيها رجلان ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى . ولو تركت قرشاً لتضارب عليه طفلان ثم لا يفوز به إلا من عض الآخر ...

ولكن (فورد) الغنى الأمريكى العظيم الذى يجمع يده على أربعمائة مليون جنيه لا يتكلم عن القرش ؛ (ونابغة القرن العشرين) الذى يملك (ليلى) لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء

قلت : فانى أحسبك أعلمتنى أن اسمها فاطمة لا ليلى

قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكل الناس مجنون بفاطمة وفاطم لا تقرُّ لهم ؟ قلت لا .

قال : إذن فهى (ليلى) ليستقيم الشعر ... أما حين أقول : أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلّل ، فهى فاطمة ليصح الوزن

قلت : يُشبه والله ألا يكون اسمها ليلى ولا فاطمة ؛ وإنما هى تسمى حسب الوزن والبحر ، فاسمها فَعُولنْ أو مُفاعلتنْ ...

***

ثم قلنا له : فما رأيك فى الحب ، فانه ليقال : إنك أعشقُ الناس وأغزل الناس ؟ .

قال : إن ذلك ليقال (وهو الأصح) . ثم أطرق يفكر . وبدا عليه أنه مدهوش ذاهب العقل كأنه من قلبه على مسافة أبعد من المسافة التى بينه وبين عقله . وخيِّل إلىّ أن النساء قد حُشِرن جميعاً فى رأسه ومرت كل واحدة تعرض مفاتنها وغزلها وتلائم هذيانه بهذيان من جمالها ، فهو يرى ويسمع ويَعْرِض ويتخير . ثم اضطرب كالذى يحاول أن يمسك بشىء أفلت منه ؛ فلم ينتبه إلا قول المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت : إنه داء وجنون ...

قال : اسكت يا ويلك لقد أطفأت الأنوار بكلمتك المجنونة . كان فى رأسى مرقص عظيم تسطع الأنوار فيه بين الأحمر والأخضر والأبيض ؛ وترقص فيه الجميلات من الطويلة والقصيرة والممشوقة والبادنة ، فجئت بالداء والجنون قبحك الله فأخرجتني

عنهن اليك . أحسبُ أنك لو انتحرت لصالح العالم أو صالحتُ أنا على الأقل ، فاذا أردت أن تشنق نفسك فأنا آتيك بالحبل الذى كنتُ مقيدا فيه أى الحبل الذى عندى فى الدار ... على أن رأسك الفارغ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدرى .

قال الآخر : ما أنت مُنذُ اليوم إلا فى شنقى وتعذيبى أو فى شنق عقلى على الأصح . « ومما حفظناه » قول الأحنف بن قيس : إنى لأجالس الأحمق ساعةً فأتبيَّنُ ذلك فى عقلى ...

فلم يَرُعنا إلا قيامُ المجنون مسلَّحاً بحذائه فى يده ... وهو حذاء عتيق غليظ يقتل بضربة واحدة ؛ فخلنا بينهما وأثبتناه فى مكانه . وقلنا : هذا رجل قد غُلِب على عقله فلا يدرى مايقول ؛ فاذا هو دل على أنه مجنون ، أفلا تدلّ أنت على أنك عاقل ؟ ما سألناك فى انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيك فى الحب ؛ وما نشك أنك قد أطلتَ التفكير ليكون الجواب دقيقاً ، فانك « نابغة القرن العشرين » ، فانظر أن يكون الجوابُ كذلك

قال : نعم إن العاقل إذا ورد عليه السؤال أطال الفكر فى الجواب . فاكتب يافلان (س . ع) :

(جلس نابغة القرن العشرين مجلس الاملاء مُرتجلاً فقال[1] : قصةُ الحب هى قصة آدم ، خلق الله المرأة من ضلعه . فأول علامات الحب أن يشعر الرجل بالألم كأن المرأة التى أحبها كسرت له ضلعاً ... وكل قديم فى الحب هو قديم بمعنى غير معقول ، وكل جديد فيه هو جديد بمعنى غير مفهوم ؛ فغيرُ المعقول وغيرُ المفهوم هو الحب

والجمرةُ الحمراءُ إذا قيل إنها انطفأت وبقيت جمرة فذلك أقرب إلى الصدق من بقاء الحب حياً بمعناه الأول إذا انطفأ أو بَرَدَ

والعاشق مجنون . وجنونُه مجنون أيضاً ، فهو كالذى يرى الجمرةَ منطفئةً ويرى مع ذلك أنها لا تزال حمراء ، ثم يُمْعِنُ فى خياله فيراها وردة من الورد ... وإذا سألته أن يصف الجمالَ الذى يهواه كان فى ذلك أيضاً مجنونَ المجنون كالذى يرى قمر السماء أنه قد تفتَّتَ وتناثر ووقع فى الروضة فكان نثارُه هو الياسمينَ الأبيض الجميل الذكى ...

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخليط

والمجنون يرى الدنيا بجنونه والعاقل يراها بعقله ؛ ولكن العاشق المخبول لا ينظر من يهواه إلا بقيةٍ من هذا وبقيةٍ من ذلك فلا يخلُصُ مع حبيبه إلى جنون ولا عقل

(والمجهول) إذا أراد أن يظهر فى دماغ بشرى لم يسعه إلا أحدُ رأسين : رأسِ المجنون ورأسِ العاشق

ولا صعوبة فى الحكم على شىء بأنه خير أو شر إلا حين يكون الخير والشر امرأة معشوقة . أما أوصاف الشعراء والكتاب للجمال والحب فهى كلها تقليد قد توسعوا فيه ؛ والأصل أن ثوراً أحب بقرة فكان يقول لها : يا نجمة القطب التى نزلت من السماء لتدور فى الساقية كما دارت فى الفلك . . .

قال (النابغة) : هذا رأيى فى حب العاشقين ، أما حبى أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قولك : فلّ ، ورد ، زهر . . .

قلنا ما هذه الألفاظ ، وهل للحب مَتْن كقولهم : حروفُ القلقلة يجمعها قولك (قُطْبُ جَدٍ) ، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتمونيها) ؟

فتضاحك (النابغة) وقال : تكاثرت الظباءُ على خراش ، فلكيلا ننسى ... إن كل حرف هو بدءُ اسم ، الفاء فاطمة ، واللام ليلى ، والواو وردة ، والراء رباب ، والدال دلال ، والزاى زكية ، والهاء هند ، والراء رباب

قلنا : رباب قد مضت فى (ورد) . قال : كنا تهاجرْنا مدةً ثم اصطلحنا بعد هند ...

***

قلت : هكذا النوابغ فان رجلا أديباً كانت كنيته (أبا العباس) فلما « نبغ » صيَّرها (أبا العِبر) وفتق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره . قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهى هكذا :

أبو العبر طَرَدْ طِيل طَليرى بَك بَك بَك

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

الى آنستين : هل تتفضل الآنسة التى كتبت إلى من القاهرة بغير توقيع فتتخذ لها عنواناً أخاطبها به . وهل تفعل مثل ذلك الآنسة التى كتبت من دمشق بغير توقيع ؟ إن من الجواب ما لا يكون صريحاً كما يريد السائل إلا إذا كان جواباً للسائل وحده

الرافعى

حوادث الشرق الأقصى

مشروع اليابان
فى الاستيلاء على الصين

بقلم باحث دبلوماسى كبير

بينما تشغل أوربا والعالم بأسره بتطورات المشكلة الايطالية الحبشية وما يترتب على تفاقمها من أخطار داهمة على سلام أوربا وسلام العالم ، إذا بالشرق الأقصى يجيش بحوادث خطيرة قد يكون لها أكبر الأثر فى مصاير الصين والشرق الأقصى كله ، ولكن يحجب عنا خطورتها ، نأيها وغموضها وانحصارها فى ذلك الركن من العالم ؛ وهى ليست فى جوهرها جديدة أو مستقلة ، ولكنها حلقة جديدة فى ثبت الحوادث التى يضطرم بها الشرق الأقصى منذ أربعة أعوام ، والتى تضرمها وتذكيها السياسة اليابانية كلما آنست فرصة صالحة للعمل

وليس من الصعب أن نتلمس فى حوادث الصين الجديدة رغم غموضها ، وجه الصلة بينها وبين الحوادث المماثلة التى تقع فى الصين بين آونة وأخرى ، فالسياسة اليابانية هى التى تنظمها وتوجهها بأساليب متماثلة ، وتتذرع لاضرامها بنفس المعاذير : اعتداء على المصالح اليابانية فى ناحية من النواحى ، أو مقتل أحد الرعايا اليابانيين ، أو اضطراب الأمن وعيث العصابات ، أو دسائس الشيوعية ؛ كذلك ليس من الصعب أن نتحرى العوامل والبواعث الدفينة التى تحمل هذا الغزو اليابانى المنظم الى داخل الصين بين آونة وأخرى تارة بالقوة المنيفة ، وتارة بالوسائل السياسية ، فاليابان تكاد تفصح عن نياتها ومقاصدها الاستعمارية البعيدة فى كل مناسبة ، وإن كانت ما تزال تستتر وراء بعض المظاهر والعبارات الخلابة التى يموه الاستعمار فى صوغها

وقد بدأت اليابان منذ بضعة أسابيع فى القيام بمحاولة جديدة لبسط نفوذها على مناطق جديدة من الصين ؛ ومهد قادة الجيش اليابانى فى شمال الصين لذلك بمؤتمر عقدوه فى دايرن ثغر منشوريا الجنوبى ، ووجهوا على أثره بلاغاً نهائياً إلى الحكومة الصينية الوطنية (حكومة نانكين) ضمنوه المطالب الآتية :

(١) قمع الدعوة الشيوعية فى الصين ، وهى دعوة مهدها ومصدرها منغوليا

(٢) قمع أعمال « الكومن تانج » (الحزب الوطنى الصينى) وأعمال الجمعية الوطنية الصينية المسماة بجمعية « ذوى الأقمصة الزرقاء » فى شمال الصين

(٣) تعهد الحكومة الصينية بأن تتبع منذ الآن سياسة ودية نحو اليابان

وبينما كانت حكومة نانكين تدرس ذلك البلاغ ، إذ وقعت عدة حوادث فى منطقة الحياد الشمالية فى شمال بكين اقتضت تدخل السلطات اليابانية ، وقامت ثورات محلية صغيرة فى عدة مناطق طواب خلالها بتخفيض الضرائب والاستقلال عن حكومة نانكين ؛ ولم يكن أصبع العسكرية اليابانية بعيداً عن هذه الحوادث

ولم تلبث السياسة اليابانية أن أفصحت عن غرضها الحقيقى من القيام بهذه الحركة ؛ فقد أبلغت السلطات المحلية فى ولايات الصين الشمالية ، وأبلغت حكومة نانكين بوجوب إنشاء حكومة إدارية مستقلة فى ولايات خمس هى : هوبى ، وتشاهار ، وشانسى ، وسويان ، وشانتونج ، وتكون عاصمتها بكين ، العاصمة الأمبراطورية السابقة ؛ وقصد اليابان من ذلك أن تقيم دولة متوسطة بين أملاكها الصينية فى الشمال أعنى منشوكيو وجيهول ، وبين وادى النهر الأصفر حيث يبدأ نفوذ حكومة نانكين الحقيقى

وقد أفرغت اليابان مطالبها فى صيغة بلاغ نهائى ، وأنذرت الحكومة الوطنية الصينية بأنها ستتخذ الاجراءات العسكرية اللازمة إذا لم تحقق رغبتها ؛ ولكن حكومة نانكين لم تذعن لهذا الوعيد ، وكذلك لم يذعن زعماء الشمال ، ولم تنفذ اليابان وعيدها فى الحال ، ولكنها آثرت أن تعمد مؤقتاً إلى العمل السياسى ؛ وفى الأنباء الأخيرة أن الضغط اليابانى قد أحدث أثره الأول وذلك بحمل حكومة نانكين على الموافقة على إنشاء إدارة مستقلة فى مقاطعتى تشاهار وهوبى يكون مركزها فى بكين ، ويتولى إدارتها مجلس مؤلف من زعماء الشمال ، ويكون لها طابع الاستقلال التام فى شئونها الداخلية وعلائقها الخارجية ، ما عدا الجمارك والبريد فتحتفظ حكومة نانكين بايرادها ؛ ومعنى ذلك أن اليابان

قد فازت بتحقيق الخطوة الأولى فى مشروعها لفصل الشمال عن الجنوب ووضعه تحت نفوذها السياسى والاقتصادى

* * *

ونظرة بسيطة إلى خريطة الصين توضح لنا فداحة هذا المشروع اليابانى ؛ فالولايات الخمس التى يراد فصلها عن الحكومة الوطنية هى من أهم وأغنى الأقاليم الصينية ؛ وفصلها على هذا النحو يشطر الصين إلى شطرين ، ويمهد إلى بسط النفوذ اليابانى على الأقاليم الشمالية حتى النهر الأصفر (الينج تسى) ؛ وتتظاهر السياسة اليابانية بأنها فى هذه المحاولة إنما تعبر عن رغبات سكان هذه الأقاليم ، والواقع أنها تعتمد فى ذلك على مؤازرة الجنرال « شنج تشى يوان » زعيم الشمال وخصيم الحكومة الوطنية ، وتعتمد من جهة أخرى على محالفة حكومة « كوانتونج » الجنوبية (حكومة كنتون) وهى أيضاً خصيمة الحكومة الوطنية ؛ فالحكومة الوطنية أو حكومة نانكين تجد نفسها بين نارين فى هذا الصراع الذى يوشك أن يقوض دعائمها

ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن اليابان قد استولت قبل ذلك بأربعة أعوام على أقليم منشوريا الغنى ، ولم تعبأ بتدخل عصبة الأمم وقراراتها النظرية ؛ وأنشأت فيه جمهورية صورية تحت الحماية اليابانية باسم جمهورية « منشوكيو » ؛ ولبثت بعد ذلك تتحين الفرص للزحف جنوباً متذرعة بمختلف الحجج والأعذار حتى اقتحمت قواتها « السور الكبير » واستولت على قسم كبير من إقليم جيهول ، وبسطت نفوذها على جميع الأراضى الواقعة شمال بكين ؛ وليست الحركة الانفصالية الجديدة التى تدبرها السياسة اليابانية إلا حركة غزو جديدة ، تستأنف بها اليابان نشاطها فى سبيل تنفيذ مشروعها الاستعمارى الضخم الذى تتحين الفرص لتحقيقه كلما شغلت الدول الغربية بأزماتها الخطيرة

والظاهر أن السياسة اليابانية كانت تعبر عن نياتها ومشاريعها المستقبلة تعبيراً صادقاً حينما ألقت إنذارها الشهير منذ نحو عام ونصف إلى أوربا وأمريكا وهو : « إرفعوا أيديكم عن الصين » أو بعبارة أخرى حينما صرحت بأنها تجرى فى سياستها الصينية على مبدأ « آسيا للأسيويين » مثلما تجرى أمريكا فى سياستها على مبدأ « مونرو » الشهير أو على مبدأ « أمريكا للأمريكيين » ، وقد كانت اليابان ترقب دائماً مشاريع الدول الغربية وتوغل نفوذها فى الصين بمنتهى الاهتمام والتوجس ؛ وتعمل على مقاومة نفوذها وامتيازاتها بالوسائل الاقتصادية والعسكرية مااستطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ولكنها جرت فى الأعوام الأخيرة على سياسة عملية يؤيدها التدخل العسكرى ، وكان استيلاؤها على منشوريا تحت سمع أوربا وأمريكا ورغم تدخل عصبة الأمم تجربة عملية ناجحة عجمت بها عود الدول الكبرى ذات المصالح فى الصين مثل بريطانيا العظمى وروسيا وفرنسا وأمريكا ، واستطاعت أن تقف على مدى المقاومة التى يمكن أن تتذرع بها الدول لمعارضتها ؛ بيد أن الدول خلا روسيا لم تبد سوى معارضة نظرية ، ومع أن روسيا وأمريكا قدمتا على غزو اليابان للأراضى الصينية احتجاجات شديدة ، فان اليابان لم تحفل بأى احتجاج أو معارضة ؛ ولما توسعت اليابان فى مشروعها وغزت ثغر شنغهاى لترغم الصين على الاعتراف بالحالة الواقعة فى منشوريا ، احتجت الدول الغربية بنصوص معاهدة الدول التسع (معاهدة سنة ١٩٢٢) التى تنص على احترام سيادة الصين ووحدتها الأقليمية والادارية ، ولكن اليابان لم تنسحب من شنغهاى إلا أمام المقاومة العنيفة التى استطاعت أن تنظمها حكومة نانكين

والآن تمضى اليابان فى تنفيذ مشروعها لاحتلال الصين واستعمارها مرحلة أخرى . وهى تعمل فى ظروف صالحة جداً ؛ فالدول الغربية وأمريكا مشغولة بالأزمة الدولية الخطيرة التى أثارتها المشكلة الحبشية ، والصين فى حال من التفرق والتمزق لا تمكنها من أية مقاومة عملية ، فحكومة الجنوب أو حكومة كوانتونج (وعاصمتها كنتون) تخاصم الحكومة الوطنية وتناوئها ، والحكومة الوطنية (حكومة نانكين) لا يكاد يتعدى سلطانها الأقاليم الوسطى . أما الأقاليم الشمالية وهى مسرح النشاط اليابانى ، فتكاد تخرج جميعاً عن قبضتها ولا تكاد تتمتع فيها بأية سلطة أو نفوذ يذكر ؛ والسلطة فيها موزعة بين جماعة من القادة العسكريين المحليين ، أهمهم وأقواهم الجنرال « شنج تشى يوان » زعيم الشمال وهو من أنصار سياسة التفاهم مع اليابان . ويجب أن نذكر أن اليابان تعمل الآن مطمئنة من جانب روسيا التى اضطرت إزاء تطور الحوادث وتفاقمها فى أوربا أن تترك ميدان الصراع مع

اليابان فى الشرق الأقصى ، وأن تنسحب نهائياً من منشوريا بعد أن باعت لليابان نصيبها فى السكة الحديدية الشرقية ؛ وبذلك خفت عوامل الاحتكاك القديمة بين اليابان وروسيا ، وهى عوامل كانت تحسب اليابان حسابها كلما أقدمت على عمل جديد فى هذا الميدان

أما الدول الغربية فليس من المنتظر أن تقوم فى الظرف الحاضر بعمل ذى شأن ، وخصوصاً بعد ما تصدعت جبهتها المشتركة ، وأضحت كل تعمل بمفردها ؛ بيد أن الصين تحاول من جانبها أن تحمل الدول الغربية على التحرك ، وذلك بإثارة التمسك بمعاهدة الدول التسع لدى الدول الموقعة عليها ، وهى الولايات المتحدة (أمريكا) وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندة والبرتغال والصين واليابان ذاتها ؛ وتنص هذه المعاهدة على احترام سيادة الصين واستقلالها ووحدتها الادارية والأقليمية ، وعلى معاونتها على النهوض والتقدم بكل الوسائل ، واستعمال الدول الموقعة لنفوذها فى تأييد مبدأ الفرص المتساوية فى النشاط التجارى والصناعى فى الصين لجميع الأمم ، وعلى عدم انتهاز ظروف الصين للحصول على امتيازات خاصة ؛ فهذه المعاهدة هى التى تثير الصين وتثير الدول نصوصها اليوم احتجاجاً على عمل اليابان فى شمال الصين ، بيد أنه من المشكوك فيه أن يسفر هذا الاحتجاج النظرى عن أية نتيجة عملية ؛ فاليابان تمضى دائماً فى طريقها غير حافلة بالنصوص التى تعرقل مشاريعها

على أن هناك عاملاً يحسب حسابه ؛ فان اليابان إذا استمرت فى سياسة التوغل فى الصين على هذا النحو ، فانها تقترب شيئاً فشيئاً من حدود الهند البريطانية ، وحدود الهند الصينية الفرنسية ؛ وبريطانيا العظمى لا تستطيع السكوت طويلاً على هذه الحركة التى قد تفضى إلى تهديد سيادتها فى الهند ؛ كذلك تشعر فرنسا بالخوف على مستقبل الهند الصينية ، إذا ما اقتربت اليابان من جنوب الصين . والواقع أن بريطانيا رغم انشغالها بالمشكلة الحبشية واحتمالاتها المزعجة ، لم تفتر عن العمل لمقاومة التوغل اليابانى فى الصين ، والصراع يضطرم دائماً بين الدولتين وإن كان ما زال يقتصر على الوسائل المستترة ؛ وآخر محاولة بريطانية لمقاومة النفوذ اليابانى ، هى اتفاق بريطانيا مع حكومة نانكين على القيام بتنظيم المالية الصينية على يد خبير بريطانى ، وعقد قرض للصين فى انكلترا ، وهى محاولة تفطن لها اليابان وتعمل لمعارضتها ؛ وإذا كانت الدلائل تدل على أن أمريكا قد أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً عن التمسك بسيادة المحيط الهادى وعن التعرض لسياسة التوسع اليابانى فى الصين ، فانها من جهة أخرى تدل على أن بريطانيا العظمى ما زالت تعتبر قيام التوازن الدولى فى الصين أمراً حيوياً لسلامة الهند وباقى أملاكها فى الشرق الأقصى ؛ ولم يكن إنشاء انكلترا لقاعدة سنغافورة البحرية الهائلة بعيداً عن التحوط للزحف اليابانى نحو الجنوب

وليس بعيداً أن يكون تقدم التوسع اليابانى فى الشرق الأقصى على هذا النحو المزعج عاملاً جوهرياً فى التقرب بين انكلترا وروسيا ، واتحادهما معا على مقاومة هذا الخطر اليابانى الذى تشعر كلتاهما باشتداد وطأته ؛ فاذا تم ذلك ، فانه يسجل انقلاباً خطيراً فى السياسة الدولية ، قد يكون له أبعد الأثر فى تطور الحوادث فى الشرق الأقصى

(***)

المرأة كما يراها شوبنهور

للأستاذ زكي نجيب محمود

إن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضطلع بجليل الأعمال — الجسمي منها والعقلي على السواء ، وإن رسالتها في الحياة لتنحصر في الانسال وتعهد الأطفال ، مع وجوب طاعتها للرجل وخضوعها له ؛ فقد شاءت لها الطبيعة أن تسلك في حياتها سبيلا هادئاً مطمئناً وادعاً ، لا تصادف فيه ما يصادفه الرجل في حياته من التطرف في اللذة والألم كليهما — وإذا كانت الحياة قد ركنت الى المرأة في أداء هذه الرسالة الكبرى ، وأرادت بها أن تكون أداة لتربية النشء في مدارج الطفولة الباكرة ، فقد أعدتها أعدادا عقلياً يلائم الغرض من وجودها ، فجاءت ضعيفة العقل قصيرة النظر ، حتى لكأنها طفل كبير ، لكي يتم بينها وبين أطفالها شيء من التناسق والانسجام ، أو إن شئت فقل إنها مرحلة عقلية متوسطة بين الطفولة والرجولة ، فالرجل هو الكائن البشري الحق الذي قصدت اليه الحياة

عرفت الطبيعة في المرأة ضعفها فوهبتها الجمال تغزو به أفئدة الرجال لينهض هؤلاء بعبئها عن رضى وطواعية ، ولكن الطبيعة في عطائها كانت كعهدنا بها مقترة مغلولة اليد ، فلم تهب المرأة من الجمال إلا بمقدار ما تستطيع أن تتخذ منه أداة لحفز الرجل على التناسل ليستمر البقاء ، حتى إذا ما انقضت مهمتها في ذلك عادت الحياة فسلبتها ما كانت وهبتها من فتنة وجمال ، وتركتها ذابلة ذاوية تتمنى شبابها المفقود ... وإن الفتاة مهما اشتملت حماسة لحريتها ، واصطنعت لنفسها مهن الرجال ، لتَستشعرُ في أعماق نفسها أنها ما خلقت إلا للمعركة الجنسية ، تتوسل لها بالحب وما يتصل به من تزين ودلال

ومما يلاحظ أنه كلما ارتفع الكائن الحي في سلم الكمال كان أبطأ وصولا الى مرتبة النضوج ، فبينا المرأة تكتمل نضوجها العقلي في سن الثامنة عشرة ، ترى الرجل لا يكاد يبلغ نهاية هذا النضوج إلا بعد الثامنة والعشرين ، على أن المرأة لا تدرك من القوة العقلية إلا حدا ضئيلا لا يمكنها من أن تنفذ الى حقائق الأشياء ، ولذا يسهل انخداعها بالظواهر الباطلة ، كما أنها كثيرا ما تتعلق بتوافه الأمور دون الهام منها والخطير ؛ كذلك تتميز المرأة بأنها تعيش في حاضرها فقط ، نظرا لعجزها عن أن تنفذ بفكرها الى الماضي أو المستقبل ، فبالقوة العقلية وحدها يستطيع الرجل أن يحطم حدود الزمن التي تقيد المرأة كما تقيد الحيوان الأعجم ، فيرسل بصره إلى الأفق النائي البعيد ، ويضم في نفسه أطراف الزمان من الأزل الى الأبد ؛ ولعل هذه الخاصة هي التي يتميز بها الرجل دون المرأة ، وأعني بها النظر الشامل العميق ، هي العلة فيما يلاحظ عليه من هم وانقباض كثيرا ما يغلبان عليه حتى ينسياه ما قد يحيط به من عوامل الهناءة والسرور . أما المرأة فهي تنعم بضعفها العقلي لأنها تلهو بلذائذ يومها غير حافلة بما يأتي به الغد من ويلات وكوارث . فهي في ذلك كالحيوان الأجهر (ضعيف البصر) الذي يرى ما هو قريب منه في وضوح وجلاء ، ولكن بصره لا يمتد الى أبعد من أنفه ؛ أي أنها قد تستطيع أن ترى الحوادث الحاضرة أدق مما يراها الرجل ، ولكنها عاجزة كل العجز عن اجتياز حاضرها الى ماضيها ومستقبلها ، وربما كان هذا النظر الضيق المحدود هو الذي دفع المرأة إلى ما تتصف به عادة من إسراف قد يصل إلى حد الحماقة والجنون ؛ فهي تريد أن تنعم « الآن » وليأت بعد ذلك الطوفان ! ولكن اشتغال المرأة بحاضرها واستمتاعها بلذائذ يومها لا يخلو من حكمة بالغة ، لأن ذلك يكسبها مرحاً وابتهاجاً بالحياة يمكنانها من القيام بواجبها الخطير نحو الرجل ، وهو الترويح عن نفسه مما يعانيه من شقاء وعناء ، فما أكثر ما تكون المرأة جنة فيحاء تزيل بسحرها عن كاهل الرجل المتعب المضنى عبء الهم الثقيل

ولكن لا ينبغي أن يتيه الرجل بما أوتي من العقل فلا يصغي لرأيها ولا يحفل بما تقول ، بل خير له إذا ما حزب الأمر واشتد الخطر أن يستشيرها الرأي ويستهديها السبيل ، وذلك لأن طريقة المرأة في فهم الأشياء تخالف طريقة الرجل كل المخالفة ، فهي تحب بطبعها أن تسلك أخصر الطرق التي تؤدي إلى الغاية المقصودة ، هذا فضلاً عن مقدرتها على رؤية القريب بسبب ضعف قواها العقلية الذي أشرنا اليه ، فهي بذلك قد تلفت نظر الرجل إلى ما يغفل عن إدراكه لقربه منه ، إذ هو كما قدمنا مفطور بطبعه على النظر البعيد ؛ أضف إلى ذلك أن المرأة ألصق بالحقائق الواقعة فترى الحوادث كما هي لا تضيف اليها ولا تنتقص منها ، أما الرجل فاذا ما اضطرمت عواطفه ، انطلق خياله يهول في الأمر

ويزيد عليه فتضيع الحقيقة فى ثنايا الأوهام ويستحيل عليه التفكير السليم

وقد كان هذا الضعف العقلى الذى تتميز به المرأة قيداً حصرها فى دائرة الحقائق والوقائع المحسوسة دون أن تكلف نفسها مؤونة التفكير المطلق المجرد ، فنتج عن هذا شدة عطفها على البائسين وحدبها على الأشقياء ، لأنها لا تدرى من حقائق الكون إلا هذه الحقائق الجزئية التى تراها وتلمسها ؛ وليس فى مقدورها أن تنظر إلى العالم كله وحدةً متصلة وحقيقة واحدة ينمحى فى خضمه المتلاطم كل ما فيه من بؤس الأفراد وشقائهم ، ولكن إن كان هذا النظر الواقعى المحدود قد أكسب المرأة عطفها الجميل ، فقد جنح بها كذلك إلى ألأم الطباع وأخسها ، فهى أبعد ما يكون الانسان عن العدل والشرف ويقظة الضمير وما اليها من الصفات الخلقية التى لا تستساغ إلا بالنظر المجرد العميق ، وقد ألجأها ما أحسته فى نفسها من ضعف إلى أساليب المكر والختل والخداع ، فهيهات أن تجد بين النساء امرأة واحدة قد خاص طبعها من الخيانة والغدر والكذب ؛ فهذه هى عدتها التى وهبتها إياها الطبيعة لتدافع بها عن كيانها ووجودها كما أمدت الضوارى بالمخالب والأنياب ، فليس لدى المرأة من عتاد تدرأ به عن نفسها ما يتهددها من خطر إلا المكر والخداع ، لا فرق فى ذلك بين امرأة وامرأة ، وهى تلجأ إلى هذا السلاح الفكرى فى كل ظرف دون أن تشعر أنها ترتكب بذلك ما يناقض فضيلة أو شرفاً ، بل إنها على نقيض ذلك تعتقد أنها إنما تستخدم قوة طبيعية فيها لها كل الحق فى استخدامها كما يستعين الأسد بمخالبه ساعة الخطر ؛ ولما كان الخداع مفطوراً فى دماء النساء كُنَّ أقدر من الرجل على إدراك خداع الناس . ولذلك كان من الغفلة والبلاهة أن يحاول الرجل خداع المرأة لأنها فى هذا الميدان فارسة لا يشق لها غبار . ولقد نشأ من هذا الجانب فى النساء ميل غريزى إلى العقوق والخيانة ونكران الجميل ؛ وما أهون على المرأة أن تحنث فى يمينها ، وما أيسر عليها أن تمتد يدها الى السرقة حتى ولو لم تكن فى حاجة الى ما تسرقه

لقد اتخذت الحياة من المرأة وسيلة للتعبير عن إرادتها فى البقاء ، وإن المرأة لتعلم فى أعماقها أنها خلقت لحياة النوع قبل أن تخلق لشخصها ، ولذا تراها تسمى جهدها لأداء واجبها الأول نحو النوع وإن تعارض ذلك مع واجبها نحو الرجل الذى يتعهدها ويرعاها ، فهى تأبى مثلا إلا أن تلد وترضع وتربى مهما كلفها ذلك من عناء ؛ وهنا تختلف المرأة عن الرجل اختلافا جوهريا ، فبينما هى تتوفر لخدمة النوع وبقائه ، ترى الرجل لا ينصرف بمجهوده إلا لبقاء شخصه ؛ أعنى أن المرأة خلقت وسيلة لبقاء النوع ، أما الرجل فهو غاية فى حد ذاته — ومن هذا الفارق بين الجنسين تفرع وجه اختلاف آخر بينهما : فالرجال لا يكاد بعضهم يأبه ببعض ، بل كل منهم منصرف الى سبيله لا يحفل بغيره ، وذلك لبعد ما بين أعمالهم من تباين وخلاف ؛ أما النساء فبينهن عداوة غريزية فلا يسع الواحدة منهن إلا أن تضمر فى نفسها أشد المقت لغيرها من بنات جنسها . وعلة ذلك أنهن جميعا قد خلقن لعمل واحد هو حفظ بقاء النوع ، فكان ذلك مدعاة للغيرة والكيد والتنافس ؛ فانظر مثلا إلى سيدتين تقابلتا فى الطريق كيف تنظر إحداهما الى الأخرى بعين كلها الغل والكراهية ؛ وإنه لما يبعثك على الضحك أن تستمع إلى امرأتين تتعارفان أو تتبادلان تحية اللقاء أو الوداع ، فلن ترى إلا سخفاً منشؤه أن التودد والتعاطف والمحبة ليست من طبيعة المرأة نحو المرأة ، وأن هذه العداوة الفطرية بينهن لتتضح لك فى جلاء إذا رأيت كيف تعامل المرأة الارستقراطية من هى دونها فى المنزلة الاجتماعية من النساء ؛ عندئذ ترى صلفا أى صلف وغطرسة وكبرياء ، لماذا ؟ لأنها تشعر أن الفارق بينهما فى حقيقة الأمر جد ضئيل . استغفر الله بل إنه لا فارق ألبتة بين امرأتين . فهذه تحفظ النوع بنسلها كما تحفظه تلك سواء بسواء ؛ ولعمرى أن الحياة لم تقصد بهن إلا هذا ، وهذا وحده . تشعر المرأة الأرستقراطية بانعدام الفارق فى الجوهر بينها وبين المرأة الوضيعة فتلجأ إلى الصناعة والتكلف تخلق بهما ما تريد هى أن يكون بين المرأتين من تفاضل ؛ أما الرجل فتراه على النقيض من ذلك : يعامل من دونه بالحسنى ، لأنه يعلم أن الطبيعة قد فرقت بينهما فى القوة والعمل ، فليس به لاظهار منزلته حاجة إلى الصلف والكبرياء

ولشد ما أعجب لهذا الاسم الذى يطلق على النساء جزافاً : (الجنس اللطيف) ؛ ولست أشك أن من أطلق هذا اللقب على ذلك الجنس الضئيل القصير الشائه ، هم أولئك الذين أفسدت غرائزهم الجنسية عقولهم . فجمال المرأة كله قائم على الغريزة الجنسية وحدها ، وإنه لأقرب الى الصواب أن نسمى النساء بالجنس الذى لا ذوق له ولا فن ، إذ ليس فى مقدورهن تقدير الجمال فى شتى

الفنون ، ولكنهن كثيراً ما يغالطن فى الحقائق فيدعين أنهن ذوات فن جميل ، بأن يعزفن على الآلات الموسيقية أو يعالجن التصوير ، ولكن ذلك منهن كذب ورياء ، فهن لا يُشغفن إلا بما خلقن من أجله : حفظ النوع ... ... إن الرجل يجاهد فى العلوم والفنون لتتم له السيطرة على الأشياء ، إما بفهمها أو بالتحكم فيها ، أما المرأة فهى بطبيعتها لا تحب أن تسيطر على الأشياء سيطرة مباشرة ، ولكنها دائماً تقصد الى السيادة على الأشياء عن طريق سيادتها على الرجل ، فالرجل وحده هو ما تصبو المرأة الى التحكم فيه والسيطرة عليه — ومعنى ذلك بعبارة أخرى — أن المرأة ترى فى كل شىء وسيلة فقط لغزو الرجل ، فاذا ما تظاهرت بميل الى الموسيقى أو الشعر مثلاً فليس ذلك ناشئاً عن رغبة طبيعية فيها نحو هذه الفنون ، إنما هى تتخذ منها أداة تتجمل بها لتروق فى عين الرجل . وما أصدق روسو حين قال : « إن النساء بصفة عامة لا يحببن الفنون ولا يعرفنها ، ومحال أن يبلغن فيها حد النبوغ » وهل تريد دليلاً على نفورهن من الفنون الرفيعة أقطع من هذا الذى تراه فى دور التمثيل ؟ أنظر اليهن كيف يواصلن الحديث فى أتفه الكلام ، معرضات عما قد يكون على المسرح من أروع آيات الفن ! ولئن صدق ما يقال من أن الاغريق لم يسمحوا لنسائهم بمشاهدة تمثيل المآسى ، فو الله لقد أصابوا ... ثم استعرض التاريخ وحدثنى مَنْ من النساء قد أبدع فى الفن آية فيها الأصالة والنبوغ ؟ ؟

ولقد شاءت الطبيعة للمرأة أن تثير فى الرجل أحط جوانبه ، فهى لا تنفذ إلى الرجل من ناحية عقله وهو مظهر قوته وسيادته ولكنها تأتيه من نواحى ضعفه ومجونه . فيجمل بالرجل أن يتخلص من ضعفها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، أما أن يكرمها ويرفع من قدرها فذلك ما أعجب له أشد العجب ! إن إكرامك للمرأة واحترامك لها انحطاط لك فى عينها ، لأنها تدرك بفطرتها أنها أحط من الرجل وأضعف . فلا يضعها فى غير موضعها إلا الضعيف العاجز — المرأة يجب أن تكون أمًّا فيجب ألا نعد بناتنا إلا لهذا مع تدريبهن على طاعة الرجل وقسرهن على الخضوع ؛ وفى ذلك يقول بيرون الشاعر الانجليزى « على النساء أن يعنين بالمنزل ، وعلينا أن نحسن لهن فى الطعام واللباس ، ولكن لا يجوز لهن مخالطة المجتمع ، فان تعلمن شيئاً فليكن ذلك هو الدين ، على شريطة ألا يطالعن شعراً ولا سياسة ، وألا يقرأن إلا كتب العبادة والطبيخ »

إن كل قانون للزواج يعامل المرأة على أساس مساواتها بالرجل باطل من أوله ، فاذا أراد القانون أن يسويها فى الحقوق بالرجال فليعطها أولاً عقلاً كعقول الرجال ! ومع ذلك فتأبى سخرية القدر إلا أن تمانى المرأة نفسها ما وراء المساواة من وخيم العواقب ، لأنه كلما جارت القوانين على الرجل وأجحفت بسيادته الطبيعية على المرأة وطالبته بأن يقف منها موقف الند للند ، أعرض الرجل ونفر ، فليس من الهين عليه أن يقوم على مثل هذه التضحية وأن يطوح بما أوتيه من قوة وسيادة ، وبذلك الاعراض يزداد عدد النساء غير المتزوجات اللواتى قد يدفعهن الفقر والحاجة اما إلى عمل لا يتفق مع طبيعتهن ، وإما إلى السقوط فى هاوية الفساد ، وعندئذ تكون الطامة الكبرى . ويستطرد شوبنهور فى استحسان تعدد الزوجات وفى وجوب عدم توريث المرأة مال زوجها لأنها مسرفة بطبعها ، وقد نشأ إسرافها من تعلق أطماعها بالأشياء المادية فتراها تبذل بغير حساب فى تجملها وزينتها ، وهى فى ذلك مخالفة للرجل الذى يتوجه بطموحه إلى نواح غير مادية كالعلم والشجاعة وما إليهما ، فهو يستنفد مجهوده فيما لا يحتاج إلى البذل والاسراف

يقول أرسطو فى كتاب « السياسة » : إنه إذا سمح للمرأة بالزيادة من حقوقها كان ذلك نذيرا بزوال الدولة ودمارها ، وهو يستشهد على ذلك بأسبرطة . ولقد جاء التاريخ الحديث بأمثلة كثيرة تؤيد ما ذهب اليه ذلك الفيلسوف العظيم ، فزيادة نفوذ المرأة فى فرنسا منذ عهد لويس الثالث عشر أدى الى تدهور الحكومة والبلاط ، وهذا بدوره أنتج الثورة الفرنسية الكبرى وما أعقبها من ثورات

وشهد شاهد من أهلها

لقد عرضت على القراء آراء شوبنهور فى المرأة بمناسبة ما قرأته فى إحدى الصحف الانجليزية لسيدة تنكر على المرأة حقها فى الحرية ، قائلة إن الحرية تستتبع التفكير والمسئولية وهما ضد طبائع المرأة التى خلقت لتستعبد لشخص ما : زوجها أو طفلها . وهى تؤيد قولها بأنصع الأدلة وأقوى الحجج ، وتروى لنا أنها كانت تحاضر فى ناد نسوى فسألت الحاضرات : لو لم تكونى من بنات هذا القرن فأى زمن تختارين ؟ فأجابتها فتاة ذكية : كنت أحب أن أعيش فى أى عصر لا يتطلب من المرأة التفكير ! !

زكى نجيب محمود

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

وانتقل كوخ بزوجه ومتاع بيته الى برِسْلاوة ، وعُيّن فيها طبيبا للبلدية براتب قدره تسعون جنيها فى العام ، وكان قد افتُرِضَ عند تقدير هـذا المرتب أن كوخ لا شك سيضاعفه أضعافا عما يكسبه من مرضاه ، وأن المرضى لاشك آتون إليه زرافات ووحدانا إذا شاع فى البلد أنه قد حلّ به مثل هذه العبقرية الفذّة . هكذا ظن الأستاذ كُون ، وهكذا ظن الأستاذ كُون هايم ؛ وفتح كوخ داره للناس ، فلم يقرع بابه طارق واحد . عندئذ تعلم كوخ أن من مساوئ الطبيب أن يكون فِـكّيرا يبحث فى علل الأشياء . وعاد أدراجه إلى قرية فُلِشتين عودة حنين بخُفيه ، وفيها ظل يتقفى آثار المكروب ، ويتجسس الجراثيم ، ويقتنص تلك الخلائق الدنيئة فى أجحارها ، تلك الموجودات المعدومات فى حكم العين ، التى تصل الى جروح الانسان والحيوان فتبُثّ فيها سمّا قاتلا . وظل يحرز فى هذا الميدان السبق بعد السبق من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٨٨٠ ، وتعلّم أن يَصْبُغ كل نوع من أنواع البشلات صِبْغاتٍ مختلفات لتظهر صُغراها بَيّنة الجرم فيما حولها واضحة الحدود . واقتصد شيئا من المال ، ولايدرى إلا الله كيف اقتصده ، واشترى كمِرةً ربط عدستها بمكروسكوبه ، وتعلم وحده كيف يصوّر بها تلك الخلائق الصغيرة

قال كوخ : « ليس فى استطاعة المرء أن يقنع العالم بحقيقة هـذه المكروبات حتى يريهم صُوَرا منها . وفوق هـذا فالمجهر الواحد لا يستطيع النظر فيه اثنان فى آن ، وهما إذا نظرا استحال عليهما أن يَنْقلا عن المكروبة الواحدة صورةً واحدة ، وإذَنْ يكون خصام وانقسام . أما الصور الفوتوغرافية فلا تكذب ، ويستطيع العشرة من الرجال أن ينظروها معاً ، ويدرسوها سويّاً ، ويخرجوا منها على نتيجة واحدة لا سبيل للخُلْف فيها » على هذا النحو أراد كوخ أن يدخل فى هذا العلم الوليد شيئاً من النظام والانسجام مكان الهرجلة والتخليط ، وشيئاً من الموسيقى والنغم المتسق بعد النشوز الذى آذى الآذان ردحا طويلا من الزمان

وفى هذه الاثناء لم يغب عن بال أصدقائه ؛ ففى عام ١٨٨٠ لم يدر إلا والحكومة تدعوه الى الحضور الى برلين ليتعين بها زميلا فوق العادة لمصلحة الصحة الامبراطورية . وفى منصبه الجديد أعطت له السلطات معملا جميلا ، ووفرة كبيرة من الأجهزة لم يكن يحلم بها ، ومساعدين ، ومالا كافياً فيه غناءٌ عن طلب الرزق ، وتمكينٌ له من قضاء ست عشرة ساعة أو ثمانى عشرة فى اليوم الواحد بين صبغاته وأنابيبه وخنازيره الجينية

وفى هذا الوقت كانت اكتشافات كوخ شاعت فى معامل أوروبا جميعها ، وعبرت المحيط الأطلسى الى أمريكا ، فقام لها أطباؤها وقعدوا ، وتحمسوا لها ، وانتقدوا من جرائها انتقادا ؛ ودارت معركة حامية الوطيس واسعة النطاق حول نظرية الجراثيم وبلغت فى هذا الأوان أشدها . واتخذ كل طبيب وكل أستاذ فى علم الأمراض عرف المكرسكوب وخفاياه ، أو خال أنه عرفه وعرف خفاياه ، اتخذ عدته وعتاده ، وقام يتقفى المكروبات يؤمل اصطياد جديد منها ؛ وأخـذت تنجلى الأسابيع عن اكتشافات مزعومة فرح لها الناس عن جراثيم خال أصحابها أنها سبب السرطان أو السل أو التيفود . وصرخ صارخ منهم صرخة تردد صداها فى القارات الخمس زعم فيها أنه وجد مكروبا واسع الأثر يعطيك من الأمراض على هواك ، من التهاب الرئة الى زكمة الدجاج . وهدأت هذه الصرخة ، وتلاشت موجاتها فى الهواء ، لتتبعها أخرى من سخيف آخر يدعى أنه أثبت أن الداء الواحد كالسل مثلا قد تسببه مئات من أنواع مختلفات من المكروبات

ازداد تحمس القوم لفكرة الجراثيم ، وزاد تخليطهم فيها ، حتى خيف على اكتشافات كوخ ذاتها أن يضحك الناس منها ضحكهم من هذه الخُزَعْبِلات التى ملأت الكتب والمجلات فى هذا السبيل ، وأن ينسوها نسيانهم تلك الأباطيل

ولـكن قُدِّر لأعمال كوخ أن تحيا ؛ واليوم صيحة الأمم أقوى فى طلب زيادةٍ فى المعامل ، وزيادة فى قنّاص المكروب ، وزيادة فى أجور البُحّاث الذين يعملون جهدهم فى دفع السوء عنا ، ولا سبيل الى التقدم إلا أن يبعث الله لنا رجالا ككوخ ذوى صدق وبصيرة

كان ما كان من هذا الحماس الجاهل المشئوم الذى لا يكون من نتيجته إلا القضاء على علم المكروب وهو وليد ناشىء . ولـكن كوخ حفظ اتزانه فى وسط هذه الجلبة الضارة ، وجلس فى هدوء وسكون يتعلم كيف يربى النوع الواحد من المكروب خالصاً من أخلاطه . قال : « أنا أومن بأن النوع الواحد من الجراثيم يسبب نوعاً واحداً من الأدواء ، وأن كل داء له جرثومته الخاصة » آمن بذلك قبل أن يُثبته ، فكأنما أُوحى اليه . قال : « ..... فلا بد لى أن أجد طريقة أكيدة يسيرة أكثّر بها الجنس الواحد من المكروب دون أن تختلط به الأجناس الأخرى التى هى دائماً حوله تحاول الدخول اليه خلسة واستراقا »

ولـكن كيف السبيل الى اقتناص جرثومة واحدة بادئ ذى بدء ؟ اخترع المخترعون عدة مكنات غريبة لفصل المكروبات ، ونصب آخرون منهم أجهزة مركبة معقدة ، طويلة لا شك أنهم من طولها وتعقد تركيبها نسوا بعد أن أتموها الغرض الذى من أجله نصبوها . وقام بحاث غير هؤلاء ، لا يبالون الموت ، فحقنوا المكروب الذى حقنوا فى جوسام قتال من الكيميائيات المطهرات ليقتلوا جراثيم الهواء التى تسبح فيه على ضلال كى لا تقع فى المكروب الذى يحقنون

— ٥ —

وذات يوم نظر كوخ الى فِلْقة من البطاطس المسلوق تُرِكت عفوا فى معمله ؛ نظر اليها اتفاقاً وأقر هو بذلك ؛ نظرها فوجدها قد تبقعت بعدة بقع ذات ألوان ، فهمس لنفسه قال : « هذه بقعة شقراء ، وهذه أخرى حمراء ، وهذه ثالثة بنفسجية ، ورابعة صفراء . لا بد أنها تكوّنت جميعاً من جراثيم الهواء » . وأخذ يحدق فيها من قريب لقصر نظره حتى كادت تمتزج بها لحيته الخفيفة ، وهمّ ينظف عدسات مجهره وبهيء رقائق الزجاج . وأمسك بعود رقيق من معدن البلاتين فغمسه بخفة فى بقعة من البقع الشقراء ورفعه بشىء منها ؛ ثم وضع هذا الشىء القليل ، ومزاجه كالمخاط ، على رقيقة من تلك الرقائق الزجاجية ، ودافه بقطرة من الماء ، وحدق فيه من خلال المجهر فاذا جماعات البشلات تتهادى فى الماء عوماً ، وتشاكلت جميعها فلم يكن بها على كثرتها بشلة واحدة غريبة عن أخواتها . وأخذ من البقعة الصفراء ومن البنفسجية ومن الحمراء ، فوجد المكروب فى احداها مستديرا ، وفى الأخرى عصيا عائمة ، وفى الثالثة حلزونيات كالبريمات دبت فيها الحياة ؛ وليس فى هذا جديد ، إنما الجديد أن المكروبات فى البقعة الواحدة متشاكلات لا تختلف واحدة عن أختها

وفى سرعة البرق الخاطف تجلى لكوخ جمال هذه التجربة التى اصطنعتها له الطبيعة : « كل بقعة من هذه البقعات زريعة خالصة من نوع واحد من المكروبات ... الأمر واضح وتفسيره حاضر ! فالمكروبات عندما تقع من الهواء فى الأحســـية السائلة التى نستخدمها ، وهى أنواع عدة ، تتكاثر جنباً لجنب ، وتعوم فتختلط فلا ينتج إلا مزيج من أخلاط عدة . أما اذا هى وقعت على سطح البطاطس ، وهو صلب ، لصقت وحداتها فى المكان الذى وقعت فيه ، فتكاثرت الواحدة حيث هى فصارت ألوفاً ، ولـكن من نوع واحد لا يختلف »

وكان يمين كوخ طبيبان فى الجيش ، يدعى أحدهما لُفْلار Loeffler والآخر جفكى Gaffky فدعاهما كوخ فى هدوء وأطلعهما على ما وجد ، وأراهما مدى التغيـــير الذى سيطرأ على دراسة المكروب بسبب التفاتته السانحة الى قطعة البطاطس المتروكة ، نقول التغيير ، وما كان إلا الثورة ! وبدأ الرجال الثلاثة يدرسون صحة ما خال كوخ بجد لا حد له ، وبدقة ألمانية إذا وصفها الفرنسى المتعصب سماها سخفاً . بدأ الثلاثة يعملون فكنت تراهم صفاً واحدا على كراسيهم الثلاثة ، مكبين على مجاهرهم الثلاثة ينظرون فى ضوء ثلاث نوافذ وقد توسطهم كوخ . ثالوث أى ثالوث ! يبذلون الجهد الجاهد لا ليثبتوا الذى ظنوه ، بل ليكذبوه ، فاذا النتيجة تؤمن على الذى قاله كوخ وقلوه ، وكانت طريقتهم فى ذلك أنهم خلطوا من المكروبات نوعين أو ثلاثة ؛ فتكوّن منها مزيج تعجز الأحسية السائلة عن فصل أنواعه مهما طال زرعها فيها وتكثيرها . ثم جاءوا بقطرة من هذا المزيج ونشروها نشرا واسعاً على سطح مستو لبطاطسة مسلوقة مشقوقة ؛ فاستقرت

المكروبات من هذا السطح على أبعاد غير متقاربة ، وتكاثرت المكروبة الواحدة حيث استقرت لتخرج منها الملايين ولكن من نوعها ، ومن نوعها فحسب

بشق بطاطسة عتيقة استحدث كوخ طرائق جديدة لاقتناص المكروب ، وأرسى هذا العلم على قواعد صحيحة يطمئن اليها أولو الفكر اطمئنانهم الى سائر العلوم ، من بعد أن كان ظناً ورجماً بالغيب ؛ ثم أخذ كوخ يتجهز لاقتناص المكروبات التى تسبب عشرات الأمراض التى تفتك بالناس ، ولم يكن كوخ لتى بعد من رجال العلم انتقادا يذكر ولا اعتراضاً كبيرا ، ذلك لأنه لم يفتح فمه إلا بعد أن كان يتم تأكده من نتائجه ، ثم لأنه كان اذا تحدث بعد ذلك عن اكتشافاته ذكرها فى كثير من التواضع فتخاذل خصومه ونام الشر فى قلوبهم ، وفوق هذا وهذا لأنه كان دائماً يصوّر لنفسه شتى الاعتراضات الممكنة ، والانتقادات الجائزة ، ويجيب عليها قبل اخراج عمله للناس

وامتلأ كوخ ثقة بنفسه ، فاعتزم أن يلقى الأستاذ رودلف فرشو Rudolph Virchow ، وما أدراك من هو ؟ هو أشهر بحاث ألمانيا فى أصول الأدواء ، وأكبر جهابذتها وأعلامها ؛ اذا حدثته فى موضوعات شتى أراك فيها من العلم ما لا يريك عشرات العلماء ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . كان فرشو عمدة الطب الألمانى ، درس تجبن الدم وقال آخر كلمة تقال فيه ، واخترع ألفاظاً من أروع الألفاظ مثال الهتربوبيا وأجنيسيا والأكرونوسس وكثير غيرها مما يسهر طلاب الطب لياليهم فى محاولة تفهمها ، ونظر بمكرسكوبه فى ستة وعشرين ألف جثة ، ووصف فيها حال الأنسجة وقد غيرتها شتى الأمراض ، ونشر بلا مبالغة ألوفا من الأبحاث فى كل موضع يخطر بالبال ، من دراسة أشكال رؤوس الذكور من تلاميذ المدارس الألمانية ، وتفحص أصواتهم ، الى قياس الأوعية الدموية ، وقد بلغت الغاية فى الصغر فى أجسام بنات اخضرت وجوههن مرضاً واعتلالا

ذهب كوخ الى صاحب هذا الصيت الكبير وفى قلبه رعب ، فدخل الى حضرته على أطراف قدميه احتراماً وخشية أن يتحرك الهواء فينزعج رب المكان

قال كوخ وهو مطرق : « سيدى الأستاذ ! لقد كشفت طريقة لتكثير النوع الواحد من المكروب خالصاً لا شائبة فيه »

فقال الأستاذ : « إذن فقل بالله كيف تصنع ، فنى ظنى أن هذا لن يكون »

قال كوخ : « بتربيته على طعام جامد . نعم أستطيع أن أولد منه على قطعة من البطاطس مستعمرات لا يسكنها غير نوع واحد منه . . . . فبدل البطاطس أذيب الآن الجلاتين فى حساء من لحم البقر ، فاذا برد انعقدا جميعاً وصار لمزيجهما سطح جامد ، وعندئذ .. .. .. »

لم يتحرك فرشو لهذا الكلام ؛ ولما نطق قال فى استهزاء الحاقد : « إن منع المكروب من أن تختلط أنواعه عسير جداً ، إلا إذا شاء كوخ أن يبنى لكل نوع معملا خاصاً .. » واختصاراً لم يجد كوخ عند صاحبنا غير البرود والتثبيط ؛ ولا عجب ، فالرجل كان قد بلغ من الشيخوخة تلك السن التى عندها يعتقد الرجال أن كل شىء عُرِف ، فلم يبق فى الدنيا ما يُكتشف ؛ وتولى عنه كوخ وفى نفسه شىء من الكآبة ، ولكن عزيمته لم تهن ، ولم يفعل ما كان غيره فاعله ، فلم يجادل فرشو فى الذى كان ، ولا كتب المقالات ، ولا خطب الخطب فى النيل منه ، ولكنه اتجه بكل ما فيه من حول الى بحثٍ هو أبدع بحوثه ، الى تقفّى أثر أخبث مكروب عرف ، الى كشف ذلك القتال الخفى الذى سبق المكروبات جميعها فى حصد أنفس الرجال والنساء والأطفال ، فتقاضى روحاً من كل سبع صعدت الى ربها . شمر كوخ عن ساعديه ، ومسح نظارته ، وبدأ رحلته الكبرى لاقتناص جرثومة السل المروع

(يتبع) أحمد زكى

في طريق المدينة*

للأستاذ علي الطنطاوي

أفاق سحراً — ولا يبدو السحر على أتمه إلا في البادية ، فلا ليل في الجلال كلَيلها ، ولا صبح في الجمال كصبحها ، ولا نهار في الشدة كنهارها — فجلس ينظر الى هذه الصحراء التي تمتد من حوله ؛ يغيب أولها في بياض الفجر المقبل ، وآخرها في سواد الليل المدبر ، وهي ساكنة سكون الموت ، واسعة سعة السماء ، فأحس في نفسه بشيء لم يحس به قط ؛ فقال : لا إله إلا الله ! فخرجت من أعماق قلبه . . . وأي امرىء تلقيه الأيام في البادية ، فيرى ليلها ونهارها ، وشمسها ورمالها ، ثم لا يكون أشد الناس بالله إيماناً ، وعليه اتكالا ؟ وهو يرى أبداً من جلال المخلوق ما يخشع منه قلبه لجلال الخالق ؛ وهو يعلم أنه ليس بينه وبين أن يموت عطشاً ، أو يهلك جوعاً ، إلا أن يحيد عن طريقه ذراعاً ، أو ينحرف عن وجهته شبراً . . . وكيف يكفر بالذي لا يرجو النجاة إلا منه ، ولا قوة إلا به ، وليس له من يدعوه إلا إياه ؟

وكانت تلك صبيحة اليوم السابع عشر من أيام البادية ، فطفق يذكر هذه الأيام ، وينظر ما أفاده فيها ، فاذا هو قد عرف من خبر العرب ، في سبعة عشر يوماً ، ما لم يعرفه في سبع عشرة سنة ، يقرأ فيها أسفار العرب ، ويتلو أشعار العرب ، ويدرس لغة العرب ، وتاريخ العرب ، وإذا هو قد سافر ألفاً وثلثمائة سنة في الزمان ، لا ألفاً وثلثمائة كيل على الأرض ؛ وسلك الطريق التي سلكها الغزاة الأولون ، فعلم أن سر قوة العربي الأول الذي عمل ما لم تعمله الجن ، ولا تقوى عليه المردة ، حتى بنى للحضارة هذا الصرح المظيم ، فأوت اليه ، وتفيأت ظلاله ، وإن سر عجز العربي الأخير ، حتى نام عن هذا الصرح ، وأباح العدو حماه ، إنما هو (بعد الاسلام) هذه الصحراء

هذه الصحراء الذي لا يعيش فيها الجبان العاجز ، لأن الحياة فيها بين عيني الأسد ، لا ينالها إلا شجاع مقدام ، أخو غمرات ، صبار على النكبات ، ضحاك في الملمات ، وإلا ابن الشمس ، صديق الرمال ، حليف الجوع والعطش ، ذو إرادة لا تنثني ، وهمة لا تطاول ، وعزيمة لا تفل

ولا يعيش فيها المريض ، لأنها لم تخلق مستشفى للمرضى ، ولكنها خلقت ميداناً للأبطال ، وأنى يأتي البدوي المرض ، مادام لا يؤتى من قبل معدته (والمعدة بيت الداء) ، ومادام كل طعامه التمر والسمن واللحم والأقط ، وكل شرابه اللبن والماء ، فاذا مرض يشرب قارورة من شعاع الشمس ، وشمس الصحراء أنفع من مجموع صيدليات باريز ! فاذا لم تجده نفعاً ، أجداه الكي ، وما بعد الكي إلا حياة كاملة أو موت كامل ، هو خير على كل حال من حياة ناقصة . . . وقديماً قالوا آخر الطب الكي !

ولا يعيش فيها الفقير ، لأن أهلها كلهم أغنياء . . . وهل الغنى إلا أن تنال كل ما تطلب ؟ وهل يطلب البدوي إلا ماء له وكلأ لمواشيه ؟ فاذا أمحلت الدار أم غيرها :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متحول

ولا يعيش فيها المنافق المتملق الخداع ، الذي يلبس جلد الحمل على جلد الذئب . . . لأن الصحراء منبسطة مستوية متكشفة ، ظاهرها كباطنها ، وليس فيها سقوف ولا جدران ، ولا مغارات ولا سراديب ، وكذلك نفس العربي ما في قلبه على لسانه ؛ فان عاداك فعداوة الشريف ، يستقبلك بالشر ولا يستدبرك به ؛ ويحمل إليك الموت على شفرة السيف ، لا يقدمه في كأس من الذهب ، قد خلط فيها السم بالدسم ؛ وإن صافاك آخاك ، فأخوة الشريف يفديك بنفسه وماله ، ولا يرغب عنك حتى ترغب عنه ، وإذا أنت أنكرت من العرب جفاء في الطبع ، أو خشونة في المقال ، فلن تنكر منهم عوضاً تلوناً ولا تملقاً ، ولا تنكر منهم لين الحية ولا لطف المستعمر ... على أن الجفاء ليس من شأن العرب ، ولا هو في جميعهم ، وإن فيهم للطفاً ، وإن فيهم لظرفاً ، وإن لهم لأحلاما . . .

* * *

وطفق يذكر كيف كان يتبرم بهذه الأشعار التي تندب الديار وتبكي الأطلال ، ويستثقلها ويراها كأنها الدمى فيها جمال وليس

* أنظر مقالة (في طريق المدينة) في العدد ٩٧ من الرسالة

فيها روح ؛ فلما كانت أول ليلة قضاها وأصحابه فى البادية ، وحط الركب فى قاع الدغيلة (١) فوقفت السيارات الخمس ، ووضعت الأحمال ، ونصبت الخيام ، وأوقدت النيران ، ورفعت القدور ، وبسطت البسط ، ومدت الفرش ، وكمل المجلس حتى قام المذياع (الراديو) يسمعهم بين الشيح والقيصوم ، أغانى عبد الوهاب وأم كلثوم

فـ ... باتوا بأنعم ليلة حتى بدا   صبح تلوح كالأغر الأشقر

فنادى منادى الرحيل ؛ فما هى حتى طويت الخيام ، ولفت البسط ، وشدت الأحمال ، فاذا كل شىء كأنه حلم ، أو كأنه صفحة طويت ، ولم يبق إلا النؤى المهدم ، وإلا موقد النار ، فامتلأت نفسه حزناً ، وانطلق لسانه يترجم عن أصدق عاطفة ، وأعمق شعور ، بكلمة النابغة التى استثقلها ، وعدها من القول المعاد ، والكلام الفارغ :

عوجوا لحيوا النعم دمنة الدار . . . .

وانطلق يقف اخوانه لحظة ، يحيى فيها هذه البقعة التى ترك فيها ليلة من حياته ، وطائفة من ذكرياته ، وقطعة من نفسه ؛ ثم عاد فسخر منهم كيف يقفون على أحجار قد سودتها النار ، وحفرة حفروها من حول الخيمة خشية الأمطار . .

ماذا تحيون من نؤى وأحجار ؟

ويجد القاع بعد أن تقوضت الخيام ، وطويت البسط ، وضاع المكان الذى سواه لنومه ، وأعده لجلوسه

أقوى وأقفر من نعم وغيره   هوج الرياح بهابى الترب موار

ويطول به الوقوف ، وأصحابه يستحثونه ، والسيارات (تصرخ) مستعجلة ، فيمشى وهو يفكر فى هذا القاع . هل يحفظ هذه الذكريات ؟ ويسأل هذا القاع : هل يذكر أبداً هذه الليلة التى قضاها فيه ، والعواطف التى استودعه إياها ؟ فلا يسمع مجيباً ، ولا يجد إلا أحجار الموقد ، وإلا هذا الثمام الضعيف اللين ، الذى جمعوا منه فأوقدوا به النار ، واتخذوه فراشاً ، فينشد قول النابغة :

وقفت فيها سراة اليوم أسألها   عن آل نعم أموناً عبر أسفار

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات أخبار

فما وجدت بها شيئاً ألوذ به   إلا الثمام وإلا موقد النار

وتعدو به السيارة عدو الظليم ، وهو لاهٍ عما حوله ، يتمثل الشاعر وقد عم الديار ، فلم يجد بها سائلاً ولا مجيباً :

ناديت : أين أحبتى ؟   فأجبت : أين أحبتى ؟ !

فبرح به الشوق ، واشتعلت فى صدره النار ، وكواه الهجر ، فذهب يذكر نعماً ، وقد كان يسايرها حتى ينأى بها عن الحى ، ثم يجلسان حتى تغيب الشمس ، ويلفهما الظلام برداء الأمن من الرقباء ، ويسبغ عليهما نعمة الحب ، فلا يكون بينهما إلا كل خير : يبثها حبه ، فتشكو له حبها ، ويكشف لها عن قلبه ، فتكشف له عن قلبها ، ولا يخفى عنها شيئاً ، ولا تكتمه شيئاً :

وقد أرانى ونعما لاهيين بها   والدهر والعيش لم يهمم بإمرار

أيام تخبرنى نعم ، وأخبرها   ما أكتم الناس من حاجى وأسرارى

***

وجعل يذكر كيف فهم فى تلك الساعة قصيدة النابغة ، ونفذ إلى روحها ، وقد كان يتلوها ، ويدرسها ، ويشرحها ، فلا يفهم منها إلا كلماتها وجملها ، وعروضها وإعرابها ؛ وجعل يذكر ما حفظ من أشعار الديار ، فيبصر فيه جمالاً لم يبصره من قبل ، فيعلم أنه قد كان منه فى ليل مظلم ، لا يرى فيه إلا سواداً فطلعت تلك الساعة بدراً ، أراه أن وراء الظلام دنيا واسعة ، وفتنة وجمالاً ، وروضة وأنهاراً ...

وجعل يذكر كيف كان يقرأ أمثال العرب فلا يفهم من قولهم : (أن ترد الماء بماء أكيس) إلا أن ذلك أحزم ، فلما خرجوا من القاع وأقبلوا على ماء الهزيم الذى طالما وصفوه لهم وحببوه اليهم ، وجده بئراً منتنة خبيثة ، تقتل من يشمها ، فكيف عن يشرب منها ؟ فعلم أن معنى أكيس : أنك لا تشرب ماء خبيثاً فتمرض !

فلما وردوا ماء الفجر ، بعد مسيرة يومين فى الشعب لم تسر السيارة فيهما كيلين متتابعين على أرض كالأرض ، ولكنها كانت

---

(١) بعد الأزرق قرب الحدود بين شرق الأردن والحجاز ، وقد قضينا فيه ليلة الثلاثاء فى ٢ ابريل سنة ١٩٣٥ فى رحلتنا الى الحجاز

نظرية النسبية الخصوصية

بقية البحث الأول

الزمان ونسبيته

للدكتور اسماعيل احمد أدهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

— ٣ —

علل هذه الظاهرة فتزجرالد[1] بقوله إن المتحركات تتقلص فى اتجاه سرعتها ، فالأرض تتقلص فى اتجاه سرعتها بقدر الفرق النظرى بين رحلتى الشعاعتين بحيث تعودان كما هما عمليا فى وقت واحد . وقام العلامة لورانتز الهولندى فاستخرج مقدار هذا التقلص فى عملية رياضية دقيقة

لو رمزنا بالرمز « م » لمسافة رحلة الشعاعة « $ص_1$ » ، وبالرمز « $م_2$ » لرحلة الشعاعة « $ص_2$ » ، وبالرمز « ص » لسرعة الضوء ، وبالرمز « س » لسرعة الأرض ، لكان :

(1) Y. Fitzgerald: Annalen der Physik., Leipzig p. 137 (1907).

$$م = م_2 \sqrt{1 - \frac{س^2}{ص^2}}$$ ... ... « معادلة ٤ »

وهذا معناه تقلص الأرض حتى تصير بمقدار :

$$\frac{1}{\sqrt{1 - \frac{س^2}{ص^2}}}$$

وبذلك تقرر استحالة استخراج الحركة المطلقة للمتحرك ، وبذا صار من المحال معرفة التواقت

— ٤ —

لابدَّ من فاصلة[1] زمانية لمعرفة سرعة الضوء ؛ هذا إلى أن معنى الزمان قائم على معرفة سرعة انتشار النور . هذا التضاد استخدمه العلامة ألبرت اينشتين فى سبيل استخلاص مبادئه الأولى فى النسبية الخصوصية

لنفرض كوناً مثل « ك » به نقطة مثل « ا » ثابتة ، وبهذه النقطة راصد ومعه ساعة ؛ ولنفرض أن هذا الراصد يعين حدوث الحادثات فى كونه بموجب زمن الساعة التى يحملها ، ولكنه بلا شك يفشل فى تعيين زمان الحادثات عينها بالنسبة لنقطة ثابتة فى كون آخر يتحرك حركة انتقالية ازاءه ؛ مالم يوحِّد سيرساعته مع سير ساعة الراصد القائم فى الكون الآخر

وتوحيد سير الساعتين لا يقوم إلا على اشارة ضوئية ؛ والضوء كما قلنا سرعته واحدة فى كل الجهات ؛ ومعنى هذا أن الفترة التى تستغرقها شعاعة الضوء لقطع المسافة من الكون الأول الى الثانى هى عين الفترة التى تستغرقها للعودة من الكون الثانى الى الأول

هكذا يتحول معنى المسافة الممتدة بين النقطتين « ا » فى الكون الأول ، و« ب » فى الكون الثانى من امتداد الأجسام الصلبة إلى أمواج النور ، أعنى أنها تتحول من خط امتداد الأجسام الصلبة الى المسافة التى تقطعها أمواج النور فى آماد متساوية

(1) Albert Einstein and M. Grossmann "Kosavazeignschaften der feldgleichungen der Gravetatioustheorie" L. M. Physik. 6-3-1941 P. 215

تعلو صخرة ، أو تهبط حفرة ، أو تغوص فى رملة ، لما وردوا الماء وجدوه جافاً ، فعلم أن معنى أكيس : أنك تبقى بلا ماء فتموت

***

ثم نظر فرأى الفجر قد انبثق ، فأيقظ المؤذن ، وكان قوى الحنجرة حسن الصوت ، فأذن فزلزل البادية بـ « الله أكبر » فلما قال « أشهد أن محمداً رسول الله » ، لم يتمالك صاحبنا نفسه أن تضطرب وقلبه أن يخفق ، وعينه أن تدمع :

هذا آخر يوم من أيام البادية . لم يبق بيننا وبين المدينة إلا نصف مرحلة ... فهل يكتب لنا أن ندخل من باب السلام ونقوم أمام الحجرة ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ...

على الطنطاوى

هذا التبدل يؤدى الى تغيير موضوع الهندسة الأوقليدية ، إذ تتحول الأشكال والخطوط الأوقليدية التى ترسمها الأجسام الصلبة فى تحركها الى الأشكال والخطوط الاينشتينيّة التى يرسمها سير أمواج الضوء

— ٥ —

لقد رجع اينشتين بعالم الحادثات الى الهندسة . ومن المعلوم أن هنالك ضربين من الرياضيات : ضربا ذهنيا محضا ، وضربا حسيا . فالضرب الأول هو الذى تقوم عليه مبادئ الرياضة ، وخاصة التحليلية منها ، والضرب الثانى يتفق والأول فى الماهية الرياضية ، إلا أنه يختلف فى كونه راجعاً الى الحس والتجربة . والمدرسة الأكسيومانيكية تجد فى مكان الرياضة المحض مكانَ المنطق الصورى والذهن الخالص

على هذا الأساس لومضينا ندقق موضوع الهندسة الأوقليدية لألفيناها هندسة ترجع لخواص الأجسام الصلبة وعلاقاتها ببعض ، فهى ضرب من الهندسة التجريبية ، وبذا تعد ضرباً من الطبيعيات . والهندسة الأوقليدية ليست قضاياها منطقية تحليلية فحسب ، بل هى تنطوى على أحكام تجريبية مستمدة من الاختبار والمشاهدة ، وبذلك كانت بعيدة عن ساحة الهندسة الصرفة

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال من حول الهندسة الأوقليدية وعمليتها بمعنى : هل هى تلتئم من حول حوادث هذا العالم ؟ وللاجابة على هـذا السؤال نلجأ للتجربة ، فهى الأداة العلمية الوحيدة التى تمكننا من الاجابة على هـذا السؤال ، فان قياس أى طول فى علم الطبيعة يرجع لمبدأ انتشار النور فى خطوط مستقيمة ، وبذا نأتى الأطوال ترجع إلى ضرب من الرياضة التجريبية ؛ وهذه الحقيقة نخرج منها بنتيجة هامة . فالنقطة والخط .... ؛ ليس من المهم أن نقول إن معرفتنا بها عقلية ، لأننا فى الحقيقة نفرض صحة بعض المبادئ ، ومن حول هذا الفرض نقيم هندستنا الصورية التى لا ترجع معرفتنا بمبادئها الى التجربة ؛ إذ هى مبادئ أوجدها العقل الانسانى وصرح بامكانها . غير أنه من المهم أن نقول إننا بارجاعنا الهندسة إلى مبدأ انتشار الضوء نقرر ضمناً ارجاع الهندسة الى الطبيعيات الحديثة أو العكس ، ويكون مقدار ما فى الهندسة من الصواب بمقدار ما فيها من المرونة للالتئام من حول حقائق العالم الخارجى ،

وهكذا نرى الهندسة الأوقليدية تنهار حيث لا تتفق ومبدأ انتشار النور (١)

— ٦ —

« موضوع النسبية الخصوصية : تقوم على أساس أولى فى تحويل موضوع الهندسة من الأشكال التى ترسمها الأجسام الصلبة اللامتغيرة الى الأشكال التى ترسمها الأمواج النورية الثابتة »

برتر اندرسل

لنفرض ساعة فى نقطة مثل « ا » حيث صدرت منها شعاعة نور فى الآونة « $ا_1$ » الى النقطة «ب» فوصلتها فى الآونة « $ب_1$ » ثم رجعت الى « ا » فى الآونة « $ا_2$ » فنكون :

$$«ب_1» - «ا_1» = «ا_2» - «ب_1»$$ أو أن :

$$«ب_1» = \frac{«ا_1» + «ا_2»}{٢}$$

بمعنى أن الساعة التى فى « ا » تكون متساوية فى سيرها مع الساعة التى فى « ب » ويكون اعلان الساعتين للزمان واحدا . فلو أردنا أن نعين زمان الساعتين فى وقت واحد فما علينا إلا أن نرسل إشارة نورية بزمان النقطة « ا » إلى «ب» فتضبط استناداً عليها نقطة « ب » زمانها . وعليـه تكون النقطتان متوافقتين فى زمانهما ، وهنا يوحى التواقت إلى الذهن فكرة أن الزمان ليس أكثر من مجرد الفواصل التعاقبية للحادثات (٢)

— ٧ —

ما معنى التواقت ؟

حدثت حادثة مثـل « ح » فى « ا » وحادثة أخرى مثل « $ح_1$ » فى « ب » ؛ فما معنى تواقتهما ؟

(1) Albert Einstein : Geometry and Experience., 1935 P. 35-73

(٢) (إن تعاقب الحادثات فى النفس يكون فى الذات مفهوم الزمان الذاتى ، ويقابلها فى الخارج الزمان الموضوعى الذى لا يخرج عن كونه تعاقبات الحادثات الكونية . فلو تصورنا مجموعة من الحوادث النهائية وهى تطرق الوعى ؛ فهى بطبيعتها ستتبع حالة تعاقبية فى طرقها ؛ وحيث أن موضوع الذهن واحد لا يتغير ، فوصول حادثة قبل أخرى أو بعدها أو معها توجد علاقة ذهنية فى العقل تحدد مفهوم الزمن الذهنى ، بينما هذه العلاقة تحدد فى الخارج بمعنى تقديرى رياضى للحادثات تنزل منه منزلة الزمن الذاتى من الذات ، ولولا الحركة لما كان للزمن من مفهوم ، فتعاقب الحوادث بأسلوب نهائى يعرض على الذهن مع الحادثات ذاتها يشكل موضوع الزمان ، والتعاقب يجرى فى خط واحـد فيتحد مع خطوط المكان الثلاثة فيكون الحدود الأربعة للمادة) ص ١٣٢ من كتابنا الشواهد المباشرة للوجود ، طبعة ميلان — لندن ١٩٣٤

للاجابة على هذا السؤال نفرض أن الحادثة « ح١ » حدثت فى الزمن « ا٢ » كما أن الحادثة « ح » حدثت فى الزمن « ا١ » ، فلو كان سير ساعة النقطة « ا » هو سير ساعة النقطة « ب » ، وما تعلنه الساعة الأولى من الوقت هو ما تعلنه الساعة الثانية فالحادثتان متواقتتان

على هذا الأساس يمكننا أن نعرف الزمان إستناداً على إشمارات الساعات ؛ ولكن لنا أن نتساءل : هل يصح القول بتواقت حادثتين حدثت إحداهما فى كون مستقل عن الآخر وهما يتحركان بالنسبة لبعض حركة انتقالية ؟

للاجابة على هذا السؤال نرجع لمثالنا السابق فندقق فيه النظر فسنرى أن ساعات كل كون يمكن أن تتساوى فى سيرها مع آخر ، وعليه يمكننا تعيين زمان حدوث أية حادثة بأية ساعة فى هذا الكون لانتشار النور خلاله بسرعة ثابتة ؛ أما فى أكوان متعددة تتحرك بالنسبة لبعضها حركات انتقالية كما هو جار فى العالم الخارجى فلا يمكن القول بالتواقت لانعدام واسطة استخراج الحركة المطلقة . ولبيان هذا نفرض خطاً عند من النقطة « م » إلى « م١ » طوله ٩٠٠٠ وحدة طولية ، وأن هنالك شعاعا من النور يقطع هذا الخط من اتجاه « م » إلى « م » بسرعة ٣٠٠ وحدة طولية فى الساعة ، ولنفرض كذلك طيارة بها راصد تتحرك من جهة « م » إلى « م١ » مع شعاعة النور بسرعة ٧٥ وحدة طولية فى الساعة ؛ ولنرمز للراصد الذى بداخل الطيارة بالرمز « ص١ » ، ولنفرض أن فى منتصف المسافة بين « م » و « م١ » على بعد ٤٥٠٠ وحدة طولية من كل من النقطتين يقوم راصد مثل « ص٢ » فى النقطة « ن » ومعه جهاز كهربائى عند طرفاه إلى نهاية الخط من الجهتين ، وبكل طرف مصباح كهربائى يبين باشارة نورية تأتيه من الجهاز الكهربائى الذى مع الراصد « ص٢ » وبالطبع ستتلاقى الشماعتان معاً عند « ص٢ » فى آونة واحدة

لنفرض أن الراصد « ص٢ » ضغط على جهازه الكهربائى فصدرت منه إشارتان كهربائيتان إلى النقطتين « م » و « م » حينما صارت الطيارة براصدها « ص١ » أمامه تماماً . فهل تبدو الشعاعتان الواردتان من المصباحين متواقتتين لكل من الراصدين « ص١ » و « ص٢ » لأن كلا منهما فى منتصف المسافة بين « م » و « م١ » حينما ضغط « ص٢ » على الجهاز الكهربائى الذى معه ؟

إن الاشارة الكهربائية ستقطع المسافة من « ن » إلى كل من النقطتين « م » و « م١ » فى ١٥ ساعة « $\frac{٩٠٠٠}{٢} \times \frac{١}{٣٠٠}$ » وستقطع الموجة النورية الصادرة من المصباح الذى فى « م » المسافة من « م — ن » ومن « م١ — ن » فى نفس المدة . فبعد ثلاثين ساعة يشاهد الراصد « ص٢ » الشماعتين قد وصلتا أمامه فى « ن » فى آونة واحدة . هاتان الحادثتان متواقتتان للراصد « ص٢ » ، ولكن هل هما متواقتتان بالنسبة للراصد « ص١ » ؟

لا . لأن الراصد « ص١ » يكون قد غادر النقطة « ن » عندما ضغط « ص٢ » على الجهاز ، فيأخذ فى الاقتراب من نقطة « م » بمدل ٧٥ وحدة طولية فى الساعة ، وحينما تتلاقى الشماعتان عند « ص٢ » يكون هو قد قطع ٢٢٥٠ وحدة طولية ، ويستقبل الشماعة الواردة من النقطة « م١ » قبلما تصل إلى « ن » ، فمنده مجرى حادثة وقوع شماعة « م١ » قبل أن يجرى حادثة وقوع شماعة « م » ؛ أعنى أن الحادثتين غير متواقتتين عنده . ونستنتج من هذا أن التواقت نسبى حسب الشاهد وكذلك الزمان

— ٨ —

إن التواقت نسبى فى أكوان تتحرك بالنسبة لبعضها حركة انتقالية كما هو حاصل فى عالمنا هذا . ويصح التواقت بين حوادث كون ساكن ؛ أما فى أكوان متحركة فلا يصح القول بالتواقت حتى ولو وصلت الحادثات إلى الشاهد متواقتة فى وقوعها ، إذ يلزم أن تكون الحوادث فى وضعها متواقتة ؛ ولما كان السبيل إلى ذلك قائماً على معرفة الحركة المطلقة للأكوان ، وكانت الحركة المطلقة مستحيلاً استخراجها ، كان القول بالتواقت المطلق لغواً ، وكان لكل حادثة زمان خاص نسبى لها حسب الشاهد ؛ كذلك يكون التواقت نسبياً حسب الشاهد ، فما هو متواقت عندك يكون غير متواقت عند غيرك

من هنا نخرج بأن الزمان نسبى ، وأن التواقت نسبى ، وأن زمان كل حادثة نسبى لمشاهدها

(تم البحث الأول)

اسماعيل أحمد أدهم

في الأدب الأمريكي

مارك توين

[بمناسبة انقضاء مائة سنة على ميلاده]

— ١ —

في يوم السبت الماضي ٣٠ من شهر نوفمبر ســنة ١٩٣٥ احتفل الأدباء في أغلب أقطار الأرض بانقضاء مائة عام على مولد الكاتب العبقري الأمريكي الفكه مارك توين . ومَن من الناس لا يحيي ذكرى مؤلف : (مخاطرات توم ساوير) ، و (هكلبيري فين) ، و (الأمير والشحاذ) وغيرها من القصص التي استهوت قلوب الصغار لفكاهتها وطرافتها ، وعقول الكبار لحكمتها وبلاغتها ؟ إن الذين قرأوا مارك توين قد علموا بعض العلم عن الرجل ، لأنه انما يتحدث في الغالب عن نفسه أو عن ذويه في قصصه ؛ وقد روى ذكريات طفولته في تلك المخاطر التي عزاها إلى أولئك الأطفال الذين عاشوا على ضفاف (المسيسبي) ؛ وليست العمة الشهيرة (بولى) في قصته (توم ساوير) إلا أمه . ولعلنا نستطيع أن نزيد في هذا العلم شيئاً بحكاية تاريخ حياته المضحكة المبكية المملوءة بالمخاطر والأحداث والطرف ، فانها في ذاتها لا تقل امتاعا للقارئ عن سائر كتبه

***

في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٣٥ ، وفي قرية (فلوريدا) بولاية (ميسوري) ازدادت أسرة المحامي (جون كليمانس) واحدا بولادة طفل خامس سموه (صمويل) ، ثم صار بعد حين من الدهر (مارك توين) ؛ وكان يؤكد أنه لم يكد يولد حتى وجد له محلا بين عظماء الناس ، لأن ولادته زادت في عدد قريته واحدا في المائة ، إذ كان تعداد سكانها مائة بالضبط

وفي سنة ١٨٣٩ عين أبوه العابس القاسي قاضياً في (هانيبال) على شواطئ المسيسبي فلحقت به أسرته ، وهناك قضى صمويل شطرا من طفولته . وكانت الطباع في ذلك البلد شرسة ، والأخلاق منحلة ؛ فالمقامرة والمعاقرة والعراك والقتل أمور مألوفة وحوادث فاشية ، وصمويل قد شهد بنفسه أربع حوادث من حوادث القتل ، وقد اختزن في ذاكرته جملة من مشاهد هذه الحياة وصفها في مؤلفاته . وكان في هانيبال عدد وفير من العبيد ؛ وكان لأسرة كليمانس منهم ثلاثة أعبد جاءت بهم أم صمويل مهراً لأبيه . وكان هؤلاء المساكين يحبون صمويل حباً جماً لرقته وعطفه ؛ ولهم من ذكرياته في مؤلفاته حظ عظيم

كان صمويل في المدرسة شديد الكسل رديء العمل ، يؤثر على درسه وكتبه الاجتماع بطغمة من رفاقه الأشرار الذين أتى واياهم من المنكرات والسيئات ما قرأناه بعدُ في قصصه . وقد يئست أمه من صلاح أمره ؛ وكانت سيدة جميلة ذكية متسلطة تؤثره وترعاه ، ولها عليه سلطان قوي مدى عمرها الطويل إلا في الجانب الذي يتعلق بدراسته . كان تقويمه من طريق الاقناع عبثاً ، فعمدت أمه الى تقويمه بالضرب والأذى ؛ وفي ذات يوم قالت له وهي تضربه : صدقني يا بني أني حين أضربك أتألم بشدة ، فأجابها بقوله : هذا ممكن ، ولكنك تألمين في غير الموضع الذي أتألم منه . وهذا الجواب الذي صار مثلا يشهد هو وغيره أن صمويل كان حاضر البديهة سريع الجواب

***

كان من عادة مارك توين أن يقول : « إن السيد الحقيقي للانسان هو المصادفة » . وذلك قول صحيح بالنسبة له ، فان المصادفات الطارئات والظروف المفاجآت كثيرا ما غيرت مجرى حياته . فقد كان صمويل لا يزال على مقاعد الدرس حين فجمه الموت في أبيه ، فاضطرت أمه أن تخرجه من المدرسة وتجعله (صبياً) عند صاحب جريدة (هانيبال كوريبه) يعمل له من غير أجر إلا الطعام والمأوى ؛ ولكن الجراية كانت وا أسفاه قليلة لا تسد رمقه . ولما أصدر أخوه الأكبر (جريدة هانيبال) في سنة ١٨٥٠ ضمه اليه وعمره يومئذ لا يزيد على خمس عشرة سنة ؛ ولكن النجاح لم يكن على قدر الأمل فقل عدد الموظفين واضطر صمويل الى أن يجمع بين صف الحروف وبين ترتيب المواد ، وأن يجوب بعد ذلك شوارع المدينة للتحصيل ، فيعود مملوء اليدين بالحبوب لأن أغلب المشتركين كانوا يؤدون قيمة اشتراكاتهم عيناً . كان العمل كثيراً ، ولكن صمويل مع ذلك

كان يجد الفراغ لـكتابة مقالة أو أقصوصة تظهر فيها دلائل قريحته الفكهة المنتظرة ؛ وكان ينتهز الفرصة فى غياب أخيه لبعض أعماله ، فينشر فى الجريدة ما يكتب ؛ وكان أكثر ما يطرق من الموضوعات التعليق اللاذع على الحوادث المحلية ، فيؤنبه على ذلك أخوه ؛ ولـكن الجمهور كان شديد الاعجاب بها ، وأكثر القراء كانوا لا يشترون الجريدة إلا ليقرأوها

وفى ذات يوم رأى فى غيبة أخيه أن يلهو مع القراء فنشر أقصوصة عن صحافى أمريكى مدع كان مولعاً بالأسفار ، فوقع فى بعض رحلاته فى أواسط أفريقية أسيراً فى قبيـلة تأكل لحوم البشر ، فكان مصيره الأليم لا شك فيه ، إلا أن شيخ القبيلة أراد أن يستجوبه طويلا عن حرفته ، وعن الغاية المقصودة من رحلته ، فلما سأله فى ذلك أجابه المسكين وعيناه الزائغتان تنظران الى معدات الوليمة : أنا لست إلا صحافياً متواضعاً يا مولاى المعظم . فقال له الشيخ : صحافى ؟ تريد أن تقول انك مدير جريدة ؟ فأجابه : أوه ! كلا يا مولاى القادر ما أنا إلا وكيل حقير ، فقال له اطمئن ايها الرجل الأبيض ! سترق بعد أن نصنع منك الحساء الى مدير ! !

كانت هذه النوادر المضحكة تستهوى ألباب القراء ، ولـكن أخاه (أوريون كليمانس) كان لا يجد لها مذاقاً ويرجو منه ألا يستمر فيها . على أن صمويل لم يحرص على البقاء فى الجريدة ، فقد كان نزوعاً بطبيعته الى الاستطلاع والنقلة ، ولـكن املاقه كان يحول بينه وبين قضاء هـذه النزعة . وقد طلب من أمه أن تقرضه خمسة دولارات فأبت عليه ذلك حتى لا تشجع فيه هذه النزعة التى تحسبها نوعاً من التشرد والصعلكة ؛ فاضطر الى أن يتذرع بالصبر حتى يجمع المبلغ المطلوب بارة فبارة ، حتى اذا ظن أنه أصبح غنياً يستطيع مواجهة العالم الفسيح فر فى ليلة من الليالى يريد (أن يحيا حياته) على حد تعبيره ، فكسبه الترحال والتجوال ثروة فى اختباراته ، ووفرة فى انطباعاته ، أفادته كثيراً فيما بعد حين تكشفت مواهبـه النادرة عن الـكاتب النابه (مارك توين)

— ٢ —

على أن من النادر أن تأتى الشهرة والنبـاهة دفعة واحدة ، فقد كان أول الطريق على صمويل وعراً ، طوّف فى البلاد ما طوّف حتى بلغ نيويورك ، فأتقن فن الطباعة ، ثم ارتد الى هانيبال ، وكان عمره إذ ذاك ثمانية عشر عاماً ؛ وكان أخوه فى غضون ذلك قد تزوج وأصبح مديراً لاحدى المطابع ، فصار صموبل عاملا من عمالها ، ولـكنه كان قد تذوق الحرية وقرأ كثيراً من كتب الرحلات ، فما كان يحلم إلا بانتجاع أمريكا الجنوبيـة على ضفاف الأمازون ؛ وكان للمصادفة مرة أخرى يد بيضاء فى توجيه الشاب الحالم . فقد عثر ذات يوم فى الطريق على ورقة مالية من ذات الخمسين دولارا ، ولما لم يجد لها طالباً فى الصحف احتفظ بها وعاد من جديد يضرب فى الأرض . سار على ضفاف المسيسبى منحدرا مع مجراه حتى بلغ بعد خمسة عشر يوما (أورليان الجديدة) ، وهنالك أدركته خيبة الأمل ؛ فقد علم أن ليس فى البواخر ما يسافر إلى الجنوب ، وإذن لا يستطيع أن يبحر كما فكر وقدر . صفرت يده من المال ، وهدده الشرط أن يعاملوه معاملة المتشرد ، وأخذت حاله تسوء من يوم ليوم ... ولـكن إلّه المصادفة كان يرعاه ، ففى الوقت الذى بلغت فيه حاله من الحرج وحياته من الضيق مبلغا شديدا ، ألفى فى طريقه بحاراً يدعى (بكسبى) تقدم اليه صمويل ليكون تلميذاً بحرياً فى سفينته دون أن يفكر فى المصاعب التى يلقاها الملاح فى نهر كالمسيسبى طوله اثنا عشر ألف ميل ، وبه من التماريج ما يجب على راكبه أن يعرفها على التفصيل والجملة . ولـكن وساطة بعض الأصدقاء ذللت له العقبات وسهلت عليه القبول . قضى المغامر الشاب عهد التعلم الشاق فى ثبات وصبر وشجاعة ، حتى غدا قائدا ماهرا للسفينة . . . أصبحت حجرة الدفة مأواه ، والنهر المتنوع الحى مدرسته ، فكانت هذه الحياة العاملة التى قضاها فى النهر بعد تلك المقالات التى نشرها فى جريدة أخيه مدرسة ناجحة لهـذا الصحافى المنتظر ؛ ومن مِلاحته فى الماء العذب أخذ صمويل اسمه المستعار (مارك توين) ، فقد كان فى بعض مواضع النهر كثبان من الرمل ، فاذا ما اقتربت السفينة منها سبر العامل المختص غور المـاء ، وقال وهو يلاحظ المسبار : ارقم ثلاثة (By the mark three) أرقم اثنين (mark twoin) وهلم جرا ... فأعجبت صمويل كلمة مارك توين فاتخذها اسما له .

راغ صمويل من حرب الانفصال طول شبوبها ، ثم سافر بعد ذلك مع رفيق له يبحثان عن الذهب ، ولـكن ما معه من المال نفد سريعاً ، فاضطر الى العمل أجيرا فى منجم من مناجم الذهب بعشرة دولارات أسبوعيا ، وهى أجرة ساخرة إذا قيست بالعمل المرهق المنهك الذى كان يؤديه هذا المسكين . وذلك كان رأيه ، فانه حين ظفر يوماً بمقابلة المدير طلب منه زيادة الأجر فقال له المدير : إنك لا تساوى شيئاً ؛ ومع ذلك فأنا أحب أن أعرف ادعاءك . فقال له صمويل بأدب : إنى رجل معقول ، لذلك أقنع بأربعمائة ألف دولار فى الشهر ! فما كان جواب المدير إلا أن طرده لتوّه . ولما لقيه بعد ذلك مصادفة سأله ألم تندم على شىء ؟ فقال له : بلى « بعد أن علمت ما هو العمل فى المنجم كان ينبغى أن أطلب سبعمائة ألف دولار أجرة فى الشهر لا أربعمائة ألف كما طلبت »

بعد هذه التجربة القاسية عزم صمويل أن يبحث عن الذهب على حسابه ، فاشترك مع رفيق له ، وحصل على امتياز ومضى فى العمل . ولـكنه تعلم على حسابه أن الثروة لا توانى الجسورين دائماً . فقد أهمل هو ورفيقه أن يسورا الأرض التى يملكان فيها الامتياز ، فنازعهما على ملـكها بعض الناس ، وأعوزهما الدليل فآلت الى هؤلاء المنازعين ، وبحثوا فيها فعثروا على عروق خصيبة من الذهب . وكانت الصدمة قوية على الشابين . ولـكن المصادفة أدركت صمويل فى ساعة المحنة . إذ طلب إليه أن يكون وكيلا للادارة فى جريدة (انتربرايز) ، وهذا المنصب فى نظر صمويل كان عرقاً ذهبياً من نوع آخر ، إذ أدخله على غـير انتظار فى حلبة الأدب . وكان دخوله فى تحرير هذه الجريدة فرصة حسنة تمكنه من ناصية الانشاء والقصص ، فصقل بالتحرير أسلوبه ، وهذب بالمران حكاياته ، ولـكن طبعه الهجّاء وروحه المداعب الفـكه لم يخمدا فيه ؛ وأوشك فى البداية أن يقع منهما فى ورطة شديدة ، وذلك أنه نشر فى بعض الأيام بيانا عن حادثة قتل وقعت فى محطة (دوتش نيكس) أطلق فيه لخياله العنان ، فذكر أن القاتل بعد أن طعن زوجته وأطفاله التسعة بالخنجر وضرب نفسه فقطع عنقه من الأذن إلى الأذن ، امتطى جوادا عدا به حتى بلغ (كنساس ستى) ثم خر صريعاً هناك . نقلت ذلك الخبر جرائد كاليفورنيا كلها ثم حملت فى تعليقاتها على وحشية القاتل وفظاعة جرمه ، ولـكن جرائد بعض الولايات القريبة روت ذلك الحادث الغريب وقالت انه حديث خرافة . فـكان ذلك فضيحة طريفة للكاتب أوشكت أن تخرجه من عمله

ثم انتقل إلى (سان فرنسيسكو) واستمر يكتب فى الصحف كتابة رفعت شأنه وأذاعت اسمه فى ولاية (كاليفورنيا) ، ولكنه بعد أن نشر كتابه (قصة الضفدعة التى تثب) أصبح نابه الذكر بعيد الصيت فى أمريكا أولا ، ثم فى سائر البلاد بعد ذلك ؛ واحتل من الأدب العالمى مكانا ممتازاً لا يتبوؤه إلا القليل . كذلك فى هـذه المدة نال مارك توين شهرته الذائعة فى فن المحاضرة ، وأضاف إلى علمه العميق بفن القراءة وقدرته العجيبة على زخرف الحديث ، موهبته الساحرة لجذب قلوب السامعين باللهو والضحك . ولما عزم أن يحاضر الجمهور لأول مرة كتب فى الاعلان الذى ألصقه على الجدران : « فتح الأبواب فى الساعة السابعة والنصف ، وابتـداء الضجة الفاضحة فى الساعة الثامنة تماما . ولما زار انجلترا ليلقى فيها بعض المحاضرات أحس فى أول اختلاطه بالجمهور اللندنى بعض الفتور وشيئا من عدم الثقة ، فعلم أن ليس من اليسـير التغلب على الطبع الانجليزى المتزمت المحتشم ، فطفق يتحدث عن أخبار رحلاته وعن انفعالات نفسه أمام جبل « يبرد الهواء على قمته بردا يجمد له مخ الانسان فى التو ، وأثر ذلك فى كل من يصعدونه أن يصبحوا عاجزين عن قول الحقيقة » ثم سكت قليلا وقال فى لهجة نادمة ساذجة : « انى أعرف شيئا عنه لأنى صعدت فوقه ! » فانفجرت قاعة المحاضرة بالضحك المغرب ، واعتقد ساعتئذ أنه ربح الصفقة واكتسب السامعين

وكان يلقى ذات مرة محاضرة فى (بوستن) فقاطعه أحد السامعين وسأله رأيه فى الجنة والنار ، فأجابه « لا أريد أن أبدى رأيى فيهما تسألى ، لأنى لى أصدقاء كراما فى هذه وفى تلك ! »

— ٣ —

كان مارك توين ذكى القلب متوقد الذهن ، ولـكنه لم يكن على شىء من حسن السمت وجمال الشارة ، فقد كان هندامه مهملاً ولفاؤه فجاً ومعاملته خشنة ؛ على أن السنين صقلت هذا الفلاح فاكتسب سمت النبلاء بفضل امرأته (أوليفيا كليمنس) التى بنى عليها فى سنة ١٨٧٠ . وكانت هذه السيدة أنيقة متفقفة

ذكية ، فأثرت تأثيرها الجميل فى زوجها ، ودامت حياتهما الزوجية خمسا وثلاثين سنة لا يكدر صفاءها حادث ، ولا ينغص هناءها خلاف . وقد جاهدت هذه الزوجة الكريمة فى إصلاح زوجها ، فلمت شعثه وحالت بينه وبين بعض الأمور التى لا تلائم مكانته . كانت ترعاه رعاية الأم لطفلها ، فلا تدعه يخرج الى مكان ما قبل أن تفحص هندامه فحصاً دقيقاً مخافة أن يكون فى شكله وزيه ما يخالف العادة

وكانت تنبهه إلى كل شىء حتى إلى خلع معطفه فى المدخل قبل أن يدخل البهو . فاذا غابت ذات يوم كانت الطامة ، فقد اتفق مرة وهما فى وشنجطون أن خرجت السيدة كليمنس لبعض شأنها ، وكان على مارك توين زيارة لابد أن يؤديها إلى سيدة من سيدات الطبقة العليا . فارتدى ثيابه بنفسه وخرج دون أن يخضع هذه المرة لتفتيش زوجه . أدى الزيارة وعاد إلى مكتبه فى زيه الفاخر وطفق يعمل . وكانت زوجه قد عادت فى هذه الاثناء فدخلت عليه تلاطفه وتسأله عن الزيارة . ولكنها لم تكد تلقى على السيد نظرة حتى رفعت يديها إلى السماء وصاحت قائلة : يا لله ! أفى هذه الهيئة زرت السيدة فلانة ؟ فأجابها : وهو قلق بعيد النظر فى نفسه خلسة : ماذا ؟ ألست فى زى أنيق وشارة حسنة ؟ فقالت : ولكن أين رباط رقبتك ؟ لقد نسيت رباط رقبتك ! ياللفضيحة الفظيعة ياعزيزى !! فأجابها بلهجة مصالحة : « أهذا كل ماهنالك ؟ لاتضايقى نفسك فسأسوى الأمر » وما كان أشد دهشة الزوجة حين علمت فى اليوم التالى كيف سوى زوجها الأمر ! علمت أنه أرسل رباط رقبته مع الخادم إلى السيدة التى زارها مصحوباً ببطاقة كتب عليها : « هذه تكملة زيارتى »

***

على أن الدهر لم يسالم الكاتب النابغ طويلا ، فقد فجعه الموت فى ثلاث من بناته قضين صغيرات ، وجل الخطب وفدح الرزء بفقد زوجته المحبوبة ؛ ولكنه عاد فتصرف على هواه ، وقرر بعد موت زوجته ألا يرتدى غير الثياب البيض وقد حرص على اتخاذ هذا اللون بقية عمره

كان مارك توين رقيق القلب شديد العطف على الناس يقابل ضعفهم بالتسامح ، وبؤسهم بالرحمة ، وجرمهم بالعفو ؛ وذلك فى شىء من الفكاهة الحلوة والدعابة الخبيثة . دخل اللصوص ذات ليلة فى منزله فى (إستار مفيلد) وسرقوا كل ما وجدوه من الأوانى الفضية ؛ وكانت هذه السرقة شغل البيت وحديث أهله بالطبع ، فأخطروا الشرطة وأذاعوا الخبر وتقاسموا الهم ، إلا مارك توين ، فقد كان فى هذه الضجة هادئاً لا يعبأ بشىء ولا يقوم بحركة ؛ فلما هم بالانصراف ليلاً إلى مخدعه علق فى مكان ظاهر من مدخل الدار ورقة كبيرة كتب فيها هذه الكلمات

(اعلان للصوص فى المستقبل)

ليس فى المنزل بعد الآن أوان فضية بل مفضضة ، وهى فى ركن من أركان قاعة المائدة بجانب السلة التى تنام فيها القطاط الصغيرة ؛ وإذا احتجتم الى هذه السلة فلا تنسوا أن تضعوا القطط فى درج البوفيه الأسفل . أرجو ألا تحدثوا ضوضاء ، وأن تغلقوا الباب وراءكم ، وتقبلوا خالص احتراماتى (س . كليمانس)

ومن السهل أن نتصور ما قابلت به الأسرة هذا الاعلان من الدهش المظيم والضحك الشديد . وهكذا عاش ممثل الذكاء الأمريكى حتى توفاه الله فى ٢١ ابريل سنة ١٩١٠ وهو فى أوج مجده

حول السنيين والشيعة

إلى الأستاذ أحمد أمين

للأستاذ السيد محمد صادق الصدر

يسرنى ويسرنى جداً أن أقرأك أيها الأستاذ الأمين على صفحات « الرسالة » — صحيفة الأدب الخالدة — حاملاً لواء الوحدة ، داعياً الى الاتحاد والألفة . وإن فى لحنك الجديد العالى — يا أستاذ — لذة ومتاعا ، وإن فيه كل ما تصبو اليه النفوس الحساسة الشاعرة ، وإن تفسيرك للفظة الشيعة التى وردت فى كتابيك الجليلين وسفريك الثمينين : فجر الاسلام وضحاه ، وتصريحك بأنك لم تقصد من لفظ الشيعة الامامية الاثنى عشرية منهم ، وإنما قصدت الغالى الممعن فى غلوه ، كل ذلك منك عاطفة مشكورة نقدرها كل تقدير ونـكبرها الاكبار كله ؛ وإن عاطفتك هذه لدليل أقوى دليل ، وبرهان أسطع برهان ، على أدب نفسك وطهارة ذاتك ، وعظيم أخلاقك وخلالك . وكن على يقين منى بأن تصريحك هذا قد رفع سوء التفاهم وأزال من نفوس إخوانك الشيعة البررة كل ملامة وعتب ؛ وإذا قرأت أو سمعت عن مفـكريهم شيئاً لا يرضيك ، فانما كان ذلك غيرة على طائفتهم ودفاعاً عن آرائهم ومعتقداتهم ، وهذا طبيعى لكل أمة تحتفظ بكرامتها ، وتحرص على سمعتها ؛ واسمح لى بأن أقول إنهم لم يخطئوا إذ فهموا من لفظ الشيعة أنك عنيتهم ما دام لفظ الشيعة مطلقاً غير مقيد ؛ وليس فى كتابيك (فجر الاسلام وضحاه) عبارة واحدة على تقييد الشيعة بالغالية لتخرج الاثنى عشرية عن لفظ الشيعة المطلق الذى يشمل فرق الشيعة المتعددة ؛ ومن المقرر فى أصول الفقه أن المطلق إذا لم تقم قرينة تدل على تقييده يحمل على إطلاقه . وقد تكون ثمة قرائن — لا قرينة واحدة — قامت لدى الشيعة على الاطلاق وحملتهم على ما فهموه ، فان ذكرك للفظ الشيعة مطلقاً أيضاً فى كتابك (ضحى الاسلام) — بعد أن زرت العراق وطفت بمدن الشيعة ، واجتمعت برجالاتها ، وعرفت الشىء الـكثير من عقائدها وآرائها — سوغ لهم هذا الفهم وحملهم على أن يعتقدوا هذا الاعتقاد ؛ ولست أريد بكلامى هذا أن أثبت أنك تقصد ما فهموه ، وإنما أريد أن أقول إنهم لم يخطئوا فى فهمهم ما دام إطلاق اللفظ كان يحتم عليهم فهم ذلك . وعلى كل حال ستري من الشيعة إخواناً شاكرين أفكارك وآراءك الأخيرة

وأود أن ألفت نظرك الى نقطة مهمة وردت فى مقالك القيم ، فقد قلت : « وليست الامامية التى يدين بها أهل العراق وفارس إلا فرقة واحدة من فرق عديدة بعضها باق الى اليوم ، وبعضها عفى عليه التاريخ » . إن الطائفة الاثنى عشرية هى الطائفة الوحيدة اليوم من طوائف الشيعة وهى مبثوثة فى العراق وفارس والهنـد وأفغان وسورية والبحرين والحسا والقطيف وفى غيرها من الأقطار الاسلاميـة ، وكل ما يبرز للعالم من آثار علميـة ومنتوجات أدبية هو مما دبجته أقلام علماء هذه الفرقة وكتابها وشعرائها ، ولم يبق من طوائف الشيعة المتعددة غير هذه ، اللهم إلا بعض طوائف ضئيلة لا تذكر . لذلك أصبح لفظ الشيعة اليوم خاصاً بهذه الطائفة يتبادر الى الذهن لدى إطلاقه ؛ وقد بادت — ولله الحمد — أكثر هاتيك الطوائف الضالة التى شوهت سمعة الشيعة . وأملى وطيد ألا تعرض فى الجزء الثالث من فجر الاسلام الى غير هذه الطائفة لأنها هى الطائفة الوحيدة من بين طوائف الشيعة المتعددة ، التى يطلق عليها لفظ الشيعة بكل ما لهذه اللفظة من معنى ؛ فهى التى شايعت علياً عليه السلام وتابعته فى أفعاله وأقواله ، وليست طوائف الشيعة الضالة من التشيع فى شىء ما دامت أفعالهم وأقوالهم لا تتفق وأقوال أهل البيت عليهم السلام وأفعالهم . ومن الخطأ جداً أن نجعل المقياس والجامع للتشيع حب على (ع) ، لأنا إذا أردنا أن نجعل المقياس هذا العنوان وجب أن نطلق على السنيين لفظة الشيعة أيضاً ، لأنهم يحبون الامام ويقدسون شخصيته ، فالمقياس للتشيع إذن هو المشايعة والمتابعة ، وهو الذى يقتضيه لفظ الشيعة ؛ أما الطوائف التى لا نجدها مطابقة لهذا اللفظ فليست من الشيعة فى شىء وإن ألصقت نفسها إلصاقا واتخذت لها هذا الاسم وساماً

أما ما رجحت من عقد مؤتمر فى بغداد يجمع بين علماء الطائفتين ، ويؤلف بين الفريقين فهذه فكرة ناضجة ، وأصبحت اليوم محتمة . وجدير بكل مسلم أن يبث هذه الدعوة ، ويسعى

لتحقيق هذه الفكرة فقد آن أن نتفق ونتحد ، وآن لنا أن نوحد الصفوف ونجمع الكلمة ، وآن لنا أن ننبذ النعرات الطائفية التي كانت السبب الوحيد فى شق عصا المسلمين وبث روح الخصام فى نفوس الأمة المسلمة التي كان يسودها الاتفاق ، ويملو سماءها الحب والوئام . وحرى بنا - ونحن فى هذا العصر الذي كثر فيه أعداء الاسلام ومناوئوه - أن نتناسى الماضي ونسدل حجاباً كثيفاً على كل ما من شأنه أن يكدر الجو ويثير العداوة والبغضاء . وإذا فرقتنا المذاهب بالأمس فستجمعنا المصائب اليوم . وإني أتذكر كلمة خالدة فى هذا الموضوع لعلامة جبل عامل الأكبر الامام السيد عبد الحسين شرف الدين نوهت عنها مجلة النار الاسلامية ، فقد قال عن الطائفتين : (فرقتهما السياسة ، وستجمعهما السياسة) ؛ فالسياسة التي فرقت بينهما طيلة الأعصر الماضية هي هي التي ستجمع بينهم فى هذا العصر وتوحد صفوفهم فى الأعصر الآتية ؛ وإن الواجب ليحتم على كل فرد من أفراد الأمة الاسلامية أن يبث روح الاتفاق الحية ، ويسعى غاية جهده فى كل ما يرجع الى صالح الأمة ، (فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) ، ولكن مما لا شك فيه أن المسؤولية العظمى تلقى على عاتق العلماء والمفكرين من الأمة ، فانهم هم القادة ، وهم الذين يقدرون الواجب ، وهم الذين يحسون بمسيس الحاجة إلى بث روح الاتفاق والألفة ، وهم قادرون - بما أوتوا من علم وحكمة وقوة بيان - أن يخضعوا العامة لآرائهم ونظرياتهم ؛ وإذا قام العلماء ببث هذه الروح ، وقاموا بايجاد مؤتمر اسلامي عام ، فانما يقومون بواجب تفرضه عليهم حالة الأمة الاسلامية الحاضرة ، وتحتمه آي القرآن الكريم ونصوص السنة المقدسة ؛ فالقرآن الكريم يحض على الاتفاق ، ويحث على الألفة فيقول : (إنما المؤمنون إخوة) ، ويقول : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) ، ويقول : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) ويقول (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) الى غير ما هنالك من الآيات الكريمة التي تحتم على المسلمين أن يتفقوا ، وتحذرهم أن يتفرقوا فتذهب ريحهم ، ويخسروا عزهم ومجدهم . ونحن لو رجعنا الى السنة النبوية المقدسة لوجدناها تضرب على هذا الوتر وتلحن أحاديثها الشريفة على هذا التلحين ، وتواجه المسلمين بنحو هذا الأسلوب فتقول : « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، وهم يد على من سواهم فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل » والأحاديث فى ذلك كثيرة . وكان صلى الله عليه وسلم يبث هذه الروح المباركة ويحض عليها بمختلف التعبير ، وكان لارشاداته (ص) وتعاليمه القيمة دوى عظيم فى أنحاء الجزيرة العربية ، وأثر فى نفوس المسلمين الأثر الذي جعل فيهم روحاً وثابة حية كانت هي السبب الوحيد فى رقيهم الباهر ، وتقدمهم العظيم . فالأمة الاسلامية ما اجتازت تلك المراحل ، وما وصلت الى ما وصلت اليه من المجد والعظمة الا بالتمسك بالاتفاق والاعتصام بحبله المتين ؛ فبفضل الاتفاق أصبحت الأمة الاسلامية أمة حية ، وبفضل الاتفاق تربعت على دست الحكم وقبضت بيدها الحديدية على أنحاء المعمور . وإذا أردنا أن نسترجع مجدنا القديم ونسترد عزنا السالف لتحتم علينا أن نتقدم للعمل حاملين هذه الروح الوثابة المباركة . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ؟

بغداد — للديوان **محمد صادق الصدر**

وا أماه !!

للأستاذ الحاج محمد الهراوى

تكشفتُ للأحداث بعدكِ يا أمى ... فياطولَ ما ألقى من الحزنِ والهمّ
لىَ اللهُ يا أمّاهُ ما أنا بالذى ... تعوّد أن يقوى على الحادثِ الجهم
تلمّستُ حزمى فى المصاب فعزّنى ... لقد غاب عنى فى الثرى مصدرُ الحزم
فقدتُ التى كانت إذا شطّ بى النّوى ... تُسائِلُ عنّى فى الدجى سارىَ النجم
وإن ترمنى الأقدارُ منها بحادثٍ ... تلقّفهُ عنّى على الرّوحِ والجسم
وإن تربتْ كفّى تجودُ برُوحها ... مخافةَ مالمْ أحتمِله من العُدْم
وإن مسنى سُقْمٌ ثوتْ عند مرْقدى ... لِزاماً فلم تبرحْهُ إلاّ معَ السُّقم
على أنَّها والسُّقمُ يبْرى عِظامَها ... تُحاوِلُ أن تُخفيهِ عنّى بالكتْم
ولو أنها اسطاعت لأخفتْ حِمامَها ... وقد حُمّ، إشفاقاً علىّ من الضيْم
فيا رَحْمتا للفاقِدى أمّهاتِهمْ ... من الناسِ مثِلى أو من الطيْر والبُهْم
فإن الحنانَ الحقّ فى الأمّ وحدَها ... وغيرُ حنانِ الأمّ ضرْبٌ من الوهْم
هِىَ الأمّ سِرٌّ لستَ تعرفُ كُنهه ... وإن خِلْتها فى صورةِ الدّمِ واللّحم
يقولون فانظرْ رسمها بعد موتِها ... فقلتُ لهم فى الرّمْسِ أمّى لا الرّسم
فإن فاتنى ذاك الحنانُ التمستُهُ ... على حسْرَةٍ من ذلك القبرِ باللّثم
دَفنتُ به من لا ينِى إن دعوْتُهُ ... إلى معشرٍ صُمٍّ إذا ما دُعُوا بُكْم
فإن قلتُ يا أمّاهُ أغنانىَ اسْمُها ... عن الأبِ والأبناءِ والخالِ والعمّ
عِصاميّة كانت على حينَ أنّها ... لها نسبٌ فوقَ النّقيصةِ والذّمّ
وأمّيَّةً كانت ولكنّ رأْيَها ... لدى مُعْضِلاتِ الأمرِ فوقَ ذوى العِلْم
فقدْتُ أبى طفلاً فلم أدرِ ما الأسَى ... وأُفْقِدْتُها كهلاً فهدّ الأسى عزْمى
سَلونِى أحَدّثكُمْ عن اليُتمِ بعْدها ... فإنّ اليتيمَ الكهْلَ أعرَفُ باليُتم
فياليتَ أيامَ الحياةِ وقفْنَ بى ... لدى موضعى منها من الإثمِ والغمّ
وياليتَ لم يقطعْ بنا الدهرُ شوطَهُ ... فإن خُطاهُ للقطيعةِ والصّرْم
سرَى لِىَ يا أمّاهُ طيفُكِ فى الكرَى ... فغابَ خيالُ الأمّ عن زوْرةِ الأمّ
وأنّى لِىَ السّلْوى وقد حالَ دُونَها ... مِثالُكِ فى عينى وطيفُكِ فى حُلْمى
سأخْضَعُ يا أمّى لقلبى ومدْمعِى ... على رَغمِ ما أسْديتِ من نُصْحِكِ الجمّ
وأبكيكِ بالقلبِ الذى تعْرِفينَهُ ... وللدّمْعِ شأنٌ غير ذلك فى الحُكْم

محمد الهراوى

ليلة حوراء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

رق الظلام بليلة ... حوراء كالطرف الكحيل
سحر العيون كسحرها ... بين الشواهد والشكول
هى فتنة الحدق الملا ... ح ونعسة الطرف العليل
رق الظلام كأنه ... مُتفيّأ الظل الظليل
فى روضة فينانة ... هجر الهجير بها المقيل
وصفا الدجا فكأنما ... مزج النهار به الأصيل
فتمازجا كتمازج الـ ... ـماء المصفّى والشمول
فى جنحها وصفائها ... قرِنَ الجليل إلى الجميل
وتصالحا من بعد ما ا ... فترق السبيل عن السبيل
تحنو علينا مثلما ... يحنو الخليل على الخليل
وتخالها حُلماً بسـ ... ـد جل عن قيد العقول
ولرب ليل فاحم ... فيكاد يُقطَع أو يسيل
لا مثل لَيْلَتِىَ التى ... تندى على الوجد الدخيل
فى سحرها وصفائها ... ونجومها برء الغليل
عم السكون كأنه ... مَلَكٌ على الدنيا نزيل
فكأنها رسم بدا ... وكأنها حُلْم مخيل

في مثلها من هدأة سكن القضاء فلا يصول
وكهدأة في معبـد للخاشـعين به مثول
وكأنما أغفى الهوا ء كغفضة الطرف الكليل
والبـدر طيف في المنا م يطيف كالحبِّ الوَصول
في مثلها من ليلةٍ عبد الدنى أهـل الحلول
ورأوا تجَـلِّيَ الله في كونٍ عراه له ذهول
والزهر كالمسحور وسـ نان المحاسن في ذبول
والنهر غافٍ راكد نَسِيَ الترقرق والمسيل
وسنان يحـلم بالريا ض وظلها فيه الظليـل
في مثلها من ليـلةٍ يقف الزمان فلا يحول
يصغي إلى نجوى القلو ب وذكرها العهد الجميل
كوقوف نجم سمائها يثنيه من سحر ذهول
كذهول مسحور بما تجلو من الحُلُمِ الجميـل
ياليل بل يا سـحر بل يا حُلْمُ ليتك لا تزول

عبد الرحمن شكرى

الحياة

للأستاذ فخرى أبو السعود

ليت شعري لأي أمرٍ مُراد قد سرت منكِ نفحةٌ في الجماد ؟
فاستقلت أجزاؤه من همود وصحا بعد طول ذاك الرقاد
دائبَ السعي لا يَنِي حراكاً مستمراً ولا طويل جـلاد
ساعياً دون غاية يجتليها سعي ذي غاية جَلِيِّ المراد
صابراً للصروف كيف توالت مستجما للنازلات الشداد
فيـك بؤس له وفيـك نعيم وهو في الحالتين لهفان صاد
يبلغُ الجوعُ منه والخوف والحز ن وعاتٍ من نازل الداء عاد
باسماً للرجاء يشرق بعـد الـ كد منه وبعد وَعْرِ الجهاد
آملاً كيفما تمادى شقاه أن يدورَ الزمان بالإسعاد
وهو مهما أصاب خيراً مُرِيغٌ غيره منـك طامعٌ في ازدياد
وهو مهما طال البقاء به را ج بقاء وراغبٌ في التمادي
وحريصٌ على هواكِ وإنْ لم تَقِ غير الجفاء والإبعاد
فرط حبٍّ قد استوى أفتكُ الفتـ اكِ فيـه وأزهدُ الزُّهّاد
ليس يدري سواكِ أصلاً وفصلاً ليس يَسْبيه غيرَ وَاديكِ واد
يكره الموتَ جُهْدَهُ وهو رَوْحٌ وقرارٌ له على الآباد
وإذا حَنَّ للخلودِ تَقِيٌّ يبتغي بالصلاح دارَ الرشاد
فهو يبغي في الخلدِ ما فيكِ من نُعْـ مى ومن فتنـةٍ ومن إرغاد
وهو يبـغي جميع ذلك صفواً
من صنوف القـذى وَرَيْب العوادي
وهو يبغي جميع ذاكِ مُقيماً مستمراً له لغـير نفاد
جَنَّةُ الخُلدِ صورةٌ منكِ تَغْذُو منه شتّى المُنى وحاج الفؤاد

فخرى أبو السعود

فراق

للأستاذ رفيق فاخورى

يا خدينَ الصِّبا رعى الله عهداً لم يلد مثـله الزمانُ المقِلُّ
لا أرى لي عمراً سـواه فلولا ظـله لم يكن لمحيايَ ظل
هو فصلٌ من النعيم نهبنا هُ قصيراً ، ولذةٌ لا تُمَل
لُمَعٌ من سـعادةٍ ورخاء أعقبتْ حسرةً تَمُرُّ وتحلو

***

زعموا البعدَ منتهى كلِّ أُنسٍ وفراقَ الأحبابِ خطباً يَجِلّ
قلتُ : إنْ أزمعَ الخليطُ احتمالاً ففؤادي بالوجد لا يستقل
نحن كلٌّ بوَحـدة الروح يحيا وجميعٌ على العُداة مُطِل
فاذا ناله التفرقُ يوماً لم يكنْ فيـه للحياة محَلّ
يا مَعِين السلوان ليت لقلبي ما يُميت الحنينَ فيـه فيسلو
آنهِ جرعـةً تفول حجاه عَلّةً من بواعث الهم يخلو
كاد من لوعةٍ وفرط اشتياقٍ عن حماهُ بين الأضالع يجلو
ضاقَ عن حُبِّه فتيٌّ ذا مراسٍ واشتكى من عذابه وهو طفل

حمص **رفيق فاخورى**

القصص

صور من هوميروس

١٧ - حروب طروادة

طوفان . . .

للأستاذ دريني خشبة

تفزّع الطرواديون مما أخذهم به أخيل ؛ وزادهم خبالا هذا الظلام الذى راحوا يضربون فيه على غير هدى ، والذى كانت تعد حيرا فى دياجيره فيتدجى فوق الساحة الصاخبة ، ويمكن لابن پليوس من أعدائه فيضرب فى أقفيتهم ، ويهوى على أعناقهم ، ويمسح سُوقهم ويضرب كل بنان

وضاق الجسر بجموع الفارين ، فاضطروا إلى خوض عباب النهر الزاخر ، وخوّضوا فيه بخيلهم ورجالهم .. وتطامن لهم سكمندر [1] فسكنت أواذيه ، ونامت جراجره ، وانكشف قاعه عن حصباء كالدر النضيد ....

وتبعهم أخيل نخاض مياه النهر ، ثم أعمل سيفه ورمحه ، فكانت شآبيب الماء تختلط وشآبيب الدماء ، وأنين القتلى يمتزج وأصداء المنهزمين ، والجماجم المنتثرة تصطدم بالأشلاء الطافية هنا وهناك ، والسماء الكاسفة ترسل عقبانها تغتذى بالجزر المتساقط فى رحب المعركة ، من بطون مبقورة ، وهام مُفَلَّقَةٍ ، ولحم مقروم ....

واستطاع أخيل أن يحصر اثنى عشر شاباً فيأخذ عليهم سبيل الفرار ، وفضل أن يرسلهم الى سفائنه أسرى حتى لا يثخن فى الأرض ، وحتى يشهدوا ثمة ذلك القتيل المسجى ، تسقيه

(١) رب النهر المحيط بطروادة

ذيتيس الحزينة خمرا ؛ فكبل أرجلهم وأيديهم من خلاف ، ووكل بهم جماعة من رجاله فقادوهم الى الأسطول ، بعد ما وقفوا هنيهة أمام جثة بتروكلوس ، يؤدون لها تحية المعركة التى دارت رحاها عليهم ، واصطلوا من بعده بنارها

وطفق أخيل يأخذ الجموع من كل حدب ، ويلقاهم فى كل صوب ، حتى كان وجهاً لوجه أمام ليكاون بن بريام ، الذى كانت له معه قصة قديمة مشجية ، زمان إذ أسره أخيل واستاق قطعانه ، وحبسه فى جزيرة لمنوس ، حتى افتداه أهله من الحرس الموكل به ، ورشوهم بمائة ثور جسد ذى خوار ليطلقوا سراحه !

مسكين ليكاون بن بريام ! لقد فر من جزيرة لمنوس منذ اثنى عشر يوماً فقط ، وسعى الى هذه الساحة النكراء ليلاقى فوق أديمها حتفه ، كما لقيه أخوه پوليدور من قبل

ودهش أخيل إذ رأى ابن بريام يذرع الميدان أمامه ، وعجب من أفلته من منفاه السحيق فى عرض البحر ... ثم أيقن أن فى الأمر مكيدة ... فانقض على الفتى المسكين انقضاض الباشق ، وأرسل اليه طعنة نجلاء كادت تخترم أجله ، لولا هذه اللفتة الرشيقة التى انفتلها الشاب فأنقذت حياته ... ولو إلى حين !

وفتح الفتى عينيه فنظر إلى شبح الموت تنتشر سماديره من ظباة أخيل ، وأحس كأن هذا الشبح يلاحقه فى كل مكان فيقبض على عنقه ويضغطه ، ثم ينشب فيه أظفاره فيسرى السم فى هيكله الخاوى فلا يكاد يبين !

وحاول أن ينجو من روع هذا الموقف ... ولكنه كان أبطأ من حتفه الذى يسابقه ، فلما أيقن أن لا سبيل إلى الفرار ، ألقى سلاحه وتقدم إلى أخيل فقبل ثرى الساحة عند قدميه ، ثم لف ذراعيه المرتجفتين حول ساقى زعيم الميرميدون ، وطفق يضرع اليه ألا يقتله ... « فان لى أماً محزونة ما تفتأ ترسل دموعها على أخى پوليدور الذى قتلته منذ لحظة ، والذى أذوبت

شبابه النضر ولم تبق على عوده الفينان ، ولم ترحم فيه قلوباً تعطف عليه ، وأباً شيخاً أصبته فى ولده بقاصمة الظهر ... ... أرسلني يا أخيـل تباركك الآلهة ، وترعاك أرباب الأولمب ، ولا تفجع فىّ ذينْك القلبين الحنيين على ، الحفيين بى ... »

وكان الفتى يغسل توسلاته بعبرات شبابه ، ويصهرها بآهات صباه ... ولـكن أخيل الذى يضطرم حزناً على پتروكلوس ، لم تأخذه رحمة فى ابن پريام المسكين ، وأخى هكتور الذميم ... ! بل استل جرازه البتار وأهوى به على عنق الفتى ... فطاح الرأس الطراودى الـكريم !!

وكان البطل الطراودى العظيم ، سترابيوس بن پلجون ، رب البركات ، الذى يدين له بحياته أكسيوس رب النهر الشرق الـكبير ... كان سترابيوس على مقربة من أخيل وهو يصرع ليكاون بن پريام ، فجزع - شهدت الآلهة - على ابن الملك ، وأحزنه ألا يرق أخيل لتوسلاته ؛ ووقر فى نفسه أن يقتص له من هذا الشيطان ، ويخلص الطراوديين منه ، فيطير ذكره فى الخافقين ويقترن اسمه بما لم يقترن به اسم أحد فى العالمين . فيمم شطر أخيل والـكبرياء تنفخ أوداجه ، والغرور يشيع فى أعطافه ، ثم هز رمحه هزة المتحدى الخصيم ...

وزجره أخيل فلم يزدجر ، فانقض عليه انقضاض الحتف ، وأخذه أخذ المنيـة ، لا تجدى فيها إذا أنشبت أظفارها التمائم ، ولاتدفعها الرُّقى ، ولا تُفلت من أقصدته ولو كان فى برج مشيد !

وأرسل أخيـل رمحه كالصاعقة ، لو لقى الصخر لقده ، أو الجبل لنفذ فيه ، ولـكن سترابيوس كان أرشق من أن يلقى الطعنة فازلق انزلاقة خفيفةً أذهبت الرمح فى الهواء ، ثم هوى إلى الأرض فغاص فيها ؛ ومن ثمة راح يداعب أخيل حتى أحنقه وحتى بلغ الغيظ منه ، فامتشق بن پليوس سيفه وصرخ صرخة رجفت لها السماء ، وانصدع من هولها جانب الجبل ، وهجم على سترابيوس هجمة رابيةً فلم يفلته ، بل أرسل السيف فى بطنه فخرج سنانه من ظهره ، وبرزت الأمعاء فاجتمعت حولها أسماك الماء ، تنوشها وتغتذى بها ...

وريع سكمندر ، رب النهر العظيم ، إذ نظر فرأى ابن ضيفه المقدام ، يلفظ أنفاسه ، ويُساقط نفسه ، فدارت الأرض به ، وضاقت عليه بما رحبت ، وتجهم من توّه لأخيل ، وود لو انشق فابتلع ابن پليوس آخر الدهر ، أو لو يأخذ هو سيفاً فيقد به أضلاعه ، ويطيح به رأسه ، ويريح العالم من بأسه . لـكنه آثر ، كالـه له وقاره ، أن ينذر أخيل ويأخذه بالحيـلة ، فخاطبه من القرار ، قال : « أخيل ! يا ابن پليوس العظيم ! أنا لا يهمنى أن تصطلم الطرواديين جميعاً ، ما دام زيوس قد سلطك عليهم ورماهم بك . . . أنا لا يهمنى من ذلك شىء ... ولـكن الذى يحزننى ويضيق به صدرى هذه الجثث الـكثيرة التى يمج بها عبابى ، وينتشر منها الخبث فى أرجائى ... لقد أنتنت يا أخيل ، وخالطت عذوبة مائى ، ولم يعد لى بها طاقة ، ولا عليها جلد ... وهى إلى ذلك كادت تقف تيارى ، وتشل حركتى ... فهلم فارفعها عنى ، وقف التصريع والتقتيل حتى تطهر مجراى من أدرانها وحتى ألفظ أنا إلى البحر ديدانها ... »

وتبسم أخيل قائلا : « أما أن أقف هذه الحرب فلا سبيل إلى ذلك حتى آخذ بثأر پتروكلوس ، وحتى أدك طروادة على رأس هكتور ، فاما أن ألقاه فأقتله وإما إن يلقانى فيقتلنى ؛ وأما أن أطهر مجراك من هذه الجثث الطافية فوقه فليس لى الآن بذلك يدان ... أو تضع هذه الحرب أوزارها ... »

وحنق سكمندر العظيم ، وانطلق إلى أبوللو يكلمه فى أمر أخيل ، ولم يدعه أبوللو حتى أغراه بابن پليوس أعدى أعدائه ، وأشد شانئيه ، وحتى أثاره عليه ، وهاج فيه كل حقد دفين . وعاد سكمندر فأشار إلى الماء فملأ وفاض ، وإلى الموج فتلاطم وجرجر ، وإلى الأواذى فدوّمت وهوّمت ، ولاحقت أخيل من ههنا ومن ههنا ؛ وفطن ابن پليوس إلى الخطر الذى أوشك أن يحيق به فهرع يحاول الفرار ... ولات حين فرار ... فقد أزبد الموج ، وانساب العباب ، وتشققت الأرض عيوناً ومسايل ، وعَمُقت اللجة ، وبعد ما بين سطحها وبين قدمى أخيل ، أو ما بينه وبين قرارها ، فأطلق المسكين ذراعيه يسبح فى أغوارها ، ويتعلق بالجثث الطافية فوقها

واشتد الخطب ، وعظم الـكرب ، وصرخ أخيل يستنجد أربابه ، فما كادت حيرا تسمعه حتى فزعت اليه ، وأمرت ڤلـكان ابنها فانطلق يجفف الأمواه بنيرانه ، ويرسل على الطوفان بدخانه ،

ويستعين فى كل ذلك بآلهة الريح التى هرعت اليه من كل صوب تساعده ، وكان زفيروس الكريم يهب على النهر اللجى سجسجاً ، ويذهب منه بكل مزنة مثقلة ، وديمة محملة ، فلم يمض غير بعيد حتى صفا الجو ، وغيض الماء ، وبرز أخيل يحمل عدته ، فطربت الآلهة لنجاته ، وانقض ڤلكان على سكمندر يحاول أن يثأر لأخيل منه ... ! ولكن بعد أن عاهد حيرا – إذا هى صدت عنه ولدها ڤلكان – أن يحصر الطرواديين بموجه ، فلا يمكنهم من الدخول إلى مدينتهم ، ويجعلهم بذلك هدفاً لأخيل يصنع بهم ما يشاء ! !

***

وتثار الخصومة بين الآلهة لموقف ڤلكان من سكمندر . . . ويغيظ مارس من مينرڤا أنها تؤيد ڤلكان وتحرضه على رب النهر المسكين الذى أفزعته النيران تأخذه من كل حدب . . . فتقدم إليها وطفق يقرعها وتقرعه ، ويرميها بالمثالب وترميه بها . . . ثم تناول رمحه العظيم واستجمع كل قوته ، وأرسله يود لو يقضى به على ربة الحكمة الحازمة ، ولكن ، ويل لك يا مارس ! لقد ارتد الرمح فلم يستطع إلى درع مينرڤا من سبيل ... وانحنت الآلهة المغيظة فأخذت حجراً من أكبر حجارة الجبل وقذفت به مارس فدكت عنقه ، وقصمت ظهره ، وتركته على السفح الشاحب لَقًى من ألقاء هذه الحرب !

وظل مارس ممدداً على السفح يخور ويئن ، ويتلوى بجثته العظيمة [1] التى كانت ترتطم بالجبل فتميد به ، وتهزه هزاً ظاهراً

وأقبلت ڤينوس فوقفت تواسى مارس وتهون عليه ما فعلت به مينرڤا ، ثم أنهضته وانصرفت به ، ولكن حيرا أرسلت فى إثرها مينرڤا ، ترى ما يكون من أمرها . . . بعد كل تلك الفضائح التى لوثت شرفهما ، وجعلت اسمهما مضغة فى جميع الأفواه ...

وأقبلت ڤينوس على مارس تشفى حرقةً فى قلبه ، وتنيله من قبلاتها ما تنسيه به

(١) جاء فى الميثولوجيا أن طول مارس سبعمائة قدم

الاشتراك المجانى فى الرسالة

لدخولها فى سنتها الرابعة

(١) ابتداء من أول يناير سنة ١٩٣٦ إلى ٣١ منه سيكون الاشتراك فى الرسالة على النحو الآتى :

قرش	
٥٠	فى مصر والسودان
٤٠	لطلاب العلم ولرجال التعليم الالزامى
٦٠	فى البلاد العربية بالبريد العادى
٥٠	لطلاب العلم فى البلاد العربية بالبريد العادى

(٢) إذا دُفع الاشتراك المخفض فى أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ أُهدى إلى المشترك مجموعة من السنة الثانية أو مجموعة من السنة الثالثة ؛ وثمن كل منهما ستون قرشاً مصرياً . وأجرة البريد على المشترك ، وقدرها خمسة قروش فى الداخل ، وعشرون قرشاً فى الخارج

(٣) إذا دُفع الاشتراك الكامل فى أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ وقدره ستون قرشاً فى مصر ، وثمانون فى البلاد العربية ، أُهدى إلى المشترك نسخة من كتاب (ضحى الاسلام) أو (فجر الاسلام) للأستاذ أحمد أمين ، أو من كتاب (وحى القلم) للأستاذ الرافعى ، أو من كتاب (تاريخ الأدب العربى) للأستاذ الزيات ؛ أو كتابان يختاران من الكتب الآتية : آلام ڤرتر ، رفائيل ، فى أصول الأدب ، للاستاذ الزيات ؛ قصة المكروب ، مرجريت ، للدكتور أحمد زكى .

وأجرة البريد على المشترك وقدرها عشرة قروش فى الداخل ، وعشرون قرشاً فى الخارج

(٤) يقبل الاشتراك الكامل والمخفض أقساطاً من طلاب العلم ورجال التعليم الالزامى ، ولا يقل القسط عن عشرة قروش

بعض الذى لقيه من أذى ... ولـكن مينرقا أهابت بهما ... ! وطفقت تنصح لهما أن يدعا إليوم فلا ينصرانها على شعبهما المختار . . . هيلاس العزيزة ! ولـكن . . . ! لقـد أسمعت لو ناديت حياً . . . ! فلقد أعطت ڤينوس باريس موثقاً ، وان ڤينوس لصادقة . . . ! !

* * *

وانطلق نپتيون يعظ أپوللو ، ويصرفه هو الآخر عن مؤازرة الطرواديين ، فذكر له أيام أن نفاها زيوس إلى أقصى الأرض ، فأتيا إلى طروادة ، وعملا فى خدمة أميدون الجبار ، الذى لم يتورع أن يرسل أپوللو فيرعى له قطمانه ، ويسمّن نعمه وشاءه ، كأن لم يكن أپوللو ابن إلـه عظيم ، وكأن لم يكن هو نفسه إلـهاً عظيما !! ... « أتذكر هذه الأيام يا أخى أپوللو !! ... أتذكر أيام أن كان هذا العاتية العنيد يسومنا الذل ، ويقهرنا أرهق القهر ، وينزل بنا أشد ألوان الخسف ، متذرعاً بغضب سيد الأولمب علينا ، لا تأخذه فينا رحمة ، ولا يهمه أن نبرم ونتسخط ما دام ـ فيما كان يزعم ـ يؤدى ما أمره به أبوك زيوس ! !

فيم هذه المناصرة كلها لطروادة يا أپوللو ؟ ... ماذا تذكر من حسنات لمـكها اللامين أوميدون ؟! أنسيت يوم أسخطناه بالتراخى قليلاً فى عملنا ، فأمر بنا فقطعت آذاننا وشد وثاقنا ، وأصبحنا ضحكة كل راء ؟ ! ... لا لا يا أپوللو ... أنا لا أرتضى لك أن تـكون غبياً إلى هذا الحد ... »

وعملت فيه كلمات العم نپتيون عملها ، فعاهده ألا يخوض غمار هذه الحرب كرة أخرى ، وقاسمه ألا يسدد فيها بعد اليوم سهما ... ولو عيرته أخته ديانا ألف تعيير !!!

وماذا لو عيرته ديانا ، ورمته بالجبن أمام نپتيون ؟ ! ها هى ذى حيرا تسمع الى ربة القمر ، فتقذفها أشنع القذف وأمره [1] ، ثم تهجم عليها فتكبلها ، وتنثر كنانة سهامها ، وتمضى بعد ذلك لشأنها ... وتأتى لاتونا — أم ديانا الباكية — فتواسيها وتذهب وإياها الى زيوس ... المتربع فوق سدة الأولمب ، فتشكو اليه ما لحق ابنتها من زوجه ... ويغضى الالـه ... لأنه ليس له على حيرا يدان ... ... !

(١) لم يتورع هوميروس أن يتقاذف الآلهة بأخس ألوان الفحش فأثار بين حيرا وديانا سباباً ليس مثله سباب

ويتم الظفر لأخيل وجنده بعد إذ ينسحب أپوللو من المعركة ، فيأخذ الطرواديين أخذ عزيز مقتدر ؛ ويقف بريام الملك فى برج شاهق يطلع على الساحة ، ويشهد هزائم جنده ، فتدمع عيناه ... ويأمر بالبوابة الـكبرى فتفتح ، ويهرع الجنود ناحيتها فراراً من أخيل وشياطين أخيل ، ولـكن أخيل وشياطين أخيـل تشطر الجنود الفارين شطرين ، بل يستطيع أخيل وكوكبة قوية من الميرميـدون أن ينفذوا الى البوابة الـكبرى ، ويدخلوا طروادة فاتحين ... ... ! !

وهناك ! يثبت لهم أجينور البطل الطروادى الحلاحل ، ويأخذ مع أخيل فى ملاحاة عنيفة ، ثم يتقارعان برهة ، ويصاول أحدهما الآخر ...

ويكون ... أپوللو ... !! الى جانب أجينور يحضه ويحرضه ، ويثبت قدميه ... ناسياً مواثقه التى قطعها على نفسه أمام نپتيون ... ...

ويهم أخيل أن يبطش بفتى طروادة لولا أن يعز على أپوللو أن يلحق أجينور بصاحبه استرابيوس من قبل ، وبعشرات الأبطال من مثل سترابيوس ، فيتقدم الى أجينور يحميه ، ويرسل عليه سحابة بيضاء فيحمله فيها . . . . . مضللا أخيل عن خصمه . . . ومبعده خارج البوابة التى يقفلها الطرواديون من دونه ... ...

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

الصقالبة في الرواية العربية

رد على ملاحظة

وجه إلى قارىء فاضل هو الأستاذ عطية الشيخ في عدد الرسالة الماضى ملاحظة بشأن ما ورد في مقالى « الصقالبة في الرواية العربية » تفسيراً لرواية الرحالة ابن حوقل البغدادى عن « صقالبة الأندلس » . فقد ذكر ابن حوقل في رحلته المسماة بالمسالك والممالك عن الصقالبة ما يأتى : « وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطرابزنده يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقة وأفرنجة وأنكبردة وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله » (ص ٧٥) ؛ قلت : « ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسيين كانوا مزيجاً من الجليقيين (النصارى الاسبان) والألمان والفرنسيين (أهل افرنجة) واللومبارديين (أهل انكبردة) والايطاليين (من قلورية) » ، ولكن القارىء الفاضل يريد أن يفسر قول ابن حوقل بأن الصقالبة كانوا يصلون إلى الأندلس عن طريق البلاد المذكورة ، لا بأنهم كانوا يجلبون منها

وردى على ذلك هو أن المعنى الثانى هو الأرجح ، وهو الذى اخترت الأخذ به ، ذلك أن من بين البلاد التى يذكرها ابن حوقل أقطاراً كانت تقع في صميم بلاد الصقالبة في تلك العصور مثل لومبارديا (أنكبردة) وشرق افرنجة (ألمانيا) ؛ وفي الوقت الذى زار فيه ابن حوقل الأندلس في أواخر عهد الناصر (أو أوائل عهد الحكم المستنصر) كانت كلمة الصقالبة تطلق في الأندلس على جميع الأجانب الذين يخدمون في البطانة أو الجيش ؛ ولم يكن يقتصر في فهمها على الصقالبة الخلص ، أعنى سكان شرق أوربا وحوض الدانوب ، وفي القسم الأول من مقالى شرح واف لتطورات هذه الكلمة ، وذكر بعض المراجع التى تلقى ضوءاً على الموضوع

م . ع . ع

التاريخ والسينما

كانت حوادث التاريخ وما زالت أعظم غذاء للمسرح والسينما ؛ والمسرح قديم عريق في الاقتباس من حوادث التاريخ ووقائعه الشهيرة ؛ ولكن السينما استطاعت على حداثتها أن تتوسع في هذا الاقتباس سواء من حيث الوقائع أو المناظر وذلك لتفوق وسائلها الفنية ، وقد بدأت السينما باقتباس كثير من حوادث التاريخ القديم وشخصياته ، فرأينا على ستارها حياة كليوباطرة ، وصفحات كثيرة من التاريخ الرومانى قبل رواية « كوفاديس » الشهيرة ؛ ثم كان عهد القصص التاريخية الكبيرة مثل « الفرسان الثلاثة » ، و « مونت كريستو » ، و « الثورة الفرنسية » لاسكندر دماس وغيرها ، وفي الأيام الأخيرة رأينا ممثلا نابغاً هو السير أرليس يحيي لنا طائفة من أشهر شخصيات التاريخ الحديث مثل ريشيليو ، وفولتير ، والدوق ولنتون وغيرها

وفي الأنباء الأخيرة أن شركة فنية انجليزية قررت أن تخرج شريطاً مصوراً يمثل حياة ألفرد نوبل المخترع السويدى وصاحب جوائز نوبل الشهيرة للعلوم والآداب والفنون ؛ وكانت حياة نوبل صورة رائعة التناقض ، فقد قضى حياته في اختراع أصناف جديدة من المفرقعات المهلكة ، ثم جعل كل ثروته بعد وفاته وقفاً على تشجيع العلوم والفنون ، ورصد منها جائزة كبيرة تمنح كل عام لمن يقدم أجل خدمات لقضية السلام . وقد رأى نوبل قبل وفاته نتائج اختراعاته المهلكة في الحرب الفرنسية الألمانية (سنة ١٨٧٠) ورأى رائع فتكها ببنى الانسان فحزن لهذه النتيجة أيما حزن وغدت حياته عذاباً مستمراً ، ورأى أن خير ما يكفر به عن هذا الاثم هو أن يهب كل ثروته التى جمعها من اختراع المهلكات لتشجيع أعمال السلام من علوم وفنون ، وهذه المأساة المؤلمة وما يترتب عليها من العبر البالغة هى التى يريد مخرجو الشريط الجديد أن يبرزوها للناس

والظاهر أن التعاون بين السينما والتاريخ لن يقف عند تمثيل

الحوادث التاريخية وإخراجها على هذا النحو ، وانه لن يمضى وقت طويل حتى تقوم السينما بدور أهم فى خدمة التاريخ ؛ فنى باريس يعرض الآن شريط مصور (فلم) عنوانه « السينما فى خدمة التاريخ » وهو عبارة عن شرح مصور لأشهر الحوادث التاريخية التى وقعت فى الثلاثين عاماً الأخيرة ، ومادته مأخوذة من الصور المعاصرة التى سجلت عن هذه الحوادث نفسها . ومعنى ذلك أن المؤرخ قد يرى فى الغد القريب فى السينما نوعاً من المحفوظات التاريخية التى يمكنه أن يرجع اليها ليحقق بعض المناظر والحوادث. ولا ريب أن تسجيل الحوادث بطريق التصوير وسيلة مؤكدة لاجراء مثل هذا التحقيق ؛ وفى وسع المؤرخ أن يعتمد كثيراً على صورة لاجتماع برلمانى ، أو اجتماع دولى ، أو مناظر ثورية ، أو عسكرية ، أو غيرها صورت وقت حدوثها ، بأفضل مما يعتمد على الروايات المعاصرة ذاتها

مصادرة مؤلف ألمانى

من أنباء النمسا أن الحكومة النمسوية قررت أن تصادر كتابا صدر أخيراً بالألمانيـة وعنوانه « الامبراطورة اليزابيث وانا » بقلم السيدة مارى لويز فون فالرسى لاريش ، وقد أخرجته إحدى المطابع الألمانيـة فى لايبزج . والامبراطورة اليزابيث هى قرينة الامبراطور فرانز يوسف وامبراطورة النمسا والمجر ، وقد اغتالتها بعض الجمعيات الفوضوية فى سنة ١٨٩٨ ، وكان لمصرعها دوى كبير فى أوربا . وقد كانت المؤلفة وصيفة فى البلاط الامبراطورى ، وكانت صلاتها بالقصر والبلاط تهيء لها فرصة الاطلاع على كثير من الأسرار والحقائق الملوكية ؛ والظاهر أنها خرجت فى مؤلفها المذكور عن حدود التحفظ المألوف

العيد المئوى لصمويل بتلر

احتفل أخيرا فى انكلترا بالعيـــد المئوى لمولد الـكاتب والشاعر الانكليزى الـكبير صمويل بتلر ، وكان مولده فى نوفمبر سنة ١٨٣٥ فى مقاطعة نوتنهام شير ؛ وقضى طفولته فيما وراء البحار فى زيلاندة الجديدة ، وتلقى بعد ذلك تربية جامعية حسنة فى كمبردج . وكان بتلر ذا خلال ومواهب خاصة ، فقد كان مصوراً بارعاً يتمتع فى عالم التصوير بشهرة ذائعة ، ولـكنه نزل إلى ميدان الأدب فجأة وأخرج قصته الشهيرة « ايرهوم » Erewhom وهى قصة طريفة تدور حول وصف عالم خيالى غير عالمنا وبلاد لاوجود لها إلا فى مخيلة الـكاتب على مثل « رحلات جوليفر » الشهيرة وهى قطعـة تفيض بالمخاطرات والحوادث المدهشـة ، ولـكنها تفيض أيضاً بالسخرية اللاذعة والتهكم المر ؛ وقد قفاها فى أواخر حياته بقصة أخرى من طرازها وعلى منوالها فى سرد الحوادث وسماها « ايرهوم المنقحة » سنة ١٩٠١ ؛ وكتب بتلر أيضاً كتباً أخرى منها « الحياة والمادة » و « التطور قديماً وحديثاً » ، وهو مؤلف علمى يحاول فيه بتلر أن يدحض نظريات دارون فى التطور ؛ وكان آخر ما كتبه بتلر قصته الشهيرة The Way of All Flesh تركها مخطوطاً ولم تظهر إلا بعد وفاته فى سنة ١٩٠٣ ؛ وله قصائد ومقطوعات شعرية كثيرة ؛ وأهم ما يؤثر عن بتلر أنه كان بمثابة الأستاذ الروحى لـكاتب من أعظم الـكتاب الانـكليز المعاصرين ونعنى به برنارد شو ؛ وقد تأثر أيما تأثير بتفكيره وأساليبه فى التهكم والسخرية اللاذعة . وكانت وفاة صمويل فى سنة ١٩٠٢ .

نادى الجامعيين

يدرس الآن أساتذة الجامعة المصرية فـكرة انشاء نادٍ لهم يقضون فيـه بعض الفراغ ، فيتبادلون المعرفة ، ويتواضعون الرأى ، ويتساهمون المودة . والفـكرة حكيمة ولا شك ، لأن توثيق الصلات الحرة بين ممثلى الذكاء المصرى وأئمة الثقافة العالية له أثره البالغ فى توجيه النهضة الفـكرية ، وتمهيد السبل لها ، وتوحيد الغاية منها

والمأمول أن نرى قريباً تحقيق هذه الفـكرة

الفرقة القومية المصرية

افتتحت الفرقة الحـكوميـة موسمها التمثيلى الأول مساء الخميس الماضى برواية (أهل الـكهف) للأستاذ توفيق الحـكيم ، فسمعنا من وراء الستار قارئاً حلو النغم يقرأ قول الله تعالى فى هذه القصة من سورة الـكهف ؛ ثم ابتدأ الفصل الأول بمقدمة موسيقية رائعة تترجم الصور الخيالية التى كانت تمر على الستار الأبيض مصورة اضطهاد المسيحيين فى عهد دقيانوس قبل حادثة الرواية ؛ وسنكتب عن الاخراج والتمثيل والرواية فى عدد قادم

الكتب

في الأدب القديم :

١ — إعجام الأعلام : للأستاذ محمود مصطفى

« أخرجته جماعة دار العلوم بإقرار لجنتها العلمية »

٢ — الفروق اللغوية : لأبي هلال العسكري

٣ — معجم الشعراء : للمرزباني

٤ — المؤتلف والمختلف : لأبي القاسم الآمدي

« نشرتها مكتبة القدسي »

للأستاذ محمد سعيد العريان

كيف نفهم الأدب القديم ، وكيف نتروّاه ، وإلى أي مدى نستفيد منه ، وما وسيلتنا إلى ذلك . . . ؟

هذه أسئلةٌ كثيراً ما تعرض لي ، حين يضمني مجلس إلى بعض المتأدّبين من ناشئتنا الذين يدعون إلى الجديد ؛ وإن أعجب ما يلقاك في مثل مجالس هؤلاء ، هو الدعوة العريضة ، والإنكار الساخر - أو سمّه الإنكارَ الجاهل - والاعتداد بالنفس في غير مُعتدّ ، ثم الحكم الجامع المانع لا نقض فيه ولا استثناء . وما أيسر أن تسمع من واحد من هؤلاء . « الأدب القديم . . . ! وما الأدب القديم ؟ وماذا فيه . . . ؟ » فلا أدب عنده إلا هذا اللغو الذي تنشره له الصحف ، أو هذه الرطانة العجماء تحاول أن تستعرب على لسانه ؛ ولا إنشاء إلا على مثال برقيات « روتر » و « هافاس » ، التي يترجمها (فلان) ويدعو إلى احتذائها فيما يكتب الأدباء وينشئون . . . !

ولو أنك ذهبت تحاول أن تحمل واحداً من هؤلاء على غير ما يرى في الأدب القديم ، أو أن تقنعه بما فيه من حياة وقوة - لأعياك أن تبلغ إليه ؛ وأنى لك أن تبلغ وما يعرف أكثر هؤلاء ، ولا يفهمون من الأدب القديم إلا محفوظات المدارس . . . وما حصلوا من فنون اللغة إلا القليل من قواعد النحو والبلاغة في حجرات التعليم . . . ؟ بل لو أنك أردت واحداً من هؤلاء على أن يحقق لفظة في معجم ، أو يقرأ سطراً غير مشكول في كتاب - لكنت كمن يطلب إليه أن ينقل صخرة ، أو يحفر بئراً . . . ! فمن أين لمثل هذا أن يتذوق ما نجلوه عليه من روائع الأدب القديم ؟

وطائفة أخرى من هؤلاء المتأدبين آمنت عن تلقين ، أو تقليد ، أن في الأدب القديم ثروة مخبوءة ، ومنجماً حقيقاً بالجهد وحسن الاستغلال ؛ فراحت هذه الطائفة - طمعاً في الثروة وحسن الاستغلال وحسب ! تحاول أن تعثر بشيء تسيغه ، أو تجد لُقًى تسمى اليه ، ولكنها لم تأخذ الأهبة ، ولم تهيء الأسباب ، وحسبت أن في أظفارها اللينة غَناءً عن الفئوس والمساحي في الحفر والتنقيب ؛ فلما آبت أوبتها الخاسرة ، عادت تعيب ما كانت تباهي به ، وتنكر ما كانت تعترف ؛ ولو أنصفت لعابت الجهد الكليل والعزم الخائر

وقد جلست مرة إلى آنسة متأدبة تشتغل بشؤون التعليم ، فلقيتني متعبة مكدودة وهي تقول : « حسبي منك يا صاحبي ومن أدبك القديم ! » قلت : « ماذا يا آنسة ؟ » قالت : « هذا (نهاية الأرب) بين يديّ منذ أيام ثلاثة ، أحاول أن أجد فيه شيئاً يفيد تلميذاتي فأترجمه لهن في كتاب المطالعة الذي أشتغل بتأليفه فما وجدتُ . . . ! »

وكان هذا أولَ عهد صاحبتي بالأدب القديم ، وقد لجأت إليه أوّل ما تلجأ ، لتجد بغيتها تحت عينيها ؛ فلما استيأست ونال منها الجهد ، رمت الكتاب وهي تسب الأدب القديم ، وتعيب الأدب القديم !

وإنما يتأتى الفوز بمثل ذلك لمن أدمن الاطلاع والنظر ، وداوم البحث والاستقراء ، فيقرأ أولاً ليدرس ويلذّ نفسه ، حتى إذا بلغ من ذلك ما بلغ ، جاءته الثمرة من حيث لا يطلبها ، ووجد الفائدة تحت عينيه تدلّ على موضعها . وهؤلاء الباحثون

جميعاً لم يؤدوا إلينا نتائج ما بحثوا مستوفاةً ناضجة لأنهم أرادوا أن يبلغوا هذه النتائج أولَ ما قرءوا ؛ إنما كانت القراءة أولا ؛ ثم شعاع الفكرة ، ثم عناصر البحث ، ثم هذه الثمرات التى نقرؤها فنعجب بها فنثني على ما جاهـدوا وظفروا ؛ ولو أنهم أرادوا موضوع البحث قبل أن يقرأوا ، لـكان غاية جهدهم أن يخترعوا عناوين البحوث . . . !

وهذا أديب آخر يظفر بالشهرة والجاه عنـد دعاة الجديد ، ويحسبونه واحداً منهم ، لأنه يكتب بأسلوبهم وعلى طريقتهم ، لقيته مرة فحدّثته وحدّثنى ، فقال لى : « دعهم يقولون عنى ، وينسبون إلىّ وينتسبون ؛ ولـكني لا أكذبك ، فكم تمنيّت أن يكون حظّى من الأدب القديم أكثر مما عندى ، وسأبلغ ذاك ، وسيعلم أصدقائى يومئذ أننى لم أكن فى المجددين لأنى أنكر القديم ، بل لأن زادى وثروتى من اللغة لم يكن يبلغ بى أن أكون مع غير الذين يسمونهم مجددين . . . ! »

أفينكر اخوانُنا فى اللغة أن هذه النهضة التى ينتسبون اليها لم تـكن من صنعهم ؟ وإنما هيَّأ أسبابَها وأذكاها تلك الـكتب القديمة التى يسبّونها اليوم حين نهض لنشرها أدباؤنا منذ قرن فدرسوها مخطوطاتٍ باليةً مركومة ، وخلّفوها لنا مطبوعةً مصحّحة مجلوّة

ولـكل عمل أداته ووسيلته ، وإنما الوسـيلة لدراسة هذه اللغة هى النشاط الدائب فى التحصيل ، والجهد المتصـل فى الاسـتقراء ، والمحاولة المستمرة للكشف والبحث والاطلاع . ولهذه اللغة أصول لابد من الاحاطة بها قبل الشروع ، وعندها طرف الخيط ، فمن شاء فليبلغ إلى الغاية . . .

***

أما بعد فهذه كتب أربعة ، لم أكن بحاجة فى تقديمها إلى كل ما أسلفت ، ولـكنها جميعاً من الأدب القديم ؛ وللأدب القديم ملمس خشن ، أفيدرى اللامسون ما وراء . . . ؟

١ – اعجام الأعلام :

أكثر ما يعانى المطالع فى الـكتب القديمة ، هذه الأعلام الـكثيرة فى كل سطر وفى كل عبارة مما يقرأ ؛ على أن أشق ما يعانيه فى هذه الأعلام ، هو ضبطها والتمييز بينها ؛ وحسبك أن تعلم أن أكثر هذه الأعلام ليس مما يسمى به فى هذا الزمان ، فلا سبيل إلى تصحيح نطقه إلا بالسماع والرواية ، ولا سبيل إلى الترجمة لمسمّاه – إنساناً كان أو بلداً – إلا بالبحث الطويل والجهد المضنى ، على أن ذلك لا يتأتى لـكل طالب ؛ فأنت لا تجد كتاباً فى العربية يُستغنى به عن سواه فى هذا الباب

والأستاذ محمود مصطفى أستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية الأزهرية ، رجل دءوب كثير البحث ، طويل الأناة ؛ وهو قد لقى فى شتى مطالعاته ضروبا من العناء فى ضبط الأعلام والتعرف الى أصحابها ؛ فاجتمع له بسـبيل ذلك فيما اجتمع من ثمرات المطالعة طائفةٌ كبيرة من أعلام الأناسىّ والبلاد مضبوطة مترجمة لا تجتمع لمثله حين ينشدها إلا بجهاد سنوات وسنوات ؛ فرأى أن يقدّم هذه الثمرة الجليلة إلى أدباء عصره ، ليخفف عنهم بعض ما لقى ، على أنه لم يثقل عليهم بما لا حاجة بهم اليـه . فاكتفى من عمله بضبط الأعلام وتصحيحها ، ثم إيجاز ترجمتها بما يقتصر على ما يفيـد ، بعيدا من الاختصار المخلّ والتطويل الممل ؛ وقد أعانته على إخراج كتابه « جماعة دار العلوم » باقرار لجنتها العلمية ؛ ومن غير جماعة دار العلوم تعرف قيمة هذا العمل الجليل ؟ على أن ذلك وإن يكن من واجبها ، لا يمنعنا أن نذكر عملها شاكرين ، فقلَّ فى هـذا الزمان من يذكر واجبه بمقدار ما يفكر فى وسائل الفرار منه !

وأكثر الـكتاب فى ضبط أعلام الأناسىّ ، وأقله لأعلام البلاد . ولو أننى حاولت الانصاف لما وسعنى إلا أن أعترف بأن هذه الصفحات المائتين والأربعين ، تغنى عن مكتبة حافلة بكتب التراجم ومعاجم الأعلام

ولـكن اعجابى بالـكتاب وثنائى عليه لا يمنعاز أن آخذ على مؤلفه العالم أنه أهمل الاشارة الى المراجع التى منها استمدّ ؛ وأحسبه كان يجمعه لنفسه فلا يهتم بحفظ المصادر ، فلما اجتمع له هذا القدر الـكبير أخرجه كتاباً . أفيدفع عنـــه النقد هذا الاعتذار .... ؟ ؟

وفى الـكتاب أشياء كانت تقتضى جهداً أوسع ، وعناية أدق ، فالتعريف بالأماكن قليل مخل ، وأرى المؤلف فى هذا الباب لم يُفد إلا ضبط أعلام المواضع ، أما تحديدها وتبيين أماكنها فما بلغ منه الى كثير . وتراه فى أكثر من موضع من الكتاب ،

قد أوجز الحديث وأحال الى موضع آخر ، فاذا انتقلنا الى ذلك الوضع لم نجد شيئاً مما أحال اليه ، أو نجد شيئاً ولكنه لا يغني كل الغناء ؛ فمن ذلك في ص ٧٦ « . . . . بسطام ، وهي بلدة مشهورة من أعمال قومس » ، فاذا بحثت عن (قومس) هذه في أعلام البلاد وجدت (القوامس) كثيرة ، فلا تعرف الى أيها تنتسب (بسطام) . وفي ص ٩٤ : « كان منزل رهط (جبيل) في وادي القرى (انظره) . . . » وتنظر في أعلام البلاد ، فلا تجد ذكراً لوادي القرى . ومثل ذلك في ص ١٢٨ ترجمة السُّهْرَوَرْدِيّ « ونسبته الى سهرورد ، وهي بلدة (انظرها) » ولكن أين ؟ وغير ذلك كثير

على أن الكتاب مع ذلك لا يستغني عنه متأدب ، وإن فيه لغناء عن كتب ومكتبة ، وأكثر مصادره مما لا تتناوله الأيدي ، وهو مجهود مشكور ، جدير بالثناء والاعجاب

٢ — الفروق اللغوية

أبو هلال العسكري إمام من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري ، تحتفظ له المكتبة العربية بآثار خالدة ؛ أكثرها معروف متداول ، وهو الى أنه شاعر وأديب ، عالم فحل ، واسع المعرفة ، صنّف في أكثر من فن من فنون العربية ، وهذا كتابه « الفروق اللغوية » يبحث في الفرق بين الألفاظ التي تؤدي معاني متقاربة ، والتي يسميها علماء اللغة مترادفات ، وهو في هذا الكتاب يقرر مذهباً في اللغة : « أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة ، فان كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر ، وإلا لكان الثاني فضلا لا يحتاج اليه ... لأن في ذلك تكثيرا للغة بما لا فائدة فيه ... إلا أن يجيء ذلك في لغتين ، فأما في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن كثير من النحويين واللغويين .... »

فهو يرى كل لفظين مما نسميه مترادفاً ، يختلفان في المعنى ، أو في الصفة ، أو الاستعمال . أو الاشتقاق . . . وتراه على هذا المذهب يسير في كتابه ، يبين الفرق بين اللفظ ومرادفه ، في أبواب مقسمة على معاني الكلمات ، تريك دقة أبي هلال ، وسعة علمه ، وصدق نظره في فقه اللغة العربية ، والكتاب كله أمثلة على ما ذكرت

ولو أن كاتباً من أبلغ أدباء هذا الزمان ، عرض كلامه على كتاب « الفروق اللغوية » ، لبانت له قيمة ما يكتب بازاء ما يجب أن يكتب ، ولعرف مقداره بين كتاب العربية حين يعرف أين عربيته من العربية الصحيحة . وهذا وحده الدليل كلُّ الدليل على جدوى هذا الكتاب في كل زمان ، لا سيما هذا الزمان !

٣ — معجم الشعراء : ٤ ٦ — المؤتلف والمختلف

يعترض القارىء في أثناء مطالعاته في الأدب القديم ، أسماء شتى لشعراء من مختلف العصور ، فتختلف عليه ، وتَتَشَعَّب فكره ، وتتشابه في سمعه ، ويا أكثر ما يشترك شاعران أو أكثر في اسم واحد ، فتتداخل الصور وتزدحم عليه ، فما يتأتى له أن يحكم حكمه في موضوعه ، أو يتضح له منهاج بحثه ، إلى أن يعرف ترجمة كل شاعر من هؤلاء ، معرفة تحدد في الذهن صورته وتكشف عن ابهامه ، وسبيل هذه المعرفة لا تكونْ إلا بمثل هذين الكتابين

والمرزباني والآمدي عَلَمان من أعلام القرن الرابع الهجري ، لهما في الأدب العربي فكر وفنٌّ وبيان

والكتابان على ما اختلفا في الغرض يلتقيان في الموضوع ، فأوّلهما يترجم لشعرائه ترجمة تعرّف بهم في ايجاز مفيد مع استشهاد رائق ، على أن الذي بين يدينا من كتابه هو جزء منه أحسبه يبلغ ثلثيه

وأما الآمديّ فيترجم للشعراء المشتبهة أسماؤهم وحسب ، ترجمةً تزيل الشبهة وتكشف اللبس ، ويجمع هذا الكتاب مع الجزء الموجود من معجم الشعراء ـ أكثر من ألفي شاعر ، بأسمائهم ، وكُناهم ، وألقابهم ، وأنسابهم ، وبعض شعرهم . وقد أحسن ناشرهما احساناً كبيراً بضم بعضهما الى بعض في مجلد واحد ، ليكون النفع بهما أتم والفائدة أوفى

ولا نشك أن مكتبة « القدسيّ » بنشرها هذين الكتابين ، وكتاب « الفروق اللغوية » قد بذلت جهدا ، ويسرت نفعاً ، وعممت فائدة ، وهذا باب في خدمة العربية يُذكر فيه العاملون ما ؟

(شبرا) محمد سعيد العريان

النقد

٣ – تاريخ الاسلام السياسى

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

مصادر الكتاب

لأستاذ كبير

ألممت فى كلمتى السابقتين بما تأخذه النظرة العجلى من الأغلاط التاريخية والجغرافية الواقعة فى كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » وهى لعمرى أغلاط يذهب بعضها بمحاسن أى كتاب يرد فيه فكيف بها كلها : وأريد فى هذه الكلمة أن أعرض فى شىء من النقد لمصادر هذا الكتاب ، وأن آتى بعد ذلك على بعض عيوب لحظتها على طريقة المؤلف فى أخذه عن المصادر المذكورة ، وكم كنت أود ، علم الله ، أن تكون كلمة اليوم كلمة ثناء أكيله للمؤلف جزافاً لعلى أمحو ما عساه أن يكون قد علق بنفسه من جراء المقالين السابقين ، ولكن شاء سوء حظى عنده أن يجىء الأمر على غير ما أريد

***

كل من يطلع على « تاريخ الاسلام السياسى » تبهره من غير شك كثرة المصادر التى تدل على أن المؤلف رجع اليها فى وضع كتابه ، فما من صفحة من صفحاته ، ولا فقرة من فقره إلا وهى تحتوى على أقل تقدير إحالة واحدة للقارئ على مرجع من مراجع التاريخ الاسلامى القديمة والحديثة . ثم إن المؤلف لا يكتفى بذكر مراجعه منثورة مفرقة على الفصول والصفحات والفقر والأسطر ، بل هو يوردها فى آخر كتابه مجموعة منسوقة فى بضع صفحات تروع النظر والفؤاد جميعاً

وإيراد المراجع العلميـة على هذا النحو واجب محتوم فى البحوث العلمية الدقيقة التى يراد فيها الادلاء بنظرية علمية جديدة أو بسط وجهة نظر مستطرفة . أما فى الكتب العامة التى يقصد أن تكون فى متناول الطلاب المثقفين فقد جرى العرف بأن يقتصر من ذكر المراجع فى صلب الفصول على الضرورى ، ثم يذيل كل فصل بذكر المراجع التى استعان المؤلف بها فى كتابة الفصل تبرئة لذمتــــه وتوسعة على الطالب والقارىء الراغب فى سعة الاطلاع وكثرة التحصيل . ومما يبعث على سلوك هذه الطريقة أن الأصل فى الكتب المؤلفة للطلاب وراغبى الثقافة ، أن يكون واضعوها من أعلام العلماء وجهابذة الأساتذة ، ممن لهم فى العلم قدم راسخة ومكانة عالية تحمل قراءهم على تصديقهم فيما يقررون وما اليه يذهبون

ومع أن كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » من الصنف الثانى فقد آثر المؤلف ركوب الطريقة التى تتبع فى الصنف الأول ، فحمل متن كتابه من الشروح والحواشى حملا ثقيلا ، وكلف نفسه شططا وقراءه مشقة وعنتا . ولم كل هذا ؟ لا لشىء سوى ابتغاء السمعة عند الناس وأن يلقى فى روع القارىء أنه فى التاريخ واسع الاطلاع ، طويل الباع ، قد وعى ما كتبه الأوائل والأواخر على أن نظرة ناقدة الى المراجع المذكورة كفيلة بأن تثبت أن كثرتها الى حد بعيد صورية لا حقيقية ، فان حرص المؤلف على التكثر والتزيد قد حمله فى كثير من الأحيان على أن يدلل على ما لا يحتاج الى دليل ، وأن يعدد المراجع ولو كانت فى صرد أمرها ترجع الى مصدر واحد . فمن من تلاميذ المدارس لا يعرف نص الخطبة التى افتتح بها أول الخلفاء الراشدين عهده ؟ إنها أشهر من أن تجهل . ومع ذلك فالمؤلف الكريم يحيل قارئه عند إيراده نص هذه الخطبة على أربعة كتب قديمة متضمنة لها ذاكرا اسم الكتاب واسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة والطبعة ومكان الطبع ! كذلك الحديث الذى يزعم رواة العرب أنه جرى بين أبى سفيان وبين هرقل قيصر الروم فى الشام . وهو حديث يحمل فى ثناياه أدلة ضعفه وانتحاله ، وهو على فرض صحته ليس بذى خطر ، ولا يقدم فى فهم سيرة الرسول ولا يؤخر . ومع ذلك ، فالمؤلف يورده بنصه على طول ذلك النص ثم يحيل القارىء على الكتب القديمة التى ذكرته ، وقد ذكر منها

خمسة أكثرها شروح مختلفة على متن البخارى . لو أن المؤلف قصد الى مناقشة هذه النصوص ومقارنة رواياتها المختلفة بعضها ببعض ، وبيان ما تتفق فيه وما تختلف من حيث اللفظ والمعنى ، ثم الوصول بعد ذلك الى حكم يكون لها أو عليها ، لكان المشقة التى عنى نفسه وقارنه بها ما يجيزها ويسوغها . أما وهو لم يقصد الى شيء من ذلك فقد انتفت المزية وبقيت المشقة

* * *

ثم إن هذه الكثرة صورية من وجه آخر أكثر خطرا وأضر بقيمة الكتاب العلمية وبمقدرة مؤلفه على نقد مراجعه وتقويمها ذلك بأن المؤلف كثيرا ما يأخذ عن كتب أثبت البحث العلمى الدقيق أنها لا يصح الاعتماد عليها بحال فى معرض التدليل العلمى الصحيح . فهو يعتقد أن الكتاب القصصى المسمى « فتوح الشام » للواقدى حقا ، ثم يذهب يستعين به فى الفصل الذى عقده لفتح العرب الشام ، وينقل عنه صفحات برمتها ، ثم لا يكتفى بذلك بل ينبرى لمناقشته ومجادلته . فليأذن لنا الدكتور أن نقول له إن هذا الكتاب ليس للواقدى ، بل ليس من آثار عصر الواقدى ، وإنما هو كتاب كتب بعد زمن الواقدى بمئات السنين : كتب على أغلب الظن إبان الحروب الصليبية لبث الحمية الدينية فى نفوس الجمهور وترغيبه فى مجاهدة الصليبيين بتذكيره بفعال آبائه فى الشام . ونفس عبارة الكتاب من النوع القصصى الحماسى . جاء فى دائرة المعارف الاسلامية فى ترجمة الواقدى ما يأتى :

« Les Futuh al sham et al Irak, ne sont pas conservées; les livres qui circulent sous ce nom proviennent d'une époque postérieure et sont faussement attribuès à Wakidi » وترجمتها

« إن كتابى فتوح الشام والعراق قد فقدا . أما الكتابان المتدولان بهذا الاسم فيرجعان الى عصر متأخر ، وهما مضافان إلى الواقدى خطأ . »

كذلك يعتمد المؤلف فى عدة مواضع من كتابه على كتاب آخر زائف هو كتاب « الامامة والسياسة » المنسوب الى ابن قتيبة وكل شىء فى هذا الكتاب يدل على أنه ليس لابن قتيبة . وإنما هو فى غالب الظن لكاتب أندلسى أراد تسلية الخاصة باسم الحياة السياسية الاسلامية فوضع هذا الكتاب الذى يعتبر من الناحية الأدبية قطعة فنية ، وإن كان من الناحية التاريخية لا يعول عليه على الاطلاق . وفى ذلك يقول المستشرق الانجليزى مرجوليوث فى كتابه « مؤرخو العرب » فى ص ١٢٥ « Its falisification or ignorance of history is so glaring that it cannot be ibn Qutaibah's work » وترجمته « أن ما فى هذا

الكتاب من تكذيب للتاريخ أو جهل به ، لفاضح بحيث لا يمكن أن يكون من تصنيف ابن قتيبة . »

ثم إن المؤلف كثيراً ما يستمد ويقتبس من كتب منها ما قد أصبح قديماً قاصراً من حيث المستوى العلمي ، ومنها ماهو ثانوي الأهمية ، ومنها الضعيف ، ومنها ما قصد بكتابته الى التثقيف العام . من هذه : « تاريخ العرب » لسديو ، و « موجز تاريخ العرب » للسيد أمير علي ، و « الحضارة العربية » لجوستاف لوبون » ، و « أتباع محمد » لواشنجتن أرفنج

إن هذه الكتب وكثيراً غيرها قد وضعها في أغلب الأحوال هواة قصدوا بها ناحية الثقافة العامة والتصوير المجمل ، وكثرة الاستدلال بها في مقام البحث الجدي ترخص لا مسوغ له

***

هذا عن مبلغ نقد المؤلف لبعض أمهات مصادره . أما مذهبه في الانتفاع بهذه المصادر إجمالا فلنا عليه بعض الاستدراك . فهو مفرط في الأخذ عنها والاقتباس منها ، بحيث أنك في كثير من فصول الكتاب تبحث عن شخصية المؤلف فلا تجدها أو تجدها ضئيلة ضعيفة ، خذ لذلك مثلا الباب الأخير من أبواب الكتاب الخاص بالحضارة الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وهو باب كان يمكن المؤلف أن يجول فيه ويصول ، ومع ذلك فهو لا يخرج عن كونه مجرد تلخيص لكتاب « الخلافة » لارنولد ، وكتب الحضارة الاسلامية والأدب العربي لفون كريمر والسيد أمير علي ونيكلسن . أن الأمر هنا أمر تكرار لا ابتكار

وقد يخطئ المؤلف بعض من يأخذ عنهم تخطئة لا حق له فيها . من ذلك أنه عند كلامه على الخوارج استشهد بقول صاحب كتاب « الفخري » : « وصدرت منهم أمور متناقضة تدل على أنهم يخبطون خبط عشواء ، منها أن رطبة سقطت من نخلة فتناولها رجل ووضعها في فيه ، فقالوا له أكلتها غصبا وأخذتها بلا ثمن ، فألقاها ، ومنها أن خنزيراً لبعض أهل القرى مر بهم فضربه أحدهم بسيفه فعقره فقالوا هذا فساد في الأرض ، فمضى الرجل إلى صاحب الخنزير وأرضاه ، ومنها أنهم كانوا يقتلون النفس التي حرمت إلا بالحق ، قتلوا عبد الله بن خباب ، وكان خباب من كبار الصحابة ، وقتلوا عدة نساء وسبوا ، وفعلوا أفاعيل من هذا القبيل » هذه العبارة التي يصح أن تعتبر مثلاً للتناقض يعلق عليها المؤلف بقوله : « نرى أن هذا ليس من التناقض في شيء ، وإنما هو أقرب إلى أن يكون غلوا في تطبيق مذهبهم » ! !

ومن ذلك نقده الهادم لحاجي خليفة ، لا لشيء سوى أنه أورد خبراً لم يرضه المؤلف فيقول : « ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه في المسائل التاريخية الهامة لأنه كان متأخراً في الزمن فقد توفي سنة ١٠٦٧ هـ » وهو تعسف في الحكم من غير نزاع ، ومن هذا القبيل أيضاً تصديه لمرجوليوث في أمر الرجلين اللذين تزعم الرواية العربية أن كسرى أمر عامله على اليمن أن ينفذهما إلى الرسول ليأتياه به ، فلما قدم الرجلان على الرسول أخبرهما النبي بأن كسرى قتل وأن ابنه هو الذي قتله . فمرجوليوث يأخذ من هذه الرواية أن النبي كان له من يأتيه بالأخبار . أما المؤلف فبدلاً من أن ينقد الرواية العربية ، ليرى هل من المعقول أن ينفذ كسرى من طريق عامله على اليمن رجلين اثنين إلى سيد الحجاز ليأتياه به ، فانه يأخذ في الرد على مرجوليوث لأنه لم ينظر الى المسألة نظر المسلم المؤمن بنبوة محمد (صلعم) ، ولو أنه عمد إلى نقد الرواية أو تأولها على أقل تقدير لانهارت دعوى مرجوليوث من تلقاء نفسها

والمؤلف يسهو أحياناً فيذكر أنه أخذ من مصدر بعينه أخذاً مباشراً ، في حين أنه يكون قد أخذ عنه بالواسطة ، فهو يحيل القارىء في ص ٨٠ وغيرها على ما يسميه هو المجلد الثاني من كتاب « بقية الوثنية العربية » Reste Arabischen Heidentums للمستشرق الألماني فلها وزن . والواقع أن الكتاب المذكور يقع في مجلد واحد فقط ، ولكنه طبع مرتين ، فلو أنه رجع اليه حقاً لما وقع في هذا الخلط القبيح

وعلى كثرة من يستشهد المؤلف بهم في كتابه وذكره أسماءهم مباهياً بتلمذته لبعض المستشرقين منهم ، كأرنولد ونيكلسون ، نراه ينسى أن يذكر أن الفصل الذي عقده لمكتبة الأسكندرية كله ملخص من كلام دكتور بطلر في كتاب « فتح العرب مصر » والغريب أنه يحيل في ختام هذا الفصل على كتابه هو « عمرو بن العاص »

وبهذه المناسبة نقول أن المؤلف غمط حق مؤرخ جليل وعالم كبير طالما جلس المؤلف منه مجلس التلميذ من الأستاذ ، ذلك هو المرحوم الشيخ محمد الخضري بك الذي طوى الموت ما بينه وبين هذه الدنيا بما فيها من غدر ومحال ، وباطل وغرور . لقد انتفع المؤلف بعلم هذا الشيخ حياً وميتاً كما يدل كلامه على شرعية القتال ، ثم هو يبخل بأن يذكر اسمه ضمن من أخذ عنهم . فياليت شعري إذا كنا لا نظفر بالوفاء عند تلاميذنا ، فعند من سواهم يكون الظفر بالوفاء ؟ ؟

(يتبع) مؤرخ

3me Année, No. 129.

Lundi-23-12-1935

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـدد ١٢٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـدد

أبو الطيب المتنبى

بمناسبة ذكراه الالف



المتنبى كما تخيله جبران

فى مثل هذا الأسبوع من سنة أربع وخمسين وثلثمائة للهجرة طُلَّ فى سواد بغداد دم الرجل الطموح والبطل الشاعر أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى، فهمدت بهموده نفس دائبة الشبوب وعزيمة دائمة الوثوب وهمة رفيعة المصعد!

وكان المأمول أن يكون هذا العدد من الرسالة ديوانا لما بقيه

أساتذة الجامعة المصرية من المحاضرات فى (أسبوع المتنبى)، ولكن العواصف الهُوج التى ثارت بالبلاد فروعت قلوب الناس، وزعزعت سلام الجامعة، حالت من دون هذا الأمل. وأبو الطيب الذى رُزق السعادة فى شعره، وأوتى النباهة الخالدة فى ذكره، لا يزال حظه العاثر لعبة الأيام وألهية القدر! هذا العراق الذى وُلد به ودفن فيه قد أعرض بسمعه عن ذكراه، وهو المثل الذى يرتجيه لشبابه، والروح الذى يبتغيه لنهضته! وهذه حلب التى جعلها نشيدا فى فم الزمن، قد قسم الهوى رأيها على ذكراه فجاءت بما لا يتفق مع قدره، ولا يسمو إلى جلاله! وهذه مصر التى كان أول من أخذها بالخضوع الضارع [1]، وعابها بالزهد الوضيع [2]، ونبه عينها الوسْنى إلى فساد الحكم [3] قد دفنت ذكراه بين وعد من (رابطة الأدب العربى) عفى عليه النسيان، ونية من الجامعة المصرية ثبَّطت عنها الحوادث؛ فلم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد إلا بحفلتين جديرتين بفضله: حفلة قومية أقامها شباب العرب الأبرار فى (سان باولو)، وحفلة رسمية سيقيمها رجال الأدب الأخيار فى (دمشق)! وسان باولو لم تخاق فى دنياه، ودمشق لم تذكر فى شعره

***

كان أول عهدى بالمتنبى أن والدى — سقى الله ثراه — أهدى إلى فى يوم من الأيام ديوانه، وكنت لا أزال غلاماً يافعاً قد ارتفع قليلا عن سن الحداثة، فأنا أقرأ القصص، وأحفظ المتون، وأتلقى الدروس الأولية فى الأزهر، وأكثر من نظم الشعر فى المناسبات المختلفة على معانٍ سقيمة وقوالب مشوشة؛ فأراد أبى أن أستعين بالنظر فى هذا الديوان على تقويم ملكتى وتهذيب طبعى؛ فأقبلت عليه اقبال المنهوم المحروم، لأنه الكتاب الوحيد الذى أملك، والغذاء الشهى الذى أحب، والحنان الأبوى الذى أقدس. كنت أقرأه فأدرك موسيقاه بشعورى، وإن كنت لا أدرك معناه بعقلى، وأحس أن شعاعاً سحرياً ينبثق عن سطوره، فيغمر القلب بالنشوة، ويرفع النفس بالحماسة، كاللحن القوى ينساب فى الأذن الأمية نغما من غير معنى، وجمالا من غير تحديد، ووحياً من غير بيان، ولذة من غير وعى

ازداد على الدرس والأيام فهمى للمتنبى، فصار للذوق الساذج حجة من الفن، وللحب الذى صادف خلاء من القلب قوة من المنطق. وكان أستاذنا المرصفى - تغمده الله بالرحمة - لا يصح فى رأيه أحد من الشعراء المولدين وبخاصة أبو الطيب، فدس فى أذواق تلاميذه الكراهة له والنفور من شعره؛ وتأثر بذلك الايحاء رفيقاى طه حسين ومحمود زناتى، وقاومه فى نفسى تلك العوامل الأولى فلم أر رأيهما فيه، ولم أمالئ تعصبهما عليه؛ وكَثُرَ ما كنا نتمادى فى أدبه، ونتهاجى بسببه! ولازلنا نتذاكر تلك المداعبات الأدبية الأخوية فنستروح منها شميم الصبى الغريض، ونسيم العيش الأبله، ونفح الولاء الخالص

***

إن أبلغ ما أثر فى نفسى من حياة المتنبى منذ عرفته هى هذه النفسية المعذبة بين الطموح والعجز، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية: سمت نفسه منذ أيفع إلى معالى الأمور، ولم يجد معيناً عليها غير المال والقوة. أما القوة فقد التمسها فى قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق، وأما المال فاحتال عليه بوحى العبقرية وقوة الشاعرية فأصاب. وكان الشاعر المغامر من هذه الوسيلة الأرضية، ومن تلك الغاية السماوية، بين عاملين مختلفين: عامل يرفعه فيُدِلُّ على الملوك، ويتأبى على السوقة، ويتجافى عن الهون. ويقول لبعض الأمراء:

وفؤادى من الملوك وإن كا ... ن لسانى يُرَى من الشعراء

وعامل يضعه فيهش للهِبَة هشاشة السائل، ويحرص على المال حرص الشحيح، ويعفر خدَّه الأصعر فى البحث عن درهم، ويقول لبعض الأغنياء:

تهلل قبل تسليمى عليه ... وألقى ماله قبل الوساد

ولكنه فى كلتا الحالين كان طالب مُلك، وعاشق مجد وخاطب دولة

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

---

(١) سادات كل أناس من نفوسهم ... وسادة المسلمين الأعبُد القزُم

(٢) أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ... يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

(٣) نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... حتى بشمن وما تفنى العناقيد

٥ - المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفّه الطربُ لذكر صواحبه وجيلاته من فاطمة الى رَباب؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذَبَ صدّق نفسَه، فان قوةَ الضبط فى عقله إما معدومةٌ وإما مختلّة، وكلُّ وجهٍ تَخيّل منه خيالا فهو وجهٌ من وجوه العلم عنده إذ كان عالَمُه أكثرُه فى داخله لا فى العالَم، فاذا توهم أو أحسّ أو شعَر فانما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء، فليس يحتمل عقلُه إلا فكرةً واحدةً تعفى منفردةً بنفسها مستقلةً بمعناها كأنها قَدَرٌ غالب على جميع أفكاره الأخرى، فلا شأن لها بالواقع ولا شأن للواقع بها، وإنما هى تحقق معناها كما تخطرُ له لا كما تتمثّل فيما حوله. فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغُه المُتَدَجّى بالغيوم العقلية، لا تزال تمْرِضُ له الغَيمةُ بعد الغيمة من اختلال بعض المراكز العصبية فيه، وفسادِ أعمالها بهذا الاختلال، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد

ومن ذلك تنقلب الكلمةُ من الكلام وإنها لحادثةٌ تامةٌ فى عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمانٌ ومكانٌ وبدءٌ ونهاية، لا يخامره فيها الشك، ولا يعتريها التكذيب؛ وكيف وهى قائمة فى ذهنه من وراء سمعه وبصره قيامَ الحقيقة فى الأبصار والأسماع؟

وللحواس المجنون جهتان فى العمل لأنها بين كونَين أحدهما الكونُ الخَرِبُ الذى فى دماغه؛ وفى هذا يقول (نابغة القرن العشرين): إن فى داخل عينيه منظارا يرى به الأشياءَ فى غير حقائقها، أى فى حقائقها

وحدثنا الدكتور محمد الرافعى قال: إن فى دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغة كنابغة القرن العشرين ذُكرت أمامه قيصرة روسيا وخَبرُ مقتلها، فأحفظَهُ هذا وأرْمَضَه وقال ياويحهم! كذبوا عليها وعلىّ... فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصرة أنها رأتنى فأحبتنى وعلمتْ من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبُها أنى أنا رجلُها لا القيصر. فما زالت بعدها تُنا كِدُ القيصر وتَلْتَوِى عليه ولا تصاحِ له فى شىء حتى يئس منها فطلقها. فحملت كنوزَها وحلاها ولجأت الى حبيبها. ثم تبعتها نفسُ القيصر ولم يُطق العيش بعدها فانتحر.... ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز فأخفاها هو فى مكان حريز لا يعلمه إلا هو؛ ثم إنه هو لا يصل الى هذا المكان الذى أحرزها فيه إلا إذا نام... كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعقبَه فيعلم مقرها. ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ... فقد يزلُّ مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على عقله... فيذهب اليه فعسى أن يراه من ينمّ بذلك فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه، قال: وإن القيصرة هى تحتاط أيضاً مثل ذلك فتراسله كل يوم باللاسلكى رسائلَ تقع من الجو فى دماغه فيقرؤها وحده. وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة فتزوره فى هذا المارستان...... فقد تُقتل إذا رآها الشيوعيون

قال الدكتور: وهناك (نابغة) آخر ثبت فى ذهنه أن امرأة من أجل النساء قد استهامتْ به وأنها مُبتَلاةٌ فى حبها إياه بجنون الغَيرة، وقد تناهتْ فيه حتى إنها لتقتل نفسَها إذا علمت أن لصاحبها هوى فى امرأة أخرى. وخبّلته هذه الفكرة فاعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلَف؛ ثم توهم ذاتَ يوم أن واشياً قد أعلمها أن النساءَ افتتنّ به؛ فطار صوابها فهى آتيةٌ إليه فى المارستان لتوبخَه وتشفى غيظَها منه ثم تنتحر أمام عينيه. وأدار (النابغة) الفكر فى إقناعها لتعلمَ أنه لم يَخنْها بالغَيب.... فلم يهتد إلى مَقْنَع تَسْتَيْقِنُ به المرأةُ أن لا أرَبَ للنساء فيه إلا أنْ.... ففعل وجَبّ خصيتيه بيده ليقدمهما برهاناً أنه لها وحدها....

***

قلنا: وطرب نابغة القرن العشرين، لذكر صواحبه وجيلاته فجعل يترنم بهذا الشعر:

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلتُ لهم
ما لذةُ العيش إلا للمجانين

فقال المجنون الآخر: «مما حفظناه»: ما لذة «الخبز» إلا للمجانين....

فضحك (النابغة) وقال : ما أسخفك من أحمق . إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الـكعك) . ألم أقل لـكم إن هذا الأبله لو تهجّى كلمة خبز لقال إنها ل . ح . م . ولو تهجأ كلمة لحم لقال ف . و . ل . . . .

إنه طفل عمره ثلاثون سـنة وفيه داءٌ غضبُ الطفل ونزقه وحماقته ، وفيه كذلك سرورُ الطفل وطيشه وأحلامُه ؛ غير أنه ليس فيه عقل الطفل . وهو من الضعف وشدة الحاجة إلى العناية فى حياطته وسياسته والبرّ به كطفل صغير - بحيث يخيّل إليّ أحياناً أننى أمّه . . . . . .

قلنا : وتنسى فى هذه الحالة أنك رجل ؟

قال : وأنتم كذلك تتهموننى بالنسيان وهو شرعاً جهةٌ ملزمة للحكم بالجنون . فما النسيانُ إلا الـكلمةُ الأخرى لمعنى ضعف العقل ؛ وضعف العقـل هو اللفظ الآخر لمعنى جنونى ؛ وقد أعلمتـكم ما أكره من الـكلام .

قلت : لا ، إن النسيان لا يكون منك نسياناً بمعناه فى المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من تواثُب الأفكار النابغة وتزاحمها فى توارُدها على العقل . فاذا تواثبت وتزاحمت كان أمرها إلى أن يُنسِيَ بعضها بعضا فلا ينطلق منها إلا القويُّ النابغ حقّ نبوغه ، فيجيء كالمنقطع مما قبله ، فيحسب ذلك نسياناً وما هو به . وقد تصطلح الافـكارُ فى هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً محبوراً يرقص طرباً . . . . فيكون أمرُها إلى أن تجيء كلها معاً على اختلاف معانيها وتناقضها ؛ فيُحسب ذلك ضرباً من الذهول عند من يجهل العلةَ النبوغية ؛ وعذرُه جهلُ هذه العلة وهى فى دلالة العقل ليست نسياناً ولا ذهولاً

قال : فأعلمنى كيف نسيان المجانين فقد خفى عليّ أن أدرك هذا الأمرَ العجيبَ فيهم ، ولست أدرى كيف يفوتُهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل فى عقولهم ؟

قلت : لا يكون النسيان تُهمةً بالجنون إلا فى أحوال ثلاث جاءت بكلها الروايةُ الصحيحة المحفوظة :

فأما الأولى فما يُروَى عن رجل كان مثرياً غنياً وعُمِّر حتى أدركه الخرَف ؛ فجاءه كاتبه يوماً يستميته على تجهيز أمه وقد ماتت فدفع إلى غلام له دنانير يشترى بها كفناً ودنانير أخرى يتصدق بها على القبر ؛ ثم قال لغلام آخر : إمض إلى صاحبنا وغاسل موتانا فلان فادْعُه يغسلها . قال الـكاتب : فاستحييتُ منه وقلت ياسيدى ابعث خلف فلانة وهى جارة لنا تغسلها . قال يا فلان ما تدع عقلك فى حزن ولا فرح . كيف ندخل عليها من لا نعرفه ؟

قال الـكاتب : نعم تأذَنُ بذلك . قال لا والله ما يغسلها إلا فلان

فضاق الـكاتب بهذا الحمق وقال : ياسيدى كيف يغسل رجلٌ امرأة ؟

قال : وإنما أمك امرأة . . ؟ والله لقد أنسيت

وأما الحالة الثانية فما يُروى عن رجل كان نائماً فى ليلة باردة فخرجت يدهُ من الفراش فبردت ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحسّ بردَها فأيقظته ، فانتبه فَزعاً فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص . . . هذا اللص قد قبضتُ عليه أدركونى لئلا تكون فى يده حديدة يضربنى بها ، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضاً بيده على يده وقد نسى أنها يدُه . . .

وأما الثالثة فهى رواية عن رجـل قد ورث نصفَ دار ، ففكر طويلا كيف تخلص الدار كلها له ثم اهتدى الى الوسيلة ؛ فذهب الى رجل وقال له : أريد أن أبيعـك حصتى من الدار وأشترى بثمنها النصف الباقى لتصير الدار كلها لى . . .

***

قال (النابغة) لعمرى إن هذا لهو الجنون ، وما يذكر مع هؤلاء مجنون التين ولا غيره . . .

فقال الآخر : تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يدفع نفسه عن الجنون لجاء فى الجنون بما يُذهِلُ العقول . . .

ثم نظر فاذا النابغـة يتحفز له . . . ؛ فأسرع يقول : « مما حفظناه » كُنْ حَذِراً كأنك غِرٌّ ، وكن ذا كراً كأنك ناس . فهذا هو نسيان نابغة القرن العشرين ، نسيانُ حكماء لا نسيانُ مجانين

قال (النابغة) ولـكن قد فسد قول الشاعر ، ما لذة العيش إلا للمجانين ؛ فما بقيت مع الجنون لذة

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض وإنما يريد العشـاق المجانين بالجمال ؛ وجنون العاشق فى هذا الباب

كعيوب العظماء من أهل الفن ، وهى عيوب تدافع عن نفسها بحسنات العظَمَة فليست كغيرها من العيوب

قال : فيجب أن أصنع بيتاً آخر يفسّر ذلك الشعر ليستقيم لى التمثّل به . ثم فكّر وهمْهمَ ، ثم كتب فى ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولُ ، وسأئتمن س . ع . على شعرى ودفع إليه الورقة

فنظرت وقلتُ : يجب أن يكون الشعر هكذا :

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم
ما لذة العيش إلا للمجانين
العقلُ إن حَكَمَ العُشّاق أثقلُ من
فقرٍ تحكّم فى رزقِ المجانين

ونشر س . ع . الورقة فاذا فيها :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم
ما لذة العيش إلا للمجانين
إن العيوب عن المجنون دافعةٌ
بأنه نابغ فى القرن عشرين ...

وضحكنا جميعاً ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من من ائتمن المجنون على سرّ وقال له اكتمه فكأنما قال له انشره

* * *

ثم قال : وددتُ والله أن يكون س . ع هذا نابغة ، ولكنى سأجمله نابغة ، فقد صار له علىّ حقُّ الصديق وهو حق لا أضيّعه ولا أُخلّ به . فاذا احتجت يا س . ع إلى خطاب رنان تلقيه فى حفل عظيم ، أو قصيدة تمدح بها وزير المعارف ، فالجأ إلىّ فانى ملجأ لك . ومتى انتحلت شعرى كنت عند الناس المتنبى أو البحترى أو ابن الرومى ، فان هؤلاء القدامى لم ينفعهم إلا أننى لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ أننى لم أكن فيهم

قلنا فما حكمك عليهم فى الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلت نفسى بينهم ، فمن الطبيعى ألا يعجبنى منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنى هذا أحسن فانه هو فوق الأحسن ، ولا يقول ع نابغة هذا أشهر فانه هو فوق الأشهر

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذى لا يقول فى حُسنِ هذا أحسنُ لأنه فوق الشهوة ، ولا فى نعيم هذا أطيبُ لأنه فوق الطمع ، ولا فى مال هذا أكثر لأنه فوق الحرص . وأحسبك لو كنت ترعى غنماً لسكنت الحقيق فى عصرنا بقول تلك الراعيــة الزاهدة : أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال فى نفسه : يارب . مَن زوجتى فى الجنــة ؟ فأُرِىَ فى منامه ثلاث ليال أنها جارية سوداء فى أرض كذا . فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية ، فقال له رجل ما هذا ؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لى فأعتقها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهار فاذا أعطيناها فطورها تصدقت به ، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها

قال : فأين هى ؟ قال ترعى غنماً للقوم فى الصحراء

فذهب إلى الصحراء فاذا هى قائمة فى صلاتها ، ونظر إلى الغنم فاذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها فى الجنة وأنبأها أنه يُبشر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئاب مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال (النابغــة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب

قلت : وأى عجيب فى هــذا ؟ إن الذئب والشاة ، والأسد والغزال ، والثعبان والعصفور ، وكل آكل ومأكول من الأحياء ، لو هى دخلت فى دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفاً واحداً يركع ويسجد . فهذه الجارية نشرت رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالايمان ، فوقع الذئب منها فى دائرة مغناطيسية ، فسُلِبَ وحشيته ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانست فيــه الحياةُ بما حولها ، وانسجم النوعُ والنوعُ فى حركة متجاوبة انسجامَ الرجل المغناطيسى هو ومن ينوّمه فى إرادة واحدة وفكرة واحدة

قال (النابغة) : فاذا دخل الذئب مسجداً يَرْتَعُ بالمصلّين ، أتُراه يَصُفُّ أرْبعتَهُ ويقف بينهم للصلاة ، أم يصلى صلاتَه الذئبيةَ فى لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة فيخرجون بها

من النفس إلى الـكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسباب إلى مُسبِّبها ، ومما في القلب إلى ما فوق القلب ؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طولُ الدنيا وعرضها ؛ وما منهم إلا من يتصل فـكرُه بما يغلب عليه كما يتصل فـكر اللص بيده ، وفكر العاشق بعينه ، وفكر الطفيلي بمعدته . . . فاسمها عندهم الصلاة وحقيقتها عند الله كما ترى

قال (النابغة) ولـكنه ذئب من طبيعتــه أن يأكل الشاة لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئاً .

وقال الآخر : «مما حفظناه» رَتعَ الذئب في الغنم ، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم ، فلا أفهم شيئاً .

قلت : سأزيدكما عَدَمَ فهم ... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله ، وليس فيه شيء من طباعها الانسانية ولا ظلّ من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلى فيه سرُّ الحياة ، وهو السر الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطمع في شيء ولا يحرز شيئاً ، وإنما طبيعته أشواقه الكونية واتصالهُ بنفحات القوة الأزلية المسخّرة للوجود كله . فانتشرت هــذه الموجة الـكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتَجّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة فاذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلّى السلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوة آمرةٌ أمرها بائتلاف كل شيء مع كل شيء ، واجتماع المتنافرين في حالة معرفة لا في حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظاً ، ولـكنه في روح النوم ، وشُلَّت فيه الذئبّيةُ الطبيعية فاذا هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أُنسِيَ استعمالها ، وبقيت حركـتُه الحيوانيــةُ ولـكن تعطلت بواعثها فبطل معناها

ومن كل ذلك اختفى الذئب الذي هو في الذئب ، وبقي الحيوان حيّاً كـكل الأحياء ، فناسب الشاة وفزع اليها إذ لم تعد العلاقة بينهما علاقةَ جسم الآكل بجسم الأكيلة ، بل علاقة الروح الحي بروح حي مثله (١)

* * *

قال (النابغة) : أما أنا فقد فهمت ولـكن هــذا المجنون لم يفهم . أكتب يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعدادٍ ولا تمـكنٍ ، وبدون كتب ألبتة ... وكان هــذا أجمع لرأيه وأذهنَ له وأدعى لأن يتوفَّر على الاملاء بكل مواهبه العقلية ؛ ولما أن فـكر النابغة وأعطى النظر حقه وجمع في عقله الفذّ جزالةَ الرأى إلى قوة التفنن والابتـكار ، قال مرتجلا : إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطحه ، هي بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين ...

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة

فامتعض الآخر وقال : « مما حفظناه » :

وبات يقدح طول الليل فكرته   وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فقال (النابغة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنت نفطويه أو سيبويه لما كنت عندي إلا جَحشوَيه أو بَغْلوَيه . . .

لقد كنت أرى الكلام في تلك الفلسفة طريقاً نَزِهاً جميلا حفته الأشجار والأزهار عن جانبيه ، واندفعت في سَوَائه (تمبيلاتُ) الأفكار خاطفة كالبرق . فلما تكلمت أنت انتهينا من سخافتك إلى طريق حجري تقمقع فيه عربات النقل تجرها البغال البطيئة

فقال الآخر وهو يعتــذر إليه : ما أردت والله مساءَتك ولو أردتها لقلت وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح

قال النابغة : ولـكنه تفسير مُفرط السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول إني مجنون

قلت : كلا ، إن تفسير المجانين يكون على غيرْ هــذا الوجه

(١) روت الصحف في هذه الأيام قصة حاكم انجليزي كان قد اقتنص ذئبا هنغاريا وشده في سلسلة وجعله في حديقة داره إلى أن يرى فيه رأيا . وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشي فتربص إلى الليل ، فلما استقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؛ ولـكن الطفل لم يدرك شيئا من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن في نفسه إلا أن الذئب كالـكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك . ومضى إلى الوحش مسروراً معطشاً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيديه الصغيرتين ويعبث به ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس اليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمي . وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده في فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه في غرف الدار ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائما ورأسه على الذئب . وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكي على صديقه الوفي ...

هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها ، ولـكن أين مثل هذا اليقين في مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضي الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وان هذا هو وحده سلاح النفس في النفس

١ – بعض مواطن الخفاء

فى التاريخ الاسلامى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الخفاء وما يزال مثار الفضول والروع ، ومصـدر الأساطير الغريبة الشائقة ؛ وفى عصور ومواطن كثيرة كان الخفاء عماد دعوات وثورات سياسية واجتماعية خطيرة ، وكان مبعث دول قوية قامت فى ظروف غامضة ، واستندت فى قيامها إلى دعوات ومبادئ خفيـة ؛ وكان هذا الخفاء نفسه مصدر قوتها وحياتها . وقد شغلت هذه الثورات والدعوات الخفية فراغاً كبيراً فى التاريخ الاسلامى ، وخصتها الرواية الاسلاميـة بكثير من التفصيل والجدل ؛ وما زلنا نلمس آثارها حتى اليوم فى بعض الطوائف والجتمعات التى تلوذ فى عقائدها وتقاليدها بكثير من الغموض والخفاء

وقد كانت قصة المهدى المنتظر بلا ريب من أشد مواطن الخفاء فى التاريخ الاسلامى وكانت أخصبها مورداً للأساطير ، وأحفلها بالدعوات والثورات الخفية ؛ ويكفى أن هذه الأسطورة الغريبة كانت مبعثاً لطائفة من الدول القوية التى كان لها أكبر الأثر فى سير التاريخ الاسلامى كما أنها كانت مصدراً لطائفة من الدعوات والمذاهب الدينية والاجتماعية التى شغلت مكاناً كبيراً فى الكلام الاسلامى . كانت أسطورة المهدى عماد الدولة الفاطمية التى قامت فى قفار المغرب الأوسط حول تلك الشخصية الخفية – شخصـــية المهدى المبعوث – وحول رسالتها وإمامتها ؛ ثم افتتحت مصر والشام وبسطت سيادتها على قلب العالم الاسلامى فيما بين آسيا الصغرى والحرمين ؛ وكانت عماد دولة الموحدين التى قامت فى قفار المغرب الأقصى ، وسادت بسائط المغرب والأندلس أكثر من قرن ؛ وكانت عماد طائفـة كبيرة من الثورات والفتن الدينية التى وقعت فى مختلف العصور فى أنحاء العالم الاسلامى . وكان الخفاء صفة ملازمة لأسطورة المهدى قبل البعث وبعده ، يسبغ على القائم ودولتـه وخلفائه نوعاً من القداسة الروحية أو السمو فوق بنى الانسان

ومنذ عصر الاسلام الأول تتبوأ هذه الأسطورة مكانها فى الـكلام الاسلامى ، وتقوم على عناصر الغموض والخفاء ، فنرى من غلاة الشيعة من يقول إن علياً بن أبى طالب لم يمت ، ولـكنه حى غائب عن أعين الناس ، مستقر فى السحاب ، صوته الرعد والبرق فى سوطه ؛ ونرى منهم من يقول مثل ذلك القول فى ولده محمد بن الحنفية ، وأنه مستقر فى جبل رضوى من أعمال الحجاز [١] ؛ ثم نرى الأسطورة تتخذ بعد ذلك صبغتها السياسية وتدعم بالأسانيد الـكلاميـة والشروح التاريخية ، ولـكن مع اقترانها بصفة الخفاء دائماً . وخلاصة الأسطورة « أنه لا بد فى آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويعيد مجد الاسلام ودولته ويسمى بالمهدى » . أما هذا الامام الخفى فمن هو ؟ هو من ولد على بن أبى طالب ؛ ولـكن يختلف الشـيعة فى مساق الامامة أصولاً وفروعاً ؛ وليس من موضوعنا أن نتعرض لهذا الجدل [٢] ؛ ولـكننا نذكر فقط أن أشهر فرق الشيعة الامامية ، وهم الاثنا عشرية ، يقولون إن الثانى عشر من أئمتهم ، وهو محمد بن الحسن العسكرى ، هو المهدى ، وإنه لم يمت ؛ ولـكنه اختفى وغاب عن الأنظار ، ولا يزال مختفيا إلى آخر الزمان ، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ؛ وزاد بعض الدعاة على ذلك فحددوا لظهور المهدى تواريخ معينة ، وكلهم يستتر لتأييد مزاعمه

(١) ابن خلدون — المقدمة ص ١٦٥

(٢) راجع فى هذا الموضوع ابن خلدون – المقدمة ص ٢٦٠ وما بعدها

كالذى حكاه الجاحظ قال : سمعت رجلا يقول لآخر : ضربنا الساعة زنديقاً . قال الآخر : وأى شىء الزنديقا ؟ قال الذى يقطِّع المزّيقا . قال : وكيف علمتَ أنه يقطع المزّيقا ؟

قال رأيته يأكل التين بالخل ... ...

(التـكملة فى العدد الآتى)

(طنطا)

إلى « الحضرمى » : أنا من زمن لا أقرأ شيئاً لهذا الزنديق الذى سميته فى كتابك ؛ وقد عرفته رجلا لو أيقن أن حبل المشنقة يرفعه حتى ينوط فى جو الشهرة لمد له عنقه ... وبكل ما تقرؤه له من الطعن فى العربية والعرب والاسلام ، فإنما نيته فيه أن يتناوله الكتاب ولو بالصفع إذا رن الصفع فى العالم العربى ......

الرافعى

وراء الرموز والاشارات الغامضة ، مما يسبغ على دعوتهم دائماً لون السرية والخفاء

وكما كان الخفاء مبعث القداسة والخشوع قبل تحقيق الظفر السياسي ، فـكذلك كان الخفاء بعد تحقيق هـذا الظفر مصدر القوة والنفوذ للدولة أو الأسرة التي تتشح بثوب الدعوة أوالامامة أو الرسالة ، ولنا أسطع مثل على ذلك في الدولتين ، الفاطمية والموحدية . بيد أن هنالك أمثلة محليـة كثيرة للاعتصام بهذا الخفاء المروع ، وماكان يترتب على هذا الاعتصام من النتائج المادية والمعنوية المدهشة ؛ ويكفي أن تـكون هذه الغمر الخفية مبعثا لأكثر من دعوة بالنبوة ، بل مبعثاً لدعوة الألوهية ذاتها ، وأن تقوم عليها عقائد ومذاهب كان لها أثر قوي في سير العالم الاسلامي وما زالت تمثل في عصرنا

— ٢ —

ويقدم لنا التاريخ الاسلامي أمثلة عمليـة مدهشة قوامها الخفاء المادي والروحي ؛ ومن الصعب أن نستوعب هذه الأمثلة أو أن نحصيها جميعا في هذا المقام المحدود ، ولـكننا نقدم منها بعض أمثلة شهيرة

ففي أواخر القرن الثالث من الهجرة ظهرت دعوة القرامطة مستظلة بالدعوة الشيعية والاسماعيلية وقوامها التبشـير بالمهدي المنتظر ؛ وظهر داعية القرامطة الأول الفرج بن عثمان القاشاني اللقب بذكرويه في جنوب العراق ، ولبث حيناً يبث دعوته سراً وخفية ؛ وتلاه تلميذه وصاحبه « قرمط » مؤسس المذهب الحقيقي يبث الدعوة جهرا ، ويدعو إلى امام من آل البيت هو المهدي الذي يظهر فيملأ الارض عـدلا ، فلما ذاع أمره قبض عليـــه عامل الـكوفة وألقاه إلى ظلام السجن ، ولـكنه استطاع أن يفر من سجنه في ظلام الليل بمساعده جارية للحاكم ؛ وكان هذا الداعية الجريء يدرك سر الخفاء وفعله في نفوس الكافة فاختفى على أثر فراره حـيناً ، وألقي في روع أنصاره أنه رفع الى السماء فازدادوا به فتنة ؛ ثم ظهر بعد ذلك وكأنه قد بعث ، ثم فر الى الشام ولم يوقف له على خبر بعد ذلك ، فكان هذا الاختفاء في ذاته عاملا في ذيوع الدعوة القرمطية واضطرامها

ورأى الفرج بن عثمان أو ذكرويه أن يخوض أيضـا غمر الخفاء ، ليحدث مثل الأثر الذي أحدثه اختفاء قرمط ، فنزح الى القفر وتوارى عن الأنظار في مكان ناء ، في مغار أنشأه لذلك ، واسـتخلف أولاده للدعوة ، ولبث أعواماً طويلة يعمل ويدبر الخطط من وراء ستار ، ويوجه أكابر أنصاره وخاصته حتى اشتدت دعوة القرامطة وغدت خطراً حقيقياً على الجزيرة ؛ ثم خرج ذكرويه من كهفه ، وظهر بين أنصاره ، وسار غازياً إلى الشام ، والتقى هنـاك في ظاهر حمص بجند المكتفي ، فهزم القرامطة بعد قتال رائع ، وجرح ذكرويه وأسر ، وحمـل إلى بغداد حيث توفي من جراحه بعد أيام ، ومثل بجثته أشنع تمثيل (سنة ٢٩٤هـ) بيد أن فورة القرامطة كانت قد اجتاحت يومئذ أنحاء البحرين ، واستقرت هنالك قوية منذرة ، واستمرت خطراً داهما على الشـام ومصر وأطراف الجزيرة حتى أواخر القرن الرابع [1]

— ٣ —

على أنا نجد أروع مثل للخفاء في الدولة الفاطمية ، في قيامها ، وفي وسائلها ، وفي خلفائها ؛ فقـد نشأت هذه الدولة القوية في قفار المغرب على يد دعاتها السريين وشيعتهم من القبائل البربرية المتعصبة الساذجة ، وكان أول خلفائها عبيد الله المهدي شخصية خفية غامضة لم يستطع التاريخ أن يقف على حقيقتها أو يتقصى نسبتها ؛ واستمر هذا الخفاء يغمر شخصية الخلفاء الفاطميين ، وهذا الريب يغمر أصلهم ونسبتهم ، حتى أننا نجد أشراف مصر يطلبون الى المعز لدين الله حين مقدمه إلى مصر أن يوقفهم على نسبه ، فيجمعهم في مجلس عام ويسل نصف سيفه ويقول لهم هذا نسبي ، ثم ينثر عليهم ذهباً ويقول لهم هـذا حسبي [2] ، ونجد خصوم الفاطميين ولا سـيما بني العباس يتخذون هذا الريب في نسبهم مثاراً للطعن في امامتهم وفي ذممهم وعقائدهم مما لا يتسع المقام لبسطه ؛ بيد أن هناك حقيقة تلفت النظر ، هي أن الخلفاء الفاطميين ، ولاسيما الأوائل منهم كانوا يزعمون علم الغيب ومعرفة الخفاء [3] ، ومما يروى في ذلك أن العزيز بالله الفاطمي صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة مـكتوب فيها

(١) راجع في دعوة القرامطة وغزواتها — ابن الأثير ج٧ ص١٤٧ و١٤٨ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٢ و١٧٤ وابن خلدون ج ٤ ص ٨٥ — ٩٠ ؛ واتعاظ الحنفاء للمقريزي ص ١٣٠ وما بعدها ؛ وراجع كتابي تاريخ الجمعيات السرية ص ٣٣ — ٣٨

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠

بالظلم والجور قد رضينا   وليس بالكفر والحماقه
إن كنت قد أعطيت علم غيب   فقل لنا كاتب البطاقه

وذلك إشارة إلى دعواهم علم الغيب ؛ وقد اتخذ تعلق الفاطميين بالخفاء واستظلالهم برموزه صورا واضحة لها أثرها القوى في بناء الدولة الفاطمية وفي خططها ووسائلها ؛ بل كان هذا التعلق بالخفاء سياسة مقررة للخلافة الفاطمية ؛ فنراها منذ استقرت بمصر تنظم مجالس الحكمة الشهيرة في القصر وفي الأزهر وتمنى بأن تكون هذه المجالس مبعثاً لتعاليمها المذهبية ؛ ثم نرى هذه المجالس يتسع نطاقها شيئاً فشيئاً وتغدو ، جزءاً من نظم الدولة الروحية والاجتماعية ، ونراها تعقد للنساء والكافة ، وينصب للأشراف عليها رجل من أكبر موظفي الدولة هو قاضي القضاة ، وينعت في هذا المنصب « بداعي الدعاة » . وفي عهد الحاكم بأمر الله تتخذ الخطوة الأخيرة والحاسمة في تنظيم مجالس الحكمة ، وتنظيم الدعوة السرية الفاطمية بصورة رسمية وتنشأ دار الحكمة الشهيرة ، لتستأثر بتنظيم الدعوة وبثها على يد نخبة من الدعاة والنقباء (سنة ٣٩٥ هـ) [1] ؛ وقد اتخذت دار الحكمة منذ قيامها صبغة مذهبية واضحة قوامها بث الروح والمبادىء الدينية الفاطمية ، وكانت هذه مهمتها الظاهرة ؛ بيد أنها كانت تعمل في الظلام لغاية أخرى يغمرها الخفاء ، هي بث الدعوة السرية الفاطمية . ولا يتسع المقام للافاضة في تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ورسومها ، ولكنا نقول فقط أنها كانت من أغرب الدعوات السرية المذهبية ؛ وكانت موزعة على مراتب تسع يتدرج فيها الطلبة على يد الدعاة ، ويدفعون تباعا الى حظيرة التعاليم الفلسفية والالحادية ؛ ويبدأ الطالب في جو من الايمان العميق ، ولكنه لا يصل المرتبة السادسة أو السابعة حتى يكون قد انحدر إلى غمر الانكار المطبق ؛ ويبدو مما نقل الينا من تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ومن موضوعات مراتبها ، أن الغاية الأخيرة التي كانت تعمل لها الدعوة السرية الفاطمية هي هدم كل اعتقاد وكل عقيدة دينية ، والانتقال بالطلبة والصحب الى حظيرة الالحاد المطبق والترفع عن العقائد الروحية العامة التي تؤكد الدعوة أنها لم توضع إلا للكافة ، ولا يلزم بها ذوو الأفهام الرفيعة

وقد استمرت هذه الجامعة الغريبة ، أعني دار الحكمة ، عصراً تبث العقائد والمبادىء الفاطمية ، الخفية والظاهرة ، وكانت جهودها السرية أخطر وأشد أثراً في توجيه الحركة الروحية في مصر ؛ بيد أنها لم توفق إلى تحقيق الغاية التي عملت لها ، ولم تستطع أن تطبع المجتمع المصري بطابع عميق من الدعوة التي كانت مبعثها ومستقرها ، وكانت جهودها بالعكس عاملا في بث أسباب السخط على تلك السياسة التي رسمت للاستئثار بتوجيه العقائد وبث الانكار والالحاد ؛ واضطرت الخلافة الفاطمية غير بعيد أن تعدل عن هذا الاغراق في بث العقائد المذهبية ، فتضاءلت أهمية دار الحكمة ، ثم أغلقت بعد ذلك ؛ بيد أن هذه الدعوة السرية ذاتها تمخضت كما سترى عن نتائج مدهشة سريعة الأثر

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

(١) راجع في دار الحكمة ونظمها ومراتبها : المقريزي (مصر) ج ٤ ص ٧١ و ٧٢ وج ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها وفيها تفاصيل الدعوة ومراتبها باسهاب

المتنبي في ديوانه

بمناسبة ذكراه الالفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

اختلفت مذاهب الأدباء في المتنبي بين المدح والذم اختلافا شديداً منذ العصر الذي كان يحيا فيه إلى الآن ، وقدمر على وفاته عشرة قرون كاملة . وانك لتجد اليوم بعد هذه الأجيال الطويلة من يتكلم عن المتنبي بلسان الصاحب بن عباد خصمه العنيد الذي جمل وَكْده النيل من المتنبي وانكار فضائله بالحق أو الباطل ، ومن يدافع عنه ويتعصب له أكثر من ابن جني وأبي العلاء . ولقد كان حريا أن تضيع حقيقة المتنبي بين التفريط والافراط من الفريقين كما هو الشأن في كل ما يَتعاوَرُه هذان العاملان المختلفان ، ولكن المتنبي كان شخصية فذة تأبى إلا الاعلان عن نفسها والظهور بمظهرها الحقيق مهما حالت الحوائل بينها وبين الناس

فالمتنبي لا يجهل أحد من المثقفين اليوم أنه من أكبر شعراء العربية إن لم يكن أكبرهم على الاطلاق . رفع من شأن الشعر العربي فأحله مرتبة لم تكن له من قبل ، بما نفى عنه من الزخارف اللفظية والأساليب التقليدية والأغراض السافلة ، وما نفخ فيه من روح العظمة والابتكار والسمو إلى الغايات البعيدة المنال . حتى انه إذا مدح شخصاً فان مدحه له يكون كالتلقين لمبدأ سام لا يجد الانسان مندوحة عن الاستجابة له من أعماق نفسه . ولا نستدل على ذلك بأكثر من مطلع هذه القصيدة التي يمدح بها سيف الدولة ، فان فيه وحده بلاغا لمن يتشكك في هذا القدر ، وهو قوله :

على قَدْرِ أهـــلِ العزْمِ تأتى العزائمُ
وتأتى على قـَـدْرِ الـكِرامِ المكارمُ
وتَـعْظُمُ فى عَيْنِ الصغيرِ صغارُها
وتصغُرُ فى عينِ العَظيمِ العظائمُ

وكما يعرف الجمهور هذه الحقيقة من أمر المتنبي اليوم ، فانه كان يعرفها بالأمس وفي نفس عصر المتنبي . يدلنا على ذلك هذه العناية الكبيرة من الأدباء بشعره ؛ فمن شرح له ، إلى انتقاد ، إلى تقريظ ، إلى غير ذلك مما لم ينله شاعر قبله ولا بعده . وفي حياة المتنبي قال ابن العميد لأحد خلصائه : « انه والله ليغيظني أمر هـذا المتنبي واجتهادى في اخماد ذكراه ، فقد ورد على نيف وستون كتابا في التعزية ما منها الا وقد صدر بقوله :

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءنى خبرٌ
فَزِعْتُ منه بآمالى إلى الكذبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقه أملاً
شَرِقت بالدمع حتى كاد يَشرَقُ بى

ولاحظ الأستاذ العقاد (١) عن المدة بين نظم القصيدة التي منها هـذان البيتان وموت أخت ابن العميد التي كانت التعزية فيها ، أنها لا تزيد كثيراً على سنة واحدة . فانظر كيف كان تَلقُّف الأدباء لآثار المتنبي وتلقيهم لها بالقبول ، برغم وجود كثير من المنافسين له والعاملين على اخماد ذكراه كما يعبر الرئيس ابن العميد !

فمقام المتنبي دائماً أرفع من أن يتطاول اليه أحد ، وشأنه أكبر من أن يؤثر فيه مقال أهل الحسد . وما كثرت هذه التتبعات لشعره فكثرت بسببها العثرات التي يأخذها عليه خصومه ، إلا لأن نبوغه كان أكمل وأتم ، وعبقريته أجل وأعظم ؛ والناس منذ كانوا مولعون بالعظماء يتلمسون عيوبهم فيظهرونها ، ويتكشفون عوراتهم فلا يسترونها . على أن جل ما أخذ على المتنبي قد رده المحققون وبينوا أن الصواب ما ذهب اليه هو ؛ وبعض الباقي هو مما لم يخل منه كاتب ولا شاعر في القديم والحديث ، وأي صارم لا ينبو ؟ وأين الجواد الذي لا يكبو ؟

نعم ، هناك هَناتٌ لا تزال لاصقة بالمتنبي فتزرى بشخصه الكبير ؛ ولا زال البحث العلمي بعيداً عن أن يصل فيها إلى نتيجة حاسمة ، فنريد أن نأتي عليها بصيصاً من نور التحقيق معتمدين في الكثير على شعر المتنبي الذي هو أصقل مرآة لنفسيته وأخلاقه . وسيكون اعتمادنا في الأكثر على نسخة خطية عتيقة من ديوانه توجد بالخزانة الـ‍..نونية . وهذه الهنات التي نقصد إلى الكلام فيها هي تنبؤه وعقيدته وأخلاقه

(١) المطالعات ص ١٣١

فأما تنبؤه فهو الزلة الكبرى التي تؤخذ على ذلك العقل الجبار ، وهو فى الحقيقة أمر لو صح لكان ذريعة إلى اتهامه فى سلامة الادراك . ولكن من المعروف أن المعرى كان يشك فى صحة ذلك ، ويقول فى هذا اللقب الذى غلب على أبى الطيب : إن اشتقاقه من النبوة أى الارتفاع ، لما كان من ترفعه على الخلق ، لا من النبأ الذى منه اشتقاق النبيء . وهذا الخبر وحده كاف فى نفى هذه التهمة عنه ، لا لتشكك المعرى فيها ، ولكن لما يتضمنه ذلك من إخفاء قضية التنبؤ وعدم شهرتها بين الخاصة فأبلغه بالعامة ، وإلا لما سأل ابن القارح أبا العلاء عن حقيقتها فأجابه أبو العلاء بذلك الجواب . وهـذا على أن ما بين المتنبى وأبى العلاء من الزمن لا يجاوز العقد الواحد من السنين . فكيف خفى هذا الأمر ودفن مع المتنبى حتى أن اثنين من كبار أدباء ذلك العصر لا يجدان سبيلا إلى التوثق منه ، مع أن العادة فى مثله إذا وقع ولو ممن هو أدنى من المتنبى مقاماً ، أن يشتهر ويتعالم فيتناقله الناس ولا يبقى أحد ليس عنده نبأ منه !

وأكثر من خبر المعرى دلالة على هذا المعنى ، خبر ابن جنى الذى ذكر له أبو القاسم الشريف (الشريف الغرناطى) فى شرح مقصورة حازم ، قال : « وحكى أبو الفتح ابن جنى قال : سمعت أبا الطيب المتنبى يقول : إنما لقبت بالمتنبى لقولى :

أنا تِرْبُ النـدَى وربُّ القوافى
وسِمامُ العـدَى وغيظُ الحسودِ
أنا فِى أمةٍ تداركـها الله
غريبٌ كصالح فى ثمودِ »

فهو لو كان تنبأ حقيقة لما جهل ذلك من أمره حتى يحتاج إلى البيان ، وإلا كان كالمعتذر بأقبح من الزلة . وصفوة القول أن قضية تنبئه لم تثبت حتى فى زمن حياته . وهى إن لم تكن من إشاعات خصومه الكاذبة فهى على الأرجح مما نُبز به لتشبيهه نفسه بالأنبياء كما فى البيتين السابقين والبيت الآخر الذى يقول فيه :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وننظر فى ديوانه فلا نجد ما يدل على هذه القضية لا تصريحاً ولا تلويحاً إلا ما كان من أمر سجنه فى صباه بسبب وشاية بعض الناس به إلى الوالى . فنقول ماهى هذه الوشاية ؟ أتراها مما له علاقة بهذا الأمر ؟ وتجيب نسختنا عن ذلك بما كتب فيها على القصيدة التى مدح بها الوالى فتقول :

« وكان قوم فى صباه وشوا به إلى السلطان وتكذبوا عليه وقالوا له قد انقاد إليه خلق من العرب ، وقد عزم على أخذ بلدك ، حتى أوحشوه منه . فاعتقله وضيق عليه فقال يمدحه » . فالوشاية إذاً هى خروجه على السلطان لا ادعاؤه النبوة . واستمع إلى ما يقوله فى استعطاف الوالى من تلك القصيدة :

أمالك رقى ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما برانى البلى وأوهن رجلى ثقلُ الحديد
وقد كان مشيهما فى النعال فقد صار مشيهما فى القيود
وكنت من الناس فى محفل فها أنا فى محفل من قرود

يريد المسجونين من اللصوص والجناة الخنانى الطبقات السيئى السلوك

تعجل فِىَّ وجوب الحدود وحدِّىَ قبل وجوب السجود

يريد أنه صغير لم تجب عليه الصلاة فكيف يجب عليه الحد ؟

وقيل عدوت على العالميـ ـن بين ولادى وبين القعود

يريد أنهم اتهموه بالعدوان على العالمين فى حال الطفولة قبل أن يستطيع القعود . وليلاحظ القارىء نوع التهمة فهى منحصرة فى الخروج ، ولو كانت ادعاء النبوة لما قال عدوت على العالمين :

فمالك تقبـلُ زُورَ الـكلام وقدرُ الشهادة قدرُ الشهود

يريد أن الشهود من سفلة الناس فشهادتهم مردودة لعدم تورعهم عن الكذب :

فلا تسمعنَّ من الكاذبين ولا تعبأنَّ بمحكِ اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلتُ بشأو بعيد
وفى جود كفك ما جدت لى بنفسى ولو كنت أشقى ثمود

فهـذا كلامه فى حال صباه قبل أن يناصبه العداء أحد من المنافسين له والحانقين عليه ، لم يتضمن شيئاً من الاشارة إلى دعوى النبوة ، ولا يمكن أن تفهم منه بحال . فلو كان قال هـذه القصيدة فى إبان شهرته وانتشار ذكره لقلنا إنه جمجم فيها وداري عن نفسه ، ولـكنه كما علمت قالها فى صباه ، وهى من أوائل شعره بلا نزاع فى الاعتماد عليها وصحة الاستشهاد بها . بل نحن نسلم جدلاً انه أدعى النبوة وبسببها سجن ، فكيف يصح قوله حينئذ :

وكن فارقاً بين دعوى أردت ... ودعوى فعلت بشأو بعيد ؟

وهل من يريد إدعاء النبوة متنبئ بالفعل ؟ وهل هذه الارادة مما يمكن الاطلاع عليه قبل إظهارها حتى تتأتى الوشاية به ؟ وذلك بخلاف الخروج فان بوادره تظهر للناس قبل الاقدام عليه ، لأنه لا بد له من دعاوة كبيرة ، إذ أن الفرد لا يمكن أن يرفع وحده علم الثورة في وجه الدولة !

ومع تأكيدنا أن الذين وشوا به لم يتهموه إلا بالخروج ، لا نستبعد أنهم الذين لمزوه بذلك اللقب الشنوء لما رأوا تعاليه عليهم وتقريعه لهم مع تشبيههم باليهود وتشبيه نفسه بالأنبياء كما فى قوله :

ما مقامى بأرض نخــلةَ إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

وقوله :

فلا تسمعن من الكاذبين ... ولا تعبأنْ بمحك اليهود

بل اننا لا نكاد نميل عن هذا الرأى فى سبب تلقيبه بالمتنبى حتى تقوم الحجة ، والحجة القاطعة على خلافه . وأما أقوال خصومه فى ذلك فمجرد ادكار قوله انه نمام المدا وغيظ الحسود تضعف وتضمحل حتى لا يبقى لها اعتبار ما

***

وأما عقيدته فهى مما كثر كلام الناس فيه ؛ ولسوء حظ المتنبى لم يتناولها إلا منتقد ، وليس هناك معتقد فيما نعلم تولى رد مارمى به من الزيغ والالحاد . فنحن نبين مايعتمد إليه متهموه فيها ونعقب عليه بما يلوح لنا من ذلك صحيحاً أو باطلا . غير أنه لابد من القول أن مثل المتنبى فى أدبه وشعره وروحه الفلسفية لا يطمع منه أن يكون متديناً خالصاً إلى حد التبتل والانقطاع للعبادة ومحاسبة نفسه على الخطرات وحبس لسانه عن فضول الكلام ، فان التدين بهذه الصفة مما لا يكاد يفهمه إخوانه من الشعراء وأهل الأدب على وجه العموم . وقديماً مثلوا برقة إيمان الأدباء ، فكيف نريد من المتنبى أن يتستر على جمهورهم ويقدم لنا من نفسه «أويسا» فى ثوب شاعر ، أو شاعراً فى ثوب « أويس» ؟ ولئن قال على بن حمزة عن المتنبى إنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن فلقد قال عنه إنه ما كذب ولا زنا ولا لاط . وهــذه إن لم تقم بتلك فان تلك لا اعتداد بها مع هذه . وهل كان الشعراء الذين لم يتنزهوا عن الكذب والزنا واللواط يصومون ويصلون ويقرأون القرآن ؟

وبهذا تعلم أن عدوان الخصومة على المتنبى قد ستر من محاسنه ما لو ظهر لكان له فى النفوس مكان أسمى مما له فيها الآن

ولأقص على سمعك بعد هذه المقدمة بعض الأبيات التى يُزَنُّ بسببها بضعف العقيدة . قال يمدح بدر بن عمار :

تَتَقاصَرُ الأوهامُ عن إدراكه ... مِثلُ الذى الأفلاكُ فيه والدُّنى

فقالوا : لقد أفرط جداً لأنه شبه ممدوحه بالحق سبحانه وتعالى ، لأن الذى فيه الأفلاك والدنى هو علمه عزّ وجل . ونقول إن هذا تعسف ظاهر ، فمن الذى نقل عنه أنه يريد ماذكرتم ؟ وماذا حسَّن فى بلاغتكم ؟ التعبير عن علم الله بالذى الأفلاك فيه والدنى حتى رجحتموه على أن يكون المراد به هــذا الفضاء الواسع الذى يحتوى الأفلاك والدنى حقيقة ممتــداً وراء الآفاق التى تتقاصر عن إدراكها العقول ؟

وقال المتنبى :

أنا مُبصرٌ وأظن أنى نائمٌ ... من كان يحلم بالإله فأحلما ؟

فقالوا : هذه مبالغة مذمومة وإفراط وتجاوز حد، ثم هو غالط فى إنكار رؤية الله تعالى فى النوم فان الأخبار قد تواترت بذلك . ونقول : إن للبيت رواية أخرى وهى الأشهر هكذا :

من كان يحلم ما يراه فاحلما ، وهى كذلك فى نسختنا ، والمعنى عليها أظهر من الأولى فلا يبعد أن تكون تحريفاً

« البقية فى العدد القادم » (طنجة) عبد الله كنون الحسنى

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

يكتشف مكروب السل

— ٦ —

إن بشلات الجمرة بشلات فى المكروبات كبيرة يسهل الكشف عنها إذا هى قورنت بمكروب السل ، ذلك المكروب القتال الخداع . ومكروب الجمرة يكثر فى أجسام الحيوان قُبيل موته كثرة هائلة ، فلا يُخطئه البصر ولو لم يكن حديدا ؛ أما مكروب السل — ولم يكن كوخ على يقين من وجود مكروب له — فقد طلبه الطالبون وتقفاه الباحثون ولكن بغير جدوى . ولو أن لوفن هوك نفسه ، وهو أحدّ البُحاث عيناً ، نظر فى مائة رئة مريضة ، ثم نظر ، ثم أعاد النظر ، ما خرج من نظراته الحديدة الكثيرة على شىء . ولو أن اسبلنزانى حاول ما حاول لوفن لعجزت مجاهره عن ابلاغه تلك الغاية . أما بستور ، وهو الباحث القدير ، فلم تكن طرائقه من الدقة بحيث ترفع الغطاء عن هذا الفاتك الغادر . أو لعل صبره كان ينفد دون أن يحقق شيئاً

ولم يكن يُعرف قبل كوخ من داء السل شىء كثير ، فكل ما عرف عنه أنه داء تنقله مكروبات ، وذلك لأمكان نقله من حيوان سقيم الى آخر سليم . سبق الى هذا الدليل عالم شيخ اسمه فلمان Villemin ، وحققه من بعده كون هايم Cohnheim أستاذ برسلاوة الكبير ، فاستطاع أن ينقل داء السل الى الأرانب ، إذ أخذ فُتَيتة من رئة مسلولة فأدخلها فى الخزانة الأمامية لعين أرنب ، فأخذت أنسجة العين تتدرّن ، وأخذ الدرن يتمدد بنُذُر الموت . وظل عالمنا القدير يرقب حوادث هذه التجربة البديعة من خلال أغشية العين الشفافة فكأنما يرقب دورا على مسرح يُلعب من وراء زجاج

كان كوخ قد اطّلع على تجربة كون هايم ، ودرسها درساً طيباً . قال :

« ليس فى المقدور أن أجرّب تجارب السلّ فى آدمىّ ، وقد أمكن الآن نقل هذا الداء الى الحيوان ، فهاكِ يا نفسُ فرصة غالية لدراسته ، لكشف مكروبه ، فلا بد من مكروب ينشأ عنه هذا الداء . . . . »

وبدأ كوخ عمله ، وكان لا يعمل إلا على خُطّة يرسمها ، وكانت خُططه قاسية لا صلة لها بعاطفة بنى الانسان ، ولا تمت بسبب الى حنان القلوب . وأجراها ببرود قلب لو اطلعتَ عليه فى تقاريره عنها لاقشعرّ بدنك منها . وحصل على مادة سُلّه الأولى من عامل يفعل فى الأرض ؛ وكان رجلا قوىّ البنية ، مفتول العضل شديدا ، وكان عمره ستة وثلاثين عاماً ، وكان منذ ثلاثة أسابيع فى صحة هى الغاية مما يرجوه انسان ، فلم يلبث أن جاءته سعلة باغتة ، واخترقت صدره آلام فاجئة ، نفذت منه نفوذ السهام . وأخذ جسمه فى الهزال السريع حتى أصبح كأنه الشمعة احترّت فأخذت تسيح . ودخل المستشفى ولم تظلّه سقفُه أربعة أيام حتى صعدت روحه الى السماء ، وتخلّف جسمه حيث هو من سريره ، وقد عمّه الدّرَن وتنقّط كل عضو فيه بتلك الحبيبات الغبراء الصفراء كأنها الفلفل بعثره مبعثر فيها

بدأ كوخ عمله فى هذه المادة الخطيرة وحيدا ، فمساعداه كانا قد افترقا عنه ، أما لُفلار فأخذ يتقفّى مكروب الدفتريا ، وأما جَفْكِى فكان ينقّب عن مكروب التيفود . بدأ كوخ العمل وحده ، فجمع الدرن الأصفر من جثة العامل المنكود بين مِشرطين أحماها فى النار ، ثم سحق الدرن ، ثم حقن سحيقه بلطف فى عيون طائفة من الأرانب ، وحقن منه تحت جلود طائفة أخرى من الخنازير الغينية ، ووضع الأرانب والخنازير فى أقفاص نظيفة ، وأخذ يعنى بها ويلاطفها ويداعبها مداعبة الأم الرؤوم ؛ وبينا هو ينتظر انبعاث السل فيها ملأ وقته بالنظر بأقوى مجهر فى الأنسجة المريضة التى خلّفها العامل المسكين

نظر ثم نظر ، ثم داوم النظر أياما بمجهر بكبر الأشياء مئات

المرات ، فلم يكشف بصرُه شيئاً إلا الحطام الذى تخلف من كبد تهدّمت أو رئة تخرّبت . قال كوخ : « إن يكن للسل مكروب فلا بد أنه يداورنى ويغالبنى حتى يُفلت من عينى فان أستطيع بعد الآن رؤيته وهو حيث هو من أنسجته ، فلا حيلة إلاّ أن أصبغ هذه الأنسجة بصبغة شديدة ، فلعله يتراءى من بعد ذلك فيها . . . »

ومضى اليوم تِلو اليوم ، وكوخ قائم قاعد فى صبغ الدرن الذى جمعه ، يصبغه بالأسمر والأزرق والبنفسجى والأحمر ، وبكل لون من ألوان الطيف استطاعه . كان ينشره على شريحة من الزجاج نظيفة ، ثم يغمرها بما عليها فى محلول صبغة قوية زرقاء ، ويدعها الساعات فيها ، ثم يعود الى شريحة ثانية ويصنع بها ما صنع بالأولى ، فيغمرها فى صبغة أخرى ، ثم يعاود ثالثة ورابعة ، وكلما مست يداه شيئاً مستراباً غمسهما فى محلول مطهر من السليمانىّ [1] حتى تقشّف جلدهما واسود

وأصبح صباح يوم ، فقام كوخ الى شرائحه الزجاجيـة فأخرجها من محلول الصبغات التى كانت بها ، ووضعها واحدة بعد أخرى تحت مجهره ، وأخذ يُسَوّره [2] عليها ، فأخذ مجال بصره يتضح رويدا رويدا حتى خرج له من الهاء الأغبر صورةٌ جلية بينة ، واذا عينه ترى بين خلايا الرئة التى تقوّضت من الداء مجموعاتٍ غريبة من بَشِلاّت صغيرة كالعِصىّ زرقاء ، رقّت فى بصره فلم يستطع تقـدير سمكها ، أما طولها فأقل من جزء من خمسة عشر ألف جزء من البوصة الواحدة

قال كوخ : « ما أجملها بَشِلاّت ! إن بها انحناء قليـلا والتواء ، فهى ليست فى استقامة مكروب الجمرة ، وهاك أسراباً منها اجتمعت واكتنزت كأنها حُزَم السجائر ، وهاك بَشِلّة عِفريتة دخلت وحدها خلية من خلايا الرئة المتآكلة ... أحقاً هذا مكروب السل وقعتُ عليه هكذا سريعاً ؟ »

وواصل كوخ عمـله بدقته المعهودة ، فظل يصبغ الدرن يستخرجه من كل ناحية من نواحى جثـة العامل ، وحيثما صبغ أرتـه صبغته الزرقاء تلك البَشِلاّت الدقيقة الحنواء ؛ تلك الخلائق الغريبة الجديدة وقد اختلفت عن كل ما كان رآه فى أجسام ألوف الحيوان والانسان سليمه وسقيمه

ولم يلبث فيما هو فيه طويلا حتى بدأت الفاجعـة المحزنة تقع فى الخنازير الغينية والأرانب . أخذت هذه الخنازير يتراحم بعضها لِصق بعض فى أركان القفص فى كآبة بيّنة ، وانتفش فروها ، وأجسامها الصـغيرة التى دأبت بالأمس على الوثب واللعب ، أخذت تنهزل ويذوب عنها ما كساها من اللحم والشحم فصـارت كأنها العظم حوته صُرّة من جلدها . ولزمتها الحمى فهمدت وتخاذلت عن طعامها من الجزر الطيب قد زها لونه ، والحشيش الطازج قد فاح شـذاه . ثم أخذت تموت واحدا فواحدا ، وكلما مات واحد منها ارواه اغُلة عالِمنا من البحث ، وافتـداء لـسلامة الانسان ، قام صاحبنا اليه فدبّسه على لوحة تشريحه ، وبلّل جلده بمحلول السليمانىّ ثم أخذ مشارطه فطهرها ثم شق جثة الخنزير وشرّحها فى دقة زائدة وعناية بالغة سكتت لها أنفاسه مخافة الزلل

وفى بطون هـذه الضحايا ، التى جهلت بما ضحّت ، وجد كوخ نفس ذلك الدرن الأصفر الأرمد المرعب الذى امتلأت به جثة العامل . فقام يبسطه على لوائح زجاجه الذى لا يفنى ، ثم يغمره فى صبغته الزرقاء ، وفى كل حالة وبكل جسم كشفت له الصبغة عن نفس تلك العصىّ الحدباء التى أرته اياها أول مرّة فى رئة ذلك العامل

فدعا عَونيه الأقدمَين ـ لُفلار الشغّال ، وجَفْكي المخلص ـ فتركا ما هما فيـه من مكروبات أخرى يبحثانها ، فلما جاءاه أراهما ما وجد . قال : « انظرا كلاكما ، فانى وضعت فى هذا الحيوان منذ ستة أسابيع فُتَيْتَة صغيرة من الورق لا يتجاوز ما فيها مائة من هـذه البَشِلاّت ، وها هى اليوم قد تكاثرت فيه فبلغت البلايين . أى مخلوقات هذه ! فلقد انتشرت من حيث حُقنت فى فخذ هذا الغِينىّ الى كل أجزاء جسمه ، فنفذت كالأرضة الى أقاصيه ، واخترقت جوانب الشرايين . . . وحملها الدم الى عظامه ... وحملها الى أبعد زاوية فى مخه .... »

وذهب الى مستشفيات برلين ، كائنة حيثما كانت ، يستجدى منها جثث الموتى رجالا ونساء من صرعى السل ، وأخذ يقضى أيامه وحيدا مستوحشاً بين هذه الجثة حيث هى من بيوتها ، ويقضى

---

(١) هو كلورور الزئبق ، ويتركب من ذرتين من الـكلورور وذرة من الزئبق ، وهو سام

(٢) يرفع المجهر أو يخفضه حتى يقع الشىء المنظور فى بؤرة المجهر ، وعندئذ فقط تتراءى صورته واضحة

أسماه عند مكرسكوبه فى معمله ، وهو ساكن كالقبر إلا من أصوات خنازيره الغينية وحركاتها ، واستخرج من أجساد الموتى أنسجتها المريضة لحقن منها فى مئات من هـذه الخنازير ، وفى كثير من الأرانب ، وفى ثلاثة كلاب ، واثنتى عشرة حمامة ، وثلاث عشرة قطة خدّاشة ، وعشر دجاجات دقّاقة قوّاقة ؛ ولم يقف من جنونه الى هذا الحد من حقن هذا العدد الكبير من الحيوانات ، بل انه حقن هذه المادة الجُبنيّة القاتلة فى أنواع عدة من الجِرذان والفئران أبيضها وأرمدها ، وما يرتاد الجبال منها ، وما يرتاد الحقول . بلغت دقة كوخ فى صيد المكروب حداً لم يبلغه صائد قبله

وتفكر كوخ لمّا أجهده الحذر قال : « يا لله من عملٍ يَهُزّ الأعصاب هزّاً » . قال هذا وقد خال ما كان حاله لو أن مخلب هذه الهرة امتد كالبرق الى مِحقنه فارتشق فى جلده بمكروبه القتّال ! لم يكن كوخ برغم هدوئه ووحدته وانفراده فى محاربة هذه الأعداء الخفيّة خلوا من هِزّات الحياة وانفعالاتها ، إلا أنها لم تكن انفعالات من التى تنعش وتسر ، ولكن من تلك التى تنذر بالفواجع والمآسى

وصمد صاحبنا للمأساة المنذرة فلم تَزِلّ يده أبداً ، وإنما ازدادت على الأيام جفافاً وتجعّداً واسوداداً لغمسه إياها فى محلول السليمانى ، هذا المحلول الطيب الذى وجد بحّاث المكروب فى تلك الأيام أُنسَهم فيه ، فغمروا به كل شىء حتى أجسامهم . وتتالت الأسابيع وكوخ بين مُواء القِطط وقَيْق الدجاج ونُباح الكلاب ، وبَشِلّته الحنواء تتكاثر تكاثراً مريعاً قاسياً فظيماً فى هذه الحيوانات ، ثم أخذت هذه الحيوانات تتساقط واحدة بعد أخرى ، وتعجّلها الموتُ فازدحمت بين يدى كوخ ، فاشتغل من يومه ثمانى عشرة ساعة قضاها فى شق جثثها وتفحّص ما بها ، ثم فى امتحان ما وجد فيها تحت المكرسكوب بعينه العمشاء

قال كوخ لتلميذيه الأقدَمَين لُفْلار وجَفْكى : « إنى لا أجد هذه العصىّ الزرقاء إلا فى الرجُل أو فى الحيوان المسلولين . ولقد نظرت كما تعلمون فى مئات من الحيوانات الصحيحة فلم أجد لهذه العصىّ أثراً »

فقال صاحباه : « ومعنى هذا يا سيدنا الدكتور أنك وجدت

البَشِلّة التى هى أصل هذا الداء »

فيقول كوخ : « لا . لا . للساعة لم يَتم الأمر ... إن الذى أتيته قد يقنع بستور ، أما أنا فلم أقتنع بعد ، فلا بد لى من استخراج هذه البَشِلاّت من أجسام هذه الميّتات ، ولا بد لى بعد ذلك من زرعها فى فالوذج حساء اللحم الذى كنا اصطنعناه ...

« لا بد من الحصول على زَرِيعات خالصة من هذه البَشِلاّت ، ثم لا بد من توليدها نسلاً من بعد نسل عدّة أشهر ، بعيدة عن كل مخلوق حىّ . ثم بعد ذلك أحقن النسل الأخير الخالص فى حيوانات سليمة ، فاذا جاءها السل . . . . » وعندئذ انبسطت أسارير كوخ وعلت فمه ابتسامة قصيرة . وعاد لُفلار وجَفْكى إلى أبحاثهما ، وفى قلبيهما روعة المعجب وخَجْلة المتسرّع الذى يجنى النتائج فجّة غيرَ ناضجة

ورسم كوخ فى رأسه كل الصور الممكنة لزرع هذا المكروب وبدأ بزرعه على فالوذج حساء البقر . وصنع عشرات من مختلف الأحسية ، وصبها فى أنابيبه وقِنّيناته ووضعها فى درجات من الحرارة مختلفة ؛ فبعضها فى درجة غرفته ، وبعضها فى درجة حرارة جسم الانسان السليم ، وبعضها الآخر فى درجة حرارة الانسان المحموم . وأتى ببشلاته من رئات خنازير غينية فجاءت خالصة من كل مكروب ضالٍّ يخشى منه أن يكاثرها وهى دقيقة فيسد عليها مسالكها . وزرع هذه البشلات النقية فى مئات الأنابيب والقَنانىّ ، ولكنه خرج من كل هذا — بالخيبة ! فهذه البشلات الدقاق التى تتكاثر فى أجسام حيواناته تكاثراً مريعاً ذريعاً ، هذه البشلاّت التى تناسلت فى أجسام المرضى من بنى الانسان حتى بلغت الملايين ، هذه البشلات رفعت أنوفها - على فرض أن لها أنوفاً - عن طعام كوخ اشمئزازاً من أحسائه وفواليذه .

وذات يوم خطر لكوخ خاطر فى سبب إخفاقه قال : « إن بشلات السل لا تنمو إلا فى أجسام حيّة ، فلعلها إذن تتطفل على هذه الأجسام ، وعلىّ إذن أن أجهّز لها طعاماً أقرب ما يكون إلى مادة جسم الحيوان »

هكذا اكتشف كوخ طعامه الشهير - فَلُوذ (١) مصل الدم - اكتشفه طعاماً لكل مكروب أرستقراطىّ مُترفٍ يعاف طعام السُّوقة من المكروبات ، وذهب إلى القصّابين وجاء منهم بدم

(١) الفالوذ والفالوذج سيان

طازج من أبقار قُتِلت لوقتها، فلما انجمد وتجبّن، شققه، فسال منه عصير زلالىّ يضرب إلى صُفرة التبْن. ثم سخّن هذا المصل بمقدار يقتل ما سقط فيه من مكروبات الهواء الضالة، ثم صبّه على حذر فى عشرات من أنابيب اختبار ضيّقة، أمالها فى مواضعها إمالة كبيرة ليتسع سطح المصل الذى بها، فعلى هذا السطح سيبسط مادة المكروب. ثم سخن الأنابيب وهى على ميلانها تسخيناً يكفى لانعقاد مصلها وتحوّله إلى مزاج فالوذىّ جامدٍ جميلٍ فى روقانه.

ومات فى صباح هذا الغد خنزير غينىّ خرّمه السل تخريماً، فشرّحه واستخرج منــه درنة أو درنتين، نشرهما بعود من البلاتين على سطح فالوذ المصل وهو ندىّ، وانتقل من أنبوبة إلى أخرى حتى لقّح الجميع. ثم استنشق نفساً كبيراً، ثم زفر زفرة طويلة فكأنما نفض فيها الهم الذى ملأه فى هذه العملية الدقيقة وقد نجحت بعد خشية الزلل، وقام كوخ فأخذ الأنابيب فوضعها فى مدفأ درجة حرارته تعدل تماماً تلك التى فى جسم الخنزير الغينىّ

ومضت أيام ذهب كوخ فيها كل صباح إلى هذا المَفْرخ الدافئ، ورفع أنابيبه إلى نظارته فى إطارها الذهبى، وحدّق فيها وحملَق، ولكنه لم يرَ شيئاً. قال كوخ: « هذه خيبة أخرى! كل المكروبات التى زرعتها تكاثرت فى يومين، وهذا هو اليوم الرابع عشر، فما لهذا المكروب التعس لا يتكاثر أبداً . . . »

لو أن رجلاً غير كوخ صادف ما صادفه من الخيبات لكبّ أنابيبه وسكب مصله، ورجع عما قصد إليه. أما كوخ، طبيب القرية الأشوع، فله شيطان يحفّزه ويغريه، فقام عندئذ يوسوس إليه من وراء عاتقه: « صبراً سيدى صبراً. أنسيت أن جرثومة السل بطيئة تستغرق فى قتل الرجال الأشهر والسنين. فلعلها إذن بطيئة كذلك فى تكاثرها فى مصل أنابيبك ». فاستمع كوخ لشيطانه، فلم يَرْمِ بأنابيبه وأمصاله، واستمهلها لليوم الخامس عشر. فلما كان صباحه نزل إلى مَفْرخه فوجد الفالوذج المصل قد تبعثرت على سطحه الناعم حبات صغيرة لامعة. فمدّ كوخ يده فى لهفة إلى جيبه يستخرج منه عدسته وألصقها بعينه وأخذ يحدّق فى الأنابيب أنبوبة أنبوبة، فلما كبرت هذه الحبّات فى عينه تراءت قشوراً جافة صغيرة

فأمسك كوخ وهو ذاهل بإحدى الأنبوبات، فنزع عنها سداد القطن الذى يسدّها، ووضع فاها وهو غائب الفكر فى اللهب الأزرق لمصباح بنسن Bunsen ليعقّمه، وأدخل فيها عوداً من البلاتين فالقط على طرفه حبّة من تلك الحبات التى ظهرت على الفالوذج المصل، وهو يكاد يوقن أنها مكروبات. فوضعها تحت مكرسكوبه، وهو لا يكاد يدرى ما وضع، ونظر فعلم أن البحث تجرى طريقه شاقةً فى صحراء لقاحة جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، ولكن المسافر فيها يأتى الفينة بعد الفينة على واحة ظلها وارف، ونبعها بارد، وثمرها وفير مستطاب، نظر فعلم أنه هبط بعد الجهد والجلد على واحة من تلك الواحات. أفليست ملايين المكروبات هذه التى تكشف لبصره الآن هى عينها تلك البشلات الحنواء التى رآها فى رئة ذلك العامل المسلول زماناً مضى، وتراءت له لا حراك بها، ولكنها حية بدليل تكاثرها، وتراءت له دقيقة صغيرة، رقيقة المزاج، أنيقة الطعم، مريبة الرغبة عما لا ترضاه منه، ولكنها مع هذا كبيرة النهم شديدة الفتك مخرّبة هدّامة، أكثر تخريباً من غُزاة التتر، وآكد فى الموت من الحيات والأفاعى

(يتبع) أحمد زكى

أبو الطيب المتنبي
شاعر الأدب القوى

بمناسبة ذكراه الألفية

مهداة إلى الأستاذ الكبير أحمد أمين

بقلم السيد كامل حريرى

فى مثل هذا اليوم منذ ألف سنة خلت ، فقدت آلهة الشعر والبيان رسولها الأمين ونبيها العظيم أبا الطيب أحمد المتنبى ، بعد إذ أدى رسالتها ونشر دعوتها أربعين عاماً لا تأخذه كلالة ولا تتكاءده ملالة ، وأنبياء البيان كأنبياء الأديان شديد عنتهم كثير اضطهادهم صعبة دعوتهم ، وهم مع ناكرى رسالتهم فى بلاء وجهد ما أنزلت عليهم آلهة الشعر رائع آياتها وخالد أبياتها ، وما بى عرض رسالة المتنبى وما كان يلاقى بسببها من كفر العبقرية وجحود الفضل ونكران العظمة ، فكل أحس ذلك فى شعر شوقى ورسالته ، وإن ما أخذت نفسى به هو ذكر أبى الطيب الفيلسوف المهذب ، « كورنى » العرب فى القرن الرابع ؛ وأنا إذ أقول هذا لا أقصد إلى قول الفيلسوف الشاعر أبى العلاء المعرى : « إنما أبو تمام وأبو الطيب حكيمان والشاعر البحترى » بل أعنى ناحية خطيرة فى شعر المتنبى هى وحدها سر خلوده وعظمته وبقاء شعره على الزمن

وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مردداً ... وغنى به من لا يغنى مغردا

ولكن هذا يقتضينى ذكر القرن الرابع الهجرى ، وقد تهاوى بناء الدولة العباسية ، ورث حبل العروبة ، وفشت فاشيةُ ملوك الطوائف فى البلاد العربية الاسلامية ؛ فآل بويه وبنو حمدان فى العراق وفارس والشام ، ودولة الأخشيديين وبنو رائق فى مصر وفلسطين يتواثب بعض على بعض ، وإن للفساد والرذيلة لسوقاً رائجة ، وإن للخيانة والنفاق لبضاعة نافقة ؛ أما عن الأخلاق الواهية والعزائم الوانية والمروءات الساقطة فحدث ولا إثم

فدهرى ناسه ناس صغار ... وإن كانت لهم جثث ضخام

أرانب غير أنهم ملوك ... مفتحة عيونهم نيام

ذلكم القرن الرابع الذى ولد فيه فخر الشعراء أبو الطيب المتنبى قد عرضته عليك بعجره وبجره وخيره وشره . لأن للعصر أثراً بيناً فيما ينظم الشاعر ويكتب الأديب ، وهو عصر ما أخلقه بشاعر كالمتنبى ينشر بين أهله الضعفاء فرقان القوة ورسالة المجد والمثل الأعلى

وكما ابتعث « جوبيتير » آله الحرب والقوة نيتشه فيلسوفا يوقظ بإنجيله همم الألمان الراقدة وعزائمهم الهامدة ويلقنهم آيات تنازع البقاء وبقاء القوى الغالب ، ابتعث المتنبى قبله بثمانية عصور الى الأمم الأسلامية يقول :

فالموت أعذر لى والصبر أجمل بى ... والبرُّ أوسع والدنيا لمن غلبا

تطاول العهدُ بالجاهلية الأولى ، فنسى الشعراء نغمة التفاخر بالعديد ، والتكاثر بالوليد ، والاعتداد بالقوة ، والاعتزاز بالمنعة ، والتفاضل بمنع الجار وحفظ العشيرة ، فأصبحوا وقد رقت حاشية الحياة ، ولانت أعطاف العيش ، تشوقهم اللذة ، ويروقهم الترف ، ويستعبدهم الهوى ، وتتصباهم الطريقة النواسية ، فما منهم إلا عاشق مفتون ، وقيس بليلاه مجنون ، وما فيهم إلا نضو ردف ثقيل ، وخصر نحيل ، وطرف سقيم ، وثغر نظيم ؛ ومن لا يحب الخصور والنحور واللواحظ والثغور إذا كن مما يشتهى ويستملح !

طغى سيل الأدب اللين بنوعيه الشعر والنثر على الحياة الاسلامية العربية فى القرن الثالث والرابع حتى ماتت الأخلاق الصلبة البدوية ، وذابت الرجولة القاسية الجاهلية ، وتفككت الفضائل من رابطتها الوثيقة ، وتحللت الأخلاق من أزمَّتها المتينة ، وسرى داء الضعف والتخنث فى نفوس الشيوخ والشبان بله الكواعب والغلمان . فكان من ذلك جيل مترف متنعم ، مسخت الحضارة رجولته ، وألان الترف شكيمته ، وأماتت النعمة طموحه . فما تتراقى إلى مجد له همةٌ ، ولا تتسامى إلى مثل أعلى له عزمةٌ ، وما جنى على هذا الجيل ما جنى إلا شعراؤه الخليعون الماجنون وفى طليعتهم بشار وأبو نواس . فان من يقول :

ولو أن مالى يستقل بلذتى ... لأنسيتُ أهل اللهو كسرى وقيصرا

لا يبشر إلا بجيل خائر ضعيف كهذا الجيل الذى ولد فيه المتنبي . ومالنا لا نقول فى صراحة وصدق ، إن الأدب القوى فى غير عنف ، الشديد فى غير عسف ، ظل يتيما بعد الفرزدق وجرير حتى جاء أبو الطيب فرأب الصدع ، وسدّ الثأى وحمل الراية ؛ ثم فتح للشعراء طرائق الخلد ، وسنّ لهم سنن المجد ؟

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دوياً كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

أنا لا أريد لهذا النشء المتفكك من شبابنا « الشيك » أن يقحم نفسه الحرب ، ويحملها الطعن والضرب ، كى ينشأ شجاع النفس شديد البطش منيع الجانب عظيم الرجولة ، ولكنى أنصحه بقراءة ديوان المتنبى شاعر القوة والبطش والرجولة الحق ، وأنا زعيم له بعد ذلك بما يتطلبه من رجولة وإقدام

ولو أن الحياة تبقى لحىّ
لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تموت جبانا

أما أنتم أيها الذين أضلهم المجد وقعدت بهم الهمة عن طلب العلا ، فاستوطأوا مهاد الضعة ، وأساغوا صاب الذل ، ورضوا بخطة الخسف ، فاليكم أتوجه ببيتى شاعر المجد والعظمة

إذا غامرت فى شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير
كطعم الموت فى أمر عظيم

وبعد : فان فى ديوان المتنبى جبهة حربية تعلم شبابنا الشجاعة والقتال ، ومدرسة اسبارطية تنشئ أطفالنا على احتمال الشدائد والأهوال ، وجامعة فلسفية توحى إلى رجالنا جلائل الأعمال . فلنمجد شاعر الأدب القوى الذى يدعو إليه نيتشه فى عصره ، والأستاذ احمد أمين فى عصرنا ، والذى توجبه حالنا الاجتماعية والخلقية ، وتفرضه سنة البقاء على الناس

وليحن قراء « الرسالة » معى رؤوسهم خشوعاً وإجلالاً لنبى الشعر ، وفارس الدهر ، وملء أذن السمر ، وعبقرى لو تقدم به الزمن فى عهد الاغريق لخلده هومير مع الأبطال وسما به إلى سماء الآلهة ! ولا عجب وأبو الطيب القائل عن نفسه :

وقت يضيع وعمر ليت مدته
فى غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه فى شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم

(حلب) كمال حمدى

أندلسيات :

٤ – قصة الفتح بن خاقان

للاستاذ عبد الرحمن البرقوقى

تتمـــة

تواليف الفتح وشيء من منظومه ومنثوره

الشائع المعروف أن ليس للفتح بن خاقان غير قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، ولكن يجب أن يلحظ أن المطمح نسختان صغيرة وكبيرة؛ وقال ابن خلكان إن المطمح ثلاث نسخ صغرى ووسطى وكبرى. وللفتح غير قلائد العقيان والمطمح كتاب اسمه بداية المحاسن وغاية المحاسن، ذكر ذلك المقرى وقال إن له أيضاً مجموعا في ترسيله وتأليفا صغيراً في ترجمة ابن السيد البطليوسي نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد... ولمناسبة ذكر ابن السيد البطليوسي الأندلسي الأديب الكبير وصاحب شرح أدب الكاتب لابن قتيبة نقول: إنه كان بينه وبين الفتح علاقة ومودة، ومن ثم قرّظ ابن السيد كتاب القلائد بهذه الرقعة التي أرسلها إلى الفتح، قال: « تأملت – فسح الله لسيدى ووليي في أمد بقائه – كتابه الذى شرع في إنشائه، فرأيت كتابا سينجد ويغور، ويبلغ حيث لا تبلغ البدور، وتبين به الذرى والمناسم، وتغتدى له غرر في أوجه ومواسم، فقد أسجد الله الكلام لكلامك، وجعل النيرات طوع أقلامك، فأنت تهدى بنجومها، وتردى برجومها، فالنثرة من نثرك، والشعرى من شعرك، والبلغاء لك معترفون، وبين يديك متصرفون، وليس يباريك مبار، ولا يجاريك الى الغاية مجار، إلا وقف حسيراً وسبقت، ودعى أخيراً وتقدمت، لاعدمت شفوفا، ولا برح مكانك بالآمال محفوفا. بعزة الله.. » . وقلائد العقيان كتاب قدمه الفتح لأبى اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين أخى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ونائبه في الأندلس، وقد ألممنا فيما سلف إلى بعض صفات هذا الكتاب وأنه هو والذخيرة لابن بسام، واليتيمة للثعالبي، والخريدة للعماد، ونظائرها، لا تعد كتب تراجم بالمعنى المتعارف؛ وإنما هي حِلىّ وصفات لبعض أفاضل العصر وبلغائه بأسلوب منمق بليغ. ومختارات من منظومهم ومنثورهم. أما تاريخ المترجم له ومنشؤه ونسبه ومولده ووفاته وكيف تصرفت به الأحوال فهذا ما ليسوا منه بسبيل ولا هو من عملهم وإنما هو من عمل المؤرخ. أما هم فأدباء يُحَلون أدباء معاصرين أو قريبين من عصورهم... وأسلوب الفتح في كتبه أسلوب لا شك جزل متين وإن كان كله مُسجّعا؛ ومن ثم قد يعلو وقد يسفل، وقد يرى مطبوعا وقد يرى عليه أثر التكلف والتعمل. وقد كان بلغاء الكتاب في تلك الأعصر يظنّون السجع عملا فنيّاً في الذروة من الفن تلى مرتبته مرتبة الشعر للموسيقية التي فيه وإن كان النقدة من المتقدمين ينكرون الولوع به والافراط فيه كما ننكره نحن اليوم. وقد اشترطوا له شروطا أهمها: أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، ولم يشترطوا ذلك في السجع فحسب؛ وإنما اشترطوه في كل المحسنات البديعية، قالوا: إن هذه المحسنات ولاسيما اللفظية منها لا تحل محلها من القبول، ولا تقع موقعها من الحسن، حتى يكون المعنى هو الذى استدعاها وساقها نحوه، وحتى تجدها لا تبتغى بها بدلا ولا تجد عنها حولا؛ ومن هنا ذم الاستكثار منها والولوع بها، لأن المعانى لا تدين في كل موضع لها، إذ هي في الغالب ألفاظ، والألفاظ خدم المعانى مُصرّفة في حكمها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة من الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين. ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزوا مواسجية الطبع أمكن في المقول، وأبعد من القلق، وأوضح للمراد، وأسلم من التفاوت، وأبعد من التصنع الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق. والرضا بأن تقع النقيصة في نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش؛ وأثقل صاحبها بالحلي والوشم، قياس الحلي على السيف الددان [1] والتوسع في الدعوى بغير برهان، كما قال المتنبي:

إذا لم تشاهد غير حُسن شياتها ... وأعضائها فالحسن عنك مغيب

هكذا يقول إمام النقاد عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ – سنة ١٠٧٨ ميلادية – ويقول: وقد تجد في كلام

(١) الدادن بالفتح كالكهام وزنا ومعنى أى الكليل

المتأخرين كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع – ومنه السجع – إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهم ، ويقول ليُبِين ؛ ويخيل اليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقل على العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها ... ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى إلى الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ؛ فانها إذا تركت وما تريد لم تلبس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها . فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بمرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم الخ . «وبعد» فان الكلام فى هذا الموضوع يطول ، ولنجتزئ بهذا القدار . والآن ، ألا يسمح لنا القارئ بأن نعرض عليه شيئاً من منظوم الفتح ومنثوره ؟ وأنت تعلم أن شعر الكتاب فى الأعم الأغلب إن هو إلا مقطمات من جهة ، وليس من النسق العالى كشعر فحول الشعراء من الجهة الأخرى . ومن ثم كان مارأيناه من شعر الفتح على قلته شعراً وسطاً كما قال لسان الدين بن الخطيب . فمن شعره مما لم يرد فى كتبه :

لله ظبى من جنابك زارنى	يختال زهوا فى ملاء ملاح
ولى التماسك فى هواه كأنه	مروان خاف كتائب السفاح
فخلعت صبرى بالعرا ونبذته	وركبت وجدى فى عنان جماح
أهدى لى الورد المضعف خده	فقطفته باللحظ دون جُناح
وأردت صبراً عن هواه فلم أطق	وأربت جدا فى خلال مزاح
وتركت قلبى للصبابة طائرا	تهفو به الأشواق دون جَناح

ومنه قوله وقد أورده فى قلائده يخاطب أبا يحيى بن الحاج :

أكعبة علياء وهضبة سودد	وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئاً لملك زان افقك نوره	وفى صفحتيه من مضائك أسطر
وأين لخفاق الجناحين كلما	سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر	فبت وأحشائى جوى تتفطر
فهل لك فى ود ذوى لك ظاهراً	وباطنه ينـدى صفاء ويقطر

ومن منثوره مما لم يرد فى القلائد ولا فى المطمح قوله : مماليك أشهر رسوما ، وأعطر نسيما ، من أن يَغربَ شهاب مسماها ، أو يجدب لرائد مرعاها ، فان نبهتك فانما نبهت عمرا ، وإن استنزلتك فانما أستنير قمراً ؛ والأمير أيده الله تعالى أجل من أعتصم فى ملكه ، وأنتظم فى سلكه ، فانه حسام بيد الملك طلاقته فرنده ، وشهامته حده ، وقضيب فى دوحة الشرق رطيب ، بشره زهره ، وبره ثمره ؛ وقد توسمت نارك لعلى أفوز منها بقبس ، أو تكون كنار موسى بالوادى المقدس . وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه ، ويشف من أفقكم مصباحه . فجرد أيدك الله تعالى صارم عزم لا يفل غروبه ، وأطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه ... « وأما بعد » فان أردت التروّى من منثور الفتح وبدائعه ، فعليك بالقلائد والمطمح ، فهما بحق نهران يزخران بالمعجب والمطرب ، رحمة الله على هذا الأديب الأندلسى العبقرى المبدع . . .

(تم البحث)

عبد الرحمن البرقوقى

بمناسبة ذكرى المتنبي الألفية

دُنيا المُتنبي

إن أهنت الدنيا فانك دنيا
كلها عزة ونبل وجود

للسيد أمجد الطرابلسي

هكذا المجدُ ! همةٌ وصعودُ   وحياةٌ بعد الردى ، وخلودُ
هكذا المجدُ ! صيحةٌ تملأ الأر   ضَ كما تملأ الفضاءَ الرعودُ
هكذا المجدُ ! ومضةٌ تبهرُ العيـ   ـنَ ، وتُجلى بها الليالي السودُ
هكذا المجدُ ! فرحةٌ لبني الأر   ضِ وللأرضِ والسماء وعيدُ
هكذا المجد مجدُ « أحمدَ » لحنٌ   في سماعِ الدنيا له ترديد
نفحةٌ من خمائلِ الخلدِ ريا   بشذاهُ ، وبلبلٌ غِرِّيد

* * *

يا نبيَّ القريض كم لك بيتٍ   ملأ الخافقين وهو شرودُ !
كم خطاب فصْلٍ ، وكم مثلٍ سا   رَ فأبلى القرونَ وهو جديد !
سائلِ الأعصرَ الطوالَ أأودى   لك فيها بيتٌ ومات قصيد ؟
يتوالى المدى وشعرُك باقٍ   وتشيخ الدنيا وأنت وليد
شعرُك المستفيضُ في عُنُقِ الأ   يامِ دُرٌّ ولؤلؤٌ منضود
أيُّ سلوى عن الزمانِ يراها   في قوافيك بائسٌ منكود
أيُّ سلوى عن الحبيبِ يراها   في قوافيك ناكلٌ مفؤود
شعرُك النارُ للجبانِ سلاحٌ   وعتادٌ وعزمةٌ وجنود
وهتافٌ يهبُّ بالنكس حتى   يردَ الكالحات وهو جليد
يستثيرُ الأسرى على الظلمِ حتى   يتنزى المقيَّدُ المصفود
ويَهُزُّ الدنيا على الجورِ حتى   تتنزى سلاسلٌ وقيود

* * *

أيُّها الشاعرُ الذي أطربَ الأجـ   ـيالَ منه الإنشادُ والتغريد
وغدا الدهرُ راوياً ومُعيداً   لأغاريده ، وجلَّ المعيد
أيُّها الشاعرُ الذي سحرَ الأسـ   ـماعَ حتى كأنه داود
وتغنى بلحنه الفلكُ الدوّا   رُ واليمُّ والرُّبى والبيد
ملْءُ صدرِ الزمانِ حكمتُك المُثـ   ـلى وإنشادُك القويمُ السديد

« أنتَ في شعرِكَ العظيمِ نبيٌّ »   مرسَلٌ ملهَمٌ وأفقٌ مديد
وفحولُ القريضِ بعدك يرويـ   ـهِمْ على الدهرِ بحرُك المرفود
هكذا الشعرُ نعمةُ اللهِ في الأر   ضِ تغنى بها الهوى والنجود
يتخطى الزمانَ جيلاً فجيلاً   ويبيد القرونَ وهو خلود

* * *

يا ابنَ حمدانَ أنت لولا أبو الطيـ   ـبِ أنّى لذكرك التخليد
أنتَ أوليتَهُ العطايا جزافاً   والعطايا مع الزمانِ تبيد
وحباكَ الخلودَ في مصحفِ العزِّ   م وهذا هو الندى والجود
أنت لولاهُ ما رأيناكَ في السا   حِ ، وللحربِ ضجةٌ وبنود
تصدعُ الجحفلَ الألفَّ بسيفٍ   مصْلَتٍ حُرِّمَتْ عليه الغمود
باسماً تطلبُ الردى مستميتاً   والردى منك خائفٌ مكدود
وفلولُ الأعداءِ تبغي عن المو   تِ محيداً وليس ثمَّ محيد
كلهم يصرخُ النجاةَ ويطوي   صفحاتِ القفارِ وهو شريد
صورةٌ للنضالِ عيني تراها   في ارتياعٍ ، ومنظرٌ مشهود

* * *

يا أبا الطيبِ الزكيِّ من الوحـ   ـيِ ويا أيها الحديثُ الفريد
إنْ أهنتَ الدنيا فإنك دنيا   كلها عزةٌ ونبلٌ وجود
قد أبيتَ الرياءَ والكونُ ختْلٌ   ورياءٌ وخدعةٌ وسجود
وحقرتَ الدنيا يموجُ بها الشـ   ـرُّ وتغلي مطامعٌ وحقود
وسئمتَ الحياةَ رنَّقها الظلـ   ـمُ وأودى بصفوِها التصريد
يتلوى النبوغ فيها من الجو   عِ ويعلو عروشَها الرعديد
آفةُ المرءِ في الحياةِ شعورٌ   مستفيضٌ وخافقٌ مجهود
ونصيبُ الإنسانِ بين الجلاميـ   ـدِ عذابٌ وحرقةٌ ونكود
وأخو النبلِ والإباءِ بغيضٌ   تتجافى عنه الرفاقُ ، وحيد
مستضامٌ يطوي الحياةَ كميداً   وهو في مرِّ عيشِه محسود
يئدُ العمرَ في ترابِ التمني   والأماني لوعةٌ وجهود

* * *

يا أبا الطيبِ السنيَّ من الذكـ   ـرِ ويا أيها الثناءُ الحميد
ما الذي أشتكي إليك وقلبي   مفعمٌ موجع ، ودمعي بديد
قد شكوتَ الزمانَ والمجدُ مجد   عربيٌّ ، وغصنُه أملود

وملِلْتَ الحياةَ فى ظلِّ «سيفٍ»   وهْوَ فَحْلُ العُروبةِ الصِّنْديد

فلعَمرى ماذا نبثُّ ونشكو   بعدَ أن صوَّح التراثُ المجيد؟

قد عفا المُلكُ وانطوى كلُّ عزٍّ   وهوىٰ العرشُ والبناءُ المَشيد

«وغدا الحُرُّ من بنى الصَّيدِ عبداً   بينما العبدُ سيِّدٌ معبود» (١)

وتمشّى الصَّغارُ فوق شبابِ الـ   ـمجد يختال هازئاً ويسود

وبنو الصِّيد نائمونَ على الضَّيْـ   ـمِ فلا غُصَّةٌ ولا تنكيد

يا أبا الشعرِ أين منك دوىٌّ   هو للظلمِ والطغاةِ وعيد

أين صَيْحاتُكَ التى تتنادىٰ   بصداها يومَ الزِّحامِ الأسود

قُم وصَرِّخْ بين الغُفاةِ مُهيباً   فلقد طالَ بالنِّيامِ الهجود

وأثِرْ نخوةَ الضراغمِ حتى   يُرْخِصوا كلَّ مُهجةٍ ويجودوا

وصْمةٌ للخلودِ أن تمَّحى العُرْ   بُ، ويَبْلى لِواؤُها المعقود

ويصيحُ العفاءُ فى رَبْعِها القَفْـ   ـرِ، ويُطوى حديثُها الممدود

***

يا أخا المجدِ والمكارمِ ماذا   فى حياةٍ نعيمُها تعقيد؟

لو تَرَكتَ الدنيا وأهوالَها السُّحْـ   ـمَ، فإن الحياةَ فيها جُدود!

أنتَ تَبغى السماءَ والجَدُّ يأبى   وتروضُ الزَّمانَ وَهْوَ عنيد

قد رَكبتَ الأهوالَ فى دَرَكِ المُلْـ   ـكِ فلا راحةٌ ولا تهجيد

وقطعتَ القِفارَ بحملِكَ الشَّوْ   قُ ويحدوكَ حلمُكَ المنشود

عزمةٌ دونها السُّيوفُ المواضى   وإباءٌ، وَهِمَّةٌ لا تميد

وَمَضاءٌ يستعذِبُ الموتَ وِرْداً   ويفُلُّ الصُّروفَ وَهْو حديد

وإذا النفس دلَّهت بمُناها   فالمنايا خمائلٌ ومُهود

حُلُم يستبيك فى أُفقِ المجْـ   ـدِ بَهِىٌّ، لا أعيُنٌ وخدود

وقدود القَنا سَبتْكَ غراماً   لا قدود عاجِيَّةٌ ونُهود

رُضْتَ صَعبَ الفلا وجُبْتَ الصحارى   ظامئاً يطَّبيكَ وِرْدٌ بَرُود

«وشَقَقْتَ النَّوى إلى العِزِّ» حتى   جاءكَ الموتُ فى المطافِ يصيد (٢)

فرميتَ السِّلاحَ بعد حياةٍ   كلها ثورةٌ وجَهد جهيد

ولقيتَ الجِمامَ فى كنفِ المو   تِ وقد عزَّ فى الحياة الهُمود

ثُمَّ ضاقَ الثرى الرحيب وضاقت   عنك يا ابنَ الخلودِ هذى اللُّحود

فمحتْ قبرَكَ السِّنون المواحى   ومشى فوقهُ الزمانُ المبيد

مُتَّ إلا صداك فهْو مُرِنٌّ   هازئٌ بالمَدى الطويل، شديد

إن عفا قبرُكَ الضئيل فأنت الـ   ـيومَ فى كلِّ خافقٍ ملحود

أوْ خبا لحنُكَ الجميل فأنتَ الـ   ـيومَ فى مِسمعِ الزمانِ نَشيد

(دمشق)   أمجد الطرابلسى

(١) إشارة إلى قول أبى الطيب: الحرّ مستعبد والعبد معبود

(٢) إشارة إلى قوله:

ومن كان قلب كقلبي له   يشق إلى العز قلب النوى

الشتاء فى انجلترة

(ذكرة)

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقدمة:

يسقط الثلج فى انجلترة شتاء على شكل حبات الدقيق فيعلو الأرض والمنازل والأشجار، فيخيل للرائى كأنما قد كسيت الدنيا كساء من القطن، وكأن النهار ليلة مقمرة، وكأنما بياض الثلج من أثر بياض أشعة القمر؛ وتذكى النار فى المواقد فى البيوت، فكأن ألوان النار ألوان الأزهار الزاهية فى جنة الربيع؛ وتذكى نار المواقد وجنات الوجوه، فكأن فى المواقد جمرا، وفى الوجوه جمراً؛ وتبحث فى القلوب فترى نار الحياة وشرتها، وترى الحب والآمال لم يغض منها برد الشتاء وثلجه   (الناظم)

نشر الضريبُ على البسيطة حلة   بيضاء تمحو غبرة الغبراء

يسعى على وَضَح النهار كأنما   يسرى الفتى فى ليلة قمراء

فكأنَّ نورَ البدر ماحَلَّى الثرى   برواء تلك الحلة البيضاء

غلب البياض على اصفرار أشعة   تهب النهارَ من اصفرار ذُكاء

وعلى المساكن كسوة منه كما   تعلو المفارقَ شيبةُ الشمطاء

فاذا مشابهة المشيب كدعوةٍ   للنفس أن تنأى عن الأهواء

وإذا استراح لِمُقْفِرٍ من لونه   راءٍ ترى الأحلامَ عينُ الرائى

وكأنما فى عالم الأرواح يسـ   ـعى من سعىٰ لا عالم الدقعاء

وكأن زهراً أبيضاً غطَّى الثرى   برواء ثوب الروضة الغناء

ولكل لون حسنه كالليلة الـ   ـليلاء أو كالقبة الزرقاء

ولربما اختلف الجمال وفعله   متشابهٌ فى أخذة الصهباء

مؤتمر القلوب

للأستاذ محمد السيد زيادة

بقية المنشور فى العـــــدد ١٣٧

وبقيت حزيناً مطرقا أتفكر فى أساليب الشقاء على الأرض حتى أخرجنى من الحزن قلب رأيته حائراً بين القلوب موزعا عليها مجنحا فوقها !! يجد قلبا آسيا فيميل اليه مشفقا عاطفا يسأله عن قصته ثم يواسيه ويعزيه ، ويظل مائلا اليه بشفقته وعطفه حتى يتأكد أنه خفف عنه بعض ألمه . ثم يتركه ويمضى فى المجتمع نائحاً يردد فى نوحه صدى القصة التى سمعها من ذلك القلب ، ويذيع سرها منمقا ، ويصورها مجسمة ليتأسى صاحبها ويستعبر سامعوها ... ثم يصادف قلباً آخر ذا متربة فيبذل له قسطه من دموعه ومن عزائه ، ثم يمضى إلى سبيله فى المجتمع موضحا ما غمض شارحا ما تعقد . وهكذا رأيته كالطائر الغريد يقضى كل وقته متنقلاً بين الأدواح والغصون يتسمع الهمس والنبض والأنين ، ويتغنى بما يصل الى حسه من شجو القلوب وأساها ، فيصرف فى ذلك راحته وهدوءه . ويتهافت على ذلك كأنما هو يؤدى وظيفة يحتم عليه الواجب أن يؤديها

قلت : قلب مَنْ هـذا القلب المؤمن العطوف الذى يعذب نفسه فى راحتنا ، ويصب علينا من مشاعره حنانا ورحمة ، وينساب بيننا كما ينساب الجدول فى الحديقة بين مختلف الزهور يغيث منها الظامئ ، و يَنْعَشُ الذابلَ ، ويُرقص المنتعش ؟

قالوا : هذا قلب شاعر . . . وما خلق الشعراء إلا رحمة للعالمين . . . قلب كريم يتعذب بين الناس بحنانه ، ليزرع الحنان فى قلوبهم بعذابه ؛ فتُريَنا حياته كيف تكون حياة الملائكة إذا صاروا من بنى الانسان . إن فى أحنائه لعالماً فسيحاً تمتزج فيه آلام الناس بآلامه هو فتكون كتلة واحدة من الألم يتفجر من بينها ينبوع فوّار من الرحمة ينهل منه كل بائس

لكأنما هو مكلف باستخراج مصيبة لنفسه ، من كل مصيبة تنزل بغيره ، أو مرسل من عند الله لتخفيف أشجان مخلوقاته . فكم يفتش فى مناحى الحياة عن مآسيها وعِبرها ليتحمل نصيباً منها ! وكم ينقب فى أغوار الكيان عن خفاياه ومكنوناته ليحدث الناس عنها ! وكم يكدّ ليخلق من كل ما حوله جنة لكل من حوله !

***

ولما أنى للمؤتمر أن يبدأ عمله وجدتُ قلب الشاعر أظهرنا اهتماما ، وأشدنا فرحا ، وأكثرنا حركة . وما كدت أعجب لهذا حتى عجبتُ لأكثر منه إذ علمت أنه هو الداعى إلى هذا المؤتمر

وساد السكون فترة ثم وقف قلب الشاعر يقول : دعوتكم إلى هنا اليوم يا اخوانى لأنادى فيكم بالوئام فهل أنتم مجيبون ؟ إذا كان ذلك ، وما أظن إلا ذلك ، فلنجمع إذاً أمرنا على اقرار المحبة ، وتبادل الوداد والاخلاص بيننا ؛ ولنترك إذن كل مايتعلق فى أهداب الحياة من المساوئ والمكاره التى اذا وقع أحدنا فى إحداها وقع فى أخس الصفات وبات مذموما ممقوتا ؛ ولنتنصَّلْ إذن من شىء بغيض اسمه البغض ، ومن شىء كريه اسمه الكراهية ؛ ولنتجنب الوضاعة فى تجنب الحقد ، ولننبذ الأنانية فى نبذ الحسد

لنشرع لنا يا إخوتى سَنناً جديداً ، ونمشى فى نوره الى المثل الأعلى لنقاوة القلوب . كونوا جميعاً عصبة واحدة كلمتها الدائمة : نحن إخوة فليس بيننا إلا ما فى الاخاء من إخلاص ووفاء ـ كونوا جميعاً قلباً واحداً لا يحمل غير الايمان والحب

قال قلب الشيخ المصلح : أكرم بك يا قلب الشاعر !! لقد قلتَ ما أحبُّ دائما أن أقوله وأن أعمل له . إنك لصورة منى فى قالب الجرأة ، وإنى لصورة منك فى قالب الحياء

ثم تحول إلى الجمع وقال : انصتوا له يا أعضاء المؤتمر ،

وإذا المواقد فى البيوت تضاحكت
من شـــدة الايقاد والإذكاء

خلت الربيعَ سعى اليك بحفله   والنارَ زهرَ الجنـة الفيحاء
يُذكى الوجوهَ لهيبُها فتراها   جمرين يشتعلان فى الظلماء
ماغض من دفء الحياة ونارها   ثلج الشتاء على ثرى الغبراء
الحب والآمال فوق متونه   كالحب والآمال فى الصحراء

والقلب قلبٌ حيث كان اذا ذكت
نار الشـــباب وشِرَّةُ الأحياء

عبد الرحمن شكرى

وأطيعوه ، إنه يدعوكم إلى السلام

قال قلب الشاب الساذج المغتر وهو يرقص كالطفل يرى لعبة جديدة له فى يد أمه : مرحى ... مرحى ... جاء السلام ... نعم السلام ؛ فلنتسارع جميعاً اليه ولنستبشر بالهدوء والطمأنينة

قال قلب الرجل المفسد : كأن لك غرضاً خفياً من وراء ندائك هذا ياقلب الشاعر ! ! فأنت تدعونا الآن إلى الانصراف عما خلقنا له من عمل وجهاد ، والركون إلى ما خلقنا لنحاربه من خمود واستسلام

قال قلب الشاعر : صه ياهـذا القلب المتكلم ... ماذا فى السلام من الخمود والاستسلام ؟ وهل معنى العمل والجهاد أن نتسابق فى الضغائن والأحقاد ؟ اعملوا وجاهدوا ولـكن فيما فيه الخير والنفع تعيشوا فى حدود السلام سالمين

قال قلب المفسد : وكيف نسلم إذا كانت نواميس الطبيعة تحتم علينا أن تختلف طباعنا ، فنختلف بها ، فيأخذ كل منا منهجا لنفسه ، فتتعدد الأحوال بتعدد المناهج ، فتنجم المشاكل فتخلق العناد ، وتستلزم العمل والجهاد

قال قلب الشيخ المصلح : ما أخطرك أيها القلب على كل محيط تندس فيه ! ! إنك لخبيث وتدافع عن الخبث بقوة هى فجور الخبث وتسلطه وانتقاله من طور الداء الى طور الوباء . لماذا لم يتكلم غيرك منابذاً دعوة السلام ، محاولا تفنيد الرسالة التى حملها الينا قلب الشاعر ؟ ولماذا لم تبدُرْ من غيرك نُذُرُ الخلاف ووسائل الشر ؟ أليس هذا لأنك مجبول على الخسة وحقارة المبدأ ؟ . . . ما أقل شأنك عند الله ، وما أبعدك عن رحمته ، وما أحقك بأن تكون سخرية لـكل ساخر !

قال قلب الشاعر : لقد فسد خلقُه ، ثم أعلن فى هذا المؤتمر فسادَه ، ثم دافع عنه الصلاح ، ثم أراد أن يجعله نهجاً نتسقل فنعمل به جميعاً . . . . ليس بعد هذا حضيض لمنحط ، أو قرار لنازل من مستوى الآدميين على دركات منها الوقيعة ، ومنها النميمة ، ومنها الدس ، ومنها الرياء ؛ وآخرها التبجح فى كل ذلك ! ! أخرجوه عنا وأبعدوه

فانقضضنا عليه وطردناه ، وكان كل منا يشعر إذ ذاك بأن هذا القلب رذيلة تتحكك به ، فاتحد شعورنا فشعرنا كلنا بأنه رذيلة تريد أن تسلك سبيلها المظلم فى المجتمع ، فوجب علينا أن نصدها ، بل وجب علينا أن نمحوها ... ولما طُرد من بيننا ذلك القلب الشرير ، أو ذلك الشر المتسلط ، أو ذلك الخطر المتسلل ، اسوأ الطرد كانت لا تزال بيننا قلوب من طبقته ، تعمل على شاكلته ، فتوجست خيفة ، وتضاءلت ، وانمحت النجاة ، واندحت الخبايا . ولـكنها كانت مع هذا حريصة على أن تظل مدسوسة فى المؤتمر ، أو مخبوءة فى مسمع مما يدور فيه لتشبع غريزة حب الاستطلاع التى هى احدى لوازم عملها ، وإحدى دعائم حياتها

وعرفناها فألحقناها بزميلها الذى فضح نفسه حين تكلم ، فكان شراً على نفسه حين أراد أن يكون شرا علينا ، وانقلبت عليه سيئات ما عمل قبل أن تصل الينا

***

ووقف قلب الشاعر يكرر نداءه ، ويستكمل رسالته ويقول : أحسب الآن أننا نجونا من الرذائل بطرد دعاتها ومحبذيها ، وأعتقد أننا سنحارب القلوب المضرة ما استطعنا حتى تصير مثلنا أو تنقرض ، وأن كلاًّ منا قد آمن بنعمة السلام ، وأننا قد أصبحنا إخوةً ، ولـكن تظل أخوتُنا ناقصة حتى نسبغ عليها شيئاً ضرورياً لها هو روح الأخوّة . . . فينظر بعضنا الى بعض دائماً نظرة الاحترام الخالية من الاستصغار أو الاستنكار أو الاستهتار ، وإن يكن منا قلب ضئيلا فى كونه ، قليلا فى شأنه . . . فليكن بيننا كبيراً فى مقداره ، كثيراً فى اعتباره ، وليكن شعوره محترماً كـكل شعور

فاستاء قلب الجبار وقال : ياعجباً ! ! كيف يساغ أن نعامل الضعيف كما نعامل القوى ؟ ؟ وكيف نجلُّ ذاكَ كما نجل هذا ؟ وكيف نعتبر ذاك فى ضعفه كما نعتبر هذا فى قوته ؟ ألا يكون فى ذلك خلط ، وتزييف فى الحقائق ، وغبن للـكرامة ، وتشويه للحياة ؟ . . . . إنها لمساواة فاشلة باطلة ، كالمساواة بين الخادم وسيده ، أو بين الطفل وأبيه . فلا العقل يتصورها ، ولا الطبيعة تقيمها ، ولا ظروف المعايش تبيحها

قال قلب الشاب الساذج المغتر : أجل ... أجل .. هذا هو الصواب ؛ فالقوى لا يمكن أن يقبل الضعيف عدلا له أو شبيهاً به ، لأن القوى لا يستطيع أن يهبط حتى يعيش عيشة الضعيف ، والضعيف لا يستطيع أن يعلو حتى يعيش عيشـة القوى ؛ فليكن القوى فوق الضعيف ، ولتكن القوة موضع الاحترام

قلت أنا أخاطب قلب الجبار : أنت واهم أيها القلب المتجبر

يحسب أن الصدارة للقوى يعمل مايشاء فيرتاح الجميع لما يعمل ؛ ثم يأبى عليك جبروتك أن تساوَى بمن يقل عنك قوة ومكانة ؛ ولكن هوّن عليك فانك لم تُدْعَ إلى ما فيه غبن لكرامتك أو حطم لكبريائك ، وإنما دُعيتَ إلى ما تعد كريما لو فعلته . دعيت إلى تبادل المحبة مع القوى والضعيف على السواء ؛ فبقدر قوتك يحسب على الضعيف كرمُك ، وبقدر كرمك يُعتبر تواضعك ، وبقدر تواضعك يكون سموُّك

نحن نعرف أنك قوى ، ونعرف أنك لست وحدك القوى ، فأ كثر ما ذو قوة ... وإن لم تكن قوته فى بنيته ففى صلابة إيمانه ، أو فى طيبة عنصره ، أو فى طهارة نزوعه ، أو فى عزّته وإبائه ؛ وقد ينقصك شىء مما فى غيرك من هذا كما ينقص غيرك شىء مما فيك من القوة . فلنقدر كل هذه الصفات ، ولنعلم أن القوة ما هى إلا واحدة منها

قال قلب الشاعر : ليس ذنب الضعيف أنه ضعيف ، لأنه خلق كذلك فلم يُدْخل شيئاً جديداً على خلقته ؛ والقوى يكون مذنباً إذا اختال بقوته ، لأنه يدخل باختياله عيباً كبيرا على خلقته . . . .

* * *

وكنت أظن أن عمل المؤتمر قد انتهى إلى هذا ، ولكن وقف قلب الشاعر مرة أخرى يستكمل رسالته ويقول :

مادمنا اخوة ، ومادمنا نشعر بروح الأخوّة . . . . فعلينا واجب هو آخر واجباتنا غير أنه أهمها ، هو أن نقدم العون والمواساة لمن كان منا منكوباً أو مكروباً ؛ فمثلا هذا القلب - وأشار الى قلب الومس بجانبى فبكى - كم يألم ، وكم يكتم ألمه ، لأنه لا يجد من يشكوه اليه ، وإن وجد فانه لا يجد من يواسيه فيه ، فيبكى وحده كلما انفرد فتذكر ، أو كلما اجتمع فتفكر - بكاء الصابرين على غير أمل ، والأحياء فى غير رجاء

فأقبلنا جميعاً على هذا القلب المسكين نواسيه ، حتى انفرجت كربته ؛ ثم أخذنا نتشاكى ونتناجى ونتواسى ؛ ثم أقبلنا على قلب الشاعر نكبره ونصافحه ونحييه ، ثم انفض المؤتمر

ولما خرجت من التفكير والحلم ، ثم عدت كما أنا شخصاً فى صدره قلب ، قلت : آه ! ! كم يعيش العالم سعيدا لو اتحدت قلوبنا فاتحدنا ؛ وكان أساس اتحادنا الأخلاص !

(طنطا) السيد محمد زيادة

بين المتنبي وسيف الدولة

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

عادر المتنبي أرض مصر وشعوره لأميره السابق سيف الدولة نستطيع أن نجمله فى بيتين قالهما المتنبي وهما :

فارقتكم فاذا ما كان قبلكم ... قبل الفراق أذى ، بعد الفراق يد
إذا تذكرت ما بينى وبينكم ... أعان قلبى على الشوق الذى أجد

فهو قد خرج من مصر ونفسه توافة إلى سيف الدولة ، مشتاقة إلى الاستظلال بكنفه ، لأن آماله التى غرسها عند غيره لم يجن منها غير الخيبة والندامة ؛ ولم يكن اشتياق سيف الدولة إلى لقاء المتنبى بأقل من ذلك ، فقد أحس بعد فرقته بفراغ لم يملأه شاعر ممن حوله ، ورأى بلبله الغريد قد طار عن أيكته ، وحط عند غيره ، ولم يكن أحب إليه من عودته ، كما دلت على ذلك فعال سيف الدولة بعد أن فارق المتنبى أرض مصر ، وهو إحساس كان من السهل على المتنبي أن يستثمره وأن يقصد تواً أرض سيف الدولة ، ولكنه لم يفعل لأمور نستطيع تلخيصها فيما يأتى :

أولاً ما فطر عليه المتنبى من سمو النفس والعظمة التى كانت تملأ جنبيه ، فقد عز عليه أن يلجأ إلى من فارقه مغضباً منه ، وأن يذهب إلى من فرّط فيه ولم يبق عليه ، بل سمع فيه قول الوشاة

وثانياً هذا الشعر الكثير الذى قاله مضطراً تحت عوامل نفسية ، وعوامل خارجية وثورة واضطرام عواطف ، وسب فيه سيف الدولة ، فلم يجد من اللياقة أن يقصد من هجاه ، ورأى فى ذلك غضاضة لا يسيغها ولا يقبلها

لم يذهب المتنبى إذاً إلى سيف الدولة ولكنه قصد الكوفة ، وهناك كثيراً ما ذكر أيامه السالفة لدى الأمير وعهده الغابر ؛ أما سيف الدولة فقد نسى كل ما ذكره المتنبى عنه حينما كان بمصر وأرسل إليه ابنه بهدية ، فلم يجد المتنبي ما يشكره به سوى شعره ، فكتب إليه قصيدة بدا فيها ما يكنه من جميل الذكرى وفيها يقول :

كلما رحبت بنا الروض قلنا ... حلب قصدنا ، وأنت السبيل
والمسمّون بالأمير كثير ... والأمير الذى بها المأمول
الذى زلت عنه شرقاً وغرباً ... ونداه مقابلى ما يزول
نقص البعد عنك قرب المطايا ... مرتمى مخصب وجسمى هزيل

إن تبوأتُ غير دنياي دارا   وأتانى نَيْل فأنت المنيــل

من عبيدى إن عشت لى ألف كافو   ر ولى من نداك ريف ونيــل

ولا ينسى فى تلك القصيدة أن يسمعه تلك النغمة القديمة التى كان يطرب بها مسامعه أيام كان فى كنفه ، فهو يحدثه عن حربه مع الروم وطول عراكه معهم ، لأن تلك النغمة أعذب نغمة لدى سيف الدولة ، فهو يقول له :

وموال تحييهم من يديه   نعم غيرهم بها مقتول

فرس سابق ، ورمح طويل   ودلاص زُغف وسيف صقيل

أنت طول الحياة للروم غاز   فمتى الوعد أن يكون القفول

تلك القصيدة تشعرك حقاً بأن المتنبي يحفظ أجل الذكريات لأميره ولا ينساها . ثم لما ماتت أخت سيف الدولة وورد نعيها العراق وسمع به المتنبي أبت عليه نفسه إلا أن يكون له نصيب من الحزن عليها فرثاها بقصيدة تدلك حقاً على وجدان متألم ، وأنه يحزن لحزن أميره القديم ويرثى لمصابه ، وفيها يقول :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر   فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت   فكيف ليل فتى الفتيان فى حلب

يظن أن فؤادى غير ملتهب   وأن دمع جفونى غير منسكب

بلى وحرمة من كانت مراعية   لحرمة المجد والقصاد والأدب

فأنت ذا تراه ينفى عن نفسه أنه لم يشارك أميره فى الحزن ويقسم له بحرمة الفقيدة ثم يقول :

يا أحسن الصبر زر أولى القلوب به   وقل لصاحبه يا أنفع السحب

وأكرم الناس لا مستثنياً أحدا   من الكرام سوى آبائك النجب

ولعل رغبة سيف الدولة قد اشتدت فى أن يكون المتنبي إلى جانبه فأرسل إليه كتاباً بخطه إلى الكوفة يطلب منه أن يسير إليه ، فأجابه بقصيدة فيها عتاب جميل واعتذار عن التخلف ، ومدح لسيف الدولة ؛ ولعل المتنبي بذلك المدح يريد أن يعوض على سيف الدولة فقده ؛ واستمع إليه يعتذر ويقول :

وما عاقنى غير خوف الوشا   ة، وإن الوشايات طرق الكذب

وتكثير قــوم وتقليلهم   وتقريبهم بيننــا والخبب

وقد كان ينصرهم سمعه   وينصرنى قلبــه والحسب

وما قلت للبدر أنت اللجيـ   ـن وما قلت للشمس أنت الذهب

فيقلق منه البعيـد الأناة   ويغضب منه البطىء الغضب

ويمدحه ويقول :

وما لاقنى بلد بعـــدكم   ولا اعتضت من رب نعماى رب

وما قست كل ملوك البلاد   فدع ذكر بعض ، بمن فى حلب

أفى الرأى يشبه أم فى السخا   ء أم فى الشجاعة أم فى الأدب

ثم يمضى مادحا معيداً على أذنه تلك النغمة القديمة – كما قلنا – نغمة مدحه بقتال الروم

تلك علاقة المتنبي بسيف الدولة وهى علاقة لا تتعدى المراسلة ، وقد يقال : أما كان من الخير للمتنبي أن يذهب إلى سيف الدولة بعد أن دعاه ؟ ولكن إذا علمنا ما كان يخشاه المتنبي من الوشاة وأن المأساة ربما تتكرر خففنا من لومه والاعتراض عليه

لم يلق المتنبي إذاً سيف الدولة بعد أن فارقه حتى قتل ؛ أما شعور الأمير ساعة علم بمقتل شاعره القديم فان كتب الأدب إذا كانت لم تحدثنا عنه فمن السهل علينا فهمه ، إذ ليس من اليسير على سيف الدولة تقبل مثل هذا الخبر من غير أن يحزن له وأن يتألم من أجله فى صميم فؤاده

أحمد أحمد بدوى

٧ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراق

وكان لموقع عدوى خطورة خاصة من حيث الاحتشاد فى « ادجرات » حيث يوجد طريق يربط عدوى بأسمرة توا بعد أن يمر بغوندت ويقطع خط الاتصال على القوات فى ادجرات ، وإذا أرادت الانسحاب تكون القوة الحبشية فى عدوى قد سبقتها الى اسمرة ، بينما موقع أسمرة خطير وهو واقع على عقـدة الجبال ويستر ميناء مصوع

نعم يوجـد طريق آخر يربط ادجرات بزولا فى جنوبى مصوع وتستطيع القوات أن تتمون وتنسحب بواسـطته إلى السـاحل عند الحاجة ، بيد أنه لا يستر الميناء « مصوع » ، وهذا الميناء هو القاعدة لجميع الحركات ومنه تتمون حاميات « كرن » و « كسلا » ، ولم يكن البريطانيون راغبين فى اخلاء كسلا قبل أن يقضوا على حركات المهدى تماما

وقد أدى جمع القوات فى ادجرات إلى مجابهة القيادة الطليانية مشكلة التموين . وكان فى عدوى مقدار كبير من الذخائر اضطر الطليان الى اتلافه لما انسحبوا منها . ولم تكف وسائل النقل لنقل المؤن . وبدلا من أن يموّنوا الوحدات الأهليـة أخذوا يدفعون اليها الدراهم بدلا من الأرزاق ، بينما كانت الأرزاق قليلة ، وكانت الأحوال جميعاً تدل على أن الطليان وقعوا فى مأزق لا يمكنهم الخروج منه إلا بصعوبة

فأرادت الحـكومة الطليانية أن تنقذ الموقف بارسال قوات جديدة الى اريترة ، وقررت من جهة أخرى إنزال القوات فى ميناء زيلع للتقدم نحو هرر واستمالة المسلمين الى جانب إيطاليا وتهديد العاصمة « أديس ابابا » ، فتضطر القوات الحبشية الى الانقسام . بيـد أن حكومتى بريطانيا وفرنسا لم توافقا على إنزال القوات الطليانيـة فى ميناء زيلع فى الصومال البريطانى لأنهما كانتا قد اتفقتا على اعتبار مقاطعة هرر من الأملاك الحبشية . وهـذه المقاطعـة الـكثيرة السكان تتجر مع المستعمرتين الفرنسـية والبريطانية ، ولـكلتا الدولتين منافع خاصة فيها

والذى زاد الطين بلة أن الخلاف ظهر بين القيادة الطليانية فى اريترة وبين الحـكومة الطليانيـة فى رومة . وكانت البرقيات التى يرسلها رئيس الحـكومة « كريسبى » تندد بأعمال الجنرال بازاتيرى ، وكلما ورد خبر مؤلم الى ايطاليا تثور زوبعة فى رومة تنتهى بارسال برقية شديدة اللهجة الى حاكم المستعمرة وقائدها

ومن هذه البرقيات البرقية التالية التى أرسلها رئيس الحـكومة إلى الحاكم العام بعد وصول أخبار نـكبة « امبا — الاغى » :

« أرسلنا اليك أكثر مما طلبت ولا نزال نرسل . وإذا كان سبب المصائب عدم كفاية وسائلك أو قلة كفايتك فالويل لك »

وفى البرقية الأخرى يذكر ما يلى :

« يظهر لنا أن فى روحك شيئا من الخيبة والتردد »

وطلب الجنرال إرسال أربعـة عشر فوجاً وخمس بطريات جبلية ؛ بيد أنه لم يفكر فى كيف يتمكن من تموين هذه القوات بينما كانت القيادة عاجزة عن تموين أولئك الموجودين فى المستعمرة ، وكان يبحث فى القيام بالهجوم من جديد . وكان جواب « كريسبى » اليه ما يلى : « أنا لا أريد منك خطط حركات ، وإنما أرغب ألا تتـكرر الهزائم »

وفى ٨ يناير ١٨٩٦ أبرق الجنرال « باراتيرى » أنه لا يريد إرسال قوات لأنه لا يتمكن من تموين القوات الموجودة عنده . وبعد سقوط قلعة « مكلة » تأكد الجنرال من كثرة قوات الحبشة التى عسكرت بين « مكلة » وادجرات ، فقرر ترك مقاطعـة « تيجرى » والانسحاب بقواته إلى مصوع ، وطلب الموافقة على ذلك من رومة ، إلا أن الحكومة الطليانية لم تشاركه فى هذا الرأى ، وكان كريسبى يستهزئ بباراتيرى مبرقا اليه : « انك مصاب بالتدرن »

فلم ير الجنرال بدا من رمى الجيش الطليانى فى النار

٨ — قبل معركة عدوى

لما حاصر ما كونين قلعة « مكلة » عسكر منليك بجيشه بين القامة و « ادجرات » ، ولما سقطت « مكلة » وافق على ذهاب الأمرى مقابل مال تدفعه اليه الحـكومة الطاليانية . وكان رسول كريسبى يفاوض منليك فى هذا الشأن . وسافر الموظفون المدنيون أولا الى « ادجرات » ، وبعـد خمسة عشر يوماً سافر الجرحى والمرضى على البغال التى أخرجتها الحامية من القلعة لقلة الماء فيها

وقد أظهر النجاشى مقدرة حربيـــة بالاستفادة من سوق

الأسرى . ولم تكن القوة المحتشدة فى ادجرات قليلة ، وكانت القلعة حصينة ، والطريق الذى يصل مكلة بادجرات وعرا ، وعر مضايق حصنها الطليان لسدها فى وجه الأحباش . وكانت الجهة المعرضة للهجوم واقعة الى الجنوب ومسيطرة على الوادى فى انحدار شديد . وكان طول الخنادق حول القلعة ٧٥٠ مترا ، وكانت مواضع المدافع صالحة للرمى على مسافات بعيدة . وبلغت القوة المكلفة بالدفاع عن هذه الجهة ٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، وكان التقدم فى هذه الناحية يلقى عراقيل وموانع ، وقد لا ينجح الهجوم على الطليان لمناعة مواضعهم وكثرة مدافعهم ووفرة سلاحهم . واذا استطاع منليك أن ينقل جيشه من شمالى مكلة الى عدوى دون علم الطليان فانه يكون قد هدد طريق « اسمره ــ مصوع » وألجأ الطليان الى الانسحاب من ادجرات ، لأن التقدم من عدوى فى الجهة الشمالية الشرقية يقطع خط الرجعة على الجيش الطليانى

ولكن كيف يستطيع منليك القيام بالمسير الجنبى بهذا الجيش اللجب دون علم الطليان ؟ والأمر يتوقف على الخدعة ، والعرب يقولون : « رب حيلة تغنى عن قبيلة » . وسوق الأسرى وفيهم الجرحى والمرضى من مكلة إلى ادجرات هيأ هذه الخدعة ، فأنبأ منليك القيادة الطليانية بأنه سوف يوفد قوة من جيش ما كونين مع الأسرى لحراستهم . فساقهم يوم ٢٥ يناير على طريق «أمدرتا» ، وفى اليوم الثامن غير طريقهم الى « هوزن » بحجة أن الطريق الأول لا يصلح لسوق المرضى والجرحى ؛ وهكذا قدم جيش ما كونين على طريق « مكلة ــ هوزن ــ ادجرات » وبحراسة هذا الجيش سير منليك جيشه من معسكره الى عدوى . ولما وصل الأسرى الى ادجرات كان جيش منليك فى عدوى والتحق به بعد ذلك جيش ما كونين فاصبح مجموع القوة ٨٠٫٠٠٠ رجل

ولا ريب فى أن منليك أهمل أمر « ادجرات » واهتم بعدوى . والحقيقة أن لخط « ادجرات ــ عدوى » خطورة عظيمة من حيث السيطرة على مستعمرة اريترة ، أو سد الطرق فى وجه المهاجمين لبلاد الحبشة ، لأن الخط المذكور كما سبق القول يمر بذرى الجبال التى تؤلف الخط الفاصل بين حوضى نهر مارب ونهر تكاسا . واعتمد منليك على تفوق عدده وتيقن أن الضربة التى ينزلها فى عدوى تفتح له الطريق . وما دام هو فى عدوى فلا يجرؤ الطليان على التقدم فى الجهة الجنوبية الغربية

ولما وصل الجيش الى عدوى احتل الروابى الشرقية وتأهب للمعركة ، فاضطر الجنرال « باراتيرى » أيضا الى تغيير وجهة جيشه . فبعد أن كان متوجها الى الجنوب توجه الى الغرب

ولم يستعجل منليك القتال ، وكانت لديه مهمات أخرى يريد أن ينجزها قبل العمل ، وهى اراحة الجيش ، واحتلال المواضع المسيطرة ، وتسليح الأهلين فى المستعمرة ، وحثهم على الثورة على الطليان . فتظاهر بأنه يريد الصلح ، وشاغل الطليان بمفاوضات الصلح ، لحملهم على البقاء فى ادجرات . وطلب من الحاكم العام أن تجرى المفاوضات على الأسس الآتية :

اعتبار نهر مارب ونهر بلزة خط الحدود ، وتصحيح معاهدة كسلا ، والاعتراف باستقلال الحبشة . وهكذا أظهر للعالم أنه مسالم . بيد أن الجنرال « باراتيرى » أنبأه بأنه غير مفوض بقبول هذه الشروط ما لم يقف على رأى رومة

وفى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٦ نجحت تدابير منليك باغراء الأهلين الذين كانوا قد تطوعوا فى الجيش الطليانى مقابل راتب . وفى ١٤ فبراير ترك المتطوعون الجيش الطليانى وانضموا الى الجيش الحبشى وهاجموا قوة الستار الطليانية فى مضيق « اليطا »

وحاول قائد القوة فى هذه الجهة أن يحول دون انضمام المتطوعين إلى الأحباش وأرسل وراءهم فصائل طليانية على التعاقب ، الا أن المتطوعين أحاطوا بهؤلاء واضطروهم الى التسليم وساقوهم أسرى الى منليك ، فتشجع الأهلون بذلك وثاروا على الطليان ، واستولوا على طريق « ادجرات ــ سنافه » ، وقطعوا الأسلاك البرقية ؛ وطفق الطليان يشعرون بحرج الموقف إذ قلت الأرزاق ، لأن الثوار أخذوا يهاجمون القوافل على خط المواصلات ؛ وكانت القوافل تسير بحراسة حاميات قوية ببطء . وأخذ بعض فصائل الجيوش يتقدم نحو أسمرة لعبور نهر مارب والوصول الى « غودفلاسى »

(يتبع) طه الهاشمى

شعراء الديباجة

أدب البارودى وشعره

بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

أما وقد تحدثت إليك فى الفصول السابقة عن ألفاظ الشعر ومعانيه ؛ وبينت أن للشعر ألفاظاً ومعانى مختصين به ، لا يشاركه فيهما غيره من الكتابة والخطابة ؛ وأوضحت الفرق بين المعانى الشعرية وغيرها من المعانى البسيطة ؛ ومثلت لجميع ذلك بما أوضحت به الغرض من شعر القدماء والمحدثين ؛ فانى متحدث إليك اليوم عن شعراء الألفاظ فأقول :

قد يفرط بعض الشعراء فى تحسين الألفاظ وتجميل العبارات مع خلو الشعر من المعانى الحية ، والأغراض الملائمة للبيئة ، والتفكير المساير لثقافة العصر ، فلا ترى فى القصيدة على طولها ، بل فى الديوان على ضخامته صورة صادقة منتزعة من حياة الأمة ولا من حياة الشاعر نفسه ، بل يعمد الشاعر إلى معانى سواه من الشعراء المتقدمين فيرددها فى شعره ، ويحشو بها قصائده ، ويحاول أن يخدع القراء عن هذا التقليد بألفاظ يجيد تهذيبها ، ويحسن اختيارها ، ويجرى فيها على مذهب القدماء من الفخامة والجزالة والمتانة ، ومع هذه الفخامة وتلك الجزالة فانك تشعر فى مجموع القصيدة وفى كل بيت من أبياتها ببرودة الموت وسكون الفناء ، كأنك ترى جسما ميتاً يبدو الجمال على محيّاه ، وما يجدى الجمال مع فقد الحياة ؟ فانه مما لا نزاع فيه أن للمعانى كما لذوات الروح أزمنة محدودة تحياها ، وأعماراً ممدودة تعيشها ؛ وأن من المعانى ما ينقضى أجله بمجرد انقضاء الحادثة التى قيل فيها ، فاذا قيل بعدها عدّ من المعانى الرثة البالية ؛ ومنها ما يخلد على توالى العصور وتعاقب الأجيال ويظل جديداً على قدمه ، يغالب الزمن بما فيه من عناصر القوة والبقاء ، ويدافع العدم بما فيه من أسباب الحياة ، وذلك اذا تعلق المعنى بغرض عام فى حياة الانسانية جمعاء ، وصلح أن يتخذ مثلاً سائراً بين جميع الأحياء ؛ ومنها ما يخرج من فم قائله ميتاً ، كالسقط الذى لم يستهل صارخاً ، لا يستحق غسلا ولا تكفينا ، لأنه ولد دفيناً ؟ وكثيراً ما ترى ذلك فى شعر التقليد وقصائد المعارضات التى يجارى فيها الشعراء من تقدمهم من فحول الشعر وأعلام القريض

وبالجملة فمن عيوب الشعر التى لا تغتفَر أن يُعنى الشعراء بالألفاظ دون ملاءمة المعانى للبيئة التى يعيشون فيها ، ومسايرتها لثقافة العصر الذى قيل فيه الشعر

ومن هؤلاء المرحوم (محمود سامى البارودى) فقد كان رحمه الله غريباً فى مصره ، وصياغة عصر غير عصره ، ومغرّداً فى روض العلويين بأغاريد العباسيين ، ومُسمِعاً دولةَ اسماعيل وتوفيق ما لا يطرب له غير الرشيد وأمداده من أمراء المؤمنين ، فهو شاعر جاء متأخراً عن زمنه ، بعيد العهد بينه وبين أقرانه وأساتذته من أوائل العصر العباسى إلى أواسط القرن الرابع ، وهم الشعراء الثلاثون الذين اشتملت مختاراته الضخمة على كرائم قصائدهم ، وعيون شعرهم فى أهم أبواب الشعر وأجل أغراضه فى تلك العصور وهى المدح والرثاء والأدب والصفات والنسيب والهجاء والزهد

ولم يزل هذا الكتاب منذُ طبع حتى اليوم ينبوعاً صافى المورد ، ومنهلا عذب الشريعة ، يَرِدُه الأدباء والمتأدبون ظماء ، ويَصدُرون عنه رِواء ؛ فكم من أديب نابغ فى هذا الجيل قد تخرّج عليه ، وعَلَمٍ من أعلام البيان العربى كان مرجع بيانه اليه ، وشاعرٍ فحلٍ زكت شاعريته ، ونمت موهبته بالرواية عنه ، والأخذ منه ، ولسانٍ منعقِدٍ حلَّت عقدته عطالعته ، وانطلق من وثاق اللكنة عذا كرته ، وتعلّم صَقْل الألفاظ ، وعلوّ البيان ، واشراقَ الأسلوب بدوام النظر فيه ، ومحاكاة ما يعلِق بالذهن واللسان منه ؛ وكم خابطٍ فى ظلمات العجمة استوضح معالم العربية الصريحة ، وملامح الصور الشعرية الصحيحة بضوء مصباحه ، فهذه المجموعة فى حُسن ما اشتملت عليه من قصائد المولَّدين وجَدواها على الأدباء والمتأدبين ، وكثرة من تخرّج عليها من الشعراء المجوّدين ، أشبهُ الكتب بحماسة أبى تمام وإن اختص كل منهما بشعراء عصر ، فمختار أبى تمام مقطعات من شعر العربية الخالصة التى لم يشُبها توليد ، ومختار البارودى قصائد من شعر المولَّدين ؛ فحيث انتهى أبو تمام فى حماسته ابتدأ البارودى فى مختاراته ، فهو كالذيل له ، وان كان

أضفى من الثوب ، وقد كان يقال : إن أبا تمام فى اختياره ، أحسن منه فى أشعاره

وعندى أن البارودىّ يشبهه فى ذلك ، بل هو أولى منه بهذا الحكم الأدبى العادل

فجميع شعره ليس إلا تقليداً لشعر هؤلاء الثلاثين الذين اختار لهم ، ولا نزاع فى أن الأصل أقوى فى بابه من التقليد مهما بالغ المقلد فى احكام عمله ، وتنوق فى تقليده

أما أبو تمام فلم يقلّد أحدا فى شعره ، بل كان إمام مذهب شعرىّ خاص موسوم به ، معزوّ اليه ؛ لم يُسبَق فيه بأحد قبلَه ، وتابَعه عليه كثيرون ممن عاصره أو جاء بعده

وناهيك بما كابده البارودىّ رحمه الله من العناء والجهد فى جمع هذه الدواوين التى كانت تُعدّ فى عصره من نوادر الكتب ونفائس الخزائن ، وذخائر الكنوز الخطية التى لم تصل اليها يد النشر بطبع ولا نسخ ، إذ كان بعضها فى خزائن العظماء والسَّراة يتوارثونها فيما يتوارثون من ذخائر وطرائف لا يعرفون قيمتها ، ولا يدرون ما يُفعل بها ؛ وكان أكثرهم بل كلّهم من أمراء الترك الذين استوطنوا هذه البلاد واتصلوا بملوكها ، إما بالمودّة أو بالقربى أو بالعمل ، واستأثروا بالثروة الوافرة والجاه العريض ؛ وكانوا يحشدون فى خزائنهم تلك الكتب مباهين بعضهم بعضاً فى جمها ، لا فى نفعها ، وقد آل بعض هذه الخزائن الى دار الكتب المصرية من عهد قريب ، كمكتبة المرحوم طلعت بك وحليم باشا وغيرهما ، ويشهد الله ما فتح أكثر هؤلاء من كتبهم سِفرا ، ولا قرءوا منها سطرا ، وانما كان يُبهجهم ما يرون فى بعض هذه الكتب من النقوش الفنية البديعة ، والصور المتقنة الرفيعة ، ويبهرهم من الكتاب ما يرون فيه من نفاسة الغلاف ، والعلامات الذهبية فى أواسط الصحف أو على الأطراف ، وغير ذلك مما يسترعى الأبصار ، دون الأفكار

ولا يزال بيننا الآن من الناس من لهم كلَف شديد باقتناء الكتب : إما ببذل المال الكثير فى شرائها ، أو باستهدائها من مؤلفيها وجميات نشرها ، ويتنوقون فى تجليدها تجليداً حسناً ، وينقشون أسماءهم عليها بالذهب ، ويرتبونها فى خزائنها ترتيباً متقناً ، وينسقونها فى مواضعها تنسيقاً فنّياً يبهج الناظر ، متوخين فى ترتيبها التجانس فى الألوان والأحجام ، دون العلوم والموضوعات ، إذ كانوا لا يفقهون من ذلك قليلا ولا كثيرا ، ولا يدركون من نفعها جليلا ولا حقيرا ؛ معتقدين أن حجرة الكتب مما تتم به مرافق البيت ، كحجرة الزائرين وحجرة الطعام وما إليها ، فان قدم عليهم زائر أدخلوه حجرة الكتب ليرى أثر النعمة عليهم ، بجمع هذه التحف لديهم

وكان بعض هذا الكنز الثمين مدفونا بين أنقاب المساجد وفى كُوَى الزوايا فى حراسة الجهلة من خَدَمها ، يبيعونه لتجّار الفرنجة بيعَ يوسف بثمن (بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)

فتفرّق أكثر هذه الكتب فى المواصم الأوربية ، إما فى مكاتبها العامة ، أو فى الخزائن الخاصة ، والأدباء والعلماء فى الشرق يتلهفون شوقاً اليها ، ويتحرقون أسفاً عليها ، ويسمعون بها سماعهم بأصحابها ، حاسبين أنها انقرضت بانقراضهم ، وذهبت بذهابهم ؛ وهى تُختلَس من بلادهم ، وتُنتهَب من بين أيديهم ؛ واللغة التى أشفت على الهوّة ، وأشرفت على المنحدَر ، فى حاجة ماسة الى نهضة كبرى لأحيائها ، وقِوام تلك النهضة هو احياء تلك المخطوطات البالية ، بل الآثار الباقية لأعلام البيان وأمراء الكلام من الكتّاب والشعراء ، فلبثت هذه الكتب فى ظلمات الخزائن مئات من السنين تتعاقب عليها الحِقب والأجيال ، ويتضافر على تمطيل الانتفاع بها الجهل والاهمال ، وتنتفع الجرذان والأرَض بأكلها ، أكثر مما ينتفع الأدباء والعلماء بفضلها ؛ حتى أتاح الله لها ذلك الأديب النابغ ، والشاعر الفذ ، فتولى نظارة ديوان الأوقاف ، وجمع ما بقى من هذه الكتب فى مخابئها ؛ وكان هذا هو بدءَ العمل فى إقامة دار للكتب فى مصر

ولا يغيبنّ عن ذهنك أن ما بذله ذلك النابغة رحمه الله من الجهود المضنية فى الظفر بتلك الدواوين التى جمع منها مختاراته ، لم يكن بأكثر مشقة مما عاناه من التعب المُمِض ، والنصَب المُقِض ، فى تصحيح ما أفسدته أيدى الجهلة من النُّساخ بل المسّاخ من ألفاظها ، وإصلاح المحرَّف من كلماتها ، وتكميل الناقص من أبياتها ، وإعادة البهاء والرونق إلى ماشوه الجهل من جمالها ، ومسخ من صُوَرِها ، وطَمَس من معالمها ، وإن أيسر ذلك لَمَّا يستنزف الجهود ، ويستنفد الزمن الممدود ، والعمر المحدود ؛ فانك لا تكاد تفتح أحد هذه الدواوين المخطوطة

القصص

صور من هوميروس

١٨ - حروب طروادة

مصرع هكتور . . .

للأستاذ دريني خشبة

اختلط حابل الطرواديين بنابلهم ، وظلوا يهرعون إلى الأبواب حذر الموت الذى يتلقفهم عن شمائلهم وعن أيمانهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كأنما جثمت المنايا فى كل خطوة فهى لهم بالرصاد . . . طالما يكر أخيل هنا ويفر هناك ، وتكر من خلفه وتفر شياطين الميرميدون ، صائحين متهددين : « يا لَثارات بتروكاوس ! »

ووقف أبوللو وهو يتميز من الغيظ يشهد المعركة ، ويرى إلى أخيل يحصد تلك الرؤوس اليانعة التى لم يحن بعد قطافها ، فلم يملك أن دنا منه وقال :

« على رسلك يا ابن بليوس ، فكأنى بك ما كفاك من صرعت حتى لتحدثك نفسك بقتال الآلهة ، ومحاربتى أنا من دون أرباب الأولمب خاصة ! ولكن هيهات ! فانك لا بد يوماً ذائق الموت الذى لن يذوقه إله فى الأرض ولا فى السموات ... فاقصد فى تقتيل هؤلاء الأبرياء ، ولا يغرنك نصر قد تكون فى آثاره هزائم . . . . . »

وعبس أخيل عبوسة قاتمة ، ثم نظر الى أبوللو مُغضباً وقال : « حسبك يا سيد الشمس ما ضيعت من جهود ، وما فوّت علىّ من ثارات ... أعرج فى سمائك الشاسعة ، ودع بنى الموتى يصطرعون من أجل المجد والشرف ... لقد أنقذت خصمى من قتلة محققة ، فهل يا ترى تظل يا سيد الشمس تعترض طريق الأقدار ، ليمرح فى كنفك الفجار الأشرار ؟ . . . »

وانطلق أخيل يعدو فى إثر هكتور ؛ وكان هكتور قد أخذته

حتى ترى ظلاما كثيفاً من التحريف والتصحيف قد غشِيَ جميع صحفه ، وخيّم على جميع سطوره ، فلا يبدو لعينيك فى وسط هذه الظلمة من شعاع الصواب ، إلاّ كما يبدو ضوءُ الشهُب من خَلَل السحاب ، ولا تكاد تقرأ سطراً خالياً من عدة كلمات محرفة ، أو مصحفة ، غير مستقيمة المعنى ولا واضحة الغرض ، يحتاج إصلاحها إلى زمن طويل ، وبحثٍ غير قليل ، وذهن غير كليل ؛ وتحفُّظ من الخطأ ، ودقة فى الذوق الشعرىّ ينفذ بها القارىُ إلى وجه الصواب ؛ وحُسنِ اختيار فى المحو والاثبات ، وتفهُّمٍ دقيق لما يقتضيه سياق الكلام من المعانى والأغراض ، ومعرفةٍ بأساليب الشعراء ومصطلحاتهم فى كل عصر ، ليكون المحو والاثبات تابعين لما تقتضيه هذه الأساليب وتلك المصطلحات وخبرةٍ واسعةٍ بالكتب اللغوية والأدبية ، وأغراض كلٍّ منها ، ومكان الفائدة منها ، ثم إعمال الذهن بلا كلال ، وإجهاد الفكر بلا سآمة فى الألفاظ المحرفة ، والعبارات المغلقة ، التى لم يستقم معناها على وجه من الوجوه ، بتقليب حروفها بين التحوير والتغيير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والزيادة ، والاعجام والاهمال ، حتى يستقيم المعنى و يتضح الغرض مع الأمانة التامة على الأصول ، وعدم الخروج عنها إلاّ بالقدر المعقول .

هذا قليل من كثير من المشقات التى يعانيها الناظر فى أمثال هذه الدواوين ليختار منها مجموعة ضخمة مصححة أقوم تصحيح كمختارات البارودى

أما شاعرية البارودى فسنحدثك عنها فى العدد المقبل

أحمد الزين

العزة فأبى أن ينجو بنفسه فيدخل المدينة مع الداخلين

وكان بريام ، الملك الشيخ ، يشرف على الساحة الحمراء من أحد أبراج مدينته ، فرأى ابنه واقفاً فى إحدى حنيّات الأسوار يستجم ، ويرسل فى رَهج الميدان عينين ساهدرتين محزونتين ، تشفان عن قلق عميق ، واضطراب دوى ، فريع الأب المفئود ، وزلزل زلزالا شديدا ، وطفق يئن أنيناً عالياً ، ويضرب صدره الموهون بيديه الواهيتين ، ثم يصيح بابنه أن يسارع إلى البوابة الأسكائية قبل أن يلحق به أخيل ، عسى أن ينجو مما يتربص به من منون ...

« أى بنى ! هكتور ! فيم تقف فى هذا الميدان وحدك تنتظر الطاغية أخيل عليه لعنة السماء والآلهة ، بقتله بنىّ ، واهداره دماء مواطنىّ !

هلم يا بنى حسبى ما جزعت على بوليدور ، وحزنت أمض الحزن وأوجعه على ليكاون ، وحطم قلبى من الأسى على أبناء إليوم ! ...

هلم يابنى فأنت أمل طروادة ومعقد رجائها ، وليس لها بعدك من ولى ولا شفيع !

هلم فأبوك الشيخ قد صدعه الحزن ، وأوقرت ظهره ويلات الحرب ، وأغطشت عينيه أرزاء هذا البلاء ، فلا تكن أنت محنة المحن التى تحل به ، واستبق شبابك له يتسلَّ بك ، ولأمك المفجّعة تستاهم بقربك الصبر ، على ما كرثها الزمن الصارم من نكبات يلاحق بعضها البعض ، وتأخذ أولاها بتلابيب أخراها مشرق كل شمس ، وكلّ مغيب شمس

هلم يا هكتور إلىّ ! إلى والدتك ! إلى زوجك ! إلى طفلك الذى تكاد تسلمه لليتم ، وتدعه خلفك للشقاء ! ...

هلم وحسبنا أرامل شجعاننا اللائى يحلن إشراق أيامنا ظلمة ، ويصيرن لألاء الحياة قتاما ... أو يرسفن فى أغلال الاستعباد حيث يقمن فى خدمة الاغريق اللؤماء ... !

هلم إلىّ يابنى ! فو أرباب الأولمب إنى لأرتعد فرقا كلما خلتك ملقى بالعراء تنوشك سباع الطير ، منبوذاً لضوارى هذه البرية التى طالما أطعمتها وأكرمت مثواها ... »

وصمت الملك ، وراعه أن ابنه لم يتحرك لتوسلاته ، بل لبث مكانه يرمق الميدان فراح يضرب يدا بيد ، ثم انحنى فجعل يحثو التراب على رأسه الجلال بتاج الشيب ، ونَدَف الأيام ، وبهذه الشملة البيضاء التى زادتها أحداث الزمان اضطراماً ...

وكانت هيكوبا إلى جانبه ... هكيوبا مليكة إليوم ، ... هكيوبا الأم ... التى فجعها أخيل فى عدد من أعز أبنائها ، ويحاول اليوم أن يفجعها فى هكتور ، ابنها البكر ، وتاج الأمومة الوضّاح ، الذى تفخر به كل أم ، وتدل به كل والدة !

وقالت الأم الباكية تخاطب هكتور : « هلم ياولدى فانك وحدك لا تستطيع أن تكبح جماح هذا البحر الزاخر من الجند ، بل لو أن معك ألفاً من شجعان طروادة ما وسعهم أن يردوا عادية هؤلاء الميرميدون المقنعين فى حديدهم ، الكثيرين فى عديدهم

هلم يا هكتور واستبق شبابك وعنفوانك لأمك المحزونة التى لم يبق لها من ولد غيرك ، ولا عز إلا فى جوارك ، ولا حمى إلا فى كنفك ، ولا مجنّ يرد عنها عوادى الأيام إلا فى ظلك ، ولا فخر لها بين النساء إلا فخرك ، وما تمد الآلهة فى أمدك ، وتشد به أزرك ....

هلم يا بنى فقد أزعجتنى الرُّؤى ، وروعتنى الأحلام ، وجثمت فوق صدرى أشباح هذه الساحة التى تفتأ تلبس الحداد وتخلعه وتغرى بالنصر ثم تنزعه ، وإن سرت بطلا بفوز تنكص فتفجعه ، فتنقد أضلعه وتمتزج بدمه أدمعه .... »

وكانت الملكة ، كما كان الملك ، تمزج توسلاتها إلى ولدها بأغلى الدموع ، وأحر الآهات ؛ بيد أن هكتور ظل مسمرا مكانه كالحية الرقطاء التى تتحوى وتتكوم فى انتظار عابر تنقض عليه ؛ وكان يمنى نفسه أن يأخذ أخيل على غرة ، فيريح طروادة منه ، ويضفر لنفسه بنفسه إكليلاً من المجد لم يزن مفرق بطل من قبل

وكانت توسلات أبويه تتناثر فوق أذنيه ، ولا يصغى لها قلبه ، بل هو قد ظل يحلم فى يقظته أحلاماً معسولة ، كانت تطن فى خلده هكذا : « ضلة لى إذا ثنيت عنانى إلى المدينة ألوذ بها من أخيل ، فأرسف أبد الدهر فى حضيض العار ، وأطأطئ حياء كلما لقيت طروادياً يهمس فى أذن أخيه : إن هذا هكتور الذى ولى دبره ، ونكص على عقبيه ، ولم يجرؤ أن يلاقى أخيل بمفرده فى

الميدان ... وأين أذهب من غادات إليوم وحرائرها إذا أنا وليت الأدبار ، وها هن مشرفات على الساحة يرين ماذا يكون من أمري مع ابن بليوس الذي تفزع الآلهة من ضرباته ، وتمور الأرض تحت عجلاته ، وتنعقد عجاجة الوغى فوق رأسه في حين يبرز منها كالكوكب الدري ! حاشاي أن أعود أجرر أذيال الخيبة ، فاما أن ألقاه فأريح الدنيا قاطبة من شره ، وإما أن يريحني هو من هذا الهم المقيم فأقضي في سبيل بلادي ومن أجل ممالكتي...

ثم فيم صراخ أبي وعويل أمي ؟ أيرجوان أن أدخل إلى المدينة فأكون بنجوة من الموت الشريف فوق أديم الميدان ساعة ، ثم يفتحها أخيل علي ، فيذبحني كما يذبح شاة لا حول لها ولا طول ، أو يضع الأغلال في عنقي ويجرني في شوارع (إليوم) كما تكون أذن الجارية في يد النخاس بسوق الرقيق ! ؟

« حاشا ... بل خير لي ألف مرة أن أخوض خبار المعمعة ، ما دام لن يضيرني إلا ما حتمت المقادير علي ... »

وما كاد يفيق من أحلامه حتى كان أخيل أمامه وجهاً لوجه ، وعلى كتفه الرحب الهرقلي رمحه الظامئ المتيـــد ، وفوق صدره العريض الممرد سوابغ دروعه التي سردها الإله الحداد فلكان ، تنعكس عليها آلاف وآلاف من آراد الشمس فتبهر الأبصار وتخلع الأفئدة ، وتذيب في الجوارح كهرباء الرعب ، وتشعل في الرؤوس ضرام الشيب ! !

وزاغ بصر هكتور ، واضطربت مفاصله ، ونُخبَ قلبه ، واستُطير لبه ، وأحس كأن جبلاً ينحط على روحه فلا يكاد يقلها ، وذاب الثلج في عروقه فجمدت من الروع والفزع ، وهزته قشعريرة طفقت تعصف بكيانه الضخم ، وتلعب بفؤاده الوني ...

ثم بدا له أن يلهب جياده فتفر به من وجه أخيل ، ولكن إلى أين ؟ إنه حيثما تولى فثم وجه أخيل ! ! إن أخيل غدا آلافاً لا حصر لها من الأشباح المفزعة تملأ الساحة وتكظ الهواء ، وتأخذ على الطرواديين أنفاسهم !

وانطلق ابن بليوس في إثر هكتور ، وأشرف عذارى إليوم يطللن من أبراج المدينة الخالدة وعكن حبات قلوبهن أن تثب إلى الميدان فتطأها سنابك تلك الجياد الجوامح . وكان كلما أغذ هكتور أوخف أخيل في أثره ، فكانا كالأبردين : لا الليل يدرك النهار ولا النهار يستأني فيدركه الليل ، حتى نال منهما الجهد ، وتفزعت الآلهة في علياء الأولمب اشفاقاً على ابن بريام العظيم ، ورثاء لابن بليوس المتهدج ، ورحمة لهذه الأرض المضرجة بدماء الشهداء

وهم سيد الأولمب أن ينقذ هكتور ، لولا أن أقنعته ابنته ، مينرفا ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، فنحته عن طريق الأقدار وأخلت بين أخيل وخصمه ...

وطافا حول طروادة ثلاثاً ، وما كادا يبدآن طوافهما الرابع ، حتى قبض زيوس إليه ميزان القدر ، فهوت كفة الحق بقتل هكتور ، واربد وجه أبوللو وسقط في يده ، وانطلق يضرب أخماساً لأسداس ... !

وأسرعت مينرفا إلى أخيل تزف إليه بشرى السماء ، وآثرت له أن يتلبث مكانه يستجم نشاطه ، ويتنفس الصعداء ، حتى تذهب هي إلى هكتور تغريه بلقاء خصمه ، وتنفره من هذا الفرار الذي أضحك منه قيان إليوم وحسانها ...

واستَخْفَت مينرفا ، وبدت لهكتور في هيئة أخيه الأصغر ديفوبوس ، ثم راحت تحضه على الحرب ، وتحرضه على أخيل ، وتهون له من شأن زعيم الميرميدون ، وتمده أنها ستقدم له كل عون حتى يظفر به وتنصره السماء عليه نصراً عزيزاً ...

ولم يشك هكتور في أن الذي يخاطبه هو شقيقه وحبيبه ديفوبوس ، فوقف قليلاً يفرج عن قلبه بعض ما كربه من روع ، وراح يمزج شكرانه لأخيه بدموع الفزع ، وذلة العبارات المتقطعة الحزينة ، وخفقان القلب المضطرب ذي الوجيب !

وانثنى هكتور للقاء أخيل ...

فما كاد ابن بليوس يشهده مقبلا ، بعد إذ كان مدبراً ، حتى طرب قلبه ، وشاعت بشاشة اللقاء في زنده القوي وسواعده المفتولة ، ثم انقلبت هذه البشاشة إلى جهنم من الغيظ تستعر بالتشوف إلى الانتقام في فؤاده ، وتضطرم بلظى البطش في سويدائه ؛ وتطل من عينيه تود لو تنقدح في أضالع هكتور ... !

وقال هكتور : « تخدع نفسك يا أخيل إذا ظننت أني كنت ألوذ بأذيال الهرب منك ، حين أجريتك هذه الأشواط الثلاثة

حول إليوم ... ؟ ! لا ... فانني ما حاولت إلا إجهادك ، وأن ينال الاعياء منك ... والآن ، هأنذا قد انقلبت للقائك فاما أن أقتلك ، وإما أن تروى رمحك الظامئ من دمى . من يدرى ؟ أليست الأقدار مطوية عنا فى صحائف الغيب ، لا يعلمها إلا سيد الأولمب وكبير الآلهة : زيوس جل شأنه !

بيد أننى أطمئنك من الآن يا أخيل ، إن أظفرتنى السماء بك ، فلن أفضحك فى هذه المدة السابغة من فوتك ، ولن أنزع عنك تلك الدروع الضافية التى لن تنفعك من المقادير من شيء ... ثم أعدك أيضاً ألا أفضحك بعد موتك فى هذا الجسم العزيز الذى سيكون بعد قليل جثةً لا نأمة فيها ولا حياة .... لن أرسل بك إلى عراء طروادة فأنبذك فتأكل الطير منك ، وتنوشك سباع البرية الموحشة التى تمج بالضوارى والكلاب .. لا ... لن أفعل من ذلك قليلا ولا كثيرا ... بل سأترك لجنودك البواسل أن يحملوك الى سفائنك عزيزا فى قتلتك ، كما كنت عزيزا فى مماشك

والآن يا ابن بليوس ! هل تمدنى الوعد الذى وعدتك ، وهل تعاملنى بمثل ما أنا معتزم أن أعاملك ، إن أظفرتك السماء علىّ .. .. ؟

وتزلزل الأرض تحت عربة أخيل مما سمع من مهاترة ابن بريام ويقذفه بشُواظ من الكلم المحنق والقول المضطرم ، ثم يقذفه بصمدته الظامئة التى تمرق الى هكتور كالبرق الخاطف ، لوأصابت منه عضواً لذهبت به الى الجحيم . . .

ولكن هكتور العظيم ينفتل انفتالةً عجلى ، فيهوى رمح أخيل الى أرض الساحة ، ويغوص ثمة الى ثلثيه ... إلا قليلا

وكانت فرصة طيبة لهكتور ينفرد فيها بخصمه الأعزل ، لو لم تكن ميزفا حاضرةً ، وعلى أهبة تامة لمعاونة أخيل .... فلقد سارعت الى الرمح فانتزعته من الأرض ، وسلمته لصاحبه دون أن يلمحها هكتور . . .

وقبل أن يتهيأ لها أن تصنع ذلك ، قال ابن بريام : « أخيل ! ها قد طاشت ضربتك ، وآن لطروادة التليدة أن تستريح منك يا ألد أعدائها ! ! لقد كنت تحدث نفسك برأس هكتور ؛ غريمك وخصمك ، فلتبحث الآن عن رأسك يا ابن بليوس....

ولم يكد البطل المسكين يتم قولته ، ويضيع بها فرصته ، حتى كانت ميزفا قد أعادت الرمح الى أخيل . .. وحتى تبسم أخيل ابتسامة لاذعةً ساخرةً بما قال هكتور ، الذى داعب هو الآخر رمحه ، ثم أرسله كأنه الحتف فارتد على درع ڤلكان ، ومنه الى الأرض ، فغاص فيها ؛ وقبل أن يلحق به هكتور حال أخيل بينهما ، وأصبح الموت أقرب اليه من حبل الوريد ؛ وتلفت ابن بريام يبحث عن أخيه ديفوبوس فلم يعثر له على أثر ، فصاح من الوجل يقول : « ياديفوبوس ! أغثني ياديفوبوس ! أدركنى ياديفوبوس ! هات لى رمحاً ياديفوبوس ... ... »

بيد أن ديفوبوس لم يغثه ولم يدركه ولم يحضر له رمحاً ، وبدت له ميزفا وهى تبتسم ابتسامةً خبيثةً زلزلت أركان هكتور ، الذى فطن إلى الحيلة التى دخلت عليه ، فقال يخاطب الربة الساخرة ، وهو يكاد ينشق من الغيظ : « يا للسماء ! أهكذا تخاتل الآلهة ، فتقضى بموتى فى معركة لا أحمل فيها سلاحاً ... ولكنى سأقاومك يا ابن بليوس ، فاذا سقطت فلن يكون لك فى ذلك فضل ولا محْمدة ، واذهب من بعدها فصلٌ للخاتلة التى نصرتك وآزرتك . . . »

وامتشق المسكين سيفه ، ولكن ماذا يصنع الجرازُ البتار فى ملحمة لا يقطر الموت فيها إلا على أسنة الرماح ! . . .

لقد انقضّ أخيل على نحر طروادة وأملها المذخور فعاجله بشكةٍ من رمحه الظامئ نفذت فى عنقه ، وهوت به إلى أديم الأرض المقدسة التى يا طالما دافع عنها مع جنوده البواسل الكرماء . . .

... « هكتور ! اليوم شفيت حزنى الممض على بتروكلوس ... واليوم تذهب روحك إلى ظلمات هيدز غير كريمة ولا محْمُودة .. ياكلب طروادة المذؤوم !! كم كنت تمنى نفسك لو تظفر بى فتنبذ جثتى بالعراء لوحوش طروادة وجوارح طيرها . . . ألا فحدث نفسك الآن ماذا صنع القدر بك . . . ! »

ويتهدج هكتور قائلاً : « أخيل ! يا ابن بليوس العظيم ! استقسمك برأسك الرفيع ، وأبويك الحبيبين ، ألا تأخذ جثتى فتنبذها لكلابك ، وتعفر جبينى الحر بثرى المذلة بين أصحابك ، وحسبك أن الآلهة قد أظفرتك بى ، وأن المقادير السوداء قد أفلتتك علىّ »

فيقول أخيل ، وقد زهاه النصر على ألد خصمائه : « اطمئن ياهكتور ، فكلابنا لا تستطيب إلا جزر الأبطال ، وستكون لها وليمة فاخرة . . . فو رأس أبيك لو ملأ لى بريام هذه الدنيا ذهباً على أن أخلى بينه وبينك ، ليعود بك إلى إليوم ، ما رضينا بك بديلاً . . . »

وتكون سكرة شـديدة من سكرات الموت جاثمة فى صدر هكتور تعذبه وتضنيه ، فيتأنى قليلاً حتى تنجاب عنه الحشرجة ، ويفتح عينيه ويقول : « أخيل ! لا تغتر بما تم لك من نصر ! فباريس أخى سيقتص منك لى ! وسيرميك من أبراج طروادة بسهم يعجل بك إلىّ . . . فى هيدز . . . وثمة سنلتقى ! »

ويموت البطل . . .

وتنطوى صحيفة مجيـدة من صحائف طروادة . بل تنطوى أنصع صفحاتها جميعاً ، بموت هكتور

يا عجباً ! !

هل كان كتاب الغيب مفتوحاً أمام هكتور يقرأ منـه عند ما أنذر أخيل بسهم باريس ؟ !

***

وازدحم الميلانيون حول الجثة يطعنونها ويصلونها كلوماً عجزوا عن إيصالها إلهاحية فأبوا إلا أن يصلوها بها ميتة ...

ونزل أخيل من عربته ، فانحنى على الجثة ، ونزع عنها تلك العدة العزيزة التى نزعها هكتور عن جثة بتروكلوس . . . عدة أخيل ... فلن تكون بعد اليوم إلا لأخيل !

واستل ابن بليوس خنجره ، وأهوى على عَقِبَىْ هكتور نخرمهما ، وربط القدمين العزيزتين فى مؤخر عربته الحربية ، ثم ألهب جياده فهامت على وجوهها فى الساحة ، وطفقت تطويها مثنى وثلاث حول إليوم ، والرأس العظيم يتمرغ بثرى الدممة الذاهلة ، والطروادبون فوق الأسوار ينظرون ولا يحيرون ... إلا هذا الملك الشيخ ... بريام المذهول ... الذى راح يملأ الفضاء أنيناً موجعاً ، وشجواً مفزعاً ، ... وإلا هذه الأم المرزأة ... هكيوبا الملكة ... التى راحت تحثو التراب فوق رأسها ، وتتقلب فوق الأرض كالطائر المذبوح ...

أما أندروماك ... فلها السماء ... ولها الآلهة ! !

لقد كانت تضفر أفواف الزهر للقاء هكتور ، وترشق الورود فى أرائك المخدع ، وتمد الحمام الساخن لغسل ثرى الميدان ... ولم تـكن تفكر قط إلا فى عودة البطل مخضّب الذيل بدماء الأعداء ...

ولكنها سمعت لغطاً وضوضاء يرتفعان فجأة خارج القصر ... وكأن هاتفاً من السماء هتف بها أن تخرج لتستجلى النبأ ... ولـكنها أيضاً شعرت بقوة خفية تدفعها إلى البوابة الأسكائية ... حيث وقف بريام يبكى ولده ... فما كادت تصل ثمة وتشهد هذا الجمع المحزون يذرى دموعه ... وما كادت تطل من شرفة البرج فترى إلى هكتور مربوطاً فى عربة أخيل ، وأخيل الجبار يطوى به الساحة ، ويذرع به الميدان ... حتى وجفت نفس الزوجة البائسة ، وخرت إلى الأرض مغشياً عليها ...

***

وأفاقت أندروماك التاعسة ...

وطفقت تبكى زوجها وترثيه بالدم

وطفقت نفسها تساقط عليه أنفساً ! ؟

لها بقية

دريني خشبة

حادث انتحار

بقلم حسين شوقي

عند ما دقت الساعة الثانية صباحا ، كان بار « الدب الأبيض » خالياً من خدمه ورواده ، عدا رجلين : أدولف الخمار الشيخ الذى ذهب إلى داخل المحل لتصفية حسابات اليوم ، وشاب جلس فى ركن منزو يشرب ويكتب ؛ ولم يمض فترة قصيرة على انزواء أدولف حتى سمع دوى رصاص فى البار ، فعاد مهرولا ، فوجد الشاب قتيلاً على كرسيه ، قتل نفسه بمسدس كان لا يزال بيده اليمنى ... فحصه أدولف فوجده قد مات من فوره ، بينما السيجارة التى كان يدخنها لا تزال مشتعلة .. وقع أدولف فى حيرة من أمره ، ثم أخذ يصخب ويلعن ، ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : ألم يكن الأجدر بهذا الأبله أن ينتحر فى بيته ؟

علام زعج الخلق هكذا ؟

ثم فكر أدولف متحسراً فى النوم الذى لن يذوقه الليلة . إذ عليه أعمال كثيرة ... إخطار البوليس بالحادث ، وانتظار التحقيق القضائى الذى سوف يدوم ساعات ... وعلى رغم هذا شعر أدولف بشيء من العطف عند ما نظر ثانية إلى وجه القتيل لأنه كان شاباً بين العشرين والخامسة والعشرين ، ثم تنهد قائلا :

إنه لم يحن أوان موته بعد !

إن الشباب يجاب العطف دائماً ، وبخاصة من جانب الذين فقدوه أمثال أدولف ، أو من جانب الذين فقدوا أشخاصا يعزونهم ماتوا فى ميعة الصبا ، أمثال أدولف أيضاً ، الذى فقد فى العام الماضى ابنة لم تبلغ العشرين بعد ...

وبعد أن أخطر أدولف البوليس بالحادث رجع عند الجثة ، ثم أخذ يحدق فى وجه القتيل ! إنه لا يعرفه أبداً ، فلقد كانت هذه زيارته الأولى للبار ... ثم رأى أدولف ورقة مكتوبة أمام الشاب فتناولها مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فقرأ ما يأتى :

الموقع على هذا (س) . المولود فى . والمقيم فى . . يقدم اعتذاره إلى صاحب بار الدب الأبيض من القلق الذى سيسببه له بعمله هذا . إن (س) يأسف لأنه لم يستطع أن ينتحر فى بيته كما كانت تقضى بذلك اللياقة ، لأن صاحبة الفندق الذى يقيم فيه سيدة عجوز مريضة بالقلب ، فأى انفعال يقضى عليها ؛ وإذا كان (س) قد اختار البار لفعلته ، فلكى يستطيع أن يتناول بضعة أقداح من « الويسكى » تنعشه فى رحلته الطويلة المظلمة . . ومع ذلك فان (س) واثق من أن هذا الحادث سوف يعوض لصاحب البار ما أصابه من ضرر ، يعوضه بالاعلان الذى يعمله هذا الانتحار للمحل . . إن (س) لا يأسف كثيراً على مفارقة الحياة لأنه لم يعد يملك شيئا ، والحياة بلا مال ، أمر فى نظره من جرعة ملح . . ثم (س) فوق ذلك لا يثق بالمستقبل ، ولا بنفسه ، فهو يعلم أنه لا شيء ، وانه لن يصير فى يوم من الأيام رجلا مثريا . . ومع ذلك فان (س) لم يخلف ديوناً . . بل لا يزال فى حجرته بالفندق بضعة جنيهات ، وهو يهديها الى جمعية الرفق بالحيوان ، لأنه لا يحب أن يخلف شيئاً لبنى جنسه ، إذ هو يحتقر الطبيعة البشرية ، ولا يستثنى منها نفسه . . إذ لم يكن ملاكا فى الحياة الدنيا ، بل كان كغيره مخادعاً . . بل (س) يأسف لأنه لم يحسن الخداع فى الحياة ، لأن الحياة فى نظره كلعبة « البوكر » لا يربح فيها إلا البارع فى الخداع . .

ومن الأسباب القوية لانتحار س أيضاً ، أن ضميره لم يكن مستريحاً ، فقد كان سببا فى وفاة فتاة فى العام الماضى فى ريعان الصبا ، ماتت كمداً لأنه وعدها بالزواج ولكنه لم يف بوعده ، لأنه فقير لا يستطيع أن يتزوج ، وهو لا يعترف بالحب مع البؤس . كم ود (س) أن يتناسى هذا الحادث ! ولكن ماذا يفعل فى ذلك الشيطان الصغير الذى يقطن داخل جسدنا والذى أخذ ينغص عليه الحياة من أجل هذا الحادث ؟ ... لهذا نجد (س) غير نادم كثيراً على مفارقة الحياة ... وبهذه المناسبة يطلب (س) الصفح من هيلانة (وهو اسم الفتاة) ...

ولكن أدولف الخمار لم يكمل قراءة الورقة ، بل قذف بها صارخا : آه من الوغد ! مسكينة هيلانة !

فلقد كانت هذه الفتاة ابنته . .

حسين شوقى

البريد الأدبي

كتاب عن التاريخ الحبشي

وهذا أيضاً كتاب جديد عن الحبشة . والحبشة ومسائلها ومصايرها تثير اليوم أعظم الاهتمام والعطف . وقد صدرت عن الحبشة في الآونة الأخيرة كتب ومؤلفات عديدة أشرنا إلى بعضها في هذا المكان من «الرسالة» . واليوم نشير الى مؤلف قيم جديد هو تاريخ الحبشة بقلم الأستاذ جونس والسيدة مونرو Abyssinian History ؛ وهو عرض قيم جدا لتاريخ الحبشة منذ أقدم العصور الى الآونة الحاضرة ؛ ويمهد المؤلفان بوصف شائق للحبشة وشعوبها وأصولها ؛ ويتلو ذلك الحديث عن عصر الأساطير في التاريخ الحبشي ، وهو حديث يدعمه التدليل التاريخي ؛ «كان ملوك الحبشة حتى القرن الرابع من الميلاد وثنيين ، يرجعون أصلهم إلى «مهرم» وهو إله الحرب . أما أسطورة ملكة سبأ فقد نشأت بعد القرن السادس ؛ ومن المرجح أنها نشأت في العصور المظلمة التي تلت قيام الاسلام في جزيرة العرب . وحرمت الحبشة من الاتصال بالعالم النصراني »

وقد اعتنقت الحبشة النصرانية في القرن الرابع ؛ وكان ملوك الحبشة يومئذ يعيشون في بذخ همجي ، وما زالت مسلات اكسوم تدل على ذلك العصر . وفي «عصر الحبشة المظلم» وهو الذي يعرضه القسم الثاني من الكتاب ، احتل العرب والمسلمون شواطئ البحر الأحمر وسحقوا حركة القرصان الأحباش ، وقطعوا الحبشة عن العالم الخارجي ، وفي ذلك العصر ازدهرت أسرة «زاجوى» واستمرت في الملك حتى سنة ١٢٧٠ م ، ثم عادت الأسرة السليمانية التي تزعم أنها سليلة ملكة سبأ وسليمان . وبدأ تاريخ الحبشة الحديث ؛ وكان للحبشة ديوان تحقيق (محكمة تفتيش) تطارد الملاحدة ورئيسها زرعة ابن يعقوب

ويتناول القسم الثالث من الكتاب أسطورة «القس جون» وسفارة البرتغال ، ووصف السفير البرتغالي الفاريز للحبشة يومئذ (سنة ١٥٢٠) وهو أدق وأقيم وصف لحالة الحبشة في أوج مجدها وحضارتها قبل أن تنحدر إلى عصر من الضعف والفوضى . وكان ملك الحبشة يعيش يومئذ في معسكر متنقل وليس له عاصمة ثابتة ؛ وقد انتهت هذه السفارة الشهيرة بتنازل الامبراطور عن مصوع للبرتغال نظير توريد السلاح وإرسال الأطباء ؛ ولكن النتائج المرغوبة لم تتحق لأن الترك عبروا البحر الأحمر يومئذ ، وغزوا الحبشة ؛ ولكنه غزو لم يطل أمده ؛ ووقعت الحبشة في عصر من الفوضى

ويتناول القسم الرابع عصر «العزلة والفوضى» ثم يتناول القسم الخامس تاريخ الحبشة الحديث ، ونزاع الأمر على العرش وظهور طلائع الاستعمار الأوربي ، وحملة السير نابيير وانتحار الامبراطور تيودور ؛ ويتناول القسم السادس والأخير مسألة النزاع الايطالي الحبشي في سنة ١٩٣٥ ، وتطوراتها المختلفة حتى أغسطس الماضي

وقد كتب الكتاب بأسلوب سلس قوي يحفز القارئ ؛ والكتاب قيم مدعم بالوثائق التاريخية ، ويعتبر من أنفس ما كتب عن الحبشة في الآونة الأخيرة

كتب بالمزاد !

أذيع أخيراً في القاهرة نبأ بيع مكتبة ضخمة لأحد الكبراء ، تحتوي على طائفة كبيرة من المجموعات والكتب القيمة : والمطبوعات النادرة ، وكان البيع بالمزاد طبعاً ، فهرع إلى مكانه حشد من العلماء وهواة الكتب والآثار النادرة ، وبيعت في اليوم الأول طائفة حسنة من الكتب والمجموعات ، ولكن لوحظ أنها بيعت بالأخص لجماعة من الهواة الذين يأسرهم جمال الطبع والرونق قبل أن تغريهم البواعث العلمية ؛ ورأى الحاضرون من العلماء والخبراء الذين يعرفون قيمة الكتب ويحسنون تقدير أثمانها أنهم لا يستطيعون الشراء في هذا الجو

الشبع بتنافس الهواة ، فلم يشتروا سوى القليل . ذلك أن قليلاً جداً من الكتب المعروضة بيع بثمن المثل أو أقل قليلاً ، ولكن معظمها رسا بأثمان فاحشة كانت تصل أحياناً إلى أضعاف القيمة الحقيقية ؛ وكانت ثمة عوامل وأصوات مريبة تتدخل فى المزايدة فى ظروف ووقفات خاصة ، فترفع الأثمان بنسب مدهشة حتى يتقدم أحد الفرائس من الهواة فيلقى عليه العبء المنشود

وبعد أيام قلائل كان بيع القسم الثانى من هذه المكتبة الشهيرة ؛ فكان أول ما لوحظ أن معظم الذين حضروا فى الدفعة الأولى لم يحضروا هذه المرة . ألم تتضح لهم الحقيقة بعد أن غادروا قاعة المزاد ، وتساءلوا عن القيم الحقيقية للكتب التى اشتروها فى هذا الجو المكهرب ؟ وكان قد عُرف خلال ذلك أن المكتبة المعروضة ليست لكبير ولا وزير وإنما هى ملك لأحد تجار الكتب المعروفين الذين أزعجتهم الأزمة ، فعمد إلى تصريف كتبه بهذه الوسيلة ، وفى هذه الجلسة أيضاً ازدادت العوامل المريبة والمصطنعة ظهوراً ، وتصاعدت أثمان الكتب المعروضة إلى نسب فاحشة حتى أن كثيراً منها كان يباع بأضعاف ثمنه جديداً ، وزاد يقين العارفين بأنهم يجلسون فى شرك منصوب ؛ ولكن حدث كما حدث فى الجلسة الأولى أن توالى سقوط الهواة فى هذا الشرك

ولقد كان درساً لمن حدثته نفسه بالظفر بنصيبه من هذا الكنز بالوسائل والأثمان المشروعة ؛ وكانت خيبة أمل ، ولكن الحقيقة ظهرت ناصعة ، وهى أن شراء الكتب بالمزايدة وسيلة لا تصلح للعلماء ، وأن المزايدة (ولا سيما فى مصر) ليست دائماً وسيلة شريفة للتعامل . فحذار أن تشتروا الكتب بالمزايدات !

وفاة مؤلف موسيقى شهير

من أنباء النمسا أن المؤلف الموسيقى الشهير ماكس فون أوبرليتنر قد توفى فى الثامنة والستين من عمره ، فاختفى بوفاته أحد أساطين المدرسة الموسيقية القديمة ، التى ازدهرت فى أواخر أيام الامبراطورية ، وما زالت آثارها تخلب ألباب الشعب النمسوى . وقد تفرغ ماكس فون أوبرليتنر منذ شبابه للتأليف للأوبرا ، وأحرز فى هذا الميدان نجاحاً باهراً ؛ وبزغ مجده فى سنة ١٩١٢ حيث لحنت قطعته الشهيرة « افروديتى » وعزفت فى الأوبرا الامبراطورية بڤينا ، وغنتها يومئذ فنانة موهوبة كانت فى مستهل حياتها الفنية وهى ماريا يرتزا التى تتبوأ اليوم مقاماً فنياً سامياً فى نيويورك وتعتبر أشهر مغنية فى أمريكا . وفى سنة ١٩١٦ عزفت قطعته « المسيح الحديدى » « Die eiserne Heiland » فى « الأوبرا الشعبية » ، فأحرزت نجاحاً باهراً ، ثم عزفت بعد ذلك فى عدة مسارح شهيرة نمسوية وألمانية ، وانتهت إلى دار الأوبرا ؛ ووضع فون أوبرليتنر بعد ذلك عدة مقطوعات وأوبرات كانت دائماً موضع التقدير والاعجاب

مدينة دولية للفنانين والكتاب

تألفت منذ حين فى باريس جمعية اسمها « جمعية المدينة الدولية للفنون والتفكير » برئاسة مسيو جبراييل بوامى الكاتب الشهير ورئيس محرر مجلة « كوميديا » الكبرى ؛ وقد صرح رئيس هذه الجمعية أخيرا بأن الغرض من تأسيس هذه الجمعية هو السعى فى إنشاء « مدينة دولية » بالقرب من محطة مونبارناس ، يخصص سكناها للعلماء والفنانين من جميع البلدان ، وإن الجمعية تعلق أكبر الأهمية على الآثار المادية والمعنوية التى تترتب على تنفيذ مثل هذا المشروع الجليل . ومن المعروف أن الحى الذى تختاره الجمعية لانشاء المدينة الجديدة ، وهو حى مونبارناس ، هو حى الفنون والآداب منذ بعيد ، وله تقاليد فنية وأدبية مؤثلة ، وقد بزغ فيه نجم مئات من الكتاب والفنانين ، الذين تغص بهم دائماً ربوعه ومقاهيه

المعهد الامبراطورى ومهامه

يذكر القراء تلك الأحاديث الشائقة التى ألقاها وزير الخارجية البريطانية وبعض أكابر الساسة أمام عصبة الأمم عن توزيع المواد الخام ووجوب توزيعها بين الدول الكبرى بنسب أكثر عدالة ، وذلك لمناسبة النزاع القائم على توزيع المستعمرات واستئثار انكلترا بأعظم نصيب منها . وقد وقفت فى بعض الصحف على معلومات هامة عن المعهد الامبراطورى الذى يعتبر فى انكلترا قلب الاستعمار النابض ، والذى يسهر على مصاير المواد الأولية فى جميع أنحاء العالم ؛ فهذا المعهد قد أسس للعمل على تنمية الاستغلال الصناعى والاستفادة من المواد الأولية المختلفة ، وجمع الاحصاءات والبيانات الاستعمارية اللازمة ؛ وقد زود المعهد بمعامل للأبحاث الكيميائية والفنية لبحث المواد الأولية وتعيين قيمتها ومدى الانتفاع بها ووضع التقارير الفنية عنها . ويصدر المعهد نشرات فنية محققة عن مختلف المواد الأولية وعلاقاتها بالصناعة ، ومدى تقدم الاستغلال الاستعمارى فى ميادين الزراعة والمعارف وغيرها ، ويعنى عناية خاصة بدرس المواد الأولية فى الهند البريطانية والمستعمرات والأملاك المستقلة

النقد

٤ – تاريخ الاسلام السياسى

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

موضوع الكتاب ، الثقافة الاسلامية ، خاتمة

لأستاذ كبير

لست أدرى لم قصر مؤلف « تاريخ الاسلام السياسى » وصف كتابه على « السياسى » فحسب ، مع أنه عرض لنواح شتى من الحياة الاسلامية القديمة : عرض لنواحى الدين ، والسياسة ، والاجتماع ، والعقل ، والأدب . فبينا تقرأ له فصلا فى حكمة تشريع القبلة ، إذا بك تنتقل إلى فصل آخر موضوعه فتح عمرو بن العاص مصر ؛ وبينا تقرأ له فصولا فى عقائد الفرق الاسلامية القديمة ومذاهبها ، إذا بك تقرأ له كلاماً فى حال المرأة المسلمة فى العصر القديم ، ثم إذا بك تنتقل بعد إلى كلام مطول فى صناعتى الشعر والنثر فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

أو ما كان أولى للمؤلف أن يقدر هذه المزايا قدرها ، فيصوغ عنوان كتابه بحيث يدل عليها كلها مقتدياً فى ذلك بالسيد أمير على حين سمى كتابه الذى يعرفه المؤلف حق المعرفة « موجز تاريخ العرب » . لا شك أن الصفة السياسية الصحيحة ، كما يعرفها علماء التاريخ والعارفون بأصول علم السياسة ، ليست أبرز نواحى الكتاب ، وقد تكون عند التحقيق من أضعف نواحيه . ولكن من يدرى ؟ فلعل المؤلف قد لحظ هذه الحقيقة فنعت كتابه بأضعف صفاته تواضعاً منه ! وإن كان التواضع خلة قلما يدل عليها كتابه . أو لعل له غرضاً آخر يعرفه ولا نعرفه

والحق أن المؤلف أقدم على تأليف كتابه وليس له غرض واضح محدود يرمى اليه ويسير على هديه ، إلا أن يكون كتابة تاريخ عام للاسلام من الطراز المألوف وهو ما لا يدل عليه عنوان الكتاب . وغموض الغرض الحقيق أو انتفاؤه بالمرة أضر بالكتاب من عدة وجوه . فمن جهة أحال الكتاب كتلة ضخمة من الأخبار والحوادث المتعلقة بعصر معين ، قد جمعت من هنا وهنا ، ثم حشدت حشداً ، وأزجيت على الورق إزجاء ، فاقدة الوحدة المعنوية ، والاتصال الذاتى ، اللذين يكسبانها الروح والحياة والحركة . ومن جهة ثانية فان غموض الغرض قد لبس على المؤلف أمره ، وجعله يضطرب بين طرائق المؤرخ المحقق ، والمحامى المنافح عن الدين ، والواعظ المبشر بالاسلام ، الراد لشبهات المبشرين وتعسفات المستشرقين ؛ فعدل فى كثير من المواطن عما يحسن ، وتكلف ما لا يحسن ، وما ليس من شأنه من حيث هو مؤرخ فحسب . ومن جهة ثالثة فان نشاط المؤلف وعنايته لم يوزع على أجزاء الكتاب توزيعاً يتكافأ وأقدارها من الوجهة التاريخية البحتة ، فتشريع القبلة وحكمته يظفران بثلاث صفحات ، فى حين أن غزوة بدر التى تعتبر بحق أهم وقائع الاسلام ومن وقائع التاريخ الفاصلة ، لا تكاد تظفر بصفحة واحدة ! وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك تخص بصفحتين ، فى حين أن الأحداث الجسام التى وقعت زمن الخليفة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك تركز وتضغط فى أسطر قلائل !

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الابل

* * *

ومن الأمور التى أثرت فى كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » وقعدت به عن رتبة الجودة ما يدل عليه الكتاب نفسه من عدم وفور حظ المؤلف من الثقافة الاسلامية الصحيحة ، والمطلع على الكتاب يرى أن المؤلف يحاول جهده أن يكتم هذا الضعف ، ويستره بطلاء براق من الاقتباسات العربية الكثيرة التى يطالعك بها فى كل صفحة ، لكن هذه المحاولة لا تروج حتى على من يقرأ الكتاب قراءة عجلى . فان اللحن والتحريف الفاشيين فى الكتاب واللذين أعرضنا عن تتبعهما اختصارا للقول ، وتوخياً لصميم الموضوع ، وإن المآخذ التى سردنا بعضها فى بحوثنا الماضية ، نقول إن ذلك كله كفيل باثبات أن المؤلف غير موفور الثقافة

الاسلامية . وقد أداه تفريطه فى جانب الثقافة الاسلامية إلى الافراط فى الأخذ عن المصادر الأجنبية ، فخرج كتابه حائل الصبغة ، حائراً بين العروبة والفرنجة ، لا ينتمى إلى واحدة منهما انتماء صحيحاً

والحق أن التاريخ الاسلامى من أشق فروع التاريخ مطلباً وأوعرها مذهباً ، فهو تاريخ عالم بأسره ؛ لا مجرد تاريخ اقليم معين أو أمة بعينها . وهو تاريخ عصور متطاولة تقرب من أربعة عشر قرناً ، ثم هو تاريخ تختلط فيه الأحداث ، والنظم ، والآراء ، والمذاهب اختلاطاً عجيباً ، فاذا ما أريد تصنيفها وافراد كل منها على حدته ، وسوقه فى مساقه الخاص ، اقتضى ذلك من الجهد والعناء الشىء الكثير . والمعانى لدراسته محتاج إلى وفور حظه من الثقافتين التاريخيتين العامة والاسلامية ، فان لم يفعل كان كمن يغشى الهيجاء بيد عزلاء ، أو يتقحم المجاهل برجل عرجاء . من أجل ذلك لم ينهض بعد التاريخ الاسلامى فى الشرق نهضته المستقلة المنشودة . مع أن التاريخ سجل أحداثه ، وديوان مجده وفخاره ، فهو لا يزال قصصاً يقص ، وسيراً ساذجة تتلى . أما روح الجماعات ، وأثر البيئة والتقاليد ، وعمل المبادئ والعقائد ، والقوى الاجتماعية والاقتصادية المختلفة ، فتلك كلها لا تزال فى العربية أسراراً لم ترفع عنها الحجب . وقد يعتذر بعضهم عن هذه الحال بأن العوامل المذكورة ليست عند الشرقيين فى مثل قوتها عند غيرهم ولكن الأمر هنا ليس أمر قوة وضعف ، فهى موجودة على كل حال ، والطبيعة البشرية واحدة ، والناس هم الناس سواء أ كانوا فى شرق أم فى غرب . ولو أنصف أولئك المتعذرون لقالوا إن الذى يحول دون نمو الروح التاريخى الصحيح فى الشرق هو ما يعترض الباحث من وعورة المسلك ، وبعد الشقة ، وصعوبة المنال

***

وبعد فقد آن أن نختم هذه الفصول التى لم يدفعنا إلى تسطيرها إلا ما أشرت إليه فى كلمتى الأولى من توخى المصلحة العامة قبل كل شىء . فلعلى أ كون قد وفقت فيما قصدت إليه

ونصيحتى الأخيرة للدكتور مؤلف « تاريخ الاسلام السياسى » أنه إذا أسعده الحظ فأعاد طبع كتابه ، ينبغى أن يعيد النظر فى كل فصل من فصوله ، وصفحة من صفحاته ، فيصحح الخطأ ، ويقيم المعوج ، وأنه عند ما يتولى إصدار الأجزاء الباقية ينبغى أن يكون أشد تحفظاً ، وأ كثر تثبتاً ، فالناس لا يسألون عادة عن مقدار الزمن الذى ينفق فى عمل من الأعمال ، بقدار ما يسألون عن حظ هذا العمل من التجويد والاتقان

بقى أن أبرأ إليه مما عسى أن يكون القلم قد ماله به فى هذه الكلمات من لفظ خشن ، أو عبارة قارسة ، فان ذلك مما قد يحمل عليه مجرد الغضب للحق . أما المآخذ العلمية فلا حيلة لى فيها ، وقديماً قالوا : « لا يزال الرجل فى فسحة من عقله مالم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً » ، وقد ألف الدكتور كتاباً ، وسمع فيه مديحاً عاطراً كيل جزافاً ، فمن الحق عليه أن يسمع إلى جانب ذلك صوت النقد يكال بقدر وحساب م؟

(انتهى)

مؤرخ

3 me Année, No. 130.

Lundi-30 12-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ــــــ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

السنة الثالثة

« القاهرة فى يوم الاثنين ٤ شوال سنة ١٣٥٤ — ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٥ »

العـــدد ١٣٠

فهرس العـــدد

أبو الطيب المتنبى

بمناسبة ذكراه الألف

— ٢ —

وُلد أبو الطيب فى دُرور القرن الرابع عظيما بالاستعداد، قويا بالنشأة، طموحا بالفطرة؛ فلا تحاول أن ترجع هذه الصفات فيه إلى أحوال داعية وأسباب موجبة، فان إعجاز القدرة أن يُولد الملك فى حجر السوقة، ويدرج العبقرى فى عش الفدْم، ويظهر النبى فى بيت المشرك؛ إنما العظمة خِلقةٌ فى العظيم، تقويها عوامل وتضعفها عوامل؛ فولادة المتنبى بالكوفة، وتجوله فى البادية، وتنقله فى القبائل، وكدحه الدائب أربعاً وثلاثين سنة وراء الرزق الشرود، يضرب من أفق إلى أفق، ويخرج من هول إلى هول، نمّت فيه أخلاق الجرأة والصراحة والصدق والصبر والمغامرة واللَّسَن؛ واتصاله بسيف الدولة الأديب الشجاع السَّمْح، هذب فيه الشاعرية والفروسية، وهما غريزتا البداوة، وخصيصتا العروبة؛ ثم ظهوره فى العصر الذى تحللت فيه روابط الخلافة، وتعددت حواضر الأدب، وتطاولت

كفايات السيف والقلم إلى العروش المقدسة والمناصب الفخمة ، وأثمر تداخل الثقافات المختلفة بما أثمر من شمول العلم ، ونضوج العقل ، واعتراض الشكوك ، وتمدد الفرق ، وسع فى ذهنه أفق المعرفة ، وقوى فى نفسه الطموح إلى الرياسة ، وهيج فى رأسه الثورة على القدر ، وأراه بعض الكتاب فى بغداد يصل بالأدب إلى الوزارة ، وبعض العبيد فى مصر يصل بالحيلة إلى الامارة ، فطوّع له رأيه فى نفسه أن يبايع لها بالملك ، ثم أخذها بسمْت الملوك ، وألزمها شارة الخاصة ، وعاشر الدهماء معاشرة الأنوف المكرَه ، وساير الرؤساء مسايرة الغريم الحاقد ، وسخر قوته وعبقريته فى طلب هذا (الحق) وتحقيق هذا المطلب ، حتى ملأ الدنيا بذكره ، وشغل الناس بأمره

* * *

المتنبى فى كتاب الأدب العربى فصل قائم بذاته ؛ لأن حياته التى اختلفت عليها العوامل ، وازدحمت فيها الأحداث ، واعتركت بها الآمال ، وفاضت منها التجارب ، أمكنته من نوع جديد فى الشعر يتّسم بالتفكير الحى ، والابتكار الجرىء ، والاداء الحر ، فأقبل عليه عشاق الأدب وطلاب الشهرة من ذوى السلطان فى خراسان والعراق والشام ومصر ، يتسابقون الى وده ، ويتنافسون فى رضاه ، وربما توسل بعضهم بالشفاعة ليحطِبه فى حبله ، وجلس أحدهم بين يديه ليسمع مدحه فيه ، وهو يتصون عن مدح السوقة ، ويتكرم عن موقف الشاعر ؛ فسمى اليه الرؤساء المحرومون بالمداوة ، واجتمع عليه الشعراء المغمورون بالحسد ، وتعاون هؤلاء وأولئك على تعقب سقطاته وجحود فضله ؛ فكان من أثر الكتب التى ألفت فى نقده ، والقصائد التى قيلت فى هجوه ، والخصومة الأدبية التى أثيرت من حوله ، والحركة الذهنية التى نشأت من شعره ، أن سار ذكره مسير الشمس ، وصار شعره سجل الخلود ، وغدا مدحه مطمح الملوك ، وأصبح أدبه وما اتصل به من النقود والشروح مكتبة !

* * *

عقلية المتنبى عقلية بدوية خالصة : تتعلق بالحس أكثر من تعلقها بالمعنى ، وتعتمد بالواقع أكثر من اعتدادها بالخيال ، وتعتمد على القوة أكثر من اعتمادها على الحيلة . لذلك كان ذهول الصوفية نابياً فى عقله ، وشعور الجمال خابياً فى قلبه ، وأثر الدين ضعيفاً فى حياته ؛ ثم كانت فلسفته حاجة الدنيا ، وخطته سنة الطبيعة ، وفكرته صورة الواقع ، وغايته غاية الرجل الطماح : شخصيته تبغى الظهور ، وشهوته ترغب المال ، وحيويته تطلب الغلَب ، وعظمته تريد الحكم ؛ لذلك كان أخص ما يميزه بروز شخصيته فى شعره ، وصدق ايمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأغراض الحياة

* * *

عبقرية أبى الطيب سبّاحة الجناح ، لماحة الطرف ، مبسوطة الأفق ؛ ولكنه قيدها بالمادة وحصرها فيما تدور عليه من كاذب المدح ولاذع الهجاء ، فقرت قرار الطائر الحبيس ، تُخافت بالأغاريد المزورة على طبيعتها ، وتكابد الشوق المُلِحّ إلى الهواء والسماء والروض ؛ ثم تفلت أحيانا من ربقة القيد فتحلق فى سماء الالهام وتهتف بالمعجز من قلائد الحِكم وشوارد الأمثال وطرائف الذهن ، حتى فى الأغراض المبتذلة والمواقف الوضيعة

وهكذا كانت قوى المتنبى ومواهبه مقهورة معذبة ! ولعله كان أقسى ما يكون على قريحته وعبقريته ! فقد أرادهما على الابتكار فى مدح لا يعتقده ، ووصف لا يحسه ، فجاءت معانيه فى أمثال هذه الأغراض توليداً من عقله ، لا نقلا عن شعوره ؛ ومن ثَم كثر فيها الاغراق لقيامها على الدعاوى المرسلة ، والغموضُ لانتزاعها من الخوالج المبهمة ، والتناقضُ لتعبيرها عن غير كائن ، والتشابه لتفصيلها على غير معين

أما فيما يشعر به كالهجاء والعتاب والنقد والفخر والشكوى ، فسيل لا يحجزه سد ، وبحر لا يحصره ساحل . وهو فى تدفُّع السيل وعمق البحر وسمة العباب ، مثله فى بطء الحركة واختلاج الاداء وضيق الفكرة : شخصية مفروضة على الذهن ، وروح شماعة على الاحساس ، وزفيف فى الارتفاع والاسفاف يدل على جناح النسر !

والحق أن المتنبى شاعر القوة ، شاعر الحرب ، شاعر المغامرة ، شاعر المجد ! فلو كان سياسياً لكان مكيافللى ، أو قائداً لكان نابليون ، أو فيلسوفاً لكان نيتشه !

احمد حسن الزيات

وقع فى المقال المـاضى غلطتان : تمادى والصواب تمارى ، ويتأبى والصواب يتأبه

المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين ، والكلامُ على أنحائه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه ، ويمرُّ في معنىً الى معنى ؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين ، بعدما انطلقا في القول وانفتح القُفل الموضوعُ على عقل كل منهما

وكان قد مرّ في النديّ بائع روايات مترجمة « بوليسية وغرامية ولصوصية ! » يحمل الرجلُ منها مَزْبلةَ أخلاقٍ أوربية كاملة لينفضها في نفوس الأحداث من فتياننا وفتياتنا ، فقلتُ (لنابغة القرن العشرين) : أتقرأُ الروايات ؟ قال : لا ، إلا مرة واحدة ثم لم أعاود ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها

قلنا : هذا أعجب ما مرّ بنا منذ اليوم ، فكيف صرت رواية ؟

قال : أنتم لا تعرفون طبيعة النوابغ ، إذ ليس لكم حسهم المرهف ، ولا طبعُهم المستحكم ، ولا خصائصهم الغيبية ، ولا خواطرهم المتعلقة بما فوق الطبيعة . قلت : نعم أعرف ذلك ؛ وما من (نابغة) إلا وهو بين عالَمين على طرَف مما هنا وطرفٍ مما هناك ، فهو خرّاجٌ ولاّجٌ بين العالَمين ؛ وله نفسٌ مركبة تركيبها على نواميس معروفةٍ وأخرى مجهولة ، فهي تأخذ من الظاهر والباطن معاً ، ويحصرها المكانُ مرة ويُفلتها مرة ، وتكون أحياناً في زمان الأرض ، وأحياناً في زمن الكواكب من القمر فصاعدا ..... ولكن ....

فقطع عليّ وقال : أضف إلى ذلك أن هذه العقول التي تحصر من يسمونهم العقلاء في الزمان والمكان ، لا تُوجِدُ أهلها إلا الهمومَ والأحزانَ والمطامع السافلة والأفعال الدنيئة ، فإنهم يعيشون فوق التراب

قلت : نعم ، واذا عاشوا فوق التراب فباضطرارٍ أن تكون معاني التراب فوقهم وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم ، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً ترابياً في كل معانيه ولكن ..

قال : وزد على ذلك أنهم مقيدون تقييدَ المجانين غير أن حبالهم وسلاسلهم عقلية غير منظورة ؛ وبتغليلهم تغليل المجانين يسمون أنفسهم عقلاء ، وأعقلهم أثقلهم قيودا ، وهذا من الغرابة كما ترى

قلت : نعم ، أما العقلاءُ بحقيقة العقل فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخرون منهم ، إذ كانوا في حالٍ كحال المنطلق من المقيد ، وفي موضع كموضع المعافى من المبتلى . ولكن . . .

قال : وفوق هذا وذاك ، إنهم لا يملكون السعادة إذ ليس لهم العقلُ الضاحكُ الساخر العابث الذي خُصص به النوابغُ وكان الأوحدُ فيه (نابغة القرن العشرين)

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها ؛ أما (النوابغ) فقد لا يملكونها ولكن لا يفوتهم الشعورُ بها أبدا فيجيئهم الفرحُ من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام العقلُ الضاحك الساخر العابث الذي دأبه أبدا أن ينسى ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادةُ صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحبه . ولكن .. ..

قال : والذي هو أهمُّ من كل ما سبق ؛ أن أعظم خصائص هذا العقل الضاحك الساخر العابث أن يطرد عن صاحبه ما لا يحبّ ويجنبه أن يخسر شيئاً من نفسه ، فهو لذلك يجعل حسابه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح خمسين في المائة .. ..

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطفل ؛ وما أظرف بلاهة الطفل وما أجداها عليه إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارها فتخرج بلهاء مثله ، وتنقلبُ له الدنيا كأنها أمٌّ تضاحك ابنها وتلاعبه . ولكن . . . .

قال : ولكن هذا مبلغ لا تبلغه الانسانية إلا شذوذاً في أفرادها من جبابرة العقول (كنابغة القرن العشرين)

قلت : نعم ولكن كيف صار نابغة القرن العشرين روايةً حين قرأ الرواية !

قال : هذه نكتة النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلنا يتلقّى في نفسه وحي الأثير وإشارات الروح الأعظم ؛ لعلم من الغيب أن نابغة القرن العشرين سيقرأ روايته ، فكان يتحرّى معاني غير معانيه ويتوخى بهذه القصة وصفاً آخر لا تكون فيه

حبيبةٌ خائنة ، ولا لصٌ عارم ، ولا قاتل سفّاح ، ولا سجنٌ مظلم ، ولا محكمة تقول حيث وحيث ....

قلت : وما عليك من حبيبة خائنةٍ فى الورق ، ولصٍ بين الحروف المطبعية ، وقاتل لا يقتل إلا كلاما ، وسجن ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتة النبوغ ، فما استوعبت القصة حتى عمّرتني أشخاصها وأُقْحِمتُ منها على هول هائل ، فخانتني الخائنة لعنها الله . ولولا خوف السجن والمحكمة لقتلتها أشنع قِتلة ومثّلت بها أقبح تمثيل . ويْح الخائنة كيف استمالها ذلك الدميم الطويل المملاق المشبوح العظام المفتول العضل ؟ ولكني لست عملاقاً ولا مبنياً بناءَ الحائط ؛ ثم كان مجنوناً بشهواته جنون الفيل الهائج وكنت فى شهواتى عاقلا عقل الانسان ؛ ثم كان غنياً غنى الجهّال وكنت فقيراً فقر العلماء ؛ والنساء ؛ قبح الله النساء . إنهن زينةٌ تطلب زينة مثلها . وإن المرأة لتمنح وجهها للقرد يقبله إذا كان الذهب يتساقط من قبلاته . أما من كان مثلى أمواله الشباب والجمال أو العقل والنبوغ ، فهو مفلس عندهن إفلاس القرد فى الغابة ، فهو عندهن قرد لهذه المشابهة

قلت : هذا ليس عجيباً فان اللغويين يجرون على الشيء اسم ما يقاربه فى المعنى

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن اللغويين يجرون على الشيء اسم ما يقاربه فى المعنى ....

فتربّد وجه (النابغة) غضباً وقال : أبي يلعب هذا المجنون ؟ إنه يزعم أن اللغويين يسمونني قرداً ، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة) ... سَوْأة عليك أيها الصبيُّ المعمَّر ... ألا فدعونى أؤدبه أدب الصبيان فان اللطمة القوية على وجه الطفل المكابر فى حقيقة ، تُلمِسهُ الحقيقة التى يكابر فيها إذ تدخله إلى عقله من أقرب طريق ...

قال ا . ش : أنت قلت لا هو . على أنك لست قردا أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متماجنة قد تضع البرذعة على ظهر الأمير وتحمله حمارها ، فيُعْجب الأمير أن يكون حمارها . ولست قردا مع قرّاد إلى جانب عنز وكلب ...

قال : الآن علمت السبب فان الخائنة كانت متخيلةً مؤلفة كتب وروايات ، والمرأة التى تؤلف الكتب ، غير بعيد أن تؤلف الرجل أيضاً ، وتحمله قصة فيها قرد ... وهذا إن كانت جميلة كامرأة الرواية . أما إن كانت دميمة مجموعة من المتناقضات ، أو عجوزا مجموعة من السنين ؛ فهذه وهذه كلُّ أيامها كيوم الأحد عند النصارى ... يوم للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة . هذه وهذه كلتاهما تجعل الرجل كالماء فى سبيل التجمد ... لا يشتعل ، فضلا عن أن يستعر ، فضلا عن أن يحترق

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا احدى وثيقتين : فاما جميلة ، فوجهها وثيقة بأن لها ديونا على الرجال ؛ وإما غير جميلة ، فوجهها (مخالَصة) من كل الديون ...

قلنا : هذا فى الخائنة . فكيف سرقك اللص ولست غنياً ؟

قال : هذه هى نكتة النبوغ ؛ وفى النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها وليس فى جهلها مضرّةٌ على أحد ، وجهلٌ لا يضرّ هو علم لا ينفع ، لكنه علم . والبحث فى بعض أعمال (النابغة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يعمل أعماله تلك بسر الحياة لا بسر العقل ، أى بالعقل النابغ الخاصّ به وحده لا بالعقل الطبيعى المشترك بين الناس .

***

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ولكنك مع ذلك تؤلفها ...

قال : إن ذلك ليكون ، وان لم أؤلفها أنا تألفت هى لى . فاذا تقدم الليل ونام الناس جميعاً انتبهتُ أنا وحدى لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى . وفى ضوء النهار أجدُ الناس عقلاء ولكنى فى ظلمة الليل أبصرهم مجانين . فهذا الليل برهانُ الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول إلى ضربٍ من النسيان الأبله التام لولاه ما عقلت فى نهارها ولا استقام لها أمر

يُصرَعُ الناس فى الليل صرعة المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً . أما أنا فأرى العالم فى الليل مسرحاً هزلياً يضجُّ بالضحك من الانسان الأحمق الذى يقطع مَراة نهاره وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف ... أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت فى أذنيك زئيره ؛ ادّعيت الدعوى العريضة وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه ، ولا تدرى فى هذا أنك كالمعتوه إذا قبض على الظل بيده وصاح هاتوا الحبل

لأقيده لا يُفلت ... ؟

قلت : فإذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلا من الرواية

قال : أيما أحب اليكم ، أن أكتب أو أمثل ؟

قلنا : بل التمثيل أحبُّ الينا . فنظر إلى المجنون الآخر وقال: إن الجنون فى طبيعته ينبوع من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال ، كينبوع الماء يسحُّ الدفعة بعد الدفعة ، فهنا المسرح ، والرواية الآن رواية الطبيب والمجنون ...

***

أنت يا س . ع . عمُّ هذا المجنون ، فاذا قال لك يا عم . قل له أنا لست عمك ولكنى أخو أبيك ... لننظر أيتنبه على الفرق بين الصيغتين أم لا ؛ فانه فرق عقلى دقيق تمتحن به العقول ...

تعال أيها المريض فانى أرجو أن يكون شفاؤك على يدى ، وفى يدى هذه لمسة من لمسات المسيح ، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيب القرن العشرين

اتقوا أن تغضبوه أو تخيفوه ، وأقيموا له كل مايحتاج اليه ، وتحروا مسرته دائما فان إدخال بعض السرور إلى نفس المجنون هو إدخال بعض العقل إلى رأسه . متى أنكرت يا س . ع عقل ابن أخيك وما كان السبب وكيف غُلب على عقله . وهل ا.ش. هو خاله أو أخو أمه ... ؟

لطف الله لك أيها المسكين . قل لى : أتتذكر أمس ؛ أتتذكر غداً ... إن الأمس والغد ساقطان جميعاً من حساب المجانين ؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تبدأ لهم كل يوم فقد استراحوا من ثلثى هموم الزمن فى العقلاء . وهم لا يصلحون أن ينفعوا الناس كالعقلاء ، غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء للانتفاع بأنفسهم فى الضحك والمرح والطرب ، وهذا حسبهم من النعمة عليهم

قل لى أيها المجنون : أتحسُّ أن الدنيا تصنع لك نفسك أم نفسك هى تصنع لك الدنيا ؟ إن هذه مسألة يحلها كل مجنون على طريقته الخاصة به ، فما هى طريقتك فى حلها ؟

مالك لا تجيب أيها الأبله ؟ (هذا من جهة ومن جهة) أعطوه قرشاً لينطلق لسانه ، وآتوا الطبيبَ أجره وافياً وهو لا يقل عن قرشين . . .

ثم مال (النابغة) على مجنون القرش وساره بشيء . فقلنا ما أمر المال بسر ؛ هذا قرش للمريض وهذان قرشان للطبيب .

فقال المجنون : « مما حفظناه » كفى بالسلامة داءَ

قال الطبيب : هذا مريض بنوع من الجنون اسمه « مما حفظناه » وهو جنون النسيان الذى يضع فى مكان العقل كلمةً ثابتة لايتذكره إلا بها ؛ ومن أعراضه جنونُ الشك فكل ما حول المريض مشكوك فيه ، وقد يترامى إلى جنون اللمس ، فلو لمستَه بأصبعك توهمها عقرباً تخاف من الاصبع تلمسُه خوفَه من العقرب تلدغه ، ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ، فليس هذا من مجانين العبقرية التى انحرفت عن طريقها أو شذَّت فى قوتها ؛ ولا هو ممن يتجانُّ ويتحامقُ التماساً للرزق والعيش كما قال بعضهم : حماقةٌ تعولنى خير من عقل أعوله

فقال المجنون : « مما حفظناه » حماقة تعولنى

فضحك (النابغة) وقال : هو كما بينتُ لكم مصاب بجنون (مما حفظناه) وهو أقل الجنون وأهونه ، وعلاجه البسطُ والسرور والقرش ؛ والضربُ أحياناً . . . فاذا ثارَ عليه الداءُ تحول إلى جنون (مما ضربناه) . . . فيمتدى المصابُ على كل من يراه أو يوقع به ضرباً ، وعلاجه حينئذ القميص المرقوم [1] ؛ فاذا فَدحتْ العلة انقلب المرض إلى جنون (مما قتلناه) . وعلاجه يومئذ السلاسل والأغلال

والحق أقول لكم إن آخر ما انتهت اليه فلسفة الطب فى القرن العشرين أن الناس جميعاً مجانين ولكن بعضهم أوفر قسطاً من بعض ، كأن سلبَ العقل هو أيضاً حظوظ كحظوظ موهبة العقل . وأهل المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بيمارستان الفلك

ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ؛ وعندى فى الدار عاطوسٌ إذا أشممتُه هذا المجنونَ عطسَ به عطسةً قوية تخرج جنونه من أنفه . . . قل لى أيها المسكين : أتخاف إذا مررتَ وحدك فى ميدان واسع كأن الميدان سيلتفُّ عليك ؟ أتضطرب إذا مشيت فى مضيق كأن المكان سينطبق عليك ؟ وإذا كنت فى عربة القطار فهل يخيل اليك أن البيمارستان قد جره القطار وانطلق به هارباً ؟ وهل شعرت مرة أنه أوحى إليك أن تنتحر ؟

أرنى هذا القرش الذى فى يدك . فمد إليه المجنون يده بالقرش

(١) القميص المرقوم قميص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذى يسمى اليوم (النمرة) وقد كان هذا معروفاً فى التمدن الاسلامى

قال (النابغة) : أنظر الآن هل تحدثك نفسك أن تغتصبني هذا القرش أو تسرقه مني ؟ قال : نعم

قال (النابغة) : إذن يجب أن أحرزه في جيبي ... وأسرع فأخفاه في جيبه

* * *

فصاح الآخر وشغَب ، وقال سلبني ونهبني . قلنا لا ينبغي أن يتصل بينكما شر في تمثيل الرواية فهذا قرش آخر ، ولكن أفي الفلسفة عند (النابغة) إباحةُ السرقة والغصْب ؟

قال : فالرواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو

قل لي ويحك يا أرسطو . أعلمت أن في المجانين أغنياءَ يسرقون الشيء القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليست بهم حاجة إليه . فما علةُ ذلك عندك وما وجهه في مقولة الجنون ؟

أعجزتَ عن الجواب ؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصاب بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحده ، وهو غني لا قيمة للدرهم في ماله فلا يحفل بالشراء . بيد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقله وحيلته فيجيئه بلذة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا . فهذا جنون باللذة لا بالسرقة وهو بذلك ضرب من العشق يجعل الشيء إذا لم يسرق كأنه المرأة المعشوقة الممتنعة على عاشقها

والجياع اذا سرقوا ليأكلوا ويمسكوا الرمق على أنفسهم ، لا يقال في لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا . . . فباضطرار جاعوا وباضطرار مثله أكلوا ، والسارق هنا هو الفتى الذي منعهم الاحسان والمعونة . . .

فالدنيا معكوسة منقلبة أوضاعها يا أرسطو ، ولو استقامت هذه الأوضاع لوجدت السعادة في الأرض لأهل الأرض جميعاً .

وكيف لك بالسعادة والناس مخلوقون بعيوبهم ؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط ، ولكن الطامة الكبرى أن عيوبهم تعمل دائماً على أن ترى في الآخرين عيوباً مثلها

كل حمار فهو يريد أن يملأ جوفه تبناً وفولا وشعيراً ، غير أني لم أر حماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الاصطبل ، فاذا وجد حمار هذه همته وهذا عمله فاسمه إنسان لا حمار . . . .

يا أرسطو إن معضلة المعضلات أن يحاول إنسان حل مشكلة داخلية محضة قائمة في نفس حمار أو نابتة في ذهنه الحماري ؛ ومثل هذا أن يحاول حمار حل مشكلة نفسية في ذهن إنسان أو في قلبه ؛ فلا حل لمشاكل العالم أبدا ما دام كل إنسان مع غيره كحمار مع إنسان . . . .

والمعضلات النفسية من عمل الشياطين فكان ينبغي أن تجيء الملائكة لتحارب الشياطين بالبرق والرعد دفاعاً عن الانسانية ؛ ولكن الله تعالى منعها وأرسل للانسان ملائكة أخرى إن شاء هذا الانسان عملت ، وإن شاء عجزت ؛ وهي فضائل الأديان المنزلة فاذا منحها الانسان إرادته وقوته فعملت عملها كان الانسان هو الملك بل فوق الملك ، وإذا أضعفها وحَقَّرها كان الانسان هو الشيطان وأسفل من الشيطان

يا أرسطو [1] « هذا العالم عندي كتلة من العدم اتفقت على الظهور وستختفي . والعالم عندي ضعف ركّب وقوة ركبت . والعالم عندي لا شيء . والعالم بَيْن بَيْن . والعالم قسمان . منهم الفلاح الزراعي وذلك أفضل فلسفة طبيعية .... والعالم في حاجة إلى الموت والموت في حاجة إليه . والأدب هو الحياة ولا حياة بلا أدب . والأدب ضربان : أدب نفساني وأدب مكتسب . وقد يكون طبيعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين . ومن هو نابغة القرن العشرين ؟ هو شخص مات بلا موت ويحيا بلا حياة . »

أريد يا أرسطو أن تعرف سر تركيب العالم ؟ الأمر يسير غير عسير ، فان سر تركيبه كسر تركيب القرش الذي في يدك ، فدعني أظهرك على هذه الحقيقة ومد يدك بالقرش لأبين لك سر التركيب فيه . . . .

* * *

ولكن المجنون الآخر أسرع فغيب القرش في جيبه . فقال (النابغة) هذا سياسي داهية خبيث . والرواية الآن روايه سياسي القرن العشرين

ليس في حقيقة السياسة إلا الرَّذْلُ من أفعال السياسيين . والألفاظ السياسية التي تحمل أكثر من معنى هي التي لا تحمل معنى . فليحذر الشرق من كل لفظ سياسي يحتمل معنيين ، أو

(١) هذه الأسطر التي وضعناها بين القوسين هي من كلام المجنون بالنص وكنا سألناه أن يكتب رأيه في العالم والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط . وتندر فيها كلمات كأعمق ما تجيء به مذاهب الفلسفة

معنى ونصف معنى ، أو معنى وشِبْه معنى . فان قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فاذا كتبوه قلنا لهم ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهد الطبيعةُ نفسها على أن معناه أحمر لاغير . . . وعلى هـذه الطريقة يجب أن تكتب المعاهداتُ السياسية بين أوربا والشرق

انهم يكتبون لنا جريدة بأسماء الأطعمة ثم يقولون : أ كلتم وشبعتم . . . ولقد رأيت (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التي أعنيها ؛ فما أعني إلا أن يخرج كل الجانبين في مظاهرة . . . . . .

وهـذا الأبله الذي أمامنا ليس وطنياً ولا فيه ذرة من الوطنية . فان كان وطنياً أو زعم أنه وطني ، فليخرج القرش الذي في جيبه . . . ليكون فألا حسناً لخروج جيش الاحتلال من مصر

***

ولـكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيش الاحتلال في مكانه فقال (النابغة) : الرواية الآن رواية الشرطي واللص . ويحقّ من القانون يكون للشرطي أن يفتش هذا اللص ليخرج القرش من جيبه . . . .

***

غير أن المجنون امتنع . فقال (النابغة) : كل ذلك لا يجدي مع هذا الخبيث ، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة . ويجب أن ينكب الرشيد هؤلاء البرامكة ليستصفي القرش . . .

***

بيد أننا منعناه أن ينكب « البرامكة » فقال : الرواية الآن رواية العاشق والمعشوقة ، ونظر طويلاً في المجنون وصعّد فيه عينه وصوّب فلم ير إلا ما يذكر بأنه رجل فتهدّى إلى رأي عجيب . فوقع على قدميه وتوهمه امرأةً في حذائها . . . وجعـل يناجي الحذاء بهذه المناجاة :

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير سخيف ؛ فـكل فكرة في الحب مهما كانت سخيفةً ، عليها جـلالُ الحب ؛ وللحذاء في قدميك يا حبيبتي جمالُ الصندوق المملوء ذهباً في نظر البخيل ، وكل شيء منك أنت فيه سرُّ جمالك أنت . والحذاء في قدميك ليس حذاءً ، ولـكنه بعض حدود جسمك الجميل ، فلأ كون كلُّ العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى الحذاء

ان جسمك يا حبيبتي كالماء الجاري العذب ؛ في كل موضع منه روح الماء كله . وحينما وقعت القبلة من جسمك كان فيها روح شفتيك الورديتين . هذه قبـلة على قدميك يا حبيبتي ؛ وهذه قبلة على ساقك ؛ وهذه قبلة على ثوبك ، وهذه قبلة على جيبك . . . .

وكادت يد (النابغـة) تخرج بالقرش ؛ فعضّه المجنون في كتفه عضة وحشـية فجأه الخوف منها فطار صوابه ؛ فصرخ صرخة عظيمة دوى لها المـكان وترددت كَصرْصَرَة البازي في الجو . ثم اعتراه الطيف ، وأطبق عليه الجنون ، فاختلط وتخبّط . . . . . .

(والرواية الآن) . . . ؟ . رواية عربة الاسعاف . . . . . .

(طنطا)

تصحيح خطأ

جاء في مقال (المجنون) في صفحة ٢٠٤٥ من العدد ١٢٩ هذا البيت :

العقل إن حكم المشاقَ أثقلُ من فقرٍ تحكّم في رزق المجانينِ

وصوابه : في رزق « المساكين »

٢ ـ بعض مواطن الخفاء

فى التاريخ الاسلامى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٤ —

وفى عصر الحاكم بأمر الله تدنو أساليب الخلافة الفاطمية ، وتدنو شخصية الخلفاء الفاطميين من ذروة الخفاء ؛ وكما أن الدعوة السرية الشيعية لقيت على يد الخلافة الفاطميـة أعظم مظاهر ظفرها الدينى والسياسى ، فـكذلك تلقى الدعوة السرية الفاطمية فى عصر الحاكم بأمر الله أغرب مظاهرها ، وأشدها إمعاناً فى الغموض والخفاء ؛ وفى هذه الفترة بالذات ينفجر بركان الدعوات السرية التى لبثت تضطرم قبل ذلك بأكثر من قرن ، وتحقق بعض غاياتها العملية بصور جريئة مروعة

ولقد كانت شخصية الحاكم بأمر الله مثال الخفاء ذاته ؛ ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التى تنتاب هذه الشخصية الغريبـة فى كثير من المواطن ، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية التى تتمتع بها فى أحيان كثيرة ، بيد أنا نلاحظ أن الخفاء يغمر هذه المظاهر جميعاً ، سواء فى فترات قوتها أو ضعفها . كان الحاكم ذهناً هائماً ، يشغف بنظريات الخفاء والعالم الآخر ، وينكب على دراسة التنجيم والفلك ، ويهيم فى ميدان المباحث الفلسفية والروحية ؛ وكان هذا الخفاء المروع يصحب الحاكم فى حياته الخاصة ، وفى تصرفاته العامة ، فى أقواله وأعماله ؛ وأى خفاء أشد من ذلك الذى تنفثه حولها شخصية ترتفع فى سماء التفـكير حتى لتزعم السمو فوق البشر ، وتهيم فى دعوى الألوهية ، وتنحط مع ذلك فى بعض نزعاتها وتصرفاتها الى نوع من الجنون الغامض ؟ لقد يجرؤ الدعاة فى كثير من المواطن على انتحال الرسالة أو النبوة ، وقد يزعم المشـعوذون والمغامرون أنهم يتمتعون بمواهب خارقة ، ولدينا من هؤلاء وهؤلاء ثبت حافل فى جميع العصور والأمم ، بل إنا لنراهم ينبثون فى القرن الثامن عشر فى معظم المجتمعات الأوربيـة يزاولون السحر والتنجيم ، ويعتصمون بأذيال الخفاء والروع ؛ ولـكنا لا نعرف مثلا عملياً ذهب فيه الداعى الى انتحال الألوهيـة ، وأثمرت فيه الدعوة ثمرتها العملية كمثل الحاكم بأمر الله

احتشد الدعاة السريون بمصر فى عصر الحاكم ، وازدهرت الدعوات السرية ، واتخذت سبلا ومظاهر شتى ؛ وكان المجتمع القاهرى يعيش فى الواقع على هامش تلك الدعوات الغريبة التى تتخذ سبلها فى الخفاء الى أذهان الهائمين والمنافقين ؛ وقد تمخضت هذه الحركة السرية الملحدة فى عصر الحاكم ذاته عن نتائج مدهشة ، ففى أواخر عصر الحاكم ظهر دعاة يدعون إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ؛ وزعم حمزة بن على رأس أولئك الدعاة وأشدهم جرأة أن الحاكم ليس بشرا ، وإنما هو « المولى سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان » ونعته بأنه « قائم الزمان » ، وأنه هو أى حمزة نبيه ورسوله ، وذهب الدعاة فى جرأتهم الى حد التبشير بهذا الهراء فى جامع القاهرة (الأزهر) علناً ، وكادت تضطرم من جراء ذلك فتنة خطيرة لولا أن بادر الحاكم بصرف الدعاة وابعادهم إلى الشام ، وهنالك أسفرت دعوتهم عن تأسيس مذهب الدروز الذى ما زال قائماً إلى اليوم ؛ وقوامه القول بالتناسخ وحلول الأرواح ، وأن الحاكم بأمر الله هو الالـه ، وهو قائم الزمان ، تجسمت فيـه روح آدم ، بعد أن تجسمت من قبل فى على بن أبى طالب

وقد وضع أولئك الدعاة كتباً ورسائل سرية مدهشة انتهى الينا بعضها [١] ؛ ولم يك ثمة ريب فى أن الحاكم بأمر الله كان يرعى هذه الدعوة ويغذيها من وراء ستار ، وأنه تأثر بها فى أواخر عهده ، وأذكت هيامه ، واضطرام عقله وروحه ، وكان لها أكبر أثر فى تطور الدعوات السرية الاسماعيلية

— ٥ —

وكان اختفاء الحاكم كحياته لغزا مدهشا ، بل كان ذروة الخفاء والروع ؛ وما زالت قصة هذا الاختفاء وظروفه وحقيقة عوامله مثار الريب والجدل . ركب الحاكم ذات مساء فى بعض جولاته الليلية التى كان يشغف بها ولا يصبر عنها ، وقصد ناحية فى جبل المقطم اعتاد أن يرتادها لرصد النجوم ، بعد أن صرف الحشم

(١) تحتفظ دار الـكتب المصرية بطائفة من هذه الـكتب والرسائل ، تحت أرقام ٥٤ و ٣٥ و ١٣٣ عقائد النحل

المرافقين له؛ ثم لم ير بعد ذلك قط لا حياً ولا ميتا، ولم يوجد له بعد ذلك أثر قط؛ ولم توجد جثته قط. ولم تقدم إلينا الروايات المعاصرة أو المتأخرة أية رواية حاسمة عن مصرعه أو اختفائه، ولكنا لا نتردد رغم خفاء الحادث وغموض ظروفه فى الاعتقاد بأن الحاكم ذهب ضحية مؤامرة، وأن مقتله لم يك سوى جريمة سياسية ارتكبت لتحقيق شهوات الملك والسياسة؛ وهذا ما تقرره بعض الروايات المعاصرة على اختلافها فى الشرح والتفصيل؛ وفى ظروف الحاكم، وفى عنفه واضطرام أهوائه، وغريب تصرفاته، وفى قسوته وصرامة نفسه، ما يفسر مثل هذا الرأى، وما يسبغ عليه مسحة من الرجحان. ومعظم الروايات المعاصرة على أن الذى دبر المؤامرة هى الأميرة ست الملك أخت الحاكم؛ وكانت تأخذ عليه عنفه وإغراقه، وتحذره من عواقب أهوائه؛ وكان الحاكم يشدد عليها الحجر والرقابة ويبنى عليها سوء مسلكها وفضائحها الغرامية؛ وكانت تخشى بطشه وفتكه، وترقب الفرص لتدبير اغتياله؛ وكان حليفها وعونها فى تدبير المؤامرة وتنفيذها، سيف الدولة بن دواس زعيم قبيلة كتامة القوية التى فقدت فى ظل الحاكم ما كانت تتمتع به من النفوذ والجاه. وفى ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠م) ركب الحاكم إلى المقطم، بعد أن طاف حيناً فى أنحاء القاهرة، وسار إلى الجبل ومعه ركابيان فقط؛ وكان ابن دواس قد اتخذ أهبته ورتب للفتك بالأمير عبدين من أخلص عبيده؛ وتوغل الحاكم فى الجبل إلى حيث اعتاد أن يرصد النجوم ومعه ركابى فقط؛ أما الركابى الآخر فصرفه مع بعض ذوى حاجة اعترضوه فى طريقه، وهنالك فى جوف الجبل تمت الجريمة وقتل الحاكم ووصيفه، وقطعت قوائم حماره الأشهب؛ وحملت جثة الحاكم فى جوف الظلام إلى أخته ست الملك فدفنته فى نفس مجلسها؛ واتخذت كل ما يجب لكتمان الجريمة، وأذاعت أن أخاها سيغيب أياماً؛ وخرج الناس إلى الجبل فلم يعثروا بأثر للحاكم أو حماره أو ركابيه؛ ورتبت ست الملك فى نفس الوقت اغتيال ابن دواس وكل من اشترك فى الجريمة أو وقف على السر، وذهب السر مع الجناة إلى القبر

وقضى رجال الدولة ثلاثة أيام متوالية يبحثون عن الحاكم دون جدوى، وفى اليوم الرابع توغلوا فى الجبل فعثروا بحماره الأشهب وقد قطعت قوائمه، وتابعوا بحثهم حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرق حلوان، فنزلها البعض، وعثروا فيها بثياب الحاكم مزررة لم تحل أزرارها وفيها أثر الطعان. فمنذئذ أيقن الناس بقتله

كان مصرع الحاكم فيما يرجح إذاً جريمة سياسية دبرت ونفذت بأحكام؛ ولكن ذلك التعليل لم يكن حاسما فى عصر ذاعت فيه الدعوات والأساطير السرية، ونودى فيه بألوهية ذلك الذى اختفى على هذا النحو الغامض. ومن ثم فقد زعم بعض الغلاة والمغامرين من الدعاة أن الحاكم لم يمت ولكنه اختفى وسيظهر آخر الزمان، أو أنه رفع الى السماء كما رفع المسيح (١)

بل لقد وجدت هذه الأساطير المغرقة سبيلها إلى بعض دوائر البحث الحديث، فنرى المستشرق فون ميللر مثلا يعلق على اختفاء الحاكم بما يأتى: «أما أن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل، فهو حديث خرافة. والواقع أن مصيره لم يعرف قط. وعندى أنه طبقا لكل ما نعرفه من حياته، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه فى مصر، فاعتزل الحياة واختفى فى مكان ما ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار، لكى يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو «الناطق» حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الامام أو المهدى؛ وهذا ما لا يزال ماثلا إلى اليوم فى عقائد الدروز» (٢)

والواقع أن هذه الأساطير رغم بطلانها وإغراقها، كانت أخصب مستقى لمذهب الدروز. وإذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بهذا التعليل الغريب لاختفاء الحاكم، فنى وسعنا أن نعتقد أن اختفاء الحاكم كان نتيجة جريمة دبرها الدعاة السريون لاذكاء دعوتهم، ولكى يسبغوا عليها باخفاء الحاكم من هذا العالم قوة الدلائل المادية، فيقال إن ناطق الزمان قد اختفى ولن يظهر إلا فى آخر الزمان. على أنه مهما قيل فى مصرع الحاكم وفى تعليل اختفائه، فلا ريب أنه حادث من أغرب حوادث التاريخ الاسلامى، وأشدها غموضاً وروعة وخفاء

— ٦ —

هذه خلاصة منوعة لبعض مواطن الخفاء فى التاريخ الاسلامى

(١) ابن خلكان — ج ٢ ص ١٦٧ و١٦٨

(٢) Von Müller : Der Islam 1 P. 633

وهنالك الكثير منها مما لا يتسع المقام لذكره . ولا تقتصر هذه المواطن الخفية الغامضة على حوادث التاريخ الاسلامى ؛ ولكنها تمثل فى تواريخ معظم الأمم والعصور ؛ فما من عصر إلا وله أساطيره ، وما من أمة إلا ولها أساطيرها القومية ، وقد كانت هذه الأساطير وهذه المواطن الخفية تمت فى الغالب بصلة الى الدين أو إلى الاطماع والمشاريع السياسية ، وكان يستغلها دائما دعاة مهرة ومغامرون لهم من الجرأة والاقدام ، ما يكفل تحقيق مشاريعهم ؛ وكان السلطان الروحى أو السياسى دائما مطمح أولئك الدعاة أو المغامرين ؛ وفى أحوال كثيرة نرى الأسطورة الدينية أو الدعوة الخفية تنتهى بانفجار تعقبه انقلابات سياسية واجتماعية خطيرة ، وفى بعض الأحيان نرى الأسطورة أو الدعوة تفضى إلى قيام دولة جديدة أو مذهب دينى أو سياسى جديد

ولا ريب أن هذه الأساطير والدعوات والحوادث الخفية تبدو فى عصرنا حديث خرافة ، ومن المستحيل أن تشق طريقها بعد فى أمة متمدنة أو مجتمع مستنير . ولكن يجب أن نذكر فوارق العصر والظروف ، وأن نحكم على هذه الظواهر الغريبة بعيار العصر الذى حدثت فيه . على أننا نجد فى التاريخ الحديث ، وفى المجتمعات الحديثة المتمدنة أيضاً أمثلة مدهشة من هذه الأساطير والظواهر الخفية تشق طريقها إلى أرقى المجتمعات وتثير الدهشة والروع فى نفوس الكبراء فضلا عن الكافة ؛ ففى القرن الثامن عشر ظهر فى ألمانيا والنمسا وفرنسا عدة من الدعاة والمغامرين السريين مثل يعقوب فرنك (أو الكونت أوفنباخ) والدكتور فوك ، ويوسف بلسامو (أو الكونت كاجليوسترو) ، والكونت سان جرمان وغيرهم ، وجابوا المجتمعات الأوربية الرفيعة ، وأثارت مزاعمهم ودعاويهم فى الخلود وعلم الغيب ، ومزاولة السحر ، والخوارق ، كثيرا من الدهشة والروع ؛ بيد أن هؤلاء المغامرين الدهاة لم يحاولوا أكثر من تحقيق مطامع محلية وشخصية ؛ ذلك أن العصر الذى كانت فيه جرأة الدعاة تتجه إلى انشاء المذاهب الدينية أو الدول السياسية ، كان قد انتهى منذ بعيد ، ولم يبق امام الأواخر من الدعاة والمشعوذين إلا أن يعملوا فى ميدان متواضع جدا لتحقيق المآرب والأهواء الشخصية .

(تم البحث) محمد عبد الله عنان

ذكرى زوجة

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

حدثنى صاحبى قال :

عشر سنين سوياً هى مدى العيش بينى وبينها
هى قنطرة حياتها الجديدة اجتازتها عجلة إلى القبر

كانت تملأ بيتى نوراً ، ونفسى حبوراً ؛ بدلتنى بالوحشة انساً ، وبالوحدة جمعاً . هؤلاء أولادها نجوم سماء أرسلتها العناية الالهية لتكون معجزة الله فى نظام الأسرة ، وفى بعث الأمل الباسم ، وفى سعادة الآباء والأمهات ، ثم لم يمتعها الدهر بهم إلا قليلا ، واستودعتنى صغاراً كأفراخ الطير ، وذهبت فى عالم السماء . . . . . .

دعنى يا أخى أخفف من بُرحاء حزنى بقطرات من الدمع
هى كل ما أملك عندما يغلى مرجل قلبى بذكراها

دع دماء قلبى تتبخر فتستحيل دموعاً ، ففى انبثاقها هدوء لوعتى وأشجانى ، فقد انصبّت أحزان الناس جميعاً فى مصيبتى ، فما أطيق لها حملا

أفما رأيت المحزونين يتعزون بى ، وينسون مصائبهم إذا رأونى ، فيرثون لبلواى ، ويمحون بتعازيهم فيض عينىّ التى هى معانى دموعهم على موتاهم ؟

يا لأيامها الحلوة ، ومسرتها الطاهرة ! !

أرأيت إلى البحر الصافى الساكن الذى لا يدُس فى قرارته شيئاً ! ! أرأيت إلى السماء الزرقاء الجميلة تزهر بالنجوم الوضّاءة ، هى رمز السرور والطمأنينة ! ! ذلك هو قلبها : إخلاص وصدق ، وأدب وحياء ، وكل ما ترتجى فى الزوجة الكاملة من سمو ووفاء . . . . . .

وكأن القدر أراد أن يسقينى كئوس السعادة مُترعة ثم يسلبنيها وشيكا ليطول حزنى ، وتدمى إلى الأبد جراح قلبى ، فأنا منها فى همٍّ مقعد مقيم

قلت له : هوّن عليك يا أخى ، فما لما قضى الله حيلة ، وحسبك ما قدّمت يداك ، وما قمت به نحوها من تمريض ، فقد كانت فى أغلب سنيها معك بين الموت والحياة ، تسمى سمى

المُجد لتدفع القـدَر عنها ، فلم تدع طبيباً إلا استشرته ، ولا صيدلية إلا أفرغت فيها كنوز حياتك

كنت فى حياتها فى فكر ممض ، وقلق مستديم ، وليس من الانصاف لنفسك ولا لأولادك أن تظل هكذا شقياً بمانها ..

فما استأذن حديثى على سمعه حتى ظل هُنيهة مطرقاً مفكراً ، وكأن أطياف الماضى تذهب وتجئ فى رأسه ، فلا يستطيع لها دفعاً ، وكأن لوحة خيال تعرض حوادث حياته مشهداً مشهداً ، وبعد أن تنبه إلىّ قال :

لست أنسى طول حياتى رزانة عقلها ، واتزان كلامها ، وجميل وفائها ؛ وقصدها فى الأمور كلها ، حتى لقد حسبت أن الله مازها بذلك من دون النساء جميعا ؛ وأن شمائل بنات حواء اجتمعت لديها ثم صارت وقفاً عليها . أرأيت إلى قطرات من الطر تتحلب من أفواه السحاب ، ثم يؤلف الله منها ماء رويا يحظى به فرد واحد من بني الانسان ؟ تلك هى فضائلها . فان مُحى البرّ والمعروف والوفاء من نفوس الناس جميعاً فلن تبرح ذهنى ذكراها ، وهكذا تمر الأيام وروحها ماثلة أمامى ، ومآثرها مشرقة اشراق الشمس ؛ فهى باقية فى معانى الكمال الانسانى ، باقية فى هؤلاء الصبية كلما خطروا أمام عينيّ ، فهم بضعة منها ، وأمثالها العزيزة على نفسى . . . . . .

كان داء قلبها مبعث آلامها ، فما تبرّمتُ لحظة فى القيام بما تفرضه شركة الحياة بينى وبينها ، ولأنى أعلم أن صخرة عاتية تنتظرنى بعد أن أنفض يدىّ من تراب قبرها ، فتحطم آمالى بحطمها ، وتفرق أجزاء نفسى شعاعاً

وكم كنت أودّ إن لم يكتب الله لها السلامة أن تعيش هكذا فى سريرها تنعم برؤية أولادها ، وأنا كل يوم أزجى اليها كواذب الآمال فى برئها ، وأزوّر مع الطبيب فى الطريق كلاماً نقوله عند لقائها ، والطبيب يشفق علىّ ويقول : حسبك فقد أبليت ، والطبّ ألقى سلاحه معترفاً بالعجز عند باب حجرتها ؛ وأنا أجيبه : لا عليك أن تكرر الزيارة ، وأن تذرع الأرض جَيْئة وذهوباً ، وأجرك موفور ، وعذرك فى عدم الشفاء مذكور ، رجاء أن تدخل شيئاً من برد الطمأنينة على قلبها

وقد والله كانت راضية بالقدر خيره وشره ، وما ذاقت طعم النوم أشهراً إلا مثل حَسْوِ الطير ماء الثّماد ، وكانت لا تطيب نفسها أن أسهر بجانبها حتى أقوى على أسباب العيش طول النهار ؛ فاذا نزلت عند رأيها انتابنى الفزع فى وهن الليل ، فأراها جالسة مفتوحة العينين تنتظر قضاء الله فيها ، وقد تسمع المؤذن فى الفجر يشق الفضاء بكلمة الحق : « الله أكبر » فى سكون الليل وهدوئه ، فتضرع اليه أن يحكم فيها بما يراه خيراً لها ، ثم تدعو الذى كتب لها قصر العمر أن يكتب لى طول العمر جزاء ما أسديت اليها فى أمراضها المتطاولة من برّ ومجهود ، فآبى لهذا القول ، وأذكر الأمل فى الشفاء ، فتستبعد تحقيق ما أملت وتقول : أيقدّر لى الشفاء فأقضى عمراً جديداً فى شكر معروفك ؟ !

ثم اشتدت بها العلة ، وبرحت بها الأوصاب . ومن عجائب القدر أن تكلفنى وزارة المعارف مغادرة المدينة لأعمل فى الامتحانات فى مدينة أخرى ، وليس من شرعة وزارة المعارف أن ترحم مثل الظروف المحيطة بى ، أو تقبل عذرى إلا إذا كنتُ أنا مدنفاً عليلا ، ويشهد جماعة من الأطباء جَهد أيمانهم أنى لا أطيق السفر ، ولا أقوى على مكابدة الأعمال

***

سافرت متعب الفكر ، مضطرب النفس ، وبين جنبى من الهم مالو كان بالجبال لاندكت ، وبالبحار ما سمعت لرنات أمواجها زئيراً ، ولا لشموخ أنفها عزّة وزفيراً

وقبل سفرى تقدمت إلى أنجالى أن يراسلونى يومياً بحالتها ، وأسررت إلى بعض أصدقائى إن حلّ المقدور أن يبادر باستقدامى برقياً ، ومن عجب أن تترى الرسائل كل يوم بأن معجزة عيسى الباهرة ظهرت فى زوجى ، وأن المرض كادت تزول آثاره ؛ فأحدث ذلك فى نفسى حالة بين الشك واليقين . أذكر البرء فأقول : « آمنت بالله » ، « يحيى العظام وهى رميم » ، هاهوذا مجهودى الطويل تَتَوّج بالنجاح ، ووالله إن فرحى برؤيتها سليمة لينسينى كل عذاب تحملته صابراً محتسباً ، ثم تخيم علىّ سُحب مظلمة تقترب من نفسى شيئاً فشيئاً فأنفجر باكياً فى حجرتى بالفندق بعد أن أحكم رتاج الباب ، وأشتفى ببلسم المحزون ؛ هى تلك القطرات

يالله للانسان لو لم تكن دموع عينيه أتراه ينشق فتتطاير أجزاء قلبه ورأسه فلذة فى المشرق وفلذة فى المغرب ثم يتناثر جسمه إرْباً إرْباً . ثم تعود إلىّ قوة نفسى فأحس حرارة اليقين فى صدرى ، ويشع أمام عينىّ ضياء الأمل فأنتعش وأبنى قصور

الآمال من جديد بعد أن ضعضعتني الأسقام ، وزعزعتني الوساوس والأوهام . وعدت من السفر ودخلت عليها مسلماً لأبدل بالشك اليقين ، فرأيتها جالسة في سريرها وقد امحت منها معالم الحياة إلا عيونا رقّاقة وروحا رضية تتحدث حديث الأحياء وجسمها في عالم الأموات ، فعرفت زيف أحلامي التي نعمت بها مُدة غيبتي عنها ، فسألت في شأن هذه الرسائل فاعتذرت إلى بأنها شاءت أن أفرغَ لعملي ، وحسبي جهود الامتحان من آلام التذكر ، فخاطت الرسائل بما يخفف عني ، ويحيي ميت الآمال من نفسي ، فأكبرت هذه المروءة وذلك العقل الكبير من حيةٍ مَيتةٍ تنتظر أياما أو ساعات لتودع الحياة الدنيا وقالت لي : إنها ابتهلت إلى الله ألاّ يحل بها ريب المنون حتى أعود من سفري ، وها هي ذي مشيئة الله كانت رحيمة بها كريمة عليها ، وأعلمتني أن دلائل الموت تقترب منها ففاضت شئوني . أما هي فكانت الثقة بالله تملأ جوانب نفسها والتسليم للمقادير ما يلهج به لسانها في كل حين فكانت هادئة رزينة مكتملة العقل كعادتها

***

ثم عدت إلى المنزل في الظهيرة وقارورة الدواء الأخيرة في يدي فنظرتْ اليها كما ينظر الموتور الى واتره فأجفلتْ منها وكأنها نذير الموت جاء يُعجلها فقالت : في هذه الزجاجة بقية عمري فأبعدوها عني ولا تفُضوا ختامها : ارحموني فقد تمزّق جسمي بالحقن فلم يسلم جزء فيه من طعناتها ، وتقطعت أحشائي بالعقاقير وأنا صابرة ، فكم من طبيب كشف عن جسمي ! وكم من دواء شققت مرارته مرارتي ! أين أولادي ؟ ليصنعوا مثل الحلقة حولي ، وأخذت تقبل هذا ، وتمسح بيدها رأس ذاك ، وتبلل بالدموع وجوههم جميعاً ، كل ذلك وهم في غفلة ساهون يفرحون ويمرحون إلا أكبرهم فكانت دموعه تسابق دموع أمه فيبكيان معاً . وبعد قليل استنجدتْ بجرعات من الزجاجة فشربتها فنامت ثم استيقظت بعد نصف ساعة وكأنما نشطت من عقال ، فاستفاقت وعاد اليها برد الأمل ، وما رأيتها في أوقات مرضها أسعد حالا وأعظم سروراً من تلك الساعة ، وقلت لها : ألم أقل لك كثيراً إن الانسان قد يصل به المرض إلى الغاية ثم يشفى ، وأنا أعرف كثيراً من الناس بهذه المثابة

***

وما انتصف الليل أو كاد حتى زلزلت الأرض زلزالها ! ! إنه موقف الموت الرهيب ! ! فرأيت نفسي في مأزق حرج لم أشهده طول حياتي . إنه رسول الموت جاء ليحسم الأمر بعد طول جدال ! جاء « لِتقطع جَهيزة قول كل خطيب »

وانحط أمّ أولادي الرّحال بعد طول تهجير فقد أضناها السُّرى وبَرِمتْ بالحياة الدنيا . رأيتها تسلم الروح إلى بارئها في يقظة وانتباه ونفسها معلقة بأولادها وكأنها تخاطب رسول الموت : قف قليلا لأشهد الكون أني ذهبت إلى الله وخلّفتُ في الدنيا أطمالاً هم مهجة قلبي وحُشاشة نفسي . قف قليلا لأودعهم الوداع الأخير

ثم مسحتْ آلام المرض الطويل وغسلتْ كل أسقامها المبرحة بكلمة لن أنساها طول حياتي كانت مفتاح الآخرة « دعوني أستريح . أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ثم صارت جثة هامدة

***

سهرت ليلة من ليالي العمر بَيّضت سواد شعري ، وكلما دقت الساعة دقت معها شعرة من رأسي لتعلن استحالة السواد بياضاً حتى أدركني الصباح

***

أنا غريب في هذه المدينة التي صارت مثوى زوجي ، ومرقد جزء من أجزاء نفسي ، وقد غادرت أمي في العاشرة من عمري لأطوف في نواحي الأرض في سبيل المصير الذي بعض عواقبه اليوم

ولا والله ما شعرت بلذع الغُربة يُحرق كبدي إلا في هذا اليوم العصيب .

***

ذهبت مبكراً إلى منزل الصديق الصدوق الأستاذ « مصطفى صادق الرافعي » أحسن الله جزاءه فأيقظته من النوم فعرف سر البكور قبل أن يلقاني وأن قضاء الله قد حمّ ، فجاءني مذعورا فقلت له : « أفي مقبرة آل الرافعي مكان للغريبة ؟ »

***

ومشينا والنعش يتهادى أمامنا ، فرأيت بعيني سياج حياتي يتحطم ، وضياء بيتي ينطفئ ، وزوجي في ظلمات القبور !

***

فيا قبرُ رفقاً بها فقد كانت عزيزة علينا ! ! ويا أحجاره كوني على جدثها أوراق الجنة

(القاهرة) حسنين حسن مخلوف

المتنبى فى ديوانه

بمناسبة ذكراه الالفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسنى

بقية ما نشر فى العـــــدد الماضى

وقال المتنبي :

يترشفن من فمى رشفاتٍ هن فيه أحلى من التوحيد

فقالوا : لو كان يجد للايمان فى قلبه حلاوة لما جعل رشفاتهن من فمه أحلى من التوحيد . ونقول : إن البيت قد روى هكذا : هن فيه حلاوة التوحيد ، وهى نسختنا أيضاً . وقد قيل إن أفعل غير مراد به التفضيل ؛ وقيل أيضاً إن التوحيد نوع من التمر ! وعلى الرواية الثانية يكون شبه الترشيف بحلاوة التوحيد ولا حرج فى ذلك ، ومثله مستساغ فى مذهب الشعراء . هذه ثلاثة أبيات ليس فى شعر المتنبى أكثر غلواً منها ، ومع ذلك فهى لا ترد علينا كما رأيت . أما مذاهب عقليته فنشير اليها حيث يقتضى المقام ذلك ؛ وليس هناك ما يدل على أنها من ذات نفسه ومضمر قلبه أصلاً ؛ وأما مبالغاته فى المدح فيصل بها إلى حد المقارنة بين نفسه وممدوحيه وبين الأنبياء

والأمر الأول لا شك لا يؤاخذ عليه لأنه حتى على فرض كونه مما يؤثر فى صحة الايمان فمن أين لنا أنه كان يعتقده ؟ وإلا فحاكى الكفر ليس بكافر ، وعلى أنه اعتقده فمن أين لنا أنه استمر على اعتقاده إلى أن مات ؟ وعلى كل حال فالحكم على المتنبى بضعف العقيدة لبعض أفكار فلسفية تضمنها شعره يجعلنا لا نقبل فى حظيرة الاسلام أكثر علماء الاسلام من الذين لهم مذاهب فلسفية وأفكار حكمية . على أنه ما من قول موهم فى شعر المتنبى إلا وقد وجد فى شعر غيره ما هو أكثر إيهاماً منه ، فلماذا لم يحكموا على غيره من الشعراء بذلك الحكم الجائر ؟ ولولا ضيق المجال لعقدنا مناظرة بين أقواله وأقوال غيره من الشعراء فى هذا الموضوع حتى يرى القارئ أن المتنبى لا يزيد على غيره إن لم يقصر فى ذلك .

وإليك قوله مثلا فى كافور :

ألا فتى يُورِدُ الهندى هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم .
فانه حجة يؤذِى القلوبَ بها مَن دينه الدهر والتعطيل والعدم

فانه هو عين قول ابن الرومى لصاحب لحية طويلة فى صورة أخرى من السخرية :

أرْعِ فيها المُوسَى فانك منها - يشهد الله - فى أثام كبير
أيما كوسج يراها فيلقى ربه بعدها صحيحَ الضميرِ
هو أحرى بأن يشكَّ ويغرَى باتهام الحكيم فى التقديرِ

فلماذا أخذ قول المتنبى دليلا على ميله للتعجيل دون قول ابن الرومى الذى منه استعار المتنبى ذلك المعنى ؟

كذلك الأمر الثانى ، لم يكن المتنبى بارعا فيه ولا بأول ولا آخر ؛ فما زال الشعراء يشبهون ممدوحيهم بالأنبياء بل يجاوزون التشبيه إلى ما هو فوقه ، وذلك معروف من مذهبهم قديماً وحديثاً ، ولا نعنى أنه لا بأس به شرعا ، ولكنا نريد أن نقول إن المتنبى لم ينفرد به ولم يطمن أحد بمثله على غيره من الشعراء فى عقيدته ؛ وقد وجد ذلك فى صدر الاسلام ووسطه ويوجد الآن فى هذا العصر ، فمن قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

أتى الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

ومن قول ابى نواس فى الأمين :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب

ومن قول أمير الشعراء المرحوم أحمد شوق بك يذكر طائرات فرنسا :

لسليمان بساط « واحد » ولكم ألف بساط فى الفضاء

فهل هؤلاء الشعراء لا يضربون مع المتنبى على وتر واحد فى هذه النغمة ؟

والخلاصة أن المتنبى كغيره من الشعراء صدرت عنه أقوال ظاهرها الاستخفاف بأمر الدين ولكن لا نحكم بمقتضاها أنه فاسد العقيدة حتى نحكم على غيره من الشعراء بله العلماء أنهم كذلك ، فان بعضهم أسوة ببعض فى هذا الأمر

* * *

وأما أخلاقه فلسنا بحاجة إلى التنويه بما كان عليه من علو الهمة والشجاعة والصدق والوفاء ، فان شعره مملوء بشواهد ذلك حتى لقد بلغ من علو الهمة أن عابه خصومه بهذا الخلق ، فمنهم من لقبه بالمتنبى لتشبيهه نفسه بالأنبياء ، ومنهم من جعل ذلك مرضا

نفسيا أشبه ما يكون بالجنون . والواقع أن المتنبي كان يسرف في التعظّم وان كان له سلف في ذلك ، فانظر إلى قوله :

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الـله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرق

فانك لا تجده يختلف عن قول هبة الله بن سناء الملك :

وفرطُ احتقاري للأنام لأنني
أرى كل عار من حلي سودَدٍ سدى

أرى الخلق دوني إذ أراني فوقهم ذكاءً وعلماً واعتلاء وسؤددا

وبلغ من شجاعته أن لاقى الموت المحقق فراراً من الغدر . وبلغ من صدقه أن قال عنه علي بن حمزة إنه ما كذب قط ، وقال هو :

ومن هوى الصدق في قولي وعادته
رغبتُ عن شعرٍ في الرأس مكذوب

وبلغ من وفائه أنه برغم ما عامله به سيف الدولة من سوء العشرة ، لم يبرح ذاكراً له متشوقا اليه ؛ وقد كان يمدح كافورا فيصدر بمدحه ويكثر التأسف على فراقه . ومن شدة وفائه أنه وفى للشيب فلم يقدر على مفارقته إلا حزينا باكيا كما قال :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

هذه أخلاق المتنبي ليس فيها مغمز لأحد ؛ وقد وصف بها نفسه في شعره ، وجاءت سيرته دليلا على صدقه في هذا الوصف . إلا أن الطاعنين عليه لم يعدموا ما يلمزون به أخلاقه أيضاً فقالوا : إنه كان بخيلا ، وبخيلا جداً ، واستدلوا على ذلك بحكايات ملفقة تشم منها رائحة الوضع كما يقول المحدثون ، وبأبيات من شعره إن لم نقل إنها محرفة عن موضعها فلا أقل من أن نقول إنها لا دلالة فيها على ما زعموه أصلا . فأما تلك الحكايات فقد كفانا الأستاذ المازني أمرها إذ بين ما فيها من زور وما تحتويه من بهتان[1] ؛ وأما أبيات الشعر فانا ناقلون مما هو نص من شعره في نفي هذه التهمة عنه ثم مقارنون بينه وبينها ليظهر خطأ الاستدلال بها واضحاً لا خفاء فيه

قال المتنبي يستنجز كافورا ما وعده به من الولاية :

(١) حصاد الهشيم ص ٢٢٢ وما بعدها

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله
فاني أغني منذ حين وتشرب

إذا لم تنط بي ضيعةً أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وقال فيه أيضاً :

وهل نافعي أن تُرفع الحُجْب بيننا
ودون الذي أمّلتُ منك حجابُ

فهذا المتنبي يقول إن بغيته في فضلة من الكأس الذي يشرب بها كافور « يعني الولاية » لا المال . وإن كل ما وصل من عطاء كافور لم يرفع الحجب بينه وبين ما أمله منه ، ولا شك أن ذلك شيء غير المال . ومن كانت هذه منزلة المال عنده ، لا يحفل به ولا يجعله شيئاً مما أمله ، فكيف يوصف بالبخل ويتهم بالحرص لو كان هناك انصاف ؟ وقد صرح بما أخذ ضمناً من هذه الأبيات في قوله

وما رغبتي في عسجد أستفيدهُ ولكنها في مفخر أستجدُّه

وقال في شكره لمن وهب له هبة :

وما شكرتُ لأن المال فرحني سيان عندي إكثار وإقلال
لكن رأيت قبيحاً أن يُجاد لنا وأننا بقضاء الحق بُخَّال

وفي مطلعها ما يشير إلى صدق قوله « فجودك يكسوني وشغلك يسلب » وهذا هو المطلع :

لا خيل عندي أهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

ثم هل بقي من تقبيح البخل أكثر من جعله من مبطلات الصلاة كما قال :

فتى لا يُرجَّى أن تتمّ طهارةٌ لمن لم يطهر راحتيه من البخل

فهذه الأبيات وسواها كثير مما هو نص في المراد ، كيف يصح إغفالها والتمسك بمثل قوله دليلا على بخله :

فلا مجدَ في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فهل هو إلا مقرر لحقيقة واقعية ، وهي أن المجد مهما كان رفيعاً لا اعتبار له إلا بالمال ، وقد أجمع الناس على ذلك فما يحترمون إلا صاحب المال ولو كان دنيئاً ؟ ولكن ألا تراه مع ذلك قد عقب بأن المال وحده لا اعتبار له عند العقلاء ولا بد من خصال المجد التي هي أساس الاعتبار ؟

وأغرب من ذلك الاستشهاد على بخله بمثل قوله :

من يطلب المجد فليكن كملىٍّ م يهبُ الألفَ وهو يبتسم

وقوله :

تهلُّ قبل تسليمى عليــــه وألقى مالهُ قبلَ الوســـاد

وهذا لوصح دليلاً على بخل الشاعر لعددنا كل شعراء العربية بخالاً ، فانه لكثرة ما تدوول هذا المعنى ، صار لا يخلو منه ديوان شاعر

وإننا لا ننفى أن المتنبى كان جماعة للمال ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا للاستعانة به على مقاصده كما يصرح هو بذلك فى شعره لاسيما وهو يعلم من أحوال عصره أن الاعتبار كله إنما هو لأهل المال خاصة . وانظر إلى حكاية البطيخة التى أعطى صاحبها خمسة دراهم فلم يبعها له وباعها بثلاثة لمن يملك مائة ألف دينار لمجرد كونه يملك مائة ألف دينار ! فانصرف وقد علم أنه لا يتم اعتبار الناس له إلا إذا جمع مائة ألف دينار ؛ وقد كان كذلك ، وكل ماصدر عنه فى هذا الصدد إنما هو من قبيل المثل الفرنسى Quand je ferai mon million,

وكم بين من يطلب المال ليستعين به على قضاء حقوقه — وأى حقوق هى ! إنها لتزرى بحقوق الطغرائى التى يقول فيها :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للملا قِبلى

وبين من يطلبه لمجرد الحرص عليه وشهوته التى هى مرض من الأمراض ، فان هذا هو البخيل حقاً لا ذاك !

والواقع أننا وجدنا المتنبى صادقاً فى كل ما وصف به نفسه من خلال المجد ، فلا يصح أن يكذب فى هذا الأمر لمجرد حكايات الله أعلم بحالها وحال من نحلها اياه ! كذلك وجدنا شعره طافحاً بمدح الكرم وذم البخل فى أبيات صريحة لا غبار عليها فلا يجوز أن نغض الطرف عن ذلك ونلجأ إلى الفرض والتخمين محملين بعض ألفاظه ما لا دلالة لها عليه لنصحح تهمة أنه كان بخيلا !

واذ قد فرغنا من الكلام فى النقط الثلاث التى عنينا بها هنا ، فلنتساءل ماذا كان مطلب المتنبى فى الحياة ما دام لم يكن يطلب المال لذاته ؟

والجواب أن المتنبى كان طالب دولة ولاشك ، وكان لاأعدى إليه من أصحاب الدول فى عصره ، فهو لو تمكن منهم لما رحمهم ، بل نرحم شبابه من أن يرحمهم على حد تعبيره هو :

لا يخدعنك من عدوٍّ دمعُه وارحم شبابك من عدوٍّ ترحمُ

وقد كان يرى المجد فى ضرب أعناق الملوك :

ولا تحسبنَّ المجد زقاً وقينةً فما المجد الا السيف والفتكةُ البكر

وتضريبُ أعناق الملوك وان تُرى لك الهبواتُ السُّود والعسكر المجر

فلو أن الفلكَ جرى بموافقة سعيه لعصف بدول عصره جميعاً ولو دولةَ الخلافة ، وأقام على أنقاضها دولة متنبية من الطراز الذى يقول فيه أبو الطيب :

أعلى الممالكِ مايبنى على الأسَلِ

وما أصدق ذلك الذى قال على لسان كافور[1] وقد صوَّر أنه سئل لماذا لم ينل المتنى ماطلب منه من الولاية : « ياقوم ! من ادعى النبوَّة بعد محمد صلى الله عليه وسلم كيف لا يدعى الملك بعد كافور ؟ »

وحينئذ فماذا كان يصير لو نجح المتنبى فى مطلبه ؟

إن الدولة العربية كانت قد شاخت فى زمنه وتمكن الضعف منها فصارت هامة اليوم أو الغد ، وقد رأى هو أن العرب أصبحت تدين للعجم بالطاعة وذلك أمر ليس من صالحهم فى شىء :

وانما الناس بالملوك وما تصلح عُربٌ ملوكها عجمُ

وان المسلمين أصبحوا فى كل جهة عبيد العصا يسوقهم المتغلب أمامه كما يسوق الراعى قطعان الماشية :

سادات كلِّ أناسٍ من نفوسهمُ

وسادةُ المسلمين الأعبدُ القزمُ

وقد صار أمرهم مع المشركين بين العجز عنهم والرهب منهم :

أرى المسلمين مع المشركين إمّا لعجز وإما رَهَبْ

فاذا قلنا انه لو نجح فى مطلبه لكان ذلك من الخير للعرب والاسلام . لم يكن فى قولنا هذا شىء من المبالغة لأن الرجل كان قوة هائلة لا تقف عند حد ولا ترجع عن قصد ، فكان ينفخ من روحه فى جسم الدولة المتهالك ويهيب بالأمة إلى حياة المجد والعظمة فما يكون بأسرع منها إلى الاستجابة له والاقبال عليه صادعة بأمره صادرة عن قوله :

لا افتخارٌ إلاَّ لمن لا يُضامُ مُدركٌ أو محاربٌ لا ينامُ

ليس عزماً ماعرَّض المرء فيه ليس همَّاً ماعاق عنه الظلامُ

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيه غذاءٌ تضوى به الأجسامُ

ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ

(طنجه) عبد الله كنون الحسنى

---

(١) لأنا نرجح أن نسبة ذلك لكافور لا تصح

التضـــحية

للأستاذ محمد روحى فيصل

صلاحُ الأمة للبقاء أو قوة حيويتها إنما تظهر أشد الظهور إذا أصاب تلك الأمة شر ، أو ألمَّ بها خطب ، أو انتابتها أزمة فى السياسة أو فى المال ، أو فى الأخلاق ، مما يجل وقعه ، ويشق احتماله ؛ ذلك لأن جميع الأمم تستطيع أن تعيش فى الرخاء ، وتسمو بالنعيم ، ولكنها لا تستطيع كلُّها أن تعيش وتسمو إذا أحدقت بها الشدة ، وحفت بها المكاره ، وتنكر لها الدهر ، وعبست فى وجهها الحياة

بلى ! قليلة جداً تلك الأمم التى تستطيع أن تعيش وتسمو إبان المحنة والشدائد ، لأن كل أمة من الأمم تحتاج حينئذ إلى أن تستمد حياتها من حياة أبنائها ، وتعتمد فى شفائها على سواعد أفرادها ؛ فاذا كان خُلُق التضحية قوياً فيهم ، متأصلا فى نفوسهم ، مشتملا عليه كلهم أو جلهم ، نجت تلك الأمة من الشر إن كان نازلا بها ، أو تقدمت الى غايتها إن كانت لها غايةٌ عليا تعشقها وتطمح اليها

أما الأمة الأَثِرَة التى لا تعرف من التضحية غير اسمها ، فهى محكوم عليها بالفناء والموت ، لا بد أن يخنى عليها الذى أخنى على لُبَد

لما اشتدت الأزمة المالية أخيراً على الأمة الانجليزية رأينا كيف أن مظاهر التضحية لم تنحصر فى رؤساء الأحزاب فحسب ، وإنما تعدتهم إلى الأفراد رجالا ونساء ، فكانت الفتاة الفقيرة تهب سوارها الذهبى الذى أهدته اليها أمها قريرة العين طيبة الخاطر ؛ وكانت العائلة الفقيرة تتنزل راضية عن جنيه من كسبها الذى لا تحصل عليه إلا بشق الأنفس وترفقه بكلمة كهذه :

« مساعدة متواضعة لملكنا وشعبنا من أسرة (فقيرة) »

كذلك كل أمة نالت شأوا بعيداً فى المجد ، وبلغت مكانة عالية بين الأمم ، ما نالت ذلك الشأو وما بلغت تلك المكانة ، إلا بتضحية أبنائها أمامها بالأنفس والأموال تضحية صادقة صحيحة ! ولعمر الحق ما كانت تكون لأجدادنا العرب ، أبناء الصحراء ، وساكني الجزيرة ، تلك السيادة الرفيعة ، وذلك السلطان المرهوب ، لو لم يكونوا متشبعين بخُلُق التضحية إلى أقصى مدى

ونحن ، إذا كنا قد تنبهنا بعد الغفلة واستيقظنا بعد النوم ، فاستأنفنا طريقنا إلى العلياء وطالبنا بحريتنا المسلوبة واستقلالنا المفقود ، فانما يجب أن نتجشم تكاليف ما نطالب به ونضحى لنيله القليل والكثير ، ونتحمل ما نلاقى فى سبيله من ألوان المكاره وضروب المشاق ، ونصبر على صنوف العقبات حتى يلين صلبها ويسهل صعبها ، فانه لا تنال المطالب إلا مكافحة ومغالبة ، لأن الحياة معركة ، فما لم يدرك فيها بالملاينة والمحاسنة ، أدرك بالعنف والمخاشنة ... ! !

إن رجال هذه الأمة جميعاً ثلاثة : رجل لا علم له بما عليه من الواجبات نحو وطنه فلا يعنيه شأنه ، ولا يهمه أمره ، ولا يعبأ به ولا يحفله ، فهو جاهل ؛ ورجلٌ أخذ من الدين بقشوره ، وشرب من مورده العذب مصة خفيفة ظنها غاية ما يرتوى به المرتوون ، فقضى أوقاته فى البحث فى المحيرة والحيض والنفاس ، ونصب نفسه لمعاداة كل جديد وإنكار كل ما لم يألف ، فهو جامد ؛ ورجلٌ يجرى وراء منافعه الشخصية أينما رآها وتخيلها ، يراها فى جانب مصلحة عامة فيظهر فى زى المصلح الداعى إلى هذه المصلحة ويملأ الجو نداء للتعاون عليها ، حتى إذا تراءت له منفعة خاصة لا يصل اليها إلا أن يقضى على ما ينفع الناس والوطن داسه بكلتا قدميه ، وذهب إلى منفعته توا لا يلوى على شىء ، فهو خبٌّ منافق

فاذا أزيل عن الأول جهله ، وأزيح عن الثانى جموده ، وشنِّع على الثالث خبثه ونفاقه ، وعمل على بث خلق التضحية فيهم وتقويته عندهم ، مع تبصيرهم بمقتضيات الأحوال كما يقول البديعيون ـ إذا فعل هذا عظمت الفائدة ، وتوفرت العائدة على الوطن ، وسارت الأمة مسرعة إلى مطمحها

(حمص) **محمد روحى فيصل**

السنيون والشيعة والمؤتمر

للأستاذ محمد رضا المظفر

لأول وهلة بدا لى أن أنسحب بعد مقال الأستاذ (أحمد أمين) المنشور فى (عدد الرسالة ١٢١) ، ولا أدخل فى هذا الموضوع من جديد ، لأنه قرر أخيراً : « أنه سوف لا يرد على من يتخذ بعض ما جاء فى مقالته وسيلة لاثارة النزاع من جديد إلا أن يفتح صاحبها مجالا للكلام فى مشروع المؤتمر أو وسائل الوفاق » فخشيت أن أكون عند الناس أو عند نفسى (وهى لا تحب لى الرذيلة) ممن يتحبّب النزاع أو يسعى لتعكير صفو الأخوّة التى ظهرت بشائرها فى العالم الاسلامى ، ولهذا — أو لشىء آخر لا أدرى — وُضع هذا التقرير الصريح

ومن جهة أخرى ، تخوّفت أن يكون حديثى هذا من (لغو الصيف) وإن كنا نستقبل الشتاء ، فلا أُجاب عليه بعد ذلك التقرير ؛ وليست فكرة المؤتمر — وبالأصح حلم المؤتمر — تلك الفكرة الناجحة والحلم الصادق فيما أعتقد (وسأعود إليها) ، حتى أستنزل بعلاجها طِرْف الأستاذ لميدان هذا الموضوع

كل ذلك دار فى خَلَدى ، وأكثر من كل ذلك صرفنى عن كل هذا الحديث ، حتى يمضى علىّ هذا الزمان ، وأخيراً أراجع إلى طوية نفسى فأجدها جد مؤمنة بوجوب السعى لتحقيق فكرة الاتفاق ، وتوحيد كلمة المسلمين ، مهما اختلفت وجهة النظر مع الأستاذ أو مع غيره ، وهنا فليقرر الأستاذ ما يشاء ؛ وليقل الناس ما يحبون !

ولعلّ الرسالة تفتح صدرها الرحب لكاتب يقف للفرص يتتبعها ، لازالة ما قد يسىء للاتفاق بين الطائفتين ، ويشهد حديث كتابها أو غيرهم من كتب ، حتى لا يتكلموا عن الشيعة كأمة غائبة فى مجاهل المفاوز ، لا سمع لها ولا لسان ، فى حين أن رجال الشيعة تتبع الأحاديث عنها فى الصحف والكتب بكل إصغاء ، وقد لا تشاء الرد والجواب ، كما وقع فى العام الماضى فى الرسالة بين الأستاذين ، عبد الوهاب عزام ، وأمين الخولى ، فى قضية مكة ومشهد الحسين

وكم يضحكنى ما يكتب عن الشيعة كأنها من الأمم الخوالى (ولتعرف من الآن أنا لا نفهم من كلمة الشيعة إذا أُطلقت غير الأمامية) ، فتنسب لها عقائد وآراء لا تعرفها ، وكثير من رجالها صامتون كأن الحديث مع غيرهم ، ثم يحرقون الأرَّم من غير طائل ، وليس من الصحيح هذا التسامح الذى جر ما جر من تباغض وشنآن ، وربا على ما خلف لنا علماء أمس رحمهم الله ، وزاد فى الطين بلّة ، وربما تصبح الطريق بعد هذا زَلقاً لا تصلح لسير الأقدام إلا بما لا يحمد ، كما كان فى العصور السالفة ؛ وكان من الواجب أن يبادر إلى علاج هذه الناحية قبل فوت أوان العلاج ، والحرية الصحافية ضربت أطنابها فى البلاد ، وخصوصاً فى مصر ، فأعجب أن يُسأل صاحب المقتطف — مثلاً — عن الشيعة ، فيجيب عنهم بما يعلم — وهو معذور — ولا يرد عليه واحد منهم وهو لا يأبى عن ذلك ، ولا يأبى أن يزيد علمه فيهم . إذن بعد هذا لِمَ لا أتقدم بنفسى لهذا الواجب ؟

هذا سؤال وجيه ، وعلىّ أن أجيب عنه بكل صراحة وإخلاص : كم هناك من مباحث وددت كشف غطاء الحقيقة عنها — لو كنت من أهل ذلك — فأتقدم إلى القرطاس ، وأحاول أن أجرد قلمى من لحاء التعقيب لعقيدتى التى نشأت عليها ، وغُذيتها فى لبن التربية ، لا طلب الحقيقة بالبرهان ، ولا أكون ممن يتطلب البرهان للعقيدة ، ولكن أجد محاولتى الباطلة ، فأبحث عن قلمى ، فأراه قد تألف من مجموع قشور ، وأخيراً لا أجد قلماً أحمله لأكتب به

وهكذا العقائد العامة ليس فى وسع أحد أن يتجرد عن تبعتها مهما تخيل أنه سيذهب عنها ناحية ، ولا بد أن تنزله لحضيضها ، وتُرغم على غذائها ، فيما يكتب وفيما يعمل ، فترتكز عليها أقواله وأفعاله ، من حيث يدرى ولا يدرى ؛ وعلم النفس يصدقنى — وعلى الأقل لا يكذبنى — فى هذه الدعوى

ولا أعتقد أن امرءا استطاع أن يحرر نفسه من عقيدته ، مادامت له عقيدة يستمسك بها ، أبى الأستاذ « أحمد أمين » أم لم يأب !

ولـكني أرجو أن يوفقنا الله فى جهاد سورة النفس فى تعصبها ، وقمع غلوائها ، فيما إذا اعتقـدنا بعظم النتيجة وفائدتها للجميع ؛ وعسى أن نصيب هدف الحقيقة بعد حين بهذه الحيلة ؛ وهذا هو الذى يطمئنني أن أنزل إلى هذا الميدان الوعر المسالك ، ومن ورائى جمية (منتدى النشر) تقبض على ناصيتى

ولقد كانت وجهة نظرى القاصر — ولا بد أن تعرفها من حديثى المتقدم ومقالى السابق — أن نفتح لنا باباً للتفاهم فى أصل عقائدنا وصحتها — مهما كان فى ذلك من الخطورة — فنـدخل فى بحث علمى أو تاريخى ، كسائر أبحاثنا العلمية والتاريخية ، ونتلقى النتائج بصدر رحب ، وذكرت فى مقالى السابق : ماهى النقطة التى يجب اتباعها فى البحث ؟ . وذاك هو الذى فهمته أيضاً من كلام الأسـتاذين محمد بك كرد على واحمد امين فى المرة الأولى ، وعلى هذه النغمة جسست وَتَرى ، ومضيت مطرباً الى حد بعيد وحقاً « إن البحث العلمى لا يمنع التفاهم والوئام ، بل هو إذا نظر اليه النظر الواسع العالى سبب من أسباب الألفة »

إلا أنى بعد هذا وجدتك — أيها الأستاذ — تذهب بعيـداً وتنتقل مفاجأة إلى حديث عقد مؤتمر بين الطائفتين فى العراق ، فما ذا تقصد من المؤتمر ؟ وعلى أى خطة ولأى غاية يجب أن يسير ؟ هذا الذى بعد لم أحط به علماً ، ونزولاً عند رغبتك أدخل فى الموضوع ما انفتح لى بابه :

لا شك أن عقد مؤتمر بين الطائفتين — على أى وجه يكون — لا يمكن التوصل إلى تحقيقه ، بمجرد تفـكير واحد واقتراح آخر وتأييد ثالث ، مهما كان المفـكر والمقترح والمؤيد فلا بد أن يختمر فى العقول بنقد ورد وبدرسه على جميع وجوهه حتى يسـتقرّ على فـكرة واحدة ووجه واحد ، ويعمّ صوته الاسماع النائية والقريبة ، ويساهم فى درسه العالم والسياسى ، ويقتنع به ولاة الأمور — ولا بد من اقتناعهم أو إقناعهم — كعمل لا بد منه ، ثم تُنتهز الفرص للعمل على تحقيقه ، ويُسعى باخلاص لتأسيسـه ، على سنة الارتقاء والتدرج ، أو كما قال معالى العلامة الشبيبى

خواطرى اليوم أقوالى ومعتقدى　　غداً وغرّة أعمالى وراء غد

لقد سمعنا بحديث هذا المؤتمر وسعى بعض رجالات الطائفتين لتأسيسه ، وسمعنا باختلاف التفـكير فى خططه ، كل هذا سمعنا ، واتضح لى مما سمعت ومما قرأت أيضاً أنه مازال أمنيّة لم تشـبع درساً وتدقيقاً ؛ وكل عمل كبير مثل هذا لا بد أن يكون كذلك وأكثر . فلنفرض أن المؤتمر انعقـد فى العراق ، واجتمع أعضاؤه لدرس خططهم ، فعمّ يتساءلون ؟

يدرسون مذهب الشيعة وأهل السنة — وعلى الأصح مذاهب المسـلمين — وأسباب الخلاف بينهم ، كما جانب عن المذهبين ، ثم يتفقون على الصحيح ، أو قل : على جوهر الاسلام الحقيق الذى جاء به الرسول عن الله ، ويطوحوا بالقشور وبما ألصق بالحنيفـة إلصاقا — ولا بد أن يكون هناك لباب وقشور وحق وباطل لا محالة — ليحملوا الأمة الاسلاميـة جمعاء على الاسلام الصحيح ، الذى يفهمه روح الاخلاص والبحث النزيه

حلم لذيذ ! لو صدقناه لـكنا خيرا منه ونعم الخلف الصالح . ولاسترحنا من آلاف الـكتب التى أُلـفت فى هـذه الشؤون ، وجرت على المسلمين الويل والثبور ، وأضاعت من أوقات العلماء كل غالٍ ونفيس درساً وتأليفاً ، فصرفتهم عن كل عمل ينفع الأمة ويجر اليها المغنم ، طيلة هذه القرون

ولـكن — بالله عليك — هل رأيت حلماً أكذب من هـذا فى أضغاث الأحلام ، وأمنيّة أبعد منها فى الأمانى ؟ كيف يتفق أولئك على الصحيح ؟ وبماذا يحملون الرأى العام على اعتناقه ؟ أبا لقوة يعتنق هؤلاء الدين الجديد عندهم ؟ أم بالتقليد لأولئك النفر القليل ؟ أم بطريق الحجة والاقناع ؟ كلا ! كل هذا ليس من السهل ، أو ليس من المستطاع ؛ وإذا جاز أن يقع مثله فى أول الدعوة إلى الاسلام من نبينا وأصحابه ، فليس من الجائز أن يقع فى هـذا العصر من مؤتمر يؤلف من علماء الطائفتين المتخالفتين فى بؤرة الخلاف ، وهل يصح أن نـكتفى بهم وحدهم أو بالخاصـة معهم — لو جاز أن يتفقوا — ونسـتغنى عن اتباع السواد لهم

وأكبر الظن أنى تياسرت عن الغرض فى تأويلى هـذا للمؤتمر المقصود ، إذن فعمّ يبحثون ؟

لنتركهم يعملوا لايجاد عوامل الالفة والصداقة الودية بين الفريقين ، ولذبح النعرة الطائفية على أعتاب الاخوة الاسلامية

ليدخلوها بسلام آمنين ، ولتبق بعد هذا كل طائفة على عقيدتها وأعمالها ، كمذاهب أهل السنة فيما بينهم ، وكالشيعة لمّا يختلفون فى تقليد مجتهديهم ، وهناك تتجلى الكلمة الذهبية الخالدة : (إنما المسلمون إخوة)[1] ، وقوله عليه السلام : (المسلمون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً)[2] . وبنظر عندئذٍ المؤتمر فى دعوى من يدعى غمط حقوقه كمحكمة كبرى اسلامية ، ويأخذ على الأيدى العابثة من كتّاب وغيرهم بالوسائل التى يختطها ويستطيعها

وظنى أن هذا المؤتمر هو الذى يرمى اليه اخواننا فيما فكروا وتحدّثوا وكتبوا ، وهناك ملحوظات يجب ألاّ نغفل عنها :

هذه الدعوة إلى الاتحاد ونبذ النزعات الطائفية ، والتفرقة الشائنة ، هى إحدى الأسس القويمة التى بُنى عليها الحكم الوطنى فى العراق - كما ذكرت فى مقالى السابق - ورؤساء الطائفتين يومئذ لم يقصّروا فى توجيه الرأى العام نحو هذه الفكرة الجديدة التى لم يدع لها العهد التركى البائد مجالاً للظهور أو لبذرها فى العقول ، واستطاعوا فى أقصر وقت أن يكهربوا الفكرة العامة بتيّارهم ، حتى إنك كنت تسمع الهتاف بالوحدة يبلغ عنان السماء فى جميع محافلنا ومجالسنا ، وكان الرجل يخشى أن ينبس بكلمة واحدة تشتمّ منها رائحة الخلاف ، وعلى ذلك أعوام - أو أيام - مضت ، حتى تغير بعض النفوس ، وتبدل كثير من النوايا ، ولا ندرى لماذا كان ؟ ! وهل يجوز أن نقول لا ندرى ؟ لا أدرى !

واليوم - بحمد الله - نجد الحال كما هى ، لم تتبدل تلك الظاهرة المحبوبة ؛ ولكنها فقاقيع على الماء من ارتفاع درجة الحرارة ، وليست هى كل الماء - كما يقول الأستاذ أحمد أمين - أو ليس وجودها إلاّ لتظهر فقط لا لتنفع - كما يقول الأستاذ الرافعى - لأن هذه الظاهرة احتفظت بها السياسة وحدها واكتفت بها ، ولم تأخذ بها الأمة عن طريق الرغبة فيها ، والاقتناع بضرورتها وثمراتها ، فى حين أن الدعوة اليها قد تضاءل نبراسها إلى حد كاد معه ينطفى ، وما أدل على هذا من أن السنى الداعى إلى الوحدة يصبح متشيعاً فى نظر أصحابه ، والشيعى الداعى إلى الوحدة يصبح سنياً فى دعوى اخوانه ، وهذا ذنب كبير عندهم لا يُغتفر !

ولذلك يسود الاعتقاد اليوم أن الدعوة الأولى كانت كلها خداعاً فى خداع ؛ ومن رجالنا من لا يزال مستمسكاً بها إلى اليوم ، فينسب إلى غفلة أو سذاجة ، وهذا هو الداء الدوى

فاذا أردنا أن نؤلف هذا المؤتمر فى العراق ، فانما نريد أن نعيد تلك الكرة لتنفى العزة ، وقد لاقت فى مبدأ الأمر سوقاً رائجة ، ثم كسدت تلك السوق ، وبيع فيها الرأى العام بأبخس ثمن ، وبدراهم معدودة ؛ ومن الصعب جداً أن نعمل عملاً مجرباً بتشاؤم منه ؛ واعتقد أنه سيكبد القائمين مجهوداً كبيراً من هذه الناحية ، ويحتاج إلى زمن ليس بالقصير ، لتحوير الأفكار ورسوخ العقيدة من جديد ، تتخلله الدعاية الواسعة من القادة وذوى العقول المخلصين : وتقريباً للمسافة أجد من الضرورى أن تنضج هذه الفكرة خارج العراق أولاً ، ثم تدخل العراق لتستطيع أن تهضمها الأفكار بسهولة

ومن المرجح أن هذا المشروع لا يلاقى الفشل بعد تشكيله فى هذه المرة إذا كان القائم به مؤتمراً منظماً يبنى على أسس متينة ونظم واضحة ، وإذا كان مؤسسو المؤتمر يحملون فى حقائبهم إخلاصاً صادقاً وعقيدة ثابتة ووطنية صحيحة ، والعراق فى دور الاستقلال ، وما فشل لأول مرة إلا لأنه كان عملاً فوضوياً اندفع إليه المجتمع كسائر اندفاعاته التى لا يقودها العقل والرأى — على حسب قانون المجتمعات — فاستغلته السياسة الوقتية ، ثم لعب أهل الأغراض والمطامع ومن خلفهم الاستعمار أدوارهم — وبالطبع يتلاشى هذا الظل بعد حين ، متى طلعت الشمس ولا بد أن تطلع — ، ولا مؤتمر مسئول ولا جمعية مخلصة تحاسب الناس على أعمالهم

النجف الأشرف — محمد رضا المظفر

(١) كذا (٢) كذا

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

يكتشف مكروب السل

بدت لـكوخ طلائع النجاح ، فقضى أشهراً يؤكده بالعمل المتواصل ، والتفصيل الملّ ، والصبر النادر ، والدقة المتناهية ، والحذر البعيد . تجدكل ذلك منه إذا أنت قرأت تجاربه المتكررة المتعددة فى تقريره التاريخى عن داء السل ، وقد ولّد من هذه البشلاّت ثلاثا وأربعين أسرة مختلفة ، ولّدها على فالوذج المصل فى أنابيبه المائلة من القردة المسلولة والفئران والخنازير الغينية العليلة

ولم يستطع توليدها إلا من حيوانات أصابها السل أو ماتت من جرّائه ، وقضى أشهراً يرعى تلك القَتَلة الصغار رعْىَ الحاضن ولدها ، وكان أكبر همّه ألا يدخلها من أخلاط المكروبات الضالة شىء

قال كوخ : « والآن إذ ولّدت بَشِلاّتى هذه خالصة ، فلم يبق لى إلا أن أحقنها فى خنازير غينية سليمة ، بل فى كل نوع من حيوان سليم . فاذا أصابها السل علمتُ علم اليقين أن هـذه البشلات ضرورة لازمة لاحداثه ، وأنها علته التى لا شبهة فيها »

وقام كالمجنون الذى ركب رأسه لفكرة ملكت عليه منافذ السُّبُل ، فقلب معمله فصار أشبه شىء بحدائق الحيوانات ، وأصبح يتجهّم للناس ويتهكم بزوّاره المتشوفين لما عنده حتى صار غولاً ألمانياً صغير الجرم حقودا ، وعقّم عشرات المحاقن وحده ، وزوّدها بمكروبه الأحدب من زريعاته التى على فلاذج أمصاله بعد أن دافه بقليل من الماء ، ثم أطلق هذا المكروب من هـذه المحاقن كالسهام فى جلود الخنازير والأرانب والدجاج والجِرذان والقردة والفئران . ثم زمجر فقال : « لا يكفى هذا . فلا بد من إطلاق هذا المكروب فى أنواع من الحيوانات لا يُعرف أن السلّ أصابها أبداً » ، وخرج عن ألمانيا بطوف البلاد فجمع لمعمله . ثم عاد فحقن بَشِلاّته ، العزيزة عليه الشديدة على غيره ، فى سلاحف وعصافير وخمس ضفادع وثلاثة من ثعابين الماء

وفى نوبة ذهب فيها عقله شاء أن يتمم تجربته الغريبة بحقن مكروبه فى سمكة مرجان goldfish

ومضت أيام تلو أيام ، وتلاحقت الأسابيع ، وفى كل يوم منها ذهب كوخ إلى (ورشته) فى الصباح واتجه تواً إلى أقفاصه وجراره التى احتوت هذه الحيوانات الخطيرة . أما سمكة المرجان فظلت تفتح فاها وتغلقه وهى تعوم عوم الوادع الآمن فى طاسها الكبير ذى البطن العظيم . أما الضفادع فظلت تنق نقيق من لا يأبه لشىء . وأما ثعابين البحر فكانت على عهدها نشيطة رشيقة فى انزلاقها على الماء ، وأما السلاحف فكانت تخرج رأسها أحياناً من بيتها العَظْمِ وتَطْرِف بعينيها لـكوخ كأنها تغمز به وتقول : « إن مكروبك ياسيدى العزيز غذاء صالح لنا ، فهل لديك من مزيد ؟ »

سَلِمت هذه الحيوانات من محاقن كوخ ، ولا عجب ، فهى فى حياتها العادية منيعة على السلّ . أما الخنازير الغينية فأخذت تميل ثم تتساقط على جنوبها تتلهف على الهواء وتستدر الرحمات ثم تموت وقد براها السل برياً شديداً

والآن وقد أتم كوخ آخر حلقة من البرهان الذى أراده ، تهيأ ليعلن للدنيا أن البِشِلة التى هى سبب السل الحق قد اصطيدت ، قد اكتُشفت ! وما كاد يَهُمّ بالاعلان حتى خطر له أن للبرهان ذيلاً لا بد من إتمامه . قال : إن الناس لا بد آخذة هـذه البِشِلاّت استنشاقا مع تراب الهواء ، أو لعلهم آخذوها من المسلولين إذ يسعلون . فليت شعرى أتأخذه الحيوانات السليمة بهـذه الطريقة أيضاً ؟ » وماءتم أن قلّب وجوه الحيلة لاجراء هذه التجربة الخطرة . وارتأى أن يرش البشلاّت رشاً فى وجوه الحيوانات . وتلك مخاطرة من دونها فتح أبواب السجون لعشرات الألوف من القتلة السفاحين

ولـكن كوخ كان مشبعاً بروح الصيد ، فعرف أنه لا بد له من مواجهة الأخطار التى لا مندوحة لصيّاد عنها . فصنع صندوقا كبيراً فى الجنينـة ووضع فيه الخنازير الغينية والفئران

والأرانب . وأوصل من شباك معمله خرطوماً ينتهى طرفه فى الصندوق برشاشة . وقعد هو فى معمله عند طرف الخرطوم الآخر يحرك مِضخّة ينبعث من تحريكها فى الصندوق ضباب من البشلات قتّال يستنشقه ما فى الصندوق من حيوان ، وقام كوخ يحرك المضخة نصف ساعة كل يوم طيلة ثلاثة أيام . وعند فوات عشرة أيام وجد ثلاثة من الأرانب تتنفس سريعاً فى طلب هذا الهواء الغالى الذى عجزت رئاتها المريضة عن إعطائها إياه . ولم تمض خمسة وعشرون يوماً حتى كانت هـذه الخنازير قامت هى أيضاً بنصيبها المتواضع من هذه المأساة المجيـدة فمات الواحد تِلوَ أخيه مسلولا

ولم يذكر لنا كوخ كيف صنع لاخراج هذه الحيوانات من صندوقها وقد عمّه وعمّها الوباء ، ولم يحدثنا ما الذى صنعه بهذا البيت الصغير الذى بناه بعد أن ابتلت حيطانه بهذا الرشاش الفتـاك . ولعمرى لقد أضاع هـذا البحّاثة الهادئ المتواضع بصمته عن ذكر هذا فرصة ثمينة لمن همّه الفخرُ وطلب المباهاة

(يتبع) أحمد زكى

شعراء الديباجة

أدب البارودى وشعره

بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

تتمـــة

أما شاعرية البارودى فقد قدمت لك أنها صياغة عصور غابرة ، ووليدةُ بيئات منقرضة ، إذ لم يُسبَق بنهضة أدبيّة نما فيها ذوقه العربىّ ، ولم ينشأ فى بيئة عربية ترعرع فيها فنه البيانى ؛ بل كان هو باعث تلك النهضة بعد أن لم تكن ، ومُطلِعَ ذلك النور بعد أن خبا ، والمجلى فى حلبة البيان الذى لم يسبقه أحدٌ قبله وجاء على أثره مَن بَعده ، ومكوّن تلك البيئة بعد أن كانت مصر قبلَه وفى صدرٍ من عهدِه ممحلةً من الأدب والأدباء والشعر والشعراء إلا القليـل ممن لا يُعتـدّ بشعرهم ، ولا ينبغى أن تسجّل أسماؤهم فى الشعراء إلا تسجيلا تاريخياً لمن أراد أن يكتب سجلا جامعاً ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها

إلا أن تلك النهضة التى بعثها من مرقدها لم تكن نهضـة تجديدية فى الأفكار والمعانى ؛ وتلك الوثبة التى وثبها لم تكن وثبة انقلابية فى تصوير ما حوله من المشاعر والاحساسات ؛ وهذه الخطوة التى خطاها لم تكن خطوة تطوّريّة فى مسايرة روح العصر وتوجيهه إلى ما يريده الشاعر لأمته وبلاده من المثل الأعلى فى الآمال والأغراض ، بل كانت نهضةً بيانية لا أكثر ، متعلقة بجودة العبارات ، واختيار الألفاظ ، وإحكام النَّسْج ، ومتانة التركيب ، والجرى على مذهب القـدماء فى الفخامة والجزالة ؛ فلا تكاد ترى فى شعره ما يعبر عما حوله من أحاسيس أمته وأوطانه ، إلا القليل مما تراه منتثرا فى ديوانه ؛ وسبب ذلك يرجع إلى أن شـاعريته كما قدمتُ لك من صياغة الكتب والدواوين ، وصناعة هؤلاء الشعراء المتقدمين ؛ فكان يعيش بشعره فى عصرٍ غير عصره ، وكان أشبه بالعاشق المولّه الذى يجالس القوم بجثمانه ، ويكلمهم بلسانه ، وهو مع معشوقه وسالب لبّه بروحه ووجدانه

وهنا ينبغى أن نشير إلى مخالفتنا لما رآه بعض كتاب النقد فى شعر البارودىّ ، فقد قسّم الشعر إلى أربعة أقسام ، وهى شعر التقليد الضعيف ، وشعر التقليد القوى ، وشعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحريّة القوميّة ، وشعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحرية الفردية ؛ وذكر أن شعر البارودى فى طليعة النوع الثالث ، وهو شعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحرية القومية

وعندى أن شعره لا يعدو النوع الثانى من هـذه الأنواع الأربعة ، وهو شعر التقليد القوى ؛ وهذا هو سر شغفه بمحاكاة الفحول من شعراء المتقدمين ومعارضتهم فى مشهورات قصائدهم كأبى نواس ، والشريف الرضى ، وأبى فراس ، والبوصيرى ، وغيرهم ؛ وفى رأيى أنه لم يبلغ أحدا من هؤلاء ، وإن كان قد قاربهم بعض المقاربة ، وذلك لأنه مقـلّد ، والتقليد كما تحدثتُ اليـك من قبل أضعف من الأصل مهما يبالغ المقـلد فى إحكام المشابهة وإتقان المحاكاة . وإنك لتقرأ القصيدة من شعره فلا توقظ عاطفة من عواطفك ، ولا تحرك شجناً من أشجان نفسك ، ويخيّل لك أنك سمعتها قبل ذلك عدة مرات ؛ والحق أنك قد سمعتها ، فان لم تكن قد سمعتها بألفاظها ، فقد سمعتها بمعانيها

فى شعر العبّاسيّين وغيرهم من المتقدمين ، حتى أن قصائده التى قالها فى صفة الحروب وأهوالها ، والميادين وأبطالها ، وافتخاره بالاقدام إذا حَمِىَ الوطيس واشتد الخوف وجاشت نفس الجبان لا تراها تتميز إلا فى القليل النادر بمعان جديدة وأفكار مستحدثة عن شعر المتقدمين فى صفة ذلك ، حتى إنك لو لم تعرف أن قائل هذا الشعر هو البارودى لحسبتَ أنه شاعر عباسى يصف إحدى غزوات الرشيد أو المأمون فى خراسان أو فى بلاد الروم . وإلا فأى جديد مستحدث يلفت ذهنك اليه ، ويجتذب قلبك نحوه ، تراه فى قوله :

فلا جوٌّ إلا سمهرىٌّ وقاضبٌ   ولا أرضَ إلا شمَّرى وسابحُ
ترانا بها كالأسد نرصُد غارةً   يطير بها فتق من الصبح لامحُ
فلست ترى إلا كماةً بواسلا   وجُرْداً تخوض الموت وهى ضوابح
نُغير على الأبطال والصبح باسمٌ   ونأوى إلى الأدغال والليلُ جانح
بكى صاحبى لما رأى الحرب أقبلت   بأنيابهـــا واليوم أغبر كالح
ولم يك مبكاه لخوف وإنما   توهم أنى فى الكريهة طائح
فقال اتئد قبل الصِّيال ولا تكن   لنفسك حربا إننى لك ناصح
ألم تر معقودَ الدخان كأنما   على عاتق الجوزاء منه سرائح
وقد نشأتْ للحرب مُزنة قسطل   لها مستهلٌّ بالمنيـــةِ راشح
فلا رأى إلا أن تكون بنجوةٍ   فانك مقصود المكانة واضح
فقلت تعلّم إنما هى خُطّة   يطول بها مجدٌ وتخشى فضائح
فقد يهلك الرِّعديد فى عقر داره   وينجو من الحتف الكَمِىُّ المشايح
الخ . . . . . .

وقد كان ينبغى أن يتميز شعره فى صفة الحرب عن شعر المتقدمين ، ولا يحاكيهم فى كثير ولا قليل من معانيهم فيها ، وذلك لما باشر من وقائعها ، وخاض من غمراتها ، وتعرض لمخاوفها ، ولما امتلأت به نفسه من حبها ، والتمدح بالاسراع اليها ، ولِما تميزت به الحروب فى عصره عن الحروب فى العصور الماضية ، واختلفت فى صُوَرها وآلاتها وترتيبها عن الحروب أيام تقسيم الغزاة إلى شاتية وصائفة

ومما يعاب على البارودىّ ويؤاخذ به قلة شيوع الشعور الوطنىّ والاحساس المصرىّ فى شعره ، وخلو قصائده إلا فى القليل النادر من العاطفة القومية ، وإنما استثنيتُ القليل النادر لما له فى ذلك من القصائد اليسيرة التى قالها وهو فى منفاه بسرنديب كقوله من قصيدة :

هل من طبيب لداء الحب أو راق   يشفى عليلا أخا حزن وإيراق
قد كان أبقى الهوى من مهجتى رمقا   حتى جرى البين فاستولى على الباق

وفيها يقول :

يا روضة النيل لا مسَّتك بائقةٌ   ولا عدتك سماءٌ ذات اغداق
ولا برحتِ من الأوراق فى حلل   من سندس عبقرىّ الوشى برّاق
يا حبذا نسَمٌ من جوها عَبِقٌ   يسرى على جدول بالماء دفّاق
مَرْعَى جيادى ومأوى جيرتى وحِمَى   قومى ومنبتُ آدابى وأعراق
أصبو اليها على بُعد ويعجبنى   أنى أعيش بها فى ثوب إملاق
وكيف أنسى دياراً قد تركتُ بها   أهلا كراماً لهم ودّى واشفاق
فيا بريد الصَّبا بلغ ذوى رحمى   أنى مقيم على عهدى وميثاق
وأنت يا طائراً يبكى على فنن   نفسى فداؤك من ساقٍ على ساق
أذكرتنى ما مضى والشمل مجتمع   بمصر والحربُ لم تنهض على ساق
الخ . . . .

ولعلّ السرّ فى عدم شيوع ذلك الشعور فى شعره وقلة ظهور هذه العاطفة فى قصائده يرجع إلى أنه سليلُ عائلة من الأتراك الذين يرون أن سيادتهم فى مصر لا تتمّ إلا بالترفع عن مخالطة أهلها ، وعدم مشاركتهم فيما يشعرون به من آلام وآمال ، ويرون أن الاتصال بطبقات الشعب تثلّمٌ فى عزتهم ، وانتقاص من سيادتهم

واليك طرفاً من قصيدته التى استقبل بها مصر حين عاد من منفاه ، قال :

أبابلُ رأىَ العين أم هذه مصر ... فانى أرى فيها عيوناً هى السحر
نواعسُ أيقظن الهوى بلواحظ ... تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فان يك موسى أبطل السحر مرة ... فذلك عصر المعجزات وذا عصر
بنفسى وإن عزت علىّ ربيبةٌ ... من العين فى أجفان مقلتها فترُ

الخ . . . .

فأنت ترى أنه لم يزد فى استقبال وطنه على ذكر ما فيه من الجمال النسوىّ الشائع بين جميع الأمم ، والمشترك بين مختلف الشعوب ، ولم يقل فى قدومه إلى مصر إلا ما يقوله قادمٌ على أىّ بلد من البلاد المشهورة بهذا النوع من الجمال ، وإن لم يكن وطنه . ثم انظر هذا الاحساس الوطنىّ المتدفق ، والعاطفة المصرية الفياضة فى قصيدة شوقى التى استقبل بها مصر حين عاد من منفاه بالأندلس ، إذ يقول :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس ... كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
وكلُّ مسافر سيؤوب يوماً ... إذا رُزق السلامةَ والايابا
ولو أنى دُعيتُ لكنت دينى ... عليه أقابل الحتم المجابا
أدير اليك قبل البيت وجهى ... إذا فُهتُ الشهادة والمتابا
هدانا ضوءُ ثغرك من ثلاثٍ ... كما تهدى المنوَّرةُ الركابا
وقد غشَّى المنارُ البحر نورا ... كنار الطور جلَّلت الشعابا
وقيل : الثغر ، فاتأدت ، فأرست ... فكانت من ثراك الطُّهر قابا

وقوله وهو فى منفاه أيضا :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتنى اليه فى الخلدُ نفسى
وهفا بالفؤاد فى سلسبيل ... ظمأ للسواد من (عين شمس)
أحرامٌ على بلابله الدَّوْ ... ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل إلا ... فى خبيث من المذاهب رجس

وهنا قد يخطر بذهنك أن تسأل عن العوامل المؤثرة فى شعر شوقى هذا الأثر الظاهر ، وميزته عن شعر البارودى هذا التميز الواضح ، وجملته فياضاً بهذه العاطفة القومية ، مفعما بتلك الاحساسات الوطنية ، فلا تكاد تقرأ قصيدة من قصائده خالية من ذكر مصر والفخر بماضيها ، والألم لحاضرها والأمل القوى فى مستقبلها ؛ ولا تبعد عن الحق كثيراً إن قلت إن شوقى لم يُجد إجادة تامة إلا فى هذه الأغراض ؛ وأقول فى جواب هذا السؤال إن سر ذلك يرجع إلى مخالطة شوقى لزعماء الوطنية المصرية وصلاته القوية بهم ، وحرصه على توثيق أسباب المودة بينه وبينهم ، وملازمته لمجالسهم بالليل والنهار ، فلا عجب إن شاركهم بعد ذلك فى الآراء والأفكار ، وشاطرهم فى الآمال والأوطار . . .

أضف إلى ذلك خدمته الطويلة للخديو السابق عباس الثانى ؛ وقد كان من كراهته للمحتلّ الغاصب ، وحبِّه الاستقلال بالسلطة والانفراد بالحكم ، ما هو معروف مشهور

وهذا جواب إجمالىٌّ أرجىءُ تفصيله إلى فصل آخر عند الكلام على شاعرية شوقى ؟

أحمد الزين

سكان أعالى النيل

بقلم رشوان احمد صادق

يسكن أعالى النيل ثلاث مجموعات أساسية تتفرع منها عدة مجموعات أخرى فرعية :

١ – المجموعة النيلية ، ويطلق عليهم اسم Nilotes ، وهم خليط من الزنجى والحامى . نشأ هذا الخليط بالقرب من شرق البحيرات الكبرى فى شرق أفريقا ثم نبعت منه شعبتان :

الشعبة الأولى هى جماعة الدنكا وقد اتجهت شمالا ثم تكون منها الدنكا والنوير الحاليتان

والشعبة الثانية اتجهت شمالا أيضا ونتج عنها القبائل التى تتكلم اللهجة الشلك مثل جماعة الشلك واللبو والانواك

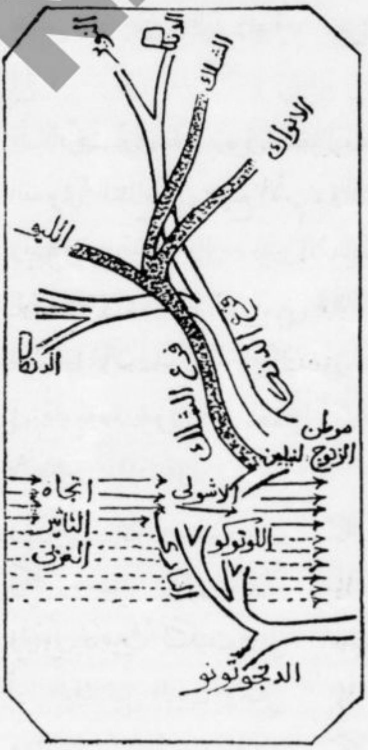
وهذه المجموعة تشغل أقاليم بحر الغزال وبحر الجبل وبحر الزراف والسوباط وجزءا من النيل الأبيض . أما مميزات هذه المجموعات الجنسية فهى قامة بائنة الطول ، وراس مستطيل ، وبشرة سوداء جدا ، وشعر مجعد ؛ فهم يختلفون عن الزنجى البحت وكذلك عن الحامى البحت

أما جماعة الأشولى الذين يتكلمون لهجة الشلك فرؤوسهم مستديرة ، وذلك يرجع الى تأثرهم جنسياً وثقافة بعنصر مستدير الرأس جاء من الغرب إلى الشرق والتقى بهم أثناء هجرتهم من موطنهم الأصلى

٢ – المجموعة الحامية النيلية Nilo hamites مثل البارى واللاتوكو وغيرهم ، وهم يشبهون النصف حاميين half hamites الذين يوجدون فى شرق أفريقا وفى شرق أفريقا الوسطى ، ويكثر وجودهم فى مستعمرة كينيا واوغندا حتى حدود السودان وشمال تنجانيقا . وهم أيضا خليط من الحامى والزنجى ، غير أنه يظهر تغلب الجنس الحامى فى تكوينهم خصوصا من حيث التقاطيع مثل الأنف ولو أن البشرة سوداء اللون . ولقد تأثروا أيضاً بالهجرات المستديرة الرأس الآتية من الغرب إلى الشرق ، ولكن هذا التأثير كان ثقافيا لا جنسياً

٣ – مجموعة زنجية مستديرة الرأس لونهم أخف من لون النيليين وقامتهم أقصر . كانت أما كنهم بحيرة تشاد ، ثم هاجروا جنوبا إلى افريقا الاستوائية الفرنسية ، ثم شمالا إلى خط تقسيم المياه بين الكنغو والنيل . وأهم هذه المجموعة الازندى ، ويسكنون فى أعالى بحر الغزال الآن

وبعض العلماء يظن أن لونهم الفاتح يرجع الى اختلاطهم بجماعة البربر أو بعض الحاميين



خريطة تبين سير الهجرات
(للأستاذ سلجمان)

ولقد اشتهر سكان هذه الجهات ومعظم سكان أفريقا — سواء الزنجى البحت أو الخليط — بحب اللهو والطرب والرقص وكثرة شرب الخمور . ولقد تبارى العلماء فى تعليل هذه الظاهرة التى تكاد تعم معظم بقاع افريقا

فابن خلدون يرجع ذلك إلى عوامل مناخية إذ يقول :

« من خلق السود على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق فى كل قطر ؛ والسبب الصحيح فى ذلك أنه تقرر فى موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه . وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار ، مخلخلة له زائدة فى كميته ، ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور مالا يعبر عنه ، وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية التى تبعثها قوة الخمر فى الروح من مزاجه فيتفشى الروح ويجىء طبيعة الفرح . وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا فى هوائها واتصلت حرارة الهواء فى أرواحهم فتسخنت ، لذلك حدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشىء عن السرور . ولما كان السودان

ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفى أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الاقليم الرابع (المعتدل) أشد حرا ، فتكون أكثر تفشياً ، فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطاً ، ويجيء الطيش على أثر هذه . وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم . »

ولقد حاول كثير من العرب تعليل حب هؤلاء الأقوام للخمر واللهو والرقص ، ومن هؤلاء المسعودي الذي ينسب ذلك إلى ضعف عقليتهم ، كذلك يعقوب بن اسحاق الكندي ذكر ذلك التعليل الذي ربما يكون المسعودي قد نقله عنه

كذلك ذكر هذا الرأي جالينوس كما يقول ذلك ابن خلدون

وربما كان ذلك راجعا إلى قلة العمل وطول الوقت ، ولذلك يلهو الزنجي بمثل هذا النوع من الطرب . وربما يرجع حب الزنجي للرقص والخمر الى التغلب على مناخ بلاده الذي يدعو إلى الكسل والخمول . كما يستعمل الأوروبي مثلا المسكرات للتغلب على البرد في بلاده . ويقول نعوم بك شقير في كتابه تاريخ السودان : « وهم مولعون بالرقص ولعاً شديدا ، ولكل قبيلة منهم رقصة خاصة يرقصها الرجال والنساء على أصوات الآلات الموسيقية . وقد رأيت جماعة من رجال الشلك يرقصون رقصة حربية في الخرطوم أيام تشريف الخديو للخرطوم ، وقد لبسوا شعورهم على أشكال غريبة وزينوها بالريش والخرز وصبغوا جفونهم بصباغ أبيض مشرب حمرة ، ولبسوا أساور العاج والنحاس في أيديهم ، والجلود أو الخرق في أصلابهم ، وحملوا الحراب والنبابيت فمثلوا في رقصهم واقعة حربية وقفوا فيها صفين يهاجم أحدهما الآخر ، وهم يقفزون كالقردة ويصيحون كالذئاب ، وهم يهزون رماحهم وعصيهم فوق رؤوسهم ، ويغنون أغاني لا تلحين فيها ، ويصوتون بالقرون أصواتاً مزعجة تصم الآذان ؛ وبالاجمال لم يكن في رقصهم طرب بل دل على الهمجية والخشونة »

وقد اشتهر الزنجي بجودة الرقص خصوصاً في عهد قدماء المصريين إذ استخدموا الأقزام لرقص الآلهة . وكثيراً ما نرى الآن في موسيقى الجاز الأوروبية الراقصة أن يُستخدم الزنجي للعزف . كما اشتهر بعض الزنوج نساء ورجالاً بالرقص الأوروبي

الزنوج النيليون Nilotes

النوير

لم يتأثروا بالحكم الأوربي لأن أماكن سكناهم تجعلهم في عزلة إذ يتعذر اجتياز بلادهم في فصل الأمطار لكثرة المستنقعات كذلك في فصل الجفاف . لذلك لم يحاول جيرانهم الاعتداء عليهم ، كما أن العرب الذين عرفوا هذه الجهات قديماً اكتفوا بانشاء محطات تجارية على المجاري الرئيسية . ولم تهتم بهم الحكومات الأوربية إلا منذ أربع سنوات عندما قاموا ببعض الاضطرابات . وكان لهذه العزلة الأثر الأكبر في عدم قبولهم الاختراعات الحديثة ، وعدم تغييرهم لنظامهم الاجتماعي ، كذلك لم يتأثروا بالمسيحية ولا بالاسلام ؛ وتجد الحكومة صعوبة في جباية الضرائب منهم أو ارغامهم على العمل



خريطة توزيع القبائل
(عمل الأستاذ رتشارد)

وتنقسم السنة عندهم إلى قسمين تبعاً لتغير الانتاج الزراعي الذي يتوقف على هطول الأمطار . فمن ابتداء شهر مايو تهطل الأمطار وتستمر كذلك حتى أواخر نوفمبر ، فتمتلئ الأنهار وتكثر الأخوار . ولما لم يكن هناك تصريف على السطح فان هذه المياه تتجمع على شكل مستنقعات تقوم في وسطها عدة قرى في الأراضي المرتفعة . وفي هذا الفصل تكون الماشية على مقربة من هذه القرى لكي يمكن ايوائها مساء في الأماكن المخصصة لها لحمايتها من شر البعوض . كذلك يتمكن النوير في هذا الفصل من زراعة بعض الذرة . وفي شهر ديسمبر تبدأ الأمطار في القلة ، ولذلك تساق الماشية الى

أماكن بعيدة عن القرى فى الجهات الغابية حيث ترعى هناك ، وبعد أن يجمع المحصول فى القرى ترجع الماشية الى القرى لتأكل بقايا النباتات ؛ ثم بعد ذلك يحل فصل الجفاف

وأهم شيء فى حياة النوير خاصة ، والزنوج النيليين عامة هو الماشية ، فمنها يأخذون اللحم واللبن ، وجلودها تستعمل فراشاً ، وروثها يستعمل وقوداً ، والرماد المتخلف يتخذ لدلك الجسم لحمايته من البعوض ، ويصنع منه مسحوق للاسنان والشعر ، وقرونها تستعمل ملاعق ، وذيلها للزينة . والرجل الغنى عندهم هو الذى يملك ماشية ، فهى تقوم مقام الصداق فى حفلات الزواج ، ولذلك كان النورى شديد الاهتمام بتنمية القطيع من الماشية ، لأنه مهم من حيث الزواج . والرجل عند ما يريد الزواج لا بد أن يوزع عشرين رأساً من الماشية على أهل زوجته ولا بد من إهداء عشرة رؤوس لأقارب والد عروسه ، وعشرة أخرى لأقارب والدة عروسه ، فمن اللازم أن يأخذ القطيع فى الزيادة حتى يصل الى خمسين رأساً من الماشية . فاذا تزوج ابن فلا بد أن يظل بقية الأبناء بدون زواج حتى يأخذ القطيع فى الزيادة إلى أن يستعيد عدده قبل الزواج . فالزواج حسب الترتيب : الأكبر فالذى يليه وهكذا . وعلى نساء الأبناء الكبار أن يقمن بطهى الطعام وحلب الماشية للاخوة الذين لم يتزوجوا بعد؛ كذلك تستعمل الماشية فى دفع الديات والتعويضات . والنورى يعتبر القتل كالزواج ، أى أن الرجل اذا قتل شخصاً من عائلة أخرى كان كأنه تزوج فتاة من هذه العائلة ؛ وذلك على قاعدة أن هذه العائلة ستفقد فردا منها فى حالة الزواج أو فى حالة القتل . فعلى القاتل أن يعطى عائلة المقتول عشرين رأسا من الماشية : عشرة منها توزع على أقارب والد القتيل ، وعشرة أخرى توزع على أقارب والدة القتيل . والفكرة فى ذلك أن عائلة القتيل تحتفظ بهذه الماشية التى أخذتها دية لكى يمكنها أن تحصل بواسطتها على زوجة للرجل الميت لكى تلد هذه الزوجة ابناً يحل محل أبيه . وهذه الزوجة بعد الحصول عليها تعيش مع زوجة الرجل المقتول ، والابن الذى يولد لها يعتبر كأنه للرجل المقتول .

يتبع — رشوان أحمد صادق

اندفاعات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

يعيش القريعُ الحرُّ فى البلد الحرِّ   فبالخير يجزى الخيرَ والشرَّ بالشر
ويزرى بعادات يراها مضرّة   وأمّا بما فيـه انتفاعٌ فلا يزرى
وأكْثِرْ بمُغتَرّ بما كان ظاهراً   وأقْلِلْ بمن قد كان ليس بمغتر
بمجتمع حرّيةُ الفكر عنـده   وما عنده حُريةُ القول والجهر
ولم يك أسراً منع حُرّية الورى   ولـكنه شرٌ عليهم من الأسر
وما خيرُ أرض هان فيها ذوو الحجا
وذو الأنَفِ موصول الكرامة والقدر
تحملتُ أعباء الحياة ثقيـلة
فكانت كأخت الموت قاصمة الظهر
يعادوننى من أجل تركى لمدحهم   ومَن كان حُراً عاش للأدب الحُر
ومالى وثوق فى العراق بصاحب   مع المدّ يأتينى ويمضى مع الجَزْر
لقـد نسبوا لى الوزرَ فيما أقوله
وهل مُثقِـلٌ غيرى إذا صدقوا وزرى
وللـكفر والإيمان تجمع لحمـةٌ
وقد شرب الايمان من منبع الـكفر
ولو كنتُ أدرى ما ألاقى من الأذى
أخذت من الأيام قبل الأذى حِذرى
أعاتب أيامى على ما أصابنى   وما فى يد الأيام شىءٌ من الأمر
ولستُ إذا لاقيتُ مكراً بنا كص   ولـكننى أستقبل المـكرَ بالمـكر
إذا رمتَ أن تلقى من الناس حرمةً   فـكن سيداً للخير أو سيد الشر
وإن الفتى الخوّار فى حومة الوغى   إذا لم يمت بالسيف مات من الذعر
وليس يردّ العسكرَ المجرَ غازياً   لمملـكة مُثلى سوى العسكر المجر
وما أنس لا أنس الشبابَ فانه   على ما به من خفة غرّةُ العمر
صبوتُ إلى غُرّ الوجوه مُتيماً   ومَن كان لا يصبو إلى الأوجه الغُرّ؟
وإنى ليعرونى اضطرابٌ لذكرهم
كما اضطرب العصفور فى مخلب الصقر
وإنى كسارٍ ضلّ ليلاً طريقَـه   بمنأبة خرقاء أو مهمهٍ قفر
ذكرتُ شباباً كان لى فى زمانه   سوابق آثام فأخجلنى ذكرى
أثمتُ وبالطيش اعتـذرتُ مُبرّراً
وأكبرُ من إثمى الذى جئتُه عذرى
ألامُ على حبى لدنيايَ هـذه   وما حيلتى إن كان قلبى بها يغرى
صحوت غداةَ الشيب من سَكرة الصبا
ويارُبّ صحوٍ كان شراً من السكر
وكان نصيبى فى الشباب ابتسامةً   تلوح على عين الحبيبة والثغر
قد ازدان بالألماس والزَهر فرعُها
كما ازدان ليـل الصيف بالأنجم الزُهر
ولما تفارقنا شـجانى بكاؤها   وما نثرت تلك المدامعُ من دُرّ
أذال هوانا الدمعَ والعقل صانه   فموقفه بين المذلّة والكبر
وماذا لليلى جـدّ حتى تغيرت   فانى وليلى كنت كالمـاء والخمر
تعيرنى بالشيب وهو مصيرُها   كأنى وإياها إلى غايةٍ نجرى
أبا لقلب منى تهزئين إذا صحا   ولـكنّ هذا القلب ينبض بالشعر
منحتك حبى خالصاً فهجرتنى   وأسرفتِ يا ليلى الجميلة فى الهجر

* * *

وللبلبل الصيداح فى كل روضة
عرائسُ يبثثن الغرامَ من الزَهر
ويبسمن للصيداح من فرح به   ويرميننى للشيب بالنظر الشزر
وللزهر مثـل الغانيات لواحظٌ   وفى تلـكم الألحاظ شىءٌ من السحر
عيون رمتنى بالسهام مريشـةً
بأهدابها من حيث أدرى ولا أدرى

* * *

سأهبط قبراً بعـد حُمّى تميتنى   سلامٌ على الحُمّى، سلامٌ على القبر
وإنى لأخشى دفنَهم لى بحفرة   فيُدفن للنسيان فيها معى فكرى
تموت اعتبارات الفتى عند موته   فلا حسنَ فى عُرفٍ ولا قبحَ فى نكر
وأطوِلْ بليـل القبر والقبرُ ضيّقٌ
ونومِيَ فى جوف التراب مدى الدهر
وددتُ لوانى قد يقظت من الكرى   على صيحة الصيداح فى مطلع الفجر

طريقُ حياتى لم يكن متساوياً ... فوعرٌ إلى سهل وسهلٌ إلى وعر
أرى المرءَ مضطراً لما هو فاعل ... وإن خال جهلاً أنه غير مضطرّ
ولستُ أخاف الشكَّ فى كل ماروَوا
ولكنّ بعض الشكّ يأكل من حِجرى
لمن تكتب الأرواحُ فى اليمّ مألكاً
فانى أرى الأمواجَ سطراً إلى سطر
مكانَك لا تطلب من الدهر مخرجاً ... فانك أنى سرت فى قبضة الدهر
وليس أنيناً ماله أنت سامعٌ ... ولكنه شكوى الغريق إلى البحر
لقد جرّد الدوحَ الخريفُ وليته ... لأطياره أبقى على الورق النضر
قروضٌ ولكن لا رُواء لزهره ... فهل فيه لاقى الزهرُ شحّاً من القطر
إذا لم تكن تشكو الأزاهيرُ كربةً ... فما بالها ليست بباسمة الثغر

بحر الحسد

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقدمة :

الحياة هى بحر الحسد ، ويسعى الناس فى الحياة لأرزاقهم وجاههم بالكيد والمكر كأنما يسبحون فى بحر من الحسد ، وقد يدفع بعضهم بعضاً كى يظهر الدافع على متون أمواجه ، وقد يعين بعضهم بعضاً فى الأحايين . أما المجاملة فى الحياة والتحيات فقد تكون أشبه بلألاء الشمس على سطح الماء ، يخفى بجماله ما فى البحر من قبح وبلاء (الناظم)

يسبح الأحياء فى بحر الحسد ... فاعتصم بالصبر فيه والجلَدْ
واقتعد صهوته مستبشراً ... سابحاً فى الموج منه والزّبد
ضاحكاً من عنت الأمواج لا ... يُدفَعُ الغائلُ منها بالكمد
أنظر الأمواج فى الشط تَجِدْ ... لُجَّها منهزم الأمر بدد
إنْ علت موجة حقد فاصطبر ... أى موج فى ذرى اليمّ خلد
وإذا ما رمّة لاحت فلا ... تحسب الرمة فيه كالسند
وإذا لألأت الشمس على الـ ... ـيمّ أخفت قبح ما دون الزبد
كمقال الحب يُخْفى كيدهُ ... إنْ سطا فى العيش فى لؤم وحِقْد
وإذا غار بك الماء فقل ... كم حسام فى قراب قد غُمِد
رب درٍّ فيه لا تأمله ... إن من غاص على الدر وجد
درة مخبوءة أنت إذا ... ما طفا باللؤم إن أغرقْتَ وغد
أنجد السابح إن خار وكن ... للذى أشفى على الهُلْكِ عَضُد
ليس مجد الغدر أحجى بالفتى ... أى مجد ناله الأوغاد مجد
أحمق الناس جهول خائف ... كلما لاح له برق ورعد
ليس فى العيش ولا الموت أذى ... إنَّ من سار على الدرب ورد
لا يلذ الموتَ إلا مُتْعَبٌ ... سهر العيش وفى الموت رقد
رقدةٌ يا طيبها من رقدة ... بعد أن عانى وأبلى وسهد

الشادوف[1]

بقلم محمود حسن اسماعيل

دَعْ نايكَ الشّادى بلا تَعْزيفِ ... طرِبَ الخيالُ لأنَّة الشادوفِ
عُرْيانُ جَرَّدَه الضحَى مِن سِتْرِه ... فغدا يضِجُّ بدمْعِه المذْروف
لم يُرْضِه ثَوْبُ السَّنا سِدْلاً له ... يختالُ فى بَهَج ولَمْحِ شُغوف
فبكى ونكّس رأسه مُتَذَلِّلاً ... متحسِّراً كالعاشق الملْهوف
فاذا تقاعس خِلْتَهُ فى صَمْتِهِ ... جُثْمانَ مصلوبٍ بغَيْر كُفُوف
بتَرَتْ سواعدَه اللّيالى ، وانبرَتْ
تُبْليه فى سَخَطٍ وفى تعْنيف
وإذا جثا ألفَيْتَهُ متعبِّداً ... طُهرَتْ سرائرُهُ من التّزييف
سجَداتُهُ فى النَّبْع قُبْلَةُ والِهِ ... طبعَتْ على سَلْساله المَرْشوف
صَدْيانُ قدّم للوُرود شرابَهُ ... وأعارَ أدْمُعَهُ لقلب الرّيف
فيظلُّ يَظمأ عارياً ، والزَّهْر فى ... رِىٍّ ، ونبْتُ الحقل فى تفْويف
ثاوٍ على الجُبِّ العَميق كأنَّهُ ... أعمى على جُرُفٍ هنالكَ موفى!
جبّارُ أفزعه الرَّدى فتقلّصَتْ ... أضلاعُه من صَرْعَة التّخْويف
فتخاله فى الوهْم جُثّةَ ماردٍ ... ضجِرَتْ هُوْلٍ فى القبور مخيف
فأعارتْ الأكفان ثورةَ خانقٍ ... بَرِمتْ بِحَتْفٍ فالتقَتْ بحتُوف

* * *

(١) آلة قديمة للرى فى مصر

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٥ – تطور الحركة الفلسفية فى المانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

— ٥ —

يرى نيتشه شريعة العبيد ومثل الزهد وسلطة الـكاهن تقوم أركانها على جملة أكاذيب فارغة ؛ وهو لا ينظر إلى الشريعة المسيحية نظرة الرافض لها، وإنما يجد فيها خطراً كبيراً وتدميرا. إن قطيع المنحطين وقائدهم كاهنهم الزاهد تراهم وقد قضى عليهم بأن يغمضوا أعينهم عن بيان أصول الأشياء، لـكى يضعوا – موضع الامتحان والحقيقة التجريبية – شريعتهم وقيمهم الوهمية الضالة التى عالجوا بها حلّ أسرار الوجود. لو أدرك الريض حقيقة أمره، وعرف مكان عافيته، وموطن شفائه، وعلم أن علاج الـكاهن لا يزيح من ألمه الحقيقى شيئاً، وإنما هو علاج ظاهر يعمل على تشديد الألم بدلا من أن يعمل على تخفيفه وشفاء صاحبه؛ لو علم ذلك كله لرأيت العمارة المسيحية قد انهارت دعائمها واندكت صروحها. إن المنحط الضعيف يتحرى عن مخفف حقيقى لآلامه عند الطبيب أو عند الموت. وقد أحس الـكاهن هذا الخطر فأخذ يحدث قرناءه دائماً عن الايمان، وهو الاقتناع المبنى على غير العقل، عن الايمان الذى لا يحفل بحقيقة الأشياء، وهل الايمان بحقيقته إلا أن تفرض وهما تشعر بضرورة وجوده فى الحياة، تفرض وجوده بأى ثمن كان

فى كل عصر يرى الـكاهن فى الحـكمة الدنيوية والعلم الواقعى الذى يدرس الوجود للعلم، غير حافل بقواعد الدين، يرى الـكاهن فيهما خصمين عنيفين، وهو يُحلل كل وسيلة تصرف الانسان عن التأمل فى الأشياء بعين نفسه، وعن جلاء الحقيقة عارية مجردة من غير تشويه. وهذا مالا يتساهل فيه نيتشه، ولقد ينفر للمسيحية ما تبث فى الانسانية من آلام، وماعسى يضر الألم الانسان إذا كان الألم يصفيه؟ وفى الحقيقة نرى الايمان الدينى قد خلق أرواحاً كثيرة أفادت البشر؛ ولم يكاف نيتشه نفسه بيان الآلاء التى قامت بفضل ثورة العبيد فأغنت النوع الانسانى وظلت من الانقلابات المعتبرة فى التـاريخ. ونيتشه يُعجب بالمنطق العظيم فى المنطق الدينى الـكاذب، وبالمذهب الذى ابتدعه وظل يُغذى الناس طيلة عشرين قرناً بالأوهام الخيالية، وقد يُعجب بالـكاهن برغم أنه ينطوى على ارادة شريرة، لأن ارادته تستمد شعورها من نفسها، لا تحوك الأوهام حول الهدف الذى تقصده ولا حول الوسائل التى تصطنعها. وأما ما يستفز غضب نيتشه من العالم المسيحى فهو ذلك المحيط القدسى الذى يحيط به، وذلك المزيج من المـكر والغباوة والطهارة الـكاذبة التى يتظاهر بها رجال الايمان. فاستفاق فى نيتشه شعوره الوحشى وحبه للطهارتين المادية والروحية، وجرأته فى الذهاب وراء أقصى ما أشرف عليه عقله، فثار وتمرد على هذا التدليس كله، ثم انصرف عن هذه الجماعة وفى قلبه سأم من رجالها الذين غدا الوهم عندهم جزءا من الأجزاء التى لا يتم بدونها الوجود؛ وهم لا يعرفون أنفسهم حين يخـدعون ويخادعون وحين يكونون صادقين، يعيشون أسرى أوهامهم حين يريدون أو لا يريدون؛ وأعلن بأن المسيحية هى المسئولة عن تسميمها للبيئة العقلية والأدبية فى أوربا

على أن جهود الـكنيسة كلها فى مناضلة العلم ذهبت عبثاً، ومقاومتها للعقل البشرى انطلقت أدراج الرياح؛ فان فى أوربا كثيرين من علماء الطبيعة – على اختلاف مناهجهم ومدارسهم – يعيشون فى غير أكناف الدين والايمان؛ هؤلاء هم أعـداء الـكاهن. ولـكن سائلا يسأل: ومابال عقول هؤلاء لم تضع سداً يمنع تأثير الوهم المسيحى؟ وكيف لم يفلح أصدقاء الطبيعة والحياة والعافية فى تحطيم القيم المسيحية؟

كان جواب نيتشه على هذا السؤال جواباً أدبياً، يقول: إن هؤلاء العلماء لا يؤمنون بعلمهم، ومعنى ذلك أنهم لا ينصرفون

يا صامتاً والريحُ تخفقُ حَوْلَه   والنبتُ يطربُه بسجعٍ حَفيف
وتصايحُ الغِرْبانِ يُنذِرُ مَرْجَه   بحَصيدِ سافيةٍ، وجَدْبِ خريف
ورَبابةُ الرّاعى تُهدْهِدُ عِنْده   قلباً يَهيم بلحنِها المعْزوف
سَكْرَى من الأنغامِ أسكرَ شَدْوُها   آذانَ ثاغيةٍ وسمعَ خَروف؛
هلاّ شَجَتْكَ نُفاثةٌ من بائسٍ   لهفانَ فى كَنَفِ الأسى ملفوف
روّى الزُّروعَ بصيِّبٍ من دَمْعِهِ   وثوَى بقلبٍ فى الظلام لهيف!

محمود حسن اسماعيل

إلى تبديل المثل الأعلى الديني بمثل أعلى من عندهم ؛ أو أنهم يؤمنون بملهمهم ويأتون بمحل جـديد للحياة يستمدون مادته من المثل الأعلى المشيد على الزهد ؛ أو أن رجال العلم هم رجال متوسطو الادراك ، عاجزون عن إبداع شريعـة جديدة ؛ أو أنهم قوم زاهدون محتالون عالمون ؛ لا يختلف جوهر مثلهم الأعلى عن مثل الـكهان

يشـبه نيتشه هذا العالِم « المتوسط » بامرأة عجوز لا تلد ولا تنجب . وهو قليل القناعة بنصيبه

والآن فلننظر فى تعريف رجل العلم !

إن رجل العلم يتصل نسبه بذرية بشرية غير شريفة . تنطوى نفسه على خلال ذرية غير شريفة ، ذرية لا تأمر ولا تملك سلطة ، ولا تغني شيئاً . إنه عامل دائب يدرك بشعوره حاجات قُرنائه . إنه وارث أمراض ذرية غير نبيلة ، ملك عليه الزهو ومشى لا يتحرى إلا عن الأشياء السفلية فى الطبائع . أما المظمة فهى بعيدة المنال عنه . وإن مما يجعل العالم جليل الخطر شعوره الباطن بأنه من ذرية متوسطة ، فهو والحالة هذه يدأب عاملاً على إبادة الرجل « الشاذ »

ولا ريب أن العالم يحيا بعيداً عن كل إيمان ؛ ألا ترى فطرته فى كثير من المواطن توائم فطرة رجل الدين ، ثم يخالفه ويفر من ملامسته وملامسة أمثاله ، لأنه ينتقد كل الاعتقاد بأن رجل الايمان هو نموذج سفلى فى البشرية ، وأن رجل العلم هو أسمى منه . على أن هنالك هوة سحيقة تفصل بين رجل الدين رجل الارادة الـكبيرة المريضة ، القاتل الظافر بفضل هذه الارادة ، والخالق قيماً يمتقد بصحتها ، وبين هذا الرجل العالم الجرىء ، هذا القصير المعجب بنفسه الذى فقد إيمانه بنفسه وعلمه . يعمل كما تعمل الآلهة ليزداد غواية وضلالاً ، ولينعتق من التفكير ، وليزيح من سبيله هذه المسائل المقلقة ! قد يكون عمله حسناً لو كان يعمل مستوحياً نفسه ، لـكنه يعمل ليكون مأموراً عاجزاً عن إبداع قيمة جديدة عاجزاً عن أن يتذرع بارادة

لنحكم أن العالِمَ « غير الذاتى » الذى نضجت فيه الحاسة العلمية قد ساد أمره فماذا ينتج منه ؟ لا شىء إلا مِرآة . . . وآلة لا إرادة لها . . . إنه يُشبه المِرآة التى تعكس الأشياء ، ترتقب حتى تظهر عليها فتعكس مرآها ، وإنما غناه فى أن يكون معبراً تمر به الأشياء . لا يحس ولا يلمس آلامه الشخصية . يعمل ما يستطيع ، ويعطى ما يستطيع ، ولـكن ما يعطيه حقير لا قيمة له . هو لا يأمر ولا يخرب شيئاً ، يقول مع (ليبنز) : « أنا لا أحتقر شيئاً » . إنه آلة تتجلى فيها العبودية والخضوع والطاعة . مفتقر إلى معلم يهديه إلى الغاية المقصودة . وهو ليس بعلامة حركة جديدة ، ولا بملة أولى . إنه وا أسفاه ليس بمعلم . إنه وعاء فارغ يتخذ لون السائل المراق فيه ، إنه فقد الشخصية

ثم هاجم نيتشه الشكوكيين الذين يصل بهم علمهم إلى حيرة يتساوى فيها الصعود والهبوط ، والعلم والجهل ، وإنما يتميزون من رجال العلم بأن هؤلاء عاملون دائبون كالآلات ؛ أما الشكوكيون فهم عقول أضعفها ترَيُّضها الزائد فى العلوم ، وهم ليسوا بشيعة واحدة ، فمنهم المضطرب والمتدل المزهو بنفسه ، ومنهم النفس التى تبذل الجهد فى كشف أسرار الوجود وقد دوختها أسراره حتى غدت تروح وتغدو كالخيال الدقيق ليس له من قرار

ألا ترى إلى زرادشت — نبى نيتشه — البشر بالسوبرمان قد سحب وراءه خيالا من هذه الأخيلة الضالة ، رافقته فى كل مراحله ، قد طلقت كل إيمان كان فيـه عزاء ، وحطمت كل الأوثان ، وفقدت إيمانها بالأسماء الـكبيرة والرموز الفخمة حتى أضاعت غايتها فى النهاية ، وضلت فى زوايا الوجود الوحش هائمة بدون حب ولا رجاء ولا وطن . رآها زرادشت فلم يتمالك نفسه من الاشفاق عليها

ـ قال بكآبة : أنت ظلى !

إن الخطر الذى تفر منه ليس بحقير أيها المسافر !

إن أمامك نهاراً سيئاً فاحترس من أن يكون مساؤك أسوأ .

إن السجن لأمثالك الطائشين قد يصبح نعمةً لهم

أرأيت هؤلاء العاتين المفسدين ، يجرجرون فى قيودهم ! هؤلاء ينامون نوماً هادئاً لأنهم مرتاحون بطمأنينتهم

احترس فى النهاية أن تغـدو سجين إيمان ضيق ووهم قاس مرعب . على أن كل ما هو ضيق قاس هولك فيه إهواء وخديعة

إنك أضعتَ الغاية ، وكذلك أضعتَ سبيلك

يا لك من نفس ضالة طائشة ! يا لك من فراشة منهوكة القوى »

ولـكن رجال العلم ليسوا جميعاً على هذا النحو الذى صوره نيتشه ، فهنالك رجال يقين من رجال العلم ، علم هؤلاء لا يقف عند قولهم : ماذا ندرى ؟ هو علم وثاب يخلق إرادة ويبدع شريعة ومذهباً

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

في ذكرى بدر:

أبو جهــــل....

لم أكتب رواية، ولكني عرضت مناظر من بدر.....

«على»

للأستاذ علي الطنطاوي

(المنظر الاول)

«في بيت عاتكة بنت عبد المطلب»

عاتكة — يا أخي! والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرّ ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثت، فانهم إن سمعوها آذونا، وأسمعونا ما لا نحب

العباس — حدثيني، فسأكتم الحديث

عاتكة — رأيت راكباً قد أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا فانفروا يا لَغُدُر إلى مصارعكم في ثلاث! فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه؛ فبينما هم حوله مثَل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها؛ ثم مثل به على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها؛ ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقيت دار من دور مكة إلا دخلها منها فلقة....

العباس — إن هذه رؤيا حق، فاكتميها ولا تذكريها لأحد

(المنظر الثاني)

«في الحرم، وقد غابت الشمس، وجلست قريش في مجالسها من حول الكعبة»

«أبو جهل في رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة»

أبو جهل — يا أبا الفضل! إذا فرغت من طوافك فأقبل علينا....

«يقبل العباس»

أبو جهل — يا بني عبد المطلب! متى ظهرت فيكم هذه النبيّة؟

العباس (متجاهلا) — وما ذاك؟

أبو جهل — الرؤيا التي رأت عاتكة!

العباس — وما رأت؟

أبو جهل — كأنك لا تدري؟... ألم تحدث بذلك الوليد بن عتبة؟ أما رضيتم يا بني عبد المطلب بكذب الرجال، حتى جئتمونا بكذب النساء؟ زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث! فسنتربص بكم هذه الثلاث، فان يك حقاً فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب

العباس (وقد غضب) — هل أنت منتهٍ يا مصفّراً....؟ فان الكذب فيك وفي أهل بيتك

«يهم به فيحول القرشيون بينهما»

القرشيون — ما كنت يا أبا الفضل جهولا ولا خرقاً

(المنظر الثالث)

«في بطن الوادي، صباحا...»

العباس (لرجل معه) — لقد لقيت أمس من عاتكة أذىً شديداً لما أفشيت من حديثها، ولم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني تقول: أقررتم... أقررتم لهذا الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت.........

فوالله لأتعرضنّ له؛ وإن عاد قاتلته، فلقد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه

الرجل — انظر يا أبا الفضل! هذا أبو جهل خارجاً من باب المسجد يشتدّ

العباس — ماله لعنه الله، أكل هذا فرقاً مني؟ إذهب فانظر ما شأنه؟

«يذهب الرجل ويرجع على عجل»

الرجل (مضطرباً) — ألا تسمع؟

العباس — ماذا ؟

الرجل — هذا ضمضم بن عمرو الغفارى . يصرخ ببطن الوادى وقد شق قميصه ، وحوّل رحله ، وجدع بعيره ! اسمع

« يتقدمان ويصغيان »

ضمضم — يامعشر قريش ! اللطيمة ... اللطيمة ... أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ... لا أرى أن تدركوها ... الغوث ..! الغوث ..!

« حركة واضطراب وتطوصيحات حماسية »

رجل — هذه والله رؤيا عاتكة !

آخر — والله إن أخذ محمد العير لا تفلح قريش أبداً

آخر — انفروا إلى مصارعكم فى ثلاث . إن رؤيا عاتكة كأنها أخذ باليد

أبو جهل — هه ! أيظنّ محمد أنها كعير ابن الحضرمى ؟.. والله ليعلمنّ غير ذلك ... إنها قريش !

سهيل بن عمرو — يا آل غالب ! أتاركون أنتم محمداً والصُّباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم ؟ — من أراد مالا فهذا مالى ؛ ومن أراد قوتاً فهذا قوتى ...

« يتفرق الناس . يستعدون للخروج »

(المنظر الرابع)

« فى الحرم ، وقت الظهيرة »
أمية بن خلف وسعد بن معاذ سيد الأوس وهو ضيفه وخليله

أمية — تمال فطف بالبيت ، فانه وقت الظهيرة ولا يراك أحد

« يطوف سعد بالبيت ويجلس أمية »

أبو جهل (قادماً) — من هذا الذى يطوف بالبيت ؟

سعد — أنا . سعد بن معاذ !

أبو جهل — ماذا ؟ أتطوف بالبيت آمناً ، وقد آويتم محمداً وأصحابه ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟ ! أما والله لولا أنك مع أبى صفوان مارجعت إلى أهلك سالماً

سعد — أما والله لئن منعتنى هـذا لأمنعنك ما هو أشـد عليك منه : طريقك على المدينة

أمية (لسعد) — لا ترفع صوتك على أبى الحكم فانه سيد أهل الوادى

سـعد (لأمية) — إليك عنى ، فانى سمعت محمداً يقول إنه قاتلك

أمية — إياى ؟ سعد — نعم !

أمية — بمكة ؟ سعد — لاأدرى !

أمية — والله ما كذب محمد

« يسقط أمية خائر القوى »

إذن والله لا أخرج من مكة ، إذن والله لا أخرج من مكة

المنظر الخامس

« فى الحرم . مساء . قريش فى مجالسها ، عقبة بن أبى معيط قادم على مجلس أمية معه مجمرة فيها بخور . أبو جهل على أثره »

أمية — ويلك لمن هذا ؟

عقبة — لك يا أبا على . قم استجمر فانما أنت من النساء

أمية — قبحك الله وقبح ما جئت به

« يصل أبو جهل »

أبو جهل — يا أبا صفوان ، إنك متى يراك الناس قد تخلفت ، وأنت من أشراف قريش ، تخلفوا معك ، فسر يوماً أو يومين

أمية — افعل !

« يمشى عقبة وأبو جهل إلى مجلس عتبة وشيبة ابنى ربيعة وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام

أبو جهل — أنتم سادة قريش ، وأنتم قادة الناس ، فمالكم لا تتجهزون ؟

عتبة — لقد استقسمنا بالأزلام فخرج الناهى

عقبة — كلا . ولـكنه الفزع من اللقاء

عتبة — المثلى يقال هذا ؟ والله لولا أنك فى بيت الله ....

أبو جهل — دعه يا أبا الوليد ، فانك اليوم شيخ قريش ، فاذا لم تخرج أقام الناس

عتبة — سأخرج

(المنظر السادس)

« يفصلون من مكة ، وهم ألف رجل فيهم شيوخ قريش وأشرافها . قد خرجوا على الصعب والذلول ، ومعهم القينات يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين ، وقد ارتج بهم الوادى »

(المنظر السابع)

« ماء فى البادية ، عليـه خباء رجل ، وعليه جاريتان تختصمان ، يقف عليه رجلان من المسلمين فيستمعان »

الجارية — لا أدعك حتى تقضينى الذى لى

الأخرى — دعينى ، فستأتى العير غـداً أو الذى بعده ، فاعمل لهم ، فأقضيك

الرجل — لقد صدقت ، فستأتى العير غداً أو بعد غد

« يسمع الرجلان فيجلسان على بعيريهما ليلحقا بالمسلمين »

« أبو سفيان يأتى بعد قليل ، يتقدم العير وحده »

أبو سفيان — هل أحسست أحداً أيها الرجل ؟

الرجل — ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أن راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شنّ لهما ، وانطلقا

أبو سفيان — أرنى مبرك ناقتيهما

الرجل — هو ذاك ...

« يأتى أبو سفيان المبرك ، فيأخذ من أبعارهما فى يده »

أبو سفيان — هذا هو النوى ، هذه والله علائف يثرب

« ويمضى مسرعاً فينجو بالعير »

(المنظر الثامن)

« فى جيش المسلمين ، فى ذفران ، وقد جاءهم الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم »

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن القوم قد خرجوا من مكة ، على كل صعب وذلول ، فما تقولون ؟ ألعير أحب إليكم من النفير ؟

رجل — عليك بالعير ودع العدو

آخر — هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ! إنما خرجنا للعير

« يتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

المقداد بن الأسود — يا رسول الله ! امض لما أمرك الله ، فنحن معك ؛ والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . والله الذى بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك حتى تبلغه

« يشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

المسلمون — كلنا ذاك الرجل يا رسول الله ، ولكننا ظننا أن فى العير قوّة للاسلام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علىّ

عمر — يا رسول الله ! إنها قريش وعزّها ، والله ما ذلّت منذ عزّت ، ولا آمنت منذ كفرت ؛ والله لتقاتلنّك ؛ فتأهب لذلك أهبته ، واعدد له عدّته

قال رسول الله (ص) : أشيروا علىّ أيها الناس

سعد[1] — لعلك تريدنا معاشر الأنصار يا رسول الله

قال رسول الله : أجل

سعد — قد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليك ألا ينصروك إلا فى ديارهم ، وانى أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فصِل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعادِ من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت لنا ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك . فامض يا رسول الله لما اردت ونحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ، ما نخاف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، وإنا لصُبُر فى الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله

قال صلى الله عليه وسلم :

— سيروا وابشروا ، فان الله وعدنى إحدى الطائفتين ، فو الله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم !

(المنظر التاسع)

ماء فى البادية عليه شيخ من العرب ، يقدم عليه رسول الله وأبو بكر مستخفيين فيسألانه عن قريش

— ما ذا تعرف عن قريش ؟

الرجل — لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما !

قال رسول الله (ص) : إن أخبرتنا أخبرناك

الرجل — ذاك بذاك ؟

قال الرسول : نعم

الرجل — بلغنى أن محمداً وأصحابه ، خرجوا يوم (كذا) فان كان صدق الذى أخبرنى . فهم اليوم فى مكان (كذا)

أبو بكر (لنفسه) — لقد عرف مكاننا

الرجل (متمما) — وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم (كذا) فان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم فى مكان (كذا) . فمن أنتما ؟

قال النبى (ص) : نحن من ماء !

---

(١) ابن عبادة كما قيل . وابن معاذ على الأصح . وإذن يكون قد لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كان بمكة لما علم بأمر خروجه

أبو بكر (لنفسه) — فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق

الرجل (متعجباً) — من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ أمن ماء الشام ؟

(المنظر العاشر)

« فى بدر على الماء الأدنى من المدينة »

الحُباب — يا رسول الله ! أرأيت هذا المنزل ، أهو منزل أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

الحباب — يارسول الله ! إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغوّر ما عداه من القلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ، فنشرب ولا يشربون

قال النبى (ص) : لقد أشرت بالرأى

« يتقدم المسلمون »

(المنظر الحادى عشر)

« فى بدر على الماء الأدنى من القوم »

سعد : يا نبى الله ! ألا نبنى لك عريشاً من جريد تكون فيه ، وتعدّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدوّنا ، فان أعزّنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، لهم رغبة فى الجهاد ونية ؛ ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ويناصحونك ، ويجاهدون معك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— أو يقضى الله خيراً من ذلك ياسعد

(المنظر الثانى عشر)

« قريش فى الجحفة فى طريقهم الى بدر »

رسول — يا معشر قريش ! قد أرسلنى اليكم أبو سفيان إنه قد نجا بالعير ، فارجعوا فأحرزوا عيركم

أبو جهل — سوءة لك ! والله لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم عليه ثلاثة أيام ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، فلا يزالون يهابوننا أبداً

الرسول — هذا بغى ، والبغى منقصة وشؤم

أبو جهل — صه قطع الله لسانك

الأخنس — لقد صدق الرسول ، وأنا راجع بقومى (لقومه) — يابنى زهرة ! قد نجى الله أموالكم وخلّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى حميّتها ، وارجعوا فانه لا حاجة بكم الى أن تخرجوا فى غير منفعة

« ضجة وهياج ولغط ... ينفرد الأخنس بأبى جهل »

الأخنس — أترى محمدا يكذب ؟

أبوجهل — ما كذب قط ؛ كنا نسميه « الأمين » ، لكن اذا كانت فى بنى عبد المطلب السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة ، فأى شىء يكون لنا ؟

الأخنس — أنت والله تحسده

« يرجع الأخنس وبنوزهرة »

عمير بن وهب (قادماً) — يامعشر قريش ! لقد ذهبت فى الوادى ، أحزر أصحاب محمد ، أنظر هل للقوم كمين أو مدد فأبعدت فلم أر شيئاً ، وأنهم لثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً ، ولكنى رأيت البلايا تحمل المنايا : نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون ؛ يتلمظون تلمظ الأفاعى ، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم ؛ زرق العيون كأنهم الحصى تحت الجحف ، ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ؛ والله ما نرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجل منكم ، فاذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ! فروا رأيكم

حكيم بن حزام (لعتبة) — يا أبا الوليد ! إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك لا تزال تذكر فيها بخير الى آخر الدهر ؟

عتبة — وما ذاك يا حكيم ؟

حكيم — ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمى

عتبة — هذا والله الرأى ، فادع لى الناس

« يدعو الناس »

عتبة (خطيباً) — يامعشر قريش ! انكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ؛ والله لئن أصبتموه لا يزال رجل منكم ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه وابن خاله ، ورجلا من عشيرته . ارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فان أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك كفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون . أى ياقوم ! إعصبوها اليوم برأسى وقولوا : جَبُن عتبة ، وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم . . . . .

يا قوم أطيعونى فانكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمى وما أخذ من العير وقد تحملت ذلك . يا معشر قريش ! أنشدكم الله فى هذه الوجوه التى تضىء ضياء المصابيح أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التى كأنها عيون الحيات

« يسكت عتبة ويلغط القوم لغطاً شديداً »

رجل — نعما يقول أبو الوليد !

آخر — هو والله الرأى

آخر — عتبة سيد الناس فأطيعوه

عتبة (لحكيم) — انطلق الى ابن الحنظلية

« يذهب حكيم »

حكيم (لأبى جهل) — إن عتبة أرسلنى اليك لترجع بالناس ، وهو يحمل دم حليفه ابن الحضرمى

أبو جهل — أهو يقول هذا ؟ والله لو قاله غيره لأعضضته إنتفخ والله سحره ! كلا والله ، لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد

« يرسل أبو جهل إلى عامر بن الحضرمى »

أبو جهل (لعامر) — هذا حليفك ، عتبة بن ربيعة يريد أن يرجع بالناس ، ويخذلهم عن القتال . وقد تحمل دية أخيك من ماله يزعم أنك قابلها ، ألا تستحى أن تقبل الدية من مال عتبة ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فاذكر مقتل أخيك

« عامر يتكشف ويحثو عليه التراب »

عامر (صائحاً) — واعمراه ... واعمراه !

« يهيج الناس ويتحمسون »

حكيم (لعتبة) — لقد أثارها

عتبة — دعه فسيكون شؤماً وبلاء على قومه .

(المنظر الثالث عشر)

« اشتعلت الحرب وقتل المسلمون عتبة وشيبة والوليد ورجع سراقة وكان قد أجارهم من كنانة »

أبو جهل — يا معشر الناس ! لا يهمنكم خذلان سراقة فانه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فانهم قد عجلوا ، واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالحبال . . .

يا معشر قريش ! لا تقتلوهم . خذوهم أخذ اليد

« يخرج رسول الله من العريش فيحض الناس على القتال »

— أما والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة

« عمير بن الحمام يأكل تمرات فى يده »

عمير — بخ بخ ... ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ فان حييت حتى آكل تمراتى

« يلقى التمرات ويتقدم »

عمير (هاجاً)

ركضاً إلى الله بغير زاد
إلا التقى وعمـــل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد
وكل زاد عرضـة النفاد
غير التقى والبر والرشـاد

« تزداد الحرب اضطراما »

(المنظر الرابع عشر)

« قريش تنهزم ، ابن مسعود يفتش بين القتلى من رجل »

عبد الله — هل أخزاك الله ياعدو الله ؟

« يضع رجله على عنق أبى جهل وهو على آخر رمق »

(المنظر الخامس عشر)

أبو جهل — وبم أخزانى ؟ أعار على رجل قتلتموه ؟ اخبرنى لمن كانت الدبرة لنا أو علينا ؟

عبد الله — بل لله ولرسوله !

« فى الحرم وقد جلس أبو سفيان وأبو لهب فى ناس من قريش ينتظرون الأخبار ... »

أبو لهب ... هذا ابن عبد عمرو ! ماوراءك يا ابن عبد عمرو؟

ابن عبد عمرو — فنيت قريش ! قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأمية بن خلف ... ... لقد ظهر الاسلام ! فسيظل غالباً الى يوم القيامة ... !.. وذلت الأصنام فلا تعز إلى يوم القيامة... ..!

على الطنطاوى

البريد الأدبي

آنساتنا والثقافة الأجنبية

ثار أخيراً فى مجتمعنا الأدبى حوار طريف ، بين الكاتب الفكه الأستاذ فكرى أباظه وبين بعض آنساتنا المثقفات ؛ فالأستاذ ينعى على أولئك الآنسات المثقفات أنهن برغم ثقافتهن الواسعة فى الفرنسية والأدب الفرنسى ، لم يتزودن بأى قسط من العربية والأدب العربى ، وأنهن يكدن يعجزن عن أن يعبرن عن آرائهن بالعربيـة ، وأنهن يبالغن فى الانصراف إلى الفرنسية وإلى الكتابة بها . وقد حاولت إحدى الآنسات اللائى يوجه إليهن هذا اللوم ، وهى من أعضاء الاتحاد النسائى المصرى أن تدافع عن موقفهن ، فضربت مثلاً باحدى زميلاتها وقالت إنها تعلمت فى باريس ، ولم تعرف مصر إلا فتاة ناضجة فلا جناح عليها إذن ، والتبعة فى ذلك ـ إن كان ثمة تبعة ـ تقع على أسرتها ، ثم قالت : إن أولئك الآنسات يكتبن بالفرنسية لكى يسمعن صوت المرأة المصرية إلى الخارج ، وأن العربية لا تقرأ فى باريس ولا لندن ولا برلين

ونحن نؤيد الأستاذ فكرى أباظه فى ملاحظته كل التأييد فأولئك الآنسات اللائى يعتصمن بالثقافة الأجنبية يذهبن فى هذا الاعتصام الى حد الاغراق ، وإلى حد الانفصال عن البيئة المصرية والمجتمع المصرى ؛ وفى رأينا أن مثل هذه الثقافة الأجنبية تفقد كثيراً من قيمتها لأنها لم تقرن بقسط من الثقافة العربيـة السليمة ؛ ولسنا ندرى ما المانع فى أن تمثل الثقافتان معاً ، ذلك أن من المحزن أن نرى أولئك الآنسات يكدن يعجزن عن الافصاح عن أفكارهن بالعربية العادية فضلا عن الكتابة بها ، وليس صحيحاً أن قضية المرأة المصرية تخدم فقط عن طريق الكتابة بالفرنسية ، لأن الفرنسية تقرأ فى برلين ولندن ، فالمرأة المصرية بحاجة إلى التحدث إلى أبناء جنسها أولا وقبل كل شىء ، وقضية المرأة المصرية (إن كان ثمة لها قضية) يجب أن تبث فى مصر أولا وباللغة العربية قبل كل شىء ؛ ولسنا نعرف فى الواقع مثلا لهذا النوع الغريب من الثقافة فى أى بلد متمدين ؛ فى الغرب لا يمكن أن يحول أى عذر دون تذوق الثقافة القومية ، وإذا نهل الراغبون من أية ثقافة أجنبية ، فهى دائما إضافة فقط إلى جانب الثقافة القومية ؛ ولم نسمع بأن مستشرقا ممن يفنون أعمارهم فى دراسة اللغات والآداب الشرقية قد أعجزه تعلم العربية أو الفارسية عن الكتابة بلغته الأصلية ؛ كذلك يجب ألا يغيب عن ذهن أولئك الآنسات أن هذا الاعتصام المحزن بثقافة أجنبية يجعلهن فى شبه عزلة من المجتمع المصرى الصحيح ، ويحرم القضية التى يدافعن عنها من كثير من العطف القومى وهو ألزم لها من أى عطف أجنبى ، وان تلك الصلة الروحية التى أنشأتها الطبيعة بين المرء ولغته الأصيلة وماضى أمته وتراثها العقلى هو خير دعامة فى صرح الوطنية الصحيحة والعزة القومية الأثيلة

تاريخ الأديب

كتب الكاتب الفرنسى الكبير بيير بنوا عضو الأكاديمية الفرنسية كلمة يصور فيها تاريخ « الأديب » . وفى رأيه أن الأديب لم ينشأ محترفاً بطبيعته ، ولكنه قطع زهاء عشرين قرناً قبل أن ينتهى إلى هذه النتيجة ؛ فمنذ العصور القـديمة ، أعنى منذ فرجيل وهوراس ، وفى خلال العصور الوسطى والعصر الحديث نجد الأديب « هاويا » ينساق إلى ميدان الأدب بفطرته وذوقه ، وتحقيقاً لهواه وشغفه ؛ وقلما نجد أديباً أو مفكراً يعمل ليعيش من قلمه ؛ بل كان كل من هنالك من كتاب وشعراء ومؤرخين يعيشون فى كنف الأمراء والكبراء ويلوذون جميعاً برعاية ملك أو عظيم من العظماء ، يتخـذون مكانهم فى بطانته : ويعملون له كمستشارين أو مدبرين ، وإلا عاشوا على مديحه وملقه ، أو يتخذهم معلمين لأولاده ، أو بوقاً لوحيه ؛ وقلما نجد كتاباً كتب فى هذه العصور إلا وقد صدر باهداء وتحية رقيقة لملك أو عظيم ، وليس معنى ذلك أن الأديب لم يكن يكسب من قلمه ، فقد كان ثمة أدباء يكسبون من ثمرات قرائحهم وأقلامهم ، ولكنه كسب ضئيل جدا ، لم يكن ليصلح لهم قوتاً أو حياة ، ولنذكر على سبيل التمثيل أن راسين قد باع مخطوطه «أندروماك»

عما يساوى ألفا ومائتى فرنك . ويستخلص مسيو بيير بنوا من ذلك أن الأديب المحترف لم يخلق مختارا فى المجتمع ، ولكنه بدأ « هاوياً » ، لا تمنعه عبقريته من أن يكون فقط من ذوى الهوى والشغف ، وهذا الهوى مازال يؤثر أكبر تأثير فى تكوينه وفى مصايره

نقول ، وهذه الصورة التى يقدمها بيير بنوا عن تاريخ الأديب فى بلاد الغرب ، ليست بعيدة عن الصورة التى يمكن أن نقدمها عن تاريخ الأديب فى المشرق ؛ فقد نشأ الأديب فيه أيضاً هاوياً يعيش فى كنف الأمراء والعظماء ، ولم يتقدم فى سبيل الكسب إلا بعد عصور ؛ بيد أن الكسب الأدبى لم يكن أساسياً فى عبقريته أو إنتاجه ، ولم يكن قوام عيشه وحياته

ترجمة جالسورذى

منذ نحو عام ونصف توفى جون جالسورذى عميد الكتاب القصصيين الانكليز ورئيس نادى القلم الانجليزى ؛ ومن ذلك الحين يعنى جماعة من أصدقائه بوضع كتاب جامع عن حياته ، وقد صدر هذا الكتاب أخيراً بعنوان « حياة جون جالسورذى ورسائله » Life and letters of J. Galsworthiy بقلم الكاتب والنقادة المعروف مستر هـ . ماروت ، وهو مجلد ضخم فى نحو تسعمائة صفحة ، ولكنه ليس بالكثير على رجل كان فى طليعة القادة والزعماء فى الأدب الانكليزى المعاصر . وفى حياة جالسورذى ما يستوقف النظر ، فهو لم ينشأ كاتباً ولا قصصياً ، ولم ينزل ميدان الكتابة إلا بعد أن طوى مرحلة الشباب ؛ وقد هام فى صباه بالرياضة والرحلات ، وكان أول عهده بهوى الكتابة رحلة قام بها فى البحار الجنوبية ؛ وشاءت الأقدار أن يلتقى على ظهر السفينة التى أقلته ببحار فتى بولونى يدعى يوسف كونراد ، وقد كان هذا البحار الفتى أديباً ، وشاءت الأقدار غير بعيد أن يغدو كاتباً شهيراً ، وأن يكتب بالانجليزية قصصاً رائعة ؛ وكانت صحبة تاريخية بين الكاتبين العظيمين ، وكان لقاء له أكبر الأثر فى تطور حياة جالسورذى

وثمة ظرف آخر كان له فى حياة جالسورذى وفى تكوينه الأدبى أكبر تأثير ، ذلك هو حبه لزوجه ، وهو حب كان يشوبه الحزن والألم لما كانت تلقاه هذه الزوجة العزيزة من صنوف الأوصاب المبرحة ، وقد أذكى هذا الظرف المؤلم عاطفة الحب عند جالسورذى ، وأذكى مشاعره الانسانية ، فغدا نصير المكلومين والبؤساء ، وأضحى القلم فى يده أداة للتعبير عن هذا الحب الانسانى ؛ وهكذا أضحى جالسورذى مصلحاً وزعيما إنسانياً . ويقال إنه كان ينفق نحو نصف دخله لغوث المنكوبين والبؤساء

هذه الظروف والمواقف المؤثرة فى حياة جالسورذى يعرضها مستر ماروت عرضاً قوياً بديعاً ، ويورد خلال حديثه للكاتب عشرات الرسائل التى لم تنشر من قبل

جائزة فمينا لسنة ١٩٣٥

منحت جائزة « فمينا » الأدبية الشهيرة عن هذا العام لسيدة شاعرة ، هى الكاتبة والشاعرة الفرنسية كاود سياف أو الكونتة دلافوريه ديفون ، وقد نالت السيدة هذه الجائزة بكتابها المسمى « البَرَكة » Bènèdiction ، وهو قصة شعرية لقصر قديم ترويها سيدة قارئة فى زاوية سحيقة من زوايا القصر ، وتذكر خلالها طائفة مدهشة من العجائب والخوارق ، وقد وصف الكتاب بأنه قطعة من الأدب الساحر ، وأنه صورة قوية للأدب النسوى ، يفيض رقة ورشاقة ، وهو مكتوب بالشعر الريفى القوى المؤثر ، وقد صرحت مؤلفته مدام سياف أنها ما كانت تنتظر قط أن يظفر كتابها بمثل تلك الجائزة الخطيرة ، لأنها تعتقد أن جمهور القراء قد انصرف منذ بعيد عن قراءة الشعر ، أما الآن فهى تعتقد أن الجمهور ما زال يحتفظ بذوقه الشعرى ، وأنه فى وسع المرء أن يكتب الشعر وأن يقدمه إليه

فى أدب الشباب

جرت مجلة « آلاباج » الفرنسية على أن تخصص فى ديسمبر من كل عام جائزة أدبية قدرها ألف فرنك (نحو خمسة عشر جنيها) تمنح عن أحسن قصة صغيرة يكتبها شاب دون الحادية والعشرين . وقد منحت هذه الجائزة هذا العام لطالب طب يدعى « آلان ليجيه » عن قصة كتبها وقدمها بعنوان « الخلاصة » ، وتشرف على تخصيص هذه الجائزة لجنة أدبية مكونة من عدة من أعلام الكتاب مثل جورج دوهامل ، وفرانسوا مورياك ، وبونار . وقد صرح مسيو دوهامل للصحفيين أن القصة التى منحت الجائزة هذا العام هى أحسن قصة للشباب قرأوها منذ أربعة أعوام . والظاهر أن سيكون لهذا الطالب القصصى مستقبل زاهر فى عالم الأدب

وزارة المعارف العمومية

إدارة السجلات والامتحانات

اعلان

بشأن مواعيد انعقاد الدور الأول للامتحانات العامة لسنة ١٩٣٦

أولا

الامتحـــــان	بدء الامتحان التحريرى	آخر ميعاد لقبول الطلبات	الجهة التى تشترى منها الاستمارة	ملاحظـــــات
شهادة الدراســة الثانوية القسم الثانى على النظام العام	١٣ يونية سنة ٣٦ الساعة ٧٫٣٠ صباحاً	أول فبراير سنة ١٩٣٦	المـــدارس الثـــانوية الأميرية	لا يتقدم إليه إلا من مضى على نجاحه فى القسم الأول عامان على الأقل وأتم الدراسة المقررة وسيكون الامتحان وفقاً لنظام العام الماضى
القسم الثانى على نظام تجهيزية دار العلوم للطلبة المتقدمين من الخارج	«	«	مدرســـة دار العلوم بالمنـــيرة	يمتحن الطلبة بمدرسة دار العلوم بالمنيرة ويتقدم له كل من أتم الدراسة المقررة ومضى على نجاحه فى امتحان القسم الأول لتجهيزية دار العلوم عامان على الأقل ، ويشترط حفظهم القرآن الكريم بتمامه — واللغة الانجليزية الاضافية اختيارية
شهادة الـكفاءة للتعليم الأولى للمعلمين	١٣ يونية سنة ١٩٣٦ الساعة ٧٫٣٠ صباحاً	أول فبراير سنة ١٩٣٦	مـدارس المعلمين الأوليــة	يتقدم اليه طلبة الفرقة النهائية بمدارس المعلمين الأولية وغير مسموح بالتقدم إليه من الخارج
شهادة الـكفاءة للتعليم الأولى للمعلمات	٦ يونية سنة ١٩٣٦ الساعة ٧٫٣٠ صباحاً	«	بمـدارس المعلمـات الأوليــة	يتقـدم إليه طالبات الفرق النهائية بمدارس المعلمات الأولية وغير مسموح بالتقدم إليه من الخارج
الامتحان النهائى للمعلمات الراقية	«	«	«	يتقدم إليــه طالبات الفرق النهائية بمدرسة المعلمات الأولية الراقية وغير مسموح بالتقدم إليه من الخارج

الامتحـــــان	بدء الامتحان التحريرى	آخر ميعاد لقبول الطلبات	الجهة التى تشترى منها الاستمارة	ملاحظـــــات
امتحان الفنون الطرزية	٦ يونية سنة ١٩٣٦ الساعة ٧٫٣٠ صباحاً	أول فبراير سنة ١٩٣٦	بمدارس المعلمات الأوليـة	يتقـدم إليه طالبات الفرق النهائية بأقسام الفنون الطرزية وغير مسموح بالتقدم إليه من الخارج
امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية	«	«	المـدارس الابتدائية الأمـيرية	يتقدم إليه كل من أتم الدراسة المقررة وفاقاً للمنهاج المقرر بالمدارس الابتدائية الأميرية وسيكون الامتحان فى مقرر السنوات الأربع فى اللغتين العربية والأوروبية والحساب وفى مقرر السنة الرابعة فقط فى المعلومات العامة والرسم

ويراعى فى امتحانات شهادة الدراسة الثانوية وكفاءة المعلمين والمعلمات الاطلاع على النشرات الخاصة بمواد الامتحان المبلغة هذا العام للمدارس الأميرية وعلى المناهج المتبعة

ثانيـاً — يجب على الطالب أن يحرر بخط يده استمارة طلب الدخول والبطاقات الملصقة بها وأن يرفق بها ما يأتى :

(ا) رسم الدخول فى الامتحانات وقدره جنيهان مصريان حوالة بريدية ولا تقبل الشيكات ولا أوراق البنك نوت

(ب) الاستمارة رقم ١ غير المدموغة (البيضاء) بعد استيفاء جميع بياناتها

(ج) ثلاث صور شمسية حديثة واضحة جيدة الصنع ، تلصق احداها بالصمغ فى المكان المعين لها بالاستمارة المدموغة ، وتلصق الثانية ببطاقة تحقيق الشخصية ، وتلصق الثالثة بالاستمارة غير المدموغة فى المحل المخصص فيها ، وذلك بعد كتابة الاسم فى أسفل الاستمارة

(د) طلبة المعادلة فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية يطلبون الاستمارة الخاصة بهم (استمارة رقم ١ معادلة) من المدرسة الابراهيمية الثانوية

ثالثـاً — من يتقدم إلى الامتحان من غير طلبة الفرقة النهائية أولم يكن مستوفياً جميع شرائط الامتحان يرفض طلبه

رابعاً — يجب على الطلبة قبل كتابة استمارة طلب الدخول فى الامتحان وملحقاتها الاطلاع على الاعلان التفصيلى المدرج بالجريدة الرسمية بالعدد ١١٧ بتاريخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥ والموجودة نسخة منـه بجميع المدارس الأميرية والمدارس الحرة والمعلن بادارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف بشارع الفلكى

خامساً — مراكز اللجان وجداول الامتحان وشرائط التقدم والتنبيهات والتعليمات كلها مبينة باعلانات الامتحانات المذكورة

بهذا العدد تنتهى السنة الثالثة للرسالة . فاجتهد ألا تفوتك فرصة الاشتراك فى يناير

٥٠٦٦

« اقرأ اعلان الاشتراك المجانى فى صفحة ٢١٠٦ »

الـكتب

الجزء الثاني من شرح الايضاح

تأليف الاستاذ عبد المتعال الصعيدي

أتمت المكتبة المحمودية التجارية طبع الجزء الثانى من شرح الايضاح فى علوم البلاغة للأستاذ عبد المتعال الصعيدى المدرس بكلية اللغة العربية ، وقد نهج فيه نهجه فى الجزء الأول من العناية باللباب فى هذه العلوم دون القشور التى يعنى بها فيها ، وشرح شواهده ، ونسبتها الى قائليها ، وبيان ما دخل هذه العلوم من الأخطاء التى وقعت فيها ، ومن ذلك مسألة الوصل والفصل فقد جرى عبد القاهر على أنهما إنما يكونان فى الجمل دون المفردات ، وفى الواو دون غيرها من حروف العطف ، وجرى المتأخرون على أنهما يكونان فى الجمل وفى المفردات ، وفى الواو وغيرها من الحروف العاطفة ، فرد الأستاذ الشارح الحق فى ذاك الى نصابه ، وذكر أن العطف فى المفردات يجرى وراء اشتراكها فى الحكم ولو لم يكن هناك بينها مناسبة من المناسبات المعتبرة فى مسألة الوصل والفصل ، كما جمع بعض الشعراء بين الضب والنون فى وصف واد جمع بينهما فقال

زُرْ وادي القصر نعم القصر والوادى
فى منزل حاضر إن شئت أو بادى
ترقَى به السُّفْنُ والظُّلمانُ حاضرةٌ
والضَّبُّ والنُّونُ والملاح والحادى

ولو جرت المفردات فى ذلك مجرى الجمل لما صح لهذا الشاعر عطف النون على الضب ، لأنهم يقولون فى الجمل إن الجمع بين غير المتناسبين فيها كالجمع بين الضب والنون ؛ وقد يحسن مراعاة تلك المناسبات بين المفردات فى الخيال الشعرى ، لأن الأمر فيه يجرى على الخيال لا على الحقيقة . وقد اجتمع نصيب والـكميت وذو الرمة فأنشد الكميت :

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة وإن تكامل فيها الدل والشنب

فعقد نصيب واحدة ؛ فقال له الـكميت ماذا تحصى ؟ فقال خطأك ، فانك تباعدت فى القول ! أين الدل من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة

لَمياءُ فى شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفى اللثات وفى أنيابها بَرَدُ

فالدل يذكر مع الغنج وما أشبهه ، والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه

وكذلك عيب على أبى نواس قوله :

وقد حلفت يميناً مَبرُورةً لا تكذبْ
برب زمزم والحو ض والصفا والمحصب

فان ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما جرى مجراها

وانما يحسن من ذلك مثل قوله تعالى (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) لما بين ذلك من تقابل التضاد ، وكذلك قول البحترى فى رثاء المتوكل :

ولم أنسَ وحش القصر إذ رِيع سِربُهُ
وإذ ذُعِرتْ أطلاؤه وجآذِرُهْ
تحمل عنه ساكنوه فجاءة
فعادت سواء دوره ومقابره

ولكن ذلك كله يرجع إلى محسنات بديعية ، ولا يرجع إلى ما يجب فى اعتبار الوصل والفصل بين الجمل

وقد جرى الأستاذ الشارح على هذا المنوال فى تحقيق أمثال هذه المسألة ، فجزاه الله خيرا ، ومنح شرحه ذيوعاً ما ؟

« ص »

فى يوم ٥ يناير سنة ١٩٣٦ بعزبة الطيارة تبع الوزيرية . وفى يوم ٩ منه بسوق بندر كفر الشيخ كطلب مصطفى ابراهيم من كفر الشيخ سيباع محلة بقر ملك أحمد ابراهيم محمود تنفيذا للحكم نمرة ٦٥٦١ سنة ١٩٣٥ كفر الشيخ فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم ٨ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا بناحية أولاد سراج مركز ابنوب المجاورة لناحية الوسطى سيباع علناً ٨ قراريط قصب خلفه ملك وهبه دقدوق نفاذا للحكم نمرة ٥٤٧٨ سنة ١٩٣٥ جزئى أسيوط وفاء لمبلغ ٣٣٤ قرش صاغ بخلاف المصاريف كطلب على ابراهيم على من الوسطى فعلى راغب الشراء الحضور

فهرس الموضوعات للمجلد الثانى من السنة الثالثة

فهرس الكتاب للمجلد الثانى من السنة الثالثة

4 me Année, No. 131.

Lundi 6-1-1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ـــــــــــــــــــــــــــــ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٣١ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ شوال سنة ١٣٥٤ — ٦ ينـاير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

الرسالة

فى عامها الرابع

تُحَيِّي الرسالة عامها الرابع بوجه مشرق بالرضى ، وثغر مُفْتَرٍّ عن الأمل ، ولسان رطيب بالحمد ؛ وتسأل الله سبحانه أن يزيدها نَفَسا فى الأجل ، وثباتا فى العمل ، وإخلاصا فى النية ؛ ثم تقف على رأس هذه المرحلة الجديدة وقفة المستجم الذاكر ، تستمد القوة من الايمان ، وتستروح النشاط من الصبر ، وتستخرج الصواب من الخطأ ، ثم تبادل أصدقاءها الخلص ولاء بولاء ووفاء بوفاء ومحية بتحية

تعالوا يارفاق الروح وإخوان الفكرة نتناقل شجون الحديث فى هذه البرهة التى ينسدل فيها ستار ويرتفع ستار ، وينتهى من رواية الحياة فصل ويبتدئُ فصل . ماذا سجل العام المنصرم فى صفحته المطوية عن حياتنا العقلية ؟ هل استقر لنا أدب خاص ؟ هل صدر عنا انتاج مستقل ؟ هل ظهر فينا زعيم موهوب ؟ هل غلبت علينا ثقافة واحدة ؟ هل تسايرت أفكارنا الى غاية معينة ؟ هـل اتصل أدبنا بالأدب العالمى المشترك ؟ هـل اتسع نطاق الأدب العربى فشمل نواحى الفن ؟ تلك أسئلة يتشقق فى أجوبتها الرأى ، ثم لا يجتمع لك منها مايوضح مبهما ويحدد فكرة . وحسبك

من ضعف الشيء أن تتعارض الأقوال في وجوده

مما لا ريب فيه أن هناك أدباً تميز بفنه عن كل عصر، وانتاجا استقل بإصالته عن كل نقل، وأسلوبا انفرد بخصائصه عن كل مذهب، واتجاها تنزه بمراميه عن كل عبث؛ ولكن هنالك أيضا تنوعا في مصادر الثقافة يباعد وجوه الرأي، وضلالا في فهم الأدب يزيف حقائق الفن، وإمعانا في استيحاء الغرب يفسد روح القومية. فأحمد أمين، والرافعي، وطه حسين، والعقاد، والمازني، وهيكل [1] لا تكاد تجد لهم في الأدب الموروث أشباها في سلامة المنطق وعمق التفكير وصدق الأداء وأصالة الانتاج. وهم على اختلاف ثقافتهم متفقون على بناء الجديد على أساس القديم، وإذكاء الفكر الشرقي بالفكر الغربي، وتلقيح الروحية العربية بالمادية الأوربية، وإيثار الأسلوب البليغ المشرق في حدود الفن البارع السليم؛ وقد ظهر اتحاد وجهتهم جليا فيما تشروه هذا العام من مقالات ومحاضرات وكتب، وسينتهون متى استقرت أمور البلد، واستقلت إرادة الشعب، وهدأت ثائرة النفوس، إلى أدب واضح المعالم، مرسوم الحدود، تحرك جسمه روح، وتجمع أجزاءه وحدة، ويوجه أهواءه غرض

* * *

وعلى هذه الخطة المثلى سارت الرسالة ثلاث سنين كاملة، قطعت فيها ولله الحمد مراحل مطموسة وعرة، ولولا عناية الله لأبدعت المطي وحار الدليل

لقد كان على الرسالة أن تجاهد خصوماً ثلاثة جمعهم عليها دفاع الطفيلي عن وجوده: زهادة الشباب في القراءة وبخاصة ما كان جدّياً منها؛ وتلك العلة التي جرها عليهم سوء التعليم وفساد العيش هي سبب ما نشكوه من بطء الثقافة وضعف الصحافة وقلة الانتاج. وطغيان الأدب اللاهي على الأذواق الناشئة، فأصاب الأذهان بالكسل العقلي حتى برمت بالدرس وضاقت بالتفكير وعزفت عن الجد. ثم نفور طائفة من الادباء لأسباب مرضية من هذه اللغة التي تقرأ، ومن هذا الأدب الذي تذوق؛ فهم يجلبون الأدب الأوربي بمعانيه ومراميه ووحيه، ثم يلبسونه طربوشاً أو عمامة ويقولون له تكلم، فيتكلم على الرضى أو على الكره، ولكنك لا تسمع بالطبع إلا عربية كعربية الرومي في البار، أو الايطالي في المتجر!

قالت الرسالة لهؤلاء: ما دمتم تكتبون بالعربية فلابد من فنها وأدبها؛ وما دمتم تعيشون في الشرق فلابد من الهامه وطابعه. أما أن تحاولوا طمس حدود الأرض، ونسخ قوانين الطبيعة، وقطع سلسلة الزمن، فذلك مجهود لا يضمه الناس إلا في قرارة الحمق

فقالوا إننا ننشر ثقافة العصور المظلمة، ونجدد أساليب البيان القديم! يريدون بالعصور المظلمة عصر الرشيد وابنه المأمون في آسيا، وعصر الناصر وابنه الحكم في أوروبا، وعصر العزيز بالله وابنه الحاكم في أفريقيا! وهي العصور الثلاثة التي جلت عن الأرض دياجير القرون فكشفت الأفق للانسان، وهيأت العقل للعلم، وراضت البربر على الحضارة! وهم في ذلك أيضاً يقلدون الكتاب الأوربيين في نعتهم عصور الجرمان بالظلام، كأنما ظنوا قبائل البربر من جزيرة العرب!!

ثم يريدون بأساليب البيان القديم تلك الأساليب التي تجري على قواعد الفن فلا يشوهها لحن ولا تتعاورها ركاكة. قطعوا أنفسهم عن الموارد الروحية لهذه اللغة فصاغوها من حروف الهجاء، لا من الاعصاب والدماء، ثم آذوا فطرة الانسان فجعلوا قوة الأسلوب عيبا، وجمال الصياغة نقيصة

ليس في أسلوب الرسالة ما يشبه القديم إلا في الصحة. إنما هو اختيار اللفظ الجميل القوي للمعنى الجديد القوي ليس غير. أما اطراد النسق، وحلاوة الجرْس، ونبض الحياة في الكلمة، وإشراق الدلالة في اللفظ، وامتزاج الكاتب بالجملة، وبراءة الأسلوب من اللغو، فذلك هو الفن الذي يعيش ما عاش الناس، ويُعجب ما سلمت الفطرة

* * *

فالرسالة بين هؤلاء الخصوم الثلاثة إنما تنحت في الصخر طريقها الطويل! تسير ببطء ولكنها لا تقف، وتعالج برفق ولكنها لا تهن، وتصطدم بالاحداث ولكنها لا تحيد

على ذلك تجدد لأصدقائها وقرائها العهد والعزم معتمدة على فضل الله، مطمئنة إلى عطف الأمة، متكئة على عون الشباب، معتدة بإيمان القلب، معولة على اتقان العمل؛ وفي بعض ذلك الضمان الأوقى والسند الأقوى والمرفأ الأمين

احمد حسن الزيات

(١) الترتيب على حروف الهجاء

اجتلاء العيد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء يومُ العيد ؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحدَه لا يستمرُّ أكثر من يوم

زمن قصير ظريفٌ ضاحك ، تفرضُه الأديان على الناس ، ليكون لهم بين الحينِ والحينِ يومٌ طبيعيٌّ في هذه الحياة التي انتقلت عن طبيعتها

يومُ السلام ، والبِشر ، والضحك ، والوفاء ، والاخاء ، وقول الانسان للانسان : وأنتم بخير

يومُ الثيابِ الجديدة على الكل إشعاراً لهم بأن الوجه الانسانيَّ جديدٌ في هذا اليوم

يومُ الزينة التي لا يراد منها إلا إظهارُ أثرها على النفس ليكون الناس جميعا في يوم حب

يومُ العيد ؛ يوم تقديم الحَلوى إلى كل فم لتحلوَ الكلمات فيه . . . .

يوم تعمُّ فيه الناسَ ألفاظُ الدعاء والتهنئة مرتفعةً بقوةٍ إلٓهية فوق منازعات الحياة

ذلك اليومُ الذي ينظر فيه الانسانُ إلى نفسه نظرةً تلمحُ السعادة ، وإلى أهله نظرةً تبصر الاعزاز ، وإلى داره نظرةً تدرك الجمال ، وإلى الناس نظرة ترى الصداقة

ومن كل هذه النظرات تستوى له النظرة الجميلة إلى الحياة والعالم ؛ فتبتهج نفسُه بالعالم والحياة

وما أسماها نظرة تكشف للانسان أن الكلَّ جمالُه في الكل !

وخرجتُ أجتلي العيدَ في مظهره الحقيقيّ على هؤلاء الأطفال السعداء

على هذه الوجوه النضرة التي كبرتْ فيها ابتسامات الرضاع فصارت ضحكات

وهذه العيون الحالمة التي إذا بكت بكت بدموع لا ثقل لها ؛

وهذه الأفواه الصغيرة التي تنطق بأصوات لا تزال فيها نبرات الحنان من تقليد لغة الأم ؛

وهذه الأجسام الغضة القريبة العهد بالضمات واللثمات فلا يزال حولها جوُّ القلب

على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياساً للزمن إلا بالسرور

وكلٌّ منهم ملكٌ في مملكة ؛ وظرفهم هو أمرهم الملوكي

هؤلاء المجتمعين في ثيابهم الجديدة المصبَّغة اجتماعَ قوسِ قُزَح في ألوانه

ثيابٌ عملت فيها المصانع والقلوب ، فلا يتم جمالها إلا بأن يراها الأبُ والأمُّ على أطفالها

ثيابٌ جديدة يلبسونها فيكونون هم أنفسهم ثوباً جديداً على الدنيا

هؤلاء السَّحرةُ الصغار الذين يخرجون لأنفسهم معنى الكنز الثمين من قرشين . . .

ويسحرون العيد فاذا هو يومٌ صغير مثلهم جاء يدعوهم إلى اللَّعِب

وينتبهون في هذا اليوم مع الفجر ، فيبقى الفجرُ على قلوبهم إلى غروب الشمس

ويُلقُون أنفسهم على العالَم المنظور فيبنون كلَّ شيء على أحد المعنيين الثابتين في نفس الطفل : الحبّ الخالص ، واللهو الخالص

ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة ، فيكون هذا بعينه هو قربهم من حقيقتها السعيدة

هؤلاء الأطفال الذين هم السهولة قبل أن تتعقد

والذين يرون العالم في أول ما ينمو الخيالُ ويتجاوزُ ويمتدّ

يفتّشون الأقدارَ من ظاهرها ؛ ولا يَستَبطِنون كيلا يتألموا بلا طائل

ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها ، ولا يأخذون من أنفسهم للأشياء كيلا يوجدوا لها الهمّ

قانعون ، يكتفون بالثمرة ؛ ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها

ويعرفون كُنه الحقيقة ، وهي أن العِبرة برُوح النعمة لا بمقدارها . . . .

فيجدون من الفرح فى تغيير ثوبٍ للجسم ، أكثر مما يجده القائدُ الفاتحُ فى تغيير ثوبَ للمملكة

هؤلاء الحكماءُ الذين يشبه كلٌّ منهم آدمَ أولَ مجيئه الى الدنيا

حين لم تكن بين الأرض والسماء خليقةٌ ثالثة معقدة من صنع الانسان المتحضِّر

حكمتهم العليا : أن الفكر السامىَ هو جعلُ السرور فكرا وإظهارُه فى العمل

وشعرهم البديعُ : أن الجمالَ والحبَّ ليسا فى شىء إلا فى تجميل النفس وإظهارها عاشقة للفرح

هؤلاء الفلاسفةُ الذين تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية ، وهى أن الأشياء الكثيرة لا تكثر فى النفس المطمئنة

وبذلك تعيش النفسُ هادئةً مستريحةً كأن ليس فى الدنيا إلا أشياؤها الميسرة

أما النفوسُ المضطربةُ بأطماعها وشهواتها فهى التى تبتلى بهموم الكثرة الخيالية

ومثَلُها فى الهمِّ مَثَلُ طفيلىٍّ مفقَّرٍ يحزن لأنه لا يأكل فى بطنين ....

وإذا لم تكثر الأشياءُ الكثيرةُ فى النفس ، كثرت السعادة ولو من قلة

فالطفلُ يقلِّب عينيه فى نساءٍ كثيرات ، ولكن أمَّه هى أجلهن وإن كانت شوهاء

فأمه وحدها هى أمُّ قلبه ، ثم لا معنى للكثرة فى هذا القلب

هذا هو السرُّ ؛ خذوه أيها الحكماءُ عن الطفل الصغير !

وتأملت الأطفال وأثر العيد على نفوسهم التى وسعت من البشاشة فوق ملئها

فاذا لسانُ حالهم يقول للكبار : أيتها البهائم اخلعى أرسانك ولو يوماً . . . .

أيها الناسُ انطلقوا فى الدنيا انطلاقَ الأطفال يُوجدون حقيقتهم البريئة الضاحكة

لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلاقَ الوحش يُوجد حقيقتَه المفترسة

أحرارٌ حرية نشاط الكون ينبعث كالفوضى ولكن فى أدقِّ النواميس

يثيرون السخط بالضجيج والحركة ، فيكونون مع الناس على خلاف لأنهم على وفاق مع الطبيعة

وتحتدم بينهم المعارك ولكن لا تتحطم فيها إلا اللعب ....

أما الكبارُ فيصنعون المدفعَ الضخمَ من الحديد للجسم اللَّيِّن من العظم

أيتها البهائمُ اخلعى أرسانك ولو يوماً . . . .

لا يفرح أطفال الدار كفرحهم بطفل يُولد ؛ فهم يستقبلونه كأنه محتاجٌ إلى عقولهم الصغيرة

ويملؤهم الشعور بالفرح الحقيقى الكامن فى سر الخلق لقربهم من هذا السر

وكذلك تحمل السنة ثم تلد للأطفال يوم العيد ؛ فيستقبلونه كأنه محتاج إلى لهوهم الطبيعى

ويملؤهم الشعور بالفرح الحقيقى الكامن فى سر العالم ، لقربهم من هذا السر

فيا أسفَا علينا نحن الكبار ! ما أبعدَنا عن سرِّ الخلق بآثام العمر !

وما أبعدنا عن سِرِّ العالم بهذه الشهوات الكافرة التى لا تؤمن إلا بالمادة !

يا أسفَا علينا نحن الكبار ! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح !

تكاد آثامنا والله تجعل لنا فى كل فرحةٍ خجلة . . . .

أيتها الرياض المنوَّرةُ بأزهارها !

أيتها الطيور المغرِّدة بألحانها !

أيتها الأشجار المصفِّقة بأغصانها !

أيتها النجومُ المتلألئة بالنور الدائم !

أنتِ شتى ؛ ولكنك جميعاً فى هؤلاء الأطفال يوم العيد !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

إلى م . ح . ط . فى بغداد . لو أعان الله على وضع الكتاب الذى سألتم عنه لجاء الكتاب ، وهو بعد فى النية ولكن الأمر كما قال الشاعر :

فأين الشباب وأين الزمان ؟

والفصل الذى أشرتم إليه هو فصل منه ؛ وقد نتبع هذه الطريقة فنجعل الكتاب فصولا ننشرها فى « الرسالة » إن شاء الله وسلامه عليكم

الرافعى

الرمز فى الأدب الصوفى

للأستاذ أحمد أمين

تدور العقيدة الصوفية على فكرة « وحدة الوجود » ، فليس العالم والله شيئين منفصلين ، وليس الله فى السماء وحدها ولا فى الأرض وحدها ، بل هو فى كل شىء ، بل هو كل شىء ؛ وليس هناك محب ومحبوب ، وعاشق ومعشوق ، بل المحب والمحبوب واحد ، يختلفان فى المظاهر والأحوال ويتحدان فى الحقيقة ؛ وكل شىء فى العالم له مظهر فان متغير متقلب ، وله مخبر دائم باق لا يتغير ؛ ونفس الانسان كذلك : نفس ناقصة فانية ظاهرة ، ونفس كاملة باقية باطنة ؛ والنفس الأولى تشق الطريق لتحقق نفسها الثانية فتتحد بالحقيقة وتتشربها وتفني فيها . وسمى الصوفى هذا المسلك « طريقاً » أو « طريقة » ، وسمى نفسه «سالكا» ، وسمى المسافات التى يقطعها فيقف عندها للاستجمام « مقامات » ، وسمى الغرض الذى يقصده من سلوكه وهو اتحاد نفسه بالحقيقة ، وبعبارة أخرى اتحاد ذاته بالله « الفناء فى الحق » . وقد رسموا « خُرُطاً » لهذا الطريق ، وتعددت «خرطهم» بتعدد أنظارهم ، وسموا كل مرحلة وكل مقام باسم ، فهى عند بعضهم مقام التوبة ، ثم مقام الورع ، ثم مقام الزهد ، ثم مقام الفقر ، ثم مقام الصبر ، ثم مقام التوكل ، ثم مقام الرضا ؛ وفى كل مقام من هذه المقامات يقف السالك فيشعر بمشاعر نفسية خاصة سموها « الأحوال » ، فحال الخوف ، وحال الرجا ، وحال الشوق ، وحال الانس ، وحال الطمأنينة ، وحال المشاهدة ، وحال اليقين الخ ؛ ولابد للسالك أن يستوعب كل مرحلة من هذه المراحل ويؤقلم نفسه بها ليستعد للمرحلة التى تليها ، حتى يصل فى النهاية إلى حالة اتحاد بالعالم وبالله فيستحق بذلك أن يسمى « عارفاً » . ولا بد للسالك أن يقوده « شيخ » فى هذه الطريقة الوعرة حتى لا يضل المسلك

وليس المقام مقام تفصيل لتعاليمهم وعقائدهم وإنما نريد أن نقول إنهم بتعمقهم فى هذا المبدأ الذى ألممنا به إلماماً بسيطاً قد أقاموا أنفسهم فى عالم غير العالم المادى الذى يعيش فيه غيرهم ؛ فلهم لغة خاصة بهم ومسميات لا يعرفها إلا هم — ولكنهم فعلوا فى اللغة كما فعل كل العلماء فى اللغة العربيـة ، فأخذوا الألفاظ العربية وأطلقوها على مدلولات خاصة كما فعل النحاة بالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر والجار والمجرور ونحو ذلك من ألفاظ كان يستعملها العرب فى مدلولات عامة فأخذها النحاة ووضعوها لمصطلحات خاصة ، حتى أن العربى القح لم يكن يفهمها فى معانى النحاة . وهكذا الشأن فى البلاغة والعروض والفلسفة — غير أن هناك فرقاً كبيراً بين المتصوفة وغيرهم ، فالأوضاع النحوية والصرفية والبلاغية لها مدلولات ترجع إلى العقل فى تفهمها ، أما المصطلحات الصوفية فلا ترجع إلى العقل ، وإنما ترجع إلى الذوق ، ولهذا لا يفهمها أحد بعقله فهماً صحيحاً ؛ إنما يفهمها من تذوقها ووقف فى المقام الذى يقف فيه المتصوف ؛ والفرق بين العاقل والمتذوق كالفرق بين شخصين أحدهما لم يذق الكمثرى قط فوصفت له وصفاً لفظياً علمياً ، وشخص ذاقها وعرف الفروق الدقيقـة بين مذاقها ومذاق الموز والتفاح ؛ فاستعمل شعراء الصوفية ألفاظ الشعراء الخليين من «ليلى» و « الخمر » والوصل والعناق والهجر والعذال ، واتخذوها رموزاً لأحوالهم ومقاماتهم ؛ وكان لهم من ذلك كله أدب رمزى بديع غريب يمتاز عن غيره من الأدب بروحانيته وصفائه ، كما يمتاز بغموضـه وخفائه .

والسبب فى الغموض والخفاء أن الشاعر المادى إذا وصف خمراً أو لوعة حب أو هجراً أو وصالا ، فانما يصف عواطف يدركها الناس وهى فى متناولهم ، أو بعبارة أخرى هى قدر مشترك بينهم ؛ فكل الناس أحب ، وكل ذاق لذة الوصـل وألم الهجر ؛ أما الصوفى فيعبر عن مقام يقفه وحال غلبت عليه ، فوصف مقامه وحاله بحيث لا يفهمه إلا من كان فى موقفه وحاله ، أو كان قد قطع هذه المرحلة إلى مرحلة أبعد منها مدى . ومن أجل هذا لا يفهم الصوفى إلا الصوفى ، بل قد لا يفهم الصوفى الصوفى إذا سلك كل منهما مسلكا خاصاً ، أو كان الصوفى الشاعر فى مقام بعيد عن مقام الأول ؛ ومن أجل هذا شرح بعضهم قصائد لبعض المتصوفة ، فكان الشرح غامضاً كالأصل . وصاحب القصيدة معذور كل العذر ، لأنه فى حال لا يجد فيها ألفاظاً تعبر عما فى نفسه فى وضوح وجلاء ؛ وهناك سبب آخر قد يدعو إلى الغموض ، وهو أنه فى حال لو أوضح ما فى نفسه لرماه من لم يفهمه بالكفر والالحاد

على كل حال يمتاز الأدب الصوفى بأنه أدب رموز من

ناحيتيه القابلة والفاعلة ، فهو يفهم مظاهر العالم على أنها رمز ؛ والعالم عنده لا يختلف عن أحلام النائم ؛ فكما أن الحلم يعرض حوادثه عرضاً رمزياً فكذلك العالم كل ما فيه رمز ، فكل ما يقع تحت عينه وما يسمع بأذنه ، وما يتصل بجميع حواسه رموز يستنتج منها ما يغذى عواطفه ومشاعره ، وبذلك انفتح أمامه عالم غريب الأطوار مملوء بالجمال ، مفعم بالتخيلات ، حتى كأن كل شيء – ولو كان صغيراً – كتاب ملئ علماً ، أو لسان ينطق دائماً بالحكمة ، هو في العالم دائماً يقرأ ولا مقروء ، ويسمع ولا مسموع ، ويستخرج من الحبة قبة ، ومن القطرة بحراً خضما . يقرأ في كل حادثة نفسه وعالمه وربه ، ويفسرها تفسيرا يتفق ومزاجه وحاله

وهذا الأدب الرمزي والدين الرمزي والحكمة الرمزية نزعة كانت في الانسان منذ القدم ، فالديانة المصرية القديمة مملوءة بالرموز الدينية ، وكذلك ديانة الهنود والفرس الأقدمين ، ترمز إلى الحقيقة في بعد وخفاء ؛ والميثولوجيا اليونانية ليست إلا رموزاً لما كانوا يرون من حقائق ؛ وكثير من شعائر الأديان إنما وضعها فلاسفة متصوفون رمزوا بها إلى بعض الحقائق . فأتى العامة الجهلة ، وظنوا نفس الرموز حقائق ؛ فما الأصنام ولا النجوم ولا نقوش المصريين في عباداتهم ولا كثير غيرها إلا رموز أتى عليها الزمن فنسى أصلها وعبدت ذواتها ، وجرى كثير من الفلاسفة على هذا النحو فيحكى عن فيثاغورس اليوناني أنه كان يكثر من الكلام الرمزي ليدل به على الحقيقة ، وكذلك كان من بعده أفلوطن

ولهذا الأدب الرمزي جماله ، فهو يمتاز بأنه جمال مقنع تدركه ولا تلمسه ، وتتخيله ولا يسمح لك أن تحدق فيه ، فهو جمال تنظره وكأنك لا تنظره ، وتسمعه وكأنك لا تسمعه ، وتعرفه وكأنك لا تعرفه ، قد خلع عليه الخفاء جلالاً فكان جميلاً جليلاً معاً – تسمعه فتلتذ له وتترنم به ، فاذا أردت أن تقبض عليه قبضت على هواء ؛ ليس لكلماته مدلول محدود ، ولا لمعانيه حدود ، وإنما هو إمعان في اللانهاية ، يسبح ولا غاية

يرى الصوفي أن لكل ظاهر باطناً ، وفي كل شيء إشارة ، وفوق السطح عمقاً ، ووراء القناع جمالاً فاتناً ؛ ويتيه عجباً على الناس إذفهم ولم يفهموا ، وغنى لهم ولم يطربوا ، ويرى أن العقل حجاب يحجب النفس عن إدراك الجمال ، وأن كشف هذا القناع إنما هو بالذوق والالهام ، لا بالمنطق والقضايا والأحكام

وبهذا النظر نظر الصوفي إلى العالم فسمى الحقيقة ليلى وسعدى ، وأعجب بالخمر وتغنى بها ، ورأى في الخمر معاني ليست في غيرها . فهي رمز إلى رقى النفس وتساميها ، فالنفس ترق بالفناء في الحقيقة كما تنشأ الخمر بفناء العنب ، فيكون شيء من شيء ، ويختلف الشيئان والأصل واحد ؛ وإذا خرجت الخمر من العنب بقيت إلى الأبد وصلحت بمرور الزمان ، على حين أن العنب نفسه لا يصلح للبقاء ، فكذلك النفس إذا تجردت من مادتها الفاسدة ونزعت إلى الكمال صلحت للبقاء ، ولم يعتورها فناء ، وكلما مرت عليها السنون والأعوام زادت نقاء ، ورقت صفاء

وهكذا ولد الصوفية من كل شيء أشياء ، ورأوا في كل مادة رمزاً لمعان لا عداد لها وبني آخرهم على ما أتى به أولهم

ونظروا إلى الدين نظرهم إلى كل ما في العالم ، فكل آية في القرآن رمز ، وكل حديث له تأويل . فليسوا يفهمون من الآيات ما يفهم الناس ، ولا من الأحداث ما يفهم الناس

إن شئت مثلاً لذلك فخذ ما فهموا من حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم ، فعلماء السيرة يروون أنه (ص) شُق قلبه وهو مع رابّته ومرضعته في بني سعد ، وأنه جيء بطست من ذهب فيه ثلج فغسل به قلبه إلى آخر ما رووا ؛ والصوفية لا يفهمون هذا إلا على أنه رمز ، فقلب الانسان قد ران عليه الخوف والشهوة والطمع وغير ذلك من السيئات ، فأراد الله أن يذهب عنه الرجس ويطهره تطهيراً ، فأبعد عنه ما غشى قلوب الناس ، وفتح قلبه ونقاه من كل سوء حتى يستمد للنبوة . فرويت هذه القصة وفهمها العامة حقيقة ، وفهمها الخاصة رمزاً

وهكذا كان شأنهم فيما عرض عليهم من العالم ومن الدين ومن الأدب ؛ وهكذا كان شأنهم فيما انتجوا من دين وأدب — عاشوا في حلم لذيذ من حب وتضحية ، ونعموا بما قرءوا في العالم من رموز ، وأخذوا أدب الأدباء وشعر الشعراء فنقلوه إلى أحوالهم ومقاماتهم ، فطربوا لشعر مجنون ليلى وأبي نواس وفسروه بليلاهم وخمرهم ، فلما شعروا هم أسبغوا على شعرهم من معانيهم ورموزهم ، فكان لنا من ذلك كله نوع من الأدب طريف . أرجو أن أعرض لتفصيله في مقال تال .

أحمد أمين

فضيحة دولية استعمارية

عصبة الأمم
بين المد والجزر
بقلم باحث دبلوماسي كبير

كانت عصبة الأمم فى نظرنا داعماً أداة دولية مريبة ، لا تتفق أعمالها وجهودها مع المثل والغايات السامية التى ادمجت فى دستورها ، ولم نستطع يوماً مدى الخمسة عشر عاما التى قطعتها العصبة من حياتها أن نحمل على الثقة بها أو الاطمئنان لاستقلالها أو نزاهة وسائلها وغاياتها ؛ وإنما رأينا العصبة داعماً أداة مسيرة فى يد الدول الغربية القوية توجهها حيثما شاءت لتحقيق مشروعاتها وغاياتها على حساب الأمم الضعيفة ، ورأيناها بالأخص سوط استعمار بالنسبة لبعض الأمم الشرقية ، تفرض عليها نير الانتداب وتنظمه لمصلحة الدول الكبرى التى توجهها ؛ ولم تقدم العصبة يوماً أى دليل على أنها تعمل لانصاف دولة ضعيفة أو أمة شرقية ، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بمصلحة دولة قوية أو أمة غربيـة ، ولم تنل العصبة توفيقاً فى أى ميدان من الميادين العامة أو الانسانية التى تزعم أنها تعمل فى سبيلها ، فلم يحقق مشروع نزع السلاح أو تحديده ، ولم يوضع نظام ثابت للسلامة العامة أو عدم الاعتداء ، ولم تـكفل حقوق الأقليات أو الأمم الضعيفة بصورة مستقرة عادلة

ولـكنا رأينا عصبة الأمم تتخذ فجأة لمناسبة النزاع الايطالى الحبشى صورة أخرى ، فتبعث دستورها من قبره وتطبقه بروح جديدة ؛ رأيناها تحل السيادة والحقوق القومية مكانتها ، وتعمل لاحترام استقلال الأمم الضعيفة ، فتصم إيطاليا بما تستحق من وصمات الاعتداء المنكر ، وتحرك من نصوص دستورها ما تراه كفيلاً بوقف الاعتداء ورد المعتـدى إلى صوابه ؛ وتستجمع شـجاعتها لتطبيق المقوبات الاقتصادية والمالية التى فرضت على المعتـدى ، وتطبقها بالفعل على إيطاليا المعتدية ، فتحظر تصدير السلاح وجميع المواد الأولية إلى إيطاليا وتبيحه للحبشة ، وتطالب إلى أعضائها أن يقطعوا كل العـلائق الاقتصادية والمبادلات التجارية مع إيطاليا ؛ فيلبى دعوتها نحو خمسين دولة أو ما يشبه الاجماع ؛ وهكذا رأينا عصبة الأمم تفتتح عهداً جديداً فى سياستها وفى فهم مهمتها الدوليـة ، واستبشرنا بأن يكون العهد الجديد مفتتح الآمال بالنسبة للأمم الضعيفـة ، فتستطيع أن تطالب بحقوقها وحرياتها ، وتستطيع أن تعتمد على ذلك التعضيد الدولى الذى تحمل لواءه عصبة الأمم

ولم يغب عن العالم مع ذلك ما هنالك من وراء ستار ، فقد فطن العالم إلى أن عصبة الأمم لم تـكن فى عملها مستقلة ولا مختارة ، وأنها كانت مسيرة موجهة فيما اتخذت من قرارات جريئة ؛ ولم يغب عن العالم أن السياسة البريطانية هى مبعث التوجيه والوحى الأول ، وأنها اتخذت هذه الخطة لأن الاعتـداء الايطالى على الحبشة ، وتوسيع النفوذ الايطالى فى شرق إفريقية ، وما يترتب على ذلك من إذكاء الروح الحربى الفاشستى ، يعرض الأمبراطورية البريطانية وسلامة مواصلاتها فى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وسيادتها فى وادى النيل وشرق إفريقية إلى أخطار جسيمة ، وأن انكلترا لم تحرك أساطيلها الضخمة ، وتتخذ هذه الأهبات الحربية الواسعة النطاق فى مصر وعدن وشرق إفريقية انتصاراً لقضية الحبشـة أو دفاعاً عنها ، ولـكن رداً للخطر الفاشستى الذى ظهر فى الأفق فجأة ، وأخـذ يزعجها بمطامعه وتحديه . بيد أن وقوف العالم على هذه العوامل المستترة الظاهرة معاً ، لم يثنه عن التصفيق لعصبـة الأمم والاعجاب بموقفها وتصرفاتها فى هـذا المأزق العصيب ؛ ذلك أن الوسائل لا تهم داعماً ؛ وكفى أن عصـبة الأمم قد انتهت إلى الغاية المقصودة ، وسـيقت إلى العمل لصون الحريات والحقوق القومية ، وإلى الحـكم على الاعتداء المنظم بأقسى الأحكام

ولهذا دهش العالم أيما دهشـة حينما أذيعت شروط هذا المشروع الشائن الذى أسفرت عنه المفاوضات الفرنسـيـة البريطانية الأخيرة كتسوية سلمية للمسألة الحبشية ، والذى أريد أن يقدم الى ايطاليا هدية سابغة على اعتدائها الثير لـكى تـكف عن المضى فى أعمالها ومشاريعها الحربية . وقد وقف القراء على هذا المشروع وتطوراته فلا حاجة بنا إلى الافاضة فيه ، ويكفى أن نذكر أنه كان يقوم على تمزيق الحبشة تمزيقاً شائناً ، وينص

على منح أكثر من نصفها لايطاليا ، ويحيط سيادة الحبشة على الأراضي الباقية بقيود خطرة أو هو بعبارة أخرى يقضي بشقيه على الحبشة كأمة مستقلة ذات وجود ، ويمهد لاستعبادها النهائي في أعوام قليلة ؛ نقول ثار العالم كله لهذا المشروع الشائن الذي يتوج اعتداء ايطاليا بغار ظفر لم تحرزه ، ويحقق لها حلماً مازالت تتخبط في غمر الصعاب لتحقق شطراً منه ؛ وأشد ما كانت دهشة العالم لأن السياسة البريطانية التي ثارت من قبل لاعتداء ايطاليا وألبت عليها أمم العالم بواسطة عصبة الأمم وحملت العصبة على أن تقرر العقوبات الاقتصادية ، قد اشتركت في وضع هذا المشروع الشائن الذي يقضي فجأة على آمال أمة مستقلة مازالت تناضل عن حريتها نضالاً يثير الاعجاب والاكبار ؛ على أن الصدى المنيف الذي أحدثه المشروع في العالم كله ، وفي الرأي العام البريطاني بنوع خاص ، كان كافياً لأن يحدث أثره بسرعة في استنكار هذه السياسة الاستعمارية الصارخة ، واستنكار المشروع برمته ، وكان من جراء ذلك أن استقال السير صموئيل هور وزير الخارجية البريطانية الذي اشترك في وضع المشروع ، وكان لاستقالته أعظم وقع كما شهدنا ، واضطرت الحكومة البريطانية أن تتراجع بسرعة ، وأن تعلن أنها لا تؤيد المشروع وأنها تعتبره قد مات ؛ هذا بينما كان المشروع مطروحاً أمام عصبة الأمم ، يلقى الضربة الأخيرة على يد مجلس العصبة ، ويرجأ النظر فيه إلى أجل غير مسمى

وهكذا مات مشروع تمزيق الحبشة في أيام قلائل تحت ضغط الرأي العالمي واستنكاره ، ولم يُسمح لايطاليا أن تجني ثمرة اعتدائها الشائن وأن تحقق بالدجل السياسي مالم تستطع أن تحققه على يد جنودها في ميدان القتال . أما الحبشة فقد رفضت مشروع تمزيقها لأول وهلة ، ورفضته بمنتهى الأباء والقوة ، بل واستطاعت أن تقرن رفضها الأبي بانتصارات محلية أحرزتها الجيوش الحبشية في مختلف الميادين في نفس الوقت الذي طرح فيه المشروع أمام عصبة الأمم . ومع أن العوامل الحقيقية التي أمات بوضع هذا المشروع ، وحملت السياسة الانكليزية على اقراره ، في الوقت الذي ذهبت فيه إلى هذا المدى البعيد في مخاصمة ايطاليا ومقاومتها ، لم تتضح إلى الآن وضوحاً كافياً ، فانه يمكن فهمها على ضوء بعض الحوادث والظروف الأخيرة ، وأخصها تفاقم الخطر الياباني في الشرق الأقصى ، وانتعاش الحركة الوطنية في مصر ، وما يذاع من وجود تذمر في الأسطول البريطاني ، وما يبدو من تحرك ألمانيا وتربصها ؛ هذا إلى بعض الاعتبارات الأوربية والاستعمارية العامة ، وهو أنه ليس من حسن السياسة أن تشجع أمة إفريقية سوداء على مقاومة أمة أوربية كبرى ، وأن تترك إيطاليا لتطوح على هذه الصورة بشطر كبير من قواها الحيوية في شرق إفريقية ، في حين أن هذه القوى ذاتها ضرورية لحفظ التوازن الأوربي ومقاومة مطامع ألمانيا في النمسا ؛ ومن جهة أخرى فان هذه الصعاب والمتاعب الفادحة التي تتخبط فيها إيطاليا قد تدفع بها إلى غمار اليأس فيسقط النظام الفاشستي ، وسقوطه في هذا المأزق الدقيق قد يضعف إيطاليا ويصيب التوازن الأوربي بضربة شديدة : فالى هذه العوامل يمكن أن نرجع تطور السياسة الانكليزية الفجائي . بيد أن هنالك حقيقة لا شك فيها هي أن أكبر الفضل في هذا التطور يرجع إلى تذبذب السياسة الفرنسية وترددها ، وإلى ما تبديه من تحيز ظاهر للاعتداء الايطالي ، وما تبديه من فتور ظاهر في تأييد سياسة العقوبات الدولية التي تعتمد عليها انكلترا في تحطيم مشاريع ايطاليا . وتذبذب السياسة الفرنسية وتحيزها يرجعان إلى عوامل ألمانية محضة ، فالحكومة الفرنسية الحاضرة تريد أن تحرص على الصداقة الايطالية بأي ثمن ، وأن تحافظ بكل الوسائل على أن تتقاضى تعاون إيطاليا في أوربا ضد ألمانيا وبالأخص في المسألة النمسوية ، ثمناً لما بذلته فرنسا لايطاليا في الاتفاق الفرنسي الايطالي الأخير (يناير الماضي) من المنح والمزايا السياسية والاستعمارية ؛ وهي تحاول في نفس الوقت أن تحتفظ بصداقة انكلترا ومعاونتها

على أن هذه السياسة التي انكشفت عواملها الألمانية بسرعة لقيت حتفها في الحال في انكلترا وفي الحبشة وفي جنيف ؛ ومع أن السياسة البريطانية استطاعت بسرعة مدهشة أن تستدرك الخطأ الذي وقع فيه السير هور وزير الخارجية البريطانية باقراره لمشروع الصلح ، واستقال الوزير في الحال ليخلفه مستر إيدن بطل سياسة السلامة الاجماعية والعقوبات الدولية على يد عصبة الأمم ، أو بعبارة أخرى بطل سياسة التشديد على إيطاليا ، فان هيبة بريطانيا السياسية قد أصيبت بشيء من التصدع والريب ؛ ذلك لأنه لم يكن خافياً ما ينطوي عليه مشروع الصلح المقدم إلى جنيف

من معنى مستتر ، هو تقسيم الحبشة بين إيطاليا وانكلترا ، واختصاص إيطاليا بالقسم الشرقي الذى تحتل قسماً منه ، واختصاص انكلترا (فيما بعد) بالقسم الغربى الذى تقع فيه منابع النيل الأزرق ، والذى تحرص كل الحرص على استخلاصه من يد أية دولة أوربية أخرى ؛ بيد أن هذا الرجوع السريع الحازم من جانب السياسة البريطانية إلى خطتها الأولى ، أعنى خطة الوقوف فى وجه إيطاليا ومقاومتها عن طريق العمل الدولى ، قد رد إليها كثيراً مما كادت تخسر من هيبة ونفوذ

على أننا نستطيع أن نستخلص من هذه المأساة الدولية درساً بليغاً يؤيد ماذهبنا إليه فى صدر مقالنا بشأن عصبة الأمم ؛ فما كانت العصبة يوما ملاذاً للعدالة الدولية وحقوق الأمم الضعيفة ، ولاسيما الأمم الشرقية ، ولن تكون العصبة يوما ملاذا حقيقيا لهذه المثل العليا . وإذا كان موقف العصبة فى المسألة الحبشية قد أسبغ عليها هيبة لم تتمتع بها منذ نشأتها ، فان الفضل فى ذلك لا يرجع إلى إرادة العصبة ذاتها أو إلى استقلالها ونزاهتها بقدر ما يرجع إلى العوامل السياسية والاستعمارية الخارجية التى شرحناها ؛ وكون العصبة تعمل فى مثل هذه الظروف أداة مسيرة ، لا يؤكد الآمال التى يمكن أن تثيرها نصوص دستورها الخلاب ، بل كل ما هنالك يثير الريب دائماً فى وسائلها وغاياتها . ومع ذلك فان عصبة الأمم يمكن أن تكون أداة حقيقية لتأييد السلام العالمى والعدالة الدولية ، ولكنها يجب قبل كل شىء أن تحرر من ذلك النفوذ الذى يوجهها وينحرف بها عن العمل للغاية الحقيقية التى انشئت لها إلى العمل لغايات السياسة القومية والاستعمارية . وقد رأينا فى مثل إيطاليا وما نالها من أثر العقوبات الاقتصادية ، قوة العمل الاجماعى وتأثيره الفعال فى كبح جماح الشهوات القومية ؛ فاذا صلح دستور العصبة ليلائم الظروف الدولية الحاضرة ، وإذا استطاعت الأمم أن تضع ثقتها فى سياسة الضمان المشترك والسلامة المشتركة ، فان العالم يستطيع أن يتجنب كثيراً من الحروب الاعتدائية المخربة . ولكن هل تستطيع الدول الاستعمارية الكبرى أن تتجرد عن غايات الأثرة القومية ، أو تعدل عن الالتجاء إلى القوة الهمجية التى تمكنها من أعناق الفرائس الضعيفة المغصوبة ؟

(***)

شهيد من شهداء أحد

أنس بن النضر

للأستاذ خليل هنداوى

كتب الله النصر المسلمين فى غزوة « بدر الكبرى » ؛ وكان نصراً رائعاً للدعوة الاسلامية ، فانصرف المشركون وفى كل عضو من أعضائهم جراحة من أثر بدر ، وفى كل بيت من بيوتهم مناحة لفقد عزيز من أعزائهم يوم بدر ؛ وقد تبرأ هذه الكلوم ، وتهدأ هذه المناحات ، ولكن المضض كامن فى صدور كأنها الدروع المنطوية فى النار

— ألا يعود يوم كيوم بدر نثأر فيه لشرفائنا ، ونلوك أكباد أعدائنا ! إنه إن يعد — وهبل — نشف منهم النفوس أو تضمنا الرموس .. ..

والمسلمون خلال ذلك تخفق ألوية النصر عليهم ، وأصحاب بدر يخطرون طربين بما أوتوا ، يجلسون حلقات ، هذا يتحدث عن بلائه ، وذلك عن بطشه بأحد رؤوس قريش ، وقد يسمع النبى لحديث من أحاديثهم فيغلب الاشفاق على قلبه ويود لو أن دماء قومه لم تهدر ، ولكن الدعوة تفتقر إلى ضحايا ! وقد يغادر المتحدثون هذه الأصناف من الحديث ، لا لأن بدراً يفرغ حديثها ... وإنما يعودون إلى التحدث بينهم : كيف ألقى الله الرعب فى قلوب أعدائهم ، وثبت منهم الأقدام ، وزلزل أقدامهم ، ويشكرون الله على صدق وعده لهم ، فما أخف نفوس هؤلاء البدريين الذين قاتلت جنود الله معهم ! ويكفى أحدهم إذا أراد أن يفتخر أن يقول : « أنا بدرى » ! وما أشد أسى الذين لم يكتب لهم أن يكونوا من جنود هذه الغزوة المباركة !

كيف يمشى هؤلاء الذين لم يحضروا غزوة بدر ، وكيف تطمئن لهم جنوب أو تسكن قلوب ، وقد رأوا أن رفاقهم سبقوا بالأجر : أجر بدر ؟ وكيف يخالطون أصحابهم الغزاة ، وكيف يكلمون الرسول ، وهم يرون فى أنفسهم منقصة تؤخرهم عن مجالس هؤلاء الغزاة ، إنهم ليسوا ببدريين !

حاور أنس بن النضر نفسه فلم يقنعه منها عذر ؛ فآثر أن

يتوارى عن قومه ، وأن يعتزل مجالسهم ، مقسما أنه لن يغفر هذه الحوبة لنفسه حتى يلاقى غزوة كغزوة بدر ، يحملها ما لم تحمل ، ويحمل منها فوق ما حمل أصحابه ، فاذا سمع « ببدر » رأيت وجهه اكتأب وأساريره انقبضت ، لأن حديث بدر -- عنـده -- حديث ذو شجون ، فيسأل نفسه إذا اشتد به الأمر :

— أعهد بدر الثانية عنك بعيد ؟ رب أقرب بدراً

وقد عجب أصحابه لوجومه وانصرافه عن مجالسهم ، ولم يروا منه إلا كل خلة حميدة ، وعقيدة صلبة ؛ يرونه يمشى كمن يلوذ بجدار ، ويرتاح إلى الليل الأسود كمن يتخذه لباساً ، ويجنح إلى العزلة كمن هو على موعد من ربه ... وتحدث القوم بينهم : مابال أنس لا يطأ مجالسنا ؟ أأذىً به أم عارض ؟ وكان الرسول لا يلمحه إلا معتزلاً فى زاوية وحده ، لا يسمعه سامع إلا هاجساً ببدر ، مستفسراً عن بدر ؛ وقد أقلق الرسول حاله ، فسأله :

— ما خطبك يا أنس ؟

فقال أنس :

— « يارسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ! »

ففهم الرسول أمره ، وبارك عزيمته وقال :

— أما وقد نويت :

ولم يقف الرسول على شىء من أمره بعد مقابلته . وهاهى المقادير جاءت تنتقم « لأنس » ، وتكتب اسمه فى سجل الغزاة الثابتين ، وها هى الأيام كرت تجدد « بدراً » ثانية ، ليس موعدها بدراً ، لـكن أُحُدا ! فهب البدريون إلى شحذ سيوفهم البدرية ولا تزال أغرتها مكتسية دماً ، ورماحهم ولا تزال ثعالبها حُمرا ، ونشط من لم يحضروا بدراً لينالوا من الأجر ما لم ينالوه ، فـكان الأولون يمشون ثابتى الأقدام ، مستخفين بأعدائهم عند الروع ؛ وكان الآخرون يمشون خفافاً كمن أزيح عن صدره ثقل الجبال ، وقد ارتاحت من أنس نفسه ، ودنا يحدث صحبه كأن لم يكن له عهد بتلك الوحشة

بزغ الفجر من وراء أحد ، وأفاقت قعقعة الرجال : وتيقظ كل ثأر قديم وكل خصومة قديمة ، فلم يمهل بعضهم بعضاً بالبراز وأنهم لا يملكون أنفسهم فى مثل هذا اليوم ، وقد ود « أنس » قبل زحفه إلى الشهادة أن يكلم الرسول فيكتسب منه دعوة صالحة أو يراه فيذكر الرسول وجومه فيقول له :

— إيه يا أنس ! اليوم بدر !

ولـكن الزحام شديد والقتام ساطع والعدو راصد ، والنبى قد وزع عقله هنا وقلبه هناك ، يهدى ويوصى ويرشد وقد ذهب أمامه أقرباؤه قروم الحرب وأبطال الشدائد ، فأقلع أنس عن رغبتـه وأدرك أنه لم يكتب له الحظ أن يمس جلده جلد رسول الله قبل آخر العهد [1] ، فانطلق زاحفاً إلى صفوف المشركين يضرب بيديه وبسيفه ورمحه وفرسه ، وكأن المقادير أرادت أن تنتقم له انتقاماً حسناً فلم تظهر ثباته وصدقه فى جمع ظفر ، لـكن فى جمع تفرق وانـكسر ، ولم يثبت فيه إلا كل أروع صنديد ؛ فـكرام من الصحابة يذودون عن النبى بأرواحهم وأجسادهم ! وكرام من الصحابة شدوا على العدو المحيط بهم وقد أبت لهم عقيدتهم أن ينهزموا ويستسلموا ! وهـذا أنس لا يزال يجول وما زادته جراحه الـكثيرة إلا زيادة فى الثبات . وهل أكرم من الثابتين عند الله ؟ وما زادته سراويله الحمر إلا استقتالاً وطمعاً فى ذلك الأجر الذى تلوّح له به بدر ؛ لـكن يوم بدر كان يوم ظفر ، ويوم أحد أسود الجلباب ! فحيثما يطأ يجـد صحابيا جريحاً يئن ، وأيان توجه ير قتيلا تزفه الحور العين

— بادر يا أنس ! فهذا هو يوم الأجر الأكبر ، وهذا هو يوم الرضوان ، ما ينفع تأجيل الموت وفى الشهادة حياة ؟

وإنه ليحدث نفسه بهذا الحديث فيستقبله سعد بن معاذ فيقول له :

— « يا سعد ! الجنة ورب النضر ، انى لأجد ريحها من دون أحد . . . »

فيتركه سـعد ويود لو يصنع ما يصنع ، ولـكن رجال الله رجال ، فيلتفت أنس إلى قومه فيقول :

— اللهم إنى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء !

ويلتفت إلى المشركين فيقول :

— وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء !

---

(١) مر الرسول فى غزوة بدر بسواد بن غزية وهو خارج من الصف فضربه بالقضيب فى بطنه وقال استقم يا سواد ! فقال أوجعتنى يارسول الله ! فأقدنى من نفسك . فكشف الرسول عن بطنه وقال استقد ، فاعتنقه سواد وقبل بطنه ، فقال الرسول ماحملك على ذلك ؟ فقال : قد حضر ما ترى يارسول الله فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك

ثم يحمل مقتحماً صفاً من المشركين المضرجة سيوفهم ونصالهم بدماء أصحابه فلا يزال مقتحماً فى حملته وقد أعجز المشركين رده وأحزن قومه فقده . وإن المعركة لتنتهى وقد بذل فيها الفريقان من فلذات الأكباد والأولاد لها طعاماً ، وهيهات أن تشبع ! فيقوم أبو سفيان يقول :

— أفى القوم محمد ؟ فلا يجيبه أحد . أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ فلا يجيبه أحد . أفى القوم ابن الخطاب ؟ فلا يجيبه أحد

فيقول :

— أما هؤلاء فقد قتلوا

فلا يملك عمر نفسه فقال :

ـ كذبتَ والله يا عدو الله ـ إن الذين عددت لأحياء كلهم ! إنهم لأحياء ، وإن الحياة هى التى أنطقت عمر بالرغم من نهى الرسول ، وهل يختنق للحياة صوت ؟

إن هؤلاء أحياء ، والذين استشهدوا منهم أحياء !

فيجيب أبو سفيان :

يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ! إنكم ستجدون فى القوم مُثلة لم آمر بها ولم تسؤنى : أعلُ هبل ، أعلُ هبل !

فيجيبه أصحاب الرسول :

— الله أعلى وأجل !

فيقول : إن لنا العزى ولا عزى لكم

فيجيبونه : الله مولانا ولا مولى لكم

***

تنتهى هذه المحاورة ويؤوب أبو سفيان إلى قومه وقد شفوا قلوبهم وغسلوا عار يوم بدر ، وهب المسلمون إلى تلمس قتلاهم واستنقاذ جرحاهم وقد راعهم أن يمثل المشركون بالشهداء منهم وهم لو أرادوا تمثيلاً بهم لمثلوا . ولبث النبى فى مكانه يعالج أصحابه نزيفاً منه كاد يودى به ، وهو يرتقب جثة عمه حمزة وقد أشجاه ما أشجاه ، فجاءت الجثة بغير كبد والوجه مبعوث عملامحه . فناب الصمت عن البيان ، وحجبت هذه الداهية غيرها من دواهى أحد ؟ فجمع المسلمون جثث قتلاهم يدفنونها متراكمة فى موضع المعركة وقد أساهم فى مصابهم ما أصاب الرسول فى عمه . فكان ينظر إلى الذين يفيهم التراب إلى الأبد نظرة صامتة ، وعينه لا تتمثل إلا مصرع حمزة

لم يعد أنس جريحاً ولم يبن قتيلاً فى المعركة ، وقد ذهبت أخته تتحرى عنه بين القتلى فيمن تحرى ، حتى وقعت على قتيل خفيت تقاسيم وجهه ، وذهب جلده قدداً ، فى بدنه بضع وثمانون من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم . أهذا هو أنس صريعاً ؟ لكن وجهه لا يفصح ، وبدنه لا يبين عنه . لكن هذه بنانه قد أبقى عليها المشركون ولم يمسوها بسوء . مثلوا بجسده ماشاءوا أن يمثلوا بعد أن ملأهم ضربه غيظاً وقتاله حقداً ، وذهلوا عن بنانه

— رحمك الله يا أنس ! لقد بررت بعهدك الذى عاهدت ، وأدركت الأجر الذى طلبت . أليس فضل الثابتين فى أحد كفضل أصحاب بدر ؟

قضى أنس ولم يذكر مصرعه القوم ، لأن مصارع أذهلت عن مصارع . والرسول لم تندمل كلومه ، ولم يبرح مصرع حمزة قلبه .

لم يقتل حمزة وحده ولم يقتل أنس وحده ، بل قتل معهما « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (1) » وهؤلاء هم الذين قتلوا فى سبيل ما عاهدوا الله عليه

***

خمدت وقعة أحد ، وكان الرسول كلما مر بأحد استشعر خشية ، والتفت إلى أصحابه كأنما يلتمس فى هذا الجبل شيئاً قدسياً يهبط على نفسه . التفت يقول لهم :

— « إن أحداً يحبنا ونحبه ! »

وكيف لا يحبونه وقد أطافت به أرواح الأعزاء وثوت فيه أجساد الشهداء وكيف لا يهتز الرسول لأحد وفيه قد أدّوا ثمن العقيدة والصدق والاخلاص من دمائهم وقلوبهم

أما إن لكل أمة « أحداً » تذكره وتعتز بذكره لأنه رمز ضحاياها الغالية التى عملت لها . وهذه الأمة المشتتة تحت كل كوكب ، المعتزة بإيمانها وعقيدتها تقيم فى كل زاوية «أحداً جديداً» تقدم له كل يوم ضحايا عزيزة من دمائها وقلوبها ! حتى غدت مواطنها : « كل موطن أحد » وشهداؤها : « كل شهيد أنس » .

خليل هنداوى

(1) ذكر المفسرون أن هذه الآية الكريمة نزلت فى « أنس بن النضر » وأصحابه

نظرية النسبية الخصوصية

المقال الثانى

وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية

للدكتور اسماعيل احمد أدهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

عناصر البحث

(١) الحد الرابع للمادة فى النسبية
(٢) ثبات النور ووحدة قوانين الطبيعة
(٣) النظام الڤاليلى وقوانين التحويل اللورانتزية

— ١ —

تصور سطحاً فى حيز منه نقطة مثـل «ت» ، وأنك تريد تحديد مكانها ، فلا شك أنك ستقيس بعـدها عن الحافة اليمنى للسطح أو اليسرى ، ثم بعـدها عن حافة السطح الأمامى أو الخلفى ، وبواسطة خطين تحدد مركز النقطة على السطح . أما إذا كانت النقطة المرغوب تحديدها فى حجم فلا بد من خطوط ثلاثة تنتهى عندها لتحدد مكانها بالضبط

لنتصور مكعباً ضلعه ١٠ أمتار ، ولنفرض به نقطـة مادية مثل (ت) فى المكان «م» ، ولنشرع فى تحديد مكان هـذه النقطة المادية ، فلا بد من أن نقيس الخط العمودى الساقط على هذه النقطة من السطح السفلى للمكعب ، ولنفرض أنه كان مترين ، فهذا الخط بمفرده لا يصح أن يكون محدداً لمكان النقطة إذ فى الامكان تحريك هـذه النقطة حركة أفقية ويبقى الخط الممتد من السطح السفلى للمكعب حتى النقطة «ت» مترين بدون أن يلحقها أى تغيير ؛ فلا بد من حد ثان بخط يمتد من السطح الأيمن أو الأيسر إلى النقطة «ت» . فلنفرض أنه كان ستة أمتار ، فلنا أن نتسـاءل : هل فى الامكان الاكتفاء بهذين الخطين لتحديد موضع النقطة ؟

إن من السهل تحريك النقطـة المذكورة فى خط مواز للسطح الأيمن أو الأيسر بحالة لا يختل معها طول الخطين . فلابد من حد ثالث ، هو بعد النقطة عن السطح العامد للجدار الأيمن والأيسر ، ولنفرض أننا ألفيناه ثلاثة أمتار ؛ فعليه يمكن تحديد أية نقطة فى حجم بثلاثة أبعاد تتعامد على بعضها فى النقطة المرغوب تحديد مكانها ، وهذا النظام يعرف بنظام التعامدات الديكارتية[١]

إن المشاهد الذى يقوم بعمليـة القياس سيلجأ إلى قواعد فيثاغورس فى الهندسة ليحدد أبعاد الخطوط الثلاثة المحددة من مكان النقطة . وقاعدة فيثاغورس التى ترجع اليها هذه المسئلة نظريتان :

الأولى : أن مربع الوتر فى المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربع الساقين

الثانية : أن مربع الوتر فى مكعب يساوى حاصل جمع مربع خطوط الطول والعرض والعمق

فتكون المسافة من المشاهد إلى النقطة «ت» :

$$\sqrt{٢^٢ + ٣^٢ + ٦^٢}$$

— ٢ —

لنفرض أنّ النقطة المادية «ت» تحرّكت من وضعها الأول فى (م) إلى وضع آخر ، وليكن (م١) بمعدل سرعة متر واحد فى الدقيقة الواحدة ؛ ثم لنفرض أنها بلغت وضعها الجديد بعد دقيقتين من تحركها ، فالمسافة «م ــ م١» يستغرق قطعها زمناً . وهذا بلا شك[٢] يثبت أن الزمان يتداخل فى المكان ويندمج به ليكوّنا البعد الرابع للمادة

هـذه قضية البعد الرابع فى النسبية الخصوصية فى أبسط صورها ، ولـكنها ليست كل شيء كما سنرى

— ٣ —

لا يمكن فصل الزمان عن المكان ولا المكان عن الزمان ، لأنك لا تتصور حادثة إلاّ وتتصور آوان حدوثها ، ولا تتمثل فى ذهنك حركة إلاّ ويتطرق إلى وعيك الزمن الذى استغرقه الجسم فى الحركة

إنه لا يمكن تصور شيء فى الوجود لا يشغل مكاناً ولا يحدث فى زمن . فالبعد الرابع فى النسبيّة ليس إلا إدماج الحركة فى المسافة ، إذ تُعبر عن المسافة بحاصل ضرب معدل السرعة فى وحدة زمانية بوحدة زمانية أخرى

---

(1) Edhem (G. K) : Mathematik und Physik., P' 139.
(2) Weyl (Hermann); Raum, Zeit, Materie. Berlin 1921 P. 129.

هذه العملية نظرية لأننا لم نعمل حساب الزمن الذى تستغرقه شعاعة النور فى التحرك لقطع المسافة من مكان وقوع الحادثة إلى المشاهد ؛ ذلك لأن المسافات على سطح كرتنا الأرضية قصيرة ، ولا يحس فرق زمنى إذا ما انسابت فى فضائها موجات النور . أما فى المسافات السحيقة بين الأجرام فالأمر يحتاج إلى حساب الزمن الذى تستغرقه شعاعة النور فى الوصول إلينا ، لأن هذا الزمن يتضخم حتى يبلغ ملايين السنين فى المسافات السحيقة . فمن المعلوم أن شعاعة النور تستغرق نحو ٩ دقائق للوصول إلى أرضنا من الشمس ، كما أن شعاعة تصدر من السدم الاولبية تحتاج الى مليون عام لتصل الينا ، وقد تحتاج أحيانا الى مائة مليون عام ؛ فهذا النجم يبعد عنا بنحو ١٢٤،٢٦٤،٨٠١،٦٢٥،٠٠٠ ميل . فاحسب كم عاما تحتاج له شعاعة الضوء لقطعه مع أنه قريب إلى أرضنا بالنسبة للسدم والمجرات

لا شك أننا لا نجد الشمس إذا نظرنا إليها إلا كما كانت قبل دقائق ؛ فلو فرضنا أن الشمس انكسفت فجأة فانها تنير لنا نحو تسع دقائق بعد كسوفها تكون خلالها الشعاعة الأخيرة التى صدرت من الشمس قد وصلت إلينا . فكأن المسافة قد تمددت بالنسبة لنا واندمج الزمان فى المكان

— ٤ —

إن قانون ثبات سرعة النور الذى هو نتيجة لتجربة « ميكلصون — مورلى » يقضى بأن قوانين الطبيعة الشاملة للحادثات ثابتة . لأن هذه القوانين قائمة على انتشار النور بسرعة ثابتة فى كل الاتجاهات . وما دامت سرعة النور ثابتة والنور يحدد من حدوث الحوادث فقوانين هذه الحوادث ثابتة . هذا المبدأ الذى استخلصه ألبرت اينشتين فى تيه من المعادلات الرياضية الفائقة[1] طبقه العالم مينقوفسكى Minkouvski على حادثات الكون والظاهرات الضوئية والالكترو مغناطيسية . وقد كان هذا المبدأ فى صورة أخرى ذائعاً فى علم الطبيعة الكلاسيكى إذ كانت تفرض أن الحوادث تحدث فى العالم بالنسبة للأثير دون أن تتأثر بحالات الأكوان التى تحدث خلالها من حركة أو سكون . هذا المبدأ المطلق كان موضوعاً جوهرياً فى علم الطبيعة الكلاسيكى .

(1) Einstein (Albert) : Ueber die spezielle und die allgemein Relativitaetstheorie., Braunschweig., 1933. P. 93-97

غير أن هنرى بوانكاريه[1] العالم الرياضى الفرنسى الشهير عدل عن هذا المبدأ وقرر أنه من المحال الاستناد إلى التجارب التى تجرى داخل عالم متحرك فى استخراج حركته المطلقة استناداً على تجربة « ميكلصون — مورلى » كما سبق

لقد عمل ألبرت اينشتين على أن يلائم بين سنة ثبات النور فى سرعتها ومبدأ ثبات قوانين الحادثات ، فقرر أن الضوء يتصف بسرعة ثابتة فى انتشاره فى جميع الجهات أياً كان السكون الذى ينتشر خلاله . ولتوضيح هذا القانون نفرض عالماً متحركاً مثل « ع » وعالماً آخر مثل « ع١ » ، ولنفرض أن سرعة الضوء فى العالم الأول « صه » وفى الثانية « صه١ » ، ولنفرض أن السرعة « صه » أكبر من السرعة « صه١ » ، فستكون سرعة النور فى العالم الأول أكبر منها فى العالم الثانى . فتكون السرعة النسبية إذن غير ثابتة فى كل الاتجاهات ، إذ تتأثر بحركات العوالم المنسوبة إليها والتى تنتشر خلالها . ولما كانت تجربة « ميكلصون — مورلى » قد أثبتت أن السرعة « صه » هى عين السرعة « صه١ » فاستناداً إلى قانون لورانتز فى التقلص ونتيجته فى استحالة استخراج الحركة المطلقة وثبات سرعة الضوء نقرر ثبات قوانين الحادثات ووحدتها

وهنا قد يتبادر إلى ذهننا سؤال : هل فى إمكاننا أن نؤلف بين سنة ثبات سرعة الضوء ومبدأ النسبية ؟

مبدأ النسبية الكلاسيكية يقرر أن الحادثات الكونية التى تحدث فى كون متحرك لا تتبع حركة الكون الذى تحدث فيه ، فكأنها تحدث فى عالم ساكن غير متحرك . فهل فى الامكان التوفيق بين هذا المبدأ النيوتونى وسنة ثبات انتشار الضوء فى الفضاء ؟

إن الاجابة على هذا السؤال ترجع بنا إلى مسألة التواقت التى توحى إلينا أن الزمان ليس بفكرة إنية a priori كما تقرر علوم الطبيعة الكلاسيكية ، وأن مفهوم السرعة مشتق منه ، بل إن سرعة النور وثبات هذه السرعة يجب أن يعدا من المبادىء الأولية ومنها يشتق مفهوم الزمان . فكأننا براصد الحادثات مقيد بآلاته يقرر حسبما تتراءى له الحادثات ، والزمان بالنسبة للمكان وليس هو بالشىء الوهمى الذى تصوره لورانتز بل له حقيقة موضوعية Odgective طبيعية

اسماعيل أحمد أدهم

(1) Henri Poincaré : Science et l' hypotheses, paris 1913 P. 93 et Dernieres Pensees, paris 1909. P. 139 — 143.

فى ليلة العيد* ...

للأستاذ على الطنطاوى

يا أيها الغافلون ... إن هذا العيد ليس لنا .
إن أعيادنا مخبوءة فى ثنايا الماضى
الفخم ، ومطاوى المستقبل المنتظر .
« على »

مشيت ليلة العيد فى حاجٍ للعيال ، فتأخرت فى السوق ، فركبت (الترام رقم ١) لأروح الى الدار ، فكان مجلسى فيه قبالة شيخ ساهم رازم ، عظيم اللحية ، كأن رأسه ولحيته نغامة بيضاء ، زرىّ الهيئة ، رثّ الثياب ... فأشرت إليه بالتحية وابتسمت له ، فلا والله ما طرف ولا تحرك ولا ألقى إلىّ بالاً ، فجعلت أعجب منه ، وأحاول أن أذكر من هو ، وابن رأيت هذا الوجه ، فلا أدرى أين لقيته ولا أعرف من هو . ولا أستطيع أن أميز هذه الصورة من بين المئات من الصور التى اختلطت فى نفسى وانطمست وضلّت عن أصحابها ، ولكنى كنت على مثل اليقين بأن لى بهذه الصورة عهداً ... فلما بلغنا الدرويشية رأيت الشيخ يتحسس عصاه وبصره عالق بى ، فأدركت أنه أعمى وانه ينظر بعين قائمة ، (١) وعلمت سرّ امتناعه عن ردّ السلام . فرثيت له واشفقت عليه ، فلما سقط على العصا اعتمد عليها ، فقام يتلمس الطريق ، فهاجنى الفضول وأثارتنى الشفقة فقمت أتبعه ، فاذا هو ينزل من الترام فيميل عن الجادّة ، ويتجنب هذه البنى الجديدة ويتغلغل فى تيك الخرائب ، يضرب فيها على غير هدى ، وأنا أتبعه مغتما متألما ، أكره هذه الظلمة الداجية ، وهذه الخرائب الموحشة ، وأزمع العودة فلا تطيب نفسى بفراق هذا الشيخ وتركه يتخبط وحيداً فى هذه المجاهل ، فتعوذت بالله « من شرّ غاسق إذا وقب » ودنوت منه فحيّيته وسألته :

ـ أتريد مساعدة يا عمّ ؟

ـ قال : جزاك الله خيراً يا بنى ... فمن أنت ؟

ـ قلت : عابر سبيل رآك فأحبّ مساعدتك

قال : أحسن الله اليك ... قل لى : أين نحن ؟

ـ قلت : فى خرائب الدرويشية

قال : أعرف ذلك ... هل وازينا القلعة ؟

ـ قلت : نعم

قال : هل ترى قوسين كبيرين قائمين وسط هذه الأطلال ؟

ـ قلت : نعم . . هذه دار آل ه ...

ـ قال : أتعرفها ؟ (وبكى)

قلت : نعم أعرفها . فمالك تبكى يا عمّ ؟

قال : تلك والله دارى يا بنى

فلما قالها صمقت وذكرت أين لقيت هذا الرجل ، وعرفت من هو . ولكن ما بال هذه الشيبة ، ما هذه العصا ، ما هذه الثياب ؟ ما الذى أناخ عليه فهدّ شبابه ؟ أىّ سهم من سهام الدهر أصمى بصره ؟ حرت وحزنت ولكنى تجاهلت وقلت :

ـ دارك أنت يا عمّ ؟

ـ قال : إى والله يا بنى . . . ألم تسمع بها ؟ لقد كانت من أجمل دور دمشق . لقد كان من تحت هاتين القوسين قاعة من أفخم القاعات ، يؤمها السيّاح من أوربا وأمريكا ليروها ويعجبوا بما فيها . لقد كان فيها بركة مصنوعة من ألف وثلثمائة قطعة صغيرة من الأحجار الملوّنة . . . لقد دفعوا الى فى سقفها الخشبى ثمانية آلاف دينار . . . ولكن ما فائدة الكلام ؟ لقد خسرت ما هو أعزّ علىّ منها : زوجتى وأولادى . . .

(وانطلق يبكى بكاء موجعاً)

لقد كان ذلك ليلة العيد ، فى مثل هذه الليلة . . . وكنا قد ذقنا فى رمضان الأمرّين من الخوف والرعب ، وكنا كأننا فى ساحة حرب : بينما نحن جالسون آمنون ، إذا بالرصاص يصفر ، وإذا هى المعركة : يهجم عشرون من الثوار ، فيطردون جيشاً فيلجئونه الى القلعة ويضطرونه الى الاعتصام بجُدُرها ، ويؤوبون وقد غنموا ما شاءوا من مجد ومال وعتاد ، فيخرج أولئك ، فيتبخترون بالساحة (يطلبون الحرب وحدهم والنزال) ، وتنطلق أفواه المدافع تلقى خطب البطولة على النساء والأطفال :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلاّ برزت الى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

***

آه يا بنى . لا تلمنى إذا بكيت وأذهب البكاء بصرى ، فقد سحقت المصيبة قلبى . . . كان ذلك ليلة العيد ، وكانت الدار

(*) لايقعن فى وهم أحد من القراء انى أصف شخصاً بعينه ، أو أسرة بعينها ، فلست اكتب تاريخاً ، ولكنى أكتب قصة

(١) العين القائمة هى التى ذهب بصرها ، وبقيت حدقتها سالمة .

تضحك سروراً ، وترقص بهجة ؛ وكان الأطفال ينتظرون مدافع العيد ، ليفرحوا ويمرحوا ، ويأخذوا عيديّاتهم . . . فلما انطلقت هتف الأطفال ، وصاح النساء ، وابتسم الرجال ، ولكن . . .

آه من لكن . . . لقد هدّت (لكن) كياني ؛ لقد طمست بصري ؛ لقد جعلتني قبراً يمشي ، ولكن هذا السرور لم يدم ؛ ولم تكن إلا لحظة حتى استحال الهُتاف بكاء ، والصياح ولولة ، والابتسام حيرة وجزعاً . لم تكن مدافع العيد ، بل كانت مدافع الموت نزلت على أجمل دار في دمشق ، وأهنأ أسرة فيها ، فجعلت هذه الأسرة موزّعة بين الموت والشقاء ، وهذه الدار مقسّمة بين النار والدماء ، ثم انجلت العاصفة ، فاذا هذه الدنيا الناعمة العريضة تلّ من التراب . . .

لقد حزنا وجزعنا ، ولم ندر ماذا نصنع ، فحملت الأم طفلها الرضيع ، وأمسكت بطفلها الآخر ، وكادت تنجو لولا أن عاطفة الأمومة قد عادت بها لتنقذ سائر أولادها ، فسدت النار سبيلها فابتغت سبيلاً غيره ، فاستقبلها اللهب ، فماتت هي وأولادها ، يلفّهم كفن من لسان النار الأحمر . . .

أما أنا وولدي الشاب — رحمة الله على شبابه ... آه ! — أما نحن فما زلنا نجيء ونذهب ، نحاول أن ننقذ هذا ونخلص هذه ، حتى حملنا الجميع وكدنا ننجو ، بل لقد نجوت أنا ، وتلفت لأراه فحال بيننا اللهب ، ورأيته يشير إليّ بسلام الوداع ثم يسقط صريعاً . . .

لم ينج إلا أنا وولدي الصغير ، وليته لم ينجُ ، ولكن ماذنبه هو ؟ إنه بريء ، إنه نشأ على الفضيلة والعفاف ، وربي على الاستقامة والشرف ، فكان أكمل التلاميذ خلقاً وأجملهم خلقاً ، وأقومهم سيرة ، وأكثرهم اجتهاداً ؛ لم يعرف قط إلا طريق المدرسة ، حتى إذا وقعت الواقعة لم يع على نفسه إلا وهو يدور في الأسواق ليلاً بإزار النوم ، فاستحيا وجزع وعاد إلى الدار . . . فلم يجد داراً ، وجد بقعة من جهنم وقودها الناس والحجارة ، فارتد هائماً على وجهه ، وكان ذلك آخر عهدي به

لقد نسي من بعد هذه الفترة من حياته ، نسي أباه المفجوع وأمه الشهيد ، وأخاه القتيل ، وأهله الصرعى ، واستقر في نفسه أنه مخلوق نبت من الأرض ، بين سوق علي باشا ، والسوق العتيق ، وشارع النصر ، وميدان المرجة ، ثم قادوه بعد إلى معابد الرذيلة ، الى مذابح الأخلاق ، إلى هذه المزابل القذرة ، إلى العباسية وأولمبيا وتاجادا فقتلوه . . . آه يا بني إنهم لا يقتلون بالقنابل والرصاص والسيوف والخناجر إلا قليلاً ، ولكنهم يقتلون دائماً ، يقتلون الأمم بالحانات والقينات (الأرتستات) والأزياء والمدارس والقوانين . . .

وأدرك الشيخ العجزُ فهوى إلى الأرض وهو يبكي وينشهق ، وأن نفسه لتكاد تخرج في شهقة من شهقاته

* * *

كانت الأنوار تشع من العباسية ، وأولمبيا ، وتاجادا ، والأمبير ، وراديو ، وروكسي ، وهذه الملاعب الخشبية التي أقاموها على أطلال الدرويشية والسنجقدار احتفالاً بالعيد ، وكانت أصوات الموسيقى ، ورنات الضحك ، وصيحات الفرح تشق سكون هذا الليل . . .

وكان الشيخ يجود بنفسه على أنقاض دمشق لا يدري به أحد

* * *

أما الشعب الثاكل فكان يرقص على رفات الشهداء ، أما الشعب فقد كان يفرح بالعيد . . . .

علي الطنطاوي

أيها الشبان !

لبول بورجيه

بمناسبة وفاته فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٥[١]

ترجمة الأستاذ عبد الحليم الجندى

اليكم هذا الكتاب يا شباب الوطن ، الذين تتراوح أعماركم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين ، والذين تبحثون فى مؤلفاتنا عن جواب عن المسائل الآخذة عليكم مذاهب التفكير ، أما الجواب فيعتمد قليلا على حياتكم المعنوية ، حياة فرنسا ذاتها ، فلسوف تسيطرون فى العشرين سنة المقبلة على مصائر هذه الأمة العجوز .... أمنا جميعاً

ماذا حصلتم من مؤلفاتنا ؟ هذا سؤال يخاف الكتاب النزيهون من تبعاته . . . .

فى كتاب « التلميذ »[٢] بحث لهذه التبعات ، وفيه دليل على أن الصديق الذى يطالعك وأنت تطالعه إنما يملؤه إيمان عميق بسلطان الأدب ، ودليل آخر على أنه يفكر فيك أيام درجت تتعلم الهجاء ، أيام كنا نحن كاسفى البال نوقع ألحان قريضنا الناشئ على رنين المدافع الفاغرة أفواهها على باريس ، أيام كان كبارنا فى صفوف المعركة ، وكنا نحن الصغار فى صفوف الجامعة ، ترزح ضمائرنا تحت عبء فادح هو إحياء فرنسا

كنا نناجيك يا شباب اليوم بما ناجاك به بانقيل : « أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام التى لم تنفرط من عقد الزمان بعد ، أقبلوا كالفجر الطالع ، واملأوا آفاق الورى بالنور .... »

كنا نتمنى أن يشرق فجركم وضاء يغمر الورى إشراقاً ، فلقد كان فجرنا يختنق ببخار الدم الذى يسم الأفق ، وكنا نعرف أن علينا أن نعيد لكم فرنسا سيرتها الأولى ؛ ولئن كنا صغاراً فلقد كنا نعلم أن أفضل ما علمنا أساتذتنا هو « أن الظفر أو الخذلان فى الخارج إنما هما مظهر المنعة أو الانحلال الداخلى »

كنا نعلم أن نهضة ألمانيا فى فاتحة القرن لم تكن إلا عملاً من أعمال (النفس) ، وكنا نعلم أن النفس الفرنسية هى التى انكسرت فى حرب السبعين ، وأن الأزمة الفرنسية إنما هى أزمة نفسية عبر عنها دعاس حينما قال : « . . . حذار . . . حذار . . . إنها برهة عجلى ما أسرع أن تفوت . . . تلك البرهة التى يمكن أن يكون فيها الفتى حساساً كله عواطف ، أو متشككاً أو ساخراً أو مهذاراً . أما الله ، وأما الطبيعة ، أما العمل والزواج والحب والبنون ، فأولئك أمامك دائماً . . . أولئك يجب أن يحيوا أو أن تموت . . »

بلى : هذا الجيل الذى أنا منه والذى زخرت نفسه بالآمال الجسام ، كم جاهد لمجد فرنسا ! . إن نفسى لتذوب حسرات كلما تذكرت أن رجال السلطة قد تخلوا عنا فى غضون هذا الجهاد العاصف ، وأن الطبقة الوسطى هى التى غذت فرنسا فى العشرين عاماً الماضية بالقادة والساسة والفنانين العباقرة حتى ليتساءل المرء : « ما أقدر هذا الفلك الفرنسى السيار ! ما أكبر حيوية هذه الأمة الفرنسية ! إن خطاها لاتني حيث كانت تهلك أية أمة أخرى! »

هذه الطبقة الوسطى التى شهدت بعض الزعماء يضحون بالعزيز عليها من العقائد باسم الحرية ، ودجاجلة سياسيين يلعبون على الاقتراع العام فيسمو التدجيل بكفاياتهم المتواضعة إلى أسمى الدرجات . . كم تحملت لتبعث فرنسا فى العوالم من جديد .. ! ولئن خطر الجند الفرنسيون ذهاباً وجيئة ، أو أضمرت الحكومات لنا الاحترام ، أو تقدم التعليم العالى ، أو كانت الآداب الفرنسية ما برحت تحمل لفرنسا لواء العبقرية والمجد ، فلهذه الطبقة الوسطى تلكم اليد العليا . . .

كيف تحيا بك فرنسا وتنهض ؟ هذه مسألة الساعة

إنك لا تتذكر صور أولئك الخيالة البروسيين وهم يتبخترون على أرض فرنسا ، يهزون أعطافهم كبرياء ، ويصعرون خدودهم صلفاً ؛ أما نحن فكم غصصنا بهذه الرؤى .. وما كنا نحسب أن الصلح يمحوها من الأحلام ، أو أنه سيسوى أسباب الخصام والسلام

إننى أعلم أنك على استعداد لتهب فى سبيل الوطن روحك ، لكن ليس هذا الفخر ، ولا يكفى أن تعلم كيف تموت ، بل يجب أن تعلم كيف تحيا . . .

هل لك مثل أعلى من أمثالنا العليا ؟ أفيك ايمان أقوى مما تنطوى عليه أضالعنا ؟ هل لك آمال دونها آمالنا ؟ . . .

ان كان الجواب نعم ، فشكرا

---

(١) انظر البريد الأدبى فى هذا العدد (٢) أحد كتب بول بورجيه

وان كان الجواب لا . . .

ان كان الجواب لا . . .

ان كان الجواب لا : فان من شباب هذا الجيل طرازين كلاهما نزى وكلاهما مشئوم

أما الأول فهو ذلك المرح المستهتر بالأشياء ، الذى همه وركبر مناه فى الدنيا أن يستمتع ، وعلى الأصح أن يصل وأن ينجح ، فاذا كان سياسيا أورجل أعمال أو أديبا أو محاميا أو فنانا أو ضابطا فانما « . . ذاته » هى الأمل المشتهى ، وهى المبدأ والمنتهى ؛ يندفع فى تطبيق قانون تنازع البقاء على اساليب عيشه وكفاحه اندفاعا بربريا ؛ هو لا يهوى من الحياة الا النجاح ، ولا من النجاح الا المال ؛ ولقد يقرأ ما أكتب كما يقرأ كل شيء ليكون فقط « . . مع الدنيا . . » ؛ ولقد يرميني بأنى أهزأ بالجمهور وما أنا الا صورة منه ؛ طراز إباحى فى كل شيء ؛ ليس المثل العالى لديه الا فكاهة ! فاذا مارس الديمقراطية مثلا فليتبوأ مقعده فى مجلس النواب . . . أو ليس ذلك الشيطان الرجيم ؟ . . هذا الذى لم يقطع من مراحل الحياة خمسا وعشرين مرحلة وليست نفسه الا « عدادا » لحساب الملذات

ثم أرأيت إلى ذلك الآخر الأخلق بالزراية والمقت ، هـذا طراز قد اجتمعت له أرستقراطية الأعصاب والصلف ، أبيقورى مهذب على نقيض الأول ؛ فذلك أبيقورى متوحش ، وهذا الأرستقراطى إباحىّ لبق ؛ طافت كل الأفكار برأسه ، فلا تحدثه عن التجديف أو عن المادية ، فان للمادة عنده معنى غير ذى حدود ... هو أنفذ بصيرة من أن يجهل أن كل دين دانت له الدنيا فى إبانه . . . هو لا يدين إلا « لذاته » . . ليس الخير ولا الشر ، ولا الجمال ولا القبح أموراً ذات بال تمنيه ، وإنما نفسه (أداة) متعلمة يلتذ بتجريدها وتمطيل مزاياها كأنها موضوع تجارب ، لا يفقه فى الحق ولا فى الباطل ولا فى الانسانية ولا فى البهيمية ، بل كما قال (بارس) تناهت به شهواته إلى عبادة ذاته أو لذاته .....

لا تكونوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء أيها الفتيان ....

لا إلى الواقعيين المفرطين فى عالم الحس ، ولا إلى المتفيهقين المستهترين فى عالم المعقول ؛ ولا يركبنكم شيطان الغرور فيذلنكم للكبرياء والشموذة ، بل عليكم أن تجعلوا شعاركم : « إنما يحكم على الشجرة بما تؤتى من ثمار »

إن ثمة حقيقة لا مراء فيها لأنها بين الضلوع ، تبصرونها وتحسون بها : تلك هى النفس . وإن من الفكر التى تسيطر على أذهانكم لأفكاراً تضعف من قوى الارادة والمحبة ، فاعلموا أنها أفكار زيوف مهما طلاها السحر بالألوان . وزيدوا « المحبة والارادة » نماء فليس سواهما إلا عار دائم وعذاب مقيم

واعلموا أن العلم الصحيح اليوم يعرف أن حدود « العالم المجهول » تتاخم حدوده ـ وكما قال لتريه : هذا بحر غامض تلاطم شواطئنا لجاته ، تشهده نواظرنا والهة ، لا زورق يسبح بنا فيه ولا شراع .... فقولوا للأولى زعموا أن عنده الظلمات والهاوية : « إنكم لا تعرفونه »

وما دامت فى جنوبكم هذه النفس فتمهدوها

إن فرنسا تريد من كل فرنسى أن يفكر فيها ؟

باريس فى ٥ يونيو سنة ١٨٨٩

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH رابع غزاة المكروب

يكتشف مكروب الكوليرا فى مصر

— ٧ —

وفى الرابع والعشرين من مارس عام ١٨٨٢ اجتمعت الجمعية الفسلجية Physiological فى برلين فى حجرة صغيرة حقيرة بحجمها ، كبيرة عظيمة بمن اجتمعوا فيها من أعلام رجال العلم فى ألمانيا . فكان فى الحاضرين بول ارليس Paul Ehrlich وكان فيهم علامتنا الجهبذ الكبير الأستاذ الشهير روداف ڤرشو Rudolph Virchow ، الذى ذكرنا قدماً ما كان من استهانته لكوخ المأفون ودعواه المزعومة فى بشلات الأدواء . وكان فى الحاضرين كل مقاتل للأمراض له اسم يذكر فى ألمانيا

ولما اكتمل الجمع ، قام فيهم رجل صغير ، جَعدُ الأسارير ، على عينيه نظارتان ، وفى يديه أوراق أخذ يقلبها فى خَبلة ظاهرة وهى لانفتأ ترتعد بين أنامله . وأخذ يتكلم فاضطرب صوته اضطراباً خفيفاً . هذا كوخ قام يخبر الجماعة فى تواضع رفيع كيف تأتى له أن يكشف عن مكروب هذا الداء الذى يحظى بنصيب الأسد من الأدواء فيفوز برجل من كل سبعة يموتون . وأخبرهم دون أن يُجلجل بصوته ، وفعل مصاقع الخطباء ، أن أطباء العالم يستطيعون اليوم التعرف إلى بَشِلة السل ودرس عاداتها وخصائصها . وأخذ كوخ فى الحديث عن هذه البشلة ، أصغرِ أعداء الانسان وأكبرها به فتكا ، فعرّفهم بمكامنها ومراصدها وبمظاهر ضعفها ومظاهر قوتها ، وأراهم طرائق لو أنهم سلكوها فلعلهم ماحون هذا المكروب القتال من على ظهر البسيطة

وجلس كوخ ، وانتظر النِّقاش والحِجَاج والمعارضة التى لابد منها عندما يختم باحث عرض بحث نورىّ كالذى نحن بصدده . ولكن لم يقف رجل على قدم ، ولم تنفرج بكلمة واحدة شفتان . وأخيرا اتجهت الأنظار إلى ڤرشو ، سلطان دولة العلم الألمانية ، ومهبط وحى الآلهة ، والرجل الرّعاد الذى كان يعبس للنظرية الجديدة تهم بالظهور فى تفسير الأدواء فيقضى عليها قبل ولادتها

اتجهت الأنظار إلى هذا الداهية ، فانتصب قائماً ، ووضع قبعته على رأسه ، وغادر المكان — فلم يكن عنده ما يقول !

لو أن لوڤن هوك كشف هذا الكشف الخطير فى قرنه السابع عشر ، أى قبل أيام كوخ بمائتى عام ، لا ستغرق انتشار خبر ذلك فى أوربا أشهرا عديدة طويلة ؛ أما فى عام ١٨٨٢ ، فلم ينفضّ اجتماع الجمعية الفسلجية حتى شاع خبر هذا الكشف فى الناس ، وحمله البرق فى نفس الليلة الى أقاصى اليابان شرقا ، الى أقاصى أمريكا غربا . وأصبح الصباح فكنت تراه فى جرائد الأمم كالقنبلة انفجرت على صفحاتها الاولى . وهاجت الدنيا وماجت لاكتشاف كوخ ، وجاءه الأطباء زرافاتٍ فى السُّفُن وعلى القُطُر تسأله تعليمهم كيف يُطبخ الفالوذج اللحم ، وكيف تُضرب المحاقن مليئةً بالجراثيم فى أجسام الخنازير وهى تمتلج وتضطرب

كشف بستور ما اكتشف ، فأثار فرنسا من جرائه الى التشاحن والتطاحن . أما كوخ فكشف عن مكروبة السل الخطيرة فهزّ بها الدنيا هزّا . وكلما اجتمع حوله المعجبون صرفهم بتلويحة من يده وهو يقول : « ليس لىكشفى كل هذا الخطر الذى تزعمون » . وتهرّب منهم ، وتهرّب من تلاميذه يتفرغ ما استطاع لأبحاثه الجديدة . وكان مثل لوڤن هوك يكره التدريس ، ولكنه غُصب عليه فكان يأتيه كاظما كرهه ، إلا تمتمةً وراء شفتيه ، فدرّس ليابانيين يتكلمون الألمانية سقيما ، وكلامهم بها أيسر عليهم من فهمهم اياها . ودرّس لبرتغاليين كانوا قوما يستحيل عليهم صيد المكروب ولو تعلموه على كوخ مائة عام . وخاصم بستورَ خصومة كبرى سنأتى عليها فى الباب القادم . وقام بين الفينة والفينة بتعليم عونه القديم جَفكى كيف يتصيد مكروب التيفود . واضطُر اضطرارا الى حضور استقبالات .

وتقبّل الشارات ، فاذا فرغ من هذه عاد الى عونه الآخر لُفلار وكان من ذوى الشوارب الكبيرة الرائمة فأعانه فيما هو فيه ، وكان قد أخذ فى سبيل اقتناص ذلك المكروب الذى يَقْطُر سمًّا فى حلوق الاطفال الرضّع فيميتهم اختناقا ، واعنى به مكروب الدفتريا

اكتشف كوخ طريقته لتكثير المكروب على سطوح الاطعمة الجامدة ، وهى طريقة مُغرقة فى البساطة ، إلا أنها على بساطتها فتحت له ابوابا شتى إلى كشوف شتى . ووصفها جَفْكي بعد ئذ بزمن فقال إنها كانت كالشجرة المباركة ، كُثْر طرحها ، وثقلت به فروعها ، فما كان على كوخ إلا أن يهز بجذعٍ فتساقط فى حجره بكل جَنِىٍّ من ثمرها

ولقد قرأت جميع ما كتب كوخ فلم أجد فى شيء منها قرينة تدل على أنه عدّ نفسه يوماً كشافاً كبيراً ومبتكراً ذا بال . وهو لم يستشعر يوماً — كما استشعر بستور — أنه كان بحق قائداً عظيما فى حربه التى أثارها على المكروب ، وقد كانت من أشد الحروب التى أثيرت عليه ، ومن أجل الوقائع التى دبّرها الانسان لصدّ غارات الطبيعة ودفع قساواتها . كان هذا الرجل القصير القليل الملتحى لا يطلب الى الشهرة سبيلا ، ولا يمثل من أجلها فى الناس تمثيلا . ولكنه مع هذا رفع على مسرح الكون ستارا عن درامة أخذت فصولها تتكشف عن معارك حامية أثارها اللاحقون من العلماء على رسل الموت مترسمين فيها خُطى هذا السبّاق الأول ، مخاطرين بأرواحهم الى حد النزق ، وبأرواح سواهم الى حد الاجرام ، كل هذا ليثبتوا أن المكروبات أسباب الأدواء

ولنضرب مثلا لهؤلاء رجلا يدعى الدكتور فِيلَيسِن Fehleisen ، خرج من معمل كوخ ، فوجد مكروبا مستديراً كالكرة ، وقد تشبث بعضه ببعض فأصبح كحبات السُّبحة ، فأخذ هذا المكروب من جلد انتزعه تقويراً من مرضى بداء الحمرة [1] ، ثم ربّاه ، وبناء على نظرية حمقاء تقول إن اصابة من داء الحمرة قد تذهب بداء السّرطان ، أطلق صاحبنا البلايين من هذه المكروبات فى مرضى مسروطين قلّ الرجاء فيهم ، وبعد أيام قلائل

النهبت جلود هذه الحيوانات التجريبيّة من بنى الانسان بداء الحمرة وكاد يقضى عليهم قضاء مبرماً ، وفاز صاحبنا الأرعن ببرهانه : إن هذه الحبّات السُّبحية Streptococcus سبب داء الحمرة

ولنضرب مثلاً آخر تلميذاً من تلاميذ كوخ ، وبطلا من الأبطال الذين ذهب بأسمائهم الزمان ، وعفى على ذكراهم النسيان ، ذلك الدكتور جاريه Garrè بمدينة بازل Basel ، فهذا الرجل سمع بستور يدّعى أن نوعاً آخر خاصاً من المكروب هو سبب الدمامل التى تصيب الانسان ، فما كان منه إلا أن قام إلى أنابيب اختبار ملأى بهذا المكروب فدعك بها ذراعه ، فكان جزاءه خُراجٌ كبير وعشرون دُمّلاً ؛ وكان من الجائز أن يذهب ضحية جسارته ، ولكنه احتمل أوجاعه بسن ضاحكة ، ووصف ما أتى بأنها تجربة « غير لطيفة » ، وصاح اغتباطا بفوزه قال : أنا الآن أعلم أن هذه الحبوب العنقودية Staplylooccus هى سبب الدمامل والخراجات

وجاء عام ١٨٨٢ وقارب الختام ، وانتهى بانتهائه الخصام الشديد الذى قام بين بستور وكوخ ؛ وهو خصام على شدته لم يخل مما يضحك . أما بستور فانفض يتفرغ بكل حوله إلى غياث الشياه والأبقار الفرنسية مما أصابها . وأما كوخ فانفض يتشمم كالكلب فى آثار مكروب جديد ، هو فى ذاته سهل القتل سريع الفناء ، إلا أنه مع هذا شر المكروبات افتراساً للناس ؛ ذلك مكروب الكوليرا . ففى عام ١٨٨٣ جاءت الكوليرا من آسيا تطرق باب أوربا . فرّت من مخابئها فى الهند وتسلّلت فى خفاء عَبْرَ البحار ، وجازت الصحراء والرمال إلى مصر ، ثم انبثّت بعدواها المخيفة فى الاسكندرية ، وبقيت أوربا تنظر اليها من وراء البحر الأبيض وَجِلة مرتاعة . خيّمت هذه الوافدة المُنكَرَة على ميناء مصر الحيّة فخفّ نبض الحياة فيها ، وعم السكون شوارعها اكتئابا لفواجع النهار الحاضرة ، وارتقابا لفواجع الليل التى هى لا بد آتية ؛ ولم يكن بيدى الناس من أمر هذه الوافدة شيئاً ، إلا أنها وباء يسترق طريقه خُفية إلى جسم الرجل السليم فى الصباح ، فاذا أتى العصر التوى تشنجاً وانطوى ألماً ، فاذا خيّم الليل تباعد إلى الأبد ما بينه وبين الآلام

وتنافس كوخ وبستور فى كشف مكروب هذه الوافدة التى طلعت مُنذُرها حمراء فى الأفق البعيد . وما التنافس بين كوخ

---

(١) ويسمى كذلك بالنار الفارسية وبالرشكين وهو مرض وبائى ينتج من دخول المكروب المذكور فى الجسم فيحدث فيه فوق الاختلال الباطنى اختلالا ظاهراً يبدو على الجلد فى صوره انتفاخات مستديرة حمراء ؛ وهو داء شديد الوطأة لاسيا على الأطفال والعجائز والكبيرين

وبستور إلا تنافس بين ألمانيا وفرنسا . فقام كوخ وصاحبه جَفْكِي عن برلين قاصدين إلى مصر ، وحملا معهما مكرسكوبات وحيوانات ؛ وكان بستور في شُغُل شاغل يبحث مكروب الكَلَب ، فأوفد عنه أميل رُو Emile Roux ، والصموتَ السّكوت توّييه Thuillier وكان أصغر بُحّاث المكروب في أوربا . وعمل كوخ وصاحبه الليل والنهار ، فنسيا النوم والطعام ، وقاما في حجرات موحشة يقطّعون جثث الموتى من المصريين . وقاما في معمل شديد الحر شديد الرطوبة حتى كاد جوه يتقطر ماء ، كما تقطرت أنفاهما عرقاً على مكرسكوباتهما – قاما يحقنان قردة وكلابا وقططا ودجاجا وفئراناً بالمواد الوبيئة التي استخلصاها من جثث الاسكندريين الذين ماتوا من الوافدة قريباً . ولكن بينما الفريقان الألمانيُّ والفرنسي يستميتان في طلب هذا المكروب الجديد ، إذا بالوافدة تتزايل لغير ماسبب ظاهر ، كما كانت جاءت لغير علة معروفة . ولم يكن منهم من تمكن من معرفة شيء عن المكروب المنظور ، فنظروا إلى الموت المتراجع نظرة الآسف على فرصة أمكنت ثم أفلتت

وهمّ كوخ وجَفْكِي بالرجوع إلى برلين ، وبينما هما يتأهبان للرحيل جاءهم رسول ينتفض ارتعادا ، فقال لهم : إن الدكتور توّييه الباحث الفرنسي مات ، ومات بالكوليرا

كره بستور كوخ كرهاً شديداً ، وأخلص له الكره بقدر ما يكره الفرنسي الصميم ؛ وكره كوخ بستور كرهاً شديداً ، وأخلص له الكره بقدر ما يكره الألماني الصميم . ومع كل هذا علم الألمانيان بالخبر حتى خفّا إلى رُو Roux يقدمان عزاءها ويبذلان عونهما . وصحب كوخُ رفات توّييه إلى مقره الأخير ، وقد حملوه في صندوق بسيط عار من الزخرف . ولدى قبره وضع كوخ على تابوته الأكاليل وقال « إنها غاية في البساطة ، إلا أنها من الغار . العرف يجرى بأن الغار هدية الأبطال » . مات هذا الشاب الجسور ، أماتته تلك المكروبات الضعيفة التي جاء يتقفاها اقتناصاً ، فاقتنصته في الطّراد من حيث لا يدرى

وانتهت جنازة هذه الضحية الأولى ، فعاد كوخ إلى برلين ومعه صناديق بها عيّنات كان صبغها بصبغات قوية فتراءت فيها مكروبة على صورة الواو . فكتب تقريره إلى وزير الدولة ، وقال فيه : « لقد وجدت جرثومة واحدة في كل حالات الكوليرا التي بحثتها .... ولكنى لم أثبت أنها سبب هذا الداء ، فابعث بي إلى الهند حيث توجد الكوليرا دائماً . . . . ففي الذى وجدته ما يكفي لتبرير إرسالى إليها »

وغادر كوخ برلين قاصدا كلكتّا تصحبه ذكرى (توّييه) وذكرى فاجعته التي كانت . وصحبه خمسون فأراً قام عليها وصياً راعياً . وزاد دوار البحر في عنته . فكثيراً ما تصورت ما خاله ركاب السَفينة من أمره ، لعلهم ظنوه مبشراً حمله تحمسه على ماهو فيه ؛ أولعلهم حسبوه أستاذاً همه التنقيب عن تراث الهند القديم

ووجد كوخ تلك المكروبة الواوية في كل جثة من الجثث الأربعين التي فحصها . ووجدها كذلك في مَعَى المرضى عند أول إصابتهم بالكوليرا . ولم يجد أثراً لها في مئات الهنود الأصحاء الذين امتحنهم . ولم يجدها في أي حيوان سليم ، من الفأر الصغير الى الفيل العظيم

وسرعان ما تعلّم كوخ تربية هذه البشلات الواوية نقيةً على فالوذج حساء لحم الأبقار ، وما استطاع القبض عليها في أنابيب اختباره حتى درس عادات هذه المخلوقات النباتية الصغيرة الشريرة فعرف أنها تموت سريعاً إذا هي جففت ولو تجفيفاً طفيفاً ، وعرف كيف تتسلل إلى الرجال الأصحاء من ثياب الموتى وأفرشتهم بعد أن تتلوّث بأقذارهم ؛ واستخرج هذه الواوات عينها من صهاريج الماء الآسن التي اجتمع الهندوس حولها في أكواخ حقيرة ، بل زرائب بائسة ، تخرج منها توجعات المرضى يستغيثون على الموت وليس من يُعدى ولا من يمين

وركب كوخ البحر عائداً إلى بلده ، فاستقبله الألمان استقبالهم قائداً عاد منتصراً ، واجتمع له العلماء الأطباء ، فقال فيهم : « إن الكوليرا لا تنشأ من ذات نفسها ، فلا بد للمكاور من ابتلاع بَشِلّتها الواوية ، وهذه البشلة لا يمكن أن تنشأ إلا من بشلة مثلها ، وهي لا تنشأ من شيء آخر غير هذه البشلة ، وهي لا تنشأ من العدم ، وهي لا تنمو وتتكاثر إلا في أمعاء الانسان ، وإلا في الماء إذا زاد قذره كماء الهند »

ألا حمداً لكوخ ولأبحاث كوخ وشجاعته ، فهي التي أمّنت أوروبا وأمريكا من غارات هذه الوافدة الشرقية ، ولم يبق لتأمين

العالم منها إلا تمدين الهند ونشر الأنظمة الصحيّة فيها

— ٨ —

ومن يد الأمبراطور نفسه تسلم كوخ وسام التاج بنجمته ؛ ومع هذا ظلت قبعته الريفية مطمئنة على رأسه الأكيس ؛ وكلما أعجب به المعجبون وأثنى عليه المادحون قال : « أنا إنما أفرغت كل وسعي ، فان كنت نجحت فوق نجاح غيري ، فما هذا إلا لأني وقعت اتفاقاً من مجاهل العلوم الطبية على أصقاع بكر بها التِبر كثير مركوم . فليس لي في الذي وجدت فضل كبير »

كان البحّاث الذين اعتقدوا أن المكروبات أسباب الأدواء وأعداء الانسان رجالاً شجعاناً ، ولكن هذه الشجاعة لم تفت خصومهم من الأطباء الأقدمين وعلماء الصحة المحافظين الذين هزءوا بالأحاديث الجديدة عن المكروبات المزعومة وظنوها ضلالة وخرفاً ، ومن هؤلاء الخوارج الأستاذ الشيخ بيتنكوفر Pettenkofr ، أستاذ ميونيخ Munich ، وزعيم الشكاكين الذين لم تقنعهم تجارب كوخ على بساطتها ووضوحها . فلما عاد كوخ من الهند ومعه هذه المكروبات الواوية التي آمن بأنها أسباب الكوليرا ، كتب له بيتنكوفر ما معناه : « أرسل إلي شيئاً من جراثيم الكوليرا المزعومة ، وأنا أثبت لك أن لا ضرر فيها »

وبعث كوخ إليه بأنبوبة تمج بهذه الجراثيم القتالة ، فما كان من صاحبنا إلا أن رفعها إلى فمه وابتلعها ابتلاعاً . فارتاع كل صياد يؤمن بالمكروب ، فقد كان في هذه الأنبوبة بلايين من هذه الواوات تكفي لعدوى جيش ؛ ولكن الأستاذ تمطى بعد ما شربها استخفافاً وصاح يتحدّى من خلال لحيته الكثة : « والآن فلنصبر وننظر هل تجيئني الكوليرا كما يزعمون » ، وانتظروا ولكن الكوليرا لم تأت لهذا الأستاذ المجنون ، ولأي سبب تخلفت ؟ لم يعلم أحد عندئذ ولا يعلم أحد إلى الآن من سر هذا شيئاً

بلغ النزق الجسور بيتنكوفر أن قام بتجربة جاز أن يكون بها قضاؤه ، وبلغ كذلك به اليقين بعدها أن زعم أنها قضت له فيما بينه وبين خصومه . فصاح فيهم : « ليس للمكروب شأن في الكوليرا ، إنما الشأن لاستعداد الشخص المصاب » ، والاستعداد كلمة مبهمة لا مفهوم لمعناها

فصاح كوخ يجيبه : « لا كوليرا إلا بالبشلات الواوية »

فرد عليه بيتنكوفر : « ولكني بلعت الملايين من بشلاتك القاتلة في زعمك ولم يصبني حتى وجعٌ في بطني »

كان في هذا الحوار ، وا أسفاه ، ما يكون بكل حوار على شديد : كلا الطرفين مصيب بعض الاصابة ، وكلاهما مخطئ بعض الخطأ . فقد توالت الأربعون عاماً التي جاءت من بعد كوخ بحوادث كلها تؤيده في قوله إن الناس لا تأتيهم الكوليرا إلا إذا هم بلعوا بشلاته الواوية ؛ وكل السنين التي توالت علمتنا أن تجربة بيتنكوفر ما هي إلا مثل غامض من كثير أبت حُجُب المجهول أن تكشف لنا عن تفسيره ، حتى في هذا العصر الحاضر الذي نحن فيه عجز بحاث المكروب عن رفع طرف واحد من تلك الحجب الكثيفة ، فالمكروبات الفاتكة تملأ الكون ، وتتسلل إلى كل مكان ، وهي مع ذلك لا تقتل منا إلا بعضنا ؛ أما بعضنا الآخر فانه يقاوم مقاومة تحير عقولنا اليوم كما حيرت عقول الجيل الصاخب في العقد الخامس من القرن الماضي ، حين الرجال لا يبالون بالموت في سبيل اثبات ما يدعون أنه الحق ؛ فما كان بيتنكوفر هازلا فيما صنع . وكيف يهزل من مشى الى الموت حتى صار منه على مدى شبر واحد . وقد بلع غيره من البحّاث على غير عمد مثل الذي بلع من مكروب الكوليرا وماتوا على أثر ذلك شر ميتة

وما قاربت أيام كوخ العظيمة تمامها حتى أخذ بستور وأعماله الكبرى تتراءى مرة أخرى ضخمة هائلة ، فتلفت الناس والدنيا وتَرُجُّ بكوخ وبغيره من البحاث الى الوراء في رقعة الحوادث الخطيرة . فلندع الآن كوخ ، ولنتركه إلى مواطنيه الطمّاحين ينصبون له غير عامدين شركا ، بل داهية عظمى ومأساة كبرى طمست قليلا من وهج هذا الاسم الكبير ، اسم الرجل الذي اقتنص من اعداء الانسان والحيوان مكروب الجمرة ومكروب الكوليرا ومكروب السل . وقبل أن أعود الى بستور فأكشف عن الصفحة الأخيرة الناصعة من سفر حياته الخالد ، دعوني أرفع قبعتي وأنحني احتراما لكوخ — هذا الرجل الذي أثبت يقينا أن المكروب ألدّ أعدائنا ؛ هذا الرجل الذي نظّم بحث المكروب فجعل منه علماء ؛ هذا الربّان الذي قاد السفائن في عصر من بطولة وأبطال عفّى الآن عليه النسيان بعض العفاء

(انتهى كوخ)

أحمد زكي

من روائع الشعر الاندلسى

رثاء الأندلس

لشاعر أندلسى مجهول

. . . . قصيدة بليغة من الأدب الأندلسى الرائع تصف أحسن وصف المأساة الأندلسية لم نعثر على قائلها ، وقد طبعها لأول مرة على ما يظهر الأستاذ الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤ مع ترجمة فرنسية وبعض تعليقات بالفرنسية ذكر فيها أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت إلى السلطان بايزيد العثمانى بقصد الاستغاثة ، وأشار إلى أن صحيفة الزهرة التونسية نشرت نتفاً منها منذ سنوات وطلبت من الادباء أن يعلنوا عن صاحبها إذا عرفوه ، ولكن لم يجب الصحيفة أحد : فبقى صاحبها مجهولا ؛ وقد عرضتها على المؤرخ المغربى الكبير السيد محمد بن على الدكالى السلوى فذكر لى أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ، ولعله أبو جعفر بن خاتمة ، وقد تكون مذكورة فى كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الاسكوريال

ولقد احببت أن أرسل إليكم نصها لكى تنشروه فى مجلتكم الحافلة إذا راقكم لعل بين المشتغلين بالأدب الأندلسى من له معرفة بقائلها فيعلنه

سلا — مراكش عبد الرحمن حجى

أحقاً خبا من جوّ رندة نورها وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازهها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليلى أنّ رندة أقفرت وأُزعج عنها أهلُها وعشيرها
وهُدّت مبانيها وثلت عروشها ودارت على قطب التفرق دورها
وكانت عقاباً لا يُنال مطارُها ومعقل عز زاحم النسر صُورُها
هوت رندة الغراء ثم حصونها وأنظارها شنماء (كذا) عز نظيرها
وقد كن عقدا زين القطر نظمها فقد فتح الآن البلاد نثيرها
وفرق شمل المؤمنين لهيبها وقطع من أرحامهم زمهريرها
تسلمها حزبُ الصليب وقادَها وكانت شروداً لا يقاد نَفورُها
وقد ذهبت أديانها ونفوسها وقد دثرت تحت السباء دثورها
فباد بها الاسلام حتى تقطعت مناسبها واستأصل الحق زورها
وأصبحت الصلبان قد عبدت بها تماثيلها دون الاله وصورها
لقرع النواقيس اعتلى بمنارها كرائه أصوات يروع صريرها
فيا ساكنى تلك الديار كريمة سقى عهدكم مزن يصوب غزيرها
أحقاً أخلائى القضاء أبادكم ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادى وفرقة لدى عرصات الحشر يأتى سفيرها
لعمر الهدى ما بالحشا لفراقكم سوى حُرَق سُحم تلظى سعيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها ولا تنقضى أشجانها وزفيرها
ونفس على هذا المصاب حزينة يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
وقلب صديع ماج فيه بلاؤه سويداؤه سوداء جمّ ثبورها
سأبكى وما يجدى على الفائت البكى بعبرة حزن ليس يرقا عبورها
شآبيب دمع بالدماء مشوبة يساجل قطر الغاديات درورها
عويلا يوافى المشرقين بريحه وثكلا بأقمار قد أطفئ نورها
فواحسرتا كم من مساجد حولت وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وواأسفا كم من صوامع أوحشت وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم من لسان كان فيها مرتّل وحفل بختم الذكر تمضى شهورها
وكم من فتى ثبت الجنان مهذب يود المنايا وهو كان يديرها
يصول على الأبطال صولة ضيغم فيرهبه شبل الشرى وهصورها
له فى سبيل الله خير نقيبة تزان لها عين الجنان وحورها
له فى جناب الكفر أجدى نكاية وشعواء غارات يثاب مغيرها
يُراع لها دين الصليب وحزبه ويخزى بها غنصالها وزميرها
وكم أنفس كانت لديه أسيرة فأضحى لعمر الله وهو أسيرها
يحكم فيه الشرك وهو موحد كما قد قضى جبارها ونذيرها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة إذا سفرت يسبى العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لطمت وا حرّ قلبى خدودها وقد أسبلت وادمع عينى شعورها
وإن تستغث بالله والدين لا تغث وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها
وقد حيل ما بين الشفيق وبينها وأسلمها آباؤها وعشيرها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها على الذل يطوى لبثها ومسيرها
وشيخ على الاسلام شابت شيوبه يمزق من بعد الوقار قتيرها
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة تود لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من وقعة البين دائم أساها وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير حيز من حجر أمه فأكبادها حراء لفحٌ هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
وكم من شقىّ يسرت هذه له سبيلاً إلى المسرى يحيف كفورها

كروب وأحزان يلين لها الصفا ... عواقبها محذورة وشرورها
فيا فرحة القلب الذى عاش بعدها ... ويا لعمى عين رآها بصيرها
ويا غربة الاسلام بين خلالها ... ويا عثرة أنّى يقال عثورها
ويا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ... بليت ولم يلفح فؤادى حرورها
وماخير عيش يعذب الموت دونه ... ويغبط قل الأهل فيه كثيرها
فيا ليت شعرى بعد ماصح موتها ... أيرجى على رغم العداة نشورها
ويا ملة الاسلام هل لك عودة ... لأرجائها يشفى الصدور صدورها
وهل تسمع الآذان صوت الأذان فى ... معالمها تمــلو بذاك عقيرها
ويا لعزاء المؤمنين لفاقــة ... على الرغم أغنى من لديها فقيرها
لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدى الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فلو ان ذا الف من البين هالك ... لذابت رواسيها وغاضت بحورها
على فرقة الدين الذى جاءها به ... بشير الأنام المصطفى ونذيرها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلاً حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها ... وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغربيّة الجُنَنَ التى ... تقيها فأضحى جنةَ الحرب سورها
وبلّش قطت رجلها بيمينها ... ومن سريان الداء بان قطورها
وضحّت على تلك الثنيات حجرها ... فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئتَ المنكب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها
وسكّرُها قد بدل اليوم علقما ... لها رجة نار الهيام تثيرها
وعرّج على الاقليم فابك ربوعها ... بسحب يضاهى المعصرات خريرها
وودع بها وفد النعيم فانها ... لها أدمع فهن الدموع يميرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التى ... هى الحضرة العليا زهتها زهورها
فما فى العراقين المتيقين مثلها ... ولا فى بلاد الله طراً نظيرها
ترى الأسى أعلامها وهى خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها ... وزائرها فى مأتم ومزورها
لها حال نفس قد أصيب فؤادها ... وبتت لها اليمنى وحم تبورها
فأنفسها فى الصعق دون افاقة ... كنفس كليم الله إذ دك طورها
وقد ذعرت تلك البنيّات حولها ... فهن بواكى الأعين الرمد مُورها
وقد رجفت وادى الأشى فبقاعها ... سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
لقد اظلمت حتى لفرط حدادها ... سواء بها نجل العيون وعورها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها ... وما كابدت من ذا المصاب نحورها
وما أنس لا أنس المرية إنها ... قتيلة أوجال أزيل عذارها
فلو أحرق الثكل المصابين أصبحت ... تأجج من حر الوجيف بحورها
فيا أصدقائى ودعوها كريمة ... أو استودعوها مَن اليه أمورها
منازل آبائى الكرام ومنشئى ... وأول أوطان غذانىَ خِيرها
وأقروا عليها من سلامى تحية ... يجددها آصالها وبكورها
أمانانها ضاعت فضاعت رقابها ... لقد عميت عين تبدد نورها
أضعنا حقوقَ الرب حتى أضاعنا ... وقضت عرى الاسلام إلا يسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها ... من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا ... كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلانُ صاحب جمعنا ... وبؤنا بأحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا ... وعاثت بنا أسد العدا ونمورها
نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا ... وأموالنا فيئا أبيحت وفورها
علوها بلا مهر وما غمزت لهم ... قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق ... علينا فوفّت للصليب نذورها
وقد كثرت ذؤبانها وكلابها ... وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج البحر هبت دَبورها
علامات أخذٍ مالنا قِبَلٌ بها ... جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تمتحى إلا بمحو أصولها ... ولا تنجلى حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها
أدارت على غربية الدهر أكؤساً ... فظاعا بسكر الدهر تقضى خمورها
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن ... وعضّ بأكباد التقاة عَقُورها
أنادى لها عجم الرجال وعربها ... نداء سراة القفر إذ ضل عيرها
وأستنفر الأدنى فالادنى فريضة ... على زمن الاسلام جلت أجورها
على كل محتاج لفضل دفاعها ... فليس يؤدى الفرض إلا نفيرها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد ... إلى الله يغفر ما اجترحتم غفورها
أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا ... وردوا ظُلامات يبيد نقيرها
ومن كل ما يردى النفوس تطهروا ... فليس يزكى النفس إلا طهورها

لا واستمدوا للجهاد عزائما ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق ... يدع الأعادى سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عرائساً ... على الله فى ذاك النعيم مهورها
وضرب كأن الهام تحت ظلالها ... حثالة نور الورد ذر ذرورها
وطعن يرى الخطى فى مهج العدا ... كاقلام ذات الخط خطت سطورها
يمين هدى إن تتقوا الله تنصروا ... وتحظوا بآمال يشوق غريرها
فلا يخذل الرب المهيمن أمة ... تدين بدين الحق وهو نصيرها
وان أنتم لم تفعلوا فترقبوا ... بوادر سخط ليس يرجى فتورها
وأيام ذل واهتضام وفرقة ... يطاول آناء الزمان قصيرها
وأهدوا لدين الشرك كل خريدة ... خبتها على طول الليالى خدورها
وكل نفيس من نفوس كريمة ... وأعلاق أموال خطير خطيرها
وحق المظيم الشان لاعيش بعدها ... بلايا يمر الطيبات مرورها
فترفع شكواها لعالم سرها ... فليس لها فى الخبر الاخبيرها
عمد أكف الذل فى باب عزه ... بافئدة خوف الفراق يطيرها
فان لم يقل رب العباد عثارنا ... فهذا العدو الضخم حتما يبيرها
آله الورى ندعوك ياخير مرتجى ... لكالحة هز الصليب سرورها
وشقت جيوب المؤمنين وأسخنت
عيونهم والكفر ظل قريرها
وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ ... إذا لم يكن منك التلافى ظهيرها
أغث دعوات المستغيثين انهم ... ببابك موقوفو الحشاشات بورها
وليس لهم إلا الرسول وسيلة ... شفيع الورى يوم التنادى بشيرها
امام الهدى بحر الندى قامع العدا ... وأول رسل الله فضلا أخيرها
محمد المختار من آل هاشم ... سراج السموات العلى ومنيرها
دعوناك أملناك جئناك خشعا ... بأنفس استولى عليها قصورها
بجاه المظيم الجاه أدرك ذماءنا ... برحمى يحلى المؤمنين شذورها
وعفو وتأييد ونصر مؤزر ... وعزة سلطان يروق طريرها
ولطف وتسديد وجبر لما مضى ... يدال به من كل عاد كسيرها
وأرسل على هذا العدو رزية ... تروح ويغدو بالبوار مبيرها
يشتت شمل الكفر تشتيت نقمة ... وينظم شمل المؤمنين حصيرها
وصل على خير البرية أحمد ... وأكرم من قد أنجبته ظهورها
وأصحابه الشهب الهداة وآله ... صلاة مع الآناء يزكو عبيرها

تنبيه — قد وضعت لفظة (كذا) على بعض الكلمات فى القصيدة اشارة لعدم ملاءمة اللفظة للمعنى أو لاضطراب فى الوزن

٢ – سكان أعالى النيل

بقلم رشوان احمد صادق

كذلك تستعمل الماشية فى القرابين ، ليكون هناك اتصال بين النويرى والآلهة وأرواح أجداده ، فمثلا فى أوقات الشدائد مثل المرض والموت والتشليخ (تشريط الوجه) والزواج يجب أن يحوز النويرى رضاء الأرواح الطيبة ، وذلك بأن يُستحضر عجل أو كبش ، ثم يوضع على ظهره مسحوق من الرماد ، ثم يقول له صاحبه ما يريده من الأرواح ، ثم يطلق إلى حال سبيله لكى يخبر الأرواح بما يريده سيده

والنويرى يرى دائماً أنه لا بد أن توجد علاقة بينه وبين الأرواح ، وذلك يكون باهدائها بقرة ، وهذه البقرة تترك فى المنزل ولا يحل له ذبحها أو استعمالها لأى غرض من الأغراض ما دام قد وهبها للأرواح . فاذا ماتت فان أحد أولادها يحل محلها كحلقة اتصال بين النويرى والأرواح . والقطيع من الماشية تتعهده مجموعة من الأفراد تجتمع لهذا الغرض ، إذ لا يمكن أن يتعهده فرد واحد . ومن ذلك يتبين الى أى حد بلغت علاقة النور بالماشية خصوصا إذا ماعلمنا أن أى فرد من هذه المجموعة لا يمكن أن ينفصل عنها ، لأن طعامه اليومى وزواجه ونجاته من شر الانتقام متوقف على بقائه داخلها . وهكذا يظل النويرى طول يومه يرعى ماشيته ولا حديث له سواها ، ولذا قلما ينادى رجل من النور باسمه ، بل يعرف باسم أحد (عجوله أو ثيرانه) ، فمثلا بدل أن ينادى رجل باسمه ينادى بهذه العبارة : (أيها الثور أو العجل الأسود الأبيض ذو القرنين)

والنور ينقسمون إلى عدة قبائل كل منها مستقل سياسياً ، ولكل منها مقاطعة تتمتع بكل مواردها الاقتصادية ، وكل واحد منهم يعرف حدود مقاطعته ، وإذا حدث أن أحد أفراد قبيلة استغل موارد مقاطعة أخرى غير مقاطعته فان ذلك يعتبر اعتداء يثير الحرب على الأثر ، فاذا قامت الحرب فانها لا تقف إلا إذا تساوى عدد القتلى فى الطرفين

والأستاذ الدكتور ايفانز بريتشارد يشرح النظام الحربى كما يأتى :

تنقسم القبيلة إلى قسمين ا و ب ، وكل قسم من هذين ينقسم إلى قسمين ، فـ ا تنقسم إلى حـ و ى و ب تنقسم إلى هـ و و . وهذه الأقسام الصغيرة تنقسم إلى أصغر منها وهكذا

فاذا نشبت الحرب بين ل و ن لا يتدخل أحد ، وإذا نشبت بين ل و م تدخل ن فى صف ل ، وإذا نشبت بين ل وأى فرع من فروع ن فان جميع الأجزاء التى تتفرع من حـ و ى تشترك مع ل فى الحرب

وإذا كان هناك حرب بين هذه القبيلة وقبيلة أخرى فان جميع فروع هذه القبيلة المكونة ا و ب تنضم ضد القبيلة الأخرى

وعلى العموم فما دامت الحرب بين أجزاء القبيلة فان القبيلة تتحد ضد أى عدو خارجى

والنور عبارة عن عدة قبائل تربطها الحفلات العامة والظروف الحربية والدينية والقصص القديمة ، هذا علاوة على الروابط الجنسية كرابطة الدم مثلا . والعادة المتبعة أن الرجل لا بد أن يتزوج من قبيلة غير قبيلته

ومن أهم المظاهر الاجتماعية بين النور مسألة التشاليخ (تشريط الجبهة) فكل ولد يبلغ من العمر أربع عشرة سنة لا بد أن تعمل له ستة شروط (أو خطوط) على جبهته من الأذن إلى الأذن الأخرى ، وبذلك يعتبر أنه أصبح رجلا ، فتتغير حياته الاجتماعية ، ويصبح عليه بعض الواجبات نحو المجتمع الذى يعيش فيه . ومن أمثلة هذا التغير أنه لا يقوم بتربية الماشية ، وعليه ألا يحلبها إذ يقال إن البقرة إذا حلبها شخص مشلخ فانها تموت ، وعملية التشليخ هذه أدت إلى ظهور الحلقات الاجتماعية المختلفة ، فمثلا كل الصبية الذين يشلخون فى سنة واحدة يكونون حلقة واحدة وعليهم واجبات نحو بعضهم وأخرى نحو الرجال المحترمين فى مجتمع النور . وهذه العملية تعمل كل أربع سنوات ؛ فمثلا إذا أقيمت عملية التشليخ سنة ١٩٣٠ فان عملية التشليخ الثانية تكون سنة ١٩٣٤ ، وبذلك يمكن تقسيم النور من الوجهة الاجتماعية إلى قسمين : (١) الرجال المشلخون (٢) الأولاد غير المشلخين . والنور ليس عندهم رجال شرطة أو محاكم او نظم

حكومية ، وإنما يعتمدون على بعض الرجال الروحانيين أو رجال الدين ، وأهم هؤلاء (اللوبارد) ، ويقوم بحل الخصومات وارغام الخصم على قبول التعويضات ، ومع ذلك فسلطته غير عملية ، فليس لديه من وسائل العقاب إلا أن يلعن الشخص غير المطيع لأوامره . وهذا قلما يحدث لأن النويرى يخاف سلطة هذا الرجل . كذلك يوجد عدد كبير من الرؤساء المختلفين مثل رئيس الماشية ورئيس الأسماك وغيرها

الشلك

وهم المجموعة الثانية من الزنوج النيليين ويشبهون النوير فى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، ولـكنهم يمتازون بنظام حكومتهم ، فهم يكونون وحدة متينة برآسة ملك مطلق التصرف من حيث السلطة الروحانية والزمنية

ولدراسة مركز هذا الملك من الوجهة الروحانية يحسن أن نرجع إلى القصة التى يذكرونها عن منشئهم ، فهم يذكرون أن (نيا كنج) أخذ أتباعه وسار من موطنه الأصلى شمالاً إلى منطقة شرق بحر الغزال ، واستمر فى الفتح والغزو حتى كون أمة وأسرة مالـكة . (ويعتبر هذا الرجل بطل الشلك وربما كان ذلك فى أوائل القرن السابع عشر) وإنه لم يمت بل تلاشى فى الرياح . وبذلك أصبح موضع احترامهم منذ اختفائه . ويعتقدون أن روحه تنتقل إلى كل ملك يحكمهم ، وهذا هو السبب فى المركز الروحانى لملك الشلك . ولذلك فهم يعتقدون بأن الملك مسئول عن سعادة شعبه ؛ ولا بد لـكى يكون ذلك ممكناً أن تنتقل روح نيا كنج إلى ملك قوى صحيح الجسم ؛ ونتج عن ذلك الاعتقاد أن الملك إذا أظهر ضعفاً بأى شكل كان لا بد من أن يذبحوه لأنهم كانوا يظنون أن ضعف الملك الجسمانى يضعف روح نيا كانج وبذلك تمرض الماشية ويقل نتاجها ويموت كثير من المرضى ويضعف نتاج الأرض وربما يخيب المحصول

وتدخل روح نيا كنج جسم الملك أثناء حفـلة التتويج . وحسب تقاليد الشلك القديمة كان أى فرد من العائلة المالـكة يتمكن من قتل الملك كان يحل محله ولذلك أصبح من المفروض أن الملك ينام نهاراً ويستيقظ ليلا كيما ينجو من الفتك به على انفراد . ومن المتبع أن الملك لا يطلب المعونة أثناء الاعتداء عليه كذلك القاتل . فـكلا الاثنين يرى أنها مسألة كفاح ومن الشرف أن يفوز أحدهما على الآخر . هذه هى الطريقة القديمة لقتل الملك وتنصيب غيره وحديثاً تغيرت تلك العملية إلى حد ما فيقوم بقتل الملك جماعـة يسمون (أورورو) وينتخبون من بعض العائلات التى يقال إنها من سلالة الملك الثالث للشلك . ومنذ قرون كانت تعلق جثة الملك على سور كوخ حتى يفنى

وتعقب قتل الملك عادة فترة يكون العرش فيها خالياً لمدة أشهر وفى هذه المدة يحضرون تمثالا للبطل نيا كنج من مكان مقدس بجهة أكروا يحملونه إلى فاشودة حيث مقر الملك . ويحضرون معهم أيضاً مقعداً ذا أربعة أرجل يزعمون أنه من بقايا أمتعة نيا كنج ويجرى عملية التتويج وأبدع ما فيها أن يوضع التمثال على الـكرسى قليلاً ثم يرفع ويجلس الملك الجديد مكان التمثال توا . والغرض من هذه المسألة هو نقل روح نيا كنج إلى جسم الملك الجديد . وملك الشلك يعتبر مسئولا عن حفلة نزول المطر إذ يطلب من الملك نيا كنج الذى يعيش فى الفلك أن ينزل المطر . وهذه الحفلة تقام فى فاشودة وفى نفس الوقت يقوم بهذه الحفلة ممثلوه فى أجزاء مملـكته المختلفة

الدنكا

ويشبهون كلا من النوير والشلك فى كثير من الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية وهم المجموعة الثالثة من الزنوج النيليين . ويحاكون الشلك فى مسألة الرئيس الذى يقوم بحفلة المطر فهو ملك مقدس أيضاً . غير أنهم يخالفون الشلك فى مسألة قتل هذا الرئيس ، فهم لا يقتلونه بل يتركونه حتى يصبح هرماً ويطلب القتل ، إذ يرى أنه أصبح غير كفء لقيادة قومه وإرشادهم . وعملية القتل تنفذ كما يأتى : ينام هذا الرجل على لوح من الخشب على شكل (نقالة) ويوضع فى قبر أعد له حيث يبقى نحو أربع وعشرين ساعة يتلو فى خلالها ملخصاً لأعماله وينصح للجمع المحتشد حول القبر حتى إذا ما خارت قواه وأصبح غير قادر على متابعة الـكلام طلب من أتباعه اغلاق القبر فيختنق ويموت . وهو يفضل هذا النوع من الموت على الموت الطبيعى لأنه يرى أنه إذا ترك حتى يموت موتاً طبيعياً فان ابنه لا يمكنه أن يخلفه وعند ذلك تصبح القبيلة فى حاجة الى رئيس روحانى يقوم بعملية جلب المطر

(يتبع)

رشوان أحمد صادق

الشك لا يهدى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

— ١ —

رأيتُ الهدى فى الشكّ والشك لا يهدى
كأنىَ بالظلماء قد كنتُ أستهدى

فطوراً أقول الروح كالجسم هالك   وطوراً أقول الهُلكُ عنه على بعد
فيالك من شك يبرّح بى ولا   يبارحنى حتى أُوسَّدَ فى لحدى
وإنىَ لا أدرى أرشدىَ كان فى   ضلالىَ هذا أم ضلالىَ فى رشدى
أأفقد جسمى وحده عند ميتتى   أم الروح مثل الجسم يشمله فقدى
أروحٌ وجسمٌ أم هو الجسم وحده   يحرّكنى فيما يضلّل أو يهدى
أعذّب حوبائى بما أنا فاكرٌ   كأنىَ من أعداء حوبائىَ اللُدّ

— ٢ —

إذا كان روحى مثل جسمىَ يهلك   فانى لأبكى فى مصابى وأضحك
ولو خيرونى بين تركى لواحد   فانى لجسمى دون روحىَ أترك
يحرّك روحى الجسمَ وهو يحله   فمن ذا لهذا الروح فىَّ يحرّك
وقبل وجودى أين كان مكانه   فهذا هو الشىء الذى لستُ أدرك

وقد يستطيع الروحُ حلاً لمشكلى
ولكن مجالُ الروح فى الجسم يضنك
وأطلب من عقلى الهدى فى ضلالتى
ومن أين يعطى العقلُ ماليس يملك

دع الموتَ يأتى فتكه بهما معاً   كما كان هذا الموت بالناس يفتك

— ٣ —

عهدتك يا روحى إلى الحق تجنح   فهل بجواب إن سألتك تسمح
تقول سأبقى بعد موتك خالداً   أأنت تريد الجدَّ أم أنت تمزح
فان كان جداً ما تقول فما الذى   ستصنع بعدى يومَ منى تبرح
تجيب وقد يُغرى جوابك قائلاً   سألحق أرواحَ الذين تطوحوا
وإن الفضاء الرحبَ ما زال طافحاً   بأرواح موتى فى السموات تسبح
فقلت له سر فى سبيلك راشداً   ولا تنس جسما ليس بعدك يصلح
فيا روح قبّلنى وصافح مُودّعاً   فانىَ لا أدرى متى لك ألمح

— ٤ —

نهارٌ لسيل النور فيه دفوق   وليلٌ كأن النجم فيه خروق
ألوفٌ من الأكوان تقصو كأنها   تريد اتساعاً بالفضاء يليق
وعند افتكارى فى الوجود كأننى   أخوض خِضماً والخِضمُّ عميق
طريقى لإدراك الشؤون معبّدٌ   ومالى لإدراك الوجود طريق
فيا نفس سيرى فى الفضاء طليقةً   فلا شىء فيه للنفوس يعوق
لأنتِ شعاع طار من مستقرّه   وكلُّ شعاع بالبقاء خليق
تحيق المنايا بالجسوم كثيفة   وأما بأرواحٍ فليس تحيق

— ٥ —

يقولون إن النفس حقٌ وجودُها   فلا ينبغى إنكارها وجحودها
وبعد الردى تطوى السماء خفيفةً   وإن بعدت فى اللاتناهى حدودها
وما الجسم إلا دولة مستقلة   لها حكمُها فى أهلها وجنودها
وما أهلها إلا خلايا صغيرة   وما النفس ذات الحول إلا عميدها
وما هى إلاّ ومضةٌ من شعاعة   فان خلدت ما كان بدعاً خلودها
فقلتُ لهم هذا جميلٌ وعله   خيالاتُ عقلٍ شاردٍ لا أريدها
ولم يكن الانسان إلاّ ابن غابةٍ   على فُجأةٍ قد أنجبته قرودها

— ٦ —

سيطفئ يأسى فى المشيب حياتى   واذهب من نور إلى ظلمات
ويحملنى صحبى إلى القبر إننى   به بعد حين لست غيرَ رفات
تقطّعُ أوصالى وتبلى جوانحى   وليس بوسعى أن أبثّ شكاتى
وأجملْ بأيام الصِّبا فهى لم تكن   على الفم من دهرى سوى بسمات
ولكن أيام الصبا قد تصرّمت   ولم تبقِ ذكراها سوى الحسرات
وفارقتُ أيامَ الشباب حميدةً   وإن كثرت فى عهده عثراتى
قضيت شبابى مُطمئناً وبعده   أتى الشيب منهوكاً من الشبهات

— ٧ —

من الموت مهما مضَّ لستُ بخائف   ولكن وراء الموت ماذا مصادفى
خضعتُ لعقلى فى حياتىَ كلها   وما كنت يوماً خاضعاً لعواطفى
وكنت إلى لمس الحقائق نازعاً   أنزهُ سمعى من سماع السفاسف
تعذّبتُ عمراً من مخالفة الورى   فياليتنى قد كنت غيرَ مخالف

عجبت لجذعى كيف ظلّ مقاوماً
فقد كان معروضاً لضرب العواصف

لقد قذفتنى بالمسبات ثلةٌ   ولم أتجنب شرّ تلك القذائف
وكم شنّ ذو جهل على العلم غارة   وكم كان ذنبى صادقاً فى مواقفى

— ٨ —

تجمع يرمينى خميس عرمرم   أأنكص كالمغلوب أم أتقدم
ولكننى اخترتُ التقدّمَ إنه   لمن كان يستبقى الحياةَ لأسلم
وللعلم أنصارٌ وللجهل مثلُها   ولكن أنصار الجهالة أعظم
لقد حاربونى بالمسبّة والخنا   وحاربتُهم بالعلم والعلمُ مخذم
إذا كان ليلى قد تجهّم وجهُه   فان صباحى بعده يتبسّم
يقصّ عليك الشيخُ منهم خرافةً   فتحسب أن الشيخ فى النوم يحلم
تصرّم عهدُ الجهل فى الغرب كله   ولكنه فى الشرق لا يتصرّم

(بغداد)   **جميل صدقى الزهاوى**

الحق هو القوة

للأستاذ ابراهيم ابراهيم على

ذهب السكوت فلا سكوت   (شعبٌ ينام ولا يموت)
إن كنتَ من ذهب فانـ   ـك من نسيج العنكبوت
الصمت يطلب عن خناً   لا عن صلاةٍ أو قنوت
والصمت يحسن فى التفا   خر بالخزائن والبيوت
والصمت يُحمد فى التكا   ثر بالكراسى والدسوت
وعن الأكاذيب المشا   عة فى جهارٍ أو خفوت
والصمت أجمل فى المقا   بر وهى واعظةٌ صموت
أما عن الحق المضا   ع فليس يحتمل السكوت
لِمَ تكتمون الحق عن   أوقاته حتى تفوت ؟
لِمَ تحبسون الحق فى   أعماقكم كيما يموت ؟

* * *

الحق   حر   مطلقٌ   مهما تعـثـر فى القيود
الحق صوت صائحٌ   فى صرخةٍ أو فى همود
الحق ضـوء نافذٌ   مهما تكاثفت البرود
مهما تعددت السـد   ود عليه فاخترق السدود

* * *

الحق ينطق (فتنةً)   فى اللحظ حيناً والخدود
فى الشمس تشرق من أعا   ليها على هذا الوجود
فى البدر . فى زهر الكوا   كب . فى الرشاقة والقدود
فى البحر مضطرباً وفى   أمواجه بعد الركود
فى الغصن كلل بالزهو   ر وبالبنفسج والورود
فى الروض أيقظه الندى   فى الصدر زانته النهود

* * *

الحق ينطق (قوةً)   والحق أقوى ، لا مراء
فى البحر يضرب موجُه   حتى ليرتعب الفضاء
فى الرعد . فى السيل المحطـ   ـم . فى العواصف والبلاء
فى النار تفتك بالحدي   د ، كأنه النسج الهِواء
فى ثورة البركان فى   غضب الزلازل وهى ماء
فى سـطوة الأيام تقـ   ـهر بالمقادر والقضاء
فاذا المـلوك أذلةٌ   وإذا الممالك : لا وقاء

* * *

الحق ينصر نفسه   إن خلقته الأنبياء
وهو المظفر دائماً   فى الأرض (حقاً) والسماء
إن تنصروه فقد نصر   تم أنفساً لكمو هباء
أو تخذلوه فقد خذا   تم هذه الروح الغباء
ولقد يصول الحق بالضّعـ   ـفى فيردى الأقوياء
ولقد يثير الحق شاةً   تملأ الدنيا مضاء
فاذا الذئاب وهم حيا   رى هاربون ، ولا نجاء

* * *

الحق حقٌ فانطقوا   أو فاسكتوا فيها : سواء ! !

قليوب   **ابراهيم ابراهيم على**

القصص

صور من هوميروس

١٩ – حروب طروادة

بعد مصرع هكتور . . .

للأستاذ دريني خشبة

انتصر أخيل !

وعاد بجثة هكتور ليجد أمه ما تزال تسق بتروكلوس خمرا ! وما تزال تدفع عن القتيل المسجى فوق سرير الموت أسراب الذباب ! وما تزال تذرف الدموع الغوالي !

ويهرول زعيم الميرميدون ، ويهرول معه جنوده حول جثة صديقه ثلاثاً ، ثم يقف فوق الرأس المتشح بجلال الفناء . ويقول :

« السلام عليك يا بتروكلوس فلقد ثأرت لك ! السلام عليك فأنت خيرٌ حياةً من كثيرين ممن ينعمون بالحياة ، وإن تكن تسبح في لا نهاية هيدز !

هاك غريمك هكتور سأتركه جزر السباع وكواسر الطير ، وسأضحى لك باثني عشر من خير شباب إليوم . . . . أذبحهم عند قدميك بيدى !

« إبكوا بتروكلوس يا رفاق ! . . . . »

فيبكي الميرميدون على بطل أبطالهم ، ويعولون حتى تخفق السماء بأناتهم ، وتضطرب الأرض بزفراتهم ، ويعتلى الهواء من حولهم أسى وشجوناً !

ويقبل الهيلانيون من كل فج يهنئون ويعزون : يهنئون بقتل هكتور ، ويعزون ، ويا حرّ ما عزوا ، في بتروكلوس !

ويعتلى بهم شاطئ الهلسبنت (١) ؛ ويأمر أخيل رجاله فيؤتى بالشاء والظباء ، وبكل عجل جسدٍ وخنزير سمين ؛ وتؤجج النيران ، ويسطع الشواء حتى ينضج ، وتكون وليمة يقبل عليها القوم أيما اقبال . . . إلا أخيل . . . المنكف وحده يذرف الدموع على بتروكلوس . . .

وأمر أجاممنون بماء ساخن يغسل به أخيل ما عليه من نضح الدم وغبار المعركة ، ولكن أخيل يأبى إلا أن يظل النضح ويبقى الغبار حتى يتم تحريق بتروكلوس ، وحتى تنتهى المراسيم الدينية التى تقتضيها السماء . . . ويفرضها بلوتو على موتاه !

وتفرّق الهيلانيون بعد أكل شهي وري ، ونهض الميرميدون إلى خيامهم يخلعون عددهم ويستجمون من عناء اليوم الحافل ، ولبث أخيل وحده على الشاطئ الشاحب يرقب أواذيه الصاخبة ، ويرى إلى أعراف الموج تنتطح هنا وهناك ، وترتد وترتد حتى تغيب في لا نهاية الماء !

ثم غفا إغفاءةً فتمدد على العشب ، وأسلم جفنيه لنوم عميق ورأى ظلا حزيناً يُطيف به ولا يكاد يبين ، فتقلّب ذات اليمين وذات الشمال مما تأخذه الرؤيا به ، ولكن الشبح ما يفتأ يُهوّم ويهوم ، ويقترب ويقترب ، حتى يكون عند رأسه ، وحتى يقر النائم فما تبدو منه حركة ، ويسكن فما يتردد فيه نَفَس ، ويحسر الزائر لثامه ، فاذا هو . . بتروكلوس ! !

لقد أقبل روحه الكبير يتحدث إلى مولاه ، فيقول :

« أخيل ! أهكذا تنام ملء عينيك وتدع صديقك يهيم في مملكة الظلمات دون أن يؤذن له بعبور ستيكس الفائض بالجحيم ، ليقر في عدوته الأخرى مع المؤمنين ! إننى يا صديق سأبقى طريداً شريداً مادمت متوانياً عن تأدية الطقوس التى يتطلبها بلوتو وتفرضها السماء ! ماذا تبتغى بعد أن ثأرت لى يا أخيل ! ألا يشجيك أن أظل معذباً في هذا التيه الذى لا نهاية له ، كاسف البال مسبوه اللب ، لأنك تأبى أن تؤدى لى فرائض الآخرة !

أتحسب أنا ملتقيان في دنياك كرة ثانية يا أخيل ، فأنت تنتظر هذا اللقاء ؟ لا ، لا ، يا صديق ؛ نحن لا نلتقى إلا هنا ! في هذه الدار الجميلة الهادئة التى لا صخب فيها ولا ضجيج . . . .

(١) الدردنيل

سنلتقى هنا .... وسنلتقى سريعاً .... ولن أزعجك إذا أخبرتك عما علمته هنا ! ... إنك ملاق حتفك تحت أسوار طروادة ... لا تنزعج يا أخيل ، فأنت بطل ، والأبطال أمثالك لا يرهبون الموت ، والبطل الذى لا يجرع الكأس طافحة فى حومة الوغى يموت موتة لا تشرفه ... فاطمئن ! إنما ذكرت لك ذلك لأن لى رجيّة عندك أتمنى لو أديتها لى ... ذلك أن توصى أن تدفن رفاتك فى نفس الرمس الذى يضم رفاتى ، لنظل آخر الدهر متقاربين ، كما كنا أول الدهر متقاربين ، ولنقضى أحقاب الموت فى مربع معاً ، كما قضينا شرخ الشباب فى ملعب معاً ...

إيه ياذكريات الماضى السعيد !

أبداً لن أنسى يوم حملنى مولاى الأمين أمفيداماس من نجاد أوبوس إلى بلاط بليوس ، حيث نشأت وترعرعت فى نفس الكنف الذى ترعرعت فيه يا أخيل ... وأبداً لن أنسى هذا الحنان الذى كانت تغمرنى به ذيتيس ، أمك الرؤوم ، حتى اشتد ساعدانا ، وسار الركبان باسمينا فى كل ناد ...

هلم يا أخيل ... انهض يا زعيم الميرميدون ... واذكر ما قلته لك ... »

ويذرف أخيل عبرة غالية ، ويجيب بتروكلوس فيقول :

« بتروكلوس ! إلىّ يا أعز الناس علىّ ! سأفعل كل ما تريد ، ولكن ... اقترب ... اقترب قليلا ... لنسرّ من أحزاننا يا أخى ! هب لى أن أعانقك فأنا مشوق اليك ! »

وهب من نومه مذعوراً مادًّا ذراعيه لمناق بتروكلوس ، ثم ضمهما لجفاة .... ولكن !

وا أسفاه ! ... لقد ضم أخيل اليه الهواء ... ! لأن الشبح العزيز قد ولى بعيدا عنه ... هناك ... هناك ... فى ظلمات السُّفل ... فى ديجور الدار الآخرة ... فى مملكة بلوتو الجبار .... حيث الأرواح والأشباح .... وحيث العذاب والنعيم ... ! !

وصرخ الزعيم المفئود صرخة زلزلت عماد المعسكر ، واجتمع لها القادة مشدوهين مروّعين ، وروّعهم أكثر هذا الحديث الطويل عن الرؤيا المشجية ، فأنفذ أجاممنون الملك عصبة قوية إلى غابات الصنوبر والشاهبلوط القريبة ، فجمعت أحمالاً ثقالاً من جذوع الأيك وحطام الدوح اليابس ، وأقيمت فكومت ماجمعت كومة واحدة عالية ؛ ثم أمر أخيل جنوده فاصطفوا حول الكومة بعُددهم وخيولهم وعرباتهم ، وأقبل فوج منهم يحمل جثمان بتروكلوس ، مواركى فى شَعر كثير انتزعه الفرسان من رؤوسهم حزناً على قائدهم بالأمس ؛ وكان أخيل يتعثر خلف القتيل وقد حطمه الحزن ورأزته المصيبة فى أعز أصدقائه ، وغشيه من الهم ما لو كان بعضه بوَضح الضحى لأحاله ليلاً من الوجد مظلماً ... ونزع شعر رأسه هو الآخر فغطى به وجه صاحبه ، ومد ذراعيه المرتجفتين فرفع الجثمان الطاهر ، يعاونه نفر من الميرمهدون ، ووضعوه فوق الكومة التى تسامت وسمقت حتى غدا ارتفاعها مائة قدم أو تزيد . وأمر أخيل فذبحت ألوف من العجول والخنازير والنعم ، ونزعت عنها شحومها جميعاً ، فوضعها بيده على الكومة من حول بتروكلوس ، ثم أشار إلى حَمَلةِ الزِّقاق فطفقوا يصبون الزيت والعسل المصفى ليزيدا فى ضرام الوقود

وارتفع ضجيج بعيد وضوضاء ، فتلفت القوم ، وإذا فريق من الميرميدون يسوقون الشبان الطرواديين الاثنى عشر ، الذين أسرهم أخيل فى ملحمة الأمس ، وقد كبلوا فى الأصفاد ورهقتهم قترة مظلمة من الروع والحزن ؛ فلما شارفوا ، تقدم أخيل المغضب الحنق ، فاستل خنجره ، وشرع يمسح بأعناقهم ويبقر بطونهم ، ويروى سنانه من قلوبهم ..... والبشرية البائسة تتلفت يمنة ويسرة .... وتتعذب .... وتبكى ! !

وأمر الزعيم فصفت الضحايا الأثنتى عشرة من حول الكومة أما هكتور ! فقد حدجه أخيل بنظرة ساحرة ، وأقسم ألا يحرق جثمانه فينفذ روحه إلى هيدز ، بل يتركه ثمة حتى تنوشه الطير ، وتأكله كلاب البرية ، وتاقى عظامه فى اليم ، غير كريمة ولا مرجوّة !

بيد أن منظراً عجباً خلب ألباب القوم ، وأذهلهم عن أنفسهم .... ذلك أنهم رأوا إلى شبح جميل أبيض ، يصب دهن الورد فيجعل منه حَنوطاً مباركا لجثمان هكتور ، ورأوا كذلك إلى ضبابة ذات أفياء وظلال باردة تقف من فوقه فتذود عنه أشعة الشمس المحرقة حتى لا يتتن أو يتعفن ... !

ماذا ؟ ؟ ! آه ! إنها ڤينوس الوفية التى تصب دهن الورد فوق هكتور ، وإنه أبوللو المحزون الذى ينشر الضبابة من فوقه تحميه من الشمس وتذود عنه حرارتها ! !

وصلى أخيل صلاة قصيرة ، ونذر لآلهة الريح ، إذا هى أقبلت تروّح على النيران حتى تذكو ، أن يذبح لها ويقرب لها القرابين ! وما كاد يفرغ من صلاته ، حتى تقلب البحر واضطرب ،

ومار اليم واصطخب ، وثارت العاصفة الهوجاء فى بطن الدأماء وأقبل زفيروس وإخوته آلهة الريح فحاصروا الكومة ، وما هى إلا لمحات حتى كانت ضراما فى ضرام ، والظى يتأجج فى لظى

وسكنت اللهب ، وخفت أوار النار ، وتقـدم أخيل وحَمَلة الزِّقاق فصبوا على الجمر خمرا حتى خبا

وتقدم نفر فرفعوا رفات بتروكلوس وهم يبكون ، وأقدم أخيل فوضعها بيديه فى إران من الذهب ، وأشار الى بعض أصحابه فحفروا فى الأرض حفرة كبيرة عميقة ، فأسرع هو فوضع الاران فيها ، بين أنين الجنـد ، وبكاء القادة ، وزلزلة الأرض والسماء ... !!

وهيل التراب على الميت ، وعمل الكل فى ذلك حتى كانت كومة عالية من الردم ، ستظل آخر الدهر رمز البطولة الخالدة ، وتحية الدار الآخرة لهذه الدنيا المشحونة بالأشجان ! !

***

وكان من دأب الهيلانيين إذا مات أحد أبطالهم أن يُحرِّقوه كما حرَّقوا بتروكلوس ، ثم تتلو ذلك حفلة ألعاب يشترك فيها أبطالهم ، ويساهم فيها الجندى الصغير إلى جانب القائد العظيم ، وقد يفوز عليـه فينال الجائزة من دونه ، وكانوا يعدون هذه الحفلة تتمة للجناز لا يكمل إلا بها ؛ فلما انتهوا من إقامة الشعائر الدينية للشهيد الكبير نهض أخيل فأعلن القوم ببدء حفلة الألعاب ، ثم دعا للمشاركة فى سباق العربات الحربية ، وعدَّد الجوائز فذكر أن للفائز الأول غانية من أبرع غانيات طروادة جمالا ، وأوفرهن حسناً ، وأنبغهن فى القيام بشؤون المنزل ، ثم آنية عظيمة من الذهب الخالص ، غالية الثمن ، عالية القيمة ، لا تقدر بمال لما بذل فى زخرفتها ونقشها من فن ، وما أضفى عليها من عبقرية . وأن للفائز الثانى مُهرةً صافناً تسبق الريح وتلحق البرق ؛ وللثالث كوباً من الفضة الناصعة ، عظيم القدر ، غالى الثمن . وللرابع بدرتين من الذهب الأبريز . وللخامس إبريقاً فضياً للخمر ، وكأسين للشراب . . . .

واشترك فى هذا السباق لهاذم أبطال الأغريق ، وصناديدهم الصيد ؛ وكان أول من نزل إلى الحلبة يوميلوس الملك ابن أدميتوس المعظم ، وتلاه ديوميد الحلاحل ابن تيديوس ؛ ثم منالايوس سليل السماء ، وفرع الآلهة بن أتريوس الكبير ؛ وكان رابعهم أنتيلوخوس المشهور بن نسطور الحكيم ، الذى أخذ أعين القوم بقامته السامقة ، وعوده اللدن ، وقوامه الأهيف السمهرى الممشوق ، والذى تقدم اليه أبوه فقبَّله فى حر الجبين ، وزوده بنصائحه الغوالى ؛ وكان خامسهم مريونيس الهائل ، صاحب الذكر البعيد والشأو الرفيع فى كل مثار نقع وفى كل ميدان

وكان على الفارس العظيم فونيكس أن يلاحظ السباق ، فكان فى مركزه هذا حكما عدلاً وقاضياً ماهراً . . .

وأعطى أخيل الأشارة . . . فانطلقت الجياد تزلزل الأرض ، وتثير عجاجة قاتمة من ثرى الميدان ، وتضرب الصخر بحوافرها فينقدح الشرر ، ويميد جانب الجبل ، وتتصل أبصار القوم بالريح الذى يتعثر فى أدبار الخيل ، ويتحسس كل منهم قلبـه ، متمنياً قصب السبق لصاحبه الذى هو من شيمته . . . ثم . . . تتدخل الآلهة فى هذا اللهو البرىء فتغير دفة المقادير ، وتتحمس مينرفا للبطل العظيم ديوميد ، حينما ينزع أبوللو السوط من يده ويلقى به إلى الأرض ، فتعيده إليه ؛ وتلحظ أن أبوللو يصنع هذا ليظفر يوميلوس ويفوز بالسبق ، فتذهب من فورها إلى ابن أدميتوس وتنزع إحدى عجلتى عربته ، فيهوى البطل ويوشـك رأسه أن يتحطم على الجلاميد المتراكمة على جانبى الطريق ...

وتعدو الخيل ...

وتخفق قلوب القوم ... ثم ينظرون فيرون إلى ديوميد قد أنهى الشوط ، ونزل من عربتـه فصافح فونيكس ، واستحق بذلك الجائزة الأولى

وتلاه أنتيلوخوس ، ثم منالايوس الملك ، ثم مريونيس ، وكان أبطأهم

وسكن القوم قليـلاً ، وإذا هم يبصرون يوميلوس المقدام يسوق جياده ، وخلفها عربتـه التى حطمتها مينرفا ، فيثير مرآه قهقهة عالية وصخباً ؛ لا يقطعهما إلا أخيل بصيحة داوية تعيد إلى الملأ وقارهم ، ويقضى ليوميلوس بالجائزة الرابعة « لأنه لولا الحظ العاثر كان صاحب الجائزة الأولى ! ! »

واشرأبت الأعناق حين أعلن أخيل عن دورة الملاكمة

وشارك فيها من الأبطال إبيوس بن بنوبيوس ؛ فتى مفتول السواعد مكتنز العضل ، رحب الصـدر ، له قبضتان كأنهما حراشف جذور بارزة من جذع شجرة ، ألقت بها الريح فى يوم عاصف ، ونهض إلى جانبه شاب قوى بادى البأس ، لم يلبث القوم أن عرفوا فيـه يوريالوس بن مسيتوس ، الذى طالما شارك فى أولمبيات الملك أوديبوس وكان أبداً فتاها وفارس حلبتها

وأعطيت الأشارة فانقض الأسد على الأسد ، وارتطم الجبل

بالجبل ، ولبث البطلان يكيل أحدهما للآخر لكمات كانت تقشعر لها أبدان الآلهة ، وتنتفض من هولها أفئدة الرجال ، ثم لاحت فرصة للبطل إبيوس كال فيها لخصمه لكمة في ذقنه (١) ألقته فوق أديم الأرض بين هتاف الجند وضجيج القادة ، وبذا استحق إبيوس الجائزة الأولى ، وهي بغل أشهب ممرج ، في شدقيه لجام من الحديد ، يتصل به عنان من الفضة . أما يوريالوس فقد أفاق من اللكمة القاسية لينال كأسين جيلتين أعدتا للفائز الثاني ... !

وأرهفت الأسماع حين نهض أخيل يعلن عن دورة المصارعة التي لم يجرؤ أحد أن يتقدم إليها حتى أوشك زعيم الميرميدون أن يلغيها لو لم ينهض أوليسز ويتبعه أجاكس متثاقلين ! !

وأهطعت الرقاب ذاهلة نحو الزعيمين الهولتين ، وشخصت الأبصار ترى إلى الجبل يأخذ بتلاليب الجبل ، والبحر ذي العباب يصاول البحر ذا العباب ، والشهاب الراصد يندق على الشهاب الراصد ؛ لا هذا ينال فرصة من ذاك ، ولا ذاك يرى ثغرة ينفذ منها إلى هذا ، والقلوب أثناء ذلك تخفق وتخفق ، والقشعريرة الباردة تشيع في أصلاب هؤلاء وهؤلاء ، كل يتمنى أن يفوز رجله . . . . . .
حتى ثارت عجاجة حول البطلين انجلت عنهما صريعين فوق الأرض ، لم ينل أحدهما من الآخر !! فكان القضاء العادل من السماء !

وحاولا أن يعودا إلى صراعهما الأول ، فحال بينهما أخيل . . . لأن الدورة كانت لا تنتهي إذن . . . فكان بحسبهما أن ينالا جائزتين متساويتين ! !

وبدأ سباق العدائين ، واشترك فيه أوليسز وأجاكس أيضاً ، ثم أنتيلوخوس الذي استطاع أن يفوز بالجائزة الأولى ، لما كان يبدو على منافسيه من نصب ، من جراء صراعهما السابق .

وتبع ذلك سباق المبارزة ، وشارك فيه أجاكس أيضاً ثم ديوميد العظيم ، الذي استطاع بعد لأي أن يجرح خصمه في عنقه ، فينبثق الدم من الجرح ، فينال الحزام الفضي بذلك !

ثم كان حمل الأثقال وهو سباق محبوب من الاغريق كثيراً ، وقد شارك فيه بوليبوتيس وإيبوس وليونتيوس . . .
ثم . . . أجاكس . . . ! وفاز أولهم بالجائزة الأولى . . .

وتلا ذلك سباق الرماية ، واشترك فيه البطلان تيوسير ومريونيس ، وفاز الأخير بأسنى الجائزتين للبراعة الفائقة التي أبداها في إصابة الغرض (وكان حمامة تنطلق وتنطلق . . . حتى تكون خلف السحب . . . ! !)

وكان السباق . . . وهما سباق إصابة الغرض بقذف الرمح ، وقد تقدم إليه قائد الحملة العظيم . . . أجا ممنون الملك . . . ثم . . . مريونيس الشجاع وأحد أتباع الملك إيدومنيوس . . . . . وقد هال أخيل أن ينافس أحد قائد الحملة ، فتقدم إليه معترفاً بتفوقه على الجميع في كل شيء ، وقدم له الجائزة الأولى . . . ثم قدم الرمح لمريونيس ... وكانت مجاملة طيبة من أخيل تقبلها الجميع بثغور باسمة

(لها بقية) دريني خشبة

(١) Upper — cut ???

البريد الأدبي

وفاة بول بورجيه

نعت الينا الأنباء الأخيرة قطباً من اقطاب الأدب الفرنسى وكاتباً من أعظم كتاب العصر ، هو بول بورجيه ؛ توفى فى الخامس والعشرين من ديسمبر فى الثالثة والثمانين من عمره ، بعد أن قضى حياة حافلة ، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والأدب والنقد . كان بول بورجيه عميد الأدب الفرنسى المعاصر بعد أناتول فرانس ، وكان يتبوأ مكانه فى الطليعة منذ خمسين عاما ؛ ولم يعرف الأدب الفرنسى المعاصر ، كاتباً قصصياً — إذا استثنينا أناتول فرانس — فى قوة بورجيه وعمق تفكيره وتحليله ، أو فى بُعد آفاقه ووفرة انتاجه . وكان مولد بورجيه فى سنة ١٨٥٢ بمدينة اميان من أب روسى وأم انجليزية ؛ فنشأ نشأة حسنة وتلقى دراسة عالية وثقافة متينة ؛ وبدأ ينظم الشعر منذ حداثته ، ثم اشتغل بالصحافة ؛ وفى سنة ١٨٨٤ أخرج أولى رواياته القوية l'irreparable فظهرت فيها براعة الكاتب والقاص ، وتجلت فيها مقدرته الفذة على تفهم العواطف البشرية وتحليلها ، وهى مقدرة ترجع إلى ذلك المزيج فى السلالة الذى كان له أكبر الأثر فى تكوين عقلية الكاتب . ثم كتب بورجيه روايتين أخريين هما : Cruelle Enigme, André Cornelius والأخيرة من أعظم رواياته وأقواها ، بيد أن بورجيه يبلغ ذروة القوة والطرافة فى قصته الشهيرة : « التلميذ » Le Disciple ، وهى فى رأى النقدة أعظم قصصه وأقواها ، وأكثرها تمثيلا لمواهبه وخلاله وفنه ؛ ولم يلبث بورجيه أن تبوأ مكانته بين أقطاب الكتاب فى هذا العصر : بين زولا ، وفرانس ، وكوبيه ، ودوديه ، ورشبان ، وغيرهم ؛ ثم لم يلبث أن احتل مكانه بين الخالدين فى الأكاديمية الفرنسية (سنة ١٨٩٤)

ولبورجيه تراث حافل من كتب الشعر والقصص والنقد والسياحة نذكر منها : Terre Promise, Un Difvorce, Le antôme, Mensonges Aramēs de Famille ومن القصص الصغيرة Un Crime D'amour و Le Coeur el la métier , Conflits intimes ؛ وله ديوان شعر كبير ، وقطع مسرحية عديدة ، ، وله كتب فى الوصف والنقد والسياحة

وبورجيه كاتب خصب متعدد النواحى والآفاق ؛ بيد أنه على العموم كاتب ارستقراطى يكتب للخاصة قبل كل شىء ، ويصور مجتمع الخاصة ، وما يتصل بحياته من بذخ وأناقة ، وما يتخللها من نواحى الجمال والرشاقة والفن ، وما يغشاها من عوامل الفساد والوهن ، وهو من هذه الناحية نقيض قرينه ومعاصره فرانسوا كوبيه كاتب البؤس والطبقات البائسة . وأعظم ما تبدو مقدرة بورجيه ومواهبه فى المواقف النفسية وفى تحليل القلب البشرى ونزعاته ، وفى تصوير مختلف العواطف الانسانية ، فهو عندئذ لا يجارى ، بل هو أستاذ هذه المدرسة الفذ ؛ وهى مدرسة نلمس فيها الأدب الروسى . ويكتب بورجيه بلغة قوية ، وقد تبدو أحياناً عسيرة الفهم ، ولكنه يحمل قارئه بقوته ، ويأخذ لبه بسحر عرضه ، وروعة بيانه وفنه ؛ ومع أنه يميل الى المفاجآت المنيفة فى قصصه ، فانه مع ذلك يجنح الى الحقيقة ويجانب الاغراق ؛ وأكثر ما يميل بورجيه الى التشاؤم ، وقلما يميل الى الجانب المرح من الحياة والصور ؛ ويطبع الجد أسلوبه وتفكيره دائماً ؛ بيد أنه يجنح أحياناً الى السخرية اللاذعة ؛ وهو فوق ذلك فيلسوف عميق الفكرة دقيق الملاحظة بعيد الغور والمغزى ، وناقد قوى الجدل والحجة ، وفنان من الطراز الأول يعشق الفن ويرعاه ؛ وكان حتى آخر أيامه مديراً لمتحف شانتى

ويتبوأ بورجيه كرسيه بين الخالدين فى الاكاديمية الفرنسية منذ اثنين وأربعين عاماً ؛ وكان الى ما قبيل وفاته يوالى الكتابة فى كثير من الصحف والمجلات الكبرى ، ويكتب منذ أعوام فى جريدة « الفيجارو » كلمات فى السياسة والاجتماع تلفت النظر بقوتها وطرافتها ، وبوفاته ينهار ركن عظيم فى صرح الأدب الفرنسى المعاصر « ع »

الأستاذ أحمد أمين يحاضر فى بيت المقدس

نظمت جمعية الشبان المسيحيين فى فلسطين سلسلة محاضرات فى « المدنية العربية » ، واختارت لها جماعة من صفوة العلماء ، منهم الأستاذ أحمد أمين ، والأستاذ جيب ، والأستاذ مارهوف

وسيلقى الأستاذ أحمد أمين محاضرته فى (الاسلام كعامل فى المدنية) ببيت القدس فى يوم الأربعاء ٢٢ يناير سنة ١٩٣٦

حول الاحتفال بذكرى المتنبى

لامنا الأديب السيد فاضل سعيد عقل فى شىء من الاسراف على أننا أغفلنا حفلة لبنان حين أشرنا إلى بعض تلك الحفلات فى مقالنا عن المتنبى ، وعزا ذلك إلى أن المصريين يتعمدون أن يَسْفهوا حق لبنان ! ولو تذكر الأديب ساعة كان يكتب أن الحفلة الرائعة التى أقيمت فى (سان باولو) انما أقامها لبنان ، وأن الحفلة العتيدة التى ستقام فى دمشق انما تقيمها سورية ، وأن الاسكندرية أقامت حفلة كحفلة بيروت لم نشر اليها ؛ لو تذكر ذلك كله ساعة كان يكتب رسالته لما سمح له ضميره أن يصطنع هذه العصبية الاقليمية المفرقة فى عصر يدعونا فيه الجهاد المشترك إلى أن نمحو كل الفروق العارضة أمام الجوار والقرابة والجنس

جواب عن سؤال

سألنا (قارئ) من قراء الرسالة عن الحكمة فى كتابة اسمها وتاريخ يومها ورقم عددها بالفرنسية ، وخشى أن يكون فى الأمر تقليد أو حذلقة . والواقع أن ذلك احتياط بريدى اقتضاه انتشار (الرسالة) فى البلاد الأجنبية ، وعمل اقتصادى استدعته علاقة مكتب الاعلان فى المجلة بالشركات التجارية الأوربية ، وإذا لم تفعل الصحف الغربية ذلك فلأن لغاتها مقروءة فى كل بلد

مؤتمر الجراحة الدولى العاشر

فى منتصف الساعة الثانية عشرة من يوم الثلاثاء الماضى افتتح مؤتمر الجراحة الدولى العاشر فى قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية بحضور سمو النائب عن جلالة الملك ووزراء الدولة وأساتذة الجامعة وأعيان الحكومة ورجال الصحافة وطلاب العلم ، فكان يوماً مشهوداً من أيام الانسانية المفكرة العاملة ، أزال الفروق بين الناس ، ومحا الحدود بين البلاد وجمع بين الأمم المتباعدة المختلفة على فكرة نبيلة هى تسخير الجهود العلمية المشتركة لتخفيف آلام الانسان

افتتحه صاحب السعادة وزير المعارف بخطاب عربى جاء فيه « إن العِلم المصرى الذى توالت عليه آلاف السنين ليشعر بشرف وسرور حق ، إذ يرى فى هذا الاجتماع ثقات الممثلين للجراحة العامة فى العالم أجمع ، والأعضاء البرزين لأشهر المعاهد الطبية والعلمية ، يستعرضون فى هذا الاجتماع الحافل كل ما أمكن تحقيقه فى جميع أنحاء العالم من التقدم فى فروع الجراحة ، ويتجهون نحو ترقية فن من أعز الفنون الانسانية فى جو من السباق النبيل المثمر »

ثم ألقى بعده الدكتور على ابراهيم باشا عميد كلية الطب خطاباً بالانجليزية عرض فيه جهود مصر القديمة والحديثة فى فنون الطب . ثم قفاه الدكتور فرهوجن رئيس اللجنة الدولية فخطب بالفرنسية شاكراً لنائب جلالة الملك ولجنة تنظيم المؤتمر هاتفاً بآثار مصر فى عالم الجراحة

ثم قام من بعده الدكتور كرفان فأثنى وشكر ثم قال :

« لقد رحبت أغلبية أعضاء اللجنة الدولية بدعوة مصر منذ ثلاث سنوات ، فهل ذلك لأن مصر والاسكندرية خاصة ، كانتا منذ ألفين من السنين واسطة العقد فى العالم الطبى ، أو لأن ورق البردى يعد أقدم الوثائق لشفاء المرضى ؟

قد يكون هذا ، ولكن ثمة أمراً آخر ، هو أن مصر ظلت منذ أكثر من ألفى سنة بلد الأسرار الذى تتجه إليه أذهان الانسانية ؛ ولأنها من ناحية أخرى وطن الفن الذى يجمع بين القوة والعظمة والدقة

ثم قال : إن تاريخ الانسانية يفتح هنا ، كأنه كتاب نستطيع تقليب صفحاته واحدة واحدة ، وهو إذ نقرأه ، يبعث فينا شعور التواضع ، وينزل عملنا المنزلة الصحيحة

ولقد وجدنا جماعات برغم السحب التى تظلل سماء العالم بأسره ، ونحن على يقين أن عملنا — بفضل النظام الذى وضعه زملاؤنا فى كلية الطب ، وعميدها خاصة — سيتم على أحسن صورة . »

ثم خطب بعده الدكتور ماير سكرتير الجمعية الجراحية الدولية خطبة بالفرنسية جاء فيها :

« وبهذه المناسبة أشيد بالجهود العلمية والمادية التى بذلت لجعل هذا المؤتمر يتمشى مع مبادئ جمعيتنا وهى العمل على اتساع العلوم الجراحية ، ولا أريد أن أتكلم عن الشخصيات . غير أنى لا أستطيع أن أمنع نفسى عن التكلم عن الأعمال التى قام بها على ابراهيم باشا والدكتور نجيب مقار وغيرهما من الجراحين الأجانب . فقد أوضح كل منهم تجاربه الشخصية بصور مختلفة ، وكانت كلها بمثابة إبحاث فى المسائل التى اختلفت فيها آراء الجراحين ، وأعتبر أن هذه الأعمال إنما هى آثار خالدة خلود الأهرام »

وختم الاحتفال الدكتور شوماكر رئيس المؤتمر بخطبة ضافية فى أغراض المؤتمر والتنويه بذكر مصر والجامعة

ولا يزال أساطين الجراحة وأساتذة الطب يوالون أبحاثهم العلمية لجعلوا من القاهرة كما قال أحدهم ميداناً للمناقشة فى أحدث ما بلغه الطب من الآراء ، وأعوص ما عرفه العلم من مشكلات الجراحة . ومما تناقش فيه الأعضاء (جراحة عصب القطن السمبتاوى) ، وجراحة (القولون) عدا السرطان ، والأحوال الجراحية للبلهارسيا ، وقد ألقى الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك تمهيداً لذلك محاضرة عن (تاريخ حياة البلهارسيا) عرض صورها على شريط سينمائى

جوائز أدبية مصرية

بارك الله فى بنك مصر ، وفى قادة بنك مصر ، وفى مشروعات بنك مصر ؛ فانها أسطع درة فى جبين هذا الوطن الذى يسمو دائماً إلى الطليعة . ولقد شاء بنك مصر بعد أن وضع الأسس الثابتة لنهضة مصر المالية ، ونهضتها الصناعية ، أن ينزل إلى ميدان الفن والأدب ، فأنشأ شركة مصرية للتمثيل والسينما ؛ ورأى أن يقرن الفن بالأدب ، وأن يغذى الشرائط المصورة بموضوعات وقصص مصرية محضة ، فأذاع أنه يخصص لكتاب القصص المصريين جوائز تبلغ قيمتها ألف جنيه منها أربعمائة لجائزة ممتازة ، واربعمائة لأربع جوائز من الدرجة الأولى ، ومائتان لخمس جوائز من الدرجة الثانية ، وأنه يترك لهم الحرية فى اختيار نوع القصة . وتقول شركتنا المصرية فى بيانها : « فهذا باب جديد يفتح أمام المجيدين من الكتاب لينالوا نصراً عزيزاً يرفع هاماتهم وهامة بلادهم » . وفى الحق أنه باب جديد يفتح لكتابنا ، بل هو فتح جديد فى ميدان الرعاية الأدبية التى ليس لها فى بلادنا أثر ، والتى تخلت عنها جميع الهيئات الرسمية وغير الرسمية ، ونحن نقص فى هذا الباب دائماً أنباء الجوائز الأدبية العديدة التى تخصص فى جميع البلاد المتمدنة لتشجيع الحركة الأدبية ، وتشجيع الكتاب الناشئين بوجه خاص ؛ ولكنا لم نجد من قبل ما نذكره عن أية جائزة أدبية مصرية ذات شأن . فالآن يتقدم بنك مصر على يد شركته للتمثيل والسينما لسد هذا الفراغ ؛ وهو يتقدم بثقة وكرامة شأنه فى كل مشروعاته ، فيقدم إلى كتابنا جوائز من الطراز الأول ؛ وإذا كان لنا ما نتمناه فى هذا الميدان فهو أن يعمل البنك على التوسع فى تشجيع الحركة الأدبية ورعايتها من طريق نشر المؤلفات العلمية والأدبية النافعة . وللبنك مطبعة كبيرة مجهزة بأحدث الأدوات والآلات الفنية ، ففى وسعه أن يجعل منها فى نفس الوقت داراً كبرى للنشر واحياء الآداب العربية ، وهو بذلك يسدى إلى الحركة الأدبية وإلى الثقافة العربية خدمة جليلة

تأبين فقيد التعليم المغفور له محمد أمين لطفى

قرر مجلس ادارة جمعية خريجى المعلمين العليا بجلسته المنعقدة بتاريخ أول يناير سنة ١٩٣٦ اقامة حفلة تأبين لفقيد التعليم المغفور له الأستاذ محمد أمين لطفى عضو الجمعية ، وقد تألفت لجنة من أعضاء المجلس لتنظيم الحفلة . وسيعلن عن موعدها ومكانها قريباً

وترجو اللجنة كل من يريد المساهمة فى التأبين أن يتصل بها بنادى خريجى المعلمين العليا رقم ١ شارع فؤاد الأول بالقاهرة

النقد

رد على نقد

كتاب تاريخ الاسلام السياسى

للدكتور حسن ابراهيم حسن

مؤلف الكتاب

الآن وقد انتهى ناقد هذا الكتاب من الكلام عما سماه مآخذ تاريخية ، فيحق لى — إنصافاً للحق وتمحيصاً للتاريخ — أن أرد عليه بإيجاز حتى يكون القراء على علم بالحقيقة . ولا يفوتنى — قبل أن أرد على بعض هذه المآخذ — أن أشير إلى فكرة جالت فى خاطرى : هى إهمال الرد ، اتكالاً على أن المطلع على الكتاب يتولى بنفسه تفنيد هذه المزاعم ، لولا أن كثيراً من زملائى ألحّ علىّ أن أرد باسمى واضحاً لأضع الحق فى نصابه

يقول حضرة الناقد : « إنه عمد إلى نشر ما تيسر له نشره من الاستدراك خدمة لمادة ناشئة فى معاهدنا العلمية واستحثاثاً المؤلف على تدارك أمره فى مادة هو متخصص فيها ، وضناً بما لمصر من حسن السمعة العلمية فى الأقطار الشرقية أن يتطرق إليه ضعف أو وهن »

وقبل أن أستدرك على هذا الاستدراك وأبين أن ما سماه الناقد مآخذ تاريخية وجغرافية ، قد بالغ فى بعضها كل المبالغة ، وجانَب الانصاف فى غالبها ؛ ألفت نظر حضرته إلى أنه كان يستطيع أن يجنّب نقده بعض عبارات نابية يستغنى عنها الموضوع الذى هو بصدده . وما أدرى ما شأن تلك المآخذ بنحو هذه الألفاظ : « الألقاب الضخمة ، الآثار العلمية المؤلفة والمترجمة ، إن المؤلف شغل بنقل شرح التبريزى على القصيدة عن تفهمها وتبيين من قيلت فيه ، الأغلاط والتورط ، الخلط القبيح . » ولعل الأستاذ المستدرك غاب عنه أن مآخذه التاريخية والجغرافية على فرض صحتها — وسيرى القارئ مبلغ صحتها — لا تقدح فى كتاب أربى على ستمائة وخمسين من الصفحات ، ولا تدعو إلى كل هذا الاشفاق على حسن سمعة مصر فى الأقطار الشرقية أن يتطرق إليه ضعف أو وهن ، وغاب عنه أيضاً أن إيراد مثل هذه الألفاظ الشديدة التى لا تتعلق بموضوعه ألبتة تعكس الغرض من النقد الذى اشترطوا له أن يقوم على ركن ركين من النزاهة الكافية والخبرة التامة ، حتى لا يجد فيه الحاطبون أو ذوو المآرب مجالاً لبث كيدهم أو شفاء لحك حزازاتهم . وشتان بين تجريح عنيف وبين نقد سائغ يراد به الاصلاح ، قد أسس على الصدق والحق وتقدم به الناقد فى هدوء وسلامة ذوق ، فما جرح من عاطفة ولامس من كرامة ، ولا كان رغبة فى تشهير أو الصاق عيب . ومن هنا قالوا إن النقد صعب مرتقاه . ذلك لأن الناقد حكم أو شبيه به ، ولا يتسنى له ذلك إلا بالقدرة على ضبط النفس وتجنب مواضع الزلل

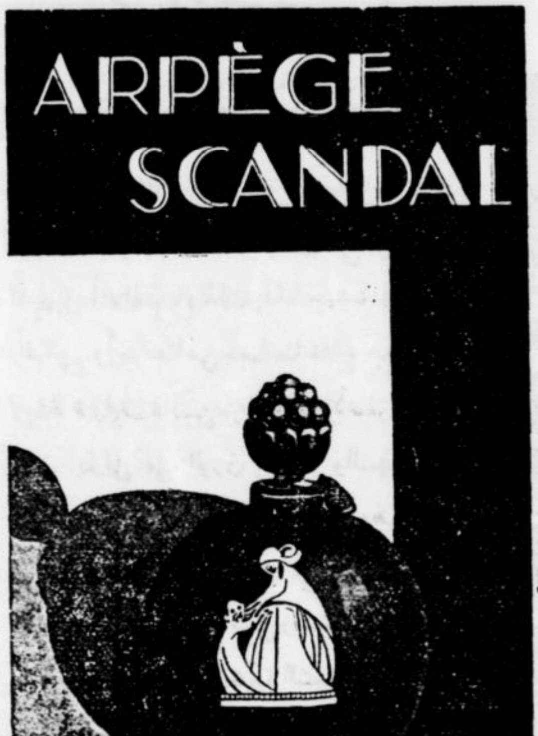
ص ٣٤ ــ أخذ الناقد على الكتاب اطلاق كلمة «أقيال» على ملوك العرب وساداتهم ، مع أن هذا اللقب — على رأيه — خاص بملوك اليمن أو مَن دونهم من أمراء المخاليف اليمنية . والحق أن هذا التخصيص لا محل له . جاء فى القاموس أنه يطلق على الملك ، أو هو دون الملك الأعلى

ص ٣٦ ــ أخذ الناقد على الكتاب فى قوله : « وكان للعرب نظام ثابت للزواج ؛ فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى أمر زواجهن . . . الخ » ، أنه لم يقصر هذه الحال على الحجاز بل عممها فى شبه الجزيرة

وإذا لاحظ القارىء أن الحجاز هو قلب بلاد العرب ، تحج اليه من قديم الأزمان للعبادة والتجارة والمباراة فى الشعر ، وأقامت فيه الأسواق لذلك ، ومنه تصدر التقاليد والعادات اجتماعية وخلقية ، وعلى قالبه يضع القاطنون فى أنحاء الجزيرة

الملكة الصغيرة

بمصر واسكندرية



الروائح وأدوات الزينة التي ترغب

كل سيدة أن تكون عندها

المتعهدة الوحيدة : جان لنفان



اذكر فى طلبك اسم (الرسالة) تحصل على تخفيض عظيم وشروط مناسبة

الجزء الثانى

من مذكراتى فى نصف قرن

عباس حلمى الثانى

للأستاذ أحمد شفيق باشا

القسم الأول

من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٢

وبه مقدمة بقلم حضرة صاحب العزة محمد حسين هيكل بك

ويحتوى على ٤٦٠ صفحة وبه ١٣٧ صورة

قيمة الاشتراك ١٥ قرشاً لمن يطلبه لغاية يناير سنة ١٩٣٦

والثمن بعد هذا التاريخ سيكون ٢٥ قرشاً

أعلن فى الرسالة تجد نتيجة حسنة

فى يوم الاثنين ١٣ يناير سنة ١٩٣٦ من الساعه ٨ صباحا بناحية الحجر سيباع علنا منقولات ومحصولات مبينة بمحضر الحجز ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ملك خليفة محمد سمده بناحية الحجر نفاذا لحكم محكمة المحله الأهليه نمرة ٤٥١٧ سنة ١٩٣٢ وفاء لمبلغ ١٥ جنيــــه و٧٤٠ مليما بخلاف رسم هــذا ورسم النشر كطلب الخواجه ڤيتا حكيم تاجر بالمحله الـكبرى

فعلى من يرغب الشراء الحضور

العربية ويعتصمون بخواطره ، وأن الحجاز هو موطن الحركة الدينية والسياسية اللتين يؤرخ لهما المؤرخون ، إذا لاحظ القارئ هذا ، أدرك لأول وهلة أن الناقد لم ينصف فى مأخذه ولم يوفق فيما استدل به من حديث عائشة فى هذا المقام

ص ٤٥ ـ يقول الناقد إن الفرس لم يزهدوا فى بلاد اليمن و « أنهم كانوا حراصاً عليه ليحدوا من نفوذ خصومهم الروم والأحباش فى تلك البلاد » . ولو أنه اطلع على ما ذكره الطبرى الذى أخذ عنه براون فى كتابه « تاريخ الفرس الأدبى » (E. G. Browne, Literary History of Persia, vol , I. p . 178) وهو — كما لا يخفى — حجة دامغة فى تاريخ الفرس ، لعلم أن الفرس كانوا حقيقة زاهدين فى غزو بلاد اليمن . ولا أدل على ذلك من رد كسرى على سيف بن ذى يزن الحميرى عند ما طلب منه مساعدته لاسترداد بلاده من الأحباش إذ يقول له : « بعدت أرضك عن أرضنا ، وهى أرض قليلة الخير . إنما بها الشاء والبعير وذلك مما لا حاجة لنا به »

ولعل من العجب أن يقيم حضرة الناقد عاصفة حول اختلاف المؤرخين فى وصف « وهرز » قائد الحملة الفارسية على اليمن ، وهل حاجباه هما اللذان سقطا من الكبر أو أن جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر من الكبر ! ! فالمسألة ـ كما يرى القارئ ـ مسألة شكلية خلافية بين المؤرخين ، ومؤداها ـ على كل حال ـ أنه بلغ من الكبر عتياً ، فلا تستحق كل هذا الجهد

ص ٦١ ـ ٦٢ ـ يأخذ الناقد علينا أننا استعملنا لفظاً أجنبياً لنظام عربى ، وأن التنظير بين بلاد العرب وبين شبه جزيرة قرشقة يبدو غريباً ونابياً . والمنصف يقدر لنا رغبتنا فى عدم ايقاع القارئ فى لبس ، خصوصاً إذا لم يكن قد قرأ شيئاً عن هذا النظام الذى كان سائداً فى جزيرة قرشقة منذ مئات السنين ؛ وقد سلكنا هذا المسلك عينه فى كتابنا « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (ص ٢٣) الذى قامت وزارة المعارف بطبع ترجمته العربية على نفقتها سنة ١٩٣٢

ص ٦٨ ـ هوّل الأستاذ الناقد تهويلا عظيما فيما جاء بسياق كلامنا عن قريش « أنهم اتخذوا جزءا من الأرض أولوه احترامهم وبنوا به بيتاً حراماً لا يحل فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته » ، مستنداً فى مأخذه على أن ابراهيم الخليل هو بانى الكعبة ، وأن قريشاً كانت تحتمى بالبيت الحرام

ويقيننا أن حضرة الناقد ، إذا رجع إلى كتب التاريخ والسير والحديث ، عثر على ما يناقض استناده ـ ولو إلى حد كبير . فكما أنه لا يشك مسلم فى أن ابراهيم هو أول من بنى الكعبة بنص الكتاب الكريم ، كذلك لا يشك مؤرخ فى أن الكعبة قد هدمت بعد هذا مرات بفعل السيول أو النار ، وأنها بنيت فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم حين كانت سنه خمسة وثلاثين ، وأنه هو الذى وضع بيده الكريمة الحجر الأسود وفض بذلك النزاع بين المتزاحمين ؛ ولا يشك محدث أن الرسول قال لعائشة : « لولا أن قومك حديثو عهد بالكفر لبنيت الكعبة على قواعد ابراهيم » ، وأن عبد الله بن الزبير هدمها ابان خلافته وبناها على أساس قواعد ابراهيم ، مستندا إلى الحديث السابق ، فأتى الحجاج بعد هذا وأعادها إلى ما كانت عليه فى عهد الرسول

أما مسألة الاحتماء بالبيت الحرام أو حمايته ، فليس فيها فارق كبير إذا اعتبرنا الاحتماء للأفراد والحماية للجماعات . وقد حصل فى قصة أبرهة الحبشى ما يؤيد ذلك ، على أننا قد ذكرنا فى كتابنا هذا (ص ٦٦ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٤٥٠) ما يثبت ذلك كله

ص ٨٧ لا أدرى وجه النصح من حضرة الناقد لنا فى أن نبرأ من الذهاب إلى أن معنى التحنف التوبة والاعتراف . فليس بخاف أن التوبة هى ميل من حال إلى حال . ومعنى « حنيفاً » مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق . راجع تفسير البيضاوى وغيره

الحق أن هذا النصح لا يبعد عنه فى الغرابة إلا دعوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم تأثر تأثراً بريئاً بالجمال حين تزوج صفية بنت حُيي !! وليسمح لنا الأستاذ الناقد أن نستعير عبارته « لست أدرى ما الذى أبقاه بعد هذا القول لجهلة المبشرين ومتعسفى المستشرقين »

نعم ! أيها الأستاذ . إن الرسول — كما قلنا فى كتابنا — كان مضطلعاً بمهمة عظيمة تسمو عن الجمال وعن خلجات الفكر ، ولعلك تراجع كتب التاريخ الاسلامى لترى أن السبب الوحيد فى هذا الزواج هو تأليف قلوب قومها وإسلامهم ، ولتكون

سبباً في عتقهم ليشتد بهم أزر المسلمين . فهذه هي عائشة أم المؤمنين تقول : « لم أر امرأة أكثر بركةً ومنةً على قومها من صفية . أسلم بزواجها قومها وأعتقوا ؛ فقد أطلق الصحابة أسراهم من قومها وقالوا إنهم أصهار الرسول » . ثم كيف تستبعد أن يطمع الرسول في إسلام اليهود مع ما جرى منهم ، وهو الذي أنزل عليه القرآن محذراً من القنوط لأنه علامة الكفر ، وحاثاً على التواصي بالحق والتواصي بالصبر ؟ لعل الناقد أولى بأن يبرأ من هذا القول الجرىء وإلقاء تبعته على سبْق القلم

ص ١٣١ — أخطأ الناقد في تفهم قولنا إن الاسلام أحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، وذكر أننا أوردنا عبارة « الدعوة الدينية » مع أنها « الوحدة الدينية !! » ، وقد ضم حضرته هذا الخطأ الذي وقع فيه إلى المآخذ التاريخية التي عابها على الكتاب ، وأما عن قوله : « إن المراد بالوحدة القومية الجنس هو القبيلة » فهو كلام غير مفهوم بدليل قوله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقوله عليه الصلاة والسلام « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . فالمقصود هنا الموازنة بين أمة وأمة لا بين قبيلة وأمة ، ولعل الناقد يريد بذلك أن يقيس مع الفارق على رأيهم

ص ٢١١ ـ ثم ما ندري عدم اللياقة في التعبير عن نابليون بالفتى التلياني ، مع أن المعنى اللغوي والاطلاق العربي يجيزان ذلك بتوسع . إن نابليون كان فتى ، لأنه رجل عظيم أتى بصنوف من العبقرية والمواهب في الحرب والسياسة ، وكان العرب يطلقون لفظ الفتى على من امتاز بموهبة تبعث الاعجاب والثناء ، ولقد قالوا قديماً : « لا فتى إلا عليّ » ، ونابليون كان فتى بالمعنى اللغوي لأنه حين بزغ نجمه لما يكتمل العقد الثالث من عمره ؛ ثم كان تليانياً (بياء النسبة) من جزيرة قورشقة . لعل لهذه النعيرة النابليونية سبباً تكشفه لنا الأيام

ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ ـ يرمينا الناقد بالتقصير في تفهم قصيدة « تأبط شراً » ويأخذ علينا نقل شرحها عن التبريزي ، وأننا ذكرنا في التعليق عليها لفظ عمه بدل خاله ، وقد فات الناقد أننا ذكرنا لفظ خاله مرة قبل ذلك ، ثم ذكرنا لفظ عمه سهواً وعن غير قصد : أما نقلنا شرح التبريزي ، فمع إشارتنا إلى المصدر الأصلي — وهو ما يعبر عنه المؤرخون بالأمانة في النقل — فاننا لم ننقل هذا الشرح على القصيدة برمته ، وإنما نقلناه بتصرف ومع مراجعة القاموس وكتب اللغة . فما ندري أن الخطأ غير المقصود في ذكر لفظ العم بدل الخال في قصيدة يكون معناه أننا لم نتفهم معنى للقصيدة برمتها . وهكذا يكون الانصاف وإلا فلا !!

كم أعجبني قول الأستاذ الكبير والمؤرخ المشهور بآثاره العلمية محمد بك كرد علي في تحقيقاته على كتاب : « ذكر الملق على الكتاب أنه وقعت في طبعته هذه بعض أغلاط مع كل ما عاني في تصحيحه جاء بعضها سهواً منه ، وبعضها من خطأ النظر ، وبعضها من الأغلاط المطبعية التي لا يتنزه عنها كتاب . ونحن نقيم من كلامه هذا عذراً لكل من أحيا كتاباً للقدامى . وليس من الانصاف أن يحمل على كل من ارتكب خطأ من هذا القبيل بعد بذل الجهد »

ص ٣٣٠ ـ على الرغم مما ورد في كتب التاريخ بأن عثمان كان يصوم الدهر وأنه قتل صائماً ، فان الناقد يحاول بجرة قلم أن يرفض هذا القول لسبب واحد : هو أن العقل يرفضه !! كأن حوادث التاريخ أصبحت تجري وراء عقل بعض الناس ؛ فما رفضه يجب أن يمحى من كتب التاريخ ولو بلغ حد التواتر أو قام عليه ألف دليل ودليل . ألسنا في حل من أن نقول إن الذي جعل العقل يرفض هذا القول هو أننا نريد أن ننقل كفة السيئات والمآخذ ؟

ص ٣٦٥ ينفي الناقد ما ذكرناه من أن عثمان انتخب بمقتضى قانون الشورى الذي سنه عمر . ولم يكلف حضرته في ذلك أن عمر سن نظاماً شورياً مناسباً جداً لعصره بتعيينه ستة يُختار من بينهم خليفة ، وجعل ابنه عبد الله أحد من يختارون على ألا ينتخب . فهل كان يريد الناقد لتحقيق هذه التسمية أن يعد عمر دفاتر الانتخاب ويرجع إلى دستور سنة ١٩٢٣ ؟ ألا إن هذا المبدأ الذي سنه عمر كان حجر الزاوية في قانون الشورى ، إن لم يكن هو القانون بأكمله . ولو أخذ المسلمون به لما بزغت قرون الفتن ، ولما زلزلوا زلزالا شديداً صدّع بنيانهم ، وأسرع في انحلالهم

(يتبع)

حسن ابراهيم حسن



سجاير أجود لا تتغير أبدا

سجاير أجود: لأنه يستطيع بهذه الطريقة أن ينتقى احسن أنواع الدخان بأنسب الأسعار

سجاير لا تتغير أبداً: لأنه بحماية سجايره أصـلا من أصناف الدخان الردیئة ــ وهو ما يستحيل على الصانع الذى يتسوق دخانه من التجار ـ لا يجد أية صعوبة فى أن يحتفظ دائماً لكل سيجاره من سجايره بطعمها وبنكهتها الخاصة

سجاير

اخوان كيريازى

تحوى ١٠٠ ٪ من الدخان النقى وارد تركيا واليونان المشترى رأسا من المزارعين

أيها المرضى بالبول السكرى

لا يجوز لكم أن تيأسوا من مرضكم أو تهملوه قبل أن تجربوا الدواء الجديد

أنتيكومان !

فهذا الدواء محضر بناء على أحدث الأبحاث العلمية الخاصة بهذا المرض.
اطلبوا البيانات اللازمة مجانا من
جلانهور مين . صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر

فى يوم ٧ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا بجهة شركس قسم بولاق سيباع بالمزاد العمومى منقولات منزلية مملوكة الى ابراهيم عليان وآخرين وذلك البيع بناء على طلب حضرة صاحب المعالى عبد العزيز محمد بك بصفته وزيرا للأوقاف وناظر على وقف احمد بك عصمت شركس وحرمه ومتخذا له محلا مختارا قسم قضايا الوزارة بمركزها الكائن بباب اللوق بمصر تنفيذا للحكم الصادر بتاريخ ١ / ١ / ٣٥ من محكمة بولاق الأهلية ووفاء لمبلغ ٥ ج و٨٧٩ م بخلاف ما يستجد فعلى من يرغب الشراء الحضور

فى يوم الثلاث ٧ يناير بسنة ١٩٣٦ بناحية المنيرة مركز قليوب وفى يوم الثلاث ١٤ يناير سنة ١٩٣٦ بسوق القناطر الخيرية من الساعة ٨ صباحا لآخر النهار والأيام التالية إذا لزم الحال سيباع علنا أردبين أذرة بكيزانه مقشر داخل كبس وزكيبة ملك احمد القماش من المنيرة مركز قليوب نفاذا لحكم محكمة الأزبكية الأهلية فى القضية نمرة ٣٢٥٦ سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١٤٤ قرش صاغ بخلاف رسم النشر ومايستجد وهذا البيع كطلب حضرة على افندى موافى التاجر بسوق الخضار الجديد بمصر فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الثلاث ٧ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا بناحية مليج وفى اليوم نفسه بسوق مليج العمومى سيباع علنا جاموسة بيضاء بقرون مصرى سليمة سن ٤ ملك شاهين شاهين سلطان وسلطان شاهين شاهين سلطان من مليج تنفيذا للحكم المدنى نمرة ٣٤٦٥ سنة ١٩٣٥ شبين الكوم الجزئية لصالح عبد العدل علما الوكيل عنه احمد افندى حلمى بمليج وفاء لمبلغ ٢٧٩ قرشا صاغا بخلاف أجرة هذا النشر

فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الاثنين ١٣ يناير سنة ١٩٣٦ من الساعة ٨ صباحا بقشطوخ مركز تلا ويوم الأحد ١٩ منه بسوق شونى سيباع علنا بقرة حمراء سن ٥ سنوات وعجلة بقر حمراء سن ٦ شهور تقريبا ومحراث وطنبور خشب مستعملين ملك أم الرزق على اسماعيل ومحمود شبل حسين من الناحية نفاذا لحكم محكمة بندر طنطا نمرة ١٧٠١ سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ٣٢٧ قرش صاغ الباقى من الدين بخلاف رسم هذا وما يستجد والبيع كطلب الخواجه أمين نوفل محفوض التاجر بطنطا فعلى راغب الشراء الحضور

ها هى الهدايا التى ستقدرها

من غير شك





بلوفر ، جوانتيات ، كرافتات ، بيچامات ، قمصان ، كوفيات ، مناديل ، أدوات الزينة ، الخ . . .

احسن الاصناف بأرخص الأسعار

تجدونها عند

كرنفال دى فينيس

١٦ شارع النساخ القاهرة

فى يوم السبت ١٨ يناير سنة ١٩٣٦ من الساعة ٨ صباحا وما بعدها بشارع الكرمانى نمرة ٧ شياخة محمد حسن حبيب قسم محرم بك سيباع علنا منقولات منزلية مثل طقم فرش وأشياء أخرى مبينة بمحضر الحجز بتاريخ ٤/٣/١٩٣٥ ملك احمد

افندى رجب الصباغ الرعية والمقيم بالجهة المذكورة نفاذا للحكم ٢٠٧٦ سنة ١٩٣٥ عطارين وفاء لمبلغ ٣١٤ قرش صاغ بخلاف رسم هذا النشر ما يستجد والبيع كطلب عبد الحميد افندى محمود القيم علكه بشارع القطاعى نمرة ٣٦ ومحله المختار مكتب الأستاذ على الحلوانى المحامى باسكندرية فعلى راغب الشراء الحضور

الكتب

كتاب الأوراق

للصولى

للأستاذ محمد بك كرد علي

كان أبو بكر محمد بن يحيى الصولى من الأدباء الظرفاء والندماء العلماء . نادم الراضي بالله وكان أولاً مؤدباً له . ونادم المكتفى ثم المقتدر . وكان من ألعب أهل زمانه بالشطرنج مات مستتراً بالبصرة في سنة ٣٣٥ هـ على أصح الروايات ، لأنه روى خبراً في علي بن أبي طالب فطلبته الخاصة والعامة لتقتله . وله كتب كثيرة في الأخبار وتراجم الرجال ، ولا سيما الخلفاء والأمراء والشعراء . والغالب عليه « أخبار الناس ، وله رواية واسعة ، ومحفوظات كثيرة . وكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة . مقبول القول » وتآليفه : كتاب الأوراق هذا الذي قال فيه المسعودى « إن الصولى في كتاب الأوراق ذكر غرائب لم تقع إلى غيره ، وأشياء تفرد بها ، لأنه شاهدها بنفسه . وكان محظوظاً من العلم ، محدوداً من المعرفة مرزوقاً من التصنيف ، وحسن التأليف » والأوراق هو الذي أحياه بالطبع جزءين لطيفين أحد المستعربين من الانجليز السير هودث دن . وكان طبع له كتابه « أدب الكتاب » أحد أدباء بغداد الشيخ محمد بهجة الأثرى

بدئ الجزء الأول من الأوراق أو القسم الذي عثر عليه الناشر بترجمة أبان اللاحق وأخباره مع الرشيد ومع جماعة من الشعراء وأجزاء من نظمه كتاب كليلة ودمنة وبدأه بقوله :

هذا كتاب كذب ومحنة وهو الذي يدعى كليلة دمنة
فيه دلالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتهون هزله ...

وفيه ترجمة ثلاثة شعراء وأدباء ظهروا من بيت اللاحق ، وترجمة أشجع السلمى ومختار شعره في المديح وغزله ومراثيه ، وأشعار أشجع نحو ربع هذا الجزء . وترجم الصولى لأحمد أخى أشجع كما ذكر أخبار أحمد بن يوسف الكاتب وأسرته ولا سيما أخوه القاسم ، لأن الأخوين اقتسما نثر الكلام ونظمه فتقدم أحمد بن يوسف في النثر وأخوه القاسم في النظم . وبنو أحمد بن يوسف من أصل قبطي مصرى ، أسر جدهم فنشأوا في العراق وما زالوا يعلون وتنبه أقدارهم حتى وزر أحمد بن يوسف للمأمون . وللقاسم في الشيب والزهد من قصيدة :

ودع شبابك قد علاك مشيب وكذاك كل معمر سيشيب
جازت سنوك الأربعين فأزعجت منك الشباب تجارب وخطوب
ودعاك داع للرشاد أجبته وبما يراك الغيّ ليس يجيب
فابك الشباب وما خلا من عهده أيام أنت إلى الحسان طروب
يسبين لبك بالدلال وتستبي ألبابهن فسالب وسليب
طوراً يسامحن الهوى ويطمنه وبصبن قلبك بالجوى وتصيب
خلطن معصية بحسن إجابة فلهن عندك أنعم وذنوب ...

ولهذا الشاعر قصائد جميلة قالها في أغراض شتى مثل قصيدة يشكو فيها البق والبراغيث والبرغش ، وأخرى في رثاء هرة ، وثالثة في الشكوى من النمل والفأر ، ورابعة في رثاء الشاهمرخ (الشاهمرد) ، وخامسة في رثاء القمرى إلى غير ذلك (راجع ما كتبناه في درس هذا الجزء في المجلد السادس من مجلة المجمع العلمي العربي)

وفي الجزء الثاني من الكتاب أخبار الراضي والمتقي وتاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٣٣ وفيه تجلت نفسية الصولى ، وكان في الجزء الأول ينقل أخبار غيره فيجيد النقل ويحسن الاختيار ؛ أما في هذا الجزء فتكلم فيه عن نفسه ، وذكر أحاديثه مع الراضي وقصائده فيه ، ومبالغته في محامده وعطاياه له ، فظهر الاسفاف عليه بالحافه في الاستجداء من الخليفة

وشكوى الزمان من الحرمان ، وقول فلان منحنى وفلان حرمنى ، مما لا يتناسب مع جلالة قدر من يدعى أن أهله كانوا من نسل ملوك جرجان ، وهو يعاشر الخلفاء والأمراء ، وهذا القسم مهم فى تاريخ الخليفتين الراضى والمتقى ، يتجلى فيه انحطاط الملك العباسى ، وما كان يحاك حول الخلفاء من دسائس ، وكيف تنزع السلطة من الخوالف شيئاً فشيئاً

والغالب أن بعض المؤرخين اعتمدوا على نصوص الصولى فى أكثر المسائل التى ذكرها واقتبسوا عباراته بحروفها ، وشعر الصولى الذى شغل به صفحات طويلة من هذا الجزء ممجون بالمصانعة ، وعلى جانب من التكلف حاول أن يأتى بقصائد ذات قواف مستغربة ، فأبهم وعمى ، وحاد عن قانون السلاسة . ومما ذكره من شعر تلميذه الخليفة الراضى يفتخر :

لو أن ذا حسب نال السماء به ... نلت السماء بلا كد ولا تعب
منا النبى رسول الله ليس له ... شبه يقاس به فى العجم والعرب
فان صدقتم فأعلى الخلق نحن وإن ... ملتم عن الصدق اعتقتم إلى الكذب

وله من قصيدة :

إنى امرؤ تصفو موارد رأفتى ... وتحرب سطواتى العدو المحربا
إذا عدت الأبيات أبصرت بيتنا ... كأن الثريا بالبنى مطنبا
رويدك إن النار تظهر تارة ... ويكمن فى الأحجار منها تغيبا

وذكر له صفحات من شعره فى الفخر والغزل والتشبيب

وما أخلى الصولى الخليفة المتقى من تهكم وتعريض ، ولعله قال ما رأى فى هذا ، وأغمض عن أمور رآها فى سلفه الراضى ، لأنه لم يكن له القبول الذى يحاوله فى أيام المتقى ، (ذكر ص ٢٤٩) صورة أمر عن المتقى لما غادر بغداد إلى بعض أرجاء العراق وهو خائف من الناس قال : وكتب الخليفة الى صاحب الشرقية أحمد ابن جعفر الرطى بكتاب يأمره أن ينادى بما فيه فنادى « أمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بالنداء ببراءة الذمة ممن فتح من العمال والتصرفين شيئاً من الدواوين ، أو نظر فى الأعمال ، أو طالب بخراج ، أو تصرف فى عمل من الأعمال السلطانية بعد شخوص أمير المؤمنين ، فقد أحل بنفسه العقوبة الموجعة وهجم (داره) وإباحة ماله ، فقد أحب أمير المؤمنين ترفيه رعيته والاحتياط لهم ، وترك إعناتهم ، فليحذر المخالفون لذلك ، وليلحق بأمير المؤمنين سائر عماله وأوليائه ، ولا يتأخروا عن معسكره ، وليبلغ سامع هذا النداء الغائب عنه » أى أن الخليفة عطل كل شىء فى بغداد لئلا يشغب العامة مدة غيابه عنها . وذكر المؤلف قصة تأديب الراضى وأخيه هارون وكيف أرسلت القهرمانة زيدان الى المؤدب تقول (ص ٢٦) « إن هذه المحاسن من هذا الرجل عند السيدة ومن يخدمها مساوىء ، فقل له عنى ياهذا ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوهم (المقتدر) قد رأينا كل ما نحب فيه ، وليس بعالم فاعمل على ذلك » قال المؤدب فأتيت نصرا الحاجب فأخبرته بذلك فبكى وقال : كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم . قلنا ولما اكتفى العباسيون بالجهل لأولادهم تداعت دولتهم شأن كل دولة جاهلة فى القديم . وعهد المقتدر وتسلط النساء فى القصر العباسى من أغرب أيام بنى العباس . ومن هذه الأمور صور صالحة فى كتاب الأوراق وصفحات ينبغى لها أن تقرأ بتدبير

محمد كرد على

4 me Année, No. 132.

Lundi-13-1-1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ١٣٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ شوال سنة ١٣٥٤ — ١٣ يناير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــدد

من أحاديث النيروز

كنا ليلة النيروز المسيحى [1] نَسْمُر فى دار صديق ؛ ولهذا الصديق زوجة من لوزان ، دقيقة الفهم ، رقيقة الشمائل ، لطيفة التكوين ؛ أغرمت بمصر وأخلاق أهلها اغراماً شديداً ، فهى تحاول أن تتكلم العربية ، وتؤثر أن تعيش على الأوضاع المصرية ، وتتابع بالنظر العَطوف نهضتنا المجاهدة ، وتدافع بالحجة القارعة ما تفتريه علينا الألسن الأوربية الجاحدة ، وتحب كلما حضرتُ مجلسها أن تناقلنى الأحاديث فى مصر والعرب والاسلام والشرق ، وهى فى كل ذلك واسعة الاطلاع من طول ما تسافر ومن كثرة ما تقرأ

كان زوجها وفريق من المدعوين يلعبون الورق على المائدة المغربية ، وكان فريق آخر يستمع إلى (الراديو) وهو يذيع الأناشيد الكنسية المهللة ، وأنا وهى على كرسيين متقابلين أمام المدفأة ، نتجاذب على عادتنا أطراف الحديث المشقق ، ونتصفح على طريقتنا أوجه الرأى المختلف ؛ فأجد فى حديثها الشهى الممتع ما يجده ذلك الذى يلعب ، وذاك الذى يشرب ، وهذا الذى يسمع !

***

(١) النيروز هو اليوم الأول من السنة الشمسية

تناهزت النفوس الحبيبة لذة الصفو فى الساعات المودعة ، وتجاوبت فى البِيَع القريبة أصوات النواقيس المُرنّة ، وتلاقت الحياة والموت فى قلب الليلة المخضرمة (١) ، وتهتكت سدول المهد المحجب عن العام الوليد ؛ فقالت لى ساعتئذ والرفاق يتبادلون المودة بالعيون ، ويتناقلون التهنئة بالشفاه :

انظر كيف يولد العام المسيحى فى بقاع الأرض ! ! إنه يولد كما يولد الأمل المعسول فى النفوس المرحة الغضة ، فالكنائس تعج بالصلوات المستبشرة ، والمنازل تفيض بالمسرات المتجددة ، والعالم الغربى كله لا يذكر فى هذه اللحظة عاماً دفن مع الأمس ، ذوت فيه نواضر المنى ، وذهب معه بعض العمر ، وإنما يذكرون عاماً يولد مع اليوم ، فتستأنف نشاطها فيه ، وتستمد رجاءها منه ، وتستقبل حدثان الغد بالثغر الباسم والعزم الصارم والنظر الرغيب.. وما أدرى — وقد نشأت فى ربوع الغرب وطوّفت فى بعض أنحاء الشرق — لماذا كان المسلمون وحدهم اليوم رماد الوقد المضطرم : يتحرك بهم الفلك وهم ساكنون ، وتتفجر عليهم الأحداث وهم غافلون ، ويُلقون فى مراغة الذل وهم راضون ، وتؤكل بهم أرزاق الأرض وهم قانعون ، ويجادل عنهم خصومهم وهم ساكتون ؟ أيرجع ذلك إلى العقيدة أم إلى الطبيعة ؟

فأجبتها والخجل يكسر من طرفى ويعقد من لسانى : ربما كان مرجعه إلى الاثنتين معاً !

وكانت تنظر إلى لهب النار يرقص وارياً بين وقود المدفأة ، فحولت فى دهشة وسرعة وجهها إلىّ وثبّتت نظرها فىّ ، وقالت : كيف ؟! ألم تكن عقيدتهم اليوم هى العقيدةَ التى ألّفت من شتات البدو دولة ، وبعثت من جوف الصحارى حضارة ، ونفخت فى قلوب الصعاليك من روح الله فطمحوا إلى ملك كسرى وهم جياع ، وسموا إلى عرش قيصر وهم عراة ، وصمدوا إلى حكم العالم وهم سذّج ؟

ألم تكن طبيعتهم اليوم هى الطبيعة التى تكرمت عن الدون ، وتجافت عن الهُون ، وتسامت إلى القَدْر الخطير ، وتمردت على الطغيان المستبد ، وجعلتهم يضعون أنفسهم فى كفة ، والعالم كله فى كفة ، فسموا — كما علمتُ منك — من عَداهم بالعجم ، كما سمى الرومان من عداهم بالبربر ؟

فقلت لها : كلا وا أسفاه ! ليست العقيدة هى العقيدة ، ولا الطبيعة هى الطبيعة ! كانت عقيدتهم كما قلتِ سامية تبعث الطموح ، صافية تكسب الخلوص ، بسيطة تنتج الوفاق ، جامعة توجب الوحدة ؛ توفق بين الدين والدنيا من غير كلفة ، وتصل بين الله والانسان من غير واسطة ، فاختلط بها فى القرون الأخيرة شعوذة الهنود وأساطير اليهود وصوفية الفرس ولاهوتية اليونان ، فأصيبت بالخَدَر الذاهل ، والتواضع الجبان ، والزهد الكسول ، والاتكال المخلف ، والجدل العقيم ، والاختلاف المفرق ؛ ثم تبخر من هذا الخليط المشوه أكسير الحياة فلم يبق إلا الرواسب الغريبة ، وتصعّد منه عبير الروح فلم يبق إلا الأوراق الجفيفة ؛ فالدين اليوم شعائر من غير شعور ، وتقليد من غير فهم ، واعتقاد من غير تطبيق ، وشعوذة من غير حقيقة ، وأحكام من غير حكم

***

وكانت طبيعتهم كما قلتِ أبية تأنف الضراعة ، طاحة تكره القناعة ، وثابة تحاول التفوق ، طلاعة تحب المغامرة ؛ فامتزجت بها من بعد الفتوح دماء الأجناس المملوكة ، وأدواء الأمم المنهوكة ، وأوباء الأقاليم القصية ؛ ثم قرت فيها صبابة الأحقاب ، وانتهت إليها نفاية الأعقاب ، وناءت بها أعباء التقاليد . فالعقلية الاسلامية اليوم مشوبة غير صريحة ، معقدة غير واضحة ؛ وهى من عبث الأحداث متنافرة لا تلتئم ، متخاذلة لا تقاوم

إنما العقيدة الخالصة والطبيعة السليمة لا تزالان فى بوادى الحجاز وهضبات نجد ؛ ولكن العالم غير العالم ، والوسيلة غير الوسيلة ، والغاية غير الغاية !

فاذا لم نجلُ عن عقيدتنا هذا الصدأ العارض ، وننف عن ثقافتنا هذا الهراء الغث ، ونجُدّ من خلفنا ذيل التقاليد الفاسدة ، ظل سيرنا يا سيدتى بطيئاً لا يَلحق ، وجهدنا باطلا لا يفيد

***

وكانت فورة اللعب والطرب قد قرّت فى نفوس القوم ، فخلت المائدة ، وسكت الراديو ، وفتر الحديث ، وتهيأ السامرون للخروج ، فلم تستطع السيدة أن تعقب على هذا الكلام

احمد حسن الزيات

(١) لأنها أخذت شطراً من العام الماضى وشطراً من العام الجديد

فى الحب والمرأة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أنا — كما لا يعرف القارئ وإن كان لاشك لبيباً -- أكره أن أحِب أو أن أحَب . ولهذا النفور من الحب أسباب شتى ، منها أنه لا يد لى فى الأمر ، ولا سلطان لى عليه ، والمرء يصاب بالحب كما يصاب بالزكام — بكرهه وعلى الرغم منه — ولو خيّر لاختار السلامة وآثر النجاة ، ومن ذا الذى يطيب له أن يتوعك ؟ والحب حين يغمر النفس يذهلها عن لذته وحلاوته ، ويشغلها بالوجيب والقلق والخوف والرغبة والغيرة ، ولهذا كان أمتع ما فيه ذكراه — أى بعد أن تفتر الحرارة وتسكن النفس ويزول الاضطراب والقلق — أو تنتفى دواعيهما بفتور الرغبة — وقد يكون البحر الجائش العباب رائعا ولكن ركوبه لا يحلو ، واعتسافه لا يؤمن ، والنفس مثله . وقد يسمو بها اضطرام الحب فيها إلى الجلال ، ولكن الاحاطة بما تضطرب به والغوص عليه لا يتسنيان إلا بعد الهدوء ؛ وقد يلهم المرء شيئاً وهو هائج ، ولكن النظرة المباركة هى التى تدور بها العين فى أنحاء النفس بعد أن تعود اليها سكينتها وصفوها ويتيسر الوصول إلى أغوارها والنفاذ إلى زواياها والتغلغل فى سراديبها .

ومن الأسباب المزهدة أنى رجل عادل منصف ، أو دع الانصاف وقل إن الله خلق لى فى وجهى عينين ، فما خيرهما إذا أنا لم أنظر بهما ؟ ؟ والمرأة مستبدة ، ومن استبدادها أنها تغضب وتثور وتسوّد عيشك اذا نظرت إلى سواها . وعبث أن تحاول أن تفهمها أن الأغضاء عن كل هذا الجمال الذى فى الناس ، قلة عقل ، وقصر نظر — بل عمى — ؛ وماذا تصنع العينان إذا لم تبصرا ؟ وأى عمل آخر لهما هناك ؟ وكون المرأة التى يبتلى الانسان بحبها جميلة ليس معناه أن النساء غيرها دميات ؛ وحبك إياها لا ينبغى أن يتقاضاك مقت النساء الأخريات وتنقصهن ؛ والاعجاب بهن لا يعد ثلباً لحبيبتك ، وفى وسعها هى أيضاً — إذا شاءت وكان هذا مما تستطيع — أن تعجب مثلك بهن . والرجل الذى يفقده الحب القدرة على الاعجاب بالجمال فى صوره المختلفة يكون فاسد الذوق ، ولو عقلت المرأة لكان هذا كافياً لتشكيكها فى رأيه فيها

ويزهدنى فى الحب أيضاً أن مناظر العشاق مضحكة ، وأحوالهم سخيفة ، ومبالغاتهم شديدة ، ودعواهم عريضة ، وعمى قلوبهم وأبصارهم تام عن كل ما يحيط بهم . وأى عاشق لم يقطع ألف وعد بالوفاء المستحيل ؟ بل أى محب لم ينس طربوشه مرة ، أو لم يلبس طربوشين واحدا فوق الآخر (ومع ذلك تراه لذهوله يدور باحثاً عن طربوشة لظنه أن رأسه عار !) أو لم يبد للناس فى الطريق أو الترام ملتاث العقل مخبولا ، يضحك ويقطب بلا سبب ظاهر ، ويشير بأصابعه أو يلوح بيده ، أو يكلم نفسه ؟ والأرق ؟ لا أدرى لماذا لا ينام العشّاق ملء جفونهم كما ينام عبادُ الله الآخرون ؟ ولكن الذى أدريه أن النوم المريح قلما يؤاتيهم أو يسعفهم بسكينته ، وتالله إن العاشق لمسكين ! لا نوم الليلة يا صاحبي لأنك حين ذهبت الى بيت حبيبتك رأيتها مطلةً من النافذة وناظرةً الى جهة غير التى تعرف أنك آتٍ منها ! فهل كانت يا ترى تنتظر سواك ؟ وعليك أن تذرع أرض الغرفة مائة ألف مرة هذه الليلة وتقطع خمسمائة فرسخ — جيئة وذهوبا — لأنك وأنت معها جملت ذراعك حولها وهممت بضمها وتقبيلها فجنحت الى الدلال ونفرت من العناق ، وكانت تبتسم ، ولكنها قالت « من فضلك ! » من فضلك ؟ ، وهل بيننا « من فضلك ؟ » . هذا كلام يقال للأغراب ، وتكلف فى التعبير لا يكون بين المحبين ! ويظل طول الليل يدب على رؤوس النيام تحته . وفى ليلة يسير على وجهه فى الشوارع كالمتشردين ، ويحدث نفسه بالانتحار ، ويجتاز جسر اسماعيل ، وعينه الى الماء الذى يتدافع بين قواعده ، وقد يسأم التدخين فيلقى بعلبة السجاير فى الماء ويغرقها فيه بدلا منه وفداء له ، وبعد خمس دقائق يشترى غيرها . ولا يزال يتمشى حتى يرتاب فى أمره الشرطة ، ويرى منهم ما يرد اليه بعض ما عزب من عقله ، فيرجع إلى البيت مضعضعاً مهدوداً . . . إلى آخره ، إلى آخره

ثم إن الحب إذعان ، ومن أحب امرأة فقد أسلم أمره — إلى حد ما — لأهواء لا ضابط لها ولا كابح ، ولا تمييز فيها بين الممكن والمتعذر ، أو اللائق وغير اللائق ؛ وقد يطير الحب عقل الرجل — بل هو يفعل ذلك على التحقيق — ولكنه لا يستطيع أن يغير أسلوب تفكيره ولا أن يجعله كأسلوب المرأة فى تفكيرها . وعسير أن يظل الحب قادرا على إخفاء الفوارق بين أسلوبى

الرجل والمرأة فى التفكير . وهب وقدتــه تبقى زمناً طويلا – وهو ما أشك فيه ولا أومن به – فان توالى اصطدام العقليتين خليق أن ينبــه الى هـذه الفوارق وأن يزعج الرجل ويحيّره ، وقد يفضى به الى السآمة

والمرأة التى ترى نفسها محبوبة تتوهم أن الرجل أباحها ظهره فهى تركبه وتركضه كيف شاءت وإلى حيث ينزو برأسها أن تذهب ، ولا تبالى ما يصيبه من الارهاق والجهد والاعياء والملل ، ولا يخطر لها أن كده على هذا النحو ولجاجتها فى ذلك خليقان أن يخمدا وقدة الحب

والدلال ، ماذا نقول فيه ؟ إنه مصيبة كبيرة وبلاء عظيم ، ولـكن المرأة تحسبه وقود الحب ، فلا سبيل إلى شىء إلا بعذاب غليظ من هذا الدلال الثقيل ، إذ كانت المرأة تسيء الظن بقيمة الاستجابة السريعة ، ولا تؤمن إلا بقول القائل — قاتله الله كائناً من كان ، فقد نسيت من هو — : « وحَبَّ شىء إلى الانسان ما منعا »

قلت مرة لامرأة وقعت بينها وبين حبيبها نبوة من جراء دلالها وإبائها عليه قبلة اشتهاها : « ياستى أنت تحبينه ، وهو يحبك — أليس كذلك ؟ »

فألقت إلىّ نظرة خبيثة ، فهززت رأسى وقلت : « نعم أو لا ؟ أيهما ؟ قولى بلسانك

فقالت : « لـكأنى فى مدرسة ! »

قلت : « ومن الذى غشك وأوهمك أنك استغنيت عنها ؟ ؟ إنك لم تشبى عن الطوق إلى الآن ، ومازلت إلى هذه الساعة بنتاً صغيرة جاهلة ، أجدر بك أن تخرجى إلى الشارع ، فتلعبى فيه بالحبل ... »

فلم يسؤها منى هذا الطعن لأنها كانت تعرف عطفى عليها ، وحبى لخيرها ، فأعدت عليها السؤال ، فقالت : « نعم »

فقلت : « أشهد ألا إلـه إلا الله ! وقد اشتهى منك قبلة ، فهل كنت تأنسين من نفسك استعدادا للاجابة ورغبة فيها ؟ »

فضحكت وقالت : « هذا اشبه بالتحقيق . . . . . . شىء جميل والله ! »

قلت : « هو تحقيق . . . فأجيبى »

فصاحت : « ولماذا لم يقبلنى ؟ ماذا منعه ؟ »

فصحت بدورى : « إيه ؟ ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول إن روحى كانت على شفتى . . . . وكنت أتلهف على قبلته ، ولـكنه لم يفعل وذهب يتكلم ... سخيف ! »

قلت : « ليس هو وحده السخيف »

فرفعت وجهها إلىّ ، وزوت ما بين عينيها ، فقلت : « أنا أيضاً مثله . . . . . فقد كنت أحسبه مؤدباً ، وأعده مهذباً ، فاذا به مغفل ! »

فضحكت ... وهكذا المرأة أبداً ... ومن هذا الذى يجرؤ أن يزعم أنه يعرفها معرفتها ؟ يفعل الرجل الشىء يطلب به رضاها ، فاذا هى ساخطة ضجرة ؛ ويتقى الشىء يخشى أن يغضبها بفعله ، فاذا هى تلومه وتؤنبه وتعد ذلك من ذنوبه ؛ ويختصر الطريق ويمشى إلى غايتك مباشرة ، فتراها تؤثر اللف والمحاورة ، فتروح تدور فتجدها قد تغير مزاجها ، واختلفت رغبتها وانقلبت تؤمن بأن الخط المستقيم أقرب ما بين نقطتين ؛ وتهدى اليها تحفة تتعب فى انتقائها ، وتغرم فى سبيلها نصف دخلك ، فتقول : « هلا استشرتنى قبل أن تشتريها ؟ » ؛ وتستشيرها فى مرة أخرى فتقول : « لو فاجأتنى بالهدية لـكان ذلك أحلى وأوقع » فأنت معها أبدا على كف عفريت سكران

وعقول الرجال فى رؤوسهم ، أما عقل المرأة فقد يكون فى حذائها – ولـكنه على التحقيق – ليس فى رأسها . وضائع ، ضائع ، من يجادلها بمنطق الرجال ، أو يكلمها كلام العقل ، فما عرفتُ ذلك يجدى معها . ولو أن رجـلا أثنى علّى عقل امرأة بكتاب فى ثلاثين جزءاً لما بلغ من نفسها ما هو خليق أن يبلغ بكلمة ثناء مفردة على جمالها — ولو كذبا — أو نظرة اعجاب واحدة الى حذائها وإن كان أضخم من الباخرة نورماندى ، أو مسحة بكفه – فى حنو ، ولو متكلفا – على شعرها وإن كان كضوء القمر

ولست أذم المرأة ، وكيف أجرؤ ، وهى زينة الحياة وسر سحرها ؟ ولـكنى أقول إنها مخلوق آخر ، غير الرجل ، وهو قول ليس فيه جديد ، ولا شك أن الرجل يبدو للمرأة – كما تبدو هى له – مستغرب الأطوار شاذا فى أسلوب تفكيره ، وطريقة تناوله للأمور

ابراهيم عبد القادر المازنى

٢ - المشكلة (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لما فرغتُ من مقالات (المجنون) وأرسلتُ الأخيرة منها، قلتُ في نفسي هذا الآخِرُ هو الآخر من المجنون وجنونه، ومن الفكر في تخليطه ونوادره؛ غير أنه عاد إليَّ أخلاطاً وأضغاثاً فكأني رأيته في النوم يقول لي: اكتب مقالا في السياسة. قلت: مالي وللسياسة، وأنا «موظف» في الحكومة، وقد أخذت الحكومة ميثاق الموظفين لما عرفوا من نقدٍ أو غميزةٍ ليكتمُنّه ولا يُبيّنونه. فقال: هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلح عذرا، والمخرجُ سهلٌ والتدبير يسيرٌ والحلُّ ممكن. قلت: فما هو؟

قال: اكتب ما شئت في سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعك في آخر المقال هكذا: «مصطفى صادق الرافعي؛ غير موظف بالحكومة» . . . . . .

فهذه طريقة من طرق المجانين في حل المشاكل المعقّدة، لا يكون الحل إلا عقدةً جديدةً يتم بها اليأس ويتعذّر الامكان، وهي بعينها طريقةُ ذلك الطائر الأبله الذي يرى الصائد فيُغمّض عينه ويلوي عنقه ويخبأ رأسه في جناحه ظناً عند نفسه أنه إذا لم ير الصائد لم يره الصائد، وإذا توهم أنه اختفى تحقق أنه اختفى؛ وما عمله ذلك إلا كقوله للصياد: إني غير موجود هنا . . . على قياس «غير موظف»

***

وقد كنت استفتيتُ القراء في (المشكلة) وكيف يتقي صاحبُها على نفسه وكيف تصنع صاحبتُها؛ فتلقيتُ كتباً كثيرة أهدت إليَّ عقولا مختلفة؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب ألقي إليَّ منها — كتابُ «نابغة» كنابغة القرن العشرين، بعث به من القاهرة، وسمى نفسه فيه (المصلح المنتظر)؛ وهذه عبارته بحرفها ورسمها كما كُتبت وكما تُقرأ؛ فان نشر هذا النص كما هو، يكون أيضاً نصاً على ذلك العقل كيف هو . . . .

قال: «إن هذا الكون تعبث فيه آراء المصلحين، وكتب الأنبياء زهاء قرون عديدة، ودائماً نرى الطبيعة تنتصر. ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته، إلا الانسانُ. ولقد تفنن المشرعون في أسماء العادات والتقاليد والحمية والشرف والعرض، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة فما بالكم بسلطان الروح؟

ورأيي لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه الجحيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التي يحياها ويتمتع بالحب الواحد المقدر له، ما دام قلبه اصطفاها وروحه تهواها؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأي داع من دواع الانفصال. (كذا)

وهذا ليس مجرد رأي مجرب، وإنما هو رأي أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن، وسينتصر على جميع من يقفون أمامه، والدليل أن هذا المقال سيشار اليه في مجلة (الرسالة)، وهذا الرأي سيعمل به، وصاحب هذا الرأي سيخلد في الدنيا، وسيضع الأسس والقوانين التي تصلح لبني الانسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادة المال

إن الانسان يحيا حياة واحدة فليجملها بأحسن ما تكون، وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه. وإلى الملتقى في ميدان الجهاد» (المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة غير «موظف» ... فليعتقد العاشق أنه غير متزوج فاذا هو غير متزوج، وإذا هو يتقلب فيما شاء؛ وتسأل الكاتب ثم ماذا؟ فيقول لك: ثم الجحيم ...

وإنما أوردنا الكتاب بطوله وعرضه لأننا قرأناه على وجهين، فقد نبهتنا عبارة «أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن» إلى أن في الكلام إشارةً من قوة خفية في الغيب، فقرأناه على وحي هذه الاشارة وهديها فاذا ترجمةُ لغة الغيب فيه: «ويحك يا صاحب المشكلة، إذا أردت أن تكون مجنوناً أو كافراً بالله وبالآخرة فهذا هو الرأي. كن حيواناً تنتصرُ فيه الطبيعة والسلام

***

(١) انظر المقال الأول في العدد ١٢٣ من الرسالة . والمشكلة هي قصة عاشق أكره على الزواج من امرأة وهو يحب أخرى فكيف يصنع

تلك إحدى عجائب المقادير فى أول كتاب ألقى إلى ؛

أما العجيبة الثانية فان آخر كتاب تلقيته كان من صاحبة المشكلة نفسها . وهو كتاب آية فى الظرف وجمال التعبير وإشراق النفس فى أسرارها يَمُور مَوْر الضباب الرقيق من ورائه الأشعة ، فهو يحجب جمالاً ليظهر منه جمالاً آخر ؛ وكأنه يعرض بذلك رأياً للنظر ورأياً للتصوُّر ، ويأتى بكلام يقرأ بالعين قراءة وبالفكر قراءة غيرها . ولفظها سهلٌ سهل ، قريبٌ قريب ، حتى كأن وجهها هو يحدثك لا لفظها ، ومادة معانيها من قلبها لا من فكرها ، وهو قلبٌ سليمٌ مُقْفَلٌ على خواطره وأحزانه مُسترسِلٌ إلى الايمان بما كُتب عليه استرساله إلى الايمان بما كتب له ، فما به غرور ولا كبرياء ولا حقد ولا غضب ولا يُكرِّه ما هو فيه

ومن نكد الدنيا أن مثل هذا القلب لا يُخلَق بفضائله إلا ليُعاقَب على فضائله ؛ فغِلظةُ الناس عقابٌ لرقته ، وغدرهم نكاية لوفائه ، وتهوُّرهم ردٌّ على أناته ، وحمقُهم تكدير لسكونه ، وكذبهم تكذيبٌ للصدق فيه

وما أرى هذا القلب مأخوذا بحب ذلك الشاب ولا مستهاماً به لذاته ، وإنما هو يتعلق صُوراً عقليةً جميلةً كان من عجائب الاتفاق أن عرضت له فى هذا الشاب أول ما عرضت على مقدار ما ؛ وسيكون من عجائب الاتفاق أيضاً أن يزول هذا الحب زوال الواحد إذا وُجدت العشرة ، وزوال العشرة إذا وُجدت المائة ، وزوال المائة إذا وُجد الألف

وبعد هذا كله فصاحبة المشكلة فى كتابها كأنما تكتب فى نقد الحكومة على طريقة جمل التوقيع : « فلان غير موظف بالحكومة » ... وهى فيما كتبت كالنهر الذى يتحدَّر بين شاطئيه مدَّعياً أنه هارب من الشاطئين مع أنه بينهما يجرى . تحبُّ صاحبها وتلقاه ؛ ثم هى عند نفسها غير جانية عليه ولا على زوجته ... فليت شعرى عنها ماعسى أن تكون الجناية بعد زواج الرجل غير هذا الحب وهذا اللقاء ؟

ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له : هَبْنا نقدر على محاباتك فى ألا نقول إنك ظالم ؛ هل تقدر أنت على ألا تعلم أنك ظالم ؟

ورأيها فى (المشكلة) أن ليس من أحد يستطيع حلَّها إلا صاحبها ، ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقة من طريقتين : فاما أن تكون ضحيةُ أبيها وأبيه (تعنى زوجته) ضحيته هو أيضاً ويستهدفُ لما يناله من أهله وأهلها فيكون البلاء عن يمينه وشماله ، ويكابد من نفسه ومنهم ما إنّ أقلّهُ ليذهبُ براحته وينغِّص عليه الحبَّ والعيش ، (قالت) : وإما أن يضحى بقلبه وعقله وبى ....

وهذا كلام كأنها تقول فيه : إن أحداً لا يستطيع حل هذه المشكلة إلا صاحبها ، وأن صاحبها غير مستطيع حلها إلا بجناية يذهب فيها نعيمه ، أو بجنون يذهب فيه عقله . فان حلها بعد ذلك فهو أحد اثنين : إما أحمق أو مجنون ما منهما بد . . .

ولسان الغيب ناطق فى كلامها بأن أحسن حل للمشكلة هو أن تبقى بلا حل ، فان بعض الشر أهون من بعض

* * *

والعجيبة الثالثة أن « نابغة القرن العشرين » جاء زائراً بعد أن قرأ مقالات (المجنون) فرأى بين يدىّ هذه الكتبَ التى تلقيتها وأنا أعرضها وأنظر فيها لأتخير منها ، فسأل فخبّرته الخبر ؛ فقال : إن صاحب هذه المشكلة مجنون لو امتحنوه فى الجغرافيا وقالوا له ما هى أشهر صناعة فى باريس لأجابهم : أشهر ما تعرف به باريس أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتى . . .

قلت : فكيف يرتد هذا المجنون عاقلاً ؟ وما علاجه عندك ؟

قال : وَجِّهْ فى طلب ا . ش ليجىء ، فلما جاء قال له اكتب : جلس « نابغة القرن العشرين » مجلسَه للافتاء فى حل المشكلة فأفتى مرتجلاً :

إن منطق الأشياء وعقلية الأشياء صريحان فى أن مشكلة الحب التى يعسر حلُّها ويتعذَّر مَجازُ العقل فيها ، ليست هى مشكلة هذا العاشق أكرهوه على الزواج بامرأة يحملها القلب أولا يحملها ، وإنما تلك هى مشكلة أمبراطور الحبشة يريدون إرغامه أن يتزوج إيطاليا ، ويذهبون يزفونها إليه بالدبابات والرشاشات والغازات السامة

ولو لم يكن رأس هذا العاشق المجنون فارغاً من العقل الذى يعمل عمل العقل ، إذن لكانت مجارى عقله مطردة فى رأسه فانحلَّت مشكلتُه بأسباب تأتى من ذات نفسها أو ذات نفسه . غير أن فى رأسه عقلٌ بطنه لا عقل الرأس ، كذلك الشره البخيل

الذى طبخ قِدْراً وقعد هو وامرأته يأكلان . فقال ما أطيبَ هذه القِـدْرَ لولا الزحام . . . قالت امرأته : أى زحام ههنا ؟ إنما أنا وأنت . قال : كنت أحب أن أكون أنا والقدر فقط . . .

فعقلُ النهم فى رأس هذا كعقل الشهوة فى رأس ذاك ؛ كلاهما فاسدُ التقدير لا يعمل أعمال العقول السليمة ؛ ويريد أحدهما أن تبطل الزوجة من أجل رطل من اللحم ، ويريد الآخر مثل ذلك فى رطل من الحب . . .

وإذا فسد العقل هذا الفساد ابتلى صاحبَه بالمشاكل الصبيانية المضحكة لا تـكون من شىء كبير ، ولا يكون منها شىء كبير ؛ وهى عند صاحبها لو وُزنت كانت قناطير من التعقيد ؛ ولو كِيلتْ بلغت أرادب من الحيرة ؛ ولو قيست امتدت إلى فراسخ من الغموض

هاتان المرأتان : (الحبيبة والزوجة) ، اما أن تـكونا جميعاً امرأتين فالمعنى واحد فلا مشكلة ؛ وإما ألا تكونا امرأتين فالمعنى كذلك واحد فلا مشكلة ؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قردة أو هِرْدة وههنا المشكلة . (حاشية : الهردة من أوضاع نابغة القرن العشرين فى اللغـة ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسيّ ولا البهائم . . .)

فان زعم العاشق أن زوجته قردة فهو كاذب ، وإن زعم أنها الهردة فهو أكذب . والمشكلة هنا مشكلة كل المجانين ، ففى مخه موضع أفرط عليه الشعورُ فأفسده ، وأوقع بفساده الخطأ فى الرأى ، وابتلاه من هذا الخطأ بالعمى عن الحقيقة ، وجعـل زوجته المسكينة هى معرض هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد ؛ ولا عيب فيها ، لأنها من زوجها كالحقيقة التى يتخبط فيها المجنون مدةَ جنونه فتكون مَجلَى هَذَيانه ومعرضَ حماقاته ، وهى الحقيقة غير أنه هو المجنون

فان كانت هذه الحقيقة مسئلةً حسابيةً استمر المجنون مدة جنونه يقول للناس : خمسون وخمسون ثلاثة عشر ، ولا يصدق أبداً أنها مائة كاملة ؛ وإن كانت مسئلةً علميةً قضى المجنون أيامه يُشعِل التراب ليجعله باروداً ينفجر ويتفرقع ، ولا يدخل فى عقله أبداً أن هذا تراب منطقٌ بالطبيعة ؛ وإن كانت مسئلةً قلبية استمر المجنون يزعم أن زوجته قردة أو هردة ولا يشعر أبداً أنها امرأة

فان صح أن هذا الرجل مجنون فعلاجه أن يُربط فى المارستان ثم يجىء أهله كل يوم بزوجته فيسألونه : أهذه امرأة أم قردة أم هردة ؟ ثم لا يزالون ولا يزال حتى يراها امرأة ويعرفها امرأته فيقال له حينئذ : إن كنت رجلاً فتخلق بأخلاق الرجال

أما إن كان الرجل عاقلاً مميزاً صحيح التفكير ولكنه مريض مرض الحب ، فلا يرى (النابغة) أشفى لدائه ولا أنجع فيه من أن يستطبَّ بهذه الأشفية واحداً بعـد واحد حتى يذهب سقامه بواحد منها أو بها كلها :

الدواء الأول : أن يجمع فـكره قبل نومه فيحصره فى زوجته ثم لا يزال يقول زوجتى ، زوجتى ، حتى ينام . فان لم يذهب ما به فى أيام قليلة فالدواء الثانى

الدواء الثانى : أن يتجرع شربة من زيت الخروع كل أسبوع . . . ويتوهم كل مرة أنه يتجرعها من يد حبيبته ، فان لم يشفه هذا فالدواء الثالث

الدواء الثالث : أن يذهب فيبيت ليلة فى المقابر ، ثم ينظر نظره فى أى المرأتين يريد أن يلقى الله بها وبرضاها عنه وبثوابه فيها ؛ وأيتهما هى موضع ذلك عند الله تعالى ، فان لم يُبصر رشده بعد هذا فالدواء الرابع .

الدواء الرابع : أن يخرج فى (مظاهرة) . . . فاذا فقئت له عين أو كسرت له يد أو رجل ثم لم تحلّ حبيبتُه المشكلة بنفسها ... فالدواء الخامس

الدواء الخامس : أن يصنع صنيع المبتـلى بالحشيش والـكوكايين ، فيذهب فيُسلم نفسه إلى السجن ليأخذوا على يده فينسى هذا الترف العقلى ، ثم ليعرف من أعمال السجن جدّ الحياة وهزلها ، فان لم ينزع عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس

الدواء السادس : أنه كلما تحرك دمُه وشاعت فيـه حرارةُ الحب ، لا يذهب إلى من يحبها ولا يتوخى ناحيتها ، بل يذهب من فوره إلى حجّـام يحجمه ... ليطفئ عنه الدم باخراج الدم ؛ وهذه هى الطريقة التى يصلح بها مجانين العشاق ، ولو تبدلوا بها من الانتحار لعاشوا هم وانتحر الحب

قال « نابغة القرن العشرين » : فان بطلت هذه الأشفيةُ السـتة وبقى الرجلُ جَمُوحاً لا يُردُّ عن هواه فلم يبق إلا الدواء السابع

سفارة أندلسيـــــــة إلى ملك النورمانيين

فى القرن الثالث الهجرى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لبث عرب الأندلس منذ الفتح زهاء قرنين فى مأمن من الغزوات الخارجية ، لا تزعجهم سوى الحروب والمعارك الداخلية ، ولم تشعر الأندلس المسلمة بخطر الغزو الخارجى فى تلك الفترة إلا من ناحية واحدة ، هى ناحية مملكة الفرنج التى بلغت ذروة القوة والبأس فى عصر عاهلها كارل الأكبر (شارلمان) ، والتى استطاعت من قبل أن تستخلص من يد العرب رباط الثغر وكل أملاكهم فى لانجدوك وما وراء جبال البرنيه ، وأن تغزو اسبانيا المسلمة من الشمال أكثر من مرة ؛ ولكن هذا الخطر الداهم لم يلبث أن خبا عقب انحلال المملكة الفرنجية وتوطد الدولة الأموية فى الأندلس

بيد أن الأندلس لم تلبث أن عرفت خطراً آخر لم تكن لتفطن اليه أو تتحوط لرده ؛ ذلك هو خطر الغزوات البحرية النورمانيـة ؛ وقد ظهر هذا الخطر فجأة حينما ظهرت سفن النورمانيين فى مياه الأندلس لأول مرة فى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٣ م) فى عصر أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ، وعاثت فى ثغور الأندلس ، ووصلت إلى أشبيلية ، واقتحم الغزاة بسائطها بالنار والسيف ؛ ولم يك لعرب الأندلس يومئذ معرفة بتلك الأمة البحرية التى جاءت من أقاصى الشمال غازية فى أقاصى الجنوب ، فعرفوها وآنسوا خطرها ومنعتها ؛ وعرفوها عندئذ باسم «المجوس» ؛ ذلك لأن النورمانيين كانوا يومئذ أمة وثنيـة تعبد النار والكواكب والمناصر ، ثم عرفوها فيما بعـد باسم «المجوس الأردمانيين» ، أعنى النورمانيين ؛ وكانت الأندلس حتى ذلك الحين تعنى بأسباب الدفاع الداخلية والبرية ، ولا تعنى كثيراً بأمر الأسطول أو التحصينات البحرية ، فلما شهدت جرأة أولئك الغزاة المجهولين ، وشدة عيثهم بشواطئها وثغورها ، عنيت بأمر الأسطول والثغور ، ولم يأت عصر عبد الرحمن الناصر حتى كان للأندلس أسطول فخم يسيطر على تلك المياه ، ويحمى ثغور الأندلس من كل غزو واعتداء

وقد ترددت حملات النورمانيين على شواطئ الأندلس مراراً ، فى عصر عبد الرحمن بن الحكم ، كما قدمنا ، ثم فى عصر ولده محمد (٢٤٥ هـ ـ ٨٥٩ م) ، ثم بعد ذلك بنحو قرن فى عصر الحكم المستنصر (٣٥٥ هـ ـ ٩٦٦ م) ، ثم فى عهد الطوائف (٤٥٧ هـ ـ ١٠٦٥ م) ، وكانت فى كل مرة تبث الذعر والروع والخراب أينما حلت ، بيد أنها كانت ترد على أعقابها بعد معارك برية وبحرية طاحنة ؛ وكانت تقنع دائماً بما تحصل من الغنائم والسبى ، ولا تمكن من البقاء أو الاستقرار وسير هذه الغزوات البحرية مشهورة فى الروايات الاسلامية والنصرانية ، وليس من موضوعنا أن نعنى بتفاصيلها ، وإنما نعنى هنا بحادث دبلوماسى شهير ، كان من بعض آثار هذه الغزوات ، وهو من الحوادث الدبلوماسية الفريدة فى علائق الشرق والغرب والاسلام والنصرانية

الدواء السابع : أن يضربَ صاحبُ المشكلة خمسين قناةً يُصَكُّ بها [1] واقعةً منه حيث تقع من رأسه وصدره وظهره وأطرافه ، حتى ينهشم عظمه ، وينقصف صلبه ، وينشدخ رأسه ويتفرى جلده ؛ ثم تُطْلى جراحُه وكُسوره بالأطْلية والمراهم وتوضع له الأضمدة والعصائب ، ويترك حتى يبرأ على ذلك أعرج متخلعاً مبعثرَ الخَلْق مكسورَ الأعلى والأسفل ، فان فى ذلك شفاءَه التام من داء الحب إن شاء الله

قلنا : فان لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلة الحب ؟

قال : إن لم يشفه ذلك فالدواءُ الثامن

الدواء الثامن : أن يعاد علاجه بالدواء السابع . . . . . .

(لها بقية)

مصطفى صادق الرافعى

(١) القناة هى العصا الغليظة التى يقال لها «الشومة» . والصك خاص فى ضرب الرأس ، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة فى هذا العلاج ... فقد جاز استعمال الصك فى الجسم كله كما رأيت

إلى الفاضل البرى بصور : لا وقت لى فأبحث وأجيبك عن كل هـذه المسائل ، ولكنى سأعهد فى ذلك الى بعض أصحابنا ممن أكلوا الكتب وأكلتهم ، وقد انتظرت فانتظر أيضا الرافعى

قام النورمانيون بغزوتهم البحرية الأولى لشواطئ الأندلس في سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٣ م) في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، وعاثوا في بسائط أشبونه وأشبيلية وليلة ؛ ولم يستطع الأندلسيون رد أولئك الغزاة الشقر إلا بعد جهود جهيدة ومعارك طاحنة ، وبعد أن رأوا من جرأتهم وشجاعتهم وشدة فتكهم ما يؤذن بانتمائهم لأمة قوية عظيمة ؛ عندئذ رأى أمير الأندلس عبد الرحمن ابن الحكم أن يسبر غور هذه الأمة المجهولة ، وأن يسعى إلى مهادنتها وعقد أواصر الصداقة معها ، في نفس الوقت الذي يعنى فيه بتقوية الأسطول وتحصين الثغور ، فانتهز فرصة مقدم الرسل النورمانيين إلى قرطبة لعقد الصلح بعد هزيمة الغزاة وجلائهم عن الثغور الأندلسية ، وقرر أن يوفد معهم إلى ملك النورمانيين سفارة يؤكد بها المودة والصداقة

واختار أمير الأندلس لسفارته رجلا جعلته صفاته الخاصة خير من يستطيع الاضطلاع بتلك المهمة هو يحيى بن الحكم المعروف بالغزال ؛ وكان الغزال شاعراً رقيقاً من أهل جيان ، وكان يومئذ من أكابر رجال الدولة والبلاط ، يصطفيه عبد الرحمن ويؤثره برعايته وتقديره لما كان يتمتع به من خلال وكفايات خاصة في الادارة والسياسة . وكان عبد الرحمن قد اختاره قبل ذلك ببضعة أعوام ليكون سفيره لدى قيصر قسطنطينية الامبراطور نيوفيلوس ؛ وكان الامبراطور قد بعث اليه سفارة وهدية فخمة ليخطب وده ومحالفته ويرغبه في ملك أجداده في المشرق حقداً منه على المأمون والمعتصم ؛ فرحب عبد الرحمن برسل الامبراطور ، وبعث إليه يحيى الغزال بهدية فخمة (٢٢٥ هـ — ٨٣٦ م) فأدى الغزال سفارته ببراعة ، واستطاع أن يخلب الباب الامبراطور وبطانته بذلاقته وحسن بيانه ورقة شمائله ؛ واستمر عبد الرحمن بعد ذلك يسند اليه مختلف المهام الدقيقة فيؤديها بكياسة وبراعة ؛ وكان الغزال في الواقع رجلا خلابا وسيم الطلعة — ومن ثم سمي بالغزال — يتمتع بصفات السياسي البارع وخلاله ومؤثراته ، ويستخدمها دائما بفطنة ونجاح

وقد انتهت الينا عن هذه السفارة الفريدة رواية اسلامية ضافية لكاتب أندلسي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وهو أبو الخطاب بن دحية البلنسي في كتاب له يسمى « المطرب في أشعار أهل المغرب » (1) ؛ وفيه يسرد تفاصيل رحلة الغزال إلى بلاد النورمانيين ، ويورد لنا طرفا من خلاله وشيئاً من نظمه ، بيد أن هذه الرواية الضافية تعنى بالناحية الشخصية والأدبية أكثر مما تعنى بالتحقيق التاريخي ، ومن ثم فان كثيراً من الغموض يحيق بالمكان وبالظروف التي وقعت فيها هذه السفارة ويترك المجال واسعاً لمختلف الفروض

تقول الرواية إن يحيى الغزال ومساعده يحيى بن حبيب خرجا من مياه الأندلس الجنوبية في سفينة أندلسية خاصة أعدت لهما ، وسارت بهما إلى جانب سفينة الرسل النورمانيين ؛ واتجهت السفينتان نحو الغرب حتى خرجتا إلى المحيط ؛ وشهد السفير المسلم من عصف الرياح وروعة الموج أهوالاً ؛ وقد ترك لنا الغزال في وصفها شعراً يقول فيه :

قال لي يحيى وصرنا   بين موج كالجبال
وتولتنا رياح   من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتـ   ـت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو   ت الينا عن حيال
فرأينا الموت رأي العيـ   ـن حالا بعد حال

ولكن الركب وصل سالما إلى « بلاد المجوس » بعد رحلة شاقة مروعة ؛ وسار الغزال وزميله إلى مستقر ملك النورمانيين . أما عن مستقر مملكة النورمانيين (المجوس) فتقول لنا الرواية ما يأتي : « وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط فيها مياه مطردة ، وجنات ، وبينها وبين البر ثلث مجار ، وهي ثلثمائة ميل ، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم ؛ وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار أهلها كلهم مجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية (2) »

وهنا موضع الغموض والحدس . إذ ما هو ذلك القطر الذي تعنيه الرواية الاسلامية ، والذي كان مستقرا لملك النورمانيين وقت مقدم الغزال ؟ لقد كان للفيكنج أو النورمانيين

---

(1) مازال هذا الكتاب مخطوطا ، وتوجد منه نسخة في المتحف البريطاني وقد نقل الينا دوزي رواية ابن دحية عن سفارة الغزال في كتابه Recherches, II. App. XXX IV

(2) راجع رواية ابن دحية في كتاب دوزي المشار اليه

يومئذ ملك فى الشمال ، فى دانماركه ، وكان سلطانهم منذ أوائل القرن الثامن يشمل دانماركه وقسما من اسكندناوه ، وألمانيا الشمالية حتى فرزيا ؛ ويلوح لنا من تأمل الوصف الذى تقدمه لنا الرواية الاسلامية عن رحلة الغزال فى بحار خطرة مروعة ، وعن طبيعية القطر الجزرية ، أن هذا القطر هو الدانماركه ، فهو شبه جزيرة يحيط بها عدد كبير من الجزائر ؛ ومن هذه الجزائر كانت تخرج حملات النورمانيين الغازية الى البحار الغربية والجنوبية . وكان يجلس على عرش النورمانيين فى ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى « هوريك » ، وكان النورمانيون يومئذ أحداثا فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الاسلامية ، لأنهم بدأوا باعتناقها قبل ذلك بنحو عشرين عاما فقط . بيد أن هناك احتمالاً آخر يمكن الأخذ به ، وهو أن القطر الذى زاره السفير الاسلامى ليؤدى رسالته الى زعيم الفيكنج ربما كان جزيرة ارلندة التى تنطبق طبيعتها وموقعها على أوصاف الرواية الاسلامية ، وكان الفيكنج قد فتحوها قبل ذلك بأعوام (٨٤٠ م) واستقروا فى شمالها ، واتخذها زعيمهم « تورجيس » أو « ترجستر » قاعدة لملكه

وعلى أى حال فقد لقى السفير المسلم من ملك النورمانيين كل ترحاب وعطف ، وأفرد لأقامته وزملائه منزلا حسناً ؛ وتصف لنا الرواية بعد ذلك كيف استقبل الملك الغزال ، وكيف أعجب بجرأته وذلاقته ولباقته ، وكيف قدم اليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى الغزال مثل هذا الاعجاب والعطف فى البلاط النورمانى كله . ثم تقدم لنا الرواية تفاصيل شائقة عن صلات الغزال بملكة النورمانيين « نود » ومواقفه منها ، وقد رآها الغزال لأول مرة فراعه حسنها ، وصرح أمامها بأنه لم ير فى حياته مثل هذا الحسن الشمرى الفائق مع كثرة ما شاهد من النساء الحسان فى مختلف القصور ؛ وكان الغزال يومئذ قد جاوز الخمسين من عمره ولكنه كان لا يزال جذاباً وسيم الطلعة ؛ فأعجبت الأميرة بروائه وظرفه وحسن بيانه ، وكثيراً ما كانت تستدعيه للتمتع بحديثه الساحر ؛ وكان الغزال من جانبه يهرع الى مجلسها ويكثر من زيارتها حتى حذره أصحابه من ذلك ، ولكنه لم يعبأ بذلك لما يلقاه منها من التشجيع والعطف ؛ وتقص الرواية علينا بعض مواقفه ومداعباته مع تلك الأميرة الحسناء ؛ ومن ذلك قوله ذات يوم فى مجلسها يتغنى بحسنها :

كلفت يا قلبى هوى متعباً ... غالبت فيه الضيغم الأغلبا
انى تعلقت مجوسية ... تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله فى حيث لا ... يلقى إليه ذاهب مذهبا
يا نود يا رود الشباب التى ... تطلع من أزرارها الكوكبا

وقوله ذات يوم وقد أمرته الأميرة بأن يخضب شعره الأشيب ففعل ، واستحسنت خضابه :

بكرت تحسن لى سواد خضابى ... فكأن ذاك أعادنى لشبابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصف ... إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا ... فيسير ما سترت به لذهاب
لا تنكرى وضح المشيب فانما ... هو زهرة الأفهام والألباب
فلدى ما تهوين ، ماشأن الصبى ... وطلاقة الأخلاق والآداب

وعاد الغزال الى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ومعه كتاب من ملك النورمانيين الى عبد الرحمن بن الحكم ؛ وكان عوده عن طريق شنت ياقوب ثغر جليقية . وقد أدى الغزال سفارته خير الأداء بلا ريب ، ولكن ماذا كان موضوع هذه السفارة وغايتها الحقيقية ؟ هذا ما لم تفصح عنه الرواية ، وإن كنا نعتقد أنها كانت سفارة مودة وصداقة فقط

وعاش الغزال بعد ذلك أعواماً طويلة ، وتوفى بعد الخمسين ومائتين فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقد أربى على الثمانين ؛ وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة فى ميدان الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ فى بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير [1]

محمد عبد الله عنان

---

(١) راجع رواية ابن دحية المتقدمة الذكر فى دوزى Recherches, II, App. 34 — وراجع أيضاً نفح الطيب للمقرى حيث يورد ترجمة الغزال وطرفا من شعره (مصر) ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها

تاريخ الأدب النسوى
فى فرنسا
للأستاذ محمد بك كرد على

Jean Larnac : Histoire de la littérature féminine en France

بينا نرى تركيا تقرر مساواة المرأة بالرجل ، وتعترف لها بحقوقها السياسية فى المجتمع ، غير ناظرة إلى ماضيها وحاضرها ، ولا لاستعدادها المطبوع والمكسوب ، ولا إلى قلة عدد المتعلمات من بنات جنسها فى بلادها ، يخيل اليها أن تجعل منهن أو أن ترتجل منهن عالمات مفكرات ناخبات منتخبات — بينا نرى هذا فى الشرق وتركيا تضع تشريعاً جديداً تجرى أحكامه فى أمة تغرق كثرتها الغامرة فى بحر لجى من الجهالة والأمية ، نرى رجال الغرب على كثرة ما بلغته المرأة عندهم من درجات النشوء والرقى ، يحاذرون أن تساوى الرجل عندهم فى كل الحالات ، ناظرين فى ذلك إلى عدة اعتبارات نفسية وجسمية وعلمية وأدبية وتاريخية

جرأة مستغربة من الترك فى محاولة أمر لم تتم أسبابه ، ولا بعضها ، وتأن لا غرابة فيه من الغربيين ممن بنوا مدنيتهم على العقل ، وساروا بسنة التطور الطبيعى فى كل مظاهرهم ، فأحدثوا هذه الحضارة القائمة على أساس راسخ من العمل والنظر ، ولو نسج الغرب خيوط مدنيته بالخيال ، تمليها العواطف ، ولا يدعمها العقل المولد ، ولا التجارب المسددة ، لما شهدنا هذه المدنية تتفوق على غيرها ، وتكسف شمس الدنيات القديمة التى كان من أعظم ما منيت به عصور جهالات كانت سود لياليها ، ونظريات خيالية ، فقد فيها التسلسل ، ومات منها الابداع

حقا إن أهل البصيرة لا يفهمون سيراً لهذه المغامرة فى جمهورية الترك ، إلا إذا غالطوا حسهم . أليس من أعاجيب الدهر أن ينام الأتراك قروناً عن الأخذ بمذاهب الحضارة ، ويهبوا اليوم دفعة واحدة يحاولون أن ينفذوا قوانين الجمهورية السويسرية فى سكان آسيا الصغرى . ولا يختلف اثنان أن السويسريين أصحاب هذا القانون وصلوا اليه فى عدة قرون ، فاستووا أرقى شعب فى الأرض ، أو أول شعب يجئ فى الصف الأول بين الأمم المتفوقة ، والترك بلا جدال مهما غرت ظواهرهم ، متأخرون فى معظم مظاهرهم فى سلم المدنية ، على ما عرفناهم وعرفهم غيرنا من الباحثين من أهل الشرق والغرب

وأعجب من هذا كله أن تحرم المرأة السويسرية الراقية من حق الانتخاب وترزقه المرأة التركية

أمامى الآن «تاريخ الأدب النسوى فى فرنسا» لجان لارنكان ، قرأته مرتين فما بلغت حظ النفس فى تلاوته ، لما ضم من الفوائد الأثيرة ، وليت العاملين والعاملات لانهاض الشرق القريب يتدبرون بعض ما فيه . وطبقات البشر تكاد تكون واحدة إذا تساوى أهلها فى شروط العيش والبيئة والثقافة . وإن ما يحاوله المقدمون علينا فى سلم الحضارة والنشوء الانسانى حرى بالمتأخرين عنهم فى معظم مقومات الحياة أن يحتذوا مثاله ، ويتأدبوا بأدبه ، ويأخذوا من مضامينه عبرة وعظة . والمدنية مذ كانت ينقل فيها المتأخر عن المتقدم ، ولا ضير فى ذلك ولا غضاضة

قلت يوماً لأحد علماء الترك المنورين : أما بلغك أن دمشق ستنار بعد قليل بالكهرباء ، وتسير فيها الحوافل الكهربائية ؟ فضحك وأجاب : إن حالكم بهذه الزينة الجديدة تقام بأيدى الغرباء ، أشبه بأمبراطور كوريا لبس على رأسه تاجاً من ذهب ، ولا سراويلات له تستر عورته . وكان الأولى يا صاح أن تكون للبلدة طرق معبدة ، وترزق حظاً من التنظيم قبل الكهرباء . وأنا أقرر الآن أنه كان الأولى قبل أن تمنح المرأة الشرقية حق التشريع فى مجالس النواب أن تتعلم وتتربى ، حتى إذا استوفت حظها على النحو الذى وصلت اليه المرأة الغربية ، ومتى تعلمت القروية كالبلدية كل ما يلزمها فى صراع الحياة تتمتع بالحقوق السياسية كالمرأة الانجليزية

جملة معترضة ساقت إليها المناسبة . والآن نرجع إلى تحليل الكتاب الجديد فنقول : عالج المؤلف هذا الموضوع أعواماً طويلة فى الصحف والمجلات وفى أسناد له ورسائل ، وكتابه هذا زبدة تجاربه وعصارة علمه وعمله . بدأه بفصل فى تاريخ المرأة فى القديم . فقال إن الرجل بينا كان فى العصور الخوالى صياداً محارباً عرافاً يسير فى العالم على هواه ، ويطفر طفراته فى سبيل المعرفة كانت المرأة قابعة فى دارها ، خاضعة خانعة لا يتسع نظرها لأكثر من أعمال بيتها ، وتلقين بنيها التربية الأولى . وكان

النساء في يونان القديمة لا معرفة لهن بغير غزل الصوف بتمهدن القناعة لا يسألن أزواجهن غير هذا . ولذلك قال أفلاطون : إن القرد قرد مهما كان ، والمرأة مهما كان عملها تظل امرأة أي غبية مجنونة . يريد الهزؤ بها ، وقد بقي هذا الهزؤ بالنساء قروناً في الأرض حتى كانت النصرانية ، ورأى رجال الكنيسة أن يحولوا دون زواج القائمين بأمر الدين فيها ، فصوروا المرأة بصورة بشعة تزهيداً منهم فيها ، حتى لتساءل أحدهم أن كان للنساء نفس

وجاء القرن الثاني عشر ، والنساء مأخوذات بعوامل كثيرة في نهضتهن ، ليس لهن من الحرية ما يتسع لكثير من أسبابها ، ولئن أخذ كثير من الأساودة أو الفرسان وخدام الملوك يرون من الشرف رعاية السيدات ، ومعاملتهن بقواعد اللياقة والظرف ، فإن كثيرين من المحافظين في الغاليين (الغول) كانوا يبالغون في وصف النساء بما لا يليق ، ويحرمونهن كل حرية . أما النساء فكن يصبرن على هذه المعاملة ويحاولن الخروج من حالتهن السيئة ، وبقين بين عوامل الحرمة وعوامل الاحتقار مدداً متطاولة ، ولا يعدمن مع هذا أناساً من طبقات مختلفة يحمونهن وبفضلهم يتصدرن ويظهرن ، وأما القاعدة العامة فالتشديد عليهن والمبالغة في الاحتفاظ بالتقاليد الموروثة . وقل فيهن من كن يستطعن أن يكتبن كتابة بسيطة ، أو ينظمن ولو نظماً سخيفاً

وأصبحت إيطاليا في القرن السادس عشر مصدر الآداب والفنون الأدبية ؛ وسرى الفرنسيس على مثال الطليان ، بأن جعلوا المرأة موضع إعجابهم ، فأخذ بعض الكاتبين في فرنسا يضعون رسائل وكتباً في تاريخ المرأة ، وكان أكثر ما وضع بإيعاز الملكات ، فكان هذا القرن قرن رفعة المرأة ، جسر فيه كستكليون في إيطاليا أن يقول . لولا النساء لتعذر كل شيء ، ولولا هن لما كانت الشجاعة العسكرية ولا الفنون ولا الشعر ولا الموسيقى ولا الفلسفة بل ولا الدين ، وما عرفنا المولى في الحقيقة إلا بهديهن

وبدأ النساء يستعملن قرائحهن ، فنشأ بينهن بعض القصصيات وواصفات الحكايات والشاعرات ، وقل فيهن من كان لها قريحة يعتد بها . ولم يكن الماهرات منهن أكثر من هواة يتفنن وينتشن من الآداب . وأنشأت مدينة ليون لقربها من إيطاليا ، وكانت تدعى « فلورنسة فرنسا » تتذوق الآداب والفنون ، وظهرت فيها المطبعة قبل أن تؤسس في باريز ، وجعل فرنسوا الأول من مدينة ليون مضم جيوشه خلال حرب إيطاليا فنشأت فيها حركة فكرية ندر وقوع مثلها في مدن الولايات ، فكانت منازلها مواطن الظرف واللطف والنساء يصطنعن فيها كل ما يعجب به الرجال . ومنهن من كانت تجيب على ما يوجه إليها من كلمات المديح بأبيات من الشعر ، وتجرأ على نقد ذوق الباريزيات ، فأصبحن بذلك ملكات الذوق والأناقة والجمال ، وفتح كثير من نبيلاتهن قاعاتهن لانشاء قصائد كان ناظموها يجوزون لأنفسهم تمجيد جسم الحبيبة والتغزل بكل ما فيه ، فاتقى الأشراف من الأزواج عنتاً من هذا التمجيد ، ولطالما احمرت الوجوه بما يقال ، وكان يومئذ للحياء سلطان على النفوس

ففي القرن السادس عشر إذاً أحرز النساء مقاماً محموداً في المجتمع بفضل الشعراء والنبلاء ، وبقي عليهن أن يطالبن بحقهن في التعليم وحقهن في النبوغ . واشتد الجدال فيما إذا كان للمرأة الحق في التعليم لتكون عالمة . ومن النبلاء من قضى للأميرات والنبيلات بتلقف مبادىء العلم ليستطعن إدارة أرضهن ويحكمن رجالهن ، ويدرن شؤونهن ، واقتصر الأمر على هذه الطبقة فقط . وبذلك أرجئوا البنات الطامحات من سائر الطبقات إلى عمل المغازل ، ونشأ من ذلك حوار طويل دعوه خصام الألف باء ، والنساء مع هذا لم يداخلهن اليأس . ولم يقعدهن عن المضي في سبيلهن عائق . وما طلع القرن التاسع عشر حتى دخل النساء في طور العمل بالمطالبة بحقوقهن في التربية ، ولم يكن لنساء الشعب معرفة بشيء : أما العقائل فكن يجلبن لبناتهن معلمين أو يبعثن بهن إلى الأديار ، وكانت بعض الراهبات تعلم الناس منذ القرن السادس عشر مسائل بسيطة لا يستطيع بها المتعلمات تصحيح الإملاء ، ولا حذق شيء من صرف اللغة ونحوها . وقام في ذهن بعضهم أن الواجب إدخال تعديل على هذه الحالة . وقال العالم مالبرانش ، بعد أن درس دماغ الرجل ودماغ المرأة : إن الواجب تعليم النساء تعليماً صحيحاً . وارتأت مدام دي سيفينيه ، فيما كتبت به إلى ابنتها من الرسائل أن تلقن أولادها قليلاً من العلم تلقيناً حسناً ، وأن يلقن الفتيات الأدب خاصة

وقل أن جسرت امرأة في القرن الذي نشأت فيه مدام

دى سـيفنيه ومدام دى لافاييت أن توقع كتابتها أو تأليفها ، مخافة أن تستهدف للسخرية . وما كان حول لويز الرابع عشر الملك العظيم سوى كاتبات يصرفن أوقات فراغهن فى الكتابة ، وما اقتدرت واحدة أن تكتب رواية تمثيلية ؛ وكان تأليف هذه الروايات وقفاً على الرجال . وعانى النساء فن الرسائل والشعر فى قلة . ودعى هذا القرن قرن المجتمعات والمحادثات . ومن هذا القرن خلف الكاتبات رسائل تجلت فيها مواهبهن فى الكتابة . ذلك لأن الرسائل غير محدودة الحدود ولا تربكها القواعد ، ولا تستلزم أكثر من ذهن وقاد ، وتفكر ذاتى ، وإرادة فى الإعجاب ، وحاجة يأمن معها المراسل صاحبه ، وهى صفات تفرد بها النساء . وما برّز فى هذا الباب أكثر من مدام دى سيفنيه ، ولا كُتب لامرأة أن دانتها فى هذا الباب . كانت تعشق المجد ؛ ولا نعلم لو رأت من زوجها عطفاً ـ وكان زير نساء فسِّيقاً ـ هل كانت تبرز هذا التبريز ؟ ومع هذا كانت تهوى من ترى ذات اليمين وذات الشمال على مثال أعظم كبريات السيدات فى عصرها . وهكذا يقال فيمن أحرز شهرة مثلها ، وإن كن أقل منها مكانة . كانت دى سيفنيه أماً عاشقة مولهة ، وكاتبة متفردة بهذرها ، وهذرها عبارة عن شعور قوى فيها تحاول بثه ولا تحتاج فى ذلك إلى تأمل كثير . ورسائلها ملأى بالجذل والسرور والتنويع والبديهة ، وهى مرآة عصر القرن العظيم . والنساء فى هذا الجنس من الكتابة يبرزن ويتفوقن

أما مدام لافاييت فالناس على أنه كان لها مؤازرون من الرجال يصقلون ما تنسخ قريحتها ، أو يضعون لها الخطط التى تسير عليها . وأصبح من المألوف أن يكتب الرجال ما ينشر من الآثار باسم النساء ؛ وكان موليير وبوالو يهزآن بالنساء الكاتبات المؤلفات ، ولطالما سلقاهن بألسنة حداد . وكان جمهور النساء فى ذلك العصر على غاية الجهل ، ما خلا بعض العلية والطبقات المختارة ؛ ويختلف عدد الأميات بين سبعين وأربعة وتسعين فى المائة بحسب الأقاليم ، ومنهن من لا يحسن توقيع أسمائهن ؛ وأخذ بعضهن يحضرن بعض دروس الرجال ويتعلمن شيئاً من الرياضيات ، وظلّ أناس من أرباب المكانة ينعون على النساء ذكاءهن ويمنعونهن من كل ثقافة . ورأى جمهور من الكاتبين أنه لا يليق الهزؤ بالنساء إلى هذا الحد ، وأنشأوا يمتدحونهن ويودون من الناس إجلالهن ، يقدمون النساء على الرجال فى الموائد والحفلات ؛ وإذا أحرز النساء هذا المقام الاجتماعى فى القرن الثامن عشر : فذلك بفضل ظهورهن فى الأندية الخاصة ؛ وكان البلاط الملكى فى مقدمة هذه المجالس ، وكانت كل امرأة تحررت فى الولايات أو العاصمة من بعض القيود تقيم لها ردهة استقبال ، يكون فيها دار ندوة للسياسة ومثابة للأدب . وكثرت هذه الأندية حتى حار الكتاب فى أيها يختارون . ومنها قاعات بعض نساء أعضاء المجامع العلمية . وعلى هذا أصبح النساء يقدن بأيديهن المملكتين ويحكمن المجتمع ، يملين عليه قواعد الحشمة ، ويأخذن بزمام الآداب ، ويحكن الأحابيل لا ليجعلن من يحموهن من الرجال فى جملة أعضاء المجمع العلمى ، حيث كانت لهن الكلمة المسموعة ، بل ليسمح لهن بنشر آراء شديدة اللهجة . ولم يكتفين بهذا ، بل كن يطمحن إلى المجد الأدبى فينشرن فى الصحف والمجلات ، ويقرأن ما يكتبن على من يختلف إلى مجالسهن . وغدا الولوع بالآداب من أمارات الظرف فى النساء . وكثر عديد النساء اللائى تعلقن من الأدب بسبب ، وبلغ عددهن ثلثمائة مؤلفة فى الولايات والعاصمة ، وما فيهن واحدة تسهل المقابلة بينها وبين المقيلتين : سفينيه ولا فاييت . وصح بهذا أن يقال إن القرن الثامن عشر أمسى فى تاريخ فرنسا قرن نهضة المرأة . وما سبق لهن فى العصور الخالية أن يتملق لهن الناس ويُستمع لكلامهن ويتمتعن بحرياتهن

كل هذا وجوزيف دى مستر يقول فى كتاب له إلى إحدى بناته : إن فولتير ادعى أن النساء قادرات على أن يعملن كل ما يعمله الرجال ، وما هذا إلا للتقرب من قلوب بعض الغوانى الجميلات ، ولم يأت النساء بأثر يذكر فى ضروب الآداب ، فالنساء لم يؤلفن « الالياذة » ولا « الانياد » ولا « القدس المنقذة » ولا « فيدر » ولا « أتالى » ولا « رودكون » ولا « الميزانتروب » ولا « تارتوف » ولا « زهرة دى ميديسيس » ولا « أبولون دى بلفيدر » ولا « البرسة » ولا « كتاب الأصول » ولا « خطاب التاريخ العام » ولا « تليماك » ، ولم يخترعن الجبر ولا المجاهر ولا المناظر ، ولا مضخة النار ولا صناعة الجوارب الخ ، وما قامت امرأة عالة جديرة أن تعد بين العلماء . فالمرأة ليست فى حال تستطيع أن تفوق فيها الرجل إلا بأنوثتها ، وليست سوى قردة إذا أرادت مساواة الرجل

(البقية فى العدد القادم)

محمد كرد على

للتاريخ السياسي

عشرة أيام بئيسة

مشروع لافال - هور والرأي العام

دواعي هذه الخطة الوخيمة العواقب

للدكتور يوسف هيكل

شهد العالم خلال الثلث الثاني من شهر ديسمبر الماضي اضطراباً شديداً في السياسة الدولية، وقلقاً عظيما في الدوائر السياسية، نجما عن الانقلاب الفجائي في سياسة بريطانيا الخارجية بموافقة وزير خارجيتها السير صموئيل هور على سياسة مسيو لافال، رئيس الوزارة الفرنسية ووزير الخارجية، وتوقيعه المشروع الذي وضعه لافال لحل المشكلة الحبشية عن طريق سلمية. ويُعرف هذا المشروع بمشروع الصلح، أو خطة السلام، أو اقتراح لافال — هور، أو اتفاق باريس

فحوى مشروع الصلح

في يوم الثلاثاء الموافق ١٠ ديسمبر أبرق السير هور بمشروع الصلح إلى سفيري بريطانيا في روما وفي أديس أبابا طالباً منهما أن يذهبا مع زميليهما الفرنسيين ليطلعا السنيور موسوليني والامبراطور على ما تم الاتفاق عليه بين حكومة جلالته والحكومة الفرنسية. وفحوى البرقية أن الحكومتين اتفقتا على أن يطلبا من الامبراطور قبول التغيرات التالية في الحدود الايطالية الحبشية

١ — التيكرى — إعطاء ايطاليا التيكرى الشرقية، وحدودها جنوباً نهر « خيطا »، وغرباً خط يمتد من الشمال الى الجنوب ماراً بين اكسوم (في الجانب الحبشي)، وعدوه (في الجانب الايطالي)

٢ — إعطاء ايطاليا مقاطعة « أجادن » وجعل الحدود خطا مبتدئاً من نقطة (ثلا) في الحدود الحبشية والايطالية والصومال البريطانية، وممتداً شمالا شرقياً قاطعاً « كوراهي » في الشرق، و « وارانادب » في الغرب، وملاقيا حدود الصومال البريطانية حيث يقطعها خط الطول ٤٥

٣ — إعطاء ايطاليا امتيازا اقتصادياً خاصا في جنوب الحبشة يضع موارد هذا الاقليم في قبضة ايطاليا ويسمح للايطاليين بالاقامة فيه. وتكون الأراضي غير المملوكة ملكا للشركات الايطالية، على أن تبقى السيادة في هذا الاقليم للأمبراطور

وحدود هذا الاقليم هي: الحدود الجديدة بين الحبشة والصومال الايطالي شرقاً، وخط العرض ٨ شمالا، وخط الطول ٣٥ غرباً، والحدود بين الحبشة وكينا جنوباً

٤ — إعطاء الحبشة مرفأ « أساب » وممرا اليه على طول حدود الصومال الفرنسي

وفي ذلك التاريخ أرسل وزير خارجية بريطانيا برقية إلى السفير الانكليزي في اديس أبابا طالباً منه فيه أن يبذل كل نفوذه في اقناع الامبراطور على قبول « المشروع » وألا يرفضه دون أن يتأمله جلياً (!)

تطور الحوادث السياسية على المسارح الثلاثة

ذلك فحوى مشروع هور — لافال. وحين وقف الرأي العام الدولي عليه انثالت الاحتجاجات عليه إلى عصبة الأمم من جهات الدنيا الأربع، وأخذت الحوادث تتطور، واشتدت الأزمات السياسية، وعلى الأخص في باريس وجنيف ولندن

على مسرح باريس

غادر السير هور لندن إلى باريس يوم السبت الموافق ٧ ديسمبر. وفي منتصف الساعة الثامنة عشرة وصل « كي دورسي » ومعه المستر « كارك » لمقابلة مسيو لافال. وفي الساعة التاسعة عشرة والدقيقة ٤٥ خرج من عنده. وعندها أنبأ لافال الصحافة أن الحكومتين على اتفاق، تعملان معاً للوصول إلى خطة تحل بموجبها المشكلة الحبشية عن طريق سلمية

وقد تقابل الوزيران في اليوم التالي، ووصلا بعد المناقشة إلى اتفاق وقعاه عن حكومتيهما. وفي صباح الاثنين الموافق ٩ ديسمبر تلقى مستر بلدوين رئيس الوزارة الانكليزية كتاباً من السير هور، طالباً فيه موافقة الحكومة على اتفاق باريس، وقد رأى بلدوين أن من الواجب عليه تأييد زميله الغائب، فوافقت

الحكومة على مشروع هور — لافال (1) . وبهذه الموافقة تحملت حكومة بلدوين المسؤولية ، وابتدأت إذ ذاك عشرة الأيام البئيسة .....

في الأيام التالية نشرت الصحف الباريسية مضمون الاتفاق بصورة غير رسمية ، فانقسم الرأي العام الفرنسي إلى فريقين : فريق يعضد الحكومة ويدافع عن « المشروع » واجدا فيه خير حل للمعضلة الحبشية ، وكثرة هذا الفريق من أحزاب اليمين والوسط ؛ وفريق آخر ينقم على اقتراح لافال — هور ، ويرى فيه الضربة القاضية لعصبة الأمم ؛ وللبقية الباقية من الثقة في سياسة « السلام المشترك » . والناقمون هم أحزاب اليسار من اشتراكيين وكومنيست . وأخذ كل فريق يدعم رأيه ببراهينه وحججه ، ويدحض أقوال الآخرين على صفحات جرائده ؛ ومما لا شك فيه أن حجج المدافعين عن سياسة لافال الخارجية كانت واهنة لا تقوم على أساس قانوني . أما نظريات الناقمين على « اتفاق باريس » فكانت مبنية على دعائم قانونية وسياسية متينة ؛ وبخاصة ما كتبه الزعيم الاشتراكي مسيو بلوم في جريدته « البوبلير » Populaire

أما موقف الحزب الراديكالي الاشتراكي فكان حرجا لاسيما موقف زعيمه « هريو » Herriot

والحزب الراديكالي أقوى حزب في مجلس النواب وهو مشترك في حكومة لافال ؛ ورئيسه «هريو» وزير دون وزارة ، وقد فقد هذا الحزب شهرته في البلاد بعد فضيحة ستافسكي وتخليه عن مسيو دومرج . والحزب يعلم أنه لا يستطيع في ظروف مجلس النواب الحالية أن يؤلف وزارة ذات أكثرية . ورئيسه هريو لا يود أن يكون على رأس وزارة والانتخابات العامة على الأبواب . . . لهذه الأسباب يتحاشى مسيو هريو حدوث أزمة وزارية في البلاد . ويجد نفسه مضطراً إلى معاضدة مسيو لافال ، على رغم مخالفته لسياسته الخارجية . وقد أفضى إلى حزبه بذلك قبل اجتماع مجلس النواب لمناقشة سياسة لافال الخارجية . فانقسم الحزب إلى فريقين ؛ فريق معه ، وفريق يرى من الضروري تغيير سياسة لافال وإسقاطه بعدم الموافقة على مشروعه لحل المشكلة الحبشية . وكان من بين هؤلاء مسيو « كت » Cott

وفي صباح الثلاثاء الموافق ١٧ ديسمبر كان اجتماع مجلس النواب . وكان اجتماعا صاخباً مضطرباً شديد الجدل . وكان أهم المتكلمين في تلك الجلسة ثلاثة : لافال وكُتْ وبلوم

نهض لافال وألقى خطابه في جأش رابط متزن ؛ ودافع عن سياسته الخارجية ولا سيما « مشروع الصلح » . وأقوى حججه أن سياسة العقوبات ليست الطريق الوحيدة لحل المشكلة الحبشية ، وأن حصر إيطاليا اقتصاديا وعلى الأخص منع البترول عنها مما يقود أوربا إلى حرب لا تعرف نتائجها ، وأن روح مبادىء عصبة الأمم توجب حل كل خلاف عن طريق سلمي إن أمكن ، وأن الخطة التي وضعها لايقاف الحرب في الحبشة تتمشى مع مبادىء عصبة الأمم (!) ...

ومسيو كت يرى غير ما يراه مسيو لافال : يرى في اتفاق باريس هدم مبادىء العصبة ، إذ هي تقدم إلى المعتدي مكافأة على تعديه ومخالفته واجباته الدولية . ومسيو لافال بعمله هذا يقدم سابقة إلى عصبة الأمم لتحل بموجبها التعدي الذي سيحصل على شرق أوربا الوسطى . وبذلك يكون لافال قد ساعد الهرهتلر وجرأه على أن يحذو حذو موسوليني ! . وقد هاجم مسيو كت لافال وقال إن عمله هذا ليس إلا تقسيما للحبشة وجعلها فريسة المعتدي ، وهذا العمل مخجل لفرنسا ...

وقد لاحظ لافال أن الجو مكفهر وأن النقاش إن دام ربما أدى إلى سحب الثقة منه ؛ فطالب تأجيل النقاش على سياسته الخارجية إلى يوم الجمعة الموافق ٢٧ منه . ولافال ماهر في أصول المراوغات البرلمانية ؛ يعرف كيف يتخلص من المآزق الحرجة ، فانه بطلبه هذا قد حول المناقشة من مهاجمة سياسته إلى البحث فيما إذا كان من الصواب تأجيل المناقشة كما يطالب أو المضي فيها ؛ وكان على رأس القائلين بوجوب المضي في المناقشة مسيو بلوم الزعيم الاشتراكي . وبرغم فصاحته وقوة حجته وافق المجلس على تأخير المناقشة بأكثرية ٥٢ صوتاً . ومما تجدر ملاحظته أن الكثرة التي كانت في جانب الحكومة هبطت إلى ما يقرب من مائة نائب بانضمام كثير من الراديكاليين إلى فريق المعارضة

---

(١) تايمس ٢٠ ديسمبر . من خطاب بلدوين

ومجمل القول أن مسيو هريو الزعيم الراديكالي لم يشترك في المناقشة ، ولم يبد حركة ما تدل على أنه يؤيد فريقا على آخر [١] ... ...

وفي اليوم التالي ذهب لافال إلى جنيف ...

على مسرح جنيف

في يوم الأربعاء الموافق ١٨ ديسمبر كان اجتماع مجلس عصبة الأمم : فقام مستر إيدن ولم يدافع عن مشروع لافال – هور – بل قال إن الحكومتين وضعتا هذا المشروع وللمجلس أن يرفضه أو يقبله ؛ والحكومة البريطانية ليست مرتبطة به ...

ثم نهض مسيو لافال وقال إن عمله هو وزميله السير هور كان بموجب السلطة التي أعطيت للحكومتين لايجاد حل سلمي للمعضلة الحبشية ... وللمجلس أن يقول الكلمة الأخيرة في الاقتراح ...

وقبل فض الاجتماع العام قام سكرتير المجلس وألقى تصريح حكومة الحبشة وهو مؤلف من « ٥٠٠٠ » كلمة ومبنى على نقط قانونية ترمى إلى أن اقتراح باريس يخالف كل المخالفة لمبدأ العصبة

وقد قابل الأعضاء المشروع بمعارضة شديدة ... وجاء في المناقشة أن السلطة التي خولت إلى بريطانيا وفرنسا لايجاد حل سلمي قد انتهت ، وكل عمل من هذا القبيل يعود إلى مجلس العصبة أو إلى هيأتها العامة – وكان هذا ردا على ادعاء لافال –

وفي اليوم التالي قرر المجلس بأسلوب – دبلوماسي دولي – رفض المشروع

على مسرح لندن

أخذت الصحف الانكليزية تنقل أخبار اتفاق باريس ومحتوياته عن الجرائد الفرنسية ، وأخذت الجرائد التي كانت تناصر الحكومة وعلى رأسها التيمس تعارضها وتظهر سخطها على المشروع ، وأخذت جرائد المعارضة تهاجم الحكومة مهاجمة عنيفة وتصفها بأوصاف قاسية منها الجبن وخيانة الشعب وعصبة الأمم والحبشة ...

وفي اجتماع مجلس النواب الذي عقد في العاشر من ديسمبر دافع مستر بلدوين عن خطة باريس وقال : لو كنت أستطيع أن أميط اللثام عن المشاكل التي تعترضنا ، لما كان هناك رجل من أي هيئة ومن أي حزب يعارضنا ...

ومع ذلك أخذ يزداد عدد الثائرين من حزب الحكومة ، مظهرين سخطهم على سياسة الحكومة الجديدة ؛ وأخذ آخرون يبدون قلقهم من موقف الحكومة الشاذ . فحدث من جراء ذلك انشقاق عظيم في حزب الحكومة . وانقسم أعضاء الوزارة إلى قسمين : قسم مع بلدوين وقسم غير راض عن « اتفاق باريس » ومن بينهم مستر إيدن الوزير لدى عصبة الأمم إذ ذاك ، وقد صرح بذلك في جنيف في الثالث عشر من ديسمبر

ومن الرجالات البارزين الذين عارضوا المشروع في حزب الحكومة السير أوستن تشمبرلين : فقد اجتمعت لجنة الشؤون الخارجية التي يرأسها هو في ١٧ منه لدرس « اتفاق باريس » وإبداء رأيها فيه . وصرح السير أوستن أنه غير راض عن « الاتفاق » ولا يقبله مهما كان تشبث الحكومة به ... فتبعه أعضاء اللجنة ... وكان ذلك صدمة عنيفة لمستر بلدوين .

أما الصحافة فقد أخذ يشتد نقدها للحكومة ، طالبة منها بلهجة عنيفة التخلي عن « المشروع » والعودة إلى السياسة السابقة ، سياسة جنيف والسلام المشترك :

أمام ثورة الرأي العام العالمي على اقتراح هور – لافال ، وأمام رفض الأمبراطور « المشروع » وتردد موسوليني في قبوله ؛ وأمام هجمات الحزب المعارض العنيفة وأمام انقسام حزبه عليه ؛ أمام امتعاض الرأي الانكليزي من تخليه عن العصبة وسياسة السلام المشترك ، وأمام ثبات العصبة ورفضها « الاقتراح » ؛ أمام كل هذه الصعوبات رأى مستر بلدوين أنه لا يستطيع أن يسير خطوة إلى الأمام بسياسته الجديدة ؛ فقرر أن يكون على رأس القائلين بعدم قبول الاقتراح ! . فدعا السير صمويل هور من سويسرا . وجمع أعضاء وزارته في ١٨ ديسمبر وقرر التخلي عن هور ورفض اتفاق « باريس »

وفي هذا التاريخ قدم السير هور استقالته فقبلها مستر بلدوين

وفي يوم الجمعة الموافق ١٩ ديسمبر كان موعد اجتماع مجلس اللوردات ومجلس النواب لمناقشة اقتراح هور – لافال ، وكان الجميع متفقين على التخلي عن « اتفاق باريس »

كان اجتماع مجلس النواب غير عادي : فقد حضره البرنس

---

(١) في مساء ١٨ ديسمبر استقال مسيو هريو من رئاسة الحزب الراديكالي الاشتراكي

أوف ويلز وحضره السفراء . . . وبعد إلقاء الأسئلة والاجابة عليها قام السير صمويل هور مبيناً الأسباب التي قادته إلى توقيع الاقتراح ، ومما قاله إنه كان أمام عينيه هدفان :

« اتقاء حرب أوروبية والحيلولة دون نشوب حرب منفردة بين إيطاليا وبريطانيا

« إن منع البترول عن إيطاليا ربما يؤدى إلى هزيمة إيطاليا وخسرانها الحرب الحبشية ، وعند ما تجد نفسها في هذا الوضع الذليل تقوم بمهاجمتنا ، وعندئذ تنشب الحرب بينها وبيننا دون أن ينهض لمساعدتنا أحد ، إذ لم تقدم دولة ما الى الآن باخرة واحدة ولا جندى واحد في سبيل الأمن المشترك ؛ والرأى الفرنسى ضد الحرب ولا يريد أن يتورط في مشاكل جديدة ...

« لهذا اضطررت وأنا في باريس إلى أخذ قرار عاجل لأن مسألة البترول لا يمكن تأجيلها إلى تاريخ آخر

ثم أخذ يدافع عن مواد الاتفاق بحجج واهية . . .

أما مستر أتلى « Attlee » رئيس حزب العمال فقد طلب رفض « اتفاق باريس » ، وأثبت أن مسؤولية الحكومة لا تزول باستقالة السير هور . ثم أخذ يسائل الحكومة :

ما فائدة الابتداء في العقوبات إذا كان أمرها سيهمل عند مجابهة أى خطر ؟ ! . لماذا صرح في شهر أكتوبر بأن العمل المشترك مفيد وفي شهر ديسمبر أنه غير مفيد ؟ ! إذا كان يوجد الآن خطر عظيم نخير من الوقوف بجانب المتمدى أن يقال بأن العصبة قد فشلت . . .

ثم ألقى مستر بلدوين كلمة طويلة شديدة ، صرح فيها بأن اتفاق باريس قد قضى عليه تماماً ، وطلب من حزب الحكومة معاضدته ، وأعلن بأن الحكومة عائدة إلى العمل المشترك ضمن مبادىء جنيف . . .

وقال اللورد هارتنكتن « Hartington » : إن « عشرة الأيام البئيسة » قد انتهت

وقد ختم النقاش في كلا المجلسين بقبول وجهة النظر القائلة بأن الحكومة قد ارتكبت غلطة فادحة في توقيعها « مشروع الصلح » . وأنها بعملها هذا تقضى على النية الخالصة والأمل القوى في نظام السلام المشترك

وقد جاء خطاب السير نفيل شمبرلين الذى ألقاه في برمنجهام مساء ٢٠ ديسمبر مؤيداً لتصريح الحكومة ، ومما قاله :

« . . . هذه الاقتراحات قد ماتت إلى غير بعث ؛ وإننى أعتقد الآن بأن كل سعى للوصول إلى حل سلمى فاشل »

« فيجب أن نعود إلى سياسة العقوبات . . . »

وإن تعيين مستر إيدن وزيراً للخارجية لدليل ساطع على أن الحكومة عائدة إلى السياسة التى تحدث عنها السير شمبرلين

على أن الحكومة البريطانية لا تود العمل منفردة ، ولذلك أخذت تفاوض أعضاء عصبة الأمم الذين على البحر الأبيض المتوسط ، ولقد أجاب حتى الآن كل من تركيا واليونان ويوجوسلافيا بأنهم على استعداد لمساعدة بريطانيا وللعمل على مبدأ عصبة الأمم . . .

(البقية في العدد القادم)

يوسف هيكل
دكتور في الحقوق من (حكومة فرنسا)

فى ميدان الاجتهاد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

أستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية بالأزهر

— ١ —

كيف منع الاجتهاد

ينشد المسلمون الاصلاح فى هذا العصر ، وتنشده جامعتهم الأزهرية الكبرى فى مصر ، ويعالجون فى سبيل ذلك طرقاً ملتوية يعشون فيها إلى أن تنتهى بهم إلى أسوأ مما كانوا فيه ، فتعلو كلمة الجامدين بالرجوع إلى قديمهم المقوت ، ويوافقهم على ذلك بعض من يتظاهر بحب الاصلاح إذا أقبل عهده ، ويخفى فى قلبه كرهه وبغضه . ولو أنعم هؤلاء الناس النظر لرأوا الذنب فى ذلك يرجع إلى تلك الطرق الملتوية ، لا إلى الاصلاح المنشود الذى دعا إليه جمال الدين الأفغانى والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين فى هذا العصر

وهذا الاصلاح المنشود يتلخص فى كلمتين : فتح باب الاجتهاد فى علومنا عامة والعلوم الدينية منها خاصة ، وتأليف كتب جديدة فى هذه العلوم تسرى فيها روح الاجتهاد بدل تلك الكتب الميتة الجامدة ؛ أما ماعدا ذلك من أمور الاصلاح فمن الأمور الكمالية التى ضرنا الاهتمام بها أكثر من هذه الأمور الأساسية

ولست بسبيل الكلام فى هذا الاصلاح فقد قطعت شوطاً من حياتى فى الجهاد فيه ، حتى آل الأمر بنا إلى تلك الطرق الملتوية ، ووجدت فى ذلك غرائب وعجائب صرفتنى عن العناية بذلك الأمر إلى أمور أخرى من العلم والأدب ؛ وقد جاورت فيها أناساً آخرين وجاورونى ، فوجدت علماء الأدب أكرم الناس أخلاقاً ، وأسلمهم طوايا ، وأطهرهم أقلاماً ، ووجدت الخير فيهم مرجواً ، والشر منهم مأموناً ؛ ولست أدرى وقد تركتهم إلى هذا الموضوع الدينى الخطير أأجد أقلاماً مثل أقلامهم ، ونفوساً سمحة مثل نفوسهم ، أم أجد النفوس لا تزال على عهدى بها ، وإن تظاهرت بحب الاصلاح والانتصار له ؟ وقد أكون مخطئاً فى ظنى ، وأرجو من الله أن أكون مخطئاً فيه ، وأن نكون قد بدلنا نفوساً أخرى تبحث مثل هذه الأمور المهمة فى هدوء ، وتعرف الصواب للمصيب فلا تحسده عليه أوتتعامى عنه ، وتحسن الظن بمن يطلب الصواب فيخطئه طريقه ، فتأخذه بالتى هى أحسن ، حتى يعرف خطأه واضحاً فيرجع عنه ، ويشكر للذى دله عليه

وهكذا كان حال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم . كان باب الاجتهاد بينهم مفتوحاً على مصراعيه لا يحمل أحد منهم بسببه ضغينة على أخيه ، ولا يحاول قهره على موافقته فى رأى خالفه فيه ، إلى أن نبتت فتنة الخوارج المعروفة ، ولعبت السياسة بعقول الناس فيها ، فكانوا أول من سن فى الاسلام أخذ المخالف فى الرأى بوسائل القهر ؛ ثم تتابعت الحوادث وأتى عصر بنى العباس فرأوا من الأئمة المجتهدين فى عصرهم انكماشاً عن سلطانهم فأخذوا ذلك عليهم ، وجعلوا يصطنعون الوسائل لايذائهم ، فآذوا فى ذلك أبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة الجماعة ، وصاروا ينصرون عليهم خصومهم من المعتزلة ، واستباحوا فى ذلك ما استباحوا من الحجر على حرية الرأى ، وتعذيب المخالف لهم فيه بالسجن والضرب والقتل ، وبلغ ذلك شدته فى مسألة خلق القرآن المعروفة

وكان التعليم من أول الاسلام يتخذ المساجد دوراً له ، فتتولاه الرعية بعيدة عن الحكومة ، كما تتولاه الأمم الآن فى الشعوب الراقية فى أوربا وأمريكا . وينشأ التعليم فى كنفها حراً لايتأثر بهوى حاكم ، وينشأ رجاله أحراراً لا تلين قناتهم لظالم

وقد أخذ حكام المسلمين فى آخر الدولة العباسية يدخلون فى أمور التعليم ليكون لهم نفوذ عليه ، وسلطان على رجاله ، فأنشأوا له المدارس الخاصة به ، وحبسوا عليها من الأوقاف الكثيرة مارغب العلماء والمتعلمين فيها ، وجعلهم يتنافسون على أبواب الملوك والحكام من أجلها ، فضاعت كرامة العلم والعلماء ، وخضع أهله لمن بيدهم أمر تلك المدارس والأوقاف

ومن أقدم مابنى فى الاسلام من المدارس المدرسة البيهقية المنسوبة إلى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، والمدرسة السعيدية بنيسابور بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود حين كان واليا بها ، والمدرسة النظامية التى بناها الوزير نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه ببغداد سنة ٤٥٩ هـ واحتفل بافتتاحها يوم السبت عاشر ذى القعدة من هذه السنة ، وجم الناس على طبقاتهم ليحضروا دروس الشيخ أبى إسحاق

الشيرازى ، فجاء الشيخ ليحضر فلقيه صبى فى الطريق ، فقال ياشيخ كيف تدرس فى مكان مغصوب ؟ فرجع الشيخ واختفى . فلما يئسوا منه ذكر الدرس بها أبو نصر الصباغ

ولما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب مصر لم يكن بها شىء من المدارس ، فبنى بها المدرسة الناصرية لتعليم المذهب الشافعى سنة ٥٦٦ هـ ثم بنى المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢ هـ مجاورة للامام الشافعى رضى الله عنه ، وجعل لناظرها أربعين دينارا فى كل شهر ؛ ورتب له فى كل يوم ستين رطلا من الخبز ، وراويتين من ماء النيل ؛ ثم بنى أخرى مجاورة للمشهد الحسينى ، وجعل دار عباس الوزير العبيدى مدرسة للحنفية

وكان من دواعى إنشاء هذه المدارس تأييد المذاهب التى كان السلاطين يشتدون فى نصرتها ، كما فعل صلاح الدين حين استولى على مصر ، فقد حارب فيها مذهب الشيعة الفاطميين الذين حكموا مصر قبله ، وكانت دروس هذا المذهب تلقى فى الأزهر وغيره من مساجدهم ، فأبطل هذه الدروس ، وأحيا مذهبى الشافعى ومالك وبنى لهما كثيراً من المدارس

وفى هذه المدارس أقفل باب الاجتهاد ، وقبرت المذاهب الفقهية عدا هذه المذاهب الأربعة الباقية ؛ وقد كانت هناك مذاهب كثيرة لأهل السنة والجماعة بقى بعضها إلى القرنين السابع والثامن الهجريين ؛ ومن هذه المذاهب مذهب البصرى والثورى ولم يطل العمل بهما لقلة اتباعهما ؛ ومنها مذهب الأوزاعى ، وقد بطل العمل به بعد القرن الثانى للهجرة ؛ ومنها مذهب أبى ثور ، وقد بطل العمل به بعد القرن الثالث ؛ ومنها مذهب ابن جرير الطبرى ، وقد بطل العمل به بعد القرن الرابع ؛ ومنها مذهب الظاهرى ، وقد طالت مدته وزاحم المذاهب الأربعة حتى جعله المقدسى فى أحسن التقاسيم رابع المذاهب فى زمنه (القرن الرابع) بدل الحنبلى ، وذكر الحنبلية فى أصحاب الحديث ، وعده ابن فرحون فى الديباج الخامس من المذاهب المعمول بها فى زمنه (القرن الثامن) ؛ ثم درس بعد ذلك ولم يبق لأهل السنة والجماعة إلا المذاهب الأربعة . وذكر ابن خلدون أن الظاهرى درس بدروس أئمته ، وإنكار الجمهور على منتحله ، ولم يبق إلا فى الكتب ، وربما يعكف متكلفو انتحاله عليها لأخذ فقههم منها ؛ فلا يحلون بطائل ، ويصيرون إلى إنكار الجمهور عليهم

وهكذا أخذت المذاهب الأربعة تتغلب مع الزمن على غيرها من هذه المذاهب حتى تم لها التغلب عليها فى القرن السابع الهجرى . وأخذ فقهاء هذه المدارس تبعاً لهوى أصحابها من الأمراء يتعصبون لها ، ويفتون بوجوب اتباعها . قال المقريزى فى خططه : « فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ولى بمصر والقاهرة أربعة قضاة ، وهم شافعى وحنفى ومالكى وحنبلى ، فاستمر ذلك من سنة ٦٦٥هـ حتى لم يبق فى مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الأربعة ، وعقيدة الأشعرى ، وعملت لاهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط فى سائر ممالك الاسلام ، وعودى من تمذهب بغيرها وأنكر عليه ؛ ولم يول قاض ، ولا قبلت شهادة أحد ، ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب . وأفتى فقهاء هذه الأمصار بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها ، والعمل على هذا الى اليوم »

وإذا لم يكف هذا الاجمال فى بيان ما أتت به يد السياسة من وسائل القهر والاغراء فى احياء بعض هذه المذاهب وامانة بعضها ، ومحاربة الاجتهاد إلى حد القضاء عليه فى تلك المدارس ، فانا نسوق مثلاً من ذلك فى المدرسة المستنصرية التى أمر بانشائها المستنصر بالله العباسى ، وشرع فى ذلك سنة ٦٢٥ هـ وقد تكامل بناؤها سنة ٦٣١ هـ وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، واحتفل بافتتاحها فى تلك السنة احتفالاً عظيماً حضره بنفسه ، وحضره نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغرباء ، واختير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً ، ورتب لها مدرسان ونائبا تدريس ؛ وكان المدرسان محيى الدين محمد بن يحيى بن فضلان الشافعى ، ورشيد الدين عمر بن محمد الفرغانى الحنفى ؛ وكان نائباها جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزى الحنبلى ، وأبا الحسن علياً المغربى ؛ وجعل لها معيدون لكل مذهب أربعة ، وقسمت إلى أرباع ، فجعل ربع القبلة الأيمن للشافعية ، وجعل ربع القبلة الأيسر للحنفية ، وجعل الربع الذى على يمين الداخل للحنابلة ، وجعل الربع الذى على يساره للمالكية . وقد شرط المستنصر فى وقفه عليها أن يكون عدة فقهائها ثمانية وأربعين

ومائتى فقيه ، من كل طائفة اثنان وستون ، بالمشاهرة الوافرة ، والجراية الدارة ، واللحم الراتب ، إلى غير ذلك من وسائل الاغراء التى لم تتح لغير هذه المذاهب . وقد كان قبر الاجتهاد فى هذه المدرسة ، وحجر النظر فيها على العلماء بهذا الشكل

فى سنة ٦٤٥ هـ أحضر مدرسوها إلى دار الوزير ، فتقدم اليهم ألا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ، وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها ، بل يذكروا كلام المشايخ تأدباً معهم ، وتبركا بهم . فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة . وقال سراج الدين عبد الله الشرمساحى مدرس المالكية : « ليس لأصحابنا تعليقة ، فأما النقط من مسائل الاختلاف فما أرتبه » . وقال شهاب الدين الزنجانى مدرس الشافعية ، وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغانى مدرس الحنفية : « إن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال » فكانا أفضل القوم إجابة . ثم أوصل الوزير أمر ذلك إلى المعتصم بالله ، وكان قد ولى أمر الدولة بعد أبيه المستنصر ، فتقدم اليهم أن يلزموا ابذكر كلام المشايخ واحترامهم فأجاوه بالسمع والطاعة . وذهب إباء مدرسى الشافعية والحنفية فى الهواء . ولو أنهما استمرا على إبائهما لكان جزاؤهما القتل أو نحوه

ونستطيع بعد هذا أن نحكم بأن منع الاجتهاد لم يتم إلا فى عصور الظلم ، وبأن قصر الناس على هذه المذاهب الأربعة حصل بوسائل غير مقبولة من القهر والاغراء . وفى يقيننا أنه لو أتيح لغير هذه المذاهب ما أتيح لها من تلك الأوقاف والرواتب لكان حظها من البقاء مثل حظها ، ولبقيت معروفة مقبولة ممن يجهلها اليوم أو ينكرها

وقد حوولت هذه الوسائل لالزام الناس بهذه المذاهب قبل هذه العصور فلم يرض بهذا المسلمون حتى أصحاب هذه المذاهب . روى أبو نعيم فى الحلية عن مالك بن أنس أنه قال : شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ؛ فقلت لا تفعل ، فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وكل مصيب . فقال وفقك الله تعالى يا أبا عبد الله

وروى ابن سعد فى الطبقات عن مالك بن أنس قال : لما حج المنصور قال لى قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ودانوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم

فنحن إذن فى حل من أمر هذه المذاهب التى فرضت علينا فرضا ، وفى حل من ذلك الحظر على الاجتهاد فى أحكام ديننا ، لأنه أتى بطريق القهر ، ولم يتم برضا المسلمين وتشاورهم ، وإنما أمر المسلمين كما حكم الله تعالى شورى بينهم

عبد المتعال الصعيدى

٨ – معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراق

تتمة

وأراد الجنرال «باراتيرى» أن ينسحب الى « أديكايه » ليقصر خط المواصلات إلا أنه لم يجسر على ذلك خوفاً من تأنيب رومة فقرر القيام باستطلاع تعرضي فى اتجاه نهر مارب شأن كل قائد متردد . وكان يرمى بذلك الى وقف حركات الأحباش فى اتجاه غوندت وأسمره ، وبعد أن تأهبت الفصائل للحركة سحب أمره . ولا شك فى أن هذه الأوامر المتناقضة مما أزال اطمئنان الفصائل وجعلها تخشى العاقبة

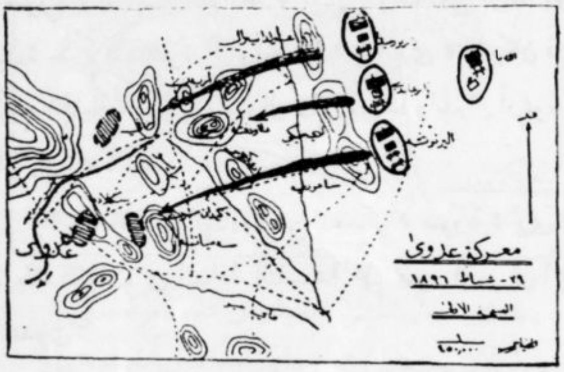
ومما زاد الموقف حروجة قلة الأرزاق . وكلف مدير الميرة والتموين الجنرال بتقليل مقدار الأرزاق اليومى للجنود لأن مواد التموين لا تكفى وأن القوافل أخذت تتأخر والكثير منها يقع فى أيدى الثوار ، فاضطرت القيادة إلى تقليل أرزاق الجندى اليومى ، وكان الجندى الأهلى يأخذ قليلا من الشعير ، ويفضل الدراهم مقابل الأرزاق الباقية ، الا أن الأرزاق كانت مفقودة . وتناول الضباط الأرزاق كالجنود . وأخيرا أضاف القائد العام خطيئة إلى خطيآته السابقة فكانت نذير الخذلان . فانه عقد مجلساً حربياً واستشار القواد فيا يعمل ، ومعنى ذلك أنه أراد أن يلقى تبعة الحركات عن عاتقه وكان هو المسؤول الوحيد عنها

والظاهر أن القائد العام كان يخشى حساب رومة بعد أن تلقى تلك البرقيات المرة منها ، وكان قرار أعضاء أكثرية المجلس القيام بالهجوم وعدم الانسحاب لأن البقاء فى ادجرات يسبب مجاعة الجيش ، ولأن الأرزاق كانت على وشك النفاد برغم تقليل مقاديرها اليومية ، لأن القوافل أمست لا تصل بانتظام . أما الانسحاب إلى الوراء فلم يكن من شك فى أنه أحسن تدبير لتقصير خط المواصلات وتموين الجيش بصورة منتظمة ، وبعد أن يتقوى بالنجدات المرسلة من ايطاليا وتكمل التدابير الادارية وتنتظم سوق التموين والذخيرة يتقدم للهجوم بخطوات ثابتة متينة ، بيد أن القائد العام والقواد الآخرين لم يكن لديهم من حب التبعة (المسؤولية) ما يحملهم يتخذون هذه الخطة

وفى الوقت الذى قرر المجلس الحربى فيه القيام بالهجوم وردت البرقية التالية من رومة إلى القائد العام :

« رتب الجيش بحيث يقوم بالهجوم ويقاوم هجوم العدو »

ومعنى ذلك أن الحكومة الطليانية لم توافق على الانسحاب وأنها تريد المقاتلة مهما كانت النتيجة



نشوب المعركة

يظهر لنا مما تقدم أن أحد الفريقين المتحاربين شعب متوحش ملتف حول ملكه ومتعطش للقتال ، ويعرف بلاده ، ومستعد للاستفادة من جميع ظاهراتها للضربة القاضية على عدوه ، وعلى رأسه ملك يعرف كيف يستفيد من رجاله ، فاستطاع بدهائه وحنكته أن يحصل على العدد الكافى من السلاح ، ويجمع الأحباش حوله ويقودهم الى ميادين القتال

أما الفريق الآخر فيجهل أحوال البلاد ، وهو غير قادر على تحمل مناخها ، وقد أساء قواده قيادته ، فلم يضمنوا له ما يحتاج اليه من مواد التموين وأسباب الراحة التى تمكنه من القتال فى هذه البلاد القاسية . وقد أدى التردد فى التنفيذ الى زوال اعتماد الجنود على ضباطهم والضباط على رؤسائهم

والواضح من هذا أن المعركة سوف تنشب فى ظروف غير متعادلة ، وقد لا يفيد التدريب المتقن والأسلحة الحديثة فى التغلب على كثرة الأحباش المتشوقين الى القتال

والغريب فى أمر هذه الحركات أن القيادة العامة كانت لا تملك خريطة صالحة تساعدها على وضع الخطط العاجلة . ومن

الضرورى معرفة حالة الأرض لتسيير القوات عليها . فالخطيئة التى ارتكبت فى الحركات السوقية سوف يزداد شمولها بالخطأ فى التعبئة ، وهذا النقص مما سبب تسيير الأرتال فى ميدان المعركة بحيث لا يستطيع بعضها مساعدة بعض ، وذلك مما جعل القيادة الحبشية تغتنم الفرصة وتنقض برجالها على الأرتال وتقضى عليها على التعاقب

عسكرت القوات الطليانية فى ٢٩ فبراير سنة ١٨٩٦ فى « صورية » وكانت القوات كما نعلم مؤلفة من أربعة ألوية بقيادة حاكم المستعمرة العام الجنرال « باراتيرى » ، وكان قواد الألوية الجنرال البرتونه والجنرال دابروميدا والجنرال أرعوندى والجنرال اللانا

وكانت الأوامر الصادرة من معسكر « صورية » ترمى إلى تحريك القوات فى الساعة التاسعة على ضوء القمر فى اتجاه « عدوى »

وكان يؤدى إلى عدوى طريقان ، وهما طريق شمالى وطريق جنوبى ، وكلاهما يمتد فى منطقة وعرة فيمر الطريق الشمالى بمضيق (رابى أريان) ، والطريق الجنوبى بمضيق « شدان موت » قبل وصولهما إلى عدوى ، وبين الطريقين جبل « راجو » الوعر الذى لا يمكن تسلقه لشدة انحداره وللصخور المكدسة فيه . وتبلغ المسافة بين المضيقين أكثر من خمسة عشر كيلو متراً . فالتقدم على هذين المضيقين يجعل الأرتال الطليانيـة معرضة لهجمات القوة الحبشية المتمركزة حيث تتحرك على الخطوط الداخلية ، وبلغ الجنرال « باراتيرى » أوامره مقتنعاً بأن الأرتال بعد اجتياز المضايق يجتمع بعضها ببعض وتتقدم نحو العدو . إلا أن هـذا الاقتناع لم يصح ، وقد يأمل هذا القائد النصر إذا جمع الرتلين فى شرق جبل (راجو) واستفاد بعد ذلك من كثرة المدافع

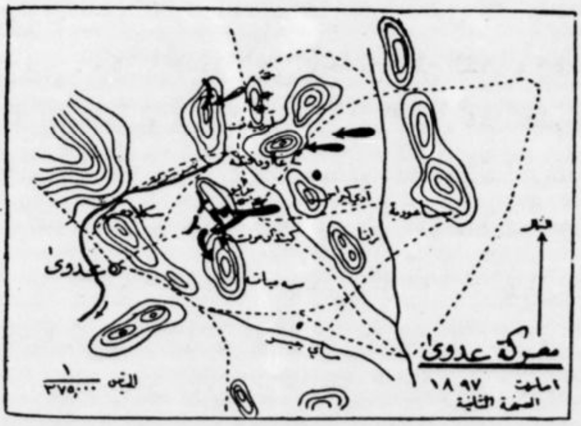
وبدلاً من تقسيم الألوية على الرتلين وتسيير لوائين فى كل رتل لكى يكون لكل منها القوة الكافية لمقابلة العدو تقدمت الألوية على الترتيب التالى :

لواء البرتونة فى الجنوب نحو مضيق « شدان موت » ، ولواء « دابورميدا » فى الشمال نحو مضيق « رابى أريان » أما لواء « أرعوندى » ففى القلب ، وبقى لواء اللانا فى الاحتياط إلى الوراء ، ولما وصل لواء « أرعوندى » إلى سفح الجبل رأى أن لا طريق له . فوجه الجنرال « باراتيرى » إلى الشمال وراء لواء « البرتونة » أما لواء « اللانا » فسار فى المؤخرة وراء « البرتونة » . وهكذا تكدست ثلاثة ألوية على طريق واحد بينما بقى لواء فى الجنوب

والحقيقة ان مضيق « رابى اريان » لم يكن فيه مجال لانفتاح لواء واحد ، وكان اللواءان يتقدمان بصعوبة نحو المضيق ، وذلك يجعل لواء « اللانا » يتأخر فى الوراء بطبيعة الحال

وكان القسم الأكبر من لواء «البرتونة» من الأهليين ، وتقدم اللواء ليلا على ضوء القمر ، وكان الجنود يسيرون بنشاط ، بينما كان الأحباش يترقبون اقترابهم بفارغ الصبر ، وكانت طلائعهم تنسحب أمام هذا اللواء دون أن تحرك ساكناً

وعلى ما يظهر كان النجاشى ينتظر مرور هذا اللواء من المضيق وابتعاده عن الرتل الشمالى لينقض عليه ملتفاً حوله من كل جهة . واعتمد قائد اللواء على الخريطة غير الصحيحة فأراد أن يريح لواءه فى رابية بعد اجتياز المضيق ظناً منه أن الرابية تسيطر على الأرض فى شرق المضيق . ولما وصل الى الرابية باغت الأحباش لواءه من كل جانب وهاجموه بحرابهم وخناجرهم



وفى الساعة السابعة صباحاً سمع الجنرال «باراتيرى» صوت النار من الجنوب فكلف لواء « دابورميدا » بنجدة « البرتونة » عندما يجتاز المضيق ، بيد أن الأحباش كانوا قد احتلوا الوديان والروابى فى جنوبى مضيق « رابى اريان » فاضطر « دابورميدا » الى مقاتلتهم ، الا أنه بعد مدة قصيرة رأى نفسه أمام قوة فائقة من الأحباش أحاطت بجانبه فألجأته الى الوقوف للدفاع

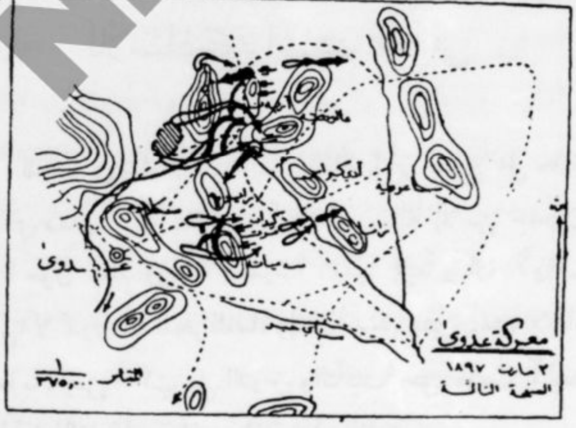
ولما علم « باراتيرى » أن لواء « دابورميدا » أيضاً اشترك

فى القتال وتأكد أنه لا يستطيع نجدة « البرتونة » أمر لواء « أرعوندى » بألا يعقب لواء « دابورميدا » بل يتوجه رأساً إلى الجنوب لمساعدة « البرتونة »

ولما اجتاز هذا اللواء المضيق وتوجه إلى الجنوب وصل المنهزمون من لواء البرتونة إلى رأس الرتل فعلم منها أن الأحباش قضوا على اللواء بالاحاطة به من كل جانب وأن قائده قتل فى المعركة ، فتقدم الاواء فى الاتجاه الجنوبى الغربى ، وكان لواء « اللانا » يسير وراءه ، إلا أن وعورة الأرض وكثرة الوديان والأخاديد فيها عرقلت المسير

وكان الأحباش قد كمنوا لهذا اللواء مستفيدين من الوديان والأخاديد ، فلما اقترب اللواء منهم باغتوه من كل جانب ، ثم أعادوا الكرة على لواء « اللانا » فكانت مباغتة هائلة ، وكان قتال وجهاً لوجه ، فلم تستطع المدفعية مساعدة المشاة لاختلاط الحابل بالنابل . وكان بعض المدافع فى المؤخرة فلم تستطع تلك المدافع أن تسلك الروابى لدخول الموضع . وكلما تقدمت قوات الاحتياط لنجدة الخط الأول كان الأحباش يحيطون بها ويشتتون شملها . وعقب هذا القتال الشديد انسحاب ، ولكن لا على الصورة المعروفة بل كان أشبه بالهزيمة . فترك المشاة المدافع وولوا هاربين فى طلب النجاة ، فتكدسوا على الطرق وفى المضايق وفى الوديان فلم يسلم منهم إلا القليل

أما لواء « دابرميدا » فبقى وحده يقاتل الأحباش ويظهر أن القوة التى هاجمته لم تكن كبيرة فقاتل إلى المساء بعد أن فقد قائده وانسحب بصعوبة فى اتجاه آخر . أما القائد العام فلما رأى النكبة التى حلت بجيشه أصدر أمر الانسحاب فى الساعة الحادية عشرة وأسرع مع أركان حربه منسحباً إلى موقع « عدى كيه » البعيد عن ميدان القتال مسافة ٧٠ كيلو متراً فكان ذلك فراراً لا انسحاباً



وبلغت خسائر الجيش الطليانى فى هذه المعركة مايلى :

جنرالان مقتولان وهما « دابورميدا » و « إرعوندى » وأخذ الجنرال « البرتونة » أسيرا

زعيمان من سبعة زعماء مقتولان وزعيم فى الأسر

خمسة عشر قائد فوج (من أربعة وعشرين) قتلى

والخلاصة أن مجموع الخسائر من قتيل وجريح وأسير بلغ ٢٨٤ ضابطا و ١٥،٤٠٠ جندى . أما الذين نجوا فكانوا ٢٦٢ ضابطاً و ٤٣٦٩ جندياً منهم ٢٧٦ جريحاً

انتهى — طه الهاشمى

علماؤنا المجهولون

عبد الرءوف المناوى

٩٥٢ — ١٠٣١ هـ

للأستاذ محمد ابراهيم العفيفي

للسائر فى شارع باب البحر بالقاهرة أن يعرج على حارة سيدى مدين ليرى بناء متهدماً درست معالمه إلا من جدران قائمة حول مقام وزاوية ومدرسة أهملتها جميعاً وزارة الأوقاف كأنها لا تدرى أنه لفخر العلماء وإمام المحدثين ومن تصدى للافتاء يوما ما، ومن أكب على الدرس والتأليف حتى قاربت تآليفه المائة: ذلك مقام سيدى عبد الرءوف المناوى

عصره:

انتهى القرن العاشر الهجرى والدولة العثمانية تبسط سلطانها على كثير من البلاد الشرقية ، فكان لزاما أن تكون الطبقة الحاكمة فى مصر عثمانية، وأن تكون اللغة المتداولة بين الأوساط الراقية تركية، يشجعها الحكام ويساعدون على انتشارها بشتى الأساليب ؛ فاللغة الدواوين ولغة المجالس ولغة التهانى والتناظر والمديح كلها تركيـة ؛ أضف إلى ذلك ما يترتب عليه من ذيوع التآليف ودواوين الشعر بتلك اللغة ؛ وأهملت اللغة العربيـة فى شتى الأبحاث ، وأقفرت تلك الحقبة من ذيوع لغة القرآن ؛ جفت أقلام المفسرين والمحدثين والمؤرخين والشعراء إلا من نفر قليل قيضهم الله للاحتفاظ بالبقية الباقية من مجدها الأثيل

مولده

أنجبت القاهرة سنة ٩٥٢ هـ فخر العلم والأدب: زين الدين محمد المدعو عبد الرءوف بن تاج الدين بن على بن زين العابدين (أو العارفين) الحدادى المعروف بالمناوى (١)

(١) نسبة الى منيـة السيرج من ضواحى القاهرة ، اذ يذكر ذلك على باشا مبارك فى خططه جزء ١٦ صفحة ٥٠ : « المنيا (منية السيرج) قرية من قرى القليوبية بمركز شبرى ، موضوعة على الشاطئ القبلى لترعة القلج وشرق الخليج المصرى بشىء قليل ، وفى شمال قرية الخصوص وبها جامع عامر ... وهى وان كانت قرية صغيرة لكنها محلاة بالفضائل حيث نشأ منها من أكابر الأفاضل الامام الكبير والعالم الشهير الشيخ عبد الرءوف المناوى

نشأته

أكب على الدرس منذ حداثته ، « وحفظ القرآن قبل بلوغه ، ثم حفظ البهجة وغيرها من متون الشافعية ، وألفية ابن مالك ، وألفية الحديث للعراقى ، وعرض ذلك على مشايخ عصره فى حياة والده ، ثم أقبل على الاشتغال فقرأ على والده العلوم العربية ، وتفقه بالشمس الرملى ، وأخذ التفسير والحديث والأدب على النور على بن غانم المقدسى ، وحضر دروس الأستاذ محمد البكرى ، والتفسير والتصوف ، وأخذ الحديث عن النجم الغيطى والشيخ قاسم والشيخ حمدان الفقيه والشيخ الطبلاوى ؛ لكن كان أكثر اختصاصه بالشمس الرملى وبه برع ، وأخذ التصوف عن جمع ، وتلقن الذكر من قطب زمانه الشيخ عبد الوهاب الشعراوى ، ثم أخذ طريق الخلوتية عن الشيخ الناخلى أخى عبد الله ، وأخلاه مرارا ، ثم عن الشيخ محرم الرومى حين قدم مصر بقصد الحج ، وطريق البيرامية عن الشيخ حسين الرومى المنتشوى ، وطريق الشـاذلية عن الشيخ منصور الغيطى ، وطريق النقشبندية عن السيد الحسيب النسيب مسعود الطاشكندى ، وغيرهم من مشايخ عصره ، وتقلد النيابة الشافعية ببعض المجالس ، فسلك فيها الطريقة الحميدة ، وكان لا يتناول منها شيئاً (١) »

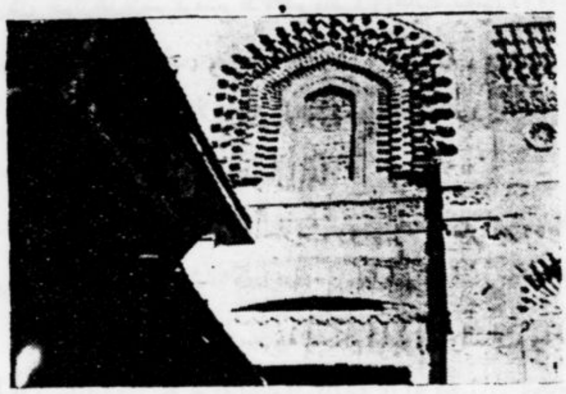
***

أكب على الدرس منذ حداثته ؛ وكان يقتصر يومه وليلته على أكلة واحدة من الطعام زهداً فى الدنيا واستجماماً للدرس والتحصيل ، يميل إلى العزلة .

ثم علق المنقول والمعقول ، واستهوته العلوم العويصة كالفلسفة والتصوف حتى أصاب منها بغيته ، ثم التفت إلى التاريخ فألف فيه المطولات لمن يريد الاستيعاب ، ثم المختصرات لمن يبغى الاطلاع ، كما ضرب بسهم فى السياسة والاجتماع . ثم واصل الدرس فتعمق فى فقه اللغة وعالج الكتابة غير أنه كان يميل إلى السجع والمحسنات اللفظية مما كان يعجب به أهل زمانه ؛ وتعرض للتاريخ الطبيعى حسبما مكنه الأوان ، ثم كان محدث عصره فجلس إلى الناس يحدثهم

(١) خلاصة الأثر للمحبي ج ٢ ص ٤١٢

ثم ولى التدريس بالمدرسة الصالحية (١) فحسده أهل عصره ؛ وكانوا لا يعرفون مزية علمه لانزوائه عنهم



مدخل المدرسة الصالحية

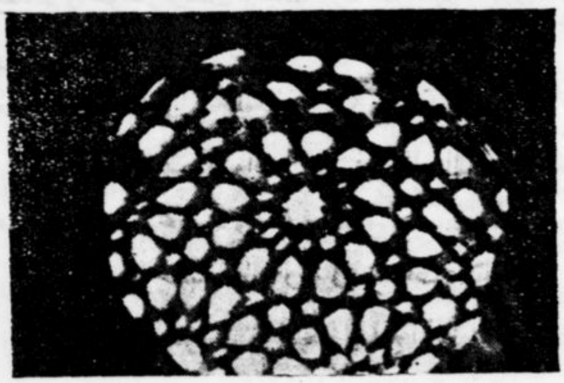
ولما حضر الدرس فيها ورد عليه من كل مذهب فضلاؤه منتقدين عليه ، وشرع فى اقراء مختصر المزنى ، ونصب الجدل فى المذاهب ، وأتى فى تقريره بما لم يسمع من غيره فأذعنوا لفضله ، وصار أجلاء العلماء يبادرون لحضور مجلسه ، وأخذ عنه منهم خلق كثير منهم الشيخ سليمان البابلى ، والسيد ابراهيم الطاشكندى ، والشيخ على الأجهورى ، والولى المعتقد الشيخ أحمد الكلبى (٢) ، وولده الشيخ محمد ؛ وغيرهم

تصدره للافتاء

أما ما قيل من أنه تصدر الافتاء فذلك يرجع إلى أنه ذكر فى مقدمة زائفة لسيرة نسبت اليه : « قال شيخ الاسلام ومفتى الأنام الشيخ عبد الرءوف المناوى » ونحن نشك فى ذلك ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن جده (٣) الشيخ شرف الدين يحيي تولى مشيخة الأزهر وأن له مجموعة فتاوى

وفاته

ومع ذلك لم يخل من طاعن وحاسد حتى دس عليه السم فتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى ، ولما عجز صار ولده تاج الدين (١) محمد يستملى منه التآليف ويسطرها . ولا ننسى أنه كثيراً ما اعتزل الناس وامتنع من مخالطتهم ، وأنه كان إلى أواخر حياته بحراً فياضاً ومعيناً لا ينضب . وافاه قدره فى صبيحة الخميس فى الثالث والعشرين من شهر صفر سنة ١٠٣١ هـ ودفن بجانب زاويته التى أنشأها بين زاويتى الشيخين احمد الزاهد ومدين الأشمونى بعد أن ترك للأجيال ما يفخر به عصره



نقش بقبة مقام المناوى

تآليفه

١ — كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق : يشتمل على ١٠٠٠٠٠ حديث استخرجها من ٤٤ كتابا ما بين مغاز ومسانيد وسير بينها الكتب الستة رامزاً للأسانيد . فرغ من تأليفه سنة ١٠٢٦ هـ وطبع بمصر سنة ١٢٨٦ هـ ، سنة ١٣٠٥ هـ

٢ — الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية : يبدأ بمقدمة فى التصوف رداً على آراء المعتزلة ، ثم يتبعها بثمانية أبواب

---

(١) « هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ... ورتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين الى المذاهب الأربعة فى سنة احدى وأربعين وستمائة » هجرية . المقريزى فى خططه ج ٢ ص ٣٧٤

(٢) له زاوية ومقام بالقرب من ضريحه

(٣) الشيخ شرف الدين يحيي بن محمد المناوى ... تولى مشيخة الجامع الأزهر ولقب بشيخ الاسلام ، وكان يحضر مجالس مولانا الحنفى ، فأخذ عنه وانقطع اليه ... توفى فى ١٢ جمادى الآخرة سنة ٨٧١ هـ » (طبقات الشاذلية للحسن بن محمد الكوهن) وللشيخ شرف الدين حاشية على شرح البهجة للعراقى . (خلاصة الأثر)

(١) هذا غير ابنه الآخر زين العابدين الذى له عدة رسائل منها : شرح تائية ابن الفارض ، وشرح الشاهد لابن العربى ، وحاشية على شرح المنهاج للجلال المحلى ، وشرح على الأزهرية ؛ ثم جمع فتاوى جده شيخ الاسلام يحيي المناوى ، وحاشية على الروض الأنف للسهيلى ، وتوفى صبيحة الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة ١٠٢٢ هـ ودفن الابنان مع والدهما

فى سيرة الرسول ثم بالخلفاء الراشدين ، ويلى ذلك تراجم الصوفية مفرداً طبقات كل قرن على حدة حسب سني وفياتهم ، مرتباً إياهم أبجدياً ؛ فكانت إحدى عشرة طبقة ينتهى الجزء الأول بانتهاء الطبقة السادسة والباقى فى الجزء الثانى ، فرغ من تأليفه سنة ١٠١١ هـ فى ٨٨٠ صفحة ولم يطبع

٣ — الطبقات الصغرى أو إرغام أولياء الشيطان : جمع فيه تراجم صوفية العجم والروم والحجاز واليمن والشام ومصر ، وصدره بمقدمة مرتبة على خمسة أبواب : فى التنبيه على جلال كرم الأولياء ، والرد على منكرى كراماتهم بالأدلة النقلية والعقلية ، وبيان منازلهم ومقاماتهم والحكمة فى ظهور الكرامات على أيديهم ، والترغيب فى مجالستهم ، والأخذ عنهم ، وبيان طبقاتهم وأحوالهم ومكان أصحاب الوظائف منهم ، وفى ذكر شىء من أصول علم التصوف المهمة التى لا يستغنى عنها ، ثم ذكر التراجم مرتبة أبجدياً . مخطوط فى ٢٧٦ صفحة ألفه بعد سابقه

٤ — آداب الأكل والشرب : فى آداب اللياقة يناسب أهل ذلك الزمن . مخطوط فى ٨٠ صفحة

٥ — شرح خطبة القاموس : فى صفحات قلائل

٦ — الدر المنضود فى ذم البخل ومدح الجود : من الأدب الرائع رغم ما به من سجع . مخطوط فى ١١٢ صفحة

٧ — اتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب والفضائل للمناوى[1] مخطوط ضمن المكتبة التيمورية فى مناقب السيدة فاطمة الزهراء فى خمسة أبواب :

الباب الأول : ولدت سنة ٤١ من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم . وقيل قبل الرسالة بخمس سنين

الباب الثانى : تزوجت علياً فى (خلاف من الخامسة عشرة من عمرها إلى الحادية والعشرين) وعمره إحدى وعشرون سنة فى رمضان سنة ٢ هـ وبنى بها بعد العقد بنحو أربعة أشهر ولم يتزوج قبلها ولا عليها ، وأولدها حسناً وحسيناً ومحسناً (مات صغيراً) وأم كلثوم الكبرى التى تزوجت عمر فعون بن جعفر فمحمد فعبد الله أخويه وأمهرها درعاً باعها بمبلغ ٤٨٠ درهما وكان جهازها : سرير مشرط بالشريط ، وإهاب كبش ، ووسادة من أدم حشوها ليف ، وقربة ، ومنخل ، ومنشفة ، وقدح

الباب الثالث : الأحاديث الواردة فيها : ٥٢ حديثاً

الباب الرابع : مناقبها ومزاياها

الباب الخامس : عشرة أحاديث روتها ثم أشعار بين فاطمة وعلى ضعيفة التأليف

٨ — غاية الأرشاد فى معرفة أحكام الحيوان والنبات والجماد لم أره ولعله يشبه حياة الحيوان للدميرى أو الحيوان للجاحظ أو عجائب المخلوقات للقزوينى

٩ — الجواهر المضيئة فى الأحكام السلطانية : فى آداب السلطان وعلم الاجتماع

١٠ — سيرة عمر بن عبد العزيز[1]

١١ — التوقيف على مهمات التعريف : مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس

وهو ذيل لكتاب التعريف للشريف الجرجانى ويشمل الاصطلاحات العلمية العربية فى عهدهما أفاض فيه المناوى فى ذكر المسميات الفنية التى تساعدنا الآن فى تسمية أجزاء الآلات وغيرها مما له مساس بأغراض المجمع اللغوى الملكى

١٢ — فيض القدير : طبع فى مصر :

وهو شرح كبير مستفيض لكتاب الجامع الصغير للحافظ جلال الدين السيوطى فى علم الحديث

١٣ — ٨٠ مؤلفات تامة ذكرها المحبى فى خلاصة الأثر فليراجعها من أراد

٨١ — ٩٣ مؤلفات لم تتم

ونحن نرجو من يعثر على مؤلفات لعبد الرءوف المناوى غير ما ذكرت أن يتفضل بذكر مكان وجودها خدمة للرجل وفضله

(الزقازيق) محمد إبراهيم العفيفى

(١) كتب المرحوم أحمد تيمور باشا على الصفحة الأولى منه ما يلى : « فى خلاصة الأثر صفحة ١٧٦ أنه للشيخ محمد حجازى بن محمد بن عبدالله الشهير بالواعظ المتوفى سنة ١٠٣٥ هـ فيجوز أن تكون نسبته للعلامة المناوى خطأ أو يكون للواعظ كتاب آخر توافق اسمه مع المناوى؟ تيمور »

(١) مخطوطة بالمكتبة العامة ببرلين تنسب اليه والحقيقة أنها لابن الجوزى (تراجع لذلك مقالة لكاتب السطور نشرت فى جريدة الأهرام بتاريخ ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤

الكذب والصدق

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

الكذب أسعدني والصدق أشقاني
والكذب أضحكني والصدق أبكاني

الكذب صيّر أعدائي ذوي مِقةٍ … والصدق أبعد عني كل أخداني
كم ورطة كاد فيها الصدق يوقعني … و بعد ذلك منها الكذب نجّاني

حرمتُ أكثر ما عيشي يطيب به
والصدق قد كان من أسباب حرماني

ما كنتُ أرعى نجومَ الليل في سهري
بل كان فيه نجومُ الليل ترعاني

لولا أكاذيبُ آمالٍ تخادعني … من كان يذهب أشجاني وأحزاني

إن الأمانيّ تسلي وهي كاذبة
وليس في الصدق من سلوى لأسوان

الصدق مستنقعٌ في مائه أسَنٌ … فليس يملك إرواء لظمآن
والكذب بحر خِضَمٌّ لا قرار له … يحوي جواهر من درٍّ ومرجان
الصدق يلقاك بالأشواك جارحةً … والكذب يبسم عن وردٍ وريحان
وقد يفوز أخو صدق بمأربه … وقد يؤوب أخو كذب بخسران
لكن هذا قليلٌ غير مطرّد … فليس يبنى عليه رأيه الباني
إن الحياة بدنيانا لقائمة … على الأكاذيب من زور و بهتان
الصادق الحرّ ذو فقر ومسكنة … والكاذب الغِرّ ذو مال وسلطان
إذا كذبتَ فقد أصبحت رَبَّ تقى … و إن صدقتَ فأنت الملحد الجاني
ما كنت تلعنني لو كنت تفهمني … أو كان عندك وجدانٌ كوجداني
وربَّ أحدوثةٍ في صدقها سببٌ … إلى إثارة أحقادٍ وأضغان
وربّ أكذوبةٍ أدّت بحكمتها … إلى زوال حزازات وعدوان
الصدق في بثه نارٌ مؤججة … فليس يطفئها إلا الدمُ القاني

***

كم دولةٍ أنشأتها ساسةٌ كذبوا … فأصبحت ذات أبراج وأركان

ودولةٍ بعد كذب صان بيضتها
أضاعها الصدق ، صدقُ الجاهل الواني

لا تنكروا ما به قد جئتُ أخبركم … إني إذا قلتُ فالتاريخ برهاني
هل السياسة إلا الكذبُ باقعةٍ … على جماهير من بُلْهٍ وعميان
هل الحياة و إن كانت منمّقة … سوى نفاقٍ وتدليسٍ وإدهان
إن الحياة لسرٌّ ظلّ مختفياً … والروح أكبر من عقلي وعرفاني
هل كان في الأولين السابقين لنا … حقاً عبادةُ أصنامٍ وأوثان
الكذب بالحور والغلمان ذو هِبةٍ … والصدق يقصيك عن حور وغلمان

نزلت في ليلة مقرورةٍ بهما
فالصدق عبّس لي والكذب حيّاني

***

الكذبُ كان بما فيه الرغادة لي … في العيش يأمرني والصدق ينهاني
إذا صدقتُ فان الناس تمقتني … و إن كذبت فان الناس تهواني

يصحّح الكذبُ ما للصدق من خطأ
والكذب والصدق في الإنسان صنوان

وأعذب الشعر ما قد كان أكذبه … قد قال هذا قديماً كل إنسان
وطالب المثل الأعلى و إن عجزت … منه اليراع على هذا هو الباني

***

للنابغين شياطينٌ تساعدهم … وما شياطينهم أشباه شيطاني
إبليس أنجبَ شيطاني وأدّبه … وبالأكاذيب أوصاه وأوصاني
جميع ما فيّ أمسى تحت سلطته … إلا ضميري وأخلاقي و إيماني
أما مفارقةُ الشيطان لي فكما … يفارق الروحُ عند الموت جثماني
ولا يفارقني إلا غداة يرى … مسيري إلى العالم الباقي من الفاني
الشعرُ أنشدُه كالشعر يقرضه … على لساني فأنّا فيه سيان
يبكي و يضحك شعري حين أرسله … إلى الجماهير من أنسٍ وجنّان
لقد جرى الشعر شوطاً في تطوّره … وظل يُبدل ألواناً بألوان
لم يكبر الشعرُ معتزاً بقوته … حتى تربيتُه طفلاً بأحضاني
ولست أرضى بسلطانٍ على أدبي … إن لم يكن ذلك السلطان سلطاني
وربّ شعرٍ جميل بعد قائله … يشدو به الناس من قاصٍ ومن دان
الشعر باللفظ والمعنى يفوق كما … يطير بالطير في الجو الجناحان
وأفتنُ الشعر ما قد هز سامعهُ … بما به بثّ من وجد وأشجان
وسوف يبقى جديداً في رسالته … إلى الجماعات ما كرّ الجديدان

بغداد

جميل صدقي الزهاوي

أختي

للأستاذ أحمد رامي

رزئ الشاعر الوجداني الرقيق الأستاذ رامي في أخته منذ أسابيع فبكاها بهذه العبرات المنظومة :

أنا للحزن وما يبعثـــــه   في خيالي من تهاويل الشجن
كلما صرت بنفسي خالياً   يتبدّى من غيابات الزمن
يعرض الماضي فيسقيني الذي   ذقت فيه من أفانين المحن
ثم يدعوني إلى مجلســـه   بين أوّاهٍ وباكٍ من حزن
يشتكي ذو الوجد ما يعتاده   ويغني فيه مسلوب الوسن

***

هي أختي درجت في كنفي   ثم أمست وهي للروح سكن
عُلتُها طفلاً على بُعـــد أبي   وهو نائي الدار عني والوطن
ثم دلّت صباها فنمت   كالنبات الغضّ في ظلّ الفنن
شربت طبعي وحاكت خلقي   ثم كانت هي سرّي المؤتمن
إن شكوت الدهر مما نالني   سكن القلب إليها واطمأنّ

***

هي أختي صبّرت نفسي على   فقد أهلي كلما ضمّ كفن
لو تذاكرنا أبي أو إخوتي   ساجلتني دمع عيني ما هتن
قلت ترعاني وترعى ولدي   وتربيه على قصد السّنن
وتواسي علّتي في وحدتي   وتناجيني إذا الليل سكن
فطواها الموت عني بغتة   في الشباب الغضّ والوجه الحسن

***

تركت لي مَلَكاً في صورة   من جبين واضح النور فتن
وعيون تسحر اللبّ بما   أرسلته من ذكاء وفطن
وفم حـــلو اللمى مبتسم   فرّ عن درّ تواري واستكن
فيــه منها ما يعزّيني عن   بعدها إما هفا قلبي وحنّ
وابن أختي قطعة من كبدي   أفتديه العمر روحاً وبدن

أحمد رامي

صمت الشك

علم أم ضعف

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ألا لا أبيح العيش مدحاً ولا ذما   سكتُّ فلا عذراً نطقت ولا لوما
ولا يستقيم القول إلا لمُنْتَش   من العيش والآمال لا من صحا غما
ملات أساطير الحياة فان أفِقْ   فمن لي بحلم قد حلمت به قِدْما
حلمت بحسن العيش والصدق والنهى
أمانيُّ لا صُمًّا تبدت ولا بُكْماَ
وإنْ لم يكن عيش الفتى حلم حالم
فما عذر قولي إن حسبت الدُّنى حلما
فان شئت كان الشك ضعفاً وخيبة
وإن شئت كان الشك منطقه علما
وإن كان أصل الوحش والناس واحداً
فلِمْ فقدوا ظلفاً وقد كسبوا لؤما
وكيف أرى في مقبل الدهر للورى
عـــلاء ومحيىً يجمع الخلق والفهما
إذا كان صدق الناس كذباً وفضلهم
رياء وود منهم الغـــدر والسما
صحوت كصحو المَيْت من نوم عيشه
أترجعني للعيش ألعقــه رغما
كما يلعق الآسي العليل دواءه   وإن مج منه علقما قد نبا طعما
وهل ثقة بالعيش والناس تشترى   لِأنثرها نثراً وأنظمها نظما
وإن كان مدح المرء للعيش خشية
من اليأس كان المدح من وجل ذما
يسوغ بيان السخط إن كان من هوى ال
حياة وإن أغرى بك الأمل الجما
وإلاّ فإن الصمت أولى بقائل   إذا قال قولاً جدد اليأس والهما
على تافه لا ينقع الدهر غلة   ولم يك بين الناس ربحاً ولا غُنْما
رأيت زوالَ الكائنات فلا أسىً   إذا لم أُخلِّدْ لي مقالا ولا نظما

القصص

صور من هوميروس

٢٠ - حروب طَرْوَادَة

بريام الحزين . . .

للأستاذ دريني خشبة

تفرق القوم إلا أخيل . . .

لقد أوهنه الحزن ، وشف قلبه الأسى ؛ وكأن قتله هكتور لم يشف ما فى نفسه من شجو ، ولم يخفف عنه ما يلقاه من عذاب البعد عن أعز أصدقائه . . . . الفقيد پتروكلوس !

سيحدث بعد القول قول يُذيلُه   و إن زال أقوام تجد بعدهم قوما
وما الخلد إلا غرة وطماعة   وأنبل كِذْب يخدع اللب والفهما
يكون الفتى فى اليأس دهراً وفى المنى
(كأرجوحة بين الشقاوة والنعمى)
وقد حل بى دهر إذا ما مدحته   أظل كحامى المر ينتعل البسما
و إنْ لم يُنِلك القول إلا مذلة   فمن بر نفسى أن ترى تركه حزما
فمن شاء فلينطق ومن شاء فليكن   صموتاً فحسبى أن أرى الحمق والحلما
مللت نضال الناس فى غير طائل
و إن كان شراً يصقل الذهن والفهما
وكم شبهوا فهما بسهم ومورد   و ياطالما أشوى الصوابَ وكم أظما
فياليت هذا العيش يبدو كصورة   لعينىّ أو خطا على الطرس أو رسما
كما تهدأ الهيجاء فى رسم راسم   تراها فلا قتلا تراها ولا كَلْما
ترى حسن إحسان وتجويد صانع
وقدرة فنان وجهداً له تما

عبد الرحمن شكرى

وخرج لبعض شأنه فرأى جثة عدوه فى طريقه ، تثير فى نفسه الكوامن الشواجن ، فينقض عليها كالمجنون ، ويشبعها ركلا بقدمه ، وكلوماً بخنجره ، ويربط القدمين فى عربته ، ثم يلهب جياده بسوط نقمته ، فتعدو كالريح حول قبر پتروكلوس ، جارة وراءها جثمان هكتور ، تقلبه فى الأديم المُنَدَّى ، وتلُثُّه فى التراب الهامد . . . . .

ويكون أبوللو مطلا من سحابةٍ سارية ، فينتابه من الهم على صديقه ما يثير فى قلبه الحنان القدس ، ويُلقى درعه الذهبى على القتيل المهين ، فتقيه الدرع من الصخر والحصى . . . .

أما ڤينوس ! فانها ترف هى الأخرى فوق الجثة ، وما تنفك تصب عليها من خمر الأولمب ما تنضح به من دمائها . . . . وطُلائها (١) . . . .

وتطلع الآلهة من ذروة جبل إيدا ، فترثى لما يحل بالميت المسكين من هوان ، ويلحظ أبوللو ما ينقدح من عينى سيد الأولمب من شر ، فيجد فرصته ، وينهض خطيباً مصقعاً كيما يثير زيوس على أخيل . . . . عسى أن يحل عليه غضبه . . . . بعد إذ حماه طويلا . . . .

وينجح أبوللو فى إثارة رحمة الآلهة ، وتأليبهم على زعيم الميرميدون ، وجعلهم إلباً عليه واحداً ؛ لولا أن نهضت حيرا مغضبة ، فانطلقت تدفع عن أخيل ، وتُذَكِّر سادة الأولمب بهذا المهرجان الفخم الذى أقامه پليوس ، أخوهم ونجيهم ، هناك ... هناك ، فى أعماق المحيط إحتفاء بقدومهم للمشاركة فى عرسه ، وبنائه على ذيتيس المسكينة . . . التى يعلم الجميع أنها ثكلى ... وإن لم تفقد بعد أخيل ! !

وتذكرهم حيرا بالموثق الحرام الذى قطعوه على أنفسهم أن يباركوا نسل پليوس ، وأن يدفعوا عنه الضر . . . . حتى تنفذ مشيئة ربات الأقدار

ويحار زيوس بين سخط الآلهة ، ودفاع حيرا . . . ثم يبدو

(١) الطلاء دم القتيل

له أن ينفذ رسوله الأمين (إيريس) إلى ذيتيس الحالمة فى أعماق البحر ، فتوقظها ، وتلقى اليها رسالة السماء ...

« ... أن هلمى من فورك هذا إلى سيد الأولب ... فانه يأمرك أن تسمى إليه فى مهمة تعرفينها فيما بعد ... »

وتنتفض الأعماق بالأوسيانيد والنريد وسائر عرائس البحر وعذارى الماء ... يسمين خبباً فى إثر ذيتيس ... حتى تكون فى أفق جبل إيدا ... فينثنين ... تاركات مولاتهن فى ثوبها الحريرى الأسود ، وزنارها القاتم الحزين ، تسمى وحدها حتى تكون فوق الثبج ، ومن ثمة تعرج فى الأديم الأزرق حتى تلج أبواب السماء ...

وألفت حشد الآلهة ما يزال يتحاور ، وما يزال أبوللو يحاج حيرا وحيرا تقرعه ، حتى نظر زيوس فرأى ذيتيس تتهادى فى طيلسانها الأسود ، ووجهها المشرق المترع بالفاتن يزيده الحزن روعة ، ويضفى عليه الأسى جلالا ... فتبسم سيد الأولب ، واهتز فوق العرش ، ثم قال : « مرحباً ذيتيس ! فيم هذا الأسى يا فتاة ! آه ... مسكينة ... ! ولكن اصغى إلى : لقد دعوتك إلى الأولب لتذهبى برسالتى إلى أخيل العزيز ، فتوصيه بجثة هكتور ؛ لقد أثار بما ينزله بها من هوان غضب الآلهة جميعاً ... بل قد أثار غضبى أنا أيضاً ... أنا ... حاميه ومنقذه ومرشده فى كل مثار نقع ... إذهبى اليه فأمريه أن يقلع عن هذه المثلة ، فانه لا شىء يحنق الآلهة مثلها ... وليُسَلِّم القتيل لأهله ، فهذا خير له ، وليقبل القَوَدَ العظيم الذى يقدمه اليه بريام الملك الشيخ الحزين ... الذى حطمه الرزء ، وعظمت عليه البلية ، وصدعت قلبه المصائب ... أما نحن ... فسننفذ إيريس إلى طروادة تأمر الملك باعداد القَوَدَ والتجهز للقاء أخيل فى معسكره ... وسنرسل ولدنا هرمز إلى بريام يحدو ركبه إلى معسكر أخيل ، ويُعَمِّى أبصار الميرميدون حتى لا يثوروا به ، وحتى يكون أمام زعيمهم وجهاً لوجه ...

« ذيتيس ! حسب أخيل ما حل بابن بريام ... »

وهمت ذيتيس فانطلقت إلى ولدها ، حيث ألفته يتناول وجبة الصباح ، فأبلغت اليه الرسالة الأولبية وعيناها تفيضان بالدمع ، وقلبها يخفق ويضطرب ، ونفسها تذوب على شبابه الغض حسرات ...

وهش أخيل لأمه ، وتقبل رسالة الاله الأكبر قبولاً حسناً ، فنهضت ذيتيس وعادت أدراجها ، بعد إذ طبعت على جبين ولدها قبلة خاطفة ، كانت ... واأسفاه ... آخر وداع منها له فى الحياة ...

* * *

وانطلقت إيريس إلى بريام الملك ، فوجدته ما يفتأ يبكى هكتور ، ومن حوله أبناؤه التسعة ، خُضراً كأفراخ القطا ، نضراً كأكمام الزهر ، والرجل مع ذلك يقلب فيهم عينين تفيضان حسرة ، ووجهاً يتشح باليأس والهم ... وإلى جانبه جلست هكيوبا المرزّأة تئن وتتفجع ، وترسل من أعماقها زفرات الهم والأسى ...

وبلغته إيريس رسالة ربه ، وعادت أدراجها إلى الأولب ؛ وما كاد الملك يخبر زوجه بما أوحى إليه من ربه ، حتى اضطربت هكيوبا وأعولت ، وطفقت تضرب صدرها المتهدم بيديها الوانيتين لما اعتزم زوجها من تنفيذ ما أشارت به السماء ، والذهاب إلى أخيل يرجوه أن يهب له جثمان هكتور ، خشية أن يأسره زعيم الميرميدون ويستبقيه عنده رهينة حتى يسلم الطرواديون ... !

ولكن الرجل كان مؤمناً حتى لا يتسرب إلى قلبه الشك بما رسمت له الآلهة ، أو يساوره ريب فى أى مما تشير به أربابه ؛ فزجر الملكة ، ونهض إلى خزائنه العامرة بالتحف فتخير اثنى عشر قرطقا من أغلى ما نسجت مصر ، ومثلها من المعاطف المصنوعة من القاقم والسنجاب ، وعددا كبيراً من الوسائد الرائعة والطنافس ذات التصاوير ؛ ثم أمر بعشر بِدَر فأحضرت من بيت المال ، وبدستَين كبيرين من الذهب ، ذَوَىْ قوائم من الفضة ، وأيد من الجوهر ؛ وبأربعة قدور مهداة من ملوك الشرق ، أحدها يزن بما يملأ خزائن بنبليوس ذهباً .. وبكأس من الأبريز الخالص بها من النقوش والصنعة ما يعجز عن مثله عباقرة الجن ... ...

أمر بريام بكل أولئك فوضعت فى صناديق كانت هى الأخرى تحفاً من صناعات مصر والشام والهند ... تهيم فوقها تصاوير فارس ... .

وصاح بأبنائه التسعة فهرعوا من كل مكان ... باريس المشئوم وهيلانوس وأجاثون ؛ وبامون وأنتيفون وبوليتْ ؛ ثم ديفوبوس وهبوتوس وديوس ... كلاب الأزقة كما كان يدعوهم أبوهم ... « ليت المنية التى تخطفت هكتور تلقفتكم وخلت

سبيل هكتور ... أوليتها أصابت ألف ألف من أمثالكم وعميت عن ليكاون وبوليدور ... ؟ »

وأمرهم فرتبوا الهدايا ورفعوها فوق ظهور البغال . . . وما ثقل منها وضعوه فى عربة كبيرة بجرها بهيان ؛ وتقدمت هكيوبا فصبت على يدىْ زوجها خمراً يتطهر بها ، وأخذ هو فى صلاة طويلة لزيوس ... أن يحميه ويوقيه ... ويُرشده فى طريقه إلى أخيل ؛ ويرسل إليه الرسول الذى وعد ، يقوده إلى فسطاط زعيم الميرميدون !!

ولم يكد ينهض من صلاته ، ويختم توسلاته ؛ حتى رف فوقه طائر ظل يضرب الهواء بخافيتيه ، ويهوّم ويدوم ، ويرنق فى سماء الهيكل تارة ، ثم يستقر عند المذبح أخرى ، حتى أيقن الملك وملؤه أنه الرسول المنتظر ، والقائد المنشود فخفقت قلوبهم ، وفرحوا واستبشروا

وتقدم إيديوس الحكيم فألجم البغال ، وأسرج الخيل ، وشد البهائم إلى عربة الملك ، وأقبل بريام فركب ، وأصدر أمره إلى حكيم طروادة وفيلسوفها فسار بين يدى الركب ، يحديه ويباركه ويضمن له رعاية السماء

أما الطائر الميمون فقد انتفض انتفاضةً هائلة ، وراح يحلق فوق طروادة ، ... ثم غاب عن الأبصار ... إلى أين ... ؟ إلى حيث لا يدرى أحد !!

وتهادى الركب . وانطلق إيديوس يحدوه ، حتى كان عند مقبرة إليوس الأكبر ، وحتى كانت طروادة الخالدة وراءهم ، حالمةً فى غبشة المساء ساهمةً مستسلمة ، كالفكرة الشاردة فى دماغ الشاعر الغرير

وغابت الشمس فى مياه الهلسبنت ، واختلط البنفسج الشاحب بسواد الليل ، ونقت ضفادع الأبالسة فى فضاء البرية ، فملأت القلوب وحشة ، وأرسلت فى المفاصل رعدة ، فلم يكن بد من أن ينيخ القوم حتى يأذن القضاء بالرحيل

وفيما كان إيديوس يسقى الدواب من الغدير النائم فى كِلّة الغسق ، إذا شاب يافع يقبل نحوه ويسأل عن الملك ... ويكون بين يديه بعد لحظات ...

ويسأله الملك عن شأنه فيُحدّث أنه جندى آبق من جنود أخيل ، وأنه ينصح للملك ألا يجازف بنفسه وبما يحمل من اللُّهى والمطايا فى هذه الرحلة المهلكة ، التى قد تنتهى بما لا يدور للملك فى خلد ، أو يقع له بحسبان ؛ ولكن الملك يبدى تصميمه ويلح فى سؤال الشاب عن هكتور ... « أما زال مُسجّى بين يدى أخيل يشفى بمرآه حرَدَه ، أم هو قد أسلمه للسباع وجوارح الطير تنوشه وتغتذى به ؟ ... » ويطمئنه الشاب اللّماب الداهية ثم يرثى له فيعده أن يكون قائده إلى فسطاط أخيل ... « لأن أحدا من الناس لا يستطيع أن يخترق صفوف الميرميدون الدواهى ما لم يكن مخاطرا بنفسه ، أو ملقياً بيديه إلى التهلكة ... » ويستسلم الملك الشيخ ، ويلقى فى يدى الجندى الشاب بزمامه ، ويأذن له فيمتطى الجواد الأمامى الذى يتقدم سائر الدواب ... وتبدأ الرحلة إلى مرابض الميرميدون ...

ويتحدث الشاب إلى الملك ، ويتحدث الملك إلى الشاب ... حتى إذا كانا قيد خطوات من معسكر أخيل ، مد الشاب ذراعيه المفتولين ، ولفهما حول جذع الملك ، ثم رقاه رقيةً قصيرة ، وإذا سأله الملك عما يبتغى بها أنبأه ... « كى لا تمتد إليك عين ولا يلمحك أحـد ، ولا يحس بِمَسْراك أىٌّ من أولئك الميرميدون ... » فيسكن جأش بريام الشيخ ، ويطمئن قلبه ، وتتضاعف ثقته فى الجندى الشاب ...

ويكون فسطاط أخيل تلقاءهما !

فينهض الشاب من جانب الملك ، ثم ينتفض انتفاضة تكشف عن حقيقة ، ويقول ضاحكا : « أيها الملك أنت الآن فى جوار أخيل ، وعليك أن تلقاه فى غير هيبة ولا وجل ، فادخل غير مستأذن ، ولتكن رابط الجأش ساكن الروع ، واركع بين يديه ثم ازرف أغلى دموعك حتى تُلين ما قسا من قلبه ، وتحجر من مشاعره ، واذكر له حاجتك فإنه راد عليك جثمان هكتور ... وثق أن السماء قد قضت بذلك ، ولا مَرَدّ لقضائها ... أما أنا ... فلا تنتظر أن أسعى بك الى زعيم الميرميدون ... وليس سرا أن أذكر لك أننى ... ... هرمز ... أرسلنى أبى اليك لأجىء بك إلى هذا المكان ... انهض ... انهض ... ماذا أخافك منى ؟ .. أجل ... أناربك ... ولكن لتقصر صلاتك هذه ، فالفرصة تكاد تفلت ... تشجع يابريام ... قف ... آمرك ... »

وينهض الملك من غشيته التى كادت تذهب به حين ذكر له الشاب أنه هو هرمز . . . هرمز نفسه الذى ذكرت له إيريس أنه سيقوده إلى فسطاط أخيل . . .

وينظر بريام فيرى إلى . . . الجندى الشاب . . . يرف فى

الهواء الندى ، ثم يرتفع ويرتفع ، حتى يكون فى السماء التى تتفتح له أبوابها ! ؟ . . .

ويصلح الملك من شأنه ، ثم يتقدم بخطى وئيدة إلى فسطاط أخيل ، ويدخله ... ويرى زعيم الميرميدون فى الصدر ، وبين يديه وزيراه العظيمان أوتوميدون وألكيموس ، ثم قادة الجند منتثرين ههنا وههنا . . . يهمسون ولا يكادون يبينون ...

وكان السماط ما يزال أمام الزعيم ، وزقاق الخمر ما تزال تقبل الكؤوس المترعة ، والشواء العظيم يملأ الخياشيم بقتاره ... فلم يبالِ بريام ... بل تقدم وتقدم ... حتى كان أمام أخيل ... فركع ذاهلاً عن نفسه ، ولف ذراعيه حول ساق الزعيم ، وراح يوسعهما لثما وتقبيلاً ، ويعطرهما بأحر العبرات ! ...

وشُده أخيل ! ...

بيد أنه كان يعلم من أمر هذه المفاجأة كل شيء ، فلم يزد أن قال : « بريام ! ؟ »

— « أجل يا بنى أنا بريام ! ! ... »

وبهت القادة مما رأوا ، وأذهلهم ما سمعوا ! ...

أهذا حقاً هو بريام ملك طروادة يبكى بين يدى أخيل وينتحب ؟ ... إذن ... فيم هذه الحرب ؟ ... وحتام ذاك الصراع ؟ ... وإلام تذهب هذه المهج ؟ ...

— « أجل يا بنى ... أنا هو ... أنا الرجل المرزأ المحزون الذى قتلت أبناءه ، وهرقت دماءهم لأنهم يحاربون من أجل وطنهم ، ويذودون عن بلادهم ... سعيت إليك ... إليك يا أخيل العظيم ، لأمطر هذه اليد التى ذبحتهم بدموعى ، ولأوسعها لثما وتقبيلاً ؟ !

أتمنى يا بنى أن تعود قريباً إلى أبويك سالماً ، فيهش أبوك للقائك ، وتبش أمك لعناقك ، ويفرح ذووك بك ، لأنك عدت اليهم بالنصر والفخر ... أستغفر الآلهة ، بل عدت اليهم سالماً من نكبات الحرب وكوارثها ... فهل أكون قاسياً أن أرجوك ... حين تعود الى ديارك وتلقى فيها أحباءك ... أن تذكر أن أبوين آخرين قد خلفتهما وراءك يشقيان ويبكيان ، ويلبسان السواد أبد الدهر ، لأن أبناءهما لم يعودوا من ساحة الحرب كما عدت أنت ، بل هم قد سقطوا فوق أديمها ، مضرجين بدمائهم ، شاكين إلى أربابهم ما حل فيها بهم ، تاركين آباءً شيوخاً فانين ، وأمهات ضعيفات معولات ، وقلوباً تتفجر أسى عليهم ، وعيوناً تخلط دموعها بدمائها من أجلهم ، وأرامل يلطمن الخدود ويشققن الجيوب ، ويتامى لا حول لهم ولا قوة على الزمان الغادر ، والحظ العاثر ، والصبر الجميل ... ؟ ...

هل أكون قاسياً يابنى إذا رجوتك أن تذكر ذلك أو بعض ذلك ، حين تعود إلى ديارك وتلقى أبويك الفرحين بك ؟ ...

أخيل ! لم أسع إليك يا بنى إلا بأمر الآلهة ، ووحى سيد الأولمب ... أرجوك فى هكتور ... ! ...

واحر قلباه يا هكتور ... ! وا أسفاه عليك يا ولدى ! ...

صدرت إليك يا أخيل عن أمر السماء أرجوك فى هكتور أن تسلمه إلى حتى نؤدى له فرائض الآلهة ، وطقوس الموت ، وما أحسبك إلا ملبياً ندائى الحزين ، حتى تتيح للآلاف المؤلفة من جنوده وذويه وزوجه وابنه ان يبكوا جميعاً عليه ، وأن يشيعوه إلى الدار الآخرة بما رضيت أن تؤديه لبعض أصحابك ، حتى تقر روحه ، ويؤذن لها فتلج إلى هيدز ...

أخيل ... لب ندائى أيها الزعيم الباسل ... لب نداء هذا الشيخ الضعيف ، ... وارحم فيه هذا الذل الذى حمله إليك ... وأسعده بتقبل هذه الهدية التى أمرت بها السماء ... وإن تكن يا أشجع المحاربين فى غَناء عنها ، ولا حاجة بك إليها ... »

وأحس أخيل كأنما تخاطبه السماء كلها بلسان هذا الشيخ المتهدم ، وكأنما الآلهة جميعاً تنطلق من فمه لتكون بياناً ورحمة فى قلبه ، فأنهضه من بين يديه ، وأجلسه إلى جانبه فوق أريكته ثم أخذا معاً فى بكاء حار طويل

وتقبل أخيل هدايا الملك ، وأشار إلى اوتوميدون وزميله فأخذاها إلى الأسطول ، ثم أمر الخادمات فغسلن هكتور بالماء الساخن المعطر بدهن الورد ، ولففنه فى مدارج بأكملها من كتان مصر ، وتقدم هو فوضعه على وسادة الموت ، وأشار إلى جنوده فرفعوه إلى إرانه ، ثم أخذ يهوّن على بريام ويواسيه ، ودعاه إلى تناول العشاء معه ، فلبى الشيخ وهو يعول ويبكى ... بكاء يفتت الأكباد ويذيب نياط القلوب . . .

وكان الليل قد انتصف أو كاد ، وكان بريام الملك قد لبث الليالى الطوال يتفجع على ولده ، ولا يذوق جفنه طعم الكرى فأحس بعد العشاء باعياء وجهد ، وميل شديد إلى النوم ، فصُفّت له ولرجاله وسائد فاخرة ، عليها طنافس وملاءات من الهند ، واستأذن أخيل واستلقى على متكئه . . . وقبلَ أن

يسلم عينيه للكرى ، سأله أخيل أن تكون هدنة بين الجيشين المتحاربين حتى تؤدى كل الطقوس اللازمة لتحريق هكتور ؛ واتفقا على أن تكون هذه الهدنة لمدة أحد عشر يوماً

* * *

وفى الهزيع الأخير من الليل ، أقبل هرمز الكريم فأيقظ بريام الملك ، ونبهه إلى الخطر الذى يحيق به إذا أشرقت الشمس وأقبل أجا ممنون وسائر القادة الهيلانيين ورأوا كبير أعدائهم ، وصاحب إليوم ، فى معسكر أخيل . . . هنالك يحجزونه لديهم رهينة حتى تسلم مدينته . . . « فهلم أيها الملك وانج بنفسك ، وسأقودك الى طروادة بحيث لا يشعر بك أحد ، ولا يحس الميرميدون لركبك رِكْزاً . . . »

ويسير الركب فى هدأة الفجر ، ويحدو هرمز القافلة حتى تكون لدى البوابة الاسكائية الكبرى ، فيسلم على الملك ويبارك الميت . . . ويعرج فى السماء . . .

وتكون كاسندرا ، ابنة بريام الكبرى ، أول من يلمح الركب مقبلا ، فتبشر الأهالى المحزونين ، ويرتفع اللغط ، وتشتد الضوضاء ، ويتكبكب الواطنون حول العربة التى تحمل الأران حتى ليتعذر السير ، ويبطئ السى ، فيصيح الملك بالملأ ، فتنفرج الطريق ، ويعم الصمت ، ولا يحس إلا وجيب القلوب وخفقانها

وتقبل أندروماك فتذرى دموعها ، وتندب حظها ، وتبكى زوجها ، وتمزق قلوب الطرواديين بما يبدو عليها من أسى وحزن ووجد وكمد ...

وأم هكتور ! ... ويا لمصاب الأمهات فى فلذات أكبادهن ، وأعز الأبناء عليهن ! ! ...

وهيلين ! ! والعجيب أن تبكى هيلين هى الأخرى ! ! هلين الآبقة ... هيلين الأثيمة . . . ! !

* * *

ويأمر الملك فينتشر الجند يجمعون الوقود من كل فج ، حتى تكون كومة عالية ؛ ويوضع الجثمان المبكى فوقها ، وتنصب الخمر تحية لآلهة الموت وتكرمة ، وتشتعل النار فتكون ضراما . .

* * *

أنشـــد يا هوميروس !
يا شاعر الأحقاب الخالية !
يا صدَى الزمان القـديم !
أيها القيثـــارة المرنّة فى أنامل الأيام !
أرسل من الأزل أنشودتك تملأ الأسماع فى الأبد !
واعصف مع الريح ... ...
واهتف مع البلابل ... ...
وتقبل تحيات المعجبين ...

(تمت الألياذة)

(بقية الحروب فى العدد القادم)

دريني خشبة

البريد الأدبي

ترجمة لكير هاردى

منذ أكثر من قرنين يتناوب الحكم فى بريطانيا العظمى حزبان عظيمان هما حزب المحافظين وحزب الأحرار ؛ ولكل من الحزبين فى ميدان الكفاح السياسى مواقف وتقاليد عريقة ؛ ولكن حزباً ثالثاً ظهر فجأة فى ميدان السياسة الانكليزية هو حزب العمال ؛ وكان ظهوره إيذاناً بوقوع الثورة الاجتماعية التى لبثت أسبابها تجتمع طوال القرن التاسع عشر ؛ وظهر حزب العمال ونما بسرعة مدهشة ، ولم يمض على قيامه نحو ثلاثين عاماً حتى استطاع أن ينتزع مقاليد الحكم من الحزبين القديمين الكبيرين (سنة ١٩٢٤) ، ثم تولاها مرة أخرى فى سنة ١٩٢٩

وقد كان كير هاردى من أقطاب مؤسسى هذا الحزب الجديد ومن أعظم الزعماء الذين أمدوه بأسباب الحياة والقوة ؛ وحياة هذا الزعيم المجاهد هى موضوع مؤلف جديد صدر أخيراً بالانكليزية بقلم هاملتون فايف ، وهى مثل رائع من صور الكفاح الخالد بين الطبقات . كان كير هاردى عاملاً منذ نعومة أظفاره ، وقد نشأ فى بيت فقر وبؤس ، وذاق مرارة الكفاح الشاق منذ طفولته ، ولم يتلق تعليما ولا ثقافة ، ولكنه تعلم القراءة فى منزله ، وصقل ذهنه بالدرس المتواضع ، ودرس الحياة بصورة عملية ، وظهر فى مجتمع العمال منذ حداثته ، واشتهر بكفاحه فى سبيل قضية العمال . وفى سنة ١٨٩٢ أسس كير هاردى مع نفر من صحبه الحزب الذى قدر له أن يتبوأ بعد قليل مركزاً خطيراً فى السياسة البريطانية وهو حزب العمال المستقل ؛ وكان هو أول رئيس لهذا الحزب ؛ وفى نفس العام دخل البرلمان نائباً عن إحدى المناطق الصناعية ، وكان دخوله فى هذا المجلس العريق فى مظاهرة اشتهر ذكرها فى هذا العصر ؛ ولبث كير هاردى يسهر على مصاير حزبه وعلى مصاير قضية العمال ، ويبث روح الكفاح والقوة فى الحزب الجديد ، تارة بقلمه وتارة بخطبه ، حتى أصبح حزب العمال قوة يخشى بأسها . وفى سنة ١٩٠٦ كان لحزب العمال فى مجلس النواب زهاء ثلاثين مقعداً ؛ وبدأ الكفاح الحقيقى بينه وبين الأحرار والمحافظين ، وبدأت الحكومات البريطانية المتعاقبة تحسب حسابه ، وتنزل عند بعض رغباته ، ومازال سائراً فى طريق الكفاح الاجتماعى حتى وصل الى ما وصل اليه اليوم من القوة والنفوذ

على أن الكفاح السياسى ليس أغرب صفحة فى حياة كير هاردى ، ولعل أغرب ما فى هذه الحياة هو ما تميزت به حياة هذا المجاهد من بسالة ومقدرة على مغالبة الشقاء والفاقة ، وما بذله من عزم وجلد . هنا تبدو حياة كير هاردى بديعة مؤثرة ؛ ولعل أحداً من الناس لم يصف لنا هذه الحياة المؤثرة بقدر ما وصفها كير هاردى نفسه ، فقد كتب كثيراً فى متاعب هذه الحياة وشقائها . ومما يذكر أنه فى صباه تأخر ذات يوم بعض الوقت عن عمله ، فطرده صاحب العمل ، وكان أبوه عاطلاً وأخوه يعانى الحمى ، ولم يكن لأسرته عائل غيره . وقد وصف لنا كير هاردى فيما بعد هذا المنظر المحزن فيما يأتى :

« لبثت مدى حين أتجول فى الشوارع تحت وابل المطر المنهمل ، خجلاً من أن أعود إلى بيت لا طعام فيه ولا وقود ؛ وأسائل نفسى دهشاً أليس أفضل شىء أن ألقى بنفسى فى نهر « كلايد » وأنتهى من حياة كهذه ليس فيها ما يرغب ؛ وأخيراً ذهبت إلى الدكان ، وقابلت صاحبه وأوضحت له سبب تأخرى ، ولكنى لم أظفر منه بطائل ، ولم يدفع لى أجرى ؛ وإنى لأرتجف الآن ويتفطر قلبى كلما ذكرت الحادث ؛ ومازلت أرتد إليه وأرتد على أجنحة الخيال ، وأتصور أنه فى نفس الليلة كان ثمة آلاف من التعساء يعانون مثل هذا العذاب ؛ وهى فكرة لا يطيق الانسان احتمالها »

ويصف لنا مستر هاملتون فايف حياة كير هاردى المؤثرة فى جميع أطوارها ؛ وإنها لقطعة مؤثرة مبكية من الكفاح فى هذه الحياة الشاقة ؛ ثم هى فى نفس الوقت صورة رائعة من البسالة وقوة النفس ، والصبر على المكاره ، وعظمة البؤس التى تحمل على الاحترام والاكبار

وكان كير هاردى صحفياً وكاتباً ، وقد كتب كثيراً عن الاشتراكية وتحرير الطبقات العاملة ، وتوفى فى سنة ١٩١٥ دون الستين من عمره ، بعد أن نفث فى حزب العمال كثيراً من روحه القوى الوثاب

وثائق هامة عن حياة زعيم مسلم

من أنباء موسكو أن بعض الباحثين فى محفوظات الدولة قد عثروا أخيراً على طائفة من الوثائق والرسائل الهامة التى تلقى أقوى الضياء على سياسة القياصرة نحو مسلمى القوقاز فى أواخر القرن الماضى ، وعلى حياة شاميل الزعيم القوقازى المسلم الشهير ، وعلى علاقات مسلمى القوقاز باخوانهم فى تركيا وبلاد العرب وفارس . ويرجع الفضل فى اكتشاف هذه الوثائق إلى جهود المعهد الشرقى الروسى ؛ وقد كتبت كلها فى عصر شاميل واليه بالعربية ؛ ومعظمها رسائل أصلية وجدت فى بعض محفوظات تفليس وجروزنى ، وعددها خمس عشرة وثيقة ؛ وينتظر أن تنشر بنصها الأصلى خلال انعقاد المؤتمر القادم للمباحث الشرقية

وقد وجدت الى جانب هذه الوثائق طائفة من المخطوطات والكتب الأدبية ترجع أيضاً إلى عصر شاميل ؛ ومنها مؤلف تاريخى وضعه الزعيم شاميل نفسه بالاشتراك مع صديقه وزميله محمد طاهر ؛ وهو الآن فى المعهد الشرقى قيد البحث والاعداد للنشر . واكتشاف هذه الوثائق والمؤلفات يعدل كثيراً من الوقائع والآراء التى جرت حتى اليوم فى شأن علائق القوقاز المسلمة بحكومة القياصرة ، وكفاحها ضد مظالمهم ، والتى استقيت معظمها من أقوال ووثائق رسمية مغرضة ، ويلقى فى نفس الوقت ضياء كبيرا على حياة شاميل زعيم القوقاز المجاهد وعلى حسن بلائه فى مقاومة سياسة القياصرة ، وفى بث روح الوطنية والعزة القومية والدينية فى بنى وطنه ودينه

حول كتاب (الاسلام الصحيح)

ألف هذا الكتاب الأستاذ اسعاف النشاشيبى منذ أشهر ، وكتب عنه فى (الرسالة) الاستاذ محمد كرد على منذ أشهر ؛ ثم درجت عليه الأيام دون أن تتاح لنا الفرصة لقراءته ؛ ومنذ أسابيع أخذت مجلة (العروبة) تنشر منه فقرات تتصل بالشيعة أخطأ التوفيق فيها المؤلف ، فثار على الكتاب والكاتب النقد المنيف من النبطية والنجف ، وعاتب بعض فضلاء الشيعة (الرسالة) على قبولها تقريظ هذا الكتاب . والرسالة التى تدعو الى اتحاد الأمة العربية وائتلاف الملة الاسلامية تبرأ الى الله من سوء النية فيما نشرت ، إنما هو رأى أستاذ كبير فى كتاب قرأه ولم تقرأه ؛ وكل مقال تنشره بامضاء كاتبه إنما تكون تبعته عليه لا عليها

ضريح ابن الأثير فى الموصل

يشغل ضريح العلامة ابن الأثير بقعة صغيرة من الأرض خارج الوصل على شارع الحزامية المؤدى إلى المستشفى الملكى ؛ وقد راع بعض الأفاضل حاله السيئة ففكر فى تشييد ضريح غيره يليق بشهرة صاحبه ومكانته فى التاريخ العربى ؛ وهو عمل جليل نرجو أن تساهم فيه إدارة الأوقاف وإدارة الآثار فى العراق ؛ فان من حق الذين أولونا الفضل فى الحياة ، أن نوليهم الاجلال فى الموت

الدكتور الرافعى

عاد من أوروبا منذ قريب ، الدكتور محمد الرافعى ، نجل صديقنا الأديب الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، بعد أن أتم دراسة الطب بجامعة ليون ، وكان مبعوثاً إليها على نفقة جلالة الملك ، تقديراً لنبوغه وكفايته

وقد كان الدكتور الرافعى فى دراسته ، وفى رسالته لنيل الدكتوراه ، وفى درجاته العلمية التى حصل عليها ، مفخرة مصرية ودعاية ناطقة للشباب المصرى فى أوروبا

وحسبه أن يعلن رئيس جامعة ليون فى اجتماع لجنة القضاة المحكمين لمناقشة رسالة الدكتور الرافعى : أن هذه الرسالة تعتبر أماً لجميع الرسائل والكتب والمؤلفات التى وضعت فى بابها من سنة ١٩١٠ إلى الآن ، وأنها جاءت بالحل الأخير لمناقشات كادت لا تنتهى . وكان الدكتور الرافعى قد اكتشف مرضاً مما يصيب الأطفال لم يتنبه إليه أحد ، ووضع له اسماً خاصاً به

وقد منحته الجامعة درجة (جيد جداً) ، مع (درجة تقدير القضاة) ، و(مبادلة الرسالة لجميع الجامعات الأجنبية) . وهى درجات رفيعة حقيقة منا بأن نتقدم اليه والى والده الكريم بالتهنئة فخورين معجبين

بعض آراء الزملاء فى الرسالة

لا تزال تنثال على (الرسالة) تهنئات الأصدقاء من مصر وسائر الأقطار العربية على دخولها فى عامها الرابع ؛ وهى تشكر لهم هذا العطف الجميل ، وترجو أن تظل من توفيق الله على الحال

التى يرتضيها الحق والجمال والخير ؛ ثم تثبت هنا بعض آراء الزملاء الفضلاء فيها تسجيلا للوفاء منهم وللشكر منها :

قالت الجهاد الغراء فى عددها الصادر فى ٨ يناير سنة ١٩٣٦ :

دخلت زميلتنا «الرسالة» الغراء فى عامها الرابع ، فحق لصاحبها الأديب الضليع الأستاذ أحمد حسن الزيات أن يغتبط بما أصاب فى رسالته من نجاح ، وما كتب لجهوده الصادقة من توفيق

ونحن إذ نقول التوفيق لا نشير فقط إلى ما لقيت «الرسالة» من ذيوع فى مصر وفى سائر الأقطار العربية ، وإنما نشير إلى السبيل التى سلكها الأستاذ الزيات بمجلته ، حتى بلغ بها هذا النجاح الذى يغتبط به كل ذى غيرة على الأدب العربى ، فهو لم يسلك إلى النجاح واجتذاب الجمهور تلك السبيل الممهدة الرخيصة وهى النزول إلى مستوى العامة واقتناص الربح منهم بأرخص المغريات ، ولكنه تطلع فى عزم وإيمان وهمة لا تحد نحو غاية أسمى ، وتصدى لمهمة أنبل وأكرم ، فراح يرفع الجمهور إلى المستوى الذى يحبب اليه الأدب الصافى القويم

وقد سلخت (الرسالة) ثلاثة أعوام لم تنثن فيها عن تحقيق هذه الغاية ، بل لقيت من النجاح ما حفزها إلى المثابرة والمضى فيما سلكت من سواء السبيل

فللصديق القدير تهنئتنا الخالصة ولمجلته اطراد التوفيق والنجاح

وقالت «البلاغ» الغراء فى عدد ٨ يناير سنة ١٩٣٦ :

أتمت مجلة الرسالة لصاحبها ومحررها الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات سنتها الثالثة ، ودخلت بالعدد الأخير منها فى عامها الرابع من عمرها الطويل المبارك إن شاء الله . والرسالة تؤدى مهمة ثقافية سامية ، وتصل ما بين الأقطار العربية ، وتسمو بالأدب عن التجارة ، وتحرص على الرفعة والجد ، وهى تمثل فى الأدب المذهب السديد الذى يزاوج بين القديم والجديد ، فلا يهمل القديم من كنوز الآداب ولا سيما العربية لقدمها ، ولا يفتتن بالحديث لطرافته ؛ ومن هنا كانت «الرسالة» كاسمها «رسالة» حقيقية إلى أمم العرب قاطبة ، ولهذا فازت بحقها فى كل قطر من الأقطار العربية من التقدير والاكبار . فنهنئها بعامها الجديد ، ونشكر لزميلنا وصديقنا جهده الصادق المخلص فى خدمة العربية والأدب الرصين

وقالت روز اليوسف اليومية فى عددها الصادر فى ٧ يناير سنة ١٩٣٦ :

دخلت زميلتنا «الرسالة» الغراء فى عامها الرابع مزودة بما قدمت لقرائها بل الأدب العربى من خدمات سيرويها التاريخ فخوراً بها . وسترى فيها الأجيال القادمة مرآة صادقة للمثل الأعلى فى ثقافة هذا الجيل وأدبه

وإذا كانت «الرسالة» باعتراف قادة الفكر رسول العلم والأدب إلى العقول ، فهى باعتراف قرائها الذين أقبلوا عليها طوال هذه السنين رسول الروح المهذبة والعقلية المؤدبة والعاطفة الملهمة ، تحمل إلى رواد الأدب والعلم والشعر كل رائع وكل بديع

وإذا كان واجباً علينا أن نهنىء حضرة الزميل الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات بدخول الرسالة فى عامها الرابع فأوجب من هذا أن نهنئ القراء بما سيقرأونه فى العام الجديد بين صفحات الرسالة فى عامها الجديد

فهنيئاً لزميلنا الكبير رسالته النبيلة ، وهنيئاً لقرائه ما سيقرأون

وقالت المقطم فى عدد ٨ يناير سنة ١٩٣٦ :

دخلت مجلة الرسالة الغراء فى عامها الرابع بعددها الأخير وقد حفلت مجموعات سنواتها الثلاث بطائفة طيبة من الأدب العربى الصافى المورد ، فكانت مسرحاً لأقلام فحول أدباء هذا العصر من المحافظين على متانة الأدب العربى القديم ، والناهلين من أدب الغرب الحديث ، من أدباء مصر وسورية والعراق وغيرها ، فنهنئ حضرة الزميل الفاضل الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة الغراء ونتمنى لرسالته ذيوعاً وانتشاراً حتى يشمل نفعها أكبر عدد من أدباء العرب الذين قدروها قدرها وعرفوا لها منزلتها

وقالت الاهرام فى عدد ٨ يناير سنة ١٩٣٦ :

دخلت مجلة «الرسالة» الغراء فى عامها الرابع وهى المجلة الأسبوعية للآداب والعلوم والفنون لصاحبها ومديرها ورئيس تحريرها الأديب المعروف الأستاذ أحمد حسن الزيات . وقد برز العدد الجديد فى صدر هذا العام بحلة قشيبة تدل على ازدياد العناية بها . وهو يضم مقالات طريفة وقصائد متينة السبك لبلغاء الكتاب وفطاحل الشعراء فى موضوعات متنوعة لا تخرج عن الخطة التى نهجتها منذ إنشائها وتنطبق على الحاجة التى تشعر بها الأمة فى موقفها الحاضر : فنهنئها ونتمنى لها اطراد التقدم

النقد

رد على نقد

٢ – كتاب تاريخ الاسلام السياسى

للدكتور حسن ابراهيم حسن

مؤلف الكتاب

ص ٣٩٨ – يزعم حضرة الناقد أننا قد اتبعنا رأى نيكلسون فى أمر انتصار معاوية ، وفى أن المسلمين اعتبروه انتصارا للارستقراطية الوثنية التى ناصبت الاسلام العداء

وهذا الزعم غير صحيح ، فاننا بنينا هذا الرأى على مقدمات صحيحة رواها ثقاة المؤرخين عن جمهرة المسلمين فى القرن الأول الهجرى . وهذا على بن أبى طالب يقول فى معاوية مخاطباً أصحابه : « أنظروا إلى من يقول كذب الله ورسوله . إنما تقاتلون ابن رأس الأحزاب وابن آكلة الأكباد من قتلى أحد . وإنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء ممن أسلم كرها وكان للرسول حربا وكان عن الدين منحرفاً » . ربما تقول إن كلام على لاينهض حجة فى رأى جمهور المسلمين حيال معاوية وشيعته ، وإن التنافس فى الحكم يدعو إلى أكثر من ذلك ، فان هذا القول فى معاوية لم ينفرد به علىّ ، فهؤلاء كبار الصحابة والتابعين يرددون هذا القول بل أشد منه . وهذا قيس بن سعد يقول للنعمان بن بشير « انظر يانعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً أو يمانياً مستدرجاً . وانظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون باحسان الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وغير صويحبك ولستما والله بدريين ولا عقبيين ولا لكما سابقة فى الاسلام ولا آية فى القرآن » ، وقول ابن عباس : « هذه الحرب بدأها علىّ بالحق وانتهى فيها إلى الغدر ؛ وبدأها معاوية بالبغى ، وانتهى فيها إلى السّرف » ، وهذا أبو حمزة الخارجى يقول فى خطبته : « معاوية لَعِين الرسول وابن لعينه ، وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤتاف طليق ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خولا ، ومال الله دولا ، وبغى دينه عوجاً ودغلا ... الخ . »

لم نذكر هذه الأقوال معتقدين بصحتها كلها فى معاوية ، إذ رأينا الشخصى أنه مسلم عظيم خدم الاسلام خدمات جليلة ، ولكنا اضطررنا إلى ذكرها لنبرهن على أن من استندوا إلى رأى نيكلسون وجدوا فى هذه الأقوال بعض المبررات لما ذهبوا اليه

ولَيْتَ الناقد راجع تلك الأقوال التى تفيض بها المصادر التاريخية ليعرف أننا نعنى بقولنا جمهور المسلمين ، فيريح نفسه ويريحنا أيضاً من هذا التعليق الطويل

ص ٣٤٠ – كان خيراً للناقد ألا يرجع إلى هذه الصفحة بعد أن تركها عمداً أو سهوا – لا أدرى – ويظهر أن شغفه بالتنقيب وتحميل اللفظ فوق ما يستحق ، واستخراج ما توهمه مؤاخذة ، هو الذى حمله على عكس الدورة ومعاودة المراجعة لهذه الصفحة بعد أن تركها فى أول مرة . ولينظر القارىء إلى ما قال عنها بعد أن أرجع البصر كرتين : إنه لم يرضه إلا أن يرمينا بالخطأ لأننا وقعنا فى أمر جسيم حيث تابعنا المصادر العربية التى تعين موقعة « ذات السوارى » بزمانها ومكانها ، ويريد أن يقسرنا على متابعة المصادر اليونانية فى أن تاريخ الموقعة كان سنة ٣٤ ﻫ لا سنة ٣١ كما تثبته المصادر العربية ، وأن مكان الموقعة كان قريباً من ساحل آسيا الصغرى الجنوبى لا قريباً من الاسكندرية

ولحين اطلاعنا على السبب فى ولع الناقد بتفضيل المصدر اليونانى على العربى ، نقول له إن رأيك هذا فيه تحكم وترجيح بلا مرجح ؛ على أن حضرته لم يذكر لنا ولو مصدراً واحداً من هذه المصادر اليونانية لنقف منها على مبلغ صحة اعتماده وأسباب ترجيحه ، اللهم إلا كتاب العصور الوسطى لكمبردج ، وهو

عبارة عن سلسلة مقالات بالانجليزية ، كما أن حكمه علينا بأننا نتابع السير وليام ميور الذى يأخذ عن جيبون هو من قبيل الرجم بالغيب ، وأن قوله : « كلا هذين المؤرخين أصبح قديماً ولا يصح التعويل عليه بصفة مطلقة » يحتاج إلى فك رموزه وأحاجيه …

ص ٤٥٠ – يظهر أن الناقد سريع النسيان . فبينا هو يأخذنا بلاذع اللوم والتعنيف إذا روينا آراء جمهور المسلمين فى الأمويين ، نجـــده هنا لا يعجبه أن دافعنا بحق عن أحد خلفائهم بأنه لم يرد أن يحط من شأن الكعبة ، وأن رميها بالمجانيق أحدث فيها من غير قصـد ما أحدث ، وأن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هذه الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة هدفاً ، إذ كان الأمويون يعتبرونها بدعاً فى الدين » . وما أسرع هـذا الناقد فى سحب نقتـه من هؤلاء المساكين ، فيقول عنهم : « وبنو أمية كانوا إذا تعارضت المصلحة السياسية مع أى اعتبار آخر رجحوا جانب المصلحة السياسية كائناً ما كان ذلك الاعتبار الآخر . وتاريخهم يشهد بذلك ! ! » ثم ما أدرى وجه الضحك من قولنا إن الحجاج جعل الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة هدفاً لمجانيقه ، وإنه كان من الممكن الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها ثم تنقض الكعبة وتبنى على أسسها القديمة . فلواقع يقرر ما قلناه والتقرير غير الرد ، والتفسير غير النقد ، وأما هذه الزيادة فقد كانت متميزة عن سائر بنية الكعبة يمكن نقضها دون هدم الكعبة ، بدليل أن الحجاج بعـد أن قتل ابن الزبير عمد إلى تلك الزيادة فأزالها وأعاد الكعبة إلى ما كانت عليـه زمن الرسول ، وليس من الصعب على العرب ، وهم مشهورون بتسديد الرماية ، أن يجعلوا الزيادة هدفهم بدون أن يلحقوا بسواها ضرراً ؛ وقد فصلنا الكلام فى ذلك فى مقالنا الأول . أما قول الناقد إن الهدف الحقيقى للمجانيق هو ابن الزبير نفسه ولما جعل الكعبة حائلاً بينه وبين المجانيق ضربت الكعبة ، فقول لم يأت الناقد فيـه بجديد عن قولنا ولا يتنافى مع ما قررناه.

ص ٤٧١ – يقول علماء الأصول والتشريع إن الحكم على المجموع لا على الجميع . فاذا حكمنا على الخوارج بأنهم اشتطوا بالحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان ، فلا يضرنا أن تشذ فرقة كالاباضية عن هذا الحكم ، ولا يخفى أن هـذه الفرقة لم تشترك مع الخوارج بظفر ولا بناب فيما ألحقوا بالأمة الاسلامية ، فليست مقصودة فى كلامنا لأنها غير معتبرة من الخوارج ذوى البأس الشديد

ويصدق هذا أيضاً على ما نقلناه عن « السيد أمير على » على نظام الامارة على البلدان فى العصر الأموى ، وبعد أن كان يفرض على ولاة الأقاليم الاقامة فى حواضر ولا ياتهم أصبحت الولاية فى عهد الأمويين تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط ، فكانوا يبقون فى دمشق ويعينون من قبلهم رجلاً يقومون بحكم الولايات نيابةً « عنهم » . وإذا رجع القارىء إلى كلامنا يلاحظ أننا نقرر ذلك نظراً لما حدث أثناء حكم هذه الدولة ، وأننا لم نجمل تطرق النقص منسحباً على العصر الأموى كله بدليل قولنا إن هناك نقصاً قد تطرق إلى النظام الادارى فى عهـد بنى أمية ، وجرّ إلى أسوأ العواقب فيما بعد ، إذ لا يخفى أن التطرق أمر عارض لم يكن موجوداً ثم وجد ، فـكيف يحمل على التعميم والاستفاضة ؟ .

ص ٥٧٦ – من المحسنات البديعية أن يذكر الانسان شيئاً أجنبياً عن موضوعه لمناسـبة وفائدة . فاذا كنا تكلمنا عن نظام العدول فى معرض الكلام على نظام القضاء فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وقلنا إن سُنّة التقدم والارتقاء دعت إلى اتخاذ الشهود المحلفين حين فشت شهادة الزور ، فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول عرفوا بحسن السمعة والفقه فصاروا من هيئة المحكمة يعمل برأيهم القاضى فيما له علاقة بالمتقاضين ، إذا ذكرنا هذا فليس معناه أننا نجهل تاريخ هذا النظام ونجهل أنه كان فى الدولة العباسية لا الأموية . والمنصف يرى أن مثل هذا الاستطراد له شواهد كثيرة من كتاب الله وكلام رسوله وكلام العرب . وقد لاحظ العلماء فيه أنه يكسب الكلام رونقاً وجدة ويذهب بالسآمة التى يشـعر بها القارىء أحياناً من موضوع استطال الكلام فيه

يخيل الينا أن الناقد أحس بتهافت ملحوظته هذه فعمد إلى ستر الموقف وتدعيم المأخذ بكلام أرسله إرسالا وكال فيه التهم

جزافا ، فأبرم حكما مقضياً بأن كلامنا لا يجلو هـذا النظام على حقيقته وفيـه تخليط كثير !! ويا للعجب ! هو لم يقبل منا أن نستطرد بذكر نظام الدول موجزين ويريدنا أن نفصل الـكلام عنه . ولا بأس أن نترك الـكلام عن موضوع الـكتاب بالمرة لنفسح له فى الميـدان ليصول ويجول ويكون لنقده حينئـذ بعض القوة !

ص ٦٢٧ – كنا نتفكه بحكاية ذلك التركى الذى كان مغرماً بأن يأمر فيجد مأمورا ، وينهى فيجد منهياً ، ولما كانت مؤهلاته لم تسعفه باشباع رغبته اقتعد غارب الطريق ووضع أمامه بعض أباريق مملوءة بالماء ، حتى إذا ما أجهد أحد المارين العطاش وأراد تناول إحداها ليشرب نهره ذلك التركى قائلا : دع هذا واشرب من ذاك ! فاذا ذهب حضرة الناقد فى غالب كلامه يلومنا بأننا نقلنا كذا عن فلان ، وكان أولى بنا أن ننقله عن سواه ، فانه – ولا شك – يذكرنا بهذه الحكاية المضحكة . ولقد رأينا حضرة الناقد يسلك هذا الطريق معنا فى أمر موقعة ذات السوارى ونفقات المسجد الأموى

وبعد ، فمن شيم العلماء وكرام النقاد ألا يلجأوا إلى التمويه والايهام عما ينقدون ويمحصون ، وإنما عملهم هو قرن الدعوة بالدليل ، ووضع الصحيح إزاء العليل ، وبذلك يُخدم العلم ، وتشكر الحقيقة مجليها . أما إذا لجأ الناقد إلى التعميم ، وعبارات التفخيم ، واعتذر عن الادلاء بالحجج والبينات بقصر الوقت وبكثرة السيئات ، فليس معنى هذا فى نظر الناس إلا الرغبة فى الهدم ، وعدم القدرة على البناء

(يتبع) حسن ابراهيم حسن

الكتب

المقتطف والمتنبي

المقتطف شيخ مجلاتنا ؛ كلُّهن أولادُه وأحفادُه . وهو كالجدّ الأكبر ، زمنٌ يجتمع ، وتاريخ يتراكم ، وانفرادٌ لا يُلحق ، وعلم يزيد على العلم بأنه فى الذات التى تفرض إجلالها فرضاً ، وتجب لها الحرمةُ وجوباً ، ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق

وهل الجد إلا أبوّة فيها أبوةٌ أخرى ، وهل هو إلا عرش حيّ درجاته الجيل تحت الجيل ، وهل هو إلا امتداد مسافاته العصر فوق العصر ؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم ، ويتقدم فى الزمن تقدم المخترعات ماضيةً بالنواميس إلى النواميس ، مقيدةً بالبدأ إلى الغاية . فلقد أُنشيء هذا المقتطف وما فى المجلات العربيـة ما يغنى عنه ، ثم أسعدت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الراقصات والمغنيات والممثلات . . . وبقى هو على وفائه لبدئه العلمى والسمو فيه والسمو به ، كأنما أُخذ عليه فى العلم والأدب ميثاقٌ كميثاق النبيين فى الدين والفضيلة ؛ فبين يديه الواجبُ لا الفرض ، وهمُّه الابداعُ بقُوى العقل لا الاحتيال بها ، وهدَفُه الحقيقة الثابتة فى الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ، وطريقه فى كل ذلك طريق الفيلسوف من هدوء نفسه لا من أحوال الدهر ، فهو ماضٍ على اليقين ، نافذ إلى الثقة ، متنقل فى منزلة منزلة من يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفرده للمتنبي . ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر المظم ، فما أحسبُ إلا أن روح الشاعر المظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف

ولست أغلو إذا قلت إن هـذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى ، فاعتزلت المشهورين من الـكتاب والأدباء ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذى أخرجه المقتطف فى زهاء ستين ومائة صفحة تدلُّه فى تفكيره ، وتوحى اليه فى استنباطه ، وتنبهه فى شعوره ، وتبصره أشياء كانت خافية وكان الصدق فيها ، ليردّ بها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الـكذب ، ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التى جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الحيـاة التى جاءت من نفوس أعدائها وحسادها

ولقد كان أول ما خطر لى بعد أن مضيت فى قراءة هـذا العدد — أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه إنه كَتَبَ تاريخ المتنبي ولم ينقله ؛ ثم لم أكد أمعن فى القراءة حتى خيل إلىّ أنه قد وضع لشعر المتنبي بعد تفسير الشرّاح المتقدمين والمتأخرين تفسيرا جديداً من المتنبي نفسه ؛ وما الـكلمة الجديدة فى تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الـكلمة التى نشرها المقتطف اليوم

إن هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهى ، فان الاعجاب بشعره لا ينتهى ولا يفرغ . وقد كان نفسـا عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت . فكأنما جعلها بذلك زمنا يمتد فى الزمن

وكان الرجل مطوياً على سر ألقى الغموض فيه من أول تاريخه ، وهو سر نفسه ، وسر شعره ، وسر قوته ؛ وبهذا السر كان المتنبي كالملك المغصوب الذى يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً ، فهو يتقى السيف بالحذر والتلفف والغموض ، ويطلب التاج بالـكتمان والحيلة والأمل

ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف فجاء بحثه يتحدّر فى نسق عجيب متسلسلا بالتاريخ كأنه ولادة ونموٌ وشباب ، وعرض بين ذلك شعر أبى الطيب عرضاً خيل إلىّ أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها . وبذلك انكشف السر الذى كان مادة التهويل فى ذلك الشعر الفخم إذ كانت فى واعية الرجل دولة أضخم دولة عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعرا أضخم شعر ، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة فى صورة من صور الامكان اللغوى

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سرُّ حبه ، فقال : إنه كان يحب خولة أخت الأمير سيف الدولة ، وكتب فى ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ، وكأنها لم ترضه فقال إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل فى خمسين وجهاً من المقتطف . وهـذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس من أحد فى الدنيا المكتوبة (أى التاريخ) يعلم هذا السر أو يظنه . والأدلة التى جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الاثبات والنفى ؛ ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا إثباتاً فى خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد اليه غيره ، فهذا حسبك اعجاباً بذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعدّ

ولعمرى لو كنت أنا فى مكان المتنبي من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد صدق ... فهناك موضع لابد أن يبحث فيه القلب الشاعر الذى وضعت فى الدنيا حكمتها ، وطوت فيه القوة سرها ، وبث فيه الجمال وحيه ، وأصغر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك ، ولكن الحبيبة أكبر منها كلها . . . . ؟

مصطفى صادق الرافعي

4 me Année, No. 133.

Lundi-20-1-1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ١٣٣ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٥ شوال سنة ١٣٥٤ — ٢٠ يناير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

مجمع اللغة العربية الملكى

يفتتح دورته الثالثة

في الضحى الأكبر من يوم الخميس الماضي افتتح مجمع اللغة العربية الملكى دورته الثالثة في حفل متواضع من رجال العلم والأدب ؛ فألقى الأستاذ الرئيس خطبة مُجمَّعة ، أجمل فيها ماعالج المجمع من المسائل اللغوية في دورته الثانية ، وأشار إلى وفوده عن المجمع العربى إلى عيد المجمع الفرنسى ، وإلقائه أول الناس خطاب التهنئة « باسم أحدث المجامع نشأة في أقدم بلاد العالم حضارة » ؛ ونوه بهدية الأستاذ فيشر إلى المجمع وهى جزازات جمع فيها جمهرة الموثوق بصحته من متداول الكلمات في القرن الأخير للجاهلية ، والقرون الثلاثة الأولى في الاسلام ، واستهلك في جمعها وترتيبها نيفا وأربعين عاماً ؛ ثم ألم إلمامة يسيرة ببعض ما وُجه من نقد إلى خطة المجمع

وقام من بعده الأستاذ حسين والى فألقى محاضرة سابغة سائغة أدلى فيها بحجج المجمع في القرارات السبعة التى أصدرها في عامه الثانى . ثم نهض على أثره الأستاذ محمد كرد على بك فدافع عن حداثة المجمع وأشاد بفضل جلالة المليك . وجاء دور الأستاذ جب فعقَّب على بعض ما قال الخطباء بكلمة بارعة أداها عن ظهر قلبه .

ثم ختم الأستاذ الجارم هـذا الحفل الوقور بقصيدة من حر الـكلام سلسل فيها أطوار العرب وأدوار اللغـة ، وأهاب (بعصبة الخير) أن ينشطوا لتجديد الفصحى :

فالدهر يسرع والأيام معجلة ونحن لم ندر غير الوخد والخبب

* * *

كانت حفلة افتتاح هذه الدورة نفثة من روح المجمع ، شاع فيها سره ، وسطع فى فورتها ريحه ، فكان اهتمامها برضى القاموس أبلغ من اهتمامها بذوق السامع ؛ وكأنى رأيت يومئذ فى بعض العيون بوادر الدمع رأفة بأولئك السيدات اللائى تظاهرن بالاصغاء إلى حقائق اللغـة ودقائق الصرف وهن من الضجر على حال لا تسر ! وهذه الحال نفسها ملحوظة بين المجمع والمجتمع فى وضع الـكلمات للشؤون العامة ، فان من الأعضاء من يسرف فى بعث الحوشى المات ، أو الغريب المتنافر ، ليحل من لغة الجمهور محل الدخيل الذى لا يثقل فى الآذان ولا يعسر على اللسان ولا ينبو على أوزان اللغة ، فيضع الجماز للترام ، والنهبوع للبخت ، والعنقاش للبائع الجوال ، والـكشّـاءة للكماشة ، والضريم للبنزين ، والطربال للعمارة ! وليس من شك فى أن هذه الكلمات المرغوب عنها وأمثالها مما يحاول المجمع طرده من الاستعمال أدق فى الدلالة ، وأقوى على الحياة ، وأسهل على الطبع ، من تلك الألفاظ الجافية التى نقضها الدهر عن وجه البيان العربى لأسباب طبيعية منذ عمره الأول ... ما للترام والبخت والفِـلْم والبنزين والـكنبة مادامت سائغة فى المنطق جارية على سنن الفصيح واردة على أسلوب المعرّب ؟ إن الشاكوش أدل من الخَـصين ، والريال أجمل من الرقين ، والفسيخ أدنى من القريب ، والبشكير أولى من النشير ، والمندالة أخف من الميطدة . لقد افتن الظرفاء طول العام فى الاضحاك مما أشبه الأرزيز والجماز حتى استراب الناس فى ذوق المجمع

والواقع أن الصفة الغالبة على أكثر الأعضاء هى الضلاعة القاموسية المحافظة ، فهم يريدون أن يتجاهلوا الاصطلاح والعرف ، ويتناسوا الـكتّـاب والعامة ، ويفرضوا على الأذواق الفنانة كلمات لا تقطر من جودها على قلم ، وعلى الطبقات العاملة لغات لا ينطبق مدلولها على عمل

إن اللغة العربية لابست مرافق العصر الحديث قبل أن ينشأ المجمع بقرن ونيف ، فاستحدثت الضرورة فى مدى هـذا الزمن ألفاظاً بالاشتقاق والتعريب والترجمة ، ربطت اللغة بأسباب المدنية ، ووصلت الأدب بمعانى الحياة . ووظيفة المجامع أن تقر ما وُجـد وتنشىء ما لم يوجد ؛ والاستعمال الذى لا يقف ولا ينتهى ، يتمم القاموس الذى انتهى ووقف . أما اطلاق العربى المهجور على المعرّب المشهور مخافة أن تطغى العجمة « ويصبح الفصيح بين لغتنا أقل من القلة ، بحيث لا يصح لنا وقتئذ أن نزعم أننا نتحدث بلسان العرب » كما قال الأستاذ الرئيس ، فلا يستقيم فى منطق اللغات ، ولا يجرى فى نظام الطبيعة ؛ لأن عربية القاموس لا تكاد تجاوز منتصف القرن الثانى ، وما اقتبسته اللغة بعد ذلك من حضارة الفرس ومدنية الروم أوشك أن يؤلف قاموساً آخر ، ومع ذلك لم تستعجم الفصحى ولم يَنْبهم بيان العرب ! ويخيل إلى أن الاستاذ جب كان يرد على معالى الرئيس حين قال فى خطبته : « ويل للغةٍ مصادرها معجماتها دون الشعور الحى للناطقين بها ! وويل كذلك للغةٍ ينطق الناطقون بها ويكتب الـكاتبون فيها طوع أهوائهم ويضربون بمعجماتها عرض الحائط ! »

* * *

إن ما أخذناه وأخـذه الناس على ما وضع أعضاء المجمع من الألفاظ إنما ينحصر فى شؤون الحياة العامة ؛ أما ما وضعوه أو أقروه لعلوم الأحياء والطب فلا وجه فيه لآخذ ، ولا سبيل عليه لمنكر ، لأنه يتعلق بالعلم ويتصل بالتعليم ويجرى بين الخاصة ، ومن السهل أن تراض عليـه الألسنة فى المدارس ، وتؤخذ به الأقلام فى المعاجم ، وتُجمع اليه الناس فى الـكتب ... كذلك كانت قراراته الأربعة التى تعلقت بالتوسع فى طرق القياس صادرة عن رأى حصيف ودرس ناضج . وسيكون لها كما رجا الرئيس أثرها البعيد فى التيسير على أهل العلم ومن يعالجون الصناعة ويزاولون الترجمة

إن فى إقرار المجمع عرض ما يضعه من الـكلم على الجمهور قبولا سابقاً للنقد النزيه والقول الأسد ؛ وإن فيما كتب الكاتبون عن خطة المجمع ورَزانة يجب أن يُرَوِّىء فيها طويلا قبل أن يمضى على نيته ؛ وإن فيما تبيناه من مضامين الخطب فى الاحتفال دليلا على استصغار المجمع لما عمل واستعظامه لما سيعمل ! والشعور بالنقص مبدأ الـكمال ، والنفور من العجز سبيل القدرة ، والركون إلى الأمل الحافز دليل الفوز ! أيد الله المجاهدين الصادقين بروح من عنده ، وسدد خطى العاملين المخلصين فى الطريق القاصد

احمد حسن الزيات

سلطة الآباء

للأستاذ أحمد أمين

رحم الله زماناً كان الأب في بيته الآمر الناهي ، والحاكم المطلق ، والملك غير المتوج ؛ ينادي فيتسابق من في البيت إلى ندائه ، ويشير فاشارته أمر ، وطاعته غنم ؛ تحدثه الزوجة في خفر وحياء ، ويحدثه الابن في اكبار واجلال ؛ من سوء الأدب أن يرفع اليه بصره ، أو يرد عليه قوله ، أو يراجعه في رأي ، أو يجادله في أمر . أما البنت ، فاذا حدثها لف الحياء رأسها ، وغض الخجل طرفها ؛ قليلة الكلام ، متحفظة الضحك ، خافضة الصوت ؛ تتوهم أنها أخطأت في التافه من الأمر فيندى جبينها ، ويصبغ الخجل وجهها ، وتنكس بصرها ؛ وإذا جاء حديث الزوج والزواج فالى أمها الحديث لا إلى أبيها ، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح ؛ والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض ، وفيما يحدث وما لا يحدث

في جملة الأمر أن البيت ينقسم إلى قسمين : حاكم وهو الأب ، ومحكوم عليه وهو سائر الأسرة ؛ منه الأمر ومنهم الطاعة ، له السيادة ولهم الخضوع ، يرسم الخطط وهم ينفذونها ، يجلب الرزق ويتولى الانفاق وهم يسيرون على ما رسم ؛ وويل لمن تبرم أو عارض ! فان أحس الابن حاجة ملحة إلى مال ، أو شعر بضرورة ملجئة إلى أكثر مما أخذ ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب ؛ إنما يحاور ويداور ، ويلمح ويرمز ؛ فان أعياه الأمر وسّط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح ، وقل أن تنجح

وبجانب سلطة الأب الدنيوية كانت سلطته الدينية . فهو يوقظهم قبل الشمس ليصلوا الصبح أداء لا قضاء ، ويسائلهم في أكثر الأوقات عن صلاتهم كيف صلوا ، وعن وضوئهم كيف توضأوا ؛ يعلم الجاهل ويؤم المتعلم ، ويجمعهم حوله من آن لآن يصلي بهم ، ويذكرهم ويعظهم ، ويقص عليهم قصص الأنبياء ، وحكايات الأولياء والصلحاء — وإن أنس لا أنس جمال المواسم الدينية — كيوم نصف شعبان ، إذ تشعر في البيت من الصباح بحركة غير عادية : هذا ينظف ، وهذه تمد الأكل الحافل ، ويتهيأ الجميع قبل الغروب استعداداً لصلاة المغرب ، قد لبس النساء البياض ، وتقنعن بالشاش الأبيض ، وإذا رب البيت يؤم جميع من في البيت ، ثم يخرج دعاء نصف شعبان من جيبه ويتلوه عليهم ، يقول جملة فيرددونها ، ويبتهل معهم إلى الله أن يسعده ويسعدهم ، ويصلحه ويصلحهم ، ويبارك له في ماله وفي نفسه وفي ذريته ، ثم يأخذون حظهم لبطونهم ، كما أخذوا حظهم لأرواحهم ، وشملتهم السعادة وعمهم اللطف والهناءة

* * *

لقد ودعنا ذاك الزمان بخيره وشره ، وحلوه ومره ، واستقبلنا زماناً صار فيه الأبناء آباء ، وأرادوا أن تكون لهم السلطة كآبائهم فأبى عليهم الزمان

قالت الزوجة لزوجها : الناس أحرار ، وأنا انسان وأنت انسان ، فان اعتززت بالكسب اعتززت أنا بالانفاق ، وان اعتززت بالرجولة اعتززت بالأنوثة ، وان اعتززت بأي شيء فأنا اعتز بمثله وبخير منه ؛ فأنا وأنت شريكان ، لا سيد وأمة ، ولا مالك ومملوك ؛ لي كل الحقوق التي لك ، وقد يكون عليّ بعض الواجبات التي عليك ، فان سفرتَ سفرتُ ، وإن غشيت دور الملاهي غشيتها ؛ عليك أن تحصل المال وعليّ الانفاق ، ولك السلطان التام في اختيار طرق التحصيل ، ولي الخيار التام في وجوه التبديد . أنت للبيت والبيت لي . إن كان لك أم فقد شبعتْ سلطة في الماضي أيام كانت زوجة ، فلا حق لها أن تنعم بسلطانها وسلطان غيرها ، فليس لها الحق إلا أن تأكل ، كما ليس لك الحق في حبها ؛ فالحب كله للزوجة ، إنما لك أن ترحمها ؛ والدين لا شأن لك فيه بتاتاً فهو علاقة بين العبد وربه ، وكل انسان حر أن يحدد هذه العلاقة كما يوحي إليه قلبه ؛ فان شئت أنت أن تتدين فتدين ، على شرط ألا تقلب نظام البيت ، وتقلق راحتي وراحة الخدم ، بأعداد ماء ساخن في الشتاء وما إلى ذلك

ورأى الزوج أن الأحكام قاسية ، والشروط فادحة ، وهام

يبحث بين المتمدنات عمن يرضى به زوجاً على الشروط القديمة فأعياه البحث

وأخيراً نزل على حكم القضاء، وأسلم نفسه لسلطان الزمان وقدّم الطاعة للزوجة، بعد أن كانت هي تقدم الطاعة له؛ ولا يزال في دار الآثار في المحاكم الشرعية قضايا اسمها قضايا الطاعة، يحكم فيها للأزواج على الزوجات؛ حفظ شكلها، وبطل روحها؛ ولو كانت المحاكم محاكم عصرية لحكمت بالطاعة على الزوج لزوجته، وحكمت بالنفقة على الزوجة لزوجها

وتم الزواج، وفرحت الزوجة بالظفر فغالت في المطالب، وابتدعت كل يوم مطلباً جديداً، وأرادت أن تنتقم لأمهاتها من آبائه في شخصه، فطالما أطَعْنَ، وطالما خضعن! فليطع هو دائماً وليخضع دائماً، جزاء وفاقاً على ما جنى آبؤه وأجداده

قالت: إن رقصتَ رقصتُ، فذلك حقك وحق؛ قال نعم. قالت بل إن لم ترقص رقصت لأنك ان أضعت حقك لم أضع حق؛ وان خالتَ خالتُ، فالجزاء من جنس العمل، بل إن لم تخالل ربما خالت، لأن حياة الزوجية البحت قد يعتريها الركود والسأم والملل. فصرخ ولف الغضب وجهه، وحاول أن ينكل بها فتراجعت، وسحبت مطلبها الأخير ورأت الحكمة أن تتريث بعض الشيء حتى يبلع ريقه من أثر الصدمة الأولى، ويستعد للصدمة الثانية، فان لم يسعفها الزمان أوصت بناتها بشروطها الجديدة

قالت وسيكون من أول ما أوصى به ابنتي أن تتخذ قياس خطيبها، ثم يكون من أول جهازها أن تفصل له برذعة ولجاماً على قدره، فتضع البرذعة عليه وتركبه إذا شاءت، وتشكمه باللجام إذا حاول أن يتحرك يميناً أو شمالاً على غير رغبتها

***

وشاء الله أن يرزقا بنين وبنات

وقد رأوا أن الأم لا تجل الأب فلم يجلوه، ولم تعره كبير التفات فلم يعيروه؛ ورأوها تبذر في مال الأب فبذروا، ورأوها حرة التصرف فتحرروا، ورأوها تخرج من البيت من غير إذن الأب فخرجوا خروجها، وتعود متى شاءت ففعلوا فعلها، ورأوها لا تتدين فلم يتدينوا؛ ورأوها تطالب الأب ألا يفتح رسائلها فطالبوا، ورأوها تتكلم في المسائل الدقيقة أمام أبنائها وبناتها في صراحة فتفتحت شهواتهم، وتحركت رغباتهم، وغذتها تخيلاتهم

وقال الأبناء لأبيهم: إنا مخلوقون لزمان غير زمانك فاخضع لحكم الزمان؛ وقد نشأنا في زمن حرية في الآراء، وحرية في الأعمال، وحرية في التصرف، لا كما نشأتَ في جو من الطاعة والقيد والأسر والتقاليد، فمحال أن يسع ثيابك الضيق أبداننا، وتقاليدك المتيقة البالية نفوسنا، فان حاولت ذلك فانما تحاول ادخال الثور في قارورة، أو لفّ القصر الكبير بمنديل صغير! قال نعم. قالوا وأنت الذي سمح لنا باديءْ ذي بدء أن نغشى دور السينما والتمثيل، وأن نسمع الأغاني البلدية، ونشاهد المراقص الأوربية، فاذا أقررت المقدمة فلا تهرب من النتيجة. وأنت الذي عودنا ألا نضع للبيت «ميزانية»، فأنت تعطى «ماهينك» لأمنا تنفق من غير حساب، فان انتهت في نصف الشهر طلبت منك أن تقترض فاقترضت، وأن تشترى ما لا حاجة لنا به فاشتريت، وأن تقدم الكمالي على الضروري فأطعت؛ فليس لك أن تطالبنا بالاقتصاد في الجدول الصغير، والنهرُ الكبير ليس لهضابط. وخُرقٌ أن تحاول أن تضع ميزانية لمصلحة، وميزانيةُ الدولة مبعثرة! قال نعم. قالوا وقد أضعت سيادتك على أمنا فلمَ تفرض سيادتك علينا؟ ورضيت بالخضوع لها فلمَ تأباه علينا، وهي أم الحاضر وأنت أبو الماضي ونحن رجال المستقبل؟ قال نعم. قالوا وأنت نشأت في زمن خضوع تام: خضعت لأبيك في المهد صبيا، وخضعت للفقيه في المكتب، وللمدرس في المدرسة؛ فاذا قلت برأسك هكذا، قال الأستاذ بعصاه هكذا، فنكست رأسك، وغضضت بصرك، وأسعفتك عينك بالبكاء، ولم يسعفك لسانك بالقول؛ فلما صرت «موظفاً» وقفت من رئيسك موقفك من أبيك وأستاذك، تنفذ دائماً وتطيع دائماً — ولم يجر على ذهنك يوماً تفكير في استقلال، ولا على لسانك نداء بحرية؛ أما نحن فربيتنا في بيتنا: حررتنا على أساتذتنا، فحملتك كرهاً على تملقنا؛ وناديتنا بالحرية فتبعتمونا في شيء من الرياء،

تظهرون الطاعة لرؤسائكم وتبطنون الرضا عن حركاتنا ، وتريدون أن تجمعوا بين الحرص على ماهيتكم والحرص على وطنيتكم المكبوتة . قال نعم . قالوا : فلما قمناك وقدنا رجالنا فى السياسة فانتقدكم جيعاً فى كل شىء : فى البيت وفى المال وفى العلم وفى رسم الخطط : ولنقلب الوضع فنكون قادة وتكونوا جنوداً وإلا لم نرض عنكم جنوداً ولا قادة

وقالت البنات لأبيهن :

يا أبانا الذى ليس فى السماء ! رقصت أمنا فرقصنا ، وشربت أمنا فشربنا ، وشربت سراً فلتسمح لنا بحكم تقدم الزمان أن نشرب جهراً ، ورأينا فى روايات السينما والتمثيل حبا فأحببنا ، ورأينا عريا على الشواطئ فتعرينا ، وتزوجت أمنا باذن أبيها فلنتزوج نحن باذننا . قال نعم . قلن وقد أوصتنا أمنا أن نركب الزوج ، ولكننا أمام مشكلة يشغلنا حلها . فانا نرى شبان اليوم - كاخوتنا - متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك ، فارادتهم قوية كارادتنا ، وهم يحبون السلطة حبنا ؛ فهم أحرار ونحن أحرار ، وهم مستبدون ونحن مستبدات ، فكيف نتفق ؟ هل يمكن أن يبقى البيت بعدة استبدادات ؟ ولكن لا بأس يا أبانا ! هل البيت ضرورة من ضرورات الحياة ؟ أوليس نظام الأسرة نظاما عتيقاً من آثار القرون الوسطى ؟ قال نعم . قلن على كل حال فيصح أن يجرب جيل النساء الجديد مع جيل الرجال الجديد ، فان وقع ما خشينا عشنا أحرارا وعاشوا أحرارا ، وطالبنا بتسهيل الطلاق وبهدم المحاكم الشرعية على رؤوس أصحابها ، وتعاقدنا تعاقدا مدنياً . قال الأب : وماذا تفعلن بما ترزقن من أبناء وبنات ؟ قلن لك الله يا أبانا ! إنك لا تزال تفكر بعقل جدنا وجدتنا ! لقد كنت أنت وأبوك وجدك تحملون أنفسكم عناء كبيرا فى التفكير فى الأولاد ، وتضحون بأنفسكم وأموالكم فى سبيلهم ، وتعيشون لهم لا لكم . أما عقليتنا نحن أهل الجيل الحاضر فأن نعيش لأنفسنا لا لغيرنا . لقد ضحك عليكم الدين والأخلاق ففهمتم أن الواجب كل شىء ، وكشفنا اللعبة ففهمنا أن اللذة كل شىء ، فنحن نمنع النسل ، فاذا جاء قسرا فليعش كما يشاء القدر ؛ ولنقدم حظنا على حظه ، وسعادتنا على سعادته ، ولا نفكر فيه طويلا ، ولا يتدخل فى شؤوننا كثيراً ولا قليلا

قال الأب : وأمر المال كيف يدبر ؟ كيف تعشن أنتن وأولادكن إذا كان طلاق وكان فراق ؟ قلن هذا ظل آخر ظريف من ظلال تفكيرك ، دع هذا يا أبانا والبركة أخيراً فيك

* * *

أما بعد فقد خلا الأب يوماً الى نفسه ، وأجال النظر فى يومه وأمسه ، فبكى على أطلال سلطته المنهارة ، وعزته الزائلة ، ورأى أنهم خدعوه بنظرياتهم الحديثة ، وتعاليمهم الجديدة — قال : لقد قالوا إن زمان الاستبداد قد فات ومات ، فلا استبداد فى الحكومة ، ولا استبداد فى المدرسة ، فيجب ألا يكون استبداد فى البيت ؛ إنما هناك ديمقراطية فى كل شىء ، فيجب أن يكون البيت برلماناً صغيراً يسمع فيه الأب رأى ابنه ورأى بنته ورأى زوجه ، وتؤخذ الأصوات بالأغلبية فى العمل وفى المال وفى كل شىء ؛ وقالوا تنازل عن سلطتك طوعاً ، وإلا تنازلت عنها كرها ، وقالوا إن هذا أسعد للبيت ، وأبعث للراحة والطمأنينة ، وقالوا إن هذا يخفف العبء عنك ، فنحن نقسم البيت إلى مناطق نفوذ ، فمنطقة نفوذ للمرأة ، وأخرى للرجل ، وثالثة للأولاد ، وكلهم يتعاونون فى الرأى ويتبادلون المشورة . سمعت وأطعت فماذا رأيت ؟ رأيت كل انسان فى البيت له منطقة نفوذ إلا إياى ، ولم أر البيت برلمانا ، بل رأيته حماما بلا ماء ، وسوقا بلا نظام ، إن حصلت على مال أرادته المرأة فستانا ، وأرادته البنت بيانو ، وأراده الابن سيارة ؛ ولا تسل عما يحدث بعد ذلك من نزاع وخصام . وإن أردنا راحة فى الصيف أردت رأس البر لأستريح ، وأرادت الأم والبنت الاسكندرية قريبا من ستانلى باى ، وأراد الابن أوربا ؛ وإن ، وإن ، وإن ، إلى ما لا يحصى ، ولا يمكن أن يستقصى ؛ وأخيراً يتفقون على كل شىء إلا على رأيى . فوالله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما تزوجت ، فان كان ولابد ففلاحة صعيدية ، لم تسمع يوما بمدنية ، ولم تركب يوما قطارا الى القاهرة والاسكندرية ، لها يد صناع فى عمل « الأقراص » ، ورأس صناع فى حمل « البلاص »

أيتها الزوجة ! ويا أيها الأبناء والبنات ! ارحموا عزيز قوم ذل !

أحمد أمين

٣ - المشكلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما البقية من هذه الآراء التى تلقيتها فكل أصحابها متوافقون على مثل الرأى الواحد من وجوب إمساك الزوجة والاقبال عليها ، وإرسال « تلك » والانصراف عنها ، وأن يكون للرجل فى ذلك عزمٌ لا يتقلقل ومضاء لا ينثنى ، وأن يصبر للنفرة حتى يستأنس منها فانها ستتحول ، ويجعل الأناةَ بازاء الضجر فانها تصلحه ، والمروءةَ بازاء الكره فانها تحمله ، وليترك الأيام تعمل عملها فانه الآن يعترضُ هذا العمل ويعطله ، وإن الأيام إذا عملت فستغير وتبدّل ، ولا يُستقَلُّ القليلُ تكون الأيامُ معه ولا يُستكثر الكثيرُ تكون الأيامُ عليه

والعديدُ الأكبر ممن كتبوا إلىّ يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيانَ الذى وضعناه على لسانه فى المقال الأول ويحاسبونه به ويقيمون منه الحجةَ عليه ، ويقولون له أنت اعترفت ، وأنت أنكرت ، وأنت رددت على نفسك ، وأنت نصبتَ الميزان فكيف لا تقبل الوزن به ؟ وقد غفلوا عن أن المقال من كلامنا نحن وأن ذلك أسلوبٌ من القول أدرناه ونحلناه ذلك الشابّ ليكون فيه الاعتراضُ وجوابُه ، والخطأ والرد عليه ، ولنُظهر به الرجلَ كالأبله فى حيرته ومشكلته تنفيرا لغيره عن مثل موقفه ، ثم لنحرك به العللَ الباطنةَ فى نفسه هو فنصرفه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأى شيئاً فشيئاً ، حتى إذا قرأ قصةَ نفسه قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل ، وتلمح ما خفى عليه فيما ظهر له ، واهتدى من التقييد إلى سبيل الاطلاق ، وعرف كيف يخلّص بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاجَ الماء والخمر . وبذلك الأسلوب جاءت المشكلة معقدةً منحلّةً فى لسان صاحبها ، وبقى أن يُدفع صاحبها بكلام آخر إلى موضع الرأى

وكثير من الكتاب لم يزيدوا على أن نبهوا الرجل إلى حق زوجته ثم يدعون الله أن يرزقه عقلاً . . . وقد أصاب هؤلاء أحسن التوفيق فيما ألهموا من هذه الدعوة ، فانما جاءت المشكلة من أن الرجل قد فقد التمييز وجُنّ بجنونين : أحدهما فى الداخل من عقله والثانى فى الخارج منه ، فأصبح لا يبالى الاثمَ والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الحظوةَ والسرور عند الأخرى ؛ فتعدَّى طوره مع المرأتين جميعاً ، وظلم الزوجة بأن استلب حقها فيه ، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية

وقد تمنى أحد القراء من فلسطين [1] أن يرزقه الله مثل هذه الزوجة المكروهة كراهة حب ، ويضعَه موضعَ صاحب المشكلة ليثبت أنه رجل يحكم الكره ويصرّفه على ما يشاء ولا يرضى أن يحكمه الحب وإن كان هو الحب . وهذا رأى حصيف جيد فان العاشق الذى يتلعّب الحب به ويصده عن زوجته لا يكون رجلا صحيح الرجولة ، بل هو أسخف الأمثلة فى الأزواج ، بل هو مجرم أخلاقى ينصب لزوجته من نفسه مثالَ العاهر الفاسق ليدفعها إلى الدعارة والفسق من حيث يدرى أو لا يدرى ؛ بل هو غبىٌّ إذ لا يعرف أن انفراد زوجته وتراجُمَها إلى نفسها الحزينة ينشىء فى نفسها الحنين إلى رجل آخر ؛ بل هو مغفل إذ لا يدرك أن شريعة السن بالسن والعين بالعين ، هى بنفسها عند المرأة شريعة الرجل بالرجل . . . . . .

والمرأة التى تجد من زوجها الكراهيةَ لا تعرفها أنها الكراهةُ إلا أوّلَ أول ؛ ثم تنظر فاذا الكراهة هى احتقارُها واهانتها فى أخص خصائصها النسوية ، ثم تنظر فاذا هى إثارة كبريائها وتحديها ، ثم تنظر فاذا هى دفعُ غريزتها أن تعمل على اثبات أنها جديرة بالحب ، وأنها قادرة على النقمة والمجازاة ، ثم تنظر فاذا برهان كل ذلك لا يجىء من عقل ولا منطق ولا فضيلة ، وانما يأتى من رجل ..... رجل يحقق لها هى أن زوجها مغفل وأنها جديرة بالحب

* * *

وكأن هذا المعنى هو الذى أشارت اليه الأديبة ف . ز . وإن كانت لم تبسطه ، فقد قالت : وإن صاحب هذه المشكلة غبى ، ولا يكون إلا رجلا مريض النفس مريض الخُلق ، وما رأيت مثله رجلا أبعد من الرجل ... ومثلُ هذا هو فى نفسه مشكلة

(١) هذه الآراء التى سننقلها قد تصرفنا فى جميعها بالعبارة ، ولكنا لم نخرج عما يرمى اليه صاحب الرأى وما أقام رأيه عليه

فكيف تُحل مشكلته ؟ إنه من ناحية زوجته مغفل لا وصف له عندها إلا هذا ؛ ومن جهة حبيبته خائن والخيانة أول أوصافه عندها .

وهذا الزوج يسمم الآن أخلاق زوجته ويفسد طباعها ، وينشئ لها قصةً فى أولها غباوته وإثمه ، وسيتركها تتمّ الرواية فلا يعلم إلا الله ما يكون آخرها . وبمثل هذا الرجل أصبح المتعلمات يعتقدن أن أكثر الشبان إن لم يكونوا جميعاً - هم كاذبون فى ادعاء الحب ، فليس منهم إلا الغواية ؛ أو هم محبون يكذب الأمل بهم على النساء ، فليس منهم إلا الخيبة

قالت : وخير ما تفعله صاحبةُ المشكلة أن تصنع ما صنعته أخرى لها مثلُ قصتها ، فهذه حين علمت بزواج صاحبها قذفت به من طريق آمالها الى الطريق الذى جاء منه ، وأنزلته من درجة أنه كلُّ الناس إلى منزلة أنه ككل الناس ، ونبهت حزمَها وعزيمتها وكبرياءها فرأته بعد ذلك أهون على نفسها من أن يكون سبباً لشقاء أو حسرة أو هم ، وابتعدت بفضائلها عن طريق الحب الذى تعرف أنه لا يستقيم إلا لزوجة وزوجها ، فاذا مشت فيه امرأة إلى غير زواج ، انحرف بها من هنا ، واعوجّ لها من هنا ، فلم ينته بها فى النهاية إلا أن تعود إلى نفسها وعليها غبارُه ، وما غبار هذا الطريق إلا سواد وجه المرأة .....

وقد جهَد الرجل بصاحبته أن تتخذه صديقاً ، فأبت أن تتقبل منه برهان خيبتها . . . وأظهرت له جفوة فيها احتقار ، وأعلمته أن نكث العهد لا يخرج منه عهده ، وأن الصداقة إذا بدأت من آخر الحب تغير اسمها وروحها ومعناها ، فاما أن تكون حينئذ أسقط ما فى الحب ، أو أكذب ما فى الصداقة

ثم قالت الأديبة : وهى كانت تحبه ، بل كانت مستهامة به ، غير أنها كانت أيضاً طاهرة القلب ، لا تريد فى الحبيب رجلا هو رجل الحيلة عليها فتُخدع به ، ولا رجل العار فتسبّ به ، وفى طهارة المرأة جزاء نفسها من قوة الثقة والاطمئنان وحسن التمكن ؛ وهذا القلب الطاهر إذا فقد الحب لم يفقد الطمأنينة ، كالتاجر الحاذق إن خسر الربح لم يفلس ، لأن مهارته من بعض خصائصها القدرة على الاحتمال والصبرُ للمجاهدة

قالت : فعلى صاحبة المشكلة التى عرفت كيف تحب وتجلّ أن تعرف الآن كيف تحتقر وتزدرى

* * *

وللأديبة ف . ع رأى جزْلٌ مسدَّد ؛ قالت : إنها هى قد كانت يوما بالموضع الذى فيه صاحبة المشكلة ، فلما وقعت الواقعة أنِفتْ أن تكون لصة قلوب ، وقالت فى نفسها : إذا لم يُقدر لى ، فان الله هو الذى أراد ، وإنى أستحى من الله أن أحاربه فى هذه الزوجة المسكينة ، ولئن كنت قادرةً على الفوز إن انتصارى عليها عند حبيبى هو انتصارها على عند ربى ، فلأخسر هذا الحب لأرابحَ الله برأس مال عزيز خسرته من أجله ، ولأبْقِ على أخلاق الرجل ليبقى رجلاً لامرأته فما يسرنى أن أنال الدنيا كلها وأهدم بيتاً على قلب ، ولا معنى لحب سيكون فيه الاثم بل سيكون ألأم اللؤم .

قالت : وعلمتُ أن الله تعالى قد جعلنى أنا السعادة والشقاء فى هذا الوضع ليرى كيف أصنع ، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حكمتى أو حمقى ، وصحّ عندى أن حسن المداخلة فى هذه المشكلة هو الحل الحقيقى للمشكلة

قالت : فتغيرت لصاحبي تغيراً صناعياً ، وكانت نيتى له هى أكبر أعوانى عليه ، فما لبث هذا الانقلابُ أن صار طبيعياً بعد قليل . وكنت أستمد من قلب امرأته إذا اختاننى الضعف أو نالنى الجزع فأشعر أن لى قوة قلبين . وزدت على ذلك النصح لصاحبي نصحاً مُيسَّراً قائماً على الاقناع وإثارة النَّخوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل ، وتوفقتُ فى التوصل إلى ضميره لأثبت له أن عزة الوفاء لا تكون بالخيانة ، وبينت له أنه إذا طلّق زوجته من أجلى فما يصنع أكثر من أن يقيم البرهان على أنه لا يصلح لى زوجاً . ثم دَلَلْتهُ برفق على أن خير مايصنع وخير ما هو صانع لارضائى أن يقلدنى فى الايثار وكرم النفس ويحتذينى فى الخير والفضيلة ، وأن يعتقد أن دموع المظلومين هى فى أعينهم دموع ، ولكنها فى يد الله صواعق يضرب بها الظالم

قالت : وبهذا وبعد هذا انقلب حبه لى إكباراً وإعظاما وسما فوق أن يكون حباً كالحب ؛ وصار يجدنى فى ذات نفسه وفى ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءا أو حاول أن يغض منها فى نفسه . واعتاد أن يكرمها فأكرمها ، وصلحت لها نيته فاتصل بينهما

السبب ، وكبرت هذه النيةُ الطيبة فصارت ودا ، وكبر هذا الود فعاد حباً ، وقامت حبانهما على الأساس الذى وضعته أنا بيدى ، أنا بيدى ... ...

أما أنا ... ؟

***

وكتب فاضل من حلوان : إن له صديقا ابتلى بمثل هـذه المشكلة فركب رأسه فما ردّه شىء . عمد الزواج بحبيبته ، وزُفّت اليها كأنه ملك يدخل إلى قصر خياله ، وكأن أهله يعذلونه ويلومونه ويُخلصون له النُّصح ويجتهدون فى أمره جهدهم ، إذ يرون بأعينهم مالا يرى بعينـه ، فـكان النصح ينتهى اليه فيظنه غشاً وتلبيساً ، وكان اللوم يبلغه فيراه ظلماً وتحاملاً ؛ وكان قلبه يترجم له كل كلمة فى حبيبته بمعنى منها هى لا من الحقائق ، إذ غلبت على عقله فبها يعقل ، وذهبت بقلبه فبها يحس ، واستبدت بإرادته فلها ينقاد ؛ وعادت خواطره وأفـكاره تدور عليها كالحواشى على العبارة المُغلقة فى كتاب ؛ واستقرّت له فيها قوة من الحب أمرها إذا أرادت شيئاً أن تقول له كن ...

ثم مضت الليلة بعد الليلة وجاء اليوم بعد اليوم والموج يأخذ من الساحل الذرّة بعد الذرة والساحل لا يشعر ، إلى أن تصرمت أشهر قليلة فلم تلبث الطبيعة التى ألفت الرواية وجعلتها قبل الزواج رواية الملك والملكة ، وقصة التاج والعرش ، وحديث الدنيا وملك الدنيا ـ لم تلبث أن انتقلت على فجأة فأدارت الرواية إلى فصل السخرية ومنظر التهكم ، وكشفت عن غرضها الخفى وحلت العقدة

قال : ففرغ قلبُ المرأة من الحب وظمئ إلى السُّكر والنشوة مرة أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة .... وبَرَدَ قلب الرجل وكان الشيطان الذى يتسعَّر فيه ناراً ، شيطاناً خبيثاً فتحول إلى لوح من الثلج له طول وعرض . . . .

وَجدَّت الحياة وهَزَل الشيطان ، فاستحمق الرجلُ نفسه أن يكون اختار هذه المرأة له زوجة ، واستجهلت المرأةُ عقلَها أن تكون قد رضيت هذا الرجل زوجاً ، وأنكرها إنكارا أوله الملالة ، وأنكرته إنكارا آخر أوله التبرُّم ؛ وعاد كلاهما من صاحبه كانسان يكلف إنساناً أن يخلق له الأمس الذى مضى

وضربت الحياةُ ضربةً أو ضربتين فاذا أَبنيَـةُ الخيال كلها هَدْمٌ هَدْم ، وإذا الطبيعة مؤلِّفةُ الرواية . . . . قد ختمت روايتهاوقوضت المسرح ، وإذا الأحلام مفسرة بالعكس ، فالحب تأويله البغض ، واللذة تفسيرها الألم ، و « البودرة » معناها الجير . . . . وتغير كل ما بينهما إلا الشيطان الذى بينهما ، فهو الذى زوَّج وهو بعينه الذى طلَّق . . . .

***

وكتب أديب من بغداد يقول : إنه كان فى هذا الموضع القَلِق موضع صاحب المشكلة ، وأن ذات قرباه التى سميت عليه كانت ملفَّفَة له فى حُجُب عِدَّة لا فى حجاب واحد ، وقد وصفتْ له باللغة . . . . وفى اللغة ما أحسنْ وما أجمل وما أظرف ، وكأنها ظبى يتلفت ، وكأنها غصن يميل ، وكأن سنَّةَ وجهها البدر !

قال : وشبهت له بكل أدوات التشبيه وجاءوا فى أوصافها بمذاهب الاستعارة والمجاز ، فأخذها قصيدة قبل أن يأخذها امرأة . وكان لم يرِ منها شيئاً وكانت لغة ذوى قرابته وقرابتها كلغة التجارة فى ألسنة حذّاق السماسرة ، ما بهم إلا تَنفيقُ السِّلعة ثم يُخَلون بين المشترى وحظّه

قال : فرسخ كلامهم فى قلبى ، فعقدت عليها ، ثم أعرست بها ونظرت فاذا هى ليست فى الكلمة الأولى ولا الأخيرة مما قالوا ولا فيما بينهما . . . . ثم تعرفت فاذا هى تكبرنى بخمس عشرة سنة . . . . . ورأيت اتضاع حالها عندى فأشفقت عليها ، وبت الليلة الأولى مقبلا على نفسى أؤامرها وأناجيها وأنظر فى أى موضع رأيى أنا . وتأملت القصـة فاذا امرأة بين رحمة الله ورحمتى ، فقلت إن أنا نزعت رحمتى عنها ليُوشكنَّ الله أن ينزع رحمته عنى ، وما بينى وبينه إلا أعمالى ؛ وقلت يانفسى : « إنها إن تكُ مِثقالَ حبةٍ من خَرْدَلٍ فتكنْ فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأتِ بها الله » . وإنما أتقدم إلى عفو الله بآثام وذنوب وغلطات ، فلأجعل هذه المرأةُ حسنتى عنده ، وما علىَّ من عمر سيمضى وتبقى منه هذه الحسنةُ خالدةً مخلّدة

إنها كانت حاجةَ النفس إلى المتاع فانقلبت حاجةً إلى الثواب ، وكانت شهوةً فرجعت حكمة ، وكنتُ أريد أن أبلغ

ما أحب فسأبلغ ما يجب . ثم قلت : اللهمّ إن هذه امرأة تنتظرها ألسنةُ الناس إما بالخير إذا أمسكتها ، وإما بالشر إذا طلقتها ، وقد احتمتْ بى ؛ اللهمّ سأ كفيها كلّ هذا لوجهك الكريم

قال : رأيتُنى أ كون ألأمَ الناس لو أنى كشفتُها للناس وقلت انظروا . . . فكأنما كنت أسأتُ اليها فأقبلت أترضّاها ، وجملتُ أماسحها وألاينُها فى القول وعدلتُ عن حظ نفسى إلى حظ نفسها [1] ، واستظهرتُ بقوله تعالى: «وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً » ؛ واعتقدتُ الآيةَ الكريمةَ أصحّ اعتقادٍ وأتمه ، وقلت اللهمّ اجعلها من تفسيرها

قال : فلم تمض أشهر حتى ظهر الحملُ عليها ، فألقى الله فى نفسى من الفرح ما لا تعدله الدنيا بحذافيرها ، وأحسستُ لها الحبّ الذى لا يقال فيه جميل ولا قبيح لأنه من ناحية النفس الجديدة التى فى نفسها (الطفل) . وجعلتُ أرى لها فى قلبى كل يوم مداخلَ ومخارج دونها العشقُ فى كل مداخله ومخارجه ، وصار الجنين الذى فى بطنها يتلألأ نورُه عليها قبل أن يخرج إلى النور ، وأصبحت الأيام معها ربحاً من الزمن فيه الأمل الحلوُ المنتظر

قال : وجاءها المخاض ، وطرّقتْ بغلام ؛ وسمعتُ الأصوات ترتفع من حجرتها : ولد ! ولد ! فبشروا أباه . فوالله لكأن ساعةً من ساعات الخلد وقعت فى زمنى أنا من دون الخلق جميعاً وجاءتنى بكل نعيم الجنة . وما كان ملك العالم — لو ملكته — مستطيعاً أن يهبنى ما وهبتنى امرأتى من فرح تلك الساعة . إنه فرح إلـهى أحسستُ بقلبى أن فيه سلام الله ورحمته وبركته . ومن يومئذ نطق لسانُ جمالها فى صوت هـذا الطفل . ثم جاء أخوه فى العام الثانى ، ثم جاء أخوهما فى العام الثالث ؛ وعرفتُ بركةَ الاحسان من اللطف الربّانى فى حوادث كثيرة وتنفستْ على أنفاس الجنة وفسرت الآية الكريمة نفسها بهؤلاء الأولاد ، فكان تفسيرها الأفراح ، والأفراح ، والأفراح

* * *

ويرى صديقنا الأستاذ محمد حسين جيره ، أن صاحب المشكلة فى مشكلة من رجولته لا من حبه ؛ فلو أن له ألف روح لما استطاع أن يعاشر زوجته بواحدة منها إذ هى كلها أرواح صبيانية تبكى على قطعة من الحلوى ممثلة فى الحبيبة . . . ولو عرف هذا الرجل فلسفة الحب والكره لعرف أنه يصنع دموعه باحساسه الطّفلى فى هذه المشكلة ؛ ولو أدرك شيئاً لأدرك أن الفاصل بين الحبّ والكره منزوع من نفسه ، إذ الفاصل فى الرجل هو الحزم الذى يوضع بين ما يجب وما لا يجب

إنه ما دام بهذه النفس الصغيرة فكل حل لمشكلته هو مشكلة جديدة ، ومثله بلاء على الزوجة والحبيبة معاً ، وكلتاهما بلاء عليه ، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يشنق بامرأة لا بمشنقة . . .

هذا عندى ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يُثبت أنه أحدهما ، فان كان طفلا فمن السخرية به أن يكون متزوجاً ، وإن كان رجلا فليحل هو المشكلة بنفسه ؛ وحلُّها أيسر شىء : حلها تغييرُ حالته العقلية

* * *

ونحن نعتذر للباقين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم ، إذ كان الغرض من الاستفتاء أن نظفر بالأحوال التى تشبه هـذه الحادثة لا بالآراء والمواعظ والنصائح . أما رأينا ففى البقية الآتية

(طنطا)

(حاشية) : تمثل فى نفسى وأنا أبيض هذه المقالة أنها ستثير فى نفس إحدى قارئاتها موضعاً ذا شأن وخطر ، وأن هذه القارئة ستتردد فى الكتابة إلى والافضاء بمعناها . وقوى ذلك فى الخاطر حتى كأنه واقع فما هو ذلك الشأن يا ترى ؟ ان سطراً صغيراً فيه شىء من حكمة الدنيا قد تكون فيه مقالات فلا يبخلن أحد على أحد

الرافعى

(١) استوفينا بيان هذه المعانى فى مقالة (قبح جميل) من مقالاتنا فى (الرسالة)

الشاعر الأندلسي المجهول

رثاء الأندلس

وما يحتويه من العناصر واللمحات التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

نشرت (الرسالة) فى الأسبوع الماضى قصيدة رائعة هى رثاء مؤثر للأندلس بقلم شاعر أندلسى مجهول ؛ ومهد لها الأديب المغربى الذى بعث بنصها إلى الرسالة بكلمة ذكر فيها أن هذه القصيدة نشرت بنصها الكامل فى الجزائر لأول مرة سنة ١٩١٤ ، وأن صحيفة الزهرة التونسية نشرت منذ أعوام بعض مقاطيعها وطلبت إلى الأدباء أن يدلوا على ناظمها إذا استطاع أحدهم إلى ذلك سبيلا ، ولكن أحدا منهم لم يظفر بالجواب ؛ وأنه عرضها على مؤرخ المغرب الكبير السيد الدكالى السلاوى ، فذكر أن ناظمها ربما كان أبا جعفر بن خاتمة وهو من أدباء المرية كما يستدل من بعض أبياتها ، وأنها ربما كانت من محتويات كتابه المسمى « مزية المرية » الذى توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال ؛ ويرجو الأديب المغربى فى خاتمة كلمته أن يوفق أحد الأدباء المشتغلين بالأدب الأندلسى إلى معرفة ذلك الشاعر المجهول فيعلن اسمه

والحق أن القصيدة رائعة مبكية ، وليس من ريب فى أن ناظمها أديب كبير وشاعر بارع ؛ ومن حق الأدب أن يعرف هذا الشاعر المبدع وأن تحقق سيرته ؛ بيد أننا نترك هذا البحث لمؤرخ الأدب الأندلسى فى عصر السقوط ؛ وفى رأينا أن أهمية القصيدة ليست فى قيمتها الأدبية ، بل إن أهميتها ترجع بوجه خاص إلى ما تضمنته من الاشارات واللمحات التاريخية لحوادث المأساة الأندلسية ؛ وهى بهذا الاعتبار وثيقة تاريخية لها قيمتها ؛ ولهذا رأينا أن نؤثرها بتحليل عناصرها الواقعية ، وإيضاح ما فيها من الاشارات واللمحات التاريخية

وأول ما يجب تحقيقه هو الفترة التى وضعت فيها القصيدة ؛ وفى تعيين هذه الفترة تحقيق للعصر الذى عاش فيه الشاعر ، وللظروف والملابسات التى أحاطت به ؛ وهذه الفترة على ما يبدو من كثير من مقطوعات القصيدة هى الفترة التى تلت سقوط غرناطة مباشرة ؛ ونحن نعرف أن غرناطة سقطت فى أيدى النصارى فى صفر سنة ٨٩٧ هـ (ديسمبر سنة ١٤٩١) ودخلتها جنود فرديناند الكاثوليكى فى الثانى من ربيع الأول (٢ يناير سنة ١٤٩٢) ؛ وكانت قواعد الأندلس قد سقطت قبل ذلك كلها تباعاً فى أيدى النصارى ؛ فسقطت مالقة فى شعبان سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، ووادى آش والمنكب والمرية فى أواخر سنة ٨٩٤ هـ (١٤٨٩ م) ، وبسطة فى المحرم سنة ٨٩٥ (ديسمبر سنة ١٤٨٩) ، وهى آخر قاعدة أندلسية سقطت قبل غرناطة ؛ أما رندة التى يستهل الشاعر قصيدته بالاشارة اليها فقد سقطت فى يد النصارى فى سنة ١٤٨٥ (٨٩٠ هـ) ؛ ويبدو من أقوال الشاعر المؤسية عن رندة أنه ربما شهد سقوطها ، وأن هذا الحادث قد ترك فى نفسه أثراً عميقاً يتردد بقوة فى روعة استهلاله ، وهو أبدع مقطوعة فى القصيدة :

أحقاً خبا من جو رُندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليلى أن رندة أقفرت ... وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلت عروشها ... ودارت على قطب التفرق دورها

بل يلوح لنا أن الشاعر ربما كان من أهل رندة وقت سقوطها ، وأن اشارته فيما بعد إلى المرية بقوله :

منازل آبائى الكرام ومنشئى ... وأول أوطان غذانى خيرها

لا يذهب إلى أكثر من أن المرية كانت موطن أسرته ومسقط رأسه ، وأنه قضى بها حداثته الأولى ، وربما كان ذلك حوالى سنة ٨٦٠ هـ ، وأنه وقت سقوط رندة كان رجلا ناضجاً يقف على مجرى الحوادث العامة وقوفاً تاماً

ولنرجع إلى الفترة التى وضعت فيها القصيدة ، فنقول إنه من المحقق مبدئياً أنها كتبت بعد سقوط غرناطة ؛ وليس هناك ما يدل على أنها كتبت لترسل إلى السلطان بايزيد الثانى العثمانى كما يظن الأديب المغربى الذى تولى نشرها . ذلك أن رسائل الاستغاثة التى وجهها زعماء الأندلس إلى السلطان بايزيد الثانى ، وإلى الأشرف قايتباى ملك مصر ، وجهت منذ بدء الصراع

الأخير ، أعنى منذ حصار مالقة وقبل سقوطها فى سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ؛ ولكن الاستغاثة لم تغن شيئاً ، وسقطت قواعد الأندلس تباعاً فى يد النصارى على النحو الذى فصلنا [1]

ولما اشتد النصارى فى معاملة المسلمين بعد سقوط غرناطة ؛ وأرغموهم على التنصر ، وعصفت بهم محاكم التحقيق (محاكم التفتيش) ، كتب بعض كبرائهم إلى بايزيد الثانى فى أواخر عهده يستغيث به ، وذلك حوالى سنة ١٥٠٥ م ، أعنى بعد سقوط غرناطة بنحو أربعة عشر عاماً ، وقد استطال عهد بايزيد الثانى حتى وفاته فى سنة ١٥١٢ م ؛ وقد نقل الينا المقرى هذه الرسالة فى كتابه « أزهار الرياض[2] » ونقل الينا معها شعرا مؤثراً يصف به صاحب الرسالة عسف محاكم التحقيق ، ويبدو من أسلوب هذه الرسالة والشعر كيف انحدرت اللغة العربية وآدابها فى الأندلس فى تلك الفترة بسرعة مدهشة ، وكيف استطاعت السياسة الاسبانية فى مدى قصير أن تخمد جذوة الشعر والأدب

أما القصيدة التى نحن بشأنها فيبدو أنها كتبت قبل ذلك بحين ، والمرجح أنها كتبت فى سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ هـ (سنة ١٥٠٠ م) . ولنا على ذلك أدلة عديدة ، منها قوة القصيدة وروعتها مما يدل على أنها كتبت عقب الفاجعة بأعوام قلائل قبل أن يخف وقعها فى النفوس ، وقبل أن تحدث السياسة الاسبانية أثرها فى قتل اللغة العربية ؛ ومنها الترتيب التاريخى الذى اتبعه الشاعر ، فهو يورد الحوادث تباعا بترتيبها التاريخى ، إذا استثنينا اشارته إلى غرناطة ؛ وبيان ذلك أنه يبدأ بالاشارة إلى سقوط رندة ، وقد كانت أول قاعدة سقطت فى أيدى النصارى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥م) كما قدمنا ؛ ثم يتبعها بالاشارة إلى سقوط مالقة فى قوله

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة　　قد استفرغت ذبحاوة لا حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها　　وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغربية الجنن التى　　تقيها فأضحى جنة الحرب سورها

وفى هذا البيت الأخير إشارة فطنة إلى موقع مالقة ومناعتها وكونها كانت حصن الأندلس من الغرب ، فلما سقطت سقطت قواعدها فى يد العدو تباعا ؛ ويشير الشاعر بعد ذلك إلى سقوط بلّش مالقة (Velez Malaga) فى قوله :

وبلّش قطت رجلها بيمينها　　ومن سريان الداء بان قطورها
وضحّت على تلك الثنيات جحرها　　فأقفر مغناها وطاشت حجورها

وكان سقوط بلش وهى حصن مالقة من الشمال الشرقى فى جادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (ابريل سنة ١٤٨٧ م) وعلى أثر سقوطها حاصر النصارى مالقة واستولوا عليها فى شعبان من هذه السنة (أغسطس سنة ١٤٨٧)

ولما استولى النصارى على مالقة أخذت ثغور الأندلس وقواعدها الباقية تسقط تباعا فى يد النصارى فسقطت المرية والمنكب فى أواخر (سنة ٨٩٤ هـ — ١٤٨٩ م) ، وسقطت بسطة فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر ١٤٨٩ م) ؛ ثم استولى النصارى على وادى آش قاعدة مولاى عبد الله (الزغل) فى صفر من تلك السنة (يناير ١٤٩٠ م) ؛ ويشير الشاعر إلى هذه الوقائع بعد ذلك فى قوله :

وبالله إن جئت المنكب فاعتبر　　فقد خف ناديها وجف نضيرها
وقد رجفت وادى الأشى فبقاعها　　سكارى وما استاكت بخمر ثغورها

. . . .

وبسطة ذات البسط ما شعرت بما　　دهاها وأنى يستقيم شعورها

. . . .

وما أنس لا أنس المرية إنها　　قتيلة أوجال أزيل عذارها

ولم يبق بعد سقوط هذه القواعد فى يد المسلمين سوى غرناطة ، وقد سقطت فى يد العدو فى صفر سنة ٨٩٧ هـ (ديسمبر سنة ١٤٩١ م) ؛ وإلى ذلك يشير الشاعر خلال ما تقدم :

ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم　　قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها　　من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التى　　هى الحضرة العليا زهتها زهورها

---

(١) راجع تفاصيل هذه الحوادث والمراسلات المؤثرة فى كتابى «مصر الاسلامية» ص ١٣٤ وما بعدها والمراجع

(٢) أزهار الرياض (طبع تونس) ص ٥٩ — ٦١

ترى الأسى أعلامها وهى خشع ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها وزائرها فى مأتم ومزورها

فهذا الترتيب التاريخى الدقيق الذى اتبعه الشاعر فى قصيدته، وروعة نظامه، وما يبدو خلال قصيدته من عميق تأثره بالحوادث التى يصفها، مما يدل بحداثة عهده بالمأساة حين وضع رثاءه المفجع؛ بيد أن هنالك أيضاً فى قصيدته ما يكاد يعين هذا العهد فى نظرنا وهو قوله :

وجاءت الى استئصال شأفة ديننا جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ مالنا قبل بها جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تمحى إلا بمحو أصولها ولا تنجلى حتى تحط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه وزعزع من أكنافه مستطيرها

فهذه الاشارات تنصرف فى نظرنا إلى أول محاولة قام بها الاسبان لتنصير المسلمين، ونقض عهودهم التى قطعوها لهم عند تسليم غرناطة باحترام دينهم وشرائعهم، وتأمين أشخاصهم وأعراضهم وأموالهم وحرياتهم. وكان ذلك سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٩ م) حينما قرر مجلس الدولة أن يفرض التنصير على المسلمين، وذلك لأعوام قلائل فقط من سقوط غرناطة. بل يلوح لنا أن الشاعر يشير بقوله :

ألا واستمدوا للجهاد عزائماً يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق يدعُّ الأعادى سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها
إلى الله من تحت السيوف مصيرها

إلى الثورة التى حاولت بعض المناطق الاسلامية أن تقوم بها مقاومة لقرار التنصير؛ ويلاحظ هنا أن الشاعر يقف عند هذه الواقعة فى الاشارة إلى الحوادث التاريخية مما يدل على أنها آخر حادث أدركه وقت نظم مرثيته؛ فاذا صح الاستنتاج الذى سقناه على النحو المتقدم، فانا نستطيع أن نقول إن الشاعر وضع مرثيته كما قدمنا حوالى سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ هـ (نحو سنة ١٥٠٠ م)

هذا ومما يلاحظ أيضاً أن الشاعر قد تأثر فى مواطن كثيرة من قصيدته بالقصيدة الطائرة الصيت التى نظمها سلفه ومواطنه أبو البقاء الرندى فى رثاء الأندلس، وأنه استمد منه بعض الوحى والمعنى؛ فقوله مثلاً :

فوا حسرتا كم من مساجد حولت
وكانت الى البيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صوامع أوحشت
وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها

مستمد من قول أبى البقاء فى مرثيته :

حيث المساجد قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة حتى المنابر ترثى وهى عيدان

وقوله :

وكم طفلة حسناء فيها مصونة
إذا أسفرت يسبى المقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستمد من قول أبى البقاء :

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران

وهكذا فى مواطن أخرى. بيد أن شاعرنا يفيض فى نظمه وفى تصويره قوة وطرافة، وليس من ريب أن مرثيته المفجعة من أبلغ وأروع ما رثيت به دولة الاسلام فى الأندلس

محمد عبد الله عنان

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

— ١ —

لن يدور بخلدك أيها القارىء أن بستور ترك اسمه للنسيان، وشهرته للنقصان، أثناء الزوابع التى أثارها كوخ فى الدنيا وهو يثبت أن المكروب يقتل الناس. وكيف يجوز هذا على بستور وفى عوده ما نعلم من صلابة، وفى أنفه لتصيّد المكروب ما فى أنف الكلب، وفى نفسه ما فى نفس الشاعر من الحس والخيال؟ وهو فوق ذلك ربّ الدعاية الذى يعرف كيف يأتى الجماهير فيشدهم فيتركهم صرعى حيارى مما رأوا أو سمعوا؟

فى أواخر العقد الثامن من القرن الماضى — وكان كوخ قد اكتشف بذور داء الجمرة فأدهش الأطباء وأفزع وأبدع — قام بستور ينفى بهزة من كتفه، وكلمة من أنفه، وتلويحة من يده، ما تمخضت عنه تجارب الأطباء ألوف السنين. يالها صفاقة من كيميائى! وحكاية ذلك أنه جاءت فترة من الزمان صارت فيها مستشفيات الولادة بباريس مخابىء للوباء، تدخلها الأمهات يملؤهن الأمل ويحدوهن الرجاء، ولكن القدر الصائد الخبىء فيها كان يختطف منهن أما من كل تسع عشرة، تذهب بها حُمّى النّفاس تاركة ولدها يلقى الحياة بغير حب الوالدات. وماتت عشر نسوة متتابعات فى مستشفى واحد فأسماه الناس «بيت الاجرام»، وارتاع النساء فلم يثقن بالأطباء حتى أغلاهم أجوراً، وبلغت بهن الريبة فأخذن يقاطعن المستشفيات، وخشى كثيرات منهن مواجهة مخاطر الحمل فرغبن بحق عن النسل، والأطباء أنفسهم فزعوا وافتضحوا بمرأى رُسل الموت قائمة هكذا على أبواب الحياة وهى تولد. وذات يوم اجتمعت أكاديمية الطب بباريس، وقام فيها طبيب شهير يخطب ويجلجل فى أسباب حمى النفاس — وهو وا أسفاه يجهلها كل الجهل — وامتلأ خطابه الرنان بكثير من الكلمات الأغريقية الطويلة، وكثير من الألفاظ اللاتينية الفخمة، وبينا هو فى إحدى جمله الطنانة قاطعه صوت كالرعد جاء من مقاعد البهو الأخيرة. قال صاحب الصوت: «إن الذى يقتل النساء بحمى النفاس ليس الذى تقول، ولا شيئاً يشبه الذى تقول. إن الذى يقتلهن أنتم أيها الأطباء، فأنتم الذين تحملون المكروبات القتالة من المرأة المريضة إلى الأخرى الصحيحة...!» وما كان صاحب الصوت إلا بستور، وكان قد قام عن مقعده، وكانت عيناه تتطاير شرراً

قال الخطيب: «قد تكون على صواب، ولكن أكبر ظنى أنك لن تجد هذا المكروب ابداً...» وأراد أن يعاود خطابته المقطوعة، ولكن بستوركان فى هذه اللحظة قد اخترق الصفوف ومشى إلى المنبر يجر وراءه رجله، وقد كانت شُلّت بعض الشلل. ولما بلغ السبورة أمسك بعنف قطعة من الطباشير وصاح فى الخطيب وهو فى ضيقه، وفى أعضاء المجمع وهم فى دهشة مما جرى، قال: «أنت تقول إنى لن أجد هذا المكروب. أيها الرجل، إنى وجدته، وشكله هكذا!» ورسم بستور على السبورة سلسلة من دوائر صغيرة، فانفض الاجتماع فى اختلاط كالعِقد انقطع نظامه

كان بستور قارب الستين من عمره، ولكن كان لا يزال به عنف الخامسة والعشرين وتهوّرها، وكان كيميائياً، واختص فى تخمير سكر البنجر، وعلّم الخمارين كيف يدفعون الفساد عن خمورهم، وترك هذا العمل فجأة وأخذ فى تخليص دودة القزّ مما اعتراها، وقام فى فرنسا بالدعاية إلى تحسين البيرة الفرنسية وفعلاً تحسنت عما كانت، وقضى تلك السنين الطويلة يشتد على نفسه فى العمل فأنجز فيها ما يستنفد أعمار عشرة رجال، ولكنه ظل يحلم دائماً طوال هذه السنين بالمكروبات ويأمل اصطيادها، لأنه علم علم اليقين أنها سبب مصائب الانسان ومنشأ أمراضه الخبيثة

ولكنه استيقظ يوماً فوجد كوخا سبقه إلى ما أمّل حلّ العقدة التى رجا هو أن يحُلّها. وإذن تحتم عليه أن ينهض لكوخ هذا وأن يلحق به. وكأنى به يتمتم لنفسه فيقول: «وعلى كل حال فالمكروبات من بعض الوجهات من متاعى وحق،

وأنا أول من أبان خطرها منذ عشرين عاماً لما كان كوخ طفلاً صغيراً . . . . »

على أن لحاق بستور بكوخ قامت دونه عقبات . منها أن بستور لم يجس نبضاً قط ، ولم يقل قط لرجل مصفور (١) أخرج لسانك . ولقد يشك فى قدرته على تمييز الرئة من الكبد . ومن المؤكد أن يده لم تكن تعرف كيف تأخذ بالمشرط . أما تلك المستشفيات القاسيات فبعداً لها وسحقا ، فقد كانت روائحها تبعث الألم فى قرارة معدته ، وكانت أصوات مرضاها وأناتهم تخرج من حجراتها إلى دهاليزها القذرة فيألم لها صاحبنا فَيَهُمّ بسد أذنيه ويفر منها هارباً . على أن بستور لم يلبث أن تخطى هذه العقبات وذلّل هذه الصعوبات . فهذا كان دائماً دأب هذا الرجل الذى لا يغلب ، إذا قامت فى سبيله صخرة فلم يستطع أن يقفز من فوقها دار من حولها . فاتخذ لنفسه أعواناً ثلاثة من الأطباء فبدأ أولاً بالطبيب جوبرت Joubert ثم بالطبيبين رو Roux وشمبرلاند Chamberland وكانوا أحداثاً صغاراً . وكانوا فى آرائهم أحراراً ، بل بلاشفة ثائرين على الطب القديم وتعاليمه السخيفة . وجلسوا فى المجمع الطبي يستمعون لمحاضرات بستور ، وكانت مما يزهد عامة الأطباء فيه ، ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا ينصتون ويغتبطون معجبين ببستور عابدين مؤمنين بكل نبوءة يتنبأ بها من كل وباء فتاك يثيره كل خبيث دقيق يخفى على البصر من الأحياء . تفضل بستور ففتح لهذا الثالوث أبواب معمله ، فعلموه عوضاً من هذا تركيب جسم الحيوانات وكيف تعمل وتحيا ، وعرّفوه الحقن فأبانوا له الفرق بين إبرته وكابسته ، وأقنعوه بأن الحيوانات مثل الأرانب والخنازير الغينية لا تكاد تحس إبرة الحقن وهى تضرب فى جلدها ، وكان رجلا يسوؤه أن يرى الألم أو أن يفعله . وعقدوا الخناصر فيما بينهم على أن يكونوا لوليهم هذا عبيداً طائعين ، وأن يكونوا لهذا العلم الجديد رسلاً مبشرين

إن صيد المكروب ليس له سبيل واحدة يقال لها هذه ، وهذه فحسب . وتلك حقيقة لا مراء فيها . ودليلنا عليها السبيلان اللتان اتخذهما كوخ وبستور لنفسيهما ، فقد اختلفا اختلافاً بيناً على الرغم من اتفاق الغاية التى قصدا إليها . أما كوخ فكان يطبق المنطق فى برود قاتل ، حتى لكأنه كتاب هندسة فى يد طالب ـ فقد بحث بَشِلة السل بتجاريب غاية فى التنظيم ، وخال عنها كل الاعتراضات التى يخالها الشكاكون الناقدون ، وذلك قبل أن يعلم هؤلاء بوجود شىء ينقد . وكان كوخ ينشط إلى ذكر خيباته كما ينشط إلى ذكر فوزاته ، وبمقدار واحد لا يزيد فى هذه على تلك أبداً . فقد كان له إحساس بالعدل غير إنسى . وكان ينظر إلى كشوفه نظرة الناقد المتغالى حتى لكأنها لغيره . أما بستور فقد كانت فى قلبه شهوة على البحث متقدة ، فكانت تخرج من رأسه النظريات الصائبة تتلوها أخواتها الخاطئة فى تتابع سريع كأنها صواريخ النيران انطلقت فى مهرجان ، ولكن فى قرية ، فخرجت على غير عمد وفى غير نظام

بدأ بستور يبحث عن مكروبات الأمراض فثقب دملا فى عنق أحد أعوانه وربّى مما أخرج منه جرثومة ؛ وما أسرع ما أيقن أنها أصل الدمامل وسببها . وبغتة ترك ما هو قائم فيه من ذلك وهرع إلى مستشفى فوجد مكروبه المتسلسل فى أجسام النسوة وهى تموت ، فما أسرع ما قال إنه مكروب حمى النفاس ! ومن المستشفى طار الى الريف ليكتشف أن دود الأرض يحمل بشلة داء الجمرة من جثث الأبقار الوبيئة المدفونة فى باطن الأرض ويخرج بها إلى ظهرها ، ثم هو لا يثبت كشفه هذا إثباتاً كاملا . كان بستور عبقرياً فى المباقرة ، غريباً يحس بحاجة دفّاعة إلى القيام بعشرة الأمور فى آن واحد ، ولا يحتفل بمقدار الدقة التى ينجزها بها فهى قد تنقص وقد تزيد ، كل هذا ليكشف عن تلك الذرة من الحقيقة التى تتراءى فى أكثر أعماله

خبط بستور فى كل أرض ، وهب مع كل ريح ، وليس بعسير عليك أن تدرك فى كثرة خبطاته وتنوع هباته أنه كان يتلمس طريقاً تؤدى به إلى سبق كوخ والتفوّق عليه . أثبت كوخ فى وضوح جميل أن الجراثيم تحدث الأمراض ؛ لا شك فى هذا . ولكن ليس هذا كل شىء . ليس هذا الاثبات أهم شىء . فأهم منه اكتشاف طريقة تمنع هذه الجراثيم من قتل الناس ؛ أهم منه حماية الانسان من الموت . وفى سبيل هذا ظل بستور يخبط طويلا على غير هدى . قال رو Roux يصف تلك الفترة من حياة بستور بعد أن فات زمان طويل : « أى تجربة سخيفة لم نبتكر !

(١) صفر الرجل بالبناء للمجهول اجتمع فى بطنه الصفار أى الصفراء، فهو مصفور

أى تجربة مستحيلة لم نتخيل ! ثم يصبح الصباح فنضحك من أنفسنا من جرائها ملء أفواهنا طويلا . »

لابد لفهم بستور من تفهم أخطائه وانهزاماته بمثل ما نتفهم إصاباته وانتصاراته . لم يكن لبستور صبر كوخ ولم تكن له دقته ، فلم يهتد إلى ما اهتدى إليه كوخ من تربيـة الميكروبات نقية . فذات يوم أغلى بستور بولا فى قبابة وزرع فيها بشلات الجمرة ثم نظر اليه بعد ذلك فساءه وغاظه أن وجد به ميكروبات دخيـلة جاءته من الهواء . وفى الصباح التالى نظر إليه مرة أخرى فلم يجد به من مكروبات الجمرة شيئاً . لقد ذهبت بها جميعاً مكروبات الهواء ! وعندئذ يقفز بستور قفزة بارعة إلى الفكرة الآتية : «حيث أن مكروبات الهواء المسالمة استطاعت أن تخنق بشلات الجمرة التى فى القبابة فلا شك أنها فاعلة ذلك فى الأجسام . والظاهرة واضحة : مكروب يأكل مكروبا » . وما أسرع ماصاح بذلك فى الناس ! وما أسرع ما كلف عونيـه رو Roux وشمبرلاند Chamberland باجراء تجربة بديعة فى الخيال مؤداها حقن مكروب الجمرة فى خنازير غينية ثم إتباعها بحقن مكروبات هادئة مسالمة رجاء أن تطارد فى الدم تلك المكروبات الثائرة اللعينة فتقتلها وتزدردها ازدراداً . وأعلن بستور فى جِدّ عابس قال : « إن هذه التجربة قد يكون من ورائها انفتاح الأبواب لعلاج الأمراض وشفائها » . وهذا آخر ما تسمع منه عن هـذه التجربة التى أثارت كل هذا الأمل الهائل . فهكذا كان بستور يخفى إخفاقاته عن العلماء فيحرمهم من درسها ، وقد يكون فى درسهم إياها الاصلاح والنجاح

غير أنه لم يمض قليل من الزمن حتى كلفته أكاديمية العلوم أمراً غريباً وبعثته إنابة عنها رسولا ، وفى أداء هذا الأمر وإنجاز هذه الرسالة عثر بستور غير عامد على حقيـقة أنارت له السبيل فاهتدى على نورها إلى طريقة يؤنّس بها شوارد الميكروبات فتنقلب من بعد عدائها للانسان أمناً عليـه وسلاماً . نعم وقع على هذه الحقيقة فأخذ بناء عليها يخط الخطط ويحلم الأحلام ، فيجد نفسه قد أثار المكروب الحىّ بعضه على بعضه ، وبث فيه الخصام فأباد نفسه بنفسه ، فنجا الحيوان والانسان من الموت ، وكفى الله المؤمنين القتال . وقصة ذلك أنه شاع فى ذلك الوقت أن بيطريا اسمه لوفربيه Louvrire اكتشف علاجاً لداء الجمرة ، وذلك فى جبال الجورا Jura بشرق فرنسا . وذاع أمر هذا العلاج واشتهر . وشهد أعيان الناحية بأن مئات الأبقار شُفيت به وهى على باب الموت ، وإذن آن أوان العلم أن يقرّ هذا العلاج الجديد

— ٢ —

وبلغ بستور تلك الناحية من جبال الجورا ، وصحبه أعوانه الشباب فوجدوا أن هذا العلاج المعجز يتلخص أولا فى أن يقوم نفر من الفلاحين بدعك البقرة المريضـة دعكا شديدا لتحترّ ما استطاعت إلى الاحترار سبيلا ، ثم يشرط جلد البهيمة المسكينة شرطا ، ويُصب زيت التربنتينة على هذه الشروط صبًا . وبعد التمثيل بها هذا التمثيل الشنيع يُغطَّى جسمها إلى رأسها بطبقة سميكة من مادة لا نذكرها تأدباً ، وذلك بعـد تقيمها فى الخل الساخن ، وتظل البقرة تصعق بالخوار شديداً من الألم ولا سامع ولا راحم . أما وقد تم كل هـذا ، وقد ودّت البائسة المعذبة لو تموت ، فيغطى جسمها أجمع بثوب شامل ليستبقى هذا المرهم الغريب عليها زمناً مقدوراً

قال بستور للوفربيه : « إن البقر الذى تصيبه الجمرة لا يموت كله بل يُشفى بعضه من ذات نفسه . وعندى تجربة لا أرى عِدْلا لها ترينا هل حقا علاجك هو سبب خلاص هذه الأبقار . فهيًا بنا يا عزيزى نجرّب »

وأحضر لهما أربع بقرات ، وقام بستور فى حضرة لوفربيه وبشهود وفد عليـه سيما الجد من الزارعين ، فطعن الأبقار فى أكتافها أربع طعنات من محقنه بعد أن ملأه بزريعة من مكروبات الجمرة ، فانساب فى أجسامها مقدار يقتل الشاة الواحدة بالتحقيق ويقتل من الخنازير الغينيـة عشرات . وفى الغد عاد بستور ولوفربيه ووفد المزارعين فوجدوا الأبقار جميعاً قد علت أكتافها أورام حادة محمومة ، وهى تتنفس شخيراً . فلم يعد شك فى أنها فى إبان مرضها

قال بستور لصاحبـه : « والآن يا دكتور ، تقدم فاختر بنفسك بقرتين من هذه الأربع المريضة . ولنسمها ا ، ب نخذها وعالجهما على نحو ما تفعل . أما هاتان البقرتان الأخريان حـ ، ء فدعهما بلا علاج » وقام لوفربيه على البقرتين البائستين يصب عليهما النقمة التى تدعى علاجا . فـكانت النتيجة ضربة قاضـية

على العلاج وعلى صاحبه الذى أحسن النيـة وقصد الخير ـ ذلك إن إحدى البقرتين اللتين عولجتا ماتت وسلمت الأخرى ، وإحدى البقرتين اللتين لم تعالجا ماتت وسلمت الأخرى

قال بستور لصاحبه : « حتى هذه التجربة كان فى إمكانها أن تخدعنا ، فلو أنك أعطيت دواءك للبقرتين ا ٥ ٤ بدلا من ا ٥ ب وحدث الذى حدث ، إذن لظننا أنك وقعت للجمرة على خير علاج »

مات فى التجربة بقرتان ، وسلمت فيها بقرتان وشُفيتا لـكن بعد أن عانت من الداء الأمرّ . ففكر بستور فيما هو صانع بهما ، قال : « أظن أنه لا بأس من حقنهما مرة أخرى بنسـل من مكروب الجمرة أخبث من الأول . إن عندى فى باريس نسلا شديد الفتك لو أنه حقن فى كَرْكَدَّن Rhinoceros لسود ليلته وأفسد عليه نومته » وبعث بستور فى طلبه من باريس فلما جاء حقن منه قطرات فى كتف البقرتين ، واصطبر ينتظر مرضهما فلم يمرضا ، حتى الورم لم يحصـل حيث ضرب بإبرة المحقن من كتفيهما . وبقيت البقرتان سليمتين هنيئتين ولم تحفلا بالذى كان !

فقفز بسـتور إلى إحدى استنتاجاته السريعة ، قال : « إن البقرة التى تُصاب بالجمرة ثم تُشفى لا تأتيها الجمرة مرة أخرى ولو حقنت بما على ظهر البسـيطة من مكروب هذا الداء ـ إنها إذن تصـبح حصينة » . وأخذت هذه الفكرة تدور بفكره ثم تدور ، يلعب بها وتلعب به فلم تسـمع أذنه ما ألقت زوجه عليـه من سؤال ، ولم ترعينه ما وقعت عليه من الأشـياء . « كيف أستطيع أن أعطى الحيوان شيئاً قليلا من مرض الجمرة ، شيئاً يعطيه الداء ولا يقتله ، ولـكن يتركه من بعد ذلك حصينا ... كيف السبيل إلى ذلك ... لا بد من سبيل ... لا بد أنى واجده »

ومضت أشهر وبسـتور على هذه الحال . وكان يقول لرو ولشمبرلاند « أى سر فى الدنيا أشد خفاء من أن المرض الخبيث إذا زار مرة وارتحـل ، فلن يعود مرة أخرى » وبقى يردد بين شفتيه : « لا بد من الحصانة لا بد أن نحصن من المـكروب ... لا بد ... لابد . »

(يتبع) **أحمد زكى**

الاشتراك المجانى فى الرسالة
لدخولها فى سنتها الرابعة

(١) ابتداء من أول يناير سنة ١٩٣٦ إلى ٣١ منه سيكون الاشتراك فى الرسالة على النحو الآتى :

قرش	
٥٠	فى مصر والسودان
٤٠	لطلاب العلم ولرجال التعليم الالزامى
٦٠	فى البلاد العربية بالبريد العادى
٥٠	لطلاب العلم فى البلاد العربية بالبريد العادى

(٢) إذا دُفع الاشتراك المخفض فى أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ أهدى إلى المشترك مجموعة من السنة الثالثة ثمنها ستون قرشاً مصرياً . وأجرة البريد على المشترك ، وقدرها خمسة قروش فى الداخل ، وعشرة قروش فى الخارج

(٣) إذا دُفع الاشـتراك الكامل فى أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ وقدره ستون قرشاً فى مصر ، وثمانون فى البلاد العربية ، أهدى إلى المشترك نسخة من كتاب (ضحى الاسلام) أو (فجر الاسلام) للأستاذ أحمد أمين ، أو من كتاب (وحى القلم) للأستاذ الرافعى ، أو من كتاب (تاريخ الأدب العربى) للأستاذ الزيات ؛ أو كتابان يختاران من الـكتب الآتية : آلام فرتر ، رفائيل ، فى أصول الأدب ، للاستاذ الزيات ؛ قصة المكروب ، مرجريت ، للدكتور أحمد زكى ؛ مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، قصص اجتماعية ، للأستاذ عنان وأجرة البريد مسجلا على المشترك وقدرها عشرة قروش فى الداخل ، وعشرون قرشاً فى الخارج

(٤) يقبل الاشتراك الكامل والمخفض أقساطاً من طلاب العلم ورجال التعليم الالزامى ، ولا يقل القسط عن عشرة قروش ولا تعطى الهدية إلا مع القسط الأخير

نظرية النسبية الخصوصية

المقال الثانى

وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية

للدكتور اسماعيل احمد أدهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

— ٥ —

إنه من غير الممكن التوفيق فى نظام غاليلى [١] « نسبة لغاليليو العالم الفلكى الايطالى » بين سنة النسبية الكلاسيكية ومبدأ انتشار النور بسرعة ثابتة إلا برد مبدأى إطلاق الزمان والمكان والرجوع بهما إلى هيئات القياس ، أعنى إلى مبدأ نسبتيهما إلى الهيئة التى تقاسان بالنسبة لها . فاذا فرضنا نظاماً مادياً مثل « ع » ومن نقطة مثل « م » فيها لنفرض أن شعاعة ضوئية مثل « صه » صدرت ، فستكون سرعة هذه الاشارة الضوئية واحدة فى كل الاتجاهات . فاذا فرضنا أن هذه الاشارة الضوئية حدثت فى زمان مثل « ت » وكان مرموزاً لسرعة الضوء بالرمز « ح » فهذه الشعاعة ستتبع القانون الآتى :

ك^{2} + ى^{2} + ز^{2} − ح^{2}ت^{2} = م

لننتقل إلى نهاية امتداد نظامها ، وهنا الرموز ك ، ى ، ز تمثل ثلاث حوادث حدثت فى الكون « ع » فاذا فرضنا نظاماً مادياً آخر مثل « ع$_{1}$ » متعامدة على النظام الأول وتتحرك حركة نسبية إزاءها فان الدستور أو القانون الدال على الحادثات يتغير من الأول إلى آخر هو :

ك$_{1}^{2}$ + ى$_{1}^{2}$ + ز$_{1}^{2}$ − ح^{2}ت$_{1}^{2}$ = م

وفى هذا القانون يكون الرمز « ت$_{1}$ » لأوان الزمن الذى بدا فيه انتشار الشعاعة الضوئية والمقادير

ك ، ى ، ز ، ت ؛ ك$_{1}$ ، ى$_{1}$ ، ز$_{1}$ ، ت$_{1}$

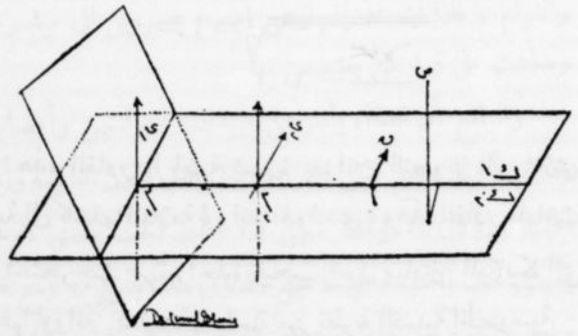
لما كانت ظواهر مستمدة من الاشارات الضوئية حدثت فى الكون « ع » كان معنا المعادلة :

ك^{2} + ى^{2} + ز^{2} − ن$_{2}$ ت$_{2}$ = ا (ك$_{1}^{2}$ + ى$_{1}^{2}$ + ز$_{1}^{2}$ − ح^{2}ت$_{1}^{2}$ = م

وهنا « ا » رمز لسنة التقلص ، ولما كان خط الانتقال من النظام « ع » إلى « ع$_{1}$ » لا يؤثر فى الحادثات لثبوت قوانين الطبيعة كانت القوانين الطبيعية فى النظام « ع » هى القوانين التى بالنظام « ع$_{1}$ » ؛ واستناداً الى ما تقدم نقرر أن : ا = ١ فيكون القانون الدال على حركة انتقال الشعاعة من « م » إلى نهاية امتداد حد النظام بالنسبة للنظام المادى « ع » هو نفس القانون الدال على الانتقال بالنسبة للنظام المادى « ع$_{1}$ » وينشأ بذلك معنا المعادلة الآتية :

ك^{2} + ى^{2} + ز^{2} − ن^{2}ت^{2} = ك$_{1}^{2}$ + ى$_{1}^{2}$ + ز$_{1}^{2}$ − ن^{2}ت$_{1}^{2}$

لأن سرعة النور تنتشر بسرعة ثابتة فى جميع الاتجاهات



شكل « ٢ »

النظام الغاليلى ودساتير لورانتز

Grossmann « Marcel » und Einstein « Acbert ». (Kovarianz-eigens-chaften der Feldgleichungen der Graixtationstheârie) Zeitchrift für Mathematik und Pheyeik. 63 (1914), p. 215.

und.

Edham « I. K. » Mathematik und Phyeik. , Leipzig. 1934. p. 123.

(١) النظام الغاليلى هو النظام الذى تسيطر عليه معادلات التحويل الغاليلية ، فاذا فرضنا الحادثات « ك ، ى ، ز » حدثت فى عالم مثل « ع » وحادثات تقابلها « ك$_{1}$ ، ى$_{1}$ ، ز$_{1}$ » حدثت فى عالم آخر مثل « ع$_{1}$ » ثم إذا فرضنا أن خط الانتقال منطبق على محور العالم وأن الحادثات أخذت تنتقل من عالمها إلى الآخر فى الأوان « ت » بسرعة معينة لنرمز لها بالرمز « س » كان

ز$_{1}$ = ز ؛ ى$_{1}$ = ى ؛ ك$_{1}$ = ز$_{1}$ − س ت (راجع Eneyklopaedie der Mathematik und Physik. vôl 13. P. 66. 1922 — 1929

وإذا ما فرضنا أن فى النظام « ع » المادى المحاور :

م١ك١ ، م١ى١ ، م١ز١

موازية للمحاور م٢ ك٢ ، م٢ ى٢ ، م٢ ز٢ فى النظام « ع١ » وفرضنا أن المحورين « م١ ك١ » و « م٢ ك٢ » موازيان لاستقامة السرعة النسبية « س » فبالنسبة لراصد مثل « ص » رصد الحادثات ك ، ى ، ز فى النظام « ع » والحادثات ك١ ، ى١ ، ز١ فى النظام « ع١ » إن حدثت فى الزمان « ت٢ » حوادث النظام « ع١ » وفى الزمان « ت١ » حوادث النظام « ع » فلتحقيق المساواة العليا يجب أن يتحقق أن :

ك٢ = ف (ك١ − س ت١)

ى٢ = ى١

ز٢ = ز١

ت٢ = ف (ت١ − (س ك١ / ض٢))

و

ك١ = ف (ك٢ + س ت٢)

ى١ = ى٢

ن١ = ز٢

ت١ = ف (ت٢ + (س ك٢ / ض٢))

حيث كان فيها ف رمزاً لقانون التقاص أعنى أن

ف = ا = √(١ / (١ − س٢ / ض٢))

هذه المقادير الرياضية شهيرة بقوانين التحويل اللورانتزى نسبة إلى كاشفها العلامة لورانتز الهولندى ، وهذه المقادير مادامت قد استخرجت مرة واحدة فيجب قبول مبادىء الميكانيكا التى أذاعها لورانتز كنتيجة مسلسلة من نظرية النسبية الخصوصية

— ٦ —

أوضحنا فيما سبق أن أفكار اينشتين فى النسبية الخصوصية تقوم على أساسين :

الأول : انتشار الضوء بسرعة ثابتة فى الأكوان المختلفة أعنى أن الأمواج النورية ليست تتبع مصادرها من حيث الحركة والسرعة ، فبمجرد انطلاق موجة نور من منبعها تستقل عن مصدرها وتنتشر خلال الفضاء وفى رحاب المكان بحركة منظمة ذات سرعة ثابتة

الثانى : الحوادث التى تقع داخل أكوان تتحرك بازاء بعضها تنظم من حدوثها قوانين طبيعية تكون فى جميع أطوارها ثابتة لا تتغير

والمبدأ الثانى نتيجة للأول . ومن هذين المبدأين يستنتج أنيشتين القاعدتين الآتيتين :

الأولى : أن سرعة النور لها مقدار ثابت لا يتغير

الثانية : ينظم من حدوث الحوادث التى تقع فى أكوان تتحرك بازاء بعضها حين انتقالها من كون إلى آخر قوانين التحويل التى كشف عنها العلامة لورانتز Lorentz

وبذلك تحافظ معادلات المجال الالكترومغناطيسى على صيغتها التقدمية بينما قوانين غاليليو [1] تغير من هذه الصيغة إن قوانين [2] لورانتز لا تتفق مع قوانين غاليليو ، ذلك لأن الثانية تقوم على مبدأ اطلاق الزمان فى الوقت الذى تقوم فيه قوانين لورانتز على مبدأ نسبية الزمان ، ومن بين قوانين لورانتز وغاليليو تكونت تجربة « ميكلصون — مورلى »

كان من المنتظر أن تعطى تجربة « ميكلصون — مورلى » نتيجة ايجابية بالنسبة لمجاميع غاليليو التحويلية بينما كانت ترجع لها نتيجة سلبية بالنسبة لمجاميع لورانتز التحويلية من حيث كونها تتضمن مفهوم كل من الزمان والمكان نسبياً

لقد تأيدت معادلات التحويل التى أذاعها العلامة لورانتز بنتيجة تجربة « ميكلصون — مورلى » السلبية وكانت نتيجة هذا التأييد أن رجعت بالميكانيكا الكلاسيكية إلى مبادىء الالكتروديناميكا [3]

وعلى وجه عام فقوانين المجال الالكترومغناطيسى صحيحة إلا أن قوانين ومبادىء الميكانيكا الكلاسيكية يمكن تطبيقها على السرعات العادية التى هى كسر ضئيل من سرعة الضوء . وفى السرعات الكبيرة يلزم الرجوع لقوانين المجال الالكترومغناطيسى . وفى حالة تطبيق المبادىء الميكانيكية الكلاسيكية للسرعات البسيطة

---

(1) H. A. Lorentz : Principals of the new-mechanics oxford. 1905. P. 125 — 126

(2) David Hilbert : Die Grundlanger der Physik. P. 135

(3) Adam Angersbach : Des Relativitaetsprinzip. Leipzig 1920. P. 139. und Leon Block : L'espace et le temps dans la Physique moderne"
Revue Scientifique (1920) P. 333-341

تاريخ الأدب النسوى في فرنسا

للأستاذ محمد بك كرد على

بقية ما نشر فى العدد الماضى

Jean Larnac : Histoire de la littérature féminine en France

وما ظهرت تباشير القرن التاسع عشر ، حتى صحت العزائم على تعليم المرأة تعليماً رسمياً ، فنى سنة ١٨٣٦ منحت حق التعليم الابتدائى العالى ، وفى سنة ١٨٥٠ نشر قانون يقضى بانشاء مدرسة فى كل كورة يتجاوز سكانها ثمانمائة إنسان ، وبعد سبع عشرة سنة عم هذا القانون الأقاليم بأسرها ولا سيما مايجاوز سكانه الخمسمائة . وفى سنة ١٨٧٨ نشر أحد عظماء الكتاب كتاباً أسماه « الجوارب الزرقاء » أورد فيه عدة مقالات فى التأديات والكاتبات ، وقال إن هذا الجنس من النساء الكاتبات قد خرجن عن الأنوثة ، وما هن إلا الرجال ، بيد أنهن لم يبلغن مبلغهم ، يريد بقوله صاحبات الجوارب الزرقاء النساء اللائى كن لكثرة ما صرفن من همتهن العقلية قد بلغت حالهن أن يذهدن فى التجمل ويلبسن جوارب زرقاء مثل المعجبات بأنفسهن فى انجلترا

واستطاعت المرأة بعد هذه الحقبة من الزمن أن تظهر بظهور مدام كورى تلق درساً فى « كوليج دى فرانس » ، وما بقيت قلعة للذكور إلا وتخطاها النساء ، حتى ولا مدرسة المعلمين العليا ولا منابر الجامعات ، ولم يبق أمامهن عائق يعوقهن عن التعلم ، ونشر ما يستهوى قلوبهن ، ويرضى نفوسهن ، وأصبحن فى حل من أن يتعلمن كما شاء لهن الهوى ؛ وغدا منهن الأساتيذ والصحافيات ومديرات دور الطباعة ، وأخذن ينافسن الرجال فى جوائز الأدب والمجامع الأدبية العامة والخاصة ، فتمت لهن كل أدوات الثقافة فى بيوت العلم ، ولكن القرائح تخلق خارج المدارس ، وللنساء أن يتوسعن ما شئن ، وليس فى مقدورهن أن ينبوثن إلى الحد الذى يطمحن إليه ، ولا يسرح النساء ويمرحن إلا فى ظل الحرية ، فاذا أخذن من عنان قرائحهن يفقدن أجنحتهن . ولذا بقين الى أول القرن العشرين يمشين على أثر الرجال ، ولم يتحررن التحرر المطلوب إلا فى هذا القرن . حتى لقد قال ستندال إن قلة استعداد المرأة لبلوغ مراتب الكمال فى تأليف النساء منبعث من كونهن ما جسرن ذات يوم أن يتحللن من قيودهن إلا نصف تحلل ، ومتى حاولن الحرية المطلقة فكأنهن يخرجن بلا خمار ؛ على أنهن بعد هذا القول خرجن بلا براقع ، وأحياناً بدون دثار ولا شعار ؛ والسعادة لم تحالف العاملات من هذا الطراز ، فانهن إذا أغلقن أبواب غرفهن وصرن إلى خلوة لا يسعهن العزاء بعملهن العقلى ، على حين يحاولن أن يجدن لأنفسهن عزاء ، فيأتى الشيطان يعبث بأهوائهن ، وقلّ فيهن من تنسى الحب والغرام ، فاذا اشتد إغواؤهن أصبح عسرهن إلى مياسرة ، وتداعت كل قوة كن يعتصمن بها

والواقع أن النساء بأسرهن عبيدات حواسهن وأعصابهن وقلوبهن ، لا ينجع فيهن اعتراض إذا خالف قانون الطبيعة وأعنى الحب . وكان الأديبات منهن إذا مجدن الحب بالمعنى الوجيز يجهلن حب الأمومة على ما تجلى ذلك فى مكتوباتهن ، ومع هذا تراهن يتكلفن فيما يكتبن ويتطلبن إلى حواسهن وقلوبهن أن تمطى أكثر مما لها ، وما كتب لهن إلا أن يكن أدوات تحس وتهتز ، وأن يجملن من العالم مجموعة أحاسيس . وإذا فحصت الأدب النسوى المعاصر من حيث الانشاء تسقط فيه على قرائح عظيمة وعلى نبوغ أيضاً ، ولكن قل أن تقع فيه على شىء اسمه فن . ويقال إن النساء ما عدا اثنتين أو ثلاثاً منهن لا يحسن التفريق بين المواد

يجب أن توفق مع قوانين لورانتز التحويلية

إن نظرية كلارك ماكسويل فى الكهرب مغناطيسية تقوم على أساس ثبات سرعة الضوء ، وعلى التأثير القربى فى انتشاره ، وبذا تتحقق دساتير وقوانين التحويل التى أذاعها لورانتز ويتقرر مبدأ نسبية الزمان وينتفى امكان وجود أية علاقة تربط أثرا ذا سرعة لا متناهية كالضوء بالمؤثر ، أعنى منبع الضوء

وخلاصة القول أن علم الحركات الذى كشف عنه إينشتين هو علم الحركات التجريبى ، وهو يستند على دساتير لوارنتز التحويلية وتومىء إلى وحدة قوانين علم الحركات

(تم المقال الثانى) اسماعيل أحمد أدهم

التى تتطلبها الحياة ، فنهن من تجتهد اجتهاداً ينتجن به آثاراً طيبة ، وكثيرات يرسلن أقلامهن على فيضها كما يشاء الهوى ، لا يحفلن التنقيح ولا سلامة التراكيب . وفيهن من اتخذت الأدب للسياسة ، ومنهن من عانين فلسفة الأخلاق ، ومنهن من مارسن فن التربيـة وظللن فيها متوسطات لم يأتين بابداع ، ونقد فى أدبهن التجدد على حين رأينا الأدباء والـكتاب بعـد الحرب أحدثوا طرائق لهم جـديدة خالفوا فيها طرائق الآداب قبل الحرب العامة

لا جرم أنهن لم يكتب لهن التفوق على الرجال لأن التدقيق يصعب عليهن ، حتى أن القصصيات منهن لم يتوخين إلا وصف الحب فى كل مظاهره ، جعلنه موضوع قصصهن ؛ وكذلك كان القصصيون ، ولهؤلاء قدرة على معرفة الداخل والخارج فى أقاصيصهم ، يتبعون العقل ، ويحسنون تطبيق الأصول اللازمة ، ولم يعهد لامرأة أن برّزت ، فـكانت مؤلفة فى الدرامة ، وما جاء منهن مؤرخة . فالمرأة تحسن أن تضحك من مثيلاتها ، ولـكنها لا تحسن الاضحاك . أما الرجل فيحسن نقد نفسه ، كما يحسن أن ينتقد غيره ؛ والنساء يحاذرن كثيراً من المزاح الذى يأتى على الاعتبار والحرمة والحب . وهن مجموعة عواطف تحس بالحاجة كل الاحساس وتخشى أن تقع فيها ، حتى لتضن بالابتسامة صادرة عن امرأة لا تنافسها ، وكذلك حالها فى التاريخ ، فقد نشأ فى النساء مدونات مذكرات بكثرة ، وقصصيات ، ومنهن اليوم أستاذات فى التاريخ وأستاذات فى استخراج المـكتوبات والمخطوطات ، يستطعن بما نقفن من معارف أن يعملن عملا علمياً وما كان منهن إلى اليوم مؤرخة من عيار « أوغستين تيرى » ، ولا « ميشليه » ، لأن اللازم للتبرز فى هذا الشأن معلومات كثيرة ليس فى مكنة النساء احرازها ، بل الواجب أن يكون لها مع ذلك فـكر نقاد عار من كل هوى للتمييز بين الحقائق والظنون ، وعقل مجرب لادراك ألوف من الروابط تجمع الحوادث بعضها إلى بعض ، ورأى أكيد قادر خال من التفصـيل فى العواطف ، وقدرة على النظر إلى عصر واحد نظرة واحدة ؛ ولهذا لم ينشأ من النساء امرأة عظيمة واحدة فى باب النقد الأدبى والفني ، ولا كان منهن فيلسوفة تلفت النظر . ومن النساء من كانت لهن مقدرة على الاستفادة من دروس أساتيذهن ، وليس فيهن واحدة ابتدعت مذهباً ، وما قام منهن واحدة استطاعت أن تنتج مثل « خطاب فى التاريخ » ولا « الأفـكار لباسكال » فهن قاصرات فى جميع الفروع التى تستلزم من المؤلف التجرد المطاق من نفسيته ، وما لمت أعمالهن إلا فى موضوعات لا فن فيها ؛ وقلائل منهن من كتب لهن التفوق فى الانشاء والـكتابة ، إلا من قادهن الرجال فى عملهن ، فان « مدام دى لا فاييت » أشرف عليها « سكرى » و« لاروشفو كولد » ، و« مدام دى ستال » سارت بسير أصحابها المديدين ، و« جورج ساند » قادها عشاقها ، و « مدام كوليت » راقب أعمالها « فنيلى »

فاذا لم تتح مواهب النساء الطموح لهن إلى منزلة فى الأدب المجرد ، فقد شهدنا فى آثارهن أحياناً أنها خالية من الصنعة ، فصح أن يقال أن ليس لهن قدرة على التفكير الصحيح ، والتوسع اللازم لوضع الفكر المجرد والانشاء الفنى ؛ ولذلك تساءل « بول فاليرى » عما إذا كانت المرأة ستظل إلى الأبد ظاهرة التوسط فى معاناة الأعمال الفكرية ، ناقصة فى معانى الابداع والحرية ، وعما إذا كان هذا الضعف اللازم هو ثمرة استعبادها زمناً طويلاً . قال : وأنا أود أن يكون الأمر كذلك ، فى الحالة الأولى تكون قد عبثت بها الأقدار الفسيولوجية ، وفى الحالة الثانية يحكم عليها بأن انحطاطها ناتج من أخلاقها . قال ولا يخفى ما تؤثره الأخلاق التى تخلّق البشر بها والقوانين التى ساروا عليها قروناً فى مجموعة التركيب البشرى

ولم يكتب للنساء درجة عالية حتى فى فن الطهى ، ورأينا كبار الطهاة من الرجال لا من النساء ، وتراهن فى باب الأزياء ، والأزياء من أخص خصائصهن ، ينثنين على أنفسهن ليتجملن ، فهن فى هذا الباب أيضاً مقودات بأيدى الرجال ، بل إن النساء الملـكات كما لا حظ « باربيه دورفيلى » قد فقدن البداهة والعمل الذاتى وما ساعد الملـكة « اليزابت » الانجليزية إلا بورليغ ، وإذا ذكرت « كاترين » الروسية ذكرت معها بطرس الأكبر

وقد ظهر من أبحاث العلماء فى جميع الأمم أن الطبيعتين الأنوثة والذكورة متخالفتان ، لا فى ظواهرها بل فى أعمق تراكيبهما ؛ والأطباء يقولون إن كلا من الفتى والفتاة ينشأ نشأة طبيعية متخالفة ، ويكثر الموت والضعف فى الصبيان ، ويتجلى الذكاء والاحساس والحـكمة فى الطفلة ، قبل تجليه فى الطفل ؛

ولا تزال الفروق بينهما تتزايد من الثانية عشرة الى الرابعة عشرة ؛ ويبدو فى الصبيان الاستعداد لتعلم الحساب والعلوم المقررة كما يبدو للفتيات بفضل خصوبة إحساسهن ، جمال انشائهن ورقة نشوئهن بالقياس إلى خشونة كتابة الصبيان ؛ وبعد اجتياز هذه السن الصعبة يرتقى الصبيان ارتقاء دائماً ، أما الصبايا فيقفن فجاءة مأخوذات بحالة جديدة ، وهى حالة المرأة ؛ وكثيرات فيهن من يتركن عندئذ كل عمل . وادعى بعضهم أن ذكاءهن يضمحل فى ذاك الدور ليقوم مقامه حس ينصرف إلى الدَّل ، والغزل ، والموسيقى ، والقراءة ، وأعمال الاحسان ؛ وكثيراً ما يكون أحسن التلميذات فى سن الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة ممن تأخر نموهن ؛ وبينا يكون البلوغ فى الصبي داعياً إلى توسع فكره ، وحاملاً له على معاناة المسائل الكبرى فوق الطبيعة ، تنثنى الفتاة على نفسها ، وتعنى مع إحساسها ، ثم تعانى مشاكل الحب والأمومة ، خلافاً لما ادعته « مدام دى ستال » من أن الأرواح ليس لها جنس معين

وقد قرر العلماء أن تشريح الجنسين متخالف كل التخالف ، فالقامة وثقل الجسم أقل فى النساء منهما فى الرجال ؛ وقوة الأعصاب فى الفتيات أقل مما هى فى الرجال بنحو الثلث ؛ وجماجم البنات أقل استعداداً للنمو وأدمغتهن أقل وزناً ، حتى بالقياس إلى الوزن العادى . وقرر العلماء أن حاسة الشم والذوق فى النساء أقل مما هى فى الرجال ؛ ولذلك قل أن استخدم أرباب المعامل النساء فى الأعمال التى تتطلب التمييز بين الألوان والأذواق ، مثل التفريق بين الخمور والشاى ، ومراقبة الصوت وإصلاح « البيان » . قالت « مدام دى رموزا » : إن الحس أكثر ملازمة لنا معاشر النساء من الملاحظة . واستنتج من هذا أن ذاكرة النساء أقل اضطلاعا بالمسائل من كل وجه من ذاكرة الرجل ، واضطراب المرأة أعظم بكثير من اضطراب الرجل . وتزيد فى بعض أدوار حياتهن اضطرابا حتى تكون مرضاً وحرضاً تبعث على الغضب ، وتصبح مدة الحمل أحياناً فى مثل جنون عارض . وهكذا انفرد الرجل بالذكاء والمرأة بالشعور ؛ والرجل فى كل حين يفكر ويقدر ، والمرأة تشعر وتحس . فالشعور فيهن هو كل ما لهن من آيات النبوغ . قالوا إن المولى أبى أن يرزق النساء قرائح لتتجمع كل جذوتهن فى القلب

قال وقد يعترضنى أناس أن كثيراً من الفتيات أحرزن المقام الأول فى المسابقات العلمية والأدبية الصعبة ، ولكن « خير كوف » بحث فى فتيات الجامعات فانتهى به البحث إلى أن الطالبات قد أهبن بالحافظة والمعلومات الجدية التامة المدققة أكثر من الطلاب ؛ فالطالبات ينقصهن الاستقلال والتعمق فى الفكر . فهن آخذات غير موجدات . وقارن المؤلف بين ثلاثة من الكتاب : « بوسويه » و« فلوبير » و« بول فاليرى » ، وبين ثلاث كاتبات : « مدام دى سيفنيه » و « جورج ساند » و« مدام كوليت » ، فثبت له أن فى إنشاء الرجال منطقاً سليماً ، وفكراً مستقيماً ، كانت فيه متانة جملهم ، ورنة أصواتهم الموسيقية وتساوق الجموع من أقوالهم ، على خلاف كتابة أولئك الكاتبات العظيمات

قال ولا سبيل إلى إنكار تأثيرات العرف من القرون فى تربية المرأة . ولعل أوربا تشهد فى مستقبل الأيام حالة تشبه ما نراه من مثلها فى الولايات المتحدة اليوم ، وهى أن الرجل يشتد فى اقتناص المال عاملاً له كل ساعة ، والمرأة مستغرقة أبداً فى تثقيف نفسها ، وعندئذ ينشأ من النساء الهواة المنورات ، والكاتبات البارعات ، والمغنيات الباهرات ، يكن مناراً يهتدى به السارى فى هذه الحياة . أما الآن فالنساء ينقلن عن الرجل ، والناقل بنقله معترف ضمناً بتفوق من ينقل عنه

محمد كرد على

للتاريخ السياسي

عشرة أيام بئيسة

مشروع لافال - هور والرأي العام

دواعي هذه الخطة الوخيمة العواقب

للدكتور يوسف هيكل

بقية ما نشر في العدد الماضي

موقف كل من الأمبراطور وموسوليني :

في ١٦ ديسمبر أبدت الحكومة في ديسي رأيها في اقتراح باريس ، وهي تعتبر أن إعطاء إيطاليا المعتدية قسما من الحبشة يكون مشجعاً لها أن تعمل على اكتساح الحبشة مرة ثالثة ، وأن الاقتراح القائل باعطاء إيطاليا امتيازاً اقتصادياً في جزء كبير من الحبشة لأشد ضرراً من الانتداب ، وأن حكومة الأمبراطور موقنة بأن مجلس العصبة سوف يرفض الاقتراح عند اجتماعه في ١٨ من ديسمبر

وبهذا التصريح أظهر الامبراطور مهارة دبلوماسية لا تقل عن مهارة كبار السياسيين اليوم . إذ رفض « الاتفاق » بصورة غير مباشرة ؛ ووضع عصبة الأمم أمام حقائق قانونية لا يمكن أن تحيد عنها دون أن تحيد عن مبدئها الأساسي

وقد أجاب الامبراطور أحد الصحافيين عندما سأله رأيه في « الاتفاق » قائلاً : « إن جنودي لم تقهر بعد » !

أما السنيور موسوليني فقد أخذ يماطل في الاجابة . لقد طلب من باريس ولندن إيضاحاً عن بعض النقط في « الاقتراح » وأجل الجواب إلى ما بعد انعقاد المجلس الفاشستي الكبير في ٢٠ ديسمبر

وفي خلال ذلك أخذت الصحافة الايطالية تعلن أن « الاقتراح » لا يسد حاجة إيطاليا ! . . .

اختط موسوليني هذه السياسة اعتقاداً منه بأنه يستطيع بذلك أن ينال زيادة على ما جاء في « الاقتراح » . وقد فقد بذلك بعض أصدقائه في فرنسا ، وأخذ كثير من الصحافيين الذين كانوا يمجدون اسمه ويدافعون عنه ينتقدون سياسته ويلقون عليه تبعة الأزمة الدبلوماسية الحالية

ولما رأى موسوليني أن الرأي العام المالي ضد الاقتراح وضد أي اعتراف له بحق في الحبشة ، عاد إلى سياسته الكلامية التهديدية ، فألقى خطاباً في يوم الأربعاء الموافق ١٨ ديسمبر وصرح فيه بأن إيطاليا ستستمر في سياستها الحبشية الى أن تخرج منها ظافرة

ومما جاء في قرار المجلس الفاشستي الأكبر الذي انتهى انعقاده صباح السبت الموافق ٢١ ديسمبر : إن المجلس يثبت بأن عمل إيطاليا سيستمر ، وأن القرار لقاطع للوصول إلى الهدف الذي اختطه الدوتشي

ولما رأى موسوليني أن مجلس النواب في لندن قد رفض « الاقتراح » وأن جمعية الأمم لم تقبله ، طلب من سفيريه في باريس ولندن إخبار الحكومتين بأن روما سوف لا ترسل جواباً على « اتفاق باريس » نظراً لموته

الأسباب الحقيقية التي دعت مسيو لافال الى وضع « المشروع » :

منذ أن وضع مسيو لافال يده على زمام سياسة فرنسا الخارجية بعد وفاة مسيو برتو في فاجعة مرسيليا وهو يتبع سياسة مسيو « دلكاسيه » المؤدية إلى حصر ألمانيا

لهذا قام بتصفية الخلاف مع إيطاليا ، وبعقد معاهدة مع الروسيا ، وقد حاول أن يحتفظ بصداقة بريطانيا ولكن دون أن يثق بها كل الوثوق ؛ ويمكن القول بأن هذه المحاولة كانت ظاهرية ، إذ أن لافال يكن ضغينة في نفسه لحكومة لندن ، وذلك من جراء عقدها المعاهدة البحرية مع برلين دون أخذ رأي باريس في ذلك

ومن المؤكد أن لافال قد أكد لموسوليني بأنه سوف لا يقف ضد مناهجه في شرق افريقيا ، وأن السياسة التي اتبعها لافال في المسألة الحبشية تثبت لنا ذلك

لقد حاول لافال قبل اعلان الحرب أن يتوصل إلى إقطاع

موسولينى امتيازات كبيرة فى الحبشة عن طريق سلمية ففشل فى ذلك . ثم أخذ يحاول تخفيف شدة العقوبات الاقتصادية التى وضعتها العصبة على إيطاليا فأخفق سعيه . وأخيراً بذل جهده فى تأجيل عقوبة البترول فوفق ؛ ولما رأى أنه لا يستطيع تأجيلها مرة ثانية وإن لجنة العصبة ستبحثها فى الاجتماع الذى حدد لها وذلك فى ١٢ ديسمبر ، وضع « المشروع » وورط هور فى توقيعه ؛ وذلك باظهاره له أن إيطاليا ستعتبر حظر البترول عملاً حربياً وتهاجم البواخر الانكليزية . وإذ ذاك تتحول الحرب إلى حرب إيطالية انكليزية فقط . إذ أن فرنسا لا تستطيع مساعدة بريطانيا فوراً ، كما أنه لا توجد دولة من أعضاء العصبة مستعدة لذلك . أمام هذا التحذير وأمام الصعوبات التى تجابهها حكومة لندن فى هذه الأيام من أحزاب عمال مناجم الفحم ، ومن الصعوبة التى تجدها فى المؤتمر البحرى المنعقد فى لندن ؛ ومن اضطرابات مصر . . . أمام هذه العقبات خشى هور الحرب مع إيطاليا فوقع « المشروع » . وبذلك تمكن لافال من تأجيل مسألة الحصر البترولى بصورة غير مباشرة إن لم يكن قد قتلها

ولكن لماذا يبذل لافال هذه الجهود الجبارة فى مساعدة موسولينى ؟ .

إن سياسة وزارة خارجية فرنسا كانت منذ حرب السبعين تعمل على توطيد العلاقات مع كبرى الدول الأوربية بعقد معاهدات معها . . . لتكون فى مأمن من الخطر الجرمانى . ولما وضعت الحرب أوزاوها وأنشئت عصبة الأمم ، رأت وزارة الخارجية الفرنسية أن تستغل هذه المؤسسة وتستعيض بها وبسياسة السلام المشترك عن سياسة المعاهدات . وقد بذل مسيو بريان فى سبيل ذلك جهوداً جبارة . . .

غير أن لافال حاد عن سياسة فرنسا الجديدة وعاد إلى سياسة ما قبل الحرب : سياسة المعاهدات . . . وحصر ألمانيا وتكوين جبهة قوية ضدها . فتمكن من إيجاد تحالف بين فرنسا وإيطاليا من جهة ، وبين فرنسا والروسيا من جهة ثانية . . .

وهو فى سبيل المحافظة على صداقة إيطاليا والعمل معها ضد ألمانيا قد ضحى بمبدأ عصبة الأمم وسياسة السلام المشترك — ضحى بذلك برغم تصريحاته العديدة بأنه لا يزال يعمل ضمن سياسة جنيف

ومن أجل المحافظة على صداقة إيطاليا يبذل لافال جهده فى تثبيت مركز موسولينى الدولى — إذ هو يعتقد أن زوال حكم موسولينى فى روما أو زوال نفوذه ربما يغير مجرى السياسة الايطالية ، فلا تستفيد فرنسا من المعاهدة التى عقدتها مع موسولينى ، هذا إذا لم تتقرب إيطاليا من ألمانيا وتكونا جبهة قوية . . . خطرة على فرنسا . وفى سبيل ذلك قد وتر علائقه مع بريطانيا ، إذ من المحال الاحتفاظ بمحالفة موسولينى وصداقة بريطانيا معاً فى الظروف الحالية

فهل أصاب لافال بسياسته هذه ؟ وهل مكن مركز فرنسا الدولى وأبعد عنها كل خطر جرمانى ؟

إن ألمانيا تتسلح الآن بكل ما لديها من قوة ، وأنها ستضع قوتها يوماً ما فى حيز العمل ، غير أنها قد أخذت درساً كبيراً فى الحرب العالمية ؛ وهو أنها لا تستطيع قط محاربة العالم ، وأن أى حرب تكون فيها فرنسا وبريطانيا فى صف واحد خطرة عليها . لهذا يبذل ساسة ألمانيا جهدهم فى تفريق وحدة دول جنيف وإضعاف سياسة الأمن المشترك من جهة ، وفى التقرب من بريطانيا وإبعادها عن فرنسا من جهة ثانية ، وهم ان تمكنوا من ذلك اتسع المجال لمطلمهم وتنفيذ مناهجهم

ومن الغريب أن نرى أن سياسة لافال الحالية ، تعمل بصورة غير مباشرة على تطبيق المنهاج الألمانى ؛ وفى تطبيقه زوال مركز فرنسا الدولى ، وهو رفيع ، وإضعاف سلطانها

وإننا نعتقد أنه لا أضمن لسلامة فرنسا واستمرار عظمة نفوذها الدولى من تقوية جنيف وتثبيت سياسة الأمن المشترك ؛ وبتثبيت هذه السياسة وبالمحافظة على الصداقة البريطانية يزول عن فرنسا كل خطر جرمانى

ومن هنا نرى أن لافال قد أخطأ كثيراً فى تضحية هذه القوى الجسيمة فى سبيل المحافظة على موسولينى وكيانه ، وأن مشروعه كان غلطة فادحة تجر على فرنسا ضرراً جسيماً لو نفذ ، ناهيك بالأضرار الجسيمة الأخرى التى تنال السلم العام وحقوق الدول الصغرى

(لندن) يوسف هيكل

دكتور فى الحقوق من (حكومة فرنسا)

٣ - سكان أعالى النيل

بقلم رشوان احمد صادق

المجموعة الحامية النيلية

البارى

يسكن جنوبى منطقة الدنكا أى (فى أعالى بحر الجبـل) عدة قبائل تتكلم اللهجة البادية نسبة إلى شعب البادى ، وبهم بعض الشبه من شعب الدنكا ، ولا بد أنه حصل اختلاط فى المنطقة التى يسهل أن يحتك فيها الدنكا بالقبائل البادية خصوصاً فى المجموعة المساة الشير ، ومع ذلك فهم ليسوا زنوجاً نيليين ، وهم وإن كانوا ثقافة واثمة وجنساً يتبعون النصف حاميين فى شرق افريقا لتغلب العنصر الحامى فى تكوينهم إلا أنهم يعتبرون ضمن مجموعة قائمة بنفسها وهى (المجموعة الحامية النيلية)

ويمكن تمييز نوعين من الجماعات التى تتكلم اللهجة البادية : جماعة شرق بحر الجبل ، وجماعة غربه . والمجموعة الشرقية تنقسم إلى عدة قبائل ، ويظهر أنهم كانوا يتبعون النظام الطوطمى لوجود بقاياه فى بعض القبائل ، إذ يعتقدون بانتقال روح الميت إلى حيوان مخصوص عندهم

والرجل الذى يقوم بعملية استنزال المطر هو رئيس القبيلة ، ومركزه يختلف عن مركز الرئيس الروحانى عند الزنوج النيليين ، فاذا أخفق فى استنزال المطر فانه يذبح فى الحال ، ويدور البحث عن غيره ليحل محله . كذلك يوجد عدة رؤساء يطلق على كل منهم اسم (صاحب الأرض أو الأب) ، وهو اسم يعطى لـكل من جهز قطعة أرض وزرعها ، وكذلك يمنح هذا الاسم لخلفه ؛ وينحصر عمل هذا الرئيس فى القيام ببعض التعاويذ والسحر عند بذر الحبوب واثناء نمو النبات وقبل عملية الصيد ؛ ولهذا الرئيس مقام محترم بين البادى إذ بدونه يفشل الصيد والزرع

وحفلة استنزال المطر تعتبر من المظاهر الممتازة بين البادى ؛ وتجرى هذه الحفلة على النحو الآتى : يحضر الرئيس قطعاً من حجر الـكوارتز بعضها أبيض اللون والبعض الآخر أخضره ، ثم يضعها فى إناء ، وبعـد غسلها يضعها على صخر كبير يسمى صخر المطر Rain Store وهو بقايا آلة قديمة لطحن الحبوب . ثم يلطخ الحجر بزيت السمسم ، ثم يذبح عنز أسود بجوار هذا الحجر ، ويأكل الرئيس ومساعدوه وبعض الشيوخ من لحمه ، ثم تؤخذ بقايا الغذاء الذى فى معدة العنز وتوضع أيضاً على هذا الحجر ، ثم يأتى المطر بعد ذلك . وكثيراً ما تجرى هذه الحفلة بجوار مقبرة شيخ مطر قديم أو بعض الأماكن المقدسة التى تنتمى اليه

اللوتوكو

ولهجة اللوتوكو تتكلمها القبائل الآتية : (١) اللوتوكو (٢) الـكويا (٣) اللنجو . ويلاحظ فى هذه القبائل الثلاث أن الرأس طويل ، أما القامة فقامة اللوتوكو أطول منها فى القبائل الأخرى بمقدار بوصتين . وهم ينقسمون إلى قبائل طوطمية ، وأهم مظهر للطوطمية عندهم هو أن كل فرد بعد موته تنتقل روحه إلى الحيوان الذى تقدسه القبيلة ؛ فهناك قبيلة تقدس التمساح ، وأخرى تقدس القرد ، وثالثة تقدس الفيل ، ورابعة تقدس النمل الأبيض ، وخامسة تقدس الثعبان وهلم جرا ؛ وأقوى هذه القبائل هى التى تقدس التمساح ، ومنها ينتخب الرؤساء الذين يقومون بحفلة استنزال المطر ، ويستعملون فى هذه الحفلات حجر المطر السابق ذكره Rain Stone ؛ كذلك يستعملون بعض الحراب المقدسة كمساعد ، والمياه التى توضع فيها هذه الحراب تحضر من بركة مقدسـة يعيش فيها التماسيح التى تنتقل اليها أرواح أجدادهم رؤساء المطر

ومن عادتهم اخراج عظام الميت بعد دفنه بثلاثة أشهر ، وأحياناً من ثلاثة إلى ستة عند اللوتوكو ، ويعتقدون أن فى ذلك سعادتهم ورفهتهم . كذلك عند موت الميت يسرعون إلى دفنه ، ثم بعد ذلك يقيمون له تذكارا Nametere ينوب عن الميت حيث يقيمون له المراسم الجنائزية المختلفة

المجموعة الزنجية

الأزندى

رؤوسهم متوسطة ، وقاماتهم أقصر من قامة الزنوج النيليين ، ولونهم أفتح من لونهم ، إذ يختلف ما بين لون (الشكلاته) ، ولون بشرة سكان البحر الأبيض المتوسط . وبعض العلماء يعلل ذلك باختلاطهم مع البربر والحامى ، وربما كان هـذا الاختلاط مع جماعة الفولانى . ويمكن اعتبار الأزندى من زنوج غرب افريقا ، إذ تظهر عليهم جميع المميزات التى تميز زنوج غرب افريقا

من غيرهم . ومن الصعب التفرقة بين رجل من الأزندى وآخر من سكان افريقا الاستوائية الفرنسية أو نيجريا . كما أن لغة الأزندى خالية من الأثر الحامى ، على حين أنه توجد بها آثار من لغة البانتو ، وهذا ينعدم وجوده فى لغة الزنوج النيليين السابق الكلام عليهم . والأزندى من جهة الثقافة يتبعون غرب افريقيا بعكس الزنوج النيليين الذين يتبعون فى ثقافتهم شرق افريقيا . وهذا يتضح تماما من نظام بناء كوخ الأزندى ومساكنهم وآلاتهم الحربية والموسيقية مثلا

والأزندى عبارة عن عدة قبائل ولهم حكومة مركزية عليا . وهم ينقسمون إلى ولايات مستقلة عن بعضها ، وهى فى حرب دائمة مع جيرانها ، ولكنها جميعها تخضع لملك واحد من أسرة أرستقراطية مالكة ينتخب دائما منها الملوك ، وهذه العائلة المالكة تسمى (الافنجارا) ومنها ينتخب أيضاً رؤساء الادارة والحكومة الذين يساعدون الملك ؛ والملك هو الذى ينتخبهم ويوزع عليهم العمل . والملك وهؤلاء الرؤساء لا يشتركون فى الحروب

ويتلخص النظام الادارى فيما يأتى :

١ — الملك وهو الرئيس العام ويحكم فى العاصمة وهو المرجع الأعلى ويحرم عليه أن يدخل الحرب بنفسه

٢ — مقاطعات أو مديريات يديرها أبناء الملك أو إخوته أو غيرهم من العائلة المالكة ، وكل من هؤلاء مطلق السلطة إلا أنهم مسئولون أمام الملك مباشرة عن حفظ الأمن والعدل كما أن عليهم واجبات نحو الملك ؛ مثلا إذا أراد الملك عملا لبناء منازله أو جندا للحرب فعلى هؤلاء المديرين أن يقوموا بجمع العدد اللازم حسب طلب الملك ، وهؤلاء المديرون لا يدخلون الحرب

٣ — تنقسم كل من هذه المديريات إلى عدة أحياء أو مناطق على كل منها نائب أو وكيل ، وهذا النائب يباشر الأمور المختصة بالعدل بواسطة عقد مجلس يكون هو عضوا فيه يساعده الرجال المعترف بكفاءتهم فى حيه أو منطقته . فاذا ظهر نزاع بين فردين وجب أن تعرض المسألة على نائب الحى أولاً ، فان كان موضوع النزاع بسيطاً حله النائب ، ولكن إذا كانت المسألة معقدة مهمة فان النائب يحولها مباشرة إلى المدير الذى يحكم المديرية ، وهو طبعاً أحد أفراد العائلة المالكة ؛ ولا يمكن عمل استئناف من المدير إلى الملك ، لأن المدير مستقل بشؤون مديريته فاذا أراد الملك أن يعلن حرباً أو يقوم بعمل اقتصادى مهم فانه يرسل فى الحال إلى المديرين يخبرهم بالعدد اللازم ، وعند ذلك يقوم كل مدير بعقد مجلس برياسته يدعو اليه جميع النواب الذين يحكمون الأحياء التى تنقسم اليها مديريته ، ويشاورهم فى العدد الذى يمكن أن يقدمه كل منهم ؛ وهؤلاء النواب يقومون بعد ذلك بجمع العدد اللازم من كل منهم بواسطة قرع الطبول . وبذلك يمكن إرسال العدد المطلوب من العمال والجنود الى الملك . والملك نفسه يدير مقاطعة فى وسط بلاده وهى بمثابة العاصمة وضواحيها ، ولكنه يستعين بالمديرين فى المسائل القومية المهمة

(البقية فى العدد القادم) رشوان أحمد صادق

بمناسبة أربعين الزعيم الخالد

يوم هنانو

للأستاذ أمجد الطرابلسي

صُعق الناسُ حسرةً فأهابوا   مَنْ صَريعُ الحِمى؟ فقيل الشِّهابُ
ضربوا في الدُّجى البهيم سُكارى   أين منهم هُداهُمُ والصواب
وسَرَوا خُشَّعَ النواظرِ يَغشا   هُم من الليلِ والدموعِ حجاب
يتناجوْن باللحاظِ من الهو   لِ؛ أصِدقٌ ما قدرَوْا أم كذاب
شرِقوا بالدموع إذ هَتف النا   عى مُهيباً، ومادتِ الألباب
هَتفاتٌ فوق المآذِن تعلو   فيضجُّ الباكونَ والنَدّاب
ورنينُ الناقوس من كلِّ فجٍ   تَتَفَرَّى له القلوبُ الصِّلاب
زفراتٌ هي الكبودُ تَلظَّى   ودموعٌ هي النُّفوسُ تُذاب
هاهُنا لِلْبِى عويلٌ مُرِنٌّ   وهنا ثَمَّ لِلشِّبالِ انتِحاب
من يواسيهمُ وكلٌّ طعينٌ!   من يُعزيهمُ وكلٌّ مصاب!
لا تلُمْهُمْ! خلا العرينُ، فمن يد   فعُ عنهمُ إذا استُبيح الغاب

* * *

زُلزلت دارةُ الوليدِ ومادت   تحت عِبْءِ المُصابِ فيها الهِضاب
فَعليها من الهُزالِ شُفوفٌ   وعليها من الشُّحوبِ نِقاب
لَبِسَتْ في نهارِها اللَّيلَ وجداً   وتوارى السُّمّارُ والأصحاب
وتباكت حمائمُ النَّيْرَبِ السا   جي وأوْدى غِرِّيدُهُ المِطراب
ليت شعري أذاكَ (مروانُ) أوْدى   فأهَلَّ الورى وَسَحَّ السحاب
أم تداعى عرشُ (الوليدِ) غَداةً   فتداعت منابرٌ وقِباب

* * *

يا لِسُورِيَّةَ الشهيدةِ كم ذا   تتهاوى أبناؤُها الأنجاب
يَهْبِطُ الكوكبُ المُحَجَّلُ منهم   أو يُقَدُّ المهنَّدُ القِرْضاب
فإلى صدرها تَضُمُّ الضحايا   وعلى صدرِها يُهال التراب
ملأوا قلبَها نُدوباً وشَجْواً   ليس يخبو وقودُه اللهّاب
أبداً للدموع فيها انسكابٌ   أبداً للدماءِ فيها انصِباب
رَوِيَتْ مِنْ دِماءِ أبنائِها الغُرِّ   م وفاضت رِباعُها والرِّحاب
أمس في الغوطةِ الرَّؤومِ تهاوت   شُهُبٌ كلها مُنًى وشَباب
وعلى ميسلونَ سالت دِماءُ   علَّمَتْنا أنّى يكونُ الغِلاب
شهداءُ أعزةٌ عَدَدَ الزهْ   رِ أيُحْصى زَهْرَ الشآمِ كِتاب!

* * *

يا هنانو أثرْتَها ذِكرياتٍ   ضَمَّدَتها السِّنونَ والأحقاب
فليالِيَّ بعدَ منعاكَ سُهْدٌ   وشرابي قذىً وشَهْدِيَ صاب
كنتُ في قريتي الوديعةِ سهوا   نَ فلا غُصةٌ ولا أوْصاب [(1)]
تستبيني مِن الرُّعاةِ لحون   وأغانٍ عُلوِيَّةٌ، ورَباب
وَمِنَ الطَّيرِ في الرُّبى نغماتٌ   هُنَّ لِلُّبِّ مِزْهَرٌ وشراب
أذْنِنُ الهمَّ في ظِلالِ التمنّي   والأعاليلُ مورِقاتٌ رِطابُ
وأغنى مع الطفولةِ لحناً   ذِكْرُهُ كله وشهد مذاب
وحوالَيَّ صِبيةٌ كالعصافِ   ير مِراحٌ، أهِلَّةٌ، أتراب
يتبارَوْنَ عابثين فما يد   رون ما الهمُّ، ما الأسى، ما العذاب
كِدْتُ أسلو لَذْعَ الحنين وأنسى   بينهم ما يهيجُهُ الاغتراب
فأتاني الناعي يُجَمْجِمُ في القوْ   لِ فما إنْ يبينُ منه الخطاب
قالَ: مات الزعيمُ، قلتُ: هوى العَرْ   شُ رُكاماً وَقُوِّضَ المحراب

* * *

يا إلهي أكلما سُدَّ باب   من شَقاءِ الشآمِ حُطِّمَ باب!

* * *

يا فقيدَ الآمالِ قُم فتأملْ   كيف تبكي آمالُنا والرِّغاب
رَزَحَ الموْطنُ الجريحُ وناءت   أمةٌ لم يذلَّها الإرهاب
كنتَ في السّاحِ والنديِّ زعيماً   ما دَعَوْتَ الشِّبالَ إلاّ أجابوا
ومشوا خلفَ ضيغمِ الغابِ صفاً   ليس يخشى الردى وليس يهاب
كلهم باسمون خلفَكَ للمو   تِ، سِراعٌ إلى الطِّعانِ طِراب
كنتَ حِصْناً فدكَّ ذيّالكَ الحِصْ   نُ وَحِرْزاً فَقُدَّتِ الأطناب
وشِهاباً يفترُّ في أُفُقِ المجْ   دِ بهياً لا يعتريه غياب
شَعَّ دهراً فأُرشِدَ ابنُ الدياجي   وأُنيرَت مسالكٌ وَشِعاب
ثم غشّاهُ من سكونِ المنايا   سُحُبٌ مكفهِرَّةٌ وَضَبابُ

* * *

وطن سار خلف نعشِكَ يبكي   يا لَهُ اللهُ صارخاً لا يجاب

(١) كنت في مدرستي القروية حين أتاني نعي الزعيم الغالي

كان يرنو إليكَ كالطِّفل إما   عَضَّهُ من أراقم الظلْم ناب
موكِب كالخِضَمِّ سارَ خَشوعاً   جَلٌ ذا مَوْكِباً وَجَلٌ الرِّكاب
مَن رأى محشراً يموجُ زِحاماً   وَعُباباً يبكى عليه عُباب !
ولواء قد كنتَ تفديهِ إمّا   رَوّع الغابَ عاصِفٌ صَخّاب
ضَمَّك اليومَ لوعةً وحناناً   أنت منه الشَّبَاةُ وَهْوَ القِراب
من لهُ اليومَ إن أناخ عليه   مُستبيح أو راعه غَصاب !

***

إيه (شهباء) أىُّ سِفرِ جهادِ   غالهُ فيكِ غائل ريّاب
وخَفوق يغْلى مُنىً وإباء   وفتًى لا تغرُّه الألقاب
كان تاجاً فى مِفرقيكِ وَدِرْعاً   لكِ تنبو عنه القنا والحراب
وأباً بالبنينَ براً شفيقاً   كلهم فى فنائه أحباب
هزَّهُم للعُلى فكانوا صفوفاً   وهْوَ ليث بين الصفوف مهاب
لهفَ نفسى أن غاض فيك نمير   كان بالنُّور والهُدى ينساب
تنتوى ساحَهُ الحيارى وتهفو   حول شطيْهِ عُطَّشٌ وسِغاب

***

جسد هدَّه الكِفاحُ فأبلا   هُ وقلب على المدَى وثّاب
كلما هاجه الإسارُ تنزَّى   فتنزَّى فيه الصبى والشباب
إن مشى للأمامِ هانَ عصيب   وتوارت عن الطريق صعاب
حمل السيف طاوياً فى الصحارى   عادةُ الليث عِزة وضراب
يرشُف الموت بالرماحِ ولا ير   ضيه هَضم لحقّه واغتصاب
ذاب فى حَوْمةِ النِّضالِ شهيداً   ذا كُمُ المجدُ ساطعاً لا السراب
إنما المجدُ ثورة وجهاد   لا كلام مُنَمَّق وخطاب

***

يا جيوش الشبابِ ، يا أُسْدَ الغا   بِ ، ويا أيها الشبالُ الغِضاب
قد مضى القائدُ العظيمُ إلى الخُلْـ   ـدِ وقد عاجلَ الرئيس التّباب
فارقأوا هذه الدُّموع الجوارى   ليسَ فى الدمعِ للفقيدِ مآب
واسكبوا خلفَهُ الدماء الغوالى   إنما الدمع هيِّنٌ مِخصاب
وصليل السيوف أجملُ لحنٍ   لِبُكاء الشهيدِ لا التَّنحاب
لا تخوروا فإنَّ معركةَ النَّصـ   ـر بدا فجرُها الضحوكُ العُجاب !

أمجد الطرابلسى

سحر الطبيعة
للاستاذ عبد الرحمن شكرى

كؤوس من النور هذى الزهو   ر أم هى أخيلة الشاعر
وليست بحُلم ولكنها   أجل من الحُلم الباهر
وما خلقت لفنون الحيا   ل فتنة حسن لدى الخابر
وماء الحياة ونبع الخلو   د فى مائها السلسل المائر
وعشب قشيب وظل ظليل   أدنيا أرى أم مُنَى الساحر
ومما يزيد رواء الزهور   أذى العيش والقدر الجائر
لقد خفت أن تنطوى مثلما   يزول الخيال عن الناظر
فاسلمت نفسى لسحر الخيال   لأخلد فى حسنها الزاهر
وغبت عن الحِسِّ حِس الوجود   كأنىَ روح لدى العابر
كأنى نقلت إلى عالم   مينشأ فى الدهر أو غابر
كأنى نقلت إلى جنة   نأت عن سطا القدر الدائر
ومما يزيد رواء الزهور   أذى العيش والقدر الجائر

عبد الرحمن شكرى

قبلة الحب
بقلم فريد عين شوكه

هاتها هاتِها فإنىَ ظمآ   نُ إلى وِردك العفيف الطهور
هاتها قُبلةً تُهَدْهِدُ أحشا   ئى ، وتشفى من الجنون شعورى
عطشت مهجتى اليك وضاقت   جَنَباتى بما بها من سعيرِ
فارْوِ ما جفَّ من حشاى ورَفِّهْ   عن فؤادى وخاطرى وضميرى

ويك ياقلبُ ! ما لخفقك يشتد (م) وما للحشا يلجُّ وثوبا ؟
إنها خمرة الهوى فارتشفها   لهباً فى الضلوع حتى تذوبا
ضلةً للفؤادِ ! رفَّ على النا   رِ ولم يخش جمرها المشبوبا
كلما ذاق حرَّها عاد لهفا   ن اليها حتى استحال لهيبا

يا لها قبلةً أحرَّ من الجمـ   ـر على قلبىَ اللهيف المعذَّب
رشفة كالندى الندىِّ استحالت   شعلة فى الدماء أيان تذهب
هيه يا ثغره الحبيب ! أنانى   منك ما يشعل الضلوع و يلهب
قبلةُ الحب لفحةٌ من جحيمٍ   هى أشهى من النعيم وأعذب

فريد عين شوكه

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٦ - تطور الحركة الفلسفية فى المانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

لكل فلسفة أجل موقوت، تظهر فيه حجتها على الناس. وكل فيلسوف يضم شتات فلسفته ويحبسها ضمن نظام منطق كأنها عمل عقلى محض، ألا إن هذا باطل، فان الحياة الواعية فى كل انسان لها جذور تمتص من الحياة غير الواعية فيه؛ وإن حبه لمعرفة الحقيقة يعود إلى غريزة فيه قوية خفيــة. عد إلى المذهب الفلسفى العددى المجرد من كل شخصية ومن كل هوى تجـد شيئاً ينزل منزلة الايمان فيه؛ وما نظريات الفيلسوف فى الحقيقة إلا بنات مذكراته واعترافاته. إن هـذا الفيلسوف ليس فى الحقيقة - كما يخيل الينا - مفكراً خالصاً، ولكنه محام خبيث يذب عن اعتقاداته الوهمية ولا سيما الأدبيــة منها. يجرب أن يجعل من اعتقاداته حقائق ثابتة ودساتير نافذة. على أن هذه الاعتقادات التى تنطوى عليها المذاهب الفلسفية التى تريد أن توجه الحياة فى سبيلها، إنما هى اعتقادات مستمدة من المثل الذى يبشر بالزهد والمسكنة... وهكذا لم يكن الكاهن والفيلسوف بخصمين - كما يبدو ظاهر الأمر - وإنما صاحبان وإن كانا لا يدريان

هذا هو (كانت) أبو الفلسفة الألمانية لا يرى فيه نيتشه إلا كاهناً مسيحياً تطور فى بعض حالاته. وخلاصة فلسفته أنها تضع «شعبتين» من شعبها خارج القوة العقلية؛ فى الأولى تلهج بعالم حقيقى مباين لهذا العالم المبنى على الظواهر والحوادث، وفى الثانية تؤمن بالشريعة الأدبية الخلقية انها مقدرة تقديراً. وإذا جرد المحقق هاتين الشعبتين وجد أنهما وليدتا نظريات الشريعة المسيحية ذاتها. اذ ما هو الايمان بعالم حقيقى غير هذا العالم؟ أليست هذه الفلســفة تنطوى على الفكرة التى يبشر بها علم اللاهوت، فالالـه هو العلة الأولى للوجود الذى تتلقفه الحواس، وحياة الانسان الحقيقية هى الحياة فى الله، وهكذا أخذ النظريون فكرة القول بالـه صالح، بالـه للمتألمين، ودققوها وسموا بها وبدلوا لونها حتى أحالوها عنكبوتاً ضخما ينسج الوجود من خيوطه. فكان منه «المثل الأعلى» والعقل الخالص، والواحد المطلق، والشىء القائم بذاته؛ على أن هذا الشىء القائم بذاته، وهذا العالم الحقيقى ان هما - اذا تجردا - إلا العدم الخالص

ان الـه المسيحيين - كما يراه نيتشه - هو الـه كل ما يتألم، وكل ما يجنح الى الموت؛ وهو بدلا من أن يبشر كالآلهة الوثنية بما يفيض على الحياة من بهجة ونعيم، ويبث الارادة القوية التى تقول للحياة: «بلى»، ولكل ما تحمله «بلى»؛ نراه يحمل الناظر الى كل منحط خسيس فى فؤاد الانسان، يكره الحياة الحقيقية ولا يحمل لها إلا مقتاً؛ ويجعل رجاءه فى حياة وهمية ثانية. إن عالم النظريين يماثل فى حقيقته هذا العالم المسيحى. إنه كلمة فارغة من كل حقيقة؛ إن الالـه المسيحى هو علامة «سلب الحياة»، وإلـه الفلاسفة هو العدم الخالص

وتلك الارادة التى تمثل هـذا الالـه إن هى إلا الجنوح الى الفناء. وإن أبرز هؤلاء الفلاسفة الذين يعتقدون بأنهم مارقون من كل دين وكل إيمان هم فى الحقيقة رجال إيمان لا يتزعزع. إن هؤلاء العلماء والفلاسفة اللادينيين أثواباً مختلفة إنما لباسهم لباس واحد يلفهم ويضم بينهم، هو لباس الزهد

لنحلل مُعتقَدهم: أن إرادة إدراك الحقيقة - مهما كان ثمنها - تتهيأ فى طريقين مختلفين: تقول «لا أريد أن أخدع!» أو تقول «لا أريد أن أخدع نفسى ولا أخدع أحداً» أما القول الأول فهو بعيد عن الحقيقة، لأن الانسان ليقدر على أن يسمو إلى الحقيقة بفطنة منه أو خشية إذا كان يثق فى نفع هذه الحقيقة السامى اليها. ولكن الحقيقة هى أنه إذا كانت هنالك حقيقة بدأت تنجلى شيئاً فشيئاً للعقول المستنيرة فهى أن الوهم ذو فائدة للوجود وضرورى له كالحقيقة. وفى اعتقاد نيتشه أن الوهم والكذب هما من الجواهر اللازمة للحياة

إن مسألتنا التى نبتغى حلها ليست بجملة اعتراضات ، ولا فوز فى المنطق ، وإنما مسألتنا هذه : « ما هو الأجدى نفعاً لحفظ الحياة وصيانة النوع ووقاية الحيوان ؟ » وإنا لنستطيع أن نقول بدون تردد : إن الأفكار والأحكام الأكثر بعداً عن الحقيقة هى عندنا من الأشياء التى لا مُنصرَف عنها : ولو أن البشرية استغنت عنها لما استطاعت الحياة ، إذا كان الجحود جحوداً بالحياة نفسها وإعداماً لها

ولكن لو فرضنا أن الكذب أكثر عما والحقيقة أكثر شؤماً ، فان رجل العلم لا يجنح ـ إذ ذاك ـ الى الحقيقة طمعاً فى فائدة أو رهبة من شىء ، وإنما يجنح اليها ويتواقع عليها لأنه نشأ على ألا يخدع نفسه ولا غيره مهما كلفه ذلك . تراه يضحى بسعادته وبالبشرية فى سبيل الحقيقة ، هذه الحقيقة المقدسة التى راح يسميها المسيحى إلـهاً

ومما لا ريب فيه أن ناشد الحقيقة يضع إيمانه فى وجود غير هذا الوجود ، وحياة غير هذه الحياة . فماذا تراه يضع فى وجودنا هذا بعد انصرافه عنه ؟ هل يجد غير الجحود به ؟ ولكن رويداً ! أريد أن أقول : إن اعتقادنا العلمى مبنى على اعتقادنا النظرى . وإننا نحن مفكرى اليوم ، الجاحدين الناكرين نستمد النار التى تحرضنا وتثيرنا من الجمرة التى أضرمتها نار العقائد كثيراً ، ومن ذلك الايمان المسيحى الذى شابه الايمان الأفلاطونى القائل بأن الله هو الحقيقة وأن الحقيقة هى إلـهيته

إن رسول الجيل الحاضر لم يجرؤ على أن يشك فى القيم الحالية الموروثة ، لم يجرؤ على القول : ما هى قيمة الحقيقة وما هى قيمة ذلك الأمر المطلق للفضيلة التى تأمرنا بسلوك طريق الحقيقة ؟ إنه وقف مكتوف اليدين إزاء مسألة الحقيقة والفضيلة . إنه لم يقل لماذا وجب على الانسان أن يعرف كنه هذه الطبيعة التى نحسها اليوم كقوة عمياء ، غير عاقلة لا تعبأ بالخير ولا بالشر ، فيها قوة الخصب والتوليد ؛ تنجب دائماً مخلوقات جديدة لتضحى بها لغايات لا معنى لها ، ولا عاطفة فى صدرها ... وإذا كانت هذه حالها فلماذا كتب الانسان على نفسه التضحية بها فى سبيل مثل هذه الألوهية ؟

يرى نيتشه أن الرغبة فى الحقيقة مثلها مثل الصبغة المصرية لصرامة التنسك والزهد التى دفعت الانسان إلى أن يضحى ـ فى سبيل إلـهه ـ بكل ما علك يداه ، فكان الانسان يقرب له الضحايا البشرية ، يضحى بأول غلام يأتيه ، حتى إذا جاء العهد المسيحى أصبح الزاهد يضحى للإلـه بكل غرائزه وميوله الطبيعية

والآن ماذا علك عليه ليضحى به ؟ ألم ينته دور التضحية له بكل عزيز ؟ أليس الأجدر الآن تضحية الإلـه نفسه ؟ وعبادة الحجر والمُبهم والثِّقل والحظ والعدم إمعاناً فى مجافاته ؟ وهكذا نجد رسول المعرفة الذى لم يهو فى مهواة الشك ، المؤمن بالحقيقة ، الجرىء على خلق مثل أعلى ، الشديد إيمانه بالعقل السامى والفضيلة ، نجده ـ إذا نزعت رداءه ـ زاهداً ينكر الوجود ، ومتشائماً يفر من الحياة ، لأنه يأبى أن يستسلم إلى الوهم ، إلى الكذب اللازم للحياة ، انه عدمى كالمسيحى يعمل على أن يقذف بالانسانية فى هاوية العدم

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

صور من هوميروس

٢١ - حروب طروادة

١ — مصرع أخيل ٢ — انتحار بوليكسينا
٣ — سهام هرقل ٤ — مقتل باريس
٥ — نهاية إيونونيه

للأستاذ دريني خشبه

انتهت الهدنة، واندلعت نيران الحرب كرة ثانية ، والتحم الجمان تؤجج العداوة بينهما ثارات وثارات؛ ولم يُجدِ الطرواديين أن تنضم إليهم مليكة الأمازون تحارب بفصائلها فى صفوفهم وتشد بجموعها أزرهم، فان أخيل هو هو لم ينقص ولم يزد . . . بل هو يزيد كل يوم ظمأ إلى دماء قاتلى صديقه وأحب الناس إليه ... بتروكلوس الشهيد ...

لقد انقض أخيل على مليكة الأمازون التى انقضت بدورها على جحافل الهيلانيين فأوقعت الروع فى نفوسهم، وقذفت الرعب فى قلوبهم ... فلم يزل بها يصاولها ويطاولها حتى نهز منها نهزة أنفذ بها رمحه فى صدرها، وعفر جبينها اللتهب بثرى المعممة ، وجردها من سلاحها إذ هى جثة هامدة ، وانكفأ أتباعها وبهن من الحزن على صاحبة الأمر فيهن ... ماصرفهن عن طروادة والطرواديين

وإن أخيل ليصول فى الميدان ويجول ، وإنه ليرتفع بصره عفواً ، وعن غير قصد ، إلى البرج الشاهق من أبراج إليوم ، فوق البوابة الاسكائية ، إذا به يلمح قمراً مطلاً من شرفة البرج يرنو بعينى ظبى ، ويسطع بجيد رئم ، ويشرق بخدين ناضجين من خدود ربات الخدور ، يرسلان على الساحة كلها سناءً ورُواءً ...

من هى ؟ ...

من هذه العذراء البارعة التى تشرف هكذا على الساحة الحمراء فتطفىء جذوات الغل المتقدة بين أضلاع أخيل ، وتضع حداً لهذه الثورة التى ظلت إلى تلك اللمحة تعصف بنفسه الغضبى ، وتحز فى قلبه المحزون ؟ ...

أوه ... ! ! إنها الأميرة الفتانة بوليكسينا ، صغرى بنات الملك الشيخ ... بريام البائس الباكى الحزين ...

لقد أرسلتها العناية لتشرف على الساحة الصاخبة ، ولتنظر إلى هذا البطل الخرافى الجبار الذى لم يعد بيت فى طروادة كلها إلا وفيه لسان يلهج بذكره ، ويتحدث عن شجاعته ، ويخوض فى جبروته .... ثم لم يعد بيت فى طروادة كذلك ، إلا وفيه عين مؤرقة تبكى على عزيزها الذى قتله هذا البطل ، أو الذى سيقتله ، أو الذى يخشى منه عليه أن يقتله ... كأنه أصبح سفير هيدز إلى اليوم ، أو وزير بلوتو العظيم ! !

وأبصر أخيل بها ... ويالها من نظرة أنبتت فى قلبه دوحة من الحب وارفة ، ذات ظلال وذات أفياء ...

وظل الرمح يهتز فى يده ... ولا يصيب أحداً ... وظل هو يسارق قمر البرج المطل نظرة فنظرة ، وظل مشدوهاً مسبوهاً ... لا يعرف لم شُبت هذه الحرب ، ولم يقتتل هذان الجمان ؟ ! ...

وانثنى من الميدان ينظر فى هذا الغرام الجديد ...

ولم يجد بداً من العمل لاحلال السلم محل تلك الحرب التى طالت وتتابعت عليها السنون ، من غير أن يظفر الهيلانيون بالطرواديين ، أو الطرواديون بالهيلانيين ، ومن غير أن يفكر أحد فى هذه المجزرة الشائنة التى تفتدى كل يوم بقطوف الشباب من زهرات الأمتين على السواء

فيالله من حب مهد لسلم ، لولا قساوة فى القلوب زادتها الثارات عنفواناً ، ولولا شرف أمة بأمرها تعبث به امرأة ، ولولا الأحن التى ذهبت بأبناء الملوك الصيد !

واستطاع أخيل أن ينفذ رسله إلى بريام يستمتبه ، ثم استطاع الرسل أن يخاطبوا الملك فى بوليكسينا على أن تكون أحب أزواج أخيل وآثرهن إلى قلبه ، فوعدهم الملك ، بعد إذ لحظ من افتتان ابنته هى الأخرى بزعيم الميرميدون ، أن تتم مراسيم الزواج حين تضع الحرب أوزارها ، وحين تنكشف هذه الغمة القاسية عن طروادة ...

بيد أن الهوى المبرح قد ألح على قلب أخيل ، والصبابة العاتية قد جمعت أفانين من السهاد فى عينيه ، وطيف بوليكسينا يراوحه ويغاديه ، ويملأ عليه أخيلته ، ويتهادى أمامه فى كل نظرة ينفرج عنها هدبه ، أو غمضة يتناعس بها جفناه ! فلم يطق إلى صبر من سبيل !

وأنفذ رسله كرة أخرى فاتفقوا مع الملك على إجراء مراسم الخطبة ، عسى أن تفل من غرب هذه الحرب القاسية ، أو تنتزع منها تباشير السلام المنشود !

وأعلنت هدنة ليوم أو بعض يوم ؛ وأقيم المهرجان الفخم فى صميم الحومة الرائمة ، وتقدم أخيل فصافح الملك ، وأعلنت الخطبة ، وانثنى الزعيم المظيم وقلبه يطفر من الفرح ، أن أصبحت له بوليكسينا ...

وما كاد البطل ينقلب إلى جنده ، حتى كانت فينوس توسوس إلى باريس أن ينتهز الفرصة العزيزة النادرة ، ويريش سهماً من سهامه المسمومة إلى عقب أخيل التى لم تغمرها مياه ستيكس فيصميه ... فيرديه !!

ووتر باريس قوسه ، وأرسل السهم المسموم إلى عقب أخيل فنفذ فيه ، وأنفذ فيه قضاء ربات القضاء ... اللائى فرغن الساعة فقط من غزل خيط حياته ، وقطعته أتروپوس [1] الهائلة بمقصها الجبار الفظيع

وهكذا أنهى باريس الخائن تلك الحياة الحافلة بغدرة سافلة من غدراته التى توشك أن تنتهى !

***

واستطير الميرميدون ! وانقض أوليسيز كالعاصفة ينافح عن جثمان صاحبه ، واستطاع أن يستنقذ القتيل العزيز من أيدى أعدائه الجبناء ؛ وكان أجاكس العظيم يعاونه فى دفع الجموع الحاشدة التى تكاثرت حول الجثة تطمع فى عدة قلسكان ...

وانصرف الجيش الحزين يذرف دموعه على أخيل !!

واجتمعوا حول الجثة المضمخة بالطيب وحنوط المسك يحرقونها !

ووقفت ذيتيس تلقى على ابنها نظرة الوداع ... وتذرف عليه عبرة الوداع !!

وكانت ثيابها السود تبكى معها ...

وكانت السماء كلها تذرف شئونها على أخيل ...

وعرائس البحر ساهمات على شواطئ الهلسپنت الفائض بالآلام !

وبليوس المحزون يضطرب فى الأعماق فيجعلها ضراما !

والأولمب كله ، ما عدا عصابة فينوس يعزى بعضه بعضاً !!

وليس أولئك جميعاً شيئاً إلى ما حدث من بعد ، فبيل أن تخمد النيران فوق أخيل ... فقد ضج المكان الصامت بصيحات مفاجئة ، نبهت ما سكن من هول هذا المحشر الرهيب ... وتلفت القوم ، فإذا أجاكس العظيم قد أصابه طائف من المس ، وإذا به يرغى ويزبد ، ويعول وينشج ، ثم يقذف من فمه صبيباً من الدم ، يتلوه شوب من العلق ، وينبطح على الأرض ثم يثب على قدميه ؛ ويروح ويغدو دون أن يلوى على شىء ... ثم يستل جرازه ويركزه فوق الأرض ، ويتكىء بصدره على سنانه ، فينفذ السنان من ظهر أجاكس ، ضحية جديدة لهذه الحرب التى لا تشبع ، وخيط حياة حافلة يمر وشيكا بين الشفرتين من مقص أتروپوس ! . . .

ويحك أجاكس ! وللآلهة ما وفيت لأخيل يا بطل الأبطال !

***

وذهل القوم لانتحار أجاكس ، ولم يفيقوا من ذهولهم إلا ليروا إلى مأساة ضمضمت ما أبقى عليه الحزن من ألبابهم ،

---

(١) أشرنا إلى ربات القضاء سالفا — وهن ثلاث — ١ ـ كلوتو وتنسج خيوط الحياة ـ ٢ ـ لاخيز وتبرمها حتى تحتمل عاديات الزمان ـ ٣ ـ وأتروپوس وتقطعها فتنتهى الحياة !

وأطاشت ما بقى من حلومهم ، وتركتهم سكارى وما هم بسكارى
هذه پوليكسينا ! !

إنها تقبل من طروادة كأنما بها مس ....

وهى تطوى الساحة المزدحمة بالأشلاء ... المضرجة بالدماء ، بقدمين عاريتين ، لا يقيهما حذاء ... وإن الدم ليتفجر منهما ...

وهى تصرخ ... وتلطم خديها الشاحبين ، بكفيها الواهيتين

وهى تجفل كالظبية المراعة ، وتدور حول نفسها ... ثم تقف لحظة ... وتنطلق ....

وهى تفعل هذا حتى تكون أمام البركان الخافت ، المشتمل على رفات أخيل ...

وإنها لتقف تلقاءه جامدة كأنها دمية . . . . ذاهلة كأنها تمثال . . . . . .

يا للهول ! !

لقد انطلقت الفتاة تخاضت النيران .... ودست رأسها فى جمرات الغضى تبحث عن حبيبها المرجو .. .. عن أخيل .. .. ! ! (١)

أخيل الجبار ... قاتل ليكاون وپوليدور ... وهكتور ! !

***

ويجزع الميلانيون مما ألم بهم من مقتل أخيل ، وانتحار أجاكس حزناً عليه ، فينصرفون عن الحرب إلى استيحاء آلهتهم ؛ وينفرد كالخاس يرسل نظرة فى النجوم ، ويناجى سكان السماء ، ثم يقبل على القادة وقد فرغت قلوبهم من الصبر ، وتبلبلت أفكارهم من طول الانتظار . . . . فيقول : « سهام هرقل ! ! لابد من سهام هرقل ! ! لن يفتح عليكم طروادة إلا سهام هرقل ... ! ! »

سهام هرقل ؟ ؟ وما سهام هرقل هذه ؟ ؟ »

آه ! لعلها هذه السهام التى غمسها هرقل فى دم هيدرا (٢) فتسممت به ، وادخرت من الموت ما يكفى لابادة الطرواديين جميعاً . . .

ولكن أين هى هذه السهام اليوم ! وأنى للهيلانيين أن يهتدوا اليها ؟ !

جلس القادة يفكرون . . .

وذهب العرافون يقلبون صحف الغيب . . . .

وطفق مشايخ الجند يفتشون فى زوايا أدمغتهم . . .

ثم ادّكر أوليسيز ، بعد لأى ، أن هذه السهام المنشودة قد تُركت مع الجندى القديم فيلوكتتيس (١) الذى غادره الجيش فوق جزيرة لمنوس ، فى طريقه إلى طروادة . . . فجرَّ الحملة ... منذ عشر سنوات !

ولقد كان فيلوكتتيس قد أصيب بجرح كبير فى قدمه جعل اصطحاب الحملة له من المحال ، لما كان يلقى أوانئذ من الآلام المبرحة ، وما كان يملأ به آذان الجند من الصراخ والأنين . . . فاضطر أوليسيز الى تركه فى جزيرة لمنوس ، حيث أوى الجندى المسكين الى كهف منعزل عكف فيه على جرحه يعالجه . . . دون جدوى !

واتفق القادة على أن يذهب أوليسيز ، مصطحباً معه پيروس ابن أخيل ؛ (أونيوپتلوس كما كانوا يسمونه أحياناً) الى جزيرة لمنوس ليريا هل الجندى الجريح ما زال يحيا هنالك ، وقد بحثا عنه فى أنحاء الجزيرة حتى عثرا به يئن فى كهفه ويتوجع ، ويشكو إلى غير سميع ، فعرضا عليه أن يصحبهما إلى طروادة فأبى . وجمله يشتد فى الأباء تذكره هذا اليوم الأغبر الذى آثروا فيه تركه فوق تلك الجزيرة القاحلة لا أنيس له ولا سمير ، ولا لسان يرفه عنه وحشة الألم ووحشة المنفى الذى لا يدله فيه ؛ وكبر عليه أن ينطلق مع هـذا الجيش الذى جحده وغمطه حق الجهاد فى سبيل الوطن ، والذود عن شرف هيلاس واسمها المقدس . . .

وتركه أوليسيز لپيروس يأخذه بالحيلة والرفق . . . ولكن پيروس ما يستطيع قط أن يقنع فيلوكتتيس . . . فيكاد يدعه برما متسخطا .. لولا أن يظهر طيف هرقل فجأة مرفرفاً فى العلو ثم يأمر فيلوكتتيس ، بعد تهويمة هنا وتهويمة هناك ، أن

(١) اعتمدنا فى تلخيص هذا الجزء من ذاك الفصل على درامة سوفوكليس الخالدة Philoctetes ترجمة لويس كامبل طبعة اكسفورد

(١) اختلفت المصادر فى انتحار پوليكسينا ، فبعضها يرويه كما أثبتنا ، وبعضها يزعم أنها انتحرت على قبر أخيل — والبعض يروى أن پيروس ، ابن أخيل ، قد انتزعها من حضن أمها هكيوبا وجعل منها قرباناً على قبر أبيه عقب فتح طروادة

(٢) نشرنا هذه الأسطورة فى الرسالة فى « مجازفات هرقل »

ينصاع لما يأمره أوليسيز به (١)

ولا يسع الجندى الكريم إلا أن ينطلق مع أوليسيز . . . فيركب الجميع فى السفينة إلى طروادة ، ويلقاهم المعسكر المشتاق بالبشر ، ويهرع اليهم بالايناس !

أليس فى سهام هذا القادم الأعرج ... النصر كل النصر ؟!

* * *

ونفخ فى صور الحرب ، واشتجرت الأسنة ، واستحر القتال ، وتبوأ فيلوكتتيس مقعداً للرماية لا يبصره فيه أحد ؛ فى حين يبصر هو منه كل مافى الميدان ! وراش سهامه !

وتطايرت المنايا عن قوسه المرنان ! وسمت إلى الطرواديين مصارعهم تهددها سهام هرقل ، وتمهد لها عين فيلوكتتيس ! وصرق سهم منها إلى باريس ! ...

وكان يشرف على المعركة من أسوار إليوم ! ... فوقع يتشحط فى دمه ، وينص بريقه ، ويصرخ من الألم الذى يسرى فى عروقه مع الدم ... والسم ! !

واجتمع حول باريس أبوه وذووه وعشيرته ... وهيلين !...

وطفق الجميع يبكون فى باريس إخوته ، والذكريات السود التى أقبلت من كل صوب ترف فوقه وترنق على جبينه ...

وأخذ الألم من باريس مأخذه ... وراح المسكين يصرخ ويتلوى ... غير آبه لما تغرقه به هيلين من قبلات دنسة ، ودموع مسمومة ، كانت الويل كل الويل على طروادة والطرواديين

وذكر ، وهو يتجرع غصص العذاب ، أن حبيبته الأولى وزهرة صباه ، ووردة حبه القديم ، أيونونيه ، كانت قد ذكرت له أنها تعرف من خواص الأعشاب المختلفة ما يشفى أقله أشد أوجاع الجروح وأنكاها وصبا ... فأشار إلى بعض أهله ، وطلب إليه أن يذهب إلى سِيف البحر علّه يجد إيونونيه ... فاذا لقيها فليخبرها بما انتهى إليه (حبيبها !) باريس ، والآلام التى تعذبه وتشقيه ، من جراء جرح هذا السهم المسموم .... بيد أن إيونونيه التاعسة ... إيونونيه المعذبة ... إيونونيه التى أخلصت لباريس الحب حتى عبدته ... ذكرت ماكان من هجر هذا الحبيب وقلاه ؛ وذكرت دموعها التى ذرفتها مرة تحت قدميه ضارعة متوسلة ... وتلك القساوة التى كافأها هو بها لما أن خدعته فينوس ... وأوقعته فى أحبولة هيلين ... ... فرفضت أبيةً شماء أن تذهب اليه ... ؛ والآلهة وحدها تعلم مقدار ما كانت تكنه له برغم هذا الرفض من الحب النقى ... والصبابة الحزينة ... والهوى المتأجج المشبوب !!

وقضى باريس ! ! ...

وأعدت النيران الضخمة لتحريقه ، فما هو إلا أن أشعلت من حوله حتى شوهدت إيونونيه المتبولة تخرج من لجة الهلسپنت وتعدو ، كأن قد أصابها مس ، حتى تكون تلقاء النار .. فتقف باهتةً ... وتتنهد طويلا ... وتقذف بجسمها الجميل المرمرى المشوق فى اللهب ... وتصرخ صرخة مشجية ... و ... وتنتهى قصة حبها الباكى ...

وتخط بيدها آخر سطر فى كتاب باريس ...

(البقية فى العدد المقبل) دريني خشبة

---

(١) هذه رواية سوفوكليس ويقول هوميروس إن هرقل زار فيلوكتتيس فى المنام وألقى اليه هذا الأمر

البريد الأدبي

الأدب قبل هوميروس

يقدرون أن هوميروس عميد الشعر اليونانى وصاحب الالياذة الشهيرة قد عاش قبل المسيح بنحو ألف عام ؛ والمعروف أن هيرودوت (أو هرشيوش) أبا التاريخ قد عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ ولكن انتهى الينا نص كامل من الالياذة ، وانتهى الينا نص كامل لتاريخ هيرودوت مع أن الأثرين الخالدين وضعا فى عصور لم تعرف الكتب ، فكيف كانت حال الأدب والتاريخ ، وكيف كانت تتناقل الآثار الأدبية فى هاتيك العصور ؟ كانت الرواية السماعية ولا ريب هى أنجع الوسائل لتوارث التفكير والأدب ، وان كانت الآثار والنقوش والكتابات البردية أيضا من وسائل تدوينها ، وهذا ما تناوله العلامة الانكليزى الأستاذ طومسون فى كتاب ظهر حديثاً عنوانه « فن الرواية » The art of Logos ؛ وكلمة « لوجوس » رومية معناها « مايقال » والأستاذ طومسون حجة الادب اليونانى القديم ، وهو يتناول فى بحثه العلمى القيم فن الرواية فى عصور ما قبل التاريخ وكيف كان هذا الفن يشمل التاريخ والشعر والقصص ، وكيف أنها جيماً تكاد تمتزج بعضها ببعض . ويعنى الأستاذ طومسون بوجه خاص بتحليل رواية هيرودوت وما فيها من الحقائق التاريخية الخالدة ؛ ثم يعنى ببحث الأساطير اليونانية الكبرى وأصولها ومراميها ، وأصل الالياذة ، والأوذيسة ؛ وتأثير الرواية فى تطور العقلية الشعبية خلال هذه العصور ، كل ذلك بأسلوب علمى محقق ، ممتع فى وقت معاً

وما يتناوله الأستاذ طومسون فى كتابه هو نفس الحالة التى كان عليها الأدب العربى قبل الاسلام ، فالشعر الجاهلى الذى ورثه الأدب الاسلامى ، ووقائع العرب وأيامها ، وما يتخلل ذلك كله من القصص والأساطير ، والمنثور والمنظوم ، انما انتقل خلال العصور بالرواية والسماع ؛ وقد كانت الرواية فى الجزيرة العربية بلا ريب أقوى وأنفذ ، وكان أثرها بلا ريب أقوى فى تكوين الأدب الجاهلى ؛ وتقدم الينا كتب الأدب الكبرى مثل الأغانى ، والعقد الفريد صورا بديعة مما كان عليه أدب الرواية فى عصور قد ترجع إلى ما قبل الاسلام عدة قرون

من كنوز البردى المصرية

يذكر القراء تلك الضجة التى قامت منذ أشهر حول تسرب الآثار المصرية القديمة خارج القطر ومنها مجموعات ثمينة من أوراق البردى التى ترجع إلى العصر الرومانى ؛ وقد ظهرت فداحة الخسارة الأثرية والعلمية التى أصيبت بها مصر من جراء تسرب آثارها على هذا النحو فى حادثين : الأول ظهور مجموعة ثمينة من أوراق البردى المصرية فى برلين ، وهى باقرار الخبراء أثمن مجموعة من نوعها لأنها تحتوى على نصوص عدة كتب كاملة من كتب مانى الفيلسوف الفارسى وصاحب المذهب المشهور ؛ والثانى ظهور بعض قطع وشذور من أقدم إنجيل معروف ، وقد كتب باليونانية على ورق البردى الذى تسرب من مصر أيضاً

وقد اقتنت مكتبة رايلاندس الانكليزية الشهيرة بمنشستر طائفة من هذه الأوراق الثمينة منذ أعوام ، وبدأت بنشرها ، فأصدرت مجلداً يحتوى على نصوص طائفة من أوراق البردى المصرية منذ العصر اليونانى ؛ وأصدرت أخيراً مجلداً جديداً يحتوى على نصوص طائفة من أوراق البردى المصرية منذ العصر الرومانى ؛ وأهمية هذا الجزء الأخير هى أنه يحتوى على مقتطفات من الانجيل الرابع (إنجيل يوحنا) هى أقدم نصوص من نوعها ؛ وهى باللغة اليونانية ، ولكنها كتبت بمصر فى عصر يقدره العلماء والخبراء بالنصف الأول من القرن الثانى للميلاد ؛ وقد كان المظنون حتى اليوم أن انجيل يوحنا يرجع إلى عصر متأخر نوعاً ، يقدر بأواخر القرن الثانى ؛ ولكن ظهور هذه القطع من إنجيله ، وما اقترنت به من شواهد فى الكتابة والحبر والهجاء

تدل على أنها كتبت بمصر فى عصر الأمبراطور هادريان ، مما يحمل العلماء على تغيير نظريتهم ، والرجوع بانجيل يوحنا إلى أوائل القرن الثانى أعنى إلى نحو سنة ١٢٠ ميلادية

أما مجموعة برلين من أوراق البردى المصرية التى تحتوى على كتب مانى الفيلسوف فيجرى بحثها اليوم بمعرفة العلماء الاخصائيين تمهيداً لنشرها والتعريف عنها

وهكذا يتسرب تراثنا الأثرى والعلمى على هذا النحو ، ونحن شهود نرمق هذه الاختلاسات المتوالية باسم العلم والبحث

مذكرات صحافى شهير

هنرى نفنتون من أشهر الصحافيين الانكليز الذين جابوا أنحاء العالم وشهدوا عظائم الحوادث فى مختلف الأقطار والمناسبات ، وقد عرف خلال حياته الطويلة الحافلة مختلف الشخصيات فى ميادين الحرب والسياسة والأعمال ؛ واتصل بالعظماء والأقوياء وزعماء الثورات ، وبحار الرقيق وبالشعراء والأدباء ، والقتلة واللصوص ؛ وشهد بنفسه كثيراً من الحوادث والانقلابات التى وقعت فى أنحاء العالم منذ أواخر القرن الماضى ؛ ففى سنة ١٨٩٧ شهد الثورة اليونانية فى كريت ضد الترك ، ودرس الفظائع التركية فى البلقان كما درس تجارة الرقيق فى أفريقية وشهد فى سنة ١٩٠٥ مؤتمر الشباب الروسى لالغاء عقوبة الاعدام ، ورأى فلول الجيش الروسى المنهزم أمام اليابان ؛ وعرف تولوستوى وتحدث اليه فى منزله الريفى فذكر له أن ما يراه ليس ثورة وليس انقلابا ، ولكنه يرى خاتمة عهد مضى ؛ وشهد فى سنة ١٩٠٧ جهود آنى بيزانت ودعايتها فى الهند ؛ وتجول فى ميادين الحرب أثناء الحرب الكبرى ، وشهد وقائع الدردنيل ، وانسحاب الانكليز من غاليبولى ؛ ثم شهد بعد ذلك الثورة الأرلندية الوطنية ، ومؤتمرات الصلح ، وشهد احتلال الجنود السود لمناطق الرور فى ألمانيا سنة ١٩٢٣ ، وتجول فى بيت المقدس وبغداد ، وكتب عن دراساته ومشاهداته مقالات ومذكرات لا نهاية لها

وقد أخرج مستر نفنتون أخيراً كتاباً ضخماً ضمنه كل هذه المشاهدات والدراسات بعنوان « نار الحياة » Fire of Life ؛ وكتبه بأسلوب قوى شائق يمتزج فيه صدق المؤرخ وخيال القصصى ، ويمتاز الكتاب بما يطبعه من روح إنسانى قوى ؛ ذلك أن مستر نفنتون رجل يضطرم فؤاده إنسانية ورحمة ، ويجيش ذهنه بأشرف المثل ، فهو يطرى الثورات الوطنية أنى وقعت ، ويحمل على سياسة العنف والغصب أيا كانت ، وينوه بالحقوق حيثما استحقت ، ويندد بكل ما فيه قسوة أو تحامل ، وينصر المثل السلمية والانسانية أيا كان مصدرها ، ويعتبر كتابه سجلا بديعاً لحوادث نصف القرن الماضى

الاذاعة المدرسية

كان يوم الاثنين الماضى بدء الاذاعة المدرسية التى شرعتها وزارة المعارف فى عهد سعادة وزيرها الحالى ـ لفائدة تلاميذ المدارس . والمشروع جليل يستحق الاحتفال والثناء والشكر لوزير المعارف

وكانت أولى المحاضرات بعد كلمة سعادة وزير المعارف فى مفتتح الاذاعة ، كلمة الأستاذ مهدى علام فى : « عتاب بين الأدب العربى والانجليزى ! » ماذا يُوحى هذا العنوان ؟ أما عندنا ، فكنا ننتظر أن نسمع حواراً بديعاً طريفاً بين العربية وأختها ، وما أكثر ما يقتضى العتاب بين اللغتين ! ولكنا . . . ولكنا لم نسمع إلا قطعتين من نماذج العتاب فى الأدبين ، نشرهما المحاضر من محفوظاته ، ثم ربط بينهما بهذا العنوان . . . !

قد يكون اختياره حسناً ، ولكن لغة الكتابة غير لغة الأذاعة ، وهذا مشروع جديد فى وسائل التربية ، فما كان أحوجه إلى الجديد من أقلام أهل التربية . . . !

ثم جاء دور المدارس الابتدائية ، فأرهفنا السمع على شوق وأمل . . . وكانت تلاوة شعرية فى (عمرية حافظ) ، وعمرية حافظ لون من الشعر التاريخى ، حبيبة إلى نفوسنا ، يسرنا ورضينا كل الرضى أن يفهمها ويعيها أولادنا ؛ ولكن هل كانت الاذاعة المدرسية من أجل ذاك ؟ فماذا يعمل مدرس المحفوظات . . . ! وهنا أيضاً كما هناك ، كان أدب ولغة ، وخطابة وشعر ؛ ولكن للكتاب لا للمذياع . . . !

واسألوا التلاميذ بعد ذلك ماذا سمعوا مما كانوا يترقبون أن يسمعوا ؟

إن مئات من المدرسين فى الوزارة يحسنون التحدث إلى التلاميذ بأحسن مما سمعوا يوم الاثنين ؛ لا لأنهم خير من الذين

أذاعوا ، أو أفهم لروح الطفل ؛ ولكن لأنهم قد يكونون أقدر على خلع شخصياتهم حين يتحدثون إلى الطفل

ما نريد من هذه الاذاعة أن نجتلى علم فلان وفلان فما نشك فى ذاك ، وإنما نريد أن نعرف كيف يتجاهل العلماء حين يريدون الحديث مع هؤلاء العقول الصغيرة الفارغة ، حتى يعيش الأطفال فى دنياهم على حقيقتها

إن فى الأدب القديم وفى الأدب الجديد كثيراً مما يروق التلاميذ صغاراً وكباراً أن يسمعوه ، أكثر مما يروقهم أن يقرأوه ، وما نرى التلاميذ يؤثرون أن يسمعوا شيئاً أكثر مما يؤثرون القصص . وفى ثنايا القصص يقال كل شىء ؛ وهذا رأى لانحسبه غريباً عن المكتب الفني فى وزارة المعارف ، وإن كان غريباً عن هذه الاذاعة المدرسية

وللمعلمين أيضاً إذاعة كما للتلاميذ ، وكانت الاذاعة لهم (فى الخاتمة) محاضرة قيمة فى شؤون التربية والتعليم ، ألقاها الأستاذ أمين مرسى قنديل . وليس فى المحاضرة مما ينقد إلا شيئاً واحداً ، هو أن أستاذا فى التربية يحاضر المعلمين عامة فى القطر ثم لا يصحح نطق الجمل ولا إعراب الكلام .

يا معلمينا الأجلاء . افهموا تلاميذكم قبل أن تحاولوا تفهيمهم ...!

معلم

أشعة الاخفاء

من أنباء بودابست أن كيميائيا مجريا فتى يدعى ستيفان بريبل أذاع أنه قد اكتشف نوعا جديداً من الأشعة يخفى الأشياء إذا سلط عليها ، وأنه اخترع فى نفس الوقت مادة تحول دون اختفاء الأشياء إذا سلطت عليها هذه الأشعة ؛ وانها إذا سلطت أخيراً على باب أو جدار أمكن رؤية ما وراءه . وقد أثارت هذه الدعوى فى المجر دهشة واهتماما عظيمين ، ولكن المخترع الشاب لم يجد كالعادة ما يطمح اليه من التشجيع الجدى ؛ ولذلك يمم شطر لندن ليقوم هنالك بعرض اختراعه ؛ وقد صرح الى الصحف الانكليزية بأن الأشعة التى اخترعها إذا سلطت على سيارة اختفت فى الحال عن الأنظار ؛ وأنها إذا سلطت على غرفة تضم عدة أشخاص ، فان أولئك الأشخاص يتوارون عن العيان ولا يبدو منهم سوى أشباح كالظل ؛ وهنالك أشياء عجيبة أخرى يحققها هذا الاختراع المدهش ، فمثلا يمكن استعمال هذه الأشعة فى المسرح وفى السينما ، فتأتى بنتائج عجيبة فى تسهيل المناظر وتغييرها

ومع أن ماهية هذا الاختراع لم تثبت بصفة قاطعة ، فانه يذكرنا بأى حال بما نقرأه فى كتب القصص القديم من طلاسم كانت تستعمل للاختفاء عن الأنظار ، وليس بعيداً بعد الذى نشاهده اليوم من أعاجيب العلم أن يتحقق اختراع الفتى المجرى وغيره من الأمور التى كانت تبدو فيما مضى مستحيلة ، فاذا هى اليوم موضع المحاولة والبحث الجدى

زينة المرأة الحديثة

هل يسير الجمال النسوى بما تختاره المرأة اليوم لنفسها من صنوف الزينة والتجميل إلى الكمال ؟ أم أن المرأة أسرفت فى الالتجاء إلى الصناعة حتى أصابت من جمالها الطبيعى ؟ يقول الأستاذ أولان دى لو رئيس قسم الفنون الجميلة بأكاديمية بروكسل فى محاضرة له عن « أحوال الجمال فى عصرنا » إن المرأة الحديثة تؤذى نفسها وجمالها من حيث لا تريد ، وانها تبدو اليوم شاحبة سقيمة ، وأن الأصباغ والمساحيق المختلفة تجعل من وجهها « قناعاً من الورق المقوى » . أما تجميل الأظافر واحمرارها فما يجعل المرأة الأنيقة تبدو كأنها وصيفة أو طاهية عاطلة

بيد أنه يلاحظ من جهة أخرى أن الحكم المطلق على وسائل التجميل والزينة فيه تحامل على المرأة ؛ فما لا ريب فيه أن المرأة فى حاجة إلى التجميل ، فقد نستطيع مثلا بالقلم الأسود أن نصحح عيباً فى الحاجب ، وليست وسائل التجميل كلها مفرقة أو مضحكة ، والمرأة الفنانة ذات الذوق الحسن تستطيع أن تسبغ على وجهها من حسن الصنعة جمالاً لم تمنحه إياها الطبيعة ، وفى وسعها أن تعتدل فى استعمال الدهان أو التلوين ؛ أما الحكم فيجب أن ينصب على التجميل المفرق وعلى الاسراف فى وسائله ؛ والزينة هى بلا ريب ضرورة للمرأة الحسناء لا تستطيع عنها غنى ، كما أنها لا تستطيع دون إضرار بجمالها وذاتها أن تهمل فى زينة ثوبها أو شعرها أو قبعتها ؛ ولو أن النساء الأنيقات عملن بنصح الأستاذ أولان وتركن ما يلجأن إليه من وسائل الزينة لفقدن كثيراً من إناقتهن وجمالهن

فى يوم الاثنين ٢٧ يناير سنة ٩٣٦ من الساعة ٨ صباحا وما بعدها إذا لزم الحال بجهة شارع جوده نمرة ٤٩ قسم الجرك . سيباع علنا ماهو موضح بمحضر الحجز التنفيذى المؤرخ ١٥ مايو سنة ٩٣٥ وهى سرير حديد أسود بوصه وربع وصندوق خشب ودولاب خشب جوزى وأشياء موضحة بالمحضر آنفا ملك الست نظيره حسن شحاته المقيمة بالجهة المذكورة بناء على طلب حضرة صاحب العزة باشكاتب محكمة اسكندرية الأهلية بصفته مديراً لادارة خزانتها القضائية تنفيذاً لقائمة الرسوم فى القضية رقم ٥١١ سنة ٩٢٨ وفاء لمبلغ ١٨ جنيه و ٧٩٥ مليم قيمة المحجوز من أجله والنشر السابق خلاف ما يستجد وأجرة هذا فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأحد ٢ فبراير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا بناحية الهياتم وبيوم الثلاث ٤ فبراير سنة ١٩٣٦ بسوق المحلة بناء على طلب نجيب أفندى تادرس صراف كفر الرازقه سيباع علنا مواشى وحاصلات مبينة بالمحضر ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ملك السيد على النجار من الناحية نفاذا للحكم نمرة ٣٩٩٩ سنة ١٩٣٥ كفر الشيخ فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦ من الساعة ٦ صباحا بناحية الحورانى وفى يوم ١٦ منه بسوق فارسكور سيباع علنا بقرة حمراء بقرون علباوى سن ٦ سنوات تقريباً ونتاجها عجلة بقر حمراء وصفراء سنها سنة ونصف تقريباً ملك أحمد محمد أبو حمد من الحورانى والبيع كطلب قلم كتاب محكمة المنصورة الابتدائية الأهلية ونفاذا لقائمة الرسوم فى القضية المدنية نمرة ٢٠٤ سنة ٩٣٢ مستأنف ووفاء لمبلغ ١ ج و ٧٨٠ م ومائة مليم رسم التنفيذ وما يستجد فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم ٨ فبراير سنة ٩٣٦ الساعة ٦ صباحا بناحية الشيخ سليمان تبع شملان مركز ابشواى وفى يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٣٦ الساعة ٦ صباحا بسوق النزلة سيباع علنا حمارة زرقاء سليمة قوية وحمارة زرقاء سوداء سليمة قوية سن ٧ سنوات ملك صديق وعلى محمد يوسف وجوده احمد يوسف وفاء لمبلغ ٢ ج و ٦٠ م بخلاف ما يستجد من المصاريف نفاذا للقائمة الصادرة من محكمة ابشواى الأهلية بتاريخ ٣ ـ ١١ ـ ١٩٣٥ فى القضية نمرة ١٥٢٨ سنة ١٩٣٥ والبيع كطلب قلم كتاب محكمة ابشواى الأهلية فعلى المشترى الحضور للمزايدة



أذكر فى طلبك اسم (الرسالة) تحصل على تخفيض عظيم وشروط مناسبة

قسم البلديات ـ قلم التنظيم

تقبل العطاءات بقسم البلديات بوزارة الداخلية حتى ظهر يوم ٢ فبراير سنة ١٩٣٦ عن انشاء أربع مجموعات مباول ومراحيض عمومية اثنين منها ببندر سوهاج والأخرتين ببندر طهطا

وتطلب الشروط والمواصفات من قسم البلديات بوزارة الداخلية مقابل ٥٠٠ مليم وتقدم العطاءات داخل مظاريف مختومة بالجمع الأحمر ومصحوبة بتأمين ابتدائى قدره ٢ ٪ من قيمتها . وكل عطاء يرسل بطريق البريد ويصل متأخرا لا يلتفت اليه

محكمة تلا الجزئية الأهلية

اعلان بيع

فى القضية المدنية نمرة ٣٢٠٣ سنة ١٩٣٣

انه فى يوم الأحد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ ونصف افرنكى صباحا بسراى المحكمة سيباع بالمزاد العلنى الأطيان الموضحة بعد المملوكة الى حسن موسى الرحوى المقيم بناحية صفط جدام مركز تلا

وهذا بيان الأطيان

١١ ط و ١٨ س بزمام الناحية قطعة نمرة ٥٧ بحوض داير الناحية نمرة ١ الحد البحرى أطيان مرسى مرسى الرحوى ـ الشرق أطيان محمد سليم والقبلى أطيان محمد الرحوى والغربى مسقة خصوصية مناصفة بين الأطيان وحسن أبو العينين

وهذا البيع بناء على طلب حضرة صاحب المعالى وزير الحقانية بصفته نائبا عن نيابة شبين الكوم الكلية الأهلية ومحله المختار قسم القضايا الأهليـة بعمارة عدس بشارع عماد الدين وعند الاقتضاء سراى النيابة أو المحكمة الأهلية وبناء على حكم نزع الملكية الصادر بتاريخ ٣ مايو سنة ١٩٣٣ والمسجل بمحكمة شبين الكوم الابتدائية الأهلية بتاريخ ٦ مايو سنة ١٩٣٣ نمرة ٥١٨ صحيفة ـ وهذا البيع وفاء لمبلغ ٢٣ ج و٦٩٦ م والمصاريف بثمن أساسى قدره ١٦ جنيه بعد تنقيص الخمس وشروط البيع مودعة بدوسيه القضية لمن يريد الاطلاع عليها

فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان الموضحين أعلاه

كاتب البيوع

فى يوم الأربعاء ٢٩ يناير سنة ١٩٣٦ من الساعة ٨ صباحاً بالاسماعيلية سيباع علنا منقولات منزلية مبينة بمحضر الحجز بتاريخ ١٧ يوليو سنة ١٩٣٥ تعلق حافظ السيد أحمد المقيم بملك الحاج عبد القادر ابراهيم بشارع محمد على سابقا نفاذاً للحكم نمرة ١٢٣٠ سنة ١٩٣٥ الاسماعيلية وفاء لمبلغ ٦٦٦ قرشا صاغ بخلاف رسم النشر وما يستجد والبيع كطلب الحاج عبد القادر ابراهيم التاجر ومقيم بشارع سعد بالاسماعيلية

فعلى راغب الشراء الحضور

النقد

رد على نقد

٣ـ كتاب تاريخ الاسلام السياسى

للدكتور حسن ابراهيم حسن

مؤلف الكتاب

لاحظ القارئ في مقالينا السابقين مبلغ تلك المآخذ التى أوردها الناقد من الصواب وأنها لا تغنى من قيمة كتابنا شيئاً. فأى تجنٍّ وأى ظلم إذا ذهب هذا الأستاذ، بعد أن شغل قراء «الرسالة» بمقالين طويلين يزهو مقسماً بعمره — وليس بهين — أن هذه الأغلاط التى كشفها يذهب بعضها بمحاسن أى كتاب يرد فيه، فكيف بها كلها؟

نترك حضرة الناقد يزهو فى غير عجب، ويتملق بلا سبب؛ ونهمس فى أذنه بأن إيراد تلك العبارة التى قدم بها كلمته الثالثة تذكرنا بالحكمة العربية «كاد المريب أن يقول خذونى». ثم نكر على بعض تلك العيوب التى لحظها على طريقتنا فى الأخذ من المصادر التاريخية لنتبين أن حظه فيها ليس بأحسن من حظه فيما سماه «مآخذ تاريخية وجغرافية»، وإذا كان يقول إن سوء حظه أبى عليه أن يقدم الثناء للمؤلف، فهناك من اطلعوا على كتابنا — وهم كثيرون — قد شاء حسن حظنا أن ننال تقديرهم ونُغمر بفضلهم وتشجيعهم. ولا أدل على هذا مما نشر فى الصحف والمجلات فى مصر والشام والعراق وغيرها، ومن أن الطبعة الأولى من الكتاب كادت أن تنفد؛ ولا يعدم الحق مؤيداً وظهيراً

***

يتهمنا حضرة الناقد بأننا حملنا متن الكتاب من الشروح والحواشى حملا ثقيلا، وكلفنا نفسنا شططاً وقراءنا مشقة وعنتاً، حيث أننا راعينا الأمانة فى النقل، فنسبنا كل قول لقائله، وأسندنا كل رأى الى مرجعه. ويرى حضرته أننا لم نقصد بذلك إلا ابتغاء السمعة، وأن نلقى فى روع القارئ أننا فى التاريخ واسعو الاطلاع طويلو الباع قدوعينا ما كتبه الأوائل والأواخر!

لندع هذا الكلام الذى ينم عن الغرض من نقده، ونناقشه بكل هدوء فى هذه العيوب التى حالت بينه وبين كلمة ثناء يكيلها لنا جزافاً

كل من اطلع على كتابنا يدرك لأول وهلة أننا أردنا أن يكون مرجعاً علمياً تاريخياً لمن يريدون التوسع فى التاريخ الاسلامى

وليس من المعقول أن كتاباً سيقع فى ستة مجلدات لا ينقص أحدها عن ستمائة صفحة — قد قصد فى وضعه أن يكون فى متناول الطلاب الذين لم يتموا الدراسة الثانوية — فاذا أكثرنا من ذكر المصادر، واحالة من يريد التوسع عليها، فليس الغرض أننا نبغى السمعة عند الناس كما يتهمنا الناقد — سامحه الله — وانما هو انتهاج الطريقة الحديثة، مراعاة للأمانة، وكشفاً للطريق لمن يريد زيادة التحصيل، وتبرؤاً من قول قد لا يتفق ورأينا الشخصى. أما الزعم بأن كتابنا من الكتب المدرسية التى جرى العرف بأن يقتصر فيها من ذكر المراجع فى صلب الفصول على الضرورى، فزعم لا يتفق ووضع الكتاب وطريقة البحث فيه، ويدرك ذلك من عنده أدنى تأمل؛ وإذا كان حضرة الناقد كلف نفسه بعض المشقة لوجد أننا عمدنا إلى الطريقة الثانية المختصرة فى كتابنا «تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب» للسنة الثانية الثانوية

وليت شعرى كيف يحكم حضرة الناقد بأن كثرة المراجع التى اعتمدنا عليها صورية لا حقيقية، وكيف يدعى بأن حرصنا على التكثر والتزيد قد حملنا فى كثير من الأحيان على أن ندلل

على ما لا يحتاج إلى دليـل ، وأن نعدد المراجع ولو كانت فى مرد أمرها ترجع إلى مصدر واحد ؟ أليس أحق بالغرابة والاشفاق أن يتخذ من إحالتنا القارئ لخطبة أبى بكر على أربعة كتب قديمة اختلفت رواياتها بعض الاختلاف ، سيما فى أننا نُدلل فيما لا يحتاج إلى دليل ؟ إننا لا نشك فى أن البحث التاريخى الحديث يوافقنا ، بل يطالب أن نعدد المراجع ما استطعنا ، ولو لم تختلف الروايات من تقديم أو تأخير ، أو إبدال لفظ بلفظ . فما بالك وتلك المصادر الأربعة قد ذكرت فى كل منها الخطبة مختلفة عن زميلاتها بعض الاختلاف ؟ على أننا لم ندر ما هو الضرر الذى يلحق بالكتاب ويصيبه فى نظر الناقد من ذكر المصادر ، أربعة أو أكثر أو أقل ، حتى عن خطبة قيمة يعرفها طلاب المدارس وينكرها بعض الأساتذة

ولقد طوح القلم بحضرة الناقد ، ودفعه الحرص على إلصاق العيوب إلى التهجم على كتاب يعتبر أصح الكتب بعد كتاب الله بإجماع المسلمين ، ذلك هو صحيح الامام أبى عبد الله البخارى . وإننا بدورنا نبادر ونطالب من الناقد أن يستغفر من ذنبه ، فان إمام المحدثين البخارى هو الذى روى ذلك الحديث الذى جرى بين أبى سفيان وبين هرقل قيصر الروم فى الشام (راجع باب بدء الوحى فى البخارى) ؛ كما أن هـذا الحديث ، وقد أجمع على صحته المحدثون ، لم يحمل فى ثناياه أدلة ضعفه وانتحاله — كما يقول الناقد — وأنه ذو خطر عظيم ؛ فانه يوضح بأجلى بيان كيف كان المشركون وعظماء قريش ينظرون إلى الرسول قبـل إسلامه ، وكيف كانوا يعرفون صدقه وأمانته كما يعرفون آباءهم وأبناءهم . فـكيف لا يقدم هـذا الحديث الصحيح فى فهم سيرة الرسول ولا يؤخر ؟ وقد كان أيضاً سبباً مباشراً فيما عرضه هرقل على بطارقته من الاسلام لولا أن حاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب (راجع هذا الباب فى البخارى)

أما أننا لم نقصـد إلى مناقشة هذه النصوص التى وردت فى شرح البخارى ومقارنة رواياتها المختلفة بعضها عن بعض ، وأننا لم نبين ما اتفقت فيه وما اختلفت من حيث اللفظ والمعنى الخ ، فان هذا ليس بذى خطر ؛ فضلاً عن أنه يخرج بنا عن المهام . ومالا يدرك كله لا يترك كله

ولعل من الغرابة أن يجعل الناقد من أسباب الخطر على مقدرتنا فى نقد المراجع وتقويمها أننا وافقنا على نسبة كتاب « فتوح الشام » للواقدى ، وأننا استعنا به فى الفصل الذى عقدناه لفتح العرب الشام ، ثم انبرينا لمناقشته ومجادلته ، وأننا كذلك اعتمدنا فى عدة مواضع على كتاب « الامامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ويقول الناقد إن الكتاب ليس للواقدى ، وإن كل شىء فى الكتاب الثانى يدل على أنه ليس لابن قتيبة ، وإنما هو لكاتب أندلسى

أما إن نسبة هذين الكتابين لهذين المؤرخين أو غيرهما فلا يقدم ولا يؤخر فى الموضوع ، فالكتابان — على كل حال — يوضحان الحياة العامة السياسية فى العصور التى تناولناها فى كتابنا . وقد تضافرت المصادر الأخرى على صحة القدر الغالب مما ورد فيهما . على أن مجرد إنكار نسبة الكتابين للواقدى وابن قتيبة لا يكفى ، بل يدعو إلى الابتسام ، اللهم إلا إذا اعتمد المنكر على غير « غالب الظن » ، و « الاعتماد على بعض ما كتبه الافرنج » ، مما لا يمتد به المنطق التاريخى ولا يدعمه دليل مبين . وإذا كان الظن فى كل المسائل لا يغنى من الحق شيئاً ، ففى المسائل التاريخية خصوصاً يكون أبعـد من الحق منالا وأدنى للباطل مجالا

(يتبع)

حسن ابراهيم حسن

الكتب

١ — الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير :

لابن الساعي

٢ — الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة :

لابن الفوطي

للأستاذ محمد بك كرد علي

— ١ —

كتبت في مجلة المقتبس (م ٣ ص ٩٣ — ١٣٢٦ — ١٩٠٨) مبحثاً لفت فيه أنظار المشتغلين بالتاريخ إلى جزء من « الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير » لابن الساعي البغدادي (٦٧٤) كان عثر عليه العلامة أحمد تيمور باشا في دشت وضمه إلى خزانته رحمه الله . واليوم نشر الأستاذ مصطفى جواد بمعونة الأب انستاس ماري الكرملي هذا الجزء بعينه وهو التاسع من كتاب طويل . والمؤلف أكثر من ثلاثين تأليفاً منها ما يدخل في بضعة مجلدات ، وأكثرها في التاريخ والتراجم ، ساعده على الاستكثار من التأليف كونه كان خازن كتب المدرسة المستنصرية ببغداد ، إلى ما خص به من الدؤوب وثقوب الذهن ووفرة العلم . ولابن الساعي وهو علي بن أنجب كتاب صغير طبع في المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٩ وهو مختصر أخبار الخلفاء ، يبدأ بظهور الدولة العباسية وينتهي بانقضائها

وفي هذا الجزء التاسع من الجامع المختصر حوادث سنة ٥٩٥ إلى ٦٠٦ هـ يذكرها مجملة ثم يترجم لمن ماتوا في تلك السنة من الأعلام ، وفيه كثير من الفوائد التاريخية . ومعلوم عند الباحثين أن هذا العصر أحط عصور بني العباس ، ولا ندري كيف يثبت ناشر الكتاب أن « العصر الذي تناول حوادثه هذا التاريخ من أزهر عصور بني العباس وأعظمها قوة ونظاماً » ، وعصر الناصر على غلو المؤرخين من الشيعة فيه — لأنه تشيع — كان في الواقع عصر تراجع سلطان العباسيين ، فاكتفوا ممن سلبوهم حكم بلادهم بالسكة والخطبة ، وما كان يخطر ببالهم أن يتكرموا به على الخليفة من إتاوة ، والخلفاء يكيلون لكل متغلب ما شاء الله من الألقاب ويطلقون على أحد العلماء (ص ٢٣٤) : « الأجل السيد الأوحد العالم ضياء الدين شمس الاسلام رضى الدولة عز الشريعة علم الهدى رئيس الفريقين تاج العلماء . . . . » ويكتبون عن أنفسهم : « المواقف الشريفة المقدسة النبوية الأمامية الطاهرة الزكية المعظمة المكرمة المجدة الناصرة لدين الله تعالى . . . . »

وفي الكتاب تراجم بعض المشاهير في تلك الحقبة وعهود وتقاليد صدرت عن خليفة الوقت بأقلام المنشئين في ديوانه . وقد وقعت للناشر هفوات لغوية وتحريف بعض آيات الكتاب العزيز منها (ص ١٩٦) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك الظالمون) وصحة الآية (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) . وغلط (ص٨٧) بأن حرف الآية هكذا (الذين كفروا بعضهم أولياء لبعض) وصحة الآية الكريمة (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) إلى غير ذلك

— ٢ —

طبع الجامع المختصر في بغداد وقبله طبع فيها كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي (بالفاء) البغدادي المتوفى سنة ٧٢٣ بدأه بحوادث سنة ٦٢٦ وانتهى بأخبار سنة ٧٠٠ . وللمؤلف يد طولى في التاريخ ووقوف تام على سياسة عصره ، أورد في تاريخه الممتع من الحوادث ما كملت به سلسلة التاريخ في العراق على عهد الانحطاط العباسي . ومن أهم فصول الكتاب وصف المؤلف فاجعة هولاكو التترى سنة ٦٥٦ وقضائه على الخليفة المستعصم وعلى جميع آل العباس مع ذراريهم وحرمهم وتخريبه بغداد ووضعه السيف في أهلها . وقد قدر القتلى منهم بأكثر من ثمانمائة ألف في مدينة بغداد فقط « عدا من ألقى من الأطفال في الوحول ، أو من هلك في القنى والآبار وسراديب الموتى جوعاً وخوفاً » « وأحرق معظم البلد وجامع الخليفة وما يجاوره واستولى الخراب على البلد » وصف ذلك وصفاً ممتعاً لا إفراط فيه ولا تفريط

وقد ساعد المؤلف على هذا التوسع والتبسط فى الحوادث التى عرض لها أنه كان كأستاذه ابن الساعى أيضاً خازن كتب المدرسة المستنصرية . وذكر فى حوادث سنة ٦٣١ ترجمة محمد بن يحيى بن فضلان ، وفتح المدرسة المستنصرية ، وابن فضلان هذا كان من العلماء درس فى النظامية والمستنصرية « وولى النظر بديوان الجوالى — أى جزية أهل الذمة . حكى عنه أنه كتب للخليفة الناصر لدين الله لما كان يتولى ديوان الجوالى رقعة طويلة يقول فيها إن أجرة سكنى أهل الذمة فى دار السلام والارتفاق بمرافقها لا يتقدر فى الشرع بمقدار معين ، فى طرف الزيادة ، ويتقدر فى طرف النقصان بدينار ؛ وطلب الى الخليفة أن يتضاعف على كل شخص منهم ما يؤخذ منه . وقال إنهم ضروب وأقسام ، منهم من هو فى خدمة الديوان وله المعيشة السنية غير بركة يده الممتدة الى أموال السلطان والرعية من الرشا والبراطيل ؛ ولعل الواحد منهم ينفق فى يومه القدر المأخوذ منه فى السنة ؛ هذا مع ما لهم من الحرية الزائدة والجاه القاطع والترفع على رقاب خواص المسلمين ... ثم ليس لهم فى بلد من الحرمة والجاه والمكانة ما لهم فى مدينة السلام ، فلو تضاعف المأخوذ منهم مهما تضاعف كان لهم الربح الكثير ؛ ومنهم الأطباء أصحاب المكاسب الجزيلة بترددهم إلى منازل الأعيان وأرباب الأموال ودخولهم على المتوجهين فى الدولة ؛ والناس يتحملون فيما يعطون الطبيب زائداً على القدر المستحق ، وهو أمر من قبل المروءات ، فلا ينفكون عن الخلع السنية والدنانير الكثيرة ، والطرف فى المواسم والفصول ، مع ما يخطئون فى المعالجات ويفسدون الأمزجة والأبدان ، ويخرج الصبى منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين ، وخمس قوائم من تذكرة الكحالين ، وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة ، وجلس فى مقاعد الأسواق والشوارع على دكة حتى يعرف ، وبيده المكحلة والملحدان ، يؤذى هذا فى بدنه ، ويجرب على ذا فى عينه ؛ فيفتك من أول النهار إلى آخره ، ويمضى آخر النهار إلى منزله ومكحلته مملوءة قراضة ، فاذا عرف بقعوده على الدكة وصار له الزبون قام بدور ، ويدخل الدور . ثم ذكر أصناف الحرف التى كان يحترفها أهل الذمة فى ذاك العهد ويغشون فيها . وهذه الرقعة أو التقرير على مايلمح فيه من التعصب يحمل حقائق من وصف المجتمع البغدادى فى القرن السابع . وهذا التاريخ مجموعة حوادث وأفكار مهمة جداً . وقد قدم له العلامة رضا الشبيبى من علماء العراق مقدمة ذكر فوائده ؛ ونظر فيه وعلق عليه الأستاذ مصطفى جواد

محمد كرد على

رسالة العلم

صحيفة علمية ، تصدرها جمعية خريجى كلية العلوم

تستقبل (رسالة العلم) عامها الثالث بالعدد الخامس الذى صدر فى هذا الشهر محرراً بأقلام قوية من خريجى كلية العلوم ؛ ومَن للعلم يؤدى رسالته غير كلية العلوم ؟

ونحن إذ نهنئ رسالة العلم بعامها الثالث ، لا يسعنا إلا التنويه بجهودها الموفق فى نشر الثقافة العلمية الخالصة باللغة العربية وبما أجدت على العلم وعلى اللغة ، فزادت فى محصول الأول وأضافت إلى تراث الثانية ما عربت من مصطلحات العلم ، وما استحدثت من ألفاظه

وإن من يعرف أين كانت لغة العلم من لغة الأدب منذ قريب حتى أوشك العلم أن يصير احتكاراً لطائفة من دون سائر المتعلمين ، ثم يعرف المحاولات الجدية التى حاولتها هذه الصحيفة للتوفيق بين لغة العلم وهذه اللغة — ليشكر لجمعية خريجى كلية العلوم وللقائمين على صحيفتها هذه المحاولات وهذا الجهد المشكور . وإن (الرسالة) التى تفخر بحرصها على العربية والحفاظ لعهدها ليسرها أن تباهى بهذا الجهد وتدعو له وللقائمين عليه بالتوفيق م؟

4 me Année, No. 134.

Lundi-27-1-1936

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٣٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ — ٢٧ يناير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

صفحة

ملك وشـــاعر

حل أصدق المواعيد فى يومين متعاقبين بالملك جورج الخامس ، وبالشاعر رديارد كبلنج ، فارفضّ لخطبهما الصبر الانجليزى الذى يتماسك بطبعه على مض النوازل ، وتجاوبت بأصداء الأسى الوقور أقطارُ المُلْكِ البريطانى الشامل ، وشعر القلب الامبراطورى برجفة صماء لموت الملك ، وأحس اللسان الاستعمارى بعقدة بكماء لموت الشاعر ؛ ذلك لأن صاحب الجلالة كان يمثل شعبه فى نبله وديمقراطيته ، وصاحب العبقرية كان يمثله فى طموحه ووطنيته ؛ فأولهما كان رمز السمو الخلقى فى طبع السياسة ، وثانيهما كان لحنَ الغرور القومى فى معنى الأدب !

***

كان الملك جورج معنى جديداً من معانى الملكية الجديدة ؛ وفق بين غطرفة الملك وتواضع الديمقراطية ، وألف بين قيود الحكم ونوازع الحرية ، وصالح بين حِفاظ التقاليد وطبيعة التطور ، ولاءم بين إرادة العاهل وسلطة الدستور ، ووامم بين سياسة الدولة ورغبة الأمة ، واستبدل بالسلطة الزمنية التى أماتها

فيه الزمان ، وورثها عنه البرلمان ، سلطةً روحية أحلته من شعبه محل القَداسة ، ورفعته فى أفقه مكان العَلَم ، وجعلتـه فى حكمه سلامَ الحزبية إذا احتدمت ، وقرار السياسة إذا اضطربت ، وصلة الامبراطورية إذا تقاطعت ، ومواساة المرضى من بَرْح الألم ، وتعزية البؤس (١) من مس الحاجة ؛ ثم تكرم عن أثرة الملوك وتميُّز السادة ، فكان فى الحرب يأكل ما يأكل الناس ، وفى الأزمة ينفق ماينفق الأوساط ، وفى المحنة يكابد مايكابد الشعب ، وفى الرخاء يكاد الاحسان العام لا يترك فى يديه من مخصصاته النصفِ مليون إلا قرابةَ الألفين

كانت ملكية الملك جورج كما رأيت لفظاً معناه الحب والخير والواجب ؛ ومِن هنا وجدت الأحزاب على اختلافها مضامينها فيه ؛ فهى تثور فيما بينها وتسكن إليه ، وتختلف فى رأيها وتتفق عليه ، وتفترق فى طرقها وتلتقى عنده ، حتى قال زعيم من زعماء الأحرار هو مستر اسكويث : « إن العروش لتهاوَى حولنا ، لأن بعضها قائم على أساس من الظلم ، و بعضها مرفوع على غثاء من التقاليد ، ولكن عرش هذه البلاد محمول على مشيئة الشعب البريطانى ، فهو مستقر لا يتزعزع ، راسخ لا يميد » ، وحتى قال زعيم من زعماء العمال هو مستر استافورد : « إن الملكية الدستورية ستظل طويلا فى هذه الأمة خير أداة لاختيار رأس الدولة »

من أجل ذلك الخلق الأقوم كان حزن الإنكليز على مليكهم خالصا من الرياء الرسمى ، صادرا عن الشعور الصادق بالحب لرجل غلّب الأبوة على المُلك ، واستغنى بالطيبة عن البراعة ، وسد بكمال الخلق نقص القدرة

* * *

وكان الشاعر كبلنج مفتونا بعظمة الإمبراطورية ؛ صاغ من نسبها النضارِ شعره ، وألّف من لجبها المتناسق أغاريده ؛ ثم شدا بالمجد الطوّاف على أثباج الماء ، وهتف بالنصر الرفاف على وجوه الأرض ، وجعل من شعره الجواب نشيدا قوميا تردده الآفاق البريطانية كما تردد نشيد الملك !

ولد كبلنج فى بلاد قال فيها : « إنها أعجب بلاد خضعت للمخلوق وفُتحت للخالق » : ولد فى الهند ببمباى كما يولد الهنود ، ولكنه وعَى فوجد نفسه سيدا ، ووجد الهندى الذى ولد معه عبدا ، يعيش على كده وهو ناعم بين وِسْكِيهِ وحسانه ، ويرقى على ظهره إذا همّ بركوب حِصانه ! الخلقة هى الخاتمة ، والبيئة هى البيئة ، والطبقة هى الطبقة ، ولكن كبلنج رأى بشرته ودمه من لون العلم الخفاق ، ورأى بشرة الهندى ودمه من لون الأرض المستَغَلة ، فأدرك علة الامتياز وسر التفوق : عرف أن البريطانى بحكم الجنس قد يدعى ذكيا وهو فَدْم ، وكيّسا وهو أخرق ، وكافيا وهو عاجز ، وسابقا وهو متخلف ، فاستهام بهذه القوة التى تشع مع الشمس فى كل أفق ، وتنتشر مع الحياة فى كل قطر ، وتنبسط على حواشى البر والبحر أمناً وحماية ، فحبس على إعلان مفاخرها لسانه ، ووقف على تسويغ عدوانها عقله ؛ فموه حجج الاستعمار بالشعر ، وألهب سُعار العصبية بالحماسة ، وشوه جمال الوطنية بالأثرة ، وجعل الأدب وهو شعاع الروح دليلا لبغى القوى ولؤمه ، ومهد لأساطيل الطغيان ، استعباد الانسان للانسان ، بحجة « أن الشرق شرق والغرب غرب فلا يلتقيان » إلا على شر ، ولا يفترقان إلا على ثأر !

من أجل ذلك الاخلاص الملهَم كان مرض كبلنج تحت الرعاية الملكية ، وكانت جنازة كبلنج جنازة « شبه رسميّة » !

* * *

إن فى مثل سياسة الملك جورج لأماناً من طغيان الرءوس وثوران النفوس ، وقيام الدعوات الباطلة ، وشيوع المذاهب الجريئة ، وانقلاب الحكم فى الدولة ، واضطراب السلم فى الأمة ، واغبرار العيش فى أوجه العامة . وإن فى مثل أدب الشاعر كبلنج لروحاً مزهوّة تعتلج بالشعور الوطنى ، وتختلج بالغرور القومى ، وتدفع بالهمم الوانية إلى اللحاق ، وتنزع بالنفوس الضارعة عن المذلة ، وتكشف للقلوب المنخوبة عن معانى الرجولة !

إن فى كل حادث ذكرى ؛ وإن فى كل حديث بلاغا !

احمد حسن الزيات

(١) البؤس : جمع بائس

٤ – المشـــكلة

تتمـــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

صاحبُ هذه المشكلة رجلٌ أعورُ العقل .... يرى عقلُه من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصفُ الوجود فى مشكلته ؛ ولو أن عقله أبصر من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصةً فى إشكالها ، ولوجد فى ناحيتها الأخرى حظًا لنفسه قد أصابه ، ومذهباً فى السلامة لم يخطئه ؛ وكان فى هذه الناحية عذابُ الجنون لو عذبه الله به ، وكان يصبح أشقى الخلق لو رماه الله فى الجهة التى أنقذه منها ، فتهيأت له المشكلة على وجهها الثانى

ماذا أنت قائلٌ يا صاحب المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التى بنيتَ بها ، كانت هى التى أُكرهت على الرضى بك ، وحُملت على ذلك من أبيها ، ثم كنت أنت لها عاشقاً ، وبها صبًّا ، وفيها مُتَيَّماً ؛ ثم كانت هى تحب رجلا غيرك ، وتصبو اليه ، وتفتتن به ، وقد احترقت عشقاً له ؛ فاذا جلَوها عليك رأتك البغيضَ المَقيت ، ورأتك الدميمَ الكريه ، وفزعت منك فزعها من اللص والقاتل ؛ وتمدُّ لها يدك فتتحاماها تحاميها المجذوم أو الأبرص ، وتكلمها فتُحَمُّ برداً من ثقل كلامك ، وتفتح لها ذراعيك فتحسبهما حبلين من مشنقتين ، وتتحبّب اليها فاذا أنت أسمجُ خلق الله عندها ، إذ تحاول فى نذالة أن تحل منها محل حبيبها ، وتُقبل عليها بوجهك فتراه من تقذُّرها إياك واشمئزازها منك وجه الذبابة مكبراً بفظاعة وشناعة فى قدر صورة وجه الرجل ليتجاوز حدَّ القبح إلى حدِّ الغثاثة ، إلى حد انقلاب النفس من رؤيته ، إلى حد القىء إذا دنا وجهك من وجهها .... ؟!

ماذا أنت قائلٌ يا صاحب المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك الرجلَ الثانى لا المرأة الثانية ؟ ألست الآن فى رحمة من الله بك ، وفى نعمة كفَتْ عنك مصيبة ، وفى موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترقب فى حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكمَ الله عليك ؟

***

تقول : الحب والخيال والفن ، وتذهب فى مذاهبها ؛ غير أن « المشكلة » قد دلت على أنك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ولا حسبت نفسك منحوس الحظ محروماً ، ولا جهلت أن فى داخل العين من كل ذى فنٍّ عيناً خاصةً بالأحلام كيلا تعمى عينُه عن الحقائق

الحب لفظ وهمىٌّ موضوع على أضداد مختلفة : على بركان وروضة ، وعلى سماء وأرض ، وعلى بكاء وضحك ، وعلى هموم كثيرة كلها هموم ، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحاً ؛ وهو خداعٌ من النفس يضع كل ذكائه فى المحبوب ، ويجمل كل بلاهته فى المحب ، فلا يكون المحبوب عند محبه إلاشخصاً خيالياً ذا صفة واحدة هى الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشرية فى وجود تام الجمال ولا عيب فيه ، والناس من بعده موجودون فى العيوب والمحاسن

وذلك وهم لا تقوم عليه الحياة ولا تصلح به ، فانما تقوم الحياة على الروح العملية التى تضع فى كل شىء معناه الصحيح الثابت . فالحب على هذا شىء غير الزواج ، وبينهما مثل ما بين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يُفهم هذا الحبُّ على النحو الذى يجعله حباً لا غير ، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحابا هو أسخف زواج بينهما إذا تزوجا

وذو الفن لا يفيد من هذا الحب فائدتَه الصحيحةَ إلا إذا جعله تحت عقله لا فوق عقله فيكون فى حبه عاقلاً يجنون لطايف ... ويترك العاطفة تدخل فى التفكير وتضع فيه جمالها ونورَها وقوتها ؛ ومن ثم يرى مجاهدةَ اللذة فى الحب هى أسمى لذاته الفكرية ، ويعرف بها فى نفسه ضرباً إلٓهياً من السكينة يوليه القدرةَ على أن يقهر الطبيعةَ الانسانية ويصرِّفها ويُبدعَ منها عملَه الفنىَّ العجيب

وهذا الضربُ من السموِّ لا يبلغه إلا الفكرُ القويُّ الذى فاز على شهواته وكبَحها وحملها تغلى فيه غليانَ الماء فى المِرجل ليخرج منها ألطف ما فيها ويحوِّلها حركةً فى الروح تنشأ منها حياةُ هذه المعانى الفنية ؛ وما أشبه ذا الفن بالشجرة الحية ، إن

لم تضبط ما فى داخلها أصحَّ الضبط لم يكن فى ظاهرها إلا أضعفُ عملها

ومثل هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجتَه إلى الحبيبة ، وهو فى قوته يجمع بين كرامة هذه وقُدْسية هذه لأن إحداهما توازن الأخرى ، وتُمَدِّلها فى الطبع ، وتخفف من طغيانها على الغريزة ، وتُمسك القلب أن يتبدَّد فى جوه الخيالى

***

والرجلُ الكاملُ المفكرُ المتخيل إذا كان زوجاً وعشق ، أو كان عاشقاً وتزوج بغير من يهواها استطاع أن يبتدع لنفسه فناً جيلاً من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ، وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمد على هيئة واحدة ، غير أنه لا يُغفل أن هذا هو سرٌّ من أسرار الابداع فى التمثال إذ تلك هيئةُ استقرار الأسمى فى سموه ؛ فان الزوجة أمومةٌ على قاعدتها وحياةٌ على قاعدتها ؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها ، وهى معان شاردةٌ لا تستقر وزائلةٌ لا تثبت ، وفنها كله فى أن تبقى حيث هى كما هى ، فجمالها يحيا كل يوم حياةً جديدة ما دامت فناً محضاً وما دام سرُّ أنوثتها فى حجابه

ومتى تزوج الرجل بمن يحبها انهتك له حجاب أنوثتها فبطل أن يكون فيها سر ، وعادت له غيرَ من كانت ، وعاد لها غير من كان ؛ وهذا التحول فى كل منهما هو زوالُ كل منهما من خيال صاحبه ؛ فليس بصلح الحب أساساً للسعادة فى الزواج ، بل أحْرِ به إذا كان وجداً واحترافاً أن يكون أساساً للشؤم فيه ، إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يميل لهما درجةً من درجة فى الشغف والصبابة والخيال ، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد ، فان لم يكن الزوجُ فى هذه الحالة رجلاً تام الرجولة — أفسدت الحياةَ عليه وعلى زوجته صبيانيةُ روحه فالتمس فى الزوجة ما لم يجد فيها ، فاذا انكشف له فراغها ذهب يلتمسه فى غيرها وكان بلاءً عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ، إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسىّ ؛ وما المرأة إلا حسها وشعورها [1]

***

فالشأن فى تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وفحولتها إن كان الرجل عاشقاً أولم يكنه . وما من رجل قوىّ الرجولة إلا وأساسه ديانتُه وكرامتُه ؛ وما من ذى دين أو كرامة يقع فى مثل هذه المشكلة ثم تُظلم به الزوجة أو يَحيف عليها أو يُفسد ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العِشْرة ، بَلْهَ أن يراها كما يقول صاحب المشكلة (مصيبة) فيُجافيها ويبالغ فى إعناتها ويشفى غيظه بإذلالها واحتقارها

وأى ذى دين يأمن على دينه أن يهلك فى بعض ذلك فضلا عن كل ذلك ؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءةً ونذالةً فى معاملة امرأة هو لا غيرُه ذنبُها ؟ إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية فى حل مشكلته إن تورط فى مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكد ويعمل ويصبر على ما يعانيه من ذلك ؛ ومن كان محباً لا يَستَزِلّ المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق ؛ ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها ؛ وإنما الانسان من أظهر فى كل ذلك ونحو ذلك أثَرَهُ الانسانى لا أثره الوحشىّ ، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لا بقاعدة الفرد . وإنما الدين فى السمو على أهواء النفس ؛ ولا يتسامى امرؤٌ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامة ، فمن هناك يتسامى ، ومن هناك يبدو علوُّه فيما يبلغ إليه ....

وإذا حل اللص مشكلتَه على قاعدته هو فقد حلَّها ، ولكنه حلٌّ يجعله هو بجملته مشكلة للناس جميعاً حتى ليرى الشرع فى نظرته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التى خلقت له فيأمر بقطعها .

وعلى هذه القاعدة فالجنس البشرىُّ كله ينزل منزلة الأب فى مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع عنها ما دام قد وقع عليها الظلم من صاحبها ، وهذا هو حكمها فى الضمير الانسانى الأكبر وإن خالف ضمير زوجها العدوّ الثائر الذى قطعها من مصادر نفسه ومواردها . أما حكم الحبيبة فى هذا الضمير الانسانى فهو أنها فى هذا الموضع ليست

(١) هذا كله من بعض الحكمة فى أن الاسلام لا يبيح اختلاط الزوجين قبل العقد إذ لا يعرف الدين الاسلامى من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى عما يبنيها ، وتصان بما يصونها ، وقد أشرنا إلى حكمة أخرى فى المقالة الأولى من المشكلة

حبيبة ولكنها شحّاذة رجال ... ...

***

لسنا ننكر أن صاحب هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقدة التى فى قلبه ؛ بيد أننا نعرف أن ألم العاقل غير ألم المجنون وحزن الحكيم غير حزن الطائش ؛ والقلب الانسانى يكاد يكون آلةً مخلوقةً مع الانسان لاصلاح دنياه أو إفسادها ، فالحكيم من عرف كيف يتصرف بهذا القلب فى آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيده فيه ، ولا يُخرج من الشر شراً آخر يجعله أسوأ مما كان . وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهى أو أصاب مالا يشتهى استطاع أن يخلق من قلبه خلقاً معنوياً يُوجدُه الغنى عن ذلك المحبوب المعدوم ، أو يوجده الصبر عن هذا الموجود المكروه ، فتتوازن الأحوال فى نفسه وتعتدل المعانى على فكره وقلبه . وبهذا الخلق المعنوى يستطيع ذو الفن أن يجعل آلامه كلها بدائع فن (1) وما هو فكر الحكماء إلا أن يكون مصنعاً ترسل اليه المعانى بصورة فيها الفوضى والنقصُ والألمُ ، لتخرج منه فى صورة فيها النظام والحكمة واللذة الروحية

يعشق الرجلُ العامى المتزوج ، فاذا الساعة التى أوبقَتْه فى المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلها ؛ فاما ضَرَب امرأته بالطلاق ، وإما أهلكها باتخاذ الضرة عليها ، وإما عذبها بالخيانة والفجور ، لأن بعض العبث من الطبيعة فى نفس هذا الجاهل هو بعينه عبثُ الطبيعة بهذا الجاهل فى غيره ، كأن هذه الطبيعة تطلق مدافعَها الضخمة على الانسانية من هذه النفوس الفارغة . . .

وليس أسهل على الذكر من الحيوان أن يحل مشكلة الأنثى حلاً حيوانياً كحل هذا العامىّ ، فهو ظافر بالأنثى أومقتول دونها مادام مطلقاً مخلّىً بينه وبينها . والحقيقة هنا حقيقته هو والكون كله ليس إلا منفعة شهوانية ؛ وأسمى فضائله ألا يعجز عن نيل هذه المنفعة

ثم يعشق الرجل الحكيم المتزوج فاذا لمشكلته وجهٌ آخر ، إذ كان من أصعب الصعب وجود رجل يحل هذه المشكلة برجولة ، فان فيها كرامة الزوجة وواجب الدين وفيها حق المروءة ، وفيها مع ذلك عبثُ الطبيعة وخداعها وهزلها الذى هو أشدّ الجد بينها وبين الغريزة . وبهذا كله تنقلب المشكلةُ الى معركة نفسية لا يحسمها إلا الظفر ولا يعين عليها إلا الصبر ، ولا يفلح فى سياستها إلا من يحملُ آلامها ، فاذا رُزق العاشقُ صبراً وقوة على الاحتمال فقد هان الباقى ؛ وتيسرت لذةُ الظفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة ، فان فى نفس الانسان مواقع مختلفة وآثاراً متباينة للذة الواحدة ، وموقع أرفع من موقع ، وأثرٌ أبهج من أثر ؛ وألذُّ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفر بمعانيها ، وأكرمُها على نفسه كرامة نفسه . وإذا انتصر الدين والفضيلة والكرامة والعقل والفن ، لم يبق لخيبة الحب كبيرُ معنى ولا عظيم أثر ، ويتوغّل العاشقُ فى حبه وقد لَبِسَتْه حالة أخرى كما يكظم الرجلُ الحليم على الغيظ ، فذلك يحب ولا يطيش ، وهذا يغتاظ ولا يغضب . والبطل الشديدُ البأس لا ينبغ إلا من الشدائد القوية ، والداهية الأريب لا يخرج إلا من المشكلات المعقدة ، والتقىّ الفاضل لا يعرف إلا بين الأهواء المستحكمة . ولعمرى إذا لم يستطع الحكيم أن ينتصر على شهوة من شهوات نفسه أو يُبطل حاجةً من حاجاتها فماذا فيه من الحكمة وماذا فيه من النفس ؟

***

وما عقّد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيبته إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوةَ الصالحةَ فيه ، فهو لم يتزوج امرأته كلها ... وكأنه لا يراها أنثى كالنساء ، ولا يبصر عندها إلا فُروقاً بين امرأتين : محبوبة ومكروهة ، وبهذا أفسد عينَه كما أفسد خياله ؛ فلو تعلم كيف يراها لرآها ، ولو تعوّدها لأحبها انه من وهمه كالجواد الذى يشعر بالمَقادة فى عنقه ؛ فشعوره بمعنى الحبل وإن كان معنى ضئيلا عطّل فيه كل معانى قوته ، وإن كانت معانىَ كثيرة . وما أقدرَك أيها الحب على وضع حبال الخيل والبغال والحمير فى أعناق الناس . ! .

***

وقد بقى أن نذكر توفية للفائدة أنه قد يقع فى مثل هذه المشكلة من نقصت فُحولتُه من الرجال فيدلّس على نفسه بمثل هذا الحب ويبالغ فيه ويتجرّم على زوجته المسكينة التى ابتليت به ،

(1) استوفينا هذه المعانى فى كثير مما كتبنا وبعضها فى مقالات (الجمال البائس) ... ...

ريح التعصب الجنسي

تهب على أوربا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

مضى الآن أربعة أشهر على نشوب تلك الحرب البربرية التي تضرم إيطاليا نارها في الحبشة باسم الاستعمار والمدنية؛ والحبشة ترد هجمات المعتدين عليها بشجاعة وجلد يثيران اعجاب العالم وعطفه؛ والعدو المغير يتخبط في غمر فادحة من الصعاب والخيبة واليأس، ويرتد شيئاً فشيئاً عن الأرض التي احتلها في البداية دون مقاومة، وظن أن احتلالها مقدمة الظفر الشامل

وقد سنحت لايطاليا المعتدية أكثر من فرصة للفوز بقسط معقول من أسلاب الفريسة، قبل أن تصطدم بأية مقاومة حقيقية، وقبل أن ينكشف ضعفها وعجزها عن تحقيق أطماعها الفادحة بالقوة القاهرة؛ ولكنها لم تحسن انتهاز الفرصة وذهبت بعيداً في غلوائها وتحديها، ولم تحسن تقدير المقاومة السلبية الدولية التي استطاعت السياسة البريطانية أن تنظمها ضدها على يد عصبة الأمم، والتي أملت تنظيمها على السياسة البريطانية بواعث حيوية

ويختلِقُ لها العلَل الواهية المكذوبة ويبغضها كأنه هو الذي ابتُلِي بها وكأن المصيبة من قِبَلها لا من قبله؛ وكل ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكرة فلم تمد إلا صوراً خيالية لا تعرف إلا الكذب. وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته أشد الكره إذا شعر في نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها، فهذا لا يكون رجلا لامرأته إلا في العداوة والنقمة والكراهية وما كان من باب شفاء الغيظ، وامرأته معه كالمعاهدة السياسية من طَرَف واحد .... لا قيمة ولا حرمة؛ وإذا أحب هذا كان حبه خيالياً شديداً لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه، ومن جهة أخرى يكون غيظاً لزوجته ورداً بامرأة على امرأة ......

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

خطيرة تتعلق بسلامة الامبراطورية وتأييد سيادتها في البحر الأبيض المتوسط، وفي وادي النيل وشرق أفريقية؛ بيد أن إيطاليا استطاعت بسياستها المنيفة وما تحمل في ثنيها من احتمال اضرام نار حرب أوربية، أن تحمل السياستين الفرنسية والبريطانية على وضع مشروع للصلح، يقضي في الواقع على الحبشة بالاعدام كأمة مستقلة، ويحقق لايطاليا السيادة الفعلية على معظم أراضيها، ويتوج حملتها الاستعمارية بظفر شامل لم تستطع أن تنال منه شيئاً بالحرب؛ ولكن المقاومة الحبشية كانت قد بدأت عندئذ تحدث أثرها في وقف الزحف الايطالي، وظهر عجز إيطاليا وضعفها جلياً، واستقبل العالم مشروع الصلح بالاستنكار والسخط، ورفضته الحبشة بتاتاً، فلم يلبث أن قضي عليه في مهده؛ وكانت فضيحة دولية حقيقية أصابت هيبة السياسة البريطانية، واضطرت أن تتراجع أمامها بسرعة وأن تعود إلى موقفها الأول

وقد عرضنا من قبل إلى ذلك التطور المدهش في سير الحرب الحبشية، وأشرنا إلى بعض العوامل التي يظن أنها كانت سبباً في تحول السياسة البريطانية؛ ومنها ما يقال من أن مسيو لافال رئيس الوزارة الفرنسية استطاع أن يقنع السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية المستقيل بأن تعريض الحملة الايطالية للفشل، وتمكن الأحباش من احراز نصر حاسم على البيض مما يعرض سيادة الدول الأوربية في أفريقية للخطر، ويصدع من صرح أوربا الاستعماري كله، ويبعث في الشعوب السوداء أو الملونة رغبة الانتقاض والمقاومة، وذلك ليس من مصلحة بريطانيا التي تحكم مئات الملايين من الشعوب الملونة في أفريقية وآسيا

ومما يلاحظ أن هذه النغمة الجنسية تقوى وتشتد في أوربا يوما عن يوم، وأن الدوائر والصحف الاستعمارية أخذت تضرب عليها بطريقة منظمة، وخصوصاً بعد الانتصارات المتوالية التي أحرزها الأحباش على الايطاليين في الأسابيع الأخيرة، مما يدل على أنها قد أخذت تحدث أثرها في تكييف السياسة الاستعمارية الأوربية: بيد أنه مما يلاحظ أيضا أن هذه النغمة التي بعثتها الحرب الحبشية من رقادها ليست سوى ناحية واحدة من نواحي الفورة الجنسية العامة التي اشتدت بوادرها في أوربا في الأعوام

الأخيرة ، والتي ظهرت بصورة جلية في كثير من المناسبات السياسية والدولية

وقد نرجع إلى الوراء قروناً إذا حاولنا أن ندرس كل التطورات التي مرت بها تلك النزعة الجنسية الأوربية ؛ فتاريخ هذه النزعة هو تاريخ الصراع بين الشرق والغرب وبين الاسلام والنصرانية ؛ ولكننا نكتفي بأن نعرض إلى أحدث طور من أطوارها ، وهو الذي نرى اليوم آثاره ماثلة في سياسة أوربا العامة ، وفي السياسة المحلية لبعض الدول الأوربية . وفي وسعنا أن نقول إن هذا الطور الحديث من هذا الصراع الجنسي يرجع إلى الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ ، فقد كانت الفكرة الجنسية تجثم قوية وراء هذا الصراع بين دولة أوربية عظمى وبين دولة أسيوية استطاعت أن تنفض عنها غبار الماضي بسرعة وأن تتبوأ مكانتها بين الدول القوية ؛ ومع أن أوربا كانت تسيء الظن بمقدرة روسيا القيصرية واستعدادها ، فانها لم تكن تتوقع أن تصاب الجيوش والأساطيل الروسية بمثل ما أصيبت به من الهزائم الساحقة ، وأن تحرز اليابان ما أحرزت من نصر باهر

ولكن اليابان خرجت من تلك الحرب ظافرة قوية ، وكان من نتائجها أن بسطت سيادتها على أقاليم شاسعة من الصين ؛ وحدث لأول مرة في التاريخ أن انتصرت دولة أسيوية على دولة أوربية عظمى ؛ ولهذا استقبلت أوربا انتصار اليابان في دهشة وروع ، واستقبلته مقروناً بصيحة الخطر الأصفر ؛ ولما سما شأن اليابان بعد الحرب الكبرى وضاعفت جهودها في سبيل التوسع الاستعماري في الصين ، وكشفت عن نيتها في مقاومة النفوذ الأوربي في الشرق الأقصى ، مستترة بشعار الجامعة الاسيوية ، واستطاعت في الأعوام الأخيرة أن تبسط سيادتها تباعاً على منشوريا وأقاليم أخرى من الصين ؛ زادت أوربا شعوراً بما تسميه الخطر الاسيوي ، أو الخطر الأصفر إشارة إلى تفوق اليابان أو الجنس الأصفر ؛ وما ينذر به من تحطيم النفوذ الأوربي في الشرق الأقصى ، والحلول مكان الدول الأوربية في استعمار الشعوب الاسيوية التي وقعت تحت سيادتها .

وهذه النعرة الجنسية تشتد اليوم في أوربا وتتخذ صوراً محلية الى جانب صورتها العامة . ففي ألمانيا الهتلرية مثلا تتخذ نظريات الجنس والسلالة أهمية خاصة ، وترتب عليها مزاعم مدهشة ، ويبدو أثرها جلياً في اضطهاد اليهود ومطاردتهم بأساليب عنيفة منظمة ، وفي الدعوة القوية الى بغض الأجناس السامية والشرقية واحتقارها واعتبارها أجناساً منحطة لا يليق أن تتبوأ مكانها مستقلة أو حرة ، ووجوب اخضاعها واستغلالها بواسطة الشعوب الآرية الأوربية ؛ ويزعم هتلر ودعاته أن الجنس الجرماني هو أشرف أجناس الخليقة ، وأعظمها في الخواص والخلال ، وينكرون على الشعوب السامية والشرقية بوجه عام أنها ساهمت أو تستطيع أن تساهم في إنشاء الحضارة ؛ بل يذهبون في غلوهم إلى إعتبار أن اليابان أمة مقلدة لا يصح أن توضع في مصاف الشعوب العظيمة المبتكرة ، الى غير ذلك من المزاعم التي تنم عن تعصب جنسي عميق ؛ ونرى مثل هذه الريح الجنسية تعصف بأمم ثانوية مثل بولونيا والمجر ورومانيا ، وتتخذ صورتها في اضطهاد اليهود ومطاردتهم . أما الصورة العامة التي تتخذها النعرة الجنسية اليوم في أوربا ، فتظهر جلياً في أمرين : الأول صيحة الخطر الأصفر ، وذلك لمناسبة توغل اليابان في الصين وتوجس الدول الأوربية من مطامع اليابان وخوفها من انهيار سيادتها الاستعمارية في الشرق الأقصى ، وقد أخذت تنهار فعلا بتخلي روسيا عن مصالحها القديمة في منشوريا ؛ والثاني في صيحة البيض والسود التي ذاعت لمناسبة الحرب الحبشية الايطالية ، وقصور إيطاليا في إدراك غاياتها الاستعمارية بعد أن لبثت طويلا تنظم قواها وبعد أن جردت على الحبشة نحو ثلث مليون جندي مجهزين بأحدث الأسلحة والمخترعات المهلكة ؛ وهذه الصيحة تشتد اليوم في البيئات والدوائر الاستعمارية كلما اشتدت مقاومة الأحباش وزاد عجز إيطاليا وضوحاً ، وبدا إزاء مايحرزه الأحباش من انتصارات متوالية أن مغامرة إيطاليا الاستعمارية ستنتهي بالفشل الذريع . وهذه النغمة هي التي يضرب عليها اليوم غلاة الاستعماريين الذين يشدون بأزر إيطاليا تحقيقاً لغايات السياسة القومية ، مثل مسيو لافال رئيس الوزارة الفرنسية الذي يحاول أن يستبقي الصداقة الايطالية بأي الأثمان ويخشى أن يؤدي انتصار الأحباش أعني السود على الايطاليين الى كارثة استعمارية تهز الأمم السوداء والملونة الى الأعماق ، وتعصف بنير الاستعمار الأوربي

فى إفريقية ، ولفرنسا فى افريقيا الشمالية والغربية والوسطى امبراطورية استعمارية ضخمة ؛ ومثل زعماء ألمانيا الهتلرية الذين يرون فى سياسة ايطاليا الاستعمارية ، وفى تحقيق غايات الاستعمار الايطالى سنداً جديداً لمطامع المانيا الاستعمارية فى استرداد بعض مستعمراتها القديمة تحقيقاً لنفس الغايات الاقتصادية التى يزعم موسولينى أنه يعمل لتحقيقها بالقضاء على حريات الحبشة واستقلالها

وهذه النعرة الجنسية حرية بأن تحدث أثرها فى السياسة الانكليزية ؛ فانكلترا كفرنسا تسيطر على أمبراطورية شاسعة من الشعوب الملونة ولا سيما فى شرق أفريقية حيث تضطرم الحرب الحبشية ، وسحق إيطاليا فى الحبشة يحدث بلا ريب أثراً عميقاً فى عقلية هذه الشعوب ويذكى فيها روح التمرد والمقاومة للنير الأجنبى ؛ ولكن الظاهر أن انكلترا مع تقديرها لهذا العامل ترى أن تضعه فى المحل الثانى بالنسبة لعوامل جوهرية أخرى تضطرها أن تعمل فى وجهة أخرى . ذلك أن انكلترا ترى فى العسكرية الفاشستية خطراً داهماً على سيادتها فى البحر الأبيض ، وترى فى ظفر إيطاليا باجتياح الحبشة خطراً داهماً على أملاكها فى شرق أفريقية وعلى سيادتها فى وادى النيل ؛ وترى على الجملة فى استمرار هذه الفاشستية الطامحة المتجنية المشبعة بروح الاعتداء والتحدى ، خطراً على سلامة أمبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الأمبراطورية ، وخطراً على السلم الأوربى بوجه عام ؛ والمسألة الحبشية ثانوية فى نظر السياسة الانكليزية كما بينا أكثر من مرة ، ولكنها تغدو فى يد انكلترا وسيلة ناجعة لمحاربة الفاشستية وتقويض دعامتها العسكرية والسياسية

على أن الذى نريد أن نلفت النظر إليه هو أن هذه النعرة الجنسية التى تهب ريحها اليوم على أوربا وتروجها الدوائر الاستعمارية ، ليست جديدة ولا حادثة فى أوربا ، إنما هى نزعة أصيلة فى هذه الشعوب الأوربية التى استطاعت بأساليب العنف والغدر والخديعة أن تفرض سيادتها على معظم الأمم الافريقية والاسيوية ، والتى تحرص كل الحرص على استغلال هذه الأمم واستصفاء ثرواتها لكى تزيد بها فى قوتها وفى نمائها ورخاء بنيها على حساب هذه الأمم المهيضة ؛ وأوربا اليوم هى كما كانت بالأمس ، وكما كانت منذ العصور الوسطى مهد التعصب الجنسى والدينى ؛

وليس من الضرورى أن نعود إلى أيام الحروب الصليبية لكى نصور أوربا المتعصبة على حقيقتها ، وإنما يكفى أن نذكر أن الاستعمار العسكرى والسياسى الذى تفرضه أوربا على الشعوب الشرقية باسم المدنيـــة والتهذيب والتفوق الجنسى والثقافى والاجتماعى ، تؤيده فى نفس الوقت حملات البعثات التبشيرية ، وتمهد له بالعمل على تقويض العقائد الدينية الشرقية ؛ فاذا كنا نسمع فى أوربا اليوم صيحة الخطر الأصفر لمناسبة التقدم اليابانى فى الصين ؛ وصيحة البيض والسود لمناسبة انهيار مشروع إيطاليا الاستعمارى فى الحبشة ، فانما ذلك يتفق تمام الاتفاق مع ماضى أوربا وتقاليدها فى الاضطرام بنزعات التعصب الجنسى والدينى وخصوصاً كلما خشيت على صرحها الاستعمارى من الانهيار ؟

(***)

فى الحب أيضا

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كتبت إلىّ سيدة أعرفها فاضلة لبيبة تسألنى عن الحب كيف أقول فيه ما قلت ؟ وعن المرأة كيف أبسط لسانى فيها كل هذا البسط ؟ وعن الحب الافلاطونى ماذا ترى رأيى فيه ؟ وختمت كتابها باتهام الرجال بقلة الوفاء ، وبالغدر وكثرة التقلب

وقد استخلصت من كتابها أن مقالى الذى تفضلت بنشره « الرسالة » لم يصادف منها ارتياحاً ولم يلق قبولاً . ولست أستغرب هذا ، أو أنكر عليها امتعاضها ، فانى أعرف أن كل رأى فيه من الهوى أثر ؛ والمرء يميل بمزاجه إلى ما هو أحب اليه من الآراء وأكثر موافقة أو مجاراة لهذا المزاج ؛ وما يزال الانسان يوحى إلى نفسه حتى يصير الأمر عنده عقيدة راسخة لا تتزعزع ولا يسهل زحزحته عنها ؛ ولو أن انساناً استطاع أن يتبين مبلغ أثر الايحاء الذاتى فى آرائه لهاله ذلك ، ولذهب إيمانه بالعقل وقدرته على النظر المجرد ، ولأيقن أنه ما من رأى إلا وهو وليد عاطفة ، فمولد عاطفة ؛ والانسان يعيش بالطبع أكثر مما يعيش بالعقل . وأحسبنى لا أخطىء جداً حين أقول إن عقل كل فردٍ يُصب فى قالب من طباعه ، فليست هذه التى نفكّر بها « عقولاً » ، وإنما هى طباع وأمزجة اتخذت صوراً مزوّرة ؛ وأصل الخطأ أنا سميناها « عقولاً » فصار لها فى وهمنا ، على الأيام ، استقلال لا وجود له

وليس الذى نشرته لى « الرسالة » رأياً فى الحب ، وإنما هو بيان لحالات يجر اليها ، ومواقف يستدعيها ، ولا أرى لى صبراً عليها ؛ أما الحب فليس لغزا ، وما على من يريد فهمه على الوجه الصحيح إلا أن ينضو عنه كل ما خلع عليه الشعراء ولفوه فيه ، حتى أخفوه وحجبوه ؛ وليس هذا كل ما جنى الشعر ، وما هو إلا بعض ما مسخ من حقائق الحياة . والشعراء كالكهان الأقدمين — دأبهم التهويل على الناس وإيهامهم أنهم وحدهم دون خلق الله أهل العلم والاحاطة والبصر والاتصال بالحقائق العليا والأسرار المحجوبة — لا ، بل الشعر ضرب من الكهانة ، ومظهر من مظاهرها — أى نوع من الدجل . ولا نكران أن الشاعر والكاهن يبدآن مخلصين صادقى السريرة — وكذلك كل غرير قبل أن يجرب — ولكن الأمر يتحول شيئاً فشيئاً إلى صناعة ، فلا تصدق من يقول لك إن الشاعر يظل عمره — إلى آخره — طفلا كبيراً ، فان هذا ليس إلا بعض دجل الشعراء -- أو هو بعض ما يوحون إلى نفوسهم ويلحون به عليها ليكونوا أقدر على الدجل ، والدجال يحتاج إلى اكتساب « مظهر » الاخلاص ليستطيع إقناع الناس . وقد رأيت فى زمنى دجالين كثيرين كان أبرز صفاتهم قدرتهم على مغالطة أنفسهم بالايحاء اليها ؛ والشعراء أبرعهم جميعاً لأنهم ألح على نفوسهم ، وأكثر استلهاماً منها ، وسبباً للتأثير فيها ، ودؤوباً على مناجاتها

أعود إلى هـــذا الحب فأقول إنه ليس فيه سر ، فهو ضرب من الجوع ، أو هو إذا شئت نوع من التنبيه تلجأ اليه الطبيعة لتغرينا بما يكفل المحافظة على النوع كما تنبهنا بالجوع ، فنبغى ما نحافظ به على ذواتنا . وعلى ذكر الجوع أقول إنى أذكر أنى أيام كنت أقول الشعر نظمت قصيدة نشرت فى الجزء الاول من ديوانى وفيها أن الحب أصاب منى « شبعه » فاستبشعها صديق لى أكبر رأيه وذوقه ، وأنكر علىّ أن أذكر « الشبع » فى معرض كلام على الحب ، فوافقته على رأيه ، ولكنى تركت البيت على حاله ، عجزاً عن تنقيحه ، أو إهمالاً ؛ ولولا أنى أرفض شعرى كله لقلت إنى الآن أرانى أحسنت

فالحب — كالجوع — اشتهاء ، أى إيذان بأن الجسم يطلب أن تسد له حاجة ، وليس الطعام هو الغاية من الأكل ، بل ما يفيده من الصحة والقوة واستمرار الحياة ؛ كذلك ليست المرأة هى الغاية من الحب ، بل ما تعين عليه من بقاء النوع بالانتاج ؛ وكما أن المرء يغلط فيأكل ما لا خير فيه ولا صحة تستفاد منه ولا قوة ، بل ما لعله يضر ويورث المرض ، كذلك يغلط الانسان فيحب ما لا يحقق الغاية التى ترمى اليها الطبيعة . والمرء يكون مترفا فى حبه كما يكون مترفا فى طعامه وملبسه وما الى ذلك ؛ ومن الناس من يأكل طعامه جرفا ، والبطان الذى لا ينتهى منه ، والمخلِّط من صنوفه والمستقصى لها ، والقَرُون الذى يأكل كل

لقمتين لقمتين ، والذى يكره ممدته على الزيادة بمدالشبع ، والذى يسرع فى الأ كل كراهة لطول الجلوس له ، والذى يضع يده على ما أمامه لئلا يتناوله الغير ، والذى يجيل اللقم ولا يمضغها ، والذى يلوك ، والذى يأ كل نصف اللقمة ويرد نصفها ، والزهيد القليل الأ كل ، والمريض ، والضميف الاشتهاء ، والمتجنّف . وكذلك أرى الناس يكونون فى حبهم ، بل الانسان الواحد يكون مرة هكذا ، ومرة هكذا ؛ والتوابل وما اليها لازمة للحب أحياناً لزومها للطعام ؛ واللحم هو هو كيفما طبخته ، ولـكنه تارة يكون أشهى مشوياً ، وتارة أخرى يكون ألذ وهو مسلوق ، أو مقدد أو مشرح أومملق فى السفود ، أو مخلوط بالرز أو البيض أو الخضر أو غير ذلك ؛ وقل مثل ذلك فى غير اللحم من الآ كال فما أردنا إلا التمثيل ؛ وكذلك المرأة ، فمن كانت يعنيها أن يبقى حب الرجل لها أطول زمن ممكن ، فلتكن على كل لون وعلى كل صورة تُشتهى

ولا احتاج بعد هـذا أن أقول : إنى لا أومن لا بالحب الأفلاطونى ولا بالوفاء ، ولست أعني أنى أستهجنهما أو أعيبهما ، فليس الأمر أمر استهجان أو عيب ، وإنما أعنى أنهما لا يوجدان مع الصحة والسلامة ؛ وإذا كان من الممكن أن يشبع الجائع بالنظر إلى الطعام فى أطباقه على السفرة ، وأن يحيا المرء بأن يأ كل بعينه أو خياله ، فانه يكون من الممكن أيضاً إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة والاستماع إلى حديثها والتمتع بابتسامتها ورشاقةوقفتها أوحسن جلستها . والذى يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوى منه إلى المرأة .

أما الوفاء فأ كرم به وأنعم ! ولـكن أين فى دنيانا من يصبر على طمام واحد وفى وسعه ألا يفمل ؟ وأقول « من يسمه ألا يفعل » وأنا أعني ما أقول ، فما يلتزم الوفاء إلا من يعجز — بسبب ما — عن خلافه . وأسأل القارىء وأعفيه من الجواب العلنى : أى رجل لم ينقض عهدا بالوفاء بالفعل أو بالنية أو بالخاطر أو بالخيال — على حسب الاحوال ؟ والمرأة كالرجل وشأنها كشأنه . وكذاب من يقول — وكذابة من تدعى — غير ذلك . ولست أدعو إلى شيء — وحاشا أن أفعل — ولـكني أصف واقماً ، وأقر حقا لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن ينتحل فضلا على حسابى وحساب الحقيقة . والذى يجمل الوفاء مستحيلاً فى الواقع أن الحياة قائمة على التحول لا على الثبات ، والمرء يتغير حتى ليمكن أن يقال إنه يخلق كل يوم خلقاً جديداً مولداً من الخلق السابق أو أنه يموت ويجيء غيره باسمه ؛ وكل يوم يحياه هو يوم ماته ، ويبمث بمده كرّة أخرى فى صورة تخالف الأصل من بمض الوجوه . وقد شرحت هذا من قبل فى مقالات شتى فى « البلاغ » « والأهرام » ولا أذ كر أين أيضاً ، فلا أعيد هنا ما قلت . . . . . .

وليس هذا رأياً جديداً لى ، فقد نظمت فيه شعراً كثيراً نشر بمضـه ، ولن ينشر البمض الآخر ؛ وأذكر مما نشر هذه الأبيات :

أ كلما عشـت يوما أحسـست أنىَ متُّه

(من قصيدة الملل من الحياة)

* * *

إنى أرانى قد حلت وانتسخت مع الصبى سورة من السور

وصرت غيرى فليس يعرفنى ــ إذا رآنى ــ صباى ذو الطرر

ولو بدا لى لبت أنكره كأنني لم أكنه فى عمرى

كأننا اثنان ليس يجممنا فى العيش إلا تشبث الذكر

مات الفتى المازنى ثم أتى من مازن غيرُه على الأثر

(من قصيدة كأس النسيان)

* * *

هذه كفى على خون العهود لا على الرعى ــ فهذا لا يكون

إنها دنيا كذاب وجحود ولصدق النفس أولى ــ لو يهون

هذه كفى على وشك الملال كل نار سوف يعلوها رماد

آه لو أسطيع تصديقَ الخيال ! أو يكون الجهل شيئاً يستفاد

* * *

ياعقيدى طامن الله حشاك ! لن ترانى شاكيا وهىَ حبالك

أين من طينتنا ــ أين ــ الفكاك؟ أنت انسان على فرط جمالك

(من قصيدة معاهدة هرامية)

* * *

وحسبى هذا القدر ، وعسى أن يكون كافياً فى جواب السؤال

ابراهيم عبد القادر المازنى

رفعـــة المرأة

للأستاذ محمد بك كرد على

تحارب فرنسا فكرة إعطاء الحقوق السياسـية للنساء ومساواتهن بالرجال ؛ وقد جعلت ألمانيا وإيطاليا فى جملة نظامها الجديدة أن تعود بالمرأة إلى سالف عهدها من التزام البيوت والقيام على تربيـة الأطفال ومنعهن ما أمكن من معاطاة أعمال الرجال ؛ وتكتب فى هذا الشأن كتب ورسائل ، وتنشر صحف ومجلات . ومن الـكتب التى ظهرت مؤخراً فى فرنسا فأحدثت دوياً فى الأوساط المعتدلة وأظهرت المرأة بمظهرها الحقيقى كتاب (رفعة المرأة) للدكتور روبر توتش Dr. Robert Teutsch : Le féminisme بدأه بكلام لثلاثة من مشاهير الـكتاب أحدهم تيودور جوران قال : إن رفعة المرأة بلية صدرت إلينا من البلاد الأجنبية ولا سيما من أمريكا وجرمانيا وبلاد الشمال . وكان هذا النفوذ المتألف من كل غريب يكفى أن يكون منـه نتاج قد لا يتلاءم كثيراً مع تركيبنا الفرنسى . وقال روبر كييو : من السهل الدلالة على أن دعوى رفع شأن المرأة كانت أبداً وليدة المذهب الاشتراكى ، فانا نراها نسقط فيها على أفكار اشتراكية بعينها ، وعلى معان لهم وتعبيرات وعلى كلمات مابرح الاشتراكيون يرددونها مع سفسطات كانت ولا تزال مألوفة لهم ؛ وما المرأة إلا أعدى عدو لرفعة شأنها ، فهى موقنة بأنها تخسر من نفوذها الخاص أربعة أضعاف ما تربحه من نفوذها العام ، ولا يتأتى مما ترمى إليـه إدخال أدنى إصلاح على النظام الاجتماعى . وقال الثالث مارسـل تينابر : إن حقوق النساء وتحريرهن الأدبى وطموحهن إلى الحياة السياسـية ، كل هذا حسن وجيل ، ولـكن ياسيداتى حررن أنفسكن أولاً من الخياط ، فان لم تكن لـكن هـذه الشجاعة فلا تتطاللن إلى أن تحصلن على ما بقى

قال المؤلف : إن مسألة إعطاء المرأة حقوقها ما زالت منـذ ثلاثين سنة من الموضوعات الطريفة ، ولو كان الأمر يقف على إعطاء المرأة جميع حقوقها ولا سيما السياسـية التى لم تهيئها لها لاطبيعتها ولاعملها الخالق لهان الأمر ، ولـكنهن يرمين من المطالبة بذلك إلى التفلت من كل قيودهن ولا سيما قيود البيت والأمومة . تريد إنقاص شأن الرجل وتطمح إلى الاستيلاء على كل عمل لم تخلق هى له . تريد الابتعاد عن المنزل وعدم المبالاة بأعماله والاقلال من الأولاد والقضاء على الأسرة وينتهى ذلك بانقراض العنصر والجنس . وبتأثير الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر فى معظم البلاد المدنة ولا سيما فى فرنسا ، راجت دعاية المفرطين ثم دعاية الرجال والنساء فى هذه الحرب الحديثة ، فـكان من تلك الدعاية إخراج المرأة عن طورها وحملها على أن تتناسى أو تستنكر عملها ، فصبغت المرأة بصبغة بشعة من محاكاة الرجل ليكون منها شريكة مبغضة له أحياناً ، ومنافسة وخصيمة يخشى بأسها . ومن العدل ألا نغفل عن التصريح بأن أسـباب حياة المرأة بعد الحرب الـكبرى قد تبدلت تبدلا خاصاً فيـه كثير من القسوة ، لأن أجور كثير من الرجال لم تعـد كافية لاعاشة البيوت فاضطرت المرأة بكسل الرجل أن تدخل أحياناً لتعمل فى البيوت التجارية والمعامل والمصانع لتكتسب ما تستلزمه حاجتها أو حاجة ذويها ، مما لم تحتج إليه فيما سبق من الأيام ، اللهم إلا إذا كان زوجها مصاباً بعـلة طال أمرها ، أو بعاهة فى جسمه تمنعه العمل ؛ وعلى ذلك كثر عدد العزبات المتجردات ، والعوزات والأيامى المطلقات ، ممن لا معرفة لهن بصناعة ؛ وكثيراً ما يكون لهن أولاد يضطررن لاعالتهن . وإذا لم ترغب فيهن النفوس أو كن بشمات ممسوخات يمشن خليلات للرجال أو يتدهورن فى المهوى السافل . ولطالما كان من الفتيات من جمعن شيئاً من المال ، وانتظرن السنين خاطباً أو راغباً ! ومن هـذه الطبقة أيضاً عوانس خرجن عن طبائعهن ، وحاولن أن يعشن عيشة جديدة ، ويخرجن من أفقهن الضيق فاستلزم ذلك اختلاطهن بكثيرات من بنات جنسهن وغير أبناء جنسهن ، فتيسر لهن إيجاد علائق كان من أثرها زواجهن ؛ وشق على كثيرات منهن لما أخفقن فى الحصول على عروس لهن أن يبقين بلا حب ، فاخترن خليلهن بحسب أذواقهن ، وكل أولئك كان يحسن ويحب لو وقف الأمر عنده ، ولـكن هناك نساء سطا عليهن الكبر والحقد ، فاحتقرن الرجل والزواج والولد ، وهن قادرات على أن يكن طاهيات ووصيفات وسـاعورات ودلاكات ومنظفات أيد (Nanicures) ومنظفات أرجـل (Pédicures) وحاسبات وخازنات وكاتبات ومدرسات وبائعات

وسمسارات بل وقصصيات ومحاميات وطبيبات ، ويتوهمن أنهن أسمى من الرجل أو على الأقل مساويات له ، ويحاولن أن يقمن مقامه فى معاناة سامى الأعمال مما لسن له خليقات

بهذه الصفحة وصف المؤلف ما تحاول المرأة بلوغه فى بلاده ، أو تنزعه من قيودها الطبيعيــة لتتلبس طبائع غير جنسها . وقد قال فى وظيفة الحيض : ما برح دعاة تحرير المرأة منادين صاخبين أن المرأة مساوية للرجل ، وما كان تشريح الجنسين ونفسيتهما وطبيعتهما متشابهة قط ؛ وإذا كان الحال كما يدعون ، فلماذا نرى البقرة غير الثور ، والنعجة غير الخروف ، واللبوة غير الأسـد ؟ ولماذا يتناسى دعاة هذا التحرير العمل العظيم الذى يؤثر فى طبيعة المرأة وعقليتها وما كتب عليها من الحيض فيخرجها إلى طور غريب ، وتفعل أيام الحيض فى خلقها ، وبعض الصحيحات منهن أو المريضات تعاودهن العـادة مرتين فى الشهر ، فيدفق الدم منهن فى الشهر الواحد مرتين ، وينقطع مرتين ، فيتأثر المجموع العصبى فيهن من هـذه الموجات الدموية . وأسهب فى شرح هذه الحال على ما يجوزه لسان الطب ، ولا يجوز نقله لسان الأدب الحديث فى صحيفة سيارة ، مستشهداً بآراء أعاظم الحكماء والأطباء ؛ ونقل عبارة أحدهم من أن المرأة لا تشعر بالحرارة ولا بالبرودة ، والدليل أنها تتدثر بالفرو فى الصيف ؛ وإذا قيل إن ذلك من جملة الأزياء الحديثة ، فانا نشهدها تتعرى فى الشتاء إلى خاصرتيها ، دون أن تحس بما يضرها ؛ فالمرأة ما بردت قط ، وإن أظهرت أنها صردة تتأثر من البرد ، وأنها تضع الفرو عليها فذلك لأن هذه الحركة هى من الحركات الجميلة فيها . وعرض لغرامهن بالأزياء من كشف الأيدى والأرجل والسوق والصدور والظهور على ما تأباه قواعد الحشمة قال : ولو عقلن لسترنها ، لأن فى سترها مصلحة لهن على خلاف ما يعتقدن ، وبذلك إغواء الشباب إلى ما يحمل ذلك من الوبقات المخجلة

إن إعطاء الحقوق السياسية لم ينتج منه الاصلاح المدهش فى شمالى أوربا وفى أمريكا وأوستراليا ، حيث أخذن يتمتعن بحقوق الناخب والمنتخب ؛ ففى الدانمرك لم يأت النساء بشىء أحسن مما كان للبلاد يوم كان نساؤها يسلمن للرجال الأعمال ، ولم يُقض على الغول (أو الكحول) فى بلاد السويد والنرويج وفنلندا وأوستراليا والولايات المتحدة ؛ أما الفحش فكثير جدا فى هاتيك الممالك ، وهو مشوب برياء وتصنع

خرج المتعلمات فى الجامعات الأمريكية من البيوت الفقيرة ؛ وأظهر الفتيات فى فرنسا وغيرها اجتهادا فى طلب العلم ؛ وقد يتعلمن بدعة وسرعة كل ما يتطلب اجهاد الذاكرة ؛ وقد يبرزن فى المسابقات ، ولسن كذلك عندما يخرجن إلى الحياة ، عندما يضطررن إلى القيام بمسألة تحتاج إلى تفكير وشخصية وحكم ؛ وقل فيهن من ينجحن فى المحاماة والطب ، وقل أن يقبل أرباب المصالح على توكيلهن فى القضايا أو استشارتهن فى الأمراض ؛ ومن تزوج منهن من رجال لهم مثل صنعتهن ، كأن تتزوج الطبيبة بطبيب ، والمحامية بمحام ، لم يحمدن غب زواجهن ، لأن التفاوت فى قريحتى الزوجين يؤدى إلى أن تحسد الزوجة زوجها على توفيقه فى عمله ، فتبغضه وتشنأه ؛ وثلث المتعلمات فى أمريكا لا يظفرن بأزواج ، وكلما أحرزن شهادات تخوف الرجل الاقدام على التأهل بهن ، ولذلك يحببن الانطلاق بأفكارهن أن أسفن لما صارت اليه حالتهن ؛ وثبت أن من تزوجن فى فرنسا لم يقدمن على الزواج إلا بعد الثلاثين ، وأحياناً فى الأربعين ، وكان معدل العقم من هذا الزواج تسعة وثلاثين فى المائة لا تنسل فيه صاحبته ولا تلد

فتحت فى الحرب معظم الأعمال فى فرنسا أمام النسـاء ، فأثبت لهن الاختبار أن من الأعمال ما هو من شأن الرجال كقيادة الترام ، وسوق السيارات ، والمحاماة ، والطب ، فأخذ يرجع بعضهن عن تعاطى هاتين الصناعتين ؛ وأثبت النساء الموظفات فى الادارات الحكومية والخصوصية أن امرأة عندما تجلس من وراء كوة أو نافذة للقيام بعملها ، تصبح أشـبه بالحيوانات المفترسة ، وكانت خارج عملها من الساحرات الفاتنات بلطفها وظرفها . قالوا إن النساء إذا شاركن فى السياسة يدمثن الأخلاق ، ويبطلن الحروب ، ويشرعن تشريعاً انسانياً أكثر من تشريع الرجل ، والواقع خلاف ذلك ، لأن من الموظفات من إذا رضخ لهن بشىء من المال يبسمن ويغيرن معاملتهن ، فما بالك بهن إذا قبضت الواحدة المئات ؟ ومن تولين أعمالاً لا شأن لها كثيراً لم ينجحن النجاح المطلوب ؛ ومن نجحن كن بتراكيبهن الجسمية أشبه بتراكيب الرجال ، من حيث العضلات والقوى . وما نجح النساء فى تولى الحكومات لو لم يكن لهن مؤازرون عظماء من الرجال يعملون كل شىء وينسبون ما عملوا للملكات ،

وإذا رجعنا إلى تراجم الملكات والأميرات نجد كثيرات منهن على جانب من التهتك والخلاعة ، وما تمففن عن غمس أيديهن بالدماء ـ ويكون ذلك أحياناً لمآرب لهن ـ أو للتخلص من رجال تعتمن بهن ، ثم أردن اطفاء ذكرهم . وإذا أردنا أن نذكر شهيرات النساء فى الأدب لا نرى غير الرجال يعملون لهن من وراء ستار على الأكثر ، وما تركت فيه المرأة وشأنها من الآثار الأدبية كان إلى التفاهة والفهاهة

وعدد المؤلف المساوىء التى تنتج للمجتمع من إعطاء النساء حق الانتخاب وما يتبع ذلك من شرور تنبعث من الناخبات ، وفسوقهن وفجورهن كثير . وعقد فصلاً طويلاً فى آراء عظماء الرجال منذ القديم فى النساء ورفعة شأنهن ، وفى الأبناء والشباب . قال بركليس : إن خير النساء من لا يتحدث الناس فى أمرها . وقال موليير : إن النساء أتين العالم لعمل الحساء وإنسال الأولاد ، وما عدا ذلك فانهن يظهرن بمظهر مزعج خطر . وقالت مدام دى منتنون : ما عرف النساء قط إلا نصف معرفة ، والقليل الذى يكتب لهن معرفة يصبحن به متعجرفات هزءاءات مهذارات بعيدات عن الرصانة والرزانة . وقالت الآنسة دى سكودرى : إن فتاة تنسى النظر إلى السماء لا تحسن شيئاً على الأرض . وقالت مدام دى دوفان : إن النساء يحرصن على الاضطرابات حتى أن معظمهن يؤثرن البؤس على الراحة . وقالت الآنسة دى لسيناس : متى تعلمت المرأة الاملاء يأخذها العُجب ، فالواجب تعليم النساء لا تخريجهن عالمات . وقالت العقيلة دى بوز يولكس : مهما بلغ من خبث الرجل لا يقل فى النساء من القبائح أكثر مما يتصورون بأنفسهن . وقالت مدام دى ستال : لما لم يكن فى النساء تعمق فى نظرهن ولا تسلسل فى أفكارهن ، كان النبوغ متعذراً عليهن وإذا كتب للنساء أن اتسعت أفكارهن فلا يتم لهن ذلك إلا بألم شديد . وقالت إن مجد المرأة حداد ظاهر على سعادتها

وقال رودون : إن المرأة التى تبتعد عن جنسها تسقط الى مستوى أنثى مهذارة وقحة كسلانة قذرة خائفة قوادة مسممة ، هى طاعون أسرتها والمجتمع . وقال لوكوفيه : إن المرأة الطبية يتقزز منها ، والمرأة التى تتولى كتابة الصكوك يضحك منها ، والمرأة المحامية يفزع منها . قال : كان أوجست كونت يعرف النساء كثيرا ويغرم بهن كثيرا ، ويخالف فى تحريرهن ، ويعرف أنهن ما عدا القليل منهن جداً لم يخلقن للعمل ولا للحربة ولا لتحمل التبعات

« البقية فى العدد القادم »

محمد كرد على

الاشتراك المجانى فى الرسالة

لدخولها فى سنتها الرابعة

(١) ابتداء من أول يناير سنة ١٩٣٦ إلى ٣١ منه سيكون الاشتراك فى الرسالة على النحو الآتى :

ص	
٥٠	فى مصر والسودان
٤٠	لطلاب العلم ولرجال التعليم الالزامى
٦٠	فى البلاد العربية بالبريد العادى
٥٠	لطلاب العلم فى البلاد العربية بالبريد العادى

(٢) إذا دُفع الاشتراك المخفض فى أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ أهدى إلى المشترك مجموعة من السنة الثالثة ثمنها ستون قرشاً مصرياً . وأجرة البريد على المشترك ، وقدرها خمسة قروش فى الداخل ، وعشرون قرشاً فى الخارج

(٣) إذا دُفع الاشتراك الكامل فى أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ وقدره ستون قرشاً فى مصر ، وثمانون فى البلاد العربية ، أُهدى إلى المشترك نسخة من كتاب (ضحى الاسلام) أو (فجر الاسلام) للأستاذ أحمد أمين ، أو من كتاب (وحى القلم) للأستاذ الرافعى ، أو من كتاب (تاريخ الأدب العربى) للأستاذ الزيات ؛ أو كتابان يختاران من الكتب الآتية : آلام فرتر ، رفائيل ، فى أصول الأدب ، للاستاذ الزيات ؛ قصة المكروب ، مرجريت ، للدكتور أحمد زكى ؛ مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، قصص اجتماعية ، للأستاذ عنان

وأجرة البريد مسجلا على المشترك وقدرها خمسة قروش فى الداخل ، وعشرة قروش فى الخارج

(٤) يقبل الاشتراك الكامل والمخفض أقساطاً من طلاب العلم ورجال التعليم الالزامى ، ولا يقل القسط عن عشرة قروش

ولا تعطى الهدية إلا مع القسط الأخير

فى مقــــبرة جنوى

حيث تتجاور الحياة والموت

للأستاذ فتحى رضوان

الساعة العاشرة فى الصباح ....

وجنوى تشملها شمس ايطاليا الهادئة ، ونحن على أبواب مقبرة جنوى

ياعجبى ! لم أسمع من قبل أن أجمل مافى مدينة مقبرتها ، وأن السياح والراغبين فى التفريج عن النفس ، والجارين وراء لذائذ العقل والفكر ، يهبطون جنوى ، فلا يطلبون حدائقها ، ولا يقصدون متاحفها ، ولا يسألون عن حماماتها أو أسواقها ، بل يستحثون الخطى وغايتهم « المقبرة » ! !

فأى مقبرة هذه التى يهواها الناس ؟ أليست مكاناً اضطجع فيه الناس بعد هذه الرحلة الطويلة التى يقطعونها فى الدنيا ، بحثاً عن المال ، أو هياماً بالجمال ، أو عدواً وراء جاه المنصب . . . ؟ أما تضم الرفات بعد أن ذاب عنها اللحم الوردى ؟ أما تجمع العظام بعد أن تشتتت وانتثرت وانحلت روابطها ؟ أما تفوح منها رائحة الذكريات الحزينة : ذكريات الحبيب الذى ترك وراءه قلباً دامياً وعينا دامعة ، وذكريات الولد الذى خلف الأم الولهى ، وذكريات الزوج الذى من ورائه أرملة ثكلى . . . ؟

أتكون مقبرة جنوى شيئاً يمحو من صدور اليتامى والأيامى والبؤساء والحزانى أحزانهم ويهدئ آلامهم ؟ إن تكن كذلك فهى أعجوبة أحْرِ بالناس أن يقصدوها لا ليفرجوا عن أنفسهم برؤيتها ، بل ليحملوا اليها كل من فارقهم وكان عندهم عزيزا ، ليشعروا ببرد العزاء وحلاوة السلوان

دلفنا نحو المقبرة ؛ ولست أعرف احساسى وقت أن دنونا من بابها ، فقد وقفت بنا السيارة أمام باب ضخم مفتوح على المصاريع ، وإلى جانبه حارس ؛ فلما اقتربت من الباب نظرت إلى الحارس ، وقد حسبت أن طول اقترابه من قبور الموتى جعل له مظهرا خاصا به ، فاذا هو رجل عادى ، يرى كل يوم النعوش الرخيصة تتبعها أسر فقيرة ، والنعوش الغالية الثمينة ، ووراءها الأغنياء الذين يتأنقون فى الموت كما يتأنقون فى الحياة ، والموت يهزأ بهم ، وإن كانت الحياة تدللهم !

لقد تعود حارس المقبرة أن يرى أحزان الناس وصور شقائهم ، فبردت أعصابه ، وتفهت مآسى الناس عنده ، إذ رأى المتباكين الذين لا يحسون بألم ، والمفجوعين الذين لا يجدون دمعة يلطفون بها نار صدورهم ...

ولكن ياترى ماذا يفعل الحارس إذا أصابه القدر فى ابنه أو زوجته أو أمه أو حبيبته ؟ أتبقى أعصابه فى برودتها ، ونفسه فى شدتها ، ودموعه فى محجرها ؟ أم أنه سيفهم آلام الناس من جديد على ضوء النيران المشبوبة فى صدره ، الملتهبة فى قلبه ؟

تركنا حارس المقبرة ، ورأينا فى طريقنا عشرات من الحراس يلبسون على أكتافهم مآزر زُرقا من الصوف ، تقيهم برد الشتاء ، وتكسبهم وجاهة القواد والوجهاء ، وهم يتبخترون فى مشية عسكرية وخيلاء ، وقد جلوا شواربهم ورفعوها ، وحلقوا لحاهم وعطروها ، فما عاد هيناً أن تعرف إذا كان هؤلاء حكاماً جاءوا يتنزهون ، أم هم أشباح موتى ثقلت عليهم رقدة الموت ، فخرجوا يتمشون ويتنفسون . . . إى وربى إنهم أشباح ! فالواحد منهم على جلال مظهره ، وجمال ملبسه ، لا يعدو أن يكون تمثالا ؛ فالأيام تذوب وتدور ، وهم فى مماشى المقبرة واقفون ، يرفعون رءوسهم إلى السماء ، ويخفضونها إلى الأرض ، ويضمون خناصرهم وبناصرهم فى خواصرهم ، لا يشغلهم شاغل ! حسبهم من الحياة أنهم وقفوا على أبواب الموت ، تاركين وراءهم ضجات الناس وصيحاتهم ... بل حسبهم من الحياة أنهم يحملون أثقل أعبائها ، ويرون أصدق حقائقها ، فاذا جاءهم بعد ذلك الموت ، وجدهم كالموتى ، لا أوزار ولا أطماع ، ولا ماض يحاسبون عليه ؛ ثم وجدهم فى المقبرة ، يعرفون لحودها ويحفظون حدودها ، ويدركون مكانهم اللائق بهم فيها

لقد قسوت على حراس المقبرة ! وأحسب أن مظهرهم قد غرنى وخدعنى . . فكم تخفى الوجوه الهادئة نفوساً ثائرة ! وكم يحترق الذين يحسبهم الناس كسالى ونائمين ! ومن يدرى ؟ فلعل أحد هؤلاء الحراس شاب مغامر طاف بالأرض وجازف

بالمال القليل الذى كان بين يديه ، وبالحياة الغالية التى بين جنبيه ، ثم قذف به القدر حارساً لمقبرة ، وهو أبعد الناس عن الموت وفكرته ، مشغولا بالحياة ولذتها . . ولكنه يسير كما يسير بقية الحراس ، مطرقاً متأملاً ، شاخصاً ، متألماً ، وهو مستغرق فى أفكار نفسه وبوده لو يواتيه القدر فينطلق من جديد . . .

لقد طالت وقفتى بحراس المقبرة . . .

هذه هى المقبرة ، وقد لاحت من بعيد شواهد القبور ، فأفلتت منى ضحكة أعرفها من نفسى كلما جاشت فيها خواطر ، واحتدمت ضحكة يحسبها الذين معى أنها استخفاف بالذى أرى أو انصراف عما أرى ، وهى ضحكة النفس التى أسأمتها صور الحياة المتشابهة ، وقد أفرحها أن ترى الحياة والموت متجاورين ، فلا الموت جمل مظهر الحياة عابساً ، ولا الحياة جملت مظهر الموت تافهاً ... ضحكة الذى رأى الحياة وقد حنت على الموتى ، فجملت لهم مساكنهم وزينت لهم حدائقهم ، بل ضحكة الذى سره أن يرى مظاهر الحب الانسانى وقد تجسدت تماثيل وشواهد . . بل وقد تضوعت زهوراً وعطورا . . .

هذه هى مقبرة جنوى . فأى فرحة شملت نفسى ! ومابالى أرى الدنيا من حولى ضاحكة ؟ هل أستخف أمام الموت بالموت الذى جمع فى هذا المكان مئات الألوف من الموتى : صبياناً لم يتجاوزوا العقد الأول من أعمارهم ، وفتيات صبايا أرى صورهن على قبورهن فأرى وجوهاً تترقرق بماء الحياة وتفيض بفتنة الأنوثة . . . ورجالاً قصف القدر عمرهم وعلى أكتافهم عبء عمل ناضج ؟ . . .

الشمس فى السماء شمس رحيمة لا تحرق البدن ، ولا تلفح الوجه ؛ تحفّ بها السحب ، والمكان هادىء لا جلبة وحتى لا بكاء . . وأنا مستغرق فى تأملاتى ، وإخوانى قد سبقونى وأصواتهم تصل إلى من بعيد ! لقد هدأت نفسى ، وذابت فى أعماقها الضحكة التى كنت أسمعها بأذنى صوتاً ، ويراها صحبى بشرا . . . مابال الدموع قد ملأت عينى ؟ مابالى لا أرى شيئاً ، ولا أسمع شيئاً . . ؟

لقد أفقت على وقع أقدام من بعيد : أقدام تطرق الأرض طرقاً حاداً ، ولكنه رفيق . . . عالياً ، ولكنه موزون . . فما تحركت ولا تركت مكانى ، بل بقيت مسترسلاً فى هذه الخواطر التى لم أكن أعرف لونها ولا مرها ، لأنها كانت تبدو لتخفى ، وتتعارض وتتقابل ، وتجتمع وتفترق ، وتهدأ وتشتد . . خواطر أشبه بهواجس النائم الذى شغلت ذهنه قبل نومه ألف فكرة ، فتحركت جميعاً حينما أغفى

لعلى لمت نفسى وأنا مطرق على قسوتها على الذين أحبونى وأخلصوا الحب ، فشغلتنى عنهم شواغل الحياة ، فتألموا صامتين ، وودعونى عند السفر باكين ، بل صابرين ... أو لعلى لمت نفسى إذ رسمت لنفسى طريقاً محفوفاً بالصعاب ، فوهنت حيناً ، وأغفيت حيناً ، وجدفت وتشككت أحياناً . . ولعلى لمت نفسى لأنى أحببت ألوان الجمال جميعاً ، فما تغذيت بلون منها ، ولا شبعت بها جميعاً . . .

لعلى لم ألم نفسى . . .

اقتربت الأقدام منى ، فاذا بشبح أسود يمر سريعاً دون أن أراه . . ولكنى أفيق فأتبين فى الشبح فتاة تلبس الرداء الأسود الحزين وفى يدها طاقة ورد ، وعلى وجهها مسحة ألم ، وهى فى مشيتها لا تلقى بالا لما حولها

هذه الفتاة ليست إلا قصة حزن من قصص الحزن التى سجلها الحفار تمثالاً ، والتى سجلها الزمن أجساداً تسير فى الدنيا بلا أرواح ، مشغولة بالذين راحوا ، ولا عودة لهم بعد الرواح . .

تبعتها ، ولم أر بعدُ وجهها ، وقد أحسست أن نصف حزنها قد خف ولطف ، فقد قاسمتها الهم الذى تنوء من تحته ، والألم الذى تشكو من وخزه ، والحرمان الذى تبكى لطوله وعنفه . لقد بدت لى هذه الفتاة فى ثوبها الأسود ، ووشاحها المسدل ، وإطراقتها الطويلة ، الانسانية التى تنبعث آلامها من آمالها ، فقد تكون هذه الفتاة قد اقبلت لتضع على قبر حبيبها طاقة زهر ، أو تنثر فوقه دموع عينيها ، وقد كانت بالأمس تمنى نفسها أن تكون له ويكون لها . . .

انطلقت الفتاة وكأنها تعدو ، واخترقت الدهاليز ، واجتازت الابهاء ؛ وبعدت عن صحبى ، ولعلى بعدت عن نفسى ، وخيل إلى أن الفتاة لا تقصد قبرا ، وأن القبور تساوت أمامها فكلها من الحجر الغالى ، وكلها منقوش ومصور ، وكلها أصم أبكم ، بارد جامد لا يلين تحت يد ، ولا يلتهب لوقع قبلات المحزونين المكروبين .

أتقودنى هذه الفتاة إلى مجهول ، أم أن دنيا الأحزان هكذا

متسمة ، والطريق إليها يطول ويطول ... ؟ ولكن الفتاة لم تلبث أن انحرفت إلى دهليز ضيق ، ثم خطت خطوتين ، وركعت أمام قبر من الرخام الأسود ، ورسمت الصليب ، وأغمضت عينيها ... كان النور ضعيفاً ، باهتاً ، وكان المكان ساكنا ساكتا ، فابتعدت عنها خطوتين ووقفت أتأملها ، ولكن الشمس لم تلبث أن خطت فى السماء خطوتين ، ثم سقط نورها من نافذة من الزجاج زرقاء ، فرأيت هذه الفتاة تمثالا افتنت فيه يد صانع الطبيعة ، فاجتمع فيه ألف معنى ، فلو سألتنى أهذه الفتاة طفلة تتشبث بصدر أمها ، ولم تتجاوز بعد الأعوام الأولى من عمرها ، لقلت « نعم ! » . ثم لو عدت وسألتنى : أهذه الفتاة صبية لاهية تائهة فى الدنيا ساهية ، لقلت « نعم ! » . ثم لو رجعت إلى السؤال فقلت : أهذه الفتاة شابة اكتملت أنوثتها ، ونضجت فتنتها ، لقلت « نعم ! » ثم لو ألححت فى السؤال فقلت : أهذه الفتاة امرأة أثارت الدنيا شهواتها ، ولم تضعف الأيام نزواتها ، لقلت « نعم ! » . ثم لو كان بعد ذلك فى مكنتك أن تسأل فقلت : أهذه عجوز شيبت السنون رأسها ، وهدت البأساء نفسها ، لقلت « نعم ! » . لقد أطلت النظر إلى وجهها ، فرأيت الرجاء والتوسل ، والبكاء والتهدم ، والاطمئنان والاستسلام ، والثورة الجامحة ، والشك فى رحمة الرحمن ...

لمست القبر وقبلته ، واقتربت منه وعانقته ، وأسلمت رأسها وقد انسدل وشاحها على ظهرها ، وبدا لى أنها شرقَ تطلب ماء لغصة فى حلقها ، ولكنها رنت إلى السماء بوجهها ، فرأيت أنها تطلب من الله ماء العيون .. فلقد تحجرت عيناها فلا بكاء ولا دموع ... !

انتصبت الفتاة واقفة ، ثم رفعت من فوق القبر قنديلا صغيراً كادت تخبو شمعته إذ أوشك زيته على النفاد ، وملأت القنديل بزيت من زجاجة كانت معها فاشتعل القنديل وتوهج ، ثم ذهبت إلى الناحية الأخرى من القبر وملأت القنديل الموجود هناك ، ثم رفعت طاقة الزهر التى كانت معها فوضعتها على القبر وتمتمت ثم رسمت الصليب وانطلقت وقد زاد وجهها شحوباً ، ووقفت حيث كنت متأملا فى نور هذا القنديل ، مشفقاً على هذه الانسانية التى لا تدرى كيف تعبر عن حزنها ولا عن ألمها . . . ماذا يفعل هذا النور الخافت فى هذا الدهليز الضيق ؟ وما الذى يفيده الفقيد الراحل من الزهر المنثور على القبر ومن القنديل ومن تجديد الفتيل . . . إنه ذهب ولن يعود ... ولكن الحياة لا تعترف بأنها فقدت من الموتى كل شىء ، فهى تحدثهم بلغة الأنوار والأزهار ، وهى تناجيهم بالتماثيل والتهاويل ، وهى تسمعهم الأغانى والتراتيل . . . أهى تفعل ذلك كله من أجل الموتى ؟ أومن أجل نفسها ؟ أهى تتشبث بالذين ذهبوا أم تتعلق بالدنيا التى تتجدد وتتطور وتزداد كل يوم جمالا وافتنانا ؟ . . . ما أقوى الحياة فى بدايتها ! وما أقواها فى نهايتها !

لكن هذه الخواطر الغامضة لا تنتهى ، لأن كل شىء فى المقبرة يفجر فى النفس ينابيع التأمل والاستذكار ، فلا بد لزائر المقبرة من شىء أو شخص ينتزعه من هواجس نفسه وخواطرها . وقد كان الذى انتزعنى دليلا من أدلاء المقبرة ، تقدم إلىّ وعلى عينيه مناظر لامعة ، وسألنى كم من الوقت أريد أن أقضى فى المقبرة . قلت لأصرفه عنى : « دقائق قليلة » ؛ فقال حسنا . اتبعنى . فتبعته وأنا أسائل نفسى ماذا يستطيع أن يقول هذا الدليل وقد تكلمت التماثيل والأحجار ، ونطقت القبور والأنوار ، وسالت الفجيعة من كل ركن من أركان المقبرة ؟ ولكنه قادنى إلى تمثال أنيق لراهب وانطلق يذكر صانع التمثال وشهرته ، وتاريخه وبدائه ، فأحسست أن الجو الشعرى الذى اشتملنى قد تبدد أرجه وعطره ، وشعرت أننى خرجت إلى دنيا التوافه . . . دنيا الأرقام والاحصاء ، الدنيا التى لا ترى فيها إلا مكافحاً فى سبيل الرزق ، أو مدجلا من أجل الشهرة ، أو مغلوباً على أمره ، يبنى البقاء ويخشى أن يدهمه الفناء . . .

قل أيها الدليل كل الذى فى جعبتك فانك لا تهوى الفن ولا تعشقه ، وليست هذه التماثيل فى حسابك إلا بقدر ما تدخل الجثة المسجاة فى سرير فى حساب « النادبة » التى تؤجج نيران الأسى فى قلوب ذوى الفقيد وهى لا تحس ألما ، بل تنتظر تمويلها ثمناً . مُرَّ بى على تمثال الجندى الشاب الذى صرع فى ميدان القتال فأقامت له أمه نصبا خلدت به ابنها ، فأبرز المثال صورته ، وقد أصابته الرصاصة فى صدره ، فوضع يده حيث اخترقته القذيفة ووقفت أمه من ورائه تحنو عليه . . . مر بى أيها الدليل على تمثال الفتاة التى زفت الى خطيبها ،

فماتت فى شهر عسلها ؛ وعلى تمثال الغواص الذى هبط إلى أعماق البحر ولم يخرج ...

مر بى أيها الدليل فى الدهاليز ... وأشر بأصبعك إلى القطع البارعة التى احرقت أعصاب أصحاب الفن قبل أن تبرز إلى الوجود . . . لخص أيها الدليل أجمل معانى الدنيا فى عباراتك الباهتة وقل هنا « قبور الأغنياء » ، وهنا قبور القرن الماضى ، وهنا قبور المتوسطين من الناس ... كأنى جئت هنا لأضع الموتى فى مراتبهم الاجتماعية ، ولأسأل عن وظائفهم ومقادير ثرواتهم وما حصلوا من مجد ، وما لاقوا من عنت .... قف أيها الدليل أمام أجمل فتنة فنيـة ؛ ثم لا تدعنى أتأملها لأنك تحسب أنك قلت لى عنها كل شىء إذ تقول إنها تكلفت أموالا كثيرة ..

ولتدخل بى أيها الدليل إلى دهليز طويل ، لأرى فى جداريه ادراجاً فأحسب أنها أدراج مكتبة وقفها بعض ذوى الثراء على الراغبين فى العلم الباحثين عن المعرفة حتى فى المقبرة ، ثم قل لى إن فى كل درج جثماناً ... وأن الادراج امتلأت بالموتى ولم يبق إلا اثنان ينتظران ميتين ...

إنها لمكتبة حافلة ! ولـكن من يستطيع فك مغاليقها وفض أختامها ؟ واخرج بى أيها الدليـل الى مقبرة الفقراء والمساكين الذين لا يقيمون لموتاهم نصباً ولا تماثيل . ولا تقل لى عدد الموتى ولا أعمارهم ... فانى هنا فى حديقة جميلة غناء ، بودى أن أقف فيها والشمس الهادئة تغمرنى ، والجبل الأشم يطالعنى ، والموتى الساكنون يتسلون بسذاجة قبورهم نفسى . . .

ولـكن قل لى أيها الدليل ما بال هذا القبر يبدو عاطلا من كل حلية . ؟ « نعم ياسيدى لأنه قبر رجل غريب ! »

أيتها الانسانية المسكينة ! تشبثى بالفروق ، وتأنقى فى الموت ، وتأنقى فى الحياة ، وأقيمى لموتى الأغنياء قبابا ، واحفرى لموتى الفقراء لحودا ، ثم انظرى آخر الأمر ماذا بقى لديك فى يديك ؟ الموتى جميعاً أصبحوا (معروضات) فى متحف ، يرتزق بالتحدث عنهم دليل جاهل ، ويتسلى بالنظر إلى صورهم زائر عابر ، ولا تبقى وراءهم إلا عبرة فى عين ، وحسرة فى قلب ، وعبرة لمن أراد أن يعتبر !

(جنوى) فهمى رضوان المحامى

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وأخذ بستور ورجاله الخلصاء يصوبون مجاهرهم على مواد يستخرجونها من أجسام موتى من الانسان والحيوان . ماتت بأمراض مختلفة الأجناس بلغت العشرات عداً ، وقضوا فى هذا ما بين عام ١٨٧٨ وعام ١٨٨٠ . كان بحثهم فى هذه الفترة به شىء من التخليط ، وتحسسهم فيها على غير هدى . ثم شاء القدر أو إرادة الله أن تضع تحت أنف بستور طريقة رائعة للتحصين من الأدواء ، ذلك التحصين الذى حلم به طويلاً . ليس فى استطاعتى أن أؤدى قصة ما جرى فى ذلك بالضبط ، لأن الذين كتبوا عن بستور اختلفت رواياتهم فيها ، ولأن بستور نفســه لم يشر فى كتاباته العلميـة إلى الذى حدث ، ولم يقل قط إن الذى جرى له فى ذلك كان حظاً واتفاقاً . ومع هذا فأنا أقصها على أحسن ما أستطيع ، وأسد خللها على قدر الامكان

ففى عام ١٨٨٠ كان بستور يلهو بتلك المكروبة الصـغيرة البالغة الصغر التى تصيب الدجاج فتميته بالداء المعروف بكوليرا الدجاج ، وكان الدكتور بيرُونسيتو Peroncito اكتشفها فوجدها ضئيلة بالغـة فى الضآلة فلا تُرى المكرسكوب منها غير نقطة صغيرة ترتعـد تحت أقوى العدسات ، وكان بستور أول باحث استطاع تربيتها نقية ، وذلك فى حساء صنعه لها من لحم الدجاج ، وبعد أن راقب هذه النقطة الراقصة ، وهى تتكاثر فى هذا الحساء فتبلغ الملايين الـكثيرة فى الساعات القليلة ، قام فأخذ من الحساء قُطيرة فأسقطها على فُتيتة خبز ألقمها دجاجة ، فلم تمض ساعات حتى انقطعت وقوقة هذا الطائر النكود ورفض الطعام وانتفش ريشه واستدار فكان ككرة من العِهن . فلما أصبح الصباح جاءه بستور فألفاه يترنح على رجلين ضعيفتين ، وعيناه فى اغماض من نوم غامض انقلب سريعاً إلى نوم أبدىّ عميق

وقام رو Roux وشمبرلاند Chamberland على هذه المكروبات الصغيرة يربيانها ويرعيانها تربية الحاضن ورعايتها . فكانا يغمسان عودا من البلاتين فى حساء يعج بها ، ثم يغمسانه بما حمل من البلل ويحرّكانه فى حساء جديد خال من الأحياء ، فلا يلبث أن يعجّ هذا بالخلائق الجديدة من ذلك المكروب . وقاما على هذا يوما من بعد يوم ، ويُكثرون من القليل الذى على العود البليل العدد الهائل الكبير من هذه المكروبات ، حتى ازدحمت مناضد المعمل بزرِيمات متروكة قديمة بلغت أعمار بعضها أسابيع كثيرة ، وتفكر بستور فيها فقال : « غدا نُنَحّى كل هذا الركام وننظف المناضد »

وهنا جاء الحظ يهمس فى أذن بستور ، فما كان من صاحبنا أن غيّر رأيه ، فقال لرو : « نحن نعرف أن مكروب كوليرا الدجاج لا يزال حيًا فى هذه القبابة ... نعم إنه قديم ، فقد تركناه فى مكانه بضعة أسابيع . . . ولكن برغم هذا أرى أن تحقن قطرات قليلة منه فى بعض الدجاج ... »

وأنفذ رو ماسأله بستور ، وإذا بالدجاجات يجيئها المرض فيذهب عنها المرح والخفة والنشاط ، وتهوّم كأنها تطلب النعاس . وأصبح الصباح فأتى بستور يطلبها فى المعمل لتشريحها وفحصها موقنا أنها لا شك ماتت كالعادة ، فاذا بها تجرى على عينه هنيئة سعيدة . قال بستور : « هذا عجيب ! إن المكروب من زريماتنا كان قبل الآن يُحقن فى العشرين دجاجة فتموت العشرون كلها ، أما هذه .... ! » على أنه لم يكن قُدّر لبستور فى هذا اليوم أن يكشف كشفه الخطير المنظور ؛ ففى الغد قام هو وأسرته ورو وشمبرلاند لقضاء عطلة الصيف ، وقبل سفره أودع الدجاجات التى بَرِئت ذمة حارس المعمل ونسى أمرها

وعاد بستور من سفره . وذات يوم طلب إلى خادم المعمل أن يحمل اليه بعض الدجاج الصحيح الجديد ، وأن يجهزه للحقن ، قال الخادم : « ولكن ياسيد بستور لم يبق من دجاجنا الجديد الذى لم يحقن غيرُ زوج أو زوجين ، أما البقية فأنت تذكر أنك حقنتها قبل سفرك بمكروب من زريمات قديمة فمرضت ولكنها لم تمت » . فتسخط بستور على الخدم الذين يهملون فلا يحتفظون بوفرة من الدجاج لتكون دائما كافية حاضرة ، ثم قال : « إذن فأحضر ما عندك من دجاج جديد ، وزوّدنا كذلك بزوج أو اثنين من الذى حقناه فأبى أن يموت ... »

وأحضرت الدجاجات وهى تملأ الجو صياحا ، فضرب أحد الأعوان يحقنه فى عضلات صدورها بملايين المكروب فى صدور تلك التى كانت حقنت من قبل ، وكذلك فى صدور الجديدات ، ومضى النهار ؛ وأصبح صباح الغد ، فأقبل رو وشمبرلاند إلى المعمل ، وبينما هما يدخلان سمعا صوت بستور خافتا يأتى من تحت السلم من بيت الدجاج وهو يصيح بهما : « رو ! شمبرلاند ! إنزلا إلىّ وأسرعا ! » وكان بستور يسبقهما دائما إلى المعمل بساعة أو نحوها

ونزلا اليه فوجداه أمام الأقفاص يذرع الأرض بخطواته . فقال لهما : انظرا ! ان الدجاج الجديد الذى حقناه أمس مات . وكان يجب أن يموت . ثم انظرا الى هذا الدجاج القديم الذى كنا حقناه من شهر مضى ، فمرض ثم طاب ، هذا الدجاج أخذ بالأمس نفس الحقنة القاتلة التى أخذها ذلك الدجاج الجديد ، ولكنه لم يمت ... لقد قاوم فعل الحقْنة أتمّ مقاومة ، انه فرح مرح . . . انه يأكل ! »

فاختبل رو وشمبرلاند ، وانبهم عليهما الأمر حينا . فقال بستور : « ألا تدركان مغزى هذا ؟ مغزاه أنى وجدت كلّ ما أردت ! لقد وجدت الآن كيف أعطى الداء قليلا الى الحيوان — قليلا بحيث يُمرضه ولا يميته فيُشفى وشيكا .. وكل الذى علينا أن نعمله هو أن ندع هذه المكروبات الحادة القاسية تشيخ فى زجاجاتها . بدل أن نستخرج منها بالزرع أنسالا كل يوم ... ان المكروبات تَقدُم فتشيخ فتهدأ حدّتها ، وتضعف ثورتها ، فاذا أنت حقنتها فى الحيوان أعطته مرض الكوليرا ، ولكن بعضا قليلا منه لا كلّه ، فاذا طاب استطاع بعد ذلك أن يصمد لأخبث مكروب فى العالم ... فأنتما تريان أن فرصتنا فى هذا عظيمة ؛ وأن هذا أخطر اكتشافاتى ، هذا اللقاح الذى كشفت ، وهو أكثر تأكدا من لقاح Vaccine الجُدرىّ وأكثر منه حظا من العلم ، فالجدرىّ لم يرَ أحد له جرثومة ... فهيّا بنا نطبق هذا على داء الجمرة ... وعلى كل الأدواء الخبيثة ... ونخلّص حياة الانسان والحيوان ! »

— ٣ —

لقد كان الذى وجده بستور مصادفة واتفاقا ، فلم يكن من تدبير

العقل الانسانى . ومع هذا فلو أن رجلا دون بستور قدرا وقع على الذى وقع عليه لقضى السنين الطويلة يحاول تفسير هذه الظاهرة الخفية لنفسه دون أن يأتى أمرا مذكورا ، أما بستور فما كاد يقع اتفاقا على حماية دجاجتين حقيرتين من جرثومة قتالة حتى رأى فى هذا فرصة سانحة عظمى لحماية بنى الانسان من الموت ، فابتدع عقله الوثاب طريقة جديدة يَختلُ بها الطبيعة التى شاءت أن يستسلم بنو الناس كلما هبت عليهم تلك بالعداء أحياؤها الصغيرة

كان بستور بلغ الثامنة والخمسين من عمره ، فلم يبق فيه من الشباب بقية . ولكن هذا اللقاح الجديد الذى اكتشفه بغير قصد فنجا به الدجاج من الكوليرا ، هذا اللقاح نفخ فى جمرة حياته فاستمرت ، فعاش من بعد ذلك ست سنوات هى أملأ سنواته بالحركة وأشدها احتداماً بالحياة ، سنوات امتلأت بحجاج شنيع ، وانخذال فظيع ، ونصر غير منظور . فى هذه السنوات الست صب بستور من الطاقة ما يصبه مائة رجل ، وأحدث فيها من الحوادث ما يحدثه هذا العدد من الرجال متظاهرين

وقام بستور وصاحباه يؤكدون أمر هذا اللقاح ، فتركوا مكروباً للكوليرا يقدُم فى حسائه وزجاجته ، فلما ضعفت شرته حقنوه فى عشرات من الدجاج الصحيح ، فرضت مريضاً ، واشتفت سريعاً ؛ وبعد أيام قلائل حقنوها بذريعة خبيثة من المكروب نفسه تكفى لقتل العدد الوفير من الدجاج الصحيح الذى لم يحقن بعد ، وأخذ ثلاثتهم يرقبون هذا الدجاج تياهين معجبين باحتماله تلك الملايين من المكروبات وصموده الغريب لها

هكذا أغرى بستور بذكائه مكروباً بمكروب . بدأ بتأنيسه ، فلما تم له ذلك حشده وسلطه بأسلوبه الغريب على مكروب من جنسه

ولو أنه لم يكن عندئذ فعل ذلك فى غير مكروب كوليرا الدجاج ، فقد اندفع على عهده فى غطرسته وتمجرفه على الأطباء ، وفى حملته على آرائهم العتيقة ، وهزئه برطاناتهم اللاتينية ، وسخر بوصفات جرّت بها أقلامهم على الورق سريعة كالبرق الخاطف ، وانعقدت الجمعية الطبيـة فقام يخبر الأطباء فى أدب جم أن لقاح الدجاج الذى كشفه يفوق كثيراً لقاح الجدرى الخالد الذى كشفه بينار Ienner قال لهم : « فأما الآن قد دللت على ما لم يكن بينار ليستطيع التدليل عليه ، وذلك أن المكروب الذى يقتل الحيوان هو نفسه الذى يقيه من الموت ! »

وضجر الأطباء ذوو الآراء القديمة والأزرة الزرقاء ببستور أن نصّب نفسه إماما لبينار العظيم . وقام الدكتور چول جيران Jules Guérin يسخر من بستور أن أثار هذه الثائرة كلها من أجل تخبيص فى دجاج — واستمرت الحرب فى استمارها . وقام بستور فى غضبة ثائرة ، وأعلن على رؤوس الأشهاد رأيه فى سخافة إحدى العمليات الجراحية التى يقوم بها جيران ويُعجب ويُغرم بها . فتلا ذلك منظر من أقبح المناظر وأفضحها يسوؤنى أن أصفه وتضيق نفسى لاضطرارى لذكره . نهض جيران من مقعده ، وكان شيخاً فى الثمانين من عمره ، وأراد أن ينقض على بستور ذى الستين ، وما كاد يفعل حتى صوب اليه لكمة ، ولكن تدخل بينهما الأصحاب فمنعوا اشتباك هذين الشيخين اللذين حسبا أن الحقيقة تظهر باللكم والرفس وبكسر العظام وخمش الوجوه

وفى الغد أرسل جيران العتيق شاهديه إلى بستور يتحداه إلى المبارزة . ولكن يظهر أن بستور لم يشأ أن يخاطر بحياته وأن يموت على هذا النحو ، فأعطى صديق جيران رسالة يحملانها إلى كاتب الأكاديمية ، وقال فيها : « لم يبق لى الواجب من سبيل أسلكها إلا أن أعرب عن استعدادى إلى تغيير كل مانالته فيما يرى المحرّرون أنى خرجت به عن حدود النقد المباح والدفاع المقبول عن النفس » . وبذلك هرب بستور من النزال فأثبت مرة أخرى أنه انسان ولو فاته أن يكون ما نسميه فى العادة رجلا

(يتبع) أحمد زكى

الأشباح (١)

Fantômes

لفكتور هوجو

ترجمة السيد فؤاد نور الدين

واحسرتاه ! ما أكثر ما رأيتُ من غادات هصرتهن يد المنون !

هذه سنة القدر ! الفريسة ينتظرها الهلاك ،

والعشب تنتظره المناجل المشحوذة القاطعة ،

والزهور توطأ تحت أقدام الراقصين الناعمين فى الحفلات ،

والماء ينفد من وديانه ، والبرق لا يومض إلا قليلاً ،

وأبريل (٢) الحسود يحرق بصقيعه أشجار التفاح المزهوة ذات الأزاهير الفواحة ، التى تتساقط كأنها ثلجُ الربيع .

نعم ، هذه سنة الحياة . يعقب الليلُ الشاحب النهار الضاحك .

وتعقب اليقظةُ كل شىء ، إما فى النعيم وإما فى الجحيم .

ويلتف المدعوون الجَشِمونَ حولَ المائدة الكبيرة ،

إلا أن كثيراً منهم يهجرونها قبل نهاية الطعام

— ٢ —

ما أكثر ما رأيت من غادات يَمُتن ! إحداهن وردية اللون بيضاء البشرة ؛ وأخرى كأنها لم تنصت إلا للألحان السماوية ؛ وأخرى ناحلة قد أسندت جبينها المحنيّ على ذراعها ؛ ثم فارقتها الروح كما يفارق العصفورُ غصن الدّوح وفنن الروض

إحداهن شاحبة ضالة ، استولى عليها الهذيان فما تنطق إلا اسما لا يذكره أحد ، وثانية تغنى كما يغنى النشيد على الأوتار ، وثالثة كانت تحتفظ بابتسامة الملاك الجميل الرحيم ، لما لفظت نفسها الأخير

فما أشبههن جميعاً بالزهور المرتجفة التى أعجلها القدر إلى الموت !

وبالطيور الحائمة التى غمرتها الأمواه مع أعشاشها الطافية !

وبالحمائم الوديعة اللطيفة التى وهبها الله العالم !

فوالهف نفسى عليهن ! طواهن الثرى فى غياهبه ، وما قضين بعدُ من العمر لبانة !

***

دعونى أتيه فى ظلمات الغاب الدامسة ، وأطأ بأقدامى أوراق الشجر اليابسة ، فأنا لا أصدق أن جميع هؤلاء الفتيات الساحرات قد متن ، وذوت نضرتهن وخمدت أصواتهن ؛ ولا أكاد أصدق أن هذه المشاعل البراقة قد خبت أنوارها ، وتلك الورود الزاهية قد هصرت أعوادها

ما نفسى إلا أخت لهذه الطيوف الجميلة ، أما الحياة والموت فلا يفصلهما فاصل ولا قانون

فأنا طوراً أساعد خطواتهن وطوراً آخذ أجنحتهن فأموت مثلهن أو يعشن مثلى فى رُؤى عجيبة لا توصف

وتلبس أفكارى أشكالهن وصورهن ويخاطبنني قائلات : تعال !

ثم يتراقصن متشابكات مترابطات حول رموسهن

ويتوارين عن عيانى بهوادة ، لا يخلفن لى غير الحلم والذكرى

— ٣ —

إنما أذكر منهن واحدة اسبانية : ملاك غض الصبى ؛ أبيض اليدين . قد رفعت النهدين وعقدتهما زفرات بريئة . العين حوراء تلمع فيها نظرات فتنة وسحر

والجمال مجهول أمره ، هذا الجمال الذى يتوج بهالة من النور والضياء جبين من بلغت الخامس عشر ربيعاً .

لم يقض الحب عليها ، فالحب لم تخطر بعدُ لذائذه ومعاركه فى فؤادها العاصى بالرغم من هتاف الناس عند مرورها : ما أجملها ! كانت تهوى الرقص وهذا الرقص قضى عليها

فرقّتها لا تزال ترتعش رعشة الهدوء والسكون كلما رقصت حول كوكب السماء فى الليلة المصحية غيمة بيضاء

كانت تعشق الرقص أشد العشق ، وكانت تظل قبل كل حفلة ثلاثة أيام ولياليها تفكر فيه وترى من أجله أحلاماً زاهية ، وترى نسوة وعازفين وراقصين كلهم يحفون بها

وترى الحلى اللامعة ، والعقود الساطعة ، وهذه النسائج الرقيقة الناعمة ، وتلك النفائس البراقة المتلألئة ، وهذه الشرائط الخفيفة التى تشبه أجنحة النحل اللطيفة : كلها وزهور وورود كانت تملأ فى الحلم عينيها وتسحر نفسها

***

فاذا كانت الحفلة ، ألفيتها لاهية ضاحكة مع رفيقاتها ، تقبل حيناً وتدبر حيناً فى الخامل الحريرية

(١) نقلت عن كتاب Oeuvres choisies illustrées (V. hugo.)

(٢) نيسان

والمروحة بين أصابعها تضغط عليها والألحان المرحة تنتشر من حنجرتها

فتوافقت الموسيقى الصادحة ونغمات البيانة السابحة

لله ما أبهج النفس التي تتمتع برؤية هذه الكاعب ترقص وتزهو !

ثوبها يهتز بنجومه المتلألئـــة اللازوردية ، وعيناها السوداوان النجلاوان تلمعان تحت خمارها الحريري الرقيق لمعان نجمتين تضيئان على جبين الليل من خلف سحابة مظلمة

كل ما كان يكمن فيها كان رقصاً ضحوكا ومرحاً متوثباً

ما أشبهها بالطفل ! — كنا نبتهج بالنظر إليها في دعتنا الكئيبة ؛ لأن القلب لا يجد متعة في الرقص فحسب ، فالرماد يعلو حول الألبسة الحريرية

والسأم يظهر وسط اللذائذ السماوية

***

أما هي فكان الرقص يهيجها ويثيرها ، وكانت تحلق — وهي نشوى بنفحات القيثارة الفخور — في فضاء من الحبور ، وفي جو من السرور

وكانت الزهور الجميلة ، ومصابيح الذهب المتوهجة ، وجلبة الأصوات المرتفعة ، وضجيج الخطوات المتنقلة ، تستهويها وتلذها

ما أسعدها وهي تثب وسط الجمع ، كأن مشاعرها تضاعفت وازدادت ونمت !

فلا تدري حينذاك أتتدحرج خلال السحب ، أم تصطاد خلال الغاب ، أم تطأ بأقدامها أمواج البحار ؟

***

واحسرتاه ! إذا ما قرب انبثاق الفجر وجبت العودة إلى القصر

وهنا تضطر الراقصة الساذجة إلى الوقوف على عتبة الباب منتظرة المعطف

وهنا تحس وهي ترتجف أن نسيم الصباح الندي يلامس كتفيها العاري الفضي

فيعقب الغدُ الحزين واليوم الكئيب ليلة الرقص المائجة !

وداعاً أيتها الرقصات الصبيانية ، ووداعاً أيتها الزينة !

أيتها الحفلات الجميلة ، أيتها الأغاني العذبة ، واللذائذ الحلوة ، والعيون المشرقة !

فلقد خلفتكنّ جميعاً عيونٌ منطفئة ، وأدواء معضلة

— ٤ —

ماتت فتاتنا — وما جاوزت ربيع الخامسة عشرة من عمرها !

ماتت في وفرة شبابها ، وروعة جمالها ، بين نظرات تعبدها ، وعيون تقدسها

ماتت على أثر خروجها من حفلة راقصة ، فتفتتت أكبادنا حسرة عليها ؛ ولبسنا لباس الحداد من أجلها

ماتت وا أسفاه ! بين ذراعي أم ضاع صوابها وغاب رشادها ، لم يرحمها الموت فانتزعها انتزاعاً بيديه الباردتين لكي يضمها في القبر ، وهي ما تزال في أهبة لحضور حفلات تالية

لله ما أسرع الموت في اختطاف تماثيل الجمال !

أما تلك الزهور التي كانت تزين بالأمس رأسها ، وتتفتح أكمامها على صدرها ، فلقد ذبلت في الرمس ، قبل أن تنشد فتاتنا نشيد الهوى والعرس

— ٥ —

وارحمة لأمها التاعسة ! إنها تجهل حظها العاثر

تلك الأم التي أضمرت لابنتها من الحب والحنان شيئاً عظيماً ؛

ألم ترع طفولتها الشاكية الحزينة ؟

ألم تقض لياليها ساهرة تهدهد لها المهد لتغفو وتنام ؟

رحماك رب ! لم يفدها ذلك .

فالفتاة ماتت ، وهي ترقد الآن في تابوتها القاتم شاحبة اللون ، كاسفة الوجه ، فريسة للحشرات والديدان

***

فاذا ما أيقظتها في ليـــلة جميلة من ليالي الشتاء حفلة خاصة بالموتى ، تقدم إليها — ليتولى أمر زينتها — شبح رهيب ذو ضحكة مروعة

فيقول لها : هلمي حان وقت الرقص !

ويطبع على شفتها البنفسجية قبلة باردة جليدية ، ويمر أصابعه العقداء ، أصابع هيكل عظمي ، على خصلات شعرها الطويلة المتموجة ، ثم يسوقها مرتجفة مهتزة ، إلى الرقص النادب المشؤوم ، إلى تلك الموسيقى الجوية المتصاعدة في الظلام ، حيث يكون القمر في الأفق القاتم شاحباً عريضاً ، وقوس قزح مصبوغاً

(البقية في أسفل الصفحة التالية)

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٧ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية الايجابية من مذهب نيتشه

السوپرمان

أو الانسان الأعلى

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

إن أوربا الحاضرة قد انسل إليها الداء ، ترى فيها حيث نظرت مظاهر العلة والانحطاط . فكأن نصباً بالغاً حل على الانسان فكبَّل قواه وأضوى عزمه . وهو بعد أن قطع سبيله من دودة أرضية إلى قرد ، ومن قرد إلى انسان أصبح يجنح فى هذه الساعة إلى راحة بعد هذا التطور الذى شقى فيه . لا يحفل إذا كانت الراحة فى الوقوف أو فى الموت ، وهنالك مذاهب كثيرة تتعلق بأطراف ثوبه تغريه بعوامل جميلة وآفاق مطرزة . هذا يعده بالمساواة المطلقة ، وهذا يعـــده بحياة ما أجمل أفقها ! المذهب الديموقراطى مذهب منحط فى الجماعات ، ومذهب ديانة الألم هو مذهب الضعفاء . وأولئك الشكوكيون الناقمون المارقون الذين ألفوا « مثوى » لهم عند زرادشت ، هم منحطون يتألمون من وجودهم ، ويكادون يختنقون سأماً من أنفسهم واحتقاراً لها كلما وقعت أنظارهم على الانسان الحاضر

أليس هذا هو الانسان المتشائم الآلهى الذى ينطق بمواعظ الموت قائلاً : « كل شىء باطل الأباطيل » « لا شىء يجدى ! السعى باطل » . « لا جزائر سعيدة وراء المحيط » ! . هنالك متشائمون كثيرون أووا إلى كهف زرادشت ، منهم الملكان اللذان هجرا مملكتهما لأنهما لم يخلقا أول الرجال ، والآن يريدان ألا يأمرا ولا ينهيا أحداً . وهنالك العالم الذى يعكس صور الأشياء ، ويضحى بحياته ابتغاء أن يدرس دماغ علَقة . وهنالك الساحر المشعوذ الذى يعبث كثيراً بحقائق الأشياء ويخدع كل الناس دون أن تجوز عليه خدعة . ثم يتحرى — وقلبه مفعم سأماً وكآبة — عن مجد مشروع صحيح . وهنالك «البابا الأخير» من لم يستطع أن يجد لنفسه عزاء عن موت الآله . وهنالك أقبح الرجال ، قاتل الآله ، لأن الآله خنق اشفاقه على بؤس الناس وشقائهم . وهنالك السائل الذى مقت الانسان المتمدن ، يتحرى إزاء قطعان البقر السارحة فى المروج ، يتحرى عن السعادة . وهنالك الشكوكى الذى قذف به جموح عقله إلى إضاعة نفسه ، فضل وغوى وانطلق — بدون أمل — يسبح فى أرجاء الوجود . كل هؤلاء يئنون من داء عميق يحز فى قلوبهم حزاً . فهم يطوفون فى الآفاق وقد أخذ القلق منهم كل مأخذ . فالناس وكل ما يؤمن به الناس من السعادة لا يزيدهم إلا سأماً . فهم أمسوا ولا إيمان لهم بكل الرموز التى يقدس الشعب ألفاظها ومعانيها . فلا ما وصلت إليه المادة يغنيهم نفعاً ، ولا الايمان بالمثل الأعلى يغمر قلوبهم ، فماذا يجب على الانسانية إذاً أمام هذه الهاوية ؟ فهل تقف مشيها وتطالب نفى الحياة وتنشد العدمية ؟

يجيب نيتشه : لا ! لأن الانحطاط لا يؤول إلى العدم ، بل

ببريق الياقوت والعسجد ، وتكون الغيوم ذوات أهداب من لجين

— ٦ —

يا أيتها الفتيات اللواتى تشوقهن ملاهى الرقص الضاحك !

لا تنسين تلك البنت الاسبانية التى انطفأت شعلتها إلى غير عودة ! ولا تنسين أنها كانت تنتقل من حفلة إلى حفلة باشة فرحة ، فتقتطف بيد مسحورة ، أزاهير العمر العبقة ، وتكسب روحها لذائذ الحياة الطاهرة ، وتملأ عينيها بزاهى الألوان الساحرة

على أنها مضت إلى عتبات الموت سريعاً ، فقضت كما قضت أوفيليا [١] التى جرفها السيل وهى تقطف الورد والزهور ، فراحت غريضة الشباب والجمال فى ظلمات القبور

حلب فؤاد نور الدين
معلم الترجمة بمدرسة الزهراء النسائية

---

(١) Ophéle أحد أشخاص المأساة (هملت) وهو أروع شخص ابتكره شكسبير . أوفيليا جنت من اليأس ، فأخذت تقطف الزهور على شاطىء النهر فسقطت فى الماء ولاقت حتفها . (لاروس)

قد يكون الانحطاط بشائر حياة جديدة وعافية قوية ، وأن مما لا ريب فيه أنه لا يمكن الرجوع بالانسانية إلى الوراء . « يجب الاقدام ، الاقدام إلى الأمام ... تقدموا رويداً رويداً في الانحطاط ، وكما أن أوراق الأشجار تصفر في الخريف وتتناثر على الحضيض ، كذلك الانحطاط قد يكون طليعة سلالة جديدة ، والانسانية تهب باحتضارها حياة سامية ، إن الانسانية تتمخض وتتألم من أوجاع الولادة ؛ ولذلك لم يحمل زرادشت تعاسة الرجال السامين إذ يعتقد بأن الانسان ينبغي له أن يتألم كثيراً ليستطيع الوثوب على القمم العالية . إن شقاء الرجال السامين وسأمهم من الناس ومن أنفسهم ضروريان ، ليصير فاهم إلى المواطن العالية وليزيدهم جرأة واقداماً على الوثوب . وإذا كان هؤلاء الرجال السامون هم بأنفسهم نماذج ناقصة للانسانية فما همُّ ذلك ؟ يجب أن يكون هنالك انحطاط ونقص حتى يجيء النموذج كاملا من كل وجه .

إن الانسان السامي هو كالاناء ، يتهيأ فيه مستقبل الانسانية ، وفيه تتألف وتتجاذب وتعمل كل الجذور التي ستظهر يوماً لمعانقة أشعة الشمس ، على أن أكثر من إناء واحد ووعاء واحد بين هذه الأوعية سيتصدع وسيتحطم ! ولكن ما هم ذلك ؟ أإذا ساءت ولادة فرد ما فهل ساءت الانسانية كلها ؟ وإذا ساءت ولادة الانسانية كلها فما هم ذلك ؟ إن الانسان خاضع لهذا التشبيه الذي فرضه نيتشه . « إن الانسان هو حبل ممدود بين الحيوان والسوبرمان ، ليس الانسان بغاية ، إنما الانسان مجاز وممر ، وليفن الانسان في سبيل حياة السوبرمان . يقول زرادشت للشعب الحاشد حوله :

« إني أعلمكم السوبرمان ؛ الانسان يجب أن يفوق الانسان ! ماذا فعلتم لتفوقوا الانسان ؟

كل الكائنات سارت في طريق الابداع إلى ما هو أسمى : وأنتم يا بني الانسان شئتم أن تكونوا من الموجة جزرها لا مدها ، بل آثرتم العودة إلى الانسانية على السمو فوق الانسانية

ماهو القرد في عين الانسان ؟ إنه لخزي وعار . وهذا ما يجب أن يكون الانسان في عين السوبرمان : خزي وعار . ها إنني أعلمكم السوبرمان :

إنه هو ابن الأرض ، فلتقل إرادتكم ، بلى . ليكن السوبرمان ابن الأرض » !

— ٢ —

من هو السوبرمان ؟ وكيف يستطيع الانسان أن يكونه ؟ يمكننا تحديد السوبرمان بأنه هو الانسان الذي يصرف عن نفسه كل التقاليد الموروثة من مذاهب وشرائع سارية في جسد أوروبا . يصرفها عن نفسه ليعود إلى تقاليد وضعها رجال نبلاء وأسياد خلقوا بأنفسهم هذه القيم ولم يقتبسوها من غير أنفسهم . وليس معنى ذلك أن نعود بالانسان إلى الوراء — إلى عصر الوحشية — وإنما نريد من الانسان أن يبقى محتفظاً بمعارفه وبتجاربه التي شقى فيها أدهاراً طويلة . . . ولكنه يجب عليه أن يحطم مجموعة التقاليد والشرائع التي تعوق سيره وتحول بينه وبين التقدم المنشود

إن الانسان بذهابه من الوجود يفتح الطريق للسوبرمان . وما أشبه هذا الاجتياز بالحركة التي تولد الرجل الزاهد عند « شوبنهاور » . يعتقد المتشائم الكبير بأن الألم قد يقود الانسان إلى الانعتاق من إرادته الشخصية ، ويسير به إلى الانتحار في النهاية . ولكن هذا لا يغني وحده في نقله ، وإنما لا ينبغي له إذا أراد الخلاص أن يقنع بالتنازل عن حياته الخاصة التي يحرزها ، بل أن يتنازل عن الحياة عامة ، وبهذا الثمن يستطيع أن يحس بالهدوء . أما عند نيتشه فان الألم هو الواخز الذي يخز الانسان فيقوده إلى السلام . إن الانسان يتألم من كل شيء ذاتي ، فيدرك السآمة الحادة الفاشية في نفسه ، وهذه السآمة هي التي تسوقه إلى طلب الزهد والتشاؤم . وهذه هي حالة الرجال السامين الذين جمع بينهم « زرادشت » في كهفه . ولكن النبي يعظهم قائلا لهم « إنكم لم تبلغوا في الألم الدرجة التي أريدها . لأنكم مازلتم تتألمون من حالتكم ومما أنتم عليه . إنكم لم تتألموا من حالة الانسان الحاضر ! » فاذا بلغ الانسان هذه الدرجة البالغة من الشقاء والسأم توارى وأباد نفسه تاركا الأرض للسوبرمان . إن التشاؤم الحاد المنيف هو الذي سيولد التفاؤل الظافر

(يتبع) خليل هنداوي

أشبعوا غيرهم وباتوا جياعا!

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

إن مَن كدّوا يزرعون البقاعا   أشبعوا غيرهم وباتوا جياعا
ربحَ المالكون للأرض غصباً   ومضى كدُّ الزارعين ضَياعا
يُفقِرُ الدهرُ ألفَ بيتٍ ليغنى   واحداً من أفراده جمّاعا
لا ترى بين أوّليهم ثرياً   كانزاً للأموال أو منّاعا
ومن العدل أن يكون نتاج الـ   أرض بين المستثمرين مشاعا
إن بين الحق المحصحص والبا   طل منذ الدهر القديم نزاعا
والالى قد حسبتهم بَشَراً إن   ظفروا كانوا أذؤباً وضباعا
عرفتكم عيونُ من أبصروكم   لو رفعتم عن الوجوه القناعا
وعسى أن يغير الله ربُّ النـ   اس فى القوم الظالمين الطِّباعا
رضى العاملون بالوهد مأوىً   وأبى المالكون إلا اليفاعا
أفريقٌ يفوز بالعيش رغداً   وفريقٌ يكابد الأوجاعا
إنما الدين وهو أكبر هادٍ   لا يراعى الألوانَ والأوضاعا
وكتاب الله العظيم يساوى   بين من كانوا سادة ورعاعا

***

ما بكم من جبن ولكنكم لم   تستطيعوا عن الحقوق الدفاعا
مشهد يملأ العيونَ دموعا   وأحاديث تجرح الأسماعا
إن للباطل الذميم لأشيا   عا وللحق لا ترى أشياعا
يتنزى قلبى الجريح بصدرى   موشِكا أن يحطم الأضلاعا
وإذا الأرض زُلزلت فترقّب   أن تكون الوهاد منها تِلاعا
إنما الأمر الذى يُلزم الأحـ   رارَ بالأثم لا يكون مطاعا
أيها العدل أنت شمسٌ فأرسل   لعيونٍ تبغى الضياء شعاعا
لقد امتاز بالشجاعة ناس   صارعوا الفقرَ يحسنون الصراعا
والذى كان فى الحياة قوياً   كال للمعتدين بالصاع صاعا
وإذا لم ترهف حسامك للذو   د فأرهف إذا استطعت اليراعا
أيها المبتغى انتحاراً تأخر   فن الجبن أن تكون شجاعا
بئس قلباً ما كان بالصادق الودّ   وعقلا ما إن يجيد الخداعا

***

وإذا ما أنت صروف الليالى   فهى تأتى بالرغم عنك تباعا
أيها القوم إن أردتم لحاقا   بالالى أبعدُوا فكونوا سراعا
إننى قد دعوتكم للذى فيـ   ـه لكم خير إن أردتم سماعا
فسلاماً إذا رضيتم سلاما   ووداعاً إذا أبيتم وداعا
لا يرى مشرق السعادة رحباً   غيرُ من كان للعُلا طلاعا
رُبّ أرضٍ تشكو الصدى وسماء   لا ترى فيها كوكباً لمّاعا

***

كبرت جرأتى فجئت بشعر   أنا فيه أخالف الاجماعا
حاسباً أن ما بنيتُ جدار   ليس فى الظن أنه يتداعى

(بغداد)   **جميل صدقى الزهاوى**

الغابة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قد حكيت الآباد كالبحر والصحـ   راء من طول أرضك الشجْراء
وحجبت الأفق البعيد عن الطر   ف فأنسيت منتهى الأشياء
فكأنْ لا مدَى لدوحك يرجى   حين تُدحَى مطارح الغبراء
ورياح تشدو على ورق الدو   ح بألحانِ شدة أو رخاء
منطق لم يدع لنفس شجوناً   لا يُحاكى صفاتها فى الغناء
ثم تبدو الغصون فى هدأة الريـ   ح كنأى معلق بالهواء
وكأنى أصغى إلى غابر الدهـ   ر وما كان فيك من أرزاء
وكأن المساء ظلّل دوحاً   يتسامى ولات حين مساء
وكأن الظلام دس كميناً   رابضاً فى آجامك الدكناء
خطرت فى ظلام دوحك أروا   ح وناجت مسامع القدماء
لبث القوم فيك دهراً فناجا   هم سِرارُ الفنون بالايحاء
عُمُداً شيّدوا وسقفاً كبهو   واستمدوا من غابة وسماء
حين شادوا للدين بيْعة إيما   نٍ تبدت كالغابة اللفّاء
صرتِ ملهى وكنت غيلاً مخوفا   وملاذ اللصوص والطرداء
وارتضيت الأمان من بعد ذعر   لم يزل فى المدينة الشماء
غابة شادها ابن آدم نزلا   دوحها من قصورها الزهراء
ربما عرّشت وضاقت فلا شمـ   س لديها ولا مراح الهواء
ومخوفٍ من الفجاءة فيها   كمخوف فى الغابة القتماء
واحتيال ليُقْنَص الرزقُ والصيـ   دُ سواء فى مكرة كسواء

كم وحيد لا يعرف الأنس فيها   أصبحت نفسه كقفر خلاء
ضاق ذرعاً بنفسه فغدا يذ   شد طباً فى معرض الأحياء
عذبته لواحظ الشمس حتى   أخـذته لواعج الظلماء
وأفاعٍ فى دورها وقرود   ووحوش من ناسها بالعَرَاء
وغريب ومعدم وطريد   قد عداه حتى خداع الرجاء
فكأنَّ الاقوام لم يخرجوا من   ك ولا زال عهدك المتنائى
سُنّةٌ قد سننتها فى نفوس   إنْ دعتها كانت جوابَ النداء

عبد الرحمن شكرى

تحية يا شباب !

للاستاذ ابراهيم ابراهيم على

دعنا نحييكَ يا شبابْ !   تحيـةَ المعجَب الفخوز
ونجمع الأهل والصحاب   نطرب فى غمرة الشعور
أنت محببٌ ومستجاب   وأنت نار بها ونور
دعنا نحييك يا شباب
تحيـة العاجزِ المدين   لآخذى النصر باليمين

تحيةً يا شبابَ مصرا   يا فتيةَ النيـل يا جنود
وذخرنا أن عدمتِ ذخراً   يا مصر فى ذلك الوجود
يا فيضة النيل بعد أخرى   تمضى ، ولكنها تعود
دعنا نحييك يا شباب
تحية العُرف للأمين   وفاتحى فتحها المبين

تحيـةً للدم الصبيبِ   إلى الردى . أو إلى الحياه
يجرى هنا من فتًى حبيبِ   أو يخضب الوجه من فتاه
فى ساحة الملتقى العصيبِ   شات من المعتدى يداه !!
دعنا نحييك يا شباب
يا ضاربَ الشك باليقين   وقاطعاً ذلك الوتين

وفادياً مصر بالغوالى   وبالأمانىِّ ، والرجاء
وخائض النار والعوالى   لتستوى مصر فى العلاء
لا بغيـةَ الجاه ، أو لمال   لكنها نفحة السماء
دعنا نحييك يا شباب
يا فاتح الصدر للمنون   وباذلاً كل ما يكون

المجـد ! يا غبطةَ الضمير   والمجدُ لله والبـلاد
وشعلةَ الروح فى الصدور   ورفعةَ الرأس بالجهاد
ونشوةَ المدمع الغزير   وغرةَ الحق والجلاد
دعنا نحييك يا شباب
قولوا هنا : مصرُ لا تلينى   فلعنة الذل أن نلين

تحيـةً ! صخرة الأساسِ   مصر على الرأس واليدين !!
تجهل ما الحكم والكراسى   وتذكر الدين أىَّ دَيْن
وتبتغى شـدة المراس   فما سبيل الهوى بهيِّن
دعنا نحييك يا شباب
تحيـة الليث للعرين   لا يُظلِم القلب أو يرين

نحب مصراً ومن عليها   وإنما مصر فى بنيها
صعيدَها قبل شاطئيها   قبطيَّها قبل مسلميها
ومن أعزُّ الورى لديها   إلا الشباب الأعزُّ فيها
دعنا نحييك يا شباب
ابن بلادى هو ابن دينى   وإنما بالهوى أدين

جهدُك يا جندُ لا يمارى   مجدك يا جنـدُ لا يرام
خصمك يا جند لا يجارى   فى سطوة الحرب والسلام
لكنها مصر ! من أغارا   على حمى مصر لن ينام
دعنا نحييك يا شباب
اللهُ . فى ركنها الركين   وحصنها الراسخ المكين

الحق والنصر صاحبانِ   وما من الحق أن نذلاّ
وليس فى الحق من توان   ولا على الحق أن نضلاّ
ان لم أصنْ مصر عن هوان   وأبذِل الأعظمَ الأجلاّ
نعم وحاشاك يا شباب
خسئتُ من كاذبٍ مهينٍ   أعرف ما الكاذب المهين

أجل ، وحاشاك يا شباب   يا نجدةَ الحق يا نصير
حييتمو أيها الصحاب   جهادكم ههنا كبير
(القوم) دعواهمو اغتصاب   وأمرهم فى الهوى غرور
أجلْ ! وحاشاكَ يا شباب
فاضربه فى سره الدفين   فكم له ثَمَّ من كمين

القصص

تمة: مع فرجيل ولمحة مع يوربيدز

٢٢ - حُروب طَرْوَادَة

١ — الحصان الخشبي
٢ — سينون
٣ — مصير لاوكون
٤ — رؤيا إيناس
٥ — نهاية بريام
٦ — أنخيسيز
٧ — العاصفة

سقوط إليوم (١)

للأستاذ دريني خشبه

لم يبرح فيلوكتيتس يرسل سهامه على الطروادين ، ولم تبرح المنايا تتخطفهم ... ولـكن المدينة ذات الكبرياء ما برحت أمنع من عقاب الجو على الغزاة الجبارين ...

وذهب كالخاس عراف الحملة ، إلى آلهته يستوحيها ، ثم هرع إلى سادته قادة الجيش فذكر لهم أنه مادام تمثال مينرڤا المقدس - الپالاديوم المشهور - فى طروادة فلن يفتحها على أهلها فاتح ، ولو عاونته الأرباب جميعاً !

وانطلق أوليسيز ، وانطلق معه ديوميديز ، فتنكرا واحتالا على حارس البوابة الاسكائية الكبرى ففتحها لهما ، وذهبا قدما إلى هيكل مينرڤا ، وسرقا الپالاديوم المقدس ، وعادا به ، وكل همهما أن تبطل نبوءات العم كالخاس التى أخذت تترى ، ويأخذ بعضها برقاب بعض .... وكرت الأيام .... ومع ذاك لم تفتح طروادة ! ؟

ثم بدا لأوليسيز أن يصطنع الحيلة ...

فعرض على زعماء الحمـلة أن يُدعى مهرة النجارين والمثالين فيصنعوا حصاناً هُولةً كبير الحجم ... خاوى الجسم ، فيكون بداخله جمهرة من أقوى شجعان الهيلانيين وأبسلهم ، ثم يوهم الأسطول أنه أبحر بجنود الحملة ، فاذا مضى شطر من الليل ، وأقبل الطرواديون على الحصان فأدخلوه مدينتهم تذكارا لهذه الحرب الضروس التى أكلت أخضرهم ، وأحرقت يابسهم ، وذهبت بالزهرة اليانعة من شبابهم ... ثم إذا كان الهزيع الأخير من الليل ... خرج الأبطال المختبئون ففتحوا أبواب إليوم ، وينقض الجيش المرابط ، فيحتل المدينة العاتية التى رغمت تحت أسوارها أنوف ، وذلت جباه ، وذابت أنفس ، وذهبت أرواح ، دون أن ينال منها أحد ....

وطرب القادة لهذه الحيلة التى بدههم بها أوليسيز .....

وانصرفوا عن القتال وهم له كارهون ... وانصرف الطرواديون فاعتصموا بأسوارهم ، ورابطوا داخل صياصيهم ، ومهرة النجارين

(١) اعتمدنا فى تلخيص هـذا الفصل على ملحمة ڤرجيل الخالد The Aeneid ترجمة نيرڤا كس تالمر (طبعة دانت) — ورجعنا كذلك إلى درامة يوريبيدز للمتعة (The Trojan Women) ترجمة جلبرت مورى النثرية وترجمة ر — پوتر الشعرية مع ما بين الملحمة والدرامة من فروق محتفظين بروح الأسطورة

كن واحداً يا شباب مصرا وادع إلى وحـدة اللواء
ولا تـكن للذئاب صخراً ولا تـكن سلماً لشاء
يا جند فى مصر : لن تقرًّا حتى يقروك فى السماء
دعنا نحييكَ يا شـباب
فى صرخة الدهش والسكون أو لا ! فمن ذا إذن نكون
يا باذلَ المهجةِ احتساباً والرأسَ . والعينَ . والشبابا
وحامياً ذلك الجنابا
وفاعلا ههنا العجابا
دعنا نحييك يا شـباب

ابراهيم ابراهيم على
المحامى

وكبار الثالين دائبون على حصانهم الهولة حتى فرغوا منه .. وأقلع الأسطول ...

وانكشفت الساحة من هذا الجراد المنتشر الذى لبث ينوء فوقها عشر سنين ...

واختبأ أوليسيز داخل الحصان ومعه نخبة من شياطين الميرميدون ، وعلى رأسهم پيروس النجيب ، ابن أخيل الخالد ، وعصبة قوية من فرسان الأغريق البواسل ...

ودق الطرواديون البشائر ...

وجاءوا يُهرعون إلى الساحة ، ويتكبكبون حول الحصان الهولة ، ويكلمون سينون الذى تركه الهيلانيون عند الحصان ليخدع الطرواديين ولينصح لهم بنقله إلى المدينة ليكون آخر الدهر تذكارا لهذه الحرب التى شنها قومه على طروادة ظلماً ، فباءوا منها بالبوار ...

« ... ... هؤلاء الهيلانيون اللؤماء ، الذين انصبت عليهم أحقاد الآلهة ، وثار بهم كبير الأولمب وسيده الأعظم ، وسلطت عليهم الزوابع والأنواء حتى كادت تفنيهم ، لولا أن أمروا بتضحية قربان بشرى ينجيهم من غضب السماء ... ولكن ؟ ... من منهم أصاخ إلى الأمر المقدس ؟ ومن منهم سمع إلى هتاف الأولب ؟ لقد جبنوا جميعاً ! ولم يشأ واحد منهم أن يضحى بنفسه لينقذ الجميع ، حتى أوليسيز ! أوليسيز نفسه ؟ هذا الداهية المغفل ! لقد جبن هو أيضاً ! وفى الوقت نفسه حاول أن يرغمنى أنا ! أنا سينون المسكين ، على أن أقبل التضحية ، وأن أهب دمى للآلهة لتهدأ ثورتها ...

ولكنى رفضت فى شمم ، وامتنعت فى إباء ... لا خوفاً من الذبح ؟ ولكن ضناً بدمى النقى الطاهر عن أن يهرق فى سبيل هؤلاء الجبناء ... الذين تكأكأوا ونزعت نفوسهم من صيحة السماء ... !

وهربت يا مولاى ! يا مولاى پريام العظيم .. ولذت بظلال طروادة الخالدة ، طروادة المنيفة القوية ، وجعلت أصلى لأربابى حتى استجابت لى ، وأرسلت اليهم من أنذرهم بسوء المنقلب إذا هم لم يقتلوا هذا المساء ... ! ! قاتلهم الله السند ! وقاتلهم الآلهة جميعاً ! ! ...

والآن ! ... هاهم أولاء قد تركوا هذا التمثال الرائع الذى أعدوه ليوم نصرهم ، فجعلته الآلهة آية فشلهم ! ... انقلوه يا مولاى إلى المدينة ، واجعلوه تذكار هذه النوبة الجنونية التى شنوها عليكم ، فحاق بهم سوء ما كانوا يمكرون ... ألا فليكن قربة لميزفا ... !

ولقد سمعت هاتفاً فى صلاتى يقول : « ... الويل لمن يصيب هذا التمثال بشر ! تنقض عليه رجوم السماء ، وتنخسف من تحته الأرض ، وتميد من فوقه الجبال ! ... وطوبى لمن احتفظ إلى الأبد به ! . . . إذن يحميه شر حدثان الزمان وعوادى الأيام ... »

وكان سينون يمزج كلماته بدموع الصلاح والورع ، ويشمل فيها جمرات الاخلاص والصدق ... وكان يرسل آهاته من الأعماق ... ! حتى استطاع أن ينفذ إلى سويداء الملك ، ويستولى على مشاعر الطرواديين ؛ وحتى ثار الطرواديون أنفسهم على قديسهم الوقور لاوكون ، راهب نپتيون الأكبر حين نصح ألا يجوز عليهم هذه الكلمات المعسولة ، والنفثات السحرية التى يتلجلج بها لسان سينون ، وأن يدعوا الحصان مكانه « فانه إن دخل طروادة جلب عليها الشر وكان فأل السوء للضحايا والشهداء ... ولا تصدقوا أن الهيلانيين قد تركوا هذا الحصان تكرمةً لنپتيون كما يدعى هذا الأفاق المأفون ، بل هم قد صنعوه حيلة منهم لغرض سيء ... وها هى ذى ابنتك أيها الملك ... كاسّندرا العزيزة فاسألها ... فان لديها سر السماء ... »

وسأل الملك كاسندرا فأفتت بما أفتى به لاوكون ...

ولكن ... من يصدق كاسندرا وما تزال نقمة أپوللو تنصب فوق رأسها ... وقد جعلها إله الشمس عرضة لكل مستهزئ وضحكة كل ساخر لعّاب !

وزاد الناس استهزاء بالقديس لاوكون ، حين رأوا اليه تفترسه حيتان عظيمتان على رسيف الهلسپنت إذْ هو يقدم قربانه لربه نپتيون فتقتلانه وولديه ، عقب تحذيره الطرواديين ألا يقربوا الحصان المشؤوم وألا يدخلوه مدينتهم ! !

وتعاون الطرواديون جميعاً فجروا الحصان الهولة ، وهدموا بأيديهم جزءاً كبيراً من سور إليوم المنيع لتتسع البوابة للتمثال الهائل فكانوا كالتى نقضت غزلها أنكاثاً ! ! ...

***

وكان الأسطول قد اختبأ فى ظلال الأيك النامى فوق جزيرة تندوس ، فلما كان النصف الثانى من تلك الليلة الخرافية الحالكة ، وكانت طروادة كلها قد استسلمت للنوم العميق الذى يسبق القضاء الصارم عادة فى مثل هذه الأحوال ، هب سينون الخبيث ففتح الباب السرى الذى لا يعرف إلا هو مكانه من الحصان ، وخرج الأبطال فقتلوا الحراس النائمين لدى الأبواب ، وأشعلوا النيران فرآها الجنود الذين عاد بهم الأسطول فى دجى الليل ، فانطلقوا سراعا إلى إليوم الخالدة . . . المستسلمة ... فدخلوها ... وأعملوا السيف ، وشرعوا الرماح ، واستباحوا المدينة ، وهتكوا الأعراض النقية ، وأحلوا حرمة الهياكل ، وأضرموا النيران فى القصور ، وأتلفوا الحدائق الفينانة ، وهشموا تماثيل الآلهة فى الميادين العامة ، وقتلوا الصبية والأطفال ، وجعلوا المدينة أطلالاً فى أطلال ! !

وهكذا !! وفى سكرة الليل ، وهدأة الظلام ، تم للهيلانيين الاستيلاء على تلك المدينة العتيدة وهبت من تحت الثرى عشرة أعوام طوال مضرجة بالدم ، ملطخة بالإثم ، حافلة بالذكريات ، غارقة فى الدموع ... تشهد إلى الفتح المجرم ، وترى إلى المأساة الظالمة فى آخر فصولها !!

وكان إيناس اليافع بن ڤينوس الملوك من أنخيسيز ، فتى طروادة وأميرها الجميل ذا القسمات ، يغط فى نومه العميق ، ملء سريره الذهبى الوثير ... مطمئنا آمنا ... لا يدور بخلده أن تحل تلك الكارثة باليوم فى هذه الغفوة من الفجر ..

وكان إيناس مُحبّبا إلى الآلهة ... ولم يكن قد جاء أجله بعد ... فسخّرت اليه ربات الأقدار طيف هكتور يزوره فى نومه ، ويريه حلماً مفزعا ... وينذره ... « أن هب إيناس فقد سقطت طروادة ، وانج بنفسك وبأهلك فالأسطول ينتظرك ، واستنقذ التحف المقدسة والآثار العلوية ... فقد دنسها الفاتحون !! »

وذعر إيناس ، وهب من نومه لهفان صعقا ... وفزع إلى سلاحه ثم أشرف على المدينة المروعة فشهد المأساة تحل بها ...

وهاله أن يرى الوحوش الضوارى من بغاة الميرميدون ، وغزاة الهيلانيين ، يسوقون أتراب طروادة وبيض خدورها المكنون ... عاريات أو نصف عاريات ... إلى الأسطول ... ليكنّ إماء فى بيوت هيلاس ... ورقيقاً فى أسواقها ! ؟

وكاسندرا ؟ ! كاسندرا نفسها !! ابنة بريام الملك ... حبيبة السماء وصفية الآلهة !! التى حذرت أباها يوماً من قبول باريس .. أن يحل البلاء بالمملكة ويتزل الشؤم بالناس !! ها هى ذى مسوقة فى قبضة أجاممنون نفسه ... أجاممنون سيد القوم وقائدهم العام ... إلى ... سفينته ! !

وفكر إيناس ، فلم يجد لانقاذ المدينة وأهلها من سبيل ... فأشار إلى بعض رجال قصره فقتلوا نفرا من جند الاغريق المتخلفين عن الجيش الغازى ، كانوا مشغولين بالسلب والنهب فى متجر قريب ، ثم نزعوا عنهم ثيابهم فلبسها إيناس وصحبه ليستخفوا بها عن أعين المغيرين ؛ وانطلقوا إلى القصر الملكى ، وبودهم لو استطاعوا أن يحموا الملك فى هذا الروع الأكبر ... ولكن وا أسفاه !! لقد كان بيروس بن أخيل قد سبقهم إليه فى عسكر مَجْر من أبالسة الميرميدون ؛ وكان بوليتيس بن بريام ، وآخر فرع من دوحته الباسقة آبقاً أمامه ، مكروباً مفزعا ، فارًّا إلى ذراعى أبيه الضعيف الشيخ ، يلتمس الحماية فى أوهى حمى ... فلم يزل بيروس ينهب الأرض فى إثره ... حتى قتله بين يدى أبيه ، وانقض على الملك التاعس فوضع حدا لهذه الحياة الطويلة المملولة الشقية التى لطخها الدم البرئ وصهرتها جحيم الشدة ... ولم يغن عن بريام المسكين توسلات هذه الزوجة المعذبة التى وقفت بينه وبين بيروس ... هكيوبا !! الملكة المرزأة ! التى بقيت وحدها لتجرع الثمالة الباقية فى كأس الحياة... مراً وعلقما ...

وهكذا صعدت روح الملك إلى سماء طروادة تتلفت حولها ! ترى إلى المدينة الخالدة تضطرم النيران فى جنباتها ... وتندك صروحها العزيزة فى الرغام ... وتتهاوى أبراجها المنيفة التى كانت تسجد تحتها آسيا الجبارة ... والآن ! ها هو ذا على ثرى إليوم لقىّ لا نَفَس فيه ! وجثة هامدة لا تحمل اسمها بعد ... ورأساً معفراً ... ... من غير جسد !! (١)

(١) عن فرجيل

وزاغ بصر إيناس حين شهد هذا المنظر الرهيب ، ووقر فى نفسه أن مثل هذه النهاية المحزنة قد تحل بأبيه الشيخ أنخيسيز ؛ وبزوجته الهيفاء كروزا ، وبطفله المعبود إيولوس ... فلم يبال أن يقتحم صفوف الأعداء إلى قصره الذى خلا غابه اليوم من أسْده ، وبُدّل الشوك من ورده ، وعاث فيه جنود الهيلانيين فأصبح قاعاً صفصفاً ... كأن لم يَشْدُ فى دوحه بلبل ... ولم يحن فيه فؤاد إلى فؤاد !

وهناك ... فى إحدى الردهات المنعزلة ... وجد هيلين ! ! نعم ، هيلين ! سبب هذه الكوارث المتلاحقة التى حلت بطروادة والطرواديين ... هيلين التى لم تبال أن تتزوج ديفبوس — أخا باريس — عقب مقتل حبيبها بأيام معدودة ! !

وجدها هنالك ... تنقدح المصائب شرراً من عينيها ، وتتدجى غواشى الكروب فوق هامتها ، وتنعقد ظلمات الكوارث على جبينها المغضن الكريه ... ... الجميل ! !

وهم إيناس أن يفتك بها ، لما ذكر من الأرزاء التى حاقت بطروادة من جرائها ... لولا أن بدت له أمه ... ڤينوس ! ... فأنذرته ألا يفعل ... ثم كشفت له حجاب الغيب المحرم على أعين البشر ، فرأى إلى الآلهة أنفسهم يعملون بأيديهم فى تخريب طروادة ، وتدمير الطرواديين ، وعلى رأسهم شيخ الأولمب وسيده ... زيوس ... كبير الأرباب ! !

« ... فانج بنفسك يا بنى ... ولذ بالبحر ... ولتنزح عن هذه الديار ... »

وانطلق إلى أبيه فنصح له أن يهرب معه ... ولكن أباه استكبر وأبى ... بحجة أنه ينتظر نبوءة من السماء توحى اليه بما توحى ... فغيظ إيناس وأغلظ لوالده القول ؛ ثم أمره أن يقبض بيديه اللاريتس والبينيتس [1] ، وأن يركب كاهلى ابنه وإلا قتلوا فى الحال !

فلم يسع أنخيسيز إلا أن يطيع ... فسار ابنه يحمله ، وسار ولده الصغير أيولوس بجانبه ، وتبعتهم زوجه الجميلة كروزا ...

وكان قد اتفق مع أتباعه ، قبل أن يقصد إلى قصر الملك ، أن ينتظروه فى هيكل خرب قريب من مياه الهلسبنت ... فلما أقبل نحوهم يحمل أباه اتفقوا على أن يبحروا فى الحال ... ولكنه ... وا أسفاه ! افتقد زوجه فلم يجدها ... زوجه كروزا التى كانت الساعة فقط تتبعه ! ! لقد قتلها كلب من شياطين الميرميدون ...! ولما رجع إيناس ليبحث عنها لقيه طيفها الجميل .. عند تمثال مينرڤا ... فخاطبه قائلا ... « هلم يا إيناس ! غادر هذه الديار فى الحال ... واذهب إلى شطئان التيبر ، فان الآلهة قضت أن تبنى بيديك ... رومة أم القرى ! ! » وأبحر إيناس ... وأبحرت فلول الطرواديين معه

وفى غبشة الصبح المضطرب ، كان صوت الطبل الكبير يقصف كالرعد فى خرائب طراودة . وكانت الجموع الحاشدة تهرول نحو الأسطول ، وكان السبى الكثير عذارى من طراودة وسائر نسائها يهرولن من الأخربات نحو البحر ... فكنت ترى هكيوبا الملكة .. واندروماك الحزينة التى اغتصبها پيروس لنفسه ... وكاسندرا ... تلك النبية التى أحبتها السماء ... فأصبحت فى جملة السبى من سريات أجاممنون وغانياته ... وكنت ترى غيرهن يهرولن فى الصباح الباكى إلى شاطىء الهلسپنت ، ليركبن البحر فينفين عن أرض الوطن إلى الأبد ...

وكانت كاسندرا تنظر إلى المأساة وتبتسم ...

وكانت أمها ترمقها بعينين دامعتين ... وتسألها عن سبب ابتساماتها ... فتفتر كاسندرا وتقول ... « أماه ليس حظ هؤلاء الغزاة المنتصرين بخير من حظ أبطالنا ... هأنذى أقرأ ألواح القضاء ... أنظرى ... ها هو ذا مصرع أجاممنون بيد زوجته كليتمنسترا العاشقة ... إنها تفضل اليوم حضن عاشقها الآثم على جنة يكون فيها زوجها ... إنها ستقتله ، ستذبحه بيديها ... حينما تطأ قدماه أرض الوطن ... !

وانظرى يا أماه ... ها هو ذا أوليسيز تعصف به الريح ... ويلعب به الموج ... ويؤرجحه البحر اللجى ... عشر سنين يا أماه يقضيها ملك إيثاكا فى تيه هذا الماء ... والعشاق يتقاتلون من حول زوجه ... وتليماك المسكين يضطرم غيرة ولا يستطيع أن يفعل شيئاً ...

وانظرى يا أماه ... ها هو ذا منالايوس ... بائس ... كم أنت بائس يا منالايوس ... لقد ظن المسكين أن هيلين نقية كما

(١) Lares & Penates تماثيل صغيرة للآلهة تحفظ فى المنزل لعبادتها (وهى من طقوس الرومان فقط)

هى ! ... لقد نسى التاعس أنها تقلبت فى أحضان أزواج غيره !... أنظرى إليه يقذفه البحر إلى شطئان مصر ... وانظرى إليه ذليلا بين يدى هيلين يتوسل إليها وكان أحرى لو أنه قتلها ... ...

***

ونسى الهيلانيون فى نشوة النصر أن يقربوا القرابين للآلهة التى نصرتهم وأيدتهم وأظفرتهم بأعدائهم ؛ قبل أن يبحروا ... فأثاروا غضب الأولمب ... واستنزلوا لعنة السماء واستحقوا حنق حيرا ونبتيون وميترفا ... ونقمة زيوس ! !

لقد ثارت ثائرة ميترفا ... فانطلقت إلى أبيها وشكت إليه ما فرط هؤلاء الجاحدون فى جنبها وجنب الآلهة ... واتفق الجميع على أن يسخر نبتيون الجبار ... إله البحر ... أرياحه العاتية على أساطيلهم فتمزقها ... وتضلها تضليلا ...

فما كادت الأساطيل تمخر عباب الماء .. وما كادت تبتعد عن شواطئ إليوم .. حتى بدأت العاصفة تدوّم .. وحتى أخذت الأمواج ترسل أعرافها حول السفائن ، وحتى نثر الثبج حبابه فوقها ... وحتى ارتعدت فرائص القوم ... ونظر بعضهم إلى بعض ... كأنهم فى يوم حشر ... ولا يتساءلون

ولقد صدقت كاسندرا !

فها هى ذى الأساطيل الكثيفة تتمزق فوق سطح البحر ... وها هى ذى جوارى منالايوس المنشئات تدفعها العاصفة فى طريقها إلى . . . مصر . . . وها هى ذى مراكب أجا ممنون تتكسر على الصخور الناتئة فى عرض اليم ... وما يكاد يصل هو إلى مملكته أرجوس حتى تقتله زوجه العاشقة . . . مؤثرة عليه أحضان عاشقها الأثيم إيجستوس ... وها هى ذى سفين أوليسيز تضل فى البحر الشاسع ، وتتكسر بما عليها من ساب ، . . ويظل البطل المغوار فى نقلة وترحل . . . عشر سنوات . . . وتظل زوجه بنلوب تنتظره . . . وعشاقها يقتتلون حول قصرها . . . وتليماك البائس ابنها ينتظر أوبة أبيه . . . حتى يعود بعد شدة وبعد لأى فيدمر العشاق الآثمين . . .

وهاك بيروس بن أخيل يعود ومعه أندروماك التى تظهر له الحب ، عاملة بنصيحة هكيوبا لها ... حتى تنشىء ابنها .. وكانت تمتزم مضايقة بيروس ومناوأته ليقتلها ..... ولتستريح بالقتل من عذاب العيش بعد هكتور ... (١)

دريني خشبة

---

(١) يعتبر هذا الفصل الأخير من حروب طروادة النبع العذب الذى استمد منه اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدز أكثر دراماتهم الخالدة التى أربت على المائتين ، والتى لم يبق منها إلى اليوم أكثر من ست وعشرين . سبع لكل من اسخيلوس وسوفوكليس والباق ليوربيدز ... وسنحاول أن نعطى للقارئ صوراً منها على صفحات الرسالة ، ثم نعقب بملاهى أرستوفان التى يعتبر أكثرها نقدا ليوربيدز

قصة :

الرجـــوع

إن ما ندعوه « قضاء » ليس إلا ما نقضيه على أنفسنا « ميخائيل نعيمة »

بقلم الأديب عبد الوهاب الأمين

لم يكن صبياً غراً عندما فتنته تلك الغادة ، بل لقد حاول جهده أن يسيطر بعقله على جموح تلك العاطفة ، فغره لأول وهلة شيء من النسيان أحس به ، وظن أن الوقت قمين باستئصال ذلك الحب الفاسق ، وطاوعته نفسه بعد أسابيع أن يمزق صورتها ليلقيها فى الموقد أمامه ، وقد عاوده طيف « العائلة » والزوج الحنون ، وأطفاله فى الغيب ، وبسمة السعادة التى ستشيع على الوجوه ، فتنهد !

وكان دائم اللجاجة فى « التحليل » ، فخيل اليه أن الأمر بلغ نهايته ، وأن جذوة الشباب فيه قد قرت ، وما عليه إلا أن يحنو على زوجته فتحنو عليه ، فيثمر ذلك الحنو حباً شريفاً . . . لا ذلك الحب المجهد ، حب المومس الذى تثيره غلمة وتقتله كلمة ! وأنه بعد هذه السنين الثلاثين جدير به الاقلاع عن اجهاد نفسه وعاطفته الجامحة بالتطوح فى مثل هذه المجازفات !

وماله قد فتنه تصوير ! ألا يجوز أن يكون ليد المصور الفنانة فضل هذه الفتنة وهذا السحر ؟ بل هذا هو المنطق المعقول ، فليس لانسانة أن تمتلك مثل هذه النظرة المغرية ، وهذا السحر الفاتن ! إنها ولا شك فملة الرسام !

وأطل عليه وجه زوجته فى تلك اللحظة ، فتمثل فيه الطهارة والاخلاص ، وابتسم على رغمه لأن روحه الشابة المرحة لم تطق أن تقاوم البشر المنطلق من عينيها ، والطرب الشائع فى نظرتها ! ورمته بقشر وهربت ! وانهزم معها فرحها الحى الطروب ! فتمثل لخياله الفرق بين هدوء حياته هذه التى سيقبل عليها ، وجموح تلك التى عزم على فراقها ، فاستشعر شيئاً من الحزن طاف به على هذا الفراق ، ومرت فى ذهنه صور سريعة من ساعات اللذة واللهو يكاد ينسخها مر الأيام . . . غير أنه عاوده شعوره بقوة عزمه السابق ومسؤولية الرجل الرزين الذى سيكونه عما قريب ، فمزق بقايا الصورة ورماها فى الموقد ونظر إلى اللهب الصغير المتصاعد منه ، وشرد ذهنه

* * *

تقدمهم الصبى بخفة إلى باب المقصورة وفتحها بتؤدة وعلى فمه ابتسامة متكلفة . وأخذ يفرك يده متظاهراً بالبشر لقدوم « سيده » الذى طالما نفحه بالعطايا الصغيرة التى كانت تتسع وتكبر حسب ما يقوم به من خدمة ! وكان يبتهج كلما أبصر « سيده » بصحبة امرأة ، فان وجودها معه يعنى ضرورة الحاجة إلى خدمته ورعايته اللتين يستدرهما عند ارفضاض السينما نقودا يطبق عليها أنامله بخفة ، وعلى وجهه تلك الابتسامة التى لقيه مساء اليوم بها ، والتى يكرهها « سيده » منه فلا يرفع بصره اليه !

وكان « المرض » مهما ، والمقاصير كلها ملأى بالمخلوقات الجميلة ، وكانت عين الناظر تلقف بين كل ثانيــة وأخرى عضواً بارزاً نسوياً جميلاً بين تلك المناظر السينمائية الخلابة والاعلانات اللاصقة على الجدران ، وتملو بين تلك الضجات المختلطة بضمة أصوات ناعمة تتطور بعض الأحيان إلى قهقهات صافية الجرس ، تملوها رنة النعيم !

وكان وهو ينزع عن كتفيه معطفه الثقيل ويدير عينيه بين المقاعد يلحظ أن صوتاً فى المقصورة إلى جانبه يرن فى أذنه فيترك صدى غير اعتيادى . . . جذاب ! ساحر ! غير أن انتقاء المقعد شغله وصرف ذهنه هنيهة عن تتبع أثر ذلك الصوت فى روحه ، ولما جلس أخيراً لم يكن فى ذهنه غير ذلك الصوت وصاحبته اللعوب ! وبدرت منه — من غير قصد — التفاتة إلى المقصورة فاصطدم نظره المستريح بها . . . ! نعم هى ! وقد ظهرت فى ثوبها البهيج أشد فتنة من صورتهـا ، وزاد فى جمالها الأخاذ سحر التجمل ، فأدرك أن قوته تخونه ، وأنه أمام شخص يملك سحراً يزيد على سحر المرأة ، فعادت اليــه فجأة وبسرعة كل خيالاته التى نسختها عزيمتــه أولاً ، واستعادت مخيلته أويقات التأمل التى كان يقضيها فى مناجاة تلك الصورة على أشد وأقوى حالاتها ، وأحس وهو يدير نظره عن وجهها الذى بدت عليه البغتــة أنه يقتلعه اقتلاعاً ، وأن شيئاً من قلبه وحسه قد تملق بتلك الأهداب السحرية التى زاد جمالها الطبيعى الأخاذ اعتناء خاص بتنسيقها

وتجميلها ، وأدرك فى قرارة نفسه أن سيطرة هـذه المرأة عليه أمر محتوم وقضاء لا يرد !

وانتهز فرصة « الفاصلة » فاحتج برغبته فى التدخين وأصر عليها ، ثم حسم المشكلة بخروجه من المقصورة ، وكان شىء فى رأسه يدور ويدور ! وهو عراك نفسى بين عاطفتين قويتين لا يكاد يركن لاحداهما حتى تبرز نتائجها ملموسة لعينيه ! أيحب هـذه المومس وهو يعلم أن حبها يفقده أشياء كثيرة وعزيزة عليه ؟ أيتركها ولا يلتفت إلى تلك النظرة الصارخة فى عينيها ، وقد بدت الليلة بوضوح فى ملامح وجهها وشفتيها ، ولم تستطع البغتة أن تخفيها من عينيها الأخاذتين ! وهل هو قادر على أن يهمل اهتمامها الظاهر به ، وهو الذى كان يقضى الساعات فى مناجاة صورتها ؟ وما يدريه ! لعلها تصطنع كل ذلك لاستمالته ! إنها خبيرة ولا شك بفعل هذه النظرات فى القلوب ! إنها تاجرة تريد أن تغبنه بصفقة خاسرة ، تريد منه قلباً بروح ، لتعطيه قلباً بلا روح ! كلا إن ذلك لن يكون !

ووقف ذهنه عند هذا الحد ، فقد بدت من مقصورتها ومشت إلى ناحيته بتؤدة ، ولما وصلت إليه أسرت قائلة :

— كازينو أنترناسيونال ، منتصف الليل

ومنحته فوق ذلك ابتسامة !

* * *

عاد بسيارته بعـد أن أخبر زوجته أنه سيقضى السهرة مع صديق له ، وأنه سيتأخر عن وقت قدومه المعتاد ، وانطلق كالسهم بها على غير قصد ، ثم خطر له أن يشرب فوقف عند أول حانة !

وبعد الكأس السادسة نظر إلى الساعة فوجد أن بينه وبين الموعد ما يقارب الساعـة ، فخطر له أن يقضيها متجولا لأنه شعر بالاكتفاء من الشرب وقام

ولم يكن « التجول » فى مخيلته غير السير إلى طريق الكازينو ! فوقف على بابه وفى صدره عراك ، وفى خطواته تردد وإحجام ، وألقى نظرة تائهـة على الوجوه فلم يجد بينها غادته ، فساقته قدماه إلى الباب وعاد إلى مقعده فى السيارة وقد خطر له أن موقفه ناطق بالذل والعبودية ، وأنه يسىء إلى نفسه بذلك العمل ، وأن شعوره بكرامته وكبريائه قد ثلم ، وبدت على وجهه غضون وغيوم !

وفى تلك اللحظة فقط شعر أنه تعب منهوك ، وأن حاجته إلى النوم شديدة ، فقبض على محرك السيارة وأداره بخفة ولباقة ، وشعر أن كل ما فيه فى تلك اللحظة عزيمة قوية ! وأن فى تلك العزيمة قضاء لا يرد !

واختلطت فى ذهنه الأفكار والصور وعجز عن متابعة نتيجة عمله ، وشعر بشىء من الكلال والفتور والأعياء ، وكانت ابتسامته لزوجته جامدة ، وكان على غير عادته فى النوم السريع بدون مزاح ولا دعابة

ولما سيطر سلطان الكرى على جفنيه كانت الساعة تؤذن بانتصاف الليل ، وكان ذهنه الكليل يدرك أن فى دقاتها أمراً ! غير أنه لم يدرك دقاتها الأخيرة !

عبد الوهاب الامين

البريد الأدبي

وفاة روديارد كبلنج عميد الشعر الانكليزي

منذ أسابيع قلائل كان عميد الشعر الانكليزي المعاصر روديارد كبلنج يحتفل ببلوغه السبعين من عمره ؛ ولكن الشاعر الأشهر لم يلبث أن مرض بعد ذلك بقليل ، ثم توفى فى الثامن عشر من يناير الجارى

وقد ولد روديارد كبلنج فى الهند بمدينة بومباى سنة ١٨٦٥ وكان أبوه جون كبلنج فناناً أديباً ؛ وكان وقت مولده يشغل منصباً فى مدرسة الفنون الجميلة ببومباى ؛ وتلقى كبلنج تربيته فى انكلترا فى كلية ديفون ؛ ثم عاد إلى الهند فى سن السابعة عشرة ؛ واشترك فى تحرير صحيفة انكليزية تصدر فى لاهور . وفى سنة ٨٦ أخرج كبلنج أول آثاره الشعرية فى مجموعة سماها « الأغانى الاقليمية » ؛ وأعقبها بمجموعة قصصية عنوانها « قصص من التلال » وتوالت آثاره القصصية بعد ذلك فأخرج منها ، « الأبيض والأسود » و « الشبح ركشو » و « وى ولى ونكى » وغيرها ؛ فذاعت هذه القصص فى الهند والصين واليابان ، وطارت شهرة كبلنج إلى ما وراء البحر ، واستقبل كبار النقدة فيه قوة أدبية جديدة ، وتجول كبلنج فى بضعة الأعوام التالية فى الهند والصين واليابان وأمريكا ، ثم عرج على انكلترا حيث سبقه صيته ، واستقبل بما يليق بأدبه وشعره من التجلة والتكريم ؛ وتجول بعد ذلك حيناً فى إفريقية ، ونشر عن سياحاته المديدة كتاباً سماه « من بحر إلى بحر » ، وفى سنة ١٨٩٠ أخرج كبلنج مجموعة قصصية عنوانها « نضال الحياة » ، وأتبعها بأخرى اسمها « النور الذى خبا » بيد أن عبقرية كبلنج الأدبية تصل الذروة فى كتابيه الشهيرين : « كتاب الغابة » The Jungle Book وكتاب « الغابة الجديد » ، وهما كتابان قصصيان عن حياة الحيوان فى الغابة على مثل كتاب « كليلة ودمنة » فى أدبنا العربى ، وعلى مثل بعض قصص الحيوانات والطيور التى وردت فى ألف ليلة وليلة ؛ وفيهما يعرض كبلنج بعض خواص الحيوان الطبيعية والنفسية عرضاً رائعاً ساحراً ؛ وكان ظهور هذين الكتابين الأول فى سنة ١٨٩٥ والثانى فى سنة ١٨٩٦ ، أعنى حينما بلغ كبلنج الثلاثين من عمره . ويعتبر النقدة كتابى « الغابة » أروع ما فى أدب كبلنج وانتاجه .

واستمر كبلنج فى انتاجه الأدبى يخرج المجموعات القصصية والشعرية تباعاً ، ويرتفع باستمرار فى سماء المجد والشهرة . ومن مجموعاته الشعرية الشهيرة غير ما تقدم « الأمم الخمس » (سنة ١٩٠٣) و « أناشيد من الكتب » (سنة ١٩١٣) و « الديوان الشامل » ، وفيه يجمع طائفة كبيرة من شعره المتفرق . وكتب كبلنج أيضاً « تاريخ انكلترا » بالاشتراك مع صديقه فلتشر ؛ وفقد كبلنج ولده فى الحرب الكبرى ، فرأى أن يخلد ذكرى الفرقة التى حارب معها فى كتاب عنوانه « الحرس الأرلندى فى الحرب الكبرى » (سنة ١٩٢٣) ؛ وكتب كبلنج غير ذلك كتباً أخرى من القصص والشعر يضيق المقام عن ذكرها

ويلقب كبلنج فى الأدب الانكليزى بأنه « شاعر الأمبراطورية » ؛ وهذه فى الواقع أبرز خواص الشاعر الأكبر ؛ وربما كان فى هذه الخاصة ما يباعد بين أدبه وبين العقلية الشرقية ؛ فقد كرس كبلنج كثيراً من نظمه ونثره للاشادة بعظمة الأمبراطورية البريطانية وما أحرزت من سيادة واسعة على كثير من الشعوب ، وما أصابت من النماء والغنى ، وما يجب عليها أن تتذرع به لاستمرار هذه السيادة الشاملة على الشعوب المحكومة ؛ وفى هذه المواطن يبدو كبلنج استعمارياً مغرقاً فى القومية . بيد أن كبلنج ، فيما عدا ذلك ، يتمتع بخواص أدبية وشعرية باهرة ؛ وأسلوبه قوى ساحر يفيض بياناً وبلاغة ؛ وقد انقسم النقدة فى شأنه إلى فريقين ، فريق يرتفع بأدبه إلى الذروة ، ويرى فيه المثل الأعلى للشعر المعاصر ، ومن هؤلاء روبرت لند الذى قال عن كبلنج « إن عبقريته تشرق على جيله فى البلاغة

والفكاهة » وفريق وهو الاقلية ينتقص من مكانة كبلنج ، ويرميه بأنه سطحي في شعره وفي نثره ، وأنه يكتب بأسلوب براق يرضي الجماهير فقط . وزعيم هذا الفريق جورج مور . بيد أنه مهما قيل عن كبلنج وعن مواهبه وخلاله ، فلا ريب أنه يتبوأ أرفع مقام في الأدب الفيكتوري

وقد نال كبلنج طائفة كبيرة من الجوائز والأوسمة الأدبية الرفيعة ، فنال جائزة نوبل للآداب في سنة ١٩٠٧ ، ونال الوسام الذهبي لجمعية الآداب الملكية ، ومنح عدة أجازات فخرية من الجامعات الكبرى ، ولبث مدى أعوام مديراً لجامعة سنت أندروز

قضايا التاريخ العظمى

أصدر الأستاذ هنري روبير المحامي الفرنسي الكبير جزءا جديدا من كتابه الشهير « قضايا التاريخ العظمى » Les grand Procès de l'Histoire ، وهو الجزء العاشر من ذلك الأثر الحافل الممتع ؛ ويعرف عشاق الأدب الفرنسي كتاب الأستاذ هنري روبير حق المعرفة ويقرأون أجزاءه المتوالية بشغف ولذة ، وهو كتاب يفيض في الواقع طرافة وقوة وسحرا ، وفيه يتناول المحامي الأشهر طائفة كبيرة من أشهر القضايا التاريخية والجنائية المروعة ، ومعظم هذه القضايا والحوادث معروف للقارئ المثقف ، ولكن الجديد فيها حقاً هو الأسلوب الرائع الذي يعرضها به الأستاذ هنري روبير على قارئه ؛ فهو محام بارع تخرج على يد الأعلام من أقرانه السابقين مثل لاشو ودعانج ولابورى أعلام البيان والدفاع في القرن الماضي ، ثم هو كاتب من الطراز الأول يتشرف بالانتماء إلى الأكاديمية الفرنسية والانخراط في سلك الخالدين ؛ وهو بهاتين الصفتين يقدم إلى القارئ تحفة قضائية وأدبية رائعة ، عرضت في أسلوب قضائي وتاريخي واضح ، ونظمت فيه الأدلة والفروض القضائية إلى جانب التعليلات التاريخية والاجتماعية البارعة .

وربما كان عيبا في هذا الأثر الحافل أن يخصصه هنري روبير كله تقريباً لاستعراض قضايا التاريخ الفرنسية (وإن كان يقص فيه قليلاً جداً من القضايا الأخرى) ولكن ربما كان ذلك أيضاً من عوامل قوته ودقة معلوماته ووثائقه

ويتناول الجزء الجديد الذي أصدره هنري روبير عدة فصول أولها فصل خصص لحوادث السموم والنسوة المسممات في القرن السابع عشر ، وهي حوادث تناولها من قبل المؤرخ البارع فونك برنتانو في كتاب قوي ساحر ؛ وفصل خصص لفضيحة بناما الشهيرة التي انتهت بافلاس الألوف وضياع مئات الملايين ، ومحاكمة نفر من كبار المولين والساسة يومئذ والحكم على بعضهم بالسجن ؛ ثم فصل خصص لحياة كاترين دي مديتشي ملكة فرنسا ووالدة هنري الثالث وفرانسوا الثاني وشارل العاشر ملوك فرنسا ، وهي امرأة رائعة وافرة الدهاء والخبث ؛ ولكن الأستاذ هنري روبير يحاول أن يخفف عنها حكم التاريخ القاسي ، ويتلمس لها أعذار السياسة والملك

والأستاذ هنري روبير يخرج فصوله الساحرة دون نظام معين ، ففي كل جزء من كتابه أربعة فصول أو خمسة لا تجمعها رابطة العصر أو النوع ؛ ولهذا لا يعتبر الجزء الجديد خاتمة الكتاب ، وليس يعرف من جهة أخرى أنى يقف الكتاب وأيان ينتهي

شكسبير والسينما

سنرى قريباً أول رواية لشكسبير على ستار السينما ؛ وهي فكرة جريئة للفنان المشهور مكس رينهارت ، فهو يعمل الآن لاخراج شريط مصور من رواية شكسبير المسماة : « حلم ليلة صيف » ؛ وقد سبق أن عمل رينهارت لاخراج روايات شكسبير الكبرى على المسرح ، ونجح في ذلك نجاحاً عظيما ؛ فهو الآن يعالج إخراجها على ستار السينما ؛ وكذلك عمل رينهارت لاخراج روايات أعظم كتاب المسرح مثل موليير ، وابسن ، وبرناردشو ، وشترندبرج وغيرهم ؛ وكان مكس رينهارت أول فنان وأول مخرج مسرحي في ألمانيا حتى جاء الهتلريون في الحكم فلم يشفقوا على علم ولا فن ، وأطلقوا العنان لتعصبهم الجنسي الشنيع ، وشردوا أقطاب الفن لأنهم يهود ؛ وكان رينهارت في مقدمة أولئك الذين رفضوا البقاء في ظل هذا النظام البربري ؛ وهو يتجول الآن في مواصم القارة فيلاقي فيها أعظم حفاوة وتقدير

ومكس رينهارت نمسوي الأصل ؛ وقد ولد في سالزبورج سنة ١٨٧٣ ، فهو الآن في نحو الثانية والستين من عمره ؛ وقد شاءت بلدية مدينة سالزبورج أخيراً أن تكرمه وأن تخلد ذكراه فأطلقت اسمه على شارع من أهم شوارعها ، وسالزبورج هي مدينة الفن والموسيقى

النقد

رد على نقد

٤ - كتاب تاريخ الاسلام السياسى

للدكتور حسن ابراهيم حسن

تتمة

ومن الغرابة أيضاً أن نجد الناقد يأخذ علينا أننا كثيراً ما نستمد ونقتبس من كتاب «تاريخ العرب» لسديو، و «موجز تاريخ العرب» للسيد أمير على، و «الحضارة العربية» لجوستاف لى بون، و «أتباع محمد» لواشنجتن أيرفنج، لأنها فى نظره أصبحت قديمة قاصرة من حيث المستوى العلمى فى الوقت الذى نراه فيه يشيد بمدح المستشرق مرجليوث، ويستدل به فى نفى الكتاب عن ابن قتيبة. وقد يدعوه الاعجاب بمرجليوث فيدافع عنه ضمناً بأننا لم نحسن الرد عليه حين قال: «فى صدد الرجلين اللذين أرسلهما عامل كسرى على اليمن ليأتياه بالرسول، فلما قدم الرجلان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخبرهما بأن كسرى قتل وأن ابنه هو الذى قتله»، أن الرسول كان له من يأتيه بالأخبار!! أما والله لولا أن الناقد مسلم كما نعتقد!! لظننا أنه يردد صدى هذا المستشرق الذى ينكر كل معجزة للرسول ويذهب فى التأويل بعيداً بحجة المعقول وغير المعقول، ولو كان حصوله أوضح من الشمس فى وضح النهار

انظر الى هذا الناقد يجعل من عيوب كتابنا أننا لم نبطل هذه الرواية الدالة على المعجزة أو نتأولها على الرغم من تعرض كتب السنة الصحيحة لها وإثباتها، وعلى الرغم من أنه يعلم كيف يتغلب التعصب الدينى أحياناً على روح العلم والبحث عند بعض المستشرقين، فينظرون إلى ما ورد عن الرسول من خلال مذاهبهم الدينية لا أبحاثهم التاريخية، ولسنا فى حاجة لايراد الأمثلة والشواهد على ذلك، فهى فى متناول كثير من الناس

ولشد ما أعجب من حضرة الناقد حين يأبى أن يكيل لنا المدح جزافاً، ولكنه لا يأبى أن يكيل الذم كذلك ويخطئنا تخطئة لا حق له فيها، من ذلك أننا لما روينا قول بعض المؤرخين إن بعض الخوارج كانت تصدر منهم أمور متناقضة تدل على أنهم يخبطون خبط عشواء، كلومهم آكل الرطبة بدون دفع ثمنها، واسترضائهم ذمياً بدفع ثمن خنزير له قتلوه، وقتلهم عبد الله ابن خباب وزوجه وبعض النساء — علقنا على ذلك فقلنا إن هذا ليس من التناقض فى شىء، وإنما هو أقرب إلى أن يكون غلواً فى تطبيق مذهبهم، وحجتنا فى هذا أن الخوارج يرون وجوب قتل المسلم الذى لا يدين برأيهم لأنهم يعتبرونه مرتداً؛ وحروبهم المتعددة مع على بن أبى طالب ومع الأمويين، بل وأشعارهم وأراجيزهم تنطق بذلك. أما الذمى فلا سلطان لمذهبهم عليه، كما أنهم كانوا لا يستحلون أكل المغصوب أياً كان صاحبه، ولو أنهم يستحلون قتل النفس التى حرم الله قتلها. فمن أين يأتى التناقض يا ترى؟ حبذا لو أرشدنا الناقد إلى وجه آخر فى هذه المسألة خلاف ما ذهبنا إليه! فليس إلقاء الكلام على عواهنه مما نخدم به «المادة الناشئة فى معاهدنا العلمية أو يحفظ لمصر سمعتها فى الأقطار الشرقية!»

لا يقل خطأ الناقد فى هذا عن خطئه فى دعواه، بأننا مع استشهادنا ومباهاتنا بتلمذتنا لبعض المستشرقين ننسى ما ننقله عنهم أحياناً وننسبه لنفسنا، وأننا جرينا على ذلك فى الفصل الذى عقدناه لمكتبة الاسكندرية، ويكفى فى الرد على هذه الدعوى الجريئة أن يرجع القارىء إلى كتابنا عمرو بن العاص فيجد أننا ذكرنا هناك رأى «بطلر» مفصلاً فى إحراق هذه

المكتبة ، وعلقنا عليه بما يستحق من تقدير . فاذا أحلنا القارىء إلى كتابنا المذكور ، فذلك لأنه يعتبر خاصاً بهذه المواضيع مدوناً فيه آراء بعض العلماء منسوبة اليهم عن هذه الحادثة العظيمة الشأن

ولقد كنا نربأ ببعض الأقلام أن تنزلق عن منهج النقد الخالص إلى إلقاء التهم والظنون بين الناس وغرس ما لا يستحسن غرسه بين التلميذ وأستاذه أو بين المؤرخ والمؤرخ . وحاشا لله أن ندعى ما ليس لنا أو أن نجهل فضل من جلسنا أمامه مجالس التلميذ ، فاذا رغبت بعض الأقلام فى أن تتهمنا بالتدليس مع بعض الأساتذة المستشرقين ، أو بالعقوق مع أستاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك الذى نقدره ونجله ، فانما تحاول عبثاً هذه الأقلام وتمكن من نفسها وتدل على مصرعها . إن المتصلين بنا يعرفون أن ليس من خلقنا إنكار الجميل . ونحمد الله أنه فى الوقت الذى كان الناقد يفكر فى هذه الوقيعة بيننا وبين استاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك كان أحد أفراد أسرته يتكرم بزيارتنا ويعرض علينا أن نشرف على نشر ما خلفه المرحوم من الكتب التى لم تنشر فى حياته . ويا للعجب إذا كانت الجرأة والضمير يطوحان ببعض الناس إلى إثارة الضغينة بين الحى والميت ، فكم تبلغ عفتها فى أن توقع بين الحى والحى ! ! ألا فليرح الناقد باله من هذه الناحية فلن يجد غرسه أرضاً خصبة ولا يشفى به غيظاً

***

كيف يمكن أن يوفق القارىء بين قول الناقد إن هذا الكتاب عرض لنواح شتى من الحياة الاسلامية القديمة : عرض لنواحي الدين ، والسياسة ، والاجتماع ، والعقل ، والأدب ، وبين قوله — عفا الله عنه — « إن المؤلف غير موفور الثقافة الاسلامية وقد أداه تفريطه فى جانب الثقافة الاسلامية إلى الافراط فى الأخذ عن المصادر الأجنبية » ، ومن يدرى ؟ فلعل هذا تفريط قامت عيناه فأبصر

جرت العادة أن يسمى الكتاب بأبرز نواحى موضوعاته ، واللبيب يدرك بداهة أن فتح عمرو بن العاص مصر مما ينطبق عليه انطباقاً كلياً لفظ السياسة ومعنى السياسة ، ويدرك كذلك أنه كان لعقائد الفرق الاسلامية ومذاهبها المكان الأول فى إحلال دول مكان دول ، وتقويض عروش وتدعيم عروش . فهذه الدولة العباسية استطالت أعاليها بسبب انتشار العقائد الشيعية وتغلبها ؛ وتلك دولة الفاطميين خلقتها المذاهب الدينية أيضاً . ودع عنك القرامطة ، والباطنية ، والخوارج وغيرهم ؛ فتلك أمور يطول شرحها . فأنت ترى مبلغ تأثير تلك العقائد فى الاتجاهات السياسية ركوداً وهبوباً ، وماذا تكون السياسة إذا لم تكن هى خلق منشآت جديدة ، وتنظيم أمور الناس وفق مشارب ملوكها وأمرائها ، وطبع المجتمع على غرار ما يراه الحاكمون سواء بسواء ؟ لكن ناقدنا يأتى مع هذا معنفاً بأن عنوان الكتاب قاصر لا يجمع مثل هذه البحوث ، فما كانت تصح نسبتها اليه ولا وضعها فيه ، ويتعطف فيرشدنا إلى أنه ينبغى — إذا لم تكن مندوحة عن ذكر هذه الأبحاث — أن نصوغ عنوان كتابنا بما يدل على الشمول ، ويزداد تعطفاً فيذكرنا بكتاب « موجز تاريخ العرب » للسيد أمير على الهندى الذى نعرفه حق المعرفة ! ولقد كان بودنا أن نتبع نصحه — ولو مرة واحدة — تشجيعاً للنقد ، وثقة بنية صاحبه ، لولا أنه سها عن أننا بسبيل وضع جملة أجزاء لكل جزء عصر خاص به . فاذا اقتدينا بمن ذكره حق علينا قوله ليس لدينا غرض واحد محدود نرمى اليه ونسير على هديه ، ولعله تذكر أخيراً أن هناك خمسة أجزاء باقية ستصدر بعد هذا الجزء — إن شاء الله — فلم يشأ إلا أن يزودنا — كعادته — بنصحه ، وبأن نكون فى وضعها أشد تحفظاً وأكثر تثبتاً

على أننا نضحك أشد الضحك حيث يرشدنا الناقد إلى الاقتداء بوضع السيد أمير على لاسم كتابه « موجز تاريخ العرب » ذلك الكتاب الذى وصف مؤلفه بأنه « متوسط المكانة التاريخية » كما وصف أيضاً المؤرخ المشهور السير وليام ميور الذى خلف لنا كتابه فى سيرة النبي وكتابه الآخر فى الخلافة بأنهما قديمان . ونحب — قبل أن نترك هذه النقطة — أن نهمس فى أذن الناقد بأن المؤلف الأول السيد أمير على ، الذى لم يرق فى نظره أن أخذنا عنه بعض ما أخذنا ، يقول عنه الأستاذ ادوارد براون فى كتابه تاريخ الفرس الأدبي (E. G. Browne, Literary History of Persia, 4 vols. I. P. 188) فى سياق كلامه على مبدأ ظهور الاسلام ما نصه :

« هذه المسائل قد ناقشها فى مؤلفاتهم بكفاءة ولباقة كل من سيل ، وسبرنجر ، وميور ، وكرهل ، ونلدكه ، وبوزول سميث ، والسيد أمير على

والسيد أمير على هو ذلك المسلم المصرى الواسع الفكر والاطلاع ، جمع بين الثقافتين الشرقيـة والغربية ، وهو حقيق بأن يطلع على كتابه كل من يرغب فى تفهم ذلك النفوذ القوى الذى لا يزال يتمتع به الاسلام ونبيـه ، حتى فى نفوس هؤلاء الذين أشربوا روح الثقافة الأوربية »

ونعود إلى بعض ما أورده حضرة الناقد — أستغفر الله ! بل إلى الارشاد إلى ما نقده — ليعدل فى المستقبل عن تكلف ما لا يحسن — على رأيه فينا — وليستوعب ما يقرأ ويصرف نشاطه فى مدارستها ، فما يكون الانسان كاتباً إلا بعد أن يكون قارئاً ، وإنها لكبيرة أن يعمد واحد إلى كيل التهم والتشكيك غير مراع للتاريخ حرمته ، ولا للقارئ عقليته ، ولا للحق كلمته يقول : « إن تشريع القبلة وحكمته يظفران فى كتابنا بثلاث صفحات ، فى حين أن غزوة بدر التى تعتبر بحق أهم وقائع الاسلام ، ومن وقائع التاريخ الفاصلة لا تكاد تظفر بصفحة واحدة ؛ وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك تخص بصفحتين ، فى حين أن الأحداث الجسام التى وقعت زمن الخليفة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك تركز وتضغط فى أسطر قلائل »

وبحسبنا أن يرجع القارئ إلى كتابنا ليرى كيف تفتل بعض الأقلام من الهواء حبالاً ، وتخلق من الواقع محالاً . إن غزوة بدر ومقدماتها ظفرا وحدهما من صفحات الكتاب بنحو الثلاث عشرة صفحة (صفحة ١٣٦ — ١٤٨) ، وإلا فهل كان الناقد يظن الكلام فى الجهاد وأسبابه ، والغنائم وشرعيتها ، وهل الدعاية إلى الدين كانت من طريق السلام أو الحسام — كل هذا يظنه بمنأى عن غزوة بدر ولا يتعلق بها ، وأننا لم نفصل الكلام على هذه المواضيع بمناسبة تخالف تلك الغزوة الخالدة ؟ وهل كان يريد أن نستبدل هـذه الأحداث الهامة بذكر ما قيل فى رثاء قتلى المشركين ، وما تقدمت به قتيلة تعاتب الرسول لقتل أخيها النضر ، وما وقع فى قتل أبى جهل مما تختص به كتب السير ؟ أما إن الاحداث الجسام التى وقعت زمن يزيد ابن الوليد ركزت وضغطت فى أسطر قلائل فدعوى غريبة ، يكفى لوأدها صفحات الكتاب من ٥٢٣ إلى ٥٥٠ ، وفيها أسباب سقوط الدولة الأموية ، والتعرض بالتفصيل لهذه الأحداث الجسام التى وقعت أيام يزيد وغيره

إنما اللوم على من يحسبها ظلمة من بعد ما يبصرها

***

فى الأمثال « لا يشكر الله من لا يشكر المحسن من الناس » وإذا كنا فى كلمتنا السابقة أخذنا على بعض المستشرقين أنهم أحياناً ينظرون إلى تاريخ الاسلام من خلال مذاهبهم الدينية ، لا أبحاثهم التاريخيـة ، فاننا لا نكتمهم حق الشكر على أنهم عاونوا فى رفع الحجب التى أسدلتها العصور المظلمة على تاريخنا ، وسلكوه فى سلسلة تصل أوله بآخره ، وتمد القابض عليها السائر حذاءها بما يمكنه من إدراك ما فيه من قوة وضعف واعتلاء وابتلاء . هذا ما كتبه فون كريمر ، وبروان ، وكرهل ، والسير توماس أرنولد ، وأميل درمنجم وغيرهم ، يدل على توفيق كبير فى استخراج الوقائع والعبر التاريخية واضحة جلية بعد أن اختلطت أحداثها وتعددت نظمها وآراؤها ، وبعد أن كان التاريخ سيرا يتفكه بها الخالون ويحتقرها المالون ، صار بفضل تلك الأبحاث العلمية الحديثة فناً كريماً تقرن فيه الموقعة بالموعظة ، وتلحق فيه البينات والشواهد آثار رجالاته وبيئاته ، حتى غدت منابعه عذبة للواردين وطرقه معبدة للمدلجين . فليس من الانصاف ما ذهب اليه الناقد من أن التاريخ الاسلامى لم ينهض بعد فى الشرق نهضته المستقلة المنشودة ، وأنه لا يزال قصصاً يقص وسيراً ساذجة تتلى . أجل ! كان من حسن الحظ — أو من سوئه — أن الناقد بعد أن نعى علينا ما نعى ، وبعد أن ملأ مقالاته الأربع بما يسترهب بعض الألباب حتى ظنته إمام هذه الصناعة ، ذهب بعيدا جدا فى الاعتداد والارشاد ، وعمم بعد تخصيص ، وألقاها كلمة داوية بأن التاريخ الاسلامى فى الشرق لم ينهض نهضته ولما يجد من يقيل عثرته ، وأن روح الجماعات وأثر البيئة والتقاليد وعمل المبادئ والعقائد ، والقوى الاجتماعية والاقتصادية لا تزال فى العربية أسرارا لم ترفع عنها الحجب . فهذا الكاتب يرى أن كل ما ألف أو درس فى التاريخ الاسلامى من

أصول وفروع وبينات وتقاليد لغو وباطل ، سواء أكان الدارسون شرقيين أو مستشرقين

كان الظن بمن ينقد شيئاً أن يرينا مثلا أعلى لما ينبغي أن يكون عليه طريق البحث ويدلنا عما صنع هو للاحتذاء والأسوة ، فالنفس دائماً مولعة بأن تتبع ذا الفعال ، وقلما تفيدها الأقوال « ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتعظيم من معلم الناس ومؤدبهم » . ويظهر أن الناقد استشعر هذا الاشكال الجديد ، فهو يحاول النجاة بأن الذي يحول دون نمو الروح التاريخي الصحيح في الشرق هو ما يعترض الباحث من وعورة المسلك وبعد الشقة وصعوبة المنال . مرحى مرحى ! ! كأنه يعتذر عن عدم إخراجه ولو مؤلفا واحدا عما ذكر ، ويتهم كل المؤرخين بأن التاريخ في كتبهم لا يزال قصصاً يقص وسيراً ساذجة تتلى ، ويكتب أربع مقالات ينقدنا فيها نقداً لاذعاً ، ويدعونا إلى الأخذ من هذا وترك الأخذ من ذاك . وما عهدنا واعظا حكيما يهدي إلى طرق لم يسلكها ، ويكلف الناس بواجبات لم يتذوقها ، أو يثقل عاتق الناس بما عجز عن حمله ، أو يسهو عن أن الحكم عن الشيء فرع عن تصوره . عفا الله عن ابن المقفع ، فقد ذكر في ترجمة « كليلة ودمنة » أمثالا صالحة لمن يغشى حلبة السباق وهو مقعد ، أو يتولى سدة الوعظ وهو محتاج إلى الرشد

وبعد فما كان أغنى قراء « الرسالة » عن هذا كله ، وما كان أحق النقاد ألا يشرعوا قلمهم إلا لله والمصلحة العامة ، لا تنزو بهم نازية من خوف أو طمع . ولكن هكذا قدر (ولو شاء ربك ما فعلوه)

ولقد رأى حضرات القراء أن هذه الزوبعة التي هول في أمرها وأطال في ذكرها لم تكن بذات خطر تمدله في تجريحه مداً . ولله الحمد قد آن لنا بعد أن حصحص الحق أن نمسك القلم شاكرين « للرسالة » والقراء ، معتذرين — بدورنا — عما عسى أن يكون بدر به القلم — فالبادئ أظلم . ومن لا يغار على الحق وكرامته يتهم في رجولته . (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض)

انتهى

حسن ابراهيم حسن

الكتب

مفتاح كنوز السنة

من عمل الأستاذ ا . ى . فنسنك

ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

بقلم الأستاذ محمد حامد الفقى

مطبعة مصر : ثمنه ستون قرشاً مصرياً

كان الباحث الذى تتوجه نفسه إلى معرفة علم الحديث والإشتغال به يجد نفسه أمام كنوز ملأى بالجواهر النفيسة ، فاذا ما حاول فتح مغلقها أخذه من العناء والمشقة الشيء الكثير المضني ، لأنها جمعت على طرق من التأليف كانت آخر ما وصل اليه تفكير المتقدمين حين لم تكن مطابع ، ولم تخرج العقول هذه الفنون المدهشة من الفهارس ، والمفاتيح التى وصل اليها عقل العلماء اليوم بكثرة المران

كان يجد أمامه هذه الصعاب ، فيضرع إلى الله تعالى أن ييسر بفهرس يكون مفتاحا لهذه الكنوز ، يهون عليه الوصول إلى بغيته ؛ ولقد طال أمد هذه الضراعة حتى خرج علينا الأخ الفاضل محمد فؤاد عبد الباقى بهذا المفتاح المبارك الذى ما ترك كنزا مغلقاً إلا فتحه على مصراعيه ، ونثر دره بين يدى الطالب يأخذ منها حاجته التى يبتغيها

فالكاتب ، والخطيب ، والمدرس ، والفقيه ، والمحدث ، وكل من تعوزه صنعته ، أو تقواه وعبادته ، إلى شيء من هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يفزع إلى هذا المفتاح فيضع فى يده بسخاء كل ما يبتغى ويريد . وقد قدم له الامام الكبير محدث عصره السيد رشيد رحمه الله ، والمحدث الفاضل الشيخ أحمد شاكر بمقدمتين ، نقتطف منهما جملاً تنبئ القارئ الكريم عن عظيم الحاجة إلى هذا المفتاح إذ قال السيد رشيد رحمة الله عليه ورضوانه :

« ولو وجد بين يدى مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث لوفر على أكثر من نصف عمرى الذى أنفقته فى المراجعة . ولكنه لم يكن ليغنينى عن هذا الكتاب (مفتاح كنوز السنة) فان ذاك إنما يهديك إلى مواضع الأحاديث القولية التى تعرف أوائلها ، وهذا يهديك إلى جميع السنن القولية والعملية ، وما فى معناها ، كالشمائل والتقريرات والمناقب والمغازى وغيرها ، فلو كان بيدى هو أو مثله من أول عهدى بالاشتغال بكتب السنة لوفر على ثلاثة أرباع عمرى الذى صرفته فيها »

وقال الأستاذ الشيخ احمد شاكر « وقد عني الصديق فؤاد افندى بالدقة فى الترجمة أتم عناية ، فانه لم يترجم معنى من المعانى حتى رجع إلى الأحاديث فى مصادرها التى أشار إليها المؤلف وعبر عنها بالعبارة الصحيحة التى تدل عليها الأحاديث . ولذلك مكث فى ترجمته أربع سنين ثم لم يضن على طبعه بالمال ، فاختار أرق المطابع فى القاهرة وانتقى له أجود أنواع الورق ، فأبرز الكتاب كاملا ... »

« هذا الكتاب جمله مؤلفه فهرسا لثلاثة عشر كتابا من أمهات كتب الحديث . وهى : مسند الامام احمد بن حنبل . صحيح البخارى . صحيح مسلم . سنن الدارمى . سنن أبى داود سنن الترمذى . سنن النسائى . سنن ابن ماجه . وهذه الثمانية هى أصول السنة ومصادرها الصحيحة الموثوق بها . ويندر أن يكون حديث صحيح خارجا عنها . ثم موطأ الامام مالك . ومسند أبى داود الطيالسى ... ثم سيرة ابن هشام . ثم كتاب المغازى للامام محمد بن عمر الواقدى ... ثم أعظم كتاب جمع سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وتراجم الصحابة والتابعين فمن بعدهم وهو كتاب الطبقات الكبير لابن سعد . والكتاب الرابع عشر المسند المنسوب إلى زيد بن على بن الحسين ... وقد رتب الأستاذ فنسنك كتابه على المعانى والمسائل العلمية ، والأعلام التاريخية ،

وقسم كل معنى أو ترجمة إلى الموضوعات التفصيلية المتعلقة بذلك ، ثم رتب عناوين الكتاب على حروف المعجم ، واجتهد فى جمع ما يتعلق بكل مسألة من الأحاديث والآثار الواردة فى هذه الكتب ..... ولعل نشر هذا الكتاب بلغتنا العربية الشريفة يكون سبباً فى اقبال المتعلمين من جميع الطبقات على الاشتغال بالسنة النبوية ، وعلى الاستفادة من كتب الحديث التى هى كنوز العلم والحكمة التى أعرض عنها أكثر الناس ، إما جهلا بفائدتها ، أو عجزاً عن المراجعة فيها عند الحاجة »

وقد وضع الأستاذ فؤاد عبد الباقى لهذا المفتاح فهارس أخرى تيسيراً للمنفعة به وبالمعجم المفهرس لألفاظ الأحاديث النبوى ، صدر منها فهرس البخارى ومسلم والترمذى . ولعلنا نتكلم عنها وعن المعجم المفهرس فى فرصة أخرى

محمد حامد الفقى

القصص المدرسية [1]

يصدرها الأساتذة

سعيد العريان — أمين دويدار — محمود زهران
المدرسون بالمدارس الأميرية

ماذا يقرأ الطفل فى وقت فراغه ؟

بل ماذا يقرأ الطفل فى مدرسته ؟

ولماذا ينقطع أكثر شبابنا الذين أتموا دراستهم ، عن المطالعة والدرس فلا يتذوقون لذة القراءة ، ولا يلتمسون متاع الروح ورياضة العقل بالاطلاع والنظر فى الكتب ؟

هذه أسئلة تعرض لكل ذى رأى فى هذا البلد ، فيذهب يلتمس الجواب ، ويعرض الرأى ، ويناقش الفكرة ، فلا يهتدى إلا إلى رأى واحد : هو أن الطفل العربىّ لا يجد ما يقرأه فيلذه ويفيده فى وقت معاً ؛ فما بين يديه من الكتب واحدٌ من ثلاثة : كتاب مدرسىّ يراه همَّ النهار والليل ، وَكتاب فى مكتبة أبيه بعيداً من دونه فكره ويقصر ادراكه ، وصحيفةٌ بين هذين أو فى مذهب ثالث ، ليس من الحكمة أن تصل اليها يده . والطفل بين ذلك كله لا يجد ما يجذبه إلى القراءة أو يحببه الى الاطلاع فينشأ نشأته كما نرى أكثر شباب هذا الجيل

ومن هنا بدأ تفكير بعض أدباء العربية فى تلافى هذا النقص فاتجهوا بعنايتهم إلى محاولة إيجاد « أدب الطفل » ، ويعنون بأدب الطفل ، ذلك الأدب السهل الذى يلذّ الطفل ويشوقه ، ويحمله - بالرغبة والميل الطبيعى - على المطالعة وحب الكتب ، منبثاً فى ثناياه ما يُراد أن يزوّد به الطفل من علم وفن ومعرفة وبيان ، فيتناوله مقبلا عليه بقلبه وعقله وطبيعته ؛ وكانت محاولات مجدية ، أضافت الى العربية فناً جديداً ، وأوجدت بينها وبين نفس المتعلم سبباً وثيقاً

على أن هذه « القصص المدرسية » التى نتكلم عنها اليوم - اتجاه جديد فى هذا الباب من الأدب ؛ فلم يقتصر مؤلفوها على الترجمة من أدب الغرب ، أو النقل من كتب الأدب القديم ، كما فعل من سبقهم إلى هذا الباب ؛ بل تراهم يحاولون أن ينشئوا « أدب الطفل » أصيلاً فى العربية ، مصوراً من هذا الجوّ الذى يعيش فيه طفل اليوم ؛ وبذلك أوجدوا الصلة بين الطفل ولغته ، وبينه وبين أهله ، وبينه وبين الجو الذى يعيش فيه ، فلا يُعييه بعدئذ أن يتابع القصة بخياله ، كأنهُ بطل فيها ، مؤثر فى حوادثها ؛ وهذا - لعمرى - نهج سديد ، خليق بأن ينشىء من أطفالنا جيلاً جديداً ، له مُثله العليا على مقداره ، وله رأيه فيما يحيط به

وقد استقبلنا هذه القصص لأول ظهورها منذ عام ، فرحين آملين ، مشفقين على مثل هذا المشروع أن يقف فى طريقه بعض ما يقف فى سبيل أكثر الجهود النافعة فى بلدنا فيحول دونها أن تبلغ التمام . ولكنا اليوم إذ نطالعنا القصة الخامسة من هذه القصص الدورية — نستبشر ويزايلنا الاشفاق على مصير هذا العمل النافع . على أن جهداً كهذا الجهد الذى يبذله مؤلفو القصص المدرسية صامتين — جدير بأن يلقى ما يستحق من عناية الآباء والمعلمين ليدلوا تلاميذهم عليه ، ويرشدوهم إلى سبيل الانتفاع به . لينجح المشروع ويؤتى ثمرته فى أولادهم وتلاميذهم

وما نحاول أن نصف هذه القصص بأكثر مما وصفها الأستاذ الرافعى فى رسالة كتبها إلى المؤلفين بخطه يقول فيها : « إنها رحولة عالية تساق إلى التلميذ فى أسلوب التلميذ ! » (م)

(١) صدر منها « مدرس اكسورد » ، « الصياد التائه » ، « عروس البيداء » ، « النهر الذهبى » ، « الزعيم الصغير »

4me Année, No. 135.

Lundi 3-2-1936

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٣٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ — ٣ فبراير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

« محمـــــد »

لتوفيــق الحكيم

وهـذا كتاب آخر، قد نسّقه فن آخر، ليُعين رواجح الأحلام على اجتلاء شخصية سمت ببطولتها عن البيان، واكتناه سيرة جلت بقداستها عن الفهم. وشخصية الرسول الكريم وسيرته أصبحتا اليوم فى الشرق والغرب موضوع الدرس المفصل، وموضع التحليل العميق. وأنى للبصر المحدود أن يدرك مالا يحد؟ وللبصيرة المتناهية أن تبلغ مالا يتناهى؟!

***

حاول هيكل تعريف هـذا الاشراق الإلهى من طريق العقل فاتخذ الدليل، وحاول طه حسين أن يصوره من طريق القلب فاصطنع الأسطورة، وحاول توفيق الحكيم أن يمثله من طريق الغريزة فاستعمل الحوار؛ والحوار ولاشك غريزة الحياة وأسلوب المجتمع، تجرى به الحوادث، وتتنقل عليه الأحاديث، وتتردد فيه المآرب، وتوشك لغة الخطاب لا تعرف من ضروب الكلام غيره. هو لسان الوجود اليومى، يترجم عن رغائب النفس فى غير كلفة، وينقل عن سوانح الذهن من غير إجالة، وينم

فهرس العـــدد

على مرامى الهوى فى نبرات الصوت ، ويكشف عن طوايا الصدر فى لحن الكلام ، ويشف عن أحاسيس الروح فى لهجات الحديث ، ثم يصطبغ بصبغة الزمان والمكان والموقف والمناسبة ؛ فاذا أنت سجلته بالحق أو مثلته بالصدق ، فقد صورت الوجود المعدوم أكمل صورة ، وجلوت الماضى المبهم أتم جلاء ؛ ولكن تسجيل الحوار على عمومه عمل من وراء الأمكان ومن فوق القدرة ، فقُصارى جهد الانسان أن يروى معناه بالسند فيكون التاريخ ، أو يموهه بالخيال فتكون القصة ، أو يزخرفه بالوهم فتكون الأسطورة . أما تمثيله على النمط الذى جرى عليه فهو الفن المبدع الذى يمده الإلهام وتهديه الطبيعة . يجرد الحادث من فضول الرواية ونافلة الحديث فيرده إلى جوهره ويحيله إلى بساطته ، ثم يبعث الأشخاص ، ويجدد الأمكنة ، ويعيد الملابسات ، ويجيء البيئة ، ويرجع بالقارىء إلى عصره ، فيحيا حياته ، ويعايش أهله ، فيرى بعينه ما يعملون ، ويسمع بأذنه ما يقولون ، ويدرك بنفسه موانع الحال ودوافع الموقف ؛ وذلك ما عمله توفيق الحكيم فى كتابه الجديد « محمد » : عمد إلى المواقف الخطيرة فى حياة الرسول ، والمواقع العظيمة فى تاريخ الرسالة ، فمثلها على الوضع الذى كانت عليه ، بالعمل الذى حدث ، وبالحوار الذى جرى ، وبالروح الذى انتشر ، ثم صور البواعث النفسية التى أغفلها المؤرخ ، وأظهر الألوان المحلية التى أحالها الزمن ، فاتصلت الأسباب ، واستبانت العلل ، وتحددت الفروق ، ووقع الأمر من حسك موقع المألوف من غير التواء ولا فلسفة . اقرأ فى كتاب توفيق الحكيم موقعة بدر أو حديث الأفك أو وفاة الرسول ، ثم اقرأها فى كتاب من كتب التاريخ تجد ما قلته لك قد صار أوضح فى المثال وأوكد بالموازنة

لم يرد توفيق الحكيم أن يجعل من سيرة الرسول رواية ؛ فإنه لو أراد ذلك لما سلم من لوم رجل الدين ، ولا برىء من نقد رجل الفن ؛ إنما هى مناظر مجلوة على أسلوب الحوار لا يجمعها قانون الوحدة ، ولا يربطها تسلسل الزمن . ولقد ظهر هذا النوع أول ما ظهر فى (الرسالة) حين اقترحتُ على الأستاذ الحكيم أن يكتب على طريقته هجرة الرسول فى أول عدد من أعدادها الممتازة ؛ فتهيَّب الأمر بادىء ذى بدء ، ثم تخوف المتزمتين أن ينكروا عليه فعله ، ثم أقدم فعالج الموضوع فى حذر وحيطة ، ثم ترقب ما يكون من رأى الناس ، فإذا هم يقرأون فى لذة ويحكمون فى نزاهة ، فمضى يعرض جوانب السيرة هذا العرض الواضح فى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة طوى عليها هذا الكتاب . والأرجح أن هذا الأسلوب سيجد مكانه فى تاريخ الأدب المعاصر ، فإن شاعراً من شعراء مصر نحا نحوه فى مقتل حمزة ، وكاتباً من كتاب الشام حذا حذوه فى موقعة بدر

* * *

هذه كلمة عجلى كتبناها عن طريقة الكتاب على قدر ما اتسع المكان والوقت ؛ وفى أكثر المناظر منه مواقف للإعجاب وفى أقلها مواقف للمؤاخذة ، وسيقف الناقد النزيه منها موقف العاذر أو العاذل على حسب رأيه فى الفن وحريته . ولست اليوم بسبيل الكشف عن سر الكتاب وفنه ؛ إنما هى تقدمة وتحية ؛ وستقرأ عنه ثم تقرأ فى باب النقد أو فى باب الكتب .

وبعد فإن للرسالة أن تغتبط بتوفيق الله فيما تجاهد له ، فلقد كان لها نصيب منتج فى توجيه الأدب العربى الحديث فى مصر وفى غير مصر إلى هذه الغاية العليا . كان أدبنا منذ قليل يتخاق بغير خُلقه ، ويتزيا بغير زيه ؛ يرد المنابع البعيدة ونهره قريب ، ويستجدى الأنامل الكزَّة وخيره عَمَم ، حتى جفَّ ما بينه وبين أصله ، وانقطعت الأسباب بينه وبين أهله ، فأصبح اليوم بفضل هذا التوجيه الحميد موصول الحبل بماضيه ، معقود الرجاء بمستقبله ، مطوى الفؤاد على قصده . وما دام على الدرب الأمين القاصد فهو لا بدَّ فى القريب أو فى البعيد واصل

احمد حسن الزيات

الاشتراك المخفض فى الرسالة

اجابة لكثيرين ممن حالت بينهم بعض الظروف وبين الاستفادة من الاشتراك المخفض فى شهر يناير ، مددنا الأجل الى اليوم العاشر من فبراير لقبول الاشتراك المخفض بالهدية ، والى آخره لقبوله من غير هدية

٧ـ كلمة وكليمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ليس فى الشرف كأداء الواجب بشرف

الوعدُ السياسىُّ جرىءٌ فى الكذب ، جرىءٌ فى الاعتذار ، حتى إنه ليَعِدُ باحضار القمر حين يستغنى عنه الليلُ فى آخر الشهر ... فاذا لم يجيئوا به قالوا : سيتركه الليل فى الشهر القادم ..

الزمن ضعيفٌ فى نُصْرة الضعيف ؛ فاذا قالت دولة أوربية لدولة شرقية : سأدَعُكِ فى سنة (كذا) ، فمعناها فى سنة (دائماً) التى لا أعرفها لا أنا ولا أنت ولا الزمن ...

كما تضربُ السياسة بقنابل حشوها البارود والرصاص ؛ تضربُ بقنابل حشوها المطامع والمناصب ....

لا يجىءُ الاتحادُ القوىُّ من وحدة الأحزاب المختلفة ، ولكن من وحدة الحالة الواحدة فى الأحزاب المختلفة

للسياسة أحياناً أسلوب كأسلوب المرأة ذات المشاق ؛ إذا وافق بعضُهم بعضاً على النكاية بها ، فرّقت بين حظوظهم منها ، فما أسرع ما يختلفون

قال ذئبٌ سياسىٌّ لخروف سياسى : أريد الاتفاق معك (حالاً) . فقال الخروف : ويلك ! إذا كنت أنت ذئباً لِلَحْمى ، فهل تكونُ (حالا) هذه إلا ذئباً آخر لعمرى ؟

لم يضيّع الشرقيين ضعفُ القوة أكثرَ مما ضيّعهم ضعفُ البصيرة

تالله ما أذلَّ الشرقَ إلا هذا التصوفُ ، وتالله ما يُعِزُّ الشرق إلا هذا التصوف بعينه ، إذا انتقل عن رجاله إلى رجال المال والحكم والسياسة

كنتُ مرة فى ضيافة رجل من أهل القرى مع أحد علماء الفقه ، وذهبنا مع القرَوىّ إلى أرضه وفيها نخلةٌ مَهانةٌ ليس أهون منها على صاحبها . فقال له الفقيه : أحب أن تهب لى هذه النخلة فى مغرِسها بحدودها الأربعة . قال قد وهبتها لك . قال الفقيه بحدودها الأربعة ؟ قال الرجل الطيب : نعم .

فقال له الفقيه : الآن وهبت لى أرضك كلها وخرجت منها شرعاً ... فهذا قضاءٌ ولا حدود للنخلة إلا آخر ما تملك منه فى الجهات الأربع . هكذا يملك دهاةُ الفقه السياسى البلاد المريضة إذا ملكوا ولو نخلة فيها ، غير أنهم يسمون حدود النخلة « تحفظات » النخلة ...

يكاد يقال اليوم إذا عُدّت العناصرُ الأرضية : إنها النارُ والماء والهواء والتراب والأسطول الانجليزى ...

كل ما استعنتَ به على الحبيب الملولِ ، أعان المالّ فى نفسه

لاتعاتب حبيبك الذى ملّ ، فاذا مرض الحب مات العتاب

أكثر صبر المشاق من قلة الحيلة ...

كذبُ الحبيب كذبٌ مرٌّ ، لأنه خرج من الفم الحلو

جمالُ التواضع فى الصديق أن يستمرَّ دائماً فى شكل تواضع ، وجمالُ الخضوع فى الحبيب ألاّ يستمرَّ دائماً فى شكل خضوع

تنظر المرأةُ بقلبها إلى أشياء لا تراها بعينها

احترس فى العداوة مما تبدأ به العداوة ؛ واحترس فى الحب مما ينتهى به الحب

لا تنسى الاساءة امرأةٌ لأنها قليلاً ما تذكر الحسنة

كيف تتحرر المرأةُ إذا كان حكم الطبيعة أن أفضل ما تحرر به نفسها أن تجد من تقيد به نفسها ؟

يا ويل المرأة من قلبها حين يكون محروما ! ياويل المرأة من قلبها حين يكون فيها كالمنفى فى غربة !

أبت الدنيا أن تفسّر كل عجيبة إلا بما هو أعجب منها . وهذه هى العجيبة

لو كانت اللذة فى اللذة نفسها لما شقى أحد، ولتيسرت لكل الناس كما تيسرت لكل البهائم؛ ولكن أكثر اللذات لا يلذ إلا فى التركيب الوهمى الذى أكثره فى الخيال وأقله فى الواقع

ما دامت أخلاق البهائم فى الناس، فصلاحُ الانسانية سيبقى دائماً فى هذه المعانى الثلاثة: الراعى، والحبل، والعصا...

من لؤم الكذب وشرِّه أنك لو صدقتَ بكلمتين وكذبت بثالثة، كنتَ كأنك صدقت باثنتين وكذبت بثلاث

كيف تصلح الدنيا وفى كل أرض يعمل على عكس قوانينها — قانونُ الجوّ وقانونُ الأرض؟

شقاءُ العبقرىّ من نفسه؛ فان ظلّ يعمل تعبتْ به، وإن ترك العمل تعب بها

أين الحقيقةُ الكاملةُ من العقل الانسانى ونحن نرى كلّ عقل لا يُعْطَى منها إلا قدرَ ما يسعُ منها؟

أُسكتْ عن السفيه فان ذلك إلاّ يجعله كريماً مثلك لا يجعلك لئيما مثلَه

قيل لمغرور متكبِّر يُخَنْخِنُ فى خَيَاشيمه (١) إذا تكلم: لماذا تتكلم من أنفك؟ قال. لأنى لا أجد فى العالم من أكلمه بملء فمى......

لو رد العالم على هذا المغرور لقال له: كلُّ الحمير تنهق بملء أفواهها إلا أنت.....

إذا صغرت النفس من لؤم صاحبها، كبرت بلسان صاحبها

الصورة الثانيةُ للرجل المضحك جداً، هى أن يظهر نفسَه عظيماً جداً

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(١) يخرج الكلام من أنفه أخن فلا يبين فيه

إلى الآنسة ا. م كيف أصرح «بما هو غامض» وأين تكتمين «ما هو غامض؟».... إن كنت قرأت (المشكاة) سبع مرات كما قلت، فدعينا نخرج من مشكلتك أنت ما يقرأ أكثر من سبع مرات الرافعى

السياحة فى مصر

ومتى تغدو موردا قوميا؟

بقلم سائح

مصر بلد الآثار الباقيـة والذكريات الخالدة؛ آثارها وذكرياتها ترجع إلى أقدم عصور الخليقة، وتراثها الأثرى والفنى منوع فى عظمته، ممتد على كر العصور والدنيات؛ فمنذ عصر الفراعنة، حيث يغيض التاريخ فى ظلمات المجهول، ومنذ الحضارة المصرية اليونانية، والحضارة المصرية الرومانية، إلى الحضارة المصرية الاسلامية، تتكدس الآثار والذكريات الخالدة فى أرض مصر صنوفاً متعاقبة، حتى غدا تراث مصر الأثرى والفني فى روعته وفى عراقتـه وتباين أعصره وصنوفه، أغنى وأثمن ما عرف من بقايا الحضارات الذاهبة القديمة والوسطى

وقد كان حرياً ببلد كمصر يتمتع بمثل هذا التراث الأثرى الباهر إلى جانب ما يتمتع به أثناء الشتاء من طبيعة ساحرة وشمس وضاءة ودفء لذيذ، أن يغدو كعبة حقيقية للسياحة والسياح من سائر أنحاء الأرض، وأن يجعل من السياحة مورداً قومياً لا بأس به، وأن يستغل هذا المورد بوسائل وأساليب جذابة مجدية، وأن يسيطر على مرافقه ونواحيه بطرق عملية شاملة، وألا يدخر وسعاً فى الحرص عليه كمورد قومى ثابت، أو فى السعى إلى تنميته بجميع الوسائل والنظم

ولقد غدت السياحة فى كثير من البلاد مورداً قومياً للكسب، وأضحت وسائل استغلاله وتنميته فى بلاد كثيرة لا تتمتع بمثل تراثنا الأثرى، ولا مثل جونا الساحر، صناعة حقيقية؛ ولكن مصر ما زالت فى المؤخرة من حيث دراسة هذه الصناعة الحديثة وفهمها والانتفاع بوسائلها. نعم إن فى مصر موسماً للسياحة، وما زالت مقصد ألوف من السياح من مختلف البلاد فى كل شتاء، ولكن هذا الموسم لا يقوم على أسس ثابتة، بل يترك أمره للظروف والمصادفات الخارجية، وتكاد مصر تقف منـه موقفاً سلبياً محضاً؛ فاذا كان الموسم حسناً

مزدهراً ، فان ذلك يرجع عادة إلى ظروف خارجية لا دخل لمصر فيها ، وإذا كان الموسم سيئاً مجدباً ، كما هو الشأن منذ أعوام ، فان مصر لا تبذل من جانبها أية جهود عملية مجدية لاجتذاب السياح ، والعمل على مقاومة العوامل والأسباب التي يمكن أن يرجع اليها مثل هذا الكساد

على أن موسم السياحة المصرى ليس فى الواقع مصرياً إلا بالاسم ، ومن الظلم أن يحسب على مصر بصورته الحالية ، فليست مصر أو الهيئات المصرية هى التى تجنى ثماره ، وتستغل موارده بقدر ما يجنيها ويستثمرها الأجانب والهيئات الأجنبية ؛ ذلك أن كل ما تجنيه مصر من هذا الموسم يكاد ينحصر فى أجور السكك الحديدية ورسوم المتاحف والآثار وأجور التراجمة وأثمان بعض السلع والمنتوجات القليلة التى تعرض للبيع أثناء الموسم ، وهذا كله قليل بالنسبة إلى ما تجنيه الوكالات والفنادق والمتاجر الأجنبية من الأرباح الطائلة ؛ وهكذا يستغل موسم السياحة المصرى باسم مصر ، ومصر تقنع منه بالفتات الضئيل

وهذه حقيقة مؤلمة ؛ بيد أن أشد ما يؤلم فيها هو أن هذا الغبن الفادح الذى يلحق مصر فى مورد من مواردها المشروعة ترجع التبعة فيه إلى مصر ذاتها ، وإلى ما تبديه هيئاتنا الرسمية وغير الرسمية من قصور وتقصير فى تنظيم الدعاية لمصر فى الخارج ، وفى تنظيم شؤون السياحة الداخلية بوسائل مجدية وطرق جذابة ، وفى توفير أسباب اليسر والراحة للسائحين ؛ ومن الحقائق المعروفة فى أوساط السياحة الخارجية أن نفقات السياحة فى مصر تصل إلى حدود مرهقة ، ولا يكاد يتحملها سوى كبار الأغنياء والموسرين ، وأن السائح المتوسط الحال يقاسون فيها من فداحة الأجور وعدم توفر أسباب الراحة ؛ وهذه الحقيقة وحدها تبعد عن مصر عشرات الألوف من السياح الذين تسرهم زيارتها لو توفرت فيها أسباب الاقامة المعتدلة ، كما هو الشأن فى معظم مراكز السياحة فى أنحاء العالم

ولنبدأ بمسألة الدعاية ، فنقول إن مصر ما زالت متأخرة فى هذا الميدان بصورة يرثى لها ؛ وما تنفقه مصر فى هذا السبيل من الألوف المعدودة يذهب هباء ؛ إذ يغدق معظمه على بعض الصحف الأجنبية التى لا تفيد فى الدعاية الحقيقية ؛ والدعوة المنظمة هى روح السياحة الحديثة ، ومصر مشهورة فى الخارج بتراثها الفنى ومزاياها الاقليمية ، وميدان الدعوة إلى زيارتها خصب ممهد ؛ على أن مما يؤسف له أن مصر لم تقم حتى اليوم بتنظيم هذه الدعاية بطرق عملية ناجعة ، فليس لنا فى الخارج مكاتب ولا وكالات مصرية للسياحة ، وقنصلياتنا لا تبذل أى جهد فى هذا السبيل ؛ على حين أن جميع الأمم التى بها مراكز للسياحة تنظم دعايتها فى جميع أنحاء العالم تنظيما عملياً واسع النطاق ، فتنشئ لها مكاتب للسياحة فى الداخل والخارج ، وتذيع عن آثارها ومزايا السياحة فيها كتباً ونشرات بديعة جذابة توزعها بالألوف من مكاتبها وقنصلياتها ، ولا تدخر فى ذلك مالا ولا جهدا

ولكن مصر تقنع فى هذا الميدان بنشرات قليلة تذيعها فى بعض الصحف الأجنبية ، وبعض لوحات تعلقها فى عربات السكك الحديدية ؛ هذا إلى أن هناك دعايات مغرضة تنظم ضد مصر من منافسيها فى ميدان السياحة ، ومصر لا تبذل أى جهد لدحض هذه الدعاية السيئة

ولقد انشىء بمصر أخيراً مكتب رسمى للسياحة ، وبدأ أعماله فى ظروف سيئة عاقته عن القيام بالجهود الذى تقتضيه هذه الحالة ؛ وإنما نؤيد الفكرة فى ذاتها ، ونرجو أن تتاح الفرص الملائمة ليقوم هذا المكتب الجديد بمهمته فى بث الدعاية لمصر وفى العمل على اجتذاب السياح إليها . بيد أن مهمة المكتب لا تقف عند هذه المهمة ؛ وفى رأينا أن مهمة المكتب الحقيقية هى وجوب العمل على تمصير موسم السياحة وجعله جهد الاستطاعة مورداً قومياً يتاح للهيئات المصرية ولأبناء البلاد قبل غيرهم اجتناء فوائده وثماره ؛ وهذا يتطلب من مكتب السياحة أن يعمل فى دائرة واسعة متعددة النواحى

وإذا كانت السياحة قد أضحت كما قدمنا فى بلاد السياحة صناعة وفنا ، فانه يجب علينا فى مصر أن نفهمها بهذا المعنى ؛ وعلينا إذا شئنا أن نجتنى مغانم هذا الموسم أن نعنى بانشاء الفنادق الفخمة والمتوسطة ، وإنشاء المطاعم والابهاء الأنيقة ،

وتنظيم السياحة الداخلية ، وترقية طائفة التراجمة والمرشدين ، وتخفيض أجور السكك الحديدية ورسوم الآثار والمتاحف .

وإذا أردنا حقا أن يكون موسم السياحة فى مصر مورداً قوميا ، فعلى هيئاتنا الرسمية وغير الرسمية أن تبادر قبل كل شىء إلى العناية بصناعة الفنادق ، فهى عماد الموسم فى جميع مراكز السياحة ؛ ولا ندرى لماذا لا يفكر المولون المصريون فى النزول إلى هـذا الميدان الذى ما زال يستأثر به الأجانب فى جميع عواصم القطر ؟ ولماذا لا يتجه الشباب المصرى إلى المساهمة فى هذه الصناعة وهى لا تحتاج إلى مجهودات فنية صعبة ؟ ولا ريب أن عدم توفر الفنادق الأنيقة المعتدلة الأجور من أهم عوامل الضعف فى موسم السياحة المصرى ، لأن الفنادق الأجنبية الفخمة التى تستأثر الآن باستقبال السياح ترهقهم بفداحة أجورها ونفقاتها ؛ وإذا تذكرنا الأرباح الطائلة التى توزعها شركة الفنادق المعروفة على حاملى أسهمها كل عام استطعنا أن نقدر إلى أى حد يرهق السياح النازلون فى فنادقها ؛ وهو إرهاق يترك أثراً سيئاً فى نفوس ضيوفنا الأجانب حتى الأغنياء منهم

ولا يسد هـذا النقص سوى إنشاء فنادق مصرية أنيقة معتدلة الأجور ؛ وهى صناعة رابحة يجب ألا يتوانى المصريون عن النزول إلى ميدانها . ولا ريب أن بنك مصر هو أقدر الهيئات المصرية الاقتصادية على فتح هذا الباب خصوصاً وهو يضم بعض الشركات والمرافق التى يتصل عملها بشؤون السياحة كشركة الملاحة وشركة الطيران ومكتب مصر للسياحة ؛ وغزو هـذه الصناعة التى يستأثر بها الأجانب ويجانبها المصريون بغير حق ، يحقق لمصر غايتين : الأولى تمصير صناعة الفنادق واجتناء أرباحها ، والثانية تيسير أسباب الاقامة للضيوف الأجانب وتشجيعهم بذلك على زيارة القطر المصرى

ونعتقد أن مكتب السياحة المصرى يجد مجالا طيباً للعمل فى هـذا الباب من الناحية الحكومية ؛ ذلك أن الحكومة المصرية لا يفوتها ما يترتب على إحياء صناعة الفنادق الأنيقة المعتدلة من توفير أسباب الراحة للسياح وتشجيعهم لا على زيارة القطر فقط ، بل على إطالة مكثهم به أيضا ؛ ولا بأس من أن تتولى الحكومة نفسها أو إدارة السكك الحديدية ، وهى من أوثق الادارات الحكومية اتصالا بشؤون السياحة ، القيام بأول خطوة فى هذا السبيل ، وإنشاء فندق أو أكثر من طراز نموذجى يجمع بين الفخامة واعتدال الأجور

بقيت مسألة نرجو أن يعنى بها مكتب السياحة عناية خاصة ، وهى مسألة التأشيرات التى تمنحها القنصليات المصرية فى الخارج لراغبى زيارة القطر . ومن المعروف أن نظام التأشيرات الحالى يكاد يقضى على كل اختصاص حقيقى لقناصلنا فى هـذا الشأن ، ويجعل الاختصاص الحقيقى فى منح التأشيرات ورفضها لقلم الجوازات التابع لادارة الأمن العام (ورئيسه انكليزى) وفى معظم الأحوال يضطر القناصل المصريون إلى مراجعة إدارة الأمن العام قبل المنح أو الرفض ، وتستغرق هذه المخاطبات وقتاً ليس بالقصير ، وإذا كانت تلغرافية فانها تجرى على حساب الطالب . وبذلك تمضى أسابيع وربما مضت أشهر قبل أن يبت فى طلب الطالب ؛ ولا تستطيع القنصليات أن تمنح تأشيرة دخول القطر من تلقاء نفسها إلا للكبراء والأشخاص المعروفين . فهذا النظام المعقد يزهد الكثيرين فى زيارة مصر . ولا ريب أنه يحق للسلطات المصرية فى الداخل أو الخارج أن تعمل لمنع العناصر الأجنبية السيئة وغير المرغوب فيها من دخول القطر ، ولكن الحرص على هذه الغاية يجب ألا يكون عقبة فى سبيل العناصر الشعبية الطيبة التى ترغب فى الزيارة البريئة . وأملنا أن يوفق ولاة الأمر إلى وضع نظام جديد للتأشيرات يسهل مهمة القناصل المصريين ويذلل العقبات الحالية

هذه خواطر وملاحظات فى شؤون السياحة أملت بها أزمة الموسم الحالى ، وما نقرأ من آن لآخر عن الدعايات المغرضة التى تذاع ضد مصر وأحوالها فى الخارج تنفيراً للسياح من زيارتها ؛ فاذا أرادت مصر أن يكون لها موسم للسياحة يتناسب مع مكانتها الأثرية والاقليمية ، وإذا أرادت أن تجتنى كسبه وثماره ، فعليها أن تعنى قبل كل شىء بجعله موسماً قومياً يكون لمصر وللمصريين فى استغلاله أوفر نصيب

(سائح)

رفعـــة المرأة

للأستاذ محمد بك كرد علي

بقية ما نشر في العــدد الماضي

وعاد المؤلف فعقد فصلا في الأعمال التي تبرز فيها المرأة على الرجل ، وهي الاحسان وتمهد المرضى وتربية اليتامى إلى غير ذلك من أنواع البر . ومما نقله لمديرة عصبة الخير أن الناس يتوخون أن يعرفوا ما نشكو منه من الأوجاع ، وما تشكو منه كل الأمم ، ومنشؤه افلاس تربية القلوب ، فقد وسع القائمون بالتربية درجات الذكاء بالتأديب الذي أدبوا الناس به ، وشددوا في تلقين التربية الجسمية ، وظنوا في ذلك الكفاية وهو دون حدها . فقد رأينا في العهد الأخير أن خمسمائة مليون طن من الحنطة جعلت وقوداً ، أو ألقيت الى البهائم تقضمها ، على حين يجد ملايين من البشر في الصين يموتون جوعاً . وألقوا في البرازيل ٤٩٥٠٠ كيس من البن في البحر ، ثم ٦٠٠٠٠ ألفاً جعلوها سماداً للأرض . وأبادوا في ألمانيا مقادير من السكر . ودفنوا في أوستراليا مليون خروف في الأرض لئلا يستفاد منها ؛ وفي كل مكان يطرحون الأثمار والبقول والأسماك التي لم تنفق ، أو التي زادت على الحاجة ، ولا يفكرون في أن بيوتا كثيرة تشكو العوز وتصاب بالمخمصة . ويزيد هذا الانحطاط في الأخلاق كل يوم ، وتزيد معه ويا للأسف هذه الأنانية كغيرها من النقائص التي تئن منها الانسانية ، وتردها الى أرذل أطوارها . فالشعور بالاحسان والأخاء سواء في الحكومات أو في الشعوب لم يستثمر ولم يرب . وعصبة الاحسان تعاون على تربية عقلية الأطفال في المدارس التي تربى على حب الفضائل . وتعلُّم الاحسان ضروري في الحياة الاجتماعية كتعلم الصناعات والأعمال

وأفاض في وصف عقليات الأمم التي تخالف العقلية الفرنسية ؛ فما قال في وصف عقلية الأمريكان في الولايات المتحدة إنها مخالفة كل المخالفة لعقلية الفرنسيس في مسائل الزواج ، فالزواج عند الفرنسيس بالنسبة إلى العزب نوع حديث من الحياة يتحتم أن يكون ثابتاً يسبقه على الأكثر شعور صادق عميق ، اللهم إلا عند بعض شباننا في السنين الأخيرة . وأغلب الأمريكيين والأمريكيات (ما خلا الفلاحين والعملة في المدن وجمهور الفقراء) يعتبرون الزواج فقط حادثاً يبقى ما تيسر له البقاء ، ويمكن حله لأسباب تافهة ، أو لأنه فقد فيه الرضا ، كأن الزواج عندهم بحسب ما عرف شامنور الحب تعريفاً فيه سخرية بقوله إنه « تبادل هويتين واحتكاك بشرتين » . وليس من النادر في الولايات المتحدة أن امرأة ورجلا كانا بالأمس لا يعرف أحدهما الآخر أن يتلاقيا ذات صباح ويتأهلا في نفس ظهر ذاك اليوم بمعرفة القس الذي يجمع وظيفة ضابط الأحوال الشخصية إلى وظيفته

ووضع فصلاً عنون له « كلمات للتأمل » جاء فيه أن مدام ماكدلين شوميون قالت في جملة مقالات لها في جريدة النهار الباريزية : إن الفتاة عندما تبدأ في فهم الحياة تتمثل أن تدخل في ميدانها وحيدة بدون معين ولا استنصاح أحد . فيقال إنها تريد أن تعيش مستقلة وأنها تتجافى عن قبول آراء غيرها وتوبيخ أهلها ، وأنها تود أن تعمل لتربح مالا وتنفق على هواها ، وأن تبدو للناس ، وتسيح إذا اقتضت الحال ، وهذا غاية أمانيها . وهذا الجمهور الذي لا يحصى من الفتيات والنساء ممن يخرجن عن أطوارهن هو الذي يدعونا إلى اللهفة والأسف . ولقد رأينا محاميات انقلبن خادمات في البيوت ، ولدينا براهين كثيرة على أنه خير للمرء أن يحسن صناعة من أن يحمل شهادات حسنة . ولقد نال كثير من النساء لقب دكتورات في الحقوق فأصبحن كاتبات بسيطات على الآلة الكاتبة . يتعلمن علماً كثيراً ولا يعرفن احتياجهن على كسب قوتهن . وذكر المؤلف ما تحمله السينما من المفاسد ، ولا سيما للفتيات والصبيان ، وقبح الأبوين اللذين يستصحبان أولادهما لمشاهدة هذه المناظر التي لا تعلم في الأكثر إلا القبائح والمفاسد

وروى ما قاله اميل بيكارد العالم الطبيعي الرياضي أن مستوى الأخلاق في الجنس البشري يسفل بمقياس واسع ، ولعلهم يقولون إن ذلك نشأ من الحرب العظمى ؛ والحقيقة أن هذه الحرب لم تعمل غير تعجيل هذا الفساد كما عجلت في مسائل أخرى . وانتهى الحال ببعضهم أن ادعوا أن ذلك نشأ من العلم ، وهذه الدعوى تصدق ببعض الشيء ، ذلك لأن الآلة قد احدثت جنوناً في الانتاج الصناعي ، فان السرعة التي تمت في المسائل الفنية لم تسمح للزمن أن يعمل عمله . والزمن يهزأ بشيء يعمل دون تدخله ، بل ينتقم من صاحبه . ولم تكتف الآلة باغراق العالم في الرفاهية

بل قامت مقام الانسان المنتج القوى ، وأبطلت فى الانسان اعتياد العمل الشاق العميق الطويل ، فأصبح سطحياً واستغرقته السهولة ، وما نمت فيه القدرة المادية بل قل فيه العنصر الأخلاق ، والجسم إذا اتسع توقع أن يكون له ملحق من الروح كما قال برجسون . وقد احتقرت الوطنية والتجارب وفقدت الحرمة الناتجة من الصبر والسن واختلاط العبقرية المريضة بالعبقرية السليمة وهى وليدة القوة

ونقل أقوالاً لعظماء من علماء العصر الحاضر تأييداً لقضيته ؛ ومنها أن نصف علم يحرزه المرء يتولد منه من الأوهام ما يكون أضرّ على صاحبه من الجهل ، لأن صاحبه يكلب على العمل فلا يأتى بكبير أمر ، وتزداد عاقبته الشؤمى بالضرورة لامتزاجها بالمصالح الشخصية والشهوات والأهواء الرائجة فى سوء الجدال الاجتماعى ، وما يتبعه من عبث العابثين بالسياسة المتجرين بها . وحمل على الاشتراكية التى تحارب المثمرين والمتمولين ، وتحاول القضاء على الطبقات الاجتماعية ، وعلى رؤوس الأموال ، وعلى النفرة من الحرب ؛ ونقل أن رؤوس الأموال إذا انعدمت تموت الاشتراكية ، لأنها لا تجد ما تحاربه فلا يبقى لها ما تقسمه من المال بين الاشتراكيين ؛ والاشتراكية تؤدى إلى « البلشفة » البشعة . ومن المتعذر قيام الدعوة الاشتراكية إذا فقد المال ، ولا شىء يعمل بلا مال . وما البلشفة إلا وضع حياة البشر فى يد عصابة تزعم أنها تمثل الدولة . ومعنى ذلك بسط السلطة العامة على الناس فى كل أمر يصدر من مصادر خفية . وقال هذا جنون شرق ينساب على التدريج فى عقل الغرب

وختم كتابه بفصل فى انتشار العهر والأسباب الداعية إليه فى الغرب . وقال فى الخاتمة إن الفرنسيس ما خلا أربعة أو خمسة آلاف امرأة ومثلهن من الرجال يطمعون فى إعطاء حق التصويت للنساء لا يهتمون بتة فى منح الحقوق المزعومة للمرأة لادخالها فى الحياة السياسية . ويخشى اذا تمتع النساء بحقوق الرجال أن يقلبن أوضاع الأمة إلى التى لا تريدها ، شأن كثير من المتغلبين على الحكم فى الأمم يعملون ما تزين لهم أهواؤهم ، ويعلون إرادتهم على من يتعذر عليهم طاعتهم . وكان على هؤلاء الدعاة أن يبدأوا أولاً باقناع ملايين من النساء لا يريحه رأيهن فى الاشتراك فى الحياة السياسية . هذا والأفكار تسير سيرها ؛ ولعله يأتى اليوم الذى تستعد فيه المرأة الفرنسية للاشتراك مع الرجل فى الحياة العامة حذو القذة بالقذة . ويقضى على القائمين بهذه الدعوة ريثما تتحقق أمنيتهم أن يبدأوا باصلاح أخلاق المرأة الحاضرة وتهذيبها على أسلوب لا يقبل كل رأى يدلى به إليها ، ويحررها على الأقل من سلطان أزيائها وتبرجها ، وأن يجهد الحاكمون أن يسيروا هذه الدعوة فى المجرى الصالح لخير المرأة والرجل والحب والسلام الاجتماعى ، ومستقبل العنصر ، والأخذ بأسباب الارتقاء الحق. والمرأة مهما حاولنا وصفها بالرقى الآن لا تخرج عن كونها تطمح فى استقرار حياتها وفى الخلوة إلى دارها ، وإن ألبسوها اليوم لباساً غير لباسها من النزوع الى الاستقلال . وقد أخذ كثير من الشبان يحولون اليوم وجههم متقززين من النساء المولعات بالألعاب الرياضية والمدخنات والشريبات والراقصات والساهرات أى من طبقة النساء ممن قد يكون فيهن العفيفات وظاهرهن أنهن بنات سرور ومرح ؛ ومن الطبقة التى يقول فيها الانجليز إنهن لسن نساء ولم يبلغن مبلغ الرجال

قال : أيتها المرأة إنك مهما فعلت مسوقة بتابل من الكبرياء وبعوامل أكرهتك على خوض غمار أزمة هذه الأيام لتخرجى عن حظيرة جنسك وتقطعى صلتك بعملك الأبدى السامى ، لن تكونى إلا محبة وزوجة وأماً . وإذا أنسيت رسالتك فان الطبيعة ستتولى عاجلاً أو آجلاً تذكيرك أن الأقدار ما خرجت بك إلا لتكونى شريكة الرجل ، وأم أولاده ، وجزؤه المتمم ، ونصفه ، وأحياناً الموحية اليه والمنقذة له . أنت أبداً مهد الآلام البشرية وستظلين على ذلك إلى يوم البعث والنشور ؟

محمد كرد على

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وصل الفائت

حقن بستور فى دجاج مكروبا قديماً ضعيفاً لداء كوليرا الدجاج ، فمرض الدجاج ولكن لم يمت . وكان ذلك مصادفة . ثم حقن فيه مكروبا جديداً فتاكا فلم يمت . فتوصل بذلك إلى طريقة لتحصين الدجاج ضد الكوليرا ، إلى طريقة اللقاح أو الفكسين المعروفة اليوم

قلت فيما مضى إن بستور يضمر فى نفسه عبادة هذا الشىء العظيم الرائع الخفىّ فى هذا العالم المجهول ، وكثيراً ما ركع وسجد لهذه اللانهائية المستورة . ولكن أحياناً كان يأتيه الأمل فيطلب القمر وينسى رب السماء . وكلما رفعت إحدى تجاربه الجميلة ستاراً عن خفيّة من خفايا ذلك المجهول الضخم الرائع بأسراره ، ظن أن كل الخفايا انكشفت ، وأن كل المُعقد انحلت . هكذا كان حاله ومزاجه فى هذه الساعة التى نحن فيها . إنه استطاع حقاً أن يحمى الدجاج حماية تامة من داء مميت بأن احتال له تلك الحيلة الجميلة فحقن فى الدجاج شيئاً من المكروب القتّال بعد تأنيسه وإضعاف شرته ، ولكنه ما كاد يستيقن من نجاح حيلته حتى قال لنفسه : « وما يدريني ؟ فلعل مكروب هذه الكوليرا يحمى الدجاج من كل داء خبيث آخر » . وما عتم أن حقن عددا من الدجاج بمكروب الكوليرا بعد إضعافه ، ثم أتبع ذلك بحقنة من مكروب الجمرة الخبيث ، واصطبر فلم يمت الدجاج !

فهاج وماج وكتب إلى أستاذه القديم دوماس ، ولمح له أن مكروب كوليرا الدجاج قد يكون لقاحا عاما يُحصّنُ من كل الأدواء . وكتب اليه يقول : « فاذا تأكد هذا ، جاز لنا أن نأمل من النتائج أخطرها ، حتى فيما يتعلق بأدواء الانسان »

وفرح دوماس الشيخ بالذى قرأ ، فنشر الخطاب فى التقارير الرسمية لأكاديمية العلوم ، وها هو ذا إلى اليوم ماثل فى صفحاتها ، يشهد باندفاع بستور وتسرّعه ، ويكذّب من يقول إن بستور لا يقول دائماً إلا حقاً . ولقد بحثت ما استطعت فلم أجد أن بستور استردّ الذى قال ، ونفى الأمل الخادع الذى أحيا فى الناس . وبستور لم يطل به الزمن بعد ذلك طويلا حتى عرف خطل هذا الرأى ، واستيقن من أن النوع الواحد من البشلات لا يحصّن من كل الأمراض على نحو ما كان ادّعى ، وإنما يحصّن من المرض الواحد الذى هو سببه ، وحتى هذا قد لا يدفعه أحياناً

ولكن كان من خصائص بستور المحمودة أنه كان كلما انهدم له أمل ، قام على أنقاضه له أمل جديد ؛ وإذا احترق له رجاء ، انبعث له من رماده رجاء طريف . يحلّق به الخيال الوثاب حتى يصل به إلى السحاب ، ثم يخونه جناحاه ، فيهوى كالقنبلة على الأرض ، فتحسب هذا الدوىّ هو آخر ما تسمع منه ، ثم لا تابث أن تراه قائماً من تلك الأنقاض على رجليه ، يجرى التجارب البارعة ، ويبحث بجد عن كل حقيقة صلبة صماء . لذلك لا تستغرب أن تسمع أنه فى عام ١٨٨١ كان يعمل مع عونيه رو وشمبرلاند ليكشف عن طريقة جميلة لتأنيس مكروب الجمرة وتحضير لقاح منه . فبمجىء هذا العام اشتد البحث وراء الألقحة اشتداداً لم يدع لرو وصاحبه وقتاً لراحة . حتى الآحاد اشتغلاها ، وأيام العطلة لم يتعطلاها ، والأجازات تجنباها ، وناما فى المعمل إلى جانب الأنابيب والمجاهر والميكروبات . وهنا ، وبارشاد بستور ، أضعفا بشلة داء الجمرة إضعافاً متدرّجاً . فمن الضعيف ما قتل الخنازير الغينية وأبقى على الأرانب ، ومن الأضعف ما قتل الفئران وأبقى على الخنازير الغينية . وحقنا الميكروب الأضعف فى الخراف ، وأتبعاه بالأقل ضعفاً ، فمرضت الخراف ولكنها شفيت ، وبعد ذلك صمدت على ما يظهر لمكروب الجمرة القوى الذى يقتل الأبقار

وما لبث بستور أن أذاع نصره الجديد فى أكاديمية العلوم — وكان قد ترك أكاديمية الطب بعد عراكه الذى كان مع الدكتور جيران — وبشر لهم بلقاحات يرجو استحداثها قريباً تمحو كل الأدواء ، من الشُكاف إلى الملريا . وصاح فيهم : « وهل أيسر من لقاح الجمرة هذا ! سموم تُضعف بالتدريج من شِرّتها

فتعطى الخراف والأبقار والخيول بعض الداء دون أن تقتلها ، ثم تتعافى ، فتمنى من الداء أبداً ! » وظن بعض زملاء بستور أنه يبالغ فى يقينه ، ويغلو فى ثقته بهذا اللقاح ، وتجاسروا على الجهر برأيهم ، فانتفخت أوردة بستور فى جبهته ، ولكنه كظم غضبه هذه المرة واستطاع أن يحبس لسانه حتى خرج هو وزوجه وسارا فى الطريق إلى منزلهما ، وعندئذ انفجر بستور على هؤلاء وعلى أمثالهم ممن يعجزون عن الايمان بالحق المحض الذى احتوته فكرته قال : « أما لا أعجب إن أنت ذهبت إلى منازل أمثال هؤلاء فوجدتهم يضربون أزواجهن ضرباً »

صَدّقنى ، ما كان العلم لدى بستور جمع الحقائق بنفس مطمئنة باردة ، فقد أثار فيه نفس الشىء الذى يثير الحيوان الآدمى إلى البكاء عند موت طفله ، أو إلى الفرح والغناء عند نعى عم أو خال قد ترك له من بعد موته نصف مليون دولار

وأخذ أعداء بستور يتبعون أثره ليثأروا منه شر ثأرة . ولم يكن أعداؤه من الأطباء فحسب ، بل كذلك كان البيطريون وهم رجال لهم مقام فى الناس ونفع لهم . أساء بستور إلى هؤلاء وهؤلاء فتصدى له بيطرىّ فنصب فى طريقه فخا عظيما وأغراه بالوقوع فيه . وكان اسم هذا البيطار روسنيول Rossignol . قام ذات يوم فى الجمعية الزراعية بميلان Melan يغرى بستور باجراء تجربة عامة ، يجريها على الملأ فى سبيل العدالة العلمية ظاهرا ، وفى سبيل القضاء على بستور وأم بستور باطنا . قال للجمعية : « إن بستور يقول إن أسهل شىء فى الدنيا صنع لقاح يحصن الشياه والأبقار من داء الجمرة تحصينا كاملا . فان حق هذا القول عاد على زرّاع فرنسا بالنفع العظيم ، ووفّر عليهم عشرين مليون فرنك يخسرونها كل عام بسبب هذا الداء . إن بستور لو كان يستطيع حقا إخراج هذا اللقاح العجيب ، لما وجد على نفسه غضاضة أن يثبت لنا أنه يستطيعه . فهيا بنا ندعوه إلى تجربة عامة يجريها فى الجمهور ، فان أصاب كان لنا الغنم نحن معشر المزارعين والبيطريين ، وان خاب سكت عن هذه الثرثرة الكاذبة ودعاويه الباطلة عن كشوفات هائلة تُنجِى من كل شىء ، من ديدان الأرض إلى حيتان الماء » . هكذا تمنطق هذا البيطار الماكر

وسرعان ما جمعت الجمعية مالا كثيراً لشراء ثمانٍ وأربعين شاة ، وعدد من الأبقار ، وجَدْيَين ، واختارت البارون دى لا روشت de la Rochette لمكانته وشهرته ، فبعثت به إلى بستور ليدخل اليه من مُحِبه ليوقعه فى هذه التجربة وفيها من الخطورة ما فيها

ولم يشعر بستور أبداً بالذى يراد به ، فقال للبارون : « بالطبع أنا راضٍ بالذهاب إلى جمعيتكم لأريكم أن لقاحى ينقذ الحياة — إن علاج أربع عشرة شاة فى معملى لا يفترق عن علاج ستين فى ميلان ! »

هذا هو الشىء الغريب العظيم فى بستور : يريد أن يخرج البيضة من الديك ، والأرنب من القبعة ، ويدهش العالم ، فيقوم بكل هذا فى اخلاص عظيم وإيمان بما يصنع كبير ، كان عرّاضاً كبيرا بارعاً ، وكان يجوز عليه أن ينزل فى سبيل ذلك أحياناً إلى ملاعيب بهلوانية يسيرة ، ولكنه لم يكن يعمد إلى التدبير والتخطيط لشىء من هذا أبداً . وتعيّن موعد امتحانه فى الملأ ، فكان مايو ويونيه من ذلك العام

وكان رِو وشمبرلاند قد تعبا من العمل المتواصل تعباً كبيراً أثر فى أعصابهما ، فأخذا يريان رؤى مفزعة ، فتارة تفلت فى النوم إلى الأرض من أيديهما قبابة خطيرة بالذى فيها ، وتارة يجدان نفسيهما ينظران إلى حيوانات غريبة نصفها دجاجة ونصفها الآخر خنزير . أو لا يأتيهما النوم فيأخذان فى حقن اللابين من الأرانب وهم فى الفراش راقدون ، فلما ساء حالهم إلى هذا الحدّ طلبا الراحة فى الريف ، وما كادا يستقران فيه حتى جاءهما التلغراف الآتى :

« أرجعا إلى باريس حالا . على وشك تجربة عامة أن لقاحنا يحمى الشياه من الجمرة — ل . بستور »

فرجعا مسرعين . فقال بستور للقوم : « فى مزرعة بوييلوفرت Pouilly-le-fort ، وفى حضرة الجمعية الزراعية بميلان ، سألقح أربعاً وعشرين شاة وبضع بقرات وعنزة واحدة . وسأدع بدون لقاح مثلها فى العدد عنزة وشياها وأبقارا ، فاذا جاء الوقت الموعود سأقوم وأحقن كل هذه الحيوانات بأخبث زريعة لدينا من بَشِلّة الجمرة ، أما الملقّحات فسيكونون فى حمى من الداء ، وأما الأخرى فستموت طبعاً فى يومين أو ثلاثة . » تحدّث بستور

كالفلكيّ يتنبأ بكسوف الشمس

قال صاحباه : « ولـكن يا أستاذنا إنك تعلم أن عملنا هذا كالمشى على الصراط ، فنحن لا يمكننا أبداً أن نأمن أمناً تاماً إلى ألقحتنا ، فهى قد تقتل الشياه التى نريد أن نحميها . . . »

فزعق بستور فيهما : « إن اللقاح الذى يعمل بنجاح فى أربع عشرة شاة فى معملنا لا شك ناجح فى خمسين شاة فى ميلان » . فانه عندئذ لم يرد أن يسمع بالخيبة ، أو يذكر أن الطبيعة لها سرٌ لا يُفشى وخدعات لا تؤتمن ، أو أن الغيب قد يخبئ كثيراً من العثرات ويأتى بكل غريبٍ لا يُحتسب . بل لقد تراءى هذا الغيب فى عينيه رائقاً كالماء ، شفافاً كالهواء ، سهل القراءة كما تقول اثنان فى اثنين ينتجان أربعة . فلم يكن لرو وشمبرلاند بدٌّ من رفع الأكمام وكشف السواعد والأخذ فى تجهيز الألقحة

وجاء يوم الامتحان الأكبر ، فكانت المحاقن جاهزة ، والقبابات حاضرة ، وكل قبابة عليها اسمها . وصاح بستور فيهما وقد همّوا جميعاً بركوب القطار : « إياكما ياولدىّ أن تخلطا بين الألقحة » . وكان قلبه مليئاً بالثقة ووجهه يطفح بشرا . ولما بلغوا بوييلوفرت Pouillz-le-Fort ، وصلوا إلى الحقل الموعود حيث الثمانى والأربعون شاة وبضع الأبقار والمعزان ؛ تقدم بستور إلى الميدان ، فدخله دخول مصارع الثيران ، وانحنى وطيئاً للجمهور المحشود ، وكان فيه أعضاء من مجلس شيوخ الجمهورية ، وكان فيه علماء وبيطريون وكثير من ذوى الأحساب ومئات المزارعين . فسار بستور بين صفوفهم يعرج قليلا – عرجة العظم والوجاهة لا عرجة الضعف والاستعطاف – فحيوه تحية صارخة ، وتسخّر به قليل

وحضر جماعة من رجال الصحافة ، وكان من بينهم رسول جريدة التيمس السيد دى بلاوتز Blowitz ، هذا الرجل المعروف الذى أصبح اليوم فى التاريخ كأنه شخص خرافىّ مما يحكى عنه من الأعاجيب

وسيقت الأغنام إلى فرجة من الحقل ، وقام رو وشمبرلاند إلى مصابيح الكحول فأشعلاها ، وإلى المحاقن الزجاجية فأخرجاها بحذر من لفائفها ، وجاءا بلقاح الجرثومة الضعيف الأول الذى يقتل الفئران ويُبقى على الخنازير الغينية ، فحقنا منه خمس قطرات فى أفخاذ أربع وعشرين شاة وفى عنزة وفى نصف البقر . ونهضت البهائم وهزّت برؤوسها ، وأُعلمت بثقب فى آذانها . ثم قاد بستور جموع الناس إلى إحدى الزرائب ، وخطبهم نصف ساعة خطبة فخمة فى هذه الألقحة الجديدة ، وبشر فيهم بالرحمات التى تحملها الانسانية المعذّبة

ومر اثنا عشر يوماً ، وجاء الناس مرة أخرى إلى الحقل واحتشدوا فيه ، فقام أعوان بستور إلى اللقاح الثانى الأقوى الذى يقتل الخنازير الغينية ولا يقتل الأرانب(١) ، وحقنوا منه المواشى مرة ثانية ، ونهضت بعد الحقن نشيطة كما يجب أن تكون الشياه والماعز والأبقار السليمة الصحيحة ، واقترب الموعد الخطير للحقنة الثالثة ، وهى أقوى الثلاثة فتحرج جوّ المعمل ، وثقل هواؤه ، واشتد العمل على رجاله ، فجرى الحديث بينهم اقتضاباً من وراء المصابيح . وصمت بستور صمتاً مخيفاً لم يُعهد فيه أبداً ، وكان يطلب ما يريد آمراً صارخاً يكاد ينط له صبية المعمل فى انفاذه نطّاً . وكان انضم إلى أعوان بستور عون جديد يسمى تويلييه Thuillier ؛ كان أصغرهم سناً ، فهذا كان يخرج إلى الحقل ليضع مقياس الحرارة تحت أذيال البهائم يرقب سير الحقنة فيها ، ولـكن حمداً لله لم يجد بها حُمى ، وكانت جميعاً قائمة على خير حال ، صامدة للقاح الشديد صمودا عجيباً

وبينما قَلقَ رو وشمبرلاند وشاب رأسهما همّاً وحذراً وانتظاراً ، احتفظ بستور بثقته بنفسه . كتب يتحدث برأيه القديم الصريح الجميل عن نفسه قال : « لو تم النجاح الذى أرجوه ، فسيكون هذا مثلا من أروع الأمثلة لتطبيق العلم على الحياة فى هذه البلاد ، وسيسجله التاريخ كشفاً من أخطر الكشوفات وأكثرها ثمراً »

قال أصدقاؤه همهمة ، وهم يهزون الرؤوس ويرفعون الأكتاف : « نابليونيّاتٌ رائعة أيها العزيز بستور ! »

قال بستور : « نابليونياتٌ ولا نكران يا أعزائى الأصدقاء »

(تتبع بنتيجة هذه التجربة فى العدد القادم) أحمد زكى

(١) ربما احتجنا إلى تذكير القارئ بأن الخنازير الغينية أكبر من الفئران وأصغر من الأرانب

على هامش حوادث دمشق

أطفال دمشق

بقلم الأستاذ «ع»

لمن هذه الرشاشات منصوبة فى الميادين والطرقات؟ لمن هذه المصفحات وهذه الدبابات، تروح وتغدو فى الشوارع والساحات؟ لم تحوّم فى الجو هذه الطيارات؟

لماذا يساق هؤلاء الجنود من كل جنس وكل لون، فمن الشقر الفرنسيين الذين علموا أمم الأرض كيف تكون الثورة على الظالمين، وكيف تنتزع الحرية من بين أنياب الأقوياء المستبدين؟ إلى السمر المغاربة المسلمين، الذين جاءوا راغبين أو راهبين، ليحاربوا اخوانهم المسلمين؟ إلى السود السينغاليين،

من كل أشمط تدنى الموت طامته ... ينساب فى لهوات الليل ثعبانا
زعانف وعبادبد برابرة ... لا يعرفون لهذا الكون ديانا

إلى الصفر الهنديين الصينيين؟ إلى هؤلاء (المتطوعة) أنصار الباطل، جزاة الخير بالشر، الذين أكلوا خبزنا وحاربونا!! أكل ذلك لأن هذا الشعب الأعزل تحرك؟ أكل ذلك لأن دمشق غضبت؟

تيهى إذن يا دمشق واعتزى، فما أنت بالضعيفة ولا بالهينة، وقد حشدوا لك مالا يحشدون أكثر منه لقوم هتلر، وشيعة ستالين!

***

كانت دمشق يوم الجمعة صابرة تتجرع حزنها على (ابراهيم) فى صمت رهيب، وسكوت هائل، فلم تحرك ساكناً، وما دمشق بالتى تعرف أنة المكلوم، أو استغاثة العاجز، ولكنها تعرف الصبر الذى لا يصبر عليه الدهر، أو الصرخة التى تصدع الصخر، وتخرج الميت من القبر؛ وما دمشق بالتى تعرف هذا الاحتجاج الضعيف، احتجاج «أوسعته شتما وأودى بالابل»... ولكنها تتلقى الضربات بصدر كأنه الجلمود لا يشقق ولا يرفضّ ولا يلين

وباتت دمشق على هذا الصمت، فلم يمض هزيع من الليل حتى سمعت الصريخ، فأفاقت فزعة، تسأل:

— ما الخبر؟

— قيل: اختطفوا (فخرى البارودى)

ابن دمشق يختطف من حضن أمه وهى نائمة؟... يا للهول الأكبر! يا لهيبة دمشق! يا لغضبة البطل الغشمشم!

***

أقبل أبناء دمشق بأيديهم، وأقبلت هذه الجيوش بحديدها ونارها، وكانت المعارك ... التى يصطرع فيها الحق والقوة، والدم والنار، والصدور والحديد، فبينما معركة من هذه المعارك على أشدّ ما تكون عليه وإذا ...

وإذا ماذا؟ ليس على وجه الأرض من يستطيع أن يقدر ماذا كان، إلاهؤلاء الشاميون، وهؤلاء الفرنسيون الذين أكبروا جميعاً هذه البطولة التى لم يرو مثلها التاريخ...

وإذا خمسون من الأطفال الذين لا تتجاوز سنّ أكبرهم التاسعة، ينبعون من بين الناس، يخرجون من بين الأرجل، منهم التلميذ ذو الصدرية السوداء والأزرار اللامعة، قد فرّ من مدرسته وقمطره لا يزال معلقا فى عنقه، وحمل مسطرته بيده... ومنهم صبىّ اللحام، وأجير الخباز، قد اتحدوا جميعاً، وأقبلوا يهجمون بالمساطر على الدبابة وهى تطلق النار، وهم يطلقون من حناجرهم الرقيقة بأصواتهم الناعمة، التى تشبه الآلة السحرية التى غنّى عليها الفارابى، فأضحك وأبكى... هذه الأنشودة البلدية المعروفة:

وصغارنا تحمل خناجر ... وكبارنا عالحرب واصل
يابالوطن ... يابالكفن

فوقف الناس ينظرون اليهم، وقد عراهم ذهول عجيب. فارتخت أيديهم بالحجارة التى كانوا يقاومون بها الرصاص... حتى رأوا الأطفال قد تسلقوا الدبابة وركبوها فاشتعل الدم فى عروقهم، وفى ألغاد رؤوسهم، فأنشدوا أنشودة الموت:

« يا سباع البر حومى ... ... »

وهم يرعدون بها. فتهتز من جهجهتها الغوطة، ويرتجف قاسيون. وأقبلوا كالسيل الدفّاع ...

ولكنهم رأوا الدبابة قد كفت عن الضرب، ثم انفتح برجها، وخرج منها شاب فرنسى يبتسم للأطفال، وإن فى عينيه

لأثر الدمع من التأثر ، ويداعبهم ، ويقدم لهم كفاً من الشكولاته ، ثم يعود إلى مخبئه !

إنسانية قد توجد حتى فى الدبابات !

***

ورأيت فى هؤلاء الصبية تلميذاً فى شعبة الأطفال من مدرستنا ، وكان صغيراً جداً ما أظنه قد أكمل عامه السابع ، فدعوته فأقبل حتى أخذ يدى ، وجعل يرفع رأسه إلى يحاول أن يتثبت من وجهى ، فقلت :

– لماذا عملتم هذا العمل يا بابا ؟

– فقال : أخذوا نخرى الباغودى (يريد فخرى البارودى)

– قلت : ومن قال لك ذلك ؟

– قال : أمى . وقالت لى هلّى بموت بالقصاص بفوح عالجنة (يريد : من يموت بالرصاص يذهب إلى الجنة)

– قلت : وإذا أرجعوا نخرى البارودى ، هل ترضى ؟

– قال : لأ . خلى يفوحوا (يروحوا) هدول كان ما بدنايام ! (يريد فليذهب هؤلاء أيضاً ، لا نريدهم)

فسكتّ . فقال :

– أستاذ ، ليش الاسلام مالهم عسكغ (عسكر) ؟

فأصابتنى كلمته فى القلب ، ووجدت كأن شيئاً جاشت به نفسى ، ثم صعد إلى رأسى ، ثم وجدته فى قصبة أنفى ، وآماق عينى ، ودق قلبى دقاً شديداً ، فتجلدت ومسحت عينى ، وحككت أنفى ، وقلت له :

– أنتم يا بابا عسكر الاسلام .

– قال : نحن صغار !

– قلت : ستكبرون يا بابا ، انتم أحسن منا ، نحن لما كنا صغاراً كنا نخاف من البعبع ، ونخشى القط الأسود ، وأنتم تهجمون على الدبابة ، فالمستقبل لكم لا (لهم) ... !

***

وبعد ، فلمن هذه الرشاشات ؟ ولمن هذه المصفحات وهذه الدبابات ؟ ولمن هذه الجنود وهذه الطيارات ؟ إنها لم تصنع شيئاً ، ففتشوا عن شىء أكبر من الموت ، لتفزعوا ... (أطفال دمشق) ! ...

« ع »

علم غير مفيـــد

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

فى النشرة الأخيرة للجامعة الأمريكية فى بيروت مقال افتتاحى عنوانه « علم الفلك — علم غير مفيـــد » وقد أوحت إلىّ قراءته أن أكتب هذه المجالة فى الفوائد التى جناها الانسان من علم الفلك . ويُلاحظ أن المتعلمين وطلاب المدارس العالية والكليات والجامعات يختلفون فى نظرهم الى هذا الفرع من المعرفة اختلافاً بيّناً ، فمنهم من يقول بوجوب تدريسه والاعتناء به ، إذ فيه فوائد ومنافع عادت على البشرية بأطيب الثمار ، ولولاه لما شعر الانسان باللذة الروحية شعوره الحالى ، ولبقى نظرنا إلى الكون فى نطاق محدود ، وفى محيط ضيق ؛ وفريق آخر يقول بعدم فائدة علم الفلك ، وبأن فى تدريسه إضاعة للوقت فيما ليس فيه غناء ، وأن الأولى لنا أن نهتم بشىء يعود على المدنية بالمتاع والنفع . ولا يقف هذا الفريق عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى الجهر بأن الاعتناء بعلم الفلك وإنفاق الأموال الطائلة على مراصده وآلاته ضرب من الهوس والسخف ؛ ويتساءل هذا الفريق قائلا : ماذا يستفيد الانسان من معرفته أن الأرض كوكب من كواكب أخرى تدور حول الشمس ، وأن لهذا الكوكب تابعاً ـ القمر ـ يدور حولها ؟ وهل يزيد فى سعادة البشر ورفاهيتهم إذا عرفوا أن لبعض الكواكب توابع كما للأرض ؟ وهل فى القول بأن فى السماء نجوما لا عديد لها بعضها أكبر من الشمس وبعضها أصغر ، وأن هناك أنظمة أخرى وسدماً ومجرات وعوالم ، هل فى كل ذلك ما يعود علينا بالتقدم ؟ هذه بعض أسئلة الفريق الذى لا يؤمن بأهمية علم الفلك ومنافعه . ويسرنى ألا أكون من هذا الفريق وأننى أخالفه وأنا أكون من الفريق الأول القائل بسمو علم الفلك وبأثره الفعال فى تطور نظر الانسان الى الكون وما يحويه من أعاجيب

وفى رأيى أن علم الفلك من العلوم الواجب تدريس مبادئها لطلاب المدارس العالية والكليات والجامعات وجعله اجباريا ، حتى يخرج الطالب وقد جمع الى العلوم العملية والفنون النافعة علماً ومعلومات عامة هى أسمى أنواع المعلومات ، توسع أفق التفكير

وتنير العقل ، وتزيد فى الاعتقاد بقدرة الخالق وعظمته المبدعة . وأرجو ألا يُساء فهم القصد من تدريس مبادىء علم الفلك لطلاب التعليم العالى ، فقد يُظن أنى أطلب تدريس الفلك على وجه مفصل حيث المعادلات العويصة والأرقام المخيفة والعمليات المرعبة . . . ! أنا لا أطلب هذا ، إذ لا يتيسر الوقوف على كل ذلك إلا لمن كان له ميل الى الرياضيات ورغبة فى الطبيعيات وولع فى علم السموات . ولكن أقول إن علم الفلك برغم دقة بحوثه وما يحويه من عويص الموضوعات فيه كثير من البسائط سهلة التناول قريبة المأخذ تسهل الاحاطة بها وفهمها بدون تكلف أو صعوبة فنية . وهذه هى التى أدعو الى إدخالها فى مناهج التعليم العالى حتى يخرج الطالب ولديه فكرة عن هذا الفرع السامى مما يعود عليه بأجل الفوائد من الناحية الروحية والمعنوية فيرفعه إلى الى ما هو أسمى من عاله وأعلى من محيطه المادى

ولعلم الفلك فوائد عدة جليـلة أهمها أنه وسّع نظر الانسان وأفق تفكيره فى الكون ، وجعله يدرك بوضوح وجـلاء أن الـكون وما يحويه من أجرام تسير على أنظمة ثابتة لا تتغير وأن الظواهر الجوية والطبيعية لا تحدث عفواً واتفاقاً ، بل إنها سائرة حسب قوانين ونواميس لا فوضى فيها ولا شذوذ ، عرف الانسان بعضها ولا يزال يجاهد فى معرفة البعض الآخر ، وأصبح فى استطاعة الفلـكى أن يتنبأ عن الخسوف والـكسوف وغيرها من ظواهر الطبيعة قبل حدوثها ووقوعها بعشرات السنين

لقد كان العلماء فى القرون الماضية يعتقدون أن أكثر ما يجرى فى هذا العالم هو من قبيل المصادفة وأن ليس هناك نظام شامل أو ناموس مسيطر ، ولـكن بحوث علم الفلك أفسدت هذا الاعتقاد وأقامت الأدلة على بطلانه ، فثبت أن كل ما يجرى حولنا سائر على أنظمة خاصة وسـنن ثابتة ، وأن ما يسيطر على أصغر أجزاء المادة يسيطر على أكبرها ؛ فالنظام الذى تسير عليه الذرة بالـكتروناتها ونواياها هو النظام بعينه الذى يسير بموجبه النظام الشمسى والنظم الأخرى بكواكبها ونجومها وشهبها ونيازكها ، وهذه الفائدة هى من أجلّ الفوائد التى جناها العالم من علم الفلك ، فكانت سبباً فى تقوية إيمانه بوجود قوة خارقة منظمة مبدعة عن طريق البحث والاستقصاء والتفكير العميق

وكيف لا يكون علم الفلك علماً مفيداً وقد حذر الانسان من الانخداع بالظواهر وعدم الاعتماد عليها فى كثير من الأحيان وعلمه كيف يعمل العقل والفكر فى اكتناه حقيقة هذه الظواهر والوقوف على أسباب حدوثها . ألم يعتقد الانسان فى العصور الأولى والمتوسطة بأن الأرض هى محور هذا الوجود ، وأن الشمس وغيرها تدور حولها ، وأن كل شىء فى هذا الـكون تابع للأرض ، فهى مركز دائرة هـذا العالم والعنصر الأساسى فيه ؟ كان هـذا الاعتقاد سائداً يدين به كثير من نوابغ العلماء وفحول رجال الفكر ، وبقى الأمر على هذه الحال إلى أن تقدم علم الفلك فرمى بهـذه الأوهام عرض الحائط وبيّن للناس أن الأرض ليست إلاّ ذرة تدور فى فضاء الله الواسع ، وأن الشمس وكواكبها وتوابعها ليست إلا جزءاً يسيراً جداً من هذا الـكون الذى لا يعلم مداه إلا العليم القدير . لقد بيّن لنا علم الفلك أن الانسان جرم متوسط بين الـكوكب والذرة ، وأنه يستطيع بفضل ذلك وبفضل ما وهبه الله من قوى روحية ومعنوية أن يدرك حقيقة الأشـياء الصغيرة من جهة والـكبيرة من جهة أخرى ، واستطاع فوق ذلك أن يعرف الشىء الـكثير عن حركات النجوم وطبائعها والعناصر التى تتكون منها ، وثبت له أن النجوم ليست إلا معامل كيمياوية وبوادق هائلة ذات حرارة عظيمـة جداً من الصعب تصورها ؛ وقد يأتى يوم يستطيع فيه الفلـكى أن يكشف أسراراً مغلقة عن كيفية تفاعلات عناصرها بعضها مع بعض ، وسيجدون فى هذه الاكتشافات ما يعود على البشرية بخير عميم . وما يدرينا لعلهم يستطيعون من دراسة النجوم وكشف غوامضها أن يقفوا على سر الحياة وهو ما يصبو إلى الوصول إليـه كبار العلماء وعباقرة الفلاسفة ونوابغ المفكرين

والذى لا أشك فيه أن فى إدراك الانسان لبعض هذه الحقائق وفى وقوفه على النواميس والأنظمة المسيرة لهذا الـكون فى صغار محتوياته وكبارها لمن العوامل الرئيسية التى جعلتـه يسيطر على كثير من عناصر الطبيعة وأفعالها ، ومن هنا نتجت فوائد مادية عجيبة لم تكن فى الحسبان ولا خطرت على قلب إنسان . وزيادة على ذلك استطاع الفلـكيون أن يصلوا إلى نتائج باهرة فى تاريخ الـكون وعمره فثبت لهم أن الانسان لا يزال عند مبدأ حياة جنسه ، وأنه لا يزال عند فجر يقظته العقلية ، وأن تاريخه كله ليس إلا طرفة عين إذا قيس بأعمار النجوم ، وأنه ليس فى استطاعته أن يتفهم كل عجائب الأكوان وغرائب الوجود ، ولما يمض على ظهور عقله إلا دقة واحدة من دقات ساعة الفلك ، وأنه كلما تقدم

في الزمن وقف على مدهشات وعجائب تحير العقل ، وتخلب اللب ، وتثير الدهش ، وتزيد في العبر

والآن ... وبعد أن ظهر لك بعض الفوائد التي جنتها البشرية من هذا العلم السامي المبني على أدق القوانين الرياضية والطبيعية ، وبعد أن تبين لك أثر بحوثه على عقلية الانسان ، بعد كل ذلك هل من الانصاف أن يقال إنه علم غير مفيد ؟

أوليس الانصاف والعدل يقضيان على الانسان أن يعترف بسموه وسحره الحلال الأخاذ ؟

أليس الوقوف على أسراره ومحاولة كشف غوامضه مما يزيد المرء اعتقاداً بضآلته وشعوراً بأن الواجب عليه أن يكون كثير التواضع وفي الذروة العليا من سمو الخلق ؟

ثم أليس هذا التواضع وذاك الخلق السامي من العوامل الأساسية في سعادة البشر وطمأنينتهم ؟

وأخيراً أليست السعادة والطمأنينة هما الغاية التي يصبو اليها الانسان على سطح هذه الكرة العجيبة ... ... ؟؟

(نابلس) قدري حافظ طوقان

بيوولف

BEOWULF

أقدم ملاحم الانجليز الشعرية

للأستاذ حسن عبد الحليم اليماني

تمهيد تاريخي :

يرجع أصل الانجليز إلى قبائل الانجلو سكسون التي كانت تنزل الأراضي المنخفضة الألمانية في الجزء الممتد من مصب نهر الالب إلى شاطئ البلطيق ، وذلك قبل أن يدعوهم البريتون سكان الجزر البريطانية الأصليون في عام ٤٤٩ م لطرد قبائل الفال التي وفدت على بلادهم مستعمرة . وحلا لهم بعدها البقاء ، وتكاثروا حتى غلبوا أهل البلاد على أمرهم ؛ فبرزت إلى الوجود ثلاث ممالك انجليزية ضمت تلك القبائل المتفرقة ؛ وهي ممالك : نورثمبريا ، ومرسيا ، ووسكس Northumbria, Mercia and Wessex ، وذلك في أواخر القرن السادس الميلادي . وكان الانجليز قد حملوا معهم نصيباً من الأدب المتوارث تواتراً عن موطنهم الأول . ولم تكن لهم حروف صالحة لتدوينه ؛ حتى إذا اعتنقوا المسيحية ، عرفتهم إلى حروف الرومان الهجائية ، فسجلوا بها ما وعته حوافظهم من ذلك التراث . وقامت في هذا الصدد محاولات ناجحة ، ازدهر بها سوق الأدب ونفق ، وخصوصاً على يد أهل نورثمبريا التي قامت على رعاية الأدب وحفظه ، فدونوا الملحمة الشعرية « بيوولف » التي سنتكلم عنها كما سجلوا غيرها من آدابهم وتواريخهم . ونمت تلك الحركة إلى أن صدمها الغزو الداناركي الذي عاود البلاد مرتين ؛ ثم شلها بعده الغزو النورماندي عام ١٠٦٦ م ، فأوقف نماءها قرابة قرن ونصف قرن . فالذي خلص لنا من تراث ذلك العهد إنما يمثل لنا في صدق صميم الروح الانجليزية ، قبل أن تسمها مياسم جديدة من أثر الاختلاط بين الانجليز والبريتون ثم بينهم وبين الداناركيين والنورماند اجتماعياً وسياسياً ؛ وقبل أن تطبعهم المسيحية بطابعها . كما أنها ترسم لنا تلك المحاولات الأولى التي قام بها الانجليز في سبيل تدوين أدبهم والتعبير عنه ؛ وتوقفنا على التدرج الطبيعي الذي لازم تلك الجهود من دور إلى دور .

بيوولف

بيوولف ملحمة شعرية طويلة فيما يزيد على ثلاثة آلاف بيت نظمت – على الأرجح – في مستهل القرن الخامس الميلادي ، قبل أن يزايل الانجليز موطنهم الأول إلى بريطانيا . وطابعها المميز لا يقوم على أنها أقدم قصائد الانجليز عهداً ، بل على أنها أصدق صورة للمجتمع الانجلوسكسوني القديم ، توضح لنا في جلاء حياة القوم في وطنهم الأول ، وترسم لنا أخلاقهم وعاداتهم ، وتنفذ إلى أكواخهم ودخائل معايشهم ، وتسجل تاريخهم وأيامهم . فقيمتها لهذا لا ترتكز على الناحية الفنية فحسب . أما عبارتها فأنيقة موجزة ، تطرد كل الاطراد مع الموضوع الذي تؤرخه وتروي حوادثه الحربية ، في سرعة وتسلسل لا يفقدانها توازنها ، أو يبعثان إلى سطورها مللا وسآمة . وهي وإن كادت تخلو من التشبيهات التي لا تعدو خمسة ، فبها كثير من الاستعارات الجميلة البسيطة . والشعر السكسوني لا يأبه للوزن والقافية ، وإنما يعتمد كل الاعتماد على النبرات والمقاطع المشددة ، يكاد يلتزمها في كل جزء من أجزاء البيت ، فلا يكاد يخلو جزء من ثلاث كلمات مشددة ، تتشابه كلها في حرفها الأول غالبا

وبيوولف قطعة رائعة نادرة من الأدب القديم ، ظلت حبيبة إلى قلوب الانجليز ومشاعرهم خلال عدة قرون ، وإن كادت تختفى اليوم وتنسى إلا من كتب الأدب . وكثيرا ما أوحت إلى الشعراء وأمدتهم ببضاعة حية زاخرة ، وآخر من نلمس أثرها فيه منهم شاعر اسكتلندا الكبير وليام دنبر William Dunbar (من حوالى سنة ١٤٦٠ إلى سنة ١٥١٣ م) . وهى إلى هذا لا تخلو من سطوة الخرافة عليها ، شأن الملاحم القديمة ، تلك الخرافة التى أنتجها الخيال الآرى الخصب ، والتى تظهر لنا واضحة جليـة فى آداب الاغريق والرومان والتيوتون (آباء الأنجلوسكسون) ، والتى نراها تتسلل إلى أساطير الفراعنـة أيضاً . وهى فى كل حالاتها تحاول أن تمجد الانسان وترفعه — على صور عدة — إلى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة ، وحتى تنتظمه وإياها فى وشائج وأنساب متشابكة متداخلة ؛ على أن أسطورتنا هـذه لا تسمو بيطلها إلى حيث يختصم الآلهة وينتضـل الأرباب ، بل تقنع بتوجيهه إلى أغوار الجن والمردة ، يصارعها وتصارعه ، حتى يغلب أشدها مراسا وأقواها أيداً

ولغة القصيدة لا تكاد تفهم اليوم ، فقد نبَتْ واستوحشت . وحوادثها تدور حول البطولة الوثنية وحول حياة قبائل البلطيق فتتخذ لها مسرحا أرض زيلند وجوتلند وخليج البلطيق الذى يفصلهما .

حكم زيلنـــــد [1] ـ فى الماضى السحيق ـ الملك روثجار Hrothgar وكان أبدا مظفراً فى حروبه ، ظاهرا فى غزواته ، تضفى عليه تلك اسماً عريضاً ، وتدر عليه هذه أسلاباً وغنائم ، حتى إذا أتخمه الخير ، وفاضت خزائنه غنى ، ابتنى له ولفرسانه قصرا منيفاً Heorot جميل الأبهاء فسيح الأرجاء ، موشى الجوانب مستفيض الرونق ، يقيمون فيه نهارهم لاهين فرحين ، وليلهم قاصفين ثملين — وإلا فمن أولى من الأبطال الميامين بساعات تروّح عنهم أكلاف الحرب وأثقال النزال ؟

قام القصر على أرباض شاطئ رملى ، ينداح حتى ينتهى إلى مجاهل موحشة ، تتاخم أغوار الماء حيث يقيم المارد جرندل Grendel المخيف فى رفقة أمه ، وكان الفرح والنور أعدى أعداء ذلك المارد ؛ جرى فى دمه بغض متأصل لهما ، ما يكاد ينفذ إلى حواسه منهما دبيب أو بريق ، حتى يثور داؤه ، وحتى يود لو التهم هذا القصر الذى ما عرفت حياته غير الفرح والنور ، وبعث به إلى فمه لقمة تنساغ بالبرد والراحة إلى جوفه . وبيّت أمراً ما زال يتربص له الفرص متلصصاً حول القصر ، حتى إذا آنس من أهله غفلة ران بها عليهم كرى ثقيل ، وذبات الأضواء وخرس الصخب ، انساب إلى القصر خفياً ، ثم كرّ عنه وفى قبضته ثلاثون فارسا . حتى إذا تنفس الصبح ألهب القصر شجىً وأقام بأرجائه مناحة !

وتمضى اثنا عشر عاما قاسية مريرة ، يفجع فيها المارد قصر هيوروت Heorot فى كل ليلة ، وينفلت سالما فى كل مرة بضحاياه لا تطفأ له حفيظة أو يرد سغب ، حتى أوشك القصر أن يقفر من رجاله ، وحتى تهاوى الملك روثجار منحدرا إلى الضعف والهرم ، يثقله الحزن وتتلقفه الفواجع وترامت الأنباء وملأت الأسى كل قلب ، حزنا على ذلك الملك المجيد ، وعلى ما ألم به من مصائب لا تكاد تبين !

وفى قصر هايجلاك Hygelac ملك جوتلند ، حيث يعيش قريبه الفتى بيوولف Beowulf ترددت أنباء الفجيعة ، فدلفت من أسماع الفتى إلى قلبه ، وحركت فيه توقا إلى ملابسة هـذا المشهد ، وإلى الاستمتاع بمصارعة ذلك المارد ، الذى طغى وطغى حتى لا مزيد على طغيانه . كان فتى خارق القوة ، يختزن كفه بأس ثلاثين رجلا ، يملك على نفسـه حب المخاطرة سميا وراء الاسم ونشوة النصر ، وفى خمسة عشر من صفوة رجاله احتواه السفين فجرا ، ميمما مملكة زيلند ، حتى طالعتهم صخورها تلتمع فى أضواء الغسق الخفيفة فى فجر اليوم التالى . وقابلهم حارس الشاطئ فى شك ، وما تم أن صحبهم إلى القصر كما طلبوا . وهنالك على الأبواب ألقوا بتروسهم ومزاريقهم ، وخفوا إلى لقاء الملك فى خوذاتهم الذهبيـة ، وقد زادتهم بهاء وروعة « ودب إلى روثجار بمرآهم دبيب الصبا وعاودته أحلام الفتوة » وأفضى إليه بيوولف أنه جاء فى طلب المارد ، عله يريح الشعب الصديق من شره وأذاه . ورحب الملك بمعونته شاكرا . ودوّت أبهاء القصر مرحبـة بالضيوف البواسل ، ومضى النهار وشطر من الليـل فى قصف وشراب وغناء ورقص . حتى إذا دنا موعد قدوم المارد تسلل كلٌ إلى فراشه وخلا البهو لبيوولف ، يلتفع الظلال ويتخفى بها متحفزاً للقاء معداً له عدته

برز المارد من مكمنه فما هى إلا أن ولج باب القصر ، حتى

(١) عربت هـذا الملخص فى قليل من التصرف عن المستر . ج لوجى روبرتسون .

احتواه بهوه ، تومض عيناه شررا ، وتنطلق ضحكاته عريضـة ، وقد وجد سبيله ممهدا ؛ فالـكل غاف مستغرق . وتناول أقرب النوّام إليه فعبّ دمه ثم التهمه ، ودار إلى فريسـة أخرى ، وإذا بقبضة بيوولف الجبارة تشل ساعده . أذهلته الفجاءة ، ولـكنه ما لبث أن أفاق إلى صراع عنيف مع بيوولف ـ واهتز القصر تحت أقدامهما ، وتهاوت السرر ، وتحطمت المقاعد ، وفزع النوّام على ذلك المشهد المروع . وجاهد المارد طويلا واستجمع بطشـه ، لا ليحطم بيوولف كعهده ببني البشر ، وإنما ليقنع بالافلات تاركا لقبضته كتفاً مخلوعا وذراعاً مفصولا !

وجاء الفجر ، فخرج بيوولف برجاله فى أثر دمائه المنزوفة ، وهنالك على الشاطئ طالعهم الماء أحمر قانيا وقد صبغه الدم المسفوك ، فأيقنوا أن المارد قد ودّع الحياة إلى القاع قبرا يطويه ، فلا نشور له ولا رجعى . فيا للفرح يثير البلاد ويملك عليها المشاعر ! ويا لبيوولف يخب فى الخلع ، وتثقله الجوائز !

استطاعت الأجفان أن تطعم النوم فى ليلتها تلك ، ولـكنها نامت عن أم ثكلى ، قرّح الدمع أجفانها ، وتحلبت شفتاها قرماً ، وعصف بها طلب الثأر . وفى هدأة الليل هاجت أم المارد القصر ، وأهله تستغرقهم أحلام النصر ، ومضت عنه ومعها ذراع ابنها وأحد النبلاء انتقاماً للقتيل ، وإرواء لهامته ! وهب الغافلون فزعاً فاذا بها تمضى إلى وكرها كالريح الخاطف ، الأمر الذى أحنق بيوولف فأقسم ليلحقنها بابنها وشيكا

خرج بيوولف برجاله صباحاً يقتصون أثرها ، ويذرعون تلك المجاهل الموحشة ، فاذا بها أرض عذراء تكتنفها الخوانق ، وتقطعها الأخاديد ، وترقشها برك ومستنقعات آسنة ، تعج بحياتها وثعابينها ، يتحدر عليها الماء من شعب خفية فى الصخور ، فكأنه ينضح عن مزن ملئ وسحاب عامر ، ثم تغوص هذه البرك مدومة إلى كهوف غائرة ، بينا تلتهب هنا وهنالك — على سطح الماء — نيران خاطفة غريبة . « فلو أن قنيصة أنهكها الطراد ، وحوم على عنقها الشرك ، رأت فى أكنافها خلاصاً من موت محقق ، لآثرت عليها ذلك الموت ، ولوجدت فى ورده مشرعاً أعذب من وردها ! » وإذ وصلوا فى تطوافهم الى حيث صرع جرندل المارد بالأمس فخضب الماء بدمه ، رأوا الصخور تعمر أحجارها بنفر من الجن ، وخف بيوولف إلى قوسه فأردى بسهم منها واحدا من هذا النفر — ثم استل سيفه الماضى Hrunting وغاص بعيدا بعيدا إلى الأعماق فى أثر الجن الغائص هرباً . ظل بيوولف على غوصه يوماً كاملا ، حتى إذا قارب القاع أطبقت عليه أم المارد — وكان خلقها وسطاً بين الانسان والذئب — ثم حملته إلى كهفها ، حيث ثار بينهما نضال لم يغن فيه سيفه ولم ينل من لحمها الصفيق المعضب ، وإنما أجدى عليه كفّـه الجبار يمسك الجنيّة فلا تحير منه خلاصاً ، وواتته الفرصة فلمح سيفاً حديدا من سيوف المردة ، سرعان ما خطفه وأهوى به على رأسها فعزله . وأدار بيوولف بصره فاذا جثة المارد صريع الأمس — التى لا روح فيها ، وبالسيف الذى أودى بالأم فصل به رأس الابن ، وسبح بيوولف بالرأسين — مخلفاً وراءه كنوزا لم يابه لألاؤها — وما زال يعلو إلى السطح ورأس المارد ينزف دماً ، حتى صبغ الماء ، وملأ قلوب رفاقه عليه فزعاً ، وقد طاف بهم أن دمه هو ذاك الذى خالط الماء ومازجه . وما كان أروع اللقاء وقد برز اليهم سالماً صحيحاً ! وحمل الرفاق رأس المارد ورأس أمه وألقوا بهما تحت أقدام الملك ، واستأذنه بيوولف فى الرحيل قائلا : « آن لك أيها الملك أن تهدأ بالا ، وأن يعرف النوم سبيله إلى عيون فرسانك » وانقلبت البلاد إلى شعلة من الفرح ، وأقلع بيوولف فى عصبته إلى جوتلند ، تنوء رحالهم بالهدايا ، وتسير بذكرهم الركبان

وأتى حين بعد ذلك سمى فيه عرش جوتلند إلى بيوولف ، واعتلى تاجها رأسه ، فحكم شعبه خمسين عاما عادلا شجاعا ، لا يمل الغزو والجلاد . وكان آخر عهده بهما خروجه لقتال مارد مخيف أقام فى كهف من الـكهوف يحرس فيـه كنزا نادراً . وفعلت قبضة بيوولف فعلها فى المارد فأوردته الردى ، إلا أن حرّ أنفاس الجنى أتلفت جسمه ، ونفذت إلى دمه فسممته ، نتيجة لاشتباكهما فى صراع عنيف طويل ، واحتواه بعدها فراش السقم حيث غلبه الداء ومات . وعلى صخرة عاليـة يستشرفها البحر ، وتشرئب إليها المروج الخضراء ، أقام أهل جوتلنـد نصباً من خشب الصنوبر الثمين ، علقت عليه الدوع ، ورفت عليه السيوف ، مثوى لجثمان مليكهم العزيز . وتنفيذاً لوصيـة بيوولف أضرموا النار تلتهم النصب ووديعته ، وتلاشت من أمام أعينهم رويدا رويدا صورة مليكهم الدنيوية ، حيث وجدت طريقها إلى السماء على ألسنة اللهب الصاعدة مع الهواء !

حسن عبد الحليم اليمانى

مكانة مصر فى المغرب العربى

للأستاذ محمد السعيد الزاهرى

يشاع اليوم فى الجزائر أن الآنسة أم كلثوم قد أزمعت أن تقوم بسياحة فى بلاد المغرب وأن حكومة مراكش قد رفضت أن تسمح لها بدخول المغرب الأقصى . قالوا ولذلك عدات الآنسة عن زيارة المغربين الآخرين (الجزائر وتونس) وهذه هى المرة الرابعة التى نسمع فيها هذه الاشاعة تتردّد فى أرجاء المغرب العربى وتكون مشغلة الرأى العام فيه ويهتم لها الناس ويتدهون فى شرحها والتعليق عليها بمختلف الآراء والأقوال : فهذا يقول لقد أحسنت السلطات بذلك إلى أهل مراكش ووفرت عليهم أعراضهم وأموالهم بمنع المطربة المصرية من دخول هذه البلاد ، إذ لو أن هذه الآنسة زارت مراكش لملكت على أهلها قلوبهم وأهواءهم ، ولذهبت بعقولهم وألبابهم ، واستولت على أموالهم وعلى ما كسبت أيديهم ، ولكانت عليهم فى الآخر نكبة مالية كبرى لا تقل فى فداحتها وقسوتها عن هذه الضائقة العاتية التى أهلكت الزرع والضرع وأخذت بمخانق الدنيا كلها ؛ وذلك يقول لقد ضيّقت السلطة بذلك على المغاربة حريتهم الشخصية ومنعتهم مما تهوى إليه أفئدتهم وحالت بينهم وبين ما يشتهون ؛ وهنالك آخر يقول غير هذا

ومهما اختلف الناس فى تفسير هذه الاشاعة وفى تأويلها فانها تدل على شىء واحد وهو أن هذه الآنسة قد غزت بصوتها اللائكى الطروب قلوب هؤلاء الناس ، وأن منزلتها فى بلاد المغرب العربى لا تقل عنها فى مصر ، وأن المغاربة يتذوقون فنها وغناءها كما يتذوقهما المصريون

قالت مجلة « السلام » الغراء التى كانت تصدر فى مدينة تطوان فى بعض أعدادها إن المغاربة مولعون بالموسيقى المصرية وبالتلاحين المصرى إلى حد الهيام ، حتى أن الموانق فى خدورهن ليهتفن بأم كلثوم ويترنمن بألحانها وأغانيها . ولقد رأينا بعض المراكشيين المشهورين بالتدين والصلاح قد طرب وانشرح ونسى أنه من أهل الورع والتقوى ، ولم يزل به الطرب والانشراح حتى خرج عن رزانته ووقاره إلى حالة من العبث والطيش تشبه أن تكون جنوناً ، وذلك حين سمع فى « الفونوغراف » صوتاً للأستاذ محمد عبد الوهاب . ولا تجد فى المغرب الأقصى داراً فيها « فنوغراف » إلا وتجد كل اسطواناتها أو جلها مصرية لأم كلثوم وعبد الوهاب وسامى الشوا ومن إلى هؤلاء . وتباع الاسطوانات المصرية هنا بثمن مرتفع قد يفوق ثمنها الأصلى أضعافاً مضاعفة . ولقد مرت علينا أيام رأينا فيها أسطوانات أم كلثوم وعبد الوهاب تباع الواحدة منها بثلاثة جنيهات انكليزية قبل هبوط الاسترلينى

والواقع أن الألحان والأغانى المغربيــة التى كانت إلى عهد قريب منتشرة شائعة فى المغرب العربى قد اختفت اليوم من الميدان ، وتخلت عن مكانتها من الذوق المغربى العام لألحان مصر وأغانيها ، ولا نستثنى هذا التراث الذى بقى بأيدينا من فن الأندلس وغنائها فقد تزحزح هو الآخر عن مكانه للغناء المصرى وترك له المجال واسعاً فسيحاً

ولما اعلنت الحكومة المصرية أنها ستفتح فى القاهرة محطة للاذاعة اللاسلكية تهالك الناس فى الجزائر وتونس ومراكش على أجهزة المذياع (الراديو) يشترونها ويقتنونها رجاء أن يستمتعوا بسماع ما تذيعه مصر من الأغانى والمحاضرات ، ولكنهم عادوا فجعلوا يبيعون أجهزتهم ببعض قيمتها عند ما تبيّن لهم أن المحطة المصرية لم تكن محطة عالية يمكنهم سماعها

كل هذا دليل على أن الذوق العام فى بلاد المغرب العربى هو نفس الذوق العام فى مصر ليس بينهما شديد خلاف . ولعلّ تونس ومراكش هما أرق من هذه الناحية ، فالحياة فيهما مترفة ناعمة تؤثر الطرب والسماع ، وتميل إلى اللهو والاستمتاع ، بخلاف الجزائر فانها عريقة فى البداوة ، مطبقة الجهل والأمية ، لا تزال تغلب عليها حياة العشائر الأولى ، تشعر القبيلة فيها بأنها قبيلة وكفى ، وقلما تشعر بأنها شعبة من الجزائر فضلا عن أن تشعر بأنها من الأمة المغربية أو الأمة العربية الكبرى . ولعل مدينة وهران قد ضربت الرقم القياسى فى البداوة والأمية وفى البُعد عن العالم العربى دون أنحاء الجزائر كلها ، ومع ذلك فكل مقهى من مقاهيها ، وكل بيت عربى فيها ، فيه « فونوغراف » لا يخلو من الاسطوانات المصرية ، وإننا لنسمع فيها الأنغام الساذجة البسيطة التى تحاكى رسيم

النجائب وخَبَبَ الجياد إلى جانب الفن والابداع فى أنغام أمّ كلثوم وعبد الوهاب

ولما عرض فيها للمرة الأولى الشريط المصرى « أنشودة الفؤاد » أقبل عليه هذا الجمهور العربى فى وهران إقبالاً منقطع النظير طيلة ثلاثة أسابيع ، وبعد بضعة أشهر عُرِضَ المرة الثانية واستمر عرضه ثلاثة أسابيع أخرى فكان الناس إلى الحفلة الأخيرة يتدافعون إليه بحماسة وشوق لا نظير لهما حتى أن منهم من شاهده عشر مرات !

وعند ما أزمعت فرقة مصرية للتمثيل الهزلى أن تقوم برحلة فى بلاد المغرب قالت عنها جريدة مصرية مُحترمة إنها ستبوء بالفشل الذريع ، وستقنع من الغنيمة بالاياب ، أو أنها على الأقل ستكابد فى مهمتها ألوانا من المشقة والعناء ما لم تترجم مسرحياتها من اللغة المصرية إلى اللغات المغربية . وقامت هذه الفرقة برحلتها ونجحت فى مهمتها نجاحا باهرا لم يكن يخطر لها على بال ، وتذوّق المغاربة رواياتها وفكاهاتها وأدركوا مغزى « النكتة » المصرية من ملهياتها من غير أن تضطر إلى ترجمة كلمة مصرية واحدة إلى اللغات المغربية ؛ وبعبارة أخرى إن هذه الفرقة وجدت نفسها فى بيئة عربية مغربية لا تختلف عن مصر إلاّ كما تختلف الهيئة المصرية نفسها باختلاف المديريات والأقاليم ، ووجدت أن كل ما يقال من وجود لغة مصرية ولغات مغربية هو من الأوهام الباطلة التى لا أصل لها ، وإنما يوجد لسان عربى واحد تتكلمه الشعوب العربية (مصر وأخواتها) بلهجات تختلف اختلافا لا يحول دون التفاهم بين الناطقين بالضاد ، ولا توجد فى الدنيا لغة إلا ولها لهجات تختلف فيما بينها اختلافا كثيرا أو قليلا

وكثير من الغربيين من يعتقدون أن الشعوب العربية تتكلم اليوم لغات مختلفة متباعدة فيما بينها ، وبعيدة كل البعد عن العربية الفصحى التى أصبحت فى نظرهم لغة مواتا . كما أن الشعوب اللاتينية تتكلم اليوم لغات متباعدة فيما بينها جدا حتى لا يمكن للفرنسى أن يفهم الاسبانية أو الايطالية دون أن يتعلمها ، وهذه اللغات هى الآن بعيدة عن اللغة اللاتينية التى هى أصلها

وفى هذه الأيام نشرت صحيفة فرنسية تصدر بالجزائر مقالا عن الحج إلى بيت الله الحرام عنوانه : « اللغة الفرنسية فى مؤتمر مكة » زعم فيه كاتبه أن حجاج الجزائر ومراكش وتونس وطرابلس ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق سيتفاهمون فى « مؤتمر مكة » لهذا العام باللغة الفرنسية ، لأن لكل فئة من هؤلاء الحجاج لغة قومية لا يفهمها الآخرون ، ولأن الفرنسية منتشرة بين جميع الطبقات فى هذه الأقطار . وأبى أن يرجع إلى الصواب إلا بعد أن رأى بعينيه وسمع بأذنيه بحارة مصريين يتحادثون مع بعض العملة الجزائريين والمراكشين من غير أن يكون بينهم ترجمان !

وكان عالم فرنسى من علماء المشرقيات جاء بلاد المغرب مندوباً من وزارة المعارف الفرنسية لدرس اللهجات العامية المغربية ، فلبث فى هذه البلاد يبحث ويدرس ويستقرئ ، ثم رفع إلى الوزارة تقريرا بالنتائج التى انتهى اليها فى دراسته وأبحاثه ، ونشر هذا التقرير واطلعنا عليه فاذا هو مملوء بالأغاليط والأضاحيك ، فقد زعم فيه أن عربياً تونسياً تزوج فتاة عربية من بجاية (الجزائر) فلم يستطع الزوجان أن يتفاهما — لتباعد لغتيهما القوميتين — إلا بالفرنسية التى لم تكن تلم بها الزوجة إلا إلماماً قليلا . والحق أن هذا التقرير هو دعوة صريحة إلى إيجاد فروق بين اللهجات المغربية وإلى تجسيم ما يكون منها موجودا بالفعل

وحدثنى ذات يوم فنان فرنسى قال : « كنت أعتقد أنه لا بد أن يأتى يوم على المغاربة يصيرون فيه فرنسيساً خُلّصاً من حيث تذوق الفن والشعور بالجمال ، غير أنى رجعت الآن عن اعتقادى هذا ، فقد مضى على فرنسا فى الجزائر مائة وبضع سنين لم تستطع أثناءها أن تجعل العرب الجزائريين يقبلون على الأفلام الفرنسية ، أو يطربون لسماع عازف فرنسى مهما كان محسناً بارعاً ، أو يتذوقون غناء فرنسياً مهما كان منسجماً ساحرا يستهوى القلوب ويأسر الألباب ، على حين نرى المغاربة جميعاً يقبلون الاقبال الذى لا نظير له على الأفلام المصرية وتستهويهم مصر بأنغامها وأغانيها ، ويعجبون الاعجاب كله بالفنانين المصريين » . ثم قال : « ولقد راعنى اقبال هؤلاء الناس على شريط الوردة البيضاء وتهالكهم على مشاهدته ، فشاهدته أنا أيضاً ، ولكننى لم أجد فى هذا الشريط ما يعجبنى ، على أن جميع من فى المسرح كانوا

يشاهدون عبد الوهاب وكأنما هو ملك كريم قد هبط اليهم من السماء ، وينصتون لصوته وكأنما هو نغم إلهي يتنزل عليهم من الملأ الأعلى »

وما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية أو الاجتماعية إلا وهو مصري غالباً ، فمثلا كتاب « مختصر خليل » في الفقه الاسلامي على مذهب الامام مالك بن أنس هو كتاب مصري قد جمل أفئدة من الناس في المغرب تهوى إلى مصر ، له منزلة سامية في قلوب المغاربة يخصونه بكثير من التقديس والاحترام ، ومنهم من يتعبدون بتلاوته كما يتعبدون بتلاوة القرآن الكريم ؛ ولم يعد خافياً أمر ذلك الفقيه المرحوم الذي كان يصلي « النافلة » بهذا الكتاب ويقوم به الليل عابدا متهجدا ؛ ولا أذيع سرا حين أقول إن هذا « المختصر » لا يزال له إلى الآن في كلية القرويين بفاس « حزّابة » كما للقرآن « حزابة » ، وهم يتقاضون أجورا أوفر وأسنى مما يتقضاه « حزابة » القرآن العظيم ؛ ولتلاوته هذه الراتبة أوقاف كما لتلاوة القرآن أوقاف . وفي بلاد المغرب طبقة من المحافظين يقولون عن أنفسهم إنهم « خليليون » ، وأهل المغرب جميعاً هم مالكية ما عدا وادي ميزاب بالجنوب الجزائري وجربة بالقطر التونسي ، فان أكثر أهلهما أباضية ، ولكنهم قليلون جدا فعددهم لا يتجاوز الخمسين ألفا ، بينما تَمُدّ الجزائر وتونس ومراكش من الأنفس خمسة عشر مليوناً يجلون هذا الكتاب ويرفعونه إلى أعلى مقام ، حتى النساء في خدورهن لا يفصل الخصومات التي تثور بينهن إلا الحلف بهذا الكتاب !

ولا يزال المغاربة ينظرون بعين الاعتبار إلى كل من طلب العلم بالأزهر الشريف ، ولو أنه كان قليل التحصيل ، ويعترفون بالفضل لكل من أقام في مصر أو رآها

وفي بلاد المغرب طرق صوفية منتشرة بين سائر الطبقات لها أكبر الأثر في العقائد والأخلاق ، وأكثر هذه الطرق مستمد من الشيخ البكري المصري ، فأتباع هذه الطرق ومريدوها يحبون البكري ويرون لهم فيه « الشيخ الممد » فيرفعونه فوق كل الاعتبارات

وما أنت بواجد ولا مغربياً واحدا إلا وهو يحفظ كثيرا أو قليلا من شعر ابن الفارض الصوفي المصري المشهور

وكل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القويّ في هذا المغرب العربي ، فللأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده المصري أنصار ومريدون . وفكرة الاصلاح الاسلامي التي كان يدعو اليها أصبحت اليوم في الجزائر مذهباً اجتماعياً تعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس وتقوده « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » . وكل أديب كبير في مصر له أنصار وأشياع في بلاد المغرب ، فللأديب الامام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أنصار ومعجبون وهو أكثر الأدباء المصريين تلامذةً وقراءً في هذه البلاد . وللمرحوم قاسم أمين أنصار يدعون المغربيات إلى السفور وترك الحجاب ، غير أن دعوتهم لم تجد ملبّياً ولا مجيبا فأخفقت إخفاقا شديدا . والزعماء المصريون منازلهم من قلوب الناس هنا . والمطبوعات المصرية تحتل المقام الأول عندنا ، سواء في ذلك الصحف والكتب والمجلات .

والصحف المغربية لكثرة ما تروى عن مصر وما تنشر من أخبارها تكاد تكون طبعات مغربية لزميلاتها المصريات . على أن هذه الصحف المصرية الكبرى لا تهتم لبلاد المغرب إلا قليلا ، ولا تتكلم عنها إلاّ كما تتكلم عن مجهل من المجاهل التي لم تطأها قدم إنسان ، فمن خلط في أسماء المدن المشهورة بالمغرب وفي أسماء الأشخاص البارزين الى حوادث تحوكها عن المغرب وتخبط فيها خبط عشواء

ويقول الشبان المغاربة الذين يطلبون العلم في جامعات فرنسا أنهم تعرفوا الى الطلبة السوريين فعرفوا فيهم العروبة والاعتزاز بها ووجدوا منهم إخوانهم وذوي قرباهم ، وتعرفوا الى الطلبة المصريين فعرفوا فيهم رقة الشمائل ودماثة الأخلاق وما شئت من لطف وأدب ، وأنكروا منهم هذه « الفرعونية » الجافية التي تجهلنا وإياهم كما قال شاعر العروبة الأستاذ ابراهيم طوقان :

أحب مصر ولكن مصر راغبة عني فتعرض من حين إلى حين

إن تاريخ هذه البلاد حافل بالشواهد والبينات على أن المغرب يرتبط بمصر منذ العصر الحجري بكثير من روابط النسب والحضارة والدين

وإن الذي هو ما بيننا وما بين مصر لمحض النسب
رباط العروبة يجمعنا ويجمعنا ديننا والحسب

ولكن هل يمكن أن يبعث من جديد ما كان بين المغرب ومصر من الروابط وصلات القربى ؟

وهران (الجزائر) محمد السعيد الزاهري

رسائل حاج

من ربوع الغـــرب إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى
الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

لثلاثين عاماً خلت وأمنيتي الوحيدة الاشتراك في موكب الحجيج والذهاب إلى مكة، حيث بزغ فجر الاســـلام، وانتشرت دعوة النبي الكريم وتعاليمه المقدسة. وقد انبثق في نفسي هـذا الشعور إثر مشاهدتي رسوماً فوتوغرافيـة نشرت في إحدى الصحف الأوربيـة الكبرى عن



الدكتور جرمانوس في لباس عربي

سياحة قام بها أحد الرحالين وتحدث فيها عن عجائب الشرق حيث تسطع الشمس طول النهار، ويريق القمر أشعته الفضية فوق رمال الصحراء في الليل

وكان الأثر الذي تركته هذه الرسوم والمناظر الفتانة عميقاً في نفسي، وباعثاً لاقبالي على تعلم اللغة التركية، وعلى زيارة الشرق مهد الديانات الحديثة ومهبط الوحي المقدس

ولكن الأمور جرت في شيء من البطء، أي أكثر مما تخيلته في البدء، فمشاغل الحياة والواجبات اليومية الملقاة على عاتقي وقفت عقبة في سبيل تحقيق تلك الأحلام الذهبية التي تطوف بذهني وتجذبني نحو الاسلام . . . وأخيراً دعيت إلى زيارة الهند حيث قضيت بين ربوعها سنوات ثلاثاً لالقاء محاضرات عن التاريخ في جامعاتها، وهناك اعتنقت الدين الاسلامي في مسجد دلهي العظيم، ومن تلك الساعة أحسست من أعماق روحي بأنني أقترب من الغاية التي أرنو اليها بحيث يصبح في مكنتي الطواف بالبقاع الاسلامية المقدسة في مكة، والتعريج على المدينة مقر القبر النبوي الطاهر ومثوى سيد الخلق . . . .

ولكن كيف أذهب إلى الحج وأنا لا أعرف من العربيـة حرفاً واحدا؟ .... كيف أدرس «أم اللغات» وأنا في أوربا وبالأخص في بلاد نائية كالمجر لا يوجد بها من يتكلم بهذه اللغة التي هي في نظري أصعب من تعلم أربع لغات أوربية معاً ! ! ؟ وتلك لعمري كانت من أقوى العقبات التي وقفت حائلا بيني وبين تنفيذ رغبتي أو تحقيق أمنيتي في حينها

على أنه كان لي من قوة الايمان وثبات اليقين ما دفعني إلى الاقبال على تعلم هذه اللغة مهما بلغت العقبات وقامت الصعاب، فبـدأت أولا أدرس العربيـة بدون معلم وبواسطة كتب حصلت عليها من المكتبات الأوربية، ثم عكفت على قراءة القرآن الشريف بمساعدة المعاجم اللغوية، وحفظت عن ظهر قلب معاني الكلمات المبهمة والألفاظ المعقدة، وتابعت السير على هذه الخطة عدة شهور إلى أن أصبحت بفضل الله ورعايته ملماً باصولها. وفي خلال شهور الصيف أخذت أطالع قصص «ألف ليلة وليلة» والمعجم إلى جانبي، وكثيراً ما لاقيت صعابا كادت تفت في عضدي وتوهن من قواي، كالشعر الجاهلي الذي كان يبدو على الرغم من جماله وموسيقاه مبهما معقدا، فكنت من حين لآخر أقذف بالكتاب جانبا وقد قر في عزمي ألا أعود اليه مرة أخرى ليأسي من التقدم

وبمرور الزمان انتصرت على جميع الصعاب، ورحت أتفهم العربية في شيء من السهولة واليسر، مع أنني لم أسمع في حياتي صوت متكلم بها؛ ولما أيقنت مقدار ما تبطنه الظروف وأن هناك بعض النقص في إلمامي بالأدب العربي والشريعة السمحاء صممت قبل الشروع في زيارة البقاع الاسلاميـة المقدسة على أن أقيم فترة طويلة من الزمن في مصر حيث الأزهر الشريف مركز الثقافة الاسلامية ومحط العلماء

وفي الواقع كنت أسعد مخلوق في العالم عند ما ألفيت نفسي أدخر مبلغا من المال يساعدني على أن أطيل إقامتي على ضفاف النيل السعيد مهد المدنية والسلام

وعندما وطئت قدماي أرض القاهرة قوبلت بحفاوة عظيمة

من جانب أدباء مصر وصحفييها وغيرهم ممن مهدوا السبيل أمامى لاستكمال نواحى دراستى فى الأدب العربى ، والتعمق فى شعاب الدين الحنيف ، بحيث أصبح قادراً على صد هجمات كل من تسول له نفسه الافتراء أو التشويه من عظمة الاسلام فى أوربا

وكانت فكرتى مقترنة دائماً بأن أدرس العربيـة دراسة جامعيـة لا دراسة هواية ، شأن كثير من الترفين ممن يعكفون على تعلم اللغات لغرض السياحة أو بقصد القراءة الخفيفة المسلية ؛ وكنت أرمى من وراء دراستى الى القيام بخدمة الاسلام والمسلمين الذين وقعوا تحت نير الاستعمار الأوربى منذ قرون ؛ وقد كانت هـذه الغاية من أقوى العوامل التى دفعتنى للتقرب من المسلمين فى الهند وتركيا ومصر . وإن أنس لا أنس الظروف التى لاقيت فيها كثيراً من فقراء المسلمين الهنود ، وهم يعيشون فى بطون أكواخهم المشيدة من القش ، ويستضيئون بأنوار الاسلام فتتحول تلك الأكواخ فى أنظارهم إلى قصور وجنات بحيث يحتقرون مظاهر الجاه والثروة ويطأونها تحت أقدامهم

فالقرآن هو المثل الأعلى لتوجيه الانسان إلى الطريق السوى الذى يحتم على كل مسلم غيور ألا يحيد عنه قيد شعرة ؛ والمسلم الذى لم تعم بصيرته عن تلك الحقائق ويفقه تعاليم دينـه فقهاً صحيحاً يرى أن القبس الروحى يتأجج فى قلوب المسلمين جميعاً ممن لا ينكصون عن التضحية وبذل الواجب ، والذين يفنون ذواتهم فى ذات الغرض الاسمى ، ويأخذون على عواتقهم التغلب على كل أمر والتجول فى أنحاء العالم لنشر الدعوة وإظهار فضائل دينهم ومحاسنه

والواقع أننا قد نجد بعض مظاهر هـذه القوة فى الايمان عند بعض الأمم الأجنبيـة الأخرى ، لـكننى ألفيت فى قلوب إخوانى المسلمين كنوزا تفوق فى قيمتها الذهب والأحجار الكريمة ؛ ولقد عاشرت مسلمين فقراء كانوا لا يحجمون عن أن يقاسموا رفاقهم آخر كسرة مما يكونها من الخبز . . . كم استضافونى فى بيوتهم المتواضعة وأعطونى أعظم شىء فى الوجود ! . . إنهم منحونى إحساس الحب والتآخى ، ولقنونى عمل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعند ما أطلقونى من ضيافتهم فاهوا بحكمة نبيهم الكريم : « اطلبوا العلم ولو فى الصين »

***

وعقب وصولى القاهرة قصدت فوراً للاقامة فى الحى الوطنى المعروف « بسيدنا الحسين » ، لـكنى لم أوفق للحصول على سكن ملائم

لقد كنت فى خلال إقامتى الطويلة بتركيا أقطن فى غرفة رحبة مؤثثة بالطنافس الوثيرة والرياش الفخم ، وكنت أتناول أفخر الآكل الشرقية وأشهاها ؛ فمن مظاهر الحياة الاسلامية فن الطهى ، إذ يؤثر عن النبى الكريم أنه كان يحث الناس على العناية بمسائل الطعام وبالذبيح المحلل ، ولا تخفى الفائدة من وراء ذلك ، فاتباع الطرق الصحية ووسائل النظافة والعناية باللحم مما يزيد فى صحة الأجسام ومناعتها

كانت آمالى إذن قبل القدوم الى القاهرة أن أقيم فى بيت من تلك البيوت العربيـة الطراز ، وبين قوم يرتدون اللباس الشرقى الفضفاض ويتناولون الطعام بأيديهم ، ولـكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، فاننى لم أوفق فى الحصول على سكن ملائم ، فاضطررت الى الاقامة فى نُزل أوربى

ولكم تألمت إذ ألفيت أهـل القاهرة لا يلبسون الثياب الشرقية المزركشة ، ويستبدلون بالقفطان والعمامة شعار الاسلام — الأزياء الأوربية ، كما راعنى فى البيوت المصرية التى زرتها خلوها من الأثاث الشرقى ، وأن أجد الشباب المصرى يوجه عناية خاصة للالمام بأنواع الثقافات الأوربية المتعددة ، ويفرطون فى جانب لغتهم وقوميتهم ودينهم !!

ولقد قال أحد أصـدقائى المصريين فى معرض حديث له معى : « يستحيل علينا أن نعود الى تلك الأثواب الطويلة المهلهلة عند ما نبغى الصعود الى المركبات أو عربات الترام »

ولـكنى رأيت كثيراً من الناس يرتدون تلك الأثواب وما كان أجملهم فى نظرى وهم يتسلقون الترام أو السيارة بكل خفة ورشاقة والواقع أن تلك الملابس أفضل بكثير من الأثواب الأوربية الضيقة ، ولاسيما القبعات التى نضطر إلى أن نحملها بين أيدينا عند ما نجلس أو نزور أو نحيى أحداً

ومن رأيى أن الحصول على الأثاث الشرقى واللباس العربى والتطبع بالعادات الشرقية أمور يسهل اتباعها فى القرن العشرين من غير أن يفقد المصريون خصائصهم ومميزاتهم ، أضف إلى ذلك أن إحيـاء الصناعات القومية وإنعاش حال الأسواق الشرقية

٤ ـ سكان أعالى النيل

بقلم رشوان احمد صادق

وكان أهم ما يميز الملك والمدير أن كلا منهما قادر على التكهن فى الفصل فى الخصومات oracles وكذلك فى الأمور القانونية ، فكل الأمور التى تؤدى الى المنازعات مثل القتل والموت كل هذه كان يفصل فيها بواسطة التنجيم والتنبؤ ، وكانت هذه مصدر ربح عظيم للأسرة المالكة

والملك هو مصدر القانون وهو مطلق التصرف ، فله الحق أن يقتل من شاء حسب إرادته ، فسلطته استبدادية . وجماعة الأزندى يكونون وحدة سياسية ، ومركز الفرد وسلامته واستغلاله لموارد بلاده الاقتصادية كل ذلك متوقف على قيامه بالواجب عليه نحو النائب والمدير والملك

وكل قبيلة تعرف باسم عميدها ، فمتى مات أو قتل تشتت أفرادها . والقبائل هنا ليس لها أى صبغة سياسية ولا اقتصادية ولكنها ذات صبغة دينية . فنظام القبائل مؤسس على النظام الطوطمى ، إذ لكل قبيلة حيوان تقدسه وتحرم على أفرادها أكل لحمه ، إذ يعتقدون أن أرواح موتاهم تنتقل إليه . والرجل واخوته وأنجالهم يسكنون سوياً على ضفة مجرى مائى ، ويعملون معاً فى الزراعة والصيد وغير ذلك من شؤون الحياة . ويهتمون بشؤون كل فرد منهم كما يشتركون فى الدفاع عن أى فرد يصيبه أذى منهم ؛ وأكبرهم سناً يقوم بالقاء الوعظ والأرشاد على الصغار

أما من حيث الزواج ، فاذا أراد الرجل أن يتزوج فعليه أن يعطى أقارب زوجته من عشرين الى أربعين حربة ، وهذه الحراب لا تشترى عاله الخاص ، بل يهديها إليه والده وأعمامه ، وهذا قد أدى الى توثيق صلة الابن بالأب والأعمام

ومن أهم المظاهر الاجتماعية الشائعة بين الأزندى ، والتى يهتم بها كل فرد فى مجتمع الأزندى سواء فى ذلك الملك والصعلوك هى مسألة الحسد ، تلك المسألة التى تلعب دوراً هاماً فى حياة الأزندى الاجتماعية ، فهم يعتقدون أن أناسا كثيرين يحملون فى معدتهم الحسد ، وهذا الداء ينتقل من شخص إلى آخر بواسطة الوراثة ، فالرجل الحسود أبناؤه الذكور حسودون ، وأما بناته فليس كذلك ؛ والمرأة الحسود بناتها حاسدات وأبناؤها بعكس ذلك ؛ وكانوا يشقون بطون موتاهم لمعرفة ما إذا كانوا حسدة أم لا

وفى اعتقاد الأزندى أن السبب فى سوء الحظ هو الحسد ، فالمرض والموت وفشل الصيد وقلة المحصول كل ذلك سببه الحسد ، ولذلك عند حدوث شىء من هذا القبيل يبحثون عن الحاسد الذى سبب المرض أو غيره ، وبعد معرفته يخبرون الرئيس عنه وهذا يستدعيه إليه ويأمره أن يكف حسده وأذاه عنهم

والطريقة التى يستعملها الأزندى لمعرفة الحاسد هى طريقة التكهن أو التنجيم oracle . وأهم طريقة يستعملونها للتكهن هى الطريقة التى يسميها الأستاذ بريتشارد (بنج Benge) والتى يسميها الأستاذ سلجمان Poison - wood ordeal . وهذه تتلخص فيما يأتى : يحضرون بعض أنواع السم ويعطونه لدجاجة ويسألونها عند إعطائها هذه المادة عن الرجل الذى يشتبهون فى أنه هو الحاسد ، هل هو متهم أو برىء ؟ فان ماتت الدجاجة التى أكلت هذه المادة السامة فمعنى ذلك أن الرجل متهم ، وأنه هو الحاسد ، وأما اذا لم تمت فان الرجل برىء . فان أعيدت العملية مرات وكانت النتيجة ثابتة كان ذلك زيادة فى التأكيد ، فاذا مات رجل فان امرته تبحث عن الحاسد الذى كان سبب موته فان عرفوه بطريقة التكهن السابقة الذكر فانهم يقتلونه أو يدفع

متوقف على اقبال المصريين على عاداتهم الأصلية ، أما التقليد الأعمى والاتجاه شطر أوربا وترك الثقافة والتراث القومى جانباً فصفات يجب التخلى عنها

وليت الأمر وقف عند الحد الذى شرحته ، بل إن آمالى انهارت دفعة واحدة بمجرد أن زرت الأزهر وتفقدت الأروقة التى كثيراً ما قرأت عنها فى شبابى وتخيلتها فى أحلامى ، . . . فمقاعد التدريس لا تزال كما كانت منذ ألف سنة ، وبرامج التعليم ناقصة وغير مستوفاة لشروط الثقافة الحق ؛ ولم أر فى الأزهر سوى خلية للحكمة وبث التعاليم الاسلامية وقشور من العلوم الحديثة ؛ أما المعاهد الدينية فهى نماذج مصغرة لجامعاتنا إذ أن هذا النوع من التعليم يقود الطلاب فى سبيل البحث والاستقصاء والتعلم

عبد الكريم جرمانوس

(يتبع)

غرامة ، وهذه الغرامة تقدر بامرأة وعشرين حربة

وإذا قتل رجل فانه يحنط ، والمدير مسئول عن البحث عن الحاسد الذى تسبب فى قتله وذلك بواسطة التكهن (Oraçle) ولا يقوم بهذا العمل غيره

وأما فى الأحوال الأخرى التى تدل على سوء الحظ من مرض وغيره كما سبق شرحه فانهم يقومون بالبحث لمعرفة الحاسد بواسطة هذا النوع من التكهن ، فان عرف فانهم يخبرون النائب عنه حيث يستدعيه ويأمره بأن يكف أذاه وحسده عنهم

وهكذا يفصل فى كل الأمور القانونيـــة والمشاكل الاجتماعية بواسطة التكهن ، والحكم الأوروبى الآن يرفض الاعتراف بمسألة التكهن الذى شرحناه على الوجه السالف . ولكن الأزندى تمكن من إيجاد مفر من تشديدات الأحكام الجديدة فلجأ إلى السحر ، فاذا مات شخص فان ذويه يحضرون ساحرا ليقوم بعمل السحر والتعاويذ اللازمة لهلاك من تسبب فى موته بواسطة الحسد . ثم ينتظرون أياما وأشهرا ليروا النتيجة ، فاذا سمعوا بموت أحد من جيرانهم أو من أعدائهم أو ممن يشتبهون فيهم فانهم يقومون بعمل التكهن بواسطة الدجاجة كما سبق ذكره ويسألونها فيما إذا كان هذا الشخص الذى مات هو الحاسد الذى أهلكه السحر أم لا

وهذه طريقة أخرى للتخلص من النظام الأوربى الجديد للانتقام من الشخص الذى يتخذ الحسد حرفة له

وللأزندى اهتمام كبير بزراعة الأرض بعكس (الزنوج النيليين أو الحامى النيلى الكثيرى الاهتمام بتربية الماشية) . فهم يهتمون بتنسيق حدائقهم ومزارعهم بشكل يستحق الاعجاب . وتبدأ الزراعة فى شهر مارس إذ يمدون الأرض فيزيلون بقايا الحشائش ويقومون ببعض الأعمال لتطهير الأرض . وأهم المحاصيل التى تزرع عندهم هى :

١) الذرة — تزرع فى مارس وتحصد فى يوليو

٢) الحبوب الزيتية — Grounb Nut — Grounb dean — Pea-Nut — تزرع فى ابريل ومايو وتحصد فى أغسطس وسبتمبر

٣) الذرة الرفيعة Millet (العويجة) تزرع فى يوليو وتحصد فى اكتوبر ونوفبر وديسمبر

وعندهم نوعان من الدورة الزراعية : (١) الدورة الخماسية (٢) الدورة السنوية والأحادية . فأما الدورة الخماسية ، وتكون لمدة خمس سنوات ، فهى كما يأتى :

السنة الأولى تزرع ذرة رفيعة وحبوبا زيتية

« الثانية « « «

« الثالثة « « «

« الرابعة « حبوبا زيتية فقط

« الخامسة تترك الأرض للراحة (شراق)

وأما الدورة السنوية أو الأحادية فهى فى سنة واحدة حيث تزرع محصولان فى سنة واحدة : الذرة والبطاطة

ويلاحظ أن البطاطة تزرع كسماد وتترك فى الأرض بعض الأحيان .

والدورة الخماسية هى الدورة التى يتبعها الأزندى فى حديقة منزله أيضاً ، كما أن الذرة تزرع كسياج يحيط بمنزل الأزندى ويقوم مقام السياج الحديدى حول حدائقنا



« صورة تخطيطية لمنزل الأزندى »

والأستاذ سلجمان يقول إن الأزندى يعتقدون فى مخلوق عظيم يسمونه (مبول) ولكنهم لا يدعونه إلا عند الجفاف والقحط ويقول إنهم يعتقدون أن الانسان بعد موته تخرج منه روحان : إحداهما تذهب إلى الحيوان الذى تقدسه القبيلة (الطوطم)

والروح الأخرى تذهب إلى القبر فتبقى فيه إلى حين ، ثم بعد ذلك تغادره إلى رأس مجرى مائى حيث تبقى مع أرواح أجدادها

وهم الآن يقومون بعملية الختان



« صورة تخطيطية لمنزل الزنوج النيليين »

الفروق فى الحياة الاجتماعية

لكل من الزنوج النيليين وأصحاب الرؤوس المتوسطة

الزنوج النيليون

رعاة

الماشية عماد الحياة

يزرعون الحبوب

ليس عندهم ضحايا بشرية

لا يأكلون لحوم البشر

الرجال عراة الأجسام وأحياناً يلبسون جلودا على الكتف

يزينون الشعر بأشكال مختلفة

النساء يرتدين نصف جلباب (ملكوف petticont) من الجلد يغطى النصف الأسفل من الجسم من الوسط حتى الركبة ويلبسن أساور من العاج فى أعلى العضد

بعضهم يخلع أسنانه الأمامية مثل النوير

ليس عندهم رؤساء للحكومات وهم ديمقراطيون يحترمون السحرة والمشعوذين ويأخذون رأيهم فى بعض الأمور والرابطة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية مبنية على القرابة والجنسية

أصحاب الرؤوس المتوسطة (الأزندا)

زراع ويربون الدجاج

ليس عندهم ماشية

الزراعة هى أهم ما يحترفه السكان وكذلك الصيد

عندهم تضحيات بشرية ⎫ قلت الآن بعد الحكم الأوربى
كذلك أكل لحم البشر ⎭

الرجال يرتدون جلد الأسد أو قميصا من الخيش أو الخوص أو سراويل . يضفرون شعورهم من منبت الشعر إلى الكتف ، ويلبسون قلنسوات من الخوص محلاة بريش الديكة

النساء يستترن بشبكة من ورق الشجر من الأمام والخلف تربط بحزام حول الوسط وأحيانا يرتدين (مريلة) ولا يستعملن الأساور المصنوعة من العاج إلا نادرا

لا يخلعون أسنانهم

حكومتهم منظمة لها صبغة سياسية ورؤساء سياسيون ، والرابطة العائلية قوية بينهم

رشوان أحمد صادق

سليل القرد

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

عاش فى الغاب القرد دهراً طويلا   قبـل أن يلتقى للرقىّ سبيلا
وُلد القردُ قبـل مليون عام   بشراً فارتقى قليـلاً قليلا
إنما هـذه الطبيعة فى تَجْ   ديدها للحيـاة ليست عجولا
أىّ شئٍ ألمّ بالقـرد حتى   هجر الغابَ نجله والقبيـلا
إنه لولا العقل كان ضعيفاً   وعليه الحياةُ عبئاً ثقيلا
واقتنى فطنـةً وكان غبيًّا   وابتنى عزةً وكان ذليـلا
وعلى رجليه مشى بعد أن سا   ر على أربعٍ زماناً طويـلا
تخذ الصخرَ بعد نحتٍ سلاحاً   يتقى الوحش ضارياً أن يغولا
حادثٌ لم يرِ الزمانُ على الأر   ض له فى كل الدهور مثيلا
ليس انسانُ اليوم فى كل أرض   غيرَ قرد فى وسعه أن يقولا
منح الدهرُ الأرضَ خيرَ ولىّ   وبه كان فى القديم بخيـلا
إنه فى لقائه للضـوارى   لم يكن خوّاراً ولا إجفيـلا
إن عقل الانسان خيرُ سلاحٍ   ولقـد تفْضل العقولُ العقولا

يا له من تطوّرٍ حوّلَ القر   دَ لانسانٍ يُحسنُ التخييـلا
سنةُ الله فى النشوء على الأر   ض فما إن ترى لهـا تبديلا
ليس من قدره يحطّ فيَخزَىَ   إنه كان للقرود سليـلا
ولقد فارق القبيـلةَ إلاّ   أنه ظلّ حبلُهُ موصـولا
قبلَ إخلادِه لعـائلة لم   يك إلاّ عن نفسـه مسؤولا
ولدته عرومة الغاب من قر   دٍ جميل فكان قرداً جميلا

عاش أبناؤه دهوراً وما إن   عرفوا تحريماً ولا تحليـلا
بعد فجر الانسـان كان غدوٌّ   وأرى أن للغـدوّ أصيلا
إن للشمس بعـد كل شروق   يملأ الأرضَ بالضـياء أفولا
دُوَلٌ فوق الأرض ذات احتشام   غير أنى فى خشية أن تدولا
إننى أخشى للنشوء انقـلاباً   فيعود الانسـانُ قرداً كسولا
وإذا ما خلا من الناس وجهُ الـ   أرض كان الخلوُّ خطباً جليلا
وإذا ما بالعكس عاشوا وجدّوا   فسيمحون الموتَ حتى يزولا
وليأتى باسم السبرمان نسلٌ   هو أرقى منهم وأهدى سبيلا
يتقصى كنه الطبيـعة حتى   ليس يبـقى شئٌ له مجهولا
انمـا فى حياته الصـدقُ دينٌ   لا خـداعاً يأتى ولا تضليلا
وترى فوق المنكبين له رأ   ساً كبيراً وسـاعداً مفتولا
وعلى رأسـه الـكبير ترى شعـ   راً أثيثاً تخـاله إكليلا
وإذا ما أبصرت عند اللقاء الـ   عينَ منـه حسبتها قنديلا
وإذا ما تـكاثروا حكموا الأر   ض بعـدل جبالَها والسهولا
أخضعوا أصناف الأشـعة حتى   جعلوا منها للسماء رسـولا

(بغداد)   **جميل صدقى الزهاوى**

البعث !

للشاعر الحضرمى على أحمد باكثير

مات الغرام وقد بكيتهْ   ورثيتـه ما قد رثيتهْ
كفنته ودفنتـه   وبدمعىَ القانى سقيته
وأبَى الزمان يَصُوْرُنى   عن ذكره حتى سلوته
ياليت شعرى ، كيف عا   دَ إلى الحياة اليوم مَيْته ؟

***

أحببتـه عفّ اللِحا   ظ سمعت عنه وما رأيته
كالخلد يرجوها أخو الـ   تقوى ولم يرها ـ رجوته !
فكرت فيـه فشاقنى   ونوى الفؤاد وما دعوته
وطفقت أعبـد طيفه   وأنا الذى بيدى بَرَيته !
بغنى اسمه ، أروى به   ظمأ الفؤاد وما شفيته !
كالثلج فيـه ، وكلما   أمسسته قلبى كويته !
بينى الزمان وبينـه !   وتجاوروا بيتى وبيته ! !
سميتـه (لولا) مخا   فة أن يساء وما كنيته

***

أوحى إلىّ وما درى !   وكتبت عنه وما نويته !
ماذا عليـه لو صغا   وعلى مسامعـه تلوته !
وهمى على عينى سـنا   ه ، وسال فى أذنىّ صوته !

على أحمد باكثير

الحرمان !

بقلم محمود حسن اسماعيل

أسدلت سترها ! وقالت: رويدا عابدَ الحسن ، واتئد فى صلاتك
غب قليلا عن العيون وأنشد خفقات الغرام فى خلواتكْ
إن همساً يرفُّ فى ساحة المعْــــبد أخشى ذيوعه من وشاتِكْ !
غب قليلا وفى دمى لك عَهْدٌ أنا والحبُّ .. والمنىَ .. لحياتكْ
خمرتى شعرك العفيف ، و ياطُــهْرى إذاما انتشيت من (كاساتك)
وجلالُ الهوى وقُدْسُ جمالى صبَواتٌ نفحن من أُغنياتكْ
رىُّ روحى إذا ظمئتُ خيالٌ مستطار يَرِنُّ من أبياتِك
فترنم ! فان روحىَ تصغى خلف أستارها الى نغماتك !

قلت : والنار فى دمى كيف تهدا إن حجبتِ الضياء من قسماتك
إن زادى من الحياة وميض رشفته العيون من بسماتك
فتنتى إن رنوت موجة نورٍ أشرقت فى الجنان من نظراتك
كم طغى البؤس عابثاً بشبابى فقدست النعيم من وجناتك
وتوجعتُ فانتحبتِ لشجوى وسكبت الهناء من قبلاتك
كيف أحيا وفى دمى تُقلق الرو ح نوازٍ مفجعاتٌ فواتك !
أنا لهفــــان والنعيم بكفَّيـ ـك دعينى أمت على عتباتك !
قالت : اهدأ ! فما عهدتك يوماً تستثير النوى دفين شكاتك
كم غزا البين قربنا فتصـــبر ت ، ورمت السلوان من ذكرياتك
قلت : يالوعتا لظمآن جنّت روحه لهفة على رشفاتك !
كم وقفنا حيال قصركِ نبكى وخلسنا الغرام من شرفاتك !
وشدونا الهوى ملاحن سحر رقرق النور طيفها من سماتك
وشكونا النوى فكاد يطير الحســـن فرط الحنان من غُرُفاتك !

آه يا زهرتى ! لقد شفَّ روحى ظمأ محرق إلى نفحـــاتك
فارفعى الستر بيننا ، ودعينى أتحسى الضياء من هالاتك
رب ومض من لحظ عينيك ساج فجر السحر من ســنا لحاتك
مهلته عيناى فانساب شعرا عبقرياً يفيض من نظراتك
وهنا .. أسدل الستار ! ورنت خفقة : لهفتا على أمنياتك !

(دار العلوم) محمود حسن اسماعيل

نسيم الفجر

بقلم وهيب رشيد

(عن الشاعر الانجليزى Henry W. Songbellaut)

هب عند الفجر يجتاز البحار قائلا للسحب خلى الطرقا
هاتفاً بالسفن قد جاء النهار بزغ الفجر جميـــلا عبقاً
أيها الملاح قم شُدَّ القلوع

وسرى فى الأفق حراً جذلا مرَّ بالناس جميعاً نائمين
مســيطر النوم عليهم فجَلاَ ســلطة النوم ببرهان مبين
صائحاً قد آن للشمس طلوع

مرَّ بالزهر مكباً نائماً فى ربى الغابة وسنان العيون
فجرى فيهــا نشيطاً باسماً يوقظ الزهر بتلويح الغصون
ومضى والغاب بالعطر يضوع

دخل العشَّ على الطير الجميل راقداً يحلم أحلام المنى
فأحس الطير بالريح العليل هز برديه سروراً ورنا
لحقول القمح بالعين الولوع

وغدا يقطع أرجاء الحقول قاصداً ديك الصباح الغَرِدا
فتلقاه بلطف وقبول وبلحن ساحر جذل شدا
مرحباً بالصبح ، بالفجر الوديع

وأتى المعبد قفراً موحشاً ما به غير سكون مطبق
أيقظ الحارس فيه فمشى يقرع الناقوس قرع المحنَقِ
يا نسيم الفجر أحييت الربوع

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٨ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية الإيجابية من مذهب نيتشه

السوبرمان

أو الانسان الأعلى

للأستاذ خليل هنداوى

وهذه هى الميزات التى يراها نيتشه تميز السوبرمان من الانسان ، يرى أن فضيلة الانسان فضيلة تحمَّل إلى الناس جميعهم بدون فرق ولا استثناء ، بينا يرى أن فضيلة السوبرمان لا تمنح إلا فريقاً منتخباً ضئيلا سامياً . ألا ترى أوروبا اليوم جميعها تؤمن بديمقراطية تساوى بين طبقات الناس مهما اختلفت أصولا وفروعاً . ونيتشه لا يرى فى هذه الديمقراطية شيئاً طبيعياً ، هو يؤمن « باللامادة » ويريد أن يخلق طبقة ارستقراطية تتألف من أنواع محدودة ، لكل نوع تعاليمه وأعماله وواجباته المكتوبة عليه ، وأسفل هذه الأنواع هو مجموع الفئات المتوسطة التى يدور بأيديها دولاب المجتمع . فالنقش والتجارة والصناعة والعلم والفن تحتاج إلى عمال يخدمون برضاهم هذه الصناعات . يطيعون مختارين ويعملون مريدين . هؤلاء هم عبيد لأنهم ينفذون إرادة من هم اسمى منهم . وحق لهم أن تكون منهم الطاعة ، وأن يحتملوا من الألم كثيراً لأن الحقيقة قاسية . على أن هؤلاء يجب ان تضمن لهم أسباب حياتهم فيكونون أكثر هناء واطمئناناً وسعادة من رؤسائهم ، لا شغل لهم إلا أن يواصلوا دورة الحياة ... أما الايمان الدينى عندهم فهو نعمة لا تثمن ، لأنه يذهِّب كأشعة الشمس فاقة وجودهم المظلم ، يعلمهم القناعة والسكينة ويجعل واجباً عليهم احتمال إرادة غيرهم . وهو الذى يبث فى أرواحهم هذا الوهم الجميل القائل بأن هنالك نظاماً للأشياء . وأنهم هم أنفسهم لهم مكان نافع فى نظام الكائنات والأشياء . هؤلاء يقول لهم زرادشت : « لكم لكم العبودية والايمان ! » . وفوق هذا الفريق فريق المديرين وحارسى الشريعة والذائدين عن النظام والبلاد والمقاتلين وأمير البلاد . إن هؤلاء يديرون الأمر ويسوسون الملك بسلطتهم . إن هؤلاء هم الذين تخضع لهم إرادة العبيد حين يريدون . أما الفريق الأول فهو فريق السادة والعقلاء وخالق « القيم الاجتماعية » . هؤلاء يجب أن ينفذ تأثيرهم فى قلب المجتمع ، هؤلاء يجب أن يهبطوا إلى الأرض ينزلون فيها بين الناس منزلة الاله الذى يقدسه النصارى . هؤلاء هم السادة ولهم وحدهم صنعت فضيلة السوبرمان

وهذه الفضيلة لا تتميز من غيرها بأنها فضيلة ارستقراطية فحسب ، ولكنها تخالفها فى المثل الأعلى الذى ضربته ، أما الانسان الفاضل فى الشريعة المسيحية أو شريعة الزهاد فهو الذى يخضع حياته لمثل أعلى ، ويضحى بميوله ورغابه فى سبيل عبادة الخير والحق . أما العاقل فى شريعة نيتشه فهو غير ذلك . العاقل هو خالق « القيم » وليست مهنته إلا خلقها ! لا شىء فى الطبيعة له قيمة بنفسه ، إن عالم الحقيقة هو مادة واحدة لا معنى لها ولا غاية إلا المعنى أو الغاية التى نراها نحن فيها ونعطيها إياها . الفيلسوف الحقيقى هو الرجل الذى ينطوى على شخصية قادرة على خلق الوجود ، ويبعث فى الناس الرغبة ويستهويهم ، هو الشاعر العبقرى الذى تتألف فى نفسه « القيم الاجتماعية » التى يؤمن بها رجال عصر ! هو مفكر فى الاشياء ، لكن تفكيره ليس إلا الشريعة السامية التى تهتز لها أمم ! يبدع بحرية ما يشاء مستقل الفكر سامعاً من الخير والشر ، من الحقيقة وغير الحقيقة . هو يبدع حقيقته ، ويخلق شريعته وفضيلته . إنه رجل مجرب لا يفتأ يتحرى عن صور لعوالم جديدة . تراه يضحى بحياته وبسعادته ، ويفادى بحياة الآخرين الذين يجرون فى مضماره وبسعادتهم دون أن يتزعزع . إنه لاعب جرىء يتحدى الحظ ، لا يحفل إذا كانت لعبته الحياة أو الموت

إن العاقل عند نيتشه ليس بذى لروح الهادئ المسالم . هو من لا يمد الناس بالسلام وبالفرح الهادئ باقتطاف ثمرات عملهم . ولكنه يدفعهم إلى الحرب يلمع بين عيونهم الرجاء بالنصر والأمل بالظفر يقول زرادشت :

« إنكم ستتحرون عن أعدائكم ، إنكم ستقاتلون وستحاربون من أجل فكرتكم ، فاذا غلبت فكرتكم فليدفعكم إخلاصكم إلى السرور بهزيمتها . إنكم تحاربون السلم كوسيلة لحروب جديدة ، على أن السلم الصغير هو خير من السلم الكبير

أنا لا أنصح لكم بالعمل ، ولا أنصح لكم بالسلم ، ولكن أوصيكم بالظفر . ليكن عملكم حرباً وسلمكم ظفراً

يقولون : إن السبب الشريف يقدس الحرب . وأنا أقول لكم : إن الحرب الشريفة هي التي تقدس كل سبب

لا يجب أن يكون لكم من الأعداء إلا المبغضون لا الحقيرون ، وإذ ذاك تكونون أولى زهو وكبرياء بأعدائكم ، حتى ليغدو ظفرهم عليكم ظفراً لكم . »

إن القتال عند نيتشه هو خير سبب يعمل على التقدم ، لأنه يُرى مواضع الضعف ومواضع القوة . يرى الصحة والمرض في المادة والأخلاق . وقد يكون القتال تجربة خطرة يريده العاقل ليزيد في حيوية الحياة ويزيد آفاقها سعة . وليدرك قيمة فكرة ما وقدرتها على الاحاطة بمعاني الحياة . الحرب نعمة حسنة في ذاتها وتنبأ نيتشه بأن أوربا ستدخل في عصر قتال تتطاحن فيه شعوبها في سبيل سيادة العالم

وبينما كانت « القيم الاجتماعية » الأولى تضع الشفقة في رأس هذه القيم ، كان زرادشت يعلم رفاقه بأن الارادة هي الفضيلة العليا « هذه هي الشريعة الجديدة التي أوصيكم بها ، كونوا قساة أشداء » إذ يجب في الحقيقة على المبدع بأن يكون قاسياً عنيفاً إذا أراد أن يُخضع الحظ ، أو أراد أن يوحي بتعاليم جديدة . إن الشفقة ليست عنده بفضيلة ، ولكنها خطر من أكبر الأخطار التي تلاقيه .

ألم يسمع « زرادشت » حول كهفه أصوات اليأس يرددها الرجال الذين يدعونه « تعال ! تعال ! قد حان الوقت » فلو أن الشفقة عليهم استهوته اليهم لكتبت عليه الغلبة . إنه يحتاج إلى قوة قاسية تصرف عنه تأثير هذا الدعاء الباكي .

بينما كان زرادشت يغادر بيته لاحقاً اليائسين الذين يجأرون له ، نزل مكاناً موحشاً خُيِّل اليه أنه مدينة الموتى . هنالك الصخور البارزة السوداء والشماريخ الحمراء ، حيث لا تنبت عشبة ولا ينجم كوكب ولا يزقزق عصفور . هذا هو واد ينفر منه الحيوان ، لا يأوي اليه إلا الأفاعي العظيمة الزرقاء ، تأتيه في كهولتها لتعانق الموت فيه . في هذا المكان المروع أبصر « زرادشت » هيكل إنسان قبيح ، فلم يشأ أن يتأمله ، وهم بأن يركض ما استطاع فراراً من هذا المسخ . ولكن صوتاً أهاب به كأنه غرغرة محتضر أو بقية ماء في منحدر

— زرادشت ، زرادشت ! نبئني بسري ! ما هو الانتقام من الشاهد ؟

وفجأة استولت على زرادشت شفقة غريبة ، ولكنه سرعان ما استعاد قسوته وصرامته ، فأجابه

— أنا أعرفك ... أنت قاتل الاله ، دعني أمر في طريقي ! أنت لم تحتمل من كان يراك ويطلع عليك في كل ارتعاشك وشناعتك واشمئزازك أنت يا أقبح الرجال ! فأخذت ثأرك من هذا الشاهد » خرج زرادشت ظافراً من هذه التجربة التي هلك فيها الاله . إن إله المحبة قد مات وقد خنقته شفقته باطلاعه على كل نقائص الانسانية وشناعاتها الخفية . إن شفقته لا تعرف حداً . إنه وطأ الأماكن الأكثر عمقاً والأسحق بعداً من النفوس البشرية . ولهذا مات ، لأن الانسان لم يعد بقادر أن يحتمل شاهداً يقظ العين على خزيه وعيوبه . أحس زرادشت بموجة الحياة تغمر نفسه إزاء هذا المشهد ، فنفض من طرفه وهم بأن يتابع سبيله ، معتقداً بأن متابعته للطريق أجدى عليه من أن يهدر أيام عمره هدراً في سبيل الجلوس إلى « جسد » لا ينفع فيه دواء . وفي صنعه هذا لم ينج من الموت وحده فحسب ، بل اكتسب مع نجاته حب هذا الانسان الكريه . أما الانسان الكريه الذي كان يبغض الاله والرحماء فانه انحنى خضوعاً إزاء صرامة زرادشت وقبل أن يكون أحد الطارقين باب مثواه

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

من صور الحياة

الآباء البيض

بقلم حبيب الزحلاوي

عرفته في المدرسة فتى وسيم الطلعة ، صبوح الوجه ، حييّ الطبع ، هادئ النفس ، فتوددت إليه واكتسبت صداقته

عرفت من خصاله العبوسة والخشونة والتجهم والغضب كما عرفت منها الطيبة والسلاسة والصدق والوفاء

كان تارة عنيف الحركة حتى الجنون ، وطوراً ساكناً كأنه غارق فيها !

عرف معلموه فيه الاقدام بدون تردد ، والاحجام بغير سبب ، وعرفوا فيه الاندفاع نحو تحقيق رغباته وإرضاء ميوله وبداواته ، كما عرفوا فيه الانصراف عنها كأن ليس له رغبات ولا ميول وبداوات !

تسرعوا فسموه « المتناقض » ثم اعتدلوا فأطلقوا عليه اسم « ذى الحدين » الأقصى والأدنى

كان انكبابه على الدرس ، ودقته في المحافظة على الواجب يثيران إعجاب المعلمين به وغيرة رفاقه منه ، كما كان توقفه عن الدرس ، واضرابه عن تلقيه بدون سبب ، وانتقاضه على الواجب ، وتمرده على العلم ، وقيامه على النظام ، مدعاة للدهشة والاستغراب

كنا تلميذين متلازمين متجاورين ، يفضي كل منا لصاحبه بطوية نفسه ودخيلة أمره ، إلا أني كنت ألمح فيه حرصاً على دفن سر شاغل خطير يكتمه عني في أعماق نفسه تفضحه نظراته الحزينة الباكية الذابلة

كان « ذو الحدين » خشناً في لعبه ، بريئاً في تعبيره عن خواطره كالأطفال ، صدوفاً عن المعاشرة ، مستغرقاً في الوحدة والانفراد كالنساك ، وكانت بسماته النادرة حلوة كالجمال الصامت في مظهر عروس ترملت بُعيد الزواج

ما كان أقرب نفسه إلى الرضا والطمأنينة والبشر عندما يكون في المدرسة بين دروسه وفروضه ورفاقه ، وكم كان يفارقه مرح النفس وغبطة الروح عند ما يعود إلى البيت إذ كان تلازمه فيه الوحشة والكآبة والحزن ! !

كانت ثياب « ذو الحدين » تختلف عن ثياب وهندام التلاميذ ، وكان لأمه شغف في ابراز وحيدها بثياب مخملية ليكون بين رفاقه — على حد تعبيرها — كالكوكب بين النجوم ، ولعل ولع أمه به وعنايتها بملبسه واهتمامها ببزته هي التي نمت فيه خاصية التأنق والملاحظة والانتقاد ، وصيرت لكلامه أداء فريداً ووقعاً خاصاً في النفوس ، ولكن أنى الخلاص لفتى مثله حسن البزة ، صبوح الوجه ، لامع الذهن ، غريب الأطوار ، عريق المحتد ، صدوفاً عن المعاشرة ، عزوفاً عن مخالطة الناس ، أنى له الخلاص من مخالب فتيان تتوثب فيهم غرائز القوة البكر وإبراز قدرتها وسلطانها على الاقران ، وتتمطى فيهم الغيرة الآكلة لفقدهم أكثر الصفات والمزايا المتوفرة لهذا الفتى الرقيق ؟ ! ! !

ولكن صاحبي كان يتخطى هذه البواعث الشائكة على قنطرة من تبين الفتوة وتمثل الكبرياء واصطناع الترفع عن الاختلاط بتلاميذ في غير ترتيبه ! بذلك نمت فيه ملكة العنجهية والتسامي

كانت ظاهرة الكبرياء عنده دخيلة على طبعه الرضي ، غير أنه توسل بها لدرء عوارض طارئة لا شأن له في وجودها ، فكان يداريها بالعطف الأخوي ، والاحسان الانساني ، والشفقة التي كان يشمل بها كل محتاج من إخوانه التلاميذ ، وما أكثر المعوزين في تلك المدرسة التي كانت تضم جميع أبناء العمال في ذلك الحي

* * *

جاءني مرة بثغر باسم ووجه متهلل متلألئ يقص علي خبر اعتزامه على الالتحاق ببعثة « الآباء البيض » ليتلقى العلم في

مدرستهم « الصلاحية » فى القدس ويقول : إن الآباء رضوا أن يلحقوه بها ، وأنه دفع لهم مبلغاً من المال كان يدخره ، وأن رئيس البعثة وعده بأن يصطحبه معه وينتزعه من أهله إذا مانعوا ، وأنه سيتعلم علوم القساوسة ويعود فيرغم جميع الناس على تقبيل يده باحترام ، والاستماع إلى أقواله والانصات إلى عظاته بخشوع !

لم يكن اهتمامى بالخبر ليوازى فضولى الحافز إلى معرفة العامل الذى جعل صاحبى يطرب للرحيل عن أهله كطرب عصفور فى قفص يسقسق ويصفق بجناحيه ، وأنت فى الحقيقة لا تدرى إذا كان طربه للطعام المقدم أو للانطلاق الموموق

لم يكن الخبر هاماً فى ذاته ، إنما كانت الأهمية عندى فى اكتشاف الدوافع التى جعلت هذا الفتى دائم التأرجح بين كفتى الفرحة القصوى والحزن الأقصى ، فتوهمت الفرصة موانية تدنينى من مكمن السر ! !

رفيق هذا الذى يحدثنى عن سفره بطرب ، وعن اعتزام رئيس البعثة انتزاعه من أهله بسهولة ، هو وحيد لوالديه ، محبوب منهما حتى العبادة

ما الذى فى نفسه يا ترى من البيت ومن أبويه حتى يؤثر المدرسة والتلاميذ عليهم ؟

ما الذى فى نفسه منهم وهو يفزع إلى الآباء البيض هرباً من والديه مفضلاً الرحيل على البقاء معهما ؟

لم يكن فى وسعى تحويل الأمر آنذاك وقد كنت فتى أملك قوة اختزان الحوادث لا تعليلها ، أدخر عوارض الأشياء لا أنقدها ، أنظر إلى كليات المسائل لا جزئياتها ، وهكذا صرفت برهة فى استقبال خبر السفر كأنها كانت برهة الاستجمام لأعود بعدها إلى صاحبى بنفس قوية ، وعزم قاطع ، أصرف بهما ذهنه عن هذا الخاطر الطارئ المستحيل التحقيق

داورت صاحبى بحجة معرفة بواعث هذا السفر المفاجئ ، لمحت بالكلام إلى أمر حسبت أنه يكون بمثابة مفتاح للسر ، فانقبض مكتئباً وأشاح بوجهه عنى كأنه ندم على ما قال ؛ لم يمهلنى لأعتذر عن سوء تصرف وتوضيح قصدى وانصرف ، أسقط فى يدى وأضاع الفضول الفرصة المواتية ... ... ولكنى صممت على عمل شىء

بحثت أولا فى إبلاغ والده خبر سفره سراً مع الآباء البيض وحاولت إقناع صاحبى بأنى لم أكن واشياً تماماً بل كنت المحب صادق المودة ، أوثر صداقته وأرعى اطراد تقدمنا معا فى مسالك الدراسة ...

لم ينصت إلى أقوالى ؛ غضب منى وبكى من والديه ؛ قاطعنى وانقطع عن الايواء إلى البيت ، وصار كمكوك الحائك ينصرف من بيت عمته الأرملة وليس فيه رفيق أو صديق ، إلى المدرسة التى لم يبق له فيها سوى الوحدة والانفراد ورفقة الكتب وحفظ الدروس

عبثاً حاولت استرضاءه واسترداد وداده . قطع الرأى على قطيعتى ، وثبت على عناده ، وهكذا صرنا صديقين متباعدين

جزنا الامتحان سوية ، انتقلنا معا من مدرسة إلى أخرى ، زودتنا الكلية البطرركية بشهادتها العليا ، طوحت بنا الأقدار فألقت بواحدنا فى مصر وبالثانى فى أمريكا لا يعرف الواحد عن صاحبه شيئاً

* * *

فى شارع تتماوج فيه عشرات الألوف من نساء مستهترات وسيدات فضوليات من كل جنس متفرجات ، يعج بأضعاف الآلاف برجال من كل سن وعمر وقطر ومصر ، فيهم العابث المتهتك ، وفيهم من هو غير متهتك ولا عابث

فى هذا الشارع الذى لا تهدأ فيه حركة ، لا فى الليل النار بمصابيح أضواؤها الجمال والحسن والفتنة ، ولا فى النهار الذى ينزع فيه الانسان الدرهم من بين فكى أخيه الانسان لينفقها فى الليل على مباذل المرأة

فى هذا الشارع المكتظ بخلائق كأنها فى مهرجان ؛ فى هذا الشارع تطلق البسمات من الشفاه والغمزات من العيون ، وترشق القلوب بسهام النظرات الساحرات ؛ فيه يطلق الرجل أعنة الحياء وينضو ثياب الخجل ؛ فيه تخلع المرأة العذار وتتشح بالفتنة والشهوة ؛ فيه يرتجل الأكمه أروع عبارات الاطراء الغزلى ، وتفتن المرأة فى ابتداع شباك الاصطياد ؛ فى هذا الشارع أنقذنى خاتم فى أصبع يدى اليسرى من إغراء حسناء لعوب من بائعات البدن ؛ فى هذا الشارع تصطدم البريئات والبريئين من الفضوليين الأغراب بمن لا براءة عندهم ولا فضول ، فيحسب المصطدمون والمصطدمين الانزلاق حرية ، والاستهتار مدنية ، والفجور طابع الأمة

هذه سيدة قلقة تنتظر المتخلف عن الميعاد ! هذا رجل

واقف مطمئن إلى لقاء من وعدته . هذا يعانق تلك ، وهذه تقبل هذا قبلات مسكرات ، وهذا غريب مشدوه يرى ويبصر وكأنه لا يرى ولا يبصر

فى هـذا الشارع البهيج الذى يجمع قلب باريس فى قبضة الحياة سمعت من يذكر اسمى ولقبي بصوت أيقظ فى حاسة غريبة مدفونة فى الأعماق منذ أيام الحداثة ، فاتجهت صوب رفيق المدرسة الذى لقيني هنا فعرفنى ، فنادانى فاستجبت

مشينا على غير هدى ، تبادلنا ألف تحية وأشواق ، يممنا مقهى أعرفه ، ولما جلسنا فى زاوية منفردة فيه تأملت صاحبى فاذا بالأعوام بدلت من ملامحه وتركت فى وجهه بعض التغضن حول العينين ، وثنيات واضحة فى الجبين ، وشعرات رمادية ظاهرة فى السالفين ، قرأت فى نظراته معانى التوطد والثقة بالنفس ، ولمحت فيها بقية من آثار الذبول والحزن

أخذنا نتكلم ونعيد تلاوة صحائف الماضى ونستعرض ذكريات المدرسة بلذة وفرح ، ونسرد فصول رواية الحياة الكبرى بين مآسى المرأة وفواجع كسب المال

انبلج الصبح وانطفأت مصابيح الكهرباء ، تبدلت وجوه رواد القهوة ، وقد أورمها السهر وخنقتها الخمر ، بوجوه نضرة فياضة بقوة الراحة المستمدة من النوم تستقبل النهار لتستأنف الجهاد فى ميادين العمل ، بقيت وصاحبى وحدنا الجالسين الهانئين بذكر حوادث الماضى ثم افترقنا على موعد للتلاق

كان الليل يجمعني وصاحبي فى باريس على مائدة طعام أو شراب ، وكان لنا فى كل جلسة جولة أو جولات فى معترك الحياة ، غير أن جلسة الليلة اختلفت عن سابقاتها فى الجو الذى هيأه وجود كاهن شرقى أعرفه بصحبة سيدة فى المطعم

جال خاطر مفاجئ فى ضميرى فابتسمت ، استطلعنى صاحبى معنى الابتسامة فرغبت اليه أن يقرع بكأسه كأسى فنشرب النبيذ البكر على ذكر صداقتنا البكر ! !

نظر إلى متعجباً وقال : هل من طارئ جديد ؟

قلت : بلى

قال ما هو ؟

قلت : هل فى وسعك الآن وقد طويت مرحلة من الشباب واكتملت رجولتك أن توضح لى أسباب حزنك فى حداثتك ونفورك من والديك ، وتوقك إلى البعد عنهما ، وقطيعتك إياى وقد أفسدت عليك تدبير التحاقك بالآباء البيض ؟

ابتسم صاحبى فذكرنى بسمة العروس الأرملة وقال : أحسب وجود الكاهن فى المطعم بثوبه الأسود الفضفاض ولحيته المسبلة على صدره هو الذى نبه ذهنك إلى هذا الموضوع

قلت : هو ذاك

سكن صاحبى هادئاً كأنه يفيض ذهنه فى قلبه ، وأطبق أو كاد يطبق أجفانه كمن يقرأ سطور الضمير فى سفر الغيب ، وطفق يقول : أشكر لك هذا السؤال ، لأن فى الاجابة عليه تفريجاً عن كرب مستعص آن أوان البرء منه

كانت عقدة نفسية عقدتها الحساسية المرهفة والشعور الوجدانى فحللتها لوحدى على مهل

أكرهت والدتى على الزواج من والدى الأرمل ولما يكن له من العمر تسعة عشر عاما بعد ، فكان جمالها ، ووجاهة أهلها ، وزواجها من فتى أرمل ، علة جرحت كبرياءها بين أترابها الفتيات ، وبترة تنكأ التبكد الأليم والنفور المتواصل ونزق الشباب ، فكنت أستشعر أنى الجسر الذى يربط قلبين متنافرين

كنت ثمرة زواج أنضجتها عناصر الجسد ولم تشملها موجات الروح بوحدات من الحنان والعطف الوالدى إلا بمقدار ما كانت الوسيلة تمهد للغاية ! !

وددت لو أكون الوسيلة لاقرار الغاية المثلى من الزواج ، إلا أن الغاية كأنها تكونت للاتصال الوقتى الذى يعقبه النفور ، فكنت أتمنى لو يتهدم الجسر فيبقى كل قلب على ضفة يشطرها عن أختها نهر الحياة ! !

آثرت الصدوف عن مرأى زهرة نبتت عفوا فى أرض رملية ، وعزفت عن تربة لا حياة فيها ولا رجاء ، فلذلك كنت أنكر نفسى وأشفق على الناس يلمّ بهم حزنى ، وأبكى لشقاء والدى

كان يعرف والدى فى حدة الاحساس والشعور المرهف فاستبدل أبوته لى بأخوة

أقنعنى ، لما أبلغته أنت خبر اعتزامى على الالتحاق بالآباء البيض ، بان فى ابتعادى عنه مهدمة عاجلة لحياة تنهار من نفسها ببطء ، ويتمنى ألا أتعجل انهيارها فيبلغ القبر قبل أن أشب وأقوى ، وقال دع البيت يحترق بنار هادئة ثم اعمل أنت على بنائه من مواد لا تقبل الاحتراق

ثم قال لى : لا فائدة من علوم الكهنوت للذين يتهيأون لأن

يطلوا على أرجاء الحياة السحيقة من كوات الدين الضيقة ، وإن علوم الدين على وجاهتها وقداستها ، تغل العقول ، وتضيق الأذهان ، وتبلد طبيعة الرجولة فى الانسان ، وإن الكهنوت صناعة يحترفها الكسالى والبلداء ، وإن الرجل الذى يبارك الدهر ويظفر منه بسلاح من الخلق السامى ونبالة القصد ، والذى ينصر الانسانية روح منبعث من فيض انسانيته هو ، لا من تعاليم تحورت فصيرت جماعات الانسان عبيداً الأفراد من بنى الانسان

رأيت دموعاً جالت فى عينى صاحبى وتحدرت كالبرد على خديه ، ولمحت صور نفسه تشرق وتتجلى فى صفحة جبينه وتقاطيع وجهه ، وتكور جفونه ، وانقباضات حاجبيه وشفتيه

تناولنا كأسينا فأفرغنا ما بقى فيهما ، أترعناهما بالرحيق من جديد ، زودت غليونى بالتبغ ، وقبيل إشعاله سألت صاحبى : ماذا كان مصيرك لو ذهبت صحبة الآباء البيض وتعلمت تعاليمهم ، وتلقحت عباداتهم ، ونذرت الطاعة والعفة والفقر مرضاة لله وطمعاً فى الآخرة ؟

لا ، لا ، قال صاحبى : هـذا سؤال لى أطرحه عليك ، هذا عبء ألقيته عن ضميرى منذ اتجهت صوب المادة أعالج شؤونها معالجة عامل عقله فى ساعديه وذهنه بين ساقيه ، وقلبه فى « كرشه » ، أجب أنت ياصديقى على هذا السؤال لأنى آليت منذ هجرت الأهل والوطن أن ألتزم الآلة فأكون مثالها ، تحركها القوة الدافعة ، يغذيها الحريص على بقائها بالزيت والشحم ! ! قل ، أجب ، اشرح لأنى أتوق إلى معرفة ذلك المصير ، مصيرى لو صرت كاهناً ، لأنه كثيرا ما أقض هذا الخاطر مضجعى ، وعكر راحتى ، وسلب الرقاد من جفونى على كره منى

أشعلت غليونى ، أخذت أنظر الدخان يعقد حلقات تتمدد وتتبخر كخواطر الانسان ، وأرى النار تتأجج وتهمد فى قلبه كالرغبات فى ضمير الرجل ، ثم سمعت نفسى تناجينى وضميرى يسارنى فقلت :

ماذا ترانى كنت أكون لو فعلت تلك الفعلة ؟ هل كانت تتبلد مشاعرى ، ويتحجر احساسى ، وتتكور نظراتى ، ولا تعود آرائى تدور إلا حول نقطة مجهولة فى مصير مزعوم طمعاً فى وهم ملفق ؟

هل كنت أتعامى عن الدنيا وما فيها من بدائع صنعها الانسان بقدرته فصيرها جنة لمن يطيب له النعيم فى الجنات ، وجهنم لمن يرتاح إلى الشقاء فى الجحيم ؟

هل كنت أنطوى على جوفى الخالى ورأسى القحل كما تنطوى الحية على نفسها فى الرمال تتلمظ السم من أنيابها فى انتظار حياة رغدة فى فصل الربيع الذى لا شك فى اقباله بالخيرات ؟

هل كنت أتوسد فراشاً محشوا بشوك الحرمان ، ألتحف الكبت ، أتقلب على جمرات من عذاب الجسد ، ليس لى من مجير سوى حقنات الكافور تخمد إلى حين ثورة الأعصاب المتشنجة ، والنفس المحمومة ، والروح الحائر ؟

هل ترانى كنت أتوجه صوب السماء الصامتة أطلب الغوث من سكانها الصامتين ؟

ماذا ترانى كنت أكون لو فعلت تلك الفعلة ؟

هل كنت ألبس المسوح وأسكن الأديار النائية ، أعد دقائق العمر بين السأم والملل ، والرجاء والخيبة ، والشكوك والريب ، والاستسلام والجمود ؟

هل كنت أعزف عن الدير ومساجينه ، والزهد وقتلاه ، وأطمئن إلى سكنى المدن حيث الزلفى إلى الأغنياء ، والسلطان على الفقراء ، والراحة للجسد ، والشبع للمعد ؟

هل ترانى كنت أنطوى مع من انطوى قبلى من الأغنياء ، أو أتمرد وأأتمر فأصل ذروة العرش فأحمل صولجانه ، وألبس تاجه وأتدثر طيالسة القياصرة ، وأترك الصليب الثقيل للمتجردين ، وأرغم الضعفاء على طاعتى باسم الصليب المقدس ؟

صمت قليلاً وكان صديقى يصغى إلى ، تجرعت جرعة من الشراب هـدأت بها نفسى مما ساورها وباعدت بها عنى حمم التصورات والتخيلات وقد ازدحمت فى الذهن وأخذت تتدفق كسوائل صهرها البركان لتصل إلى العقل الذى يوازن ويقارن ويفاضل وإذا بى أسألها من جديد أسئلة عالجها لويجى بيرانديللو من قبل ، وهى :

« أية سيادة لنا على عواطفنا وأفكارنا وإراداتنا وشخصياتنا ؟ ألسنا كلنا خاضعين لضروب التأثيرات النفسية والجسدية وأن ليس لنا وجود شخصى معين ؟ ألسنا وجدنا لنكون تبعاً لأعمال الآخرين ؟ ألسنا نلعب الدور الذى يفرضه علينا مجتمعنا وبيئتنا وضعتنا ، وإننا ننتهى إلى حيث لا نعرف أين نحن ، وإننا لا ندرى ما إذا كانت شخصيتنا الحقيقية هى التى نحلم بها ، وهى التى نحياها ، أو هى التى نتظاهر بها أمام الناس »

اسمع ياصاحبي واصغ إلى ، إن انساناً واحداً فى هذا الوجود له السيادة المطلقة على الفكر والعاطفة والارادة الشخصية ، وأنه وحده غير الخاضع لتأثيرات النفس على الجسد ، هو وحده المتمرد على البيئة والمجتمع والعرف والقانون ، هو الفريد فى هذا الوجود ، له وجود شخصى معين يعرف البداية كما يعرف النهاية ، هو صاحب الرسالة ، الرسالة التى يضعها الانسان لأخيه الانسان ، رسالة غير منزلة على القلب ، ولا مكتوبة على الحجر ، ولا مبعوث بها مع رسول ، إنما هى أنات المجاميع ، وتوجعات العبيد ، وعويل الاجراء ، يصورها بالقلم ضمير إنسان مثلى ومثلك يشعر بالأنين والوجع والعويل أكثر مما يشعر بها أولئك الصادرة عنهم أنفسهم ، ويحس بالظلم والجبروت والطغيان والقهر الصادرة عن أفراد أشرار يعبثون بالمجاميع ، يلهون ويلغون فى جسومهم وأبدانهم ودمائهم كما لو أنها نازلة فيه ومنصبة عليه ، هذا الانسان من القلائل الذين يحملون رسالة مساواة الانسان بأخيه ، هذا الرسول الذى تتمخض الانسانية فتلده ، لا يمكن مطلقاً أن تقيده قيود إكليريكية ، أو علمانية ، أو تغله سلاسل الملكية أو الاقطاعية ، أو تعوقه البورجوازية أو الرأسمالية لأنه خلق فى الأصل لأن يكون صاحب رسالة ! !

شتان ياصاحبي بين رجل روحانى تطوح به الأقدار والمصادفات فتلقيه بين مخالب المادة فتكتنفه من كل جانب فتغرقه بين طيات لذاذاتها ، وبين رجل موهوب لو اجتمعت عناصر الطبيعة ، وأتمر الوجود على طمسه والطغيان على وجوده لسخر من الطبيعة والوجود وبرز كالظاهرة الكوكبية فى أجواء الفضاء يلمع ويسطع بين عناصر الكون ليتمها بوجوده ! !

شتان بين البارقة من الروح واشعاعاتها كلها ، فى كل إنسان نسمة من هذا الروح . أما صاحب الرسالة فهو روح بذاته

ستعود إلى أمريكا وأرجع أنا إلى مصر ، وقد نتلاقى ثانية ، وقد لا نتلاقى لا فى هذا العالم ولا فى العالم المجهول ، وستبقى أنت كما كنت مجداً فى تنظيم مشاريعك الاقتصادية تموه بها على نزعة النسمة من روحك التى أكسدها الاستغراق فى المادة ، وسأرجع أنا إلى مثل ما كنت عليه فى تصوير الجمال بالألفاظ المتناسقة إرضاء لنسمة الروح المصقولة باندماجى فيها ، وستلد الأمهات الآلاف مثلك ومثلى ، وسيكون لكل منهم اتجاهه الخاص . نعم ، قد تعوق اتجاهه بعض العوامل الخارجية وتعرقله فى إظهار ما فى وسع نسمة الروح إظهاره من رسالة ، ولكنها لن تصده عن إتمامها على الوجه المتقن فى خصائصها وعناصرها المتقنة ! !

كلنا أبناء الطبيعة الهوجاء ، والقدر الأرعن ، والدهر العابث ، كلنا صرعى الفوضى وضحايا التشتت ، إنما الرسول الملهم هو الذى يستجمع من الهوج والرعن والعبث ألواناً زاهية يرسم فيها للحياة صوراً جميلة فاتنة مغرية تجتذب الجماعات المغمورة بالجهالة صوب الغاية من وجود الحياة ! !

* * *

باخرتان : اتجهت الواحدة صوب الغرب تحمل رجلاً ينزف دمه فى عبادة المال حيث أربابه هناك ، وألقت الثانية مراسيها فى ميناء شرق تعيد إليه عابداً من عباد الحب والجمال والفن حيث آلهتها هنا !

حبيب الزحلاوى

البريد الأدبي

التعصب اللغوي بعد التعصب الجنسي

ظهرت في إيطاليا أخيراً حركة للعمل على تطهير اللغة الايطالية من العبارات والكلمات الأجنبية؛ وبطل هذه الحركة كاتب معروف هو السنيور باولو مونيلي، وقد أذاع دعوته في كتاب شديد اللهجة يدعو فيه إلى تحرير اللغة القومية العريقة من ذلك السيل من الكلمات والعبارات الأجنبية «البربرية» ويعترف السنيور مونيلي بأن هناك كلمات أجنبية في دوائر الأعمال والرياضة يصعب الاستغناء عنها، ولكنه يرى أنه يمكن الاستغناء عن الكثرة الساحقة من الكلمات والعبارات الدخيلة التي تشوه جمال اللغة الايطالية وتظهرها بمظهر القصور والفقر في حين أنها من أعرق لغات الأرض وأغناها

وهذه الحركة التي يدعو إليها الكاتب الايطالي بالنسبة للغة الايطالية ليست إلا طرفا من الحركة العامة التي ظهرت من قبل في تركيا الكمالية وفي ألمانيا، ثم ظهرت أخيراً في إيران؛ ومما يلاحظ بنوع خاص أنها من آثار النظم الطاغية التي تسيطر على هذه الأمم وتمعن في فهم النزعة القومية وتدفعها إلى حدود التعصب الجنسي والعلمي. ففي تركيا تضطرم الحكومة الكمالية بنزعة تعصب عميق نحو الاسلام ونحو اللغة العربية التي هي من أبرز مظاهره، وتبذل منذ بضعة أعوام مجهوداً عنيفاً لاستبعاد الألفاظ العربية من اللغة التركية مع أنها تكاد تتفوق فيها على العناصر التركية الأصلية، وإحياء الألفاظ التركية القديمة؛ بيد أنها مع ذلك تضطر إلى الاشتقاق من اللغات الأوربية بكثرة ظاهرة، مما يدل على أن الغاية الحقيقية ليست تحرير اللغة التركية من الألفاظ الأجنبية، بل قتل العناصر العربية فيها تحقيقاً لبرنامج الكماليين في محو كل آثار للاسلام والعربية من الحياة التركية الجديدة. وفي ألمانيا الهتلرية تجري حركة لاستبعاد الألفاظ الأجنبية وتطهير الجرمانية منها، وهذه حركة نستطيع فهمها في أمة عظيمة كألمانيا ذات لغة عريقة محدثة، وإن كانت فكرة الهتلريين لا تخلو مع ذلك من عناصر التعصب القومي والجنسي. كذلك أخذت إيران أخيراً تحذو حذو تركيا في حذف الألفاظ العربية من اللغة الفارسية؛ بيد أن حكومة الشاه تجري في ذلك في هوادة واعتدال، وتؤكد للعالم العربي أنها لا تبغي سوى غاية لغوية ثقافية ترى تحقيقها باحياء مجد اللغة الفارسية القديمة

كتاب عن ضحايا الثورة الفرنسية

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب جديد عن الثورة الفرنسية بقلم دونالد جرير؛ وعنوانه «حوادث عهد الارهاب» Incidents of the Terror، فهو إذن يتناول هذه الناحية من حوادث الثورة فقط، وهي بلا ريب من أخصب نواحي الثورة وأحفلها بالحوادث الرائعة

وقد ظهرت عن الثورة الفرنسية في معظم الآداب الحية كتب ومؤلفات لا حصر لها، ومنها آثار جليلة شاملة؛ ولكن الثورة الفرنسية تبقى أبداً موضوعاً للتأمل والدرس، ولا ينضب معين الطرافة والجدة في حوادثها وأسرارها الدفينة. ومؤلف اليوم ليس قصة، وإن كان ما يورد من الحوادث يفوق القصص في غرابته وروعته، بل هو تاريخ محقق من الوثائق والسجلات والمراجع المحترمة؛ وفيه يقص المؤلف حوادث عهد الارهاب الذي أزهقت فيه عشرات الألوف، ويصور لنا حالة الفرائس المسوقة من الكبراء والنبلاء، ويسرد حوادث محاكمتهم وإعدامهم في روية واعتدال، وقد انتهى المؤلف إلى القول بأن من أعدموا خلال هذا العهد بواسطة المقصلة يبلغون ١٦٫٥٩٤ نفساً، وأن هناك عدداً أكبر يقدر بين ثلاثين وأربعين ألفاً هلكوا في السجون من المرض والبرد والمعاملة النفسية؛ وتقديره النهائي هو أن خمسة وخمسين ألفاً هلكوا ضحية الثورة الفرنسية، هذا بينما يقدر بعض الباحثين من هلكوا في الثورة الروسية الأخيرة (الثورة البلشفية) بخمسين ألفاً فقط، ويعرض لنا الكاتب في أسلوب قوي شائق العوامل والأسباب التي يعتقد أنها مبعث هذا العنف والسفك المنظم

مشروع علمي جليل: سلسلة المعارف العامة

اعتزمت لجنة التأليف والترجمة والنشر اخراج كتب لطيفة الحجم يتناول كل كتاب منها موضوعاً خاصاً علمياً أو أدبياً ؛ وترمى بذلك إلى تكوين سلسلة تشمل جميع النظريات الحديثة فى الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والتربية والطبيعة والكيمياء وغير ذلك ؛ وقد سلكت فى ذلك طرقاً مختلفة ، فأحياناً تترجم كتباً أجنبية إذا رأتها صالحة كل الصلاحية ، وأحياناً تؤلف فى الموضوع بما يتفق وذوق الجمهور العربي

وقد بدأت هذا الشهر فى اخراج ثلاثة كتب

(الأول) عرض تاريخى للفلسفة والعلم تأليف ا . وولف وترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف ، وهو كما يدل عليه اسمه نظرة عامة فى تاريخ الفلسفة والعلم من بدء نشأتهما إلى الآن

(الثانى) الآراء الحديثة فى علم الجغرافيا تأليف ل . ددلى ستامب وتعريب الأستاذ أحمد محمد العدوى مدرس الجغرافيا بالجامعة المصرية

(الثالث) سكان هذا الكوكب تأليف الدكتور محمد عوض أستاذ الجغرافيا فى الجامعة المصرية يبحث فى سكان الكرة الأرضية من بنى الانسان من حيث نشأة النوع البشرى وتعدد الأجناس ونمو السكان وتوزيعهم على سطح الأرض مع دراسة تفصيلية لحالة السكان ومشاكلهم فى مختلف الأقطار

وستخرج اللجنة فى شهر فبراير سنة ١٩٣٦

(١) كتاب « البراجماتزم » أو الفلسفة الأمريكية تأليف الأستاذ يعقوب فام

(٢) كتاب « النقد الأدبى » تأليف لاسِل أبر كرومبى وترجمة الدكتور محمد عوض

(٣) كتاب « علم التاريخ » وهو بحث فى النظريات الحديثة لعلم التاريخ ترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادى

وهكذا ستسير اللجنة على هذا النمط فى اخراج أجزاء السلسلة تباعاً فى فروع العلم المختلفة

وقد شجعت وزارة المعارف العمومية اللجنة على هذا العمل بمساعدتها المالية والأدبية

وترجو اللجنة باستمرارها فى هذا العمل أن تكوّن منه دائرة معارف عامة تشمل كل الموضوعات العلمية والأدبية

رئيس لجنة التأليف والترجمة

أحمد أمين

تجربة لاختبار الذكاء

قامت بعض دوائر التربية فى اليابان بتجارب عقلية لاختبار ذكاء التلاميذ فى المدارس الابتدائية ، وجعلت الحد الأعلى لمقدرة التلاميذ ١٥٠ درجة واختبرت بهذه الطريقة سبعة آلاف تلميذ فلم ينل منهم الحد الأعلى أعنى ١٥٠ درجة سوى ١٦٥ تلميذاً فقط وظهر من التجربة أن اختلاف السن بين الوالدين لا يؤثر تأثيراً سيئاً على الصفات العقلية للنسل ؛ ذلك لأنه وجد بين هؤلاء المائة وخمسة وستين تلميذاً النابغين عدد كبير من الأبناء الذين ولدوا من آباء سنهم بين الثالثة والأربعين والخامسة والأربعين ، وأمهات بين الخامسة والعشرين والسابعة والعشرين . بيد أنه وجد فى معظم الحالات أن هؤلاء التلاميذ ولدوا من آباء فى نحو الثلاثين وأمهات فى نحو الرابعة والعشرين

وقد ظهر أيضاً أن الوالدين الفتيان لم ينجبوا أبناء فى منتهى الذكاء ، وأن الزواج الباكر جداً ينتج أبناء لا تتفتح مواهبهم العقلية تفتحاً تاماً ؛ هذا وقد لوحظ مع الدهشة أن الوظفين والمستخدمين الصغار هم آباء أذكى التلاميذ ، ثم يأتى بعدهم التجار ، ثم أرباب الصناعات فالمربون فالأطباء فالعمال

ومما أظهرته التجربة أيضاً أن أذكى التلاميذ هم كذلك أصحهم بنية وجسما

آثار العمالقة

يقدم إلينا القصص القديم كثيراً من سير العمالقة والمخلوقات الضخمة التى لم تعرفها عصور التاريخ المدون ؛ والظاهر أن أولئك « العمالقة » لم يكونوا مجرد خيال فقط صوره القصص القديم ؛ ففى الأنباء الأخيرة أنه اكتشفت فى منطقة مانيتوبا فى كندا (أمريكا الشمالية) هياكل بشرية ضخمة يبلغ طولها نحو ثمانية أقدام (نحو مترين وثلاثة أرباع المتر) ، واحدها فى حالة جيدة من الحفظ ، وكان اكتشافها على عمق أربعة أقدام فى أحد المحاجر التى تستغل فى تلك المنطقة

وقد استدعيت بعثة من الاخصائيين من علماء التشريح وعلم طبقات الأرض برآسة الأستاذ ديلوري أستاذ علم طبقات الأرض بجامعة وينبيج ، فصرح بعد بحث الهيا كل أنها ترجع إلى عدة آلاف من السنين ، وأنها تنتمى إلى جنس من العمالقة كان يسكن غرب كندا قبل مجيء الهنود الحمر بأحقاب بعيدة

هذا عن العمالقة من بنى الانسان . أما المخلوقات الضخمة التى يذكرها القصص القديم ، فتدل الابحاث العلمية الحديثة على أنها كانت توجد فى غابر الأزمان فى بعض جهات الصين وأفريقية الجنوبية كما تدل على ذلك بقايا العظام والهيا كل الضخمة التى اكتشفت فى تلك الأنحاء . وأما الأحياء المائية الضخمة فما زالت توجد حية فى بعض البحار وإن كانت قد غدت نادرة بحالة تؤذن أنها أضحت على وشك الانقراض

أثر خطى نفيس

لا تزال الأديرة القديمة فى مختلف أنحاء أوربا تحتفظ بكنوز من الآثار الخطية القديمة ؛ ومن هذه الأديرة دير كرمز منستر بالنمسا ، فهو يحتفظ بطائفة من مخطوطات العصور الوسطى ، وفى الأنباء الأخيرة أن مكتبة الدولة فى بافاريا قد حصلت من هذا الدير على مخطوط أثرى نفيس للشاعر الألمانى هينريخ فون منخن وهو مخطوط يرجع إلى القرن الرابع عشر ، وفيه قصص شعرية رائعة مأخوذة من التوراة ، وقصص أخرى من العصر القديم حتى عصر كارل الأكبر ، وقد تولى شراءه لحساب مكتبة بافاريا الهير فون بابن سفير ألمانيا فى النمسا

وفاة مؤلف موسيقى

من أنباء فينا (النمسا) أن المؤلف الموسيقى الشهير البان برج قد توفى ، وكان مولده فى فينا منذ خمسين عاماً ، ومع أنه من تلاميذ المدرسة الأمبراطورية القديمة ، فانه نحا فى التأليف الموسيقى نحواً جديداً ، وله مقطوعات موسيقية كثيرة ، وقطعة « أوبرا » تسمى « فوتسك » نالت نجاحاً عظيما ، وكان إلى ماقبل وفاته بأيام قلائل يقود حفلاً موسيقياً عظيما فى أحد مسارح فينا الكبرى ، فأثارت طريقته الجديدة استحساناً عظيماً كما أثارت نقداً عظيما ، ويرى النقدة أنه لم يبلغ ذروة قوته وفنه ، وأن الموت عاجله ، فأصابت الموسيقى النمسوية بفقده خسارة لا تعوض

جوائز أدبية نمسوية

ومن أنباء النمسا أيضا أن جائزة الدولة النمسوية عن الأدب لسنة ١٩٣٥ قد منحت إلى الأستاذ بركومج ، ومنحت جائزة الدولة للموسيقى إلى الأستاذ يوسف مسنر رئيس فرقة سالزبورج الموسيقية ؛ ونال جائزة التأليف الموسيقى المؤلف الموسيقى الشهير الدكتور فريدريخ ريدنجر

الكتب

كتاب اللآلى *

شرح امالى القالى

للاستاذ أحمد أمين

أخرجت المطابع الشرقية ، آلاف الكتب العربية ، ولكن — مع الأسف — لم يكن الاخراج فى أكثر الأحيان على نمط علمى ولا قريب منه ؛ فكثير من الناشرين تجار لا علماء ، يهمهم الربح أكثر مما تهمهم الدقة والضبط ، فهم يعهدون فى تصحيح كتبهم إلى من ليسوا محل ثقة ، ولا أمانة ، فلا يكلفون أنفسهم عناء جمع النسخ من الكتاب ليستعينوا بها ، بل يعتمدون على نسخة واحدة وقد يكون غيرها خيراً منها ، ثم لا يرعون الأمانة فيما بين أيديهم . فقد لا يفهمون جملة فيغيرونها أو يحذفونها ، وقد لا يستطيعون قراءة كلمة فيضعون كلمة أخرى من عندهم محلها ، من غير إشارة ولا تنبيه ، فخرج كثير من الكتب وعدمها خير من وجودها ، والنار أولى بها من المكتبات . وأمامى الآن وأنا أكتب هذه السطور كتاب الحيوان للجاحظ فلا أستطيع أن أقرأ صفحة منه من غير أن أعثر فيها على عدة عثرات ، من نقص ، إلى تصحيف ، إلى زيادة حرف ، إلى لحن ، إلى ما شئت من كل ضروب الخطأ — مع أن فى مكاتب العالم نسخا يمكن بموازنتها اخراج نسخة أقرب إلى الضبط وأدنى إلى الكمال . ومثل كتاب الحيوان غيره من الكتب الأخرى يطول القول بتعدادها ، فنحن إذا عددنا الكتب الصحيحة أو القريبة من الصحة سهل علينا عدها ، وإذا عددنا السيئة المغلوطة أعيانا العد ، وقد أعرنا بعض العناية لكتب الحديث كالبخارى ومسلم ، وكتب اللغة كالقاموس واللسان . فأما غير هذين النوعين فقد كان مجال الخطأ فيه فسيحا وفى ميدانه متسع للجميع

وقد سبقنا المستشرقون فى النشر وطرقه بمراحل ووضعوا له قواعد وأصولا ؛ ولست أنسى المحاضرات القيمة التى ألقاها فى سنة المرحوم « برجسترامر » فى كلية الآداب بالجامعة المصرية فى كيفية معارضة النسخ القديمة بعضها ببعض وكيفية النشر وما يجوز للناشر وما لا يجوز ... الخ

وكان كثير من الكتب التى أخرجها المستشرقون مثالا صالحاً ، لأنهم يعدون نشر الكتاب من الناحية العلمية لا يقل قيمة عن التأليف ، فالعالم كما يعد من مفاخره أنه ألف كتاباً ، يعد من مفاخره كذلك أنه نشر كتاباً ؛ وكما لا يضن بجهده ووقته فيما ألف ، لا يضن بهما فى ما ينشر . ومن الأوليات عندهم أن يجمعوا كل النسخ من الكتاب الذى يريدون نشره من مكاتب العالم ما استطاعوا ، ويصرفوا الزمن الطويل فى مقابلة بعضها ببعض والتعليق عليها وضبط أعلامها وغريبها ، ولا يألوا جهداً فى إيضاح الغامض وتبيين المشكل ، ووضع الفهارس للأعلام والبلدان وما إلى ذلك . فلا عجب أن يصرف الأستاذ « ريت » عشر سنوات فى تصحيح كتاب الكامل للمبرد ونشره لأول مرة ؛ وفضله وجهده ظاهران فى الطبعات المصرية التى نشرت بعد ، حتى سهل على العالم أن يدفع الثمن الغالى لكتاب طبع طبعة أوربية ولا يدفع الثمن البخس فى طبعة له مصرية . إن شئت فوازن بين كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة المطبوع فى أوربا والمطبوع فى مصر ، فهو فى مصر ناقص أكثر من نصفه ، ومحرف تحريفاً شنيعاً ، وهو فى أوربا كامل مضبوط صحيح بقدر الامكان

ومما نغتبط له أن نرى من أهل اللغة العربية أنفسهم من حذا حذو المستشرقين فى نشر الكتب ، بل فاق بعضهم أحيانا ، فبذل الجهد فى التصحيح والتعليق ومعارضة النسخ وعمل الفهارس ،

* هذا الكتاب يقع فى ثلاثة أجزاء وستصدره لجنة التأليف والترجمة والنشر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦

وهذه طليعة حسنة نرجو أن تستمر وترقى. فرأينا مثلاً من ذلك فيما تنشره دار الكتب من كتاب الأغانى ونهاية الأرب وغيرهما، وفيما تنشره لجنة التأليف من كتاب السلوك للمقريزى

ولعل من أجل الأعمال فى هذا الباب ما فعله صديقنا الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى نشر كتاب اللآلى فى شرح أمالى القالى للوزير أبى عبيد البكرى، فقد اختار كتاباً للنشر فأحسن الاختيار، لأن كتاب الأمالى عدّ — من قديم — أصلاً من أصول الأدب التى اعتمد عليها الأدباء فى العصور المختلفة إلى الآن، وقد كان النواة الأدبية الأولى التى بذرها أبو على فى بلاد الأندلس من علوم المشرق فنمت وأثمرت ونضجت وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. وقد كانت أماليه المدرسة التى تخرج عليها مشهورو الأدباء فى الأندلس ولقيت منهم من العناية ما هى جديرة بها. وكان للأمالى طابع خاص غير الطابع الذى غلب على أمثالها من كتب الأدب كالبيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرد؛ فكتاب البيان والتبيين طابعه مختار من الأدب صبغ بصبغة الجاحظ من ميل للاستطراد الكثير وتحدث فى الشؤون الاجتماعية، واقتباس من الثقافات الأجنبية، كالثقافة الفارسية والهندية واليونانية، وميل إلى الفكاهة والاحماض؛ وكتاب الكامل غلبت عليه طبيعة المبرد من ميل إلى النحو والصرف، لأن المبرد كان أديباً نحوياً فأحسن ما يعجبه من الأدب ما استطاع أن يخرج منه إلى مسألة نحوية أو صرفية، ثم يطيل النفس فى ذلك حتى كان الكتاب كتاب نحو؛ وهو لا يستطرد فى الشؤون الاجتماعية كما يفعل الجاحظ، ولكنه يعنى بالثقافة العربية مصبوغة بالصبغة النحوية؛ فمظهر الجاحظ مظهر المتكلمين من سعة الاطلاع وتفتيق الموضوع، ومظهر المبرد مظهر النحويين الأدباء من تشقيق اللفظ وتخريجه واعرابه واستعراض معانى الكلمات فى أوضاعها المختلفة

أما القالى فقد غلب عليه الأدب واللغة أكثر من غلبة النحو والحديث؛ وأكثر ما ألف فى اللغة والأدب، فقد ألف البارع فى اللغة، وشرح المعلقات، وكتب فى الابل ونتاجها، والخيل وشياتها الخ. فثقافته ثقافة عربية لغوية؛ ثم هو ليس عربياً كالجاحظ والمبرد بل هو مولى للأمويين: كان جده سلمان مولى لعبد الملك بن مروان، ولعل هذا ما حدا به إلى أن يرحل من الشرق إلى دولة مواليه الأمويين فى الأندلس؛ وهذا يميزه عن الجاحظ والمبرد بأن علمه كان علم حفظ وجمع ورواية لا تعتمد على السليقة كما يعتمدان. فهو إذا أراد أن يخطب ارتج عليه، ولكنه فى درسه واسع العلم غزير الرواية، وكان كتابه الأمالى مظهراً لذلك، ينقل القطعة المختارة من العرب فى شعرهم ونثرهم وحكمهم وخطبهم ووصاياهم — وأكثر ما ينقل عن أستاذه أبى بكر بن دريد — ثم يتبع نقله بتفسيره لما ورد فى القطعة الأدبية من الألفاظ اللغوية، ويشتق الكلمة اللغوية ويبين معانيها، وكثيراً ما يستشهد على معنى الكلمة ببيت من شعر قديم أو مثل سائر أو نحو ذلك

وكتابه يمتاز بأنه يروى كثيراً من القصص العربية الأدبية، وهى نزعة أتت له من ابن دريد، فقد كان على ما يظهر محباً لهذا النوع من القصص اللطيف. فأكثر ما يرويه القالى فى أماليه من هذا القبيل: وأعرابيات يصفن آباءهن، ومحاورة الفرزدق مع بعض الأعراب، ووصف أعرابى للدنيا وقد سئل عنها، ووصايا رجل لبنيه، وامرأة لبناتها الخ؛ فمختاراته ليست جافة جفاف «الكامل»، ولا أدباً بحتاً كأدب «الكامل»، إنما هو أدب فرش له فرش جميل وأعد له إعداد أنيق. لم يجرد فيه المظروف من ظرفه، ولم تسلب فيه الحسناء حليها؛ وقلّ أن يتعرض فيه للنحو والصرف الثقيلين كما يفعل المبرد، ولا للاستطراد الخفيف الروح كما يفعل الجاحظ. إنما خفة روح الأمالى من نمط آخر غير نمط البيان والتبيين، نمط فيه التاريخ والقصص والأساطير أحياناً ممزوجة بالأدب، ثم تفسير لما ورد فيها من غريب اللغة

ولكن أخذ عليه بعض أشياء فى تأليفه، فجاء أحد مواطنيه وهو أبو عبيد البكرى الأندلسى أمير لَبْلة وصاحب جزيرة شلطيش، فأراد أن يخدم الأمالى بتكميل نقصها، وتحلية عاطلها، فألف فى ذلك «كتاب اللآلى فى شرح أمالى القالى» وأجل غرضه فيما قدم بين يدى كتابه فقال: «هذا كتاب شرحت فيه من النوادر التى أملاها أبو على اسماعيل بن القاسم القالى ما أغفل، وبينت من معانى منظومها ومنثورها ما أشكل، ووصلت من شواهدها وسائر أشعارها ما قطع، ونسبت من ذلك إلى قائليه ما أهمل... وذكرت اختلاف الروايات فيما نقله ذكر مرجح

ناقد ، ونبهت على ما وهم فيه تنبيه منصف لا متعسف ولا معاند ، محتج على جميع ذلك بالدليل والشاهد ، والمستعان الله »

ثم جاء الأستاذ عبد العزيز الميمني الهندى أستاذ اللغة العربية بجامعة عليكره فقام فى هذا الكتاب مقاما يستحق الاعجاب حقا ، ويستحق التقدير حقا ، وقد دلنا منه على علم غزير واطلاع واسع وإن لم يكن ذلك خافياً علينا من قبل

فقد أخرج كتاب « اللآلى فى شرح أمالى القالى » اخراجاً علميا على النمط الذى ننشده ، فعارض بين نسخه المختلفة من مكية وألمانية ؛ وبذل أقصى الجهد فى تصحيحها ، ولاقى عرق القربة فى ضبط أعلامها وبلدانها وأشعارها وغريبها ، ووقف فى كثير من المواضع موقف الحكم بين أبى على وأبى عبيد ، ينتصر لهذا حيناً وذاك حيناً بالدليل والبرهان ؛ ورأى أن أبا عبيد البكرى اقتصر فى شرحه ونقده على كتاب الامالى دون الذيل فوقف الميمنى موقف البكرى فى ذلك ، وشرح الذيل ونقده — وراجع فى كل ذلك مئات من أمهات الكتب . وسيعجب القارئ كيف وقف على الأبيات المختلفة المنتثرة فى هذه الكتب العديدة وعرف مواضعها ، ووفق إلى استخدامها ، ثم ختم ذلك بتصحيح أغلاط وضبط روايات ، وتقييد زيادات ، لكتاب الأمالى وذيله المطبوع فى مطبعة دار الكتب ، فأوفى فى ذلك كله على الغاية

ومنطقه فى أحكامه على القالى والبكرى منطق صحيح غالباً ، وإن أخذ عليه شىء فاستعماله أحياناً عبارات قاسية فى النقد مثل « أغلاط مستنكرة » و « متناهية فى الاستبشاع » ونحو ذلك مما كنا نود أن يرفق فيه قلمه

وعلى كل حال فقد أسدى « الميمنى » إلى اللغة العربية خدمة لا تنكر ، وقدم مثلا للنشر يجب أن يحتذى

وكان من فضل كتابه أنه « عصبة أمم » فى كتاب ، فأبو على القالى شرقى استوطن قرطبة ، والبكرى أندلسى الأصل والنشأة ، و « الميمنى » هندى ، ولجنة التأليف ناشرة الكتاب مصرية . فأنعم بهذه الرابطة بين القديم والحديث ، وبين المحدثين فى أوطانهم المتنائية وأرواحهم المتقاربة !

أحمد أمين

4 me Année, No. 136.

Lundi-10-2-1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــدد ١٣٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ — ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــدد

على ذكر حوادث دمشق

تاريخ يثــور...

على ضفاف الوادى، وهضاب فلسطين، ورياض سورية، يثور تاريخ، ويغضب مجد، ويستغيث مظلوم... !!

على الوطن الذى ورفت على نيله أول حضارة، والبلدِ الذى هبط على طُوره أول دين، والقُطر الذى انبثقت من ساحله أول ثقافة، تُمْتحن الحرية بمن فرضوا على الملك أول دستور، وتُمْتهن العدالة ممن حملوا للهِ أول كتاب، وتُبتلى الانسانية بمن أعلنوا للانسان أول حق... !!

على هذه الأقطار الثلاثة التى شع منها السلام والاسلام والخير، يستكلب الطمع، ويشتجر الهوى، وينفجر البغى؛ فالمفاوضات وعيد، والاحتجاجات حديد، والمواعيد مراوغة، كأنما عيّ المنطق من طول ما مارس العلم! ومات الضمير من كثرة ما دارس الخُلق! وزهق العدل من شدةما زاول القانون!! فى القاهرة وأورشليم ودمشق، شباب يحمَى على لذع البنادق، ودم يفور على مس الأسنة، وأمل يشرق فى الوجوه الوضيئة،

وطموحٌ يومض فى العيون الرغيبة ، وماضٍ تميز فى إبهام الدهر يتمثل فى الأذهان الصافية ، ومجدٌ تأثَّل فى أربعة عشر قرناً يعصف بالنفوس الفتيَّة ! فماذا تصنع مُدية اللص فى قلب تدرَّع بالايمان ؟ وماذا تبلغ سطوة الباطل من حق تسجَّل فى لوح الزمان ؟ !

* * *

يا لله ! ألم يأْنِ لدعاة المدنية ... وحماة الحرية ... ورسل العلم .. أن يروضوا عقولهم على الحقيقة ، ويفتحوا عيونهم على الواقع ؟ ! إن هذا الشعب الذى تتحلب أفواههم قَرَماً لأكله ، لا يزال يعيش فى ملك آبائه الفاتحين ، ولا يزال مطوىَّ الحنايا على العزيمة التى قبض بها من قبل على زمام الدنيا ، وشارك فى تصريف الأقدار ، وأملى إرادته على سجل الزمن ! إن حلمه لثقيل ، ولكن غضبته مفزعة ؛ وإن نومه لطويل ، ولكن يقظته مروِّعة ! إنه على اختلاف أقطاره لا يزال يحمل فى نفسه سر (الجزيرة) التى يعيش فيها الجمل الوقور الصابر ، والأسد الهصور المتوثب !!

إن فى كبد أوروبا جمرة من العرب منذ غزتها بالدين والمدنية والعلم سفائنُ طارق ! ولقد انطفأت البراكين ولما تنطفىء هذه الجمرة ! أجْلت العرب عن أرضها بالبربرية الهوجاء والتعصب الحاقد والقسوة الجامحة ، ثم كتَّبت الكتائب الحليفة وغزتهم فى عقر بلادهم باسم الدين المظلوم فى عهد (صلاح الدين) ، ثم بالعلم المسموم فى عصر (عبد الحميد) ، ثم بالمدنية المغشوشة فى عهد (عصبة الأمم) ! فما كان الدين والعلم والتمدن إلا ألفاظاً حُملت بالكره على معانى الثأر والاستعمار والغصب ! ثم أغروا بنا الجهالة والمجاعة والفوضى ، ومضوا فى ظلال الأمن ، يعقدون من دمائنا الذهب ، ويتخذون من لحومنا القوت ، حاسبين أننا مخدَّرون بالأباطيل فلا نفيق ، مُثْقلون بالتقاليد فلا ننهض ؛ ولكن المعدن يا غُلْفَ القلوب كريم ! وهذا الذى يعلوه غبار لا صدأ ! وهاهى ذى سياسة الارهاب والاغتصاب تجلوه عن شباب عرفوا كيف يموتون ، أكثر مما عرفوا كيف يعيشون ! ! وهاهم أولاء يمشون على ما بلى من هيا كل الشيوخ ، كما يمشى المَرِحون على ما جف من سفَير الشجر ! ! إنهم يسرعون الخطى إلى الربيع الباسم والجو الطليق ، وفى أسماعهم المرهفة دوىٌّ لا ينقطع بهذا الهتاف : « لقد فتح آباؤكم ثلاث قارات فى ربع قرن ، أفتعجزون عن تحرير ثلاثة بلاد فى نصف قرن ؟ !

* * *

إن شباب العرب مصريين وسوريين قد أخذوا موثقهم من الدم الشهيد أن يعيشوا أعزة أو يموتوا كراماً ! فلا تتحدَّوا بالعذاب السفيه جنساً برمته وتاريخاً بأسره ، ولا تعبثوا بالمعاجم التى تعب فيها اللغويون والمجامع فتسموا النهب تنظيما والقتل تعليما والغزو صداقة ! جربوا الصداقة بمعناها اللغوى الصحيح تفِرُوا المال والرجال والسمعة ، فان هذا الشعب الذى وقعتم فى صفوه ، وتعبتم من غزوه ، ويئستم من خداعه ؛ كان له فى السياسة العالمية شأن ، وفى اللغة الدولية اصطلاح ، وفى قيادة الانسانية محل ، ومن اصلاح المجتمع نصيب ! فهو يفهم الصداقة ، ويقدِر المعاونة ، ويكبر التضامن ، ويعقد صِلاته بالناس على ضوء شريعته وقرآنه !

إن سلام الشرق منوط بسلام العرب ؛ وإن السلام والاسلام لفظان مترادفان على معنى واحد ؛ وليس من معانى السلام المهانة ، ولا من دلالات الاسلام الاستكانة ! إنما هما الحياة القائمة على الحرية والأخاء والمساواة ، وهى الأقانيم الثلاثة التى رسمتها الثورة على عَلَمَكم المثلث !

بغير هذا لا يرضى العرب ! وبدون هذا لا يحيا العرب ! فراجعوا فى سياستكم العقل السالم من الهوى ، والضمير الخالص من الرِّيبة ، وحكموا بينكم وبينهم مبادىء الناس ، فانهم — كما تحسون وتلمسون — من الناس ! !

أحمد حسن الزيات

في وقع المـــوت

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

ضمني مجلس قال أحد من فيه -- وقد ذكر بعضنا وفاة الملك جورج الخامس ، وقول الأطباء إنهم لم يشهدوا أعراض مرض معين ، وأن قواه كانت تهبط شيئاً فشيئاً — : « إن من الصعب على الانسان أن يواجه الموت وهو محتفظ بعقله » ، فقال آخر إن الذي يخفف عنه في هذه الساعة أنه يستسلم للموت ولقضاء الله فيه ، فسألته : « هل معنى هذا أنه يقبل على الموت راضياً وبتلقاه مغتبطا ؟

فكان جوابه : « نعم . . . . يستسلم فيفقد الموت لذعه ورهبته » . . . ولست طبيباً ولا شبهه ، ولكنى لا أرى هذا ولا أستطيع أن أقتنع به ؛ وعندي أن الانسان لا يزال إلى آخر عمره يثور على الموت ويجاهد أن يدفعه عنه ويقى نفسه منه ؛ ولكن جسمه يفقد الحيوية فتذهب معها الارادة — لا ارادة الحياة ، فانها لا تفارقه أبداً ، بل ارادة المقاومة والكفاح بعد استنزاف القوة ، ويظل المرء كارهاً للموت مشتهياً للحياة متعلقاً بها ، ولكنه يعرف من نفسه أنه لم يعد قادرا على المجاهدة ، ويخطئه العون اللازم من الجسم فيكون كالذي فقد في المعركة سلاحه ، أو فرغت ذخيرته والأعداء مطبقون عليه ، فيوطن نفسه على الموت يأساً من النجاة

والمرء إنما يقاوم الموت بجسمه ، وقد يستطيع بقوة الارادة أن يطيل أمد المقاومة ؛ ولكن استمرار المقاومة معناه أن جسمه لا يزال محتفظاً ببقية من القوة مذخورة — بالغة ما بلغت من الضآلة — وبهذه البقية يستطيع أن يحمل لارادته أثراً ولمقاومته لعدوان الموت مظهراً ، فاذا زالت هذه البقية ونضب المعين ، لم يبق للارادة عمل ، لأن الأداة التي تعمل بها الارادة تكون قد فنيت وذهبت

ولا فرق هناك بين من يكافح الموت — في الأحوال العادية الطبيعية — وبين من يقاتل مع جيش . فكما أن الجندي يثبت ويصمد ويتسنى له أن يكر ويفر ، ويهاجم ويدافع ما بقي معه سلاحه وعدته ، حتى إذا فقد ذلك لم يبق له عمل ، كذلك يكون المرء حيال الموت الذي يدلف إليه ويدنو منه على الأيام ليثبت عليه آخر الأمر . وكل ما هنالك من الفرق أن الموت كامن فينا ، وأن أداته الضعف الذي يصيبنا ، والهرم الذي يدركنا ، والعجز الذي يستولى علينا في النهاية ، فهو ليس عدواً يهجم علينا ، بل حالة نصير إليها حينما تنفد الحيوية لسبب من الأسباب

وقد راقبت الموت أكثر من مرة ، وشهدت كثيرين وهم في سياقه ، ثم ماتوا بين يدى ، وكان الموت في هذه الحالات كلها على أثر نضوب الحيوية ونفاد القدرة على المقاومة . وكانت إحدى الميتات بسبب النزف ، فظل العقل حاضراً لا يغيب ولا تغيم سماؤه ، ولا يتعكر صفوه ؛ وكان الاحساس بدنو الأجل قوياً ، ولا شك أن الرغبة في الحياة كانت عظيمة ، والجزع من الفناء كان شديداً ، ولكن الجسم لم تكن له قوة تستخدمها الارادة ، فخرج النفس الأخير في سلام ومن غير أن يبدو للناظر أثر للصراع . وبأى شيء يكون الصراع ؟ ؟

وميتة أخرى شهدتها ، كان الصراع فيها كأعنف ما يمكن أن يكون ، لأن الجسم بوغت بعدوان المرض المنذر ، فتنبه فيه كل كامن من قوته ، وهبت إرادة الحياة تدفع هذه الغائلة ، وكان يخيل إلى وأنا أنظر ، كأن انساناً ألقى به في الماء وهو لا يعرف من السباحة إلا لفظها ، وكما يفعل المرء حين يلقى نفسه في الماء ويخشى عليها الغرق ، فتراه يضرب بيديه ورجليه بغير حساب أو تفكير ويهز رأسه هزاً عنيفاً ، وينفخ ويرغى ، كذلك كنت أرى أمى لما أصابتها الذبحة ؛ وسكنت الآلام بفضل العلاج يومين ، وبدأنا نستبشر ، ولكن النكسة جاءت ، أو لا أدرى ماذا حدث ، فجعلت نوبات من الاختناق تعتريها ، وبينها في أول الأمر فترات طويلة جعلت تقصر شيئاً فشيئاً حتى صارت دقائق . وكانت أول الأمر تقاوم الاختناق بشدة ، وتعالج التنفس بجهد عنيف ، يظهر أثره في كل عضلة من عضلات الوجه والعنق ، وفي اضطراب الصدر وخفق القلب ، وفي دفع اليدين والرجلين ؛ وكان همي أن أقوى إرادة الحياة في نفسها وأن أمدها بما يكفي من الأمل والثقة والشجاعة ، ولكن كرات الاختناق أوهت قوتها واستنفدت مجهودها ، ولم يفارقها الحرص على الحياة ، والنفور من الموت ، وإنما خذلتها قواها ؛ ولم يذهب عقلها ولا ضعف أو كل ، ولكن ما خير العقل وما غناؤه وحده ؟ ؟

وبأى شىء يشتد أزره ؟ فلما جاءت آخر النوبات كان كل ما وسع الجسم أن يكافح به هذه الغارة أن الشفة السفلى اختلجت مرة أو مرتين ، فهمد الجسم وكف القلب عن النبضان وانقطعت الأنفاس

وقد سقت هذه الأمثلة لأقول إن الانسان لا يستسلم ولا يزهد فى الحياة ، ولا تفتر رغبته فيها ، ولا يضعف كرهه للموت واستهواله للفناء ، ولكنه لا يجد مؤازراً من جسمه فييأس ؛ وليس هذا استسلاما وإنما هو إدراك لحقيقة بغيضة لا يبقى مفر من مواجهتها وتوطين النفس عليها ، والاذعان لها كرها . وخليق بهذا أن يكون مؤلماً ، ولكن فترته أقصر من أن يكون للألم فيها قيمة أو حساب ، وعلى أن عجز الجسم عن المقاومة ، يذهب فى رأيى بالألم ، لأن الألم فيما أعرف نوع من الاستجابة لوقع الشىء أو الحالة ، ومتى فقد الجسم القدرة على الاستجابة للمؤثرات فانه يفقد أيضاً قدرته على الاحساس بالألم أو الحزن أو الجزع أو الفزع ، لأن شعوره بذلك يقتضى أن تكون هناك بقية من الحيوية ، ولو كانت هناك بقية ، لاستمرت المقاومة ولظلت رحى الكفاح بين الحياة والموت دائرة

فلست أوافق الذين يستهولون أن يكون المرء مدركا لمجىء الأجل ، لأن إدراك المرء لذلك ، معناه أنه يدرك أن جهده نفد ، وأن معين حيويته نضب وجف ، وهذا الادراك وحده وبمجرده ، رياضة سريعة للنفس على السكون الى المصير المحتوم ، لأنه إشاعة للموت فى الجسم قبل تجربة وقعه ، فكأن الانسان يوحى إلى نفسه الموت — بفضل هذا الادراك وبقوته — قبل أن ينزل به ، فاذا زاره الفاه مستعدا له ، مهيأ لتلقيه ؛ والادراك تهيؤ ، والتهيؤ ينفى الألم ويستل اللذع

ومن هنا كانت الشيخوخة — أى الضعف — والمرض الطويل أو المضنى ، بمثابة التدريب على الموت . وكل امرىء يقرن الشيخوخة أو المرض بالموت ، ولا يستغربه حين يحل بالهرم أو الذى خامره الداء ، ولكن موت الشاب يصدم النفس ويرجها ، لأن الشباب — وهو أوان الحيوية الزاخرة — لا يقترن فى الأذهان بفكرة الموت . أما الشيخ الهم فان كل من يراه يجرى بخاطره أنه هامةُ يوم قريب ، وأخلق أن يكون الموت أقرب الى خاطره وأجرى بباله ، وأشد مثولا وأكثر حضوراً ، لأنه أحس بنفسه وأدق ادراكا لما خسر من قوته ، وعلما بما صار اليه من الوهن والفتور بالقياس الى ما كان عليه من المُنة والنشاط والخفة والمرونة . ويألف المرء الضعف واليبس فيألف المصير الذى يرى نفسه ينحدر اليه بسرعة أو على مهل ، فيكون هذا كالرياضة له على السكون الى المآل المحتوم ، وهذا هو معنى قولى إن الشيخوخة أو المرض تدريب على الموت

وهذه الرياضة النفسية — أو التدريب الذاتى — على الموت أفعل وأوقع من كل ما يشاهده الانسان من عدوان الفناء على الحياة فى مظاهرها المختلفة . وأحسب أن المرء حين يرى غيره يموت ، أو يسمع بذلك ، يستثنى نفسه من هذا المصير وإن كان على يقين جازم من أنه حتم لا رادّ له ولا حيلة فيه ؛ ولعله فى ضمير الفؤاد يهنىء نفسه بالنجاة ويشكر الله على أن الموت لم يخطفه هو ، وعسى أن يكون الأمل المستمد من غريزة المحافظة على الذات هو الذى يغريه بالتعلق بوهم الاستثناء المستحيل ، وهو على كل حال يخفف وقع الخبر ، ويجعله محتملا ، ويذهب ببواعث الجزع على النفس قياساً على المشهود

ولكن قدرة المرء على مغالطة نفسه تضعف أمام دبيب الموت اليه على الأيام . ذلك شىء يحسه فى نفسه فلا سبيل إلى تجاهله والاغضاء عنه . وكيف يسعه أن يتجاهل اليبس الذى فى أعضائه ، والتصلب الذى فى شرايينه ، والفتور الذى يجده ، والضعف الذى يعتريه حين يهم بأيسر الأشياء ، والعجز عن احتمال ما كان يمر به فلا يعيره لفتة ، الى آخر ذلك ؟ وكل يوم يمضى به يزيده وهنا على وهن ، ويدنيه من القرار الذى يُلفى نفسه هابطا اليه ، فلا يبقى سبيل الى مغالطة النفس . وكل ما يقدر عليه أمله هو أن يرجو أن يُنسىء الله فى أجله ، على الرغم مما يكابد من ذلة الشيخوخة ومهانة الضعف والحاجة المتفاقمة إلى الاسناد . فهو مضطر أن يوطن نفسه على الموت ، وأن يقصر الأمل على طول المهلة ، وليس أجدى عليه ولا أفعل فى تخفيف وطأة الموت من هذه الرياضة البطيئة . ومن هنا كان موت الفجاءة مزعجاً لنفوس الأحياء ، لأن صدمته لها تجىء على غير انتظار . والله أعلم ، فما جربَ الموت أحد وعاد الينا ليقول لنا كيف كان وقعه — هذا طريق لا يحمل المسافر فيه « تذكرة » ذهاب وإياب ، كما يقول وبندل هولمز

ابراهيم عبد القادر المازنى

الوزير ابن كلس

واضع الحجر الأول فى صرح الجامعة الأزهرية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سألنى سائل كيف نشأت صفة الأزهر الجامعية ، ومن صاحب الفضل الأول فى اسباغها عليه ؟ فرأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأعرض فى هذا الموضوع شيئاً من الشرح والتفصيل

ويجب أولا أن ننفى فكرة ذائعة ، هى أن الجامع الأزهر أنشىء ليكون جامعة أو معهداً للدرس ، فليس ثمة فى ظروف انشائه ما يدل على أنه أنشىء لمثل هذه الغاية ، وإنما أنشىء الجامع الأزهر ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ، ومنبراً لدعوتها ، ورمزاً لسيادتها الروحية . أما فكرة الدراسة بالأزهر فقد كانت حدثاً عارضاً ترتب على فكرة الدعوة المذهبية الجديدة ؛ فنى صفر سنة ٣٦٥ هـ ، فى أواخر عهد المعز لدين الله منشىء الأزهر ، ولنحو أربعة أعوام من انشائه ، جلس كبير القضاة على بن النعمان القيروانى بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه فى فقه الشيعة فى جمع حافل من العلماء والكبراء ، فكانت هذه أول حلقة للدرس عقدت بالجامع الأزهر ؛ ثم توالت حلقات بنى النعمان بالأزهر بعد ذلك ؛ وكان بنو النعمان من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية وجعلتهم دعاتها وألسنتها الروحية ، فلحقوا بها إلى مصر ، واستأثروا فى ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن ؛ وكانت الخلافة الفاطمية تعتمد فى توطيد سلطانها بمصر على عصبيتها المغربية ، ثم على صحبها وخاصتها من الموالى الأجانب وجلهم من الصقالبة ؛ وكانت حلقات أولئك العلماء المغاربة بالأزهر حلقات دعاية روحية وسياسية ، تعقد فى الغالب للأكابر والخاصة ، ولم تكن لها فى البداية صفة الدرس العام

كانت هذه بداية جامعية فى معنى من المعانى ، بيد أنها لم تكن عامة ولا مستقرة ؛ ولكن حدث فى عهد العزيز بالله حدث جامعى آخر ؛ فنى رمضان سنة ٣٦٩ هـ جلس يعقوب بن كلس وزير المعز لدين الله ، ثم وزير ولده العزيز من بعده بالجامع الأزهر ، وقرأ على الناس كتاباً ألفه فى الفقه الشيعى ؛ وكان ابن كلس كما سنرى شخصية ممتازة ، تجمع بين السياسة والعلم ، وكان نصيراً كبيرا للعلماء والأدباء ؛ وكان يعقد مجالسه الفقهية والأدبية تارة بالأزهر وتارة بداره فيهرع اليها العلماء والطلاب من كل صوب ، وكانت فى الواقع أول مجالس جامعية حقة عقدت بالجامع الأزهر

والظاهر أن ابن كلس كان أول من فكر فى جعل الجامع الأزهر معهداً للدراسة المنظمة المستقرة ؛ وعلى أى حال فهو أول من فكر فى تنفيذ هذا المشروع الجامعى ؛ ففى سنة ٣٧٨ هـ استأذن ابن كلس العزيز بالله فى أن يعين بالازهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ، ويعقدون مجالسهم بالأزهر فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ؛ وكان عددهم خمسة وثلاثين ؛ وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم فى يوم الفطر ، وأجرى عليهم ابن كلس أيضاً رزقا من ماله الخاص

وهنا نجد أنفسنا أمام حدث جامعى حقيقى ، فقد كان أولئك الفقهاء الذين رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر ، وأقرهم العزيز بالله ، أول الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر ، وأجرت عليهم الدولة أرزاقا ثابتة وباشروا مهمتهم العلمية تحت رعاية الدولة بطريقة منظمة مستقرة ؛ وإذن فهنا نستطيع أن نقول إن الأزهر يكتسب لأول مرة صفته الجامعية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة ، وأنه يبدأ هنا حياته الجامعية الحافلة المديدة

— ٢ —

وإذا ما تقررت هذه الحقيقة ، فانا نستطيع أيضاً أن نقول إن أكبر الفضل فى تتويج الجامع الأزهر بهذه الصفة الجامعية الجليلة يعود إلى الوزير ابن كلس الذى أسبغ عليه لأول مرة صفة المعاهد الدراسية العامة ، ورتب له أول فريق من الأساتذة الرسميين .

ولقد كان ابن كلس وزيراً عظيما وعالماً جليلا ؛ بل كان عبقرية سياسية حقيقية ؛ وهو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ؛ واسمه يدل على أصله الذمى ؛ أجل ، فقد كان ابن كلس يهوديا ، نشأ ببغداد ، وغادرها فى شبابه إلى الشام واشتغل هنالك حينا

بالتجارة ، وأثقلتـه ديون عجز عن أدائها ففر إلى مصر فى عهد كافور الأخشيدى ؛ واتصل به وقام له ببعض الأعمال والمهام المالية فأبدى فى أدائها خبرة وبراعة ، وطاف بريف مصر يحصـل الأموال ويعقد الصفقات ، حتى تمكنت منزلتـه لدى كافور ، وأثرى وكثرت أمواله وأملاكه ؛ ثم ثابت له فـكرة فى الأخذ بنصيب من السلطة والولاية ، ورأى الإسلام خير طريق لتحقيق هذه الغاية ، وكان قد بلغه أن كافورا قال فى حقه لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً ، فدرس قواعد الاسلام وشرائعه سراً ، وفى شعبان سنة ٣٥٦ هـ ، دخل جامع مصر (جامع عمرو) وصلى به الصبح فى موكب حافل ؛ ثم ركب فى موكبه إلى كافور ، فخلع عليـه ، واشتهر أمره ، وعلت منزله ، وقوى نفوذه ؛ فتوجس وزير مصر جعفر بن الفرات من تقـدمه وتمكن نفوذه شراً ، وأخذ يدس له الدسائس ، ويوغر عليه الصدور ؛ فخشى ابن كلس العاقبة ، وفر إلى المغرب فى شوال سنة ٣٥٧ هـ ، ولحق بالمعز لدين الله الخليفة الفاطمى ، وهو يومئذ ينظم مشروعه لغزو مصر ، فقدر المعز مواهبه وكفاياته ، ووقف منـه على أحوال مصر ومواطن القوة والضعف فيها ؛ ولبث ابن كلس فى خدمته حتى تم فتح مصر على يد جوهر الصقلى . ولما قدم المعز إلى مصر بأهله وأمواله وجيوشه فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، قدم معه ابن كلس ، وقلده المعز شؤون الخراج والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشؤون المالية الأخرى ، فأبدى فى إدارتها وتنظيمها براعة وزاد الدخل زيادة واضحة ، ثم عهد اليه المعز بشؤون الخاص ؛ ولما توفى المعز بعد ذلك بقليل فى ربيع الآخر سـنة ٣٦٥ هـ فوض العزيز بالله ولد المعز وخليفته إلى ابن كلس النظر فى سائر أموره ثم لقبه بالوزير الأجل ؛ ووقعت فى حقه وشايات من بعض خصومه فاعتقله العزيز بالقصر بضعة أشهر ، ثم أطلقه ورده إلى مناصبه ؛ وتضاعفت منزلته لدى العزيز وغدا أقوى رجل فى الدولة ؛ وبذل ابن كلس جهوداً عظيمة فى تنظيم الادارة والدواوين ، وكان من أكبر بناة الدولة الفاطمية بمصر وموطدى دعائمها ونفوذها .

وليس غريباً أن يحرز رجل مثل ابن كلس تلك المـكانة الرفيعة فى ظل الدولة الفاطمية مع أنه يهودى الأصل والنشأة ؛ فقد كانت الخلافة الفاطمية تصطنع الذميين والصقالبة ، وتوليهم ثقتها ؛ وقد ولى وزارتها فيما بعد ، فى عصر الحاكم بأمر الله ، وزراء يهود ونصارى خلص مثل ابن رسوبن ، وابن فهد ، وعيسى ابن نسطورس ، وابن عبدون ؛ وتولى بعد هؤلاء كثيرون فى عهود مخالفة ؛ ونستطيع أن نفهم سر ما كانت توليه الخلافة الفاطمية لوزرائها الذميين من العطف والثقة إذا ذكرنا أنها تتهم من بعض خصومها بالانتماء إلى أصل يهودى ، وأنها كانت تتهم فى عقائدها

ولم يكن ابن كلس وزيراً وسياسياً عظيما فقط ، بل كان عالما وأديباً كبيراً أيضاً ، وكان يعقد بداره مجالس علميـة وأدبية دورية ينتظم فى سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء ؛ وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس ، ويشترك فى أعمالها ، ويغدق العطاء على روادها . وقد أخذ ابن كلس بقسط حسن فى التأليف والكتابة ، فوضع كتابا فى القراءات ، وكتابا فى الفقه ، وكتابا فى آداب رسول الله ، وكتابا فى علم الأبدان والصحة ، ومختصرا فى فقه الشيعة مما سمعه من المعز لدين الله ، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره ، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظرهم ويصلهم ؛ وكانت موائده دائماً منصوبة ممدة للوافدين ؛ وكان كثير الصلات والاحسان ، وبالجملة فقد كان هذا الوزير العالم الأديب مفخرة فى جبين عصره ، وقد أشاد شعراء العصر بخلاله وجوده ، ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة فى يده :

يد الوزير هى الدنيا فان ألمت   رأيت فى كل شىء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته   من أجله واسأل القرطاس والقلما

ومرض ابن كلس فى شوال سنة ٣٨٠ هـ ، فجزع عليه العزيز أيما جزع ، ولبث يعوده ويرعاه ، حتى توفى فى الخامس من ذى الحجة ؛ فحزن عليه حزناً شـديدا ، وأمر بتجهيزه بجهيز الأمراء والملوك ، وخرج من القصر إلى داره فى موكب صامت محزن ، وشهد تجهيزه وصـلى عليه بنفسه ، ووقف حتى تم دفنه وهو يبكى بدمع غزير ، واحتجب فى داره ثلاثاً لا يأكل على مائدته والحزن يشمل الخاص والقصر كله ؛ وأفاض الشعراء فى رثاء الوزير الراحل ومديحه ، فوصـلهم العزيز جميعاً ؛ وعلى الجملة فقد سما ابن كلس فى ظل الدولة الفاطمية الى أرفع مكانة ، وترك

بوفاته فيها أعظم فراغ ، وكان له أعظم الأثر فى توطيد حكمها وادارتها بمصر

— ٣ —

هكذا كانت حياة ذلك الوزير الخطير الذى يدين إليه الأزهر بأول خطوة عملية حقيقية فى سبيل الحياة الجامعية ؛ ومن المحقق أن تلك الخطوة الأولى فى ترتيب الأساتذة والدروس بالأزهر بطريقة منظمة مستقرة ، كان لها أثر كبير فى تطور الغاية التى علقتها الخلافة الفاطمية بادىء ذى بدء على إنشاء الجامع الأزهر ؛ فقد كانت هـذه الغاية كما رأينا أن يكون المسجد الجامع الجديد رمز الخلافة الجديدة ومنبرا لدعوتها ؛ ولكن يلوح لنا أن الخلافة الفاطمية لم تكن ترمى فى المبدأ إلى توجيه الأزهر إلى تلك الناحية الجامعية ؛ ذلك لأن الجامعة الفاطمية الحقيقية أقيمت بعد ذلك فى عصر الحاكم بأمر الله باسم دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة فى سنة ٣٩٥ هـ (سنة ١٠٠٥ م) ؛ ولكن الأزهر كان يومئذ بفعل الظروف والتطورات التى أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية ؛ ومع أن دار الحكمة لبثت مدى حين تنافس الأزهر وتستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة ، فانها لم تلبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها فى الشؤون المذهبية ، أن اضطربت أحوالها وضعف نفوذها العلمى ؛ هـذا بينما كان الأزهر يسير فى سبيل حياته الجامعية الوليـدة بخطى بطيئة ولـكن محققة ، ويسير فى نفس الوقت إلى التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقة التى كادت فى البداية أن تقضى على مصايره الجامعية الصحيحة

ونحن نعرف أن هناك مشروعاً للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر — وهو عيد يقع بعد نحو أربعة أعوام — ونعرف أن من مظاهر ذلك الاحتفاء بتلك الذكرى الجليلة أن يكتب تاريخ حافل للجامع الأزهر منذ إنشائه إلى يومنا ؛ فمن حق الوزير العالم ابن كلس أن يتبوأ فى ذلك التاريخ مقاماً يجدر بفضله فى وضع الحجر الأول فى صرح تلك الجامعة الكبرى (١)

محمد عبد الله عنان

(١) راجع فى هـذا البحث وما يتعلق به : خطط المقريزى (الطبعة الأهليـة) ج ٤ ص ٤٩ و ١٥٦ و ١٥٧ و ج ٣ ص ٧ — ١٠ ؛ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ؛ والاشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى ص ٢٣

الفلم المصرى

بمناسبة فلم دموع الحب

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لا يسع المصرى إلا أن يغتبط أعظم الاغتباط عند ما يرى تلك الأفلام المصرية الجديدة التى أقدم أبناء مصر على إخراجها بين حين وحين ؛ ولا شك فى أنها فتح جديد يجب أن نفخر به ، ونحرص على المزيد منه ؛ وإذا كان الجمهور المصرى قد أقبل على رؤيتها ذلك الاقبال الباهر فان فى ذلك دليلاً قوياً على مقدار تطلعه إلى أن يرى تلك الصناعة تنمو وتنجح . فالشعب يؤدى واجبه فى تشجيع أبنائه من أهل الفن ويجيب مجهود المقدمين منهم إجابة كريمة مستنيرة

والفلم المصرى له مكان لا يستطيع فلم آخر أن يحل محله . فانه يشبع من عواطف المصريين مالا يشبعه خير الأفلام العالمية الأخرى ، وذلك أثر من آثار النهضة المباركة التى نحسها فى كل ناحية من النواحى . فالشعب المصرى يحس بنفسه ويريد أن يرى تلك النفس مصورة أمامه تصويراً فنياً كما يحتاج الانسان إلى أن ينظر فى مرآة ليرى صورة وجهه أو هندامه ، وكما يرتاح إلى أن يسمع ترديد آماله ونزعات نفسه ومُثُله العليا

فكل فلم من تلك الأفلام حديث نفسى يتحدث به الفنان إلى بنى قومه . فهى ليست قطعة من الفن فحسب . بل هى رسالة عاطفية يرسلها الفنان من نفسه إلى نفوس الجماهير المتعطشة إلى الحياة والعلو والقوة ، ولهذا فنحن إذا ذهبنا لاجابة الداعى إلى فلم مصرى كانت إجابتنا أولاً قومية وثانياً فنية

ومن هذا الاعتبار لا يسع المصرى أن يقارن أو يوازن بين الأفلام المصرية ، وبين ما تخرجه الشركات العالمية من آيات الفن . لأن الأفلام العالمية إنما تؤدى رسالة واحدة وتشبع ناحية واحدة هى رسالة الفن المحض والناحية الأدبية الصرف ، ومهما كانت تلك الناحية الفنية فهى فى المحل الثانى من نفوسنا ، ولا يمكن بأى حال أن تحل المحل الأول الذى

استولت عليه الآمال والأمانى ، والرغبة القوية فى الحياة ، والسمو والاعتزاز بالنفس

غير أنا نطلب من النفس المصرية أكثر مما تستطيع بذله إذا نحن وقفنا عند حد الأمانى القومية ؛ بل إن تلك الأمانى نفسها قد تخيب ولا تجد ما يستثيرها ، أو يعبر عنها إذا لم تتقدم الناحية الفنية وتعلو إلى المستوى الذى تتطلبه النفوس من الجمال والقوة ؛ ولهذا نجد من أنفسنا جرأة على أن نتناول ما يظهر من الأفلام المصرية بالتحليل والنقد حتى نشير إلى ما كنا ننتظر ، وما كانت نفوسنا تصبو اليه ؛ ولهذا نرجو أن يدرك قراء هذه الكلمة قصدنا منها ، وهو أن نشير إلى أمور نحب أن تراعى فى الأفلام التى يقدمها المخرج المصرى . فاذا ظهر أننا على حق فيما نذهب اليه كان مخرج الفلم المقبل على هدى فيما يتطلبه الجمهور المصرى منه فيعمل على تحقيقه ، وبذلك يكون الغد أقرب إلى الكمال من اليوم . إننا لا نستطيع أن ننكر فضل أولئك الرواد الذين قد فتحوا باب ذلك الفن ، ولا نستطيع أن ننكر ما مهدوا من العقبات ، ولا ما عانوا من المشقة فى سبيل عملهم المجيد ، وإنما ندعو بهذه الكلمة إلى التطلع إلى الملا ، وبلوغ درجات جديدة من الاتقان . فاذا تكلمنا هنا عن فلم دموع الحب فلسنا نريد أن نخصه بالنقد ، بل إنا نتخذه مثلاً فى النقد لأنه أحدث الافلام وأقربها مثولاً فى الأذهان

إن الفلم لا يكون ذا أثر بالغ فى النفس إلا إذا كان يخدع الناظر عن المقصد المباشر الذى يرمى إليه الفنان . فان الناظر إذا استغرق فى تأمل القصة التى أمامه ، كان ميالاً إلى نسيان الحقيقة وأنه إنما ينظر إلى قصة — بل يخال أنه يعيش ويتأمل منظراً من مناظر الحياة ؛ وتبلغ مقدرة الفنان ذروتها إذا استطاع أن يخدع الناظر فيجعله لا ينتبه إلى أنه إنما يطالع صفحة صور متحركة بل ينظر منظراً من مناظر الحياة الحقيقية ، ويكون هذا الخداع ممكناً إذا عمل الفنان على أن تكون كل الوقائع المعروضة تسير سيراً طبيعياً لا تكلف فيه ، وتتابع تتابعاً طبيعياً من غير تعسف ولا شطط . فاذا شعر الناظر أن هناك قفزة فى الوقائع ، أو أن هناك ثغرة فى التسلسل ، انتبه إلى نفسه وصحا من سحر المنظر ، وفسدت عليه الغاية التى يقصدها الفنان

وإذا أردنا أن نضرب أمثلة من فلم دموع الحب على تقصير الفنان فى هذا الجانب النفسى لم يصعب علينا الأمر . فان تصور أية حادثة من الحوادث فى تلك القصة يتيح لنا فرصة للتمثيل . فلنأخذ الموقف الأول الذى ظهر فيه فكرى افندى (عبد الوهاب) فى حديقة المنزل وقابل الفتاة ابنة صاحب المنزل ، فان المنظر لم يزد على مقابلة جاءت عفواً ، ولم يطل أكثر من مدة صب الشاى . ثم استأذن فكرى افندى فى الخروج لمقابلة صديق ، ومع ذلك قد كانت هذه المدة الوجيزة كافية لأن تجعل الشاب فكرى افندى يهوى الفتاة ، ولأن يجعل الفتاة تحب ذلك الشاب ، كأنما قد عزم كل منهما ابتداء على أن يحب الآخر إذا رآه ! حقاً إن هناك نوعاً من الحب ينشأ للنظرة الأولى ، ولكن ذلك الحب لا يستطيع أن يكون من نظرة عابرة جاءت عفواً ؛ ولئن كانت النظرة السريعة تعقب الحب فلا بد أن يكون هناك عامل قد ساعد عليها ، وأنه من حق النظارة أن يروا ما هو ذلك العامل الذى أسرع بالحب إلى هذا الحد

على أننا إذا سلمنا أن الحب قد ينشأ من النظرة العجلى ، فانا لا نستطيع أن نسلم أن تبادل ذلك الحب يكون بغير تدرج ولا تقديم ، وذلك على الأقل بين أصحاب النفوس المثقفة المهذبة ، فكان لا بد للمخرج أن يدبر من الحوادث ما يساعد على إتاحة الفرص لتبادل ذلك الحب وإنمائه ، ولكن فلم دموع الحب سار من المقابلة القصيرة الأولى إلى نزهة فى الفجر فى الحديقة يلتقى فيها الشاب بالفتاة ويبادلها أول ألفاظ التعارف فلا يكادان يسيران معاً دقائق قليلة حتى ترتفع الكلفة ، وحتى يندفع الاثنان فى تصريحات ودية ، وحتى تبادلا الحب تصريحاً . ثم يسير الفلم بعد ذلك إلى نزهة لا مناسبة لها ، ولا تفسير يعلل حدوثها ، وفيها يتبادل المحبان العهود والمواثيق على أقدس أنواع الارتباط

ومثل آخر لا يستطيع الناظر إلا أن يصطدم به وهو عند ما عاد فكرى افندى من السفر بعد أن تبسم له الحظ ليحمل إلى حبيبته بشرى تحقيق الأمل فى الزواج فيجد حبيبته فى الحديقة إلى جوار حلمى صديقه ، ولم يكن يعرف أن ذلك الصديق له أية علاقة بحبيبته وكذلك لم يكن ينتظر أن يجد تلك الحبيبة فى مثل تلك الجلسة الخاصة مع شاب آخر . ومع ذلك فانه لم يفعل شيئاً

أكثر من أن وقف وجعل يتكلم عما جاء له ، وكأنه لم يلاحظ شيئاً فى وجود حبيبته فى الحديقة منفردة مع شاب يناجيها وحيداً . ألم يكن من حق الناظر أن يرى علامة من علامات الاستياء على وجه المحب المتيم ؟ ألم يكن على الأقل من حقه أن يرى علامة من علامات الدهشة أو الارتياع على وجه الشاب الذى أتى يحمل كل آماله إلى حبيبته فلا يجدها تطير نحوه كما كان ينتظر ؟ وأين كرامته المجروحة ؟ وأين حبه الثائر ؟ وأين غيرته ونيران حقده ؟ ثم ذلك الصديق الذى خانه مع سابق إخلاصه إليه وآسر على سعادته مع ما قدمه له فى الأيام الماضية من وده وإخائه . ألا يستحق منه غير ذلك الموقف الفاتر الخامد ؟

ويعود فكرى افندى بعد ذلك إلى الدار التى كان قد بناها لتكون داره مع زوجته المنشودة فيبكى ويتضاءل حتى يبلغ مكان صورة تلك الحبيبة الغادرة — ولكنه يقف فيطيل البكاء إلى جانبها ولا تحدثه نفسه بثورة ما — أحقا هكذا يفعل المحب الثائر الحب ؟

إننا نخطىء كثيراً لو زعمنا أن الفلم يستطيع أن يبلغ المستوى المطلوب بالغناء وحده ، فاذا شئنا الغناء فليكن الفلم صورة لعرض غنائى لا محاولة فيه للتمثيل . فاذا كان ولا بد من المزج بين الغناء والتمثيل فليكن الدور الأكبر مسنداً إلى من يستطيع أداءه ، وليختر موضوع الفلم اختياراً يسمح بأن يكون للمغنى دور لا يحتاج إلى كبير دراية فى فن التمثيل . فالحق أن الأدوار الثانوية فى فلم دموع الحب كانت لا نسبة بين أدائها وبين أداء الدور الأكبر . فلقد أتقن الممثل حنفى (عبد القدوس) ما شاء له الفن وكذلك أتقن حلمى افندى (سليمان نجيب) دور الصديق الغادر والغنى المستهتر اتقاناً يستحق كل الاعجاب ، ولو كان هذان الفاضلان هما بطلا القصة لكان الاخراج الفنى أروع وأبدع

وأما عن الغناء فلست أدرى ماذا يرى كل من شهد الفلم فيه ، لأن الغناء مرجعه إلى الذوق ولا يستطاع فيه النقد المدقق الذى يصح فى التمثيل ، على أنى لا أستطيع أن أكتم ما أحسست به ، وذلك أننى لم أسمع إلا تلك الأغانى التى اعتدنا سماعها فى الصالات ، وفى ليالى الغناء المعتادة ، وفى أسطوانات الأدوار الشائعة . وبعد فانا نتساءل : أهذا هو الغناء المقصود فى روايات الأوبرا أو الأوبريت ؟ إننا لم نشهد بعد من تقدم الغناء ما كنا شهدنا بوادره فى روايات السيدة منيرة المهدية أمثال كرمن وروزينا وتاييس وغيرها مما عرضته تلك الفنانة الماهرة فى وقت ما منذ عشرات السنين ، وقد كنا ننتظر أن يسمو الغناء المسرحى بعد ذلك إلى درجة أعلى من تلك ، فاذا بنا نعود إلى تلك الأغانى الساذجة المكررة التى اعتدنا سماعها على التخوت أو فى الصالات . وإنا لا نشك فى أن تلك الأغانى لها جمالها الخاص ، ولا سيما عند بعض الأذواق التى يجب أن تخرج عن قيود المألوف إلى التعبير عن عواطف النفوس ، وتستدرج السامعين إلى أنواع منوعة بدل تلك الآهات المكررة والأنغام الواحدة المعتادة . وإنه لمن العجيب أن نسمع صوت العود والكمان ، بل نقر الدف لحفظ الوحدة فى تلك الأغانى كأنما نحن نستمع إلى تخت لا إلى شخص حى يفيض بعواطفه ويترجم عن وجدانه ! والحق أن تلك الآلات الموسيقية وذلك النقر الناشز كان له أثر عظيم فى تحويل العقل عن الاستغراق فى القصة ، وإلى إزالة غشاء الخيال عن جو القصة وإعادتها إلى جو آخر تنبه فيه العقل إلى أن الصور التى أمامه إن هى إلا صور متحركة وليست قصة حياة

ولقد جرى مخرجو الأفلام المصرية إلى الآن على عادة لا نظنها تؤدى بهم أبداً إلى التفوق المنشود ، وذلك أنهم يحاولون الاستغناء عن المؤلف الأديب . ولو كان المؤلف الأديب غير ضرورى لكان لهم العذر فيما يذهبون إليه ، ولكانت رغبتهم فى الاقتصاد مفهومة واضحة ، إذ لا نستطيع أن نلومهم على اقتصاد مبلغ من المال بدل أن يبذلوه للأديب الذى لا فائدة منه ، ولكن الأمر على غير ذلك ، فان أول أساس لنجاح القصة أن تكون قصة صالحة مكتوبة كانت أو مترجمة . ولقد رأينا فيما مضى أن أقوى مهارة فى التمثيل تضمحل وتنتهى إلى الفشل التام إذا لم يكن دعامة ذلك التمثيل موضوعاً سامياً وقصة رائعة ذات جمال وفن وأدب ؛ ونحن إذا استعرضنا المحاولات التى حاولها المخرجون إلى الآن لم نجد أنهم خصصوا لناحية القصة عناية تذكر . وقد يشكو المخرجون من أن الأدباء لا يواتونهم بالمؤلفات اللائقة كما أنهم قد يشكون من أن الأدباء يظهرون لهم من صعوبة المراس ما يجعلهم ييأسون من تعاونهم ، ولكننا مع ذلك نريد أن نذكرهم ببعض أرقام قد تكون لها دلالة كبرى فان متوسط ما يناله الأديب الانجليزى نظير قصة من قصص الأفلام يتراوح بين خمسمائة جنيه

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وصل الفائت

نصب أعداء بستور له فخاً فدعوه إلى أن يجرى تجربته عن اللقاح الذى اكتشفه فى جمع عام. فأجابهم إلى ذلك، وحقن البهائم على رؤوس الأشهاد بالمكروب الأضعف، وبعد أيام حقنها بالضعيف ثم بعد أيام بالأقل ضعفا. واصطبر إلى اليوم الذى يحقنها فيه بالمكروب الحى القتال

— ٤ —

وجاء اليوم الكبير الموعود، اليوم الحادى والثلاثون من مايو، فحقنت المواشى جميعها — ما حُصِّن منها باللقاح وما لم يحصن — بحقنة قاتلة لا شك فيها من مكروب الجمرة، وقام بحقنها رو، فنزل فى الوحل إلى ركبتيه، ومن حوله مصابيح الكحول وقوارير المكروب، فأدهش النظارة بحسن ضربه الابرة فى جلود الحيوانات، وبهدوئه ورزانته وبروده وهو يضربها

أودع بستور كل سمعته العلمية هذه التجربةَ الدقيقة التى لا تُثمن، وما فرغ منها حتى أدرك حقيقة الموقف، وأيقن أنه أجاب داعى الرجولة والشجاعة برضائه إجراءها، ولكنه أيقن إلى جانب ذلك أنه أذن للجمهور، وهو المتلوّن المتذبذب، فى تقدير علمه والحكم عليه. فلم يطب له نوم تلك الليلة، وقضاها يتلوى ويتقلب على فراشه، وكلما عزه النوم قام عن سريره يطلب الراحة فى القيام، ثم هو لا يجده فيعود إلى النوم، وهكذا دواليك، وأوصته زوجه بالصبر ومنّته خيراً نصمت عنها، ودخل معمله وخرج منه مُقطّب الجبين عابساً، ولا شك عندى أنه هرع إلى الله فصلى ورجا وابتهل، ولو أنى لم أقرأ شيئاً من ذلك فى الأوراق

كره بستور الصعود فى البالونات، وخشى دائماً عواقب الخصومات فى البارزات، ولكنه لم يجبن ولم يتردد لما دعاه هؤلاء البيطريون إلى هذه التجربة وساقوه عامدين إلى هذا المأزق الخطير

وجاء اليوم الأكبر الموعود، يوم الثانى من يونيو عام ١٨٨١، فجاء الناس من كل حدب وصوب لحضور اليوم المشهود، يوم يحكمون فى أمر بستور، فان خيراً فله، وإن شراً فعليه، وكثر عددهم حتى ضاق بهم المكان الرحيب، وتضاءل إلى جانب هذا الاجتماع كل اجتماع سبقه، وكان فى الحاضرين نواب الأمة وشيوخ من شيوخها، وكان فيهم عظماء، وكان فيهم كبراء، ومن كل حسب ونسب لا يظهر فى الناس إلا فى أعراس الأمراء وجنائز الملوك، وكان فيهم الصحافى الشهير دى بلوفتس de Blowitz فاجتمعت حوله جمهرة من رجال الصحافة ومكاتبيها

ودقت الساعة الثانية، فخرج بستور إلى الميدان يصحبه رجاله، وفى هذه المرة لم يكن له ولهم من الجمهور إلا الترحيب الصارخ والهتاف المتتالى. فأما الشياه الأربعة والعشرون التى كانت لُقِّحت ثم حُقنت فيها الملايين من المكروبات القاتلة فقد وجدوها قائمة تأكل وتجرى فرحة مرحة هانئة بالحياة، ولم يجدوا بواحدة منها أثراً من الحُمّى، فكأنّ مكروب الجمرة لم يخالط دمها، وكأنما كان بينه وبينها ما بين الأرض والسماء

وألف جنيه، فى حين أن متوسط ما يناله الأديب من هوليوود أكثر من ألف جنيه بلا نزاع؛ وليس من العجيب ولا المحرم أن يفوز الفنى بآلاف الجنيهات؛ وكذلك ليس من العجب ولا المحرم أن يفوز المخرج أو الممثل أو عارض الأفلام آلاف مثلها، ولكنا نضيف إلى ذلك أنه ليس من العجيب ولا من المحرم أن يفوز الأديب ببعض تلك الألوف، لأنه شريك أساسى فى المجهود الفنى. ولهذا نرجو أن يعنى المخرجون باختيار الموضوعات وألا يضنوا على الأدباء بما يشجع البرز منهم على التخصص فى إخراج ما تحتاج اليه الأفلام المصرية من القصص

هذه كلمة لا نقصد بها إلا خدمة ذلك الفن الوليد ونحن على يقين من أن القراء مدركون قصدنا منها، وكذلك نرجو أن يحملها المخرجون والفنانون على المقصد السامى الذى نرمى اليه.

محمد فريد أبو حديد

أما الشياه الأربعة والعشرون الأخرى التي لم تُلقَّح ، فتلك الأربعة والعشرون التي حقن المكروب القتال تحت جلدها من غير أن تُحمى منه وتُحصَّن ، فقد وجدوا اثنتين وعشرين منها راقدة على جنوبها في خط واحد رقدةً تبعث الأسى والحزَن . أما الاثنتان الأخريان فكانتا لا تزالان قائمتين على أرجلهما ولكن في غير اتزان ، تجاهدان في سبيل العيش هذا العدوّ الأخفى الذي ما غالب الحياة إلا غلبها ، وكان دم أسود ينضح من أنفيهما ومن بين شفتيهما ينذر بقرب لحاقهما بالشياه المنبطحة الصريعة من أخواتها

صاح بَيْطار لأخيه البيطار : « انظر ، انظر ، فهذه أخرى من التي لم يلقحها بستور قد سقطت إلى الأرض ! »

— ٥ —

حضر عيسى المسيح عرس (كانا) الشهير ، فلما نفِد الخمر وكاد يتعرض أهل العرس للفضيحة شاء يسوع أن يستحيل الماء خمراً فاستحال ، ولم يذكر لنا الانجيل تفصيل ما ظن الناس بصاحب هذه المعجزة ، ولا ما فعلوا به عندها . وهذا بستور في الثاني من يونيو عام ١٨٨١ يأتي في هذا العصر الحديث بمعجزة لا تقل إعجازاً عن تلك التي وقعت في ذلك العصر المقدّس العتيق فيقوم هذا الجمع الحاشد ، على الرغم مما كان من اختلاف أهوائه يحنون رؤوسهم لهذا الرجل القليل ، المشلول بعضُه ، الذي حمى مواشيهم تلك الحماية التامة الرائعة من قرصات هذه الخلائق الصغيرة التي تقرص فتقتل في الظلام قتلاً مؤكَّدا . إن هذه التجربة الجليلة التي أجراها بستور على الملأ في بحبوحة هذا الحقل تقع في نفسي موقعاً شاذاً غريباً ، لأنها قصة شاذة غريبة في تاريخ الانسان وجماده هذه الطبيعة القاسية . أما شذوذها ففي هذا التهليل والتكبير الذي صحبها ، وهذا الترحيب الصاخب الذي ناله بستور من أجلها . فعهدنا بكشوف العلم ألا تقدَّر في حينها ، وعهدنا بها أن ينال صاحبها الأذى من أجلها . ألم يودع جاليليو السجن من أجل أبحاثه التي تسببت أكثر من غيرها في الانقلاب الهائل الذي أدى بالدنيا إلى حالها الحاضرة ؟ وكم لجاليليو من أشباه وأمثال . كذلك عهدنا بصاحب الفكرة أن تبقى فكرته ويزول فلا يَنعم حتى بالذكر طيباً كان أو خبيثاً .

وإلاّ فما العباقرة الأولون الذين اخترعوا النار واصطنعوا العجلات وابتدعوا الشراع وأنسوا الخيل ؟

— ٦ —

أما بستور لحظه غير حظ هؤلاء جميعاً . فهذا هو قائم في هذا الحقل ومن حوله الأغنام الأربعة والعشرون تشطح وتمرح بين جُثثِ أربعٍ وعشرين لأخوات لها ماتت شر ميتة . رجلٌ قدر في تمثيله ، ومسرحٌ فخم في بشاعته ، ورواية خالدة على الدهور ، وقد اجتمعت الدنيا اليه تسمع وتنصت ، وتُثبت ما تسمع ، ثم تدخل في دينه أفواجاً تحارب معه الموت لمّا بان لها أن النصر قريب أكيد

وأحدثت هذه التجربة في الناس تحوّلا كبيرا . مثال ذلك رجل يدعى الدكتور بيُوت Biot كانت صناعته علاج الحيل والسخرية ببستور سخريةً مُرّة . فلما رأى أخيرة الشياه تموت جرى مندفعاً إلى بستور يصيح به : « بالله عليك يا سيدى إلاّ ما حصّنتنى بهذا اللقاح كما حصّنت هذه الشياه ، ثم حقنتني بذلك المكروب القاتل كما حقنتها فنجّيتها ، فالعالم لابد أن يقتنع بصدق هذا الكشف العجيب ! »

وجاءه خصيم آخر مخفوض الجناح يقول : « حقاً إني قصفت بالشكات الكثيرات عن هذه المكروبات ، أما اليوم فأنا خاطئٌ توّاب ! » . فأجابه بستور مقتبساً من الانجيل : « سيكون الفرح في السماء لخاطئٌ واحد يتوب أكثر منه لتسعة وتسعين من العُدُول الذين لا يحتاجون إلى التوبة »

أما الصُّحفيّ الكبير دى بلوفتس فهتف لبستور وهرع يرسل تلغرافه إلى جريدة التيمس والى جرائد الدنيا . قال فيه : « إن تجربة قرية بويى لوفرت Pouilly-le-Fort نجحت نجاحاً كاملا لم يسبق له مثيل

وتلقت الدنيا هذا الخبر ، وأخذت تنتظر ما بعده ، فكأنما حسبت في شيء من التخابط أن بستور بعض الأنبياء أرسله الله رحمة بالناس ، يحمل عنهم الأثقال ويدفع عنهم الآلام . وخرجت فرنسا عن وعيها فيه فنادت به أعظم أبنائها ومنحته وسام الكردون الأكبر لليجيون دونير Grand Cordon of the Legion of Honour وبعثت اليه الجمعيات الزراعية والبياطرة وفقراء

الفلاحين ممن حلّ بحقولهم داء الجمرة اللعين ، بعثوا أجمعين إلى بستور برقيات عديدة يسألونه ألوف الحُقَن من لقاحه الشافي ، وأجاب بستور وأعوانه الثلاثة رجاء هؤلاء في نخوة مجيدة أنستهم صحتهم - والعلم كذلك . وكان بستور شاعرا ، فأثارت شاعريته في قلبه ايمانا بتجربته ، التي كانت ، زاد حتى أربى على ايمان من دخلوا في دينه حديثا

نعم أجاب بستور السائلين ، فقلب معمله الصغير بشارع ألْم Ulm إلى مصنع للقاح ، فكنت ترى الأوعية الكبيرة بأحسيتها على النار تغلي وتتفقع ليُزرع فيها مكروب الجمرة بعد اضعافه وتأنيسه . وكنت ترى رو وشمبرلاند يقومان على إضعاف البشلة القوية والتخفيف من عنفها لتعطى شياه فرنسا بعض المرض دون أن تقتلها ، وتوخيا الدقة فيما يعملان ، ولكن أين الدقة من السرع العاجل ؟ وتهيأ اللقاح ، فقام الأعوان جميعا والعرق يتصبب منهم بتعبئة الجالونات الكبيرة منه في زجاجات صغيرة تسع الأوقيات القليلة . وكان لابد أن تكون الزجاجات طاهرة من المكروب كل الطهارة فطهروها ؛ كل هذا دون أن يكون لديهم كل الأجهزة اللازمة لضمان العاقبة ، يا عجبا لبستور ! كيف قام بذلك كله ؟ بل هي تجربة واحدة واضحة ابتدعها - أم هو القدر أعثره بها ؟ - ملأته ثقة عمياء ليس عهدي بالتجارب الفُرادى الواحدة أن تملأ رجلا عثلها

وفي أثناء تحضير هذه الألقحة كان الأعوان الثلاثة يتحينون الفرص فيفلتون منها ليلقحوا البهائم في شمال فرنسا وفي جنوبها ، وأدى بهم المطاف يوما إلى هنغاريا . لقحوا مائتي شاة هنا ، ولقحوا خمسمائة وستا وسبعين شاة هنالك ، حتى بلغ ما لقحوه في دون العام مئات الألوف منها ؛ ثم يعود هؤلاء اللقاحون الأمناء يجرون أرجاهم من التعب إلى باريس ، وفي حلوقهم عطشةٌ إلى شراب يسوغ ، وفي قلوبهم عطفةٌ إلى حُبٍّ يطيب ، أو لعلهم كانوا يتوقون إلى ساعة هادئة يقتلونها على دخان الطُّبّاق : ولكن أين لهم ذلك وبستور كان يكره رائحة الطباق ، أما الحب والشراب فكيف يجوزان عنده وشياه فرنسا تثغو ثغاء عاليا تطلب الخلاص ممن عنده الخلاص ، فلا يكون لهؤلاء الثلاثة الأرقاء رغم شبابهم مندوحة من اطاعة هذا المجاهد المجنون الذي تعبّدوا له اختيارا ، هذا المأفون الذي تجمع فكره وتركّز كيانه وانحشد عزمه على إيجاد هذا المكروب الذي يقتل بعضه بعضا . فيقومون بالتخفف من ملابسهم والتشمير عن سواعدهم ثم يقضون الساعات الطويلة إلى جانب مجاهرهم يُحملقون فيها حتى تحمرّ جفونهم وتتساقط رموشهم . وفي أثناء ذلك يزداد الفلاحون صياحا طلبا للقاح ، ويزداد أصحابنا انهماكا في تجهيزه فيقعون أثناء ذلك ومن جرائه في متاعب غريبة لم تكن في الحسبان : دخلت بعض الجراثيم الغريبة إلى الأحسية مع مكروب الجمرة ، وإذا باللقاح الضعيف الذي يكفي لقتل الفأر صار يقتل الأرنب الكبير . فقام هؤلاء الأبالسة يتعرفون أصل الخطأ حتى عرفوه ، ويتعقبون مدخل هذا المكروب الضال فسدوه ، فيأنبهم بستور بعد هذا كله ساخطا صاخبا . ولم ذا ؟ لأنهم أضاعوا في هذه التجارب وقتا طويلا ثمينا !

وأراد بستور أن يكشف عن جرثومة داء الكَلَب

كان ليل المعمل هادئا إلا من صوت الخنازير وعراك الأرانب ، أما الآن فقد غطى على هذا وهذا نباح الكلاب المسعورة ، وهي تعوي عواءً يملأ الآذان وقرا والقلوب رعبا ، ويطير بالنوم عن أعين الأعوان الثلاثة رو وشمبرلاند وتوييه ... لهم الله من ثلاثة ! ليت شعري ما كان يصنع بستور في حربه رسلَ الموت لولا هؤلاء الثلاثة

ومضى عام او دون عام على المعجزة التي جرت على يدى بستور في قرية پويلوفرت Pouilly-to-Fort ، حتى أخذ يتضح للناس أن بستور ، هذا الصياد الماهر في صيد الميكروب ، ليس إلٓها معصوما بل بشرا مخلوقا يخطىء ويصيب . وجاءته كتب عدة تراكمت على مكتبه من مونت پلييه Montpothier وعشر مدن أخرى في فرنسا ، وكذلك من هنغاريا ، وكلها تشكو أن الشياه تموت من الجمرة ، لا الجمرة الطبيعية المألوفة ، ولكن جمرة جاءتها من هذا اللقاح الذي قصد الى خلاصها ، وأتت الأنباء بالسوء من أصقاع أخرى تقص حكايات أخرى عن خيبة هذا اللقاح . ففي بقعة من تلك البقاع اشترى الفلاحون هذا اللقاح ، ودفعوا ثمنه نقدا ، ولقحوا به قطعانا كاملة من الأغنام ، ولما جاء المساء عادوا إلى منازلهم وأراحوا جنوبهم في مضاجعهم وهم يقولون حمدا لله الذي منّ علينا برجلنا العظيم بستور ، ثم طلع الصباح عليهم ، فما انفتحت عيونهم حتى وجدوا الحقول

قد غطتها جثث الشياه النافقة — تلك الشياه التي زعموها حصينة قد ماتت من بزور الجمرة التي تخبأت في ثرى هذه الحقول

وأخذ بستور يكره كل صباح أن يفض الكتب التي تأتيه إشفاقا على نفسه مما كتب كاتبوها ، وود لو سد أذنيه فلم يسمع بسخرية الساخر وضحكة الهازىء يأتيه صداها من وراء الأركان . وأخيرا حدث شر ما يحدث له : تقرير خرج من معمل كوخ ، تقرير محكم في بروده ، دقيق في فظاعته ، كتبه ذلك الرجل الألماني القصير الجسيس ، وفيه نفي أن يكون للقاح الجمرة لدى التطبيق نفع أبدا . وزاد هم بستور علمه أن كوخ أدق صياد للمكروب في الدنيا

قطف بستور القطفة الأولى من ثمار تجربته فكانت حلوة طيبة ، ثم أتى يقطف القطفة الثانية فأجزعته مرارتها بقينا . ولكنه ، طيب الله ثراه ، كان شهما لا يثنيه الحدث الجليل . فلم يكن في جبلته أن يعترف للناس أو لنفسه بأن دعاواه العريضة الطويلة ليس لها هذا العرض ولا هذا الطول الذي ادعاه . وكأني بك تسمعه يتمتم لنفسه : « ألم أقل إن هذه الألقحة تُمرض الشياه قليلا ولا تقتلها ، ثم هي بعد ذلك تحصنها من الداء تحصينا تاما كاملا . فهو ذاك ، فلألزم ما قلت فليس عنه من محيد »

يا له من باحث عظيم ! ومع هذا فما أقل حظه من تلك الصراحة النبيلة التي نسي فيها سقراط نفسه ورابلاس Rabelais ذاته ، فلم تخدعهما عن الحق المظاهر ، ولم تستهوهما عنه المنافع . على أن بستور لا يلام هذا اللوم كله ، ففرق ما بينهما واسع واضح ، فهذان إنما طلبا الحق على الأسلوب الذي ارتأياه ولم يتطلبا شيئا سواه ، أما بستور فقد ساقه بحثه رويدا رويدا إلى حيث يفقد المرء لبه ويضيع رشده ، إلى صناعة تخليص الأرواح من براثن الموت ، وهي صناعة ليس الحق بأهم ما فيها

وفي عام ١٨٨٢ بينا التقارير مكدسة على مكتبه تحمل أنباء المصائب الكثيرة من هنا وهنا ، قام بستور وسافر إلى جنيف وألقى على الزبدة المختارة من مجاهدي الأدواء في العالم خطبة رنانة موضوعها : « كيف نخلص الأحياء من خبيث الأدواء بحقنها بالمكروبات بعد إضعافها » . وفيها أكد لهم بستور : « أن المبادئ العامة قد وجدناها فلا يستطيع المرء أن ينكر أن المستقبل مليء بآمال عظام . وصاح فيهم : « إننا جميعا مدفوعون بعاطفة قوية نبيلة ، هي حب الحق وحب التقدم بالانسانية إلى خير مما هي فيه » . ولكنه وا أسفاه لم يذكر في هذا الخطاب البديع شيئا عن الشياه الكثيرة التي ذهب لقاحه بها وقد كان لحفظها وتحصينها

وكان كوخ حاضرا في هذا الاجتماع ، وظل يطرف إلى بستور بعينه من وراء نظارته الذهبية ويبتسم في لحيته الكاثة كلما سمع بستور يقصف بالجمل الرنانة ، قد عمرت باللفظ البديع وأقفرت من العلم الصحيح . وكان بستور يخطب وهو يحس كأن سيفا خفيا مُصلتا فوق رأسه . ولما فرغ من خطابه تحدى كوخ أن يجادله على رؤوس الاشهاد علما منه أن كوخ في تصيد المكروب خير منه في الحجاج . فقام كوخ فقال : « سأقنع نفسي بالرد كتابة على السيد بستور ، وسيكون هذا قريبا » . وكح ، ثم جلس

(يتبع)

أحمد زكي

الحياة الأدبية فى دمشق

للأستاذ على الطنطاوى

لا شك أن (الرسالة) بسموها عن الفكرة الاقليمية الضيقة ، وفتحها أبوابها لأبناء العربية جميعاً ، ودعوتها إلى الاجتماع على التوحيد فى الدين ، والفضيلة فى الأخلاق ، والوحدة فى السياسة ، والصحة فى اللغة ، والجمال فى الأسلوب ، والتجديد فى الأدب .. سيكون لها أثر كبير فى تاريخ الصحافة العربية بما سنت من هذه السنة الحسنة التى لم تعرفها من قبل كبريات مجلات مصر إلا قليلا ، وبما بلغته من الجمال والاتقان ، فى الشكل والموضوع ؛ وسيكون لها أثر كبير فى تاريخ الأدب العربى ، بما وضعت للأدب من منهج مستقيم ، وما أحيت من الأسلوب العربى ، وما قبست من روائع الآداب الأجنبية ؛ وسيكون لها أثر كبير فى التاريخ العربى العام ، بما دعت اليه من الوحدة العربية ، وما نشرت من أمجاد السلف ، وما وضعت فى نفوس الناشئة من قرائها ، من العمل للجامعة العربية الواسعة ، لا للاقليمية الضيقة . . .

ولا شك أن « الرسالة » اليوم للأقطار العربيـة كلها ، لا لمصر وحدها ؛ فكما تفتح « الرسالة » أبوابها للمقالات الوصفية والقصصية ، وللقصائد والبحوث التى يبعث بها اليها أدباء الشام والعراق وغيرهما ، فلتفتح أبوابها للفصول النقدية ، والبحوث المستفيضة عن الحركة الأدبية فى هذه البلاد ، ولو كانت قاسية شديدة على النفوس ، ولو كشفت عن حقائق يحب بعض الناس ألا ينكشف عنها الستار ؛ وليس من مصلحة الأدب فى شىء أن يظل أدباء مصر والعراق جاهلين مدى الحركة الأدبية فى الشام — مفترين بها — وليس من المصلحة أن يبقى أدباء الشام ومصر جاهلين مدى الحركة الأدبيـة فى العراق ، بل يجب أن يصف أدباء كل قطر من الأقطار الحياة الأدبية فى قطرهم ، ومبلغ قوتها أو ضعفها ، وسبب تقدمها أو علة قصورها ، وأن يحللوا أدواءها وأمراضها ، لنتعاون جميعاً على عـلاجها ومداواتها ، وتقويتها وشد أزرها ؛ والحياة الأدبية فى الشام أحوج شىء إلى المداواة والعلاج ، إذا كان فى الشام حياة أدبيـة ، لها وجود ، ولها آثار يستطيع الناقد أن يصفها ويتحدث عنها ؛ وأنا أشك فى وجود هـذه الحياة ، فلا أستطيع أن أجزم بوجودها لأنى لا أرى علامة من علامات الحياة فى أدباء دمشق وأدبها ، ولا أستطيع أن أنفيها ، لأن فى دمشق أدباء كباراً معروفين ، ولأن دمشق — كما يعلم الناس جميعاً — عاصمة من عواصم البيان العربى . . . .

ولقد رجعت أعرض تاريخ الأدب فى دمشق منذ عهد الاحتلال إلى اليوم ، وأنظر الآثار الأدبية الخالصة التى أخرجها أدباء دمشق فى هذه الخمسة عشر عاماً ، فلا أجد إذا استثنيت مجلتى الرابطة الأدبية والميزان ، ورواية سـيد قريش لمعروف الأرناؤط ، وكتابى المتنبى والجاحظ لشفيق جبرى ، ورسـائل أئمة الأدب لخليل مردم بك ، إذا استثنيت هذه الكتب ، وكتابين آخرين أو ثلاثة قد أكون نسيتها ، لا أجد أثراً أدبياً له قيمة . وهناك كتب محمد بك كرد على : خطط الشام ، والاسلام والحضارة ، وغيرها ، ولكنها ليست من الكتب الأدبية الخالصة ، وإنما هى كتب تاريخ لا تدخل فى موضوع مقالى

على أن هذه الكتب التى استثنيتها ليست فى درجة واحدة من حيث قيمتها الأدبية ، فبينا نعد (سيد قريش) عملاً فنياً كبيراً على ما فيها من ضعف العقدة الروائية ، وتشابه المناظر ، وتكرار الأوصاف ، وغلبة النصرانية على أجمل صفحاتها ، نعد رسائل (أئمة الأدب) لخليل مردم بك ، كتباً مدرسية ، موضوعة لطلاب البكالوريا لا تبلغ أن تمد فى الدراسات القوية التى تستند إلى طريقة فى البحث معروفة ، وتكشف عن نواح مجهولة من حياة الأديب الذى تبحث عنه ومن أدبه ؛ ثم إن هذه الكتب نفسها إذا قيست بمدينة كدمشق ، فى مدة طويلة كهذه المدة ، لا تعدو أن تكون أثراً ضئيلا لا يدل على حياة .... وهذا الأثر على ما فيه من ضعف ينحصر فى فنين من فنون الأدب هما : القصة التاريخية ، والدراسة التحليلية ؛ أما سائر فنون الأدب كالقصة التمثيلية ، والأقصوصة القصيرة ، والصورة الوصفية ، والمذكرات الأدبية ، والتأملات الفلسفيـة والشعرية ، والدواوين القيمة ، والخطب البليغة ، وغيرها من فنون الأدب ، فلا نكاد نجد لأدباء دمشق فيها أثراً يذكر

من أجل ذلك لم أقل إن فى دمشق حياة أدبية ، لأن ما نحن فيه ليس بالحياة ولا بشبه الحياة ، ولم أنف هذه الحياة لأن فى

دمشق أدباء ينتجون ، أو يستطيعون أن ينتجوا شيئاً ، وإنما أقول إن أدباء دمشق فى منزلة بين الموت الكامل ، والحياة الصحيحة ، هى السبات العميق ، والنوم الطويل الذى يشبه نوم الضفادع طول الشتاء ، إذ تدخل فى ثقب من الثقوب ، فتلبث الفصل كله كأنها قطع الحجارة ، لا تأكل ولا تشرب ، ولا تنق ولا تتحرك ...

وإلا فما يصنع كتاب دمشق وشعراؤها ؟ وأين هى منتجاتهم الأدبية ؟ وهل يكفى الشاعر أن يقول كل خمسة أعوام قصيدة واحدة تضطره اليها المناسبات اضطراراً ، ثم لا يكون فيها أثر من نفسه ، ولا تصف شيئاً من عواطفه ؟ وهل يكفى الكاتب أن ينشر كل عامين مقالة تطالب منه ، أو مقدمة كتاب يسأل كتابتها ؟ بل هل يستطيع أن يملك لسانه الشاعر فلا يقول شيئاً وهو يرى كل يوم ما ينطق الصخر بالشعر من مصائب الأمة ونكباتها ، بل وهمومه هو ومصائبه وما يشاهده فى حياته فى بيته ، وحياته فى عمله ؟ . أليس فى حياته سرور وألم ، وأمل وقنوط ، وضحك وبكاء ؟ أفيضحك الشاعر فلا يغنى ، ويبكى فلا ينوح ، وتهز قلبه الحادثات فلا يقول شيئاً ؟ أما لا أستطيع أن أتصور كاتباً أو شاعراً ، لا يكتب ولا ينظم ، وكل ما حوله يهيج نفسه ، ويثير عاطفته ...

إن أدباءنا يحتجون بأنهم لا يجدون مكاناً ينشرون فيه ، وإذا لم يجد الأديب سبيلاً إلى النشر ضعفت همته ، وانكسر نشاطه ، ولم يجد حافزا إلى العمل ، لأن فقد عنصر النشر من أكبر الأسباب فى هذا الركود الأدبى ... وهذا صحيح لا غبار عليه

وليس فى دمشق مجلات أدبية ، إلا مجلة صغيرة اسمها (الطليعة) يصدرها نفر من الشباب المثقفين الذين يحملون الشهادات العالية من أكبر معاهد أوربا ، ولكن لها منحى خاصاً لا يرضى عنه الناس كلهم ، وهى تمشى بخطى مضطربة . وربما اضطر أصحابها إلى إغلاقها كما اضطر من قبل أصحاب (الثقافة) إلى إغلاقها ، برغم أن أصحابها من صفوة أدبائنا ومفكرينا ، كخليل مردم بك وجميل صليبا وكاظم الداغستانى ؛ ثم إن الجرائد اليومية لا تعنى بالأدب عناية كبيرة ، ولا تخصص له صفحات دائمة تنفق عليها بسخاء ، وإن هذه الصفحات الأدبية التى تزين بها صدور بعض جرائدنا اليومية صفحات فارغة ، لا أظن أن أحداً ممن له صلة بالذوق الأدبى يرضى عنها ، وما أظن أن أصحاب الجرائد والقائمين عليها يرضون عنها ، أو يجدون فيها وفاء مما يؤملون . وإذا ألف الأديب كتابا أو قصة لم يجد الناشر ، وإذا أنفق عليها من ماله لم يشترها أحد ، لأن دمشق بلد تقرأ كثيرا ولكنها لا تشترى ؛ وهذه مجلة (الرسالة) ، لا تجد فى دمشق أديباً أو متأدباً إلا اعترف لك بأنها خير مجلة أخرجت للناس ، وأن العالم العربى لم يعرف مجلة مثلها منذ أنشئت أول مطبعة فى مصر ، ولا تجد أديباً أو متأدبا إلا وهو ينتظر يوم الثلاثاء ليقرأ الرسالة ، وبعد ذلك كله يباع من أعداد الرسالة فى دمشق كلها أقل من خمسمائة عدد ...

هذه حجة الأدباء فى تقاعسهم عن النشر ، وهى كما ترى حجة مقبولة ، ولكنك إذا سألت القراء لم لا يشترون ، احتجوا بأن الأدباء لا ينشرون ، وإن تقاعسهم وكسلهم علم القراء الزهد فى الآثار القيمة والانصراف عن شرائها . ، وأنه لا بد من أن يضحى الأدباء بقسط من أموالهم وشهرتهم حتى يستعيدوا القراء الذين فقدوهم . على أن الذنب فى رأيى ذنب المدارس والمدرسين ، لا ذنب الأدباء ولا ذنب القراء ، فليس فى الشام اليوم من دروس الأدب إلا هذا المقدار القليل الذى يتعلمه الطالب فى مقرر البكالوريا . وهذا المقدار لا يحق حقاً ، ولا يبطل باطلاً ، ولا يصنع شيئاً أكثر من تبغيض الطلاب فى الأدب ، وتسويده فى أعينهم ، ذلك لأن شعب الأدب فى صفوف البكالوريا تسير فى طريق عوجاء أبعد ما تكون عن بث الملكة الأدبية فى نفس الطالب . وكيف تكون الملكة الأدبية طائفة من أخبار الشاعر وأشعاره يستظهرها الطالب من غير أن يفهمها غالباً ، ويحتفظ بها فى دماغه إلى يوم الامتحان ، فاذا أداه ونال الشهادة أهملها ، أو دخله الغرور فظن أن معنى (بكالوريوس فى الآداب) كاتب أو أديب ، فزهد فى المطالعة ، وانصرف عنها أو طالع ما يقع تحت يده من الكتب والمجلات حتى ابتلى بسوء الهضم ، وأصيب بالتخمة العقلية ... فترك القراءة وذهب إلى الندى (القهوة) يقطع عمره فى النرد والشطرنج ثم يعمد إلى الكتابة فى موضوع علمى أو فلسفى دونت فيه عشرات المجلدات من غير أن يقرأ منها شيئاً ...

ثم إن طلاب شعب الأدب فى صفوف البكالوريا لا يستطيعون

أن يستعينوا بالثقافة العامة التي يتلقونها في المدرسة ، ولا يعرفون كيف يستفيدون من علم الغريزة (الفسلجة) أو علم النفس أو التاريخ في بحوثهم الأدبية ولا يعرفون شيئاً من مناهج النقد ، وقواعد التحليل الأدبي ، لا لأن الطلاب كسالى أو بلداء ، فالطلاب يدرسون الأدب الفرنسي فيسيغونه ، ويدرسون الرياضة فيفهمونها ، ويدرسون أشياء كثيرة غير هذه يضيقون ببعضها ويتبرمون به ، ويقبلون على بعضها ويحبونه ، ويجدون لذلك كله أثراً في نفوسهم ، فاذا جاء الأدب العربي وجدت أكثر الطلاب لم يلذّوه ولم يبق في نفوسهم أثراً

وسبب ذلك أن أكثر المدرسين عاجزون عن أداء هذه المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها ، أو انتدبهم لها من بيدهم مقاليد الأمور ، لشهرتهم الأدبية أو لشهاداتهم العالية ، أو لشيء غير ذلك له صلة ضعيفة ، أو لا صلة له بالأدب قط . وأكثر المدرسين اليوم بين رجلين : رجل ثقف الأدب العربي القديم ثقافة حسنة ، وضرب بالسهم الوافر في علوم العربية نحوها وصرفها ، وبلاغتها وعروضها ، ونقدها وروايتها ، وحفظ أيام العرب وأمثالهم واستطاع أن يفهمها حق فهمها ، وينقدها نقد بصير بها ، ولكنه عجز عن أن يدرسها ويدرس رجالها دراسة تحليلية صحيحة لجهله الآداب الأجنبية ، وجهله قواعد النقد الحديث

ورجل درس الآداب الأجنبية أو واحداً منها دراسة عميقة ، وعرف مناهج البحث ، ومذاهب النقاد ، وأحسن نقلها إلى الأدب العربي ، ولكنه عجز عن فهم الشعر العربي ، وجهل علوم العربية ، فغدا لا يستطيع إدراك معنى النص العربي فضلا عن نقده أو الحكم عليه

ثم إن أكثر المدرسين من غير رجال الأدب ؛ وإن فيهم من لم يعرفه الناس شاعراً مطبوعاً ، ولا كاتباً مجيداً ، ولا ناقداً بصيراً ، ولا أكثر من ذلك ولا أقلّ . فكيف لعمري نطلب منه غرس الملكة الأدبية في نفوس الطلاب ؟ إن مثل هذا الطالب هدم للمنطق الذي يقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه

***

هذه قيمة الحياة الأدبية في الشام ؛ وهذا موطن الضعف فيها ؛ فلا صلاح لها إلا بتقويته ، ولا نجاح لأمة لا تسخر أدبها لخدمة قضيتها . فهل يبدأ في حياتنا الأدبية « عهد الاصلاح » المنتظر ؟

علي الطنطاوي

أزمة أوربا الدينيــــة في العصر الحاضر

بقلم محمد جلال

يخيل الينا – كما يرى الكثيرون – أن التصوف هو أظهر حالات النفس وأقدرها على محاسبة الضمير وكشف حقيقته . قال ابن خلدون : « وأصله – أي التصوف – . . . طريقة الحق والهداية[1] » وقال أيضا : « ويتم (بالمجاهدة) وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك[2] » وقال الأستاذ لالَنْد :

« Le mysticisme est : .., croyance à la possibilité d'une union intime et directe de l'esprit humain en principe fondamental de l,étre [3]

أي أن التصوف هو اعتقاد في امكان حصول اتحاد تام مباشر بين الروح وحقيقة الانسان . وقال الفيلسوف بِرْجِسون :

« Le grand mystique serait une individnalité qui franchirait les limites assignées à l'espèce par sa matérialité,qui continuerait et prolongerait ainsi l'action divine [4]

ومعناه أن الصوفي الحقيقي هو الذي يتخطى حجاب الحس الذي وضعته الطبيعة البشرية ليواصل بذلك العمل الالـهي

يتضح من ذلك أن التصوف يحقق شرطي الدينّ وهما الاعتقاد والعمل . فتلاحظ إذاً أن معظم المتصوفة قد نشأوا في بيئة دينية إلا القليل منهم من ظل يعمل بعيدا عنه في الظاهر . ولما كان للروح العلمية اتجاه يختلف عن الاتجاه الديني في كثير من أغراضه وميوله ، مال العلماء إلى التخلي عن الدين ورميه بالنقص . لهذا سنقصر بحثنا الآن على حقيقة الايمان مع اتصاله بالعلم والفلسفة والتاريخ

(١) مقدمة ابن خلدون — طبعة القاهرة ص ٤٠٨

(٢) مقدمة ص ٤١٠

(٣) Lalande : Vocabulaire de la philosophie-P. 496. Paris 1932

(٤) Bergson : Lea deux Sources de la morale etc ... — P. 215.Paris 1912

١ — العلم :

أحدث تقدم العلم فى القرن التاسع عشر اضطرابا فى الحياة الدينية أفضى الى تمحيص الدين على ضوء القوانين العلمية . من ذلك لوحظ أن نظرية خلق العالم فى سبعة أيام — كما هو وارد فى معظم الكتب المقدسة — لم تتفق وقوانين العلم الكونى . فان اليهودية والمسيحية والاسلام ومعظم الأديان الأخرى نشأت كلها فى الشرق فمن المحتمل إذاً أنها تكاد تتحد فى فكرة علمية واحدة . فى فلسطين مثلا ساد الاعتقاد قديما أن الأرض محاطة بطبقة صلبة معلقة فيها الكواكب يعلوها عرش الله الذى يثبت الأرض وما عليها وهو منفصل عنها ؛ ولكن علم الفلك أثبت أن العالم لا نهاية له ، فيكون عرش الله واقعا فى حيز العالم تجرى عليه سنة هذا الوجود من حركة وسكون . أدى هذا الخلاف الى رأيين : الأول اتحاد العلم والدين ، والثانى انفصالهما

أما الرأى الأول فانه يقرر — على رغم ظواهر الأشياء وما فى الكتب المقدسة من اختلاف — أن هناك صلة بين العلم والدين يسهل تحديدها إذا اتفق العلم والدين على معانى الكلمات ؛ فى المثال السابق مثلاً جاء فى التوراة أن معنى كلمة يوم : مدة مقدارها عصر لا أربعا وعشرين ساعة كما نعتقد نحن اليوم ؛ على هذا الاعتبار تكون الأرض قد تم تكوينها فى ستة عصور — وهذا هو رأى علماء الجيولوجيا

ويقول الرأى الثانى إن للعلم والدين أسباباً ودواعى خاصة بكل منهما ، وقد يتفاوت محيط أحدهما بالنسبة لمحيط الآخر دون أن يتعارضا فى شىء . فمقتضى الدين اعتقاد وأمر ثم عمل ؛ وأما مقتضى العلم فكشف قوانين هذا الوجود — بما فى ذلك الانسان — وتحقيقها بالطرق التجريبية . وليس من العلم فى شىء أن تحمل الجماعة على اتباع هذا النظام أو التخلى عن هذا العرف . يستوى عنده البار والفاجر ؛ وبعكس ذلك الدين ، فانه حب وعاطفة ومفاضلة بين بار وفاجر ؛ فهو لذلك ضرورة للنظام الاجتماعى ، وهذا رأى برجسون فى كتابه المشار إليه آنفاً

أفى ذلك طمأنينة للنفوس ؟ قد يكون ذلك . . ولكن ظاهر الشىء غير حقيقته ؛ إذ النفس لا تعرف السكون الذى يُزيّن لها التخير بين طريق وطريق ؛ فهى إن خضعت للدين بالأمس فذلك من طبيعتها ، وإذا خضعت للعلم اليوم فذلك أيضاً من طبيعتها . وقد لا تخضع غداً لا لهذا ولا لذاك ، وعليه فان هذا التقسيم لم يحقق مأربا

٢ — الفلسفة :

أما فى الفلسفة فالنزاع قائم بين أنصار مذهب الفكر[1] « Intellectualisme » وبين أنصار مذهب العمل[2] « Pragmatisme » . يقرر الفكريون أن الذكاء هو خير وسيلة لفهم الحقيقة الواقعة ، وفى رأى العمليين أنه وسيلة لتكوين صور لأعمالنا نستعين بها على فهم الأشياء

فعند الفكريين (أى معظم فلاسفة الغرب والفرنسيين منهم خصوصاً يتقدمهم ديكارت) تتعين الحقيقة بنفسها ؛ وليس فى مستطاع الفرد — مهما كانت قدرته — أن يحددها دفعة واحدة ، ولكننا نقرب منها شيئاً فشيئاً مع وفرة مجهودنا الفكرى خلال العصور المتطاولة . كان العلم عند اليونان مثلاً مبادىء وأوليات ، وقد ترقى بعض الشىء عند العرب ، وفى عصر النهضة بأوربا ، وما زال يرتقى ويستخلص أسسه من شوائب كانت سبباً فى تغيير معالم الحقيقة التى لم تتغير جوهرها بالنسبة لحاجة الانسان

ويرى آخرون أن ليس للحقيقة وجود ذاتى ، فهى محض فكرة دعت اليها حاجة الانسان . فعند اليونان تدل كلمة حقيقة على شىء نسبى — أى أن حاجة الانسان الفكرية تتطلب حقائق مختلفة حسب الزمان والمكان ، وهى بدورها تحقق رغبة علمية واحدة ؛ وبما أن حاجة الانسان غير ثابتة فتكون تلك الحقيقة أيضاً غير ثابتة ، وذلك لاختلاف وسائل تحقيقها . فمطرقة الحداد مثلاً كانت حقيقة فى الماضى — كذلك مطرقة النجار هى حقيقة اليوم ، ورغم ما أثبته العلم والعمل حتى عهد قريب من صحة نظرية نيوتن الخاصة بتجاذب الأجسام ، فان أبحاث اينشتين تثبت حقيقة أخرى بعد ما هدمت الأولى ؛ أعنى أن هناك تناسباً خاصاً فى الحياة الفكرية لكل عصر ؛ ولا غضاضة

(١) مقابلة لكلمة روحيين « Spiritualistes » كما جاء فى مقدمة ابن خلدون — ص ٣٥٣

(٢) استعملناه مؤقتاً إذ لم نعثر بعد على اصطلاحه فى المراجع العربية

إذا أقبلنا بجميع جهودنا على تلك الحقيقة المتغيرة فهى لم تتحدد بغير منفعتها

مثل وليم جيمس (١) هذا الرأى فى أمريكا – وأخذ برجسن ببعض منه ، أى الجزء الخاص بتطور الفكر (٢) ، وتبع المسيو ادوار لروا أستاذه برجسون فى ذلك إذ رأى أنه يصعب على الرجل العملى فهم الدين من الوجهة المنطقية . وعليه فان عبارة « الأب والابن وروح القدس » معناها تصور حقيقة دائمة تنشأ عن ارتباط الفرد بغيره . ويقال مثل ذلك فى تفسير وجود عبادة الله وحده – أى كونه ماثلا حقيقة روحاً ودماً (عقيدة سر القربان عند المسيحيين) ؛ ويراها آخرون أنها صيغة أمر ، أى وجوب تصور حالة العبد أمام ربه كما يجب أن يكون عليها أمام انسان يرى فيه أصل الحب والتقديس . هو أصل اليقين والشعور الطاهر ، وقال بمثل ذلك الأب سرتلانج Sertillanges الأستاذ بالمعهد الكاثوليكى بفرنسا فى إحدى جلسات مجمع باريس الدينى الأخير إذ رأى أن أوضاع الدين لم تكن غير نواميس للحياة

٣ – التاريخ

شك علماء التاريخ فى مصادر التوراة ، لأن فيها أجزاء وضعها قديسون ، وقد نُقحت من بعدهم . وللآن لم يستقر الأمر على معرفة كيفية حصول ذلك لعدم توفر الوثائق التاريخية الكافية ؛ فلا يبعد إذن أن يكون قد وقع فيها بعض التغيير أو الحذف . مثال ذلك أسفار موسى الخمسة فانه لم يزل أمرها غامضاً حتى اليوم . يوجد عدا هذا بعض تناقض فى الآيات من حيث الصورة والمعنى . آمن (٣) عيسى عليه السلام فى عودته ثانية إلى الارض ، وإن الساعة آتية قبل أن ينقضى العهد الذى نزل هو فيه

يلاحظ هنا تباين نشأ عما رمز اليه فى التوراة من أعمال دنيوية ، إذ انقضى عهده وانتهى النظام الوراثى للملك وهو لم يعد بعد . أدى هذا الاعتراض إلى احداث انشقاق فى الكنيسة الكاثوليكية فى أواخر القرن التاسع عشر . أخذ رجال الكنيسة من جديد يدرسون الانجيل من حيث التاريخ والجغرافيا والتشريع ، وقد قضى الأب لوازى Loisy حياته فى التوفيق بين الدين والتاريخ

نشأ عن تلك الحركة اتجاه جديد فى الرأى سمى « مذهب المثل الاعتقادى » Symbolofidéisme يرى أخذ الأشياء على أنها أمثلة بسيطة شأنها أن تحدث معتقدات تتناسب مع قوة إيمان الفرد ؛ فيكون مرمى نظرية نزول المسيح تحديد قيمة مثلى

على رغم كل ذلك ما زال فى النفس بقية تدعوها إلى كشف معتقد جديد وحقيقة أخرى ، فيرى برجسن وهنرى بوانكاريه H. Poincaré أن العقل غير كاف وحده لكشف الحقيقة التى دأب وراءها الانسان منذ نشأته . فلا بد له أن يتبع هدى روحه كما فعل أفلاطون وغيره

ويرى أوجست كنت وأتباعه أن الدين نظام اجتماعى قابل للتطور مثل الجماعة فى تاريخها من تشريع وأخلاق . ويرى الأستاذ شارل مورا Charles Maurras ضرورة الدين الكاثوليكى لاصلاح النظم الاجتماعية فى فرنسا لما فيه من عناصر السلام

ماهى حالة الفرد النفسية إزاء ذلك الانقسام ؟

* * *

عبر علماء النفس عن ذلك بأنه شعور جديد بشخصية الفرد يدعوه إلى تحديدها من حيث اتصاله بالجماعة ، ومن حيث اتصاله بنفسه ، مما أدى إلى ترك بعض المعتقدات والتمسك بأخرى . ولما كانت الجماعة تحمل فى ماضيها عناصر مدنيات مختلفة فهى إذاً الدافع إلى هذا الشعور فى الفرد . ويختلف الأفراد فى قبول ذلك حسب استعدادهم النفسى ، وهذا ما نشاهده فى القديس بولس إذ اضطربت نفسه متأثراً بعصره ، فخرج على الدين ثم عاد اليه متحمساً لتجديده ، وذلك بالدرس والمجاهدة النفسية

يرى بعض رجال الدين أن مثل هذا النوع من المجاهدة محاولة من العبد أن يتصل بالله ليظفر بالغفران . ولكن بعض أتباع لوثر ليسوا فى حاجة إلى ذلك ، إذ الغفران فى رأيهم ملك للجميع ، وثقتهم بالله عظيمة لتوزيع هذا الغفران ، فلم يكن عندهم إذاً هذا النوع من المجاهدة

وهناك فريق آخر يقال لهم الوصوليون Methodistes وغايتهم فعل الخير لأنهم مجبرون عليه ، وهذا عمل خلو من الشعور

(١) William James : La Philosophie de l'experience. Tr. fr. 1910

(٢) H. Bergson : L'Evolution Créatrice. Ch. 3. Paris 1928

(١) ٣ – انظر العهد الجديد – أعمال القديسين – اصحاح ١ – طبعة كمبردج سنة ١٩٢٨

بين الماضى والآتى

للاستاذ أديب عباسى

« وصلنا عدد (الرسالة) المائة والسادس والعشرون ، وقد انتهينا إلى جزء هذه المقالة الأخير . وكم كانت دهشة المفاجأة إذ فضضت غلاف الرسالة ووجدت بين بحوثها مقال الأستاذ الكبير أحمد أمين (أمس وغداً) . وكانت بادرة الفكر التى تلت دهشة المفاجأة أن أهمل الموضوع وأوفر على نفسى عناء المراجعة والتنقيح . ولكننى عدت وقلت قد أكون طرقت الموضوع من ناحية غير التى طرقها الأستاذ ، وقد أكون على خلاف معه فى الرأى أو بعضه . وقرأت المقال فوجدت أننا نسير والأستاذ بعض الطريق ونفترق فى بعضه الآخر . ومن أجل هذا الافتراق أبعث بمقالى هذا إلى (الرسالة) العزيزة »

تمرُّ بزمرة من الشيوخ خلوا الى أنفسهم وأرسلوا أحاديثهم ارسالا لا تحده موضوعية البحث الجدى ، ولا اندفاع العاطفة الثارة ، ولا عصبية الجدل ؛ فتكاد لا تحسُّ فى حديثهم إلا اللهفة العميقة ، والالتياع الشديد على الزمن الفائت ، حيث اللذة لا يكدرها ألم ، والصفو لا يرنقه كدر ، وحيث النعيم أبداً مقيم ، والمنى أبداً حُفَّل دانية ! وينبثُّ اليك من صدق اللهجة واجماع الرأى وخلوص النيـة فى حديثهم ما يوحى بأن أعصر السعادة المطلقة قد تلكأت عند شبابهم ، وترخَّصت فقط لماضيهم ، فأقامت ثمَّ لا تبرح ولا تريم ؛ لهذا أمحل الحاضر ، وعقم المستقبل ، وغادر الناس طيب العيش وبشاشة الأمل !

تسمع هذا وخلافه مما تفيض به بقايا العمر وأعقاب السنين من الشيخوخة ، فتتدسَّس اليك الحسرة ويغمرك الألم ان تأخر بك الزمن ، ولم يحشرك فى زمرة الشيوخ هذه ، ويحملك فى حشدهم ، فيكون لك من السعادة مثل ما يتحدثون ويصفون

وتقودك رجلاك من حيث أنت الى زمرٍ أخرى وأفراد آخرين ، بعضهم ما يزال ـ فى رأى نفسه ـ يستعدُّ لخوض معركة الحياة ، وبعضهم الآخر ـ كذلك فى رأى نفسه ـ قد أعدَّ لها العـدَّة ، وهيأ السلاح ، فهو الآن يخوض غمارها ليصطلى بنارها ، أو يستاف العطر الذكى عن أزهارها

وتقف تتسمع ، فما يروعك من هذه الزمر مثلُ انشغالها بمستقبلها عن حاضرها ، وغفلتها عما فى اليد الى ما يمنيها به الغد ، كأن حياة اليوم ليست فى العمر ولا فى تقدير الزمن ، ويعضون هذا المضى ، الغفلةُ عن حاضر الحياة غريبة مدهشة ، والثقة فى المستقبل قوية آمرة ، ويظلُّ هذا دأبهم الى أن يؤذَن بركود الشباب ، ووشك الانخراط فى سلك الشيخوخة المتهدمة . عندها ـ وعندها فقط ـ يصحون ، ولكن لات ساعة صحو

وهنا ينقلب الوضع وينكفئ الاتجاه ، فتحل الذكرى القريبة أو البعيدة محل العزم ، والركود محل النشاط ، والعجز محل القدرة ، وهكذا بين ماضى الحياة وآتيها ، يُسقط الناس كل رصيدهم فيها ، ويجعلون منها ـ على حد تعبير الرياضيين ـ الكمية المهملة

وليست هذه الصور التى رسمنا بالصور الخاصة أو الطارئة طروءاً زائلاً ، إنما هى صور لها من طبيعة الشعور وخصائص الاحساس ما يجعلها من ألزم الصور للحياة وأكثرها لصوقاً بها وشيوعاً فيها . فالشيخ ، أو من كان فى حكمه من شبان السنين ، يتَّجه إلى الماضى ليلطف عنده مرارة الحاضر ، وليتعوض بذكراه عما يفيته العجز وضعف المُنة من لذائذ راهنة يراها ولا يرى السبيل إليها كيف يكون . وقد تقول : لم يؤثر الشيخ أن يرتد بخياله إلى ماضى العمر ولا يرى أن يرسله فى مطاوى المستقبل ليلتمس عنده الفرار وينشد السلوان ؟ والجواب سهل هين إذا علمنا أن خيال الشيخ يخونه هنا ، كما يخونه كذلك منطق الواقع ومنطق الاحتمال . فالشيخ يدرك أن سبيله من بقية العمر هى سبيل نازلة لا صاعـدة ، وأن كل يوم يمضى يدنيه من النهاية ويقلص لديه بقايا الأمل وأصداء السعادة ؛ وإذاً فالحاضر فسحة مسدودة ، والآتى سبيل مظلم مخيف ؛ أما الماضى فهو السبيل الوحيد الذى يستطيع أن ينساب فيه الخيال دون أن يشله برد الواقع أو تروِّعه بشاعة الحاضر

بالاتجاه نحو الله كما رأى ذلك رينان Renan

عرضنا فى تلك الكلمة الموجزة نشوء بعض تطورات الدين بأوربا ، مما يدعونا الى الاعتقاد أن هناك عوامل أخرى أدت الى تلك الاختلافات الطائفيـة غفل عنها رجال الدين والفلاسفة ، وهى التى دعت علماء الاجتماع للتعبير عنها بطريقة أخرى غير ما سبق . وذلك موضوع كلمتنا القادمة

(باريس)

محمد مبارك
بجامعة باريس

وقد تسأل : ألم يكن فى ماضى الشيخ الألم كاللذة ، والنعيم كالشقاء ، والحرمان كالأنالة ؟ فكيف يؤثر أن يعيش فى ماضيه دون حاضره وآتيه ؟ وهنا نرجع إلى حقائق الشعور الراهنة ، فيستبين لنا أن الألم الفائت يفقد قيمته مع الزمن حتى لا يبقى منه إلا ذكراه وصداه . وهذه الذكرى – إذا لم يصحب أسباب الألم عند نشوئه حالات ملازمة – تضحى باعثاً على الاطمئنان والراحة . فأنت إذ تفقد كل ما تملك أو تصاب إصابة جائرة فى سمعتك أو تجلس إلى حبيب إليك علّقه المرض بين فكى الفناء والبقاء ، تشعر بالغبطة وانفراج الشعور بزوال الخطر ، حينما يعوض عليك السعى بديلاً من مالك ، وحينما يردُّ إليك الوضع العادل سمعتك ، وحينما يتخطى غول الفناء حبيبك فيرده إليك سليماً معافى تنعم بلقائه نعمتك بكل عزيز عليك . وعليه فتلك الأحداث التى كانت يوماً ناراً يقلب عليها الاحساس ويضرِّم الشعور أضحت بعد زوالها مجلبة للراحة والاطمئنان ، فلا عجب إذاً من ارتداد الخيال إلى الماضى وعكوفه عليه

بيد أننا لا ننكر أن ثمة عللاً أخرى غير ما أسلفنا لهـــذا العكوف من الشيخ على ماضيه وانصرافه اليه عن آتيه وحاضره : منها أن الشيخ إذ يرتدُّ إلى ماضيه يُسيِّر الشعور فى مسارب أضحت بتكرار الحدوث ممهدة لا تعترضه فيها عقبة ولا تتصدى له عثرة . ومن هنا فكرة « الماضى السعيد » عند الشيوخ ، ومن هنا أيضاً ميلهم الميل الشديد إلى المحافظة وإبقاء القديم على قدمه وتجنب كل جديد يصدم الشعور ويدعو إلى تحويله من مجراه المعتاد

ومن هذه العلل أيضاً ذهاب الرفقة وتخطُّف الموت أبناء الجيل الواحد ، بحيث يجىء اليوم الذى يشعر فيه الشيخ انه غريب فى بيئة غريبة ، فيزداد حنينه إلى ذلك الرهط الذاهب من جيله ، فيستعيد بخياله ذكراهم المحبَّبة وأيامه وأيامهم الحائلة

يضاف إلى هـذا لون معهود من ألوان الدفاع عن النفس بتهوين الحرمان عليها وطلب العزاء لها عنه فى الماضى ؛ وهو نوع من أنواع تخدير الاحساس ينشأ أول الأمر فى دائرة الوعى ، ولكنه مع الزمن وتوالى الحدوث والتأثير يتسرب إلى دائرة العقل الباطن ويتخفى فى تيه اللاشعور . وعندها يصدر ذمُّ الحاضر عن عقيدة وينطلق عن يقين . وهذه الظاهرة تبدو أجلى وأوضح فى حياة الجماعات منها فى حياة الأفراد . ومن هنا أن الأمم كلما أهمل حاضرها وازداد تخلفها عن غيرها من الأمم ازدادت حفولاً بالماضى وتفطناً اليه وعكوفاً عليه . ولعل عبادة السلف عند بعض الشعوب ترجع فى معظم الأمر إلى هذا الميل النفسى العميق

* * *

ونعود إلى صورة الشعور كما يرسمها طماح الشباب ويحددها أمله ، فنجد أن الشاب إذ يتجه فى أمانيه وأخيلته وعمله إلى المستقبل ، إنما يجرى على طبيعة الشعور وبموجب قواعده . فالحاضر لدى الشاب الذى لم يحدد الضعف وقصر المجال وضيق المضطرب أمله فيه وحدود مسعاه ، هو مرقاة منها يرقى إلى غيرها . وإذاً فحاضر الحياة من الشاب هو الدرب ، والمستقبل الافق ، ما يفتأ متجدداً مغرياً بالسعى والسير ما بقيت فى النفس حوافز السعى والسير . ثم ان حاضر الحياة مزيج من الخير والشر واللذة والألم والنجاح والفشل . أما آتيها فهو كما يرسمه الخيال ويحدده الأمل ، خير ونعيم ونجاح . أما الماضى فقد كان يكون من خياله ما يكون من خيال الشيخ لولا أن صورة المستقبل صورة قوية رائعة لا تدع للتفكير فى الماضى الا ما يدعه القوى للضعيف . وعلى كل فقد ترى من الشباب من يتزوى عن مستقبله ويتجه الى ماضيه ، إن يكن له ماض ، فعل الشيوخ الذين غادرهم الأمل وأحالهم الكبر

هـذا تحليل مجمل لصور الشعور فى ثلاثة أطوار الحياة وفى أزمنتها الثلاثة ، لا نعتقد أننا نتحكم فيه أو نفرضه فرضاً على القارىء ، لا سيما اذا أزلنا من الصورة جانبى المبالغة والاغراق من تفاؤل رخيص يجمل الحياة ابتسامة طويلة كاذبة ، وتشاؤم عبوس دائم التقطيب ، كما يتمثلان فى حياة نفر من الناس ، شأنهم الحقيقى من الحياة شأن الهامش من الصحيفة ، فيها وليسوا فيها

مما وصفنا ترى جلياً ان حاضر الحياة – وهو كل حقنا فيها – لا ينال من فطنة الشعور إلا قدراً ضئيلاً عابراً إذا قيس بما يملأ أخيلتنا ويكظها من صور الماضى والآتى

وقد تقول : ماذا علينا – إذا كان هذا هو الحال – لنخلِّص الحياة من هذا العبث الذى يضيع فيه العمر بين لهفة على الماضى وغفلة عن الحاضر واستشراف المستقبل ؟ وجوابنا ان من طبيعة

الحياة أن يتمازج فيها الخير والشر وتساير اللذة الألم ، وانه يستحيل أن تكون الحياة خيراً كلها أو شراً كلها ، وانه لهذا أضحى واجباً أن يقبل عليها الناس اقبالاً لا يفيتهم ما يتيسر لهم من نعيمها ، ولا يفيتهم - كذلك - النظر إلى المستقبل والسعى فى سبيله ؛ ولن ينقص نظر الناس إلى المستقبل من استمتاعهم بلذات الحاضر إذا عرفوا كيف يحسنون السير فى سبيله سيراً معتدلاً حتى لا يضحى مشغلة لهم تزحم حاضر الحياة على نصيبها الذى يجب أن يكون لها من وعى الشعور ، بل نحن نعتقد أن المرء يتيسر له من سعادة الواقع ، مع السعى السليم والتطلع إلى المستقبل الذى لا يقطعُ المرء من حياته الحاضرة ، أكثرمما يتيسر له حينما ينقطع عن ماضيه وآتيه ليكبّ على الحاضر وحده يرضع فيه اللذة ويترشف النعيم على الطريقة الخيّاميّة

وهذه الحالة السليمة من الشعور لا تحلُّ حلولا مفاجئاً ، كما يحلُّ الوحى ، ولا تجئُ بالسعى الهين أو المعتدل ، انما هى حالة تقتضى السعى الأكيد ، والتعاون الشديد ، من جميع مصادر التوجيه النفسى . ولعل البيت والمدرسة يفوقان فى هذا الشأن جميع مصادر التوجيه الأخرى فى طول مدى التأثير وعمقه ، فالبيت والمدرسة يستطيعان أن ينشئا الجيل الذى لا يقتله الفشل فيرتد الى الماضى يخدّر فيه الشعور ، ولا يستخفه النجاح ، فيستعبده المستقبل ويستذله . ويكون ذلك بأن يتعاون البيت والمدرسة على تعويد الطفل بالتلقين والايحاء تلقى مؤثرات الحياة برحابة فى الصدر ، وتوطين للنفس على خير الحياة وشرها على السواء

ويساعد على تكوين هذه الحالة السليمة من التصور مثل التربية الاستقلالية التى يُربّاها أبناء الأمم السكسونية ، حيث يتخذ الألم معنى الواقع الذى لا بدّ منه ، واللذة معنى الخير يجئ بالسعى ، فلابدّ من تذوّقه واستمتاعه إلى أقصى حدود الاستمتاع

ويجب كذلك أن يتعاون البيت والمدرسة تعاوناً حكيما فى الحد من أنانية الصغار الصارخة ، وإفهامهم أن فرص النجاح ليست وقفاً عليهم وحدهم ، وأن غيرهم لهم من حق النجاح مثل حقهم ؛ فلا تمضى حياتهم آمالاً مخيّبة ، وآلاماً موصولة

كذلك على المدرسة والبيت أن يعوّدا الناشئ كيف يقف من حوادث الحياة موقف الحياد والاستقلال فى التقدير ، ومن نفسه موقف المحاسبة والتحليل الدقيق للأوضاع التى تسوقه اليها ماجريات الحياة . بذلك يكتسب ثقة فى النفس وتقديراً عادلاً للأوضاع ، ويجانبه من خصومة النفس وغربة الوضع وغرابة الاحساس ...

ومن واجب البيت والمدرسة - كذلك - أن يعتاد الصغار تقدير آلام الغير ويستيقنوا أن الناس يتألمون كما هم يتألمون ، وأن ما نشاهده من ظاهر السعادة عندهم هو فى أغلب الأحيان دون ما نقدر ونتوهم

ومن أول واجبات البيت والمدرسة أن ينشئا الصغار على التفطن إلى جميع مظاهر الجمال وتذوقه فى الطبيعة والحياة والفن ، فان فى ذلك توسيعاً لمدى اللذة وتغليباً لأسباب السعادة على أسباب الشقاء

وأخيرا يجب على البيت والمدرسة أن يفقها أن عملية التربية ليست إعداد المرء للحياة كما تصر نظم التربية القديمة ، إنما هى - كما يقول جون ديوى - فيلسوف النزعة الحديثة فى التربية : « الحياة » بذاتها ؟

أديب عباسى

الرابطة الثقافية

بين مصر والشرق العربي

دعوة الى توثيقها

للأستاذ رفيق اللبابيدى

أحب أن أقرر أولاً أن الأمة العربيــة مهما تكن شتى فى نوازعها السياسية ، هى أمة متماسكة ذات وحدة أو كيان واحد فى ثقافتها وفى تفكيرها

وقد اختلفت على هذه الأمة أدوار من الزمن ، كما اختلفت فيها أطوار من التاريخ ، وكانت تجتمع كلما حزبها أمر من الأمور عند هذه الوحدة الفكرية فى قوالب شتى ، فالدين كان ولا يزال واحداً ، واللغــة كانت ولا تزال لغة واحدة ، والخوالج النفسية العامة واحدة ، والأدب فى مقاييسه ونوازعه كان واحداً ؛ ولو عدنا رجْعَنا إلى التاريخ وقلبنا صفحاته ، لوجدنا أن الأقطار العربية كانت تجتمع عند الاحتفال بالشاعر النابه والأديب مهما يكن موطنه ومهما تكن نزعته ؛ وقد كان الشعر أو الأدب يطوفان فى أرجائها يحملان اسم الشاعر أو الأديب طواف الفكرة الدينية أو المذاهب الفقهية ، أو النحل الشتى من بلد إلى آخر ، أو من قطر إلى قطر

وبينا كانت هذه الأقطار تسودها النزعات السياسية المتباينة كانت تفسح صدورها للآراء الدينية والمذاهب الكلامية ، والاستنباطاتِ التشريعية ، تتسرب اليها عن طريق السفارات العلمية بارتحالِ العلماء فى مختلف العصور

وفى بغداد ، وفى دمشق ، ثم فى القاهرة ، وبين هذه العواصم التاريخية العريقة فى تاريخنا الواحد وماضينا أمثلةٌ صادقة تسجل هذا الاتحادَ الثقافى أو هذه الرابطة العلمية ، وإن تكن فى غير ما نألفه الآن من وسائل يسّرتها عوامل الرقى ، وسننُ التطور

ولقد كانت رحلات الفقهاء ، وجماعات الأدباء ، ورحلات التاريخ من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب تُوثّق من عُرَى هذه الروابط فاجتمع للعرب من هذا تراث واحد يمثل ذلك الاتجاه الفكرى ، وإن تكن قد اختلفت طرقه إلى النتائج ، وتباينت وسائله فيها ؛ ومذاهب الفقه ، والنحل المبسوطة فى المدونات والمظان التى تسربت إلى المغرب الأقصى والأندلس فى أيام ازدهارها ومن هذه إلى الشرق - لونٌ من ألوان هذا الاتجاه كما كان من قبل ذلك للأدب سفاراته فى طواف الشعراء والكتاب من دولة إلى دولة ، ومن أقليم إلى آخر ، ولم تستطع الأحداث السياسية أن توهن من هذه الروابط أو تفلّ منها ، وإن استطاعت بعضَ الاستطاعة أن تعوق وسائلها ، وتقف تقدمها ؛ على أنى لا أزعم أن أثر هذه الأحداث لم يكن قوياً ، ولكنى أجيز لنفسى أن أقول إن هذه الرابطة لم تضعف بالرغم من هذه الحوائل ، بل صمدت لها حتى اجتاحها الزمن ، وانطلقت الأقطار العربية من عقالها فعادت إلى طريقها الأولى ماضية فيها تساير أطوار التاريخ رفعة وضعة ، سنة الله فى الكائنات جميعها

* * *

ولمصر فى نهضتها العلمية والأدبية الآن يد لا تُجحد على الشرق العربى ؛ ففى صحافتها روح قوية توحى بهذه الرابطة التى لم تنهزم أمام أحداث الزمن ، وفى نتاج بنيها النابهين ، وعلمائها ومعاهدها وما تخرجه المطابع من مختلف الكتب والمؤلفات ، وما يظفر به القراء فى الأقطار العربية من ثمرات هذه الجهود المشكورة — ما يُحِلّ مصر الكريمة محلّ الزعامة المختارة المصطفاة ؛ والشرق العربى أحوج ما يكون اليوم إلى توثيق الروابط بمختلف ألوانها وأشكالها منه فى آونة أخرى ؛ فقد تدافعت هجمات الأحداث عليه من كل جانب ، وما أشده حين يكون كتلة واحدة على دفعها ، وما أهونه عليها حين تتسع شقة البين فى روحه وفى تفكيره بين بعضه وبعضه الآخر ؛ وأقول فى كثير من الاطمئنان إن دعامة هذه الجبهة الشرقية القوية لا تقوم إلا على وحدة فى الثقافة ترتكز على رابطة متينة بين الأقطار العربية وبين مصر الزعيمة

وبعد ، فلست أقترح رأياً خطيرا لا يدعمه البحث أو الأخذ والرد بين الأدباء والقائمة على هذه الرابطة ؛ ولكنى أقدم

بين يدى هذه العجالة كلاماً يصح أن يكون دعوة الى خطوات تمهيدية لمعالجة هـذا الغرض المنشود ، ويشجعنى على القول أن الأستاذ الزيات فى زيارتى الأخيرة له بى دار (الرسالة) ، قد ارتاح الى ما بسطته من رغبة فى توثيق هذه العُرى الثقافية ، وتمهد أن تقوم الرسالة بالسفارة الأدبية بين أشياع هذه الرابطة

وإيمانى ازداد رسوخا بنجاح هذه الفكرة أو هذه الدعوة ، حين تحـدثت بها إلى أكثر من أخ من اخواننا هنا فى مصر ، وهناك فى سوريا وفى فلسطين ؛ وأعتقد أن الحاجة ماسـة الى زورات علمية يقوم بها شباب مثقفون مؤمنون بفكرة هذه الرابطة الثقافية بين الآونة والأخرى ، لا يكون الغرض منها متعة النفس فحسب ، بل يكون مع هذا اتصال وثيق بين البيئات العلمية والأدبية هنا وهنالك باعداد بحوث تبسط فيها الأحاديث فى الشؤون الاجتماعية والأدبية والعلمية ، وأن تكون من ثم حلقاتٌ فى كل بلد من البلدان العربيـة تضع لها ميثاقا واحدا ينتظم الجهود الثقافية فيها ، مع الحرص على ما للشرق من تقاليـد تفرضها أو تحتمها أوضاع الـكيان القوى ، فقـد أخر الشرق كثيرا هـذا الاقتباس المشوه عن الغرب فى أكثر من ناحية من النواحى التى لا تتفق مع تقاليده وروحه ، وحالت دون أن يكون له لون من ألوان الامتياز الاجتماعى والأدبى والاستقلال العلمى الى حد ما يحفظ كرامته . واتجاه الشباب المثقف فى مختلف الأقطار العربيـة يكاد يكون متأثرا بأوضاع شتى ونواح كثيرة متباينة ، وهـذا يوسع من شقة الخلاف ، ويباعد على الزمن بين ماورثناه من هذه الروابط ؛ ذلك لاختلاف الثقافات ، واختلاف المناهج التى تفرضها هذه الثقافات ؛ وقد يجوز أن يكون مثل هذا فى الشرق العربى لو كانت اللغة غير واحدةٍ ، أو لو كان التاريخ غير واحد ؛ ولـكن الأمة العربية مهما تباعدت سياسياً ، أمةٌ تراثها واحد روحا وتقاليد ؛ فيجب أن يكون اتجاهها واحداً فى الثقافة حتى يظل لها هذا التماسك القوى المتين

فتنظيم هذه الرحلات بين الشباب المثقف وسيلة من الوسائل لتكوين هذه الحلقات الثقافية فى الشرق العربى أو خطوة أولى الى توحيد الاتجاه الثقافى فيه ، وتلى هذه الخطوة مرحلة أخرى تكون بعقد المؤتمرات الأدبية وتناول ما تقترحه هذه الحلقات من اتجاهات قوية فى النهضة الأدبية والاجتماعية ، ووراء هاتين الرحلتين مراحل تقترح ليس هـذا مجال بسطها ؛ وبين يدى الأستاذ الزيات صاحب الرسالة وشباب مصر المثقف هذه الدعوة ، ولعلنا الى تحقيق هذه الأمنية واصلون

القاهرة رفيق اللبابيدى

مشروع علمى جليل : سلسلة المعارف العامة

اعتزمت لجنـة التأليف والترجمة والنشر اخراج كتب اللطيفة الحجم يتناول كل كتاب منها موضوعاً خاصاً علمياً أوأدبياً ؛ وترمى بذلك إلى تكوين سلسلة تشمل جميع النظريات الحديثة فى الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والتربيـة والطبيعة والـكيمياء وغير ذلك ؛ وقد سلـكت فى ذلك طرقاً مختلفة ، فأحيانا تترجم كتباً أجنبية إذا رأتها صالحة كل الصلاحية ، وأحياناً تؤلف فى الموضوع بما يتفق وذوق الجمهور العربى

وقد بدأت هذا الشهر فى اخراج أربعة كتب :

(الأول) عرض تاريخى للفلسفة والعلم تأليف ا . وولف وترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف ، وهو كما يدل عليه اسمه نظرة عامة فى تاريخ الفلسفة والعلم من بدء نشأتهما إلى الآن . وثمنه ٦ قروش صاغ

(الثانى) الآراء الحديثـة فى علم الجغرافيا تأليف ل . ددلى ستامب وتعريب الأسـتاذ أحمد محمد العدوى مدرس الجغرافيا بالجامعة المصرية . وثمنه ٦ قروش صاغ

(الثالث) سكان هـذا الـكوكب تأليف الدكتور محمد عوض أستاذ الجغرافيا فى الجامعة المصرية يبحث فى سكان الـكرة الأرضية من بنى الانسان من حيث نشأة النوع البشرى وتمدد الأجناس ونمو السكان وتوزيعهم على سطح الأرض مع دراسة تفصيلية لحالة السكان ومشاكلهم فى مختلف الأقطار . وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً

(الرابع) كتاب «البراجماتزم» أو الفلسفة الأمريكية تأليف الأستاذ يعقوب فام . وثمنه ١٥ قرشاً صاغاً

رسائل حاج

٢ – من ربوع الغرب إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى
الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

وشمرت وأنا أجتاز دهاليز الأزهر وأستقبل لأول مرة أروقته وحلقات دروسه بنوع من الرهبة والخشوع والتسليم. فهذا المعهد العظيم موئل الاسلام ومعقله، ومنبع الثقافة الدينية، وحامى حمى اللغة العربية. كان من أسمى أمانى أن أندمج فى سلك طلابه. وكم كنت فى شوق لاهف إلى أن أنهل من ينبوعه الفياض روح الاسلام الحق، وأضيء شمعة معرفتى الخافتة بحيث تتحول إلى شعلة وقادة، وإلى حماسة فائقة داخل جوانحى، وأتعرف إلى شيوخه الذين يقودون العالم الاسلامى بآرائهم وأفكارهم، كما كنت على يقين وثقة أننى بمعاونة هؤلاء العلماء الفطاحل سأمضى فى ترجمتى للقرآن الكريم إلى اللغة المجرية بحيث أجعلها فى متناول آلاف المسلمين من مواطنى

ومع أن هذه الترجمة كانت عملاً شاقاً مضنياً، فانى كنت أحس من أعماق روحى أنها فرض واجب على كمسلم مخلص يريد أن يعلى منار الاسلام ويطمح فى أن يضيف لبنة صغيرة إلى صرحه العظيم

وخيل إلىّ وأنا فى نشوة روحية عميقة أننى بدأت أظفر ببغيتى وأجزى خير الجزاء عن تلك الليالى الطويلة التى لم أذق فيها طعم الكرى، بل أمضيتها منكباً على دراسة الاسلام وتفهم قواعده وأصوله، وأن كل ما حاق بى من مصاعب سيتبدد، وفشلى سيتحول إلى فوز عظيم وانتصار رائع بمعاونة شيوخ الأزهر ومدهم يد المساعدة إلى عملى المتواضع

ولكننى رأيت والأسف يملأ جوانحى أن آمالى تنهار دفعة واحدة بحيث أصبحت عاجزاً عن خدمة الغرض الأسمى الذى خصصت حياتى له. علمت بأن هناك وشاة أوعزوا إلى الشيخ الظواهرى بأننى دخيل أرمى إلى الوقوف على أسرار الاسلام وإذاعتها فى البيئات العلميـة فى أوربا! وعلى الرغم من الظنون والشبهات السيئة التى حامت حولى بذلت جهداً عظيماً لمقاومتها؛ وكان رائدى فى تلك المقاومة أن الحق على الدوام فى جانبى، وقد كانت سيرة المرحوم الامام الشيخ محمد عبده وما لقيه من خصومة صماء خفية، وانتصاره على خصومه أكبر مشجع لى فى الثبات أمام حجة خصومى. وقلت لنفسى: أين أنت أيها المصلح العظيم لترى كيف ابتعد الأزهر عن مبادئك العالية، وتجاوز عن رسالتك الرفيعة التى سموت بها فوق الأغراض الوضيعة والمطامع الدينوية والمنافع المادية

وعلى الرغم من جهادى الضعيف فى مقاومة خصومى، ما كنت لأستطيع أن أبرهن لفضيلة الشيخ الظواهرى على اخلاصى وحبى للدين الحنيف، وأنى لست دخيلا، ولكننى رجل يؤمن من أعماق روحه بالرسالة المحمدية النبيلة، وأريد أن أحصل على معاونة رجال الأزهر للوقوف على تعاليم الاسلام، مع علمى بأن هذه الشريعة السمحاء ليس بها أسرار يمكن اذاعتها فى البيئات العلمية، لأنها ديانة مؤسسة على ثقافة ثابتة مكشوفة للعالم لا تميز فيها بين الأجناس والألوان. وليس الأزهر سوى الجامعة الاسلامية الحق التى تضيء شعلة الحق، فلا أسرار فى جوانبها يمكن اخفاؤها عن رجل أجنبى مهما كانت صفته. ألا يعاقب الله كل مسلم يرمى أخاه بالشرك والكفر والتشكك فى عقيدته المقدسة؟ ألا يعاقب أيضاً أولئك الذين لا يقومون بواجب الدعاية والارشاد للاسلام، والذين يخفون أسرارا فى قلوبهم؟ يشهد الله أننى لا أرمى من وراء ذلك أن أوجه التهم جزافا، لأنى لا أملك هذا الحق، ولكنها صرخة ضعيفة أردت أن أنفس بها عن صدرى

إن الأزهر بحسب نظامه الحالى لا يستطيع أن يؤدى رسالة الاسلام كما يجب. فالنظام الحديث الذى أدخل عليه، والحيلولة دون اجتماع الطلاب فى حلقات الدرس كما كانوا قبلا حول شيوخهم، مسخ الأزهر وشوهه، وأفسد ما كان قد بقى له من جمال وجلال وحرمة، وأفقده سيطرته الدينية والاجتماعية فى العالم الاسلامى،

تلك السيطرة التى ظل متمتعاً بها قروناً عدة . ويلوح لى أن البرامج الحديثة لم تقدم الأزهر خطوة واحدة ، لأن المشرفين على تنفيذها جعلوا هدفهم الأسمى فتح أبواب العمل فى وجوه الطلاب ، وتمكينهم من احتلال الوظائف المدنية دون أن يفكروا فى تحميلهم ثقافة الاسلام على وجهها الصحيح وارشاد المسلمين الى الخير وتفقيههم ، ودعوة غير المسلمين الى الدخول فى دين الله كما نص على ذلك القرآن الكريم . يجب إذن أن يترك الأزهر ليكون جامعة الاسلام الحق ، وأن يعد طلابه لحمل رسالة الحق ، وتهيئتهم للوعظ والارشاد ؛ أما فتح أبواب العمل واحتلال الوظائف المدنية فأشياء ثانوية قد تصرف الأزهر عن الغاية التى أنشىء من أجلها

وعلى الرغم من وجود عدد كبير من العلماء الجهابذة فى هذا المعهد الاسلامى العظيم فان الضغط أطفأ فى قلوبهم روح المعرفة والتعطش اليها . على أن الاسلام فى عرفى يحتاج إلى حرية كاملة فى البحث والتنقيب والفكر . ولقد ولد الاسلام فى مهد الحريات فيجب أن يظل كذلك ، لأنه يحث على حب الحقائق والصدق والتغلغل فى أعماق المعرفة . وتقدم الأزهر لا يتم بتشييد العمارات المهيبة العظيمة ، وإقامة عمد من الرخام والمرمر ، وصنع مقاعد الدراسة من الاخشاب الثمينة ، وانما يتم بالتمسك بالعروة الوثقى ، وإزالة الصدأ الذى ران على القلوب من التمسك ببعض التقاليد والعقائد المزيفة ، وفى الاجماع على توحيد كلمة الحق ووضع الأنظمة الالهية فى المكان اللائق بها . ألم يقل الله عز وجل : « خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » أو كما قال الرسول الكريم « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا »

* * *

ولما يئست من معاونة رجال الأزهر قر فى عزمى أن أقوم بدراستى وحدى مستعيناً بعالم خاص تكرم بتضحية جزء من وقته لتعليمى ، كما ألفيت مساعدة عظيمة من بعض أصدقائى بالقاهرة ، كالأستاذ محمود تيمور الذى يجمع بين ظرف الشباب وطهارة الشيوخ ، والشاب النابه محمد أمين حسونه الذى عرفنى إلى طائفة من أدباء مصر وصحفييها ، وأعارنى مكتبته طيلة إقامتى فى مصر ، والباحث محمد عبد الله عنان الذى يعد حجة فى التاريخ الاسلامى ، والشيخ الوقور عبد الوهاب النجار الذى له أتباع وتلاميذ منتشرون فى أنحاء الأرض ، وقد كان سبباً فى تعرفى بكثير من اخوانى المسلمين ، وكانت كتب توصيته بمثابة مفتاح يفتح أمامى كل باب

* * *

وفى أواخر فبراير زودنى الأستاذ النجار بكتب توصية بمناسبة عزمى على أداء فريضة الحج ؛ وكان له الفضل الأكبر فى تقديمى إلى « بنك مصر » ، ذلك الصرح المالى العظيم الذى يتناول من جملة مشروعاته الاقتصادية تنظيم سبل السفر إلى الأقطار الاسلامية المقدسة . ومما يذكر مع الأسف العميق أن أعمال الحج كانت تقوم بها قبل ذلك شركات ملاحة أوربية لا علم لها بما تتطلبه حاجات الحجاج المسلمين ، فكانت بواخرها تحمل المشروبات الروحية ، وتقدم إلى الركاب الطعام الأوربى ، ولا تكترث بأن تهيئ لهم الماء الكافى للوضوء ولا إقامة مصلى يؤدون فيه الفرائض الشرعية

أما « بنك مصر » فقد نظم للحج باخرتين كبيرتين تعدان من أكبر البواخر ، وزودهما بكل ما يحتاج اليه الحجاج من وسائل الراحة والمأكل بحيث يشعر المسافر أنه لم يفارق بلاده . وقد كانت بغيتى أن أستقل إحدى هاتين الباخرتين ، لأننى عددت نفسى مصريا بعد أن شربت من ماء النيل ، ولكنى لم أتمكن وا أسفاه من نيل بغيتى ، فان قانون شركة ملاحة مصر يمنع من نقل الحجاج الأجانب على هذه البواخر ، وعلى الرغم من الجهود الذى قمت به وتوسط الهلباوى بك لم أوفق ، واضطررت إلى السفر على إحدى بواخر الشركة الخديوية

وقامت بنا الباخرة باسم الله مجراها تشق برزخ السويس ، فرحت أفكر فى تاريخ ذلك المضيق الذى كان سبباً فى فصل افريقيا عن آسيا ، بل كان فاصلا بين حقبتين من أحقاب التاريخ ؛ ومع أنه قرب مصر من أوربا فقد جعل لمصر مركزا سياسياً ممتازاً بحيث أصبحت جزءا من أوربا . وبينما أنا غارق فى غمار تلك الأفكار إذ اقترب منى فريق من الحجاج وبدأ التعارف بيننا بسرعة . كان بينهم طبيب هندى تصحبه كريمته ، ولكن لسوء الحظ لم يكن هذا الطبيب يعرف من اللغة العربية حرفا واحدا ، فاضطررنا أثناء السفر إلى التحدث باللغة الانجليزية . وفى

ذات يوم نظر إلى نسخة من القرآن الكريم فى يدى ، وهى الطبعة التى تولتها المطبعة الأميرية ، فأعجب بها أيما إعجاب ، وطلب إلىّ أن أبتاع لحسابه ألف نسخة من هذه الطبعة ليبعث بها إلى الهند إذ لا توجد هناك مصاحف جيلة من هذا النوع

وكان بالباخرة أيضاً حاج مراكشى ، يشغل وظيفة قاض فى فاس ، وكان صبوح الوجه ، وقورا ، أميل إلى التزام الصمت ، لكنه ما كاد يسمعنى أتحدث بالعربيـة مع أحد الحجاج الأتراك حتى أقبل الينا واشترك فى الحديث . ولشد ما أعجبت بتبحر الرجل فى العلوم الاسلامية والفقه ، كما أن لباسه الشرقى الفضفاض كان يخلع عليه طابعاً من الرزانة والوقار ؛ أما صاحبنا التركى فكان أحد ضباط الشرطة فى دمشق ، وبعد اعتزاله الخدمة آثر أن يبقى فى سورية حيث تعلم اللغة العربية ؛ وكان طيلة السفر يشكو مر الشكوى من الأنظمة الحديثـة فى تركيا وبالأخص ترجمة القرآن وتشويه هذه الترجمة بحيث لا تؤدى المعانى المقصودة ، ويظهر سخطه وتبرمه بالغازى الذى يحول دائماً بين المسلمين الأتراك وبين أداء فريضة الحج ، ويرهق كل من أراد الحج بالضرائب الفادحة

من ذلك ترى أننا كنا على ظهر الباخرة من بلاد متباينـة ، ولكن تجمعنا جامعة الاسلام ، وتؤلف بين قلوبنا وتجعلنا نعيش كأفراد أسرة واحدة . فلما اقترب موعد العشاء أخذنا أماكننا على المائدة ، وكان يخيل الى كل من يرانا أننا فى برج بابل ، فكل منا يتكلم بلغة لا يفهمها الآخر ، بيد أننا سوف نصل بعد بضعة أيام إلى جدة وتطأ أقدامنا الأرض المقدسة فنخلع عن أنفسنا تلك الملابس التى تفرق بيننا لنستبدل بها لباس الاحرام الفضفاض بحيث لا يصبح أى فارق بيننا بل نكون سواسـية فى حضرة رب البيت الكريم

وبعد انتهاء طعام العشاء بقليل صفرت الباخرة صفيراً عالياً فغادرنا المائدة وتهيأنا للوضوء ، ثم صلى كل منا ركعتين قرأ فيهما سورة الاخلاص وقل يا أيها الكافرون

وكان البحر هادئاً والهواء ندياً والنجوم تتألق فى القبة الزرقاء ، وراحت الباخرة التى كانت تحمل على ظهرها أكثر من ٧٠٠ حاج تلقى مراسيها بين هتاف الحجاج ودعواتهم الحارة وهكذا ظل الحجاج فى هرج ومرج ، فكنت ترى البعض يهتف بقوله : لبيك اللهم لبيك ، والبعض الآخر مستغرقا فى صلاته ، وآخرين صامتين لا يبدون حراكا ، شاخصين بأبصارهم فى ذهول نحو الأرض المقدسة التى خرج منها سيد الخلق ورسول رب العالمين

وما كنت بأقل من هؤلاء الحجاج شعوراً بالغبطة والابتهاج ، ولزمت مكانى خاشعاً راكعاً لا تقوى قدماى على الحركة ، ودقات قلبى تثب فى قوة وعنف بينما يردد لسانى فى خفوت : لبيك اللهم لبيك . ثم انهمرت الدموع من مآقى ولم أملك أن أمنع نفسى من الاسترسال فى البكاء . أجل ! أدركت الحق الصحيح ولمست عظمة هذا الدين الحنيف ، وعبثاً حاولت النوم فى تلك الليلة ، بل شرد عقلى واتجهت بتفكيرى إلى أعمال الخلفاء ، رضوان الله عليهم ، وإلى رعايتهم الأمم الاسلامية ، وتوزيع أسباب العدالة عليها طبقاً لأصول الشريعة السمحاء

(يتبع) عبد الكريم جرمانوس

رثـــاء

محمود چلبي الشهبندر أحد سراة العراق

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

— ١ —

تحطمت الآمال من بعد محمود ... فياسلوتى شجّى ويا عبرتى جودى
قداجتُثّ روحٌ كان قبل اجتثاثه ... يزين بأثمار له ألفَ أملود
خلا القصرُ ممن كان للقصر مالئاً ... كأن لم يكن فى رُدهتيه بموجود
لقد غمدوا السيفَ الصقيلَ بحفرة ... ويا ليت ذاك السيف ليس بمغمود
تجرّد من جسم تضيق حدوده ... يجوب فضاء واسعاً غير محدود
نعاه لىَ الناعى فكان نعيُّه ... كصاعقة أو مثل صدمة جلمود
فادركنى يومٌ من الدهر أسودٌ ... فكان لحزنى شرَّ أيامىَ السود

— ٢ —

لقد غاب محمودٌ عن الصحب مضطراً ... ولم يبق منه للصديق سوى الذكرى
كأن لم يكن قد سُرّ أصحابُه به ... ولا هو فى يوم بأصحابه سُرّا
بربك لا تَلحُ الحزينَ على البكا ... فإنك لا تدرى بما فيه قد أورى
تقول عيونى للسحابة أقلعى ... فانكِ لا تبكين من كبدٍ حرّى
على كل قبر مقلةٌ ذات عبرة ... وماذا انتفاع القبر بالمقلة العَبرى
قسمتُ بكاء الشعر بينى وبينه ... فأعطيتُه شطراً وأبقيتُ لى شطرا
ولا تقترح قولاً على الشعر إنه ... بموقفه فى يوم محنته أدرى

— ٣ —

لقد ظلّ للموت الزؤام يجاذب ... إلى أن علاه الموتُ والموتُ غالب
أطال الردى همساً بأذن مريضة ... كأن له ديناً فجاء يطالب
ولو حزتُ علماً بالمقادير جئتُها ... أؤنبها فيما أتت وأعاتب
يقولون أمراض به أغرت الردى ... وما هى أمراضٌ ولكن نوائب
فيا دمعُ أنت اليوم كالقلب نابضٌ ... ويا قلب أنت اليوم كالدمع ذائب
لقد ندبته نسوةٌ حول نعشه ... وأشجى بما كانت تقول النوادب
إذا انطفأ النجمُ الذى كان ساطعاً ... فليس ببدع أن تسود الغياهب

— ٤ —

أمحمودُ كنت الراجحَ العقل والخلق ... من الباطل الخدّاع تفزع للحق
وكنتَ كنجم لاقرار لسيره ... فتطلع من أفق وتغرب فى أفق
وكان لموتٍ قد أصابك سهمُه ... دوىٌّ بغرب الأرضِ أجمعَ والشرق
ولا رُزء إلاّ كان رتقٌ لشقه ... وليس لشقٍ يفتق الموت من رتق
مضى بصديقى الحرّ يستعجل الردى ... فليت الردى للحر قد كان يستبقى
بكتك عيون العارفيك بأدمع ... تفيض وللأرض التى ظمئت تسقى
تجنبتَ ضوضاء السياسة آخذاً ... بأيديك أسبابَ التجارة فى حذق

— ٥ —

حياةٌ ومن بعد الحياة مماتُ ... وجمعٌ على الأعقاب منه شتات
وهل تغسل القلبَ الحزينَ من الأسى ... إذا العين منها انصبّت العبرات
وإن أثقلت نفسَ الوفىّ فجيعةٌ ... فلا النورُ يُسليها ولا الظلمات
أقول لقومى إن يكن عندكم لمن ... تَفجّعَ سلوىً فى المصاب فهاتوا
وما أجملَ الأيامَ إمّا لنا وفت ... ولكنما الأيامُ منتقلات
لقد حملوا نعشَ الفقيد لقبره ... فساروا وسارت خلفه السروات
فما كنت من تلك الجماهير سامعاً ... سوى صرخات بينها شهقات

— ٦ —

على الأرض أمجادٌ كثير قصورُها ... وأكثر منها فى العراء قبورها
وما من بقاع ليس يهلك أهلُها ... ولا من سماء ليس تردى نسورها
وما خيرُ دنيا بالزلازل أرضها ... تميد وبالأمواج تغلى بحورها
إن الجسمُ أودى فالبوارُ نصيبُه ... ولكنما الأرواح ماذا مصيرها
إذا ما حياةُ المرء للمرء فارقت ... فهل من حياة غيرها يستعيرها
وليس لنفسٍ أن تخيّرَ حمامَها ... ولا هو إمّا زارها يستشيرها
إذا النفس دبّ الداء فيها فعالجت ... منيتَها ماذا يكون شعورها

— ٧ —

هل الحزنُ إلاّ مقلةٌ تتفجّر ... وإلاّ قلوبٌ نارُها تتسعّر
تبعثر شمل البيت بعد اجتماعه ... وأىّ جميع عوضُ لا يتبعثر
وأجساد موتى فى القبور تأسّرت ... وأرواح موتى للبقاء تحرّر
على أن موتى السابقين إلى الردى ... حياةٌ لأبناء لهم قد تأخّروا
ولم يك يوماً للطبيعة غايةٌ ... سوى النوع إن النوع أبقى وأثمر
لقد عرف الإنسانُ منها ظواهراً ... ولم يدرِ ماذا فى البواطن مضمر

إذا مات طفل البيت فالخطبُ فادح

و إن مات ربُّ البيت فالخطب أ كبر

— ٨ —

لقد جاء ماقد كان يبنيه ذا حسن   فما تمَّ حتى قام يهدم ما يبنى

حزنتُ وماحزنى سوى ابن رزيئةٍ   وما دمعتى فى العين إلاّ ابنة الحزن

وما أحدٌ فى الناس يدرى مصيرَه   ومن كان لا يدرى فيفزع للظن

لقد زيّنت بالزهر قبرَك صحبةٌ   وعن كل هذا الزهر قبرك مستغن

يخال الفتى علماً له بحقائق   ولم ينتبه أن الحقائق فى الذهن

وليست حياة المرء بعد مشيبه

و إن قل شكواه سوى التعب المُضنى

سمعتُ أحاديثاً و إنى لمبدلٌ   لما نظرت عينى بما سمعت أذنى

(بغداد)   جميل صدقى الزهاوى

نذالة التعاسة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

كدت أنسى دواعىَ الرفق مما   قد أرتنى نذالة التعساء

يقضمون اليد التى تنتحيهم   بسخاء ونجدة و إخاء

و يكيدون فى الخفاء أو الجهـ   ـرة ألْيَمْ بجهرهم والخفاء

عشش اللؤم حيثما عشش البؤ   س سوى فى القليل من كرماء

ليس بِدْعاً أليس ما نغص العيـ   ـش من البؤس باعث الشحناء

كل قلب يبيت من حسك البؤ   س ملىْ بخسة الأدنياء

يتلظى شراً و يرشح غدراً   ويداجى خوناً بثوب رياءِ

يلؤم المرء وهو غير شقى   كيف ينأى عن لؤمه فى الشقاء

ليزيدنَّهُ اغتيالا وحقدا   وافتراساً على حطام الرخاء

وسُعاراً لو أنه نال من أر   ض لَجَنَّتْ زلازل الغبراء

وهو غلٌ لو حاق بالشمس أمسى   مثل ذر الرماد وجه ذُكاء

ليس شر البأساء قصراً على النحـ   ـس ولكن كم أشعلت من عداء

وحقود وخسة وسعار   واغتيال ومكرة ورياء

تفسد الأنفس الكرائم حتى   تغتدى مثل أنفس اللؤماء

ضاع عطف الرحيم إذ ضاع حسن الـ   ـخلق فى خيم أنفس التعساء

وعظيمٌ ما أفسد النحس من خلـ   ـق هضيمٍ ورحمة الرحماء

كم شقاء يمضى وفى النفس منه   أثر واضح لغير فناء

من عوادى سخائم لست تدرى   هى بالمرء علة الأدواء

أم هى النفس سقمها مثل سقم الـ   ـجسم من إحنة ومن شحناء

مثل ذل الشعوب خَلّف لؤما   بعد فوت من عهده وانتهاء

وصفات الشعب الضعيف لَتُلْفَى   فى جسوم صحيحة أقوياء

من رياء و إحنة واحتيال   وتعادى تخاذل وافتراء

شيم يدرأ الذليل بها من   عجزه سطوة من الأعداء

أصبحت شيمة النفوس و إن لم   يك ذل ولم يكن من عداء

فمتى يلبس الخلائق طرا   طيب نفس فى شملة النعماء

ليس إلا بها نجاء نفوس الـ   ـناس طرا من خسة الغبراء

فاطلبنهُ فيها و إلا فدع نشـ   ـدان أمر بغير داعى الرجاء

عبد الرحمن شكرى

الأمة العربية

بقلم حبيب عوض الفيومى

قد أصبحت وطعامها جِرّاتُها   وتعرّفتْ لِعَليمها نَكِراتُها

مبذولةً حُرُماتُها مفتوحةً   أسدادها ملحوظةً غِرّاتها

غلبت مطامعها على أخلاقها   فهوت بها أحقادها وتِرَاتها

فتخالفت من حقدها غاياتها   وتشابهت من موتِها فتراتها

فكأن خالد لم يَغُزْ بدِ مَشقِها   يوماً ولا خَدَمَ الرشيدَ فُراتها

يا مُخفِقَ الأسفارِ طَيّاراً بها   قد أنجحت بك آنفاً بَكَرَاتُها

نَهَضَت بنفسكَ فارساً أخلاقُها   وهَوَت بنفسك طائراً عَرّاتُها

انظر لنفسك أين موضع فضلها   لا تلفحنّك جامحاً جمراتها

ما بالغِنَى فتح البلادَ محمدٌ   بل بالهدَى دانت له داراتُها

ينجو الكريم مَعَ القليل صِيَانةً

وتُميتُ صاحبَ حاجةٍ حَسَرَاتُها

وكأنّ ذلكم البريقَ غِشَاوةٌ   للنفس تَكْمُنُ تحته عَثَراتُها

ومن الدليل على شقَاوَةِ أُمّةٍ   أن يستنيم إلى النعيم سَرَاتُها

والأرضُ دارٌ إن تفاضل أهلُها   بغنى البطون فخيرُهم حشراتُها

الفيوم   حبيب عوض الفيومى

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٩ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية الايجابية من مذهب نيتشه

السوپرمان

أو الانسان الأعلى

للأستاذ خليل هنداوى

لا ينبغى للعاقل أن يكون قاسياً على نفسه فحسب ، ليكن قاسياً على الآخرين أيضاً لا يحفل بهدوء ولا بسلام ؛ هو يدرك أن الانسانية لا تنشط نحو غاية معينة معلومة ؛ ولكنه يرى كل شىء فى استحالة وتطور ؛ يرى من واجب الحياة نفسها أن تعمل على أن تفوق نفسها ، ويدرك أن الانسان ليس من حقه أن يملل نفسه بأنه بلغ المرفأ سالماً . ليكن كل سلام عنده ذريعة لحرب جديدة ، ولتكن حياته طافحة بالحوادث العظام ؛ هو لا يتحرى عن السعادة ولا يجهل أن الفرح والحزن هما توأمان متقارنان . وفى استطاعة الانسان أن يجوز الحياة بدون فرح كبير يعروه ، أو شقاء كبير يغزوه ، على أن ينقص من قوة حيويته . أما الذى يريد أن يتذوق الأفراح الكبيرة فمن واجبه أن يعرف الأحزان الكبيرة ، إذ كل ارتجاج فى ناحية يقابله ارتجاج فى ناحية أخرى . « أما خالق القيم المؤمن بالحياة ، من يريد الحياة عنيفة قوية ما شاءت القوة ، فهو يريد أن تكون الارتجاجات واسعة حول نقطة الموازنة ؛ يريد أن يعرف القمم العالية للسعادة والشقاء . يريد أن يعرف الانتصارات المسكرة والهزائم الشنيعة . يجب عليه أن يمشى فى وقت واحد إلى النصر والى الاندثار . وزرادشت ذاته قد هلك حين بلغ « قمة » وجوده . والسوبرمان هو – فى وقت واحد – الظفر اللامع والاندثار القوى للانسان

وبينا ينبغى للعاقل أن يكون قاسياً على نفسه ، لا يلتوى إزاء الألم ، ينبغى له كذلك أن يكون قاسياً على الآخرين ؛ هنالك مصائب وآلام يعد مخففها فاقداً للانسانية ، وهنالك منحطون ناقصون ، جاءوا الحياة اختلاساً ، فلا يجوز تأخير فنائهم !

يقول زرادشت : « فى كل مكان ترن أصوات الذين يعظون بالموت ، والأرض مفعمة بالذين يجب أن يوعظوا بالموت ، أو « بالحياة الأبدية » حتى يقلعوا عن الحياة سراعاً . وللمتشائمين والشكوكيين والمنحطين الذين يئنون ويقولون « ما الحياة إلا شقاء » ، لهؤلاء يجب أن يقول العاقل « إذن ! ضعوا لحياتكم وآلامكم حداً تنتهى عنده حياتكم وآلامكم ، ولتكن شريعتكم مبنية على هذه الكلمة « الانتحار واجب ، والانهزام من الحياة واجب » ، إذ لا ينبغى للأرض أن تغدو داراً آهلة بالمرضى والبائسين ، حيث يفنى الانسان الخالص الجوهر سأماً وشفقة . إذا أردنا أن نستنقذ السلالات الآتية من مشاهد الفاقة والشناعة فلنترك الموت ينزل بمن هو ناضج للموت . ولتكن فينا جرأة على ألا نصرف الساقطين عن السقوط ؛ لندفعهم ولنقذف بهم قذفاً حتى يهووا سريعاً . ينبغى للعاقل أن يعرف كيف يتحمل مشهد الألم عند الآخرين ، وأن يعرف كيف « يؤلم » ويبث الألم دون أن تجد الشفقة إلى قلبه سبيلا

هذا هو ما تطلبه النفس العظيمة . يقول زرادشت : « أتبالغ أنت شيئاً عظيماً إذا لم تشعر بقوتك وارادتك التى تعاقب بآلام كبيرة . عرفانك أن تتألم ، هذا شىء حقير ؛ فالنساء الضعيفات والعبيد يصبحون أسياداً فى فن الألم . ولكن ثبات جأشك وعدم انحنائك أمام المصائب المؤلمة والصيحات المؤلمة ، هذان هما مظهر العظمة وسرها الصريح »

ينبغى للعاقل أن يتصف – فى كل فصول حياته – بطهارة الطفل اللاعب ، وصفاء الراقص الباسم ، وهناء اللاعب المجدود ، وفى مثل « الاستحالات الثلاثة للروح » ينبئ زرادشت بأن النفس الانسانية يجب أن تكون فى استحالتها الأولى « بعيراً » يحتمل بصبر أثقل الأعباء على ظهره ، حتى يستطيع أن يجمع الشىء الكثير من التجارب ، ثم يستحيل « البعير أسداً » يجأر قائلا : « أنا أريد ! » ويتوعد بمخالبه الحادة كل من يحاول العبث بحريته . يجب عليه أن ينتصر على تنين الشريعة المكتوب على كل جزء من جسده بأحرف ملتهبة « يجب عليك ! » ثم يسرع فى نزع أثقال المثل الأعلى والحقيقة والخير عن ظهره

مما كان يظن حمله خيراً له ، وأخيراً ، لكي يستطيع أن يدخل في دور « الانتاج والابداع للقيم الجديدة » بعد تهديم القيم القديمة ، يجب عليه أن يستحيل طفلا يلهو ويلعب ؛ « إن الطفل هو صفاء ونسيان ، هو ابتداء ، هو لعبة ، هو دولاب يدور بنفسه حول نفسه » . وهكذا يجب على النفس التي تتوق إلى الصعود فوق قمم الحكمة أن تتعلم أن تلعب ، وأن تفرح وتمرح طاهرة صافية ، يجب أن تكون خفيفة غير واعية تنعتق من التشاؤم والكآبة ، ومن كل ما يجعل حياتها سحابة دكناء

تقول الشريعة القديمة : « ويل لمن يضحك » ! وهذا القول عند زرادشت منكر قبيح . أما العاقل فيجب عليه أن يضحك الضحكة الآلهية ؛ يجب أن يدنو من محجته وغايته بخطوات خفيفة راقصة طائرة ، لا بليدة نادمة ؛ إنه يتعزى بالضحك عن نقصه ؛ إنه بالرقص والطيران يجوز مستنقعات الكآبة كالرياح العاصفة . يجب على الانسان أن يتعلم الرقص بنفسه والضحك بنفسه وأن يرتفع وأن يسمو فوق نفسه ، وأن تفوق نفسُه نفسَه على أجنحة الضحك والرقص

يقول زرادشت : « إن إكليل الضحك ، هذا الاكليل من الورد ، ضفرته أنا على رأسي ، وأنا قدست ضحكتي المرحة . إن إكليل الضحك ، هذا الاكليل من الورد ، ألقي به اليكم يا رفاقي ! أنا أقدس الضحك أيها الرجال السامون ، فتعلموا أن تضحكوا »

— ٣ —

« إن من كان مثلي مدفوعاً بشوق غريب للتأمل في مذهب التشاؤم إلى أقصى حد ، قد يكون — من حيث لا يريد بذاته — فاتحاً عينيه على المثل الأعلى للرجل الحي الطروب المبتهج بالحياة الذي لم يتعلم أن يتحمل الماضي والحاضر فحسب ، بل يعمل على إحيائهما معاً ، مهما كان الماضي ومهما ذهب المستقبل . » ولعل هذا التشاؤم المبطن بالتفاؤل هو الذي حدا بنيتشه إلى أن يطلب الحياة لنفسه ، ولهذه الرواية الانسانية الشاملة الكاملة ، وللوجود الذي يقوم بتمثيل هذه الرواية

في شهر أغسطس من عام ١٨٨١ هبت في رأس نيتشه فكرة القول بالرجعة الخالدة التي أصبحت أساس فلسفة السوبرمان ، وما لبثت هذه الفكرة أن ملكت عليه مشاعره كلها . وقد تتلخص هذه الفكرة في هذه الكلمة : إن شحنة القوى التي تهيمن على العالم تتراءى لنا ثابتة سرمدية ؛ لا نقدر على أن نفترض لها نقصاً لأنها لو كانت كذلك لوجب زوالها في هذا الدهر الطويل ، ولا نقدر على أن نفترض لها نمواً — كالنمو العضوي الذي نعرفه — إذ لو كانت كذلك لافتقر نموها إلى غذاء ؛ وما هو هذا الغذاء أو هذا الوقود ؟ وعلى هذا لم يبق لدينا إلا الاعتقاد برسوخ هذه القوى وثباتها

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

مأساة من اسخيلوس

أجاممنــــون

للأستاذ دريني خشبة

« ولد اسخيلوس سنة ٥٢٥ ق . م . وعاش سبعاً وستين سنة ، وحارب في موقعة ماراثون ، وكتب تسعين درامة لم يبق منها غير سبع . وكان يكتب درامات ثلاثية Trilogy أي تتركب الواحدة منها من ثلاث درامات — أو قل فصول — تستقل كل منها بنفسها ، وتكون مع الأخريين وحدة رائعة . وكانت مآسي أسخيلوس غرة في جبين عصر بركلس ، أزهى عصور الأدب في التاريخ القديم ؛ ودرامة اليوم (أجاممنون) هي الحلقة الأولى — أو الفصل الأول — من إحدى ثلاثيات إسخيلوس (الأورستية) نسبة إلى بطل المأساتين الأخريين (أورست) (١) بن أجاممنون وضحية الأمومة الأثيمة ، ويعدها نقاد الأدب الكلاسيكي أروع ما في الأدب اليوناني

« وإسخلوس هو أول من سار بتقاليد المسرح القديمة ، بل ربما كان واضع أول لبنة في المسرح القديم . وقد كانت الدرامة — أو المأساة — قبله غير معروفة ، وكانت المامة (Cantata) هي المتداولة ، وكان القصاصون يقومون بتأدية الأدوار جميعاً . فلما كان اسخلوس حتم أن يخصص لكل دور ممثل بعينه ، والمنشدون أو (الخورس) لهم مكانة رفيعة في درامتي اسخيلوس وسوفوكليس ، وأناشيدهم هي شرح للاحداث التي تمهد للدرامة أو تتصل بها . »

— ١ —

نحن في ال (بلوبيديه) ، ذلك القصر المتبق الشاهق ، الذي تكتنفه الأسرار ، وتهوم في أبهائه وردهاته الألغاز . . .

ومن ال (بيلوبيديه) تصدر الأوامر ، فتصدع بها مملكة آرجوس . . . وتُجيّش الجيوش ، وتتحرك الأساطيل . . . وتسيل الدماء أنهاراً !

(١) آثرنا هذه التسمية لسهولتها ولأننا مضطرون لتكرارها كثيراً في الدرامتين التاليتين والاسم الحقيقي هو (أورستيس)

ومن هذا القصر ، يحكم الملكان الشقيقان أجاممنون ، ومنالايوس . . . أما أولهما فقد تزوج من الفتاة الكاسرة ، ذات الصولة ، كليتمنسترا ، بطلة المأساة التي نحن بصددها الآن . . .

وأما ثانيهما ، فقد تزوج من الفتاة اللينة الغضة ؛ المترعة بالمفاتن ، هيلين ! التي فرت مع عشيقها المجرم باريس . . إلى . . طروادة ؟ . .

والتي شبت بسببها تلك الحروب الطويلة المروعة فذهبت بالنخبة الناضرة من شباب هيلاس واليوم . . .

والفتاتان شقيقتان ، وقد تبناهما تنداروس المعظم ، وزوجهما من هذين الملكين الشقيين ، ليزيدا في شقائهما ، وليكونا حرباً عليهما وعلى شعبهما البائس لا تنتهي ! وليكونا كذلك ، ليلاً على هذا القصر المتبق الشاهق — ال (بيلوبيديه) مظلماً . . . لا تنجاب غواشيه . . . ولا تنقشع دياجيره !!

— ٢ —

وفرت هيلين الآبقة ، مع باريس الآثم ؟ . . . فهاجت هيلاس ، وهبت ريح الحرب ، وتدفقت الجيوش إلى أوليس حيث الأساطيل في انتظارها ، لتمخر بها البحر اللجي إلى مدينة بريام . . .

وودع أجاممنون زوجته . . . وذرفا ، وهما يتعانقان ، دموعاً حارة سخينة ! وانطلق مع شقيقه الملك البائس المفضوح في عرضه ، منالايوس ، إلى أوليس . . . ليركبا مع بقية الجند . . . وليبحرا إلى اليوم . . .

بيد أن البحر المضطرب كان ينذر بتحطيم الأسطول إذا هم أن يقلع

والعاصفة التي أطلق بوسيدون (١) عنانها كانت تثير في اليم موجاً كالجبال . . . وكانت تراوح الشاطئ المرتجف وتناديه ، فتهيل التراب وتسفيه ، وتحط صخره من عل ، وتغرق به ما تهاوى عليه من أسطول هيلاس . . .

وانتظروا طويلاً حتى تسكن العاصفة ، ويهدأ البحر

(١) إله البحر

المصطخب ... ولكن ... بلا جدوى !

ثم قيل لهم إن الآلهة عطشى ، وأرباب الأولمب ظماء ، وإنها لا يرويها إلا دم عزيز غال يسفح ، ومهجة شابة غيداء تطل ، وإن الآلهة لا ترضى باحدى ابنتى أجاممنون بديلا ! !

لا ترضى الآلهة أن يسفك دم إلا دم إفجنيا العذراء ، أو أختها الكاعب إفيانامسا ، فاذا لم ترو الآلهة فلن تهدأ العاصفة ، ولن يسكن العباب ، ولن يفتأ البحر يضطرب ، ولن يقلع هذا الأسطول اللجب

وتردد أجاممنون ! واضطرم قلبه بحنان الأبوة ! ولكن القادة تكبكبوا حوله يلحفون عليه أن يصغى إلى وحى السماء ، ويستجيب لأمر الآلهة ... فقبل ... وبكى ...

— ٣ —

وجىء بالعذراء البريئة إفجنيا ، ليحتفل بخطبتها إلى أخيل فيما ادعى الوالد المحزون فى رسالته إلى زوجه ...

ولكن الزوجة تكتشف أن لا خطبة هناك ... بل هناك قتلة شنيعة تنتظر ابنتها ... لا لشىء ... إلا أن تروى الآلهة ... كما أرجف المرجفون !

وتصبح أضواء الحياة كلها ظلمات فى عينى الأم ... وتحاول إنقاذ الفتاة ... ولكن ... عبثاً ! ... لقد تقدمت إفجنيا الى الكاهن الجلاد بقدم ثابتة ، وجأش رابط ، ونفس مطمئنة ... وأعلنت أنها تهب نفسها للوطن ... ! ودمها للآلهة ... وأنها تستودع الأولمب أباها ... وأمها ! ...

وأهوى الجلاد ... الكاهن ... بسكينه ... فهريق الدم العزيز الغالى ! !

— ٤ —

وعادت الأم المضمضمة إلى القصر الشاهق العتيق ... الى الا (بيلوبيسديه) ... تجتر هذه المصيبة الدامية ، وتغص بتلك الداهية الحمراء !

وتحزن أياماً ...

ويشمل السواد كل شىء ... حتى أضواء الشمس ، وأفواف الزهر ، وآراد القمر ! !

كل شىء أسود حالك ... لا سيما ... قلب الملكة ... !

لقد انفردت فى هذا القصر العتيق ، فهى صاحبة الأمر والنهى فيه ، وكل شىء يصدر عن إذنها ويقضى بأمرها ... والملكة بأمرها بيديها ... ومع ذاك ... ومع كل ذاك ... فليس فى الدنيا العريضة ما ينسيها افجيا ! أو يبعد عن عينيها ذلك المنظر الرائع الرهيب ... منظر السكين اللامعة تهوى على عنق الفتاة ... !

إنها أمامها أنى ذهبت وأيان وجهت . . .

ها هى ذى تمرح فى هذه الغيضة من حدائق القصر . . . وتلعب فى تلك الردهة من الطابق العلوى . . . وتغرق فى هذه اللجة من ديباج السرير . . وتداعب الظباء فى الحظيرة . . . وتضفر أعواد الزنبق للتماثيل . . . وتنثر الورود والرياحين تحت أقدام الدمى ... ثم ... ...

ثم ها هى مسجاة فوق المذبح يتفجر من غلاصمها الدم ! !

— ٥ —

وسكنت العاصفة ، وهدأ البحر الجياش ، وأقلع الأسطول عن عليه ... وحوصرت طروادة ... وقتل الأبطال الصناديد من الفريقين ...

وكرت أعوام عشرة . . .

— ٦ —

« كيف يقتل ابنتى هذا الملك الذى قد قلبه من صخر ؟ كيف سولت له نفسه أن يأذن لجلاديه بذبحها ؟ أين حنان الوالد ؟ قربان للسماء ؟ أى سماء هذه التى تشره لدماء العذارى ؟ لا ظفر أجاممنون بأعدائه ! ولا حمله البحر إلى آرجوس كرة أخرى ! وروى ثرى طروادة من دمه ، كما رويت آلهته من دم ابنتى ! ! »

ووقر فى قلب كليتمنسترا أن تثأر لابنتها ... ولكن .. ممن ؟ من أجاممنون ... من أبيها أجاممنون ... ! إذن ... فلتدبر غيلته فى هذه السنين العشر ، ولتحشد حولها أعداء هذا القصر العتيق الباذخ ... ولتنبش الأحقاد القديمة ، والترات التى تتقلب فى أحشاء الماضى ... ولتجتمع عصابة الشرور فتدبر وتأتمر ...

— ٧ —

ترك أتريوس ملك أرجولس العتيد لولديه ، أجاممنون وأخيه ، وترك لهما كذلك إرثاً عتيداً من الدم لم يسمع الناس بمثله ... لن يسمعوا بمثله ... لأنه دم أعز الأبناء ... وشواء لعين أيما شواء ...

ذلك أنه كان للملك أتريوس أخ يناوئه من أجل عرش أرجوليس وما يتاخمها من الاقطاعات ... وكان هـذا الأخ (ثيذتيس) يحاول أن يحمل الملك فى أبنائه ... من دون أبناء أخيه ... ولكن أتريوس وقف على التدبير السيء الذى يرسم خططه أخوه فى الظلام ؛ فما كان من أتريوس إلا أن دبر هو تدبيرا دمويا هائلا ... قضى به على أخيه وعلى أبناء أخيه ... إلا واحداً !

تودد إلى أخيه أياما ، وعاتبه فى هذه الجفوة التى لا يكون مثلها بين أخوين ، فأعتبه ... ثم دعاه الى وليمة فاخرة يقيمها له فى الـ(بيلوبيديه) ... فقبل ثيذتيس !

وفى اليوم المحدد ... وبعد تدبير أحكمت حلقاته ... أقبل ثيذتيس ليؤا كل أخاه ، وليتصافح القلبان اللذان ينطوى كل منهما لصاحبه على الحب ... وأصرم الغل والحقد ...

وحان موعد الغداء ...

فنهضا الى خوان عامر مجلل بما لذ وطاب من لحم يملأ قتاره الخياشيم الجائعة ، ويسيل لعاب الأفواه المتلمظة ...

وجلس ثيذتيس المنهوم فأكل حتى امتلأ ... وما كاد ينتهى حتى كشف له الغطاء عن تلك الغيلة القاسية ، التى يتنزه عنها أضرى الوحوش ! !

لقد أكل ثيذتيس حتى امتلأ من الشواء الفاخر الذى أعد له من لحم أبنائه ... وأكبادهم وقلوبهم ... وها هى الأصابع والأيدى والرؤوس والأقدام فى سفط كبير على مقربة من الوالد البائس ... شهيد على ذلك ! !

وجن جنون الأب المسكين !

ولكنه عوجل هو الآخر بقاصمة الظهر ... فذهبت روحه تتردى فى ظلمات هيدز !

فيا للوحشية ... وويل للمتوحشين ! ! !

— ٨ —

وكان إيجستوس يتقلب على وجهه فى البلاد

فلما علم بالمأساة التى ذهبت بأخوته ، وبأبيه ... شرد فى الأدغال ، ونفر فى التيه الذى لا أول له ولا آخر من غاب هيلاس وأنس الى الوحشة ، وسمر الى الذئاب ، وصحب اللصوص وقطاع الطرق . . . وتلبث حتى استد ساعده ، واشتد عوده . . . وعاد مستخفيا يدبر أمر هذا الثأر الثقيل ، ويرسم الخطط لهذا الدم المطلول . . .

ولكن . . . لقد مات أتريوس . . . وحكم من بعده ابناه أجاممنون ومنالايوس . . . وهما اليوم تحت أسوار طروادة يصطرعان مع الطرواديين

فهل تزر وازرة وزر أخرى ؟

أجل ! ! (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ... فليتقوا الله ! !)

إيجستوس ! اهذه فرصتك فلا تفلتها ! !

— ٩ —

واتصل إيجستوس بالقصر ، وتأكدت بينه وبين كليتمنسترا أواصر الود أولا ؛ ثم انقلب الود واتحاد القصد وبغض أجاممنون وأسرة الـ(أتريه) فصارت غراما أثيما وعشقا فاسقا ولذادة مجرمة وعمى قلب الأم . . . وحجبت الغواية بصيرتها ؛ فنفت ولديها[1] : أورست الغلام الحدث ، وإفيانا س الفتاة الناعمة بعيدا عنها ، لتزداد إغراقا فى اللذة ، ولينام ضميرها الميت فلا يوقظه هذا النسل البرىء من صلب أجاممنون ! !

— ١٠ —

العاصفة تهب بشدة[2] ، والحارس المتعب يلفحه البرد القارس فوق سطح القصر الملكى المتيق ، الـ(بيلوبيديه) ، والليل الرهيب ينظر الى القصر الفائض بالأسرار بعين قلقة من تلك النجوم المحملقة ؛ وسنوات عشر قد تصرمت ، وهذا الحارس المسكين فى مكانه من هذا الميدان المعلق بين الأرض والسماء ... أجل عشر سنين طوال كأنها عشر أحقاب كاملة ، وهو يروح ويجيء كأنه آلة الزمن ، أو قوس من دائرة الفلك .. وهو يشكو ، ويحاول أن يتسلى بأغنية أو صفير ، ولكن الأسرار الهائلة التى يعج بها القصر من تحته تفزعه ، فيعزف عن الغناء وعن الصفير ... ويصل شكواه ، ويرسل بثه

وهو هناك فوق سطح القصر الملكى منذ قيام تلك الحملة المشئومة الى طروادة . . . وهو الى هذه الليلة يرقب النيران التى إذا تأججت فى رؤوس الجبال كانت بشرى سقوط طروادة !

وأومض البرق فى الظلماء فجأة ! . . . واندلعت النيران المنشودة ! واستطار الحارس من الفرح ؛ وفرك عينيه ليستيقن

(١) يتناول سوفوكليس هذا الحدث من وجهة نظر ثانية ورأى آخر سنعرض لهما فى حينهما إن شاء الله

(٢) من هنا تبتدىء درامة اسخيلوس

أنه ليس فى حلم . . . ولكن النار تندلع وتندلع . . . إذن انتصرت جيوش هيلاس ... وسقطت مدينة بريام !

وأى بأس فى أن ينطلق هذا الحارس المسكين فيزف البشرى إلى الملكة ... لا بأس ! ولكنه ما يكاد يخطو خطوة واحدة، مفترا فى ظلمات الليل البهيم عن ابتسامة الجذل، حتى يذكر الأسرار الهائلة التى نسجتها عناكب القدر فى القصر ... فتنقلب ابتسامته الجذلة الى عبوسة قاتمة ... فيقف مكانه ويصمت ! !

— ١١ —

ويدخل المنشدون حديقة القصر، ويهزجون بنشيد طويل حلو (١) ثم تقبل الملكة فيتقدم اليها رئيس الخورس محييا ويتساءل: « هل من نبأ عن الجلة يثلج الصدر المكروب ويبهج النفس المحروبة ؟ » وتبتسم الملكة ابتسامة خبيثة صفراء، ثم تزف بشرى انتصار الهيلانيين

— « وكيف ؟ لا نصدق ! ولكن تكلمى ... تكلمى أيتها الملكة ! »

— « إليوم فى قبضة رجالنا ! هل أراك فهمت ؟ »

— « إنها مفاجأة تملأ أعيننا دموعا ... »

— « وإنها دموع تؤكد إخلاصكم وطهارة قلوبكم »

— « ولكن هل من برهان أيتها الملكة ؟ »

— « ما لم يكن بعض الآلهة يخدعنى ! »

— « ألا تكونين قد استسلمت لغفوة لذيذة فشهدت رؤيا طارئة ؟ »

— « إن أوهام النام لم تخدعنى قط ! »

— « إذن منذ كم سقطت طروادة ؟ »

— « فى نفس هذه الليلة التى كاد صبحها يتنفس ؟ »

— « وأى رسول حمل اليك النبأ فى مثل هذه السرعة ؟ »

— « النار الآلهية ألمعت به إلى هنا من ذروة حمل إيدا ... وهشيم الحلنج المتأجج فى شعاف الجبال ورؤوس الآكام ... »

واستطردت كليتمنسترا فذكرت كيف أشعل الهيلانيون النيران فى قُلَل الشاطئ الأسيوى، ثم كيف تنقل الوميض فى السموات حتى عكسه أفق أرجوليس ... وطفقت تحشد الكذابات فى حديثها، وتنثر الألغاز فى ثناياه ... صادرةً عن غلها المقيم وحقدها القديم على أجاممنون !

— « بالطنين النصر فى طروادة اليوم ؟ ... ... أحسب ألا يستطيع أحد أن يميز صيحات السادة الظافرين من صيحات العبيد المقهورين بين جدرانها ! إنهم سواء منكودو الحظ، سود الجدود، حقيقون بالرثاء! ومن يدرى ؟ فلعل الآلهة تغضب فتنتقم ممن دنس هياكلها، وسطا على طُرفها وتحفها بجملتها فى جملة الغنائم والأسلاب ! ... ولعل أرواح الضحايا (١) والشهداء تهب من مراقدها مغضبةً حانقة فتنقض فى سبيل الأبطال الظافرين فلا يعودون إلى أوطانهم ! ... ولكن فلما سداد حق ... دون أن ترتكب ألف مذمة باسمه ! ... »

— ١٢ —

ويفطن الخورس إلى ما كان يتناثر فى حديث الملكة من ألغاز، ويفطنون إلى هذا الفتور وذاك الضيق اللذين كانت تزف فى ظلالهما بشرى سقوط طروادة ... فيعزونه إلى أسبابه التى بانت لا تخفى على أحد فى المملكة ... ثم يتشككون فى كل ما انطلق به لسانها ويحسبونه هذيانا فى هذيان !

وما يكادون يفرغون من نشيد طويل رائع حتى يحضر البشير فيزف اليهم النبأ الصادق ويبشرهم بأوبة الملك، ثم يصف لهم شطراً مما لقيه الجنود تحت أسوار إليوم: « بل ما لقيه الطرواديون ومنذ من مصائب الحصار وكوارث القتال، ثم هذه الهزيمة التى أبادت دولتهم وقوضت بنيانهم ... »

بيد أنه سرعان ما يفطن البشير إلى تلك الكآبة التى تغشى نفوس القوم، فيسائلهم، ويجيبه رئيس الخورس :

— « لقد كان الصمت . وسيظل ... ملاذنا أيها البشير ! »

— « وكيف ؟ أترهبون أحدا فى هـــذا القصر غير مولاكم ؟ »

— « ... ؟ ... ! ... »

— « أسرار ... أسرار ...

— ١٣ —

وتقبل الملكة كرة ثانية فتلمح تلجلج مشاعر المنشدين وتحاول أن تخدعهم عن خابية نفسها فتقول : « هل صدقتم الآن أن إليوم قد سقطت ؟ ! لقد كنتم فى مرية من بشراى التى زففتها إليكم لأنكم لم تروا أمامكم تلك الفتاة المزهوة التى تكاد تجن من الفرح

(١) نأسف جدا لاضطرارنا الى حذف الأناشيد برغم أهميتها مكتفين بما قدمنا للدرامة من شرح مسهب، وذلك لأننا نحاول اعطاء القارئ صورة خفيفة قريبة بقدر المستطاع الى الأصل على ألا تمل . وربما عرضنا للأناشيد فى بحث خاص

لهذا النصر المفاجئ الذى انتظرناه طويلا ... يالكم أيها الرجال ! وأنت أيها البشير ! أترى إلى قربانى الجسد ذى الخوار الذى أعددته أضحية لما بشرتنا به ؟ ... وسترى كيف ينتشر البخور من مجامر الند ومخارق العنبر فيؤرج أجواء آرجوس تحية لعاهلك . تعال ... تعال أيها البشير فقص على كيف سقطت طروادة وكيف رغم أنف ملكها ! ... ولكن ... لا ... ليست لى بك حاجة ... اذهب ... فلن أسمع قصة ذلك إلا من رجلى ... أجاممنون ... ملك أرجوليس ومعقد آمالها ! ... أى فخار لامرأة أكبر من أن تستقبل فيض النور السماوى يتنزل عليها من العلو ... حين يعود إليها بعلها وعلى رأسه إكليل من غار النصر ؟ وأى فخار للرجل أكبر من أن يعود من حلبة الحرب فيجد زوجه وفية له كما تركها مخلصة كآخر عهده بها ! ؟ حريصة على أسراره ... قائمة على بيته . . . ساهرة على أبنائه ككلبه الأمين !! ماتزال تحمل ذكرى عناقه الأخير ، وتشدو بآخر قبلاته كأحسن أغاريد الحياة ! يالمفخر ... يالمفخر ... »

وتخرج الملكة ... ولا ينطلى بما زخرفت من قول على أحد !

— « ها قد سمعت مقالة الملكة ، فلتكن أذنك ترجمانك الأمين ! ... ولكن ... حدثنا بأربابك عن أمير هذه البلاد المحبوب ، جليل المقام منالايوس ... هل قدم معكم فى أمان إلى أرض الوطن ! ...

ويربد وجه البشير ، ثم يمهد لحديثه بمقدمة مجلوة ، ويذكر كيف ثارت العاصفة فبعثرت الأسطول المنتصر ... « وفصلت سفائن منالايوس عن سائر الأسطول ، فلا يعلم أحد أين رست به إن كانت قد سلمت من غضبة البحر الذى طفق يتدجى فوقنا كأنه الليل ...

... ولم نصدق أننا نجونا من فورة هذا العباب حتى انبلاج الصبح ، فصلينا للآلهة ، وشكرنا للسماء ... وابتهلنا الى الأرباب أن يحفظ منالايوس ، وأن يرده سالماً إلى أرض الوطن ... »

ويأخذ الخورس فى نشيد بعضه شدو وبعضه شجو ... وبعضه سخط على هيلين ... التى فاز بها من فاز بالحرب ... وتزوج منها من تزوج بالحرب ... والتى كانت على جميع من اتصل بها حرباً أى حرب ! »

— ١٥ —

وبينا المنشدون يتغنون بألحانهم ، إذا عربة مطهمة ، تجرها صافنات جياد ، تدخل فجأة فتكون تلقاء القوم ...

ويكون فى العربة أجاممنون الظافر المنتصر ، قاهر طروادة ! والى جانبه تلك النبية المباركة ... حبيبة الآلهة ... الفتاة العذراء .. كاسندرا ابنة بريام العظيم ملك إليوم المقتول ... عاد بها أجاممنون من جملة السبى لتكون خليلة له ...

ويحيى الخورس مليكهم بلحن حلو من موسيقى السماء ، يبللونه بدموعهم ويصهرونه بحرارة قلوبهم ، فيشكر لهم ويثنى عليهم ، ويقول :

(البقية فى العدد القادم) درينى خشبة

البريد الأدبي

حلم ليلة صيف

ظهرت أخيراً أول قطعة من مسرحيات شكسبير الخالدة على ستار السينما؛ وهو بلا ريب حادث عظيم في تاريخ الاخراج السينمائي؛ وقد كان رأى النقدة والفنانين أن مسرحيات شكسبير إنما خلقت للمسرح، ومن الصعب ان لم يكن من المستحيل إخراجها بنجاح على ستار السينما؛ ذلك أن مناظرها وخيالاتها لاتسمح رغم روعتها بذلك السبك الذي يطالب في الشرائط المصورة، ولأنها ترتفع أحياناً فوق الوسائل الفنية التي يسمح بها الاخراج السينمائي؛ ولكن فناناً عظيما هو ماكس رينهارت رأى في مسرحيات شكسبير رأياً آخر، وجالت بذهنه فكرة جريئة هي الاقدام على إخراج بعض هذه القطع الخالدة على لوحة السينما؛ وقد تم إخراج المسرحية الأولى وعرضها، وهي «حلم ليلة صيف»، وقد أتيح لنا أن نشهد هذا الشريط الرائع أخيراً في احدى دور السينما بالقاهرة، فألفينا فيه عبقرية المخرج العظيم تتجلى إلى جانب عبقرية الشاعر الخالد، ورأينا خيال الشاعر المبدع يبدو على صفحات الواقع الملموس في أروع ثوب؛ ولم يحل دون تحقيق هذه الأمنية. أن القصة كلها أحلام في أحلام، وأن هذه الأحلام تبلغ ذروة الخيال المغرق، وتفيض في عالم الأرواح والأشباح والعالم الآخر

وسر هذا الابداع المدهش في إخراج هذه القطعة الخالدة هو بلا ريب في عبقرية المخرج؛ والواقع أن ماكس رينهارت قد بلغ الذروة من قبل في إخراج المسرحيات الخالدة: مسرحيات شكسبير، وجيتى، وشيللر، ولسنج وغيرهم، على المسرح؛ وماكس رينهارت نمسوي يهودي، ولد في مدينة سالزبورج، موطن الفن والموسيقى الخالدة؛ وتلقى تربيته وخبرته الفنية في مدينة فينا أعظم موطن للثقافة الفنية والموسيقية، وظهر قبل الحرب بجهوده المسرحية في أعظم مسارح فينا وبرلين، ثم استقر في برلين بعد ذلك، وهنالك تبوأ ذروة الفن، وأضحى مرجع المسرح في ألمانيا وكوكبه الساطع؛ ولكن حكومة هتلر جاءت منذ ثلاثة أعوام لتسحق العلوم والفنون والآداب في ألمانيا بكل ما وسمت من شهوات التعصب الجنسي والسياسي، فلم يطق الفنان العظيم — وهو يهودي غير مرغوب فيه — أن يعيش في هذا الجو الكدر، فغادر ألمانيا حيث سطع مجده، ليعمل حيثما تزدهر الأفكار والحريات الفنية؛ وطاف بفينا وباريس ولندن وغيرها، ومن منذ شهر بمدينة سالزبورج مسقط رأسه، فلقي فيها أعظم مظاهر الحفاوة والتكريم، وأطلقت البلدية اسمه على شارع من أشهر شوارعها

وفي «حلم ليلة صيف» تتجلى عبقرية شكسبير الرائعة في مزج البكى بالضحك، وإبراز المفاجآت والمدهشات في ثوب يأخذ باللب، ويذكي العواطف إلى الذروة؛ ومع أن القطعة كانت في بعض تفاصيلها مسهبة، فان الموسيقى الرائعة التي اقترنت بمناظرها، وهي من مقاطيع مندلزون وفاجنر، كانت ترفع بجمالها وسحرها كل ميل إلى السأم

والمفهوم أن ماكس رينهارت سيمضي في إخراج قطع أخرى من مسرحيات شكسبير؛ وربما رأينا قريباً هملت أو مكبث، أو تاجر البندقية أو يوليوس قيصر أو غيرها من آثاره الخالدة على مسرح السينما بفضل عبقرية ماكس رينهارت

بيير دى نولهاك

في الأنباء البرقية الأخيرة أن الكاتب والمؤرخ الفرنسي الكبير بيير دى نولهاك قد توفي في السادسة والسبعين من عمره. وكان دى نولهاك عضواً بارزاً من أعضاء تلك المدرسة التاريخية الباهرة التي استطاعت أن تجمع بين التحقيق التاريخي والعرض الساحر، والتي تزعمها كتاب ومؤرخون يمتازون بالقوة والطرافة مثل فرانز فونك برنتانو، ولينوتر، ودى نولهاك، وقد كان لهذه

المدرسة أكبر الفضل فى الكشف عن طائفة من الوثائق والمخطوطات الشهيرة ، ودرس دى نولهاك الفلسفة والأدب القديم ، وتفقه فى الدراسات اليونانية واللاتينية ، وعنى منذ فتوته بالتنقيب فى أقبية المكاتب العامة ؛ ودرس مدى حين فى مدرسة الآثار الفرنسية بروما ، وعثر فى مكتبة الفاتيكان على طائفة من الوثائق التاريخية النفيسة ، ونشر عن مباحثه عدة مؤلفات منها « مكتبة زعيم انسانى فى القرن السادس عشر » و « ثبت المخطوطات اليونانية لجان لسكاريس » و « مباحث عن رفيق بومبونيوس لا كثوس » وغيرها ، ووقع دى نولهاك أثناء هذه الفترة على نسخة خطية من كتاب « كانزونير » للشاعر الأشهر بترارك وبخطه أيضاً ، وقدمها لأكاديمية الآثار ، فكانت نقطة باهرة ؛ وأثار هذا الاكتشاف اهتمام دى نولهاك بدراسة بترارك ، فقدم عنه رسالته الشهيرة عنوان « بترارك والانسانية » فى سنة ١٨٩٢

والتحق دى نولهاك منذ سنة ١٨٨٦ بوظيفة فى المكتبة الأهلية ، وانتدب للتدريس فى نفس الوقت بمدرسة الدراسات العليا ؛ ثم عين بعد ذلك مديراً لها واستمر فى هذا المذهب حتى سنة ١٩٠٠ ، وعين أيضاً أميناً لمتحف فرساى واستمر فى هذا المنصب حقبة طويلة ، وفى أقبية المكتبة والمتحف بدأت مباحث دى نولهاك المؤرخ ، وهى مباحث دلت فيما بعد على أنه فى هذا الميدان عبقرية بارزة ، ووقع فى الأقبية على طائفة من الوثائق والمخطوظات التاريخية النادرة ، واستطاع أن يستخرج منها مادة بديعة لكتبه ، وأشهر مؤلفات دى نولهاك التاريخية : « فرساى فى القرن الثامن عشر » و « الملكة مارى انتوانيت » و « لويس الخامس عشر ومدام دى بومبادور » وغيرها ، وفيها تبدو عبقرية نولهاك كمؤرخ وكاتب ، ذلك أن حقائق التاريخ تعرض فيها فى أثواب ساحرة كأنها الخيال المرسل ، وتسطع فيها الصور حتى يخيل اليك أنها حية تغدو وتروح وكأنك تعيش معها وفى عصرها

وكتب دى نولهاك عدة كتب أخرى ارتفعت باسمه إلى مصاف أقطاب النقد والتفكير الفلسفى منها : « رونسار والانسانية » ، ومنها « قصائد ايطاليا وفرنسا » . وانتخب نولهاك عضواً بالأكاديمية الفرنسية وانتظم فى سلك الخالدين قبل وفاته بأعوام طويلة

كتاب عن ذكرى ابن ميمون

احتفلت الطوائف اليهودية فى مصر وفى سائر أنحاء العالم ، وكذلك احتفلت معظم الهيئات العلمية فى مختلف الأقطار بذكرى العلامة والفيلسوف والطبيب اليهودى العربى الأندلسى موسى ابن ميمون ، وكان الاحتفال فى ابريل من العام الماضى ، وذلك لمناسبة انقضاء ثمانمائة عام كاملة على مولد الطبيب الأشهر ؛ ولابن ميمون فى مصر ذكريات خاصة ، فقد كتب فيها معظم مؤلفاته ، وتوفى فيها ، وكان كبير الربانيين بالقاهرة ، وكان طبيبا للسلطان صلاح الدين الأيوبى ؛ وكان مولد ابن ميمون فى قرطبة فى ٣٠ مارس سنة ١١٣٥ م ، فى عهد المرابطين ، ثم نزح مع أسرته إلى المغرب فالقاهرة حيث اتصل بالسلطان صلاح الدين وعينه طبيبه الخاص . وعكف ابن ميمون على دراسة التلمود وكل ما يتعلق بالقصائد والفلسفة اليهودية ، وألف فيها بالعربية ، ولكن بحروف عبرية ، طائفة من الكتب الفلسفية والدينية مازالت تتبوأ المقام الأول بين تراث اليهودية

وقد عنيت الحاخامية اليهودية بالأسكندرية باصدار مجلد ضخم عن هذا العيد الملفى بالفرنسية بعنوان : « الذكرى المئوية الثامنة لابن ميمون » وضمنته ترجمة وافية للطبيب الفيلسوف ، وشرحاً قيما لأهم نظرياته ونصوصه ، وشذوراً من مصنفاته بالعربية والعبرية والفرنسية والايطالية ، وأشرف على وضعه وإخراجه الأستاذ دافيد براتو حاخام الطائفة اليهودية بالاسكندرية ، ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن لابن ميمون بين مفكرى اليهود وفلاسفتهم المقام الأول ، حتى لقد اعتبره بعضهم الرجل الثانى فى اليهودية بعد موسى . ولابن ميمون نظريات فلسفية ودينية عويصة ، وله شرح نفيس للتلمود ما زال هو الحجة فى موضوعه

القصة فى التعليم

فى وزارة المعارف اليوم حركة تجديد تسير إلى غايتها بنشاط وقوة ، نؤمل من ورائها انقلابا فى وسائلنا التعليمية يدنينا من الهدف الذى نقصد اليه من تعليم أبنائنا

وقد كان آخر هذه المحاولات ، هذا المشروع الذى أشارت اليه الصحف فى الأسبوع الماضى ، بأن الوزارة تفكر فى تدريس كثير من المواد بالمدارس الابتدائية عن طريق القصة . وهو

مشروع جدير بأن يثمر ثمرة طيبة لو حَسُنتْ القوامة عليه ؛ فما نعرف شيئاً يروق الصغار ويجذب انتباههم مثل القصة ، وما نعرف باباً من أبواب الأدب يتسع لكل شيء كما تتسع القصة ، فالقصة عند الطفل لون من ألوان اللعب يقبل عليه بشوق ولذة ، ولكنه عند أهل التربية فن من فنونهم يبلغون به ما لا يبلغون بسواه من أساليب العلم

وإذا كان لنا أن نغتبط بهذا المشروع ، فإننا نخشى أن تؤدى طريقة تنفيذه إلى ما لا نرجو من جدْواه ، فن القصة فنٌّ واستعداد لا يتوفران لكل شخص ، ولا يحسنهما إلا الموهوب ؛ فلو أن وزارة المعارف وكلت أمر إنشاء هذه القصص إلى غير القادرين عليه لقضت على الفكرة بالموت قبل أن تظهر لها ثمرة ؛ وفي وزارة المعارف رجال درسوا القصة وعالجوها فنجحوا فيما عالجوا إلى حد كبير ، وإن لم يكونوا من رجال التعليم . وفي مختلف مدارس الوزارة مدرسون حاولوا القصة ووُفِّقوا في كثير مما حاولوا ، فلعل الوزارة تنتفع برأى هؤلاء وهؤلاء

الاسلام فى اليابان

كتبت مجلة (آسيا) فى عددها الأخير أنه لن تنقضى أعوام حتى تصبح اليابان كلها إسلامية

وقد أشارت المجلة إلى الدعاية الاسلامية القائمة بين الشعب اليابانى وقالت إن ٣٢ ألفاً من اليابانيين اعتنقوا الديانة الاسلامية منذ ثلاثة أعوام ، وإن الاقبال على الاسلام لا يزال مستمراً

وقد تم إنشاء مسجد (باب الله) فى الأسبوع الماضى واحتفل اليابانيون بافتتاحه احتفالاً عظيماً

ويتألف هذا المسجد من ثلاثة طوابق ، ويمتاز بمآذنه الشائقة المزدانة بأجمل النقوش كما يمتاز بأبهائه وحدائقه والنقوش العربية التى تزين جدرانه

وقد رأس حفلة الافتتاح مياه عبد العزيز ، وكان يرتدى العباءة والكوفية والعقال ؛ وقد ألقى خطاباً شكر فيه لجنة المسجد ثم قال :

« إنه ليسرنى أن أرأس هذه الحفلة فى اليابان أمبراطورية الشرق الكبرى ، وأعتقد أن « باب الله » سيجد كثيراً من اليابانيين الذين يرغبون فى دخوله . . »

وبعد أن أشار الخطيب إلى موقف الحكومة اليابانية من الديانة الاسلامية وتنشيط القائمين بالدعوة اليها شرح للحاضرين التعاليم الاسلامية ومبادىء المسلمين السامية وقال :

« إن الديانة الاسلامية التى أجمع العالم على أنها أفضل الديانات لا بد أن تنتشر فى جميع أنحاء العالم وخاصة فى اليابان ، ولا بد أن تجد من الأنصار ما يجعلها سيدة العالم »

وأشار الخطيب إلى إعجاب العرب المسلمين بالشعب اليابانى ، وقال إن اليابان تسير فى طريق الأمبراطورية الاسيوية الكبرى ، وإن الاسلام سيكون فى أول هذا الطريق

من أعاجيب الراديو

أضحى « الراديو » أعجوبة الأعاجيب فى عصرنا ، يستعمل فى كل ما لا يمكن أن يخطر فى البال من عظائم الأمور وصغائرها ؛ وسنرى فى الأعوام القادمة إلى أى حد يمكن أن تقف أعاجيب هذا الاختراع المدهش ؛ ومما قرأناه أخيراً فى صحف فيينا أن الراديو كان وسيلة مدهشة لنجاة مريض من تناول دواء خاطىء ؛ فقد وفد مريض على صيدلى وقدم إليه تذكرة دوائه ليعدها ، ثم أخذ المريض الدواء وانصرف ، وبعد قليل تذكر الصيدلى أنه ارتكب فى صنع الدواء خطأً قد يودى بحياة المريض ، ولم يكن يعرف عن المريض أو اسمه أو طبيبه شيئاً ؛ فهرع إلى شركة للاذاعة اللاسلكية ، وفى الحال أذاعت الشركة خلال برنامجها نبأ هذا الخطأ فى جميع أرجاء النمسا ؛ ووقف الطبيب المعالج مصادفة على هذا النبأ حين كان يستمع إلى الاذاعة ، فهرول إلى المريض فى منزله ولحق به قبل أن يتناول الدواء القاتل

الكتب

«محمد»

كتاب توفيق الحكيم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

عملُ الأستاذ توفيق الحكيم في تصنيف هذا الكتاب أشبهُ شيء بعمل «كريستوف كولمب» في الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا ؛ لم يخلق وجودها ولكنه أوجدها في التاريخ البشري ، وذهب اليها فقبل جاء بها إلى العالم ، وكانت معجزته أنه رآها باليقين التي في عقله ، ثم وضع بينه وبينها الصبرَ والمماناةَ والحذق والعلم حتى انتهى اليها حقيقة ماثلة

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل ، بقريحة غير قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدّث ، وخيال غير خيال القاصّ ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة الرأي ، وقصد غير قصد الجدَل ؛ فخلص له الفن الجميل الذي فيها إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة ، وأمرّها على إحساسه الشاعر المتوثب ، واستلّها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الاحساس كما هي في طبيعتها السامية متجهةً إلى غرضها الالٓهي محققةً عجائبها الروحانية المعجزة

وقد أمدته السيرة بكل ما أراد ، وتطاوعت له على ما اشتهى ، ولانت في يده كما يلين الذهب في يد صائغه ؛ فجاء بها من جوهرها وطبيعتها ليس له فيها خيال ولا رأي ولا تعبير ، وجاءت مع ذلك في تصنيفه حافلة بأبدع الخيال ، وأسمى الرأي ، وأبلغ العبارة ؛ إذ أدرك بنظرته الفنية تلك الأحوال النفسية البليغة ، فنظمها على قانونها في الحياة ، وجمع حوادثها المدوّنة فصوّرها في هيئة وقوعها كما وقعت ، واستخرج القصص المرسَلَة فأدارها حواراً كما جاءت في ألسنة أهلها ؛ وبهذه الطريقة أعاد التاريخ حياً يتكلم وفيه الفكرة وملائكتُها وشياطينُها ، وكشف ذلك الجمال الروحاني فكان هو الفن ، وجلا تلك النفوس العالية فكانت هي الفلسفة ، وأبقى على تلك البلاغة فكانت هي البيان . كانت السيرة كاللؤلؤة في الصدفة ، فاستخرجها فجلاها اللؤلؤة وحدها

***

إن هذا الكتاب يفرض نفسه بهذه الطريقة الفنية البديعة ، فليس يمكن أن يقال إنه لا ضرورة لوجوده ، إذ هو الضروريّ من السيرة في زمننا هذا ، ولا يُغتَمَزُ فيه أنه تحريف وتزوير وتلفيق ، إذ ليس فيه حرف من ذلك ؛ ولا يردُّ بأنه آراء يخطئ المخطئُ منها ويصيب المصيب ، إذ هو على نص التاريخ كما حفظته الأسانيد ؛ ولا يُرمى بالفثاثة والركاكة وضعف النسق ، إذ هو فصاحة العرب الفصحاء الخُلَّص كما رُويت بألفاظها ؛ فقد حصنه المؤلف تحصيناً لا يُقتحم ، وكان في عمله مخلصاً أتم الاخلاص ، أميناً بأوفى الأمانة ، دقيقاً كل الدقة ، حَذِرا بغاية الحذر

ومن فوائد هذه الطريقة أنها هيأت السيرة للترجمة إلى اللغات الأخرى في شكل من أحسن أشكالها برغم هذا الزمن على أن يقرأ بالاعجاب تلك الحكاية المتفردة في التاريخ الانساني ؛ كما أنها قرّبت ومهلت فجعلت السيرة في نصها العربي كتاباً مدرسياً بليغاً بلاغة القلب واللسان ، مربياً للروح ، مرهفاً للذوق ، مصححاً للملكة البيانية

وحسبُ المؤلف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربي : إن ابن هشام كان أول من هذّب السيرة تهذيباً تاريخياً على نظم التاريخ ، وأن توفيق الحكيم كان أول من هذبها تهذيباً فنيا على نسق الفن

مصطفى صادق الرافعي

١ — علم تكوين الجنين (طبع دمشق)

للدكتور شوكت موفق الشطى

٢ — دليل الحج والسياحة (طبع الرباط)

للأستاذ أحمد الهوارى

للأستاذ محمد بك كرد على

— ١ —

أصدر الدكتور الشطى فى دمشق الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهو « يبحث فى التناسل والجهاز التناسلى فى الذكور والأناث ، والالقاح والذكورة والانوثة والوراثة » ، وقد تقدم للمؤلف أن نشر كثيراً من الأبحاث الطبية فى كتب ورسائل ومقالات . والذى يعنينا هنا أن نقوله إن هذا الكتاب وبعض الكتب الطبية والعلمية التى ظهرت فى العهد الحديث فى جمهورية سورية تدل على اضطلاع المؤلفين الجدد بعلمهم ، مضافاً اليه تمكنهم من العربية . وقد رأينا مصنف هذا الكتاب المفيد يضع ألفاظاً لبعض الكلمات الطبية والعلمية ، هذا إلى ما فى مجموع كلامه من الرشاقة والجزالة . أما البحث فى موضوع الكتاب ودرجته من العلم فهو من شأن الأطباء

— ٢ —

جاءت رحلة الأستاذ الهوارى الفاسى من المغرب الأقصى إلى الديار الحجازية المباركة فى ٣١٠ صفحات محلاة بالرسوم البديعة . وقد قال فى وصف كاتبها الأستاذ السيد عبد الحى الكتانى عالم فاس إنه رحل « ونقب ، وسأل وكتب ، وجمع وحطب ، وإن كانت وجهة قلمه غلبت عليها نشوة الوظيف والاهتبال بالموظفين ، والادارات والمديرين ، ولكن إذا عُلم أنه يكتب لأبناء هذا العصر زال العجب » . ووصفه بأنه « صاحب القلمين واللسانين » ، يعنى العربية والفرنسية . وقد أورد الأستاذ الكتانى ثبتاً بديعاً بأسماء من رحلوا من القديم إلى اليوم ، إلى الحجاز من بلاد المغرب والأندلس ، ودل على أماكنها ، ومنها المخطوط المحفوظ فى الخزانة الكتانية بفاس . ولاحظنا أن المؤلف عنى عناية خاصة بذكر أصحاب القبور أكثر من التنويه بأعمال الاحياء فى مصر والشام . والقبوريون يظفرون متى شاءوا بما يحبون من الزيارات فى كل بلد من بلاد الاسلام ، ولكن ما يحفظ على هذه الأمة دينها ودنياها هو اليوم الاستمداد من الأحياء ، ولذا كان على المؤلف أن ينوه بما يجب أن يقتبسه بنو قومه من جلائل أعمال الحياة فى البلاد التى زارها . وقد قدم صاحب الجلالة سيدى محمد سلطان المغرب الأقصى تقريظاً للكتاب على سبيل التنشيط . وعبارة المؤلف تدل على أنه عانى صناعة الكتابة فى بلاده ، بيد أنه جرى فى تدوين رحلته على ما يرضى العامة وأرباب السلطان .....

محمد كرد على

Lundi-17-2-1936

4 me Année, No. 137.

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـدد ١٣٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ — ١٧ فبراير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

العـــزة

للأستاذ أحمد أمين

استعملت العرب كلمة « العزة » فى مقابل « الذلة » ، فقالوا رجل عزيز ورجل ذليل . وجاء استعمال « العزيز والذليل » فى القرآن متقابلين ، فقال تعالى : « أذلة على المؤمنين أعزة على الـكافرين » . وحكى عن المنافقين أنهم قالوا فى حرب الغزوات : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، وهى كلمة قالها ابن أبىّ ، ويريد بالأعزة نفسه وصحبه ، وبالأذلة محمداً (ص) وصحبه ، فرد عليهم الله بقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولـكن المنافقين لا يعلمون » . وقد تصدى بعض المسلمين لابن أبىّ وسل سيفه عليه ومنعه من دخول المدينة ، وقال : والله لا أغمده حتى تقول : « محمد الأعز وأنا الأذل » فقالها .

والسبب فى كل هذا أن العرب فى الجاهلية كانوا يفهمون العزة فى المال والجاه والرياسة والولد ونحو ذلك ، فجعلها الاسلام فى الدين الحق ، وأداء الواجب للناس ولله

وأكثرَ العرب من استعمال هذه الكلمة فى الجاهلية والاسلام ، فكان أبو جهل يقول : « أنا أعز أهل هذا الوادى وأمنعهم » ، وقال الشاعر :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم في كل نائبة عِزاز الآنُفِ

وفسر الراغب الأصفهاني « العزة » بأنها حالة مانعة للانسان من أن يُغلب ، وجعل اشتقاقها من قولهم أرض عَزَاز أي صلبة ، وتعزز لحم الناقة اشتد وصلب

والحق أن تحديد معنى العزة في منتهى الصعوبة ، وأصعب ما في ذلك رسم الحد الفاصل بين العزة والكبر ، وبين الذل والتواضع ؛ وقديما حاول الناس أن يفرقوا بينهما ، فقد روى أن رجلا قال للحسن بن عليّ : « إن الناس يزعمون أن فيك تيها » فقال : « ليس بتيه ولكنه عزة » . وروى عن عمر ابن الخطاب أنه قال : « اخْشَوْشِنُوا وتَمَعْزَزُوا » كأنه خشي إذا أمر الناس بتعود الخشونة أن يلجئهم ذلك إلى احتقار النفس وذلها فاستدرك ذلك بطلب المحافظة على العزة

وحاول السهروردي أن يفرق بين العزة والكبر فقال : « العزة غير الكبر لأن العزة معرفة الانسان بحقيقة نفسه وإكرامها ، كما أن الكبر جهل الانسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها »

ولست أدري لم أهمل علماء الأخلاق من المسلمين هذا الخلق فلم يكثروا الكلام فيه إكثارهم في غيره من الصدق والعدل والكرم والتواضع

ولو وضعت أنا « قائمة » الأخلاق مرتبة حسب أهميتها للمسلمين لوضعت في أعلاها « العزة » ، ولاخترت من الأخلاق ما يبعث القوة والاعتداد بالنفس والرجولة والأنفة والحمية ، ولأقللت جداً من الكلام في التواضع والزهد والخوف ونحو ذلك ، لأن قائمة الأخلاق يجب أن تخضع في ترتيبها وتقويمها لعاملين : روح العصر ، وموقف الأمة إزاء بقية الشعوب ؛ بل أحياناً تنقلب الفضيلة إلى رذيلة ، ويكون الحث على هذا النوع من الفضائل داعية إلى الاجرام . فاذا أفرطت أمة في التواضع كانت الدعوة اليه إجراماً ، وإذا أفرطت أمة في الزهد كانت دعوة الأخلاقيين اليه دعوة إلى الموت والفناء

كنت زمناً قاضياً في « الواحات الخارجة » وهي بلاد في منتهى الفقر والبؤس ، أغناهم من ملك نُخيلات وسُوَيعات في عين من عيون الماء ، بؤس شامل ، وجهل شائع ، وضنك يستذرف الدمع ، ويستوجب الرحمة . ذهبت يوماً إلى صلاة الجمعة في مسجدها البائس الفقير أيضاً . . فما كان أشد عجبي من خطيب يخطب من ديوان مطبوع يستحث الناس على ألا يقضوا صيفهم في أوربا ، وأنا على يقين أن الخطيب والسامعين لم يعرفوا أوروبا ، ولم يفهموا لها إلا معنى غامضاً ، ولم يحدث أحداً منهم نفسه بالسفر إلى مصر فضلاً عن أوروبا ، ولكنها قلة ذوق الخطيب وسماجته ، وجهله التام بالواقع

وأؤكد أن أكثر المتكلمين في الأخلاق من المسلمين في مثل حال هذا الخطيب ، لا يعرفون زمانهم ، ولا يعرفون أمتهم ، ولا يعرفون موقف أمتهم من زمانهم . يرونهم أذلة فيدعون إلى الذلة ، ويرونهم متواضعين فيلحون في طلب التواضع ، ويرونهم زهاداً بالطبيعة لا يجدون الكفاف من العيش فيمعنون في طلب الزهد . فان هم تلطفوا قليلاً طلبوا منهم الرضا بالبؤس وألصقوه بالقدر ، وجعلوا ذلك كله ضرباً من التقوى والايمان ، وهم بذلك يداوون جوعاً بجوع ، وجرحاً بجرح ، وسما بسم ؛ وكان يجب أن يداووا جوعاً بشبع ، وجرحاً بضماد ، وسما بترياق

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا ندعو إلى خلق يزيد الأمة ضعفا ، فلا ندعوها إلى الرضا بالقليل وفي إمكانها الكثير ، ولا ندعوها إلى الاستسلام للقدر وفي وسعها مكافحة الصعاب ومواجهة الشدائد ، ولا ندعوها إلى الذلة وفي استطاعتها أن تعز .

والواقع أن أبيات العزة وأدب العزة وأمثال العزة وقصص العزة إنما تكثر في الأمة أيام عزتها وتختفي أيام بؤسها ، فلما كان العالم الاسلامي عزيزاً أنطقتهم بالعزة رماحهم ، ثم غلبوا على أمرهم فنطقوا بالتواضع ، وتواصوا بالاستكانة ، وألفت الكتب والخطب من ذلك الحين تروّح على البائسين حتى لا يشعروا ببؤسهم ولا يعلوا اشقاءهم ، وما زال الحال على هذا المنوال حتى صار الداء صحة والدواء مرضا

وليس غريبا أن يسير الناس على هذه الخطة ، ولكن غريباً أن يسير القادة عليها ، وكان المفروض أن يكونوا أبعد نظرا ، وأطهر قلباً ، وأعرف بحقائق الأمور

* * *

أريد بالعزة أن يشعر كل انسان بكرامة نفسه ويشعر بما لها من حقوق ، فلا يسمح لمخلوق كائنا من كان أن ينال منها مثقال ذرة ، كما يشعر بما عليه من واجبات فلا يسمح

لنفسه أن يعتدى على حقوق الناس مثقال ذرة أيضاً

وللعزة مظاهر متعددة ووسائل مختلفة ، فالناس كثير آما يتطلبون الغنى وسيلة من وسائل العزة ، وآخرون يطلبون المنصب الحكومى أو العضوية البرلمانية أو العضوية فى الجمعيات الراقيـة أو صداقة العظماء أو حسن الملبس على أنها وسائل للعزة ؛ والمتعلمون يطلبون العزة من طريق الشهادات من ليسانس ودكتوراه ودبلوم ونحو ذلك ، وهـذه كلها عزة شخصية ؛ وهناك عزة أخرى قومية وهى اعتزاز الفرد بنسبته إلى أمته كاعتزاز الانجليزى بانجليزيتـه والفرنسوى بفرنسيته والألمانى بألمانيته ، ولهذه كذلك مظاهر متعددة كاحترام كل أمة أعلامها والمحافظة على بعض تقاليدها والافتخار بلغاتها والفخر بآثارها ونحو ذلك ؛ ولبس يعنى الآن هـذا ولا ذاك ، إنما يعنى نوع من الشعور يتملك المرء ويشعر منه بأنه إنسان فى الحياة لا يمتاز عنه أحد فى الوجود فى انسانيته . قد يمتاز الناس عنه فى المال أو فى الجاه أو فى المنصب ولـكن لا يمتاز عليه أحد فى أنه انسان ، فسائق السيارة وصاحب السيارة سيان فى احترامهما أنفسهما وشعورهما بحقوقهما وواجباتهما

ويسوءنى أن أرى الشرق لا يشعر بالعزة الشعور الواجب ، ولا ينزل هذه الفضيلة من نفسه المنزلة التى تستحقها ، وأكبر ما يؤلمنى فى ذلك مظهران :

الأول : استخذاء الشرقى أمام الأجنبى الأوربى وشعوره فى أعماق نفسه كأنه خلق من طينة غير طينته ، وكأن الطبيعة جعلت أحدهما سيداً والآخر عبدا ، ترى هذا الشعور فى المصالح الحكومية وفى الحوانيت التجارية وفى المجتمعات وفى الشوارع ، وفى كل معاملة وفى كل خطوة . بالأمس كنت فى محطة السكة الحديدية فذهبت الى شباك التذاكر وسألت الموظف — فى أدب — هل هنا محل صرف التذاكر الى بلدة كذا ؟ فلم يجب ، وأعدت السؤال فلم يجب ، فتولانى شعور ممتزج من غضب وخجل واحتمال لبرودة السؤال وغير ذلك ، وما لبث أن جاء أجنبى فسأل مثل هذا السؤال بلغته الأجنبية ، فترك الموظف ما فى يده وأقبل عليه بكله ، وأجابه إجابة فيها كل معنى التبجيل والتعظيم ، واختتم كل جملة من جمله بكلمة « سيدى » ! فدهشت من هذا الحال وثارت نفسى ، وتجمع الدم فى وجهى ، ونلت من الموظف بقـدر ما نال منى ، ولم أكسب من ذلك كله إلا أن أكتب هذا المقال

وموقف هـذا الموظف تقفه كل الأوساط على اختلاف فى مقدار اللباقة والكياسة ولكن الجوهر واحد ، فذلك هو الشأن فى الأوساط العلمية والتجارية والسياسية ، يتكلم الأجنبى كلمة عادية فتكون المثل ، وتكون الحكمة ، وتكون القول الفصل ؛ ويبدى الرأى فيكون الرأى الناضج والقول الحكيم والغاية التى ليس وراءها غاية ؛ ويطلب الطلب فلا بد أن يجاب ، وإذا لم يمكن فالاعتذار الحار والوعد باجابته فى ظرف آخر ؛ ويدخل المحل التجارى أو يركب القطار أو يدخل النادى فموضع رعاية خاصة ؛ ويعمل العمل فيقدر التقدير الغالى فى قيمته الأدبية ومكافأته المادية إلى ما يطول شرحه

وفى هذا من غير شك مذلة للشعور وكبت للنفس واستعباد للمواطن ، ومع هذا يطالبنا السادة الأخلاقيون بالتواضع ! لابد أن يفهم الناس فى كل مناسبة وفى كل ظرف أن القوم أناس مثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأن هؤلاء القوم على أحسن تقدير ضيوفنا لا سادتنا ، ومن لحم ودم كلحمنا ودمنا ، ولهم عقل ولـكن كعقلنا ، وسلوك فى الأخلاق كسلوكنا ، وتصدر منهم الفضيلة والرذيلة كما تصدر عنا ، وأنهم ككل البشر يستذلون من أذل نفسه ، وأن واجبنا أن نحترمهم فى غير مذلة ، ونحترمهم لا على حساب احتقار المواطن ، وأننا نبادلهم احتراماً باحترام واحتقارا باحتقار ، وأنه إذا حدثتهم أنفسهم بالاعتداء علينا لم نمكنهم ، وأن الحكم بيننا وبينهم دائما أن لنا حقوقاً وعلينا واجبات كحقوقهم وواجباتهم ، فاذا طلبوا المساواة فالسمع والطاعة ، وإذا طلبوا الاذلال قلنا « لا » بملء أفواهنا

والأمر الثانى من مظاهر الذلة الذى لا يقل خطرا عن هذا ، فهمُ الرئيس لمعنى الرياسـة ، فهو يفهمها على أنها غطرسة من جانبه ، وذلة من جانب مرءوسه ، وإلا لم يكن المرءوس مؤدبا . فرئيس المصلحة ليس لأحد رأى بجانب رأيه ، لا لوكيله ولا لمديرى إدارته ، عليهم أن يسمعوا فى ذلة والعزة له وحده ، ثم يتكرر تمثيل هذا الدور مِنْ أعلى فنازلا ، فكل من بعد الرئيس الأعلى رئيس من جانب ومرءوس من جانب ، فهو كمرءوس حاله ما بيّنا ، وهو كرئيس يقلد تقليدا تاما رئيسـه فى اعتزازه وإذلاله ، وهكذا دواليك ، حتى يصل الأمر إلى ما نرى من الباعة فى الشارع والجندى ، فمثلهم كالقاطرة تصدم العربة التى تقابلها

السمكة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدَّث أحمدُ بن مسكينٍ الفقيهُ البغدادى قال: حصلتُ فى مدينة (بَلْخ) سنة ثلاثين ومائتين، وعالمُها يومئذ شيخُ خراسان أبو عبد الرحمن[1] الزاهد صاحبُ المواعظ والحِكَم، وهو رجل قلبُه من وراء لسانه، ونفسُه من وراء قلبه، والفلكُ الأعلى من وراء نفسه، كأنه يُدَقّ عليه فيما زعموا؛ وكان يقال له عندهم (لُقمانُ هذه الأمّة) لِمَا يعجبهم من حِكَمه فى الزهد والموعظة. وقد حضرتُ مجالسه وحفظتُ من كلامه شيئاً كثيراً كقوله: من دخل فى مذهبنا هذا، (يعنى الطريق) فليجعلْ على نفسه أربعَ خصال من الموت: موتٌ أبيض، وموتٌ أسود، وموتٌ أحمر، وموتٌ أخضر؛ فالموت الأبيض الجوع، والموت الأسود احتمال الأذى، والموت الأحمر مخالفةُ النفس، والموت الأخضر طرحُ الرِّقاع بعضها على بعض (يعنى لبس الرقعة والخَلَق من الثياب)

وقلت يوما لصاحبه وتلميذه (أبى تراب) وجارَيْتُه فى تأويل هذا الكلام: قد فهمنا وجهَ التسمية فى الموت الأخضر مادامت المرقعةُ خضراء، فما الوجهُ فى الأبيض والأسود والأحمر؟ فجاء بقول لم أرضه، وليس معه دليل، ثم قال: فما عندك أنت؟ قلت: أما الجوع فيُميت النفس عن شهواتها ويتركها بيضاء نقية، فذلك الموت الأبيض؛ وأما احتمال الأذى فهو احتمال سواد الوجه عند الناس فهو الموتُ الأسود؛ وأما مخالفة النفس فهى كاضرام النار فيها، فذاك الموت الأحمر

قال أحمد بن مسكين: وكنت ذات نهارٍ فى مسجد (بلخ) والناس متوافرون ينتظرون (لقمانَ الأمة) ليسمعوه، وشغله بعضُ الأمر فراث عليهم، فقالوا: من يعظنا إلى أن يجىء الشيخ؟ فالتفت إلىّ أبو تراب وقال: أنت رأيت الامام أحمد ابن حنبل، ورأيتَ بِشرا الحافى وفلاناً وفلاناً، فقم فحدّث الناسَ عنهم، فانما هؤلاء وأمثالهم هم بقايا النبوّة، ثم أخذ بيدى إلى الاسطوانة التى يجلس اليها إمامُ خراسان فأجلسنى ثمّة وقعد بين يدىّ

وتطاولت الأعناق، ورمانى الناس بأبصارهم، وقالوا: البغدادى! البغدادى! وكأنما ضوعفتُ عندهم بمجاى مرةً وبنسبتى مرةً أخرى، فقلت فى نفسى: والله ما فى الموت الأحمر ولا الأخضر ولا الأسود موعظة، ولولبس عزرائيل قوس قُزح

(١) هو حاتم بن يوسف شيخ خراسان وواعظها توفى سنة ٢٣٧ للهجرة

ثم كل عربة تصدم ما بعدها الى آخر القطار

***

ليس لهذا من علاج إلا فهم العزة بمعناها الدقيق، وهو احترام نفسك فى غير احتقار أحد، وأن تقف موقفا له جانبان، فان نظرت الى من هو أعلى منك فى المنصب والجاه والجنسية فلا تمكنه أن ينال من نفسك ولو ذرة، ولا أن يتعدى حدوده ولو شعرة؛ وإذا نظرت الى من هو أسفل منك فلا تتعد حدودك، وإذا شعرت باستخذائه وذلته فارفع مستواه ما استطعت حتى يصل الى الحدود

على أنه ليس هناك أسفل ولا أعلى إلا فى مواضعات سخيفة، فمن الذى قال إن كناس الشارع وضيع وفراش المصلحة وضيع، والخادم فى المنزل وضيع؟ نعم إن الحالة الاجتماعية فرقت بين الناس فى المرتب ونحوه، ولكن القيمة الحقيقية للانسان وما له من حقوق وواجبات قدر مشترك بين الجميع

فليس من حقك أن تنادى بائع الجرائد «يولد» ولا خادمك بأحقر الأسماء، ولا فراش المصلحة بما يشعر باحتقاره، وهو مطالب بالأدب معك، وأنت مطالب بالأدب معه، وليس للجندى حق أن يرفع عصاه على بائع لم يتجاوز حدوده، ولا لأى رئيس أن يخرج عن الأوضاع الأدبية فى مخاطبته مرءوسه

فاذا فرغ الرئيس والمرءوس من العمل، وفرغ سائق السيارة ومالكها، وفرغ الضابط والجندى والمعلم والتلميذ فكلهم سواء فى الحياة الاجتماعية، وكلهم سواء فى الحقوق، لا ذلة لأحد على أحد، ولا اعتزاز من أحد على أحد

«مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!»

أحمد أمين

لأفسد شعرُ هذه الألوان معناه ، وإنما يجب أن يكون كما يجب أن يكون . ولا موعظة فى كلام لم يَغتلِ من نفس قائله ليكون عملاً فيتحول فى النفوس الأخرى عملاً ، ولا يبقى كلاماً ؛ وإنه ليس الوعظُ تأليف القول للسامع يسمعُه ، لكنه تأليفُ النفس لنفسٍ أخرى تراها فى كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنه قرابةٌ بين النفسين ، حتى لكأن الدمَ المتجاذبَ يجرى فيه ويدور فى ألفاظه

***

وكنت رأيتُ رؤيا (يبلغ) تتصل بقصة قديمة فى بغداد ، فقصصتها عليهم ، فكانت القصة كما حكيتُها أنى امتُحِنتُ بالفقر فى سنة تسع عشرة ومائتين ؛ وانحسمت مادتى وقُحِطَ منزلى قحطاً شديداً جمع علىَّ الحاجة والضرَّ والمسكنة ؛ فلو انكمشت الصحراءُ الجدبةُ فصغرت ثم صغرت حتى ترجعَ أذرُعاً فى أذرع لكانت هى دارى يومئذ فى محلة باب البصرة من بغداد . وجاء يومٌ صحراوىٌّ كأنما طلعت شمسُه من بين الرمل لا من بين السُّحُب ، ومرّت الشمس على دارى فى بغداد مرورها على الورقة الجافة الملقة فى الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شىء يُسيغه حلقُ آدمىّ إذ لم يكن فى الدار إلا ترابُها وحجارتها وأجذاعها ؛ ولى امرأة ولى منها طفل صغير وقد طوينا على جوع يخسِفُ بالجوف خسفاً كما تهبط الأرض ؛ فلتمنيتُ حينئذ لو كنا جرذاناً فنقرضَ الخشب ؛ وكان جوعُ الصبى يزيد المرأة ألماً إلى جوعها ، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطون خاوية ، فقلت فى نفسى : إذا لم نأكل الخشب والحجارة فلنأكل بثمنها ؛ وجمعتُ نيتى على بيع الدار والتحول عنها وإن كان خروجى منها كالخروج من جلدى لا يسمى إلا سلخاً وموتاً ؛ وبت ليلتى وأنا كالمُثخن حُمل من معركةٍ فما ينقلب إلا على جراحٍ تعمل فيه عملَ السيوف والأسنّة التى عملت فيها

ثم خرجتُ بغَلَسٍ لصلاة الصبح ؛ والمسجد يكون فى الأرض ولكن السماء تكون فيه ، فرأيتنى عند نفسى كأنى خرجت من الأرض ساعة . ولما قُضِيت الصلاةُ رفع الناسُ أكفّهم يدعون الله تعالى وجرى لسانى بهذا الدعاء : اللهمّ بك أعوذ أن يكون فقرى فى دِينى ، أسألك النفعَ الذى يُصلحنى بطاعتك ، وأسألك بركةَ الرضى بقضائك ، وأسألك القوةَ على الطاعة والرضى يا أرحم الراحمين

ثم جلستُ أتأمل شأنى وأطلتُ الجلوسَ فى المسجد كأنى لم أعد من أهل الزمن فلا تجرى علىَّ أحكامه ، حتى إذا ارتفع الضُّحى وابيضّت الشمس جاءت حقيقة الحياة فخرجتُ أتسبب لبيع الدار وانبعثتُ وما أدرى أين أذهب ، فما سرت غير بعيد حتى لقينى أبو نصر الصياد وكنت أعرفه قديماً ، فقلت : يا أبا نصر ! أنا على بيع الدار فقد ساءت الحال وأحوجَت الخصاصة ، فأقرضنى شيئاً يُمسكنى على يومى هذا بالقوام من العيش حتى أبيع الدار وأوَفّيك

فقال : يا سيدى ! خذ هذا المنديل إلى عيالك وأنا على أثرك لاحق بك إلى المنزل . ثم ناولنى منديلا فيه رقاقتان بينهما حلوى وقال : إنهما والله بركةُ الشيخ

قلت : من الشيخ وما القصة ؟

قال : وقفتُ أمس على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة فمر بى أبو نصر بشر الحافى[1] فقال : مالى أراك فى هذا الوقت ؟ قلت : ما فى البيت دقيق ولا خبز ولا درهم ولا شىء يباع . فقال : اللهُ المستعان ؛ إحمل شبكتك وتعال إلى الخندق ؛ فحملتها وذهبتُ معه ، فلما انتهينا إلى الخندق قال لى : توضّأ وصلّ ركعتين ، ففعلت ، فقال سَمِّ الله تعالى وألق الشبكة ؛ فسميت وألقيتها ، فوقع فيها شىء ثقيل فجملت أجره فشقّ علىّ ؛ فقلت له ساعدنى فانى أخاف أن تنقطع الشبكة ، فجاء وجرها معى فخرجت سمكة عظيمة لم أر مثلها سِمَناً وعِظَماً وفراهة . فقال : خذها وبعها واشتر بثمنها ما يصلح عيالك . فحملتها فاستقبلنى رجل اشتراها ، فابتعت لأهلى ما يحتاجون إليه ، فلما أكلتُ وأكلوا ذكرتُ الشيخ فقلت أهدى له شيئاً ، فأخذتُ هاتين الرقاقتين وجعلت بينهما هذه الحلوى وأتيت إليه فطرقت الباب فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال : افتح وضع ما معك فى الدهليز وادخل ، فدخلت وحدثته بما صنعت فقال : الحمد لله على ذلك . فقلت : إنى هيأت للبيت

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بالحافى ، توفى سنة ٣٢٧ للهجرة ؛ وكان واحد الدنيا فى ورعه وتقواه ؛ وقيل له الحافى لأنه كان فى حداثته يمشى الى طلب العلم حافياً إجلالا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم

شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعى رقاقتان فيهما حلوى

قال : يا أبا نصر ! لو أطعمنا أنفسنا هذا ماخرجت السمكة ! اذهب كله أنت وعيالك

* * *

قال أحمد بن مسكين : وكنت من الجوع بحيث لو أصبتُ رغيفاً لحسبته مائدة أنزلت من السماء ، ولكن كلمة الشيخ عن السمكة أشبعتني بمعانيها شِبَعاً ليس من هذه الدنيا كأنما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة . وطفِقتُ أرددها لنفسى وأتأمل ما تفتُّق الشهواتُ على الناس ، فأيقنتُ أن البلاء إنما يصيبنا من أننا نفسر الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة ، فاذا استقر فى أنفسنا لفظ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به فى النفس كل معانيه من المعاصى والذنوب ، وأخذت شياطين هذه المعانى تحوم على قلوبنا فنُصبح مُهَيَّئين لهذه الشياطين عاملين لها ثم عاملين معها ، فتدخلنا مداخلَ السوء فى هذه الحياة وتُقْحِمنا فى الورطة بعد الورطة وفى الهلَكة بعد الهلكة . وما هذه الشياطين إلا كالذباب والبعوض والهوام ، لا تحوم إلا على رائحة تجذبها فان لم تجد فى النفس ما تجتمع عليه تفرقت ولم تجتمع ، وإذا ألمّت الواحدة منها بعد الواحدة لم تثبت . فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التى أفسدت علينا رؤيةَ الدنيا كما خلقت ، لكان للدنيا فى أنفسنا شكل آخر أحسن وأجمل من شكلها ، ولكانت لنا أعمال أخرى أحسن وأطهر من أعمالنا

فالشيخ لم يكن فى نفسه معنى لكلمة (التلذذ) ، وبطرده من نفسه هذا اللفظ الواحد ، طرد معانى الشر كلها وصلُح له دينُه وخلُصت نفسه للخير ومعانى الخير . ولو أن رجلاً وضع فى نفسه امرأةً يعشقها لصارت الدنيا كلها فى نفسه كالخدع ما فيه إلا المرأةُ وحدها بأسبابها اليه وأسبابه اليها

وقد كنتُ سمعتُ فى درس شيخنا أحمد بن حنبل هذا الحديث : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات ! فما فهمت والله معناه إلا من كلمة الشيخ فى السمكة وقد علّمنيها هذا الصياد العامى . فالشياطين تنجذب إلى المعانى ، والمعانى يوجدها اللفظ المستقر فى القلب استقرارَ غرض أو شهوة أو طمع ؛ فاذا خلا القلب من هذه المعانى فقد أمن منازعتها له وشغلها إياه فيصبح فوقها لا بينها ؛ ومتى صار القلب فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يُعميه ويعترضُ نظرَه إلى الحقائق ، انكشفت له هذه الحقائق فانكشف له الملكوت . فاذا وقع بعدُ فى واحدة من اللذات ولو (كالرقاقتين والحلوى) استعلت الأشياء عليه فحجبته ، وعاد بينها أو تحتها ، وعمىَ عمى اللذة ؛ والحجابُ على البصر كأنه تعليقُ العمى على البصر

وكنت لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضرب بين يدى المعتصم بالسياط حتى غُشى عليه (١) فلم يتحول عن رأيه ، فعلمت الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعل فى نفسه للضرب معنى الضرب ، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمى ؛ ولو هو صبر على هذا صبر الانسان لجزع وتحول ، ولو ضرب ضرب الانسان لتألم وتغير ؛ ولكنه وضع فى نفسه معنى ثبات السنة وبقاء الدين وأنه هو الأمةُ كلُّها لا أحمد بن حنبل ، فلو تحوّل لتحول الناس ولو ابتدع لابتدعوا ؛ فكان صبره صبر أمة كاملة لا صبر رجل فرد ، وكان يُضرَب بالسياط ونفسُه فوق معنى الضرب ، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير لما نالوا منه شيئاً إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه ، وكان الرجل هو الفكر ليس غير

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ولكنهم يرونها أمانات قد ائتُمِنوا عليها من الله لتبقى بهم معانيها فى هذه الدنيا ؛ فهم يُزرعون فى الأمم زرعاً بيد الله ولا يملك الزرع غير طبيعته ، وما كان المعتصم وهو يريد شيخنا على غير رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح : أثمرى غير التفاح

* * *

قال أحمد بن مسكين : أخذتُ الرقاقتين وأنا أقول فى نفسى : لعن الله هذه الدنيا ! إن من هوانها على الله أن الانسان فيها يلبس وجهَه كما يلبس نعله . فلو أن انساناً كانت له نظرة ملائكية ثم اعترض الخلقَ ينظر فى وجوههم لرأى عليها وحولاً وأقذاراً كالتى فى نعالهم أو أقذر أو أقبح ، ولعله كان لا يرى أجلَّ

(١) كان هذا فى سنة ٢١٩ وقد أرادوا الامام العظيم على القول بخلق القرآن فلم يقل به فأفتى القاضى ابن أبى دؤاد بقتله وشغب عليه . ثم ضرب بين يدى المعتصم ، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضربه

الوجوه التى تستهيم الناسَ وتتصبّاها من الرجال والنساء إلا كالأحذية العتيقة . . .

ولـكنى أحسست أن فى هاتين الرقاقتين سرّ الشيخ ورأيتهما فى يدى كالوثيقتين بخير كثير ، فقلت على بركة الله ومضيتُ إلى دارى ؛ فلما كنت فى الطريق لقيتنى امرأةٌ معها صبى فنظرت إلى المنديل وقالت : ياسيدى هذا طفل يتيم جائع ولا صبر له على الجوع فأطعمه شيئاً يرحمك الله ؛ ونظر إلىّ الطفل نظرةً لا أنساها حسبتُ فيها خشوعَ ألف عابد يعبـدون الله تعالى منقطعين عن الدنيا ، بل ما أظن ألفَ عابد يستطيعون أن يُروا الناس نظرةً واحدة كالتى تـكون فى عين صبى يتيم جائع يسأل الرحمة . إن شدة الهمّ لتجمل وجوه الأطفال كوجوه القديسين فى عين من يراها من الآباء والأمهات ، لعجز هؤلاء الصغار عن الشر الآدمىّ وانقطاعهم إلا من الله والقلب الانسانىّ ، فيظهر وجهُ أحدهم وكأنه يصرخ بمعانيه يقول : ياربّاه ياربّاه !

* * *

قال أحمد بن مسكين : وخيل إلى حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يُشبعُ هذا الطفلَ وأمه ، والناس عمىٌ لا يبصرونها ، وكأنهم يمرون بها فى هـذا الوطن مرورَ الحمير بقصر الملك ، لو سئلت فضلت عليـه الاصطبل الذى هى فيه . . .

وذكرتُ امرأتى وابنها وهما جائعان منذ أمس ، غير أنى لم أجد لهما فى قلبى معنى الزوجة والولد ؛ بل معنى هذه المرأة المحتاجة وطفلها ، فأسقطتهما عن قلبى ودفعت ما فى يدى المرأة وقلت لها : خذى وأطعمى ابنـــك ، ووالله ما أملك بيضاء ولا صفراء وإن فى دارى لمن هو أحوج إلى هذا الطعام ؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بى لتقدمت فيما يصلحك . فدَمَعت عيناها وأشرق وجه الصبى ؛ ولـكن طمّ على قلبى ما أنا فيه فلم أجد للدمعة معنى الدمعة ولا للبسمة معنى البسمة

وقلت فى نفسى : أما أنا فأطوى إن لم أصب طعاما ، فقد كان أبو بكر الصديق يطوى ستة أيام ، وكان ابن عمر يطوى ، وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم ؛ ولـكن مَن المرأة وابنها بمثل عقدى ونيتى ؟ وكيف لى بهما ؟

ومشيتُ وأنا مُنكَسِر منقبض وكأنى كنت نسيت كلمة الشيخ « لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة » فذكرتها وصرفتُ خاطرى إليها وشغلتُ نفسى بتدبرها وقلتُ : لو أنى أشبعتُ ثلاثة بجوع اثنين لحُرمت خمس فضائل (١) وهـذه الدنيا محتاجة إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلة محتاجة إلى مثل هـذا العمل ، وهذا العمل محتاج إلى أن يكون هكذا ، فما يستقيم الأمر إلا كما صنعت

وكانت الشمس قد انبسطت فى السماء وذلك وقتُ الضحى الأعلى ، فملت ناحيةً وجلستُ إلى حائط أفكر فى بيع الدار ومن يبتاعها ؛ فأنا كذلك إذ مرّ أبو نصر الصياد وكأنه مُستَطار فرحاً فقال : يا أبا محمد ما يجلسك ههنا وفى دارك الخير والغنى ؟ قلت : سبحان الله ! من أين خرجت السمكة يا أبا نصر ؟

قال : إنى لفى الطريق إلى منزلك ومعى ضرورةٌ من القُوت أخذتها لعيالك ودراهمُ استدنتُها لك ، إذا رجلٌ يستدلّ الناس على أبيك أو أحدٍ من أهله ، ومعه أثقال وأحمال ، فقلت له أنا أدلك ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنه عند أبيك . فقال : إنه تاجر من البصرة وقد كان أبوك أودعه مالاً من ثلاثين سنة فأفلس وانكسر المال ، ثم ترك البصرة إلى خراسان فصلُح أمره على التجارة هناك وأيْسَر بعد المحْنَة ، واستظهر بعد الخذلان ، وأقبل جَدُّه بالثراء والغنى فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلل فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه فى هذه الثلاثين سنة وإلى ذلك طرائف وهدايا

* * *

قال أحمد بن مسكين : وأنقلبُ إلى دارى فاذا مالٌ جمٌّ وحال جميلة ! فقلت : صدق الشيخ : « لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة » ؛ فلو أن هذا الرجل لم يلق فى وجهه أبا نصر فى هـذه الطريق فى هذا اليوم فى هذه الساعة لما اهتدى إلى ، فقد كان أبى مغمورا لا يعرفه أحد وهو حى ؛ فكيف به ميتاً من وراء عشرين سنة ؟

وآليت ليَعلمَنّ اللهُ شكرى هذه النعمة ؛ فلم تكن لى همةٌ

(١) يريد جوعه وجوع امرأته وجوع ابنه ، ثم شبع هـذه المرأة وشبع ابنها . فهذه خمس فضائل

إلا البحث عن المرأة المحتاجة وابنها فكفيتُهما وأجريت عليهما رزقاً ، ثم اتّجرت في المال وجعلت أربَه بالمعروف والصنيعة والاحسان وهومقبل يزداد ولا ينقص حتى نموّات وتأثّلات

وكأنى قد أعجبتني نفسي وسرّني أني قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتى ، ورجوت أن أكون قد كُتبت عند الله فى الصالحين ، فنمتُ ليلة فرأيتني في يوم القيامة والخلق يموج بعضهم فى بعض ، والهول هولُ الكون الأعظم على الانسان الضعيف يُسأل عن كل ما مسّه من هذا الكون . وسمعتُ لصائح يقول : يا معشر بنى آدم ! سَجَدَت البهائم شكرا لله أنه لم يجعلها من آدم . ورأيتُ الناس وقد وُسّعت أبدانهم فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقةً مجسّمة ، حتى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلها مُخزيات !

وقيل : وُضعت الموازين وجيء بى لوزن أعمالى . فجُعلت سيئاتى فى كفة وألقيت سجلات حسناتى فى الأخرى ، فطاشت السجلات ورجحت السيئات ، كأنما وزنوا الجبلَ الصخريَّ العظيم الضخم بلُفافة من القطن . .

ثم جعلوا يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كنت أصنعه فاذا تحت كل حسنة شهوةٌ خفيةٌ من شهوات النفس كالرياء والغرور وحب المَحْمَدَة عند الناس وغيرها فلم يسلم لى شىء ، وهلكتْ عنى حجتى ، إذ الحجة ما يُبينه الميزان ، والميزان لم يدلّ إلا على أنى فارغ

وسمعت الصوت : ألم يبق له شيء ؟ فقيل : بقى هذا

وأنظر لأرى ما هذا الذى بقى ، فاذا الرقاقتان اللتان احسنتُ بهما على المرأة وابنها ! فأيقنتُ أنى هالك ؛ فلقد كنت أحسن بمائة دينار ضربةً واحدة فما أغنت عنى ورأيتها فى الميزان مع غيرها شيئاً معلّقاً كالغمام حين يكون ساقطا بين السماء والأرض لا هو فى هذه ولا هو فى تلك

ووُضعت الرقاقتان وسمعتُ القائل : لقد طار نصفُ ثوابهما فى ميزان أبى نصر الصياد . فانخذلتُ انخذالاً شديداً حتى لو كُسرت نصفين لكان أخفّ علىّ وأهون . بيد أنى نظرت فرأيت كفة الحسنات قد نزلت منزلةً ورجحت بعض الرجحان

وسمعت الصوت : ألم يبق له شيء ؟ فقيل : بقى هذا

وأنظر ما هذا الذى بقى ، فاذا جوع امرأتى وولدى فى ذلك اليوم ! وإذا هو شيء يوضع فى الميزان ، وإذا هو ينزل بكفة ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلتا بالسّوّية . وثبت الميزانُ على ذلك فكنت بين الهلاك والنجاة

وأسمع الصوت : ألم يبق له شيء ؟ فقيل بقى هذا

ونظرت فاذا دموع تلك المرأة المسكينة حين بكت من أثر المعروف فى نفسها ومن إيثارى إياها وابنها على أهلى . ووُضعت تَغرْغَرَة عينيها فى الميزان ففارت فطمّت كأنها لجّةٌ من تحت اللجة بحر . وإذا سمكةٌ هائلة قد خرجت من اللجة وقع فى نفسى أنها روح تلك الدموع ، فجعلت تعظم ولا تزال تعظم ، والكفة ترجح ولا تزال ترجح ، حتى سمعتُ الصوت يقول : قد نجا !

وصحت صيحةً انتبهتُ لها فاذا أنا أقول : لوأطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

أساليب الكفاح الدولى

بين الأمس واليوم

بقلم باحث دبلوماسى كبير

تثير المشاكل العسكرية والسياسية العالمية الحاضرة كثيراً من التأملات ؛ وأول ما يلاحظ فيها أن أساليب الحرب والكفاح المادية بين الدول قد طرأ عليها تغيير جوهرى حاسم ، هذا بينما نرى أساليب الكفاح السياسى تقوم فى جوهرها على نفس الأسس التى قامت عليها منذ قرون ، ويكفى أن نرجع إلى عشرين عاما فقط ، أعنى إلى الحرب الكبرى ، لنرى إلى أى مدى هائل تطورت أساليب الحرب ؛ ففى أثناء الحرب الكبرى كانت الحرب الجوية لا تزال فى بدايتها ، وكانت المخترعات والأسلحة الجديدة المهلكة مثل الغازات السامة والدبابات لا تزال فى دور التجربة ، ولم يعلم يومئذ مبلغ فتكها أو أثرها فى تطور أساليب الحرب . أما اليوم فقد غدت الأساطيل الجوية أروع وأفعل وسائل الحرب السريعة المهلكة ، وغدت الغازات السامة سلاحاً يعتمد عليه ويحسب حسابه ويتحوط لدرئه والوقاية منه فى جميع الأمم المتمدنة ؛ وغدت الدبابات الضخمة وحدة فنية ثابتة فى معظم الجيوش الكبرى ؛ وهذه أمثال فقط مما ذاع وعرف من أسلحة الحرب المعاصرة ، ولكن لا ريب أن هنالك أسلحة ووسائل مهلكة أخرى لم تعرف ولم تذع بعد ، وإن كنا نسمع عنها بعض الروايات الغريبة المدهشة ، ومن المحقق أنها يوم تنشب حرب عالمية جديدة ، أو حرب طاحنة بين دولتين عظيمتين ، ستقع على العالم وقع الصواعق ، وتحدث ثورة جديدة هائلة فى أساليب الحرب والقتال

ونرى من الجهة الأخرى منظراً غريباً من مناظر الكفاح الدولى الحديث هو العقوبات الدولية ، فهنالك اليوم زهاء خمسين دولة من دول العالم ، وبينها عدة من الدول العظمى ، تبحث فى جنيف فى فرض عقوبة جديدة على ايطاليا تكون حاسمة فى وقف اعتدائها على الحبشة ، وذلك بعد أن فرضت عليها العقوبات الاقتصادية الاجتماعية وأحدثت فى شؤونها الداخلية والاقتصادية أزمات ومتاعب شديدة ؛ وهذه العقوبة الجديدة تنحصر فى حظر تصدير البترول والحديد والفحم إلى ايطاليا ، والمقدر أن تنفيذ هذه العقوبة يكون ضربة قاضية على المغامرة الايطالية فى الحبشة ، وأنه يؤدى سريعاً إلى شل الحركات العسكرية الايطالية ، لأن ايطاليا تعتمد على الخارج فى استيراد هذه المواد الحيوية اللازمة لتموين أسطولها وطياراتها ودباباتها ، وكل حركاتها ومشاريعها العسكرية ؛ وحرمانها من هذه المواد يقضى على كل هذه المشاريع والحركات ، ويجعل من أساطيلها وطياراتها ودباباتها قطعاً من الحديد والصلب لا حياة فيها ؛ ثم نرى الدول تذهب فى تفكيرها إلى أبعد من ذلك ، فتقدر أن ايطاليا قد استوردت من هذه المواد ما يكفيها زمناً ، أو أنها ستظفر على أى حال باستيراد البترول من إحدى الدول التى لا توافق على حظره ، فتفكر فى وسيلة أخرى هى حظر نقل البترول إلى ايطاليا على سفن الدول المشتركة فى توقيع العقوبات ، وهذه الدول محدودة معروفة ، وايطاليا لا تملك من سفن نقل البترول ما يكفى لاستيراد ما تبغيه

فهذه وسائل جديدة مبتكرة فى ميدان الكفاح الدولى ؛ ولكنها لا تخلو من روح القديم أيضاً ، بل لا تخلو من وسائله ، فهى فى الواقع نوع من الحصار السلمى العام ، وهى تؤدى إلى نفس النتائج التى يؤدى إليها الحصار العسكرى أو البحرى ، وكل ما هنالك أنه قد أسبغ عليها تأييد دولى عام يجعلها بعيدة عن صفة النضال الشخصى أو المباشر ؛ ويقدم إلينا التاريخ الحديث مثلا من هذا الحصار العام الذى يراد به إذلال دولة أو سحقها بالوسائل الاقتصادية ، وهو القرار الشهير الذى أصدره نابوليون فى سنة ١٨٠٦ والذى يعرف بقرار برلين نسبة إلى البلد الذى صدر فيه ؛ فهذا القرار يقضى بوضع الجزائر البريطانية فى حالة حصار تام ، وبان تقطع فرنسا وجميع الأمم التابعة لها جميع علائقها الاقتصادية والمالية مع انكلترا ، وأن تقفل جميع الثغور الفرنسية وثغور الأمم التابعة لها فى وجه السفن البريطانية ؛ وكان نابوليون يرمى بتنظيم هذا الحصار الاقتصادى المطبق إلى سحق تجارة انكلترا التى هى سر عظمتها وغناها بعد أن عجز عن مكافحتها بالوسائل العسكرية ؛ ولكن انكلترا أجابت

على هـذا الحصار بتنظيم المقاطعة التجارية والبحرية ضد فرنسا واتخاذ الاجراءات الانتقامية المماثلة ؛ وقد عانت انكلترا مدى حين آثار هذا الحصار المرهق ، ولـكن فرنسا عانت أيضا من آثاره ؛ ولم يوفق نابوليون إلى تحقيق غايته ، إذ كانت سياستـه قائمة على الغايات والاعتبارات الشخصية ، ولم تفز بنوع من التأييـد الدولى العام ؛ ومن الواضح أن العقوبات الاقتصادية التى توقعها الآن عصـبة الأمم على ايطاليا تقوم على فكرة مماثلة فى القصد إلى اضـعاف الدول المتدية (ايطاليا) وإخضاعها بالوسائل الاقتصادية ، وهى وسائل فعالة فى عصرنا ، ولـكن الفرق بين قرار برلين ، وقرار عصبة الأمم أن قرار العصبة يفوز بما يشبه الاجماع الدولى ، وبذلك يتخذ طابعاً دولياً عاما بدلا من أن يتخذ طابع الـكفاح الشخصى بين دولتين ، ويغدو أثره أشد وقعاً وفعلا

أما وسائل الـكفاح السياسى الذى يضطرم اليوم فى أوربا ، والذى يراد أن يمهد به للصراع الحربى المقبل ، فما زالت تقوم على نفس الأسس التى عرفتها أوربا منذ قرون . وقد مرت عقب انتهاء الحرب الـكبرى فترة لاح للعالم فيها أن وسائل الـكفاح الدولى القديمة قد عفت ، وأن العالم سوف يستقبل عهد جديدا من الوئام والتفاهم الدولى ، وأن المنازعات الدولية يمكن أن تسوى بالوسائل السلمية مثل التحكيم أوالالتجاء لمحكمة دوليـة عليا ؛ وكان للعالم عذره فى هذا الاعتقاد وهو يرى عصبة الأمم ومثلها العليا ، ومواثيق السلام وعدم الاعتداء يتوالى عقدها منذ ميثاق لوكارنو ، ثم يرى ميثاقا يعقد بتحريم الحرب ونبذها كأداة للسياسة القومية وتنضم اليه أسرة الدول الـكبرى كلها ؛ ولكن سرعان ما تبدد هـذا الحلم ، وارتفع الطلاء الخلب الذى كان يغشى هذه المظاهر والدعاوى ، وبدت السياسة الدولية فى ثوبها الحقيقى القديم ، قائمة على نفس الأسس القديمة التى تدفع أوربا ما بين آونة وأخرى إلى معترك الحروب القومية الـكبرى

أما هذه الأسس التى يقوم عليها معـترك السياسة الدولية اليوم . فهى اعتبارات السياسـة والخصومات والمطامع القومية القديمة ، والتوازن الأوروبى القـديم ، الذى يقسم القارة الى كتل سياسية وعسكرية متشادة متكافئة ، لا تكاد تهم احداها بالتفوق حتى تناهضها أخرى أقوى وأكثر تحفزا ؛ وقد كانت السياسة القومية القديمة تلعب دورها من وراء الستار دائما حتى إبان ازدهار الدعوة الى السلام والتفاهم الدولى ؛ أما اليوم وقد اضمحلت هـذه الدعوة وانهارت المواثيق السلمية التى عقدت باسمها وفى ظلها ، فان السياسة القومية تسيطر فى ميدان النضال الدولى بصورة ظاهرة غـير منكورة ؛ وأوربا القديمة تتجاذبها اليوم عدة جباه سياسية وعسكرية خصيمة ؛ وإذا كانت هذه الجباه قد تغيرت أوضاعها عما كانت عليه قبل الحرب الـكبرى لتغير فى الأوضاع السياسية والجغرافية التى ترتبت على الحرب ، فانها ما زالت تحتفظ فى جوهرها بهيكلها القـديم ؛ فالخصومة الفرنسية الألمانية مازالت محور التجاذب السياسى والعسكرى فى أوربا ، وحول هذه الخصومة تجتمع القوى المختلفة ؛ فروسيا الشـيوعية لأنها تخشى ألمانيا الهتـلرية تجنح اليوم الى الجبهة الفرنسية ، بعد أن كانت تجنح من قبل الى الجبهة الألمانية ؛ وفرنسا تحاول أن تستبقى الى جانبها جميع حلفائها بالأمس ؛ أعنى بريطانيا العظمى وبلجيكا وايطاليا ؛ وهى تبـذل فى سبيل استبقاء صـداقة ايطاليا جهودا واضحة ، ولا ترى بأساً من أن تمالئها فى مشروع اعتـدائها على الحبشة لأنها تخشى إن هى سلـكت سبيلا آخر أن تلقى بايطاليا فى أحضان ألمانيا ، وألمانيا رابضة متربصة تحاول أن تحدث هذه الثغرة فى الجبهة الخصيمة ؛ ثم إن فرنسا من جهة أخرى تبذل نفوذها فى تسيير دول الاتفاق الصغير — يوجوسـلافيا ، ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا — نحو الغاية التى تعمل لها دائما ، وهى احاطة ألمانيا بسياج قوى من الدول الخصيمة ؛ والواقع أن ألمانيا ما زالت تشـعر أنها بأزاء هذه الحركة تقع فى نوع من العزلة السياسية والعسكرية يدفعها إلى البحث عن أنصار وحلفاء ، وهى قد استطاعت أن تسلخ بولونيا من أحضان فرنسا ، ولكن بولونيا ليست قوة كبرى يعتد بها ؛ أما بريطانيا العظمى ، فهى تشق سـبيلها فى هذا المعترك ، إلى جانب فرنسا فى الغالب ، ولـكن دون خصومة ظاهرة لألمانيا ؛ وهى تخاصم اليوم ايطاليا من أجل المسألة الحبشـية ومطامعها الاستعمارية فى شرق أفريقيا ، ولـكنها تحاول أن تجتذب فرنسا الى جانبها فى هذه الخصومة ، وقد استطاعت أن تحرز بعض النجاح فى هذا السبيل

والخلاصة أن المترك الدولى فى أوربا يقوم اليوم على نفس الأسس القديمة التى كان يقوم عليها قبل الحرب الكبرى : السياسة القومية ، والتوازن الأوروبى السياسى والعسكرى ؛ وإذا لم يكن هذا التوازن قد استقر الآن بصورة فعلية فانه يسير فى سبيل الاستقرار ، ومتى تم هذا الاستقرار استطعنا أن نعين المعسكرات الخصيمة التى تشترك فى الحرب الأوربية القادمة ؛ وإذا قلنا الحرب الأوربيـة فانما نعنى الحرب العالمية ، لأن التوازن الأوربى هو أساس التوازن العالمى ؛ وليس فى العالم بعد أوربا قوة يعتد بقوتها السياسية والعسكرية غير اليابان وأمريكا ؛ فأما اليابان فانها تتخذ لنفسها موقفا خاصا ، ولا يمكن تصورها متحدة مع أية دولة أوربية فى ميدان غير الشرق الأقصى ، وأما أمريكا فانه يصعب تصورها ملقية بنفسها فى غمر المعركة الأوربية مرة أخرى ، ومن المحقق أيضا أن الذى يقود أوربا الى ميادين الحرب أو السلام هى نفس الدول التى قادتها إلى الحرب الكبرى وهى المانيا وفرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى وإيطاليا

وهنالك عنصر لا يمكن اغفاله فى تطور هذا المترك ، هو عنصر الدبلوماسيـة السرية ؛ وقد بلغت الدبلوماسية السرية ذروتها قبيل الحرب الكبرى وفى خلالها ، وكانت مبعث طائفة من المفاجآت والتطورات الخطيرة التى غيرت مصاير الحرب ، ولم ينقطع هذا العنصر السرى فى الدبلوماسية الأوربية عن العمل فى أى وقت ، ولكنه هدأ قليلا عقب الحرب ، أمام اضطرام صيحات السلام والتفاهم الدولى ؛ بيد أنه يستعيد الآن كل أهميتـه القديمة ، وإذا لم يكن من المستطاع أن نتلمس آثاره الآن فى المترك الأوربى ، فانه بلا ريب سيحدث أثره فى الوقت المناسب . وعلى أى حال فان السياسة الصريحة لم تكن يوما عماد دول عسكرية استعمارية مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا وروسيا ؛ وقد رأينا كيف لعبت المساعى السرية دورها فى سلخ إيطاليا عن التحالف الثلاثى أثناء الحرب الكبرى لمثل هـذه المساعى يبذل اليوم من جميع النواحى ، وإيطاليا ما زالت تقف بين الخصمين القديمين — ألمانيا وفرنسا — فى مفترق الطريق ؛ ولا ريب أن المستقبل فياض بمختلف التطورات والمفاجآت

(* * *)

الاستعمار والتعليم*

للأستاذ ساطع بك الحصرى

مدير التعليم العام بوزارة المعارف العراقية

عند ما طلب إلىّ نادى المعلمين إلقاء محاضرة عامة فى هذه القاعة خطرت على بالى موضوعات عديدة ، اخترت منها موضوع « الاستعمار والتعليم » ولما ذكرت هذا الموضوع فى حديث لأحد أصدقائى اعترضنى بقوله : « لم اخترت هـذا الموضوع وقد تخلصنا من شبح الاستعمار ؟ » فقلت له حقاً لقد تخلصنا من الاستعمار ولكن بلادنا فى اتصال ببلاد لا تزال تلعب فيها أيدى الاستعمار . ولا يسوغ لنا وهذه هى الحال أن نتغاضى عما يضمره الاستعمار من الكيد للأمم المستضعفة ؛ زد على ذلك أن للاستعمار أساليب خداعة ، فقد عرف المستعمرون كيف يدسون أساليبهم هذه تحت أستار جذابة قد تفوت المرء لأول مرة قبل أن ينفذ إلى دقائقها . وأخشى أن بعض هذه الأساليب قد يصل إلينا ويتسرب إلى أذهاننا وينخر فى جسمنا من غير أن نشعر به ونتنبه إلى منابعه . لذلك وجب علينا كأمة فتحت عينيها للحياة أن تهتم بهذه المباحث وتمعن فى درسها

لقد أخذ الأوربيون بعد الحرب العظمى يهتمون بسياسة التعليم تنفيذاً لأغراض الاستعمار . وقد عقدوا مؤتمرات عديدة — بعضها قومية وبعضها أممية — للمداولة فى هذه الشؤون ؛ وخليق بنا أن ندرس سياسة الاستعمار من حيث علاقتها بالتعليم ؛ ولهذه الملاحظات جئت أتحدث إليكم هذا المساء عن « الاستعمار والتعليم »

* * *

تعلمون أيها السادة أن كل نظام تعليمى يتكيف عادة بمطالب السياسة العامة ، لذلك لابد لنا ونحن نبحث هذا الموضوع أن نعرف أهداف الاستعمار لنصل إلى أهداف السياسة التعليمية فيه . فلننظر ما هى غاية الاستعمار

لقد اعتاد علماء الاجتماع أن يقسموا المستعمرات إلى ثلاثة

* نص المحاضرة القيمة التى ألقاها الأستاذ ساطع بك الحصرى ببغداد فى الأسبوع الماضى

أصناف أساسية من حيث الغايات المتوخاة من الاستعمار وهي : (١) مستعمرات الاتجار (٢) مستعمرات الاستغلال (٣) مستعمرات الاستيطان

يبدأ المستعمرون عادة بالاستعمار التجاري ، فيختارون ميناء أو نقطة جغرافية مهمة في بلاد ما ، فيؤسسون فيها مستعمرة صغيرة يتخذونها مركزاً للاتجار ، ومن هذا المركز يعقدون صلاتهم مع داخل البلاد ، فيعملون بذلك على احتكار تجارتها ، دون أن يستولوا على داخليتها . فغايتهم من هذه المستعمرة تنحصر في « الاتجار » ، غير أنهم كثيراً ما لا يقفون عند هذا الحد بل يتغلغلون في داخلية البلاد ، ويستولون على جميع منابع الثروة الموجودة فيها ، وهم في هذا السبيل لا يكتفون بتأسيس ما تحتاج إليه التجارة من مؤسسات ، بل يتوسعون في مؤسساتهم داخل البلاد ويستولون على كل ما يجب الاستيلاء عليه لاستغلال مرافقها . فالغاية الأصلية من مثل هذه المستعمرات تكون « الاستغلال »

غير أن بعض المستعمرين لا يكتفون بذلك أيضاً ، فانهم لا يقصرون حظهم على استغلال المرافق الاقتصادية والثروة ، وإنما يرمون أحياناً إلى تركيز سياسة الاستيطان جاعلين من البلاد التي يستعمرونها وطناً جديداً لأبناء جلدتهم . وهذا أهم أنواع الاستعمار وأشدها خطرا

وهذه الأنواع لا يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كلياً لأن كثيرا ما يحول جشع المستعمرين البلاد التي يستعمرونها من شكل الى شكل آخر من الأشكال الثلاثة التي ذكرناها

ان أبرز الأمثلة على « مستعمرات الاتجار » هي المستعمرات التي أحدثها الأوربيون في سواحل الصين . أما أحسن الأمثلة على « مستعمرات الاستغلال » فهي الهند حيث تغلغل الانكليز وكانت أغراضهم الأولية استنزاف المنافع الاقتصادية من تلك البلاد الغنية المترامية الأطراف . وأما أوضح النماذج لمستعمرات الاستيطان فنجده ماثلا في كندا وأوستراليا حيث اتخذ المهاجرون من الانكليز وغيرهم وطناً جديداً لهم فيها

وقد يتطور الاستعمار في بعض المستعمرات من طور الى آخر . مثال ذلك تحول الاستعمار في الهند من شكل الاتجار الى شكل الاستغلال ، وتطور الاستعمار في كندا وأوستراليا من الاستغلال الى الاستيطان ، ونجد بعض المستعمرات ينفذ الاستعمار فيها بشكلين في وقت واحد . فقد حل الفرنسيون الجزائر مستعمرين لاستغلالها ، ثم ما لبثوا أن أخذوا يرمون الى سياسة الاستيطان في بعض أقسام الجزائر كما هو واقع

ان الغايات الثلاث التي ذكرناها هي الغايات الأساسية التي عملت عملها في تأسيس المستعمرات . غير أن المستعمرين أخذوا يتوخون من الاستعمار غايات أخرى لا تقل أهمية عنها . منها الغاية العسكرية ، فبعض الدول تقصد من وراء استعمارها بلدا ما ايجاد قواعد ارتكاز وحركة لجيشها وأسطولها ، وبعض الدول لا تكتفي بذلك بل تعمل على ايجاد جنود من أهل البلاد المستعمرة تضيفه الى جيشها معززة به قواتها المحاربة ؛ وقد تجلت هذه المطامع في الحرب الكبرى ، اذ حاولت كل دولة من الدول الاستفادة الى أقصى حد ممكن من مستعمراتها ، فلم تكتف باستنزاف الثروة منها واستغلال خيراتها لمعيشة جنودها ، بل عملت على أخذ أفراد من أهالي المستعمرات زادت بهم جيشها

واني لأذكر المارشال « ليوتي » الذي يعتبره الفرنسيون مؤسساً للامبراطورية في إفريقية الشمالية ، وقد أسهب هذا القائد الكبير في الخطبة التي ألقاها عند دخوله عضواً في الأكاديمية الفرنسية في وصف « فوائد المستعمرات للجيش » واعترف بأن أبناء المستعمرات الذين جندوا في خلال الحرب العالمية قد وفروا على فرنسا بما قدموه من تضحيات بأرواحهم ملايين من الأنفس الفرنسية »

وزيادة على ذلك فقد بين المرشال ليوتي في خطبته أن فرنسا استفادت من مدرسة المستعمرات استفادة كبيرة من جهة « تكوين الضباط والقواد » أيضاً ، لأن جل قوادها الذين بلغوا بها إلى النصر الأخير قد نشأوا في بيئة المستعمرات ، وشب كبار رجالها على المعيشة في البلاد المستعمرة فنشأوا خير نشأة لأن حياة المستعمرات تربي في المستعمر الناشئ القوة المعنوية التي هي دعامة من دعامات الجيش . فالقادة المستعمرون في بلاد الاستعمار يضطرون إلى التذرع بالحزم والتدرب على اتخاذ القرارات الآنيَّة وهم بذلك يتكونون رجالا أشداء في عقولهم وأخلاقهم

ان الكتاب والمفكرين من رجال الاستعمار لا يقفون عند هذا الحد فى تعداد فوائد المستعمرات ، بل يسترسلون فى شرح فوائدها المعنوية أيضا ، فيقولون إن المستعمرات لا تكون للدولة المستعمرة مناجم ثروة مادية فحسب ، بل هى مباءة استغلال للقوة المعنوية أيضا ، إذ تجد هذه الأمم فى المستعمرات مجالا واسعا للجد والنشاط والاقدام فيزدهر أملها المرجو فى المستقبل . فان الأمم القانعة بحدودها تعتاد التراخى والكسل ، بينما تغير المستعمرات نفسية الأمة وتخلق فيها نشاطا حيا وآمالا جديدة ؛ ويمكننا أن نشبه تأثير المستعمرات فى نفسية الأمم بتأثير الأولاد فى نفسية العائلات ، فالولد ينشئ للعائلة أمل المستقبل ويحملها على العمل ، وكذلك المستعمرة تقدم للأمم المستعمرة دافعا جديدا للحياة والكفاح

***

بعد أن ألقينا هذه النظرة العامة على غايات الاستعمار ومراميها نستطيع أن ننتقل الى بحث « سياسة التعليم » فى الاستعمار

إن هذه السياسة تتجلى فى ثلاثة أنواع من المعاهد التعليمية

أولا — المعاهد التى يؤسسها المستعمِر فى وطنه الأصلى لخدمة الاستعمار

ثانيا — المعاهد التى يؤسسها المستعمر فى المستعمرات لتربية أبنائه

ثالثا — المعاهد التى يؤسسها فى المستعمرات لتربية أولاد الأهلين فى القطر المستعمَر

فالنوع الأول من المعاهد التعليمية الاستعمارية سيبقى خارجاً عن نطاق بحثنا هذا ، أما النوع الثانى من المعاهد التعليمية التى ينشئها المستعمر فى المستعمرات لتربية أولاده فهى أيضاً لا تستدعى اهتمامنا كثيراً لأنها تشبه بوجه عام المعاهد التعليمية التى تنشأ فى الوطن الأصلى ولا تختلف عنها إلا من حيث زيادة بعض الدروس لاعداد أولاد المستعمرين للقيام بأعمال استعمارية

والمهم أن ندقق فى النظم التى يرسمها المستعمر لتعليم أولاد الأهلين فى المستعمرات وأن نستعرض السياسات المختلفة التى ابتدعت فى ذلك . إن أقدم هذه السياسات كانت السياسة السلبية فى التعليم ، وهى تتلخص فى عدم تعليم أحد من أبناء الأهلين ، وقد ترمى إلى بذل الجهد فى محو المتعلمين ، وهذه سياسة تجلت بوضوح تام فى أوائل القرن التاسع عشر فى أمريكا

ففى أمريكا الجنوبية عندما ثار الأهلون على المستعمرين الاسبانيين كتب القائد العام إلى مليكه يبشره بانتصار جيشه فى إحدى المعارك ، وكان مما قال فى تلك الرسالة التاريخية : « إنه عامل المتعلمين من أبناء البلاد معاملة العصاة وقضى عليهم قضاء وحاكم محوا ، وإنه استأصل بهذه الصورة فكرة التمرد والعصيان من جذورها استئصالا تاماً » . وحتى فى أمريكا الشمالية مثلا كان يحظر فى الولايات المتحدة الأمريكية تعليم الزنوج القراءة والكتابة ؛ وكان كل أبيض يعلم زنجياً يعاقب بالحبس والجلد . وعلى هذا المنوال كانت سياسة الاستعمار فى التعليم بادىء ذى بدء فى موقف عدائى مطلق تسعى إلى عدم التعليم ، وتعمل على محو المتعلمين

غير أن سياسة الاستعمار لم تستطع الاستمرار على هذه الخطة السلبية ولا سيما فى المستعمرات الاستغلالية ؛ لأن المستعمرين وجدوا أنفسهم فى تلك المستعمرات فى حاجة شديدة إلى الاستعانة بأهالى البلاد لاستغلال المرافق الاقتصادية والثروة الطبيعية ، وشعروا بضرورة تعليمهم لاعدادهم لتلك الأعمال ، ولذلك أخذوا يؤسسون معاهد التعليم فى المستعمرات ؛ وكان العامل الأساسى لتأسيس هذه المعاهد تخريج طائفة من أهالى المستعمرات يخدمون المستعمر فى مصالح الحكومة والشركات ؛ وفى المشروعات المختلفة التى تتطلبها مقاصد الاستغلال والاستعمار ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فكر بعض المستعمرين فى مسألة التعليم تفكيرا آخر فذهبوا إلى أنه يجب أن يرافق الفتح السياسى فتح معنوى ، بحيث يتقرب أهالى المستعمرات من المستعمرين إلى أن يندمجوا فيهم اندماجاً ، وقد فكروا فى سبيل تحقيق هذا الغرض أولا بنشر لغة المستعمر ، وثانياً بتعليم أهالى المستعمرات تعليما ينشىء فى نفوسهم حب المستعمر فيستسلمون له عن طواعية

وقد برز النوع الأول من سياسة الاستعمار أكثر وضوحاً فى الهند فى ظل الاستعمار الانكليزى ، كما تجلى النوع الثانى فى الجزائر بالاستعمار الفرنسى

وكان الفرنسيون يأملون من سياستهم هذه تقريب المستعمرين اليهم ، وظنوا أنهم بنشرهم لغتهم بينهم واشرابهم ثقافتهم يغرسون حبهم فى قلوب الأهلين ، لذلك جعلوا اللغة الفرنسية محوراً لكل درس فى مناهجهم ، وقالوا بصراحة إن المدرسة يجب أن تكون قبل كل شيء معهداً لتعليم اللغة الفرنسية ؛ وكذلك اهتموا بمناهج الأخلاق فى المدارس لتعليم أولاد المستعمرات كل ما يحبب الأهلين فى الفرنسيين ، فنجد فى مناهج الأخلاق فى مدارس الجزائر مثلا قسما خاصاً فى واجبات الأهلين نحو فرنسا ، يشغل حيزا مهماً بين الواجبات الأساسية كالواجبات نحو الله ، والواجبات نحو الناس . ومما جاء فى هذا المنهج « ما يترتب على أهل الجزائر من الواجبات نحو فرنسا ، مقابل الحماية التى تسديها اليهم والعدل الذى أدخلته الى بلادهم ، والأمن الذى نشرته فى ربوعهم ، ونعم التعليم والحضارة التى أغدقتها عليهم . . . الاحترام الذى يجب أن يشعروا به نحو من يدير البلاد باسم فرنسا ، والاحترام الذى يجب أن يظهروه نحو العلم الفرنسى »

وهكذا نجد الاستعمار بعد أن ترك السياسة السلبية فى التعليم التى وصفناها سلك طريقاً آخر يمكننا أن نسميه : « التعليم لتسهيل عمل الاستعمار »

***

على أن التجارب القاسية لقصر التعليم على خدمة الاستعمار وحده قد أسفرت عن نتائج سيئة إذ ما عتمت أن أحدثت رد فعل عند أولاد المستعمرات فقد تغيرت أحوالهم بعد مدة قليلة أو كثيرة من تخرجهم من المدارس ، وبدلا من أن يكونوا مطبوعين على حب المستعمر يتفانون فى سبيل خدمته وفق الثمرة التى كانت مرجوة من التعليم الاستعمارى، أصبحوا على نقيض ذلك يكرهونه ويكافحونه . فأسقط فى أيدى المستعمرين وطفق ساستهم وعلماؤهم يفكرون فى الموضوع ويدرسونه فيجدون أنفسهم كلما أمعنوا فى تعليم أولاد المستعمرات بطرائق تضمن محبة الأهلين لهم ، تذهب الجهود سدى ، إذ لا يلبث أكثر هؤلاء الأولاد بعد تخرجهم أن يقلبوا للمستعمِر ظهر المجن ، ففكر علماء المستعمرين فى هذه المعضلة فوجدوا أن هذه نتيجة طبيعية ، لأن ابن المستعمرات إذا ما قرأ تاريخ الأمة المستعمرة ودرس الثورات وقف على مطالب الشعب من الحكومة يتحمس بهذا الحس برغم أنف المستعمر فيشب راغبا فى تطبيق مادرسه . وهكذا تطورت آراء المستعمرين فى سياسة التعليم ووقعوا فى حيرة مربكة لا يدرون ماذا يفعلون

هل يركنون فى المستعمرات إلى عدم التعليم ؟ ولكنهم يعلمون أن عدم التعليم لا يمكنهم من استغلال البلاد المستعمرة ، إذ يجبر المستعمر فى تلك الحالة على ممارسة الاستغلال فى المستعمرات بقواه الذاتية فيضطر الى الاتيان بالعمال من وطنه الأصلى وهو لا يجد فى أمته العدد الكافى منهم ، وإذا وُجد فاستقدامهم إلى المستعمرات وتشغيلهم فيها يكلفه كثيراً فيغدو للمنتوج الاقتصادى أغلى سعراً بحيث لا يستطيع أن ينافس منتوجات غيره فى الأسواق العالمية ، ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يكون العامل مفيداً فى أى عمل ما لم يكن قد أخذ بنصيب من التعليم فى عصر الصناعة الذى نعيش فيه

وقد ظل المستعمرون فى حيرة من هذه المشكلة : التعليم فى المستعمرات يؤدى الى ثورة الأهلين عليهم ، وعدم التعليم فى المستعمرات يعيقهم عن الاستغلال ؛ ففكروا كثيراً وأخيراً وجدوا ضالتهم بطريقة مبتكرة فى سياسة التعليم وهى : « التعليم بغير تثقيف » . فقالوا نعلم أولاد المستعمرات من غير أن نثقفهم . نعلمهم تعليما ضيقاً جداً يجعلهم آلات صماء فى أيدى الاستعمار . وقد بذلت الدول المستعمرة جهودها فى وضع نظام للتعليم على هذا الأساس ، بجعل التعليم وسيلة ميكانيكية بحتاً إذ يكون لغايات محدودة معينة بدون أن يدخل على هذا التعليم أى عنصر من عناصر الثقافة العامة . وقد تفننوا فى إيجاد هذه الأساليب وابتكار طريقة خبيثة لتدريب أبناء المستعمرات على أن يكونوا مسامير فى صفحة خشبية ، أو عجلات فى آلة ميكانيكية ، محرومين من أى لون من ألوان الثقافة العامة

وهكذا اتفقت سياسة الاستعمار التعليمية على وجوب الأخذ بالتعليم بدون تثقيف ، وهذا آخر ما وصلوا اليه لحل معضلة التعليم فى المستعمرات . وقد بدأ المستعمرون من يوم تفتحت قرائحهم بهذا الابتكار يجاهدون فى تحقيق غاياتهم ، وقد أرادوا أن يموهوا على الناس ويستروا مقاصدهم الملومة تحت أستار حيل مختلفة ، فقالوا بأن هذا النوع من التعليم الابتدائى والعملى

هو الذى يفيد أولاد المستعمرات أنفسهم ؛ وادعوا بأن التعليم الثانوى والعالى وكل نوع من أنواع التعليم الأوربى يضير الأهلين ؛ وقد بذلوا جهوداً عظيمة ليقنعوا الأهلين بذلك ، وقاموا بدعايات كثيرة نشروها لبث هذه الفكرة وتوجيه الأمم المستعمرة الى هذا الضرب من التعليم

مع هذا جابه المستعمرون مشاكل كبيرة : جوبهوا بحقيقة مرة وهى تعذر السيطرة التامة على التعليم فى المستعمرات ، اذ فى وسع ابن المستعمرات الذى يرغب فى التعليم ولا يجد فى بلاده العلم الذى يريده أن يقصد الى بلد آخر فى طلب العلم

ويجدر بنا أن نذكر فى هذا الصدد المناقشات التى جرت فى ايطاليا لمعالجة مسألة التعليم فى طرابلس الغرب ، فعند ما أقدموا على الغاء المدارس الثانوية والعالية والدينية قال أحد رجال التربية فى روما خلال مناقشة لهذا الموضوع : إنني لا أوافق على الغاء هذه المدارس ، اذ يجب أن نعلم أننا اذا ألغينا هذه المدارس لا نستطيع أن نمنع الذين يريدون الذهاب من أبناء طرابلس الغرب الى الجامعة الزيتونية فى تونس أو الجامع الأزهر فى مصر ، وهؤلاء الشبان يحتكون هناك بشبان من أمم مختلفة ويتلقون ثقافات واردة من أنحاء العالم ويرجعون بأفكار أشد وبالا على سياستنا الاستعمارية . فخير من إلغاء هذه المدارس إذاً أن نحدد التعليم فى داخل طرابلس الغرب لنؤسس مدرسة عالية نحدد تعليمها ونجعل النشء مرتبطين بها فلا يضطرون الى السفر الى الخارج فى طلب العلم ويعودون الى بلادهم وقد تسممت أفكارهم كما قلت

ان الخطط التى وضعها المستعمرون فى هـذا الباب مختلفة باعتبار المشاكل المديدة التى يريدون حسمها فيعمدون لتحقيق كل مأرب من مآربهم بخطة منها . ومما يلفت النظر انتباههم الى أمر انتقال الطلاب من أبناء المستعمرات من بلد الى آخر حيث يقتبسون آراء جديدة ويستلهمون نزعات حديثة ، لذلك عمدوا الى تدابير يقدرون من ورائها فصل الأقطار عن بعضها لجعلها مختلفة اللغة

فقد أخذ الفرنسيون فى المغرب يفرقون بين البربر والعرب وغيرهم بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية حتى يجعلوهم بعيدين عن التأثر بالمدارس التى تدرس العربية أو ما يكتب بهذه اللغة فى الأقطار الأخرى

وهناك فكرة أحيت بعض الأمل فى نفوس المستعمرين وهى السعى لنشر اللغة العامية ، وهذه الوسيلة تباعد بين الأقطار العربية وتسهل على المستعمرين أغراضهم . وقد بثوا لهذه الفكرة دعايات منوعة : دعايات بدأها المستعمرون فانطلت مع الأسف على بعض أبناء البلاد المستعمرة إذ أن بعضهم خدعوا بها وروجوا لها ، وقد طلا المستعمرون هذه المكيدة تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب وقالوا (مادام الجمهور فى الأقطار العربيـة لا يعرف اللغة الفصحى غالباً ، فيجب تعليمه بلغته المحلية العامية . ولماذا نضيع عليه الوقت فى تعليم الفصحى وقواعدها الكثيرة وأساليبها المعقدة ؟) وقد وجدت هذه الفكرة بعض الأنصار ولا يزال لها مؤيدون فى بعض الأقطار العربية مع أنها وليـدة الاستعمار !

ومن حسن حظ الأمة العربية أن هذه الفكرة لم تعمر كثيراً فى حينها . مع هذا نجد بعض الأوربيين قد أخذوا يعودون إلى هذه الفكرة وصاروا يعتقدون بأن السينما الناطقـة والراديو من المسائل التى ستجبر البلاد العربية على أن تفسح مجالا أوسع للغة العامية لأن التمثيل والكلام باللغة العامية يرضى الدهماء أكثر من الفصحى ، فيجب علينا نحن أن ننتبه إلى هـذا الخطر الأخير خطر انتشار اللغة العامية كما يشتهيه المستعمرون ، وهذا الخطر الذى يتمثل أمامنا ربما كان خطراً كبيراً لأن الموضوع يخالطه شىء كثير من المنفعة المادية : لأن التمثيل باللغة العامية يكسب الممثلين أكبر عدد من النظارة ، ولا ريب فى أن على كل مفكر عربى أن يحارب هذا السلاح الأخير الذى يرجو منه المستعمرون خيرا عظيما لمقاصدهم على حساب الضرر البليغ بالبلاد العربية ؟

قصـــــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وصل الفائت

اكتشف بستور لقاحا يحصن الشياه من داء الجمرة ، وذلك بإضعاف مكروبها ثم حقنه فى الشياه ، فتقوى بعد ذلك على مقاومة الداء . ونجح اللقاح واهتزت الدنيا له . وبعد زمن أخذت ألقحة بستور تقتل بعض الشياه بدل تحصينها وكثرت الشكوى . فألقى بستور محاضرة فى اللقاح ولم يذكر تلك الشكاوى ، وتحدى كوخ وكان حاضرا إلى الحجاج فقام وقال إنه يجيبه بالقلم لا باللسان

ولم يمض زمن طويل على هذا حتى جاء كوخ بجوابه الموعود ، فكان جواباً بين الجد والهزل ، شديداً فظيعاً ؛ بدأ كوخ بقوله إنه أتى من بعض وكلاء بستور بشىء من هذه المادة الثمينة الغالية التى يقال لها لقاح الجمرة ، ثم استطرد يسلقه بلسان سليط :

أحقاً قال بستور إن اللقاح الأول يقتل الفئران ويُعفى الخنازير الغينية ؟ إذن لقد قام كوخ بتجربته فوجده لا يقتل حتى الفئران . وبعض عينات غريبة منه قتلت الشياه !

وهل حقاً قال بستور إن لقاحه الثانى يقتل الخنازير الغينية ويُعفى الأرانب ؟ إذن لقد قام كوخ بتجربة هذا اللقاح أيضاً فى دقة وعناية فوجده يقتل الأرانب ، ويقتلها فى الأغلب قتلاً مريعاً . ووجد أنه يقتل الشياه أحياناً ، تلك الشياه التى أراد بستور من هذا كله أن يحصنها من الموت

ثم أحقاً يعتقد بستور أن هـذه اللقاحات لقاحات من مكروب الجمرة ، ومن مكروب الجمرة وحـده ؟ إذن فقد قام كوخ على حذر بامتحانها ، فوجدها تمجّ بمختلف الأحياء ، فمن كل كُرَيّة ومن كل عُصَيّة دخلت اليها دخول الضيف الثقيل لا أهلا به ولا سهلا

وأخيراً ، أحقاً إن بستور يتحرّق تحرقاً إلى كشف الحقيقة خالصة ؟ إذن فلمَ لم يخبر الناس بجميع النتائج التى جاءت من لقاحه بعد أن شاع استخدامه وذاع ؟ لِمَ لم يخبرهم بالحالات الفاشلة الخائبة كما أخبرهم بالحالات الناجحة الصائبة ؟

ثم ختم جوابه بقاصمة الظهر ، قال : « إن هذا مسلك قد يُستساغ فى الدعاية لبيت من بيوت التجارة ، أما العلم فيجب أن يقيه قيئاً »

فأجاب بستور على هـذا النقد بنشرة تضمنت حججا غريباً لا يجوز حتى على محكّمين فى مناظرة بقرية فى الريف . استكبر على كوخ أن يدّعى أن ألقحته تحوى أخلاطا من مكروبات . قال : « لقد كانت صناعتى من قديم فصل المكروب وتربيته خالصا من كل شائبة . صناعة اصطنعتها عشرين عاماً قبل ميلاد كوخ فى عالم العلم سنة ١٨٧٦ ، فدعواه أنى لا أعرف كيف أربى المكروب نقياً لا يمكن أن تكون إلا هزلا وهذراً »

وأبت الأمة الفرنسية بوطنية صادقة أن تؤمن بأن كوخ استطاع أن يزحزح بطلها العظيم عن عرشه العالى ، وأن يبطل ربابته للعلم ، وشرك صغراء الأمة فى ذلك كبراؤها ، وعلى كل حال فما كان ينتظر الناس من ألمانى غير هذا ؟ ! وما أسرع ما انتخبوا بستور عضوا فى المجمع الفرنسى Académie Française فمنحوه كبرى المِنَح التى يطمع فرنسى فيها ، وفى يوم جلوسه بين أعضاء المجمع الأربعين الذين يسمونهم بالخالدين قام أرنست رينان Ernest Renan بالترحيب به ، وهو العبقرى الزنديق الذى جعل من يسوع الرب بشرا رجلا غفر كل شىء لأنه فَقِه كل شىء ؛ عرف رينان أن بستور لو كان ستر الحق لما ذهب هذا بكل فضله ، ولم يكن رينان عالما ، ولكن كان له من الحكمة والفطنة مايدرك به أن بستور أتى بشىء فخم عظيم لما أثبت أن الجراثيم الضعيفة تمنّع الأجسام فلا تنالها الجراثيم القوية ، حتى ولو لم تبلغ هذه المناعة مائة فى المائة

التقى هذان الرجلان فى هذا اليوم المهيب ، فالتقى منهما نقيضان : بستورُ المغامر المحارب الوثّاب الملىء بشتيت من عقائد هوّشت عليه أحيانا وجه الحق ، ورينان فى ضخامته كالجبل يخاطبه جالساً من علٍ بنفس ساكنة مطمئنة لا تهزها الرياح الهُوج ، وكيف يهتز جسمه لشىء أو تتحرك نفسه لأمر ،

وهو قد بلغ به الشك أن ارتاب فى وجود نفسه ، وارتاب فى قِيَم الأعمال فلم يقم لعمل فصيّره طول القعود من أسمن رجال فرنسا

رحّب رينان بپستور إلى المجمع فأسماه عبقريا ، وقرن اسمه بأسماء أكبر من عُرف من العباقرة ، ثم عرّج يُقرّع صياد المكروب الشيخ المشلول المضطرب تقريعاً خافتاً خافياً ، قال : « إن الحقيقة يا سيدى كالمرأة الغَنِجة اللعوب ، لا تملك بالعاطفة الكثيرة تُبذل لها ، وكثيراً ما تأتيك منصاعة بإعراضك عنها . وقد تسلم إليك قيادها فتظن أنك مَلَكْتها فاذا بها تُفلت من قبضتك ، فاذا أنت اصطبرت عليها عادت فوضعت عنقها فى يدك . ولا عنها وداع وما سقط فيه من دموع أن تعود إلى الظهور ، ولكنك إذا أحببتها فغلوت لم يكن لك منها غير البين والقطيعة »

لا أظن أن رينان ، وهو الحكيم ، خال أن كلماته الجميلات هذه سيكون لها أثر ولو قليلا فى إصلاح المعوجّ من بستور ، ولكنها كلمات ترينا فى اختصار علة ما لاقى بستور فى حياته من فواجع ، وهى تعلمنا ما يجر الرجل المجنون على نفسه من المآسى والأحزان إذ هو خال أنه يستطيع قلب العالم فى السبعين عاما التى أذن الله له أن يحياها

— ٧ —

بعدئذ أخذ بستور يضع أنابيب من الزجاج فى حلوق الكلاب وهى تتلوى وتتضوّر من داء الكَلَب . وكيف استطاع أن يضع هذه الأنابيب فى هذه الحلوق لهذه الضاريات ؟ لا يعلم هذا غير الله . هذان خادمان قائمان على فكّىْ كلب قوى عصىّ يفتحان فاه كَرْهاً واغتصابا . وهذا بستور قائما فى وجه هذا الكلب تكاد لحيته تمس هذه الأنياب وفيها الموت المرير . وهذا هو يمص فى أنبوبته من حلق الكلب بعض رُغائه ، ليأتى منه بعيّنة يبحث فيها عن مكروب الداء . وأحيانا يناله الرشاش من هذا الرغاء فلا يأبه له وقد جاز أن يكون فيه القضاء

أريد الآن أن أنسى ما قلته عن حب بستور للدعاية ، فتصوّرى عينيه الزرقاوين وهما تحدقان فى حلق هذا الكلب الهائج المسعور لا يتفق مع هذه الذكرى

ليت شعرى ما الذى وجه بستور إلى صيد مكروب الكَلَب ؟ لقد كان فى الوجود عشرات من الأدواء يجهلها العلماء ، أدواءٌ قتلت من الناس أضعاف ما قتل داء الكَلَب ، ولم يكن بها من الخطر على مُجانبة مُغامر مثلُ الذى كان بهذا الداء اللعين الذى لا ينجو صاحبه أبداً ، فما هو إلا أن ينفك الكلب من قيده فتقع الواقعة التى لا مردّ لها

يترجّح عندى أن شاعريته ، والفنّ الخفىّ فى نفسه ، هما اللذان دفعاه إلى اختيار هذا الداء على الأدواء جميعا . قال بستور : « لطال ما ساورتنى صرخات ضحايا هذا الذئب المجنون الذى كان يهبط على الناس فى شوارع اربوا Arbois لمّا كنت طفلا ... » عرف بستور من صباه كيف كانت دماء الناس تبرد لصوت كلب مسعور . وذكر أنه قبل مائة عام أو دونها كان الفرنسيون يشتبهون فى الرجل يحسبونه مصابا بالكَلَب فيُذعرون فيقومون عليه فيَسُمّونه أو يخنقونه أو يطلقون عليه الرصاص . وشاع هذا حتى سُنّت القوانين لحماية هؤلاء المساكين . ذكر بستور كل هذا فاعتزم أن يعيد فى الناس السلام ، ويمنع عنهم هذه الآلام والآثام

بدأ بستور هذا البحث الذى انتهى بأن كان أبدع أبحاثه وأصدقها ، فاذا به يبدؤه على عادته بالأخطاء . جاء إلى طفل يموت من داء الكَلَب فأخذ بعض ريقه وامتحنه فوجد فيه جرثومة غريبة ساكنة فأسماها اسماً لا يتصل بالعلم كثيراً ، أسماها « مكروبة الثمانية [1] » ، وما أسرع ما حاضر أعضاء الأكاديمية وأشار إلى هذه المكروبة بأن لها صلة بالسبب الخافى لداء الكلب ، واستقر على هذا الرأى ، واستمر يجرى فى اطمئنان وراء هذا المكروب ، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى اتضح له أنه إنما جرى وراء برق خُلّب . فانه بمعونة عَوْنيه وجد هذا المكروب فى أفواه أناس أصحاء كثيرين لم يقتربوا من كلب مكلوب أبداً

على أن هذا الضلال لم يدم طويلا حتى حملت بستور قدماه إلى الطريق الهادى إلى مخابئ هذه الأحياء ، قال لنفسه : « لقد قلّت الكلاب المسعورة فى هذه الأيام ، والشيخ البيطار بوريل Bourrel لا يبعث الآن لى منها إلا عددا يسيرا ، والمكلوبون من الناس أشد نُدرة من الكلاب ؛ فلا بد لنا من إحداث داء الكَلَب فى حيوانات فى معاملنا كىّ نستطيع دراسته فى تواصل واستمرار »

(١) أراد أنها تشبه رقم ٨ الأفرنجية أى 8

وكان بستور فات الستين ، وكان مُتعَباً مجهوداً

وذات يوماً جاءوا إلى المعمل بكلب سعران اصطادوه بالوهق ضربوه فى عنقه ثم شـــدوا عليه ، فأمرهم بستور فأدخلوه وهو ينذر بالشر إلى قفص به كلاب أخرى كى يعضها ويعطيها من الداء مثل الذى به ، وجاء رو وشمبرلاند فأخذا من رُغاء فمه بعض الشيء ومصاه فى محقن وحقنا به من الخنازير الغينية ومن الأرانب ، واصطبرا ينتظران ظهور الداء فيها ، فكان يظهر فى بعضها أحياناً ويتخلف عن بعضها أحياناً أخرى فساءهما تخلّفه ، وعض الكلب المجنون أربعة من الكلاب ، ومضت ستة أسابيع فاذا كلبان منها هائجان يضربان فى جوانب القفص ويموتان ، أما الآخران فمضت أشهر لم يظهر فيها عليهما من الجنون شيء . أمرٌ يُحيّر الباحث ويغيظه ، فهو دائماً ينتظر النتائج الواحدة تأتى من المقدمات الواحدة ، وقد اتحدت المقدمات هنا فكيف اختلفت نتائجها ؟ لقد ضاع اتساق العلم وانسجامه ، لا فى هذه الكلاب وحدها ، بل فى الخنازير والأرانب كذلك ، فقد يصاب من الستة الأرانب المحقونة اثنان ، بعدّان برجليهما الخلفيتين إلى الوراء من الشلل ، ثم يموتان بعد ارتجاجات من الصرْع عنيفة ، أما الأربعة الباقية فتظل قائمة تقضم الحشيش قضما ، فكأنما جرثومة الكلب لم تخالط دمها أبدا

وذات يوم خطرت فكرة على بال بستور ، فأسرع إلى رو يحدّثه بها ، قال : « إن جرثومة الكلب تدخل أجسام الناس بالعض عن طريق الجلد ، ثم هى تستقر بعد ذلك فى أمخاخهم وفقار ظهورهم ..... إن كل الأعراض تدل على أن هذه الجراثيم التى لا نراها ولا نستطيع كشفها تُغير دائماً على الجهاز العصبىّ . ففى هذا الجهاز العصبىّ إذن يجب أن نبحث عن هذه الجرثومة ..

ومن هـذا الجهاز قد نستطيع تزريعها وتربيتها حتى ولو لم نرها . . . ولعلنا نستطيع أن نتخذ من مخ الحيوان طعاما لها فننمّيها فى جمجمته بدلا من قبابة الحساء . أن نتخذ من الجمجمة والمخ قبابة وحساء أمر غريب ، ولكن من يدرى ؟ . . ثم إننا اعتدنا أن نحقن الرُّغاء الخبيث تحت جلد هذه الأرانب والخنازير ، فما أدرانا أن الجرثومات التى به لا تضيع فى أجسام هذه الحيوانات قبل وصولها الى أمخاخها ، لوددت والله أن أرشق هذه الجراثيم مباشرة فى هذه الأمخاخ رشقا »

أنصت رو لهذه الأحلام ، وانفتحت عيناه وسعهما ولعتا لهذه الخيالات ... لو أن رجلا غير رو سمعها لظن بستور أصابه مس من جنون . يريد أن يتخذ من مخ الكلاب والأرانب بديلا من الأحسية ! ويريد أن يتخذ من جماجمها بديلا من القبابات ! أى عبث هذا وأية خرافة تلك ! أما رو فكان أفهمَ لبستور من أن يَظن به خبالا . قال : « وما يمنعك من وضع المكروب فى مخ الكلب مباشرة يا سيدى الأستاذ ؟ أنا أستطيع أن أثقب لك به ثقبا صغيرا لا يؤلم الكلب ولا يفسد مخه . وهذا أمرٌ علىّ يسير . . . »

فصرخ بستور فى وجه رو حتى أخرسه . ولم يكن بستور طبيبا ، فلم يدر أن الطبيب يستطيع أن يفعل هذا حتى فى الانسان وهو آمن . لهذا أجزعته الفكرة جزعا كبيرا . « ثقبٌ يخترق جمجمة الكلب الى مخه ! يا للفظاعة ! والكلب كيف يكون ألمه ؟ والمخ بعد هذا كيف يكون صلاحه ، إن الكلب يُشَلّ حتما ؟ لا ، لا آذن بهذا ؟ »

حنان قلب بستور كاد يفقده أكبر كشف أتاه ، ويضيّع عليه بل على الانسان أثمن تُحفة أهداها اياه . وأمام هذه التجربة القاسية الغريبة خارت من بستور قواه ، ولكن رو ، رو الأمين لسيده ، رو الذى نسيه اليوم الناس أو كادوا ، رو هذا قام يحمى سيده من خَوَر نفسه ، فنجّاه بأن عصاه . ذلك انه اصطبر أياما قلائل حتى غادر بستور المعمل لبعض حاجته ، وعندئذ قام إلى كلب سليم فشممه قليلا من الكلوروفورم حتى أفقده الاحساس ، ثم ثقب رأسه ثقبا كشف عن مخه الحىّ ، فكان يدقّ بالنبض دقا بيّنا ، ثم أتى بقليل من مخ كلب كان قد مات مكلوبا فسحقه وحقن سحيقه فى مخ الكلب النائم برفق شـديد وهو يقول لنفسه : « لا شك أن سحيق هذا المخ ملىء بمكروب الكَلَب ، فلعله مكروب دقّ فلم يكن فى استطاعتنا أن نراه »

واصبح الصباح فأخبر بستور بالذى كان . فصاح بستور فيه : « ويلك ماذا صنعت بالكلب المســكين ! أين المخلوق التعيس ... لا شك أنه شُلّ ... لا شك أنه يموت ... »

ولكن رو كان سبق فنزل بسرعة على السلم ، وفى لحظة عاد والكلب ينط أمامه ، وإذا بالكلب يتمسح بساقىْ بستور ، ثم يدور يتشمم بين قبابات الأحسية القديمة تحت مناضد المعمل . عندئذ أدرك بستور قدر رو ومبلغ ذكائه . وأدرك كذلك أن

طريقاً جديداً للتجربة انفتح أمامه . ولم يكن بستور يغرم بالكلاب ، ومع هذا فان اغتباطه بالذى سمع ورأى أغراه بملاعبة هذا الكلاب خاصة . قال لسانه : « أهلا بكلبي العزيز ! أهلا بسيد الكلاب » . وقالت أحلامه : « ان هذا الكلب سيثبت أن فكرتى عن هذا الداء صائبة »

ولم يمض أسبوعان حتى تحققت أحلامه ، فسيد الكلاب أخذ يعوى عواء أليما حزيناً ، وصار يمزق فراشه ويعض قفصه ، ثم مات بعد أيام ، نعم مات هذه الميتة القاسية ، ولكنه ماتها ليحيا من بعده على نحو ما ستعلم ألوف من الناس كانت تموت مثل ميتته

بهذه الطريقة اهتدى بستور ورو وشمبرلاند أخيرا إلى نقل هذا الداء إلى الحيوانات نقلا أكيدا ؛ أعنى أنهم إذا حقنوا المكروب فى مائة كلب أو خنزير أو أرنب أصاب الداء المائة كلها ، وكأنى بك تستمع لبستور يقول لصاحبيه : « إننا لا نستطيع أن نرى المكروب ولا بأقوى المدسات ، فلا بد أن هذا يرجع إلى شدة صغره . ولسنا نعرف طريقة واحدة لتربيته فى الأحسية بالقبابات ، ولكن فى استطاعتنا أن نبقيه حياً فى مخ الأرنب ، فهذه هى الطريقة الوحيدة لحفظه ونمائه »

أوُجِد أو يُوجَد أعجب من هذه التجربة فى كل الذى كان ويكون من صيادة المكروب ، أو فى أى علم آخر من العلوم ! أم هل مارستْ تلك العلوم أمرا أبعد ما يكون عن المألوف فيها مثل الذى مارسه بستور وصاحباه : مكروبةٌ غير منظورة ، كل الذى يعلمونه عن وجودها أنهم يستطيعون نقلها فى الأمخاخ والحبال الفقرية فى سلسلة طويلة من الأرانب والخنازير والكلاب ، وكل برهانهم على كونها ، وأن للكلب مكروبا هى مكروبته ، موتُ تلك الأرانب المحقونة فى تشنج وارتماص ، والعُواء الجزع لتلك الكلاب التى أعملوا فى رءوسها المِثقاب

ثم أخذ بستور وأعوانه يحاولون أمراً عجبا لا يقول عاقل بامكانه ، ذلك تأنيس تلك المكروبة الفتّاكة التى لا تُرى . وتمطّلوا فى محاولتهم هذه بعض التمطل ، فذهب رو Roux وتوبييه Thuillier إلى مصر يدافعون مرض الكوليرا ومات توبييه فى سبيل ذلك على ما علمت ، وذهب بستور إلى بعض زرائب الخنازير فى الريف يبحث عن مكروب داء كان تفشّى فيها ويطلب لها لقاحا منه ، ولم يطل هذا التمطّل طويلا . واجتنب بستور تلك المنازعات والحجاجات الوضيعة التى كانت تنتهى على الأغاب بذمه والنيل من اسمه وكرامته . وحبس نفسه مع عونَيْه والحيوانات الشلاّء الخطيرة فى معملهم بشاوع ألم Ulm وفى هذه الحبسة أتوا على عدد لا حصر له من التجارب

ووضع بستور رقباء على مساعِدَيْه الشابّين وألزمهما العمل على منضدتيهما فكنت تراهما مكبّين عليها صباح مساء كأنهما بعض الأرقاء . وكان ينظر ما يصنعانه باحدى عينيه ، وينظر بالأخرى الباب الزجاجىّ للغرفة التى كانا يعملان فيها ، فاذا هو رأى أحدا من أصحابهما جاء يدعوهما إلى كأس بيرة فى شُرْفة مقهى قريب ، أسرع نخرج إلى الدخيل فقال له : « لا ، لا ، ليس هذا وقته . ألا ترى أنهما مشتغلان ؟ إنها تجربة فى غاية الخطر ليس فى الامكان أن يقطعاها ! »

ومضت على هذه الحال أشهر غبر حسبوا جميعاً عند ختامها أنه لا سبيل إلى اضعاف هذه الجرثومة التى لا ترى ، فالمائة من الحيوانات التى يحقنونها بالمكروب بعد محاولة إضعافه كانت تموت كلها ، ومن ترى كان أقرب إلى اليأس فى ختام هذه الأشهر ؟ أظنك تقول الشيخ العجوز بستور ، وأن عونيه الشابين ، وقد ملأهما دم الشباب الحار ، كانا أعصى من أن يثنيهما هذا الخذلان . إذن لقد أخطأت الحسبان يا سيدى ، فالأمر كان على نقيض ذلك

أحمد زكى

(يتبع)

فى ميدان الاجتهاد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

كيف يعود الاجتهاد

ولا بد من عودة إلى ذكر نصوص أخرى فيما كان للسياسة من أثر فى نصرة بعض هذه المذاهب على بعض، ولتلك المدارس وأوقافها من أثر فى القضاء على الاجتهاد فى نفوس العلماء؛ قال الشيخ أبو زرعة فى شرح جمع الجوامع : قلت مرة لشيخنا البلقيني : ما يقصر بالشيخ تقى الدين بن السبكى عن رتبة الاجتهاد وقد استكمل الآلة ؟ وكيف يقلد ؟ ولم أذكره هو استحياء منه لما أريد أن أرتب على ذلك، فسكت عنى، ثم قلت ما عندى أن الامتناع من ذلك إلا للوظائف التى قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وأن من خرج عن ذلك واجتهد لم ينله شيء، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس من استفتائه، ونسب إلى البدعة، فتبسم ووافقنى على ذلك

وقال الحافظ الذهبى فى كتابه « بيان زغل العلم والطلب » عند الكلام على علم أصول الفقه : « أصول الفقه لا حاجة لك به يا مقلد، ويا من يزعم أن الاجتهاد قد انقطع وما بقى مجتهد، ولا فائدة فى أصول الفقه إلا أن يصير محصله مجتهداً، فاذا عرفه ولم يفك تقليد إمامه لم يصنع شيئاً، بل أتعب نفسه، وركب على نفسه الحجة فى مسائل، وإن كان يقرؤه لتحصيل الوظائف وليقال، فهذا من الوبال، وهو ضرب من الخيال »

وجاء فى نيل الابتهاج أن أهل الأندلس التزموا مذهب الأوزاعى حتى قدم عليهم الطبقة الأولى ممن لقى الامام مالكا، كزياد بن عبد الرحمن، والغازى بن قيس، وقرعوس ونحوهم، فنشروا مذهبه، وأخذ الأمير هشام الناس به، فالتزموه وحملوا عليه بالسيف إلا من لا يؤبه له

وجاء فى نفح الطيب أن سبب حمل ملك الأندلس الناس على هذا المذهب فى بعض الأقوال أن الامام مالكا سأل عن سيرته بعض الأندلسيين فذكروا له عنها ما أعجبه، فقال نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم، أو كلاماً هذا معناه، لأن سيرة بنى العباس لم تكن مرضية عنده، وقد لقى منهم ما لقى مما هو مشهور، فلما بلغ قوله ملك الأندلس مع ما علم من جلالة مالك ودينه، حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعى

والآن فلنشرع فى بيان الطريق إلى عود الاجتهاد، وإنه ليس هناك فرصة تنتهز لهذا أقرب من هذه الفرصة التى يتولى فيها أمر الأزهر شيخ من أنصار الاجتهاد، هو الأستاذ الكبير محمد مصطفى المراغى، ولا ننكر أنه يحيط به هذه المرة عوامل من جهات كثيرة جملته يصير إلى أمور لم يكن يصير إليها فى المرة الأولى، وقد كان يأخذ بالاصلاح فيها غير متأثر بتلك العوامل، ومن هذه الأمور محاولة القضاء على العلوم الرياضية فى الأقسام الثانوية بالمعاهد الدينية لتحشر حشرا فى الأقسام الأولية، فلا يكون هناك فائدة من دراستها فيها، وكثير منها ليس فى نفس طالب القسم الأولى الاستعداد لدراسته . ويقال إن الغرض من هذا تفريغ طلاب الأقسام الثانوية لدراسة الكتب الأزهرية كما كانت تدرس قديماً فى الأزهر، ولا شك أن ستتبع هذه الخطوة خطوة أخرى فى القضاء على هذه العلوم فى الأقسام الأولية لتفريغ طلابها أيضاً لدراسة الكتب الأزهرية على تلك الطريقة التى كانت تدرس بها، لأنه لا فرق عند علماء التربية بين هذين القسمين فى حياة الطالب، وكلاهما فى حياته طور ثقافة عامة لا طور تخصيص لناحية من النواحى العلمية، فما يجرى عندنا على أحد القسمين لتلك العلة السابقة لا بد أن يجرى على القسم الآخر من أجلها أيضا، وهنالك نعود كما كنا قبل أن نقطع فى الاصلاح هذه الأشواط، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وإنه إذا كانت العلوم الرياضية قد زاحمت حقا العلوم الأزهرية فى الأقسام الثانوية، فطريق ذلك أن تختصر دراسة هذه العلوم فيها، لا أن يقضى عليها فيها لتحشر حشرا فى الأقسام الأولية

ومن هذه الأمور ما نحن الآن بسبيله من أمر الاجتهاد والعمل على فتح بابه، إذ يخطو الأستاذ المراغى فى ذلك خطوة لا يرضاها منه أنصار الاجتهاد، ويجعل دستور « لجنة الفتاوى »

التى ألفها من علماء المذاهب الأربعة على هذا النحو (أن تجيب الطالب على المذهب أو المذاهب التى يريد الاجابة على مقتضاها ، فاذا لم يعين المستفتى مذهبا أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقييد بمذهب من المذاهب الشرعية) فلست أدرى ممنى لهذا التفريق بين المستفتين ، وقصر الاجابة بحكم الله على من يريده منهم ، وإنه ليجب أن تخضع لحكم الله مذاهب الفقهاء لا أن يخضع هولها ، فلا يجاب به المستفتى إلا إذا لم يطالب الفتوى على مذهب من مذاهب الفقهاء ، فاذا طلب الفتوى عليها أفتى له بها ولو كان حكم الله المؤيد بالأدلة على خلافها ، وإنا لننزلها بهذا منزلة لم يردها لها أصحابها ، ونجعل حكمها فوق حكم الله الذى كانوا يطلبونه فيها ، وهم بشر يصيبون ويخطئون ، ولم يدع العصمة أحد منهم فى اجتهاده . وقد حكى ابن عبد البر عن معن بن عيسى باسناد متصل به قال سمعت مالكا يقول : إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ، فانظروا فى رأيى ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه

وحكى ابن القيم عن أبى حنيفة وأبى يوسف أنهما قالا : لا يحل لأحد يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه . وذكر صاحب الهداية فى كتابه « روضة العلماء » أنه قيل لأبى حنيفة : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه ؟ قال اتركوا قولى بكتاب الله ؛ فقيل إذا كان خبر الرسول يخالفه ؟ قال اتركوا قولى بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : إذا كان قول الصحابى يخالفه ؟ قال : اتركوا قولى بقول الصحابى

وروى البيهقى عن الشافعى أنه قال : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت

وذكر الشعرانى فى كتابه « الميزان » أن الأئمة كلهم قالوا : إذا صح الحديث فهو مذهبنا وليس لأحد قياس ولا حجة

فاذا ثبت لنا الآن حكم مؤيد بالأدلة فهو حكم الله الذى يقول به أبو حنيفة ومالك والشافعى وغيرهم ، ولو كانت أقوالهم فى حياتهم على خلافه ، ولا شك أنا إذا أفتينا فى ذلك على المذهب الذى يريد المستفتى الاجابة على مقتضاه نكون بذلك قد خالفنا حكم ذلك المذهب الذى جعل صاحبه حكم الله رائده ، وتبرأ من قوله إذا صح حكم الله بخلافه ؛ وقد كان من الواجب على الأقل أن يكون دستور هذه « اللجنة » ما ذكره الامام الشوكانى ، فانه بعد أن ذكر أن المقلد لا يصلح للقضاء وأنه لا يحل له أن يفتى من يسأله عن حكم الله فى أمر من الأمور قال : فان قلت هل يجوز للمجتهد أن يفتى من سأله عن مذهب رجل معين وينقله له ؟ قلت يجوز ذلك بشرط أن يقول بعد نقل ذلك الرأى أو المذهب إذا كانا على غير الصواب مقالا يصرح به أو يلوح أن الحق خلاف ذلك ، فان الله أخذ على العلماء البيان للناس ، وهذا منه ، لاسيما إذا كان يعرف أن السائل سيعتقد ذلك الرأى أو المذهب المخالف للصواب

ومن المهم فى ذلك أن الامام الشوكانى لم يبح للمفتى المقلد أن يفتى إلا من يسأله عن قول فلان أو رأى فلان ، ولم يبح له أن يفتى من يسأله عن الله أو حكم رسوله أو عن الحق أو عن الثابت فى الشريعة أو عما يحل له أو يحرم عليه ، لأن المقلد لا يدرى واحدا من هذه الأمور على التحقيق ، بل لا يعرفها إلا المجتهد ؛ وهكذا إن سأله السائل سؤالا مطلقا من غير أن يقيده بأحد الأمور المتقدمة ، فلا يحل للمقلد أن يفتيه بشىء من ذلك لأن السؤال المطلق ينصرف الى الشريعة المطهرة ، لا الى قول قائل أو رأى صاحب رأى . وهذه « اللجنة » قد ألفت من علماء المذاهب الأربعة ، فهم مقلدون لا مجتهدون ؛ وقد أبيح لهم أن يفتوا من لم يعين مذهبا فى فتواه بحكم الله المؤيد بالأدلة ، من غير تقيد بمذهب من المذاهب الشرعية ولا يمكن لهم أن يفتوا بهذا إلا إذا خلعوا عن أنفسهم صفة التقليد ، وادعوا لأنفسهم صفة الاجتهاد ، ولا شك أن أكثر هؤلاء الأعضاء إن لم يكونوا كلهم لا يدعون لأنفسهم هذه الصفة وإنه ليسرنا أن يدعوها لأنفسهم . ولكنه يحول دون ذلك قبولهم أن يفتوا بحكم المذاهب الفقهية من يسألهم عنها وألا يبينوا حكم الله إلا لمن لا يعين فى فتواه مذهبا من هذه المذاهب ، اللهم إلا أن يدعوا لأنفسهم الجمع بين الصفتين ، ويكون هذا من غرائب دستور « لجنتهم » ولكنا نجل إخواننا من أعضاء « اللجنة » عن هذه الدعوى ، ونعتقد أنهم سيعملون على إصلاح وجهتها ، وصرفها إما إلى الاجتهاد الخالص أو التقليد الخالص ، ليكونوا إما مجتهدين بحق وإما مقلدين

فتلك الخطوة التى خطاها الأستاذ المراغى إلى الاجتهاد خطوة ضئيلة جدا ، ولا يصح أبدا أن تكون نتيجة لذلك الجهاد الطويل

الذى قام به الداعون إلى الاصلاح وفتح باب الاجتهاد من عهد جمال الدين الأفغانى إلى الآن ، وهى خطوة من السهل أن ينظر اليها أنصار التقليد إذا آل الأمر اليهم وكأنها لم تكن ، ونحن نريد أن نفتح باب الاجتهاد فتحا صريحا يكون فى المستقبل حجة لأنصاره ، ونكاية يعتمدون عليها ، وحجة على أنصار التقليد يؤخذون بها ، والفرصة الآن سانحة بالتفاف رجال الأزهر حول الأستاذ المراغى ، واختيارهم له جميعا على أنه رجل الاصلاح وخليفة الامامين المصلحين : محمد عبده ، وجمال الدين

فلنبادر من الآن بالدعوة إلى عقد مؤتمر يجمع علماء الدين الاسلامى فى سائر البلاد الاسلامية على اختلاف مذاهبهم ، من رجال المذاهب الأربعة ، إلى رجال الشيعة الزيدية ، إلى رجال الشيعة الامامية ، إلى رجال الأباضية الباقين من فرق الخوارج ، إلى أنصار الاجتهاد الذين لا يأخذون بمذهب من هذه المذاهب ليكون فتح باب الاجتهاد فى هذا المؤتمر أمراً حاسماً لا يمكن أن يجادل فيه بعد هذا أنصار التقليد ، وينظم فيه أمر الاجتهاد تنظيما يفتح بابه لأهله ، ويغلقه دون من ليس أهلا له ، ويخط له الطريق إلى معالجة المسائل المهمة التى أدت إلى جمود الفقه الاسلامى ، وعدم تمشيه مع حاجة المسلمين ، ويعلو به عما نشتغل به الآن من الخلاف فى أمور لا أهمية لها ، من قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ، والزيادة المعروفة فى الأذان ، وما إلى ذلك من الأمور التى نضيع وقتنا سدى فى الخلاف فيها

ولقد أرانى أبعدت فى الأمل بعد أن سكنت من زمن بعيد إلى اليأس ، ومضيت فى سبيلى لا ألوى على أحد ؛ على أنى سأمضى فى هذا السبيل الجديد بعد أن فتحت بابه على نفسى ؛ وأنا امرؤ لا يعرف الاحجام ، ولم يعود نفسه إلا الاقدام؟

عبد المتعال الصعيدى

رسائل حاج

٣ – من ربوع الغــرب إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى
الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

وكنت لا أزال منزوياً فى مقدم الباخرة ، حينما أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن هذه البقاع الاسلامية المقدسة ، فاذا « بجدة » تسمو فى السماء اللازوردية ، بينما تتراءى أمواج البحر على أقدامها ، تشقه عشرات البواخر والزوارق فى حركة متواصلة ، يتصاعد منها صخب داو اختلطت فيه كافة لغات الشرق ، فأعادت إلى ذهنى المكدود بابل بأسواقها وشعوبها ، إلا أن المدينة الخالدة كانت تبدو فوق هذه الحياة اللاغطة ، كأنما تسمو خلوداً فوق مظاهر مدنيتنا الحديثة الزائلة وقد برزت منها مآذن فى دقة الحراب وقباب كانت شاحبة البياض قبل أن يدنسها دخان بواخر الغرب فكانت ترسو فى ظلها المراكب الشراعية حاملة طوائف المسلمين من الهنــد وجاوة وسومطرا والصين وشواطىء أفريقيا

واقترب الصباح فاستعد الركاب للنزول وبدأوا يستقلون الزوارق الخفيفة ، وكان النساء يرتدين تلك الملابس البيضاء سافرات الوجوه ، لا يجرؤ أحد على أن يتطلع اليهن بنـظرة ، ومن ذا الذى فى قلبه مرض فينظر اليهن فى هذه الساعة الرهيبة نظرة اشتهاء ؟ وفى الواقع أن الجاذبية الجنسية كانت منعدمة تماماً ؟ وقد أبعد الحجاج عن خواطرهم شتى صور الحياة حتى لا يحول شىء بينهم وبين الوصول بقلوبهم إلى نور الله الواحد القهار

وكان على الشاطىء حشــد من الحمالين والمطوفين ومراقبى جوازات السفر وفريق من موظفى الحكومة لجباية الضرائب وهم جميعاً يتكلمون لغات شتى . فما إن يهبط عليهم أحد الحجاج حتى يلتقطه المطوف ويقوده إلى الموظفين المختصين وبعــد إتمام الاجراءات الرسمية يصحبه إلى المسكن المعد لاقامته

وجاءدورى ، فلما مثلت أمام مراقب الجوازات تطلع إلىّ وسألنى عن جنسيتى فأجبته : من بلاد المجر ... عند ذلك أظهر ارتباكا ، إذ لم يسبق له أن سمع قبل اليوم ببلادنا ؛ وأخيراً أسر إلىّ بأن مسألتى من المسائل التى يبت الأمير فيها بنفسه . وأشار إلى أحد رجال الشرطة وأمره بأن يقودنى إلى دار الأمير لأنه هو الذى بيده سلطة التصريح لى بالسفر إلى مكة . وكانت دار الأمير تبعد عن الميناء مسافة لا تقل عن نصف ساعة سيراً على الأقدام . ولبّيت الأمر فسرت مع ذلك الشرطى نتجاذب أطـراف الحديث فى طرق معبدة ملساء ، غير أنه كان من سوء حظى أن أحد مسامير الخف الذى كنت أنتعله ، برز من موضعه ودخل فى قدمى فأحدث لى ألماً شديداً ظل أثره أياماً طوالا

وما إن انتهت مقابلتى للأمير ، وقد استغرقت نحو ساعة ، حتى عدت إلى الباخرة ، وكنت قد نسيت أنى تركت أمتعتى فى الزورق البخارى ، ولقد كان أسفى لضياعها عظيما ، وكم عنفت نفسى لوقوعى فى مثل هذا الاهمال الذى كانت نتيجته ضياع الأمتعة بما فيها الـكتب ! وكدت أقطع الأمل من العثور عليها ، ولـكن الله سلم ، فان النظام المحكم الذى يقوم به رجال الشرطة فى الحكومة السعودية أتاح لى أن أعثر عليها بسهولة فى إحدى قاعات الجمرك وعليها بطاقة بأسمى . وبعد ساعة قادنى المطوف إلى دار الأستاذ محمد ناصيف الذى كنت أحمل اليه كتاب توصية ، وما كاد يتلوه حتى رحب بى على طريقة العرب فى شوق وترحاب ، وغمرنى بكل صنوف الكرم التى لن أنساها ؛ وتلك لعمرى إحدى مفاخر الاسلام التى تتجلى عظمتها فى كل مناحى الحياة

والأسـتاذ محمد ناصيف فوق أنه من سراة الحجاز رجل مثقف ثقافة عربية ناضجة ، وتضم داره مكتبة زاخرة لا يكاد الانسان يرى مثيلها فى بعض الأقطار الأوربية أو الأسيوية ، وله رفاق يلتفون حوله كأسراب الطيور ، ليلتقطوا من حديثه الشهى الحكم البالغة والآيات البينات

***

تبعد جدة عن مكة بمسافة ٧٩ كيلو متراً ، وتشبه مبانيها الاستحكامات العسكرية ، ودورها مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً ، وهى

مكونة من جملة أدوار ، بينما تتوج جدة قباب المساجد المقدسة ، واسمة إياها بذلك الطابع الفريد الذى يميزها دون سائر مدن العالم

ومن الغريب أن قناصل الدول والوزراء المفوضين يقيمون فى جدة دون أن يتخطوها إلى داخل الأراضى المقدسة ؛ ويستحضر رجال الهيئة السياسية طعامهم من الخارج ، حتى الماء يجلبونه من مصر ، لأن مياه جدة أجاجية غير صالحة للشرب

وتستقبل أسواق جدة عادة زبائن من كافة بقاع العالم ، ولا يفتأ تجارها يستحضرون أنواعاً من السلع لا تناسب بينها مطلقاً ، بل هى خليط من أذواق مختلفة ومشارب متباينة

وبعد أن قضيت فى ضيافة الأستاذ محمد ناصيف بضعة أيام صدرت الأوامر بالسماح لنا بالسفر إلى مكة . والواقع أن الفترة التى قضيتها فى دار ذلك الشيخ الجليل دفعتنى إلى الايمان الشديد بأن الفوارق الجنسية لاأثر لها مطلقاً فى الاسلام ، بعكس ما نشاهده فى الحضارة الأوربية من الاشادة بالقوميات والعصبيات وغيرها من المشكلات الاجتماعية التى تثيرها روح التعصب الأعمى . وصادف أن رافقنى فى السيارة إلى مكة خمسة عشر زنجياً من أهالى الصومال ، وكنا فى خلال الطريق لا ننقطع عن أن نهتف : لبيك اللهم لبيك ! وهنا يجدر بى أن أنوه للمرة الثانية بعظمة الاسلام التى تتجلى فى عدم التفرقة بين الكبير والصغير والرئيس والمرءوس ، فالكل سواسية ؛ وقد شعرت بتلك الحقيقة وأنا بصحبة هؤلاء العبيد الفقراء ، وقارنت بين ذلك وبين الفروق الشاسعة فى أوربا الموجهة نحو احتقار العناصر الضعيفة والتفرقة بين الألوان

كانت السيارة تنطلق بنا فى طريق ممهد لا يمله النظر فى كل جزء من أجزائه ، طريق سلكه قبلنا ملوك وعظماء وأنبياء منذ مئات السنين ، وكانت السيارة كلما مرت بقافلة من القوافل نظر الأعراب إلى تلك الآلة الجهنمية التى تنبعث منها أصوات منفرة وروائح كريهة ، فى شىء من الحنق والغيظ . فقد أصبح النقل اليوم فى أكثر طرق الحجاز بالسيارات تمشياً مع مقتضيات الحضارة الحديثة ، مع أن البدو كانوا يربحون الشىء الكثير من نقل الحجاج بالابل ، وكانت النقود التى تدفع إليهم تبقى فى حوزتهم ، أما السيارة فان ثمنها وأثمان وقودها وقطع تغييرها تتسرب الآن إلى خارج البلاد ، فلا عجب إذا نظر إليها البدو فى شىء من الحنق ونقموا على من كانوا سبباً فى إدخال تلك « الآلة الجهنمية » إلى الصحراء ، وهم يقولون إن الانسان يجب أن يركب فى سبيل الحج أشق الأمور ، فلا يخال نفسه ذاهبا إلى سياحة هادئة ، ويتذرع بوسائل الراحة والرفاهية مما يلقاه فى السيارة ؛ وبمقارنة الابل بالسيارة ، نجد أن للأولى قوة احتمال على الجوع والعطش ، بعكس السيارة التى تحتاج إلى تجديد الماء كل أربع ساعات ، والوقود كلما نفد ، فضلاً عن جهل السائق بميكانيكيتها مما يسبب عطلها فى الطريق وترك الحجاج فى العراء إلى أن تقدم سيارة أخرى

أجل ! لقد أزعجت السيارة ذلك الهدوء الشامل فى الصحراء وأقضت مضاجع الأعراب وحولت طمأنينتهم إلى نوع من الثورة على الحضارة الأوربية وما تقدمه إليهم من كهرباء وطيارات ولاسلكى

دخلت سيارتنا مكة فى منتصف الليل تقريباً فراعنى أن أرى الناس فى الشوارع ، يغطون فى نومهم ويحلمون بالجنة التى هم بها موعودون ، لاسيما وأنهم أصبحوا على قاب قوسين منها . أهاج هذا المنظر خاطرى فانبثق فى نفسى شعور خفى وأنا أستقبل تلك الأرض المقدسة التى وطئتها قدما الرسول وكانت خير منارة للحق ، فهدت الناس إلى السبيل القويم

وقصدت لساعتى إلى دار مطوفى ، وهى دار رحبة عالية البنيان ، بها غرف فى الدور الأسفل أعدت لاستقبال الحجاج الجدد عند وصولهم إلى مكة . وبعد أن رحب بى المطوف سألنى عما إذا كنت فى حاجة إلى طعام أو شراب فأجبته بالنفى ، إذ كنت لا أزال غارقاً فى تيار من الأحاسيس الخفية ، ممالاً النفس بقرب بزوغ النهار للطواف بالكعبة المقدسة

وما إن غشيت غرفتى واستلقيت على البساط حتى أغمضت عينى واستولى علىّ النعاس ، فتخيلت الرسول الكريم وقد بدا أمامى فى شكل نورانى ، يكاد يخطف الأبصار ، وكأنما هو ينشر كلمة الله فيضىء بها العالم يدعو الخلق إلى كلمة الحق ، ورأيت الخلفاء الأربعة يتوسطون حلقات من الناس طبقاً لقواعد الدين الحنيف ، ويسودون العالم بالحكمة والمحبة لا بالعنف والشدة ،

ثم تخيلت هارون الرشيد وهو يجول آناء الليل فى شوارع بغداد ويجوس فى خلال أزقتها ودروبها ، فيكافئ الأتقياء وينزل عقوبته بالمجرمين ، وانبسطت أمامى بلاد الأندلس الزاهرة وقد سادها حكم العرب ، فنشروا بين ربوعها العلم والحكمة والفلسفة والفلك والفقه حتى أصبحت هذه العلوم كشجرة مباركة فرعها فى السماء ، وأظلت بأوراقها اليانعة الخضراء نجاد مكة المكرمة والكعبة الشريفة ؛ ولا يظن أحد أن ما شهدته كان من قبيل الرؤيا أو أضغاث أحلام ، بل هى أشباح خالدة تطوف بذهن كل مسلم صادق العقيدة متوجه إلى الله بقلب نقى طاهر

وعند انبثاق الفجر نهضنا من النوم على أصوات ملائكية ، كأنها هابطة من السماء ، تلك هى أصوات المؤذنين يدعون المؤمنين إلى صلاة الفجر التى هى خير من النوم ، فقمت مهرولا ، وبعد أن توضأت يممت شطر المسجد الحرام ومعى مطوف ، وكنت أؤدى الصلاة المفروضة طبقاً لارشاده ، ثم بدأت أطوف بالكعبة فسرنى أن رأيت الوفا من الحجاج ، من كافة الألوان والأجناس ، يقبلون فى لهفة على لثم الحجر الأسود ، وهو رمز تاريخى للاسلام ، كان الرسول الكريم يتبرك به ويقبله ؛ وتبعه فى ذلك الخلفاء الراشدون ، وظلت تلك العادة متبعة للآن ؛ ولقد حاولت مرارا أن أقترب منه فكان يصدنى عن بلوغه كثرة الزحام ، وبعد مشقة لمست بيدى سطحه الرمادى الأملس ، ولكن ما كدت ألثمه حتى رأيت سيدة من أهالى فرجانة تقع على الأرض إثر صدمات عنيفة من الخلف ، وكانت تحمل على ظهرها طفلتها المسكينة التى ستصبح حاجة بعد حين ، ولقد قدمت هذه المرأة التقية إلى الحج ممتطية صهوة جواد مع بقية أفراد أسرتها ، من بلدها فى أواسط آسيا فاستغرق سفرهم أربعة أشهر ؛ ولقد أخبرتنى هذه الحاجة أنها كانت تدخر لهذه الزيارة المقدسة من سنوات بعيدة ، وأخيراً حققت حلمها وكانت مبتهجة أشد الابتهاج

وقمت بعد ذلك للسعى بين الصفا والمروة ، وهناك نالنى كثير من المشقة والعناء ، فجلست بجوار حلاق أخذ يقص خصلة من شعرى المبعثر عملا بالسنة الشريفة ، ولبثت فى انتظار مطوف ليأخذنى إلى جبل عرفات

إن اللقاء على جبل عرفات لهو الفرض الأساسى تقريباً للحج ، فالحجاج الذين يفدون إلى جدة متفرقين ، يجتمعون كلهم فى يوم واحد ويحشرون فى صعيد واحد ، وهنا تظهر عظمة الدين الحنيف وحكمته ، فقد كان مجموع الحجاج فوق عرفات لا يقل عن خمسين ألفاً ، مع أن مكة بمساحتها الشاسعة لا تستطيع أن تأوى مثل هذا العدد الوافر

وجبل عرفات من أجمل جبال العالم ، يصل الماء اليه من « عين زبيدة » فى أنابيب ، وهو عمل عظيم فى ذاته ، لأنه يخفف من متاعب الحجاج للحصول على الماء . وهناك تل يطلقون عليه « جبل الرحمة » به مصلى كان النبى عليه الصلاة والسلام يصلى فيه

ولقد رأيت الحرس الوهابى يقيم على تلك البقعة ليمنع الحجاج من اقامة الصلاة بالقرب منها ، كما أنهم يحرمون على الحجاج السجود أمام العمد الحجرية المسندة اليها

والوهابيون يعارضون أشد المعارضة فى تدخين التبغ ، ولكنى رأيت أن هذه العادة تكاد تتلاشى ، وألفيت كثيراً من الناس يدخنون فى الطرق العامة حتى فى الجبل وبجوار المصلى ، كما أبطلوا عادة الخطابة التى كانت تلقى على ظهر البعير

(يتبع) عبد الكريم جرمانوس

بين الثريا والثرى

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

الحمل والجدى والسرطان : هى الأبراج المعروفة بهذه الأسماء ، والمعنى هو أن الشباب لا يهتم بما يخبئه له القدر ، كما يهتم من يرصد الأفلاك والأبراج ليعرف منها ما يخبئه له القدر (الناظم)

الشباب

تذكرنى الشباب ، وقد علونا ... به فوق المجرة والنجوم
ونحن الخالدون ، وكان حقا ... خلوُّ الخالدين من الهموم
سوى الحزن الذى عقباه ضِحكٌ ... يرن صداه فى ضحك الهزيم (١)
وطئنا فوق أطلال الدرارى ... وأشرفنا على بيد السديم
فلا حمل ولا جدى رقبنا ... ولا السرطان ذو البرج العظيم
وما من صولة الأقدار خفنا ... ولا لاحت لنا مثل الغيوم
بأرواح لها فى الأفق مسعى ... وتحليق على العيش البهيم
ركضنا فى السماء لكل نجم ... حُنوَّ الطير للزهر العميم
وحوّلنا وجوه الكون كأسا ... حسوناها ولم تكُ من كروم
ولم نعبأ بما تُخفِى الليالى ... ولم نَخشَ المنية فى الهجوم
وأسلفنا الزمان نعيم عيش ... ولم نحذر مقاضاة الغريم
وكنا فى ائتلاف الشمل نحكى ... نظام الشهب والدر النظيم

المشيب

سكنا الأرض بعد الأفق دارا ... وأُنزلنا إلى بطن الأديم
وأُفهِمنا القضاء ، وما فهمنا ... وقُلْ ما شئتَ فى لغو العليم
وكُسِّرَت القوادم والخوافى ... وهِيضَ العظم فى الجسم الكليم
صحونا للحياة ، وما تراه ... من الخُلُق المُقبَّح والنميم
فمن حذر إلى بخل وذل ... وسوء الظن بالخلّ الحميم
أطلَّ الموت من كثب علينا ... وظِل الموت أصبح كالنديم
تُرَوِّعُنا الصروف بكل خطب ... وخطب الموت أهون للفهيم
وضاعت جِدَّةُ الدنيا وصارت ... كأطمار على جسم العديم
يحاربنا التذكر والتمنى ... كلا الأمرين يُفضِى للهموم
وقدما قد نعمنا بالتمنى ... وأمّلنا الخلود على النعيم
وليت الذكر ، وهو نذير شجو ... يدوم بروقة العهد القديم
سننسى أننا كنا قديماً ... على هام الثريا والنجوم

عبد الرحمن شكرى

(١) ضحك الهزيم : يراد به صوت الرعد

الليلة الثانية عشرة

للشاعر الحضرمى على احمد با كثير

إحدى روايات شكسبير الخالدة يترجمها إلى العربية شعراً الشاعر الحضرمى على أحمد با كثير ، وقد تصرف تصرفاً لا يضير بجمال الأصل ، بل يزيده أحياناً وضوحاً وحسناً ؛ كما فعل فى التورية اللفظية التى قصد إليها شكسبير فى كلمتى HART (الوعل) و HEART (القلب) فقد نقل المترجم العبيد من البر إلى البحر ليتسنى له الاتيان بمثل هذه التورية فى اللغة العربية ، وإلى القارىء المشهد الأول من الرواية :

المشهد الأول — فى قصر الدوق

يدخل الدوق و (كريو) وأشراف آخرون ، حيث فرقة الموسيقى على استعداد

الدوق :

هات ألحانك يا عازف إن ... تكن الألحان للحب غذاء !
هاتها ! زدنىَ منها فعسى ... أن يلاقى حتفه منها امتلاء !
أعِدِ اللحن الذى غنّيتَه ! ... إنه طاب علىّ السمع غناء
كاد من رقته يفنى ! فلم ... يَدَعِ الشجو له الاذماء !
رفَّ بالسمع جنوباً عِطراً ... مسرق الروض شذاه ثم جاء
قدْكَ ! قف لحنك هذا لم يَعُدْ ... عندىَ الآن وما قبلُ سَواء
آه رُوحَ الحب ! ما ألطف مسـ ... ـراكِ فى النفس وأقواك مضاء
قوةٌ هائلة أنت ، فقد ... كدت تطغين على ماضى القضاء
قوة حُوَّلَةٌ قُلَّبة ... أبداً تبدين فى ألف رواء
أين منك البحر عُظما وقُوى ؟ ... إنه ماء وأنتِ الكهرباء !
تسقط الأنهارُ فى البحر فلا ... تعدم التأثيرَ فيه والثواء
وهمومُ النفس مهما عظُمت ... وسمت أوجًا ، وشطّت فى غلاء
دون أمواجكِ فى ثانيةٍ ... تتلاشى كالتماعٍ من ضياء !

فاذا الغالى رخيصٌ ، و إذا الـ   أوجُ قعر ، و إذا الأسْرعياء[1]

كريو :

مولاى ! هـل لك فى صيـ   ـد البال ؟ فالجو حالى[2]

الدوق :

ويلك ! هـل أنا إلاّ   فى الصيد ! والبال بالى !

أعـزُّ شىء بجسمى   قـدراً وأنفَسُ غالِ

أوّلَ ما زلزلتنى   بطرْفها القتّـال

(أوليڤيا) ، وهدتنى   للحبّ بعـد الضلال

هناك صُيِّرتُ بالآ   مضرّمـاً بالنكال

مطارَدًا طـول أيّا   مه وطول الليـالى !

اكتنفَتْه شِبـاكٌ   من كل وجه وحال

خيوطها من همومى   ونسجها من خيالى ! !

« يدخل ڤالنتين »

— هات عنها ! ماذا وراءك ؟

— ما يُرْ   ضيك مولاى ! لو رُزِقتُ القبولا

سلمتْنى عنها الوصيفةُ هذا الـ   ـردَّ منها — وما أراه جميلا — :

لن يرى الكونُ نفسُه وجهَها السّا   فرَ سبعاً كسبع يوسف طولا !

نذرَت أن تبقى كراهبة الدّيـ   ـر عليها نقابُها مسـدولا

كل يوم تطوف بالبيت بالدمـ   ـع يبلّ الثّرى ويُحفى المسيلا

كل هذا من أجل موت أخٍ كا   ن إليهـا المحبّب المأمولا

رُزِئَتْه فأقسـمتْ لتُديمَنَّ (م)   أساها عليـه دهراً طويلا

الدوق :

زهِ ! ضمَّتْ إذاً — إلٰهى لك الحمـ   ـدُ ! — إلى حسنها الشّعورَ النبيلا !

كان هـذا وفاءها لأخيها   كيف بالله لو أحبّت خليلا !

لَوْ إليها (كوبيد) سدّد يوماً   سهمه المُذْهَب اللطيف القتولا !

فغدا فى فؤادها كلُّ همٍّ   شاغلٍ — دونه صريعاً قتيلا

واعتلى عرشَ قلبها مَلِكٌ فرْ   دٌ كفرعونِ مصرَ دانَ النيلا !

سِرْ أمامى إلى أريكٍ من الزّهـ   ـر أُهدهِدْ بها الفؤادَ قليلا !

حيث تُلفى خواطرُ الحب فى أكـ   ـنافها مرتعاً خصيباً ظليلا ! !

علي أحمد باكثير

---

(١) الأسر : القوة   (٢) البال : نوع معروف من الحيتان والبال أيضا القلب

الشاعر

للسيد رياض معلوف

من كتابه « الأوتار المتقطعة » الذى صدر حديثا

شاعر فى شـفتيه   كلمات مُـنْزَلَه !

ضاقت الأرض عليه لطموحه

وخيـاله

جـذوة فى مقلتيه   رُوحـه المشتعله

قطرة من محجر الله ورُوحِـه

وجمـاله

شاعر إن شـدا وردّدا شعرا   فنياط القلوب من أوتاره

ما ابتسـام الربيع ألطف ثغرا   منـه حتى لو كان فى نوّاره

ودموع الصباح أطهر دمعا   منه فوق الخدود من أزهارِه

أين شدْو الهزار فى الروض منه   لا يجاريه روضـه بهزاره

هو (مُوسّيه) هل سمعت نواحا   فى الليالى أرق من أشـعاره

وهو (دَنْتِى) هلا رأيت جحيما   بكتاب حروفُه جَمْرُ ناره

والمعرى ، رغم العمى (ضوء سقط)   يهتـدى التائهون من أنواره

رياض معلوف

يـد الأيام

للسيد الياس قنصل

لو كانت الأيام تقضى مرةً   للمرء ما يصبو إليـه ، معجبا

لخلعتُ عن نفسى ثيابَ رزانتى   ورجعتُ مسروراً إلى عهد الصِّبى

هى حقبةَ فى العمر يحرس صفوَها   ظلٌّ من الطهر الصميم ظليلُ

وكأنها لخلوّها من كلّ ما   ينْدُ العواطفَ للكمال سبيلُ

يسخو الزمان بما لديه على الذى   رضىَ الوجودُ بأن يريه ضياءهُ

لكنّ حُمّاه ترافق جودَه   سراً ، وتتلف ما يفوق عطاءهُ

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٣٠ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية الايجابية من مذهب نيتشه

السوپرمان

أو الانسان الأعلى

للأستاذ خليل هنداوى

لنفترض أن هذه القوى يتفاعل بعضها ببعض تبعاً لقانون المصادفة والتدابير المتعاقبة ، وأن الترتيب اللاحق مؤثر فى الترتيب السابق ، فما عسى يقوم فى أزلية الزمان ؟ أرانا إذ ذاك مضطرين إلى القول بأن هــذه القوى لم تبلغ بعد نقطة التوازن ولن تبلغها أبداً ، إذ لو كان هــذا الترتيب فى استطاعته أن يظهر يوما ما ، لاستطاع إذاً أن يظهر لتطاول الزمن الغابر . والعالم — عند ذلك — يصبح جامداً ساكناً لا يتحرك ، لأن من المحال أن تضل هــذه القوى عن « نقطة التوازن والاستواء » بعد أن أدركتها ووصلت اليها . فنحن إذاً أمام القول بأن شحنة من القوى الثابتة المعينة تولد — فى هــذه الآماد — تدابير لا تنبتر وحالات لا تتناهى . وبما أن الزمان لا نهاية له ، وبما أن هذه الشحنة من القوى هى معينة محدودة ، فسوف تأتى لحظة — مهما كانت هذه القوى عظيمة ومهما كانت آثارها الناشئة عنها كثيرة — نرى فيها هذه اللعبة الطبيعية غير العاقلة تولد « تدبيراً » أو تهتدى إلى حالة تستقر عندها وتقف عليها

ولــكن هذه الحالة أو هذا الانتقال سيجر وراءه سلسلة تامة من الحالات المتسببة عنه ، من حيث أن الحركة العالمية تولد ذات الأشياء وتمشى باستمرار على دائرة واسعة . كل حياة خاصة هى جزء من هذا الدور الكلى . وكل فرد قد عاش الحياة ذاتها مرات لا تحصى وسيعيشها إلى الأبد . كل الحالات التى يمكن للوجود أن يبلغها قد بلغها فى المـاضى مرات متعددة . قد كان مرة ، ومرات عديدة سيكون وسيعود . وكل القوى السابقة متوزعة اليوم توزعها بالأمس

أيها الانسان ! إن الحياة كلها كرملة ترش دائماً وتجمع دائماً . وكل خليقة من هذه الخلائق لا تنفصــل عن الأخرى إلا بقدر تلك اللحظة الطويلة الضرورية لها حتى تعود تلك الضرورات التى كانت سبب ولادتها ، فتعود إلى الظهور . والولادة حالة محلها فى « الدور العالمى » وعند ذلك ستجد كل شقاء وكل غبطة ، وكل صديق وكل عدو ، وكل أمل وكل ضـلال ، وكل غرسة وكل شعاعة من الشمس ، وكل نظام الأشياء ، وهذا الدور الذى انت فيه مثله مثل الحبة سينبثق من جديد

فى كل دور من أدوار الوجود الانسانى ، لكل إنسان — على الأغلب — ساعة تظهر فيها الفكرة القوية القائلة « بالرجعة الدائمة » لسائر الأشياء . وهذه الساعة التى تبلغها الانسانية هى ساعة « الهاجرة »

وما إن بدا لنيتشه هذا المذهب حتى سرى فى روحه ، وغمر فـكره ، وغلب على قلبه ؛ وقد عزم على أن يغامر بعشرة أعوام من عمره ، يدرس التاريخ الطبيعى لـكى يستطيع أن يبنى مذهبه هذا على قواعد علمية ثابتة ، ولـكنه لاذ بالصمت وأدرك خيبته فى زعمه هذا . ولـكن فكرة الرجعة الدائمـة ظلت تتجاذب فـكره ، وظل يدور حولها . وهذه الفـكرة كانت احدى هبات « زرادشت » الـكبرى إلى رجاله

وقد وضح جلياً تأثير هذه النغمة التى غشيت نيتشه يوم أصبح يؤمن بهذه الرجعة الدائمة . ولن نستطيع أن نتخيل حلا لمسألة الوجود أظلم وأبهم من هذا الحل ، فالوجود لا يعنى شيئاً ، إنه وليد مقادير عمياء ، ينتج من وراء مصادفاته الخالية من الشعور قوى يمتزج بعضها ببعض ، فيخلق بعض النماذج على

إنى بلغتُ إلى الشباب مضيّعا ... من حيث لا أدرى جمالَ هنائى

فى كل يومٍ كان يهلك بعضُ ما ... زخرتْ به نفسى من الآراءِ

فإذا التفتُّ إلى الوراء رأيتنى ... أشلاء ضمّتها الليالى الماضيهْ

ووجدتُ حولى مايماثل غربةً ... تفشى بلاقعَها الأمانى الذاويهْ

والحق أنى قد غُبنتُ ولم أفزْ ... إلا بساعات من الآلامِ

ما خبرتى إلا شعور طهارةٍ ... خنقتْه فى صدرى يدُ الأيامِ

(عاصمة الأرجنتين) الياس قنصل

حسب المصادفات . أما الحركة الشاملة للوجود فهي لا تقود جزءاً منه ولا قسما . وإنما هي تدور حول نفسها بدون انقطاع في نفس الدائرة ، وهذه الحياة التي نحياها سنكررها إلى مالا نهاية ، دون أن يكون هنالك رجاء في التغير . وكل لحظة مشحونة بالكآبة والشقاء والسأم سنحياها مرات لا تحصى . فهل في الامكان أن نتخيل ما يصنع هذا الافتراض في جماعات المنحطين والمرضى والمتشائمين ، وفي كل من ترجح كفة شقائهم على كفة فرحهم ؟ إن عند أغلب الناس — كما يبدو — فكرة تشبه فكرة العودة الدائمة ؛ تظل وإن لم تكن مبنية على مبدأ معين — غير مؤذية ولا ضارة ، لأنها تبنى فكرة مجردة خارجة عن الادراك ، لأن مخيلتنا غير قادرة على اخراج هذه الفكرة إلى حيز الحقيقة ، ولأن المعارف التي يتلقاها عقلنا لا تعين إلا قليلا من قوتنا الحاسة . ولكن نيتشه هو الذي يهب الحياة اتعاليمه ، وهو يتفلسف بكل وجوده

وقد يشاهد أن الرجعة الدائمة أخذت تظهر في بعض اللحظات ككابوس شيطاني يملأ قلبك رعباً ويقف دقات قلبك ، وقسوته على المنحطين والأشقياء بدأت الآن ترتدي غير رداء ، وقد وضح ما يريد في صيحته هذه « ليموتوا سريعاً . ليقتلوا أنفسهم ، أو ليقتلوا ، هؤلاء المنحطون . . . . . ! ! من قبل أن يتمكنوا من قياس أعماق هاوية الآلام التي غرقوا فيها ، وقبل أن يفقهوا معنى القدر الوحشي الذي يقضي عليهم بأن يجرجروا صلبانهم بدون أمل في نجاة ، وإذ ذاك تفهم إذا كانت الانسانية في استطاعتها أن تتحمل هذا المذهب دون أن تزل سريعاً في هاوية اليأس والخوف ، أو أن تعتبر فكرة العودة الدائمة كابتلاء يهوى به من لا تصلح حيويتهم

لابد من قوة نفسية خارقة لاحتمال فكرة العودة الدائمة وهذا هو صاحب هذه القوة النفسية يستطيع أن يقول « إذا لم يكن للحياة معنى بذاتها فأنا أعطيها معنى . إنما أنا قطعة من الطبيعة تريد أن تكون دائماً جديدة ، تسمى بدون سأم ولا نصب إلى ما لا نهاية في الحلقة ذاتها . إنني سأرتفع وأصمد حتى يتسنى لي أن أتأمل كفنان روعة الحياة المخصبة التي لا تُفهم . وسأهتز طرباً إلى لعبة هذه القوى التي أنتجت وحصلت كثيراً من الآلام

اللطيفة الرائعة . والتي ولدت الانسان وستلد السوبرمان . سأتمنى بكل قلبي وإيماني من القوة العمياء أن تبدع شيئاً لامعاً ساطعاً يسمو على الانسان . وسأحيا براودني هذا الأمل ، وسأجعل وجودي كله وعاء لهذه الفكرة . أريد أن الدائرة التي تتحرك فيها الحياة تحور إكليلا باهراً زاهراً . سأقضي حياتي فرِحاً مرحاً ، راجياً أن يؤول دوري الذي أمثله إلى نتيجة حسنة . وإذا خسرتُ — في هذا الدور — فلي رجاء كبير فيمن يليني ويأتي بعدي . وهكذا لا يتلاشى من الوجود ضياء الحياة ولا يكفهر . وهكذا الانسان المأخوذ بهذه الفكرة التي تزيده نشوة ، يصبح في حالة يبصر فيها هزائمه وانكساراته كفدية يسيرة لأفراحه وانتصاراته . يجدها كالنخس الذي يدفعه دائماً إلى التعالي والتسامي ، إلى تفوقه على نفسه . وهكذا إذا رجع إلى محاسبة نفسه يرى أن مقدار سروره كان أرجح من مقدار ألمه وإذ ذاك يرضى بكل حمية وشوق فكرة الحياة الخالدة ، وفكرة القبول بالحياة التي يكررها إلى الأبد

ولهذه النتيجة تسامى أولئك الرجال السامون الذين جمعهم زرادشت في مغارته . فحين عرض عليهم تعاليمه الجديدة وفضائله الجديدة ، وفتح عيونهم على جمال الحياة وروعة الحياة ، وحين شفاهم من تشاؤمهم ورفع نفوسهم التي أوشكت أن تنحني تحت أثقال الكآبة والسأمة ، جمعهم تحت جنح الظلام أمام المغارة تحت قبة السماء

« جلسوا صامتين متهيبين . كلهم في سن الكهولة ولكن قلوبهم تفيض قوة وحياة ، وكل منهم راض بنفسه عن نفسه إذ غدا شيئاً صالحاً على الأرض ، وكان سكون الليل المفعم بالأسرار يناجي قلوبهم . عند ذلك تمت اعجوبة الأعاجيب . فالانسان الأكثر قبحاً جلس ينفخ للمرة الأخيرة ، وحين دعاه داعي الكلام قال : هذا السؤال الذي خرج من فمه طاهراً نقياً عميقاً ، وجميع من كانوا حوله يصغون إليه أحسوا أن قلوبهم تهتز وتخفق طرباً

قال : « هأنا — لأول مرة — غدوت راضياً عن حياتي جميلة الحياة على الأرض . ان يوماً واحداً ، ان عيداً واحداً مع زرادشت علماني بأن أحب الأرض

سألت الموت : هل — هنالك — الحياة ؟

ألا لنأت مرة أخرى

أصحابى ! ألا تريدون أن تقولوا للموت مثلى : هل هنالك الحياة ؟ وفى سبيل محبة زرادشت لنكن مرة أخرى »

أفلح إذ ذاك زرادشت . فان الرجل الأكثر قبحاً ، والمسخ الذى قتل بمضه الآلـه ، الذى يتمثل فيه كل قبح وشر وسوء فى الانسانية قد تلقى الآن جمال الحياة ، وأدرك أن الألم هو فدية لا مندوحة منها للسعادة ، فقال : — بلى للوجود . وبينما كان النبى محاطاً بأتباعه ، يتذوق خمرة هذا النصر كان يتهادى ناقوس قديم ذو رنين حاد يعلن ببطء — مجىء نصف الليل — أن نصف الليل هو الساعة الواحدة التى يلتقى فيها النهار الذى انتهى بالنهار الذى سيبتدئ ، حيث يصافح الموت الحياة . نصف الليل هو ساعة الصمت الأكبر ، حيث النفس المتأملة تتفتح لها التأملات والأسرار الخفية . وبينا كان الناقوس القديم ، الرسول الذى يقرع لأفراح الانسانية وأوجاعها ، يعلن بدقاته الاثنتى عشرة عن تلك اللحظة التى يجوز فيها الموت الى الحياة ؛ نرى زرادشت يترك رجاله السامين يلحون الفكرة الكبرى للرجعة الدائمة غارقة فى الألفاز كأنها مزمور رمزى ممطر بالنشوة الدينية

١ : ألا احترس أيها الانسان !

٢ : ماذا يقول منتصف الليل العميق ؟

٣ : كنتُ أنام ، كنت أنام

٤ : هأنا قد تيقظت من حلم عميق

٥ : الوجود هو عميق

٦ : أعمق مما لم يفكر فيه النهار

٧ : وعميق شقاؤه

٨ : وفرحه أعمق من ألمه

٩ : الشقاء يقول لك : اهلك

١٠ : ولـكن كل فرح يبتغى الخلود

١١ : يبتغى الخلود ، الخلود العميق

« انتهى البحث فى فلسفة نيتشه (*) »

« خليل هنداوى »

(*) يطبع قريبا كتاب « فلسفة نيتشه » وهو أول كتاب فى العربية يبحث فلسفة هـذا الفيلسوف الصارم ، وسيكون مذيلا ببعض آثار نيتشه الأدبية

القصص

مأساة من اسخيلوس

٢ ـ أجاممنون

للأستاذ دريني خشبه

« آرجوس ! »

« وطني العزيز ! »

« أربابي ! . . . »

« لكم في عنقي دين أبدي من الشكر ، وفي فمي لسان رطب لا يفتر عن ثناء ؛ فلولاكم ما نسمت هذا العبق الحلو الذي يتأرج به هواء هذا البلد ، ولا ظفرت بإليوم الخالدة ، دولة بريام ، ودرة هذا الزمان ! أجل ! فلقد بده الآلهة ما ألم بشرفنا القوي ، وحاق بعزتنا الوطنية ، فقضت أن تكون طروادة نهباً مقسماً لا يحل إلا للهيلانيين ، فلا تزال ألسن النيران تمان في الخافقين حكمة السماء من أبراجها الشاهقة ، وصياصيها السامقة ، وقصورها الشماء ... وغداً تصبح صعيداً جُرُزاً وطللا بالياً ... من أجل من ؟ من أجل امرأة !

أما أنتم يا رعاياي فأشكر لكم إخلاصكم ووفاءكم وتعلقكم بهذا العرش الذي يستمد قوته منكم وما يزال يرتقي بتأييدكم ... وسننظر فيما تم إذ نحن نازحون عن الديار فنجزي كلا بما عمل ، ولا نغضي عن إساءة المسيء ، ولا نتسامح في تألب المتألبين ...

يا آلهة النصر ... لك الحمد ولك الثناء ... لا زلت تباركين آرجوس ، ولا برحت أياديك تُنَضِّر هذا الوطن »

— ١٦ —

وما يكاد الملك ينتهي من كلمته حتى تدخل الملكة ... الملكة كليتمنسترا ... أو الحية الرقطاء ! ... التي لا تفتأ تتحدث إلى الملأ عن حبها للملك ، وعن الآلام المبرحة التي عصفت بقلبها أثناء غيابه ، والوحشة التي ظلت تخيم على الـ (بلبيوديه) المتبق الشاهق طيلة هذه السنين العشر ... وتتحدث عن الاشاعات المحزنة التي تناقلتها الألسن عن الملك المفدى في ميدان إليوم ... ثم .. ترى ألا بد من كلمة عن هذا الأمير الصغير المنفى .. أورست ... الذي هو « ثمرة حبنا وواسطة عقدنا ، والنور الالـهي الذي يغمر قلبينا ويؤلف بين روحينا ... إنه ينشأ ويشب ويترعرع في كنف صديقنا وحليفنا ، وحافظ ودنا ، الأمير ستروفيوس ، صاحب فوسيز ، الذي تفضل لحمانى في غيبتك ، وذاد عن قصرك المنيف تكالب الأرجيف[1] ... ... ولقد كنت أتقلب على إبر الشوك حنيناً إليك ، وشوقاً إلى لقائك ... وكنت أبداً حزينة كاسفة لأن النيران لم تشتعل مؤذنة بأوبتك ... ولكن ... ها أنت تعود فتعيد الآمال إلى القلوب الواجفة ، والايمان إلى النفوس التي نكأها اليأس ، والرجاء إلى كل من عزه الرجاء ... ... »

ثم تختل الملك وتخدعه ، عسى أن تنطلي عليه تدبيراتها السود فيلج معها في القصر ، وتنفذ فيه الغيلة الرائعة الرهيبة التي رسمتها له ، والتي آلت إلا أن تكون بيدها . . . وبسلاح عاشقها الآثم إيجستوس ...

« ... والآن هلم يا مليكي ... يا رجاء آرجوس وفخر هيلاس كلها . . . هلم فترجل من تلك العربة الفخمة الفاخرة ذات الأوشية ، وطأ أرض القصر المتيد بقدميك الراسختين ، كما وطأت بها عز طروادة ومنعتها . »

وتكون الملكة قد أعدت بساطاً كبيراً من الخز الأحمر الأرجواني ليمشي عليه الملك ، فتأمر قيانها وجواريها أن يبسطنه على المرمر الناصع ... « ليخطر عليه مليكي ، وليتم بهاء اليوم

(١) أهالي أرجوليس

... وأبهة النصر ... بما عاد رب البلاد ظافراً ! »

— ١٧ —

وتصدع الجوارى فيبسطنه

ولكن أجاممنون ، الذى كان الوسواس يملأ قلبه ، والشك يذوب فى كل قطرة من دمه ، وسرطان الهم ينهش نفسه الحائرة ... ظل فى عربته متردداً ...

ذلك أن كاسندرا ، تلك النبية الجالسة بجانبه ، ابنة بريام التى جلبها معه لتكون خليلة له فى ا ل — (بلبپوديه) — كانت قد تحدثت الى الملك ، فكشفت له أستار الغيب ، وتنبأت عما ينتظره من دم ... وغدر ... وما ينتظرها هى أيضاً من مثل هذا المصير الأحمر ... والقدر المخبوء ...

وكانت أصداء النبوءة التى ملأت بها كاسندرا رَوْع الملك ، ما تزال تتجاوب أصداؤها فى قلبه ، وتهتف به بألف لسان أن ... يحترس ! فقال للملكة :

« إيه ياابنة ليداء ، وحارسة عرشى وحامية صولجانى ! لقد استطالت تهنئاتك بقدر ما استطال نأيى وشط نزوحى عن آرجوس ! بيد أننى كنت أوثر الثناء الوشى من غيرك ، وكنت أوثر ألا أرى فيك تلك الغادة اللعوب من غادات الشرق السحرى ... تتحوى وتتلوى ... وتلق رجلها بكل مصنوع ومجلوب ! ثم ماهذا البساط الأحمر الحريرى ؟ هل أصبح أجاممنون إلـهاً ؟ إن البسط الحمراء لا يخطر عليها غير الآلهة ... فهى حق مقدس لهم ... أما بنو الموتى ، فليس أجلب للذعر ، وأدنى للرهبة ، من أن يتطاولوا على حقوق الأولمب ، ويؤثروا أنفسهم بما ينبغى أن يبقى للسماء ! ... والمجد ... بعد كل ذلك ... لا يعوزه أن يسير على مهاد من المخمل ، أو أن يهز أعطافه فى حلل الدمقس ... إيه ! الخلود والمجد لمن تنتهى حياته الحافلة فى أمان وسلام ! »

— « ماذا أيها الملك ؟ هلم فحدثنى ... واجل لى خافيتك ؛ ماذا تريد أن تقول ؟ »

— « سأجلو لك كل شىء حتى لا يكون خفاء بيننا : »

— « قد تكون نذرت هذا فى ملمة نزلت بك ! »

— « بديهة حاضرة يا ابنة ليدا ! »

— « وماكان من أمر بريام ؟ وبم استحق هذه النهاية إذن ؟ »

— « أغلب ظنى أنه فرش طريقه بالخز والديباج ... ؟ خنقت عليه الآلهة ؟ »

— « أنت تأبه كثيراً لما عسى أن يتقول الغوغاء ! »

— « وأى شىء هو أعنف من تقولات الغوغاء ؟ »

— « من لا حسود له ، لا معجبَ به ! »

— « آفة المرأة أنها أبداً تثير الشغب والاضطراب ! »

— « حاشاى ! بيد أنه من المظمة للمرأة أن تخضع فاتحاً عظيما (كفاتح طروادة !) »

— « أفنحن إذن فى معركة حتى يشتد حرصك على الغلبة فيها ؟ »

— « هلم .. ترجل .. دعنى أنتصر على قاهر طروادة ! »

— « إذا كان لا بد من هذا ، فمرى أحداً ينزع حذائى ، فقد يطلع أحد الآلهة من ذروة الأولمب فيرى إلى أطأ الخز الأحمر الأرجوانى بهما ، فينقم على ويثور بى ... كم أضطرب حين أخطو خطوةً واحدة على هذا الديباج ؟ ... »

(تتقدم جارية من جوارى الملكة فتنزع حذاءه)

— « إيه ... قُضى الأمر ... ولكنى أرجوك أن تتقبلى هذه الغريبة النازحة فى حنان وفى حب ... فما تزال السموات يتبسمن كلما اطامن فشهدننا نتلطف فى استعمال جبروتنا ! ... لقد منحنى الجيش إياها من سبى اليوم ... (يترجّل وتظل كاسندرا بمكانها من العربة) ... فأما وقد ظفرت بطلبتك ، فانى أمشى على هذا الأرجوان إلى قاعة العرش »

وتتملقه الملكة بكلمات فيدخل إلى قاعة العرش ، وتضرع كليتمنسترا إلى سيد الأولمب أن يحرس ما دبرت ، وأن يتولى النيْلة التى أعدت للملك ببركاته ! !

— ١٨ —

ويترنم الخورس بأنشودة شفافة ، ينعكس فى صفائها غدر المرأة وشدة مكرها ...

ثم تحضر الملكة فتشير إلى كاسندرا قائلة : « ... هلمى فادخلى أنت أيضاً ياكاسندرا ... أدخلى ... ما دامت السموات قد ساقتك إلى هنا لتتقاسم أمواه هذا المطهر القربانى ... هلمى ... انزلى من هذه العربة المطهمة التى يبدو أنها نفخت أوداجك بريح الكبرياء ! ... انزلى ولا يؤلمك ما أنت فيه من أسر وذلة ونفى ... فما أنت بخير من ابن ألكمين [1] المظيم الذى قضى

(١) هى طبعاً تريد هرقل وما قاسى من ذلة المنفى عند الملك يوريثيوز ملك أرجوس

ردحاً طويلاً فى ربقة الأسار ... عند ملك جبار ... هنا ... فى نفس هذا القصر ! إنه لشرف أى شرف أن تخدمى فى ال (بيلوبيديه) ، مادمت قد استسلمت لنزوة أحلامك حتى فقت بها حدودك يا فتاة ! إنزلى ... فان لك أن تشمخى بأنفك ، وتتيهى على أندادك ، لأنك ستكونين جارية من جوارى ملكة آرجوس ! »

رئيس المنشدين : « لقد قالت وقد سمعتِ ! وكلاهما بين ... أوه ! مالك مكدودة هكذا ؟ ... قد تفكرين فى الطاعة ... ولكن ... قد ينجلى اشمئزازك بعد حين ! »

كليتمنسترا — « رضخت أو لم ترضخ ... لابد من أن تصغى لى ! »

رئيس الخورس — « أطيعى يا فتاة ... قد يكون هذا لصالحك ... إنزلى ! »

كليتمنسترا — « إن النيران المتأججة تنتظر بفارغ الصبر أن تلتهم فرائس الذبيحة ، وقد نضب معين الرحمة ، وغاض ماء الحنان ، وليس هناك وقت نضحى به من أجل بكمك أيها الفتاة ، فاذا لم تستطيعى التكلم بلساننا فلتؤد يداك ما تريدين أن تجيبى به ... تكلمى ! »

ولكن كاسندرا ما تزداد إلا صمتاً ، وما تزداد إلا سكوناً ، فيقول رئيس الخورس :

— « يبدو أنها فى حاجة إلى ترجمان ... ... »

وتتميز الملكة من الغيظ ، فتحدج الفتاة بعينين تقدحان الشرر ... وتنطلق داخل القصر ...

— ١٩ —

ويرثى الخورس للفتاة المنكودة ، ويروعه هذا الأسى الذى يتشح به وجهها ، وتلك الكآبة التى تجلل جبينها ، فيعطف عليها ، ويدعوها للتنزل من العربة ... فاسمع إذن إلى هذا الحديث المشجى :

— « إنزلى ... أصيخى للقضاء ، وسلمى للقدر ... إنزلى ! »

— « آى ... آى ... أوه ... أبوللو ... أبوللو ! »

— « فيم هتافك الباكى بأبوللو ... ؟ »

— « آى ... أبوللو .. أبوللو ... آى ، آى ، أوه أبوللو .. ؟ »

— « ما تنفكين تهتفين بالآله الذى أصم أذنيه عنك ؟ »

— « آه يا أبوللو يا إلهى ! أيها البانى العظيم والمخرب العظيم ! بنيت طروادة ... وحطمتنى ! وهاهى يدك تمتد فى غير رفق مرة أخرى فتعبث بى ! »

— « اسمعوا يا رفاق ! إنها تتنبأ عما يخبئه لها القضاء ... كأن فيها جذوة من السماء [1] ! »

— « أبوللو ... أبوللو ... يابانى طروادة ... ياهادم بنيانى .. ماذا هنا ؟ أى سماء ؟ فيم جئت بى هنا ؟ »

— « هذا قصر الأتريديه [2] إن لم تكونى تعرفينه بعد ! »

— « آه ! ... حاشا ! بل هو كهف رهيب رائع ! ممقوت من السماء ! ملطخ بدماء الأثم ، مضرج بأرواح الشهداء تجثم الجريمة فى كل ركن من أرجائه ! »

— يا للآلهة ! إنها تشم رائحة الدماء ... وكأنها قريبة منها بل هى بين ناظريها لا شك ! »

— « أجل ! ... أجل ... هناك . هناك . هناك . وهاكم برهان قاطع ... تشمموا مى ... ولكن ... لا ... إنى أرى ... إنى أنظر ... الأطفال الأطهار الذين ذبحوا ... هاهم يتصايحون بقاناهم وهاهى لحومهم ... الشواء ! ... مسكين أبوهم ! لقد أكل ...! لقد قرت لحومهم فى بطنه ! »

— « أيتها الفتاة ! لقد طبقت شهرتك الآفاق كنبية تكشف الغيب ما كان منه وما يكون ! ولكنك هنا...ولا حاجة لهذا المكان المرعب بأنبياء !

— « آه ! ... وماذاك أيضاً ؟ ويلى ! جريمة جديدة وحزن جديد ! ثمرة مرة من ثمرات الطغيان ! إنها تدبر الآن ... تحت سقفك أيها القصر المائل ! طاعون ! طاعون مهلك لا سبيل إلى الفرار منه ! من عمل البغضاء العمياء للمحبة المبصرة ! الغوث ! ويلاه لاغوث ! »

— « لا أكاد أستبين هذه النبوءة ! لقد كانت الأولى جلية واضحة ! وكل مدينتنا ما تزال تتحدث حديث الوليمة المجرمة ! »

— « ياشقية ! زوجك ياشقية ! كيف تجسرين ؟ هاهى ! إنها تمد يدها الأثيمة ! إن الضربة الهائلة تتلو الضربة الهائلة ! ... »

— « ولم أفهم بعد ! إن نبيتنا تلغز ... إن نبوءاتها طلسمات »

(١) النار السماوية هى القضاء والقدر واستطاعة كشف الغيب فى الميثولوجية اليونانية (٢) أسرة أجا ممنون

— « يا للشبح ! ويلاه ! ما عساه أن يكون ؟ شراك من الموت ... ومن الجحيم ! بل هو شرك الغرفة السوداء ... غرفة الشريك المجرم ! هلمي يا غربان الويل ... يا أبابيل الاثم ! هوّمي فوق هذا القصر ... أو إن اسطعت فارجميها ... أرجميها ... ! »

— « أية أبابيل ستنزلين رجومها على القصر ؟ إن دعاءك يذهلني ! إن قطرات الموت المسمومة تتسرب إلى شغاف قلبي ؛ حينما تتسرب لُمعَ الحياة من جراح القتلى ... ! أوه ... ما أسرع الحزن انحداراً في القلوب ؟ ... »

— « ماذا أرى ؟ آه ... أسرعوا ... أسرعوا فاحجزوا البقرة واحموا العجل ! أنظروا ! أنظروا ! إنها تأخذ بتلابيبه ... وتخوض في لبته بسلاحها ... آه ... لقد سقط المسكين يتشحط في دمه الغزير ... ! »

— « لقد كنت أفخر بما أقدر عليه من كشف للغيب ، أحدس الآن أن هذا الهذيان لا يدل على خير !! ياللآلهة ؟ أبداً لم يكن الترجيم جلياً بيّناً ! وأبداً لم يضف الأنبياء أمارة حبور على هذا الكون ! إن الأشجان بضاعتهم دائماً ، وإن اللغو من القول آلتهم إلى أذهان الناس ، وهم لا يضربون إلا على أوتار الذعر ليصلوا إلى غور قلوبنا ! »

— « ويلي ! بالحظي العاثر ! لقد أترعت الكأس بما رويت من قصتي السادرة ! لم جئت بي إلى هذا القصر معك أيها التعس ؟ ألأموت معك ؟ وماذا أيضاً ؟ لأموت ؟ لأموت ؟ »

— « ما تزدادين إلا هذياناً وهذراً !؟ وما بك إلا مس ؟ وإنا لا ندري : هل حملك إله إلى هذا القصر لتتغنى حظك العاثر ، كما تغنت أختك البلبلة (١) الحزينة من قبل ... ...»

— « ياويح لي ! ومن لي بنصيب مثل نصيبها ! الحورية الجميلة التي منحتها الآلهة ريشاً وأجنحة ؟ لقد سلمت وودعت وفازت بحياة طيبة ... ... أما أنا ... فقريباً أشق بنصل حاد فأكون شطرين ! ... »

— « ياعجباً ! أنى لك هذا ؟ ... من بذر فيك هذه البذرة السوداء ؟ أنى لك تلك الأغنية الكئيبة ، وهذا اللحن الحزين ؟ من أين تتنزل عليك موسيقاك الباكية ؟ من أوحى اليك بهذا الوسواس الخبيث ؟ ... »

« البقية في العدد القادم » دريني خشبة

(١) أسطورة البلبل الحزين تقول بأن احدى الأميرات ألمت بها ملمة فما برحت تشجى وتحزن حتى رثت لها الآلهة وحولتها إلى بلبل غرد ...

القفاز

بقلم حسين شوقي

(س) عنده الصفات التي تكفل عادة للمرء النجاح في ميدان الحياة : الذكاء والشباب وحسن المنظر .. ولكنه خجول لسوء الحظ إلى حد بعيد ، وقد أفسد عليه خجله أموراً كثيرة وعاق مستقبله ، إذ أن س لا يعمل غير عمل متواضع ، في محل تجاري متواضع ..

ماذا يفعل (س) في خجله ؟ ماذا ؟ لماذا عالج هؤلاء الأغريق الحكماء الفهاهة بوضع قطع من الحجر في الفم ولم يفكروا في معالجة الخجل ؟ ..

وإذا كان خجل (س) عاق مستقبله المادي ، فانه كان أشد عليه ضرراً في ميدان العاطفة .. إذ أنه برغم كونه في ريعان الصبا لم يعرف الحب بعد .. أو على الأصح لم يتصل بفتاة ما .. مع أنه كان توّاقاً بشدة إلى الحب .. كم خفق قلبه في « السينما » عند ما يتلاقى المحبان على الشاشة بعد فراق طويل !. وكان إذا عاد إلى منزله بعد مشاهدة مثل هذه المناظر الغرامية ، يرتمي على المخدة ليدفن فيها حزنه وألمه ، ويأخذ في البكاء الشديد .. لم يجد (س) في حياته الجرأة لمغازلة الفتيات ، حقيقة أن بعضهن غازلنه ، ولكن س لم يكترث لهن ، لأنهن كن يتفاوتن في الدمامة ، و (س) لا ينظر إلا إلى الجمال ، لأن الحب في نظره أمر سماوي مقدس .. وكثيراً ما كان يذهب إلى المتنزه العمومي ، حيث كان يأمل التعرف بسهولة إلى حبيبة القلب المرتقبة .. فهناك ربما تنسى فتاة منديلها ، (أو حقيبة يدها) على أحد المقاعد ، فيلتقطه ويقدمه لها ، فتتم بهذه السهولة المعرفة بينهما .. يا للعجب ! ها هي أمنية (س) تتحقق ، لأن المقادير التي تضن علينا بكسب سباق (الدربي) ، لا تضن علينا بتحقيق أمانينا المتواضعة ...

إليك كيف تحققت أمنية (س) :

شاهد (س) ذات يوم سيدة رائعة الجمال (كما تخيلها في أحلامه) تجلس في المتنزه على أحد المقاعد وهي تقرأ كتاباً في يدها باهتمام شديد ، فجلس (س) حيالها على مقعد يترقب فرصة

التعرّف اليها . . ثم لم يمض زمن طويل على هذا ، حتى نهضت السيدة من مكانها ونسيت حقيبة يدها على المقعد (كما تمنى س) فنهض من فوره ليلتقط الحقيبة ويقدمها اليها ، ولكن قدوم شرطىّ فى هذه الأثناء أفسد عليه الأمر إذ خشى س أن يحسبه الشرطىّ لصًّا . . وكان من حظ الشرطىّ تقديم الحقيبة لها ، وقد شكرته السيدة عليها بابتسامة ساحرة وانصرفت . .

مسكين (س) ، كم كان مغتما لخروجه من التنزّه فى ذلك اليوم ! . .

ولكنه لم ييأس ، فعاد فى اليوم التالى إلى الحديقة فى المكان نفسه ، عساه يجدها هناك مرة أخرى ، فاذا بالسيدة الحسناء جالسة على المقعد نفسه تقرأ ! . . وكان من حسن حظه أن السيدة نسيت فى هذه المرة أيضا حقيبتها على المقعد ، لدى انصرافها ، فالتقطها وهرع فقدمها اليها ، قائلا فى تردد شديد :

— إنها المرة الثانية التى تنسين فيها حقيبتك ياسيدتى !

— هذا حقيق ! ولكن كيف عرفت ذلك ؟

— كنت هنا بالأمس عند ما فقدتها ، لقد هممتُ وقتئذ بالتقاطها وإعادتها إليك ، ولكن قدوم الشرطىّ أفسد علىّ الأمر فقد خشيتُ أن يظننى سارقاً . .

فضحكت السيدة عندئذ ضحكة عالية لسذاجة الشاب وبساطته . . ثم أذنت له فى مرافقتها فى السير ، كما تولّت إدارة الحديث بعد ما رأته على هذه الحال من الخجل :

— إنى لا بد أن أنسى شيئاً عند ما أقرأ كتاباً . .

— إن ما تقرأينه لابد أن يكون ممتعاً جداً حتى انه ينسيك حقيبتك يومين متواليين . .

— هى رواية بوليسية .. إنى شديدة التعلق بالروايات البوليسية لأن حَبْك الدسائس الجنائية يتطلب ذكاء نادراً ..

كم أسف (س) عندئذ لعدم قراءته قصصاً بوليسية ، ولقد بدا عليه الأسف واضحاً ..

قالت — ربما كان المشى يتعبك ؟

— أبداً !

يا لسذاجتها ! إن (س) ليصعد معها جبال الهملايا عن طيب خاطر !

— إنى مضطرة إلى المشى كل يوم . . لمعالجة الأملاح . . .

تذكر (س) عندئذ اسم دواء للأملاح كان أوصى به طبيب لأخته ، فصاح قائلا :

— هناك دواء نافع للأملاح اسمه ....

ولكنها قاطعته فى سخرية :

— دواء ؟ صدقنى ليس هناك ما هو خير من المشى ...

وبعد أن تنزها نصف ساعة وصلا إلى باب الخروج فأستأذنت وانصرفت بعد أن وعدته بالحضور إلى الحديقة فى اليوم التالى للتريض . . .

كم كان سعيداً فى ذلك اليوم ! ها هى ذى أحلامه تتحقق ! إن جمال هذه السيدة هو أسمى ما يطمح اليه ! أما هى ، فقد شعرت من فورها « باستلطاف » زائد نحو هذا الشاب الساذج الخجول ، لأنها لم تشاهد حولها فى وسطها الراق (إذ كانت من طبقة الأشراف) غير رجال أشبه بالطيور الجارحة ..

وفى اليوم التالى بكر فى الذهاب إلى الحديقة ، حيث التقى بسيدة أحلامه ، وقد تروضا هذه المرة ساعة بدلا من نصف ساعة . . .

ثم تقابلا فى الأيام التالية ...

وكانت هذه السيدة الحسناء تلبس دائماً قفازا أسود طويلا ، ودّ س . لو نزعته حتى يستطيع أن يطبع قبلة على يديها المحبوبتين . . .

وكان كلما طلب منها ذلك رفضت فى لطف . .

وقد ألحّ يوماً عليها فقالت :

— سوف تندم يا عزيزى لو نزعتُ قفازى ...

— هل تعنين أن يدك غير جميلة ؟

— أجل ، إن يدى اليمنى بها ست أصابع ...

— إذن ألثم اليد اليسرى

— اليد اليسرى ينقصها أصبع ...

— فليكن ذلك

— أقول لك إنك سوف تندم

ولكنه ألح الحاحاً شديدا اضطرت السيدة إزاءه أن تخلع القفاز ، ولكنه بدلا من أن يلثم يدها التى نزعت عنها القفاز ، صرخ صرخة مؤلمة ثم سقط مغشياً عليه ، إذ لمح فى يدها خاتم الخطوبة ...

حسين شوقى

البريد الأدبي

كتاب لزعيم الاشتراكية الفرنسية

منذ بضعة أشهر توفى الفريد دريفوس الضابط اليهودى الفرنسى وبطل القضية الشهيرة التى هزت فرنسا منذ ثلاثين عاماً وكادت تدفعها إلى غمر الحرب الأهلية ؛ وقد صدرت عن هذه المأساة القضائية الشهيرة أثناء وقوعها وبعده عشرات من الكتب بمختلف اللغات ، وصدرت بمناسبة وفاة بطلها عدة كتب ورسائل جديدة ؛ ومن ذلك كتاب صدر أخيرا بقلم الزعيم الاشتراكى الفرنسى ليون بلوم وعنوانه « ذكريات عن القضية » souvenirs sus l'Affaire ، أعنى قضية دريفوس ؛ ومسيو بلوم رئيس الحزب الاشتراكى الفرنسى ، وله ولحزبه مكانة قوية فى الحياة السياسية والبرلمانية الفرنسية ؛ وقد كان لموقفه أثر فعال فى التطورات السياسية الأخيرة وفى سقوط وزارة مسيو لافال ، ومسيو بلوم فضلا عن كونه سياسيا وخطيبا كبيرا ؛ كاتب كبير أيضاً ، وهو يتولى تحرير المقالات السياسية فى جريدة « بوبولير » الاشتراكية ، وله فيها جولات رنانة ، وقد كان مسيو بلوم وقت وقوع مأساة دريفوس فتى فى عنفوانه ولكنه كان قد شق طريقه السياسى ، وخاض غمار الحوادث السياسية والحزبية التى أثارتها القضية الشهيرة ؛ ونحن نعرف الآثار السياسية والاجتماعية والعقلية العميقة التى أحدثها النضال بين أنصار دريفوس وبين خصومه ، وكيف انشطرت الحياة العقلية الفرنسية يومئذ إلى شطرين : أحدهما يتجه إلى تأييد مايسميه « الحقيقة والعدالة » بتأييد دريفوس ، والآخر يتجه إلى تأييد النزعات القومية والعسكرية المغرقة التى أثارت هذه المأساة الشهيرة ، ويصور مسيو بلوم فى كتابه هذه الحوادث والتطورات تصويراً قوياً ، ويشرح لنا البواعث النفسية والعقلية التى كانت تدفع أنصار دريفوس إلى العمل لنصرته وتبرئته ، فهؤلاء كما يقول مسيو بلوم كانت تربطهم عواطف قوية هى الثقة فى « قوة الحقيقة » ، وتدفعهم حماسة مضطرمة إلى ما فوق أنفسهم ، ويرى مسيو بلوم شبهاً قوياً بين حادث انهيار شركة بناما ومأساة دريفوس وهى أعظم حوادث هذا العصر ، وبين نكبة استافسكى الأخيرة وما تلاها من الحوادث الدموية فى فبراير سنة ١٩٣٤ ؛ فقد كان من ورائها العسكريون والوطنيون دائما يثأرون لهزيمتهم فى انتخابات سنة ١٩٣٢ ؛ وقد كانت دسائس العسكريين والوطنيين مثار قضية دريفوس ، والخلاصة أن مسيو بلوم يقدم الينا صورة قوية خلابة عن الأوضاع السياسية والفكرية أيام دريفوس . ومع أنه يقدمها الينا فى أثواب اشتراكية واضحة ، فانه مع ذلك يسبغ عليها بقلمه وبيانه كثيرا من الأناقة والطرافة . وكتابه جدير باهتمام أولئك الذين تذكى خيالهم وتشجيهم حوادث المأساة الشهيرة .

وفاة مؤرخ وصحفى كبير

نعت الينا الأنباء الأخيرة مؤرخاً وصحفياً فرنسياً كبيرا هو فرانسوا جاك بانفيل ؛ توفى فى نحو الخمسين من عمره ، وفى ذروة حياته الأدبية وكان بانفيل كاتبا وصحفيا كبيرا ، يحرر القسم السياسى فى جريدة « لاكسيون فرانسيز » لسان الحركة الملوكية بفرنسا وكانت مقالاته وبحوثه يطبعها دائما نفس الطابع الذى عرفت به هذه الجريدة المجاهدة والذى يسبغه عليها كتاب عظام ملكيون مثل شارل موراس وبانفيل . بيد أن بانفيل كان يحرر فى صحف أخرى مثل « بتى بريزيان » و « لاليبرتيه » ليس لها مثل هذا الطابع . ومع أن بانفيل كان صحفياً بارزا يدفعه التيار الصحفى دائماً إلى المعترك ، فانه لم ينس نزعته الحقيقية ، وهى نزعة المؤرخ الذى ينظر إلى الحوادث بروح علمى مستقل ؛ وقد ترك لنا عدة كتب تاريخية تشهد ببراعته النقدية وحسن تقديره للحوادث والأشخاص منها تاريخ لفرنسا ، وتاريخ للجمهورية الثالثة ، ومنها تاريخ لألمانيا المعاصرة حتى قيام هتلر ، وتاريخ للطغاة المعاصرين مثل ستالين وموسولينى وغيرهما ؛ وتمتاز كتبه وبحوثه بقوة التصوير ، وسلامة العرض ، والبحث العميق

علم المثلثات والعرب

تعليق على مقال فى مجلة نايتشر (١)

فى الشهر الماضى ظهر فى مجلة نايتشر الانكليزية مقال من قلم أدجرسمث Edgar C. Smith تناول فيه البحث عن نوابغ العلماء والأدباء الذين ولدوا فى الأعوام ١٥٣٦ ، ١٦٣٦ ، ١٧٣٧ ، ١٨٣٦ بمناسبة حلول العام الميلادى الجديد ١٩٣٦ ، وقد جاء فى هذا المقال أن ريجيو مونتانوس كان من أعظم رياضى زمانه ، ومن رجالات العلم البارزين فى عصره ، وأنه كان أيضاً موضع إعجاب وتقدير من ذوى السلطات الزمنية والروحية ، وإليه يرجع الفضل فى نقل بعض علوم اليونان والمسلمين إلى الغرب ، وفى تعريف الأوروبيين اليها - كل هذا صحيح لا سبيل إلى نكرانه ولا يختلف فيه باحثان . . . ولكن هناك شيئاً واحداً أحببت التعليق عليه وهو القول : « بأن ريجيو مونتانوس ألف فى الرياضيات وأن كتاب المثلثات (De Triangulis) هو أول ثمرة من ثمار ريجيو مونتانوس ، ومجهوداته فى المثلثات على نوعيها المستوية الكروية ، كما أنه أول كتاب بحث فيها بصورة منظمة علمية . . . »

اختلف العلماء فى محتويات كتاب De Triangulis الذى وضعه ريجيو مونتانوس ، وفى نسبتها اليه ، فبعضهم يدعى أن كل محتويات الكتاب هى من وضع ريجيو مونتانوس وأنه لم يستعن فى ذلك بأحد ، وبعضهم يقول خلاف ذلك ، وبقى هذا الاختلاف زمناً طويلا إلى أن ثبت حديثاً أن ريجيو مونتانوس اعتمد فى بحوثه فى هذا الكتاب على مؤلفات العرب والمسلمين . ولا عجب فى هذا فاليهم يرجع الفضل الأكبر فى وضع كثير من نظريات علم المثلثات وموضوعاته ، واليهم لا إلى غيرهم يرجع الفضل أيضاً فى تقدمه ورقيه ، ولولاهم لما وصل الغربيون فيه إلى ما وصلوا اليه

وينقسم كتاب ريجيو مونتانوس إلى خمسة فصول كبيرة منها ما يبحث فى المثلثات المستوية ، ومنها ما يبحث فى المثلثات الكروية ، وقد ثبت لدى الباحثين أن الأصول التى اتبعها ريجيو فى الفصل الخامس هى بعينها الأصول التى اتبعها العرب فى الموضوع نفسه فى القرن الرابع للهجرة - هذا ما توصل اليه العالم المحقق التركى صالح زكى بعد دراسة مؤلفات ريجيو مونتانوس وأبى الوفاء البوزجانى ، ومما يزيد المرء اعتقاداً بهذا كله اعتراف كاجورى بأن هناك أموراً كثيرة وبحوثاً عديدة فى علم المثلثات كانت منسوبة إلى ريجيو مونتانوس ثم ثبت حديثاً أنها من وضع المسلمين والعرب ، ويوجد غير كاجورى أمثال سمث وسارطون وسيديو وغيرهم من اعترف بأن بعضاً من النظريات والبحوث نسبت فى أول الأمر الى ريجيو مونتانوس وغيره ثم ظهر بعد الاستقصاء خلاف ذلك

نابلس — قدرى حافظ طوقان

كتاب جديد لبول موران

بول موران من أعظم كتاب فرنسا المعاصرين ، وهو بلا ريب أحدثهم نزعة ، وأوفرهم طرافة ؛ وربما كان ذلك يرجع إلى تكوينه وظروف حياته ؛ فقد درس فى باريس ، واكسفورد ، وأدنبورج ، ودرس الأدب والقانون ، وهيأت له حياته كموظف فى السلك السياسى فرصة واسعة للسياحة والدرس ؛ واتخذت أشعاره وقصصه الأولى أحدث طابع ؛ وظهرت كتبه الأولى ومنها مجموعة القصص المسماة « مفتوح بالليل » و « مغلق بالليل » فكانت تحفاً بديعة جديدة فى الأدب الفرنسى ؛ وأشد ما تبدو قوة بول موران وطرافته فى تصوير حياة المدينة ، وقد اشتهر بكتابيه عن لندن ونيويورك حيث يصور فيهما الحياة الظاهرة والخفية فى تينك العاصمتين الكبيرتين أقوى تصوير وأبدعه ؛ وبول موران سائح لا تخمد له رغبة أو هوى ، يضرب فى أنحاء العواصم الكبرى وينفذ إلى أعماقها وخفاياها ، وقد أصدر أخيراً كتاباً عن عاصمة جديدة هى « بوخارست » وذلك بعد أن أقام فى رومانيا ردحاً من الزمن ؛ وعنوان الكتاب الجديد لا يثير لأول وهلة اهتماماً كبيراً لأن بوخارست ليست من العواصم الكبرى ذات الشهرة الرنانة ، ولكن بول موران يسبغ عليها بكتابه سحراً وروعة ؛ وهو يرى أن يثير بهذه المناسبة ذكرى بيزنطية وذكرى روسيا القيصرية ؛ بيد أنه يتناول المدينة الحديثة وحياتها . ويرى

(١) مجلة Nature عدد ٣٤٥٣

فيها مفترق المدنية الأوربية ، وبدء انسيابها إلى الحياة الآسيوية ؛ ويصف المجتمع الرومانى وخلاله ، وميله إلى الطرب والاستهتار ، وما يمتاز به من الدعابة والنكتة ؛ ثم يصف مجتمع الريف فى صور ساحرة ، ويرى فى خلاله وعاداته طرافة ليست لمجتمع المدينة ؛ ويخصص موران فصولا ونبذاً عديدة لحياة « النور » الذين يكثرون فى رومانيا وخلالهم وفنونهم ، ويقدم الينا عن مختلف طبقات الشعب الرومانى كثيراً من المعلومات والحقائق المفيدة الطريفة معاً

وبول موران لا يجاوز اليوم الثامنة والأربعين من عمره ، ومع ذلك فهو يتبوأ منذ أعوام طويلة المقام الأول فى ثبت الكتاب المحدثين

ذكرى مخترع القاطرة

احتفل أخيراً فى انكلترا بالذكرى المئوية الثانية لمولد جيمس واث مخترع القاطرة البخارية ، واتخذ الاحتفال صبغة رسمية ، فأقيمت صلاة على روحه فى « وستمنستر ابى » ، ورفع الستار عن لوحة تذكارية أقيمت فى بلدته (جرنيوك) من أعمال اسكتلنده ، ونثرت زهور كثيرة على أثره التذكارى ببلدة برمنجهام أعظم مصنع لصناعة القاطرات فى انكلترا ؛ وأقيم فى لندن معرض على عرضت فيه نماذج من الآلات والقاطرات البخارية منذ اختراعها إلى اليوم ؛ وقد خصص المعهد الميكانيكى الأنكليزى بهذه المناسبة جائزة تمطى لمن يقوم بأفضل اختراع فى ميدان الهندسة الميكانيكية ، سواء فى انكلترا أو فى غيرها من البلاد

وقصة واث شهيرة فى تاريخ الاختراع ، فقد ولد فى سنة ١٧٣٦ وكان طفلاً سقيما فلم يتلق تربيته قبل الثالثة عشرة ؛ ودرس الهندسة العملية ، واشترك فى أعمال وتجارب هندسية خطيرة ؛ وفى سنة ١٧٦٤ توصل إلى الوقوف على سر البخار كقوة محركة ، وذلك أثناء إصلاحه لآلة بخارية وضع تصميمها جون نيوكمن ؛ وفى العام التالى استطاع أن يصنع جهازاً لحفظ قوة البخار ، ثم وضع تصميماً لآلة بخارية جديدة صنعت فى معامل سوهو بالقرب من برمنجهام ، وكان هذا مولد القاطرة الحديثة

الكتب

الفن الاسلامى فى مصر

للدكتور زكى محمد حسن
المساعد الفنى بدار الآثار العربية

هذا الكتاب الثمين ليس سوى الجزء الأول من ثلاثة أجزاء وعد المؤلف باصدارها . إذ رأى أن لتاريخ الفن الاسلامى فى مصر حلقات ثلاثا : تبدأ الأولى بالفتح العربى وتنتهى بسقوط الدولة الطولونية ، وتشمل الثانية عصر الفاطميين ، وتحتوى الثالثة على عصر المماليك . وخص هذا الجزء بالحلقة الأولى وكشف فى مستهله عن سر النزعات فى هذا الفن بايراده مقدمة تاريخية سياسية تفصح للقارىء عن أثر كل تطور خاص بسياسة الدولة المصرية فى الفن الاسلامى

وطبيعى أن يعنى المؤلف الفاضل بناحية البحث فى تاريخ فن العمارة وزخرفة البناء الاسلامية عناية خاصة . وليس ذلك لمجرد مطابقة هذه الناحية من الفن لطابع العرب الدينى ، بل ولأنه أيضاً استرعى أنظارهم وهم البدو ومساكنهم الشعر ، ولاءم مزاجهم الرياضى الفنى ، واتفق وغرضهم من التعمير — على حد ما نعتقد

ولم يستكمل الفن الاسلامى فى مصر وضوحه إلا فى عصر الطولونيين . وكان فناً مستقلا عن الفن الذى ازدهر فى سامرا مدينة المعتصم

واستعرض المؤلف تاريخ تلك المدنية منذ نشأتها ، ثم واصل عرض آراء العلماء فى شأن فنها ، وأخذ يوازن بين الخطأ فى تلك الآراء والصحيح منها

ومن أهم النظريات التى أثبتها اعتبار زخارف سامرا غير متأثرة بأساليب الفن السيتى إلى حد كبير ، كذلك اعتبار أن الجند الترك لم يكن لهم فى الناحية الفنية شىء يذكر فى عهد الخلفاء العباسيين ، وأن الفرس ماضيهم الفنى المجيد أكثر استمداداً من الترك للتأثير فى الفنون الاسلامية ، ولو أن ذلك الرأى قال به غيره ، إلا أنه عززه بأدلة مما عثر عليه من صور فى سامرا ، ولم يفت المؤلف ذكر توافد مهرة الصناع العراقيين والفارسيين والأغريق وغيرهم على سامرا ، فأصبح الفن هناك خليطا

وتكلم المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب عن العمارة الدينية ، ولا شك أن العمارة بلغ بها المسلمون شأوا بعيداً ، إذ هى عندهم أجل الفنون ، فابتدعوا فيها وأبدعوا ؛ ويعد جامع احمد ابن طولون أهم الآثار العربية فى مصر وأقدم شاهد على المدنية الاسلامية فيها . ودحض المؤلف فكرة أن هذا الجامع كان من مساجد المعسكرات . وهى فكرة رائجة بين عدد من علماء الفرنجة

ثم جاء فى الفصل الثالث على ذكر العمارة الحربية والمدنية التى لم يبق منها لمهد الأسرة الطولونية سوى قناطر ابن طولون . إلا أن مؤرخى العرب ومؤلفى الخطط أفاضوا فى وصف مدينة القطائع والبيمارستان وكذا القناطر . وذكر المؤلف بعض تفاصيل شائقة عن تأسيس مدينة القطائع وعن قصر ابن طولون بها الذى حاكى به قصور الخلفاء فى سامرا . وجاء بوصف ممتع للقصر وما حوى وما أضافه ابنه خمارويه عليه من أبنية وحدائق . وكان لتنقيب دار الآثار العربية وعثورها فى صيف سنة ١٩٣٢ على أطلال منزل طولونى بالتلال المجاورة لأبى السعود الفضل فى الاستدلال على بعض قواعد وأصول العمارة المدنية الخاصة بالعصر الطولونى . وذكر المؤلف أن قناطر ابن طولون شيدت فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة القطائع . ولا زالت بعض عقود القناطر قائمة حتى اليوم ومنها يستدل على متانتها وبديع الصناعة فيها ؛ والمعروف أن المهندس النصرانى الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو نفس المهندس الذى شيد له فيما بعد المسجد الجامع

أما زخرفة المبانى للعهد الطولونى التى وردت فى الفصل الرابع من الكتاب ، فهى أكثر الفنون التى تأثرت بالصناعة العراقية والفن الذى ازدهر فى سامرا . وعالج فيها المؤلف مشكلة اختلف فيها العلماء وهى هل كان موطن هذه الزخارف ومكان نشأتها البلاد المصرية ، أم أن الزخارف الطولونية مأخوذة عن

الزخارف العراقية فى سامرا ؟ ورأى المؤلف فى الجمع بين الرأيين حلا امشكلة ؛ وقد حلل الدكتور محمد حسن الزخارف إجملا تحليلا دقيقاً ، لا نستطيع الا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه عنها

ثم انتقل فى كتابه إلى الفنون القديمة ، ومهد لها بكلمة جامعة قيمة . وأتى فى الفصل الأول على تاريخ صناعة النسج فى مصر وتطورها ، فاستُعني شيئا فشيئا عن الرسوم الآدمية والحيوانية التى كانت فى الفن القبطى ، وقوى الميل إلى الزخارف الهندسية ، كما لعبت الكتابة دورا هاما فى هذه الصناعة . وكانت صناعة الحرير والقطن والكتان من الجودة بدرجة أن المباراة بين الكنائس والمساجد والأسواق الخارجية كانت تتزاحم للحصول على منسوجات مصر . ومع كل فلم يطبع النسج بطابع إسلامى إلا ابتداء من العصر الفاطمى

ثم تكلم المؤلف عن الحفر على الخشب ، وأبواب استعماله فى مختلف أنواع المبانى والزخرف . ويمكن اعتبار أن هذا الفن بقى حافظا للتقاليد القبطية زمنا طويلا ، بدليل ما كان بقصر ابن طولون ؛ وأبان المؤلف ذلك كما أبان النزعة إلى الكتابة على الخشب فى عهد ابن طولون . ثم عالج فى اقتضاب تطور الخط العربى ، ورأى أن المناسبة حسنة لذلك

وانتهى من ذلك إلى الكلام عن الخزف ، ولو أن دراسة الخزف الاسلامى لا زالت صعبة المنال ، ولكن مما لا جدال فيه أن الخزف الاسلامى يمتاز بالجودة عن الخزف المصرى فى العهد القبطى فكان الخزف للعهد الطولونى يصنع من طينة رقيقة . ويمتاز بزخارف ذات بريق معدنى ، ذى لون أصفر أو زيتونى على أرض بيضاء أو بيضاء مشوبة بالصفرة . وهذه المميزات نفسها نجدها فى الخزف الذى عثر عليه فى سامرا

ثم ختم أبحاثه ببحث عن التصوير طريف . وفيه ذكر أن التصوير الذى ينسب إلى مدرسة بغداد كانت تمد سورية أو العراق أو إيران مصدره ، وان فن التصوير لم يزدهر إلا فى تلك الأقاليم متأثرا بالتعاليم الفنية التى أخذها العرب عن المانويين واليماقبة والصينيين . وظلوا لا يفكرون فى مصر كمهد لمدرسة من مدارس التصوير الاسلامى حتى كان الاكتشاف المشهور فى الفيوم ، ذلك الاكتشاف الذى أثبت وجود صور مصغرة إسلامية ترجع الى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر . ولم يترك المؤلف هذا الفصل دون أن يعالج ما يسمونه تحريم التصوير فى الاسلام ، وقد أجمل القول بأن نظرة فى الكتاب الكريم ، وفى كتب التفسير ، وفى أسباب النزول كافية لأن تثبت أن هذا الزعم باطل لا أساس له وان كان مكروها

وعقد المؤلف للكتاب خاتمة ألم فيها بالصناعات التى عرفتها مصر فى فجر الفنون الاسلامية ، وذكر فى لمحات سريعة تطورها حتى نهاية العصر الطولونى ، وأشار الى أن رجال الفنون والصناعات فى القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، كانوا من المصريين ، سواء فى ذلك من اعتنق منهم الاسلام ومن ثبت على المسيحية

ولا شك فى أن الدكتور زكى محمد حسن قد أحسن دراسة موضوعه وسار ببحثه سيراً هادئا ؛ وكان قديرا فى مناقشة حجج علماء الفنون الاسلامية ، وفى تدعيم آرائه بالبينة ، وليس ذلك بالأمر الصعب على مثله ، وقد راجع عشرات الكتب ، ومحص عديد التحف قبل أن يستقر على رأى يبديه فى جملة متواضعة ، وفى أسلوب سهل رصين ، وكان موفقاً فى تنسيق بحثه تنسيقاً محكما حتى كاد يبدو تحفة فى ذاته ، وساعده جمال الطبع والورق والتجليد على زيادة بهائه ورونقه ، وقد يهم القارئ أن يعرف أن المؤلف لم يترك كتابا قرأه فى ذلك البحث إلا وذكره ضمن مراجعه ، كما ذيل الكتاب بتراجم أهم الأسماء الواردة فى الكتاب وكذلك ذيله بلوحات فتوغرافية غاية فى الاتقان لايضاح ما تكلم عنه

ولسنا وحدنا الذين نثنى على حضرة الدكتور زكى محمد حسن وعلى عمله وجهده هذا ، ولا عيب عليه سوى انه يتركك بعد قراءة هذا الكتاب ، أو قل دراسته ، تتلهف لقراءة المطولات من قلمه ؟

4 me Année. No. 138.

Lundi 24 2-1936

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٣٨ « القاهرة فى يوم الاثنين أول ذى الحجة سنة ١٣٥٤ — ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

مصر فى المعرض !

— ١ —

أليس من حسن توفيق الله أن يجلس المفاوض المصرى فى قصر الزعفران ، ومن ورائه مصر العاملة العاملة محشودة كلها بسودانها وصعيدها وريفها فى المعرض ! تشدد قوته بروح النهضة ، وتؤيد حجته بدليل الحس ، وتسند هيبته بروعة الواقع ؟

أليس من جميل عون الله أن يتألف من ذات مصر ومعناها على هذا النحو الذى تراه فى المعرض قياس عجيب الإنتاج ، وقصيد قدسى الإلهام ، وخطاب سحرى البيان ، ودفاع قوى الأثر ، فى الوقت الذى يبسّ فيـه اللورد لويد عقاربه هنا وهناك ، ياسمون بالنمائم ، ويدبون بالأراجيف ، ويُقَسِّمون رأيهم فى الأمر على أن مصر بطبيعة ضعفها متخلفة لا تلحق وتابعة لا تستقل ؟ !

تعالوا يا طلائع الاستعمار ، وصنائع الامتيازات ، وثعالب الكرمة ! هـذه هى مصر الحقيقية قد عرضت عقلها ويدها فى صتين فداناً من الأرض لتيسّر لكم وسيلة الحكم ، وتقصّر عليكم مدى النظر ؛ فلطالما خدعكم عن حقيقتها مغرورٌ يريد الحكم ،

أو منهوم يرغب المال ، أو محروم يطلب الوظيفة .

زوروا المعرض الزراعى الصناعى تجدوا مصر التى لا تقرأونها فى صحيفة ، ولا تسمعونها فى خطبة ، ولا تبصرونها فى مظاهرة ، ولا تقابلونها فى ملهى ، ولا تحادثونها فى حزب ! هى تجرى مع الزمن فى سكون ، وتعمل مع الطبيعة فى صمت ، وتنشق عن ثمار النبوغ كما تنشق الأكمام عن أريج المطر فى هدوء الغسق !

زوروا أيها المفاوضون عن الحليفة المتجنِّية معرض الجزيرة قبل أن تدخلوا سراى العباسية ، تلمسوا فى كل ناحية من نواحى النشاط الصناعى ألف دليل ودليلا على نضوجنا المدنى ؛ لأن الإنتاج الزراعى إذا رجع إلى عمل الله وفطرته ، فإن الإنتاج الصناعى مرجعه إلى فكرة الإنسان وقدرته ؛ وقد عدَوْنا ذلك الطَّور منذ سنين ، وأصبحنا نُصَرِّف عمل الطبيعة ، ونستخدم ثروة الارض ، ونساهم بحذق فى ترفيه الإنسان

* * *

بين الهرم والنيل شاهدى القرون وعَيْنى الاسلاف ، احتشدت مصر الحديثة حكومةً وأمة ، تقدم إلى أمسها الحسابَ الذى يبرئ الذمة ، وإلى يومها العمل الذى يحدد الطريق ، وإلى غدها الأمل الذى يحدد الغاية !

الزارع والصانع والتاجر والعالم والأديب والموظف قد أثبتوا بهذا العرض الموفق فى إخلاص غير غالٍ ولا مفتعَل ، أن مصر التى تسير فى مؤخرة الدول بسياسة الكلام ، تجرى فى مقدمة الشعوب بسياسة العمل !

ودلالة ذلك أن بين الأمة وقادتها حجاباً من الجهل والعزلة لا ينفذ منه الشعاع ، ولا تنعكس عليه الروح ، ولا ترتسم فيه مقاييس التقدم ! على أن أكثرنا لا يزيد علمه بهذا البلد المظلوم على علم هؤلاء القادة ؛ فقد كنا نرى فى المعروضات الأهلية والحكومية نفائس الصناعة ودقائق الفن ، من ضروب اللباس والأثاث والآنية والزينة ، فيداخلنا الشك فى أنها مصرية ! ولكنا نرى بجانبها الآلة تدور ، والصانع يعمل ، والمنتوج يخرج كالمعروض فى دقته وأناقته ، فيستولى على المرء شعور قوى غريب ؛ فيه الخجل من سوء الظن ، وفيه اللذة من دهشة المفاجأة ، وفيه الاقتناع بصحة النهضة ، وفيه الاطمئنان على سلامة الوطن . هذا الانتاج الفاخر هو الذى يقدمه إليك التاجر الأوربى فى بيوت البيع الكبيرة بلسانه المعسول وغلافه المقبول وكلمته الواحدة وسِمَته المزورة ، فتشتريه بالثمن الغالى على أنه وارد من وراء البحر ، قد تجشم أكلاف النقل ، وتكلف رسوم الجرك ، وتكبد أضرار الحسارة ، وهو مصرى اشتراه الأوربى بالغبن وباعه بالخديعة ، وحرم الصانع المصرى المسكين أجر العمل بسرقته القِيمة ، ومجد الصنعة بسرقته النسبة . وعلة ذلك كله أن المنتج المصرى قد جعل الكذب جزءاً من رأس المال ، وأن المستهلك المصرى قد جعل المساومة شطراً من الثمن ، فكان لابد من هذا الوسيط الأجنبى بينهما ليستر بخداعه كذب المنتج ، ويبطل بمهارته مساومة المستهلك !

* * *

معرض هذا العام قطعة من الفن العجيب عملت فيها يدٌ صَنَاعٌ وفكرةٌ فنّانة ؛ فالوزارات والمصالح تتقدمها وزارة المعارف ووزارة الزراعة من جهة ، والشركات والجمعيات تتزعمها شركات بنك مصر والجمعية الزراعية من جهة أخرى ، تضافرت كفاياتها وتسايرت رغباتها على تمثيل النشاط المصرى هذا التمثيل الناطق الصادق المعبر ، فلا تجد عملا من أعمال اليد ، ولا أثراً من آثار الذهن ، إلاّ منظوماً بفن ، ومعروضاً بذوق ، ومشروحاً بخبرة ، حتى أخلاق الموظفين والمنظمين والعارضين والمتفرجين — إذا استثنيت جزءاً من إدارة المعرض — تجرى على هذا النسق البديع من الجمال والنظام والدقة ! وسنقف بعد هذه النظرة الخاطفة والكلمة العجلى على كل قسم من أقسام المعرض فنستبنه عن أمره ، ونستكشفه عن سره ، ثم نطالعك بما نلاحظ من أسبوع لأسبوع . . .

احمد حسن الزيات

٢ ـ الزاهدان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين : وانتشر حديثُ السمكة فى أهل (بلخ) ، واستفاض بينهم ، وكنتُ قَصَصْتُه عليهم يوم السبت . فلما دار السبتُ من أسبوعه لقينى شيخهم حاتم ابن يوسف (لقمان الأمة) ومعه صاحبُه أبو تراب ، فقال : يا أحمد ! لكأنك فى هذه المدينة قمرٌ طالع بإبلٍ فلا يعظ الناسَ فى يوم السبت غيرك ؛ ومن سمع فكأنه عاين ، وليس على ألسنة أهل بلخ منذ تحدثتَ إلا بِشْرٌ وابنُ حنبل ، ولا على بال أحد منهم إلا موعظتك وحديثك . والكلامُ عن الصالحين فى مثل ما وصفتَ وحكيتَ قُربٌ من حقائقهم ، وسموٌّ إلى معانيهم ؛ وليس فى القول بابٌ له موقع كوقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله فى البشرية خلقَ النور ، يضيء ما حوله من حيث يُرى ، ويعمل فيما حوله من حيث لا يُرى ، وفى ظاهره الجمال والنفعة ، وفى باطنه القوةُ والحياة . ولست أقول لك اذهب فحدِّث الناس ، ولكنى أقول اذهب فأعط النـاسَ عقلا من الحديث

قال ابن مسكين : فلما صلينا العصر قدمنى أبو تراب فجلست فى مجلسى ذاك ، وهتف بى الناسُ يريدون الحديث عن بشر الحافى وما سقط لى من أخباره على الطريقة التى حدثتهم بها من قبل ، فابتدأتُ بذكر موته رحمه الله وأن يومَه كأنما اجتمع له أهل خمسٍ وسبعين سنة[1] ، إذ خرجت جنازته بعد صلاة الصبح فلم يحصل فى قبره إلا فى الليل مما احتشد فى طريقه من الخلق ، حتى لكأن فى نعشه سرا من أسرار الجنة فى هذا ، فخرجوا ينظرون اليه ، وكانوا يصيحون فى جنازته : هذا والله شرفُ الدنيا قبل شرف الآخرة

ثم قلت : حدثنى حسين المغازلى[2] أن بشراً رحمه الله كان

(١) مات رحمه الله عن خمس وسبعين سنة

(٢) نسبة الى عمل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان —

لا يأكل إلا الخبز تورعاً عن الشبهات واكتفاء لضرورة الحياة بالأقل الأيسر ، وكان يقول فى ذلك : يدٌ أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة . وسئل مرة : بأىّ شىء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافيةَ فأجعلها إداماً . وقد أعانه على ذلك أنه لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصاً فى نفسه حتى فضّل الامام أحمد بن حنبل بأشياء منها أن له أهلا ؛ غير أنه قيل له ذات يوم : لو تزوجت تمّ نُسُكك ؛ فقال : أخاف أن تقوم الزوجةُ بحقى ولا أقوم بحقها ، فكانت هذه النية فى نفسه أفضل من زواجه

وكان مع هذا لا يؤاكل أحدا ولا يسعى إلى لقاء أحد حتى إنه لما رغب فى مؤاخاة الزاهد العظيم معروف الكرخى أرسل اليه الأسودَ بن سالم وكان صديقا لهما ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتك وهو يستحى أن يشافهك بذلك ، وقد أرسلنى اليك يسألك أن تعقد له فيما بينه وبينك أخوة يحتسبها ويعتد بها ، إلا أنه يشترط فيها شروطاً : أولها أنه لا يحب أن يشتهر ذلك ، وثانيها ألا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة ؛ فقال معروف : أما أنا فاذا أحببتُ أحداً لم أحب أن أفارقه ليلا ولا نهاراً ، وأزوره فى كل وقت ، وأوثره على نفسى فى كل حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوةً بينى وبينه ولكنى أزوره متى أحببت ، وآمره بلقائى فى مواضع نلتقى فيها إذا هو كره زيارتى

قال حسين المغازلى : وكان هذا كله من أمر بشر معروفاً فى بغداد لا يجهله أحد من أهلها إذ لم يكن لبغداد إمام غيره وغير ابن حنبل ؛ فما كان أكثر عجبى حين كنت عنده يوماً وقد زاره فتح الموصلى ، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إلى وقال : اشترلنا أطيب ما تجد من الطعام ، وأطيب ما تجد من الحلوى ، وأطيب ما تجد من الطيب ؛ وما قال لى مثل ذلك قط ، وهو الذى رأى الفاكهة يوماً فقال : ترك هذه عبادة ! وهو القائل لأبى نصر الصياد : لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة[1]

بشر يعمل المغازل ويعيش من ثمنها ، ومن كلامه لابن أخته عمر : يا بنى اعمل بيدك فان أثره فى الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين . هكذا كانوا

(١) مر هذا فى مقال (السمكة) فى العدد الماضى من الرسالة

فذهبت فاشتريت وانتقيت وتخيرت، ثم وضعت الطعام بين أيديهما فرأيته يأكل معه وما رأيته أكل مع غيره، ورأيته منبسطاً إليه وما لي عهد كان بانبساطه إلى أحد. وقد كنت أخبرته في ذلك النهار بخبر أحمد بن حنبل علمتُه من أدريس الحداد؛ فانه لما زالت المحنةُ بعد أن ضُرب بين يدي المعتصم وصُرف إلى بيته، حمل إليه مال كثير من سروات بغداد وأهل الخير فيها، فردَّ جميع ذلك ولم يقبل منه قليلا ولا كثيراً، وهو محتاج إلى أيسره، وإلى الأقل من أيسره، وإلى الشيء من أقله، فجمل عمه اسحق يحسبُ ما ورد في ذلك اليوم فكان خمسين الف دينار، فقال له الامام: يا عم أراك مشغولا بحساب مالا يفيدك. قال: قد رددت اليوم كذا وكذا الفاً وأنت محتاج إلى حبة من دانق. فقال الامام: يا عم لو طلبناه لم يأتنا، وإنما أتانا لما تركناه

***

قال المَازلي: فنمت تلك الليلة وأنا أفكر في صنع الشيخ وقد تملق خاطري به كيف انقلبت الحال معه، وأي شيء هذه الحال، وجملت أكدُّ ذهني لأعرف الحقيقة العقلية التي سلطت عليه هذه الضرورة فتسلط النعيم على نفسه، وأنا أعلم أن للقوم علوماً روحانية ليست في الكتب، فمنها ما لا يتعلمونه إلا من الفقر، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء، ومنها ومنها، ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهب قلبي إلى أوهام كثيرة ليس في جميعها طائل ولا بها معرفة، حتى غلبتني عيناي وأنا من وهج الفكر نائمٌ كالمريض وقد ثقل رأسي واختلط فيه ما يُعقل بما لا يُعقل

فرأيت أول ما رأيت ملكا جباراً يحكم مدينة عظيمة وقد أطلق المنادي في جمع كل أطفال مدينته لجيء بهم من كل دار، ثم رأيته قد جلس على سريره وفي يده مقراض عظيم قد اتخذه على هيئة نصلين عريضين لو وضعت بينهما رقبة لفصلاها عن جسمها؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابع إحدى قدميه في شق المقراض فيقرضها فاذا هي تتناثر أسرع مما يقرض القصُّ الخيط، ثم يرمي بالطفل مغشياً عليه ويتناول غيره فيبتر أصابعه والأطفال يصرخون؛ وأنا أرى كل ذلك ولا أملك إلا غيظي على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمضيَ فيه هذا الغيظ فأقرضَ عنقه بمقراضه

ثم رأيته يأخذ طفلا صغيراً، فلما جاءت قدم الطفل بين شق المقراض صاح: يارب، يارب! فاذا المقراض يلتوي فلا يصنع شيئاً وكأن فيه حجراً صَلداً لا قدماً رَخْصَة. فتميز الجبار من الغيظ وقال من هذا الطفل؟ فسمعت هاتفاً يهتف: هذا بشر الحافي! لا يبلغ تاج ملك في الأرض أن يكون لقدمه الحافية نعلا عند الله!

وكان إلى جنبي رجل يَتَضوأ وجهه صلاحاً وتقوى، فقلت له: من هذا الطاغية؟ ولم اتخذ المقراض لأقدام الأطفال خاصة؟

فقال: يا حسين! ان هذا الجبار هو ذل العيش، وهذا وسمُه لأهل الحياة على الأرض يحقق به في الانسان معنى البهيمة أولَ ما يدب على الأرض حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدم

قلت: فما بال هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض؟

قال: إن لله عباداً استخصهم لنفسه، أول علامته فيهم أن الذل تحت أقدامهم، وهم يجيئون في هذه الحياة لاثبات القدرة الانسانية على حكم طبيعة الشهوات التي هي نفسها طبيعة الذل؛ فاذا اطرح أحدهم الشهوات وزهد فيها، واستقام على ذلك في عقد نية وقوة ارادة، فليس ذلك بالزاهد كما يصفه الناس، ولكنه رجل قوي اختارته القدرة ليحمل أسلحة النفس في معاركها الطاحنة، كما يحمل البطل الأروع أسلحة الجسم في معاركه الدامية. هذا يُتعلم منه فن وذاك يُتعلم منه فن آخر، وكلاهما يرمي به على الموت لأيجاد النوع المستمز من الحياة، فأول فضائله الشعورُ بالقوة، وآخر فضائله ايجاد القوة

***

قال المَازلي: وضرب النوم على رأسي ضربة أخرى فاذا أنا في أرض خبيثة داخنة قد ارتفع لها دخان كثيف أسود يتضرب بعضه في بعض، وجعلت أرى شملاً حمراً تذهب وتجيء كأنها أجسام حية، فوقع في وهمي أن هؤلاء هم الشياطينُ: ابليسُ

وجنودُه وسمعتُ صارخاً يقول : يا بشرى ! فلتبك السماءُ على الأرض ، لقد أكل بشر الحافى من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوى عنده حجرها ومدَرُها ، وذهبُها وفضتها ! فعارضه صائح أسمع صوته ولا أرى شخصه : ويلك يازَلَنْبور (١) ! إن هذا شر علينا من عامة نُسكه وعبادته . فهذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذى كان لا يطيقه بشر ؛ إنه إعناتٌ سلّطه على نفسه ، فانى دفعتُ هذا (المنازلىّ) الأعمى القلب لزين له ما فعل أحمد بن حنبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته ، زهداً وورعاً وقوةَ عزم ونفاذَ إرادة ؛ وقلت عسى أن تتحرك فى نفسه شهوةُ الزهد فيحسدَ أو يغار ، أو تعجبه نفسه فيكون لى من ذلك لمّةٌ بقلبه فأوسوس له فانا نأتى هؤلاء من أبواب الثواب كما نأتى غيرهم من أبواب للمعاصى ، ونتورّع مع أهل الورع كما نتسخّف مع أهل السخف ؛ ولكن الرجل رجل وفيه حقيقةُ الزاهد ، فقد أعطى القوة على جعل شهوات نفسه أشخاصاً حية يعاديها ويقاتلها ، فاذا أنا جعلت شهوته فى اللذة قتل اللذة ، وإذا جعلتها فى الكآبة قتل الكآبة ، وليس الزاهد العابد هو الذى يتقشف ويتعفف ، ويتخفف ويتلفف ، فان كثيراً ما تكون هذه هى أوصاف الذل والحمق ويكون لها عمل العبادة وفيها إثم المعصية ، ولكن الزاهد حقُّ الزاهد من أدار فى الأشياء عيناً قد تعلمت النظر بحقه والاغضاءَ بحقه ؛ فهذا لا يخطىء معنى الشر إن ابّسناه عليه فى صورة الخير ، ولا معنى الخير إن زوّرناه فى صورة الشر ، وبذلك يضع نفسه فى حيث شاء من المنزلة ، لا فى حيث شاءت الدنيا أن تضعه من منازلها الدنيئة

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيبات إلا ليبادر بها وسوسى ويردّنى عن نفسه وعن اللّمة بقلبه ، فلو أنه أعجبه زهد ابن حنبل ونظر من ذلك إلى زهد نفسه لحبط أجره . فبهذه الطيبات عالج نفسه علاج مريض ، وقد غير على جوفه طعاما بطعام ، كما يبدّل على جلده ثوباً بثوب ، ولا شهوة للجلد فى أحدهما

***

(١) هذا اسم بعض ولد ابليس فيما يروى ، وفى بعض النسخ التى بأيدينا انه خنزب لا زلنبور … …

قال المنازلى : وثقل النوم على ثقلةً أخرى فرأيتنى فى واد عظيم وفى وسطه مثل الطَّود من الحجارة قد ركم بعضها على بعض . ورأيتني مع بشر أقصُّ عليه خبر احمد بن حنبل ؛ فقال انظر ويحك ؛ إن الناس يسمونها خمسين ألف دينار وهى هنا فى وادى الحقائق خمسون ألف حجر لو أصابت أحمد لقتلته ولكانت قبره آخرَ الدهر

إن المال يا بنى هو ما يعمله المال لا جوهره من الذهب والفضة ، فاذا كنت بمفازة ليس فيها من يبيعك شيئاً بذهبك فالتراب والذهب هناك سواء . والفضائل هى ذهب الآخرة ؛ فهنا تجدد بالمال دنياك التى لا تبقى أكثر من بقائك ، وهناك تجدد بالفضائل نفسك التى تخلد بخلودها

ومعنى الغنى معنى ملتبسٌ على العقول الآدمية لاجتماع الشهوات فيه ، فحين ردّ احمد بن حنبل خمسين ألفا ، يكون هذا المعنى قد صحح نفسه فى هذا العمل وجهاً من التصحيح

***

قال حسين المنازلى : وغطّنى النوم فى أعماقه غطّةً أخرى فاذا أنا فى المسجد فى درس الامام احمد وهو يحدث بحديث النبى صلى الله عليه وسلم : إذا عظّمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبةُ الاسلام ؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حُرموا بركة الوحى . وهم أن يتكلم فى تفسيره (١) ولكنه رآنى فأمسك عنه وأقبل على فقال : ياحسين ! إذا اجتزأ شيخك بالرغيف فهذا عنده هو قدر الضرورة ، فان أكل الطيبات فقد عرضت حالٌ جعلت هذه الطيبات عنده هى قدر الضرورة . وفى هذه النفوس السماوية لا يكون الجزء الأرضىُّ إلا محدودا ، فلا يكون محصوله إلا ما يُوى من قدر الضرورة

ولما صغُر الجزء الأرضى فى نفوس السلمين الأولين ملكوا الأرض كلها بقوة الجزء السماوى فيها ، إذ كانت إرادتهم فوق الأطماع والشهوات ، وكانت بذلك لا تذل ولا تضعف ولا تنكسر ؛ فالآدمية كلها تنتهى إلى بعض سورهم هؤلاء الذين محلُّهم فى أعلاها

(١) سيأتى تفسيره فى مجلس آخر من مجالس ابن مسكين

أثر الحضارة الاسلامية في الاحياء الأوربي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عصر الاحياء أو إحياء العلوم [١] من أعظم عصور التاريخ الأوربي ؛ وهو بلا ريب مطلع النور والعظمة في حياة أوربا الحديثة وفي تكوينها السياسي والفكري والاجتماعي ؛ وفي معترك الاحياء الساطع تذوب ظلمات العصور الوسطى التي خيمت على أوربا منذ سقوط الدولة الرومانية ، ويفتر ليلها الطويل عن حياة جديدة تسرى إلى جنبات القارة القديمة ، فتلقى من حولها غمر الماضي بقوة ، وتستقبل عصوراً جديدة من القوة والعظمة والسيادة في جميع مناحي الحياة

وإنا لنشعر ونحن نستعرض تاريخ الأحياء أننا لا نتلو تاريخ أمم أو شعوب معينة ، وإنما نتلو صفحة من أنبل صفحات الانسانية تبهرنا بما حوت من المظاهر والمعاني السامية للعبقرية البشرية . ولقد كان تراث الأحياء وما يزال تراث الانسانية كلها ، ذلك أن ثمرات التفكير البشري هي ملك الانسانية في كل زمان ومكان ؛ ولم يكن تاريخ الاحياء مدى قرن ونصف في معظم الدول الأوربية سوى تاريخ العلوم والفنون والآداب التي تفتحت في ذلك العصر كما تتفتح الأزهار ، والتي بثتها إلى ظلمات العصور الوسطى أرواح وأذهان وعقول ارتفعت فوق العصور والمجتمعات التي ازدهرت بها ، وسمت بعبادتها ومثلها كما سمت بعبقريتها

ولقد كتب تاريخ الأحياء مدى القرون وما زال يكتب في كل عصر ؛ ولكنه يتخذ دائماً طابعه القومي أو المحلي ، وقلما يكتب من الناحية الانسانية المحضة ؛ وإنك لتشعر حتى فيما يكتب عنه من الناحية الانسانية أن العوامل القومية والمحلية تتبوأ دائماً مكانها وتفشى فيه كل نزعة أخرى ؛ وكثيراً ما تساءلت وأنا أستعرض هذه الصفحة الباهرة من تاريخ الانسانية ، كيف يغفل مؤرخو الغرب حين يكتبون تاريخ الأحياء عن استعراض صفحة أخرى من تاريخ الانسانية لا تقل عن صفحة الأحياء قوة وجمالاً وروعة هي صفحة الحضارة الغربية الاسلامية ، وما كان لها من أثر بارز في بعث عصر الاحياء الأوربي ؟

والحقيقة أن هذه الناحية من تاريخ عصر الإحياء كثيراً ما تغمط حقها وتنكر علائقها وآثارها في بعثه وتكوينه . بيد أنها تستحق منا نحن الذين يفهمونها ويقدرونها عناية خاصة ؛ وليس يكفي أن نكتب تاريخ الحضارة الاسلامية ، بل يجب أن نعالج آثارها في تكوين مختلف المدنيات والحركات العقلية الأخرى ؛ ولقد كان الاحياء الأوربي حركة عقلية عظيمة ومطلع حضارة جديدة رائعة ، وكان لحضارة الغرب الاسلامي أثرها في بعث هذه الحركة ، فمن واجبنا أن نستقصى هذا الأثر وأن نعرضه إلى جانب ما يعرض لنا من تطور حركة الاحياء الأوربي

ومن الصعب أن نحاول استعراض هذا الأثر في مقال أو فصل ، ولكنا نحاول فقط أن نلم ببعض أطرافه العامة ؛ وأخص ما يبدو هذا الأثر في النواحي الفكرية والاجتماعية من

(١) الرنيصانس Renaiseance

يا حسين ! ألا وإن ردَّ خمسين ألف دينار هو كذلك قدرُ الضرورة .

قال حسين : وذهبت أعترض على الامام بما كان في نفسي من أن هذا المال وإن لم يكن من كَسْبه ، فقد كان يتحول في يده عملا من أعمال الخير ؛ وأنسيتُ أن هذه الصدقات هي أوساخ الناس وأقذار نفوسهم ، فلم أكد أفتح فمي حتى رأيت الكلام يتحول طيناً في فمي ليذكرني بهذا المعنى ؛ وكدت أختنق فانتفضتُ أتنفّس فطار النومُ والحلمُ

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الى التلميذ العاشق : يأبى ان التلميذ الذي يعشق ويذهب يسأل عن الحب — إما أن يكون فاجرا فهو في لعنة الله والملائكة ؛ وإما أن يكون خائبا فهو في لعنة أبيه وأمه ، وإما أن يكون مهملا فهو في لعنة الكتب والكراريس ...... وان استشارني زدته لعنتي أنا أيضا

الرافعي

عصر الأحياء ؛ ونلاحظ أن طوالع الأحياء ظهرت بادىء بدء فى إيطاليا وبدت فى الشعر بوجه خاص ، وحمل لواءها الأول شعراء عظام مثل دانتى وبترارك ، حاولوا أن يعيدوا مجد الشعر الرومانى القديم ؛ ولم تكن هذه النهضة الشعرية الرائعة رغم اتجاهها إلى مثل فرجيل عميد الشعر الرومانى خالية من تأثير المثل الشعرية فى غرب أوربا . ذلك أن النهضة الشعرية التى أزهرت قبل ذلك بنحو قرن فى بروفانس (جنوب فرنسا) والتى كانت حركة « التروبادور » الأدبية فى الشعر والقصص من أقوى مظاهرها ، كانت قد أحدثت آثارها فى الحركة الأدبية فى شمال إيطاليا حيث بزغ فجر الأحياء ؛ ولم يكن شعر دانتى بعيداً عن التأثر بعوامل الشعر البروفنسى ووحيه ، بل لم يكن أسلوب دانتى نفسه بعيداً عن التأثر بالأساليب البروفنسية ؛ ويرى علماء اللغة فوق ذلك أن اللغة الايطالية الحديثة والتى وضعت أسسها فى عصر الاحياء قد تأثرت فى تكوينها إلى حد كبير بالروح والتراكيب البروفنسية القديمة ؛ ويشيد دانتى نفسه فى بعض قصائده الكبرى بعبقرية زعماء الشعر البروفنسى ومثلهم الشعرية ، ويرى فى تيبول ملك نافار مثلا أعلى للشاعر ؛ فهذه الظواهر والعوامل كلها تدلل على آثار النهضة الشعرية الغربية فى شعر الأحياء

هذا ومن جهة أخرى فقد كان الشعر البروفنسى ذاته عرضة لمؤثرات قوية ، من الجنوب فيما وراء البرنيه . وكانت الحضارة الاسلامية فى الأندلس تنفث آثارها منذ القرن التاسع فى شمال اسبانيا وفى غاليس (جنوب فرنسا) ، وكان أثرها بالأخص قوياً واضحاً فى بروفانس التى كانت مركز الحركة الأدبية فى الجنوب منذ القرن العاشر ؛ وكانت بروفانس ذاتها مدى حين مستقراً لبعض المستعمرات العربية الغازية التى حملت إلى تلك الأنحاء كثيراً من التقاليد والمؤثرات الاسلامية ، ولا سيما فى شعر الفروسة ، بل لقد سرت هذه التقاليد والمؤثرات إلى الحركات الفكرية والأدبية فى أنكبرديه (لومباردى) ؛ فليس غريباً أن نستخلص من تفاعل هذه المؤثرات والعوامل كلها أن شعر الأحياء لم يكن فى بدايته بعيداً عن التأثر بمؤثرات الحضارة الاسلامية ومؤثرات الشعر الأندلسى عن طريق الشعر البروفنسى

ومما يبعث حقاً الى الدهشة أن نجد شبها عجيبا فى الموضوع والخيال والتصوير بين « جحيم دانتى » وهى أعظم وأروع آثاره وبين أثر عربى أقدم هو رسالة الغفران للشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى ، مما قد يحمل البعض على الظن بأن دانتى قد وقف بطريقة من الطرق على موضوع رسالة الغفران ، وقد كتبت قبل عصره بأكثر من قرنين ، ومع أن هـذا الرأى لم يؤيد بصفة علمية واضحة ، الا أنه مما يلاحظ فى تأييده أن كثيرا من علوم العرب وآثارهم العلمية والعربية كانت معروفة فى شمال إيطاليا عن طريق البندقية منذ القرن العاشر الميلادى

هذا ونستطيع من الناحية العلمية العامة أن نقول أيضا إن بعث الأحياء الأوربى لم يكن بعيدا عن التأثر بمؤثرات العلوم الاسلامية ؛ فنحن نعرف أن الأندلس كانت منذ القرن التاسع الميلادى نبراس الغرب كله فى العلوم ، ونعرف أن مدارس قرطبة واشبيلية وغرناطة كانت فيما بعد كعبة الطلاب من سائر أنحاء أوربا ، وأن النهضة العلمية فى أوربا بدأت قبل عصر الاحياء على يد جماعة من الرهبان النصارى الذين تلقوا العلوم فى مدارس الأندلس مثل جربرت الراهب الفرنسى الذى ارتقى عرش البابوية فيما بعد باسم سلفستر الثانى (سنة ٩٩٩ م) وآبيلار وهو أيضا راهب فرنسى تفقه فى الفلسفة والعلوم المعاصرة وطار صيته فى أوائل القرن الثانى عشر ؛ وكان أعظم ما يتلقى الرهبان العلماء — وهم يومئذ دعاة العلم فى الغرب الأوربى — الفلسفة اليونانية عن طريق العلماء والفلاسفة المسلمين ، ولاسيما ابن رشد الأندلسى الذى كان أول من عرف العالم الغربى بالفلسفة الارسطوطالية ، وقد ترجمت شروحه المعتمدة من الفلسفة الارسطوطالية فى المنطق وما وراء الطبيعة الى اللاتينية منـذ القرن الثانى عشر ، وكانت أساساً لكثير من المباحث الفلسفية التى ازدهرت أيام الأحياء الأوربى فى شمال ايطاليـا ، بل يرى مؤرخو الفلسفة أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية أكثر مما استمدت من قسطنطينية التى كانت مستودعاً لتراث المدنية اليونانيـة ؛ وليس من ريب فى أن جهود العرب فى ميـدان الكيمياء والطب كانت أكبر مستقى للغرب فى هذا الميدان ؛

فقد كانت الـكيمياء العلمية علما عربيا محضا ، وقد بلغت ذروة ازدهارها فى العصور الوسطى فى معامل قرطبة واشبيلية وغرناطة ، وكان أطباء الأندلس أساتذة الطب فى أوربا كلها ، واليهم كان يهرع الطلاب من سائر الأمم الشمالية ؛ وكانت مدرسة سالرنو الطبية فى جنوب ايطاليا تقوم على تراث الحضارة الاسلامية التى سادت صقلية وجنوب إيطاليا زهاء قرنين ؛ وكانت آثار الطب العربى تبـدو فى هذا الميدان بصورة قوية بارزة ؛ ويمكن أن يقال مثل ذلك عن بعض العلوم الأخرى مثل الفلك والرياضيات ، وقد بلغت أيضا فى الأندلس شأوا عظيما

والخلاصة أن آثار الحضارة والعلوم الاسـلامية فى بناء النهضة العلمية الأوربية واضحة لا يمكن انكارها ؛ واذا استثنينا ميدان الفنون فى نهضة الأحياء ، فانه يصعب علينا أن نتصور ناحية من نواحى هذه النهضة الفكرية الرائعة ؛ سواء فى العلوم أو الآداب تبعد كل البعد عن التأثر بعبقرية التفكير الاسلامى ، سواء مباشرة أو بواسطة عوامل أخرى . بيد أنه مما يؤسف له أن هذه الناحية لا تلقى فى المباحث الغربية ما يجدر بها من الشرح والتقـدير ؛ ويلاحظ أن مؤرخ الاحياء الأوربى يكاد يغفلها بصفة مطلقه ، هذا فى حين أن مؤرخ العصور الوسطى لا يستطيع أن يغفلها

ولـكن معظم مفـكرى الغرب ومؤرخيه ما زالوا ينظرون الى تاريخ العرب والاسلام والحضارة الاسلامية ومؤثراتها نظرة خاصة قلما تنجو من مؤثرات الدين والقومية ، بل لقد درج فريق منهـم على اعتبار العرب ضمن القبائل والأجناس البربرية التى حطمت صرح الدولة الرومانية ، واعتبار الغزوات الاسلامية لجنوب أوربا كوارث دينية وقومية ؛ ومازالت المباحث التاريخية تبالغ فى تقدير مؤثرات الحضارة الرومانية فى أمم العصور الوسطى وتعتبرها دائما عاملا حاسما فى كل تطور فـكرى أو اجتماعى ، هذا بينما نراها تغفل تقدير الحضارة الاسلامية ومؤثراتها ؛ ويلوح لنا أن الوقت قد حان لنعمل من جانبنا على تصحيح هذا الموقف ، ورفع هذا الاجحاف الذى يلحق بتراث المدنيـة الاسلامية فى أوربا ، والتنويه بما لهذا التراث من الآثار الحاسمة فى المدنية الأوربية بوجه عام ، وبما له من آثار خاصة فى معظم الحركات الفكرية التى قامت فى أوربا خلال العصور الوسطى

بيـد أنه من الانصاف أيضا أن نقول إننا نلمح فى بعض المباحث الغربيـة المستنيرة أثر هـذا التطور فى فهم المهام الانسانية التى أدتها الفتوحات الاسلامية فى العصور الوسطى ، وفى تقـدير التراث المظيم الذى خلفته الحضارة الاسـلامية ، وما كان لها من آثار خطيرة حاسمة فى تطور الحركات العقلية والاجتماعيـة فى تلك العصور ؛ ومن الحق أن نقول إن بحوث أولئك العلماء المستنيرين قد رفعت كثيرا من الحيف والاجحاف والريب التى لحقت ذكريات العرب والاسلام فى أوربا من جراء الصور والروايات الخاطئة المغرضة التى مازالت تقدم منذ أحقاب عن العرب والاسلام الى المجتمع الأوربى الحديث

محمد عبد الله عنان

الفردوس الإسلامي المفقود

تحت قناطر جامع قرطبة

للشاعر الألماني هنري هين

(مهداة إلى الأستاذ الزيات)

ترجمة الأستاذ معروف الأرناءوط

محرر فتى العرب ومؤلف سيد قريش

« . . . أيتها القبة الرفيعة المنار ، لقد ظللت في الماضي بيت الله . . . » « هنري هين »

أرأيت ياسيدي السائح إلى مسجد قرطبة الجامع ! أرأيت إلى تلك العُمُدِ المرمرية وقد نهضت على قبابٍ فيحاءَ واسعة الأرجاء ؟

أرأيت إلى مفاتن الفنّ العربيّ وقد راحت تطفو على القباب والحنايا والقناطر ؟ أرأيت إلى سُوَرٍ من القرآن كيف أذابها الذكاء في شتى الألوان ؟

في سبيل الله ، وفي سبيل مجده الذي لا يَبْلَى قام هذا الصرحُ المُشْمَخِرُّ ثم تَنَكَّرَ الزمن وجَهُمَتْ نواحيه ، فتنكرت الأشياء وجهمت المشاهد ، وأرعد في الأفق الذي تسرب اليه صوت المؤذن حلوا صافيا ، صوتُ النواقيس ، وقام الرهبان يدعون في أغانيهم الشجية الكئيبة إلى المسيح في محراب كان إلى الأمس مزهوا بالمؤمنين ، وامتلأت السُّوح بالدُّمى والتماثيل ، وتقاصرت ظلال الشمس أمام أنوار شاحبة تريقها الشموع والمصابيح !

* * *

وقف « المنصور بن أبي عبد الله » في مسجد قرطبة تحت القبةِ المرمرية وهو يحدّق في العُمُد والحنايا هادئا ناعم الجأش ، ثم مضى يتخافت بصوته :

« أيتها القبة الرفيعة المنار ، لقد ظللت في الماضي بيت الله ، ثم عدت اليك فرأيتك تظللين بيتا غريبا ، ثم أصغيت اليك ، فاذا بك ترددين صلاة ما كانت لِسُنَنِك الأوائل !

لقد هَدْهَدَ الزمن حماسك ، وأطفأ كبرياءك ، فجمدت على خطبك الكريه ، وصبرت لبؤسك الأليم ، ولكن نفسي وقد صاغها الله من معدِنٍ ضعيف مازالت — وارحمتاه لها — ملتاعةَ أسوانة حتى أعجزها اليأس عن الصبر فما عادت تطيق شجنها الجاهد ! »

* * *

وانثنى الفتى العربيُّ إلى الماء المقدّس يمسح به رأسه ويغسل جبينه ، ثم جفا المسجد وراح إلى فرسه فنهض على ذؤابته فانطلق به يعدُو في الطريق ، وأخذ الهواء المستفيض في الأفق يعبَثُ بغدائره المُرْسلة ويلاعب ريش قبعته المطرّزة !

أشرف الفارس العربيّ على طريق القلمة حيث تجرى أمواه الوادي الكبير متطامنةً هادئة ، فبدت له الخضرة والرياحين والأعناب وشجر اللوز الباسق المتهدّل وأزهار البرتقال الكاسية الضافية فلذّ الغناء فغَنَّى ، وراحت نغماته العِذاب تختلط بأغاني الطيور !

وإنه لكذلك إذا قصر القلمة يلوح له عن بعد ، فطفر إليه مستروحا إلى غناء رقيق يستفيض من حواشيه !

في هذا القصر غزلات هائمة آوت اليها « كلارا الفاريس » وهي فتاة طفّارة وثّابة فارق أبوها مَغْناه إلى أرض « النافار » فاستَغْدَى الفَرَق في المرح والأهواء خلال غيبته عن القصر !

وقف المنصور بن أبي عبد الله في ناحيةٍ دانيةٍ من القصر وطفق يُصْغي إلى عَزِيفٍ لذٍّ هادئ ، وقد بَهَرَتْهُ الأنوار وأشجته الأعراف ، فتمايَدَ من الطرب ، وأمّ ناحيةَ القصر يريد التوغل في جَنَّتِه بين ورده وأقحوانه !

وكان القصر يعج بالحسان والفرسان ، فزرف المنصور اليه فاذا هو بين الراقصين والراقصات والمغنّين والمغنيات ، ثم عاد ينظر إلى نفسه فاذا هو أملح فرسان هذه الليلة الساهرة شبابا وأعذبهم حديثا ، بل لقد كان أمْضَاهم في الاغراء والاستهواء ؛ ولما استوثق من فتون عينيه ، مضى إلى هذه الأسراب الناعمة الطفّارة ، يحدث غانية عن حُبٍّ أجَنَّهُ في قلبه وحَرَصَ الأيذيعه إلا على مِسْمَعٍ منها ، حتى إذا أمله العبث والمجون ، طفر إلى غانيةٍ أخرى فاحتبسها بين ذراعين محمومتين مشبوبتين ، ثم شعر بالملل فارتد عنها إلى ثالثة يعانقها ويخاصرها تحت قباب من المرمر ، ثم جفاها إلى أختها ملولا من هوى شديد التقلب !

وكان يمضي إلى حسناء من حسان القصر فيسألها إن كانت

عنه راضية ، وبه ناعمة ، ثم يومض بيديه وعينيه إلى صليب من الذهب يَخْطَف بريقه على صدره ، ويقسم للكاعب اللعوب أنّ مكانها من صدره مكان هذا الصليب ! وإنه لنصرانيته على وفاء غريب !

***

سكن القصر ، فسكنت فيه اللذّات والأهواء ، وانطفأت تحت قبابه الأنوار والأضواء ، وانقلب الفرسان إلى مضاجعهم صرعى هوى وصهباء ، وخلا القصر إلا من ربته الحسناء ، وفارسها العربيّ ذى البهاء ، وإلاّ من شموع ضعيفة السنا والسّناء !

جلست الحسناء الاسبانية إلى فراش ناعم وثير ، والفتى العربيّ جاثم على ركبتى الحبيبة ، صريع سهد وأرق ، يُريدُ عينيه على إغفاءة لذيذة فتمنّاس هـذه الاغفاءة اللذيذة من عينيه الضحوكين !

وإنه لسادرٌ فى حمىٌ شديدة من أرق شديد ، إذا تلك الحسناء اللعوب تريق على غدائره ماء الورد من قوارير حفّت بالعجب ، وازينت بالذهب ، وهى بعد منزوفة سكرى من الحبّ والطرب ، لقد كانت تفعل ذلك سادرة حيرى ، والفتى العربيّ غريق هواجس وأحلام ، وشهيد ذكريات وأوهام ، وكان صدره يلوح لها محتدماً مشبوباً تمزّقه الزفرات ، وتقطّعه الآهات !

ثم ابتعث الحبّ فى قلبها سكراً فسلبها صحواً ، فأقبلت إلى فتاها تسعى ، وراحت تَلْثِمُ شفتيْه وقد عادتا كالشّفاق ، وهو فى سبحه غريق حُبٍّ وهوى

وحَدّقت إليـه مبهولةً واجمة ، فرأتْ على جبينه وقد عاد مسفوعاً مقروراً غمامةً بلون الدجى ! فشجيت حتى لقد هدّها الشجى ، وبكت وانصبّ دمعها على جفنيْه فاستفاق رَاعِشاًمن هذا الندى !

لقد هزّته وهو يحْلم ! بلى لقد كان يَحلمُ ! وقد رأى فى حُلمه القصير كأنه لا يزال فى مَسْجِدِ قرطبة الجامع ، وَخيل إليـه أنه لا يبرح يطوف بالماء المقدّس يغسل به جبينه كأنه غريقٌ فى النصرانية وأشجاه هذا الذى تمثل ورأى ، وشعر بأن جوانب المعبد تميد ميْداً ، وأن ألوف الأصوات أخذت تطفو على نفسه فلا يستطيع لها ردّاً !

ثم خيل إليه أنهُ يسمع قعقعة المهْد ، وصليل القباب وهى تنهار ، كأنّ مسجد قرطبة الجامع قد عاف عيشه الخانى ، فتداعى مَغيظاً مُحنَقاً

وتمثل الناسَ والرهبان وآلهة النصرانيـة وقد طوتهم الأنقاض ، فاستفاق راعشاً ، وانطلق يعدو فى القفر البعيـد النواحى شاجناً ناشجاً ، وقد خلفَ حُبّهُ فى القصر يائساً

معروف الارناءوط

مشروع علمى جليل : سلسلة المعارف العامة

اعتزمت لجنـة التأليف والترجمة والنشر اخراج كتب لطيفة الحجم يتناول كل كتاب منها موضوعاً خاصاً علمياً أوأدبياً ؛ وترمى بذلك إلى تكوين سلسلة تشمل جميع النظريات الحديثة فى الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والتربيـة والطبيعة والـكيمياء وغير ذلك ؛ وقد سلـكت فى ذلك طرقاً مختلفة ، فأحياناً تترجم كتباً أجنبية إذا رأتها صالحة كل الصلاحية ، وأحياناً تؤلف فى الموضوع بما يتفق وذوق الجمهور العربى

وقد بدأت هذا الشهر فى اخراج أربعة كتب :

(الأول) عرض تاريخى للفلسفة والعلم تأليف ا . وولف وترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف ، وهو كما يدل عليه اسمه نظرة عامة فى تاريخ الفلسفة والعلم من بدء نشأتهما إلى الآن . وثمنه ٦ قروش صاغ

(الثانى) الآراء الحديثـة فى علم الجغرافيا تأليف ل . ددلى ستامب وتعريب الأستاذ أحمد محمد العدوى مدرس الجغرافيا بالجامعة المصرية . وثمنه ٦ قروش صاغ

(الثالث) سكان هـذا الـكوكب تأليف الدكتور محمد عوض أستاذ الجغرافيا فى الجامعة المصرية يبحث فى سكان الـكرة الأرضية من بنى الانسان من حيث نشأة النوع البشرى وتعدد الأجناس ونمو السكان وتوزيعهم على سطح الأرض مع دراسة تفصيلية لحالة السكان ومشاكلهم فى مختلف الأقطار . وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً

(الرابع) كتاب « البراجماتزم » أو الفلسفة الأمريكية تأليف الأستاذ يعقوب فام . وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وصل الفائت

لم يستطع بستور رؤية مكروب داء الكلب لصغره ومع هذا رباه فى مخ الأرانب فتربى . وذلك بأن حقن لعاب كلب مسعور فى أرنب ، ثم أخذ نخاع هذا الأرنب لحقنه فى مخ كلب فمات . فعلم بذلك أن مخ الأرنب ونخاعه غذاء طيب يتربى المكروب عليه . واتجه مع أعوانه الشباب إلى تأنيس المكروب ليصنعوا منه لقاحاً ففشلوا ، ويئس الأعوان الشباب ، أما بستور الشيخ العاجز فلم تضعف عزيمته ولا قل رجاؤه

قال الشابّان : « إنه يا أستاذنا لا فائدة من كل هذا » ، وأشاحا بأيديهما فى تخاذل إلى الأقفاص بحيواناتها الشلاء ، وإلى ركام الأنابيب والقوارير

فصوّب الشيخ عينه فيهما تصويباً شديداً ، وعلته جهمة خالا معها أن شعره الأشيب المخيف تصلّب واستقام ، وصاح فيهما : « أعيدا هذه التجربة نفسها مرة أخرى ، ولو أنها خابت آخر مرة . قد تتراءى لكما الحماقة فى الذى أقول ، ولكنّ الشيء المهمّ الآن أن تظلا غامرين أيديكما فى الموضوع الذى أنتما فيه فلا تفسلاها منه فتنفضا عنه » . هكذا أنّب بستور تلميذيه اللذين أسلما له من أمرها المَقَاد ، وهكذا ظل ينخّسهما حتى يعيدا مرة بعد أخرى تجارب لا أمل فيها ولا رجاء . فهذا كان دأبه دائماً : تُعوِزه الحجةُ ، ويصرخ المنطق والحقائق غاضبة فى وجهه ، ومع هذا يتشبّث بالتجربة المقيمة ، ويتغافل جنوناً عن وحى الرأى العادىّ السليم ، ولكنه تشبثٌ وتغافلٌ يُفضيان أحياناً من طريق الخيبة إلى النجاح المأمول

لكأنى بك تسألنى لمَ كان عقيماً محاولةُ تأنيس مكروب الكَلَب هذا ؟ ولمَ وجبت إضاعة الرجاء فى ترويضه ؟ أوَجَبَ ذلك يا سيدى أن تاريخ الانسان كله لم يذكر حالة واحدة أصيب فيها انسان أو حيوان بهذا الداء ثم اشتفى . إن هى إلا أعراضه تظهر على المريض ، وتبلغ جرثومة الداء إلى نخاعه ومخه ، حتى يضيع فيه الرجاء . وأىّ جرثومة فتاكة قتّالة ! وهذه الجرثومة يا سيدى هى التى حملها بستور وأصحابه عارية على أطراف مشارطهم تكاد تهمّ أن تسقط بالبلاء عليهم . هذه الجرثومة هى التى مصّها بستور وأعوانه فى أنابيب الزجاج حتى بلغت إلى شفاههم إلا بوصةً واحدة ، وإلا قطعة من القطن فصلت بينها وبين أفواههم

وفى ظلمة اليأس الذى هم فيه أشرقت بارقة من الأمل ؛ وفى صموت الكآبة التى هم فيها سمعوا نغمة موسيقية حلوة بعثت فيهم الرجاء . ذلك أنهم ذات يوم وجدوا كلباً من الكلاب التى حُقنت بالمادة الوبيئة شُفى بأعجوبة بعد أن ظهرت عليه أعراض الداء من ارتعاد وعواء ، وبعد أسابيع قاموا فى لهفة إلى هذا الكلب ، وهو أول مشتفٍ من هذا الداء ، فحقنوا الوباء فى مخه حقناً ، ولكن ما أسرع ما اندمل جرح رأسه ! وتربّص بستور به الموت ، ولكن الموت لم يأته ، وظل أشهراً يلعب ناشطاً فى قفصه وقد تمت حصانته كل التمام

قال بستور لرجاله : « الآن انفتح لنا ما استغلق ، وعلمنا أن لنا أملاً فى النجاح . . . إن الحيوان إذا جاءه داء الكَلَب ثم اشتفى منه فلن يعود اليه هذا الداء من بعد ذلك . . . فلم يبق علينا إلا أن نجد طريقة لاضعاف الجرثومة وتأنيسها » . وأمّن رجاله على ما يقول وفى قلوبهم أن لا سبيل إلى تأنيس هذه الجرثومة أبداً

وأخذ بستور فى اختراع تجارب مما لا يستطيعها الجنّ بَلْهَ البشر ، وانتثرت على مكتبه تخطيطات عدّة منها كأنها الخط الهيروغليفى ، وكانت تجتمع عنده فى صباح اليوم نتائج تجارب الأمس فيدعو اليه فى الساعة الحادية عشرة صباحاً عَونَيه رو وشمبرلاند ، فيقرأ عليهما خطة جامحة أخرى يختطها ليصل بها تحسّساً فى الظلام إلى هذه الجرثومة التى لا تُرى ولا تُنال رجاء أن يُضعفها ـ خطةٌ تأخذ بأصبعه إلى باطن الأرض فتحط به على رأس الجرثومة حطاً

كان يقول لهما بستور : « جرّبا هذه التجربة اليوم »

فيقولان له فى اعتراض : « ولكن هذا غير ممكن عملاً »

فيقول بستور : « ومع ذلك أجْرِياها ، أجرياها بالطريقة

التى تتراءى لكما بشريطة أن تُحْسناها »

كان مَثَل بستور فى ذلك مثل بيتهوفن Beethoven ، يُضمّن سِنْفُونياته الموسيقية دوراً لا يلعبه إلا البوق وهو ليس عنده ، ولكنه لا يلبث بعد خلق الدور أن يخلق بوّاقاً . كذلك كان بستور فى تلك الأيام يَفْتنّ فى التجارب افتناناً ، ثم بعد ذلك يجد من ذكاء هونيه وحرصهما ضميناً لأنجاحها

وأخيراً اهتدوا إلى طريقة لتأنيس جرثومة الكَلَب ، وذلك بأن استخرجوا قطعة من نُخاع أرنب مات من الداء ، ثم علقوها مدة أربعة عشر يوماً فى قارورة لا تدخلها جراثيم الهواء ، فلما جفّت وانضمرت حقنوها فى أمخاخ كلاب سليمة فاذا هذه الكلاب لا تموت !

قال بستور : « مات الجرثوم ! أو خير من ذلك أضعف إضعافاً كبيراً » ، وتلك النتيجة الأخيرة نطّ إليها بستور نطاً بلا سبب مقبول ولا مبرر معقول . قال : « والآن فلنجفّف قطعاً أخرى من النخاع الوبئ اثنى عشر يوماً ، ثم أخرى عشرة أيام ، فأخرى ثمانية ثم ستة ، ثم نرى أنستطيع بهذه القطع أن نعطى كلابنا قليلاً من الدّاء . . . إذن والله لتحصّننّ منه

وأخذوا جميعاً فى سبيل هذه التجربة الخالبة ، ومضت أربعة عشر يوماً ذَرَع فيها بستور أرضَ المعمل رائحاً غادياً بين القوارير والمحاجر والأقفاص المنثورة فيه ، وعبّس وتسخّط ، وخطّ فى كراسته الشهيرة ما شاء له الخاطران يخُطّ ؛ وفى اليوم الأول حُقنت كلابٌ بالنخاع الوبئ الذى جُفف أربعة عشر يوماً ، وفى اليوم الثانى حُقنت بالنخاع الأقوى وباء ، ذلك الذى جُفف فى القارورة ثلاثة عشر يوماً ، وهكذا إلى اليوم الرابع عشر وفيه حقنت الكلاب بالنخاع الذى جُفّف يوماً واحداً ، وبه وباء لا شك يقتل الكلاب لو أنها فوجئت به أول مرة

وظلوا جميعا ينتظرون هذه الكلاب أياما شابت فيها رؤوسهم ، ولكنّ شيئا من داء الكلب لم يظهر عليها أبدا . فانبسطت أسارير هذه الأغوال الثلاثة التى قامت تحارب الموت فتَكَشّر له كما كشر . حقنوا فى الكلاب أربع عشرة حقنة وبيئة فلم يصبها من الضرر قليل أو كثير . ولكن هل هى حقاً تحصّنت من الداء ؟

وخشى بستور ألا تكون ، فأجفل من ذكرى ضياع كل هذه الأعوام فى عمل غير نافع . ولكأنى بك تسمعه يقول لنفسه : « أنا اليوم شيخ عاجز ، والأيام تجيء فلا تزيدنى إلا عجزا ... » ، وكان لابد من إجراء التجربة الفاصلة الأخيرة . وكان لابد لبستور أن يتجلّد على إجرائها مهما كانت عاقبتها . كان لابد له أن يعلم أيحتمل هذه الكلاب بعد كل الذى جرى لها حقنة قوية غير مُضعَفة من التى تحقن فى الكلاب المائة السليمة فتقتل منها المائة

وذات يوم ثقب رو فى رأس كلبين من هذه الكلاب ثقباً حقن فيه وباء قويا لم يُضعف . وفعل مثل ذلك فى كلبين سليمين لم يُحقنا بحقنة أبدا

وبعد شهر أيقن بستور وأصحابه أن النصر أتاهم أخيرا بعد عمل ثلاث سنين . فالكلبان اللذان كانا حقِنا أربع عشرة مرة ظلاّ يجريان فى قفصيهما ويلعبان ولم يتوعكا أصلا ، أما الكلبان الآخران اللذ ن لم يتحصّنا فنبحا آخر نباح وماتا من الداء

إن بستور له شخصيتان ، فهو مخلّص الأرواح ومحاّنة فى آن ، وهما شخصيتان دائما متنازعتان ، ودائما تجور أولاهما على أخراهما . لذلك ما كاد يطمئن الى النتيجة الطيبة التى خرج عليها من هذه الكلاب ، حتى دارت رأسه بالخطط الكثيرة يرسمها ليمحو بها داء الكَلَب من على ظهر هذه البسيطة . فكانت له فى ذلك مئات المشروعات كلها سخيفة ، دار منها فى عالم أدكن من الخيال ، وسلك فيها من الفكر سُبُلا كثر ضبابها واشتد ، فلم يستطع رو وشمبرلاند أن يخترقاه فضلاّ فيه وضلّت فيه زوجه كذلك . وكان ذلك عام ١٨٨٤ ، وفى هذا العام نسى بستور مما هو فيه عيدَ زواجه ، فأساء هذا النسيان إلى زوجه ، وهى التى عانت فى حياتها ما عانت ، فكتبت الى ابنتها تشكو : « إن أباك غارق فى أفكاره ؛ وهو قليل الكلام ، قليل النوم ، وهو يستيقظ مع الفجر ؛ واختصارا هو يجرى فى هذا اليوم على نفس الأسلوب الذى جرى عليه منذ التقت حياتانا من خمس وثلاثين سنة كاملة »

ومن تلك الخطط الجامحة أنه رأى أن يحقن هذا المكروب المُضعَف فى كل كلاب فرنسا فى دفعة نابليونيّة واحدة . قال للبيطار الشهير نوكار Nocard : « يجب أن نذكر أن الانسان لا يصاب بداء الكَلَب أبدا إلا إذا هو عضّه كلب مكلوب

فاذا نحن محونا هذا الداء من الكلاب محوا كاملا . . . » فضحك نوكار من قوله وهزّ رأسه إنكارا ، ثم قال له : « إن فى باريس وحدها مائة ألف من كلاب وجراء . وفى فرنسا مليونان ونصف مليون منها ، فاذا أنت أردت أن تحقنها كلها دفعة واحدة ، وأن تحقن كلا منها أربع عشرة حقنة فى أربعة عشر يوما ، فمن أين لك بالرجال ؟ ومن أين لك بالزمان ؟ ومن أين لك ياعزيزى الأنخم بهذا العدد من الأرانب ؟ بل من أين نأتى بأنخمة وبيئة تصنع منها ألف لقاح فحسب ؟

وأخيراً طافت على بستور فكرة بسيطة أخرجته من ورطته . قال لنفسه : « ليست الكلاب هى التى نعطيها الألقحة ، بل الرجال التى عضتها الكلاب . ألاَ ما أحصر ! ألاَ ما أيسر ! يعضّ الكلب المسعور رجلا فلا يختمر الداء فيه ولا تظهر أعراضه عليه إلا بعد أسابيع . . . إن الجرثومة إذن تستغرق كل هذه الأسابيع لتصل من مكان العضة الى مخّ الرجل . . . إذن نحن نستطيع فى هذه الفترة أن نحقن فى الرجل حقناتنا الأربع عشرة وبذلك نحميه من المرض قبل اختماره . » وما أسرع ما دعا اليه رو وشمبرلاند وقاموا بتجربة هذا الرأى فى الكلاب أولا

فوضعوا كلابا مريضة فى أقفاص واحدة مع أخرى سليمة فعضتها . كذلك جاء رو بكلاب أخرى سليمة وحقنها بحقنة قاتلة من نخاع أرنب وبىء ، ثم جاءوا بجميع هذه الكلاب ، المعضوضة والمحقونة بالوباء ، تلك الكلاب التى لاشك هى لاقية حتفها إذا تُركت لشأنها ، فحقنوها جميعاً بالألقحة المحصّنة الضعيفة فالأقل ضعفا حتى استتمت أربع عشرة لكل منها ، فما الذى كان ؟ كان الفوز كل الفوز ، فكل مخلوق من تلك الخلائق صدّ عن نفسه فى استكمال وخفاء هجمة هذا الوباء . وبستور الذى عانى من ألقحة الجمرة الذى عانى ، صاح يدعو الى تأليف لجنة من خير رجال الطب فى فرنسا تقوم بامتحان تجاربه والحكم لها أو عليها . وجاء حكم اللجنة فاذا به يقول : « إن الكلب إذا حُصّن بأنخمة الأرانب الوبيئة التى ماتت من هذا الداء ، بأن يُحقن بالتدرج بضعيف الوباء فالأقل منه ضعفا ، فهذا الكلب لا يأتيه الكَلَب أبدا »

فتساقطت الرسائل على بستور من كل صوب ، رسائل هالعة من كتب وتلغرافات جاءت تنصب عليه انصبابا من أطباء مُداوين ، ومن آباء جازعين ، وأمهات راجفات بطاين الغياث لأطفال لهن عضتها كلاب مسعورة . حتى امبراطور البرازيل العظيم تنازل من عليائه فكتب الى بستور سائلا راجيا

ولن أحدثك كثيرا عن همّ بستور فى تلك الأيام ، وزاد همّه ذكرُ ما كان قاساه من لقاح الجمرة . وشتان ما بين الجمرة والكَلَب . ففى الجمرة إذا زادت قوة اللقاح عن القدر المقدور ماتت شياه من جراء ذلك . أما هنا فى الكَلَب نخطأ فى التقدير يفضى الى ضياع أرواح البرايا من رجال وأطفال . . . لم يقع أحد من صيادى المكروبات فى حيرة مثل هذه ، ولم تقع عليه مسئولية كتلك .. قال بستور لنفسه : « لم يمت كلب من كلابى بسبب لقاحى أبدا . والذى عضّ منها حُقن بهذا اللقاح احتمى من الداء احتماء كاملا . فلا شك أن الذى حدث فى الكلاب يحدث فى الانسان ... ولكن ... »

ومرة أخرى عاود الأرق هذا البحّاثةَ المسكين من أجل أنه كشف كشفاً بلغ من الابداع مبلغا بعيدا . فكان يرقد على ظهره فى سريره وينظر فى كُتَل الظلام التى فوقه فيرى فيها خيالات من أطفال تصرخ فى طلب الماء لحلوق جافة مختنقة بالداء ، أولُ شىء أباه وتخافه هو هذا الماء ، ويخال أنه هو الذى جاءها بداء الكَلَب بسبب خطأ فى لقاحه فيُجفل من تلك الخيالات إجفالا

ومرّت به ساعة عاوده فيها حب الباغتات على نحو ما يجرى على المسارح من المفاجآت ، فأراد أن يكون بطل الدرامة ، فكتب إلى صديقه القديم فرسيل Jules Vercel يقول : « أميل كثيراً إلى أن أبدأ بنفسى فأحقنها بهذا المكروب القاتل ثم أدمع فله بلقاحى ، فقد والله بدأت أحس فى قلبى الثقة بنتائجه »

ولكن رحمة الله به ساقت اليه أخيراً من حلّ فى التجربة محلّه فوقته شر ما اعتزم عليه فى أمر نفسه : جاءته امرأة من الألزاس تسعى اليه دامعة العين ، ودخلت معمله تجر وراءها ولداً لها اسمه يوسف فى التاسعة من عمره جرحه كلب مسعور فى أمسه الأول أربعة عشر جرحاً ، وكان ينشج بالبكاء ، وقد ملأه الرعب وارتعدت فرائصه فلم يكد يستطيع سيراً

صاحت الأم راجية : « سيدى بستور ، أنقذ ولدى ! »

فسألها بستور أن تعود اليه فى مساء اليوم ، وقام هو لزيارة طبيبين يدعى أحدهما فلبيان Vulpian ويدعى الآخر جرانشيه

أندلسيات :

ابن بسام صاحب الذخيرة
والشاعر أبو مروان الطُّبْنى

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

وما دمنا قد ترجمنا للفتح بن خاقان صاحب مطمح الأنفس وقلائد العقيان ، وقد بان لك من هذه الترجمة أن ابن بسام كان معاصراً للفتح ، وأنهما يتشابهان من وجوه شتى إن لم يكن منها إلا أنهما كليهما تصديا للكلام على أدباء عصرهما وشعرائه لكنى ؛ نقول ما دام الأمر كذلك كان جميلا بنا أن نردف ترجمة الفتح بترجمة ضريبه ابن بسام ....

وسيمر بك قريباً ما تتعرف به سبب ذكرنا الشاعر أبا مروان الطُّبْنى مع ابن بسام فى ترجمة واحدة ....

« ثم وأما بعد » فانا إلى هذه اللحظة التى نترجم فيها لابن بسام لم نعثر لأحد على ترجمة قد عقدها له وأفردها للقول عليه ، وإن كان مؤرخو الأندلس وغير مؤرخى الأندلس كثيراً ما ينقلون عن هذا الأديب كعمدة لهم ، ونبَت فيما يعالجون من تاريخ أدباء الأندلس ، حتى أن المقرى ذكره فى نحو من أربعين موضعاً من نفح الطيب ولم يفرد له على ذلك ترجمة ، وكذلك كثيراً ما ينقل عنه ابن خلكان وغير ابن خلكان ....

ومن غريب الأمر فى هذا الباب ، ومن سوء حظ هذا الأديب ، بل من تخبط الناس فى أمره ، أنك ترى النسخ المخطوطة للذخيرة فى دار الكتب سواء أكانت المكتوبة بخط مغربى أم المنقولة عنها بخط مصرى قد غُمَّ على نساخها وشبه لهم ، واختلط الليل بالنهار ، فظنوا أن صاحب الذخيرة هو ابن بسام المعروف بالبَسَّامى الشاعر الهجاء البغدادى المتوفى سنة ثلاث وثلثمائة ، ونقلوا ترجمة هذا الشاعر من ابن خلكان كما هى وألصقوها بصاحب الذخيرة ، وصدق فيهم بهذا التخبط الغريب قول عمر بن أبى ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمْرَكَ الله كيف يلتقيان
هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان

وأقصَدُ من هذا فى باب التخبط والتخليط أن خطبة الذخيرة الحقيقية كما سيمر بك (١) .. وقد مر على واضعى فهرس دار الكتب هذا التخليط فلم يتفطنوا اليه ، وظنوه صحيحاً ، وقالوا إن الذخيرة هى لابن بسام المعروف بالبسامى الشاعر الخ الخ ونقلوا نتفاً من هذه الخطبة المفتعلة ، وإن كان لهم فى هذا الصنيع كلّ المعذرة ... « وبعد » فانا على هذا كله سنقدم اليك صورة وإن مُصَغَّرةً لهذا الأديب الأندلسى العظيم لقد التقطنا أجزاءها من ههنا وههنا

***

أزلفنا فى ترجمة الفتح أن أبا الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة كان فى زمن الملثمين — يوسف بن تاشفين وأولاده — وزيدهنا أن حياته امتدت إلى أيام أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على رأس دولة الموحدين الذين أديل لهم من الملثمين وآضوا بذلك ملوك المغرب والأندلس ، إذ جاء فى نفح الطيب (٢) ما نصه : « وتأخرت وفاته — أى وفاةُ ابن بسام — الى سنة ٥٤٢ » ويبدو من هذا أن ابن بسام عاش بعد الفتح بن خاقان نحواً من سبعة عشر عاماً . . .

***

ولد ابن بسام فى شنترين وهى بلدة من الكُوَر الغربية البحرية من أعمال بطليوس ، ومن ثم يقال له الشَّنْتَرينى ، ومن مؤرخى الأندلس من يقول الشَّنْتَمَرى نسبة الى بلدة

(١) وسيمر بك أيضاً أن المفتعل هو جانب من هذه الخطبة وهو شطرها الأول (٢) ج ، ص ٣٠٩ طبع أوربة

Grancher ، وكانا من أحبابه ونُصرائه ، وكانا فى معمله فرأيا فيه كيف استطاع أن يخلص الكلاب من بلواها بعد أن عضتها كلاب مسعورة عضاً شديداً ، وفى المساء ذهبا معه إلى الطفل فلما رأى فلبيان جروحه عابسة متقيّحة ألحّ على بستور أن يقوم بتلقيحه تواً . قال : « قم يا رجل وابدأ علاجك ، فانك إن لم تفعل مات هذا الغلام لا محالة »

وفى هذه الليلة ، الليلة السادسة من يوليو عام ١٨٨٥ ، حُقنت أولُ حقنة من لقاح الكَلَب فى آدمىّ ، وقضى الطفل أربعة عشر يوماً أخذ فيها أربع عشرة حقنة من ابرة تحت الجلد فلم يصبه سوء ، ثم عاد إلى الالزاس فلم يأته بعد ذلك عرض من أعراض هذا الداء المخوف أبداً

فى العدد القادم : آخر مقال عن بستور

أحمد زكى

بالأندلس فى الشمال الشرقى لقرطبة يقال لها شَنْتَ مَريه (١) (أى مريم القدسة) ، وفى هذه البلدة يقول الأديب النحوى أبو محمد بن السيد البطليوسى :

تنكرت الدنيا لنا بعد بُعدكم
وحفَّت بنا من معضل الخطب ألوان
أناخت بنا فى أرض شَنْتَ مَرِيَّةٍ
هواجس ظن خان والظنُّ خَوّان
رحلنا سَوامَ الحمد عنها لغيرها
فلا ماؤها صدًّا ولا النبتُ سعدان (٢)

ولم يحدثنا المؤرخون عن مولده ونشأته ، ولا عن مشيخته وكيف تعلم ، فلا علينا إذا نحن تخطينا هذا واكتفينا بالكلام عليه من ناحية منزلته الأدبية وإيراد شيء من منظومه ومنثوره والقول على أثره الخالد كتاب الذخيرة ...

كان أبو الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة أديبا كاتبا شاعرا ، وكان المنثور أغلب عليه من المنظوم ، مثله فى ذلك مثل الفتح ، فكان منثوره فائقاً بارعاً جيلا وإن كان يغلب عليه السجع كسائر معاصريه ، أما شعره فقد كان دون نثره . ومما عثرنا عليه من شعره أبيات أوردها العالم الأديب أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشقندى الأندلسى المتوفى سنة ٦٢٩ فى رسالته البديعة التى يفضل فيها الأندلس وأهل الأندلس على بر العُدوه — مراكش — وأهل بر العدوه ، قال الشقندى : وهل منكم من يقول مناديا لنديمه ، وقد باكر روضا بمحبوب وكأس ، فألفاه قد غطى محاسنه ضباب نخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك وهو أبو الحسن بن بسام :

ألا بادر فلا ثان سوى ما عهدت الكأس والبدر التمام
ولا تكسل برؤيته ضبابا تغص به الحديقة والمدام
فان الروض ملتثم إلى أن توافيه فينحط اللثام

وجاء فى نفح الطيب ما نصه : « وقال أبو الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة ، وشهرته تغني عن ذكره ، ونظمه دون نثره ، يخاطب أبا بكر بن عبد العزيز :

(١) Saint merry (٢) صداء بئر ليس عند العرب ماء أعذب من مائها . وفى المثل ماء ولا كصداء ، والسعدان نبت ينبت فى سهول الأرض من أطيب مراعى الابل وفى المثل مرعى ولا كالسعدان

أبا بكر المجتَبيَ للأدب رفيع العماد قريع الحسب
أيلحن فيك الزمان الخؤون ويُعرب عنك لسان العرب
وان لم يكن أفقُنا واحدا فينظمنا شمل هذا الأدب

أصدقْتَ أن منظومه دون منثوره ! إذن لا تتوقع من ابن بسام الأديب الكاتب شعراً من النسق الأعلى ، وهكذا شأن أكثر الكتاب كما نبهنا إلى ذلك فى كلامنا على الفتح بن خاقان ؛ وكذلك ترى أكثر الشعراء الفحول لا يجيدون المنثور ، وأظنك لا تجهل ما أورده العلامة ابن خلدون فى مقدمته شرحاً لهذه الظاهرة : ويبدو لنا ان لابن بسام شعرا كثيرا فى أكثر أبواب الشعر لم يتيسر لنا الوقوف عليه ، يدل على ذلك ثلاث الأبيات التى يقولها الشاعر الوشاح الأندلسى أبو بكر بن عبادة القَزّاز فى ابن بسام وهى :

يا منيفاً على السماكين سامى حزت خصل السباق عن بسام
إن تحك مدحة فأنت زهير أو تشبب فعروة بن حزام
أوتبا كرصيد الها فابن حجر (١) أو تبكى الديار فابن خذام (٢)
أو تذم الزمان وهو حقيق فأبو الطيب البعيد المرامى

وعلى هذا فلنضرب عن ابن بسام الشاعر ، ولنعرض لابن بسام الكاتب ولأثره الفذ الخالد كتاب الذخيرة . . .

***

نقول إن ابن بسام يمتاز من الفتح بأشياء : أهمها أنك لا ترى فى أسلوبه ذلك التقعّر وتلك الطنطنة التى تراها فى أسلوب الفتح ، وإنما ترى أسلوباً هادئا متزنا رصينا جيلا ، : . وأنك ترى ابن بسام ناقدا بارعا كثيرا ما يُعقّب على ما يختار تعقيبا يدل على تمكنه ورسوخه فى الأدب ، ومن ثم كان أكثر من الفتح تقييدا ، وعلما مفيدا ، . . وأنك تراه أعفّ لسانا ، وأنزه بيانا من الفتح ، فلا ترى منه ذلك الاقذاع الذى تراه من الفتح . واليك نموذجا من تراجمه هو مصداق لما نقول ، وهو ترجمته للشاعر الأندلسى أبى مروان عبد الملك بن زيادة الله الطُبْنى (٣)

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقى

(١) هو امرؤ القيس (٢) شاعر جاهلى قديم قال امرؤ القيس
عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خذام
(٣) الطبنى نسبة الى طبنة . قال ياقوت : بلدة وطرف أفريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب فتحها موسى بن نصير . . الى أن قال وينسب اليها أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبنى شاعر أديب لغوى الخ

قصة واقعية :

أعرابيّ في حمام ...

للأستاذ علي الطنطاوي

صحبنا في رحلتنا البرية إلى الحجاز، دليل شيخ من أعراب نجد، يقال له « صُلَيّ » ما رأيت أعرابياً مثله، قوة جنان، وفصاحة لسان؛ ولولا مكان النبرة البدوية من لسانه، لقلت قد انصرف الساعة من سوق عكاظ لبيان لهجته، وقوّة عارضته، وكثرة ما يدور على لسانه من الفصيح ... وكان أبيّ النفس، أشم المعطس، عالي الهمة، كريم الطباع، لكن فيه جفوة الأعرابي ...

رافقنا أياماً وليالي، فما شمنا خلة من خلال الخير إلا وجدناها فيه: كان يواسينا إذا أسينا، ويؤثرنا إذا أضقنا، ويحمينا إذا هوجمنا، ويحرسنا إذا نمنا، ويقنع إذا قسمنا، ويشكر إذا أعطينا، ويصبر إذا منعنا، ويعذر إذا اعتذرنا، ويعفو اذا أسأنا، ويلين إذا اشتددنا، ولا يشتدّ إذا لنّا ... على خفة روح، وسرعة جواب، ونكتة حاضرة، وشجاعة نادرة ... قلنا له مرة:

ــ إن « صُلَبة » في عرب اليوم، « كباهلة » في عرب الأمس، قبيلة لئيمة خسيسة، يأنف الكرام من الانتساب اليها، وأنت فيما علمنا سيد كريم، من سادة كرام، وليس لك في هذه القبيلة نسب، فما بالك تدعى « صُلَبي » ولا تغضب؟

ــ فقال: صدقتم والله، ما أنا من « صُلَبة » ولا « صُلَبة » مني، وإني لكريم العمّ والخال، ولكن لهذا الاسم قصة أنا قاصّها عليكم

ــ قلنا له: هات

ــ قال: كان أبواي مُشتكلَين لا يعيش لهما ولد، فلما رزقا بي تاسع تسعة ماتوا جميعاً، وأعجزتهما الحيلة، احتسبا عند الله مصيبتهما بذل الاسم، وسمياني صُلَبيّ

ــ قلنا: أبن سمياك صُلَبي عشت؟

ــ قال: نعم! إن عزرائيل أكرم من أن يقبض روح صُلَبي؟ وأرفع من أن يمسه بيد ...

ــ وسألناه مرّة: هل أنت متزوج يا صُلَبي؟

ــ قال: لقد كنت متزوجاً بشرّ امرأة تزوجها رجل، فما زلت أحسن اليها وتسيء إليّ حتى ضقت باحتمالها ذرعاً، فطلقتها ثلاثاً وثلاثين

ــ قلنا: إنها تبين منك بثلاث، فلم الثلاثون؟

ــ قال: صدقة مني على الأزواج المساكين الذين لا يجدون ما يطلقون ...

وطال بنا الطريق إلى تبوك، وكاد ينفد ما كان معنا من ماء، وخشي القوم الموت، فأقبلوا كلهم على صُلَبي، يتذمرون من بُعد تبوك وطول الطريق، فتركهم حتى إذا نفض كلّ جعبته، قال لهم ضاحكاً:

معكم الحق، إنها بعيدة، ولكني أقسم لكم بالله إني لم أضعها أنا هنا ... وليس لي في بعدها يدان

ولم يكن صُلَبيّ يعرف المدن الكبيرة، ولم يفارق الصحراء قط إلا إلى حاضرته تبوك (وتبوك قرية فيها ستون بيتاً ...) فلما بلغنا ــ قافلين ــ مشارف الشام، أغريناه بدخول المدينة، وجعلنا نصف له الشام: رياضها وأنهارها، وعظمها وعمرانها، فيأبى؛ وكنت صفيّه من القوم وخليله ونجيّه، فجئت أحاوله وأداوره وبذلت في ذلك الجهد، فلم أصنع معه شيئاً، لما استغرق نفسه من كراهية المدن وسوء الظن بأهلها ... فتركناه مرغمين، وودعناه آسفين!

***

وعدت إلى دمشق، فانغمست في لجة الحياة، وغصت فيها إلى أذنيّ، ونسيت صُلَبيّ وصحبته، وكدت أنسى الصحراء وأيامها؛ ومرّت على ذلك شهور ... وكان أمس، فلمحت في « باب الجابية » وسط الزحم الهائل وجهاً أعرفه، فذهبت أنظر اليه، فاذا هو وجه صُلَبي بعينه وأنفه ... فأقبلت عليه مسروراً:

ــ صُلَبي ... هذا أنت؟

ــ قال: لا صُلَبي ولا مُلَبي ...

ــ قلت: لم ويحك؟

ــ قال أنا في طلبك منذ ثلاث، ثم لا تأتي إليّ

ــ فقلت له ضاحكا: وأيّ ثلاث، وأي أربع، وأي

خمس ؟ أتحسبها تبوك فيها ثلثمائة انسان ؟ إنها دمشق ياصاحبي فيها ثلثمائة ألف نسمة ، فأين تجدني بين ثلثمائة ألف ؟ . . .

قال : صدقت والله !

وأخذت بيده فاستخرجته من هذه الزحمة ، وملت به إلى ندىّ (مقهى) قريب ، فجلسنا فيه ودعوت له بالقهوة العربية والشاهي فسر وانطلق يحدثني ، فقال :

لما فارقتكم ورجعت أسير في هذه البادية وحيداً ، شعرت بالوحشة وحننت إلى هذه الأيام التي قضيتها معكم ، فاستعبرت وجعلت ألوم نفسي وأقول : يا نفس ما كان ضرك لو أجبت القوم ووردت الشام فرأيت مالم ترى ؟ ... وانصرفت إلى أهلي ، فلبثت فيهم شهراً ، ثم دعاني الأمير فارتحلت اليه ، فاذا عنده رهط من أهل الحضر يريدون دليلا ، فسرت معهم أدلهم حتى بلغت بهم مشارف الشام ، فدعوني وألحوا عليّ فاستجبت لهم فدخلوا بي دمشق ...

فلما بلغنا « الميدان » وصرنا بين البيوت ، رأيت سيارة كسياراتكم تلك ، لكنها أكبر وأضخم ، ولها نوافذ وفيها غرف ، وقد خطوا لها خطين من حديد فهي تمشي عليهما ، فقال صاحبي : هذا هو الترام ، فتعال نركب فيه

قلت : لا والله ما أحب أن أركبه

فزينوه لي وحببوه اليّ ، حتى استحييت منهم لطول ماسألوني وأبي ، فدخلت ويدي على خنجري إن رأيت من أحد ما أكره وجأته به ، وعيني إلى النافذة إن رابني أمر قفزت إلى الطريق ، وجلست حذراً ، فما راعني إلا رجل بثياب عجيبة ، قد شق إزاره شقاً منكراً ، ثم خاطه حول فخذيه ، وارتدى برداء ضيق ، قد عمد اليه فصفف في صدره مرايا صغيرة من النحاس مارأيت أعجب منها ، فبدا كأنه قرد ... ولم أدر ما هو ، ثم رجع إليّ ماعزب من عقلي ، فقلت رومي مجنون من هؤلاء الروم الذين يحكمون الشام ، وخفت إن أنا لنت له أن يسطو عليّ ، فسللت خنجري لأغمده في صدره إذا هو انتهى اليّ ، فقام إليّ صاحبي يقول :

— مالك يا سلبي ، ماذا عراك ؟

— قلت : ألا ترى الرومي المجنون ؟

— قال : أيّ روميّ ياسلبي ؟ وأيّ مجنون ؟

— قلت : هذا ؟ أما تراه ؟

— قال : هذا جابي الترام

— قلت : جبّك الله ! !

وسكت فقد أقبل هذا القرد على صاحبي ، فمد اليه يداً كأنها حجر الرحى ، فوضع فيها من جُبنه قرشين ، فأعطاه بهما فتانة ورق فما رأيت ولله صفقة أخسر منها ، وعجبت من صاحبي إذ يشتري بقرشين اثنين ورقة ما تصلح لشيء ، ولكني جلست صامتاً ، وما هي إلا هنيهة أخرى حتى أقبل علينا رجل كالأول ، رومي خبيث ، إلا أنه أجمل ثياباً وأحسن بزة ، فأخذ هذه الأوراق فمزقها ... فثارت ثائرتي وقلت : هذا والله الذل ، فقبح الله عربياً يقيم على الضيم ، ويرضى أن يسام الخسف ... وقمت اليه فَلَبَّبْتُه وقلت له : يا ابن الصانعة ... أتعمد إلى شيء اشتريناه بأموالنا ، ودفعنا فيه قروشنا فتمزقه ، والله لأمزقنّ جلدة وجهك ....

وحسبت صاحبي سيدركه من الغضب لكرامته ، والدفاع عن حقه مثل ما أدركني ، فاذا هو يضحك ، وإذا الناس يضحكون لما يرون مني ، لأن عمل هذا الرجل ـ فيما زعموا ـ تمزيق أوراق الناس التي اشتروها بأموالهم !

ولما نزلنا من هذه الآلة ، قال لي صاحبي :

— هلم الى الحمام ؟

— قلت : مالي وللحمام ؟

— قال : تغتسل وتلقي عنك أدران السفر

— قلت : إن كان هذا هو الحمام ، فمالي بالحمام من حاجة ، حسبي هذا النهر أغطس فيه وأغتسل

— قال : هيهات ... إن الحمام لا يعدله شيء ، أو ما سمعت أن الحمام نعيم الدنيا ؟

— قلت لا والله . ما سمعت :

— قال : إذن تسمع وترى . وأخذني فأدخلني دارا فوراء في وسطها بركة يتدفق منها الماء فيذهب صعداً كأنه عمود من البلور ، ثم ينثني ويتكسر ويهبط وله بريق ولمعان : صنعة ما حسبت أن يكون مثلها إلا في الجنان . وعلى أطراف الدار دكك كثيرة مفروشة بالزرابي والأرائك والمتكآت كأنما هي خباء الأمير . فلم نكد نتوسطها حتى وثب الينا أهلوها وثبة رجل

واحد يصيحون علينا صياحاً غريباً ، ويصرخون صراخ من به مس ، فأدركت أنها مكيدة مدبرة ، فانتضيت خنجرى وصحت بهم : مكانكم ، فوالله لا يدنو مني رجل إلا قطعت رقبته . . . فأحجموا ، وعجبوا ورعبوا ، فقال صاحبي : إنه يمزح . ومال عليّ يعاتبني عتاباً شديداً ، فقلت : أفلا ترى صنيعهم بنا ، أفتحب أن ندعهم حتى يأخذونا ، قال إنهم يرحبون بنا ، ويسلمون علينا لا يريدون حرباً ولا قتالا

فصدقته وأغمدت الخنجر ، وظن القوم أنه المزاح ، فعادوا إلى حركتهم وضجتهم ، يدورون حولنا بقباقيبهم العالية ، ويجيئون ويذهبون ، وأنا لا أدرى ما هم صانعون ، حتى قادونا إلى دكة من هذه الدكك ، وجاءوا ينزعون عنا ثيابنا ، فتحققت أنها المكيدة وأنهم سيسلبوننى خنجرى حتى يهون عليهم ، فقد عجزوا أن ينالونى وبيدى الخنجر فأبيت وهممت بالخروج . فجعل صاحبي يكلمني ويحلف لى ، حتى أجبت واستسلمت ، والموت أهون عليّ من أن أنزل عن سلاحى ، وأمنحهم سلبي حتى يسلبوني ، ولكنها المدينة دار الذل والمهانة ، وليست بالصحراء ، ولو أنى لقيتهم فى الصحراء لجعلتهم طعمة الوحش والطير ... حتى إذا تمّ أمر الله ولم يبق عليّ إلا الازار ، أرادوا نزعه عنى ، فقلت : أما من مسلم فى هذا البلد ؟ أما من عربيّ ؟ أنكشف العورات فلا يغير أحد ، ولا يغضب إنسان ؟

فهدأنى صاحبي ، وقال : أفتغتسل وأنت متزر ؟

قلت : لعن الله نظافة الجسم إذا كانت لا تأتى إلا مع نجاسة النفس ، ويحك أتراني أضيع ديني وشرفي وأنكشف بعد هذه الشيبة ، وتذهب عنى فى العرب ، فتكون فضيحة الدنيا والآخرة ؟

قال : ومن أنباك أنك ستنكشف ؟ هلا انتظرت ؟

ودعا غلاماً من أغلمة الحمام فقام دوني يسترني ، ستره الله ، حتى خلعت إزارى واتزرت بإزار أبيض أعطونيه ... وكان صاحبي قد تعرى كما تعريت فأخذ بيدى فأدخلني إلى باطن الحمام ، فاذا غرف وسطها غرف ، وساحات تفضى إلى ساحات ، ومداخل ومخارج ملتوية معوجة يضل فيها الخرّيت ، وهى مظلمة كالقبر ، قد انعقدت فوقه قباب فيها قوارير من زجاج ، تضيء كأنها النجوم فى الليلة الداجية ، وفى باطن الحمام أناس جالسون إلى أجران ضخمة من الصخر ، عرى لا يسترهم شيء ، فعلمت أنهم من الجن . وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم ، وجعلت ألتمس آية الكرسى فلا أجدها ، فأيقنت لما نسيتها أن جنياً منهم لا بدّ راكبنى ، وجعلت أبكى على هذه الشيبة أن تكون سخرية صبيان المدن ... وإنى لكذلك وإذا بالخبيث يعود إليّ يريد أن ينزع عنى هذا الازار الذى كسانيه ... فقلت : ويل أمهاتكم ! ما ألأمكم ! أتأخذون ثيابى وسلاحى ، ثم تضنون على بثوب يسترنى ؟ الرحمة يا مسلمون ، الشفقة يا مؤمنون ! أأفتضح فى الانس والجن ؟

ووثب الجن علىّ وأحدقوا بى وهم عرى ، فوقف والله شعر بدنى ، وامتلأت فزعاً ؛ فقال صاحبي وهو يضحك : أعطهم الأزار ، لقد أضحكت الناس علينا

قلت : ويحك ، وهل أبقى عريان ؟ قال : لا ، سنعطيك غيره . إن هذا جديد يفسده الماء

فاستخذيت وأطعت ، وما خوفى إلا من هؤلاء الجن أن ينفخ على أحدهم فيحرقنى ، أو يدفعنى دفعة فيلقيني وراء جبل قاف ! ودخلت إلى مقصورة من هذه المقاصير ، فجلست الى الجرن حزيناً كئيباً لا أعلم ماذا يجرى على ، فبينما أنا على تلك الحال — وإذا بجني عار كأنه قفص عظام ، له لحية كشوك السعدان — وددت أنها عشاء لجملي . . . وقد تأبط ليفاً غليظاً — يا شر ما تأبط ! — وحمل ماعوناً كبيراً يفور فوراناً فتشهدت واستغفرت وعلمت أنه السم ، وأنه سيتناثر منه لحمي — وقصد الجنيّ إليّ — فجعلت أفر منه ، وأتوثب من جانب الى جانب ، كأنني دجاجة تفر من سكين الجزار وهو يلحق بى ضاحكا ، ويعجب من فعلى ويظن أنى ألاعبه وأداعبه ، وصاحبي يقسم لى أنه الصابون .

— قلت : وما الصابون لا أمّ لك — أمصابون أنتم فى عقولكم ؟ هذا هو السم ، لقد عرفته . . .

— قال : لا وأبيك إنه الصابون ، ولا ينظف شيء مثله .

— قلت : ألا شيء من سدر ؟ ألا قليل من أشنان ؟

— قال : والله ما أغشك فجرب ، ونطق الجنيّ فاذا هو والله كلام الناس ، وإذا هو آدمى من أمثالنا ، فاطمأننت وجلست بين يديه ، وأقبل على يدلكني دلكا شديداً ، وأنا أنظر هل تساقط لحمى ، هل تناثر جلدى ، فلا أحد إلا خيراً فظننت أنه قد أحسن الى ، وهممت بشكره ، لولا أن ظهر أنه شيخ سوء من القوم الذين أهلك الله ، فقد كان يتغافلني ويمد

يده من تحت الأزار ، فيمس فخذى وساق ، فقلت : لو نجا منه أحد ، لأنجتني هـذه الشيبة ، وجعلت أهم بهشم أنفه ، وهتم أسنانه ثم أدعه ، حتى انتهى وصبّ على الماء سخنا ، فشمرت والله كأنما انشطت من عقال ، وأحسست الزهو والخمة ، فصحت فأنكرت صوتى ، فقلت : ما هذا ؟ أينطق على لسانى جنى من الجن ؟ وأعدت الصيحة فازددت لصوتى انكارا ، فاستخفنى الطرب وجعلت أغنى وأحدو ، فقال لى صاحبي : هل استطبت صوتك ؟

قلت : إى والله ، قال : أفلا أدلك على باب القاضى ؟

قلت : فض الله فاك . مالى وللقاضى ؟ هل أحدثت حدثاً ؟ هل آويت محدثاً ؟ هل . .

قال : ألا تعرف قصة جحا ؟

قلت : لا والله ! فمن جحا ؟ وماهى قصته ؟

قال : كان جحا عالماً نحريراً ، إلا أن فيه لوثة ، وكان خفيف الروح ، فدخل الحمام مرة فغنى فأعجبه صوته ، فخرج من فوره إلى القاضى فسأله أن ينصبه مؤذناً ، وزعم أن له صوتاً جميلاً ، لا يدخل أذن رجل إلا حمله حملاً فوضعه فى المسجد

فقال له القاضى : فقم على المنارة فأذن نسمع ، فقام فأذن ، فلم يبق فى المسجد أحد إلا خرج هارباً يتعوذ . . .

فقال له القاضى : أى صوت هذا ؟ هذا الذى ذكره الله فى الكتاب

قال : أصلح الله القاضى ، ما يمنعك أن تبنى لى فوق المئذنة حماماً ؟

* * *

ولمح « صابى » أعرابياً من أهل نجد يمر فى الطريق ، فقال لى : انتظر ! وخرج يعدو وراءه . . . .

. . . . ثم لم يعد !

علي الطنطاوي

وقائع كأنها قصص

السـر

بقلم محمد مصطفى حمام

دخلت على الباشا والمجلس حافل والسرور شامل ، فلقيني بما عود زائريه من بشاشة وترحيب ، وأقبل بعدى آخرون يختلفون أعماراً وألواناً ، فمنهم الشيخ العتيق المحطم والفتى الأنيق المهندم ، ومنهم الحضرى الناعم والفلاح الخشن ، فتقبل الجميع بقبول حسن ، وأفاض عليهم من عطفه مثل ما أفاض على

وجاء الخادم يبشر بزائر جديد شمرت عند سماع اسمه بكثير من السرور ، فهو اسم أحد السراة الظرفاء الذين سمعت عنهم دون أن ألقاهم ، وما كان أشوقني إلى هذا اللقاء !

ولم ينتظر الزائر اذن الباشا بالدخول ، بل أقبل فى أثر الخادم ، وإذا نحن نستقبل رجلا سمهرى القامة ، بهىّ الطلعة ، وافر الحظ من المهابة والروعة ، ولقد اهتز له المجلس تعظيما وإكباراً ، إلا الباشا فلم يعبأ بمقدمه ، ولم ينشط لاستقباله ، بل صافحه وهو لاصق بكرسيه ، ثم أشاح بوجهه عنه ، وأقبل بالحديث على سواه

وأخذتنى من هذا اللقاء السيء دهشة وعجب ، وجعلت ألتمس للأمر كثيراً من العلل

قلت لنفسى : قد يكون القادم من الأنسباء أو ذوى القربى ، فلا حاجة بصاحب الدار إلى المبالغة فى تكريمه ، أو لعل اقتحامه المجلس دون انتظار الاذن هو الذى أغضب الباشا عليه

ورأيت جو المجلس قد أظلم بعد استقرار الضيف الجديد فى مكانه ، وبدا على الباشا ضيق وضجر ، وحاول الرجل أن يظفر من صاحب البيت بلفتة إليـه ، أو إقبال عليه ، فلم ينل إلا جفاء وإعراضاً

ثم انحنى على الباشا يحاول أن يسر إليه حديثاً ، فنهره كما ينهر السائل ، وصاح به وشرر الغضب يتطاير من عينيه :

لقد انقطع ما كان بيني وبينك ، فلا تعكر صفاء مجلسى بقدومك ، ولا تحاول استرداد مودّتى فذلك ما لن يكون

وانصرف الزائر خاسئ البصر ، لا يكاد يرى مما حوله شيئاً ، وودعناه راثين لحاله ! وأخذ المجلس يتبدد ، حتى لم يبق إلا أنا وصاحب الدار ، فلما هممت بالانصراف استبقانى

قال الباشا : لعلك أسأت الظن بأدبى ؟

قلت : معاذ الله

قال : أظنك فى دهشة من سوء لقائى لضيفى ، وربما أهمك أن تعرف السر

قلت : لا أرى فى معرفتـه بأساً

قال : لا يزال الصديق محباً إلى قلبك ، رفيع القـدر فى عينك ، حتى تكشف لك الأيام منه عن عورة لا تستطيع الاغضاء عنها ، فمالك يومئذ من ذنب إذا سقط عندك مقداره ، وتمكن من نفسك احتقاره

هذا رجل صاحبنى خمسة أعوام كاملة ، ملأ فى خلالها جوانب قلبى ، واستأثر دون الأصدقاء بحبى ، وجمعت بيننا مجالس بعضها لله وبعضها للشيطان ، وفى أمثال هذه المجالس أسخو بالمال وأكون المتلاف المبدال

وكان هذا الرجل زميلى فى كل هذه المجالس ، ودليلى اليها فى أكثر الأحيان

وقادنى الى بيت فى حى من أجمل أحياء المدينة ، نادمنا فيه نسوة ثلاثاً كأنهن الحور العين ، فقطفنا منهن ورد الخدود ، وداعبنا غصون القدود ؛ وصار هذا البيت معهد غرامنا نسعى اليه بين الحين والحين ، ولكن فى جنح من الليـل ، وفى غفلة من الجيران

وما هى إلا أشهر معدودات ، حتى علمت علم اليقين أن هذا البيت الذى نعبث بنسائه ونلهو ، هو بيت صاحبى دون سواه ! وأن نديماتنا هن امرأته وقريبتاه ! هن اللائى نغازلهن ونقبلهن ! وهن اللائى ينلن منى أجر العبث بهن ، أدفعه سخياً كريماً ، ويتقبله راضيات فرحات !

ولقد أخذنى من هذه الحقيقة الأولة هول وفزع ، فقد تكشف لى صديقى عن نفس خبيثة وعرض ممزق !

قلت : فهلا كاشفته بما علمت من دخيلته ؟

قال : لقد كان عذره أقبح من ذنبه ، فقد أفهمنى أنه وقد

نظرية النسبية الخصوصية

البحث الثالث

مبادئ الميكانيكا الحديثة

للدكتور اسماعيل احمد أدهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

— ١ —

لقد قررت سنّة لورانتز فى التقلص أن سرعة النور أقصى سرعة يمكن أن توجد فى الكون ، وهذه السنّة نتيجة لكون سرعة الجسم كلما أخذت فى الزيادة أخذت كتلتها تتقلص من اتجاه حركتها بنسبة رياضية ثابتة ، حتى إذا ما قاربت سرعتها سرعة النور بلغ التقلص حداً لا متناهياً ، لا يمكن أن يتقلص الجسم المتحرك بعده . فلو فرضنا جسما يتحرك بسرعة معينة ولتكن (س) ، فهذا الجسم حسب قانون التقلص يتقلص بمقدار ثابت مثل (ث) ومقدار هذا التقلص :

$$\text{ث} = \frac{1}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}}$$

ولا يمكن أن تتجاوز السرعة (س) فى أى وقت سرعة النور (ض) لأن هذا القانون يتلاشى إلى حيث لا يكون له معنى[1]

لنفرض كتلة مادية مثل (ك) مقدار طاقة الحركة التى بها (ط ع) ، وهذه الكتلة تتحرك بسرعة مثل (س) ، فهذه الكتلة تقرر قواعد الميكانيكا الكلاسيكية أن طاقتها الحركية :

$$\text{«ط ع»} = \tfrac{1}{2}\,\text{ك}\,\text{س}^2$$

غير أن مبادئ النسبية استناداً على قوانين المجال الالكترومغناطيسى ، ونظرية « ماكسويل — لورانتز » تقرر أن

$$\text{ط ع} = \frac{\text{ك}\,\text{ض}^2}{\sqrt{\text{ض}^2 - \text{س}^2}}$$

فمقدار حركة الكتلة المادية (ك) لا يمكن أن تتجاوز فى سرعتها سرعة النور . حيث أن سرعة الكتلة المادية المرموزة لها بالرمز (س) تستنفد فى حركتها جزءاً من مقدار طاقة الحركة (ط ع) حتى إذا ما بلغت سرعة النور سرعتها تكون الطاقة قد استنفدت كلها[2]

— ٢ —

لو فرضنا قوتين : سرعة الأولى (س) وسرعة الثانية (س_1) وأن هاتين القطعتين أثرتا على نقطة مادية فى اتجاه واحد . فتكون سرعة هذه النقطة المادية محصلة هاتين السرعتين ولنرمز بالرمز (س_2) فقانون الحركات الكلاسيكى يقرر أن

$\text{س}_2 = \text{س} + \text{س}_1$ « معادلة ١ » وهذا القانون النيوتونى يتبدل عند اينشتين ويتشكل فى صورة رياضية أخرى تقررها المعادلة :

$$\text{س}_2 = \frac{\text{س} + \text{س}_1}{1 + \frac{\text{س}\,\text{س}_1}{\text{ض}^2}} \quad \text{معادلة ٢}$$

وهذه الصيغة الجديدة نتيجة لمبدأ ثبات انتشار النور[3]

فمثلا لو فرضنا نظاما ماديا يبتعد عن الشمس بسرعة ١٣٠٠٠ كيلو مترا فى الثانية ، فشعاعة النور الصادرة من الشمس والتى

(1) M. A. Sommerfsld : Physik Zeitschrift., 8 (1907) P. 842—843.

(2) Levr Civita : « L'Enseiguement Mathematipue » Rome 1926 p. 155-156

(3) O. Maumann : « Annalen der Phijsik » 45 (1914) P. 525

عرف فى البعد عن الجريمة المنكرة ، وجرّب علىّ القناعة بالقبلة والنادمة ، وشهد سخائى فى البذل ، رأى أن يؤثر نفسه ونساء بيته عالى ، فهو وهن أحق بذلك المال الذاهب هباء ، والتى إلى أناس آخرين ، ولم يجد فى الأمر ثلماً للعرض ولا نقصاً من الشرف ، مادام الغزل لا يصل إلى نهايته الأثيمة !

***

وتراءت فى عينى صورة الرجل حين رأيته لأول مرة ، وقارنت بين جمال المنظر وسوء المخبر ، فذكرت قول الشاعر :

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم

إذا كانت الأعراض غير حسان !

محمد مصطفى حمام

تتحرك نحو هذا النظام بسرعة ١٣,٠٠٠ كم في الثانية تكون سرعتها بالنسبة لراصد في النظام المادي :

٣٠٠,٠٠٠ كم + ١٣,٠٠٠ كم = ٣١٣,٠٠٠ كم في الثانية حسب مبادىء الميكانيكا الكلاسيكية . أما قواعد النسبية فتقرر أن سرعة شعاعة الضوء للمشاهد حسب قانون تركب السرع كما تقرره الميكانيكا الحديثة هي :

$$\frac{٣٠٠,٠٠٠ + ١٣,٠٠٠}{١ + \frac{٣٠٠,٠٠٠ \times ١٣,٠٠٠}{٣٠٠,٠٠٠^{٢}}} = ٣٠٠,٠٠٠$$ كم في الثانية

وهذه النتيجة توضح لنا تماماً أن سرعة النور سرعة مطلقة لا تتغير [١]

— ٣ —

إن علم الحركات « Cinematique » يرى في الزمان حداً رابعاً للمادة ، ولكنه لا يخرج عن كونه مجرد ملاحظة رياضية ، حيث أن الزمان مطلق ومستقل عن المكان ، وقد كان أستاذنا هنري بوانكاريه الشهير يفرض أن الزمان بعد رابع موهوم للمادة ويستند في إثبات ذلك على الرياضيات الثابتة Invariant إلا ألبرت اينشتين ومينقوفسكي تمكنا من إثبات أن الزمان له شأن طبيعي كحد رابع للحوادث [٢]

إذا فرضنا وقوع حادثتين غير معينتين وكان الخط الواصل بين الحادثتين (غ) مثلاً . فانتقالنا من نظام إلى آخر لا شك سيؤثر في الخط الواصل بين الحادثتين وسيتأثر الخط بانتقالنا ويتغير (راجع مقال وحدة قوانين الطبيعة)

وإذا كان الزمان الفاصل بين أوان وقوع الحادثتين « ت » مثلاً ورمزنا لسرعة الضوء بالرمز (ض) كان معنا المعادلة

$ف^{٢} =$ « $ض^{٢} ت^{٢}$ » $- غ^{٢}$ (معادلة ١) ، وهذه المعادلة ثابتة لا تتغير حيث فيها (ف) رمز لفاصلة الزمان المطلقة ، والحادثات

ك ، ى ، ض ، ت ؛ $ك_{١}$ ، $ى_{١}$ ، $ض_{١}$ ، $ت_{١}$ لو طبقت على قانون التحويل الذي وضعه لورانتز كانت النسبة بين مجموع حوادث الكونين ثابتة حيث أن :

$ف^{٢} = ض^{٢} (ت_{١} - ت)^{٢} - (ك_{١} - ك)^{٢} + (ى_{١} - ى)^{٢} = (ض_{١} - ض)^{٢}$ (معادلة ٢) فاذن ليس الزمان بذلك الموجود المستقل عن المكان بل إنه مندمج فيه ، وليس الزمان والمكان مطلقين بل هما نسبيين إلا أنهما يندمجان في الفاصلة الثابتة الرياضية (ف)

ليس للزمان ولا المكان شأن طبيعي وإنما إندماجهما يولد معنا حقيقة واحدة . فالمكان امتداد الزمان ، أعني أن فواصل حوادث العالم تندمج في (ف)٢ الثابتة الرياضية وتكوّن وحدة هو كون « الزمان — المكان »

هذا الكون [١] لا يتبع نسب وقياسات الحوادث ، بل هو مطلق فلكل حادثة أو مجموعة من الحادثات مكانها وزمانها الخاص بها . أما كون « الزمان — المكان » فهو ذو حقيقة مطلقة غير تابعة لقواعد القياس . والمكان في حد ذاته ليس إلا مجموعة فواصل الحوادث ، فواصلها الفراغية المتساوية أعني أنه قطاع للعالم في زمان خاص ، أو بلغة أبسط هو العلاقة الانتشارية بين الحادثات واندماج المكان بالزمان في الثابتة الرياضية (ف) ، توجد علاقة ثابتة بين الحوادث هي الفرق بين مربع الفاصلة الفراغية وحاصل ضرب سرعة النور بمربع الفاصلة الزمانية . هذه العلاقة تؤلف بين الحادثات وحدة ممتازة تحيل الكون عالما مطلقا هي منه الصفة المطلقة الوحيدة [٢]

— ٤ —

لنفرض [٣] نظاما ماديًّا مثل (ظ) يتحرك حركة نسبية « ض » أي نظام مثل ($ظ_{١}$) ولنفرض أن (غ) خط ثابت بالنسبة للنظام الثاني متحرك بالنسبة للأول بسرعة محدودة لنرمز لها بالرمز (س) فطول هذا الخط بالنسبة لمشاهد في النظام الأول غيره بالنسبة لمشاهد في النظام الثاني

ولنفرض أن (غ) يمتد من النقطة « م » إلى النقطة ($م_{١}$) فستبدو كل نقطة حادثة مستقلة عن الأخرى لكل من المشاهدين . وسيرى المشاهد الذي في النظام « $ظ_{١}$ » الحادثين متواقتين . أما المشاهد الذي في النظام (ظ) فان (غ) ستبدو

(1) Edham (I A) die Grundlangen der Relativitaetstheere', Leipzig 1934-1935 Uol 3., P.92-93

(2) M. A. Sommerfeld : Annalen der Physik, 44 (1914) P. 175 — 177

(1) Fritz Beer : Die Einsteinsche Rehativitaetstheorie , Wnin 1909 6 . 118 — 119

(٢) شارل ماك : « الفضاء — الزمن » مقتطف يناير وفبراير ١٩٣٢

(2) Edhem (I. K.) ; Türk Ansiklopedia., Istanbul nesriyati. 18 cilt., 1935 (5) . P. 355 — 356. Izafiyat prnsipi.

له أطول مما تبدو المشاهد الذي بالنظام ($ظ_1$) كما وأن كل نقطة من نقطى الابتداء والانتهاء ستبدوان له حادثتين مستقلتين عن بعض غير متوافقتين

ولنفرض أن المحودين « ل م ؛ $ل_1 م_1$ » منطبقين على بعضهما كل الانطباق وأنهما موازيين استقامة السرعة (س) للخط (خ) فى كل من السكونين (ظ) و($ظ_1$) فاذا كانت المحاور

م ل ، م ى ، م د ... ... (١)

موازية للمحاور

$م_1 ل_1$ ، $م_1 ى_1$ ، $م_1 د_1$ ... ... (٢)

فى كل من النظامين (ظ) و ($ظ_1$) كان :

$ل_1 = ث\,(ل - س\,ت)$ معادلة رقم (١)

ولا بد من أن يكون :

$ل_1 = ث\,ل$ معادلة رقم (٢)

ليتحقق معنا تعادل المركز (م) مع الزمان (ث) ومن انطباق المركز على الزمان نستنتج أن

$ل = \frac{ل_1}{ث}$ معادلة رقم (٣)

وهنا نؤدى إلى أن :

$\frac{1}{ث} = \sqrt{1 - \frac{س^2}{ن^2}}$ معادلة رقم (٤)

حيث أن ا رمز لمعادلة التقلص

ولما كان المقدار العالى أصغر من (ا) كان $ل_1$ ل[1] إن الخط (خ) بالنسبة للمشاهد الذى بالنظام ($ظ_1$) أطول مما هو بالنسبة للنظام الأول . ومسئلة تقاص الأطوال شيئاً فشيئاً كما تقرره ميكانيكية لورانتز ليست راجعة لتقاص الأجسام فى اتجاه حركتها وإنما هى نتيجة لنسبية الأطوال . وليس هذا التقلص حقيقياً بل هو ظاهرى حيث أن الواجب لا يمكنه ترتيب حدوث الحادثات كما تقع وإنما يرتبها حسب ما تتراءى له . وتقسيم الزمان والمكان تقسيما مطابقاً لموضوعها فى صورة مستقلة عن بعضها لا يمكن إجراؤها فى أى حال حيث أن سرعة اندفاع الجسم إذا بلغت سرعة انتشار النور أو ما قاربها بلغ التقاص أقصاه ولم يصبح للجسم عمق لدى النظر ، لأن الأجسام عند ما تبلغ من السرعة هذا الحد تلوح كصفائح رقيقة[1]

وحاصل القول إن الأطوال تابعة لحالات المشاهدين الطبيعية من الحركة والسكون

— ٥ —

لنفرض[2] ساعة فى النظام (ظ) . فهذه الساعة ستبدو إشمارها للزمان متأخراً بالنسبة لساعة النظام (ظ) فهذا التقاص فى الزمان نتيجة للملاقة بين (ت ، $ت_1$) حيث أن :

$خ\,ت = ث\,خ\,ت_1$ معادلة (١)

ولما كان تقاص الأطوال نتيجة للقانون :

$خ\,ل = \frac{خ\,ل_1}{ث}$ معادلة (٢)

فقليل من البحث والاستفاضة فى الدرس يكشف عن تساوى كل من :

$خ\,ل\,خ\,ت = خ\,ل_1\,خ\,ت_1$ معادلة (٣)

حيث أن

خ ل ، خ ى ، خ د ، خ ت = خ $ل_1$ ، خ $ى_1$ ، خ $د_1$ ، خ $ت_1$ معادلة (٤)

ونخرج من هذا التساوى بحجم الجسم فى عالم ذى أبعاد أربعة أو طوله فى ذلك العالم

« للبحث بقية » اسماعيل أحمد أدهم

(١) راجع البحث الثانى عن قوانين لورانتز التحويلية وانظر الشكل

(٢) ص ٩٧ بالعدد ١٣٣ من الرسالة

(1) J. A. Schouten; Die direkte analysis zur neueren Relativitaetsiheorie., Amesterdam. 1919. P. 128 — 129.

(2) Hermemm Weyl Raum . Geitumd Materie . Berlim 1921 . P . 235

رسائل حاج

٤ - من ربوع الغرب إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى
الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

تتمة

وقف جلالة الملك ابن السعود فوق ذروة « جبل الرحمة » كرمز خالد لعبقرية الأمة العربية ، يذرع الفضاء بعين نسر جبار ، ويشرف على راحة الحجاج الضاربين خيامهم فى السهول المجاورة . لكم كان منظره فاتناً خلاباً ، والشمس تكتنفه وتشرق عليه ، بينا يلتف حوله الحرس الوهابى بملابسهم المزركشة وخناجرهم التى تلمع مقابضها فى وهج الظهيرة

وقبيل الغسق تحرك الركاب الملكى شطر « المزدلفة » فظهر فى الجو غبار كثيف امتزج بصيحات الوهابيين الذين كانوا يهتفون : « نحن أنصار التوحيد ، إخوة من أطاع الله » وليس لأى كاتب مهما بلغت عبقريته أن يصف هذا المنظر وصفا شافيا ، ومن لى بالفصاحة والبيان لأصوره على حقيقته ؟

وعند وصولنا الى « منى » ، بلغ مسامعنا نبأ محاولة اغتيال الملك ، فان ابن السعود ما كاد ينتهى من طوافه للمرة الثالثة حتى داهمه أربعة من اليمنيين وهم يصيحون بأعلى أصواتهم : الله أكبر ! الله أكبر ! محاولين أن يطعنوه بخناجرهم . فان لليمنيين مهارة وحذقا خاصا فى استعمال الخناجر ، لكنهم لم يصيبوا سوى ولى العهد وهو يهم بانقاذ أبيه . ثم حمل الجنود على الجناة وحاولوا أن ينزعوا سلاحهم . ولما لم يفلحوا اضطروا إلى رميهم بالرصاص ، وأريقت دماؤهم فوق ثرى هذه الأرض المقدسة . وكان الملك الذى طالما خاض غمار حروب ومعارك حتى لم يخل جسمه من شبر واحد من آثار الجروح ، هادئا ساكنا فلم تبدُ على وجهه أمارات الجزع ، بل قصد لساعته بئر زمزم فتوضأ ، ثم عاد الى اتمام طوافه بالكعبة

وكان للحادث أثره المؤلم فى نفوس الحجاج ، فاستنكروا بشاعة الاغتيال ، وتوغل بعض القتلة فى الصفوف نخشى أن يحدث فرارهم ذعرا فى القلوب . ولقد أحسن الملك صنعا بعودته السريعة الى منى ليزيل ما علق بنفوس الحجاج من الرعب ، فانه ما كاد يستقر فى سرادقه حتى هرعت اليه جموع الحجاج ووفود البلاد لتقدم تهنئتها بنجاته من يد الآثمين . هنا سنحت الفرصة لأن أقف وجهاً لوجه أمام العاهل العربى الذى يحكم بلاده بالعدل والشريعة ، ويسودها بالعطف والمحبة ؛ فقد كان ابن السعود يجلس فى سرادقه تحيط به ثلة من الحرس النجدى ، وهم من صفوة الرجال الأشداء ، وكانت ملابسهم المزركشة تخطف بسناها الأبصار ، يتوج رؤوسهم العقال البدوى ، وتتدلى من تحته ضفائر الشعر الكثيف الأسود حتى تصل إلى صدورهم ، بينا أقداح القهوة العربية وأكواب الليمون المثلج تطوف على الوفود بين حين وآخر . وعند ما غشيت مجلس الملك كان الخطيب الماثل بين يديه قد انتهى من خطابته ، فلما التقى طرف الملك بطرفى أومأ إلىّ أن أتقدم ، فجمعت شجاعتى وأنا فى نشوة روحية عميقة ، ورفعت يدى إلى رأسى إجلالا واحتراما ثم تقدمت ...

لقد قابلت فى شبابى وأنا فى استامبول ، السلطان عبد الحميد ، ورافقت السلطان محيى الدين فى إحدى سياحاته ، وزرت السلطان رشادا ، وتحدثت إلى كثير من الرؤوس المتوجة فى أوربا ، لكننى لم أشعر مطلقاً أنى وقفت وجها لوجه أمام التاريخ إلا فى تلك المقابلة ، لا سيما عند ما رفعت عينى إلى وجه ابن السعود ، ولمحت فى ثناياه دلائل الحزم والقوة والشفقة والحنان والمهابة والجلال . ولقد لاحظت أن بطرف عينه اليمنى حولاً ، بينما العين الأخرى قوية سليمة ، والمعروف عن الملك أنه شجاع مقدام ، تضرب القبائل بشجاعته المثل ، فمند ما كان فى الحادية عشرة من عمره ، قاتل فى إحدى المعارك خصماله فقضى عليه بضربة من حسامه ؛ وهو رجل شديد الايمان بالله ، ولقد كان إيمانه من أقوى الأسباب فى تأسيسه المملكة السعودية وإحياء مجد الجزيرة العربية

وما كدت أقف أمام الملك حتى خاطبته بصوت جهورى فيه

كل معانى الاخلاص : السلام على أمير المؤمنين ، إننى أحمد الله على نجاتك من يد ذلك القاتل الأثيم عدو الدين

ومدَّ إلىَّ ابن سعود يده فصافحتها ثم طلب إلى أن أزوره فى قصره ؛ وبعد أن شهدت حفلة الاستعراض العسكرية التى أقيمت « بوادى الشهداء » ورأيت ضروباً من الفروسية العربية ، تلك الفروسية التى خلقت من الحب أدباً عالياً ومن المرأة صنما معبوداً توجهت إلى القصر الملكى بناحية « المعلى » بالضواحى ، وهو قصر عظيم شامخ البنيان ، يشبه الحصون العسكرية ، ويشتمل على عدد كبير من الغرف المتسعة الأرجاء والردهات والابهاء ذات العمد

وجلست بقاعة الاستقبال ، فى انتظار التشرف بالمقابلة ، فسرنى أن التقيت بكثير من أعيان العرب ، الذين يأتون للمثول بين يدى الملك بملابسهم الفخمة ، فيحادثهم كانسان يستشير اخوته ، ويرسم معهم كل ما يتعلق بسياسة الدولة وتدبير وسائل الرفاهية والراحة للحجاج . ولقد راعتنى البساطة التى ألفيتها متمثلة فى الملك والشعب معا ، فالرسميات المعقدة التى تتبع فى بلاط ملوك أوربا لا وجود لها فى هذا البلاط العميق الديموقراطية . والواقع أن ابن السعود هو عاهل الجزيرة العربية بلا منازع ، ولم يؤل الملك اليه عن طريق الوراثة ، بل آل إليه عن جدارة واستحقاق

وطفقت أستوعب الدقائق إلى أن يحل دورى فأتشرف بالمثول بين يدى الملك ؛ وكنت فى خلال فترة الانتظار جالساً فى مكتب سعادة فؤاد بك حمزة وزير الخارجية ، الذى ذكر لى أنى أول حاج قدم إلى مكة من بلاد المجر ؛ وما كاد يحل دورى حتى تقدمنى فؤاد بك حمزة وغشينا مجلس الملك ، وبعد أن صافحنه أومأ إلى أن أجلس بجواره ، وقدمت إلينا القهوة ، فرأيته يرشفها بشغف ولذة . ثم بدأ الملك يتحدث إلى فقال : « لقد قدمت من نجد إلى الحجاز وجبت البلاد من الشرق إلى الغرب لزيارة بيت الله وتفقد حالة الحجاج . وغاية ما أرمى اليه أن أؤلف بين قلوب رجالى متوسلا إلى الله أن يلهمنى وإيام الصواب فى أعمالنا . لقد عنيت عناية خاصة بإقامة الشرائع المحمدية ونشرت الأمن والسلام فى أنحاء الجزيرة العربية ، وفى وسعك الآن أن تتجول فى أقصى بقعة من بقاع الجزيرة دون خوف ولا وجل . وسترى عما قريب أننى سأعيد إلى هذه البلاد عظمتها القديمة حتى تصبح موئل الاسلام كما كانت أيام سيد المرسلين »

إن هذا العاهل العربى العظيم يلمس تماماً مواطن الضعف فى كل ركن من أركان بلاده ويعمل على إصلاحه وتقويمه ما استطاع إليه سبيلا ؛ فالسلام مع الرقى والتقدم هما الأمران اللذان يعنى بهما عنايته بطعامه وشرابه ، وإقامة حدود الله مع المحافظة على استقلال الجزيرة هما الغايتان اللتان يسترشد بهما فى تأدية واجبه ، وهو لعمرى الطريق السوى الذى يجب أن يسير فيه . وملك هذه صفاته وأعماله جدير حقاً بأن يخلد التاريخ ذكره فى ثبت الوجود

وبعد أن انتهيت من زيارتى استأذنته فى الانصراف فقام من مجلسه منتصباً وبسط إلى إحدى يديه الغليظتين وظل قابضاً على يدى برهة وهو يرمقنى بعينه المتسمة ، وكانت ملامحه تدعو إلى الهيبة والاحترام إلى حد ألفيت نفسى عاجزاً عن أن أرفع إليه بصرى ، ثم مالبثت أن هويت بفمى على راحته ألثمها فى إكبار وإجلال

ولما أزفت ساعة الرحيل ودعت أصدقائى من سادة العرب وكبار العلماء كالأستاذ محمد شطا شيخ قضاة مكة ، ورئيس الشرطة ، وبعض الأطباء النابهين ، ووصلت إلى جدة حيث قضيت أياماً فى ضيافة الشيخ محمد على وهو رجل علامة يحذق لغات شتى ، وقد تجول فى أنحاء أوربا ، ويعرف الشيء الكثير من عادات الشرق والغرب

وأقلعت الباخرة فوقفت فى مقدمها واجما ساكنا تتناهبنى شتى العواطف ، وأنا أودع هذه الأراضى المقدسة التى ربما أراها للمرة الأخيرة . وكلما بعدت بنا الباخرة اغرورقت عيناى بالدموع ، فقد خلفت فى تلك الديار صداقة جديدة تكاد لعذوبتها تشبه الحب ، وذكرى عزيزة هى ثمرة عقيدتى فى الاسلام واليوم الآخر . فما أعظم الفرق بين مدنية أصدقائى العرب ، إخوانى فى الله ، الذين تشيع فى قلوبهم فكرة الاتصال بالواحد القهار فيصدفون من الماديات ، وبين مدنية المغرورين الذين يتهالكون فرقا وراء قضبان المادة وينقمون غلتهم فى شهوة المال !

عبد الكريم جرمانوس

مديرية أسوان

والحد الفاصل بين مصر والسودان

بقلم رشوان أحمد صادق
B . A في الجغرافيا

أتحدث اليوم عن علاقة مصر بالأقاليم الجنوبية واهتمام المصريين بالحدود المصرية الجنوبية منذ بدء التاريخ الى اليوم فأقول :

أول من اهتم بالجهات التي تتاخم حدود مصر الجنوبية هو الملك بيبي الأول ثاني ملوك الأسرة السادسة فأرسل القائد أونا (Una) الى كروسكو ليجمع بعض أنواع الأخشاب فساعده قبائل تلك الجهات على أداء مهمته واعترفوا بسيطرة الملك بيبي عليهم . ثم أرسل الملك متوسوفيس (وهو الملك الثاني عشر من ملوك الأسرة السادسة) القائد هرخف لغزو بلاد بنت فعاد يحمل البخور والأبنوس والعاج والجلود حماها على ثلثمائة حمار وحمل معه قزماً من الدنقس أتى به من (بر الأظلال) . فلما وصل مصر كان الملك متوسوفيس قد مات وخلفه أخوه الملك بيبي الثاني فسر بخبر القزم فكتب إلى هرخف يأمره باحضاره إلى منف ، وهذا نص الكتاب : « واصحب معك في السفينة بعض الخفراء لحراسته كي لا يقع في الماء أو يفلت في الليل ، لأني أسر برؤية القزم أكثر من جميع ما أحضرت من بلاد بنت » ، فخفر هرخف هذا الخطاب مع خبر غزوته على واجهة قبره في جزيرة الفنتين

وفي عهد الأسرة الثانية عشرة أرسل (أوسرتسن) الأول ثاني ملوك هذه الأسرة القائد هونو Huno إلى بلاد بنت بطريق قفط والقصير لجباية الجزية من أمراء تلك البلاد ، فأدى مهمته ثم عاد . وقد جرد هذا الملك حملة بطريق النيل فامتدت حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الثاني ، وقد عثروا على حجر في هيكل جهة حلفا (نقل الآن إلى فلورنسا) وعليه صورة هذا الملك وبجانبه المشايخ الثمانية رؤساء القبائل التي تغلب عليها ؛ وفي عهد (اوسرتسن) الثالث خامس ملوك هذه الأسرة امتدت حدود مصر إلى شلال سمنه جنوباً ، وتوجد آثار هيكل من بقايا أعمال ذلك العصر ، كما وجد حجران جملا الحد الجنوبي للبلاد المصرية مكتوبا على أحدهما ما معناه : « هذا حد مصر الجنوبي الذي عين في السنة الثامنة من حكم الملك أوسرتسن الثالث الخالد الذكر ، فلا يجوز لأحد من السود أن يتعداه إلا في سفن تحمل البقر والماعز والحبر » ، ووجد على الحجر الثاني ما معناه : إن الملك شيد هذا الحجر في السنة السادسة عشرة من حكمه وجعله حداً فاصلا بين مصر واتيوبيا ، وله تمثل في تلك الجهة ، وتوجد قلعة من آثاره في ممتوق . وفي جزيرة ارقو توجد تماثيل وأطلال من آثار الأسرة الثالثة عشرة

وفي عهد الأسرة الخامسة عشرة التي أسسها العمالقة كانت مصر في حالة اضطراب ، وهاجر كثير من المصريين إلى اتيوبيا وكونوا معاقل أهمها معقل ارقو ، وحملوا معهم كثيرا من طرق الصناعة والفنون المصرية وأصبحوا دولة منظمة في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولم يتم الملك لأحمس الأول أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلا بمساعدة ملك اتيوبيا الذي زوجه من ابنته وساعده على طرد الهكسوس من مصر ؛ ويظهر أن عاصمة بلاد الأتيوبيين هي مدينة نبته عند جبل البرقل بالقرب من مروى ويعرف بالهيروغليفية باسم الجبل المقدس ، ودامت العلاقات الحسنة بين مصر واتيوبيا إلى عهد تحتمس الأول ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة إذ غزا الأتيوبيين وانتصر عليهم

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة غزا رمسيس الثاني بلاد اتيوبيا وأقام هيكلا في كلايشه تذكاراً لانتصاراته ويعرف الآن عند سكان كلايشه باسم بيت الولي . ورسم على الهيكل صورة رمسيس الثاني وهو يحارب في عربة ، وعدة صور يتضح منها هزيمة الأعداء وتقديمهم القرابين له مثل الخواتم وأكياس الذهب وجلد الفهد وسن الفيل وبيض النعام . وجدد استخراج الذهب والزمرد من وادي العلاقي المعروفة قديماً باسم اكيتا akita وعلى هذا الطريق قلعة يظن أنها من أعمال رمسيس الثاني

ودامت سلطة مصر على اتيوبيا حتى الأسرة العشرين بعد ذلك انفصلت أتيوبيا عن مصر ، وذلك أن (سمنتوميامون) أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين نفى بعض الكهنة المصريين إلى أتيوبيا فخرجوا عن طاعته واستقلوا تحت إمرة أحدهم

وبذلك رجعت حدود مصر إلى ما كانت عليه قبل الغزو

وفى آخر حكم الأسرة الثانية والعشرين هاجم الأتيوبيون مصر وأخذت حدود مصر الجنوبية تتراجع شمالا حتى استولى الأتيوبيون فى أيام الأسرة الثالثة والعشرين على صعيد مصر. على أن بمنخى ملك أتيوبيا بعد أن استولى على مصر فوجئ بخروج البلاد عليه وتقاسمها الأعيان لمدة خمسة عشر عاماً إلى أن قام أحدهم ويدعى (ابسماتيك) واستعان بجنود يونانية واستولى على جميع الأراضى المصرية وطرد الأتيوبيين وأعاد الحدود المصرية إلى أسوان. ولقد ذكر (هيرودوت) خبر فرار بعض الجنود المصرية فى عهد ابسماتيك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين فقال إنهم ذهبوا إلى أتيوبيا واستوطنوا هناك وأطلق عليهم اسم (الأوتومولى) وعرفوا بهذا الاسم حتى القرن الأول للميلاد

وفى عهد البطالسة زحف ثامن ملوك هذه الأسرة على مملكة مروى وفتحها ثم سار جنوبا ففتح مدينة أكسوم، ودون خبر فتوحاته باللغة اليونانية على حجر من الرخام فى ميناء (أدولس) المعروفة الآن بميناء (زولا) على عشرين ميلاً جنوبى (مصوع وهى ميناء أكسوم) ومع ذلك فقد عادت الحدود مرة أخرى إلى المحرقة فى عهد سلفه

وبعد وفاة كليوباترا آل حكم مصر إلى الرومان. وأول من تولى مصر من الرومان هو كرنيليوس جالس وقد ظهر من بعض النقوش على بعض الآثار أن الملك (نوبا كوتاس خوانوس)، ويظن أنه ملك نوبه، أرسل رسلا فى أيام هذا الحاكم إلى فيلة ودخل فى حامية الرومان. وحاولت أتيوبيا غزو مصر فى عهد ملكتها (كنداكه) حينما كان الرومان مشتغلين بغزو بلاد العرب ولكنها لم تفلح. وفى عهد (نيرون) أرسل حملة للكشف عن منابع النيل فوصلت الى إقليم كثير المستنقعات ربما كان إقليم السدود الحالى، وكانت المحرقة آخر حدود مصر أيام الرومان كما كانت أيام اليونان، فرأى الامبراطور (دبوقلشيان) أن خراج البلاد التى بين المحرقة وأسوان لا يفى بنفقات الجند اللازمة لجمعه فلا فائدة من الاحتفاظ بهذه البلاد فاقطعها للنوبة وأعاد الحدود المصرية إلى أسوان وقوى حامية الفنتين

وفى عهد الحكم العربى غزا المسلمون النوبة. قال ابن الأثير (فغزا المسلمون النوبة فرجعوا بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق) وفى سنة ٢١ هـ بعث عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى عشرين ألفاً الى النوبة فمكث بها مدة ثم صالحهم وقرر عليهم الجزية ثم، استدعاه عمرو إلى مصر ثانية؛ وبعد موت عمر بن الخطاب رضى الله عنه تولى عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله مكانه، وكان أهل النوبة نقضوا الصلح ووصلوا إلى الصعيد فردهم وغزاهم مرة ثانية وصالحهم على أن يدفعوا ٣٦٠ رأساً من الرقيق سنوياً على ان يرسل عبد الله اليهم بعض الحبوب. ويقول المسعودى (ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الأمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس، وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه أن ناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها. فرد المأمون أمرهم الى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من أهل العلم والشيوخ

وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنتزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتيعت منهم من أهل النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم لا يقروا لملوكهم بالعبودية، وأن يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته وترك مخالفته، فان كنتم أنتم عبيدا لملككم وأموالكم له فنحن كذلك. ولما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى، فمضى البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس المجاورة لأسوان. وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين: نوعاً من وصفنا أحراراً غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن النوبة فى غير بلاد مريس). من ذلك يتبين أن الحدود الجنوبية لمصر لم تكن محددة تماما أيام العرب، إذ أن بعض المصريين كان يملك أراضى داخل حدود النوبة. ويقول المقريزى إنه فى سنة ٨٧٠ م ذهب

أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى الى محاربة النوبة ورجع غانما . ويفهم من كلام المقريزى أنه فى سنة ٩٥٦ م أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من المسلمين فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل (أنوجور بن الأخشيد) سنة ٩٥٧ م برا وبحرا وأسروا بعض النوبيين الذين ضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة ، وسار الخازن حتى فتح مدينة أبريم ، وقدم الى مصر سنة ٣٤٥ ﻫ بمائة وخمسين أسيرا . وقال ابن الأثير (فى سنة ١١٧٣ م سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر الى النوبة فوصل الى أول بلدهم . وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون ان نور الدين كان على عزم الدخول الى مصر ، فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فان قووا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى قد افتتحوها . فجهز شمس الدين وسار الى أسوان ومنها الى بلاد النوبة ، فنازل قلعة اسمها أبريم فسلمت ، فأقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه ، فتركها وعاد الى مصر بما غنم من العبيد والجوارى) . وقال المقريزى عن توران شاه هذا ما يأتى : (وأعطاه صلاح قوص وأسوان وعيذاب ، وجعلها له اقطاعا ، فكانت عبرتها فى تلك السنة مائتى ألف وستة وستين ألف دينار ، ثم خرج لغزو النوبة سنة ١١٧٤ وفتح قلعة ابريم) . واستمر غزو المماليك لبلاد النوبة مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم . ويقول ابن خلدون إن قلاوون عند ما غزا النوبة أرسل السفن بالبحر . ويقول ابن خلدون (ثم انتشر أحياء العرب من جهينة فى بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها أيام الناصر بن قلاوون وملؤوها عيثا وفسادا ، وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا ، ثم صاروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم ، لأن أمهاتهم من بنات ملوك النوبة على عادة الأعاجم فى تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم ، وليس فى طريقة استيلائهم شىء من السياسة الملوكية للأمة التى تمنع من انقياد بعضهم الى بعض فصاروا شيعاً لهذا العهد) . الى أواخر القرن الثامن الهجرى .

وبقوا كذلك شيعاً على كل شيعة منهم رئيس أو ملك الى أن قام الفنج فى سنار سنة ١٥٠٥ الى الشلال الثالث ثم كان الفتح العثمانى لمصر بيد السلطان سليم سنة ١٥٢٠ فأرسل جيشاً الى النوبة فملكوها من أسوان الى الشلال الثالث وعرفوا (بالغز) وعرف حكامهم (بالكشاف) وهكذا انقسمت بلاد النوبة بين ملوك الفنج والكشاف الى أن كان الفتح المصرى للسودان سنة ١٨٢٠ م أى سنة ١٢٣٦ ﻫ فخضعت لمصر

وفى عهد محمد على امتدت حدود مصر جنوباً بعد فتحه للسودان وكانت تدخل اسوان فى مديرية اسنا ، ثم أحدث تعديلا بأن ضم مديرية اسنا الى مديرية قنا وصارتا واحدة ، ثم انفصلتا بعد ذلك وامتدت الحدود المصرية الى أعالى النيل أيام خلف محمد على خصوصاً فى عهد اسماعيل . واستمرت مديرية اسنا حتى سنة ١٨٨٧ وكان مركزها اسنا . ولما ازدادت الثورة المهدية فى السودان وكادت تمتد الى الحدود رأت الحكومة تحصين الحدود المصرية بقوة عسكرية وجعلت البلاد هناك تحت الأحكام العسكرية فصدر قرار مجلس الوزراء فى ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٨ بقسم مديرية اسنا الى قسمين : الأول يشمل الجهات التى بين وادى حلفا وجبل السلسلة تتكون منه مديرية تسمى مديرية الحدود ومركزها اسوان . وأما الأقاليم شمالى جبل السلسلة فتضم الى مديرية قنا وعلى ذلك ألغيت مديرية اسنا وتكونت مديرية الحدود من مراكز ادفو وأسوان وكرسكو (الآن الدر وحلفا) وضمت بقية البلاد الى قنا واستمرت مديرية اسوان باسم مديرية الحدود الى أوائل سنة ١٨٩٩ حينما تحددت الحدود بين مصر والسودان ، وذلك أنه لما أعيد اخضاع السودان عمل اتفاق بين مصر وبريطانيا فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ بأن يصبح السودان حكومة مصرية انجليزية وأصبح خط عرض ٢٢ شمالا هو الحد الفاصل بين مصر والسودان وبناء على ذلك دخلت عشرة بلاد من قرى مصر العليا فى حكومة السودان وهى : سرة شرق . فرس . جزيرة فرس . دبيرة . شرة عزب . اشكيت . ارقين . أدقيم . عنقش . دبروسة (وتعرف الآن بالتوفيقية) وبعد هذا التغيير أطلق على مديرية الحدود اسم مديرية اسوان ابتداء من سنة ١٨٩٩ م ؟

(يتبع) أحمد صادق

الخريف

مهداة الى رفيقى الأستاذ حلمى اللحام

لشاعر الشباب العربى أنور العطار

أبِىَ القلبُ فاستراحَ إلى الصمـ ـتِ وللصمتِ عالمٌ مسحورُ
تتراءى بِهِ الشجونُ فيعيا ليس يشكو الضنى وليس يثورُ
هيكلٌ متعبٌ تكادُ من السقـ ـمِ تداعى أركانُهُ وتخورُ
موحشٌ كالخريفِ تطفو عليه صورٌ جهمةٌ وخطبٌ نكيرُ

* * *

كلُّ شىءٍ أراهُ يذوى ويفنى ثمَّ يمشى على حماهُ الدثورُ
ملعبٌ للحياةِ يطفحُ بالسحـ ـرِ ويشقى بساحِهِ المغرورُ
أينَ زهوُ الرياضِ فى متعِ العيـ ـشِ وأينَ الهوى وأينَ السرورُ
رقدتْ فى الغيوبِ قمريَّةُ الدو حِ وطاحَ الهزارُ والشحرورُ
فجناحٌ على السفوحِ هشيمٌ وجناحٌ على الوهادِ كسيرُ
وتجافى السنا عنِ الأفقِ الخلـ ـوِ وغشَّى رفيفَهُ الديجورُ
وتولَّتْ بشائرُ الأنسِ عنهُ واستفاضَ الأسى وصاحَ النذيرُ
لم تعدْ تكرعُ الندى شفةُ الزهـ ـرِ ولمْ تسكرِ النسيمَ العطورُ
وانطوتْ من مباهجِ الروحِ دنيا كلُّها نائلٌ وجودٌ وخيرُ

* * *

همدَ الحقلُ فالعشاشُ خرابٌ هجرتْها على الليالى الطيورُ
فعلى ضاحكِ المروجِ اكتئابٌ وعلى باسمِ الدغالِ فتورُ
وإذا الغيمُ فى الفضاءِ ركامٌ وإذا النهرُ معذرٌ محرورُ
والعصافيرُ نومٌ ليس تصحو والفراشاتُ جثَّمٌ لا تطيرُ

* * *

ورقٌ مائتٌ تهاوى على السهـ ـلِ وغنَّتْ بهِ الصبا والدبورُ
ملأ الوهدَ والمساربَ والسو حَ اغتماماً بساطُهُ المنشورُ
غمرَ الشعبَ البعيدَ وغطَّى الـ ـوادىَ السمحَ عصفُهُ المنثورُ
خشخشتْ فى الرحابِ أوراقُهُ الغبـ ـرُ وللريحِ بينهنَّ صريرُ
نغمةٌ توقظُ النؤومَ منَ الشجـ ـوِ ورمزٌ إلى الزوالِ يشيرُ

تعصفُ الصرصرُ العتيَّةُ بالغا بِ فيهوى الدوحُ الأغنُّ الشجيرُ
وتضيعُ الألحانُ فى هبَّةِ الويـ ـلِ ويرغو الأذى وتطغى الشرورُ
ليس يقرى الأسماعَ إلا عويلٌ وصراخٌ وأنَّةٌ وزفيرُ
تمَّحى فرحةُ الطبيعةِ فى الأر ضِ ويطوى حلمُ الحياةِ النضيرُ
وتعفَّى أرائكُ الحبِّ والعطـ ـرِ ويبلى الروضُ الندىُّ الخضيرُ
تطفحُ السحبُ فى عنانِ السموا تِ ويخبو منها السراجُ المنيرُ
ويعجُّ الفضاءُ بالزبدِ المنـ ـدوفِ والأفقُ كالخضمِّ يفورُ
وتغيبُ الأنوارُ إلا شعاعاً يختفى تارةً وأخرى ينورُ
تتعزَّى به النفوسُ الوجيعا تُ ويحيا بدفئهِ المقرورُ
أيظلُّ الصرَّارُ يرتعُ فى الحقـ ـلِ وينأى عن عشِّهِ العصفورُ
تلكَ أحجيةُ الوجودِ تناهى الـ ـفهمُ عنها واستغلقَ التفسيرُ

* * *

يا حبيبى أراكَ من حجبِ الغيـ ـبِ فيزهو الكونُ السليبُ الحسيرُ
ويغوصُ الظلامُ فى نهرِ الفجـ ـرِ ويبهى الصبحُ الأنيقُ الطريرُ
ينشدُ السفحُ والتلالُ تغنى حيثُ لا مطربٌ ولا مزمورُ
تمرعُ الأرضُ بالنباتِ وتهتـ ـزُّ منَ الدفءِ والحياةِ الجذورُ
وتذوبُ الأنداءُ فى أكؤسِ الزهـ ـرِ ويحيى الثرى الشرابُ الطهورُ
ويطيبُ الهوى ويحلو التساقى ومنَ الحبِّ روضةٌ وغديرُ
أيها الهاجرى أطلتَ التنائى وتمادى من صدِّكَ المهجورُ
سهدتْ مقلتى وناجاكَ قلبى وهفا خاطرى وحنَّ الضميرُ
عشتُ من طولِ حسرتى بالتمنى وقليلٌ من التمنى الكثيرُ
تتراءى لناظرى فأناديـ ـكَ كأنى مخبَّلٌ ممرورُ
أنتَ ريحانتى وأنتَ أحاديـ ـثى وأنتَ المنى وأنتَ السميرُ
يا نصيرى إذا أظلَّنى الهـ ـمُّ وألوى بىَ الشقاءُ المريرُ
طفْ بروحى كما تطوفُ الشعاعا تُ ويسرى ضياؤها وينيرُ
ودعِ الحبَّ يزدهرْ فى خيالى وتهدهدْ بهِ العصورَ العصورُ

* * *

غفلتْ عنىَ المنونُ فغنيـ ـتُ ولحنُ الحياةِ لحنٌ قصيرُ
أتعامى عن الفناءِ وحولى محنٌ ليس تنقضى وثبورُ

أَلَمى صارِخٌ وجُرحى ضَرِىٌّ ... والهوى يائِسٌ وَجَدِّى عثورُ
وَبنفسى قيثـــارةٌ تتشكَّى ... وأنا الدمعُ والأسى والشعور
أتسلَّى عنِ الضَّنى بلُحون ... هى روحُ الحياةِ والإكسير
الشَّجَا المُرُّ فى حِماها شِـفاءٌ ... والدُّجى الشاملُ المرَوِّعُ نور
خاطِرى من نشيدِها مستثارٌ ... وفمى من سُـــلافِها مخمور

* * *

عالَمى مَهْبِطُ الرُّؤَى ومِهادى ... ذهبٌ خالصٌ وتبرٌ نثيرُ
وفضـائى مُوَشَّحٌ بالغوادى ... وهِضابى نَدًى وجَوِّى مَطير
وسمواتِىَ الفســيحاتُ تابو ... تٌ عليـه من الغيوم سُتُور
أُفُقٌ شـاحبٌ تَدَثَّرَ بالسُّحْـ ... بِ وَأَغْيا فيه الضَّبابُ الغمير
لا السَّنَا ضاحكٌ بأبْهائه السُّحْـ ... مِ ولا النورُ فى مَدَاهُ يمور
فَمِنَ الُحزْنِ وَالجهَامَةِ قَبْرٌ ... ومن الهمِّ والكآبةِ ســور
وتَعَرَّى المَسَاءُ من أَلَقِ السِّحْـ ... رِ فلا رَوْعَـةٌ ولا تَصْوير
التَّعَاشِيبُ أَعْيُنٌ جامداتٌ ... هى من طولِ ماتُحَدِّقُ صُورُ
أَطْفَأَ العاصِفُ المُلِحُّ سَنَاهَا ... وغَزَاهَا الصـقيعُ والزمهرير
هٰاهُنَا للجمالِ عُرْسٌ تَقَضَّى ... مِلْءُ أَعْطَافِهِ شَـــذًا وعبير
هاهنا غَنَّتِ الينابيعُ سَكْرَى ... ومن السَّلْسَلِ النقىِّ الخمور
هاهنا كان للجداولِ ألحا ... نٌ لِطَافٌ وللنسيم مَرير
هاهنا حَنَّتِ العَشِيَّاتُ للضُّحـ ... كِ وَبَشَّ الضُّحى وهَشَّ البكور
لا الرَّوابى تفيضُ بالعَبَقِ الطُّهـ ... رِ ولا يُطْرِبُ الحقولَ الخرير
هَدَأَتْ من جَوَى الغرام قلوبٌ ... واستراحت من الهَديل ثغور
وَحْشَةٌ ماتكادُ تحملها النفـ ... سُ وشَجْوٌ تضيقُ عنه الصدور
المَرَادُ المُزَوَّقُ الُحلْمِ داجٍ ... وَرِحَى الأنس مُجْفِلٌ مَـذْعُور
أين وادٍ رَفَّتْ عليه البشاشا ... تُ وَرَنَّتْ أَعْشاشـه والوكور
ماجَ فيهِ الهوَى فعاشتْ حوَافيـ ... ـه وضجَّتْ من الحياةِ الصخور

* * *

أَيْنَ لا أَيْنَ عالم مستطابٌ ... عاثَ فيه ركْبُ الفناء المغير
فانْمحَى كالظِّلال تنتهبُ الأرْ ... ضَ وَيخْفى أنطواؤها والمصير

أنور العطار

بين ماض وحاضر

أنشودة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

عهـــدى بالعيش على رَغَد ... عذباً كالماء حساه صَدِى
نغم والدهر يُوَقِّعه ... يسرى كالنشوة فى الجسد
ياليت الدهر كمن يشــدو ... بأغانٍ إنْ يُطرِبْ يَزِدِ
إن قلتُ أعد نُعْمَى عادت ... كترنم ذى النغم الغرِد
حسنات كنت بها ثملاً ... ذهبت فى الدهر فلم تَعُدِ
آمال كنت بها شـغِفاً ... نظر الولهان إلى الخُرُد
أحـــلام كنت بها جَذِلاً ... قد شـــح النوم ولم تجُد
وشـباب ذقت به خلداً ... فى طرفة عين من أبد
لو دام دوام الخلد لما ... نقع الظمآنَ من الصَّفَدِ
لوعاد بذات له ذخرى ... من مُطَّرَفى أو مُتَّلدى
بشعاع منــه أعيش مدى ... دِفْءٌ للشمس على بُعُــدِ
آب التذكارُ له شـــبحاً ... أو قبراً شِـيدَ لِمُفْتَقَد
ماخَلَّفَ لى دهرٌ ثقــة ... بمآلٍ فيه أو أحـــد
يانبعَ الماضى لوعاد الـ ... ـوُرَّادُ اليـك على جَدد
لرجعت اليـك رجوع صَدٍ ... لم ينهل قبـل ولم يَرد
وغدًا ماذا يادهر ترى ... قد قُدِّرَ لى بضمير غد

عبد الرحمن شكرى

صورة...

(من صور دمشق فى هذه الأيام)

بقلم السيد أحمد عبيد

ما أَرْوَعَ القومَ إذْ ضَنُّوا بعزَّتِهمْ ... فسالَتِ الشامُ فِتياناً وَوِلْدَانَا
تدفَّقوا كأَتِىِّ السيلِ مُقْتَحِماً ... لظى جحيمٍ تُذِيقُ الموتَ ألوانَا
فلا الأَتِىُّ بمُخْبٍ من توقدها ... ولا الجحيمُ تَصُدُّ السيلَ إن دانَى
إذا الْتَقَوْا والعِدَى فى وَقْعَـةٍ فهُما الـ ... ـبُرْكانُ يقْذِفُ «نيرانًا» و «صوَّانًا»

فى يوم الأربعاء ١١ مارس سنة ١٩٣٦ من الساعة ٨ صباحا وما بعدها بقراقص مركز دمنهور . وفى يوم الاثنين التالى مباشرة بسوق دمنهور بميدان القرية سيباع علنا أربع كنبات وترابيزة وسط وأشياء أخرى موضحة بمحضر الحجز ٢٦ يناير سنة ١٩٣٦ تملك الست نظيمة محمود الخولى عن نفسها وبصفتها وصية على أولادها القصر والمقيمة بقراقص مركز دمنهور وذلك تنفيذا للحكم نمرة ٢٠٥٥ سنة ١٩٣٥ دمنهور ووفاء لمبلغ ٤١٨ قرشاً بخلاف ما يستجد والبيع كطلب الشيخ عبد العال السيد قرطام وفاطمة وأمينة السيد قرطام بقراقص فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم السبت الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحاً وما بعدها بشارع سوق السمك القديم نمرة ٦٨ بملك تفاحه قسم الجمرك باسكندريه سيباع علنا عدد ٦٦ سبت خرزان لعبوة الفحم الحجرى جديد و٧٠ جاروف حديد بيد خشب لزوم الفحم جديد وفاء لمبلغ ٤٨ج و٩٦٠ م بخلاف أجرة النشر تنفيذا للحكم رقم ٤٥ سنة ١٩٣٥ مدنى منشية ضد احمد افندى ابراهيم اللاح والست احسان حسن الساعى المقيمين بشارع الغرياني نمرة ١٤ والبيع كطالب الست بمبه محمد مصطفى الليجى رعية ومقيمة باسكندرية ومحلها المختار مكتب محمد عرارجى وسليمان حافظ المحاميان باسكندرية فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأربعاء ٢٦ فبراير سنة ٩٣٦ من الساعة ٨ صباحا وما بعدها بالمنزل رقم ١٤ بسكة درب الجنينة قسم الوسكى مصر بناء على طلب الست سكينة أحمد حسن المقيمة بسكة الحسنى ن ٢٧ قسم باب الشعرية بمصر سيباع علنا منقولات منزلية عددها ١٢ قطعة تملك حبيب بولس القيم بالمنزل المذكور نفاذاً للحكم نمرة ٥٤٢٩ سنة ٩٣٥ الوسكى وفاء لمبلغ ٣٨٢ قرش صاغ فعلى راغب الشراء الحضور

ألا تحلمين سيدتى بمثل هذا القوام الرشيق ؟

إذا لم تتركين الشحم يتراكم على بدنك ويشوه جمالك ؟

النحافة أساس الجمال

بل هى أساس الرشاقة والجاذبية

إزالة السمنة

باحدث الطرق الطبيعية

دروس خصوصية فى الجمباز للسيدات والرجال

تجميل الوجه والبشرة تقوم به سيدة حائزة على الدبلوم من باريس

كل هذا فى

عيادة التدليك الطبى

رقم ١ شارع سنترال

عمارة رقم (٣٩ شارع سليمان باشا)

تليفون ٥٤١٨٦

الاستشارة من ٥ : ٨ مساءً



الحب والدسيسة

لفردريك شيللر

عربه الدكتور حسن صادق

أقوى قصة بورجوازية ظهرت فى القرن الثامن عشر تصور الحب فى أقوى وأسمى أشكاله . واستبداد الحكم المطلق فى أبشع مظاهره والدسيسة الدنيئة المنكرة فى سبيل الوصول الى المنفعة الذاتية نتيجة الحكم المطلق البغيض . فالقصة آية من آيات الفن تملك على القارئ عقله وقلبه ومشاعره

وثمنه ١٠ ويطلب من المكتبة التجارية الكبرى بمصر والمكاتب الكبيرة الأخرى

فى يوم السبت ١٤ مارس سنة ١٩٣٦ بناحية كفر بولين مركز كوم حماده وفى يوم السبت ٢١ مارس سنة ٩٣٦ بسوق النجيله العمومى إذا لزم الحال من الساعه ٨ صباحا سيباع علناً ٨ أرادب ذرة شامى بأكيزانها ومنقولات منزلية مبينة الأوصاف بمحضر الحجز ٥ فبراير سنة ٩٣٦ وهذه الأشياء ملك عبد العال عبد الحليم سليمان من أهالى ناحية كفر بولين مركز كوم حماده والبيع بناء على طلب محمد افندى عبد الحليم سليمان المقيم بالمنزل رقم ٥ بشارع عمارة موسى باشا قسم السيدة زينب بمصر نفاذاً للحكم ٣٧٢ كوم حمادة سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١٦ ج و ٧٤٠ م بخلاف ما يستجد

فعلى من له رغبة فى الشراء الحضور

فى يوم الأربعاء ١٨ مارس سنة ٩٣٦ من الساعة ٨ صباحا بمحل الحجز باسوان والأيام التالية بعد بسوق اسوان سيباع علناً منقولات منزلية موضحة بمحضر الحجز الرقيم ٤ فبراير سنة ٩٣٦ وتملق عبد الرحمن أحمد منوحى من اسوان توقع عليها الحجز وفاء لمبلغ ١١٠ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر تنفيذاً للحكم الصادر من محكمة اسوان الأهلية فى القضية نمرة ٧٨ ونمرة ٨٢ سنة ٩٣٦ والبيع كطلب عبد المنعم أفندى عبد العزيز موسى من اسوان فعلى راغب الشراء الحضور

رجاء

نكرر رجاءنا لحضرات مرسلى الاعلانات القضائية أن يكتبوها بخط واضح

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٣١ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

تعليق المؤلف [(١)] على فلسفة نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

يتمتع نيتشه بما لا يتمتع به فيلسوف آخر ، لأن تفكيره قد تناوله بالبحث أرباب الفلسفة وغير أربابها . وقد طغت «النيتشية» فى الأعوام الأخيرة أى طغيان ، فأما المعجبون به فهم يرون فيه المفكر الفرد الصارم العميق فى جرمانيا الحديثة ، له منزلة « دارون » فى الأخلاق . وأما خصماؤه فهم لا يرون فيه إلا ولداً مريضاً ، له خطره ومبدؤه الفاسد . وبينهما يقف الشعب حائراً ، تراه من ناحية معجباً بآثار هذا الجبار ومظاهر تفكيره الغريب ، ومحترسا من ناحية ثانية من مفكر ناقم على الأخلاق والتقاليد ؛ والآن سنعمل على تبيان الأسس الرئيسية التى ترتكز عليها فلسفة نيتشه ، والأهمية التى تنشأ عنها

هدم النقاد فلسفة نيتشه من وجهتين : فى الوجهة الأولى أبدوا أخطاءها العملية . وفى الوجهة الثانيـة بينوا خطرها على الأخلاق

إن نيتشه فى الطور الثانى من حياته لم يكن يكتسب شيئاً ولم يكن فى استطاعته أن يكون عالماً ؛ ولقد علمت رداءة صحته التى تحول بينه وبين مواصلة جهوده فى البحث . فهو قد بدأ حياته العلمية بدراسة اللغات ، ثم لم يلبث أن غادر هذا الميدان إلى غيره ؛ وهو لم يكن فى سائر العلوم إلا هاوياً ، لا يسعى وراء ترقية هذا الفرع وذلك الفرع فى العلوم ، ولـكنه يريد من وراء ذلك أن يبدع مسائل جديدة ، أو يكسو المسائل القديمة ثياباً جديدة ! فهو لا يؤثر فى العلم نفسه ولـكن فى روح العالم . فان اشتقاقاته التى استنبطها فى دراساته للغات القديمة لم تكن لتلائم الحقيقة ، ولـكن ذلك لم يكن ليحفل به ، فهو يبنى أن يظهر طرق درس المسائل الاجتماعية بواسطة الدراسة اللغوية ، فالقيمة الجوهرية للحوظاته الخاصة هى شىء ثانوى عنده ، سواء عنده حياتها ومماتها ، فهو يكفيه فضلا أن ينفخ فى نفوس هؤلاء الدارسين روحا جديدة ويفتح لهم آفاقا جديدة . ولذلك نراه فى آخر أدواره جد فان ، يسعى بواسطة الدراسات اللغوية إلى أن يستكشف الحياة الاجتماعية ، وحضارة ما قبل التاريخ مستعيناً بدرسه ومقارنته بين اللغات

وإذا شئنا أن نوضح بعض خطيئات نيتشه فلا ننس أن آثاره كلها « ذاتية » Subjective والحقيقة — غير الذاتية — يراها نيتشه ضرباً من ضروب العاطفة الدينية ؛ وإننا لنطالب إلى العالم ألا يحترم إلا الحقيقة ، وأن يكون فى بحثه عنها خالياً من الأهواء متجردا عن شخصيته – على قدر الامكان – وإننا لنعلم أن التجرد عن الذاتية فى البحث عن الحقيقة هو خديعة ، ونعتقد أن ليس فى مقدور أحد أن يتجرد عن شخصيته وينظر إلى الأشياء نظرة خالصة لا تجتلى إلا الأشياء ؛ وبهذا ليست كل حقيقة ذاتية قبل كل شىء ؛ وجوهر الموضوع – فى البحث العلمى – لا يقف عند ما اعترفه الـكاتب من حقيقة ، ولـكنه يقف على مقدار ما أودع فى هذه الحقيقة من ذاته . ونحن على رغم هذا أرانا نؤمن بالحقيقة المجردة ، الحقيقة البارزة بحقيقتها خارج ادراكنا وحواسنا ، وأرانا نؤمن بالمؤلف ويزيد احترامنا له كلما دنت أفـكاره مما ندعوه « الحقيقة المتجردة عن الذاتية »

لنا الحرية فى أن نزن آثار نيتشه بهذا الميزان ، ولـكن نيتشه كان قبل كل شىء يفتش عن نفسه ويسعى وراء معرفة نفسه ؛ ولقد كان اهتمامه ضعيفاً فى الاطلاع على الأشياء بحقائقها ، وإنما وقف اهتمامه كله وجهوده على ما يمثل شخصيته ، فخلق من الأشياء خرافات كاذبة ، وقد علم أنه إنما وصف نفسه حين كتب عن « شوبنهاور وفاجنير » أنه حول الحقيقة إلى خرافات جذابة غريبة ، ولأن تكون مظاهر لشخصية نيتشه أجمل وأحرى من أن تكون مظاهر تمثل حقيقة الوجود الخارجى ، وبهذا يصبح عبثاً سعينا وراء الحقائق التى عالجها نيتشه والعمل على التوفيق بينها وبين الواقع

وهنالك تأثير معاصر به فيه — سواء أحس هو هذا التأثير أم لم يحسه — وفكرته التى جاء بها — إذا جردت من أثوابه الخاصة — تبـدو فكرة قديمة ليست بابنة ذاته . فكل الآراء التى عالجها ، من قوله بالذاتية وعبادة النفس والثورة على قانون

(١) هو الأستاذ « هنرى ليشتنبرجر » وقد أشرنا اليه فى هذه المقالات

المساواة وعبادة الانسانية قد سبقه الى معالجتها أحد معاصريه[1] كما سبق « فلوبير » و « رنان » إلى الكتابة عن المذهب الارستقراطى . وقد وجد نيتشه فى الكاتب «أوجين دوهرنك» عضداً له فى محاربة التشاؤم . واتحد مع « هارتمان » فى النفور من الاجتماعيين والفوضويين ، واتفق معه فى القول باستحالة المساواة بين الناس ، فقالا بفضيلة الحرب للمدنية ، واتفقا على جعل الشفقة مادة غير صالحة للفضيلة . وكذلك نرى مذهب الرحمة الدائمة يتجلى فى كتاب « لبلانكى » ! وفى كتاب الدكتور « لوبون : الرجل والمجتمعات » . ولكنا — وان قارنا بين نيتشه وبين هؤلاء المعاصرين — فان هنالك تبايناً شاسعاً مهما كانت الأفكار متقاربة متآلفة . وعلة هذا التباين شخصية نيتشه . ولقد نراه فى بعض خطرات يتحامل على هؤلاء الأحلاف ، فمقت من « رينان » روحه الكاهنة ، ونعت « هارتمان » بالشموذ . وليس نفوره هذا وليد حقد أو حسد ، وإنما هو وليد طبيعة تختلف جد الاختلاف عن طبائع خصومه . هذه الطبيعة التى تؤمن بأن الشخصية فى الفيلسوف هى أكبر قيمة وأجل خطراً من آثار الفيلسوف

على أن هذا لا ينبغى أن يدفعنا الى انكار فضيلة كل حقيقة غير ذاتية اكراماً لقوة الشخصية عند نيتشه ، وإذ ذاك يعم الجور والخطأ فى الحكم . وانني لمعتقد بأن المؤرخ والفيلسوف يستطيعان أن يجدا عند نيتشه حقائق جيلة بذاتها . وهنالك آراؤه فى « فاجنير » يراها المؤرخ جديرة بالاعتبار لأنها تبدى قيمة الفنان المظيم . وهنالك آراء لنيتشه يجدر بها أن تكون محل مناقشة ومجادلة ، على أننى أقول إن عبقرية نيتشه لا تستقر إلا فى « الذاتية »

***

والآن أرانى أستشهد بكلمة « لبراندس » قالها فى موضع التحدث عن فيلسوفنا حينما قارن بينه وبين خصومه فلاسفة الانجليز . « قال : وحين نقبل عليه . . . (نيتشه) بعد مغادرتنا لفلاسفة الانجليز نرى عالماً جديداً حولنا . فالانجليز هم عقول متشابهة فى الصبر والجلد ، غرضهم أن يتقنوا الشيء جزءاً جزءاً ثم يجمعوا هذه الأجزاء الصغيرة المتفرقة ليؤلفوا منها شريعة وقانوناً ؛ يعملون غير متأثرين بذاتهم ؛ وقيمة فلسفتهم تتوقف على ما يعملون لا على ما ترق إليه ذاتهم ؛ أما نيتشه فهو على نقيض هذا المذهب ، هو مثل شوبنهاور متنبئ فنان ، تستهويك شخصيته قبل أن تستهويك آثاره . » وإذا شئنا إبداء قيمة آثاره فليس لنا أن نتلوها تلاوة كتاب على لا تتوقف روعته على روح صاحبه . نتلوها لنرى الروعة فيما بث هذا الرجل من معارف قديمة بسطها وجد يدة وضمها

يرى نيتشه فى معرض كلامه عن شوبنهاور « ان مذهب المفكر لا شأن له ، فكل فيلسوف ممكن انخداعه . إن ذلك الشيء الذى هو أجل من مذهبه — هو نفسه — فى كل فيلسوف شيء لا نجده فى فلسفته . علة كل الفلسفات والمذاهب هى الانسان ، الانسان المظيم

(التتمة فى العدد القادم)

خليل هنداوى

[1] ماكس : فى كتابه الواحد المجرد وصفاته

القصص

مأساة من اسخيلوس

٣ ـ أجاممنون

للأستاذ دريني خشبه

تتمة

— « باريس ! لقد خرّبت زيجة بينك ... أجل ... أنت وأختك ... أوه يانهر سكمندر(1) المصطخب ! لقد جرع أبي منك جرعة ، وعلى ضفافك شبيت وترعرعت ، فيا لشقوتى ! أما الآن ... فان نبوءاتى تتواثب على شطئان كوكيتوس وأشيرون (2) ... »

— « أوضحى بحق أربابك عليك أيتها الفتاة ! إن آلامك تدب فى صدرى فتخز أشواكها حبة قلبى ... »

— « طروادة !! أهكذا سقطت إلى الأبد !! أهكذا تندلع النيران فى أبراجك الشواهق ! أهكذا ينبطح أبى الملك الشيخ مضرجاً بدمه ؟ ... ويلاه ... بعد لحظات أغرق فى لجة من دمى مثلك يا أبى ... »

— « عود إلى النغمة الملغوزة السالفة !! ما أحسب إلا أن إلـهاً قاسياً يرديك بعنف فى هذه الحماة المسنونة !! »

— « نغمة ملغوزة ! ! لا ! لن ألغز يارفاق ! سأجلو لكم السر الهائل الذى خبأته الجريمة السنين الطوال فى هذا القصر ! هنا ! تآمر الآثمون فى الظلام ... وكان الظمأ إلى الدم يشحذ عزائمهم جميعاً ! كانوا يدلفون الى كهفهم فيتغنون آلامهم ويستنزلون اللعنة على ... خصمهم ... وهو منهم ، وهم مع ذاك منه ... أخوهم ... وهم إخوته وأقاربه ... قتلوه ... قتلوه وهو مستسلم للـكرى الهادئ ... أليس كذلك ياسادة ؟ أهذه ثرثرة ، أم أنا أهذى ؟ ... »

— « بل أنت قد صورت ما حدث منذ أعوام وأعوام كأنك ترين اليه الآن ... »

— « هذا من فضل أبوللو على ! لقد أمدنى بروح من عنده »

— « ولم ؟ هل شغفه حبك مرة ؟ »

— « ... ؟ ... ... ؟ ... لا أقدر أن أقول ؟ ... » (1)

— « ما كان ضرك لو تلطفت معه ... ... ! »

— « إيه ... كم كان رقيقاً حينما كان يصارع فؤادى ؟ »

— « وهل فى وسعك أن تضعى حداً لمغامراته ؟ »

— « لقد وعدته ... ولـكنه خان ميثاق ! ... أواه ! وا أسفاه ! تعالى ! لقد ثارت الزوبعة من جديد ! لا أطيق أن أكتم الحقيقة ! انظروا يارفاق ! أول الشجو ! ماهذه السمادير التى تغشى سماءكم ؟ يا لأفلاذ الأكباد ! يا للصغار ! إنهم يذبحون بنفس الأيدى التى كان أجدر لو ترفقت بهم وحنت عليهم ! ... ياللهول ! ... أبوهم يمد يده البريئة فيأكل شرائح مشوية من أكبادهم وضلوعهم ! ... إن لهذا قد دبر انتقام دموى هائل ... وهاهوذا الأسد ! الأسد الجبان النذل ، الذى تقلب فى سرير صاحب الجلالة — بحر اللذة والدنس ! ... إذ صاحبه نازح يغزو ! ... لا ضير أن يكون أحد أسيرا مرة ، ولـكن هذا الفاتح العظيم ! غازى طروادة ! سيد الأسطول اللجب ! إنه لا يدرى السر الهائل الذى تقبره زوجته ... السفاحة ... التى تتحوى كالأفعى ، وتهسهس فى الظلام المنتشر حول نفسها ، وتوسوس إلى شركائها بأفسق الجرائم ... لقد فاقت فى الخب كل مثل فما أدرى بم أشبهها ؟ آه ! إنها أشنع من سكيلا (هذه الهولة الرائعة ، ذات الرؤوس الستة التى تنفث السم ، وتغتال رواد البحار ! ...) الآن ! الآن ينفذ سهم القضاء عن قوس غدرها ... والآن ! ستعترفون أننى ما ألغزت ، وما قلت غير الحق ! ...

(1) النهر القريب من طروادة والذى كاد يغرق فيه أخيل كما مر بك فى الألياذة (2) نهران من أنهر الجحيم

(1) أحب أبوللو كاسندرا كما مر بك فى حروب طروادة ووهب لها قوة إدراك الغيب ، فلما بخلت عليه وصدت عنه كتب عليها أن يستهزىء مستمعوها ولا يصدقونها

— « الحق كل الحق يا فتاة ... لقد رويت ما كان من وليمة ذيـيس ، وما تم فيها من نهشه لحم أطفاله وهو لا يدرى ... يا للهول ... ما نزال نقشعر كلما روعنا رجع تلك الذكريات ... »

— « إذن سيموت مولاكم أجاممنون ... وسترون بأعينكم ! »

— « يا شقية ! لا تهرفى بهذا الهراء ! »

— « ولن أدعو أرباب الخلاص هذه المرة ! »

— « وهل خلاص من الموت ؟ ولـكن عسى ألا يكون قريباً ! »

— « أنتم ترجون ، بينا غيركم يذبحون ... أو يكادون ! »

— « وأى إنسان يا ترى يضطلع بهذا النكر ؟ »

— « أى ما إنسان ! إن السهم الراش يطوى ما بين المشرقين ؟ »

— « أجل ، ونحن لا نستطيع أن نحدس من يجرؤ على هذه الفعلة ! »

— « أنا أقولها ؛ وحسبى أننى استطعت أن أكلـكم بلسانـكم الميلانى كواحدة منكم ! »

— « وهكذا استطاعت البيثونة [1] من قبل ... ! وكان كلامها ملغوزاً دائماً كذلك ! »

— « يا للشجى ! يا للجمر المتقد ! إنها تقـدم ! الغوث يا أبوللو ! يالى من تاعسة ! هذه اللبؤة الآدمية ! إنها تضطجع مع الذئب بينما أسدها الهصور نازح عن الديار ... وأما ! أنا التاعسة قد جئت لأضاعف أحقادها عليه ؟ جئت لأجعل السكين مسنوناً أكثر ! ها هى ذى تحدث ذئبها أنى أنا أيضاً ينبغى أن أذبح جزاءً لى ! ... فيم إذن أبقى على مسوحى وعصاى ! عصاى السحرية ! لأمزق المسوح ولأحطم العصا ! (وتمزق وتحطم) إذهبا إلى الفناء فانى لاحقة بكما ! كونا فِدْىً إليه ! سأنبمكما ، أنعِـما حياة ثانيةً غير حياتى ! ... انظروا انظروا ! إن أبوللو ينزع عنى المسوح بيديه ! آه ! أقبلت لترعانى فى هذه الأجمة الوبيئة ! لتسر قلبك باهانتى ووخزاتى ! بسخرية أهلى من قبل ، ولعنات أعـدائى ولعنات وطنى اليوم ! إنهم يزعموننى قديسة شحاذة ! أو كاهنة أفاقية ! يا للهول ؟ ماذا خبأت لى أيها القدر ؟ وىْ ! الوَضم [2] ! السكين المشحوذ ! الضربة اللازبة التى تتم بها التضحية ! ... ياسماء ! إن الذى يأخذ بثأر الأبرياء ما زال

(١) أفعى عظيمة قيل إنها خلقت من وحل الطوفان الذى نشأ عن غضب زيوس فى حربه ضد التيتان — وقد قتلها أبوللو

(٢) خشبة الجزار

حياً [1] ! ... ويحك يا قاتل أمه أين أنت ؟ خذ بثأر أبيك أيها الجائل فى الآفاق ! ... وىْ ! فيم بكائى ، وها هو قاهر طروادة وقاتل بريام يلقى جزاءه وفاقاً ! مرحباً ياموت ! أنا لا أهاب الردى !

— ولـكن ! ... الصلاة ! ... الصلاة يا أربابى ! أضرع إليكم أن يكون جرحى بالغاً مميتاً فلا يعذبنى طويلاً ! لتتدفق منه حياتى فلا يعترضها شىء ... »

أيتها الفتاة التى تطمها الهواجس ، حسبك ، فقد بلغت المدى ! وللآلهة أنت ! كيف تتقدمين إلى حتفك بقدم ثابتة ، ونفس رابطة ، وأنت تعلمين من الغيب كل شىء ؟ لم لا تفرين ؟ »

— « وأين نفر من المنايا وقد جاء أجلنا ؟ »

— « كيف ! إن لـكل مهلة قيمتها ! »

— « حم القضاء ، قلت لـكم يا رفاق ! أية مهلة إذن ؟ إن الهرب لا يجدى فتيلا ! »

— « إيه ! رب قتلة شريفة تختم حياة مليئة ! »

— « ويلى عليك يا أبى . . . وعلى أبنائك التاعسين ! »

(وتتقدم الى باب القصر . . ثم تقف مذعورة)

— « ماذا يفزعك يا فتاة ! ؟

— « ويلاه !

— « ماذا ؟

— « تلك الغرف السود تضج بزفير الجريمة ! القتـــلى يسبحون فى لجة من الدم ! »

— « إنها دماء القرابين فلا تفزعى ولا تراعى .

— « بيت كأنه قبر ! لولا هذه الدماء . . . ! ولولا ذاك الصلول [2] »

— « تزودى من الصلول فقد ورمت أنوفكم من عطور الشام وطيوبه ! »

— « لأدخل اذن . . . ولأرو بالدمع حظى العاثر ، وحظ الملك التاعس . . . أجاممنون ! سئمت تكاليف الحياة يا رفاق ! لابد أن تقتل امرأة بامرأة ، ورجل برجل . . . وتلك أخرى نبوءاتى . . . سيقتص لى ، ولـكل مقتول برىء ! . . . »

(وتنطلق داخل القصر)

— ٢٠ —

ويقف الخورس مشدوهين لما ألم بهذه الفتاة ، ويتحدث

(١) تقصد أورست بن كليتمنسترا الذى يأتى ليثأر من أمه لأبيه

(٢) النتن

بعضهم الى بعض عما حشدت فى حديثها من ألغاز ، وبثت من طلاسم وأسرار ... وتقطع حديثهم صرخة داوية داخل القصر ! ...

— « آه ! أهكذا أذبح فى قصرى ! ؟ »

وتزداد دهشة الخورس ، وتزداد ثقتهم بنبوءات كاسندرا ... فالصوت صوت أجاممنون لا غيره ! ... ويهمون أن يدخلوا ... ولكنهم يتريثون ... ويعود الملك الى صراخه :

— (آه . آه ! أهكذا وبهذه اليد أضرب حتى أموت ! ؟

ويعود الخورس إلى لغطهم فبعضهم يشير بالدخول ليكونوا شهداء مقتل الملك — ويتقاعس بعضهم كأن الأمر لا يهمه .... ثم يشير رئيسهم أن يتريثوا حتى تنكشف جلية الأمر . . .

وانهم ليهمون أن يقتربوا من باب القصر حتى تنفضح الملكة بينما هى تلف جثمان القتيل فى الوشى الذى أعد لاستقبال الملك الظافر ... قاهر طروادة !

ولا تستحى أن تعترف بما اقترفت ، بل تصرح أنها دبرت الأمر وأخذت له أهبته ، وأنها فرحة به مسرورة له ...

— « يا للاجرأة أيتها الملكة الآثمة ! ... »

— « آثمة أو غير آثمة ... تمدحون أو تقذعون ... سواء لدى ! إنها جثة ملككم أجاممنون ، هذه الجثة المدرجة فى لفائفها أمامكم ... وأنا مزهوة بأن قتلته ... ! »

— « أيتها المرأة ! أى سوء اختلط بدمك ، وإثم خامر قلبك ، فتقتلين رجلك وأمير المملكة ... أبشرى بلعنة الجماهير وغضب الآلهة ! ... اليوم يفلت من يديك زمام الأمور ... »

— « لعنة الجماهير ، وغضب المملكة ... وزمام الأمور ! مضحك ! سرعان ما تحكمون على ما لا تعلمون ! وأين كنتم ياسادة ؟ وأين كانت جماهيركم وآلهتكم يوم ذبح أجاممنون الوحش طفلته ؟ ... أين كنتم يوم أهوى على عنقها بالسكين كما يهوى على رقبة شاه ! إفجينا ! ابنتى ! قطعة قلبى وكبدى ! ؟ ذبحها أبوها الوحش ! لماذا ؟ لتهدأ العاصفة ، وتسير السفين باسم الشر مجراها ومرساها ! ! ماذا تقولون إذن ؟ وأين كنتم ياسادة ؟ ولم يفلت من يديه زمام أموركم يومئذ ؟ لم لم يقص عن عرشكم ، وتنزل عليه لعناتكم ، ويحل عليه غضب آلهتكم ؟ آه ! ولكنكم تخلطون المين بالحق ... ودأبكم أن تسارعوا إلى الحكم دون روية ولا تبصرة ! »

— « حماسة وقحة وتبجح أثيم ! ويل لك حين تؤدين الدين من دمك ، إذن تفيقى ! »

— « أقسم بأيتيه وإرينيس ، آلهة القوة والمجد ! »

— « تقسمين على فسقك وغرامك الدنىء الدنس ؟ ... »

— « أجل ! على غرامى وحبى ... حبى لهذا البطل المظلوم إيجستوس الذى دبر لى كل شىء وأعاننى على كل شىء ... وشاركنى فى هذا الدم ! أما لأن ملككم قتل ابنتى ، وذهب إلى طراودة ليغازل خريسيز ويرشف الرضاب الحلو من فم بريسيز ، ثم يعود ظافراً وفى ركابه هذه القينة الفاجرة التى جلست بجانبه تسكره بخمر حديثها ... ... وهو ، وإيجستوس (لأن له إخوة ذبحوا وأكل أبوهم من لحومهم وشرائح من أكبادهم ... ثم قتل بعد ذلك ! ... ومن قتله ؟ أخوه ؟ ... يا للهول ! ... هو الذى ذبح الأطفال الأبرياء ! وأطعم أخاه لحومهم وقلوبهم ... !) »

— « المرأة ! دائماً المرأة ! يا أخت هيلين ! ! كم أرواح مطهرة فاضت لأن أختك أثمت ، وتردت فى حمأة الفسق ! الفاجرة التى فرت مع عاشقها من خدر زوجها ! ثم أنت ؟ أنت أختها ؟ ومن البذرة السيئة نبتت مثلها ؟ »

— « عليكم أنفسكم مالكم ولهيلين ! »

— « ... آه أيها الغراب الناعب ! رنق على جثة زوجك ، وانعق ... هات أغنيتك المنكرة ، ورتلى أنشودة جريمتك فى جناز رجلك ! ... »

— « حاشاى أن أكون صنعت ما صنعت وأنا بعد زوجته أو هو بعد رجلى ! بل صنع هـذا ولية أتريوس ! أتريوس أبو أجاممنون ! الوحش الذى أطعم أخاه لحم أبنائه ! هو الذى ترك لابنه الملك هذا الارث المظيم ... قتل ... فليقتل ! وليقتل من بعده أبناؤه (1) ... فيا للقصاص ! ؟ »

— ٢١ —

وتستطيع الملكة بذلاقتها وقوة برهانها أن تخدع الخورس وأن تقنعهم — إلا قليلاً ! فقد قتل الملك ابنته حين قيل له إن السماء تطالب دماً ، وهذا منتهى الظلم ، وقد قتل أبوه أبناء أخيه وأطعمه لحومهم ... وهو بذلك ورث أبناءه العذاب ... والقتل ... والدم ... !

وما يكاد الخورس تهدأ ثورتهم ... حتى يحضر إيجستوس حبيب الملكة ... وشريكها ... ومدبر الأمر معها ... والذى ذبحت إخوته وأطعمت لحومهم أباه المسكين ! ... يحضر والبشر

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

(١) وهذا هو محور مآسى اسخيلوس (قد يجر الوزر وبالا عظيما على الشخص وعلى أحفاده وأحفاد أحفاده)

البريد الأدبي

وفاة الأستاذ الشيخ محمد زيد بك

استأثرت رحمة الله بالأستاذ العلامة المغفور له الشيخ محمد زيد الابيانى ، فرزئت بفقده الشريعة الاسلامية التى كان علماً من أعلامها ، ورزئ العلم الغزير ، والافتاء الصائب ، والخلق الكريم ، والتواضع الجم . كان الفقيد من أبناء مديرية الغربية ، وتلقى دراسته بدار العلوم ، وعين منذ تخرجه فيها لتدريس الشريعة الاسلامية بمدرسة الحقوق ؛ وما زال زهاء أربعين عاماً يتبوأ منصة التدريس فى هذا المعهد الجليل ، متوفرا فى نفس الوقت على دراسة الاصول والمسائل الشرعية حتى غدا بحق مرجعها الفذ وحجتها الثقة ؛ وكانت الشريعة الاسلامية إلى هذا المعهد تدرس بأساليب عتيقة مضنية ، قلما تعاون على خلق العقلية الفقهية الصحيحة ، فاستطاع الفقيد بذكائه ومثابرته وعقليته الفقهية المستنيرة أن يختط لتدريسها منهجاً بديعاً قريب المأخذ جم الفوائد ؛ ووضع لهذه الغاية عدة مؤلفات قيمة ، تشهد له بغزارة المادة وبراعة الاستقراء والعرض هى : شرح الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، شرح المعاملات الشرعية ، مباحث المرافعات الشرعيـة ، مباحث الوقف . وما زالت هذه الآثار التى تضارع فى وضوحها ودقتها وحسن تنظيمها أقوم الشروح القانونية الأوربية ، مرجعاً نفيساً لطلاب الحقوق والأزهر ، ونبراساً قيما لرجال القضاء والمحامين

ولا نعرف أستاذاً من أساتذة الجيل المنصرم له ما للعلامة الراحل من فضل وأثر سابغين فى بعث النهضة الفقهية الحديثة ، وتكوين العقلية الشرعيـة المعاصرة ، بل لا نعرف أستاذاً من أساتذة الجيل المنصرم تخرج على يده مثل تلك الجمهرة الحافلة الممتازة التى تخرجت على يد الشيخ زيد . وقلما تجـد بين عظماء مصر وبين زعمائها وساستها ومفكريها وكتابها – وجلهم من خريجى الحقوق – من لم يدرس على الشيخ ، وليس بين أعلام القضاء وأعلام المحاماة المعاصرين ، بل ليس بين رجال القانون والقضاء المصريين جميعاً من لم يتلق عنـه ويتخرج على يديه ؛ فهؤلاء جميعاً عرفوا الشيخ أحداثاً وفتياناً ، ونهلوا من غزير مورده ، واستطاعوا جميعاً أن يقدروا مواهبه ورفيع خلاله

وكان الفقيد يتمتع فوق علمه الغزير ، بأخلاق طاهرة وشمائل باهرة ؛ فقد كان جم التواضع والأدب ، كثير الحلم والرفق ، سباقا إلى الخير ، يعامل طلابه معاملة الأب البار ، ويتمتع بحبهم وتقديرهم جميعاً

طيب الله ثراه ، وشمله بواسع رحمته ، وعوض عنه الأسرة القضائية خير العوض «ع»

كتاب عن ابراهيم باشا

صدر أخيرا كتاب بالانكليزية عن ابراهيم باشا المصرى (ابن محمد على) عنوانه « ترجمة جديدة لابراهيم باشا A new Life of Ibrahim Pasha » بقلم الأستاذ ب . كرابتيس الامريكى الذى ظل منـذ أعوام طويلة قاضيا بالمحاكم المختلطة بمصر ؛ والأستاذ كرابتيس يعنى أثناء إقامته الطويلة بمصر بالشؤون والمسائل المصرية الفقهية والتاريخية والاجتماعية ويكتب عنها فى مختلف

يقطر فى وجهه ... وللنصر المؤزر سورة فى قلبه ... فما يكاد يذكر الماضى المؤلم الذى حل بلاؤه باخوته ، وهذه الخاتمة التى حاقت بابن أتريوس المسكين (أجاممنون) حتى يثور ثائر الخورس ، ويهتف رئيسهم :

— « أ كان هذا النذل يتقلب فى أحضانك أيتها الملكة على فراش الملك ؟ ... أكنتما فى نشوة الفسق ، وسكرة الغرام ، ترسمان للملك هذه القتلة المدبرة ؟ »

ويهم إيجستوس أن يفتك بالخورس وبرئيسهم قبلهم ، لولا تدخل الملكة ، وأنها ترجو أن تضع حدا للمجزرة ! ...

فيتوعدهم إيجستوس حين يصبح الأمر له ، وحين يحمل رأسه المجرم عرش آرجوس ... ... ولكن ... هيهات !

دريني خشبة

المجلات الأجنبية ؛ وقد تزود فى وضع مؤلفه الجديد عن ابراهيم باشا بطائفة هامة من الوثائق والمراجع الرسمية وغير الرسمية التى يحتفظ بها سراى عابدين ، واستطاع أن يجمع أشتاتا قيمة أخرى من المعلومات والوقائع المجهولة عن تاريخ ذلك العهد وعن حياة القائد الكبير

وقد كانت حياة ابراهيم دائماً تعتبر فى المرتبة الثانية إزاء حياة والده العظيم ؛ ذلك أن شخصية محمد على وجهوده السياسية والاصلاحية الجبارة كانت تلقى حجاباً على جهود ولده ابراهيم ، ولم يكن ابراهيم فى نظر التاريخ سوى ساعد والده الأيمن وقائد جيشه ؛ ولم يكن له ضلع فى السياسة أو الشؤون العامة ، ولكن الأستاذ كرابتيس يحاول أن ينفى هذا التصور ؛ فقد كان ابراهيم فى نظره سياسياً عظيماً كما كان قائداً عظيماً ؛ وكان له فى السياسة والشؤون العامة أثر فعال ؛ بيد أنه لم يكن يتفق دائماً فى الفكرة مع أبيه ، فقد كان يرى مثلا أن فوزه بتحطيم الوهابية فى الحجاز خطوة أولى فى سبيل تحقيق حلمه العظيم بانشاء امبراطورية عربية إسلامية ، ولكن محمد على كان دائماً يجانب هذه الفكرة مؤثراً مصانعة السلطان والتفاهم مع الدولة العلية

ويستعرض المؤلف حياة ابراهيم العسكرية ، وحملاته وغزواته المختلفة بدقة وإفاضة ، ويقول لنا إن أطماع محمد على لبثت فى سبيل التحقيق والنجاح ما بقيت محصورة فى بلاد العرب ، ولكنها مذ بدأت تتجه نحو الشمال ، أخذ الحظ يجانبه والمصاعب تتفاقم فى وجهه ؛ وقد كان اشتراك مصر فى حوادث اليونان ظرفا مشئوما جنت منه مصر شر العواقب . بيد أن محمد على لم تفتر همته وأطماعه ، حين حطم أسطوله فى نافارن ، فأنشأ دار صناعة جديدة بالاسكندرية ؛ وكان ذلك الرجل البعيد النظر يعلق دائماً أهمية كبيرة على قوة مصر البحرية

ويقول لنا الأستاذ كرابتيس إن الزمن لم يفسح مجالا لابراهيم ليبث عبقريته السياسية بصورة فعالة ، ولكن الموت عاجله ، ولما يمض على صدور الفرمان بتعيينه واليا لمصر سوى ستة أسابيع ؛ وقد توفى فى التاسعة والخمسين من عمره ، بعد أن عانى تباريح الآلام والمرض ردحاً من الدهر

الحياة الأخرى

مازالت مسائل الروح والحياة الأخرى تثير على كر العصور طلعة الانسان وروعه ؛ وقد اشتركت أديان الأرض جميعاً ؛ والدنيات فى كل قطر وعصر ، فى التحدث عن الحياة الأخرى ، ولكن التفكير الانسانى لم يهتد حتى اليوم إلى نتائج حاسمة فى هذا الموضوع الخفى ، وما زال فى كل عصر يحوم حوله بمختلف الفروض والنظريات . وقد صدر أخيراً كتاب بالفرنسية فى هذا الموضوع عنوانه : « الحياة بعد الموت فى معتقدات الانسانية » بقلم كاتب أمريكى هو جيمس تاير أديسون ، وقد اتبع المؤلف فى كتابه الأسلوب العلمى ، ولكنه يعرض لنا من جهة أخرى فى عدة فصول وصور قوية بعض ما ينتاب الانسانية من أسباب المخاوف والروع من جراء تصور الحياة الأخرى وما وراء الموت . وما زال الموت يروع الأحياء الذين يرون ملايين الموتى يذهبون تباعا إلى عالم لا يعرف كنهه ، ولكن الأحياء يخضعون حتما إلى قدرهم . ويبسط لنا المؤلف مختلف المعتقدات والنظريات الانسانية والملية فى مسألة الحياة والموت ، فى كل عصر وكل قطر ؛ وهذا القسم أمتع أقسام الكتاب ، ويلاحظ أن التباين فى المعتقدات الانسانية على كر العصور وفى مختلف الأمم لم يمنع من وجود بعض التماثل بين معتقدات الانسان الأول وبين معتقدات أرقى المجتمعات ؛ والظاهر أن هذا التماثل إنما يرجع إلى أن غريزة الفضول والروع لا تختلف فى جوهرها عند الانسان الهمجى والانسان المتمدن ، فكما أن الجميع سواء أمام الحياة والموت ، فكذلك يشعر الجميع بنفس الجزع والفضول والروع

ويحدثنا المؤلف أيضا عن مختلف النظم والرسوم التى تتبع فى مختلف الأديان والأمم للعمل على سلام الروح ، وتزكية الراحلين عن هذا العالم إلى العالم الآخر

النقد

« محمد »

كتاب الأستاذ توفيق الحكيم

للأستاذ محمد سعيد العريان

أيكون لى أن أكتب عن توفيق الحكيم فى كتابه « محمد » بعد إذ كتب الزيات والرافعى ، أم يكون من فضول القول أن يَعرض مثلى لذلك وقد كتب الأستاذان الجليلان فأبلغا وبَذَّا ما لا مطمح لى وراءه . . . ؟ ولكن كتاباً يصنّفه « توفيق الحكيم » عن « محمد » جدير بأن يثير الفضول ، وأن يعذر من يقول فيطيل القول . . .

وما لتوفيق الحكيم ولمحمد ؟

أما المؤلف فشابٌ من شباب هذا الجيل دَرَس دراسة أهله فى هذه المدارس المدنية التى تقول لمن يدخلها « أنتَ لستَ من هذه الأمة التى نَسَلَتْ من العرب ، واهتدتْ بهدْى الاسلام ، وتمّت من روح الشرق وسِرّ روحانيته ؛ فاذهب فالتمس أمةً غير أمّتك تفخر بمجدها وتباهى بماضيها . . . ! »

وأما « محمد » فهو ذلك السرُّ الأعلى الذى يستغلق على من لم يتصل بروحانية هذا الشرق ، ويَغْمض على من لم يتعرف سرَّ هذا الدين ، ويستخفى على من لم ينشأ موصول النسب بتاريخ الأدب القديم ... وأين توفيق الحكيم من ذلك .. ؟

على أن هذا البون البعيد بين توفيق الحكيم وتاريخ « محمد » هو الذى دعاه إلى أن يمدّ نظره إلى بعيد يتنوّر هذا السرّ من مطالعه ، ويستشرف لهذا النور من مشارقه ! فحياة محمد كانت الى قريب وقفاً على طائفة من أهل العلم ، لا يتناولها إلا من أوتى كثيراً من الصبر على المعاناة فى استخراجها ، وكثيرا من القدرة على تنقيتها من فضول القول وحَشْو الرواة ولَغْو القُصّاص ، وقلّ من يملك القدرة والصبر على مثل ذلك ؛ ثم جاءت طائفة من كرام العلماء فجهدوا جهدهم فى جلاء هذا التاريخ والكشف عنه ، فكتب المرحوم الخضرى بك ، وكتب جاد المولى بك ، وكتب الدكتور هيكل ، وكتب رضا ، فبلغوا مبالغهم فى ذلك ، واستطاع الناس أن يقرأوا « السيرة » كما ينبغى أن تُقرأ ، وأن يعرفوا من تاريخ الرسول ما لم يكن يعرف إلا الخاصة من علماء هذا الدين .

ولكن أتُرى هؤلاء العلماء — على ما بلغوا من التوفيق فيما جاهدوا ، وما أصابوا من الاجادة فيما عملوا — قد استطاعوا أن يحملوا واحداً لا يهتم بسيرة الرسول على أن يقرأ سيرة الرسول ، أو دعوا نفراً من شبابنا الذين لا يحسنون إلا اللهو والعبث الى التماس الجِد فى حياة محمد وابتغاء المُثُل العليا فى تاريخه . . . ؟ لو أن واحداً من هؤلاء الشباب قرأ شيئاً من ذلك لأفاد وانبعثتْ نفسه ، ولكن أين ما يحمله على أن يقرأ ... ؟ إن هذه الكتب على ما أُجدَت قد عجزت أو كادت عن اجتذاب هذا النوع من الشباب الذى لا يعرف شيئاً عن محمد ولا يهتمّ أن يعرف ؛ ولكنْ لرجل الفن سبيلا غير ذلك ، وقد عرف توفيق الحكيم سبيله

* * *

قصد المؤلف من كتابه الى عرض حياة الرسول الكريم عرضاً يكشف عن دقائقها ويجلو صورها على أسلوب من الفن بعيد عن فلسفة العالِم وتحقيق المؤرخ ، على أن فيه الفلسفةَ وفيه التاريخ كما نرى الحادثة بصورتها فى حياتنا العادية مرئية مسموعة ، تفعل فعلها فى النفس وتترك أثرها العلوىّ من غير تمابق ولا بيان ؛ وللأستاذ توفيق فى فنّه باعٌ وذراع . . . فهو قد درس « القصة » دراسة العلم ، وفَقَهها فِقْه الأدب ، وعالجها علاج الفنان المبتكِر ، وانتج فيها إنتاجاً سيخلد به بين أدباء العربية ؛ ولا أغلو إذا قلت إننى لم أقرأ حِواراً تمثيلياً فى العربية يعجبنى ويلذّنى مثل حِوارٍ يصنعه توفيق الحكيم

بهذه المقدرة الفنية قرأ توفيق ما كتب القدماء عن السيرة ، وبحاسة الفنان تمثلت له (مناظرها) كما نقلها في كتابه . وهو ضرب من الرواية لا نستطيع أن نضع له اسما من أسماء الرواية ، فهو ليس قصة ، وهو ليس رواية ، وهو ليس ترجمة تاريخية ، ولكنه منها جميعاً ؛ وهو مناظر حوارية ، يباعد بينها الزمان والمكان ، ويجمع بينها وحدة الموضوع والغرض ؛ على أنه ليس لمؤلفها شيء من لغة الحوار ولا أسلوب الكلام ، فليس له منها أكثر مما للمصوِّر يرسم لك جزءاً من الزمن في ورقة ، لا ينقل اليك الزمان الماضي ولكن ينقلك اليه ، فاذا أنت ترى منه أكثر مما تريك الصورة ، وتسمع منه ما لا يُسمعك الرسم الصامت

ولا شك أن المؤلف قد جهد جهداً غير يسير في إخراج كتابه على ما يشتهي ، فهو نوع لم يُسبَق اليه ، وباب اخترعه في فن الرواية ليس له حدود مرسومة تهديه السبيل ؛ هذا إلى أن الموضوع دقيق ، يقتضي الصبر والأناة وحسن الاحتيال ؛ وما ظنك بالكاتب المسلم يؤلف شِبْه رواية عن محمد ، يجرى الكلام فيها على لسانه من غير أن يخترع أو يتزيد ؛ ثم هو مع ذلك يحاول أن يرضى الفن ويَسلم بدينه في وقت معا . . . ؟

ولكن المؤلف بسبيل هذا الفن قد تصرف في موضعين : أما أولهما فانه كان يجد بعض ما روى عن النبي محكياً بلغة الخبر لا بلغة الحديث ، واتجاهه في الموضوع أن يجعل القصة حواراً : كلاماً يجيب كلاما ، وخبراً يرد على خبر ، فلم يجد أمامه إلا أن يترجم الخبر إلى لغة الكلام لتستقيم له طريقته في الأداء . فمن ذلك مثل ما تقول كتب السيرة : « استأذن فلان على النبي ، فأذن له . » يؤديه المؤلف حواراً كما يلي :

— : إيذَن لفلان يا رسول الله . . .

— : أذِنْت

وهذا وإن لم يكن قولَ النبي — لأن عبارته في الاذن لم تنقل إلينا في الحديث — جائز فيما أراه ، فهو باب من رواية الحديث بالمعنى ، وقد أجازها رجاله . على أن هذا النوع في الكتاب قليل جداً لا يتجاوز بضع عبارات ؛ ولعل أطول عبارة أجراها المؤلف على لسان النبي ، هي ذلك الدعاء الذى ترجم له كتاب السيرة بقولهم : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث في غار حراء . . . » فرأى المؤلِّف من تمام موضوعه أن يجعل على لسان النبي كلاماً يدعو به ربَّه في تحنُّثِه (ص ٣١) ، وأحسب أن المؤلف كان كثير الحرج في مثل ذلك ، فاني لأحس في أكثر من موضع من الكتاب أن كلاماً هنالك كان ينبغي أن يقوله محمد فلم يقله (المنظر الثالث ف ١ ، النبي وورقة بن نوفل ص ٣٧)

أما الموضع الثاني الذى تصرف فيه المؤلف ، ففي ترتيب مناظر الكتاب ، فهو لم يلزم الترتيب الزمني الذى جرت عليه السيرة ، فقدَّم وأخر ، ومازج حوادثَ وحوادث ؛ وليس في هذا — على إجماله — ما يعيب المؤلِّف ، فهو لم يقصد إلى أن تكون للكتاب وحدةُ القصة ، بحيث تنبني حادثة على حادثة ، وتأتي مقدِّمة بنتيجة ، بل جرى على أن يجعله مناظر يُعطى كلُّ منظر منها أو مناظر صورة خاصة لفكرة أو حادثةٍ بعينها ، ثم أن يكون للقارىء من مجموع هذه الصور في النهاية ، صورةٌ محدودة للنبيّ الكريم كما يجب أن يعرفها المسلم

الآن قد فرغت من عرض الكتاب كما أراد مؤلِّفه وكما دلَّني على نفسه ، وإني لأشهد أن مؤلِّفه قد وُفِّق توفيقاً كبيراً فيما حاول ، وبلغ بهذا الكتاب ما لا يبلغ غيره ؛ وما أحسب أن لي في هذه الناحية أن أتكلم عن توفيق الحكيم في فنه ، فمن للعربية في فن الرواية مثل توفيق ؟ على أن هذا الكتاب بابٌ جديد هو زادَه وأنشأه في فن القصة ، فمن الفضول أن تقول له : أنت اخترعتَ وأنت لم تبلغ حدّ الكمال . . . !

ولكن طابع توفيق الحكيم وشخصيته الفنية لم يكونا ظاهرين مميزين في أسلوب الحوار وفي تساوُق القصة ظهورهما وتميزهما في سائر ما ألَّف . وسرُّ ذلك واضح ، فهو هنا لم يضع الكلام ، ولم يخترع الحادثة ، بل نَقل وصنَّف ، وداخل ومازَج ، وإنما تجد طابعه وشخصيته حيث يجد لنفسه الحرية فيما يقول أو فيما يضع : (إقرأ الحوار بين إبليس والحية ص ١٥٣ — ١٥٧ ، وموت أبي طالب ، وغزوة بدر ، وحديث الافك ، ومنشأة النيور) فانك واجد فيها وفي كثير غيرها روحاً وحياة وفناً ، فكأنك معها ترى وتسمع وتحس

وأكثر الكتاب من لغة الرواة ، لاءم بينها المؤلف ما استطاع ليربطها على أسلوب من البيان منسجم ، وأي جهد

حمل من ذاك ؟ . . . ولكن عبارات وكلمات نقلت على غير وجهها مما أخطأ الأقدمون فى نسخه ، وعبارات وكلمات جاءت متداخلةً من وضع المؤلف ، فأخلّت بنظام الكلام فى غير موضع ، ونبا بها مكانها من ذلك البيان العربى المشرق . على أن ذلك لا يعدو بضع عشرة كلمة فى الكتاب كله ، فما نراها إلى جانبه بشىء ذى بال

وقد كان جهد المؤلف كبيراً فى ربط الروايات المختلفة والتوفيق بينها ، ليخلص منها إلى الرأى الذى يرى ؛ وكن إلى ذلك حريصاً على أن تكون (المناظر) قليلة بقدر ما يتأتى له ، فجاء من ذلك أن يجمل الحوار فى منظر واحد لأكثر من موضوع ، وإذ كان الحديث كلُّه بين المتحاورين من الآثار المرويّة — لم يغير ذلك شيئاً من نصّ الكلام كما نقله السلف ، ولكنه غير جوّه فتغير من ذلك مدلوله ؛ فمن ذلك حديث النبى عن زوجاته فى الجنة ، إلى خديجة وهى تُحتضر ، (وفاة خديجة ص ١٠٠) ؛ ومنه حديث : « حُبِّب إلىّ الطيب والنساء » روايتُه على مسمع عائشة فى غيرتها المشبوبة وقد جاءها النبى يهمّ أن يتزوج جويرية بنت الحارث . . . !

وجاء فى خبر عثمان بن مظعون أن ملاحاةً كانت بينه وبين لبيد بن ربيعة قبل هجرته إلى الحبشة ، وأحسِب ذلك كان بين الهجرتين ؛ فقد كان عثمان على رأس الفوج الأول إلى الحبشة ، ثم عاد فاستجار الوليد بن المغيرة حيناً ، ثم خلع جوارَه وكان بينه وبين لبيد الشاعر ما كان بعد خلْعه جوارَ الوليد ، ثم هاجر ثانية إلى الحبشة (ص ١٠٥)

ونقل الكتاب فى حديث الافك (ص ٣٧٦ — ٣٧٧) أن أمّ مِسْطح قالت : تَعِس مسطح . إذ وجدت ما وجدت فى وجه عائشة من إعياء المرض ؛ والذى أذكره أن أم مسطح قالت ذلك لغير هذا السبب ، ولا أرى داعية للعدول عن المأثور فى الرواية

أما بعد ، فما حاولت بما أسلفت أن أنقد ، ولو أننى حاولتُ لما وجدت ؛ وإنما أذكر هذه الهنات كشهادة على براءة الكتاب وكماله ؛ وحسْبُ توفيق الحكيم أن يخرج كتاباً عن محمد على نهج جديد فى الفن ، ثم لا يجد الناقد فيه غير ما قدّمت ، وإنه لتوفيق من الله أن يتهيأ لحياة محمد أديب كبير مثل توفيق يربط أسمى ما فى الفن بأقدس ما فى تاريخ الاسلام . وما أحسبنا — وهذا الكتاب بين أيدينا — سنشكو القطيعة بعد اليوم بين شبّاننا الذين يعشقون الجديد ويقدرون الفن ، وبين سيرة النبى الكريم . وإنى وقد فرغت من قراءة هذا الكتاب منذ قليل لأشعر بالحنين إلى الساعات السعيدة التى قضيتها منه كأنى أعيش فى عصر النبوّة ، وما أرى هذا الحنين سيتقفى حتى أعود إلى الكتاب فأقرأه مرة ومرة ومرات ، حتى أروى ما بنفسى من ظمأ إلى هذا الكوثر العذب ، وهيهات أن أشعر بعدُ بأنى شربت حتى رَويت . . .

(شبرا) محمد سعيد العريان

وزارة المعارف العمومية

اعلان مسابقة

عن الحاجة إلى كتب دراسية

تعلن الوزارة عن حاجتها إلى كتاب فى الجغرافية باللغة العربية لكل سنة من السنتين الأولى والثانية بمدارس التجارة المتوسطة وكتاب فى التاريخ باللغة العربية أيضاً للسنة الأولى بهذه المدارس ، على أن توضع هذه الكتب وفقاً للمنهج الجديد لهذه المدارس ، وطبقاً للتوجيهات الموضوعة والموجودة منها صور بادارة المخازن تحت طلب المؤلفين — وأن تقدم للوزارة فى ميعاد غايته آخر مايو سنة ١٩٣٦

والكتب التى يقع عليها الاختيار ستشترى الوزارة حق تأليفها وفقاً للقرار الوزارى رقم ٣٧٥١ الذى يمكن طلبه من ادارة المخازن أو الاطلاع عليه بها

وكل كتاب تقرره الوزارة وتشترى حق تأليفه بعد أن تعدله لجنة الفحص تعديلا ذا شأن سيخصم من مبلغ شراء حق تأليفه عشرون فى المائة تمنحها الوزارة مكافأة للجنة على عملها — أما الكتاب الذى يتقرر بغير تعديل أو بتعديل غير ذى شأن فلا تمنح اللجنة مكافأة عنه

4 me Année, No. 139.

[Lundi-2-3-1936

بدل الاشتراك عن سنة

قرش

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـدد ١٣٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٤ — ٢ مارس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــدد

شباب العراق فى مصر

قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نَبَتْ على العروبة فقطعت الأسباب الموصولة ، وأيبست الأرحام المبلولة : تعالوا فانظروا كيف بَشَّتْ بالعراق بشاشة الألفة ، ورفَّت لبنيه رفيف القرابة ، وأشبلت عليهم إشبال الأمومة ! تعالوا فاسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفاف النيـل فى أرض غير أرضهم ، وقوم غير قومهم ، و بيئة غير بيئتهم ؟ لقد كان إقبالهم على محطة القاهرة كإقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبال العافية ! نزلوا من القطار على أكتاف البهاليل من شباب النيل ، وحلوا فى قلوب الميامين من رجال الوادى ، وهتفت الجموع الحاشـدة باسمى فؤاد وغازى ، وجرت الألسن الخاطبة بلفظى القرابة والوحـدة ، وتلاقت العواطف الظامئة على وِرْدى الإخاء والمودة . ودخـل الطلاب العراقيون فى غمار الألوف المتهللة ، فتجاذبت الدماء ، وتمازجت القلوب ، وتعاطفت الذكريات ، وتجاوبت الأمانى ، وترجمت اللغة ! ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم غبطة القاهرة و بهجة الأندية وحديث الصحف ، يظلون من مطلع النهار إلى مقطع الليل

غرقى فى احتفاء المدينة بين ترحيب يومض فى العيون ، وتسليم يفترّ فى الشفاه ، وإعجاب يدوّى فى الأكف ، وكرم يفيض على الموائد ، ثم لا يسعفون كل مَشُوق لسعة الحركة ، ولا يجيبون كل داع لضيق المدة

والحق أن الشباب العراقيين كانوا كما قال الدكتور محجوب : طاقة من شتيت الزهر النضير قدمتها بغداد إلى القاهرة فى العيد ! مثلوا العراق فى الرجولة والعزة ، ومثّله الأستاذ منير القاضى فى الوقار والنبل ، فكانوا بهذا المظهر الجميل دليل اليقين لمن يطيع فى أمتهم الشك ، وشاهد الاطمئنان لمن يعقد على نهضتهم الأمل !

***

كان مبعث الجفاء بين أقطار العرب انقطاع الأسباب وبُعد الشقة ؛ ثم غشيت كل سماء من سمواتها الزُّهر غمةٌ من أطماع الغرب ، حجبت عن العيون الضياء ، وعن النفوس الصفاء ، وعن العقول المعرفة ، فذهب القوم أشتاتاً يتلمس كل امرىء فى الظلام طريقه ! حتى إذا استيقظ فى الوجدان شعور العروبة ، وعاد فأشرق فى الأذهان نور الدين ، أبصرنا فإذا بيننا من بنى الإنسان حواجز تتقاصر عندها الخطى ، وتتنا كر دونها المعارف !

أزيلوا قائم الحدود ، وجددوا دارس الطريق ، تتلاق الوجوه وتتعارف الأخوة ؛ واعملوا ما يعمل فى العراق رسول الوحدة ياسين ، وفى مصر أمثال الوزير محمد على ، والزعيم طلعت حرب ، تجدوا الاتحاد العربى جارفاً كدعوة محمد ، سريعاً كفتوح أمية ، خصيباً كحضارة العباس !

هذه هى مصر الصحيحة يا شباب الرافدين ! لا يزال دينها دينكم ، ولغتها لغتكم ، وهواها هواكم ! إنها لم تركم ولم تروها لأنها فى جوف الحوت ! وها أنتم أولاء تسمعون حشرجتها الأليمة فى حلقه ، وستجيش بين معدته وأضراسه جَيَشان السم الزعاف حتى يلفظها حيةً سليمة كيونس ! حينئذ تتجه (ابنة الشمس) إلى مطلع الشمس ! وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان هناك مجدهم بالأمس ! وليس الشرق موطن الديانات والمدنيات بضنين ولا جديب .

إن الأرض لتُزَلْزَل فى كل مكان بالدخيل يا بَنى (الهلال الخصيب) ! وإن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً من صحون المساجد الجامعة ! هل تذكرون ثورة بغداد فى جامع الحيدرخانة ؟ هل رأيتم غضبة دمشق فى الجامع الأموى ؟ هل سمعتم صرخة القدس فى الجامع الأقصى ؟ هل علمتم وثبة القاهرة من الجامع الأزهر ؟ إن لذلك معنى عجيباً لا يندُّ عن خاطر ولا يلتوى على ذهن ، ذلك أن المنارة التى يذكر عليها اسم الله ، لا تزال هى المكان الذى يرتفع فيه صوت الحرية ، وأن المحراب الذى يقوم فيه الدين ، لا يزال هو الركن الذى يأوى إليه الحق ، وأن الإسلام الذى ألف شتيت البدو فى الأول ، هو النظام الذى يجمع شمل العرب فى الآخر !

***

لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة ، صافحونا بالأيدى ، وخاطبونا بالألسن ، وسمعونا بالآذان ، فانمحت الفوارق العارضة ، وانجابت الحجب الكثيفة ، واستبان أن الخيال جانٍ على الحقيقة ، وأن السماع كاذب على العِيان ، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع !

نعى البرق شاعر العراق الزهاوى والمصريون والعراقيون فى حفلة اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصاب فى نفوس الفريقين واحداً لا يختلف ؛ وقام كبير الأدباء فأبن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الأخوان بعاطفة واحدة وشعور مشترك ، لأن الزهاوى كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة ، فتتردد أصداؤها الموقظة فى ربوات بَرَدى وخمائل النيل وسواحل المغرب ! وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط إلٓهية غير منظورة ، ولولاها لم تكن هذه الزورة ! وبهذه الزورة وأمثالها نتعارف ونتآلف ونتحد ! فتعالوا يا أخلاف المجد الفقيد وأسلاف المجد الوليد نتعاون على دفع الأذى عن العزة المهانة ! تعالوا نقرّ فى سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدى الأمانة ! ولكن قبل ذلك كله :

تعالوا نجدد دارس العهد بيننا كلانا على هذا الجفاء ملوم

احمد حسن الزيات

أغنيـــة

للأستاذ أحمد أمين

تعجبني أحياناً بعض الأغاني الشعبية ، إذ أراها تمثل روح الشعب وآماله وآلامه — وأراها أصدق في وصف الحياة المتنوعة مما يفعل أدباء اليوم ، فكل أغانيهم لا تمثل إلا عاطفة الحب البائس ، وما يتبعه من ألم ممض ، ولوعة مضنية ؛ أما الأغاني الشعبية ففيها الحب البائس ، والحب الباسم ، وفيها التغني بالبطولة ، والشكوى من الظلم

وأحياناً فيها فلسفة اجتماعية كالأغنية التي سأعرضها اليوم ؛ ومرماها تصوير الهيئة الاجتماعية في صورة الجسم الواحد تتعاون أعضاؤه لتحقيق المصلحة العامة — وهو معنى عرض له الفلاسفة والأدباء في الأمم المختلفة قديماً وحديثاً — فمثله اليونان مرة باضراب أعضاء الجسم . قال القلب : لماذا أوزع الدم على سائر الأعضاء ولا ينالني أنا منه إلا قطرات ؟ فلأضرب . وقالت المعدة : ولماذا أهضم أنا أيضاً الأكل كله وليس يصيبني منه إلا قليل ، أفما كان الأولى ألا أهضم إلا ما ينالني ؟ فلأضرب . وقالت الأسنان : ومالي أنا كالطاحون تطحن دائماً ولا ينالني من الغذاء إلا قدر السمسمة ؟ فلأضرب . وقالت الرجل : وأنا دائبة السعي يميناً وشمالا وليلا ونهاراً في جمع العيش وتحصيل القوت ، ثم حظي من كل هذا فتات الموائد ؟ فلأضرب . وقال كل عضو هذا القول أو شبهه ، فأضربت الأعضاء جميعاً ، فلا الرجل تسعى ، ولا اليد تحمل الغذاء إلى الفم ، ولا الأسنان تمضغ ، ولا المعدة تهضم ، ولا القلب يوزع

ثم بعد قليل شعرت المعدة بالجوع ولم تستطع الرجل المشي ولا اليد الحركة ، وأدركت كلها أنها سائرة إلى الفناء السريع ، فاجتمعت على عجل وقررت فض الأضراب إذ رأت أن كل عضو يعمل لنفسه ولغيره ، وأن غيره يعمل لنفسه ولغيره ، فالغرم بالغنم والربح على قدر الخسارة

ولحظ هذا المعنى شعراء العرب فقال أبو العلاء المعري فيه :

المرء كالنار تبدو عند مسقطها صغيرة ثم تخبو حين تحتدم

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وكل عضو لأمر ما يمارسه

لا مَشْيَ للكف بل تمشي بك القدمَ

أما هذه الأغنية التي أشرت اليها فتمثل هذا المعنى من ناحية أخرى ظريفة ، وهي ارتباط الصناع وأرباب الأموال برباط وثيق ، لا يمكن أن يستغنى أحد عن أحد . وهاهي بعد حذف ديباجتها :

« وحصاني في الخزانة ، والخزانة «عاوزة» سلم ، والسلم عند النجار ، والنجار عاوز مسمار ، والمسمار عند الحداد ، والحداد عاوز بيضة ، والبيضة في بطن الفرخة ، والفرخة عاوزه قمحة ، والقمحة عند القماح ، والقماح عاوز فلوس ، والفلوس عند الصريف ، والصريف عاوز عصافير ، والعصافير في الجنة ، والجنة عاوزه حِنا » الخ ...

أغنية لطيفة حقاً ، لا يزال أطفالنا إلى الآن يتغنون بها بتوقيعهم الظريف ، وصوتهم الشجي ، وهم إذ ينشدونها لم يدروا أنهم يتغنون بفلسفة عالية ، وفكرة سامية

قد يلاحظ عليها أن الربط في بعضها محكم كحاجة السلم إلى النجار والنجار إلى المسمار ، وبعضها غير محكم كحاجة الحداد إلى البيضة ، وحاجة الصريف إلى العصافير ، ولكن أظن أن تحكيم المنطق الدقيق الحاد في الأدب كالشعر والأغاني وسائر الفنون مجاوزة للحد ، فالأغنية ظريفة لطيفة رغم المنطق

ومن أسباب جمالها هذا النوع البديع الذي يصح أن أسميه « جمال الدوران » أو جمال التسلسل ، مثل قولهم « لا سلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل » وقولهم : « الحجر يكسر الزجاج ، والحديد يكسر الحجر ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفئ النار ، والريح تلعب بالماء ، والانسان يتقي الريح ، والخوف يغلب الانسان ، والخمر تزيل الخوف ، والنوم يغلب الخمر ، والموت يغلب النوم »

ومثل قولهم : « العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً » الخ

***

وبعد فما تاريخ هذه الأغنية ومن واضعها ؟ لا بد أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً بعيد النظر . ومما يؤسف له أن هذه الأغاني

والأزجال والمواويل لم يعن بها عناية الأدب الأرستقراطي ، فبينا يعني العلماء والأدباء بنسبة بيت الشعر إلى قائله ، والقصيدة إلى منشئها ، ويحتدم بينهم القتال على ذلك ، إذا بنا لا نجد هذه العناية ولا بعضها في الأغاني والأزجال الشعبية ، وهذا نوع مما أصاب الأدب الشعبي من الظلم . وكم أصابه من أنواع ! وها هي الأغاني التي تخترع في عصرنا نجدها على الأفواه ونستعذبها ، وتهش لها نفوسنا ، ولا نكلف أنفسنا مئونة البحث عن منشئها

ولكن من حسن حظ هذه الأغنية ، أو من حسن حظنا نحن ، أننا نجد ظلا لتاريخها ، فقد ذكرها الجبرتي في تاريخه في حوادث سنة ١١٤٣ هجرية ، فيكون عمرها أكثر من قرنين وظلت الأجيال تتعاقبها الى يومنا

ويظهر من كلام الجبرتي أن واضعها عالم كبير جليل من أكابر علماء الأزهر في القرن الثاني عشر ، هو الشيخ الحفناوي أو الحفني ؛ كان سيد الأزهر في أيامه ، له حلقات الدروس الحافلة بنوابغ الطلبة ، يقرأ فيها أعوص الكتب وأصعبها ، كجمع الجوامع والأشموني وحاشية السعد ؛ وله التآليف الكثيرة في البلاغة والميراث والجبر والمقابلة ، كما كان بيته ساحة كرم يغشاه أعيان مصر وعلماؤها وأدباؤها ، ويلجأ اليه الفقراء وذوو الحاجات ؛ وكان راتب بيته من الخبز كل يوم نحو الأردب ، وطاحون بيته دائرة ليل نهار ، ويجتمع على مائدته الأربعون والخمسون والستون ، الى هيبة ووقار ، حتى يهاب العلماء سؤاله لجلاله

وهو مع هذا كله ظريف أديب ، سمع تلميذا له يوماً يقول :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالزيت حار

والعيش الأبيض تحبه ؟ قلت والكشكار

فضحك الشيخ وقال أنا لا أحبه بالزيت الحار ، وإنما أحبه بالسمن ، ثم قال :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالمسلى   والبيض مشوى تحبه ؟ قلت والمقلى

وله المواويل الظريفة كقوله :

بحياة ياليل قوامك وصوم الحرّ

تحجز لنا الفجر دا فوت الرفاقه حرّ

لما يجى الفجر يصبح ركبهم منجرّ

أزداد لوعه ولا عمرى بقيت انسرّ

إلى غير ذلك . فيحدث تلميذه أن الشيخ الحفني قال له يوماً

« أحدتك حدوته ، بالزيت ماتوته ، حلفت ما آكلها ، حتى يجى التاجر ، والتاجر فوق السطوح ، والسطوح عاوز سلم الخ » حكاية التلميذ ولم يكن سمعها من قبل وروايته لها عن شيخه ترجح الظن أنها من عمل الشيخ الحفني

وقد زاد الشيخ على ذلك فشرح الأغنية على طريقة الصوفية ففسر التاجر بالمرشد الكامل والمربى الواصل ، والتاجر فوق السطوح في مستو عال ، والسطوح لايمكن صعوده إلا بمعراج الخ وقد كان للشيخ جانب آخر صوفي عظيم

فالأشموني وجمع الجوامع ، والحواشي والتقارير ، كلها لم تمنع الشيخ العالم الأزهري الجليل من أن يكون أديباً وزجالا ظريفاً يضع الأغاني والمواويل يتغني بها الشعب . وهذا يذكرني بما سمعت عن فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن قراعه المفتي الأسبق — مد الله في عمره — من أنه واضع الدور المشهور : « الله يصون دولة حسنك »

فمن لنا بعلمائنا الأزهريين اليوم يشرفون على الأدب كما يشرفون على الدين ، ويتعرفون حياة الناس الاجتماعية ، ومناحيهم الأدبية ، ويضعون الأناشيد الظريفة ، والأغاني اللطيفة ، ويكونون عنوان الدين وعنوان الظرف ، يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا

أحمد أمين

مواكب سلاطين مصر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

إن أفئدتنا المتعلقة بمصرنا العزيزة تتوق إلى كل ما يرتبط بهذا الوطن المجيد، فكما أن نسيمها حبيب وحرها حبيب؛ وكما أن سماءها تأخذ بالألباب في صفائها، وتنتعش فيها الأمل بسحابها ومطرها؛ وكما أن حاضرها نزهة الأعين وبهجة الأنفس، كذلك نجد النفس في ماضيها مسارح محبوبة للخيال والفكر. فلنعد إلى عصر من تلك العصور الماضية المجيدة، ولنتجرد من عصرنا الحاضر إلى حين لنفرغ إلى استجلاء بعض لذات تلك الأيام الغابرة، ولنشارك بالفكر مواطنينا الأعزاء الذين ملأوا أيامهم جلالاً وبهجة

لنعد إلى القرن الثالث عشر، ولنتخط إليه سبعمائة عام على أجنحة الخيال، ولنقف حول ركاب ملوكنا الأمجاد الذين كانوا زينة العصر وحماة الديار عند ذلك، ولنشارك مواطنينا من الأجداد الذين كانوا يصطفون على جوانب الطرق وقلوبهم خفاقة ونفوسهم مملوءة بالاجلال الممزوج بالحب والعطف لهؤلاء الحماة، ولننظر إلى السلطان العظيم وقد أقبل في موكبه والناس يضجون بالدعاء له فيتلقونه بأحسن الاستقبال. حتى إذا ما صار منهم على كثب رفعوا الأكف وقرأوا الفاتحة ودعوا له بالنصر والقوة على حماية البلاد، ولنشارك مواطنينا في ذلك الدعاء فلقد كان أولئك السلاطين تفيض قلوبهم بخير ما تفيض به قلوب الملوك من حب لخير الرعية وتفان في سبيل مصلحتها العامة.

كان أحد هؤلاء السلاطين الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وكان يلقب بالعلائي البندقداري نسبة إلى الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري أحد أمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو الذي اشتراه عندما كان مملوكا صغيراً ثم آل ملكه إلى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، ولهذا يلقبه التاريخ أيضاً بالصالحي النجمي. وقد تعلم وترقى في الوظائف على النظام البديع الذي كان يسير عليه أمراء ذلك العصر في تعليم مماليكهم وترقيتهم حتى صار أميراً قائداً، وذلك لما أظهره من الشجاعة في الحرب ولا سيما في موقعة المنصورة في أيام الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب، وهي الموقعة التي هزم فيها الفرنج وأخذ ملكهم لويس التاسع أسيراً، ومازال حتى صار (أتابكاً) للعساكر أي قائداً عاماً لهم

ثم استولى على الملك، فكان الثالث من سلاطين الأتراك الذين جرى العرف بتسميتهم سلاطين المماليك

وكانت مصر في أيامهم تحيط بها عيون الأعداء من كل الجهات، فبينا كان أهل أوربا يدبرون الخطط ويجندون الجيوش الجرارة لغزوها، كان أحفاد جنكيز خان ملوك التتار العظام يدفقون جوعهم نحو الشام بعد أن اجتاحوا بلاد العراق وخربوها وأسالوا فيها الدماء أنهاراً، فكان العصر عصر حرب ودفاع، وكانت الروح الغالبة روح الحرب والدفاع، وكان واجب الأمة الحرب والدفاع، وكان بيبرس من خير من مثل تلك الروح واستعد بكل قوة للحرب والدفاع، فكانت كل مظاهره مصبوغة بصبغة النضال والكفاح. كان الخليفة العباسي قد جاء الى مصر مطروداً مشرداً بعد أن نكب التتار بلاد العراق، جاء الى مصر يطلب فيها الأمن ويلتمس الحماية من سلطانها الأعظم بيبرس، وأحب أن يكافىء ذلك السلطان على حمايته ومساعدته مقدماً، فقلده السلطنة المصرية بصفته الحاكم الشرعي للدولة الاسلامية، وبذلك عمل على تثبيت مركزه وجعله حاكما شرعيا الى جانب كونه حاكما بالسيف. فأمر السلطان فضربت لهذه المناسبة خيمة كبيرة في المطرية، وجلس السلطان على كرسي عظيم في صدرها، وكان طويل القامة مليح الشكل أبيض الوجه مستدير اللحية، وقد اختلط سوادها بالبياض يكاد يغلب عليه. وقد اصطف الأمراء حوله بحسب مراتبهم، لا يلتفت أحد منهم الى يمين ولا الى يسار، ولا يكلم أحد من الى جواره ولا يشير اليه، فلقد كان هذا خروجا على الآداب المقررة في المجلس السلطاني، ولم تكن ملابس هؤلاء الأمراء قد بلغت بعدُ ما بلغته من الزينة والزركشة في أيام السلاطين الذين أتوا فيما بعد كالسلطان قلاوون وابنه الملك الناصر محمد، وذلك لأن بيبرس كان لا يجد من فراغه متسعاً للتفكير في غير عدة الجهاد والنضال. فلم تكن

ملابس هؤلاء الأمراء غير أقبية (أو جبب) بيضاء واسعة ضيقة الأكمام، ومناطق ساذجة لا ذهب فيها ولا جواهر، بل كانت من القطن المصبوغ، وكانت أخفافهم من جلد بلغاري أسود، وفوق تلك الأخفاف خف ثان اسمه السقمان، وكان فوق الأقبية أو الجبب كمران فيهما حلق وأبزيم ومعاليق فيهما صوالق (أو جيوب) جلد كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبة من القمح، ويغرز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع، وكانت شعورهم مضفورة، وضفائرهم مدلاة في كيس حرير أحمر أو أصفر، وفوق رؤوسهم قلانس صفراء مضربة تضريباً عريضاً

وجلس عن يمين السلطان الخليفة والقضاة من المذاهب الأربعة، فإن بيبرس جعل لكل مذهب قاضياً كبيراً بعد أن كانت ولاية القضاة لقاض واحد من علماء المذهب الشافعي. ثم جلس عن يمين القضاة بعض موظفي الدولة مثل وكيل بيت المال أو (وزير المالية كما نسميه الآن)، ثم ناظر الحسبة أو (هو محافظ القاهرة)، وكلاهما من القضاة وأرباب القلم. وجلس عن يساره الوزير ثم كاتب السر أو (الأمين الأول)، وجلس أمامه ناظر الجيش وجماعة من الكتاب الكبار أو كما كانوا يسمونهم الموقعين

ووقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من الأمراء الكبار وهم رؤساء الأمراء والقواد في الجيوش، وجلس الى اليمين واليسار على بعد نحو ثمانية أمتار من السلطان ذوو السن من الأمراء القواد وهم أمراء المشورة في الدولة. وجلس بعد ذلك من هم أدنى منهم مرتبة من أكابر الأمراء، ثم وقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان من هم دونهم من الأمراء والقواد بحسب درجاتهم، فكان أقربهم من السلطان أمراء المئين وهم مقدمو الألوف، وكان كل منهم أميراً على مائة فارس، وقد يزيد عدد فوارسهم عشرة أو عشرين فوق المائة؛ وكان يليهم أمراء الطبلخاناه، وكان كل منهم أميرا على أربعين فارساً، وقد يزيد عدد فرسانهم إلى السبعين؛ وكان بعد هؤلاء جميعاً أمراء العشرات ولكل منهم الامارة على عشرة فرسان، وقد يزيد عدد فرسانهم إلى العشرين

ونصب منبر وصعد عليه كاتب السر الشريف، فقرأ على الأمراء في ذلك الحشد الحافل كتاب الخليفة العباسي أحمد المستنصر بالله الذي لجأ إلى مصر وأحسن السلطان استقباله، وفيه ثناء طيب من الخليفة على السلطان العظيم فأصبح بذلك ملكا على البلاد بحق الاستيلاء والسيف، وبحق تقليد خليفة المسلمين الذي كان العالم الاسلامي يرى فيه رمز الحق الشرعي للحكم. وأصبح سلطاناً على مصر والشام وكل ما يفتح من بلاد الأعداء

ثم حملت إلى السلطان خلعة الخليفة، فلبسها وهي جبة سوداء، وعمامة بنفسجية، وطوق من ذهب، وقلد بسيف عربي. ولما انتهى الاحتفال ركب السلطان بالخلعة والطوق والأمراء حوله وأمامه حسب ترتيبهم، وحمل الصاحب بهاء الدين محمد بن علي ابن حنا تقليد الخليفة، على رأسه وسار قدام السلطان. ثم سار الموكب حتى دخل القاهرة من باب النصر ومر في الشارع الأكبر من المدينة، والسلطان في خلعته الجديدة راكب على فرس عربي عليه كسوة بديعة من الحرير الأصفر، وقد ركب إلى جواره أحد أمراء المئين راكباً على فرس يحمل المظلة وهي حبرة من الأطلس الأصفر المزركش بالذهب، من أعلاها قبة من الحرير نفسه، وفوقها طائر من الفضة المذهبة

وتلقت الجموع الزاخرة من أهل القاهرة ذلك الموكب بالتهليل والطرب؛ وكان السلطان كلما مر بجماعة ضجوا بالدعاء له بالنصر والفتح وقرأوا الفاتحة تبركا وتيمناً؛ وما زال ذلك الموكب حتى بلغ القلعة فلم يبق ركن من أركان القاهرة لم يهتز لرؤيته والاشتراك في الحفاوة به

والآن فلنخرج مرة أخرى لنشارك أجدادنا أهل القاهرة في التمتع برؤية موكب آخر سائرين في ركاب السلطان إلى ميدان بجوار القاهرة كان ملوك مصر إذ ذاك يقصدونه للرياضة والتنزه ويلعبون فيه لعبتهم المشهورة وهي (الكرة)؛ وكانوا يخرجون لذلك إلى أحد ميدانين: الأول الميدان الناصري الكبير، والثاني ميدان سرياقوس. وكان الخروج إلى كل من هذين الميدانين في أوقات معينة من السنة، فالركوب إلى الميدان الكبير الناصري كان يقع في شهري سبتمبر وأكتوبر؛ وذلك الميدان على ضفة النيل في جهة بستان الخشاب فيما بين القاهرة ومصر القديمة. وكان الخروج إليه في كل يوم سبت من الشهرين المذكورين.

وقد كان بودي لو استطعت في هذه الكلمة أن أصف مواكب خروج السلطان إلى كل من هذين الميدانين ، ولكنني أكتفي بوصف موكب واحد وهو موكب الخروج إلى الميدان الكبير الناصري

خرج السلطان الملك الناصر صباح أول يوم السبت بعد وفاء النيل بادئاً موسم لعب الكرة والصولجان في ذلك الميدان الفسيح ؛ وكان خروجه في الصباح ، ولكن الشمس كانت قد بسطت سلطانها على الأحياء فبدأ حرها يشتد وتكاثر الناس وازدحموا على الطريق ليروا السلطان وهو يخرج سائراً نحو الغرب إلى قناطر السباع القائمة فوق الخليج ، وذلك في موضع ميدان السيدة زينب الآن ، ومن هناك سار نحو النيل إلى الميدان . وكان في أول الموكب فارسان يلبسان ثياباً من الحرير الأصفر وعلى رأس كل منهما كوفية من الذهب على هيئة طاسات الحرب ، وكانا يركبان فرسين أبيضين بحلية بديعة من الذهب ، وكان على كل من الفرسين كساء من الحرير الأصفر المزركش بالذهب يغطى من تحت أذنيه إلى موضع السرج . فلما مر هذان الفارسان أقبل في أثرهما السلطان وهو راكب على فرس عربي أصيل هيئته وكسوته مثل هيئة فرسي الفارسين المتقدمي الذكر لا فرق بينه وبينهما ، حتى كان الناظر إلى الفرسين المتقدمين يظنهما قد أعدا لركوب السلطان نفسه ؛ وكان أمام فرس السلطان غاشية السرج يحملها بعض أمراء المماليك الخواص ، وهذه الغاشية عبارة عن جلد مزركش بالذهب ليُغطى به سرج السلطان إذا نزل ، وكان حامل تلك الغاشية يحركها زهواً وافتخاراً ذات اليمين وذات الشمال ، وإلى جانب حامل هذه الغاشية فارس آخر يضرب على شُبابة ، وهي آلة موسيقية لا يقصد بنغمها الاطراب ، بل يقصد بها إيقاع المهابة في النفوس

وكان فوق رأس السلطان العصائب السلطانية ، وهي من الحرير الأصفر المزركش بالذهب منقوشة باسمه وألقابه . وكانت العادة أن تحمل هذه العصائب فوق رأس السلطان عند الركوب إلى هذا الميدان خاصة وفي يوم العيد ، وعند ما يدخل إلى القاهرة عائداً من السفر أو إلى مدينة من مدن الشام

ولم يكن في هذا اليوم يستظل بالمظلة ، فان رفعها كان خاصاً بأيام العيد أو عند دخول المدينة أو في المواكب التقليدية الكبرى

وجاء خلف السلطان جماعة الأمراء أولهم الشاة يحفون به على هيئة دائرة ، وهم الطبردارية الذين يحملون الأطبار المشهورة ولباسها السيوف المموجة التي يسميها الفرنج (السابر) ، وكانوا في العادة من كبار الأكراد ، ويليهم بعد ذلك الأمراء الفرسان يسيرون بحسب مراتبهم : فنائب السلطنة ، ثم الوزير وأرباب الوظائف الكبرى ، ثم أمراء المئين مقدمو الألوف ، ثم الطبلخانات ، ثم أمراء العشرات ، ثم المماليك

فاذا ما انتهى الركب إلى الميدان واستقر مجلس السلطان هنيهة في ظلال الأشجار الوارفة التي حول الميدان أمر ببدء اللعب واشترك هو مع الأمراء الكبار فلعبوا الكرة بالصوالج وهم ركوب على الخيل ، وانتهزوا فرصة اللعب فاظهروا من المهارة في ركوب الخيل والتحرك فوقها أثناء جريها ما يدهش الألباب

فاذا انتهى اللعب في ذلك اليوم دعا السلطان الاثنين اللذين برزا في اللعب من الأمراء وأنعم عليهما بحوائص الذهب وهي مناطق ثمينة من الذهب يبلغ ثمن الواحدة أحياناً مئتي دينار أو يزيد ؛ وكان هذا التقليد مخصوصاً لكبار الأمراء المقدمين ، وكان السلطان بذلك ينعم بالحوائص على كل الأمراء المقدمين تدريجاً حتى يتم انعامه على الجميع مرة في مدى ثلاث سنوات أو أربع

وبعد أن ينتهي من الانعام بالحوائص يدعو المبرزين من كل طبقات الأمراء ويهدي اليهم الخيول الجياد ، فكان يعطي الأمراء الكبار من أمراء المئين والطبلخانات خيولاً مسرجة ملجمة ، ثم يختار بعض أمراء العشرات فيجعل لهم حظاً من ذلك الانعام أيضاً ، ويزيد عطاؤه للمقربين من كبار أمراء حرسه الخاص فيجود عليهم بالجياد عشرات لا آحادا

فلقد كان خروج السلطان إلى ذلك الميدان أحد موسمين للانعام بالخيول على الأمراء ، وكان الموسم الآخر عند خروجه إلى مرابط خيله في الربيع

وبعد ، أفلم تكن تلك التقاليد المقررة جديرة بأن نذكرها ونحتفظ بذكراها ليكون جيلنا الحاضر مرتبطاً بالأجيال الماضية ارتباط البناء بالأساس ؟

محمد فريد أبو حديد

الجـــوع الروحانى

لأستاذ جليل ينم عليه أسلوبه

أتحفنا الأستاذ المازنى منذ أيام بمقال ممتع « فى الحب » ، ثم أعقبه بمقال آخر تحدث فيه عن « الحب الأفلاطونى » و « الوفاء فى الحب »

فقال عن الحب إنه « ضرب من الجوع ، أو هو إذا شئت نوع من التنبيه تلجأ اليه الطبيعة لتغرينا بما يكفل المحافظة على النوع »

وقال عن الحب الأفلاطونى والوفاء : إنهما لا يوجدان مع الصحة والسلامة ، وإذا كان من الممكن أن يشبع الجائع بالنظر إلى الطعام فى أطباقه على السفرة ، فانه يكون من الممكن أيضاً إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة والاستماع إلى حديثها ، والتمتع بابتسامها ، ورشاقة قدها ، وحسن جلستها ؛ والذى يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوى منه إلى المرأة »

وقال الأستاذ عن الوفاء : « أما الوفاء فأكرم به وأنعم ! ولكن أين فى دنيانا من يصبر على طعام واحد وفى وسعه ألا يفعل ؟ وإنى أسأل القارئ وأعفيه من الجواب الطلق : أى رجل لم ينقض عهداً بالوفاء ؟ ... والمرأة كالرجل ، وشأنها كشأنه ، وكذاب من يقول — وكذابة من تدعى — غير ذلك ، ولست أدعو إلى شىء . وحاشاى أن أفعل ، ولكنى أصف واقعاً وأقر حقاً لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن ينتحل فضلا على حسابى وحساب الحقيقة »

وأورد الأستاذ فى هذا المعنى بيتين من الشعر قالهما قبل أن يهجر القريض — مأسوفا عليه من مقدرى فضله :

يا عقيدى طامن الله حشاك لن ترانى شاكياً وهى حبالك
أين من «طينتنا» أين الفكاك أنت انسان على فرط جمالك

* * *

وإنى مع فرط احترامى لآراء الأستاذ وإعجابى بها دائماً ، بل وعلى الرغم من إعجابى بأفكاره هذه التى عرضها فى مقاله الأخير ، أقول إنى أحسست بأنى شخصياً قد سُببت . وكلما نظرى على قوله : « كذاب من يقول ، وكذابة من تدعى » انتفضت وأحسست بالدم يصعد إلى رأسى شأن من يكون مقبلا على شجار والعياذ بالله ! وكلما أعدت البصر فى قوله انه « يقر حقاً لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن يفعل كذا وينتحل كذا » ، أحسست كأنما تتحشرج فى حلقى عبارة : « اخنش يا رجل ! » أو : « احفظ مقامك يا أخينا أنت وإلا . . . . » أو غير ذلك من العبارات التى تسبق التماسك عادة بين المتعاركين !

ذلك بأنى أنا أومن بالحب الأفلاطونى ، وأومن بالوفاء ؛ وإن كان الأستاذ قد قال فى معرض الكفر بهذين المذهبين : « وأنا لا أدعو إلى شىء وحاشاى أن أفعل » ؛ فها أنذا أقول بأنى أدعو إلى الايمان بالحب الأفلاطونى وبالوفاء ، وقصاراى أن أفعل !

* * *

ولأبدأ أولا بأن أقول مع الأستاذ إن الحب اشتهاء ؛ فالى هنا نحن متفقان . ولكن يبدو لى مع الأسف أن هذا هو كل ما بيننا من توافق ، فانه يقول بعد ذلك رأساً إن الحب تنبيه للجسم ليعمل على حفظ النوع . بينما أنا أتابع الحديث بأن الجوع أنواع ، وأن الأصل فيه جوع المعدة إلى الطعام ، وأن لكل حاسة من حواس الجسم نوعاً من الجوع تكابده وتعمل على إشباعه ، وأن الأذن مثلا تجوع وغذاؤها الموسيقى ؛ ويحس الجائع فى هذه الحالة باشتهاء مُلِح إلى استماع الألحان . والعين كذلك تجوع ولكنها تجوع إلى الجمال ، وقد يبلغ من جوعها أن تضطرب أعصاب صاحبها وتفسد عليه شؤونه إلى أن يمن الله عليه بصورة جميلة تقر لها عينه وتطمئن بها نفسه ، مع أنه لا يبغى من هذه الصورة أكثر من أن يجلو بها عينيه . وأجهزة الجسم جميعها تجوع . ولعل الحب الذى كتب عنه الأستاذ هو جوع الجهاز التناسلى ، وهو الجوع إلى المرأة وليس الجوع إلى الجمال ، فان جميع (الأعراض) البادية فى ذلك المقال (تشخص) هذه الحالة

وإذا كنت موفقاً فى التعبير فانى أعتقد أن هذا القول فيه ما يكفى لفتح الطريق أمام الحب الأفلاطونى الذى سد الأستاذ فى وجهه الأبواب ووقف من دونها يقول : « أين الكذاب الذى يقول إن شيئاً يقوم وراء هذا الباب ؟! وأنت أيها المكابر يا من تريد أن تنتحل فضلا على حسابى وحساب الحقيقة ! يا منافق ..

يا بن ا . . .»[1] إلى آخر تلك الثورة التى لا سبيل لى مع الأسف إلى اتقاء أذاها غير أن أنشر هذه الكلمة بدون توقيع ، وأترك الفضل بعد ذلك فى انتحالها لمن شاء وأمرى إلى الله !

***

إن الحب الأفلاطونى نوع من المغناطيسية الآدمية . وكل متعة المحب فيه أن يكون قريباً من حبيبه . لأن حبه هو حب الروح التى تعمل على حفظ « المزاج » لا حب اللحم والأجهزة السفلية التى تعمل على حفظ « النوع »

ولعل من أبرع الأمثلة على هذه الحالة قول قيس فى بعض أشعاره :

تعلقت ليلى وهى ذات تمائم ... ولم يبد للنظار من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت أننا ... صغيرين لم نكبر ولم تكبر البهم

فأنت ترى أن هذا الصبى المحب كان محباً قبل أن يتنبه فيه جهازه الجنسى ، ولم يكن يصلح مطلقاً للمحافظة على النوع ، بل إن ليلاه لم يكن قد تفتح فى جسمها شىء من منبهات ذلك الجهاز . أفلست تسمعه إذ يقول : ولم يبد للنظار من ثديها حجم !

***

وأنا إذ أقول بوجود الحب الأفلاطونى لا أنكر حب (النوع) ولا أعيبه — وحاشاى أنا أيضاً أن أفعل — بل إنى لأقول بامكان اجتماعهما فى نفس واحدة ، ولكن الذى يعنينى هنا أن أثبت وجود هذا الحب الأفلاطونى الروحانى البرىء الذى أحسه أحياناً ، والذى يهمنى جداً أن أطمئن غيرى على وجوده ليتعلم كيف يحسه هو الآخر عند اللزوم . ذلك لأنه ضرورة من ضرورات الرجل المهذب الذى يريد أن يشعر أحياناً أنه ليس حيواناً دائماً ، وأنه قد يسمو فى بعض الأوقات فوق اعتبارات هذه المادة المظلمة التى هى جسمه وأجهزته الدنيا

***

يروى عن (المهدى) أنه لما هرب من المأمون ذهب الى عمته فوكلت بخدمته جارية لها اسمها « ملك » ، وكانت هذه غاية فى الحسن فأحبها المهدى — أعنى على طريقتى أنا لا على طريقة الأستاذ المازنى — فكره أن يحدثها حديث (النوع) ، وأنه قد حصل لجسمه تنبيه ليعمل على بقاء السلالة البشرية فى دولة أمير المؤمنين ، ولكنه تسامى بحبه الى الغناء ، فبينما هى قائمة على رأسه ذات يوم تَغَنَّى بهذين البيتين :

يا غزالا لى اليـه ... شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزاء الضـ ... ـيف إحسان اليه

فلما انصرفت الجارية من عنده أخبرت سيدتها بما سمعت من مولاها ، فوهبتها له ؛ فلما رجعت الجارية اليه بعد ذلك أعاد غناءه ، فأكبت الجارية عليه ، فدفعها عن نفسه قائلا : كُفى ! ما أنا بخائن ! فقالت له إن سيدتى وهبتنى لك ، فقبلها قائلا : أما الآن فنعم !

***

هذه هى كلمتى عن الحب الأفلاطونى وعن الوفاء . وأرى أن القول بأن (طينة) الانسان لا تتفق مع هذا الخلق العظيم كما يقرر الأستاذ فى شعره إنما هو محاجّة بالأساطير ، وتدليل بشىء لم يقل أحد إن له قوة الدليل . ونظيره أن يتقدم الشاهد الى المحكمة مثلا ليقول إنه سمع (بالاشاعة) أن فلانا قتل فلانا ، فان كان مثل هذا الشاهد يجد المحكمة التى تقيم لشهادته وزنا ، فسوف يجد حديث (طينتنا) من يستمع له !

***

وبعد . فما هى مهمة الكاتب الاجتماعى ؟ أهى أن يقرر الأمر الواقع أمام الأشهاد الذين يشهدونه ، فاذا فرغ من ذلك انصرف عنهم يقنع نفسه بأنه أدى رسالته ؟ أم هى أن يتسامى بقرائه الى المُثل العليا التى تملأ أحلامه وتتجسم فى تفكيره حتى ليعتقد فملا بوجودها ولو لم تكن موجودة ؛ فيبشر لها فى كتاباته ، ويصبح بذلك أهلا لحمل هذا اللقب الكبير .

لقد قال فولتير : « إن الله لو لم يكن موجوداً لوجب على الناس أن يوجدوه » ، والمعنى أن الناس لا تستقيم لهم حال إلا على أساس أن الله موجود ، وأنه من ورائهم محيط ، يجزى المحسن باحسانه والمسىء باساءته . وهذا ما يصح أن نقوله الآن من الحب الأفلاطونى وعن الوفاء ، فان شيئاً من هذا إن لم يكن موجوداً لوجب علينا أن نوجده

***

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

[1] الكلمة الأخيرة لم ترد طبعاً فى مقال الأستاذ الفاضل ولكن سياق الكلام اقتضاها باثبتناها

حوادث الشرق الأقصى

الصراع بين اليابان وأوربا حول سيادة الصين وآسيا

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يضطرم الشرق الأقصى كما تضطرم أوربا ويضطرم شرق إفريقية بحوادث خطيرة سياسية وعسكرية؛ وتتخذ هذه الحوادث لأول وهلة صبغة محلية، وتبدو متفرقة لا تربطها رابطة عامة؛ ولكن هذه النظرة السطحية لا تعبر عن الحقيقة المستترة؛ ذلك أن هذه الحوادث الخطيرة التي تجوزها القارات الثلاث تربطها جميعاً عوامل وظروف مشتركة؛ فالحرب الايطالية في شرق افريقية هي نتيجة لتطورات السياسة الاستعمارية الأوربية، وتوغل اليابان في الأراضي الصينية هو نفثة من نفثات الصراع بين الجنس الأصفر والاستعمار الغربي، ونتيجة لتطورات السياسة الأوربية العامة، وانشغال أوربا بمعاركها السياسية الداخلية، بل إن هذه الحوادث التي تقع في أماكن وأقطار متباعدة تكون في الواقع وحدة متماسكة الأطراف، فهي جميعاً ثمرة تلك الثورة العميقة الجامعة التي تجيش بها السياسة الدولية منذ بضعة أعوام، والتي تسفر عن نتائجها الخطيرة تباعاً في سلسلة من الحوادث متصلة الحلقات برغم تباعدها وتباينها

وفي الشرق الأقصى في سهول الصين الشاسعة، تضطرم بين أوربا وآسيا معركة هائلة، ربما كانت حاسمة في مصاير الجنس الأصفر والاستعمار الأوربي؛ فاليابان التي هي اليوم زعيمة الجنس الأصفر بلا منازع، تتوغل في أقطار الصين الشاسعة تباعاً غير مكترثة بأية مقاومة محلية أو خارجية؛ وقد كانت الصين قبل الفورة اليابانية الأخيرة تعتبر دائماً ميداناً خصباً للاستعمار الغربي؛ ولا تزال الدول الأوربية الكبرى تبسط نفوذها الاقتصادي على مناطق غنية شاسعة في شرق الصين وجنوبها، وهذه الدول تنظر اليوم إلى مراكزها في الصين بعين التوجس والحزع؛ بيد أن المعركة الكبرى تنشب في الحقيقة في شمال الصين الشرقي حيث تلتقي اليابان وروسيا وهما المدوتان الخالدتان اللتان يتمثل في صراعهما اليوم صراع الجنسين الأصفر والأبيض؛ وقد وقعت أخيراً في شمال الصين حوادث ومعارك خطيرة تؤذن بأن هذا الصراع يتخذ اليوم صورة حاسمة؛ فاليابان التي غزت منشوريا واحتلتها منذ سنة ١٩٣١، وأقامت فيها امبراطورية صورية باسم منشوكيو، تتقدم اليوم في الصين صوب الجنوب وصوب الشرق. ونظرة سريعة إلى خريطة الصين ترينا إلى أي حد وصل التوغل الياباني في الصين الوسطى حتى شمل اليوم مقاطعات برمتها في شهيلي وشاهار، وتمدى السور الكبير إلى حدود بكين عاصمة الصين القديمة؛ وقد استطاعت اليابان أخيراً بحركة ضغط عسكرية وسياسية قامت بها أن ترغم الحكومة الوطنية الصينية (حكومة نانكين) على الموافقة على إقامة نظام سياسي واداري خاص في بعض المناطق الوسطى بحيث تخرج عن نفوذ الحكومة الوطنية وتقع تحت نفوذ السلطات اليابانية؛ بيد أن اليابان لا تلقى أعظم مقاومة في هذه النقطة من الصين، بل يلوح لنا أن الصين ذاتها قد أخذت تذعن أخيراً للأمر الواقع، وترى التقدم الياباني أمراً لا مندوحة عنه ولا سبيل إلى رده؛ وترى الحكومة الوطنية وعلى رأسها الجنرال شانج كاي شك، أن تطور مصاير الصين على هذا النحو خير من بقائها فريسة لمشاريع الاستعمار الغربي؛ أولاً لأن الصين لا تستطيع مقاومة اليابان، وثانياً لأنها تنشد السلام الداخلي، وتطمح إلى إلغاء المعاهدات الأجنبية التي استطاعت الدول بمقتضاها أن تتوغل في شؤونها ومرافقها، وكذلك إلى استعادة سلطانها ونفوذها في منغوليا والتركستان الصينية، حيث يسود النفوذ الروسي، والتبت

إن المغريات المادية أصبحت تحيط بالانسان من كل جانب، وهي تعمل دائبة على أن تملق بأقدامه وتهوي به في القرار. فما لم يكن له نصيب من تلك المثل العليا ليحتفظ له بمستواه الآدمي العالي ينحط الى الدرك الأسفل الحيواني

فالافلاطونية والحالة هذه مزاج لابد منه للمذهب المادي الذي يطغى الآن على المجتمع، ويكاد يوقعه في شر أعماله. فمن لهؤلاء الناس باليد التي تنتشلهم مما هم فيه إن لم يجدوها عند الأستاذ المازني — وأضرابه — وهم كما يحس الأستاذ نفسه قليلون؟

«أفلاطوني»

حيث يسود النفوذ البريطاني ، ولا تستطيع الصين أن تطمح إلى تحقيق هذه الآمال ما لم تعتمد على معاونة حليف قوى كاليابان ، هذا فضلا عن أن هناك من الروابط الجنسية والاجتماعية بين اليابان والصين ما يخفف وقع النفوذ الياباني ، ويحمل الشعب الصيني على تفضيله على أى نفوذ أجنبي آخر

وإنما يضطرم الصراع الحقيقي في شمال الصين بين اليابان وروسيا . وقد كانت الحرب اليابانية الروسية في سنة ١٩٠٤ عنواناً للصراع بين الجنس الأصفر والجنس الأبيض ، وكانت هزيمة روسيا في تلك الحرب فاتحة النصر الحقيقي للجنس الأصفر ومثاراً لمخاوف أوربا والاستعمار الغربي في آسيا ؛ ذلك لأنه لأول مرة في التاريخ تنتصر دولة اسيوية لم تنفض عنها بعد غمر الماضي المظلم على دولة أوربية عظمى ، وترغم أوربا على الاعتراف بتفوقها العسكري والسياسي ؛ بيد أن روسيا استطاعت رغم هزيمتها أن تحتفظ بمعظم أملاكها ومناطق نفوذها في الصين ؛ ومع أن اليابان خرجت من تلك الحرب بمغانم استعمارية كبيرة منها استيلاؤها على بورت أرثر ، ونصف جزيرة سخالين ، والسكة الحديدية الشرقية ، وتوطد نفوذها في كوريا التي غدت فيما بعد مقاطعة يابانية ، فانها لم تفتأ منذ انتصارها تحاول توسيع نفوذها في تلك المنطقة على حساب النفوذ الروسي ، وما زالت روسيا من جانبها تقاومها بكل الوسائل ، وتعمل على وقف أطماعها مشاريعها ؛ ولم يحد البلاشفة عن سياسة القياصرة في هذا الشأن ، فقد عملت روسيا السوفيتية بكل ما وسعت على توطيد سياستها ونفوذها في الصين ، ووقفت تناضل اليابان وجها لوجه ، وكادت في الأعوام الأخيرة أن تشتبك معها غير مرة في حرب استعمارية ، ومع أنها اضطرت أخيرا أن تبيع لليابان حقوقها في السكة الحديدية الشرقية تجنباً للاصطدامات الخطرة ، فان النضال السياسي ما يزال بين الدولتين على أشده ، وقد أسفر في الأسابيع الأخيرة عن عدة حوادث ومناوشات دموية دلت على تفاقم خطر الحرب في الشرق الأقصى

ويدور الصراع الآن بين اليابان وروسيا حول منغوليا التي تشغل مساحة شاسعة في شمال الصين والتي تجاور منشوكيو من الغرب ؛ وتنقسم منغوليا سياسياً إلى قسمين أحدهما منغوليا الشمالية أو منغوليا الخارجية وهى تجاور سيبيريا وتقع تحت السيادة الروسية ، وقد حولها البلاشفة منذ أعوام إلى جمهورية سوفيتية باسم « تشيتا » ؛ ومنغوليا الجنوبية أو منغوليا الداخلية ، وقد كانت من قبل وحدة سياسية مستقلة داخلياً تحت حماية الصين ، ولكن السياسة البلشفية استطاعت منذ سنة ١٩٢٤ أن تجذبها الى حظيرتها وأن تجعل منها جمهورية مستقلة حليفة لموسكو ؛ ومن جهة أخرى فان التركستان الصينية تقع تحت النفوذ السوفيتي ، وقد وقعت فيها أخيراً حوادث وتطورات أدت الى انفصالها عن الصين ؛ وهكذا تسيطر روسيا على معظم أنحاء الصين الشمالية والغربية ، بينما تسيطر اليابان على الأقاليم الشرقية الشمالية وبعض الأقاليم الوسطى ؛ ويحتدم النضال بين الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين حول السيادة والغلبة في تلك الامبراطورية الصينية الشاسعة التي تنقسم اليوم الى وحدات سياسية عديدة تمهد بتنافسها وخصامها المستمر الى تسرب النفوذ الأجنبي وتوطيده

وتمثل اليابان في هذا الصراع الهائل الجنس الأصفر والجامعة الاسيوية ، وتستمد لخوضه بجميع قواها السياسية والعسكرية والاقتصادية ؛ وتمثل الروسيا فيه مصالح الجنس الأبيض والاستعمار الغربي في آسيا ؛ ومع أن روسيا السوفيتية لا تحظى بكثير من عطف الدول الغربية ، فانها تعتبر مع ذلك حاجزاً منيعاً في سبيل الزحف الياباني نحو الغرب ، وتؤيدها الدول الاستعمارية الكبرى في هذا الصراع ؛ ذلك أن تقدم اليابان نحو الغرب والجنوب يكون معناه انهيار صرح أوربا الاستعماري في الصين ، ويكون نذيراً بتقويض السيادة البريطانية في الهند ، والسيادة الفرنسية في الهند الصينية ، والسيادة الهولندية في جاوه وسومطره ؛ ونذيراً بتقويض سيادة السوفيت في منغوليا والتركستان ؛ وتقويض صرح الاستعمار الغربي في هذه البلاد والأقاليم الشاسعة الغنية ، معناه تقويض سيادة أوربا الاقتصادية في آسيا وضياع تلك الأسواق الرابحة التي غنمتها في ظل هذه السيادة التي تؤيدها جميع الوسائل والقوى الاستعمارية المادية والمعنوية

وليس من شك في أن اليابان تتقدم في هذا السبيل بخطى واسعة تزعج أوربا وتروعها ؛ فالصناعة اليابانية التي تدعمها ظروف محلية مدهشة تتقدم في جميع الميادين بخطى هائلة ، وقد غزت التجارة اليابانية الأسواق الاسيوية القديمة بسرعة مدهشة ،

وتخطى هذا الغزو إلى أوربا وأخذ يحدث الارتباك والذعر في أسواقها ، وأخذت أوربا تفكر في مصايرها الاقتصادية التي تدعمها في آسيا وافريقيا سيادة استعمارية تجوز اليوم في آسيا أمام الغزو الأصفر مأزقاً من أخطر المآزق ، والواقع أن اليابان تخوض غمار النضال مع الغرب في ظروف حسنة جداً ، فأوربا تشغل اليوم إلى أقصى حد بشئاكلها ومسائلها الخاصة ؛ وبينما تشخص الأبصار نحو ألمانيا ونهوضها الحربي ، وبينما تشتغل فرنسا بالتحوط لمقاومة ألمانيا وتوطيد محالفها مع السوفييت ، وتشتغل إيطاليا بحلمها الاستعماري ، وتشتغل انكلترا بمقاومة مشاريع إيطاليا الاستعمارية ، إذا باليابان تحصر اهتمامها ومشاريعها في الصين ، وتنذر أوربا وأمريكا في جرأة وصراحة أن ارفعوا أيديكم عن الصين ، وتعلن عزمها على مقاومة أي تدخل أو محاولة استعمارية جديدة من جانب الدول في الصين ، على نحو ما يقرره مبدأ مونرو الأمريكي بالنسبة لأمريكا ؛ وقد كانت الدول الأوربية تعتمد من قبل على اضطرام المنافسة بين اليابان وأمريكا حول السيادة في المحيط الهادي ، واشتغال اليابان بأمر هذه السيادة والتحوط لضمانها وتوطيدها ، وكانت السياسة الأمريكية منذ أعوام تتجه فعلا الى مناوأة اليابان والحد من أطماعها ، ولكن أمريكا اليوم ترتد الى سياستها القديمة ، وتنظر الى مشكلة الباسفيك بعين أخرى ، وترى أن تقتصر على تأمين سلامتها البحرية في شرق المحيط ، بدل على ذلك أنها تنازلت عن حمايتها على جزائر الفليبين التي كانت ترمي إلى اتخاذها من قبل قاعدة لمقاومة اليابان ومناوأتها ؛ وإذاً ففي وسع اليابان اليوم أن تعمل حرة من هذه الناحية مطمئنة الى موقف أمريكا وحيادها ؛ وليس في وسع الدول الأوربية من جهة أخرى أن تقوم في الوقت الحاضر بأية حركة مشتركة لوقف الزحف الياباني نحو الغرب ، ولا يقف في وجه اليابان اليوم سوى روسيا السوفيتية التي تشتبك معها كما بينا في عدة ميادين ومصالح خطيرة ؛ وروسيا السوفيتية تعمل دائماً لمواجهة الخطر الياباني ورده ، لأنه ينصب أولا على سيادتها الاستعمارية الباذخة في آسيا ، وهي من جهة أخرى تمثل قضية الغرب في هذا الصراع الجنسي والاقتصادي الخطير ؛ ولكن روسيا تواجه في أوربا أيضاً خطراً آخر هو الخطر الألماني . وهو نفس الخطر الذي تواجهه فرنسا ، ومن ثم كان تحالف الدولتين ضد الخطر المشترك ؛ والسياسة البريطانية تشد أزر روسيا في هذا الصراع أيضاً ، ولكنها تنظر من جهة أخرى بعين الارتياح الى اشتغال روسيا بمقاومة الخطر الياباني لأنه يحول أنظارها عن العمل لمناوأتها في الهند وأفغانستان

والخلاصة أن خطر الحرب يجثم في الشرق الأقصى ، كما يجثم في أوربا ، وتطورات الحوادث في الشرق والغرب تسير مرتبطة متفاعلة ؛ وقد تضطرم شرارة الحرب الأولى في الشرق الأقصى ، كما قد تضطرم في الغرب ، ولكنها كفيلة بأن تفضي في أي الحالتين الى اضرام نار الحرب العالمية الجديدة

(***)

إبليس يعلم... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين : ودار السبتُ الثالث وجلستُ مجلسي للناس وقد انتظمت حلقتهم ؛ فقام رجل من عُرض المجلس فقال : إن الحسن بن شجاع البلخي تلميذ الامام أحمد ابن حنبل (٢) كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن الشيطان ، حفظنا منها قوله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدُكم بعيره في سفره . وكان الحسن يقول في تأويله : إن شيطان الكافر دَهينٌ سمينٌ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مهزول أشعثُ أغبرُ عار . فهل يأكل الشيطان ويدَّهن ويلبس ليكون له أن يجوع مع المؤمن ويعري ويتشعَّث ويغبر ؟

قال ابن مسكين : فقلت في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل ؛ فإن إبليس إذا أراد أن يسخر من العالم ويُسمعه طنزَه وتهكمه (٣) حرَّك من يسأله عنه ما هو وكيف هو ؛ كأنما يقول له تنبَّه ويحك على معناي فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورة من الرد عليَّ ، ولكني حقيقة من الرد عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضرب عنقَ عدوه بمائة اسم وضعت للسيف . .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة ابن عُقبة الكوفي المحدِّث الحافظ الثقة أحد شيوخ أحمد ابن حنبل (٤) ؛ وهو الرجل الصالح العابد الذي كان يقال له (راهب الكوفة) من زهده وعبادته واحتباس نفسه في داخله كأنما جسده جدار بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت والله لأغيظن الشيطان بهذا الخبر ، فإن أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء الوقائع التي تنهزم فيها الجيوش ، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمَرات مع الشيطان ، وكأنه يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلما حدث كانت من الأرض ؛ فالناس يحسبونه قد تخلى من الدنيا ويظنون الترك أيسر شيء ، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه في نظام آخر غير نظام أعضائه ولا أشق من ذلك على النفس ؛ ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف ؛ ولو أن ملكاً عظيماً تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزَتْ له جوانب الأرض لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها

* * *

قال أحمد بن مسكين : وقصصتُ عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قبيصة بن عُقبة كثير الفكر في الشيطان يود لو رآه ونال له الكلامَ ، وكان يتدبر الأحاديث التي صح ورودُها فيه ويفسر معنى الشيطان بأنه الروحُ الحيُّ للخطأ على الأرض ؛ والخطأ يكون صواباً محولاً عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليس في الأصل ملَكاً من الملائكة وتحوَّل عن طبيعته حين خلق آدم عليه السلام ، أي وجد في الكون روحُ الخطأ حين وجد فيه الروح الذي سيخطىء . فلما هبط آدم من الجنة وحُرِمها هو وزوجُه وذُريته كان إبليس لعنه الله هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر ، فكأن هذه الآدمية أُخرجت من الجنة وأخرجت معها قوة لا تزال تصدُّها عنها ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمرُ كل إنسان ، وهذا هو العدل الالـهي ، لم يعرف آدم حق الجنة فعوقب ألا يأخذها إلا بحقها ، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته ، ثم هوَّم فكان بين اليقظة والنوم ، وذلك حين تكون العينُ نائمةً والعقل لا تزال منتبهاً ، فكأن العينَ متراجعةٌ تبصر من تحت أجفانها بصراً يشاركها فيه العقل . فرأى شيخُنا أبو عامر صورة ابليس جاءه في زيّ رجل زاهد حسن السَّمْت طيب الريح نظيف الهيئة ، وكاد يشبَّه عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه فإن عيني الكاذب تصدقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذب آدميٌّ قَفْر فجعل عينيه كالعلامات لمن خاض الفلاة

وظهر الشيطان زاهداً عابداً نقياً تقياً كأنه دين صحيح خلق بَشَراً فصرخ به أبو عامر : عليك لعنة الله ! أمعصية في ثوب الطاعة ؟

---

(١) داعبنا إبليس لعنه الله مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال وسنقص للقراء حكايته إن شاء الله

(٢) توفي ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤ وكان من حفاظ (بلخ)

(٣) الطنز التهزؤ والتهكم ولعل منه كلمة (طنط) عند العامة

(٤) توفي سنة ٢١٥

قال ابليس : يا أبا عامر ! لولم تقل المعصية إنها طاعة لم يقارفها أحد . وهل خلقت الشهوات فى نفس الانسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصى من النفس ، وجعل كل منها طاعة لشىء ما ؛ فتقع المعصية بأنها طاعة لا بأنها معصية . أولا ترى يا أبا عامر أن الحيلة محكمة فى الداخل من الجسم أكثر مما هى محكمة فى الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطن بهذا المعنى وهذا العمل لما كان لظاهر الوجود كله فى الانسان معنى ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموت قد خلق إلا ردا عليك أنت ليتبين الناسُ أنك الممتلئ الممتلئ ولكنك الفارغ الفارغ ؛ بل كل شهواتك سخرية بك وردٌّ عليك ، فلا طعم للذة من لذاتك إلا وهى تموت ، وإنما تمامُ وجودها ساعة تنقضى ؛ ومتى قالت اللذة قد انتهيت ، فقد وصفت نفسها أبلغ الوصف

قال إبليس : يا أبا عامر ولكن اللذة لا تموت حتى تلد ما يبقيها حية ، فهى تلد الحنينَ اليها وهو لا يسكن حتى يعود لذة تنقضى وتلد

قال الشيخ : معانى التراب ، معانى التراب ؛ كل نبتة فيها بذرتها . ولكن عليك لعنة الله لماذا حدثتنى فى هذه الصورة ؟

قال ابليس : لأنى لا ألبس إلا محبةَ القلب الآدمى ، ولولا ذلك لطردتنى القلوب كلها وبطل عملى فيها ؛ وهل عملى إلا التلبيس والتزوير ؟ أفتدرى يا أبا عامر أنى لا أعترى الحيوان قط ؟

قال الشيخ : لأن الحيوان لا ينظر الى الشىء إلا نظرةً واحدة هى نظره وفهمُه معاً ، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : « هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين ؟ تنزَّلُ على كل أفَّاكٍ أثيم » فأنت أيها الشيطان التزوير ، والتزوير موضعه الكذب . فمن لم يكذب فى الفكر ولا فى النظر ولا فى الفهم ولا فى الرجاء فليس لك عنده عمل

قال ابليس : يا أبا عامر ! وهل ترى رحمك الله أعجب وأغرب وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد والعُبَّاد هو فى جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة فى كل شىء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك ؛ إن الحيوان شىء واحد فهو طبيعة مسخَّرة بنظامها ، ولكن الانسان أشياء متناقضة بطبيعتها ، فألوهيتُه أن يُقرّ النظامَ بين هذه المتناقضات كأنما امتُحن وأُعطىَ من جسمه كوناً فيه عناصرُ الاضطراب وحوله عناصر الاضطراب ثم قيل له دَبِّره

فضحك إبليس . قال الشيخ : مم ضحكت لعنك الله ؟

قال : ضحكت من أنك أعلمتنى حقيقة الابليسية ، فلزهادهم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة

قال الشيخ : عليك لعنة الله فما هى تلك الحقيقة التى زعمت ؟

قال إبليس : والله يا أبا عامر ما غلا انسان فى زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هى الابليسية ؛ وسألتك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة . فلا تقل انها ألوهية تقر النظام بين متناقضات الانسان ومتناقضات الطبيعة

قال الشيخ : وتسخر مني لعنك الله ؟ فمتى كنت تعلَم الحقيقة والفضيلة ؟

قال إبليس : أولم أكن شيخ الملائكة ؟ فمن أجدرُ من شيخ الملائكة أن يكون عالما ومعلِّما ؟

قال : عليك لعنة الله فما هى حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر هى التى أعجزتنى فى نبيكم

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم فما هى ؟

قال إبليس : هى ثلاث بها نظام النفس ونظام العالم ونظام اللذات والشهوات : أن تكون لك تقوى ، ثم يكون لك فكر من هذه التقوى ، ثم يكون لك نظر إلى العالم من هذا الفكر . ما اجتمعت هذه الثلاث فى إنسان إلا قهر الدنيا وقهر إبليس

فان كانت التقوى وحدها كتقوى أكثر الزهاد والرهبان ، فما أيسر أن أجعل النظر منها نظر الغفلة والجبن والبلادة والفضائل الكاذبة ؛ وإن كان الفكر وحده كفكر العلماء والشعراء فما أهون أن أجعل النظر به نظر الزيغ والالحاد والبهيمية والرذائل الصريحة

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فاذا هم مُبصرون »

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرنى والله أن أفسِّر لك فان قارورة من الصِّبغ لا تصبغ البحر ، وأنا أعد الزهاد والعلماء المصلحين فأضعهم فى الناس بجانب كلٍ واحد منهم مئة ألف امرأة مفتونة ومائة ألف رجل فاسق ومائة ألف مخلوق ظالم ، فلو أنك صبغت البحر بملء قارورة حمراء لما صبغت البحر الانسانىّ

بالزاهد والمصلح ما دام المصلح شيئاً غير السيف ، وما دام الزاهد شيئاً غير الحاكم

قال الشيخ : لعنك الله من شيطان عارم ، فاذا وضعت المصلح بين مائة ألف فاسد فهل هذه إلا طريقة شيطانية لأفساده ؟

قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر كل واحدة تحسب جسمها . . .

فصرخ الشيخ : أغرُبْ عني عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عامر . لقد لقيتُ المسيح وجرّبته وهو كان تفسيرها

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألفيتُ به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه ولا يظن أنه يجد ولا يرجو أن يظن ؛ ثم قلت له : إن كنت روحَ الله وكلمته كما زعم فمر هذا الحجر ينقلب خبزا . فكان تقيا فتذكر فاذا هو مبصر ، فقال : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحوّل ، لأن الموت إتمامُ حقيقته السامية فوق هذه الدنيا ، ولو مُلئت له الدنيا خبزا وهو جائع لم يتحول ، لأنه بصرا من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا بل بمعان أخرى هي إشباعُ حقيقته السماوية التي لا شهوة لها

ثم ارتقيت به إلى ذروة جبل وأريته ممالك الخافقين كشفتها كلّها لعينيه وقلت له : هذا كله لك إذا أنت سجدتَ لي . فكان متقيا فذكر فاذا هو مبصر : أبصر حقيقة الخيال الذي جسّمتُه له وعلم أن الشيطان يعطى مثل معاني هذه الممالك في جرعة خمر ، كما يعطيها في ساعة لذة ، كما يعطيها في شفاء غيظ بالقتل والأذى ، ثم لا يبقى من كل ذلك باق غيرُ الاثم ، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام . ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيت له ، فهي خيال في جرعة الحياة كما هي خيال في جرعة الخمر

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر الذي وراءه التذكر الذي وراءه التقوى التي وراءها الله ، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفّيها أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر وآخر وجودها التلاشي

فالبصر الكاشف الذي يجرد الأشياء من سحرها الوهمي ، هذا هو كل السر .

* * *

قال الشيخ : لعنك الله فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر هذا سؤال شيطاني . . . تريد ويحك أن تحتال على الشيطان ؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك . ليس الايمان هو الاعتقاد ولا العمل ، ولو كان من هذين لما شقّ على أحد واصلحت الدنيا وأهلها . إنما الايمان وضعُ يقين خفيّ يكون مع الغريزة في مقرها ، ويصلح أن يكون في مقرها لتصدر عنه أعمالُ الغريزة . وهذا اليقين لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبر من الدنيا فيرجع إليه الانسان فيتذكر فيُبصر . هناك ميراث من الآخرة للمؤمن ، فاليقين بهذا الميراث هو سر الايمان

والعمل الشيطاني لا يكون إلا في إفساد هذا اليقين وممارضة الخيال العظيم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهر للمنفرد عظيمة كما تُنشب نار أكبر من قرص الشمس ثم يقال للأبله انظر بعينيك فيصدق أنها أكبر من الشمس

ومتى صغر هذا اليقين وكانت الحقائق الدنيوية أكبر منه في النفس ، فأيسر أسباب الحياة حينئذ يفسد المتقدَ ويسقط الفضيلة ، وبدرهم واحد يوجد اللص حينئذ

أما إذا ثبت اليقين فالشيطان مع الانسان يصغر ثم يصغر ، ويعجز ثم يعجز ، حتى ليرجع مثل الدرهم إذا طمع الطامع أن يجعل الرجل الغني الكثير المال لصاً من اللصوص بهذا الدرهم

قال الشيخ : لعنك الله ! فان لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع في فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر إن لم أستطع إفساد اليقين زدته يقيناً فيفسد ، واستحسان الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أول أعماله السافلة . وبأي عجيب يكون الشيطان شيطاناً إلا بمثل هذا ؟

* * *

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ فمد يده فأخذ فيها عنق إبليس وقد رآه دقيقاً ، ثم عصره عصراً شديداً يريد خنقه فقهقه الشيطان ساخراً منه . وينتبه الشيخ فاذا هو يشد بيده اليمنى على يده اليسرى . . . . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الضمير

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

غامض فى لفظه غموضه فى معناه ، ومستتر رغم ما يبرز من آثار ؛ هو أقرب الأشياء منا وألزمها لنا ، بل يكاد يكون كل شىء فينا : « والمرء بأصغريه قلبه ولسانه » بيد أنا إن حاولنا توضيحه توارى بالحجاب وأمعن فى الاستتار والخفاء . نؤمن بوجوده دون أن نراه أو نفهم فى وضوح حقيقته ؛ وكيف ننكره وفى إنكاره إنكار لأنفسنا وهدم الدعامة الأولى من دعائم شخصيتنا ؟ يأمر فيطاع ، وينهى فيستمع له ، ويسر ويحزن ، ويخالط عواطفنا وأحوالنا النفسية على اختلافها ؛ يعقد محكمته فى أسرع من لمح البصر ، ويصدر أحكاما غير قابلة للنقض والابرام . لذلك اتجه اليه الواعظ فى وعظه ؛ وناداه رجل الدين فى نصحه ، وجعله الأخلاقى أساسا لدرسه ، وتولاه عالم النفس بالبحث والتحليل

يغلب على الظن أن العرب لم يستعملوا كلمة « ضمير » بمعناها الخلقى والنفسى الذى اصطلحنا عليه الآن ؛ فانهم أطلقوها على القلب والباطن والسريرة فحسب . وهذا المعنى ، وإن كان يقرب من العرف الحاضر ، متميز منه تمام التميز . وفلاسفة الاسلام ومتصوفوه ، برغم تحليلهم الدقيق لبعض العواطف النفسية كالعشق والشوق والندم والتوبة لم تجر كلمة « ضمير » على لسانهم إلا فى دوائر تختلف كثيرا عما نحن فيه ، ويظهر أن العرب قد استعاضوا عن هذه الكلمة بلفظة « زاجر » التى تؤدى معناها بعض الأداء : « من لم يكن له من نفسه زاجر ، لا تنفعه الزواجر » فكلمة « ضمير » بمدلولها الفلسفى وضع حديث واستعمال يرجع به العهد فيما نعتقد ، إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حين بدئ فى ترجمة كلمة conscience الأجنبية ؛ وهذه الترجمة ـ وإن تكن صادقة فى جملتها ـ مثار غموض واشتباه ؛ لأنها تعبر عن الضمير الخلقى والنفسى بلفظ واحد . إلا أن اللغة الفرنسية وقعت فى هذا الغموض من قبل واستعملت لفظا مشتركا للدلالة على الضمير من حيث مظاهره الخلقية وأحواله النفسية . وقد تنبه الألمان والانجليز إلى هذا فخصوا الضمير النفسى بلفظ يميزه من الضمير الخلقى ، وأصبح لعلم النفس كلمة يدل بها على الضمير غير تلك التى يستعملها الأخلاق[1] وما أجدر كل اصطلاح بأن يوضع له لفظ خاص يناسبه[2] ؛ غير أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن هذه التفرقة اللفظية إنما يراد بها فقط فصل العلوم بعضها عن بعض وقصر كل فن على مصطلحات معينة . ، وإلا فالواقع يشهد أن الضمير الخلقى هو الضمير النفسى ملحوظا فيه معنى الخير والشر . فليس فى الانسان ضميران يفصل أحدهما فى الأحكام الخلقية ويتولى الآخر الأحوال النفسية . لكل منا ضمير واحد قد تتنوع أسماؤه بتنوع مظاهره ووظائفه

لم يعن الأغريق بموضوع الضمير ولم يدرسوه الدراسة اللائقة به لا من الناحية الاخلاقية ولا من الناحية النفسية ، ذلك لأن الأخلاق كانت تعتمد عند فلاسفتهم الأول على أساس اجتماعى . فأفلاطون كان يتعزى عن شقاء الأفراد بما كان يرجو من سعادة الجمعية ؛ وارسطو لا يكاد يفصل الحياة الخلقية من الحياة السياسية . نعم إن الأبيقوريين والرواقيين قد نحوا بالأخلاق منحى فرديا ، وحاولوا أن يؤسسوا سعادة الفرد على الفرد نفسه ؛ ولكنهم ذوو نزعة مادية تتنافى مع التحليل الروحى للضمير . ومن الناحية السيكولوجية نلاحظ أنه فات الأغريق ، بل القدامى عامة أن يتميزوا وحدة الظواهر النفسية ، التى هى أثر من آثار الضمير . وإن من جهل هذه الوحدة أو قال بنظريات تناقضها لا يستطيع أن يفهم الضمير على وجهه الصحيح . وفوق هذا فانهم كانوا يخلطون بين الضمير وبعض الأحوال النفسية ؛ فأفلاطون مثلا لا يفرق بينه وبين المعرفة ، وأصحاب الرواق يطلقونه على معرفة الحق والباطل . وقد بقى أمر الضمير مهملا إلى أن جاء صوفية القرون الوسطى من مسيحيين ومسلمين فأعاروه جانبا من العناية والدرس . والتصوف ، وهو علم القلوب ، لا يمكنه أن يغفل مشكلة الضمير وينسى ركنا تقوم عليه المناجاة الروحية . لذلك نسمع رجلا كأبيلارد بين المسيحيين يحدثنا عن الضمير وأثره فى الأعمال الخلقية ؛ كما نرى الغزالى مثلا بين المسلمين يشرح مراقبة

---

(١) نعلم أن الفرنسيين يستعملون من غير تمييز كلمة conscience فى أبحاثهم الخلقية والسيكولوجية ، وقد يضيفون اليها أحيانا وصفا مخصصا فيقولون : conscience morale et conscience psychologique
أما الألمان والانجليز فيسمون الضمير الخلقى : Gewissen, conscience
والضمير النفسى : Bewusstsein, consciousness

(٢) قد يسمى الضمير النفسى الشعور ، وعلى فى هذه التسمية ما يدل على وظيفته وإن كانت لا تبين تماما حقيقته

النفس وقوة المحاسبة التي يمكن أن تنطبق على الضمير بمعناه الحديث . غير أن هذه المحاولات في جملتها محدودة وجزئية . وإلى رجال العصور الحديثة يرجع الفضل في شرح موضوع الضمير ومنحه ما يتطلب من عناية ومجهود . وتكاد تكون المدرسة الأيقوسية أول من تنبه إلى هذا الجانب الهام من النفس وإلى أثره في الأخلاق . ثم تبعتها مدارس أخرى اقتفت رأيها أو ردت عليها ، إلى أن جاء وليم جيمس وبرجسون فدرسا الضمير دراسة نفسية قضت على كثير من النظريات القديمة ، وغيرت مجرى التفكير في علم النفس إلى حد كبير . ولم يفت الاجتماعيين المعاصرين أن يعرضوا لمشكلة الضمير ويوضحوها على ضوء البيئة والظروف الاجتماعية . وهذه الدراسات مجتمعة ترمي إلى تحديد ماهية الضمير وحقيقته ، وبيان أصله وطبيعته ، وتوضيح قيمته ووظيفته ، ثم إلى اثبات تنوعه بتنوع الأفراد والجماعات ، وتطوره تبعاً لاختلاف العصور والأجيال

في قرارة نفوسنا وحيث تتكون أفكارنا وتمد أحكامنا ، هناك رقيب ملازم يشهدها ويقفنا عليها أولا فأولا ؛ هذا الرقيب هو ضميرنا والشعور الروحي الذي نحس به على أثر أية حركة من حركاتنا النفسية ، والالهام المستمر الذي ينقل إلينا كل ما يجول بالخاطر . فالمرء حين يفكر يشعر في الوقت نفسه بما يصنع ، ويدرك أن تفكيره من عمله وقطعة منه . وكذلك شأنه حين يفارق أو يوازن أو يتذكر معلومات قديمة أو يقضي في أمر بقضاء ما ، أو يسر أو يحزن ، أو يحب أو يبغض . وشعور الانسان بتفكيره وإدراكه لخفايا قلبه ليس إلا معرفته لنفسه ووقوف روحه على ما تعمل . وعلى هذا فالضمير جزء لا ينفصل من الظواهر النفسية وأساس لكل أعمالنا الباطنية . هو الشخصية في صورتها البسيطة المجردة ومبعث النور الأول في الحياة العقلية . وخطأ أن نعده قوة مستقلة ومتميزة من الأحوال النفسية كالعين تتميز من الشيء المرئي . فقد انقضى الزمن الذي كان يقال فيه بتقسيم النفس إلى قوى منفصلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص . ولسنا في حاجة لأن نقرر هنا أن في الانفعالات مثلا قدراً من التفكير لا يصح انكاره ، كما أن الجانب الفكري للانسان في أرقى صوره مشوب ببعض العواطف والميول . على أن القول بالقوى إن صح تصوره بالنسبة لبعض مظاهر النفس ، فواضح عدم انطباقه على الضمير الذي هو الشكل العام ونقطة الاشتراك والصورة الرئيسية لكل الأعمال العقلية . والمدرسة الأيقوسية وإن كانت من أول من عني بموضوع الضمير بين المحدثين أساءت من ناحية أنها عدته قوة قائمة بذاتها وشبهته بأحد النظارة يشهد رواية الحياة النفسية دون أن يقاسم فيها بنصيب (١)

وإذا كان الضمير شعور النفس بما تعمل ، فسهل أن نتميز في هذا الشعور درجات بعضها أوضح من بعض . ففي اللحظات التي بين اليقظة والنوم نشعر بما يجري في نفوسنا شعوراً مبهماً غير محدود ؛ والأحلام والرؤى تتصل من غير شك بالضمير في أغمض صوره ، أو إن شئت فسمها مرحلة العقل الباطن ، فإن جاوزنا هذه المرحلة وجدنا أحوالا نفسية واضحة بعض الشيء إلا أنها سريعة وغير متمركزة ، وما ألصق هذه الأحوال بالأعمال العادية والأمور المألوفة ؛ فالضمير يدركها دون أن يقف أمامها طويلا . وبعد هاتين المرحلتين نصل إلى درجة فيها تفكير وروية وتذكر وانتباه وبحث ومجهود . وهنا تبدأ المعرفة الحق ويدرك الضمير عمله في وضوح . وعلماء نفس الطفل المعاصرون وعلى رأسهم كلارامد (Claparéde) وبياجيه (Piaget) قد خصوا هذه المرحلة بقدر كبير من العناية ، وبينوا كيف يخطو الناشئ نحو إدراك نفسه وتكوين معلوماته ؛ ثم تجيء أخيراً مرحلة التفكير الانساني في أسمى صوره ، حيث تعرض المشاكل العلمية والفلسفية ، ويجهد الانسان نفسه في تفهمها وقلبها على وجوهها رجاء أن يصل إلى حل واضح مقنع ، وما هذه المرحلة إلا امتداد لسابقتها وصورة مكبرة لها ؛ والأبحاث العقلية في جملتها عمل للضمير ، ومبعث نضال نفسي مستمر يراد به الوصول إلى الأفكار الجلية النيرة

يزداد فهمنا للضمير إذا بينا الخصائص التي تمتاز بها مظاهره ؛ وقد عني جيمس وبرجسون بشرح هذه الخصائص وتوضيحها التوضيح الكافي ؛ وأول شيء نلاحظه في الظواهر النفسية هو اختلاطها وتشعبها ؛ فلا نكاد نجد أنفسنا أمام ظاهرة واحدة منعزلة ، بل دائماً أمام مجموعات من أحوال نفسية مختلفة ، أو كما يقول جيمس أمام حقول اكتسى بساطها بشتى الأزهار

(١) Th. Reid. Essai sur fac. intell., III,2.

والألوان (fields of cansciousnes) فى ظاهرة نفسية واحدة ، تلتقى احساسات متنوعة ، وذكريات قديمة ، وعادات ثابتة ، وأفكار عديدة ، وأحكام وتعليلات ، وموازنات لا حصر لها ؛ وهذه الأحوال النفسية كالأمواج الزاخرة تجرى وتتغير من غير انقطاع ؛ ومن هنا جاء تعبير جيمس المشهور : تيار الفكر أو تيار الضمير (١) . فاحساسنا بشىء فى حال اليقظة تختلف عنه فى حال النوم ؛ وإدراكنا لأمر ونحن متعبون يختلف عن إدراكنا له ونحن مستريحون ؛ وشعور هذه اللحظة لا يتكرر مرة أخرى فى نفس الظروف والمناسبات التى اقتضته ، ولئن بدا تكراره لم يعدُ ذلك المظهر العام ؛ أما التفاصيل والجزئيات فمختلفة لا محالة ، وكأن حركة التفكير كنهر جار تتابع موجاته إلى ما لا نهاية دون أن تعود موجة سيرتها الأولى ؛ والفكرة الواحدة المستمرة التى تخطر ببالنا من حين لآخر دون تغيير أو تبديل أمر خيالى وبعيد عن الحقيقة (٢) . فنحن نحس الآن على صورة خاصة لن تستمر فى اللحظة التالية ، وما دمنا أحياء فنحن عرضة للتغيير ، وما أصدق بسكال حين يقول :

« الزمن يشفى الآلام والأحقاد لأننا متغيرون ولا نحتفظ بشخصية واحدة ، فلا المسىء ولا المساء اليه يبقيان كما كانا (٣) »

بيد أن القول بأن ظواهر النفس فى حركة وتغير مستمر ليس معناه أن فى تيار الضمير انقساماً أو انفصاماً أو تبايناً . فظواهر النفس فى حركتها تدور حول نقطة واحدة وتتصل بأساس ثابت ؛ وحياتنا الروحية فى هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أى فراغ أو انقطاع فى وحدتها . وعلى هذا فالحاضر من أحوالنا النفسية يحمل فى طياته الماضى ويمهد للمستقبل ، وفى النفس حركة فى انفصال وتغير فى ارتباط . ومثل الحياة العقلية فى هذا مثل قطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض وأنتجت لحناً منسقاً . وما ذاك إلا لأن أحوال النفس جميعاً متصلة بشخصية معينة ، ومنجذبة نحو مركز واحد ، ومنبعثة من شمس الضمير الوحيدة . وأوضح شىء فى عمل النفس أنه يستلزم فاعلا ؛ ففكرة ما إما أن تنسب إلى أو إليك أو إلى زيد من الناس . والفكرة التى لا أب لها لا أصل لها ولا وجود ؛ على أنها إن وجدت فلا سبيل إلى تعرفها والتأكد منها ، لأن ما نتبادله من أفكار إنما هو عمل أشخاص معينين محدودين .

من خصائص مظاهر الضمير التى ألممنا بها سراعا نتبين بطلان المذهب الذرى الذى يزعم أن الحياة العقلية بأسرها ترجع الى جملة أفكار بسيطة التقت وارتبطت ونتجت عنها أفكار أخرى مركبة ؛ ومجموع هذه وتلك مسود بقانون تداعى المعانى . فالظواهر النفسية تتلخص فى جملة وحدات وضع بعضها بجانب بعض ، وفى مجرد انضمامها ما يكفى لتكوين حياة عقلية . تلك هى نظرية لوك ومن جاء بعده من رجال المدرسة الانجليزية أمثال هيوم وميل وبين وسبنسر . ولا يبعد عن هذه النظرية كثيرا ما قال به كوندياك الفرنسى من أن الروح ليست إلا مجموعة صور حسية توزعت الى طوائف عدة فنشأت عنها القوى النفسية المختلفة . وكلتا النظريتين تهدم فكرة الضمير من أساسها ، ولا ترى فى النفس شيئا سوى ما عليه الحس . لذلك قام فى وجهها الأبقوريون من جانب ، ومين دى بيران من جانب آخر ، مثبتين أن فى الروح حياة وقوة تجاوز المدركات الحسية ، ولولا هذه القوة وتلك الحياة ما نظمت آثار الحس ، ولا نتجت عنها أفكار مستقيمة . هناك روح ، هناك نفس ، هناك شخصية ، أو هناك ضمير ، سمه ما شئت ، والمهم أن الظواهر العقلية ليست مجرد أوضاع لصور حسية ، أو لوحدات متحجرة لا حياة فيها ، ولا تستطيع بالأولى أن تبعث الحياة فى غيرها . وأعمال بيتيه ، ومدرسة فورتسبورج الالمانية وجيمس وبرجسون فى الخمسين سنة الأخيرة قائمة على شرح هذا الرأى ونصرته

والآن وقد اتضح الضمير فى مظهره النفسى ، يجدر بنا أن نفرق بينه وبين الضمير الخلقى ، أو أن نحدد بعبارة أدق مهمته من الناحية الأخلاقية . فى حين أن الضمير النفسى يقفنا على ما يجرى فى داخلنا ، ويشاطر فى الظواهر العقلية على اختلافها . يعنى الضمير الخلقى باصدار الأوامر الصالحة والحكم على الأعمال الانسانية . فاذا ما تعلق بالمستقبل بدا أثره كصوت خفى يأمر وينهى ، وإذا حكم على الماضى صحبت حكمه عواطف كثيرة من سرور وألم . « فصوت الضمير » هو ذلك النداء الخفى والوحى

(١) stream of thought or stream of consciousness.

(٢) W. Fames, Principles of Psychology I, pp. 231 ss. — H. Bergson, Evolution créatrice, pp. 2s s.

(٣) Pascal, Pensées, frag. 122.

تلخيص كتاب :

الحاكمون بأمرهم

LES DICTATEURS

تأليف جاك بانفيل

بمناسبة وفاته فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦

للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

« أيها العظماء ! هل تريدون المجد ؟ موتوا »
فكتور هيجو

وهذا أيضاً رزء فادح نزل بفرنسا ، إذ لم يكد جاك بانفيل يتبوأ مقعده بين الخالدين فى كرسى الرئيس بوانكاريه فى مارس الماضى حتى اختطفته يد المنون من مجاسه الرفيع ؛ وهكذا فقدت فرنسا والمجمع فى ثلاثة أعوام متعاقبة ثلاث كفايات متقاربة . فذهب بوانكاريه « الذى لا يرتشى L'incomuptible » ثم ذهب « لويس بارتو » صاحب « ميرابو » وصاحب « دانتون » ، وأخيراً مات بانفيل

كان الثلاثة دعاة كبارا لمجد فرنسا ؛ ولكم شنوا الغارة على موجة الاشتراكية التى امداحت على أرض فرنسا فردتها خطوات واسعة إلى الوراء

كان بوانكاريه فى الحرب وفى السلم ، وفى قصر الأليزيه أو فى (الكى دورسيه) أو فى « المحكمة » فرنسيا وفرنسيا فقط ؛ وهكذا كان الشهيد « بارتو » حتى فى « مصرعه » أما بانفيل فقد كان قلمه قوة فوق القوى . . . ولما استقبله « دوناى » عميد الأكاديمية فى ٧ نوفمبر الماضى قال له : « إن المجمع يخلى بينك وبين مقعد الرئيس بوانكاريه ، فلقد استطعت أن تقول للملأ الأعلى وللعالم أجمع ما كان يمنعه مركزه السياسى من أن يقول »

مات رجل كان فرنسياً من قمة رأسه إلى أخمص القدم . مات رجل كم حمل على إنجيل « سنت هيلين » ذلك الانجيل الذى دعا فيه بونابرت إلى خلق الدول التى زلزلت من بعدُ اندام فرنسا فى الوجود . . مات أكبر أعداء ألمانيا !

فى كتابه عن « نابليون » وفى كتابه « تاريخ ثلاثة أجيال » ، وفى كتابه « تاريخ فرنسا » ، وفى « الجمهورية الثالثة » ، وفى « تاريخ ألمانين » ، وفى حملاته الكبرى مع شارل موراس وليون دوديه أبطال الحكم الملكى كانت توضع « مقايسة » جديدة لانشاء حيل حديد

كنت أقرأ له منذ أيام آخر كتاب أخرجه للناس « les dictateurs » وكان يقعدنى العمل أو الكسل عن أن أنقل عنه كلمة للأدباء قراء (الرسالة) ، فلما مات وضجت لموته فرنسا ، ووقعت معارك « الاكسيون فرانسيز » ، وكان الاعتداء على زعيم الاشتراكيين « ليون بلوم » كان علينا أن نلخص كتابه للناس

* * *

وضع الناشر على الكتاب عبارة تنبىء عن غاية الكتاب قال : « لا تحكموا عليهم قبل أن تعرفوهم » وقدم المؤلف له بقوله « . . . الدكتاتورية ككثير من الأشياء قد تكون أسوأ نظام الحكم وربما كانت خير نظام ؛ ولئن كانت خيراً أو شرا فان الظروف تلجىء إليها أحياناً فيخضع الناس لها دون أن يكون لهم حق الخيار . . . فعلى الشعوب ألا تضع نفسها فى مثل هذه الظروف . . » ويناقش المؤلف مايظنه البعض من أن الدكتاتورية اختراع ابتدعه العصر الحديث ، فما هى إلا سيرة معادة من سير العصور الغابرة ؛ ثم يعبث عبثاً مريرا بأحد الساسة الذى أطلق على أول دكتاتور معاصر لقب « قيصر الكرنفال » ، لربما كانت الدكتاتورية سدا يقام أمام طوفان الشيوعية الحمراء أو الديمقراطيـة الرعناء ؛ ولطالما كانت نداءاً حاراً للمساواة بين الناس ، أو لتهذيب شِرة رأس المال ؛ وكثيراً ما كانت لاقرار نظام النقد إذا شالت به كفة الميزان

يهبط بانفيل بمحوثه إلى أعمق أغوار التاريخ قبل الميلاد فيفتتح الكلام ببحث عن « طغاة الاغريق les tyrans » وأولهم أول مشترع عرفه التاريخ « صولون » ثم « بركليس » ثم يسرع

الشخصى الذى يدعمنا نحو غاية أو يصرفنا عنها . وهذا التعبير انما يظهر من أصل دينى صوفى ؛ وقد جاء التحليل النفسى الحديث مؤيداً له فان المرء حين يقضى فى أمر بقضاء ما ، يبدو كأنه تحت تأثير اتجاهات مختلفة ، إن ساد أحدها ارتفع صوته وصدر أمره . وإذا كان صوت الضمير مبعث الأمر والنهى فوخزه مصدر الندم والألم . وكم اتجه أشخاص نحو جلائل الأعمال امتثالا لأصوات ضمائرهم ! وكم انصرف آخرون عن الشر لأنهم عافوا وخز الضمير وما جلبه عليهم من شقاء وبلاء

(يتبع) ابراهيم مدكور

المؤلف بنا إلى روما وأبطالها الأربعة « ماريوس » و « سيلا » و « بومبى » و « يوليوس قيصر » ، وفى مجالته عنهم يضرب الأمثال ويذكر العبر . فهذا « ماريوس » يجشم جيشه مخاطر الحرب فى « نوميديا بافريقيا » ليثبت أقدامه فى روما تماماً ، مثلما يغامر « موسولينى » فى الحبشة ليقوى أسبابه لدى الطليان ... وهذان القنصلان « سيلا وبومبى » يخوضان إلى الحكم فى بحار من الدم . وهذا « قيصر العظيم » قاتل الدُّول ومصالح القضاء وعدو الترف فى أساليب فشستية تذكر به أحفاد الرومان فى القرن العشرين فيديرون أعينهم نحو ذلك الطود الذى يسيطر على مصائر روما منذ أعوام

ثم يطوى التاريخ طياً ليقف بك أمام أول دكتاتور فى التاريخ الحديث فيسترعى نظره أن يكون « كرومويل » أول الدكتاتوريين ويكون فى نفس الوقت أبرَّ أبناء أمة تسمى « أم البرلمانات » ، وكأن الدكتاتورية ظاهرة تبدو مع الثورات دائماً أو مع الديمقراطية أو مع النظام النيابى

نائب كمبردج فى سنة ١٦٢٨ وقائد الخيالة فى معترك الثورة سنة ١٦٤٤ ، ذلك الفيلق الذى اشتهر بأنه « الشاطى الحديدى » والذى ارتفع على صهواته كرومويل إلى ذروة الزعامة الطامة ، ذلك مثلما عبر هتلر على أكتاف القُمُص السمراء ، وكما وصل موسولينى بقمصان سود ؛ فلما قتل شارل الأول واستتب الأمر للدكتاتور أعلن أن الحكم يومئذ للدين ، وفى ٢٠ ابريل سنة ١٦٥٣ ذهب إلى دار النيابة يقول : « هيا يا قوم ... كفانا سفسطة » وحل المجلس وانفرط عقد المساكين وعلق بيده على باب البرلمان لوحة مكتوباً عليها « ... غرفة غير مفروشة للايجار !!! » لكن الأيام مضت وألفى الطاغية نفسه وحيداً فأعاد البرلمان ، وأخيراً بعد ١٤ عاماً من الحرب الأهلية مات كرومويل وعاد شارل الثانى بعد أن تعلمت الأمة أن الملكية خير وأبقى ، ولكن بعد أن تعلم الملوك درساً

وهذا هو الكردينال العظيم : أبو فرنسا وأبو الأكاديمية يضع يده على مقاليد الحكم فهى فوضى ما لها من قرار . فمن ملك حدث فى أكناف أم طائشة يهدد ملكه أمراء طامحون ، إلى أمراء يمكنون لسيادتهم فى الأرض كأنهم رؤوس تعلو مفارقها التيجان ، إلى نزاع دينى بين « الهيجنوت » والدولة . . كل ذلك فى الداخل ، أما فى الخارج فبيت هبسبورج تقدح عيناه بالشرر ؛ لكن الأب « ريشيليو » لا ينهزم ، فيسلخ السنوات الأولى من « وزارته » فى أخلد كفاح سياسى عرفه التاريخ لوزير ، ويضرب الأمراء ضربات ليس فيها إشفاق ، ويقتلع نفوذ الهيجنوت من الأعماق ؛ وبعد أن يوطد دعائمه فى الداخل ، يبعث إلى النمسا بفيوض الحماسة الفرنسية لتنتصر عليها فى معارك دامية ! . . كم رسم المؤلف من رائع الصور وأسماها لهذا الأب وهو محموم ومحمول على محفة متواضعة يتنقل فيها بين أطراف الدولة ليستولى على قلعة أو ليخضع أميراً أو لينازل النمسا . . . ! كل ذلك وهو فى « جفن الردى وهو نائم » فان الأمراء لم ينصبوا له أقل من عشر مؤامرات دموية جهلاً منهم أن الفزع لا يعرفه قلب كهذا القلب ، بل التهديد يسكب فى أمثاله فيضاناً من الحياة ، فلا يتردد فى أن يستل من أحضان الملك صديقه (سانمارس) و (دى تو) ليقدمهما إلى المقصلة لأنهما وأضرابهما (مجرد خونة من الطراز المبتذل » ثم لا يتردد فى أن ينفى من فرنسا أم ملك فرنسا ، وعروسه من الملك ! وبينما يلقاه الهيجنوت فظيعاً فى الحرب ، يراه زعيمهم « دى روهان » بديعاً فى السلام . . . هذا هو حاكم فرنسا المطلق ريشيليو

بعد ذلك صفحات مشرقة عن « الملك الشمس » الملك القائل : « أنا الدولة » لويس الرابع عشر الذى حكم حكماً مطلقاً أكثر من نصف قرن لنله أزهى عصور الملكية فى فرنسا أو فى التاريخ

ثم يعقد المؤلف فصلاً للكلام عن « وسائل الطغيان المستنير » فعنده أن أصحاب الانسكلوبيديا ومنهم « ديدرو » لم يكن فيهم جمهوريون ؛ وحتى ڤولتير « Le roi Voltaire » كما كان يسميه فردريك الأكبر كان يفضل سلطة الفرد . أما صاحب العقد الاجتماعى الذى كان يُفتى ويشير فى النظم والدساتير فكان يرى الحكم الجمهورى صالحاً للدول الصغيرة ، أما الدول الكبرى فلم يكن يراه نافعاً لها بل فى العقد الاجتماعى دفاع غير قليل دافع به « روسو » عن الحكم المطلق . وفى القرن الثامن عشر فلاسفة كبار كانوا يعتذرون عن الحكم المطلق حكم الفرد المستنير « نصير الاصلاح » الذى كان يسميه رينان Le bon tyran أى الطاغية الطيب ، وإذا كانت الثورة قد قضت على هذا النظام فان فرنسا عبدته فى شخص نابليون .. وفى الحق أنك لا تستطيع أن تنسى — فى عصرنا هذا — مقدار ما تحظى به من التأييد نظرية المفكرين الممتازين « المفكرين الأرستقراطيين » وفحواها أن التقدم لا يمكن أن يأتى من الجماهير بل هى تساق اليه وراء طائفة من « الأفراد » الكفاة . . . وكثيراً ما يكونون منها

وفى الثورة الكبرى طغى « روبسبير » فصار قطعة من طغيان الثورة الدموية أو المجزرة ، لكأنى به جملة من اسمها أو مقدمة من منطقها فلولاه ما إنتجت الثورة نابليون . . . وما أدراك ما نابليون ! ابن الثورة فى فرنسا ، وابن الجماهير فى كل الدنيا ؛ النجم الذى تلألأ فى الأفق على غير ميعاد ، والحلم الذى طاف بأجفان الانسانية حيناً من الليل ثم صحت تتفقده ؛ اللاعب الذى كان يحرك الملوك والشعوب على رقعة الدنيا كرقعة الشطرنج ؛ الفاتح الذى كان ينثر الحرية ، ويبذر المساواة ، ويعلم العلم ، فى الشرق والمغرب أنى أسال دم الفتوح ؛ المنشىء الأمم والجامع الأجناس ، واضع تصميم أوربا الحديثة

لقد كان المستبد الهائل ، أو المستبد العادل ، أو الطاغية

كانت كل السلطات فى يديه ، وكان الخير يتفجر منهما والشر والجريمة أحياناً

كان مشرعاً يضع بنفسه (قوانين نابليون) ، وكان يدير دفة السياسة فى الدنيا ، وكان يحيط بالجحفل اللجب فى أسترلتز ويكتب إلى جوزفين ! ! وكان يصدر مرسوم الكوميدى فرانسيز وهو يتفجع أمام حرائق موسكو ، وينظر إلى صورة « النسر الصغير » نابليون الذى سماه ألد عداته وهو « شاتوبريان » : « شاعر يعمل » ؛ أو كما قال أوكتاف إوبرى : « ابن الثورة الأكبر الذى أنشأ الدنيا الحديثة على أنقاض ما هدمته الثورة من الدنيا القديمة » والذى بنى الدول حتى بعد أن مات ! ! فبعث إنجيل سنت هيلين من الموت : إيطاليا وألمانيا وغيرهما فى القرن التاسع عشر ، ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلقان فى القرن العشرين ! ! حتى إذا فقد امبراطوريته فى قلب القارة دانت له أمبراطورية القلوب فى كل الدنيا فأصبح أغنية فى فم التاريخ وطنيناً فى سمع الزمن

أوليس من الفرنسيين كما قال « دوناى » من يقول اليوم : « ليته يعود ! » وهو هو الذى أجهد فرنسا وأضناها ؟ وهو هو الذى عبر عن نفسه بقوله : « أفلم يكن أفضل ألا أكون ولدت ؟ »

هكذا استهلت فرنسا القرن الماضى بأروع دكتاتورية عرفها البشر . ولما انطفأت شعلة « المارد القرشق » وبعث من أعلى الصخرة انجيله فى سنت هيلين كانت من آياته « نظرية الجنسيات » التى أوسعها المؤلف تجريحاً فى كتاب « تاريخ ثلاثة أجيال » لأنها أنشأت الدول التى زعزعت فرنسا فى القارة ، أما هنا فهو لا يناقش وإنما يعرض ويترك القارىء للاستنتاج ، فيقدم اليه معجزة أخرى من معجزات الانجيل تلك هى تسنم ابن أخى نابليون رياسة الجمهورية ، ثم تتويجه نفسه مثل عمه امبراطوراً بالقوة فى ديسمبر سنة ١٨٥١ ولا يحمل على (نابليون الصغير) كما سماه هيجو ، فهو قد شرحه فى كتابه « تاريخ ثلاثة أجيال » بما نقله عن بسمارك لما أن قابله نابليون الثالث فى بيارتز فقال : une grande incapacité inconnue حالة عجز كبرى لا يعرفها الناس !

وهنا يعنى بانفيل بأن يلفت قارئه إلى طريقة احداث الانقلاب السياسى ، فيقول إن الانقلاب الذى أحدثه نابليون الصغير كالانقلاب الذى أحدثه نابليون الكبير ليجعل نفسه قنصلا عاماً ، كان يقوم على أيدى رجال فى يدهم الحكم لأن الانقلاب الناجح يجب له قوة حكومية ليستقر وليستمر

أما دكتاتورية نابليون الصغير فظلت فى الداخل طويلا ، ولكنها لم تنجح ، وفى الخارج أهدر الدم الفرنسى فى المكسيك وأنشأ مبدأ الجنسيات خصوصاً لفرنسا ، وكان الامبراطور نفسه يقول « كيف تظن أن الأمور تسير على قاعدة ؟ إن الامبراطورة ملكية ! وأنا جمهورى ! ! وليس هنالك بونابرتى إلا برزينى »

وجاءت حرب السبعين ؛ وانتهت قصة الامبراطورية ، وحاول Boulanger فى سنة ١٨٨٩ أن ينشىء دكتاتورية على أكتاف الباريسيين فلم ينجح لأنه نسى أن الانقلاب يجب أن يكون بمعرفة رجال فى دست الأحكام

بعد ذلك يرحل بنا (بانفيل) إلى أمريكا اللاتينية رحلة تشبه المغامرات ، فيستعرض طغاة غلاظ الأكباد كمصارعى الثيران أو أشد فروسية وعجباً ! ! ويشرح لك عمل الماسونية وعمل القسس فى التدمير والتعمير فى دقة تفوق حلاوة القصص وتسمو إلى حكمة التاريخ . وينتقل من المكسيك إلى أمريكا الجنوبية وبطلها (بوليفار) تلميذ الثورة الفرنسية وصاحب خطة « الولايات المتحدة الجنوبية » على نسق اتحاد الشمال ؛ هذا الجمهورى الواقعى الذى كان يقول « إن الديمقراطية المطلقة كالاستبداد المطلق ، كلاهما طغيان » . ثم يتحدث المؤلف عن دول أمريكا الجنوبية وطغاتها ، ففى كولومبيا ، وفى أورجواى ، وبورجواى وشيلى والبرازيل طغاة فى كل عشر سنوات ، وفى بوليفيا التى خلعت على نفسها هذا الاسم تمجيداً « لبوليفار » ، ثم فى الأرجنتين التى طغى فيها (ردزاس) المصلح الفظيع ، دنا أحد المارة يوماً من بائع متجول يصيح : كَسْتنا ! كستنا ! »

التاريخ فى سير أبطاله

مــــيرابو

ميرابو ... تلك الأعجوبة !
جوته

للأستاذ محمود الخفيف



تتهيأ بواعث الحركات الشعبية وتتلاقى تياراتها على كر السنين ، وما تزال فى نموها واطرادها حتى ينفجر سكونها بغتة عن عاصفة ، ثم لا تلبث تلك العاصفة أن تتمثل فى مظهرين : فكرة ورجل ! على هذا النحو هبت العاصفة فى فرنسا عام ١٧٨٩ ، فأما عقيدتها فكانت ما أعلنته الثورة من مبادئ ، وأما رجلها فكان ميرابو

أجل ، كان ميرابو رجل الثورة فى أولى مراحلها ، ذلك لأنه حين ألقى بنفسه فى بركانها لم تلبث أن وجدت فى لسانه ترجمانها ، وفى شخصه عنوانها ؛ فلقد نبض قلبه بمشاعرها ، وامتلأ رأسه بآمالها ، وانطلق لسانه بأناشيدها ، وكان لها أكبر عون فى حدة ذهنه ، ويقظة وجدانه ، وقوة جنانه ، وسحر بيانه ، فألقت اليه مقاليدها برهة ، فلما التوت عليه واتخذت طريقاً يفضى إلى هلكتها وجدت فيه الرجل الوحيد الذى يبذل غاية جهده ليحجزها عن وجهها ، ثم لما قضى نحبه ، لم تدر ما تأكله فأكلت نفسها .

من أجل ذلك لا تستطيع أن تفهم الثورة حق الفهم دون أن تفهم ميرابو ، وكذلك لن تستطيع أن تعرف ميرابو أصدق المعرفة إلا فى غمار الثورة ، فما كان قبل الثورة إلا رجلا كمن حوله من الرجال ، بل لقد كان من عدة وجوه دون الكثيرين منهم ، فلما أفاقت على صيحتها نفسه ، أصبح الرجل الذى ينعدم قرينه فى الرجال !

ولكن ماجره عليه نكد طالعه قبل الثورة كان ذا أثر عميق فى سيرته يوم جن جنونها ، حتى لقد كان الناس على رغم إكبارهم مواهبه فى لبس من أمره دائماً ، يفسرون آراءه واتجاهاته بما كان من ماضيه ، فصار وهو الكوكب الساطع فى سياسة وطنه يعانى مما انعقد حوله من الشبهات اضعاف ما يعانيه من غباء معاصريه ونزقهم .

عودته غلظة أبيه وسوء معاملته اياه الحنق عليه والكراهية له ، وأتت سياسته على العكس مما كان ينتظر ، وكان من الأشراف الذين يحلو لهم العناد ، فلم يدع وسيلة يرى فيها كسر شوكته إلا جربها ، حتى السجن أرسله اليه مراراً بواسطة تلك الخطابات الملكية المختومة التى كان لها حكم القانون .

ولكن السجن لم يردعه ولم يصرفه عن الاسراف والاستدانة ولما هم أبوه أن يرسله اليه مرة أخرى فر هارباً مع خليلة كان قد هام بها على الرغم من احتجاج زوجته ، وعلى الرغم من حدب بعلها عليه واكرام مثواه حين كان يزوره فى منزله .

وهنالك فى هولندا حينما أنفق ما حملته معها خليلته من المال لم يجد له مرتزقاً سوى الكتابة ، فوضع رسالة فى الحكم الاستبدادى ذاع بها اسمه بين الناس ، وأتبعها غيرها فى الاقتصاد وكانت له فيها آراء صائبة ، غير أن حياة التشريد قد ألقت به فى كثير من مواطن الزلل ، فكان يستدين مرة ويستجدى

فلما هم بالشراء منه خر الشارى صعقاً لأنه لم يجد فى سلته إلا « رؤوس رجال » ، لكن الاصلاح والتقدم المادى كان يشفع لهؤلاء الجبابرة ، بل ولنثل « بلانكو » طاغية فنزويلا فى سنة ١٨٧٥ الذى قال كلمته المشهورة وهو على سرير الموت يستدبر الدنيا ويستقبل الله

القسيس : يا بنى سامح أعداءك

بلانكو : لا أستطيع يا أبت

القسيس : كيف يا بنى ؟

بلانكو : ليس لى أعداء . . . لقد قتلتهم جميعاً ؟

(البقية فى العدد القادم) عبد الحليم الجندى

بعض ذوى الثراء حيناً ، ويلجأ إلى ناشرى الكتب أحياناً يعركهم ويعركونه حتى يتقاضاهم بعض المال ثمناً بخساً لرسائله

وما كان ذلك الشقاء ليقهر نفساً لا تقهر ، بل لقد أوحى اليه الانتقام من أبيه ، فلما علم وهو فى غربته بما شجر بينه وبين أمه من نزاع ومقاضاة ، كتب رسالة صغيرة يحمل فيها عليه ويرميه بالغباء والجهل فى أسلوب لاذع ، وأرسل منها عددا إلى أمه ، ولكنها وقعت فى يد أبيه ، فبلغ الحنق من نفسه كل مبلغ واستعمل نفوذه ، فاذا بابنه وخليلته يرسلان إلى فرنسا ، حيث ألقيا فى السجن كل جزاء فعلته .

وكان السجن فى هذه المرة قاسياً إذ حرم عليه أول الأمر كل ما يخفف عنه آلام وحدته ، ولكنه استطاع أن يسحر حراسه بقوة شخصه فأتوا له بما طلب من الكتب والورق والصحف ، فكان فيها بعض السلوى لنفسه الوثابة

ولقد لبث فى الجسن بضع سنين ، أعاده بعدها أبوه إلى الحياة الطليقة ، وهو يظن أن السجن قد نال من كبريائه ، ولم يدر أن الأمر قد زاد عوده صلابة ، وعلمه كيف يروض نفسه على البأس ، وكيف يستهين بالألم إذا فكر أحد فى ارغامه ، ولذلك عاد إلى التبذير والسفه ، ولج فى عناد أبيه وسوء معاملة زوجه ، ثم أخذ ينشر من الآراء فى المال والسياسة ما أغضب عليه كبار رجال الدولة ، فهم أبوه أن يلجأ من جديد إلى خطاب مختوم ولكنه هرب وطوف فى انجلترا وبروسيا وسواهما من ممالك القارة وهو لا يكاد يجد ما يتبلغ به .

أكب فى أسره على المطالعة ، فالتهم ما حمل اليه من الكتب التهاماً ، وكانت له مقدرة خارقة على استيعاب ما يقرأ ، ثم هيأت له أسفاره أسباب الخبرة الصحيحة ، فصاحب أخلاطاً من الناس ، ورافق أخلاطا من الساسة ، وشاهد ألواناً من المجتمعات ، ومارس ضروباً شتى من الأخلاق والعادات

على أن أصالته كانت أعظم من كسبه ، كما كان وحى عبقريته أكبر خطراً وأبعد أثراً فى تكييف سلوكه من كل مازودته به الكتب من آراء ، ولكن تلك العبقرية كانت فى حاجة إلى ما يستثيرها ، كانت فيما يحيط به من ظروف العيش ، وما يكتنفه من الحوادث كالجمرة طغى عليها الرماد ، فما أن تهب العاصفة حتى تظهر وتتوقد وتبهر جذوتها القلوب والأبصار ، وما كانت العاصفة إلا الثورة وهى من وطنه على الأبواب .

بيد أنك تراه الآن ولما توانه الثورة يعيش من نفسه فى ثورة ! فلقد كان بطبعه عسوفاً عنوفاً لا تعرف نفسه الهدوء كما لا يعرف جسمه الدعة ، يميل بكل ما فى طاقته إلى النضال والتحدى ، فيحمى على المجادلة ، ويستمر على الجلاد ، ولا يستقر إلا على الظفر والتفوق .

وكان قلبه الكبير مليئا بالأحاسيس ، جياشا بالعواطف ، وكثيراً ما كانت حدة عاطفته مبعث مواقفه الفذة ومثار شجاعته حين كانت تستحكم الأزمات فلن يخرج الوطن منها إلا بشجاعته .

وكان ذا مقدرة غريبة فى إثارة العاطفة فى قلوب من حوله حتى لكأنهم منه حيال ساحر عجيب ، وهو فى فورته يتناول كل شىء ولا يكاد يتجه إلى فكرة حتى يثب إلى غيرها ، ولا يكاد يسنح له خاطر حتى تتوارد على رأسه الخواطر ، وما كان ليضيق بها ، بل لقد كانت على وفرتها أقل من أن تقنع روحه أو تشبع عاطفته .

قال أبوه يصف توثب روحه : « إن روحه كالمرآة المتحركة ينعكس فيها كل شىء ولا يستقر فيها شىء »

ولقد كان من أظهر خلاله وأعظم قوى نفسه ، شدة تأثيره فيمن حوله ، يحس من يقترب منه هيبة خفية لا يتبين مبعثها ، وينجذب إليه من يستمع له انجذابا يبعث على العجب ! ولقد بلغ من شدة تأثيره أنه كان يحمل رجال السجن على احترامه بل على محبته ، وتلك عجيبة من عجائب النفس لا تزال سراً مستغلقا على الأفهام .

على أن أبرز صفاته جميعاً وأوثقها علاقة بمستقبل حياته ، هى قوته الخطابية ، فلقد كان ميرابو خطيباً عبقرياً بكل ما تتسع له تلك الكلمة من معنى . وهو عند الكثيرين من المؤرخين أقدر خطيب شعبى فى التاريخ الحديث ، وأشد الخطباء تسلطا على أفكار سامعيه وأسرعهم توجيهاً لمن حوله إلى ما يريد .

كان فى أسلوبه رجل فن كأعظم ما يكون رجل الفن ، عرف أو على الأصح ألهم اختيار الكلمة القوية وصوغ العبارة التى تجمع إلى إشراق المعنى بعد المرمى وعمق المغزى . وكانت تواتيه عبقريته إذا تسنم المنبر فتسمو به عن مستوى الرجال ، فتراهم شاخصة أبصارهم إليه خافقة قلوبهم بما ينطق ، فاذا احتدم الجدل أو اشتد الموقف خطراً نظرت فاذا به أعظم مما كان حماسة وأسرع تدفقاً وأكثر إقناعاً ورأيت عبارته ترتفع وتعظم حتى تلائم الموقف ، وسمعت فى نبرات صوته أزيز نفسه وغليان دمه .

كان فى جولانه كنابليون فى غزواته ! تزداد عبقريته ملابسة له كلما ازداد الموقف من حوله هولا . ولقد فاه بأبلغ عباراته وأبعدها أثراً فى نفوس سامعيه فى مواقف الحماسة الفائرة كأن كلماته الحيتان الضخمة لن تظهرها إلا العاصفة !

وكان له فضلا عن ذلك من هيبة منظره وقوة صوته ورنين جرسه وشتى إشاراته كل معدات الخطيب . كان كبير الجرم ، قوى الجسم ، عريض المنكبين ، عظيم الصدر ، ترى فى وجهه الجاد العابس آثار جراح اندملت كأنك تلمح فيها صرامة الحوادث وصروف الزمن ، وكانت ترتسم ملامح وجهه بانفعالات نفسه ، كما كانت تلتمع عيناه وتختلجان فتبعثان الرهبة أو تثيران الشفقة . أما عن قوة أعصابه وضبط نفسه وصدق فراسته وتفهم الغاية التى يرمى إليها وتخير أقرب الطرق وأسهلها إلى تلك الغاية فكان فى ذلك كله مضرب المثل بين معاصريه .

والآن فلندع مقدرته على الخطابة حتى نشاهد آثارها فى مجلس طبقات الأمة وفى الجمعية الأهلية ، ويجمل بنا أن نتبين قبل انعقادها بعض آرائه السياسية .

لم تك أصالة ذلك الرجل الفذ فى السياسة أقل من أصالته فى الخطابة ، فلقد جمع إلى حماسة القلب حدة العقل ، وإلى ثورة العاطفة اتزان المنطق ، وإلى جموح الخيال وضوح المنهج ، وإلى وحى العبقرية شمول النظر ، وصدق التجربة واتساع الخبرة ، وإن المرء ليدهش حقا إذ يرى ذلك كله فى رجل . ولقد صدق جوته حين وصفه فى قوله : ميرابو ... تلك الأعجوبة ! ! !

كان لهذا الزعيم غرض يرمى اليه ونهج يسير عليه . نشط قبيل الثورة فى نشر مبادئه ، عند ما عاد من برلين للمرة الأخيرة ، وكان قد أوفد اليها من قبل الوزير كالون فى مهمة سياسية عام ١٧٨٧ أى قبل هبوب العاصفة بعامين ، ويخيل إلى أن الوزير إنما أراد إبعاده ، فلما استقل ميرابو ما كان يصله من أجر عاد إلى وطنه مغيظاً محنقاً فشهر قلمه للطعن فى كالون ونكر صديق الشعب ، وابتدأ الناس يحسون خطره كناقد سياسى ، نعم أحس الناس روحاً جديدة فى كتاباته واستشعروا أن صاحبها يمتاز ممن عرفوا من الرجال . اقرأ مثل قوله فى نقد نكر « ليعلم الذين يحسبون أنهم لا يستطيعون أن يحبوا الله خالقهم أو أن يحبوا الملك والوطن إلا أن يعبدوا نكر ، أنهم فى ضلالهم يعمهون . هل فكروا فى أن تفاخره بأنه يستطيع أن يعقد أى قرض دون زيادة فى الضرائب موضع عار لا موضع فخر ؟ هل فكروا فى أنه بذلك قد استطاع أن يستهوى أولى الأمر فى هذه الدولة ، فيدفع بهم إلى حرب تبرأ منها الانسانية[1] ، فضلا عما يتبعها من خراب مالى ؟ وهل يغنيهم ما يعلمون من حسن خلقه وطيب نفسه عن نجاح سياسته كوزير ؟ » إقرأ هذا وغيره تر أن الثورة قبل هبوبها قد اهتدت إلى زعيمها ، وتلق الرجل فى مستهل مرحلة جديدة فى حياته العجيبة ، مرحلة الجد الحكيم والوقار العاقل والجهد المتواصل .

راح يعلن للناس أنه عدو الامتيازات والاستبداد ، وأنه لن يقعد عن الجد حتى يرى الناس سواء أمام القانون ، ويرى الحرية حقاً يتمتع به كل فرد ، ويرى التعليم نورا ينفذ إلى جميع الطبقات ، والرخاء المادى حصناً يقى الوطن غائلة الفاقة . وهل كان للناس مطمع وراء هذا ؟ وهل كانوا يتغنون بغير هاتيك الأناشيد ؟ ولكن ميرابو لن يقبل أن يسعد الشعب على حساب الملكية ! وإذاً فهو يسعى من جانب آخر إلى أن يكون للملكية نفوذها وسيادتها على أن تستمد ذلك من الشعب صاحب الحق . ولئن كان عقت من أعماق قلبه الفوارق بين الطبقات وقيود العهد الأقطاعى ، فان بدنه ليقشعر فرقا من الفوضى وإنه ليرى الطامة الكبرى فى جموح الشعب وتعديه حدوده .

بهذه المبادىء وبما عرف عنه من مقدرة خطابية فائقة ، تقدم ميرابو للانتخاب فى مدينة إكس ليكون نائباً عن العامة فى مجلس طبقات الأمة ، بعد أن نأى الأشراف بجانبهم عنه . وعلى الرغم من كيد خصومه له خرج من المعركة ظافراً داوى الصيت

(يتبع)

الخفيف

(١) مشيرا إلى الحرب فى أمريكا وكانت فرنسا على رغم عسرها المالى قد أرسلت حملة لمساعدة أهلها

يوم الوقفة

عرفات...

للأستاذ على الطنطاوى

« وَأَذِّنْ فى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ »

هنالك ينكشف الغطاء ، وتنفتح أبواب السماء ، فيتوجه الحجاج إلى الله بقلوب انزاحت عنها ظلمة الأهواء والشهوات ، وأشرقت عليها الأنوار ، فسمت حتى رأت الأرض ومن عليها ذرّة صغيرة تحملها رياح القدرة ، ثم سمت حتى سمعت تسبيح اللائكة بألسنة الطاعة ، ثم سمت حتى تدبرت القرآن غضاً غريضاً ، كأنما نزل به الوحى أمس ، وسمعت النداء من جانب القدس : « يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شُعُوباً وقبائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إنّ أكرمكم عِنْدَ الله اتقاكم » . فأجابت : لبّيك اللهم لبيك ! ، فردّدت بطاح عرفات ، وأرجاء الحرم ، وردّدت السموات السبع والأرضون السبع : لبيك اللهم لبيك !

هنالك تتنفس الانسانية التى خنقها دخان البارود ، وعلامات الحدود ، وسيد ومسود ، وعبد ومعبود ، وتحيا فى عرفات حيث لا كبير ولا صغير ، ولا عظيم ولا حقير ، ولا مأمور ولا أمير ، ولا غنىّ ولا فقير

هنالك تتحقق المثل العليا التى لم يعرفها الغرب إلا فى أدمغة الفلاسفة وبطون الأسفار ، فتزول الشرور ، وترتفع الأحقاد ، وتتمّ المساواة ، ويسود السلام ، ويجتمع الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم فى صعيد واحد ، لباسهم واحد ، يتوجهون إلى ربّ واحد ، ويؤمنون بنبي واحد ، ويدينون بدين واحد ، ويصيحون بلسان واحد : لبيك اللهم لبيك !

هنالك تظهر المعجزة الباقية ، فتطوى الأرض ثم تؤخذ من أطرافها ، حتى توضع كلّها فى عرفات ، فتلتقى شطآن إفريقية بسواحل آسية ، ومدن أوربة بأكواخ السودان ، ونهر الكنج بنهر النيل ، وجبال طوروس بجبال البلور ، فيعرف المسلم أن وطنه أوسع من أن تحدّه على الأرض جبال أو بحار ، أو تمزقه ألوان على الصور فوق ألوان ، أو تفرقه فى السياسة خرق تتميز من خرق ، وأعلام تختلف عن أعلام

ذلك لأن وطن المسلم فى القرآن ، لا فى التراب والأحجار ، ولا فى البحيرات والأنهار ، ولا فى الجبال والبحار : « إنما المؤمنون إخوة » ، لا « إنما المصريون .... » ، ولا « إنما الشاميون ... » ، ولا « إنما العراقيون .... »

هنالك يتفقد الاخوة إخوتهم ، فيمين القوى الضعيف ، ويعطى الغني الفقير ، ويساعد العزيز الذليل ، فلا ينصرفون من الحج إلا وهم أقوياء أغنياء أعزاء

هنالك يذكر المسلم كيف مرّ سيد العالم صلى الله عليه وسلم بهذه البطاح مهاجراً إلى الله ، تاركا بلده التى نشأ فيها ، وقومه الذين ربى فيهم ، وكيف جاء حتى وقف على الحزْورَة ، فنظر إلى مكة ، وقال : « إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، وإنك لأحب بلاد الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت » . ثم يستقبل هذه الصحراء الهائلة ، ليس معه إلا الصديق الأعظم ، يتلفت كلما سار ليتزوّد بنظرة من مكة حتى غابت وراء الأفق الفسيح ، فانطلقا يؤمان الغار

هل علمتْ هذه البطاح أن هذا الرجل الفرد الذى قام وحده فى وجه العالم كله ، يصرع باطله بقوّة الحق ، ويبدّد جهالته بنور الاسلام ، ويهدى ضلالته بهدى القرآن ، والذى فرّ من مكة مستخفيا ، سيعود اليها بعشرة آلاف من الأبطال المغاوير ، فتفتح له مكة أبوابها ، وتتهاوى عند قدميه أصنامها ، ثم تعنو له الجزيرة ، ثم يخضع لدينه نصف المعمور ؟

هل علمت هذه البطاح أن هؤلاء النفر الذين مروا بها هاربين

من جبروت قريش وسلطانها ، سيعزون حتى تدين لهم قريش ، ثم يعزون حتى يرثوا كسرى وقيصر فى أرضيهما ، ثم يعزون حتى يرثوا الأرض ومن عليها ، وسيكثرون حتى يبلغوا أربعمائة مليون ، وسيتفرقون فى الأرض داعين مجاهدين فاتحين ، ثم يجتمعون فى عرفات حاجين منيبين ملبين : لبيك اللهم لبيك !

هنالك وقف سيد العالم صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يعلن حقوق الانسان ، ويقرر مبادئ السلام ، وينشر الأخوة والعدالة والمساواة بين الناس قبل أن تنشرها فرنسا بألف عام :

أيها الناس :

اسمعوا منى أبين لكم ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا

أيها الناس :

إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس :

إنما المؤمنون إخوة ، لا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس :

إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

وهنالك وقف يعلن انتهاء الرسالة الكبرى التى بعثه الله بها إلى الناس كافة ، ويتلو قوله جل وعز : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » ؛

ويبعث صحابته ليحملوا هذه الرسالة إلى آخر الأرض ، ثم يحملوها إلى آخر الزمان

فحملوها فأنشأوا بها هذه الحضارة التى استظل بظلها الشرق ، ويستظل بظلها الغرب

* * *

فى عرفات تتجلى عظمة الاسلام ، دين الحرية والمساواة والعلم والحضارة ؛ ومن عرفات يسمع المسلمون داعى الله يدعو : حىّ على الصلاة ! حى على الفلاح ! فيجيبون لبيك اللهم لبيك ! وينطلقون ليعملوا للآخرة كأنهم يموتون غداً ، ويعملوا للدنيا كأنهم يعيشون أبداً

* * *

فلتفسد الأرض ، ولتطغ الشرور ، وليعصف الحديد ، ولينفجر البارود ، ولتغُص الانسانية فى حمأة الرذيلة إلى العنق ، فانه لا خوف على الفضيلة ولا على الحق ولا على السلام ، مادام فى الأرض « عرفات » ، وما دام فى الجو هذا الصوت القدسى المجلجل :

« لبيك اللهم لبيك » !

علي الطنطاوى

العراق فى مصر

للشاعر الفيلسوف المرحوم جميل صدقى الزهاوى

وهى آخر ما نظم الفقيد الكريم

حمّلها شباب العراق تحية كريمة لشباب مصر

— ١ —

أتى بعد شوق حافز للمحبينا ... إلى مصر شبانُ العراق محيينا

أولئك شبان سنقطف عن هوى ... بها من رياض العلم ورداً ونسرينا

رضينا بما فى مصر من عبقرية ... وما كل أرض تنبت العلم ترضينا

وكان مُنانا أن نرى مصر يقظة ... فأفرحنا جمعاً بلوغ أمانينا

سعدنا بمصر والسعادة نعمة ... لحينا تلاقينا وحين تجافينا

وليس لنا عن حبّ مصر تنكّب ... فما كان هذا الحبّ إلاّ لنا دينا

وما شعراء النيل إلاّ عنادل ... على سرحة الآداب تشدو فتشجينا

— ٢ —

ألا إن مصراً موطن الأدب الحر ... سلام على مصر سلام على مصر

وما مصر إلا البحر يلمع درّه ... ونحن بمصر غائصون على الدر

لقد جمعتنا وحدة عربية ... وأقرب منها بيننا وحدة الفكر

أرى فى لقاء الروح للروح فرحة ... تفوق لقاء العين والأوجه الغر

وإن بنى مصر الذين تثقفوا ... إذا طلعوا كانوا من الأنجم الزهر

حججناك طوّافين والدافع الذى ... حدانا هو الايمان بالأدب الحر

وليس كايمان المنافق إنه ... إذا لم يكن كفراً فشر من الكفر

— ٣ —

وجدنا بنى مصر الفتاة كواكبا ... تضىء فتمحو بالضياء الغياهبا

إذا غاب نجم لاح نجم وإنما ... تفوق بمصر الطالعاتُ الغواربا

ألا فليمم مصر من طلب العلا ... ومن كان فى المجد المؤثل راغبا

وما أسعد الورّاد للعلم إنهم ... إذا صدروا كانوا نجوماً ثواقبا

إذا ما تلقوا من أساتذة لهم ... دروساً حسبت الودق ينصبّ ساكبا

قصدنا فقاسينا متاعب جمة ... فلما رأيناكم نسينا المتاعبا

نصافحكم فيها مصافحة الذى ... يريد لأعلام الهدى أن يقاربا

— ٤ —

حججنا بلاد العبقرية والنبل ... نطوف بأركان الثقافة والفضل

معاهد فيها للهدى يشب الفتى ... وليس بها من سار يمشى على مهل

تربّى عقولَ النشء حتى تقيمها ... وما قيمة الإنسان إلاّ من العقل

وكانت فتاة العصر أنقى من الندى ... وكان الفتى للمجد أنضى من النصل

وليس الذى فى البحر يسبح زاخراً ... كمن كان فى الغدران يسبح والضحل

وليس غنى مصر من المال ناشئاً ... ولكنه فى العلم والأدب الجزل

وفى عزة النفس التى قد أبت لها ... على ما بها أن تستنيم إلى الذل

— ٥ —

على العقل فى كل الأمور المعوّل ... ولولاه لم ينحل للمرء مشكل

وما العقل فى الإنسان إلاّ ابن رأيه ... تولّد فيه آخراً وهو أوّل

وللعقل أنوار بها يهتدى الفتى ... وأبهجْ بأنوار لها العقل يرسل

تبدل فى الناس العقول بغيرها ... ولكن نفس المرء لا تتبدل

وربّ عقول لم تصادف مثقفاً ... فتلك بلا هاد من العلم تعمل

يمثل مصراً فى العراق جهابذ ... ونحن بمصر للعراق نمثل

وما العلم فى بغداد إلا كصيّب ... توالى لأدران الجهالة يغسل

— ٦ —

نصافح إخواناً لنا قد تثقفوا ... فساروا جماعات ولم يتوقفوا

فان فرقت ما بيننا شقة النوى ... فانا جميعاً للعروبة نهتف

وإن عصفت ريح بكم فى ملمّة ... فتلك بنا يا أمة النيل تعصف

وإن أبعدت أجسامنا عن جسومكم ... فأرواحنا مجموعة تتعرف

ومصر هى اليمّ الذى ظلّ زاخراً ... وإنا وإياكم من اليم نغرف

غداً ستشب الحرب صاخبة اللظى ... فتزهق أرواحاً وتمحو وتتلف

وإن تلاميذ المدارس فى غد ... جنود لصون الموطنين تألّف

— ٧ —

لنحن بمصر فى الثقافة نقتدى ... وبالنجم فى تلك المطالع نهتدى

وليس بنا للأمس من لفتة الهوى ... ولكننا نرنو بشوق إلى الغد

ونحترم الرأى القديم وأهله ... ونهتف للتجديد أو للتحدد

على قبر الزهاوى

بعد أن وُورى التراب شيخ الشعراء وفقيد العرب وقف على قبره الدكتور عبد الوهاب عزام فنثر عليه هذه الزهرات :

اليوم يقع هذا النسر بعد طول تحليقه !

اليوم يصمت هذا البلبل بعد طول تغريده !

اليوم يظفر هذا الجواد بالجمام !

اليوم يستريح هذا الفارس من الآلام !

اليوم تسكن هذه النفس الثائرة !

اليوم تخمد هذه النائرة !

اليوم يرقد الزهاوى فى قبره !

كل نفس ذائقة الموت ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . وإنما الخالد من خلدته آثاره . وسيبقى شعر الزهاوى مدوّياً بعد مماته ، كما كان مدوياً فى حياته ، ليبعث العزائم الراقدة ، ويشعل النفوس الخامدة

ستتلقى مصر والبلاد العربية نعى الزهاوى كما تلقى العراق والبلاد العربيــة نعى شوقى ، فتتجاوب بلاد العرب بالرثاء ، وتتبادل العزاء . ونسأل الله أن يعوضها فى شاعر العربية خيراً

أيها الشاعر العظيم ستذهب وذكراك بيننا خالدة !

أجميلُ لا تبعد فذكرك خالد ... ألذكر للانسان عمر ثان

ثم وقف الأستاذ الشاعر معروف الرصافى فألقى هذه الأبيات :

أيها الفيلسوف قد عشت مُضنى ... مثل مَيْتٍ وصرت بالموت حيا

ما حيـــاة العظيم إلاّ خلود ... بعـد موت يكون للجسم طيا

سوف يبقى بين الورى لك ذكر ... ناطق بالبقـاء لم يخش عِيا

أنت فرد فى الفضل حياً ومَيْتا ... حزت فى الحالتين ذكراً عَليا

سوف أبكى عليك شجوا وإنى ... كنت أبكيك فى الحياة شجيا

ثم تلاه السيد محمد مهدى الجواهرى فألقى هذه القصيدة الباكية :

على رغم أنف الموت ذكرك خالد ... ترن بسمع الدهر منك القصائد

نعيت إلى غر القوافى فأعولت ... عليك من الشعر الحسانُ الخرائد

وللعلم فياضاً فماجت مصادر ... عُنيت بها بحثاً وجاشت موارد

وفلسفة أطلعت فى الشعر نورها ... هى اليوم ثكلى عن جميل تناشد

حلفت يميناً لم تشبها اختلاطة ... وقلبى على دعوى لسانىَ شاهد

لقد كنت فخراً للعراق وزينة ... تزان نواديه بها والمعاهد

وكنت على خصب العراق شاهدا ... إذا أعوزتنا فى التباهى شـــواهد

وكنت أرق الناس طبعاً ونكتة ... وألطف من دارت عليه المقاعد

وأنت ابتعثت الشعر بعد خموله ... نشيطاً لخوض الشعر بعدك راكد

ثوى اليوم فى هذى الحفيرة عالم ... بأسرارها ، لله بالعقل ناشد

أقام على العلم الصحيح اعتقاده ... عدوٌّ لأشباح الخرافات طارد

وكان نقياً فكرة وعقيدة ... عزيزاً عليه أن تسف العقائد

يقرر أن الدين حب ورحمة ... وعدل ، وأن الله لا شك واحد

وأن الذى قد سخر الدين طامعاً ... يتاجر باسم الله ، لله جاحد

ثوى اليوم فى هذى الحفيرة شاعر ... على الظلم محتج عن العدل ذائد

وشيخوخة مدت على الكون ظلها ... تكافح عن آرائها وتجالد

أبا الشعر ! إن الشعر هذا محله ... فقد نُصت الأسماع والجمع حاشد

وهذى جيوش الشعر والعلم تبتغى ... لها قائداً فذاً فهل أنت قائد

فأين قصيد قد نظمت فريده ... وأين من الشعر البديع الفرائد

وأين النكات المؤنسات كأنها ... حدائق تُسقى بالندى وتعاود

وأين العيون اللامعات زكانة ... رغائب تبدو فوقها ومقاصد

جميلٌ أعان الرافدين بثالث ... من الشعر تنميه بحور روافد

وكان حياة للنفوس ورحمة ... تغاث بها هذى النفوس الهوامد

تطاوعه غر المعانى كأنها ... وصائف تبغى أمره وولائد

أقول لرهط الشعر يمضون باعثاً ... عليه : تثير الشعر هذى النضائد

ترى أن فى التجديد شيئاً مخلداً ... ولكنما التقليد غير مخلد

وذاك طريق للأديب معبد ... وهذا طريق ظل غير معبّد

وما العلم إلا للسعادة سلم ... فمن يتخذ منه الوسيلة يسعد

فإن تبتعد عنا السعادة نقترب ... وإن تقترب منا التعاسة نبعد

جميل صدقى الزهاوى

أدبنا السياسي:

٢ - ابن بسام صاحب الذخيرة والشاعر أبو مروان الطُّبْنى

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

قال ابن بسام: كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام، وحملة ألوية الأقلام، من أهل بيت اشتهروا بالشعر، اشتهار المنازل بالبدر. أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة، وانتشار شمل الطاعة، وأناخوا فى ظلها، ولحقوا بسروات أهلها... وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطبنى هو أول من بنى بيت شرفهم، ورفع فى الأندلس صوته بنباهة سلفهم. قال ابن حيان: وكان أبو مضر نديم محمد بن أبى عامر أمتع الناس حديثاً ومشاهدة وأنصعهم ظرفاً، وأحذقهم بأبواب الشحذ والملاطفة، وآخذهم بقلوب الملوك والجلة، وأنظمهم لشمل إفادة ونجعة، وأبخلهم بدرهم وكسرة، وأذبّهم عن حريم نشب ونعمة، له فى ذلك أخبار بديعة من رجل شديد الخلابة يضحك من حضر، ولا يضحك هو إذا ندر، رفيع الطبقة فى صنعة الشعر، كثير الاصابة فى البديهة والروية. انتهى كلام ابن حيان. قال ابن بسام: وشعر أبى مضر ليس من شرط هذا المجموع لتقدم زمانه؛ فأما ابنه مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية ورحل إلى المشرق وسمع من جماعة المحدثين بمصر والحجاز، وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة.. إلى أن قال: وجدت فى بعض التعاليق بخط بعض أدباء قرطبة قال: لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد بن أبى عامر على الحذلى فى مجلسه وضربه ضرباً موجعاً وأقر بذلك أعين مطالبيه، قال أبو مروان الطُّبْنى فيه:

شكرت للعامرى ما صنعا ... ولم أقل للحذيلى لما

ليث عرين غدا بعزته ... مفترساً فى وجاره ضبعا

لا برحت كفه مُمَكَّنَةً ... من الأمانى فنعم ما صنعا

وددت لو كنت شاهداً لهما ... حتى ترى العين ذل من خضعا

إن طال منه سجوده فلقد ... طال لغير السجود ماركعا

وابن رشيق القائل قبله:

كم ركعة ركع الضبعان تحت يدى ... ولم يقل سمع الله لمن حمده

والعرب تقول فلان يركع لغير صلاة إذا كنوا عن عهر الخلوة..

قال ابن بسام: ولما صنفت كتابى هذا عن شين الهجاء، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء، أجريت ههنا طرفاً (١) من مليح التعريض، فى إيجاز القريض، مما لا أدب على قائليه ولا وصمة على من قيل فيه. والهجاء ينقسم قسمين: فقسم يسمونه هجو الأشراف، وهو مالم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً، ولا هجراً مستبشعاً؛ وهو طأطأ قديماً من الأوائل، وثل عرش القبائل. انما هو توبيخ وتعبير، وتقديم وتأخير، كقول النجاشى فى بنى العجلان، وشهرة شعره منعتنى عن ذكره (٢). واستعدوا عليه عمر وأنشدوه قول النجاشى فيهم فدرأ الحد

هلموا إلى قبر الزهاوىّ نقتبس ... به نفساً من روحه ونطارد

وإن خيالا يملأ الشعر رهبة ... سكون على قبر الزهاوىّ سائد

وحجوا إلى بيت هو الفن نفسه ... أنارت «فينيس» ساحه وعطارد

فان بيوت الشاعرين مناسك ... وإن قبور النابغين معابد

أبا الشعر والفكر المنبه أمة ... عزيز علينا أنك اليوم راقد

وأن الذى هز القلوب هوامداً ... وحركها فى الترب ثاو فهامد

وأن فؤاداً شع نوراً وقوة ... هو اليوم مسودُّ الجوانب بارد

فهل أنت راض عن حياة خبرتها ... ممارسة أم أنت غضبان حارد

أضاعوك حياً وابتغوك جنازة ... وهذا الذى تأباه صِيدٌ أماجد

---

(١) وفى بعض النسخ طفاً بدل طرفاً

(٢) قال ابن رشيق فى كتابه العمدة فى باب من رفعه الشعر ومن وضعه: وبنو العجلان كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الأضياف إلى أن هجاهم به النجاشى فضجروا منه وسبوا به؛ واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا! فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة ... فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر: إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب، فقالوا إنه قال: =

بالشبهات . وفعل مثل ذلك بالزبرقان حين شكا الحطيئة وسأله أن ينشده ما قال فيه فأنشده قوله :

دع المكارم لا ترحـل لبغيتها
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

فسأل عن ذلك كعب بن زهير فقال : والله ما أودّ له عما قال حمر النعم ... وقال حسان لم يهجه ولكن سلح عليه بعد أن أكل الشُّبْرُم [1] . . فهمَّ عمر بعقابه ثم استعطفه بشعره المشهور .. وقد قال عبد الملك بن مروان يوما : أحسابكم يا بني أمية [2] فما أودّ أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس وأن الأعشى قال فىّ :

تبيتون فى المَشْتَى مِلاءً بطونكم
وجاراتكم غَرثَى يبتن خمائصا

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال : أنحن نفعل بجاراتنا هذا ؟ ودعا عليه . . . فما ظنك بشىء يبكى علقمة بن علاثة وقد كان عندهم لو ضرب بالسيف ما قال : حس ! . . . وقد كان الراعى يقول : هجوت جماعة من الشعراء وما قلت فيهم ما تستحى العذراء أن تنشده فى خدرها . ولما قال جرير :

فَغُضَّ الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

أطفأ مصباحه ونام — وقد كان بات ليلته يتململ — لأنه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه . . قال الراعى : فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب إلا وسمعنا البيت قد سبقنا اليه حتى أتينا حاضر بنى نمير فخرج الينا النساء والصبيان يقولون قبَّحكم الله وقبَّح ما جئتمونا به . . والقسم الثانى هو السباب الذى أحدثه جرير أيضاً وطبقته ، وكان يقول إذا هجوتم فأضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ولا عيّرت به قبيلة ، وهو الذى صُنّا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فان أبا منصور الثعالبي كتب منه فى يتيمته ما شانه اسمه ، وبقى عليه اثمه .

وحكى أبو عامر بن شهيد عن نفسه قال : عاتبت بعض الاخوان عتاباً شديداً عن أمر أوجع فيه قلبي ، وكان آخر الشعر الذى خاطبته به هذا البيت :

وانى على ما هاج صدرى وغاظنى   ليأمننى من كان عندى له سر

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد ؛ ولم يزل يقلق به حتى بكى إلىّ منه بالدموع . وهذا الباب ممتد الاطناب ، ويكفى ما مر ويمر منه فى تضاعيف هذا الكتاب . ومن شعر أبى الحسن علىّ بن عبد العزيز بن زيادة الله الطبنى مما أخذته عنه قوله :

كم بالهوادج يوم البين من رشأ   يحفو عليه وشاح جائر قلق
وكم برامة من ريم يفارقها   لهفان يثنيه عن توديعها الفرق
ونرجس كفرندالسيف ساومنى   معالا بنسيم عَرفُه عبق
نادمته وشباب الليل مقتبل   والنجم كفٌّ يحيينا به الأفق
وفتية كنجوم السعد أوجههم   فى أوجه الحادثات الجُوز نأناق
نلهو بقرانة صفراء صافية   يكاد ينجاب عن أضوائها الغسق
يسعى بها مرهف كالغصن نعّمه   ماء النعيم عليه النوُر والورَق

وأنشدنى أيضاً :

يا سالياً عاشقيه   وعاشقاً كل تيه
ومَن مداى ونقلى   بوجنتيه وفيه
هلا حزيت فؤادى   ببعض مالك فيه

وأنشدنى أيضاً لنفسه :

عجباً أن يكون ساكن قلبي   راتعاً منه فى بساتين حبي
ويجازى على الوفاء بغدر   حسبي الله ثم حسبي وحسبي
جازنى كيف شئت لا أرك الله   ب إذا كان فرط حبك ذنبي

= قبيلته لا يغدرون بذمة   ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك . . قالوا فانه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية   إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أقل للسكاك — يعنى الزحام — قالوا فانه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه . قالوا فانه قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد وخير القوم خادمهم . . فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال ما أسمع ذلك ، فقالوا فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله ، فقال ما هجاهم ولكن سلح عليهم . وكان عمر أبصر الناس بما قال النجاشى ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات ، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشى وقيل إنه حده . . .

(١) الشبرم حب يشبه الحمص يطبخ ويشرب ماؤه للتداوى ، وقيل إنه نوع من الشيح (٢) وفى نسخه احفظوا أحسابكم يا بنى أمية

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٣٢ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

تعليق المؤلف على فلسفة نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

تتمة

أما النظر الى نيتشه من حيث الوجهة الأخلاقية فقد لامه النقاد على غرائزه القاسية وأنانيته الطاغية، وقسوته البالغة على الضعفاء. على أن له بعض آراء لو لم يسيء الناس فهمها لأدت الى نتيجة أخلاقية حسنة؛ فليس يكفي المرء أن يكون فوضوياً هداماً طارحاً عن ظهره التقاليد ليحيا محققاً مذهب نيتشه. وليس نيتشه رفيق أولئك الذين يعيشون بالسورمان. وهذا نبيه زرادشت كان يطلب الى الذين يرغبون اتباعه أن ينفذوا مذهبه بقسوة وشدة

« هل أنت شريعة قوية؟ هل أنت شريعة جديدة؟ هل أنت حركة أولى؟ هل أنت دولاب يدور حول نفسه؟

وا أسفاه! ما أكثر أولئك الذين يدبهم تعطشهم الى الصعود! وأولئك الطامعون الذين يضطربون بيأس! أرني أنك لست بواحد من هؤلاء الظامئين ولا الطامعين

وا أسفاه! هنالك كثير من الأفكار العظيمة التي ليس شأنها إلا شأن النسمة تهب ثم تتلاشى

إنك تقول إنك حر، ولكني أريد أن أعرف الفكرة التي تسيطر عليك، لا النير الذي زحت تهزه

هل أنت حقاً من أولئك الذين يجدر بهم أن يهزوا نيراً؟ إن منهم من طرحوا كل ما منحتهم بعض القيم، بطرحهم ثوب العبودية والارهاق حيث كانوا يعيشون. »

ونيتشه ذاته يعلن بأن مذهبه لا يحمله إلا إلى طائفة مختارة تستطيع حمله، والقيام بأعبائه؛ وأما الجماعات الأخرى فليس عليها إلا الاذعان والطاعة والحياة بإيمان. فلا يجدر بنا والحالة هذه أن نسفّه آراءه بحجة أن بعض الضعفاء العاجزين المنتفخة نفوسهم زهواً وكبراً قد أخذوا ببعض تعاليمه واقتبسوا نتفاً من مذهبه ليحققوا مطامعهم وليشبعوا جوع أنفسهم وأنانيتهم وليرموا إلى هدف العظمة. إن نيتشه هو ذاتي قبل كل شيء، ويكفي اعتقاده هذا أن يهيج الناس عليه. فالانسان الحاضر هو « ذاتي وغير ذاتي » في وقت معاً. يرى في الحالة الأولى نفع نفسه وفي الحالة الثانية نفع غيره، ويتحرى عن سعادتهم كما يتحرى عن سعادته. على أن النزاع بين هاتين الحالتين هو نزاع عنيف، وقد تقوى في الانسان حالة منهما دون أخرى على حسب ميوله القلقة التي تميل به إما إلى ذاته وإما إلى المجتمع. فبعضهم تغلب فيه الذاتية على غيرها، فيضحي بمصالح الغير في سبيل مصلحته؛ وبعضهم يضحي بمصلحته عاملاً على صيانة مصالح الغير. أما نيتشه فهو من القائلين « بالذاتية » الذين يحبون ذواتهم؛ ومذهب أهل حضارة العصر إنما يتجلى في اعتناق مذهب المحبة الشاملة؛ وهذا الاختلاف بين نيتشه وبين معاصريه يكفي لأن يثير في خصومه عداوة عميقة وخصومة عنيفة على هذا الذي لا يرى رأيهم في اتخاذ محبة الغير مثلاً أعلى

على أن هاتين الحالتين ليستا من الحالات المعينة التي لا يتخطاها الانسان ولا يتعداها، إذ لست أرى أحداً مال بكليته إلى حالة وقطع كل اتصاله بالأخرى. فهنالك درجات متفاوتة في الغرائز، وهذه الدرجات قد تتغير وتتطور بحسب الزمن والعصر

وهذا كقول أبي بكر بن عمار:

لئن كان ذنبي للزمان محبتي ... فذلك شيء لست منه أتوب

وقول عباس بن الأحنف:

إن كان ذنبي في الزيارة فاعلمي ... أني على كسب الذنوب مجاهد

(يتبع)

عبد الرحمن البرقوقي
منشئ البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

تصويب

جاء في السطر الثالث عشر من الصفحة نمرة ٢٩٤ بالعدد الماضي بالعمود الثاني ما نصه: « وأقمدُ من هذا في باب الخبط والتخليط أن خطبة الذخيرة الحقيقية ... الخ »

والصواب: « وأقمد من هذا في باب التخبط والتخليط أن الخطبة المثبتة في النسخ الموجودة من الذخيرة هي خطبة مفتعلة؛ أما خطبة الذخيرة الحقيقية فهي غير هذه الخطبة كما سيمر بك »

البرقوقي

والمحيط . على أننا سنحكم على فلسفة نيتشه الآن حكما عقليا واضحاً

إن فلسفة نيتشه هي مثال من أجل الأمثـــلة الذاتية الارستقراطية ؛ مثال جميل حي منطق ، يحتوى على هدى لكل من يريدون أن يكوّنوا حياتهم ويجعلوا مهامهم لا أحداً يتحدون معه ، كما هو الأمر في فلسفة « تولستوى » المناقضة لفلسفة نيتشه . على أن الحل الذى أعطاه نيتشه المسألة الأخلاقيـة يتراءى لنا أن احتماله شديد على الأنفس ، فى الناحية التفكيرية والناحية العملية ، وإن تنفيذ مذهب « السوبرمان » ليفتقر إلى جهود قل أن توجد ؛ ونيتشه ذاته يعلن بأن أمثال هؤلاء الأفراد الذين يجد فيهم العبقرية لم يكونوا إلا وليدى المخيلة والخيال

وهكذا يتراءى لنا أن نيتشـه لم يخلق ليكون زعيم مدرسة فلسفية حقيقية . إنه سيبقى وحيداً فريداً ، أمة وحده بين الناس ، كما كان فى حالة تفكيره وتأمله ؛ على أن مذهبـه تارك وراءه تأثيراً كبيراً . ينمى فى روح الفرد وروح الشعب « الأفكار الذاتية » ، وهذا التأثير يتبع خيره وشره الجبلة الخلقية التى تلتصق بالأفراد والشعوب . فهو قد يعمل على تهديم طبائع طغت فيها الأنانية على كل شىء حتى جاوزت حدها ؛ وقد يعمل على رفع بعض الطبائع ، يدرأ عنها كل آفة ويحميها من كل خطر من الأخلاق والديموقراطية والزهد

يبدو لى أن عمل نيتشه له أثر قوى فى بيئة كبيئتنا ، ولا ريب فى ذلك ، فان ما أراه فى مظاهرنا الاجتماعية لا يدل على فيض فى الحماسة المادية والخلقية . قليل من المفكرين الذين هم فى مستواه يعرفون أن يسوقوا الانسان إلى معرفة نفسـه والوقوف إزاءها مجرداً ؛ وقليل من أصحاب جمهورية الفضيلة من يمزقون ـ فى وضح النهار ـ هذه الأغشية الرقيقة والأكاذيب الخفيفـة التى تستر بها النفس ضعفها وجبنها وذلها وعجزها ؛ وقليلون من علماء النفس من وضح وأبان وأحسن البيان عن الحقيقة الذليلة التى ترتدى هـذه الأثواب المزركشة : أثواب الشفقة ومحبة القريب والزهد

إن نيتشه كالطبيب الصارم الذى لا تدخل قلبه الشفقة ؛ والملاج الذى يحمله الى مرضاه ، علاج قاس خطر استعماله ، ولـكنه علاج يخلق العزم والقوة . إنه لا يعزى من يأتيه شاكياً ، ولـكنه يترك الشاكين تســـيل الدماء من جراحهم ليجعلهم أكثر قـوة وأشد احتمالاً للألم . فهو إما أن يشفى مرضاه شفاء صحيحاً أو يقتلهم ؛ قد يخشاه الناس للمرة الأولى ويفرون من مباضعه ، ويلقونه باحتراس ووجل ! يتساءلون : أليس هذا الانسان شريراً جلاداً ؟ يفرون من طريقه ويختلفون إلى أطباء خفيفة أناملهم ، لينة كلماتهم ، حلوة علاجاتهم ، خلية تعاليمهم من الشدة والصرامة ، ولـكن نيتشه يلوذ به فريق من المخلصين له ولأنفسهم ، يهوون صرامته ، ويحبون استقامته وخلقه كله . وفى اعتقادى أن هؤلاء لم يكونوا مخدوعين باعجابهم به وإخلاصهم له ، وقد علموا أنه ـ ليس عن صرامة قلبه ولا معرفته للألم معرفة خاطئة — قد غـدا صارما قاسيا على الانسانية المتألمة ؛ وحياته كلها مشحونة بالحوادث البالغة والمصائب الـكبيرة ؛ وحظه السىء الفاجع قضى عليـه بأن يكون صادفاً عن الاشفاق على ضعف الانسانية وفاقتها . إنهم ليقفون بخشوع وجـلال إزاء المفكر الجبار الذى لم يخضع للذل ولم يلعن الوجود ، برغم مرضه المضال . وظل على غبطته ورضاه فى الحالة التى كان يصارع فيها الموت والجنون دون أن ينفذ اليه الوهن والضعف ، متمماً أنشودته للثورة فى تمجيد الحياة الفنية الفياضة المخصبة ، مناضلا حتى النهاية — الألم الذى غلب على عقله ، ولم يستطع أن يقهر إرادته الواعية

لماذا أُكرمت نيتشه ؟ وما الفائدة التى يجنيها العقل العربى منه ؟

حقاً إن بينى وبين نيتشه أسباباً لا أظن انقطاعها يسيراً ؛ وقد اختلفت اليه ليالى كثيرة وليس بينى وبين نبيه فاصل . أبثه من روحى ويبثنى من روحه . نتألم معاً من الحياة ونرقص لها ابتهاجاً . ولا أدرى علة هذا الترابط ! ومن يستطيع أن يحفظ على التحقيق كل سـبب يربط بينه وبين مفـكر ما ؟ أليست هنالك أسباب مختلفة قد تتآلف وقد تتخالف ، فتمزج هـذا الفكر مع عقلك وقلبك ، أولا تزيدك منه إلا نفوراً ؟ وما عسى يكون سر تعلق بنيتشه إلا سر تعلق بالحياة ؟ كانت الحياة عندى ظلمة حالـكة فغمرها نيتشه بفجره . كانت الحياة شكا مراً وقلقاً مستحوذاً علىّ فبدل شكى بإيمان ، وقلقى بعزيمة لا تتقلقل . كان سفينى مضطربا فى خوض لجج الحياة ، تهم يد الضلال بافتراسه ، فاستنقذه نيتشه وساقه الى منارة النجاة !

ذلك فضل نيتشه علىّ ، وأعظم بهذا الفضل ! وكيف يريد

أولئك الذين لاموني على انكبابي على نيتشه أن أصدف عنه ؟ وانني لواجد فيه علامة من العلامات الواضحة التي تنصبها الحياة لابن عن مناهجها ؛ فنيتشه هو علامة فيض الحياة المتفجرة والارادة الصارمة . ولعل أولئك السقماء الذين أتوه فروا من مباضعه القاسية وتعاليمه المنيفة لأنهم يريدون علاجاً يبعث في أعضائهم المشلولة الدفء والسكينة ، وهو إنما يريد أعضاء تبارك الحياة بالعزم والحركة إنه قد أحرق الملاحات المخدرة للأعجاع قبل أن يقدموا . فان كنت صابراً على احتمال قسوته فتعال الى نيتشه

إن نيتشه ليس بمفتقر الى جثث — خالية من الاحساس — يحملها على ظهره ، وإنما هو يريد رفاقاً أحياء هدامين مثله ، قد ادّرعوا الارادة وصاحبوا الألم رفيقاً لا سيداً . يقتحمون بارادتهم وصرامتهم كل شيء كالسيل الجارف ؛ لا يصدهم عن غرضهم صاد ، ولا يقف سيرهم حاجز ؛ يمشون فوق القمم وثباً لا يزحفون زحفاً ؛ في نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوة ، يفرضونها على الزمان ولا يجد الزمان الى اضعافها سبيلا . هؤلاء الرفاق الأشداء يستطيعون أن يمشوا مع نيتشه ، ويمجدوا الحياة في كل أدوارها ، ويحلقوا فوق آلام الحياة وأفراحها

إن كاتب « فلسفة نيتشه » بالفرنسية يرى في اقتحام نيتشه لبلاده نعمة ، لأنه لا يرى في مظاهرها الاجتماعية مايدل على فيض وحماسة في الناحية المادية والخلقية . وإن نيتشه ليبعث هذا الفيض ويخلق هذه الحماسة في الناحيتين . فاذا كانت فرنسا الحية تفتقر الى من يفيض على حياتها حياة ، فكيف بشعوبنا التي قتلها التخاذل بينها !

توجه أنى شئت ؛ فهل أنت واجد مني إلا قطعاناً هائمة على وجوهها ، ورعاة غافلين همهم صفو السمر ، وأواصر مقطوعة ، وتقاليد جامدة ، يتغنى بها القوم حين يريدون الرقص والغناء ، وشباباً مخنثين تناسوا رجولتهم ، وأهملوا رسالتهم ؛ كأنما تلك الراحة الطويلة المريضة قد أورثت أعضاءنا الشلل ، فاذا وثبت فيها الحياة لم تقدر على الحركة . وارم بطرفك أنى شئت فانك واجد هذا الموت الاجتماعي وجمود الفكر

وكأنما لم يرض فينا ريب الد هر حتى أعانه من أعاننا فأصبح تفكيرنا رياء ، والتظاهر بالتقاليد رياء ، وهل كان الرياء إلا ثوباً من أثواب الضعف والعجز ترتديه أمة رضيت لنفسها أن تهوى بدلا من أن تصمد ، وإن اغفال علماء الاجتماع عندنا لهذه الظاهرة الخلقية إغفال فيه جناية لا تغتفر . يجلس مفكرنا في جماعة فيفصل لفكره عشرين وجهاً ، يأتيهم بوجه ويعرض عنهم عاتق . ويصلي أحدنا عشرين ركعة ، يمنح واحدة لله ، ويمنح الباقيات للناس ؛ وهكذا غلب الرياء علينا في كل مظاهر تفكيرنا وتقاليدنا . وإني لأخشى يوماً يرسو فيه الرياء في أنفسنا فيغدو متأصلاً فينا حتى يصبح علامة من العلامات الفارقة لهذه الأمة

هذه هي المظاهر التي غاظت نيتشه يوم أعلن الثورة على الضعف والرياء . وليت شعري من سيغيظه الضعف والرياء في مجتمعنا الحاضر ، فيعلن الثورة عليهما وعلى المرتدين أرديتهما !

إن العقل العربي عقل قوي بنشأته ، صادق بعزمه ، وهو لا يحتاج إلى من يبث فيه معنى القوة والصرامة لأنه قام عليهما . ولكن جيلنا الحاضر اعتنق الفكرة العربية مجردة من معنى القوة والصرامة ؛ فتشوهت بذلك الرسالة وضاعت معالمها . إن المجتمع العربي يفتقر إلى من يرد عليه هذه الأمانة التي لا يعلم إلا الله سالبها . والمجتمع العربي بعدها غالب عليه الاضطراب والخزي والضلال . فمن يرد عليه أمانته ويعيد إليه صرامته ؟

كنتُ أتلو مواعظ — زرادشت — فأحس أن قوة جديدة أخذت تطغى على قلبي ، وأشعر باضطراب في نفسي جعلني أومن بأن الحياة لا يعسر عليها أن يخرج منها ألف حياة . ولم لا ؟ . كنت أسير معه وهو يهدم خيالات الرياء ، ويضرب التقاليد بعضها ببعض ، فأطرب لشجاعته ، وأعجب بنفسي وأسألها : « هل كان في استطاعتك أن تعالي هذه الأرض لولا هذا النبي ؟ » ، ولكن طربي لم يكن طرباً خالصاً لأنني كنتُ أمنى لمثل هذا النبي الهدام أن يقيم بيننا ليلة واحدة ، تنفذ عينه خلالها إلى قلوبنا الطافحة غشاً وخبثاً ، وقصورنا ومعابدنا المفعمة كذباً ورياء ، فينظف هذه القلوب ويدمر هذه القصور

أين أراك يا زرادشت العرب ؟ ومتى يكون الموعد ؟ فقد اصطلح على إيذائنا كل شيء حتى أنفسنا . تمشي الحياة بنا ونحن ذاهلون ، ويتباهى الغير برجولته الصارمة ونتباهى نحن بالتخنث ، ويستيقظ الفكر في مواطنهم ونحن نضرب حوله السدود ونقيم له الحدود ، نفر من الألم لأنه يضنينا ، ونستجدي الفرح من غيرنا استجداء ؛ يتحرك كل شيء حولنا ونحن لا ترضينا الحركة ولا تستهوينا اليقظة . نقول بالانسانية ونشفق عليها ، وقائلوها لا يملكون من « انسانيتهم » شيئاً . يحسون آلام غيرهم ولا يحسون آلامهم . يشدد غيرنا روح « الذاتية » عندهم ، ونحن نسعى إلى محوها ، كأننا نريد أن نمثل دور الشرق الأول يوم كان

القصص

مأساة من اسخيلوس

ثأر أورست

The Choephoroe (١)

الدرامة الثانية من (الأورستية)

للأستاذ دريني خشبة

خلاصة الدرامة الأولى

« قدم أجاممنون، ملك آرجوس وقائد الحملة الهيلانية على طروادة، ابنته إفجنيا قرباناً للسماء لتسكن العاصفة وليمخر أسطوله عباب الماء؛ فأحزن زوجته كليتمنسترا، وأم الفتاة لا تفكر إلا في ابنتها، وزادتها وحدتها في قصر البلوبيديه وحشة، وجعلت من حياتها دفراً ظله حتى اتصلت بإيجستوس ابن عم أجاممنون الذي ذبحت إخوته وأطعم أبوهم لحمهم وهو لا يدري، ثم قتل هو أيضاً، وكل ذلك بتدبير أتريوس أبي أجاممنون... وهنا تجتمع الأحن وتتضافر الأحقاد، ثم تنقلب العلاقة إلى حب فعشق دنيء... فتآمر على قتل أجاممنون حين يعود من طروادة... ويعود أجاممنون ظافراً وتكون معه كاسندرا ابنة بريام ملك طروادة التي تتنبأ بمقتل الملك، وبمقتلها أيضاً بيد الملكة وبتدبير إيجستوس... وتخدع الملكة زوجها فيمشي على بساط الديباج الأحمر فتغضب الآلهة، لأن المشي على الديباج حق خالص من حقوقها.. ويقتل الملك وتقتل كاسندرا في أثره... ويستوي إيجستوس على عرش آبائه مشتركا مع كليتمنسترا في حكم آرجوس رغم سخط الشعب ولعنات الجماهير... »

— ١ —

قتل أجاممنون!

وخلص العرش لإيجستوس وامشيقته الملكة الفاجرة، كليتمنسترا. ولكنه كان عرشا شائكا، ظاهره فيه الرحمة، وباطنه فيه اللعنة الأبدية، وسخط الأرباب وبغض العباد...

وكانت الأم الآثمة قد أبغضت كل ما يثير في قلبها ذكرى أجاممنون... وكيف لا تبغضه وها هي ذي حياتها تنقلب فتكون لذاذة خالصة، وهوى مجرماً، وغراماً تخامره شهوة التشفي، وتختلط بغمراته حمى الانتقام! إذن هي تبغضه، وهي تغلو في بغضه لأن عيونها في طروادة حملت إليها ما كان من غرامه الشديد بخريسز إحدى سبايا الحرب، ثم ولعه الفائق بأختها بريسيز التي خاصم فيها أخيل؛ ولم يبال أن يهجر الميرميدون حلبة الروع من أجلها. ولم يكن بحسبه هاتين، بل عاد من حومة الحرب فاقتحم القصر المتبق الشاهق بعربته المطهمة، وإلى جانبه خليلة ثالثة من خليلاته الكثيرات، هي هذه النبية المباركة البائسة... كاسندرا، ابنة بريام، وحبيبة أبوللو في الزمن القديم!

أبغضته كليتمنسترا إذن، وأبغضت كل ما يثير ذكرياته في فؤادها... ولو كان أبناؤها الذين حملت بهم من صلبه! وهي تقسو وتقسو، وتغلو في قسوتها، حتى لتأمر بابنها الواحد أورست، وكان حدثاً لا يعرف من الدنيا إلا أن نصفها أبوه...

(١) أطلقنا على هذه المأساة « ثأر أورست » لأنه خير اسم لها؛ وترجمة اسمها الحرفي هي « حاملات زقاق الخمر Libotion Bearers » التي لم نجد لها مرادفا في العربية — وحتى هذه الزقاق في معناها اليوناني لا تسكب إلا فوق القبور أضحية للموتى. فهل من اسم لها عندنا؟؟

يفيض انسانيته على غيره... وقد قتلنا هذا الحب المفرط للغير، وقد قتلنا هذا الزهد الخامل. تسامي غيرنا فوقنا فهم يريدون أن يعرفوا أنفسهم بعد أن وجدوها، ونحن تائهون لما نعثر على أنفسنا

تعال أيها النبي أينما كنت، فهنا كثيرون ممن يرتقبون أوبتك. واحمل مباضعك وائت بنفسك وقلبك وأيقظ أفكارنا وبث ذينا الحياة. أعطنا الحياة وخذ منا فديتها. أتريد منا أن نتألم؟ إننا نتألم ونحتمل الشقاء في سبيل الحياة. شدد شعورنا بالحياة وزدنا إيماناً بها. اهدنا إلى أنفسنا وحببنا فيها فقد علمونا أن نمقتها. تعال استأصل جذور الضعف فينا والذل فقد أكلت أنفسنا الاحشاشات... تعال ولا تعطنا شيئاً إلا ما نؤدي ثمنه، فقد أدركنا أن كل ما يُعطى ويوهب رحمة يضر بآخذه. تعال يا إرادة القوة والصرامة، فكثيرون هنا يرتقبون وصولك... والطريق ممهد، والغاية دانية القطوف

« انتهى »

« دير الزور »

خليل هنداوي

ونصفها الآخر أمه ... فيُننى (١) إلى أقصى الأرض ، وليكون بمعزل عن هـذه الحاشية الموبوءة التي قد تثير فيه نخوة الرجولة حين يشتد عوده وينضج قلبه ، فلا يكون له هم إلا الأخذ بثأر أبيه ، والفتك بقاتليه ...

— ٢ —

أما أخته ، أما إلكترا ، فقد بقيت في القصر لتشهد الفصل الأخير من المأساة ... أو لتشهد كل الفصول الدامية التي تتركب منها المأساة ! لقد بقيت على كره منها لتعيش عيشة الرقيق ، وتحيا حياة الخدم ، ولترى إلى أمها تتقلب بين ذراعي عاشقها وملء حضنه ، ولتنعم على خرائب أسرة الأترديه ، ولتبني على أنقاضها القصور والعلالي !

بقيت إلكترا لتبكي دائماً .. ولتبكي دما !! يا للعذارى !! لقد كانت في ملاعب شبابها تحلم بمُلك وبتاج ، وبشعب يسجد تحت قدميها ، وهي اليوم تتشهى الموت فلا تجد اليه من سبيل !! لقد كانت بالأمس تمرح بين قلبين يغمرانها بالحب ، وأبوين يلقيانها بالبشاشة ، وهي اليوم لا عزاء لها إلا وقفة باكية بقبر أبيها المقتول ، ووقفة تتصدع لها جوانب نفسها عند مخدع أمها العاشقة ... الفاسقة ... وهل في إحدى الوقفتين عزاء ؟ !

بقيت إلكترا ترقب رسول السماء الذي يأخذ بثأر أبيها ، وبقيت لتكون رائد هذا الرسول يوم يجيء . ولم يكن لها من ولي ولا حبيب في هذا القصر الشاهق العتيق إلا هذه العجوز الشمطاء الطيبة ، مرضعة أورست ، التي بكت أحر البكاء وآله وأوجعه يوم أخذوا منها ولدها — كما كانت تدعوه — ليُننى في أقصى الأرض

لقد كانت هذه العجوز الشمطاء امرأة ثاقبة الفكر ، رحبة الصدر ، شديدة الايمان في السماء ! فكانت تواسي إلكترا وتأسو جراحاتها ، وتمنيها الأماني ، وتزخرف لها الآمال ، وتذكر لها أن عين سيد الأولب الساهرة لن تغفل عن لؤماء قصر الـ (بيلوبيديه) وأنها ترعى فتى القصر في منفاه ، حتى إذا آنست فيه استواءً أرسلته كالصاعقة على المجرمين ؛ فتقض بنيانهم ، وتزلزل أركانهم ، وانتقم لأجاممنون !

(١) ذكر سوفوكليس في درامته الخالدة Electra أن إلكترا نفسها هي التي أنقذت أخاها وأرسلته مع خادم أمين ليتربى في كنف جار كريم من رعايا أبيها — ويبدو لنا أن رواية سوفوكليس أقرب الى الحقيقة وسنعرض لها في حينها

وكان قاهر طروادة قد جلب معه غير كاسندرا عددا وافراً من السبايا الطرواديات ، فاستطاعت المرضعة العاقلة ، الحكيمة ، أن تجعل منهن جندا لها (١) ، وحاشية مخلصة لفتاتها المعذبة ، يخففن من برحائها ، ويكن لها أهلاً كلما عزها الأهل

ومضت سنوات عشر فسقطت طروادة

ومضت سنوات عشر بعد مقتل أجاممنون

واشتد ساعد أورست ، وعاد ليبطش بالقتلة السفاكين

وبدأت المأساة الثانية

— ٣ —

لمن هذه الأشباح السادرة التي تهرول بين المقابر مُهطِعة إلى رمس أجاممنون ؟

إنها تختلط بغبشة الصباح وتمتزج صُعداؤها بأنفاسه ، وإنها لتضمر في قلوبها لظى ينعكس في ذاك الشفق الذي يضطرم به الشرق ... حيث يسبح البنفسج في حمرة الدم ! !

آه ! إنه شاب غرانق ، سمهرى ، مجلل بالسواد ، يجثو فوق الثرى ... يبكي ويصلي !! وإن بالقرب منه لصديقا ينتظره . . . ويذرف دموعه من أجله . . . فيا للمودة في الرزء ، ويا للاخلاص في الشدائد !! اسمع إلى الشاب المحزون : يخاطب تمثال هرمز النصفي المنتصب فوق القبور ، ثم يكلم من بالقبور :

— « يا هرمز اللطيف ، يا إله الأرواح وحاديها إلى هيدز ، أيها الساهر على هذه المقبرة وعلى كل مقبرة ... الموتَ الموتَ ! »

ويضع خصلتين من الشعر على قبر أبيه ، ويقول : « ها أنذا أضع خصلةً من الشعر هنا تحية لأيناخوس الذي رويت عبابه ، وترعرعت على شطئانه . . . وأخرى تحية للموتى ... يا رحمتا لك يا أبي ! هكذا شاءت قسوة المقادير ألا أكون قريباً منك فأذرف عبرتي الطاهرة فوق ثراك ، وأروى الصفاح الركوم فوق جثمانك بالغيث الغزير الذي أرسلته من أجلك في دار غربتي ! »

— ٤ —

ويقلب وجهه في بنفسج الشرق المموه بالفرمز ، فيلمح نسوة يتمترن في سيلمان بين المقابر ، ميممات شطر قبر أبيه ! فيوجس في نفسه خيفة ، ويحسب أن جديداً من نكد الحياة قد ألم بالبقية الباقية من دم أجاممنون في الـ (بيلوبيديه !)

ولكنه سرعان ما يعرف بينهن أخته ! أخته بعينها ! هي !

(١) خورس هذه المأساة من هؤلاء السبايا ، فهن اذن منشدات — لا منشدين — كما في المأساة الأولى

هى إلكترا! وهى تحمل كالأخريات زِقاً صغيرا وتقبل قُدُماً إلى المقبرة ...

— « لم أقبلن إذن فى هذه البكرة المقرورة ؟ يالله ! الموت ياسيد الأولب ! صديق بيلاديز ! هلم نختبىء انرى ! »

ويختبىء أورست وصديقه بيلاديز ، وتقبل النسوة فى إثر إلكترا الواهية التى حطم قلبها الحزن ، وأوهن جسمها الأسى ... ويأخذن فى نشيد باك يتفجر فى موسيقاه الدم ... ويمتزج شجوه بالدموع ... ويشرن إلى القبور وبينها هذا القبر ، ثم يتلفتن فيرين القصور النائية وفوقها هذا القصر ! ... فيرثين لآرجوس ويرثين للفتاة المحزونة الواقفة بينهن ... ويصلن ترنيمهن ... فيذكرن نأيهن الذى شط واستطال عن الأوطان ويذكرن هذه الشباك المحكمة من الجواسيس والعسس المنتشرة فوق آرجوس ، تلتقط الأبرياء والمظلومين ليروى من دمائهم إيجستوس ، ولتجهز من شبابهم النضر ضحايا لفسق الملكة ! ...

وتتكلم إلكترا ، بعد أن تذرف عبرة أو عبرتين ، فتستشير المنشدات فيما أمرتها أمها الآثمة أن تفعل بزقاق الخمر ... فى هذا المكان القفر ... إلا من الذكريات !

ـ « إذا صببت قربانى الخمرى ، فماذا أقول ؟ هل أقول « قربانا يا أبى ، من زوجتك التى سفكت دمك غير راحمة ، نُشداناً للذة ، وحرصا مجرماً للهوى ؟ » أم أقول « لتهدأ يا رفات ! ولترضَ بالغدْرة الكبرى التى دُبرت لك ، فلا تنتفضى تحت أطباق الثرى لترسلى الوبل على الظالمين ؟ » ، أم أصبها وألقى الزقاق ثم أنثنى كأن ليس بى من ذلك النائم حزن مقيم ووجد دفين ! »

تكلمن بحق مودتى عليكن ، فنحن فى الهم شركاء ، ولا تحبسن محض النصح عن فتاتكن ، ولا تخشين فى البلاط الدنس أحدا ، فالأقدار قد شاءت أن تبسط كفها القاسية فى هذه المأساة على رقاب السادة وأعناق العبيد ، حتى يكونوا سواسية ... »

ـ حُبًّا يا أميرة وطواعية ... إن قبر أبيك يفرض علينا النصح لك »

ـ « إذن ... ! ! »

ـ « إذن فاضرعى أن يسمع الأصدقاء لصلاتك ، وتصغى قلوبهم لتوسلاتك ! »

« الأصدقاء ؟ ! أى أصدقاء يعنيهم ما أصلى وما أتوسل ؟ »

ـ « أنت ، وذلك النائى عن هذه الديار ! »

ـ « من تعنين بحق الآلهة عليكن ؟ »

ـ « أورست !! أخاك يا أميرة ! ! صلى من أجله واضرعى للآلهة أن تسعفك به ! »

ـ « آه ! الآلهة دَرُّكنَّ إذن ! »

ـ « ثم فكرى فى هذا الدم المسفوك ، وفى أصحابه الأشرار الفجرة ! »

ـ « وكيف ؟ ... ... »

ـ « قد ترسل الآلهة نقمتها ... »

ـ « وله ! وعلى رأس من ؟ »

ـ « على رؤوس المجرمين ! »

« ويلاه ! المجرمين ؟ ! ومن هم المجرمون ؟ ... يا سماء ! ... يا سيد الأولب ! رحماك يا إلهى ! اللهم ارع أخى يثأر لأبى ... من ... ممن يا عذارى إليوم ؟ ! ممن ؟ آه ياروح أبى ! رفرفى فى سمواتك ! وانتفضى فى هيدز ! وتعالىْ فأرسلى أورست يثأر لك ! »

وتترنم المنشدات ، وتأخذ إلكترا فى صب الخمر

— « ياللآلهة ! ماذا أجد ؟ خصلتان من الشعر ؟ »

— « خصلتان من الشعر ؟ من رأس من ياترى ؟ »

وتضع الشعر عند رأسها فيبدو الشبه كبيراً ، فتنزعج ...

— « ماذا بك ؟ فيم تغتمين هكذا ؟ ... »

— « إنهما من رأسه ! ... من رأسه هو ! من رأس أخى ؟ »

— « ربما يا أميرة ! ولكن ! كيف جازف بنفسه فى هذه البرية الموحشة ؟ من أرسله ؟ »

وتنظر إلكترا حول المقبرة فترى آثار أقدام ...

— « وما هذا أيضاً ؟ ... آثار أقدام ! ... لا ريب إذن ! إنها آثاره ياعذارى !

ولكن ! ... إنها آثار رجلين لا رجل واحد ! ...

آه ... قد يكون صديقه ... ياسماء ! ... »

ثم يظهر أورست فجأة ، ويقول :

— « إذن ! قد سمعت السماء صلاتك !

فتنزعج إلكترا ، وتدهش المنشدات ...

— « من ! ! من الرجل ؟ ... »

— « أنا ؟ أنا هو ؟ ... أنا من كنت تهتفين باسمه الآن ! »

— « أوه ! أتخدعنا ياصاح ؟ إذهب ! وحسبنا مانحن فيه ! »

— « أخدعك ؟ إذن أخدع نفسى !

— « سخرية . . . إذهب ، إذهب ! »

— « سخرية . . . ؟ بمن ؟ بى ؟ . . . أسخر بنفسى ؟ ؟ »

— « أفأنت هو حقاً ؟ . . .

— « . . . ؟ ؟ . . . »

ويبكى أورست !

— « . . . ؟ أورست ؟ أخى ؟ »

— « . . . أفى مرية أنت ؟ إلكترا ؟ . . . خذى هذا الشعر أيضاً ... خذى ! هاتى رأسك وانظرى ! ... ... ولكن أنظرى أيضاً ! أليس هذا هو الجلباب نفسه الذى خاطته يداك ؟ إنه هو ... اللحمة والسدى ! ! والصور المطرّزة ! ... لا ... لا ... لا يقتلك فرحك ! ليس لنا الآن أن نفرح بهذا اللقاء المفاجئ بين يدى ذلك القبر المنفرد ! إن لنا لساعة ! ... إ كبحى جماحك ، وهيمنى على فؤادك ! فلنا أعداء ... وهم أقرب الناس إلينا ... »

— ٥ —

ولم يكذب أورست ، فلقد كاد الفرح يقتل إلكترا ؟ إنها لم تره منذ عشرين سنة ؟ ثم ... أليس هو الآن بين يديها بعد طول انتظار ... وأحلام ... وأمانى ؟ ... أو لم تكن هذه اللحظة فقط ، تصلى للسماء ، وتضرع للآلهة ، أن ترسل لها أورست ؟ أليست السماء قد صغت ، والآلهة قد استجابت ؟

لقد كانت أمها رأت فى نومها حلماً مزعجاً ممضاً ... رأت أنها تلد أفعى هائلة ، ذات أنياب ! وأنها تأخذها فتضمها إلى صدرها ... ! يالهول ! إن الملكة تنتفض من نومها مذهولةً مروّعة ! ... وإنها لتذكر أجاممنون فجأة ... تذكره بعد عشرين سنة ! وتذكر أورست المنفى بأمرها فى أقصى الأرض ! وإنها لتهب من السرير الديباجى الوثير ... وتنثر ذراعى إيجستوس الجبارتين الملفوفتين حول خصرها ! ... وإنها لتنطلق فى القصر مذعورة فى أبهائه ... إلى ... بهو العبيد والخدم ... بهو العذارى الطروادبات ، حيث تنام إلكترا على فراش من الشوك ، تفكر فى عشرين سنة مملوءة بالدم ... مملوءة بالدم ... مملوءة بالدم ...

وإن الملكة لتوقظها من أحلامها ، وتأمرها ، وسائر الطروادبات ، فينطلقن إلى المقابر بزقاق الخمر ، يسقين الثرى ، ويقربن إلى أجاممنون ... ويرضين روحه الغَضْبى ! !

ولكن ، ولكن الصلاة تنقلب ، والقربان يصعد إلى السماء فيغضب الآلهة ، فترسل أورست ، ويتحقق الحلم الأسود ... الأفعى ! الأفعى ذات الأنياب ، يتدفق منها السم الزعاف ! !

ويصليان لزيوس صلاة حارة ، ويضرعان إليه أن يكون معهما فيما هما قادمان عليه من ذلك الهول الأكبر ... فاذا ارتفع صوتهما ، وعلا جُؤارُهما ، تقدمت رئيسة المنشدات فابتهلت إليهما أن يتكلما همساً — « فقد تسمعكما أذن شر فيفشل سعيكما وتذهب ريحكما ، ولا تقوم لكما قائمة من بعد ! » فيطمئنها أورست — « ليفرخ روعك أيتها السيدة الصالحة ! فلقد أرسلنى أبوللو لآخذ بثأر أبى ، فان لم أفعل ، فليجمد دمى حتى يكون كالثلج فى عروق ! لا بد أن يشربا بالكأس التى أفرغاها فى فم هذا الثاوى هنا ... يتطلع إلى ما يفعل له ابناه ، وآخر أمارة منه فى هذه الحياة ! »

ويتقدم الفتى والفتاة فيصليان على قبر أبيهما صلاة حارة ، ثم يعطيانه موثقاً صادقاً أن يثأرا له ، ولو كلفهما الأثأر له هذه الصبابات من الدم التى أبقى عليها الأسى فى عروقهما

ويلتمسان منه العون ، ويضرعان إلى السماء أن تكون معهما ، والى الآلهة أن تسدد خُطاها

دريني خشبة

(البقية فى العدد القادم)

البريد الأدبي

وفاة الأستاذ جميل صدقي الزهاوي



كانت أعراض الشيخوخة وأزمات الداء قد أخذت منذ حين تصارع في غير هوادة حيوية القلب الفتي والعصب الشاعر في هيكل الزهاوي ، وكان الزهاوي يأبى أن يهادن الزمن الغلاب ، فهو حركة فكرية دائبة وجملة عصبية ثائرة ، لا يفتر ليله عن الفكر ، ولا يكل نهاره من الحديث ؛ وحديثه المتصل في قصر الالهام ، وفي دار الدفتري ، وفي مقهى (أمين) إذابة لجسمه وإحراق لعصبه ، لأنه لا ينفك منفعلا بشعوره متأثراً بطبعه . وحياة الزهاوي كلها تفكير في قصيدة ، أو قراءة في كتاب ، أو محاضرة في حديث

ذهب الزهاوي يوم الأحد الماضي متأخراً على غير عادته إلى قهوته المختارة في منعطف شارع خالد بن الوليد ببغداد ، وكان أصدقاؤه وتلاميذه وسماره قد تحلقوا حول مقعده الخالي ينتظرون كاهن أبوللو وشاعر الفكر الحديث ؛ دخل متوكئاً على ذراع خادمه محمود ، وهو يبسم لجلاسه بسمة السراج الفاني والأمل الشاحب ؛ ثم شكا بعد شوط من الحديث الممتع ألماً في أعلى كتفه الأيمن عزاه إلى كثرة ما كتب ليلة الأمس ، إذ قضى ليله ينظم قصيدة أخرى يحيي بها مصر على لسان الوفد النيابي الذي سيزورها عما قريب ؛ ثم اجتزأ بأكل قليل من الكمأة ولم يعد إلى الغداء في البيت ، واقترح على صديقه الأستاذ بحري صاحب العقاب أن يذهبا إلى السينما فيشاهدا فلماً مصرياً ورد بغداد منذ قريب ، ولكن الألم اشتد بَرْحه والقلب زاد وجيبه ؛ فأقبل على صديقه وقال بلهجته الخاصة : « يا أفندم ! إن هذا الألم يكاد يقضي عليّ ، وهذه النوبات العصبية تنهك قواي .. يا أرحم الراحمين انقذني من هذه الآلام ! » ثم رغب أن يعود إلى داره ؛ ولم يكد يدخلها حتى أحس بالداء يتسع وبالنفَس يضيق ، فدعوا اليه الطبيب حوالى الساعة الرابعة بعد ظهر الأحد ولكنه كان قد فارق الحياة !

***

ريعت بغداد بالنعي المفاجىء والخبر الأليم ، وملكها الجزع على لسانها الذي أخرسه الردى ، وقلبها الذي أسكته القدر ، وتقاطر الناس على دار الشاعر الهامد يتقدمهم الوزراء والعلماء والنواب والأعيان والقادة ؛ وفي الوقت المحدد للجنازة من ظهر يوم الاثنين خرج النعش محمولاً على أكتاف عشرين طالباً من طلاب الفتوة فوضعوه في السيارة ، وجلس من خلفها الشاعران الكبيران رضا الشبيبي ومعروف الرصافي ، ومن أمامها اثنان من أقارب الفقيد . فسارت تحيط بها السريتان الأولى والثانية من الفوج الأول ، تتقدمها فرق الجوالة وفرق الفتوة المدارس الثانوية والعالية ودور المعلمين ومع كل فرقة إكليلها ، ومشى وراءها الوزراء الحاليون والسابقون والمديرون العامون وكبار الضباط ووجوه البلاد وجماهير الشعب حتى بلغت الأعظمية فصلوا عليها في مسجد الامام أبي حنيفة ؛ ثم حملتها فرقة من فرق الفتوة إلى مرقدها الأخير في باحة « دار العلوم العربية » على مقربة من ضريح الامام الأعظم . تغمد الله شاعر العروبة بالرحمة وعزى فيه الأمة العربية خير العزاء

ذلك خبر تلقيناه بالطيارة آخر الوقت فسجلناه عن الرجل الذي مات ، أما الزهاوي الصديق الشاعر الفيلسوف ، فسنعود اليه ثم نعود

ندوة الزهاوى

روت (البلاد) أن رجال الأدب فى بغداد أبدوا رغبتهم الملحة فى أن تجعل الحكومة دار الأستاذ الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى (ندوة للأدباء) فى بغداد ، واقترح أحدهم بأن تقوم الحكومة بشراء هذه الدار وترتيبها وتنسيق أثاثها بما فيها كتب الأستاذ ومخطوطاته ودواوينه على غرار دار (شكسبير) فى انكلترا ، ودار (جوته) فى ألمانيا ، و (فكتور هوجو) فى فرنسا ؛ وليس ذلك كثيراً على وفاء العراق ، ولا غريباً من حكومة الهاشمى

تأبين الزهاوى

كذلك روت الجريدة أن جمهرة من كبار رجالات العاصمة وأدبائها اعتزموا اقامة حفلة تأبينية كبرى لفقيد العربية ، وشيخ القريض الزهاوى فى يوم أربعينه ، وستكون الحفلة تحت اشراف الدولة ، وسيدعى لها كبار الأدباء والشعراء فى الشرق العربى

أسبوع المتنبى فى الجامعة المصرية

حالت الحوائل السياسية المعروفة دون اقامة هذا الأسبوع فى الموعد الذى حدد له من قبل ، وقد استقر اليوم قرار كلية الآداب على أن يقوم فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية فى الساعة السادسة من مساء الأيام الآتية على النحو الآتى :

الثلاثاء ١٠ مارس : خطبة الافتتاح لصاحب السعادة الأستاذ مدير الجامعة ، و «المتنبى شاباً» للدكتور طه حسين

الأربعاء ١١ مارس : (سيف الدولة الحمدانى) للأستاذ عبد الحميد العبادى ، ثم (المتنبى وسيف الدولة) للأستاذ أحمد أمين

الخميس ١٢ مارس : (كافور الأخشيدى) للدكتور حسن ابراهيم حسن ، ثم (المتنبى فى مصر) للأستاذ أحمد الشايب

السبت ١٤ مارس : (المتنبى من خروجه من مصر الى وفاته) الأستاذ مصطفى السقا ، ثم (أسلوب المتنبى) للأستاذ عبد الوهاب جوده

الاثنين ١٦ مارس : (المتنبى والنحاة) الأستاذ ابراهيم مصطفى ، ثم (فلسفة المتنبى) للأستاذ مصطفى عبد الرازق

الثلاثاء ١٧ مارس : (مكانة المتنبى فى الأدب العربى) للدكتور طه حسين

١ — قبر أبى عبيدة عامر بن الجراح . ٢ — الرقيم

قرأت فى الصفحة ٣٧٦ من المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية التى يقوم بترجمتها لفيف من شباب مصر الناهض ، أن أبا عبيدة عامر بن الجراح توفى بالطاعون عام ١٨ هـ فى أمواس وأن قبره بجامع الجراح فى دمشق

والراجح أن أبا عبيدة توفى فى شرق الأردن بالطاعون الذى ينسب الى عمواس (لا أمواس كما ترجمت خطأ) وعمواس هذه قرية تقع بين القدس ويافا . ولعل وباء الطاعون تفشى فيها أولاً ثم انتشر فى جميع البلاد السورية فمات به خلق كثير منهم أمين الأمة ومعاذ بن جبل وضرار بن الأزور وشرحبيل بن حسنه ويزيد بن أبى سفيان . ودفنوا جميعاً فى غور الأردن ، ولا تزال قبورهم مائلة للعيان عدا قبر يزيد الذى اندثرت معالمه ولم يبق له أثر

وقد رمم ضريح أبى عبيدة فى عهد السلطان بيبرس كما جاء فى الكتابة المنقوشة عليه ، وهذه صورة عنها :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«وأمر بانشاء هذه القبة المباركة على ضريح أبى عبيدة الجراح رضى الله عنه مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس ابن عبد الله قيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله مما وقفه عليه وحبسه من نصف مناصفات دير معل تونين من حمص من عمل حصن الأكراد المحروس تحبيساً مؤبداً دائماً أثاب الله واقفه بجوده وكرمه يوم يجزى الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين . وذلك بنظر الأمير الأعز الأجل الكبير نسله ناصر الدين الجامنكى الظاهرى السعدى نائب مملكة عجلون المحروسة فى ذى الحجة سنة ستمئة وسبعة وخمسون»

***

وجاء فى الصفحة ٢٤٣ من المجلد الثانى من دائرة المعارف الاسلامية أيضاً أن الرقيم «قد تكون جهة فى شرق الأردن قريبة من عمان»

أقول قد تكون الرقيم هذه قرية الرجيب التى تقع الى الشرق من عمان على مسافة تسعة كيلو مترات منها ، لأن البدو كثيراً ما يقلبون القاف جيما والميم باء

ويوجد فى هذه القرية مغاور عديدة نمت بجوارها أشجار برية قديمة العهد . والسبب فى قدمها هو احترام البدو لها

وتحريمهم قطعها لاعتقادهم أنها كانت تظلل الكهف الذى نام فيه الفتية المذكورون فى القرآن ولبثوا فيه ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا وبقدس البدو والفلاحون هذه الكهوف كتقديسهم لأى مزار أومقام

والرقيم من المنازل التى كان يرتادها الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك للهو والصيد، وفيه يقول الشاعر:

أمير المؤمنين اليك نهوى على البخت الصلادم والعجوم
فكم غادرت دونك من جهيض ومن نمل مطرحة جذيم
يزرن على تنائيه يزيداً بأكناف الموقر والرقيم
تهنئه الوفود إذا أتوه بنصر الله والملك العظيم

والموقر المذكور بجانب الرقيم هو قصر أو حصن أموى — ولعله من بناء يزيد — يقع على مقربة من الرقيم (أو الرجيب)

وقد ورد فى أحسن التقاسيم للمقدسى أن الرقيم «قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية فيها مغارة، لها بابان صغير وكبير، ويزعمون أن من دخل الكبير لم يمكنه الدخول من الصغير. وفى المغارة ثلاثة قبور تسلسل لنا من أخبارها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: بينما نفر ثلاثة يتماشون إذ أخذهم المطر فمالوا إلى غار فى الجبل، فانحطت الى فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم»

وهذا القول ينطبق تمام الانطباق على ما نشاهده اليوم فى قرية الرجيب، وما نسمعه من القصص والأساطير التى تروى عن كهوفها ومغاورها؟ (عمان) بهاء الدين طوقان

مديرية أسوان

قال الأديب رشوان احمد فى مقاله المنشور فى العدد الماضى من الرسالة: «إن الملك منوسوفيس (وهو الملك الثانى عشر من ملوك الأسرة السادسة) أرسل القائد هرخف إلى بلاد بنت» ظناً منه أوخطأ فى مصدر النقل أن هذه البلاد جنوب صعيد مصر لقوله «وفى عهد الأسرة الثانية عشرة أرسل امرتسن الأول ثانى ملوك هذه الأسرة القائد هونو بطريق قفط والقصير لجباية الجزية ...» والمعروف عن بلاد بنت أنها بلاد الفينيقيين ومنها صيدا وصور

أما هجرة المصريين فى عهد قلاقل الأسرة الخامسة عشرة فقد كانت إلى نبتة أونباطى وهى عاصمة بلاد النوبة لا أتيوبيا، ولم تكن مملكة أتيوبيا مجاورة للمملكة المصرية إلا بعد غزوة ملوك مصر للنوبة والكوش، وقد غزا بمنخى ملك النوبة مصر أيام حكومة الآشوريين، وهذه الغزوة هى التى يخطئ فيها بعض المؤرخين فيسمونها غزوة الزنوج لمصر

وقد ذكر أن «رمسيس غزا بلاد أتيوبيا وأقام هيكلا عند كلايشة، ويسمى بيت الولى عند سكان كلايشة» ولكن المعروف أن رمسيس الثانى غزا النوبة وسطر حروبه وانتصاراته على معبد أبى سمبل، وأما كلايشة وهيكلها المسمى بيت الوالى «لا بيت الولى» فيقال إن الهيكل من عمل امرتسن الثانى.

ولم تكن كلايشة وأبو سمبل تابعتين لأتيوبيا ولا لكوش فى وقت ما، وما زالتا من القرى النوبية، وهما اليوم من أعمال مركز الدر، فكلايشة فى أقصى الشمال وأبو سمبل فى أقصى الجنوب

والكاتب جغرافى ولكنه لم يلتفت إلى تقسيم وادى النيل فى كلامه التاريخى، فالمعروف جغرافياً أن مصر جنوبها النوبة، وجنوب النوبة السودان، وفى الجنوب الشرقى من السودان أتيوبيا أو الحبشة كما تسمى الآن

ولم يذكر غزوة على بابا ملك النوبة أيام عنبسة آخر ولاة العباسيين لمصر واستيلائه على صعيد مصر، وأما الفنج فقد كان عاصمة ملكهم فى سنار (لا فى سناد) وقد تكونت مملكة الفنج فى حوض النيل الأزرق واستولت على جزء من أتيوبيا، والجزء الجنوبى من النوبة

أما حكومة الكشاف التى بدأت فى بلاد النوبة بعد فتح السلطان سليم، فقد كان الحكام من الأتراك؛ وأول من تولى حكم النوبة وخاصة الاقليم الممتد من الشلال الأول حتى آخر مديرية دنقلة كان إلبانياً يدعى حسن قوسه وهو رأس أسرة الكشاف الحالية بمركز الدر، ولم يتعرض محمد على باشا لاحفاده فى حكمهم عند غزوته للسودان، لأن الحاكم قدم له فروض التابعية وساعده على نقل الجيوش إلى السودان، وقد رضى بتقديم الضرائب لوالى مصر على أن يعفى أبناء الاقليم من الجندية، وكان ذلك حتى اليوم، ولكن نفوذ الحكام أخذ يتلاشى إلى أن قضى على سلطة الكاشف الروحية فى أواخر أيام توفيق باشا. أما معاهدة ١٨٩٩ فتنص على أن حدود مصر هى «فرس» جنوب حلفا بقليل، وما فرس إلا جزيرة فى عرض النهر، ولكن الانجليز وضعوا حدهم أمام فرس على ضفتى النيل الشرقية والغربية مع أن هذا الحد ليس بفاصل طبيعى : يوسف، سميع

4 me Année, No. 140.

Lundi 9-3-1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٤٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٥٤ — ٩ مارس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

المعنى السياسى فى العيد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

ما أشد حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهماً جديداً نتلقاها به ونأخذها من ناحيته فتجئ أياماً سعيدة عاملة تنبه فينا أوصافها القوية وتجدد نفوسنا بمعانيها ، لا كما تجىء الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى ، أكبر عملها تجديدُ الثياب ، وتحديد الفراغ ، وزيادة ابتسامة على النفاق

فالعيد إنما هو المعنى الذى يكون فى اليوم لا اليومُ نفسُه ، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم ؛ وكان العيد فى الإسلام هو عيدَ الفكرة العابدة ، فأصبح عيدَ الفكرة العابثة ؛ وكانت عبادة الفكرة جمعها الأمة فى إرادة واحدة على حقيقة عملية ، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة ، له مظهر المنفعة وليس له معناها

كان العيد إثبات الأمة وجودَها الروحانى فى أجمل معانيه ، فأصبح إثباتَ الأمة وجودَها الحيوانىَّ فى أكثر معانيه ؛ وكان

فهرس العـــدد

٢٤ ه ٦

يوم استرواح القوة من جِدها ، فعاد يوم استراحة الضعف من ذله ؛ وكان يوم المبدأ ، فرجع يوم المادة !

***

ليس العيد إلّا إشعارَ هذه الأمة بأن فيها قوةَ تغيير الأيام ، لا إشعارها بأن الأيام تتغير ؛ وليس العيد للأمة إلّا يوماً تعرض فيه جمالَ نظامها الاجتماعى ، فيكون يومَ الشعور الواحد فى نفوس الجميع ، والكلمة الواحدة فى ألسنة الجميع ؛ يوم الشعور بالقدرة على تغيير الأيام ، لا القدرة على تغيير الثياب . . . . كأنما العيد هو استراحة الأسلحة يوماً فى شعبها الحربى

وليس العيد إلّا تعليم الأمة كيف تتسع روحُ الجوار وتمتدّ حتى يرجع البلدُ العظيمُ وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملى ، وتظهرُ فضيلةُ الإخلاص مستعلنةً للجميع ، ويُهدى الناس بعضُهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة ، وكأنما العيدُ هو إطلاقُ روح الأُسرة الواحدة فى الأمة كلها

وليس العيدُ إلّا إظهار الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة ؛ ولا ذاتية للأمم الضعيفة ؛ ولا نشاط للأمم المستعبدة . فالعيدُ صوتُ القوة يهتف بالأمة : أخرجى يومَ أفراحك ، أخرجى يوماً كأيام النصر !

وليس العيدُ إلّا إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزةً بطابعها الشعبى ، مفصولةً من الأجانب ، لابسةً من عمل أيديها ، معلنة بعيدها استقلالين فى وجودها وصناعتها ، ظاهرة بقوتين فى إيمانها وطبيعتها ، مبتهجة بفرحين فى دورها وأسواقها . فكأن العيد يوم يفرح فيه الشعب كله بخصائصه

وليس العيد إلّا التقاء الكبار والصغار فى معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة فى طريقها ، وترك الصغار يلقون درسَهم الطبيعى فى حماسة الفرح والبهجة ، ويعلّمون كبارهم كيف توضع المعانى فى بعض الألفاظ التى فرغت عندهم من معانيها ، ويُبَصّرونهم كيف ينبغى أن تعمل الصفات الإنسانية فى الجموع عمَل الحليف لحليفه ، لا عمل المنابِذ لمنابِذه . فالعيدُ يومُ تسلط العنصر الحىّ على نفسية الشعب

وليس العيد إلّا تعليم الأمة كيف توجّه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت ؛ فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتُخرّجَ عليها الأمثلة ، فتجعلَ للوطن عيداً مالياً اقتصادياً تبتسم فيه الدراهم بعضُها إلى بعض ، وتخترع للصناعة عيدَها ، وتوجد للعلم عيدَه ، وتبتدع للفن مجلىَ زينته ؛ وبالجملة تنشئ لنفسها أياماً تعمل عمل القوّاد العسكريين فى قيادة الشعب ، يقوده كل يوم منها إلى معنى من معانى النصر

***

هذه المعانى السياسية القوية هى التى من أجلها فُرض العيدُ ميراثاً دهرياً فى الإسلام ليستخرج أهل كل زمن من معانى زمنهم فيضيفوا إلى المثل أمثلةً مما يُبدعه نشاط الأمة ، ويحققه خيالها وتقتضيه مصالحها

وما أحسب الجمعة قد فرضت على المسلمين عيداً أسبوعياً يُشترط فيه الخطيب والمنبر والمسجد الجامع ، إلّا تهيئةً لذلك المعنى وإعداداً له . ففى كل سبعة أيام مسلمة يومٌ يجئ فيُشعر الناسَ معنى القائد الحربى للشعب كله

ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلّا رجالٌ فيهم أرواحُ المدافع ، لا رجال فى أيديهم سيوف من خشب . . . .

مصطفى صادق الرافعى

رسوم الفطر والأضحى
فى عهد الدولة الفاطمية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدولة الفاطمية فى مصر دولة البهاء والبذخ والترف فى الحياة العامة وفى الحياة الخاصة ؛ وكانت مواكب الخلافة الفاطمية ورسومها الفخمة دائماً مثار الروعة والاجلال ، وكانت أعيادها ومواسمها الباهرة مثار البهجة والفرح العام ؛ وما زالت آثار من تلك الرسوم والمواسم الشهيرة تمثل فى كثير من أعيادنا ورسومنا وتقاليدنا الدينية ؛ فاذا رأيت بعض هـــذه الأعياد والمواسم يجنح إلى نوع من الفخامة ، وإذا رأيت بعض هذه الرسوم يتشح بأثواب من الرونق والبهاء ، فانما ذلك يرجع فى الأغلب إلى أثر الدولة الفاطمية فى بث هذه الروح الباذخة البهجة إلى كثير من نواحى الحياة العامة والخاصة فى مصر الاسلامية

وربما كان من الشائق الممتع ، وقد قضى المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها عيد الأضحى المبارك ، أن نقف على طرف من الرسوم والتقاليد التى كانت تجرى عليها الخلافة الفاطمية فى الاحتفاء بهذا العيد الاسلامى الجامع ؛ وقد كان للخلافة الفاطمية أعيادها ومواسمها الدينية الخاصة ، إلى جانب العيدين الاسلاميين الرئيسيين ، وهما عيد الفطر وعيد الأضحى ؛ وكانت تحتفى بهما فى حفلات ومظاهر رسمية رائعة ؛ وكان موكب العيــد من أعظم مواكب الخلافة الفاطمية ؛ ففى ليلة عيدالفطر كان يمقد فى الليل بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، وتنثر عليه أنواع الفطائر والحلوى الشهية مما أعد فى دار الفطرة الخلافيــة ؛ فاذا انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجالسه ، وفتحت أبواب القصر والايوان على مصاريعها ، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخلافى وتخاطفوا ما عليــه بحضور الخليفة ووزرائه ؛ وحينما تبزغ الشمس يركب الخليفة فى موكبه إلى الصلاة ويخرج من باب العيد إلى المصلى ؛ وقد انتهت إلينا عن هــذه المواكب الفاطمية من أقوال المؤرخين المعاصرين صور تبهرنا بروعتها وجمالها ؛ ونحن نحيل القارئ على تلك الفصول الشائقة البديعة التى ينقلها إلينا المقريزى عن هذه المواكب الخلافية الرائعة [1] ونكتفى بأن ننقل اليه هذه الصورة الوجيزة من أقوال المسبحى مؤرخ العصر الأول من الدولة الفاطمية ، قال :

« وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى ، والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والعزيزية والأخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب . وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر ، والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة عليها الرجلة بالسلاح والزرافة ، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف » [2]

فاذا عاد الخليفة من الصلاة كان ثمة سماط آخر أبهى وأروع وهو السماط الثانى لعيد الفطر ؛ فيجلس الخليفة فى مجلسه وأمامه مائدة من فضة يقال لها المدورة وعليها أوانى الذهب والفضــة غاصة بأفخم الأطعمة وأشهاها ؛ وقبالة المائدة الخلافية سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو ، وقد نثرت عليه الأزهار والرياحين [3] وصفت على حافتيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى البديعة ، وجلس إليه رجال الدولة والعظماء والأكابر من كل ضرب وأكل من شاء دون الزام حتى لا يرغم على الافطار من لا يرى الافطار فى ذلك اليوم ؛ وعند الظهر ينفض المجلس وينصرف الناس

* * *

وأما عيد الأضحى أو عيد النحر كما كانت تؤثر تسميته فى ظل الدولة الفاطمية تنويها بأبرز مظاهره ألا وهى نحر الأضحية ، فقد كان يحتفى به بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو المتبع فى صلاة عيــد الفطر ثم يختص بسماط حافل يقام فى أول يوم منه . بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيــه ثلاث مرات متوالية فى أيامه الثلاثة الأولى ، ويمتاز بالأخص باشتراك الخليفة نفسه فى اجراءات النحر ؛ وكان قيام الخليفة بهذا العمل من أروع المظاهر والمراسيم التى جرت عليها الخلافة الفاطمية فى الأعياد العامة . فلنتصور

(١) راجع خطط المقريزى (الطبعة الأهليــة) ج ٢ ص ٢١٤ إلى نهاية المجلد (٢) الخطط — ج ٢ ص ٣٢٣

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٢٠ ، ومن هذا نرى أن تزيين المائدة بالأزهار ليس عادة محدثة وليس بالأخص فكرة أفرنكية

أمير المؤمنين متشحاً بثوب أحمر قان يسير فى موكبه ماشياً إلى دار النحر الخلافية — وقد كانت تقوم فى ركن خارجى من القصر — وبين يديه الوزير وأكابر الدولة والأساتذة المحنكون (1) (وهم المشرفون على شؤون الخاص) ويكون قد اقتيد إلى النحر واحد وثلاثون فصيلا وناقة أمام مصطبة يعلوها الخليفة وحاشيته، وقد فرشت حافتها بأغطيـة وبطائن حمر يتقى بها الدم، وحمـل الجزارون كل بيده إناء مبسوطا يتلقى به دم الضحية؛ ثم تقدم رؤوس الأضاحى إلى الخليفة واحدة فواحدة، فيدنو منها وبيده حربة يمسك بها من الرأس، ويمسك القاضى بأسـفل سنانها ويجعله فى عنق الدابة فيطعن بها الخليفة، وتجر من بين يديه حتى يأتى عليها جميعاً، وكلما نحر الخليفة رأساً جهر المؤذنون بالتكبير؛ وتقدد الضحية الأولى، وتفرق قطعاً صغيرة فى الأولياء والمتقدين؛ وفى اليوم التالى ينتظم نفس الموكب إلى المنحر، وينحر الخليفة سبعة وعشرين رأساً؛ وفى اليوم الثالث ينحر ثلاثة وعشرين؛ ويجرى توزيع لحم الأضحية خلال هـذه الأيام الثلاثة على أرباب الرسوم فى أطباق خاصة للتبرك، ويقوم بالتوزيع قاضى القضاة وداعى الدعاة، ويخص نقباء الدعوة وطلبة دار الحـكمة (دار العلم) بقسط من اللحوم الموزعة؛ فاذا انقضت مراسيم النحر خلع الخليفة عند العودة إلى القصر على الوزير ثيابه الحمر ومنديلا ملوكياً بغير سمة، والعقد المنظوم، فيركب الوزير وعليه الخلع المذكورة فى موكب حافل من القصر شاقا القاهرة حتى باب زويلة، ثم يدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة؛ وبذلك تنتهى حفلات النحر

وكان الخليفة العزيز بالله أول من سن سـنة إعطاء الضحايا وتفريق لحومها فى أولياء الدولة على قدر مراتبهم، وكان ما يخرج منها غير ما يذبحه الخليفة بنفسه يبلغ بضعة آلاف من مختلف الأصناف هذا عدا ما يفرق فى أرباب الدولة من الخلع والأموال؛ وقد انتهت إلينا من روايات المؤرخين المعاصرين تفاصيل دقيقة عن مقادير النفقة فى تلك المواسم، ومنها أن نفقة سماطى الفطر والأضحى كانت تبلغ زهاء أربعة آلاف دينار؛ ويذبح من البقر والجاموس والنوق فى أيام النحر نحو ألفين وخمسمائة، ومن الغنم ألفين وأربعمائة؛ وقد أشرنا إلى ما كان يوزع فى عيد الفطر فى أرباب الدولة من صنوف الفطائر والحلوى، وكيف كان يسمح للكافة باقتحام إيوان القصر لنهب السماط الخلافى أمام عينى الخليفة ذاته؛ وعلى الجملة فقد كانت الخلافة الفاطمية تبـدى فى المواسم العامة من ضروب البذخ والبهاء والبهجة، ما يسبغ على هـذه المواسم أثوابا ساطعة من الرونق والجمال والسحر

وقد كان هـذا البذخ الذى تنثره الخلافة الفاطمية حولها ينفث فى الشعب ذاته حب الظهور والمرح، فكانت القاهرة تلبس فى تلك المواسم حلة أنيقة باهرة وتحفل شوارعها ومحالها ودورها بأنواع الزينة القشيبة؛ وكانت فى الليل تبدو كأنها شعلة ساطعة من الأنوار؛ وكان القصف والمرح يخرجان أحيانا فى تلك المواسم عن حد الاعتدال حتى أن ولاة الأمر لجأوا غير مرة إلى إلغاء بعض الرسوم وتقييد بعض الحريات؛ وفى عهد الحاكم بأمر الله ألغى الاحتفال ببعض المواسم التى كان القصف يخرج فيها عن حدود الاعتدال مثل عيد الشهيد، وحرم شرب الخمور والركوب فى الخليج، وخروج النساء، واشتد الحاكم فى ذلك حتى كانت القاهرة تغدو أحياناً فى أثواب قاتمة من السكون والاقفار والروع. بيد أنه فيما خلا هذه الفترات القليلة، كانت الخلافة الفاطمية دائما عند تقاليدها الباهرة تنثر حولها حلل البذخ والبهاء والترف فى كل المواسم والمناسبات

* * *

هـذه لمحة سريعة فيما كانت ترتبـه الخلافة الفاطمية من الحفلات والرسـوم الباذخة لاستقبال العيدين الاسلاميين الرئيسيين؛ ولم تكن الخلافة الفاطمية أقل بذخا وبهاء فى الاحتفاء بباقى المواسم والأعياد الأخرى كيوم عاشوراء، ويوم الغدير، ويوم النيروز، وعيد الشهيد وغيرها، فقد كانت تسبغ عليها جميعاً أقصى مظاهر الروعة والفخامة، وكانت هـذه المواسم والأعياد لدى الشعب المصرى أياماً مشهودة تفيض بهجة وحبوراً؛ وكانت الخلافة الفاطمية ترمى بترتيب هـذه الرسوم الباذخة إلى غايتين: الأولى أن تبث هيبتها الدينية بما تسبغه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والرسوم، والثانية أن تغمر الشعب

(1) الأساتذة المحنكون هم جماعة من أكابر موظفى القصر الفاطمى يتولون أخص شؤون الخليفة، ومنهم زمام القصر، وشاد التاج الشريف، وصاحب بيت المال، وصاحب الدفتر، وصاحب الرسالة، وزمام الأشراف الأقارب، وصاحب المجلس، وقد كانوا أكثر الناس اطلاعا على أسرار الخليفة.

التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

قرأت في العهد الأخير تقريرين عن التعليم في مصر كتبهما عالمان استقدمتهما وزارة المعارف لينظر كل منهما في ناحية خاصة من نواحي التعليم ودرجاته ، وأفضى كل منهما بآراء ناضجة فيما كلف به من بحث . فكتب مستر مان مفتش المدارس وكليات المعلمين بادارة المعارف بانجلترا تقريراً مدعماً بالاحصاءات فائضاً بالأفكار والنظريات ، وكتب مسيو كلاباريد أستاذ علم النفس في كلية العلوم بجامعة جنيف تقريراً آخر عمد فيه إلى نظريات حديثة في علم النفس والتربية لا نعلم مقدار ما فيها من خطأ أو صواب ، لأن الحكم على مثل هذه الأشياء يجب أن يرجع فيه إلى أهل الاختصاص ، وإن كانت النظرة العاجلة التي ألقيتها على هذا التقرير قد أقنعتني ، وقد أكون مخطئاً ، بأن نظريات كلاباريد ربما تكون قد أسلمت به إلى نتائج لا يؤيدها الواقع ولا تسندها الحقائق التي يعرفها كثير من المصريين معرفة أولية لا تحتاج إلى نظر علمي ولا إلى استنتاج من مقدمات

هذا إلى أن العالمين الأوربيين إن كانا قد بحثا في التعليم المصري كل من ناحية اختصاصه ، فان بحثهما إنما جاء قاصراً على الدائرة التي عينتها له وزارة المعارف وفي ضوء المعلومات التي زود بها ، وفي الحدود التي رسمت للتعليم في مصر منذ خمسين سنة مضت . فان كانا قد أحسا بشيء من النقص ، أو وقع لهما شيء يستحق النقد ، فانما وقع لهما فيما هو داخل في هذه الحدود أو مشمول بها . فلم ينظرا مثلا فيما يجب أن يؤدي التعليم في مصر من حاجات الحياة العامة فيها ، وفي علاقة التعليم بالحالات الجديدة التي تكتنف الحياة المصرية في تطورها الحديث . على أن هذا لا ينزل من مكانة ما كتب العالمان الفاضلان أو يقلل من قيمة آرائهما . فان المصريين أنفسهم أحق بأن يتلمسوا مكان النقص الذي يحسونه في التعليم من ناحية علاقته بالحياة عامة ، وبالحالة الاجتماعية خاصة

ومهما يكن من أمر الباحث الأوربي في الشؤون المصرية ، ومهما يكن من علمه وتمكنه فيه ، فانه من المتعذر عليه كما قال مستر مان في تقريره أن يلم به إلمام المحيط بالحقائق الأساسية التي يحس بها المصريون أنفسهم من غير استعانة بآراء أو نظريات . ذلك بأن لكل أمة إحساساً بما يعتورها من نقص لن يفقه الغريب عنها شيئاً من خصائصه إلا بالجهد الشديد وطول التأمل والتفكير . مثل ذلك أن التقريرين اللذين وضعهما العالمان الأوربيان لم يلمسا الحقائق الأولية في حياتنا الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم ؛ ذلك في حين أن كل مصري يشعر شعوراً عميقاً بأن عصراً من عصور التطور الفكري قد آذن بأن تشرق شمسه في سماء مصر ، وأن عصراً آخر قد أخذ في الأفول . أضف إلى ذلك أننا نشعر بأن حالاتنا الاجتماعية قد اتجهت في تطورها متجهاً ألقى على التعليم في مصر عبئاً جديداً لم يشعر به آباؤنا ، وقد نشعر بعض الأحيان بشيء من القلق ، وقد نشعر بأن هذا القلق قد يتضاعف بعض الأحيان حتى ليذهب بالبعض إلى حد اليأس من

المصري بسيل من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة ، وأن تأسره بمظاهر جودها الوافر ، وأن تنثر عليه ما استطاعت من آيات البهجة والمرح ، كل ذلك لكي تكسب ولاءه وعرفانه وتأييده ؛ وقد كانت الخلافة الفاطمية تشعر دائماً أنها لم تكسب كل ولائه وتقديره ، وان سياستها المذهبية تبث إلى نفسه شيئاً من الوحشة والريب ؛ بيد أنه يجب أن نقول من جهة أخرى إن الدولة الفاطمية كانت بحق دولة البهاء والبذخ الواسع ، وكانت هذه الرسوم والمظاهر الرائعة من بعض مظاهر قوتها وعظمتها وغناها ؛ وكانت هذه الروح الفخمة الباذخة تطبع كل رسومها ومظاهرها ، في القصر وفي الخارج ، وفي السياسة والدين والادارة ، وفي الحياة العامة والحياة الخاصة ؛ وقد سرت آثار كثيرة من هذه المظاهر والرسوم الفخمة الشائقة إلى كثير من القصور والدول الاسلامية التي تعاقبت على مصر بعد الدولة الفاطمية ؛ وقد نلمس إلى اليوم في بعض الرسوم والنظم الدينية ، وفي بعض مظاهر أعيادنا ومواسمنا لمحات من آثار البذخ الفاطمي

محمد عبد الله عنان

مستقبل آلاف الطلبة الذين يتعلمون اليوم فى المدارس وتخرجهم الكليات زرافات كل عام . بل إننا أخذنا نشعر بكل ما شعر به الأستاذ هنرى جيمس عند ما قال : إن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة الدعائم قوية الأركان فى جمعية يكتب على المتعلمين فيها عيش الفقر والذلة ، لأمر فيه من البعد عن حقائق الطبع البشرى بقدر ما فى محاولتك بناء هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته من بعد عن حقائق الطبيعة الكونية

ولقد يمارى مفكر فى أن ذلك الشعور العميق الذى يكتنف تفكير الكثيرين من المصريين إنما له أسبابه الغامضة البعيدة عن ادراك الذين لا يفكرون فى التعليم إلا بقدر ما يفكرون فى أداة تخرج متعلمين ، ولا يزيد خطره فى نظرهم عن خطر آلة تخرج أحذية أو لفافات تبغ فى نظر عامل يجهل حقيقة الآلة التى يديرها ، ولا يعرف عنها إلا أمرين : شكلها الظاهر ، وثمرها الذى يجنيه منها

على أن الثمر الذى أخذنا نجنيه من أداة التعليم عندنا قد جدت عليه ظاهرتان جديدتان : الأولى أن طعمه قد أخذ يتغير ، والثانى أن صنفه أخذ ينحط مع كثرة الانتاج . ولا شك فى أنهما ظاهرتان يعلل بهما كثير من الظواهر الاجتماعية التى تمر علينا فى كل يوم صور منها ، وأخصها كثرة العاطلين من المتعلمين ، والجهد الذى يلقاه المجدون منهم فى تحصيل رزقهم الحلال

ولا ريب فى أن هذه الظاهرات ترجع إلى أسباب أخذت تتجمع منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، حتى أفضى بنا التطور إلى الحالة التى تكتنفنا اليوم . ولما كان الغرض الذى أرمى اليه من نشر هذه المقالات إنما يتجه إلى وصف العلاقة التى تقوم اليوم بين التعليم والحالة الاجتماعية والمهمة الكبرى الملقاة على عاتق التعليم فى تنظيم الحالة الاجتماعية ودرء الأخطار التى قد يتعرض لها المجتمع المصرى بقدر ما فى مستطاع التعليم أن يدرأ منها ، وجب أن أظهر أولا أن أشد الأخطار التى يتعرض لها الكيان الاجتماعى فى مصر من ناحية التعليم أن الشاب المتعلم فى مدارسنا العليا يفقد مع التعليم استقلاله الذاتى ، باعتباره قوة لها حقيقة مستقلة عن القوى الأخرى التى تكتنفها . وقد يشعر بذلك الشاب المتعلم ، وقد يشعر به الذين يعلمون أولادهم ، حتى لقد نجد أن بعض القادرين على التفكير ينظرون نظرة تشاؤم إلى المستقبل القريب ، وإن لهم فى ذلك لحقا ، وإن لهم فى تشاؤمهم لأسبابا تبرره وحقائق تعلله ، ومن أجل أن نظهر تطور الحالات التى أفضت بنا إلى هذه النتائج ينبغى لنا أن نذكر حقائق خمسا نرجع فيها إلى تاريخنا بعض الشىء :

أولا : حكمت مصر منذ أبعد العصور على نظام تباين الطبقات الاجتماعية ، وعلى أساس الفوارق فى الحقوق العامة ؛ غير أن الطبقات أخذت تتقارب حقوقها الطبيعية وتنتفى من بينها الفوارق من عهد قريب ، فالكل الآن متساوون أمام القانون ، ولكل مصرى حق الانتخاب والحكم من طريق مجلس النواب . فأخذ مظهر وجود طبقتين متمايزتين فى الحقوق المدنية يزول شيئاً بعد شىء ، فلقد كانت مصر القديمة مكونة من ثلاث طبقات هم : الحكام والكهنوت والشعب ؛ ومنذ غزو الاسكندر وحكم البطالسة إلى حكم المماليك حتى بدء الاحتلال الانجليزى كانت هنالك طبقات تختلف حقوقها وامتيازاتها ؛ أما الآن فقد انتفت هذه الفوارق نظرياً ، ونقول نظرياً لأننا لا نزال نشكو من بعض مساوئها ، بالرغم من أن أصغر فلاح فى مكنته أن يقاضى أعظم عين فى البلاد ، وأن يأخذ حقه منه إن كان له حق

ثانياً : بالرغم من أن نظام الطبقات المتباينة فى الحياة والحقوق هو النظام الذى اتبع فى مصر منذ أبعد العصور ، وبالرغم من أن حالة مصر الاجتماعية من خمسين سنة مضت كانت تكفل الاستقلال المادى لطبقتى ذوى الامتيازات والفلاحين معاً ؛ بأن تحمل طبقة الفلاحين ، وهى الطبقة العاملة ، العبء كله ، بأن تكفى نفسها وتكفى حاجات حكامها بقدر الاستطاعة ، فان الحالة الجديدة ، حالة التساوى أمام القانون فى الحقوق ، قد أحدثت ظاهرة اجتماعية جديدة ، كان سببها أن الفلاح قد خرج من كونه عاملا لا حق له فى ملكية الأرض ، إلى رجل حر له حق العمل متى شاء والانقطاع عنه متى أراد ، وله فوق ذلك حق الملك ، بل نقول إنه انتقل من عامل إقطاعى إلى رجل حر ، فقامت على هذه الحال ظاهرة اجتماعية جديدة

ثالثاً — هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة التي قامت على تحرير الفلاح المصرى وعتقه من نظام الاقطاع الذى ظل خاضعاً له طوال القرون ، قد قلب آية الحياة الاجتماعية فى مصر . فان هذا الفلاح لم يكن ينقصه شىء ليكون مستقلا تمام الاستقلال فى حياته إلا قانون يحميه ، ونظام اجتماعى يجعله يشعر بأنه قوة لها أثر فى الحياة ؛ فلما وقع ذلك بالفعل أصبحت الطبقة الدنيا أى طبقة الفلاحين المسخرين التى كان عليها أن تحفظ استقلالها واستقلال الطبقة التى تعلوها ، سيدة نفسها ، وأصبحت طبقة الملاك وأصحاب الجاه كما كانت فى الحالة الأولى عبئاً عليها ، ولكن فى صورة جديدة ، هى صورة أخذت شكل صراع خفى بين طبقتين

رابعاً — ولقد انحصر مظهر هذا الصراع فى طبقة تحررت من قيود النظام الاقطاعى وهى الطبقة المنتجة العاملة بيدها ، فأصبحت مستقلة بنفسها . وهى طبقة قادرة على الحرث والغرس والحصاد فى بلاد لن يزرعها غيرها ، ولن ينتفع بها غيرها ؛ فهى مستقلة ما دامت من فوق الأرض التى يغذيها النيل بشرايينه المحيية ؛ وهذه الخطوة الجديدة أحدثت ظاهرة أخرى

خامساً — عكفت الطبقة الأخرى ، طبقة أصحاب الجاه على مطلب آخر تتقى به النتائج التى تترتب على استقلال الطبقة العاملة ولم تجد من وسيلة أقرب من تعليم أولادها ليكونوا حكام البلاد . ولكن طبقة الفلاحين أخذت تزاحم الطبقة الأولى فى هذا المضمار ، فأخذ الأثرياء منهم يعلمون أولادهم ليكونوا حكاما فنجحوا . ولكن بعد أن ملئت الحكومة بما تحتاج من حكام وكتبة قام شعور جديد بأن أولاد موظفى الحكومة والأثرياء الذين أخرجوا أولادهم من محيط الفلاحة الى محيط العلم أقل استقلالا مع تعلمهم من أبناء الفلاحين الجهلاء . وأصبحنا الآن والموقف بين متعلم عاطل يتطلع الى مرتب أبيه أو ثروته ليعيش ، وفلاح جاهل لا عمدة له فى الحياة إلا خبرته الموروثة فى فلح الأرض وقوة عضلاته ومحراثه وفأسه وماشيته . فهو رجل مستقل تمام الاستقلال فى الحياة ، على العكس من المتعلم العاطل . فاذا كانت الغاية من التعليم تخريج رجال مستقلين يكافحون فى الحياة كفاح المنتج لا كفاح المستغل لكفاح غيره ، رأينا أن التعليم لم يف ببلوغ الغاية الأخيرة منه ، ما دمنا نرى أن ابن الفلاح بخبرته الموروثة مستقل فى حياته منتج بعمله ، فى حين أن المتعلم يفقد مع التعليم استقلاله الذاتى ويتطلع دائماً إلى حياة الركود لا إلى حياة الكفاح التى لم يهيىء له تعليمه طريقها الواجب

على أن قليلا من التأمل فى هذه الالمامة التى ألممنا فيها بأوجه التطور الاجتماعى الذى انتابنا منذ خمسين سنة خلت ، يحمل المفكر على المضى خطوة أخرى فى تأملات إذا أحطنا بها نكون قد فرغنا من التمهيد للفكرة التى نريد أن تكون الدعامة التى يقوم عليها أساس التعليم فى مصر ، فنرى ما يأتى :

أولا : إن طرق التعليم التى عكفنا عليها إلى الآن شطرت الأمة معسكرين : الأول معسكر المتعلمين على القواعد الأوربية التى اتبعناها فى مدارسنا ، وخرجوا بهذا التعليم عن جو ثقافتنا التقليدية ، فأصبحوا نصف مصريين ؛ والثانى معسكر الفلاحين الذين أبعدناهم عن الثقافة الحديثة ، وحافظنا على ثقافتهم التقليدية فصاروا بذواتهم فى القرن العشرين ، وبعقليتهم فى مصر الفرعونية

ثانياً : كوّنا بهذا طبقتين غير متجانستين ، بل مختلفتين تمام الاختلاف ، بحيث لا تجمع بينهما من رابطة إلا الرابطة الطبيعية التى هى رابطة الدم ؛ فكنا فى ذلك أشبه بالمستعمر الذى يرغب دائماً فى أن يزيد من الصدوع التى تفصل بين طبقات الأمة ، لا أشبه بالمصلح الذى يعمل دائماً على أن يرأب تلك الصدوع ويقرب بين الطبقات حفظاً للتوازن الاجتماعى . ولا شك فى أن هذه السياسة تؤدى بطبعها ، وعن غير قصد ، إلى حرب الطبقات التى نحن مقدمون عليها حتماً إذا استمر التعليم على نماذجه الحاضرة وأخذت تلك الصدوع والفوارق تزيد عاماً بعد عام

ثالثاً : دليلنا على هذا أن ابن الفلاح إذا أثرت فيه الثقافة الحديثة ، سواء أكان تعليمه فى مصر أم فى إحدى جامعات أوربا ، أصبح لا ينشق فى جو بلاده نسيم الثقافة التى نشأ فيها ، فتلحظ فيه روح التبرم بأبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، وتأنس فيه نزعة قديمة تدفعه دائماً إلى حب العودة إلى الجو الذى نشأ فيه ، فتراه قلقاً غير مستقر ، هدّاماً لا بنّاءً ، يريد لو تتاح

له الفرصة ليعود إلى الجو الذى كان فيه ؛ فاذا أعيته الحيلة ، كما يحدث دائماً ، واضطر إلى البقاء فى جو بلاده ، هجر الريف ، صرباه الأصيل ومربى آبائه وأجداده منذ قرون طويلة ومنشأ تقاليده منذ أزمان لا تعيها الذكريات ، ليسكن فى مدينة من المدن ، فيفضلها مع عيش الفقر والعوز على الريف مع عيش الراحة والهناءة ؛ وتراه ينزع إلى البطالة فى مدينة دون العمل الذى هو أجدر بحياة الرجولة فى الريف . ومن هنا تتكون الطبقات المتبرمة بالحياة ، العاملة على الهدم دون الاصلاح ، النزاعة إلى الأفكار المتطرفة والثورات . أولئك الذين عناهم العلامة هنرى جيمس فى كلمته التى سقناها من قبل

رابعاً : وأنت أينما وليت وجهك رأيت أثر المعسكرين اللذين كونهما التعليم المصرى ظاهراً جلياً . فأنت تنتزع الولد من حضن أبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، فكأنك تنزعه من حضن « مصر الفرعونية » ، لتنشئه فى حضن « مصر الأوربية » ، وتخرجه بعد ذلك قاضياً أو محامياً أو مهندساً أو تاجراً أو رجل إدارة أو غير ذلك ، ولكن بروح أوربية تكسوها ثياب مصرية شفافة ؛ وبالأحرى تخرج رجالاً انبتت صلتهم بتقاليدهم الثقافية القديمة . وأنت فى دور العدل وفى المتاجر وفى مراكز الادارة وفى عيادة الطبيب ومكتب المهندس ، واقع فى كل دقيقة على مظهر من مظاهر التفرقة بين المعسكرين . فالفلاح البعيد عن مدنية المدن ، وبالأحرى البعيد عن جو الثقافة الأوربية الذى نشأ فيه القاضى والمحامى والتاجر ومأمور المركز ومعاون الادارة وطبيب القرية ، يمثل معسكر مصر الفرعونية ؛ أما هؤلاء فانما يمثلون « مصر الأوربية » ، ولا شك فى أن هذا مظهر من مظاهر الانحـــلال الاجتماعى ، لا يسأل عنه فى مصر شىء بقدر ما يسأل التعليم

خامساً : بالرغم من أن المتعلم قد نزع بفكره نزعة أبعدته عن ثقافة آبائه التقليدية ، فقد أثرت تلك الحال فى مزاجه وتصوراته ونظرته الفنية فى الحياة ، تلك النظرة التى يجب أن تكون مصرية صميمة ، ويجب أن نحافظ عليها نقية على سجيتها لنكون مصريين جديرين بالمصرية ، وكان من نتائج هـذا أن المتعلمين يفضلون أقذر قرية أوربية على ريفنا الجميل وبحيراتنا الفاتنة ، حتى لقد كادت تقوى النزعة الأوربيـة فينا على وحى النيل نفسه ؛ والسبب فى هذا أننا كنا خلال الخمسين عاماً الماضية كالنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، إذ انتزعنا من أرواح ناشئتنا « مصريتها » ، ولم نترك فيها من المصرية إلا لون البشرة ، ولقحناهم بالروح « الأوربية » فلم نبق مصريين كأهل الريف ، ولم نستطع أن نكون أوربيين كفتيان « بيكادلى سركس »

سادساً — بدأت هذه الحال تؤثر فى مرافقنا الحيوية ، حتى لقد نزعنا إلى القول بأن كل ما هو أوربى جميل ، وكل ما هو مصرى ردىء ؛ وكل فكرة مصرية لعب ولهو ، وكل فكرة أوربيـة جد ورجولة ؛ وكل فن مصرى بُدائىٌّ وغير متفق وروح العصر ، وكل فن أوربى مهما كان فيه من بعد وتضاد مع نزعاتنا وتقاليدنا المصرية بل ومع آدابنا المرعيـة والعرف الانسانى ، حضارة وتمدين ؛ وشملت هذه الحال فتياننا وفتياتنا ، فألسنتهم لا تتحرك إلا بكل ما هو أوربى غربى ، وقلوبهم لا تهفو إلا لكل ما هو بعيد عن المصرية

ولا شبهة فى أن المعسكرين يتهيآن الآن : الأول للعمل على خراب الريف ، والثانى لا حول له ولا قوة ، فسوف ينهزم ليترك الريف خراباً . وإنما يخرب الريف بخراب القلوب التى يجب أن تؤمن بأن الريف هو مصر ، وأن مصر هى الريف ، وأن المدن أسواق لذلك الريف لا أقل ولا أكثر . إنما يخرب الريف بأن نحب المدينة ونهجر الريف ، فكأننا هجرنا مصر . ولا مخرج لنا من هذا إلا بأن نصل ثقافتنا الحديثـة بثقافتنا التقليدية ؛ فيكون المصرى فلاحاً مصرياً روحاً ونزعة وخلقاً ، ثم قاضياً ومحامياً وطبيباً ورجل إدارة من بعد ذلك . يجب أن تكون ماهيتنا مصرية وأعراضنا أوربية ، لا أن نعكس الآية بأن نعمل أولاً على محو مصريتنا ، فاذا تم لنا ذلك رحنا ننتبه بأننا أتينا بأعراض أوربية ولقحنا بها ذوات لا ماضى لها ، وبالأحرى لا ماهية لها

تلك مقدمات لا بد منها إذا أردنا أن نبحث حالتنا الاجتماعية من جهة علاقتها بالتعليم . وسنرى فى البحوث التالية كيف يمكن أن نستفيد منها

اسماعيل مظهر

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وصل الفائت

اكتشف بستور لقاحا لداء الكلب هو عبارة عن ١٤ حقنة من مكروبه بعد اضعافه إضعافا متفاوتا فى المقدار يحقن به المريض . وجرب هذا فى الكلاب فكان النجاح . فلما أراد تجريبه فى الآدميين تخاذل وخشى العاقبة . حتى جاءه ولد عضه كلب مسعور فأشار عليه الأطباء بتجربة اللقاح فيه لأنه ميت لا محالة ففعل ونجح اللقاح ، وكان أول لقاح نجح فى آدمى

عندئذ ذهبت عن بستور مخاوفه ، وفارقته وساوسه . فكان موقفه من هذا الطفل هو عين موقفه من أول كلب حقنه رُو Roux باللقاح فى مخه بغير رضا أستاذه . خشى بستور على الكلب أن تُثقب جمجمته ، فلما ثقبها رُو بغير علمه وصح الكلب من بعد ذلك ، أكبّ بستور على رؤوس الكلاب تثقيباً وعلى جماجها تخريقاً . وها هو ذا الآن يخشى عاقبة اللقاح الجديد على الطفل المكلوب ؛ فلما صح الطفل واشتَفى من دائه ، ماتت فى نفس بستور شكوكه ومخاوفه ، تلك الشكوك والمخاوف التى لم تتغلغل أبداً فى نفسه تغلغلا كبيرا ، ومع هذا تراءت له جسيمة واضحة ، أرته إياها نفسه الفنّانة وهى تكثّر القليل وتجلو الغامض . ثم إذا به يصيح للدنيا يُعلن أهل الأرض أن فى إمكانه دفعَ الكلَب عنهم وحمايتَهم من بلواه

وأخذت جماهير المكلوبين المعذبين تتدفع الى معمله بشارع ألم Ulm تطلب ربّه ، ربّ المعجزة الكبرى . وجاء على هذه الحُجر القذرة القليلة حينٌ من الدهر وقف فيها البحث العلمىّ وقوفا كاملا . واشتغل بستور وعَونَاه فى فرز الخلائق التى اجتمعت عليهم من كل أمة . وتعدّدت لغاتهم ، فكنت تسمع أنغاماً متنافرة ، وألسنة متباينة ، كلها تصيح صيحة واحدة : « بستور ! أنقذنا ! » فلبى نداءهم وأنقذهم ؛ هذا الرجل الذى لم يكن طبيباً يوماً ما ؛ هذا الرجل الذى كان يقول فى سخرية يمازجها العُجْب : « هل أنا إلا كيميائى ؟ » . نعم أنقذهم رجل العلم هذا الذى قضى حياته ينازع الأطباء ويخاصمهم خصاماً مرّاً ؛ أنقذهم بأن حقنهم بتلك الأربع عشرة حقنة من مكروبه المجهول المضعَف بعضَ الاضعاف ؛ تلك الأربعِ عشرة المعقدة التى لم يستسغها عقل أو يألفها منطق : حقَن تلك الأربع عشرة فيهم ثم ردّهم بعدها مُعافين إلى أركان الأرض الأربعة

وجاءه من روسيا من بلدة سمانسك Smolensk تسعة عشر فلاحا من الموجيك عضهم ذئب مسعور قبل ذلك بتسعة عشر يوماً . وجرح الذئب خمسة منهم جروحاً بالغة فعجزوا عن السير فلم يكن بد من إرسالهم إلى المستشفى الكبير . وكان منظر هؤلاء الروس غريبا فى طواقى الفرو فوق رؤوسهم وهم ينادون : « بستور ! بستور ! » وهى الكلمة الوحيدة التى عرفوها من لغة البلد الذى حلّوا فيه

وثارت ثائرة باريس — على نحوٍ لا يعرفه إلا باريس — قلقاً على هؤلاء المنكوبين الذين لا مفرّ لهم من الموت بعد أن طال الزمن عليهم مذ عضهم الذئب بنابه . وتحدّثت باريس فلم يكن لها غير هذا من حديث . وقام بستور ورجاله بحقن الألقحة فى هؤلاء المناكيد الذين نضب حظهم من الحياة وقل رجاؤهم فيها . فالعشرة كان يعضهم الذئب فيموت منهم على المعروف ثمانية ، فكان على هذا الحساب لابد أن يموت من أصحابنا خمسة عشر .قال الناس حينما اجتمعوا : « من الجائز أن يموتوا جميعاً فلا ينجو منهم أحد ؛ فقد مضى على عضهم أسبوعان وزيادة . مساكين والله ! وستظهر عليهم أعراض الداء ، وستكون شديدة فظيعة . ضاع الرجاء فيهم وحُمّ القضاء ! »

ولعل الناس صدقوا فيما قالوا ! ولعلهم حقا جاءوا بعد فوات الأوان ! وعزّ على بستور الطعام ، وعزّ عليه النوم ، فانه خاطر فأمر رجاله فحقنوا الألقحة الأربع عشرة فى هؤلاء التعساء صباح مساء ليقتصدوا نصف الأيام الضائعة عسى أن يلحقوا بالداء فينفع الدواء

وأخيراً صاح بستور صيحة الفخر عالية ، وصاحت باريس وفرنسا والدنيا أجمع صيحة الشكر ، وأنشدت أنشودة النصر حارّة داوية . فاللقاح أنجى الفلاّحين الروس إلا ثلاثة . فعاد الناجحون إلى بلادهم فاستقبلهم بذلك السرور الرهيب الذى تجده القلوب إذا هى دُعيت للترحيب بميّت منشور ، للترحيب بهؤلاء الرجال المرضى الذين ودّعوا بلادهم والأمل منهم مقطوع ، فزاروا لاشك حرماً قدسيا لولىّ من أولياء الله ، ثم عادوا يسمون على أرجلهم إلى ديارهم سنى الأحياء . وبعث قيصر الروس الأعظم إلى بستور صليب القديسة حنا الماسىّ ومائة ألف من الفرنكات ليبدأ بها فى بناء بيت لصيادة المكروب . فقام هذا البيت فى شارع ديتو Dutot وهو المعمل الذى يُسمى اليوم معهدَ بستور . وجاءه غير المائة ألف مال من العالم أجمع ، من كل قطر من أقطاره ، وكل ركن من أركانه ، حتى تكدّست لدى بابه الملايين من الفرنكات ليبنى بها المعمل ليقتنص فيه مكروبات فاتكة أخرى ، وليجد لها فيه ألقحة ماضية أخرى . ثم تكدست الملايين على بابه ، فقد كانت عاطفة قوية تلك التى أندت أكُفّ هذا الخلق الكثير ، عاطفة قوية كالتى تثيرها المصائب إذا نزلت بالناس فادحةً شاملة

وتم بناء المعمل ؛ ولكن كان عمل بستور فى الحياة قد تم كذلك . فلقد كان نصره الأخير كبير الوقع فى نفسه ، ثقيلا على فِقار ظهر احتملت أثقال العمل الشديد مدة أربعين عاماً فى تواصل لم يُسمع بمثله أبدا ، فناء جسده تحت آخر الأحمال ، وانقطع وتره بآخر الأثقال ، فمات فى عام ١٨٩٥ فى بيت صغير كان على مقربة من البيوت التى حفظوا بها عندئذ كلابه المسعورة فى فلنوف ليتانج Viileneuve l'Etang على أطراف باريس . ولفظ آخر أنفاسه كما يلفظها الكاثوليكىّ العريق فى كَثْلَكَته أو الصوفىّ وقد كانه طول حياته : فى إحدى يديه كان الصليب ، وفى اليد الأخرى كانت يد أكثر أعوانه صبرا وأقلهم شهرة وأكبرهم خطرا — تلك مدام بستور . وكان حول سريره عَوْنه رو وعونه شمبرلاند ، وأعوانه الباحثون الآخرون ؛ أولئك البُحّاث الذين براهم نشاطه الجمّ فى حياته بريّا ؛ أولئك البحاث الذين أسلموا له المقاد فدار بهم فى هجيرة العمل دوراناً مستديماً قاسياً مرا ؛ أولئك الأعوان الذين أوحى إليهم من وحيه واقتبس لقلوبهم قبساً من قلبه ؛ أولئك الخلصاء الذين خاطروا بأرواحهم فى انفاذ خططه الجامحة فى محاربة الموت ، قاموا اليوم حول سريره يودّون أن يفتدوه لو أمكن الفداء

هكذا انتهت حياة هذا الرجل خير انتهاء . هذا الانسان الغالى فى إنسانيته ، صائد المكروب ومنجى الأرواح ، الثائر الوثّاب ، الناقص الخطّاء !

ولكن لبستور خاتمة حياة أخرى يتجه لها خاطرى أكثر من اتجاهه لهذه . كانت فى عيد ميلاده عام ١٨٩٢ حين استتم سبعين عاماً كاملة ، فاحتفلوا به فى السربون بباريس احتفالاً عاماً رائعاً كبيرا أهدوا إليه وساما . وكان لستر Lister حاضرا ، وكان رجال كثيرون مشهورون من أمم أخرى حاضرين ، فاحتل هؤلاء العظماء رقعة المكان الدنيا حيث مجالس العظماء ، واحتل الطبقات العليا من حولهم شباب فرنسا وطلاّب السربون والكليات والمدارس العليا ؛ وامتلأ المكان بالأحاديث ، واختلطت به أصوات فيها رنة الشباب . وفى برهة قصيرة انقطعت الأحاديث ، وهدأت الأصوات ، وخيّم على المجتمع صمت رهيب ؛ ففى المشى تراءى بستور يجر خطاه عرجا ؛ وقد أخذ رئيس الجمهورية بذراعه واتجه الاثنان إلى المنصّة فى رأس المكان ، وصدحت موسيقى الحرس الجمهورى بدور جَلْجَلَ فى الفضاء ، كذلك الذى يُتَحى به الأبطال العظماء وقد عادوا من ساحة النصر بعد أن روّوها عبثاً بدماء الأعداء ، وحجبوا ثراها بغير طائل بألوف الأشلاء

بستور يموت

وكان فى الحاضرين لِسْتر Lister أمير الجرّاحين ، فقام واحتضن بستور ؛ وهتف الشيوخ الأجلاء من مجالسهم ، والشبان الطُّلاّب من شرفاتهم ، حتى ارتجت الحيطان ؛ وأخيراً جاء دور الكلام لصاحبنا صياد المكروب الشيخ ، وكان قد ذهب عنه صوته الحديد الرعّاد الذى كان يرفعه فى الخصومات عاليا ، فقام نجله يقرأ عنه خطابه ؛ وكان ختام هذا الخطاب أنشودة للرجاء ، لا بما تضمنته من خلاص الأنفس ، بل على الأكثر بأنه دعوة دينية حارة تفتح للرجال سبيلا جديداً من الحياة ؛ وكان بها يدعو شباب الجامعة وطلبة المدارس العالية ، قال :

المازنى العاشـــــق ....!

للأستاذ « أبو سلمى »

ما قرأت كلمة أستاذنا المازنى « فى الحب والمرأة » إلا أيقنت أن هنالك مؤامرة على الحب — واحربا — فجزعت ..... لا على الأستاذ المازنى فانه إذا لوّح بيده أو زوى ما بين عينيه رفع خصومه الرايات البيض ....

ولا على المرأة ... فان لها من لسانها الطويل – بقطع النظر عما إذا كان وراءه شيء أم لا – ما قد تستطيع به الوقوف أمام المازنى ...

ولكننى جزعت على الحب فى هذا الزمن الذى طغى فيه العقل – أو مجموعة الاختبارات والأمزجة والطباع – ولو أستطيع لرميت به (أى العقل) مربوطا بكتلة من الحديد تثقله – إلى الهوة السحيقة التى تليق به

والمازنى عزيز على إخوانه وتلامذته – وأنا منهم – المنتشرين فى كل قطر، وحبيب إلى قلوبهم – وهم عدد النجوم – وما كان لمثلى أن يرفع يده وهى شلاء أمامه، ولكن حملته على الحب والمرأة أثارت علىّ جنودا لا قبل لى بها، تعرف عطفه علىّ وحبه لى، وهو أدرى بقوتها ..

وما دام المرء يخلق كل يوم خلقاً جديداً فلم لا نأخذ الخلقة التى نميل اليها وتستهوينا ؟ وما دام الانسان يتحول إلى صور شتى فلم لا نهفو إلى الصورة التى تروق فى أعيننا ؟ والحياة قصيرة، والهوى فضّاح، فلأعد إذاً إلى أعماق الماضى، إلى المازنى الفتى الذى دفنه :

مات الفتى المازنى ثم أتى من مازن غيره على الأثر

أزيل عنه اللفافات وأبعثه بشراً سوياً تتوهج عيناه بنور قلبه ...

أيها الفتى المازنى ! أين أنت تنتقم من المازنى الذى أتى على الأثر وتكون لنا عوناً عليه ؟ ! ... ألست أنت الذى كنت تطوف حول دار الهوى وتتمتم وعيناك نديتان :

أوصدوا الأبواب بالله ولا
تدعوا العين ترى فعل البلا
وامنعوا دار الهوى أن تبذلا
إن للدار علينا ذمما وقبيح خونها بعد الخراب

من قصيدة « الدار المهجورة »

ألست أنت الذى كان يحوم حول الحمى فى الليل مضلل الرقيب، وجامع الحبيب بالحبيب – ولا أدرى إذا كنت تلبس طربوشاً أم لا – فتنظر إلى شباك حسنائك وروحك تتراءى خلف مقلتيك حيناً وفوق شفتيك حيناً آخر، حتى إذا رمتك باللحظ زفرت وأنشدت :

ما أفصح اللحظ يا حبيبى وأعذب البث بالعيون
لحظ يفيء الذى توارى فى ظلمة القابر الدفين

من قصيدة « لحظ الحبيب »

فاذا هبطت – هى – الى الحديقة واختبأت بين الأغصان أنبأك همس الازهار عن مكانها فتقول :

وودت لو تنفع الأمانى لو كنت لدناً من الغصون
وليتنى صـــيدح يغنى فى ظلك الوارف الأمين

من قصيدة « لحظ الحبيب » أيضا

فاذا نادتك وظهر اللفظ من بين شفتيها مشتملاً يهديك إلى دنيا الغرام هتفت أنت :

أظل إذا اسْتَنْتَكَّ فى مسمعى يرفّ علىّ جناح الغرام

« لا تسوموا أنفسكم التشكك فى الأشياء، فالتشكك أرض قاحلة لا تُنبت، وسحاب جَهام لا يُمطر؛ ولا تحملوها على الريبة فى قيم الأمور وأوضاعها فتحملوها على الزهادة وتُفقدوها الثقةَ بالله . واحذروا أن تركنوا إلى اليأس من أجل ساعات سوداوات تأتى على الأمم ! ذلك أن لكل حال غاية، ولكل كرب نهاية، والليل الأسود يعقبه النهار الضاحى . اطلبوا العيش فى المعامل والمكاتب، ففى أجوائها الساكنة تجدون طمأنينة النفس وسلامها . سلوا أنفسكم : ماذا صنعتِ أيتها الأنفس بالذى كان من تعليم وتثقيف ؟ فاذا تقدمت السنّ بكم فسلوها ثانية : وماذا صنعت لهذا البلد الذى من أرضه كان غذاؤك ومن مائه كان ماؤك . حتى إذا جاءتكم الشيخوخة فلعلكم عندئذ تجدون أكبر الهناءة فى الاحساس القَمْسِر اللذيذ بأنكم ساهمتم مع المساهمين وعملتم مع العاملين بطريقة أيّا كانت انتقدم هذه الانسانية ولخيرها . . . »

(انتهى بستور) أحمد زكى

شفاه يؤججن أنفاسه ... ويلثمن ألفاظهن الظوامى

من قصيدة « لفظ الحبيب »

وتدلف اليها ، ويلفكما الليل فى طياته « كما يغيب سر المرء كتمان » والكلام لك ، فتناجيها :

عجب كيف يرتضى البعد عنا ... من عبدنا فى حسنه الله جلا
أنت أفسدتني وعلمتني الحب ... فهلا أصلحت منى هلا
كان خيراً من السهاد رقادى ... فى حمى ظلك الوريف وأحلى

من قصيدة « المناجاة »

وتشير اليك بتلك اليد التى كنت تعتقد أنها تفتح لك طريق سعادتك فتطمئن الى الصدر الرحيب ، وتغفو بين الأحلام على ترنيمتها :

نم هنيئاً فى ظلى الفينان ... وانس برح الهموم والأشجان
وانس ما كان من زفير على الهجـ ... ـر ودمع يجرى بغير عنان
هذه راحتى على وجهك الغض ... وروحى وريقة الأفنان
وفؤادى مرفرف بجناحيـ ... ـه حناناً فانشق نسيم الحنان

من قصيدة « رقية حسناء »

وحينما تقضى لبانات الفؤاد المعذب تودع الحبيب وتقول :

ودعته والليـل يخفرنا ... والبدر يرمقني وأرمقه
ولرب خـدٍّ بت ألثمه ... والدمع يطفىء ما أحرّقه
والورد أقطفه لوجنته ... والشوك فى قلبي مفوّقه

من قصيدة « ليلة وداع »

ثم يلج الوجد فيوشى جنبات الأفق ويصبح الفتى المازنى « مثلا شروداً فى الهوى ... »

وبعد ، فحالات أستاذنا المازنى كلها حسنة مشرقة إشراق الابتسامة العذبة ، ولكن أحسنها عند إخوان الصفا هى هذه الصفحة العطرة التى تندى شباباً وصبابة ، فاذا أراد أن يعفى على أثرها ولو بالسيف ، فليعلم أننا نجتليها ولو من بين الغمام لامعة وهاجة ؛ وإننا وإن دوى فى الآفاق صوته المرنان يسمع الصم ، نرجو منه أن يعلم أن هذا الصوت الداوى الآن — بشأن الحب المرأة — يتسرب من بين الطبقات ويصلنا ناعماً ليناً ويقف على أبواب القلوب

وإن هذا الحب الذى أصاب منه « شبعه » كان غذاء الوحيد فكان يئن ويحن وينشد :

غذائى الحب يا من فيه حرمان ... منى له أبداً ما عشت نشدان
وهل غذائى إلا أن أراك وأن ... يمر بالسمع لفظ منك فتان
ما لذة القلب خلواً من دخيل هوى ... ما الليل إن لم يكن بالصبح إيقان
مالى بغير الهوى فى العيش من أرب ... ولا بقلبي أحقاد وأضغان

من « مناجاة هاجر »

والشعر . . . — لقد نسيت — الشعر الذى قلت عنه إنه يلبس الحب أستاراً تبعده عن الحقيقة . . . ومن يعلم ؟ فلعله يؤدى رسالة الشعر ، ويحسن صنعاً خوفاً من ألا يكون وراء الأستار شىء من الحقيقة — كما تقول الأساطير —

نعم أنت كنت تقول فى الماضي :

أما ترى غايتى فى الشعر واحدة ... وإن تباين أوزان وأوزان
فما أحوك على الأيام قافيـة ... إلا وفيها على حبيبه عنوان

وما قيمة الشعر إذا لم تردده شفتان ، ترجفان أو . . . لم تَلْهُ به قدمان صغيرتان

ولكنني أخشى ...وهنا أضع يدى على قلبي .... أخشى أن يكون كلامك عن الحب والمرأة نتيجة استبداد بك . . . وممّن ؟ ... من امرأة ؛ فندينك بقولك :

وإننى عاشق كتوم ... يبطن غير الذى يقول

(القدس) أبو سلمى

التاريخ فى سير أبطاله

٢ – مـــيرابو

ميرابو ... تلك الأعجوبة !
جوته

للأستاذ محمود الخفيف

وكان الملك قد أخذ بنصيحة نكر حين اشتدت الضائقة المالية فأجاب الشعب إلى دعوة مجلس طبقات الأمة إلى الاجتماع وهو مجلس قديم شهدت فرنسا آخر اجتماع له عام ١٦١٤ ، وقد حدد لاجتماعه اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٧٨٩ ، وكان الغرض من اجتماعه ، مشاورة نواب البلاد فى مخرج من الأزمة المالية

ولكن هل كانت الضائقة المالية كل مايشكو منه الشعب ؟ كلا ؛ إن فرنسا إذا أردنا الواقع كانت على أبواب عصر جديد ، بل إن تاريخ العالم كان فى مستهل فصل جديد ! فما كانت الثورة مهما اختلفت مظاهرها إلا أوبة الشعب من غمر القرون أو من مجاهل النسيان ، كانت حركة لا محيص عنها ، حركة أدى اليها تطور الزمن على وجه مبين بحيث لم تكن الأيام لتلد غيرها

ها هو ذا الأفق الباسم تنشق جوانبه عن جبين الصباح بعد ليل طال واشتدت حلكته ، ولكن ما تلك الخطوط الحمراء التى يراها ميرابو ويوجس فى نفسه خيفة منها ؟! إنه يرى فيها نذير الشر والفزع الأكبر . ياله من رجل عجيب ! إنه يتشاءم والقوم متفائلون ؛ إنه يرى ما لا يرون ، ولكن لينتظر ما تأتى به الأيام !

الشعب مبتهج يبسم له الأمل ابتسام الربيع من حوله ، أنظر اليه غداة افتتاح المجلس فى طريق نوابه تكاد تنشق حناجره وتدمى أكفه من كثرة ما يهتف ومايصفق . يالله ! ما له يطرق فى وجوم كلما مر به أحد السادة من النبلاء أو القساوسة ؟ هل آن لتلك الجموع أن تفرض سلطانها وتجبر القوم على الاعتراف بها ؟ من ذلك الرجل العابس المهيب الذى تتناقل الألسن اسمه وتتدافع الجموع لرؤيته ؟ انه بعينه نائب اكس الكنت ميرابو !

اتخذ ميرابو كرسيه وسط العامة ، وقد تهامس الأشراف عند دخوله المجلس وتخاطبوا بالأحداق ، على أنه كان يزدريهم أكثر مما يزدرونه ، ويمقت فى أشخاصهم العهد القديم ونظمه وتقاليده

ودخل الملك القاعة فى حاشيته التى يتجلى فيها ترفع الملكية واستكبارها ، وألقى على النواب خطابا ارتاحوا إلى ما جاء فيه من أمانى ، وهتفوا لما تضمنه من عبارات العطف ، ثم قام نكر فأكد رؤوس سامعيه بخطاب طويل نصفه أرقام !

تبع الأشراف والقساوسة الملك الى خارج القاعة وبقى العامة فى أماكنهم وبينهم ميرابو يشيع الملك ووزيره بنظرات المقت والسخط . ولقد رأى النواب فى ملامح وجهه أمارات الغضب ، وفسرها الأشراف بأنها مظاهر الحقد الدفين والغل الشخصى

ولكن ميرابو أصبح اليوم غيره بالأمس فلقد ودع حياة السفه والتمرد ، وأصبح السياسى المتزن المهيب الجانب ، الذى يتوقف مصير الحوادث على ما يصدر عنه من قول أو فعل

إنه لا يطمئن الى المستقبل ويرى الأمور تنذر بالكارثة ما لم تعالج بالحكمة . ولقد درس نفسية الشعب خارج المجلس وعرف أن له أطماعا لابد من تحقيقها . لم يكن الناس ليرضوا أن تؤخذ الأصوات فى المجلس باعتبار الطبقة فيفوز المتازون ، ولا يكون لمساواة العامة إياهم فى العدد أية قيمة . وكان الشعب ونواب الشعب يلحون فى أن يكون التصويت باعتبار الرؤوس . كذلك كان الشعب يطمع أن يكون للمجلس مكان مستديم فى النظام الحكومى ، ويكون لما يصدر من آراء أثر فى سياسة الدولة . وكان ميرابو يسعى جهده فى أن تعلن الحكومة موافقتها على ذلك فى أولى جلساته خشية أن ترغم على ذلك فيما بعد فيؤثر ذلك أسوأ الأثر فى مجرى الحوادث ، ولكن الحكومة أغفلت الأمر ، فكان محقاً فى حنقه وتبرمه

كان يفطن ميرابو أكثر مما يفطن غيره الى انبعاث الشعب واحتضار الملكية . وكان يرى الملكية وقد أثقلتها تقاليد الماضى تكاد تسقط من الأعياء ، حتى لقد قيل عن لويس السادس عشر إنه ورث عن آبائه الثورة والعرش معاً ! ولقد كان هذا الملك المسكين يهرول تارة ليدرك الزمن فتنقطع به الأسباب ، ثم يكاف الأيام ضد طباعها حيناً فتسخر منه الأيام ! وكان ميرابو يرى بنافذ

بصره أن سلامة الملكية وسلامة الوطن كلتاهما تتوقف على التوفيق بين الملك والشعب ، ولا سبيل لنجاح الثورة غير هذا السبيل

أرسل الى نكر يقول له : « صدقني أيها الوزير أن مصير الملكية في فرنسا متوقف على ماسيكون من أمر هذا المجلس ، وخير لك ولهذا البلد المسكين أن تواجه المجلس بما يحقق أماني الشعب »

ولقد أعد ملتمسا ليتقدم به الى الملك في الجلسة الأولى ؛ ويقال إن الملك بادر الى الخروج عقب انتهاء الاجتماع لما علم من عزم ميرابو . ومما جاء في هذا الملتمس : « أضف إلى مآثرك أيها الأمير المعظم إجابة الشعب الى رغبته يبق الصولجان في يدك ، فانني أخشى إن رفضت أن يشهر في وجهك . »

يالهذا الرجل من بطل ! كيف ينقلب سلوكه هذا الانقلاب المدهش ؟ إن المرء ليلمس أهم ناحية من نواحي عظمته في ذلك التحول ، وما عرف التاريخ قبله رجلا درج من مثل ماضيه فوصل الى مثل ما أتيح له من مجد وعظمة وكمال سياسي

كان منطق الحوادث يقضي بأن يرى ميرابو في الثورة فرصة لشهواته ومرتعاً لمآربه ، فيصبح في غمرتها الرجل الأحمق الذي يهدم ولا يعرف غير الهدم ، ويبطش ولا يستطيع أن ينهض لغير البطش . ولكنه ما عرف الهدم ، وما كان رائده سوى البناء كأحسن ما يكون البناء ! وذلك لعمري من عجائب الأيام ! ولكنه سر العبقرية

أجل ! لقد جد الزمان فأثار جلال الموقف كامن مواهبه ، ولامس موضع العظمة من قلبه ، ورأى في الثورة حادثاً نبه نفسه الى حقيقتها ، أو قل إنه وجدها كفؤا له كما وجد نفسه كفؤا لها

وسنرى أن جهاده منذ اليوم سيكون شاقاً مريراً ، فان من يعنيهم أمر الوطن من الوزراء ورجال الدولة من أمره في ريبة ، لا يأمنون أن يتخذ من حرج الأمور وسيلة إلى أغراضه الخاصة كما كانوا يزعمون ، بله ما كانوا يضمرونه له من حقد وما كانوا يكنونه من حسد ، حتى المستنيرين من معارفه ومقدري نبوغه لم يكونوا أقل من هؤلاء حذرا منه ، وكانوا فوق ذلك يترفعون في صلف عن مدارسة رجل له مثل ذلك الماضي ! مما كان يملأ قلبه غيظاً . والملك ؟ أيستطيع أن يصل اليه وله من بطانته أسوأ حجاب ؟

وهو لا يثق في نواب العامة ، ويخاف أن يؤدي نزقهم وجهلهم إلى الكارثة . قال يصفهم ذات يوم : « أكثر من خمسمائة عضو لا يعرف الرجل منهم جاره ! أتوا من جميع أنحاء المملكة ، لا يجمعهم نظام ، ولا يلم شملهم زعيم ، ولن نجد بينهم ذا نفوذ ، أو تتبين فيهم من يأخذ نفسه بأي ميثاق من مواثيق الطاعة ، وكلهم ميال إلى أن يُصغَى اليه قبل أن يصغى هو إلى أحد . . . »

أرأيت موقفاً أشد من هذا الموقف حرجاً ؟ ولكن هل كان حرج الموقف يعمي بصيرته عن سبيل الرشاد ، أو يدفع السأم إلى قلبه ؟ كلا فما خلق مثله إلا للشدائد ، وما يظهر جلده أكثر ما يظهر إلا في الملمات . وهل كانت تستطيع السفينة أن تسير بلا ربان في مثل تلك الأنواء ؟ ومَن ربانها إن لم يكن هو ربانها ؟ لم تمض أيام حتى صار بين نواب العامة المقدم عليهم ، يستقيمون على ما يرسم من طريقة وإن لم يعلنوا زعامته لهم ، ويتجهون بأنظارهم اليه إن سدت في وجوههم المسالك وإن لم يظهروا له ما هو جدير به من عطف ومحبة ، ولكنه كأنْبل ، لم يكن ليصده عن مصلحة وطنه ما ينال شخصه من إهانة ، وفي ذلك من سر عظمة الرجل ما هو جدير بالاعجاب

وكان إلى جانبه الأب سييس ، ينقل إلى نواب العامة ما يوحيه اليه ، وكان هذا الرجل قد آثر صفهم على صفوف الأشراف كما فعل ميرابو من قبل ؛ وكان لشخصه في قلوبهم مكانة قوامها الحب ، إن لم يكن قوامها الاعجاب

أخذ الأشراف ورجال الدين يجتمعون كل طائفة في حجرتها ، وعولوا على أن يكون اقرار المسائل باعتبار الطبقة ؛ ولو طاوعهم العامة إلى ذلك لكان للثورة اليوم سيرة غير سيرتها . ولكن أنى للعامة أن يقروا على أنفسهم عملا يطوي بهم القرون إلى الوراء ، وهم يتعجلون الزمن ، ويودون لو يسبقونه إلى تحقيق الأمل الوليد ؟ على أنهم ما كانوا يريدون بعملهم الطيب شرا حتى ذلك اليوم ، ولكن شطط رجال البلاط وسوء تدبيرهم سيجعل من هذا المجلس هيئة تقلب نظام الحكم في فرنسا ، بل وتدفع تاريخ البشر إلى طريق جديد

وما كان ميرابو ليرضى أن يطيع أصحاب الامتياز الى

غرضهم الشائن وإن كان يخشى أن يؤدى احراج العامة واعناتهم إلى التذمر فالهجوم ، فيتدخل الملك وهو لا يريد أن يتدخل الملك إلا بما يرضى الشعب ؛ هو لا يحب أن تبغى إحدى القوتين على الأخرى ، ولذلك فهو يسعى ويواصل السعى ، ويدعو ويكرر الدعوى الى الأناة ، حتى يصيح له من صفوف العامة رجل رشيد لم يكن سوى سيس ، وسرعان ما يأخذ العامة بنصيحته على لسان سيس ، فيقفون من الأشراف موقفاً حكيماً هو انتهاج السياسة السلبية ، فيأبون أن ينتخبوا لهم هيئة داخلية تشعر بقبول انعزال مجالسهم ، كما يرفضون أن يتسلموا الرسائل الموجهة اليهم باسم رجال الطبقة الثالثة

كان يرجو ميرابو أن يخرج العامة من المأزق دون شحناء ولا اعتداء ، ولـكن العامة انتظروا حتى ملوا الانتظار ، فاقترح عليهم قرب نهاية مايو أن يرسلوا الى رجال الدين ، وقد أنس فى فئة منهم العطف على العـامة ، يدعونهم باسم الله وباسم الانسانية والسلام أن ينضموا اليهم

وفى اليوم العاشر من يونيو أقترح سيس ارسال دعوة نهائية الى رجال الطبقتين يطلبون انضمامهم الى صفوف العامة ؛ وسواء قبلوا الدعوة أو لم يقبلوها يجتمع نواب العامة وحدهم للعمل باسم الشعب الفرنسى كله . وأخيراً حين رفض رجال الطبقتين دعوة العامة أعلنوا فى اليوم السابع عشر من يونية قرارهم الخطير أنهم هم « الجمعية الأهلية » فخطوا بذلك أول خطوة نحو الثورة

أشفق ميرابو وقد فهم مغزى هذا القرار على الجمعية وأيقن أن الملك لا بد مجيب على ذلك بضربة حاسمة ، إذ ما الذى يمنعه أن يباغتهم بمرسوم يحل به المجلس كله ؟ ولذلك فقد احتاط للأمر وتوقى الخطر قبل حدوثه . فتقدم إلى الجمعية باقتراح قبلته وأعلنته ، ومؤداه أن نواب الأمة يقررون أن الضرائب القائمة غير شرعية ، ولـكنهم لا يمانعون فى جمعها ما دامت الجمعية منعقدة ؛ وكانت هذه خطوة سديدة موفقة من جانب ميرابو

على أنه ظل يحسب للموقف حسابه . فما كان الاشراف ورجال البلاط ليقابلوا عمل الجمعية بالسكون ، وكان ميرابو قد واجه ثورة النواب فى نقاشهم قبل أن يطلقوا على جمعيتهم ذلك الاسم ، وطلب اليهم أن يبحثوا عن اسم آخر لا يتضمن مثل ذلك التحدى ، ولـكنهم أعرضوا عنه فلم يجبن عن أن يعلن فيهم « أن نفوذ الملك وحقه فى (الفيتو) لا بد أن يكون أمراً أساسياً فى الدستور ، وبغير ذلك فانه يفضل أن يقيم بالقسطنطينية على أن يعيش فى فرنسا ، لأنه لا يرى أخطر من تسلط سمائة رجل على شؤون الدولة »

ولقد ذاعت الاشاعات يومئذ أن ميرابو أخـذ من الملك مبلغاً طائلا ، وهكذا يأبى شؤم طالعه إلا أن يلازمه فيرمى بالخيانة منذ ذلك التاريخ الباكر

اعتزم الملك نقض قرارات الجمعية ، وعول على الذهاب بنفسه اليها ، وحدد لذلك اليوم الثالث والعشرين من يونيه ، وفى صباح اليوم العشرين من ذلك الشهر حين لم يستطع نواب الشعب الاجتماع فى دار الجمعية بحجة إعدادها لدخول الملك فقد توجهوا إلى ملعب التنس المجاور لها ؛ وهناك وقد أخذ الحماس من قلوبهم كل مأخذ أقسموا أنهم لن ينفضوا حتى يضعوا للأمة دستوراً ، فـكان هذا أحد أيام فرنسا المشهورة

ما للسـفينة محلى تسخر بالأنواء وتستخف بما يحيط بها من موج كالجبال ؟ أدر الدفة يا ربانها ليس لها غيرك يوجهها إلى شاطىء السلامة !

دخل الملك فى اليوم الموعود ، وقد تـكلف أكثر ما يطيق من الجد والحزم ، وأعلن نقض قرارات ١٧ يونيه ، وأمر أن يجلس كل طبقة على انفراد ليكون صـدور الأصوات بالمجالس لا بالرؤوس ، وعلى الجميع أن يصدعوا بما يؤمرون وإلا فانه « سيعمل ما تقتضيه مصلحة البلاد معتبراً نفسه نائبها الوحيد »

طرب الأشراف ومن يشايعونهم من رجال الدين لذلك الوعيد ، وقاموا إلى مجالسهم بعد مبارحة الملك القاعة ، وبقى نواب العامة فى مكانهم جامدين . أخذتهم الحيرة فلا يدرون ماذا يفعلون ، واستولى الرعب على أفئدتهم ، فعلى وجوههم صفرة كئيبة ، وفى عيونهم دهشة ومسكنة ، ولـكن ميرابو لم يخلق الفزع لمثله ، فوثب من مكانه وفى عينيه الواسعتين نظرات الليث ، وراح يزأر فيهم مذكراً إياهم بقسمهم . فأعاد إلى قلوبهم الحمية ، ثم دار بعينيه فاذا كبير الأمناء يسأل النواب فى صلف : « ألم يسمعوا أمر الملك ؟ » وفى تلك اللحظة الرهيبة التى ولدت للعالم عصراً جديداً يأبى القدر إلا أن يجعل من ميرابو ترجانه ، فيصرخ فى رسول الملك قائلاً : « نعم أيها السيد ! سمعنا ما أوعز إلى الملك

بالقائه علينا ، ولست أنت ، ولم يكن لك من مركز أو حق يبيح لك الكلام في هذا المجلس . نعم لست أنت الذي يذكرنا به . إذهب فقل لمرسليك إننا هنا بإرادة الشعب ، فلن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب »

وتصايح النواب قائلين : « هذه إرادة الشعب » . « الشعب لا يتلقى أوامر من أحد » ، وقام سيس يذكرهم أنهم اليوم ما كانوا بالأمس ؛ ولم يخن ميرابو حضور ذهنه وسط تلك الحماسة ، فأعلنت الجمعية اقتراحه بأن رجالها منذ اليوم في حصانة ، وأن التعدى عليهم جريمة كبرى !

أرأيت كيف هيأت بسالة ذلك الرجل له موقفاً أصبح فيه بحيث يتوقف مصير الحوادث على ما يفعل أو يقول ؟ وسرعان ما تجاوبت أنحاء فرنسا أنباء ذلك الرد التاريخي ، وجرى اسم ميرابو على كل لسان في باريس وطبع شخصه في كل قلب

من ذلك اليوم أصبح ميرابو زعيم الشعب غير مدافع ، وان تم له ذلك فعلا من قبل ، واذا كانت الحوادث تخلق الرجال كما يقولون ، فمن الرجال من يخلق التاريخ . وما تاريخ البشرية اذا أردت اليقين إلا تاريخ عظمائها . ولقد كان ميرابو من هؤلاء النفر الذين يربون جيلا ليلدوا غيره ! واني لأجرؤ فأزعم أنه عندى أول زعيم شعبي بالمعني الحديث . إذ كان التاريخ يومئذ ينتقل من فصل إلى فصل كما رأينا

وكان انتقاله هذه المرة على أساس جديد ، على أساس شعور الفرد بوجوده في شكل ديمقراطي لم ير العالم نظيره منذ ديموقراطية أثينا . أجل ، لقد جاءت الأنباء من وراء المحيط بانتصار الحرية على يد بطل من أهم أبطالها هو واشنطن ؛ ولكن الفرق بين الحركتين كالفرق بين الرجلين ؛ فتلك حركة سياسية في شعب يخوض غمار الحرب إلى حقه الذي اغتصبه الأجانب من أعدائه ، وهذه حركة اجتماعيـة كانت أول أمرها سلميـة في شعب يستخلص حقه من ساداته وكبرائه ؛ وذلك رجل يشهر السيف ويصل إلى غرضه بالحديد والدم ، وهذا رجل لا يعرف إلا القلم ولا يرى سوى المنبر طريقاً إلى غرضه !

(البقية في العدد القادم) — الخفيف

تلخيص كتاب :

الحاكمون بأمرهم

LES DICTATEURS

تأليف جاك بانفيل

بمناسبة وفاته في ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

تتمـــة

طاف بنا بانفيل في النصف الأول من كتابه بطغاة التاريخ ليقدم إلينا طغاة العصر الحاضر ؛ فنحن الآن في روسيا القيصرية حيث الشعب يجزى قياصرته الارهاق الفظيع بالارهاب الأفظع ؛ وإن تعجب فاعجب لهـذا القدر الساخر الذي جعل من أكبر القياصر حبًّا للشعب أكبر صرعى الارهاب وهو القيصر « نقولا الثاني » [1] . . نشطت الشرطة في أعقاب ذلك المصرع ولكن نشاطها كان متجها نحو (الانفار) لانحو القادة ، فنجا من طغيانها دعاة جهنميو « كفالديمير أوليانوف » أولئك الذين جعلوا شعارهم « كل شيء ، أو لا شيء »

نفى الفتى — بل الأستاذ — فالدمير سنتين في سيبريا ، وفي سنة ١٨٩٦ ألف جمعية الـكفاح ، وفي سنة ١٩٠٣ افتتح مؤتمر بروكسل للعمال ، وعقب ذلك أنشأ في لندرا حزب العمال الروس الديمقراطي

وفي سنة ١٩٠٥ اندلع لهيب الحرب بين اليابان وروسيا فـكانت فرصة نادرة ، فمشى إلى قصر الشتاء مائتا ألف من العمال يحدوهم قسيس ليقدموا إلى سـدة القصر ملتمسات متواضعة ، فقابلتهم المدفعية بالنار على عتباته ، وكأن أركان الامبراطورية الأربعة كانت في الانتظار ، إذ شجرت القلاقل في كل ناحية وذبح الغراندوق سرج ، وساد الاضراب في أرمينيا وبولنيا وسيبستبول ؛ وعبر الدعير — لينين — الحدود لِيَخْتَبِئ في موسكو ، وليؤلف

(١) راجع مذكرات پالبولوج سفير فرنسا السابق فهي من أروع ما كتب عن هذا القيصر العظيم وعن مصرعه

جيش الثورة الذى قاوم الحكومة تسعة أيام ثم انهزم ، ففر لينين وراء الحدود ليكون الحزب البلشفى فى سنة ١٩١٢ وليرقب الفرصة المتاحة

ومضت سنوات سبع كان على لينين فى منفاه أو فى مهربه أن يدبّر فيها للثورة تدبير الأستاذ الخبير ، فلقد كان يقول : « إن الثورة فن »

وفى سنة ١٩١٤ عنـد ما ارتفع بخار الدماء فى سماء الدنيا هدأت أعصاب لينين ! وأخذ يتحرك ، فأهاب بالعمال فى العالم أجمع أن يُلقوا السلاح ليتخلصوا من الطواغيت إلى الأبد ، وليجعلوا من رأس المال أسطورة تُحكى للناس ، أزيلت من عالم الواقع الحاضر ، وجاءت الظروف تضع الأحجار فى بنيان هذا الطاغية — والمصادفة دائما فى خدمة الدكتاتوريات — إذ سرت الرعدة فى كيان الامبراطورية الذى شاخ ؛ فالحرب بدت مجزرة فاشلة ، والفيالق أخذت تتذمر فقامت قيامة العمال فى ٨ مارس سنة ١٩١٧ ، وفى ١٠٠ ساعة فقط هوى عن العرش آخر أبناء رومانوف

وتطلعت الثورة تريد رأس حكيم يحركها . . وتطلع لينين إلى الألمان فنقلوه إلى روسيا فى قطار مسلح فى حاشية من ثلاثين هداماً من زملائه ، ووصل الركب إلى روسيا ، وأخذ لينين يناضل الحكومة المؤقتة لتكف عن مواصلة القتال فى الحرب الكبرى ، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى وأوشكت أن تظفر به ، ففرّ من جديد ليعود بعد شهور ومعه « الفنان الأكبر » فنان الثورات (تروتسكى)[1]

وضع الفنان الأكبر خطةً هى آية الفن الثورى الحديث ؛ فعمد إلى المصالح الميكانيكية ، وهى التلغراف والتلفون والبريد والكهرباء والسكة الحديد ؛ وعهد فى الاستيلاء عليها إلى فئة قليلة من المحاربين فى زى عمال ، وأمّر عليهم طائفةً من المهندسين المهرة ، فلم يمض يومان حتى كانت هذه السواعد الفنية قد وصلت إلى نتائج باهرة برغم قلة عددها ، إذ كان اتحاد الغاية مع تشعب الأهداف الأولية سبباً فى عجز الجيش وضعف حيلة الحكومة عن مواجهة المخربين ، وهكذا استطاع « تروتسكى » أن يعزل العاصمة عن الامبراطورية ، ثم استطاع أن يصدر الأوامر إلى أنحاء الأرض النائية ؛ وبعد مناورات هندسية أخرى سار بفيلق صغير صوب القصر وسلط عليه شواظاً من جهنم ترسله مدافع الطراد (أوردرا) فتفتحت الأبواب للطارق الفظيع ودعا إليه « لينين » ! . .

واستسلمت روسيا إلى الشيطان ، ودان له النواب فى مجلس « الدوما »

وابتدأ لينين يحكم باسم الحق والعمال ، ففرغ من الألمان بالمعاهدة ، وتفرغ إلى روسيا بالحديد والنار ليفرض عليها أفظع طغيان يرتعد من هوله التاريخ ، ويتضاءل أمامه « نيرون » وألف نيرون !

ثم عجزت نظمه جيماً وقامت جورجيا تطلب استقلالها فسار إليها « تروتسكى » فى جحفل أغبر ليمسح حركتها من الوجود ؛ وبدا لعين الطاغية الأعظم فشل مشاريعه وأخذ يقول : « لقـد هدمنا أكثر مما نستطيع بناءه » وأخير أصابه الشلل وشب إلى جانبيه طاغية جديد هو ستالين

ومات لينين وخلفه ستالين ، فاستهل حكمه البلشفى أبرع استهلال ، إذ طوح بتروتسكى إلى أقصى الأرض لينبذ من دولة إلى دولة كأنه الطاعون ؛ وليكتب فى الصحف كل يوم ليعيش . . « وهكذا — مثل ساتيرن — تأكل الثورات بنيها » واخترع ستالين نظام السنين الخمس ، وطنطنت له الاذاعات والاعلانات فى مشارق الأرض ومغاربها ، ثم خفت الصوت وسكنت العاصفة لما مُنى به المشروع من إخفاق

أما الشعب فما زال جائعاً كما كان قبل الثورة ؛ وأما الأمية فما زال — على الرغم من الاحصاءات الرسمية — متفشية ؛ وأما الانتاج والرغبة فيه ، وأما الرواج والحضارة ، وأما الشعراء المستقلون والكتاب ، فكل أولئك ومعهم خمسة ملايين من الناس نفُوا من روسيا فى الجزر الروسية أو فى سائر أرجاء الكوكب المعمور

ولابد أن يرتفع هذا الكابوس عن روسيا إذا مات طاغيتها الجاثم على صدرها فهو نظام لم يبدأ من الشعب ولن ينتهى اليه

* * *

بعد ذلك يبهرك « بانفيل » بوثبة بديعة من وثبات السحر البلاغى تخلبك طلاوتها لأنها تنقلك كسائح فى الجنة إلى قطار إسلامى شقيق فاذا بك أمام براعةٍ منتشيةٍ كلها إعجاب ، وإذا بك بين يدى « أتاتورك » العظيم . .

يقدم المؤلف تركيا الجديدة بكلمة لأحد مندوبيها فى مؤتمر

(١) راجع فى وصف ذلك جان جاكوبى

لوزان موجهة إلى أعضاء المؤتمر: «لماذا تريدون معاملتنا كالمتوحشين؟ إننا جميعاً في هـذا الوفد نحمل شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة باريس!» وأنت تكاد تلمس من العبارة أية جماعة تأخذ بيد مصطفى كمال وتعاونه، وأية أفكار جديدة تنشرها هذه القوى الناهضة، دون قعقعة أو جلبـة على طرائق موسوليني وهتلر وستالين، ففي مصطفى كمال كثير جداً من «واشنطن» وفيه أيضاً من «جنكيز خان»

ولد في سنة ١٨٨٠ وتعلم بالمدارس الحديثة وتلقى العلوم الحربية وصار «كابتن» في سنة ١٩٠٤، وفي سنة ١٩١٢ اتهم في مؤامرة على السلطان، ثم عمل في جيش القوقاز وفي الجزيرة أيام الحرب الكبرى

وعند ما هادنت تركيا الحلفاء وأراد الباب العالي أن يبيع الأتراك لانجلترا رفض كمال تسريح قواته، ووقف في وجـه الحكومة ونازل اليونان فقذف بهم وبالأنجليز من ورائهم إلى أعماق البحر الأبيض المتوسط؛ ثم سحق الثورة الكردية وعقد معاهدة لوزان، وأنشأ المجلس الوطني الكبير، وألغى الخلافة، وصار الغازي رئيساً للجمهورية

ونفخ في الصور ليبعث الأتراك من جديد!

وألغى الطربوش لتُلبس القبعة؛ وطاف مصطفى كمال في البلاد يهيب بها أن تستجيب لندائه؛ ورُفع الحجاب ووضع القانون المدني، وصار الزواج مدنياً بعد أن كان دينياً، وأدخلت الحروف اللاتينية في الأبجدية التركية

وهكذا جعل الغازي من أمته التي كانت مضرب المثـل في الجمود، شعباً يستسيغ الاصلاحات الطافرة، ولو جاءته في سرعةِ الأفـلام ...!!

وبعد أن قضى على الحاضر المضارع التفت إلى الماضي ليستخدم العلم والتاريخ في مجد أمته؛ وليس فخرها في «عثمانيتها» بل فخرها في أنها «تركية»، ولم يعدم البحاث والمنقبون عن الآثار في الأناضول معالم ومشاهد وآثاراً تثبت قدم الأتراك وآبائهم «الحيتين»؛ ثم اتجه الرجل العظيم إلى تطهير اللغة التركية من الغريب، وعمل رجاله في ذلك أعمالاً جبارة، لكأنهم يخلقون الناس معهم من تاريخ نهضتهم فحسب! فمنذ عامين فقط شيعت الجموع شاعراً قومياً، ومشى الشباب وراء جثمانه وهم لا يفهمون شعره كما كان يجب، لأن لغته أصبحت لغةً قديمة ...!! ولذلك نفدت المعاجم الجديدة أول ما عرضت في الأسواق

يُعطيك هذا العمل الأخير خير فكرة عن قوة اتجاه هـذا الدكتاتور نحو الانشاء؛ حقاً إن التركي يأتي هذه الهزات التي يهتز لها كل كيانه بعلامات استفهام وعلامات تعجب، لكنها ستجره معها يوماً على كل حال

يقولون إنه يعيش كأبطال الأساطير بين اللهو والقصف، ولربما بدا وجهه للناس بعد عشرين عاماً كوجه سلطان من السلاطين، لكن الذي لا مراء فيه أنه قدم الدليل الناهض على مقدار ما يحقق الرجل القادر للشعب القادر من رغبات في الانتصار وفي التقدم

ثم يقول المؤلف ـ فهذه غايته من مؤلفه ـ «وإننا لا نحسب أن الشعب الفرنسي يُسيغ هذه الطرائق، فالثورة الكبرى نفسها لم تستطع أن تفرض عليه أن يقبـل حتى الأسماء الجديدة لشهور السنة! مع ما في هذه الأسماء من الملاءمة والاتساق!!»

* * *

والآن إلى قيصر!

لا قيصر الكرنفال، ولكن عبقرية أمةٍ زاخرة بالكفايات حافلةٍ بالمواهب ما أسرعها في الاستجابة إلى حاجات الساعة وضرورات السياسة تستعرض الماضي من مفاخرها لترفع على القوى منها عمد المستقبل المجيد

وليفهم القارىء الفاشستية يجب أن يرتد ببصره إلى سنة ١٩١٥ عند ما ساقت إيطاليا جيوشها إلى الساحة إثر نزاع بين المحايدين من أتباع «جيوليتي» والمتدخلين من أشياع «دانونزيو»، فلما انعقد لواء الظفر للحلفاء حسب الساسة من رجال المدرسة القديمة أن الأمور ستجري رتيبة، وستعود سيرتها الأولى دون أن يحسبوا للتيارات الجديدة حساباً

نشأ موسوليني لأبٍ يطرق الحديد، علمه شديد القوى؛ ثم صار معلماً، ولكن ثوريا، فطردته ثوريته من وظيفته وهاجر إلى سويسرا فلم تطب لها ضيافته، ثم عاد إلى إيطاليا ليؤدي الخدمة العسكرية، ثم ارتد يضرب في الآفاق من جديد ليتتلمذ على «سيزار باتـتي» في النمسا، وهنالك عثر على الكنز المفقود؛ فلقد كان «باتـتي» فيلسوفاً وداعيةً وطنياً من أكبر الغلاة حتى امتلأ ذهن تلميذه بجمهرة من أفكاره الوطنية امتزجت باشتراكيته

فصيرته رجلاً من طراز خاص . ولما ولاه أستاذه تحرير جريدة « بوبولو » لم يكن يكتب ، ولكنه كان يحارب ، ولم تكن جمله عبارات وإنما كلمات من لحم ودم ؛ لذلك ألزمه البوليس بترك النمسا فتركها إلى سويسرا لينشىء الجمعيات ويدبر ثورة للعمال الطليان

وفى سنة ١٩١٤ حسب الفرصة أتيحت له عندما قتل ثلاثة من العمال ، وانتشر الاضراب وأعقبته القلاقل ، ولكن الفشل كان من نصيبه ، حتى إذا أعلنت الحرب الكبرى وانقسم الرأى العام جرد موسولينى قلمه ليحارب ، ودخلت إيطاليا الحرب . وفى ٢٢ مايو سنة ١٩١٥ يوم تجرد الحملة عبر موسولينى عن رسالته فى كلمة بليغة قال : « . . لقد تحملنا من الخسائر ما تحملنا فى السنوات الفارطة . وها قد دنت ساعة الخلاص : فلنفتتح إيطاليا لنفسها عهداً جديداً فى العالم ، ولتنل قسطها من السيادة فى الأرض »

واشترك موسولينى فى الحرب ورجع بأربع وعشرين رصاصة فى جسده ؛ وفى سنة ١٩١٧ ألقى الطليان سلاحهم وعادت الجيوش مهزومة ساخطة ، وضربت الأزمة الاقتصادية بجرانها على كل الطبقات ، ولاحت فى الأفق معالم الشيوعية الحمراء ، وشرعت موسكو تبعث رسلها وأموالها إلى إيطاليا ، وابتدأت القلاقل والمجازر فى كل المدن الايطالية على مسمع من الحكومة

ولما وجد موسولينى أن رجال الحكومة خروا صما وعمياناً أمام هذا الطوفان ، هب ليلقاه بجسمه وبصحيفته ، وبحزب جديد ؛ فلم تمض شهور ستة حتى كان له من الأتباع خمسة وعشرون ألفا

وفى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٩ أعلن الشيوعيون الاضراب العام وفرض القوم سلطانهم فى كل مكان بمذابح مروعة ، يقشعر من هولها الانسان ، والحكومة لا تتحرك ، وكأن الأقاليم لا تسمع روما صرخاتها الموجعة ؛ ثم أخذ العمال المهندسين رهائن فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٠ ، واحتلوا المعامل ، وأطلقوا الرصاص على الجيش ونهبوا مخازن السلاح ... وهوت العملة ، ولم يبق للنقد سعر ، وتساءل الناس : « إلى أى طريق نحن مسوقون ؟ »

كل ذلك والحكومة كأنها ليست فى روما ولا فى أى مكان . عندئذ نظم موسولينى رجاله ليحاربوا الثوار حرب عصابات حيثما ثقفوهم ، فأعادوا الأمن ، وطمأنوا الناس ، وخفق باسمهم كل فؤاد مروع ؛ وأخذ ينضوى تحت لوائه الأب الملوع ، والأم الثكال . وفى سنة ١٩٢١ دخل الانتخابات وخرج منها ظافراً بخمسة وثلاثين نائباً ، كان يتزعمهم فى البرلمان كأمهر ما يتزعم السياسى العتيد ؛ ثم عقد مع الاشترا كيين (هدنة) ليدبر لهم مقتلاً ... وفى اكتوبر عقد المؤتمر الفاشستى من ٢٢٠٠ شعبة تمثل ٣١٠ آلاف ، وتلا الرجل برنامجه : « السلام فى الداخل والقوة فى الخارج » فصفقت له الأمة بمجموعها

وفى سنة ١٩٢٢ كانت الحكومة تتساقط كقصور الورق ، وعجز الملك عن تأليف وزارات استقرار ، وكان الرعب الشيوعى يتفاقم ، فلم يتردد الفاشزم عن احتلال مدائن بأسرها لتطهيرها من الطاعون الأحمر ؛ وأعلن الشيوعيون الاضراب ؛ وأعلن موسولينى تجنيد رجاله ليملوا بدلاً من المضربين ، وأنظر الحكومة ثمانية أيام لتقضى على البغى الشيوعى ، وإلا فهو حال محلها ؛ وختم نداءه بصيحة داوية : « يا رجال الفاشست ... إن إيطاليا لنا »

وفى ثمانية أيام عاد دولاب الأعمال إلى الانتظام ، فكتب موسولينى إلى رئيس الحكومة يقول : « إن الأمة تمبت من هؤلاء الحكام الذين يترددون بين الدناءة والاهمال » فأجابه بدعوته إلى الاضطلاع معه بأعباء الحكم ، فرفض إلا أن يعطى هو الوزارات الهامة ؛ وختم رفضه قائلاً : « إن لديه من القوة ما يكفى لينال دست الأحكام » وأعلن الزحف على روما ... وزحف الفتيان على روما فعلاً ؛ وطلب الوزير من الملك أن يعلن حالة الحصار ، فرفض جلالته ، لأنه كان يعلم ما هى الفاشزم ، ولأنه عهد بالوزارة فى الغد إلى موسولينى

كان بعد ذلك ما كان مما يعلمه الكافة من بعث إيطاليا كرة أخرى لتضارع أكبر دولات التاريخ . وبعد ثلاثة عشر عاما من جهود فوق جهود البشر فى كل مرافق الدولة ، غدت إيطاليا أمة تعرف الدنيا كلها مقدارها

ويختتم المؤلف بتحية الدكتاتور البارع داعياً له الله أن يقيه رد الفعل الذى يصيب الكثيرين من رجال الثورات . ثم يقول ناصحاً أمته على عادته فى ختام حديث كل جبار — « فليحذر المقلدون من الفرنسيين ، ولا يحسبوا أن هذه الأساليب مأمونة عواقبها فى فرنسا ؛ والانتاج الطائفى الذى يقوم عليه نظام

موسوليني لا يمكن أن يطبقه فرنسي واحد ؛ وقبل أن ننسخ صورة طبق الأصل يجب أن نفهم ماذا ننسخ »

***

وهذه شبه جزيرة الأندلس : نشأت فيها دكتاتورية مخففة على يد بريمو دي ريفرا في أسبانيا ، لأنها لم تخلق غذاء للرأي العام ، ولأن رجلها لم تكن له فكرة محدودة يتبعها ، كما نشأت فيها دكتاتورية من أبدع الدكتاتوريات في البرتغال على يد الأستاذ سالازار . . . ترك الاستاذ سالازار كرسيه في الجامعة بعد أن هتف به الرأي العام لانقاذ الجمهورية إثر رفض شروط القرض التي شرطتها عليها عصبة الأمم ، فوضع الأستاذ شروطه وقال : « ... وليمنحني الشعب ثقة ليس لها حدود ، وله ألا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولكن عليه الطاعة عند ما آمر . . . »

وهنا يُعنى المؤلف باظهار مدى تأثير ثقافة المؤلفين الفرنسيين في الساسة المعاصرين ، فينوه بآثار صديقه (شارل موراس) الذي اتهم بتدبير الاعتداء على « ليون بلوم » في جنازة المؤلف !! ثم يشرح المؤلف طريقة سالازار وهي : الدولة أولاً والدعقراطية ثانيا ، ويختتم كلامه بقوله : « يقولون عن جمهوريتنا إنها جمهورية الأساتذة ... والحق إن البرتغال هي بلا مراء جمهورية الأساتيذ » فان نظام سالازار مازال يؤتي ثمراته البديعة منذ عشر سنوات

***

وهذا آخر رجال الحكم المطلق « أدولف هتلر » يتصدى له المؤلف في ريبة الخصم ، ولكن في نزاهة الباحث ! فهو خطيب خارق للمادة ، وداعية في الهواء الطلق ، نشأ بناء ، ثم حارب في الحرب الكبرى ، ولما حاول الانقلاب مع لودندورف سجن شهوراً كتب فيها كتابه « كفاحي » فغدا الكتاب انجيلا للألمان ، ولو أنه كأثر من آثار الفكر لا يساوي حبة من خردلة ، ففيه كلام فارغ عن اليهودية والآرية ، وفيه كلام عن استرداد النمسا ـ من النمسا ! والألزاس واللورين من الخصم الخالد . . . فرنسا ، والتيرول من إيطاليا ؛ وفيه كلام عن الحركة الاشتراكية

وفي سنة ٩٣٢ كانت هذه الأمة التي تخلها التشكيلات العسكرية قد انخرطت أغلبيتها في سلك « فرق الهجوم » و « أصحاب القمص السمراء » فكان هتلر يسيطر على مصائر ألمانيا ، وفي ٣٠ يناير سنة ٩٣٣ دعاه هندنبورج للوزارة فلبث غير قليل ليعمد إلى « شايشر وزوجته » فيقتلهما ، وليطهر الحزب من « روهم » على طريقة « الجانجستر » في شيكاغو ؛ وأخذ هتلر وجيبلز يغنيان الأناشيد للشعب الألماني . وكلما خطبوا صدحت للوسيقى فانتشى الشعب من الوسيقى ومن الأغاريد وسار وراء فرسانه

وبدأت محاولة التعقيم ، وحرب الكنيسة ، وتشريد اليهود في ألوان قاتمة من التعذيب ، وبدأت وسائل الجهاد الداخلي والنشاط القومي توجهها كفايات ممتازة ... أما عن الخطة الاجتماعية فان الشك يساور الأنفس ، فهنك ملايين من العاطلين محشودة في « معسكرات العمل » لن تُوَجه في الغد إلا إلى الميدان . . !

أما هتلر فما يزال في طريقه

فلتصح فرنسا

***

وبعد « فالدكتاتورية نظام كـكل النظم » ولقد تكون خير شرعة شرعت للناس ، إذا دعت اليها ظروف الساعة ؛ وقد لا تكون إذا لم تدع اليها الظروف ... وإذا كانت العمليات الجراحية بغيضة إلى نفوسنا ، فلنعمل على ألاّ تكون فينا جراحَ ، لأننا لن نستطيع عند وجودها أن نتفادى مشرط الجراح

ولا بد مما ليس منه بد

عبد الحليم الجندي



الحياة الأدبية فى بغداد

بقلم عبد الوهاب الأمين

تمهيد :

ذكرنى مقال الأستاذ « على الطنطاوى » عن الحياة الأدبية فى دمشق بحياتنا الأدبية فى بغداد ، وحبب لى العزم على دخول المضمار ، وأغرانى بالبحث عن التراث الأدبى الذى خلفته عصور الذهب وعصور الزوال لعاصمة الرشيد !

وليس جديداً عندى مثل هذا البحث فقد كنت أردده فى فرص عديدة سابقة ، ولكن صدى هذه البحوث لم يكن يبلغ الآذان ؛ أما الآن فقد رغبت أن يكون ذلك فى « الرسالة » الغراء ، وهى المجلة المقروءة فى كل قطر عربى ، رغبة منى فى إطلاع إخواننا فى بقية الأقطار على أن سوء الحال لا يمكن أن يبلغ بالأدب ما بلغه فى بغداد !

قبل عشر سنوات

لو أتيح للقارئ الكريم أن يتصفح الصحف والمجلات قبل عشر سنين لما فاته أن يلحظ فيها طيف اليقظة الأدبية وهى فى مهدها ، ولرأى من كثرة ما ينشر فى الصحف حينذاك من الشعر على الأخص ، ومن بقية الفنون الأدبية ، وإن كانت بصورة بدائية ، روحاً أدبياً يبشر بمستقبل لا بأس به ، ولكان فى وسعه أن يتجوز فى تسمية تلك الحركة نهضة أدبية قد يأتى عليها زمن تصل فيه إلى النضوج فتؤتى أكلها أدباً جديداً وأدباء مبدعين !

غير أن حقيقة الواقع ليست كذلك ! فها نحن أولاء الآن قد خسرنا حتى تلك الحركة البدائية البسيطة ؛ وقد ماتت كل المحاولات التى كان القصد منها بعث الروح فى الأدب العراقى فى كل مناسبة عرض لها بعض الذين خيل إليهم أن فى العراق تربة صالحة لمثل تلك المحاولات

وقد اشترك كاتب هذه السطور وساهم فى إنشاء بعض الصحف الأدبية فكانت تنقضى الواحدة منها تلو الأخرى ، فلما يئس وانزوى وترك العمل أخذ بعضهم يلومه ، وزاد اللوم فى بعض الأحيان حتى بلغ التعنيف ! كأن من واجب الأديب أن يستقل بالتضحية وحده ، فان أحجم أو قصر أو تردد فقد أجرم !

وقد كان سبب ذلك الهمود والموت الأدبى فى جميع الحالات واحداً لم يتغير ولم يتأثر بتطورات الزمن . فكأن هذا النبات لم يخرج من هذه الأرض ، وكأن فى طبيعة كليهما ما ينفره من الآخر

فما هى علة هذه الرجعية ؟

جناية السياسة والصحافة على الأدب

لست أقصد بالسياسة العمل السياسى ، فان ذلك خارج عن بحثى كما أنه خارج عن صلاحيتى ! وإنما أقصد أولئك الأشخاص الذين بدأوا حياتهم أدباء ثم انقلبوا سياسيين ، ومقدار ما فى هذا العمل من الجناية على الأدب ! وبعبارة أدل : أولئك الأشخاص ذوى الأطماع السياسية الذين لم تمكنهم شخصياتهم من الخوض فى غمار السياسة رأساً ، فقدموا لأطماعهم بالاشتغال فى الأدب واضعين تلك الغاية نصب أعينهم ، فلما ظهرت أسماؤهم على الأفواه تركوا الأدب وانصرفوا إلى السياسة !

هؤلاء أساؤا إلى الأدب أولاً وإلى السياسة ثانياً ... أساؤا إلى الأدب لأنهم لم يخصوه بنشاطهم ورغبتهم وإنما جعلوه مطية لأطماعهم ، وأساءوا إلى السياسة لأنهم جعلوا فيها هذه السابقة

ومن هنا يتبين السبب فى تلك النهضة التى حسبناها « أصلية » (Original) وما كانت فى الحقيقة إلا وسيلة بعض المرتزقين من حملة القلم ؛ ولو رجعنا إلى الأسماء التى كانت تذيل بها قصائد الصحف والمجلات قبل عشر سنين ، ومقالات ذلك العهد ومحاضراته ، لوجدناها من أضخم الأسماء وأعلاها فى عالم الوظيفة والسياسة الآن

وقد جرى ذلك على الصحف اليومية ، فان كل صحيفة صدرت فى العراق كانت فى مبدأ أمرها خالصة لوجه الأدب أو تخصه بأكبر عناية ، فأصبحت كل الصحف تقريباً لا تنشر القطعة

الأدبية أو القطعة الشعرية إلا فى الأسبوع أو الأسبوعين مرة !
وقد كانت جريدة « البلاد » — وهى كبرى جرائد العاصمة — فى أول مبدئها تخص « الأدب » بثلث صفحاتها يومياً ، وكانت تستكتب الأدباء والشعراء وتنشر لهم وتدعو لأدبهم ، وكانت وقتذاك تصدر فى ست صفحات فقط ، والآن بعد أن زيدت صفحاتها إلى الثمانى فقد تركت الأدب مرة واحدة ، ولم تعد تنشر شيئاً منه إلا فى بعض المناسبات القاهرة

وكذلك قل فى الصحف الباقية اليومية منها والأسبوعية ، فانك لن تجد فيها إلا ما هو أقرب إلى الأدب السياسى فى بعض الأحيان منه إلى الأدب الخالص

ومما يؤلم ويستفز النفس أن الصحف فى العراق لا تتكبد فى نشر الأدب شيئاً مادياً ، بل كل ما ينشر فيها تقريباً « أدب تبرع » وليس أدباً مأجوراً ، وهو بذلك أقوم وأفيد بطبيعة الحال من ذلك الأدب الذى تستنطقه المادة ، ولكن أصحاب الصحف « الأدباء » لا يكلفون أنفسهم عناء الاستكتاب ، بل قد وصل الأمر بهم إلى الاقتصار على الأخبار والأمور السياسية وإهمال الناحية الأدبية بالمرة !

وهذا ما يثبط عزم الأديب العراق ، ويفت فى عضده ويكسر من خياله وهمته ، فهو لا يخسر التشجيع والتعضيد فقط ، بل عليه أن يجتاز الصحافة اجتيازاً ، وفى ذلك ما فيه من المغامرة والخسران ، فان من البديهى أن مهمة الصحافة هى التمهيد للأدب والدعوة له وتقديمه ، لا الوقوف فى وجهه وتثبيط عمله بطريق غير مباشر !

المؤلف والناشر

أكثر ما ينشر فى بغداد بل كله كتب مدرسية غير مستكملة حتى الشروط المطلوبة فى مثل هذه الكتب ، وأكثرها مترجم ومقتطع من الكتب الغربية ، وهى تبدل حسب مناهج التعليم كل سنة ، وفى بعض الأحيان فى أقل من السنة ! ولو استثنينا بضعة كراريس فى المساجلات الأدبية كالسهام المتقابلة ، وبضعة أقاصيص ابتدائية للأستاذ محمود أحمد ، كمصير الضعفاء وما اليها ، فلن نجد كتاباً أدبياً نشر فى السنين الأخيرة غير لب الألباب للسهروردى ، والمجمل فى الأدب العربى لمحمد بهجة الأثرى ، وتاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوى !

هذا كل ما هنالك !

وفى هذا كل معانى الفقر ! وإنه ليجرح عزة هذه الأمة وكرامتها أن تفقر هذا الافتقار من الأدب الذى هو قوام الحياة ، وإنه لأقطع دليل على أن هذه الخلائق لم تستوف ضرورات الحياة ، ولم تصل بعد إلى إدراك معانيها وتشوفها ، وأنهم — بأدبهم — يعيشون كَلاً على غيرهم !

فليس هناك إذن لا « مؤلف » ولا « ناشر » ، وإن وجد أحدهما فليس بينه وبين الثانى تفاهم ، وإن وجد كلاهما فانهما يكونان وقتئذ أقرب الى المرابين منهما الى المشتغلين بالمعنويات والخدمة العامة

والمطبعة العراقية فقيرة الى حد مزر ، نهى لا تزال على نمط المطابع قبل عشرين سنة ؛ وهناك جريدة يومية كانت تطبع بمطبعة تدار باليد الى زمن قريب ؛ وليس هناك من نوع اللينوتايب غير واحدة فى مطبعة الحكومة ! وبالطبع ليس هناك « روتغراف » أو شبهه ! ومن هنا نعرف سبب اقبال القارىء العراق على الجرائد المصرية المصورة ، إذ ليس فى العراق جريدة أو مجلة مصورة !

القارىء

يتذمر أصحاب الصحف من مشكلة « القراءة » وهى أن باعة الصحف يتفقون وبعض القراء على السماح لهم بتصفح جميع الصحف اليومية لقاء أجر زهيد يستعيضون به عن شرائها ، وأن الصحفيين بهذا « الداء » كما يسمونه يلاقون أشد العنت والارهاق والعسر فى تحسين صحافتهم ! ولا أكذب القارىء أنى شهدت مرات عديدة قسما من المشتغلين بالصحافة اليومية يتبعون هذه الطريقة سراً وجهراً ، وذلك لأنهم يجدون من الصعب منح الصحيفة العراقية ثمنها لأنها فى الحقيقة لا تساويه ! وهذا إقرار مزر لا يجد الانسان معه إلا الوقوف مكتوف اليد !

وليس من الحق لوم القارئ العراقى وحده ، فان هـــذا الشخص الذى لا يسخو على صحيفته بثمنها يبـذر فى شراء الصحف المصرية اليومية منها والأسبوعية والشهرية تبذيراً ، فهو يشترى الصحيفة المصرية اليومية بضعف ثمن الصحيفة العراقية ! ولا يبخل على المجلة المصرية بثمن عددها الذى قد يبلغ فى بعض الأحيان ثمن اشتراك نصف سنة فى مجلة عراقية !

فالجلى من هذا أن القارىء العراقى لا يضمر العداء لصحيفته ، وأن الأديب العراقى لا يحجم عن تغذيتها ، بل السبب فى كل ذلك هو شىء من سوء التفاهم القائم على اهمال مصلحتيهما .

فالصحفى يريد التشجيع بدون مقابل ، والقارىء يريد التحسين بدون مقابل ، وكلاهما لا يحرك ساكناً فى دفع هذا « المقابل »

خلاصة

إذن فالأدب على أسوأ أحواله فى بلاد الرافدين ؛ وبغداد التى كانت فى وقت مضى منبع الحكمة والأدب والشعر تنتظر بريد الأسبوع لتتلقف الصحف المصرية تلقفاً ، وتغذى حاجتها من الأدب المصرى ، حتى لقد يعلم القارىء العراقى عن أحوال مصر الداخليـة والخارجية وعن شخصياتها الكبيرة ما لا يعلمه عن أمور العراق الداخليـة وما يتصـل بمعاشه وحياته ! وحتى بلغ الأمر بنا أن تعودنا الاطلاع على ما يخص العراق من مصادر خارجية ، كأن ليس فى البلد صحافة وصحفيون ، وكأنه لا يعيش لأهله ، ولا يعيش أهله له !

فان كان الأسـتاذ « على الطنطاوى » قد همه ألا تكون فى « دمشق » حياة أدبية ، فلست أجدنى إلا مضطراً إلى زيادة همه ! فاننا فى بغداد ننظر إلى دمشق بعين التطلع ، وننتظر أن يصلنا منها ما يروى أرواحنا المعطشى إلى الأدب ! وإن كان حضرته ينعى عليها هذا الخلو والاقفار ، فماذا سيقول عن عاصمة الرشيد ؟

لو كان الوقت والمجال يسمحان بالتبسط فى شرح بعض الأمور التى تتعلق بالحياة الأدبية فى بغداد ، كما نسمى هذا الموت تجوزاً بالحياة ، لأطلعت القارىء على أحوال منه قد لا تسره ، ولـكنى لا أكون بذلك إلا كالكاشف عن جيفة ! فشكراً لضيق الوقت والمجال على حسن صنيعهما !

(بغداد) عبد الوهاب الأمين

الرســـالات

للسيدة وداد سكاكينى

أتى على الانسان حين من الدهر كانت تعبث به الأحداث ، وتدور عليـه الأفلاك ، وهو فى شرق الأرض تسوده الفوضى والجهالة ، ويقوده الظلم والطمع ؛ فـكان كل امرىء ينتبذ مكاناً يحميه ويركن إليه هرباً من بطش فرعون وطغيانه الجارف

فى ذلك العهد المظلم كانت امرأة مسـلوبة الأمان ، مشبوبة الفؤاد ، تسـير إلى جانب نهر زاخر ، حاملة وليدها ، حائرة فى خطواتها ، فأوحىَ إليها أن تلقيه فى اليم ، وهى مطوية الحنايا على أمل باهر ووعد أكيد . . . ثم يأتى عهد يكون فيه موسى كليم الله ورسوله

حمل هذا النبى رسالة ربه إلى بنى إسرائيل ، فانجلت غواشى الذلة عن عيونهم الدامعة ، وتجلت لهم الحقيقة البارعة ؛ لقـد أنقذهم من جور الفراعنة ، وأهدى إليهم الأمن والحرية ، فتمت كلمة الله فى أول دين هبط على الطور

ثم غبرت عصور وتعاقبت أحقاب ، فاذا الرومان يعيثون فى الأرض فساداً ، ويملأونها حرباً واعتسافاً ، وإذا كل قيصر جبار يستعبد الأمصار ويخرب الديار ، فـكانت الأفواه شاكية ، والعيون باكية ، تستغيث وتستجير ، والأسماع المرهفة لا تبدى ولا تعيد ، فأشفق الله على خلقه الضارعين وهو أرحم الراحمين ؛ لقـد أرسل إليهم عيسى بن مريم كلته الخارقة ، وأيده بروح القدس ، فأقبل عليهم بدين الرحمة والمحبة والوئام ، وخلص القوم من مظلمة الرومان ومرارة الحرمان

ولبث العرب فى جاهليـة جهلاء ، ووثنية نكراء ، وبؤس ملحف ، وعيش مرهق ، وقد كان قيصر الطاغى على عاتق من شبه جزيرتهم ، وكسرى الباغى على عاتق آخر ، وهم يُصلَون فى أرضهم الجدباء نار الصحراء وشح الماء ، فـكان من رحمة الله أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ؛ لقد طلع عليهم محمد بن عبد الله بهدى كبير وخير كثير ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، ودانت له البداوة الأبية الشتيتة مجتمعة تحت راية القرآن ، حتى بعثت من بطاحها القفراء ورمالها الرمضاء ، إلى مدن العالم ورحاب الدنيا حضارة وحرية وعلماً ، فتهدّم مجد فارس ، وتحطم عز

الرومان ، وأتم الله نعمته على العرب بدينه الحنيف ، وإذا بفجر الاسلام الساطع يكشف الآفاق ، ويشرق على الانسان بنور الاخاء والحرية والمساواة ، فكان سباق الأمم الحديثة التي تزعم أنها تسير على هدى ، وتدعى الحفاظ على الحق والسلام

ثم يمخر بنو الانسان خضم الزمن حتى يصلوا إلى شواطيء العصور الحديثة ؛ فاذا انتهت رسالات الدين التي نزلت على الشرق ، بدأت في الغرب رسالات الدنيا ، وبينا الناس (بأوربة) في ذهول وخمول ، تنقض ظهورهم المظالم ، وتكوى جلودهم المغارم ، وبعضهم يرسف في الاصفاد بالسجون ، كان جان جاك روسو ومنتسكيو وڤولتير ينشرون الكتب ليبصروا الشعب باستبداد الملوك ، واستعباد الأمراء ، وإذا هم ثلاثة رسل للثورة الفرنسية ، وإذا مداد دُوِيّهم ، وصرير أقلامهم ، ينقلبان بعد قليل إلى دوى مدافع وسيول دماء ؛ ثم تسكن الفتنة ، وقد أعلنت حقوق الانسان

وتتفتح الأعين في أرجاء الأرض على ضوء الحرية ، فتقوم رسلها في كل أمة ، وتسرى عدوى المساواة إلى كل ملة ، ثم يجر ذلك إلى مغانم شتى ، ومطامع قصوى ؛ وبعد أن تصرم قرن والناس في بحران سياسة ملتوية ، احتدمت الحرب الكبرى ، فهزت العالم هزاً عنيفاً . فلما وضعت الحرب أوزارها قام الناس من وقعها الأليم كأنهم ينسِلون من القبور

وتقوى في الناس عقيدة الرسالة ويسمونها زعامة ، فينهض في الهند غاندى بجسم ضئيل وروح جبار ، فيهز سيدة البحار ، ويظهر في الترك مصطفى كمال فيخلقهم خلقاً جديداً ، ويطالع في الألمان هتلر فيعيدهم سيرتهم الأولى ، وتضيق ايطاليا بموسوليني فيغزو الحبشة بناشئة الطليان

أما في الشرق ، فيمين الله الشرق ! لقد حمل الرسالة فيه بمصر سعد زغلول ، فبعث العروبة من مرقدها ، وأيدها بروح منه ، ونادى في الشرق أن حطموا الأغلال فتنالوا الاستقلال

المصلحون في الدنيا كثير ، وهم رسل لأقوامهم ، وإذا رجعنا إلى التاريخ قرأنا فيه صفحات دامية عما يعانون في جهادهم لتحرير الرقاب العانية من رباق الجهل والوهم والاستخذاء والاستبداد

وبعد فالشاعر رسول يصور بشعوره الصادق آلام أمته ، ويجلو آمالها بروح العبقرية والالهام

والأديب رسول حين يوجه الناس في آثاره إلى سبيل الخير وطلب الحق ومعرفة الجمال

والمعلم رسول يثقف العقول ويهذب الأرواح ، فيبنى الأمم وينشىء الرجال

والعلماء المصلحون والأطباء المكتشفون ، جميعهم رسل الانسانية المتألمة يهدون إليها الخير والاحسان

كل أولئك رسل أبرار يخطون لأممهم المجد والخلود ، ولا تكاد رسالاتهم تحصى ؛ فلئن جعل الله رسالات الدين خيراً وأبقى ، فان عنده رسالات الدنيا في درجة عليا

(دمشق) وداد سكاكيني

مشروع علمي جليل : سلسلة المعارف العامة

اعتزمت لجنة التأليف والترجمة والنشر اخراج كتب لطيفة الحجم يتناول كل كتاب منها موضوعاً خاصاً علمياً أو أدبياً ؛ وترمى بذلك إلى تكوين سلسلة تشمل جميع النظريات الحديثة في الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والتربية والطبيعة والكيمياء وغير ذلك ؛ وقد سلكت في ذلك طرقاً مختلفة ، فأحياناً تترجم كتباً أجنبية إذا رأتها صالحة كل الصلاحية ، وأحياناً تؤلف في الموضوع بما يتفق وذوق الجمهور العربي

وقد بدأت هذا الشهر في اخراج أربعة كتب :

(الأول) عرض تاريخي للفلسفة والعلم تأليف ا . وولف وترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف ، وهو كما يدل عليه اسمه نظرة عامة في تاريخ الفلسفة والعلم من بدء نشأتهما إلى الآن . وثمنه ٦ قروش صاغ

(الثاني) الآراء الحديثة في علم الجغرافيا تأليف ل . ددلى ستامب وتعريب الأستاذ أحمد محمد العدوى مدرس الجغرافيا بالجامعة المصرية . وثمنه ٦ قروش صاغ

(الثالث) سكان هـذا الكوكب تأليف الدكتور محمد عوض أستاذ الجغرافيا في الجامعة المصرية يبحث في سكان الكرة الأرضية من بني الانسان من حيث نشأة النوع البشرى وتعدد الأجناس ونمو السكان وتوزيعهم على سطح الأرض مع دراسة تفصيلية لحالة السكان ومشاكلهم في مختلف الأقطار . وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً

(الرابع) كتاب « البراجماتزم » أو الفلسفة الأمريكية تأليف الأستاذ يعقوب فام . وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً

نظرية النسبية الخصوصية

البحث الثالث

مبادئ الميكانيك الحديثة

للدكتور اسماعيل أحمد أدهم

عضو أكاديمية العلوم الروسية

— ٦ —

القيمة التفاضلية فى الهندسة الأوقليدية لخط تعينها المعادلة :

غ ف^2 = غ ك$_1$ + غ ى$_1$ + غ ز$_1$ معادلة (١)

وهذه القيمة التفاضلية تتغير فى كون « الزمان — المكان » أعنى فى عالم مينقوفسكى إلى ما تعينه المعادلة :

غ ف$_2$ = غ ك$_1$ — غ ى$_1$ — غ ه$_1$ + ه غ ت$_1$

معادلة (٢)

وهذه المعادلة تقابل كمية ثابتة « ث » التى هى نتيجة لمعادلة التقلص التى كشف عنها لورانتز (١)

— ٧ —

قلنا(٢) فى البحث الأول عن الزمان ونسبيته إن اينشتين غير موضوع الهندسة من الأشكال التى يرسمها انتشار النقط المادية الى الأشكال التى يخطها انتشار الأمواج النورية . وهذه الحقيقة قامت عليها هندسة مينقوفسكى معتبرة طول جسم ما ضرباً من مباحث علم الحركة

فى نظر هندسة مينقوفسكى أن المادة ليست إلا مجموعة متواليات الحوادث « Events » فى نقطة واحدة . ومجموع توالى الحوادث فى نقطة يشكل خطاً من خطوط عالم مينقوفسكى . وهذا الخط ينشأ داخل كون « الزمان — المكان » من تحرك نقطة « حادثة Event » والقانون الذى يعين طول خط يصل بين حادثتين الأولى مثل « ا » والثانية مثل « ب » تعينها المعادلة التفاضلية

$\int_{ا}^{ب}$ غ ف   معادلة (١)

إذ فيها « غ ف » العنصر التفاضلى الثانى للرقم الأول ؛ وهذه المعادلة تجرنا الى اعتبار المادة مجموعة الحادثات المنتظمة فى حركتها فى الفاصلة « غ ف »

لنتصور جزيئاً من المادة مسندا الى نظام كونى ، فهذا الجزىء المادى كل نقطة فيه تحتفظ بمكانها النسبى تجاه محورها ، ويكون انطباقها على محورها فى المكان مشفوعاً بانطباقها فى الزمان ، فكل نقطة فى هذا الجزىء المادى تقع فى نظام معين بالنسبة للكون المسند اليه بصورة ثابتة . وكل حركة فى هذا الجزىء تتبع نظام الكون المنسوبة اليه ، فحوادث الماضى والحاضر والمستقبل تحدث بدقة على خط النظام المسيطر الشامل للكون الذى تحدث بالنسبة اليه الحوادث . فجزىء المادة ، لما كانت الفاصلة « غ ف » تساوى المركز « م » كان :

غ ف^2 = ه^2 غ ت^2 — غ ظ^2 « معادلة رقم (١) »

فلو أبدلنا الرمز « ت » الدال على الزمان فى المعادلة السابقة إلى « T » كان :

غ ف = ه غ T   « معادلة رقم (٢) »

ومن هذه المعادلة نستنتج أن :

$\int_{ا}^{ب}$ غ ف = ه $\int_{ا}^{ب}$ غ T   « معادلة رقم (٣) »

حيث أن الرمز « غ T » رمز لفاصلة الزمان الخصوصية بجزىء المادة المسند للنظام الكونى فى صورة ثابتة

وإذا حولنا المعانى الرياضية التى فى المعادلات السابقة إلى عبارات عادية أفادت مساواة خط جزىء المادة بحاصل ضرب سرعة النور فى الزمان الخاص لهذا الجزىء المادى المسند للنظام المادى ، أو بتعبير آخر أن العلاقة بين فاصلة الحوادث لعالم ما وسرعة النور توجد معنا الزمان الخاص بجزىء المادة ؛ بمعنى أن قياس الزمن فى جزىء مادى مسند إلى نظام كونى يكون بساعة أو كرونومتر مستندا إلى هذا النظام نفسه بصورة ثابتة (١)

(١) البحث الأول « الزمان ونسبيته » وفقرة (١) من هذا البحث

(2) Edham (I. A) Mathematik und Phycik. , P. 118-120 Ehre-Ehrenfest (E) . Where is Science Going ?. P. 38-,1935

(1) Levi Civita : Scientia « Revue Internationale ee Synthére Scientifique. in S o Bologne. vol. XIV. P. 215.

— ٨ —

لنفرض نقطة مادية مثل « ف » فمبدأ الاستمرار يقرر أن هذه النقطة المادية تتحرك حركة مستقيمة منتظمة إذا لم يؤثر فى حركتها مؤثر . ولنفرض حادثتين : الأولى مثل « ا » والثانية مثل « ب » فى خط حركة النقطة المادية « ف » ، ولنفرض أن الحادثة الأولى « ا » تسبق الحادثة الثانية « ب » ، ولما كان هنالك خطوط المجال الانتشارى بين الحادثتين فاننا نرمز لمجموعها بالرمز « غ ص » ولواحدها بالرمز « غ » . فلتعيين خط من هذه الخطوط نبدأ من عند الحادثة « ا » التى حدثت فى النقطة « م » ، ولنفرض أن هذا الخط مسنود بصورة ثابتة لنظام مثل « ظ » ومتحرك بالنسبة لآخر مثل « $ظ_1$ » ، وإذا انتهينا بالخط عند الحادثة « ب » التى حدثت فى النقطة « $م_1$ » حيث يقوم بها متحرك مثل « $ف_1$ » يتحرك من « $م_1$ » إلى « م »

وإذا فرض [1] أنه كان خط حركة النقطتين المتحركتين « ف » و « $ف_1$ » منطبقين على بعضهما تمام الانطباق ، وكانت النقطة المادية المتحركة المرموزة لها بالرمز « ف » منطبقة على النقطة « م » ، والنقطة المتحركة « $ف_1$ » منطبقة على « $م_1$ » فخطوط الحركة بين هاتين ستكون مختلفة إذا ما تحركتا ، وحركة « ف » تكون منتظمة وسيرها مستقيما ، كما أن « $ف_1$ » تكتسب تعجيلا خلال حركتها من « $م_1$ » إلى « م »

فاذا فرض أن حدثت الحادثة « ا » فى الآونة « $ت_1$ » والحادثة « ب » فى الآونة « $ت_2$ » فستكون حركة كل من النقطتين الماديتين «Matierial Points» ، «ف» ، «$ف_1$» محصورة بين الأوانين «$ت_1$» و «$ت_2$» والنقطة المادية «$ف_1$» تتخذ الوضع الذى تنم عنه الرموز الرياضية

ك + غ ك ؛ ى + غ ى ؛ ز + غ ز

فى الآونات « $ت_1$ » وت غ » و « ت » فيكون معنا المعادلة :

$$\text{غ} = \text{غ ت} \qquad \text{... ... معادلة (1)}$$

هــذه المعادلة تعين خطوط حركة الحادثتين عند الانتقال من خط سير النقطة المادية « $ف_1$ » إلى خط سير النقطة المادية « ف » كما وأنها تعين أصغر أقواس الخطوط التى تربط النقطتين ببعض . والفاصلة « غ $ف^2$ » تعينها المعادلة

$$\text{غ}ف^2 = -\text{غ}ك^2 - \text{غ}ى^2 - \text{غ}ز^2 \, ح^2 \, \text{غ} \, ت^2$$

فاذا ما حولنا الرمز « غ ف » إلى الرمز « ح غ ت » لنشأ معنا المعادلة :

$$\text{غ}ف^2 = ح^2 \text{غ}ت^2 \left\{ 1 + \left[\frac{\text{خ ك}}{\text{خ ت}}\right]^2 + \left[\frac{\text{خ ى}}{\text{خ ت}}\right]^2 + \left[\frac{\text{خ ن}}{\text{خ ت}}\right]^2 \right\} = ح^2 \, \text{غ} \, T^2 \qquad \text{... ... معادلة (1)}$$

فلو رمزنا بالرمز « س » إلى سرعة النقطة المادية المتحركة « $ف_1$ » فى آوان الزمان « ت » كانت المعادلة الدالة عليه :

$$ح^2 \text{غ} \, T^2 = ح^2 \text{غ}ت^2 \left(1 - \frac{س^2}{ن^2}\right) \qquad \text{... ... معادلة (2)}$$

أو أن :

$$1 - \frac{س^2}{ن^2} = \frac{1}{ث^2} \qquad \text{... ... معادلة (3)}$$

فيكون معنا أن :

$$ح^2 \text{غ} \, T^2 = \frac{ن^2 \, \text{خ}ت^2}{ث^2} \qquad \text{... ... معادلة (4)}$$

ومن هذه المعادلة نستنتج أن

$$\text{غ} \, T = \frac{\text{خ}ت}{ث} \qquad \text{... ... معادلة (5)}$$

ولو حولنا [1] هــذه العبارات الرياضية إلى عبارات عادية لأفادت أن خط العالم الواقع بين الحادثتين « ا » و « ب » والمنطبقة على خط حركة النقطة المادية « $ف_1$ » يكون زمانها بالنسبة لنظام مثل « ظ » تتحرك إزاءها حركة انتقالية مستقيمة أقل من مقدار الزمان بين الحادثتين . وكلما ازدادت سرعة النقطة المادية « ف » بالنسبة إلى النظام « ظ » أخذ الزمان فى التقلص حتى يتساوى شطرا المعادلة رقم « ٥ » فيكون معنا المعادلة :

$$\left.\text{غ} \, T\right|_{ا}^{ب} = \left.\frac{\text{غ ت}}{ث}\right|_{ا}^{ب} \qquad \text{معادلة (6)}$$

ولو حولنا هذه المعادلة إلى كلام عادى لأفادت أن النقطة

(15) : Moore « G. E.» Principes new Mathematics., 1908 P. 138-140, Cincinati hress.

(5). (Edham. I. A.) : Die Grundlangen der Relativitaets-theorie.; vol 3, P. 175—178.

المادية « ق ١ » فى حركتها من « ا » إلى « ب » كلما أخذت فى الانحراف عن خط سير الحركة المنتظمة المستقيمة كانت سرعتها بالنسبة إلى « ق » أكبر . ولما كانت الفترة الواقعة بين الآونتين « ت ١ » و « ت ٢ » ثابتة لا تتغير فزمان النقطة « ق ١ » يتناقص بهذا المقدار ويكون الخط المنطبق على خط سير النقطة المادية المتحركة حركة مستقيمة منتظمة أطول خط بين هاتين النقطتين (١)

— ٩ —

من المعادلات التى سبق ذكرها نستنتج المبادىء الآتية :

أولاً : سرعة النور سرعة محدودة لا تتغير لا فى المكان ولا فى الزمان . وسرعتها مستقلة عن حركة مصدرها ، وتنتشر فى الفضاء وبين الأكوان بسرعة ثابتة

ثانيا : قوانين الميكانيكا الكلاسيكية « مبادىء نيوتن » لا تسرى على حركة وسرعة النور والأمواج الكهربائية والالكترو مغناطيسية ، ولا على حركة وسرعة الحادثات التى تقرب فى سرعتها من سرعة النور ، وإنما يسرى عليها قوانين اينشتين الميكانيكية

ثالثاً : ليس للزمان حقيقة منفصلة عن المكان بل كلاهما يتحدان فى فاصلة واحدة هى الفرق بين مربع الفاصلة المكانية وحاصل ضرب سرعة النور بمربع الفاصلة الزمانية ، وهذه الفاصلة هى الفاصلة المطلقة الوحيدة فى عالم الحادثات

رابعاً : أطوال الأجسام تتبع حالات مشاهديها وتتغير تبع حركتهم وسكونهم فالأطوال نسبية للمشاهدين

خامساً : ليست المادة كما يعبر عنها العلم الطبيعى الكلاسيكى بأنها كل ما كان لها امتدادات ثلاثة فى المكان ، بل المادة مجموعة توالى الحادثات فى نقطة واحدة ، بمعنى أن العالم ليس إلا مجموعة من الحادثات ، وتوالى عدد من هذه الحادثات فى نقطة واحدة يلقى فى روعنا معنى المادة

سادساً : الزمان الخاص بحادثة ما هو مجرد العلاقة بين فاصلة الحادثة وسرعة النور

سابعاً : الخط المستقيم الواصل بين حادثتين هو أطول خط بين هاتين الحادثتين

اسماعيل أحمد أدهم

(تم البحث الثالث)

تصحيح خطأ

جاء فى المقال السابق نشره فى العدد ١٣٨ خطآن مطبعيان نصححهما فيما يلى :

الأول وقع فى ص ٣٠١ سطر ٢٣ بالمعادلة رقم ٢

خطأ

$$\text{س}_{٢} = \frac{\text{س} + \text{س}_{١}}{١ + \frac{\text{س} + \text{س}_{١}}{\text{ه}^{٢}}}$$

صواب

$$\text{س}_{٢} = \frac{\text{س} + \text{س}_{١}}{١ + \frac{\text{س} \times \text{س}_{١}}{\text{ه}^{٢}}}$$

كما أنه فى السطر الثانى من الفقرة (٤) ص (٣٠٢) بالعمود الثانى وقع : خطأ اذاء صواب ازاء

(١) حسنى حامد : اينشتاين نظرية لرينك على قيمتى استانبول ١٩٢٨ صحيفة ٥٩

صالح ذكى : اينشتاين وبوانكاريه . دار الفنون ، فيزيق شعبه سى ، فيزيق رياضيات محاضره لرى ١٩٢٥

صور الصداقة والعداوة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

وَفِيٌّ غادر سمحٌ حقود ... أرى الأضداد فيك إلى لقاء
أمَدْحك لى انتقام من عدو ... أساء اليك أم محض الثناء
وفاؤك كى أبادلك التحايا ... أذا سبب التقرب والتنائى ؟
وكيما أصطلى وأشن حرباً ... على من مدحه لك كالهجاء
أتخدعنى ولم تلحق بسنى ... ولم تظفر بخُبرىَ أو بلائى
وتمذق لى إخاءك مذق حقد ... على وما أصبتك بالعداء
تحاربنى وتحسب أن مستخفٍ ... عداؤك ليس يظفر بالخفاء
كشأن نعامة للرأس تخفى ... وتحسب ما لها فى الناس رائى
ولست بأول المخفين بغضاً ... نما بين المحبة والإخاء
عرفت الناس قبلك يا خليلى ... وذقت الغدر من حلو الوفاء
فان كان الولاء كما أراه ... فويلى من وفائك والولاء
وبُعداً للمديح وإن تغالى ... وسحقاً للمروءة والصفاء
سل الخلان ما فعلوا بقلبى ... وهل أبقوا لشدقك من غذاء
وهل أبقوا لبطنك منه شِلواً ... مريراً لا يساغ على عداء
أعيذك أن أراك شبيه قوم ... رجولة بعضهم فقد الحياء
وهم فقدوه من ذل وعار ... وهم فقدوه من فقد الأباء
وكم أخفوا رخاوتهم بهُجْرٍ ... كمن فقد الحياء من النساء
وهم مثل الهلوك رمت رجالاً ... بما قد صح فيها من هجاء
على الأبواب واقفة تنزّى ... وترمى القوم من دان ونائى
وتحسب أنها نفضت خناها ... كجلد الكلب هُزّ لنفض ماء
فلا يعديك خلقهم فانى ... رأيت الخُلق يعدى كالوباء
صفحت ولو أردت بلغت ثأرى ... وقد عُرِفَ اقتدارىَ فى الرماء
فان يأبوا وإن تأبى سكونى ... فما صمّنى بعىّ الأدعياء
ولا يُغليك بين الناس خفضى ... ولم تبعد بأفقك عن سمائى
لتنزلنى إلى حيث استقرت ... بك الدنيا تفنن فى العداء
تخبّرُنى اللحاظ بغل قوم ... على ما نلت من فرص الرخاء
وكنت أظنه حسداً لقولى ... فخلت الصمت أقرب للنجاء
ولو سمعوا بموتىَ ما استراحوا ... ولا يشفى حقودهمُ فنائى
أرادوا لى الممات ولو دهانى ... لفرط الحقد أحسد للفناء
فلا يرضيهمُ عيشى رخياً ... ولا يرضيهمُ منى عفائى
وفى الدنيا الدنيئة هان سمحٌ ... تعالى عن سلاح الأدنياء
إذا ما أحرجوا سمحاً كريماً ... تدرّع بالقواذع فى الرماء
دعونى صامتاً فالصمت أوقى ... لكم إن لم تصولوا بالغباء
أداجى الناس ما داجوا وإنى ... لأزهد فى الدِّهانِ وفى الرياء
ولكن الحياة لها قضاء ... فمن يأباه يزهد فى البقاء
وما أدرى لدُنْ أُلفِى عدُواً ... أأبله أم تبالَهَ بالعداء
أخوّفَهُ أذاى أخو دهاء ... أخوّفَهُ ذكائىَ واعتلائى
أتمّقَ وعده بالخير إما ... تمادى من تمادى فى الجفاء
أسَعْىُ سعاية ام قول واشٍ ... يُحَكِّمُهُ الْحَكَمُ فى الخفاء
أرَجّاهُ مُرجّى الخوف منى ... ضلالاً نيل عونِىَ أو ثنائى
أعدوى فى التثاؤب من كسول ... كعدوى فى العداوة والاخاء
أرشح اللؤم فى رهط وضيع ... يفيض بما يشاء من الأداء
ومن عرف الأنام رأى أموراً ... مُرَغْبَلَةً كرعبلة الكساء
أراها كلها صُوَراً تنزّى ... تنزّى الآل فى الخرق الخواء
سراب لست أتبعه فأخشى ... هلاكاً لا ولا هو من رجائى
أنا المرء الذى عرف البرايا ... فلا يردى لعاد أو لشانى
ومن خَبَرَ الأنام لِصُنْعِ فنٍّ ... فكل الخلق من صُوَرِ الأداء
تراموا بالهجاء فان أصابوا ... فرهطهم الملاطخ بالهجاء
أليس الرهط فرداً ثم فرداً ... وأوصافاً لها عدوى الوباء
نعتم رهطكم لما نعتم ... نفوسكم بأوضار الرماء
نفوسكم معرّة كل رهط ... ومدرجة الشعوب إلى الفناء
ومهزلة المكارم والمعالى ... وهل لؤم يؤول إلى علاء
لعلكم حسبتم كل شر ... إلى عود بخير وانتحاء

عبد الرحمن شكرى

أعلام ورموز :

أنا قبر

بقلم السيد زكى المحاسنى

يا حبيبى حبى يضيق كلاماً   ليت أنى أبينه أنغاما
نغماً تفهم الجوارحُ منه   ويريح العذاب والآلاما
أنت أغرودة على الدهر تعلو   عن سماع يغدو ذووه رغاما
أنت لحن سمعتــه فرمانى   ضائع الرُّشد حائراً مستهاما
ربما قدشككتُ فى صدق عينى   لحسبت الذى رأيت مناما
كيف فرّت حقيقةٌ من يد الحِـ   سِّ فصارت فى مزعمى أوهاما
أأنا ذاك أم أعيد وجودى   بعد ما كنتُ فى فنائى رماما

***

أغلِق الكُوَةَ المنيرة واملأ   نى ظلاماً حتى أصير ظلاما
علنى أسترد صورةَ ما فا   ت وعلّى أردُّها أحلاما
هاهو السبح يدّنى من أمامى   واجماً وجهه يلوح كهاما
جللت منكبيه بردةُ بؤس   جملتها الأسفارُ تبدو قتاما
مدّ لى كفّهُ الهزيلةَ والرجـ   فةُ فى ثغره وقال : سلاما
لم أكد أهتدى إليه فأرجعـ   تُ الخوالى إلىَّ عاماً فعاما
ثم لما عرفته غاب عنى   وكفانى ولو يزورُ لماما

***

رُدّ ضوئى واحملْ إليه حياتى   واسقنى فى سُلُوّ همى مُداما
داونى مثلما يداوَى عليل   خاف أهلوه أن يموتَ سَقاما
أغدُ بى فى الرياض واقصص حديثاً   أتخذْ منــه سَلوةً وجَماما
أنا أهوى الحياةَ من كلِّ آتٍ   وأرجّى من البقاء دَواما
إحتفِز هُوّةً وأنزِلْ إليها   ذِكرياتى وأردُم عليها رِجاما
وكأنى أمرُّ يوماً عليها   فتنادى : ألا رعيت ذِماما
فأبكّى لها وأسفح دمعى   فتبلُّ الدموعُ منها أُواما

***

أنا قبرٌ وفىَّ مَيْتٌ توارى   وبكائى علىَّ كان لزاما

ليلة فى «الحمراء»

« عن شاتوبريان »

بقلم السيد ناجى الطنطاوى

ولى ذكريات أودعت مهد مولدى   عذاب وعهد فى رباه أنيق
فهل تذكرين اليوم يا أخت ما مضى
فانى إلى تلك الديار مَشُوق

وهل تذكرين « الكوخ » حين تضمنا
إلى صدرها الأم الحنون فنجذل
وشَعراً لها قد بيّض الشيب جُلَّه   نداعبه طوراً وطوراً نقبّل ؟

وهل تذكرين القصر والنهر دونه   يبلّه والبرج فيه قديم ؟
إذا قرع الناقوس أعلن صائحاً   بأن نهار الأمس عاد يقوم

كذا العندليب الخفُّ هل تذكرينه ؟
يلامس سطح الماء حين يطير
وللقصب الزاهى انحناء وعند ما   نرى الشمس فى ماء الغدير تنور

فهل من معيد لى «هيلين» ودوحةً   بها وجُبيلاً كيف لى أن أراها ؟
تسبب لى ذكراها الوجد والجوى   لأنىَ لا أهوى ربوعاً سواها

فى غمرة الهوى

بقلم السيد الياس قنصل

لا تحزنى إن كنتِ عاشقةً ولا   تستسلمى لتفجُّع وبكاء
الحبّ لا يُشقى وإن حمل الردى   بفوادح النكبات والأرزاء
هو نفحةٌ علويةٌ سحريةٌ   تسبى الفؤاد بلطف الاستهواء
تحبو الخلىَّ جناحَ وهمٍ خالدٍ   يسمو به عن سائر الأحياء
لا تحزنى ، فجَلالك الفتان قد   تذوبه عاديةٌ من البلواء
والحزنُ ينفث فى الحياة وكأنما   ما ليس تنفثه سوى الرقطاء

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

أندلسيات :

٣ – ابن بسام صاحب الذخيرة
والشاعر ابو مروان الطُّبْنى
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

ألاَ يحسن بنا بعد أن أوردنا ترجمة ابن بسام للشاعر أبى مروان الطبنى أن نردفها بترجمة الفتح بن خاقان لهذا الشاعر حتى ترى فرق ما بين الترجمتين فتتم الموازنة بذلك بين هذين الأديبين من جهة ، وحتى نوفى ترجمة هذا الشاعر حقها عما فى ترجمة الفتح من زيادة على مما فى ترجمة ابن بسام من الجهة الأخرى . نعم ، قال الفتح فى المطمح فى حق الطبنى : من ثنية شرف وحسب ، ومن أهل حديث وأدب ، امام فى اللغة متقدم ، فارع لرتب الشعر متسنم ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد وقد توّج بالمعارف الفرق ، وأقام بقرطبة عَـلَماً من أعلامها ، ومتسنما لترفعها وإعظامها ، تؤثره الدول ، وتصطفيه أملا كما الأول ، وما زال فيها مقيما ، ولا برح عن طريق أحانيها مستقيما ، الى أن اغتيل فى إحدى الليالى بقضية يطول شرحها ، فأصبح مقتولا فى فراشه ، مذهولا كل أحد من انبساط الضرب اليه على انكماشه ؛ وقد أثبت من محاسنه ما يعجب السامع ، وتصغى اليه المسامع ؛ فمن ذلك قوله :

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم على مابه منهم حنين الأباعر
وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا ألا إن قلبي سائر غير صابر

ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع اليه فى المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الـكثرة ، وماله عندهم من الأثرة قال :

إنى إذا حضرتنى ألف محبرة يكتبن : حدثنى طوراً وأخبرنى
نادت بمفخرتى الأقلام معلنة هذى المفاخر لا قعبان من لبن (١)

وكتب إلى ذى الوزارتين أبى الوليد ابن زيدون :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار وقلّ منا ومنك اليوم زوّار
وبيننا كل ما تدريه من ذمم وللصبى ورق خضر وأنوار
وكل عتب وإعتاب جرى فله بدائع حلوة عندى وآثار
فاذكر أخاك بخير كلما لعبت به الليالى فان الدهر دوار

عود الى الذخيرة

« وأما بعد » فقد آن لنا أن نعود إلى القول على كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، وهو الأثر الفذ الباقى للمترجم له أبى الحسن على بن بسام ؛ ولولا أن لهذا الكتاب شأناً غير شأن سائر نظائره لما عرضنا للقول عليه والتعريف به ، إذن لناق عليه نظرة ليس منها بد ؛ ولا سيما بعد أن بشرنا صديقنا الأستاذ الكبير محمد كرد على بك بأن هناك لجنة من أفاضل المستشرقين تألفت برياسة العلامة المستشرق الفرنسى الأستاذ ليفى بروفنسال لاخراج هذا الكتاب الضخم الخالد الذى حُرمت منه المكتبة العربية هذا الزمن الأطول ...

* * *

(١) يشير الى قول الشاعر :

تلك المكارم لا قعبان فى لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

والقعب قدح من خشب يروى الرجل والاثنين والثلاثة

وتأملى تجدى تباريح الهوى قد ميزتك برقةٍ وسناء
ما كنتِ قبل اليوم إلا دمية تحوى ضروب الحسنِ دون رواء
يأتى الربيعُ فلا ترين جماله إلا بعطرِ زهوره الميلاء
وتدغدغ النسماتُ وجهكِ حيث لا تلقى سوى لون بلا إغواء
وإذا تمايلت الغصونُ وصفّقت أوراقها فى الروضة الغناء
لم تدركى معنى تمايلها ، ولم تقفى على همساتها الخرساء
ما كان قلبك رغم كل حنوّه إلا شبيه الصخرةِ الصماء
واليوم بتّ وقد عرفتِ لُغَى الهوى نبتَ الخلودِ ومهبطَ الإيحاء
فاذا رنوتِ إلى السما عند المسا ورأيت ملك الأنجم الزهراء
أدركتِ شيئاً لم يكن لك ظاهراً وكشفتِ سرّ القبة الزرقاء
أمسيتِ أقربَ للذى أمر الورى بالحبّ ، لا بالحقد والبغضاء
سرّى إذن ، وليمحُ عنكِ الحزنَ ما يجتاز قلبك من هوى وهناء

(عاصمة الأرجنتين) الياس قنصل

وضع قديماً أبو عبد الله هرون بن على بن يحيى بن أبى منصور المنجم البغدادى المتوفى سنة ٢٨٨ هـ كتاباً اسمه «البارع» فى أخبار الشعراء المولدين جمع فيه مائة وواحداً وستين شاعراً ، وافتتحه بذكر بشار بن برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ، واختار فيه من شعر كل واحد عيونه ، وقال فى أوله : إنى لما عملت كتابى فى أخبار شعراء المولدين ذكرت ما اخترته من أشعارهم وتحريت فى ذلك الاختيار أقصى ما بلغته معرفتى وانتهى اليه علمى ؛ والعلماء يقولون : دل على عاقل اختياره . وقالوا : اختيار الرجل من وفور عقله . وقال بعضهم : شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنه قطعة من عقله ، واختياره قطعة من علمه . وطول الكلام فى هذا وذكر أن هذا الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبل هذا فى هذا الفن ، وأنه كان طويلاً فحذف منه أشياء واقتصر على هذا القدر . ثم جاء بعده أبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ووضع كتابه «يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر» ، وجعله ذيلاً لكتاب البارع ؛ هذا ثم جاء أبو الحسن على بن الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ هـ ؛ وألف كتاباً اسمه «دمية القصر وعُصرة أهل العصر» ، وجعله ذيلاً لكتاب يتيمة الدهر ؛ ثم جاء أبو المعالى سعد بن على الوراق الحظيرى المتوفى سنة ٥٦٨ هـ وصنف كتاباً أسماه «زينة الدهر» ، وجعله ذيلاً على دُمية القصر ؛ وأخيراً ظهر العماد الكاتب الأصبهانى المعروف بابن أخى العزيز والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، ووضع كتابه المسمى «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» ، وجعله ذيلاً على زينة الدهر للحظيرى . هذا فى الشرق ، وأنت فانك تعلم أن الأندلسيين كثيرا ما يحذون حذو المشارقة فى سائر مناحيهم ؛ ومن ثم نحوا نحوهم فى وضع هذا النوع من التواليف ، فوضع الأديب الكاتب الشاعر أبو عمر احمد بن فرج – وكان معاصراً للخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر – كتاباً اسمه «الحدائق» قدمه للخليفة المستنصر وعارض به «كتاب الزهور» لأبى محمد بن داود الأصبهانى ولم يورد فيه لغير اندلسى شيئاً – وسنترجم لهذا الأديب – ثم جاء من بعده صاحبنا أبو الحسن على بن بسام فوضع كتاب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» وجعله ذيلا على حدائق ابن فرج . وفى عصره صنف الفتح بن خاقان كتابى القلائد والمطمح ، وجاء بعدهما الأديب أبو عمر بن الامام وذيل على الذخيرة والقلائد بكتاب اسمه سمط «الجمان وسقيط المرجان» ذكر فيه من أخل ابن بسام والفتح بتوفية حقه من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره فى بقية المائة السادسة ؛ وذيل على هذا الكتاب أبو بحر صفوان بن ادريس الكاتب الأندلسى الكبير بكتاب سماه «زاد المسافر» ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة . وهنا نذكر أن أكثر هذه الكتب مفقود كما أن هناك تواليف كثيرة من هذا القبيل لم نسمع بها فضلا عن أنها غير موجودة . فلقد أخبرنا الامام أبو محمد بن حزم فى رسالته التى يشيد فيها بفضائل الأندلس أن للشاعر الوشاح أبى بكر عبادة بن ماء السماء كتاباً فى أخبار شعراء الأندلس أثنى عليه وقال انه كتاب حسن فى معناه . وحدثنا أيضاً بأغرب من هذا وهو أن من بين الكتب التى وضعت للخليفة الحكم المستنصر كتاباً فى أخبار شعراء «ألبيرة» فى نحو عشرة أجزاء . . . فتأمل . . . ومما يتصل بهذا وما هو أقعد فى باب الغرابة ما حدثنا به ابن حزام أيضاً من أن هناك شاعراً أندلسياً كان فى عصر جرير والفرزدق اسمه أبو الأجرب جَعْوَنة بن الصِّمّة الكلابى يقول ابن حزم فى حقه : ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب فى الشعر لم نباه به إلا جريرا والفرزدق لكونه فى عصرهما ؛ ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . وحكى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب قال : ان عباس ابن ناصح الشاعر الأندلسى لما توجه من قرطبة إلى بغداد ولقى أبا نواس قال له أنشدنى لأبى الأجرب قال : فأنشدته ، ثم قال : أنشدنى لبكر الكنانى ، فأنشدته ؛ فأين شعر هذين الشاعرين الأندلسيين العظيمين ؟ إنا وا أسفاه لم نعثر لهما على شيء قط . . . . . ثم وأين كتاب المسهب للحجارى ، وكتاب المغرب لابن سعيد ، وكتابا المبين والمقتبس لمؤرخ الأندلس الأكبر أبى مروان حيان ابن خلف ؟ ! . . . وأين وأين . . . . ! ؟

اين سكانك لا اين لهم   أحجازا أوطنوها أم شآما

***

فاسألنها واجعل بكاك جوابا   تجد الدمع سائلا ومجيبا

عبد الرحمن البرقوقى

القصص

مأساة من اسخيلوس

ثأر أورست

The Choephoroe

الدرامة الثانية من (الأورستية)

للأستاذ دريني خشبه

تتمة

— ٦ —

ويسأل أورست عن هذه الزقاق من أرسلها ، وعن هذه الخمر فيم يصبانها على ثرى أبيه ، وقد تصرمت السنون على جدثه ، فتحدثه رئيسة المنشدات عن رؤيا الملكة :

— « حلم ! حلم ! أيها الأمير ! حلم مزعج مروع أقض مضجعها ؛ وأذهلها عن نفسها ! رؤيا انبجست عن ضميرها المضطرب الملوث بالآثام ! »

— « رؤيا ! وأى رؤيا هذه ؟ »

— « حملت واستكرشت ، ثم وضعتها أفعى هائلة »

— « أهذا كل شىء ؟ »

— « لقد هبت مروعة مشدوهة ، وطفقت تصيح وتصخب كأنها طفلة جائعة ... »

— « الحية الرقطاء ! وأى غذاء يرد شرها ! زادها الله سغباً ! »

— « لقد كانت تمسك صدرها بيديها ، كأنها تخمد فيه ناراً ! »

— « وكيف لم ينفث السم فى ثديها ... »

— « كلا ! بل لقد قطر ثدياها دماء ... لا لبنا ! »

— « يالها من رؤيا ... لو تتم ! ... »

ثم انطلقت تصيح فى أبهاء القصر ، وهب العذارى يحملن المشاعل ويغسلن ظلام الليل ؛ وأمرت بهذا القربان الخمرى فصُبَّ فى تلك الزِّقاق ، وحملناه إلى ... »

— « قبر زوجها ! الغادرة الفاجرة ! ليشفى سعارها ! يا آلهة الأولمب ! ويح لك يا أرض الآباء ! رحمة لك يا قبر ! يا سيد الأولمب ! يا ربات المقادير ! أكتبى أن أكونه ، أكتبى أنا أكون هذا الأفعوان الهائل الذى يقر فوق صدرها ... لن يردنى شىء ! سأغمد خنجرى فى الصدر الذى شببت فوقه ! سأمزق الأثداء التى قطرت فى فمى علقم الحياة !

أكتبى يا ربات المقادير ! لتمت موتة دامية ! سأذبحها ! أنا الأفعوان لا ريب ! إشهدن أيتها العذارى ! سجلى ياسماوات ! هلم بيلاديز ! هلم ياصديق لنأخذ فيما قدمنا له ؛ وأنت يا إلكترا كونى رائدنا فى القصر ؛ تحسسى لنا أخباره ، وقصى آثاره ، فاذا أزفت الآزفة لم تفلتهم الغيلة التى دبرناها لهم ، كما دبروها لمولاهم من قبل ؛ ولم يفلتهم الشرك الذى نصبوه بأيديهم ، وآن لهم أن يقعوا فيه ..... ليذوقوا وبال أمرهم مادام أن النفس بالنفس ! هلمى إلكترا ! سأبدو أمام البوابة الكبرى مع صديق بيلاديز فى زى مهاجرين ، وسنتحدث بلهجة أهل هذه البرية التى نتقنها جيداً ، يا للآلهة ! إن أحداً من أهل القصر لن يمنحنا ابتسامة ، أو يتصدق علينا بنظرة !! ...

لا علينا ! بيد أننا سنترصد لأيجستوس ، فاذا حانت لنا منه غفلة فسننقض عليه وننفذ خناجرنا فيه ! إلكترا ! أرقبى القصر جيداً ، واحذرى أن تحركى لسانك بكلمة تفسد علينا كل شىء .... تكلمى إذا كان فى الكلام خير لنا ..... وإلا ..... فالصمت .... الصمت الذى يشبه الكبرياء يا أختاه ... وأنتن أيتها العذارى . . . هاتين موثقكن (يقسمن له أيمن معه) إذن ... إلى اللقاء ... »

— ٧ —

« المنظر : أمام قصر "الوبيديه (١) »

« يهزج المنشدات بلحن طويل حلو ، ويتغنين أشجان القصر العتيق ، ويرددن ذكريات الماضي المظلم المضرجة بالدم ، ويلمحن إلى الهول الأكبر الذي ينتظر المجرمين . . . »

« يدخل أورست ويطرق باب القصر »

— « أنتم يامن هنا ؟ ... (ويطرق ثانية) ... يا أهل هذا المنزل الرحب ... (ويستمر في الطرق) ... يا سادة هـــذه الدار ! ... الأمير إيجستوس ! أريد الأمير إيجستوس ! ماذا ؟ ألا من أحدٍ هنا ... في هذه الدار المضيافة ... (يطرق بعنف)

البواب : « هيه ! من ؟ من أنت ؟ (في غضب) من أين أقبلت ؟ تكلم أيها الريق !

— « لقد جئت لسادة هـــذا القصر بأخبار هامة ... غريبـة ... فالبدار البدار أيها البواب ! ... قل لهم إن بالباب رجلا من بدو البرية يريد لقاءهم ... هيا ... و ... إسمع أيها البواب ... اسمع ، أرجو أن ... لقد أوشك الليـل يرخي سـدوله ، ولا بد لابن السبيل من ملجأ كريم يأوي إليه ... فحبـذا لو لقيت أيًّا من ذوي الشأن هنا — وحبـذا لو كان رجلاً ... إن لديَّ أنباءً هامة ، وقد أرتبك إذا ألقيتها لامرأة ... أما إن كان رجلا ... فالرجل يصارح الرجل من دون ماحياء ... بل لا يـكاد ذهنه يشرد في حضرته كما قد يشرد في حضرة امرأة ... ... »

« تدخل كليتمنسترا »

— « ماذا أيها السيد ؟ ! غريب لاجيء ! مرحبا مرحبا ... إن قصر "الوبيديه لن يضيق بالجائع المعتر ، ولا بالظامىء الصادي ... إنزل أهلا ، وحل سهلا ... ولـكن ... ! يبدو عليك أنك رسول ولديك أنباء ! إذن ... ما وراءك ؟ هـذا إن لم تـكن رسالتك للأمير ... »

— « أنا ؟ ... أجـل ... رسول ! لقد قدمت من بلدتي دُوليس ، إلى آرجوس ، في بعض شأني ... و ... بينا أنا في بعض الطريق ، إذا رجل طوال وقور الهيئة يلقاني فجأة ويسألني إلى أين ؟ ولم أكد أجيبه أنني ميمم شطر آرجوس حتى لمحت لهفة شديدة وقال : إذن لي رجيَّة عندك ما أحسبك إلا مؤديها لي ... ومنَّاني بالخير الـكثير ، ووصل حديثه فقال : إذا كنت في آرجوس فاقصد من فورك قصر الامارة ... "الوبيديه الشاهق ... والق ال ... ملـ ... الأ ... مير ... ونبِّئه أن أورست قد قضى نحبـه ... مات ... ثم سلهم ، هل يرون أن تنقل رفاته فتقر في ثرى الوطن ... أم يؤثرون أن تظل حبيسةً في دار الغربة كما عاش صاحبها إلى آخر أنفاسه مشرَّداً في أقصى الأرض ، طريدا من رحمة أبويه ... أما الرجـل فقد ذكر لي أنه ستروفيوس وأنه من فوسيز ... وقد ألح في أن أعود إليه برد على ما طلب ... و ... و ... فاتني أن أذكر أن رفات الأمير الصغير ما تزال محفوظةً في إران نحاسي ... و ... أنه يبكيها ... و ... ولـكن يا سيدتي بحق الآلهة عليك ! لقد ذكرت كل شيء ... هل أديت الرسالة الأُدُن التي طلب مني الرجل أن تعيها ؟ إذ ينبغي أن يعلم أبَـوَا الأمير قبل كل أحد »

ـ « ويلاه ! يا للداهية تنصب في هذا الخبر الأسود ! إيه أيتها اللعنة التي ماتفتأ ترنق على هذا القصر ! إيه يا عُقاب الردى هويت من شاهق على حَمَـلِنَـا ! إيه يا سهم المنية اخترمته من بُعد ! بينا كنت أحسبه في مأمن من مزالق الحتوف ، إذا هو يموت ، ويغادرني في تعاستي وحدي ! أورست ! يا رحمتا لك يا بُنيّ ! لقد كنت أدخرك لتشفي أوجاع هذا البيت ... ياأملي الوحيد ! يا آخر رجاء لي في الحياة ! لقد جاء النعي فلا شك ! ... »

— « واأسفاه ! كم كنت أود لو أتيت بالبشريات الغُر لأنال رفد هؤلاء السادة الأثرياء ! ولـكن ! لا عليّ ! فلقد ظل قلبي يحدثني عما في النبأ الذي حُمِّلت من شر !

إ ... إ ... إنما ! ... مالي ولذاك ! أيتها الأميرة ! أمن رد على ستروفيوس .. ؟ »

— « ليطمئن قلبك على الرفد أيها الرسول ! ولا يحزنك أنك جئت الينا بهذا النبأ ، فقد كان غيـرك يجيء به لو لم تفعل ... والآن ... هلم أيها الخادم بالضيف الـكريم الى أفخر غرف الضيافة ، وليصحبه تابعه ، ولتكرم مثواه ، ، فما أظنهما إلا قد أضناهما السفر ، ونال منهما الطريق ... أما نحن ، فسنبلغ الملك وسنرى ماذا يكون في مسألة الرفات »

« يخرج الجميع ماعدا المنشدات »

— ٨ —

« تدخل مرضع أورست »

رئيسة الخورس : « هيا يا وصيفات القصر ! صلاةً مباركة

---

(١) لم يتقيد اسخيلوس بوحدة المكان في هذه الأساة ، وكان المنظر الأول أمام مقبرة أجا ممنون

للآلهة أن تحرس أورست وأن تلحظه بعين الرعاية ... وصلاة مباركة على روح الوالد القتيل، الذي لابد هو راع ولده الذي جاء ليثأر له من الآثمين! ... هيه! من؟ مرضعة أورست؟ كيليسا؟ ماذا جاء بك يا كيليسا؟! تبكين؟ ماذا يبكيك يا طيبة القلب؟!»

— «عِمْنَ مساء يا عذارى طروادة! لاشيء! فقط، ... لقد طلبتْ إليّ الملكة أن أدعوَ إليها أميرها إيجستوس ليتلقى بأذنيه أنباء النعي! ويلاه! ويلاه عليك يا أورست! يا طفلي العزيز! شجنٌ جديد يغطش سماءك أيها القصر! أنت يا مأوى الأشجان وكهف الأسرار! يا بيت أتريوس كم مصيبة خبأتها لك الأقدار؟! آه يا طفلي! يا من غذونك من ثدييّ لبن المحبة والحنان! أنا كيليسا المفجوعة فيك... أنا التي غذوتك ونشأتك وسهرت عليك بأمر أبيك الملك! أنا التي كنت أفديك بالحياة... لقد انتزعوك مني... ونفوك في أقصى الأرض حتى لا تروع أحلامهم وتقف في سبيل لذاتهم! اللئام... ! أنا أذهب الآن لأدعو إيجستوس! لأملأ سمعيه بخبر وفاتك! يا ولدي... يا ولدي... !»

— «مسكينة! ياويح لك يا كيليسا! ولكن!...، اهدئي، فان لنا سؤالاً نحب أن تجيبي عنه... !»

— «... ؟ ... ؟ ...»

— «وبم أمرت الملكة؟ هل أمرتك أن يأتي إيجستوس ومعه أحد؟»

— «لا أفهم... أفصحن بحق الآلهة عليكن!»

— «نعني، هل يأتي وحده، أم يكون معه حرس؟»

— «لا! بل أمرت أن تكون حوله فرقة من حملة الرماح!»

— «صه!... لا. لا... إياك يا كيليسا! قولي له إن الملكة تريد أن تذهب إليها بمفردك... و... نرجوك!... نحن نترك البقية لحسن فهمك!...»

— «ماذا؟... وهل لكن الحق في إصدار أوامر؟»

— «لا... ولكن إن كنت حقاً وفية لأورست فلا تقولي إلا ما أشرنا عليك به!»

— «لست أفهم!... لقد أودى أورست وكان منتهى آمالنا... فماذا نرجو بعد؟»

«وتبكي»

— «لترقأ عبرتك يا كيليسا! وليفرخ روعك! هوني عليك يا طيبة القلب، فقد يكون حياً يرزق! من يدري؟ لقد ألقى إلينا أن ... »

— «ماذا؟ نبوءة! نبوءة بالله عليكن؟... أم سمعتن أنباء خاصة؟»

— «صه... ! هيا هيا... إذهبي إلى إيجستوس وليقصد إلى الملكة وحده!»

«تخرج كيليسا»

«وتصلي المنشدات من أجل أورست، ضارعات إلى الآلهة أن تكون معه؛ وإلى هرمز أن يحرسه»

— ٩ —

«يدخل إيجستوس»

— «هيه!... هأنذا قد أتيت! ياله من خبر! أين الغريبان! ماذا؟ أحقا مات أورست؟! ما كنا نؤثر أن يموت! يالجرح الذي ينغل في أحشائك أيها القصر؟ هاك فادحاً آخر ينوء بكلكله عليك! ولكن!... لا... لا أصدقه! لا أصدقه...! أنا في شك من النبأ مريب! المرأة! لقد زخرفوا لها الخبر الأسود وقذفوا به في روعها! أكبر ظني أنها إشاعة لا تلبث أن تذوب! خبرن يا وصيفات! أحق ذاك النبأ؟»

— «لقد سمعنا كما سمعت! ولكن!... لتدخل أنت، ولتلق الطارقيْن الغريبيْن! فقد خُيّل إلينا أنها مجرد إشاعة! وقد تجلو الحقيقة حينما تواجههما»

— «ما أحسبني أصدقهما إلا أن يقولا رأيناه يجود بآخر أنفاسه! إن لي لعقلاً، وإنه لا تجوز عليه الأباطيل!»

(ويخرج)

وما تكاد المنشدات يترنمن بأنشودة قصيرة يصلين فيها لزيوس حتى تُسمع صرخة من الداخل:

— «آه... آه... ذُبحت! لقد ذُبحت!»

المنشدات: — «ها!... إشتدي أزمة!»

— «آه... آه...»

— لقد نفذ السهم وقُضي الأمر!...

«يدخل أحد الخدم»

— «ويلاه! قتل الأمير! أخبروا الملكة!... ويلاه! افتحوا البوابة لأميرة القصر!» «تحاول المنشدات فتح البوابة فلا تستطعن» أأنتن ضعيفات! ليفتحها الرجال الأشداء! الغوث الغوث! آه... لا غوث اليوم، لقد انتهى كل شيء!

أين الأميرة ! أين الملكة ! أين كليتمنسترا ؟ ياويح لها حين يفجعها النبأ ! . . . »

— ١٠ —

« تدخل كليتمنسترا »

— « من ذا يصيح ويصخب هنا ؟ ماذا ؟ أنت الذي تصخب أيها الخادم ؟ »

— « أ . . . أنا . . . ؟

— « ماذا ؟ تكلم ! »

— « لقد انتفض الأموات تحت أطباق الثرى فذبحوا الأحياء ! هنا في هذا القصر ! »

— « آه ! الخديعة ! جلوت السحر وكشفت الطلسم ! هلم فهات لي بلطا (1) ! وليكن حديداً مشحوذاً ! هلم هلم ! عليّ وزر هذا العمل أو لي خيره ! لأصارع الأقضية ، ولأنازل المقادير هذه النوبة أيضاً ! »

(ويتزاح ستر فيدو أورست وأمامه جثة إيجستوس وإلى جانبه بيلاديز)

أورست : « آه . . . ! هلا ! هذي أنت ! لقد فرغت من إيجستوس ، وقد جاء دورك ! . . . »

« كليتمنسترا وقد هالها مقتل ايجستوس »

— « قُتِلت ! ويلاه ! سكتت نأمتك ، وشالت نعامتك ، يا أعز الناس عليّ ! »

— « أعز الناس عليك ! ها ها ها ... إذن سترقدين إلى جانبه آخر الدهر ليتم له ودؤك يا آثمة ! »

« ويهم أن يفتك بها فتعرف فيه ولدها »

— « أورست ! أهو أنت ؟ ولدي ! حاشاك ! إرحم هذا الصدر الذي طالما دللك ، والثدي الذي طالما أرضعك ! »

« ينثني أورست ليستشير صديقه »

— « بيلاديز ! أشر عليّ يا أعز الأصدقاء ! هل تفل الرحمة من غرب هذا السيف من أجل أمي ؟ »

— إذن أين ما أوحى إليك من لدن أبولو ؟ وأين النبوءة الصادقة وما ناشدتك السماء أن تؤديه لها ؟ روّ سيفك غير راحم يا أورست . كن صديق السماء واغسل بغضبتك أدران الأرض ! »

— « آه ... شكراً لك يا بيلاديز ! حقاً إنك المخلص الأمين ! أنا أبداً في حاجة إلى مشورتك ! سأقتلك إذن يا أدنس الأمهات ! سأقتلك لتخرّي إلى جانب عاشقك المجرم النجس ! لقد فضلته على ملكك في الحياة ، فقري معه بعد الموت ! حبيبك المتبع الذي كان غيره أجدر بحبك لو عرف قلبك أثارة من الطهر يا فاسقة ! »

« ويهم أن يفتك بها ثانية »

— « أورست ! لقد أرضعتك ، وكنت آمل أن تكون سندي في شيخوختي ! »

— « سنداً لها ! الفاسقة ! وكيف يظلني سقف وقاتلة أبي مثلومة العرض ! »

— « قدر محتوم يا أورست ! »

— « والقدر المحتوم هو الذي يكتب عليك ما تلقين اليوم »

— « ولعنة أمك ! ألا تخيفك يا أورست ! »

— « أمي التي قذفت بي من حالق فريسة لأشجان الحياة ! »

— « أنا قذفت بك من حالق ؟ حاشا ! لقد أرسلتك إلى أعز الأصدقاء ليكلأك ويرعاك ! »

— « لقد كانت مقايضة خاسرة بالنسبة لي ! حرية وملك ، بعبودية وذل ! »

— « وأين الأعطيات التي بعثت بها يا بني ؟ »

— « الأعطيات ؟ يا للعار حين نخوض في ذلك من غير ما احتشام ؟ »

— « قد لا تذكر أيام أن انحرف أبوك وضل ! »

— « لا تنحى على الغائب بلائمة ! »

— « ألا تقدر لأواء أم محزونة مهجورة ، يا أورست ! »

— « بلى ! وأعرف أنها ظفرت بكل ما تشهت ! »

« ويهم أن يقتلها »

— « آه ! أتقتل أمك يا بني ؟ »

— « أنا ؟ أنا لا أقتلك ! ولكن تقتلك آثامك ! »

— « ها ! ... وأين تهرب من هامة أمك إذا قتلتها ! »

— « وأين أهرب من هامة أبي إذا خليتك يا آثمة ! »

— « كأني أخاطب فيك قبراً فلا يسمع ! »

— « أجل ! وهو قبر أبي الذي يضرب وجهك بزفير جهنم ! »

— « آه ! الأفعى ! لقد ولدتها وربيتها ... وهاهي ذي تنفث سمها في حياتي ! »

— « إذن : مى رؤياك قد جعلها أبولو حقاً ! »

— « ... ! ... تبدو كليتمنسترا كأنما يكاد يغمى عليها »

(1) البلط لغة المخرط (ق) وقد استعملناه لمعناه العامي (البلطة) لأنها المقصودة في المعنى اليوناني كما تنت صورة كليتمنسترا ذلك

— « القصاص يا أتعس الامهات ! لقد زرعت وزراً ، فلتجنى اليوم أوزاراً ! »

« تنطلق كايتمنسترا داخل القصر فيعدو أورست فى أثرها »

— ١١ —

ويذكر النشدات - عذارى طروادة التاعسات - أوطانهن ، وما حاق بإليوم وبريام من دماء وتقتيل . فيتغنين آلامهن ، ويرجعن ذكرياتهن ، ويهتفن بعروس الهلسبنت ، ويناجين المظام النخرة التى نامت إلى الأبد تحت أسوارها ...

ثم ....

ثم ينزاح ستر صفيق عن أورست ... بين الجثتين الجبارتين جثة أمه الفاسقة كما دعاها ... وجثة إيجستوس المتهتك ، الذى لم يطهر ثأره بالحفاظ والنقاء ... بل لطخه بفضائح الدعارة وحياة الهوى التى عاقر خمرها مع كايتمنسترا

— « إشهدن يا عذارى ! ها هما قاتلا أبى ، وهادما مجد الوطن ! لقد استويا بالأمس على عرش آرجوس فلطخاه بالاثم ، وها اليوم يجندلان فوق ثرى واحد ... وبيد واحدة ... وهو من البر بالأقسام ! أجل ! لقد برا بيمينهما ... أليس أحدهما قد أخذ الموثق على صاحبه أن يقتلا مولى هـذا القصر ... وأن يقتسما النتيجة ؟ إذن : لقد برت يمينهما ... ولقد حاق بهما المكر السيئ ، وعلقا فى الشرك الهائل الذى حاكاه أولاً ... فدت لهما فيه السنون والأيام ! ... ولكن ... ! وا أسفاه ! لقد جشمنى القادير مهمة ملعونة ... ! وكيف ؟ أنا .... أورست المسكين قاتل أمه ! بالاشقاء ! ... أبوللو ... أبوللو ... كن شاهدى ياسيد الشمس ! ... لقد أمرتنى ... وأوحيت إلى أن اقتل أمك واحمل بمدها غصن الزيتون ! ... فلو لم أفعل لكان شقائى أدمى وأنكى ! وكيف أطيق صبراً على قاتلى والدى ؟ ! وأنا ابنه الوحيد ... والسماء تطلب دمه من رجولتى !

وأنتن يا طرواديات ! تكلمن بحق السماء ! أترين إلى مذنباً ينقض ظهره الاثم ... أم بريئاً امتشقت العدالة سيفها بيمينه ... ! أيها الأصدقاء ! لقد قضت السماء أن أقتل أمى ... ! أمى التى ظلت حياتها سلسلة من المخازى ومستنقعاً من الفضائح ... حياتها التى كانت تحدياً للسماء ... لقد أقدمت وفوبوس[1] يحدونى ... لم يكن لى رائد سواه ... ولا كنف إلا كنفه ... ... هلم ياشعب الأرجيف المجيد ... كن شاهدى ومؤيدى ... وأنت ياعمى منالايوس ... ستأتى ... ستعود إلى الوطن يوماً وتقر ما أقدمت عليه بوحى السماء ! ... لن يلومنى أحد ... فاذاً ... ...فلن أضيق بالنفى من جديد ... سأذرع الأرض ثانية ... سأجوب الآفاق .. ولكن راضياً مطمئن النفس ... لأنى ثأرت لوالدى ... ولشرف آرجوس كلها »

— حاشا حاشا أيها الأمير ! لن يلومك أحد على ما فعلت فلا تحرك لسانك بهذا اللغو ... ولا تملأ نفسك بذلك التشاؤم ... لقد أعدت للأرجيف حريتهم وشرفهم حين حطمت رأس الأفعى ، وثنيت بذنبها ! »

— ١٢ —

ولكن الأمير الشاب ما يزداد إلا ذعراً حين يرى إلى أمه مضرجة بدمائها ... وسرعان ما تكظ وجدانه رؤى كالحة وأشباح ... ثم تستيقظ فى نفسه كلماتها الاخيرة : « وأين تهرب من هولى يا أورست ؟ إن هامتى ستلاحقك فى كل مكان صارخة فى وجهك : يا قاتل أمه ! ... » فيجن جنونه ... ويصيح ويصرخ ويصخب ...

— ويلاه ! آه .. ! ما هذه السماديرالتى ترقص فى حبر من الظلام ! آه ! أين المهرب ؟ »

— « إطمئن يا أعز الأبناء ! إنها أوهام ياأورست ! هدئ روعك ! »

ليست أوهاماً ياعذارى ! ويلاه .. ! إنها تنقض على ! هامة أمى ! ... ها هى ! ... آه ! ! »

— بل هى صورة هذا الدم الذى ما يزال يلوث يديك ... إطمئن ... »

— « لا ... أنا برىء ! أدركنى يا إلـهى أبوللو ! ياسيد الشمس هذه الجرجون[1] المهلكة الثعابين تتحوى فوق رؤوسها ... عيونها تقدح الشرر ... اللهب يندلع من أفواهها ... السم ! ... »

— « أدع أبوللو ... أدع فهو بك بر رحيم ؟ »

« آه ! ... انها تنشب أظفارها ... المهرب ... المهرب ! »

دريني خشبة

---

(١) فوبوس الاسم الأعريق لأبوللو

(١) مر ذكرها فيما أذعناه (من أساطير الأغريق) فى أسطورة برسيوس

البريد الأدبي

جون نيتل ومشروعه لتعليم الفلاح المصري

جون نيتل من أنبه الكتاب السويسريين ذكرا، وأجامهم أسلوبا، وأصدقهم فناً في نقل صور البلاد، والقيام بتحقيقات اجتماعية رائعة، وقد تجلت موهبته لا في دقة الملاحظة فحسب، بل في سحر أسلوبه وسلاسة عباراته، بحيث تنفذ إلى نفس القارئ وتحدث في عواطفه أعمق تأثير

ومما يدل أبلغ الدلالة على تفوق هذا الكاتب في فنه أنه برغم كونه سويسريا استطاع أن يثبت شخصيته أمام الانجليز، وتمكن في روايته «الدكتور ابراهيم» من أن يدفعهم إلى الاعتراف بأن ثمرة تعليمهم في مصر هوت إلى الحضيض، وأن استعمارهم أصبح كابوساً لا يطاق لشعب نشر ألوان الحضارة والمرفة، على حين كانت أوربا تغط في ظلمات الجهالة ومخلفات القرون

ويبدو لنا أن حالة الفلاح المصري أحدثت تأثيرا عميقاً في نفس هذا الكاتب، وجعلته أشد عطفاً عليه، وأميل إلى أن ينقل لقرائه صوراً رائعة من أفكاره ومعتقداته وسوء حالته المعيشية، مع حث المصريين على تجهيز قوافل برية ونيلية تؤلف من متاحف صغيرة متحركة، وتزود بآلات للسينما وأجهزة علمية لتغزو الجهل المتفشي في القرى والدساكر وتقضي عليه قضاء مبرما

ولقد حدث من سنوات أن قام جون نيتل برحلة طويلة إلى مراكش حيث الاستعمار الفرنسي يرتع في بلد فطري، فما كاد يستقر هناك بضعة شهور حتى ثارت ثائرته على مظاهر الاستبداد الفظيعة، وكتب كتابه المشهور «مراكش وعبد الكريم» فغضب الفرنسيون لصراحته، وأحدث ظهور كتابه ضجة هائلة في الأوساط الاجتماعية والسياسية بفرنسا

ويظهر أنه وضع روايته الجديدة «الدكتور ابراهيم» عن مصر وهو على ثقة من أنه سيستهدف لغضب الانجليز ونقمتهم، وتبرم صحافتهم بصراحته، لكنه لم يحفل بهذا كله ومضى يسرد الوقائع بين سطور كتابه ويصورها بريشة الكاتب الواقعي الذي لا يخضع لسلطان سوى سلطان فنه، غير عابئ بالحملات الشديدة التي أعلنت عليه، ولا بمختلف الانتقادات النارية التي استقبلت بها الصحافة الانجليز كتابه

غير أن هذا الكتاب العظيم صادف هوى في نفوس الأمريكيين الذين يشيدون بمظاهر العدالة، فمجدوا شخصية جون نيتل وأفردوا لكتابه الفصول الطوال لافتين الأنظار إلى ما يجري في الريف المصري من تفشي الأمراض والجهل الفاضح والوقوع تحت أثقال ديون المرابين الأجانب

ففي هذه القرى لا يصرف قرش واحد لنظافة البيوت والطرقات ونقل القاذورات وتجفيف المستنقعات، حتى لقد تبلغ الدرجة فيها أن تبقى رمم الحيوانات ملقاة بين المساكن فتتجمع عليها أسراب الجوارح والذباب وتتصاعد منها روائح خبيثة

وفي أسواق القرى لا يوجد مرحاض واحد بفي بحاجة من يؤمه من التجار الذين يضطرون لقضاء حاجتهم في أركان الأسواق لتبقى هذه القاذورات هدفاً لأسراب الغربان والطيور والكلاب وجامعي الأحطاب، أو تلقى بقيتها في الترع والقنوات. فالعمل على تجنب الأضرار الناشئة من الماء الملوث الآسن يجب أن يكون قبل تدبير الماء الصالح للشرب في القرى، وهذا لا يتأتى إلا بارشاد الفلاح إلى طرق النظافة، وتوقي الأمراض المعدية، ولن يكون إرشاده إلا بتجهيز قوافل علمية تطوف بمساكنه من وقت لآخر وتعمل على أن تنتشل الفلاحين المساكين من وهاد القذارة والجهل، وتخرج بهم من الظلمات إلى النور

ولقد كانت المحاضرة التي ألقاها جون نيتل في مساء الأربعاء الماضي بقاعة يورت التذكارية تحت إشراف معهد جان جاك روسو

للتربية بجنيف ، تدور حول هذه المشكلة ، مشكلة إصلاح حال الفلاح المصرى ورفع مستواه الاجتماعى مع المحافظة على تقاليد أسلافه .

فذكر المحاضر بأن كل فكرة ترمى إلى تعليم الفلاح بقصد انتزاعه من أرضه ونزوحه إلى المدن هى محاولة فاشلة ، فلواجب تشويق الفلاح إلى أرضه وتنمية مداركه وتوسيع آفاق فكره ومعارفه العامة ؛ فاذا أردنا مثلاً أن نرشده إلى الأحوال الجوية ومعرفة سير الكواكب كان علينا أن نزوده ببعثة فلكية مكونة من محاضرين بارعين ، مزودين بسيارات بها آلات ومراصد فلكية ، فيحل أعضاء البعثة بقريته يوماً أو بعض يوم ، ويجمعون الفلاحين فى مكان واحد ثم يلقون عليهم محاضرات بلغة بسيطة سهلة عن علم الفلك وحركة الكواكب والنجوم مع مساعدتهم على استيعاب هذه المعلومات بواسطة المجاهر الفلكية

وهب أننا نريد أن نلقى على فلاحى قرية كذا درساً فى النظافة والصحة العامة ، فنوفد اليهم قافلة صحية بتحفها الصحى المؤلف من نماذج مختلفة الأشكال ، وبأفلام سينمائية معها نشرات مكتوبة فى اللغة العامية يستطيع المربون الذين يرافقون القافلة أن يتلوا منها نصائح عملية على جماهير الفلاحين المحتشدين لاستقبالهم

فالتعليم الحديث بواسطة القوافل العلمية هو الوسيلة التى يرمى اليها مشروع جون نيتل لرفع مستوى الفلاحين ، إذ لا فائدة ترجى من إنشاء المدارس لتعليمه مبادئ الحساب والجبر وقواعد اللغة والرياضة إلى جانب تزويده بالمعارف العامة وتثقيفه الثقافة الشعبية الصحيحة التى تساعده على تربية الجيل الجديد تربية خالية من الجمود وشوائب الجهل

ونوه المحاضر بأنه لا يرمى إلى أن يظهر فى مشروعه بمظهر من علم إرادته ، ولكنه مشروع مفيد وضع بعد دراسات طويلة للتضامن مع الذين يهمهم رفع مستوى الفلاحين ، وتحسين أحوال معيشتهم ، كما أن تحقيقه على الوجه الأكمل يقتضى عشرات المئات من الشبان المتعلمين أن يساهموا فى إسداء هذه الخدمة الانسانية الجليلة ؛ وإن فى استخدامهم لهذا الغرض لحلاً لجانب كبير من مشكلة الشبان المتعلمين ومكافحة الأمية فى القرى والدساكر

وأهاب المحاضر فى ختام محاضرته بأن فى تغافل الحكومة وفى تركها الفلاح غارقاً فى محيط جهله خطراً عظيماً على مستقبل الأمة ، لأنه سيصبح فى مصر طبقتان بينهما هوة عميقة : الشباب المتعلم فى المدارس العالية وفى معاهد أوربا ، وجمهور الفلاحين الذين يظلون بمقاية القرون الوسطى ويعيشون تحت إرهاب أساليب عصور الظلام

كتاب الذخيرة لابن بسام

نعرف أن لابن بسام الأديب الأندلسى الكبير أثراً حافلاً عن حياة الأندلس الأدبية والسياسية فى القرن الخامس الهجرى ، وهو « كتاب الذخيرة فى التعريف بمحاسن أهل الجزيرة » ، وإلى أعوام قلائل لم نكن قد ظفرنا بعد بنسخة كاملة من هذا الأثر الحافل ؛ وكل ما انتهت الينا منه نسخ مغربية وأندلسية ناقصة ، ولكن العلامة المستشرق الأستاذ ليفى بروفنسال مدير مدرسة الدراسات العليا فى مراكش قد ظفر بعد البحث الطويل فى إحدى مجموعات المغرب بنسخة كاملة من كتاب الذخيرة ؛ والأستاذ بروفنسال حجة فى شؤون « المغرب الاسلامى » أعنى الأندلس والمغرب وله مؤلفات قيمة عن عرب اسبانيا والمغرب ، وقد نشر فوق ذلك طائفة نادرة من الكتب والوثائق عن تاريخ الأندلس والمغرب الأقصى : منها الجزء الثالث من كتاب البيان المغرب ، ووثائق عن ابن تومرت (المهدى) ، وجزء من تاريخ ابن حيان . ومن مؤلفاته كتاب بالفرنسية عن أحوال الأندلس أيام الدولة الأموية ، وقد تألفت أخيراً لجنة من أفاضل المستشرقين برياسة العلامة المذكور لتقوم على طبع كتاب الذخيرة وتحقيقه وتذييله ، وربما شغل الكتاب أربعة مجلدات كبيرة ؛ وهو ينقسم إلى أربعة أقسام : الأول خاص بقرطبة وأعيانها ؛ والثانى خاص بغرب الأندلس وأعيانه وأخبار بنى عباد ؛ والثالث خاص بأخبار بلنسية وأعيانها ؛ والرابع خاص بأخبار الجزيرة . ولدينا فى دار الكتب من كتاب الذخيرة نسخة ناقصة تحتوى على قسمين منه فقط هما الأول والثانى

وقد استفاد من كتاب الذخيرة كثير من العلماء المشتغلين بتاريخ الأندلس مثل دوزى وسيبولد ، وذلك قبل أن يوجد نصه كاملاً ؛ والكتاب من أنفس آثار الأدب الأندلسى ، وقد كتب بأسلوب بديع ، وبه معلومات قيمة عن أحوال دول الطوائف خلال القرن الخامس الهجرى ، وليس من ريب فى أن نشره سيكون خدمة جليلة للتاريخ الأندلسى

تراث جاك بانفيل

أشرنا في عدد سابق الى وفاة الكاتب والمؤرخ الفرنسي الكبير جاك بانفيل . وقد قرأنا أخيراً في إحدى المجلات الفرنسية الكبرى فصلا عن الكاتب الراحل للعلامة المؤرخ أوكتاف أوبرى الذي زار مصر منذ حين وألقى بها عدة محاضرات تاريخية شائقة ، يصف فيها تراث بانفيل التاريخي ويحلل مواهبه وكفاياته كمؤرخ وفيلسوف للتاريخ . وقد كان بانفيل قبل كل شيء كاتباً سياسيا ؛ وكان رجل جدل قوي يذود عن آرائه بيقين وحرارة ؛ وكانت تغلب عليه الروح الفلسفية في كتابة التاريخ . ويرى الأستاذ أوبرى في كتابيه «تاريخ فرنسا» و «نابليون» أثرين جليلين يمتازان بقوة خاصة . وقد كان بانفيل ملوكيا يؤمن أشد الايمان بالملوكية ونظمها وتقاليدها ؛ وكان يدافع عن عقيدته في هذا الوسط الجمهوري المضطرم بحرارة المؤمن ؛ ومن ثم كان رأيه في الثورة الفرنسية واعتبارها حركة دموية طائشة . وهو في هذا يتفق مع كتاب عظام ناصروا الملوكية مثل لامرتين ؛ بيد أنه يفوقهم جميعاً في حرارة اخلاصه للملوكية وشدة وطأته على الثورة . ويعتبر الأستاذ أوبرى كتابه عن نابليون أفضل مما كتب عنه تاين وميشليه ؛ ويرى في كتابه «تاريخ الأجيال الثلاثة» صورة صادقة قوية من احداث فرنسا ومحنها ومواطن عظمتها وضعفها منذ واقعة واترلو حتى معاهدة فرساي

بيد أن بانفيل يبدو في ذروة قوته كفيلسوف مؤرخ في كتابه الأخير ، وهو كتاب «الحاكمون بأمرهم» ، وقد استعرض فيه تاريخ الطغاة والطغيان منذ العصور الغابرة ؛ ويبدي بانفيل في بحثه وتحليله لخواص الطغيان والطغاة مقدرة تطبعها رزانة خاصة ؛ ويرى أوبرى أن أثر بانفيل عن الطغاة يجب أن يتبوأ مكانه بجوار كتاب «الأمير» للفيلسوف الايطالي مكيافللي ، برغم أن بانفيل يهتدي في كتابه بمثل أخلاقية واجتماعية غير تلك التي يهتدي بها مكيافيللي في كتاب «الأمير [1]» . ولتقدير الأستاذ أوبرى لتراث بانفيل التاريخي أهمية خاصة لأنه يتبوأ مكانة سامية بين مؤرخي فرنسا المعاصرين

(١) اقرأ تلخيص هذا الكتاب للأستاذ عبد الحليم الجندي في العدد الماضي وفي هذا العدد من الرسالة

أحرب أم سلام

نشر الكاتب الانكليزي الكبير الدوس هكسلي حفيد العلامة هكسلي مقالا عن مصاير السلام يقول فيه إن عام ١٩٣٦ سيكون عاماً حاسماً في تاريخ البشرية ؛ ذلك أنه إما أن يكون عام حرب أو عام سلام ؛ إما أن يستطيع الساسة فيه أن يحتفظوا بسلام أوربا ، وإما أن تفلت الحوادث من يدهم وينحدر العالم إلى الحرب

والدول التي تسيطر على مصاير العالم اليوم هي سبع : بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة والروسيا - وهذه في نظر الكاتب هي الدول «الراضية» - ثم ألمانيا وايطاليا واليابان ، وهذه هي الدول «غير الراضية» ، ذلك لأن الاحتكار الاستعماري والاقتصادي الذي تنعم به الدول الراضية قد اشتدت وطأته في الأعوام الأخيرة من جراء السياسة القومية التي تتبعها ، والنظم الجمركية والاقتصادية التي تنظمها ، لتوطيد تجارتها وسحق تجارة الدول الأخرى . والدول غير الراضية لها كل الحق في أن تنقم على الدول الراضية هذا الاستئثار ؛ ذلك لأن مستوى الحياة في ايطاليا وألمانيا واليابان يهبط بالتدريج ، وسيستمر على هذا الهبوط ؛ والحياة في هذه البلاد تغدو كل يوم أشد وطأة ، حتى أصبحت ترى أن المغامرة بخوض الحرب أفضل من أي سلام مسكين تجنيه في ظل هذه الظروف التعسة . وقد قامت في هذه الدول الثلاث حكومات تمد شعوبها بأن ترد بالقوة القاهرة عنها هذا الحيف ؛ فأما اليابان فقد انقضت على بعض أقاليم الصين ؛ وتحاول ايطاليا أن تفتتح الحبشة ؛ وربما أقدمت ألمانيا في فرصة قريبة على محاولة نيل الترضية اللازمة ، وربما كان ذلك على حساب روسيا أو أوربا الوسطى

وقد شهدت السياسة الدولية تطوراً عظيما في المبادئ ، وذلك بتطبيق مبادئ واجراءات اجتماعية «أخلاقية» ؛ ولكنا إذا أردنا السلام وجب أن نشتد في تطبيق هذه المبادئ الاجتماعية إلى حدود أخرى ؛ وإذا كانت ايطاليا تتبع سياسة غاشمة فذلك لما حاق بها من الظلم ؛ وليس ثمة وسيلة واحدة لدفع هذا الحيف عن الدول غير الراضية سوى معاملتها ومعاملة دول أوربا الوسطى بعدالة

ويرى الكاتب أن الحرب والسلام بيد الدول نفسها ، فإذا أصرت الدول الراضية على التمسك باحتكارها الاقتصادى الذى كسبته بوسائل غير عادلة ، وإذا حاولت أن تتسلح حتى الذروة لتحتفظ به ، فان الحرب واقعة لا محالة

وأما إذا اعتزمت الدول الراضية أن تسير طبقاً لمبادئ الأخلاق ، وهى فى نفس الوقت مبادئ حسن التصرف ، فان السلام يغدو محققاً مكفولا

الحياة المصرية المعاصرة

ظهر أخيراً فى انكلترا كتاب عن الحياة المصرية منذ أواخر القرن الماضى حتى يومنا ، عنوانه « حياة فى مصر » A Lefatine in Egypt بقلم سيدة انكليزية ، أنفقت طول حياتها فى هذه البلاد هى السيدة مابل جايارد . ويتناول هذا الكتاب وصف الحياة المصرية منذ أواخر عهد اسماعيل حتى سنة ١٩٣٥ ؛ أعنى خلال ستين عاما . وكان والد السيدة مابل موظفاً فى الحكومة المصرية منذ أوائل عهد الاحتلال ؛ وكانت مس مابل يومئذ فتاة ناشئة ، فقطعت حياتها الحافلة فى هذه البلاد ، بين الاسكندرية ومصر ، وشهدت تطورات الحياة المصرية فى هذه الحقبة ، واتصلت بكثير من الشخصيات البارزة فى هذا العهد ، ووقفت على كثير من الشؤون والمعلومات العامة والخاصة . وتقدم المس مابل فى كتابها عن مصر صوراً ساحرة لهذا العهد الذى كانت الحياة فيه ما تزال ناعمة هينة ؛ وتصف لنا مدينة القاهرة والمجتمع القاهرى فى أواخر القرن الماضى ، حين كانت لا تزال فى طور نشوئها المظلم ؛ وكانت لا تزال مدينة شرقية تحتفظ بكامل جمالها وسحرها الشرقى الذى ما زال يملأ مخيلة الكتاب والسائحين ؛ وتصف لنا الاسكندرية فى أوائل عهد الاحتلال وتروى لنا كيف كانت الحياة فيها أحياناً صعبة غير أمينة ، وكيف كانت محط المغامرات والمفاجآت المكدرة

وتقدم لنا المس مابل صوراً ممتعة عن البلاط الخديوى فى هذه الحقبة ، وعن الخديويين وعن أكابر سيدات الحرم الخديوى الذى اتصلت به المؤلفة وعرفت كثيراً من رسومه ومظاهر الحياة فيه ؛ وتصف لنا الاسكندرية والقاهرة أيام الحرب الكبرى ، وكيف تحولت العاصمتان الكبيرتان إلى شبه محطة عسكرية هائلة ، ثم تصف لنا ما طرأ على الحياة المصرية بعد الحرب الكبرى إلى يومنا

وكتاب المس مابل طريف تجدر قراءته فى هذه البلاد ، وإن لم يكن يخلو من بعض نواحى التحيز والتحامل التى قلما تخلو منها كتب الأجانب ، وبخاصة الانكليز ، عن مصر

الفوكلور المراكشى

تعتبر اليوم دراسة المعتقدات والعادات والتقاليد الشعبية من الدراسات الأثرية المفيدة فى تاريخ الشعوب وتاريخ الحضارة ؛ وقد اتسعت هذه الدراسة وتقدمت فى عصرنا حتى أضحت تكون فرعاً خاصاً يطلق عليه « الفوكلور » أو دراسة المعتقدات الشعبية . ومن المؤلفات التى ظهرت أخيراً فى هذا الموضوع كتاب للدكتوره فرانسواز ليجى عن « الفوكلور المراكشى » وقد عاشت الدكتوره ليجى فى مراكش أعواماً طويلة ، ودرست المجتمع المراكشى دراسة مستفيضة ، ووقفت على معتقداته وتقاليده القديمة التى لم تنجح المدنية الفرنسية المفروضة فى إزالة معالمها ؛ وتناولت المؤلفة معتقدات الشعب المراكشى الدينية ، وعاداته الاجتماعية ، وما تداولته الأجيال منذ العصور الغابرة فى شأن الخليقة وآدم والبر والبحر والحيوان والنبات والطير ، من الأساطير والأمثال السائرة ؛ وتسوق لنا المؤلفة أمثلة طريفة من هذه المعتقدات فى شأن بعض الأشجار والأزهار فتقول : « إنهم يعتقدون أن بعض النباتات ليست من خلق الله ولكنها من خلق الشيطان ، وهذا شأن التبغ مثلاً ؛ وأما شجرة الكرم وشجرة التين فقد حملهما آدم من الجنة ؛ وقد نبتت الورود وزهر البرتقال من دموع النبى ، ونبتت شجرة الرمان من الأزهار التى نثرتها فاطمة الزهراء ابنة النبى حينما علمت بموت ولديها الحسن والحسين » ، ويعتقدون أيضاً أن بعض الحيوانات كانت بشراً ومسخت ، عقاباً لها على سيئاتها

والكتاب طريف فى موضوعه وفى مباحثه وخصوصاً فيما يتعلق بتقاليد القبائل البربرية وعاداتها ؛ وفى مباحثه ما يلقى كثيراً من الضوء على المجتمع المغربى فى تطوراته المختلفة ، فى ظل الوثنية والاسلام ، وما لا يزال حياً فى معتقداته وتقاليده من تراث العصور الغابرة

4 me Année, No. 141.

Lundi-16-3-1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــــدد ١٤١ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٥٤ — ١٦ مارس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــدد

رعاية الفـــلاح
واجب قومى

أشارت الرسالة في عددها الماضى إلى المحاضرة القيمة التى ألقاها نزيل مصر ، المستر جون نيتل الكاتب السويسرى الكبير ، عن تعليم الفلاحين ووجوب الاهتمام بثقافتهم القروية والصحية ، فذكرتنا هذه المحاضرة بمسألة لا تزال تثير في نفوسنا شجناً ، هى مسألة الفلاح المصرى بوجه عام

أجل إن مسألة الفلاح المصرى مسألة تجدر بعناية كل مصرى يقدر الدور الخطير الذى يضطلع به الفلاح في حياة هذه البلاد ؛ فالفلاح عماد الإنتاج القومى ، وجهوده عصب الثروة المصرية العامة ، وهو منبع الذكاء المصرى العامل ؛ يؤدى للخزينة العامة من دخله ما لا يؤديه أى مصرى آخر من ذوى المناصب أو المهن أو المال

ومع ذلك فالفلاح المصرى أقل أبناء الأمة حظاً من عناية أولى الأمر ، بل يكاد يكون منهم نسياً منسياً ؛ فقلما يفسح له

مجال فى المشاريع والمرافق العامة ، وقلما تقدر حقوقه ومصالحه قدرها الحقيقى ؛ و بينما نرى جميع الطبقات والطوائف من الموظفين وذوى المهن والطلبة والعمال ، بل وذوى المال ، كلا تدأب على مطالبة الحكومة وأولى الأمر بتحقيق ما تنشد من الحقوق والمزايا ، إذا بالفلاح يلزم الصمت والسكينة ، و يرقب مصيره قانعاً بالأمل ، راضياً بحكم القدر ، معتمداً على الله ثم على نفسه ودأبه المتواصل

بل نلاحظ مع الأسف والألم أن أصوات قادتنا ومصلحينا ترتفع فى كل وقت مطالبة بتحقيق مختلف المشاريع الإصلاحية العامة ، ولكن قلما يرتفع منها صوت من أجل الفلاح والعناية بانتشاله من ذلك المنحدر السحيق الذى قضى عليه أن يعيش فيه ؛ وإذاً فمما يثير الشكر والعرفان أن يرتفع بيننا صوت إنسانى كصوت ضيفنا المستر نيتل ، مطالباً للفلاح بما نقصر نحن فى المطالبة به من عناية هو خليق بها

يعيش الفلاح ، عصب الشعب المصرى وكثرته الساحقة ، فى نفس الحالة التى يعيش عليها منذ آلاف السنين ، فى غمر من الجهل المطبق والأمراض الفتاكة ، تعوزه أبسط وسائل الصحة والنظافة ؛ ولا يكاد يخرج من كده ودأبه المتواصل بأكثر من القوت الضرورى ، بل لا نعرف فى بلد من البلاد المتمدنة طبقة اجتماعية ينحط منسوب العيش فيها إلى هذا الدرك الأسفل الذى تنحط اليه معيشة الفلاح المصرى

ويؤدى الفلاح إلى خزينة الدولة نحو خمسة ملايين جنيه ضريبة عقارية ، ويؤدى أكثر منها ضرائب أخرى مباشرة وغير مباشرة ، فهو بذلك من أكبر المساهمين فى تكوين الدخل العام ؛ ومع ذلك فهو لا يصيب من النفقات العامة قسطاً يذكر ، سواء فى التعليم أو الصحة أو المنشآت والمرافق العامة . صحيح أن الدولة تنفق الملايين على أعمال الرى والصرف التى ينتفع بها الفلاح ، ولكنها إنما تنفق فى الواقع على إدارة الثروة المصرية العامة وإحيائها ؛ ومن العدالة بل من مصلحة البلاد الحيوية أن يحظى الفلاح بنصيب حسن من الإصلاحات الإجتماعية التى ترمى إلى رفع مستواه الصحى والعقلى ، فنى تقدم صحة الفلاح وتقدم ثقافته ثروة حقيقية للبلاد ، وزيادة فى قواها المنتجة الإقتصادية والإجتماعية

وليس الفلاح بحاجة إلى التدليل على قدره وأهميته فى حياة البلاد ؛ فهو يعمل متوارياً فى صمت ، ولكن شرايين الحياة المصرية كلها تمت بصلة وثيقة إلى عمله و إنتاجه ؛ وها هو ذا المعرض الزراعى الصناعى القائم الآن أسطع دليل حى على ما لهذا الفلاح المتواضع من جليل القدر فى الإنتاج العام ، وما يستطيع أن يقوم به من المعجزات الزراعية والصناعية إذا تعهده ولاة الأمر بالعناية الرفيقة والإرشاد المستنير

إن الفلاح مستودع الذكاء المصرى ، وأبناء الفلاحين هم صفوة القادة والزعماء وأكابر رجال الدولة والحكومة ، فكيف يعدم الفلاح بين أبنائه أنصاراً يطالبون بحقوقه فى الرعاية العامة ، و بقسطه من العناية الصحية والثقافية ؟ لقد كانت صحة الفلاح وعقله وروحه ومازالت عصب مصر الزراعية والاقتصادية ، وقد كانت وستغدو عصب الدفاع عن مصر ؛ فاذا شاءت مصر أن تحافظ على قواها المنتجة ، وأن تشحذها وتضاعفها ، فعليها ألا تدخر وسعاً فى العناية بجسم الفلاح وعقله وروحه

و إذا كنا نستطيع أن نسجل لبعض الوزارات المصرية شيئاً من الفضل فى الاهتمام بأمر الفلاح ، ولا سيما فى تقرير التعليم الأولى ، و إنشاء بعض المستشفيات والمؤسسات الصحية ، وردم البرك ، وغيرها ، فانه لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن هذه المشروعات تسير بخطى بطيئة جداً ، وأن ما تم منها لا يعدو بداية ضئيلة . ومن حق الفلاح ، وهو الذى يكون أغلبية الأمة الساحقة ، ويساهم بأكبر قسط فى إنتاجها الحيوى ، و يتحمل معظم الأعباء والتكاليف العامة ، أن يفوز من ولاة الأمر ، ومن مشاريع الاصلاح العامة بأوفى نصيب

(* * *)

ولود وعقيم

للأستاذ أحمد أمين

ركبَتْ من أول محطة لترام مصر القديمة وهى كهلال الشك ، جلد على عظم ، وعلى يديها طفل قد جلل بالبياض ، وعصبت عيناه ، وغطى رأسه ووجهه بشاشة زرقاء

وركب فى المحطة التالية سيدة نصَف ، أطيب شطريها الذى ذهب ، ممتلئة البدن ، سمينة الضواحى ، لحيث الأولى ، وتحادثتا والنساء سريعات التعارف ، تراهن فى طرفة عين يتحدثن إلى من لم يعرفن قبل فى أدق الأمور ، وأعمق الأسرار ، حتى كأنهن صديقات العمر ، ورفيقات الصبى ؛ فهن يتحدثن بعد دقيقة فى السعادة والشقاء ، وأوصاف الأزواج وعيوبهم ، والحموات ومصائبهن ومضايقتهن ، والدخل والخرج ؛ وقد ينتقلن إلى ما هو أدق من ذلك وأصعب ، مما لا يستطيع الرجال أن يتكلموا فى بعضه إلا بعد عمر طويل ، وصداقة متينة ، ومشاركة فى السراء والضراء

وبعد لحظة صرخ الطفل وأمعن فى الصراخ ، تحاول أن ترضعه ليسكت فلا يسكت ، وتنيمه فلا ينام ، وتتبع معه كل الأساليب التى تعلمتها فى اسكات الأطفال فلا تنجح ، وأخيراً تدعو عليه بالموت فلا يستجاب لها

— الثانية — ما له ؟

— الأولى — رمدت عيناه من أيام ثلاثة فشرّبنى المر ، وفى الليلة الماضية لم أذق طعم النوم ، وأنا طول الليل واقفة على رجلى أذرع الحجرة من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى أولها ، وكلما هدأ وبدأ النوم ذهبت إلى السرير لأنيمه وأنام فيصرخ ويكرر النغمة عينها ويمثل الدور نفسه إلى الصباح ، حتى دار رأسى ، ومللت الحياة ، وتمنيت الموت ، ولم أر للحياة طعماً مذ رأيت الأولاد ، وهأنا ذاهبة إلى طبيب العيون

أمعك أولاد أخر ؟

نعم — معى خمسة وهذا سادسهم ؛ وقد حاولت بكل الوسائل أن أمنع الحمل بعد أول ولد ففشلت وفشلت . ومرة حاولت أن أخلص من جنين فكدت أخلص من نفسى وبقى الجنين . ومرة أصبت بنزيف شديد فعرضت نفسى على طبيب فقال إنه اجهاض ، وليس من أمل كبير فى بقاء الجنين ؛ ثم أمرنى أن ألتزم سريرى ولا أتحرك ، وأنام على ظهرى دائماً ، وكتب لى دواء يمنع النزيف . فامتنعت من شرب الدواء ، وأكثرت الحركة ، وعملت كل شىء عكس ما نصح الطبيب رغبة فى الاجهاض ، ثم مع هذا كله ارتفع الدم وثبت الجنين . وهذا هو الذى على يدى

و « اسم الله عليهم » كلهم ذكور ؟

لا والله ! أربعة ذكور وبنتان ، وكلهم فى الهم سواء ، وكل يوم نوع جديد من أنواع العذاب . فى آخر السنة نضع يدنا على قلبنا عند الامتحان ؛ وتظهر النتيجة ، فهذا نجح ، وهذا سقط بلا ملحق ، وهذا له ملحق ؛ وتمضى الأجازة فى عناء ! وتبتدئ السنة ، فمن نجح فى الشهادة الابتدائية ظهر متأخر الترتيب فلا نجد له مدرسة أميرية تقبله ؛ والشهادة فى يد ، والمصاريف فى يد ، والمدرسة فى رفض ! ثم هذا صحيح وهذا مريض ، وهذا ذاكرٌ وهذا لم يذاكر . ولا تسألى عن وقت ذهابهم إلى المدرسة ! هذا يبحث عن جزمته فلا يجدها ، وهذا عن طربوشه فلا يجده ، وترى فرد جورب فى حجرة وفرداً آخر فى حجرة أخرى ، فلا يكادون يذهبون إلا وقد بلغت الروح الحلقوم . وعند مجيئهم من المدرسة هذا يغضب على الأكل وهذا يرضى ، وهذا ينازع ذاك ، ولا ينقذنا من كل هذا إلا نومهم . ثم هذا الشهر شهر أقساط المصاريف ، وهذا شهر كسوة الصيف ، وهذا شهر كسوة الشتاء ، وماهية الزوج لا تكفى هذا وذاك ، والعيش كله عناء فى عناء . وأنت ؟ أليس عندك أولاد ؟

كان منظراً غريباً ، فقد طفرت الدمعة فجأة من عين السيدة الثانية ، فلما أخرجت منديلها ومسحت دمعتها قالت : أبى الله أن يرزقنى فى حياتى ولداً ، وطالما دعوته وسألته ! وحججت مرة ، وكان أكبر همى من حجى أن أقف فى أشرف بقعة وأسأل

الله أن يهبني ابناً أو بنتاً ؛ وليكن الابن ذكياً أو غبياً ، ولتكن البنت جميلة أو دميمة ؛ فأنا راضية بأى مولود على كل حال ، ولكنه – سبحانه وتعالى – لم يفعل ، وفى القرآن الكريم : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً » فقد شاء أن يجعلني من الصنف الأخير – لتمنيت أن يكون لى أولاد ، وأتحمل فيهم أضعاف ما ذكرتِ من عناء . ثم أراهنك أنى أكون سعيدة مغتبطة لا أشكو ولا أتألم – لقد طرقت كل الأبواب لذلك فلم أنجح ، ذهبت إلى الأطباء فعملوا لى عملية ، واحتملت فى سبيلها كل الآلام ؛ وذهبت إلى المشايخ فرقَوا وعزَّموا ؛ وذهبت إلى الشيخات « فخضّرن » وبخرن و « وصفن » ؛ وقالوا تخافين ؛ نخفت ونزلت القبر ، وركبت وابور « لونابارك » ؛ وقالوا وقالوا ، وفعلت وفعلت ، فذهب ذلك كله هباء ، ورزقني الله مالاً كثيراً استطعت أن أفعل به كل ما وصفوا حتى السفر إلى أوربا واستشارة أطبائها ، ولكن إذا أبى الله فماذا يفعل العبد ؟

لم يبق لى من ذلك كله إلا التلهف على الولد والحسرة الدائمة ؛ وكل شيء حولى يذكرني بالأولاد فيثير أشجانى وأحزانى . لقد رأيت فى حديقتى أشجار البرتقال والليمون تحمل أثمارها فقلت يالله ! أتسبل نعمك على الأشجار فتحمل كل عام أثمارها ، وتضنّ على فلا أحمل مرة ثمرة ! وعندى قطة تحمل دائماً وتضع مالا يعد من الأولاد ، وكلما حملت ذكرتُ حملى ، وكلما ولدت بكيت أولادى الذين لم يوجدوا بعدُ ؛ وأرى الفقيرات البائسات العاريات فى الشارع كل واحدة منهن تحمل فى بطنها ولداً ، وترضع ولداً ، وتجر ولداً ، فيتجمع الحزن فى قلبى ، وتنفجر منه عينى ؛ وأسمع «معارفى» وصواحبى ، هذه ولدت ، ثم هذه ولدت ، ثم هذه ولدت ، فأقول لم يبق عقيما إلا أنا ، ولم يتخصص للشقاء غيرى ! رزقنى الله مالاً ولم يرزقنى ولداً ، وليته رزقنى ولداً ولم يرزقنى مالاً ؛ ولو كان الولد يشرى بكل ما أملك لاشتريته وكنت سعيدة ؛ بل لو كان يشرى بعينىّ لاشتريته وكنت رابحة فى صفقتى . وما الدنيا وما المال ؟ وما الحياة بغير الولد ؟ لقد كنت فى أول أمرى أطلب الولد خشية أن يتزوج زوجى غيرى ، فلما أمنت جانبه ، واطمأننت من ناحيته ، طلبت الولد لأنه طبيعتى ولأنه حياتى بعدى ، ولأنه موطن انتساخ روحى ، ولأنى امرأة قد خلقت للأمومة . لقد أحسست بهذه الأمومة فى صغرى فعملت العرائس إرهاصاً لأمومتى ، ثم تزوجت تهيؤاً لهذه الأمومة ، فلما تقدمت فى السن ولم أجد الأمومة رأيتنى فقدت طبيعتى ، ورأيتني فى الحياة مقدمة بلا نتيجة ، أو قبة بلا شيخ ، أو لوزة فارغة ، وأنا والعروس من الحلوى ، والعروس من القطن سواء ، كلنا لا يلد . ليس لى أمل فى السلوة إلا بالموت . فهو وحده بلسم الهموم ، ومقبرة الأحزان ! وهنا ختمت حديثها – كما بدأته – بالدموع

قالت الأولى : والله لو ذقتِ مرارة الأولاد ما تمنيتِهم ؛ ولو جربتِ سهر الليالى ما اشتقتهم ؛ ولكن أحب شيء إلى الانسان ما منع ؛ والقصر من بُعد أجمل منظراً من سكناه ؛ والخيال دائماً ألذ من الحقيقة . لقد كان مرة أكبر أولادى يبكى وهو رضيع ولا نعلم سبباً لبكائه ، ويبكى ويشتد فى البكاء حتى بلغ منا الهم مبلغه ، وإذا بزفة عريس تمر من تحت بيتنا ، فأضحكنى زوجى أبو الطفل إذ قال للعريس : « غُرّ » غداً تخاف « وترى » – ولو تمنيت الآن شيئاً لتمنيت أنى لم أكن تزوجت ، وان تزوجت فلم أكن « خلفت » – أتبادلينني ؟ وضحكت

قالت الثانية وتأوهت : وكيف يمكن البدل ؟ إنما أريد أولاداً منى لا منك ، أريد كبدى تمشى على الأرض أربيها ، ولا أريد كبدك أنميها وأغذيها – وأنت أيضاً لا تعبرين عما فى نفسك تعبيراً صادقاً ، فمن تهون عليه أولاده ؟ إنما ينفع البدل إن كان قدر لى الله أن أكون ولوداً وأن تكونى عقيما

قالت الأولى : أتريدين الحق يا أختى ؟ الدنيا كلها تعب فلا ولود فى راحة ، ولا عقيم فى راحة ، ولا متزوجة سعيدة ، ولا عزبة سعيدة

ووصل الترام إلى العتبة فنزلتا ، هذه إلى طبيب ابنها وتلك لبعض شؤونها

قال صاحبي : ولكن كيف أمكنك أن تسمع هذا الحوار ؟

قلت : هذا سر الصنعة .

أحمد أمين

٤ ـ الدينار والدرهم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين : وأزِفَ ترحُّلى عن (بلخ) وتهيأتُ للخروج ، ولم يبق من مدة مقبلى بها إلا أيام يجىء فيها السبتُ الرابع . وكانت قد وقعت مُمَاراةٌ بينى وبين مفتى (بلخ) أبى إسحق ابراهيم بن يوسف الباهلى (١) تلميذ أبى يوسف صاحب الامام أبى حنيفة ، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال وأنه يَتَغَلَّلُه من مُسْتَغَلَّات كثيرة (٢) ، فكأنما غَشِيَتْه غمامتى ، فهو لا يرى أن أتكلم فى الزهد ، ويحسب هذا الزهد تماوُتَ العبّاد ونَفْضَ الأيدى من الدنيا وسوءَ المصاحبة لما يُنعم الله به على العبد ، وخذلانَ القوة فى البدن ، وماجرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التى زعم أنها أباطيل الطاعات وماأقربها من أباطيل المعصية . ولم يكن هذا الفتى قد سمعنى ولا حضر مجلسى ، ولولا الذى لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف

وجادلتُه فرأيته واهنَ الدليل ، ضعيفَ الحجة ، يُخَمِّنُ تخمين فقيه ، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظر صاحب النصّ إلى الظاهر ، كأن الحقيقة إذا ألقيت على الناس مضت نافذة كفتوى المفتى ... ويزعم أن الوعظ وعظُ الفقهاء ، يقولون هذا حرام فيكون حراماً لا يُقارفه أحد ، وهذا حلال فيكون حلالاً لا يتركه أحد ؛ وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومداخله إلى النفس وسياسته فيها ، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى إن لم تزن زينتها لم تستهو أحدا ؛ وأن الموعظة إن لم تتأدَّ فى أسلوبها الحى كانت بالباطل أشبه ، وأنه لا يغير النفسَ إلا النفسُ التى فيها قوةُ التحويل والتغيير كنفوس الأنبياء ، ومن كان فى طريقة روحهم ، وأن هذه الصناعة إنما هى وضع نور البصيرة فى الكلام لا وضعُ القياس والحجة ، وأن الرجل الزاهد الصحيح الزهد ، إنما هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئاً فى الحياة والعمل . لا شيئاً فى القول والتوهم ، فيكون إلمامها فيه كحرارة النار فى النار من واتاها أحسها

ولعمرى كم من فقيه يقول للناس هذا حرام ، فلا يزيد هذا الحرام إلا ظهوراً وانكشافاً مادام لا ينطق إلا نطق الكتب ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التى تجعله روحاً تتعلق الأرواحُ بها وتضمه بين الناس فى موضع يكون به فى اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذ قريب ، راجعٌ اليها بعد قريب

والفقيهُ الذى يتملق بالمال وشهوات النفس ولا يجعل همَّه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا — هو الفقيه الفاسدُ الصورة فى خيال الناس يُفهمهم أولَ شىء ألّا يفهموا عنه إذ حرصه فوق بصيرته ، وله فى النفوس رائحةُ الخبز وله معنى خمسٌ وخمس عشرة (١) ... وكأن دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يفسد الحقيقة التى يتكلم بها ؛ ولست أدرى ما هو هذا الشىء ولكنى رأيت فقهاء يمطون ويتكلمون على الناس فى الحرام والحلال وفى نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولا رداً ، إذ يلهمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذى يتكلمون فيه ؛ وتسخر الحقيقة منهم — على خطرهم وجلال شأنهم — بذات الأسلوب الذى تسخر به من لص يعظ لصاً آخر فيقول له لا تسرق . . .

* * *

قال ابن مسكين : فلما دار يوم السبت أقبل الناس على المسجد أفواجاً ، وكانوا قد تمالوا إزماعى الرحيل عن بلدهم — وجاء (لقمان الأمة) فى أشياعه وأصحابه ، وجاء أبو اسحق المفتى فى جماعته ؛ واستقر بى المجلس فنفذْتُ الناسَ بنظرى فكأنهم نبات غطى الأرض ، فأذكرنى هذا شيخنا السرىُّ بنَ مُغلِّس السَقَطى (٢) ، وكان قد لزم داره فى بغداد لايخرج منها ولا يراه إلا من قصد اليه ، وهممتُ أن أجعل الموعظة فى شرح كلمة

(١) توفى مفتى بلخ هذا سنة ٢٣٩

(٢) المستغلات أصول الأموال وتغلل واستغل بمعنى

(١) يريد أنه فى هذه الدنيا (عملية حسابية ...) وفى أيام ضعفة الدين يكون الفقه استخراج الدراهم من النصوص . . .

(٢) السقط ردىء المتاع (روبابيكا) وبائعه السقطى . وهذا الامام العظيم كان أوحد أهل زمانه فى الورع وله كلام إلهى مشرق وقد توفى عن سن عالية فى سنة ٢٥٣ .

المشهورة : لا تصحُّ المحبة بين اثنين حتى يقولَ أحدهما للآخر : يا أنا . وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي (الحمد لله) . فقال صاحبه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريق فاستقبلني رجلٌ فقال : نجا حانوتك . فقلت الحمد لله ؛ فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت إذ أردتُ لنفسي خيراً من الناس . قال ابن مسكين : ولكني أحببت أن أكلم الفتى ومالَ الفتى ؛ فحدثتهم حديث معرفتي بالسّرى أني سمعتُ يوماً غيلان الخياط يقول : إن السرى كان اشترى كُرّ لوز(١) بستين ديناراً وأثبته في روزنامجه(٢) وكتب أمامه : ربحُه ثلاثة دنانير(٣) ؛ فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدلال الذي كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رجلاً صالحاً فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكُر بتسعين . قال السرى : ولكني عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحلّه ، فلست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً . فقال الدلال : وأنا قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله ألاّ أغشّ مسلماً ، فلست أشترى منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلال اشترى منه ولا السريُّ باعه

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لي همةٌ إلا أن آتي الشيخ وأصحبه وآخذ عنه ، فلم أعرّج على شيء حتى كنت في المسجد الذي يصلي فيه فأجده في حلقته وعنده ممن كنت أعرفهم : عبدُ الله بن أحمد بن حنبل وادريس الحداد وعلى بن سعيد الرازي ، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تملوه نَضْرةُ روحه وكأنما يُمدّه بالنور عِرق من السماء فهو يتلألأ للعين ؛ ولا يملك الناظر إليه أن يحس في ذات نفسه أنه الأدنى من رؤيته في ذات نفسه أن هذا هو الانسان الأعلى

ورأيت على وجهه آلاماً تمسحه مسحةَ الأشواق لا مسحة الآلام ، فهي آثارُ ما يجده في روحه القوية ، لا كآلام الناس التي هي آثار الحرمان في أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسحة الغم والكآبة . وما يخطىء النظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى فإن الأولى تتندّى على روح الناظر تندّي الطلّ إذا قطّره الفجر ، والأخرى تتشوّرُ كما تهيج الغَبَرةُ إذا ضربت الريحُ الأرض

كان الشيخ في وجود فوق وجودنا فلا تتلوّن له الأشياء ولا تعدو عنده ما هي في نفسها ، ولا يحمل الشيء له إلا معناه من حيث يصلح أو لا يصلح ، ومن حيث ينبغي أو لا ينبغي . فإنما تتلون الأشياء عند ما يضع الشيطانُ عينَه في عين الناظر إليها ؛ وإنما تزيد وتنقص في القلب عند ما يكون روح الشيطان في القلب ؛ وإنما يشتبه ما ينبغي وما لا ينبغي عند ما يأتي الشيء من جهتين : جهته من طبيعته هو ، وجهته من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمع الانسان المال ثم لا يجد في المال معنى الغنى ، وقد تتفق أسباب النعيم ولا يكون منها إلا الذل . وكم من إنسان يجد وكأنه لم يجد إلا عكس ما كان يبغى ، وآخرَ لم يجد شيئاً ووجد بذلك راحته .

* * *

قال ابن مسكين : وما كان أشدّ عجبي حين تكلم الشيخ فقد أخذ يجيب على ما في نفسي ولم أسأله كأن الذي في فكري قد انتقل إليه ؛ فروى الحديث : إذا عظّمتْ أمتي الدينارَ والدرهم نُزع منها هيبة الاسلام ، وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر حُرموا بَركةَ الوحي . ثم قال في تأويله :

إن ملك الوحي ينزل بالأمر والنهي ليخضع صَولةَ الأرض بصولة السماء ، فإذا بقي الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر بقي عملُ الوحي إلا أنه في صورة العقل ، وبقيت روحانية الدنيا إلا أنها في صورة النظام ، وكان مع كل خطأ تصحيحُه فيصبح الانسان بذلك تنفيذاً للشريعة بين آمرٍ مطاع ومأمور مطيع ، فيتعامل الناس على حالة تجعل بعضَهم أستاذا لبعض ، وشيئاً منهم تعديلاً لشيء ، وقوة سنداً لقوة ؛ فيقوم العزمُ في وجه التهاون ، والشدة في وجه التراخي ، والقدرة في وجه العجز . وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين ، وتعود صفاتهم الانسانية وكأنها جيشٌ عامل يناصر بعضه بعضا فتتلون الحياة مفسرةً ما دامت معانيها السامية تأمر أمرها وتلهم إلهامَها وما دامت ممثّلة في الواجب النافذ على الكل

(١) الكر بضم الكاف مكيال عظيم يقدرون به في الحساب وهو أربعون اردبا مصريا (٢) أى دفتر حسابه (٣) خمسة في المائة

والناس أحرار متى حكمتهم هذه المعانى فليست حقيقة الحرية الانسانية إلا الخضوع للواجب الذى يحكم ، وبذلك لا بغيره يتصل ما بين الملك والسُّوقة وما بين الأغنياء والفقراء اتصالَ الرحمة فى كل شىء واتصالَ القسوة فى التأديب وحده . فبركة الوحى إنما هى جعل القوة الانسانية عملا شرعياً لا غير .

أما تعظيم الأمة للدينار والدرهم فهو استعباد المعانى الحيوانية فى الناس بعضِها لبعض ، وتقطُّعُ ما بينهم من التشابك فى لُحْمة الانسانية ، وجعلُ الكبير فيهم كبيرا وإن صغرت معانيه والصغير فيهم صغيرا وإن كبر فى المعانى ؛ وبهذا تموج الحياة بعضها فى بعض ولا يستقيم الناسُ على رأى صحيح ، إذ يكون الصحيح والفاسد فى ملك الانسان لا فى عمل الانسان ، فيكنز الغنى مالا ويكنز الفقير عداوة كأن هذا قتل مالَ هذا وكأن أعمالا قتلت أعمالا ، وترجع الصفاتُ الانسانية متعادية وتباع الفضائل وتشترى ، ويزيد من يزيد ولكن فى القسوة ، وينقص من ينقص ولكن فى الحرية ، وتكون المنفعة الذاتية هى التى تأمر فى الجميع وتنهى ، ويدخل الكذبُ فى كل شىء حتى فى النظر إلى المال فيرى كل انسان كأنما درهمُه وديناره أكبر قيمة من دينار الآخر ودرهمه فاذا أعطى نقص فغش ، وإذا أخذ زاد فسرق ؛ وتصبح النفوس نفوساً تجارية تساوم قبل أن تنبعث لفضيلة وتُماكِسُ إذا دُعيت لأداء حق ، ويتعامل الناس فى الشرف على أصول من المِعدة لا من الروح ، فلا يقال حينئذ إن رغيفين أكثر من رغيف واحد كما هى طبيعة العدد ، بل يقال إن رغيفين أشرفُ من رغيف كما هى طبيعة النفاق

أما التجارة وهى التفسير الظاهر لمعانى النفوس فتصبح بين الغش والضرر والمماكرة ، وتكون يقظة التاجر من غفلة الشارى وتفسد الارادة فلا تحدث إلا آثارها الزائفة . وما التاجر فى الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخلق فى الوضع المتقلب فكلمته كالرقم من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص مما فيه ، ويُمتحَن بالدنيا والدرهم أشدَّ مما يمتحن العابد بصلاته وصيامه . وقد شهد رجل عند عمر بن الخطاب فى قضية فقال له عمر : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، قال فكنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورعُ الرجل ؟ قال : لا

قال عمر : أظنك رأيته قائماً فى المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن يخفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى . قال : نعم

قال : فاذهب فلست تعرفه

وإنما التاجر صورة من ثقة الناس بعضهم ببعض وإرادة الخير واعتقاد الصدق ، وهو فى كل ذلك مظهر توضع اليد عليه كما تجسُّ اليدُ مرض المريض وصحته

فاذا عظمت الأمة الدينار والدرهم فانما عظمت النفاق والطمع والكذب والعداوة والقسوة والاستعباد ؛ وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حدوداً فاصلة بين أهلها ، حتى لتكون المسافة بين غنى وفقير كالمسافة بين بلدين قد تباعد مابينهما . وإنما هيبة الاسلام فى العزة بالنفس لا بالمال ، وفى بذل الحياة لا فى الحرص عليها ، وفى أخلاق الروح لا فى أخلاق اليد ، وفى وضع حدود الفضائل بين الناس لا فى وضع حدود الدراهم ، وفى إزالة النقائص من الطباع لا فى إقامتها ، وفى تعاون صفات المؤمنين لا فى تعاديها ، وفى اعتبار الغنى ما يُعمل بالمال لا ما يجمع من المال ، وفى جعل أول الثروة العقل والارادة لا الذهب والفضة

هذا هو الاسلام الذى غلب الأمم ، لأنه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

عصر الخفاء

البارون فون أوفنباخ

داعية ومغامر ومشعوذ

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء فى أوربا ، تزدهر فيه الدعوات والحركات السرية ، ويزدهر فيه أقطاب الدعاة السريين ؛ ففى أوائله نرى حركة البناء الحر (الماسونية) تتغلغل فى أنحاء أوربا ، وتقوم طائفة أخرى من الحركات والجمعيات السرية ؛ وفى أواخره نرى طائفة من أقطاب المغامرين الذين يتشحون بأثواب الخفاء والشعوذة يجوبون أوربا من أقصاها إلى أقصاها ، ويثيرون الروع والدهشة أينما حلوا ؛ ولهؤلاء الدعاة المغامرين سير عجيبة تفيض بها سير القرن الثامن عشر ، وتبدو كأنها قصص مغرق ، بيد أنها ترجع فى الغالب إلى كثير من الحقيقة ، وكل ما هنالك أن هذه الحقيقة يكتنفها كثير من الغموض والخفاء يرجع إلى ظروف العصر والمجتمعات التى ظهر فيها أولئك الدعاة المغامرون

ومما يلاحظ أن معظم المغامرين والدعاة السريين الذين ظهروا فى هذه الفترة هم يهود أو ينتمون إلى أصل يهودى ، وأن معظم الحركات والدعوات السرية التى ازدهرت فيها ترجع أيضاً إلى أصل يهودى ، أو نلمس فيها على الأقل وحى الدعاية اليهودية ؛ وهذه الملاحظة ترجع فى الواقع إلى ظاهرة تاريخية أعم ، وهى أن اليهودية كانت منذ العصور الوسطى مستقى أو منبعاً لكثير من الحركات والجمعيات السرية التى قامت فى أوربا ، ومعظمها يرمى إلى غايات هدم دينية أو اجتماعية ، تقصد بها النصرانية ومبادئها وعقائدها قبل كل شىء

وقد كانت « الكابالا » اليهودية منذ العصور الوسطى أكبر مصدر لهذه الدعوات والرموز السرية . والكابالا شهيرة فى تراث اليهودية الروحى والفلسفى ، وهى عبارة عن مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والرموز السحرية ، يتوارثها أحبار اليهودية ودعاتها منذ أقدم العصور ، وأخص تعاليمها الروحية أن الله وهو الكائن المطلق الخالد ينفث من نفسه إلى عالم الأرواح النقية ، وأن روح الانسان تنتقل من جسم إلى جسم حتى تعود فى النهاية إلى الله وتفنى فيه ؛ ولكن الكابالا اشتهرت بالأخص برموزها السرية وتعاويذها السحرية ، وقد كانت هذه مدى العصور تراث الخفاء فى يد الدعاة والمشعوذين ، يستغلون به سذاجة الكافة ، ويتخذونه سلاحاً قوياً لبث دعواتهم وتحقيق غاياتهم فى مجتمعات مؤمنة يروعها السحر والخفاء على كر العصور

وقد بلغت هذه الدعوات والتعاليم السرية اليهودية ذروة القوة والذيوع فى القرن السابع عشر ؛ وكانت بولونيا ، وبالأخص مقاطعة بودوليا التى كانت يومئذ منزلا لطوائف كثيرة من اليهود ، مركزاً للدعوة الكابالية ؛ وكانت هذه الدعوة تتمخض من آن لآخر عن ثورات دينية يتردد صداها فى المجتمع اليهودى كله . وفى أواسط القرن السابع عشر ظهر فى تركيا شابتاى زبى ، وهو داعية يهودى زعم أنه المسيح المنتظر ، فأثار ظهوره ومزاعمه فتنة كبيرة فى المجتمع اليهودى ؛ ولم يكن « المسيح المنتظر » سوى داعية ماهر من دعاة « الكابالا » ؛ وفى أواسط القرن الثامن عشر ظهر فى بولونيا عدة متعاقبة من الدعاة الكابالبين ، أشهرهم اسرائيل البدولى الذى أسس طائفة « الحسديم » ؛ وكان اسرائيل بارعاً فى ضروب الشعوذة واستخدام الرموز والتعاويذ السحرية ، فلقيت دعوته صدى كبيراً ، والتف حوله كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم « التلمود » وتقاليده

وفى ذلك الحين أيضاً ظهر داعية من أعظم دعاة الكابالا ، وأشدهم خفاء وغموضاً ، فأثارت شخصيته الغامضة ، وحياته العجيبة ، ومزاعمه الخارقة ، وبذخه الطائل أيما روعة ودهشة فى مجتمعات أوربا الوسطى . واسم هذا الداعية الغريب يعقوب فرنك ، وكل ما نعرف عن نشأته وحياته الأولى أنه ولد فى بولونيا ، وكان فى حداثته يشتغل بتقطير الخمور ؛ ثم تجول حيناً فى بلاد القرم وفى تركيا ، ودرس تعاليم « الكابالا » ورموزها دراسة عميقة ، واتصل بأنصار شابتاى زبى ودعاتهم إلى لوائه ، ثم عاد

إلى بودوليا منزل الحركة الكابالية ، وهنالك أسس في سنة ١٧٥٥ طائفة جديدة تعرف بجماعة « الزوهاريين » نسبة إلى « زوهار » أو كتاب الضوء ، وهو من الكتب العبرية الكابالية ؛ ولم يلبث أن ذاعت دعوته وقويت عصبته ؛ ونهض لمقاومته جماعة « التلموديين » الرجعيين ، ونشبت بينهما خصومة قوية ، فالتجأ فرنك إلى حماية أسقف كامنيك وأفضى اليه بميوله النصرانية ، وأحرق التلمود علناً ؛ وعاونه الأسقف على مقاومة خصومه حيناً ولكنه لم يلبث أن توفى ، واشتد الأحبار اليهود في مهاجمة فرنك ومطاردته ، وأوقعوا به لدى حكومة وارسو ، ولدى مبعوث البابا ، وصوروه للسلطات الدينية والمدنية يهودياً مرتداً ، ونصرانياً مماذقاً ، وأن دعايته خطر على العقائد الرعية ، فهبت السلطات لمقاومته ، وبدأت يد المطاردة تعمل لسحق « الزوهاريين » وتشريدهم

والواقع أن مذهب فرنك لم يكن يهودية خالصة ولا نصرانية خالصة ، بل كان مزيجاً غريباً من اليهودية والنصرانية والوثنية ؛ ولم تكن بولونيا مهداً خصباً لمثل هذه الدعوات الجريئة ؛ فلم يمض بعيد حتى قبض على فرنك بتهمة الارتداد الكاذب ونشر الالحاد والكفر ، وزج إلى قلعة شنتشوف ، وبادر كثير من أنصاره بالفرار إلى تركيا ، واعتنق الكثلكة كثير ممن بقى منهم في بولونيا ، ولكنهم بقوا يهوداً في سرائرهم ، وقبض على عدد منهم ، وحكم على البعض بالأشغال الشاقة ، ولكن كثيرين منهم استطاعوا أن يتقوا بستار الكثلكة ويل المطاردة ؛ ولقى الذين هاجروا إلى تركيا عنتاً واضطهاداً من السلطات الدينية في مولدافيا ، وانقض عليهم العامة ونهبوهم ، وتفرقوا في كافة الأنحاء . أما يعقوب فرنك فلبث يرسف في سجنه حتى سقطت قلعة شنتشوف في أيدي الروس في سنة ١٧٧٢ ، وعندئذ أطلق سراحه ؛ فتجول حيناً في بولونيا وبوهميا ومورافيا متشحاً في الظاهر بثوب الكثلكة ، وهو يجمع الأموال والرسوم الفادحة من أنصاره وأبناء جلدته ، ويثير الروع والاجلال بين الكافة بمظاهر بذخه ؛ وكان مذهب الزوهاريين قد ذاع في المجتمعات اليهودية في تلك الأنحاء ، وكانت تعاليمهم أكثر جنوحاً إلى النصرانية ، فهم ينكرون التلمود ، ويدلون بالتثليث والحلول ، ولكن ينكرون أن المسيح وحده أهل للحلول ؛ وكان هذا المزيج بين المذاهب والتعاليم المختلفة ملاذ الدعاة في كل عصر ، فهم يزعمون دائماً أنهم ينشئون مذهباً أو ديناً جديداً ، ولكنهم يعمدون دائماً إلى الاقتباس من المذاهب والأديان القائمة ، ويسبغون على مزيجهم نوعاً من الجدل الغامض للتمويه على العامة والبسطاء

على أن يعقوب فرنك غدا مذ قوضت دعائم طائفته رجلا آخر ، فهو لم يبق بعد داعية يتزعم مذهباً جديداً ؛ ولم يبق بعد اعتناق الكثلكة يهودياً ينفث دعايته إلى أبناء دينه ؛ بل غدا في الواقع شخصية جديدة يحوطها خفاء من نوع جديد ؛ ذلك أنه ظهر فجأة في المجتمع الرفيع ، يعيش في بذخ شرقي طائل ، ويحيط نفسه بحاشية كبيرة فخمة ، ويدهش المجتمعات الرفيعة في ألمانيا والنمسا بروعة مظاهره وفيض بذخه ؛ وما زالت حياة فرنك في تلك الفترة لغزاً ، وما زال مصدر ثرائه المدهش سراً على التاريخ ؛ ومن ذلك الحين يعيش فرنك في فينا وفي برون على مقربة منها ، تحيط به أروع مظاهر الفخامة والبذخ ، كما يحيط به أعمق الأسرار وأغرب المزاعم ؛ ولبث فرنك مدى حين يدهش البلاط النمسوي وكل مجتمع فينا الرفيع بشخصيته الخفية ، وحياته الفخمة الباذخة ؛ وكانت له ابنة حسناء تدعى « حوه » ، استطاعت أن تتقرب من الأمبراطورة ماريا تيريزيا ، وأن تنال لديها حظوة ونفوذاً ، وأن تمهد لأبيها كثيراً من السبل ؛ ولكن الريب الذي يلاحقه أينما حل كان يحيط دائماً بشخصيته ومحيطه ووسائله ومزاعمه ؛ ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرة النمسا ليتقى شر الاتهام والمطاردة ، وعندئذ تحول إلى مدينة أوفنباخ بألمانيا على مقربة من فرانكفورت ، واستقر بها مع حاشيته الكبيرة ، وعاش هنالك بنفس البذخ الطائل الذي كان مثار الروع والدهشة والاعجاب أينما حل

وعاش فرنك في أوفنباخ أعواماً طويلة ، وتسمى بالبارون فون أوفنباخ ، وهو لقب يغلب عليه في كتب التاريخ والقصص ؛ وأثار بروعة بذخه ومظاهره طلعة المجتمع الألماني ودهشته كما أثار دهشة المجتمع النمسوي من قبل . ويقدم إلينا المؤرخ الألماني بيتر بير وصفاً روائياً شائقاً لحياة فرنك العجيبة وبذخه المدهش فيقول لنا : « كانت له حاشية من بضع مئين من الفتيان والفتيات اليهود ذوي الحسن الرائع ؛ وكان يذاع أن صناديق المال تنهمر عليه في كل يوم ولا سيما من بولونيا ، وكان يخرج كل يوم في

موكب حافل ليقيم شعائره فى العراء، فى عربة تجرها جياد مطهمة، ومن حوله عشرة أو اثنا عشر فارساً بروسياً فى حلل حمراء خضراء موشاة بالذهب، وقد شهروا الرماح ووضعوا فى قلنسواتهم رموزاً من النسور أو الوعول أو أهلة وشموساً وأقماراً؛ وكان الماء يصب دائماً حينما كان يقيم شعائره؛ وكان يؤم الكنيسة فى مثل هذا البذخ، وهنالك يؤدى القداس بطريقة خاصة، وفى خشوع خاص؛ وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود، بيد أنه توفى فى سنة ١٧٩١؛ ودفن فى بذخ يعدل بذخ حياته، وسار وراء نعشه موكب من ثمانمائة؛ بيد أن سر ثرائه وبذخه دفن معه فى قبره؛ وانحدرت أسرته بعد وفاته إلى حالة من البؤس تدنو إلى التسول؛ وعبثاً حاولت أن تستدر عطف أنصاره أو صدقتهم؛ ولم يمض سوى قليل حتى غمرها النسيان والعدم، واضطرت لكى تعيش أن تزاول أعمال الحياة الفانية» (١)

هذه هى قصة يعقوب فرنك وقصة حياته العجيبة. قصة مغامر ومشعوذ بارع استطاع أن يستغل ظروف عصره، وما كان يسود مجتمع عصره من إيمان وتعلق بالخوارق والأساطير. بيد أنه من الخطأ أن نقف عند هذه الصورة الظاهرة من حياته. ذلك أن حياة فرنك كانت سراً من الأسرار التى لا تنفذ اليها طلعة الكافة، وكان وراء هذه الحياة الفخمة الباذخة ناحية أخرى يغمرها الخفاء المطبق. هل كان فرنك يعمل لنفسه وبوسائله الخاصة أم كان يعمل بوحى قوة خفية أخرى تمده بأسباب البذخ الطائل وتدفعه إلى المجتمع مزودا بتلك المظاهر الرائعة لكى يعمل على بث دعاية معينة وتحقيق أغراض معينة؟ لقد كان العصر الذى ظهر فيه فرنك عصر الخفاء حقاً، وكانت موجة من الخفاء والتعلق بالخوارق والمجهول تغمر مجتمعات أوروبا الرفيعة وتملك عليها تفكيرها وأهواءها؛ وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه فرنك مسلحاً بأسراره ومظاهره العجيبة، ظهر يوسف بلسامو أو الكونت كاجليوسترو مسلحاً بمثل هذا الخفاء وأثار دهشة المجتمعات الرفيعة ولا سيما فى فرنسا بمظاهره وأعماله العجيبة ومزاعمه الخارقة؛ وظهر فى نفس الوقت مغامر آخر من نفس الطراز وإن كان أقل روعة وتأثيراً، وهو الكونت سان جرمان واقتفى أثر زميله فى التذرع بالخوارق. ومما يلفت النظر أن الثلاثة كانوا يهوداً؛ وقد كانت اليهودية يومئذ مبعث الحركات والدعوات السرية، وكانت الكابالا اليهودية كما أسلفنا مستقى خصباً للدعاة السريين فيما يعرضون من ضروب الرموز والأساليب السحرية، وكانت حركة البناء الحر (الماسونية) يومئذ تضطرم فى جميع أوربا؛ وقد أثبت البحث الحديث أن لحركة البناء الحر أغراضاً خفية غير الأغراض الانسانية التى تتظاهر بها، وأنها تعمل لغاية ثورية شاملة هى سحق الأديان والمعتقدات القائمة كلها، وادماج الانسانية كلها فى نوع من التفكير الحر المطلق والمساواة الاجتماعية المطلقة. ويرى بعض الباحثين أن الثورة الفرنسية كانت مؤامرة «ماسونية» ونفثة من نفثات البناء الحر، وأن محافل البناء الحر هى التى نظمت خططها وبرامجها الأولى؛ بل يرى بعض الباحثين أن الثورة البلشفية الحديثة ليست بعيدة عن تأثير البناء الحر، وأن ما ترمى إليه من إحداث ثورة عالمية يطابق نفس الغاية التى يعمل لها البناء الحر؛ وقد كان أولئك الدعاة المغامرون الذى خلبوا ألباب أوربا فى القرن الثامن عشر يتصلون بمحافل البناء الحر اتصالاً وثيقاً وإن يكن خفياً. أفليس لنا أن نعتقد بعد ذلك أن يعقوب فرنك لم يكن مغامراً أفاقاً يعمل لنفسه ولمطامعه الشخصية، وأنه بالعكس كان داعية خطيراً يبث حركة خطيرة لها صلة بخطط البناء الحر وغاياته؟ وأنه كان يستمد المال الوفير والنصح والحماية من قوة خفية أعظم؟ هذا ما نرجح، وهذا ما يؤيده خفاء حياته وخفاء وسائله ومزاعمه وغاياته، واتشاحه بثوب الدعوة الدينية التى كانت على كر العصور ملاذاً لمختلف الدعوات والغايات.

محمد عبد الله عنان

(١) بيتر بير فى كتابه: Geschichte der Juden

فلاسفة الاسلام

والتوفيق بين الفلسفة والدين

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

سيداتي ، سادتي !

أشكر قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية على أن هيأ لى الفرصة للتحدث إليكم الليلة فى موضوع جاف ودقيق ؛ ولست أدرى هل دقته منشأ جفافه ، أم جفافه زاد فى دقته وغرابته ؛ ومهما يكن فالذى أستطيع أن أؤكده لكم أنكم لستم بصدد موضوع من تلك الموضوعات الطريفة المسلية التى تمر بالمستمع فى شوق ورغبة وهدوء وسكون ، وقد أعذر من أنذر ! على أن لى فى سعة صدركم وعظيم انتباهكم ما يشجعنى على القول برغم مايصادفنى من صعوبات . وما فكرت فى أن أخوض معكم غمار هذه الأحاديث إلا رغبة منى فى أن أوجه النظر إلى شطر من الثقافة الاسلامية أهمله أهله وتغافل عنه ذووه . وأعنى بهذا الشطر الدراسة العقلية والبحث النظرى فى الاسلام . للاسلام فلسفة انفردت بخصائصها ومميزاتها وأضحت ذات شخصية مستقلة . فليست مجرد الفلسفة الأرسطية مصوغة فى عبارات عربية كما يزعم رينان ، ولا فلسفة مدرسة الاسكندرية منسوبة فقط إلى بعض رجال الاسلام كما يدعى دهيم [1] . كلا بل هى فلسفة ذات موضوع خاص ومشاكل معينة وطريقة فى البحث جديدة إلى حد كبير . هذه الفلسفة مجهولة ومهملة إلى درجة لم تصل اليها فيما أعتقد أية فلسفة أخرى . فرجالها لا يكادون يعرفون ، وكتبهم ليست أعظم حظاً منهم ؛ ولا يزال قدر منها مخطوطاً إلى اليوم دون أن يفكر أحد فى طبعه ونشره . ولو لم يقيض الله لهذا التراث بعض المستشرقين لما عرف عنه شىء و بقى فى طى الكتمان إلى الأبد . [2] وما أجدرنا أن نقوم نحن على إحياء مجدنا والاشادة بذكر رجالنا كى يتصل حاضرنا بماضينا ونؤسس نهضتنا على أسس متينة من القديم الحى والجديد النافع

قلت أيها السادة إن موضوعنا دقيق ، وعنوانه كاف للدلالة على ما فيه من أمور شائكة ومشاكل عويصة . فان الأبحاث الدينية فى جلتها مثار اتهامات وتأويلات وشبه لا حصر لها . وقد ساد بلدنا فى العشرين سنة الأخيرة روح اتهام خبيثة ترى بالالحاد والزندقة والتمرد والكفر كل من حاول تفسير ظاهرة من الظواهر الدينية تفسيراً تاريخياً أو عقلياً . لذلك تحاشى كثير من الباحثين هذا الميدان وتجنبوه اتقاء لما فيه من شرر متطاير وعراك ونضال . غير أنى أشعر بنسمة من نسمات التسامح الاسلامى القديم تهب علينا من جديد ، وألمح فى صفوف قادة الرأى والفكر اتجاها نحو الحرية وسعة الصدر وطلاقة التفكير . ولا أدل على هذا من خمود تلك النعرة القديمة ، نعرة الأباحيين والمتمسكين واللادينيين والدينيين . ويغلب على ظنى أنه لو كان تقدم الزمن عشر سنين بكتاب ككتاب « حياة محمد » مثلاً للدكتور هيكل لعد فى صف المؤلفات المحاربة المطرودة . أما اليوم فانه مقروء ومرغوب فيه بشكل يدعو إلى الاعجاب والتقدير . وليس هناك شك فى أن لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى يداً فى هذه النزعة الصالحة والتسامح الجديد . وإذا كانت النفوس اليوم أكثر استعداداً لتفهم مسائل الدين فى جو حر طليق فانى لا أرى غضاضة فى أن أتحدث عن بعضها . على أنى لست فى هذا الحديث إلا الرسول الأمين والناقل الصادق لما قال به فلاسفتكم الأقدمون . فمهمتى أن أنقل إليكم آراء كبار فلاسفة الاسلام ، وأردد بينكم أصواتاً تقادم بها العهد ، وأبعث من تحت الرغام أشباحاً طال رقادها ، وأبين لكم كيف حاول الفارابى وابن سينا وابن رشد التوفيق بين الفلسفة والدين

***

الدين وحى الله ، ولغة السماء ، وغذاء القلوب ، ومصدر الأوامر والنواهى . فكيف نوفق بينه وبين الفلسفة التى هى صنع البشر ولغة الأرض ، ومجال الأخذ والرد والبحث والتعليل ؟ كيف نوفق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية ، والأولى عمادها الالهام ، والثانية أساسها البرهان ؟ كيف نوفق بين السمعيات والعقليات ، بين المسلمات واليقينيات ؟ كيف نوفق بين أفكار

(1) Renan, Averroes, p. 88. — Duhem, Le système du Monde, IV, pp. 321 et suiv.

(٢) ابراهيم مدكور ، الفلسفة الاسلامية ودراستها (الرسالة) عدد ٩٣

العامة المبنية على البساطة والسهولة ، وآراء الخاصة الناتجة عن التفكير الزائد والتأمل العميق ؟ مهمة شاقة قطعاً ومحاولة يعز أن تكلل بالنجاح . ولكنها ضرورية لقوم عاشوا فى العالم الأسلامى واعتنقوا الاسلام ، وكانت دراستهم بل حياتهم كلها خاضعة للجو المحيط بهم ، ومتأثرة بمختلف العوامل والظروف التى استولت على عصرهم . فلم ير الفلاسفة المسلمون بداً من محاولة التوفيق بين معتقداتهم وأبحاثهم . وهذه المحاولة هى حجر الزاوية فى فلسفتهم وأخص خصائصها ، وبها تتميز من الفلسفة الأرسطية وتبدو فى ثوبها الفذ المستقل . ففى كل خطوة من خطاهم ، وفى كل بحث من أبحاثهم ، صوب هؤلاء الفلاسفة نحو هذا الغرض واتجهوا نحو هذه الغاية . وكان لجهودهم أثر يذكر فى انتشار الفلسفة ونفوذها إلى صميم الدراسات الاسلامية الأخرى . ويعد الفارابى أول من سلك سبيل هذا التوفيق وأظهره فى شكل مهذب منسق . ثم أتى من بعده ابن سينا فسار على سننه واهتدى بهديه ، ووسع طريقته وكمل ما فاته ، إلا أن محاولة التوفيق التى قام بها هذان الفيلسوفان لم ترق لدى الغزالى ، فشن عليها الغارة وأثار عليها حرباً شعواء ونقض أصولها وفروعها وأعمل معوله فى هدم بنائها الفخم وأركانها المتينة ؛ وكتابه تهافت الفلاسفة قائم على انتزاع أحجار هذا البناء الواحد بعد الآخر ، واثبات أن الفلاسفة أساءوا إلى الفلسفة والدين معاً بمحاولتهم التوفيق بينهما . وقد جاء ابن رشد أخيراً مدافعاً عن أسلافه الفلاسفة ومبيناً ما فى حجج الغزالى من مغالطة وسفسطة . ولم يمنعه تعصبه الزائد لأرسطو وعنايته الكبيرة بالفلسفة القديمة من أن يقف على هذه المشكلة ثلاثة كتب هامة هى : تهافت التهافت فى الرد على الغزالى ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ومناهج الأدلة فى عقائد الملة . ولا يعنينا كثيراً أن نعرف ما إذا كان هؤلاء الفلاسفة مخلصين فى عملهم أو غير مخلصين ، فهذه مسألة تتجاوز دائرة بحثنا وتتعلق بأشخاصهم وصلتهم بربهم . وما لنا نتتبع بواطن الناس وقد دلت ظواهرهم على حسن نيتهم ؟ ومن لنا بالوقوف على أمر هذه البواطن والله وحده هو الذى يتولاها ويدرك كنهها وخفاياها ؟ على أن البحث عن السرائر مقرون غالباً بالشك وإلصاق تهم بأشخاص لم يقم دليل من أقوالهم وأفعالهم على اتهامهم . فلندع هذا جانباً ، ولنقنع بأن نقرر أن فلاسفة الاسلام الذين نتحدث عنهم خلفوا كتباً تشهد برغبتهم الأكيدة فى التوفيق بين دراستهم وعقائدهم ، وفلسفتهم كلها قائمة على هذا الأساس

وواضح أن التوفيق يستلزم على الأقل جانبين متقابلين وطرفين متنافرين . ومهمة الموفق أن يمد أسباب الخلاف ويقرب الشقين المتباعدين ؛ وهذا ما حاوله الفارابى وابن سينا فى ربط الفلسفة بالدين ، فقد كان أمامهما من جهة الفلسفة الأرسطية تراث الأغريق وأسمى صورة لما أنتجه العقل الانسانى فى ذلك الزمان ، كما كانا يعتنقان من جهة أخرى عقائد الاسلام والملة الحنيفية السمحاء التى تدعو إلى تحرير الانسان من قيوده وتوجيهه نحو البحث والنظر . وفى فلسفة أرسطو نواح لا تلائم أصول الدين ، كما أن فى الاسلام تعاليم قد لا تتفق ظواهرها والروح الفلسفية ؛ فعنى الرجلان بصبغ مذهب أرسطو بصبغة دينية وكسوة الدين بثياب فلسفية ، وبذا أصبحت الفلسفة دينية ، والدين فلسفياً ؛ أو بعبارة أدق أصبحت فلسفتهما ديناً ودينهما فلسفة . وليس فى مقدورنا أن نأتى هنا على تفاصيل أوجه التوفيق التى حاولاها ، وإنما نكتفى بالمسائل الرئيسية التى أدخلاها فى الفلسفة والدين معاً . فنتبين النقط التى خالفا فيها أرسطو والحلول التى عرضاها لبعض المشاكل الدينية . وعلى هذا فأوجه التوفيق تنقسم إلى شعبتين ، تتصل إحداهما بالفلسفة والأخرى بالدين ، وكأن الموفقين شاءا أن يخطوا بالفلسفة نحو الدين فى الوقت الذى قربا فيه الدين من الفلسفة ؛ وكأن التصالح بين الطرفين ، إن صح هذا التعبير القضائى ، تم على تساهل متبادل وتضحية مشتركة . فى الفلسفة الأرسطية ثلاث مسائل جوهرية تبعد عن تعاليم الاسلام : الأولى فكرة الاله ومدلولها الصحيح وتحديد صفات البارئ وخصائصه ؛ والثانية الصلة بين الله والعالم وبيان ما إذا كانت الحركة والمادة محتاجتين إلى الله أو غير محتاجتين ؛ والثالثة النفس وخلودها ، نظرية كلامية ميتافزيقية ، وأخرى فلكية طبيعية ، وثالثة سيكلوجية . هذه هى النقط الثلاث الهامة التى تباعد بين آراء أرسطو وما جاء به الاسلام ، وفى التعاليم الاسلامية من جانب آخر مشكلتان عظيمتان هما : مشكلة النبوة ومشكلة

السمعيات . وقد شغل الفلاسفة بهما وعنوا بتفسيرها تفسيراً علمياً ينطبق على مبادئ البحث العقلي . وسأعرض عليكم سريعاً أوجه الخلاف هذه وطريق علاجها

لم يعن أرسطو عناية خاصة بمعرفة الله ، ولم يعتبرها غرضاً رئيسياً لفلسفته ، ولم يدخلها في قوانينه الأخلاقية ولا في نظامه السياسية ، ويظهر أنه نظر أولاً إلى العالم الحسي وبين أسبابه وعلله دون أن يفكر في قوة خفية تدبره ، وبعد أن استكملت الطبيعة وسائلها وانتظمت الأفلاك في سيرها انتهى به المطاف إلى محرك أول أخص خصائصه أنه يحرك غيره ولا يتحرك هو (1) . هذا المحرك الساكن أو المحرك الصوري هو الإله في رأيه ، ولا يذكر من صفاته إلا أنه عقـل دائم التفكير ، وتفكيره منصب على ذاته (2) . فاذا ما طالبته بتفاصيل أكثر وبيان أشمل ألفيت نفسك أمام صمت عميق وسكون مطبق . ذلك لأنه يتحرج عن الكلام في المسائل الدينية ، ويعدها فوق مقدور البشر ، ويصرح بأن الكائنات الأزلية الباقية وإن تكن رفيعة مقدسة ليست معروفة إلا بقدر ضئيل (3) . وليت أرسطو وقف عند هذا الحد ، بل جاوزه إلى ما هو أقبح وأشنع ، فان نظرياته المختلفة تشعر بتردد بين الوحدة والتعدد . حقاً إنه ينادي بالوحدة مردداً قول هومير إنه « ليس حسناً أن يكون هناك سادة متعددون » ويلاحظ أن وحدة نظام العالم تستلزم وحدة سببه الغائي (4) ، ولكنه يقرر في مقام آخر أن لكل فلك محركا خاصاً لا يختلف كثيراً عن المحرك الأول والإله الأعظم . فالأفلاك وحركاتها تقوده إلى التعدد وإن جهر بالوحدة وبرهن عليها ، وبذا لم يستطع التخلص تماماً من التقاليد الأغريقية القديمة التي كانت تعتبر النجوم آلهة (5) . ففكرة الإله عنده غامضة وغير متمشية مع مذهبه ، ولا تشغل حيزاً واضحاً في فلسفته ، وأراني في غنى عن أن ألاحظ أن هذه الفكرة تختلف كل الاختلاف عن العقيدة

(1) Aristote, Physique, 258 a, 5 — b, 4.
(2) Aristote, Métaphysique, 1072 b, 27 — 29, 1079, 34.
(3) Aristote, Des parties des animaux, I, 5.
(4) Aristote, Métaphysique, 1076 a, 24; Iliade, II, 204.
(5) Aristote, Métaphysique, 1074 a, 31 — 38 = Physique, 258 b, 10.

الاسلامية . لذلك اضطر الفلاسفة المسلمون أن يبينوا حقيقة الله ويشرحوها شرحاً لا يدع مجالاً للابهام والشك ، وقد أثبتوا أن الله هو الموجود الأول والسبب الحقيقي لسائر الموجودات ، وأنه منزه عن الشريك والنظير والمثيل والضد ، هو الإله الواحد الحي القادر العليم الحكيم السميع البصير . يقول الفارابي : « الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها وهو بريء من جميع أنحاء النقص . . . فوجوده أفضل الوجود وأقدم الوجود ولا يمكن أن يكون وجود أفضل ولا أقدم من وجوده . . . فهو أزلي دائم الوجود بجوهره وذاته من غير أن يكون به حاجة في أن يكون أزلياً إلى شيء آخر يمد بقاءه ، بل هو بجوهره كاف في بقائه ودوام وجوده . . . وهو مباين بجوهره لكل ما سواه ولا يمكن أن يكون الوجود الذي له لشيء آخر سواه (1) » . وفي هذا المعنى يقول ابن سينا إن « الأول لا ند له ولا ضد له ولا جنس له ولا فصل له فلا حد له ولا إشارة إليه إلا بصريح العرفان العقلي . وهو معقول الذات قائمها ، فهو قيوم بريء عن العلائق والعهد والمواد وغيرها مما يجعل الذات بحال زائدة . وقد علم أن ما هذا حكمه فهو عاقل لذاته معقول لذاته . تأمل كيف لم يحتج بياننا لثبوت الأول ووحدانيته وبراءته عن الصفات إلى تأمل لغير نفس الوجود ولم يحتج إلى اعتبار من خلقه وفعله ، وإن كان ذلك دليلاً عليه ، لكن هذا الباب أوثق وأشرف ، أي إذا اعتبرنا حال الوجود فشهد به الوجود من حيث هو وجود ، وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الوجود . وإلى مثل هذا أشير في الكتاب الإلهي : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » . أقول هذا حكم لقوم ؛ ثم يقول : « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » أقول إن هذا حكم الصدّيقين الذين يستشهدون به لا عليه (2) » ، وقد برهن الفيلسوفان على وحدة الله بطريقة مبتكرة وفي مهارة ولباقة خلابتين (3) ، وإذا كان الله واحداً فانا لا نستطيع أن نتصور له صفات خارج ذاته ، بل هو عالم حي سميع

(1) الفارابي ، رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٥ — ٦
(2) ابن سينا ، الاشارات والتنبيهات ، ص ١٤٦ — ١٤٧
(3) الفارابي ، المدينة الفاضلة ، ص ٧ وابن سينا ، الاشارات ، ص ١٣٩ — ١٤١

قادر بذاته . « فليس يحتاج فى أن يتعلم إلى ذات أخرى يستفيد بعلمها الفضيلة خارجةً عن ذاته ، ولا فى أن يكون معلوماً إلى ذات أخرى تعلمه ، بل هو مكتف بجوهره فى أن يَعلم ويُعلم ، وليس علمه بذاته شيئاً سوى جوهره ، فانه يعلم وأنه معلوم وأنه علم ، كل ذلك ذات واحدة وجوهر واحد (١) » فالفارابى وابن سينا يقولان ، كالمعتزلة ، بوحدة الذات وينفيان الصفات الخارجة عنها ، وفكرة الاله عندهما أساس المذهب جميعه ، وكل المسائل الأخرى متفرعة عنها. وفى هذا ما يبين مسافة الخلف بينهما وبين أستاذهما أرسطو

لم يفارق فلاسفة الاسلام أستاذهم فى هذه النقطة فحسب ، بل انفصلوا عنه فى مسألة أخرى هى نتيجة لهذه ، الا وهى الصلة بين الله والعالم . وذلك أن أرسطو وقد قال بقدم المادة والحركة لم يدع لله مكاناً فى هذا العالم . نعم إنه يسميه المحرك الأول ومعنى هذا أنه علة فاعلية ، ولكنه يعود فيقول إنه محرك ساكن ؛ وكل ما هنالك أن العالم يتجه إليه فى حركته (٢) . فهو غرض وغاية فقط ؛ وليس تأثيره فى العالم بأكثر من تأثير التمثال الجميل فى نفس المعجب به . وإله هذا شأنه يتنافى مع ما يصرح به القرآن من أن الله خالق كل شىء . فلا المادة ولا العالم يتصور لهما وجود بدون الله . والتغيرات الكونية على اختلافها ترجع إلى الخالق المبدع جل شأنه . إزاء هذا التناقض الواضح لجأ الفارابى وابن سينا إلى حل وسط فقالا إن المادة مخلوقة وقديمة . خلقها الله بفيض من عنده أزلاً وتعهدها بعنايته ورعايته فيما بعد . وكلمة « فيض » هذه ليست من الكلمات التى تمر بنا دون أن نعيرها أية أهمية فانها ذات مدلول خاص وأهمية تاريخية (٣) . ويراد بها أن الله وهو عقل محض وتفكير مستمر قد صدر عنه العقل الأول كما يصدر الضوء عن الشمس ، وعن العقل الأول صدر العقل الثانى وهكذا إلى العقل العاشر . وهذه العقول مرتبة ترتيباً تنازلياً فأسماها العقل الأول وأدناها العقل العاشر . وهى موزعة على الأفلاك المختلفة لتمدها بالحركة وتحقق فيها النظام . ويختص

(١) الفارابى ، المدينة الفاضلة ، ص ١٠

(2) Aristote, Métaphysique, 1074 a, 23.

(3) Madkour, La place d' alfârâbi, p. p. 44 — 77

العقل العاشر أو العقل الفعال بالعالم الأرضى وعنه صدرت المادة التى هى مخلوقة وقديمة فى آن واحد . يقول الفارابى : « وأول المبدَعات عنه شىء واحد بالعدد وهو العقل الأول ويحصل فى المبدَع الأول الكثرة بالعرض لأنه ممكن الوجود بذاته ، واجب الوجود بالأول ، ولأنه يعلم ذاته ويعلم الأول . وليست الكثرة التى فيه من الأول لأن إمكان الوجود هو لذاته وله من الأول وجه من الوجود . ويحصل من العقل الأول بأنه واجب الوجود وعالم بالأول عقل آخر ولا يكون فيه كثرة الا بالوجه الذى ذكرناه . ويحصل من ذلك العقل الأول بأنه ممكن الوجود وبأنه يعلم ذاته الفلك الأعلى بمادته وصورته التى هى النفس . والمراد بهذا أن هذين الشيئين يصيران سبب شيئين : أعنى الفلك والنفس . ويحصل من العقل الثانى عقل آخر وفلك آخر تحت الفلك الأعلى . وانما يحصل منه ذلك لأن الكثرة حاصلة فيه بالعرض كما ذكرناه بديا فى العقل الأول ، وعلى هذا يحصل عقل وفلك من عقل ، ونحن لا نعلم كمية هذه العقول والأفلاك إلا على طريق الجملة إلى أن تنتهى العقول الفعالة إلى عقل فعال مجرد من المادة ؛ وهنالك يتم عدد الأفلاك ؛ وليس حصول هذه العقول بعضها من بعض متسلسلاً بلا نهاية ، وهذه العقول مختلفة الأنواع كل واحد منها نوع على حدة ، والعقل الأخير منها سبب وجود الأنفس الأرضية من وجه ، وسبب الأركان (العناصر) الأربعة بوساطة الأفلاك من وجه آخر » (١) ، ويقول ابن سينا كذلك إن « الأول يبدع جوهراً عقلياً هو بالحقيقة مبدع وبتوسطه جوهراً عقلياً وجرماً سماوياً . وكذلك عن ذلك الجوهر العقلى حتى تتم الأجرام السماوية وتنتهى إلى جوهر عقلى لا يلزم عنه جرم سماوى . فيجب أن تكون هيولى العالم العنصرى لازمة عن العقل الأخير (٢) » وعلى هذا فالفارابى وابن سينا يثبتان الخالق الذى جاء به القرآن وإن كانا يصورانه بصورة عقلية روحية ، ويسلمان مع أرسطو بقدم العالم وإن اعترفا بحدثه

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) الفارابى ، الثمرة المرضية ، طبعة ليدن ، ص ٥٨ و ٥٩

(٢) ابن سينا ، الاشارات ، ص ١٧٤ — ١٧٥

التاريخ فى سير أبطاله

٣ - ميرابو

ميرابو ... تلك الأعجوبة !

جوته

للأستاذ محمود الخفيف

تتمة

صارت الغلبة للشعب ، فلقد وقف ميرابو وقفة حاسمة كان فى الثورة كما رأينا نجاتها ؛ وليت شعرى هل يحمل عمله هذا على الهدم أم هو يحمل على البناء ؟ أتراه يوجه السفينة إلى حيث لاعاصم لها من الموج ، أم تراه يجنبها الصخرة المعترضة ؟ أدر الدفة يا ربانها ! لكن الربان اليوم يزجيها ويستحثها ! أكان عن طيش ذلك أم عن خبل ؟ كلا ما أبى للطيش أو الخبل أن يبلغا هذا الرأس الأشم ؟ أو لم ير الأشراف يأتمرون بالثورة ويرى الملك يتنمر بغتة ويهم أن يأتيها من مقتلها ؟ إنه يعرف ما يفعل ويدرك متى يتخذ الهجوم سلاحاً ومتى يجعل من الصبر مثابة وأمنا . وإنك لتراه يجمع فى ذلك إلى إقدام القائد حنكة السياسى

أكبرته باريس وكانت قد أعجبت بما قرأت له فى صحيفته التى كان يصدرها دفاعاً عن آرائه ، واليوم تخلص له الحب ، ولو كان للرجل يومئذ مآرب خاصة كما نقول عنه خصومه لكان له من تلك الشهرة أعظم فرصة ، ولكنه وقف من باريس موقف الحذر الفطن ، إذ كان يخشى أن تنقلب الثورة من مظهرها الدستورى إلى مظهر دموى هو عنده الطامة الكبرى

ولكنه إذ يعمل على تفادى الخطر من ناحية الشعب لم يكن يأمن جانب البلاط ، ولم ير فى إذعان الملك وحمله السادة الممتازين على مجالسة العامة إلا سكون المتحفز الذى يتربص بالجمعية الدوائر ليضربها الضربة القاضية

ولم تلبث الحوادث أن أيدت ما رأى ، فقد طافت شائعات السوء بالجمعية ثم أيقنت أن الملك يحشد حول باريس وفرساى من جنده نحو أربعين ألفاً ، وأنه موشك أن يعود إلى سالف موقفه منها وهو اليوم بهؤلاء الجند أشد بطشاً وأعظم حولاً ، ولقد أنكر ميرابو هذه السياسة المذبذبة من لدن ذلك الملك الذى كان بسياسته يوقظ الفتنة ويحركها ؛ وتساءل فى دهشة وفى قوة وحجة : « إذا كان الملك يريد أن ينفرد بالأمر دوننا فلم دعانا إليه ؟ وإذا كان قد دعانا لحاجة إلينا فكيف يسوغ له أن يشهر السلاح فى وجوهنا » ؟

وتطلعت الجمعية إلى رجلها من جديد وانتظرت باريس منه القول الفصل ، ووثب دموستين الفرنسى مرة ثانية إلى الصدر فهز جنبات القاعة بل جوانب فرنسا بخطاب من أبلغ ما فاه به . ثم أراد أن يأخذ الطريق على من يكيدون للجمعية بالدس فاقترح أن ترسل وفداً إلى الملك يطلب له ولاءها ويرجوه أن يسحب الجند من حول باريس . ولقد جعلت الجمعية ميرابو على رأس ذلك الوفد ؛ فلما جاء الملك أجاب متهكما : « إنه وحده الذى يحرك جنده كما يريد ، وإذا كان النواب يخافون هؤلاء الجند فلينسحبوا إلى ماوراء باريس ؛ وبعد ذلك بيومين عزل (نكر) من الوزارة يوم ١١ يوليو سنة ١٧٨٩

أدرك ميرابو أن الكارثة واقعة لا محالة . ولم تنقض ثلاثة أيام على عزل نكر حتى حملت باريس السلاح ودكت ذلك الحصن المتيد سجن الباستيل رمز الطغيان والعبودية

دخلت الثورة فى دورها الدموى الرهيب ؛ ولقد ذعرت الجمعية وخشيت أن تقع الحرب الأهلية فتقضى على الثورة والجمعية معاً ؛ وكان رجلها غائباً عنها لما علم من وفاة أبيه . فلما عاد عاودها الأمل وأوفدت وفداً جديداً يعيد على الملك ملتمس الجمعية ، ووقف ميرابو ينصحه قائلا : « بلغوا الملك أن جنوده الذين أحاطوا بنا من كل صوب قد غمرتهم أيدى أمرائه وأميراته ورجال حاشيته بالهدايا والتحف . وأن هؤلاء الجند وقد بهرهم بريق الذهب ولعبت برؤوسهم الخمر باتوا يتغنون بسحق فرنسا وكل ذلك فى اليوم السالف لليلة سان بارتلميو »

ولكن هاهو ذا رسول من قبل الملك ينبىء الجمعية بأنه فى الطريق إليها ، وهاهوذا ميرابو ينصح إليها أن تلاقيه جادة صامتة معلنة حدادها على من قتلوا فى باريس قائلا : « إن فى صمت الشعوب درساً للملوك »

وجاء الملك يستعين بالجمعية على تهدئة الحال فى باريس ثم يدخلها فى رهط من النواب معلناً رضاءه عما اتخذته بعد سقوط الباستيل ! ويسحب الجند منها ومن فرساى !

وكانت باريس بعد أن أعلنت غضبتها قد سيطرت على الموقف فألفت الحرس الوطني وجعلت رياسته للافايت وانتخبت بابي عمدة لها وأسست كثيراً من الصحف والنوادي الثورية

أدر الدفة ياربانها ! لقد أحدق الخطر بها ، فلربان مشفق يرقب مجراها وهو أشد حذرا وأكثر تشاؤماً . لقد وقع ما كان يخشاه وجرت الدماء في باريس ، وطاف شبح الفوضى بالأقاليم ، وبات الشعب في سكرة النصر يتوعد ويتوثب ، والملك لا يزال ألعوبة في يد بطانته وعلى الأخص في يد امرأته ، والمهاجرون من الأشراف يؤلبون أوربا على الثورة ، وغول الخراب المالي يطالع البلاد من كل ناحية

ولكن الربان وسط العاصفة لا يعرف اليأس سبيلا إلى قلبه . زار باريس فهبت تزاحم مهرجانه باريس ، وطاف بخرائب الباستيل يشهد مصرع الظلم فامتلأت عربته بالزهور ، ورأى الحرية الحمراء تعلن عن نفسها في أجواء المدينة راقصة صادحة ، فهل أطربه ما سمع وما رأى ؟ كلا بل أمضه ذلك وأزعجه

زادت الحوادث مهمته صعوبة ولكنها لم تفل من عزمه ، ولعله كان يأمل أن يجد في اشتداد الأزمة مخرجا من الأزمة ! وإن بدا ذلك متناقضا . كان يرجو أن يكف أعوان الملك من غلوائهم ، ويصالحوا على الثورة نفوسهم ، ولكنه ما لبث أن عرف أنهم لا يزالون يبيتون لها وهم بذلك يرسمون طريقهم إلى الهاوية ويجرون معهم ملكهم المسكين . ومن له بأن يدرك هؤلاء عاقبة طيشهم ؟

يالله ! ألم يأن للذين استذلتهم شهواتهم وحطمهم كبرياؤهم أن يفيقوا من غمرتهم ؟ ما بال فرساي تتحدى في أشخاصهم باريس ؟ ما بال أوانس البلاط وفرسانه تخف أحلامهم فيهيمون في حفل بهيج يقيمونه لفرقة سويسرية من فرق الحرس الملكي شعار الثورة ويسخرون من مبادئها ؟ يا ويحهم ! ألم يكفهم ما بأوا فيه يتقلبون من نعمة ، فهم ضاحكون ممن يبيتون على الطوى ويفيقون على الوساوس والأوهام ؟ ولكن باريس ترسل الى أختها رهطا من نسائها وغوغائها ، فاذا الملك وحاشيته رهائن عندها يتخذ على الرغم منه من التويلري سجناله !

أدر الدفة ياربانها ! لكنها جمحت اليوم والتوت عليه . وأنى للجمعية أن تقنع بما كانت تقنع به بالأمس ؟ لقد صارت الكلمة امامة باريس وأندية باريس وصحف باريس !

وإن المرء ليتساءل لم يخاف ميرابو كل ذلك الخوف من خطوات الشعب وانتصاراته ؟ والجواب على ذلك يسير ، فقد كان يرى في خطة الشعب ما يباعد بينه وبين الملكية وما يحمل الملك وبطانته على الجد للقضاء على الثورة وهو لا يرى لها نجاحاً إلا في التوفيق بين القوتين ، هذا إلى ما كان يخشاه من احتمال تدخل أصحاب العروش لحماية عرش فرنسا إذ كان المهاجرون لا يفتأون يوقعون بينهم وبين شعبهم العداوة والبغضاء ، وأهم من ذلك كله فقد راحت الجمعية تعلن حقوق الانسان وتثير عقيم الجدل حول الدستور ، دون أن تتناول مشاكل البلاد الأساسية بالحل . فلقد ظلت الحالة المالية على ما هي عليه إن لم تكن ازدادت سوءا ، وتعقد الموقف السياسي بين فرنسا وانجلترا والنمسا ، ومما ضاعف حرج الموقف أن الجمعية رأت ألا تجعل للملك سلطة فعلية في الاعتراض على القوانين ، وفي اعلان الحرب والسلم ، ولقد هال ذلك ميرابو فقال يوماً لصديقه لامارك : « إن البلاد مقدمة على أشد ضروب الفوضى ، وما لم تتدارك الملكية فلعناء مصيرها حتما ، ويوم يحيق بها الفناء وتضرب الفوضى بجرانها يساق الشعب إلى الرضى بالاستبداد المطلق ، إذ يكون المستبد في تلك الحال في نظره هو المنقذ الصالح » . وإنك لتراه بهذا كأنما يرى المستقبل ويصف لك مذابح سبتمبر وعهد الارهاب ودكتاتورية روبسبير مما يدل على لقانة مدهشة !

وقف في الجمعية وكانت قد انتخبته رئيساً لها يدافع في عزم وقوة عن حق الملك في الاعتراض على القوانين ، داعياً بكل ما في وسعه إلى تقرير مبدأ الملكية الدستورية ؛ ولا تسل عما كان يبذله من جهد أعانته عليه قوة بدنه ، وعما كان يعرض من آراء أوحت بها اليه دقة فهمه ، وبعد نظره ، وصدق تجربته ؛ وهو في هذا الموقف الذي يؤود حمله الجبابرة لا يغفل شؤون وطنه فيفاوض (بت) في انجلترا ، ويتلمس حلا لارضاء النمسا ، ويلقى على الجمعية البيانات السهبة في المشكلة المالية ، وبلغت اليها أصحاب الرأي . وجملة القول أنك تراه يعمل عمل رئيس حكومة ، وإن لم يكن له مركزه ، حتى لقد وصفه كاي ديمولان بطل الهجوم

على الباستيل بأنه « فتصل أكثر منه رئيس جمعية دستورية »

ألا ترى فى ذلك الاخلاص كأروع ما يكون الاخلاص ، وتلمس فيه الرجولة كأقوى ما تكون الرجولة ؟ ألا ترى كيف ينسى الرجل نفسه ، ولا يذكر إلا وطنه ؟ ولكن الجمعية وا أسفاه قد خذلته حين كان ينتظر منها العون . وظلمته حيث كان يطالب اليها الانصاف !

أخذ الشك فى نياته يتسرب إلى نفوس النواب ، والشك إذا تملك النفس يعمى ويصم ، وليس مثله داء يبدل عرف الناس نكرا ، ويجعل نهارهم ليلا ، ويلبس الحق بينهم بالباطل . انظر إلى هؤلاء النواب كيف يرون فى رجلهم اليوم رجل الأمس ، تخيفهم طويته وإن أعجبتهم حجته ، أو تريبهم حماسته وإن هزتهم فصاحته ، وتدفعهم إلى معارضته بديهته وإن أنقذتهم يقظته ! ولكن أخيل الثورة لم تلن قناته وإن جاء غمزها ممن يعمل لهم ، ولم تنفك عنه عبقريته وإن التوت عليه الأمور أو كادت ؛ وظل يبسط آراءه للناس وينذرهم أن الثورة تقتل نفسها إن جرد الملك من سلطانه وجعل التشريع والتنفيذ جميعاً للشعب . وكان قد أدرك يومئذ أن الملك بعد أن صار رهينة فى باريس ، وبعد أن ترامى إلى سمعه وسمع حاشيته ما يريد العامة بنفوذه ، وما تقول الصحف عنه ، لابد أن يفكر فى الالتجاء إلى أعداء البلاد ، وما لبث ميرابو أن تحقق من ذلك ، إذ علم أن المفاوضات كانت جارية بين البلاط الفرنسى والبلاط النمسوى ؛ ومعنى هذا أن الحرب عما قريب ستكون كبرى مصائب البلاد !

وفى هذا الجهد الذى يبذله ميرابو دليل على مقدرة فائقة فى السياسة تزيد إعجابنا بهذا الرجل ، ويدحض فرية من يصفون أعماله بالهدم ، وتسخر ممن يذكرونه فيجرؤون على تسميته كبير الغوغاء ! على أن لكل عظيم حساده وأعداءه ، كما أن له مناصريه وأصفياءه . وليست الحنكة السياسية تخب ما ينطوى عليه موقف ميرابو ، بل إن المرء ليعجب ببسالته ، حين يواجه الثوار بتلك الآراء وحين يترفع عن تملق الشعب واسترضائه ، وحين يجعل الاخلاص لما يرى أنه الحق فوق العواطف والأهواء الشعبية ، ولو لم يكن له غير ذلك من المآثر والصفات ، لعد بذلك الخلق وحده عظيما من العظماء !

يئس ميرابو من النواب ولكنه لم ييأس من نفسه وسنراه اليوم يخطو خطوة جعلها خصومه كبرى خطيئاته ، وأود لو أجعلها كالعنوان من حسناته لولا ما أحاط بها من ظروف وما اكتنفها من ظنون ، بل وما لحق بها من عيوب !

كان طبيعياً أن يلجأ إلى الملكية بعد أن أعياه صرف الشعب عن غيه ، وبعد أن حيل بينه وبين منصب رسمى يستعين فيه بالقوة على تنفيذ سياسته . ولو أن نواب الجمعية أدركوا حقاً مصلحة وطنهم لعلموا أن هذا الرجل كان يومئذ خير من يضطلع بأعباء الحكم . ولكنه حين اقترح عليهم السعى إلى استبدال الوزارة القائمة بوزارة قوية بادروا إلى اصدار قرار يحرم الوزارة على كل عضو من أعضاء الجمعية ، وما كان المقصود بهذا القرار سوى ميرابو وحده !

ولقد ثارت ثائرته لهذا القرار ، فلم يتمالك أن صاح بالنواب قائلا : « سوف تذرفون الدمع دماً على ما تفعلون » . وندم ميرابو أشد الندم أو قل أسف أشد الأسف على أن لم يكن بباريس عقب سقوط الباستيل ، إذ لولا غيابه عنها لتشييع رفات والده لانتخب عمدة لها بدل باى ، ولقد كان هذا المنصب يمكنه من صد تيار العنف أو على الأقل يمهد له سبيل الاتصال بالملك .

وهل كان فى تطلع ميرابو إلى الحكم ما يشينه ؟ كلا بل إن فى ذلك ما يزيدنا احتراماً له وتقديراً لسياسته ما دام الحكم إحدى وسائله إلى تنفيذ غرض يعتقد حقاً فى صلاحيته ، فضلا عن دفعه به خطراً يكاد يجتاح البلاد . وإن أعجب فعجب عد ذلك من نقائصه أو من نقائص أى زعيم فى مثل موقفه يرى فى الحكم طريقا إلى الخلاص ! إن النقيصة كل النقيصة ألا يسعى الزعيم فى تلك الحالة ما وسعه السعى للوصول إلى الحكم

خطا ميرابو خطوته نحو الملكية ووسط صديقه لامارك لدى البلاط ، وأخيراً قبل الملك أن يستعين بآرائه ، وصار ميرابو منذ مايو سنة ١٧٩٠ المستشار السرى للملك ! وهنا يأبى سلوكه الخاص إلا أن يختلط بسياسته العامة فيلحق بها كثيراً من الشوائب أطلق الناس فيما بعد من أجلها ألسنتهم فيه بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام . وبيان ذلك أن ميرابو وقد غرق فى الدين من أخمصيه إلى قمة رأسه بسبب تبذيره من ناحية

وبسبب انشغاله بشؤون وطنه عن شؤونه الخاصة من ناحية أخرى ، قد قبل أن يدفع عنه الملك ديونه وأن يجعل له أول كل شهر ستين ألفاً من الفرنكات

أيفسر عمله هذا بالخيانة ؟ ويعتبر قبوله المال رشوة ؟ هل غير خطته فمالأ الملك على حساب أمته فى نظير ما أخذ من مال ؟ كلا ! بل لقد ظل أميناً لمبدئه وفياً لوطنه ، إذاً فمن الظلم أن يفسر عمله بالخيانة ، ومن الاسراف أن نعتبر قبوله المال رشوة ، بيد أنى وإن نفيت الخيانة والرشوة عنه وشايعت من يعتبرون هذا المال مكافأة له على خدمته ، لا يسعنى إلا أن أقرر أنه ليؤلمنى أن يلجأ من كان له مثل عظمته وبسالته إلى العمل فى الخفاء مهما كان من نقاء طويته ومهما جر ذلك من غضب الشعب عليه ، كذلك ما كان لزعيم أن يبيع خدماته بالمال ولو عدم قوت يومه

أخذ ميرابو يقدم التقارير للملك ، كما أخذ يدافع بكل ما فى نفسه من قوة عن مبدأ الملكية الدستورية ، ولكن الجمعية أوشكت أن تتم الدستور فى سبتمبر وجعلت حق الملك فى الاعتراض على القوانين حقاً معلقاً ، ولم يسع الملك سوى الاذعان ، فلقد أصبحت باريس قوة خطيرة وظهر اليعاقبة أبطال الارهاب فيما بعد واستهان الناس بالملكية واجترأت عليها الصحف والأندية

على أن الأمر قد أصبح اليوم أعظم خطراً من الدستور وما يتعلق بالدستور . فلقد يئس الملك من الثورة وما تدعو إليه ويئس أصحاب الثورة من الملكية وما تحافظ عليه ، ولذلك لم يكن عجباً أن يلجأ الملك إلى أعداء فرنسا ، وأن يلجأ الثوار إلى الاستعداد واليقظة حتى لقد عول الملك على الهرب سراً !

وكان ميرابو الرجل الوحيد الذى لم يأخذه دوار الزوبعة فألم بالموقف من شتى نواحيه ، وتمثلت لعينه الساهرة تلك الهوة السحيقة التى أوشكت أن تتردى فيها البلاد ، فتلفت حوله ثم بصعد من يمينه ، فهذا موقف يتطلب معونة الرجال ، ولكن بصره وا أسفاه ارتد إليه خائباً ، فلقد أبى سوء طالعه ، أو على الأصح سوء طالع فرنسا إلا أن تحرم من خبرة الرجل الوحيد الذى كان يستطيع خدمتها ، إذ أحيط بالريبة من جميع الجهات . تطلع إلى الملكة وكان يقول : « إنها الرجل الوحيد فى حاشية الملك » ، ولكن الملكة لم تر فيه سوى صعلوك يتسكع خلال العظماء على حساب الظروف ، وتطلع صوب الملك ، ولكن الملك ما وثق به يوماً وما كان يرى فيه إلا خصماً يظهر عكس ما يبطن ، ولذلك اتقى شره فاشتراه بماله واحتمى خلفه . كتب شاتوبريان بعد الثورة يقول : « كانت المأساة الحقيقية أن الملك فى أحرج أيامه لم يثق فى هذا الرجل ، وما كان يضره أن جاء ذلك متأخراً . وما كان يضره أن يعمل بنصائحه أو أن يتقبلها قبولاً حسناً ولو فى ظاهر الأمر ، وأى مأساة لعمرى أفظع من أن تهيئ الأقدار رجلاً مثل هذا ، وفى مثل هاتيك الظروف فلا ينتفع به ؟ ! على أنه وقد أعوزه الرجال قد اهتدى إلى رجل واحد ، وذلك هو شخصه ، هو نفسه ، فأطلع الملك على جلية الأمر ذاكراً له أن الهرب معناه التنازل عن العرش وضياع حقه فيه ، وما على مولاه سوى أن يخرج فى جيشه إلى مدينة غير باريس فينتحى كم إلى شعبه طالباً إنصافه ومعونته معلناً رضاءه عن مبادىء الحرية والمساواة ، ولو فعل لا نتصف له الشعب ، ولكنه لم يفعل وما كان مثله ليستطيع ذلك ، وليس من يفكر فى الهرب بقادر على أن يواجه الحقائق

ولكن هل يدنو اليأس من ميرابو ؟ كلا . فما كان ليزداد على الشدة إلا مضاء وعزماً ، فوقف كالطود يتلقى عن البلاد السهام ويطرد عنها شبح الحرب ، ويجد فى انقاذها من الجوع ، ويسعى فى التقريب بين الملك والثورة ، يواصل العمل طيلة يومه وشطراً من ليله حتى لقد قال عنه كاى ديمولان : « لقد كان يوم هذا الرجل بعشرة أيام من عمر غيره »

ولكن الموقف ازداد سوءاً على سوء حين وقفت الجمعية موقفها من رجال الدين وأعلنت الدستور المدنى للكنيسة بحيث صار منصب الأكليروس بالانتخاب على أن تدفع لهم الحكومة أجراً وتستولى على أراضى الكنيسة وعشورها مما أغضب البابا وأزعج الملك فأعلن اعتراضه على قرارات الجمعية ، ولكن أنى للجمعية أن تفرض له اليوم وجوداً ؟ لقد أجابت على عمله بأن من لا يقسم اليمين على احترام ذلك الدستور جزاؤه الطرد

أدر الدفة يا ربانها ! لكن الأيدى تتكالب اليوم عليها والريح جامحة عاتية . والربان يغالب المرض ويتحامل على أعصابه ، بل ويستمهل الموت . ما باله يدخل الجمعية فى مارس سنة ١٧٩١ مصفوراً مضموماً على خلاف عادته ، ما باله يكنز كل يوم وما بال بريق عينيه يتضاءل لولا ما يشع فيهما من يقين وعزيمة ؟ ترفق

أيها الموت بالربان ! إنه رجل أمة بل إنه أمة فى رجل ! بالقسوة القدر ! ولكن أنى لجسم مهما كانت قوته أن يطيق مثل ذلك النصب ؟ وحسبك أن تعلم أنه خر مغشياً عليه فى أواخر مارس وهو فى طريقه إلى الجمعية ولكنه على الرغم من ذلك وصل اليها وألقى خطاباً مطولا . لا . إنه يسر إلى صديق من أصدقائه أنه يموت !

وفى أوائل ابريل فى أشد ما تكون الحاجة اليه يرقد هذا الطود الأشم ، ويحيط الناس بمنزله من جميع الطبقات والهيئات ، والأطباء يصدرون تقاريرهم مرة كل ثلاث ساعات ، والملك يستفسر فى السر مرات وفى العلن مرات ، والأندية تتحدث عنه بلا انقطاع ، والشعب يملى أنفاسه فى انتظار ما يطمئنه وقد غشيه من الهم ما غشيه

والرجل عظيم فى الموت كما كان عظيما فى الحياة ، يقول لصديق يسند له رأسه : « ليتنى أعيرك هذا الرأس » ويسمع صوت المدفع فيقول : « أهكذا يحتفى بدفنى كأخيل » ويتذكر الملكية فيقول والأسف يمزق نياط قلبه : « إنى أحمل معى الملكية إلى القبر » ويفيق الناس من غشيتهم على الخبر الفاجع ، فتفيض عيون وتدمى قلوب ، ويخرج شعب بأسره يشيع جثمان رجله ، وتقضى العاصمة أياماً فى حدادها ، ويجهش أشداء الرجال بالبكاء فى طرقات الجمعية وفى ردهات البلاط ، ثم ... ثم تسير السفينة بلا ربان !

إنه فرد ينقص من البلاد ، ولكن فرنسا يزعجها ويهولها ما ترك وراءه من فراغ ، ولم تلبث الكوارث أن داهمتها من كل صوب ، فلقد فر الملك وألقى القبض عليه عند الحدود ، ثم وُقف عن عمله ، واندفعت فرنسا فى طريقها إلى الحرب ، ثم إلى إعدام الملك ، ثم إلى المذابح الأهلية وعهد الأرهاب !

ولو عاش ميرابو عاماً واحداً لتغير تاريخها ، بل وتاريخ العالم ؟ ولكن للقدر أحكاما مباغتة هى التى تصنع التاريخ !

الخفيف

٢ـ التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

أظهرت في المقال السابق الوجوه التي تربط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، وعددت كثيراً من التأملات التاريخية التي قد يكون لها اتصال كبير أو صغير بالحالات الجديدة التي تكتنفنا ، غير أن الاقتصار على تعديد وجوه الارتباط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، والقول بأن التعليم يجب أن يتجه اتجاهاً اجتماعياً ، أمر يجب أن يعزز بإظهار المخاطر الشديدة التي يتعرض اليها كياننا الاجتماعي من جراء الفصل بين سياسة التعليم ، وبين ملابساتها الاجتماعية

ولقد ظهر في العهد الأخير أن القائمين بأمر التعليم قد اضطروا في مواقف عديدة أن يتجهوا إلى معالجة بعض الأمور علاجاً قائماً بعض الشيء على طبيعة الحالات الاجتماعية . وإني لآسف إذ أقول إنهم لم ينجحوا فيما قصدوا إليه . وليس السبب راجع إلى قصور منهم ، أو تقصير عن أداء واجباتهم كاملة ، وإنما يرجع في الحقيقة إلى أن سياسة التعليم الحاضرة لا تواتيهم بكل الأسباب الضرورية التي تمكنهم من تنفيذ برامج تتفق وما تتطلب الحالة الاجتماعية من صنوف العلاج . ولا أريد أن أعدد هنا حالات بذاتها ، وإنما أريد أن أبحث في مجمل الظواهر التي تترتب على الفصل بين سياسة التعليم والملابسات الاجتماعيـة ، قدر ما تتيح لي تجاربي القليلة

***

كتب الفيلسوف هربرت سبنسر في أواخر القرن الفارط مقالاً عنوانه « الكائن الاجتماعي » شبه فيه بنيـة الاجتماع الانساني بكائن متعضن ، وأخذ يقيس الظواهر المتقابلة فيهما ويوازن بين حالات خاصـة في جسم الفرد وجسم المجتمع . ولا شك في أن هـذا الفيلسوف الكبير قد غفل عن أمر ذي بال جعل بحثه هذا محتاجاً الى كثير من التحوير ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن غفلانه عن ذلك الأمر قد أثرت في النتائج التي حاول الوصول اليها فجاءت مفككة غير موصولة ولا مؤدية إلى فكرة محدودة ينتهي إليها البحث . ذلك بأن بين الحي والكائن الاجتماعي فروقاً رئيسية تميز بينهما تمييزاً لا يقف عند حد الظواهر ، وإنما يتعدى إلى التكوين الوظي في فيهما . وقد يعلم الذين يدرسون علوم الأحياء أن الحي يتكون من خلايا دقيقة هي وحدات بسيطة التركيب تحتوي على نواة هي سر الحياة فيها . ولكن اجتماع هذه الوحدات البسيطة التركيب ينتج حياً عويص التركيب معقد التكوين جهد ما نتخيل . ذلك في حين أن الكائن الاجتماعي إنما هو كل بسيط التكوين يتركب من وحدات غاية في التعقيد وعلى معرفتك هـذا الفرق الوظيفي ، يتوقف وصولك إلى النتائج الصحيحة . فالخلايا لا قوام لها ولا حياة بغير اندماجها في بنيـة الشكل الحي . أما الوحدات (الذوات العاقلة) التي يتركب منها الكائن الاجتماعي ، فكلما كانت أكثر استقلالا عن ذلك الكائن برز أثرها وتميزت وظيفتها واستبانت قيمتها ورجل فرعها وأصبحت قوة قادرة على التأثير في الكائن الاجتماعي بما يحفظ عليه حياته الاجتماعية ويحركه نحو الرقي الاجتماعي ويبث فيه روح التطلع إلى الارتقاء المدني ، وبالجملة على جعله كائناً اجتماعياً ممتازاً بأثره العملي في الحياة ذلك على الضد مما لو اندمجت هذه الوحدات العاقلة في بنيـة الكائن الاجتماعي . فانها إذ ذاك تفقد استقلالها وقوتها على التأثير بالعمل على رقي الجماعة ، لأن اندماجها هـذا إنما يسلبها القدرة على التفكير والتأمل في حقائق الأشياء ، ويفقدها أخلاقها الشخصية ، وبوجه عام يدمجها فيما يسميه الاجتماعيون « عقلية الجماهير »

هذه حقيقة أولية ، على ما فيها من تعقيد وحاجة إلى الفهم ، من الضروري أن نعيها وأن نجعلها نصب أعيننا كلما فكرنا في وظيفة التعليم باعتباره عاملاً من عوامل استقرار الحالات الاجتماعية في كل أمة من الأمم . أما وقد وعيناها فانا نتساءل : أيُعنى التعليم عندنا باخراج رجال فيهم من الاستقلال الخلقي والعقلي ما يجعلهم في المستقبل قوى مؤثرة في الكائن الاجتماعي ، أم على العكس من ذلك يخرج رجالاً قُصَّراً يكتفون من الحياة بالاندماج في جسم الكائن الاجتماعي ، فيظلون طوال أعمارهم مغمورين

فى عقلية الجماهير ؟ وإنى لآسف إذ أقول إن تعليمنا بعيد عن أن يخرج رجالاً مستقلين على النمط الذى تتطلبه طبيعة الحالات الاجتماعية الجديدة التى أخذت تشعرنا بأنا مقدمون على انقلابات فكرية خطيرة .

إذن فواجب التعليم ينبغى أن ينحصر فى إخراج رجال مستقلين بعيدين عن التأثر بروح الجماهير . وتكوين استقلال الفرد يجب أن يكون بداءة التعليم ونهايته . أما العمل على شحن العقول بشتى المعلومات العلمية وتكوين ملكات خاصة فى الأدب والفن ، فلن يكون لها من أثر فى الحياة ، ولن تقوم من عوج الكائن الاجتماعى مالم يسبقها الاستقلال الذاتى وتدريب الملكات الخاصة على مماشاة ما تتطلبه مقتضيات ذلك الاستقلال

ولقد أظهرنا فى المقال السابق أن ابن الفلاح أكثر استقلالا من الناحية العملية من المتعلم الذى فقد استقلاله الذاتى بحكم الظروف التى نشأ محاطاً بها . غير أن استقلال الفلاح العامل استقلال ناقص ، إذ هو استقلال أشبه بالاستقلال الحيوانى منه بالاستقلال الانسانى ، ذلك بأن عدته فى هذا الاستقلال تقوم على قوة عضلاته وعلى صبره واحتماله ورضاه بمحيطه الذى يعيش مكتنفاً به . وعامة ذا ليس فيه شىء من مؤهلات الاستقلال الانسانى ، وإنما هو استقلال يشارك فيه الفلاح كثيراً من الحيوانات . وعلى ذلك نجد أن ما عندنا من مكملات الاستقلال الفردى عند الفلاح تنقصه الناحية الثقافية التى تمكنه من أن يصبح ذا أثر عملى فى تكييف حالات الكائن الاجتماعى . ولكن هذا الاستقلال مهما كان فيه من ضروب النقص فهو استقلال على كل حال . أما المتعلم المتعطل فحالته تناقض هذه الحال . فان تعليمه لم يمكنه من أن يكون مستقلا من ناحية الثقافة ، فى حين أن نشأته ومحيطه قد سلباه ناحية الاستقلال الأخرى

أما الأسلوب الذى يجب أن ينتحى فى التعليم حتى يكون أداة صالحة لتخريج رجال مستقلين ذوى أثر فى تكييف حالات الكائن الاجتماعى ، فسنفرد له بحثاً خاصاً . وسنقصر كلامنا الآن على المخاطر التى يتعرض لها كياننا الاجتماعى من وجود فلاحين استقلوا حيوانياً ، ومتعلمين فقدوا كل ضروب الاستقلال

على الرغم من أن الأخطار التى يتعرض لها مجتمع تناحرت عليه كل هذه الظواهر كثيرة متعددة ، فان أعظم هذه الأخطار وأشدها أثراً فى مستقبله ، إنما ينحصر فى حدوث ما يدعوه الاجتماعيون « التطفل الاجتماعى » . والتطفل الاجتماعى حالة ترهق فيها طبقات غير عاملة طبقات عاملة بمطلوبات حياتها . ولهذا التطفل مظاهر عديدة أخبثها أن تكون الطبقة المتطفلة هى بذاتها صاحبة السلطة العليا فى المجتمع ، كما حدث فى أوروبا فى خلال القرون الوسطى ، وكما هى الحال فى كثير من ممالك الشرق فى حالته الحاضرة . والويل لمجتمع تسود فيه هذه الحال

* * *

التطفل حالة طبيعية لاسبيل إلى نكرانها . فهنالك حيوانات تتطفل على نباتات ، ونباتات تتطفل على حيوانات . وقد يتطفل حيوان على حيوان ، أو نبات على نبات . فهو ظاهرة تكاد تشتمل كل نواحى العالم الحى ، وتحتكم فى الكثير من مظاهره الجلى . غير أن نظرة واحدة فى هذه الحقيقة الطبيعية تظهرك على أن التطفل حيثما كان وأنى كانت وسائله ومظاهره ، لن ينتج إلا هدماً فى الحياة ، ولن يبرز إلا فسادا ، ولن يؤدى إلا إلى إرهاق شامل فى القوى الحيوية تختلف درجاته ومظاهره ونتائجه باختلاف الظروف . وقلما يستطيع عالم طبيعى أن يخص تلك الظروف التى يتجلى فيها فعل التطفل فى عالم الأحياء ، فان ذلك من الأشياء التى يستعصى على العلم تحديد مظاهرها عامة وخاصة ، وفعل كل متطفل فى مختلف الظروف ، على كل متطفل عليه فى متباين الحالات . وإنما يستطيع الاحيائى أن يدرس ظواهر التطفل فى حالات يقف عليها ، وأن يدرس أثر الحى المتطفل فى بنية الحى المتطفل عليه ، محصياً فى كثير من الحالات أوجه العلاقة بينهما وتأثير دورة حياة الحى المتطفل فى حاضنه

ولن يعدو العالم الاجتماعى هذه الحال عينها . فليس فى مستطاعه أن يحصى أوجه التطفل الاجتماعى فى مجتمع بعينه ، ولا يدرس الحالات درس توفر على دقائقها وتدرجاتها التى تكفل له الوصول إلى نتائج مقطوع بصحتها قطعاً تاماً . والعالم الاجتماعى أضعف وسائل من العالم الطبيعى . فان هذا بين جدران معمله ، يستطيع أن يحصر الحالات ويحدد الظواهر ، فى حين أن زميله الاجتماعى إنما يتأمل من حالات عامة غير محصورة ولا محددة

تحديداً يجمل الحكم القاطع على أصولها وظواهرها أمراً سهلا هيناً . غير أن هذا كله لن يحول بين الباحث الاجتماعى وبين تبين الحالات الكلية التى يتخذ درس مظاهر التطفل الاجتماعى وسيلة إلى اكتناهها .

من الحالات الكلية فى التطفل الاجتماعى ، بل ومن أظهر تلك الحالات أثراً فى الجماعات الحديثة عامة ، وفى مصر خاصة ، تساط غير ذوى الكفايات ، وإن شئت فقل المتعطلين ، على موارد ما تنتج الأيدى العاملة من ناحية ، وعلى إنتاجها نفسه من ناحية أخرى ، من غير أن يكون لهؤلاء المستغلين أى ضلع فى تكوين المورد أو فى الانتاج . من هنا تحدث حالة من حالات التطفل الاجتماعى تستنفد فيها أيد متعطلة ثمرات الجهود التى تبذلها أيد عاملة ، بغير أن تنال الأيدى العاملة من ثمرات جهودها ما يكفى لحفظ حيويتها أو قدرتها على العمل والانتاج . فان من شأن المتطفل أن يجتهد فى استغلال حاضنه بكل صور الاستغلال ، وأن يبلغ من الانتفاع بحيويته جهد ما يستطيع ، وكلما قلت قوى المقاومة فى الحاضن ازداد المتطفل شرة وبأساً ، حتى ينتهى الأمر بحدوث ما يسميه الاجتماعيون « بالتنكس الاجتماعى » وهى حالة تتساوى فيها طبقات المجتمع لا من حيث الكفايات العليا ولكن من حيث العجز عن العمل المنتج . وما لهذا الأمر من نتيجة إلا الفوضى الثائرة ، ولا ينكر أحد أن فى مجتمعنا هذه الظاهرة الخبيثة . فالأيدى العاملة لا تنال من منتوج عملها ما يكفى للاحتفاظ بحيويتها ، والأيدى المتعطلة تبدد ثمرات تلك الجهود . وعلم ما يترتب على ذلك عند الله .

ومن تلك الحالات هجر الريف والعيش فى المدن . ولقد بحث هذه الظاهرة كثير من الكتاب منهم : أدمون ديمولاند الفرنسى ، والأستاذ استن فريمان الانجليزى ، فى بحوث مستفيضة عالجوا فيها الحالات التى نشأت فى فرنسا وانجلترا وعطفوا ببعض الشىء على حالات نشأت فى غيرهما من بلدان أوربا . ولا جرم أن هذه الحالات تتشابه . فالأسباب التى تدعو الفرنسى أو الانجليزى إلى هجر الريف والاقامة فى المدن ، أو بالأحرى حب التحضر (بمعنى المعيشة فى الحواضر) تكاد تكون نفس الأسباب التى تحمل المصرى على أن يفعل ذلك . غير أن النتائج تختلف باختلاف البلدان على مقتضى ما فى كل شعب من الاستعداد والصفات ، وفى الأكثر على مقتضى الثقافة التقليدية التى يختص بها كل شعب من الشعوب

ولسوف نبين فى مقال آت فكرتنا فى أثر الثقافة التقليدية فى الكيان الاجتماعى بكل أمة من الأمم . ونكتفى الآن بأن نقول إن شعبا كالشعب المصرى الزراعة ثقافته التقليدية منذ أبعد عصور التاريخ ، لابد من أن يتأثر بزيادة الميل إلى التحضر تأثراً عظيما لا يحسه شعب آخر ثقافتـه التقليدية غير زراعية . بل على الضد من ذلك أعتقد أن الشعوب التى تكون ثقافتها التقليدية صناعيـة أو تجارية ، يجب أن تحتمى بحياة التحضر صيانة لمصالحها العامة . أما تحضُّر شعب ثقافته التقليدية الزراعة ، فتلك هى الطامة الكبرى على كيانه الاجتماعى ؛ وتلك هى الطفرة العظيمة إلى أبشع صور التطفل الاجتماعى

ونحن نعلم علم اليقين بأن مدننا المصرية مدن غير صناعية بالمعنى المفهوم من ذلك فى أوربا . بل أعتقد وأظن أننى أعتقد بحق ، أن مدننا ليست إلا أسواقاً تستهلك فيها منتوجات الريف ؛ وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تظهرنا على أن ميلنا إلى التحضر ، مع التعطل عن العمل يرهق المنتج ويرهق السوق المستهلكة ؛ لأن المتعطل فى الواقع عبء على الجمعية ؛ ذلك بأنه قوة مستنفدة لا قوة منتجة من ناحية ، ولأن الحاجات التى يستنفدها لا ينتج ما يقابلها لصالح الجمعية من ناحية أخرى . وبذلك يصبح المتعطل عبئاً على الحاضرة التى يسكنها ، وعبئاً على العناصر المنتجة معاً . وهنا يتضاعف تطفله ، إذ يصبح متطفلاً باعتبارين : الأول أنه يزاحم أهل المدن ويشاركهم أرزاقهم من غير إنتاج من ناحية ، والثانى أنه يرهق العناصر العاملة فى الريف بأن يستهلك ولا ينتج ، وبالأحرى بأن يأخذ ولا يعطى

ومن تلك الحالات ما يسميه الاجتماعيون « الجشع الاجتماعى » Pleonexia ؛ ولا أريد هنا أن أطنب فى تعريف « الجشع الاجتماعى » ولا أن أناقش فى مختلف التعاريف التى وضعها المؤلفون الذين أتيح لى الاطلاع على مؤلفاتهم ، وإنما اقتصر على ذكر حالات يستطيع القارىء أن يدرك منها ، مطبقة على حالات تقوم بين ظهرانينا ، ما يقصد بالجشع الاجتماعى

وعندى أن أخبث ما يؤدى إليه الجشع الاجتماعى من تكييف عقلية طبقات خاصة فى مجتمع ما بمقتضياته ، إنما ينحصر فى أن تتطفل جماعات ، لا أفراد ، على جسم الكائن الاجتماعى . وقد تلبس الجماعات التى تنتابها سورة الجشع الاجتماعى صوراً مختلفة ، فمن اتحادات تجارية إلى اتحادات صناعيـة إلى جمعيات علمية أو اقتصادية أو سياسية ، تتخذ التأثير فى عقلية الجماهير بمختلف الوسائل طريقاً تسلكه إلى غرضها الذى ترمى إليه ، والذى يجعلها جديرة بأن تنعت بأنها جماعات مصابة بجنون الجشع الاجتماعى . أما ذلك الغرض فينحصر فى أن تنال من الجمعية أقصى ما يمكن أن تصل إليه من الربح المالى أو النفوذ أو السلطة أو الجاه أو الحكم بأقل جهد ممكن أن يبذل أو تضحية من ناحيتها

وفى مثل هذه الحالات تتضاعف خبائث التطفل الاجتماعى بأن يصير تطفلاً « مركباً » لا تطفلا بسيطا . ونعنى بالتطفل « المركب » أن هـذه الجماعات المصابة بجنون الجشع الاجتماعى يكون فيها عنصر خاص يعيش متطفلاً على جسم الجماعة نفسها . ذلك العنصر هو عنصر انتهازى لن تسلم منه جماعة أصيبت بذلك المرض الخبيث . فكما أن الجماعة تتطفل على جسم المجتمع ، يتطفل ذلك العنصر الذى هو « واجب الوجود » فيها بمقتضى تكوينها النفسى ، على بقية عناصرها

وتسير قافلة المتطفلين ، ولكن إلى البوار الصرف . مثلها كمثل حُيَيَّات زرعت على مادة هلاميـة فى زجاجة اختبار فى معمل من المعامل . فإنها تتكاثر ثم تتكاثر ، حتى إذا ملء فراغ الزجاجة واستحالت المادة الهلامية أجساماً حية انتكس الأمر وبدأت الأحياء تنحدر إلى الهلاك المحتوم

هذه إلمـامات موجزة فى حالات نشاهدها قائمة من حولنا . فهل يمكن أن نتخذ التعليم أداة اصـلاح نتق بها بعض ما يكتنفنا من شرور وخبائث ؟ وهل يمكن للتعليم أن يؤدى إلى الأجيال المقبلة رسالة إصلاح يرفع عن كاهلهم بعض ما نتوقع لهم من متاعب ؟ أظن أننا نستطيع أن نجيب بالإيجاب ، وموعدنا البحوث الآتية

إسماعيل مظهر

ذكرى ساقيـــة !

للأستاذ على الطنطاوى

« ... ... كل ما فى الوجود يولد ويحيا ويموت :
ألا تمر بالدار ألف مرة فلا تلتفت اليها ، ولا تحس بها ، ثم ترى فيها انساناً يتصل قلبك بقلبـه ، أو يعتلىء فؤادك بحبه ، فاذا هذه الدار « تولد » فى فكرك و « تنمو » وتزداد لهذا الانسان حباً ، فتزداد الدار عندك حياة ؟ ثم ينزح الحبيب عن الدار ، فاذا هى « تموت » وإذا أنت تألم لموتها ، وتبكى فيها ذكريات لك عزيزة ، وماضياً لك حلواً ؟ ثم تمحو الأيام هذه الذكر ، وتنسيك هذا الماضى ، فاذا الدار قد عادت إلى العدم ، كما بدأت من العدم ، وإذا أنت تمر بها من بعد ألف مرة ، فلا تلتفت اليها ، ولا تحس بها ؟ ... »

من مقالة لى قديمة « على »

هى ساقية صغيرة عرفتها من يوم عرفت الدنيا ، تجرى فى رحبة (الدَّحداح) ، فى ظاهر دمشق ، فكنت أزورها دائماً ، وأجلس اليها راضياً وساخطاً ، مسروراً ومكتئباً ، شجىَّ النفس وخلىَّ البال ، فأحدثها حديث سرورى ورضاى ، وأبثها شجوى واكتئابى ، فأجـد فيها الصديق الوفىَّ ، حين عزَّ فى الناس الصديق ، والأخ المخلص حين ارتفع من الأرض الاخلاص ؛ وكنت أفرّ اليها كلما نابتنى من الأيام نائبة ، أو نالنى الدهر بمكروه ، فأجد فيها عزائى وأنسى ، وراحة نفسى . . . فررت اليها أمس كما كنت أفرّ ، فاذا الأرض غير الأرض ، وإذا الساقية قد عدا عليها الزمان فمحاها ، وأقام ذار البستانى على رفاتها . . . فجلست على حافتها الجافة ، أودّع هذه البقعة الحبيبة إلىَّ ، قبل أن تبتلعها المدينة الضاجة الصاخبة التى ابتلعت ما كان حولها من حقول واسعة ، ورياض وجنات ، وأشيع حياة لى فى هذه الساقية كلها سعادة واطمئنان ، عشتها كما تعيش الضفادع ، غير أن الضفادع تسبح فى ماء الساقية ، وتنام على كتفها ، وأنا أسبح فى ذكرياتى التى أودعتها حافتيها ، وآمالى التى رأيتها من خلال أمواهها . . . وهل يعيش ابن آدم إلا فى الساقية والطريق ، والقمر والمئذنة ؟ أليس فى كلّ ساقية يجلس اليها ، وكل طريق يسلكها ، وفى القمر الذى يتأمل صفحته فى الليالى البيضاء ، والمئذنة التى يرى هلالها من شباك غرفته ، أليس فى كل ذلك

— أثر من نفسه — وقطعة من حياته ؟ . .

***

رحمة لك أيتها الساقية . . . منذ كم أنت تجرين وتسرعين ، أفبلغت غايتك بعد جرى القرون ، أم قطعك عنها عدو جبار ، أم أدركك عجز الشيخوخة وضعف الهرم ، فجف ماء حياتك ، كما تجف الحياة في عروق الشيخ القحم ، وفروع الشجرة النخرة ، وجدر البيت الخاوى ؟

وهل كنت تجرين يوماً واحداً لو عرفت أن غايتك الفناء وأنك إنما تسعين إلى أجلك برجلك ؟ وهل كان يبني البانى ، ويزرع الزارع ، ويعمل العامل ، لو عرف أن أجله أدنى إليه من أمله ، فبينما هو ينتظر إشراق الفجر ، إذ احتوته ظلمة القبر ، وبينما هو يحلم بالسراب ، إذ واراه التراب ؟

وهل كان يطمع في الحياة طامع لو عرف أن كل يوم يزيد من حياته إنما ينقص من حياته ، فاذا بلغ كمال الحياة فقد صار إلى الموت ؟

إن الانسان يأمل أن يملك الدنيا ويعيش إلى الأبد ، وأنت تأملين أن تصيرى نهراً ثم تصبحى بحراً ، والله يريد أن تتم حكمته في الحياة فيسعى كل ساع إلى الفناء ، يدعوه الأجل ، ويحدوه الأمل . . . ولا رادّ لما أراده الله !

***

وهل كنت تذكرين أيتها الساقية أصدقاءك وأحباءك وتحنين إلى ذكراهم ، وتبكين عهدهم ؟ أم قد أمات حسك تقلب الأيام وغدر الزمان ، فأقبلت تجرين ، لا تذكرين ماضياً ولا تحفلين حاضراً ولا تنتظرين آتياً ؟

وهل تذكرين يوم فررنا اليك من شيخ الكتاب القاسى ، وعصاه الطويلة التى كان ينال بها رؤوسنا وهو على سرير ملكه ، في هذه الغرفة الضيقة ، الثقبة الجدران المسدودة النوافذ ، الفاسدة الهواء ؟ لقد مللنا البقاء في هذا السجن الرهيب ، فشكونا إلى أهلينا فما وجدنا مشكياً فتجاوزنا (البحرة الدفاقة[1]) وتخطينا هذا السياج ، ولجأنا اليك فما وجدنا منك إلا الكرم والعطف والاحسان ؟ آمنت خوفنا ، وبدلتنا بمدرسة الشيخ وعصاه ، هذه الدنيا الفسيحة وهذه الحقول التى لا تنتهى ، فطابت أنفسنا بجمال الكون ، وانجلت أبصارنا بمرأى البساتين ، ونظرنا من هنا فاذا قبة النسر ومآذن الأموى تشرف علينا جليلة عظيمة ، فاستشعرنا جلال الدين وعظمته ، ونظرنا من هناك فاذا قاسيون يطل علينا مشمخراً عالياً ، تقوم عليه الدور البيضاء ، والقصور الحمراء ، فأحسسنا جمال الدنيا ، وسمو المجد ، وعزة الغنى ... وأدركنا بعقولنا الصغيرة أن الشيخ كان على ضلال ، وأن أهلنا كانوا على خطأ ، وأن العلم قد يحصل في الدنيا الواسعة ، والبقاع الجميلة ، أكثر مما يحصل في السجون والكتاتيب ، وأن جمال الحقل ، أبلغ في التهذيب من عصا الشيخ

في تلك الساعة عرفتك أيتها الساقية ، فمنحتك الودّ والاخلاص ، وجعلتك صديقى إذ لم أجد في بيتى ومدرستى صديقاً ، وكنت أرى طيفك في أحلامى ، فأهش لك وأنا غارق في منامى ، وأتخيل صفاءك وعطفك ، وأنا بين يدى الشيخ الجبار ، يقرع رأسى بالعصا ، ويصرخ في وجهى بصوته الأجش الخشن :

— يا ولد يا خبيث . . . والله إن عدت الى الهرب كسرت ساقيك ، فلا أرد عليه ، وإنما أستر وجهى بكفى ، وأضحك بصوت غريب ، فيظننى أبكى ، فيدعني ... وينصرف الى غيرى فأنظر من بين أصابعى ، حتى إذا رأيته قد غفل عني قفزت إلى الشارع ، فاختبأت في (جامع التوبة) أو أخذت طريقى اليك ، فآكل من الثمار التى حولك ، وأشرب من مائك ، وأصافحك بيدىّ شاكراً ، وأمسح بكفيك وجهى . . . هل تذكرين ذلك أيتها الساقية ؟ . .

هل تذكرين كيف جئناك بعد ذلك ، وقد تخلصنا من الشيخ ودخلنا المدرسة ، فوجدنا ساحة رحبة ومعلمين كثيرين ، وحصصاً قصيرة ، ولكننا لم نجد عطفاً ولا ابتساماً ؟ كان معلم الحساب يحبب الينا شيخ الكتاب ، حتى نراه إلى جنبه نعيما ، كنا نرى طيفه أمامنا حيثما سرنا بشاربيه الكبيرين ، وتقطيبه الدائم ، ونظاراته التى يحدرها أبداً إلى أرنبة أنفه ، وصوته الذى يشبه صوت من يتكلم من وسط برميل ، فكنا نرجف من خياله ، ونخشاه أبداً ، إلا إذا أصبحنا في حماك ، فاننا نأمن ، ونطلق أنفسنا على سجيتها ، فنسخر من المعلم ، ونقلد الشيخ ، ونمرح ونمدو ، ثم نعود إلى الدار ونحن ممتلئون قوة ونشاطاً ، فاذا سألنا الأهل : أين كنتم ؟ قلنا : كنا في المدرسة ، وإذا سألنا المعلم قلنا : كنا في البيت ! فيصدقوننا جميعاً . . . أوليسوا قد حملونا على الكذب حملا حين كرّهوا الينا العلم ، ودفعونا إلى الفرار ، وعاقبونا على الصدق ، ولم ينتبهوا إلى الكذب ؟

(١) كانت يومئذ آخر حدود الشام من جهة العقيبة

وهل تذكرين يوم جاءت دمشق أولُ سيارة ، وكنا جالسين حولك نتحدث حديث الحرب وما يمكن أن يصل الينا من أخبارها ، فما راعنا إلا عربة غريبة الشكل ، تسير من غير أن يجرّها حصان ، فطار الفزع بألبابنا ، وفررنا نحسب أن الجن تسيرها ، ثم سمعناهم يدعوننا ، ورأينا ضباطاً تلمع الأوسمة على صدورهم والسيوف على جنوبهم ، فأمرونا أن نلق الأحجار فيك أيتها الساقية ليمر عليها « الأطنبيل » فأطعنا وفعلنا مكرهين ؟ ومن كان يستطيع أن يخالف أمر ضابط من ضباط جمال باشا ؟ . . . فلما مرت هرعنا إلى دورنا نخبر أهلنا أن عربة تمشى من غير أن يجرها حصان ... فتنبرى لى عمتى ، وتكذبنى وتسبنى :

— اخرس يا كلب ، يا كذاب ... إن هذا مستحيل

ولكن عمتى التى أبت أن تصدق أن فى الدنيا سيارة تمشى بنفسها ، قد عاشت حتى رأت الكهرباء .... والتلفون .... والراديو .... ورأت الدبابة والمصفحة والتراليوز ... ثم رأت أثر الحضارة فى أنقاض دمشق ... فصارت متهيئة لتصدق كل شىء !

وهل تذكرين كيف عدنا اليك أيتها الساقية فاذا أنت حردة غضبى ، قد وقفت عن سيرك ، وضللت طريقك ، فتطلعت الى اليمين والشمال ، والأحجار قائمة تسد عليك سبيلك فما لجناك واعتذرنا اليك ، وطيبنا قلبك ، وفسحنا لك السبيل ، فجزيت مضطربة ، متغيرة الوجه ، تبكين أيامك الماضية ، وتخافين ما يأتى به الزمان ؟

وهل تذكرين يوم كنا حولك ونحن آمنون مطمئنون ، فاذا الأرض قد ارتجت ، وإذا الجيش التركى الذى كنا نخافه ونخشاه قد ذلّ بعد عزّ ، وضعف بعد قوة ، وفر متفرقاً حائراً لا يدرى أين يقصد ، ومن ورائه العرب والانكليز ، يدخلون الشام ظافرين ، فسررنا وفرحنا ، وصفّقنا وهتفنا . ولكنك جريت واجمة حزينة ، لأن حياتك الطويلة وما رأيت من دولة الدول ، وهلاك الملوك ، علمتك أن من يؤمن لمن لم يتبع دينه ، كمن يدخل النار ويرجو ألا تحرقه النار ؟ ثم حققت الأيام ظنك ، وصدقت حدسك ، فقلنا : ياليت ! « وهل تنفع شيئاً ليت ؟! »

وهل تذكرين يوم كنا جالسين اليك ، وحولنا هذه الحقول تمتد آمنة الى ما لا يدركه البصر ، وإذا بعدو جبار ، يأتى من وراء الحقول الآمنة ، فيشقها شقاً منكراً ، ويثغر فيها ثغرة هائلة حتى إذا بلغك ألقى عليك نظرة ازدراء واحتقار ، ثم سار فى طريقه حتى بلغ سفح الجبل ، فتمطى ثم تمدد ثم نام نومة الأبد ؛ وإن رأسه لفى الصالحية ، وإن رجليه لفى حىّ النصارى ... فلما رآه أحبابك وأصحابك آثروه عليك ، فلم يعد أحد يستطيب الجلوس إلى ساقية صغيرة ، بعد أن فتح (شارع بغداد) ليجول فيه الشبان كل يوم (بين حى النصارى والصالحية) مرجلة شعورهم ، مصقولة وجوههم ، يسيرون مائلين مميلين ... فصبرت وتجلدت ، ورجعت تجرين كما كنت منذ ثلاثة آلاف سنة .... كأنك لا تحفلين شيئاً ؟

* * *

لقد عشت عزيزة مكرمة ، منذ وطئت هذه الأرض أول مرة ، فلم ينتهك حرماتك أحد ، ولم يعث فى حرمك الآمن عائث ، رغم الحوادث والأرزاء ، أفانتهى بك الأمر أن يقتلك بستانى ؟ ... لقد سقيت هذا البستانى وأباه وجدّه ومن قبلهم إلى أربعة آلاف جد ، أفكانت عاقبة هذا الاحسان أنه لم يبن بيته إلاّ على رفاتك ، ولم يكن أساس منزله إلاّ قبرك ؟ لا بأس أيتها الساقية ، فان الانسان مذ كان منكر للمعروف جاحد للاحسان ...

لا بأس ، فان ملكاً لن يدوم ، ولقد رأيت الترك والروم واليونان ، فهل رأيت ملكاً يبقى ، أرأيت الدنيا دامت على أحد ؟ أما كانت دولة الترك عظيمة ؟ أما جلّت دولة الرومان ؟ أبقى من هذا كله شىء ؟ لا ، يا أيتها الساقية إنه لا يبقى إلا الاسلام ، لأنه من ملك الله الباقى ...

* * *

رحمة لك أيتها الساقية ، وسلام على تلك الأيام الجميلة التى عشت فيها إلى جنبك ، لا أعرف هم الدنيا ولا نكد الحياة ، لقد كنت أفرّ اليك من عصا الشيخ ، وعقاب المعلم ، فتؤوينى وتحمينى ، فلمن أفر اليوم من حياتى التى ضاقت على ، ونفسى التى برمت بها ؟

لقد ضعتُ كما ضعتِ أيتها الساقية ، وجفّت آمالى كما جففت ، وانتهى بى المطاف أن أكون شيخ كتاب ! ولكن لا بأس أيتها الساقية . . . فان الدنيا لا تدوم على حال . فرحمة لك ، وعلى ذكراك السلام !

على الطنطاوى

أندلسيات :

٤ ـ ابن بسام صاحب الذخيرة
والشاعر أبو مروان الطُّبني

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

أما كتاب الذخيرة فليس أصدق فى التعريف به مما جاء فى تصديره أو مقدمته أو مدخله أو خطبته ، وإذ أن خطبة هذا الكتاب طويلة فلنجتزىء بذكر ما يهمنا منها ، وهنا ننبه القارىء الى أن مستهل هذا الكتاب الموجود فى النسخ الموجودة بدار الكتب المصرية هو غير مستهل الخطبة الحقيق . وإليك هذا المستهل كما هو فى النسخ المذكورة :

« الحمد لله الذى أبرز قمر الآداب فى سماء الكمال ، وجعل لها أهلا كالنجوم يقتدى بهم ويهتدى مدى الأيام والليال ، وصلاةً وسلاما على السيد السـند الرسول المفضال ، وأصحابه وأزواجه والآل ، ما صدح هزار الفصاحة على أغصان فنن البلبال ، وبعد : فيقول صاحب العزلة والانفراد أبو عبد الله عبد الملك بن المنصور بن عبد البر بن عدى بن هشام بن أحمد بن بسام : أنى كَلِفتُ منذ زمان بأن أعد محاسن أهل جزيرة الأندلس ، ورأيت العزلة والانفراد عن هذا العالم فى هـذا الزمان ، واجبةً بحسب الامكان ، وأردت قطع التردد عن مجالسة الرجال ، لاسيما والفكر مشغول فى بحر التفكر فيما كلفت به وادكرته بعد أمة . ولا أدعى أنى اخترعته ولكنى لعلى أحسنت حيث اتبعت ، وانتقيت ما جمعت ، وتألفت على الشارد ، واغتنيت عن الغائب بالشاهد ... الخ الخ » وهذا كلام كما ترى غث بارد مغسول لا يصدر عن مثل ابن بسام ، ولعله من تلفيق حَمْقَى النساخين ، يضاف الى ذلك أنه ورد فيه اسم ابن بسام خطأ فليس اسم ابن بسام عبد الملك ابن المنصور ... وإنما اسمه علىّ وكنيته أبو الحسن لا أبو عبد الله ... إذن هذا كلام مفتعل . ومستهلّ الخطبة الحقيقى هو كما ورد فى نفح الطيب (١) ما يأتى :

« أما بعد » حمداً لله ولى الحمد وأهله ، والصلاة على سيدنا محمد خاتم رسله ، فان ثمرة هذا الأدب ، العالى الرتب ، رسالة تنثر وترسل ، وأبيات تنظم وتفصل ، تنثال تلك انثيال القطار ، على صفحات الأزهار ، وتتصل هذه اتصال القلائد ، على نحور الخرائد ، وما زال فى أفقنا هذا الأندلسى القصى إلى وقتنا هـذا من فرسان الفَنَّين ، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم طيبَ مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقَّق ، لعب الدجن بجفون المؤرق ، وجدّوا بفنون السِحْر المنمَّق ، جد الأعشى ببنات المحاق ، فصبوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والأصائل ، بعجائب الأشعار والرسائل ، نثر لو رآه البديع لنسى اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ، ونظم لو سمعه كُثَيِّر ما نسب ولا مدح ، وتتبعه جَرول (١) ما عوى ولا نبح ، إلا أن أهل هذا الأفق ، أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هـذا صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكما ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصيه ، ومناخ الرديه ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غَيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدورُه أهلَّة ، وتصبح بحورُه ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديماً ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات إحسانه قبله ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالاحسان ، وقد كتبت لأرباب هذا الشان ، من أهل الوقت والزمان ، محاسن تبهر الألباب ، وتسحر الشعراء والكتاب ، ولم أعرض لشىء من أشعار الدولة المروانية (٢) ، ولا المدائح العامرية (٣) ، إذ كان ابن فرج الجيانى (٤) قد رأى رأيى فى النَّصفه ، وذهب مذهبى من الأنفَه ،

(١) ج ١ ص ٨٠٠ طبع أوربة

(١) هو الحطيئة
(٢) دولة بنى أمية بالأندلس
(٣) نسبة للمنصور بن أبى عامر
(٤) سنترجم له

فأملى فى محاسن أهل زمانه ، كتاب الحدائق معارضاً لكتاب الزهرة للأصفهانى ، فأضربت أنا عما ألّف ، ولم أعرض لشىء مما صنّف ، ولا تعدّيت أهل عصرى ممن شاهدته بعمرى ، أو لحقه أهل دهرى ، إذ كل مردّد ثقيل ، وكل متكرر مملول ، وقد مجّت الأسماع « يادار ميّة بالعلياء فالسّند » إلى أن قال بعد ذكره أنه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف الرضى والقاضى عبد الوهاب والوزير ابن المغربى ، وغيرهم ممن يطول ماصورته ... وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبى منصور ، فى تأليفه المشهور ، المترجم بيتيمة الدهر ، فى محاسن أهل العصر ...

هذا هو كل ما أورده المقرى من خطبة الذخيرة ، ومن هذا الموضع تبتدئ بقية الخطبة المثبتة فى النسخ الموجودة فى دار الكتب ، فاذا أردت أن تجمع أطراف خطبة الذخيرة فهذا الذى أوردناه هنا هو الشطر الأول منها ، لا ما هو مذكور فى النسخ التى بين أيدينا حتى إذا وصلت إلى هذا الموضع وهو : - وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبى منصور فى تأليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر - وهذا هو ما أورده المقرى واقتصر عليه - فارجع الى هذا الموضع فى خطبة الذخيرة الملفقة وامض منه الى نهايتها وبذلك تجتمع لك الخطبة وتكمل ، وهى خطبة على طولها بارعة جميلة ، فارجع اليها فى الذخيرة إن شئت ؛ وما حفزنا الى القول عليها وإيراد ما أوردناه منها إلا هذا التخليط الذى اعتور النسخ التى بأيدينا . . .

***

هذا وقد كسر ابن بسام هذا الكتاب على أربعة أقسام : القسم الأول لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من موسطة بلاد الأندلس ، وهذا يشتمل من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء على جماعة . . . الخ الخ ، والقسم الثانى لأهل الجانب الغربى من الأندلس وذكر حضرة اشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومى وفيه من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب جملة موفورة . . . الخ الخ ، والقسم الثالث ذكر فيه أهل الجانب الشرقى من الأندلس ومن نجم من كواكب العصر فى أفق ذلك الثغر الأعلى الى منتهى كلمة الاسلام هنالك ... الخ الخ ، والقسم الرابع أفرده لمن طرأ على هذه الجزيرة من أديب شاعر وكاتب ماهر ووصل بهم ذكر طائفة من مشهورى المشارقة ممن نجم فى عصره ... الخ الخ

« وبعد » فانا نضرع إلى الله سبحانه أن يوفق جماعة المستشرقين الذين أزمعوا طبع هذا الأثر النفيس حتى يخرجوه سليما معافى بارئاً مما ألمّ به من التحريف الذى شوه محاسنه ، وكاد يطمس معالمه إنه سميع الدعاء

عبد الرحمن البرقوقى

منشىء مجلة البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

الهاربون من القضاء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

أتظل موهون الجنانِ مروّعاً ... قلِقاً من الآفات والأقدار
تخشى الحياة ولست تخشى ميتة ... هبها نصيب الموت فى الإصفار
قلقاً تُطِلُّ على الحيــاة كأنما ... منها وقفت على الشفير الهارى
تخشى الحياة وكذبها وسَفالها ... وصيا لها فى قسوة الغـدّار
والحى يأ كل من حياة مثيله ... لحس الضوارى للدم المدرار
وتطاول المغمور ينحو نابها ... كتطاول الغرقان فى التيار
متشبثاً منه بعِطفَىْ سابح ... ليجره لمهالك وبوار
كل يخال الدهر إن هو عاقه ... خطب الجميع بقاصم الأعمار
والموت يعصف بالدهور وأهلها ... فـكأنها صور الخيال السارى
فعلام تخضع للتناكص والأسى ... وتخاف حكم الله فى المقـدار
والقلب يلمسه الأسى فيهزه ... وكأنه وتر من الأوتار
وعلام ترتقب الزمان وصرفه ... والغيب وهو مُحجَّبٌ متوارى
عمرى لوان الغيب عاجل وانقضى ... لقرأته خبراً من الأخبار
فتى ترى صور الحياة صحائفا ... وكأنها سِفرٌ من الأسـفار
لا إنها أمر تزاول صرفه ... وتظل تعـدو منه فى مضمار
أو تغتـدى بين الأنام مغامراً ... تسعى على سنن لهم وشعار
فاذا أسيت أسيت طرفة ناظر ... وإذا نسيت نسيت كل عثار
وكذبت ما كذب الأنام ولم تجد ... فى قسوة من خسـة وشنار
ونسيت ما جلب الزمان لأهله ... من محنـة أو مهلك ودمار
فتقول للقلب المَرُوع إذا نزا ... حذر الحياة وصولة الأشرار:
يا هارباً من صولة المقــدار ... أتراك تفلت من يد الأقدار
اهرب إذا ما اسطعْتَ فى أزل الدُّنَى ... أو فى مدى الآباد والأدهار
أو فى الممات وما تلاقى خلفه ... بين الفناء ومعقــل الأسرار
تعدو ويدركك الذى خلَّفْتَه ... كالليل ليس يفر منه السارى
كلٌّ من العيش المرَوَّعِ هارب ... لو فاز خلقٌ فى الدنى بفرار
بالفن أو بالعــلم أو بمجانة ... أو بالسطا والجنـد والأنصار
فاذا القضاء مآلهم ونفاذه ... لحصاد كل وسائل المختار
سل صفحة التاريخ كم قوم به ... أجراه مجرى الدهر فى مضمار
أقوام أدهار مضت بعض لهـا ... ذكرى وبعض مالها من دارى
قد أُبدلوا طبعِ السَّفَال بأنفس ... من طبعها المتصاعد السَّوَّار
صاروا إذا اغضِبوا وإن سُرُّوا وإن ... درجوا لأمرٍ ثالثٍ بمدار
يتمرَّغون مجانة فنفوسهم ... وجسومهم كزبائل الأقذار
وصموا الشباب ولم يكن من طبعه ... خلق اللئيم العاجز الغـدَّار
إن الشباب مروءة وسـذاجة ... وترفع ينبو عن الأوضار
تخِذوا السَّفَالَ مجَنَّهُم ليصونهم ... من صولة الغـلاَّب والمغوار
فغدا السَّفَالُ سـعادةً ومسرة ... عبث الخنا ومجانة الفجار
نبذوا الحياء وكيف ترجو أمة ... للنائبات مجانة العُهار
قد خِيلَ فى فقد الحياء رجولة ... فقـد الحياء رجولة الدُّعار
طبع المجانة عم حتى خلته ... كيداً يحاك عليهمُ بِسَرَارِ
أم وُرِّثوه عن الجدود غنيمة ... يطفو الذليل بها على الأقدار
ويُذِلُّ من عنت الحياة وضيمها ... بسعادة المُجانِ والفجار
وتكايدوا كيد العبيد ولم يكن ... كتنابُذ بطبائع الأحرار
واستمرأوا مرعى الغباوة والخنا ... إلْفَ السجون لطول عهد إسار
هزموا الدهور الغازيات بهزلهم ... فمضت وظلوا رهن عُقْرِ الدار
فاذا الدهور جـديدة قهَّارة ... وإذا اللئام فريسة الأدهار
درجوا على دَرَجِ الحياة إلى الردى ... من بعد جهلٍ راقهم وصَغارِ

من الشعر الرمزى

رمز الخريف

مهداة إلى الشاعر « أنور العطار » صاحب مقطوعة الخريف
المنشورة فى العدد ١٣٨ من الرسالة

للأستاذ خليل هنداوى

خلِّ عنك النحيبَ ، فالعيش ثغر   ضاحك ، والحياةُ حلم نضير
لا أرى فى الخريف خطباً نكيراً   إن نمت الخريف خطاب نكير
هل رأت فى الخريف عيناك إلا   وحشــة كالتى حوتها القبور
هل رأيت العشــش إلا خراباً   « هجرتها على الليالى الطيور »
هــل رأيت الحياة إلا سراباً   كل ما حوله أسى وغرور ؟
لا تقل : يهمد الثرى ! فهو حى   إنما للحياة فيــــه فتور
إن فى باطن الخريف ربيعاً   فيه من روعة الربيع الكثير
قد تمشت فيه الحياة بصمت   واستغرقت تحت التراب الجذور
ورويداً ! كل المسارب تخفُـ   ـرُ ، وتهتز فى المروج زهور
وإذا بالحياة تضحك ضحكا   لخفيف ، ونغمة ، وخرير
كل شىء — فيه — يغير ثوباً   وجمال الطبيعــــة التغيير
ما عليها لو بدلتنا قشــوراً   بقشور ، هل الحياة قشور ؟
لم تزل فى عشاشــه بهجات   وأزانيم فى الفضــاء تطير
حيث يروى العصفور لحناً ويصغى   لصداه ، فيجفلُ العصفور
إن فى صفرة الخريف فناء   فيه رمز إلى البقاء يشير
لا تمثل سماء كونك بالنعـــش عليه من الغيوم ستور
إن كوناً تنكَّب الفن عنه   هو كون مستقبح مهجور
فاتخذ عالماً تطوف الشعاعا   ت عليه والنور فيــه يمور
وعصافيره على الدهر تشدو   وأزاهيره يفوح منها العبير
عالماً فيـــه روعة ورواء   وفضاء يشع فيــه الحبور
عالماً واســعاً تضيق به الآ   فاق ، فيه الرضا وفيه السرور
لا تخف سطوة الخريف إذا انقض   على دوحك الشجير يغير
قل له : نق تربتى من هشيم   ماله فى الحيــاة إلا صرير
قل له : عرِّ دوحتى من بقايا   طرحتها لكى تعيش زهور
قل له : عرِّ خاطرى من تقاليـــد أباها عقلى وعاف الضمير

فمن الشــجو والخريف حياة .   ومن الحب والربيع قبور
ما على اللحن أن يكون جميلا   وهو لحن — كما ذكرت — قصير
كن جديداً على الحياة ففى الجِـــدَّة يهتز كونك المسحور
لست أبغى قيثارة تتشكى   لحنها الدمع والأسى والشعور
أعطها للخريف ، وانحت سواها   ذات لحن تهوى عليه الصدور
هات قيثارة تسيل غناء   لا يرى منفذاً إليها الدثور
هات قيثارة لها نغمات   « هى روح الحياة والإكسير »
هِى فوق الأفراح حين تغنى   وهى فوق الأحزان حين تثور
هى روح ترى الظلام وتزهو   بضياء الحياة حيث ينير
هى نور يكسو الطبيعــة لوناً   حين يخبو من الطبيعة نور
هى لحن يطغى على كل لحن   حيث لا معزف ولا مزمور
هى طيب يبث فى الوهد عطراً   حين لا يغمر الوهاد عطور
هى فن يجلب الـكون بالحســـن إذا ما طغت عليه الشرور

(دير الزور)   خليل هنداوى

أغلال تتحطم !

وثاروا فجن جنون الرياح   وزلزلت الأرض زلزالها
وأهيب ما كان بأس الشعوب   اذا سلح الحق أعزالها
« شوقى »

ما اغترابى عن الحمى وابتعادى   كبدى فى اللهيب أختُ فؤادى !
نبأ هزَّنى وهاج شئونى   رائحٌ بالشجونِ بالدمع غادِ
ما ترانى إذا سجا الليلُ أسوا   نَ لهيفَ الفؤاد نِضو سُهاد
أسألُ النجمَ همسةً عن عرين   فتكَ الظلم فيــه بالآساد
وأناجى الرياح ماذا لديها   عن رفاق الصبى وعن أندادى
إعصفى يا رياحُ ما شئتِ هوجاً   كلُّ نفسى عواصف وعَواد
اللظى فى الحشا وتحت جفونى   وعلى مَفرشى وفوق وسادى
إن أنم ساعة يقلّبنىَ الحلْـ   ـمُ على جمره وفوق قتادى
أألذ الكرى وطرفى دامٍ   وخفوقى فى لهفــةٍ واتّقاد
وبلادى تئن من عبَثِ الجوْ   رِ وترغى كالليثِ فى الأصفاد
تمهرُ المجد أُســدها ثم تجرى   للمعالى على رؤوس الصّعاد

***

خطّوا أيها الرعاة المزامير ... وكفكف دمع الهوى ياحادي
ثم سيروا خلف القطيع خشوعاً ... موكباً من جلالة واتئادِ
أيها البلبل الطروب دع الأغ ... صان تبكى واسكت عن الإنشاد
طِرْ إلى حيث وُسِّدت شهداء ... فى بطاح العُلى ، طوالُ النِّجاد
فانشد فى مربض الضحايا وغرِّد ... فوق أشلائها الظِّماء الصوادى
وارتلُ فوق الرؤوس أعذب لحنٍ ... فلحونُ الطيور خير ضماد
الوفاء الوفاء يا بلبلَ الأيـ ... ـك ! أتشدو وليس فى الشام شادِ ؟
بل أقِمْ أيها الرفيقُ ورنّمْ ... وتنقّلْ بين الرُّبى والبوادى
وأنشد ما شئت عند مُنبلج النو ... رِ ، طروباً ، وفى مثارِ السواد
ربما كنت ها هنا أيها البلـ ... ـبلُ تبكى على شهيدٍ جوادِ ...
أيها الزهرُ فى الرُّبى ! أغمِضِ الأجـ ... ـفان حزناً واذبُلْ على الأعواد
أو فيمّمْ رَوْضَ الضحايا ورفرفْ ... فوق أعراسها وفى الأعياد
كيف تزهو والزهر فى الترب السا ... جم ذاك والورد فى الشام صاد ؟ !
بل تفتّحْ هنا وزُفّ نديّاً ... وانشر العطرَ منك فى كل واد
ربما كنت أيها الزهرُ تُروى ... من دماء جاءتك مثل العهاد ...
يا ثرى موطنى تباركت ترباً ... أنتَ من أدمُعٍ ومن أكباد
حيثما ألتفت فثمّ ضريح ... لشهيد أو ساحة لجلاد
كم شهيد كأنه بسمةُ المجـ ... ـدِ وريحانة العُلى والجهاد
خَرّ فى حومةِ النِّضال ينادى : ... موطِنى موطنى ! بلادى بلادى
مات واسمُ الحمى على شفتيهِ ... كالندى فوق ذابلِ الأوراد
أوهو اسم الحبيب طوّف مغسو ... لاً بثغر المحبّ عند الرُّقادِ

* * *

أيها الشرق هبّــةً للمعالى ... طال لَبثُ السيوف فى الأغماد
إنما العيشُ صرْعةٌ فى جهادٍ ... والرّدى فى تذلُّلٍ وانقياد
صرخة أيها الأسيرُ تفرى ... لصداها حبائلُ الصـــياد
تجفلُ العادىَ المغيرَ وتهوى ... صاعقاتٍ على رؤوسِ الأعادى
أيها الشرق إنما أنت مَجْلَى النـ ... ـورِ والكونُ فى ثياب الحداد
إنما أنت مهبِطُ الوحى والأجـ ... ـيالُ تلهو بها أكفُّ الجِلاد
دَرَج الأنبياء فوق روابيـ ... ـكَ ، وشعت منائرُ الإرشاد
علّموا الكون رحمة العبدِ للعبـ ... ـد ونبذ الذحول والأحقاد
وهدوه سُــبْل المحبة والخيـ ... ـر ونقّوه من شرور الفساد
فاهتدى بعــد حيرة وضلال ... وصفا بعــد حلكة واربداد

أيهاذا الغرب المدِلُّ رُويداً ... والنُّهى - لو علِمتَ - فى الإرواد
شَدّ ما ترهق الضعيف عذاباً ... تتداعى له على الأطواد
فكأن الأيامَ ليست تَوالَى ... وكأن الزمان ليس يعادى
إيه ياغرب ، والحديث شجون ... والدُّنى بين هداةٍ ولداد
ما جنينا حتى صببت علينا ... مُرهِقاتِ الأذى والاستعباد
كيف تنسى أيام كنا نجوماً ... ساطعاتٍ فى كلّ صقع وناد
يوم كنا تاجاً على مفرق الأر ... ض وشمساً من حكمة ورشاد
والزمان الحرونُ بين يدينا ... مُستذلُّ العِثار فى سهلُ القياد
فملأنا السماء والأرضَ نوراً ... وأفضنا عليك أفضل زاد
وملكنا بالعدل ناصية الكو ... نِ زماناً ، أغوارِه والنِّجاد
ثم جار الزمان وانقلب الده ... ر فنامت على الغصون الشوادى
وخبا للخلود أعــذب لحن ... وكبا للرُّقى خيرُ جواد

* * *

يا جمال الحياة ، يا بهجة الكو ... ن وإرث الأجداد للأحفاد
يا دموع الأسير ، يا غضبة الليـ ... ـث على القدّ ، يا رجاء العباد
يا ضياء النفوس ، ياشمس ياحرّ ... ية الغابِ ، يا ابنة الآباد ! ...
نحن زهرٌ وأنتِ أعذب طلٍّ ... نحن عمى وأنتِ أرحمُ هاد
قد مهرناكِ من دماء غوالٍ ... وفرشنا الطريق من أجسادِ
فاخطرى فوقها وتيهى دلالاً ... واسحبى الذيل فى الربى والبوادى
وطئى أعيناً ودُوسى قلوباً ... كلها من تمرُّدٍ وعنادِ
وامرحى فوق أرؤسٍ لك ذلت ... لا لباغ مضرج الناب عاد
حلقى فوقنــا وزُفّى لنحيا ... قد سئمنا الحياة فى الأقياد
واسطعى فى القلوب نوراً من الله ... ونورى بأنفس المجـــادِ
صدى القدفى الأكف وفى الأقـ ... ـدام ، والغُلُّ حزٌّ فى الأجياد

* * *

أيها الغرب قد أنفنا من النو ... م وضقنـــا بالذل والاصفاد
فوثبنا إلى النضــال أسودا ... مثل آبائنا العـــلى الأمجاد
وخضبنا دغالنــا بالدم الحر ... وضاق الفضــاء بالأجناد
أرهِق الشّرقَ ذِلّةً وأذِقْهُ ... كل ما شئتَ من أذى واضطهاد
نحنُ نبغى الحياةَ ، والسيفُ لن ... يُغْمَدَ يا غربُ قبلَ نيلِ المرادِ

(ابن دمشق)

القصص

دراما من اسخيلوس

محـــاكمة أورست

أو

ربات العذاب

(الدرامة الثالثة من الأورستية)

The Eumenides [1]

أول كوميدية إلهية مسرحية عرفها التاريخ

للأستاذ دريني خشبه

خلاصة الدرامتين الأوليين

« ذهب أجممنون ملك آرجوس لفتح طروادة ولكن الريح العاصف حالت دون قيام الأسطول فضحى بابنته أفجينا ليهدأ ثائر البحر وأغضب بذلك زوجه كليتمنسترا التي انتهزت فرصة غيابه واتصلت بألد أعدائه إيجستوس اتصالا شائنا ونفت ولدها أورست حتى لا يعكر عليها صفو غرامها — ويعود أجممنون بعد عشر سنوات فتقتله زوجته وعاشقها... وتمضي عشر سنوات أخرى فيكون أورست قد شب واشتد عوده فيعود ليثأر لأبيه من أمه ، فيلقى أخته عند قبر والده تصب عليه خمراً مرسلة من الملكة بسبب رؤيا مفزعة خلاصتها أنها رأت نفسها تلد أفعى وتضمها الى صدرها فتنفث فيه سمها ويتعارف الأخ الى أخته ويتفقان على الخطة ويطرق أورست باب القصر الملكي متنكراً فتلقاه الملكة ولا تعرفه مع أنه ابنها فيدعي أنه قادم من لدن الأمير الذي كانت قد نفت ولدها عنده وأن ولدها قد مات . . . ! وهكذا تجوز الحيلة على الملكة فترسل في طلب ايجستوس لتهنئ اليه الخبر ولكن أورست يلقاه منفرداً ويقتله ، فلما تجيء الملكة وتشهد مقتل حبيبها تعرف كل شيء وتعرف أن القاتل ولدها لا غيره ... ثم ينقض أورست على أمه فيقتلها بعد جدل طويل

ولكن أورست يكون قد ارتكب أكبر جريمة تعاقب عليها الآلهة وهي قتل الوالدين فتتمثل له هامة أمه وتفزعه وتروعه حتى يجن جنونه فينطلق الى معبد أبولو يتوسل اليه أن يحميه لأنه هو الذي أمره بانفاذ هذه الجريمة ... ومن هنا تبدأ الدرامة الثالثة »

(١) أو Furies وهن اخوات ثلاث منهن واحدة اسمها ديريه والأخريان

— ١ —

المنظر : « في الأديتون [1] — صومعة أبوللو — في دلفي »

نحن في الأديتون . . . في مثوى أبوللو الخاص ؟ . . وقد قامت بيثونة الاله الكبير ، سيد الشمس ، ورب القوس ، وصاحب السهام الذهبية . . . تصلي للأرض المباركة ، ولابنتها ذعيس ، ولاحدى بنات التيتان . . . فوبيه . . . التي تشبه باسمها فوبوس . . . الذي هو أبوللو . . .

والبيثونة ، كاهنة أبوللو ، ذات لسان رطب ، وهي لا تكل من أن تستطيل صلاتها ، فتذكر مينرفا وما روى الناس من أساطير عن مينرفا . . . و . . . تنتهي بعد لأي صلواتها . . .

وندخل معها إلى مثوى أبوللو ؛ ولكنا نخرج مذعورين وجلين ، كما تخرج هي وجلة مذعورة ... لأننا نرى أورست المسكين راكعاً بين يدي تمثال الاله يبكي ... ويصلي ... ويضرع إلى أبوللو أن يحميه من ربات العذاب...الزبانيات الضاريات ... اللائي رحن يطاردنه في كل حدب ، ويأخذن عليه سبله في كل صوب ... ويودهن لو تمكن منه فهرأن لحمه ، وحطمن عظامه ، ثم دفنه في جحيم فليجتون ، بما قتل أمه وأغضب الآلهة

وتذعر البيثونة لأنها ترى إلى إحدى يدي أورست ملطخة بالدم الذي سفحه ، وترى إلى يده الأخرى تحمل غصناً غضاً نضيراً . . . هو غصن الزيتون ؟ ! وكيف يجتمع الدم المسفوك ، وغصن الزيتون ؟

مسكين أورست ! لقد ركع بين يدي التمثال يصلي ويبكي ، ومن حوله الزبانيات الضواري يتربصن به ... هؤلاء الحرجون السفاحات ... اللائي تتحوى الأفاعي في رؤوسهن ، ويغلي السم في أنيابهن ، ويضطرب الموت الأسود في أظفارهن ! !

ايرنيس ويعرفن بهذه الأسماء كذلك (ألكتو — تيسيفونه — ماجيارا) وهن موكلات بتعذيب الأرواح الشريرة الآثمة وايصالها الى نهر فليجتون الغاص بالحمم ويكون هنا خورس الرواية — ويشبهن الغول عندنا في الميثولوجيا المصرية

(١) Adyton وبالاغريقية Adytnm

ويسقط فى يد اليثونة ، ولكنها تدعو لولاها أبوللو أن يحمى بيته من هؤلاء المتمردات

— ٢ —

وينفتح باب الصومعة على مصراعيه ، فنرى أبوللو نفسه ، ونرى أورست المعذب مايبرح يبكى ويصلى ، ونرى إلى الجرجون من حوله يكدن يبطشن به ، ولكن أبوللو يكامه ويحتفى به ويذهب عنه الروع الذى يضنيه

— « ليفرخ روعك يا أورست فأنا ربك وحارسك وسأظل آخر الدهر معك ... قريباً منك أو بعيداً عنك ... ترانى أو لا ترانى ... دائماً معك ... دائما ... وسأكون أعدى أعداء من عاداك ... حتى ولو كان من أعدائك هؤلاء الجرجون اللائى ترى ... فانه لن يصل اليك منهن ضر ، ولن يصيبك منهن أذى ... فانى قد ألقيت عليهن غفوة ، وأسكرت مقلهن بخمرة الكرى ، فهن فى سبات عميق حتى تكون بنجوة منهن ... الشريرات عدوات الآلهة والناس أجمعين ... »

ويهدأ أورست قليلا ، لأنه ينظر فيرى إلى الجرجون ساكنات نائمات كما أخبر الإله ، ويصل أبوللو حديثه فيقول : « ... وليس عليك إلا أن تنطلق من فورك هذا فلا تلوى على شىء حتى تكون فى معبد مينرفا فاسجد تحت قدميها سجدة تستجمع فيها نفسك وقلبك وآلامك . ثم تبثها شكواك وتتوسل إليها أن تأذن فتحكم بينك وبين الزبانيات ، ربات الذعر ، هذه الجرجون ؛ ولا تخش عقدة فى لسانك فسأكون إلى جانبك ، وسأنافح عنك وأشد أزرك ، ولن يؤودنى أن أضع عنك هذا الوزر الذى يثقلك ، مادمت أنا الذى أمرتك أن تقتل أمك الفاسقة ... وستنطلق الجرجون فى إثرك ، فاذا أدركنك فلا يروعنك أن يأخذنك فيلبثنك تلبيبا ، ثم لا يروعنك أن يتواثبن بك فوق الآكام ويسحبنك فوق النؤى ويطوحن بك فوق البحر اللجى ... فانك واصل باذنى ، وعلى عينى إلى حيث ألقاك فى معبد مينرفا »

فيكفكف أورست عبرته ويقول : « تباركت ياسيد الشمس وتقدست أسماؤك ، ولاغفلت عينك الساهرة عن عبدك المنيب ... ولا زالت تدركنى برحمتك يا أرحم الراحمين ! »

فيجيبه أبوللو : « ولا زلت أوصيك بالتجمل والصبر ، فلا تقذف بالروع فى قلبك ، ولا تدع للذعر إلى روحك سبيلا ، وسأوصى بك أخى هرمز ، حامل الأرواح إلى ظلال هيدز ، يمهد لك ، ويوطئ سبيلك حتى تكون فى مُتوجَّهك »

ثم يرف أبوللو فيكون فى السماء ... ويخرج أورست .

— ٣ —

وتنعقد سحابة فى جو الصومعة ، ثم تنكشف عن شبح قاتم سادر ، هو شبح كليتمنسترا . وكأن نوم الجورجون يشدهه فيقول :

— « ياميَاهْ ! يا هياه ! هَياً ! هَياً ! جورجون ! غطيط ! تناءين وأذرع الظلمات مفضوحةٌ عن قلبى ! إنهضن ياربات ! إنهم يصرخون فى وجهى : مجرمة ! آثمة ! أنا ؟ أنا مجرمة وقد قتلنى ابنى الذى حملته وغذوته ؟ ... ما شغلكن إذن إذا نمتن عن هذا الوزر ؟ ألم أكن أقرب لكن القرابين وأضحى الأضحيات من خمر كلها غَوْل فى دجنّة الليل ؟ ! أهكذا تضيع إضحياتى عندكن وينجو قاتلى دون أن تمكن به ؟ إنهضْن ! إنهضن فحسبكن ما ألم بكن من كرى ! إنهضن فقد لاذ بالفرار قاتلى غير مبالٍ بكن ؟ أنا كليتمنسترا ؟ أهتف بكن ياربات الظلمات ! أنا ... القتيلة التى يسبح ظلها فى مملكة الأحلام ! »

— « خيخ ! ... خيخ ... ! خخ ... ! خخ ... ! »

— « خيخ ؟ ... ما هذا الفخيخ[1] يا ربات ؟ إنه يضطرب فى حلوقكن فيكون شخيرا ، ثم يرتد فى أنوفكن فيكون نخيراً ! هَياً ! لقد أفلت قاتلى ! ولدى ! لقد كلأته قدرة سماوية بينما أنا مهجورة هنا ! »

— « غيط ... خيخ ... ! .. غيـ ... »

— « غيط ! ما هذا الغطيط وقد انفتل قاتلى ! ما أنتن هنا ؟ أورست ابنى .. أطلق ساقيه المرح يا ربات ، فمن غيركن يأخذه بقتلى ؟ »

— « أو ... ه ... »

— « أوه ؟ هَيا ! البدارَ البدار ! يا للضنى ! »

— « أو ... ه ... »

— « حتى النوم والتعب يشدان أزر المتآمرين ! »

— « خـ ... خ ... (وتستيقظ الجورجون) أمسكن !

(١) صوت النائم

أمسكن ! من هنا ! من هناك ! حذار ! »

— « آى ! أنتن تتصيدن المجرم فى شبكة من أحلامكن ! وما تبرحن متثائبات ! يا للعار ؟ إنهضن يا ربات ولا تستسلمن لهذا الخرل ! بحسب قلوبكن وخزة من ضمير حى لو يستيقظ ! هيّا هيّا ! أنصصن أثره ! وليترع شواه زفير من جحيم أنفاسكن هيا هيا ! ! »

(ويغيب الشبح)

— ٤ —

وتنهض الجورجون فيروعهن ألا تجدن أورست وقد طاردنه طويلا ، وكدن يبطشن به لولا احتماؤه بصومعة أبوللو . . . ويبرمن ويتسخطن . . . ويشتد غضبهن على أبوللو نفسه ، لأنهن يفطن إلى أنه هو الذى ألقى عليهن هذا النعاس الذى صرفهن عن واجبهن . . . « غير مبال أن تخرق قانون الآلهة ، ولا مبال أن يتلطخ وحيدك بالإثم والدم ، كأنك تتحــدى ربات المقادر[1] . . . ولكن هيهات ! هيهات أن تستطيع حماية هذا الآثم الذى يلوذ بك . . . فانك ستشهده بعينيك يتلظى فى حر جهنم . . . وستضاعف حمايتك العمياء له عذابه . . . . . . »

وما يكدن يفرغن من برمهن ، ويمسكن عن قولة السوء التى أرسلنها ، حتى يبدو طيف أبوللو :

— « . . . . أغربن أغربن ! آمركن ألا تبقين فى صومعتى ! هلاّ ! وإلا فستبيدكن نفثات الثعبان الذى يتحوى فى قوسى ! الأرقم ! أتجهلنه ؟ أغربن يا سبب شقاء الناس ونافثات السم فى جراح البرايا ! لا تنتهكن هذا الحرم المقدس الأطهر بظلالكن البشمة ، النكراء ! أغربن من هنا ، وتبشرن بالموت والأرزاء فى سبل الشباب الذى تذوين ، والحيوات التى تشتفين والأنفاس البريئة التى تحشرجن فى صدور الأطفال . . . ! بحسبكن أنين الموتى ، وجؤار القتلى ، وسكرة الموت ؛ تخضض الفجوعين والمفئودين ! أغربن من هنا . . . . وليكن مأواكن فى مغارة ذئب أو كهف سبع ينهش فريسته التى ما تزال تئن وتتوجع . . . فصومعتى أطهر من أن تدنسها أدرانكن ! أغربن قاتلكن ، فما انفكت لعنة السماء عليكن وغضب الآلهة والناس أجمعين ! هيا . . . هيا . . . يا هناه ! »

— « أيها الإله أبوللو ! إصغ الينا وعِ ! أنت لم تكن شريك هذا الجرم الذى حميت فى وزره فقط (حين قتل أمه) ولكنك كنت الآمر الموحى ؛ فعليك يقع الجرم كله . . . »

— « وما برهانكن ؟ هراء . . . هراء . . . . »

— « نبوءتك التى أوحيت بها . . . . تقضى أن يقتل الغلام أمه ! ! »

« لقد صرحت ، غير متردد ، لا بد أن يثأر الفتى لأبيه ! »

— « وها قد تقبلت الغلام ، وما انفك الدم يقطر من يديه ! »

— « لا . . . . ولكنى أمرته أن يستغفر لذنبه هنا ! »

— « ولكنه لم يأت ليستغفر ، بل أتى يلوم ويعتب ويذل . . . يعتب عليك ويمذلك يا حاميه ! ؟ »

— « وأنتن ؟ ماذا جاء بكن وأنتن غير جديرات بأن تقربن قدسى ! ! »

— وظيفتنا يا سيد الشمس ! هذا عملنا الذى ارتضيناه يوم اقتسم الآلهة شؤون الحياتين ! »

— « ماذا ؟ عملكن ؟ وما عملكن يا ربات الذعر ؟ »

— « أن نقتص آثار قتلة الآباء ونتفيهم من الأرض ! »

— وماذا تصنعن بمن يقتلن أزواجهن من النساء ؟ »

— « هذا دم لا يعنينا لأنه من دماء ذوى القربى ، فلا شأن لنا به ! ! »

— « بعدنَ عن الشرف والنبل اذن ، وعن المدلة كذلك ! ان ذلك ينافى القداسة الزوجية التى تقر بها حيرا لزوجها زيوس سيد الأولب ، وينافى ما قضت به ربة الحب[1] من وجوب الوفاق والمحبة بين الزوجين . . . إن الملاءمة بين الزوج وزوجه أكبر من أن تكون قسما أقسماه ! فاذا حدث أن قتل أحدهما الآخر ولم يثر ثائركن فمن يأخذ المجرم بجرمه ؟ وماذا تكون الحياة إذا لم يكن فيها قصاص ؟ ! إنكن إذن لتطاردن أورست ظالمات ! ! فبينا تأخذن بالشدة والعنف مجرما لا نقع عليه — فى الحق — جريرة ما صنع ، اذا أنتن تغضين عن مجرمين ضجت الدنيا بآثامهم وتلطخت الفضيلة بأوزارهم ، فلكن كيف تقضين ؟ ! وليكن الأمر ما يكون ، فسيعرض الأمر كله على منيرفا لترى فيه رأيها ! »

(١) Fates الربات ثلاث كلوتو ولاخسيز ، وأتروبوس اللائى يكتبن على الناس كل ما يقع لهم فى الحياة

(١) لا ندرى أى ربة حب عنى أسخيلوس ؟ فاذا كان يعنى فينوس فذلك يتعارض وحياتها المنتكة بالفسق ضد زوجها فلكان !!

— « مهما حاولت فلن نعفى القاتل من أن يلقى جزاء ما جنت يداه ! »

— « أقصصن أثره إذن وافعلن ما بدا لكن ! ! »

— « ولكن لا تستهزئ بحقنا المقدس فى ثنايا كلك ! »

— « أنا لا يعنيني حقكن المقدس ولا أبالى به أو بكن ! ؟ »

— « . . . . . . إن رائحة الدم المسفوك . . . دم الأم المذبوحة . . . قد أتى بنا الى هنا ، ولا بد لنا من أن نقتحم هذا المأوى ونقبض على المجرم ! »

وسأحمى هذا اللائذ بى الى النهاية ! سأناضل عنه مادامت المهابة تفطش أبصاركن ! اننى اذا تخليت عنه ، وتركته لبطشكن ، غير مثاب ولا ناقم فستضج السماء والأرض ، وتزلزل الجبال ... وتنقم الآلهة ... ويسخط الأولمب ... أغربن ... أغربن ! هيا ... يا ربات الذعر ... زادتكن السماء مسخاً ! »

(وتنطلق الجورجون ... ويغيب أبولو)

(البقية فى العدد القادم)

دريني خشبة

صانعة الكراسى

Le rempailleuse

للكاتب الفرنسى « جى دى موباسان »

ترجمة السيد فؤاد نور الدين

أقام المركيز دى برتران حفلة شائقة على نخب صيد العام الجديد . فدعا أصحابه من أهل البلد . فالتف حول المائدة عشرة رجال تصحبهم ثمانى نساء من ذوات الحسن والدلال ؛ وكان الخوان موقراً بصنوف الزهر الزكى ، وضروب الثمر الشهى ؛ وقد ألقت مصابيح الكهرباء أنوارها المتلألئة على هذه الأنواع المختلفة من الزهر والثمر والطعام ، فماجت تحتها موجاناً يستفز الشهية ويستقطر اللعاب

جلس فى صدر المائدة على مقربة من المركيزة طبيب البلدة ، وهو رجل متقدم السن ، وقور الهيئة ، يبدو على وجهه طابع الفطنة والذكاء

كانوا جميعاً يتجاذبون ألواناً ممتعة من الحديث اللذيذ والكلام الرقيق ، فلما انتقلوا إلى حوار الحب ، وماهية الحب ، انبعثت بينهم تلك المناقشة الخالدة التى يراد منها أن يفهم : هل الحب المحض يحرك قلب المرء مرة فى حياته أو أكثر ؟

فكانت تورد أمثلة لأناس تيم قلوبهم الحب الصحيح مرة فحسب ، وكانت تورد أمثلة لأناس آخرين أحبوا بعنف وقوة وهيام أكثر من مرة

كان الرجال بنوع عام يشبهون العشق بالأمراض ، فكما أن هذه تعتور جسم الإنسان دوماً ، فالعشق أيضاً يصيب فؤاده كثيرا ويكون فى كل مرة من العنف والقوة والهياج بحيث يؤثر العاشقُ الموت إذا ما اعترضت سبيله علة من العلل

أما النسوة فكان رأيهن يستند أكثر ما يستند على الخيال والشعر ، وينأى عن النظر والفكر . فكن يثبتن فى حماس واندفاع أن الحب المحض ، الحب العظيم لا يمكن أن ينبعث فى القلب إلا مرة فحسب ، حتى إذا تمكن منه ألهاه عن كل أمر ، فأحرقه وألهبه ، وكان فعله فيه فعل الصاعقة فى الشجر والنبت ، فكما أن هذه تحبس عنهما النمو والنشوء الجديدين ، فهذا الحب أيضاً — يجعل القلب قفراً فارغاً لا يمكن أن تنشأ فيه أحلام تشبه أحلامه الأولى ولا أن تنبت فيه مشاعر تشبه مشاعر هيامه الماضى وعهده السالف

كان المركيز يدحض هذا الاعتقاد بكل ما أوتى من ذلاقة لسان ، ومن حجة وبيان

كان يقول :

— أؤكد لكم يا سادتى أن الانسان فى مقدوره أن يعشق أكثر من مرة بكل جوارحه وبكل قواه . إنكم تعددون لى أمثلة أناس انتحروا من أجل الحب كأنهم عاجزون عن أن يعيشوا ليعشقوا ثانية . غير أنى أجيبكم : إن هؤلاء الناس لو أمهلوا الانتحار وتحاشوا هذا الحمق المجنون ، لألفوا فى الحياة ما يثير الحب جديداً فى قلوبهم الجريحة ويحيى موات الأمل فى نفوسهم اليائسة ، لأن من هام عاد إلى الهيام ، ومن احتسى أولى الكؤوس عاد إلى سواها . تلك طبيعة المرء لا منصرف عنها ولا محيد

لما أتم المركيز خطابه وأعلن رأيه ، انحدرت الأنظار إلى الطبيب تنتظر منه الحكم الأخير . قال :

— أنا لا أخالف المركيز فى رأيه ، فالهوى تتمدد فصوله وتتابع طوارئه على الفؤاد . غير أنى عرفت فيما عرفت هوى دام خمساً وخمسين سنة ، وما خمدت ناره ولا انطفأ أواره إلا بالموت

قال المركيز وهو يفرك يديه :

— ترى أهذا الحب محمود ؟ وما وراءه من أمان وأحلام ؟ وأى سعادة فى أن يعيش المرء خمساً وخمسين سنة على غرام واحد ؟

فابتسم الطبيب ابتسامة خفيفة وهو ينظر الى المركيزة :

— ان الشخص الذى أتاح له القدر أن يكون معشوقاً طوال هذه المدة كان رجلا وأنتم تعرفونه جميعاً ، هو السيد شوكه صيدلى الناحية . أما المرأة العاشقة فلستم تجهلونها أيضاً ، هى صانعة الكراسى العجوز التى كانت تفد أحياناً إلى القصر ها هنا :

بدت على وجوه النسوة ملامح الدهش ودلائل الاشمئزاز ، كأنما الحب لا ينبغى أن يصيب فيما يصيب إلا المخلوقات المترفة المتميزة التى تستحق وحدها أن يبدى الناس لها عطفا واهتماماً

قال الطبيب :

— منذ ثلاثة شهور دعيت إلى جانب هذه العجوز وهى على فراش الموت ، وكانت قدمت فى عربتها التى اتخذتها مسكناً لها وآلة ركوب تطوف البلدان عليها . يجر هذه العربة فرس مهزول ناحل لاشك أنكم رأيتموه . ويصحب العجوز كلبان أسودان هما صديقاها وحارساها . كانت دعت القسيس أيضاً لتكشف لنا عن رغباتها الأخيرة فنكون منفذين لوصيتها . فقصت علينا جميع أطوار حياتها . الحق اننى لم أسمع قصة أشد تأثيراً فى النفس وأكثر غرابة فى الأذن من قصتها . كانت حرفة والديها صنع الكراسى . ولم يكن لها سكن خاص فى أرض معينة ، فانها طفلة كانت تطوف البلدان ممزقة الثياب معتلة الجسم يثير منظرها نفوراً واشمئزازاً . وكان أبواها كلما بلغا إحدى القرى وقفا عند مدخلها وأنشآ يصلحان الكراسى العتيقة والمقاعد القديمة تحت ظل الأشجار وهى تتدحرج لاعبة ضاحكة خلال أعواد العشب الشرثبة . فاذا ابتعدت قليلا عنهما أو أخذت فى الحوار مع الصبية ، فانها لا تلبث أن تسمع صوت أبيها المغضب يقول لها : « ارجعى باوقحة » . فكانت هذه الجملة ، الجملة الوحيدة التى تسمعها من أبيها

ولما ترعرعت بعض الشىء أرسلاها تلتقط أو تبتاع ما فسد من المقاعد . فكانت فى تنقلها من مكان إلى مكان تتعرف إلى الصبيان وتأنس إلى الحديث اليهم . على أن ذويهم كثيراً ما صدوهم عنها وهم ينتهرونهم أشد الانتهار ، ومنهم من كان يقول لولده : « ألا اقطعن الكلام مع هذه الشريدة الحافية الأقدام »

أما الفتية الصغار فما أكثر ما قذفوها بالحجارة من غير أن ينبس فوها بكلام ! وكان بعض النسوة أعطينها قليلا من دراهم ، فاحتفظت بها وحرصت عليها

وبينما كانت تجوز هذا البلد فى أحد الأيام وقد بلغت الخامسة عشر ربيعاً من عمرها ، إذ صادفت خلف المقبرة شوكه الصغير وهو يبكى أحر البكاء ، لأن رفيقاً له سرق درهمين . فآلمها وهى البنت المسكينة ، أن ترى طفلاً حضرياً يذرف دموعاً سخينة من حيث لا مواسى له ولا صديق . فدنت منه وما كادت تقف على سر بكائه حتى وضعت فى يديه تلك الدراهم القليلة التى احتفظت بها . وكان طبيعياً أن يبتهج الطفل بالدراهم وأخذها ومسح دموعه . وكان منها أن جنّت فرحاً بعمله ، فأنشأت تعانقه وتضمه إلى صدرها وتقبله تقبيلاً حاراً دون أن يمانع الولد أو يصدها عنه لأنه كان لاهياً بفحص النقود

ثم انصرفت عنه وقد فاض قلبها محبة لهذا الطفل

ولم يكن أحد يعلم ماذا جال فى رأس هذه التاعسة من خواطر وأحلام ، أتعلقت به لأنها ضحت فى سبيله بثروتها المتجمعة من التشرد والانتقال ، أم لأنها منحته أول قبلة وثب قلبها لها ؟

خفى ذلك على الصغار والكبار

وظلت أشهراً تتمثل فى خاطرها زاوية المقبرة التى شهدت فيها هذا الغلام وشرعت تسرق أبويها ما تصل إليه يدها من دراهم أملاً فى لقائه ومصادفته . وكان فى يدها آخر الأمر فرنكان . على أنها هذه المرة بدلاً من أن تلمح فتاها فى محل منزل ، رأته خلف قضبان حانوت أبيه : بهى الطلعة نظيف الثياب ، والقنانى

الحمراء والخضراء والصفراء تحيط به من كل جانب . فازدادت له حباً وبه كلفاً ، وبهرها ما أنست لديه من مجد بادٍ في هذه المياه المصبوغة ، ومن جلال ظاهر في هذه الزجاجات البراقة

فاحتفظ خاطرها بذكراه مدة ، حتى صادفته في السنة التالية خلف المدرسة يلعب مع رفاقه ، فهجمت عليه وقاته تقبيلاً عنيفاً ريع له الولد وأخذ في الصراخ . لكنها سرعان ما وضعت في يده ثلاثة فرنكات هش لها الغلام وطرب ، وحملق في وجهها في دهش وتعجب تاركا نفسه لها تداعبه ما رغبت في المداعبة ، تعانقه ما اشتهت من عناق

وظلت أربع سنوات تقدم اليه ما تجمعه فيأخذه منها مقدماً اليها القبلات عن رضى وسرور . أعطته مرة فرنكين ومرة خمسة فرنكات ، وهي قطعة كبيرة جملته يضحك لها ويرقص طربا

لم تكن تفكر إلا فيه ؛ أما هو فكان ينتظر عودتها ويرقب شخوصها اليه بصبر فارغ وشوق لجوج ، حتى إذا أبصرها ، جرى اليها مسلماً خده لقبلاتها ، ويده لدرهمها . وما أشد خفقان قلبها عند ذاك !

وتوارى الغلام حقبة من الزمن عن عيانها لأنه انتقل الى مدرسة أخرى . وعرفت هي انتقاله بمهارة وحذق ، فأبلت في السياسة بلاء حسناً حتى حملت أبويها على المرور من هنا في الصيف . وكان مضى عليها سنتان دون أن تراه . فلما أبصرته كادت لا تعرفه . لأنها رأت أمامها بدلا من طفل الأمس فتى تفتحت ورود الصبا في وجهه ، وابتسمت زهور اليفاعة في قده

نظرت اليه نظرة شوق ولهف . وكان منه أن تظاهر بعدم رؤيتها ، ثم خطا أمامها ببزته الأنيقة ذات الأزرار الذهبية يملأ صدره زهو وافتخار ، ويعلو رأسه أنفة واستكبار

وانصرفت عنه والدموع تسح من عينيها والزفرات تتصاعد من قلبها . وأصبحت بعد ذاك العهد أليفة أحزان ، وصديقة آلام

وانطوت الأعوام متوارية خلف حجاب الفناء ، وفتاتنا لا تنقطع عن الشخوص كل عام إلى بلده لتراه دون أن تجرؤ هي على تحيته ، ودون أن يتنازل هو بالقاء نظرة عليها

كانت تهواه بكل جوارحها ، وها كم ما أسرته لي « إن هذا الرجل يا سيدي الطبيب ، الرجلُ الوحيد التي رأته عيناي ، وما علمتُ بعد ذاك إذا كان يعيش في العالم سواه »

ومات أبواها واستمرت في حرفتهما ، وقد صحبت من بعدهما بدلا من كلب واحد ، كلبين هائلين يُخشى الدنو منهما

وكان يوم دخلت فيه هذا البلد ، فرأت امرأة في نضارة الصبا وربيع الحياة تصحب شوكه حبيبها ، وقد تأبطت ذراعه وهما يخرجان من الحانوت معا

لقد تزوج إذن شوكه !

وفي مساء اليوم ألقت نفسها في الغدير القائم خلف المحكمة . واتفق أن رجلا كان يمر هناك ، فأنقذها وقادها إلى منزل شوكه ، فنزل هذا لملاجها ، ودلك بيديه مكان الألم من جسمها دون أن يتظاهر بمعرفتها . ثم ما لبث أن قال لها بصوت جاف : « أأنت مجنونة ؟ لا ينبغي أن تكوني هكذا حيواناً »

هذه الجملة وحدها بعثت فيها البرء والشفاء . ألم يتكلم اليها ؟ حسبها ذاك ! وظلت هانئة مغتبطة أمداً طويلا

قضت كل حياتها تذكر شوكه ولا تفكر في غيره . وكانت تلمحه في سنيها خلف الزجاج ، وما أكثر ما ابتاعت عقاقيره وأدويته لاتبغي من شرائها إلا رؤيته والحديث اليه

وكما ذكرت لكم بديئاً ، ماتت هذا الربيع وقد رجتني بعد أن قصت عليّ قصتها أن أحمل الى هذا الذي أحبته حب العابد لمعبوده ، جميع ما ادخرته من مال . لأنها كما اعترفت لم تشتغل إلا لأجله ، تجوع أحياناً لتدخر له بعض المال . فإن ذكرها بعد وفاتها مرة واحدة فستشعر في قبرها بالسعادة والهناءة

أعطتني عشرين وثلثمائة وألفين من الفرنكات . فقدمت العشرين فرنكا الى القسيس لأجل دفنها ، وأخذت الباقي لما فاضت روحها ، وقصدت منزل شوكه ، فلما دخلت كان وزوجه يتناولان طعام الغداء وقد جلس الواحد أمام رفيقه ، والاحمرار يكسو وجهيهما ، والسعادة تسبل عليهما ظلها الوارف وبشرها الطافح . طلبا اليّ الجلوس فجلست ، وقدما لي كوباً من مشروب (الكيرسك) (١) فتناولته شاكراً وبدأت أنقل لهما القصة بصوت مضطرب حزين ، لأني زعمت أنهما سيبكيان ويحزنان . على أن شوكه ما كاد يفهم أن هذه الأفاقة الشريدة تضمر له حباً

(١) Kirsck يصنع هذا المشروب من عصير الكرز

وولاء حتى جن جنونه وثارت ثائرته وشرع يثب من السخط والغضب كأنما سلبته المسكينة من المجد والشهرة ، ومن العزة والشرف شيئاً كثيرا . أما زوجه فكانت تصيح والغيظ يملؤها « يالها من نذلة ! يالها من نذلة ! »

ثم نهض شوكه وألقى بقبعته على الوسادة وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً كأنه أحد المجاذيب وكان يتمتم : « أو يمكن هذا يا دكتور ؟ إن ذا لشيء فظيع ! ما العمل ؟ يا ليتنى عرفت الأمر فى حياتها ! فلكنت أسوقنها سوقاً إلى السجن بقوة الدرك »

فلبثت أنا كالشدوه مما سمعته أذناى ورأته عيناى لا أدرى ماينبغى لى من قول ومن عمل . على أننى عقبت كلامى : « سيدى إنها أوعزت إلىّ أن أحمل اليك ما تركته من نقود ، وقدرها ثلثمائة وألفان من الفرنكات . ولما كان ما نقلته لك من حديثها قد أثار فيك سخطاً وسوءاً ، فلعل من الخير أن نهب النقود بعض الفقراء والمساكين »

نظرا وقد أفقدتهما الحيرة كل حركة !

فأخرجت المال من محفظتى ، هذا المال المتجمع من بلدان عديدة والمدّخر من جميع النقود من ذهب وفضة وغيرها . وسألته قائلا : « ماذا عزمت ؟ »

قالت السيدة شوكه : « ما دامت رغبة المحتضرة الأخيرة تقضى بذلك . فأرى من الصعوبة رفض إرادتها »

وقال الزوج واحمرار الخجل باد عليه : « إن هذا المال ينفعنا فى اقتناء بعض الحاجات لأطفالنا »

قلت عند ذلك بصوت جاف : « كما تشاء »

قال : « هاته ما دامت أوعزت اليك ذلك . فلن تعوزنا الوسيلة فى إنفاقه إنفاقاً جميلا »

فقدمت اليهما الدراهم وصافحتهما وانصرفت

وجاءنى شوكه فى غد اليوم ، وابتدرنى قائلا : « هذه المرأة تركت عربتها ، ماذا فعلت بها ؟ » . قلت :

— لا شيء ، خذها إذا أردت . قال :

— إنها تنفعنى ؛ سأجعل منها كوخاً لحديقتى

وهم بالانصراف فناديته قائلا : « إنها تركت أيضاً فرسها وكلبيها ، ألا تريدها ؟ فوقف مندهشاً وقال : « آه ! كلا ، لا حاجة بى اليها ، ما أصنع بها ؟ خذها أنت . » وأخذ يضحك ومد يده إلىّ فصافحته بمودة ، إذ لا ينبغى للطبيب والصيدلى أن يكونا عدوين .

احتفظت بالكلبين ، أما الفرس فقدمته إلى القسيس ، وأفاد شوكه من العربة كوخاً لحديقته ، وابتاع بالنقود خمسة أسهم فى الخط الحديدى

هذا هو يا سادتى الحب العميق المحض الذى صادفته فى حياتى

وصمت الطبيب

فأخرجت المركيزة من صدرها آهة حبيسة ، وقالت والدموع تتلألأ فى عينيها :

« الحق أن النساء وحدهن يعرفن الحب ! »

(حلب) فؤاد نور الدبه

البريد الأدبي

الأرحام المبلولة

أنكر علينا الدكتور زكي مبارك في (البلاغ) قولنا في افتتاحية العدد ١٣٩ من الرسالة: «وأيبست الأرحام المبلولة»، وظن أن الذي ورطنا في وصف هذا الموصوف بهذه الصفة إنما هو حرصنا على هذه السجعة التافهة! ومعاذ الله أن نكره كلمة على غير موضعها طمعاً في زينة لفظية نعتقد أن خصيصة الجمال فيها جريانها مع الطبع والصدق

لعل إنكار الأستاذ أن يكون آتياً من إحدى جهتين: إما استعمال اللغة وإما مراعاة الذوق. فأما اللغة فحسبنا أن نورد هنا ما ذكره (لسان العرب) ولا نزيد عليه. قال في مادة (بلل) «... وبل رحمه يبلها بلا وبلالا: وصلها. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: بلوا أرحامكم ولو بالسلام، أي ندُّوها بالصلة. قال ابن الأثير: وهم يطلقون النداوة على الصلة كما يطلقون اليبس على القطيعة، لأنهم لما رأوا بعض الأشياء يتصل ويختلط بالنداوة، ويحصل بينها التجافي والتفرق باليبس، استعاروا البل لمعنى الوصل، واليبس لمعنى القطيعة، ومنه الحديث: فان لكم رحماً سأبلها ببلالها: أي أصلكم في الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئاً... أبو عمرو وغيره: بللت رحمي أبلها بلا وبلالا: وصلتها ونديتها. قال الأعشى:

أما لطالب نعمة تممتها ووصال رحم قد بردت بلالها

وقال الشاعر:

والرحم فابللها بخير البُلالن فانها اشتقت من اسم الرحمن

وأما الذوق فهناك ذوقان: ذوق أبناء العرب، وذوق (أبناء البلد)، فأما ذوق أبناء العرب فقد رأيت حكمه في هذا الاستعمال من وروده في الحديث والشعر، وتسجيله في معاجم اللغة وكتب الأدب؛ وأما ذوق (أبناء البلد) فقد يجد فيه شيئاً، ولكنه الشيء الذي يجده العامي في مثل قول الله تعالى: (آتوني زبر الحديد) أو في مثل قول الشاعر: «ومن يك» ومثل هذا الذوق العابث ينبغي أن نراعيه إلى حد ما؛ وإلا ذهب كلام الناس كله هزؤاً بين (نكتة) و (قافية)

كلمة قصيرة اختلستها من المرض اللازم يا دكتور فمعذرة

الزيات

الحركة الأدبية

حفلت القاهرة في الأيام الأخيرة بمجالس العلم والأدب، فكأنها سوق من أسواق الكلام التاريخية في أزهى عهوده وأحفل أيامه، فأنت لا تنفك آخر النهار وأول الليل تسمع أبلغ الخطب وأجود القصائد وأنفس المحاضرات في حفلات الترحيب وموائد التكريم وقاعات الثقافة، وقد كان لوفود اخواننا الفلسطينيين والمراقبين أثر قوي في هذه الحركة. ولقد قام (أسبوع المتنبي) الذي أعدته الجامعة المصرية في المكان والأزمان التي أعلناها من قبل، وكان ما سمعناه إلى اليوم من المحاضرات التي ألقيت فيه فخراً لكلية الآداب تستحق عليه التهنئة؛ وعسى أن يساعدنا التوفيق فنثبت شيئاً منها في أعدادنا المقبلة

مديرية أسوان

قرأت في عدد الرسالة ١٣٩ نقدا على بعض ما جاء في مقالي عن مديرية أسوان يدور

(١) على أن بلاد (بنت) هي في آسيا من بلاد الفينقيين. وهذا خطأ، والصواب أنها كما ذكرت في أفريقيا، وموضعها الآن المنطقة المعروفة بالصومال الفرنسي والأريترية؛ وقد بينها الأستاذ برستد على الخريطة في كتابه aneieut times صفحة ١٠٢

(٢) اعترض على كلمة (اثيوبيا) اعتراضاً غير وجيه، فان اثيوبيا كلمة يقصد بها الأراضي الواقعة جنوب مصر، وهي كلمة يونانية استعملها هيرودوت، واراتستين، وبطليموس، وبينوها

على خرائطهم . (انظر كتاب الأستاذ كاتى Keltie المسمى Partition of Africa الفصل الأول وعنوانه The Africa of the ancient

(٣) ذكر أن تسمية الهيكل الموجود بجهة كلابشه منذ عهد رمسيس الثانى باسم بيت الولى خطأ وأن الصواب الوالى ، وقولنا هو الأصح لأن الغرض من الولى هو القديس لاعتبارات تتعلق بتاريخ مصر القديم لايجهلها أحد . والمهم أن يذكر الناقد النص الذى يعتمد عليه ، والمرجع الذى يرجع عليه ، حتى يكون على كلامه مسحة من الثقة . ذلك ما عنانا أن نرد عليه من النقد ، أما ما عدا ذلك فلا قيمة له

رشوان أحمد صادق

ذكرى مأساة غرامية شهيرة

تعنى الأوساط الأدبية الفرنسية دائماً بتتبع الحوادث والذكريات الأدبية ، ومن ذلك ما نوهت به بعض الصحف الأدبية أخيراً من مرور مائة عام كاملة على صدور كتاب لمؤلفه مكانة خاصة فى الأدب الفرنسى . وذلك هو كتاب « اعتراف طفل من أبناء العصر » La Confession d' un enfant du Siécle ؛ لمؤلفه الشاعر الغنائى الأشهر الفرد دى موسيه . وفى هذا الكتاب يعرض الشاعر فصلاً ساحراً محزناً معاً من حياته المنيفة المضطربة ، ذلك هو قصة غرامه مع الكاتبة القصصية الشهيرة جورج ساند ؛ وقد كانت هذه الكاتبة التى تضطرم شغفاً وجوى تهيم فى غمر الحب بلا انقطاع ، وتتقلب تباعاً بين أذرع عشاقها المتوالين ؛ وكان جلهم من كتاب العصر ومفكريه ؛ وكانت قبل هيامها بالشاعر خليلة لجول ساندو الكاتب ، ثم هامت من بعده بالشاعر ميرميه ، ولكن حبهما لم يكن سوى مأساة قصيرة المدى . وفى ذات يوم من أيام ابريل سنة ١٨٣٣ ، كانت جورج ساند تتناول طعام العشاء فى حفل راق ، وكان جارها فتى أنيقاً يحدثها بحرارة عن بعض قصصها ؛ ولم يكن هذا الفتى الأنيق سوى الفرد دى موسيه ؛ وفى نفس المساء هامت جورج ساند بالشاعر الفتى ، وبث اليها جوى يضطرم ؛ ولم تمض أسابيع قلائل حتى غدت صاحبته ، وغدت باريس بأسرها تتحدث بهذا الغرام الجديد ؛ وبعد بضعة أشهر سافر العاشقان إلى البندقية ؛ ثم تسربت بعد ذلك عوامل الوهن إلى غرامهما ، وانتهت قصتهما الغرامية المشجية بعد أربعة عشر شهراً فى آلام ومماناة ، وأوحت هذه المأساة الغرامية إلى الشاعر موضوع كتابه الأشهر « اعتراف طفل من أبناء العصر » . ولم يخطئ أهل العصر فى فهم ما قصد اليه الشاعر وما يعنيه بطريقة مستورة ؛ ولم تحاول جورج ساند يومئذ أن ترد عليه أو تثير حول الموضوع أية مناقشة ، خصوصاً وأن رواية دى موسيه كانت على ما يظهر تصور الحقيقة كما هى ، ولهذا اعتبرت يومئذ هى القول الفصل

ولكن الشاعر لما توفى بعد ذلك فى سنة ١٨٥٠ ، رأت جورج ساند أن تقول كلمتها فى مأساة غرامها ؛ فكتبت كتابها المسمى « هى وهو » Elle et Lui تصحح فيه بعض الوقائع والتفاصيل ، فأثار كتابها يومئذ فضيحة أدبية واجتماعية ؛ ورد عليها بول دى موسيه ولد الشاعر فى كتاب عنوانه « هو وهى » Lui et Elle

ومن ذلك الحين ظهرت عشرات الكتب والقصص عن علائق العاشقين الشهيرين ؛ وأشهر هذه الكتب وأقيمها هو بلا ريب كتاب شارل موراس الكاتب الكبير ومحرر جريدة « لا كسيون فرانسيز » وعنوانه « عشاق البندقية » Les Amants de Venise ؛ ومع ذلك فلم يكن هو الكتاب الفصل فى أمر هذه العلائق الدقيقة بين شخصيتين من أعظم شخصيات القرن التاسع عشر ؛ فقد ظهرت بعد ذلك مكاتبات ووثائق لم تنشر من قبل وفيها حقائق وتفاصيل جديدة تلقى ضياء جديدا على تلك المأساة الغرامية الشهيرة.

بيد أنه مما يلفت النظر أن هذه المكاتبات والوثائق الجديدة تؤيد رواية دى موسيه فى مجموعها ، وأن جورج ساند قد عمدت قصداً إلى تغيير بعض الحقائق والتفاصيل فى كتابها « هى وهو »

مؤسس الأدب اليهودى الشعبى

تحتفل الدوائر اليهودية الأدبية بذكرى أديب يهودى كبير هو منديل سفوريم مؤسس الأدب اليهودى الشعبى (Yidfish) وقد ولد هذا الأديب فى إحدى بلاد لتوانيا منذ مائة عام كاملة فى سنة ١٨٣٦ ؛ واسمه الحقيقى هو شولم يعقوب ابراموفتش ؛ ودرس الأدب والعلوم قراءة لأنه لم يظفر بتربية مدرسية منظمة ؛

وكان الشعب اليهودى يعيش يومئذ فى روسيا فى ظل طغيان مطبق ويعانى أمر ضروب الاضطهاد والزراية والفاقة ؛ وكانت قد ألفت فى ذلك الوقت جمعية من الشباب اليهودى المتنور تسمى « مسكليم » أعني الطلائع المثقفة وغرضها أن تعمل لادخال الأفكار والمدنية الغربية الى طوائف الشعب اليهودى التى مازالت تعيش فى ظل تقاليدها العتيقة ؛ فانضم منديل سفوريم إليهم ؛ وكان الكتاب اليهود يكتبون يومئذ إما بالروسية وإما بالعبرية ، فسار منديل فى أثرهم وأصدر أول كتبه بالعبرية ، ولكنه لاحظ أن سواد الشعب اليهودى يتحدث باللغة اليهودية (Yiffish) ، وهى مزيج شعبى من الألمانية المحرفة وعناصر أخرى عبرية وروسية وغيرها ، ورأى أن غزو أذهان هذا الشعب لا يكون إلا بمخاطبته بلغته الأصيلة ؛ عندئذ فكر منديل فى الكتابة باليهودية ؛ وكان عملا شاقا لأن هذه اللغة لم تكن لها أصول نحوية أو لغوية ، وإنما كانت لغة الحديث الطائر . ولكن منديل كان فناناً ذا مواهب ممتازة ، فاستطاع أن يخرج من هذه اللغة الشعبية لغة أدبية تصلح للكتابة والقراءة ؛ وكتب فعلا باليهودية لأول مرة ؛ ووصف للشعب اليهودى حياته المظلمة العتيقة ، وذلته الخالدة ، وبؤسه المطبق ؛ وأخذ يبث اليه روح النهوض والتحرر ، وذلك فى روايات شعبية جذابة . ولم يستطع كاتب يهودى غير منديل أن يصف نقائص أمته بمثل قوته وجرأته ودقته ، فقد وصف طوائف الشعب اليهودى ، الأغنياء والفقراء ورجال الدين والمفكرين وصفا قويا ، ولم يخف نقيصة أو مأخذا ، بل كان شديد الوطأة عليهم جميعاً ، لا بذلك ويستدر شفقته سوى بؤس الشعب اليهودى

ولمنديل سفوريم عدة قصص شهيرة منها « الفرس » « رحلة بنيامين » « ترو ا » « خاتم السعادة » وفيها يصف المجتمع اليهودى فى خلال القرن التاسع عشر فى مختلف صوره ؛ وفى قوة وصراحة لم نعرفها من قبل ؛ ومن الغريب أنه استطاع أن يجعل من هذه اللغة اليهودية المبعثرة أداة قوية فصيحة للتعبير الحى ؛ وأن يقود الطريق لجعلها لغة أدب يهودى جديد ؛ وقد سار فى أثره عدة من أكابر الكتاب اليهود فى القرن التاسع عشر فكتبوا باليهودية ، التى غدت فى يومنا لغة أدب يهودى جديد

وتوفى منديل سفوريم فى سنة ١٩١٧ وقد أربى على الثمانين بعد أن توطدت دعائم الأدب اليهودى الجديد الذى كان أول من وضع دعامته الأولى

وداع الحرية

يجد المؤرخ والقصصى مما مادة بديعة فى مصرع يوليوس قيصر ؛ فقد كان حادثاً من أنبل وأعظم حوادث التاريخ ، وكان بأدواره وتفاصيله قصة ساحرة . وقد صدرت أخيرا بالانكليزية قصة عنوانها « وداع الحرية Freefon Farewell » للكاتبة الانكليزية فيليس بنتلى ، وهى قصة تاريخية رائعة ، تستعرض فيها المؤلفة حياة قيصر ومجده الباذخ ومصرعه الفجع . وتصف لنا مس بنتلى خلال قصتها طائفة من الشخصيات الرومانية الشهيرة التى عاشت حول قيصر ، وصادقته أو ناهضت مجده مثل بومبى ، وكاتو ، وكراسوس ، ثم بروتوس قاتل قيصر . ولم تجد الكاتبة أمامها كبير مجال للتوغل فى ميدان الخيال ، ذلك أنها إنما تعرض عصرا بحوادثه وأطواره ، وتجد مادة غزيرة فى التفاصيل التاريخية الكثيرة التى تقدمها الينا الروايات المعاصرة والتواريخ القديمة . بيد أنها تجد أمامها مادة للحديث عن الأتوقراطية ، والديموقراطية ؛ وهى تحمل ما استطاعت على الأوتوقراطية وجميع مظاهرها وتمجد الحرية والديموقراطية ؛ على أنها لا تجد ما تقوله فى مديح تلك الديموقراطية الرومانية التى مات فى سبيلها قيصر واتخذ امتهانها ذريعة لاغتياله . ونحن نذكر أن بروتوس وزملاءه المؤتمرين بحياة قيصر كانوا يعملون باسم الديمقراطية ، ويتخذون من بعض مظاهر قيصر وتصرفاته حجة عليه بأنه يجنح الى الامبراطورية والحكم المطلق . وقصة مس بنتلى حسنة السبك من هذه الناحية ، بيد أنه يمكن من جهة أخرى أن يقال إنها لم تقدم الينا جديداً فى الاستعراض أو الوصف ، لأنها إنما تقتصر على الشخصيات والحوادث التاريخية الجافة . وهذا عيب نلمسه أحياناً فى كثير من القصص التاريخية . ولكن مس بنتلى تقدم الينا على أى حال قصة ممتعة تسحر بروعة أسلوبها

4 me Année, No. 142. | Lundi-23-3-1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٤ — ٢٣ مارس سنة ١٩٣٦ » العـــدد ١٤٢

فهرس العـــدد

صفحة

إلى أخى الزيات*

للأستاذ أحمد أمين

سمعت أمس لعزائك ، فى « رجائى » و « رجائك » ، فرأيتك واجماً ساهماً ، مولهاً مدلهاً ، فانعقد لسانى ، وتخاذل ذهنى ، وفاض دمعى

وكيف أستطيع عزاءك وما استطعت أن أعزى نفسى ؟ أو كيف أستطيع أن أخفف ما بك وما استطعت أن أخفف حزنى ؟

رأيت بك كمداً باطناً ، وحزناً مكتمناً ، فعلمت أنك تتجرع غصص الهم ، وتختزن برحاء الكرب ، فتمنيت أن تخفف عنك بصرخة ، وتنفس عن نفسك بدمعة ، ولكن عز الصبر ، وعز الدمع ، فما هى إلا زفرات تذيب لفائف القلوب وتنفطر لها المرائر

وارحمتاه لك ! لقد كان « رجاء » قبلة رجائك ، ومعقد

* احتسب الأستاذ الزيات صاحب « الرسالة » ابنه « رجاء » فى مستهل عامه الخامس يوم الأربعاء ١٨ مارس فى الساعة السادسة مساء ؛ رحمة الله عليه

٢٩ ه ٦

آمالك ، وحديث أحلامك ، وملء سمعك و بصرك ، تشوفتـه حياتك ، وترقبته مطلعَ شبابك ، حتى جاد به الزمان البخيل ، فربطت أسبابك بأسبابه ، وتعلقت بأهدابه ، فلما شمت مخايله ، ورقبت منه النجح ، عدا عليـه الدهر الذى لا يرعى ميثاقاً ، ولا يثبت على عهد ، فأخلف ظنك ، ونقض أملك ، فإذا الدنيا أضغاث أحلام ، ووساوس أطماع

ولـكن يا أخى — ما الجزع مما لابد منه ، وما الهلع مما قدر ، ومثلك من يعرف مقدار الحياة وهوانها ، أفليست إلا مرسحاً تمثل عليه أدوار مختلفة ، مرة مهزلة ، ومرة مأساة ، ونحن فى حين ممثلون ، وفى حين ناظرون . وليس لنا أن نبالغ فى الألم ، ونغلو فى الجزع ، فقد كان يكون لذلك وجه من الحق لو ذهب من ذهب أبداً ، وعشنا بعده أبداً ، و إنمـا الأمر دور يعقب دوراً ، ولاحق منا إثر سابق ، و إنا لله و إنا إليه راجعون

وأية سعادة نجدها فى هذه الحياة حتى نحزن على الراحل ، ونبكى على الميت ، ونود أن لو بقى ليستمتع بها ، و يتذوق طيباتها ، إنما هى سلسلة عناء ، وضروب شقاء ، تنوعت ألوانها ، واتحدت حقيقتها ، ولو أنصفنا لغبطنا من مات ، وأشفقنا على من بقى ، ومن مات فى صباه فقد اختصر الحياة واختصر همومها وأحزانها ، ووفر على نفسه عبئاً ثقيلا ينتهى مختصره بما ينتهى به مطوله ، وخير للزهرة أن تذهب وهى ناضرة تعجب الناس ، من أن تذهب وهى ذابلة يعافها الناس

فخذ الحياة كما هى ، ليـل ينقضى فى أثر ليل ، وقوم فى أثر قوم ، وحادث يستذرف الدمع يعقبه حادث يخفف الهم ، وقل كما قالت الخنساء :

فلولا كثرة البا كين حولى
على إخوانهـم لقتلت نفسى
وما يبكون مثــل أخى ولـكن
أعزى النفس عنـــــه بالتأسى

وليس الوفاء للميت بالإفراط فى الحزن ، والإمعان فى البكاء ، إنما الوفاء بمقابلة دواعى الحزن بدواعى الصبر ، وليست الحكمة فى إضعاف الحى من أجل الميت ، إنمـا هى فى أحياء الحى من أجل الحى والميت

وقد أخطأ الناس فغلوا فى استفظاع الموت والاحتفاء به ، وهولوا فى الاستكثار من مظاهره ، ولو عقلوا لقابلوه كما يقابل كل قانون طبيعى فى هذا العالم ، زهرة تنضر وتذبل ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجم يتألق و يأفل ، وسماء تصحو وتغيم — ولو عقلوا أيضاً لرددوا هذا المعنى فى نفوسهم ، واطمأنت له عقولهم ؛ فإذا كان فهو ما تخيلوه ، و إذا حدث فهو ما توقعوه ، و إذن لخف الألم وانقطع الجزع

أى أخى — ليكن ما أراده الله ، ولنلوّن حياتنا بلون من ألوان التصوف ، رضاء بالقـدر ، واستخفاف بالعالم وما فيـه ، وطمأنينة إلى قوانينه ، وإيمان بعظمة الله وسلطانه ، والتجاء إليه أن يتولاك برحمته و يظلك بإحسانه

أى أخى — لقد أصبحت منسرق القوة ، ضعيف البنية ، مرهف الحس ، رقيق الصحة — ولئن كان الانتحار جريمة لا تغتفر ، و يأساً لا يرضاه الله ، فليس هو — فحسب — فى إطلاق عيار نارى ، أو إلقاء النفس فى اليم ، أو ما عهدت من ضروب إزهاق الروح ، ولـكن من ضروبه أيضاً الاستسلام للحزن والتسمم بالغم ، والاسترسال فى أسباب الـكرب ، فهو انتحار بطىء ولـكنه شر من الانتحار العاجل أعيذك بالله منه ، وأربأ بنفسك عنه

فهوّن على نفسك ، و إن خاب رجاؤك فى « رجاء » فحقق الله أملك فى « علاء » وعش له ولنفسك وللناس

أحسن الله عزاءك ، وأجمل صبرك ، وأجزل أجرك

أحمد أمين

دُعابةُ إبليس (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما إني سأقصُّ هذه الحكايةَ كما اتفقت، لا أزيِّنها بخيال، ولا أتزيَّدُ فيها بخبر، ولا أولِّد لها معنى؛ فإنما هي حكايةُ خبث الخبيث فنها حذقُه ودهاؤه، ورقتها غلظتُه وشره، ومعانيها بلاؤه ومحنته؛ وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم والله المستعان

لما فكرتُ في وضع مقالة (إبليس) من أحاديث (ابن مسكين) وأدرتُ رأيي في نهجها وحدودها ومعانيها، جعل فكري يتقطع في ذلك، يذهب ويجيء كأن بيني وبينه منازعة، أو كأن في نفسي شيئاً يثنيني ويقطعني عن العزم؛ وخيِّل إليَّ حينئذ أن (إبليس) هذا منفعةٌ من المنافع... وأنه هو قانون الطبيعة الذي نصُّ مادته الأولى: ما أعجبك فهو لك، ونصُّ مادته الأخيرة: ما احتجتَ اليه فثمنُه أن تقدرَ على أخذه...

وهجَس في نفسي هاجسٌ أن (إبليس) قائم في لفظ الحرية كما هو قائم في لفظ الإثم، وأنه إن يكن في قلوب الفُساق فهو أيضاً في أدمغة الفلاسفة؛ ولئن كان في سقوط أهل الرذيلة إلى الرذيلة، فهو كذلك في سموّ أهل الفن إلى الفن... قال الهاجس: وإن (إبليس) أيضاً هو صاحب الفضيلة العملية في هذا العصر المادي، فهو من ثمّ حقيقٌ أن يلقّبوه صاحب الفضيلة...

ولكني لم أحفل بهذه الوساوس ولم أعُجْ على شيء منها، واستعنتُ الله وأمضيتُ نيتي على الكتابة، وأخذتُ أقلّب الموضوع، وأنبّه فكري له، وأستشرفُ لما يؤدِّي اليه النظر، وأتطلّع لما يجيء به الخاطر، وألتمس ما أبني عليه الكلام كما هي عادتي؛ فلم يقع لي شيء ألبتة كأنما ذهب أولُ ابتداءِ الموضوع فلا أولَ له ولا سبيل إلى اقتحامه، وكأنه من وراء العلم فلا يُبلغ اليه، وكأنه من التعذُّر كمحاولة تصوير حماقة الحياة كلها في كلمة

***

ومن عادتي في كتابة هذه الفصول التي تنشرها (الرسالة) أن أدع الفصلَ منها تقلِّبه الخواطر في ذهني أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس، وأترك أمره للقوة التي في نفسي فتتولد المعاني من كل ما أرى وما أقرأ وتنثال من ههنا وههنا، ويكون الكلام كأنه شيء حيٌّ أريدَ له الوجودُ فوُجد

ثم أكتب نهار الجمعة ومن ورائه ليلُ السبت وليلُ الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا نالتني فترة أو كنت على سفر أو قطعني عن الكتابة شيء مما يعرض

وفي أسبوع (إبليس) لعنه الله مرت الأيام الثلاثة وفيها ثلاثة ألوان: ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه، وكسلٌ لا نشاط معه، واضطراب لا مِساكَ له. وأطلتُ التفكير يوم الخميس فكانت تعتريني خواطر مضحكة، فيعرض لي مرة أن أصور إبليس امرأة ليكون إبليس الجميل... وتارة أتوهم أن إبليس يريد أن يكون شيخاً كبعض رجال الدين الذين لا تزال تطلع على خائنةٍ منهم، ليقال إبليس التقي المصلي... وحيناً أظن أنه يريد أن يكون كاتباً مؤلفاً شهيراً ليقال إبليس المفكر المصلح... وخطر لي أخيراً أنه يريد أن يكون حاكماً ملحداً شيوعياً فاجراً ليكون إبليس التام لا إبليس الناقص...

***

ولما ذهبت الأيام الثلاثةُ باطلاً خيِّل إليَّ أن ابليس أخزاه الله يسألني عن المقالة: إلى أي شيء انقلبتْ...؟ فشقّ ذلك عليّ واغتممتُ به، غير أني اطمأننت إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتين. وكانت قد غربت شمسُ الخميس فقلت فلأخرجْ لأتفرّج مما بي، وعسى أن أجمع نفسي للتفكير إذا جلستُ في الندىّ، ولعله يقع ما أستوحيه أو ينفتح لي بابٌ في القراءة

وخرجتُ فلم أجاوز الدار حتى ابتدرني من هبط عليه الخبر من القاهرة أن نسيباً لنا من العظماء توفي أخوه اليوم. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ ضاع يوم الجمعة إذ لا بد من السفر لتشييع الجنازة وحضور المأتم، ثم قلت: لعل في هذا السفر

(١) الدعابة المزاح واللعب، وكل ما سيرد في هذه المقالة فهو صحيح لم نخترع منه شيئاً

استجماماً ونشاطا فأستدركَ الأسبوع كلَّه في يومين ، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن ، ولا بدَّ لابليس في الموت والحياة ، فليس إلا اطِّراحُه وقلةُ المبالاة به ، وإنما هي خطرات من وساوسه

وأصبحتُ في القاهرة ومشيت في الجنازة قبل الظهر مسيرة ساعة كاملة ؛ وكانت الشمس ساطعة تتلألأ وأنا مُثقلٌ بثياب الشتاء ، وكنت أتوقع أن يكون اليوم من أيام الريح المجنونة . فلما انتهينا إلى الصحراء هبّت الريحُ هبوبا لينا ثم زَفَّتْ فكانت إلى الشدة ما هي ، ولكنها ماضية تَسْفي الرملَ في الأعين فيأخذ في أجفاني أُكالٌ وتهييج ، وليس معي شيء أتّقيها به . غير أني شغلت فكري برؤية المقابر وجعلتها في نفسي كالمقالة المكتوبة سطراً وراء سطر ؛ وقلت : ههنا الحقيقة في أول تفسيرها ، وغير المفهوم في الحياة يُفهم هنا

ثم رجعت مُندًّى الجسم بالعرق وعليَّ نَضْحٌ منه ، وكان القميص من الصوف ، وبصدري أثر من النزلة الشُّعبية ؛ وإذا تندّى الصوف وجب نزعه وإلا فهي العلةُ مامنها بد

ثم لم تكن غير ساعة حتى انخرقت الريح وجعلت تمصف وبَرَدَ الجو فأيقنتُ أنه الزكام ، وقلت في نفسي : هذا بابٌ على حِدَة ، والمقالة ذاهبة لا محالة فسيتخلّف الذهن ويتبلّد ؛ والشيطانُ كريم في الشر يعطي من غير أن يُسأل . . . .

وثقل ذلك عليَّ فكان الغم به علةً جديدة ، بيد أني لم أزل أرجو الفرصة في أحد اليومين السبت والأحد . وقلت : إن من البلاء الفكرَ في البلاء ، ولعل من السلامة الثقة بالسلامة ؛ فاذا نبهتُ العزيمة رجوتُ أن يتفاءل أثرها في البدن كله فيكون علاجاً في الدم يحدث به النشاط ويُرهَفُ منه الطبع وتجمُّ عليه النفس . وفي قوة العصب كهربائية لها عملها في الجسم إذا أحسن المرءُ بعثَها في نفسه وأحكم إفاضتها وتصريفَها على طريقة رياضية ؛ ولهي الدواء حين يعجز الدواء وهي القوة حين تخذل القوة

فاعتزمتُ وصمّمتُ واحتلتُ على الارادة وتكثّرتُ من أسباب الثقة وترصّدتُ لها السوانح العقلية التي تسنح في النفس وقلت لابليس : اجهد جهدك فما تذهب مذهباً إلا كان لي مذهب ؛ ولكن اللعين أخطر في ذهني قول القائل يسخر بذلك الكاتب البغدادي (١)

لو قيل : كم خمسٌ وخمسٌ لاغتدى ... يوماً وليلتَه يَعُدُّ ويَحْسُبُ
ويقول : مُعْضِلةٌ عجيبٌ أمرُها ... ولئن فهمتُ لها ، لأمرِيَ أعجبُ
خمسٌ وخمسٌ ستةٌ أو سبعة ... قولان قالهما الخليلُ وثعلبُ

* * *

ثم أجمعتُ الرجوعَ من يومي إلى (طنطا) لأتقي البردَ بعلاجه إن نالني أثره ، وكان عليَّ وقتٌ إلى أن يقوم القطار ، فذهبتُ فقضيت واجباً من زيارة بعض الأقارب في ضاحية (الجيزة) ، ثم ركبت الترام الذي أعلم أنه ذاهب إلى محطة سكة الحديد

وجلست أفكر في إبليس ومقالته ، والترام ينبعث في طريقه نحو ثلث الساعة ، حتى بلغ الموضع الذي ينعرج منه إلى المحطة ، وهو بحيال (جمعية الاسعاف) ، حيث تنشعب طرق أخرى ؛ وكنت منصرفاً إلى التفكير مستغرقاً فيه ، طائف النظرات على الجو ، فما راعني إلا اختلافُ منظر الطريق ؛ وأنتبه فاذا الترام يَمْرُق مروق السهم في تلك السبيل الصاعدة إلى (الجيزة) .... من حيث جئت

فلعنت الشيطان وتلبثتُ حتى وقف هذا الترام فغادرته ورجعت مهرولا إلى ذلك المنشعب ، فصادفت تراماً آخر ، فوثبت اليه كأني أُحمل اليه حملا ، ودفعت الأجرة ، وانطلق فاذا هو منصبٌّ في تلك الطريق عينها الذاهبة إلى الجيزة من حيث جئت . . . ولا أستطيع الانحدار منه وهو منطلق ، فتسخّطت ولعنت الشيطان مرة أخرى ، ورأيت أن عبثه قد ترادفَ ، فلما سكن الترام رجعت مهرولا إلى ذلك المنشعب ولم يبق من الوقت غير قليل

وأنظرُ ثمَّ فاذا ترامٌ وراء ترام ، وإذا قد وقعت حادثة

(١) قيل هذا الشعر في وصف مروان الكاتب وهو رجل من بغداد وكان كاتبا على الخراج فسخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع

لاحدى السيارات واجتمع الناس وسُدَّت الطريق .... فجمات أغلى من الغيظ ، ولعنت هذا الدَّعابة الخبيث ، وأذكرنى اللعين نادرة الأعرابى الذى عضه ثعلب ، فأتى راقياً ، فقال له الراق : ما عضك ؟ فاستحى أن يقول ثعلب ، وقال : كلب ، فلما ابتدأ الرجل برقية الكلب قال له الأعرابى : واخلط بها شيئاً من رقية الثعالب .....

* * *

ثم إنى لم أر بداً من بلوغ المحطة على قدمى لأتمّ على عزيمتى فى مراغمة اللعين ، فأسرعت أطوى الأرض وكأنما أخوض فى أحشائه ، وكان بصدرى التهابٌ فهاج بى ، غير أنى تجلدت واتسعتُ لاحتماله وبلغت حيث أردت

ثم ذهبت ألتمس فى القطار عربة خاصة أعرفها ، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها فى الثانية يرفهون بها بعض الترفيه على طائفة من المسافرين ؛ وأصبت فيها مكاناً خالياً كأنما كان مهيأ لى بخاصة ... فانحططتُ فيه إلى جانب رجل أوربى أحسبه ألمانياً لتفاوت خَلْقِه وعُنْجُهيّته ؛ وجلست أنفس عن صدرى ثم أقبلت أسخر من إبليس ونكايته ، وجعلتُ أتعجب مما اتفق من هذا التدبير

وتحرك القطار وانبعث وكان الأوربى إلى جانبى مما يلى النافذة وقد تركها مفتوحة فأحسستُ الهواء ينصب منها كالماء البارد وأنا متندٍّ بالعرق ؛ وترقبت أن يغلقها الرجل فلم يفعل ، فصابرتُه قليلاً فاذا هو ساكن مطمئن يتروَّحُ بالهواء وكأنما يشربه ، وتأملته فاذا شيخٌ فى حدود الستين أو فوقها غير أنه على بقية من قوة مصارع فى اكتناز عضله واجتماع قوته ووثاقة تركيبه ، فأيقنت أن الهواء من حاجته ، وهممتُ أن أنبهه أو أقوم أنا فأغلق النافذة ، ولو شئت أن أفعل ذلك فعلت ، غير أن الشيطان أخزاه الله وسوس لى أن هـذا رجل أجنبى غربى وأنت مصرى شرقى فلا يحسن بك أن تسلمه وتعلم الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعف على حين أنه هو الأسنّ ، وكيف لا تقوم لما يقوم له وقد كنتَ تُباكِرُ الماء البارد فى صميم الشتاء ، وكنت لا تلبس فى أشد أيام البرد غير ثياب الصيف ، وكنت تحمل كذا وكذا ثقلاً وتُمانى كذا وكذا من ضروب القوة ، وكنت تلوى بيديك عود الحديد وكنت وكنت

فتذممتُ والله ممـا خطر لى ؛ وأنِفتُ أن أنبه الرجل ، ورأيت عملى ضعفاً وفسولة ، ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام ، وتركت الأوربى وشأنه ، وأقبلت على كتاب كان فى يدى وتناسيت أن هذه النافذةَ جهةٌ من تدبير إبليس ؛ وكان القطار مزدحماً بالراجعين من المعرض الزراعى الصناعى وبعض الناس وقوف فلا مطمع فى مكان آخر . . .

ولبثتُ ساعة ونصف ساعة فى تيار من هواء فبراير ينصبُّ انصباباً ويعصف عصفاً وكأنى أسبح منه فى نهر تحت ظلمة الليل الماطر ، والناس معجبون بى وبالأوربى ، وهذا الأوربى معجب بى أكثر منهم وقد رأى مكانى وعرف موضعى ؛ وكان إلى يمينى مجلس بقى خالياً ولم يقدم أحد على أن يجلس فيه خوفاً من الهواء ومن الرجل الأوربى . . .

ثم تراءيتُ أنوار محطة (طنطا) ولم يبق من هذه المحنة غير دقيقتين ؛ فوالله الذى لا يُحلفُ بغير اسمه عز وجلّ ، لقد كان إبليس رقيعاً جلفاً بارداً ثقيل المزاح إذ لم أكد أتهيأ للقيام حتى رأيت الرجل الأوربى قد مدَّ يده فأغلق النافذة . . .

* * *

ورجعت إلى دارى وأنا أقول : ثم ماذا يا إبليس ؛ ثم ماذا أيهـا الدُّعْبب(١) ؟ وحاولت بجهدى أن أكتب أو أقرأ فلم أتحرك لشىء من ذلك ، وكانت الساعة العاشرة ليلاً فصليت وأويتُ إلى مضجعى

ثم أصبحت يوم السبت فاذا كتاب من الأستاذ صاحب (الرسالة) أنه سيطبع عددين معاً فيريد لهما مقالتين إذ تغلق المطبعة فى أيام عيد الأضحى ، وكان أملى فى المقالة الواحدة مخذولاً ممـا قاسيت فـكيف لى باثنتين ؟

واختلط فى نفسى همٌّ بهمّ وما يفسد علىَّ أمرى شىء مثلُ الضيق فاذا تضايقتُ كنتُ غير من كنت ؛ ولـكنى تيقظت وتنبهت وأملتُ العافية مما أجده من ثقلة البرد وضعفته ، وأحدثتُ طمعاً فى النشاط إذا جلست للكتابة فى الليل فانى بالنهار أعمل للحكومة

(١) الدعب والمداعب والدعابة (بتشديد العين) كلها بمعنى

فلما كان الليلُ لم أجد أمرى على ما أحب ، وجلستُ متفترا معتلاً وثقُل رأسى من ضربة النافذة وتسلَّط على ظنُّ المرض والعجز عن الكتابة ، وانتقض الأمر كله فرأيتُنى أشقُّ على نفسى بلا طائل ، فكان من صواب التدبير عندى أن استجمَّ بالنوم ثم أنهض فى السَّحَر للكتابة . فأوصيت من يوقظنى وحررنا الساعةَ المنبهة على تمام الثانية بعد منتصف الليل

وأحسست أنى جائع وأن معــدتى مشحوذة ونسيت كل ما أعرف من الطب ؛ وجاءونى بشواء وحلوى وما بينهما ، خلطتُ فيه ولففتُ الآخر بالأول ، ثم قمت أريد النوم فاذا الطعام كان أشد على من نافذة القطار ، وكان الذى فى الفكر من المقالة أثقلَ من الذى فى المعدة من الطعام ، وساء الهضم فى الدماغ والبطن جميعاً

وجعلت أتناوم وأرخى أعضائى وأتوهم الكرى وأستدنيه بكل ما أعرف من وسيلة ثم لا أزداد على ذلك إلا أرقاً ، وتَمرَّد الفكر وأحسست رأسى يكاد ينفجر وصرتُ أَتَمَلْمَل ولا أَتقَارُّ ، وتوهمتُ أن لو كان لى عقلان ما استطعتُ كتابة المقالة عن إبليس لعنه الله . وأذكرنى الخبيث نادرة مضحكة : أن رجلا كان يركب حماراً ضعيفاً وكان يمشه فلا ينبعث ، فجعل يضربه فقيل له : ارفق به . فقال إذا لم يقدر يمشى فَلِم صار حماراً ....؟

***

وقذفت بنفسى من الفراش ونظرت فى الساعة فاذا هى موشِكَةٌ أن تبلغ الثانية ولم أحسَّ الرقاد بعد ، فأسرعت إلى المنبِّهة وحرّرتها على تمام الساعة الرابعة صباحا ؛ وأيقنت أن الشيطان يُرهقنى طغياناً وكيداً فطفقتُ ألعنه وما أحسبه إلا قد رأى اللعن مدحاً فهو يستزيدنى . . .

ثم رجعت أحاول النوم فما كان هذا الليل إلا شيئاً واحداً أوله آخره إلى أن طلع الفجر

وجاء يوم الأحد وهو يوم عُطْلة الأوربيين فما أشد عجبى إذ تركنى فيه ابليس كأنهم لا يَدَّعون له وقتاً فى هذا اليوم .....

والآن يزيّن لى الخبيث أن أختم هذه المقالة بـ .... بـ ....

ولـكن لا . لا ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

أوربا على المنحدر

١ ـ من فرساى إلى لوكارنو

مسألة الرين وســلام أوربا

بقلم باحث دبلوماسى كبير

وقع فى السابع من مارس الجارى حدث عظيم فى السياسة الدولية لا زالت أصــداؤه تدوى فى أرجاء أوربا ، ولا زالت آثاره ونتائجه موضع البحث الخطير فى دوائر السياسة العليا . ذلك هو إقدام الحـكومة الألمـانية على إلغاء ميثاق لوكارنو الخاص بتأمين السلام على ضفاف الرين ، واقدامها فى نفس الوقت على إلغاء آخر التعهدات والقيود العسكرية التى فرضتها عليها معاهدة الصلح ، ووضع فرنسا وأوربا أمام الأمر الواقع باحتلال منطقة الرين الشرقية التى قضت معاهدة الصلح بتجريدها من السلاح ومن كل وسائل الدفاع العسكرية

ولم يكن عمل ألمانيا مفاجأة مطلقة ، فقد كان معروفاً منذ أسابيع أنها تفكر فى انتهاج مثل هــذه الخطة ، وأنها تترقب الفرصة لتنفيذها ؛ ومنذ أسابيع تتحدث الصحافة الألمانية عن منطقة الرين ووجوب تسليحها استكمالاً لحقوق السيّادة الألمانية وصوناً لشرف ألمانيا وكرامتها ، ومنذ أسابيع تتحدث الصحافة الفرنسية عن نيات ألمانيا ، وما يجب على فرنسا أن تتخذه إذا أقدمت ألمانيا على تنفيذها

وقد نفذت ألمانيا خطتها ، واحتلت منطقة الرين الحرام فصائل من الريخسفر (الجيش الألمانى) فى نفس الوقت الذى ألقى فيه الهر هتلر من منبر الريخستاج الذى عقد خصيصاً لهذا الغرض خطابه القوى الجامع عن موقف ألمانيا تجاه السياسة الأوربية ، وتجاه فرنسا ، وأعلن فيه إنكار ألمانيا لنصوص ميثاق لوكارنو ، واعادة حقوق الســيادة الألمانية كاملة على منطقة الرين

ويجب لـكى نفهم حقيقة هذا الحدث السياسى والعسكرى

الخطير، وحقيقة البواعث التي حملت ألمانيا على انتهاجه، ومدى تأثيره في السياسة الأوربية، أن نستعرض أولا نصوص معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) الخاصة بمنطقة الرين، ثم نصوص ميثاق لوكارنو الخاص بتأمين السلام على ضفاف الرين، وأن نتتبع تطورات السياسة الأوربية الأخيرة التي مهدت إلى هذا الطور الخطير الحاسم

معاهدة فرساي ومنطقة الرين

كان ضمن الشروط والأغلال الفادحة التي فرضتها معاهدة الصلح على ألمانيا أن تجرد مناطق الرين الألمانية من سلاحها سواء ما كان منها غرب هذا النهر ملاصقاً للحدود الفرنسية والبلجيكية أو ما كان منها شرق هذا النهر على بعد خمسين كيلومترا داخل ألمانيا ذاتها. وقد أدمج تجريد منطقة الرين الألمانية من السلاح في المواد ٤٢ و٤٣ و ٤٤ من معاهدة فرساي، وهذا نصها:

يحظر على ألمانيا أن تستبقي أو تنشيء تحصينات سواء في الضفة اليسرى من الرين، أو في الضفة اليمنى غرباً على مدى خط طوله خمسون ميلا شرقي النهر (٤٢)

يحظر أيضا أن يستبقي أو يحشد في المنطقة السابقة قوات مسلحة سواء بصورة دائمة أو بصورة مؤقتة، وكذلك يحظر إجراء أية تمرينات عسكرية مهما كان نوعها، أو الاحتفاظ بأية إجراءات مادية لتسهيل التعبئة (٤٣)

إذا خالفت ألمانيا بأي صورة ما نصوص المادتين ٤٢ و٤٣، فانها تعتبر أنها قد ارتكبت عملا عدائيا ضد الدول الموقعة على هذه المعاهدة، وأنها تحاول تعكير السلام العالمي (٤٤)

فهذه المواد الثلاث تجعل من ولايات الرين الألمانية منطقة محرمة من الوجهة العسكرية على ألمانيا؛ والغرض من وضعها تحت هذا النظام واضح، وهو أن تبقى أبواب ألمانيا الغربية مفتوحة أمام الجيوش الفرنسية والبلجيكية المرابطة على الحدود بحيث تستطيع في حالة وقوع حرب أو أعمال عدائية أن تقتحم الأراضي الألمانية في الحال قبل أن تستطيع الجيوش الألمانية تخطي المنطقة الحرام ومواجهة الغزاة

وكان هذا الشرط الفادح الى جانب تجريد ألمانيا من السلاح وانزال جيشها إلى مائة ألف، وتقييدها بأشد القيود فيما يتعلق بالمنشآت البحرية والجوية وصنع الذخائر، أشد ما يحز في نفس ألمانيا ويصدم عزتها كدولة عظمى لها ماض عسكري مجيد بين دول القارة العظمى، ولكن ألمانيا استطاعت بعد كفاح طويل شاق أن تحطم نصوص معاهدة فرساي وأن تتحرر منها تباعا؛ وكان آخر ظفر لها في هذا الميدان في شهر مارس من العام الماضي حينما أعلنت على لسان زعيمها هير هتلر بطلان النصوص العسكرية في معاهدة فرساي وتقرير حريتها المطلقة في اتخاذ أي إجراءات تراها للدفاع عن نفسها، وتقرير الخدمة العسكرية الاجبارية؛ وذلك ردا على ما قررته فرنسا يومئذ من إطالة الخدمة العسكرية؛ ولم يكن باقياً من القيود العسكرية التي فرضت على ألمانيا سوى تجريد منطقة الرين وتحريمها كما تقدم، وكان هذا النظام التي رتبته معاهدة الصلح قد تأيد بعهد جديد عقد بين ألمانيا وأعدائها السابقين لتأمين السلام على ضفاف الرين، ونعني به ميثاق لوكارنو؛ ولكن ألمانيا رأت أخيرا في عقد الميثاق الفرنسي الروسي الجديد ما يحملها على اعتبار ميثاق لوكارنو باطلا منقوضاً؛ ومن ثم فقد أعلنت على لسان زعيمها في السابع من الشهر الجاري بطلان ميثاق لوكارنو، وبطلان نصوص معاهدة الصلح الخاصة بتحريم منطقة الرين، التي تحتلها الآن قوات عظيمة من الريخسفر (الجيش الألماني) وبذلك أتمت ألمانيا تحطيم آخر الأغلال العسكرية التي فرضت عليها في فرساي

ميثاق لوكارنو

وهكذا نرى أهمية الصلة المباشرة بين تجريد منطقة الرين وبين ميثاق لوكارنو؛ فميثاق لوكارنو يؤيد النظام الذي قررته معاهدة الصلح لمنطقة الرين. وقد عقد ميثاق لوكارنو في سنة ١٩٢٥؛ وكانت ألمانيا في الواقع أول من سعى إلى عقده. ذلك أن السياسة الألمانية كانت تقوم في ذلك الحين على فكرة التوفيق والتفاهم والتعاون؛ وكان عميدها يومئذ الدكتور شتريزمان يرى أن ألمانيا تكسب بالتفاهم مع فرنسا أكثر مما تكسب بالخصومة والمقاومة، وعرضت ألمانيا يومئذ أن تعقد مواثيق بتأمين السلامة المتبادلة وعدم الاعتداء والتحكيم؛ وعقد مؤتمر لوكارنو على أثر ذلك وشهده ممثلو الدول ذات الشأن وفي مقدمتها ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى، وأسفر المؤتمر عن عقد ميثاق بالضمان المتبادل بين ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا العظمى وإيطاليا، وعن اتفاقات بالتحكيم بين ألمانيا وبلجيكا وألمانيا

وفرنسا ، وألمانيا وبولونيا ، وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا . وكانت فكرة ألمانيا ترمى إلى قصر الميثاق على منطقة الرين ، أعنى حدود ألمانيا الغربية ، ولكن فرنسا أصرت على أن يشمل الضمان الحدود الشرقيـة ، وأن يسمح لفرنسا بمعاونة بولونيا فى حالة خرق معاهدة التحكيم الألمانية البولونية ؛ وأصرت انكلترا من جانبها على أن يقصر تعهدها بالضمان على منطقة الرين . وكان أهم نتائج مؤتمر لوكارنو بالطبع هو ميثاق السلامة الشهير الذى سمى بهذا الاسم ، والذى عقد فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٥

وقد أدمج هذا الميثاق الشهير فى الملحق (ا) من معاهدات لوكارنو ، متضمناً لخمس مواد ؛ ونص فى ديباجته على أن الدول الموقعة عليه وهى ألمانيا ، وبلجيكا ، وفرنسا ، وبريطانيا العظمى ، وإيطاليا تقوم بعقد هذا الميثاق سعياً إلى تحقيق رغبة الشعوب التى عانت ويلات الحرب الكبرى فى السلامة والحماية

وتنص المادة الأولى من الميثاق على أن هـذه الدول المتعاقدة تضمن ضماناً مشتركا جامعاً بقاء الحدود والأوضاع الأرضية القائمة بين ألمانيا وبلجيكا ، وبين ألمانيا وفرنسا ، وعدم انتهاك هذه الحدود والأوضاع التى قررتها معاهدة الصلح المعقودة فى ٢٨ يونية سنة ١٩١٩ ، وكذلك تضمن مراعاة نص المادتين ٤٢ و٤٣ من المعاهدة المذكورة وهما الخاصتان بالمنطقة المجردة

وتنص المادة الثانية على أن ألمانيا وبلجيكا ، وكذلك ألمانيا وفرنسا تتعهد كل منهما إزاء الأخرى ألا تعتـدى عليها بأى حال أو تغزوها أو تلجأ إلى محاربتها مع استثناء الأحوال الآتية : (١) استعمال حق الدفاع الشرعى أعنى مقاومة انتهاك العهود المشار اليها أو انتهاك نص المادتين ٤٢ و٤٣ من معاهدة الصلح إذا اتخذ هذا الانتهاك صفة عمل أو اعتداء لا مبرر له ، واقتضى حشد القوات المسـلحة فى المنطقة المجرد اتخاذ الاجراءات السريعة (٢) اتخاذ الاجراءات التى تنص عليها المادة ١٦ من عهد عصـبة الأمم (وهى الخاصة بتوقيع العقوبات الاجماعية على الدولة المعتدية) (٣) العمل تنفيذاً لقرار تتخذه الجمعية العمومية للعصبة أو مجلسها طبقاً لنص المادة ١٥ فقرة ٧ من ميثاق العصبة (وهى الخاصة باجراءات التوفيق والتسوية عند وقوع الخلاف)

وتنص المادة الثالثة على أنه بناء على التعهد المدون فى المادة الثانية تتعهد ألمانيا وبلجيكا ، وألمانيا وفرنسا ، بأن تعمل كل منهما على تسوية أى خلاف يقع بينهما مهما كان نوعه بالوسائل السلمية وطبقاً للاجراءات المبينـة بعد ، إذا لم يمكن تسويته بالوسائل الدبلوماسـية المعتادة وأن كل خلاف يقع بين الفريقين خاصاً بحقوقهما المتبادلة يعرض للتحكيم القضائى ويتعهد الفريقان بالخضوع لقراراته ؛ وتعرض المسائل الأخرى على لجنة للمصالحة ، فاذا لم يقبل الطرفان حكمها أحيلت المسألة على مجلس عصبة الأمم ويتبع المجلس فى شأنها نص المادة ١٥ من ميثاق العصبة

وتنص المادة الرابعة على أنه إذا ادعى أحد المتعاقدين بأنه وقع انتهاك لنص المادة الثانية من هذه المعاهدة أو نص المادتين ٤٢ و٤٣ من معاهدة فرساى ، فانه يعرض الأمر على مجلس العصبة ؛ وأنه إذا اقتنع المجلس بوقوع هذا الانتهاك فانه يدعو الدول الموقعة على هذه المعاهدة حالاً ، وهى تتفق فيما بينها بالاجماع على معاونة الدولة التى وقعت ضدها المخالفة ؛ وأنه إذا وقع انتهاك المادة الثانية من هذه المعاهدة أو المادتين ٤٢ و ٤٣ من معاهدة الصلح ، فان باقى الدول الموقعـة تتعهد بمعاونة الدولة التى وقع ضدها الانتهاك حالما يثبت أن الاعتداء وقع دون مبرر ، سواء كان ذلك بعبور الحدود ، أو وقوع الأعمال العدائية أو حشد القوات المسلحة فى المنطقة المجردة ؛ هذا ويصدر مجلس العصبة قراراته فى الموضوع الذى يرفع اليه طبقاً للفقرة الأولى ، وتتعهد الدول الموقعـة أن تتبع توصياته بشرط أن يوافق عليها بالاجماع من جميع الأعضاء ماعدا ممثلى الفريق الذى ارتكب الاعتداء

وتنص المادة الخامسة والأخيرة على أن الدول الموقعة تضمن تنفيذ نصوص المادة الثالثة من هذه المعاهدة . . . الخ

***

هذه خلاصة وافية لميثاق لوكارنو ؛ ونلاحظ أن الميثاق يرمى قبل كل شىء إلى تأمين السـلام بين فرنسا وألمانيا عن طريق تأمين سلامة الحدود الألمانية الفرنسية ، وأنه يؤيد معاهدة الصلح بقوة فيما أوردته خاصاً بتجريد منطقة الرين من وسائل الدفاع ، وأنه ينوه بصفة خاصة بالأهميـة التى تعلقها فرنسا على استبقاء هذه المنطقة بحالتها التى قررتها معاهدة الصلح ؛ ونلاحظ من جهة أخرى أهمية الميثاق فيما يتعلق بتسليم ألمانيا نهائياً بالأوضاع والحدود التى قررتها معاهدة الصلح على ضفاف الرين ، وفيما ينطوى عليه ذلك من نبذها نهائياً فـكرة المطالبة بتعـديل حدودها

٣ـ التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

أرى واجباً عليّ قبل المضي في موضوع هذا المقال أن أبدأ باستدراك لا بد منه . فقد عاب عليّ بعض أصدقائي من المفكرين أني أنكرت فيما كتبت ناحية ذات شأن من نواحي الحياة في مصر ولم أعرها التفاتاً . ويعتقد هؤلاء الأصدقاء أن لتلك الناحية خطرها في صبغ الحالة الاجتماعية في مصر بصبغة خاصة . ولو أنهم عنوا بتلك الناحية شيئاً غير الأزهر إذن لكان لما يعيبون به عليّ من الوزن قدر غير يسير ؛ أما وأنهم يعنون الأزهر ويقولون بأنه معسكر ثالث من معسكرات العوامل المؤثرة في الحالة الاجتماعية في مصر، ينبغي لنا أن نحسب حسابه ، وأن نتناوله بالتحليل والنقد ، وأن نزن أثره في تكييف الحالات الاجتماعية ، فأكبر ظني أني لن أسلم برأيهم مهما ساقوا في سبيل اثباته من بينات . ذلك بأن بينة واحدة تكفي لهدم جميع ما يقيمون من دلائل ، فان القوى التي تؤثر في حالة اجتماعية بعينها ، إنما هي القوى الموجبة لا القوى السالبة ، والأزهر ، ولا شبهة ، قوة سالبة . قوة اتجهت بكل ما فيها من عوامل الحياة إلى الأخرويات لا إلى الدنيويات

وأنت ترى في كل الأطوار التي تقلبت فيها الأمم منذ بداءة العصر الانتاجي الحديث أن القوى السالبة فيها انحصرت في فئتين : الأولى رجال الدين ، والثانية رجال الحكومة ، وهما بما فيهما من صفات السلب والمحافظة كانتا في كل الحالات دريئة طالما حمت جسم المجتمع من كثير من الهزات العنيفة والانقلابات الخطيرة التي يجنح اليها الغــلاة من المصلحين أو السياسيين ، وإن لهذا الموضوع لظرفاً آخر غير هذا الظرف قد يتاح لنا فيه أن نبحثه بحثاً أوفى

***

فرغنا في مقالنا الثاني من الكلام في التطفل الاجتماعي وأحطنا ببعض ظواهره ، وأثبتنا أن هذه الظاهرة تنخر في عظام مجتمعنا كما ينخر السوس الحب . واليوم ننتقل إلى ظاهرة اجتماعية أخرى ، لا تقل عن ظاهرة التطفل الاجتماعي فعلاً وأثراً ، تلك ما أسميه ظاهرة « الرجعية » ، ولا أعني بها رجعية فكرية أو سياسية أو غير ذلك ، فلو أنها كانت من هذا الطابع لهان الخطب ، ولما أعرتها كبير اهتمام . ذلك بأني أعتقد أن بعض ظواهر الرجعية ، كالرجعية الفكرية أو السياسية ، وما يجري مجراها ، تحمل في تضاعيفها أسباباً تولد قوى ارتقائية ، وإنما أعني بها الرجعية الاجتماعية ، وأكبر ظواهرها عزوفنا عن التفقه بفقه ثقافتنا التقليدية

ولا مرية في أننا نحتاج الى تعريف هــذه النظرية الجديدة التي نسوقها اليوم لتكون أساساً في علاج حالات اجتماعية بعينها . بل نقول إن بعدنا عن درس هذه النظرية كان سببا من الأسباب الرئيسية التي هيأت المقتضيات الأولية للشعور بأننا قد أقدمنا على أزمات اجتماعية قد تكون في المستقبل بالغة منتهى الخطورة

أما ما نعني « بالثقافة التقليــدية » فمجموعة الحــالات والملابسات التي ينشأ شعب من الشعوب مكتنفا بها من حيث

الغربية واستعادة ولايتي الالزاس واللورين

ونستطيع أيضاً أن نقدر أهمية النتائج الخطيرة التي تترتب اليوم على إنكار ألمانيا لنصوص معاهدة الصلح ، ونصوص ميثاق لوكارنو ؛ فهي تحطم اليوم آخر أغلال فرساي العسكرية وتحقق سيادتها العسكرية كاملة في منطقة الرين ، وتواجه خصيمتها القوية (فرنسا) فيما يتعلق بوسائل الدفاع عن حدودها وجهاً لوجــه ؛ ثم هي تعلن ضمناً أنها لا تقبل الأوضاع والحدود المقررة لحدودها الغربيــة ، وأنها في حل من أن تعود غداً إلى المطالبة بالالزاس واللورين

هذا وسنعرض في فصل آخر إلى البواعث والأسباب التي تذرعت بها ألمانيا لتحقيق غايتها وإلى الآثار الدوليــة التي يمكن أن تترتب على تصرفها

(للبحث بقية) (***)

طبيعة الأرض والاقليم ، وما يتطلب ذلك من المكوف على فن خاص من فنون الحياة . وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التى ورثها شعب من الشعوب على مدى الأزمان من طريق التأثر الطبيعى بالبيئة والمحيط ، كما تدل على مجمل ما ثبت فى عقليته بالقاح السُّلاكى من عادات وأساطير وعلوم وآداب ، نشأت بنشأته فى مرباه الأصيل . وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب إنما هى فى الواقع جماع ما يرث من صفات حيوية ومعتقدات وفنون عن أسلافه الأولين

وما كان لشعب من الشعوب أن يحاول الافلات من أقطار ثقافته التقليدية إلاّ وباء بالفشل المحقق فيما يحاول . ذلك بأن الثقافة التقليدية هى الأصل الذى يرتكز عليه الطبع الماثل فى أخلاق الأمم وطرق سلوكها فى الحياة . وما قولك فى ثقافة يرتشفها الطفل مع ما يرتشف من لبن أمه وهو رضيع ويشب مكتنفاً بها إذا يفع ، ويفتتن بفنونها إذا تفَتّى ، ويغرم بها إذا اكتهل ، ويموت وهى مرتسمة فى تصوراته جيماً إذا هرم . لا مرية فى أنها تصبح جزءا من طبعه وركناً من أركان نفسه ، بل إن شئت فقل إنها الركن الأصيل فى حياته النفسية والعقلية ، وما عداها توابع لها ولواحق بها . وإنما تتأثر التوابع بالأصل ، وتتكيف اللواحق بالأرومة ، فما من ثقافة حديثة تضاف الى ثقافة تقليدية إلاّ وتكيف الدخيل تكيفاً يتابع فيه ما يحتاج اليه الأصيل من ملابسات . مثل ذلك أن الطبع المصرى ، وإن شئت فقل « المصرية » ، لن تنسخ منها الأوروبية شيئاً إن هى احتكت بها ، وإنما تتكيف « الأوروبية » بعوامل « المصرية » إن هما تنافستا فى ميدان واحد . وليس فى ذلك أى خطر على كياننا التقليدى . ولكن الخطر كل الخطر فى أن نضعف من مصريتنا بالبعد عن ثقافتنا التقليدية فتكمن فى تضاعيف النفس ولا تظهر إلاّ ضعيفة منهوكة ، ونقوى من « الأوروبية » فنأخذها غير مكيفة بمقتضيات ثقافتنا التقليدية . ناهيك بأننا لسنا أوربيين بالدم والتقاليد ، فلا نستطيع أن نفهم من روح الأوروبية على ما يفهمها الأوروبى إلاّ ظواهرها الكاذبة ، فنصبح وقد قمعنا مصريتنا من ناحية ، ولحقنا عقولنا «بالأوروبية» من جهة أخرى . وما كل هذا إلاّ طلاء خادع ومن ورائه تختفى الحقيقة التى يجب علينا جميعاً أن نفطن اليها ، وأن ندرسها أوفر الدرس ، وأن نكب على تفهم روحها أقوم فهم ، حتى نستطيع أن نهيء للأجيال الآنية سبيل التكيف بروح العصر تكيفاً مطابقاً لثقافتنا التقليدية ، فنخطو بثبات نحو حالات اجتماعية أثبت من حالاتنا الحاضرة . وفيما تقدم من شرح مجمل ما نعنى « بالرجمية الاجتماعية » : فهى قمع لمقتضيات التكيف بثقافتنا التقليدية من طريق الفصل بين هذه الثقافة الموروثة وفنون الحياة فى العصر الحديث

تتصل ثقافة الشعوب التقليدية اتصالاً وثيقاً بحالاتها المعاشية أولاً ، فاذا استكملت هذه الثقافة الأسس المعاشية التى تعين الشعوب على البقاء ، أثرت هذه الثقافة تأثيراً آخر فى مزاج الشعب ، نهايته أن تتكيف فيه أشياء ثلاثة هى فى الواقع ظواهر هذه الثقافة . الدين واللغة والفن ، وفى هذه الأشياء جماع ما يتجلى لناظريك فى الأمم من الخصائص الأخرى كالخلق والحالات النفسية والشعورية إلى غير ذلك

ولا بد لنا من أن نضرب بعض الأمثال لتفصح بعض الشيء عن حقيقة هذه النظرية . فالبداوة مثلاً ثقافة تقليدية لكل القبائل التى تعيش متبدية ، وجميع ما يتصل بالبداوة أس من الأسس التى تقوم عليها ناحية من نواحى الحياة فى أهل البدو ، والبداوة لأهل البادية بداية الحياة ، لأن فيها تتجلى روح القبيلة التى بها تحتفظ الجمية بيقائها وتصون كيانها ، ومن مجموع التصورات والادراكات التى تتمثل لأهل البادية تنشأ الفكرة الدينية ثم تنشأ اللغة ثم ينشأ الفن ، ومن بعد ذلك تتحور الأخلاق فتأخذ طابعاً خاصاً ، ومن ثم يتكون قانون العرف البدائى ، وهلم جراً . فهل من المستطاع مثلاً أن تنفك جمية طبيعتها البداوة عن كل ما توارثته على مدى الأجيال ، وتنسلخ عن كل ما انتقل اليها عن أسلافها الأقدمين ، فتلبس من الأخلاق ثوباً جديداً وتتبدل من التصورات والأفكار والأخيلة والعقائد واللغة والفن غيرها مما لا علاقة له بثقافتها التقليدية ، ثم تستطيع بعد ذلك أن تحتفظ بكيانها الأصيل من غير أن يهز ذلك التغير الطارىء أعماق وجودها هزاً عنيفاً شديداً ؟

كذلك الحال فى أمة أخرى ثقافتها التقليدية صناعية كانجلترا

أو فرنسا مثلاً . فان انفكاك أمة منهما عن الصناعة معناه تحطيم لروحها الموروث ، بل ولكل ما تقوم عليه حياتها أدبية ومادية من القواعد الأصيلة فى نفسيتها وغرائزها . وأظن أن المصريين لا يخرجون عن مقتضى هذه القاعدة . فان لمصر ثقافة تقليدية هى الثقافة الزراعيــة التى ورثناها بحكم وجودنا على ضفاف النيل . وواجبنا كأمة رشيدة أن نقيم كياننا أصلاً على أساس هذه الثقافة الموروثة ثم نكملها بمقتضيات ما يتطلب هذا العصر من ضروب الثقافات الأخرى . أما عكس هذه الآية ، وذلك ما ننتحيه الآن مع الأسف ، فنهايته الخراب العاجل والدمار الشامل

إن ما نزرع من أرض هذا الوادى الخصيب فى هذا الزمن جزء قليل مما يمكن استغلاله ، ولكنه على قلته لا يستغل الاستغلال الوافى ، ولهذا أسباب يطول بنا شرحها ، وإنما نذكر ذلك لنقول بأن كل عاطلى هذا الزمان إنما هم عاطلون بحكم الثقافة التى تلقوها وبحكم الظروف التعليمية التى نشأوا محوطين بها ، وإن بلاداً كمصر تستطيع أن تمضد من السكان ضعف ما تمضد الآن ، من العجيب أن تقوم فيها مشكلة تعرف بمشكلة البطالة ، وان تؤلف فى سبيلها اللجان ، وتعصر الأفكار ، وتسهر الأعين الليالى الطوال ، ونصف الأرض المزروع فيها يكاد يكون بوراً ، والنصف المزروع لا يغل أكثر من نصف ما يجب أن يغل إذا أحسن القيام عليه بالطرق العلمية الحديثة ، وأكبر ظنى أن السبب المباشر فى قيام هــذه الحال إنما يرجع إلى أننا نسينا أن لنا ثقافة تقليدية يجب أن تــكون أساس الحياة فى هذا الوادى . وإذن يجب أن تقوم سياسة التعليم أول شىء على فكرة الاتصال بثقافتنا التقليدية

لقد مضينا حتى الآن نقيم قواعد التعليم على النظريات ، لا على طبيعة بلادنا . لهذا نرى أن كل النتائج قد اتجهت اتجاهاً سلبياً ، لا اتجاهاً إيجابياً وعكس ذلك ما نطلب أن يكون

جدت فى مصر مشكلة عرفت بمشكلة العاطلين من المتعلمين ، وما من سبب لهــذه المشكلة فى الواقع إلا السياسة التى جرى عليها التعليم فى بلادنا بالفصل بين ثقافة أولادنا التى يتلقونها بين جدران المدارس وثقافة آبائنا الأقدمين . وحدث فى مصر أن انشقت معسكرين لا اتصال لأحدهما بالآخر ، معسكر المتعلمين العاطلين الذين لا اتصال لهم بثقافة بلادهم التقليدية ، ومعسكر الفلاحين الذين اتصلوا كل الاتصال بثقافة بلادهم الأصلية ، من غير أن يلقحوا بشىء من مقتضيات الحياة فى العصر الحديث . وبدأت فى مصر روح التبرم بالحياة المصرية ، تتلقى كل يوم ألواناً مما ينتج على يد المتعلمين الذين إن لم تعوزهم الهمة إلى العمل فقد يعوزهم المجال الذى يعملون فيه بقدر ما هيأهم التعليم النظرى الذى عكفوا عليــه . ولسوف نتقدم خطوة بعد أخرى متمادين فى العمل على زيادة عدد معسكر العاطلين ما دمنا نعكف على تعليم أولادنا على أساس النظريات لا على اساس العمليات ، وما دمنا نخرج رجالاً لا يعرفون عن طبيعة بلادهم شيئاً . ولن أكون مبالغاً إذا قلت إن ابن الفلاح الذى يتخرج فى كليــة من الكليات العليا ليس بأكثر علماً بطبيعة بلاده من زميله ابن المدينة الذى يتخرج وإياه فى معهد واحد . فاذا لم يجدا لهما مرتزقاً أصبحا صنوى بطالة ، ولم يمتز ابن الفلاح على ابن المتحضر بشىء مما امتاز به جدودهما من أهل الريف من قدرة على الانتاج والعيش بما تغل سواعدهم من ثمرات الأرض

ويخيل إلىّ ، وربما كنت على كثير من الحق فيما أتخيل ، أن الخطأ الذى نلحظه فى سياسة التعليم فى بلادنا غير قاصر على قمع ثقافتنا التقليدية عن أن يكون لها أثر فى تكويننا العقلى والخلقى ، بل إننا أضفنا إلى هذه الخطيئة خطيئة أخرى هى أننا عملنا دائماً على تضخيم المعلومات التى يتلقاها الطلبة فى مدارسنا الثانوية والكليات . فقد يخرج المتعلم إلى ميدان الحياة العمليــة بعد حياة أمضاها فى جو من النظريات الصرفة ، وهو يعتقد أنه قد ملئ علماً بالحياة ، ثم لا يلبث أن ينكشف له الحق وإذا به يرى أن كل ما يعرفه من نظريات العلم والأدب والفن لا يكفيه رزق يومه ولا يغنيه عن الاكباب على ناحية أخرى من نواحى الحياة العملية يدرسها لتكون له فى الحياة عوناً على تحصيل الرزق . ولا شك أن ذلك يحدث ارتجاجاً عظيماً فى حياة شاب ملأه الأمل فى الحياة والزهو بما تجمع فى رأسه فى المعلومات . وما من ريبة فى أن هذه الصدمة المعنوية لها أثرها البالغ فى سلوك الشاب وتفكيره ربما لازمه طوال حياته

يعكف الشاب المصرى بين جدران معهده على ناحية نظرية

من العلوم البعيدة عن تجارب الحياة ويتلقى أنواع المعارف المختلفة ويمضى مكباً عليها عمراً حتى يكون له نظرة خاصة ويتجه بفكره وقلبه اتجاهاً معيناً وينشئ في عقليته قيما للأشياء وفناً ينظر من طريقه في الحقائق . وعلى الجملة يتكون منه طريق معارفه تكويناً يهيئه لأن يكون وحدة مستقلة في جسم اجتماعي .

فاذا استبان له الواقع وواجه الحياة بما استجمع من معارف فعلم أن للحياة طريقا آخر غير الطريق الذي صرف فيه عمره وأن لها قيماً أخرى غير القيم التي يؤمن بها . وأن لها فناً غير فنه الذي ينظر من طريقه في حقائق الوجود ، انقلب على الماضي ثائراً ومن المستقبل يائساً ، وخيل إليه أن المجتمع جنى عليه فسلبه سلاح العمل وجرده من عدة الهجوم والدفاع في ميدان المنافسة الاجتماعية . وما بالك بهذا الشاب نفسه إذا هو أراد أن يرتد إلى مصريته فيصبح فلاحا كأبيه وأن يتصل مرة أخرى بثقافة بلاده التقليدية ، فيتضح له أن علمه بطبيعة بلاده ضئيل ، وأن معرفته بطريقة الحياة فيها لا تواتيه بالعدة الكافية للحياة في وسط مصرى أصيل ، الفلاح سداه والفلاحة لحمته ؟

من الأخطاء التي لا ينبغى لنا أن نغفل عن وزنها وزناً صحيحاً أن تعليمنا الأدبي في الكليات ينقل إلى الأذهان صوراً من الأخلاق وفنوناً من السلوك ومذاهب من الفلسفة النفسية تختلط في عقليتنا اختلاطاً عظيما حتى لنكوّن منها مقاييس جديدة بعيدة جد البعد عن المقاييس الخلقية والسلوكية التي يؤمن بها الفلاح الساذج . فان عصور الظلم والاستبداد التي عانى فلاح مصر في خلالها الأمرين ، وتوالى الدول في الحكم على ضفاف النيل قد طبعت الخلق المصرى بطابع خاص وصبغته بصبغة خاصة ، ويجب أن يعنى بدرسها المصرى المتعلم أوفى الدرس وأن يكب على تفهمها كل اكباب ، قبل أن يظن أنه قادر على أن يمايش ذلك الفلاح الخشن الجاهل ، وأن يعلم في أول ما يجب عليه أن يعلمه أن جهل الفلاح من جهة العلم بالنظريات قد عوضته عنه الطبيعة ذكاء حاداً وقدرة على التحايل وفطنة في إدراك الحقائق ، وأيقظت فيه قوى العقل الباطن إيقاظاً شديداً حتى يكاد يكون عند بعضهم إلهاماً في توقع الأشياء وحدوثها . أضف إلى ذلك أن طبيعة البلاد قد ثقفته بثقافة ورثها على مدى العصور . ثقافة أحيت فيه روح اليقظة يتلقى بها الأحداث مكتمل الهمة ثابت القلب قوى الجنان عظيم الثقة بنفسه . فان بلاداً تتوالى فيها دورات الزراعة كبلادنا ، ويفيض فيها النيل في مواعيد محدودة ، قد غرست في نفسه بالتجربة أن الحياة فرص يجب انتهازها ، وعلمته أن اهمال ساعة أو يوم قد يفوت عليه رزق عام . هذا الفلاح الذي اكتملت ثقافته العملية من هذه النواحي وأمثالها ، وهي كثيرة متعددة ، هو بذاته موضوع درس عميق لا يستغنى عن معرفته مصرى يريد أن يعيش من فوق أرض مصر وعلى ضفاف نيلها مرتزقاً بغلاتها مفتناً في إحياء خيراتها . ولا شك في أن هذه الناحية الضخمة من نواحي ثقافتنا التقليدية مهملة في معاهدنا كل الاهمال ، فالمصريون مع الأسف أجهل الناس بتاريخ بلادهم ، ذلك في حين أن تاريخ كل شعب جزء لا يتجزأ من ثقافته التقليدية

فالشاب المتعلم الذي يدرس مذاهب اليونان الفلسفية وتاريخ روما واليونان ومذاهب الأدب ومقدمة القوانين إلى غير ذلك مما يتلقى الشباب بين جدران معاهدنا ، من غير أن يتصل بثقافة بلاده التقليدية ، شاب مصرى بالاسم لا بالروح ولا بالتقاليد . هو يجهل طبيعة بلاده وخلق أهله وتاريخ العصور التي توالت على وطنه وشكل الحكومات التي تناوبت الحكم فيه ، والميراث الذي ورثه عن أجداده الأقدمين . ولا ريبة في أن شاباً هذا شأنه إنما يخرج من معاهد العلم متعلماً جاهلاً ، وإن شئت فقل يخرج متعلماً مشحون الذهن بالكثير من المعلومات التي من شأنها أن تفصله عن طبيعة بلاده وتصيره في محيطه غريباً ، كأنه غلطة جديدة في طبيعة شيء قديم . ومن هنا يكون عجزه عن الكفاح في الحياة وعن الاتصال بالأرض التي أنشأته وأنشأت السلالة التي انحدر منها منذ أقدم عصور التاريخ

والمحصل أننا مشرفون على أزمات اجتماعية أساسها الظاهر الآن كثرة العاطلين من المتعلمين الذين فصل التعليم بينهم وبين ثقافة بلادهم التقليدية فأصبحوا فيها غرباء ، وسنعالج في المقال التالي مجمل ما صورنا حتى الآن من نقائص حياتنا الاجتماعية من حيث علاقتها بالتعليم

(يتبع) اسماعيل مظهر

٢ ـ فلاسفة الاسلام

والتوفيق بين الفلسفة والدين

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

لاحظنا فيما سبق أن الفارابى وابن سينا وقفا موقفاً وسطاً بين الآراء الفلسفية والتعاليم الدينية فيما يتعلق بالصلة بين الله والعالم . أما مشكلة الروح وخلودها فقد فارقا فيها أرسطو تمام المفارقة ، ذلك لأن الذى ينكر هذا الخلود يهدم المسئولية من أساسها ، ويقضى على غاية الأخلاق والقوانين والشرائع ، ونحن نعلم أن أرسطو ينقد نظريات الفيثاغوريين والأفلاطونيين الذين يقولون إن النفس جوهر روحى متميز من الجسم تمام التميز ، ويعلن أن النفس صورة الجسم ؛ ويقرر بجانب هذا أن الصورة لا تستطيع البقاء بدون المادة ، وإذن فمنطق مذهبه يؤدى إلى النتيجة المحتمة ، وهى أن فناء الجسم يستلزم فناء صورته وهى النفس ، وعلى الجملة فأرسطو لا يتكلم عن مشكلة الخلود إلا عرضاً ، وليته حين تعرض لها جاء بشيء مقبول ، بل أفكاره فيها متناقضة متهافتة ، على العكس من هذا نجد رأى الاسلام فى هذه النقطة واضحاً وضوحاً لا يقل عن النقطتين السابقتين ، فان تعاليمه تقضى ببقاء الروح وخلودها وإلا لم يكن للثواب والعقاب معنى ، وهذا هو الرأى الذى أخذ به الفارابى بعد تردد ، وانتصر له ابن سينا انتصارا عظيما ودافع عنه دفاعا مجيدا ، يقول : « إذا حصلتَ ما أصَّلْتهُ لك علمت أن كل شيء ما من شأنه أن يصير صورة معقولة وهو قائم الذات ، فانه من شأنه أن يعقل فيلزم من ذلك أن يكون من شأنه أن يعقِل ذاته . . . وكل ما يكون من هذا القبيل ، فغير جائز عليه التغيير والتبديل[1] » وفى كتاب النجاة بحث طويل عنوانه « فصل فى أن النفس لا تموت بموت البدن[2] » . وفى هذا الفصل يحاول ابن سينا من طريق عميق ومضن اثبات خلود النفس

هنا تنتهى أيها السادة الشعبة الأولى من شعب التوفيق بين الفلسفة والدين . وقد رأيتم انه كلما اصطدم رأى أرسطو بأصل دينى مال الفلاسفة المسلمون نحو تعاليم الدين أو فسروها تفسيراً ينطبق مع ما ذهب اليه فيلسوف الاغريق . ونحن لا ننكر أن الفارابى وابن سينا كونا نظرية كلامية جديدة متعلقة بالآله وصفاته . وهذه النظرية تقربهما من مبادئ الاسلام بقدر ما تبعدهما عن أستاذهما أرسطو . إلا أنها فى الوقت نفسه متعارضة فى لفظها وروحها مع كثير من النصوص الدينية . لذلك كانت مثار اعتراض وموضع أخذ ورد لدى مختلف الطوائف والفرق الاسلامية . ونستطيع أن نقول إن المدرسة الفلسفية العربية إذا كانت قد نجحت فى أن تلفت الأنظار نحوها فذاك راجع الى أبحاثها الدينية ، غير أنها لقيت كذلك حتفها من هذا الطريق . وفكرة الخلق أو « الفيض » التى قال بها الفارابى وابن سينا لا تقنع رجل الدين فى شيء كثير ، وليس لها من الخلق إلا اسمه وصورته دون حقيقته ومعناه . وهذا بالدقة ما أخذه عليها الغزالى وحمل عليه حملة عنيفة سنعرض لها بعد قليل

***

والآن ننتقل الى الشعبة الثانية حيث نفسر بعض الأمور الدينية تفسيراً علميا . وأول هذه الأمور النبوة التى هى عماد الدين وأساسه . فان قيمة الاسلام وكل دين سماوى موقوفة على التسليم بالوحى وقبوله عقلا . وأن من ينكر الوحى أو يستبعد حصوله يطعن الدين فى ركنه الأول وأساسه المتين . لهذا لجأ الفلاسفة المسلمون الى إدعام النبوة على قواعد فلسفية وسيكلوجية . وأثبتوا أن الالهامات الخفية التى يصل اليها الأنبياء ليست إلا ضربا ساميا من المعلومات الانسانية . وسنعرض لهذه النظرية بوجه خاص بعدُ

وأخيراً لم يبق أمامنا إلا السمعيات ، وهى كما تعلمون تلك الحقائق الدينية التى أخذت عن الكتاب والسنة واعتمد فيها على السمع وحده كالرسل ومعجزاتهم والملائكة وصفاتهم واليوم الآخر وما فيه من سعادة وأهوال ، وسنكتفى بذكر أمثلة من هذه السمعيات لنتبين كيف حملها الفارابى وابن سينا على محمل فلسفى . قد يكون من الفضول أن أنقل اليكم رأى المتكلمين

(١) ابن سينا ، « الاشارات » ص ١٣٤
(٢) ابن سينا ، « النجاة » ص ٣٠٢ — ٣٠٩

وأهل السنة خاصة فى الملائكة والعرش واللوح والقلم والحشر والنشر . فهم يذهبون إلى أن الملائكة كائنات نورانية لطيفة قابلة للتشكل بمختلف الأشكال، لا تأكل ولا تشرب ولا تعصى الله أبداً ، ويفهم بعضهم العرش واللوح والقلم على حقيقتها الحسية ، ويعتقدون أن الحشر والنشر لن يكونا للأرواح فقط ، بل سترد الينا أجسامنا ونعاد سيرتنا الأولى . أما الفارابى فيرى أن الملائكة ليست شيئاً آخر سوى تلك العقول التى تحرك الأفلاك المختلفة والتى حدثتكم عنها من قبل . واللوح والقلم لا يقبلان تفسيراً آخر غير هذا التفسير المعنوى الروحى . وهاهو ذا الفارابى يعبر عن رأيه قائلا : « لا تظن أن القلم آلة جمادية واللوح بساط مسطح والكتابة نقش مرقوم بل القلم ملك روحانى واللوح ملك روحانى والكتابة تصوير الحقائق . فالقلم يتلقى ما فى الأمر من المعانى ويستودعه اللوح بالكتابة الروحانية فيُنبعث القضاء من القلم والتقدير من اللوح . أما القضاء فيشتمل على مضمون أمر الواحد والتقدير يشتمل على مضمون التنزيل بقدر معلوم ، ومنها ينسبح إلى الملائكة التى فى السموات ثم يُقبض إلى الملائكة التى فى الأرض ثم يحصل القدر فى الوجود [1] » . والحشر والنشر والثواب والعقاب منصبة كذلك على الروح فهى التى تسعد وتنعم أو تشقى وتألم . فليس هناك صراط ولا ميزان حسيان ، بل تلك أمثلة وتصويرات يراد بها التعبير عن الحقيقة الروحية ، وقد سار ابن سينا على طريقة الفارابى ففسر العرش تفسيراً فلكياً عقلياً ، وصور الجنة والنار بصور روحية تناسب نعيم النفس وشقاءها

هذه هى محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين التى قام بها الفارابى وابن سينا . وإذا ما تتبعنا تاريخ الفلسفة وجدنا أن الاغريق من قديم احتفظوا بمكان للدين فى مذاهبهم الفلسفية . وقد عنيت مدرسة الاسكندرية بهذه المسألة عناية خاصة ، وكثيراً ما أثبت أفلوطين أن الأفكار الدينية لا تتعارض مع الآراء الفلسفية . إلا أن المسلمين قد برهنوا فى هذا المضمار على مقدرة وكفاءة لم يسبقوا إليهما . ولئن كان رجال الكنيسة قبلهم قد أدخلوا بعض المبادئ الرواقية والأرسطية فى تعاليمهم فانهم لم يوفقوا فى أن يكونوا من ذلك مزيجاً صالحاً متناسق الأجزاء

(١) الفارابى « الثمرة المرضية » ص٧٧

بيد أن محاولة التوفيق التى قام بها الفارابى وابن سينا وإن تكن محكمة وممتازة على سابقاتها لم ترق لدى الغزالى كما قلت لكم من قبل . وقد ألف كتابه تهافت الفلاسفة ليناقش فيه آراء الفلاسفة وينقضها جميعاً ، ويحتوى هذا الكتاب على عشرين مسألة ، ثمان منها تتعلق بالبارىء وصفاته ، وأكبر مأخذ يأخذه الغزالى فى هذا الجزء على فلاسفة الاسلام هو أنهم ألغوا الصفات وأنكروا علم الله بالجزئيات ، وقد تهكم عليهم تهكما شنيعاً فى هذا الصدد قائلا : « وليتعجب العاقل من طائفة يتعمقون فى المعقولات بزعمهم ، ثم ينتهى آخر نظرهم إلى أن رب الأرباب ومسبب الأسباب لا علم له أصلا بما يجرى فى العالم ، وأى فرق بينه وبين الميت إلا فى علمه بنفسه ؟ وأى كمال فى علمه بنفسه مع جهله بغيره ؟ وهذا مذهب تغنى صورته فى الافتضاح عن الأطناب والايضاح [1] » ، وفى ثمانى مسائل أخرى يرد على فكرة الخلق التى ذهب إليها الفلاسفة مبيناً أنها ترمى إلى خلق صورى لا يكاد يبدو له أثر فى الوجود . ثم ينتقل بعد هذا إلى خلود الروح فيبين فى مسألتين أخريين أن الفلاسفة لم يستطيعوا البرهنة على هذه النقطة فى وضوح . ولا يقبل الغزالى كذلك التفسير النفسى السيكلوجى للنبوة ويرفض رأى الفلاسفة فيه . وأخيراً يهاجم حجة الاسلام الفلاسفة هجوماً عنيفاً فيما يتعلق بالحشر والنشر ويأخذ عليهم أنهم ينكرون أصلا ثابتاً من أصول الدين . وفى نهاية هذه القضية الطويلة يعلن حكمه ويعد الفلاسفة السابقين مبتدعين فى سبع عشرة نقطة وكفاراً فى ثلاث هى قولهم بأن الله يعلم الكليات لا الجزئيات وادعاؤهم قدم العالم وأبديته وانكارهم لحشر الأجساد

لسنا بصدد أن نستأنف فى هذه الجلسة حكم الغزالى السابق ، لا سيما وقد صادف عين الحقيقة فى مواطن كثيرة . إلا أنا نلاحظ أن صاحبه متحد أحياناً ومبالغ فى نقده . ولا أدل على هذا من أنه اعتنق بعض الآراء التى نقدها والتى قال بها الفلاسفة فهو يفسر مثلا علم الله تفسيراً يشبه كل الشبه تفسير الفلاسفة ويعتقد بخلود الروح ويعده مبدأ ثابتاً من مبادىء الاسلام . وموقف الغزالى هنا ضعيف فى الحقيقة للغاية ، فان صوفياً ومتكلما يرد على أشخاص يثبتون خلود الروح يناقض نفسه تمام المناقضة . وفكرة النبوة الفلسفية التى يرفضها الغزالى فى تهافته يقول بها

(١) الغزالى « تهافت الفلاسفة » ص ٤٤

في كتابه المنقذ من الضلال (1)

أمام هذا التناقض لم يتردد ابن رشد في أن يرفض ما قاله الغزالي وأن يثبت « تهافت التهافت » . وقد بذل عناية كبيرة في الدفاع عن أرسطو وإخوانه الفلاسفة المسلمين . ذلك لأنه كان يرى مثلهم ضرورة التوفيق بين الدين والفلسفة وترك كل واحد منهما آمناً بجانب الآخر . ويعلن أن شبه الخلاف بين هذين الطرفين راجعة إلى الخرافات التي ألحقت بالدين ، أو إلى الادعاءات الفلسفية التي يدعيها من يزعمون أنهم حكماء وليس لهم من الحكمة نصيب . وهذه الأباطيل جنت على الدين والفلسفة وباعدت بينهما ؛ « فان الأذية من الصديق هي أشد أذية من العدو ، أعني أن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة فالأذية ممن ينسب إليها أشد الأذية مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة (2) » . غير أن ابن رشد سلك إلى التوفيق بين الفلسفة والدين سبيلا أخرى غير تلك التي سلكها الفارابي وابن سينا . فانه كان يعتقد أن سلامة الدين والفلسفة أن يعزل كل واحد منهما عن الآخر ، فلا تضاف عناصر فلسفية إلى تعاليم الدين ، ولا تصبغ الفلسفة بصبغة دينية . لأن لغة رجال الدين يجب أن تختلف عن لغة الفلاسفة ما دام الدين للشعب والفلسفة للخاصة . وكم عاب فيلسوف الأندلس على صاحب تهافت الفلاسفة تقديمه للجمهور بعض المشاكل العويصة التي لا يستطيع فهمها ولا استساغتها (3)

بيد أن هجوم الغزالي كان فيما يظهر عنيفاً ، وصدمة الفلسفة على يديه كانت قوية . لهذا لم يفلح فيها علاج ابن رشد ولم يرفع من شأنها انتصار فيلسوف قرطبة لها ، وبقيت مهملة منظورا إليها نظرة ازدراء واحتقار أو توجس وخيفة طوال السبعة قرون الأخيرة . وكأن حملة الغزالي صادفت هوى في تلك العقول الضعيفة التي لا تقوى على البحث والنظر ، فرأت أن أيسر سبيل لديها أن تهجر الفلسفة وشؤونها وتحاربها بكل الوسائل ولست في حاجة لأن أذكركم بتلك السنة التي سار عليها مؤلفو هذه القرون المظلمة من التساؤل عن حكم الدين في كل فن من الفنون ، هل دراسته واجبة أو مسنونة أو مستحبة أو مكروهة أو محرمة . وكثير منكم يذكر هذه الأبيات المشهورة التي صدرت بها حواشي الكتب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر :

إن مبادي كل فن عشرة ... الحد والموضوع ثم الثمرة
وفضله ونسبة والواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى ... ومن درى الجميع حاز الشرفا

فباسم الشرع حرمت علوم وأبيحت أخرى ، وتحت تأثير هذه الرقابة أهملت أجزاء الفلسفة المختلفة ، ولم يدرس منها إلا المنطق الذي كان نفسه موضع تحريم أو تحليل واستحباب أو إباحة . وقد عقد الأخضري أحد مناطقة القرن العاشر الهجري في سُلّمه فصلا عنوانه . « في جواز الاشتغال به » وتحت هذا العنوان يبين حكم الشرع في دراسة المنطق وآراء الباحثين في هذا الصدد ، ويوضح ذلك في أبيات طريفة يلذ لي أن أسردها عليكم

والخلف في جواز الاشتغال ... به على ثلاثة أقوال
فابن الصلاح والنواوي حرما ... وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة
ممارس السنة والكتاب ... ليهتدي به إلى الصواب (1)

والباحثون الأول ما كانوا يقفون عند نقطة كهذه ، ولا يرون غضاضة عليهم في أن يدرسوا أية مادة كيفما كان نوعها . والغزالي بوجه خاص زج بنفسه في المدارس والفرق الاسلامية المختلفة . فدرس العلوم الكلامية على اتساعها ، واتصل بالباطنية وتعرف أسرارها ، ولم يخش بأساً من قراءة الكتب الفلسفية واعتناق الطرق الصوفية . ومعرفته بدقائق الفلسفة وجزئياتها لا تقل عن الفلاسفة المختصين أمثال ابن سينا وابن رشد . وما كان يضير أحداً في ذاك الزمان أن يقرأ شيئاً ويتفهمه ، فان ارتضاه قبله وإلا نبذه ، ولم يخطر ببالهم أن مادة ما تستطيع أن تهدم الدين أو تنتقص أصوله . فلما قصر الجهد وعجز الناس عن الدراسة والبحث لجأوا إلى حماية أنفسهم بوسائل سلبية واستتروا وراء حجاب واه من حرمة الدين أو كراهيته فجنوا على أنفسهم ودينهم في آن واحد . وهكذا شأن كل عقيدة لا يرجع تدهورها غالباً إلى نقص في طبيعتها ، بل إلى ضعف معتنقيها وفساد عقولهم وعجزهم عن مسايرة الزمن

يجدر بنا ، أيها السادة ، وقد أتممنا هذه النظرة التاريخية المجلي أن نستخلص منها درساً ينفع للحاضر . فان الماضي

(1) الغزالي « المنقذ من الضلال » ص ٣٣

(2) ابن رشد « فصل المقال » ص ٢٥ — ٢٦

(3) المصدر نفسه ، ص ١٧ — ١٨

(1) الأخضري « السلم » وعليه حاشية « الباجوري » ص ٢٢ — ٢٤

لا يدرس للماضى فقط ، بل لما عليه من نصائح وعبر مفيدة فى الحاضر والمستقبل ، ونصيحة الليلة أن نفسح المجال للدراسة والبحث أيا كان نوعهما دون أن نخشى على الدين بأساً . لندع العلم يقرر قضاياه ويوضح نظرياته ، فهو إن لم ينصر الدين فلن يخذله ، وإن لم يؤيده فلن يقوى على هدمه . والعلماء الذين يبدو عليهم أنهم تجردوا عن تقاليد الأديان هم أكثر الناس اصطداماً بالمشاكل الدينية . ولئن كان القرن الثامن عشر قد دفع بعض المفكرين ، تحت تأثير النهضات العلمية ، إلى التشبث بأهداب المذهب العقلى واطراح كثير من الحقائق الروحية والنقلية ، لقد جاء القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحاضر مؤيدة للدين وواضعة إياه على أساس القوانين العلمية والنظم الاجتماعية . فأنصار مذهب البرجماتزم وعلى رأسهم جيمس ينادون بأن الحقيقة الدينية هى عماد الحقيقة العلمية ، ذلك لأن الأولى نتيجة التجربة النفسية والوحى المباشر . وأصحاب المدرسة الاجتماعية الحديثة قد أثبتوا فى جلاء أن جل النظم الاجتماعية ، إن لم يكن كلها ، نشأ فى حجر الدين وتحت كنفه . فالعلم والدين متضافران إذن ، أو على الأقل لا يستطيع واحد منهما أن يعدو على مكان الآخر . ومن الغريب أنه ما تجاهل باحث المبدأ الدينى الا واضطر للتسليم به أخيراً ؛ ولا حارب رجال الدين علما إلا وانتهوا الى دراسته بعد قليل . فأرسطو الذى لم يفكر مبدئيا الا فى الطبيعة وعللها والأفلاك ومحركاتها سيق فى آخر الأمر الى اثبات محرك أكبر تتجه نحوه كل القوى وتشتاق اليه . و « كانت » الذى أنكر فكرة الآله فى الدائرة الميتافزيقية عاد فأثبتها فى أبحاثه الخلقية ، وفى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى حاربت الكنيسة الفلسفة الأرسطية وأحرقت كتبها ، وحكمت بأقسى العقوبات على قرائها . ولكنها لم تلبث أن عادت فاعتنقت هذه الفلسفة وأضحى أرسطو أستاذ اللاهوت المسيحى الوحيد . وفى القرن السابع عشر حوكم جاليليو من جراء قوله بحركة الأرض ، واليوم لا ترى الكنيسة ضيرا فى اعتناق هذه النظرية . فاذا كان لنا أن نستفيد من هذه التجارب فواجبنا أن نترفع عن الخصومات الباطلة والنزاع الفاسد بين العلم والدين ، وإذا كنا نريد أن نؤسس نهضتنا على أسس متينة فعلينا أن نفسح المجال للدراسة والبحث وأن نسير وراء الحقيقة كيفما كان مصدرها ؛ والحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنى وجدها

إبراهيم مدكور

فى تاريخ الفقه الاسلامى

ثلاث محاضرات

للدكتور يوسف شخت

الأستاذ بجامعة كونيكسبرج ، والأستاذ بالجامعة المصرية

— ١ —

إن الغرض من المحاضرات الثلاث التى أتشرف بالقائها عليكم هو أن أتحدث اليكم عن الطريقة التى يجرى عليها العلم الأوربى فى درس الشرع الاسلامى ، وعن بعض النتائج الهامة التى أسفر عنها هذا الدرس . وقد بدا لى أن هذا الموضوع خليق بأن يثير اهتمامكم من أكثر من وجهة واحدة ، فان مصر كبلد اسلامى حديث لا يمكن الا أن تهتم ببحوث علمية ترمى إلى إظهار خاصة من خصائص الاسلام ، والعلم الأوربى من جانبه ينبغى ألا يهمل الاتصال بالعلم الاسلامى المدنى بهذا الموضوع . ورغم اختلاف المبادئ والطرق والمصالح التى تفصل هاتين المدرستين احداهما عن الأخرى ، فقد ألفت بين بحثيهما فى الشرع الاسلامى آصرة مشتركة جوهرية ، هى روح البحث العلمى الذى يحدو المستشرقين الأوربيين اليوم ، كما كان يحدو علماء الاسلام من عهد القرون الوسطى . هذا العتاد المشترك يبعث على أشد التفاؤل بتعاون مثمر قائم على الاحترام المتبادل بين العلماء الشرقيين والغربيين فى هذا الباب ، تعاون لا يوهن فى تعلق فريق منهما بالتقاليد واستمساك الفريق الآخر بأساليبه العلمية ، وإنى لأرجو أن يكون فى مقدورى المساعدة على تنمية التفاهم بين الفريقين ؛ وليس فى نيتى أن أعرض صورة عامة للشرع الاسلامى ، وأن أكرر كثيراً من الأشياء المعلومة لكثرتكم بلا شك ، بل أتكلم عن مسائل خاصة فى تاريخ هذا الشرع تناولها علماء أوربة متوخيا عرضها عليكم فى صورة قد تثير اهتمام حتى غير الاختصاصيين منكم

ولنبدأ بالمسألة العامة — مسألة تاريخ الشرع الاسلامى ؛ فهذه المسألة تمكننى من اطلاعكم على ما بين وجهتى النظر من اتفاق تام ، فعلماء الاسلام يرون فى الشريعة تعبيراً عن الارادة

الالـهية التي لا تبدل فيها ؛ وقد كان مع هذا المبدأ من المسلَّم به دائماً أن تعبير الفقه عن هذا القانون الالـهي مرّ بدور تاريخي حتى أن بعض المؤلفـين المسلمين عنونوا مؤلفاتهم « بتاريخ التشريع الاسلامي » ؛ وقد جهد علماء أوربة ببحث هذا التطور دون أن يكون لهم بمسائل العقائد شغل ، وتناولوا بهذا الروح تاريخ الشريعة ، والعلماء المسلمون أنفسهم ، على الرغم من اعتقادهم بقدسية الشريعة وصبغتها الالـهية ، يسلمون بأن أحكاماً من أحكامها كانت موجودة فعلا في شرائع أخرى قبل أن يقرها التشريع الاسلامي ؛ ولنضرب لذلك مثلا واحداً هو القصاص ، فان مبادئه التي عدلها وأكدها القرآن والسنة ترجع إلى القوانين العرفية عند العرب قبل الاسلام . فالعلم الأوربي يبحث فيما يسمى بالعلاقات بين الشريعة والشرائع التي سبقتها بهذا المعنى التاريخي المحض — ذلك المعنى الذي لا يضير ما في علم أصول الفقـه الاسلامي من الحقائق ، ومعلوم جيداً أن العلماء المسلمين أنفسهم يطبقون على الأسانيد قواعد نقدية ، وهذا النقد الذي وسّع النقاد من علماء أوربة دائرته ، وذهبوا فيه بعيداً ، قد بات أداة للعمل لا يستغنى عنها العلم الأوربي — أداة ليست سلبية محضة ، بل قد أعانتنا على تقرير صحة الكثير من الأحاديث . في هذا كله يمكن أن يوجد ، بل يوجد فعلا اختلاف كبير في الأساليب والنتائج بين علماء الشرق والغرب ، ولـكن لا وجود لخلاف جوهري ، لأن مبادئ عقائد الاسلام لا تؤثر في دراستنا التاريخية للشرع الاسلامي . هذه المدرسة الأوربية لا تقف عند حدود الشريعة ، التي تلتزم غايتها الأساسية بطبيعة الحال ، بل تتجاوزها أبحاثها إلى وجهات عدة ، فتتناول القوانين الأخرى المتصلة بالشرع الاسلامي اتصالا مباشراً ، سواء أكان ذلك باندماج سنن تلك القوانين في الشريعة الاسلامية بالمعنى الذي أسلفنا بيانه ، أم كان بتأثير الشريعة في تلك القوانين والسنن ، والمقصود بذلك قوانين العرب أيام الجاهلية من جهة ، وقوانين الشعوب التي دخلت في دولة الاسـلام من جهة أخرى ؛ مثال ذلك هو التشريع الخاص بالأسبان المسيحيين الذين يتكلمون العربية وهم المسمون بالمستعربين . ويتناول الدرس أيضاً موضوعاً واسماً ، هو العرف القائم بين الشعوب الاسلامية نفسها . اننا نعلم أن هذا العرف الذي يطلق عليه أسماء مختلفة كالعادة والقانون والدستور الخ قد نشأ إلى حد ما في كافة بلاد الاسلام تقريباً ، إلى جانب الفقه المعترف به رسمياً ؛ وشرح تاريخ هذا العرف وبيان علاقته بالشريعة أمر لا غنى عنـه في تفهم جملة الحياة التشريعية عند الامم الاسلامية تفهماً صحيحاً ؛ وقد شهدنا في خلال السنوات الأخيرة تطوّراً جديداً في العلاقات القائمة بين الشريعة والقانون بتلك التعـديلات التي أدخلتها مصر على الأحوال الشخصية . وأخيراً فالعلماء الأوربيون يعنون بالمظهر الاجتماعي للشرع الاسلامي ، لأن الشريعة الاسـلامية أحسن مثال وأهم مظهر لما يسمّى « بالقوانين المقدسّة » . وبهذا لا نريد مطلقاً أن نضع الشريعة في مستوى واحد مع سائر الشرائع ، بل نحرص كل الحرص على اظهار خواصها الفردية ابتغاء الوصول الى تقدير مركزها الفريد بين الشرائع والقوانين الأخرى . فاذا كان علمنا يضع الشريعة في أفق أبعـد زاعماً أن تلك الشريعة ليست حقيقة شاذّة لا علاقة لها بما حولها ، فانما نفعل هذا لـكي ندرسها أوفى درس ممكن من كل جهاتها . كذلك لا يهمل العلماء في أوربا درس الشرع الاسلامي على طريقته التقليديّة الخاصّة ، فان هذه الدراسة شرط لازم يمهّد لـكل بحث تاريخي . ولعل في هـذه الملاحظات التمهيدية ما ينيلكم فكرة عامة من هذه الوجهة الهامّة من بحوثنا وغاياتنا

وقبل المضى في التفاصيل قد يحسن أن أقول كلمة عن تاريخ هذه الدراسـة في أوربا . فوجودها يرجع الى عهد قريب لأنها مدينة بأصلها للنهضة العظيمة التي تناولتها البحوث الاسلاميّة في أوربا في النصف الثاني من القرن الماضي . والشجّمان الـكبيران على البحوث الاسـلامية العامة هما في نفس الوقت واضعا أساس البحث العلمي في الشرع الاسلامي ، وأعني بهما الأستاذ المجرى الـكبير Goldziher (توفي في سنة ألف وتسعمائة وواحد وعشرين) والأستاذ الهولندى المحترم Snouck Hurgronje الذي بلغ أخيراً الثامنة والسبعين من عمره ، والى اسمى هذين الصديقين الجليلين يجب أن نضيف اسم عالم ألماني قضى قبل الأوان في سنة ألف وتسعمائة وثلاث وثلاثين في الخامسة والأربعين من عمره ، وأعني به المرحوم المأسوف عليه الأستاذ Bergstraesser

وانى لأعتبر نفسى تلميذاً لِـ Bergstraesser و Suouk Hurgronje,
وأنا شاعر بجميلهما أعمق الشعور ، فخور بهما حق الفخر

إن أولى المسائل الخاصة التى سأعالجها هنا تتعلق بالقانون العرفى عند العرب فى زمن الجاهلية ، وهو كالأرض التى كانت تنمو عليها شجرة الشريعة العظيمة ، ولهذا السبب فانه يدخل فى نطاق أبحاثنا كما ألمنا آنفاً . هنالك رأى سائد إلى اليوم يعتبر الحياة القانونية فى جزيرة العرب قبل الاسلام مما لا يمكن درسه لانتفاء المصادر المباشرة ، ويزعم أن تلك الحياة كانت فطرية بسيطة بحتة . ولقد مكنتنا أبحاث السنوات الأخيرة القائمة على الانتفاع بمصادر غير مباشرة من تصحيح هذا الرأى . فلم يكن فطرياً سوى أحوال البدو ، يشهد بذلك الشعر القديم وأخبار القبائل ويؤيده ما يصادفه المرء عند البدو اليوم . أما المدن ومنها مكة التى كانت مركزاً تجارياً ذا صلة باليمن وسورية البيزنطية والعراق الساسانى ، والمدينة التى كانت مركز زراعة النخيل مركزاً يضم جالية كبيرة من اليهود — نقول : أما المدن ، ومنها ما ذكرناه ، فكان لها بلا ريب قانون أكثر نمواً لم يمكن إلا أن يتأثر بالعوامل الخارجية التى ذكرناها ، ويمكننا أن ننسب بالتفصيل إلى الأصل البدوى أشياء منها النظام الاجتماعى وأحكام العائلات والمواريث وقانون القصاص — وكل هذا بقى سارياً على أهل المدن أيضاً — ويمكننا أن ننسب إلى التطور المدنى الموافقة على قواعد مفصلة تطبق على العقود ووضع أشكال معينة للشركات واستعمال وثائق مكتوبة — كل هذا فى مكة — ومعاملة بعض العقود الزراعية فى المدينة . فكل هذه العناصر لم تبق بمعزل بل اتسع تداخلها بتأثير العلاقات التجارية التى تساعد على نموها الأشهر الحرم والأسواق الكبرى ، حتى أن بلاد العرب كانت فى القرن السادس بعد الميلاد محكومة بقانون عرفى متشعب الأطراف ، وهذا يطرح مسألة تحليل هذا القانون تحليلاً مفصلاً سأقدم لكم مثالاً منه

الحالة فى الشرع الاسلامى هى أن العنصر الجوهرى فى كافة العقود يتألف من الايجاب والقبول اللذين يعبران عن تراضى المتعاقدين ، وهذا التركيب القانونى للعقود من إيجاب وقبول تجمع مذاهب الفقه على التسليم به كأنه أمر طبيعى دون أن يتناقض بعضها مع بعض ، وهو لا بد أن يكون سابقاً لتلك المذاهب فضلا عن أنه لا صلة له بالمبادىء الاسلامية المحضة كمنع الربا ومنع الغرر التى تبنى عليها كافة الأبواب المتعلقة بأحكام العقود من الشريعة . وهذا كله ودلائل أخرى تحمل على الاعتقاد بأن تلك العبارة القانونية عن طبيعة العقود ترجع إلى القوانين العرفية فيما قبل الاسلام . أجل إن هذه الفكرة القانونية تكاد تكون شاذة شذوذاً تاماً فى تاريخ القوانين القديمة . فان الأمر المعنى هنا ليس بذلك الدور الطبيعى الواضح الذى كان للايجاب والقبول دائماً فى الحياة الاقتصادية باعتبار أنها مقدمة العقود المتواضع عليها بمحض التراضى ؛ ولكن النقطة الحاسمة هى أن الايجاب والقبول يعتبرهما النظر القانونى عنصراً جوهرياً فى العقود ، وأولئك الذين درسوا الشرع الاسلامى أو القوانين الحديثة فقط يمكن أن يلوح لهم هذا ضرورياً ، بيد أن التاريخ يدلنا على أن الأمر ليس كذلك ؛ لأن مثل هذا التركيب القانونى للعقود لم تعرفه القوانين القديمة اللهم إلا الشرع الاسلامى والقانون البابلى الحديث . فان هذا القانون يعطى نمطاً من صيغة تعاقدٍ يتفق تماماً ونظرية العقود التى أسلفنا بيانها ، بحيث أن نفس العقود البابلية الحديثة لو تُرجمت إلى العربية يمكن أن تبدو بين الوثائق الاسلامية القديمة المبنية على النحو الآتى : « هذا ما اشترى فلان من فلان . . . وباع هو إياه . . . بتراض منهما . . . . » . هذه الحقيقة الواقعة تحدو بنا إلى التساؤل : أتوجد علاقة تاريخيةٌ بين هاتين الظاهرتين ؟ إن الفارق الزمنى ليس بكبير مهما يظهر منه عند اللحظة الأولى ، فان الوثائق البابلية الحديثة تبتدىء من أواخر القرن الثامن قبل الميلاد وتستمر إلى نهاية الآداب البابلية حول الميلاد ، والقانون العرفى العربى كان قد اكتمل تطوره فى القرن السادس بعد الميلاد . بيد أن بعض خواصه قد يرجع إلى ما قبل ذلك . وليس يدعو إلى العجب أن تبقى صيغة وثائق جدت خلال سبعة قرون لكافة الأعاصير السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العراق — نقول : ليس عجيباً أن تبقى مثل تلك الصيغة التعاقدية بعد ذلك زماناً ، وإن كنا لا نستطيع الجزم بهذا لأننا لا نعلم شيئاً عن تلك الفترة . على أن الاستمرار التاريخى للبيئة مؤكد على الأقل ؛ ذلك أن العراق كان يسكنه

منذ القرن الثامن قبل الميلاد وعلى الرغم من تبدل الأسر الحاكمة أولئك السكان الآراميون الذين لم يزالوا يسكنونه في خلال الفتح العربي والذين سماهم العرب بالنبطيين. أما القانون العرفي العربي فان التأثر الذي يمكن أن يكون تناوله من جانب العراق ليس أقل احتمالا من التأثير الذي أصابه من ناحية سورية ، وهذا مؤكد لأن التجارة العربية كانت تتجه نحو القطرين على السواء. وصفوة القول أنه من الراجح رجحاناً كافياً أن صيغة العقود ذات الجانبين أي الايجاب والقبول قد تووثت من القانون البابلي الحديث . وقد ألمنا إلى أن تلك الفكرة القانونية في انعقاد العقود ليست بالوحيدة الامكان ، فان هنالك فكرة أخرى منتشرة انتشارا واسعاً في القوانين القديمة تعتبر العنصر الجوهري المعقود موجوداً في تصرف واحد من المتعاقدين . مثال ذلك أن ينعقد البيع بنزول البائع عن حقه في الشيء المبيع للمشترى في مقابل ثمن معين . ويظهر من الاصطلاحات العربية أن القانون العرفي قبل الاسلام كان قد عرف هذه الفكرة في طبقة سابقة لدخول الصيغة التبادلية في العقود ، وهذه الاصطلاحات ترجع بلا شك إلى الزمن الجاهلي أيضاً . فبينما الاصطلاح الفني القبول يعبر رأساً عن معنى العقل الذي يقع عليه فان الاصطلاح الخاص بالعرض - وهو الايجاب - يتناقض تناقضاً ظاهراً مع الدور المخصص لفعله لو اعتبر العقد ، كما هو الواقع ، آتياً من الجانبين . فهو يصف العرض الذي هو فعل البائع في مثالنا السابق كأنه يجعل العقد واجباً نهائياً مختوماً عليه لا رجوع فيه ، بدليل معنى كلمة الوجوب في شواهد كثيرة ؛ منها حديث مشهور إذ يقول النبي عن رجل أسلم ثم استشهد على الأثر : وجبت له الجنة . وعلى النقيض من ذلك فان العقد ذا الجانبين لا يصير واجباً إلا بقبول عرض سابق ، بينما التصرف من جانب واحد على نحو ما أسلفنا يطابقه ذلك الاصطلاح تماماً . إن هذا العصر الجاهلي يكشف لنا عن أرض عذرية واسعة خصيبة لأبحاث مستقبلة

والمسألة الثانية التي أود أن أتناولها تتصل بعصر هو أحسم من غيره في تاريخ الشرع الاسلامي أعنى عصر فقهاء المدينة السبعة . وقد كان الاعتقاد إلى الآن أن عمل هؤلاء الفقهاء الأولين للاسلام كان وضع نظام للفقه يطابق حاجات عصورهم المختلفة . ولكن الأبحاث التي جعلتنا أكثر معرفة بحالة القانون العربي في العصر السابق للاسلام هي نفسها التي علمتنا أن نقدر عمل هذا العصر الآخر بأدق مما كنا نفعل ، فهذا العمل قبل كل شيء إدخال المبادئ الاسلامية في قانون كان قد نما إذ ذاك نمواً كافياً . وأصحاب الفضل الأكبر في إدخال المبادئ الاسلامية في القانون العرفي الجاهلي كانت تضمهم دوائر الأصحاب والتابعين وتابعيهم في المدينة . كانوا يعملون على نفاذ الحياة بأسرها ومنها الحياة التشريعية بقواعد دينية أخلاقية ، وهذه القواعد كانوا يستمدونها ويستنتجونها قبل كل شيء من الآيات القرآنية التشريعية ثم من الأحاديث . فالأحاديث التي كانوا يأخذون بها ترجع بلا شك إلى عصر قديم جداً . ومن الجدير بالذكر أن الأبحاث الحديثة أفضت بالعلم الأوربي إلى تعديل تشككه في صحة بعض الأحاديث - ذلك التشكك الذي كان يغالى فيه أحياناً . فكثير من تلك الأحاديث لا يذكر أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله التي كانت تصير قواعد جديدة ، بل يذكر أن النبي قرر وأجاز عادات أصحابه باستصوابها صريحا أو ضمنياً دون أن يستنكرها . وهذا هو البرهان المباشر لما نسميه استمرار السنن القانونية السابقة في الشرع الاسلامي . ولقد كان من نتائج هذا التطبيق المحتوم المنظم لأعمال القرآن والسنة أن اشتمل نظام من « الأوامر والنواهي » على جميع أبواب الحياة القانونية حتى التي لم ينص القرآن عليها صراحة . وروح هذه « الشريعة المقدسة » تختلف أصلاً عن روح القوانين المدنية كالقانون الروماني مثلا . فان أمثال هذا القانون تتناول قبل كل شيء الحقوق المشتقة من أفعال معينة ذات قيمة قانونية ، على حين أن الشرائع المقدسة تعنى الحكم على الأفعال من حيث أنها مباحة أو محظورة . وهذا بيّن من الاصطلاحات الفنية : إن التدرج العام لأعمال الانسان من واجبة أو مفروضة ومندوبة ومباحة أو جائزة ومكروهة ومحظورة تعبر عن صفاتها الدينية والأخلاقية . ولكن كلمة الواجب لم تدل في الاصطلاح الجاهلي - كما رأينا - على المفروض بل دلت على الصحيح وقد تستعمل في هذا المعنى أحياناً في كتب الفقه أيضاً : ونحن نشهد حقيقة على تراجع للعنصر

القانونى المحض بتأثير القواعد الاخلاقية . حتى نفس نظام المصطلحات الدالة رأساً على أنواع الصفات القانونيـــة وهى مشروع وصحيح ومكروه وفاســد وباطل إلى غير هذا ، تأثرت بتلك النظرية الدينية : فالصفة العامة وهى المشروعية ، مشروعية البيع مثلاً ، تشتمل حكماً من هذا النوع الدينى الاخلاقى ؛ ثم إننا نجد صفة الكراهة تطلق على أفعال قانونيـة مشروعة صحيحة يليها شيء من النهى عنه . ومن الجدير بالذكر أيضاً أن هـذا النظام المدرج الثانى أقل تفصيلاً من التدرج الأول ، وأن بعض المصطلحات الدالة على الصفات القانونية المحضة كاللازم والنافذ والبات قد بقى بلا تحديد حاسم دقيق . وأخيراً فان اصطلاح « الجائز » أصبح مترادفاً لاصطلاح « الصحيح » ويدل على أن الأفعال التى يطلق عليها لا بأس بها من حيث التقدير الدينى الأخلاقى فهى بهذه الثابة صحيحة . وإذا قيل إن أمان المسلم الواحد مثلاً جائز فمعنى ذلك من جهة أنه غير آثم فى منحه هذا الأمان ، ومن جانب آخر أنه لا اعتراض على هذا الفعل ، وأنه من أجل ذلك يعتبر صحيحاً . ومن هذا كله يتضح ما للتقدير الدينى الأخلاقى للأعمال من أهمية ومن أولوية على الصفات القانونية المحضة فى الشرع الاسلامى . وليس هذا بأقل وضوحاً فى نظام الأحكام الشرعية نفسها . فان الجانب الأكبر من أحكام المعاقدات مثلا يتسلط عليه الميل إلى استخلاص كل النتائج من تحريم الربا والميسر ؛ أما أحكام العقوبات فانها لا تتناول إلا جانباً بسيطاً من الأفعال المحرمة ، بحيث يكون للأوامر والنواهى صبغة أدنى إلى أن تكون أخلاقية منها إلى الصبغة القانونيـة . إن مصدراً من مصادرنا الكبرى فيما يتعلق بهذا العصر هو على الرغم من تاريخه الأحدث قليلاً كتاب الموطأ لمالك بن أنس . إنه جدير بالذكر أن أقوال الفقهاء السابقين يتلو بعضها بعضاً فى أبوابه التى تتصل بالأوامر الأخلاقية وبكافة الأحوال الشخصية والمواريث – تلك الأحكام التى ترى صبغتها الدينيـة بادية ظاهرة – فى حين أن هذه الأقوال نادرة فى كثير من الأبواب المتصـلة بالقانون التجارى الذى كان بعيـداً عن دائرة الأخلاق قليل الاكتراث له لا يثير مناقشات أهل الدين . فهذه الأبواب من جهتها تمتاز بتغلب مصطلحين فيها وهما السنة والاجماع . فمعنى السنة فى كتاب الموطأ هو العرف والعادة المسنونة فى المدينة ، لا سنة رسول الله فقط ، والفرق بينهما من جهة الاصطلاح ظاهر . أما الاجماع فمقتضاه فى كتاب الموطأ غالباً أن سـنة من السنن القانونية لم يستنكرها واحد من الأئمة لأسباب دينية أخلاقية . ويجب أن نذكر إلى جانب كتاب للموطأ لمالك بن أنس مصـدراً آخر هاماً لذلك الدور من تاريخ الشرع الاسلامى ، وهو كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبرى ، فهو على الرغم من القليل الذى انتهى الينا منه ؛ أكثر دلالة من الكتاب الأول . مثال ذلك أن الطبرى يعلمنا أنه كانت هنالك عشرة اختلافات أساسية بين مذهب سعيد بن المسيب (أشهر فقهاء المدينـة السبعة) وإجماع مذاهب الأجيال التالية ، وهو شيء لا يظهر من المواضع المدبدة التى أورد مالك فيها من هذا المرجع تأييداً لآرائه الشخصية . وثمة مصدر ثالث رئيسى لدراسة هذا العصر ، هو كتاب أخبار القضاة لأبى بكر وكيع القاضى (توفى سنة ثلثمائة وست) فهو جامع لأخبار قضاة الأمصار الكبرى فى الدولة الاسلامية طائفة طائفة على الترتيب الزمنى من الابتداء إلى عصر المؤلف مبيناً ظروف توليتهم وعزلهم مفصلاً الحوادث التى وقعت طوال ولايتهم مورداً قضاياهم الهامة وأحاديثهم وشعرهم إلى غير ذلك من المعلومات . ويفيدنا هـذا الكتاب عن مظهر آخر للحياة التشريعية وهو تطور الشرع بالعمل القضائى ، فان قضايا هؤلاء القضاة الأقدمين وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين قد ساهمت مساهمة كبيرة فى نمو الفقه . ولندع جانباً موادّ أخرى لم يتناولها البحث إلى الآن كتلك الموادّ التى يشتمل عليها تفسير ابن جرير الطبرى الكبير ، وننتقل إلى المصدر الهامّ الرابع لأبحاثنا عن ذلك العصر ، ونعنى به المعلومات الواردة فى كتب الأحاديث وما يتعلّق بها . فقد أسلفنا القول بأن الفقهاء الأقدمين كانوا يأخذون القواعد التى كانوا يطبقونها على القانون العرفى من القرآن والأحاديث التى كانوا يرونها صحيحة فلذلك ليس من العجب أن نجد إلى جانب الأحاديث كثيراً من القضايا والأحكام تتعلق بها لاسيما فى الجامع الصحيح للبخارى . فان صاحبه فى تراجم الكتب والأبواب كثيراً ما يذكر آراء الفقهاء التى تدخل فى موضوعه حتى ولو لم تتفق والأحاديث المذكورة أو اعوزت الأحاديث كل الاعواز . وإن لنا الحق فى أن نفترض أن كل حديث ذى صلة بمسائل الفقه كان يلازمه أصـلا رأى فقهى مطابق له حتى

ولو كان هذا الرأى قد اختفى . والأحاديث - سواء أ كانت صحيحة أم مطعونا فيها - هى فى الواقع مصدر من الدرجة الأولى لفهم هذا التطور القديم للفقه ، وعلى الباحثين أن يطابقوا بين الآراء الفقهيّة التى تعبر عنها الأحاديث وحالة الأشياء الحاصلة بعد استكمال الفقه على صورته النهائية . وأود أن أورد لكم بضعة أمثلة لهذه الطريقة - طريقة المطابقة بين الأحاديث الشرعيّة والفقه

فالنص الأساسى للّعان ، وهو مثالنا الأول ، هو الآية الآتية : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلاّ أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين » هذا النص لا يفصل فى مسألة النكاح : أيقتضى اللعان فسخه ضرورة أم لا . فجميع مذاهب الفقه تقول بالإيجاب ، وتستند فى ذلك الى أحاديث . ولكن تلك الأحاديث تثبت هذا الرأى بصورة جازمة قوية حتى أن الرأى العكسى لابد أن يكون قد وُجد قبل تأليف المذاهب . ويقال إن مصعب بن الزبير قد أخذ بهذا الرأى الآخر ، لكن هذا القول لا أصل له ؛ ولكن الخبر المنفرد عن عثمان البَتّى أنه كان يرى ذلك فيؤكده متن الأحاديث نفسه . فأما فسخ النكاح عند اللعان فقد يحتمل أن يكون على ثلاثة وجوه : أن يفسخ النكاح بالطلاق الذى يجب أن يصدر عن الزوج ، أو أن يفسخه القاضى المشرف على أداء اللعان ، أو أن ينفسخ بوقوع اللعان نفسه . والرأى الأول يطابق بلا ريب المعنى الواضح لطائفة كبيرة من الأحاديث ، بينما لم يبقَ له أثر ما فى الأقوال المروية عن الفقهاء الأقدمين ما عدا جدال منفرد ضدّه ؛ ولابد أن يكون قد اندثر من زمن بعيد ، وقد فسّرت تلك الأحاديث على أنها مؤيدة للرأى الثانى ، وهذا الرأى تشهد به أحاديث أخرى كثيرة ، ويصفه الزهرى بأنه سنّة ، وهو مذهب الحنفية ؛ ومن الراجح على الظن أن مالك بن أنس قد أخذ به شخصياً فى حين أن المالكية قد آثروا عليه الرأى الثالث . وهذا قد أخذ به الشافعى ومن بعده الشافعية أيضا ؛ لكننا لا نجد أحاديث تؤيده . وهكذا يظهر من مقارنتنا للأحاديث بالمذاهب الفقهية تطوّر بيّن يتجه اتجاها معينا

فأحكام القصاص - وهو مثالنا الثانى - مبنية على آيات عديدة ، منها الآية التالية : « يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص فى القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان » . وقد فسرت هذه الآية تفسيرات مختلفة . منها تفسير يلوح أنه مطابق لمعناه الظاهر ، يفيد فى الواقع أن رجلا حراً لا يمكن أن يُقتل إلا فى رجل حرّ وفى المرأة امرأة فقط ، وانه فى الحالات الأخرى يجب أداء الدية بدلا من القصاص . ويزعم أصحاب ذلك التفسير فى نفس الوقت أن هذه الآية قد نسختها آية أخرى تنص على القصاص العام وهى الآية الآتية : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . كذلك أجمعت المذاهب الآن على أن الرجل يُقتصّ منه بالمرأة . وقد فسرت الآية الأولى أيضا بهذا المعنى استناداً إلى حديث لاشك فى صحته مؤدّاه أن النبى أمر بقتل رجل فى امرأة . ومع هذا كله فقد وُجد الرأى القائل بأنه لا ينبغى أن يُقتل رجل فى امرأة ، ويُذكر من أصحاب هذا الرأى عمر بن عبدالعزيز والحسن البصرى وعطاء وعكرمة ، ولكن لا يكاد يوجد حديث يؤيد هذا الرأى ، وهذا المثال يفيدنا علماً بأنه - ولو أن كل حديث يطابق قولاً فقهياً - فالعكس ليس كذلك وأن بعض الآراء الفقهية يمكن أن يكون مستقلا عن الأحاديث . ومثل هذا يُقال فى مسألة العلم بهل يقتل كثيرون فى شخص واحد إذا اشتركوا فى قتله ؟ ولما كان أصحاب هذا القول الذى أخذت به مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى يعوزهم حديث لا مطعن فيه ، فقد كانوا مضطرّين أن يستندوا إما إلى حديث لم يكن دليلا قاطعاً وإما إلى آراء بعض القدماء ، وهو مما أثار انتقادات خصومهم

ولعل هذا يكفى فى وصف ذلك العصر الخصيب من تاريخ الفقه الاسلامى . وحسبنا أن نلاحظ ختاماً لهذه المسألة أنه يمكننا بالانتفاع بالمصادر الميسورة اليوم أن نفهم فهماً دقيقاً تلك الوظيفة التشريعية التى قامت بها شخصيّة قديمة كشخصية ابراهيم النخعى . وبهذه الاشارة إلى ميدان واسع لأبحاث مستقبلة عظيمة الشأن نختم هذا الحديث الأول

يوسف شخت

الحجر المؤابي

« Moabite Stone »

بقلم جريس القسوس

اكتشف الحجر المؤابي في قرية ديبون القديمة (ذيبان) الواقعة ما بين نهر أرنون القديم (أو الموجب الحالي) ومادبا في أقصى شمال مؤاب (الكرك اليوم)، وتبعد ذيبان عن نهر أرنون نحو أربعة أميال إلى الشمال؛ وقد كانت قديماً قاعدة ملوك مؤاب في عصورهم الذهبية، أي التي سيطروا فيها على مؤاب الشمالية، ومؤاب الجنوبية. وفي سنة ١٨٦٨ زار قس ألماني اسمه ف. كلاين Rer. F. Kleim القسم الشمالي من مؤاب، ومر في طريقه بذيبان، فعثر فيها على حجر مسنود إلى جانب سور المدينة القديم، منقوش على أحد جوانبه كتابة باللغة العبرانية القديمة، ويظن ترسترام[1] أن الرومان استعملوه في بناء سور المدينة، غير أنه زحزح من مكانه الأصلي بسبب طارئ طبيعي ربما كان زلزلة. ويعتقد ترسترام أيضاً أن الحجر دحرج من مكانه بسبب الزلزلة التي حدثت سنة ١٨٣٧، ولا يرى أن هذا الحادث متقدم عن ذلك التاريخ، إذ أن الكتابة لا تزال ظاهرة للعيان رغم تعرضها الطويل للشمس والهواء والمطر، وإذا اعتبرنا قوله هذا صحيحاً، تكون الكتابة قد ظلت معرضة للحوادث الطبيعية والتغيرات الجوية مدة إحدى وثلاثين سنة فقط

أدرك ذلك القس الألماني قيمة هذا الأثر، وأراد أن يبتاعه مبدئياً، آملا أن يبعث به إلى متحف برلين، إلا أنه لم يوفق في مهمته هذه، إذ ما كاد بدو بني حميده، القاطنين في تلك الديار يدركون قيمة هذا الحجر حتى ثار النزاع بينهم فانقسموا فريقين، كل فريق يرغب في اغتصابه واحتكار ثمنه. غير أن أحد الفريقين أدلج إليه مع سواح فرنسيين: ولما لم يتمكنوا من نقله لثقله، خففوا من كثافته بفؤوسهم، وأخيراً حطموه إلى عدة أقسام، حملوها على بغال وقطعوا بها نهر الأردن، فتمكن بذلك السواح الفرنسيون من شرائه ونقله إلى متحف اللوفر بباريس، ولا يزال هناك إلى اليوم. وقد أخذ

(1) H. B. Tnistram's The Land of Moad. P. 148

عنه قالب من الجبس لكي يحفظ في المتحف البريطاني.[1] ولا صحة لما أورده المؤلف هرمان هلبرخت[2] من أن الحمايدة حطموا هذا الحجر، آملين أن يعثروا في داخله على كنز. ولقد جمعت قطع هذا الحجر، وعددها ثمان عشرة. وصُفّت صفاً فنياً، وشُدّ بعضها إلى بعض بقوالب حديدية متينة. حتى استطاعوا أخيراً قراءة كل ما هو منقوش عليه

أما طول هذا الحجر فنحو ثلاثة أقدام ونصف قدم، وعرضه قدمان[3]. وهو شبيه في مظهره الخارجي بمواميد أسر حدون الأشوري الحجرية الموجودة في متحف برلين. ولقد نقش عليه مئتان وستون كلمة في أربعة وثلاثين سطراً، وذلك بالخط العبراني القديم[4]

وللكتابة على هذا الأثر فضل كبير على تاريخ الحضارة، لأنه حفظ لنا أنموذجاً من النحو والانشاء العبراني القديم، ليس هذا فحسب، بل من الخط العبراني القديم أيضاً. فمن هذا الأنموذج يتضح لنا شكل الحروف الهجائية السامية القديمة، هذا عدا أنه يساعد على دراسة تطور الخط الأغريقي

أما فحوى هذه الكتابة فهو مكمل لما ورد في سفر الملوك الثاني (الاصحاح الثالث) من التوراة، من الحوادث عن مؤاب في القرن التاسع قبل الميلاد وذلك في عهد ميشاع ملك مؤاب الذي كان معاصراً لأحازيا ويهورام ملكي اسرائيل، ويهوشافاط ملك يهوذا. فبينما تورد التوراة قصة اتحاد يهوشافاط ويهورام واتفاقهما على إخضاع مؤاب في عهد ميشاع، نرى ميشاع يخط لنا على هذا الأثر الخالد الأسباب التي أفضت إلى هذه الحروب، وكيف أن عُمْرى ملك إسرائيل وابنه آحاب أخضعا الكرك، وامتلكا أرض مادبا؛ وكيف أن ميشاع تمكن بمعونة إلهه كيموش من استرجاع هذه البلاد، واغتنامه من الاسرائيليين مدينتي عطاروث ونبو وغيرهما من المدن الحصينة؛ وكيف أنه أعمل السيف في رقاب بني إسرائيل القاطنين عطاروث تخليداً لاسم كيموش، وفيه يحدث ميشاع أيضاً عن اعتزامه على تحصين مدن مؤاب، وبناء قصر له في الكرك الحالية، وحفر آبار ماء فيها. أما عبادة

(1) G. st. Clair's Ruined cities — Bible countries P. 194

(2) H. Hilperecht-s Explorantione in Blilele Lands P.611

(3) Tristram,s Land of Moad P. 148

(٤) الموسوعة اليهودية (موآب)

مؤاب فى عهد ميشاع ، كما يظهر من هذا الأثر ، فوثنية ؛ إذ أن كيموش عندهم يقابل يهوه عند إسرائيل (سفر العدد ص٢١ : ٢٩) (والقضاة ١١ : ٢٤) . والديانة عند ملكيهما أساس الوطنية والقومية الصحيحة ؛ كما أن الملك أقرب فرد فى الشعب إلى الآلهة . أما ماعدا كيموش فهناك (دودة Daudeh) ، وقد ورد اسمه فى الكتابة على الحجر المؤابى ، وإليك ترجمة ما كتب على هذا الحجر الأثرى نقلا عن الكتاب الانكليزى Rev. G. A. « Cooke's North Semitic Jnscri tions »

« أنا ميشاع بن كيموش . . . . . . ملك مواب الديبونى كان والدى ملكا على مواب مدة ثلاثين سنة ، وأنا ملكت بعد والدى

وأنا الذى شيدت هذا المكان العالى لكيموش فى QQHH[1] مع ...... (مكان الخلاص العالى) حيث أنه أنقذنى من ...... (مهاجمىّ)

ولأنه جعلنى أحقق كل ما أردت وأملت أن أنمله عن كرهونى ولقد أنزل عمرى Omri ملك إسرائيل كلّ بلية بمواب أياماً عديدة ، لأن كيموش كان ناقماً على وطنه ، ولقد خلفه ابنه على العرش ، وهذا بدوره رأى أن يسحق مواب ، وفى عهده رأى .... (هذا) وأنا حققت ما كنت أؤمل أن يحل به وببيته ، وهكذا هلك إسرائيل على بكرة أبيه إلى الأبد . لقد احتل عمرى أرض ميدبا وسكنها طيلة حياته ، ونصف حياة بنيه أى مدة أربعين سنة ، لكن كيموش استردها فى أيامى

وأنا الذى بنيت بعلميون[2] ، وأنا الذى حفرت هناك سدّ الماء وبنيت قرياثان . ولقد سكن أبناء جاد فى أرض عطاروث منذ القدم . وبنى ملك إسرائيل مدينة عطاروث لنفسه وأنا حاربت هذه المدينة وامتلكتها ، وفتكت بجميع أهلها

. . . . . . هذه المدينة مطمح أنظار كيموش ومواب . وأنا الذى جلبت الى ذلك المكان موقد مذبح (دوده) Daudeh وجررته أمام كيموش فى قيرايوث . وأنا الذى جعلت SRM[3] ورجال Mhrth[4] أيضا يسكنون هناك

ولقد قال لى كيموش « إذهبْ وخذ نبو[1] من إسرائيل عنوة . فذهبت عشاء وحاربتها من مطلع الفجر حتى مطلع القمر مساء وأخذتها ، وذبحت أهلها ، سبعمائة رجل و... (ولد) وامرأة و ... (جارية) وفتاة ، وكرّست المكان لعشتار كيموش . ثم أخذت ... (عبيد) يهوه وجررتهم أمام أعين كيموش

ولقد بنى ملك اسرائيل ياحاص حيث أقام فى حين مقاومته لى ؛ لكن كيموش دفعه أمامى . ولقد أخذت من مواب مائتى رجل ، وكل الشيوخ هناك ، وقدتهم ضد ياحاص فامتلكتها واضفتها لذيبان

لقد بنيت QRHH وسور يعارم ، وسور موند ؛ وجعلت لها أبوابا ، وأقمت فيها حصونا ، وشيّدت دار الملك . ولقد حفرت مجارى لجمع المياه وسط المدينة . ولما لم تكن بئر وسط المدينة (QRHH) أمرت السكان أن يحفر كلّ واحد منهم بئراً داخل بيته

وأنا الذى حفرت الحفرة فى (QRHH) بمساعدة أسرى إسرائيل الذين كانوا فى قبضتى

أنا الذى بنيت عراعر[2] ، وفتحت الطريق العامّة الى أرنون . وأنا الذى بنيت بيت باموث وقد كانت خراباً . وأنا الذى بنيت بصيره Beser التى كانت مهدمة ... أما ... ذيبان فقد كان خمسين لأن ذيبان كانت تحت طاعتى . ولقد صرت ملكا ... مائة ، فى المدن التى أضفتها إلى مملكتى . وأنا الذى بنيت ... ميدبا وبنيت دبلاثان . أما بيت بعلميون فقد قدت اليها . . . غنم الأرض . أما فيما يخص حورنايم فقد سكنها ... و ... وأمرنى كيموش أن أنحدر وأحارب حورنايم ؛ فانحدرت . . . كيموش فى أيامى و .... من هناك ...... وأنا ...... » اهـ

الجامعة الأمريكية
بيروت
جبرائيل القوس

مصادر هذا المقال

(1) H. V. Hilperecht's Explorations in Bible Lands
(2) H. B. Tristram's Land of Moad
(3) Cooke's North Sem tic Inseri ['t'ons
(4) The Jewish Encyclepedia (Moad)
(5) Cyelopedia of Religion Ethics

(١) ربما كان هذا الكرك الحالية كما هو ظاهر من وصف سورها وآبارها وغير ذلك مما جاء على الحجر (٢) قرية ماعين قرب ماديا

ملاحظة : يدل مكان النقط فى الترجمة على كلمات لم تظهر على الحجر بسبب تعرضه للحوادث الطبيعية ، أما الكلمات الموضوعة بين قوسين بعد النقط فهى من نسخة ثانية فى الموسوعة اليهودية تحت مادة (مواب)

(٣) و (٤) كلمات فى الاصل الانكليزى لا معنى ظاهر لها

(١) جبل واقع غربى مادبا فى شرق الاردن

(٢) قرية صغيرة لا تزال آثارها القديمة باقية ، وتقع شمالى الكرك الحالية فى شرق الأردن

فى ميـــدان الاجتهاد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٣ —

أصول الاجتهاد

إن أول شىء يجب أن ينظر اليه فى ذلك هو ما يقوم عليه الاجتهاد من الأصول التى يرجع اليها فيه ، فان هذه الأصول إذا تركت على حالها كان ما نرجوه من فتح باب الاجتهاد قليل الثمرة ، ضئيل الفائدة ، ولا يؤدى إلى ما نطمح اليه من التمهيد لتشريع فقهى يجتمع فيه المسلمون على اختلاف مذاهبهم ، ويتضافرون على استنباط الأحكام التى لا أثر فيها لتعصب مذهبى ، ولا لحقد سياسى ؛ كما تأثر بذلك اجتهادهم فى الأزمان الماضية ، فعمل فيه كل فريق وحده ، وأخذ فى ذلك بالطريق الذى يوافق هواه ومذهبه ، حتى تباعدت مذاهبنا الفقهية ، وأصبح الجمع بينها عسيراً مع بقاء هذه الأصول على أشكالها الحاضرة ، فالسنى لا يعمل إلا باجماع أهل السنة ، ولا يثق إلا بالأحاديث التى رويت فى صحيح البخارى وغيره من الكتب المعتمدة عنده ، والشيعى لا يعمل إلا باجماع أهل الشيعة ، ولا يثق إلا بالأحاديث التى رواها أئمته ، ولا يذعن لما روى فى صحيح البخارى ونحوه ، كما لا يذعن السنى لما يذعن له ، وهكذا غير السنى والشيعى ، حتى أصبح كل فريق لا ينظر فيما عند الفريق الآخر من الأحاديث والأحكام ، وتقطعت بهذا بيننا الأسباب ، وبقيت الأحقاد القديمة تعمل إلى الآن عملها فينا مع زوال أسبابها ، وذهاب عواملها

وهذا إلى أن هذه المذاهب التى نعاديها قد يكون فيها أحكام أحسن من أحكامنا ، فاذا نظرنا فيها استفدنا ذلك منها ، مع ما نجنيه من جمع الكلمة ، والتقريب بين فرق المسلمين فى هذه الأيام العصيبة

والأصول التى يرجع فى الاجتهاد اليها أربعة أصول :

(١) الكتاب ، وهو القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم منجما من ليلة اليوم السابع عشر من شهر رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده إلى تاسع ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، حيث أوحى اليه بآخر آية نزلت عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)

(٢) السنة : وهى ما صدر من النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وقد جاءت السنة مبينة للقرآن ، ومفصلة له ، كما قال تعالى : (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) فكان يبين ما أراد القرآن أحياناً بالقول وحده ، وأحياناً بالفعل وحده ، وأحياناً بهما معاً ، كما صلى وقال (صلوا كما رأيتمونى أصلى) وقد أمر الله فى القرآن باتباعه فقال : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)

(٣) الاجماع . وهو اتفاق المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور على حكم من الأحكام الشرعية

(٤) القياس : وهو إلحاق مالم يرد فيه نص عن النبى صلى الله عليه وسلم بما ورد فيه ذلك بناء على وجود مشابهة بينهما

فأما القرآن الكريم فهو أصل هذه الأصول الأربعة ، وقد حفظه الله تعالى لهذه الأمة الكريمة سالماً من التغيير والتبديل ، وقد كان له كتاب يكتبونه على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، قيل إنهم كانوا ستة وعشرين ، وقيل إنهم كانوا اثنين وأربعين ، وكان ما يكتب منه يوضع فى بيت النبوة ، وكان بعض هؤلاء الكتاب يكتبون منه صورة لأنفسهم ، وكان بعض الصحابة يحفظه جميعه ، وبعضهم كان يحفظ كثيراً منه ، وقد هيأت هذه الأسباب كلها حفظه بين المسلمين الى يومنا هذا ، واتفاقهم على ألفاظه ونصوصه ، وهم لا يختلفون إلا فى فهم بعض هذه النصوص ، ومن السهل جمعهم عليها ، أو تقريب مسافة الخلاف بينهم فيها

وأما السنة فكانت لا تكتب فى عهد رسول الله لئلا يؤثر أمرها فى القرآن الكريم ، ولم يكن يكتبها على عهده إلا نفر قليل ، مثل عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره ، فلما كان عهد عمر بن الخطاب أراد أن يكتبها فلبث شهرا يستشير ويستخير ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فجمع الناس وقال لهم : إنى كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء

فمكث أمر السنة على هذه الحال مدة طويلة تبلغ نحو مائة سنة بعد الهجرة ، وهى فى هذه المدة كلها لا تؤخذ إلا بالرواية ، ولا تحفظ إلا فى الصدور ، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الثانية من الهجرة ، بدأ الاهتمام بتدوين السنة خوفاً عليها من الضياع ، أو أن يدخل فيها ما ليس منها ، وكان هذا الملك الصالح أول من اهتم بذلك ، فكتب إلى عامله بالمدينة وهى مجمع رجال السنة ، وكان أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء

ولكن هذا التدوين جاء متأخراً عن أوانه ، ولم يحصل إلا بعد تشعب الأحاديث النبوية واختلافها اختلافا كبيراً يرجع بعضه إلى اختلاف الأمصار ، وانقطاع بعضها عن بعض فى تلك العصور فسار إلى كل مصر بمن نزل فيه من الصحابة من تلك الأحاديث مالم يسر إلى المصر الآخر ، وقد كان منها ما يحفظ بلفظه ، ومنها ما يروى بمعناه على حسب ما فهمه السامع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأفهام تختلف فى ذلك ، بل قد يختلف فيه السمع نفسه ؛ كما روى مالك عن عبد الله بن أبى بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أخبرته أنها سمعت عائشة تقول — وذكر لها أن عبد الله بن عمر يقول إن الميت ليعذب ببكاء الحى — فقالت عائشة : يغفر الله لأبى عبد الرحمن . أما إنه لم يكذب ولكنه نسى أو أخطأ ، إنما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودية يبكى عليها أهلها ، فقال : إنكم لتبكون عليها وإنها لتعذب فى قبرها

ويرجع بعض ذلك الاختلاف أيضاً إلى ما حصل من انقسام المسلمين ذلك الانقسام السياسى ـ إلى جماعية وشيعة وخوارج ـ واستفحال أمر تلك الخصومة السياسية فعمل ذلك فى التبعيد بين أفهام المسلمين مالم يعمله اختلاف الأمصار فيها

وقد كان الخير كل الخير تدوين السنة فى الزمن الذى جمع فيه القرآن الكريم ، ولم يكن هناك خوف بعد جمع القرآن أن تلتبس به السنة النبوية ، أو أن نقع من ذلك فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبلنا . لأن أهل الكتاب لم يكتبوا كتاب الله كما كتبناه ؛ وإنما كتبوا تلك الكتب وأكبوا عليها ، فالفرق فى ذلك كبير بيننا وبينهم ، فلو أن السنة النبوية دونت فى ذلك العهد لكان لنا منها سنة متفق عليها ، أو تقرب على الأقل مسافة الخلف بيننا فيها

وإذا كنا قد فاتنا من هذه الغاية الحميدة ما فاتنا ، فقد يكون فى هذا الخلاف فى السنة النبوية خير كبير لنا ، وقد عد هذا الخلاف فعلاً رحمة بالناس ؛ وقيل إن اختلاف الأئمة رحمة وتوسعة ، ولكن هذا القول لا يؤخذ على إطلاقه ، بل تقف تلك الخصومة السياسية دونه ، وتجعل فى هذا الخلاف ما لا يكون معه رحمة خالصة ، وتوسعة عامة

وإنه ليمكننا الآن بعد ذهاب تلك الخصومة أن نعتبر من اجتهاد أئمة الشيعة والخوارج ما نعتبره من اجتهاد أئمة أهل السنة ، ولا يقوم ما يحول دون ذلك إلا تغالينا فى علم الجرح والتعديل الذى وضعناه بجانب علم الحديث ، مع أن هذا العلم لا يعتمد إلا على ظواهر الرجال ، وغاية ما يفيده الظن دون اليقين ولا يوجد ما يمنعنا بعد التخفيف من ذلك التغالى من أن نعتمد من رجال كل من أهل السنة والشيعة والخوارج من اعتمدوه ، ورفض منهم من رفضوه ، وكذلك لا يوجد ما يمنعنا بعد التخفيف من ذلك التغالى أيضاً من الانتفاع بالحديث الضعيف فى التشريع ، والأخذ به عند الحاجة إليه ، فلا نرفض من الأحاديث إلا ما ثبت أنه موضوع بيقين ، ولا نتهم من رجال الحديث إلا من ثبت عليه الكذب قطعاً ، ورب حديث ضعيف يكون هو الصحيح ، ورب رجل متهم يكون هو الرجل الثقة

وأما الاجماع فقد اختلف فى أمره ، حتى قال فيه أحمد بن حنبل رضى الله عنه : (من ادعى الاجماع فهو كاذب ، لعل الناس قد اختلفوا ، ولكن يقول لا نعلم الناس اختلفوا إذا لم يبلغه) ؛ وقد حمل بعض فقهاء الحنابلة ذلك على غير إجماع الصحابة ، أما إجماعهم فحجة معلوم تصوره ، لكون المجمعين ثمة فى قلة ، أما بعدهم فانهم فى انتشار وكثرة ، وكذلك نقل عن الشافعى ما يفيد أنه لا يقول بوجوده إلا فى الفرض الذى لا يسع أحداً جهله ، من الصلوات والزكوات وتحريم الحرام ، وأما علم الخاصة الذى لا يضير العوام جهله ، فيقول فيه نحو ما قاله أحمد بن حنبل

وقد اتفقوا جميعاً على أنه لا بد من استناد الاجماع إلى نص من كتاب أو سنة ، وإذا كان هذا شأنه معهما فلا يكون لعده من أصول الاجتهاد شأن كبير بعدهما ، على أنا إذا أبقيناه الآن بين هذه الأصول ، وأردنا أن نرجع إليه فيما نروم من فتح باب الاجتهاد ، فسنجد أنفسنا أمام إجماع لأهل السنة ، وأمام إجماع

ثان يغايره للشيعة ، وأمام إجماع ثالث يغايرهما للخوارج ، وهلم جرا ، وإنى أوثر أن نقف وجهاً لوجه أمام النصوص التى لا بد من استناد الاجماع إليها ، على أن نقف جامدين أمام هذه الاجماعات المتعددة ، فمن الممكن معالجة هذه النصوص بتأويل أو غيره ، ومن الممكن الجمع بينها بوجه من الوجوه التى تتفق فيها الكلمة ، أما الاجماع فانه لا يقبل تأويلاً ولا جمعاً ، ولهذا أرى أن نحذف هذا الأصل من الأصول التى يرجع اليها فى الاجتهاد ، وأن نرجع مباشرة إلى النصوص التى لابد من استناده إليها ، فقد يفتح الله علينا فيها بفهم جديد غير ما فهموه منها ، وقد نصل بذلك إلى حل كثير من مشاكلنا الفقهية ، ولا يوجد أمامنا من هذا الأصل عقبة تقف فى سبيلنا .

وأما القياس فهو الأصل الذى بقى لنا من أصل الرأى الذى كان يأخذ به بعض كبار الصحابة مثل عمر وعثمان وغيرهما ، وكان يعرف به قوم من الفقهاء يلقبون بأهل الرأى ، وهو أتم من القياس شمولا ، وأكثر منه اتساعا [1] ، إذ كان على ما يظهر من فتاويهم عبارة عن الحكم الذى يبنى على القواعد العامة للدين كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » وقوله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ولم يكونوا يهتمون بأصل معين يشبهون بمحله الحادثة التى يفتون فيها ، كما يجب ذلك فى القياس ، ومن هذا إسقاط عمر سهم المؤلفة قلوبهم مع أن القرآن عدهم من المستحقين ، وإسقاطه الحد عن السارق عام المجاعة ، وتركه التغريب فى الزنا بعد أن لحق أحد المغربين بالروم وتنصر ، وجعله الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ثلاثا بعد أن كان واحدة على عهد رسول الله وعهد أبى بكر وصدر من إمارته ، وله من ذلك كثير

وقد حدث بعد هذا أن أخذ قوم يذمون هذا الرأى ، وكان ذلك بعد ظهور العناية بجمع السنة وتدوينها ، وقيام فئة من العلماء بذلك عرفوا بأهل الحديث ، فشنوا غارة شعواء على أهل الرأى ، وأخذوا يقولون إن الشريعة أجل وأرفع من أن تكون مجالا لآراء أهل الرأى من العباد ، لأنها من الله كتابا كانت أم سنة ، وما كان كذلك يكون أبعد من الخطأ والاختلاف ، والرأى من الانسان ، وهو عرضة لأن يخطىء وأن يصيب ، وهنا يكون الاختلاف والفرقة ، وقد نهينا عنهما — إلى غير هذا من أقوالهم فى التشنيع على أهل الرأى

وهى كما ترى أقوال فيها كثير من الغلو ، لأن الرأى إذا كان مبنياً على القواعد العامة للدين فهو من الله أيضا ، وهذه الفرقة التى يخشونها منه حاصلة بدونه كما نرى ، وليست كل فرقة مذمومة فى الدين ، إنما المذموم فيه الفرقة المؤدية إلى التنابذ والتخاصم ، والاختلاف فى الرأى لا يصح أن يؤدى إلى شىء من هذا ، مادام يكون رائدنا فيه الاخلاص وصدق النية

وقد وجدت هذه الأقوال فى ذم الرأى آذاناً صاغية من الجمهور ، وكان لهذا أثره فى نفوس أنصاره ، فأخذوا يتقربون إلى أهل الحديث ، ويتركون الاعتماد على هذه القواعد العامة الثابتة فى الدين باليقين ، إلى أن صاروا من هذا الأصل الجليل الى قاعدة القياس التى لابد فيها من الاعتماد على أصل معين من الحديث الثابت بالظن

وإنى أرى فى هذا الأصل أيضا أن نرجع فيه الى ما كان عليه فى عهده الأول من الشمول والاتساع ، ولا نقتصر فيه على إلحاق الشبيه بالشبيه ، ولا يخفى أن السنة قد اختلفت رواياتها اختلافا كبيرا ولابد من تحكيم الرأى فيها تحكيما مطلقا ، ولست أدرى معنى لتحرجنا الآن من تحكيم الرأى فى علم الفقه وهو من الفروع بعد أن صرنا أخيرا إلى تحكيمه فى علم الكلام وهو من الأصول ، وقبلنا فيه عند تعارض دليل العقل ودليل النقل أن نرجح دليل العقل على دليل النقل ، ويكون هذا بتأويل دليل النقل أو ترك أمره الى الله تعالى

وهذا هو ما أراه فى هذه الأصول الأربعة التى يقوم عليها الاجتهاد فى الاسلام ، وقد اقترحت فى مقالى الثانى فى هذا الموضوع عقد مؤتمر اسلامى من جميع المذاهب الاسلامية الباقية لفتح باب الاجتهاد فتحاً صريحا ، وتنظيم أمره تنظيما يقضى على ما يساور نفوس أنصار التقليد من الخوف على الدين من فتحه

وهناك أمر خطير له أثره فى تسهيل أمر الاجتهاد علينا ، وفى القضاء على هذه العزلة فى الاجتهاد بيننا وبين باقى الطوائف الاسلامية ، وذلك هو تأليف كتاب فى الفقه على جميع المذاهب الاسلامية ، تجمع فيه أقوال الأئمة من سائر المذاهب المعمول بها الآن وغيرها ، وتبين فيه مآخذها التى اعتمدوا عليها فيها ، وهذا هو العمل الخطير الذى يجب أن يمهد به لفتح باب الاجتهاد من يدعون الآن إلى فتح بابه ، وهذا هو باب الجد مفتوح على مصراعيه للرجل الذى نريد منه البدء بالعمل قبل أن تفوت

(1) تاريخ التشريع الاسلامى ص ٢١١ « الطبعة الرابعة »

صورة من الحياة العلمية في مصر

تقي الدين السبكي

بقلم محمد طه الحاجري

لا أحسب أن مصر قد ظفرت في عصر من عصورها الاسلامية بما ظفرت به في عصر المماليك من مظاهر علمي سابغ، وأثر في تاريخ الفكر العربي خالد، وصوت طائر مرنان في أنحاء الامبراطورية المصرية بما لعلمائها من نفاذ في البصيرة، وعمق في التفكير، وقوة في المناظرة، وشمول في المعرفة، وإحاطة مدهشة بآثار السلف، وابداع في شتى نواحي العلوم النظرية والشرعية، بمقدار ما وسم به هذا العصر من سطحية في أدبه، وتفاهة في الصور الشعرية المنبثة عنه، وضعف في الأسلوب الأدبي المتعارف فيه؛ كان عجيباً جهد ما يبلغه العجب في ذلك الجو العلمي السائد به، والروح العلمية الحق المهيمنة على رجاله، على ما كان يفهم من مدلول العلم إذ ذاك. ولا نحسبنا بحاجة إلى الاستشهاد لذلك المظهر الرائع، فان نظرة عامة الى كتب الطبقات المصنفة في ذلك العهد مثل الدرر الكامنة، والضوء اللامع وغيرها تشهد لهذا القول شهادة قاطعة لا تحتمل شبهة ولا يحتاج إلى مراجعة. وبمقدار ما كان يسود هذا العصر من اضطرابات سياسية مترادفة، وفتن في بلاد الأمراء متعددة، حتى لتعد سبعة عشر سلطاناً تولوا أمر البلاد مدة حياة رجل واحد كهذا الذي نترجم له، ثم ما يستتبع ذلك من فوضى في الحياة العامة لا يحدها حد ولا يضبطها ضابط؛ كانت النهضة الفكرية مطردة في سبيلها، والحياة العلمية تقدم للناس أحسن مثلها، والعلماء يقومون على مذهبهم في الحياة بالرعاية والتقدير، لا يكاد يلفتهم عنـــه ما تعتلج به البلاد من الفتن، وما تموج به من الاضطراب

ولسنا الآن بصدد التعليل التاريخي لهذه الظاهرة التي لا نزاع في حقيتها، وإنما سبيلنا أن نسجلها هنا لنلفت أنظار بعض القراء عندنا إلى أن التاريخ الفكري شيء غير التاريخ السياسي، وأنه لا ينبغي أن يصرفنا انكار أحدهما عن الاعجاب بالآخر، وإنا لنرجو أن يتجه البحث العلمي اتجاهاً جدياً دائباً إلى إثارة دفائن هذا العصر العلمي المجيد في تاريخ مصر، وأن يعني القوم عناية بليغة بكشف آثاره وتنور أسراره، فإن في ذلك متاعاً للروح العلمية التي تتمشى في نفوسنا، وقياماً بحق مصر الكريمة علينا، وتغذية للروح القومية التي نحاول بكل سبيل تقويتها وتعزيزها في قلوبنا

وإذا كانت الصورة المقيتة التي تركها التاريخ السياسي والدرس المقتضب لهذا العصر في أذهاننا، قد صرفتنا عنه إنكاراً له، حتى ليود بعض الناس لو لم تكن هذه الفترة في تاريخ مصر؛ فان الصورة الجميلة الرائعة التي تركها التاريخ الفكري لمصر عن هذا العهد جديرة أن تصرفنا اليه وتحببنا فيه، وتجعل منه مفخرة لنا تخفق لها قلوبنا، ومثلا عالياً لطلابنا ورجال العلم عندنا؛ حينما يستطيع البحث العلمي أن ينفض التراب عن هذه الصورة، ويجلوها للناس كريمة رائعة

وإنه ليغبطنا أن نقدم اليوم وجهاً من وجوه هذه الصورة، في شخص رجل من رجال ذلك العهد، لا نخطىء إذا قلنا إنه من خير ما يمثل هــذا العصر تمثيلا يملأ قلوبنا روعة وإكباراً، ويهز مشاعرنا حباً وإعجاباً، وإن كنا نأسف لأن أسباب البحث لم تهيأ لنا كما ينبغي لعرض هــذه الشخصية في أكمل مجاليها: ذلكم هو العلامة الشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي

عليه فرصته، ويكون للتاريخ بعد ذلك حكمه فيه، وقد بلغت اللهم فاشهد

اللهم إني لا أدعي العصمة فيما قلت، وفيما سأقول في هذا الموضوع، وإنما أريد أن أعرض رأيي فيه على صفحات مجلة «الرسالة» القراء، فان كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن نفسي، وإني حينما أعرض رأيي في ذلك على صفحات هذه المجلة، فانه سيصبح في يوم ظهورها مقروءاً لألوف الألوف من علماء الدين وغيرهم، فنشترك فيه الآراء، وتمحصه البحوث، وهذه وسيلة لتمحيص الرأي لم تكن متوفرة لأهل الاجتهاد الأول، وستكون لنا عوضاً مما قد يمتازون به علينا من سعة الاطلاع والعلم

عبد المتعال الصعيدي

— ١ —

ولد تقى الدين فى شهر صفر سنة ٦٨٣ هـ (أغسطس سنة ١٢٨٤ م) ، فى أسرة شريفة النسب ، كريمة الحسب ، تنمى إلى قبيلة الخزرج الانصارية من بطن منها يقال لها أسلم ، كما أثبت ذلك النسابة المصرى شرف الدين الدمياطى ، وقد أشار إلى هذا النسب الشاعر المصرى ابن نباتة فى مدائحه للشيخ عبد الكافى السبكى أبى تقى الدين :

وبيت فضل صحيح الوزن قد رجحت
به مفاخر آباء وأبنـاء
قامت لنصرة خير الأنبياء ظبا أنصارهم واستماضوا خير أنباء
أهل الصريحين من نطق ولحن ظبا
أهل الربيحين من نصر وإيواء

كما ذكره أيضاً القاضى صلاح الدين الصفدى فى كتابه « أعيان العصر » . وقال ابن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار » فى ثنايا كلامه عن الشيخ تقى الدين : « جواد جرى على أعراقه ، وجاء على أثر سباقه . من عصابة الأنصار حيث يعرف فى الحسب التليد ، ويدخر شرف النسب للمواليد . . . نزع من مطلع الصحابة رضى الله عنهم ، ونزع به عرقه الى التابعين لهم باحسان . وهو مثلهم إن لم يكن منهم »

ويظهر أن قبيلة « أسلم » التى ينتسب اليها تقى الدين لم تظل متميزة فى مصر كما كان بعض القبائل الأخرى ، بل اندمجت فى المصريين وذهبت فيهم ، ولعله لهذا السبب لم يذكرها المقريزى فى رسالته « البيان والاعراب » بين القبائل التى بنى عليها رسالته . وإنما بقى نسب بيت السبكى معروفاً لمكانته الاجتماعية التى سنشير اليها . والحق أن ذلك البيت كان بيتاً مصرياً صميما انطبع بالروح المصرية وسرت فيه ، كما ظهر ذلك جلياً فى المقدمة الجميلة التى كتبها أحد أفراد هذا البيت : بهاء الدين أبو حامد أحمد بن تقى الدين السبكى لشرحه على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى . فقد كتب فيها فصلا عن مصر وطبيعتها ومزاجها وأثرها فى أهلها . كما يبدو ذلك فى عاطفة الشيخ تقى الدين نحوها حينما كان يتولى قضاء القضاة فى الشام ، فقد كان يتمنى أن يأتيه أجله فى مصر : أمنية من ثلاث

أما مكانة هذا البيت الاجتماعية فيظهر أن منصب الوزارة كان فيه ، فقد قرن اسم جد تقى الدين الثانى كما جاء فى سلسلة النسب الذى أثبته شرف الدين الدمياطى ، بلقب الوزير . كما أشار الى ذلك ابن فضل الله العمرى فيما كتب عن الشيخ تقى الدين . فقال : « . . . ثم خرج من بيت الوزارة حيث تتقاسم النجوم ، وتتناصر ثم تتناصف الخصوم »

وهكذا نرى أنه قد أتيح لشيخنا الجليل عرق فى الشرف راسخ ، ومكان فى المجد باذخ ، وأنه قد أمدته فى حياته وراثة نبيلة ، وأعانته من قومه مكانة جليلة . إلى بيئة علمية خالصة ترى فى العلم وحده المثل الأعلى والغاية المثلى ، فقد كان أبوه زين الدين عبد الكافى السبكى من علماء العصر وفضلائه ، وكان قد أدرك الامام الكبير تقى الدين ابن دقيق العيد وصحبه وأخذ عنه وتأثر به ؛ وكان ذلك الامام آية عصره فى سعة العلم ونفاذ البصيرة وقوة الخلق ، حتى يقول تاج الدين السبكى فى طبقاته : « ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف فى أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة المشار اليه فى الحديث المصطفوى النبوى » وقد عرض عليه قضاء القضاة فى مصر ، وناهيك به منصبا ، فتأبى وتمنع واستعصم بخلقه القوى وإيمانه المتين . ولكنهم ما زالوا به حتى قبل ، وإذ صار قاضى القضاة كان لا بد له فى دينه وورعه أن يتحرى جهده فى تعيين نوابه على الأقاليم من صفوة العلماء . فكان زين الدين السبكى من أعيان نوابه كما كان من أعيان أصحابه : ولاه قضاء الشرقية والغربية

(يتبع)

محمد طه الحاجرى

صديق البلاء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

يغدر الناس فى الشقاء ولكن   غدره فى الرخاء لافى الشقاء
إنْ تَنِدْ نعمةٌ علىَّ تلظّى   حسداً لى وكان من أعدائى
فإذا الدهر مال بى كان بَكّا   ء على محنتى وطول بلائى
المُواسِى فى الحزن حتى إذا ما   كنتُ فى غبطة سطا بالعداء
فى سقامى حلو الحديث شَهِىٌّ   وهو يرجو أن لو يُخَلَّدَ دائى
فإذا ما صححت عاود بغضى   وَيْله لو أُعَدَّ فى الأقوياء
لدهاه الأسى وطال عليه الـ   ـهم حتى يموت بالبرحاء
إنْ هجانى العدو أحسنَ قولا   دافعاً فِرْيَةَ العِدَى بالثناء
فإذا ما مُدِحْتُ هَمَّ بقتلى   ورمانى بقذعه والهجاء
ياصديق البلاء عطفك فى النحـ   ـس رياء أبغِضْ به من رياء
إيهِ ياقلب ما دهاك من الخـ   ـلان أدهى من صولة الأعداء
خِلْتَ أن الصديق مثل نسيم   نافع لازم قليل العناء
لا تنال الحياة إنْ لم تَنَلْهُ   بره كالاخاء خير غذاء
إنْ تقدمتَ لا يعوقك منه   عائق فى منادح الأرجاء
ويعى ما تقوله ثم لا يلـ   ـبث حتى يذيع فى الأنحاء
مِنْ مديح تُطْرِى به مجدك الأمـ   ـجد أو لبك السَّنِىَّ الذكاء
إنْ تُرِدْهُ تَجِدْهُ أو لم تُرِدْهُ   لم تَخَفْ منه زورة الثقلاء
ما اختفى فى دَخِيلَةٍ منه إلا   ما بدا ظافراً به كل رائى
وَيْكَ إن النسيم قد يُرْمِدُ الطر   ف بسافى التراب والأقذار
وهو مثل الصديق حراً وبرداً   فى اختلاف الحالات والأجواء
وَلَهُ غدرة إذا اعتكر الجـ   ـو وأمحى بالصرصر الهوجاء
وعلى غِرَّةٍ يبلك بالمط   رة مِنْ بعد رونق وصفاء
وهْوَ خِدْنُ الممات واسطة العد   وى رسول الوباء والأدواء

عبد الرحمن شكرى

فاجعة الروض

بقلم أمجد الطرابلسى

مالى أرى الروضَ بدا واجماً   كأنما كل المفؤود فى لوعته
والطيرَ فى أفيائه ساهماً   يَشرَقُ بالأدمُعِ من حسرته

من حَطَّم الكأسَ وَقَدَّ الوترْ   وأبدلَ العرسَ تَرُنى مأتما ؟
من أخرسَ الطيرَ وأردى الزَّهَرْ   وهذه الأفنانَ من هشّما ؟

قلتُ له : يا روضُ ماذا دهاكْ   ومن كسا بِشْرَكَ هذا الوُجومْ
قالَ : سَمومٌ أوْرَدَتْنى الهلاكْ   وكيفَ أستطيعُ نِضالَ السَّمومْ !

دَكَّتْ على البُلْبُلِ أوطانَه   وطَوَّحتْ بالزَّهْرِ فوقَ الرَّغامْ
وحَطَمَتْ دوحى وأفنانَهُ   ثُمَّ مضتْ تَضْحَكُ وَسْطَ الظلامْ

فقُلْتُ يا خالِقَ هذى الرّحابْ   الرَّوْضُ لا يَعْرِفُ مَعْنى الأذى
فَلِمَ سَلَّطْتَ عليهِ العذابْ   حتى قضى الزَّهْرُ وماتَ الشَّذا

ألم يكُنْ أمسِ ندِىَّ الظِّلالْ   مُوَرَّفَ الآصالِ عَذْبَ البُكَرْ
يَشدو بنعماكَ وهذا الجَلالْ   ما غَرَّدَ الطَّيْرُ وَرَفَّ الزَّهَرْ

رباه إن الرَّوْضَ عَذْبٌ هَنِىء   وليسَ فيه شِرَّةُ الزَّوْبَعَهْ
وأنتَ لا ترضى عذابَ البرىْ   كلا ولا يُرْضيكَ أن تَفْجَعَهْ

رحماكَ لا تجعلْ نيوبَ الذئابْ   تَفْتَرِسُ الشاةَ ولم تُذْنِبِ
أو فامنحِ الشاةَ سلاحَ الغِلابْ   وأعطِها النابَ مَعَ المِخْلَبِ

الظلم يُضْوى وَيَمُضّ النفوس   فاحطم أياربُّ يَدَ الظالم
لا تبسم الأكوانُ بعدَ العُبوس   أو تَصْرِف الجورَ عن العالم

أمسِ سمِعْتُ الحمَلَ الوادِعا   وَهْوَ من السكينِ يلْقَى العذابْ
يقولُ : إن المِبْضَعَ القاطِعا   أرضى لنفسى من نُيوبِ الذئاب

إطبع على العدل قلوبَ البشر   أو فليكُنْ كلُّ الورى مُجرِما
لا تنبتِ الأشواكَ بين الزَّهَرْ   فالشَّوكُ لا يُحْسِنُ أنْ يرْحما

كم حرَمَ الشاعرَ طيبَ الكرى   وآفةُ الانسانِ فَرْطُ الشعورْ
فصُغْ مِنَ العطفِ قلوبَ الورى   يا خالقِي أو قُدَّها من صُخورْ

مَنَحْتَنِى يا رَبِّ هذا الفؤادْ   فكانَ لى كلَّ الأسى والشقاءْ
يا ليتَ هذا القلبَ كانَ الجمادْ!   وليت هذا العقلَ كان الغباءْ!

أينْدُبُ البُلْبُلُ أخدانَه   ليَطْرَبَ الرَّوْضُ وأفنانُه!
وَيُنْشِدُ الشاعِرُ أشجانَه   لنُطْرِبَ العالَمَ ألحانُه!

رَبِّ حَرامٌ أنْ تُقيمَ السَّماءْ   عُرْساً إذا لَفَّ البِطاحَ الدُّجى
وأنْ يُشادَ المَجْدُ فَوْقَ الدِّماءْ   وَيَشْرَبَ الزَّهْرُ دموعَ النَّدى!

رَبِّ خَنَقْتَ الزَّهْرَ غَضّاً لإهابْ   عَذْبَ الشَّذى يُؤذيهِ لَفْحُ الرِّياحْ
فابعثْ إلهى النَّسَماتِ العِذابْ   تُداعِبُ الوَرْدَ وتُحْيى الأقاحْ

النَّرْجِسُ ازْفافُ يا خاتِمى   كيفَ يُطيقُ الهَوْلَ والعاصِفَهْ؟
ارْحَمْهُ رَبَّاهُ ولا تُزْهِقِ   فإنَّهُ فى رِقَّةِ العاطِفَهْ!

والبلبلُ المِسْكين ماذا جنَى؟   هل يُحْسِنُ البُلبلُ غيرَ اللُّحونْ
لِمْ هَدَّمَ الإعصارُ ما قَدْ بَنَى؟   لِزُغْبِهِ بَيْنَ حَنايا الغُصون

ها هُوَذا يَسْتَصْرِخُ الظَّالما   لكنَّما الظَّالِمُ لا يَسْمَعُ
وَيلكَ كَفْكِفْ دمعكَ الساجِما   فالكونُ لا تَعْطِفُهُ الأدْمُعُ!

خَلِّ البُكى والبَثَّ يا بُلْبُلُ   لا يُطْرِبِ الإنسانَ هذا النُّواحْ
تَنْدُبُ بينا يضحَكُ الجَدْوَلُ
فاحْجُبْ عَنِ الأبصارِ هذى الجِراحْ

دمشق   أمجد الطرابلسى

دراسات أدبية

فى الأدب الايطالى الحديث

بقلم محمد أمين حسونه

إن العبقرية القصصية الممثلة اليوم فى أعمال طائفة من الأدباء الايطاليين ، لم يعن بها مع الأسف واحد من النقدة أو المشتغلين بالآداب العربية ، ومعظم الذين تحدثوا عن نهضة القصة وقفت معلوماتهم عنـد جبرائيل دانتزيو شاعر بسكارا ؛ مع أن الفن الروائى الحقيقى يبدأ بعد عصر دانتزيو ، بل إن الفضل فى تقدم القصة الايطالية يعود إلى تأثير المناصر على الجو الشمرى الحالم ، وانتفاء روح المرح ، وفى التحدث عن الذات ، وهى الصفات التى يرتكز عليها فن دانتزيو الأدبى

وليس هذا معناه أننا نغمط دانتزيو حقه ، بل الواقع الذى يجب الاعتراف به أن زعماء الصفوف الذين سبقوا دانتزيو ، كانوا إما شعراء أو نقـدة أو كتاب مسرحيات أو تراجم ، ولم يتمخض الجيـل الأدبى عن عبقريات أو مواهب قصصية مطلقا ، لأن العصر كان فوضى ، لا مقاييس تحده ، ولا معالم يعرف بها ، وقد شـبه النقادة ريشارد جارنت هذا العصر — فى كتابه Alla Scoperti dei Letterati — بأنه يحاكى المدرسة الفلسفية الأغريقيـة ، التى وقعت تحت سيطرة الامبراطورية الرومانية الفكرية

على أن الفضل فى تفتح أذهان الأدباء الايطاليين إلى الفن القصصى ، إنما يعود إلى جيته وفيكتور هيجو وبلزاك وموباسان فهم فى الواقع أساتذة المدرسـة الأدبية الحديثة فى ايطاليا ، وفى مؤلفاتهم تتلمـذ جيل الأدباء فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين ، وهى ظاهرة غريبة ، فان الأرض التى أنجبت فى القرن الثالث عشر أستاذ الأقصوصة جيوفانى بوكاتشو ، ظلت مجدبة زهاء ستة قرون إلى أن بزغ نجم دانتزيو فى سمائها وقبل التحدث عن شاعرية دانتزيو وفنه ، نرى من الخير ألا نهمل الأثر البارز الذى غرسه أستاذه كاردوتشى (١) فى نفسه .

والواقع أن كاردوتشى مؤسس مدرسة أدبية عظيمة لا نعرف لها مثيلا فى الآداب الايطالية . اللهم إلا تلك الجهود القيمة التى سجلها دانتى ، وفى مدرسة كاردوتشى تتلمذ بتزينى وجراسيا ديللايدا وبيراندللو وجيوفانى بابينى وغيرهم من أعـلام الأدب الحديث ولـكاردوتشى يرجع الفضل فى تحويل الأدب الايطالى من الصبغة القومية الخالصة إلى النزعة الانسانية والخروج برسالته من الحيز المحلى الضيـق الى المحيط العالمى وبث روح الاخاء المشتركة ، وهى التى أملت عليه ملاحم : الربيع ، والأم ، وترنيمة الشيطان ، وصقلية تحت سيوف العرب الخ ...

ولقد خدم كاردوتشى الأدب الايطالى كنقادة أكثر مما خدمه كشاعر ، ومن هنا استطاع دانتزيو أن يحمل تقاليد أستاذه مع محافظته على الطابع الخاص به . ويتمثل هذا الطابع فى غمر قصصه بعناصر الاستمتاع وصبغها بألوان من الشهوة الصارخة المتأججة ، فهو كفنان رجل عابد للجمال ، متأمل للحياة من خلال أحاسيسه ، يخضع الفن لسلطان العاطفة أكثر مما يخضعه لسيادة العقل . ومعظم أبطاله شهوانيون ، لا تطيب الحياة لهم الا فى جو من القبلات والعناق ، يقدرون معايير الجمال عن طريق الشهوة ، وينبذون الفكر والتأمل لخيالهم داعرة متهتكة

والذين يعرفون شاعرية دانتزيو فى رواياته الرائعة ، كانتصار الموت Il trinfo della morte والفرح Il piacere والنار Il fiuco يستطيعون أن يستشفوا من خلال سـطورها روحه الهائمة ، التواقة الى عبادة الجمال والتمرغ فى أحضان الفن الشهوانى وأوكار الحب المبتذل الرخيص

على أن دانتزيو استطاع عن طريق نزعته الى المجد ، أن يعيد الى الأدب الايطالى جو الوطنية الصارخ ، وأن يضع لجيوش بلاده أناشيدها الحماسية التى رتلها فى ساحات الوغى والقتال

ولم يكن استيلاؤه على فيومى إلا نوعاً من الأساليب الشعرية ،

(١) جوزيه كاردوتشى Giosué Carducci أول من ظفر بجائزة نوبل الأدبية من الايطاليين . بدأ حياته بالتدريس فى جامعات بولونيا تاريخ الأدب وتوفى عام ١٩٠٧ بعد أن ترك ثروة فكرية هائلة أهمها فى الشعر والنقد وتاريخ صقلية

فبعد أن خرق معاهدات الصلح وسير أساطيله لاحتلال هذه المنطقة الحرة أذاع بياناً على العالم قال فيه : « أستحلف فرنسا التي أنجبت هيجو وأمريكا التي خرج منها لنكولن وانجلترا التي خلقت ملتون أن تكن شاهدات عدل على ما أتيته . أنا ابن الوطن الجندي المتطوع الذي دفعته الغريزة الانسانية الى أن يضم الرضيعة فيومى الى أمها ايطاليا »

وفي قصيدته الحماسية الرائعة التي خاطب بها كبلنج شاعر الاستعمار البريطاني بمناسبة حرب الحبشة ، تبدو أمامنا قوة شاعريته الطامئة نحو المجد إذ قال : « إن الرياح الافريقية القائظة التي تسفع وجوهنا اللاتينية الجميلة لا تعادل جزءاً من قوة إعصار البطولة التي تهب على قريحتي كلما فتحت دواوينك لأترنم بأناشيدك الاستعمارية في الهند وإفريقيا . فأراني في كهولتي عاجزاً عن أن أقود جيش بلادي إلى « فيومى » أخرى ، فهيا يا أبنائي إلى النصر ... لأن مصير مجد الانسانيـــة الجديد متوقف على انتصار « الرومانية » ضد « البربرية » وحلفاء البربرية ... إن الحرب ضرورة عالية لخلق جيل جديد وإعادة شباب الانسانية وتطهير الأجسام والأرواح وإنماش بطولة التاريخ »

ومن رأى دانتزيو أن إيطاليا الفاشستية ترى في اسم قيصر رمزاً أبدياً لأعظم ضروب مجدها الوطني وأن غاية ما يتمناه اليوم استعادة مجد روما القديم الذي تألق في عصر قيصر

بنزيني

وعلى الضد من دانتزيو ، نرى زميله جيوفاني بنزيني ينحو في فنه منحى جديداً ، ويؤدي رسالة أستاذه كاردوتشي عن سبيل آخر هي معالجة مشكلات العصر في ضوء من الانتقاد المر اللاذع

وعلى الرغم من أن بنزيني ولد في نفس العام الذي ولد فيه دانتزيو فان اسمه كأديب وقاص لم يعرف إلا في السنوات الأخيرة للحرب العظمى . أي في الوقت الذي بدأ الايطاليون يتمردون فيه على أساليب دانتزيو الشعرية وفنه الأناني . وقد استطاع بنزيني أن يقضي تماما على نفوذ زميله عن طريق الحملة المدبرة التي تولى قيادتها أدباء الشباب في فلورنسا وغيرهم من الملتفين حول جريدة « الصوت »

ولا يخفى ما لبنزيني من النفوذ القوي في دوائر الصحافة الأدبية فهو يماونها بين وقت وآخر بالمساعدات المادية والأدبية

وأكثر ما نلمحه في فن بنزيني الروائي خلوه من الأساليب المعقدة والنزوع إلى حياة الطبيعة الهادئة والرجوع بالانسانية إلى طفولتها الأولى كما في روايته « العالم يدور » وتعرضه لمتاعب الحياة المادية في شيء من السخرية اللاذعة والنقد المر ممتزجاً بمسحة من روح الفكاهة والمرح البريء . وقد استطاع في روايتيه الرائعتين « ارمندا النعسة » و « مصباح ديوجين » أن يحلق بنا في جو تمور فيه الأشباح المعذبة من جراء المشكلات الاخلاقية في العصر الحديث

جراسيا ديلليدا

ولعل جراسيا ديلليدا Grazia dellcdda هي القصصية الوحيدة التي تبتعد بفنها الروائي عن الجو العالي لتعيش في دائرة جزيرتها الضيقة « سردينيا » بين القرويين ورعاة الأغنام لتصور حياتهم أروع تصوير في مؤلفاتها التي تحمل طابعي السذاجة والبراءة والدعوة إلى التمسك بأهداب الفضيلة

وعلى الرغم من أن هذه القصصية المجيدة أحرزت جائزة نوبل في الأدب ، وانتخبت عضواً في أكاديمية روما وفي مجمع الخالدين الذي أسسه موسوليني عام ١٩٢٦ ، وعلى أنها محور الحياة الأدبية في ايطاليا ، فهي عزوف عن الشهرة ، وتتحاشى جهدها الظهور في المحافل والأندية ، أو بث الدعاية لفنها في الصحف والمجلات

وقد تجلت موهبة ديلليدا القصصية في روايتها « الأم » التي ظفرت من أجلها بجائزة نوبل ، وهي عبارة عن مأساة قسيس شاب نفذ الحب الى أعماق قلبه فقهره واستولى على لبه حتى غلب على أمره وأصبح خاضعاً لسلطانه بحيث أفسد عليه وظيفته الروحية المقدسة

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر ، « فالأم » التي خصصت حياتها لمحبة ابنها ووهبته للكنيسة وخدمة مجد الله حتى غدا قسيسا يصل بينها وبين السموات المشرقة ، هذه الأم قدمت من الريف يوما تطلب ابنها فاذا بهذا الذي أودعته ذرات حياتها وتفكيرها ، وعلقت عليه آمالها في الحياة الأخرى ، تأسره امرأة

كريم فهجر
يزيل حب الشباب وبثور
الوجه وينعم البشرة
الثمن ٨ م والصغيرة ٢

فهجر الواقى
للوقاية من السيلان
والزهرى وجميع القروح الأخرى
الثمن ١٠

محلول فهجر
لمنع سقوط الشعر
وإزالة قشر الرأس
الثمن ١٦ م والصغيرة ٥

تباع فى جميع الاجزاخانات بالقطر المصرى وفى الغرفة التجارية بالاسكندرية
المستودع العام ٦٦ شارع ابراهيم باشا بمصر تليفون ٥٦٢٠٤

معهد التناسليات

معهد التناسليات تأسيس الدكتور رياجنوس
هيرشفلد فرع القاهرة بعمارة ربعيه رقم ٤٦
شارع المدابغ تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع
الاضطرابات والأمراض والشواذ التناسلية
والعقم عند الرجال والنساء. وتجديد الشباب
والشيخوخة المبكرة. ويعالج بصفة خاصة
سرعة القذف طبقاً لاحدث الطرق
العلمية. والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦
ملاحظة: يمكن اعطاء نصائح بالمراسلة.
للمقيمين بعيداً عن القاهرة بعد الاجابة
على مجموعة الأسئلة السيكولوجية المحتوية
على ١٤١ سؤالاً والتى يتحصل عليها نظير ٥

أيها المرضى بالبول السكرى

لا يحق لكم أن تيأسوا من مرضكم أو تهملوه
قبل أن تجربوا الدواء الجديد

أنتيكومان!

فهذا الدواء محضر بناء على أحدث الأبحاث
العلمية الخاصة بهذا المرض.
اطلبوا البيانات اللازمة مجاناً من
جالا نهورفين. صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر

فى يوم الثلاثاء ٣١ مارس سنة ١٩٣٦ من الساعة ٨ صباحاً وما بعدها بشارع باب النصر نمرة ١٤ قسم الجمالية سيباع علناً ٢ كنبه خشب وعدد ٢ دولاب خشب وأشياء أخرى مبينه بمحضر الحجز تملق الست سيده على سراج المقيمه بالجهة نفاذاً للحكم نمرة ٩٥٧ سنة ١٩٣٢ جزئى مصر وفاء لمبلغ ١٣ جنيه ٣٩٥ مليم بخلاف مايستجد وأجرة النشر والبيع كطلب الحاج عبد الحميد حمزه التاجر ومقيم بحارة القبوه نمرة ٥٤ بشارع العطوف قسم الجمالية بمصر

فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأربعاء أول ابريل سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحاً بالعقب والأيام التالية سيباع علنا عنزه سوده سن ٤ وجدى أسود بمجار سن ٤ شهور ونعجه سوده سن ٤ وعنزه سن ٢ ملك محمد سليمان أحمد من نجع يوسف عبد الله بالعقب نفاذا للحكم نمرة ٣٠١٣ سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١٨٠ قرش صاغ والبيع كطلب محمود آدم سعيد من العقب فعلى راغب الشراء الحضور

٣١ ـ ٦

محكمة المنيا الجزئية الأهلية

إعلان بيع فى القضية المدنية نمرة ٢٩١٠ سنة ١٩٣٣

نشرة أولى

إنه فى يوم الأحد ١٩ ابريل سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ افرنكى صباحا بأودة المزايدات بسراى محكمة المنيا الجزئية الأهلية

سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد ملك ورثة المرحوم محمد حسين عبد العال وهم هلالية بنت احمد حسين عن نفسها وبصفتها وصية على يوسف محمد حسين القاصر ـ ومحمد محمد حسين الشغال بطرف الدكتور أنطونيادس حكيم الأسنان ـ وزينب بنت محمد حسين الجميم مقيمين بناحية كفر المنصورة مركز المنيا وهذا بيان العقار

عدد ١ منزل كائن بزمام ناحيــة كفر المنصورة القبلى مركز ومديرية المنيا مبنى دور واحد بالطوب الأخضر وبه دكان مسطحه ٧٨ م و٣٠ ديسى بحوض نايل نمرة ١٩ ضمن ٢٢ حده البحرى عبد المطلب سيد وآخرين ضمن ٢٢ وطوله ١٠م و ٨٠ س والشرق ورثة أبو الجود بدوى ضمن ٢٤ وطوله ٧م و٢٥ س والقبلى شارع وفيه الباب يفتح وطوله ١٠م و ٨٠س ضمن ٢٢ والغربى شارع ضمن ٢٢ بحوضه وطوله ٧م و٢٥ س

العدد واحد لا غير م؟

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحــكمة بتاريخ ٢ ابريل سنة ١٩٣٣ ومسجل بقلم كتاب محكمة المنيا الـكلية فى ٩ ابريل سنة ١٩٣٣ تحت نمرة ٣٩٠ القاضى هــذا الحــكم بنزع ملـكية المرحوم محمد حسين عبد العال من العقار المذكور وبيعه بالمزاد العلنى وبالقوة الجبرية بثمن أساسى قدره ١٠ ج وفاء لمبلغ ٢٥ ج و٢٥٠ م بخلاف جميع المصاريف وما يستجد

وهــذا البيع بناء على طلب يوسف افندى عبد الملاك حنا التاجر بالمنيا ومحله المختار بها مكتب حضرة الأستاذ فهيم افندى الضعيف المحامى

فعلى راغب الشراء الحضور للمزايدة والمشترى وشروط البيع وباقى الأوراق مودعة بقلم كتاب المحــكمة المذكورة لمن يريد الاطلاع عليها م؟

كاتب البيوع

فى يوم الاثنين ٦ أبريل سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا بناحية القراقرة والأيام التالية إذا لزم الحال سيباع علنا زراعة ٥ قراريط مزروعة فول نتج منهم ٦ كيلات فول ملك ستهم محمد خاطر وعبد الرحمن عثمان السونى وستهم محمد السونى من القراقرة مركز منيا القمح وفاء لمبلغ ١٢٠ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر وما يستجد فى القضية المدنية نمرة ٧٠٥ سنة ١٩٣٥ والبيع كطلب الست بنت عثمان السونى من القراقرة مركز منيا القمح

فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الاثنين ٣٠ مارس سنة ٩٣٦ الساعه ٨ صباحا بطنطا بشارع طه الحكيم وحارة محمــد شرف سيباع علنا منقولات وبضايع محل بجارة ملك محمود حسين الخياط التاجر بطنطا بدكانه بالجهة المذكورة نفاذا للحكم رقم ٩٩٢ / ١٩٣٦ بندر طنطا وفاء لمبلغ ١٢٩٦ قرش صاغ بخلاف رسم هــذا التنفيذ وأجرة النشر والبيع كطلب أحمد افندى حسين الخياط المقاول بطنطا

فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الثلاثاء ٣١ مارس سنة ١٩٣٦ الساعه ٨ صباحا بمزبة بنيامين تبع معصرة سمالوط وان لم يتم يكون بسوق سمالوط فى ٧ أبريل سنة ١٩٣٦ سيباع علنا طشت نحاس ٢٠ ط وحله نحاس ٥ ط ملك قزمان غالى وأيضا عجل بقر أصفر سن شهرين ومعزه سمرا سن ٢ تقريبا وربعيه سمرا سن شهرين وعدد ٢ جديين سمر كل منهم سن شهرين تقريبا ملك على محمود خضر الجميع مقيمين بمزبة بنيامين أفندى ميخائيل تبع معصرة سمالوط نفاذا للحكم نمرة ١٧٨٠ سـنة ١٩٣٥ مدنى سمالوط وفاء لمبلغ ٢٤٠ قرش صاغ خلاف رسم هذا وما يستجد والبيع كطالب حرز ميخائيل الترزى بمعصرة سمالوط فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأربعاء أول أبريل سنة ١٩٣٦ من الساعة ٦ صباحا وما بعدها بناحية محلة نصر مركز شبراخيت وفى يوم ٨ أبريل سنة ٩٣٦ بسوق لقانة الأسبوعى سيباع علنا جمل ملك عبد الرؤوف عبد الرحمن عفيشه من محلة نصر والبيع كطلب الشيخ محمد محمد المنفوخ التاجر بشبراخيت مركزها نفاذا للحكم نمرة ٢٣١ سنة ٩٣٦ شبراخيت وفاء لمبلغ ٤٤٢ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر

فعلى من له رغبة فى المشترى الحضور

فيصغى لنداء القلب ، ويهجر مركزه الكنسى كى يتفرغ لشؤون الحب والحياة

وفى الساعة التى تذهب فيها الأم الى الكنيسة لتضرع إلى الله واجفة القلب ، دامعة العين أن يحرس وحيدها ويلهمه الرشد ، إذا بالابن يتقدم فى خطى ثابتة نحو المحراب الذى تصلى الأم على مقربة منه ليتجرد من ملابسه الدينية ويخرج من الكنيسة ، فتصعق الأم وتفيض روحها الى جانب المحراب

وقد أصبح « الام » عنوانا مألوفا فى ايطاليا ، فان ملحمة كاردوتشى الشعرية التى ظفر من أجلها بجائزة نوبل كانت موسومة باسم الأم ، ومعهد الأمومة الدولى الذى أسس بسردينيا أطلق عليه اسم « الأم »

وقد ذكر النقادة الايطالى ستانيس روبناس محرر صحيفة التربيونا ، فى دراسة أدبية عن قصص ديلليدا : « ان فنها الروائى يدور حول التفاؤل بالخير لأنها تؤمن بأن الله دائماً ضد الشر . وهى صانعة ماهرة أكثر منها فنانة مبدعة ، وبالنسبة لتصوير عادات بلدها مثلة ذات ضمير حى ، أما رسم العواطف الخارجة عن محيطها ففى سذاجة فطرية بسيطة »

ولم تشذ عن هذه القاعدة الا فى رواية واحدة هى الانابة Nostalgia فهى مصبوغة بعاطفة انسانية عميقة ، وقد كتبتها بعد زواجها ونزوحها عن جزيرتها الى روما حيث كان أثر انعكاس الحياة الجديدة قوياً فى نفسها

أما قصتها الرائعة « السيدة الصامتة ذات الشعر الفضى » La Donna silenziosa dei capelli d'argento فهى عبارة عن تاريخ حياتها وقد كتبته بأسلوب بسيط جذاب ، فقصت نشأتها فى قرية نورو بسردينيا وتفوقها فى الآداب وهى لا تزال طالبة بالمدرسة الثانوية حتى ظفرت بجائزة قدرها خمسون ليرة كانت احدى المجلات قد رصدتها لأحسن قصة تقدم اليها

وتحدثت عن زواجها وعن الفضائل الشائعة فى بلدها وتعلقها بجبال سردينيا وبحارها وأشجارها ، وهى فى هذا تقول : « أهلها هم أهلى ، أرضها ووديانها شطر من كيانى ، فلماذا أفتش عن موضوعات قصصية وراء الأفق ، مادمنا نستطيع أن نفتح أعيننا على مآس وفواجع تقع فى كل ساعة بين أيدينا ؟ إنه لمن العار ألا نكون فى جانب الصدق . ألا نرسم الحياة التى نعيش فى داخل نطاقها ، ولو كانت ضئيلة تافهة . أما التعبير عن الاحساسات الخارجة عن دائرة شعورنا الحقيقى فسقوط فنى بشع ، إننى أكتب لنفسى اليوم ، وبحكم شعورى الخاص ، أما توقع النجاح فأتركه للمستقبل »

وبالاجمال فان ديلليدا تمكنت من أن تقدم للعالم صورا واضحة من حياة أهل الجزيرة الصخرية النائية التى لم تصل الحضارة الأوربية الى بعض أطرافها وأن تصف عاداتهم القديمة وأساليبهم فى العيش حيث يؤمن الناس بمبدأ المساواة بين الجنسين واعدام المرأة إذا ثبتت عليها جريمة الزنا

(يتبع)

محمد أمين حسونة

القصص

دراسة من اسخيلوس

٢ـ محـــاكمة أُورست

The Eumenides

(الدرامة الثالثة من الأورستية)

المنظر : « فى الأكروبوليس بآثينا »
الزمن : « بعد فرار أورست من الأديتون بحقبة غير قصيرة(١) »
« يدخل أورست »

للأستاذ دريني خشبه

— ٦ —

— « مينرفا يا ربة العدالة !

هاهو ذا أورست ، المنبوذ الطريد ، يلجأ اليك بعد لُغوبٍ وأين ، وكد وعناء ، يستظل بظلك الوارف ، ويلتمس الانصاف فى جوارك ، والعدل فى حماك ، طاوياً إليك القفار من لدن أبوللو ، إلهى الكريم الذى أنفذنى إليك غير مدنس بوزر ولا مُضرَّج اليدين بدم ، بعد إذ نشأت ربيب غربة وحلف آلام ... أصلى لك يامينرفا وأبتهل ! وألوذ بك وأتوسل ، أن تتأذنى فتنظرى فى أمرى ، وتشدى بعدالتك أزرى ، وتفصلى فى الحادث الجلل الذى انتدبنى أبوللو له ... فكان شجنى ... وكان حَزَنى ! »

وما يكاد أورست يفرغ من صلاته وبثه حتى تدخل ربات الذعر(٢) فيروعهن أن يرينه متحنثاً فى معبد مينرفا

— « هيا !! إنه هو بعينه ! وإن الدم ما ينفك يقطر من يديه الآثمتين ! إنه هنا ، وقد ذرعنا الأرض باحثات عنه ! وإنا لنشم رائحة الدم تنتشر عنه ! لنحط به ؟ لن يفلت هذه المرة هذا القاتل ! لقد اختبأ من قبل فى صومعة أبوللو ، وهو اليوم يأوى إلى الأكروبوليس ويسجد بين يدى صورة ! صورة الخالدة مينرفا ! يحسب أنها تضع عنه وزره ! تعال تعال ! لنمزق لحمك الغض الطرى ، ولنلتذ بشبابك البض الفينان ! ولنقذف بك فى حميم الجحيم ! إنك لن ترى هناك مظلوما ... بل هم جميعاً مثلك ... قتلة ... آثمون ... عتوا على أنفسهم وعلى الآلهة وعلى الناس ! كل باق جزاءه ثمة ! فلتسجل عليك هيدز كما سجلت عليهم ! »

معاذ الحق يا ربات الذعر ! لقد ثقفت الحكمة فى معاهد الشقاء ! وسترين أننى أدفع عن نفسى تلك التهمة الباطلة ، لأن سلطاناً علويا يحل عقدة لسانى ! هاهى ذى يدى نقية بريئة طاهرة لا أثر للجريمة فيها ! لقد اطهرت من الدم الذى ترين أن تأخذننى به ، لأن أبوللو ، تبارك وتقدس ، قد صب عليها شؤبوب رحمته ! أنا لم أكن يوماً مجرماً ولا قاتلاً يا ربات ؟ ! ولقد عشت فى قوم غرباء سنين عددا ، فلمَ أكون مجرماً وقاتلاً اليوم ! ؟ لم لم أسئ إلى أحد قبل هذه المرة إن كنت آثماً شريراً مجبولاً على إيذاء الغير ؟ ستمر الأيام ، والزمن وحده زعيم باظهار براءتى ! وهأنذا أدعو مينرفا بفم نقى وشفتين طاهرتين ، ولسان خير مُعبِّر ، أن تسمع إلى نجواى ، وتستجيب لندائى ، وتكون الفيصل الحق بينى وبينكم ؛ فقد كنت ، وكل مواطنى ، عبادها الأمناء ... وهى لا بد مصيخة إلى صرختى ... مهما تكن بعيدة الآن فى بعض شأنها . »

— « لا يقرن فى نفسك أبدا أن يحميك أبوللو ، أو تدفع عنك مينرفا ما قدر عليك أن تلقاه جزاء على ما اجترحت وفاقاً !! ستذهب على وجهك على أرض كلها حسك ، وفى سبيل موحشة إلا من الهموم والحسرات ! خَرِسْتَ ! يا قاتل أمه ! سنمزق لحمك الذى يتدفق فيه دم خطاياك ، وسنأكلك حياً لتكون قرباناً للبطن الذى حملك ، فيقرته جزاء له ! ! ويل لك ... ويل لك ! إصغ إذن لأنشودة موتك ، قبل أن نبطش بك ! »

(١) يلاحظ أن أسخيلوس لم يتقيد لا بوحدة الزمان ولا بوحدة المكان فى هذه الدرامة

(٢) ذكرنا آنفاً أنهن خورس الدارمة ورئيستهن هى دائماً التى توجه الخطاب .

— ٧ —

وتعزف موسيقى الجحيم ! !

فاستمع لها هماً من الرعد، وبوقاً مفزعاً من أبواق الدار الآخرة، ولساناً كله ذعر من ألسن هيدز ! ! لقد طفقت ربات العذاب يرقصن ويغنين، وينفخن في مزامير الموت، فأنكرن من أبوللو حمايته للمجرم الذي سفك دم أمه، ووقوفه في سبيلهن من بعد يغمطن حقهن في تعذيب القاتل، وتشكين من زيوس الذي يعقهن بغير الحق، مع ما خصهن ربات القضاء من فضل على الآلهة ... وتوعدن أورست بالويل والثبور، وعظائم الأمور وبالطامة الفاشية التي تتردى فيها روحه بعد أن يبطشن به

وفيما هن يتغنين أغنيتهن المنكرة، إذا ميترفا تقبل . . . فيَصْمُتْن ! !

— « أوه ! لقد تردد في أذني دعاؤكم يا صحب، إذ أنا أجول في الأرض المفتوحة باسمي على شطآن الهلسبنت، فرأيت أن أعود إليكم، حاثة المطي التي تمرج في السموات، حاملة درعي إجيس، فما هي إلا أن خفقت خفقة أو خفقتين، حتى آبت إلى معبدي ! ما بالكم ؟ من هذا المسكين الراكع عند قدمي المحرم ؟ وأنتن ! العياذ بالأولمب ؟ إنكن لا تشبهن أحداً من الناس، ولا أحداً من الآلهة ؟ يا للنكر ؟ ! ولكن ... معذرة ! ...

— « تباركت يا ابنة زيوس سيد الأولمب وكبير الآلهة ! نحن بنات الليل الدجوجي ... ساحرات السُّفل ... موطننا الأعماق من هذه الأرض ! »

— « أعلم ذلك كله ... أسماء كن ومثوا كن »

— « وتعلمين ما انتدبنا له القدر . . . صيد القتلة وتطهير الأرض من المجرمين ! »

— « وإلى أين ينتهي بالقاتل، سافك الدماء، مطافه في هذه الدنيا ؟ »

— « إلى حيث لا فسحة لأمل، ولا مهلة لسراء ! »

— « إذن أنتن تحاصرنه هنا الآن ؟ »

— « ما دام قد رضي لنفسه أن يكون قاتل أمه، ومهرق الدماء ! »

— « أعن رضى ؟ أم قسره على ذلك شجن لم يكن له به يدان ! ؟ »

— « وأي شجن يقسر على قتل الوالدين ؟ »

— « لقد سمعت طرفاً واحداً ... فلأسمع من الطرف الآخر »

— « إن المتهم ليعجز عن الحلف، ومن يدري ؟ فقد يقسم حانثاً ؟ ؟ »

— « يبدو لي أنكن تؤثرن مظهر العدالة على العدالة نفسها ؟ ! »

— « وكيف يا ربة الحكمة الزاخرة ؟ خبرينا ! »

— « إي وأرباب الأولمب ! لا تأبهن بنصر يأتي عن يمين كاذبة ! »

— « إذن سليه ! واحكمي بيننا بالحق ! »

— « وهل تقبلن أن يكون قراري القرار الفصل ؟ »

— « أجل ! إقراراً لما لك من فضل ! ولما لأبيك من نبل »

— « إذن، أجب أيها البائس بدورك ! ولكن، اذكر لنا أولاً : ما أنت ؟ وما موطنك ؟ وأي غم ألم بك ؟ ثم ادفع التهمة عن نفسك إن تكن باطلة، واذكر إن كنت على حق إن صح أنك قتلتها ... إني لأراك تلوذ بوثني، وتستجير بقدسي، قل ... أجب ... تكلم ... قل الحق ... والحق الصراح »

وكفكف أورست عبراته، وقال :

— « إلهتي ربة العدالة »

لو كنت مجرماً سفاك دماء ما جسرت أن ألوذ بك، ولما قويت على اقتحام قدسك وتدنيس بساطك والتماق بوثنك، وإن سفاكاً مجبولاً على الشر لن يستطيع أن ينبس بدعوى كاذبة في حضرة ميترفا ربة العدالة التي تستشف الأسرار وتدرك خافية القلوب وخائنة الأعين بلمحة طائرة من عينها الصائبة ... ولقد وقفت أمام آلهة أخرى من قبل، فما كنت أجسر على قولة أرسلها إلا أن تكون حقاً .... إذن، أنا مواطن من آرجوس، وأبي، يا ويح له من أب، أحد عبادك الصالحين ! إن لم يكن أحبهم إليك ... أجامنون يا ربة العدالة ! أجممنون قائد جندك وأمير أسطولك، الذي أعنته على أعدائك، فانتصر على بريام وقهر إليوم، وعاد ليسبح بحمدك ويشكر لك ... ولكن ! يا للهول ! لقد دبرت له زوجته الآثمة ... أي ... أمي التي خانت عهد زوجها، وداست عرض مملكتها، ومنحت قلبها لغير رجلها ... أي هذه يا ربة العدالة قد دبرت لرئيس جندك، وأحاط عبادك قتلة غادرة، تكتنفها الظلمات، وتضرب من حولها الأسرار، فذبحته يوم عودته من الجهاد في

سبيلك والذود عن اسمك ، غير راعية فيه إلاً ولا مبقية على عهد ... ...

ثم لم تبال أن تعترف ، وجثته بين يديها ، أنها قتلته ... وأنها صاحبة دمه ... ... وكانت قد قذفت بى ، إذ أنا طفل أحوج ما يكون الى حضن أم وفؤاد أب ، الى أعماق منفى سحيق مقفر ، أعانى الذل وأدرج فى حجر النخاسة ، فلما شببت وبلغت الحلم ، كان أول واجب على فى الحياة أن أثأر لأبى المظلوم ، من أمى الآثمة ، فمدت الى آرجوس وقتلتها ... أجل ... قتلتها ... قتلت المرأة التى قتلت أبى ... أقر ... أعترف ... قتلت أتعس الأمهات ، فهل سمعتن يا ربات العذاب وزبانيات جهنم !؟... ... ذلك إذن وزرى ، إن كان فى مثل هذا العمل وزر ... وقد شاركنى فيه أبوللو ... أوحى إلى أن اقتل أمك ... فقتلتها ... ولو لم تكن آثمة من قبل ما أرقت قطرة واحدة من دمها ...

هذه يا ربة العدالة قضيتى فرَىْ رأيك فيها وأنا قابله . . . وسأخضع له . . . »

وأجهش أورست بالبكاء . . . فبدا التأثر الشديد على وجه إلـهة العدالة . . .

— « قضية معضلة ، وكان حرى بكم يابنى الموتى ألا تضطلعوا بها . . . بل أنا نفسى أكاد أجاوز حدودى حين أقيم من نفسى فيصلاً فيها بينكم ! وَىْ ! لقد أقدمت على عجل إلى أثينا . . . مقدمى وطوباىْ ... فيالك من لاجىء مهيض الجناح ، مبَلبل الروح ... فى حين تبدو صحيفتك غراء ناصعة ! ... ولكن !... إسغ إلى يا أورست ! لقد كدت أدعوك مواطناً ... لولا ما ينبغى لك من إيضاح براءتك ، وتمهيد طريقك ، ورأب الصدع الذى تلج منه إلى اتهامك ربات الذعر ... اللائى يأبين إلا أخذ المجرم بجرمه ... لأنه عملمنْ ، ولا محيص من أدائه لمن ... فجلّ برهانك ، وأعد حجتك ، وأيد حقك بيقين يقشع الشك ... حتى أعود بالحلفين المدول من أثينا ، لأشركهم فى هذه الحكومة الشائكة ، والقضية المربكة ... »

(تخرج مينرفا)

— ٨ —

ويستولى طائف من الشك على ربات الذعر ، وتروعهن من مينرفا هـذه النعومة التى لقيت بها أورست ، فيهزجن بنشيد طويل من موسيقى الجحيم ، كله قصف وكله رعد ، وكله ودق يخرج من هذه الأفواه الشائهة ، والألسن التى تتلوى كألسن النيران ... ويتمين على الانسانية ما يعصف بها من ظلم إذا انتصرت الجريمة ، ولم يقف فى سبيلها قصاص ... « هنالك تنقلب الدنيا فتصبح مباءةً للاثم ، وهنالك يغدو الناس شراذم من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين ، وهنالك لا يأمن والد على نفسه من ولده ، ولا أم هى مطمئنة على حياتها من أبنائها ... ويومئذ تعم الشرور وتطغى الويلات ... حتى لا يكون شبر من الأرض فيه أمان لآمن ، مادمنا نحن نائين عن المجرمين لا نأخذهم بآثامهم ، ومادام هؤلاء الأرباب يضربون سلطانهم علينا ، ويتدخلون فى شؤوننا ، من غير حق ولا برهان مبين ... ... »

وتدخل منيرفا ، فتهتف بسادن المعبد قائلة :

— « أذِّن فى عبادى بالصمت أيها السادن ، أو انفخ فى صورك حتى تتردد أصداؤه فى السموات معلنة انعقاد محكمة العدل ، فلا ينبس أحد ممن بالمدينة الخالدة بكلمة ، ليعوا شريعتى ، ولينقشوها فى صفحات صدورهم ، ولتخلد ثمة إلى ما أشاء ! »

(ويظهر أبوللو فجأة فتقول ربات الذعر :)

— « أيها الاله أبوللو ! فيم أقبلت ؟ ألتشارك فى قضية ليس لك فيها شأن ؟ »

— « لقد أقبلت لأبرهن على براءة هـذا الضارع البائس الذى لاذ بى ، وصلى لى ، وسألنى معونتى لأضع عنه الوزر الذى تأخذنه به . . . وأقبلت كذلك لأدافع عن نفسى فيما يخصنى من هذه القضية ، لأنى شريك فى مقترفيها معترفاً ...... أيتها الربة العادلة مينرفا ! خذى فى سؤالنا عما يبدو لك ... فانا منصتون !! »

فتقول مينرفا : « إذن نبدأ القضية ، ولقد سمعت حديث الاتهام من أفواه هؤلاء فكانت حجتهن دامغة وبرهانهن ساطعاً . »

فيشيع البشر فى أوجه ربات الذعر وتخاطب رئيستهن أورست قائلة :

— « ها قد سمعت ... وسمعت من قبل كلماتنا القلائل حينما اتهمناك وأقمنا عليك البينة ، فهلم فتحدث ، ولتتحدث باختصار كما تحدثنا نحن من قبل ، ولتجب عن هذا السؤال أولاً : أولم تذبح أمك يا أورست ؟ ! »

— « أنا لا أنكر أننى ذبحتها يا ربات ! »

— « قُضى الأمر ! ها قد فرغنا من ثالث المعركة ! »

— « تهيّن ماشئتن ؛ فانكن لم تصرعننى بعد ! »

— « ها ! ... بقى عليك أن تخبرنا كيف ذبحتها ؟ »

— « بأبيض ذى شفرتين ! أرسلته فوق رقبتها ، وخوّضت به فى صدرها ، فقطعت وتينها ! »

— « وهل حرضك على هذه الجريمة أحد ؟ »

— « بأمر أبوللو كما يشهد هو بذاك ! »

— « أمرك الإله ، سيد الشمس ، أن ترتكب جريمة قتل الأم ؟ »

— « أمرنى بها ، وأنا مؤمن بما فعلت ، مطمئن إليه ! »

— « ها . ها . سرعان ما تغير لهجتك حينما يسمُك القضاء العادل ! »

— « سينتفض أبى فى رمسه فيحل محلى ! أنا لا أخشى شيئاً ! ! »

— « آى ! وهكذا تعتمد على الموتى يعدك به الموتى ! ياقاتل أمه ! »

— « إن هذه الأم تحمل وزراً مضاعفاً وإثماً أنكر من إثمى ، إن يكن لى إثم ! »

— وكيف ؟ قص على المحكمة ! »

— « أجلْ ! فلقد ذبحت بعلها ... وذبحت أبى ! ! »

— « لقد خلصت من أوزارها بالموت ! »

— « خلصت من أوزارها بالموت ؟ ! ها . ها ... عجيب أمركن ! مالكن كيف تحكمن ؟ لقد قتلت زوجها ... وقتلت أبى ... وعاشت سنوات عشراً ... فأين كنتن ؟ ! لم لم تقصصن أثرها كما تقصصن أثرى ! »

— «ذلك لأن رحماً لاتصلها بمن قتلت ! ولارابطة من دم !»

— « إى ! وأنا ؟ أى رابطة من الدم تصلنى بمن قتلت ؟ ألمجرد حملها بى وأنها ولدتنى ؟ »

— « أكبر رابطة أيها اللعين ! لقد غذتك إذ أنت فى أحشائها ، واحتملت كثيراً من أجلك ! »

— ٩ —

وكأنما ضاق أورست ذرعاً بربات الذعر فهتف بأبوللو يقول :

— « والآن ياإلهى أبوللو أدّ شهادتك ، وليفض بالحق لسانك ! هل كنت على حق حين قتلت أمى ؟ ! إنى لا أنكر مما صنعت شيئاً ، ولكنى جد محتاج إلى دفاعك ... فقط ... لتجلو الحقيقة لهذا المجلس الموقر ، ولكل الحاضرين هنا ! ! »

فينهض أبوللو ، ويرسل حديثه فى جلالة ووقار :

— « أصارحكم القول ياجميع من حفل بهم هذا المعبد المقدس ، ولا أحسب أحداً منكم يساوره الشك فيما أقول ... أننى أبداً ما أوحيت بشىء إلى رجل أو امرأة ، إذ أنا متربع على عرشى فى السموات العلى ، إلا عن أمر يصدره لى أبى بصدد هذا الشىء ! ! وهذا ما كان فيما نحن بصدده الآن ... أرجو ألا تلغطوا ... بل آمركم بالأصالة عن أبى ! ! ! »

فتضطرب ربات الذعر وتقول كبيرتهن :

— « وتقول إن أباك ــ زيوس سيد الأولمب ــ هو الذى أذنك أن توحى إلى أورست فيثأر لمقتل أبيه ، فى حين لا يبالى بمقتل أمه ؟ ! »

— « وبم يبالى ؟ ! وماذا يقدس فيها ، حين يعود رجل له وقاره وتدينه ، وإيمانه الذى لا يحد بربه زيوس ، ظافراً من ساحة الحرب ، فتذبحه زوجته الآثمة بعد أن تنصب له الأحابيل فى كل شبر من قصره ؟ ! أى زوجة هذه التى تعبث بشرف زوجها ، وتمزق عرضها ، وتنفى ولدها ، وتذل ابنتها ، وتدوس الشرائع والحرمات ! ؟ »

— « إذن هو أبوك زيوس الذى يرثى لهذا الأب المسكين الذى قتلته زوجته ! أمرك عجيب ياسيد الشمس ! أبوك زيوس ينصر أورست لأنه يثأر لأبيه ! إذن لم وضع زيوس نفسه الأغلال فى عنق أبيه كرونوس [١] وسجنه آخر الدهر ؟ أليس هذا نقيض ذاك ؟ أجب ! تكلم ! وأنت ياربة العدالة ! وأنتم أيها المحلفون ! أعيروه أذناً صاغية ! »

— « إخسأن أيتها المولات ! شاهت وجوهكن ! ياعدوات السماء ! إن مولاكن قد صنع ما صنع بأبيه ليكفى العالم شره — وهو مع ذاك لم يرق دمه ! »

— « إذن كيف تدافع عن هذا الطريد الذى هراق دم أمه ؟ وكيف تخول له أن يتربع على عرش آرجوس ؟ وكيف يتسنى له أن يقدم قرباناً عن فعلته ؟ وهل قربان إلا هو ؟ ! »

— « آه ! إنكن تزعمن دائماً أنه ابن كليتمنسترا ! ! وليس بعد هذا ضلال ! إنه ليس من أهلها ، لأنها عمل غير

(١) يشير اسخليوس إلى الأسطورة القديمة التى تقول إن ساترن (كرونوس) قتل أباه أورانوس لأنه كان يقتل أبناءه لكثرتهم فلما ولد لساترن ابنه زيوس أراد أن يبتلعه ليتخلص منه ، لكثرة أبنائه كذلك ، غير أن أمه تحايلت حتى أنقذته ، فلما شب أعلن الحرب على أبيه واستطاع هو وإخوته أن يسجنوه أبد الدهر (الأستاذ توماس بلفنش)

البريد الأدبي

رجائي ورجاء الزيات

كان لي ابن لم يكن بعدُ الثامنة من عمره ، وفي مثل هذه الأيام من العام الماضي أطاقته — على رغمي — بين أفياء الجنة يتعجل نعيمها . وبقيت أتجرع غصص هذه الدنيا ، لموته حيناً ولحياتي أحياناً

جرى عليّ هذا الفراق الأبدي فحزنت وتكاءدني وصف هذا الحزن فأنا إلى اليوم أجد مسّه ، ولا أستطيع بثه . ولقد كذبت الشعراء حين جعلوا الحزن ناراً تتقد ، وتصطلي حرها الكبد . وحين زعموه حسرة تقطع النفوس ، ولا تشفي منها الكؤوس . وحين تصوروه أسفاً قاتلا ، وموتاً نازلا . وحين شبهوا زفراته بشواظ النار ، ودموعه بالسحاب المدرار

والحق أن اللفظ يعيا بوصف حزني كما عي قلبي باحتماله .

وما عيينا بوصف النعمة زائلة ، إلا حين عجزنا عن فهمها ماثلة . وكيف نتصور وجوداً كانت روائح الجنة في رياه ، والسلام أولى دعواه وأخراه

سميت فقيدي « رجاء » وما شغلت نفسي حين اخترت له هذا الاسم أن أكون فيه مقلداً تابعاً ، وإنما ارتجلته من قلبي يوم عقدت الرجاء برجاء ، وأملت أن يكون خاتمة الشقاء ، وبداية الصفاء

***

يعلم الله يا أخي أن نعيك لرجائك قد أعاد حزني جذعاً ، كما كان يوم صادفني وفيّ بقية من الأسر أقوى بها على بعض الأمر ، فأما اليوم وقد انهدت قواي بما أخذ مني الأسف وما أبقى ، فاني أراك قد نعيت إليّ نفسي بهذا النعي ، وما قصدتَ بذلك بغياً عليّ . ولكني أنا الذي أعددت نفسي لرمسي ، بين يومي وأمسي

عرفتك أديباً مثقفاً خدمت الأدب أستاذاً ومؤلفاً ومترجماً وناقداً ، ثم رأيتك منذ أعوام تجمع هذه المزايا في صحيفتك الخالدة « الرسالة » . وكان من حق مثلك على الأيام أن ترفه عنه وتعفيه من معضلات رزاياها حتى يفرغ لواجبه وينهض بعبئه

عرفتك وادع النفس ، هادىء الخلق ، حليما لا تثار ، ولا تغلب على الوقار . وكان من حق مثلك على الأيام ألا تخرجه عن وقاره . ولا تضجره بحلمه . بل تتركه لهذه الوداعة وتلك الطمانينة ، يرتع الاخوان في بحبوحتها ويفيئون الى ظلها كلما لفحهم هجير الرعونة ، وآذاهم لهب الشغب . ولكن الأيام لم تمسّك بهذا الخطب الجليل إلا بعد أن عجمت عودك فوجدته صُلبا ، وقرعت صفاتك فوجدتك صَلدا ، ذلك هو ظن إخوانك الذين عرفوا إيمانك بالله قويا ، وعرفوك للفضيلة وفيا ، فلتكن بثواب الصبر حريا

دريني خشبة

صالح ! ! إن أورست ابن أجاممنون فحسب ! لأن أجاممنون هو الذي غرس بذرته ، وإن يكن قد غرسها في أرض حمِئة ذات أوباء ! ولو شاءت السماء لغرست البذرة في أرض أخرى — في أرض حقيقية — في حديقة — ثم لنشأ أورست عوداً فينانا من غير أم ... ... يا ربة العدالة ! ميترفا يا ابنة زيوس العظيم ! لقد أرسلت أورست ليرفل في ظل رحمتك النامي ، وليحظى بحمايتك ، وليسجد تحت قدميك ، هو وشعب الأرجيف الكريم ! أعيـــدي اليه وقاره وطمأنينته إذن ، فهو جدير بهما ! ليمد الى شعبه الباسل ليظلوا الى الأبد عبادك المخلصين ! إنه بريء ! إنه بريء ! »

فتقول ميترفا :

— « كفى ! كفى ! حسبنا ما سمعنا ! والآن ، أعطوني موثقكم أيها المحلفون ! عاهدوني على أن تؤدوا الشهادة غير متحرفين ! ليكن الحق وحده رائدكم حين تدلون بآرائكم ! »

(البقية في العدد القادم)

وبعد ، فاقبل عزاء رجل أشـبه أمره أمرك ، وأدرك - إن ضقت بالدنيا - عذرك . فساق ماضيه وحاضره سلوى تتحدث بلسان الواقع ولاتلجأ إلى خيال الواعظ

ومن عرف الأيام معرفتك اتق حوادثها فى درع من الصبر مضاعفة ، وشهر على الجزع مشرفيات مرهفة .

أنت يافوق أن تعزّى عن الأحـ م باب فوق الذى يعزيك عقلا وبألفاظك اهتـدى فاذا عـــزّاك قال الذى له قلت قبلا

تسيمك فى الحزن

محمود مصطفى

مدرس الأدب للمتخصصين فى مادته بالجامعة الأزهرية

السخاوى

طالعنا الأستاذ الباحث المحقق مؤرخ المصر محمد عبد الله عنان على صفحات الرسالة الغراء بنتائج تحقيقاته .... وقد أفاض إفاضة عظيمة فيها للامام العالم أبى الفضل محمد السخاوى ولما لموسوعته الضوء اللامع من قيمة أدبية وأثر تاريخى عظيم

وقد ذكر الأستاذ عنان فى إحدى مقالاته بالرسالة أن للسخاوى أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة إلى أن قال : (وقد انتهى كلاهما إلينا . أولهما كتاب تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات) الخ . . . وقد سارت دار الـكتب الملـكية فى فهرستها على غرار الأستاذ عنان فنسبت الأثرين فى فهرستها إلى الامام السخاوى

وقد أتيت على ترجمة الامام السخاوى قراءة وقتلتها بحثاً فلم أظفر بين مؤلفات السخاوى بهذين الأثرين اللـذين نسبهما الأستاذ عنان للسخاوى كما نسبتهما دار الـكتب

وليست هناك حجة تقوم بازالة هذا اللبس أصدق مما خطه الامام السخاوى فى ترجمته لنفسه بالضوء اللامع

وأما الأثر الذى عناه الأسـتاذ عنان (الخطط والمزارات) فهو للعالم الجليل محمد بن أحمد الحنفى السخاوى وقد فرغ من تأليفه سنة ٩٥٦ ﻫ وكان حياً سنة ٩٦٠ ﻫ وقد عده ابن مخلوف فى طبقات المالـكية

أما الامام السـخاوى صاحب الضوء اللامع والمؤلفات العديدة التى عدها فى ترجمته فقد توفى سنة ٩٠٢ ﻫ

فاحقاقاً للحقيقة وصوناً لمعالم التاريخ نأمل أن يجزم رجال التاريخ أن الأثرين اللذين عناهما الأسـتاذ عنان ليسا للامام السخاوى صاحب الضوء اللامع . . كما نتقدم بالرجاء إلى العالم المثقف محمد أسـعد براده مدير دار الـكتب أن يصحح ذلك فى فهارس الدار

والسلام على من عمل الخير أو سعى اليه ؟

(جرجا) **محمود عساف أبو الشباب**

الأدب الألمانى فى المنفى

لم تقتصر الثورة الاشتراكية الوطنيـة الألمانية على تحطيم النظم والأوضاع السياسية لألمانيا الجمهورية والديموقراطيـة ، ولـكنها حطمت صرح الحياة الألمانية القديم كله ، وشملت آثارها كل نواحى الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية ؛ وكان من آثارها الظاهرة تدهور العلوم والفنون والآداب فى ظل النظم الطاغية الجديدة ؛ وكان قيام الحـكومة الهتـلرية محنة حقيقية للأدب الألمانى ؛ فغادر ألمانيا عدة كبيرة من أقطاب الـكتاب والمفكرين ، فراراً من يد المطاردة والاستعباد الفكرى ؛ وكان الـكتاب والعلماء اليهود فى مقدمة من هرعوا إلى المنفى ، ولـكن الأمر لم يقتصر على هؤلاء ، فقد غادر الوطن القديم جمهرة من أكابر الـكتاب الألمان (الآريين) لأنهم لم يطيقوا الحياة فى ذلك الجو المضطرم بشهوة الانتقام السياسى ، وكان فى مقدمة هؤلاء عميـد الأدب الألمانى المعاصر توماس مان حامل إجازة نوبل ، وأخوه هينريخ مان ، ونشأ منـذ ثلاثة أعوام ، أى مذ قامت الحـكومة الهتلرية فى المنفى أدب مسـتقل يتمتع فى الخارج بكامل حريته ، وإن يكن يعانى صعاب المنفى ومتاعبه . ذلك لأن الحـكومة الهتلرية لم تقتصر على مطاردة زعماء الأدب الألمـانى ، بل عمدت أيضاً إلى محاربتهم فى أرزاقهم المستقبلة ، فحظرت على الناشرين الألمان أن يعاملوهم ، ومنعت كتبهم من دخول ألمـانيا ، ولـكن ذلك لم يفت فى عزم أولئك الـكتاب الأحرار ، فقد لقوا ضيافة حسنة فى انكلترا وفى فرنسا وفى سويسرة ، ورحبت دور النشر فى هذه البلاد بالتراجم الانكليزية والفرنسـية لـكتبهم الجديدة ، وأخذ الأدب الألمانى الرفيع ينمو ويزدهر فى المنفى

وقد نشأ الأدب الألمـانى فى المنفى سامياً بطبيعة الظروف التى

أحاطت به ، وكان طابع الكفاح والعرض السياسي ومقارعة الفكرة والعاطفة يغلب عليه أولا ؛ ومن هذا النوع كتاب هينريخ مان « البيضاء » Der Haab ، وهو كتاب تاريخي رائع ، وقصة سياسية بقلم ليو فويختفانجر عنوانها « أخوة أو بهائم » ظهرت في أمريكا سنة ١٩٣٣ ؛ وأخرى بقلم بالدر أولدن وعنوانها « قصة نازى » وقد ظهرت في انكلترا .

ولم يفقد الأدب الألماني عبقريته في المنفى ، فقد دلل على أنه مازال يحتفظ بهذه العبقرية في سلسلة من الكتب والقصص القوية المختلفة في نوعها وفنها ؛ ونستطيع أن نذكر منها « هندنبورج » بقلم رودلف أولدن ؛ و« شباب هنرى الرابع Die Jugend des Kònigs Henri » لهينريخ مان ، و« آخر الدنيين Der Letzte Zivitist » لارنست جليزر ، « والمائة يوم Die Hundert Tage » ليوسف روت ، و« النغم المؤسي » بقلم كلاوزه مان ؛ ويوجد الآن تحت الطبع عدة كتب وتراجم هامة منها : ترجمة لبطرس الأكبر ، وأخرى لهتلر . ويلاحظ مع ذلك أن الصبغة التاريخية والسياسية ما زالت تغلب على معظم الكتب الممتازة بين تراث الأدب الألماني في المنفى . مثال ذلك كتاب « هندنبورج » لرودلف أولدن ؛ وقد كان أولدن محامياً كبيراً ومحرراً في جريدة « البرلينر تاجبلاط » ؛ وكتابه ينم عن قوة في العرض ودقة في التمحيص والتصوير ؛ وفي رأيه أن الماريشال الراحل ، عميد الجمهورية الألمانية ورمز ألمانيا مدى أعوام طويلة ، لم يكن سوى بروسيا ؛ وأنه لم يكن رجل سياسة وتفكير قط ، وإنما كان جندياً يؤمن بسيادة الطبقات ، وأن سيادة الطبقة البروسية هي مصدر قوة ألمانيا وعظمتها ، وعما قليل أيضاً يصدر كتاب « هتلر » لاميل لودفيج والمنتظر أنه كباقي تراجمه سيكون قطعة رائعة من التصوير النفسى

وكذلك كتب القصص ، فان يوسف روت يصور لنا في قصته « المائة يوم » صورة الطاغية « نابليون » الذى يكفر في العزلة والمنفى عن جرائمه وزلاته ، ويتدبر الآلام والمظالم التى أنزلها بالأمة والشعب والوطن ، ثم هو يقضى وحيداً ، ويغمر أعوامه الأخيرة فراغ هائل ، ويرقب العالم الخارجى فشله وسقوطه ؛ ويكتب يوسف روت بأسلوب ساحر ، ونزعة غنائية مؤثرة حتى ليخيل اليك أنه يمزج الشعر بالنثر . ويقدم الينا أرنست جليزر أيضاً في « آخر الدنيين » قصة سياسية هي تاريخ ألماني هاجر الى أمريكا منذ نصف قرن وعاش في العالم الجديد بأمل العودة الى وطنه ، ولكنه لم يعد إلا قبيل قيام الحكومة الهتلرية ، ويصف لنا المؤلف حياة المجتمع الألماني في الريف عقب الحرب ، وروعة الهزيمة ، ونكبة التضخم المالى ، واعتقاد الشعب أن الذنب في ذلك كله يرجع الى « البروسيين » وكيف أن الشعب لم ينضم الى الحركة الهتلرية إلا باعتقاد أنها كفاح ضد السيادة البروسية . ثم يصف لنا بعد ذلك روعة اليأس الذى استحوذ على بطله حينما رأى ألمانيا الديموقراطية قد حطمت وغاضت ، فغاضت معها آماله ثم حياته

ويرى النقدة أن أبدع كتب الموسم كتاب هينريخ مان « شباب هنرى الرابع » ؛ ويرد المؤلف في كتابه على الملاحظة التى تلاحظ في أدب المنفى ، وهو أنه أدب تاريخ ، ويقول لنا ، أجل إن الأدب الألماني في المنفى يجب أن يكون تاريخياً ، ومن التاريخ تستخرج العظات والعبر ، ويستمد الأمل في المستقبل . ويصف لنا المؤلف حياة هنرى الرابع ملك فرنسا ومحقق وحدتها في أسلوب بديع هادىء ، وفي عرض قصصى ساحر مؤثر

وهكذا ينشأ خارج ألمانيا ، وفي ظلال المنفى ، أدب ألماني جديد ، قوى حر ، تميز باستقلاله وحياته الجديدة في ظلال حرية غاضت من أرضه ومهاده ، وهو يتجه بأمله إلى المستقبل القريب

بعض عناوين وأسماء

بعث الينا أديب يستفهم عن عناوين بعض الكتب الحديثة التى تستعرضها (الرسالة) بلغاتها الأصلية ، ويرجو أن تكتب الرسالة دائماً عناوينها الأصلية وأسماء مؤلفيها بالافرنجية . وهذا ما تفعله الرسالة في الواقع في معظم الأحوال ، وإذا كنا نكتب أسماء المؤلفين أحياناً باللغة العربية فقط ، فذلك اعتماداً منا على شهرة أولئك المؤلفين وعلى فطنة القارىء . وفيما يلى بعض العناوين والأسماء التى استفهم عنها الأديب المذكور في كتابه :

Tom Sawyer by nark Twain
Léfe and Letters of Galsworthiy by H. narrott.
A léfe of Kier Hardy by H. Fytte.
Aneur Life of Ibrahim Pasha by. B. Carabités
Abyseinia and Italy by Emile Burus.

4 me Année, No. 143.

Lundi-30-3-1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة — « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ محرم سنة ١٣٥٥ — ٣٠ مارس سنة ١٩٣٦ » — العــدد ١٤٣

فهرس العـــدد

الى أخى الزيات

الخيـــال العاقل

تحية صديق مشارك فى الحزن آمل فى العزاء

للدكتور طه حسين بك

أعرفت قط خيالاً عاقلاً أيها الأخ العزيز ؟ أما أنا فقد عرفته أمس ، ولم أتكلف فى معرفته مشقة ولا جهدا ، ولم أنفق فى البحث عنه قوة ولا وقتا ، بل لم أبحث عنه وإنما سعى إلى ، أو قل هممت أن أدعوه فاستجاب لى قبل الدعاء ، ولكنى لم أدعه لأعرفه ، فان عهدى به بعيد ، بعيد جدا لا أكاد أذكر أوله ، وإنما أعلم أنه رفيق منذ بدأت أفكر ، بل منذ استقبلت الحياة ، ما أكثر ما زين لى الأشياء حتى كلفت بها ورغبت فيها ، وما أكثر ما بغض إلىّ الأشياء حتى نفرت منها وضقت بها ، وما أسرع ما اخترع لى أشياء لم أكن أعرفها ولا أقدرها ، فاذا هى تملأ قلبى أملا ورجاء ، وتدفعنى إلى العمل والنشاط ، وإذا هى تملأ قلبى يأساً وقنوطاً ، وتدفعنى إلى الفتور والخمود والازوراء لقد خلق لى عالماً كاملا بعيد الآماد ، متنائى الأرجاء

مختاف الألوان ، قضيت فيـه أيام الصبى وما أكثر ما تمنيت أن أعود اليه ، ثم خلق لى عالما آخر ليس أقل من ذلك العالم سعة وتنوعاً واختلافاً ، ولـكنه مزاج من الجمال والقبح ، ومن اللذة والألم ، ومن اليأس والأمل ، قضيت فيـه أيام الشباب ومازلت أتمني أن أعود اليه ، ثم هو يرافقنى الآن فيزين لى الحياة قليلا ، ويقبحها فى نفسى كثيراً ، ويحاول أن يخلق لى ما يسر ، ويحاول أن يخلق لى ما يسوء ، فأطيعه حيناً ، وأعصيه أحياناً ، ولـكنه وفى لى دائماً كلما أردت استعانته على الـكتابة والانشاء ؛ وأعترف أيها الأخ العزيز بأنى كنت مقتصداً أشد الاقتصاد فى الالتجاء اليه والاستعانة به ، لأنى أعرفه جريئاً ، مسرفاً فى الجراءة ، نشيطاً غالياً فى النشاط ، يخترع من الصور وفنون المعانى ما لا أطيق أن أعرضه على بيئاتنا الاجتماعية التى تقتصـد فى الاطمئنان إلى وحى الخيال

عرفته وفياً نشيطاً متأهباً دائماً للمعونة كلما دعوته أو فزعت اليه ، مقدماً من هذه المعونة أكثر مما أسأله ، وأعظم جداً مما أقترح عليه . وقد دعوته أمس فاستجاب لى مسرعاً غير مبطئ ولا متثاقل ، بل أشهد لقد كان يكاد يتوزع نشاطا ومرحاً ، ولقد كنت أتهيأ للـكبح من جماحه والرد من نشاطه ، وأخذه بكثير جداً من الأناة والقصد كما تعودت دائماً ، ولـكنى لم أكد أعرض عليه ما كنت أريد أن يعيننى على الأخذ فيه حتى كفكف من نشاطه ، واتأد فى غلوائه ، وابتسم ابتسامة الهادئ المطمئن ، وقال فى صوت الراضى الرزين فى غير عجز مؤلم ، ولا قصور موئس : « اليك عنى فلست مما تريد فى شىء » . ذلك أنى كنت أريده على أن يمدنى بما أصور به فصلاً من حياة النبى الـكريم فى هذه الأيام التى يذكر فيها المسلمون أكبر حدث من أحداثهم ، وأعظم عبرة من عبرهم ، والتى يعود فيها المسلمون قروناً طوالا من الزمان ليشهدوا ذلك اليوم العظيم الذى خرج فيه النبى وصديقه الصديق من مكة مهاجرين إلى الله بآمال سيفنى الزمان قبل أن تفنى ، وإيمان سيزول هذا العالم قبل أن يدركه ضعف ويسعى اليه فتور ، وثقة بنصر الله عاشت عليها الأجيال التى لا تحصى ، وستعيش عليها الأجيال التى لا تحصى ، وسيستمد المسلمون منها أبدا قوة على الجد والـكد . واستقبال الحياة بما فيها من خير وشر ، ومن حلو ومر ، ومن محنة ونعمة

نعم دعوته أيها الأخ العزيز إلى أن يلهمنى بعض ما تعود أن يوحى إلى من الصور فأعرض فى غير غضب ، وامتنع فى غير بخل ، وألح فى الأعراض والامتناع ، فلما ألححت عليـه تبينت منه الاستحياء وإيثار العافية ، والضن بنفسه على ما لا يحسن ، وتجنيبها ما لا يطيق . وإذا هو يقول لى فى لهجة الهادئ المطمئن : استعنى فيما شئت ، فقد عرفت قدرتى على الاختراع والابتكار ، وحسن بلائى فى لبس الحق بالباطل حتى يصبح زينـة كله ، ولـكن من الحق ما هو أرفع من أن أسمو إليه مهما أكن قوى الجناح ، وأوضح من أن أجليه مهما أكن قوى النور ، وأسطع من أن أوضحه مهما أكن نافذاً بعيد الهم ، وأنصع من أن أزينه مهما أكن ماهراً فى اختراع الزينة وابتكار الجمال

ولئن حدثتك عن هـذا الرجل الـكامل لأحدثنك حديث العقل ، أستغفر الله ، فما يستطيع العقل أن يحدثك عنه كما يجب ، لأنه أكرم وأرفع وأرق من أن يبلغه العقل ، كما أنه أكرم وأرفع وأرق من أن يبلغه الخيال . اجتهد فى أن تتمثل ما أتيح للناس أن يعرفوا من حياته ، ثم انظر فيه واستمد منه فلست محتاجاً مع ذلك إلى معونة عقل أو خيال

انظر إلى الناحية الحزينـة من حياته ، واقصص على نفسك أطرافاً منها ، فان لم تملأ قلبك عبرة وعظمة وجمالاً وحباً وإكباراً دون استعانة بعقل أو خيال ، فلست إنساناً ولست من الانسانية فى شىء

**

انظر إلى هذا الذى ذاق اليتم جنيناً إن كان للأجنة أن يذوقوا المعانى والآلام ، ثم لم يكد يستقبل الحياة ويتقدم فى الصبى حتى ذاق اليتم مرة أخرى ، ففقد أمه بعد أن فقد أباه ، ثم لم يكد يتقدم خطوات أخرى فى الصبى حتى ذاق اليتم مرة ثالثة ففقد جده بعـد أن فقد أبويه ، ثم ألحت عليه حياة فيها شدة وجهد ، وفيها حرمان وفقر ، وفيها ضيق وضنك ، ثم تظاهرت هذه الآلام كلها على نفسه الـكريمة الناشئة فلم تستطع أن تبلغها ولا أن تنال منها ، لأن الله قد قطع الأسباب بين هـذه النفس الصفاة وبين البؤس والشقاء . ثم امض معه خارجاً من الصبى داخلاً فى الشباب متقدماً فيه ، فاذا الحياة كما هى شديدة شاقة ثقيلة ضيقة ، ولـكنه مبتسم الشباب كما كان مبتسم الصبى ، وادع النفس

(البقية على صفحة ٥١٧)

فلسفة قصـــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

هلكت خديجةُ زوجُ النبي صلى الله عليه وسلم وهلك عمه أبو طالب في عام واحد في السنة العاشرة من النبوة ، فعظمت المصيبة فيهما عليه ، إذ كان عمه هذا يمنعه من أذى قريش ، ويقوم دونه فلا يخلصون اليه بمكروه ؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية ، هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة ، فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها ، وقامت المعركة الاسلامية الأولى بين اراداتهم وارادته ، وهم أمة تحكمهم الكلمةُ الاجتماعية التي تسير عنهم في القبائل وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم ، فيخشون القالة أكثر مما يخشون الغارة ، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم ، ولكنهم يبالون بالكلمات المجروحة

فكان من لطيف صنع الله للاسلام ، وعجيب تدبيره في حماية نبيه صلى الله عليه وسلم - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة ، تشتغل بها سخافات قريش ، وتكون عملا لفراغهم الروحي ، وتثير فيهم الاشكال السياسي الذي يعطل قانونهم الوحشي إلى أن يتم عملُ الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون ؛ فان المصنع الالهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة

أما خديجة زوجُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم ، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس (لا) ، وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة المحبة هي التي تعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة ، وتلد له المسرات من عواطفها كما تلد من أحشائها ، فالوجودُ يعمل بها عملين عظيمين أحدهما زيادةُ الحياة في الأجسام والآخر إتمام نقصها في المعاني

***

وبموت أبي طالب وخديجة أُفرد النبي صلى الله عليه وسلم بجسمه وقلبه ليتجرد من الحالة التي يغلب فيها الحس إلى الحالة التي تغلب فيها الارادة ، ثم ليخرج من أيام الاستقرار في أرضه إلى الأيام المتحركة به في هجرته ، ثم لينتهي بذلك إلى غاية قوميته الصغيرة المحدودة فيتصل من ذلك بأول عالميته الكبرى

وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليل العظيم من أسمى خلال الجلال والعظمة ليكون أولُ أمره شهادةً بكماله ، فكانت الحسنةُ فيه بشهادة السيئة من قومه ، حلمُه بشهادة رُعونتهم ، وأناته بدليل طيشهم ، وحكمته ببرهان سفاهتهم ، وبذلك ظهر الروحاني روحانياً في المادة

قالوا فنالت منه قريش ، ووصلوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصلون اليه في حياة عمه ، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه ، كأنما يُعلمونه أنه أهون عليهم من أن يكون حراً فضلا عن أن يكون عزيزاً فضلا عن أن يكون نبياً ؛ قالوا فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت اليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي

كانت تبكي إذ لا تعلم أن هذا التراب على رأس النبي العظيم هو شذوذ الحياة الأرضية الدنيئة في مقابلة إنسانها الشاذ المنفرد . هذه القبضة من التراب الأرضي قبضة سفيهة تحاول رد الممالك الاسلامية العظيمة أن تنشأ نشأتها وتعملَ عملَها في التاريخ ؛ فهي في مقدارها وسخافتها ومحاولتها كمقل قريش حينئذ في مقداره وسخافته ومحاولته

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقال لبنته : يابنية لا تبكي فان الله مانعٌ أباك . حسبتْ ذلك هواناً وضيمةً فأعلمها أن قبضةً من التراب لا تطمرُ النجم ، وأن هذه الحثوة الترابية لا تسمى معركة أثارتها الخيل فجاءت بنتيجة ، وأن ساعة من الحزن في يوم لا يحكم بها على الزمن كله ، وأن هذه النزوة التي تحركت الآن هي حمقُ النباوة قوتها نهايتها

« يابنية لا تبكي فان الله مانع أباك » . أي ليس للنبي كبرياء ينالها الناس أو يَغُضون عنها فيأتي الدمعُ مترجماً عن المعنى الانساني الناقص مثبتاً أنه ناقص ؛ إنما هي النبوةُ قانونها غيرُ

ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان ، وهي النبوة تجعل المختار لها غير محدود بجسده الضعيف ، بل حدوده الحقائق التي فيها قوتها ؛ فهو في منَسّة الواقع الذي لا بد أن يقع ، فلو أمكن أن يحذف يوم من الزمن أو يؤخر عن وقته أمكن أن يؤخر النبيُّ أو يُحذف

« يا بنيـة لا تبكي فان الله مانعٌ أباك » . لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبيٌّ وسع التاريخ في نفسه الكبيرة قبل أن يوجد هذا التاريخ في الدنيا ، فكلمته هي الايمان والثقة إذ يتكلم عن موجود

ترابٌ ينثره سفيه على رأس النبي . ويحك يا حقارةَ المادة إن ارتفاعك لمنة ، إن ارتفاعك لمنة

***

قالوا : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه : فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتهم وأشرافهم فجلس اليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته والقيام معه في الاسلام على من خالفه من قومه ، فلم يفعلوا وأغرَوْا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط (١) لعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد صلى الله عليه وسلم إلى ظل حُبْلة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقي من السفهاء

فلما اطمأن صلى الله عليه وسلم في مجلسه قال : اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ؛ يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؛ إلى بعيد يتجهّمني أو إلى عدو ملكته أمري ؛ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك ، لك العُتْبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك

***

(١) الحائط البستان وجمعه حوائط

ألا ما أكمل هذه الانسانيـة التي تثبت أن قوة الخلق هي درجة أرفع من الخلق نفسه ؛ فهذا فنُّ الصبر لا الصبر فقط ، وفن الحلم لا الحلم وحده

قوة الخلق هي التي تجعل الرجل العظيم ثابتاً في مركز تاريخه لا متقلقلاً في تواريخ الناس ، محدوداً بمظاهر شخصيته الخالدة لا بمصالح شخصه الفاني ، ناظراً في الحياة إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغير للمنفعة

وما كان أولئك الأشرافُ وسفهاؤهم وعبيدهم إلا معاني الظلم والشر والضعف تقول للنبي العظيم الذي جاء يمحوها ويُديل منها : إننا أشياء ثابتة في البشرية

لم يكن منهم الأشراف والسفهاء والعبيـد ، بل كان منهم المسفُ والرِّق والطيش ، تسخر ثلاثتها من نبي العدل والحرية والعقل فما تسخر إلا من نفسها

صغائر الحياة قد أحاطت بمجد الحياة لتثبت الصغائر أنها الصغائر وليثبت المجد أنه المجد . كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديتين أبداً على الأرض : إحداهما عش لتأكل وتستمتع وإن أهلكت ؛ والأخرى عش لتعمل وتنفعَ الناسَ وإن هلكت

كانت الأقدار تنادي هـذا الروحَ الواسعَ بذلك الروح الضيق لينطلق الواسعُ من مكانه ويستقبلَ الدنيا التي عليـه أن ينشئها . فأولئك الأشراف والسفهاءُ والعبيد إن هم إلا الضيقُ والركودُ وذلُّ العيش ، حول السـعة الروحية والسموّ وطهارة الحياة

وقف المعنى السماويُّ بين معاني الأرض ؛ ولكن نور الشمس ينبسط على التراب فلا يعفّره التراب ، وما هو بنور يضيء أكثر مما هو قوة تعمل بالعناصر التي من طبيعتها أن تحوّل في العناصر التي من شأنها أن تتحول

وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أولئك المستهزئين قوةٌ أخرى هي القدرة التي تعمل بهذا النبي للعالم كله ، وبهـذه القدرة لم ينظر النبي إلى قريش وصولْتهم عليـه إلا كما ينظر إلى شيء انقضى ، فكان الوجود الذي يحيط به غير موجود وكانت حقيقةُ الزمن الآتي تجعل الزمنَ الحاضر بلا حقيقة

وإلى هذه القدرة توجه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الدعاء

الخالد يشكو أنه إنسان فيه الضعف وقلةُ الحيلة ، فينطق الانسانيُّ فيه بالشطر الأول من الدعاء يذكر انفراده وآثارَ انفراده ويتوجع لما بينه وبين انسانية قومه ؛ ثم ينطق الروحانيُّ فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجهاً إلى مصدره الالٓهى قائلاً أولَ ما يقول : إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالى

ولعمرى لو نطقت الشمس تدعو الله لما خرجت عن هذا المعنى ولا زادت على قوله أعوذ بنور وجهك ، تلتمس من مصدر النور الأزلى حياطةَ وجودها الكامل

* * *

ولقد هزأوا من قبل بالمسيح عليه السلام فقال للساخرين منه : ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته ، وبهذا رد عليهم ردَّ من انسلخ منهم ، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم ، وأخذهم بالشريعة الأدبية لا العملية ؛ إذ كان عليه السلام كالحكمة الطائفة ليست لكل قلب ولا لكل عقل ، ولكنها لمن أُعِدَّ لها ، وشريعته أكثرُها فى التعبير وأقلُّها فى العمل ، ولم يجىء بالقوة العاملة فلم يكن بدٌّ من أن تضع الموعظةَ فى مكان السيف ، وأن تكون قائمة على النهى أكثر مما هى قائمة على الأمر ، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة لا تغلى بها الأرض وإنما عملها أن تمهّد هذه الأرض لفصل آخر

أما نبينا صلى الله عليه وسلم فلم يجب المستهزئين إذ كانت القوة الكامنة فى بلاد العرب كلها كامنة فيه ، وكان صدرُه العظيم يحمل للدنيا كلمة جديدة لا تقبل الدنيا أن تعامله عليها إلا بطريقتها الحربية ؛ فلم يردَّ ردَّ الشاعر الذى يريد من الكلمة معناها البليغ ولكنه سكت سكوت المشترع الذى لا يريد من الكلمة إلا عملها حين يتكلم . وكان فى سكوته كلام كثير فى فلسفة الارادة والحرية والتطور وأن لا بد أن يتحول القوم وأن لا بد أن يتفطّر هذا الشجرُ الأجردُ عن ورق جديدٍ أخضرَ ينمو بالحياة

لم يتسخط ولم يقل شيئاً وكان كالصانع الذى لا يردّ على خطأ الآلة بسخط ولا يأس بل بارسال يده فى إصلاحها

* * *

قالوا : ورأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة ما لقى النبى صلى الله عليه وسلم من السفهاء فتحركت لهُ رَحِمُهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس ، فقالا له : خذ قِطفاً من هذا العنب وضعه فى ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأ كل منه . ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما وضع يده قال : بسم الله ، ثم أكل ؛ فنظر عداس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟

قال : أنا نصرانى وأنا رجل من أهل نِينَوَى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى . قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى

فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليه

* * *

يا عجباً لرموز القدر فى هذه القصة

لقد أسرع الخير والكرامة والاجلال فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة

وكان ابنا ربيعة من ألد أعداء الاسلام ، وممن مشوا إلى أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم من أشراف قريش يسألونه أن يكفّه عنهم أو يخلّىَ بينهم وبينه ، أو ينازلوه واياه حتى يهلك أحد الفريقين ، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الانسانى الذى جاء به الدين لأن المستقبل الدينى للفكر لا للغريزة

وجاءت النصرانية تعانق الاسلام وتعزّه إذ الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الاخوة الدمُ ونسب الأديان العقل

ثم أتم القدر رمزه فى هذه القصة ، بقِطف العنب سائغاً عذباً ممتلئاً حلاوة ؛ فباسم الله كان قطفُ العنب رمزا لهذا العنقود الاسلامى العظيم الذى امتلأ حَبًّا كلُّ حبة فيه مملكة

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

أوربا على المحرر

٢ - من فرساى إلى لوكارنو

مسألة الرين وسلام أوربا

بقلم باحث دبلوماسى كبير

لماذا أقدمت ألمانيا على تصرفها الجرئ فأعلنت إلغاء ميثاق لوكارنو واحتلت منطقة الرين المجردة فى هذا الظرف العصيب الذى تجوزه أوربا؟ لقد شرحت ألمانيا وجهة نظرها وبسطت البواعث التى أملت بتصرفها فى مذكرتها التى قدمتها إلى الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو فى السابع من مارس؛ وكذلك على لسان زعيمها الهر هتلر فى الخطاب الذى ألقاه فى نفس اليوم فى مجلس الريخستاج؛ وتؤكد ألمانيا فى الوثيقتين أن السبب المباشر لتصرفها هو عقد الميثاق الفرنسى الروسى الذى أبرم أخيراً، فألمانيا ترى فى عقد هذا الميثاق خطراً يهدد سلامتها، ونقضاً من جانب فرنسا لميثاق لوكارنو يبرر تصرفها، وهى تشرح وجهة نظرها فى مذكرتها فيما يلى:

« إن ألمانيا منذ عقد الميثاق الفرنسى الروسى فى ٢ مايو سنة ١٩٣٥، قد لفتت نظر الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو أكثر من مرة. إلى أن العهود التى قطعتها فرنسا على نفسها فى الميثاق الجديد لا تتفق مع العهود التى قطعتها على نفسها فى لوكارنو؛ وإنه لا ريب فى أن الميثاق الفرنسى الروسى موجه إلى ألمانيا وحدها وبالذات، وأن فرنسا ارتبطت فيه إزاء روسيا بعهود خاصة فى حالة وقوع حرب بين ألمانيا وروسيا، وهذه العهود تنافى عهد عصبة الأمم والتزامات ميثاق الرين (ميثاق لوكارنو) المؤسسة عليه؛ وتحالف فرنسا على هذا النحو مع دولة مدججة بالسلاح ضد ألمانيا يخلق حالة جديدة، ويقضى على نظام السلام فى الرين بأكمله، ويجعل ألمانيا فى حل من تعهداتها السابقة الخ . . . . »

وإلى جانب هذا السبب المادى المباشر الذى تتقدم به ألمانيا لتبرير تصرفها، يقدم الينا الهير هتلر فى خطابه عدة أسباب قومية معنوية تتصل بشرف ألمانيا وكرامتها وحقها فى الحياة سيدة حرة، فألمانيا تريد أن تعيش فى سلام، ولا تفكر مطلقاً فى الاعتداء على أحد، ولكنها تريد أن تعيش مع باقى الدول على قدم المساواة، وأن تتمتع بنفس الحقوق والمزايا التى تتمتع بها جميع الدول الأخرى، وأن تحتل المكان اللائق بعظمتها؛ وهى لا تستطيع أن تحقق هذه الآمال المشروعة إذا لبثت مصفدة بأغلال معاهدة الصلح ونصوص ميثاق لوكارنو الذى يحرمها من السيادة على منطقة الرين، وهى نحو خمس ألمانيا

الميثاق الفرنسى السوفيتى

ويكرر الهير هتلر فى خطابه أن السبب المباشر الذى على بهذا الموقف على ألمانيا هو عقد الميثاق الفرنسى السوفيتى؛ ذلك أن فرنسا تتعهد بمقتضى هذا الميثاق عند وقوع حرب بين روسيا وألمانيا بالتزامات عسكرية تنافى عهد عصبة الأمم وميثاق لوكارنو، وأنها تغدو عندئذ مضطرة إلى مهاجمة ألمانيا؛ وإذاً فعقد فرنسا لمثل هذا الميثاق مع دولة مسلحة من الرأس إلى القدم كروسيا موجه بلا ريب إلى ألمانيا، وإلى ألمانيا وحدها، وهى بذلك تخلق موقفاً جديداً يتنافى مع تعهدات ميثاق لوكارنو

وقد عقد الميثاق الفرنسى السوفيتى فى الثانى من مايو الماضى بعد مفاوضات طويلة بين فرنسا وروسيا، واحتجت ألمانيا على عقده يومئذ لدى الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو؛ ثم أبرم هذا الميثاق أخيراً وأصبح بذلك وثيقة نهائية لها خطرها فى سير السلام الأوربى

ويتألف الميثاق المذكور من خمس مواد وبروتوكول تفسيرى. وتنص المادة الأولى منه على وجوب التشاور السريع بين الدولتين تطبيقاً للمادة ١٠ من ميثاق العصبة إذا وقع على إحداها اعتداء لا مبرر له (والمادة العاشرة من الميثاق هى الخاصة بمقاومة كل اعتداء على استقلال أى عضو من أعضائها) وتنص المادة الثانية على وجوب تقديم المساعدة السريعة للفريق المعتدى عليه طبقاً للمادة ١٥ فقرة ٧ من ميثاق العصبة إذا لم يتخذ مجلس العصبة فى الأمر قراراً سريعاً. والمادة الثالثة تقرر التعهد بالمساعدة

والمعاونة فى حالة الاعتداء الذى لا مبرر له طبقاً لنص المادتين ١٧ و١٦ فقرة ٣ من ميثاق العصبة . وتنص المادة الرابعة على أن هذه التعهدات لا تمنع الطرفين بأى حال من القيام بالتعهدات التى يفرضها الميثاق . وتنص المادة الخامسة على مدة الميثاق ، وعلى أن المعاونة المشار إليها فيه قاصرة على أوربا ؛ ولا يطالب تنفيذ التعهد الخاص بالمعاونة إذا لم يكن الاعتداء واقعاً على أرض الطرفين المتعاقدين ذاتها . ويتضمن الميثاق أيضاً تحفظات خاصة باحترام المواثيق والعهود السابقة ولا سيما ميثاق لوكارنو ، وينص أيضاً على امكان عقد ميثاق محلى شرقى ، وعلى أنه يتسنى لأى دولة يهمها أمر السلامة العامة أن تشترك فيه

هذه هى خلاصة الميثاق الفرنسى السوفيتى الذى اتخذت ألمانيا من عقده ثم إبرامه ذريعة لموقفها الأخير ، وقد بدأت ألمانيا بالفعل على أثر عقد الميثاق بنحو ثلاثة أسابيع (فى ٢٥ مايو سنة ١٩٣٥) بتقديم احتجاجها على عقده إلى فرنسا وإلى باقى الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو

بيد أنه يلاحظ أن تذرع السياسة الألمانية بالميثاق الفرنسى السوفيتى ليس إلا وسيلة ظاهرة أو مباشرة لتبرير تصرفها فى استعادة سيادتها على الرين ؛ ويلوح لنا أن هذه الخطوة الجديدة التى اتخذتها ألمانيا الهتلرية لتحطيم البقية الباقية من الأغلال العسكرية التى فرضتها معاهدة الصلح إنما هى حلقة جديدة فى برنامج مقرر ترى ألمانيا تنفيذه ضرورياً لاستعادة مركزها العسكرى القديم ، وهيبتها القديمة كدولة عظمى ؛ وقد رأيناها تتخذ فى العام الماضى من تقرير فرنسا إطالة الخدمة العسكرية ذريعة سريعة لالغاء نصوص معاهدة الصلح الخاصة بتحديد تسليحات ألمانيا ، وتقرير الخدمة العسكرية الاجبارية ، وإبلاغ الجيش الألمانى إلى ستمائة ألف ؛ وليس إلغاء ألمانيا لنصوص معاهدة الصلح الخاصة بتحريم منطقة الرين ونصوص ميثاق لوكارنو إلا تتمة لهذه السياسة التى ترمى إلى تحرير ألمانيا تحريراً شاملاً من كل الأغلال التى صفدت بها معاهدة فرساى سيادتها السياسية أو العسكرية ؛ وقد رأينا أن ميثاق لوكارنو لم يكن إلا تأييداً لنصوص معاهدة الصلح الخاصة بمنطقة الرين

ماذا ترتب على موقف ألمانيا

ماذا ترتب على الخطوة الجريئة المزدوجة التى اتخذتها ألمانيا فى السابع من مارس ؟ إن دوائر السياسة العليا فى أوربا كلها مازالت تشغل منذ ثلاثة أسابيع بما قد يفضى اليه تصرف ألمانيا من العواقب الخطيرة ؛ وقد كانت الدول الموقعة على ميثاق لوكارنو وفى مقدمتها فرنسا أشد الدول اهتماماً بالموقف الجديد الذى خلقته ألمانيا بتصرفها ؛ ففرنسا ترى أن ألمانيا قد انتهكت عهودها مرة أخرى وأن هذا الانتهاك الجديد خطر على سلامتها ، وتؤيدها بلجيكا فى رأيها واعتقادها

وقد رأينا أن ميثاق لوكارنو ينص على الاجراءات التى تتبع فى حالة مخالفة نصوصه أو نصوص معاهدة الصلح الخاصة بمنطقة الرين ضد الدولة التى ترتكب المخالفة ؛ وهذه الاجراءات هى التى اتبعت فى الحال عقب تصرف ألمانيا ؛ فقد اجتمعت دول لوكارنو وهى فرنسا وبريطانيا العظمى وبلجيكا وإيطاليا فى مؤتمر عقد أولا فى باريس ثم نقل إلى لندن ، واستدعى فى الحال مجلس عصبة الأمم إلى دورة خاصة تعقد فى لندن أيضاً لبحث الوضوع طبقاً لنصوص ميثاق العصبة التى يحيل اليها ميثاق لوكارنو ؛ وكان المفروض أولا أن مؤتمر لوكارنو لم يجتمع إلا ليسجل انتهاك ألمانيا لمعاهدة الصلح والميثاق وأن مجلس عصبة الأمم لم يجتمع إلا ليسجل مثل هذا الانتهاك وليتخذ مايقضى به ميثاق العصبة من إنصاف الدولة المعتدى عليها وتقرير العقوبات الاقتصادية على الدولة المعتدية ، إذا هى لم تذعن للتسوية الودية ؛ وكانت هذه هى أول وجهة للسياسة الفرنسية ، وكانت فرنسا أشد دول لوكارنو غضباً وتشدداً باعتبارها هدف « الاعتداء » الألمانى ، وكانت ترجو أن تحمل باقى الدول الموقعة معها ، ولا سيما بريطانيا على اتخاذ سياسة الشدة والارغام وحمل ألمانيا على سحب جنودها من الرين قبل التفاهم معها على أية تسوية جديدة ؛ ولكن ظهر منذ المقابلات والمباحثات الأولى أن الاتفاق لم يكن تاماً بين دول لوكارنو ، وأن فرنسا تكاد تقف وحيدة فى تشددها لا يؤيدها سوى بلجيكا إلى حد ما . ذلك أن انكلترا لا تنظر إلى تصرف ألمانيا بنفس العين ، وترى أنه قد حان الوقت منذ بعيد لأن تفوز ألمانيا بحقها فى المساواة فى التسليح والضمانات السلمية ، وأنه ليس من العدالة ولا من

الممكن أن ترغم أبد الدهر على قبول هذا الارغام والاجحاف ، وأنه خير للسلام الأوربى أن يسمح لألمانيا بالتعاون مع باقى الدول العظمى على قدم المساواة والتفاهم ؛ هذا ومن جهة أخرى فقد رأت انكلترا الفرصة سانحة لأن تاقى على فرنسا درساً فى قيمة التعاون البريطانى ، وأن تؤاخذها بطريقة عملية فعالة على موقفها فى المسألة الحبشية وعلى ما أبدته من التلون والمخادعة والمداورة فى مؤازرة إيطاليا وتفويت غرض السياسة البريطانية من الضغط على إيطاليا وفرض العقوبات الاقتصادية عليها عن طريق عصبة الأمم ؛ أما إيطاليا فقد رأت أيضاً فرصة سانحة للمساومة والمطالبة بالغاء العقوبات المفروضة عليها إذا أريد أن تقوم بنصيبها من العهود المفروضة فى لوكارنو

لهذا كان تصدع جبهة ميثاق لوكارنو ظاهرا ؛ وكانت ألمانيا من جهة أخرى قد وضعت الدول أمام الأمر الواقع بمقترحاتها السلمية التى سجلها هتلر فى خطابه ، وخلاصتها أن ألمانيا على أهبة لأن تعقد ميثاقا بعدم الاعتداء مع فرنسا وبلجيكا لمدة خمس وعشرين سنة لكى تضمن سلامة الحدود بين ألمانيا وبينهما وأن تعفى انجلترا وايطاليا من ضمان هـذا الميثاق ، وأن تعقد ألمانيا بينها وبين الدول الغربية ميثاقا جويا بعدم الاعتداء ؛ وأنها أى ألمانيا على أهبة للعودة الى عصبة الأمم بعـد أن تقرر حقها كاملا فى المساواة وأعيدت سـيادتها كاملة وزال بذلك سبب خروجها من العصبة ؛ وأنها تؤمل أن توضع تسوية معقولة لمسألة المستعمرات ، وأن يفصل عهد عصبة الأمم من معاهدة فرساى ؛ فهذه الاقتراحات الايجابية كانت أيضاً عاملا آخر فى شل سياسة العنف والمقاومة وتمهيد الطريق الى محاولة أوربيـة جديدة فى سبيل التفاهم وعقد المواثيق الجديدة

ولا حاجة بنا لأن نتتبع هنا تلك المباحثات والمفاوضات المتشعبة التى تدور فى لندن منذ أكثر من أسبوعين ؛ ويكفى أن نقرر أن السياسة الانكليزية فازت بتحقيق الشطر الأول من برنامجها فحالت دون الصـدام الخطر الذى كانت تثيره سياسة العنف حتما ، وحملت فرنسا على التزام جانب الاعتدال والتروى ، واتخذت لنفسها مرة أخرى دور الوساطة والتوفيق ؛ ومهدت السبيل لاشتراك ألمانيا فى المفاوضات الدائرة لتصفية الموقف وعقد تسوية جديدة على الأسس التى تقترحها انكلترا بالاتفاق مع دول لوكارنو . وقد تمت المرحلة الأولى من هذه المفاوضات بعقد اتفاق تمهيدى بين دول لوكارنو وهى انكلترا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا خلاصته أن تتعاون هيئات أركان حرب هـذه الدول فى وضع الخطط اللازمة لرد الاعتداء المدبر ، وأن يرفع الميثاق الفرنسى السوفييتى الى محكمة لاهاى لتقرير ما إذا كان مخالفاً لميثاق لوكارنو أم لا ؛ وفى أثناء ذلك يجب أن تسحب ألمانيا جنودها من منطقة الرين ، إلى مسافة عشرين كيلومتراً داخل حدودها الغربية وتحتل هذه المنطقة قوة رمزية من الجنود الدولية حتى تتم التسوية النهائية ، ولا تزيد ألمانيا جنودها فى منطقة الرين عما هى عليه ، ولا ترسل اليها مواد حربية ، ولا تنشئ فيها مطارات أو تحصينات ، وتتولى الاشراف على تنفيذ هذه الشروط لجنة دولية محايدة ؛ وتتعهد فرنسا وبلجيكا من جانبهما بالمحافظة على الحالة الراهنة عند الحدود ، وهذا مع تعهد دول لوكارنو بالمحافظة على تعهداتها تأميناً لسلامة فرنسا ، فاذا وافقت ألمانيا على هذه التسوية التمهيدية فانها تدعى للاشتراك فى مفاوضات عامة تجرى على أسس مقترحات هتلر ، وحل مسألة الرين ، وعقد ميثاق جديد بالضمان المتبادل يحل مكان ميثاق لوكارنو . وإذا رفضت ألمانيا هذه التسوية فان دول لوكارنو تعيد النظر فى الموقف كله ؛ وإلى كتابة هذه السطور لم تكن ألمانيا قد قالت كلمتها . على أنه يلاحظ أن الاتفاق التمهيدى مع ميله نحو الوفاق ينافى مبدأ المساواة الذى تصر ألمانيا على تطبيقه ، ولهذا يرجح أن ترفضه ألمانيا أو أن تدخل عليه من التعديلات ما يحقق فى نظرها مبدأ المساواة الحقة ، وعلى أى حال فانه لا بد من مفاوضات ومراجعات طويلة أخرى قبل أن تحظى مسألة الرين بحل يستقر معه سلام أوربا مدى حين

وليس من ريب فى أن ألمانيا قد قطعت بتصرفها الجرىء خطوة حاسمة فى سبيل استكمال سيادتها وهيبتها كدولة عظمى وفى أنها ستخرج ظافرة من هذا النضال السياسى ، ذلك أن الدول الغربية ، وأوربا كلها ، ترتعد كلما لاح لها شبح الحرب ؛ بيد أن تصرف ألمانيا فى مسألة الرين سيغدو أيضاً نذيراً جديداً لفرنسا يحملها على مضاعفة حـذرها وأهبتها للمعركة القادمة الـكبرى

(* * *)

خــــواطر
فى الحياة والموت
للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كلما فكرت فى أمر الموت ازددت حيرة ، وكنت أظن أن إطالة الفكرة فيه رياضة حسنة عليه . وأن ذلك جدير بأن يصغر الدنيا فى عيني ، ويجعلني بالحياة أقل احتفالا ، فاذا الأمر على خلاف ذلك ، والحال على نقيضه . وما أظن بغيرى إلا أنه مثلى ، وقد أقول لنفسى حين أخلو بها – وقلما أفعل هذا الآن – إن كون المرء يحيا ليموت ليس بالغاية أو النهاية التى يسكن اليها الحى ويطيب بها نفسا ، وما أشبه ما يفعل بنا هذا القدر الجارى علينا بما نصنعه نحن بخراف العيد – نسمنها لنذبحها آخر الأمر ، وفرق ما بيننا وبين الخراف أن هذه تزداد لحما وشحما وأنا نزداد علما وفهما ؛ ولا أدرى من الذى قال إن الحياة مدرسة ، ولكن الذى أدريه أنها أعجب المدارس وأخفاها – ولا أقول أقلها – حكمة ، ذلك أن التعلم فيها يستمر إلى نهاية العمر ، ولا سبيل إلى اختصار الأمر أو الاجتزاء ببعض العلم عن بعضه ، لانتفاء الارادة الشخصية ، ولأن المدرسة هى الدنيا كلها ، فلا خروج منها إلا بالخروج من عالم الأحياء ، والعالم والجاهل سيان ، واللبيب كالغبى ، والساعى فى وزن القاعد ، والمصير واحد ، والمآل لا يختلف ، وكل من فى هذه المدرسة العجيبة يتلقى علومه الخاصة التى لا تشبه دروس غيره ، ولا ترى أحداً يسأله هل حذق الدرس أم أهمله ونسيه ؟ وكل واحد عالم وجاهل فى آن معاً ، يعرف ما أتيح له أن يعرف ، ويجهل ما عدا ذلك أجمعه . وقل أن ينتفع أحد بما تعلم فى حياته لأنه يدفن معه فى قبره ، ويلف عليه وعلى تجاربه ومعارفه كفن واحد . وكم تساءلت – وأنا أتدبر هذا كله – عن الحكمة فى تضييع ما أفاد الانسان فى حياته من العلم والخبرة ؟ ؟ ذلك أن كل ما حصل فى حياته يموت معه ، ولا سبيل إلى استنقاذ التجارب والمعارف والانتفاع بها بعد أن يقضى صاحبها نحبه ويستوفى أجله . فهل هذه يا ترى خسارة تصيب الانسانية كلما مات منها فرد ، أم لا خسارة هناك عليها ولا ضير ؟ ؟ من يدرى ؟

وسهل أن يفهم المرء أن يخلق ليحيا ، ولكن العسير أن نجعله يفهم أنه يخلق للممات . فلماذا يكون هذا هكذا ؟ وإذا صح أن الحياة مدرسة ، أفلا يكون الأصدق والأشبه بالواقع أن نقول إن غايتها تدريب الأحياء على الموت وإعدادهم له ؛ ذلك أن الانسان يموت منه كل يوم شيء ، وشجرته لا تزال تتساقط ورقاتها وزهراتها واحدة فى إثر أخرى ، حتى تصوح وتعطب ، وانظر ما يفعل الزمن بآمالنا ورغائبنا ومساعينا وبأجسامنا ونفوسنا ؟ ؟ والآمال يدركها الحين ، والشباب يذهب ، والصباحة يغيض ماؤها ، والنشاط ينضب معينه ، والشعر الأسود يبيض ، والقوة تسترق ، والقناة المعتدلة تتقوس ، والسمع يثقل ، والنظر يضعف ، والشهوات تفتر ، والعجز يدب دبيبه شيئاً فشيئاً . حتى يوافى الأجل فيكون كل هذا تمهيداً له تتدرب به النفوس على السكون إلى الموت . حتى كر الأيام ايذان مستمر بالموت الزاحف ، وليس يسع الانسان حين يتأمل ذلك إلا أن يشعر أن كل يوم يعيشه ، هو يوم يموته ، والواقع أن الانسان فى يومه غير ما كان فى أمسه ، لأن الحياة قائمة على التحول ، أو هى دائرة على الموت إذا شئت ، ولا سبيل فيها الى بقاء شيء أو ركود حال ، وكل ساعة تمضى علينا تمضى بشيء منا ، أو على الأصح بصورة من صور وجودنا ، وحالة من حالات نفوسنا وأجسامنا ، وكون المرء يتغير معناه أنه يذهب ويجيء غيره ، ويموت ثم يخلق خلقاً آخر ، ولكن سرعة التعاقب فى الخلق تجعل الصورة الجديدة مولدة من القديمة الفانية وشبيهة بها شبها يخفى وجوه الاختلاط : والذى يديم النظر فى المرآة لا يفطن إلى التغير الذى حدث ، ولكن الذى يبعد عهده بالمرايا لا يسعه إلا أن يرى أن صورته قد تغيرت ، وحالت عما كان يعرف

فالموت يعيث فينا نهارا وليلا . وصباحا ومساء ، وكل إحساس أو رأى أو اعتقاد لنا يتغير ، هو ضرب من الموت يدركنا ، والشيخوخة والأمراض وما يصيبنا من خيبة فى آمالنا أو اخفاق فى مساعينا – رياضة لنا على ما نحن صائرون إليه من المآل . وقد أتساءل أحياناً عن معنى حياة مجهولة

للموت ودائرة عليه ومتسربة فيه — فى كل حالة ومظهر ؟؟ ولا جواب هنالك أعرفه لسؤالى ، وقد يئست من امكان الاهتداء ، حتى لم أعد أحفل لا الحياة ولا الموت ، أو أبالى كيف أكون فى يومى ، وماذا يكون من أمرى فى غدى . وهل الانسان إلا مقبرة متحركة ؟ ؟ بل أنا أبالى — كما قدمت فى مستهل هذه الكلمة — ولكنى أغالط نفسى ، وأصرفها عن النظر إلى هذا الجانب الأسود ، وألهيها وأسليها بما أستطيع أن أريقه على جوانب العيش من ضوء يردها مشرقة ضاحكة . ومن هنا نشدانى للفكاهة وحرصى على الوقوع عليها . ومتى تساوى الحزن والفرح ، وتعادل الغضب والرضى ، وكان الاهتداء فى وزن الحيرة والضلال ، وصار البكاء والضحك سيين ، فالضحك أولى اذا قدرت عليه ؛ والدنيا مأتم ، فما أحقنا بأن نسر الناس ، أو نسرى عنهم ، أو نذهلهم لحظات عن تنغيص حياة مبطنة بالموت ، وذلك يتطلب الارادة ، ولكن الارادة تكتسب

ابراهيم عبد القادر المازنى

٤ - التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

أظهرت فى مقالى السابق أن لكل أمة من الأمم ثقافة تقليدية ترثها عن أسلافها ، وأبنت أن هذه الثقافة تصبح بالوراثة قطعة من غريزتها وجزءاً من فطرتها ، لا تنفك عنه أمة من الأمم أو تكون قد انفكت عن أخص مميزاتها وأعظم مظاهرها الاجتماعية . وعقبت على ذلك كله بمجمل العلاقات التى تربط كل أمة بثقافتها التقليدية إظهاراً لوجهة نظرى فى هذه المسألة الحيوية

على أن ما أحطت به فى مقالى السابق قد قصر على بيان العلاقة التى تربط الثقافة التقليدية فى كل أمة بمظاهرها الاجتماعية من حيث أنها مظاهر اقتصادية لا غير . والآن أريد قبل أن أختم هذه البحوث أن أظهر أن لنظريتى فى الثقافة التقليدية أثراً فى تكوين العقلية الفردية وتكييف العقلية الجماعية ، مُنشأة فى كل أمة من الأمم بمقتضى الظروف والحالات التى لابستها منذ أقدم عصورها التاريخية

ومن أجل أن نبين عن حقيقة ما نقصد إليه نقصر الكلام على أخص الظواهر التى ثارت من حولها عجاجة النقد وكثر فيها الجدل حتى أصبحت من عقلية الجمهور المتعلم جزءاً لا يتجزأ

ولا ريبة أن فى حياتنا الحاضرة مظاهر ، هى بحكم العصر الذى نعيش فيه والحالات التى تكتنفنا ، أجلى من غيرها وأبين فى تكييف عقليتنا من كل الظواهر الأخرى ، وأقصد بذلك الأدب من ناحية ، والوطنية من ناحية أخرى

وأول ما يبدر إلى ذهن الباحث فى هذا المقام أن يسأل : أمن علاقة بين الثقافة التقليدية والأدب ؟ أهنالك من صلة بين هذه الثقافة والوطنية ؟ أيكون لماضى الأمم أثر فى تكوين أدبها وصبغ وطنيتها بصبغة خاصة ، وهل من رابطة تربط بين تصورات ومشاعر وعواطف درجت عليها القرون ، وبين أبناء جيل يخيل إليهم أنهم نفضوا أيديهم من الماضى وأزلوا عن كواهلهم تراب الأزمان الغابرة ، فأصبحوا خلقاً جديداً ، وأمة مستحدثة من عناصر لا تمت إلى القديم بسبب من الأسباب ؟

وما كان لباحث أن يسأل هذا السؤال ، وما كان لهذا السؤال أن يدور فى مخيلة مفكر ، لو أن لنا بثقافتنا التقليدية صلة أو كان لهذه الثقافة علاقة بأدبنا ، أو صلة بوطنيتنا . وإنما يدور هذا السؤال فى مخيلة كل مفكر بحكم أننا قطعنا صلتنا بالماضى ، وفرطنا عقد رابطتنا بعصر القديمة ، وبالأحرى حللنا العقدة التى تصل بين حبل حياتنا الحاضرة والخيوط التى تتكون منها شبكة حياتنا الماضية ، ولا شك فى أن الفرد ثمرة الماضى ، قبل أن يكون ابن الحاضر ، وصلته بذلك الماضى صلة وراثة . أما صلته بالحاضر فصلة ضرورة

ولا مرية فى أن هذا السؤال غير طبيعى فى أمة أحكمت صلتها بماضيها ، ووثقت روابطها بثقافة آبائها الأولين . فهو بمثابة أن تسأل مثلاً : أمن علاقة بين دمى الذى يجرى فى عروق ودم جدى أو جد جدى ؟ وهل من صلة بين تصوراتى ومشاعرى وميولى ، وبين طبيعة الأرض التى تغذينى والهواء الذى ينعشنى والسماء التى تظلنى ؟ ذلك بأن الأمم متى أحكمت صلتها بماضيها

ونشقت دائماً عبير الروح الذى سرى فى كيانها منذ أبعد العصور لن تشعر يوماً بأنها فى محيط غير محيطها الطبيعى ، أو أنها فى بيئة غير بيئتها الفطرية ، فيظهر أثر ذلك كله ممكوساً فى جماع مظاهرها وبخاصة فى آدابها وفى وطنيتها . أما ونحن نشعر الآن بأن أدبنا أدب مصنوع لا أدب فطرى ، وأن وطنيتنا وطنية ظاهرية لا وطنية حقيقية ، فانه من الطبيعى أن نسائل أنفسنا عن سبب ذلك ، ومن الطبيعى أن نجد الجواب فى النظرية التى أدلينا بها من قبل فى العلاقة التى تقوم بين المظاهر الاجتماعية والثقافة التقليدية التى تختص بها كل أمة من الأمم ، وتختص مصر بصورة منها

* * *

قرأت منذ سنوات قصيدة فى مجلة « أبولو » عنوانها « قبرة شيلى » ، وعكفت كعادتى فى كل ما أقرأ من الترجمات على مقابلتها بالأصل ، فألفيت أن الشاعر المترجم قد أجاد فى المحافظة على المعانى الأصلية قدر ما تهىء أوزان الشعر وقوافيه ومفردات اللغة العربية لمترجم أن ينقل شعراً من الانجليزية إلى العربية ، ولقد أحسن الشاعر المترجم سبك المعانى فى قالب عربى يلائم روح التجديد مع المحافظة على جرس الأسلوب العربى ، فأكبرت القصيدة وأعدت تلاوتها مرات مبالغة فى الوقوف على ما فيها من أوجه النقد ووزنها على مقتضى المعايير التى أومن بها فى تقييم الشعر ، ولم ألبث أن أحللتها بين ما أعتقد أنه من جيد الشعر الحديث ، غير أنى بعد كل هذا كنت أشعر بأن فى القصيدة ماهية أخرى تبعدها عن طبعى ، وتقصيها عن تصوراتى وتجاربى ، وتنأى فى روعى أبى غريب عن الجو الذى تخلقه من حولى . فلا الجو الذى وضعه « شيلى » وغشاه بالسحاب القاتم الشديد السواد هو الجو الذى أعرفه ، ولا الغناء القوى الحنون الذى ترسله قبرته هو نفس الغناء الذى أعهده فى قبراتنا ، ولا لونها الأصفر الزريابى الذى يجعلها تظهر تحت السحب السوداء كأنها شرارة من لهب ، هو لون القبرة المغبرة السفعاء التى آنسها فى حقولى . كذلك رأيت فى ذكر السيول والأمطار الغامرة التى ترسلها سماء انجلترا شيئاً جديداً لا علاقة له بمحيطى ولا صلة له ببيئتى ، وعلى الجملة شعرت بأنى أقرأ خيالاً انجليزياً فى شعر عربى . خيال يجذبنى من ناحيته إلى ثقافة غير ثقافتى التقليدية بل يقصينى عن تجاربى ومشاهداتى ، وأن كل ما تهىء لى القصيدة من قدرة على التصور هو ما تحمل ألفاظها العربية من معانٍ أتخيلها تخيلاً وأصورها تصوير الحدس والوهم ، وأن آلة الاداء ، وهى اللغة العربية هى الناحية الوَحِيدة التى تقربنى بعض التقريب من الجو الشعرى الذى تكيف به القصيدة مشاعرى ، ولا شك فى أن الشعر شىء ، وآلة أدائه شىء آخر ، وإنما يكون الشعر متصلاً بطبع الانسان متى استمد عناصره من ثقافة تقليدية لا يعنت التصور إدراكها ، ولا يتعب الخيال تصورها ، فيشتمل على نواحى النفس ويخاطب الروح بديئة قبل أن يخاطب العقل

عقبت على هذا بقراءة قصة مترجمة عن كاتب روسى مشهور ، فآنست فيها شططاً فى الوصف ومغالاة فى التقدير ، وتحليلات نفسية معقدة غاية التعقيد ، بعيدة كل البعد عن بساطة الروح المصرى الذى آنسه فى الفلاح الساذج الذى نشأت محوطاً بثقافته التقليدية ، ولا أريد أن أبحث شخصيات هذه الرواية لأحكم أنه كان فى الدنيا شخصيات حقيقية تقابل الشخصيات التى وضعها الكاتب وحلل نفسياتها ، وإنما أريد أن أقول إن تحايل ذلك الكاتب مهما كان فيه من حق وبعد عن المغالاة ، وسواء أكانت الصفات التى أضفاها على شخصياته تلك صفات يمكن لنفس بشرية أن تنطوى عليها ، أم إنها شخصيات خيالية لا تقوم لها حقائق فى الخارج ، فجل ما أرمى اليه أن أقول إنها شخصيات لا تربطنى بها رابطة ولا تصلنى بها صلة ، وأن محيطى الذى أعيش فيه ينكر وجودها وينفى حقيقتها ، بالرغم من أن شخصاً آخر فى محيط آخر قد يرى أنها شخصيات طبيعية ، بل قد يجسمها خياله على مقتضى تجاريبه التى يشهدها فى حياته

ولا أقصد بذلك أن مثل هذا الأدب غير مفيد فى توسيع مجال الخيال ، وتنويع الصور المتخيلة وتوطيد قواعد الأدب المصرى من حيث صلته بالآداب الأخرى . وإنما أقول إنه مهما كان فيه من المميزات فهو أدب دخيل لا أدب أصيل . أدب لا علاقة له بثقافتنا التقليدية ، فهو من طبع غير طبعنا وفطارة خلاف فطرتنا . إنما هو أدب تصورى لا أدب حقيقى ، مقيسة معاييره بمقياس حياتنا الخاصة ومحيطنا الخاص . أدب لا تهضم منه فطرتنا إلا القليل النادر . هذا على اعتبار أن العلم بالأدب شىء وهضمه وتمثيله فى الروح شىء آخر ، ولن يكون للأدب من أثر

فى الحياة إلاّ بأن تمثله الروح فيصبح جزءاً منها ، فتسترشد بِمُثُلِه ، وتتمظ بِمَثُلاته ، وتدرك منه الحقائق إدراك استيعاب لا إدراك علم بها دون الايمان بما فيها من حق وواقع

وما أريد أن أستطرد فى ضرب الأمثال فان فيما أوردت منها غنى عن ذكر غيرها . ذلك بأن كثيراً مما نقرأ فى الصحف والمجلات وكثير من المؤلفات يجرى هذا المجرى ويسيل هذا السيل ، حتى لقد أصبح أدبنا الحديث لـكثرة ما فيه من الرقع والرتوق ، ولـكثرة ما فيه من صور الأمم الأوربية كأنه « عصبة أمم » أخرى ، ولـكن فى صحف سطرت بكلمات عربية

فى وسط هذه الصور العجيبة المتنافرة ، وفى غمرة تلك الفوضى السائدة فى الأدب على مختلف ألوانه ، وعلى متضارب وجوهه ، ومتباين ضروبه ، أنقع على الأدب المصرى الصحيح الذى يمثل الروح المصرية ؟ بكلمة واحدة أقول « لا » ؛ وبودى لو يتسنى لى أن أكتب كلمة « لا » فى صحيفة وحدها وبأكبر قطع تعرفه المطابع العربية

يشعر كل المشتغلين بالأدب ، أدباء كانوا أو طلاب أدب ، نقاداً كانوا أو قارئين ، بأن بين الأدب الذى يمكفون على درسه أو قراءته وبين نفوسهم بوناً شاسعاً ، وأن بينه وبين أرواحهم المثلة فى أخيلتهم ومشاعرهم وعواطفهم وأمزجتهم صدعاً متنائيا . وقد يأخذهم القلق حيناً ، وقد تتملكهم الريبة أحياناً فى أحقية ذلك الأدب بالبقاء فى بيئة لا تعرفه ولا يعرفها ، ولـكن قلقهم لا يلبث أن يهدأ ، وريبتهم لا تنى إلا قليلا حتى تزول ، إذ يرون أن ذلك الأدب أدب الساعة لا أدب العمر ، مستدلين على ذلك بأن الآثار الأدبية التى ظهرت فى العشرين عاماً الماضية لم يفلح جماعها فى تكوين مذهب واحد ثابت الدعائم قوى الأركان محدود الغايات بيّن المثل ، فعاش ولم يمت . أما السبب فى أن كل انتاجنا الأدبى إنما هو للفناء فراجع إلى أنه أدب مسروق أو على الأقل أدب مسلوب من آداب الأمم الأخرى وليس فيه من أثر المصرية إلا أنه مكتوب بلغة عربية ، ولـكن بأساليب أصبحت بدورها أضعف من أن تحسن أداء رسالة الأدب

ولقد سمعت بعض المشتغلين بالأدب يقولون إن نقل الآداب الأوربية إنما هو بمثابة دم جديد يغذى أدبنا بالحياة ، ويعده بأسباب البقاء . غير أن هذا الرأى على ما فى ظاهره من حق ، فانه أشبه بحق يراد به باطل . ووجه الباطل فيه أنهم يفرضون أن لنا أدباً يغذيه الأدب الأوربى ، وذلك ما لم يقم عليه أقل دليل حتى الآن .

فأين الشعر المصرى الحقيق بأن يدعى شعراً مصرياً ؟ وأين القصة المصرية التى تصور حياة مصر تصويراً صحيحاً مقتطعاً من الطبع المصرى ومن الثقافة المصرية الصحيحة ؟ بل أين الأديب الذى عكف على درس العقلية المصرية وقصر جهده على تفهم الروح التى تنطوى عليها ضلوع ذلك الفلاح الساذج الذى هو لغز الألغاز وسر الأسرار ؟ أين الأديب الذى أحاط بتاريخ مصر منذ أبعد عصورها وكون من ذلك التاريخ صوراً تظهر معكوسة فى أدبه شعراً أو نثرا ، وأين الأدب الذى يصور ما نزل بنا من نوائب الدهر وبلايا الأيام ، وما حاق بنا من مظالم يصرخ بها تاريخنا ، بل أين الأدب الذى يرينا كيف ابتلع الفلاح الساذج الهادئ الطبع اللين الجانب بما فيه من قوة المقاومة السلبية ، الفرس والروم والرومان والعرب والماليك والأتراك ، ولا يزال مستعدا لابتلاع خمسين قيصرية من أمثال هذه القيصريات العظام وهو قابع فى عقر حقله الصغير وفى كسر بيته الطينى ، تاركا دورات الحظ تدور بالسعد حيناً وبالنحس حينا آخر ، وما يهمه فى الحياة من شىء إلا أن يضحك ساخراً من الأمم والأقدار

على أن الاطناب فى مثل هذه الأشياء تحصيل حاصل ، والاستطراد فى ذكر الشواهد عبث ، لأننا نشعر شعوراً كاملا بأن الأدب المصرى اسم على غير مسمى ، وإن شئت فقل إنه فرض لا حقيقة له . وإنما أقصد بالأدب المصرى الأدب المقتطع من حياتنا ومن أنفسنا ومن أخيلتنا . الأدب الذى إذا قرأته تبينت فيه مصر وأرض ومصر وسماء مصر وتاريخ مصر ، وعلى الجملة كل ما توحى به مصر من الموحيات الدفينة فى نفوسنا ، الرسيسة فى طبعنا ، الحائرة فى أرواحنا

أما السبب فى كل هذا فهو أننا بعدنا عن ثقافتنا التقليدية ، بل إننا قطعنا صلتنا بالماضى وهمنا فى فلوات لا نعرف فيها طريقاً يسلك ، لا الى الأمام لنصير أوربيين صرفاً ، ولا إلى الوراء لنعود إلى مصريتنا مرة أخرى . وإذن فنحن فى التيه ، ولـكنه التيه الذى سوف لا نخرج من ظلماته ما دمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقيما صحيحاً ، وما دمنا عاجزين عن أن ندرك تلك الحقيقة الأولية ، حقيقة أن ثقافتنا التقليدية هى الملجأ

الأخير الذي يوقظ فينا « الروح المصرية » التي من طريقها نكوّن الأدب المصري . الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حياتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي في الحيوان ، فيه تهضم الآداب الأخرى ، ثم تتمثل أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا ، وفي الوقت ذاته تطرد النفايات . تلك النفايات التي تسمم أدبنا الآن وتفسده ، لأن أدبنا الجديد أضعف من أن يفرزها الى خارج جسمه المتهدم الضئيل

* * *

هذا من حيث الأدب . أما الوطنية المصرية ووصفها بأنها وطنية ظاهرية ، فلا يرجع الى حب الاغراب ، ولا الى حب النقد بغير دليل يقام أو حجة مقبولة . لهذا نقسم الوطنية قسمين : قسما يمثله الشباب المتعلم وعلى رأسه الأحزاب ، وقسما يمثله الفلاح الساذج

على أنه ينبغي لنا قبل الاستطراد في شرح مزايا القسمين أن نتعرف كيف نشأت الوطنية ، ومن أي نبع تستمد تصوراتها . وما من شك في أن الوطنية المصرية إنما استمدت أولى خطواتها من آداب الثورة الفرنسية الكبرى التي قلبت نظام الحياة في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر . والدليل القاطع على هذا أنه منذ عصر عرابي الى اليوم ترى أثر القسمين واضحاً جلياً في كل ما أدت الوطنية المصرية من الخدم الجسام لمستقبل مصر الحديثة . فالقسم الأول يأتم بالنظريات التي ذاعت في فرنسا في عصر ثورتها ، وظل مؤتماً بها حتى بدء الحرب العظمى ، والقسم الثاني ظل مستمسكا بتصوراته القديمة التي عكف عليها طوال العصور التي ظلت فيها مصر ميداناً لتطاحن الأمم والقيصريات

أما الفئة الأولى ، وهي الفئة التي عكفت على النظريات الأوربية تستمد منها تصورات الوطنية ، فكانت في كل الأدوار التاريخية منذ ستة عقود من الأزمان ذات الأثر الواضح في تكييف الظروف التي لابست كياننا السياسي . فهي التي بثت الروح الجديدة ، وساقتها في طريق أجبر مقاوميها على أن يعدلوا من موقفهم إزاءها تدريجا على مقتضى قوتها أو ضعفها حتى أصبحنا اليوم وفي حياتنا السياسية عنصر جديد لم تعرفه مصر منذ عشرين قرناً من الأزمان . غير أنه مهما قيل في هذه الوطنية فان مظاهرها قاصرة على تصورات فئة قليلة العدد مقيسة بتبعية الذين يؤمنون بالوطنية مسبوكة في القالب الذي صوره الفلاح المصري ليكون حداً لوطنيته . وأن كلامنا إنما ينصب على وطنية هذا الفلاح دون غيرها

قد تعجب ويشتد بك العجب إذا أنا قررت هنا أن الفلاح المصري شديد الوطنية مغال فيها ، بل متطرف في وطنيته أشد تطرف ، ولكنك بجانب هذا تسأل أين الآثار التي تتجلى فيها هذه الوطنية ، فأجيبك بأنها تظهر كل يوم على صفحات جرائدنا الاخبارية ، وتشتغل بها الحكومة في أكثر أيام السنة ، ألا تقرأ كل يوم أن فلاحاً حز رقبة أخيه لأنه اعتدى على حقله فهد جزءا من حدوده ؟ ألا تسمع أن أسرة شهرت السلاح في وجه أخرى لأن أحد أفرادها أراد أن يأخذ نصيب آخر من الماء ، وأن الموقعة انجلت عن قتيل وجرحى وأسرى هم رهن التحقيق ؟ إذن فاعرف أن هذه هي الآثار التي تترتب على وطنية الفلاح المصري . أما الوطنية نفسها فتنطوي على حب الحقل والدفاع عنه بالمال وبالولد وبالروح ، ذلك بأن الفلاح الذي فقد حقوقه المدنية والسياسية طوال عصور قلما تعيها الذكريات ، ونزل به من الفادحات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، لم يصبح عنده في الدنيا من شيء ذي قيمة إلاّ ذلك الحقل بحدوده الأربعة ، وإلاّ ذلك النزر من الماء الذي يجود عليه بالرزق الحلال

أما السبب في أن تنغمر الوطنية المصرية حتى تصبح في نظر الفلاح الذي هو أهم عناصر مصر الحيوية ، محوية في داخل هذه الحدود الضيقة ، فراجع إلى أسباب تاريخية . فانه منذ غزو الاسكندر المقدوني ، ومن قبله بعشر سنين ، أي منذ أن طرد الفرس آخر ملوك الفراعنة واسمه « نقطانيبو » لم يسد المصريون في بلادهم يوماً واحداً ، وظل المصريون بين الحقول يزرعونها ليمولوا أنفسهم ويمولوا أسيادهم الذين يتسلطون عليهم من أية أمة كانوا وبأي دين دانوا ، فلقد استطاع المصريون قبل الغزو الفارسي الأخير أن يستردوا حريتهم المرة بعد المرة ، عقيب كل غزو دهمهم به أمة أجنبية كالهكسوس وغيرهم ، وأن يقيموا على عرش بلادهم أسراً من الفراعنة تحيي تقاليد الحكم والثقافة واللغة ، تلك التقاليد التي نشأت وربت في مدى عصور لا تعيها الذكريات . ولكن تلك الغزوة كانت آخر عهد ملوك الفراعنة الذين تجري في عروقهم الدماء الوطنية بالحكم على ضفاف النيل وإلى آخر الدهور . فمنذ فتح الاسكندر خضعت مصر ألف سنة لحكام هلّينيي الحضارة من مقدونيين ورومان ، وفي نهايتها صارت مصر جزءاً من جسم الاسلام ، فبدلت تبديلاً ، وأصبحت

لها لغة أخرى ، ونظام اجتماعى لا عهد لها به ، ودين جديد ، ونبذ الآلهة الذين عبدوا فى مصر على أنهم آلهتها الخواص الآلاف من السنين نبذاً أبدياً ، ثم دفنوا فى ثراها

ومنذ ذلك التاريخ لم يفز مصرى أصيل بالحكم على شطآن النيل ، بل لقد مرت عصور طويلة كمصر البطالسة مثلا ، لم يكن فى الحكومة كلها من مصرى يشغل مركزاً أكبر من مركز صرّاف يجبى الأموال . بل رأى المصريون معابدهم المقدسة تستباح فيتخذها المقدونيون موضعاً لهوهم وعبثهم وسكرهم وعربدتهم ورأوا الفرس يذبحون عجلهم المقدس من قبل ذلك

ولقد كان لهذه الملابسات التاريخية آثار كيّفتْ الوطنية المصرية فحدتها بحدود الحقل المقدس ، وإنما صار الحقل مقدساً فى عين المصرى لأنه كان الملجأ الوحيد الذى لجأ اليه فحماه من الانقراض التام . ولولا ذلك الحقل إذن لأصبحت مصر اليوم إما رومية وإما لاتينية . ولكن الحقل قام سداً بين الغزاة وبين المصريين أين منه سد يأجوج ومأجوج . ذلك بأن ثرى مصر لا يزرعه إلا المصرى ولن يقوى عليه غير المصرى . لهذا عبده المصريون بعد « أبيس » ، وقدسوه فى الأعصر الحديثة تقديسا ليس فوقه عندهم من شىء إلا خشية الله . ففى الحقل رزقه وقوته وفى طرف منه قطعة سويت لا تزيد مساحتها عن بضعة أقدام مربعة فرشت بنبات الحلفاء هى مُصَلاّه . فالحقل للفلاح عالم صغير مقدس يذود عنه بالروح ويبذل فى سبيله الدم ، لأنه ملجؤه الأخير وملاذه ومبتغاه

فلا عجب إذن فى أن تنحصر الوطنية المصرية ، وإنما نعنى به وطنية السواد من أهل مصر ، فى حدود ذلك الحقل ولا تتعداه . وكيف تتعداه وقد آنست فيه الحياة آلاف السنين واستقرت فى تربته الأجيال ثم الأجيال ؟

وكما أننا عجزنا عن أن نكون أدباً مصرياً صحيحاً قوى الروح والأخيلة ، بأن بعدنا عن ثقافتنا التقليدية ، فكذلك عجزنا عن أن نخرج ، لهذا السبب عينه ، وطنيتنا من حدود الحقل إلى حدود مصر ، وليس هذا وحده السبب فى أن وطنيتنا ظاهرية ، بل إن هنالك سبباً آخر يتجلى فى أن الفريق الأول من وطنيينا ، وهم الذين يستمدون تصوراتهم الوطنية منقولة من أوربا ، لم يتغلغلوا فى صميم مصر ليفهموا حقيقة السبب فى ضعف الوطنية المصرية ، وإنما يجب علينا أن نعكف على ثقافة تقليدية ننتزعها من صميم مصر لتكون عوننا فى بناء صرح المجد كاملا اقتصادا وأدباً ووطنية

أما فشلنا فى هذا حتى الآن فالى أى شىء نعزوه ؟ إلى السياسة التى جرى عليها التعليم فى بلادنا بغير جدال . وسنظهر فى البحث التالى ، جهد مستطاعنا ، كيف ننجو بثقافة تقليدية مستحدثة تنقذنا من البوار المحتوم

اسماعيل مظهر

(الرسالة) تخالف الأستاذ الكاتب فى بعض ما جاء فى مقاله وخاصة فى وطنية الفلاح واقتصارها على الحقل ، وقد نشرناه عملا بحرية الرأى

في تاريخ الفقه الاسلامي

ثلاث محاضرات

للدكتور يوسف شخت

الأستاذ بجامعة كونيكسبرج ، والأستاذ بالجامعة المصرية

— ٢ —

قدمنا في محاضرتنا الأولى بضع ملاحظات على الطريقتين الشرقية والغربية لدرس تاريخ الفقه الاسلامي ، وأبدينا الكلام عن بعض مسائل متعلقة بعصرين هامين من تاريخ الشريعة : العصر التمهيدي وهو ما قبل الاسلام ، والعصر الأساسي وهو زمن فقهاء المدينة السبعة . وتتناول محاضرتنا هذه دوراً ثالثاً : الدور الذي تكونت فيه المذاهب . فأول من أسس مدرسة في تاريخ الشرع الأسلامي هو — كما نعلم الآن — محمد بن إدريس الشافعي . وكونه المؤسس لعلم حقيق في الفقه أمر يظهر بجلاء من كتابه الموسوم بالرسالة في أصول الفقه الذي بحث فيه عن طريقة هذا العلم ، كما يبدو من النظام الباهر الذي وضع عليه الشريعة في كتابه الكبير المسمى « بالأم » وفضله هو أنه بعث اليقظة في الفكرة الفقهية الاسلامية ، وأنه لا يبرهن عند الحاجة إلى الدلائل وابتغاء الوصول إلى نتائج عملية فقط ، بل يبرهن دائماً ومبدئياً ، وأنه يبحث أيضاً عن شروط الاحتجاج التشريعي وطرقه بوجه عام . وكتابه العظيم يتيح لنا إدراك طبيعة فكرته الفقهية وعناصرها إدراكا تاماً ويمكننا من مقابلتها بآرائه في طريقة علم الفقه المعروضة في كتاب الرسالة ، وخاصتها البارزة هي الدقة والجلاء اللذان يحملانه على مخالفة كثير مما كان مسلماً به قبله دون أن يضيق بهذا أفق تفكيره ، ودون أن يحصر نفسه في دائرة مخصوصة ، فان اجتهاد الشافعي لينتجه على الأخص إلى تنظيم الفقه ؛ وتراه يعمل بلا انقطاع على إيجاد تماسك بين الأحكام المنفردة وعلى التحاشي عن أي تناقض بين نتائجها الأخيرة ؛ ومهما يكن من أمر السابقين واللاحقين في هذا الشأن فان الشافعي كان له أعمق الأثر في تنشئة طريقة القياس التي ظلت من مميزات علم الفقه ؛ ونقصان التعريفات والتحديدات القانونية الفنية في الشرع الاسلامي يتصل مباشرة بالدور الحاسم الذي يقوم به القياس . من الطبيعي جدا أن ذلك النجاح العظيم الذي لم يسبق له مثيل ، والذي افتتح في تاريخ الشرع الاسلامي عصراً جديداً قد أحدث ضجة واسعة ، وأفضى إلى تأسيس المذهب الشافعي . ولكن كل هذا لا ينطبق على المذاهب التي سبقته : وعلى الأخص المذهبين الحنفي والمالكي ؛ والأرجح أنها نزعات عامة كانت قد بدت في نواح مختلفة ، وما بينها من الخلاف يرجع قبل كل شيء إلى أسباب جغرافية ومدنية عامة : إما بتنوع القوانين العرفية المندمجة في الفقه ؛ وإما باتحاد العمل والعلم في نواح متماسكة ؛ أما اختلاف الأساليب والطرق الفقهية فليس له إلا المقام الثاني ، كذلك مذهب الحجاز لم يكن تقليدياً من حيث المبدأ بل من حيث أنه يمثل السنة المدنية ؛ ومذهب العراق لم يكن أوسع حرية من ذلك بل كل ما هنالك أنه متفق وتطور حياة العراق المادية والفكرية التي تعرضت لكثير من التأثيرات الخارجية ، وامتزجت بكثير من العناصر الأجنبية . كان هذان المذهبان في مرحلتهما القديمة يحتاجان إلى تنظيم محكم ، فهما لم يرتبا صفوف أتباعهما إلا بتأثير المذهب الشافعي وعلى غراره ، فاختار كل واحد منهما شخصاً ممتازاً ينتسب اليه ، جديراً بتمثيله ، والأدلة كثيرة على هذه الطريقة من النظر في نشأة المذاهب الفقهية : فلقد ظلت التسميتان الأصليتان من « أهل العراق » و « أهل الحجاز » تطلقان على أصحاب هذين المذهبين حتى بعد عصر مؤسسيهما المزعومين أبي حنيفة ومالك ، في حين أن أصحاب الشافعي كانوا ينعتون بهذا الاسم منذ أول الأمر ؛ وأنه لا يزال موضع شك في عدد كبير من الفقهاء أن يعتبروا أعضاء للمذهب المالكي ، وخصوصاً المذهب الحنفي أو يعتبروا فقهاء مستقلين ، على حين أن مسئلة كهذه لا تلحق الشافعية . أما مالك فان الشهرة الشخصية العظيمة التي ظل يستمتع بها طول حياته لا بد أن تكون قد ساعدت على اختياره رئيساً ناسباً لمذهب الحجاز ؛ بيد أن هذه الشهرة قد عزتها اليه المصادر المتناهية في القدم لنقده الدقيق للأحاديث ولرجالها لا لاجتهاده التشريعي

البحث . وكون الشافعي قد ميزه بين أهل المدينة بأن ألف كتابا صغيراً فيما خالف فيه مالكا من المسائل ليس بعجيب لأن الشافعي أخذ العلم منه . ونفس النجاح العظيم الذي لقيه الكتاب الموطأ لمالك وحده بين عدد من الكتب المماثلة له يمكن أن يملل أبسط تمليل إذا لم نعده كتاباً مبتكراً ذا آراء شخصية بل عددناه كتابا يعبر عن اجماع المدنيين في عصر المؤلف ملتزماً الطريقة الوسطى مجتنباً التطرف في المسائل المختلف فيها . ولدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن مالكا قد توخى هذا الغرض وهو شاعر بذلك كل الشعور . أما في المذهب العراقي فواضح أن أبا حنيفة يشغل من حيث تطور آرائه مكاناً أقل شأناً بكثير من مكانة أصحابه أبي يوسف وزفر ومحمد بن الحسن الشيباني . وإنما يرد ذكرهم كثيراً على هذا الترتيب في الكتب الأقدم عهداً ؛ وانمحاء ذكر زفر وثبوت ثالوث أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد ، وكذلك وضع قواعد للايثار عند الاختيار بين آرائهم المختلفة – كل هذا يرجع تاريخه الى عهد متأخر نسبياً . وليس لأبي حنيفة فيما عدا الفقه الأكبر – وهو عقيدة وجيزة ذات روايات مختلفة بعضها موضوعة ولكن واحدة منها صحيحة – ليس له فيما عدا ذلك كتاب صحيح من تأليفه ؛ لأن مسانيد أبي حنيفة قد جمعت فيما بعد من أحاديث وردت في كتب أصحابه ؛ والأقوال الواردة عنه في مؤلفات تلاميذه لا يتجاوز غالبها المراجعات العامة ، يسندون بها اليه آراءهم الشخصية ، وهذا يحمل على افتراض أنه لا يرجع الى اجتهاد أبي حنيفة الشخصي من تفاصيل المذهب الحنفي إلا شيء قليل

وعلى الرغم من ذلك فان المصادفة السعيدة قد مكنتنا من أن ندرك على الأقل ناحية من شخصيته التشريعية . فقد حكى محمد ابن الحسن الشيباني في كتابه المسمى بالمخارج في الحيل ما يأتي : « سئل أبو حنيفة عن أخوين تزوجا أختين فزفت كل واحدة منهما الى زوج أختها ولم يعلموا حتى أصبحوا فذكر ذلك لأبي حنيفة وطلبوا الحيلة فيه فقال أبو حنيفة (ليطلق كل واحد من الأخوين امرأته تطليقة ثم يتزوج كل واحد منهما المرأة التي دخل بها مكانها فيكون ذلك جائزاً لأنها منه في عدة ولا عدة عليها من الزوج الأول) . قال محمد وقد جاء في هذا حديث عيبناه » . ولا يسع أحداً أن يزعم أن هذه الحكاية ليست إلا افتراء موضوعا أريد به تعظيم حكمة أبي حنيفة ، لأن عين ذلك الجواب موجود أيضا في كتاب الآثار لنفس المؤلف مرويا عن أبي حنيفة عن حماد عن ابراهيم النخعي . وأما الحديث الآخر الذي عابه الشيباني نفسه فقد احتفظ به شمس الأئمة السرخسي في كتاب المبسوط قال فيه « ذُكر لهذه المسألة حكاية أنها وقعت لبعض الأشراف بالكوفة ، وكان قد جمع الفقهاء رحمهم الله لوليمته وفيهم أبو حنيفة رحمه الله وكان في عداد الشبان يومئذ ، فكانوا جالسين على المائدة إذ سمعوا ولولة النساء ، فقيل ماذا أصابهن ، فذكروا أنهم غلطوا فأدخلوا امرأة كل واحد منهما على صاحبه ودخل كل واحد منهما بالتي أدخلت عليه ، فقالوا إن العلماء على مائدتكم فسلوهم عن ذلك فسألوا ، فقال سفيان الثوري رحمه الله : فيها قضى عليّ رضي الله عنه : على كل واحد من الزوجين المهر وعلى كل واحدة منهما العدّة فاذا انقضت عدّتها دخل بها زوجها ، وأبو حنيفة رحمه الله ينكت بأصبعه على طرف المائدة كالمفكر في شيء ، فقال من الى جنبه أبرز ما عندك ، هل عندك شيء آخر ، فغضب سفيان الثوري رحمه الله ، فقال ماذا يكون عنده بعد قضاء عليّ رضي الله عنه ، يعني في الوطء بالشبهة . فقال أبو حنيفة رحمه الله : عليّ بالزوجين ، فأتي بهما فسأل كل واحد منهما : هل تعجبك المرأة التي دخلت بها ؟ قال نعم ، ثم قال لكل واحد منهما طلّق امرأتك تطليقة فطلّقها ، ثم زوّج من كل واحد منهما المرأة التي دخل بها ، وقال قوما إلى أهلكما على بركة الله تعالى . فقال سفيان رحمه الله : ما هذا الذي صنعت . فقال : أحسن الوجوه وأقربها إلى الألفة وأبعدها عن العداوة ، أرأيت لو صبر كل واحد منهما حتى تنقضي العدّة أما كان يبقى في قلب كل واحد منهما شيء بدخول أخيه بزوجته ... فعجبوا من فطنة أبي حنيفة رحمه الله وحسن تأمله » . والفرق بين المسألة الفقهية في الأولى والقصة الروائية في الثانية واضح . ومن المهم أن نعرف أن مثل هذه الحكايات الرامية الى تعظيم أبي حنيفة قد استطاع معاصرو الشيباني من إذاعتها حتى يعيبها هو . وليست هذه الحكاية بالوحيدة من نوعها ، بل توجد أخرى تشبهها كل الشبه . فالشيباني يروي في كتابه المذكور ما يلي :

« حدثني حفص بن عمر أن رجلا أتى أبا حنيفة ليلا فقال

إلى كنت مع امرأتى ... إذ تغضبت على ... فأبت أن تكلمنى فقلت لها أنت طالق لئن لم تكلمينى الليلة ... فأبت أن تكلمنى ... وأخاف أن يطلع الفجر ولم تكلمنى فتذهب منى . فقال أبو حنيفة ما أجد لك من حيلة إلا فى خصلة واحدة . . . اذهب فقل لها تذكرين أنك عربية وأنى إنما خرجت الساعة فسألت عن أبويك فاذا أمك نبطية . فأتاها فقال : يا عدوة الله الخ . فقالت : كذبت والله . » وها هو ذا السرخسى أيضاً يورد لهذه الحكاية صورة روائية محضة : « أنه قال للرجل ارجع إلى بيتك حتى آتى بيتك فأتشفع لك فرجع الرجل الى بيته وجاء أبو حنيفة رحمه الله فى أثره وصعد مئذنة محلته وأذن فظنت المرأة أن الفجر قد طلع . فقالت : الحمد لله الذى نجانى منك . فجاء أبو حنيفة رحمه الله إلى الباب وقال قدبرت يمينك وأنا الذى أذنت أذان بلال رضى الله عنه فى نصف الليل » . ولا يسعنا أن نشك فى أن الصيغة الأولى لهذه القصة تاريخية والأخرى خيالية . والمغزى أن أبا حنيفة كان فقيهاً عملياً كثير الحيل حتى أن الجيل الذى تلاه بالغ فى وصفه بتلك الصفة التى لا بد أن تكون بدت له من خصائص أبى حنيفة الشخصية بالحكايات الموضوعة : ومن الغريب أن نلاحظ أنه فى زمن متأخر صار أبو يوسف هو الذى اشتهر عند القصاص بأنه مثال الفقيه المبتكر للحيل العملية

والشيبانى أحرى من أصحابه بأن يشغل بين الحنفية مكاناً يشبه المكان الذى يشغله مالك بين المالكية . ومن سوء الحظ أنه ليس بين أيدى الجمهور إلى الآن من كافة كتب الشيبانى إلا موجزان وهما كتاب الجامع الصغير المطبوع فى بولاق وكتاب المخارج فى الحيل السالف الذكر الذى نشرناه نحن (وطبعات مؤلفين من مؤلفاته الأخرى طبعت فى الهند نادرة جداً فهى كأنها غير موجودة) وليس كتاب المخارج فى الحيل إلا فى موضوع محدود ، وبناء الجامع الصغير على مسائل منفردة — وهو ترتيب تطرف فيه الشيبانى فى هذا الكتاب تسهيلا للحفظ — لا يسمح لنا باستخراج المبادئ التى تقوم عليها الأحكام إلا من طريق الاستنتاج غير المأمون . ومؤلفات الشيبانى الرئيسية موجودة مع ذلك فى مخطوطات قديمة صحيحة موجود منها قسم عظيم جداً فى مكاتب استانبول . أتيح لى أنا شخصياً أن أنشر فى مؤلف ذى ثلاثة أجزاء فهرستاً لتلك المخطوطات ولغيرها تهم مؤرخى الفقه ، وتسمح هذه الفهارس لمن أراد ، أن يطلع عليها بسهولة ويتولى طبعها . والحاجة قبل كل شىء إلى تعريف كتاب الأصل الذى هو أوسع مؤلفات الشيبانى وكتاب الجامع الكبير . ومع كل منهما يوجد عدد كبير من شروح وتلخيصات وحواش الخ تسهل دراستهما . ويكاد لا يقل عن هذين الكتابين أهمية كتاب الزيادات وقد شرح أيضاً مراراً كثيرة ، وكتاب زيادة الزيادات ، يدل عنوانهما على غرضهما أى اتمام ما فى المؤلفين الكبيرين ، ثم كتاب الآثار ، ثم كتاب الحجج . وهذا الكتاب ، ومعه مسانيد أبى حنيفة التى لا يزال أقدم رواياتها غير مطبوعة أيضاً ، يعلمنا الأساس السنى لا للمذهب الحنفى فحسب ، بل للمذهب العراقى فى العصر السابق له أيضاً . وكتاب الحجج هو أول مثال لما ألف فى اختلاف المذاهب ، وصاحبه يعنى بوجه خاص بأنواع الخلافيات بين أهل الكوفة وأهل المدينة ، فانه يسمى الحنفية والمالكية على هذا النحو . ولكى نقدر أصول المذهب الحنفى حق القدر ينبغى أن نطلع على نصوص هذه الكتب بعينها . ذلك أن مذاهب الفقه المختلفة لا تميزها مبادئ أحكامها فحسب بل تميزها أيضاً قائمة المسائل التى تدرس فى كل واحد منها ، مع طبيعة هذه المسائل . ففى باب الغصب مثلا يتناول مالك بالبحث قبل كل شىء الحالات التى يكون فيها الشىء المغصوب مثلياً ، فيحمله هذا على الميل إلى مصلحة الغاصب حتى لا يكون عليه إلا أن يعوض من الشىء المغصوب كمية مماثلة . أما الشافعى فعلى النقيض من ذلك يعنى بالحالات التى يُدخِل فيها الغاصب تعديلا على الشىء المغصوب ، فيميل بذلك إلى تحميله التبعة عن كل ضرر قد ينشأ عن ذلك التعديل بحيث يصبح موقفه عند الشافعى أسوأ بكثير مما هو عند مالك . أما مبادئ مذهب الشيبانى فنحن عاجزون عن الحكم عليها إلى الآن لانتفاء النصوص . وطبع هذه النصوص لازم أيضاً باعتبار أنها المبدأ للبحث عن تطور الأحكام داخل المذهب الحنفى ، والقاعدة العامة هى أن المسائل التى قررتها الكتب السابقة تنضم صراحة أو على الأقل اضماراً إلى الكتب اللاحقة التى تكون من جنسها ، فالمسائل

التي ترد في كتاب لأول مرة تمثل على وجه الاجمال النتائج التي استحدثتها الباحثات وتطور الأقوال بين هذا الكتاب والكتب التي سبقته . وهذه الطريقة التي تنطبق بطبيعة الحال على كافة المذاهب الفقهية ستسمح لنا بأن نتتبع عن كثب تاريخ أحكامها وأقوالها

ونحن إلى الآن لم نذكر المذهب الحنبلي . وكثير من الفقهاء المسلمين وفي جملتهم ابن جرير الطبري قد آخذوا أحمد بن حنبل الذي يعتبره الجمهور مؤسساً لهذا المذهب بأنه محدث فقط وليس بفقيه ، ولم يكن من الميسور لنا إلى الآن أن نقرر ألهذا الرأي ما يبرره أم لا . ولكن كتاب المسائل الموجود منه ثلاث روايات لم يطبع منها إلا واحدة طبعة خاصة يصعب الحصول عليها – أقول إن كتاب المسائل هذا الذي يشتمل على أجوبة الامام أحمد بن حنبل على المسائل التي وجهت اليه في كافة أبواب الفقه كما يشتمل كتاب المدونة الكبرى على أجوبة مالك ابن أنس يسمح لنا بأن نؤكد أن الامام أحمد نفسه أراد أن يكون فقيهاً لأنه كان يعلم مذهباً فقهياً مفصلا لا يقتصر على شرح الأحاديث . ولهذا ينبغي ألا نعتبر مجموع أحاديثه الكبير المشهور بالمسند كأنه مؤلف قائم بذاته فحسب ، بل نعتبره أيضاً كتاباً يضع الامام أحمد فيه الأساس لمذهبه الفقهي . ولا يعني هذا أنه أسس المذهب السني السلفي في الفقه بنفس المعنى الذي أسس الشافعي مذهبه على مقتضاه ، لأننا نجد قبله وبعده فقهاء عديدين ذوي صبغة سنية سلفية ، ومذهبهم مستقل عن مذهب الامام أحمد . ويلوح مع ذلك أن دائرة تلاميذه بمذهبهم كانت الوحيدة التي بقيت من تلك الطريقة السنية السلفية المصبوغة بالأخذ بالأحاديث قبل كل شيء في الشرع الاسلامي

وإني لأختتم هذه المحاضرة الثانية متمنياً أن تنشر الكتب الحنفية العظيمة الشأن التي أسلفنا الاشارة اليها أقرب ما يمكن ، فان هذا الميدان ميدان خصب للتعاون بين العلماء الشرقيين والأوربيين ، ذلك التعاون الذي ألمعت اليه في بدء حديثي الأول ، فان فقهاء اليوم باشتراكهم في تحقيق هذا الغرض سوف يعودون بفضل احياء ماضي علمهم كما قد فعلوا بطبع كتاب الأم للامام الشافعي

يوسف شخت

بين شكسبير وابن الرومي

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ليست هذه المقالة موازنة بين شاعرين ، وإنما هي صلة بين قصيدتين لتقارب موضوعهما ، وأعني قصيدة رثاء مارك أنطونيوس ليوليوس قيصر ، وحث الجمهور على الأخذ بثأره ، وقصيدة ابن الرومي في رثاء أهل البصرة عندما دخلها صاحب الزنج وفتك بأهلها وسبى نساءهم ومثل بهم أشنع تمثيل ، وفي هذه القصيدة يحث ابن الرومي جمهور المسلمين عامة وأصحاب الشأن في الدولة العباسية تعريضاً على الأخذ بثأر أهل البصرة والنفير لقتال صاحب الزنج ، وتقاربت القصيدتان في نظري أيضاً لمهارة ما أرى فيهما من الأسلوب الخطابي والقدرة على السيطرة على الجماهير بمختلف الأساليب الخطابية ، فينتقل القائل فيهما من باعث للشعور إلى باعث ، ومن عاطفة إلى عاطفة ، ومن حيلة في إثارة النفوس إلى حيلة أخرى ، ومن حجة إلى حجة ، ومن ترغيب إلى إرهاب ، ومن حنان إلى استفظاع ، ومن رقة الذكرى الماضية إلى هول الكارثة ، وتقرأ القصيدة منهما فتحس كأنها قطعة موسيقية توقع على مختلف الأوتار والآلات والأصوات لتعبر عن مختلف الأحاسيس ، وتمتاز قصيدة شكسبير في أنها أبرع ما قرأت في شعر الغربيين من هذا النوع من التأثير الخطابي ، كما تمتاز قصيدة ابن الرومي في أنها أروع ما في اللغة العربية من هذا التأثير الخطابي وأكثره تنويعاً لأساليب التأثير ، ولا يقتصر تأثير القصيدة على كثرة وسائل إثارة النفس كما ذكرت ، ولكن الشاعر فيها يستخدم تكرار بعض الأساليب والعبارات تكراراً يراد به زيادة التأثير الخطابي ، والقصيدة لا تمتاز في ألفاظ أو عبارات منمقة فخمة ، ولكنها تشعر القارئ كأنها قيلت ارتجالا أو أن إحساس الشاعر كان أسرع من أن يدع له مجالاً للاغراب في اللفظ والتنميق الصناعي ، ففخامتها فخامة الشعور المتدفق ، وعندي أن القصيدة خطبة أكثر منها قصيدة تقرأ في دعة وسكون ، فيكون أثرها أتم وأعم إذا تخيل القارئ كارثة البصرة وما حل بها ، وشارك الشاعر في شعوره وفي رغبته في إثارة أهل بغداد . ثم إذا هو قالها على

أسلوب الخطباء متتبعاً اختلاف أساليب الشاعر في إثارة النفس مغيراً من صوته ولهجته في إلقائها حسب تغير تلك الأساليب، فانه يجد فيها روعة لا مثيل لها في نوعها في اللغة العربية

وقصيدة شكسبير تختلف من أجل أن الخطيب كان مضطراً أن يداهن الذين يريد إثارة الرومان عليهم، فمدحهم على أن سمحوا له برثاء يوليوس قيصر، ونفى عن نفسه العداء لهم كما نفى عن نفسه القدرة تمهيداً لاظهار قدرته، وكي يظن السامعون أن أثر المأساة هو الذي أثارهم لا قدرته الخطابية. ثم جعل يمدح قتلة يوليوس قيصر ومزج مدحه إياهم بالسخر الخفي، ثم ذكر فضل يوليوس قيصر على الرومان وكشف لهم عن جثته وأراهم جروحه الدامية وجعل يستدرجهم من طريق الرحمة والاقرار بفضل المقتول إلى النقمة على القتلة ومجاهرتهم بالعداء والتشنيع، وابن الرومي لم يكن في حاجة إلى مداهنة صاحب الزنج فكان يسميه اللعين من أول الأمر، ويكيل له الهجاء صاعاً بعد صاع، ولكن انظر كيف يتدرج من التوجع لما حل بالبصرة إلى وصف دقيق لما أصابها من الزنج، ويبدأ وصفه بدخول الزنج المدينة فيقول:

دخلوها كأنهم قطع الليـ ... ـل إذا راح مدلهم الظلام

ثم يذكر كل ما حدث من قتل وذبح وهتك الأعراض وسبي وإحراق وتخريب وتمثيل حتى يأخذ الفزع بالقارىء مأخذه ثم يلتفت إلى الذكرى فيتذكر رخاء أهلها ونعيمهم وعمار المدينة وبهجتها، ثم يتوجع ويظهر الحياء من خذلانهم، ويذكر الناس بمحاسبة الله ومخاصمة النبي إياهم

ثم يلوح للناس بالعار اللاحق بهم ويحضهم على الأخذ بثأر أهل البصرة. والقصيدة طويلة تقع في أكثر من ثمانين بيتاً، ولما كان أثرها الخطابي يزداد من تراكم قول على قول وإثارة على إثارة لا من بيت القصيد أو من قطع ممتازة. فكل اقتطاف منها لا ينصفها، ولا سيما أن أسلوبها ليس بالأسلوب الذي يقرأ في دعة لديباجته بل يقال جهراً مع تنويع الصوت حسب مرمى الشاعر الخطيب

ويخيل لي أن حافظ ابراهيم كان متأثراً بروح هذه القصيدة عند ما نظم قصيدته في رثاء قصر الجزيرة وقصيدته في زلزال مسينا

ومن تكرار ابن الرومي المطرب المؤثر ترديده اللهف في قوله:

لهف نفسي عليك أيتها البصـ ... ـرة لهفاً كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ ... ـدان لهفاً يبقى على الأعوام
لهف نفسي لجمعك المتفاني ... لهف نفسي لعزك المستضام

أو ترديد كم في قوله:

كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه قتيلاً ... تَرِبَ الخد بين صرعى كرام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام

أو ترديد من في قوله:

من رآهن في المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام
من رآهن في المقاسم وسط الـ ... ـزنج يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتخذن إماء ... بعد ملك الاماء والخدّام

أو ترديد أين في قوله:

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام
أين فلك فيها وفلك إليها ... منشئات في البحر كالأعلام

أو ترديد أفعال الأمر في أخريات القصيدة، وهذا الترديد ما هو إلا ناحية من نواحي أسلوبها الخطابي ومثل من أمثلته وطريقة من طرقه المؤثرة، والأسلوب الخطابي نفسه ما هو إلا ناحية من نواحي الاجادة الشعرية التي تتعدد وسائلها في القصيدة، وفي القصيدة ناحية تزيد ألمها في النفس وهي إعادة الشاعر عرض فظائع القتل والتخريب والتمثيل بعد أن ينتقل بالقارىء أو السامع في هدوء إلى ذكرى نعيمها الزائل، وبعد أن يهدىء من روعه بعرض مناظر أمنها وسعادتها ودعة أهلها الماضية فكأنه ينكأ القرح بعد أن يضمده، ويضرب القلب بعد أن ربت عليه، ويجذب الأعصاب بعد أن تسكن

عبد الرحمن شكري

الأمبراطورية الأسيوية

هل تصبح حقيقة تاريخية

بقلم جورج حداد

لقد مرت على القارة الاسيوية قرون ازدهرت فيها أمبراطوريات عديدة ، ووحدت قسما غير يسير من هذه القطعة من الأرض ، ولا نقتصر فى ذكر هذه الأمبراطوريات على ما قام منها فى العالم القديم . كأمبراطورية البابليين ، والأشوريين ، والفرس ، وإنما هنالك دول أمبراطورية واسعة نشأت فى العصور الوسطى بعد سقوط دولة الرومان وأهمها الأمبراطورية العربية التى سيطرت على آسيا الغربية والوسطى ، وامتدت إلى حدود الصين ، وهكذا كانت القارة الأسيوية إذ ذاك تحكمها أمبراطوريتان كبيرتان أمبراطورية أبناء ماء السماء (الصين) فى الشرق ، وامبراطورية أبناء يعرب فى معظم القسم الباقى . انقرضت بعد ذلك أمبراطورية العرب وضعفت أمبراطورية الصين وتغيرت حالها وبدأت العصور الحديثة تحدثنا عن قيام أمبراطورية يابانية كانت قليلة الشأن حتى منتصف القرن الماضى ، ومن ثم أخذت تزدهر وتنمو حتى ليخال المطلع على شؤونها أنها ستبنى أمبراطورية أسيوية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً

إن حكاية تقدم اليابان والحق يقال حكاية عجيبة وأعجب ما فيها تلك السرعة التى قضت فيها على نظامها القديم منذ ثورة ١٨٦٨ الدستورية ، وأنشأت لنفسها قوة حربية فى البر والبحر حتى أصبحت تضاهى أعظم دول الأرض ، وكذلك يدهشك نجاحها فى إنشاء قوة صناعية لا تقل عن قوى أهم دول أوربا وأمريكا الصناعية اليوم . ثم نجاحها فى مناوأة جارتيها الكبيرتين الصين والروسيا ، واكتساحها قسما من ممتلكاتهما . فروسيا القيصرية والصين الأمبراطورية قد عجزتا بين أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر عن صد هجوم اليابان فأعطتها الأولى نصف جزيرة سخالين وبور آرثر ، وأعطتها الثانية جزيرة فورموزه مع منحها شبه جزيرة كوريا الاستقلال ، وكان استقلال كوريا خطوة نحو استيلاء اليابان عليها . فلم تأت سنة ١٩١٠ إلا وكانت حكومة الميكادو صاحبة الأمر فيها ، ولم تنته الحرب العالمية وتوقع معاهدة فرساى إلا وكانت اليابان قد وضعت يدها على بعض مستعمرات الألمان السابقة فى المحيط الهادى وأصبحت من الدول الكبرى التى يحسب لها حساب فى السياسة العالمية وخصوصاً فى المحيط الهادى

لم تقف مطامع اليابان فى القارة الأسيوية عند حد الاستيلاء على كوريا وبعض الجزر فهى عدا شعورها الوطنى المتين وعزتها القومية تشعر بحاجة إلى التوسع ، وحالتها تشبه حالة انكلترا وجميع الدول الصناعية الكبرى . فمساحة جزرها تبلغ تقريباً مساحة الجزر البريطانية ، وعدد سكانها يزيد على عدد سكان بلاد الانكليز ، وما تنتجه اليابان من المواد الغذائية لا يكفيها ، كما أنه ليس فيها من المواد الأولية ما يكفى حاجات صناعتها . فكوريا هى مركز تصدير الأرز إلى اليابان ، ومنشوريا التى كانت من ملحقات الصين منذ ثلاث سنوات غنية بالمعادن ، وهذه حوادث السنوات الأخيرة قد أرتنا كيف اهتمت حكومة الميكادو بمنشوريا ، وأرسلت جيوشها إليها وتمكنت من فصلها تماماً عن الصين ، وإقامة حكومة مستقلة فيها تحت نفوذها ، وهكذا أتيح لها أن تسيطر على خمسين مليونا من النفوس فى منشوريا وكوريا ، بينهم قسم من رعاياها اليابانيين ، والمواصلات سريعة والعلاقات متينة بين هذه الملحقات البرية وجزر اليابان

واليوم هل وقفت مطامع اليابان عند هذا الحد؟ إن حوادث هذه الأيام تجيبنا بالنفى ، وماذا يريد اليابانيون إذاً؟ إنهم يريدون انفصال المقاطعات الخمس فى شمال الصين عن حكومة نانكين فتقيم حكومة مستقلة كما حصل فى منشوريا وتقبل مراقبتهم ونفوذهم ، وأخيراً قد تطلب هذه المقاطعات الحكومة الملكية فتقبل حكم أمبراطور منشوريا الحالى الذى كان أمبراطور الصين كلها فى عام ١٩١١ . عندئذ يتم تشكيل أمبراطورية كبرى من منشوريا والمقاطعات الخمس يبلغ عدد سكانها ١٢٠ مليوناً من النفوس ، وتحميها الدولة اليابانية ، وبعد مدة قد يذكر أمبراطور منشوريا حكومة نانكين الجمهورية بأن الصين كانت موحدة فى العصور السابقة فيزحف بجيوش منظمة تعضدها حكومة اليابان على نانكين ، فيتم وضع أيدى اليابان على بلاد الصين كلها ، ولا يغربن عن الذهن أن الصين كانت قديماً تحكم تركستان الصينية والتبيت وتحمى عدا منشوريا وكوريا ومنغوليا الهند

الصينية أيضاً ، فهل تفكر اليابان فى ضم هذه كلها إلى أمبراطوريتها الواسعة ؟ إنها بدون أن تضم هذه المقاطعات تكون بعد أن يتم استيلاؤها على ما يعرف بالصين الأصلية قد حكمت أمبراطورية يزيد عدد سكانها عن ربع سكان العالم ، وتكون أمبراطوريتها فى قارة واحدة غير مجزأة منتشرة أقسامها فى جميع القارات كالأمبراطورية البريطانية

إن سياسة اليابان سوف لا تتغير . فقد أرادت منذ ١٩١٥ أن تفرض حمايتها الاقتصادية والسياسية على الصين ، ولكنها فشلت . إلا أنها واصلت جهودها فتوصلت فى السنوات الثلاث الأخيرة إلى نتيجة باهرة ، وقد تتوصل إلى أكثر من ذلك بعد بضعة شهور . إن ماطلبه زعماء المقاطعات الخمس فى شمالى الصين هو تشكيل هيئة تسمى المجلس السياسى الشمالى للجمهورية الصينية له استقلاله الادارى ويشبه مجلس منغوليا المستقل ، ويكاد يتم انفصال هذه المقاطعات عن الصين وعلى هذا المبدأ ، ولكن تحت سيطرة حكومة طوكيو اليابانية . ومهما يكن فان اليابان مستعدة أن تبذل جهوداً جبارة لتحقيق برنامجها فى الصين . غير أن الولايات المتحدة ذات قوات كبرى فى المحيط الهادى وجيوش روسيا السوفيتية بالمرصاد على نهر الآمور وأسطولها رابض شرق فلاديفستك

هذا وقد لوحظ مؤخراً شىء من التطور فى العلاقات بين بريطانيا العظمى وروسيا نظراً لمصالحهما المشتركة فى الشرق الأقصى ، وهذا التقارب بين الدولتين الكبيرتين بعد من أشد الحوادث بروزاً فى السياسة الدولية . فاليوم قد تبدلت الحال بين الدولتين وزال ذلك التنافر فى مصالحهما ان كان فى جهات بحر البلطيق أو فى جنوب شرق أوربا ، وفى الشرق الأدنى والهند والشرق الأقصى . فقد كادت مطامع روسيا القيصرية فى الماضى تؤدى الى الحرب مع انكلترا نظراً لاحتكاك مصالحهما أكثر من مرة فى تركيا وفارس وافغانستان وعلى حدود الهند ، ولكن الخطر الألمانى الذى كان يهدد الدولتين هو الذى أجبرهما على تناسى العداوة وحملهما قبل الحرب الكبرى على الاتفاق سويا ضد حكومة برلين . وعادت العلاقات بعد الحرب الكبرى فساءت بين الدولتين لأن خطر الشيوعية الآتى من موسكو هال بريطانيا العظمى ، ولأنه كان من رأى روسيا إعادة النظر فى معاهدات ١٩١٩ ، غير أن روسيا تحققت بأن قلب تلك المعاهدات لا يأتى إلا بعد حرب لا تعلم إذا كانت تسفر عن نتائج أحسن من نتائج الحرب الماضية . فهى اليوم تريد السلم وهذا ما تريده انكلترا أيضا . وقد أصبحت مدفوعة بسياسة اليابان الهجومية إلى التفتيش عن صداقة دول ذات مصالح فى الشرق الأقصى . والتعاون بين بريطانيا العظمى وروسيا بنى بمصالح الدولتين خصوصاً لأن تلك المصالح لا تصطدم اليوم على طول الخط الممتد من البلطيق إلى الشرق الأقصى . فقد انقضى عهد مطامع القياصرة فى القسطنطينية وأجزاء الدولة العثمانية وزال النزاع بين انكلترا وروسيا فى خليج فارس وأفغانستان . وليس لروسيا مطامع فى الهند اليوم لأنه ليس لها أسواق تجارية فيها إن كان فى الصادر أو فى الوارد ، وكذلك ليس لها رؤوس أموال تثمرها هناك . والروسيا تهتم بانهاض قواها فى الداخل قبل كل شىء ولذلك تحتاج إلى السلم . وأما فى الشرق الأقصى فانها تريد ضمان وحدة الصين ، وسياستها هناك تشبه سياسة انكلترا فى الدولة العثمانية فى القرن الماضى . فهى تنظر بعين الحسد - كما تنظر انكلترا أيضاً - إلى توسع اليابان على حساب الصين

إن وزارة الخارجية الانكليزية اليوم تريد أن تعوض عن خطيئاتها فى سياستها نحو الروسيا منذ عشر سنوات . فالخطر الياباني الذى لم تشأ حكومات انكلترا السابقة أن تراه والخوف الذى يهدد مستعمرات انكلترا لم يعد مجرد خرافة . إن اليابان اليوم تتسلط على ثلث الامبراطورية الصينية السابقة وعما قريب ستبدأ الحرب الحقيقية بين انكلترا واليابان فى آسيا الوسطى حيث تدافع اليابان عن استقلال الأمة الصينية وتطالب انكلترا باعطاء الصين ما أخذته منها . وسوف لا تقف عند هذا الحد ، بل ربما وضعت أساساً لسياستها هذه العبارة التى بدأ رجال السياسة فى اليابان يرددونها وهى « آسيا للأسيويين » كما وضع الرئيس منرو منذ أكثر من قرن خلا مبدأ لسياسة حكومة الولايات المتحدة « أمريكا للأمريكيين » واليابانيون ماضون فى تنفيذ برنامجهم وعند ما يصبحون على أبواب « كاشغار » فى تركستان الصينية ، لا يصعب عليهم الهجوم على الهند

ومن المحقق أن انكلترا لا تقف مكتوفة اليدين أمام هذه الأخطار ، فهى تقوم بتحصين سنغافورة ، وستدفع ثمن ذلك

على شواطئ الآستانة

ساعة فى متحف (طوب قبو)

للأستاذ كمال ابراهيم

وقصدت إلى دار السلطان ، ومنازل الخلائف من آل عثمان ، وقد أصبحت بما فيها متحف الزائر ، ومُجتلَى الناظر ، ومطاف المتفرج ، بعد ما كانت تطاول السماء فى رفعتها ، وتُصاول العُصم فى منعتها ، وكانت فى حمى كبطون القلاع ، ومن يحم حولها يوشك أن يقع فى شراك الموت

أجل ، وكانت هذه المغانى التى نطيف بها اليوم ، تفيض بالنعيم ، وتختال فى جلال الملك ، وتزدهى بأبهة السلطان ، وكان الزمان قد بسم لها بسمة الاقبال ، ثم أغفى عنها حيناً ، ولكنها إغفاءة اليقظان ، فما لبث بعدها حتى اهتاجت هوائجه ، وانباجت بالشر بوائجه ، فأحال حالها ، وأهلك أهلها ، وأباد سلطانها ، وتركها عبرة للمعتبر ، وعظةً للناظر :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

وكانت جنة الخلد ، موشيّة الأديم ، رفّافة النسيم ، دانية الظلال ، زهراء ناضرة ، وعرائس القصر فى مقاصيرهن ، يصورن مباهج الحياة ، واشراق السعادة ، وفتنة الوجود ، فاذا ماخطرن فى مطارف وشيهن ، وسرن متثاقلات بحَلْيهن وحُللهن ، خلت السعادة حيث كُنّ ، تقيم إذا أقمن ، وترحل حيث يرحلن

من الهيف لو أن الخلاخل صُيِّرت لها وُشُحاً جالت عليها الخلاخل

مها الوحش إلا أن هاتا أوانسٌ قنا الخط ، إلا أن تلك ذوابل

وجنبات القصر موّاجة بالحشم والعبيد ، والأبواب قائمةٌ بالحجاب ، والجميع ناكسة أبصارهم ، عانية رقابهم ، لعزة الملك ، ورب الصولجان ، وظل الله على الأرض . .

واليوم ، واهاً لها اليوم ، قد أقفرت من ذويها ، وثكلت ساكنيها ، وأصبحت خبراً يروى ، وكتاباً يقرأ ويطوى

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

دخلت إلى تلك القصور المعروفة بـ (طوب قبو) وقد باتت متحف المتفرجين ، وملاهى الزائرين ، يرودون الأبصار فى آثار السلطنة الماضية ، ويطوفون بين الأركان الباقية ، ويتقلبون فيما خلفه الخلفاء ، من عروض ومتاع ، وحلل ونفائس ، يقابل الداخل عن شماله ، غرفة السلطان تصاقبها أخرى لمجلس وزرائه ، وقد أبقيتا على ما كانتا عليه ، وفى أعلى المجلس روشنٌ أعدّ لجلالته ، يُشرف منه على جلسائه ، فاذا خرجت منه أفضى بك الطريق إلى قصور متفرقة جمع فى كل منها صنف من العروض والأثاث ، واللباس والحلل ، والحلى والشارات ، مما كان فى بيوت السلاطين ، وقد نسقت فى معارضها أبدع تنسيق ، ونمقتها يد الفن أجمل تنميق ، وماهى غير نفائس العصور ، وتحف الحياة ومعجزات الصناعة ، وبواكير البراعة ، التى أنفق حذقة الصناع فيها حياتهم ، وحبسوا فى غنمتها جهودهم وأوقاتهم ، فجاءت تخطف الأبصار بروائها ، وتذهل الألباب بأناقتها وزخرفها . .

ينتهى الطائف بعد هذا الى بيوت السلاطين ، وقد أبقى كل

باهظاً — نحو ٣٠ مليون جنيه . غير أن هذه القاعدة الحربية ليست كافية أمام أمة تستعد لفتح آسيا كلها . وانكلترا وحدها لا يمكنها الوقوف فى وجه هذا الخطر الأصفر ، وهى لذلك تسعى للحصول على مساعدة الدول الأخرى ، ويظهر أنه لا بد للوقوف فى وجه الخطر اليابانى من اتفاق بين الدول الأربع : الروسيا وانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة . ويقول أحد الصحفيين الروس بهذه المناسبة إن نظام الضمانات المشتركة لأجل السلام لا يجب أن يكون كمظلة يمكن وضعها فى مخزن الحبوب لكى تأكلها الفيران ثم إخراجها لاستعمالها ضد حرارة الشمس ، لأن هذه المظلة متى ما أكلت قماشها الفيران لا يمكن استعمالها للوقاية من حرارة الشمس . والصحفى يؤكد أن روسيا مستعدة للتضحية فى سبيل توطيد السلم ولتأييد الدول فى نزاعها ضد الذين وضعوا مبدأ لهم سياسة الهجوم . وهكذا فان أساس الاتفاق موجود بين انكلترا وروسيا . وسيظهر التاريخ إلى أين تؤدى سياسة التوسع اليابانى وفى أى مرحلة من سيرها نحو بناء امبراطوريتها الآسيوية ستقفها دول أوربا وأمريكا

(حلب) جورج حداد

منها على ما كان عليه في عهد من عاش فيه ، وهي متصلة متداخلة ، يفضي بك بعضها إلى بعض ، ويسلمك منها مجاز إلى مجاز ، حتى تضلك السبل ، وتنفذ معك الحيل في تعرف الوالج والخارج ، ولولا دليل معنا خرّيت لعمي علينا القصد ، وأنفقنا الزمن في أخذ ورد

مررت في هذه القصور ، وصور الماضين تمر من أمامي صامتة ناطقة ، فصرت أقيم في كل ركن مشهداً ، ومن كل حجر معبداً ، وفي كل لوح منظراً مخلداً ، حتى توزعتني الصور والرسوم ، وغشيتني الأشباح والطيوف ؛ وازدحمت في خاطري الأخيلة والذكريات ؛ هاهي ذي الآثار الصامتات قد انتصبت لناظري حزينة تتوارى كأشباح الموتى ، وهذه قواعد البيت كأنها بعض قواعد الأهرام ، تفيض بعبر الدهر ، وتنطق بغوائل الزمن وفجاءات القدر كل يوم ، ومن يدري ما تخبئ لها الأيام بعد حين ، وقد أصبحت بين عشية وضحاها كما تراها

عمرت للسرور دهراً فصارت ... للتعزي رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموع ... موقفات على الصبابة حبس
ذاك مني وليست الدار داري ... في اقتراب منهم ولا الجنس جنسي

أجل مررت في تلك القصور ، وكأني بمواكب السلاطين الحافلة ، غادية رائحة في أيام الجمع والأعياد ، وكأني بخليفة المسلمين قد خرج من قصره ، في طلعة الخلافة ، وأبهة الملك محفوفاً ببطانته ، مزفوفاً من رعيته ، تستره عن الناظرين ، صفوف الحجاب ، وهياكل الحرس ، وقامات الشرطة بملابسهم المفوفة ، وأوسمتهم المزخرفة ، ومن ورائهم جماهير الشعب المحتشدة على طواري الدرب الكبير متدافعة ، وقد استطالت الأعناق إلى اجتلاء تلك الطلعة المباركة ، وأنفاس المصلين تملأ سماء الجامع القديم « أيا صوفيا » بالدعوات الصالحات ، والكلمات الطيبات والابتهال إليه تعالى ، أن يمد في حياة خليفة المسلمين ، وينصره على القوم الكافرين

ويصاقب تلك القصور إلى شط البحر ، جنة لفاء ، دوحاء زهراء ، يخترقها درب عريض ، قامت على جانبيه أشجار فينانة ، وارفة غيدانة ، مبسوطة الأماليد ، ملتفة العساليج ، وقد عقدت فروعها من فوقها سماء من الأوراق ، تزري بزرقة السماء ، حجبت شمسها إلا خيوطاً منها ، فكانت كما قالت بنت زياد في وصف واد :

حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
تصد الشمس أنى واجهتنا ... فتحجبها وتأذن للنسيم

وذكرت حين مررت هناك غريب اللسان ، قول أبي الطيب في شعب بوان :

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

مررت في ذلك الدرب الظليل ، ونواسم البحر الندية تجوس خلال أدواحه ، وتتقلب بين أزهاره وأوراقه ، فيعبق شذاها ، وطاب رياها ، تلامس الوجه ، فيتفتح لها الصدر ، وتخامر لها الروح ، أفضى بي السير إلى مسالك تتشعب من ذلك الدرب ، تكتنفها ملاعب وميادين ، ودارات ورحب ، فإذا أمعن السائر في السير بدا له البحر متسع الأفق ، وتراءت الآستانة لناظريه متعالية على ضفاف البسفور ، وقد احتضنت الماء ، وعانقت السماء ، فكانت فتنة العالم ، وسحر الوجود . فإذا ما بلغ شط البحر ، وقد شطت بخياله تلك الصور والذكر ، لاح له ذلك التمثال الفخم ، وسط رحبة من الأرض ، لرجل (تركيا) اليوم ، فيعود به هذا المشهد الحديث ، إلى الحقيقة بعد خيال ، وإلى الحاضر بعد غياب ، وإلى الساعة التي هو فيها بعد استغراق طويل

كمال ابراهيم

المدرس في دار المعلمين ببغداد

الحركة الفكرية فى السودان

بقلم حيدر موسى

طريف جداً أن نسمع أحاديث أبناء العروبة عن الحركات الأدبية فى بلاد الشرق المختلفة ، وجميل جداً أن تكون (الرسالة) الفيحاء ميداناً رحباً نرى فيه تلك الأقلام القوية تصول وتجول فنعجب بها وتمتلىء نفوسنا بشتى الاحساسات الحلوة التى لا تتعدى حب أبناء الضاد لبعضهم ، وقد عزمت حين قرأت تلك المقالات الطلية أن أرفع صوتى الضعيف بين تلك الأصوات الداوية العالية وأرسل ضوءاً على الحركة الفكرية فى وطنى السودان ، ليعرف إخوانى أبناء أسفل الوادى شيئاً قليلا عن النهضة القلمية فى أعلى الوادى ، فامل حديثى يقع فى نفوسهم الكريمة موقعاً حسناً ولعله لا يكون ممجوجا

إن أدب السودان يسير وراء الأدب المصرى ويتبعه خطوة خطوة ، نظراً للجوار وانشابه الأخلاق والعادات وغير ذلك من الأوصاف التى فرغ رجال التاريخ من سردها ووفقوا فى ذلك توفيقاً عظيما . ولذلك أود ألا أكرر لأن التكرار تمجه الأذواق السليمة

أجل إننا نسير وراءكم ونحاكيكم كما يحاكى الطفل أخاه الأكبر ، لكن سيرنا بطىء وبخطوات متزنة لأننا نخشى الكبوة ولنأمن سوء العاقبة . إن صحفكم على اختلاف أنواعها ومذاهبها مقروءة لدى كل الطبقات فى المدن الكبيرة ويطالعها المتعلمون فى القرى ، وللصحف الأدبية الراقية التى تبعث بها الينا مطابعكم المحل الأول ، فترى الشبان كانوا يتأبطون (السياسة الاسبوعية) فى ابان حياتها ، وعندما اختفت وظهرت (الرسالة) وسدت الثغرة تهافتوا عليها وخطبوا ودها فاذا أنت تراها بأيديهم فى النوادى والمجالس والمنازل ثم فى عربات الترام أيضاً حتى صارت قراءتها محتمة على كل أديب ومتأدب ، وسل الأستاذ الزيات يحدثك بالأرقام عن مبلغ ذلك الذيوع والانتشار الواسع الذى قل أن تحظى به غير الرسالة ، وصدقونى يا أحبائى القراء فلست أقول هذا القول تقربا من الأستاذ . بل أقول الحق كأى رجل حر

الشباب السودانى متطلع دائماً إلى العلياء ، وخصص جهده ووقته ــ فى الوقت الحاضر ــ للالمام بمختلف الآداب والفنون ، وللموظفين وهم خيرة المتعلمين النصيب الأوفر فى هذا الميدان رغم ضيق وقتهم وقلة مالهم ، فترى النوادى بها جميات أدبية تقوم بتنظيم المحاضرات والمناظرات جهد المستطاع ، حتى النوادى الرياضية لم تهمل الأدب بجانب اشتغالها بترقية الروح الرياضية .

كذلك تعنى النوادى المختلفة باقامة حفلات تمثيلية تعرض فيها الروايات العربية والمصرية ، ويسرنى كل السرور أن القصة السودانية قد صار لها شأن فى عالم التمثيل السودانى ، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنها اكتسحت أو كادت تكتسح الروايات غير الوطنية ، وكل هذه الروايات البلدية موضوعة بالشعر الشعبى المسمى (الدوبيت) وهو كالغناء يقع فى نفوس السامعين موقعاً حسناً وبنغمة حلوة تثير الحماسة ؛ ودعنى أعرفك بأسماء هذه الروايات فمنها (مصرع تاجوج ومحلق) وهى معروفة لدى المصريين ، وقد نشر ملخصها فى بعض المجلات المصرية ثم رواية (خراب سوبا) ورواية (فتاة المستقبل) ورواية (البتول) وغيرها وقد أعيد تمثيل هذه الروايات كثيراً نظراً للاقبال العظيم الذى قوبلت به من الجمهور المتعطش لكل ما هو سودانى أصيل ، وهذا شعور طيب بالقومية يسرنى أن أنوه عنه فى هذا المقام ليعرف أبناء العروبة أى شعب نبيل فى أعلى الوادى ، وإن كنا نخجل أن نشيد بأعمالنا وهذه عادتنا ولا سبيل إلى الخلاص منها .

فينا الشعراء والأدباء ، وفينا المجددون والمحافظون ، لكن التجديد غالب ، والفضل للشباب الذى هو الحركة والنشاط . أما حركة التأليف فضعيفة لغلاء أجرة المطابع ولعدم وجود ناشرين يتولون إخراج الكتب ، ويوجد الآن أدباء وشعراء يملكون كتبا ودواوين شعرية وهم حائرون لا يعرفون كيف يخرجون هذه الآثار الأدبية التى هى فخر للسودان ، والحقيقة أن هذه المشكلة مسألة المسائل ويتألم لها الأدباء ولا يدرون لها حلا ، ولذلك لا تجد كتاباً قيماً أخرج للآن فى السودان لا لعقم فى القرائح . كلا : بل للعذر الذى بيناه

أما الصحافة فحدث عنها ولا حرج ، فلدينا الآن جريدة حضارة السودان ، وجريدة السودان ، وتصدران فى الأسبوع مرتين ، وجريدة النيل اليومية وملحقها الأدبى الأسبوعى ، ومجلة الفجر وهى نصف شهرية ، كذلك لكلية غردون مجلة خاصة لا تقف فائدتها على الطلاب فحسب ، بل لا تخلو من فائدة ، وللجمعية

الكشافة مجلة أيضاً تتناول أحياناً بعض الموضوعات الأدبية ، وقد اختفت بعض المجلات كمجلة النهضة السودانية ، ومجلة مرآة السودان نظراً لقلة المال وفداحة أجرة المطابع ، وقد كان لاختفائهما أثر سيء في القلوب ، وفي نظرى أن صحفنا السودانية لو وجدت الاقبال الذى هي أهل له في البلاد العربية وخاصة في مصر لما تعثرت ولما اختفت أو شكت من قلة الاقبال والمال ، ولأدت خدمات مضاعفة لوطننا الناشيء المحتاج للدعاية الواسعة ، ليرتفع صوتنا في الأصقاع البعيدة ، وليصير لنا شأن غير شأننا الحاضر

إننا نتسابق في اقتناء الكتب المصرية والصحف المصرية ، وقد استفدنا كل الفائدة من ذلك ، فتفتحت عيوننا ، وتذوقنا الأدب ، وعرفنا الحياة ، أفليس من المستحسن أن تساعدونا بقراءة صحفنا والتعليق على انتاجنا الأدبي ، لتنيروا لنا الطريق بصائب نصائحكم وتجاربكم ؟ وفي رأيي أن (الرسالة) خير من يقوم بهذه المهمة نظراً لانتشارها العظيم في السودان ، ولوجود فطاحل الأساتذة في أسرتها

إننا شرحنا حالنا لأبناء العمومة في مصر أكثر من مرة ، وقلنا إننا نعرف كل شيء يجرى تحت سماء مصر ، ونتألم إن ألمت بها ملمة ، ونفرح إذا نالت ما تصبو اليه من رفعة وحرية ، وليس غريبا إذن إن طلبنا منهم أن يعاملونا بالمثل . نعم إننا أقل منهم علما وثقافة وبعونتهم يمكننا أن نسير نحو النور وصوب الثقافة الحقة التي هي أمنية كل سوداني ، حتى الجهلاء من السنين قد بدأوا يتعلمون القراءة وعرفوا فائدتها أخيراً ، فتطوع الشباب وانبرى للقيام بهذا الواجب والنتائج تدعو للتفاؤل الشديد

كثر الجدل بين الشباب السوداني عن الأدب القوى الذى دعا إليه الأستاذ الجليل أحمد أمين ، فاشتد النقاش بين مؤيد ومعارض ولم تعرف النتيجة بعد

لعل من الطريف أن نذكر أن بعض الصحف السودانية تعارض في نشر القصائد الغزلية على صفحاتها ، وحجتها في ذلك غير مقبولة لأن الغزل معروف من قديم الزمان ، ولكننا نحاول التوفيق بين آرائها وآرائنا فعسى أن نوفق

هأنا قد تحدثت عن بعض النواحي ، فعلى اخواني أدباء السودان أن يتمموا ما بدأت

عبده موسى

صورة من الحياة العلمية في مصر

٢ – تقي الدين السبكي

بقلم محمد طه الحاجري

وفي أثناء هذه الولاية ولد له تقي الدين ، وفي هـذا البيت الـكريم الذي ترفرف عليه روح العلم والورع نشأ نشأة مباركة بين أبيه وعمه الشيخ صدر الدين [١] أحد أفاضل العلماء ، يرعيانه ويتوليان أمره . وينشئانه أحسن تنشـئة وأكرمها ؛ فقد رأيا فيه من ملامح النجابة والذكاء والاقبال على العلم والجد عليه ، والانصراف عن اللهو ولذائذ الحياة ، ما جعلهما يتنوران من خلاله أنه سيكون إماماً من أئمة العلم ورجلاً من رجال الخلق والفضل . فقد حكى عنه ابنـه تاج الدين « أنه كان يخرج من البيت صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر ، فيجد أهل البيت قد عملوا له فروجا ، فيأكل ؛ ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب ؛ فيأكل شيئاً حلوا لطيفاً ، ثم يشتغل بالليل ؛ وهكذا لا يعرف غير ذلك . . . . . وكأن الله قـد أقام والده ووالدته للقيام بأمره ، فلا يعرف شيئاً من حال نفسه . »

لقد كانت طفولة عجيبة ، تلك الطفولة الجادة العاملة الوقور المنصرفة عن اللهو واللعب ومنازع الصبيان ، ولقد عجب أبوه نفسه مرة من هذه الظاهرة ، ورأى في انصراف ابنه عن عبث الأطفال ، والنيل من لذائذ الطعام أمراً لا يتفق مع سنه الصغير فأشار على أمه أن تعطيه درهما أو درهمين علّه أن يرى في السوق شيئا يشتهيه فيشتريه ، فعقدت له أمه منديلا على نصف درهم ، وهو يروح به ويغدو ، إلى أن ضاق بحمله ، فألقاه إلى أمه ، وقال لها ما شأني بهذا ، وما أصنع به ؟ . . .

وإن هذه الأحاديث التي يرويها تاج الدين عن أبيه جديرة بأن تكون صحيحـة ، وهي ترسم لنا صورة لتقي الدين الطفل ، تتسق كل الاتساق مع صورة تقي الدين الرجل الـكهل ؛ فكأنما كان ثمت روح من عند الله أخذت توجهه منـذ مولده إلى غايته المقدورة ، وترسم له السبيل اليها ، وتحوطه أن ينحرف عنها .

(١) تولى في آخر حياته التدريس بالمدرسة السيفية إلى أن مات سنة ٧٢٥

ولسنا نشك في أنه كان ثمرة كريمـة مباركة لـكل الظروف التي قدمنا ذكرها

وكان الأب [١] مايفتأ يذهب إلى مصر ليلتقي بها قاضي القضاة فـكان يستصحب معه ابنه ليزيره معاهد العلم ، ويشهده ربوع الفضل ، فمرة يزور به مدرسة الحديث الـكاملية [٢] ويدخل به على شـيخ الاسلام تقي الدين ابن دقيق العيد . ومرة يذهب به إلى ابن بنت الأعز ، وأخرى إلى غيره من علماء العصر ، وهو فرح به مستبشر ، والولد يرى هذا السمت وهذه الهيبة وذلك الوقار وتلك المثل العليا لما انطوت عليه نفسه . فيتوثب قلبه ، ويمتلىء صدره بهجة وطموحا

ثم عزم الأب أن يقيمه في القاهرة بين أولئك الأعلام ، وفي ذلك الجو العلمي ؛ وكان قد تفقه وحفظ كتاب التنبيه ؛ ولـكنه حين عرض الأمر على ابن دقيق العيد عارض فيه وكأنما استصغر سنه ، وأشفق عليه من الغربة . فقال لأبيه : عد به إلى « البر » حتى يصير فاضلاً . فعاد به ، وفاته ما كان يحرص عليه أبوه ، فيما يظهر ، من التتلمذ على شيخ الاسلام والأخذ عنه ، والتشبع بعبادته ؛ فانه لم يعد إلى القاهرة إلا بعد وفاة ابن دقيق العيد أي نحو سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م)

— ٢ —

جاء تقي الدين إلى القاهرة ولم يكد يبلغ العشرين من عمره ، وهو يتوثب رغبة إلى إرواء غليله العلمي في هذه البيئة العلمية الخالصة التي تتجاوب فيها أصداء العلم المختلفة ، وتقوم بها المناظرات بين الآراء المتباينة ، وكان بها طائفة من الأئمة الأعلام في مختلف الفنون :

كان بها ابن الرفعة [٣] شيخ الشافعية ، وإمام الفقهاء ، وبه تفقه السبكي

وكان بها في الأصول والمعقولات الامام النظار علاء الدين الباجي [٥] ، وكان رجلا واسع الباع في المناظرة ، مستقل الرأي في الاستنباط ، « لا يفتي في مسألة حتى يقوم عنده الدليل عليها ،

(١) يظهر أن مقر عمله كان مدينة المحلة « وبها مات سنة ٧٣٥ » انظر صبح الأعشى (ج ٣ . ص ٤١٠)

(٢) أنشأها السلطان الملك الكامل الأيوبي بخط « بين القصرين » سنة ٦٢٢ ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية (المقريزي) (٣) توفي سنة ٧١٠

(٥) توفي سنة ٧١٤

فان لم ينهض عنده قال : مذهب الشافعى كذا ، والأصح عند الأصحاب كذا ، ولا يجزم » كما يقول عنه صاحب طبقات الشافعية ؛ وما نشك فى أنه كان قوى الأثر فى تقى الدين ، عظيم اليد على قوته فى الجدل ، مشجعاً له على الاستقلال فى الرأى ، حتى ليمدون له مسائل كثيرة من فروع الفقه انفرد بالرأى فيها دون إمامه الشافعى وأصحابه وخلفائه ؛ وإذا كان مرجع هذا فى أول الأمر إلى فطرته السليمة ، وبصيرته السديدة ، وإدراكه القوى ؛ فان لمثل ذلك الامام فضل التسديد وتقوية تلك النزعة الفطرية ، وحمايتها من عوامل الضعف

وكان بها فى فن الحديث العلامة الكبير الحافظ شرف الدين الدمياطى إمام أهل الحديث ، وأستاذ الأستاذين فى معرفة الأنساب ، وكان صديقاً لأبى تقى الدين مكبراً له ، فاختص الابن بأكبر الرعاية ، وأقبل تقى الدين على درسه بالمدرسة المنصورية [1] وأكثر من صحبته والملازمة له والأخذ عنه بتلك الحافظة المدهشة التى يقولون عنها : إنه كان ما يكاد يسمع شيئاً حتى يحفظه ، ولا يحفظ شيئاً فينساه وإن طال عليه الأمد وبعد به العهد ، حتى صار آية فى فن الحديث ومعرفة الرجال والجرح والتعديل ، ولكنه لم يدرك شرف الدين إلا وهو شيخ هم كبير فى عشرة التسعين [2] فكان شديد الحرص على صحبته وملازمته حتى لايكاد يتركه ، ثم لم يلبث شرف الدين أن مات فجأة عقب مفارقته له فى ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٥ ، ولم يكن قد أشبع رغبته من فن الحديث بعد ، فلازم بعده كبير أهل الفن فى عصره ، الحافظ سعد الدين الحارثى

وكان بها فى علوم العربية أبو حيان الأندلسى [3] وكان عليه طابع المدرسة الأندلسية من الحفظ والتوسع فى رواية الشعر واللغة والقراءات ، والتبحر فى معرفة قواعد النحو ومذاهبه ، وأثر من المدرسة المصرية من النظر والمقابلة والمراجعة وروح النقد والتحليل ، فتتلمذ تقى الدين له ، وقرأ عليه كثيراً من كتب النحو مثل كتاب سيبويه وكتاب ابن عصفور وغيرها ، وكان أبو حيان يمرن تلاميذه على صناعة النظم ، فيقترح عليهم عروضاً خاصاً وبحراً معيناً ينظمون عليه ، وأتى الدين قصيدة على حرف الزاى جاءت من هذه السبيل ، ولعلها خير ماصنع من الشعر ، فلم يكن له فى هذا الباب سليقة ، وقد غلب عليه المذهب الفكرى النقدى ، فجاء شعره نازلا ركيكا ، وسنعرض شيئاً منه فى هذا البحث متى عرضت المناسبة

ثم لا ننسى من شيوخه الذين تركوا فيه أثرا بليغاً ، وان لم يكن من الناحية العلمية المحضة ، تاج الدين بن عطاء الله السكندرى ، وكان من حسن حظه أنه ترك الاسكندرية ؛ واستوطن القاهرة ، وبقى بها يعظ الناس ويرشدهم ، ويحدث تلاميذه ويبصرهم الى أن مات سنة ٧٠٩ وكان امام أهل التصوف ، جميل السياق ، صافى الأسلوب ، ساحر العبارة ، فنال فى الناس مكانة عالية ، ومال اليه تقى الدين وصحبه ، وانعقد بينهما حب قوى وعلاقة مؤكدة . وظل أثر الروح الصوفية التى كانت على أخلص ما يكون فى ابن عطاء الله ظاهرا قوياً فى تلميذه تقى الدين فى شتى أدوار حياته ، وكثير من أقواله وتصرفاته

وكان من شيوخه كذلك الشيخ تقى الدين ابن الصائغ فى القراءات ، والشيخ شرف الدين البغدادى فى المنطق والخلاف ، والشيخ علم الدين العراقى فى التفسير ، والشيخ عبد الله الغمارى المالكى فى الفرائض

وقد رحل الى الاسكندرية وسمع من رجال الحديث فيها ، وكان بها طائفة منهم يرحل اليهم طلاب الحديث مثل أبى الحسين الصواف وإلى ذلك الحين كان قد نضج وامتلأ وصلب عوده ، ورأى فيه شيوخه رجلاً يناظرهم كلا فى فنه ، فجعلوا يملأون المجالس بذكره والثناء عليه والاعجاب به ، حتى استطار أمره ، وامتلأت أندية القاهرة بالحديث عنه . ولم يبق إلا أن يرحل إلى الشام ليسمع من محدثيها فتتم له الغاية فى فن الحديث

وكذلك رحل إلى الشام رحلتــــه الأولى فى سنة ٧٠٦ (١٣٠٦ م) وسمع من رجالها أمثال الذهبى والمزى والبرزالى وابن الوازينى وابن مشرف ، وعقد بها المجالس للمناظرة ، فتجلت هناك عبقريته ، وسمت فى نظر القوم منزلته ، وامتلأ علماؤها إعجاباً به ، ومكث بها عاماً يسمع ويناظر ، حتى أصبح حديث الناس فى الشام كما كان حديثهم فى مصر ؛ وبذلك أشرف على الغاية فى بعد الشهرة وذيوع الصيت

(يتبع)

محمد طه الحاجرى

---

(١) أنشأها الملك المنصور قلاوون الألفى (٦٧٨ — ٦٨٩) ورتب بها دورساً أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة ، ودرساً للطب ، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوى ودرساً لتفسير القرآن الكريم وميعادا (المقريزى)

(٢) ولد سنة ٦١٣ (٣) مات سنة ٧٤٥ عن تسعين عاما

الطالب ...

للشاعر الوجدانى احمد رامى

مشرق كالضحى مع الصبح غاد   فى إهاب من الشباب الندى
يطلب العلم من معاهده الغـر   ويروى من نجعة الورّاد
طلعت شمسه على الدار فازدا   ن ضحاها باليمن والإسعاد
وعلى ثغره ابتسامة بشر   بعثتها هشاشة فى الفؤاد

***

هو فى البيت حبّة القلب والعيـ   ن مناط الآمال قصد المراد
فرح الأهل يوم أشرق فيهم   كوكباً لاح فى سماء الوادى
شبّ فيهم طفلاً صبيح المحيّا   كابتسام النوّار فى الأعـواد
ومشى الطفل فى الربوع صبيّاً   يقبس المجد من سنا الأجداد
ثم أضحى فتى يتوق إلى الفهـ   ـم ويمضى إلى سبيل الرشاد
مازه فوق سنّه خلة الفطـ   ـنة فى الرأى والذكا الوقاد
لا تراه إلا يجيل سـؤالا   دقّ فى كنهه طريق السداد
أو تراه إلا يقول جـوابا   يترك الرأى واضح الأعتقاد
نعمة أسبغت عليه من الله   وفضل من السميع الهادى

***

أيها الطالب الطموح إلى المجـ   ـد تقدّم دنياك دار الجهاد
قف أمام الكتاب واقرأ كلام الله   يهدى إلى صلاح العباد
واستملّ الحديث ينطق بالحق   ويدعو إلى كريم الوداد
وتمعن فيا أفاض أولو الا   لباب من حكمة ومن ارشاد
وانظر السابقين فى حلبة المجـ   ـد وطوّف بكعبة القصّاد
قد عقدنا عليك كل الأمانى   منذ نادى البشير بالميلاد

صوت المتنبى

مهداة الى الجامعة المصرية بمناسبة (أسبوع المتنبى) فيها

للشاعر الحضرمى على أحمد با كثير

من الملأ العلوى ، من عالم الخلد   أهلّ عليكم بالتحيات والحمد !
تقحّمت حُجب الغيب حتى أتيتـكم
لأجزيكم عن بعض إحسانكم عندى
قطعتُ حدودَ (الأين (١)) فى متطاولٍ
مِن اللوح يفنى البعـدُ فيه من البعد !
كأن الفضاء اللا نهائى سائرٌ   على كُرَةٍ لاحد فيها سوى حدى
إذا ما ركضت السير فى فلواته   تشابه ما قبلى علىّ وما بعدى !
إلى أن تجاوزت النـجوم جواذباً
إليهنّ عِطفى ، غير أن لسن من قصدى !
يناشدننى ـ والنور ثَمّ لسانُها ـ   لأُنشِدها شعرى ، وأُصفيها ودى
ولو لم تكن (مصرٌ) و (جلّقُ) الهوى
و (بغـداد) لم أبخل عليها بما عندى
معانٍ قضى فيها الشباب مآربى   وسلّت بها كُبرى العزائم إفرندى
وأمليتُ فيها الدهر غرّ قصائدى   فغنى بها الأجيال فى السهل والنجد

***

قطعت حدود (الأين) حتى أتيتكم   فمن (لمتى) ما بيننا قام كالسدّ ؟ (٢)
أجل ؛ ألف عام حال بينى و بينكم   فلولا سبقتم ، أو تأخر بى عهدى !
سعدتُ بلقياكم وفزتم برؤيتى   لو ان يد المقدار ألغته فى المدّ !
ألا فتزحزح يا زمان ! لشاعر   يريد فلا تقوى الجبال على صدى (٣)
أغرك أنّ الأرض قد شربت دمى ؟
وأنّ عيون الشُّهب قد شهدت لحدى ؟
رويدك ! قد خلدتُ فى الشعر محضَهُ
ولم يبق منه للتراب سوى الدُّردى ! (٤)
فها هو فى الأجيـال ينساب صافيا
إلى ابنٍ .. إلى ابنٍ .. من أبيه .. من ابنه

(١ و ٢) الأين : اسم من أين يراد به المكان ، ومتى يراد به الزمان
(٣) فيه التفات من الغيبة إلى التكلم   (٤) الكدر الراسب منه

يزيد على الأيام كالخمر سورةً لو انَّ حُمَيَّا الخمر تهدى كما يَهدى
أنا الخالد السارى بأعصاب شعبه وما شعبه بالنَّزْر أو ضَرِع الخدّ

***

بنى مصر ! أنفاس الخلود عليكم ! ونشرُ الخزامى والرياحين والورد !
سبقتم إلى تكريم ذكراى غيركم وقدماً سبقتم للمكارم والمجد !
رأيت (بلاد الضاد) عقداً منظما ولكنَّ (مصراً) فيه واسطةُ العقد
قضيت لمصر بالأمامة بينها وهل لقضاء شئته أنا من ردّ ؟!
ومَن غيركم أهدى إلى (الضاد) شاعراً
(كشوقى) ومنطيقاً كجباركم (سعد) ؟
أحبهما ؛ لا بل أقدّس فيهما
مشابه من عزمى وأصداء من وجدى !
أعدتم إلى (الفصحى) الحياة فزحزحت
بأيديكمُ كابوس نُبْتَ والصُّغْدِ !
هى الضاد لن يذوى على الدهر عودها
وقد خصّها (الذكر) المقدّس بالخُلد !
ستبدأ من حيث انتهت سائر اللغى خُطاها إلى حدّ يجل عن الحدّ
ولا تعتبوها فهى بعدُ صغيرةٌ ولم يتنفّس صدرها بعدُ عن نَهد !
على أنّها بالرغم من صُغْر سنها لناعسة الجفنين ميّاسة القدّ !
يكاد يصيح الحب بين شفاهها :
(أنا الحب ! ما أُخفيه فوق الذى أُبدى !)

***

(تمنّ يلذ المستهام بمثله وإن كان لا يغنى فتيلا ولا يجدى)
(وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا ولكنه غيظ الأسير على القِدّ)
فلو عشتُ فى هذا الزمان وأهله
لغيّرتُ من نهجى وضاعفتُ من جُهدى !
وكنت تنكبت الملوك ومدحها فليسوا بأكفائى وإن نالهم حمدى
(وأتعس خلق الله من زاد همه وقصّر عما تشتهى النفس فى الوُجْد)

***

يقول أناس إننى قد هجوتكم فلما أرادوا الشر أوجهلوا قصدى
ولم أهجُ إلا حالةً غاظنى بها وقوف بنى الأحرار بين يدَىْ عبد
ولستُ أبالى مادحاً لى وهاجيا
فقد رويَتْ نفسى من الصِّيت والمجد

ولى منهما ما لم ينله مملَّكٌ ولا شاعر قبلى ولا شاعر بعدى
ولكننى أصبحت رمزاً لمجدكم يضمكم روضى ويجمعكم وِرْدى
فمن نالنى بالسوء نالكُمُ به
لذاك ، ويعوى ضدكم مَن عوى ضدى
أبى الله إلا أنّ مجدى مجدُكم
وإنْ رغم الشانى ، ومجدُكم مجدى !
أبوكم أبى يوم التفاخر (يعرب) !
وجدُّكم (فرعون) أضحى بكم جدى ! !
تألّهَ ، و(التاريخ) طفلٌ ومُلكه
تَبَسَّمُ ذاك الطفل نُوغَى فى المهد ! !
تُكلَّلُ بالريحان هاماتُ ضيفه وتُنضحُ أبهاء النّدام بماوَرْدِ
وقد أعلنت فيها المجامر وَجْدها فصعّدن أنفاسا من العود والنِّدّ
تقوم عليهم فى شفوف رقيقة جوار كمثل اللؤلؤ النثر والنضْد
يطفن عليهم بابنة الكرم حُرَّةً وبالنُّقل بعد اللحم والزُّبد والشَّهد
فلا غرو فى دعوى النبوة مثله وليس له فوق البسيطة من ند !
ويعجبنى الجبّار ! إذ هو قوّة يهيم بها قلبى وأعبدها جُهدى !
كذا فلتكن فتيان يعرب إنْ ترد حياةً لها ما بين أعدائها اللُّدّ !
حرام عليكم أن يقوموا وتقعدوا وأن تهزلوا والقومُ ماضون فى الجد
كثيرٌ عليهم بعدُ أن تَقفوهُمُ بنى اللؤم منكم موقف الند للند
فكيف بأن يعلوا عليكم ويضربوا
على العُرب دون العزّ سدًّا على سدّ !

***

رفعتم شباب النيل أمس لِرآها ! فنفّستمُ كربى وبرّدتمُ وجدى
وثرتم على الحامى العتيد وصحتمُ :
(نعيش كراماً أو نغيّب فى اللحد !)
بنفسى دماء أهرقت فى جهادكم
تحنُّ إلى أسلافها قبل فى (أُحد !)
جريرتها أن كُلِّفَتْ حملَ قيدها وما خُلِقتْ إلا قضاء على القيد!
أضاء سناها (بالشآم) فروّعت عِداها وردّتها إلى خُطّة قَصْد
أرى الحق فى الدنيا يُرَدُّ لقاهر ولم أره يوماً يرد لِمُستَجدِ !
(فإن لم تُنلكم نَصَف قومٍ مودّةٌ
أنال القنا . والخوف خير من الود)

ولن تبلغ الأعداء من مصر مطمعاً
وقد زأرت فيها اللبوء مع الأسد ! (١)

***

تناهت سلالات الجبابرة الأولى بنو هيكل الدنيا إلى هيكل فرد
تقوم عليه أمة عربيّة رسالتها هدى الشعوب إلى الرشد
على كاهل الدنيا استقلت بموطن
من (المغرب الأقصى) إلى (الشط (٢)) ممتد
إذا هتفت (مصر) بلحن جهادها
تعالى صداه فى (العراق) وفى (نجد)
وخفّ له فى (حضرموت) مهلّلٌ وجلجل فى آفاق (تونس) كالرعد
رأيت (بلاد الضاد) عقداً منظما ولكنّ (مصراً) فيه واسطة العقد
قضيت (لمصر) بالأمامة بينها وما لقضاء شئته أنا من رد !

على أحمد باكثير

(١) اللبوء : جمع لبوءة أنثى الأسد (٢) شط العرب

خيبة رجاء

الى الوالد الواجد الأستاذ أحمد حسن الزيات

للأستاذ محمود غنيم

راح كأن لم يوجد ياليتـه لم يولد
ما اليُتم فقـد والد اليُتم فقـد الولد
يا غرة الفرقـد هـلّا عشت عمر الفرقد
عيـد الربيع قد أتى ما لك لم تعيّـد
مالك لم تبسم له عن لؤلؤ منضد
ما فعلت نسـمته بخـدك المورد
يأيها العصـفور قم بين الطيور غرد
قم املأ البيت نشا طاً بين لهوٍ ودَدِ
البيت ما لم تأوه كالدير أو كالمسجد
أعزز على أبيـك أن تصمت صمت الأبد
ما أبعـد الصبر على فقـد الصبي الأملد
صادٍ أصاب منهلاً لكنه لم يبرد
وإنما أطفال هـ ذا اليوم أبطال الغد
ويح البنين ويحهم فى الموت أو فى المولد
هم عودوا قلبى الأسى وقبلهم لم أعتد
لسقمهم وموتهم حزازة فى الكبد
تخطفهم يد الردى ونحن مكتوفو اليد
ليت الذى يسلبهم يسـعد بالتجلد
ليت لنا أفئدة منحوتة من جلمد
كم عاقر بدونهم يعيش عيش المفرد
ووالد من همهم يشيب قبل الموعد

***

أحمد يا خير أب خطبك خطب البلد
ريعَ الشّرى بأسره إذ مات شبل الأسد
الخطب غير هيّن والصبر غير مسـعد
والشـعر غير طيّع ماذا أقول سيدى
ما المُصاب أحمد غيرُ يراع أحمد

(كوم حماده) **محمود غنيم**

دراسات أدبية

في الأدب الايطالي الحديث

بقلم محمد أمين حسونه

— ٢ —

البيراندلية الحديثة

ويكاد لويجي بيراندللو يعد ألمع شخصية في الأدب الايطالي الحديث، كما أنه أعظم كاتب مسرحي في هذا العصر. وهو من الأدباء الذين تأثروا إلى مدى بعيد بنظريات العلامة النفساني سيجموند فرويد، وقد استطاع أن يجسم تضاعيف هذه النظريات في رواياته التي تدور حول رسم وتصوير العواطف الخفية التي تسبح في العقل الباطن، وتظهر الآونة بعد الأخرى على سطح العقل الواعي فتصطدم بالتقاليد والنواميس الطبيعية

على أن أشد ما يؤسف له هو أننا لم نفهم بيراندللو إلا من حيث أنه كاتب مسرحي فقط، أما من وجهة أنه قاص عبقري فلا يزال مجهولا رغم ما أنتجه من القصص الممتازة التي تدل على قوة الملاحظة وخلق الشخصيات الناضجة التي تطابق الواقع وما امتاز به من تحليل الشخصية ورد العناصر الى أصولها

وبيراندللو — في عرف بعض النقدة — رمز للعالم الحديث فهو يشعر شعوراً عميقاً بالزمن الحاضر المضطرب بسبب الحوادث والماديات اللاصقة به. ونحن إذا شاهدنا مسرحياته لنقارنها بقصصه شعرنا باضطراب وعدم استقرار. بل لما وجدنا شيئاً نتعلق به لننجو بأنفسنا، فكأننا في بحر مضطرب ثائر لا يهدأ، وكل بطل من أبطاله ليس في الواقع إلا « هملت جديد » لا يعرف معنى للاستقرار. وكلما تعمق في الحياة ازداد اضطرابا، فهو أمام الحياة في حالة ذعر وخوف

وشخصية بيراندللو نفسها تمد مثالا حياً للمضطربين الذين لا ينشدون الراحة إلا في حالة ثورة فكرية، وقد أطلق عليه دانييل روبس في كتابه Carte d'Euraqe لقب « البلشفيكي العقلي »، أي أنه صاحب مذهب شيوعي متطرف بالنسبة للفكر الانساني، على أننا لا نقر هذه التسمية الخاطئة، لأن الشيوعية المتطرفة تفكر في إعادة البناء بعد الهدم، على حين أن بيراندللو يهدم ولا يبني

ويدور فن بيراندللو الروائي حول الشعور بالحياة، ويؤدي إلى فكرة مبهمة عامة، فاذا ما تطورت برزت أمامها عقبات لصدها عن اتخاذ طريقها الطبيعي، وأهم هذه العقبات ما يتعلق بالدين والأخلاق والقوانين، وما يجري للانسان في حياته المادية

أما أدبه فيرتكز على نظريات فلسفية يعبر عنها بلسان أبطاله، وليس الأدب في نظره سوى وسيلة للحياة في الخيال وللفرار من المتاعب المادية. فاذا فكر في موضوع رواية مسرحية أو قصة استسلم اليها وأحس أنه بعيد عن وسطه الحقيقي ليحلق في الجو المصطنع الذي يبتكره خياله. وهو في هذا يقول: « لا سيادة لنا مطلقا على أفكارنا وعواطفنا ورغباتنا، وأننا لسنا سادة بشخصياتنا، بل إن هذه الشخصية تخضع غالباً لأحكام الكون ولجميع ضروب التأثيرات النفسية. وأنه ليس لنا كيان شخصي معين بل إن شخصيتنا تتبع أعمال الغير، فنحن نلعب الدور الذي تفرضه البيئة ويفرضه المجتمع. وأننا سوف ننتهي إلى حيث لا نعرف »

ويخيل إليّ أن بيراندللو يشبه من ناحيته الفلسفية عمر الخيام الذي كان ينادي بالقضاء والقدر، وإلى أن أساس الكون ومحور نظامه ليس إلا الاضطرار والجبر. فالقدر في نظر كل منهما أزلي والقضاء أعمى، ولسنا سوى آلات في يد الدهر، يحركنا كما تحرك الريح الشجر، فليس لنا من إرادة ولا في وسعنا أن نستقل بآرائنا إنما نحن « رخاخ » في رقعة شطرنج

***

يعارض النقادة الايطالي النابه فردريك ناردبللي في كتابه المسمى (حياة ومتاعب بيراندللو L'umo Segretto—Vita e croci di Pirandello) الرأي القائل بوجوب فصل حياة الفنان الخاصة عن فنه كيما يتسنى الحكم عليه أو في صالحه، فيصف لنا في أمانة وبساطة المصائب التي لاقاها بيراندللو في كافة أدوار حياته وارتباطها بفنه، فقد ولد بيراندللو وشب في جزيرة صقلية، ولذا فمن السهل أن نجد ظل الحياة الصقلية واضحاً عميقاً في رواياته ونجد أيضاً رسم التقاليد والعادات والحياة الاجتماعية الصقلية في عصر النهضة، والاشارة عن طريق خفي في إحدى مسرحياته عما وقع لأمه في بدء شبابها. فقد ظل والده بعد العام الأول من

زواجه يعاشر ابنة عمته الأرملة ، لحمات منه بما أدى الى أن يمنحها هبة مالية بمثابة بائنة تساعدها على الزواج فى بلد آخر

ففى رواية بيراندللو المسماة « اكساء العارين Vêtir ceuv que sont nus. يرسم لنا بطلته وهى أرملة تسمى أرزيليا حاولت أن تحمل الناس على الاعتقاد بأن محاولتها الانتحار كانت بسبب هجر خطيبها ، ولكن الواقع أنها هى التى خدعته . وقد حاولت الانتحار لأنها ضبطت فى حالة مريبة مع رب الأسرة الذى تعمل مربية لأولاده . وفى خلال ذلك مات الطفل الذى عهد إليها بتربيته تحت تأثير حادث خفى ، وقد أنقذت أرزيليا من الانتحار بأعجوبة . فتألب الصحفيون حولها وأخذوا يمطرونها بوابل من الأسئلة ، لأن الرأى العام مهتم بمسألتها ، ولكن بعد فوات زمن طويل جعل الناس يستوضحونها الأسباب التى حملتها على الانتحار ، فلم يسعها أمام إلحاحهم سوى الاعتراف بالحقيقة والبوح بالسر ، وعندئذ سقط القناع ، وأمام حرج موقفها وتبكيت الضمير عاودت الانتحار وفى هذه المرة نجحت

فتأثير الحادث الذى سمعه بيراندللو وهو فى حداثته من أبيه كان لا يزال لاصقاً بذهنه ، فلم يجد بدا من أن يصوغه فى قالب روائى وأن يخلع عليه طريقته فى تأليف مسرحياته واضعاً أشخاصه فى حالة ابهام وغموض وتجلد أمام الآلام ، مسدلا القناع على وجوههم ، ولكن هذا القناع لا يلبث أن يمزقه بعد حين ليعيد إليهم شخصياتهم الحقيقية

أما فى روايته « المرحوم ماثياس باسكال » ففيها لأول مرة يعالج الخيال والواقع والحياة والموت والجنون والحكمة ، وهى تدور حول تحليل شخصية رجل فقير يدعى ماثياس باسكال هرب من زوجه وحماته لشراسة طبعهما ، قاصداً الهجرة إلى أمريكا ، غير أنه وقف فى طريقه بمونت كارلو ليجرب حظه على مائدة الروليت فأسعفه الحظ وربح أرباحا طائلة ، وحدث فى اليوم التالى لاختفائه أن وجدت جثة غريق مجهول فى النهر فزعم أهل قريته أنها جثة ماثياس ودفن على هذا الزعم وتسربت الحادثة الى ماثياس عن طريق الصحف وهو فى مونت كارلو فقرر أن يعيش مختفيا وأن يتجرد من شخصيته الحقيقية ليعيش متحررا من الروابط الاجتماعية ، لكنه بعد أن يتعرى من شخصيته يفقد توازنه بدليل أنه يقول : « إن الشىء الوحيد الذى أؤكده هو أننى كنت أدعى ماثياس باسكال » . بل ربما نسى أنه كان يدعى بهذا الاسم !

وكثيراً ما يعيب النقدة على بيراندللو أنه يغرق فى الخيال وفى عمق التفكير ، ولكن فى مؤلفات هذا الكاتب المتدفق الثائر نجد أن فنه سبق الحياة فى الكشف عن حقائق ملموسة . وعلى الرغم من أنه ابتكر شخصية ماثياس باسكال فقد طابق خياله منطق الحقيقة مطابقة تامة إلى حد أن حادث ماثياس باسكال وقع بالفعل فى إيطاليا بعد تأليفه هذه الرواية بعشرين عاماً !

وهناك روايته الأخرى الموسومة بعنوان « ايف ولين » وخلاصتها أن شاباً من رجال الأعمال تزوج من فتاة اسمها ايفلين وعاشا عيشة اللهو والحب ، ووقع الزوج فى عجز وضيق مالى فلجأ إلى التزوير فى حسابات عملائه ، وقبل أن يفتضح أمره فر من وجه العدالة تاركا امرأته الشابة وطفلا له منها ، وعطف عليهما محامى الزوج وآواهما فى بيته وأصبحت المرأة فى حكم زوجته وأنجبت منه طفلة وقد مر على حياتهما الهادئة المطمئنة أحد عشر عاماً ، عاد بعدها الزوج الهارب كأشد ما يكون حباً وهياماً بامرأته . وهنا يظهر لنا ازدواج الشخصية كأوضح ما يكون جلاء ، فقد حارت المرأة بين زوجها القديم وزوجها الجديد ، وإنها لتذكر حياتها القديمة بما فيها من ألوان زاهية مرحة كلها الهوى والشباب وتقابل بينها وبين الحياة التى تحياها ، فطابعها الوقار والرصانة والركود والانصراف إلى الواجبات . وأن لها من زوجها الأول طفلا هو اليوم شاب قوى جميل ، ومن زوجها الثانى طفلة تحبها حباً يعادل حبها لولدها الشاب . وكلاهما يمثل ناحية خاصة من حياته بألوانها وصورها المتباينة . وإنها لتحن إلى حياتها الأولى المفعمة بالنشاط والهوى والشباب ولكنها تؤثر حياتها الراهنة بما يحوطها من وقار واذعان وانصراف عن اللهو إلى الجد الصارم . وهى فى حياتها الأولى يدعوها زوجها متحبباً إليها « ايف » وزوجها الثانى متحببا أيضا « لين » . وكل شطرة من هذا الاسم تثير فى نفسها صورا ومعانى وألوانا مختلفة لا سبيل إلى التوفيق والملاءمة بينها وتنتهى الرواية بأن ترضى بحياتها الراهنة وأن يذهب ابنها الشاب ليعيش مع أبيه ولكنها مع ذلك ما تزال تحب زوجها الأول وتحن إلى حياتها القديمة وتشتهيها ، وإنما هى قنعت بحياتها الراهنة لظروف لا تستطيع أن تتحداها

القصص

دراسة من اسخيلوس

٣ـ محاكمة أورست

The Eumenides

(الدرامة الثالثة من الأورستية)

تتمة

للأستاذ دريني خشبه

— ١٠ —

واهتزت مينرفا فوق عرشها الممرَّد، وتوجهت بالقول إلى المحلفين العدول من الأثينيين:

— «أيها الأثينيون! أنتم يا من اجتمعتم للنظر مى فى قضية هذا الدم المسفوك لأول مرة فى تاريخ الانسانية! اصغوا وعوا! إن شعب ايجيوس[1] العظيم ليتلفت فى أقصى الأرض ينظر هل ما يزال هذا البيت الذى أسِّس على التقوى وشيدت دعائمه على العدل، عند حسن ظنهم به، ورجائهم فيه!؟ إن بحسْب الأكروبوليس فخرا أن أقامتْه الأمازون تقديساً لجد إيرس الخالد، إذْ كن يقتفين أثر ثيذيوس، فنسين ذَحْلَهن، واطّرحن إحَنَهُن، لأنه لاذ بهذا الجبل . . . فهل كثير أن تنسوا أضغانكم، قبل أن تعطونى موثقكم، فلا تميلوا ولا تحيدوا، ولا تعدلوا عن سبيل الحق، حين تعطون أصواتكم، إما لأورست، وإما عليه!! إنكم هنا لا تخشون عنتا ولا ترهبون رهقا، وإنكم لرضيّون مخلصون، وإنكم لتتفجّر قلوبكم حنانا ورحمة! وإنى هنا لأباركُكم، وأنزل شآبيب رحمتى عليكم، مادمتم خابتين خاشعين، تصدَّعون من خشيتى! وإنى أبدا ساهرة عليكم، أوليكم معروفى، وأرزقكم بركتى فأنتم دائماً شعبى، وأنتم آخر الدهر أمتى. هلموا إذن فاكتبوا أصواتكم، ونقوا سرائركم، وبَرّوا أيمانكم، ألا تميلوا ولا تأثموا . . . وحسبكم ما قدمت لكم!!»

وهوّمت ربات الذعر تهويمةً ثم قالت:

— «على أننا نرجو ألا يحتقرنا الملأ، وألا تعدى وجود فى أرضك تدنيساً لها!!»

فينهض أبوللو ويقول: «بيد أننى أحذركن يا ربات، ألا تجعلن نبوءاتى عبثاً، فان أبى سيد الأولمب يؤيدنى فيها جميعا»

— «نبوءاتك عن آثام الفَجَرَةِ الكفَرة، التى ستلطخ الانسانية منذ اليوم!!»

— «وأين كنتن يا ربات يوم أن قتل إكسيون[2] أبا

(١) إيجيوس ملك أثينا وابنه ثيذيوس الذى قتل المينوطور وقد نشرنا أسطورته فى الرسالة (السنة الثالثة)

(٢) تزوج إكسيون ملك لابيثا ابنة رجل على أن ينقده مبلغاً كبيرا من المال، فلما تم الزواج أبى أن يدفع شيئاً وطفق الرجل يطالبه فلما

وقد ظن البعض أن هذه الرواية وليدة الخيال فمن المحال أن يقع فى الحياة ما يشابهها، ولكن الحوادث أثبتت أن فى الحياة مشكلات لا تقل فى غرابتها عن فن بيراندللو، فقد وقعت فى بودابست أخيراً حادثة تزوير، ارتكبها شاب يدعى فرادلبير، وفر إلى بلاد أخرى تاركا زوجه وطفلة، فاقترنت المرأة بعد أن يئست من عودة الزوج وأنجبت من زوجها الجديد طفلا، وقد رجع الزوج الأول بعد مرور أربعة عشر عاما ووصل إلى علمه زواج امرأته! وشغلت القضية أذهان الجمهور زمناً وأصبحت حديث الأندية والمجتمعات إلى أن مثلت مسرحية بيراندللو هناك فظن أكثر الناس أن المؤلف إنما يشير الى هذه الحادثة بينما هو كتب مسرحيته قبل الحادثة بثمان سنوات!

محمد أمين حسونة

(يتبع)

زوجته ؟ أليس أبي قد اقتص منه بيده ؟ »

— « إهرف يا أبوللو بما شئت ! ولكن ثق أننا لن نبرح هذه الأرض مادمت أنت فيها تحض على القتل ، وتحرض على الجريمة وتغوى الناس على الفساد ! »

— « ولن تبرح الآلهة ، كباراً وصغاراً ، تحمى عبادها من شرور كن ! »

— « كما تحمى عبدك الآن وقد ارتكب أشنع الجرائم ، وكما تحمى عبادك دائماً ؟ »

— « وإذا لم تحم الآلهة عبادها وتدركها بالرحمة وقت الشدة فمتى تصنع هذا ؟ »

— « ولم يبق إلا أن ترشوا صغيرات الآلهة بقدح من الخمر فيضللن ضلالك ، وتنعكس الشرائع ! ؟ »

— « وليتنى أستطيع إضلالكن فلا تجرءن البرايا بعومكن ! ! »

— « هيه ! ! لقد عيل صبرنا ! ! ألا متى ننتهى من هذه القضية فنترك لك هذه الأرض بمن فيها ! ! »

(وحين يفرغان من هذا الحوار يكون المحلفون قد فرغوا من وضع الأوراق التى تشمل أصواتهم فى صندوق الاقتراع ... ...)

ثم تقول ميترفا : « وعلى الآن أن أبدى رأيى حراً بحيث لا يتأثر به أحد منكم !

أنا فى صف أورست ! ! أجل أنا فى صف أورست ! ! أنا ميترفا ، التى لم تلدنى أم [1] ، لا أبالى كثيرا بأم قتلت لأنها خانت بعلها ، وذبحته ، وخربت بيتها من معانى الأبوة والأمومة طوبى لك يا أورست ! إذا تساوت الأصوات لك وعليك فان صوتى يرجح حقك ، ويؤزر براءتك !! طوبى لك يا أورست ! »

فينتشى أورست من رهبة وفرح ويقول ، مخاطباً أبوللو « يا إلهى أبوللو ! النتيجة يا إلهى ! ! لى أم علىّ ؟ ! »

وتلحظ ربات الذعر ما ترمقها به الأنظار المستهزئة فتخاطب ميترفا قائلة : « أيتها الربة ميترفا ! أترين إليهم كيف يلمزوننى ؟! »

فيقول أورست : « إن ساعة خلاصى أو نجاتى تقترب حثيثة ! ! »

فتقول ربات الذعر : « وإن ساعة إثبات حقوقنا أو تجريدنا منها لتقترب حثيثة أيضاً !

ويهتف أبوللو بمن يفرزون الأصوات قائلاً : رويدكم أيها الفرازون ! دققوا جهدكم فى فرز الأصوات ! وإياكم أن تخطئوا فى واحد منها ، فرب زلة من أحدكم تقلب الحق زوراً ، وترسل البرىء إلى سواء الجحيم ! ! »

ويسر رئيس الفرازين كلاماً إلى ميترفا فيملو البشر أسارير وجهها وتقول : « بشراك يا أورست ! لقد وضع عنك وزرك واطهرت من هذا الدم ! ! الأصوات متساوية لك وعليك ، وصوتى يبرئك ويرجح حقك ! فالبشرى لك ! »

ويستولى على أورست طائف من الذهول ، فيسجد بين يدى ميترفا ويقول :

— « ميترفا ! إلهة العدالة ! تباركت وتقدست ! اليوم فقط صرت خليقاً بأن أكون مواطناً من آرجوليس ! لقد نشأت فى دار غربة ، نضوهم وخليف آلام ، ولم أكن أفكر إلا فى الخلاص من حياتى المرة المترعة بالمتاعب ، فتردين لى أنت اعتبارى وطمأنينتى وميراثى فى عرش آبائى . . . فى لحظة عادلة تحت بيتك المكرم ! ! تقدست وتباركت يا ميترفا ! يا ابنة زيوس سيد الأولمب المعظم ! زيوس حارسى الأمين ، الساهر على رعاياه من ذروة جبل إيدا ! سلام إلى الأبد يا ميترفا المباركة سلام إلى الأبد بين آرجوليس وبين آثينا الخالدة التى تباركينها وتحرسينها ! لن تكون بينهما حرب ما عشت ، فاذا قضيت فلن تكون حرب بينهما كذلك ! فاذا حدثت أميراً من أمراء آرجوس نفسه بأن تكون هذه الحرب ، فسأنتفض تحت ركامى لأجعل حياته شقوة لا تحتمل ، وأروعه بأطياف من الذعر تأخذ عليه

ألحف عليه قتله إكسيون فثار الأولمب لأنها كانت جريمة القتل الأولى فى حياة الانسانية وجىء بالقاتل أمام زيوس فاستطاع أن يقنعه بما عمل وكاد زيوس يعفو عنه لولا ما لحظ من نظرات إكسيون الشهوانية إلى زوجة الربة حيرا فأمر به فربطه فى عجلة مشتعلة وجعل يطوف بها السموات

(١) جاء فى الثولوجية أن ميتيس — إحدى زوجات زيوس — تنبأت له أنها ستضع ولداً يغتصب الملك من أبيه كما صنع هو بأبيه من قبل فاضطرب زيوس وآلى ألا يكون من ذلك شىء فابتلع زوجه هذه ليخلص من شر نبوءاتها ولكن آلاما مبرحة انتابته ثم شعر فى رأسه بدوى وبرحاء فأمر فلكان أن يشجه ببلطه الكبير ، فلما فعل خرجت ميترفا من الرأس وذلك قولها إنها لم تلدها أم — ومن هنا أنها كانت إلهة الحكمة والعدالة

سبيله أنى توجه ، وتصير أيامه ظلمة ، وأضواء الحياة فى قلبه وعينيه مرارة وديجورا ! هذا موثقى وتلك أقسامى يا ربة العدالة ! أما إذا حافظ شعبى على السلام بين بلادينا ، فسأرفرف عليه بالمحبة وأصلى من أجله فى أعماق هيدز ! وداعاً يامينرفا ! وداعاً ياحارس أثينا الأمين ! زيدى فى مجدها وامنحيها البركة والخلود ! »

(ويسجد سجدتين ويغادر الأكروبوليس)

— ١١ —

أماربات الذعر فتأخذهن الحنقة ، وتضطرم نفوسهن بالغضب وتنقلب كل منهن بركانا يقذف بالحمم ؛ ويطفقن يتوعدن ويزمجرن ويتغنين نشيداً من أناشيد الجحيم جرسه رعد ، ونغمه شواظ من نحاس يتردد فى أفواههن ، ويتحشرج فى حلوقهن ، ثم ينذرن ألا يذرن على أرض مينرفا مسبحاً باسمها ولا دياراً ؛ ويهبن نشيدهن بالبكاء على مجدهن الضائع ، والرثاء لحقهن المغصوب . فتهتف مينرفا بهن :

— « على رسلكن يا ربات ! فيم هذا الغضب ، وهذه الضجة لِمَه ؟ ! لقد رضيتن بى حكما فيما اختلفتن فيه ، ولقد أخذ العدل مجراه ، وسارت القضية بكل أمانة وكل احسان ... ولقد كانت براءة أورست ناصعة بحيث يكون من الظلم لو أننا أخذناه بما أردتن أخذه به ... فلننزع جميعاً الى الحق ، فهو دائماً أبلج . . . . . . علام هذا النذير يا ربات ؟ ما لأثينا الخالدة الآمنة الناعمة فى رعايتى ، القارة فى كنفى ، وما لهذا الضغن الذى يغلى فى قلوبكن ؟ ! فبين بكن ألا تكن حربا على هذا الشعب الذى يسبح باسمى ويولى وجهه شطر معبدى ، وأنا أضمن لكن محبته ، وأضمن لكن اجلاله ، وأضمن لكن أن يقيم الهيا كل باسمكن ، ويطنّب المعابد لكن . . .

— ١٢ —

ولكن ربات العذاب تغلو فى النذير غلوا لا يليق بالآلهة ، وتعود إلى ترديد النشيد المقوت ، نشيد جهنم الذى كله قصف وكله رعد ، فترى مينرفا أن تأخذهن هذه المرة بالحزم ، إشفاقا منها على أثينا الخالدة أن يصيبها مكر ربات العذاب

— « إذن ... فأنتن تعرفن أننى وحدى أملك مفاتح زيوس ... أبى ... سيد الأولب ! أجل ... أنا صاحبتها ... وهى مسخرة لى وحدى ، من دون الآلهة أجمعين ... مفاتح زيوس ، مفاتح نقمته ... نقمته ... هل سمعتن ؟ ! المفاتح التى إن أردت حركتها فأرسلت عليكن صواعق السماء وشهبها الرواصد ! وهنالك ، وهنالك فقط ، تندمن على مافرطتن فى حق ، وهنالك تلقين السَّلَمَ راغمات يا ربات ، وهنالك أيضاً تسلم أثينا من شرور كن ؛ وتسلم جناتها من خطلكن ، وقصورها من خرابكن هل هذا خير ؟ أم خير أن تقاسمننى محبة هذا الشعب البرىء فيسبح لكن ويقدم الضحايا لكن ، فتقطفن لأول مرة فى حياتكن أول ثمرة شهية من أولياء مخلصين ؟ ! »

— « ويلاه ! يا لسوء حظوظنا ، ويا لشؤم منقلبنا ؟ ! لقد رضينا بالقسمة الضيزى إذ تقسَّم الآلهة الشمائر فى أول الأزل ، ورضينا بهذا المأوى المظلم الدجوجى فى أعماق السفل ، ورضينا بسخط الناس ومقت الأرباب لما اضطلعنا به من تعذيب المجرمين وأخذ الآثمين بآثامهم ... أفما كان بحسبنا كل أولئك حتى تجردنا صغار الآلهة حتى من هذا الحق المهضيم ! ! ويلاه ! أدركينا يا أمنا الأرض ! الغوث الغوث يا آلهة الظلمة ... ! »

وتلحظ مينرفا أن تهديدها قد فل من غرب ربات الذعر ، فقللن من غلوائهن ، وخففن من خيلائهن ، فرأت أن تلين معهن ، وذلك من حسن سياسة ربة الحكمة :

— « أما لم أمتهن بحال ربة الأرض ، مولاتكن المقدسة ، ولم أمتهن كذلك آلهة الظلام ، فهم جميعاً أكبر منى سنا ، وأكثر تجربة ، ولكنى والحمد لأبى سيد الأولمب ، قد رزقت من الحكمة والحصافة قدراً أتيه به على جميع الآلهة ، وأفاخر به كل الأرباب . على أننى أعرض عليكن أن تقمن معى فى هذا المعبد المبارك راضيات ، تتقبلن صلوات الشعب وأضحياته ، على أن توقينه غضبكن ، وتجنبنه أرزاءكن ،

وحسبكن أن تقاسمنني ما هو حق خالص لى »

— « نقاسمك ؟! وأى نصيب يخلص لنا فى معبدك يامينرفا ؟»

— « نصيب لا يصيبكن فيه غضب من الناس ولا من الآلهة ، فلا تأبينه ! »

— « أفان قبلنا غرضك . أفتكون لنا حقوق ثمة ؟ »

— « حقوق وأى حقوق ! لن تكون سعادة فى بيت إلا بمشيئتكن ! »

— « وهل تضمنين لنا هذا ؟ »

— بحيث تبارككن عبادكن يا ربات ، فلا تنزلن بهم رزايا كن ؟ ! »

— « وتؤكدين لنا هذا الحق طوال الأبد ؟ »

— ولماذا أعد ، وأنا فى الحالين لن أخسر شيئاً ؟ »

— « قديرة يامينرفا ! لقد أسكنت غضبنا ! »

— « أقمن معى إذن ، وا كسبن محبة شعبى ! »

— « وهل لنا أن نتغنى أناشيدنا هنا ؟ (وأنتم تمقتونها يا آلهة ؟ !) »

— « تغنين ما شئتن (إلا أناشيد الجحيم) ، تغنين أناشيد الجمال والشمس المشرقة ، تغنين أناشيد القمر البازغ والطبيعة المتبرجة ، تغنين أناشيد اليمن والاقبال يا ربات ! تغنين أناشيد الاسعاد تمزجنها بموسيقى السماء ، وإنى أباركها جميعا ، وقد أتغنى بها معكن ! »

— « إذن رضينا بما أشرت يا مينرفا ! »

— « وإذن ، فانى أعاهدكن على الحق تارة أخرى ، وأن تحكم بالعدل بين ذوى الخطايا والأوزار ، فكل من تأكد لنا إجرامه ، فلكن أن تفتكن به ، وتؤاخذنه بما كسبت يداه »

— « ولك إذن ألا نضار أحدا ، وألا نمس حقلا ولا غيضة ولا بستاناً بأذى ... فليكثر الخير ! ولتمتلئ الأرض الخضرة قطعاناً ؟ ولتمطر السماء منا وسلوى »

— « سجلوا أيها الأثينيون ! أيها المحلفون سجلوا ! سجلوا يا سادة أثينا ، واعلموا أن الشر إذا نزل بأهله فحسب ، فهو خير للجميع ! واعلموا كذلك أن من الخير ما ينبت من شر محض ، وأن لكم أن تأمنوا ربات العذاب ما دمتم مخلصين مطهرين ...

— « لتكن أرضهم منضورة بأفواف الزهر ، ولتبعد عنهم رزايا الزمان ؛ وليأمنوا غدرات الأيام ، وليرفرف عليهم فىء من اليمن ، ولتباركهم السماء دائماً ! »

— « إذن تمت نعماؤنا يا ربات ، فليتم الى الأبد السلام ! »

وتأمر مينرفا فيقام حفل ضخم ينشد فيه الجميع نشيد السلام ، ويضمخ المعبد ببخور المسك والعنبر والند ؛ ثم ينادى المنادى فيصمت الجميع لحظة ، وإذا هرمز الكريم يبدو من عليائه ؛ ويهبط قليلا قليلا ...

ويتقدم إلى ربات الذعر فيقودهن إلى مملكة السفل ... إلى عالم الظلمات .... إلى أعماق الأرض ، حيث مقرهن ، وحيث مستودعهن ! .....

* * *

وهكذا تكتفى أثينا شرهن بفضل مينرفا الحازمة . . . وهكذا يقرن القصاص ولو من الآباء . . وهكذا يسود العدل ويعم الاحسان

دريني خشبة



الخيال العاقل

(بقية المنشور على صفحة ٤٨٢)

رجلاً كما كان وادع النفس طفلاً . إنه يجد ويعمل ، إنه يكد ويكدح ، إن الحياة تبسم له أحياناً ، إن الناس من حوله يحبونه ويقدرونه ويكبرونه ويثقون به ، ويطمئنون إليه ويلتمسون به العافية والسلم ، ويحكمونه فيما يشجر بينهم من خلاف ، فلا يعرضه ذلك لبطر ولا لأشر ، لأن الله قد قطع الأسباب بين نفسه المصفاة وبين ما يشوب حياة الناس من الأشر والبطر والغرور . ثم انظر إليه وقد اختاره الله لخير ما يؤثر به عبداً من عباده ، وحمله أثقل أمانة حملها أحداً من خلقه ، فاذا هو يلقى هذا العبء الثقيل جلداً له ، صبوراً عليه ، ناهضاً به ماضياً فيه ، لا يعرف كلالاً ولا ملالاً ولا فتوراً ، لأن الله قطع الأسباب بين نفسه المصفاة وبين ما يشوه حياة الناس من الكلال والملال والفتور

ثم انظر إليه يذوق الثكل بعد أن ذاق اليتم ، ويمتحن فى نفسه وسمعته ، ويمتحن فى صحبه وأولى نصره ، ويمتحن فى بنيه ، ثم يمتحن فى زوجه التى جعلها الله له رحمة يسكن إليها ويمتزج بها ، ثم يمتحن فى دينه ، ثم يمتحن فى كل شىء ، ثم يمتحن فى كل إنسان ، فاذا هو كما هو ، باسم الكهولة كما كان باسم الشباب وكما كان باسم الصبي ، لا يعرف الضعف ولا اليأس ولا هذا الاكتئاب المقيم إليه سبيلاً ، لأن الله قطع الأسباب بين نفسه المصفاة وبين الضعف واليأس والاكتئاب المقيم

ثم انظر إليه وقد أنكر قومه وأنكره قومه ، وقد ضاقت به مكة وضاق به ما حول مكة ، وقد لقى المحن التى لا تحتمل والمكروه الذى لا يطاق ، فلم يدركه نكول ولا استسلام ، وإنما فتحت له أبواب الأمل ، وفرج عنه تأييد الله لما تضايق من الأمر ، فاذا هو يهاجر إلى يثرب ، أفتراه اطمأن فيها إلى الدعة ونعم فيها بالخفض واللين ؟ كلا ، ما هذه الحروب التى لا تنقضى ، والتى يمتحنه الله فيها بالنصر حيناً وبغير النصر حيناً آخر . ما هذا الجهد الذى لا ينقضى ؟ ما هذا الضيق الذى يضطره أحياناً إلى الجوع ؟ ما هذه الخيانات تأتيه من المنافقين ؟ ما هذه الخيانات تأتيه من حلفائه من يهود ؟ ما هذا الموت يتخطف أعز أصحابه عليه وآثرهم عنده ؟ أفتراه يئس لذلك أو ضعف عن احتماله ، أو اضطره شىء من ذلك إلى أن يحيد عن طريقه المستقيمة قيد شعرة ؟ كلا ! لأن الله جعل نفسه الكريمة مضاء كلها ، وإباء كلها ، وصبراً كلها ، وثقة بالله كلها .

ثم انظر إليه وقد تقدمت به السن ، ولم يبق له من بنيه وبناته الا فاطمة رحمها الله ، وإذا الأيام تبسم له ، وإذا الأمل يشرق أمامه وإذا المبشرات ينبئه بأن الله قد رزقه غلاماً فيسميه باسم أبيه ابراهيم ، وإذا قلبه مسرور محبور ، وإذا هو يشرك المسلمين معه فى سروره وحبوره فيبشرهم بما بشر به ، ويجد المسلمون أن عينه قد قرت فتقر عيونهم ، وأن نفسه قد طابت فتطيب نفوسهم ، وأن قلبه الكريم يتفتح للأمل فتتفتح قلوبهم للآمال ، ولكن الله يأبى ألا أن يمتحنه شيخاً كما امتحنه صبياً وشاباً وكهلاً وإذا ابراهيم ينزع منه ولما يتم الرضاع . أفتراه جزع لذلك أو أدركه ما يدرك الشيوخ من وهن وضعف . كلا . إن الله قد قطع الأسباب بين نفسه المصفاة وبين الوهن والضعف . لم يتم ابراهيم رضاعه فى الدنيا فسيتمه فى الجنة . وانظر إلى أبيه وإنه ليسعى فى جنازته محزوناً ، ولكن حزن الكرام لا حزن اليائسين ولا حزن القانطين ، وإنه ليقوم على قبره وإنه ليعنى بتسوية القبر وترويته وصب الماء عليه ، وإنه لينصح المسلمين إذا عملوا عملا أن يتموه وإن لم يكن لذلك غناء ظاهر ، لأن من كمال العقل أن يحسن الرجل ما يعمل . ثم انظر إليه يعلن إلى ربه أنه راض بقضائه ، مذعن لأمره مؤمن بحكمته ، ويعلن إلى ابنه أنه محزون لفقده . ثم انظر إليه إن عينيه الكريمتين لتدمعان . وما يمنعه أن يبكى وإن البكاء ليتم مروءة الرجل أحياناً ؟ ولكن انظر إليه ، أترى شيئاً من حياته قد تغير ؟ أترى شيئاً من رأيه فى الحياة قد تغير ؟ كلا . ما كان للاحداث فى هذه الدنيا أن تغير نفساً هى أكبر من الدنيا ؟

قلت لهذا الخيال ما رأيت كاليوم خيالا عاقلاً رشيداً . إن فى حديثك لعبرة لمن أراد أن يعتبر . قال وأى غرابة فى أن يعقل الخيال ويرشد إذا تحدث عن محمد ، وإن كان من طبعه الطموح والجموح ؟ . قلت لأنقلن حديثك هذا إلى صديق محزون جزع . قال : انقله راشدا إلى صديقك والى كل محزون جزع ، فما أرى أن مسلما يتمثل حياة محمد من هذه الناحية من نواحيها ثم يعرف اليأس أو الجزع إلى قلبه سبيلا ؟

طه حسين

البريد الأدبي

فى ترجمة السخاوى أيضا

نشرت الرسالة فى عددها الماضى (العدد ١٤٢) كلمة الأديب محمود عساف أبو الشباب يشير فيها إلى نقطة وردت فى بحث كنت نشرته فى الرسالة منذ أشهر عن الحافظ شمس الدين السخاوى فى العددين ١٠٣ و ١٠٤ الصادرين فى شهر يونية الماضى

ومن الغريب أن نفس الأديب كان قد نشر نفس الكلمة فى الرسالة فى العدد ١٠٧ الصادر فى ٢٢ يولية الماضى ، وهو يعيد نشرها الآن بعد عشرة أشهر مع تحوير يسير فيها

أما الملاحظة التى يلح الأديب فى إثباتها وتكرارها فهى أنى قد ذكرت فى الفصل الذى كتبته عن تراث السخاوى أنه ترك ضمن آثاره أثرين هما « تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات » و « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وأن فى نسبة هذين الأثرين للسخاوى خطأ محققاً يجب تصحيحه ، وأنه أى صاحب الملاحظة ، قد درس ترجمة السخاوى وقتلها بحثاً فلم يظفر بين مؤلفاته بذكر لهذين الأثرين

وجوابى على هذه الملاحظة هو أن فى نسبة الأثر الأول أى « تحفة الأحباب » للسخاوى شك لم يتسع وقتى لتحقيقه واستجلائه ، وفى نسبته لسمى السخاوى الآخر أيضاً شك لا أستطيع القطع معه بصحة هذه النسبة وذلك رغم ما ورد فى شأنها فى بعض الكتب المتأخرة ؛ وهذا الشك فى نسبة « تحفة الأحباب » للسخاوى معروف فى البيئات التى تعنى بدراسته ، بيد أن البحث لم ينته فى ذلك إلى رأى حاسم

وأما نسبة الأثر الثانى أعنى كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » إلى الحافظ السخاوى فليس فيها ذرة من الريب . فالسخاوى يذكره فى ترجمته لنفسه بين مصنفاته فى التاريخ بعنوان « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التواريخ » (راجع الضوء اللامع فى مخطوط دار الكتب المصور المجلد الرابع القسم الأول ص ٧٥ و ٧٦) ويذكر السخاوى أيضاً فى نهاية كتابه أنه أتمه بمكة سنة ٨٩٧ هـ ؛ وقد طبع هذا الأثر أخيراً فعلى الأديب أن يراجعه ليتحقق

وأما كون السخاوى لم يذكر أثراً معيناً من آثاره فى ترجمته ، فيكون دليلا على أنه لم يكتبه ، فتدليل خاطىء ؛ ذلك لأن السخاوى يقف فى ترجمة نفسه فى الضوء اللامع حتى سنة ٨٩٧ هـ أو أوائل سنة ٨٩٨ هـ أى قبل وفاته بنحو خمسة أعوام ، (وقد توفى بمكة سنة ٩٠٢ هـ) وقد كتب السخاوى فى تلك الفترة التى تقدمت وفاته عدة كتب ورسائل أخرى لم يشر إليها فى الضوء اللامع

وأخيراً أرجو أن يعتقد الكاتب الأديب أن القول الفصل فى مثل هذه الدراسات لا يمكن أن يكتنى فيه بالقول المرسل أو الاستناد إلى بعض الروايات الضعيفة ، وما زال الأمر فيما يتعلق بالأثر الأول فى حاجة إلى استكمال البحث ، وهو بحث أرجو أن يتسع وقتى لاجرائه متى توفرت مواده ومصادره الوثيقة

محمد عبد الله عنان

كتاب جديد عن هتلر

صدر أخيراً كتاب جديد عن هير هتلر ، وقد صدرت فى الأعوام الثلاثة الأخيرة كتب عديدة عن زعيم ألمانيا الجديدة منها ما يرتفع به إلى السماكين كزعيم ومصلح ، ومنها ما يصوره زعيما عادياً لم ترفعه إلى مركزه أية عبقرية أو مواهب خاصة ، وإنما رفعته إليه ظروف خاصة . ولكن الكتاب الجديد يمتاز بالتمحيص المادى والتصوير الدقيق ؛ وهو من قلم كاتب وسياسى فرنسى كبير هو مسيو فرانسوا دى تسان Tessan وعنوانه : « هاأدوالف هتلر » Voici Adolf Hitler . وقد كان مؤلف الكتاب مدى أعوام طويلة وكيلا لوزارة الخارجية ، وهو من الكتاب الساسة

الذين توفروا على دراسة الشؤون الدولية دراسة عميقة متزنة . وكتابه عن هتلر أكثر من ترجمة لهذا الزعيم ، فهو في الواقع تاريخ كامل للحركة الاشتراكية الوطنية في الأعوام الثلاثة الأخيرة ، وفي سائر وجوهها ومناحيها

ويحاول مسيو تسان أن يعرض حديثه عن هتلر وعن الاشتراكية الوطنية عرضاً محايداً مجرداً عن الشهوات والنزعات الخاصة . وهو يحاول حتى في سرد الحوادث الدامية المروعة التي اقترنت بقيام حكم النازي أن يبتعد عن التفاصيل والتعليقات المثيرة ، ويكتفي بالاشارة الطائرة إلى كثير من ضروب الاضطهاد والفظائع التي نزلت بالأحزاب المعارضة وباليهود . بيد أنه لا يسعه إلا أن يقدم إلينا ألمانيا على ضوء هذه الحوادث المثيرة مشبعة بروح العصور الوسطى ، متشحة بثوب ظاهر من الهمجية ، مستندة إلى القوة الغاشمة وحدها في فهم القانون والحق . ويستعرض المؤلف الحوادث المتعاقبة منذ قيام الحكم الهتلري حتى وفاة هندنبورج واتشاح هتلر بثوب « الزعامة » ، ويفصل لنا حادثة إحراق الريخستاج ، وحوادث ٣٠ يونية الدامية ، ويشرح لنا النظم والأساليب النازية الجديدة التي أدت إلى توحيد ألمانيا وسحق النظم الاتحادية القديمة ، وإقامة أمة موثقة العرى في قبضة طاغية هو في نفس الوقت رئيس حكومة ورئيس دولة .

ويبين لنا مسيو تسان آثار النظام الجديد في تعبئة الشباب وسحق الآراء الشيوعية ، وتحطيم اليهودية ، وإخراج اليهود من حظيرة القانون ، وإضعاف شوكة الكثلكة ، وعلى الجملة في إنشاء « الدولة الشاملة التي تغذيها تخيلات زعيم متصوف ، والتي تعتمد على قوة عسكرية تزيد كل يوم ، وما زالت وجهة استخدامها في المستقبل لغزاً لحضارتنا وللعالم » . كذلك يشرح لنا مسيو تسان آثار الاجراءات الدامية التي اتخذها الزعيم بيديه في ٣٠ يونيه ، وكيف أنها وقعت تحت تأثير « الريخسفر » (الجيش) وسحقت نفوذ ذوي الأقمصة السمراء ، واستبعدت من الحركة عناصر المغامرين ، ووضعت حداً لمنافسة فرق الهجوم للجيش ؛ وكيف انتهى تعاون الريخسفر مع هتلر إلى إلغاء النصوص العسكرية في معاهدة الصلح ، وإقامة جيش ألماني جديد قوامه ستمائة ألف

ولم يكن ميسوراً أن تقع هذه الانقلابات الشاملة دون تعبئة الرأي العام وتوجيهه ، ومن ثم فقد لجأت الحركة النازية إلى أشد أساليب الدعوة ، واتخذت الفكرة الجنسية والجرمانية أساساً لدعوتها ، ونظمت هذه الدعوة بشتى الوسائل ، بالمسرح والسينما والراديو والكتابة . كذلك حشدت الجامعات والمدارس والحركة التعليمية كلها لتأييد المبادىء النازية ، وأنشىء معهد لصوغ التاريخ القومي طبقاً للنظريات النازية ، وأضحت الحركة العسكرية كلها أداة نافذة في يد النظام الجديد تهيئ بها النشء والشباب للخضوع المطلق

ويشرح لنا المؤلف أدوار الحركة التي نظمت لسحق اليهودية منذ بدايتها وكيف أنها انتهت إلى وضع اليهودية من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية في نوع من العزلة المطبقة التي تشبه نظام « الجيتو » في العصور الوسطى

ويتناول المؤلف تطورات السياسة الألمانية الجديدة في هذه الفترة وموقف ألمانيا من المعاهدات ومشاريع السلام ، ودعاواها في المستعمرات ، وكل مايتعلق بهذه الشؤون ، وما أحرزته في هذا الميدان من النتائج

وقد كتب الكتاب بأسلوب قوي متزن تطبعه نزعة السياسي الهادىء والمؤرخ المحقق

المباراة الصحفية الأدبية

بيان من ادارة المطبوعات

إلحاقاً بمشروع حضرة صاحب الدولة علي ماهر باشا الخاص بالمباراة الصحفية الأدبية تتشرف إدارة المطبوعات بأن تذيع على حضرات الصحفيين والكاتبين بأن اختيار دولته قد وقع على حضرات أصحاب الفضيلة والمعالي والسعادة الآتية أسماؤهم بعد رؤساء للجان التحكيم كل في الموضوع الذي يخصه وترك لكل من حضراتهم حرية اختيار زملائه أعضاء لجنته ، وستذيع الادارة قريباً أسماء الجميع كما أنها ستذيع ما قد يتراءى لهذه اللجان من توجيهات وإرشادات وقواعد وأسس

وقد تفضل دولة الوزير فأمر بامتداد مدة تقديم الموضوعات إلى أمد نهايته ١٠ ابريل سنة ١٩٣٦ في غير تحديد لحجم ما يكتب وفي مطلق الحرية للكاتب فيما يريد إبداءه من آراء ومقترحات

وأن التفضيل يكون للرسالة العملية النتائج ، وليس ثمت من حاجة إلى التطويل فيما هو ظاهر جلىّ ، وأن العبرة كل العبرة فى حسن التصوير ودقته ، والالمام الصحيح بشتى نواحى الموضوع العملية الانتاجية . كما أن دولته قد أشار بترك الحرية المطلقة لحضرات المتقدمين من الصحفيين والكاتبين فى أن يرجئوا نشر رسائلهم إلى ما بعد ظهور نتائج المباراة أو أن ينشروها من الآن فيما يختارون من صحف ومجلات

كذلك أمر دولته أن تطبع الرسائل الفائزة فى كتاب خاص رغبة فى إذاعتها والاستفادة من وجاهتها ونشر للثقافة وحسن الافادة ، وأن يذاع منها من محطة الاذاعة الحكومية اللاسلكية ما تشير به لجان التحكيم تعميما للفائدة بأوسع ما يكون

وترجو إدارة المطبوعات — رغبة منها فى عدم إضاعة الوقت — أن يتكرم حضرات الراغبين فى دخول هذه المباراة بارسال خمس صور مما يكتبون فى الموضوع الذى يختارونه إلى حضرات أصحاب الفضيلة والمعالى والسعادة رؤساء اللجان كل فيما يخصه وهم حضرات :

الموضوع الأول : رسالة الأزهر فى القرن العشرين

رئيس لجنة التحكيم : حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر الشريف والمعاهد الدينية

الموضوع الثانى : اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال

رئيس لجنة التحكيم : سعادة الأستاذ أحمد لطفى السيد باشا مدير الجامعة المصرية

الموضوع الثالث : أثر الحافز الشخصى فى تطور الاصلاح الاجتماعى والوسائل العملية لتوجيهه للخير العام

رئيس لجنة التحكيم : الأستاذ الكبير مكرم عبيد نقيب المحامين

الموضوع الرابع : البطالة ووسائل علاجها . والتعليم الاقليمى وأثره فى علاج البطالة

رئيس لجنة التحكيم : حضرة صاحب السعادة أحمد عبد الوهاب باشا وزير المالية

الموضوع الخامس : التربية الوطنية الاستقلالية وأثرها فى بناء الأمة

رئيس لجنة التحكيم : الأستاذ الكبير محمود فهمى النقراشى

الموضوع السادس : عدة النجاح لرجل القرن العشرين

رئيس لجنة التحكيم : حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا

الموضوع السابع : تدعيم الحياة الدستورية والوحدة الوطنية وتكوين الوطنى المستنير

رئيس لجنة التحكيم : حضرة صاحب العزة الدكتور بهى الدين بركات بك

الموضوع الثامن : ترقية الفلاح اجتماعياً

رئيس لجنة التحكيم : حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا

الموضوع التاسع : استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام

رئيس لجنة التحكيم : حضرة صاحب السعادة على الشمسى باشا

الموضوع العاشر : وضع نشيد وطنى قومى

رئيس لجنة التحكيم : الأستاذ الكبير الدكتور أحمد ماهر

حول المباراة الأدبية

ورد الينا من إدارة المطبوعات ما يأتى . . .

الحاقاً لمشروع حضرة صاحب الدولة على ماهر باشا الخاص بالمباراة الصحفية الأدبية وموضوعاتها العشرة السابق إذاعتها

تتشرف إدارة المطبوعات بأن تذيع أيضاً أن دولته قد أمر باضافة الموضوعين الآتيين ليكونا ضمن موضوعات المباراة المتقدمة وهما :

١ — سلامة الدولة فى حفظ الأمن والنظام واحترام القانون

٢ — البوليس — وهو من حراس القانون — صديق الشعب — ووجوب مساعدة الشعب له فى أداء واجباته

وستذيع الادارة قريباً أسماء حضرات رئيس وأعضاء لجنتى التحكيم فى هذين الموضوعين الذين سيتفضلون بقبول المساهمة فى هذه الخدمة الثقافية العامة

4 me Année, No. 144.

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi 6-4-1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة — « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ محرم سنة ١٣٥٥ — ٦ أبريل سنة ١٩٣٦ » — العـــدد ١٤٤

فهرس العـــدد

ولـــدى !!



يا قارئى أنت صديق فدعنى أرِق على يديك هـذه العَبرات الباقية ! هـذا ولدى كما ترى ، رُزِقتُه على حال عابسة كاليأس ، وكهولة بائسة كالهرم ، وحياة باردة كالموت ، فأشرق فى نفسى إشراق الأمل ، وأورق فى عودى إيراق الربيع ، وولّد فى حياتى العقيمة معانى الجِدّة والاستمرار والخلود !

كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أُنشد الراحة ولا أجد الظل ، وأُفيض المحبة ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا

أجد الأنس، وأكسب المال ولا أجد السعادة، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية!! كنت كالصوت الأصم لا يُرجِّعه صدى، والروح الحائر لا يُقرّه هدى، والمعنى المبهم لا يحدده خاطر!! كنت كالآلة تنتجها آلة واستهلكها عمل، فهى تخدم غيرها بالتسخير، وتميت نفسها بالدءوب، ولا تحفظ نوعها بالولادة؛ فكان يصلنى بالماضى أبى، ويمسكنى بالحاضر أجلى، ثم لا يربطنى بالمستقبل رابط من أمل أو ولد. فلما جاءنى (رجاء) وجدتُنى أولد فيه من جديد؛ فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال، وأبسم إلى الوجود بثغر الاطفال، وأضطرب فى الحياة اضطراب الحى الكامل يدفعه من ورائه طمع، ويجذبه من أمامه طموح! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً فى جسمى، وبالأمل القوى ينبعث جديداً فى نفسى، وبالمرح الفتىّ يضج لاهياً فى حياتى، وبالعيش الكئيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى! فأنا ألعب مع رجاء بلُعبه، وأتحدث إلى رجاء بلغته، وأتبع عقلى هوى رجاء فأدخل معه دخول البراءة فى كل ملهى، وأطير به طيران الفراشة فى كل روض ثم لم يعد العمل الذى أعمله جديراً بعزمى، ولا الجهد الذى أبذله كفاء لغايتى، فضاعفت السعى، وتجاهلت النَّصَب، وتناسيت المرض، وطلبت النجاح فى كل وجه! ذلك لأن الصبى الذكى الجميل أطال حياتى بحياته، ووسَّع وجودى بوجوده، فكان عمرى يغوص فى طوايا العدم قليلاً قليلا ليمد عمره بالبقاء، كما يغوص أصل الشجرة فى الأرض ليمد فروعها بالغذاء

شغل رجاء فراغى كله، وملأ وجودى كله، حتى أصبح شغلى ووجودى! فهو صغيراً أنا، وأنا كبيراً هو؛ يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوى، وينام فأستريح، ويحلم فتسبح روحى وروحه فى اشراق سماوى من الغبطة لا يوصف ولا يحد!!

ما هذا الضياء الذى يشع فى نظراتى؟ ما هذا الرجاء الذى يشيع فى بسماتى؟ ما هذا الرضا الذى يغمر نفسى؟ ما هذا النعيم الذى يملأ شعورى؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة، وتدفق روح فى روح، وتأثير ولد فى والد!؟

***

ثم انقضت تلك السنون الأربع! فصوّحت الواحة وأوحش القفر، وانطفأت الومضة وأغطش الليل، وتبدد الحلم وتجهم الواقع، وأخفق الطب ومات رجاء!!

ياجبار السموات والأرض رُحماك!! أفى مثل خفقة الوسنان تبدّل الدنيا غير الدنيا، فيعود النعيم شقاء والملاء خلاء والأمل ذكرى؟! أفى مثل تحية العجلان يصمت الروض الغَرِد، ويسكن البيت اللاعب، ويقبح الوجود الجميل؟! حنانيك يالطيف! ما هذا اللهيب الغريب الذى يهب على غشاء الصبر ومَراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب؟ اللهم هذا القضاء فأين اللطف؟ وهذا البلاء فأين الصبر؟ وهذا العدل فأين الرحمة؟

إن قلبى ينزف من عينى عبرات بعضها صامت وبعضها مُعول! فهل لبيان الدمع ترجمان، ولعويل الثاكل ألحان؟ إن اللغة كونٌ محدود فهل تترجم اللانهاية؟ وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضرم الوارى؟ إن من يعرف حالى قبل رجاء وحالى معه يعرف حالى بعده! أشهد لقد جزعت عليه جزعاً لم يغن فيه عزاء ولا عظة! كنت أنفر ممن يعزينى عنه لانه يهينه، وأسكن الى من يباكينى عليه لأنه يكْبِره، وأستريح إلى النادبات يندبن الكبد الذى مات والأمل الذى فات والملك الذى رُفع!

لم يكن رجاء طفلا عاديا حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه؛ إنما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق! كان وهو فى سنه التى تراها يعرف أوضاع الأدب، ويدرك أسرار الجمال، ويفهم شؤون الأسرة، ويؤلف لى (الحواديت) كلما ضمنى وإياه مجلس السمر! كان يجعل نفسه دائما بطل (الحدوتة) فهو يصرع الأسود التى هاجمت الناس من حديقة الحيوانات، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ فى أيام المظاهرات، ويجمع مساكين الحى فى فناء الدار ليوزع عليهم ماصاده ببندقيته الصغيرة من مختلف الطير!

والهف نفسى عليه يوم تسلل إليه الحِمام الراصد فى وعكة قال الطبيب إنها (البرد)، ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها (الدفتريا)! لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة! ولكن ذكاءه وجماله ولطفه ما برحت قوية ناصعة، تصارع العدم بحيوية الطفولة، وتحاجُّ القدَر فى حكمة الحياة والموت!!

والهف نفسى عليه ساعة أخذته غصة الموت، وأدركته شهقة الروح، فصاح بملء فمه الجميل: (بابا! بابا!) كأنما ظن أباه يدفع عنه مالا يدفع عن نفسه!

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء، وللذين تطولوا بالمواساة فيك السلامة والبقاء!

احمد حسن الزيات

تجـــديد الاسلام

رسالة الأزهر فى القرن العشرين (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

(الأزهر) ، هذه هى الكلمةُ التى لا يقابلها فى خيال الأمة المصرية إلا كلمةُ (الهرم) . وفى كلتا اللفظتين يكمن سرٌّ خفىٌّ من أسرار التاريخ التى تجعل بعضَ الكلمات ميراثاً عقلياً للأمة ، يُنْسِى مادة اللفظ فيها ، ولا يُبقى منها إلا مادّةَ النفْس ، إذ تكون هذه الكلمات تعبيراً عن شىء ثابت ثبات الفكرة التى لا تتغير ، مستقرٍّ فى الروح القومية استقرارَه فى الزمن ، متجسم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بعادته دون ما يشاركه فى هذه المادة ؛ فالحجرُ فى الهرم الأكبر يكاد يكون فى العقل زماناً لا حجراً ، وفناً لا جسماً ؛ والمكانُ فى الأزهر يغيب فيه معنى المكان ، وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة ، توجد فى المنظور غير المنظور

وعندى أن الأزهر فى زمننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث : « مصر كنانة الله فى أرضه » ، فعلماؤه اليوم أسهم نافذة من أسهم الله يرمى بها من أراد دينه بالسوء فيُمسكها للهيبة ويرمى بها للنصر ، ويجب أن يكون هذا المعنى أولَ معانيهم فى هذا القرن العشرين الذى ابتلى بعلماء عشرين قرناً من الجرأة على الأديان وإهمالها والالحاد فيها

أول شىء فى رسالة الأزهر فى القرن العشرين ، أن يكون أهلُه قوة إلهية معدّة للنصر ، مهيأة للنضال ، مسددة للاصابة ، مقدرة فى طبيعتها أحسن تقدير ؛ تُشعر الناس بالاطمئنان إلى عملها ، وتوحى إلى كل من يراها الايمانَ الثابت بمعناها ؛ ولن يأتى لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصحيحة ، فلا يكون العلم تحرفاً ولا مهنة ولا مكسبة ، ولا يكون فى أوراق الكتب خيال (أوراق البنك) . . . . بل تظهر فيهم العظمة الروحانية آمرة ناهية فى المادة لا مأمورة منهية بها ، ويرتفع كل منهم بنفسه ، فيكون مقرر خُلُق فى الحياة قبل أن يكون معلم علم فى الحياة ، لينبث منهم مغناطيسُ النبوّة يجذب النفوس بهم أقوى مما تجذبها ضلالات العصر ؛ فما يحتاج الناس فى هذا الزمن إلى العالم — وإن الكتب والعلوم لتملأ الدنيا — وإنما يحتاجون إلى ضمير العالم

وقد عجزت المدنية أن توجد هذا الضمير ، مع أن الاسلام فى حقيقته ليس شيئاً إلا قانون هذا الضمير ، إذ هو دين قائم على أن الله لا ينظر من الانسان إلى صورته ولكن إلى عمله ؛ فأول ما ينبغى أن يحمله الأزهر من رسالته ضمائر أهله

والناسُ خاضعون للمادة بقانون حياتهم ، وبقانون آخر هو قانون القرن العشرين . . . فهم من ثمّ فى أشد الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلط على المادة بقانون حياته ليروا بأعينهم القوى الدنيئة مغلوبة ، ثم ليجدوا فى هذا الانسان أساس القدوة والاحتذاء فيتصلوا منه بقوتين : قوة التعليم وقوة التحويل . هذا هو سر الاسلام الأول الذى نفذ به من أمة الى أمة ولم يقم له شىء يصده اذ كان ينفذ فى الطبيعة الانسانية نفسها

***

ومن أخص واجبات الأزهر فى هذا القرن العشرين أن يعمل أول شىء لاقرار معنى الاسلام الصحيح فى المسلمين أنفسهم ، فان أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنسب لا غير . . . وما منهم إلا من هو فى حاجة إلى تجديد الاسلام . والحكومات الاسلامية عاجزة فى هذا بل هى من أسباب هذا الشر ، لأن لها وجوداً سياسياً ووجوداً مدنياً . أما الأزهر فهو وحده الذى يصلح لاتمام نقص الحكومة فى هذا الباب ؛ وهو وحده الذى يتممه ما تعجز عنه ؛ وأسبابُ نجاحه مهيأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزّعامة الاسلامية ، وكانت فيه عند المسلمين بقيةُ الوحى على الأرض ، ثم كان هو صورة المزاج النفسى الاسلامى المحض . بَيْدَ أنه فرّط فى واجب هذه الزعامة وفقد القوة التى كان يحكم بها وهى قوة المثل الأعلى التى كانت تجعل الرجلَ من علمائه كما قلنا مرة : إنساناً تتخيّره المعانى السامية تظهر فيه بأسلوب عملى فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة مُنتزَعة من مثالها مشروحة بهذا المثال نفسه . والعقيدةُ فى سواد الناس بغير هذا المثل الأعلى

(١) لم نتكلم فى هذه المقالة عن اللغة والأدب وتفصيل علوم الأزهر لأن هذه هى مادة الأزهر لا رسالته الجديدة فى رأينا

هى أول مغلوب فى صراع قوى الحياة

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارهم إلى علماء الأزهر فيتّبعونهم ويتأسّون بهم ويمنحونهم الطاعة وينزلون على حكمهم ويلتمسون فى سيرتهم التفسير لمشكلات النفس، ويعرفون بهم معنى صغر الدنيا ومعنى كبر الأعمال العظيمة؛ وكان غنى العالم الدينى شيئاً غير المال بل شيئاً أعظم من المال إذ كان — يجد حقيقة الغنى فى إجلال الناس لفقره كأنه مُلك لا فقر. وكان زُهده قوة حاكمة فيها الصلابةُ والشدةُ والهيبةُ والسموّ وفيها كلّ سلطان الخير والشر لأن فيها كلّ النزعات الاستقلالية؛ ويكاد الزهدُ الصحيح يكون هو وحده القوة التى تجعل علماء الدين حقائق مؤثرة عاملة فى حياة الناس أغنيائهم وفقرائهم، لا حقائق متروكة لنفسها يوحِش الناسَ منها أنها متروكة لنفسها

***

وعلماء الأزهر فى الحقيقة هم قوانين نفسية نافذة على الشعب، وعملُهم أردّ على الناس من قوانين الحكومة، بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جرت الأمور على عِلَلِها وأسبابها؛ فيجب عليهم أن يحققوا وجودهم وأن يتناولوا الأمة من ناحيـة قلوبها وأرواحها، وأن يُعدّوا تلاميذهم فى الأزهر كما يُعدون القوانين الدقيقة لا طلاباً يرتزقون بالعلم

أين صوتُ الأزهر وعملُه فى هذه الحياة المائجة بما فى السطح وما فى القاع . . . وأين وحىُ هـذه القوة التى ميشقُها أن تجعلَ النبوّة كأنها شىء واقع فى الحياة المصرية لا خبرٌ تاريخى فيهـا . ؟

لقـد أصبح إيمانُ المسلمين كأنه عادةُ الايمان لا الايمان نفسـه، ورجع الاسلامُ فى كتبه الفقهية وكأنه أديان مختلفة متناقضة لا دين واحد . فرسالة الأزهر أن يجدد عمل النبوة فى الشعب، وأن ينفى عمل التاريخ فى الـكتب، وأن يبطل عمل الوثنية فى العادات، وأن يعطى الأمةَ دينها الواضح السمح الميسر وقانونها العملى الذى فيه سعادتُها وقوتُها

ولا وسيلة إلى ذلك إلا أن يكون الأزهر جريئاً فى قيادة الحركة الروحية الاسلامية، جريئاً فى عمله لهذه القيادة، آخذا بأسباب هذا العمل، ملحاً فى طلب هـذه الأسباب، مصراً على هذا الطلب . وكل هذا يكون عبثاً إن لم يكن رجال الأزهر وطلبته أمثلةً من الأمثلة القوية فى الدين والخلُق والصلابة لتبدأ الحالة النفسية فيهم، فانها إن بدأت لا تقف؛ والمثل الأعلى حاكم بطبيعته على الانسانية، مطاعٌ بحكمه فيها، محبوبٌ بطاعتها له

والمادة المطهِّرة للدين والأخلاق لا تجدها الأمة إلا فى الأزهر، فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة باظهار عملها لا بالصاق الورقة المكتوب فيها الاسم على الزجاجة . . .

ومن ثم يكون واجب الأزهر أن يطلب الاشراف على التعليم الاسلامى فى المدارس وأن يدفع الحركة الدينيـة دفعاً بوسائل مختلفة؛ أولها أن يحمل وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة فى جميع مدارسها، من مدرسة حرية الفكر . . فنازلاً؛ والأمة الاسلامية كلها تشدُّ رأى الأزهر فى هـذا . وإذا نحن استخرجنا التفسير العملى لهذه الآية الكريمة: «ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» دلّتنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية فى العمل، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية فى الدعوة

العلماء ورثة الأنبياء؛ وليس النبى من الأنبياء إلا تاريخ شدائد ومحن، ومجاهدة فى هداية الناس، ومراغمة للوجود الفاسد، ومكابدة التصحيح للحالة النفسية للأمة . فهذا كله هو الذى يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط

***

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق، وأصبح وجوده هو المعنى المتمم للحكومة المعاونُ لها فى ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطتِها وأمنِها ورفاهتها واستقرارها — اتجهت طبيعتُه الى أداء رسالته الـكبرى للقرن العشرين بعد أن يكون قد حقق الذرائع الى هذه الرسالة من فتح باب الاجتهاد وتنقية التاريخ الفقهى وتهذيب الروح الاسلامى والسموّ به عن المعانى الكلامية الجدلية السخيفة، ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكتنة فيه لهذه العصور العلمية الأخيرة؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوة التى تمسك الاسلام على سنته بين القديم والجديد، لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك؛ وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربى بكتبه ودعاته ومبعوثيه من حاملى علمه ورسل إلهامه

أما تلك الرسالة الكبرى فهي بث الدعوة الاسلامية في أوربا وأمريكا واليابان، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين في ألسنة أزهرية مُرهَفة مصقولة لها بيانُ الأدب ودقةُ العلم واحاطةُ الفلسفة، وإلهامُ الشعر، وبصيرةُ الحكمة، وقدرةُ السياسة؛ ألسنة أزهرية لا يوجد الآن منها لسانٌ واحد في الأزهر، ولكنها لن توجد إلا في الأزهر؛ ولا قيمة لرسالته في القرن العشرين إذا هو لم يوجدها فتكون المتكلمة عنه والحاملة لرسالته. وما هذه البعثات التي قرر الأزهر ابتعاثها إلى أوربا إلا أول تاريخ تلك الألسنة

إن الوسيلة التي نشرت الاسلام من قبل لم تكن أجنحة الملائكة ولا كانت قوة من جهنم؛ ولا تزال هي هي التي تنشره، فليس مستحيلا ولا متعذرا أن يغزو هذا الدين أوربا وأمريكا واليابان كما غزا العالم القديم. ولم يكن السلاح من قبل إلا طريقة لايجاد الاسلام في الأمة الغريبة عنه حتى إذا وُجد تولَّى هو الدعوةَ لنفسه بقوة الناموس الطبيعي القائم على أن الأصلح هو الأبقى، وانحازت اليه الانسانية لأنه قانونُ طبيعتها السليمة، ودين فطرتها القوية، وقد ظل الاسلام ينتشر ولم يكن يحمله إلا التاجر كما كان ينتشر وحامله الجيش؛ فليس علينا إلا تغيير السلاح في هذا العصر وجعله سلاحا من فلسفة الدين وأسرار حكمته. فهذا الدين كما قلنا في بعض كلامنا أعمالٌ مفصَّلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يعطي الحياة في كل عصر عقلها العَمَلي الثابت المستقر تنظِّم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة، ويدعُ للحياة عقلها العمليَّ المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى. وهذه هي حقيقة الاسلام في أخص معانيه لا يغني عنه في ذلك دين آخر ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدبٌ ولا علم ولا فلسفة كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور بازاء الشمس نبع النور في السماء

ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الاسلام في تلك الأمم ما يستمر، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت، والثبات يوجد ما يدوم. وكأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا في قوله: نضَّر الله امرءا سمع مني شيئا فبلّغه كما سمعه، فربَّ مُبلَّغ أوعى له من سامع

أما والله إن هذا المبلَّغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدق المعنى إلا أوربا وأمريكا في هذا الزمن العلمي إذا نحن عرفنا كيف نبلغ

أنا مستيقن أن فيلسوف الاسلام الذي سينتشر الدين على يده في أوربا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر، وما كان الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهي إلى هذه الغاية، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الأمم من آداب الاسلام وأعماله ثم مخاطبة الأمم بأفكارها وعواطفها والافضاء من ذلك إلى ضميرها الاجتماعي فان أول الدين هناك أسلوبُه الذي يظهر به

* * *

هذه هي رسالة الأزهر في القرن العشرين ويجب أن يتحقق بوسائلها من الآن؛ ومن وسائلها أن يُمالئ بها لتكون مؤتلفاً عليه. ويحسن بالأزهر في سبيل ذلك أن يضم إليه كل مفكر إسلامي ذي إلهام أو بحث دقيق أو إحاطة شاملة؛ فتكون له ألقاب علمية يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ثم يستعين بعلمهم وإلهامهم وآرائهم. وبهذه الألقاب يمتد الأزهر إلى حدود فكرية بعيدة ويصبح أوسع في أثره على الحياة الاسلامية ويحقق لنفسه المعنى الجامعي

وفي تلك السبيل يجب على الأزهر أن يختار أياماً في كل سنة يجمع فيها من المسلمين (قرش الاسلام) ليجد مادة النفقة الواسعة في نشر دين الله. وليس على الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسط يده، فما يحتاج هذا التدبير لأكثر من إقراره وتنظيمه وإعلانه في الامم الاسلامية ومواسمها الكبرى وخاصة موسم الحج. وهذا العمل هو نفسه وسيلة من أقوى الوسائل في تنبيه الشعور الاسلامي وتحقيق المعاونة في نشر الدين وحياطته، وعسى أن تكون له نتائج اجتماعية لا موضع لتفصيلها، وعسى أن يكون (قرش الاسلام) مادة لأعمال إسلامية ذات بال وهو على أي الأحوال صلة روحية تجمل الأزهر كأنه معطيه لكل مسلم لا آخذه.

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر في القرن العشرين اهتداء الأزهر إلى حقيقة موضعه في القرن العشرين « وجاءك في هذه الحق وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين ».

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

النهضات القومية العامة*

فى أوربا وفى الشرق

للدكتور عبد الرزاق السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

تمهيد:

دعتنى لجنة الثقافة بدار المعلمين لالقاء محاضرات عامة، فترددت فى اختيار موضوع هذه المحاضرات، ذلك أنى رجل أشتغل بالقانون، والناس لا يرحبون كثيراً لا بالقانون ولا برجال القانون، وكيف يستسيغ الناس القانون، وهو جاف لا طلاوة فيه، أو ترحب برجال القانون، وهم رجال صناعتهم الخوض فى المنازعات، فان لم توجد خلقوها خلقا؟ هذه هى سمعة رجال القانون عند الجمهور، ولا أحاول أن أدافع عنهم، وإن كنت منهم، فانى أخشى أن ينازعون حق النيابة عنهم والتحدث باسمهم. لذلك آثرت أن أتجرد الليلة عن هذه الصفة، وأن أتقدم اليكم بموضوع لا شأن له بالقانون، واخترت أن يكون موضوعى عن النهضات القومية فى أوربا وفى الشرق

ولست أزعم أننى توفرت على دراسة موضوعى دراسة دقيقة، فان الدراسة الحق لهذا الموضوع تقتضى الخوض فى فلسفة التاريخ والاجتماع، مما أعفيكم منه، كما أعفيكم من سماع الأحاديث القانونية الجافة. لذلك ستروننى هذه الليلة أمس موضوعى مساً خفيفاً، فى رفق وهوادة، محاذرا أن أثقل عليكم أو أن أثقل على نفسى، راجياً العذر إذا قصرت فى التعمق، فان الغرض الأول الذى توخيته من هذه المحاضرات، ليس هو الغرض العلمى. بل هى الرغبة فى استخلاص بعض الدروس للشعوب الشرقية فى نهضاتها الحديثة، فى ضوء التجارب التى مرت بها الأمم الغربية

وما دمت سأتكلم فى النهضات القومية، وما دامت النهضة تقوم على روابط، فانى أبدأ بتحديد معنى الرابطة، تمهيداً للكلام فى النهضات القومية

الرابطة وحدة تجمع طائفة من الناس، وتقرب ما بينهم، وتميزهم من الطوائف الأخرى، فالرابطة إذن لها وجهان: وجه إيجابى، هو ذلك التقريب، وكلما توثقت أواصره كان فى ذلك الخير كله. ووجه سلبى، هو ذلك التنافر والتباعد ما بين طائفة وأخرى، وكلما أغرق فيه كان تعصباً، والتعصب كريه مذموم

ولا بد من وجود الروابط فى الجمعيات البشرية، وتفرق الناس شيعاً وأحزاباً. نعم لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، ولكانت هناك رابطة واحدة تربط الناس جميعاً، هى رابطة الانسانية، ولكن ذلك المثل العالى لم يتحقق حتى الآن، وقد لا يتحقق إلى مدة طويلة، بل قد لا يتحقق أبداً، لذلك يجب أن نواجه الأمر الواقع، وأن ننظر على أى أساس يتميز الناس أمماً وشعوباً

ولنبدأ باستعراض التاريخ استعراضاً سريعاً، لنستخلص منه الروابط المتعاقبة التى ربطت الجمعيات البشرية فى أوربا، منذ العصور الوسطى إلى الآن. إن المستعرض لتاريخ الغرب يستطيع أن يقرر أن الجمعيات البشرية قد تقاربت وتباعدت، على أسس اختلفت باختلاف مراحل التاريخ. ففى العصور الوسطى كان الأساس هو الدين، إذ تجمعت الشعوب الغربية وقامت وحدتها على الدين المسيحى، ثم أخذت رابطة الدين تنحل شيئاً فشيئاً، وأخذت تحل محلها رابطة الوطن، وما زالت أواصر الوطنية تتماسك، ثم تتوثق، حتى قوى التعصب لها، وحتى قامت الحروب ما بين الشعوب المختلفة فى الوطن وإن اتحدت فى الجنس، وبقى الأمر كذلك حتى مستهل القرن التاسع عشر، إذ قويت رابطة الوطن بعد نشوب الثورة الفرنسية وحروب نابليون، ثم أخذت رابطة أخرى فى الظهور، رابطة تقوم لا على فكرة الوطن ولا على فكرة الجنس، بل على فكرة الكفاح ما بين الطبقات، ووجوب سيادة طبقة العمال، وبهذه الرابطة نادى الاشتراكيون، وأخذ أمر الاشتراكية يقوى شيئاً فشيئاً، ومذاهبها تتنوع وتتشعب، حتى الحرب الكبرى، إذ استفحل شأن الاشتراكية بارتماء الروسيا فى أحضان البلشفية.

* المحاضرة الاولى من سلسلة المحاضرات التى ألقاها الأستاذ السنهورى فى مدينة بغداد فى بهو أمانة العاصمة فى ٢٣ مارس سنة ١٩٣٦

على أن رابطة الوطن ، وقد وقفت إلى جانبها رابطة أخرى مقاربة لها هى رابطة الجنس ، لم يفتر نشاطها ، بل نزلت إلى ميدان النضال . وها نحن اليوم نشهد عراكاً عنيفاً ما بين رابطتى الوطن والجنس من جهة ، ورابطة الطبقات من جهة أخرى

هذا بيان اجمالى عن الروابط التى تعاقبت على أوربا منذ العصور الوسطى إلى اليوم : من رابطة الدين ، إلى رابطة الوطن ، إلى رابطة الجنس ، إلى رابطة الطبقات ، ونحن نفصل الآن ما أجملناه

١ – العصور الوسطى : رابطة الدين

قلت إن الشعوب الأوربية كانت تجمعها فى العصور الوسطى جامعة الدين ، وكانت الدولة لا تقوم على القومية أو الوطنية فى تلك العصور ، بل كانت الدولة والقومية منفصلتين إحداهما عن الأخرى منذ العصور القديمة ، فقد كانت اليونان قومية واحدة تتنازعها دول متعددة ، وكانت الرومان قوميات متعددة تندمج فى دولة واحدة . ولما جاءت العصور الوسطى تجمعت الشعوب الأوربية فى ظل الدين المسيحى ، يقود زمامها سلطانان : سلطة روحية هى سلطة البابا ، وسلطة زمنية هى سلطة الأمبراطور . واستندت الكنيسة إلى السلطة الزمنية دهوراً طوالا ، فان المسيحية كان قد اشتد كاهلها فى ظل الامبراطورية الرومانية ، إذ بعد أن ناوأتها هذه الامبراطورية زمناً طويلا ، واضطهدت معتنقيها ، وسامتهم الخسف والعذاب ، تغلبت قوة الايمان ، وانتصرت المسيحية ، واتخذتها الأمبراطورية الشرقية ديناً رسمياً للدولة

ولما سقطت الأمبراطورية الرومانية شعرت الكنيسة بحاجتها إلى سلطة زمنية تستند اليها ، وفى المثل الأعلى للشعوب الغربية هو أن تتجمع فى ظل الكنيسة . وقد تحققت هذه الأمنية إلى حد كبير فى آخر القرن الثامن ، وقام بتحقيقها شارلمان ، فقد وحد غرب أوربا بعد أن أخضعها لسلطانه ، وتوجه البابا ليو الثالث فى سنة ٨٠٠ فى كنيسة القديس بطرس ، امبراطورا على العالم المسيحى ، وخليفة للقياصرة من الرومان ، وأعاد الأمبراطور أوتو الجرمانى وحدة العالم المسيحى مرة أخرى فى القرن العاشر ، أما الكنيسة نفسها فقد كان ظلها ينبسط على العالم المسيحى ، يحقق وحدة هذا العالم ، وقد كان لها أعوان منبثون فى كل قطر وبلد ، يؤيدون سلطانها ، وينفذون ارادتها ، وسلاح الكنيسة إذ ذاك هو الغفران والحرمان ، تغفر لمن تشاء ، وتحرم من تشاء ، فكلمتها نافذة مطاعة ، والعالم المسيحى ينظر اليها رمزاً لوحدته

وبقيت الرابطة الدينية قوية متينة دهوراً طوالا ، ثم أخذت فى الانحلال ، ويرجع السبب فى انحلالها إلى الحروب الطويلة التى نشبت ما بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، وإلى اتصال العالم المسيحى بالعالم الاسلامى بعد انقضاء الحروب الصليبية ، مما خفف من حدة التعصب الدينى ، وإلى الاصلاح الدينى الذى كان من شأنه أن يشق العالم المسيحى إلى كثلكة وبروتستانتية ، وأخيراً ، وبنوع خاص إلى عصر النهضة فى العلوم والفلسفة ، تلك النهضة التى افتتحت بها العصور الحديثة فى أوربا ، فبدد نور العلم ما كان قد تلبد من غياهب التعصب ، وانقشعت ظلمات الجهالة ، وميز الناس بين الروابط الدنية والروابط الدينية ، فحكموا فى الأولى عقولهم ، وفى الأخرى ضمائرهم ، وأعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

٢ – العصور الحديثة : رابطة الوطن ورابطة الجنس

وننتقل الآن من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية ، من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، وقد بدأت هذه العصور فى أوربا منذ القرن السادس عشر ، وبدأت معها رابطة الوطن تحل محل رابطة الدين ، وقد كان يمنع من توثق رابطة الوطن فى الماضى أمران : (الأمر الأول) رابطة الدين وقد رأينا كيف تفككت هذه الرابطة . (الأمر الثانى) شيوع النظام الاقطاعى فى الشعوب الأوروبية ، وقد كان من شأن هذا النظام أن يفكك سلطان الدولة ، وأن يوزعه بين النبلاء ، فلم تكن تقوم للدولة ولا للقومية قائمة فى ظل هذا النظام . ثم أخذ يزول شيئاً فشيئاً ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تقدم التجارة والصناعة ؛ مما جعل طبقة التجار والصناع وهى الطبقة الوسطى ذات شأن كبير . فأضعفت من سلطان الأرستقراطية والنبلاء ، وحلت البرجوازية التجارية والصناعية محل الأرستقراطية النبيلة ، واستندت اليها

السلطة المركزية ، واستعانت بها فى توطيد سلطانها وهدم سلطان النبلاء

وغرس تقدم التجارة والصناعة عند الأمم الغربية حب الاستعمار سعياً وراء أسواق جديدة للتجارة ، أو جرياً وراء الحصول على المواد الأولى للصناعة ، وقويت نزعة الاستعمار عند الدول الغربية الكبرى ، وتنافست ، فقامت الحروب بينها ، وزادت كل أمة شعوراً بقوميتها ، وهكذا نرى أن الاستعمار كان من شأنه أن يقوى الوطنية ، وأن يذكى نار التعصب للقومية

وقد بلغت رابطة الوطنية أوجها من القوة بعد نشوب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، وبقيت قوية عنيفة طوال القرن التاسع عشر ، رغماً عن حركة الرجعية التى رفع لواءها مؤتمر فينا . وأخذت القوميات التى لم تستكمل استقلالها تكافح فى سبيل هذا الاستقلال ، وخرجت منتصرة من هذا الكفاح . فاستقلت اليونان عن الدولة العثمانية ، والبلجيك عن هولندا ، وإيطاليا عن النمسا ، وأخفقت بولونيا والمجر ، ولم يقدر لهما النجاح إلا بعد الحرب الكبرى ، واستقلت بعض ولايات البلقان ، وتكونت الأمبراطورية الألمانية ، بعد أن اصطدمت القومية الألمانية بالقومية الفرنسية ، وجر هذا الاصطدام إلى حروب دامية وأهوال

على أن تقدم الصناعة بنوع خاص ، لاسيما فى القرن التاسع عشر ، كان له أثران خطيران غير تقوية روح الوطنية والنزعة الاستعمارية . (الأثر الأول) تقويته روح الديمقراطية ، التى بدأ غرسها الثورة الانجليزية ، وأنبتتها الثورتان الأمريكية والفرنسية . وللديمقراطية حديث طويل ، يصح أن يكون موضوعاً مستقلاً لسلسلة أخرى من المحاضرات . (الأثر الثانى) غرسه روح الاشتراكية ، وهنا نرى عجباً . فان الصناعة ، التى قوت رابطة الوطنية ، أوجدت إلى جانبها رابطة أخرى مناقضة لها كل المناقضة ، هى رابطة الطبقات . إذ قويت طبقة العمال بفضل تقدم الصناعة الكبير ، وأخذت تشعر بقوتها ، وتجمعت كتلاً كتلاً ، وسرى روح التفاهم ما بين العمال من جميع القوميات ، وصاح فيهم ماركس صيحته المشهورة : « أيها العمال من جميع أنحاء العالم ، هلموا إلى رفع لواء الاتحاد » ، وعارضت روح الطبقات روح الوطنية ، وبدأت الاشتراكية تدخل فى دور عملى ، ولم يعد بد للأمم الأوربية من أن تواجه هذه الحركة الجديدة

وقبل أن ننتقل من الوطنية إلى الاشتراكية ، نقف قليلا ، لنعرف معنى الوطنية التى أكثرنا من الاشارة اليها ، فقد تحاشينا تعريفها حتى الآن ، إذ ليس من السهل تحديد هذا المعنى الدقيق ، فالوطنية جامعة تقوم على روابط طبيعية وأخرى صناعية ، وأول الروابط الطبيعية هو وحدة الجنس والدم ، ويلى هذا وحدة الأقليم الجغرافى . ثم وحدة اللغة ، ويترتب على هذه الوحدات المختلفة وحدة التاريخ ووحدة التقاليد ، هذه هى الروابط الطبيعية التى تجمع ما بين أبناء شعب واحد ، وتجعل من هذا الشعب وطناً يشعر بذاته . فاذا اقترنت بهذه الروابط الطبيعية رابطة أخرى صناعية ، هى وحدة النظام السياسى ، فقد استكملت الوطنية ذاتيتها ، واستجمعت مقوماتها ومشخصاتها ، وإذا انضم إلى كل هذه الروابط وحدة الدين ، فقد بلغت الوطنية الأوج من عنفوانها وقوتها . على أن اجتماع كل هذه الروابط ليس ضرورياً لتكوين الوطن ، فوجود بعضها يكفى . والمهم أن يتوحد المكان الجغرافى والنظام السياسى ، ويتبع ذلك وحدة التاريخ ووحدة التقاليد . فقد تضم رقعة جغرافية قوماً مختلفى الجنس ، ولكن يتحد تاريخهم وتقاليدهم ، فاذا انضموا إلى نظام سياسى واحد كونوا وطناً ، وقد يتفرق أبناء الجنس الواحد بين أوطان متعددة ، كل وطن له مقوماته الذاتية من لغة وتاريخ وتقاليد ، وقد يتجمع القوم متحدين جنساً مختلفين ديناً ، ولا يمنع اختلاف الدين من تكون الوطن ، ومن هنا نرى أن رابطة الوطن لا تتفق تماماً مع رابطة الجنس والدم . فالرابطة الأولى فيها شىء من العوامل الصناعية تمززها وتقويها ، والرابطة الثانية ، رابطة الدم ، تقوم على الطبيعة ذاتها ، ولا تعارض بين رابطة الوطن ورابطة الجنس والدم ، حتى لو ضم الوطن الواحد أجناساً مختلفة . إلا إذا أسىء فهم الوطنية ، وأخذت لا على أنها صلة حب وتآلف بين هذه الأجناس ، بل صلة كراهية ومقت لكل قومية أخرى

(يتبع)

عبد الرزاق السنهورى

صور من القرن الثامن عشر

جاكومو كازانوڤا

جوّاب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن الثامن عشر فى أوربا عصر الخفاء والدعوات السرية ، والثورات الفكرية والاجتماعية ؛ وكان أيضاً عصر المغامرات الشائقة ، والحياة المرسلة الناعمة ، والعيش الخفض ، وازدراء التبعات ، عصر المرح والطرب الميسور

وليس معنى ذلك أن القرن الثامن عشر كان عصرا ذهبيا يزهو فيه المجتمع ويزدهر ؛ فقد كان فى الواقع عصر الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتوالية ؛ ولكنه كان عصر تطور فكرى عميق يبلغ المجتمع فيه ذروة أزمته الروحية والنفسية ، ويصل الى نوع من اليأس والاستهتار ، ويلتمس فى حياة النسيان والعيش المرح عزاء ومتنفسا

وقد تناولنا فى مقال سابق شخصية من أعجب شخصيات هذا القرن وداعية من أغرب دعاته ، ونعنى يعقوب فرنك أو البارون فون أوفنباخ [1] ورأينا كيف كان القرن الثامن عشر مهبط الدعاة والمغامرين من كل ضرب ، وكيف كان الخفاء يغمرهم ويثير من حولهم كثيرا من الدهشة والروع ، وكيف كان أولئك الدعاة المغامرون يخلبون ألباب مجتمعات هذا العصر برائع شخصياتهم ومظاهرهم ، وظرف خلالهم وشمائلهم ، وسحر مزاعمهم وأقوالهم ، وخفاء غاياتهم ووسائلهم

والآن نتناول شخصية أخرى من أعجب شخصيات هذا القرن أيضا ، ولكن من طراز آخر ، هى شخصية جاكومو كازانوڤا

كازانوڤا ! مغامر جرىء يخلق لنفسه من العدم شخصية باهرة ، ويدخل الحياة من باب ذهبى ، ويستقبلها بابتسامة خالدة ؛ ويفتتح المجتمع الرفيع بذكائه ودهائه وخبثه ، وظرف خلاله وشمائله ؛ ويرتفع فى ميدان المغامرة الى الذروة ، ويهبط الى الدرك الأسفل ؛ ويستمرىء أمتع المسرات والملاذ ، كما يتذوق أمر ضروب السقوط والفاقة ؛ وينحدر من فتوة باهرة ظافرة برفاهة العيش الساطع المرح ، الى كهولة حافلة بصنوف الخيبة واليأس ، ثم الى شيخوخة مظلمة مغمورة بائسة ، ثم الى عالم العدم فى قبر ناء مجهول

لم يكن كازانوڤا شخصية عظيمة تجدر بالخلود فى صحف التاريخ ؛ ولكنه كان شخصية من نوع خاص تنحرف بطرافتها وغريب أطوارها عن سلك المجتمع الوديع الهادىء ، ولكن تنفث فى نفس الوقت بقوتها واضطرام خلالها أينما حلت فى جوانب هذا المجتمع كثيرا من الفضول والسحر ، وتغزو بمرحها وأناقتها قلوب أولئك الذين يعبدون الجمال والظرف مهما اتخذوا من أثواب خلابة طائرة ؛ وقد كان كازانوڤا يتشح بأثواب خلابة طائرة ، ولكن مؤثرة ساحرة ، ولم يكن يهمه فى الحياة سوى النجاح مهما كان خلبا ، والظفر بتحقيق أهوائه مهما كانت ومهما كانت الوسائل والصور ؛ وقد ترك لنا فوق ذلك عن حياته الغريبة الحافلة مذكرات طلية شائقة ما زالت تعتبر الى يومنا تحفة ادبية فنية لها قيمتها ولها سحرها

ولهذا يظفر كازانوڤا من التاريخ بالذكر والتدوين ، وتغدو سيرته العجيبة سجلا حافلا لخلال عصره ، وتغدو موضوعا ومستقى لأقلام بارعة تخرج عنها المؤلفات الحافلة

***

ولد جاكومو كازانوڤا فى الثانى من شهر أبريل سنة ١٧٢٥ بمدينة البندقية ؛ وكان أبوه جايتانو ممثلا متواضعا أتى به الى البندقية والى المسرح قدر غريب ، ذلك أنه هام فى صباه بممثلة حسناء تدعى لافراجوليتا ، وترك من أجلها أسرته وموطنه بارما ، واحترف الرقص والتمثيل ؛ ثم نترهواها بعد ذلك وتركته الممثلة لتجرى وراء مغامرات أخرى ، فاستقى من بعدها حرفته ، والتحق للعمل بأحد مسارح البندقية ؛ وكان يقيم فى المنزل المواجه لمسكنه صانع أحذية يدعى فاروزى وزوجته مارسيا وابنتهما الحسناء جوفاما أو زانيتا ، فنشأت بين جايتانو وزانيتا

(1) راجع العدد ١٤١ من الرسالة

علائق غرامية ، ثم فر العاشقان ذات يوم وعقدا زواجهما فى فبراير سنة ١٧٢٤ ، وبعد عام ولد ابنهما چا كومو

ولم تلبث زانيتا أن حملها تيار المسرح ، فظهرت الى جانب زوجها ، وانفق الزوجان بضعة أعوام فى التجول من مدينة الى أخرى ومن مسرح الى آخر ؛ ثم أصيب الزوج أثناء وجودهما بالبندقية بمرض خطير أودى بحياته فى أواخر سنة ١٧٣٣

وكان جايتانو كازانوفا فتى وديعا حسن الخلال ، يؤثر الانزواء والعزلة ؛ أما زانيتا فقد كانت بالعكس فتاة ذكية ماكرة مضطرمة النفس والأهواء ؛ وكانت ممثلة بارعة تتمتع بكثير من الظرف والسحر ؛ وكانت دائمة التجول فى عواصم القارة ، من لندن الى بطرسبرج ، تحرز النجاح والظفر أينما حلت ؛ وكان مستقرها الأخير فى مدينة درسدن حيث عينها مختار سكسونية ممثلة مدى الحياة ، وهنالك أنفقت بقية حياتها حتى توفيت سنة ١٧٧٦

وكانت زانيتا قد رزقت غير چا كومو بثلاثة أبناء آخرين وابنتين ، وتركتهم جميعاً بالبندقية لدى والدتها مارسيا فاروزى ؛ وكانت مارسيا امرأة بسيطة جاهلة ولكن ذكية مخلصة ، فكرست كل نشاطها وعنايتها لتربية أحفادها ولاسيما كبيرهم چا كومو ؛ ويشير كازانوفا فى مذكراته إلى ذلك الحرمان من عطف أبويه ، ويقول لنا إنهما لم يكلماه قط ، ويشير أيضاً الى عطف جدته ورعايتها ويقول لنا إنه كان طوال حياته يذكرها بالحب والعرفان والاجلال

ونشأ چا كومو ضعيفاً سقيما ، ولكن تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة ؛ وكان للأسرة صديق من أعيان المدينة يدعى جورجو بافو ، فاهتم بأمر الصبي العليل ؛ وكان بافو جوادا طيب القلب ، ولكن فاسد الخلال والسيرة ؛ وكان شاعرا ، ولكن شعره يفيض تهتكا وفجورا ؛ فنصح بارسال الصبي الى بادوا ليتعلم فى معاهدها ويستفيد من هوائها ؛ وكانت زانيتا والدة چا كومو يومئذ فى البندقية ، فنزلت عند هذا النصح ، وحملت چا كومو الى بادوا ، ورتبت مقامه هنالك ؛ وأقام چا كومو مدى حين عند امرأة سلافية ، ولكنه ما لبث أن عاف المكث لديها لسوء المعاملة ورداءة المسكن والطعام ، ثم نقل على أثر ذلك الى منزل معلمه الأب جوزى ، فارتاحت نفسه لمقامه الجديد ، وأقام لدى أستاذه منعما مكرما

وقضى كازانوفا بضعة أعوام عند معلمه ، ودرس قليلا من اللاتينية واليونانية والنحو . وكان تقدمه سريعاً حتى أن الأب جوزى ما لبث أن اختاره لمعاونته فى التدريس ؛ وكان كازانوفا قد ناهز يومئذ الخامسة عشرة ، وأخذت تبدو عليه أمارات الاضطرام الكامنة فى جوانحه والتى ورثها عن والديه ، فبدأ يقرأ الكتب المثيرة ، ويزعج معلمه بمختلف الأسئلة المحرجة ، ويحدج أخت معلمه بتينا — وهى فتاة فى نحو العشرين من عمرها — بنظرات ملتهبة . ولما انتهت دراسته الابتدائية ، دخل مدرسة الحقوق فى جامعة بادوا الشهيرة ، وأطلق لنفسه عنان الحرية ، وأخذ يغشى دور اللهو والميسر ، فانزعج معلمه ، وانزعجت جدته وبادرت إلى بادوا وصحبته معها إلى البندقية ، وهنالك استأنف دراسته

وفى البندقية تفتحت غرائزه وأهواؤه ، وانكب على صنوف اللهو ؛ ولكنه مع ذلك كان يتذوق دراسته وحياته العلمية ، وكان ذلك الفتى اليافع الذى يضطرم ظمأ إلى اللهو والمرح ، يضطرم فى نفس الوقت ظمأ إلى العرفان والدرس ؛ وكان فى الثامنة عشرة يأخذ بقسط حسن من الأدب والفلسفة والمبادئ العلمية ، ولم يكن خلال عبثه ولهوه ليغضى عن التفكير فى مستقبله ؛ فلم يمض سوى قليل على عوده إلى البندقية حتى استطاع أن ينتظم فى سلك رجال الدين وأن يحصل على وظيفة دينية صغيرة . أجل استهل كازانوفا حياته العملية قساً ، وهو الذى خاض فيما بعد غماراً من اللهو والفجور قلما يخوضها بشر ! ولم يكن ذلك منه ورعاً أو رغبة فى خدمة الدين ، ولكن الانضواء تحت لواء الكنيسة كان يومئذ وسيلة فريدة لأبناء الشعب الذين يطمحون إلى مستقبل ما ؛ وكان ذلك المنصب المتواضع الذى لا يحتم عليه الارتباط بعهد الكنيسة ، يفتح له كثيراً من الأبواب المغلقة ، ويحقق له كثيراً من المزايا التى تعاونه على التقدم فى سبيل الحياة

ولم يمض سوى قليل حتى استطاع كازانوفا أن يجوز إلى المجتمع الرفيع وأن يتعرف بكثير من الكبراء والنبلاء ؛ وكان بين هؤلاء ، غير صديقه وحاميه القديم بافو ، سيد يدعى مالبيرو وهو شيخ سابق ، وثرى منعم ، يعيش فى قصر فخم ، ويجمع حوله جمهرة من الخلان الظرفاء ، يتسامرون ويتحدثون عن اللهو

والنساء والحب ، كما يتحدثون عن السياسة والمسرح ؛ وأنى ماليبرو فى القس الفتى رفيقاً .ؤنساً فاصطفاه واتخذه سميره وخله الحميم ومعاونه على تنظيم حفلاته الأنيقة ؛ وكان كازانوفا فى الواقع يتمتع فى هذا الميدان بكثير من حسن الذوق والشمائل الرقيقة ، فيتقدم لخدمة السيدات برشاقة ويخلب ألبابهن بظرفه ، ويسبغ بحركاته وأحاديثه على الحفل كله مسحة من البهجة والرواء

وكانت البندقية يومئذ - فى منتصف القرن الثامن عشر - منزل اللهو والمرح ، تموج فى الليل بالمسارح ودور اللهو ، وتغمرها لمحة ساطمة من بهائها السابق ؛ وكان الحب يرفرف على أرجائها وتنساب القوارب النحيلة (١) فى شوارعها المائية تحمل أزواج المحبين تحت جنح الظلام وأضواء القمر ، وتفرع كؤوس الهوى فى كل ناحية ، ويسود الحبور والبهجة ؛ وكان كازانوفا يخوض هذه الغمار المرحة سعيدا منعماً ، ويستمرئ هذه المناظر البديعة التى تقدمها إليه المدينة التالدة ، فى ظل الرعاية التى يشمله بها صديقه وحاميه السيد ماليبرو

بيد أنه لم يلبث أن فقد هذه الرعاية . ذلك أنه كان للسيد ماليبرو صاحبة فتية حسناء تدعى تيريز ، وكان كازانوفا يرنو إليها ويحوم حولها ، ففى ذات يوم استطاع أن ينفرد بها فى أحد المخادع ، وبينا هو يبثها جواه ، إذ فاجأهما ماليبرو فانهال عليه ضرباً بعصاه ، وطرده من منزله شر طرد ، وفقد كازانوفا بذلك أكبر عضد ، وأقصى عن ذلك المجتمع الساطع الذى كان يغشاه ؛ وتولته على أثر ذلك نوبة من اليأس والكمد ؛ وكانت جدته قد توفيت قبل ذلك بقليل ، فأخذ يتصرف فى مقتنيات المنزل ويبددها ، واضطر الوصى على اخوته إلى التدخل ، ووصل الأمر إلى القضاء فقبض عليه وأودع السجن ؛ وفقد أثناء ذلك منصبه الدينى وأخرج من حظيرة الكنيسة ؛ ولما أطلق سراحه بعد ذلك بقليل ، شعر أن البندقية تضيق به وبعشاريعه وأنه لم يبق له فيها أمل أو مقام

وكانت أمه قد كتبت إليه توصيه بالسفر إلى أسقف كلابريا فهو صديق لها وفى وسعه أن يعاونه وأن يوصى به ؛ فعول عندئذ على السفر إلى رومه ، ولكن الأسقف كان قد غادرها إلى مقر وظيفته فى الجنوب ؛ وكانت نقوده القليلة قد نفدت ، وساءت حاله ، واضطر أن يلتمس العيش بأخس الوسائل ؛ وتعرف أثناء الطريق بتاجر يونانى يتاجر فى الزئبق ، واتفق معه على طريقة لغش الزئبق وتحصيل ثمنه مضاعفاً ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يكسب قدراً من المال ؛ ووصل أخيراً إلى مارتيرانو مقر الأسقف ، ولكنه شعر بآماله تتحطم حينما رأى حالة الأسقف الزرية من منزل قفر متهدم ، وبؤس ظاهر ، وعزلة قاتلة ؛ فارتد أدراجه إلى نابولى ومعه بقية من المال ؛ وهنالك بسم له الحظ ، وقضى بضعة أيام سعيدة ، تعرف خلالها بامرأة حسناء تدعى لوكوزيا وتوثقت علائقه معها بسرعة ، وكانت فى الواقع أول صاحبة حقيقية خضعت لسلطان هواه

ثم نراه بعد ذلك فى رومه يطرق الأبواب ويحاول أن يشق طريقه ؛ وقد كان عندئذ موفقاً إذ استطاع أن يلتحق بوظيفة فى حاشية الكردينال اكوافيفا ؛ وقضى حيناً فى رومه يستزيد من الدرس وينعم بصحبة لوكوزيا ، ويهيء لنفسه جواً من الرعاية والعطف بذكائه وذلاقته ورقة شمائله

على أن هذه الحياة الهادئة المستقرة لم تكن لتروق فتى مضطرم الجوانح مثل كازانوفا ، فقد كانت نفسه الوثابة الظمأى إلى المغامرة تحمله إلى آفاق أخرى ؛ وكان شبح المرأة يثيره ويلاهبه أينما وجد ؛ وسرعان ما لفت الأنظار بفضائحه ودسائسه الغرامية وتفاقم الأمر حينما اتهم باغراء سيدة تمت إلى بعض الأحبار بصلات وثيقة ؛ ففقد وظيفته ومركزه مرة أخرى ، ورأى نفسه مرغماً على مغادرة رومه فغادرها إلى قسطنطينية يحدوه دائماً ظمأ المغامرة وتدفعه طلعة التجول

ثم عاد إلى البندقية ولكن عاد إليها فى ثياب ضابط . ذلك أنه مر فى طريقه بالمعسكرات النمسوية والأسبانية ، وحصل على ترخيص بالانتظام فى سلك الجيش ، وقدر أنه يستطيع أن يخلق له فى ظل هذا الثوب حياة جديدة ، ولكنه لم يحرز ترقية نظراً لسوء سلوكه ، فخلع ثوبه العسكرى واشتغل مدى حين كاتباً فى مكتب محام ، ولكنه لم يكن طويلا إلى هذا المنصب الوضيع ؛ وأخيرا ذكر أنه يستطيع العزف على القيثارة مذ كان صبياً

(١) هى القوارب المعروفة بالجوندولا وهى وسيلة النقل الوحيدة داخل المدينة

عشر كلمات

مهداة إلى « الأستاذ الزيات »

للأستاذ علي الطنطاوي

— ١ —

قال الله تعالى : « يا أيها الذينَ آمنوا اصبروا وصابروا » « ولنبلُوَنَّكم بشيء من الخوفِ والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين » . « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » . « واستعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين » . « إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب »

— ٢ —

قال أبو سنان : دفنت ابني سناناً ، وأبو طلحة الخولاني جالس على شفير القبر ، فلما فرغت قال : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى . قال : حدثني أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ولد العبد قال الله للملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد

وعن أنس قال : اشتكى ابن لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج ولم يعلمه ، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيّأت شيئاً ونحّته في جانب البيت ، فلما جاء أبو طلحة ، قال : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح ؟ فظنّ أبو طلحة أنها صادقة ، ثم قرّبت له العشاء ، ووطّأت له الفراش ، فلما أصبح اغتسل ، فلما أراد أن يخرج أعلمته بموت الغلام ، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم أخبره ، فقال : لعلّه أن يبارك لكما في ليلتكما ، فجاءها تسعة أولاد كلهم قرأوا القرآن

— ٣ —

قال محمد بن خلف : كان لإبراهيم الحربي ابن ، وكان له إحدى عشرة سنة ، قد حفظ القرآن ، ولقنه من الفقه شيئاً كثيراً ، فمات ، فجئت أعزيه ، فقال لي : كنت اشتهي موته . قلت : يا أبا اسحق ، أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبيّ قد أنجب ، ولقنته الحديث والفقه ؟ قال : نعم ، رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت ، وكأن صبياناً بأيديهم القلال فيها الماء ، يستقبلون الناس يسقونهم ، وكأن اليوم حار شديد حره ، فقلت لأحدهم : اسقني من هذا الماء ، فنظر إليّ فقال : لا ، ليس أنت أبي ، فقلت : فأيش أنتم ؟ قال : نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا ، وخلفنا آباءنا نستقبلهم فنسقيهم الماء ، فلهذا تمنيت موته

— ٤ —

كتب سعيد بن حميد إلى محمد بن عبد الله : ليس المعزّى على سلوك السبيل التي سلكها الناس من قبله ، والمغيّ على السنة التي سنها صالحو السلف له ، وقد بلغني ماحدث من قضاء الله في أم الأمير ، فنالني من ألم الرزية ، وفاجع المصيبة ما ينال خدمه الذين يخصهم ما خصه من النعم ، ويتصرفون معه فيما تناوله الله به من المحن ، فأعظم الله للأمير الأجر ، وأجزل له المثوبة والذخر ، ولا أراه في نعمة عنده نقصاً ، ووفقه عند النعم للشكر الموجب للمزيد ، وعند المحن للصبر المحرز للثواب ، إنه هو الكريم

يدرس في بادوا ، فانتظم عازفاً في إحدى الفرق المتواضعة ؛ وفي ذات ليلة تعرف بسيد كبير وشيخ سابق يدعى براجادين في حفلة كان يعزف فيها ، وقدر أن أصيب هذا الشيخ في نفس الليلة بنوبة صرع ، وكان كازانوفا إلى جانبه في قاربه ، فهرع إلى غوثه واستدعى له طبيباً ، ولبث يعني به حتى شفي ، فعرف له براجادين هذه اليد ، وقربه إليه وأنزله بقصره الفخم وأجرى عليه النفقة الواسعة ، واستطاع كازانوفا في نفس الوقت أن يؤثر في مضيفه بمزاعمه في معرفة الغيب وضروب السحر ، وأن يكسب ثقته ، وأن يعود بفضل رعايته فيغزو ذلك المجتمع الرفيع الذي أقصي عنه مدى حين

« للبحث بقية » محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

الوهاب ، ورحم الله الماضية رحمة من رضى سعيه ، وجازاه بأحسن عمله ، ولو كانت السبل إلى الشخوص إلى باب الأمير سهلة ، لكان الله قد أجلّ الأميرَ عن أن يعزيه مثلى بالرسول دون اللقاء ، وبالكتاب دون الشفاه ؛ ولكن الكتاب لقاء من لا سبيل له إلى الحركة ، وقبول العذر عمن حيل بينه وبين الواجب

— ٥ —

لما حضرت الاسكندر الوفاة كتب إلى أمه أن اصنعى طعاماً ويحضره الناس ، ثم تقدمى اليهم ألا يأكل منه محزون ، ففعلت ، فلم يبسط أحد اليه يده ، فقالت : ما لكم لا تأكلون ؟ فقالوا : انك تقدمت الينا ألا يأكل منه محزون ، وليس منا إلا من أصيب بحميم أو قريب . فقالت : مات والله ابنى ، وما أوصى إلىّ بهذا إلا ليعزينى

— ٦ —

كتب ابن السماك إلى الرشيد يعزيه عن ابن له : أما بعد ، فان استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه ، أكثر من شكرك له حين وهبه فافعل ، فانه حين قبضه أحرز لك هبته ، ولو سلم لم تسلم من فتنته ، أرأيت حزنك على ذهابه ، وتلهفك لفراقه ؟ أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك ؟ أما هو فقد خلص من الكدر ، وبقيت أنت معلقاً بالخطر ؛ واعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت ، وإنما هى واحدة إن صبرت ، فلا تجمع الأمرين على نفسك

— ٧ —

قدم رجل من عبس ، ضرير محطوم الوجه على الوليد ، فسأله عن سبب ضرّه ، فقال بت ليلة فى بطن واد ولا أعلم على الأرض عبسياً يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيل فأذهب ما كان لى من أهل ومال وولد ، إلا صبياً رضيعاً ، وبعيراً صعباً ، فندّ البعير والصبى معى ، فوضعته واتبعت البعير لأحبسه ، فما جاوزت إلا ورأس الذئب فى بطنه قد أكله ، فتركته واتبعت البعير فاستدار ورمحنى رمحة حطم بها وجهى ، وأذهب عينى . فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد

فقال الوليد : إذهبوا به إلى عروة ليعلم أن فى الناس من هو أعظم بلاء منه ، وكان عروة بن الزبير أصيب بابن له وأصابه الداء الخبيث فى إحدى رجليه فقطعها ، فكان يقول : كانوا أربعة — يعنى بنيه — فأبقيت ثلاثة وأخذت واحداً ، وكن أربعاً — يعنى يديه ورجليه — فأخذت واحدة وأبقيت ثلاثاً ؛ أحمدك ، لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت أبقيت لقد عافيت . وشخص إلى المدينة فأتاه الناس يبكون ويتوجعون ، فقال : إن كنتم تعدوننى للسباق والصراع فقد أودى ، وإن كنتم تعدوننى للسان والجاه فقد أبقى الله خيراً كثيراً .

— ٨ —

وعزى موسى بن المهدى سليمان بن أبى جعفر عن ابن له فقال : أيسرك وهو بلية وفتنة ، ويحزنك وهو صلاة ورحمة ؟

وعزّى سهل بن هارون فقال : التهنئة على آجل الثواب ، أولى من التعزية على ما حلّ من المصيبة

وقال عبد الله بن الأهتم : مات لى ابن وأنا بمكة ، فجزعت عليه جزعاً شديداً ، فدخل علىّ ابن جُريج يعزينى ، فقال يا أبا محمد ، اسلُ صبرا واحتساباً ، قبل أن تسلو غفلة ونسياناً

وعزّى علىّ كرم الله وجهه الأشعث عن ابنه ، فقال : إن تحزن فقد استحقت ذلك منك الرحم ، وإن تصبر فان فى الله خلفاً من كل هالك ، مع أنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت آثم

— ٩ —

جزع رجل على ابن له فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له : هل كان ابنك يغيب عنك ؟ قال : نعم ، كان مغيبه عنى أكثر من حضوره . قال : فاتركه غائباً ، فانه لم يغب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم من هذه الغيبة

— ١٠ —

وكتب بعض الكتاب معزياً : لو كان ما عندك من أذى يشترى أو يفتدى ، رجوت أن أكون غير باخل بما تضن به النفوس ، وأن أكون ستراً بينك وبين كل ملم ومحذور ، فأعظم الله أجرك ، وأجزل ذخرك ، ولا خذل صبرك ، ولا جعل للشيطان حظاً فيك ولا سبيلا عليك

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

على الطنطاوى

٥ـ التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

لقد بلغنا من البحث ذلك المبلغ الذى يهيئ لنا أن نخلص إلى النتائج ، فقد شرحنا الأسباب التى أفضت بنا إلى تخريج متعلمين عاطلين لا عمل لهم ، ولا بيئة يمكن أن ينتفع فيها بما تعلموا ، وصورنا مجمل النتائج الاجتماعيـة التى تترتب على هذه الحال ، وطبقنا النظريات الاجتماعية فاستنبطنا منها صورة لما سوف يكون عليه مجتمعنا فى المستقبل القريب والنتائج السيئة التى ستظهر آثارها جلية واضحة فى عجزنا عن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة قوية الأركان ، وعطفنا من ثم على وصف صورة من أدبنا ووطنيتنا ، وعزونا كل النقائص إلى نظرية جديدة محصلها أن الانفصال عن ثقافتنا التقليدية كان سبباً فى أن نصبح ككائن حى لا معدة له ، يأكل ولا يهضم ، فتراكمت فى كيانه كل النفايات التى لا تلائم طبعه ولا تتفق ومزاجه ، وأن ذلك كان سبباً فى ألا تظهر له شخصية خاصة به ، وأصبح كَلاًّ على غيره بأن فقد استقلاله الذاتى فى الحياة

ويجدر بنا بعد ذلك أن نعين مم تتكون الثقافة التقليدية ، ليتيسر لنا أن نحدد البحث تحديداً منطقيا مقبولا ، فإن لكل ثقافة تقليدية اختصت بها أمة من الأمم مكونات تنتهى إلى أصول بعينها ؛ وعندى أن للثقافة التقليدية عنصرين : الأول عنصر عقلى ، والثانى عنصر معاشى ، وكلاهما موروث ؛ فالأول يتكون وراثة من اللغة والدين والتاريخ والأدب والفنون الخ ، والثانى يتكون وراثة من كل ما يتعلق بالأحوال المعاشية ، وهى فى مصر الزراعة وما يتعلق بها من المنتجات ، ومن أجل أن يكمل استقلال الفرد استقلالا عملياً فى الحياة ، ينبغى أن يتجه تنشيئه إلى أصل أساسى ، وبالأحرى إلى سياسة عملية ترمى إلى وصله بالعنصرين وصلا وثيقاً ، حتى يستطيع أن يمثل جميع ما يلقح به من مقتضيات الثقافة الحديثة ، فيكيفها على حسب ما تتطلبه حاجات ثقافته التقليدية ، وأن ينفى عن جسمه كل ما هو غير ملائم له ، فيظل سليما ؛ شأن كائن حى اتصف بكل ما تعده به حيوية مكتملة من الصفات الضرورية للحياة ، وتتكامل فى كيانه كل الأعمال المنظمة التى ترجع الى قدرة أعضائه على تنظيم وظائفها المتبادلة تنظيما دقيقاً يساعد الطبيعة على أن تفسح له فى الحياة مركزاً جديراً بما يتصف به من صفات ، وبما له من مقدرة على الاستقلال بذاته

تتصل مصر بثقافتين من أمجد الثقافات التى خلفها النوع الانسانى : ثقافة العرب : ديناً ولغة ؛ وثقافة المصريين : فناً وحياة ؛ ولا شك فى أن الثقافتين تمتزجان الآن فى المصريين امتزاجاً عظيما ، حتى ليتعين علينا أن نقول إن ما نعنى بالثقافة التقليدية ينحصر فيما ينتج مزج الثقافتين القديمتين من حالات تشعر بأن ماضينا مكون منها ، وأن دمنا ملقح بها ، وأن تصوراتنا وأخيلتنا ومشاعرنا وجماع ما فينا من صفات إنما تنعكس عنها وتنبعث منها . وكذلك إذا قلنا « المصرية » فانا لا نعنى بها شيئاً إلا مزيج تينك الثقافتين المجيدتين اللتين كونتا لنا على مر العصور تراثاً قوياً نستند اليه ، ودعامة مثلى لمجد ينتظرنا إذا نحن استوحيناهما واسترشدنا بوحيهما ، واتخذناهما أساسا نقيم عليه لمستقبلنا ، ولم نعزف عنهما شأننا الآن

وإذن يكون لنا من ثقافتنا التقليدية ناحيتان : الأولى ثقافة تزودنا بها اللغة العربية والدين الاسلامى ؛ وهذه الناحية تكون أكثر ما فينا من نزعات الأدب والعلم ؛ والثانية ثقافة تزودنا بها مصر القديمة ؛ وهذه بدورها تكون متجهنا الفنى والمعاشى ، ومنهما معا يتكون ذلك التراث الخالد الذى ندعوه ثقافة المصريين التقليدية

ولن يكون هذا البحث كاملا إلا إذا عرفنا قيمة اتصالنا بهذه الثقافة ومقدار ما نحتاج اليها فى تكوين نهضتنا الحديثة تكوينا نضمن معه الثمرة العملية التى ترجى من جيل جديد قادر على الكفاح فى الحياة ، والعمل المنتج الذى يعيننا على اقرار الحالات الاجتماعية على أساس ثابت ، وآمل أن أكون قد أفلحت بعض الشيء فى تصوير ذلك فى سياق هذا البحث

***

لا ريبة فى أن التعليم العام هو الأداة التى تمهد لنا سبيل

الاتصال بثقافتنا التقليدية ، ولقد وضح لنا حتى الآن أن السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا قد اضعفت من وسائل هذه الأداة اضعافا ظهر أثره جليا في كل مرافقنا ، بل وفي كل نواحي حياتنا عقلية ومادية

عمد الأوربيون منذ عصر النهضة الأدبية الحديثة إلى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا العماد الأول والسنادة العظمى في تلك النهضة . عمدوا إلى ثقافة اليونان وثقافة الرومان ، حتى لقد غالوا في ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في العلم وفي الأدب وفي الفن ، فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لهم مناص من احيائهما لتكونا الوصلة بينهم وبين ماض صبغ ثقافته حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص ؛ ولا تزال جامعات أوربا حتى اليوم تعنى العناية كلها بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً ، بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلا من أصول التثقيف العالي ، فلم كان ذلك ؟ ولأي من الأسباب الحيوية التي شمر بها الأوربيون في بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة ؟ إنها ترجع كما قلنا إلى أن الثقافة التقليدية هي الأصل الذي يجب أن يظل ثابتا في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي ، ليكون ملقحا للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة ، احتفاظا بالطابع الأصيل في الأمة ، ذلك الطابع الذي هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها ، وليكون في الوقت ذاته العدة في تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المنتحلة غير الأصيلة ، وتكييفها تكييفا يتفق ونزعاتها ومشاعرها وأخيلتها ، وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية . فهل اتبعنا في نهضتنا هذا السبيل القويم ؟ وهل كفل لنا التعليم الوصول إلى هذه الغايات العليا ؟

كلا . لم يكفل لنا التعليم شيئاً من هذا . وأقصد به التعليم بناحيتيه : الناحية التي تمثل وراثتنا عن العرب لغة ودينا ، وأعني بها الأزهر ، فانه لم يلقح بشيء من الثقافات الحديثة التي يجب أن يلقح بها لتكون له بمثابة الدم الجديد يجري في العروق القديمة . وكذلك لم تمن الناحية التي تمثل ثقافتنا الدخيلة : أي الثقافة الأوربية وأعني بها ناحية التعليم الزمني ، بأن تكون فينا تلك الفطرة التي تصلنا بثقافتنا التقليدية لتكون معملا حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا ، ويخرج منها مصبوغاً بصبغة مصرية أصيلة . ومثل الأزهر في ذلك كمثل كائن حي هضم ولم يأكل ، ومثل التعليم الزمني كمثل كائن حي أكل ولم يهضم . فناحية جائعة وناحية متخومة

لقد ظل اتصال الأزهر بذلك الجزء الذي يمثله من ثقافتنا التقليدية غير مكيف بمقتضيات العصور والحالات التي قامت خلالها وهو أقل تكيفاً بمقتضيات هذا العصر منه بمقتضيات كل عصر مضى . أما إذا كانت كلمة الثقافة تدل على تكييف الذهن تكييفاً تاريخياً أول شيء — ونقصد بالتكييف التاريخي خلق تصورات جديدة من تاريخ الأمم القديمة — فما من شك إذن في أن الأزهر لم يتصل بالثقافة التقليدية من ناحيتها التي تخلق هذا التصور ، وإنما اتصل بناحية من الثقافة التقليدية صدت التصورات عن الابتعاث في سبيل الابتكار . وكذلك ظل تعليمنا الزمني بعيداً عن الاتصال بثقافتنا التقليدية من جميع نواحيها تقريباً . ومن هنا ذلك الصدع المتنائي الذي نلحظه قائما بين الناحيتين

ولقد يخيل إلى أن ما مضينا فيه من بحث هذه الناحية كاف للبيان عما نقصده من ضرورة الاتصال بثقافتنا التقليدية من الوجهة العقلية . أما الوجهة الفنية الماشية ، وهي الناحية التي لها الأثر الأكبر في علاج الحالات الاجتماعية التي قامت حفافينا من الناحية الاقتصادية ، فتلك ما سوف أصور كيفية الاتصال بها تصوراً عملياً لأن ذلك هو الفرض الأول من بحثنا هذا

***

إذا كان ما قلنا صحيحاً من أن البطالة في مصر والتعليم أمران متصلان أشد الاتصال ، باعتبار أن أحدهما مرض والثاني علاج ، فالواجب يقضي علينا بعد أن أظهرنا أوجه الاتصال أن نبين عن الطريق العملي الذي يجعل العلاج ناجعاً في القضاء على الداء . ولما كانت ثقافتنا التقليدية من الوجهة الماشية هي الزراعة تحتم علينا بحكم الضرورة أن ننقل درجتي التعليم الأوليين ، أي الابتدائي والثانوي ، وهما الدرجتان التكوينيتان في مراحل التعليم ، من المدن الى القرى ، وأن نقيمهما على سياسة تختلف اختلافاً تاماً عن السياسة التي يجريان عليها الآن

تجري سياسة التعليم الآن في هاتين المرحلتين على أساس نظري بعيد عن أن يجعل لنا أي اتصال بثقافتنا التقليدية ، من

وجهتيها العقلية والماشية . وإنى لا أكون مغالياً إذا قلت إن هذه السياسة لا تصلنا بثقافة أوربا أيضاً بحيث تجعلنا قادرين على فهم ما ننقل منها فهماً صحيحاً مفيداً . وما قولك فى شاب يخرج من التعليم الثانوى جاهلاً بلغته العربية وأصولها وآدابها غير متصل بآداب دينه ، غير عارف بشىء من تاريخ بلاده ، وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر ، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحاً بأى من اللغتين الأوربيتين اللتين يتلقاهما فى مراحل ذلك التعليم ؟

أضف إلى ذلك أنه بجانب هذا يخرج من التعليم الثانوى غير متصل بشىء من ثقافة بلاده التقليدية من الوجهة الماشية ، غير متصل بطبيعة الأرض التى أنشأته أو بطرق استغلالها مشحون الذهن بنظريات وأوهام يتعذر معها أن يمايش الفلاح وأن يدرك شيئاً من سر حياته وتقاليده وخطراته ونفسيته . فكأننا بهذا التعليم نخلق من حوله جواً مصطنعا وبيئة عقلية غريبة عن طبعه ؛ فيصبح بذلك أداة عاطلة فى جسم الاجتماع وبزرة حية للتبرم من الحالات القائمة من حوله فى مرباه ، بل ومنشأ للقلق ومرتعا لغرس الافكار المتطرفة الخاطئة ؛ وعلى الجملة يكون موضعا خصبا لغرس بذور الشر والفساد ، والعمل على قلب النظم الاجتماعية طمعاً فى الحصول على نظم تلائم كفاياته وتتفق ومؤهلاته التى أهله لها التعليم . ذلك بأن كل عقلية لها تكوين خاص تنشد من طريقه دائماً البيئة التى ترضيها ، وعجز المتعلم العاطل عن الانتاج إنما يحمله بمقتضى موحيات عقله الباطن على أن يعمل على تكوين البيئة التى تلائمه متخذاً من النظم الاجتماعية التى نشأ فيها مادة يجرب فيها مقدار ما فى نفسه من قوة التحليل ، لا من قوة التشييد ، على خلق البيئة التى ترضيه ، والنظم التى توائم عقليته وكفاياته

إن الخطوة الأولى التى ندعو إليها وهى نقل درجتى التعليم الأولين من المدن إلى القرى ، لخطوة ضرورية فى علاج سياسة التعليم ، وهى الخطوة الأساسية فى وصل التعليم بثقافة البلاد التقليدية من الوجهة الماشية . أما الخطوة الثانية فتنحصر فى إقامة مدارس الحقول ، فتشيد المدرسة على أرض فسيحة تكفى لأن تكون ميداناً يتعلم فيه الطلاب طرق الزراعة العلميـة على القواعد الحديثة ، ويجب مع هذا أن تلغى الشهادة الابتدائية ويكتفى بشهادة التعليم الثانوى ، وأن يبدأ الطالب حياته التعليمية من الثامنة ، ويفرغ من تعليمه الثانوى بعد عشرين سنة ، فيخرج من المدرسة وله من العمر ثمانى عشرة سنة أو عشرون سنة . فاذا أراد أن يتخصص بعد ذلك فى التعليم العالى فله ذلك ولكن بعد أن يكون قد اتصل بثقافة بلاده التقليدية ، وقامت معلوماته على أساس عملى رشيد ، يكون إليه مرد رزقه إذا تخصص وعجز عن كسب رزقه الحلال .

هذا هيكل من الرأى يحتاج إلى شرح وجيز . فاننا لا نعنى أن تعلم الطلاب فى تلك المدارس الزراعة العمليـة يجب ألا يصل الطالب بالناحية النظرية ، وإنما نعنى أن يكون أساس التعليم فيها الزراعة العملية وما يتصل بها من العلوم ، وبجانب ذلك تعلم نظرى قائم فى أول الأمر على الاتصال بثقافة المصريين التقليدية من الوجهة العقلية ، مع العناية بأمر اللغات الأوربية عناية كبرى حتى يتيسر لنا الاتصال بثقافة العصر اتصالاً وثيقاً صحيحاً

أضف الى ذلك أن الطالب ينبغى أن يلقن كل ما يتصل بالانتاج الصناعى من الوجهة الزراعية ، فيخرج ملماً بطائفة من الصناعات المتصلة بمحصولات بلاده الزراعية عارفاً بسرها ووجهة الانتفاع بها . وإنى لن أغالى إذا قلت إن كثيراً من الذين ينجحون من أهل أوربا فى بلادنا أكثر اتصالا بثقافة بلادنا التقليدية من الوجهة الماشية من الطالب المتخرج فى كلية عليا من كلياتنا . وفى هذا سر نجاحه العملى وسر عطل شبابنا عن العمل . ولهذا يتحتم علينا أن ندعو الى نشر الصناعات ، ولكن الصناعات التى تتصل أول شىء بمنتوجاتنا الزراعية ، وأن نصدف عن غيرها لأنها لا تفيدنا شيئاً فى حياتنا الماشية أو تثبيت حالاتنا الاجتماعية المرتجة الشاذة . وبخاصة إذا وعينا أن دور التعليم على اختلاف نواحيها تخرج كل عام عدداً من المتعلمين تعليما غير عملى زائداً عن حاجة البلاد .

وإنما يجب أن يتجه التعليم فى الحقول إلى غاية أخلاقيـة ، محصلها أن يغرس فى طبيعة المتعلمـين تصور جديد فى شرف المهنة التقليدية التى ورثناها عن أسلافنا ، ألا وهى الزراعة . فان التلميذ يجب أن يضع يده فى كل عمل يمكن أن يؤديه الفلاح بنفسه ، وأن يتصل من طريق عضلاته بكل ما تتطلب مهنـة الزراعة من أعمـال جسمانيـة ، وأنه لا يرى فى

ذلك شيئاً خادشاً لعزته أو مذلا لنفسه

أورثنا الحكم التركي المشؤوم عادة احتقار الفلاح ، لأن كلمة « فلاح » كانت توازي عند التركي أحط ألفاظ الشتم وأشنع كلمات السباب . ولطول الأمد الذي اعتدنا أن نسمع فيه هذه الكلمة مؤدية ذلك المعنى غرس في طبيعة المصريين أنفسهم ، بطريق التكرار ومستوعيات العقل الباطن ، ميل إلى احتقار الفلاح واحتقار مهنته ، والاعتقاد بأن العمل اليدوي في الزراعة إنما هو عقاب نفسي مرهق للنفس خادش للذة . وأنت ترى أن الأعراب في مصر قد انتحلوا هذه العادة . فانك إذا سألت أعرابياً أفلاح أنت ؟ أجابك على الفور : « كلا ! أنا عربي ! » ولكن بنبرات تدل على أنه يعتبر الكلمة اعتداء على مكانته السامية ، وقد يكون من خشاش الناس ومن ذؤبان العرب ، مهامل الثياب قذر النظر والمخبر .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إنك تجد أن الفلاح إذا قضى خدمته العسكرية وسرح من الجيش أنف أن يعود إلى الحقل أو أن يحمل المحراث أو يقود الماشية ؛ فاذا عجز عن أن يكون شرطياً ، قضى وقته في القرية عاطلا أو محترفاً حرفة أخرى غير الزراعة ، فتجده نجاراً أو حداداً لا يملك قوت يومه . وقد يتطرف بعضهم في احتقار مهنة آبائه فيغشى المجالس مزداً على قيثارة ، لأنه كان في موسيقى الجيش ، مستجدياً بها ، كأنما هو يعتقد أن الاستجداء بالعزف على قيثارة أشرف من العمل في الحقول .

ولا شك في أن هذه الظاهرة قد أورثت نقصاً نفسياً يمكن تعليله علمياً ، ولكن ليس هنا مكان إيضاحه . ولكن ذلك لا يحول دون القول بأن هذه الظاهرة من السهل علاجها بأن نعود أولادنا الاعتقاد بشرف المهنة التي تربي جسومهم ، وعليها قامت مدنيتهم منذ أقدم العصور ، على أن نفهمهم أولاً أن لهم مدنية وماضيا جديرين بالاحترام

والمحصل أننا لن نخلص من نتائج البطالة إلا بالالتجاء إلى إقامة سياسة التعليم على قواعد جديدة أساسها الأول الرجوع إلى ثقافتنا التقليدية ، فنخرج رجالا مستقلين بأنفسهم يعرفون كيف يرجعون إلى حضن أمهم الأولى « مصر » إذا أرادوا الحياة سعيدة هنية . ومن أجل أن نصل إلى هذه النتيجة ينبغي لنا أن ننتحي أسلوباً معيناً ينحصر في تنفيذ الآتي :

أولا — جعل مدة التعليمين الابتدائي والثانوي عشر سنوات يمزج فيها التعليم النظري بالتعليم العملي الزراعي ، وأن يغرس في الطلاب روح الاعتقاد بشرف مهنة آبائهم التقليدية ، وأن يقترن هذا التعليم بتلقين الصناعات الزراعية وبخاصة ما يتعلق بالزراعة العملية منها

ثانياً — درس تاريخ العرب والمصريين درساً تحليلياً وافياً

ثالثاً — درس مبادئ العلوم والآداب العامة ، وهي الجهة التي تلقح بها عقولنا من الثقافة الحديثة

رابعاً — درس آداب العرب ومبادئ الدين العليا .

خامساً — درس عقائد المصريين القدماء وطرق معيشتهم وآثارهم وأعيادهم ، وعلى الجملة كل ما يتعلق بحياة الجماعة في مصر القديمة

وهنالك بجانب هذا أشياء يجب أن يهيأ الناشئ بمعرفتها ولكنها جميعاً تفاريع عمل هذه الأصول فلا محل لذكرها

فاذا تخرج الطالب وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرون أصبح على الحكومة له واجباً تؤديه ، هو أن تمنحه قطعة من أرضها المملوكة لها يؤدي لها فيها ثمناً ضئيلاً على أقساط طويلة ، وأن تمده برأس مال إن احتاج اليه يسدد مع ثمن الأرض ليكون عونه على إعداد عدته لحياة العمل والكفاح

هذا طريق الخلاص ، وهو وحده طريق القضاء على البطالة ، وإخراج جيل جديد منشأ على طرق عملية ، جيل مكافح عامل خال من آثار الأمراض الاجتماعية ، جيل يشعر بأنه مستقل في الحياة وأن له عزة الرجولة وشرف الانتساب إلى مصر الخالدة ، جيل ، هو جيل الاستقلال الحقيقي والعمل لمجد النيل

اسماعيل مظهر

قصة المكروب
كيف كشفه رجاله
ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

الدفتريا

بين واحد سمها الفرنسى ، وكاشف ترياقها الألمانى

— ١ —

فى عام ١٨٨٨ ألقى بستور من كفه المشارط والأنابيب ، ونفض يده من الأبحاث ، فقام تلميذه أميل رو Emile Roux فالتقط الذى ألقاه أستاذه ، وغمر يده فى الذى ترك سيده ، واتخذ لنفسه بحثاً مستقلاً . فلم يمض قليل من الزمن حتى اكتشف سمّاً غريباً يتحلب من بَشِيلات الدفتريا سمّاً تقتل الأوقية المركزة منه خمسة وسبعين ألف كلب كبير

وبعد هذا بسنوات قليلة ، بينا كوخ يخفّض من رأسه تحت وابل الشتائم والملامات التى صبها عليه من كانوا آمنوا بعلاج سله المزعوم ثم خُدِعوا فيه وجَنَوا منه الفشل والأحزان ، قام أحد تلاميذه ، وكان شاعراً ، تخفّف من إخفاق أستاذه كوخ بأن كشف فى دم الخنازير الغينية عن مادة غريبة إذا هى التقت بسم الدفتيريا ذهبت بشره وجعلته بَرداً على الناس وسلاما ، وكان اسم هذا الشاعر العالم أميل بارنج Emil Behring

اكتشف أميل الفرنسى سمّ هذا الداء ، واكتشف أميل الألمانى ترياقه ، فأحيا الأميلان الأمل فى أنفس الناس بعد أن أضاعه كوخ بنكبته الكبرى ؛ فعادوا ولو إلى حين يرجون أن تصبح المكروبات أصدقاء الانسان بعد أن كانت أعداءه ، وأن تصير لُعبات لا تضر ، يَتلهّى بها البُحّاث ويتسلون من سأم وعناء

قام هذان الشابان بتجاربَ أى تجاربٍ لاستقصاء هذا الداء ؛ قاما بها فى هلعٍ مجنونٍ ليخلّصوا أرواح البرايا . شقا طريقهما إلى غايتهما فى مجزرة لم تسمع الدنيا بمثلها . جزرا فيها عدداً لا يحصى من الخنازير الغينية ، جزراها ليخلّصا من الموت عدداً أكبر لا يحصى من الأطفال المساكين . فى الأمساء كانت معاملهم كميادين القتال فى الأزمان الخوالى ، حين كان الجند تُبقَر بطونهم وتقطّع أوداجهم بالحراب تارة والنبال تارة أخرى . ضرب رو Roux بأظفاره كالغول فى أطحلة الموتى من الأطفال ، ودار بارنج بين الدماء فى ظلام من الجهل دامس حتى اصطدم أنفه بباب انفتح له عن حقائق وضّاءة باهرة ما كانت لتخطر على بال الآلهة

ولكنهما دفعا عن كل تجربة ناجحة ثمناً غالياً : ألفَ تجربة فاشلة ، ولكن مع هذا ، وبرغم هذا ، قد اكتشفا الترياق

وما كان لهما أن يكتشفاه لولا أن سبقهما كشفٌ متواضع قام به فريدريك لُفلار Frederick Loeffler ، صياد المكروب الذى حمل على شفته شارباً ألمانيا حربيا علا واستطال حتى حجب بصره ، فكان إذا نظر فى المجهر نحّاه عن عينه ؛ وكان يعمل لُفلار إلى يمين أستاذه كوخ فى زمن البطولة الأولى حين كان يتصيد مكروب السل . ففى أوائل ذلك العقد التاسع من القرن الغابر كانت وطأة الدفتيريا شديدة جداً ، والدفتريا داء تشتد وطأته وتلين فى القرن الواحد مراراً . وامتلأت فى المستشفيات عنابر الأطفال بالمرضى ، وعلت أصوات أهليهم بنحيب لا فائدةَ منه تعود ولا نفع يُرجى ، وخرجت من تلك الحلوق الصغيرة سعلة تصحبها قرقرة تنذر بأن الاختناق قريب ، وتراءت وجوههم الصغيرة الزرقاء فى وساداتهم البيضاء وقد ازرقّت من فعل اليد الخفية التى عصرت حلوقهم وضغطت على رقابهم . ومشى الأطباء فى هذه الأروقة يسترون يأس القلوب ببشاشة الوجوه ، وساروا من سرير إلى سرير لا حول لهم ولا قوة إلا أن يدسّوا فى حلق طفل يختنق أنبوبة فى هذا الغشاء الذى يسد عليه منفذ الهواء يحاولون بذلك أن يفتحوا له منفذاً إلى رئتيه

وقذفت خمسة أسرة من كل عشرة بأحمالها إلى رواق الأموات . وكان فى أسفل الدار ، وكان به لُفلار يعمل بجدٍّ لا يفتر ، وهمة لا تضعف . كان يغلى مشارط ، ويحمى فى النار أسلاك البلاتين ، ويدخلها الى هذه الحلوق الجامدة من تلك الأجسام الهامدة التى أخفق الأطباء فى طلب الحياة لها ؛ ثم يخرجها منها وقد حملت مادة شهباء ، فاما أن يدخلها فى أنابيب رفيعة يسدّها بنُتافات من القطن بيضاء ، وإما أن يضع علها الأصباغ ثم ينظرها بالمجهر فيريه بَشِلاّت غريبة متنفخة الأطراف ، وقد تنقّطت وتخططت بصبغته الجميلة الزرقاء ،

وكشف عن هذه البشلة فى الحلوق جميعها ، وأسرع يطالع أستاذه كوخ عليها

لا شك أن كوخ أخذ بيد لفلار أخذا وهو يكشف عن هذه البشلة . وكأنى بك تسمع كوخ يقول له : « لا فائدة من النط إلى استنتاجات غير ناضجة ، يجب عليك أول شىء أن تُربّى هذا المكروب نقيا ، ثم عليك بعد ذلك أن تحقنه فى حيوانات ، فاذا هى اصيبت بعرض يشبه دفتريا الانسان تماما ، إذن .... »

كيف كان يضل لفلار والى جانبه هذا المتحذلق الشديد فى حذلقته ، هذا الحِذِر الغالى فى حذره ، طَلاَّبُ الحقيقة وسيد قنّاص المكروب ؟ كيف كان يضل لفلار والى جانبه هذا الداهيـة ينظر اليه ازورارا من نظّارته التى ما كانت تفارق عينيه أبدا ؟

وامتحن لفلار جثة طفل بعد أخرى ، وفتّش فى كل جزء من أجزائها وهى طريحة تبعث الأسى فى القلوب ، وصبغ مائة شليخة مختلفة من كل عضو من أعضائها ، ثم حاول أن يربّى هذه البشلات المخططة نقيّة ، وأفلح فى ذلك سريعا ، ولكنه لم يجد هذه البشلات حيثما بحث فى الأجساد إلا فى الغشاء الذى بحلوقها ، ودائما فى هذه الحلوق ، إلا طفلا أو طفلين ، كان يقع على هذه البشلات المنتفخة الأطراف ، فتفكّر لفلار : « كيف تأتّى لهذه المكروبات القلائل التى لا تحـلّ من الجسم إلا فى الحلق ، كيف تأتّى لها وهى لا تفارق مكانها أن تقتل الطفل بمثل هذه السرعة ؟ ولكن لعل الأولى بى أن أتبع ما قال السيد كوخ » . وبدأ يحقن زريعاته من البشلات النقية فى الأرانب فى قصباتها الهوائية ، وفى الخنازير الغينية تحت جلودها . وما أسرع ما ماتت هذه الحيوانات . ماتت فى يومين أو ثلاثة كما يموت الطفل أو كانت أسبق إلى الموت . ثم أخذ يبحث عن المكروبات فى أجسام هذه الحيوانات فلم يجدها إلا حيث دخلت الحقنة فحسب . . . . وأحيانا أعوزه وجودها حتى هنالك ، إلا أن تكون وحدات منها قليلة ضعيفة لا تقوى على الاضرار ببرغوث صغير .

وتساءل لفلار : كيف أن قليلا من بشلات تحل من الجسم فى ركن قصِىّ منه ، كيف أنها فى قلتها وعزلتها تستطيع أن تصرع هذا الجسم وهو فى عظمه أكبر منها ملايين المرات

وكان لُفلار باحثاً أميناً لا يفوقه فى أمانته من البُحّاث أحد . وكان دقيقاً بطبعه فكانت تواتيه الدقة بغير عناء . وكان أقل الرجال حظا من الخيال الجامح فلم يتدخل شىء منه فى نتائجه الدقيقة فيزينها — أم هو يفسدها — بالذى ليس منها . وجلس يوما إلى مكتبه وكتب رسالة علمية تتضمن خلاصة بحثه ، فكانت مقالة متواضعة ، باردة ، لا تؤمل قارئها فى شىء ، ولا تحمسه لأمر . كانت على نقيض ما يكتب المحاوون . وجادل فيها أمر هذه البشلات ، أهى سبب الدفتريا وجرثومتها أم هى غير ذلك . ذكر كل الحقائق التى قد تؤدى الى أنها جرثومتها حقا ، وذكر كل الحقائق التى قد تؤدى إلى نقيض ذلك . تشبث بالأمانة تشبثا كبيراً ، وكتب كل ما قد ينفى أن تكون هذه البشلة سبب الداء : وكأنى بك تسمعه إذ يحدث نفسه وهو يكتب فيقول : « قد تكون هذه المكروبة هى السبب ، ولكنى فى عدد قليل من جثث الأطفال لم أستطع أن أجدها ... والحيوانات التى حقنتها لم يصبها شلل كالذى يصيب الأطفال ... والحقيقة التى هى أشد مناقضة لى هى أنى وجدت نفس هذه المكروبة — وهى تقتل الأرنب والخنزير الغينى — فى حلق طفل ليس عليه من أعراض الدفتريا شىء »

وغالى فى أمانته فلم يقدر بحثه الجليل الذى أتاه حق قدره ، ولكنه فى آخر رسالتـه كتب فقرة أوحى فيها بحل المعضـل وفك المشكل وإيضاح السبيل إلى سر هذا الداء ، إيضاح السبيل الى غيره لا إلى نفسه ، إلى الفرنسى رو Roux وإلى الألمانى بارنج Behring اللذين جاءا من بعده وكانا أشد منـه خيالاً وأنفذ به فى المشكلات المعضلات بصـيرة . غريب أمر لفلار ! عرف السبيل الذى يسلكه لبلوغ الغاية ، ولكن بدل أن يتحرك هو ويقوم على قدميه فيسلكها ، إذا به يدل غيره فيفوز سواه بالحمد دونه . قال لفلار : « إن هذه البشـلة تبقى على رقعة قليلة لا تخرج عنها فى غشاء ميّت فى حلق الطفل المريض . وتبقى كذلك فى مساحة ضيقة لا تعدوها تحت جلد الخنزير الغينى بعد حقنه . فهى لا تتكاثر فتصير ملايين وتعم الجسم كما نتوقع ولكنها مع ذلك تقتل حيث هى من مكانها ! فكيف يكون هذا ؟ لا بد أنها تصنع سمّا يخرج عنها فيسير وحده فى الجسم حتى يصل إلى موضع منه قتّال . فلا بد من التفتيش عن هذا السمّ ولا بد من وجوده . فتشوا عنـه فى جثث الأطفال . أو فتشوا عنه فى أجسام الخنازير الغينية التى قتلها الداء . نعم .

الحياة الأدبية فى لبنان

بقلم سامى الشقيفى

كتب الأستاذ على الطنطاوى فى عدد سلف من « الرسالة » من الحياة الأدبية فى دمشق ، وفى عدد آخر تكلم الأستاذ عبد الوهاب الأمين عن الحياة الأدبية فى العراق ، فكان من الانصاف لأتمام الفائدة أن نتكلم عن الحياة الأدبية فى لبنان

ظواهر الحركة الأدبية فى لبنان راكدة كما فى سورية والعراق . فالصحافة الأدبية تكاد تكون معدومة ، أما التأليف والنشر فتمر الأسابيع والأشهر دون أن تخرج المطابع كتابا نفيسا ؛ وجمهور الشباب معرض عن المنتوجات الأدبية العربية — الواقع أن إقبال الشباب فى الأقطار العربية على الثقافة الأجنبية (وان يكن نفخ روحاً جديداً فى الأدب العربى) قد أضر كثيرا بالحركة الأدبية خصوصاً فى لبنان . فشبابنا المثقف حائر بين الأدب الغربى (العالى حقاً) والأدب العربى الناقص بازائه . يقبل على الأول لأنه يرضى ذوقه وثقافته ، ويجذبه الى الأدب العربى نوع من الشعور الوطنى . فى مصر والعراق وسوريا — وهى بلدان مسلمة — يتعلم الشبان القرآن منذ صغرهم فينشأون وفى نفوسهم ملكة عربية لا تستطيع الآداب الأجنبية أن تطغى عليها . وليس الأمر كذلك فى لبنان . ولولا البكالورية اللبنانية التى توجب على الطلاب درس الأدب العربى لأهمله هذا النشء الجديد دون ما تبكيت

وقد كانت الحركة الأدبية عندنا فى لبنان الى الأمس القريب تنجلى بقصيدة رثاء أو مدح أو مقالة شكوى أو كتاب لا يتعدى موضوعه المبتذل الفارغ ؛ ولكن من الانصاف أن نقول إن البعض من أدبائنا نشروا كتباً لا بأس بها وإن كان لا يرضى عنها الذوق الأدبى السائد اليوم ، ومن هؤلاء الأدباء أمين الريحانى صاحب (ملوك العرب — ابن سعود — فيصل الأول — قلب العراق) ، وعمر الفاخورى صاحب (غاندى — أناتول فرانس) ، ولبيب الرياشى وجميل بيهم ، وميخائيل نعيمه مؤلف (المراحل — جبران) ، وسلمى صائغ كاتبة (النسمات) ونظيره زين الدين مؤلفة (السفور والحجاب)

وقد أثر على النشاط الأدبى عندنا المجتمعات التى كانت تعقدها سيدات على جانب وافر من العلم والذكاء ، وهذه المجتمعات تشبه فى أكثر النواحى صالونات أديبات فرنسا فى القرن التاسع عشر . ومن أشهر سيداتنا الأديبات سلمى صائغ وحبوبة حداد ومارى ينى وجوليا طعمه . أما الصحافة التى يتجلى فيها النشاط الأدبى فقد كانت المجلات النسائية العديدة كالمرأة الجديدة والحياة الجديدة ومينرفا والخدر — وكان الاعتقاد السائد بين الأدباء أن المثل الأعلى فى الأدب هو أدب القرن السابع عشر الفرنسى (وإن كانوا لم يطلعوا عليه) ؛ والمتطرفون منهم كانوا يقتبسون من العصر الرومانتيكى — أما اليوم وقد نضج هذا الفوج من الأدباء الذين ذكرناهم ولا يرجى منهم أفضل مما أنتجوا ، فقد هدمت حركتهم الأدبية وتوقفت مجلاتهم وأفسحوا المجال لغيرهم . فعندنا الآن فوج من الأدباء الشبان « لا يزالون زغب الحواصل لم يطيروا بعد فى الأجواء » كما قال أحد الكتاب ، إلا أنهم أثروا على الأدب فى لبنان . منهم عصبة العشرة التى بثت روحاً جديداً فى الأدب ووجهت خطواته على غرار الأدب الغربى الحديث ؛ ولكن حركتها ما عتمت أن سكنت ولما تؤد رسالتها على الوجه الأكمل الذى كانت ترجوه . وقامت أخيراً ندوة الاثنى عشر تضم عددا من الشبان المثقفين ثقافة عالية يجتهدون للنهوض بالأدب فى لبنان نهضة صحيحة من كل نواحيه ؛ والأدب فى لبنان يتجه نحو القصة لأنها تحتمل الدروس النفسانية ولأنها من أرقى صور الأدب ؛ ومن أبرز الذين يعنون بالقصة خليل تقى الدين وتوفيق عواد ورئيف الخورى ، وقد تطورت عقلية النشء الجديد من الأدباء على نحو الأدب الفرنسى الحديث حتى أن عندنا ما يدعونه الأدب العارى يبشر به فؤاد حبيش ؛ وعندنا الأدب الشعبى ينشره توفيق عواد ورئيف الخورى ؛ وهم يرون أن الأدب يجب أن يستمد مواده من كل مظاهر الحياة لا من خفايا النفس وعواطفها فقط

أما النقد الأدبى على الأساليب العلمية الحديثة فحامل لوائه فى لبنان فؤاد البستانى الذى كان له الفضل الكبير فى توجيه

نعم . أو فتشوا عنه فى الحساء الذى تنمو فيه البشلة وتربو ... إن الرجل الذى يكشف عن هذا السم سيثبت ما عجزت أنا عن إثباته »

هذا هو الحلم الذى ارتآه فلار ؛ هذه هى الرجية التى ارتجاها ؛ هذا هو المفتاح الذى وضعه فلار فى كف رو ، والذى فتح به رو ما استغلق على فلار

فى العدد القادم : كيف اكتشف رو سم الدفتريا أحمد زكى

الشبان نحو الثقافة العربية بنشره سلسلة « الروائع » ، وهو الآن يعد كتاباً عن عواصم الأدب يبحث فى تأثير المحيط على الأدب . فلكى يفهمنا الأدب العباسى ويطلعنا عليه يصف لنا بيئته فى بغداد ؛ وفضل فؤاد البستانى الأكبر أنه دون سواه من الأدباء يشجع من يرى فيه سمات الأديب فيحثه على التأليف والنشر ويعضده بنفوذه الأدبى الكبير . وثمة نقادة آخر يمكننا أن نقارنه فى كثير من النواحى بالأستاذ أحمد أمين ، هو جبرائيل جبور الذى ينشر الآن كتاباً ضخماً عن عمر بن أبى ربيعة « دون چوان » العرب

وأما فى الشعر فقد ساد أول الأمر محافظون ينظمون فى الرثاء والمدح والغزل والفخر أيضاً لا يجيدون كثيراً عن أمراء الشعر فى الأعصر الماضية ، إنما كان يلمع فى شعرهم وميض من التجدد وتسمع فى أبياتهم رنة موسيقية عذبة . ومن أشهر الذين أجادوا أمين تقى الدين وبشاره الخورى . ثم جاء الشاعر الياس أبو شبكه فتطور معه الشعر بما حمله اليه من نفس صادق وبخروجه عن أدب المناسبات والمواضيع الجوفاء ؛ وخطا يوسف غصوب بالشعر خطوة واسعة موفقة بديوانه (القفص المهجور) . وكان المرحوم أديب مظهر أول من أدخل إلى الشعر العربى نظرية الشعر الرمزى التى يعتنقها اليوم شعراء يجيدون حقاً كصلاح لبكى وأمين نخله وسعيد عقل الذى نشر مسرحية شعرية موفقة جداً « بنت يفتاح » . لن أسهب فى الكلام عن الشعر الحديث فى لبنان ولكن أ كتفى بالقول أنه من أرقى ما عرفته الآداب العربية . وثمة شعر لبنانى محض يمثل فرعاً لنفسه هو الشعر العامى ، وقد ارتقى جداً وزعيمه الأول رشيد نخله ؛ ولقد تطور هـذا النوع من الشعر على غرار الشعر الحديث ؛ وبحدث هذا التطور ميشيل طراد فهو أيضاً ينهج نهج الشعراء « الرمزيين » ، والشعر اللبنانى هـذا يمتاز بشدة تأثيره على النفس

وكان من إقبال اللبنانيين على الآداب الأجنبية أنهم أنحوا يؤلفون بهذه اللغات . وكُتُب الريحانى وجبران بالانكليزية مثلاً مشهورة ؛ وهنالك كتب فى السياسة والحقوق باللغة الفرنسية . وآخر ما أنتجه اللبنانيون من دواوين شعر فرنسى كان له دوى بعيد فى فرنسا ونال لأجله بعضهم الجوائز من محافل الأدب العالية كشارل قرم الذى نال جائزة ادجاربو فى فرنسا لديوانه الجبل الملهم ، وغيره أيضاً

وينشط اللبنانيون جداً للتأليف باللغات الأجنبية ، ولنقل أفضل مؤلفاتهم العربية إلى الفرنسية ليطلعوا الغرب على ثقافتهم (وهى مظهر رقيهم) ويأخذوا مكانهم فى الأدب العالى

والخلاصة أننا لسنا متشائمين من حال الأدب عندنا . بل ما نراه حولنا من مظاهر النشاط الكامن يبشرنا بمستقبل زاهر وبأن الحركة الأدبية فى لبنان ستخطو خطوات بعيدة جداً

سامى الشقيفى

فى تاريخ الفقه الاسلامى

المحاضرة الثالثة

للدكتور يوسف شخت

الأستاذ بجامعة كونيكسبرج ، والأستاذ بالجامعة المصرية

تكلمنا فى المحاضرتين السابقتين عن مسائل تتعلق بثلاثة أدوار قديمة من تاريخ الشرع الاسلامى ، وهى العصر الجاهلى — وليسمح لى بادخاله فى هذا النطاق الواسع — وعصر فقهاء المدينة السبعة ، والعصر الذى تكونت فيه المذاهب الكبرى . فالآن ، ونحن مستمرون على السير بموجب الترتيب الزمنى ، ننتهى إلى دور تندر مصادره ؛ فمن العجب أن نلاحظ أنه لم يبلغنا إلا القليل جداً من مؤلفات الزمن بين بدايات المذاهب (التى توجد لها مصادر معاصرة ولو لم تطبع كلها) والنهضة العظيمة التى بلغها علم الفقه فى القرن الخامس للهجرة ، ونتيجة هذا الدور لا بد أن تكون ذلك التنظيم والتنسيق للفقه الذى نشاهد أكمل مظاهره عند المذاهب الثلاثة فى وقت واحد تقريبا : للحنفية على يد القدورى ، وللشافعية على يد الغزالى ، وللمالكية على يد سيدى خليل . ويلوح أنه ليس مستحيلاً أن نتمكن من اكتشاف وثائق أكثر تبيانا لهذا الدور الغامض ، إذا ما وجدنا أن بعض مؤلفات أبى جعفر الطحاوى الفقيه المصرى المشهور وبعض الكتب الأخرى التابعة لذلك العصر قد كانت حليفة البقاء . وقبل أن يتحقق هذا الأمل علينا أن نقتبس معلوماتنا من الكتب التى تعالج اختلاف الفقهاء ، وهى كتب هدتنا المصادفة الغريبة إلى عدد غير قليل منها راجع إلى القرن الرابع الذى نبحث عنه ، وهذا مما يبرر بضع ملاحظات على هذا النوع من كتب الفقه على العموم . فقد ذكرنا فى محاضرتنا السابقة أول كتاب وضع فى هذا الفن وهو كتاب الحجج لمحمد بن الحسن الشيبانى . فهذا الكتاب يشترك مع بعض رسائل للشافعى فى غرض يحتمل أنه أحدث هذا الفن كله ، وهو مجادلة المعارضين التى تستلزم بطبيعة الحال إبداء آرائهم . وأما كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبرى الذى ذكرناه أيضاً قبلاً فيحل فيه محل هذا الغرض شىء آخر ، هو المقارنة والموازنة بين أقوال المتقدمين تأسيساً لمذهب المؤلف نفسه ؛ وأن هذا الكتاب أولى أن ينسب إلى القرن الثالث وإن كان مؤلفه قد مات فى سنة ثلثمائة وعشر . وهذان النوعان من كتب الاختلاف ظلا قائمين إلى القرن الرابع ، وإلى جانبهما قد نشأ نوع آخر ، وهو نوع الكتب التى تثبت الآراء المتنافسة لغرض علمى محض . وأحياناً نجد المؤلف الواحد قد ألف فى الاختلاف أكثر من كتاب واحد . من ذلك أن الطحاوى الذى اسلفنا ذكره ألف كتاب شرح معانى الآثار ، وغرضه الراجح هو المجادلة بحيث أنه لا يذكر حتى أسماء خصومه ، ولكن له أيضاً كتاب اختلاف الفقهاء الذى يدلى فيه برأيه الشخصى على أثر عرض الآراء المختلفة والأدلة الدالة عليها . وقد ألف معاصره محمد بن ابراهيم بن منذر النيسابورى كتاب الاختلاف الذى يمثل هذا النوع الثانى ، كما ألف أيضاً كتابين من النوع الثالث وهما كتاب الاشراف على مذاهب أهل العلم ، والكتاب الأوسط فى السنن والاجماع والاختلاف ؛ وهذا الاهتمام العلمى المحض قد حمله أيضاً على أن يجمع فى كتاب الاجماع المسائل التى لا اختلاف فيها . أما المسائل المختلف فيها ضمن المذهب الحنفى فلدينا الروايات الثلاث لكتاب مختلف الرواية لأبى الليث السمرقندى ، وهو أيضاً من النوع الثالث العلمى المحض . وقد ذكرت كل تلك الكتب تفصيلا لأنها على العموم غير معروفة إلا للقلائل برغم أهميتها ، ولأنها لم تطبع بعد إلا شرح معانى الآثار للطحاوى . وأما أكثر الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع فى زمن متأخر فى القرن الخامس وما بعده ، فلا يمكننا أن نوازى بينها وبين تلك المصادر القديمة ، ولا ينبغى أن نعتبرها وسيلة يعتمد عليها فى الحصول على معلومات جليّة ، لأن تلك الكتب كثيراً ما تناقض نفسها وتناقض حقيقة الأمر ، أى أقوال المذاهب المشهورة . وذلك لأنها ليست قائمة على معلومات مباشرة بل يتوقف بعضها على بعض . كذلك كتاب الميزان للشعرانى ليس إلا تغييراً لكتاب « رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة » للدمشقى ، وهذا بدوره مختصر لكتاب الاشراف على مذاهب

الاشراف لابن هبيرة إلى حدّ أن جميع الأغلاط الموجودة فى ذلك الكتاب تتكرر فى هذين . وينبغى ألا نؤاخذ ابن هبيرة بشدّة بهذه الأغلاط لأن كتاب الاشراف ليس إلا رواية مستقلة لفصل من كتابه الكبير المسمى بالافصاح عن معانى الصحاح ، وهو شرح مفصل للأحاديث الصحيحة ، ومضمون كتاب الاشراف كله وارد فى كتاب الافصاح شرحاً للحديث النبوى المشهور : اختلاف أمتى رحمة

إن أخبار المتأخرين من المؤلفين عن مبادئ مذاهبهم وأقوال الفقهاء الأقدمين يجب أن تقابَل على العموم بتحفظ شبيه بالتحفظ الذى ينبغى أن تقابل به كتب الاختلاف الأحدث عهداً ، حتى ولو كان أولئك المؤلفون من أصحاب المذهب الذى يتحدثون عن أئمته . فانا نشاهد فى المذاهب ابتداء من القرن الخامس افتقاراً للروايات فيما يتعلق بأقوال أصحابها الأولين ، وهو مما يجعل دراسة مؤلفاتهم الأصلية أحرى وأوجب . وإنى لأستمدّ أمثلتى من كتاب المخارج فى الحيل لمحمد بن الحسن الشيبانى السالف الذكر الذى لاريب فى صحته مقارناً له بشرح السرخسى المتأخر لأقوال محمد بن الحسن المروية فى كتاب المبسوط . فالشيبانى يقول فى مسألة معينة على وجه الاجمال : « لا آمن أن يبرئه بعض الفقهاء . » ولكن السرخسى يعترف بأنه لا علم له بمن قال بهذا القول . والشيبانى يقول فى التحليل : « إذا قال واحد منهم هذه المقالة (أى لو قالت الزوجة تزوجنى فحللنى ، أو قال الزوج الأول تزوج هذه المرأة فحللها لى ، أو قال الزوج الثانى أتزوجك فأحلك لزوجك الأول) لم تحلّ للزوج بهذا النكاح الثانى » ؛ فالسرخسى فى تعليقاته على هذا الكلام يقول : إن النكاح الثانى عند الشيبانى صحيح ، لكن التحليل فى هذه الظروف لا يحصل ، فى حين أن النكاح الثانى عند أبى يوسف فاسد غير صحيح ؛ ولكن السرخسى فى موضع آخر ينسب القول الأول إلى أبى يوسف ، والقول الثانى إلى محمد بن الحسن الشيبانى . ويقول السرخسى فى مسألة أخرى إنه يُنسَب إلى أبى يوسف قولان متناقضان دون أن يستطاع اعتبار أحدهما سابقاً ، والآخر متأخراً ، فهو مع ذلك يجهد نفسه فى التوفيق بين القولين بوجه محتمل . ويقول السرخسى فى الحيل المستعملة لمنع الشفعة : « وعند محمد رحمه الله هو مكروه أشد الكراهة »

وهذا ليس صحيحاً لأن الشيبانى قد جمع أمثال تلك الحيل فى باب طويل من كتابه المتقدم ذكره نقرأ فيه كلاماً كهذا : « أرأيت رجلا يريد أن يشترى داراً ، ويخاف أن يأخذها جارها بالشفعة فكره أن يمنعه من ذلك فيظلمه ، وكره أن يعطيه الدار فيدخل عليه ما يُكرَه . هل عندك فى ذلك حيلة ؟ قال : نعم الخ » . وإليكم مسألة تدل على أن رأياً نُسب خطأ إلى أبى حنيفة قد ظفر بأن يصبح مسلماً به فى المذهب كله : فنقرأ فى الفتاوى العالمكيرية : « فاعلم بأن الوقف على قول أبى حنيفة رحمه الله لا يصح مضافاً إلى ما بعد الموت بطريق الوصية ، هكذا ذكر الخصاف رحمه الله ، ومحفوظنا أن الوقف عند أبى حنيفة رحمه الله صحيح إذا كان مضافا إلى ما بعد الموت أو كان موصى به » ومع ذلك فالخبر الذى ذكره الخصاف هو الصحيح ، لأن هذا يظهر من قول الشيبانى نفسه فى كتاب المخارج فى الحيل .

وقد أمكن أيضاً أن تتسرب أخبار ملفقة إلى حواشى كتب الشيبانى حتى فى زمن قديم جداً ، وينبغى لهذا كله أن يتحاشى المرء قبول شهادة كتب أحدث عهداً فى أقوال الأئمة الأقدمين من دون تمحيص . وسبب تلك الأغلاط يرجع قبل كل شىء إلى تضاؤل الاهتمام بآراء فقدت أهميتها العملية بعد التدوين النهائى للأحكام فى المذاهب ، ويرجع أيضاً إلى الظن الطبيعى أن تلك الأحكام المدونة هى عين الآراء الشخصية للأئمة الأقدمين ، ويرجع أخيراً إلى استبدال عبارات مثل « فى قياس قول أبى حنيفة » بعبارات أخرى مثل « فى قول أبى حنيفة » فحسب ، وهو شىء نراه حتى فى الكتب القديمة جداً

وأخرى المسائل التى سنبحث عنها هى مسألة القانون العرفى فى بلاد الاسلام ، فبينا أن العلاقة بين الأحكام الشرعية والأحكام العرفية — كما رأينا — وجهة مركزية من تطور الفقه نفسه فى الأدوار الأقدم عهداً فان هذه العلاقة تصبح بعد ذلك عندما استقر الفقه فى صورته النهائية مطلباً مستقلاً . ومن بينات القوة الروحية العظيمة التى استمتعت بها الشريعة أنها بلغت حد فرض نفسها على القانون العرفى ؛ وإن كان هذا القانون قد بلغ من ناحيته أو كاد يبلغ حد احتكار العمل القانونى من الوجهة المادية ؛ وهذا بادٍ من أن الناس تحققوا وجود قانون عرفى يعارض كثيراً من الأحكام الشرعية ، وأنهم فسروا هذا من الوجهة

التاريخية بأن الأجيال المتأخرة لم تبلغ شأن السلف الصالح ، ومن الوجهة الاخلاقية بمبدأ الضرورة التى أغنت عن العمل بالاحكام الشرعيــة . وعلى هذا النسق الفكرى أوجد عالم مصرى معاصر فيما يتعلق بالخلافة التى تناءى تاريخها أصلا عن قواعد الشرع ، قواعدَ ثانوية موجهة إلى التطبيق العملى ولكنها مع ذلك مصنوعة على طراز تلك القواعد الشرعية . فأما مايتعلق بالفقه فقد رأى أهله أن يوفقوا بينه وبين العرف على قدر المستطاع مما أفضى فى التطور المتأخر للمذهب المالكى المغربى خصوصاً إلى أن يجيزوا عدة تصرفات عرفية لم تكن تعرفها الشريعة من قبل . أما العمل العرفى فكثيراً ماحاول أصحابه أن يحتفظوا بظاهر المطابقة للشريعة على الأقل ، فى حين أن حقائق الأمور كانت بعيدة عنها بعداً شاسعاً ؛ وهكذا أقاموا فى حالة أخذ السارق والسكران عند ارتكاب الجريمة حدود السرقة والشرب رأساً معتقدين اعتقاداً صميما أنهم يطبقون الشريعة ولكن دون أن يعنوا بالاجراءات الدقيقة التى فرضتها الشريعة ، وهكذا ذهب بعضهم إلى حد ذبح مجرم يستحق الموت وفاقاً لقواعد ذبح الضحايا . وأنظمة المحتسب وناظر المظالم لا يراد بها إلا اجتياز الهوة التى تباعدت شفتها بين منطقة الشريعة ومنطقة الحياة القانونية العرفية ، فلهذا ليست من الشريعة المحضة ؛ ومنذ الزمن القديم كانت حاجة الشريعة محسوسة إلى أن يندمج فيها العرف القانونى وأن تتيح لمن يهمهم الأمرُ الوسائلَ لعقد تصرفات تقتضيها العادة مع مراعاة أحكام الشريعة الآلهية التى تجمع بين المخارج البسيطة والطرق الفقهية الأريبة . فبهذه الحيل يصل المرء من طريق تصرفات شرعيــة إلى نتائج تطابق الحاجات العملية ، ولكن لا تسلّم بها قواعد الفقه رأساً ، فهى من جهة الفقه مخارج ومواضعات ، ومن جهة العرف جهود فى جعل العرف مقبولاً موافقاً للشرع

وقد أنشأ الحنفية هذا الفن من الفقه ومهدوه ، ونجد أن أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى على رأس سلسلة طويلة من الفقهاء قد ألفوا فى الحيل ؛ وقد انتهى الينا كتاب محمد بن الحسن كاملا ، (وهو المسمى بكتاب المخارج فى الحيل الذى ذكرناه مراراً) ، ويشتمل على مسائل عديدة نقلها صاحبه من كتاب أبى يوسف . أما المذاهب الأخرى فالحيل فيها أقل شأناً منها عند الحنفية ، حتى أن الشافعى والبخارى الذى كان نفسه شافعياً وغيرهما قد حاربوا الحيل حرباً عواناً . ولم يمنع هذا أن المتأخرين من الشافعية قد أحسوا بالحاجة إلى تأليف كتب فى الحيل على مثال كتب الحنفية وأن ينسبوا إلى الشافعى نفسه من المخارج العملية ما قد ورد فى كتاب محمد بن الحسن الشيبانى ؛ وقد أفرد الحنبلى الكبير ابن قيم الجوزية للحيل بحثاً طويلاً ، وبرغم مناهضته للمكر ومنعه للفرار من أحكام الشريعة وصل فى بحثه إلى اعتبار كثير من تلك المخارج مشروعاً خاصة فى دائرة التصرفات التجارية . وأشهر كتاب فى هذا الباب هو كتاب الحيل والمخارج المنسوب خطأ إلى أبى بكر أحمد بن عمرو الخصاف الحنفى ، فالواقع أن كتابه الحقيقى ليس إلا رواية لكتاب المخارج فى الحيل للشيبانى ، وقد عنى الخصاف بأن يستبعد منها كل إشارة قد تدل على مؤلفه الأصلى ؛ والكتاب الذى اشتهر به هو تأليف عظيم الشأن لمؤلف مجهول عاش فى حوالى سنة أربعمائة ، وهو مصدر فريد فى بابه لمعرفة القانون العرفى الذى كان يعمل به فى ذلك الزمن فى العراق (كما نظن) يكشف لنا عن مستواه المالى واصطلاحاته الراقية ، وهذا القانون العرفى يميزه الدور الهام الذى يقوم به الاقرار ، فانه لا سبيل إلى الرجوع فيه ، ولهذا يصلح جيداً لأن يكون مبيناً للنتائج القانونية المقصودة ، كما يميزه دور العدول الأمناء الذين يثق بهم المتعاقدان يقومون بالتوسط بينهما فى علاقاتهما التعاقدية ، وكما تميزه أيضاً كثرة استعمال الوثائق المكتوبة ، فكل هذه الخصائص توجد مجتمعة فى كتب « المواضعة » ، وهى وثائق يكتبها المتعاقدان وليست لها قيمة قانونية مباشرة ، لكنها تصلح لاثبات حقيقة الأمر فيما بين المتعاقدين من العلاقات التى لا يكشف عنها بل يسترها عادةً عدد من التصرفات والاقرارات الموضوعة ؛ وتحفظ هذه الوثائق — أى كتب المواضعة — مع الوثائق الفقهية الحقيقية التى توضح وظيفتها عند عدل أمين يثق به المتعاقدان ويعمل هو بمقتضاها فيما بينهما ابتغاء معاملتهما بالعدل والانصاف ومنع أى منهما عن أن ينتفع بتصرف أو اقرار منفرد لما فيه ضرر لمصلحة الآخر . واليكم مثالاً قد يوضح كل هذا إيضاحاً تاماً : « قلت : رجل له على رجل مال ، فوكل رجلاً أن يتقاضى هذا المال ويستخرجه على أن له نصفه أو ثلثه ، هل

يجوز هذا ؟ قال : لا ، وإن وكله على هذا الشرط فاقتضى المال كان له أجرة مثله لا يجاوز بها ما جعل له ... قلت : فهل فى هذا من حيلة ؟ قال : نعم ، الحيلة فى ذلك أن يقر الذى باسمه المال لان هذا الوكيل أو لرجل يختاره الوكيل بثلث المال بحق عرفه له ويوكله بقبضه . . . ثم يوكل الذى باسمه المال والمقر له بالثلث هذا الوكيل باستيفاء المال واستخلاصه فان خرج المال كان للمقر له الثلث من ذلك . . . . قلت : فان قال صاحب المال : أرأيت إن أقررت بثلث المال لمن يريد الوكيل فاذا وقعت الشهادة على ذلك لم يقم هذا الوكيل باستيفاء المال أو أحدث حدثاً تبطل به الوكالة فقد صار هذا الرجل شريكا لى فى المال بثلثه ، فما الحيلة ؟ قال : يعدلون كتاب الاقرار على يدى من يثقون به ويكتبون مواضعة بينهم تكون على يدى العدل يعمل بما فيها ويحملهم عليها ، فان خرج هذا المال بتقاضى الوكيل وقيامه كان لهذا الرجل الثلث ... وإن لم يخرج من المال شىء أو لم يقم بذلك أو أحدث حدثاً تبطل الوكالة به لم يكن للرجل المقر له بثلث المال شىء ورد العدل منهم الكتب على من يجب ردها عليه ، ويحكون فى المواضعة أمرهم كله ليعمل العدل بينهم بذلك »

والمصدر الثانى الرئيسى لمعرفة القانون العرفى فى بلاد الاسلام هو الشروط والوثائق . ويوجد الى جانب الدور الهام الذى تؤديه الوثائق المكتوبة فى باب الحيل كتب كثيرة فى الشروط عند الحنفية كما هى موجودة عند المالكية والشافعية . وجدير بالذكر أن أكثر المؤلفين لكتب الحيل من الحنفية ألفوا أيضاً فى الشروط ، وأنهم من جانب آخر قد اشتغلوا غالبا بالوصايا والأوقاف أيضاً بصورة تجعل من الممكن أن يستبين المرء فى الكتب الحنفية على مرور القرون ميلا ظاهرا إلى البحث عن الموضوعات ذات الأهمية العملية ، وتلك الأهمية العملية لكتب الشروط ناتجة عن نفس وجودها ، ذلك أن الفقه لا يقبل إلا الشهادة الشفوية ولا يستلزم وثائق مكتوبة ، وذلك العلم وحده لم يفلح فى جعل الشروط فى ذلك المركز العظيم الذى هى فيه من عمل الفقه . وترجع عادة تحرير التصرفات إلى العصر الجاهلى ، فقد ظهر أن الوثائق فى ذلك الزمن لم تكن محض مذكرات يستعين بها الشهود (كما هى الحال فى علم الفقه) بل كانت وثائق مستقلة تنطق بمضمونها لا ريب أنها لم تزدوج بالشهادة الشفوية إلا فى مرحلة ثانوية ؛ وقد أقر القرآن هذه الحالة فى نوع من العقود فى الآية التالية : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم . وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم . » وفى آية أخرى ذكر القرآن الوثائق المكتوبة فى اعتاق الرقيق على أنها شىء معروف : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً . » حتى الاصطلاح الخاص بالاعتاق التعاقدى فى مصطلح الفقه ، وهو الكتابة ، يدل على أن ذلك كان مكتوباً فى الغالب على الأقل ؛ والأمر السابق الذكر وهو أن الشروط والوثائق تقوم فى تطبيق الشريعة العملى بدور أهم بكثير مما يعينه لها علم الفقه — ذلك الأمر لا نفهمه إلا ببقاء عادة ثابتة قديمة تقتضى تحرير العقود بالكتابة ؛ ومن الراجح أن تلك المادة الموجودة فى القانون العرفى العربى الجاهلى كانت قد تأثرت بنفوذ التمدن العراقى ، فان العراق مشهور بالدور الهام الذى قامت به الوثائق المكتوبة فى حياته القانونية والأدبية منذ زمن قديم جداً . أما الوثائق التى تبينها وتوضحها كتب الشروط ، وكذلك الوثائق الأصلية التى احتفظ بها فهى تتفق بطبيعة الحال فى مضمونها المادى مع أحكام الشريعة الاسلامية بحسب الظروف والامكان ، وخصائصها البارزة لا تظهر إلا فى صيغها التى تغيرت تغيراً كبيراً على كر القرون ، لكنها كانت

دائماً خاضعة لقواعد فنية صارمة . وإليكم خاصة جديرة بالذكر تشترك فيها كتب الشروط القديمة بأجمعها : قد تلونا آنفاً آية قرآنية تنص على أن « الذى عليه الحق » يكتب ويمل ؛ وأما فى كتب الشروط القديمة فالقاعدة الأساسية هى أن يملى الكاتب الدين (أو من يقوم مقامه من المتعاقدين) على المدين (أو القائم مقامه) وأن يقرّ هذا بصحة الوثيقة ويُشهد على ذلك الشاهدين

وثمة مصدر ثالث لدراسة القانون العرفى ، وهو التشريع المدنى الدنيوى فى بلاد الاسلام . ومن الحق أن الشريعة الاسلامية لا تعترف بتشريع مستقل يقوم الى جانبها ، وتلك التشريعات المدنية حتى فى أوائل العصور الحديثة لم ترم أكثر من أن تكون ملحقات بالشريعة فى الدائرة التى سمحت لها بها ؛ والواقع أن تلك التشريعات كثيراً ما جاوزت هذه الحدود . وأشهر مثال لمثل تلك التشريعات هو ما يسمى (بالقانوننامات العثمانية) ، فانه بينما كانت أكثرها تتصل بمسائل إدارية ، قد ردتها الشريعة الى اختصاص الدولة ، فان أول قانون من هذه القوانين وهو (قانوننامه) السلطان محمد الفاتح ينظم العقوبات أيضاً والأحكام الشرعية فى الواقع لم تنفذ فى تلك المنطقة أحياناً كثيرة ، وتفترض هذه القانوننامه أن القصاص يمكن إجراؤه بخلاف الحدود ، وقد وضعت بدلا منها قانوناً جنائياً كاملا يخالف أصلا عن أحكام الشريعة ، وإن كان يذكرها فى مواضع عديدة ويستعير منها بعض القواعد الأساسية ؛ ويمتاز هذا القانون الجنائى بالدور الهام الذى تؤديه الغرامات المالية المختلفة المبالغ تبعاً لثروة المذنب . حتى الزانى بشرط أن يثبت عليه البينة وفاقاً لقواعد الشريعة يعاقب عليه بغرامات مختلفة القدر على حسب كونه متزوجاً أو غير متزوج (وتهمنا ملاحظة التعديل الذى أدخل بهذا على فكرة الاحصان فى الشريعة) والأرقاء لا يدفعون الا نصف المبلغ المفروض على الأحرار ، والسكر أيضاً (وهو يقوم مقام الشرب فى الشريعة) لا يعاقب عليه إلا بالتعزير ؛ وهو يُترك فى الشريعة لتقدير القاضى ، وأما فى هذه القانوننامه فالتعزير دائماً ضربات بعصا مقرونة بغرامة مالية ، ويطبق نفس هذا التدبير على السرقة ولا يقام الحد إلا فى سرقة الخيل ؛ ويكون فى هذه الحالة إما قطع اليد وإما غرامة باهظة جداً ، ولا بد من أن هذه الجريمة كانت تعتبر خطيرة بصفة خاصة ؛ وعلى أن هذا القانون الجنائى يراد به أن يحل محل القسم المطابق له من الفقه تماماً لا إكماله فقط ، لكنهم على كل حال يتحاشون أن يقولوا بهذا صراحة ويطلقون عبارات من قبيل « السياسة فى مقابلة الجنايات » أو « بدل السياسة » على إبدال الحدود بالغرامات المالية ؛ وقد اتخذت هذه القانوننامه أنموذجاً للقوانين العثمانية التى تعالج نفس الموضوع

وعلاقة أخرى بين الشريعة الاسلامية والتشريع المدنى ، تخالف كل ما تقدم مخالفة تامة ، توجد فى الدور الأخير من تاريخ الشرع وهو دور تطوره المعاصر ، وحسبنا أن نذكركم بالتعديلات التى أدخلت منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين على الأحوال الشخصية فى مصر ؛ ولسنا نريد أن نبحث الآن عن تلك الظاهرة المهمة للحياة القانونية المصرية لأن الوقت الذى نملكه قد انتهى . وإنما نستشهد بها هنا كدليل على أن العلم الأوربى الذى يشتغل بتاريخ الفقه الاسلامى لا يتناول الأزمان الماضية فقط ، بل يجهد فى استيعاب الحياة الحاضرة أيضاً ، وأن موضوعه الواسع ليس ميتاً جامداً بل لا يزال قوياً متطوراً . فان كنت قد وُفقت إلى إطلاعكم على شىء من الروح العلمية الخالصة المهيمنة على دراساتنا هذه فقد حققت بعض الغرض من هذه الأحاديث كل التحقيق

يوسف شخت

صورة من الحياة العلمية في مصر

٣ – تقى الدين السبكى

بقلم محمد طه الحاجرى

— ٣ —

وبعد أن قضى من الشام حاجته عاد إلى مصر سنة سبع ، فاستوطن القاهرة ، وانقطع فيها لتصنيف الرسائل والكتب ، وتعليق الشروح ، والجلوس للطلاب . وقد ألقيت اليه رياسة الشافعية ، فجملت الأسئلة والاستفتاءات ترد عليه من أنحاء الشرق العربي كثيرة متلاحقة ، وهو يجيب عليها ويفتى فيها . وكان من عادته — كما ذكر ابنه تاج الدين — أن يشرك في بحثها ومناقشتها أبناءه وتلاميذه ، إلا أن تكون متعلقة بأحوال المتصوفة وأهل الباطن فيكتم أمرها وأسماء أصحابها وما يراه فيها . إذ كان ذلك خارجا عن حدود النظر العقلى والاستدلال المنطقى

وقد لبث على ذلك — منذ عودته من السماع بالشام إلى رجوعه إليها قاضى قضاتها — اثنين وعشرين عاماً ، حج في أثنائها ثم ذهب إلى المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك سنة ٧١٦ هـ

ولم يل تقى الدين في هذه الفترة عملاً يتصل بالسلطان ، أو أمراً من أمور الدولة ، على كفايته ومقدرته ، فقد كانت تنقصه المرونة الخلقية التى تقضى بالتزلف والتودد ، ثم بالمصانعة والمداهنة والاغماض في الحق أحيانا ؛ ولهذا كانت مادة عيشه تافهة ضيقة مهددة بما تقضى به شهوات الأمراء وغايات المزدلفين ؛ فكل ما نعرف من هذا انه تولى مشيخة جامع ابن طولون فترة من الزمن ، وكان يأتيه منها رزق زهيد مما وقفه عليه الملك المنصور حسام الدين لاجين[1] (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) ولكن هذه المشيخة لم تلبث أن طارت من يده وأخذت منه سنة ٧١٩ (١٣١٩ م) . وله في هذا المقام شعر نورد شيئا منه ، لأنه — مع ركاكته — يدل على روحه العلمية الخالصة التى تضع العلم فوق كل اعتبار :

كمال الفتى بالعلم لا بالمناصب ... ورتبة أهل العلم أسنى المراتب
.. فلا تعدلن بالعلم مالاً ورفعة ... وسمر القنا أو مرهفات القواضب
وهب أدبرت دنياك عنك فلا تبل ... فعنها العد عوضت صفو المشارب
فما قدر ذى الدنيا؟ وما قدر أهلها؟ ... وما اللهو بالأولاد أو بالكواعب؟
اذا قست ما بين العلوم وبينها ... بعقل صحيح ، صادق الفكر ، صائب
فما لذة تبقى ، ولا عيش يقتنى ... سوى العلم أعلى من جميع المكاسب

وهكذا كانت روحه العلمية القلابة التى كان يتعزى بها عما فاته من متاع الدنيا . وقد ظلت هذه الوظيفة محتجزة دونه حتى عام ٧٢٧ (١٣٢٧) فعادت إليه وبقيت في يده إلى سنة ٧٣٩ هـ حينما اختير لقضاء الشام

وسبب آخر من أسباب الحياة المحدودة كان في يده ، ولم يخل كذلك من شهوات العابثين في انتزاعه : ذلك هو وظيفة التدريس بالمدرسة المنصورية ، وكانت مسندة أول الأمر إلى قاضى القضاة جمال الدين الزرعى ، ثم عين قاضى قضاة الشام ٧٢٣ (١٣٢٣ م) فحل تقى الدين السبكى محله ، وكان جديراً بذلك . ولكن الزرعى لم يطل في قضاء الشام مقامه ، فلم يلبث عاماً حتى عزل عنه . وكان صديقاً لأرغون[1] نائب المملكة المصرية في ذلك الحين ، فبلغه ذلك وهو بالحجاز ، فشق عليه أن يحرم صديقه مكانه في مصر والشام ؛ واستشاط غيظاً وحنقا على تقى الدين ، وأقسم ليزيلنه عن مكانه ، وليعيدن اليه صاحبه ، متى عاد إلى مصر ؛ وترامت بذلك الأخبار إلى الشيخ ، ولم يكن له ما يكفل رزقه غير هذه الوظيفة ، وكاد يصبح ضحية شهوة جامحة ، لولا أن أرغون ما كاد يصل إلى مصر حتى قبض عليه في بعض ما كان يسود ذلك العهد ؛ فغل بذلك من حده ، ووقى الشيخ شر نزوته وكيده

هذا كله والعهد عهد الملك الناصر ابن قلاوون ، وهو خير

---

(١) انظر ما كتبه المقريزى عن تجديد جامع ابن طولون وعمارته (ج : ٢ ص : ٢٦٩ ط بولاق)

(١) هو أرغون ، الناصرى غير الكاملى الذى سيجىء ذكره . وقد تولى نيابة المملكة المصرية من سنة ٧١٢ إلى سنة ٧٤١ . انظر ابن إياس

عهود ذلك العصر ، وأقلها خضوعا للنزوات الطائشة

وقبل أن ندع هذا الدور من حياة تقي الدين السبكي ، نرى أن لابد من الاشارة إلى مجهود من مجهوداته العلمية الموفقة ، قام به في تلك الفترة ، وقد رفع كثيراً من شأنه ، وكان له أثر غير صغير في حياته ، فيما نحسب ، ذلك هو رده على أبي العباس ابن تيمية في مسألة الطلاق ومسألة الزيارة . وقد كتب رده على كل من المسألتين في كتابين : أحدهما موجز مجمل ، والآخر كبير مفصل ؛ ويظهر أنه قد أبدى في رده مقدرة فائقة في النقد والبيان ، وابان عن سعة اطلاع وحضور بديهة ، كما بعد عن الشطط والتجريح ، والتزم جانب الانصاف والمدلة ، مما دعا إلى إعجاب الأشاعرة به ، وأكبار ابن تيمية نفسه له ، وثنائه عليه فيما كتبه دفعا لنقده

وأحسبني لا أبعد عن الصواب إذا زعمت أن هذا الرد كان السبب في توجه نظر السلطان إليه ، واختياره لقضاء الشام ، بعد أن لبث ذلك المنصب لعبة للأهواء منذ مات جلال الدين القزويني سنة ٧١٩ (١٣١٩ م) حتى سنة ٧٣٩ هـ . وإصراره على ذلك أصراراً ذهبت معه كل محاولات الطويلة في التماس من هذا التقليد ، ووهن معه كل ما تذرع به لقاء هذا الأمر الذي يقدر عاقبته ، ويعرف حق المعرفة خطورته

ذلك أنه وإن كان قد ذهب في رده مذهباً علمياً خالصا فقد تناول به مسألة تعني أولى الأمر كما تعني العلماء ، فان ظهور ابن تيمية في الشام بمذهبه الذي ينقض مذهب الأشاعرة ، وانتصاره له بكل ما أوتى من قوة في البيان والمناظرة ، فرق أهل الشام فرقتين ، واجتذب إليه طائفة غير قليلة من أعيان العلماء أمثال المزي والذهبي والبرزالي : خرجوا على الأشعرية وهي المذهب الرسمي للدولة منذ كان الأيوبيون إلى ذلك العصر ، بعضهم في صراحة وجلاء ، وبعضهم في تنكر واستخفاء ، وسنرى فيما يلي بعض الظواهر في هذا مما يؤيد ما نذهب إليه من أن اختيار السبكي لقضاء الشام كان منظوراً فيه إلى هذه الحالة ، مرجواً منه القضاء على هذه الفتنة .

— ٤ —

وهكذا تولى السبكي قضاء الشام في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٧٣٩ (٢ يناير سنة ١٣٣٩) ، فغادر مصر إليها ، وانتقل بذلك من حياته البسيطة الساذجة ، إلى حياة مركبة معقدة ، وترك بيئته الهادئة الوادعة التي ترفرف عليها روح العلم ، وتسري فيها نفحات الأبوة الكريمة ، إلى ذلك المضطرب الواسع الذي يموج بشتى النزعات ومختلف النزوات ؛ وتسوده روح خبيثة في مذاهب يزعمون لها صفة الدين تقتتل ، وشهوات باسم الحكم تفرض وتنفذ ، وأين يذهب السبكي في مثل هذا الجو ؟ وهو المطبوع على الصراحة في الحق ، والصلابة في الخلق ، والاستقامة في الرأي ، إلا أن يصبح غرضا للمعاندة والمضاجرة والشهوات الخبيثة الفاجرة ؛ ولهذا نجد ابنه تاج الدين يقول في هذا الصدد بلهجة مريرة : « فقبل الولاية ياليتها غالطة أف لها ، وورطة ليته صمم ولا فعلها » وسنرى فيما يلي صوراً مختلفة لهذه الحالة

وإنما نعرض الآن حياته العلمية في الشام عرضا موجزاً ، فنلاحظ أن أغلب مصنفاته كتبها في الفترة التي قضاها بمصر كما نص على ذلك ابنه ، ولا ريب أن هذه الحياة الجديدة بما تفرضه من تكاليف ومشاق قد شغلته عن العلم بعض الشيء ؛ هذا إلى كبر سنه ، فقد تولى قضاء الشام وهو في حدود الستين ، فكانت دواعي التأليف قد فترت في نفسه ، حتى لنراه في أواخر حياته يميل إلى التأمل ، ويجنح إلى « المراقبة » ، ويزهد فيما كان مشغوفا به من قبل من المناظرة العلمية على قواعدها المقررة

على أنه قد كتب في الشام أبحاثا جليلة يتجلى فيها عمق التفكير ونفاذ البصيرة والاحاطة ، ونجد بعضا منها في ثنايا كتب ابنيه : بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي السبكي ، وتاج الدين عبد الوهاب صاحب الطبقات

ثم إنه ما كاد يصل إلى الشام حتى جلس للتحديث في « الكلاسة » وسمع منه أئمة الحديث في عصره كالمزي والذهبي والبرزالي ، وقرأ عليه جميع معجمه ابن ابن عمه الحافظ محمد بن عبد اللطيف السبكي . ثم تولى سنة ٧٤٢ (١٣٤١ م) مشيخة دار الحديث الأشرفية خلفا للحافظ جمال الدين أبي الحجاج المزي ، وفي سنة ٧٤٥ (١٣٤٤ م) تولى التدريس في « الشامية البرانية » خلفا لأستاذها شمس الدين ابن النقيب ، كما تولى خطابة الجامع الأموي وباشرها مدة لطيفة

(يتبع)

محمد طه الحاجري

عند بحرمويس شتاء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

كم خشع العابر من قبلنا على ضفاف النهر وقت الأصيل
أو فى مساء إذ ترى ظلمة
قد عشّشت فى الدوح دوحا كغيل
وربما كنا الأولى قد مضوا وإن نأى الظن وعز الدليل
وما الذى ينأى بنا عنهمُ من منظر أو خاطر أو ميول
كم منظر تحسب إمّا بدا من أخذة الفكر ووهم الذهول
انك — والقلب خبير به — أجلْتَ قِدْما فيه لحظ المجيل
الدوح كالمفكِر فى هدأة إذ سكن الجو سكون الكهول
أو ثاكلات طال ثكل بها فَسَكّنَتْ من شجوها والعويل
أو صمتت من طول ما عُمِّرَت كصمتة الشيخ الوقور الجليل
والنهر كالزئبق فى لمعة وركدة ما إنْ بها من مسيل
عهدته فى صيفه لؤلؤا لو أن للؤلؤ سيلا يسيل
والسحب كالأشجار قد رُبّشت فى الأفق تبدو مثل ظل ظليل
أو قطع من حلم غامض أو كمثار النقع أو كالطلول
والجو قد روّع من قره كأنه قرٌ ممات يصول
أنفاس ثغر الموت فى قره تخرج من ثغر لجسم نَحِيل
والأرض غبراء سوى ما بدا من عشبها منتثرا كالفلول
كأنما الدجن غدا تربها وتربها الجهم كدجن سديل
تشابهت فى اللون عهدى بها فى صيفها واللون غير القليل
عهدى بها كالخود فى عرسها زاهية الأصباغ شتى الذيول
خِيلَ حدادا إذ دجا لونها وهو كعقب العرس حتم البديل
خلاعة للصيف خلابة وفى الشتاء الحسن جم الفصول
تباين الحسنان فى روقة لكنه زاد جلال الجليل
كم متعة جاءت بها رهبة كرهبة البرق وعادى السيول

لحن على الماء [*]

بقلم العوضى الوكيل

ركبت زورقاً على النيل ، ومعى ثلاثة من أصدقائى ، وهب الله أحدهم نعمة حسن الصوت وقد غنى صاحبنا فأجاد ، وما منا إلا من طرب له واستعاد ....
وهذه القصيدة صدى هذا الغناء :

تَغَنَّ ، فما أحلى أغانيك فى الماء لها فى نواحيه هواتفُ أصداء
تغن بألحان توا كَبْنَ فى النُّهى قديماً ولا تمهل سكونى واصغائى
تغن فان الماء حولك ظامئ إليك ، فبلل بالغناء صدى الماء
ترقرق كالنسم الوديع هنيهةً وغضّ منه السطح فى غير اغضاء
كأن له نفسا اليك مشوقةً وروحاً يتيه اللحن منها بأعضاء
ينازع فى الأنغام جوّا مُشَعْشَعاً بها ، لم تخالطه نواشز ضوضاء

* * *

ألا غَنِّنَا .... وابسط أغانيك كلها
بصوت كنفح الزهر ، أو طلعة البدر
حماداك أن نصغى اليك بمهجةٍ تفيض بآلام شداد يدا الدهر
تثير بها ما لم ترج مثاره وتحيى بها ما لم يَدُرْ لك فى فكر
وتبعث فيها ماضيا قد نسيته ولكنه لم ينس عهدى وما أدرى
تعيد بها من دارس العمر حقبة
تصورها الأوهام ... ليست من العمر
ألا غننا ... حسبى من اللحن نغمة
تفيض على الأرواح كالنهل الغمر

* * *

نعم ... وامزج الماء الصفى بلحنك الـ
ـصفى فان اللحن فى الماء ذائبُ
فان نحن أومأنا اليه برشفةٍ فبالنور صرفاً قد تمتع شارب
وموجان من ماء ولحن تواكبا
ويا حبذا فى الحس هذا التواكب

[*] من ديوان « تحية الحياة » الذى يصدر قريباً

أميــــة تبعث

جزاكم ذو الجلال بنى دمشق
وعز الشرق أوله دمشــق
(شوقى)

للأستاذ أمجد الطرابلسى

شعرى أردت له على وخلودا   فنظمته لبنى الشآم عقودا
وجعلته لحناً يفيض بحبهم   وبرزت فى سمع الزمان نشيدا
آليت لا أنفك أهتف باسمهم   طرباً وأعلن فضلهم تغريدا
وأهز منهم فى السلام بلابلا   تشدو الحياة، وفى الصدام أسودا
وأصوغ من يوم الجهاد ملاحما   تروى، وأنطقها الربى والبيدا
حتى أرى وطنى تحرر وانبرى
يطوى الشعوب إلى السماء صعودا

* * *

أدمشق يا مهوى رؤاى، وما أرى   إلا بمغناك المقام رغيدا
هلا أبيحك خافقى ولحونه   وأخصك التبجيل والتمجيدا
من فيض سحرك قد قبست قصائدى
فوقفتها لك نفحة وقصيدا
سأحوكها تحكى شذاك لطافة   وأصوغها تحكى ربك ورودا
وأنا المحب، وما سواك حبيبة   أشدو بحسنك يا شآم عميدا

* * *

يا غضبة أموية من جلق   حطمت سلاسل صلبة وقيودا
ضجت لها كل الشعوب؛ أما ترى
كيف استفاضت فى الدنى ترديدا
ألمت دمشق من الخنوع فزمجرت
أنفاً وطبقت الفضاء رعودا
وقفت تناضل كالأباة جراءة   لا ثرثرة حفلت ولا تهديدا
لم تسمع الدنيا بمثل ثباتها   درساً يهيج المرهق المصفودا
خمسون يوماً فى الجهاد مجيدة   كانت فخاراً للشآم مجيدا
حشدت جحافلها لبى وضياغما   صبراً تعاف مذلة وسجودا
رضى الإله عن الشباب فإنه   أضحى لنهضتنا لواء وعمودا
ضحى الأمانى العذاب كخلقه   ومضى يخف للمكارم عيدا
رضى الإله عن اللبوة فإنها   شادت بناء للفخار عتيدا
مهرت حماها والعلى أكبادها   ومشت يهيج نضالها الرعديدا
روض تجهز للجهاد فلم يدع   دوحاً ولا زهراً ولا أملودا
لو كنت شاهده غداة كفاحه   لرأيت جيشاً للنضال حشيدا
أو كنت ثمة شاهداً أطفاله   لرأيت جنداً عدة وعديدا
صبروا على مر الطوى وتحملوا   فقراً على غير الأباة شديدا
حفوا بألوية الجهاد وأقسموا   ألا يكونوا للقوى عبيدا
كل يسير إلى الأمام مشمراً   وقد استعد لأن يعود شهيدا
وعتاده قطع الصفا لكن فى   إيمانه ما يصدع الجلمودا
وفؤاده بين الأضالع شعلة   حرى تشع عزيمة ووقودا
سقطوا أمام بيوتهم، وسط الحمى   صرعى فما حفلوا لظى وحديدا
شهداء مثل الزهر فى أكمامه   كانوا على ظلم القوى شهودا

* * *

يا ابن الحضارة، هل علمت حضارة
تروى دماً ومدامعاً وكبودا
ركزت على الدم والجماجم عرشها
ثم ارتدت زور الطلاء برودا
لبست بياضاً ناصعاً لكنها   أخفت قلوباً كالضغائن سودا
يا منقذ الحرية الزهراء فى   زمن غدوت لليله فرقودا
أعلنت للإنسان حقاً أقدساً   وأدته طاغية العروش عهودا
درس غدوت به الشعوب جميعها
فكسرت أغلالاً ومجت هجودا
أتلوم شعباً هب يبعث مجده   ويعيد فخراً كالخلود تليدا
يمشى على لهب اللظى لحقوقه   ويخوض لاستقلاله (البارودا)
قالوا: حقود! قلت طاش خيالكم   فتى العروبة لا يكون حقودا
هو يطلب استقلاله بدمائه   لا يجتدى كرماً ويسأل جودا
ردوا له الحق السليب مسلماً   تجدوه إلفاً صادقاً وودودا
الشرق سمح منذ كان وإنما   ملئت حضارتكم قذى وحقودا

يا جيرةً ضمدوا جراحة جِلّق   إذ جُرْحها يتلمّسُ التضميدا
لله نصرتُكم أخاكم إنها   قد أصبحتْ مثلاً يسير شرودا
كانتْ على القربى الملحّةِ آية   جُلى ، ورَمزاً ساطِعاً مشهودا
قُلْ لِلغويّ يرى العروبةَ أنهراً   لا تلتقى ويرى الوفاقَ بعيدا
إن العروبة فى المواطِن كلها   ضمِنَتْ لهـا آلامها التوحيـدا
جسدٌ يئنُّ إذا اشتكى عضو به   من ذا رأى شِلواً يعيش وحيدا

***

يا يومَ عادَ المصطفونَ إلى الحمى   ضَمِن الزمانُ لمجدِكَ التخليدا
فى جيدهذا الشرق كنت قُلادة   وأراك فى عمر الجهاد فريدا
مامرّ يوم أو مررت بخاطرى   إلا سطعت لناظرىّ جديدا
يا يوم عادوا والجلالُ يحفّهم   لا السّجن قدهابوا ولا التشريدا
طلعوا علينا كالكواكب رفعة   وهفوا على هامِ الرّجالِ بُنودا
سل مُقلتى لما بدت رُكبانُهم   هل بُدّدت عبراتُها تبديدا
واسأل فؤادى هل أحلّ مصفقاً   أو هل شدا فى رَكبِهمْ غِرّيدا
زَحَفَتْ دمشق تحوطهم بقلوبها   وُلداً وأشياخاً تَدِبُّ وغيدا
تتزاحمُ العبَراتُ فى آماقِهِم   فرحاً فتنثرُ لُؤلُؤاً منضودا
كدُّوا الحناجِرَ فرْحةً بإيابهم   وتدافعوا مثـل الأتىّ وُفودا
أرأيتَ كيف طغى العُبابُ على الثرى
أو كيف تحتضِنُ الرؤومُ وليدا

***

يا من رأى المأسورَ عاد مكرّماً   والآسِرَ المأفون فرّ طَريدا
يطوى البحارَ السود يطلب ملجأً
وَحِمىً وَيضربُ فى البلاد شريدا
أنى تحوّلَ فالسماء صواعق   والأرضُ فاغِرةٌ هُوى ولحودا
وأمامه أنى تقلبَ نِسْوةٌ   يخمشن أجياداً زَهَتْ وخدودا
. . . .
ذُقْ ما يذُوقُ الظالمون ! ومن يهُنْ
أنفَ الشعوبِ يهُنْ وَيَقض كميدا

***

وفد الشآم ويارسول جهادها   أنى حللت ترَ القلوب مهودا
الله والشعب المبارك عزمه   قد أولياك النصر والتأييدا
فاسحب من الحب الثمين سوابغاً
واصحب من العطف العميم جنودا
واهبط رباعاً من (فَرَنْسةَ) خُضِّبت
بِدَمِ الأباةِ مسـباسباً ونجودا
دكّت حصونَ الظالمين سيوفُهم   والظلم تذروه السيوف بديدا
حِيِّهمْ فَبَثْهم السلام وقل لهم :   « يا من نشرتم لِلحقوق بنودا
يا موقدين لهيب أروع ثورةٍ
تركت عروش المالكين حصيدا
والمرسلين على الظلوم صواعقاً   والباذِلين مع الضعيف جُهودا
لا تكتبوا بشبا السِّنان عهودكم   فالحبُّ أصدق موثقاً وعهودا
ضِنوا بهذا الشعب يوماً أن يهى   إعجابه بِنضالكم ويبيدا »

***

يا وَفدُ سر بحمى الاله وحِفظه   واستنجز للأمول والموعودا
وارجع إلينا بالحياةِ مظفَراً   واسطع بشائرَ فى الحمى وسعودا

أمجد الطرابلسى

القصص

دراما من إسخيلوس

المتضرعات

The Suppliant Women

للأستاذ دريني خشبه

مقدمة :

كتب إسخيلوس هذه الثلاثية الرائعة وهو شاب في مقتبل حياته ، ولم يبق منها ، وا أسفاه ، غير الدرامة الأولى ، أما الثانية والثالثة فما تزالان مفقودتين . وقد استطاع العلماء الجهابذة من الألمان الحصول على مغزاهما ، وبذا تمت لنا الثلاثية بموضوعها وإن لم تتم بمبناها . والدرامة تنبع من أسطورة يو التي نشرتها الرسالة آنفا والتي تتلخص في أن زيوس كبير أرباب الأولمب أحب الفتاة يو حباً مبرحا فكان يختلف إليها سراً مخافة أن تضبطه وإياها زوجه حيرا فيحدث ما لا تحمد عقباه ... ولكن ... وقع ما خافه زيوس ... فبينما كان يلهو بحبيبته مرة إذ لمح زوجه مقبلة ... فأسقط في يده .. وسحر يو بقرة بيضاء ... وراح يدعى أنه يرعاها ... ولكن الحيلة لم تنطل على حيرا فسألته أن يمنحها البقرة علامة على حبه لها ، فأجابها ... وناطت بها حيرا خادمها الفظيع آرجس ، ذا المائة عين يحرسها ويلحظها أنى سارت وأيان توجهت .. وذاقت يو الأمرين من هذه الحال حتى لقيت أباها رب أحد الأنهار مرة فتحدثت إليه بما كان من أمرها مع زيوس .. ولم يطق سيد الأولمب صبراً ، فأنفذ ولده الصناع هرمز إلى آرجس ليحتال عليه ويقتله وينقذ يو من شره ... وأفلح هرمز في مهمته ، ولكن حيرا نقمت على البقرة وسلطت عليها ذبابا ساماً ماتئ يقرصها ويعضها حتى تصالح زيوس وحيرا ، ورجاها أن تطلق سراح يو فقبلت ، على شريطة أن تنطلق من هيلاس كلها !! وقبل زيوس ، وأعاد إلى يو صورتها ... وأنفذها إلى ... شطآن مصر ... حيث تزوجت بفرعونها العظيم ... وكان من نسلها هؤلاء النسوة المتضرعات ، اللائي يتحدث إسخيلوس عنهن في هذه الثلاثية

ونحن نعتمد في تلخيص الدرامة الأولى الباقية على ترجمة لويس كامبل (طبعة إكسفورد) الشعرية ، أما الدرامتان الأخريان المفقودتان (مصلحات فراش النوم) و (دانايديز) كما ذكرهما الأستاذ جلبرت موري في تاريخه عن الأدب الاغريقي (طبعة أبلتون ص ٢١٧) فسنلخصهما معاً معتمدين في ذلك على الأستاذ هـ . أ . جربر ص ١٤٢

— ١ —

يرجع بنا إسخيلوس إلى عصر موغل في القدم ، حتى ليكاد أن يكون عصرا خرافياً

ذلك هو العصر الذي كان فيه إيجبتوس أميراً على مصر السفلى ... إيجبتوس الذي لا يعرفه التاريخ ...

وكان لهذا الأمير خمسون ابناً ، وكان لأخيه دانوس خمسون ابنة ، فأراد إيجبتوس أن يزوج أبناءه الخمسين من بنات أخيه الخمسين ، برغم ما في هذا الزواج من مخالفة لشرائع الدين في مصر في هذا الزمان ، ذلك أن هذا الدين الذي كان يبيح زواج الأخ من أخته ، كان مع ذاك يحرم زواج ابن العم من بنت العم ، ويعتبره — لو تم — نوعاً من الزنى

— ٢ —

لذلك صمم دانوس ، التقي الورع المتعبد ، المتفاني في طاعة الآلهة ، ألا يتم هذا الزواج

وسبب آخر جعل دانوس يغلو في تصميمه ، ويتشبث به ، برغم ما تجره عليه عداوة أخيه ، أمير مصر العظيم ، من بلاء وأرزاء

ذلك أنه كان لا ينوي تزويج واحدة من بناته الخمسين قبل أن يودع الحياة ، وقبل أن يجيئه الموت ، وقبل أن يجرع كأس المنون حتف أنفه ! وكيف ؟

لقد ذكر دانوس ، حين كلمه أخوه الأمير في بناته الخمسين ، تلك الرؤيا المفزعة التي أريها إذ هو شاب في غضارة الشباب ، فأقضت مضجعه ، وطمست مباهج الحياة في قلبه ، وتركته لا يفكر إلا في هذه النهاية المريرة التي تدحرجه إلى شفاها الأيام ؛ ويقذف به في هاويتها الزمان الغدار ! !

رأى دانوس ، إذ هو نائم فوق ضفاف النيل السندسية المعشوشبة ، في ليلة مقمرة من ليالي الصيف الجميل الغفي ، أن

زوجاً من أزواج بناته يقتله ، ويغمد خنجره ذا القبضة الذهبية في أحشائه ، ثم يقذف بجثته المزقة بعد ذلك في النيل ، فتحملها أواذيه الى اليم المصطخب ، الى حيث لا يدرك لها قرار ! !

« إذن لن أزوج واحدة من بناتي ! ! »

وذهب في الأرض على وجهه يأتي الكهان وسدنة الآلهة ليفسروا له الرؤيا ، فما زاده تفذوهم إلا ترويعاً ، لأنهم جميعاً أكدوها له ... وإذن ... « فلن أزوج واحدة من بناتي ! ! »

— ٣ —

وألح ايجبتوس على أخيه ، ولكن دانوس ظل يماطله .. ويماطله وأعد دانوس مركباً كبيراً حمل فيه بناته ... وأبحر في ظلام الليل ... إلى مملكة جدته ... جدته يو ... حبيبة زيوس سيد الأولب وكبير الآلهة .... ليبارك ذراريها ، ويسهر على أحفادها !

وقد ضرب في البحر ، ولعبت بمركبه الأنواء ، وطفق باقي من مور اليم وتناحر الموج ما أرخص له الموت . . . لولا أن استوى على شاطئ آرجوس ، فنزل وقد بلغ منه الأين ، وحطمه النصب

— ٤ —

وسار ببناته حتى بعد قليلا عن الشاطئ ، وحتى كان في البقعة المباركة المطهرة ، التي جعلتها آرجوس حرماً للآلهة ، وأقامت فيها التماثيل لأربابها . فوقف دانوس يعرّف بناته بسادة الأولب ، وانطلق البنات (١) يغنين لآلهة هيلاس ، ويقرئنهن السلام من آلهة النيل ، وطفقن يهزجن بنشيد طويل حلو ، تنضحه الدموع وتصهره حرق في الضلوع ، ويفيض منه الموجمان الشجو والشكو ! !

وإنهن لفي صلاتهن وتغنيهن ، وإذا رجل طوال سامق ، بادي الهيبة موفور الوقار يخرج إليهن فجأة من الأدغال القريبة ، فيقف لحظة يرنو إليهن ، ثم يتقدم فيسألهن :

— « مَن النِّسوةُ المهاجرات في هذا الزي الغريب ! منظر عجب وآلهة الأولب ! الشاكيات الباكيات في ثياب بربرية ، لا أرجيفية ولا إغريقية ؟ ! من ؟ ما هذه الأفنان الناضرة ؟ أمن الزيتون هي ! وفيم وضعتُنها عند أقدام التماثيل يا مهاجرات ؟ تماثيل آلهتنا ، وأوثان أربابنا المباركة ؟ »

وتتقدم اليه كبراهن فتسائله :

— « إن يكن قد بدهك زينا فمن أنت ! أمواطن من آرجوليس ؟ أم موكل بهذا الحرم تحرسه وتقوم عليه ؟ أم عظيم من آرجوس وتابه من حكامها ؟ هل للسيد أن يجيب ؟ ! »

وهش الرجل وبش ، وتبسم ضاحكا من قول الفتاة ، ثم تلطف فذكر له أن بيلاسجوس بن باليختون ، ملك آرجوس وحامي ذمارها ؛ وأوضح فذكر شعبه وأملاكه ومدائنه ، وهذا السهل وذاك الجبل وتلك الوهاد . . . وهاتيك البطاح

واهتزت الفتاة من رهبة وقالت : « إذن . . . فنحن نمت إلى آرجوس بوشائج القربى ، نحن يامولاي من نسل البقرة المشردة على حفافي النيل ... هرعنا إلى آرجوس نلتمس الحمى ! »

— « من نسل البقرة المشردة ؟ وتَمُتْنَ إلى آرجوس بوشائج القربى ؟ عجيب وآلهة الأولب ! إن ملامحكن لا تدل على أصل إغريقي ألبتة ! ! وربما كنتن من هذه القبائل الضاربة في أباطح إفريقيا ... من مصر ... أو من أثيوبيا يا بنات ! أو عسى أن تكن هنديات من اللائي يضربن أكباد الابل هنا وهناك في جنبات آسيا ... آه ! لا لا ، بل عسى أن تكن أمازونات يا فتيات ! ! أمازونات لا يعرفن الرجال قط ... يقتدين باللحم النيء ! ... خبرنني بحق الآلهة عليكن ... إن كنتن تمتن بوشيجة إلى آرجوس فكيف كان ذلك ؟ ... »

— « قد يعرف الملك ما كان بين سيد الأولب وبين يو من علائق ! »

— « أجل ، أعرف . . . أعرف . . . ولكن ماذا كانت عاقبة يو ؟ »

— « لقد سحرتها حيرا بقرة (١) ... »

— « وزيوس ؟ ! ... »

— « سحر نفسه عجلا جسدا له خوار ! »

— « ثم .... »

— « ثم لم تبال به حيرا ، بل وكلت بيقرتها حارساً غليظاً ذا مائة عين ! »

(١) بنات دانوس هن خورس هذه الدرامة

(١) الأثور غير ما ذكر إسخيلوس ، فزيوس هو الذي سحرها

— « مائة عين ؟ حارس ذو مائة عين من أجل بقرة واحدة ؟ يالله من راع ! »

— « أجل ... آرجس أيها الملك ، الذي قتله هرمز »

— « ولما قتله هرمز ، هل أطاق سراح البقرة ؟ »

— « لا ، ولكنها أرسلت عليها الذبابة السامة تمضها ، وتنغص حياتها ، وتزيدها شقاء على شقاء

— « وأين انتهى بها المطاف يا فتاة ! »

— « خاضت البحر اللجى حتى كانت عند شواطئ مصر حيث تتدفق أمواه النيل . وثمة أعاد إليها زيوس شبابها وعنفوانها وأولدها إبافوس . . . منشئ ممفيس (١)

— « وهلا تذكرين لها أطفالاً آخرين ؟ »

— « بلى . ولدها « بل » وقد أنجب بل ولدين كريمين ، أبانا هذا الشيخ . . . و . . .

— « أباكم ؟ ما اسمه ؟ . . .

— « دانوس أيها الملك ونحن بناته الخمسون . . .

— « وأخوه ؟ ما اسم أخيه ؟

— « إيجبتوس أمير مصر وملكها . . . والآن ! هل تأكدت من صدق منشئنا ؟

— « لا ريب ! حصحص الحق ! ولكن اذكرى لى ! فيم هاجرتن من بلادكن ؟

— « أوه !! إنه لأمر يهيج أشجاننا أيها الملك ! ؟ يا للدنيا التى تكظها الآلام . . .

— « إن لكن لشكاة يا فتيات ، فلا تخشين أن تبحن بها ، إنكن بحضرة ملك آرجوس وإن هذه الأفنان التى وضعتنها عند أقدام آلهتنا لتتكلم عن شكاتكن ! . . .

— « إن كان لا بد أن تعرف ، فقد رفضنا أن نكون خولا لعمنا إيجبتوس ! لقد أرادنا على أن نكون متعة لأبنائه الخمسين فرفضنا ، لأن شرائعنا تأبى ذلك ... وها قد لجأنا إليك لتحمينا فلا تسلمنا لعمنا أبداً ! »

— « يا للهول ! ! إنى لألمح لهب الحرب يومض فى ظلماء المستقبل ! »

— « ولكن زيوس سيكون إلى جانبك ! »

— « أواه ! قد أجر الخراب على آرجوس ! من يستطيع أن يمنع إيجبتوس حقه فيكن ؟ »

— « الآلهة تستطيع ذلك إذا أيدت قضيتنا وآزرتنا أيها الملك . . . الآلهة تنصر الفضيلة دائماً »

— « على كل . . . أنا لا أستطيع أن أبرم فى ذلك أمراً دون أن أستشير شعبى ورجال دولتى ! »

— « أنت الحكومة وأنت الشعب وأنت الدولة ! »

— « كلا يا فتيات ! أنا ملك آرجوس فحسب ! لا بد من الشورى ! »

— « إذن ! . . .

— « إذن ماذا يا فتيات !

— « إذن ... وحق آلهتك ... لنشنقن أنفسنا فى جذوع هذه التماثيل ! ولتكونن مأساتنا خزياً أبدياً فى شرف آرجوس لا تمحوه الأيام ! !

— « واحربا ! على رسلكن يا فتيات ! لا تسئن الظن بشرف آرجوس وشجاعة ملكها ... ولكننا هنا قلب واحد ينبض بأحاسيس واحدة ! بيد أننى أدلكن على مخرج من هذا المأزق الحرج ... ليذهب أبوكن — هذا الشيخ — بهذه الأفنان الناضرة ، فليلقها لدى أقدام الآلهة فى معبد المدينة حيث يعكف الشعب على أربابه يبتهل إليها ويصلى لها ... فاذا سأله فى ذلك أحد ، فليبث شكواه ، وليذرف دموعه ، وليكسب إلى جانبه الجماهير الحاشدة التى نحكم باسمها ونستمد منها سلطاننا ! فهنالك ، وهنالك فقط ، يستطيع ملك آرجوس أن يؤيدكن ، وأن يحميكن ... أما أن أعدكن بالحماية من غير أن أرجع إلى شعبى ... ف ... فأنا أخشى أن يقولوا إنى أذهبت ريحهم وهرقت دماءهم فيما لم يكونوا منه بسبيل ! ! »

— ٥ —

ويُنفذ الملك مرشداً مع دانوس يدله على الطريق إلى معبد آرجوس الجامع ، ويودع البنات لينطلق بدوره ، فيؤيد قضيتهن بين وزرائه ، وليرقق قلوب الشعب من أجلهن ، وليضمن لهن مؤازرة آرجوس كلها

(١) هكذا تزعم أساطير اليونان عن نحو مدائن مصر القديمة ويرحم الله مينا !!

ويأخذ الفتيات فى صلاة طويلة كلها آمال وكلها أمانى ، وكلها ضراعة وكلها ابتهال ، وكلها تذكير للآلهة بما حاق بذرية بو التمساء ، ثم ثناء على أرباب الأولب لا ينتهى !

— ٦ —

وفيما هن يصلين هذه الصلاة الطويلة ، إذا أبوهن ، دانوس الشيخ ، يدخل عليهن فجأة ، حاملاً إليهن البشرى

— « ليهنكن يا فتيات !! ليهنكن ! لقد ضمنا أصوات الشعب وتأييد آرجوس ! »

— « أبانا ! بوركت ! بالبشرى ! ولكن . . . قص علينا كيف تم ذلك بحق الآلهة عليك ! »

— « ما كدت أجوس خلال آرجوس حتى تكبكب الشعب حولى ، مأخوذاً بغرابة زيى وعجيب هيئتى ... وزادهم إجلالاً أنى ظهرت فيهم كضيف للملك وصديق لأرجوليس ؛ فلما نثرت الأفنان عند أقدام الآلهة ، وصليت وبكيت ، وبثثت شكواى ، رق الأرجيف الكرماء لى ، فناشدتهم أن يؤازرونى ويشددوا عضدى ، ضد عدوى الغاشم الذى أراد أن يفضحنى فيكن ، ويجر الخزى عليكن . فهتفوا لى ، وحيونى تحية الأبناء الأمناء ، وأعطونى موثقهم على افتدائى بأزكى الدماء . . . وعاهدونى على أن يذودوا الظالمين دونى ... ثم هالنى أن أرى السماء ترسل أضواءها فتملأ أركان المعبد بهاءً وتكسبها رونقاً ورواء . . . وأقبل الملك فهتف الشعب له ، والتفوا حوله ، فخطبهم فى شأنى وحذرهم أن يغضبوا زيوس ربهم إذا لم يؤازرونى ، وينصرونى ، ويؤيدوا حقى على باطل عدوى . فهتفوا بلسان واحد أن كيف لا ينصرون لاجئاً إلى قدس زيوس ، مستجيرا به ، مستشفعاً بآرجوس يرجو حماها ! ثم عرضوا آخر الأمر أن أقيم بين ظهرانيهم كواحد منهم ، وأن تكون لكن من الحقوق ما للأرجيفيات ، غير خائفات ولا مروعات ... هذه يابنتى قصتى ، وهذه أقضية السماء فاشكرن لها وتبتلن »

(البقية فى العدد القادم) دريني خشبة

البريد الأدبي

أخى الأستاذ الزيات

لا أقدر أن أعلل المصادفة التى جعلتنى أكتب قبيل شهر هذه القطوعة « الاتصال » :

« لم تخلق الحياة جزءا يستطيع أن يعيش متصلا ،
حتى الأموات الذين أتموا دوراتهم يبقى اتصالهم بأرواحنا ،
والأحياء أنفسهم هل يستطيعون أن يعيشوا بغير أموات ؟
هم فى يقظاتهم يمشون وراء خواطرهم وأفكارهم
وهم فى أحلامهم يعيشون فى جزائرهم النائية . . . »

ثم قدمت لى المصادفة كتاب « المرملة » لماترلنك ، فلمست بدهشة وتأثير «صوفيته العميقة» وإحساسه بالموتى الذين لا يموتون

« لنكن مطمئنين فالموت لا يحفظ لنا شيئاً أكثر تجهماً من الحياة ، وما الموت إلا حياة لا ينفذ إليها نصب ولا حزن ولا شقاء ! حيثما يقيم فالروح مقيم ولا شيء يضيع »

« لا نصلّ من أجل الموتى ! ولكن لنأتهم مبتهلين فان ما يملكونه لنقدمه الينا أكثر مما نملكه لنقدمه اليهم »

ثم جاءت كلمة الأستاذ أحمد أمين تحمل اليك التعزية فى الرجاء الذاهب والكوكب الغارب !

يقول بوذا : « لا تقيد نفسك بالمحسوسات ، فالتقيد بها يشقيك . . . عش متجردا من كل حب محسوس وعلاقة محسوسة » وقد أجد فى هذه الكلمة كل الشفاء لو تستقر فى النفس . ولكن النفس التى تؤلف كل هذا المحسوس وترتبط به فى كل لحظة وتعيش معه فى كل مكان ، كيف ينزع منها ولا تجد لنزعه مرارة ؟ وكيف لا تحس به النفس وهى تغذيه كل يوم بدموع !

جميل أن أعيش بعيداً عن المحسوس ، وأجمل منه هذا العقل الذى يغرس فى قلبى هذا الايمان المجرد ؛ وهل أستطيع أن أبلغ الايمان المجرد إلا بعد أن تجردنى الحادثات وتنثر أوراقى كالشجرة التى لا تلمس نفسها وتحس وجودها إلا بعد أن تتجرد من أوراقها وأزهارها . ولا يأتى التجرد من غير ثمن !

ثمن هذا التجرد شقاء نتحمله ، وألوان من العذاب نتذوقها ، وقطع من أكبادنا تمشى على الأرض إلى الأرض !

لا أستطيع أن أقول لك : « تعز يا أخى بالتجرد ! » وهذا التجرد نفسه يحتاج إلى تعزية ! ولا أن أقول : « انفض يديك من الصغير المفقود » فانه جر الى التراب قطعة من كبدك معه . ولكن دع هذه القطعة فيها حركة وفيها حياة ... تحيا تحت التراب كما تحيا فوقه . . . ومتى رأيت أن الحياة تعمل هناك كما تعمل هنا ، وأبصرت أن الحياة التى تتمشى فى جذور الأرض هى التى تتمشى فى مطالع أزهارها ، كان لك من هذا عزاء ، لأنك تأمن على هذه القطعة التى ساخت منك . وفى الذكرى المتصلة حياة ، وفى الرجاء المتصل الذى لا ينقطع ألف حياة ؟

خليل هنداوى

حول رائى الأندلس المجهول

يرجع الفضل فى العودة الى اثارة البحث عن صاحب القصيدة التى نشرها ، للمرة الأولى ، الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٩ ، الى صديقى السيد عبد الرحمن حجى ، مدرس اللغة العربية بمدرسة أبناء الأعيان بسلا . واتخذ ميدانه « الرسالة » (عدد ١٣١ — ٦/١/٣٦) وطلب من المشتغلين بالأدب الأندلسى أن يعلنوا عن صاحبها إذا عرفوه ، فلم يجبه أحد سوى السيد محمد عبد الله عنان الذى حاول فى مقالة نشرتها له « الرسالة » أيضاً عدد (١٣٣ — ٢٠ / ١ / ٣٦) تحقيق فترة الدهر التى يرجع اليها قرض القصيدة تسهيلا فى البحث عن صاحبها وعصره . وقال السيد حجى إنه عرض القصيدة على المؤرخ المغربى السيد محمد بن على الدكالى السلوى فذكر له أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من المرية ، ولعله أبو جعفر بن خاتمة ، وقد تكون مذكورة

فى كتابه « مزية المرية » الذى فى دير الأسكوريال نسخة منه . وقال السيد حجى أيضا إن الدكتور صوالح قال فى كتابه إن هذه القصيدة من جملة القصائد التى بعثها مسلمو الأندلس يستغيثون بها السلطان العثمانى بايزيد الثانى . ولم نعثر نحن على هذا القول فى الكتاب المذكور

أما نسبتها إلى أبى جعفر أحمد بن خاتمة فهو غلط تاريخى ، فقد مات هذا فى اليوم السابع من شهر شعبان سنة ٧٧٠ (فهرست أبى عبد الحضرامى السبتى ، التى ألفها له الخطيب بن مرزوق (النفح ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ ، ط القاهرة)

وابن خاتمة من معاصرى لسان الدين بن الخطيب المشهورين وله معه مكاتبات . وله أيضا فى الوزير قصائد (النفح ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ ط القاهرة) . ومن جهة أخرى ، فقد ترجم الوزير فى الاحاطة لابن خاتمة وعدّه من أصدقائه (الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٧٤ ، ط القاهرة ١٣١٩)

فليست القصيدة إذاً لابن خاتمة الذى مات ، على الأقل ، منذ ٨٠ سنة قبل الفترة التاريخية التى قيلت فيها والمُستنتَجة منها ، كما لا يمكن أن تجىء فى كتابه « مزية المرية »

وجاء البيت ٧٧ من القصيدة هكذا :

ترى فى الأمى أعلامها وهى خُشّع
ومِنبرها مُستعبِرٌ وسَريرُها

سقطت « فى » من صدره فى الأصل وفى « الرسالة » ، إلا أن ناشر الأصل نبّه عن ذلك فى آخر الكتاب فى جدول التصحيح . ولعل صديقى حجى أغفل النظر الى الجدول

حول ذخيرة ابن بسام أيضا

واهتبل الكتابة الى « الرسالة » التى مضى لها الكلام حول ذخيرة ابن بسام (عدد ١١٥) لأزيد أن النسختين المعروفتين اليوم بالمغرب الأقصى من هذا التأليف هما :

١ — نسخة ينقصها الجزء الرابع فى خزانة السيد عباس بن ابراهيم ، أحد قضاة مدينة مراكش الحاليين

٢ — نسخة أخرى ينقصها الجزء الرابع أيضا ، كانت لأوقاف مدينة تطوان بمنطقة النفوذ الأسبانى بالمغرب ، ولكن شخصا توصل الى اقتنائها وحملها الى الرباط بمنطقة النفوذ الفرنسى . وقد اقتنتها منه الحكومة المغربية لخزانة الرباط العمومية . وقد دخلتها فعلا ، وقيدت برقم (١٣٢٤) بدفتر المخطوطات العربية الثانى . ولم يقتنها السيد ليفى بروفنسال لنفسه كما شاع ذلك بالمغرب . وقد استعارها أخيراً السيد ليفى بروفانسال الأستاذ بجامعة الجزائر بواسطة خزانة مدينة الجزائر الأهلية . ولعله لينشرها أو ليقارنها بأخرى . ومما لا شك فيه أن بخزائن المغرب نسخا أخرى لا تزال مجهولة

عبرات حرار

ولتسمح لى « الرسالة » مرة أخرى ، لأنتهز هذه الفرصة أيضاً لأوجه هذا السؤال الى السيد عبد القادر المغربى رئيس المجمع العربى بدمشق سابقاً

سيدى :

قلتَ فى « مجلة مجمع اللغة العربية الملكى » (عدد ١ صفحة ٣٣٨) :

« إن العرب إن لم يصفوا الدموع بلفظ الحَرَارة فانهم وصفوها بمرادف الحرارة ، أعنى « السخونة والاحراق » . . .

« والفرق بين العربى والأفرنجى : أن الأولين ينسبون السُّخونة الى العين نفسها ، والافرنج ينسبون الحرارة الى دموعها

فما رأيك يا سيدى فى قول الخنساء :

مَنْ كان يوماً باكِياً سَيِّداً فليبكه بالعَبرَات الحِرار

(سلا — المغرب الأقصى) محمد حصار

كتاب هام عن المسألة الفلسطينية

أثارت المسألة الفلسطينية فى العهد الأخير كثيراً من الاهتمام وصدرت عنها وعن تطوراتها كتب كثيرة ، ولكن معظم هذه الكتب يميل إلى الناحية اليهودية وإلى تأييد السياسة البريطانية وإنشاء الوطن القومى اليهودى ، وقلما ينصف العرب أو يقدر مطالبهم وحقوقهم قدرها ؛ بيد أنه ظهر أخيرا كتاب بالانكليزية عن المسألة الفلسطينية عنوانه « فلسطين العربية » Palestine of the Arabs بقلم السيدة بياتريس ستيوارت إرسكين B. S. Eraskins يؤثر الناحية العربية بكثير من الشرح والتفصيل ، ويميل إلى إنصاف العرب وتصوير وجهة النظر العربية تصويراً عادلاً .

وتمهد المؤلفة لبحثها باستعراض تاريخ فلسطين منذ أقدم العصور حتى الحرب الكبرى ، ثم تاريخ المسألة الصهيونية منذ فاتحة القرن الماضى حتى سعى اليهودية إلى عرض تأييدها ونفوذها على الحكومة الانكليزية مقابل إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، وصدور عهد بلفور الشهير بانشاء الوطن القومى ، ثم قيام الانتداب البريطانى على فلسطين

وتشير المؤلفة إلى إغفال رأى العرب فتقول إن منح فلسطين لتكون وطناً قومياً لم يرجع فيه إلى رأى السكان « الفقراء » الذين كانوا حلفاءنا . كذلك لم تقدر فيه عواقب تدفق الهجرة إلى بلد صغير محدود الموارد ، ولم تكن هناك سياسة ثابتة لمعالجة الموقف الذى ينشأ عن ذلك ، وهى سياسة كان يجب أن تقوم على استشارة ذوى الشأن جميعاً ، وأن يراعى فيها تنفيذ الشطر الثانى من تصريح بلفور الخاص بأنه « لن يعمل شىء يمكن أن يضر بالحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية من سكان فلسطين » ، ولا ريب أن تعيين هذه الحقوق الدينية والمدنية كان من شأنه أن يفر كثيراً من سوء التفاهم ، وأن يحمل العرب على الثقة بالدولة المنتدبة ، وأن يزيد فى احتمال التعاون بين مختلف العناصر

وقد هرع اليهود إلى البلاد لا كمهاجرين بل كفاتحين ، وشعر العرب بأنهم حرموا كل نصيب فى النفوذ والحكم ؛ وكان المندوب السامى الأول يهودياً ، فكان تعيينه ضربة للعرب . وتعاقب المندوبون السامون وتعاقبت الوزارات البريطانية ولم يجد العرب إنصافاً ، وألفت السلطات يدها مغلولة بنصوص الانتداب ، واستمر الاحتكاك بين العرب واليهود ؛ وزادت المنازعات الدينية الأمور تعقيداً ، وكانت تنتهى أحيانا بسفك الدماء . بيد أن اليهود لم يكتفوا بما نالته الوطن القومى من التوطد والتقدم ، فهنالك « حزب الاعادة » الذى يتزعمه فلاديمير جابوتنسكى ، وهو يطالب باطلاق الهجرة اليهودية من كل قيد ، وحماية المستعمرين بمنحهم حقوقاً ومزايا خاصة ، وغير ذلك من المطالب المتطرفة

ولا ريب أن العرب يقابلون كل هذه المطالب والدعاوى بالانكار والمقاومة ؛ ومن المستحيل أن تعاون الأحوال القائمة على وضع أى حل مرض للمسألة الفلسطينية

وتقترح المؤلفة من عندها حلا يقوم على التوزيع الجغرافى ، وترى أن تقسم فلسطين إلى قسمين يكون كل منهما دولة خاصة ، فتكون إحدى الدولتين عربية وعاصمتها بيت المقدس وثغرها يافا ؛ وتكون الأخرى يهودية وعاصمتها وثغرها تل أبيب ، وتنضم الدولتان إلى عصبة الأمم ؛ وتعتبر بيت المقدس وحبرون وطبرية وصفد وبيت لحم مدناً دينية تخضع للنظام والقوانين التى تضعها عصبة الامم ، وتبقى حيفا ثغراً حراً ، وتنضم شرق الأردن إلى فلسطين العربية

والخلاصة أن المؤلفة تبدى كثيرا من الاعتدال فى عرض المسألة الفلسطينية وتخص الناحية العربية بكثير من الانصاف والعطف ، وتبدى شجاعة فى عرض القضية العربية يندر أن يبديها قلم أجنبى . ومن ثم فان كتابها خليق باهتمام العرب ، وهو بلا ريب وثيقة مفيدة فى عرض القضية العربية فى انكلترا وفى أوربا

قصص فلسطينية

صدرت أخيرا ترجمة انكليزية عبرية من القصص الفلسطينية عنوانها Palestine Caravan أعنى « قافلة فلسطين » بقلم الكاتب اليهودى موشى سميلانسكى M. Smilansky وهذا الكاتب القاص معروف بين مواطنيه بقوة تصويره وطرافة خياله . ويحتوى كتابه المذكور على إحدى عشرة قصة فلسطينية ، عن اليهود والفلاحين والبدو ، ويميل سميلانسكى بنوع خاص إلى تصوير الحياة الريفية ، ويجيد هذا النوع من الصور . وبين القصص المذكورة عدة تمتاز بحسن السبك والمفاجآت المدهشة ، وبينها عدد يمتاز بحسن التصوير والدراسة الطبيعية والنفسية العميقة ولا سيما فيما يتعلق بدسائس القرية ، ووصف الحياة الريفية ذاتها وحياة الفلاحين وأعمالهم فى الحقل والمنزل ، ومما يلاحظ أن الكاتب حتى فى دراساته الوصفية يجانب الأسهاب الممل ، ويقتصر فى الوصف واللفظ على ما لا بد منه لاظهار الصور والمعانى

طريقة المجمع اللغوى فى كتابة الأعلام الأعجمية

وافق مجمع اللغة العربية الملكى على القواعد الآتية فى كتابة الأعلام الأعجمية وهى :

١ — أن يكتب العلم الأفرنجى بحسب نطقه فى اللغة الأفرنجية ومعه اللفظ الأفرنجى بحروف لاتينية بين قوسين فى البحوث والكتب العلمية على حسب ما يقرره المجمع فى شأن كتابة الأصوات اللاتينية التى لا نظير لها فى العربية

٢ — تكتب أسماء الأعلام بحسب النطق بها فى لغتها الأصلية أى كما ينطق بها أهلها وليس كما تكتب . مع مراعاة ما يأتى :

٣ — جميع المعربات القديمة من أسماء البلدان والممالك والأشخاص المشهورين فى التاريخ التى ذكرت فى كتب العرب يحافظ عليها كما نطق بها قديماً ، ويجوز أن نذكر الأسماء الحديثة التى شاعت بين قوسين ، وإذا اختلف العرب فى نطقين رجح أوثقهما

٤ — أسماء البلدان والأعلام الأجنبية التى اشتهرت حديثاً بنطق خاص وصيغة خاصة مثل باريس وانجلترا والنمسا وفرنسا وغير ذلك تبقى كما اشتهرت نطقاً وكتابة

٥ — الأعلام القديمة يونانية ولاتينية ينظر فى وضع قواعد خاصة بها

٦ — الأعلام السامية القديمة التى تكتب بحروف الهجاء الخاصة بها توضع لها قواعد خاصة بها

٧ — اللغات التى لا تزال تكتب بالحروف العربية ، ولكن فيها أصواتاً ليس لها حروف عربية ، ولهذه الأصوات فى لغاتها حروف خاصة اصطلح عليها كالفارسية والملاوية والهندستانية والتركية فى الحكم العثمانى ، ترى اللجنة بشأنها أن تدرس هذه الأصوات الخاصة وتتخذ لها الحروف التى وضعها لها أهلها

٨ — بعض القبائل والبلاد الاسلامية لها لغة خاصة لا يستعملونها غالباً فى الكتابة ، وإنما يكتبون باللغة العربية ، ولكن لها أعلاماً بعض أصواتها لا يطابق الحروف العربية ، وقد وضعوا لها إشارات لتأدية هذا النطق ، وفى بعض الأحيان تكون هذه الاشارات متعددة للصوت الواحد — ترى اللجنة بعد البحث أن يختار أحد الاصطلاحات فى كتابة هذه الأعلام

وانتهى المجمع من المناقشة فى هذا القرار بوضع الحرف — جاف — ويكتب كافا على شرطتها ثلاث نقط

٩ — الأسماء الأجنبية النصرانية تكتب كما عربها نصارى الشرق . فمثلا يقال بطرس فى Peter وبقطر فى Victor وبولس فى Paul ويعقوب فى Jacob وأيوب فى Job وهكذا

١٠ — قبلت اللجنة إدخال الحروف (P) ورسمته باء تحتها ثلاث نقط و (تش ch) ورسمته جيما تحتها ثلاث نقط ، و (J) ورسمته زايا فوقها ثلاث نقط ، و (G) ورسمته كافا فوقها ثلاث نقط وهو حرف الجاف ، وقد أرادت اللجنة من إدخال هذه الحروف للاشارة بها إلى بعض الأصوات التى لا توجد فى العربية واختارت هذه العلامات لتداولها فى اللغات الفارسية والتركية والهندية والملاوية

١١ — قبلت اللجنة أن يكتب الحرف (V) واوا بثلاث نقط فوقها وقد عدلت اللجنة عن كتابة (ف) بثلاث نقط لأن هذا الحرف مستعمل فى بلاد المغرب إشارة إلى الحرف (جاف) أى الكاف المعقودة ، وفى الملايو إشارة إلى الحرف (P) لتعيين بعض الأصوات فى الأعلام الافرنجية

١ — اللغات التى لا تزال تكتب بالحروف العربية ولكن فيها أصواتاً تخالف أصوات الحروف العربية ولهذه الأصوات فى لغاتها حروف خاصة اصطلح عليها كالفارسية والملاوية والهندوستانية ، ترى اللجنة بشأنها أن تدرس هذه الأصوات الخاصة وتتخذ لها الحروف التى وضعها لها أهلها

وقد درست اللجنة هذه الأصوات الخاصة المشار اليها ووضعت فيها ثلاثة قرارات :

(ا) الحرف (انج) فى لغة الملايو . يرسم نون وجاف وهو يرسم فى لغة الملايو غينا فوقها ثلاث نقط

(ب) الحروف الهندية المرسومة راء ذات أربع نقط ، وتنطق بين الراء والضاد ، وكذلك الراء التى فوقها طاء يكتفى بكتابتها راء عربية . وكذلك الدال التى فوقها أربعة نقط يكتفى بكتابتها دالا عربية

(ح) بعض أسماء البلاد فى جزائر الهند الشرقية ومقاطعة موريتانيا وما يليها تنتهى بحسب نطق أهلها بفتحة مثل ولات ومندر وبعضهم يكتب بعد الحرف الأخير المفتوح تاء مربوطة ، وترى اللجنة أن تختم كل الأعلام التى من هذا القبيل بتاء مربوطة وقد اتبع ابن بطوطة هذه القاعدة

٢ — حرف ـ a ـ بالانجليزية يكتب ألفا . وإذا كان فى أول الـكلمة كتب ألفاً عليها همزة . والحروف الانجليزية (e,u,y) وكل ما أشبهها فى النطق تكتب بالعربية ياء . وإذا كان الحرف ممالا فى اللغة الأجنبية ، وضعت ألف قصيرة قبل الياء لتدل على أنه ممال كالمدد (٨) للدلالة على الاشمام مثل كونه والحرف الأول هو حرف الجاف

٣ — تكتب الأعلام التركية كما كتبها الترك بالحروف العربية حسب الاصطلاحات المتداولة عندهم ، قبل اتخاذ الحروف اللاتينية وما جد بعد ذلك فحكمه حكم اللغات الافرنجية

٤ — الأعلام الأجنبية المنتهيـة فى نطقها الأصلى بألف تكتب بالألف إلا فيما عربه العرب بالتاء المربوطة ، كبخارى وبصرى وكسرى وعيسى وموسى

٥ — الامالة :

رأت اللجنة أن توضع علامة أشبه بالمدة الرأسية للدلالة على هذا الصوت كما فى ـ Jaipur ـ مثلا فتكتب هكذا جيبور مع وضع مدة رأسية فوق الياء ولذلك يكتب حرف (J) كما ينطق به أهل كل لغة ، لأنه فى الألمانية ينطق (ى) وفى الاسبانية (خ) كما هو فى موخاكار (Mojacar) وكذلك رأت اللجنـة أن تضع علامتين للدلالة على حرف (u) وحرف (o) المخفف والمثـل على الأولى Jeande Luz فتكتب فى العربيـة « زان ده لوز » بوضع ثلاث نقط فوق الزاى وعلى اللام علامة رقم (٧) للدلالة على هذا الصوت والثانية كما فى Geothe فتكتب فى العربيـة كوته وعلى الجاف علامة تشبه رقم (٨) كما سبق ذلك

حول كتاب الذخيرة أيضاً

للمرة الثانية نرى فى سيدة الصحف العربيـة « الرسالة » الغراء التنويه التام بالعلامة المستشرق الفرنسى الاستاذ ليفى بروفنسال إذ كان السبب الوحيـد فى اكتشاف أثر حافل عن تاريخ الأندلس هو نسخة كاملة من كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، وساعده على ذلك أنه كان مديراً لمعهد المباحث العالية المغربية برباط الفتح ، فقد نوهت به للمرة الأولى فى العدد (١١٥) بقولها « ... لبث يبحث وينقب أعواماً طويلة فى خبايا المكاتب المغربية حتى ظفر بنسخة حسنة كاملة من كتاب : (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة) وقالت مثل ذلك فى العـدد (١٤٠)

على أن الحقيقة ونفس الأمر خلاف ما كتبته الصحف الأوروبية وخلاف مانقلته الرسالة . والحقيقة التى لا يشوبها شىء هى أن كتاب الذخيرة كان فى خزانة القائد الأكبر السيد اليزيد ابن الصالح الغمارى (القاطن بغمارة من أعمال تطوان) من جملة الآثار النفيسة الموجودة بخزانته القيمة التى خلفها أسلافه الكرام حبوساً على عائلته أولاد صالح . وفى ذات يوم أتاه بعض أصدقائه وطلب منه إعارة الذخيرة على أن يلتزم بطبعها والربح يقسمه بينهما ، فاستحيا منـه القائد ومكنه منها ، فذهب تواً إلى خزانة المخزن الـكبرى بالرباط وطلب من رئيسها شراءها منه فأخذها وأجله لغد ، وفى الغد ذهب للخزانة فأعطاه الرئيس (٣٠٠٠) فرنك ثمن الذخيرة ، فأبى من البيع ، فلم يرض الرئيس بردها له قائلاً : إن المخزن الشريف أرادها فخذ الثمن أو اذهب ؛ فلم ينفعه إلا أن أخذ الثمن وذهب لسبيله . تلك حقيقة قصة كتاب (الذخيرة) واكتشافها

ونحن لا ننكر فضل الأستاذ ليفى بروفنسال فهو كما ذكرت (الرسالة) الغراء وزيادة ، وإن ننس فلا ننس جهوده التى بذلها نحو الكتب الاسلامية ، وإنما نحب إظهار الحقيقة ليس إلا . ومن الكتب التى اعتنى بنشرها هذا الأستاذ ولم تذكرها الرسالة : الجلد الأول من (الجامع الصحيح) للامام أبى عبد الله البخارى المكتوب بخط ورواية أبى عمران موسى بن سعادة الأندلسى ، نقل منه نسخاً عديدة بالتصوير الشمسى ومعه كتاب (التنويه والاشادة بمقام رواية ابن سعادة) للعلامة المحدث الشهير صاحب الفضيلة السيد محمد عبد الحى الـكتانى ، والقسم الثانى من (الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام) لذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب ، وكتاب (مفاخر البربر) مجهول المؤلف ، و(نخبة تاريخية) جامعة لأخبار المغرب الأقصى جمعها من كتب شتى ، و (نبذ تاريخية) فى أخبار البربر فى القرون الوسطى انتخبها من كتاب مفاخر البربر المتقدم وغيرها من الـكتب

(فاس — المغرب الأقصى) ادريس الـكتانى

4 me Année, No. 145.

Lundi-13-4-1936

بدل الاشتراك عن سنة

مص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ محرم سنة ١٣٥٥ — ١٣ أبريل سنة ١٩٣٦ » العـــدد ١٤٥

فهرس العـــدد

اللغة والدين والعادات

باعتبارها من مقومات الاستقلال

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

ليست حقيقةُ الأمة فى هذا الظاهرِ الذى يبدو من شعبٍ مجتمع محكوم بقوانينه وأوضاعه ؛ ولكن تلك الحقيقة هى الكائنُ الروحىُّ المكتنُّ فى الشعب ، الخالصُ له من طبيعته ، المقصورُ عليه فى تركيبه ؛ كمصير الشجرة لا يُرى عملَه والشجرةُ كلُّها هى عملُه

وهذا الكائن الروحى هو الصورةُ الكبرى للنسب فى ذوى الوشيجة من الأفراد ، بيد أنه يحقق فى الشعب قرابة الصفات بعضها من بعض ؛ فيجعل للأمة شأن الأسرة ، ويخلق فى الوطن معنى الدار ، ويوجد فى الاختلاف نزعة التشابه ، ويردُّ المتعددَ إلى طبيعة الوحدة ، ويبدع للأمة شخصيتها المتميزة ، ويوجب لهذه الشخصية بإزاء غيرها قانونَ التناصر والحميَّة ؛ إذ يجعل الخواطر مشتركة ، والدواعى مستوية ، والنوازع متآزرة ، فتجتمع الأمة كلها على الرأى : تتساند له بقواها ، ويشد بعضها بعضاً فيه . وبهذا كله يكون روح الأمة قد وضع فى كلمة الأمة معناها

والخُلق القومي الذي ينشئه للأمة كائنُها الروحي ، هو المبادئ المنتزعة من أثر الدين واللغة والعادات ، وهو قانون نافذ يستمد قوته من نفسه ، إذ يعمل في الحيِّز الباطن من وراء الشعور ، متسلطا على الفكر ، مصرِّفاً لبواعث النفس ؛ فهو وحده الذي يملأ الحي بنوع حياته ، وهو طابع الزمن على الأمم ، وكأنه على التحقيق وضعُ الأجداد علامتَهم الخاصة على ذريتهم

***

أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها ، وجودا متميزا قائماً بخصائصه ؛ فهي قومية الفكر ، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليبِ أخذ المعنى من المادة . والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها ؛ وعمقها هو عمق الروح ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل ؛ وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطماحها ، فان روح الاستعباد ضيق لايتسع ، ودأبه في المستعبَدين لزومُ الكلمة والكلمات القليلة

وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة ، وكانت أمتها حريصة عليها ، ناهضة بها ، متسعة فيها ، مكبرة شأنها ، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها ، والمطابقةِ بين طبيعته وعملِ طبيعته ، وكونِه سيد أمره ، ومحقق وجوده ، ومستعمل قوته ، والآخذ بحقه . فأما إذا كان منه التراخي والاهمال ، وترك اللغة للطبيعة السوقية ، وإصغار أمرها ، وتهوين خطرها ، وإيثار غيرها بالحب والاكبار ؛ فهذا شعب خادم لا مخدوم ، تابعٌ لا متبوع ، ضعيف عن تكاليف السيادة ، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه ، مجتزئٌ ببعض حقه ، مكتفٍ بضرورات العيش ، يوضع لحكمه القانون الذي أكثره للحرمان وأقله للفائدة التي هي كالحرمان

لا جرم كانت لغةُ الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين ؛ فان يتحول الشعب أوَّلَ ما يتحوَّلُ إلا من لغته ؛ إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله ، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسبِ ماضيه ، ورجعت قوميتُه صورة محفوظة في التاريخ ، لا صورة محقَّقة في وجوده . فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر ؛ حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة ، ونشأ الثاني على أخرى ، والثالث على لغة ثالثة ، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء

وما ذلَّت لغةُ شعب إلا ذلّ ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار . ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغتَه فرضاً على الأمة المستعمرة ، ويركبهم بها ، ويُشعرهم عظمته فيها ، ويستلحقهم من ناحيتها ؛ فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثة في عمل واحد : أما الأول فحبسُ لغتهم في لغته سجناً مؤبداً ؛ وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محواً ونسياناً ؛ وأما الثالث فتقييدُ مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها ؛ فأمرهم من بعدها لأمره تَبَع

والذين يتعلَّقون اللغاتِ الأجنبية ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق إن لم تكن عصبيتهم للغتهم قوية مستحكمة من قِبَل الدين أو القومية . فتراهم إذا وهنَت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم ، ويتبرأون من سلفهم ، وينسلخون من تاريخهم ، وتقوم بأنفسهم الكراهةُ للغتهم وآداب لغتهم ، ولقومهم وأشياء قومهم ؛ فلا يستطيع وطنهم أن يوحي إليهم أسرار روحه ؛ إذ لا يوافق منهم استجابةً في الطبيعة ، وينقادون بالحب لغيره فيتجاوزونه وهم فيه ، ويرثون دماءَهم من أهلهم ثم تكون العواطف في هذه الدماء للأجنبي ؛ ومن ثمّ تصبح عندهم قيمةُ الأشياء بمصدرها لا بنفسها ، وبالخيال المتوهَّم فيها لا بالحقيقة التي تحملها ، فيكون شيء الأجنبي في مذهبهم أجملَ وأثمن لأن اليه الميلَ وفيه الاكبارُ والاعظام ، وقد يكون الوطني مثلَه أو أجمل منه بيد أنه فقد الميلَ ، فضعفت صلتُه بالنفس ، فعادت كل مميِّزاته لا تميِّزه

وأعجبُ من هذا في أمرهم ، أن أشياء الأجنبي لا تحمل معانيها الساحرةَ في نفوسهم إلا إذا بقيت حاملةَ أسماءها الأجنبية ، فان سمِّي الأجنبيُّ بلغتهم القوميَّة نقص معناه عندهم وتصاغر وظهرت فيه ذلة . . . وما ذاك إلا صِغَر نفوسهم وذلتها ، إذ لا ينتخون لقوميتهم فلا يلهمهم الحرفُ من لغتهم ما يلهمهم الحرف الأجنبي

والشرق مبتلى بهذه العلة ، ومنها جاءت مشاكله أو أكثرها ؛ وليس في العالم أمةٌ عزيزةُ الجانب تقدم لغة غيرها على لغة

نفسها ، وبهذا لا يعرفون للأشياء الأجنبية موضعاً إلا من وراء حدود الأشياء الوطنية ؛ ولو أخذنا نحن الشرقيين بهذا ، لكان هذا وحده علاجاً حاسماً لأكثر مشاكلنا

فاللغات تتنازع القومية ، ولهي والله احتلال عقلي في الشعوب التي ضعفت عصبيتها ؛ وإذا هانت اللغة القومية على أهلها ، أثرت اللغة الأجنبية في الخلق القومي ما يؤثر الجوُّ الأجنبي في الجسم الذي انتقل اليه وأقام فيه

أما إذا قويت العصبية ، وعزّت اللغة ، وثارت لها الحميّة ؛ فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمةً يُرتَفَق بها ، ويرجع شِبر الأجنبي شبرا لا متراً . . . . وتكون تلك العصبيةُ للغة القومية مادةً وعوناً لكل ماهو قومي ؛ فيصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبة ، هي قوة الإيمان بالمجد الوطني واستقلال الوطن ؛ ومتى تعيّن الأولُ أنه الأولُ ، فكل قوى الوجود لا تجعل الذي بعده شيئاً إلا أنه الثاني

***

والدينُ هو حقيقةُ الخلُق الاجتماعي في الأمة ، وهو الذي يجعل القلوب كلها طبقةً واحدةً على اختلاف المظاهر الاجتماعية عاليةً ونازلة وما بينهما ، فهو بذلك الضمير القانوني للشعب ، وبه لا بغيره ثباتُ الأمة على فضائلها النفسية ، وفيه لا في سواه معنى إنسانية القلب

ولهذا كان الدينُ من أقوى الوسائل التي يُعوّل عليها في إيقاظ ضمير الأمة ، وتنبيه روحها ، واهتياج خيالها ؛ إذ فيه أعظمُ السُّلطة التي لها وحدها قوة الغلبة على الماديات . فسلطان الدين هو سلطان كل فرد على ذاته وطبيعته ؛ ومتى قوى هذا السلطان في شعب ، كان حَميّاً أبيّاً ، لا تُرغمه قوة ، ولا يعنو للقهر

ولولا التديّن بالشريعة ، لما استقامت الطاعة للقانون في النفس ؛ ولولا الطاعة النفسية للقوانين ، لما انتظمت أمة ؛ فليس عمل الدين إلا تحديد مكان الحي في فضائل الحياة ، وتعيينَ تبعته في حقوقها وواجباتها ، وجعلَ ذلك كلّه نظاماً مستقراً فيه لا يتغير ، ودفعَ الانسان بهذا النظام نحو الأكمل ، ودائماً نحو الأكمل

وكل أمة ضعف الدينُ فيها ، اختلّت هندستها الاجتماعية ، وماج بعضها في بعض ؛ فان من دقيق الحكمة في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرةَ من الحياة في هذه الأرض ؛ وذلك لتنتظم الغايات الأرضية في الناس ؛ فلا يأكل بعضهم بعضا ، فيغتني الغنيُّ وهو آمن ، ويفتقر الفقير وهو قانع ، ويكون ثواب الأعلى في أن يعود على الأسفل بالبرّة ، وثوابُ الأسفل في أن يصبر على ترك الأعلى في منزلته ؛ ثم ينصرف الجميع بفضائلهم الى تحقيق الغاية الالهية الواحدة ، التي لا يكبر عليها الكبير ، ولا يصغر عنها الصغير ؛ وهي الحق ، والصلاح ، والخير ، والتعاون على البر والتقوى

ومادام عملُ الدين هو تكوين الخلق الثابت الدائب في عمله ، المعتز بقوته ، المطمئن الى صبره ، النافر من الضعف ، الأبيّ على الذل ، الكافر بالاستعباد ، المؤمن بالموت في المدافعة عن حوزته ، المجزيّ بتساميه وبذله وعطفه وإيثاره ومفاداته ، العامل في مصلحة الجماعة ، المقيّد في منافعه بواجباته نحو الناس — ما دام عمل الدين هو تكوين هذا الخلق — فيكون الدين في حقيقته هو جعل الحس بالشريعة أقوى من الحس بالمادة ؛ ولعمري ما يجد الاستقلال قوةً هي أقوى له وأردُّ عليه من هذا المعنى إذا تقرّر في نفوس الأمة وانطبعت عليه

وهذه الأمة الدينية التي يكون واجبها أن تَشرُف وتسود وتعتزّ ، يكون واجب هذا الواجب فيها ألاّ تسقط ولا تخضع ولا تذل

وبتلك الأصول العظيمة التي ينشئها الدين الصحيح القوي في النفس ، يتهيأ النجاح السياسي للشعب المحافظ عليه المنتصر له ؛ إذ يكون من الخلال الطبيعية في زعمائه ورجاله ، الثباتُ على النزعة السياسية ، والصلابة في الحق ، والإيمان بمجد العمل ، وتغليب ذلك على الأحوال المادية التي تعترض ذا الرأي لتفتنه عن رأيه ومذهبه : من مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو موافقة الهوى ، أو خشية النقمة ، أو خوف الوعيد ، إلى غيرها من كل ما يستميل به الباطلُ أو يُرهب به الظلم

ولا يذهبن عنك أن الرجل المؤمن ، القوي الإيمان ، الممتلئ ثقة ويقيناً ووفاءً وصدقاً وعزماً وإصراراً على فضيلته وثباتاً على ما يلاقي في سبيلها — لا يكون رجلاً كالناس ؛ بل هو رجل الاستقلال الذي واجبه جزء من طبيعته وغايته السامية لا تنفصل عنه ، هو رجلُ صِدْقِ المبدإ ، وصدقِ الكلمة ، وصدقِ الأمل ، وصدقِ

النزعة؛ وهو الرجل الذى ينفجر فى التاريخ كما احتاجت الحياة الوطنية الى إطلاق قنابلها للنصر

***

والعادات هى الماضى الذى يعيش فى الحاضر، وهى وحدة تاريخية فى الشعب؛ تجمعه كما يجمعه الأصل الواحد؛ ثم هى كالدين فى قيامها على أساس أدبى فى النفس، وفى اشتمالها على التحريم والتحليل؛ وتكاد عادات الشعب تكون ديناً ضيقاً خاصاً به، يحصره فى قبيله ووطنه، ويحقق فى أفراده الألفةَ والتشابك، ويأخذهم جميعاً بمذهب واحد: هو إجلال الماضى

وإجلال الماضى فى كل شعب تاريخى، هو الوسيلة الروحية التى يستوحى بها الشعبُ أبطالَه، وفلاسفته، وعلماءه، وأدباءه، وأهلَ الفنّ منه؛ فيوحون اليه وحْىَ عظائمهم التى لم يغلبها الموت؛ وبهذا تكون صورهم العظيمة حيّةً فى تاريخه، وحيّةً فى آماله وأعصابه

والعادات هى وحدها التى تجعل الوطن شيئاً نفسيّاً حقيقياً؛ حتى ليشعر الانسان أن لأرضه أمومةَ الأم التى ولدته، ولقومه أبوة الأب الذى جاء به إلى الحياة. وليس يعرف هذا إلا من اغترب عن وطنه، وخالط غير قومه، واستوحش من غير عاداته؛ فهنالك ُهنالك يثبت الوطن نفسه بعظمة وجبروت كأنّه وحده هو الدنيا

وهذه الطبيعة الناشئة فى النفس من أثر العادات هى التى تنبه فى الوطنى روحَ التميز عن الأجنبى، وتوحشُ نفسه منه كأنّها حاسّة الأرض تنبه أهلها وتنذرهم الخطر

ومتى صدقت الوطنيــة فى النفس، أقرّت كلّ شىء أجنبى فى حقيقته الأجنبية؛ فكان هذا هو أولَ مظاهر الاستقلال، وكان أقوى الذرائع إلى المجد الوطنى

***

وباللغة والدين والعادات، ينحصر الشعب فى ذاته السامية بخصائصها ومقوّماتها؛ فلا يسهل انتزاعُه منها ولا انتسافُه من تاريخه؛ وإذا ألجئ إلى حال من القهر، لم يتخذل ولم يتضعضع، واستمر يعمل ما تعمله الشوكة الحادة: إن لم تترك لنفسها، لم تمط من نفسها إلا الوخز ....

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

٢ – النهضات القومية العامة *

فى أوربا وفى الشرق

للدكتور عبد الرزاق السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

وإذا كانت حركة الرابطة الوطنية بقيت قوية عنيفة فى أوروبا طوال القرن التاسع عشر كما قدمنا، فان هذه الحركة قد اقترنت بها حركة رابطة الجنس، ولم تتعارض الحركتان. فان الوطن الفرنسى والوطن الايطالى والوطن الاسبانى، وغير هــذه من الأوطان اللاتينية ترعرعت واشتدت ولم تتعارض مع الجامعة اللاتينية؛ على أن اتفاق رابطــة الوطن مع رابطة الجنس يظهر رائعاً أخاذاً إذا انتقلنا إلى الشعوب الجرمانية؛ فــكل شعب له وطنه؛ وكثيراً ما حاربت بروســيا فى الماضى دولاً أخرى جرمانية؛ وكثيراً ما حاربت النمسا وانتصرت عليها، ومع كل ذلك فان الشعوب الجرمانية لا ينسيها الاغراق فى وطنيتها أنها تنتسب جميعاً إلى جنس واحــد، وأن دماً واحداً يجرى فى عروق الجميع

على أن ائتلاف رابطة الوطن مع رابطة الجنس يختلف قوة وضعفاً. فالرابطتان أضعف ما تــكونان ائتلافاً إذا كانت رابطة الوطن قوية متماسكة، تستطيع القيام على رجليها دُون حاجة إلى معين؛ والمثل لذلك الوطن الفرنسى والوطن الايطالى، والرابطتان أقوى ما تــكونان ائتلافاً إذا ضــعف وطن، فيستمسك بوطن آخر قوى من جنسه، كما هو الحال بين النمسا وألمانيا، وكذلك إذا كان كل وطن ضعيفاً بذاته قوياً باجتماعه مع الأوطان الأخرى من جنسه، كما هو الحال بين الأقطار العربية؛ وأخيراً إذا اندمجت جنسيات متعددة فى أمبراطورية واحــدة، ثم أخذت هذه الأمبراطورية المصطنعة فى الانحلال، فان حركة الجنسيات تقوى فى هذه الحالة، وتتمخض عن حركات استقلالية، كما وقع هذا الأمر للأمبراطورية النمسوية وللأمبراطورية العثمانية

* بقية المحاضرة الأولى من سلســلة المحاضرات التى ألقاها الأستاذ السنهورى فى مدينة بغداد فى بهو أمانة العاصمة فى ٢٣ مارس سنة ٩٣٦

وقد آن لنا أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة فى النهضات القومية الأوروبية ، وهى المرحلة الحاضرة ، وقد بدأت منذ فجر القرن العشرين ، وبنوع خاص بعد الحرب الكبرى

٣ — الوقت الحاضر : رابطة الوطن والجنس ورابطة الطبقات

نشهد فى الوقت الحاضر فى أوروبا صراعاً عنيفاً ما بين رابطتين ، وكفاحاً مستمراً ما بين نظامين من نظم الحكم . أما الرابطتان فاحداها رابطة الوطن وتعززها رابطة الجنس ، والثانية رابطة الطبقات أو الحركة الاشتراكية . وأما النظامان فأحدهما هو النظام الديمقراطى ، والآخر هو النظام الدكتاتورى

وما بنا أن نعنى بحركة ضعيفة ولدت عرجاء بعد أن تمخضت عنها آلام الانسانية من أهوال الحرب الكبرى ، وتلك هى رابطة البشرية ، تنتظم بنى البشر كافة فى جامعة واحدة ، يسمونها اليوم بعصبة الأمم . فان رابطة البشرية هذه لا تزال وليداً بين الحياة والموت ، فلندع لها بالبقاء ولنتركها جانباً

ولنستعرض الكفاح الذى نشهده الآن فى أوروبا بين رابطة الوطن ورابطة الطبقات

ليس هذا الكفاح وليد القرن العشرين ، بل هو قد بدأ منذ القرن التاسع عشر ، وقد تعقبنا أصوله فى لمحة سريعة عند ما كنا نتكلم فى تقدم الصناعات الكبرى الذى قوى هاتين الرابطتين المتناقضتين . والآن نعرض لهذا الكفاح فى شىء من التفصيل ، فنتكلم فى الاشتراكية وقد قامت على رابطة الطبقات ، ثم نتكلم فى الفاشية والنازية ، وقد قامت الأولى على رابطة الوطن والأخرى على رابطة الجنس

١ — الاشتراكية

بدأت الاشتراكية تتأصل جذورها فى أوروبا منذ القرن التاسع عشر . وقد نبتت فى تلك التربة الصناعية التى سبق لنا ذكرها ، إذ كثر عدد الطبقات العاملة ، واستغلهم أصحاب رؤوس الأموال استغلالاً تأباه الانسانية . فوجدت الاشتراكية جواً صالحاً تترعرع فيه وتزدهر . على أن المذهب الاشتراكى لم يكن وليد القرن التاسع عشر ، فهو مذهب قديم ، يمكن أن ترجع أصوله إلى أفلاطون الفيلسوف اليونانى المعروف ، وقد كان يقول بالشيوعية فى الملكية وفى الأسرة ، ووضع كتابه «الجمهورية» يؤيد فيه هذا المذهب . وقام فى أوائل القرن السادس عشر توماس مورا يقول بالشيوعية فى المال دون الأسرة ، فى كتابه « جزيرة أتوپيا » . ولكن الاشتراكية لم تأخذ شكلاً علمياً منظماً إلا بقلم زعيمها الأكبر كارل ماركس نبى الاشتراكية فى أواسط القرن التاسع عشر

وللاشتراكية فلسفة علمية ولها خطط عملية . أما فلسفتها فنظرة مادية إلى وقائع التاريخ ، وتفسير هذه الوقائع تفسيراً اقتصادياً محضا . وهذا ما يسمى عادة بالمادية التاريخية أو بالتفسير الاقتصادى للتاريخ . أما خططها العملية فقد انقسم أنصارها بالنسبة لها إلى فريقين : فريق معتدل يقول بالعمل فى الدائرة الدستورية ، والوصول إلى الحكم من طريق النظم النيابية المشروعة ، أى اتخاذ الديمقراطية وسيلة لتحقيق الحكومة الاشتراكية . وفريق متطرف يقول بعدم الجدوى من كل هذه الخطط ، ولا بد من الثورة والانتقاض على الديمقراطية الرأسمالية وهد أركان النظام النيابى ، والاستيلاء على الحكم بالقوة ، حتى تتحقق الحكومة الاشتراكية . وكان كارل ماركس قد أسس الدولية الأولى فى سنة ١٨٦٤ فى لندن ، حتى يجمع شتات العمال من جميع أطراف العالم . ثم لما انقسم أشياعه إلى الفريقين المتقدمى الذكر ، أسس الفريق المعتدل الدولية الثانية ، وأسس الفريق المتطرف الدولية الثالثة ، وهى دولية موسكو المعروفة

وأقول لكم كلمة موجزة عن المادية التاريخية أو التفسير الاقتصادى للتاريخ ، حتى نتفهم المذهب الاشتراكى من ناحيته الفلسفية . تتلخص هذه المادية التاريخية فى فكرة جوهرية ، هى أن الحاجات المادية للانسان والعوامل الاقتصادية التى تحيط به هى التى تسيّر التاريخ وتكيّف الحوادث . وكل حوادث التاريخ ومراحله المتعاقبة لا يمكن تفسيرها إلا تفسيراً اقتصادياً ؛ وليس للانسانية إلا تاريخ واحد ، هو تاريخها الاقتصادى المادى ؛ أما الدين ، وأما الأخلاق ، وأما المثل العليا ، وأما العظمة والبطولة ، فكل هذا شىء مرده إلى المادة ، تحكمه وتسيطر عليه . فالمذهب الاشتراكى ينظر إلى الحياة كوحدة لا تقبل التجزئة وهى وحدة المادة لحمتها وسداها

وإلى جانب فكرة الوحدة المادية للحياة توجد فكرة الحتمية ، فالعالم مسير لا مخير ؛ وكل ما يقع فى العالم من حوادث هو من عمل الانسان ، ولكنه عمل دفعته اليه الظروف دفعاً ، فلا اختيار له فيه ولا إرادة . ويقول لنا انجلز شريك ماركس فى تأسيس المذهب الاشتراكى الحديث : لا تظنوا أن الحركات الفكرية الكبرى التى تظهر من وقت لآخر هى وليدة أفكارنا ، بل هى وليدة الظروف الاقتصادية الملابسة ، كان لا بد من وجودها فوجدت ، وسخر لها أناس يقولون بها . ولو أن مارتن لوثر مؤسس البروتستانتية لم يوجد لوجد لوثر آخر يدعو إلى ما دعا اليه لوثر الأول . وماركس نفسه ، إذا كان قد قال بالمادية التاريخية فذلك لأنها فكرة ولدتها ظروف البيئة الاقتصادية ، وكان حتماً أن يقول بها رجل أراد القدر أن يكون ماركس . وأبطال التاريخ يولدون كما تولد الحركات الفكرية الكبرى ، تنشئهم الظروف الاقتصادية ؛ فنابليون وكرومويل وقيصر وغيرهم من عظماء التاريخ جاءوا فى الساعة التى كانوا لا بد أن يجيئوا فيها ، ولو لم يجيئوا هم بالذات لجاء غيرهم ، فيتغير الاسم ويبقى الرجل . وكل عصر له أبطاله ، إذا لم يجدهم عفواً فانه يخلقهم خلقاً . وإذا لم توجد البطولة الحق فى الرجل الزعيم ، فان حاجات الوقت المادية والمصالح الاقتصادية تنفخ فيه روح بطولة مصطنعة وتجعل منه رجل الساعة . هذا هو رأى انجلز فى البطولة والأبطال

فالعظمة ليست إذن إلا صنع الجيل وبنت البيئة . أما العوامل الحقيقية التى تصنع التاريخ صنعاً ، فليست هى بطولة العظماء ، إنما هى القوات الاقتصادية ، تبدأ فى تغيير الفكر البشرى ، ثم تدفعه إلى الأمام . وهكذا يرتبط الفكر بالعمل ، ويسوق ذاك إلى هذا . ومصدر كل من الفكر والعمل إنما هو العامل الاقتصادى ، مثل ذلك تقدم الصناعات الكبرى وتكدس رؤوس الأموال . هذا هو العامل الاقتصادى الذى يحكم العالم فى العصر الحاضر . وقد أوجد هذا العامل طبقة أصحاب رؤوس الأموال ، أو البورجوازية ، قوية مسيطرة على أقدار العالم . ولكن هذا العامل الاقتصادى نفسه أوجد أيضاً طبقة العمال تستغلهم البورجوازية وتسلبهم ثمرة جهودهم . هذا الوضع الاقتصادى هو الذى أوجد حركة فكرية عند طبقة العمال ، وقد شعروا بالظلم يحيق بهم . وهذه الحركة الفكرية هى التى تدفعهم إلى العمل . فالعامل الاقتصادى هو الذى أوجد البورجوازية ، والبورجوازية هى التى أوجدت العمال ، والعمال هم الذين سيهدمون البورجوازية . وقد كتب كارل ماركس فى منشوره المشهور إلى الحزب الاشتراكى سنة ١٨٤٨ : « إن البورجوازية لم يقتصروا على صنع الأسلحة التى ستقتلهم ، بل هم هيأوا أيضاً الرجال الذين سيضربون بهذه الأسلحة »

فقيام البورجوازية وسيطرتهم على العالم الاقتصادى ، وسقوطهم بعد ذلك على يد العمال ، كل هذه حوادث تدفع اليها الانسانية دفعاً من طريق العوامل الاقتصادية ؛ فالرجال إذن مسخرون ، علموا أو لم يعلموا ، لخدمة حاجات اقتصادية اقتضتها البيئة التى يعيشون فيها ، وهم يظنون أنهم يعملون لأغراض مادية . فلوثر مثلاً كان يعتقد أنه يعمل لمجد المسيح ، والواقع من الأمر أن ثورته لم تكن إلا سداً لحاجة البورجوازية الألمانية التى كانت تستغلها الكنيسة الرومانية . وليس الرجال فى نشاطهم بوجه عام إلا ممثلين لطبقات اقتصادية ، يجيبون نداءها ، ويسدون حاجتها . اسمعوا ما يقوله كارل ماركس فى كتابه « بؤس الفلسفة » رداً على ما كتبه برودون فى كتابه « فلسفة البؤس » : « إن الروابط الاجتماعية متصلة اتصالاً وثيقاً بقوات الانتاج ، فالناس إذا حصلوا على قوات منتجة جديدة يغيرون طرق الانتاج ، وإذا غيروا طرق الانتاج وغيروا كذلك نظام كسبهم للعيش فقد غيروا فى جميع روابطهم الاجتماعية . هذه هى طاحونة الهواء تنبت وسطاً أقطاعياً يسوده النبلاء . أما الطاحونة التى تدور بالبخار ، فتنبت وسطاً صناعياً يسوده أصحاب رؤوس الأموال . ونفس الرجال الذين يقيمون روابطهم الاجتماعية على مقتضى الطرق المادية للانتاج هم الذين يصوغون أيضاً المبادئ والأفكار والحدود وفقاً لروابطهم الاجتماعية »

فالعوامل الاقتصادية التى تصنع التاريخ فى رأى ماركس وانجلز هى وسائل الانتاج ، يضاف اليها وسائل النقل وتداول الثروة والبيئة الجغرافية التى تقوم فيها هذه العوامل الاقتصادية

وكل هذه العوامل الاقتصادية تدور حول نقطة واحدة ، هى الكفاح ما بين الطبقات . فالكفاح ما بين الطبقات يسود جميع النظم الاجتماعية : يسود النظام السياسى ، وما تاريخ الحكومة إلا تاريخ نضال مستمر ما بين طبقة وأخرى تتداول

السيادة والسلطان ؛ يسود النظام القانونى ، وما القانون إلا صورة منعكسة من وسائل الانتاج الاقتصادى ، وهو لم يوجد إلا لحماية المصالح الاقتصادية ، أى حماية مصالح الطبقة السائدة ؛ يسود الدين والفلسفة والأدب والأخلاق ، وإذا لم يكن الأصل فى هذا كله عاملاً اقتصادياً فان هذه العوامل الأدبية تتطور بعد نشوئها وفقاً للحاجات الاقتصادية ولمصالح التغلب من الطبقات

ثم ينتقل ماركس وانجلز من بسط النظرية إلى تطبيقها على الحوادث التاريخية . فعندها أن النظام الأقطاعى هو الذى خلق العصور الوسطى تسود فيها طبقة النبلاء ، وأن نظام الصناعة الكبرى هو الذى خلق العصور الحديثة تسود فيها طبقة البورچوازية ، وأن الكارثة لا بد واقعة : والكارثة لفظ له مدلوله فى إنجيل الاشتراكية ، فالاشتراكيون يتربصون الدوائر بالبورچوازية ، ويترقبون الوقت الذى سيحين لانتقال محتم إلى عصر جديد تحل فيه الكارثة بالبورچوازية على يد العمال

فماركس يستغل إذن نظريته فى المادية التاريخية ليخدم بها مذهبه الاشتراكى ، فينادى بالكفاح ما بين الطبقات ، ويحاول أن يوحد العمال فى جميع أنحاء العالم ، ويشعلها حرباً زبوناً بين بنى الانسانية جمعاء ، حرباً تقوم لا بين وطن ووطن ، ولا بين جنس وجنس ، بل بين طبقة وطبقة : بين البورچوازية والعمال ، فتسقط البورچوازية ويسود العمال

ونحن لا نعرض بنقد أو بتحبيذ للمذهب الاشتراكى ونقتصر على أن نستخلص مما قدمناه أن هناك نزعة فى أوروبا وجدت منذ القرن التاسع عشر وقالت برابطة الطبقات ، وعارضت الروابط المبنية على الوطن والجنس ، واعتبرت العمال فى جميع الأوطان ومن جميع الأجناس إخواناً متآلفين . وهم جميعاً خصوم للبورچوازية فى جميع الأوطان ومن جميع الأجناس . وقد أخذت هذه النزعة تشتد شيئاً فشيئاً طوال القرن التاسع عشر ، ثم دخلت فى دور عملى حاسم أثناء الحرب الكبرى ، حيث قامت الباشفية فى الروسيا ، وأصبحت الاشتراكية مذهباً عملياً لنظام قائم من الحكم ، أقامه لينين على أنقاض القيصرية ، بعد أن اقتلعها واجتذها من أصولها . وأوجد انقلاب سنة ١٩١٧ النظام السوفييتى فى الروسيا فى ظروف معروفة ، ولا يزال هذا النظام قائماً فى الروسيا حتى الآن

ويذكرنا القرن العشرون ، بالنسبة لقيام الاشتراكية وانتشارها فى العالم برغم مقاومة الحكومات لها بالقرن التاسع عشر ، بالنسبة لقيام الحركات الوطنية وانتشارها فى أوروبا برغم مقاومة الحكومات الرجعية لها . والشبه غريب بين الحرب الكبرى وحروب نابليون ، وبين مؤتمر فرسايل الحافظ ومؤتمر ڤينا الرجعى

على أننا نريد أن نبسط الحقائق كاملة ، فليس من الدقة فى شىء أن نقول إن الاشتراكية بقيت وحدها فى الميدان ، بل يجب أن نفتح أعيننا على ما يجرى الآن أمامنا من صراع عنيف بين الاشتراكية والوطنية . فان الحركات القائمة على رابطة الوطن ورابطة الجنس لم تخمد جذوتها فى أوروبا ، بل هى قد زادت اشتعالاً . وكأن حرب الطبقات التى شهرتها البلشفية فى وجه العالم ، تلك الحروب الشعواء التى أذكى نارها العمال ثم صاروا لها وقوداً ، وهم يريدون من ورائها أن يبسطوا سلطانهم ، وأن يحكموا بالسيف والنار ، تلك الحرب المنيفة القاسية قد استفزت دعاة الوطنية فى أوروبا وألبتهم فوقفوا صفوفاً متراصة أمام هذا العدو المشترك . ووقعت الواقعة ، ونشب عراك دموى بين دعاة الاشتراكية ودعاة الوطنية ، وانضوى دعاة الوطنية فى أقوى مظهر من جهادهم تحت لواء حركتين مشهورتين : هما الفاشية الايطالية تحت قيادة موسولينى ، والنازية الألمانية تحت قيادة هتلر . ووقف كل من هاتين الحركتين سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف ، ووقف كل منهما يريد أن يبسط سلطانه . ونرجىء الكلام فيهما إلى المحاضرة القادمة

عبد الرزاق السنهورى

صور من القرن الثامن عشر

٢ ـ جاكومو كازانوڤا

جوّاب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قضى كازانوڤا صباه وفتوته الأولى محروماً من عطف والديه ، يجوز حياة مضطربة ، ويتقلب بين شظف العيش ورفاهته ، ويلقى بنفسه المضطرمة إلى غمار من اللهو والادمان والخلاعة ، ويلتمس متاع الحياة بأى الوسائل . وكان يرى الحياة لهواً ولعباً ، ولـكن الحياة الناعمة تتطلب الرزق الوفير ، ولا بد أن يجد كازانوڤا لنفسه وسائل الارتزاق . وكانت المقامرة يومئذ رذيلة المجتمع الرفيع ، ولـكنها كانت أيضاً ملاذ المقامرين من كل ضرب ، يلتمسون بها الرزق والثراء ؛ وكازانوڤا مقامر بارع ، فلم لا ينزل إلى هذا الميدان ؟ وبسم له الحظ فى المقامرة ، وانتظم فى سلك المقامرين المحترفين الذين يستحلون كل الوسائل للـكسب أو للسرقة المستترة ؛ ورأى فوق ذلك أن يتشح بثوب الخفاء ، وأن يحترف الشعوذة وكشف الأسرار ؛ وكانت الأذهان يومئذ تشغف بالخفى والمجهول ، وكان كازانوڤا يجيد هذا الضرب من الشعوذة ، وقد رأيناه يتخذه سبيلا لتمـكين نفوذه لدى صديقه وحاميه الجديد السيد براجادين

وهكذا نزل كازانوڤا إلى ميدان المغامرة مسلحاً بأسلحة العصر ، يلتمس الرزق من طريق المقامرة ، ويلتمس النفوذ من طريق الشعوذة ، ومن ورائه عصبة من الأصدقاء الأقوياء الذين يخلبهم بروائه وظرفه وشعوذته ؛ وكانت هذه الحياة فى نظر المغامر هى المثلى ، وكان يرى المجتمع من حوله موبوءاً يموج رذيلة وفساداً ، ويرى الشرف والـكرامة والنزاهة وكل ما إليها كلمات جوفاء لا يتحلى بها أرفع من يسودون المجتمع من امراء وأحبار وسادة ، فكيف يطلب اليه هو أن يخضع حياته لمثل هذه الأباطيل ؟

وكان كازانوڤا ينزل يومئذ عند السيد براجادين كما رأينا ، ويعيش منعما مرفهاً ، يقضى أيامه فى لهو ولعب ونزه وغزل لا ينقطع ، يجوب شوارع البندقية المائية فى قاربه الوثير ، ويتسقط مواعيد الحب كل مساء . وكانت المرأة عنده غاية الغايات ، وكان الحب فنه ومهنته التى كأنه فطر عليها بطبيعته وخلاله وعواطفه ، وكان مسلحاً لهذه الغاية بأخص الصفات التى تذلل له غزو القلوب ، فقد كان بديع القد والتكوين ، وسيم الطلعة ، ذا سمرة جذابة ؛ وكانت عيناه الواسعتان تشمان سحرا وذكاء وشهوة ؛ وكان ذا شخصـية جذابة ، حلو الحديث والشمائل ، جواداً ، جم الأدب والظرف ، يضطرم حباً وجوى ؛ وكانت له فراسـة خاصة فى تفهم عقلية المرأة وميولها ؛ وكان ظفره المتوالى فى الحب يذكى عزائمه ورغباته ، ويدفعه دائماً إلى البحث عن غزوات جديدة ؛ وكان يشعر شيئاً فشيئاً أن البندقية لم يبق فيها ما يمكن أن يغزو وأن يستمرئ ، وأن ايطاليا كلها قد غدت تضيق بجولاته ومغامراته ؛ وكانت فرنسا تجذبه يومئذ بشهرتها وروعة الحياة الساطعة التى يحياها المجتمع الرفيع فيها ؛ وسرعان ما سنحت له الفرصة لتحقيق أمنيته ، فسافر إلى باريس ليخوض غمار هذه الحياة الســاطعة ، وكان يومئذ فى نحو السادسة والعشرين

وكان المجتمع الفرنسى ، ينحدر يومئذ ، فى عهد لويس الخامس عشر ، إلى نوع من التحول الباهر ، ويستمرئ حياة عاطلة من المثل المعنوية الرفيعة ، فياضة بالرغبات والشهوات الوضيعة ؛ وكانت دولة الغانيات ، من أمثال دوبارى وبومبادور هى صاحبة الحول والسلطان يومئذ ؛ وكان يلتف حول هذا الملك الخليع بلاط وضيع الخلال ، يضرب بتهتكه وانحلاله للمجتمع الرفيع أسوأ المثل ؛ وكانت حياة هذا المجتمع — مجتمع النبلاء والسادة — كلها لهو ولعب وحب وغزل وفساد ورياء ؛ فالى هذا المجتمع الباهر الخامل مما هبط كازانوڤا يبحث عن طالعه فى عالم الحب ؛ وهنالك تعرف منذ مقدمه بمواطنه الممثل الشهير ماريو باليتى وزوجته سلفيا ، وكانا يومئذ من أعلام مسرح « الـكوميديا الايطالية » ؛ فعلمه شيئاً من اللغة الفرنسية ، وعرفه بكثير من الشخصيات البارزة من رجال ونساء ؛ واندفع كازانوڤا

إلى هذا العالم الجديد يتذوق مسراته ، ويتابع غزواته النسائية بين الممثلات والراقصات وسيدات المجتمع الرفيع ؛ وهو يذكر لنا في مذكراته التي نشير إليها فيما بعد ، طائفة من أسماء هؤلاء اللائي ظفر بهن في تلك الفترة مثل ميمي ابنة السيدة التي نزل عندها ، والآنسة فزيان وهي فتاة أجنبية زائرة ، ولوبزون مورفي الشهيرة التي أدخلت « حريم » لويس الخامس عشر فيما بعد ، والآنسة سنت هيلير ، وسيلفيا زوجة صديقه ، وغيرهن ؛ واستطاع كازانوفا في نفس الوقت أن يتذوق طرفاً من الحياة الأدبية ، وأن يتصل ببعض كبار الأدباء والكتاب مثل فونتنيل ودلامبير والأب فوازنون ومدام دي بوكاج ، وأن ينظم بعض القصائد ، وأن يترجم بعض القطع والرسائل

وعاد كازانوفا إلى البندقية (سنة ١٧٥٣) وقد فاضت نفسه غبطة وزهوا بما تذوق من صنوف اللهو الرفيع ، وما حقق لنفسه من ظفر في ميدان الحب ، وبدت له البندقية عندئذ ضيقة متواضعة ، بالنسبة لما رأى وشهد في باريس ؛ وذكت أطماعه وأمانيه ، وزاد غروراً وترفعاً واستهتاراً ، وأخذ ينظر إلى هذا المجتمع البندقي من عل ، ويتصل بالكبراء والسفراء ولا سيما سفير فرنسا الأب دي برني ؛ ولم يكن كازانوفا متحفظاً في أقواله أو أعماله . فكان يطلق العنان لآرائه المتطرفة ، ويزاول الشعوذة علناً ، وكان يثير على نفسه السخط في كل ناحية ، وكانت علائقه الغرامية موضع الحديث ومثار النقمة ؛ وكان ثمة جماعة من النبلاء والكبراء الذين يضايقهم بلسانه ومنافساته الغرامية يتربصون الفرص لسحقه ؛ وكان من هؤلاء كبير من كبراء الدولة هو « الشيخ » كوندلمر النائب العام ؛ وكان لهذا الشيخ القوي صاحبة تدعى مدام زورزي سطا عليها كازانوفا وانتزعها منه ، فاعتزم التنكيل به ، وأطلق في أثره جواسيس الشرطة يقدمون عنه التقارير القاذفة ، وفيها أنه يتصل بالسفراء الأجانب بعلائق مريبة ، ويخدع البسطاء بمزاعمه السحرية ، ويعيش على نفقة الغير ، ويغوي البنات والنساء المتزوجات ، ويسخر من الدين ، وينتمي إلى البناء الحر (الماسونية) ، وغير ذلك من التهم الخطيرة التي تكفي لادانته وإهلاكه

وعلى أثر ذلك قررت محكمة التحقيق (التفتيش) اعتقال المتهم ، وفي فجر ٢٦ يوليه سنة ١٧٥٥ ذهب مدير الشرطة مع ثلة من رجاله الى منزل كازانوفا واعتقله ، وأخذه مصفداً الى قصر الدوجات ؛ وهنالك ألقي به الى السجن المواجه في غرفة لا هواء فيها ولا نور تعمرها الجرذان والحشرات المختلفة ، وتكاد لانخفاضها تقصر عن ايواء قامته المديدة ؛ وفي الحادي والعشرين من أغسطس قضت محكمة التفتيش بادانته في التهم التي نسبت اليه ولا سيما الطعن في الدين ، وقضت بسجنه خمسة أعوام في سجن « الرصاص » الشهير (بيومبي) وهو الذي اعتقل فيه . وقضى كازانوفا أيامه الأولى في السجن في ذهول ويأس يكاد يمزقه الغيظ والكمد ، وكان منقطع الصلة بالعالم الخارجي ، لا يعرف شيئاً عن سبب اعتقاله أو مداه ؛ وكان يؤمل بادىء ذي بدء أن يسترد حريته بسرعة بمؤازرة بعض أصدقائه الأقوياء ، ولكن الشهور تعاقبت عليه دون أن ينفذ الى وكره المظلم شعاع من الأمل ، وأعقب الصيف الخريف ثم تعاقبت الفصول ، عندئذ ترك اليأس جانباً ، واستمد عزمه وقوة نفسه ، وعول على الفرار ؛ ومازال يعمل في خفاء وصمت ، ويغالب الصعاب والرقابة الصارمة حتى نضج مشروعه . وفي ليل اليوم الأول من نوفمبر ، فر كازانوفا مع شريكه وجاره في السجن الأب بالبي ، وذلك بأن خرقا عرش الغرفة الرصاصي ، واستطاعا بعد مجهود عنيف مروع أن ينحدرا من جدران القصر الى ميدان القديس مرقص ، واستقلا زورقاً حملهما في جوف الظلام بعيداً عن مواطن الخطر ؛ ولم يأمن كازانوفا على نفسه حتى جاز حدود البندقية الى أرض بورجو دي فالزجانو المجاورة ، وبذلك أمن شر مطارديه واستطاع أن يتنفس نسيم الحرية مرة أخرى

* * *

وتركت تلك المحنة في نفس كازانوفا أعمق الأثر ، وكان قد جاوز الثلاثين يومئذ ، واستحالت لديه نزعات الحداثة الى نوع من التفكير المتزن ، وأخذت الأطماع والأماني تغلب على نفسه ، وتخضع لديه نزواته المضطرمة ؛ وكان همه دائماً أن يغزو المجتمع الرفيع ، ولكن غزو المجتمع الرفيع يقتضي مالا ومغامرة ؛ وكان المجتمع الباريزي الذي عرفه حيناً وتذوق فيه لذة الظفر والأمل يجذبه دائماً ويلوح له بأعظم الأماني ؛ ولهذا نراه في باريس في يناير

سنة ١٧٥٧ يبحث عن طالعه كرة أخرى ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين يعده بمرتب حسن ، وكان صديقه الأب دى برنى سفير فرنسا السابق فى البندقية قد عاد الى فرنسا ، وتولى وزارة الخارجية ، فتقدم اليه يطلب عونه ، فأوصى به بعض كبراء الدولة ؛ وكانت المشكلة المالية أهم ما يشغل فرنسا يومئذ وفى سبيل حلها تقدم أغرب المشاريع والاقتراحات . وكان من بين المشاريع التى وضعت لايجاد بعض المال أن تصدر الدولة « أوراق يانصيب » يغطى إيرادها نفقات المدرسة الحربية التى أنشئت يومئذ لتخريج ضباط للجيش الفرنسى ؛ وكان يضطلع بالمشروع اخوان ايطاليان يدعوان كالسابيجى ، فاتصل كازانوفا بذوى النفوذ والمشرفين على العمل ، وكان يتمتع فى ذلك الميدان ببعض الخبرة ويقدم عن المشروع آراءه وملاحظاته ، فرؤى أن يعين مديرا للمشروع بمرتب ضخم وعمولة حسنة ، وصدر بالمشروع قرار وزارى فى أكتوبر سنة ١٧٥٧

وهكذا تبوأ كازانوفا منصباً خطيراً مربحاً يحقق له تلك الحياة الناعمة المستقلة التى طالما طمح اليها ، واتخذ له مسكناً فخماً فى ضاحية سان دنى يموج بالنعم والحشم . وأقبل الناس على شراء أوراق اليانصيب الحكومية إقبالاً حسنا ؛ ووقع السحب الأول فى ابريل من العام التالى وأسفر عن نتائج مرضية ؛ ثم وقع مراراً خلال العامين التاليين ، وظفرت المدرسة الحربية بكل النفقات اللازمة ؛ وحقق كازانوفا لنفسه ربحاً وفيراً يقال إنه بلغ مائة ألف فى العام ، هذا عدا ما كان يربحه من أعمال التنجيم والشعوذة التى لم ينقطع عن مزاولتها ؛ وعهد اليه أثناء ذلك ببعض المهام الرسمية السرية فأداها بنجاح ؛ وعهد اليه أيضاً بمهمة مالية فى هولنده فأسفرت عن نتائج مرضية ؛ وهكذا ذاع اسمه وتوطد مركزه ، وزاد ثراؤه ، وشعر لأول مرة فى حياته بأنه غدا الرجل الذى طمح أن يغدو ، ينثر الذهب من حوله بلا حساب ، ويحقق لنفسه أعز الرغبات والأهواء والأمانى

واتخذ كازانوفا لنفسه خارج باريس مسكناً آخر غير مسكنه الباريسى أنيقاً وثيراً به حاشية باهرة ، وخيل مطهمة ، وهنالك كان يقضى معظم أوقاته فى متاع ومرح ، يطلق لنفسه عنان الهوى والحب ، ويستمرئ غزواته النسائية بلا انقطاع ؛ وكان كازانوفا يعشق الحياة الفخمة ، ويتملق بمظاهر العظمة والأناقة ، ولكنه لبث دائماً ذلك المحب النهم الذى تغلب لديه الغرائز الوضيعة ، والذى يسعى إلى إرضاء شهواته المضطرمة بأى الوسائل ، وفى أى الظروف والمناسبات

وانفق كازانوفا فى باريس بضعة أعوام فى عيش طروب خفض يغزو جميع القلوب ، وينعم بوصل السيدات والغانيات من كل ضرب ويزاول التنجيم والشعوذة ؛ وكان يتسمى عندئذ بالشفاليه دى سنجال ، أو الشفالييه سنجال دى فاروزى ، ويبهر الناس بروعة مظاهره وأساليبه ، ويتقرب من الأكابر ، وينعم بالجاه والنفوذ والثراء . بيد أن هذه الحياة الباهرة كانت تنضح دائماً عن جوانب وثغرات مريبة ؛ ذلك أن كازانوفا لم يكن متحوطاً فى مغامراته وعبثه ؛ ولم يكن يحجم عن أى الوسائل لاستلاب المال أو القلوب ؛ ومن ذلك أنه اشترك فى حادث تزوير أوراق مالية ، وأغرى عددا من أكابر السيدات ، ومنهن المركيزه دورفى التى خدعها واستحوذ على قلبها ومالها بشعوذته ؛ وسطا على كثير من الأزواج والآباء ، فاستلب منهم زوجاتهم أو بناتهم ، واتصل بجماعة خطرة من الأفاقين ولصوص المجتمع الرفيع يدبر معها الخطط والمشاريع المريبة ؛ وذاعت هذه الوقائع والفضائح المزرية ، وكادت تدفع بالمغامر الجرىء إلى غمار لا تحمد عواقبها ، ولكنه آثر الهجرة مرة أخرى ، ويمم عندئذ شطر هولندة مزوداً ببقية من المال والجاه وتوصيات بعض الأكابر

ونزل كازانوفا فى لاهاى سنة ١٧٥٩ ؛ واستأنف هنالك حياة البذخ والطرب ، يعيد سيرته التى جازها فى كل المواطن ، عاشقاً مضطرماً تحمله شهواته حيثما يحمله ظفره ، وتسقط فرائسه بين أذرعه تباعا ، ويبتز المال من هنا وهنالك بكل الوسائل والحيل ، ويستمرئ حياة الخديعة والشعوذة والغواية إلى الذروة ، ويثير حوله بعد حين نفس الشكوك والريب التى يثيرها أينما حل ؛ وإذ يشعر بأن وسائله وحيله ومظاهره كلها قد نفقت ، وأن الجو يتجهم من حوله ، يعتزم الرحيل والنقلة . وهكذا غادر كازانوفا لاهاى كما غادر باريس من قبل مثقلاً بالريب والفضائح ، وهبط إلى لندن فى خريف سنة ١٧٦٣ تحدوه آمال وأمانى أخرى

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

الخصيان

أصل العادة وتاريخها وانتشارها

للدكتور مأمون عبد السلام

هوت الغيرة الجنسية بالانسان إلى دركة ما دون الوحوش، فوسوس اليه الشيطان أن ينتزع الرجولة من الأبرياء ليتخذهم خداماً يأتمنهم على عرض نسائه وحفظة لطهارتهن. هذا هو الأصل فى اتخاذ الخصيان. وهى عادة لجأ إليها الصينيون والهنود والبابليون والفرس من عصور خالية، فقد أخبرنا هيرودوت عما كان للخصيان من السطوة فى دولة الفرس فى عهده

وقد عرفهم العرب من قديم فقالوا: خصى بصى ومخصى، وتقول العامة طواشى، وهى كلمة مولدة ليست من كلام العرب. فقد كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يخصوا أسراهم كما كان يفعل قدماء المصريين؛ وتجد ذلك مصوراً على جدران مدينة حابو، وكما يفعل الأحباش الآن. وهذه العادة قديمة فى مصر، فقد عثروا فى هرم أوناس على مخطوط عرف منه أن حوريس سل خصيتى سيت. وقد اتخذ الفراعنة الخصيان فى قصورهم فبلغوا من النفوذ والسطوة ما حدا بهم إلى قتل أمانيميس وهو الفرعون الثانى من العائلة الثانية عشرة

ونظراً للاعتقاد السائد بأمانة الخصيان فقد أطلق اسم الخصى على أمناء فرعون وملوك بنى اسرائيل، فقد جاء فى سفر التكوين (٣٩ : ١) : (وأما يوسف فأنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصى فرعون رئيس الشرط) وكلنا يعلم أن فوطيفار وهو العزيز كان متزوجاً وقد راودت زوجه يوسف عليه السلام عن نفسه فأبى واستعصم

وقد اتخذ بنو اسرائيل الخصيان كما ذكر فى الكتاب المقدس (الملوك الثانى ٩ : ٣٢ — ٣٣ و ٢٤ : ١٥ وأخبار الأيام الأول ٢٨ : ١ وإستير ٦ : ١ — ٢) وقد حرمت التوراة اتخاذ الخصيان وخصاء الحيوان، فقد جاء فى سفر التثنية (٢٣ : ١) : لا يدخل مخصى بالرض أو مجبوب فى جماعة الرب. وجاء فى سفر اللاويين : ومرضوض الخصية ومسحوقها ومنزوعها ومقطوعها لا تقربوا للرب

وقد أخذ الاغريق هذه العادة عن الشعوب الأسيوية التى غزاها الاسكندر المقدونى فانتشرت بينهم بعد موته؛ واسم الخصى عندهم يونوقوس eunochos (ومنها الكلمة الافرنجية يونوق eunoch (واشتقاقها من يونو euné بمعنى الفراش وايقيون ekheim بمعنى الحارس أى حارس فراش الزوجية

وقد أدخل هذه العادة هليو جابال إلى رومه فى عهد الأمبراطورية أى فى نهاية القرن الثالث وتفشت بعد ذلك فى الدولة البيزنطية

وقد حتمت بعض العبادات الخصاء على اتباعها ليتفرغوا للتعبد كما كان يفعل كهنة الهيا كل الوثنية السورية القديمة

وقد جاء ذكر الخصيان فى انجيل متى (١٩ : ١٢) : «لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. من استطاع أن يقبل فليقبل» وقد اعتمد بعض المسيحيين المتقدمين على هذه الآية وخصوا أنفسهم ليتحرروا من الوقوع فى الخطيئة. وأول من فعل ذلك أوريجانوس الاسكندرى المولود سنة ١٨٥ أو سنة ١٨٦ ميلادية، وقد أحسن أبوه تهذيبه فتاقى العلم على أكابر علماء المسيحية أمثال بانطينوس وكليمان فى المدارس الكاتيدرائيـة وهى مدارس دينية كانوا يتلقون فيها الفقه المسيحى والعلوم الأغريقية (على نحو الجامعة الأزهرية فى الاسلام)؛ وقد خصى نفسه زهداً منه فى الحياة الدنيا ورغبة فى تلقين النساء العلم. وقد قضى ثمانية وعشرين عاماً بالاسكندرية رحل خلالها إلى رومه وانطاكيـة وبلاد العرب خدمة للدين والعلم

وقد اقتدى الكثير من المسيحيين بأوريجانوس فظهرت فى القرن الثالث الميحى فرقة الفليسيين نسبة إلى فليسيوس العربى رئيسهم الذى قال إن الخلاص لا يتم إلا بالخصاء؛ فكانوا يخصون أنفسهم ومن يقع فى أيديهم تقرباً إلى الله تعالى. وقد ثبت المجمع النيقادى الذى عقده الامبراطور قسطنطين الخصاء فى قوانينه فاستمرت العادة بين بعض الطوائف المسيحية حتى

حرمها البابا ليو الثالث عشر

ورغماً عن ذلك فقد استمر بعض الروسيين إلى أول الثورة الشيوعية على اتباعها ، فقد كان منهم فرقة من الخصيان المتعبدين اسمها سكوبسى Skopsi أى الخصيان

وكان من عادة الطليان أن يخصوا الأولاد قبل البلوغ ليحافظوا على نعومة أصواتهم وحدتها للغناء فى الكنائس والمسارح إذ كانوا يمنعون النساء من مزاولة ذلك . فحرم هذه العادة البابا اكليمنس الرابع عشر ولكنه لم يتمكن من ابطالها حتى فى رومه عقر داره

ويحرم الدين الاسلامى الخصاء فى الانسان والحيوان ، وورد فى ذلك أحاديث ؛ وقد اعتبر أبو العباس رضى الله عنه الخصاء عملية شيطانية يحرمها المولى

وقد دفعت أبهة الملك معاوية بن أبى سفيان لمجاراة ملوك الروم فى اتخاذ الخصيان فكان أول من اتخذهم فى الاسلام كما ذكر المسعودى . ومن ثم تفشت هذه العادة فى الدول الاسلامية وخاصة عند بنى عثمان وعنهم أخذنا كلمة (أغا) للخصى ، وأصل الكلمة أقا بالفارسية بمعنى السيد ؛ ويعنى بها العثمانيون الأخ الأكبر وصف الضابط ورئيس فرقة الانكشارية ، ثم أطلقت على الخصى ، وقد انتشر هذا الاسم فى ممتلكات آل عثمان كالشام ومصر والجزائر وغيرها

وكان جميع خصيان مصر وشمال إفريقيا وبلاد العرب والشام وتركيا من السود والحبشان ، وأصلهم من الرقيق يخصونهم فى بلدة باجرمى بالسودان

وقد تكلم عن الرقيق بمصر بورخهاردت وهو رحالة سويسرى كان فى خدمة الانجليز جاء إلى مصر وقام فى ٢٢ فبراير سنة ١٨١٣ من أسوان إلى بلاد النوبة ، وكان يحكمها إذ ذاك أولاد حسن كاشف الثلاثة ، فذكر أن بورغو غرب دارفور كانت مكان خصاء الرقيق ومنها كانوا يحملون إلى سواكن ومكة والمدينة ومصر ، ولكن السواد الأعظم من الخصيان الذين يرسلون إلى أوروبا وتركيا كانوا من الرقيق الذى كان يصل إلى أسيوط ، وكانوا يخصون فى قرية تسمى زاوية الدير قرب أسيوط ، وكان يقوم بهذه العملية راهبان من أهلها حازا شهرة كبيرة فى ذلك . وكانا محط ازدراء المصريين جميعاً ؛ ولكنهما كانا يقومان بهذه العملية تحت حماية الحكومة مقابل ضريبة سنوية يدفعونها

ونسبة الوفيات من الخصاء منخفضة بعكس ما قد يعتقد ، فقد مات من جرائها اثنان من ستين ولدا خصوا فى خريف سنة ١٨١٣ ، ولا تزيد النسبة فى العادة على اثنين فى المائة . وكانت عادتهم أن يقوموا بهذه العملية حال وصول القافلة من دارفور أو سنار ويختار لها الأولاد من سن الثامنة إلى الثانية عشرة الذين يمتازون بقوتهم وتناسق أعضائهم وذكائهم

وكانت أجرة العملية ستين قرشا . وقد بلغ متوسط ما كان يخصى بأسيوط مائة وخمسين خصياً فى السنة ، وكان ثمن الخصى بأسيوط فى هذا العهد ألف قرش

ويقول بورخهاردت إنه فى سنة ١٨١١ أمر محمد على باشا أن يخصى مائتا عبد دارفورى ليرسلهم هدية سنية إلى السلطان الأعظم بالأستانة . وقد روى أن الخصيان البيض قليلون بتركيا ، وأنه رأى بالحجاز عدداً من الخصيان الهنود خصوا فى بلاد الهند وأرسلوا هدية إلى الحجاز

وقد رجع بعض العرب إبان الحرب الوهابية الأولى إلى عادتهم فى الجاهلية وهى خصاء الأسرى ، وذلك أن الشريف غالب أمير مكة أسر أربعين رجلا من قبيلة عنية وهى قبيلة تدين بالمذهب الوهابى ، وكان فى حرب معهم فأمر بأن يخصوا ثم يفك أسرهم فماتوا من جراء ذلك سوى اثنين رجعا إلى قبيلتهما بعد أن التأمت جراحهما ؛ وقد امتلأ قلباهما بالحقد والضغينة فقتل أحدهما ابن عم الشريف غالب فى إحدى المعارك ، وأما الآخر فقتل وهو يحاول اقتحام خيل الشريف ليقتله بنفسه

وينجم عن الخصاء أن يبطل فعل الغدد الجنسية وخاصة إفرازاتها الداخلية التى لها تأثير كبير فى التوازن الفسيولوجى والجنسى ؛ ويكون التأثير على أشده فى الصغار ويقل كلما كبر سن من يراد خصاؤه ، فينمو الصبى الخصى كالأنثى فلا ينبت شعر وجهه ، ويكون صوته رفيعاً وعظامه كعظام النساء وعضلاته لينة ويتضخم عجزه ، ويصبح أكثر ميلاً إلى الدس والايقاع . ويكون التأثير فى البالغ أقل ظهوراً فيضعف شعر الذقن أو قد يختفى ، ويتغير الصوت . ويتعرض الرجل بعد الخصى لاضطرابات

عصبية شديدة ولأفكار سوداوية تنشأ عن جمود العاطفة الجنسية ، أما إن خصى الرجل وهو كهل فالتغير لا يكون ملموساً

وقد يتسرب إلى الذهن أن الخِصاء يضعف من حدة العقل والشجاعة وهـذا خطأ محض ، فني التاريخ أدلة تثبت ما كان للخصيان من القوة والبأس والتبحر فى العـلوم وعلو الباع فى سياسة الأمم وقيادة الجيوش . فمن الخصيان الذين خلد التاريخ أسماءهم باغوص الفارسي الملقب بصانع الملـوك ، وفافورينوس الفيلسوف صديق بلوطارخ ، وأرسطو نيقوس القائد البطليموسى ، وفوطين وزير بطليموس ، وأيوتروب وزير اركاديوس

وكان للخصيان شأن عظيم فى عهود كثيرة من التاريخ الاسلامى وخاصة بمصر فكان أظهرهم الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدى الذى انتزع الملك لنفسه وخطب باسمه على المنابر ، ثم الطواشى محسن الصالحى ، والطواشى صبيح فى آخر عهد الدولة الأيوبية . وقد أشار اليهما المرحوم ميخائيل بك شاروبيم فى كتابه (الكافى) عند كلامه عن أسر المصريين لملك فرنسا فقال إنه لما اشتد الأمر على الفرنسيس وقلت عندهم الأقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة المسلمين رحلوا يريدون دمياط فاقتفى المسلمون أثرهم فانحاز الملك لويز بمن معه من الملوك والأمراء إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى إلى المنصورة فقيد الملك لويز وجعله فى دار كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين بن لقمان وآثارها لا تزال باقيـة إلى الآن وقد تهدم أكثرها ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ، وفى ذلك يقول الشاعر مهدداً الفرنسيس :

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

وليس أمر خليل أغا وما كان له من السطوة فى عهد اسماعيل عنا ببعيد .

مأمون عبد السلام

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

الدفتريا

بين واحد سمها الفرنسى ، وكاشف ترياقها الألمانى

ومضت أربع سنوات تحققت بعدها نبوءة لُفلار ، وبم تحققت ؟ بتجربة تظهر لك غاية فى السخافة ، والحقيقة التى لا شبهة فيها أنها تجربة أوغلت فى الخيال وتفانينه بقدر ما بعدت عن دائرة الحقيقة واليقين . تجربة ما كان يحسب حاسب إلا أنها تنتهى بقتل الخنزير الغيني الذى استُخدم فيها غرقاً ؛ ولم تكن هذه التجربة بدعاً فى الذى أوحاه هذا العصر من تجارب ، فبحث المكروب فى باريس كان عندئذ على أشده حدّة وعنفاً ، يصدر عن قلوب هائجة محمومة لا عن عقول هادئة باردة ، فى هذا العصر كان بستور خائر القوى ، منهدم الـكيان ، بعد نُصرته التى كانت من كشفه فكسين الكَلَب ، فقنع بأن يشرف فى ضعفه على بناء المعهد ذى المليون فرنك الذى كان يقام فى شارع ديتو Rue Dutot (1) وكان فى باريس فى هذه الفترة متشنيكوف Metchnikoff (٢) ، وكان رجلا جوحا احترف البحث فى المكروب فسلك فيـه سبيلا وسطاً بين العلم والشعوذة ، وكان جاء باريس من أوديسا الروسـية ايجشأ فيها بنظريات غريبة تتحدث عن بلع كرات الدم البيضاء للجراثيم ؛ وأخذ فى هذا العصر أشياع بستور يحزمون مجاهرهم فى عيابهم ويسافرون إلى سيجون Saigon فى الهند الصينية وإلى أستراليا ، يقصدون إلى كشف مكروبات لأدواء عجيبة لم يكن لها وجود أبداً . وفزعت أمهات كثيرات إلى بستور ، والأمل يملأ قلوبهن ، يرجونه فى كتب لا عدّ لها أن يُنجى أولادهن من أمراض

(١) يقصد معهد بستور
(٢) أحد بحاث المكروب المعروفين وستأتى ترجمته

شنيعة عديدة ، ولكن بستور كان رجلا مجهودا منهوكا

كتبت اليه احداهن تقول : « إنك لو شئت لوجدت دواء لهذا الداء اللعين الذى يدعى بالدفتريا ، انك لو فعلت لأعطيت الحياة لأطفالنا وكان لك ثواب ذلك ، اننا نذكرك لهم ، ونحفّظ اسمك إياهم بأنك رب خير للانسانية كبير عميم

ولكن بستور كان قد غاض معينه ، فلم يبق فيه إلا ذَماء ، فقام عنه رو يحاول محو الدفتريا من على ظهر الأرض ، وأعانه فى هذا يرسين Yersin ، وهو رجل لا يهاب الموت ، كان من نصيبه بعد ذلك أن اكتشف جرثومة الموت الأسود فنال بها مجداً كبيرا ، ولم يكن الذى أتاه رو من ذلك علما ، إنما كان جهادا وحرباً . كانت تحدوه عاطفة قوية فاقتحم السُّبُل إلى غايته اقتحاماً ، فلم يتريّث كما يتريث المكتشفون لاختطاط الخطة ومصارة الفرصة فى دهاء وافتنان . ولست أقول إن (رو) بدأ بحثه من أجل هذا الكتاب الذى كتبته تلك البائسة تسترحم فيه بستور ، ولكنى أريد أن أقرر أن رو بدأ بحثه وأكبرُ همّه تخليص الأرواح لا علم الحقائق ، فهذا البيت فى شارع دبتو ما كان يضم إلا رجالا انسانيين همّهم خلاص البشرية وتخفيف ويلاتها ، يستوى فى ذلك ربّه الشيخ المشلول ، وغاسل القنانى الخامل الحقير . كلهم كانوا يعملون لخلاص الناس ، وهذا طيب جميل ، ولكنهم حادوا من أجله أحياناً عن السبيل الذى لا بد من سلوكه لبلوغ الحقيقة . . . . ومع هذا ، وبرغم هذا ، فقد كشف رو كشفاً رائعاً مجيداً

كانت الدفتريا تفتك بباريس فتكاد ذريعاً . فذهب رو ويرسين الى مستشفى الأطفال فوجدا هناك نفس البشلّة التى كان وجدها لُفلار . فربّوها فى حساء بقارورة ، وترسّما الخُطى المعروفة ، لحقنا مقادير كبيرة من هذا الحساء فى كثير من طيور وحيوانات منحوسة الطالع فماتت ضحية العلم ، دون أن تعلم بما ضحّت ، فترضى وتطيب نفساً عن نصيبها . ولم يكن هذا الذى بدءا فيه بحثاً كثير النفع كثير الانتاج مستنيراً ، ولكنهما لم يلبثا أن وقعا وشيكا على الدليل الذى أعوز لُفلارَ ، فان الحساء شلّ الأرانب . ذهب مفعوله فى أوردتها فلم تمض إلا أيام قلائل حتى سارت تجر أرجلها الخلفية وراءها عرجا . فسر أصحاب التجربة سروراً كبيراً . وزحف الشلل إلى أجسامها حتى بلغ أكتافها وأرجلها الأمامية ثم ماتت فى شللها وبللها ولزاجتها شرّ ميتة

قال رو وقد ملأته رغبة شديدة فى الايمان بالذى يقول : « إن هذه البشلة تقتل الأرانب على نحو ما تقتل الأطفال . . . . لابد إذن أنها هى سبب الدفتريا الذى لاشك فيه ، ولابد أنى واجد الآن هذه الجرثومة فى هذه الأرانب . واستخرج عدداً كبيراً من الأنسجة من كل ركن من بضعة جثث من هذه الأرانب ، واستخرج أطحلتها وقلوبها ، وزرع منها زَرِيعات كثيرة ، ولكنه لم يجد بها بشلة واحدة . انها أيام قلائل فقط مضت منذ حقن بلايين من البشلات فى كل أرنب منها . ولكن ها هى ذى ملقاة أمامه ، قد انتزع أحشاءها ، وقطّع أوصالها ، وفتّش فيها مبتدئاً بأنوفها الحمراء منتهياً بما تحت ذيولها البيضاء ، ولكنه لم يعثر بها على بشلة واحدة . إذن فما الذى قتلها ؟ !

فجاءت نبوءة لُفلار تمر سريعة كالبرق بخاطره . فتفكّر وقال : « لابد أن هذه البشلات تصنع سماً وهى فى الحساء ، ولابد أن هذا السم هو الذى يَشلّ ويقتل

وانبعثت فيه روح البحث الصحيح ، روح المعرفة للمعرفة ، فنسى الأطفال وبلواهم ، وأكبّ على الخنازير الغينية والأرانب يُثخنها قتلا وجزرا ، فقد وجب عليه أن يثبت أن هذه البشلات تعصر سماً من أجسامها الدِّقاق .

وبدأ هو ويرسين يدوران يتحسسان فى الظلام عن تجارب تهديهم إلى إثبات ما يبغيان إثباته . وطال تحسسهما ، وبعدت طرائقهما عن طرائق العلم . ولهما العذر فى ذلك ، فلم يكن لديهما فى هذا الباب طرائق معروفة ، ولم يكن سبقهما فيه سابق فيترسمون خطاه على هدى وبصيرة . ولم يسمع أحد قبلهما بأن باحثاً فصل سماً من أجسام المكروبات ، إلا بستور فقد كان حاول شيئاً لم يستتمه من هذا . كانا وحدهما فى ظلمة هذه الجهالة . ولكنهما استطاعا أن يقدحا عود كبريت . . . قالا : « إن البشلة لابد تصب سمّها فى الحساء ، كما تصب سمّها فى دم الطفل وهى مقيمة على غشاء حلقه » . بالطبع هما لم يثبتا هذا

ووقف رو حجاجه النظرى ، وسئم الدوران منه فى دائرة

لا تنتهى ، واعتزم حل المُعْضل فى المعمل بيديه . وجد أن التلمّس فى هذا السماء لا يجديه نفعاً . وجد أنه كرجل اختل محرّك سيارته فتعطلت ، فأراد أن يصلحه وهو لا يدرى من عمل المحركات شيئاً . فكان الأولى به أن يتعلم كيف تعمل المحرّكات أولا . فقام الى قارورات من الزجاج كبيرة ، ووضع فيها أحسية خالية من المكروب طاهرة ، ثم بذر فيها بشلات نقية من الدفتيريا ، ثم أودعها فى المدافئ لتربىّ . فلما بقيت فيها أربعة أيام وتم نضجها قال رو : « والآن فلينا فصل الحساء من المكروب » . وجهّز الاثنان لذلك جهازاً غريبا ، مُرشِّحاً له شكل الشمعة الا أنه أجوف ، صنعاه من مادة صينية دقيقة اكتنزت حباتها وضاقت مسامّها فأذِنت بنفاذ الحساء ورفضت ذرات المكروب فيها . ونصبا هذه الشمعات الجوفاء فى مخابير من الزجاج لامعة صقيلة ، وقاما يصبان الأحسية فيها على حذر شديد مخافة أن يصيبهما رشاش قاتل منها ، ولكنها أبت أن تنفذ من الشموع إلى المخابير ، وأخيراً استطاعا أن يُنفذاها بهواء مضغوط ضغطا شديدا ، فلما تم لهما ذلك تنفسا الصُّعَداء وهما يصفّقان على المنضدة ، ذلك الراشح الرائق قد تراءى فى قواريره الصغيرة أصفر كالكهرمان [1] ولم تكن به جرثومة واحدة

وتمتم رو لنفسه : « هذا السائل لا شك يحتوى السم . نعم لقد حبست الشموع ما كان به من جراثيم ، ولكنه مع هذا لابد أنه يقتل الحيوانات ، وهرج المعمل ومرج بالساعدين وهم يحضرون الخنازير والأرانب ، فلما حضرت ذهبت إبر المحاقن فى بطونها بهذا السائل الذهبى ، ضربتها فيها يد رو ، وهى يد خفيفة بارعة

وانقلب رو فصار فتاكا سفاحاً ، وملأ قلبه حب القتل ، فلم يجئ إلى معمله يوماً إلا وفى نفسه رغبة كرغبة المجنون أن يجد حيواناته قتيلة صريعة . وكأنى بك تسمعه يصيح إلى يرسين : « إن السم لا بد فاعل فعله الآن فيها ، لا بد أنه ضارب بنابه الآن فى مقاتلها » ، ثم هما ينظران معاً فلا يجدان ما يشفى غليلهما ويؤمن على نبوءتهما ، فلا الشعور انتفشت ، ولا الأرجل الخلفية شلت فتجرجرت ، ولا الأجسام ارتمشت وانتفضت

كان وقع ذلك شديداً عليهما . بعد كل هذا التعب ، وكل هذا التجريب والتفنين فى دقة وحذر ، تظل هذه الحيوانات تقرض بقولها فى أقفاصها قرضاً ، وتثب فيها وثبا ، وتتنازل ذكورها وإناثها وتتهارش هذا الهراش السخيف الذى لابد منه لايجاد النسل وتواصل الجنس . . . إنها تملأ أمعدتها وتشبع شهوتها ولا تأبه لشىء . أما هؤلاء الأمامى المردة الطوال الذين أحسنوا غذاءها هذا الاحسان فليحقنوا فى أوردتها أو فى بطونها من ذاك الحساء ما شاءوا . أيدعونه سما ؟ لقد طال بهم الخيال ، وكذب الخال . إن يكن سما فهو لا يزيدها إلا هناءة وطيب حال

وحاول رو مرة أخرى حقن مقادير أكبر من حسائه فى طائفة حيواناته ، ثم فى أخرى ، ثم فى أخرى ، ولكن من غير جدوى . لم يكن فى الحساء سم

لو أن رو رجل عاقل عادى لكفاه الذى جرى ، واقتنع بأن الحساء الذى أودعه المدفأ أياماً ثم رشحه لم يكن به سم قط . ألم يكفه هذا العدد العديد من الحيوانات التى ضاعت سدى ؟ ولكن رو — ولتحمده الأمهات والأطفال المساكين ، ولترعه الملائكة التى تحفظ البحاث المجانين — ولكن رو كان فى تلك الساعة مجنونا . أصابه مس كالذى كان يصيب أستاذه بستور فيجعله يرى الصواب فى الذى يراه الناس أجمع خطأ ، ويقدح ذهنه فتخرج منه التجربة المستحيلة الناجحة . كأنى بك تسمع هذا الرجل الملول ذا وجه الصقر يصيح لنفسه : «هنا ، فى هذا الحساء سم لا محالة » . وكأنى بك تراه يدور فى معمله يصيح هذه الصيحة إلى القوارير المصففة على الأرفف التربة ، وإلى الأرانب والخنازير الغينية ، وهى لو استطاعت لضحكت من هذا المجهود الخائب الذى بذله ويبذله رجاء قتلها . « لابد من سم فى هذا الحساء الذى نمت فيه بشلات الدفتريا ، وإلا فكيف ماتت الأرانب إذن ؟ »

وأخيراً ، بعد أن قضى الأسابيع يحقن أحسيته فى الحيوانات ويزيد مقدار ما يحقن فيها كل مرة ، أخيراً عزم على أن يحقن فى الخنزير ثلاثين مقداراً من الحساء دفعة واحدة ، ففعل وكاد يغرق الخنزير بحسائه . كان مثله فى ذلك مثل المقامر الذى سئم الخسارة ، فلما يئس جازف فوضع على الرقعة كل ماله . حتى بستور ما كان ليجسر هذه الجسارة فيحقن الخنزير الغينى الصغير تحت جلده بخمسة وثلاثين سنتيمتراً من الحساء كما فعل

(1) أو إن شئت فالكهرباء

رو . أليس فى هذا المقدار لو أنه ماء نقى ما يقتل الخنزير بمجرد حجمه . وهو إذا مات فأى نتيجة تستخرج من هذا عن وجود السم فى الحساء . . . . ولكن رو لم يأبه لذلك ، فدفع بهذا المقدار من الحساء وهو كالبحر فى بطن الخنزير . ودفع بمقدار مثله فى وريد بأذن أرنب ، فكان كمن صب جردل ماء فى أوردة إنسان متوسط الجرم

ولكن بهذا الأسلوب الغريب كتب رو اسمه فى لوحة المجد ، فعلى الناس أن يخلّدوها على الدهر ويحفظوها من البلى ما بقى على ظهر هذه البسيطة إنسىّ . احتمل الأرنب والخنزير تلك الشربة الهائلة وصمدا لجرمها الكبير ، وهَنِيئا بالسلامة ونعما بالعيش يوماً أو يومين بعد هذا ، ولكن لم يمض على ذلك غير ثمان وأربعين ساعة حتى انتصب شعراها على ظهريهما ، وأخذا يتنفسان اختلاجا . وماتا بعد خمسة أيام ، وظهرت عليهما نفس الأعراض التى ظهرت على الحيوانات الأخرى التى ماتت عقب حقنها بمكروب الدفتريا نفسه لا بحسائه المرشّح . وبهذا اكتشف رو سم الدفتريا . . .

لو أن الأمر اقتصر على هذه التجربة ، وماتضمنته من جرعة هائلة من حساء ضعيف السم ، إذن لضحك قنّاص المكروب منها ومن صاحبها رو ، ولتخذوا منها فكاهة فخمة : «إن تكن قارورة كبيرة من مكروب الدفتريا لا تخرج إلا هذا السم القليل حتى ليحتاج إلى أكثر هذه القارورة لقتل خنزير غينىّ صغير ، فأنى لبشلات قليلة تحل فى زور الطفل أن تصنع من هذا السم ما يكفى للقضاء على جرمه الكبير ! هذا حمق أى حمق ! »

ومع هذا فرو حلّ بذلك العقدة الأولى . وبهذه التجربة السخيفة قدح أول قدحة وأطار أول شرر شعّ فى ظلمة الطريق فعرف به إلى أى ناحية يتجه وعلى أى جنبيه يميل . فأخذ يتحسس طريقه بين الأحراج ويشق سبيله بين الأدغال بطائفة من التجارب الدقيقة حتى انفتح له السبيل بغتة عن أرض عراء فعرف مكانه واستوثق مما هو فيه . واستغرق فى ذلك شهرين عرف بعدهما السبب فى ضعف السم بحسائه . واتضح له أنه لم يكن ترك الحساء ببشلاته فى المِدفأ مدة كافية ، فلم تتمكن البشلات من العمل فلم تصنع من السم ما تعودت أن تصنعه . وعلى هذا صنع حساء جديداً ووضع فيه بشلات جديدة أودعها المدفأ وأبقاها هناك فى حرارة كحرارة الجسم مدة اثنين وأربعين يوماً . فلما أخرجها أخرج سماً كأقوى ما تكون السموم ، وحقن القليل منـــه فى حيواناته فصنع بها ما لا يُصنع . وأخذ فى تقليل مقدار ما يحقن فيها عسى أن يقال فتكه بهذه الحيوانات ولكنه حاول عبثاً ، وظلّ ينظر بعين واسعة وقلب مغتبط تياه إلى القطرات القليلة من هذا السم تذهب بالأرانب وتقتل الشياه وتأتى بالكلاب صريعة . ثم أخذ يتباهى بهذا السائل الفتّاك ، فجففه ، وأراد دراسة كيميائه فأخفق . ثم ركّزه تركيزاً كبيراً ، ووزن ما ركّز ، ثم عكف يجرى عمليات حسابية طويلة فوجد أن الأوقية منه تقتل ٦٠٠٠٠٠ خنزير غينى ، أو ٧٥٠٠٠ كلب كبير . ووجد أن الخنزير الغينى الذى يناله من هذا السم جزء من ٦٠٠٠٠٠ جزء من الأوقية تتحول أنسجة جسمه فتكون كأنسجة جسم الطفل الذى يموت بالدفتريا

هكذا أوّل رو حلم لفلار وحقق نبوءته ؛ وعلى هذا النحو كشف عن رسول الموت السائل الذى يتحلّب من أجسام هذه البشلات الصغيرة الحقيرة كشف رو لنا عن الطريقة التى تقتل بها هذه البشلات الأطفال ، ولكنه لم يكشف لنا عن طريقة ندفع بها شرها ، والكتاب الذى بعثته تلك الأم البائسة لبستور تسأل فيه دواء لهذا الداء بقى على المكتب لا يجد له جواباً ، ومع هذا فعمل رو بلغ أمره الأطباء فتعلموا كيف يربون تلك البشلات من حلوق المرضى من الأطفال ، وأثمر عدة اقتراحات بغرغرات نافعة يغسلون حلوقهم بها ، ولكن رو لم يكن له صبر بستور ولا حيلته

أحمد زكى

فى العدد القادم : بارنج يكتشف ترياق الدفتريا

نشأة مقاييس الذكاء

للأستاذ على محمد فهمى

مدرس التربية التجريبية المساعد بمعهد التربية للبنين

ليس علم النفس بالعلم الحديث ، بل هو قديم من أيام أرسطاطاليس ، ولكنه لم يثمر إلا فى القرن العشرين ومن ثم صار علماء علم النفس يبحثون بجد فى العقل وكنهه ، وفى الذكاء وأصله ، فاستفادت التربية من قياس ذكاء الأطفال . وقد قامت الأبحاث فى محاولة قياس الذكاء عدة مراحل أهمها أربع :

المرحلة الأولى

فى هذه المرحلة لاحظ الباحثون بادئ الأمر أن هناك تبايناً بين الأفراد فى الفهم والتفكير والتذكر والقدرة على التعلم وان هـذا التفاوت يختلف باختلاف الجنس والعمر والبيئة ، وكانت الجهود كلها موجهة إلى محاولة تعيين مقدرة المرء العقلية بواسطة شكل جسمه وخاصة الرأس والعاهات الخلقية التى فى الانسان ، فأول ما نشأت فكرة إيجاد مقاييس الذكاء كانت عبارة عن مجرد فحص الحالة الجسمية

وكان أول من تناولها بالبحث والكتابة فيها الأستاذ لافاتير Lavater سنة ١٧٧٢ فقد نشر فى هـذه السنة بحثاً عن معرفة صفات الانسان العقلية والنفسية من ملامح الوجه

ثم نشر جول Gull صاحب نظرية الجمجمة كتاباً عن معرفة صفات الناس من أشكال رءوسهم وقياس عظامهم الجمجمية فعمل خريطة للعقل وقسمه إلى ملكات وكانت الملكة تكبر أو تصغر بحسب قوتها وضعفها ويسمى هـذا العلم بعلم الفراسة Phrenology

ثم تبعه فى بحثه الدكتور بل سنة ١٨٠٦ ثم داروين سنة ١٨٧٢ وكانا يعتبران أن صفات الشخص العقلية تعرف من حالة عضلاته ، فالخائف مثلا تظهر عليـه علامات كأن تفتح عيناه وترتعش ركبتاه وغير ذلك من علامات الخوف ؛ فاذا كان الخوف مستمراً فانه يترك فى وجه الشخص طابعاً يدل عليه ، ولكن ثبت خطأ هذه النظرية إذ قد توجد علامات مشتركة بين حالات مختلفة فلا يمكن مثلا التمييز بين علامات الضحك من السرور وعلامات الضحك من الاستغراب والاستهزاء

قام بعد ذلك الأستاذ لمبروزو Lombroso الاخصائى فى علم الأجرام بمباحثه وأتى بفكرة جديدة وهى الحكم على صفات الناس العقلية والنفسية من العلامات التشريحية Anatomical Stigma فهو يقول بأن هناك وصمات Stigma وتشويهات معينة فى الجسم يدل وجودها فيه على ميل فطرى للاجرام ، فمثلا كبر الرأس وشكله وعدم مساواة نصفيه وعرض الجبهة وضيقها والأنف العريض والمقلوب والمفرطح وسقف الحلق الضيق والمرتفع — ويكون عادة على شكل ٨ — والآذان عديمة الحلمة والمشوهة والكبيرة الحجم ، كل هذه العلامات أو العاهات كما يقول الأستاذ لومبروزو هى علامات صحيحة للاجرام موجودة مع الطفل من يوم ولادته . وعلى ذلك فهو يرى أن الشذوذ فى الخلقة يرجع إلى شذوذ فى النفس والعقل . وقد نشرت ملاحظات هذا العالم وتجاربه هو ومساعدوه فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن على توالى الزمن اقتنع العلماء بأن الحكم على العقل أو النفس بمجرد مشاهدة الخلقة حكم لا قيمة له بل يجب اختبار الصفات العقلية والنفسية باختبارات عقلية سيكولوجية

هدأت الأفكار بعد ذلك نوعاً ما وتحولت عن نظرية لمبروزو وعلاقتها بالاجرام : هنالك نشط الباحثون واستنفدوا جهدهم فى البحث فوصلوا إلى أن كبر حجم الجمجمة دليل على كبر حجم المخ ، وكبر حجم المخ دليل على الذكاء والعكس ، غير أنه فاتهم للأسف أن الذكاء لا يقدر بكبر حجم المخ . ولا بصغره وإنما يقدر بسمك المادة السنجابية وكثرة تلافيف المخ الخ . وقد نشط الأستاذ بيرسون فى بحث هذا الرأى فأجرى تجاربه على ٥٠٠ طالب من جامعة كولومبيا بأمريكا فوجد أن العلاقة بين حجم المخ والذكاء تكاد تكون معدومة

المرحلة الثانية

بعد ذلك ظهرت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر ثلاث حركات علمية مهدت السبيل لظهور المقاييس العقلية وهى :

أولا : ظهور علم النفس التجريبى فى ألمانيا على يد ويبر Weber

الذي اهتم بدراسة الاحساسات وحاول أن يطبق عليها روح القرن التاسع عشر وهى الروح العلمية التجريبية ، وتبعه عالم ألمانى اسمه فخنر Fechner ثم تبعهما سلسلة علماء حتى جاء وند Wundt وأنشأ أول معمل لعلم النفس فى ليبزج سنة ١٨٧٩ ، وكان متجهاً لدراسة الاحساسات لوجود فلسفة الترابط فى انجلترا Association فى ذلك الوقت ، وفلسفة الترابط هذه تقول إن أصل كل حياة فكرية هى الاحساسات ، وإذن فالاحساسات هى أساس نشوء الحياة العقلية ، ولذلك عمد وند Wundt لدراسة زمن الرجع Reaction وهو الزمن الذى ينقضى بين وصول المؤثر وبين حصول الرد عليه ، لأنه دليل على سرعة العمليات العقلية ، وكان يساعده فى أبحاثه الأمريكى كاتل Cattell الذى لاحظ أن الأشخاص يختلف بعضهم عن بعض فى زمن الرجع ، وكانت أبحاثه ضد رغبة استاذه وإن كانت تعتبر الآن من الينابيع التى غذت المقاييس العقلية

ثانياً : دراسة الوراثة فى انجلترا : وأول من بدأ بدراستها هو فرنسيس جالتون Francis Galton وهو أحد أقارب داروين واشترك معه فى أبحاثه فى نظرية النشوء والارتقاء ، ولكن داروين كان كل همه دراسة وراثة الانسان من وجهة الجسم فقط فاهتم جالتون بدراسة وراثة الصفات العقلية ، وقد نشر سنة ١٨٨٣ كتابه « أبحاث فى القوى العقلية » وبه عدة أبحاث خاصة بالخيال ومحاولات بسيطة لقياس الصفات العقلية ، ثم فتح فى لندن معملا للقياس العقلى والجسمى ، وسماها مقاييس انتروبولوجية (خاصة بدراسة البشر)

على أن بحث السير جالتون هذا وإن كان خلوا من الملاحظات والنتائج إلا أنه يعد أول عالم فكر فى موضوع الذكاء وقياسه

ثالثاً : حركة علم النفس العلمى فى فرنسا : أخذ علم النفس يتجه اتجاها عمليا فى فرنسا وذلك لأن الفرنسيين مهتمون بالطب ، ولأن علم النفس يتصل بالطب اتصالا تاما ، ومن الموضوعات التى كان لها أثر فى القياس العقلى ظهور مسألة قياس ضعفاء العقول Mental defectives فأخذ الناس فى القرن الثامن عشر يهتمون بهم ويتفهمون حالهم ويحاولون علاجهم . ساعد على ذلك عثور صياد فى غابة Caune بفرنسا فى يوم على طفل فى حالة همجية ، فأخذه إلى باريس وفحصه الأطباء وعهدوا بتربيته إلى فيلسوف طبيب اسمه إتار Itard وكان طبيبا فى معهد الصم والبكم ، فجرب على الطفل الطرق الحسية ليرى تأثيرها على تعليمه وتحوله من الهمجية ، وبعد مضى مدة وجد أن التقدم فى حالة الطفل بطىء فأرسله إلى معهد خيرى ، حيث كان يشتغل طبيب اسمه سيجان Séguin وكان تلميذاً لاتار Itard فلم ييأس هذا من استعمال الطرق الحسية مع الولد حتى نجحت وتقدم الولد تقدما ملموسا

ذلك الى إنشاء مدرسة لتربية ضعفاء العقول على طريقة Séguin وشاع استعمال هذه المدارس ثم جدت مشكلة الحكم على عقل الطفل فحمل ذلك وزارة المعارف فى فرنسا على انشاء لجنة لدراسة هذه المشكلة ، وكان من بين أعضائها بينيه Binet الذى عمل أول مقياس عملى للذكاء سنة ١٩٠٤

المرحلة الثالثة

ذكرنا أن كاتل كان يبحث مع وند فى ألمانيا وزار جالتون فى لندن ، ولما عاد إلى أمريكا عين مدرسا لعلم النفس فنشر سنة ١٨٩٠ برنامجاً للقياس العقلى اقترح فيه أن تطبق مقاييس خاصة على طلبة مدرسته ، وكانت المقاييس بسيطة تقاس بها القوى الحركية والتمييز الحسى ومظاهر أولية للذاكرة والحكم

نشر كاتل هذه الاختبارات فى مجلة انكليزية ذيلها جالتون بالتعضيد فأثر نشرها فى أوربا وأمريكا وطبقها علماء النفس حتى أنه فى سنة ١٨٩٦ استأجر جاسترو Jastrow مكانا فى معرض شيكاغو وأخذ يختبر ذكاء الأشخاص نظير أجر ، ثم أخذ كاتل فى تطبيق هذه الاختبارات على الطلبة فى جامعة كولومبيا نشرت نتائجها سنة ١٩٠١ وقارن جلبرت Gilbsrt نتائج هذه الاختبارات التى عملت على الطلبة بنتائج حكم المدرسين على الطلبة أنفسهم ، فوجد أن الاتفاق بين الاثنين ضعيف جدا

ومن ذلك نرى أن هذه المقاييس لم تكن مضبوطة ، ولم تدل على الذكاء تماما ، لأنها تقيس قوى فردية ليس بينها وبين القوة العقلية العامة علاقة متينة ، وقد أدى هذا النقص إلى التحول عن هذه المقاييس وأصبحت جامعة كولومبيا تحت رئاسة Thorndike مركزا للبحث فى هذه المقاييس ، وبالتدريج تغلبت الروح العلمية فأخذ علم النفس صبغة طبية فى فرنسا ، وابتدأ

وزارة المعارف العمومية

اعلان

ظهر الجزء الثانى من مجلة مجمع اللغة العربيـة الملكى وثمنه ٨٠ مليماً وأجرة البريد ٢٠ مليما ويمكن الحصول عليه من المخزن العامة للوزارة بدرب الجماميز بالقاهرة ومن مخازنها الفرعية بالإسكندرية وطنط والزقازيق وبنى سويف وأسيوط ويخصم ٢٣ من الثمن عند شراء خمسين نسخة فأكثر .

إنه فى يوم السبت ١٨ أبريل سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بشارع أبحه هانم منزل نمرة ٧ بشبرا بمصر سيباع علنا بالمزاد العلنى طقم جلوس وراديو ملك رزق أفندى جرجس المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا تنفيذاً للحكم نمرة ٢١٩ سنة ١٩٣٥ كلى الزقازيق وفاء لسداد مبلغ ٧ ج و ١٠٠ م لغاية أجرة النشر منه ٦ ج و ٣٠٠ م لطالبة البيع و ٨٠٠ م لخزينة المحكمة بخلاف ما يستجد

وهـذا البيع بناء على طلب الست شفيقة عوض الله المقيمة ببندر شبين القناطر ومنتدب للدفاع عنها حضرة الأستاذ ناشد أفندى عبد المسيح المحامى بالزقازيق . فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم السبت ١٨ أبريل سنة ٩٣٦ من الساعة ٦ صباحا لغاية المساء واليوم التالى إذا لزم الحال بناحية بنى موسى تبع ابشنا مركز بنى سويف وفى يوم الأحد ٢٩ منه بسوق بلفيا مركز بنى سويف من الساعة ٧ صباحا لغاية المساء سيباع علنا المنقولات وخلايات النحل وعدّتى نول النسيج الواضح كل هـذا بمحضر الحجز ٢٧ فبراير سـنة ١٩٣٦ تملك عبد الوهاب متولى النساج من الناحية المذكورة نفاذا للحكم نمرة ٦٤١٠ جزئى بنى سويف سنة ٩٣٥ وفاء لمبلغ ٢٤٦ قرش صاغ كطلب جاد أحمد سالم من عزبة أبو القاسم تبع الـكوم الأحمر مركز بنى سويف فعلى راغب الشراء الحضور.

محكمة كفر الشيخ الأهلية

اعلان بيع نشرة ثالثة فى القضية

نمرة ١٢٧٣ سنة ١٩٣٥

إنه فى يوم الثلاثاء ٥ مايو سنة ٩٣٦ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسراى المحكمة سيصير إشهار مزاد العقار الآتى بيانه بعد ملك محمد ابرهيم المنوفى الملن فى مواجهة النيابة وفاء لمطلوب السيدتين نفوسه هانم نجيب وأمينه هانم نجيب من مصر ومحلهما المختار مكتب حضرة الأستاذ ناشد أفندى عبد المسيح المحامى وفاء لمبلغ وقدره ٤٥١ ج و٢٩٥م بخلاف ما يستجد وذلك بناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة ومسجل بمحكمة طنطا الأهلية نمرة ٧٦٠ فى ١٨ مايو سنة ١٩٣٥ صحيفة ٢٨٨ و ٢٨٩ جزء ثان سنة ٩٣٥ بثمن أساسى قدره ٢٠٤٨ قرشا بعد تنقيص الخمس بجلسة ١٧ مارس سنة ١٩٣٦

١٥ ط أطيان زراعية ملكه ميراثا من والده المرحوم ابراهيم سليمان المنوفى مشاعا فى ٥ ف مشاعا فى ١٠ ف بناحية السكوم الطويل مركز كفر الشيخ بحوض الهمة الغربى نمرة ٥٠ ص نمرة ١ مكلفه نمرة ٢٧٦ سنة ١٩٣٤ من بحرى أطيان بدوى محمد وشرق أطيان محمود ابراهيم خليل وغربى السيد أفندى سليمان وقبلى أطيان بدوى محمد بك

٣ ط من ٢٤ ط فى منزل كائن بناحية أبو بدوى مساحته ١٣ ر ٤٢٨ متر مبنى بالطوب الأخضر يحتوى على عشر أود وثلاث صالات كامل الأبواب والشبابيك والسقوف من بحرى شارع عمومى وبه بابان للمنزل وغربى داير الناحية العمومى وفضاء تابع للمنزل وشرق شارع عمومى وبه باب المنزل وباب محل تجارة وقبلى بدوى بك محمد وآخرين والناحية تابعة لناحية السكوم الطويل مركز كفر الشيخ غربية على أن يباع بسائر الشروط وجميع الأوراق مودعة بدوسية القضية لمن يريد الاطلاع عليها

فعلى راغب الشراء الحضور

كاتب البيوع

فى يوم الثلاثاء ٢١ ابريل سنة ١٩٣٦ من الساعة ٨ صباحا إلى ما بعدها بناحية المطيعه مركز أسيوط والأيام التالية إذا لزم الحال سيباع علنا محصول زراعة ١٢ ط و ١ ف مزروعة فول ملك فراج عمار فراج بناحية المطيعه وفاء لمبلغ ٨٣٣ قرش صاغ بخلاف رسم هذا وأجرة النشر نفاذا للحكم ن ٥٦٠٦ سنة ١٩٣٢ مدنى جزئى أسيوط كطلب محمد أحمد محمد من الشغبه مركز أسيوط فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأربعاء ٢٢ ابريل سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا وما بعدها بناحية قراقص مركز دمنهور وفى يوم الاثنين ٢٧ ابريل سنة ١٩٣٦ بميدان التوبة بدمنهور سيباع علنا عدد ١٥ قطعة منقولات مبينة بمحضر الحجز ١١ مارس سنة ١٩٣٦ نفاذا للحكم ن ١٠٢٢ سنة ٩٣٦ مدنى دمنهور وهى تملك حنفى محمد مكرم القيم بالناحية المذكورة وفاء لمبلغ ٦٥٦ قرش صاغ بخلاف مايستجد كطلب مصطفى مصطفى الشرقاوى وعائشة عامر دعلوبة المقيمين بقراقص

فعلى راغب الشراء الحضور

الفرنسيون يهتمون بقياس العمليات العقلية ذات الأهمية الظاهرة فى الحياة ، وفى سنة ١٨٩٦ ظهر مقال للعلامة بينيه فى مجلة السنة النفسانية التى اتخذها مسرحاً لنشر أبحاثه المختلفة ، وكان يحرر الجزء الأعظم منها بنفسه باذلا فى ذلك مجهودا كبيرا ومهتماً من البداية بمسألة الذكاء وقياسه معالجا إياها من نواح عدة ، وقد لخص بينيه الأبحاث التى عملت قبل ذلك وحمل على الاختبارات الموجودة حملة شديدة إذ كانت تقيس قوى عقلية بسيطة ليست مهمة فى الحياة ، فكانت حسية وحركية ، ولكن الناس لا يتميزون فى الذكاء بقوة الاحساس والحركة وانما يتميزون بقوة الحكم والخيال والذاكرة . وذكر بينيه أيضا فى مقاله أنه لا بد لقياس الذكاء من ترك المقاييس القديمة والبحث عن أخرى لقياس القوى العقلية العليا ، فكان لهذا المقال أثر كبير نقل مقاييس الذكاء من نظريات الى معامل ، وأبطل استعمال الأجهزة النحاسية التى كانت تستعمل ، ومن ذلك الحين تدفقت الاختبارات العقلية التى قام بها فريق كبير من العلماء ، على أننا لا يمكننا تتبع كل هذه الاختبارات وانما نتكلم على أهمها وهو اختبار بينيه

ولد الفرد بينيه بمدينة نيس من أعمال فرنسا سنة ١٨٥٧ وحصل على أجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ ثم عكف على دراسة الطب وتتلمذ للعالمين المشهورين وقتئذ فيريه Feré وشاركو Charcot ولا سيما الثانى منهما فقد بث فيه روح الاهتمام بدراسة نفسيات الشواذ من الناس . ثم تعاون بينيه مع آخرين على إنشاء معمل للأبحاث النفسية فى السربون ثم أصبح هو مديراً لهذا المعمل وكان أحد أعضاء اللجنة التى شكلتها وزارة المعارف الفرنسية لاختيار ضعاف العقول فخطر له أن يدعم عمله فى هذه اللجنة ببحث قيم يتخذ أساساً وعوناً لبقية البحوث فى المستقبل ؛ وبدأ عمله بالبحث فى ماهية ضعف العقل ، ومن هو ضعيف العقل من الأولاد الذى يحتاج إلى تعليم خاص ، وقد خصص جهوده كلها ومواهبه العلمية لا بجاز هذا العمل وعكف عليه زمناً طويلا لا يقل عن سبع سنوات وفق فيها إلى غرضه وأخرج مقياساً علمياً عملياً حقاً ، وظهرت له سلسلة أبحاث فى المقاييس العقلية . وقد رأى أن الانتباه الارادى والذكاء مرتبطان لدرجة أنه يمكن اتخاذ مقاييس الانتباه دليلا على الذكاء فوضع اختبارات عديدة منها زمن الرجع وإعادة بعض أعداد والسرعة فى عد دقات الكرونومتر .

وقام عالم ألمانى آخر اسمه ايبنجوس Ebbinghaus سنة ١٨٩٧ وعمل اختباراً سماه طريقة التركيب Combination Method ويسمى الآن طريقة التكميل فدلت الاختبارات التكميلية على أنها من أحسن الاختبارات للذكاء ، والأساس الذى بنى عليه هو اعتقاده أن الذكاء لا يتجلى فى إدراك المؤثرات متفرقة وإنما يتجلى فى ضم المؤثرات بعضها إلى بعض التركيب وحدة كلية ، فنى الجملة الواحدة مثلا لا يتجلى الذكاء فى فهم كل كلمة على حدة بل فى فهم الجملة كلها وهى فكرة وجيهة جداً ، وقد استمر البحث حتى سنة ١٩٠٥ حين ظهر أول مقياس كامل للذكاء من عمل بينيه Binet ومساعده سيمون ثم عدلاه فى سنة ١٩٠٨ وفى سنة ١٩١١ وترجم مقياس سنة ١٩٠٨ إلى لغات عدة فأحدث أثراً كبيراً فى العالم وجرب فى بلاد كثيرة وقد سخر بعض الناس من مقياس بينيه وقالوا إنه ليس له فائدة عملية ، ولكن أكثر العلماء رأوا فائدته وكان بينيه مشبعاً بالروح العلمية الحديثة ، وظل يدخل اصلاحات عدة فى مقياسه ومات سنة ١٩١٢

وقد كان من نتيجة تجربة مقياس بينيه فى بلاد كثيرة أن تجلت الحاجة إلى تعديله بما يلائم حالة كل بلد منها ، ولذلك ظهرت له تنقيحات عديدة منها خمسة أو ستة فى أمريكا وتعديل أو اثنان فى ألمانيا وانجلترا ، وأهم هذه التنقيحات تنقيح الأستاذ تيرمان Terman الأمريكى وكان أستاذاً بجامعة استانفورد وسمى التنقيح باسم الجامعة The Stanford Revision of the Binet Simon Tests of Intillegence.

وكان ترمان مهتما بمسألة القياس العقلى حتى قبل ظهور مقياس بينيه ، فقد ألف بحثاً فى العبقرية geniuty والغباوة Stupidity حاول به أن يوجد أسئلة تميز بين الأذكياء والأغبياء وقد نشر أبحاثه هذه فى سنة ١٩٠٦ ولما نشر مقياس بينيه اهتم به اهتماماً كبيراً وابتدأ بمساعدة شلد Child فى تعديل هذا القياس بأن ضم إليه عدداً من اختباراته وأوجد مقياساً منقحاً ولكن أهم من ذلك أنه أدخل فى تنقيحه فكرة جديدة ليست من عنده ولكنها من عند عالم ألمانى يدعى استرن Stern وهى فكرة نسبة الذكاء ، وقد كان بينيه يعتمد فى مقياسه على تأخر أو تقدم العمر العقلى عن العمر الزمنى ؛ ولكن التجربة دلت على أن هذه

الطريقة ليست دقيقة ، فمثلا إذا فرضنا أن ولداً عمره العقلى ٧ سنوات والزمنى ٥ سنوات فان تقدمه العقلى على حساب بينيه يكون مماثلا لولد عمره العقلى ١٢ سنة وعمره الزمنى ١٠ سنوات

أما استرن Stern فيقول إن ذكاء الأول أكبر من الثانى لأن نسبة الذكاء فى الأول أكبر منها فى الثانى ، فنسبة ذكاء الأول ٧/٥ =١،٤ بينما فى الثانى ١٢/١٠ =١،٢ — أخذ ترمان هذه الفكرة نفسها وأضافها إلى مقياسه المنقح إلا أنه ضرب هذه النسبة فى ١٠٠ لكى يتلافى الكسور فتكون نسبة ذكاء الأول ١٤٠ والثانى ١٢٠ وقد نقل الأستاذ القبانى اختبار ستنفرد بينيه هذا إلى العربية بعد أن أدخل كثيراً من التعديلات الضرورية عليه لجعله ملائماً للبيئة المصرية

المرحلة الرابعة

كل المقاييس التى ذكرت لفظية Verbal وقد اعترض على هذا النوع من المقاييس :—

(١) لأن الطالب الذى تكون ظروف بيئته لا تساعده على التعبير يظلم فى هذه البيئة ، ولذا فالتلميذ الذى من وسط اجتماعى راق يكون أذكى من تلميذ من وسط اجتماعى فقير ، لأن الأول يسمع مناقشات ويشترك فيها بينما لا يقابل الثانى من أبيه أو أمه إلا بالزجر والضرب

(٢) وهناك أطفال لا تتوفر عندهم ملكة الكلام أو غير متمكنين من اللغة الموضوع بها الاختبار

(٣) وهناك أطفال من ذوى العاهات كفاقدى السمع والنطق يصعب اختبارهم بهذه المقاييس اللفظية

(٤) فى بعض البلاد تختلف اللغة الدارجة التى يتعلمها الطفل عن لغة الاختبار كمصر مثلا

كل ما تقدم أدى الى البحث عن اختبارات أخرى تصلح لهذه الحالات كلها ولذا عملت اختبارات عملية Perfor mance Tests بمعنى أن المطلوب فيها سؤال لا يجاوب عليه باللفظ ، ولكن يكلف المفحوص بالقيام بعمل يعمله أمام المختبر ، ومن أمثلتها لوحة الأشكال Form-Board وبها أشكال مختلفة مجوفة يعطى للطالب أجسام مماثلة لها بحيث يضع كل جسم فى الشكل المجوف المماثل له ، وهناك لوحات سهلة التركيب وأخرى صعبة التركيب يمكن فى مثل هذه اللوحات احتساب عدد تغيير القطع حتى يجد الولد القطعة المطلوبة وحساب الزمن الذى يستغرقه المختبر فى اتمام تركيب اللوحة

وهناك نوع آخر من هذه الاختبارات يسمى اختبار التواهات Maze Tests مثل بيت جحا ولكنها مرسومة على ورق فيدخل الطالب من باب ويخرج من آخر

وهناك نوع ثالث وهو لوحة الصور يلصق عليها صورة مقطوع منها أجزاء ، وهذه الأجزاء تعطى للتلميذ ويطلب منه تكميل الصورة

كل هذه الاختبارات فردية تعطى لكل فرد على حدة فتطبيقها يحتاج الى وقت كبير ولذا فنحن فى حاجة الى اختبارات لا تحتاج الى وقت كبير فاخترعت اختبارات جمعية Group Tests. إذ فكر Otis من تلاميذ Terman فى عمل اختبار جمعى ، وقام علماء النفس بأمريكا بعمل اختبارات جمعية ، فألفوا مقاييس الجيش ، وأطلقوا على الأول منها مقياس Alpeha وهو من النوع اللفظى على الثانى Beta وهو اختبار عملى جمعى تستعمل فيه الصور ، وقد ارتاح رجال الجيش الى نتيجة هذه الاختبارات فانتشرت من أمريكا الى بقية العالم

على محمد فهمى

في المباراة الأدبية

استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام

للآنسة فتحية عزمي

كانت نهضة المرأة في مصر إحدى ثمار الفورة الوطنية المباركة التي انبجست من قلوب أبنائها البررة عام ١٩١٩؛ وإذا كانت الثورات التي حدثنا عنها التاريخ قد أفادت العالم من كل نواحيه، وخلقت روحاً جديداً من التطور في كل مرافقه، فان مصر هي الأخرى قد جنت من وراء ثورتها الفتية نهضة مباركة بدأ أثرها جليا في السنين الأخيرة في الأدب والفنون والعلوم والاقتصاد والسياسة. وكان من أبرز هذه المظاهر وأروعها خروج المرأة المصرية من معقل التقاليد العتيقة المرذولة الى الحياة العملية الصحيحة بعد الجهل المخيم والجمود الطويل...

لقد مضى على المرأة المصرية حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً حتى نفخ الزعيم الخالد «سعد» العظيم في صور الثورة فلبت مع الملبين، وترامت في ميدان الجهاد مع المترامين، فرأينا كيف يجتذب صوت الداعي الأخاذ النفاذ خدور العذارى والسيدات إلى حيث النداء والتضحية، وكيف أن المرأة المصرية الحيية الساذجة قد ألقت عنها خمارها لتجابه بوجهها الحديد والنار في جانب الرجل، تشد عضده بمظهرها الحماسي الجرىء، وتبعث في نفسه روح البسالة والاقدام، فيسارع الى الموت باسماً لا ينكص ولا يتزعزع، وهكذا سجل التاريخ للمصرية في ذلك العام المجيد صفحة فخار ستبقى خالدة مادامت مصر وما دامت الوطنية والحرية، كما سجل للمرأة البدوية وراء الأجيال السحيقة يوم ثبتت رجالها في الحروب تؤازره وتشجعه وتنشد خلفه أناشيد الحماسة والنصر فيشتد ساعده ويثبت جنانه فلا يتجلجل ولا يتحلحل إلا إلى نصر محقق حيث يعود إليها مزهواً باكاليل الظفر، أو إلى قبر في الفلاة موحش حيث الشرف كل الشرف والخلود كل الخلود...

فنهضة المرأة الحق في مصر لم تكن إلا وليدة الثورة، وكل ما قام قبل هذا التاريخ لترقية مستواها لم يكن إلا محاولات ضئيلة لا تكاد تذكر الى جانب تلك الطفرة الهائلة التي قذفتها اليها الثورة، وهنا يحق لنا أن نحني الرأس في هذا المقام اجلالا لذكرى زعيمنا الخالد الذي تفجر من فيض وطنيته ما ننعم فيه الآن من نهضات عمت مرافقنا الحيوية، ثم نحيي في جثمانه الهامد الوطنية الصحيحة والوجدان الحي والتضحية الفادحة والعمل الخالد المقيم...

وأخذت بعد ذلك نهضة المرأة المصرية تسير سيرها الحثيث نحو التقدم المنشود ففتحت أمامها موارد العلم تغترف ما شاءت حتى صارت إلى ما هي عليه الآن من رقي وثقافة يكادان أن يضعاها في مستوى زميلتها الغربية، ولكن هل آتت هذه النهضة أكلها حقا؟ وماذا كان أثر هذه النهضة في الحياة العامة؟؟

لا يسع كل منصف إلا أن يحكم معنا أن تعليم المرأة لدينا قد بلغ شوطاً بعيداً وخاصة في الأعوام القلائل الأخيرة، فمنا الآن الأديبات والطبيبات والحقوقيات وغيرهن ممن نلن من الثقافة العالية نصيباً وافرا، ولكن العمل الرئيسي الذي خلقت له المرأة يؤول اليوم تدريجيا الى الاهمال، فالشؤون المنزلية وتربية الأولاد واعدادهم للحياة الصحيحة ثم تفهم الحياة الزوجية ودرسها درسا وافيا، كل ذلك أضحى في نظر سيداتنا وخاصة المثقفات منهن شيئا ثانويا أولى منه اتقان أدوات الزينة والجري وراء الأزياء الحديثة حتى أصبحنا في خشية من انطباق قول الآنسة دي سكودراي علينا: «ان فتاة تنسى النظر الى السماء لا تحسن شيئا على الأرض!!»

«إن النساء أتين العالم لعمل الحساء وإنسال الأولاد وماعدا هذا فانهن يظهرن بمظهر مزعج» كلمة مريرة قالها موليير عن المرأة، وهي وإن كانت تهكما لاذعا كاد صاحبها يخرج بها إلى حد المغالاة، أو جاوزها فعلا، إلا أن فيه إشارة الى الوظيفة الأولى للمرأة التي أشرنا اليها من قبل. وانه لخليق بالمرأة المصرية وقد ضربت في الثقافة العامة بسهم وافر أن تضع نصب عينيها الرسالة التي أوجدتها الطبيعة من أجلها وتؤديها على أنها خالصة في سبيل الله والواجب، ومن ثم تضرب في خضم الحياة العملية ما شاء لها الفكر الوقاد على ضوء الخبرة والمعرفة. أما أن

تعنى بالأمور الفرعية دون تقويم الأساس وتمكينه فهذا ما لا يقره منطق سليم ولا تبيحه نفس الطبيعة التى فطرت كل شيء لغرض معين وهيأته لرسالة محدودة

فى يقيني أن خير استثمار المرأة المصرية للخير العام ينحصر فى شيء واحد وهو : تشييد صرح حياتنا الاجتماعية على أساس مكين ونظام متقن ؛ وإذا كانت نهضة المرأة عندنا قد قامت على تعليمها فأحر بنا أن نستغل هذا التعليم لتمهيد سبل السعادة لأزواجنا ومعاونتهم على العيش ، ثم تدبير بيوتنا وتثقيف أولادنا ثقافة أخلاقية وعلمية ووطنية ليشبوا رجالا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى سام جليل ؛ ومتى تركزت حياتنا الاجتماعية على هذه الأسس الوطيدة صلحت حياتنا العامة وأعددنا للوطن أشبالا نفذوا بإيمان الوطنية واهتدوا بهدى العلم الى سواء السبيل

صدقونى أننا لسنا بحاجة إلى المرأة المثقفة العالية بقدر حاجتنا الى الأم الصالحة أو « المدرسة الأولى » كما نعتها الكتاب والشعراء قديما ، وها هى ذى البلاد تئن من أقصاها الى أقصاها من كابوس البطالة الذى يجثم على أنفاسها ويزداد هولا يوماً بعد يوم باطراد زيادة عدد المتعلمين الذين تلفظهم المدارس كل عام لمواجهة الحياة العملية حتى ضاقت بهم سبلها وغصت بهم على رحبها ، وهذا الجيش الجرار من شباب الأمة المتعلم العاطل أولى منا نحن معشر النساء المثقفات بالعمل ، فماذا يمكن إذاً استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام ؟ ؟

ليس هناك سوى رد واحد على هذا السؤال ، هو ما قلته ، وهو أن خير طريقة لهذا الاستثمار هو الاستثمار الاجتماعى المعنوى الذى ذكرت لا الاستثمار المادى كما يمكن أن يفهم من كلمة « الاستثمار » وذلك لأن هذا الاستثمار المادى الأخير نحن فى غنى عنه بما لدينا من أيد عاطلة عديدة أحق بالتشغيل من جهة ، وعدا ذلك فان استثمار نهضة المرأة المصرية اجتماعيا يركز حياتنا العامة ويسيرها فى طريق التطور المرجو غير بطيئة ولا وجلة

ويبدو لنا من أخبار الغرب التى يحملها الينا البريد الأوربى الأخير من أن العالم قد بدأ يحس مدى خطئه فى قصر تعليم المرأة على ثقافتها فحسب دون العناية بالغرض الأساسى الذى خلقت له ؛ فهذى الآن فرنسا تحارب فكرة إعطاء الحقوق السياسية للنساء ومساواتهن بالرجال ؛ وها نحن أولاء نرى ألمانيا وإيطاليا تضعان فى جملة أنظمتها الجديدة أن تعود المرأة إلى سالف عصرها من التزام البيوت والقيام على تربية الأطفال ، ومنعهن ما أمكن من تعاطى أعمال الرجال . وقد قرأنا للأستاذ محمد كرد على ملخصاً لكتاب ظهر أخيراً فى فرنسا حول هذا الصدد للدكتور رو برتوش بدأه بكلام لثلاثة من مشاهير الكتاب أحدهم تيودور جوران قال : « إن رفعة المرأة بلية صدرت الينا من البلاد الأجنبية ولاسيما من أمريكا وجرمانيا وبلاد الشمال ، وكان هذا النفوذ المتألف من كل غريب يكفى أن يكون منه نتاج قد يتلاءم كثيراً مع تركيبنا الفرنسى » وقال روبر كبيو : « من السهل الدلالة على أن دعوى رفع شأن المرأة كانت أبداً وليدة المذهب الاشتراكى فاما نرانا نسقط فيها على أفكار اشتراكية بعينها ، وعلى معان لهم وتعبيرات ، وعلى كلمات ما برح الاشتراكيون يرددونها مع سفسطات كانت ولا تزال مألوفة لهم ، وما المرأة إلا أعدى عدو لرفعة شأنها ، فهى موقنة بأنها تخسر من نفوذها الخاص أربعة أضعاف ما تربحه من نفوذها العام ، ولا يتأتى مما ترمى اليه إدخال أدنى إصلاح على النظام الاجتماعى » وقال الثالث تينابر « إن حقوق النساء ومحررهن الأدبى هذا حسن وجميل ، ولكن يا سيداتى حررن أنفسكن أولاً من الخياطة ، فان لم تكن لكن هذه الشجاعة فلا تطالبن إلى أن تحصلن على ما بقى » وقد استعرض المؤلف فى كتابه نهضة المرأة منذ نشأتها إلى اليوم وحللها تحليلاً دقيقاً عاب عليها عنايتها بثقافتها دون الغرض الرئيسى الذى هيأتها له الطبيعة . من هنا نرى أن أعرق الأمم الغربية فى النهضة النسوية قد بدأت تتحسس مدى خطئها فى توجيه المرأة إلى غير ما خلقت له ولم يعد بين هاته الدول من أخذتها هذه المدنية الطاغية عن جادة الطريق سوى تركيا الحديثة التى خالت أنه لم يبق بينها وبين مساواة العالم المتمدين سوى هذه الغلطة الاجتماعية النسائية وأبت إلا أن تشرب الكأس حتى الثمالة ، وما أشك أنها ستجنى ثمرة هذا التقليد الأعمى علقما وصابا كما جنته براقش

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا جبلاً عن غرة زلجا

ولنتدبر نحن فى المستقبل قبل أن نخطو اليه ، ولنتبين من أى طريق تسوق المدنية المغرور ، ولنستمع صوت الطبيعة المنبعث تصرخ فى وجوهنا : لقد خلقت المرأة لتكون نظام الأسرة وتكمل الشطر الثانى من حياة الرجل ، وتقدم له وللعالم كأس السعادة مترعة هنية ، فلا يخلبنكم بريق المدنية الخادع الكاذب

صورة من المجتمع الجزائري

إني أرى في المنام!

للأستاذ محمد سعيد الزاهري
عضو جمعية العلماء الجزائريين

خرج من السوق خائباً مكتئباً ، ملامحه عليها غبرة ترهقها قترة ، تدل على ما يأ كل نفسه من الهمّ القاتل ، والحزن العميق ، يحمل في إحدى يديه « قفة » فارغة لاشيء فيها ، وفي الأخرى « سبحة » غليظة جداً ، وهو يقول بصوت واضح مسموع : « هذا ما يريد لي فلان ، وهـذا ما يريد لي فلان . . . » وذكر ناساً بأسمائهم من رجال الاصلاح الاسلامي في الجزائر ، ومضى يردد ما يقول الى مسافة بعيدة من السوق

هو « شيخ » لاحدى الطرق الصوفية في هذه البلاد . قد وَهَن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . تراه فتري وجهها كالحا مسنوناً ، ولحية قذرة صفراء كأن دخاناً كثيفاً لايزال يتعهدها ويغشاها من حين الى حين . كان يعتنق طريقة صوفية ، فلما لم يجد فيها معاشا تحول عنها الى طريقة أخرى يعيش فيها حبلة على أحبابها ومعتنقيها ، فلا يدعُ وليمةً ولا جنازةَ لأحدِهم إلاَّ هرْوَل اليها متعرّضا لِما قد يكون فيها من صدقات أونفحات . ولقد مرد على هذا الأسلوب من التكسب فأتقنه وتفنّن فيه ، فهو يبث العيون والأرصاد يتنسّمون له أخبار الأفراح والأتراح ، ويُرسل في المدائن حاشرين يأتونه بالزوار والمريدين يرجون مغفرته ويلتمسون منه البركة والخير ! ويرتكب هؤلاء الدعاة الذين يدعون الناسَ اليه ضروباً من الترغيب والترهيب ، فينحلونه المناقب والصالحات ، والخوارق والمعجزات ! فيزعمون « أن من يطيع الشيخ فقد أطاع الله » وأن الرسول (ص) لا يفارق الشيخ طَرفة عين ، وأنّ من اتّبَع الشيخ فجزاؤهم عند ربهم جنات عَدْن يدخلونها ، وأنّ من خالفه فمأواهم النار وبئس المصير

وقفوا ذات يوم على فاكِهيّ وقالوا له : إن شيخنا يُقرئك السّلام ويقول لك يا بُني إني أرى في المنام كأنك تتخبط في ضحضاح من النار وأنت تستغيث فلا تغاث حتى استغثتَ بي ، وذكرتني باسمي فأخذتُ بيدك ، وانقذتك من الهلاك . وتعبير هذه الرؤيا هو أنكَ رجُل قد غرق في ذنوبه وخطاياه ، ولا خلاص لك إلا بأيدينا ... ثم لا يزال هؤلاء بالرجل يُزيّنون اليه الشيخ ، ويحثون على زيارته ، حتى يقع في الفخ ، ويزور الشيخ ويأخذ عنه « الوسيلة » . وهنا يصير مريداً ممن يرزقون الشيخَ ، ويؤدّون اليه كلّ ما هو في حاجة اليه من طعام وشراب ومن نقود ومتاع

ولقد مد الشيخ أحبولته مرة أخرى فاصطاد رجلا مخلصاً بسيطاً ، طيب القلب . يقال له « علاّل » ، وكان هـذا عاملا مجداً يدر عليه عمله كسباً وفيراً ، وخيراً كثيراً . وكان سمحاً كريماً ، فكان يرزق الشيخ ويقوت عيال الشيخ ، ويجزل له العطايا والهبات . فلم يكن يشتري لنفسه شيئاً إلا اشترى مثله للشيخ ، ولا قضى لنفسه حاجة إلا قضى للشيخ حاجة مثلها ، فان اشترى لنفسه رطلا من البن أو العنب اشترى للشيخ من

فتعبثوا بنظمي وتقلبوها رأساً على عقب ، لا يصيبكم ما أصاب من قبلكم من التمنتين المستكبرين ...

***

وبعد ... فهذا رأيي في استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام أدلي به راجيـة أن أكون بذلك قد أرضيت الواجب والضمير ، وإن كنت قد عرضت نفسي للوم البعض من سيداتي المثقفات ممن يرين في الحياة غير رأيي ، ولايفوتني هنا أن أهمس في آذان هؤلاء أنه خير للمرأة من حياة زوجية سعيدة يحفها البنون وترف عليها الهناءة من مجد عريض يكال هامتها ووسام نبيـل تحمله . ذلك لأن المرأة خلقت للرجل والرجل خلق للعمل ، وأن مجد المرأة حداد ظاهر على إسعادها كما قالت مدام دي استال ، فلا تغامروا بالمرأة في تجربة قد أدرك العالم المتمـدين خطأها ولا تستثمروها في غير ما خلقت له وإلا تكونوا كطالب الماء من الصخر ، أو مستنبت الزرع في المهمه القفر

ومكلف الأيام ضـد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار !!

فهمية عزمي

ذلك رطلا أو رطلين اثنين ، أو فصل لنفسه عباءة فصل للشيخ عباءة أحسن منها وأغلى وهلم جرا

وانفق أن صاحباً لعلال قدم من الحج فأهدى إليه عمامة حجازية من الحرير الغالى ، فأهداها بدوره إلى شيخه ، وأن صاحباً له آخر قدم من فاس فأهدى اليه « جلابة » من القهش الرفيع الذى يلائم مرح الشباب ، ولا يصلح للشيخ الفانى ، وأراد الرجل أن يرتديها فتذكر الشيخ فاشترى له « جلابة » تناسب الشيخوخة ووقارها بقيمة تفوق قيمة « جلابته » الأولى ، وارتداها فى يوم جمعة ، وما هى إلا أن رآها الشيخ عليه حتى أرسل إليه من يحثونه على أن يهديها إليه ، فانتزعها لفوره من على ظهره ووهبه إياها ، فأرسل الشيخ بالعمامة و « الجلابة » إلى السوق فباعهما ببمض ثمنهما ؛ وشهد « علال » صفقة البيع ، وظن أنهما سرقتا من الشيخ فسأل الدلال عنهما فأخبره بالواقع ، فكبر عليه أن تباع « هديته » وهو يسمع ويرى ، فاشتراهما للمرة الثانية ، وجعل يحدث نفسه ويقول :

ترى أبلغ من هوانى على الشيخ أن يبيع ما أهديه إليه ؟ وما هو مصير « هدايى » الأخرى ؟ أم بلغ من هوان الشيخ على نفسه أن يتاجر بما يهدى إليه الناس ؟ وعلى أية حال فأنا لا أرضى لنفسى هذا المصير . وأحس الشيخ أن الرجل قد بدا يتنكر له ويجفوه ، فخشى أن يفلت من يديه ، ويولى عنه مدبراً . فعزم فى نفسه أمراً ، وعزم أن يلعب آخر دور فى الرواية ، وكان يعلم أن عقيلة علال تملك حلياً ومصوغا ومبالغاً من المال ، فدبر للاستيلاء على ذلك حيلة من عمل الشيطان ، فبلغ بها ما أراد . وذلك بأن أرسل إليها نساء ماكرات من اللانى قد أعدهن لمثل هذا الأمر ، فقلن لها : إن سيدنا يقرئك السلام ، ويقول لك يا بنيتى إنى أرى فى المنام أنك كنت مضطجعة نائمة ، فجاءت امرأة أخرى فاختطفت منك غطاءك الذى يغطيك وكان من الحرير الأبيض بياض الثلج ، فوثبت أنت من سريرك فزعة مذعورة تستغيثين وتملئين الدنيا ولولة وصياحاً : «غطائى ! سترى ! غطائى ! سترى ! » فاجتمع عليك خلق كثير ، فكان اجتماعهم هذا ضغثاً على إبالة ، وزاد فى مصابك ولوعتك أن أحداً منهم لم يتقدم لاغاثتك ، حتى جئت أنا وانتزعت من الناصبة غطاءك ورددته عليك . ثم قلن لها إن تعبير هذه الرؤيا هو أن امرأة أخرى ستأخذ منك زوجك ولا يرده عليك سوى سيدنا ، وهو يستطيع أن يدفع عنك هذا البلاء سلفاً من الآن ، بشرط أن تدفعى إليه ثلاثة آلاف فرنك مقدماً . فرجعت السيدة إلى نفسها تبحث حياتها الزوجية فلم تعثر على أدنى شىء ينبئ بصدق هذه الرؤيا فلم تطاوعها نفسها أن تتهم زوجها ظلماً بغير حق أو أن تظن به الظنون ، وهى ما علمت عليه من سوء . فلم تكترث لهذه الرؤيا ، وقالت إنها أضغاث أحلام . ولكن الشيخ كان جاداً غير هازل ، فدس إلى فتاة من الفتيات اللانى ينتمين إليه من أوهمتها أن الشيخ قد دعا الله لها أن يرزقها زوجاً كريماً ، وأن الله قد استجاب له فيها ، وقال : إنى أرى فى المنام أن فلانة قد زُفت إلى علال فى احتفال رائع مهيب . وكانت هذه من الآنسات العانسات ، ففرحت وأعطت الشيخ من العطاء الجزيل ما أرضاه ، وجعلت منذ ذلك اليوم تعرض لعلال ، وتبدى له من زينتها تفتنه وتغريه حتى وقعت من نفسه ، ومال إليها ، وشرع الشيخ يمهد لها الطريق ، فدس إلى علال من يهدمون عليه أسرته الهانئة السعيدة ، ويعاوون سمعه بما يفرقون به بين المرء وزوجه . وما هى إلا أن وقع بين الزوجين خلاف بسيط حتى أخرج علال أم ولده من دارها وأطلق سراحها . وسرعان ما التف به أعوان الشيخ وأحكموا الصلة بينه وبين الفتاة العانسة ، وعقدوا له عليها من ليلته عقدة النكاح

وأتى على المطلقة حين من الدهر تجرعت فيه طعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ، وذاقت من مصائب الدهر وأرزائه ما لا يعلمه إلا الله ، فلقد خسرت زوجها على حين غفلة ، وهى أشدّ ما تكون حباً له واطمئنانا اليه ، واخلاصاً له وحدباً عليه . وهى تخشى أن ينتزع وحيدها من بين أحضانها ، وهى لا تُطيق أن تتحطم سعادتها وهناءتُها ليتمّ هناء عدوّتها ؛ ولقد فكّرت فى الانتحار ، وهمت به مراراً لولا ابقاؤها على وحيدها ، ولكنها انتجأتْ أخيراً إلى الشيخ مذعنة طائعة ، قد أسلمتْ له وجهها ، وفوّضتْ اليه أمرها ، ترجوه أن يعيد اليها زوجها ، وله بعد ذلك ما يشاء ويختار ، فرفع القيمة هذه المرة ، وجعلها عشرة آلاف فرنك تدفعها اليه نقداً . وبعد توَسّلات ومساومات

رَضِيَ فتسلَّمَ منها خمسة آلاف نقدته إياها ، وباعت فيها بعض ما تملك من حلى ومصوغ . وقعدت فى دارها تنتظر النتيجة على أحر من الجمر .

وطفق الشيخ يتودد إلى « علال » ويلاطفه حتى نسى الماضى القديم ، وأحلّه من نفسه محلّ الثقة والرضى . وما استيقن الشيخُ ذلك من الرجل حتى قال له ذات يوم — وهما على انفراد — : يا بنىّ إنى أرى فى المنام أنك لستَ بخير فى أهلك هذه التى لم تنمط بكونها قضتْ زهرة أيامها عانسةً بائرة ، فقد حادت عن طريق الشرف والاستقامة من غير أن تحفظ لك غيباً أو تعترف لك بجميل . وأما كما تعلم إذا رأيتُ الرؤيا جاءت كفَلَق الصبح . وكان الشيخ قد أوعز إلى بعض أعوانه فأخبروا علالا بأن عِرْضه أصبح مضغة فى الأفواه ، تلوكه ألسنةُ السوء ، وأن النساء فى الحمامات وفى الولائم والمناحات يسلقْنَ أهله بألسنة حِداد . فما كذب الرجل فيما سمع ، وأسرع إلى « خيْرةَ » ففك عصمتها وأعلنها بطلاقها ، وهى ما تزال بعدُ عروساً فى خدرها ، ولم ينصل خضابها . وغدا عليه الشيخ فى وجوه من أعوانه وشركائه «يتوسل اليه» أن يراجع زوجته الأولى ، ويقول له : يابنى إنى أرى فى المنام أن جبريل عليه السلام قد زوّجكما من فوق السموات العلى ، فأذعن الرجل ، ولم يكد ينقضى يومه ذاك حتى كانت قد جُليَتْ عليه مرة أخرى

لقد اطمأنت « خيرةُ » إلى الأيام ، وحسبت أن زواجها هذا قد جمل حداً لوحدتها وشقائها ، وظنت أنها بهذا الزواج مقبلة على حياة منزلية هانئة سعيدة لا حُزْنَ فيها ولا عناء فاذا بها تتلقى هذه الصدمة العنيفة القاسية الأليمة التى لا رحمة فيها ، فتملأ نفسها حيرة واضطراباً ، وتملؤها ظلمة ويأساً ، فلم تطق الصبر ولا الاحتمال ، فتحنق وتثور انتقاماً لنفسها ، فاذا هى تنتقم من نفسها ، وقد ضلت السبيل ، واندفعت فى البغى وسقطت فى الهوة التى لا قرار لها

وأراد الشيخ أن يحج إلى بيت الله الحرام لا إيماناً واحتساباً لأنه ممن يزعمون أن زيارة الضريح الفلانى تعدل عند الله ثواب حجة وعمرة معاً ؛ ولكنه يريد التكسب والارتزاق ، فطاف على الناس يستعينهم على الحج ، فيزعم لهذا أنه سيدعو له الله تعالى عند البيت الحرم ، ويزعم للآخر أنه سيستغفر له عند مقام ابراهيم ، ويتناول على ذلك أجره سلفاً . أما الذين يسلِّمُ منهم سلفا أثمان « الأردية » و « العمائم » و « السبحات » وما إلى ذلك مما سيحمله لهم معه من الحجاز فهم كثيرون جداً ، لا يكاد يأخذهم إحصاء . وانتهى به المطاف إلى ضحيته « خيرة » فدخل عليها وهى فى منزلها ، وقد أثْرَتْ من حياتها الجديدة الماجنة وأصبحت ذات مال تخجلت لمرآه وأدركها الحياء ، غير أنه أخذ يزين لها ما هى فيه ، ويزعم لها أن الله قد غفر لها جميع ما اكتسبت من الخطيئة والأثم . وقال لها : يا بنيتى إنى أرى فى المنام أن سيد الوجود (ص) يقول لكِ : طوفى بالبيت العتيق وزورى قبرى تخرجى من ذنوبك كيوم ولدتْكِ أمك ، فان لم تستطيعى إلى الحج سبيلاً ، فليحُجّ عنك هذا الرجل الصالح (يعنى الشيخ نفسه) . ولم يزل بها حتى آمنت له ، ودفعت إليه سائر النفقات ليحج عنها . فلما آب جاءها ببعض الهدايا مكتوباً عليها : « إلى الحاجة خيْرة » !

كان الناس فى بحبوحة من اليسْر والرخاء تملأ أيديهم الدراهم والدنانير فكان الشيخ فى نعيم وعيش رخيم ، يأتيه رزقه رغداً من كلّ مكان : هذا يعطيه رطلاً من اللحم ويجعله له راتباً يومياً ، وذاك يعطيه شيئاً من الخضر والفواكه ، ويجعله له عطاء غير مجذوذ ، وذلك يُهدى اليه قنطاراً من السميذ ، ويجعلها له جراية شهرية وهكذا الخ الخ ، فكان إذا دخل السوق خرج منها و « قفته » ملأى — مجاناً — بكل ما هو فى حاجة اليه . فلما أعسر الناسُ ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم من شدة ما يعانون من ضنك وضيق نضبت موارد الشيخ ، وانقطعت عنه الرواتب والعطايا ، ولم يعد يملأ « قفته » بالمجان ، ولم يعد يلتمس لنفسه صدقة جارية عند أحد الباعة إلاّ وجدها قد بطلت . وقطعت الأزْمَة دابرَها ، فالأزمة إذن هى السبب الأول فى مُصاب هذا الشيخ ، وزملائه من الأشياخ ، فان كان لا بُدّ لهم أن يلوموا فليلوموا هذه الأزمة الخانقةَ ، وليلوموا بعدها هذه اليَقْظة الشاملة التى شملت الدنيا كلها ، ثم يأتى بعد ذلك دَوْرُ هؤلاء المصلحين

محمد السعيد الزاهرى
(وهران)

الحياة الأدبية فى الحجاز

بقلم عبد المجيد شبكشى

كان الأدب العربى مثال الكمال والروعة والازدهار والانتشار فى دولة الأمويين وفى صدر الدولة العباسية . وكان نصيب الحجاز من هـذا الازدهار طيباً مرموقا ، واقتضى خلوه من الأحداث السياسيه أن يحيا مغموراً حتى تجرد من العلم والثقافة وصفر من من الرجال الممتازين ، وعملت الهجرة على محو مقوماته ومميزاته

ثم بدرت بادرة من بوادر النهوض ونسمة من نسمات الحياة بعد فنفخت فى الحجاز روح اليقظة الفكرية فأخذ يسترجع ماضيه بفضل جهود البعض من أبنائه المخلصين الذين جرى فى عروقهم الدم الحجازى الحر فتأثروا لتدهوره تأثراً قوياً جعل قلوبهم تتقطع أسفاً وحزناً على الماضى العزيز الذى ذهب هباء منثوراً وغرق الحجاز بعده فى الجهالة وأضاع تراثه المجيد

مرت اليقظة فى أفكار بعض شباب الحجاز وأحسّوا بالواجب الوطنى وتنبهوا إلى فضل الأدب فى نهضات الشعوب فتأسست لجان للاجتماع ، ونواد للأدب حيث قاموا فمثلوا حركة أدبية لا تشوبها شائبة بالنسبة إلى تلك الحالة وبالنسبة أيضاً لعدم وجود مؤهلات كافية لدرس الأدب ، حتى المدارس كانت إذ ذاك بسيطة جداً يتخرج منها التلميذ وهو لا يعرف من مواضيع الحياة شيئا

ثم جاء دور التكوين للنهضة الفكرية وكان ذلك قبل عشرة أعوام تقريباً نظم فى خلالها أدباء الحجاز الشعر وكتبوا النثر ونشروا نماذج منه وأعلنوا عن أفكارهم وسجلوا آراءهم ، فشعر الحجاز حينذاك بدبيب الحياة يتمشى فيه ، وأحس بجمال الأدب والفن معاً ، وحينذاك قام أحد أدباء الحجاز البارزين[1] وأصدر كتاباً أدبياً يضم بين دفتيه مختارات لأدباء الحجاز فأثبت للأمة أن هناك أدباً راقياً يدعى الأدب الحجازى . وقد تجد فى هـذه المجموعة روح الحجاز الأدبية ممثلة من حيث صحة النزعة وبساطة التفكير وجماله ، فكان عمل هـذا الأديب بشير يقظة فكرية منظمة ،

(١) هو الأستاذ محمد سرور الصبان مدير إدارة وزارة المالية

وقد كان الأدب الحجازى فى ذلك العهد بسيطاً شأن كل شىء فى بدايته . ولـكن الأفكار كانت سائرة مع الحياة متأثرة باتجاهها فلم يمض وقت طويل حتى نضجت تلك الأفكار ، وازدهر الأدب بعض الازدهار ، ولولا ما نشأ بعد من عوائق شتى وقفت بالحركة الفكرية بعض الشىء لاضطرد تقدمها . ونستطيع أن نقول بحق إن الموفقين من شباب الحجاز فى الناحية الأدبية قليلو العدد جداً ، والكتاب البارزين فى الحجاز لا يزيدون على عشرة ، ولكن أقلامهم الممتازة هى التى صورت مبلغ تأثر الحجاز باليقظة الفكرية ومدى إدراكه . أما قراء الأدب فكثيرون وهم ممن أنجبتهم المدارس الحالية ، وهؤلاء بلا شك يرجى لهم مستقبل طيب مرموق

والحجاز اليوم بفضل الله ثم بفضل جهود أبنائه المخلصين متقدم بخطوات واسعة الى الامام ، وميال الى احتذاء أدب مصر ونزعاتها الفكرية ، ولا غرابة إذا شابه البعض من أدباء الحجاز بعض أدباء مصر فى روحهم الأدبية وصار يكد ويجتهد فى الحصول على ما يريده فوق ذلك من المثل الأعلى حتى يدرك المرمى الذى يقصده !

والأدب الحجازى اليوم رمز لما فى أفئدة الحجازيين من عواطف واحساس وحب وولاء ، ولما فى نفوسهم من شعور وكرم أخلاق ، ولما فى ضمائرهم من مبدأ واستقامة وغرام عميق بالحرية . وتختلف الأوساط الأدبيـة اليوم باختلاف قوتها ومداركها وتطورها وتجددها وعما يستتبعه هذا الاختلاف من تأثر بأساليب النقد البرئ والتأمل الممتع والبحث الناضج ، أو النقد المتهافت والنظرات الجوفاء والبحث الضعيف الخ ، وهذا الاختلاف يعطينا صورة واضحة للتطور والتجدد فى الأفكار تتحد مع نواميس الـكون فى نشوئه وتطوره . وليس غريباً على الحجاز أو الحجازيين أن يتأثروا بمؤثرات هذا العصر الحديث وفنونه ونزعاته ، وأن تكون حياتهم ميالة الى اقتباس أساليب جديدة فى الحياة والأدب ، فان ذلك من بوادر النجاح وأسبابه ، وهو دليل اليقظة ، ونؤمل أن ينال الحجاز نصيبه من التقدم والشهرة والحرية التى هى من مبادئ الحياة الصحيحة فى هـذا العصر . على أن هذا الروح الأدبى السامى المتمثل اليوم فى

صورة من الحياة العلمية فى مصر

٤ – تقى الدين السبكى

بقلم محمد طه الحاجرى

تتمة

ولقد خلفت له هذه الولايات متاعب غير قليلة ، وأثارت عليه دفائن من الحقد وسخائم القلوب ، فقد نقم عليه ولايته قضاء الشام قوم من أهلها كانوا يطمعون فيها ؛ وأخص هؤلاء أسرة جلال الدين القزوينى قاضى قضاة الشام من قبل ، وطبيعى أن يأخذ ذلك الحقد سبيله من السعاية والوشاية والتحريض عليه والتنفير منه ؛ ثم كانت ولايته لخطابة الجامع الأموى مما زاد الأمر ضغثاً على إبالة ؛ فقد كانت تلك الخطابة فى بيت القزوينى كذلك ، ويقول زين الدين عمر بن الوردى فى تاريخه : « لما توفى الخطيب بدر الدين محمد بن القاضى جلال الدين القزوينى خطيب دمشق تولى السبكى الخطابة ، وجرى بينه وبين تاج الدين عبد الرحيم أخى الخطيب المتوفى وقائع ، وفى آخر الأمر تعصبت الدماشقة مع تاج الدين ، فاستمر خطيبا » . وكذلك أغضبت ولايته مشيخة دار الحديث الأشرفية قوما من أهل الشام كانوا يرشحون لها شمس الدين بن النقيب ، ولقد سيقت اليه هذه الولاية وهو كاره ، إذ كان قد رأى أن الذهبى هو الأحق بها ، وقد عينه لها ، لولا سلطان الشهوات كما سنرى ذلك

هذا وجه من وجوه الحلة فى الشام ، وقبيل مما كان يسبب له المتاعب والآلام ؛ وهناك وجه آخر يتعلق بما أشرنا اليه من قبل عما أوجده مذهب ابن تيمية من تفريق وخروج على المذهب الرسمى السائد

وقد رأينا أن اختياره كان منظورا فيه إلى تلك الحالة من السلطان ، ونقول الآن إن القوم فى دمشق كانوا يرون فيه ذلك أيضا ، وكانوا يأملون أن يخلصهم من آثار « الحنابلة » وما أثاره زعيمهم القوى الجديد ؛ ولعل المطامع الشخصية حسبت فى ذلك سلما يمكن أن ترتقيه وتصل به إلى أغراضها فى مظهر دينى سابغ ؛ ولكن تقى الدين كان أحكم من أن ينخدع بمثل هذا ، كما كان أكبر من أن يخلط فى تقدير الأمور ؛ فأغضب الطامعين ولم يرض جماعة المتشددين المتكلفين

وهنا يحسن بنا أن ننقل نص ما حكاه التاج السبكى عن أبيه فى أثناء ترجمته للحافظ أبى الحجاج المزى ، ففيه صورة دقيقة حية لما نحن بصدده ، قال :

« . . . . وحكى لى ، فيما يحكيه من تسكين فتن أهل الشام ، أنه عقب دخوله دمشق بليلة واحدة حضر اليه الشيخ صدر الدين سليمان بن عبد الحكم المالكى — وكان الشيخ الامام يحبه — قال دخل الى وقت العشاء الآخرة ، وقال أمورا يريد بها تعريفى بأهل دمشق ، قال : فذكر لى البرزالى وملازمته لى ، ثم انتهى الى المزى فقال : وينبغى لك عزله عن مدرسة دار الحديث الأشرفية ، قال الشيخ الامام : فاقشعر جلدى ، وغاب فكرى ، وقلت فى نفسى : هذا امام المحدثين ! والله لو عاش الدارقطنى لاستحيا أن يدرس مكانه ! قال : وسكت ، ثم منعت الناس من الدخول على ليلا ، فقلت هذه بلدة كثيرة الفتن ؛ فقلت أنا للشيخ الامام : إن صدر الدين المالكى لا ينكر رتبة المزى فى الحديث ، ولكن كأنه لاحظ ما هو شرط واقفها من أن شيخها لا بد أن يكون أشعرى العقيدة ، والمزى وإن كان حين ولى كتب بخطه أنه أشعرى ، إلا أن الناس لا يصدقونه فى ذلك فقال : أعرف أن هذا هو الذى لاحظه صدر الدين ، ولكن من ذا الذى يتجاسر أن يقول : المزى لا يصلح لدار الحديث ؟ والله ركنى ! ما يحتمل هذا الكلام !

الحجاز حسب ما هو مشاهد وملموس هو بلا شك تأثر صحيح ومعقول ، وهو المأمول أيضاً لبلاد لها ماض أدبى حافل

وأدباؤنا يشعرون ويتأثرون بعوامل الحياة الفكرية ويجيدون التصرف فى فنون القول ويبدعون فى سبك العبارات ووضعها فى قالب من الحكمة والذوق ليحوزوا قصب السبق فى معترك الحياة الأدبية وليرفعوا اسم بلادهم عالياً ، وهذا ما يرجوه ويناصره كل أديب حجازى وهب موهبة الاحساس والشعور بالحياة وفرائضها — وليس ولله الحمد ثمة ركود ولا فتور فى النفوس والأفكار

(مكة) عبد المجيد شبكشى

فأنت ترى أن أول ما ووجه به السبكى فى الشام هو الانكار على البرزالى والمزى وأضرابهما ، ممن يتهمون بالميل مع ابن تيمية وأن أول ما تقدم به اليه فقهاؤها هو « اعلان الحرب » على هؤلاء ، وموقف السبكى من هذا موقف نبيل مجيد ، فقد رأى الأمر فتنة لا ينبغى أن يفتتن فيها مع المفتونين ، فركن الى دينه وضميره ، وترك بنيات السبل ، ولم يعبأ بهذه الصغائر وما تنطوى عليه من انذار وتهديد ، ولبث مصاحبا للبرزالى ملازما له ، الى أن خرج إلى الحج وقضى نحبه ، ثم ما فتئ يذكره ويثنى عليه أطيب الثناء ، وأقر المزى فى مكانه بدار الحديث الى أن مات سنة ٧٤٢ هـ ، وكان يكبره غاية الاكبار ، ويحث ابنه على ملازمته والانتفاع به ، لا يصرفه عن ذلك تقولات المتقولين ولا ازورار المزورين

ولما مات المزى كان ثمت مظهر آخر من مظاهر هذه الفتنة فى تعيين خلف له ، فقد كان الذهبى هو وحده البقية الباقية من رجال الحديث الجديرين بتولى مشيخة « دار الحديث » ولكنه كان متهماً بمشايعة الحنابلة شيعة ابن تيمية ، فمال عنه القوم لذلك ، ورشحوا شمس الدين بن النقيب ، ودعوا له ولجوا فى الدعوة . أما السبكى ــ واليه حق التعيين ــ فلم يغلبه الهوى على الحق ، ولم تأخذه فى سبيل العلم عصبية ، ولم يبال بصياح الصائحين ، فعين الذهبى فى ذلك المنصب . وهنا اشتدت ثورة القوم وعلا صخبهم ، وهو مصر على رأيه حتى لم يبق بد من حضور نائب الشام وكان فى ذلك الحين « الطنبغا » ، فلم يستطع التوفيق . وأخيراً رأى شيخ الحنفية أن تحل الأزمة بأن يتولى المشيخة السبكى نفسه ، ووافق الأمير على هذا الرأى وهو يقول : « أعلم الناس بهذا العلم الذهبى وقاضى القضاة ، وقاضى القضاة أشعرى قطعا ، وقطع الشك باليقين أولى . » وانتهى الأمر على ذلك بعد أن كاد يفضى إلى فتنة لا يعرف مداها

فموقف السبكى هذا من شيعة ابن تيمية وإغضائه عن العصبية الذهبية هذا الاغضاء وعدم مسايرته الأشاعرة فى كل ما يشتهون أفسح المجال أمام المتخرصين ، ومكن الحقد من أن يجد سبيله ممهدا بين جمهور الناس وفى مجالس الخاصة ، ولا سيما فى مجالس الأمير نائب دمشق ، ففسدت الصلات بين الشيخ وبين أغلب الذين تولوا نيابة الشام ، وكثيراً ما قامت الحرب بينه وبينهم ، وما كان يطمئنها إلا ما كان ولاة ذلك العهد معرضين له من العزل الوشيك أو القتل المفاجئ

على أن السبب الأول فى توتر العلائق بينه وبين النواب يرجع ــ فى حقيقة الأمر ــ إلى صلابته فى الحق ، وصراحته فى تقريره ، وتقديره لقدر منصبه ، واعتباره إياه حرماً لا ينبغى لأحد أن يتطاول اليه أو ينال منه ؛ فهو الحفيظ على الحق الذى جاء الشرع ببيانه ؛ فكل تفريط فيه ، أو تمريض له ، أو ملاينة فى تنفيذه فانما مردها إلى هذا الشرع الذى يقدسه ، وحاشاه ! وكان الولاة من ناحية أخرى ، قوماً عجما ، أدعياء فى الدين ، لا يتعدى إيمانهم مظاهرهم ، ولا يعرفون الحق إلا أمراً ينفذ ، وشهوة تقضى ، وعتواً واستكباراً فى الأرض ، إلا قليلاً منهم . ثم كان يزيد اضطراماً ما كان يلقيه فيها من السمايات والنمائم من كانوا يداخلونهم من أهل الشام ، ومنهم بعض العلماء مثل شهاب الدين العمرى الذى كان يقع فيه فى مجلس الأمير ايدغمش [1] ومما يدل على دسائس القوم عند الولاة أن أحد هؤلاء الأمراء ، واسمه فيما يورده صاحب الطبقات (طغرتمر) [2] كان فيما يقول من أصحب الناس له فى مصر ، فلما جاء إلى الشام غيّره عليه الشاميون ، وأغاظهم عليه امتناعه من امتثال أوامره

ولقد هم السبكى مرة أن يستقيل من منصبه ، وكان ذلك فى ولاية ايدغمش سنة ٧٤٢ [3] ، وكان قد بلغ فى معاندته وإيذائه مبلغا كبيرا . ولكنه يظهر أنه رأى فى هذه الاستقالة تحقيقا لشهوته ، وتخليا عن واجبه ، فعدل عنها واستمر فى مجاهدته . وأراد ايدغمش أن يتخلص منه ، وأن يلتجئ إلى دعوى الدين فى محاربته ، فجمل يجمع الفقهاء للفتوى عليه — وما كانت تعوزهم مقدمات الافتاء — وكاد الأمر يتم للنائب لولا أن جاء « ابرهى » الى الشيخ يطلبه الى باب السلطان فى أمر من الأمور ، فذهب الى مصر ، وهناك أوجد أزمة غير هينة الحل ؛ فقد أصرّ على

(١) الأمير علاء الدين ايدغمش الناصرى ، وقد كتب المقريزى ترجمة لحياته عند كلامه عن خوخة إيدغمش (ج٢ — ص٣٥ — ط بولاق)

(٢) هكذا يقرأ اسمه فى نسخة الطبقات المطبوعة ، ولعله طغز دمر كما يتردد كثيراً فى ابن إياس والمقريزى ، وتولى نيابة دمشق سنة ٧٤٥ ومات أول جمادى الآخرة سنة ٧٤٦

(٣) هكذا يحدد التاريخ التاج السبكى ، وفيه نظر ، فان مدة نيابة ايدغمش ، كانت كما يقول المقريزى : من ٢٠ صفر سنة ٧٤٣ إلى ٣ جمادى الآخرة من هذه السنة

ألا يعود الى الشام وفيها ايدغمش ، وليس من اليسير عزل نائب من أجل قاض مهما علت منزلته . ولكن القدر كان أسرع إلى حل هذا الأزمة وأقضى فيها من كل تدبير وقضاء ، فقد جاء الخبر بموت ايدغمش موت الفجاءة ، وعاد الشيخ الى دمشق يعيد سيرة الحق المجاهد الظافر

وممن آذاه واضجره نائب اسمه « أرغون شاه » ، تولى نيابة الشام سنة ٧٤٨ ، ويروى أن الشيخ كان يمسك بطرزه ويقول له : « يا أمير ؛ أنا أموت وأنت تموت ! » وتأمل أنت فى هذا قوة الايمان والجرأة فى الحق . وقد ظل ذلك الرجل فى نيابة الشام سنتين ثم قتل

كان آخر هؤلاء النواب أرغون الكاملى [1] ، وكان رجلا فظا غليظ القلب . وقد حكى تاج الدين أن أباه « حكم مرة فى واقعة جرت وصمم فيها ، وعانده أرغون الكاملى نائب الشام وكاد الأمر يطلخمّ شاما ومصر ، فقد ذكر القاضى صلاح الدين الصفدى أنه عبر اليه وقال : يا مولانا ! لقد أعذرت ، ووفيت ما عليك ؛ وهؤلاء مايعملون الحق ؛ فلم تلق بنفسك الى التهلكة وتماديهم ؟ فتأمل مليا ثم قال :

فليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

ويا عجبا لتلك الشيخوخة التى لا تزيدها الأيام إلا صلابة وقوة ، وذلك الايمان الذى لا تزيده مظاهر القوة إلا غلبة واستعلاء

وهكذا كانت حياة تقى الدين السبكى فى الشام : ملجأ للحق يلوذ به ويعتصم ، ومثالا للخلق القوى الذى لا ينثلم ، وآية من آيات الله على قوة الروح الانسانية متى خلصت من الرعونات والنزعات فلا يغلبها غالب

ولقد كان الحنين الى الوطن يهز ذلك الشيخ هزا ، فذهب الى مصر ، وخلع عليه سلطانها ، ثم عاد منها الى دمشق سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م)

وفى ذى القعدة سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤) نال منه الضعف وأدركه المرض ؛ ولما اشتد عليه استخلف على قضاء الشام ابنه تاج الدين ، فتقلده . وكان فى أثناء مرضه شديد اللهف على العودة الى وطنه عظيم الحرص على أن يدركه فيها أجله ؛ فسافر الى مصر ولبث فيها أياما يكابد العلة ، حتى أدركته الوفاة ليلة الاثنين ٣ جمادى الآخرة سنة ٧٥٦ (١٠ سبتمبر سنة ١٣٥٤ م) وخلف ميراثا جليلا ضخما [1] مما صنفه فى كثير من الفنون ، وميراثا آخر أجل وأضخم فى ابنيه الملامتين : بهاء الدين وتاج الدين ولعل الله يوفقنا لدراسة حياتيهما ، ورسم صورة لهما

كلية الآداب — محمد طه الحاجرى

(١) هو الأمير سيف الدين تولى نيابة دمشق فى ١١ شعبان سنة ٧٥٢ وقد أورد المقريزى ترجمة لحياته بمناسبة كلامه عن دار أرغون (ج ٢ ص ٧٣ ط بولاق)

(١) قال ابن العماد فى شذرات الذهب إنه « صنف نحو ١٥٠ كتابا مطولا ، ومختصر المختصر منها يشتمل على ما لا يوجد فى غيره من تحرير وتدقيق وقاعدة واستنباط »

قرب الموتى

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

يا روح إلف أليف الموت والحُفَرِ
قومى اسألى عن أليف الهم والسهرِ
أو فابعثى هاتفاً بالليل يؤنسنى
لو كان للمَيْتِ من شوق ومن ذِكَرِ

وحلّقى فوق قوم كنتِ زينتهم   كالطير تهبط فوق الوكر فى الشجر
فان نورك نور النجم يرشدنا   ورحلة العيش تحكى رحلة السفر

أو كالملائك تهدى وهى خافية
وتُشعِرُ النفس طُهْراً ليس فى السِّيَرِ

تجز عن الشر لم أبصره فى نفر   ياشر ما خلّفَ الأحباب من نفر
غرارة ربما لو عشتِ ما بقيت   إذ أعداك الردى عن مهبط البشر
هل تلك طبع الصبا أو دى الحياة به   لا بل غرار فؤادٍ غير ذى نُكُر
فصانك الله فى أمن وفى كَنَفٍ   وقُدْس طُهْر كصون المرء للذ خُر
كأنما أنتِ ذُخرٌ لا يجود به   على الدَّنى وهى من ضَيْر ومن أشر
ما أقرب الميت من حى وإن بعدت   مكانة بين هذا الوِرْدِ والصَّدَرِ
إن الأولى خلفونا بعدهم ومضوا   ما خلّفونا وإن غابوا عن النظر
هم فى الأمانىّ والأرواح والذِكَرِ   مناوفى القلب والأشجان والفِكَر
فكيف نجزع من فقدٍ وما انتقلوا   إلا إلى النفس حرزا ربم من غِيَر
يا قرب دارهمُ من واصل لهمُ   بالنفس إن لم يكن بالعين والأثر
ووحشة النفس من حىٍّ يفارقها   أشد من وحشة فى السمع والبصر

من حاضرين وإن ماتوا وإن بعدوا
وإن غدوا كحديث الركب والسمر

ورب ذكرى تعيد المَيْتَ فى شبح   يكاد يُلمَسُ لولا رادع الحذر
ماض من الدهر والأقوام يخبرنا   أن لا مسافة بين المهد والحُفَر

عبد الرحمن شكرى

زهرتى المختارة

بقلم الياس قنصل

يازهرتى العاطرة الناضرهْ   هل شوّهتْ كفُّ البلى حسنكِ؟
جنتكِ فى الليل يدٌ جائره   لو أنها تمثلتْ حزنكِ
لفرقتى ، ما سببتْ بينكِ

يا زهرتى جمالكِ المبدعُ   لتبدعى البهجةَ فى روضتى
ورصّعتْ ذاك البها أدمعُ   من الندى الباكى بلا مقلةِ
لتسكبى العزاء فى مهجتى

يازهرتى عنكِ سينأى الفتون   وقد نأيت عن حمى الشاعر
وبعد أن كنتِ مقرّ العيون   متستحين من فتى ناظر
يعرضُ عن جمالكِ الفاترِ

أما أنا يا زهرتى ، فالأسى   أنشبَ فى جوانحى مخلبَهْ
أبعدكِ الدهرُ وقلبى احتسى   من المرار أكؤساً مصئبَهْ
أربتْ على أناته المرعبَهْ

يازهرتى كيف أعزى الزهور   إذا رأين عرشك الخاويا
تطوف حوله بقايا العبير   هامسة : ولىّ القضا نائيا
بها ، وغادر السنا باكيا ...

والطيرُ إن تسألْ ، فماذا يكون   لها جوابى عند تغريدها
كم رفرفت فوقك بين الغصون   وأسمعتْكِ من أناشيدها
نجوى ، جلالها بترديدها

يازهرتى ليهنأ السارقُ   بما جنته روضتى من أريجْ
وليغتنم نضرتكِ الرامقُ   وليسكر النفسَ بحسن بهيج
فى ثناياكِ بهاه يموجْ

يا زهرتى كذا أرادَ القضاءْ   بحكمه ، فحزننا لا يفيدْ
ويأسنا يبعدُ عنا العزاءْ   ويجعل العيشَ بهذا الوجودْ
حشرجةً ، فيها العناء الشديدْ...

(عاصمة الأرجنتين)   الياس قنصل

الليلة الثانية عشرة

Twelfth Night

— ٢ —

المشهد الثانى : على ساحل البحر

« تظهر ڤيولا والقبطان والبحارة »

للشاعر الحضرمى على أحمد باكثير

ڤيولا : أىّ بلادهذه ؟ رفقتى !

القبطان : إيليريا !

أخى بإليسيومُ !

بجنّة يخـــلد سكانها   ويكمل الأنس بها والنعيم

مالى و إيليريا !.. مَه !.. علّه   مثلى نجا ؛ هل مستحيلاً أروم ؟

مُعجزةٌ للحظّ أن تسلمى !

ڤيولا : بمثلها الحظ لصِنوى كريم !

القبطان :

صدقتِ ياسيدتى ، إننى   أعضُد رَجْواكِ ، وربى عليم

لما طغى الماء على فلكنا   وزاغ منكم عن حِجاه الحلم

وأدتُم الزورقَ حتى لقد   كاد من الكظّة ألا يعوم (١)

رأيته يسبح فى لجـــةٍ   تهوى به حيناً وحينا تقوم

رجاؤه شدّ بأعضـــاده   وأنّه ذاك الشـــجاع العزوم

فشـــد كفّيه إلى قائم   فى البحر ضمّ الطفلِ صدرالرؤوم

كأنه (أريان) مستمسكا   بظهر ذاك الحيوان المظيم

والهائجُ المحنَق من حوله   قد راضـــه فهو ولىّ حميم !

راقبته ما اسطعتُ حتى اختفى   عن ناظرى تحت ظلال الغيوم !

ڤيولا :

شكراً لما طمأنتَ ، علّ السّما   تجمع قلبين بقلب رحيم !

سلامتى أوحت — وأيّدتَ ما   أوحته لى — أن ابن أمّى سليم

أتعرف هذى البلاد ؟

القبطان : أجل   بلادىَ أعرفها جيـــدا

ثلاثٌ من السّاع تكفى لتوْ   صِلَنا منشأى ثَمّ والمولدا

ڤيولا : ومن يتّلى حكمها ؟

القبطان : سيّد   زكا خُلقاً ، وسما محتدا

ڤيولا : وماذا اسمه ؟

القبطان : أرسِنو

ڤيولا : أرسِنو ؟   أبى كان سمّاه لى مُحمِدا (١)

وأعزبَ كان !

القبطان : وأعزبَ لم   يزَلْ؛ فقريباً توشّى الصّدى (٢)

بإغرامِه بأوليفيا الجميـ   لة

ڤيولا : ما هى ؟

القبطان : عذراء مثل النـــدى !

أبوها شريف قضى منذ عا   مٍ وأوصى بها نجلَه الأوحدا

أخاها الحبيبَ إليها الذى   به بعد ذلك ثنّى الردى

فآلت أنّى لا ترى أو تعا   شر مِن بعده رجلا أبدا (؟)

ڤيولا :

ويحهَا مِن مسكينة ! آه لو أخْ   دمُها ! ربما أُسرّى أساها

ربما أستطيع أن أنصرَ الحبّ   والتى بذوره فى رُباها

وأريها صوابَها فى هوى الدو   ق ، وأُنشى دنياه فى دنياها

ريثما تستقرّ حالى ، ويُدرَى   مَنْ أنا

القبطان : خطةٌ مُحالا أراها

إنّها حرّمت على رُسُل الخطّا   ب طرّاً أن يقربوا من حِماها

لن ترى وجه طارق منهم قط   ولا الدوق نفسه إنْ أتاها

ڤيولا :

لك ياسيدى شمائل غُرٌّ   لا تراها عينٌ فلا تهواها

غيّبت فيك باطناً من معانيـ   ها ، وحلّتك ظاهراً من حِلاها

لا تَلُمْ إن قلتُ : الطبيعة حابَتْ   كَ ، وقل لى هل أنت ممن رَشاها ؟

ليس هذا من دأبها ؛ فهى تكسو   حيّةَ الروض لينها وبهاها !

و إليك اطمأن قلبى ، وما أحـ   سب نفسى تضِلُ فيك هداها

كن مِعادى فى خطة ربّما تصـ   عب ، لكن لاشك فى جدواها

---

(١) أدتم : أثقله

(١) أحمدت الرجل : رضيت فعله ونصرفه

(٢) يراد بالصدى الاشاعة وتوشى : انتشر

دراسات أدبية

فى الأدب الايطالى الحديث

بقلم محمد أمين حسونه

— ٣ —

نال نجم بيراندللو بعد النجاح العظيم الذى أحرزته روايته « المرحوم ماتياس باسكال » ، وكسفت شمسه أسماء الروائيين المعاصرين ، وبدأ النقدة يتحدثون عن فنه ويولونه اهتمامهم ، ثم اختير ليشغل كرسى أستاذ الأدب الايطالى بالجامعة وانتعشت حالته المالية بما أمكن أن يمحو من سجل حياته بعض المتاعب المادية ، وأن يسدل عليها ستار النسيان

ولكى نعطى صورة واضحة من حياة هذا الكاتب وارتباطها بفنه ، نقول إن التغلب على المتاعب المادية لم يكن كل شىء ، إذ هبت فى بيته عاصفة عكرت الجو مرة أخرى ، فأعصاب زوجته تحطمت ، ونوباتها العصبية تزداد بسبب غيرتها العمياء من تلميذات زوجها فى الجامعة ، وقد حاول بيراندللو كثيرا أن يزيل شكوكها وأوهامها ، فسمح لها بألا تعطيه من راتبه إلا ما يسمح له بابتياع سجائر أو أجر ترام ، غير أن هذه المحاولات فشلت ، وأخذ هذا الحيوان السام الذى يدعونه الغيرة ينهش من شبابها ودمها بعد أن قدم اليها أسلحة جديدة من الشكوك والأوهام ، ولم يكن لرأى زوجها أية قيمة عندها ولا أى تأثير فى نفسها . وعلى حين فجأة ذبل جمالها وانطفأ بريق عينيها ، وأصبحت تعتقد أنها مراقبة ومكروهة حتى من أولادها ، وأنهم جميعاً قد اتفقوا على أن يدسوا لها السم فى الدسم . ولما اشتد بها الداء فكر إخوتها فى ادخالها إحدى مصحات الأمراض العقلية

وكانت الحرب العظمى قد شبت واختير ابنه البكر لخوض غمارها ، وفى غضون ذلك وقع أسيرا ، أما ابنه الأصغر فكانت تجرى له عملية جراحية باحدى مستشفيات روما حتى إذا اجتاز دور النقاهة أرسل فورا الى خطوط النار

وكانت ابنة بيراندللو تتأذى من سوء معاملة الأم لها ؛ ولما فقدت الأمل فى ازالة الشكوك نحوها حاولت الانتحار ، غير أنها نجت ، ففكرت فى الهرب ودخلت أحد الأديرة لتقضى بقية حياتها بين جدرانه

وكان ستيفانو — والد بيراندللو — قد وصل من صقلية ، بعد أن صمد دهرا فى وجه المصائب ، فمن موت زوجه ، إلى افلاس تجارته وضياع ثروته ، الى غير ذلك من الآلام والمتاعب التى انتهت بفقد بصره

ولما كان بيراندللو مشغولا فى خلال هذه الفترة بمصير ولديه اللذين ذهبا الى الحرب ، ومضطراً الى أن يقضى يومه بين زوجة مأفونة ، ووالد عاجز ضرير ، وابنـــة وضعته بجسم العار ، كان لا بد من أن تخرج هذه الأشباح المعذبة التى تسكن ذهنه ، وأن يقدمها للناس فى ثوب درامى عنيف يجمع بين روح الواقع وبين الخيال

وهكذا غصت المقاعد فى مسرح سكالا بميلانو ليشهد الجمهور مسرحية بيراندللو الجديدة « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف Sei persone alla ricerca d'un autore » التى ابتدع فيها فنا جديدا وعالما يموج بالصور والأشباح والشخصيات المجزأة

* * *

والواقع أن فترة المتاعب والآلام التى اجتازها هذا المؤلف

وسأجزيك ما تطيب به نفـ ... سُك مما يناله من جَنَاها

زُرْنِى الدوق فى كساء وصفٍ ... عارضاً خدمتى لكى يرضاها

فكأنى وقد تسربت كالما ... ء جرى بين نفسه ولِحاها(١)

واصطفانى لنفسه ، وشكانى ... مطمئناً من همه ما عَناها

وسرت فى أعماقها رُوحُ ألحا ... نى فهزَّت أوتارَ موسيقاها

واطَّبته فصاحتى كرسول ... نحو اولِفْيا يُذيب صَفَاها

كنْ لِسرِّى قبرا ؛ وأترك حالى ... لليالى تختارُ لى عُقباها

القبطان :

نفِّذيها ؛ وفى قرارة نفسى الـ ... ـسر لن ينتهى إلى أدناها

إن أحرِّك به لسانى فلا التذّ ... ت عيونى بنورها وكَرَاها !

ڤيولا : لك شكرى ، هيّابنا !

القبطان : ربِّ سدِّدْ ... مِن خُطاهُ ! ولا أقول : خُطاها !

على أحمد باكثير

---

(١) اللحاء قشر العود أو الشجر

الثائر فى كافة أطوار حياته هى التى دفعتـه إلى أن يقول بلسان إحدى بطلاته : « ليست الأعمال إلا حقائب خاوية تملؤها أذهاننا »

وهى التى أدت به إلى أن يكره العقل ، لا لأن العقل سجن ، بل لأنه صدفة فارغة لا تملؤها سوى الغريزة العمياء . فالحوادث مثلها مثل الأكياس لا يمكنها الوقوف وهى فارغة . كذلك إذا أريد أن يظل الحادث حياً فى الذاكرة ، منتصباً بين ظلال الوعى وجب أن يكون له معنى واضح وأن تستقصى الأسباب والبواعث التى أدت اليه

حتى نظريات بيراندللو ليست سوى إنذار بهدم المنطق وإفلاس العقل وتفوق الخيال على الحقيقة . وعنده أن للأرواح لغة خاصة تتفاهم بها ووسائل تدفعها من وقت لآخر للقيام بأعمال باهرة على حين أن الشخصيات المادية لا تتجاوز فى علاقاتها غير الحديث العادى

ومما يحملنا على الاعتقاد بأن نظريات بيراندللو البيسكولوجية لا تصل به إلى تفسير الناس ، أنه يلجأ شخصياً إلى هؤلاء الناس لتفسير ألغازه . ولولا روح المرح والفكاهة التى تخلع على مؤلفاته ظلاً هائماً ومسحة خاصة لتباعد بينها وبين مركز الألم لكان فنه الروائى هو الجحيم والانسانية المعذبة

لقد درس كل من ادجار ألن بو وستيفنسن نظرية ازدواج الشخصيـة وفوضاها فى الانسان . أما بيراندللو فهو يقسم الشخصية فى فنه الروائى إلى عشرة أو مائة أو ألف أو أكثر . فالفرد عنده مكون من شخصيات متناقضة كالحيوان الخرافى الذى تتحدث عنه أساطير الاغريق . وهو لا يعرف الأخلاق والعادات ولا يقدر الارادة أو الشهوة المتغلبـة لأن جميع مشاعره قابلة للتحول والتغير والتأثر

على أن أهم ما يرتكز عليه فنه ظواهر التحليلات النفسية وتعدد النازعات . فكل شىء فى نظره مرجعه إلى التفسير ، بل قد يجوز أن يتخذ شخص ما صورة معينـة فى نظر أحد محللى نفس الشخصية . وقد قال بيراندللو بلسان إحدى بطلاته فى روايته « شهوة الشرف » : « لاشك أن مدام أنيتا هى امرأة أخرى ، وليس هذا كل ما أقوله ، بل هى أخرى وأخرى وأخرى أيضاً ، بعدد الأشخاص الذين تعرفهم والذين يعرفونها »

وفى عام ١٩٢٢ ترك بيراندللو منصبه فى الجامعـة ليتفرغ للأدب والمسرح فوضع روايات : حصان فى القمر ، ومهزلة الموت والفخ ، وأنت تضحك ، وزوجها ، وهنرى الرابع . وسافر برفقة فرقة تمثيلية ألفها إلى عواصم أوربا ومدنها ، وعرور الزمن تراكمت عليه الأعمال بسبب إخراج رواياته على مسارح باريس وبرلين ولندن ونيويورك وبونس إيرس وموسكو ، ولكن لا بد من أن يسافر إلى جميع هذه العواصم ليشرف بنفسه على إخراج رواياته

يقول ادريانو تلجر فى كتاب نشره عن فن بيراندللو المسرحى Studi sul teatro contemporaneo انه لم يتأثر فى فنـه بالمؤثرات اللاتينية بل يدل أدبه على أنه تأثر بأدب الشمال » . وليس ذلك بغريب من كتاب الجنوب واللاتين ، والكثيرون منهم أمثال دانتزيو وجوزيف جيا كوزا قد تأثروا الى مدى بعيد بأدب ابسن وطريقته فى تحليل المشكلات الاجتماعية . والواقع أن ابسن سبق أن أقام فترة طويلة فى ايطاليا وكان له الفضل الأكبر فى تكوين مدرسة روائية مسرحية تمت الى فنه بأقوى الصلات

أضف الى ذلك أن بيراندللو برع فى رسم مآسى الحياة وفواجع المجتمع براعة قلما أتيحت لكاتب يعاصره . وهو يتلاعب بالألفاظه تلاعبا يخلع عليها وعلى أسلوبه مسحة تتفق ونظرياته الفلسفية فى الانسان والروح . وليست دراماته سوى سرد ماضيه وتصوير نفسيته ، فهو من هذه الناحية لا يتحت الخيال ولا يتكلف التصوير ، ولكنه ممن يروحون عن أنفسهم بهذه الزفرات الموجعة

على أن الشىء الوحيد الذى يوجهه نقدة المسرح فى أوربا الى فن بيراندللو يتلخص فى نقطة واحـدة ، هى أنه يجزىء شخصياته بما يؤدى الى هدم أساس الحياة والجنس البشرى ، فبعض الشخصيات التى يضعها وسط الخيال تؤدى إلى ضياع الفكرة التى ينشدها الفن المسرحى لاسيما وهو يعد الخيال حقيقة لا خطأ . ولو اعتبرنا الخيال واقعياً لوجب علينا بطريق الاستنتاج أن نعتبر الخيال والواقع متساويين من حيث الحقيقة ، ومع كل فبيراندللو هو أكثر الكتاب الروائيين والمسرحيين انتاجا على الرغم من عدم تحوله عن نظريته التى يخضع لها فى كل ما يكتب

(يتبع) محمد أمين حسونه

القصص

درامة من اسخيلوس

٢ – المتضرعات

The Suppliant Women

للأستاذ دريني خشبه

— ٧ —

وصمت الأب دانوس ، وغمرت الفتيات موجة أثيرية من الفرح ، وتقدمن نحو الآلهة يصلين ويهزجن ، وينظمن الشكران عقوداً من جمان دموعهن فيجعلنه قلائد على جيد آرجوس ، ويدعون للملك بالمجد ، ولمدينته الخالدة بالنصر والعز والتأييد

وما يكدن يفرغن من صلاتهن وانشادهن ، حتى يثب أبوهن الشيخ المتهالك وثبة قوية ... ويقف على شرف من حرم الآلهة المقدس ، ثم يرسل في اليم المضطرب نظرات حائرة من عينيه الغائرتين ... كمن ينظر في كتاب الغيب ! !

— يالهول ! أصمتن يا فتيات ... أصمتن ! إن الزمن يسوق اليكن أحداثه فوق أعراف التبيج ... أنظرن ! ؟ إنها تقترب منا رويداً رويداً ! واحربا يا بناتي البائسات ؟ ! سفينة مصرية لا ريب في ذلك ! آه ! إنها من سفائن اللعين إيجبتوس ! لاشك ! لا شك ! ها هي ذي قلاعها وشراعها ! كابية كوجهه ، كاسفة كقلبه ... وي ! لقد طوى الملاحون الشراع ، وأعملوا سواعدهم في المجاديف ! إنها ما تفتأ تقترب ! ولكن ! لا عليكن يا فتيات ! لا عليكن أبداً ! إن لكن من هؤلاء الآلهة ذادةً ، وإن لكن منهم حماة أباة ! ويل لمن يستهزئ بأرباب الأولمب وأي ويل ؟ إن له لساعة تشيب من هولها النواصي ! لقد قدم الأوغاد يطلبونكن لمتعة الوحوش الذين لا يخشون الآلهة ولا يرعون حدود السماء ... لا .. لن يكون هذا أبداً ... »

فترتعد فرائص الفتيات ، وتقول كبراهن :

— « أبتاه ! إنا لنذوب من فَرَق يا أبتاه ! يا للفزع الأكبر ! ماذا أفاد سفرنا الطويل ، وغربتنا النازحة ؟ لطالما انتعلنا الدماء ، وضربنا غوارب الماء لنكون بنجوة ، فأين النجاء ! أبتاه ! إنا نذوب من فرق ... »

— « لتطمئن قلوبكن يا بناتي ، فلقد صمم الأرجيف البواسل أن يحاربوا إلى آخر قطرة من دمائهم من أجل قضيتكن ... » اهدأن ! اهدأن فهذه الآلهة تحميكن ! »

— « وهل يصبر الأرجيف المترفون على شياطين ايجبتوس يا أبتاه ؟ انظر ! لقد جمعوا الهاذم من محاربي مصر .... فمن لنا ! من لنا ! ؟ »

— « إنكن لن تلبثن أن ترين الأبطال المقرنين في الحديد ، المقنعين في الزرد ، فلا تهلعن ! »

— « ولكن ... لنقف معنا يا أبتاه ! لا تتركنا ! فنحن أضعف من أن نشهد المعركة ! إن هؤلاء القادمين في السفينة الغبراء وحوش يحملون قلوباً خرساء ... ولن يثنيهم أن يشهدوا هذه الآلهة ، إذ هم ضواري ليبيا ، لا يعرفون قرباناً ولا مذبحاً ولا شريعة ، ولا يرهبون آلهة ولا يوقرون أوثاناً ! »

(يهم دانوس أن يغادر بناته ، فتقول كبراهن :)

— « أبتاه ! الى أين ؟ لن تغادرنا ... لن تغادرنا يا أبتاه »

— « تلبثن يا فتيات ولا ترهبن شيئاً ! إنهم لا بد لهم من وقت طويل حتى ترسو سفينتهم ، وينزلوا الى البر ويربطوا أمراسها في صخرة أو جذع . . . وقد لا يجدون مرفأ هنا فيقلعون الى مكان بعيد ... اهدأن ... لا تفزعن هكذا ! ما هذا الفرق ! تلبثن هنا حتى أعود بجيش الأرجيف أو بعدد من بيلاسجوس ! لقد وعد ! لقد وعد أن يحمينا ، وأيده الشعب كله في ذلك ..... تلبثن ..... لا تفزعن ..... ولا تذهب قلوبكن شعاعاً ! »

(يخرج دانوس)

— ٨ —

وتهلع الفتيات ويتفزعن ، ويتضرعن الى الآلهة أن تنقذهن من ذلك البلاء المنتظر ، ويرسلن أنشودة طويلة حزينة ...

والسفينة تقترب !

وهى كلما اقتربت وجفت نفوسهن ، وخفقت قلوبهن ، وتبلبلت أفكارهن ، وتعلقن بالدمى المرمرية التى ... تتاجت حتى ما تحس ... وتحجرت حتى ما تمى ...

وغابت السفينة عن الأنظار فجأة .. ولكنها غابت لترسو ..

وطفق الفتيات يهزجن ... ويصلين ... ويبكين ...

— ٩ —

(يدخل القائد المصرى)

— « سو ... ش ... اصغين يا فتيات ! حذار ألا تطعن ! هلم الى سيف البحر ، فاركبن فى السفينة معنا ! أسرعن ، لا تقاومن ، وإلا حملناكن بالقوة ! أسرعن ، وى ! أنتن لا تتحركن ! أسرعن يا فتيات ! إن لم تسرعن فستحل بكن نقمة ! سنشدكن من شعوركن ونجركن على الرؤى والأحجار حتى تدمى جسومكن ؛ الى البحر ... الى البحر ! »

(وينتفض الجنود فيدفعون الفتيات فتقول كبراهن :)

— « ويل لكم أيها الضوارى وويل لأميركم ! ليت هذا الخضم ابتلعكم قبل أن تصلوا إلى هنا ! »

— « أنصح لكم يا فتيات ألا تقاومن ! إنكن ضعيفات ، وللقوة أن تصنع ماتشاء بكن ! دعن هذه المجالس حول هذه الآلهة التى لا بد أنها تسخر منكن ! ستحملكن السفينة إلى أوطانكن فالحذار من المقاومة ! »

— « كلا ! لن نعود إلى جنة الأرض وجحيم القلوب ! الفردوس الذى يفيض كل سنة دماً يصهر العاطفة ويحرق الضلوع ... ... »

— « وبعد ، إننى مرغم إذن على استعمال القوة المطلقة التى يخوليها الأمر الذى بيدى ! سأنتزعكن من مقاعدكن فى هذا الحرم ! سنجركن من شعوركن وخموركن ، ونبحر بكن برغمكن ! »

— « أنت تهرف كأن عيون السماء مغمضة عنك ! كأنك إذا كنت وسط اللجة لم تخش شيئاً ! أيها الكافر بالآلهة ! »

— « ولولان ماشئتن ! إدعين آلهتكن ، وسنرى هل تهرع لمعونتكن !! أبداً لن تهربن من يدى إيجيبتوس أبدا ! إنه كالهواء مدرككن أنى وُجهتن ! فولولن واصخبن ! وأعولن وابكين تماسيكن ! »

— « ثم ماذا ؟ زدنا من وقاحتك يا ابن النيل ! بذاء ! أيها المسخ ! يا ربيب التماسيح ! ليتها تطعمت بك ، أو خللت ثناياها بلحمك قبل أن تجىء إلى هنا ! »

— « سو ... ش ... كفى ! حسبكن صراخاً ! إن لم ترضخن ... فشعوركن تحكم بيننا وبينكن ! سنجركن منها إلى السفينة يا فتيات ! »

(يهم الجند أن يجروهن !)

— « أباما ! أين أنت يا أباما ! الغوث الغوث ! هذه المناكب المتلطفة ! يا أمنا الأرض ! يا أباما زيوس ! عونك يا آلهة ! يا سيد الأولمب ! نحن حفيدات يو !! أدركنا ! إدفع عنا هـــذه الضوارى ! »

— « عبثاً تستصرخن آلهتكن يا فتيات ؟ هى ليست لنا بآلهة ! فنحن لا نرهبها ولا نخشاها ! إنها لم تنشئنا ، ولم تختلط بقلوبنا ... نحن لا نباليها ! »

(يجرها من شعورها)

— ويلك أيها اللئيم ! يا أفعوان النيل ذا الأنياب ! أغرب فاستأفعى مثلك أيها الأرقم ! الموز الموز يا سيد الأولمب ! زيوس يا إلـهى ! أدركنى أستلحمك بأمك ربة هذه الأرض ! »

— « أسرعن إلى السفينة إذن ! وإلا ! فستندك عظامكن فوق هذه الآطام ! أطعن يا فتيات فهو خير لكن ! »

— « يا سادة آرجوس ! أدركننا يا أرجيف ! أيها الأوفياء ! »

— « بل سادة مصر ! أبناء إيجيبتوس الكرماء ستلقينهم وشيكا يا عذارى ! »

« يا ملك آرجوس الكريم ! الغوث ! لقد وعدتنا ! بيلاسجوس ! »

— « طالما تأبيتن ، فشعوركن تطيعنا ، وهى أطوع لنا منكن ! »

(يجرونهن على الحجارة بشدة فيدخل الملك)

— ١٠ —

— « وَىْ ! من أولاء ! من الجائسون خلال مملكة بيلاسجوس ، العائثون فى جنبات آرجوس ، غير المبالين بحرم الأرباب ! من أنتم يا هؤلاء ؟ هل هانت عليكم آرجوس فأنتم

تأدكون فى ساحاتها غير هيابين ! مالكم ولأولئك النسوة ! مالكم تحركون ألسنتكم بالفحش ، وتسلقوننا بالهُجْر !؟ إن هنالك لمدالة تحميهن أيها الحمق ! »

— « أى هجر وأى فحش ، ماذا صنعنا بهن ! »

يا للآلهة ؟ أنت أجنبى وقد نزلت بلاداً غير بلادك ، فكيف ضللت سبيل الحسنى ؟ ! »

— « أجل : ولكننى أجنبى قد عثر بضالته المنشودة ، ورجيته المفقودة »

— « وأية قوة هنا تملك ، فتسندك ! »

— « أنا أحتكم إلى هرمز ، حامى الغرباء ! »

— هرمز ؟ ! أمرك عجب وحق هرمز ؟ لقد دنست حرم الآلهة جيما ! »

— « بل أنا أدين للنيل ... حابى ! ... (١) وأعبد آلهة النيل ! »

— « إذن فلا اعتبار لآلهة آرجوس عندك ؟ »

— « اذا كان منها ما يحول بينى وبين ضالتى ... وإلا ... فسأمضى بصيدى »

— « ارفع يدك عن الفتيات ... والا ... فسرعان ما تندم ولات حين مندم »

— « كأنى بك تشيع الكرم فى عباراتك ! »

— « لا كرامة ولا بشاشة لمن دنس الحرم المقدس ! »

— « قل ما شئت ، فالجلة الأسراء من أبناء ايجبتوس ... آ ... أجل ... سأذكر لهم كل شىء »

— « لا يعنينى أن تنقل اليهم أى حديث عنى ! »

— « عجبا ! وكيف ؟ إذن نبئنى ماذا أقول له كرسول منه اليك ! يبدو لى أن مارس (٢) وحده سيحكم بيننا وبينك ، وعندها ، يعرفنا أينا من يندم ولات حين مندم ! هؤلاء بنات عمهن ، وقد جئت من أجلهن ، فكيف أعود بدونهن ! لم نسمح للغضب أن يروى دماءنا ! يا للأرواح البريئة ! ثم . من أنت ؟ »

— « غداً تعرف من أنا ، أنت والعصبة من رفاقك ! ولكن ... لن نسمح لك أن يصطحبك أولئك الفتيات إلا إذا رضين عن ذلك ... فلن يذهبن معك برغمهن ... إن مملكتنا كلها تؤيدهن وتؤازر حقهن ، ولن تسلمهن لقوة مهما عتت أو لجبروت مهما طغى ! إن لنا لقانوناً أقدس ، لم ينقش فى صخر ، ولم يسطر فى بردى ، فاسمعه من فمى ، واغرب من أمامى ! »

-- « وىْ ! لقد ضمنت كلمتك اعلان الحرب علينا ! فمن لك برجال يضمنون لك النصر ؟ ! »

— « غدا يملأ الرجال السهل والجبل وشطآن هذا الخضم رجال ... مذاويد ... لم يدنسوا أفواههم بجمة الشعير ولا بنبيذ التمر ... أغرب يا أحمق ! » (١)

(ينسحب للصريون)

— ١١ —

« وأما أنتن يا عذارى فلا ترهبن شيئاً فى الوجود ما دمتن معنا وبين ظهرانينا ! إن آرجوليس كلها ستحميكن وستكلأ عنكن ، فهلم الى قلعتها العتيدة ، إن لكل مكان فيها حصناً أمنع من النجم ، وآمن من السماء ! فَقَرْن فى غرفاتكن ثمة ، فهى أخلق بكن ، وأطيب إلى نفوسكن ، وأرْوَح عليكن ... على الرحب والسعة يا عذارى ! إنى وشعبى نفتديكن ، نقرن عينا وطبن نفسا ... »

— « بوركت يا خدن الأرباب ، جزاك سيد الأولمب عنا خيرا ، وكتب لك ولمملكتك السلامة ، وجملك وجملها بنجوة من غدرات الأيام ، وبدوات الزمان ! ... أيها الملك ! لقد غمرنا احسانك فنحن ندين لك بهذه الأرواح المفزعة ، والنفوس المروعة ، التى أذهبت عنها الشجو وجلوت ما بها من حزن ! أبانا أيها الملك ! إنه رجل شيخ حطمته الآلام ، وناءت على صدره الخطوب ... إيذن له يصحبنا الى منازلنا ، ويهيىء لنا جوارنا ، ويتخير لنا أولياءنا ذلك أدنى الا يأسى أو يحزن ! (ويوجهن القول الى وصيفات الملك) أما أنتن أيها الوصيفات فرشّدْننا إلى حيث يدلكن أبونا ... وابشرن ! فسيهب كلا منكن أمَةً جزاء ما خدمتننا وسهرتن علينا »

— ١٢ —

(يدخل دانوس)

— « أحمدن الملك ، وصلين للآلهة يابناتى ! القرابين والضحيات الحمر ، إنا ندين للأراجيف البواسل بأرواحنا ما فى ذلك من شك ، فقربن لآلهتهن القرابين ، وقدّمن الضحيات ! الثناء لهذا الملك الكريم يا فتيات ، فلقد أنقذنا من الذبح ونجانا من الفضيحة ... حمداً له ، حمداً له وشكراً ! ! »

(١) إله النيل (٢) إله الحرب

(١) هذا حديث يدل على ما كان لمصر من ذكر وصولة فى هذا الزمان !!

البريد الأدبي

تاريخ جديد لليهود

تثير المسألة اليهودية اليوم كثيراً من الاهتمام ، ولهذا يصدر اليوم كثير من الكتب التي تتعلق بالمسألة اليهودية أو تاريخ اليهود سواء بأقلام كتاب اليهودية أو غيرهم من الباحثين من مختلف الأمم . وقد صدر أخيراً تاريخ جديد لليهودية بقلم مؤرخ يهودي كبير هو الدكتور سيسيل روث C. Roth ، وعنوانه « تاريخ اليهود » ، ويقع الكتاب في مجلد واحد ، ومع ذلك يقدم الينا صورة شاملة واضحة من تاريخ اليهودية منذ أقدم العصور إلى يومنا ، وقد صدر من قبل كثير من التواريخ الجامعة عن اليهودية ، مثل كتاب إيفالد وكتاب بيتر بير المؤرخين الألمانيين ، وكتاب ميلمان المؤرخ الانكليزي ، ولكن هذه المصنفات القوية الجامعة ينقصها اليوم طابع الجدة الذي يطبع الكتب المعاصرة ، ذلك أن المسألة اليهودية قد جازت منذ منتصف القرن الماضي إلى يومنا أطواراً كثيرة هامة ؛ وكتاب الدكتور روث يمتاز بهذا الطابع المحدث ، والدكتور روث أستاذ موضوعه ، فهو من أكابر مؤرخي اليهودية وكتابها ، وقد كتب عدة مباحث عن تاريخ اليهودية في العصور الوسطى في السلسلة التي أصدرتها جامعة كامبردج عن تاريخ العصور الوسطى ، وفي دائرة المعارف اليهودية ؛ وكتب أيضاً تاريخ اليهود المتنصرين في اسبانيا وتاريخ اليهود في البندقية وعدة كتب ومباحث أخرى

ويقدم الينا الدكتور روث صورة واضحة جامعة من تاريخ الشعب اليهودي ؛ ويوضح لنا كيف أن اليهودي خلق منذ أقدم العصور « جوالا » يضرب في الآفاق ، وأنه يصح أن يسمى بحق « اليهودي التائه » ؛ ويرى الدكتور روث أن اضطهاد اليهودية منذ تفرقها يتخذ في جميع العصور وفي جميع الأمم أشكالاً وضروباً متماثلة ؛ ففي ظل الدول البربرية والنصرانية والاسلامية ، وفي الشرق والغرب ، نرى نفس الاجراءات والأساليب تتخذ لمطاردة اليهودية : القتل والتشريد والمصادرة ، وإلى يومنا نرى نفس الصورة المروعة ، وقد تزدهر اليهودية أحياناً في فترات قليلة نادرة ويتبوأ رجالها مناصب ممتازة في السياسة والمالية وفي العلوم والآداب ، ولكن يد المطاردة لا تلبث أن تسحقها ، ويحاول الدكتور روث أن يوضح لنا كيف أن اليهودية حصرت معظم اهتمامها في الشؤون المالية ، وكيف أن اليهودي انتهى بفعل الزمن إلى التخصص في الاتجار بالمال والربا ، ذلك أن اليهودي كان محروماً طوال العصور الوسطى من مزاولة أية مهنة أو حرفة أخرى ، ولم يترك له سوى احتراف التاجرة بالمال والربا الممقوت ؛ ومن ثم كانت نشأة اليهودية المالية وتقدمها بمضي الزمن في هذا الميدان ؛ وقد كانت اليهودية منذ العصور الوسطى ملاذ المعاملات المالية والصيرفية

ومما يلفت النظر في كتاب الدكتور روث رأيه في صلب المسيح ، وكيف أن المسئول عن توقيع هذه العقوبة عليه هم الرومانيون لا اليهود ؛ وكيف أن اليهود كانوا يودون إطلاقه ؛

أما أنتن ، فخذن أهبتكن ... الى قلعة المدينة وذؤابة شرف آرجوس ! ولي عنكن وصاة أرجو ألا تخيب ، تلك أن تضربن بخمركن على جيوبكن ، ولا تبدين من معالم فتونكن ، ما تشغفان به قلوب الرجال ، وتبلبلان ببعضه أفئدة الناس ، ولا تنسين أننا في كنفهم وارفون في ظلالهم ... فالشرف الشرف يا بناتي ! والعصمة العصمة ! ! حتى نجتاز شوارع آرجوس ، فاغضضن من أبصاركن إذا ساورتكن الجماهير ، وأحدقت بكن الجماعات ؛ ولا تبادلن أحداً نظرة ... لا تدرى إلا الآلهة ما بعدها ... »

ويلتف العذارى بأبيهن يمطينه موثقهن ، ثم يأخذن في انشادهن الحلو ، وتغنيهن الجميل ، وقد انقسمن الى جماعتين ، هذه تغني ... وهذه ترجع .. وتمتلىء الأرجاء شدواً و ... شجواً ... وموسيقى

دريني خشبة

(البقية — وهي خلاصة الدرامتين المفقودتين — في العدد القادم)

وهذا الرأى يخالف ما اصطلح عليه معظم مؤرخى النصرانية من أن اليهود هم الذين شددوا فى صلبه فى حين أن الرومانيين كانوا يؤثرون إطلاقه

ويتتبع الدكتور روث تاريخ اليهودية ومسائلها حتى يومنا . وكتابه قيم جداً من الوجهة العلمية ؛ وأسلوبه قوى واضح ؛ ولا ريب أنه سيثير اهتمام كل مشتغل بالمسألة اليهودية أو تاريخ الشعب اليهودى

كتاب عن بونابرت فى مصر

يعتبر مسيو فرانسوا شارل رو السفير الفرنسى السابق من خاصة الباحثين فى تاريخ نابليون وفى تحليل شخصيته ومواهبه ؛ وقد خص الحملة الفرنسية المصرية بكثير من مباحثه وتحقيقاته ، وآخر ما كتب فى هذا الموضوع كتاباً عنوانه « بونابرت حاكم مصر » Bonaparte Gouverneur d'Egypte ، وفيه يحلل شخصية بونابرت ونفسيته حين إعداد الحملة الفرنسية ؛ ويرى مسيو شارل رو أن نابليون لم يكن يومئذ الجندى العظيم فقط ، ولكنه كان أيضاً أديبا وصحفيا ، يقدر ما للدعوة والرأى العام من قوة ، ولذلك لم يكتف بأن يزود جيشه بالمدافع والذخائر ، بل رأى فوق ذلك أن يزوده بطائفة كبيرة من العلماء والفنيين وأن يحمل معه مطبعة كاملة . وفى ذلك ما يدل على أن نابليون كان يتمتع بعقلية عصرية لا تقل فى حداثتها وابتكارها عن عقلية عصرنا

ويقول مسيو شارل رو ان نابليون كان يقصد الهند عن طريق مصر . وانه كان يقدر للذهاب والاياب إلى فرنسا ستة أعوام . وكان يقول ان عمرى تسعة وعشرون عاما فقط ، وهذا ليس بعمر ؛ وسيكون عمرى عند العودة خمسة وثلاثين » ولم يكن نابليون يحدوه حين قدم إلى مصر أية عواطف دينية . أجل جاء الفرنسيون إلى مصر أيام الحروب الصليبية ليقاتلوا الهلال ويسحقوا الاسلام ، ولكن نابليون جاء إلى مصر ليحقق مشروعاً سياسيا واستعماريا ضخما ، ولم يفته عند مقدمه أن يصدر (عن طريق مطبعته) منشوراً إلى المصريين يقول فيه انه وجنده مثلهم يعبدون الله ، وانه عاقب البابا ونهب مالطه وفرسانها المتعصبين ، وانه لم يأت ليسحق الاسلام وإنما أتى بالعكس ليعيد إليه مجده ؛ وكان نابليون طول إقامته بمصر يتظاهر دائماً باحترام الشعائر والعادات الدينية وتكريم العلماء ومصادقتهم

بيد أن هذا الحلم الجميل قد انهار بسرعة ، ولم يلبث بونابرت أن غادر مصر شبه هارب ؛ وقد عاد إلى فرنسا بعد أن حنكته تجارب عديدة ؛ ولم يكن عدوه شعبا أو مجتمعا وإنما كان عدوه التعصب ؛ وقد الفى مصر ، أم العلوم والفنون منذ العصور الغابرة فى سبات عميق ، وألفاها فريسة للترك ، ولم يبق فى واديها النضر غير أرض مجدبة ينتهبها من استطاع . بيد أنه إذا كانت الحملة العسكرية قد أخفقت فى تحقيق أغراضها ، فان الحملة العلمية قد حققت أعظم الثمار ؛ وقد درس العلماء الفرنسيون كل ما فى مصر من طبيعة ومن حيوان ونبات ، ودرسوا أحوالها الاجتماعية وأمراضها المتوطنة ، وأنشأوا المجمع العلمى بالقاهرة ؛ وكان نابليون يرهق علماءه بمختلف الأسئلة : هل يمكن زرع القطن فى مصر ؟ وهل يمكن غرس الكروم ؟ وهل تقام طواحين الهواء ؟ وهل يمكن تحسين خبز الفلاح ؟

كل ذلك يعرضه مسيو شارل رو فى كتابه الجديد بأسلوب ساحر يجمع بين دقة البحث واتزان الحكم ، ومتاع العرض . ومن المحقق أن كتابه يعتبر ثروة جديدة فى مكتبة الحملة الفرنسية

رسائل الشاعر الروسى بوشكين

تستعد دوائر الشعر والأدب للاحتفال فى العام القادم بالعيد المئوى لوفاة الشاعر الروسى الكبير « بوشكين » وقد كان بوشكين من أعظم شعراء القرن التاسع عشر ، وكانت الروح الأوربية اللاتينية تغلب لديه على الروح الاسيوية الروسية ؛ بيد أنه لم يترجم كثيراً إلى اللغات الغربية وبخاصة إلى الفرنسية كمواطنيه ومعاصريه الأكابر مثل جوجول وتورجنيف ودستويفسكى . ويرجع ذلك إلى قوة شعره التى يصعب اخراجها بلغة أخرى . وأعظم مؤلفات بوشكين هى بلا ريب قصته الشعرية « أوجين أونجين » ، وهى دراسة بديعة للعادات والأخلاق الروسية فى القرن التاسع عشر

وكان بوشكين رجلا غريب الأطوار والنزعات ، يضطرم بعواطف غريبة . ومما يذكر أنه حينما اعتزم الزواج فى سنة ١٨٢٦ ، خطب فتيات عدة قبل أن يلتقى بالحسناء ناتالى جونتشاروف ؛ وكانت تلك الفترة أكثر فترات حياته اضطرابا

ويعتزم الكاتب الروسى مرج ليفار بهذه المناسبة أن ينشر رسائل الشاعر بوشكين إلى حبيبته ناتالى بنصها الأصلى ، وأن

يعلق عليها وأن يوضح ما غمض منها ؛ وهذه الخطابات تصور لنا حياة الشاعر فى هذه الفترة أحسن تصوير ، وهى فترة حافلة بمختلف الحوادث والمفاجآت وضروب السعادة الغرامية . بيد أن هذا الزواج السعيد لم يلبث أن انتهى بفاجعة مؤلمة . ذلك ان بوشكين قتل مدافعاً عن شرف زوجه ناتاليا فى مبارزة أصيب فيها بجراح مميتة . وسيضم هذا المجلد الذى يحتوى على رسائل بوشكين ترجمة وافية لحياة ناتاليا بقلم المسيو هوفمان ، وهى ترجمة مؤثرة شائقة

وفاة كاتب ألمانى كبير

من أنباء برلين أن الشاعر والكاتب الألمانى الكبير إدوارد شتوكن E. Stuchen قد توفى فى الحادية والسبعين من عمره ، وقد كان شتوكن شاعراً من الجيل القديم أعنى من شعراء الأمبراطورية ، وله شعر كثير يمتاز بقوته ورصانته ، وكان أيضاً باحثاً كبيراً يؤثر القصة العلمية والتاريخية باهتمامه ، واشتهر شتوكن بنوع خاص بالابداع فى القصة التاريخية ، وأشهر قصصه من ذلك الطراز « الفاتحون » Die Eroberer ، وهى قصة تاريخية رائعة فى مجلدين كبيرين ، وتدور حوادثها حول فتح المكسيك على يد الاسبان فى أوائل القرن السادس عشر ؛ وبطل القصة البارز هو فاتح المكسيك هرناندو كورتيز ، وبطلتها هى دونا مارينا الفتاة الهندية الشهيرة التى غدت خليلة الفاتح ومهدت للاسبان كثيراً من مصاعب الفتح ، ويصف شتوكن حوادث هذا الفتح الشهير وصفاً قوياً شائقاً ، ويستعرض أحوال الهنود الحمر ومدنيتهم وعاداتهم فى فصول ممتعة تقوم على الحقائق التاريخية والعلمية الثابتة ؛ ويبدع بنوع خاص فى وصف الوقائع الدموية التى جرت بين الهنود والاسبان ، ومناظر الضحايا البشرية التى كان ينظمها الهنود للتقرب من الآلهة ؛ ويمزج شتوكن هذه الحوادث والمناظر التاريخية المروعة بلمحات من الخيال الساحر والعرض الشائق

وقد أحرز شتوكن برواية « الفاتحون » شهرة عظيمة ، ومازالت تعتبر من أعظم ما أخرجت القصة الألمانية المعاصرة ، ولشتوكن عدة قصص وكتب نقدية أخرى

وكان شتوكن مدى أعوام طويلة عضواً فى الأكاديمية الألمانية للأدب القصصى

كتاب جديد لميترلنك

صدر أخيراً كتاب جديد للكاتب البلجيكى الكبير ميترلنك عنوانه « المرملة » Le Sablier ؛ ومن الصعب أن نحدد موضوع الكتاب ؛ بيد أنه كمعظم كتب ميترلنك مزيج من الاستعراض والنقد والفلسفة ، ويكتب ميترلنك عادة بروح ثورية ، ولكنه يبدو فى كتابه الأخير أكثر هدوءاً ؛ وهو يحمل فى الفصل الذى يخصصه لأحزان الأسرة الملوكية البلجيكية على القدر الجائر ، ولكنه يثور فى وقار ؛ ويحدثنا ميترلنك عن ضعف الآثار المترتبة على التعليم الدينى ، ويرى فى فلسفة باسكال ضعفاً ولا سيما فى نظريته الخاصة « بالأسطورة التى لا تقارن » إشارة إلى النصرانية ، ثم يحدثنا بعد ذلك عن الموت ، ويرى أنه ليس عدواً للانسانية بالقدر الذى تصوره روعته وآثاره المحزنة . وذلك أن الموت هو قانون الانسانية كلها ، وهذا التضامن فى تلقى محنة الموت من البشر جميعاً يسبغ على الموت صورة محبوبة . وربما استطاع الانسان أن يوفر على نفسه كثيراً من ضروب الألم والحزن إذا هو نبذ الحلم المستحيل « بأنه ذاهب لن يكون له ذهاب » . وما زال الانسان من حيث التضامن أقل شأناً من بعض الحشرات كالنمل مثلا ، فلو أن الانسان أدرك عاطفة التضامن على حقيقتها ، لغدا كل إنسان « إنسانية بأسرها »

حول ترجمة السخاوى أيضاً

نشرت الرسالة فى العدد ١٤٣ ، وفى هذا المكان رد الأستاذ عنان على ما لاحظه أديب من قراء الرسالة على ما ورد فى ترجمته للحافظ السخاوى بخصوص كتابى « تحفة الأحباب » و « الاعلان بالتوبيخ » ، وقد تلقينا فى هذا الموضوع الكلمتين الآتيتين :

— ١ —

اطلعت فى العدد ١٤٢ من « الرسالة » الغراء على ما كتبه الأديب الفاضل السيد محمود عساف أبو الشباب مصححاً نسبة كتاب (تحفة الأحباب فى الخطط والمزارات) إلى محمد بن أحمد الحنفى السخاوى الذى فرغ من تأليفه عام ٩٥٦ ، لا إلى محمد ابن عبد الرحمن السخاوى الشافعى المتوفى سنة ٩٠٢ مستدلا بما ذكره صاحب طبقات المالكية ، وبعدم عد السخاوى (محمد

ابن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢) ذلك الكتاب فى جريدة مؤلفاته التى سردها بالتفصيل مرتبة مبوبة فى ترجمته لنفسه من (الضوء اللامع ـ الجزء الثامن)، ويمكن أن يستدل لذلك بعدم احالة السخاوى فى تراجم (الضوء اللامع) على كتاب له فى المزارات مع كثرة احالته على مؤلفاته فى أكثر التراجم

ولكن الأديب أبا الشباب تسرع فى نقل عبارة الأستاذ المؤرخ السيد محمد عبد الله عنان، فقال فى ختام كلمته: (فاحقاقا للحقيقة، وصوناً لمعالم التاريخ نأمل أن يجزم رجال التاريخ أن الأثرين اللذين عناهما الأستاذ عنان ليسا للامام السخاوى صاحب الضوء اللامع) ...

لأن عبارة الأستاذ عنان فى العدد ١٠٤ هى: (ونجد أخيراً فى تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة، أولهما كتاب تحفة الأحباب .... وأما الثانى فهو كتاب (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ...)

وليس من شك فى أن (الأثر الثانى) هو من مؤلفات السخاوى إذ ذكره فى صدر مؤلفاته التاريخية، والمؤرخون مجمعون على ذلك، بل الكتاب نفسه ينادى بذلك فى كل باب من أبوابه، فالأستاذ عنان أضاف الى مؤلفات السخاوى صاحب الضوء كتاباً لم يكن من تصنيفه (وله سلف فى هذه النسبة الخاطئة)، والأديب أبو الشباب نفى من جريدة مؤلفات السخاوى كتاباً أجمعوا على أنه من تأليفه (وليس له سلف فى ذلك) جزى الله الجميع خيراً.

من قراء الرسالة

— ٢ —

قرأت فى عدد الرسالة الأسبق كلمة الأستاذ محمود عساف أبو الشباب — عن السخاوى مؤلف الضوء اللامع والسخاوى الآخر مؤلف تحفة الأحباب فى المزارات، ولهذه المناسبة أذكر أن كتاب تحفة الأحباب الذى طبع على هامش كتاب نفح الطيب — طبعة سقيمة — ليس للسخاوى الحافظ حقيقة، بل هو لسخاوى آخر كان معاصراً له وتأخر موته عنه، وثمة دلائل كثيرة تؤيد هذه النظرية، وقد لا يتسع المقام لسردها فى هذه العجالة، بيد أنى أقول — إن الأستاذ حسن قاسم «مؤلف كتاب المزارات المصرية والآثار الاسلامية فى مصر والقاهرة المعزية، الذى يطبع الآن فى القاهرة — والذى لى حظ الشرف بالاشتراك فيه — قد أعلن أنه وفى هذا الموضوع حقه وأعطاه من العناية ما يستحق، وقد لمست من ترددى على دار الكتب المصرية — أن كثيراً من موظفيها يعلم ذلك، وقد يكون قسم التفيير العربى أو قسم الفهارس قام بتصحيح ذلك لخدمة التاريخ، وأذكر مما قاله الأستاذ قاسم عن السخاوى مؤلف التحفة، أنه على نور الدين حنفى المذهب، ألف هذا الكتاب من الكواكب السيارة لابن الزيات — الذى طبع فى دار الكتب — ومن مصباح الدياجى لمجد الدين بن الناسخ المعروف بابن عين الفضلاء المحفوظ منه نسخة بدار الكتب وأصلها لعلى مبارك باشا، وقد رأيناه كثيراً ما ينقل عنها فى خططه — ومنها نسخة — فى لجنة حفظ الآثار العربية

ويذكر أيضاً أن الأجهورى اقتبس كتابه هذا فى مؤلف له «سماه مزارات الأشراف المدفونين بمصر» وترجم له فى خاتمته، وهذا المصدر محفوظ منه نسخته الخطية بمكتبة الأستاذ قاسم ..

الآنسة فردوس عبد العزيز مظهر

بعثة الجامعة المصرية الى اليمن

غادر القاهرة إلى اليمن بعثة الجامعة المصرية، وهى مؤلفة من الدكتور سليمان حزين وسيقوم بدراسة حفائر ما قبل التاريخ، والأستاذ خليل يحيى نامى ويبحث فى النقوش والمخطوطات واللهجات الخاصة باليمن، وهما من أعضاء هيئة التدريس لكلية الآداب، والأستاذ مصرى شكرى وسيقوم بأبحاث فى الجيولوجيا، والأستاذ محمد توفيق العربى ويبحث فى الحشرات بتلك البلاد، وهما من أعضاء هيئة التدريس بكلية العلوم

وتستغرق مدة إقامة البعثة باليمن ستة أشهر. وقد قررت الجامعة منح حضراتهم مكافأة قدرها ١٨٠٠ ج تلقاء أبحاثهم ودراساتهم وقد تزاد تلك المكافأة ٢٠٠ جنيه

4 me Année, No. 146.

Lundi - 20 - 4 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٤٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ محرم سنة ١٣٥٥ — ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العدد الممتاز

من عبر السيرة

محمد الوالد

إن فى حزن القوى عزاء لجزع الضعيف

تخطفت المنايا السود فلذات الرسول بنات بعد بنين ، فلم يبق إلا فاطمة قرة لعينه وعزاء لنفسه . وكانت جراحات القلب العظيم لا تجد لمسها الممض فراغاً بين آلام الرسالة فتندمل فى سكون وصمت . فلما عنت سورة الشرك فى مكة ، وعلت كلمة الله فى الجزيرة ، وتحققت وحدة العرب فى الوجود ، وأخذت نفحات السلام الالهى تنضح الجو المشتعل بالنار ، وتطهر الثرى المخضوب بالدم ، تنبهت فى الانسان الأعلى مشاعر الطبيعة ، وتجددت فى العربى الرسول عواطف الأبوة ، وحز فى نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة ، فبيوتهن التسعة حول المسجد المهلل الذاكر غرقى فى السكون الرهيب والصمت الموحش ؛ لا يؤنس حجراتها غناء المهد ، ولا يبهج أفنيتها مرح الطفولة

لا ريب أن أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها ، وستشمل عالم الاسلام أجمع ؛ ولكن أسرة محمد الرجل لا تزال ألماً من آلام العبقرية ، ومحنة من محن البطولة . تدرع باسم الله وبرز وحده لشياطين الأرض ، فجاهد الوثنية حتى أقر الحق ، وعالج الانسانية حتى أعلن الخير ، وشذب الطبيعة حتى أنمى الجمال ، وبلغ الرسالة حتى لم يبق لرضى الله غاية لم تدرك ، ولا

لصلاح الناس سبيل لم تشترع . ولكنه هدفَ للستين فى جهاد الشرك والجهل والهوى ، ولايزال يجد فى جوانب نفسه الكبيرة عاطفة لم تُرضَ ، وحاجة لم تُقضَ ، ورسالة لم تتم ! تلك هى عاطفة القلب للولد ، وحاجة النفس إلى التجدد ، ورسالة الحياة إلى الحياة

***

بين ظلال النخل والكرْم ، وفى بيته المصرى على العالية من ضواحى المدينة ، أتم الله نعمته على رسوله فوهب له على الكبر ابراهيم ! يومئذ تنفس الصبح بأنفاس الفردوس ، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال الأجنحة النيرة ، ومست يد الربيع المخصبة دوحة النبوة ، وغرقت نفوس المؤمنين فى مثل صفاء الخلد ، وأقبل المهاجرون والأنصار على المسجد المستبشر يهنئون النبى بالخليفة الوليد والأمل الجديد والعوض المبارك ؛ ونهض الرسول الوالد إلى بيت مارية القبطية ليرى نعمة ربه ، وبضعة كبده ، فوجد فى طلعة ابراهيم الأنس الذى يعوزه ، والرضى الذى يرجوه ، والخلف الذى يتمثله ؛ ففاضت غبطته لله حمداً ، وعلى المؤمنين بركة ، وفى الفقراء صدقة . رفع أمه إلى مقام أزواجه ، ونفح مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه ، ثم عقَّ له بكبشين أملحين ، وتصدق بزنة شعره فضة ؛ وتعوَّد كل صباح أن يزور أم ولده فيحمله منها ليضمه ويشمه ، ويتذوق طعم السعادة الأرضية فى ريحه ، ويطالع نفسه العائدة فى نفسه ، ثم يدخل به على الأمهات اللائى ولدن جميع المسلمين ولم يلدن ، فيباهى بحسنه ، ويغتبط بنموه ، ويحتمل راضياً فى سبيل ذلك كله غيرة حُميرائه وكيد نسائه

***

ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته ! دعوتهم الحق والحق ثقيل ، وعدتهم الصبر والصبر كليل ، وبرهانهم الألم والألم قاتل ! غرباء فى الأرض لأنهم من السماء ، وأغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا ، وأمثلة لبؤس العيش لأنهم عِبر ! هذا ابراهيم حبة قلب أبيه وسواد عين أمه مسبوتاً على فراش المرض تحت النخيل ! تذوى نضارته على وهج الحمى ، وتذوب حشاشته على عَرْك الموت ، وأمه وخالته قائمتان على سريره تشهدان منظراً يهون فى جانبه على الوالدين الجنون والكفر والعدم ! وهذا أبو ابراهيم يضعضعه النبأ المروع فيتحامل على عبد الرحمن بن عوف ، ويمشى ثقيل الخطى لهيف الفؤاد ، إلى الصغير المحتضر ! لو كان لمتاع العيش غناء لتقلب فيه المؤمن ، ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه المصلح ، ولو كان فى قلب الثاكل المحزون شبهة لجلتها محنة الله لرسوله !

أخذ النبى ابراهيم من حجر أمه فوضعه فى حجره ، ثم نظر من خلال الدمع إلى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت ، وقال بصوت متهدج وفؤاد متأجج واستسلام مطمئن : « إنا يا ابراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً »

يا لله لقلوب الوالدين ! إن النبى الذى وُلد فى مهد اليُتم ، ودرج فى حجر العُدم ، وتقسمت عمره عوادى الخطوب ، فكابد أذى قريش وحقد المنافقين وكيد اليهود ، وعالج مكاره الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة ، قد احتمل كل ذلك بصبر المجاهد ويقين المؤمن وعزم الرسول ، ويصيبه الله فى إبراهيم وهو رضيع فيرفضّ عنه الصبر ، ويتملكه الجزع ، ويقف من الثكل الأليم موقف كل والد يرى جزءه الجديد يبلى ، ورجاءه الناشئ يخيب ، ثم يقول : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليجزع ، وإنا بعدك يا إبراهيم لمحزونون : أما والله لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنا عليك بأشد من هذا ! » . وينال من الصحابة حزن الرسول فيتقدمون إليه يذكرونه ما نهى عنه فيقول : « ما عن الحزن نهيت ! وإنما نهيت عن العويل . وإن ما ترون بى أثرُ ما بالقلب من محبة ورحمة . ومن لم يُبد الرحمة لا يبدى غيره عليه الرحمة »

على أن حزن الرسل لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من ضعف الانسان . لذلك لم يلبث الرسول أن عاد إلى نفسه فصلى على ولده ، وسوى عليه القبر بيده ، ثم رش فوقه الماء وأعلم عليه علامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحى ، وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه »

***

تعزيت يا رسول الله لأن الألم سبيل من سبل دعوتك ، والعزاء أصل من أصول دينك ، والأرض وما عليها أهون من دمعك ، والسماء وما فيها ثواب لصبرك ، ولكن ماذا يصنع البائس المحزون إذا فقد الرجاء ، وليس له فى يومه صبر ولا فى غده عزاء ؟

احمد حسن الزيات

على هامش السيرة

حديث عــــداس

للدكتور طه حسين بك



قال عتبة بن ربيعة لأخيه شيبة : أنظر الى هذا الرجل المقبل على حائطنا ومن ورائه السفهاء والعبيد قد أغروا به وسلطوا عليه . فهم يؤذونه بألسنتهم . وهم يؤذونه بما يحصبونه به من الحصى والأحجار ! ألا تثبته ؟

قال شيبة وقد نظر فأطال : بلى ! والله إنى لأعرفه كما تعرفه ، وإن قلبى ليرق له كما يرق له قلبك ، وإن نفسى لتثور غضباً له كما تثور نفسك . ولقد هممت وما زلت أنازع نفسى أن أفزع إلى نصره وجواره وحمايته من حلماء ثقيف وسفهائها ، لولا ما بينه وبين قومنا ، ولولا أنى أعلم أننا إن فعلنا كان لنا مع قومنا أمر عظيم وخطب جليل . قال عتبة : وارحمتاه لابن عمنا من قومه ! ثم وارحمتاه لقومنا من أنفسهم : ما كنت أحسب أن يبلغ الأمر بقريش أن يذل عزيزها ونحن شاهدان . وأن يجترئ حى من أحياء العرب وإن كانوا ثقيفاً . على أن يسوءوا رجلاً من قريش وإن كان مستضعفاً مهيناً . فكيف بابن عبد المطلب وابن أخى حمزة والعباس ؟ وكان هذان الرجلان من أشراف قريش قد ذهبا إلى بستان لهما فى الطائف يصلحان من أمره وأمرهما ، ويهيئان لتجارتهما : يجمعان ما تنفذه ثقيف مع تجار قريش إلى اليمن فى رحلتها إلى اليمن ، وإلى الشام فى رحلتها الى الشام . وكانا قد أقاما فى الطائف أياماً . وأقبل فى أثناء ذلك النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على ثقيف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار بعد أن تنكرت له مكة بطاحها وظواهرها ، وبعد أن تنكر له الناس حتى أقربهم اليه وأدناهم منه . وبعد أن فقد عمه الذى كان يمنعه ويقوم دونه . وبعد أن فقد زوجه التى كانت ترعاه وتكلؤه وتحوطه بالرحمة والحب والحنان . وكان قد لزم داره بعد هاتين الكارثتين لا يكاد يبرحها خائفاً محزوناً حتى أقبل عليه عمه أبو لهب فأمنه وأعلن اليه أنه يقوم من حمايته بما كان يقوم به أبو طالب . فسرى عن النبى الكريم شيئاً واستأنف الخروج من داره والذهاب إلى المسجد ، والاضطراب فى مكة ، ولكن قوماً من قريش ألحوا على أبى لهب حتى غيروه على ابن أخيه فاسترد جواره وحمايته ، وعاد من حرب النبى وعداوته إلى مثل ما كان عليه قبل أن يموت أبو طالب . فلما ضاقت مكة بخير أبنائها خرج إلى الطائف يلتمس جوار ثقيف . فأقام فيهم ما شاء الله أن يقيم ، يسعى عند هذا ويتلطف لذاك . وكلهم يرده وكلهم يمتنع عليه . وكان مقامه فيهم قد أخافهم وثقل عليهم وأثار فى نفوسهم إشفاقاً أن يصيب مدينتهم ما أصاب مكة من اضطراب الأمر ، وانتقاض الضعفاء على الأقوياء واستجابة قوم لهذا الرجل الذى أنكره قومه ولم تره مدينته إلا ما يكره . فتقدموا اليه فى الرحيل عنهم ، ولم يكد يفعل حتى أغروا به سفلة الناس وسفهاءهم فتبعوه يؤذونه بالقول والفعل حتى ألجأوه ضعيفاً مكدوداً وكئيباً محزوناً الى حائط هذين القرشيين ، وأقبل النبى وقوراً هادىء الخطى مطمئن النفس ، تظهر على وجهه الكريم آيات الضعف ، وآيات القوة ، وآيات الحزن ، وآيات الرجاء . ضعف مصدره الجهد والعناء ، وقوة مصدرها الحزم والعزم ، وحزن مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم إلى الخير فيبغونه بالسوء ، ويرشدهم الى النجح فيريدونه بالمكروه ؛ ورجاء مصدره الثقة لأن الله لم يختره لرسالته ليخذله قبل أن يتم أمره . ويعلى كلمته ، ويظهر دينه على الدين كله ، وبأن الله لا يصيبه بما يصيبه به من المكروه إلا امتحاناً لقلبه وابتلاء لنفسه وتمحيصاً لطبعه

أقبل هادئاً والناس من ورائه مضطربون ، مستأنياً والناس من ورائه مسرعون ، حتى انتهى الى ظل من ظلال البستان فجلس متعباً مكدوداً ، والقرشيان ينظران اليه ويرقان له ويعطفان عليه ، وينازعان نفسيهما الى نصره ومعونته ، وقد كادا يفعلان لولا أن ذكرا قريشاً ، ولولا أن ذكر عتبة بن ربيعة صهره أبا سفيان وقدر ما يلقاه وما يلقاه أخوه من قريش إن منح محمداً معونة أو نصراً ؛ ولكنهما رأيا

ابن عمهما يأوى الى ظلالهما مكروباً محزوناً . فلم تملكا أن تمتنعا عن أن يناله بأيسر الخير وأهون البر ، فيدعوان عداساً عبداً من عبيدهم ويأمرانه أن يحمل إلى هــذا الرجل الضعيف المكدود شيئاً من عنب البستان ليصيب منه ، ويمضى العبد منفذاً أمرهما ، ولكنهما لا يستطيعان أن ينصرفا عن مكانهما ولا أن يحولا بصرهم عن ابن عمهما . وقد أهينت فيه قريش كلها ، لولا أن قريشاً قد احتفظت بأحلامها فهما ينظران ويرثيان . ويعمل الأسى فى قلبيهما والعبد يسعى بالطبق الى هذا الرجل المحزون ، حتى إذا انتهى إليه وضع الطبق بين يديه . وأقبل الرجل على العنب يريد أن يصيب منه . والعبد قائم منه غير بعيد . ولكن القرشيين ينظران فيريان عجباً : يريان كأن حديثاً قصيراً قد دار بين الرجل وبين هذا العبد ؛ ثم يريان العبد وقد أكب على هذا الرجل الحزين يقبل رأسه ويديه ورجليه باكياً مستعبراً ، مندفعاً فى حديث لا يكاد ينقضى . مظهراً من التكرمة والاجلال لهذا الرجل ما لم يتعود أن يظهر لأحد من سيديه . فيقول أحد القرشيين : ويحك لقد أفسد علينا ابن عمنا هذا العبد ! وما أرى إلا أن ثقيفاً معذرين إن خافوا منه على عبيدهم وضعفائهم وأقويائهم أيضاً ما خفنا نحن منــه على العبيد والضعفاء والأقوياء ؛ وهــذا الرجل قد نهض وقوراً هادئاً ، ومضى أمامه وقوراً هادئاً ، ومضى العبد معه شيئاً من الطريق . ثم وقف يشيعه بطرفه حتى غاب عن طرفه وعن طرف القرشيين

هنالك عاد العبد الى سيديه ، وفى وجهه آيات الكآبة والحزن . وفى وجهه مع ذلك آيات الطمأنينة والرضى ، ودموع تجرى من عينيه لم يدريا أكانت دموع حزن وابتئاس ، أم كانت دموع غبطة وابتهاج

يقول عتبة بن ربيعة للعبد رفيقاً به عطوفاً عليــه : ويحك يا عداس ! إن لك مع هذا الرجل لشأناً ، فاقصص علينا بدء حديثك فقد رأيناك حفياً به متلطفاً له ، مكباً عليه تقبله باكياً مواسياً ، ثم مرافقاً له تشيعه بشخصك ثم بطرفك . قال العبد : نعم يا مولاى إن لى مع هذا الرجل لشأناً وحديثاً عجباً ، وأحب الى أن أقص عليكما حديثى ! ولكن أى حديثى تريدان ؟ أتريدان حديثى منذ اليوم ، أم تريدان حديثى القديم الذى مضت عليه أعوام طوال . والذى دفعنى إلى بلادكم هذه ، والذى اضطرنى إلى ما أنا فيه من رق ، أعمل لكما بيدى فى هذا البستان . وما عملت لأحد قبلكما بيدى ، وما عملت لنفسى بيدى . وإن كان الناس ليعملون لى كما أعمل لكما الآن ؟ قال عتبة وقد ثارت فى نفسه طبيعة العربى الذى أترف وفيه فضل من بداوة ، فهو مشغوف بالقصص ، كلف بغريب الحديث . قال عتبــة : وإن لك لحديثاً قديماً بينه وبين حديثك هذا الجديد سبباً . قال عداس : نعم . قال عتبة : فاقصص علينا حديثك . وأخذ القرشيان مجلسهما استعداداً لسماع الحديث . وهم العبد أن يبدأ حديثــه قائماً ، ولكنهما أذنا له فى الجلوس فجلس وأطرق وأغرق فى صمت غير طويل ، ولكنه كان عميقاً . ثم قال : لقد انتهيت الى هذا الرجل منــذ حين فسمعته يقول كلاماً ما أعرف أن الناس يقولونه أو يقولون مثله فى هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك حدثنى بحديث ما يعرفه إلا نبى . وكأن حديثه هذا منى على ميعاد ، أو كنت أنا من حديثه هذا على ميعاد . لقد سألنى سؤالاً لم يسألنه أحد منذ وطئت هذه البلاد . سألنى عن موطنى الذى نزحت منــه ، فأنبأته بما لا تعلمان وبما يحسن أن تعلماه الآن ، وهو أنى رجل من أهل نينوى ، نشأت فى بيت من بيوت الأحرار الذين إن لم يتح لهم الملك والامارة ، فقد أتيحت لهم الثروة والغنى ؛ وكنت موفور الحظ من النعمة وحسن الحال ، فارغاً لما يفرغ له أمثالى فى تلك البلاد من تقسيم الوقت بين لذة الجسم ولذة العقل ؛ ألهو ما وسعنى اللهو ، ثم أقرأ وأختلف إلى مجالس العلماء والفلاســفة من القسس والرهبان فأسمع منهم وأتحدث إليهم ، وآخذ معهم فى ألوان من الجدل حول ما يختلف الناس فيه عندنا من أصول الدين والعلم ، وأنتما لا تعلمان من أمرنا فى تلك البلاد إلا قليلاً . إنما تعنيان ويعنى قومكما بما تحملون إلينا من تجارة ، وما تصــــدرون به عنا من مال ، وما تصيبون فى بلادنا من هذه اللذات اليسيرة . فأما ما دون ذلك فليس لكم به علم ، وليس لكم عنه سؤال ؛ ولو قد دخلتم فى حياتنا وعرفتم دقائق أمرنا ، لرأيتم أن فى نفوسنا اضطراباً شديداً ، وغلياناً متصلاً ، وضيقاً بالسلطان ، وتمرداً على النظام ، وإنكاراً لما ورثنا من عادة ، وشكاً فيما تلقينا من دين . ساءت فينا سيرة السلطان فنقمنا من نظام الحكم ، وساءت فينا سيرة القسس فشككنا فى الدين ؛ فأما العاجزون فقد أعطوا طاعة ظاهرة وأضمروا عصياناً خفياً ، وعكفوا

على اللذات يستعينون بها على احتمال الحياة ؛ وأما الأقوياء وأولو العزم فقد فكروا وقدروا وجدوا فى التفكير والتقدير يلتمسون فرجاً من حرج ومخرجاً من ضيق ؛ وكنت فيما رأيت من هؤلاء. فلما ضقت بالحياة فى مدينتى ولم أجد عند علمائها وقسسها شيئاً خرجت مسافراً إلى الشام ألتمس فى السياحة تسلية وعلماً، وأبتغى فيها ظفراً بالخير، ولست أقص عليكما رحلتى إلى الشام ومنازلى فى طريقى إليها، واضطرابى فى مدنها وقراها، ويأسى من قسسها وعلمائها، وضيقى بسادتها وحكامها، ولكنى انتهيت بعد كثير من الاضطراب إلى دير من الأديرة يقوم فى آخر العمران وأول الصحراء مما يلى بلادكم هذه. وأقمت فى هذا الدير دهراً راضياً عن حياته الهادئة المطمئنة راضياً عن حياة أهله الآمنين الوادعين الأخيار، ناعم النفس بعشرتهم مستمتعاً بأحاديثهم، ولكننى سمعت من أحاديثهم عجباً: رأيت لهم فيما بينهم أمراً يتحدثون عنه بالرمز. ويومئون اليه بالاشارة، ورأيت حديثهم هذا الرمزى يكثر ويشتد إمعانهم فيه كلما مرت بديرهم قافلة من قوافلكم هذه التى تتردد على بلاد الروم. رأيتهم يعرفون أنباء هذه القوافل قبل أن تصل إليهم فيتهيأون لها ويستقبلونها ويكثرون من سؤالها، ويظهرون الحفاوة بها. ثم يخلو بعضهم الى بعض، فيتبادلون بينهم أحاديث الرمز والاشارة والايماء، ويقول بعضهم لبعض: لم يأت النبأ بعد؛ أو يقول بعضهم لبعض: لقد انقطع النبأ بعد أن جاءت بشائره. فلما كثر على منهم ذلك أزمعت أن أعلم علمه، فتلطفت لهم وتوسلت اليهم حتى عرفت أنهم ينتظرون إصلاحاً دينياً ذا بال، وأنهم قرأوا فى كتبهم أن هذا الاصلاح يأتيهم من قبل هذه البلاد، وأنهم حسبوا وقدروا ورأوا أن زمان هذا الاصلاح قد أظل الناس، وأن أنباء قد انتهت إليهم وأحاديث قد نقلت لهم. وكلها يدل على أن أوان هذا الاصلاح قد آن. ثم قصوا على من هذه الأنباء والبشائر أطرافاً، فلم أملك أن كلفت بالرحلة الى بلادكم، وقلت ما يمنعنى إن أبعدنى السفر؟ وما يمنعنى أن أتصل بقافلة من قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الأرض، فأعلم من علمها، وأصيب من تجارتها؟ ولعلى أظفر بما يتحرق إليه هؤلاء الرهبان شوقاً؛ وأنتما تعلمان كيف كان الاتفاق بينى وبين تلك القافلة التى أمنتنى على نفسى ومالى، وضمنت لى أن أبلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب من تجارتها وأعود معها من قابل إلى الشام، حتى إذا بعدنا عن بلاد الروم وانقطعت أسبابى من أسباب قيصر عدا أهل هذه القافلة على مالى فاحتجزوه ثم عدوا على فاتخذونى بضاعة وباعونى من صاحبكما ذاك الذى اشتريتمانى منه قريباً من يثرب

فهذا بدء حديثى أيها السيدان، وقد عملت فى بستانكما أعواماً، وكان الناس يتحدثون من حولى بهذه الأحداث التى تحدث فى مكة ويتناقلون من حولى أنباء هذا الرجل الذى ينكر الأوثان ويدعو الى التوحيد. ويريد أن ينصف المظلوم من الظالم، والعبد من السيد، ويسوى بين الضعيف والقوى؛ وكان الناس يتحدثون من حولى بما يلقى هذا الرجل فى بلده من شر. وما يمتحن به أصحابه من ألوان الفتنة، وكنت كلما سمعت هذه الأحاديث هششت لها، وطابت بها نفسى. وأحسست أن النبأ الأعظم قريب؛ وكنت أقدر أن صاحب هذا النبأ يجب أن يكون كاخوانه الذين سبقوه عالماً بدين الله، داعياً اليه. مخبراً من أنباء الأولين بما لا يخبر به الناس، وكم وددت لو أتيح لى أن أنحدر الى مكتكما هذه فأسأل صاحبكما وأسمع منه. ولكن الرق فى بلادكما شديد. فنحن أرأف منكم بالرقيق، وأعطف منكم عليه. وقد لبثت فى بستانكما هذا أسمع الأنباء، وألتمسها وأتحرق شوقاً إلى مصدرها حتى أقبل صاحبكما هذا منذ حين؛ ولقد رثيت له حين رأيته وأوشاب الناس من حوله يؤذونه بألسنتهم وأيديهم. ولقد هممت أن أفزع لنصره والذود عنه، وما كنت أعلم من أمره شيئاً، ولكنها الرحمة عطفتنى عليه؛ ولقد هممت أن أستأذنكما فى إيوائه وإيثاره بشىء من القرى. ولكنى رأيتكما تنظران وتتحدثان ولا تنشطان؛ ثم أمرتمانى بالسعى اليه، فلما بلغته سمعت منه كلاماً ما سمعت مثله فى هذه الأرض. فلما سألته عن ذلك سألنى عن موطنى. فلما أنبأته به قال هذا موطن يونس نبى الله. فما شككت فى أنه صاحبى الذى أقبلت ألتمس أنباءه.

قال عتبة ويحك يا عداس إن حديثك هذا لعجب، ولكنا نخشى أن يفسد عليك صاحبنا دينك. وإن دينك لخير مما يدعو إليه.

قال عداس: مهلاً ياسيدى! إن الذى يقول ما سمعت لايدعو إلى شر ولا يغرى بفساد، ولا يأمر إلا بمعروف. ولا يقول إلا حقاً.

قال شيبة: ويحك يا عداس لقد سحرك صاحبنا فيمن سحر، فماذا

سمعت منه ؟ قال عداس : بل قل لقد هداني فيمن هدى ، ولقد سمعته يناجي ربه بحديث ما سمعت أعذب منـه . لقد حفظت حديثه ، وإنك لتعلم ما أنا بالعربي ، وما حفظ أحاديثكم على بيسير.

قال عتبة : فهات أعد علينا ما سمعت . قال سمعته يقول : « اللهم إليـك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملـكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولـكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولم يفرغ العبد من هذا الحديث حتى أغرق فى بكاء هادئ ، وأغرق سيداه فى وجوم عميق . ثم ثاب القوم جميعاً إلى أنفسهم ونظر القرشيان أحدهما الى بعض نظرة المستخذى الأسف . ثم قال عتبـة لعداس : أنت وما تشاء يا عداس من حب صاحبك وطاعته ، ولـكن لا تنس أن لنا عليك حقاً وطاعة ، وأنا حريصان على ألا تظهر من أمرك شيئاً فتضطرنا فيك الى ما نـكره ، وتضطر قومنا فينا الى ما نـكره

ومضت أعوام وحدثت أحداث ، ونظر العبد الشيخ ذات يوم فاذا محمد صلى الله عليه وسلم قد ضرب عسكره حول الطائف يحاصر فيها ثقيفاً ؛ وكان عداس قد انتقل من ملك ابنى ربيعة بعد موتهما الى الثقفيين ، وإذا نفسه تنازعه الى صاحبـه ، وإذا هو يحرض الرقيق ويبث فيهم الدعوة الى الخروج على سادتهم واللحاق بجيش المحاصرين ، وإذا نفر من الرقيق يجتمعون اليـه ، وإذا هم يقتحمون الأسوار ويهبطون الى العسكر مسرعين وترميهم مقاتلة ثقيف بالنبل فتصرع منهم جماعة فيهم عداس قد مات قبـل أن يبلغ صاحبه العظيم ، ويخلص سائرهم إلى النبى فيهديهم الى الاسلام ويردهم الى الحرية ، وينصرف عن حصار الطائف حتى إذا أسلمت ثقيف تكلمت فى رقيقها أولئك وأرادت ردهم الى الطاعة ، فيقول النبى الـكريم : كلا ! هؤلاء عتقاء الله

طه حسين

منطقـــة الايمان

للاستاذ توفيق الحكيم



حينما كنت وكيلاً للنائب العام كنت أرى عجباً فى قاعات المحاكم وجلسات التحقيـــق ؛ وكنت أفكر كثيراً فى أمر ذلك الشرير الذى طالعت صحيفة حياته فاذا آثام ودماء تسيل منها . ومع ذلك يقف أمامى متطلعاً الى السماء ، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذبا . هـذا الآدمى قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شىء ، لـكن بقيت برغم هذا فى نفسه منطقة عذراء لم يتطرق اليها فساد : منطقة العقيدة ! أهناك إذن حد فاصل بين العقيـدة والغريزة ؟ كذلك كان يدهشنى أمر صديق من خيرة القضاة ، كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ؛ ومع ذلك بقى عقله حراً من كل قيد . ما يدور بيننا حديث فى الخالق والخليقة حتى يذهب هو فى التدليل والمنطق كل مذهب الى أن يقع فى الالحاد وإنكار الجنة والنار . وينادى المؤذن بالصلاة فاذا القاضى يسرع مخلصاً الى ذلك الدين الذى قال فيه منذ لحظة قولاً عظيما . أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى ، فان هذا القول يؤدى حتما الى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا الى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ؛ فما يصدق عند القلب ، قد لا يصدق عند العقل . بل إن كل ملـكة من تلك الملـكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى . يقابل ذلك فى المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين

الحواس ، فعالم البصر منفصل عن عالم السمع ، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية ، وما يعتبر موجوداً فى منطقة العين لا يعتبر موجوداً فى منطقة الأذن ، فهذا الحجر الساكن حقيقة تراها العين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة ، ولن تعرف مطلقاً ما هو الحجر وما شكله ، لأن عالمها وهو عالم الأصوات لا يخطر له على بال أن فى الوجود عالما يسمى عالم المرئيات . فالعقل لا يدرك إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه . والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة ، وليست الحقيقة كلها . ولكنها الحقيقة التى يستطيع العقل أن يراها من زاويته . فاذا كانت العقيدة مرجعها القلب ، فان العقل لن يرى منها إلا الشطر الذى يستطيع أن يراه ، ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع فى دائرة القلب . فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف لا شك فيه عنه القلب ؛ أما العقل فان استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق ، فانه قد يرتاب فى صحة تلك الصفات المنسوبة اليه ؛ وقد يراها فى منطقة صفات آدمية أسبغها البشر على خالقهم إجلالاً له ، لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التى هى فى عرفهم مرادف الاكبار والتقدير . أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ هل تستطيع الكبد فى جسم الانسان مثلاً أن تحيط إدراكا بحقيقة شكل الانسان الخارجى وهى جزء منه داخل فيه ؟ إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التى تمر بها كل يوم فتحولها الى إفرازات دون أن تدرى من أين جاءت ، ولا الى أين تذهب . العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدرى من أين جاءت ولا الى أين تذهب . فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التى تمر بالحواس ؛ ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل ، كمن يطلب الى الكبد مضغ الطعام . فالحقيقة العقلية أو العلمية شىء ، والحقيقة الاحساسية أو الدينية شىء آخر ؛ وإن رجال الدين يقعون دائماً فى الخطأ ، إذ يبسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولاً يتفق مع الدين ، ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين . وما أحراهم فى كلتا الحالين أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين ، وأن يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم فى كلا الحالين كاذب عندهم وإن صدق ، وأن لا شأن للعلم بهم ، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه ، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله ؛ وأن أولئك الملحدين الذين سخروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك فى جوهره ووجوده ، لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود الاسمى الذى بيده نفوسهم . إن عقولهم كانت ترغى وتزبد بالكلام المعقول والمنقول ، وقلوبهم فى معزل عن كل هذا الصخب ، لا تشعر ولا تدرى شيئاً عن المعركة الحامية القائمة فى تلك الرؤوس . فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث . على أن اجتهاد المجتهدين فى هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعى المبنى على الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة ...

وهنا يتساءل الناس دائماً : ما الدين ؟ أهو شىء مفيد للبشر فى أمر حياتهم ومعاشهم ؟ أم إنه طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول ؟ . فى الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين . فالدين كقانون اجتماعى ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، هو أمر متعلق بذات الانسان ، متصل إذن بعقله وعلمه . على أن عنصر « الأخلاق » فى الأديان ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد استطاعت أن تجد فى « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان » ؛ إنما قوة الدين وحقيقته فى العقيدة والايمان « بالذات الأزلية » . هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الانسانى ، بل يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الاحاطة ، والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود . فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل . هاهنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . إنى ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين الى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم فى الدين عن طريق العقل ، فان الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ؛ ولا بد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر الطليق ، كما لا بد لحياة ملكة القلب من

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

الاسلام كعامل فى المدنية *

للاستاذ أحمد أمين



لعل أهم تراث الاسلام وأثره فى المدنية أمران : (الأول) العقيدة الاسلامية ، لأنى أرى أن كل ما نشأ عن الاسلام من فتح وعلم وادارة وفن وغيرها أثر من آثارها ، فالعربى قبيل الاسلام كان هو العربى بعيده ، فى جسمه وجوهر عقله ومعدنه ، ولم يجعله يتجه الى الفتح ويرى نفسه جديراً بأن يقف فى المستوى الذى تقف فيه أرقى الأمم فى عصره — وهما الفرس والروم — بل يرى نفسه أرقى منهما ، وأجدر بأن يحكمهما ويوجههما وجهة خيراً من وجهتهما ويدخل التعـديل على مدنيتهما — الا عقيدته ؛ فهى — وحـدها — الشىء الجديد فى حيـاة العربى المسلم . لم يأت الاسلام فى أول دعوته بنظريات هندسية ، ولم يخترع آلات حربيـة ، ولا فنوناً جديدة ، ولا نوعاً من الادارة جديداً ، لأن هذه كلها أمور ثانوية بجانب العقيدة ؛ فالعقيدة اذا صلحت أصلحت كل فاسد ، ونشأ عنها كل أسباب التقدم ولو كان صاحبها فقيراً جاهلاً ، حتى ولو كان فى بلد جدب وأرض قفر ، ولو لم ينشأ فى مدنية ولو لم يرث حضارة . والعقيدة اذا فسدت أضاعت الثروة الموروثة ولم ينفع معها علم ولم يفد غنى ، كلا ولا تنفع أرض خصبة ولا مدنيـة نخمة ، ففيلة الفرس لم تثبت أمام بعير البدوى ، ولا الدروع المضاعفة الرومانيـة استطاعت أن تصمد أمام نبال العربى وقوسه الساذجة ، لأن بعير البدوى كان يحمل على ظهره قلباً مؤمناً ، وفيل الفارسى كان يحمل فؤادا هواء ؛ والقوس العربيـة كانت تصدر عن عقيدة صحيحة قوية ملتهبة ، ودروع الرومانى كانت تتضمن قلباً لا عقيدة فيه . كل همه شهوة ينالها ومتاع زائل يأمل أن يلتذ به . فان فقـد العربى حياته فى القتال فلا بأس فانمـا يعجل ذلك قربه من الله . واذا فقـد الفارسى أو الرومانى نفسه فيالها من خسارة ، فقد حرم الخمر وحرم النساء وحرم متع الحيـاة ؛ فاذا قاتل العربى قدم حياته فحفظت حياته . واذا قاتل الآخر قدم عدده وادخر حياته فخسر عدده وحياته .

لم يتغير شىء فى حياة العربى عند ظهور الاسلام إلا عقيدته ، وكل شىء تغير غيرها فبسببها . وقد كنت أود أن أقتصر على الـكلام فيهـا لولا أن هناك ناحية أخرى تهمنا كأثر قوى فى بنـاء المدنية وهى « أثر الثقافة الاسلامية فى المدنية » ، فهى من جهة أكبر أثر للعقيدة ، ومن جهـة أخرى أقوى مركز ترتـكز عليه المدنية . لهذا سنحصر قولنا فى هاتين الناحيتين وفيهما الغناء .

العقيدة الاسلامية — كان العرب فى جاهليتهم يعبدون الأصنام ، قد اتخذت كل قبيلة إلهاً من صنم أو وثن ، وقدمت اليه القرابين وجعلته الآمر الناهى ، وهو طور تـكاد تـكون الأمم كلها قد مرت عليـه وان اختلفت أسماء أصنامها باختلاف بيئاتها ؛ ذلك لأن فى طبيعة الناس الايمـان بقوة فوق قوتهم تدفع عنهم الشر وتجلب لهم الخير ، وتحيى وتميت ، وتخلق وتفنى ؛ واذا كان العقل قاصراً ركز هذه القوة فى شىء من المـادة خلع عليه هـذه الصفات ، فأحياناً يكون صنما ، وأحياناً يكون الشمس والنجوم ، وأحياناً يكون شجراً ، وأحياناً يكون حيواناً ، وأحياناً يكون نهراً أو بحراً ، فـكل هذه الـكوائن عبدت عند الأمم المختلفة ، لأنها أحست أن فى أعماق نفسها عقيدة بقوة فوق قواها . تساوت الأمم فى هذا ، ولـكنها اختلفت فى الشكل الذى تجسد فيه هذه القوة فتعبده ، بحسب قوتها العقلية والخيالية ومواضعها الجغرافية وبيئتها الاجتماعية

* ملخص المحاضرة التى ألقاها الأستاذ فى جمعية الشبان المسيحيين ببيت المقدس

الشعور الحار العميق . فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الـكلامية التى هى كل بهرجهم الآدمى الأجوف ، فان كل هذا الضجيج العقلى لن يصل خبره إلى القلب الذى لا يفتر لحظة عن التسبيح رغماً عنهم بالعقيدة التى ركبت عليها حياته النابضة ...

توفيق الحكيم

وكانت هـذه هى الحالة الساذجة للعبادة عند الأمم يعترفون باله أو آلهة ، ويشكلونها فى شىء محسوس يقدمون لهـا صنوف التعظيم والتمجيد — فكرة حق ولكنها اتخذت مظاهر خرافية كالطفلة فى غريزتها الأمومة ، وفى طبيعتها الاشراف على تنظيم الحيـاة البيتية ، فهى تتخذ لها لعباً من عرائس تجعلها أبناءها وبناتها وتمنحها عطفها ، وتنفذ عليها أوامرها اجابة لداعى الغريزة الكامنة وارهاصاً لـما يكون منها بعد نموها

وأحياناً يحاول أن يتخلص من المـادة فيعبد أرواحاً جناً أو ملائكة أو نحو ذلك ، ولكن سرعان ما ينتكس ثانية فيسبغ عليها أوصاف المادة فيجعلها ذكوراً وإناثاً ، ويجعل لها أجنحة تطير بها ، ويجعل لها قروناً وذيولاً لأنه لم يرق حتى يستطيع أن يتحرر من عبادة المادة بتاتاً

كذلك كان العرب بل كان أكثرهم فى حالة منحطة من عبادة المادة ، يعبدون الحجر لا النجوم ولا الأرواح ، ويأتمرون بأمرها فى زعمهم فى اقامة ورحيل ، واقدام واحجام ، وزواج وطلاق

وعبادة الأصنام كائنـة ما كانت — تشل حركة العقل ، وتضعف قوة النفس ، وتحط الحياة الاجتماعية ، وتجعلها حياة خرافية وضيعة . مثل هـذه العقيدة تعوق العـلم ، لأن العلم لا يلائمها ، وتعوق التفكير الصحيح لأنه ليس من طبيعتها ، وتعوق التقدم الاجتماعى لأنه أساس اطلاق الفكر من قيوده ، والفكر مشلول بعبادة الأصنام

ومن أجل هذا كان أهم ما أتت به سلسلة الأنبياء محاربة هذه العقيدة ، وتخليص الفكر من قيوده التى قيدته بها العقيدة فى الحجر والشجر ، والنجوم والبحار والأنهار ؛ وكان نجاحهم فى أول الأمر قليلا قليلا ، لأنه لم يكن يقوى على احتمال تجريد الاله عن المـادة الا القليل من الناس ، وحتى فى العصور الحديثة لا تزال النزعة الى مادية الاله تتسرب فى أشكال مختلفة ، مع رقى العقل البشرى ونموه ونضوجه

وقد بدأت هذه الدعوة الى التجديد فى الأمم السامية من عهد ابراهيم ، واستمرت بين الظهور والخفاء ، وكلما تقدم الناس كانوا أكثر لها استعدادا وأقرب قبولا ، حتى أتى محمد (ص) فدعا دعوته الجريئة الصريحة الى كسر الأصـنام وتحطيم الأوثان وتخليص العقيدة من كل شرك ، وتجريد الله عن كل مادية ؛ وكان شعار عقيدته « لا إله إلا الله » ، ومدار عقيدته « ليس كمثله شىء » ؛ فالأصنام ليست تصلح لشىء الا للمعاول ، والنجوم هو الذى خلقها ونظم حركاتها ، والبحار والأنهار هو الذى خلقها وأجرى ماءها ، والملائكة هو الذى خلقهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، لا شىء يشاركه فى ألوهيته من مادة أو روح — هو حقيقة واضحة معقولة لا فى شكل — غيبت عن العقول حقيقته ، وظهرت لهم صفاته ، فهو الخالق لكل هذه الظواهر ، وهو الذى يسيرها ، وهو غرضها الأسمى ؛ هو وحدة لا تعـدد فيها بأى حال — تنزه عن المـادة وتنزه عن الشريك

سلك القرآن فى الدعوة الى الايمان مسلكا خاصا ، فبعد أن أبان للانسان أن الله خالق كل شىء ، وأنه رب العالمين ، طلب اليه أن ينظر الى كل شىء فى العالم من صغير وكبير ، فسيرى فيه مظهراً من مظاهر الألوهية ، ودليلا على عظمة الله وقدرته

لم ينهج القرآن منهج الفلاسـفة فى دوران العقل حول نفسه ليستخرج منها نظريات مجردة ، ومقـدمات ونتائج منطقية ، انمـا طلب أن تمتزج النفس بالعالم ، وأن ينفذ العقل الى رب العالم عن طريق العالم ، لأن هذه الطريقة أكثر إحياء للشعور ، ومبعثاً لحياة القلوب ؛ والايمان ليس يعتمد على العقل وحده ، بل هو يعتمد على القلب أكثر من اعتماده على العقل . من أجل هذا طلب القرآن النظر الى كل شىء فى العالم من الذباب والنحل والعنكبوت ، الى الفيل والجمل ، الى البحر والنهر ، الى السماء والأرض ، الى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، الى الشمس والقمر ، الى الليل والنهار . والقرآن مملوء بالآيات التى تصل الانسان بالعالم ، وتصل العالم بالقلب ، وتبعث حرارة الايمان بالله ، وتملأ القلب حياة وحماسـة . وهذا هو الذى ملأ صـدر الصدر الأول من المسلمين بالعقيدة ، وجعلهم يبيعون أنفسهم فى سبيل الله عن سـخاء . وهذا بعينه هو الذى شجع المسلمين على البحث العلمى ، فقد اتجهوا الى العالم يستدلون به على خالقه فدفعهم ذلك الى العالم يتعرفون طبيعته وقوانينه ، وهذا هو العلم . لم يطلب اليهم الاسلام أن يعيشوا فى صوامع يديرون طاحونة العقل على

هواء ، بل طلب اليهم أن يتصلوا بالعالم يدرسونه وينظرون فيه خالقه وخالقهم ، فكان ذلك داعية للعلم والمدنية معاً . لم يتطلب الاسلام من صاحبه أن يعيش عيشة روحية مطلقة مجردة عن المادة ، بل طلب اليه أن يمزج الحياة الروحية بالحياة المادية ، وأن يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، وأن يتزوج ويصلى ، وأن ينعم بالحياة فلا يحرم على نفسه زينة الدنيا وطيبات الرزق كما ينعم بالنظر وبالتفكير فى ملكوت الله ، وبعبارة أخرى لم يتطلب الاسلام من الانسان أن يكون ملكا ، وانما طلب اليه أن يكون انساناً كاملا ، يعيش وفق ما خلق ، فقد خلق جسما وروحا ، فلجسمه عليه حق ، ولروحه عليه حق ؛ فلا عجب بعدُ أن رأينا المسلم يساهم فى بناء المدنية لأنها واجبه ، وفى بناء الروحية لأنها مطلبه

لم ينح الاسلام منحى العلم ، يقرر القوانين جافة جامدة كما تفعل العلوم الرياضية والطبيعية ، وكما تفعل الميتافيزيقا اليونانية فهذا هو العلم ؛ ولكنه سلك مسلكا سماه « الحكمة » وقال : « ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الألباب » ؛ وما الفرق بين العلم والحكمة ؟ العلم هو هذا النوع من المعرفة التى تأتى من طريق الحواس وما تألف منها ؛ فاذا نظمت هذه المعارف ووضعت كل طائفة منها فى مجموعة سميت علماً . أما الحكمة فمزج الروح والنفس بالعالم ، والعلم يغذى العقل وحده ؛ أما الحكمة فتغذى العقل والمشاعر ، وهذه المشاعر هى التى عبر عنها الدين بالقلب والفؤاد . اذا كان العلم ينظر الى الانسان فيقسمه الى أجناس ، والى أمم ، والى ذكور وأناث ، فالحكمة تنظر الى الانسانية فى الانسان والى الانسانية التى من ورائها الله يسيرها وينظمها ويمنحها الوجود ويمدها بروح منه . واذا كان العلم يقسم النبات الى فصائل ، ويميز اختصاص كل فصيلة ، فالحكمة ترى فى اختلاف أنواع النبات دليلا على القدرة الالهية . وهكذا بينا فى العلم تمد الطبيعة رباطا بينها وبين العقل ، تمد الحكمة رباطين أولهما وأولاهما بينها وبين القلب ، وثانيهما بينها وبين العقل

ومن أجل هذا عنى القرآن بمظاهر الاختلاف بين القوانين الطبيعية أكثر مما عنى بتقرير القوانين الطبيعية الجزئية ، فهو يلفت النظر الى الانسان ، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ، ثم كان من المضغة عظام ، ثم كسا العظام لحما ، ثم كان من ذلك انسان

ولفت النظر الى اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، واسترعى النظر الى السحاب يسير باذن الله ، ثم يمطر ماء فتكون منه زروع وجنات يأكل منها الانسان والأنعام ، والى الانسان واختلاف ألوانه واختلاف ألسنته ، والى حركة الماء فى البحار والأنهار وتلاقيهما . وهكذا عُنى القرآن بهذه المناظر المتغيرة ، وبهذه الحركة الدائمة لأنها أمس بالشعور وأقرب الى الحكمة وأدل على المحرك والخالق والمدبر ، فكانت بذلك مبعث ايمان صادق حار لا يفتر

وقد غفل علماء الكلام من المسلمين عن الفرق بين العلم والحكمة ، وبين الفلسفة والدين ، وبين منهج القرآن ومنهج اليونان ، فحولوا — وعلى رأسهم المعتزلة — الدين من القلب الى العقل البحت ، وألفوا العقائد فى شكل قضايا منطقية ، فتحجر الدين ، وانقلب جسما جامدا لا روح فيه ، فخمدت حرارته ، وضعفت شعلته ، وقل نوره وضياؤه

بهذه العقيدة التى ألممنا بها نقل الاسلام العرب من أفق خرافى ضيق كسم الخياط ينحصر فى تقديس الحجر والرجوع اليه فى أهم الأحداث ، الى أفق فسيح لا حد لسعته ، يطالع فيه جميع المخلوقات فى الأرض والسماء ، ويسبح بعقله وشعوره فيها ، ويمتزج بها ، بل هو لا يقف عند ذلك ، ويتعداه الى إله مجرد عن المادة ، ومنزه عن شبه المادة ، يحكم العالم ويسيطر عليه ، وينظمه ويسيره ، وهو وحده لا شريك له رب العالمين

وضع الاسلام فى يد العرب الذين كانوا يدينون بالأصنام معاول يكسرون بها الأصنام ، وهم اذ كانوا يكسرونها حسياً كانوا يعلنون بعلمهم أنهم تحرروا من رق الخرافة ، وسموا عن تقديس حجر ، وارتفعوا بتفكيرهم وشعورهم الى ما فوق المادة ، واتصلوا باله الكون يستمدون منه القوة ، ونظروا من طيارة الى من حولهم من الناس يرثون لحالهم ، اذ رأوهم بائسين ، كما كانوا هم بالأمس ، من فرس مجوس يعبدون ناراً ، وما النار إلا مخلوق ضعيف تشبه فى ضعفها الأحجار التى كانوا يعبدونها أيام جاهليتهم ، ومن رومان

تركوا وراءهم دينهم الصحيح وأخذوا يعبدون شهواتهم فعبدوا الخمر وعبدوا النساء، وعبدوا المال وعبدوا الجاه ، وما كل ذلك إلا أصنام كأصنامهم التي حطموها بالأمس ، وما هي إلا ضرب آخر من ضروب النار التي يعبدها المجوس تشب بين جوانحهم . هؤلاء الفرس وهؤلاء الرومان الذين كانوا بالأمس القريب ، المثل الأعلى للعرب ، والذين كانوا يرون في أعماق نفوسهم أنهم أنفسهم عبيد ، وأن الفرس والروم سادتهم ، وأنهم سوقة والفرس والروم ملوكهم ، وأنهم أذلة والفرس والروم أعزة ، وأنهم فقراء وأمل الآمل منهم أن ينال من متاجرته مع الفرس والروم شيئاً من فتاتهم ومما تناثر من أيديهم ؛ هؤلاء الفرس والروم أصبحوا في نظر العربي المسلم أسرى عقائد فاسدة ، وأسرى شهوات وضيعة ، وأن مالهم وجاههم وعددهم وزينتهم لا تساوى شيئاً بجانب صحة عقيدتهم هم ، لقد كانوا ينظرون اليهم من غواصة فيحسدونهم على استنشاق الهواء على ظهر الأرض ، فأصبحوا ينظرون اليهم من طيارة عالية جداً فيرونهم حشرات حقيرة تتقاتل على متع دنيئة ، ويرونهم المثل الأدنى للانسانية . وقد كانوا المثل الأعلى ، وأنهم أحق بالعطف عليهم والأخذ بيدهم ، وقد كانوا من قبل يستجدونهم ويستذلون لهم ويخطبون ودهم . لم يقلب هذا الوضع عند العرب الا العقيدة ، وكفى بها ثورة : ثورة في العقل وفي القلب وفي والخلق جعلتهم كأنهم خلق آخر

هذه العقيدة بما أضاءت وبما بعثت من حكمة جعلتهم فوق العلم . ان شئت فانظر الى عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة ، وسعد ابن أبي وقاص وأمثالهم — ماذا كانت ثقافتهم العلمية بالمعنى الذي نفهمه الآن ؟ كانت لا شيء ، أو كانت ضعيفة كل الضعف ، فليسوا على علم واسع بقوانين الحساب والهندسة ، ولا بالجغرافية ، ولا بشيء من فروع العلم ، ولكن أضاءت الحكمة أذهانهم وقلوبهم ففاقت العلم ؛ والا فكيف استطاع عمر بن الخطاب — مثلاً — أن يدير هو وأعوانه مملكة الفرس والروم ، وقد بلغتا في الحضارة شأواً بعيداً ، يعرف أهلهما الجغرافية معرفة واسعة ، ويؤسسون المملكة على نظم ادارية وحربية دقيقة ، وعندهم علم وأدب وفن . لو عهد بأقليم من أقاليم الفرس والروم الى عمر في الجاهلية لحار في إدارته وارتبك ، ولساسه كما يرعى الشاء والابل ، ولكنه الاسلام وما بعث من حكمة غير نظره الى الأشياء وجعله ينفذ ببصيرته الى نظم الفرس والروم فيدرك منها الصالح وغير الصالح ، ويعدل في ادارتها وشؤونها الاجتماعية تعديلاً لا يستطيعه العالم الماهر الذي تنتجه ، حتى حضارة اليوم . فهو يغير من نظام الضرائب ، وتوزيع الأراضي ، وتدوين الدواوين . ويستطيع وهو في مكة أن يرسم خطة السير لحكومة تسوس العراق ومدن الفرس ، كما تسوس الشام ومدن الروم ! انها احدى العجائب الكبرى أن يصل بدوى الى ذلك ، وعهدنا بالبدوى الهمجي يخرب ولا يعمر ، واذا غزا وانتصر فكل مطمعه في الغنيمة . فما بال عمر وأمثال عمر يدخل التحسينات على الحضارة ، ويقترح فيما يزيد العمران ، ويبث في الحضارة القديمة روح العدل والاحسان ؟ لا شيء غير العقيدة الاسلامية محصت نفسه ، وطهرت قلبه ، وجعلت نظره ينفذ الى بواطن الأمور ، يعدل على الذين لا يرون الا الظواهر ، ولا يهمهم إلا بهرجة الدنيا ، والزخرف الظاهري

فان نحن عددنا العقيدة الاسلامية — بالشرح القليل الذي شرحنا — أثمن ما قدمه الاسلام الى المدنية لم نكن مبالغين

هذه العقيدة لا تقر بعظمة إلا عظمة الله ، ولا تقر بتقديس ملك ولا بامتياز لرجال دين ، ولا تعترف بوساطة أحد بين الانسان وربه ، ولا بأي نوع من أنواع الأرستقراطية : لا أرستقراطية المال ولا أرستقراطية العلم ولا أرستقراطية رجال الدين . كل الناس سواء . الناس من تراب وإلى التراب يعودون . ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . وخير الناس أنفعهم للناس

(البقية في العدد القادم)

أحمد أمين

منذ ألف عام

للاستاذ على عبد الرازق

يوجد بين حياة الشرق فى العصر الحاضر ، وبين حياته منذ ألف عام مضت ، نوع من التشابه يستوقف النظر . وقد يكون فى دراسة هذا التشابه واستقصاء البحث فيه لذة ومتاع للنفس ؛ وقد يكون فيه مع ذلك فائدة للعلم

وما ندعى أننا نستطيع الآن أن نستوفى جوانب هذا البحث أو نلم به المامة واسعة ، وانما نريد أن نفتح هذا الباب للباحثين لعلهم يجدون فيه خيرا كثيرا من أنواع المتاع وفنون العلم

وفى الحق انه يوجد دائما نوع من التشابه بين صور هذه الحياة الدنيا ماضيها وحاضرها وقديمها وحديثها ؛ وما دام الناس هم الناس فى جميع العصور ، وما دامت كواكب السماء تروح وتغدو فى دورة منتظمة لا تبديل فيها منذ وجدت كواكب السماء ، وما دامت الأرض هى بعينها الأرض فى الماضى والحاضر ، فمن الطبيعى أن تتشابه الى حدّ ما صور الحياة وأن يحاكى بعض الحوادث بعضا

والذى يقارن بين أى جزء من أجزاء التاريخ وبين أى جزء آخر منه لا يعجز عن أن يتبين بينهما مظاهر من التشابه والتماثل ؛ ولكن التشابه الذى يجده الناظر بين حياتنا الحاضرة وبين الحياة من ألف عام ليس هو من هذا النوع الذى يلحظ بين جميع أجزاء الحياة وجميع مظاهرها . وليس هو من القلة بحيث لا يستلفت النظر ولا يثير رغبة البحث . فالتشابه هنا ظاهر وقوى يكاد يجعلهما صورة واحدة لعصر واحد

على أنه مع ظهوره وقوته لا يبلغ أن يكون دليلا على تماثل العصرين من جميع الوجوه ، ولا على اتفاق العصرين فى جميع الصفات والخصائص ؛ وهو لذلك لا يبلغ أن يكون دليلاً قاطعاً على صحة مايذهب اليه بعض الباحثين من أن التاريخ يعود بنفسه

منذ عام توفى المرحوم أحمد شوقى أمير الشعراء ؛ ومنذ ألف عام توفى أبو الطيب المتنبى ؛ وبين الرجلين من التماثل ما يشبه أن يكون مثلاً صادقاً لرجعة التاريخ ، فقد يمكن القول بأن متنبى القرن الرابع كان شوقى القرن الرابع عشر ، وبأن شوقى القرن الرابع عشر كان هو متنبى القرن الرابع !

دع عنك ديباجة الشعر وما بين الشاعرين فى ذلك من توافق جد قريب ؛ وانظر الى ما أحاط بالرجلين من ظروف وملابسات ؛ فقد كان عصر المتنبى عصراً داوياً بالشعر زاهياً بالكثير من الشعراء ، ولكن شعر المتنبى قد غطى على أكثر تلك الأصوات الداوية ؛ وقد غمر اسم المتنبى أكثر تلك الأسماء فكان كما قال عن نفسه :

أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

وكذلك كان شوقى فى عصر يدوى بالشعر ويزخر بالشعراء ففلج عليهم شوقى باسمه وبشعره ، وجاءه الشعراء من كل صوب يبايعونه بأمارة الشعر

وقد كان المتنبى شاعراً مداحاً وكذلك كان شوقى ؛ والمتنبى كان يتنقل بمدائحه من جناب الى جناب . ومن بلد الى بلد ، وكذلك فعل شوقى

ولقد أخلص المتنبى فى مديح سيف الدولة فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلوداً لا يبلى ؛ وما كان سيف الدولة لولا المتنبى الا ملكا كسائر الملوك

وكذلك أخلص شوقى فى مديح سمو الخديو عباس الثانى ، فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلوداً لا يبلى ، وسجل اسمه مشرقاً وضاء فى سماء المجد حيث لا يلمع كثير من الأسماء الطنانة

اننا لنأسف اذ لا نجد بين أيدينا صورة مفصلة لجوانب الحياة الاجتماعية فى مصر منذ ألف عام لنستطيع أن نقارن بينها وبين جوانب حياتنا الاجتماعية الحاضرة لنستخلص ما يكون بين الحياتين من تماثل قريب أو بعيد

على أن ذلك لا يمنعنا من أن ندرك ما بين الحياتين اجمالاً من تشابه قوى الى حد يثير العجب ؛ فلقد ترك المتنبى وصفا واضحا وان كان مجملاً للحياة فى مصر أيام عرفها المتنبى واتصل فيها بنعمة كافور الأخشيدى . ولعمرى لا يزال أكثر ما قاله المتنبى فى ذلك أو كله ينطبق على حياتنا الحاضرة ويصفها وصفا صادقاً :

نامت نواظير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد

وكم ذا بمصر من المضحكات   ولكنه ضحك كالبكا

أنا لفي زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس احسان واجمال

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه   أنى بما أنا شاك منه محسود

ولما صار ود الناس خبا   جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه   لعلمى أنه بعض الأنام

الخ الخ

* * *

منذ ألف عام كانت الخلافة الاسلامية فى بنى العباس تشارف النهاية وتلفظ الأنفاس الأخيرة من حياتها

وكان العالم الاسلامى فى جملته يضطرم ثورة . ويتأجج بالمنازعات السياسية ناراً

على أن ذلك الاضطراب السياسى لم يمنع من سير الحياة الاجتماعية والعلمية فى بلاد العالم الاسلامى سيراً مطرداً الى الأمام

وعصرنا الحاضر يشهد تلك المشاهد نفسها أو قريبا منها ، كما شهدها أجدادنا منذ ألف عام

ألا ليت شعرى هل صحيح أن للتاريخ رجعة ؟ واذا كان ذلك حقا فهل يرجع التاريخ كل ألف عام ؟

على عبد الرازق

مصرع الحسين

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى



كان لنا ، قبل الحرب ، صديق معمر . من بنى الفرس — أو من أجدادهم الأولين على الأصح — فقد كان عمره فوق المائة ، وكنا نحاسبه فيكون تارة مائة وعشرين . وأخرى مئة وبضع سنوات . فأضحك وأقول : « يجب أن نقيد هذه الأرقام الرواغة » . وأتناول القلم . وأقيم سنه على الورقة ، وأنظر اليه ، وأقول : « تفضل ! قبل أن يغرق الطوفان الأرض كنت سعادتك سفيرا لدولتك عند روسيا . ولما صعق موسى عند دك الجبل ، كنت .... » فيتكلف الغضب . وينهرنا عن هذا العبث ويقول : « اختش يا ولد ! »

وكان على عظم ارتفاع سنه قوى البنية ، متين الأسر ، وكنا نسأله عن سر ذلك . فيقول إنه لم يتزوج قط ، فأضحك وأقول : « هات سبباً آخر . فإن هذا معلوم ، مفهوم بالبداهة ! » فيرفع عصاه الغليظة ، ويلوح بها كأنما يهم بضربى ، فينقلب ضحكنا قهقهة عالية مجلجلة ، ويسره سرورنا فيفىء الى الرضى

ويقول لنا أحياناً : « تعالوا نتمشى » ، فنسأله : « أين ؟ والى أين ؟ » . فيقول : « فى طريق الجيزة » ، وكان بيته فى « باب الخلق » . فنخرج معه ، إلى الزمالك ويقف بنا على جسره هنيهة ، يحدثنا ويروى لنا أخبار القرون الأولى ، أو يرتجل شعراً فكاهياً نجيزه . أو نشطر قصيدة لواحد من شعارير ذلك الزمان تشطيراً يخرج بها إلى الهزل الصريح والمجانة الشديدة ، وأذكر من مطالع قصائده المرتجلة :

« قفى حدثينى عند كوبرى الزمالك
وروى غليل القلب يا أم مالك »

ثم نستأنف السير بعد أن نميل إلى طريق الجيزة ، حتى نفتر ونكل ، وتخذلنا أرجلنا ، وهو لا يزال كما بدأ ، فيسخر منا ، ويوسعنا تقريعاً وتعييراً ، فلا نبالى ، ونقعد على الأرض من شدة التعب . ويتفق أن تمر بنا سيارة ، تخطف ، فيشير اليها ويقول مازحا : « خذونا ، أخذكم الله ! »

ولم يكن هزالا ، وإنما كان يوسع لنا صدره ، ويتقبلنا على علاتنا ، ويأنس بنا كأنسنا به ، وكانت الدنيا كلها أصدقاء له ، ولكنا نحن كنا نلازمه بعد أن نفرغ من أعمالنا ، وكان بيته نادينا ، وفيه تعقد حلقتنا الأدبية الخاصة . وما أكثر ما كنا نقول له : « نريد أن نأكل أرزاً فارسياً » فيمضى بنا الى المطبخ لنساعده ، فهذا يقشر بصلا ، وذاك يغسل آنية ، وثالث يضرم النار ، وهكذا ، حتى يطبخ الأرز ويغرف فى الصحون ، ثم نحف به — أعنى بالأرز — ونقبل عليه فنلتهمه

وكان لنا خيراً من الأب ، وأخلص من الصديق وأوفى ، وكان ربما رأى أحدنا ساهما أو واجماً . فيسأله عن سبب ما يبدو عليه ، فيفتح له صدره ، ويبثه ما فيه ، ويقول له يشجوه ، حباً كان ذلك أو هماً ، أو غير ذلك ، فيشير عليه بالرأى الناضج ،

ويخلص له النصح ، ويقوى ضعفه ويشجعه ، ولا يزال به حتى تعود اليه البشاشة

وقال لنا يوماً : « خـذوا » وناولنا بطاقات فيها دعوة إلى ما كان يسمى « زفة الحسين » ، وما هى بزفة ، وإنما هى مأتم ، ولـكنها هكذا كانت تدعى على ألسنة العامة . فذهبنا فى الموعد المضروب الى بيت رحيب فى زقاق ضيق ، فوجدنا هناك كثيرين من رجال مصر المعروفين ، أجلسنا معهم ، ثم دعينا الى مائدة مثقلة بألوان الآكال الشهية ، وكان الأستاذ البرقوقى الى جانبى ، فظمئ على الطعـام ، وأسر الى بذلك — لا أدرى لـماذا — فأومأت الى الخادم ، فناوله كوباً رفعه الى فمه ، وما كاد يفعل حتى رده عنه ، وقال : « بففف ! » ، ذلك أنه كان سكراً مذاباً لا ماء . فعجبنا واتقينا أن نشرب

وانحدرنا الى صحن الدار ، وكان فيها منبر ، ارتقى اليه شيخ فارسى ، وانطلق يقول كلاماً لم نفهمه ، ولـكن صوته كان يتهدج وكانت الدموع تتسايل على خديه ، وتبل لحيته الـكثة ، وقيل لنا إنه يرثى الحسين ويندب مصرعه ، وكان الذين يفهمون كلامه من بنى جنسه يبكون ، بل يعولون ، ومنهم من كانت تهيج حرقته فيلطم ، أو يضرب صدره أو ظهره العارى بسلسلة غليظة من الحديد ، أو يضرب جبينه ببطن سيف مسلول ، أو بكله — أى قفاه الذى ليس بحاد — ولـكن أحـــدهم اضطرب وهو يفعل ذلك فأصاب حد السيف جبينه فانفجر الدم كأنه من نافورة ، وقد خفوا اليه ، وضمدوا جرحه ، وعصبوا له رأسه ؛ وهال أحدنا منظر الدم ، وظن أن الرجل لا محالة هالك ، فأغمى عليه ، وسقط على الأرض كما تسقط الخشبة ، فأنشقوه شيئاً فى زجاجة أنعشه ورد اليه روحه

ولا أحتاج أن أقول شيئاً فى وصف الموكب الذى يخرجون به ويطوفون بالشوارع وهم يدقون صـدورهم العارية أو يضربونها بالسلاسل ، أو يخبطون وجوههم أو عواتقهم ببطون السيوف ، فان ذلك كله معروف مألوف ، وإن كان قد انقطع ، والأكثر من الناس قد رآه فى زمانه ، ولـكنى أقول إنى بعد بضعة أيام من شهود هذه « الزفة » وقعت على مقال فى مجلة انجليزية لـكاتب انجليزى أو ألمـانى — لا أذكر ، فان العهد بها بعيد ، وقد فقدتها على الرغم من حرصى عليها وتحفظى بها — وفى هذا المقال يذهب الـكاتب — والأرجح أنه ألمـانى — إلى أن الحسين بن على رضى الله عنهما ، تعمد أن يضحى بنفسه ؛ وأذكر أنه قال إن الحسين لم يكن أبله ، فقد حاول أمراً عرف مبلغ استحالته ، ومع ذلك أصر على الزحف ، وليس معه إلا النساء والأطفال وحفنة صغيرة من الرجال ، مضى بهم وبنفسه معهم إلى بوار محقق

وقد دارت فى نفسى هذه المقالة ، فذهبت بها إلى صـديقنا الفارسى ، فقد كان عالما واسع الاطلاع ، غزير المعرفة ، وترجمتها له ، وسألته عن رأيه فيها ، فلم يتردد فى الموافقة عليها . وقد فكرت بعد ذلك فى أمر الحسين وفى مغامرته العجيبة ، فلم يزدنى ذلك إلا اقتناعاً برأى هذا المستشرق الألمـانى ، وبغير ذلك لا أدرى كيف يستطيع المرء أن يفسر اقدامه على طلب الخلافة وسعيه لانتزاعها من بنى أمية ، فقد عرض نفسه على كثير من القبائل فما وجد منها إلا اعراضاً وانصرافاً ، أو على الأقل فتورا شديدا عن نصرته ، من حقه أن يثبط ، وليس من شأنه أن يشجع ؛ ولم يكن حوله من الرجال من يطمع أن يديل بهم من بنى أمية ، وحمل معه النساء حتى لـكن أكثر من الرجال ، ولم تصده عن السير خيبة مساعيه عند القبائل ، ووضوح خذلانها له ؛ والتقى برجال بنى أمية فعرضوا عليه ما لا يمكن أن يحلم بالفوز به بمجهوده ، فأباه وأصر على المغامرة ، فوقعت الواقعة ، وكانت هذه المجزرة الخالدة التى لا يزال أثرها باقياً الى اليوم

ولم يكن الحسين مجنوناً ، ولا طياشاً ، ولا عرف عنه ما يحمل على سوء الظن بعقله ونظره ، فـكيف هم بأمر كان من استحالته على يقين جازم ؟ ؟ وهبه كان مخدوعا فى اول الأمر فقد رأى من الاعراض عنه والخذلان له ، والزهد فى الانتقاض على بنى أمية ، والخوف من بطشهم وانتقامهم ، ما يدفع إلى اليأس ويغرى بالقعود ؛ ولا يمكن أن يقال إنه كان يرجو فلاحا ، فما كان معه فى زحفه إلا النساء وإلا عشرات لا تغنى ، ولا يعقل أن تصبر على قتال دولة ذات بأس وصولة ، وما رأى أحدا استجاب لدعوته ، أو أبدى استعدادا للحاق به ، حتى يقال إنه كان ينتظر نجدة ومددا ، وهؤلاء النسوة من آل بيته لم أصر على حملهن معه وزحفه بهن ، وقد كان خليقاً بعد أن رأى كيف خذلته القبائل أن يشفق عليهن ويردهن ليقيهن أن يصرن الى ما هو صائر اليه لا محالة . ألا يعذر من يذهب إلى أن استصحابه لهن إلى المذبحة ، إنمـا كان مقصودا

به أن يحف المصرع الذى مضى اليه عامدا بكل عوامل الاستفزاز وعناصر الايلام المثير ؟ ؟ لقد ألقى بهن معه على القتل أو الاذلال والتحقير والهوان . وهن آل بيت الرسول صاحب هذا الدين . فلولا أنه تعمد أن يضحى بهن معه ليقيم القيامة على بنى أمية . لكان أيسر التفكير كافياً لحمله على اقصائهن عما سعى اليه ووطن نفسه عليه ، ولكنه نظر فرأى أن استرداد الدولة من بنى أمية مطلب لا سبيل اليه ولا مطمع فيه . فيئس من إمكان ذلك بالوسائل المألوفة ، فقال أنسف الدولة الأموية من قواعدها ، وأ كون أنا اللغم الذى ينفجر تحتها ، فيزلزلها ويدك بنيانها ، ويطير أنقاضها . ويجعل عاليها سافلها ؛ ولا بد لذلك من أن تكون التضحية تامة . وعلى أبشع صورة من الصور . وأرغم بنى أمية على أن يقتلونى أقبح القتل ، وأن يمثلوا وينكلوا بى وبأهلى أشنع التمثيل والتنكيل ؛ فيستفظع المسلمون منهم ذلك — على قرب العهد بالرسول — وتنضطرم نفوسهم بالموجدة والنقمة عليهم ، وينقلب العالم الاسلامى بركاناً يظل يفور ويغلى فى جوفه الحقد والبغض ، ثم ينفجر . فلا يبقى ولا يذر ؛ وإنى لميت ميت ، طال الأجل أم قصر ، وخير من أن أموت حتف أنفى . أن أجعل ميتتى تكلف بنى أمية ملكهم كله ودولتهم أجمعها ؛ ولقد خرج الأمر من أيدينا وصرنا رعية لبنى أمية . فاذا رضينا وقنعنا من الحياة بالطعام والشراب . وقعدنا ننتظر الأجل فى أوانه . ثبتت الدولة ورسخت قواعدها . وإنى لأعلم أنه ليس لى حول ولا قوة ، ولكن فى وسعى أن أملأ نفوس المسلمين قيحاً وصديدا من كره بنى أمية ، إذا بذلت دمى . ودمى ؟ وهو سيجمد فى عروقى يوما ما ، فأولى أن يخضب الأرض فلا تلبث أن تنقلب جحيما عليهم ؛ وما خير أن أ كون سبط الرسول إذا أنا لم أرج الدنيا بذلك ؟ وإن الأمر لراجع الينا لا محالة إذا أنا جعلت من نفسى ومن أهلى ضحايا لبنى أمية ، ويجب أن يكون قتلنا استشهادا مروعا لتكون الدية هذه الدولة كلها

لهذا أصر على المغامرة ، وهو على يقين من نهايتها ، وأعرض عن ذكر العواقب التى كان يعرفها معرفتها ، ولم يكترث بخذلان من دعاهم الى نصرته ، بل اغتبط بذلك ، وحمل أهل بيته معه ليحيق بهن كل مكروه من الأذى والهوان ، وليكون ما يصيبهن أبلغ فى إشعار العرب هول الفجيعة ، وأبى أن يجعل أذنه الى الذين أشفقوا عليه أو سعوا عنده ليترضوه ويحملوه على العدول . أو وعدوه ما شاء غير الخلافة ؛ ولم يكن يخفى عليه أنه يعاند ويكابر ويتحدى الأقدار . ولكنه كان يدرك أن هول المصرع الذى يسير اليه مصمما عليه سيطوى كل ذكر لما عداه . فلا يبقى إلا أن بنى أمية قتلوا سبط الرسول وآله . ومثلوا بهم أقبح التمثيل . وكان يعرف أن بنى أمية لا بد أن يعدلوا عن محاسنته إلى المخاشنة لشدة ما يرون من عناده وصلابته . إذ كان لا يسعهم أن يتركوه يحرض الناس على الخروج عليهم . بلا كابح . وقد عرضوا عليه كل ما دون الخلافة فزدراه . فلم يبق مفر من رده بالقوة ، كما شاء هو ؛ وكان هو يعول فى سياسته هذه على احراجهم وإكراههم على البطش به ، ويعتمد على ما تدفعهم اليه لجاجته فى استفزازه لهم ، فتطيش حلومهم ، فتكون الطامة عليهم بعد أن تدور الدائرة عليه . وقد جرى كل شىء على ما قدر ورسم ، وحدث ما كان ينشد ، فأسرف الامويون فى القتل والتمثيل والتنكيل ، كما كان يتوقع ، وصدقت فراسته القوية فى رجال الدولة على عهده ، ولم يخب له ظن أو رأى فيهم ، فريعت الدنيا ، وهالها الأمر على ما كان قدر ، وصارت كل قطرة من دمه ، وحرف من اسمه ، وهاتف من ذكراه . لغما فى أساس الدولة الأموية

وقد ذهبت الدولة الأموية فى سبيل من غبر ، وجاءت بعدها دول أخرى لحقت بها ، ومضى أربع وخمسون وثلثمائة وألف سنة ، ولا تزال ذكرى مصرع الحسين هزتها الأولى فى كثير من البلاد الاسلامية ؛ ومأتمه يقام كل عام فى كربلا كأنما هو لم يقتل إلا الساعة ؛ ويموت الشيعى فى بغداد أو سواها فيحمل منها إلى النجف ليدفن هناك . وأحب آل البيت إلى النفوس وأعزهم عليها هو الحسين . ولا تزال العيون تغرورق بالدمع ، والقلوب تخفق ، والصدور تعلو وتهبط لحكاية هذا المصرع . فمن كان يصدق أن الحسين فعلها عن طيش أو سوء تقدير ، أو تورط ، فإنى لا أصدق إلا أنه أقدم عليها متعمدا لها . ولو أن ميتاً استطاع أن يضحك ساخراً لضحك الحسين ورأسه بين أيدى قتلته البلهاء

ولست أعرف ميتة أخرى أبلغ أثراً فى حياة الناس ، ومستقبل الدول والأمم . ولا أطول منها — مع عمق الأثر — عمر ذكرى

ابرهيم عبد القادر المازنى

صور من التاريخ الاسلامى

أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد

للاستاذ عبد الحميد العبادى



كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وثاب الخيال ، مطلق العاطفة ، جزل الألفاظ ، سرى المعانى ! إذاً لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة ، وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال ، وطهر ، وعفاف ، وزوجية بارة ، وأمومة صحيحة ، ومواساة فى أشرف معانيها

ولكن صاحب هذا المقال ، وا أسفاه ! ليس شيئاً من ذلك الشاعر الذى يتمنى أن يكونه . إن هو إلا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها الوضعية جهد طاقته ، ويشد خياله الراكد إلى تلك الوقائع ، فلا يأذن له ولا بمحاولة التطاير والتحليق ، ويكتم عاطفته حتى لا يطغى عليه سلطانها فيتنكب سبيل المؤرخ الذى همه البحث والتحقيق ، ثم العرض البسيط للأشياء ؛ فليقنع القارئ الكريم بالصورة المجملة التى أرسمها فى هذا المقال ، حتى يتأذن الله بظهور شاعر عظيم ينظم الالياذة العربية ، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه

***

كانت جزيرة العرب فى القرن السادس الميلادى قد أخذت تتهيأ للأحداث الجسام التى تمخض عنها القرن السابع ، وقد بدا ذلك التهيؤ فى جميع مناحى الحياة العربية العامة . سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية . ونحن انما تهمنا فى هذا المقام الناحية الاجتماعية . ويهمنا منها بصفة خاصة نظام الأسرة . كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول فى حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة الى النحو الذى أقره فى جملته الاسلام فيما بعد ، فأخذت تتلاشى ضروب الازدواج القديمة التى اعتبرها الاسلام سفاحا ، ويحل محلها نظام الزواج القائم على التراضى والتعاقد . وصاحب هذا التطور الخطير فى بناء الأسرة تطور خطير مثله فى مكانة المرأة الاجتماعية ؛ فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الأرث ، بل بعد أن كانت هى نفسها تملك وتورث فى بعض الحالات ، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف فى مالها ، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم ، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا فى الحياة المكية العامة قبيل الاسلام وفى عصر النبوة

***

ولدت خديجة بمكة حوالى منتصف القرن السادس المذكور ، وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكان خويلد ممن قاد قريشا فى حرب الفجار ، ثم هى ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنى عامر بن لؤى ، ولا نعرف عن فاطمة شيئا ، غير أن الذهبى يقول فى جدها عمرو بن خنثر المزنى أنه كان من أبطال الجاهلية . فنسب خديجة لأبيها وأمها يدل على أنها تنتمى الى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى ابن قصى ، والى قبيلة من أعز قبائل مضر هى عامر بن لؤى ؛ واكتنفت عمود هذا النسب الجليل فروع وحواش زاهية زاهرة ، نعد منها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش ، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل ، فأما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى فى صنيعه لبنى هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش فى الشعب ، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا فى تلك العصبة المستنيرة التى يعرف آحادها باسم (المتحنفين) قد ترك الوثنية ، وتنصر وقرأ التوارة والانجيل ، وكتب العبرانية ، وشاركته أخته قتيلة فى ميوله الأدبية والدينية ، فكانت « ممن ينظر فى الكتب » على حد تعبير القدماء ؛ ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد ، وكان من رجالات قريش ، وهو والد

الزبير بن العوام حوارى رسول الله

لخديجة من أوسط نساء قريش نسباً ، كما يقول مؤرخو العرب ، واذا جاز للمؤرخ أن يلحظ عمل الوراثة فى هذا المقام ، فانا نقول انها ورثت عن أبويها مزايا السؤدد العربى ، من نبل وكرم خلق ووفاء وشجاعة ؛ كما لقفت عن عمومتها تلك الاستنارة العقلية ، وذلك السمو الروحانى الذى أعدها لتقدير الدعوة الاسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر

* * *

تزوجت خديجة مرتين فى مقتبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم ، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التميمى . ثم توفى أبو هالة فغدت أيما . وقد ورثت على ما يظهر عن أبويها وزوجيها ميراثاً قيما رأت أن تقوم على استغلاله فى التجارة التى كانت مرتزق قريش فى ذلك الزمان . فكانت كما يحدثنا الرواة تستأجر الرجال فى الاتجار لها بمالها لقاء نصيب تسهمه لهم من الربح

لكن خديجة الحسيبة النسيبة ، الثرية الوسيمة ، لم تزل بعد نصفاً فى النساء ، عواناً بين الشباب والكهولة ، قد شارفت الأربعين ولما تعدها ، وهى سن لها عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخذة ، وكان غير واحد من كبار قريش حريصاً على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تتأبى على الخطاب ، لا رغبة منها فى العزوبة ، فهى أعمر قلباً وأنضر شباباً من أن ترغب فيها ، ولكن لأن الأيدى التى كانت تمتد لخطبتها ليست من الطراز الذى يعجبها . لقد نضج عقلها ، وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما ينشد الكفء والمثيل ، ومن لها بالعقل الراجح ، والقلب الكبير فى مجتمع خشن ، كثيف ، غليظ ؟ أصبحت لا يروقها ذلك السؤدد العربى الجاهلى بما ينطوى عليه فى واقع الأمر من بداوة وأعرابية ، لا يمكن أن تفئ منهما إلى ظل ظليل

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة اذا بقلبها قد أخذت تنطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق فى أفق المجتمع المكى ، ويوشك أن يتكشف عن كوكب وقاد يملأ الكون نوراً هادياً . وحرارة تبعث فيه الحياة قوية بعد أن لم يبق له منها الا الذماء . لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة لا من الوهم ولا الخيال . انها كانت صورة فتى لا يزال مغمورا ، ولكن كل مخايله كانت تؤذن فى نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله

كان محمد اذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الخلقة ، مشرق الطلعة ، نبيل المظهر ، كريم المخبر ، وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها بمكة أحد غيره . كان زاهداً فى الناس ، عزوفاً عنهم ، إلا ما اقتضته ضرورة المعايشة والمساكنة ، نزوعاً الى التفكير ، محباً للعزلة ، قدعاً للشهوة رادعاً للنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغدا أنسه فى وحشته وانبساطه فى انقباضه ، وغناه فى اقلاله . قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح المعالم . ثم لم يأذن لعلاقته بهم أن تتجاوز هذا الحد فتنغص عليه نعمة باله ، وتفسد عليه هدوء سربه

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقاناً شديداً عند ما كانت تلمح هذا الفتى العجيب ، يروح لطيته ويغدو فى طرق مكة وأسواقها وأنديتها ، وأدركت من فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها . ولكن كيف تفضى اليه بدخيلة نفسها ، وتبثه لاعج حبها ؟ إن الحسب ، والنسب ، والخفر والحياء ، كل ذلك كان يمنعها أن تكون هى التى تخطو فى الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى . لقد كان الموقف دقيقا كل الدقة ، حرجا كل الحرج . فلتسر فى الأمر بحذر واحتياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفرها وقنية لحيائها

إنها كانت تستأجر الرجال فى الاتجار لها بمالها وتساهمهم بنصيب مسمى من الربح ، فلم لا تستأجر محمداً وتضاعف له الجعل الذى كانت تجعله لغيره ؟ وأنشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال ؛ فوسطت الى محمد من عرض عليه رغبتها . فقبل محمد ما عرض عليه ، وسافر الى الشام فى صيف عام ٥٩٤ متجراً فى مال السيدة ، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهى الى السيدة عند عودته جملة حاله فى السفر ، فتلم بجملة حاله فى السفر والحضر . وباع محمد ، واشترى ، ولقى الرهبان ببادية الشام ، وتحدث اليهم ، وتحدثوا اليه ، ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحاً وفيراً ، وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد فى السفر من رقة الشمائل ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ؛ فعلمت السيدة عند ذلك أن قلبها لم يكذبها ؛ فقطعت كل تردد ؛ وأجمعت أن تخطو

هى الخطوة الأولى ، وتقول هى الكلمة الأولى . وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منبه . فدستها الى محمد تلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة — يا محمد ! ما يمنعك أن تزوج ؟

محمد — ما بيدى ما أتزوج به !

نفيسة — فإن كفيت ذلك ودعيت الى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ، ألا تجيب ؟

محمد — فمن هى ؟

نفيسة — خديجة !

محمد — وكيف لى بذلك ؟

نفيسة — على !

محمد — فأنا أفعل !

لا شك أن محمداً لم يقل مقالته الأخيرة الا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه . وبعد أن أصبح يبادلها عطفاً بعطف ، وتقديراً بتقدير . نعم انها أسن منه ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس الى محاسنها وفضائلها الكثيرة التى جملته يرى فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه . وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضته خديجة على عمها ، فكل وافق . وبنى محمد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون .

***

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة ، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأروعها وأهنئها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والاخلاص والتقدير . كانت خديجة تقدر فى محمد كرم الخلق ورقة القلب . وروحانية النفس . وكان هو يقدر فيها رجاحة العقل وكثرة العطف عليه ، والاعجاب به ، والتوفير لأسباب راحته فى منزله ، ومطابقته فيما يحب وما لا يحب . ولا ننس أن محمداً لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق . فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه ، ليس كل الطعام يطعم . ولا كل الشراب يشرب . ولا كل الملبس يلبس . ولا بكل الزينة يزدان . ثم هو ميال بطبعه الى العزلة ، مؤثر للصمت ، مطيل للفكر . فعلى جليسه وعشيره أن يعرف فيه كل ذلك ويرعاه له . وقد عرفت خديجة ذلك ورعته له أتم رعاية ؛ فلا شك أنها كانت تعد له ما يستطيبه من الدباء والعسل . والتمر المنقوع فى اللبن أو المخلوط بالقثاء أحياناً . ولا شك أنها كانت تقل فى طعامه من البصل والثوم اللذين كانت تعاف كثرتهما نفسه ، كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه . فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم . نظيف الملبس ، ولا شك أنها كانت توفر له الهدوء فى المنزل ، واذا جنح الى الخلوة أو التحنث فى الغار لم تقطع عليه سكونه ؛ بل أعانته على ذلك بأعداد الزاد الذى يحتاج اليه . فإذا طالت غيبته افتقدته فى غير إزعاج له ، ولا تكدير لصفو نفسه

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفية بزوجها . فإنها كانت مثال الأم المعنية بأولادها . لقد رزق محمد منها كل أولاده غير ابراهيم . رزق منها القاسم وبه كان يكنى . ثم ولدت له زينب ورقية . وفاطمة وأم كلثوم . وكل هؤلاء ولدوا قبل النبوة . ثم ولد له فى الاسلام عبد الله الذى عرف بالطيب والطاهر . وقد مات الغلامان صغيرين ، أما البنات فكلهن أدركن الاسلام وتزوجن وهاجرن ، وقد انضم الى هؤلاء على بن أبى طالب ، ضمه النبى الى أولاده تخفيفاً عن عمه أبى طالب الذى كان فقيراً كثير العيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم ؛ غير أن ما ورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة فيما نحن بصدده . روى ابن سعد عن الواقدى قال : « وكانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تقبل خديجة فى ولادها ، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها سنة ، وكانت تسترضع لهم ، وتعد ذلك قبل ولادها » . وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ، ورضاعتهم ، وتنشئتهم ، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها . فهى التى أشارت على النبى بأن يزوج سعد بن الربيع من بنتها زينب ؛ فلما زفت اليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن بعد سيرد ذكره . ثم إن كل من أصهر الى محمد سعد بزواجه . فسعد بن الربيع أبى أن يفارق زينب عندما أرادت قريش حمله على طلاقها نكاية فى محمد مع أن سعداً لم يكن قد أسلم بعد ، وقد تزوج عثمان بن عفان رقية ، فلما توفيت وراه النبى حزيناً مهموماً لهفان زوجه اختها أم كلثوم . وكانت فاطمة عند زوجها على بن أبى طالب بالمحل الرفيع ، والمكان الممتاز

***

لـكن فضل خديجة الأكبر ، وفخرها الخالد خلود الزمن : إنما هو فى موقفها من زوجها عند ما نبئ ، ومن الدعوة الاسلامية التى أخذ يدعو اليها . بعد خمس عشرة سنة من زواجه منها

لقد أصبح محمد بعـد تزوجه من خديجة هادئ السرب . ناعم البال ، وأصبح له منزل وأهل يسكن اليهما فانصرف الى ما كانت تصبو اليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر . فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أى ترى فى مسلكه بأساً . فلما نجى الوحى محمداً ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذهول والحيرة . ورجع الى منزله رعباً حائراً وقل لها : « لقد خشيت أن يكون بى جنن ! » لم يكن منها إلا أن ثبتت فؤاده . وسكنت خاطره بقولتها المشهورة « والله لا يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . الخ » ثم إنها انطلقت من فورها الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقصت عليه خبر زوجها ، فبشرها ورقة بأن الذى رآه محمد انما هو النـاموس الأكبر الذى نزل على عيسى وموسى ، وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها ، فـكانت بذلك أول من صدقه وآمن به ، روى الطبرى باسـناده الى عفيف الـكندى أنه قل : « كنت امرأ تاجراً ، فقدمت أيام الحج ، فأتيت العباس ، فبينا نحن عنده اذ خرج رجل يصلى ؛ فقام تجاه الـكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلى ، وخرج غلام فقام يصلى معه . فقلت : ياعباس ما هذا الدين ؟ قل : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمـه على بن أبى طالب آمن به . قل عفيف : فليتنى كنت آمنت يومئذ ، فـكنت أكون ثالثاً »

ولم يزدد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخاً ، ولا يقينها إلا قوة ، ولا تعلقها بزوجها الا شدة ، فـكانت فى السنوات العشر الأولى للبعثة ، وهى السنوات التى توالت فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد ، كانت خديجة فى تلك السنوات الى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه ، وتأسو بعطفها جراحه ، روى ابن الأثير باسناده فقال : « وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه الا فرج الله عنه بها . اذا رجع اليها تثبته ، وتخفف عنه وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس »

ولم تتردد خديجة عند ما جد الجد . أن تشرك زوجها فى محنته . وتقاسمه مر العيش كما قسمته حلوه ، وتعمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة . فعند ما اشتدت قريش على بنى هاشم والمطلب وحصرتهم فى الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد ، كانت خديجة فى الشعب تقاسى ما يقاسـيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها . فلما فاءت قريش الى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين ، كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش الا قليلاً . وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة ، بالغة من العمر خمسة وستين عاماً ، وقد دفنها الرسول بالحجون ، وسوى عليها التراب بعـد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفى نفس العام عمه أبا طالب ، وهو الذى كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه . فاجتمع على محمد فى وقت واحد خطبان فادحان ، ورزآن بالغان ، ولـكن لا شك فى أن داخل رزئيه كان الأفدح ، وباطن جرحيه كان الأدمى ؛ لقد تهدم صرح سـعادته المنزلية ، وغدت الحياة مشغلة له فى الداخل والخارج . على كثرة ما أعطاه الله فى الداخل والخارج

***

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن احسانه ، وأكرم من ألا يفى لحبيب صدقه الحب ، وأصفاه الود ، ولو باعدت بينه وبينه أطباق الثرى ، وكذلك كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد وفى لها فى حالى الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها فى حياتها ، فلمـا لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه ، وهم يروون فى ثنائه عليها ودوام تذكره لها أخباراً كثيرة . يرون أنه فضلها هى ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب ، وأنه عند ما أرسلت اليه ابنته زينب بقلادة قلدتها اياها خديجة ، لتفتدى بها زوجها سعد بن الربيع وكان قد أسر ببدر ، رق النبى لذلك رقة شديدة ، وطلب الى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها وما لها ففعلوا ، وأنه كان اذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدى

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)

عُقْبة على شاطئ المحيط

للدكتور عبد الوهاب عزام



— ١ —

مَن القوم أوغلوا فى البيداء ، يجوبون سيناء ، قد أغذوا السير ، وأقلوا المَيْر ؟

من القوم تسبح بهم الجمال ، فى لجج الرمال ، وتغوص منهم الأشباح والظلال ، فى غمرات الآل . تسيل بهم الهضاب إلى الوهاد ، وتفيض بهم الوهاد إلى الهضاب ، لا يألون تأويباً وإدلاجا ، ولا يشكون نصباً ولا كلالا ؟

من القوم ترمى عزائمهم الغايات ، وتطوى هممهم السبل ، سيان عندهم البعيد والقريب ، والعسير واليسير ؟

من القوم تضىء بالايمان قلوبهم ، وتقر على اليقين نفوسهم ، حداؤهم القرآن ، وغناؤهم الأذان ، رحالهم معابد ، ومنازلهم (١) مساجد ، قد شروا لله أنفسهم ، وأرخصوا فى مرضاته أرواحهم ، ورضوا بما قسم لهم . وقد سايروا الشمس مغربين ، لا تصدهم الأهوال ، ولا تستردهم الأوطان ، كأنهم نجوم فى حبك الأرض ، تسير بقدر إلى قدر ؟

***

العرب المسلمون يقودهم عمرو ، يتوجهون تلقاء مصر . رموا الباطل فى جانب وسددوا إلى جانب ، وصرعوه فى ميدان وهرعوا إلى ميدان : وهدموا سلطان الروم والشام وصمدوا لسلطان الروم فى مصر وأفريقية

بالأمس زحموا الصرح فانهار ، ونفخوا زخرف قيصر فطار ، وأشاروا إلى الصنم فسجد ، وخلى جبروته إلى الأبد . وضعوا سلطان هرقل ورفعوا سلطان الله ، وأقاموا الحرية فى مصارع العبودية ، وشادوا العدل على مقاتل الجور

واليوم يتبعون الباطل المهزوم ، ويشردون الزور المذود . إنهم يؤمون مصر . ومصر أكرم على الله من أن تكون مباءة الباطل ومثوى الجبروت . إنهم يسرعون إلى مصر . فعفاء على الروم وسلطانهم ، وويل للباطل يدمغه الحق ، والظلم يصمد له العدل ، والاستعباد تثور به الحرية ، وويل للروم يسير إليهم العرب

— ٢ —

أترى البحر المائج ، واللج الهائج ؟ أترى السفن على الثبج راجفة ، والجموع فوقها واجفة ؟ أترى الموج يتلاطم ، والسفين يتصادم ، والجيوش ملتحمة ، والخناجر والسيوف مختصمة ؟ أترى جنداً يلوذون من حر الضراب الى برد الماء ، ومن ذل الاسار الى عار الفرار ، وجنداً ثبته اليقين فثبت ، وآثر الموت على العار فظفر ؟

واعجبا ! قد أصبح فرسان الصحراء أبطال الدأماء ، وصار حداة الابل أمراء السفن ، جاوزوا الكثبان البيض إلى اللجج

(١) منازل الطريق

اليهن منها ، وأنه كان لايكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثنى عليها ، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهى بعد آثر نسائه لديه ، وأجملهن ، وأصغرهن سناً . روى ابن الأثير باسناده الى عائشة أنها قالت : « كان رسول الله (ص) لايكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوماً من الأيام ، فأدركتنى الغيرة ، فقلت : هل كانت الا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى وكذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها أولاداً اذ حرمنى أولاد النساء ، قالت عائشة : فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبداً »

***

تلك بالاختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة يعرف فيها القارئ المثل الأعلى للمرأة زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور فى غير خروج على طبيعة الجنس ومواضعات الناس منذ صار الانسان إنسانا ؟

عبد الحميد العبادى

الخضر ، فاتخذوا السفين جياداً والبحر مراداً . وهل الابل الا سفن الصحراء ، وهل السفن إلا أفراس الماء ؟ فما استبدل هؤلاء إلا سفينة بسفينة وفرساً بفرس

وانها ، على ذلك ، لأحدى العبر : أبناء البادية ينازلون الروم فى الأساطيل . معاوية وابن أبى سرح يقاتلان قسطنطين ابن هرقل ، وقد جاءهم فى ستمائة سفينة تحمل جند الروم وتاريخ الروم ، وثارات الروم . وأعجب العجب أن يغلب الأسطول الرضيع الأسطول المكتهل ، أن يغلب ابن أبى سفيان ابن هرقل ، أن يغلب العرب الروم فى بحر الروم [1]

— ٣ —

ماجزيرة العرب ، وفارس ، والشام ومصر ، وما الهند والصين ، والمشرق والمغرب فى همة هـذه الشمس الوهاجة ، وعزيمة تلك الكواكب السيارة . قد استقر سلطان القوم فى مصر فلم يقنعوا ، وهاهم قد غزوا برقة ورجعوا . أتحسب الأمد تطاول عليهم ، والشقة بعدت بهم فلوا أو خاروا ؟ تلبث قليلاً ثم انظر جيش العبادلة [2] يزحف الى افريقية فيظفر ثم يصالح . وما وراء الحرب والسلم الا المسير لاعلاء كلمة الله ، وبلوغ الغاية مما أرادوا فى سبيل الله

ويقف القوم سنين . وما هو الا الجمام للسير ، والتحفز للوثوب ، والاعداد للجهاد ، والتريث للتثبت . وعما قليل يطوون المغرب لا تعوقهم الفيافى المترامية ، ولا تصدهم الجيوش الجرارة . تنظّر الغد . فما بلغ القوم الأمل الموعود ، ولاقاربوا الغاية المقدورة

— ٤ —

عشرة آلاف تطوى الأوطان والقطان فى سبيلها ، وتطأ الأهوال والأبطال الى غايتها ! عشرة آلاف وفى الناس واحد كألف

تجمعت فى فؤاده همم ... ملء فؤاد الزمان احداها

عشرة آلاف قائدهم عقبة بن نافع قد عزموا ألا ينثنوا ، وصمموا ألا يهزموا ، وآلوا ألا يرجعوا ما اتسع الفتح لعزائمهم ، وامتدت الأرض لأقدامهم

ها هو ذا عقبة يبنى مدينة القيروان ، فهل الغازى المعمر والفاتح المقيم . وسيجعلها مبدأ السير وأول الفتح ، كأنهم ماقطعوا المهامه اليها ، ولا ساروا عن ديارهم قبلها

فى كل فج عزمهم سيار
الى الوغى تهافتوا وطاروا
جماعة ليس لهم ديار
الا ظهور الخيل والغبار

أرض الله ، وعباد الله : أينما توجهوا فهى أرضهم ، وحيثما حلوا فهى ديارهم . لا بعد عندهم ولا قرب ، ولا شرق ولا غرب « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله »

ولكن عشرات آلاف من الروم والأفريق قد ساروا اليهم . لقد أعد الروم لهم ، وأزمعوا أن يحطموهم . فوارحمتاه للأمجاد القليلين ، والغرباء النازحين !

كلا لا خوف ولا حزن ، ولا قلة ولا كثرة . انظرهم يديرونها على عدوهم حرباً طاحنة ، ويلجئون الروم وأعوانهم من لظى النار الى سلاسل الأسار — ألوف من الروم مصفدون

أترى الكثرة أغنت ، أم ترى القلة قلت ؟ ذلك آخر عهد الروم بافريقية

— ٥ —

أين الجنود البواسل ، والعبّاد الغزاة ، والبداة الذين خرجوا ينشدون الحق ويردون الجبارين الى العدل ؟ انهم ليسوا فى برقة ولا افريقية . . . . هاهم فى أقصى المغرب ! هم اليوم فى طنجة ! بل هم فى إيسوس . لقد انتهوا الى الساحل ، لقد انتهت الأرض وأسفا للجواد المتمطر لا يجد مجالاً ، والعزم المحضير لا يجد مضطرباً . قد بلغوا البحر فكيف المسير ؟ وفتحوا ما بين المدينة المنورة ، وبحر الظلمات فانى الفتح ؟

انظر عقبة تضيق بعزمه الأرض ، وتصغر فى عينه الأقطار ، فيدفع جواده فى البحر ويصيح :

« والله لو علمت وراءه أرضاً لسرت غازياً فى سبيل الله » [1]

(بغداد) عبد الوهاب عزام

(١) إشارة إلى موقعة السوارى سنة ٣١ هـ

(٢) جيش غزا إفريقية وفيه أبناء أبى بكر وعمر وعمرو والزبير وأبو ذؤيب الشاعر

(١) روى بعض المؤرخين أن عقبة فعل هذا حينما بلغ شاطىء المحيط الأطلسى

صداقة تدين التاريخ

« ألا إن لنا قلوبا »

للاستاذ أمين الخولى

— ١ —



فى واد مشرق السماء ، جهم الأديم ، تضطجع بين الجبال ، على سريف الصحراء ، تلك العذراء الممنعة « مكة » ؛ تكاد تنال باحدى يديها مياه « القلزم » ؛ حين تنسم عن بعد نسيم الشرق بعراقه وفرسه ، تلتفت يمنة الى بلاد العرب السعيدة ، بدفء شتائها وأسباب حياتها ؛ وترنو يسرة الى مشارف الشام بوارف ظلالها ، وفتون حضارتها

فى واد غير ذى زرع حول البيت المحرم ، منذ بضعة عشر قرناً كانت تخفق القلوب وجلة ، وتختلج النفوس متطلعة ، ويشيع فى أولى الألباب تشوف وتلهف ، استحال اضطراباً اجتماعياً ، وثوراناً روحياً ، على قديم لا يرضى العقل ، ولا يسعد القلب ، حتى هب نشاط أناسى منهم الى انتجاع ذلك الجديد بالرحلة اليه ، والنقلة فى سبيله ، مثلما تلتمس أسباب الرفاهة الحيوية ، من أعراض التجارة وحطام الدنيا

— ٢ —

فى ذلك العهد الحائر ، كان سيدان من سادات قريش ، قد اكتملت لهما بسطة من الجسم والحلم ، وظفرا بوفر من الحسب والكرم ، حين سعدا بأخلاق تشابهت فى السمو ، حتى تلاقت فيهما نعوت الواصفين : لا يعيشان لأنفسهما ، ولا يفكران فى ذواتهما . انما هم أحدهم ظلم يرفع ، وحاجة تدفع ، ومعونة على الدهر ، أو اضطلاع باصلاح اذا كثر الشر

كانا فى سن متقاربة ، لا تقول هما لدان ، ولكنهما متقاربان ، سبق أكبرهما صاحبه الى هذه الدنيا بعامين وشىء من الأيام

كانا يضربان فى حياة تشابهت ودياتها ، وإن تخالفت ألوانها ، الكبير تاجر يصرف الدراهم والدنانير ، حين كان الأكبر يرعى الشاء ويدبر البعير ، على هينة فى ذلك وقلة عناية

توثقت بينهما صداقة عريقة ، حين كان الأكبر يشارف الأربعين ، قد بقى له من عدها عام ، والكبير يبعد عنها بخطوات ثلاث وعدة أيام ؛ فلهما الشباب المكتمل ، والعقل المتزن . وما كانت بينهما هذه الصداقة الا عن تآلف نفس ، وتمازج روح ؛ والا ففيم يتقاربان ، والكبير يعرف من سبل الكسب وطرق الثراء ، ما وراء أفق البادية الجديب ، ويختلف الى اليمن والشام يثرى ويربح ، على حين ينصرف الأكبر عن المال والنشب : قليل الكد فى سبيلهما ، زاهدا فى أسبابهما ؛ يعتزل الناس فريدا ويتحنث وحيداً ، يسائل الشمس والقمر ، ويستنطق الريح والصخر ، أى شىء هذا ؟ وفيم العناء ؟ وإلام المسير ؟ وأين الثواء ؟ هذه حالهما حين ربطت بينهما تلك الصداقة ؛ فما إن نشك فى أن هذا الصديق كان يشاطر صديقه هذا التساؤل ، ويبادله ذلك التفهم ؛ وان وقف فى ذلك دونه ، لا يتكشف له من الآفاق ما يستشرف له الأكبر ، ويطالعه فى قوة روح آلف لهذا وأقدر

— ٣ —

تعارفا وتآلفا ؛ وما هو الا عام حتى ظهر النور الأنضر ، وجاء الفتح الأكبر . . وأسر الصديق الى صديقه أنه قد همس فى أذنه ، وألقى فى روعه ، وتفتحت له جنبات السماء ، وانه لحدثه عنها حديث الرائى المشاهد . فاذا الكبير على الفه ؛ يرى بعين الأكبر ، يستشف ما فى روحه ، ويجد فى قلبه صورة ما تنطوى عليه جوانحه ، فيؤمن معه أو يؤمن به ؛ واذا حياتهما قد صارت إيماناً ، حار الأنفاس ، ملتهب الاحساس ، متصل الأسباب بالحق الأعظم ، فزاد ما بينهما قرباً أو اتحادا ، وصارت صداقتهما على ما اشتهى الواثقون بطهر الانسانية ومعنوية الحياة ؛ اذا ما قال الأكبر أنت أحب الرجال الى ، قال الكبير أنت الى أحب الناس

— ٤ —

اضطلع الأكبر ببعثه أمام الدهر ؛ وخرج يدفع الانسانية دفعاً ، ويدير الحياة فى غير مدارها ، ويخط مستقبل التاريخ ، وما أشق وأهول !

اذا ما أقبل النهار ، وارتفعت الشمس ، خرج يرى لنفسه ، ويتلطف لأمره ، بين بدو همل هائمين ، وعتاة فيهم مأفونين ، يناديهم أنه قد حل المغز الأعقـد ؟ وظفر بالمجد الأوحد ، اتصل من الله بسبب ، ووقف من السماء بمنال ، ويهجو آلهتهم ، ويسفه أحلامهم . . فأى سخرية يلقى ، وأى عناء يواجه ، وبأى نقيصة يعترف ... هو كاهن ، وساحر ، وشاعر ، ومجنون ، وممسوس ، وكذاب و و . . .

فاذا ما كاد يبخع نفسه أن لم يؤمنوا ؛ واذا ما ذهبت نفسـه حسرات عليهم ، تلفت فاذا صورة نفسه قائم الى جانبه ، يواسيه ويرفه عنه ، يمسح عن قلبـه أوضار الألم ، وقذائف التهم ، حين يطب لجروح قد أسالتها أحجار المغـــترين وقذائف السفهاء المحمولين عليه ، ومايزال كذلك حتى يسلمه فى الليل الى تلك الزوجة الأمينة الرزينة ، التى فهمت عنه حين جهله الناس . واطمأنت اليه حين أنكره الناس . . فهو منهما فى ألفة وطمأنينة . والنفس بالصديق ، آنس منها بالعشيق . .

وكانت احن ومحن طالت بضعة عشر عاماً ، فقد فيها الأكبر تلك الزوج ، فكان نهاره وليله لصديقه الصدوق ، وعنده انتهت مؤانسته ، حين كان الهم يزداد والعناء يشتد

وخشى القوم خطر تلك الدعوة الدائبة ، وهاتيك المهاجة المصابرة ، فزادوها قسوة وتنكيلا ، وأشـبعوا من نصرها ألماً وتعذيبا ، فاذا الصديق يفى لأنصار صديقـه وفاءه له : يجد فى انقاذهم ، ويسعى فى تحريرهم ، باذلاً فى ذلك ما ادخر وأثل ؛ فاذا عتقاؤه منهم سبعة نفر . . . ولقـد أدركت ولا مراء ، أنه لن يكون الا الأعز . . . أبا بكر

— ٥ —

هذان هما ، قد نبا بهما المقر ، وأجمع الناس كيـدهم ، فهو الموت والدم بدد ، والثأر ضائع ؛ لكن الصديق أبداً مخلص ، هو ظله حيث سار وردؤه فيما يرى لنفسه ؛ وعفاء على الأهل والمال والولد والوطن ، يخليها جميعاً ويخرج من الدنيا بصديقه . . . الى التيه ، الى الشرود ، الى المغامرات ، الى الكهوف والغيران ، الى الجوع والعذاب ، الى الدرك والمحاق ، الى الموت ، الى كل كريهة ، ماهى الا المحببة حين يريدها الصديق . وما أجله وأنبله حين أنزله الغار فلم يخف ، وحسبك أنه انمـا يقول له : « لا تحزن ان الله معنا » ؟ وما ظنك باثنين الله ثالثهما . . أجل لقـد كانا كذلك انفراداً فى الغار ، كما كاناه انفراداً فى صداقة وولاء ووفاء

— ٦ —

رافقه الى مأمنـه ؛ ولازمه فى مهاجره ، وتنفست الدنيا ، وانبلج صبح الفوز ، فظل له كما كان يوم عرفه قبل مبعثه ، يبذل له قواه وروحه ، كما يبذل له اخلاصه وبره ؛ يحمل اليـه فلذة كبده ، يضعها فى حجره ، فتكون رسالة من قلب الى قلب . وتمسى فى النساء قرة عينه كما كان فى الرجال أبوهاله ؛ يبـذل له ماله ، وما المال فى ذلك كله ؟ وأى شىء أربعون ألف درهم خرج من دنياه لا يعرف منها مكان درهم ؟ يلازمه فى حربه وسـلمه ، وصحته ومرضه ، حتى تأذن الله له بالنصر ، وأتم الرسول عليـه السلام ما ندب له من حادث فى مسير الدنيا ، ومستقبل الكون . فاذا ذلك كله فى التاريخ يعرف بد تلك الصداقة

— ٧ —

وخرج الرسول عليه السلام من دنياه ، فتصدع الأساس ، وانشعب الأمر ؛ ارتدت الجزيرة ، واضطرب الباقون فى قمع الخارجين . . . لكن الصـديق النبيل الجليل قائم ، يصل من وراء القبر روح صديقه ، ويحسه قائماً الى جانبه ، فاذا هو جيش وحده ، وإذا هو أمة وحده ، واذا هو الاسـلام كله حين يقول لهم جميعاً : أيها الناس ! لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده ، حتى أبلغ من نفسى عذرا أو أقتل مقتلاً . . . فسارع الكل وظفر الاسلام

قرت الدولة ، وانبسط السلطان ، وأينعت الحضارة ، وسعدت الانسانية ، وشهد التاريخ ، فاذا ذلك كله يعرف ولا غرو بن تلك الصداقة

— ٨ —

بنى الشرق : ان السـيوف قد استحالت فى أيدينا خشبا . والمدافع قد أمست مواقيت للطعام وتلاهى للأعياد ، والجو من فوقنا ، والأرض من تحتنا ، والبحر من حولنا ، ليس من ذلك شىء لنا ، لكننا ولا غرو نحتاز نفوسا ، ونملك قلوباً موصولة السبب بتلك القلوب ، فلو عرفت الايمان لعشقت المجـد ، ولو أحست الوفاء لنالت أسباب السماء ، ولو وجدت مس تلك الصداقة لنصرت دينا ، وبنت دولة ، ودانت التاريخ . . .

فهل تذكرون ؟

أمين الخولى

درس من النبوة

للاستاذ مصطفى صادق الرافعي



قالوا : إنه لما نصر الله تعالى رسوله وردّ عنه الأحزاب وفتح عليه قُرَيظةَ والنَّضير[١] ظن أزواجُه صلى الله عليه وسلم أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم وكنّ تسعَ نسوة : عائشة ، وحَفصة ، وأم حبيبة ، وسَوْدة ، وأم سَلَمة ، وصَـفية ، وميمونة ، وزينب وجُوَيرية ؛ فقعـدن حوله وقلن : يا رسول الله ، بناتُ كسرى وقيصر في الحَلْي والحُلَل والإماء والخَوَل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق . وآلَمْنَ قلبَه بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما تعامل به الملوكُ وأبناء الدنيا أزواجَهم ؛ فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن من تخييرهن في فراقه ، وذلك قولُه تعالى : « يا أيها النبيُّ قل لأزواجك إن كنتن تُردن الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمتِّعْكُنَّ وأُسرِّحْكن سَراحاً جميلا[٢] . وإن كنتن تُردن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسِناتِ منكن أجراً عظيما »

قالوا : وبدأ صلى الله عليه وسلم بعائشة (وهي أحبهن إليه) فقال لها : إني ذاكرٌ لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك أستأمر أبويّ ؟ بل أختارُ اللهَ تعالى ورسوله

ثم تتابعن كلُّهن على ذلك ، فسمّاهن الله « أمهاتِ المؤمنين » تعظيما لحقهن وتأكيداً لحرمتهن وتفضيلاً لهن على سائر النساء.

***

هذه هي القصـة كما تُقرأ في التاريخ وكما ظهرت في الزمان والمكان ، فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة ، وكما ظهرت في الإنسانية العالية ، فسنجد لها غَوْراً بعيداً ونعرف فيها دلالةً سامية ، ونتبين تحقيقاً فلسـفياً دقيقاً للأوهام والحقائق . وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوي على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد ، ومن أجلها ذُكرت في القرآن الكريم ، لتكون نصًّا تاريخياً قاطعاً يدافع به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمر من أمر العقل والغريزة ؛ فإن جهلةَ المبشرين في زمننا هذا وكثيراً من أهل الزيغ والإلحاد وطائفـةً من قصار النظر في التحقيق يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما استكثر من النساء لأهواء نفسية محضة وشهوات كالشهوات ؛ ويتطرّقون من هذا الزعم إلى الشبهة ، ومن الشبهة إلى سوء الظن ، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي ، وكلهم غبي جاهل ؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه ، لما كانت هذه القصة التي أساسُها نفي الزينة وتجريد نسائه جميعاً منها ، وتصحيحُ النيّة بينه وبينهن على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة ، وتحت جوّ لا يكون أبداً جوَّ الزهر . . . وأمرُه من قِبَل ربه أن يخيرهنّ جميعاً بين سَراحهن فيكنّ كالنساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمساكهن فلا يكنّ معـه إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتُها

فالقصة نفسها ردٌّ على زعم الشهوات ، إذ ليست هذه لغةَ الشهوة ولا سياسةَ معانيها ولا أسلوبَ غضبها أو رضاها . وما هٰهنا تمليقٌ ولا إطراءٌ ولا نعومةٌ ولا حرصٌ على لذة ولا تعبير بلغـة الحاسة ؛ والقصةُ بعدُ مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبهُ معنى من حرارة القلب ، ولا أثر ولا بقيةُ أثرٍ من ميل النفس ، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم . وهي على منطق آخر غير المنطق الذي تُستمال به المرأة ؛ فلم تقتصر على نفي الدنيا وزينة

---

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة ، وكان ذلك في أواخر سنة خمس للهجرة

(٢) السراح : الطلاق ومتعة الطلاق ما تعطاه المطلقة — وهو مختلف حسب السعة والاقتار

الدنيا عنهن ، بل نفت الأمل فى ذلك أيضاً إلى آخر الدهر وأماتت معناه فى نفوسهن بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : الله فى أمره ونهيه ، والرسول فى شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة فى تكاليفها ومكارهها . فليس هنا ظرف ولا رقة ولا عاطفة ولا سياسة لطبيعة المرأة ، ولا اعتبار لمزاجها ولا زُلفى لأنوثتها ؛ ثم هو تخيير صريح بين ضدين لا تتأَوَّن بينهما حالةٌ تكون منهما معاً ، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثنى منهن واحدة ولا أكثر

والحريص على المرأة والاستمتاع بها لا يأتى بشىء من هذا ، بل يخاطب فى المرأة خيالها أولَ ما يخاطب ، ويُشبعه مبالغةً وتأكيداً ويُوسعه رجاء وأملا ، ويقرب له الزمن البعيد حتى لو كان فى أول الليل ، وكان الخلاف على الوقت لحقق له أن الظهر بعد ساعة .

* * *

وبرهان آخر وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج نساءه لمتاع مما يمتِّع الخيالُ به ، فلو كان وضعُ الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلاّ بالزينة وبالفن الناعم فى الثوب والحلية والتشكُّل كما نرى فى الطبيعة الفنية ، فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا فى المسرح المهيأ بمناظره وجوه . . . وقد كان نساؤه صلى الله عليه وسلم أعرف به ؛ وها هو ذا ينفى الزينة عنهن ويخيرهن الطلاق إذا أصررن عليها . فهل ترى فى هذا صورة فكر من أفكار الشهوة ؟ وهل ترى إلا الكمال المحض ؟ وهل كانت متابعَةُ الزوجات التسع إلاّ تسعةَ برهانات على هذا الكمال ؟

وكأن النبى صلى الله عليه وسلم يلقى بهذه القصة درساً مستفيضاً فى فلسفة الخيال وسوء أثره على المرأة فى أنوثتها ، وعلى الرجل فى رجولته ، وأن ذلك تعقيد فى الشهوات يقابله تعقيد فى الطبع ، وكذبٌ فى الحقيقة ينشأ عنه كذب الخلُق ، وأنه صرفٌ للمرأة إلى حياة الأحلام والأمانى والطيش والبطر والفراغ ، وتعويدُها عاداتٍ تفسد عاطفتها وتُضيف إليها التصنع فتُضعف قوتَها النفسيةَ القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها ، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها

وكل محاسن المرأة هى خيالٌ متخيل ولا حقيقة لشىء منها فى الطبيعة ، وإنما حقيقتها فى العين الناظرة إليها فلا تكون امرأةٌ فاتنةً إلا للمفتون بها ليس غير . ولو ردَّت الطبيعة على من يُشَبِّب بامرأة جميلة فيقول لها : هذه محاسنك وهذه فتنتك وهذا سحرك وهذا وهذا ؛ لقالت له الطبيعة : بل هذه كلها شهواتك أنت[1] . . . .

وبهذا يختلف الجمال عند فقد النظر فلا يفتنه جمال الصورة ولا سحر الشكل ولا فراهة المنظر ، وإنما يفتنه صوت المرأة ومَجَسَّتُها ورائحتها . فلا حقيقة فى المرأة إلا المرأةُ نفسُها ؛ ولو أُخذتْ كل امرأة على حقيقتها هذه لما فسد رجل ولا شقيَت امرأة ، ولا نتظمت حياة كل زوجين بأسبابها التى فيها . وذلك هو المثل المضروب فى القصة

يريد النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم أمته أن حَيْفَ الغريزة على العقل إفسادٌ لهذا العقل ، وأنه متى أُخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارها كانت حياتها استجابةً لجنون الرجل ، وملأتها معانى التزيد والتصنُّع ، فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التى أكثرها فى الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال ، ويردَّها إلى أضداد هذه الصفات فيقوم أمرها بعدُ على الأَثَرة والمصلحة والتفادى والضجر والتبرم والإلحاح والإزعاج ، ويضعف معنى السلب الراسخ فى نفسها من أصل الفطرة فيتبدل حياؤها وفى الحياء ردها عن أشياء ، ويقل إخلاصها وفى الإخلاص رد لها عن أشياء أخرى ، ويكثر طمعها وفى قناعتها مُحاجَزَةٌ بينها وبين الشر

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتصنعة ؛ فاذا كثر المتصنعات لا يكون من النساء مشاكل فقط ، بل تكون من حُلول المشاكل معهن مشاكلُ أُخرى . . . .

* * *

ولُبابُ هذه القصة أن النبى صلى الله عليه وسلم يجعل نفسه فى الزواج المثل الشَّعبى الأكمل كما هو دأبه فى كل صفاته الشريفة ،

(١) بسطنا هذا المعنى فى كثير مما كتبناه وخاصة فى كتاب : (السحاب الأحمر)

فهو يريد أن تكون زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ليكون منهن المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التى تبرع البراعة كلها فى الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة ، فلا تكون المرأة زينةً تطلب زينة لتتم بها فى الخيال ، ولكن إنسانية تطلب كمالها الإنسانى لتتم به فى الواقع

وهـذه الزينة التى تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتقُّد ، وكلما أسرفت فى هذه أسرفت فى تلك ، بل الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعانى كالأظافر والمخلب والأنياب ، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة ، وتلك لوحشية الغريزة الحية التى تريد أن تفترس . ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثرثرة طويلة تقول وتقول وتقول .

***

وإنمـا يكون أساسُ الكمال الإنسانى فى الإنسان العامل المجاهد لا يحصر نفسه فى شيء يسمى متاعاً أو زينة ، ولا يقدر نفسه بمـا يجمع لها أو بمـا يجمع حولها ، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات . ونبينا صلى الله عليـه وسلم هو الغاية فى هذا . دخل عليه مرة عمر بن الخطاب فاذا هو على حصير وعليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وإذا إهابٌ معلق [1] ، فابتدرتْ عيناى ، فقال ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبى الله ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزائنك [2] ؟

وجاء مرة من سفر فدخل على ابنته فاطمة رضى الله عنها فرأى على بابها سترا وفى يديها قُلْبين من فضة [3] فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع أبيها ، فسأله فى ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : من أجل الستر والسّوارين

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الستر [1] ونزعت السوارين فأرسلت بهما بلالاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقتُ به فضعه حيث ترى . فقال لبلال : إذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصُّفة [2] . فباع القُلبين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق به عليهم

يا بنت النبى العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإنَّ فى المسلمين فقراء

أى رجل شعبى على الأرض كمحمد صلى الله عليـه وسلم فيه للأمة كلها غريزةُ الأب ، وفيه على كل أحواله اليقينُ الذى لا يتحول ، وفيه الطبيعةُ التامة التى يكون بها الحقيقىُّ هو الحقيقى

يا بنت النبى العظيم ! إن زينةً بدرهمين ونصف لا تكون زينة فى رأى الحق إذا أمكن أن تكون صدقةً بدرهمين ونصف . إن فيها حينئذ معنى غير معناها ؛ فيها حقُّ النفس غالباً على حق الجماعة ؛ وفيها الإيمـان بالمنفعة حاكماً على الايمـان بالخير ؛ وفيها ما ليس بضرورى قد جار على ما هو الضرورى ؛ وفيها خطأ من الكمال إن صح فى حساب الحلال والحرام لم يصح فى حساب الثواب والرحمة

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم . إن مذهبكم ما لم تُحيِه فضائلُ الإسلام وشرائعه ، إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط . . . كل يوم تحلون وكل يوم تربطون ولا ثمرة فى الطبيعة

***

ليست قصة التخيير هـذه مسئلةً من مسائل الغنى والفقر فى معانى المـادة ، ولـكنها مسئلة من مسائل الكمال والنقص

(١) كيس من جلد كالذى يتخذه العرب وعاء

(٢) الروايات من مثل هـذا كثيرة عنه صلى الله عليـه وسلم وقد بسطنا فلسفة هذه المعانى فى مقال (سمو الفقر) من مقالاتنا فى الرسالة

(٣) القلب بالضم سوار من الفضـة غير ملوى هو الذى يقال له اليوم (الغويشة) وهو خفيف

(١) أى مزقته ؛ وكذلك رأى مرة ستراً على باب عائشـة رضى الله عنها فهتكه وقال : كلما رأيته ذكرت الدنيا . أرسلى به إلى آل فلان

(٢) الصـفة الغرفة وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه

فى معانى الروح ؛ فهى صريحة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم أستاذ الإنسانية كلها ، واجبه أن يكون فضيلة حية فى كل حياة ، وأن يكون عزاء فى كل فقر ، وأنْ يكون تهذيباً فى كل غنى ، ومن ثم فهو فى شخصه وسيرته القانون الأدبى للجميع

وكأنه صلى الله عليه وسلم يريد ليعلّم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهى ، ولكن بعمل عظمائها فى الأمر والنهى ، وأن الحاكم على الناس لا ينبغى أن يحكم إلا إذا كان فى نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا إحساسَ المتسلط لا الخاضع ، ليكون أول استقلاله استقلال داخله

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى فى ظاهر القصة ، ولكنها جرأةُ النفس العظمى فى تقرير حقائقها العملية

* * *

وتنتهى القصة فى عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته صلى الله عليه وسلم « أمهات المؤمنين » بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة . وعلماء التفسير يقولون إن الله تعالى كافأهن بهذه التسمية ؛ وليس ذلك بشىء ولا فيه كبير معنى ، وإنما تشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الاعجاز ، فإن الزوجة الكاملة لا تكمل فى الحياة ولا تكمل الحياة بها إلا إذا كان وصفُها مع رجلها كوصف الأم ترى ابنها بالقلب ومعانيه لا بالغريزة وحظوظها . فكل حياة حينئذ ممكنةُ السعادة لهذه الزوجة ، وكل شقاء محتملٌ بصبر ، وكل جهاد فيه لذتُه الطبيعية ، إذ يقوم البيت على الحب الذى هو الحب الخالص لا المنفعة ، وتكون زينة الحياة وجود الحى نفسه لا وجود المادة ، وتبنى النفس على الوفاء الطبيعى كوفاء الأم ، وذلك خلُق لا يعسر عليه فى سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها

وآخر ما نستخرج من القصة فى درس النبوة هذه الحكمة :

بِحَسْبِ المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقةَ نفسه الطيبة وإن لم يجد حقيقةَ كسرى ولا قيصر ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

عظمة الهجرة

للاستاذ عبد الرحمن شكرى



يتخذ الناس من عبر الحوادث مثلاً للكمال فى الخلق وشعاراً يذكر بما ينبغى أن يسلكوه وما يجب التنزه عنه من عمل أو قول ، ويكون لهم كاللواء يجمعون أمرهم حوله ، وكالحكمة يسترشدون بهداها ورشدها ، وكالحداء للركب يعينهم فى قافلة الحياة ، وكالرمز يرجعون الى مدلوله فى كل أمر حازب ، وكالعماد يعتمدون على قوته وعونه ، وكالامام يأتمون به

وقد لا يستطيع المرء فى كل حال من أحوال الحياة ألا يزايل شعاره ، فقد تخونه نفسه أو تخونه الحوادث فيسلك مسلكاً لا يشاكل شعاره ، ولكن المرء بخير اذا لم يمزق شعاره يأساً من أجل عجز عارض لا يلبث أن يزول ؛ والمرء بخير أيضاً مهما تعددت سقطاته عن شعاره ومثله ما دام له مثل يأتم به فى فعله وقوله ؛ واذا كان اتباعه له فى القول أكثر من اتباعه له فى الفعل ، فهذا أيضاً خير من ألا يكون له مثل يقدسه ، وله فى نفسه أثر قل أو كثر

وفى الهجرة النبوية لنا مثل وشعار ورمز اذا اعتبرنا بأسبابها وحوادثها ؛ وهو رمز ذو معنيين : معنى فيما ينبغى أن نتجنبه من مشابهة المشركين فى اضطهاد الحق والعقيدة النفسية والفكرة التى تنبعث منها ، ومعنى فيما ينبغى أن نتخلق به من الائتمام بالنبى صلى الله عليه وسلم فى ابائه مزايلة الحق وصونه ، وفى نصرته بالرغم من اضطهاد وضيق ، وفى الاعتماد على الله فى الشدة

ولكل من المعنيين فى الحياة شواهد وأمثلة وأمور تستدعى

ذكرى الهجرة النبوية وذكرى حوادثها الجليلة

ولو استطعنا أن نذكرها فى كل أمر من أمور الحياة كان ذكرها خيراً من ذكرها فى تاريخ واحد معين ، على ما فى ذكرها فى هذا التاريخ الواحد المعين من خير وفضل وحمد

أى الناس لا يضطهد الحق فى أمور كثيرة من الأمور اليومية إذا كان فى اضطهاده اياه كسباً ورزقاً ، أوثناء وحمداً ، أو راحة ودعة ، أو ارضاء عزيز ، أو زلفى لدى كبير مسيطر محكم عليه ؛ وحتى عند تخيل نيل الكسب غير المحقق نيله ، وعند الأمل فى الزلفى التى قد تخيب ، يضطهد الناس الحق فى أمور الحياة وروحهم روح المشركين ولفظهم لفظ المؤمنين . ثم هم قد يعدمون حتى لفظ المؤمنين فلا يكون لهم من الايمان إلا اسمه . هؤلاء لم يتعظوا بعظة الهجرة ، ولم يتنزهوا عن الروح التى اضطهد المشركون بها النبى صلى الله عليه وسلم . وأمثال هؤلاء لا ينتفعون باحياء ذكرى الهجرة النبوية مهما اشتغلت أبدانهم باحيائها من غير أن تشتغل قلوبهم بعظتها ، ومن غير أن تتنزه نفوسهم عن مشابهة المشركين فى اضطهاد الحق

يقول المسيحيون : إن كل من يضطهد الحق فى أمر من أمور الحياة يضطهد عيسى عليه السلام ، ويعين أعداءه عليه ، ويعادى روح الحق الذى جاء به ؛ ونحن نقول مثل هذا القول عند ذكرى الهجرة النبوية وهى ذكرى اضطهاد المشركين للحق الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، فكل من يضطهد الحق فى أمر من أمور الحياة يضطهد روح الحق الذى جاء به النبى الكريم سواء أكان اضطهاد الحق فى أمر من أمور الحياة طمعاً فى مغنم أو فى دعة أو صداقة أو زلفى

وخير شعائر الدين ومواسمه وأعياده وذكره وتواريخه الجليلة مثل تاريخ الهجرة هو فى أن تحول بين المرء وبين عادته فى قلب الفروض الخلقية الى مسميات يحسب ترددها على لسانه عقيدة وايماناً ، وماهو بايمان اذا كان لايجتنبها ، واذا كان يشارك المشركين ويشابههم فى اضطهاد الحق طمعاً فى مغنم أو دعة أو صداقة أو زلفى ، فيعادى الصدق فى القول والعمل والعدل فيهما أيضاً ، ويعادى الوفاء ومكارم الأخلاق ، وهو اذا عاداها كان معادياً للحق الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المعنى الأول الذى نعتبر به فى احياء ذكرى الهجرة النبوية ؛ والمعنى الثانى متصل به وهو قوة وعماد نصر ، وهو الاعتماد على الله كما فى الآية الكريمة التى وردت فى حديث الهجرة : (ان الله معنا)

كنت فى بعض الأحايين أزور صديقاً لى من عادته اذا اتخذ شعاراً أن يكتبه فى لوح كبير ويضعه أمامه ويذكر نفسه به ، وكنت أرى على جدران منزله هذه الآية الكريمة مكتوبة بخط جميل فى لوح كبير ، وكان كلما دهمه أمر وكرثه خطب وأحس أنه لا يكاد يقوى على احتماله ينظر الى هذه الآية الكريمة فيقوى بها على المصائب ، وكانت له عوناً كبيراً فى الحياة ؛ وهذا من فضل احياء ذكرى الهجرة النبوية ، ومن فضل الائتمام بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وطوبى لمن يستطيع مهما نالت منه المصائب أن يقول : (إن الله معنا) ، وطوبى لمن روض نفسه على الحق والعدل والصدق فى القول والعمل ، وتنزه عن روح الاشراك ومعناه كما يتنزه عن لفظه واسمه ، وجعل عظات الهجرة شعاراً له فى كل أمر من أمور الحياة ؛ بل طوبى للانسانية لو أن كل انسان أخذ بروح من تلك العظات ولم يجعل الغيرة على الحق والعدل حبائل كسب لا حقيقة لها فى نفسه ، ولم يجعل الفروض الخلقية مسميات يتباهى بترديدها . لقد حدثت نفسى فقلت ماذا كان يكون لو أن النبى صلى الله عليه وسلم قد رجع الى هذه الحياة الدنيا كى يرى روح الحق الذى جاء به ، ولكى يقيم الحجة على الناس . هب أنه لم يذكر لهم اسمه وشاء أن يعرف كيف يلقون الحق فى شخصه من غير أن يعرفهم بنفسه . إنهم كانوا يرون رجلاً دأبه الحق والصدق والقصد والعدل فى القول والعمل ، وأنهم كانوا يرون رجلاً يطلب منهم كل هذه الصفات فى أمور حياتهم وهو مطلب يثقل على نفوس الناس ، وهم دنيويون يريدون من الصفات ما شابهها فى المظهر وخالفها فى الحقيقة ، ويريدون المكسب والجاه من أى وجه وبأية وسيلة ، فماذا كانوا يصنعون لو أنهم لم يعرفوا أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى يريد منهم روح الحق . أكبر الظن أن مأساة اضطهاد الأولين له كانت تتجدد ، وأكبر الظن أننا كنا نرى هجرة ثانية مثل الهجرة الأولى ، ولكنها ليست هجرة على التخصيص من مكة الى يثرب

عبد الرحمن شكرى

مصر تحمى الاسلام والمدنية

فى عين جالوت

للاستاذ محمد فريد أبو حديد



استهل القرن السابع الهجرى (وذلك فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى) وقد ترامى الى القاهرة نبأ النضال الدموى الذى ثار فى الشرق فيما بين نهرى سيحون وجيحون بين جنود التتار وبين جنود الملك محمد خوارزم شاه ؛ وكان المسلمون الى ذلك العهد لا يعرفون للتتار دولة ذات خطر ، فانهم انما كانوا يعرفون قوماً من البدو يعيشون فى فيافى الشرق التى تمتد الى اكناف الصين طالما حاربتهم جيوش المسلمين فلم يجدوا فى بلادهم مطمعاً ، اذ كان هؤلاء الحفاة كلما أوقع بهم جند الاسلام وقعة لاذوا بكبد الصحراء يضربون فيها ويبعدون فلا يجد قواد المسلمين لهم مدنا ولا ريفاً ، ولا يستطيعون أن يقبضوا منهم على ناصية . فاذا القرن السابع الهجرى يحمل معه اجتماعا عجيباً لهؤلاء التتار لم يسبق له مثيل الا فى أحوال نادرة ، اذ قد نبغ من بينهم الزعيم الداهية (تيموجين) الذى يعرفه التاريخ باسم (جنكيزخان) ، فوحد لهم دولة وأقام لهم ملكا بعد احداث يطول بنا وصفها لو تعرضنا لذكرها . وما كان لهذا الحدث أن يكون له ذلك الأثر البالغ فى تاريخ الاسلام والمدينة لولا ما لابسه من ظروف العصر وما كانت عليه حال الدولة الاسلامية المتاخمة للتتار . فلو كانت الدولة الاسلامية فى عصمة هارون أو المأمون ، أو لو كانت فى قيادة المعتصم أو المتوكل ، لما زاد الأمر على قيام دولة تترية تلمع حيناً كما يلمع الشهاب ثم يندثر ، فكانت تجتمع لهم كلمة وينبسط لهم سلطان على من فى فيافى التركستان وما يليها من الكرج والديلم ، ثم تمضى تلك الدولة الناشئة بعد حين كأن لم تكن ، ويسدل عليها التاريخ ستاراً كثيفاً . وتحجب ذكراها وراء الكثبان المترامية البعيدة

غير أن مجرى التاريخ فى هذه المرة قد اتجه اتجاهاً لا يزال ماثلا فى أذهان الانسانية ؛ وما زالت اصداء اجتماع التتار على زعامة جنكيز تتردد الى اليوم فى الأقطار جميعها شرقيها وغربيها ؛ ومازالت آثار ذلك العهد تنعب فوق أطلال بخارى وسمرقند ومرو . بل ما زالت جاثمة فوق بغداد العظيمة يشهد العالم منها الى اليوم كيف يقوض التخريب أسس المدنية التليدة ، وكيف تذهب كنوز القرون ومخلفات الاجيال على يد الهمجية بين عشية وضحاها .

وما اتخذ التاريخ ذلك المجرى الا لسبب واحد . قد يبدو صغيرا ضئيلا لا خطر له . غير أن أجل حوادث التاريخ طالما نبعت من أمثال هذا السبب الصغير

كان الجزء الشرقى من العالم الاسلامى يئن من حكم طائفة من الأمراء قد وثبوا الى الحكم وهم أشبه شىء بقطاع الطرق يثبون على غنيمة آمنة فى قافلة عزلاء غريرة . وانك اذا تدبرت الأمر كله فى تاريخ الاسلام لم تجد نكبة أصابت المسلمين الا كانت آتية من مثل هؤلاء الأمراء المفسدين . تراهم وقد حكموا البلاد لكى يبتزوا ثروتها لا لكى يقوموا بواجب الحكم فيها ، وتراهم يبطشون بالناس بطش الأسد بالصيد لا يعاقبون أحداً لأنه أساء ، بل لأنه تنفس بكلمة حق ، أو فرج عن نفسه بأنة مصدور . وتراهم قد أحاطوا أنفسهم بشراذم من جنود مرتزقة ، لاهم لها الا أن تشترك فى الغنيمة ، فهى تساعد الطغيان على أن يطغى . وتشترك معه بأن تستعلى فى الأرض وتطغى ، وهؤلاء الملوك وأولئك الجنود لاحد لاستعلائهم مادامت مسألة الحكم مقصورة على ضبط الرعية العزلاء ؛ فاذا ما جد الجد ، واحتاج الأمر الى الحماة كانوا أحرص الناس على الحياة ، وأخوفهم من التعرض لبلاء الجهاد ومحنة الجلاد

ولقد كان محمد شاه خوارزم أحد هؤلاء الطغاة المستكبرين الضعفاء . فلقد كان أشد الناس بطشاً وأحدهم شوكة فى سيرته

مع الأفراد والضعفاء . وكان من أحرص الأمراء على الثروة والسلطان ما دام لا يعابه الا شعبه المسكين . فقد سلط عليه طوائف أعوانه فكسروا أنوفه ، وخضدوا شوكته . وأذلوا نفوسه ؛ وقد أراد القضاء أن يتعدى أذاه الى طائفة من تجار التتار كانوا قد جاءوا الى بلاده مسالمين فى تجارة فأوقع بهم ونهب متاعهم . فاستجار هؤلاء بصاحبهم . وكان عند ذلك (چنكيز) ، فرأى من واجبه أن ينصرهم ، فبدأ من ذلك الاصطدام الذى أعقب الدمار والبلاء ببلاد المسلمين

لم يشهد التاريخ مثل ذلك الصراع الذى بدأ عند ذاك بين التتار والمسلمين . فتيار أتىّ من جموع الهمج يصدم هيكل الدولة القديمة المبجلة . فاذا بذلك الهيكل يتصدع عند اللمس وينهار بعد قليل . حتى أن التتار أنفسهم ترددوا حيناً ووقفوا مبهوتين لا يكادون يصدقون أنهم قد هدموا ذلك الهيكل الهائل ، ولكن الهيكل لم يكن سوى جدار أجوف قد نخره الظلم واستل منه الحياة

لم يثبت الأمراء الطغاة الا مقدار لطمة قصيرة المدة ثم عرفوا أنهم لا يستطيعون أن يرعبوا عدوهم كما كانوا يرعبون رعيتهم ، ولن يقدروا على تحطيمه كما كانوا يحطمون أهل بلادهم ، ومنذ تحققوا ذلك طارت نفوسهم خوفاً ، وغلب الحرص كل غرائزهم فقلبوا الفكر فى مصيرهم ، وعرضوا ما كان منهم وما يكون . أتذهب عنهم أموالهم ، ويضيع سلطانهم ، ويضطرون الى مقاساة الأهوال فى الدفاع والنضال ؟ أيقاسمون اليوم رعيتهم ضيق الحياة وضنك العيش فى القتال ؟ أينزلون عن السعة والعزة والمنعة فى سبيل دفع المستميت ؟ أيمدون أيديهم الى الرعية أن هلمى الى صف واحد نبذل فيه الحياة معا فنحيا كراما أو نموت وقد أعذرنا ؟ ثم جالت بخيالهم ذكريات ما سبق لهم أن أجرموا ، وما كان لهم فى الحكم من سيئات . وعادوا الى أنفسهم يسائلونها : أيستطيعون اليوم أن يقفوا مع الرعية كتفا الى كتف ؟ وهل يجدون من أنفسهم الجرأة على أن يخاطبوها خطاب الأنداد الأكفاء ؟ أيستطيعون أن يستنهضوها لبذل المال والنفس فى سبيل الخلاص من العدو المخيف ؟ وهل يستطيعون أن يخيفوا الناس من عدوهم المقبل وقد كانوا بالأمس لا يجندون الجنود الا لكى يحكموهم بالقسر والعسف ؟ جالت هذه الأفكار فى رؤوسهم وهم مترددون بين الثبات والانهزام . وبين النضال والهرب تخذلهم قلوبهم اذ رأوا أن الرعية التى آذوها بالأمس لن تجيب نداءهم لو نادوا . ولن تخلص لهم اليوم بعد ما نالها من شرهم وطغيانهم ؛ ولئن أجابت الرعية وتناست كل ما كان . أبقيت فيها بقية للنضال ؟ ان ظلم القرون اذا أفلح فى ازالة القلوب الحرة الأدبية التى تنفر من الظلم ، وتأبى الاستعباد ، فقد أفلح كذلك فى اماتة الرجولة والنخوة ، وأحال الناس الى أشباح مرتعدة خوارة لا تستطيع شيئا فى الدفاع ولا تغنى غناء فى النضال . فلن يستطيع شعب أذهب الطغيان إباءه وعصف بنخوته أن يصمد فى نضال البقاء فى الحياة

ولم يستطع محمد شاه خوارزم عند ذلك الا أن يعمد للهروب بما استطاع استخلاصه من أمواله وذخائره التى استلبها من دماء رعاياه وابتزها من عرق كدهم ، ودموع أعينهم ، ورجفة العراة منهم والجائعين ، وبقى الناس بعد أن هرب ذلك الطاغى وهم كالغنم المبعثرة اذا دهمتها الذئاب ، وقد هرب عنها الرعاة الجبناء . فلنسدل الستار عن نضال غير متعادل بين الشاة والذئب ، ولنغمض العين عن منظر شعب من شيوخ أهل علم ، وشبان أهل تجارة ، وكهول أهل صناعة ، ومن عمال فقراء لا يملكون ما يسدون به الرمق وزراع لا دراية لهم بشىء بعد المحراث والفأس ، . وهم يخرجون ألوفا الى خارج المدن والقرى ، لا يدرون كيف يفعلون ، ولا أنى يتجهون ، فلا تكون الا ساعات حتى يحصدهم العدو حصداً ، أو يحصد بعضهم بعضا فى فزع حرب لا عهد لهم بها . لا بل إنهم كانوا يستسلمون كما يستسلم الدجاج ليذبح واحدة بعد واحدة ، وهى تستسلم للهلاك خوف من رهبة الدفاع عن أنفسها

لقد سلبهم الطغاة ما كان فيهم من رجولة بالعسف المتواصل جيلاً بعد جيل ، وبالخنوع والاذلال يتوارثونه ابنا عن أب عن جد . ألا فليحمل الطغاة وزر هذه المخازى ، ولتلطخ ذكراهم باثم هذه المجازر لا براءة لأحد منهم منذ بدأ الحجاج جريمته فى تذليل الأمة الاسلامية لحكم الطغيان . وترامت أنباء هذه المجازر الى مصر فلم تجد من نفسها فراغاً الى أن تملأ آذانها بها اذ كانت

تناضل نضال الأبطال فى دفاع الصليبيين عن أرضها . اذ بينا كانت مذابح التتار تفتك بالمسلمين فيما بين نهرى سيحون وجيحون ، كان الصليبيون يفدون ألوفاً مؤلفة الى شواطئ مصر يريدون أن يرموا بفتحها قلب دولة الاسلام . وكان بمصر بقية الدولة الأيوبية . فكان ملوكها يردون من ذلك الفتح موجة بعد موجة ، فالملك الكامل يدفع حملة دمياط الأولى ، والملك الصالح يقف لجيش فرنسا وحلفائها ويموت وهو فى ميدان الحرب فيخلفه ابنه الملك طوران شاه فيقضى على جيش لويس التاسع ، ويتم الفتح بأسر الملك الصليبى المتحمس . وهكذا علمت مصر دول أوربا أنها لن تكون هينة فى النضال اذا شاءوا نضالاً

ولما تنفست مصر من حملات الصليبيين راعها ما سمعت من دوى التخريب فى مدن الشرق ، وكان قد علا وصار مرعباً فظيعا . وكان أعلى ذلك الدوى ما جاء من بغداد اذ فتح هولاكو عاصمة الخلافة وألحقها بالخراب الذى خلفه جده بين سيحون وجيحون ، وسمع من بمصر أن خزائن العلم وآثار المدنيـة فى دار السلام قد صارت كلها أثراً بعـد عين ، وأن دولة الاسلام العظيمة قد تحطمت وانهارت كأنها لم تكن من قبل ملاذ الحضارة والفن والعز منذ قرون . فاختلط فى نفسها الحزن على مجد الاسلام الضائع والخوف من أن ينالها من ذلك التيار المدمر ما نال سائر معاقل الاسلام

واندفع التيار المدمر بعد اجتياح بغـداد فسار فى سبيله الى الغرب حتى بلغ الشام ، وكانت قلاعها عند ذلك عواصم الحدود للدولة المصرية الكبرى التى ورثت دولة بنى أيوب وهى دولة الأتراك المماليك

وكان صدى أنباء تلك الغارة فى مصر غير صداها فى سائر الأقطار ، فان صوت التتار الذى أفزع العالم الاسلامى فأخرجه عن رشده وأفقده ارادته وجعل أهله يستسلمون للموت لا يكادون يحركون يداً ، لم يزد على أنه أثار حفيظة أهل مصر ، وحملهم على الاستعداد للنضال . وذلك أن مصر لم تكن كسائر البلاد الاسلامية فانها لم تفقد كرامتها ولا رجولتها . ولم تنس معنى العزة والاباء . حقا لقد كان يحكمها أمراء من الترك ، وكان قبل ذلك يحكمها بنو أيوب والفاطميون وغيرهم ، ولكن هؤلاء لم يكونوا فى يوم من الأيام الا حكاما يقومون بخدمة الجماعة . ولم تزل مصر على توالى المحن عليها سيدة أمرها والمسيطرة على قانونها وحقوقها . ولو كان الأمر عنـد ذلك أمر جيش وسلطان لانتهى النضال على ما انتهى اليه نضال ملوك الشرق وجيوشهم ؛ فنضال مصر مع التتار كان نضال أمة بأسرها محسة بوجودها . شاعرة بما يجب عليها أن تبذله وأن تدبره ؛ وان شئت مصـداق ذلك فها هو ذا وصف مجلس حربى اجتمع عند ذلك لينظر فى أمر التتار والاستعداد للاقاتهم

كان فى ذلك المجلس ممثلو الشعب المصرى وأهل الرأى فيه من مشايخ العلماء وأئمة القانون . كما كان فيه كبار الامراء والحكام والأعيان . وكان سلطان الوقت شابا غرا جاهلا وهو على بن معز الدين أيبك . فتذاكر المجلس غارة العدو وما تحتاج اليه البلاد من وسائل الدفاع من مال وجند . وما لا بد من بذله من مجهود جامع شامل . فكان أول ما نظروا فيه أن تساءلوا : هل السلطان للبلاد أم هى البلاد التى للسلطان ؟ وهل يليق بنا فى مثل هذا الوقت أن نقيم شابا غراً جاهلاً يتصرف فى شـؤون الدولة لا لشىء الا لأنه ابن للسلطان الذى حكم من قبل ؟ ولم تطل بهم المناقشة فى ذلك فاختاروا رجلاً من أكبر قواد العصر فأقاموه سلطانا بدل ذلك الصبى الصغير ودلوا بذلك على أن نظر مصر انما هو لمصالح الدولة ، وانها انما تختار حكامها ليقوموا بواجبهم لها لا ليكونوا سادة متحكمين فيها . ثم نظروا بعد ذلك فيما يجب جمعه من المال للاستعداد للحرب ، فلنسمع الآن قول أحد مشايخ مصر وهو الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لنعلم منه كيف كان يخاطب نواب المصريين قادة الحرب فى بلادهم ، وهل كانوا يرونهم سادة أم خداما : قام ذلك الشيخ الجليل عند ذلك فقال شيئا مثل هذا : « لقد جئتم أيها القواد والأمراء من بلادكم جنوداً صغاراً لا تملكون شيئاً . بل كنتم مملوكين أرقاء . ولقد صارت لكم أموال وعقارات . وأصبحت فى أيديكم النعم الجزيلة والخيول المطهمة ، والجواهر والحلى التى لا يستطاع تقدير قيمتها . فهلمو فابذلوا كل ما عندكم من تلك الأموال حتى اذا ما صرتم كالناس لا تملكون الا ما يملكه أوساطهم ، كان الواجب على الأمة أن تبذل كل ما تملك فى سبيل الجهاد من ورائكم . وليست العامة تعزل عن الحرب

ولا هى مترددة فى خوض غمـاره . فهلموا ؛ اسألوا سهول فارسكور عن الألوف من أهل الريف الذين حاربوا الفرنج ، وأبلوا فى حربهم أحسن البلاء . وهلموا فنادوا أن النفير عام تجدوا الناس جميعا عند ندائكم مسارعين الى الجهاد والنضال »

ولقد انفض ذلك المجلس على اتفاق وثيق ، فخلع السلطان على ونودى بالسلطان الجديد : الملك المظفر قطز . ونودى على الناس جميعا أن النفير عام الى الغزو فى سبيل الله

وهكذا كانت الحركة حركة مصر . والجهـــاد جهادها لا جهاد أمرائها

وخرج السلطان بموكبه فى أواخر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وبلغ الشام فى رمضان ونزل على جانب الأردن فى أواخر شهر الصيام

وكان الى جانب وهدة الأردن واد من الوديان الكثيرة التى تهبط من جبال فلسطين أو تلالها ، تخرج فيه عين من مرتفع لا يزيد علوه على مائتى متر وتسمى عين جالوت ، وذلك الوادى على مقربة من بيسان التى اشتهرت بابنها النجيب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى . وقد اجتمع جند مصر عند ذلك الوادى ، آتيا من علايات فلسطين . وكان جند التتار قد توافوا فى وهدته آتين من دمشق بعد أن جروا عليها ذيل تخريبهم وتدميرهم وجال التتار فى السهل وهم يتضاحكون ويمرحون ، ينظرون الى جنـود مصر بلباسهم الزاهى ، وسلاحهم الثمين ، وحليتهم الرائعة ، ولعلهم كانوا اذ ذاك يقول بعضهم لبعض : ها هى ذى غنيمة لم يسبق لنا عهد بمثلها ، ولا عجب فهى كنوز مصر

واجتمع جنـد مصر من أتراك وعرب ، وبرزوا على عادتهم صفوفا من الفرسان لا تكاد ترى فيها ميلا ولا عوجا ، كل فارس منهم على فرسه كالجبل الراسى اذا تحرك ، فكأنما ارادة واحدة تتحرك . فالفرسان اذا تحركت فهى خيل مقبلة ، والخيل اذا أقبلت فهى فرسان مهاجمة . وانتظم السلك فإذا الجيش سلسلة تطوق جوانب الوادى . أعلاها نحاس براق وحديد صقيل ، وأسفلها حوافر الخيل المتوثبة تضرب الأرض وهى قلقة الى النضال ؛ ثم دقت الكئوس ، وأمر القائد بالهجوم ، فاذا بهذه السلسلة المستوية تنحدر الى الوادى صاخبة داوية راعدة ، ولكنها مع ذلك متماسكة مستوية حتى بلغت الجانب الآخر من الوادى ، وكانت جموع التتار عنده تنتظر الهجوم لتجد عنده النصر الذى اعتادته فى مصافها ؛ واهتزت صفوف السلسلة المستوية عند الاصطدام كما تهتز الاسطوانة الطاحنة اذا صدمها حجر صلد ؛ غير أنها لم تقف وأبطأ سيرها وخفت جريتها ؛ ولكنها لم تتشعب ولم ترتد وعلت قعقعة الحديد . واختلطت ضجة الأصوات ، وارتمى البعض عن البعض ، وتدحرجت الأجزاء عن الأجزاء

وكانت ساعة تشيب لهولها الولدان ؛ ثم ازدادت سرعة السلسلة كأنها قد اجتاحت العقبة التى عاقت سبيلها ؛ واندفع جيش مصر مرة أخرى وراء فلول منهزمة من التتار تجرى فزعة فى غير نظام نحو بيسان فى أسفل الوادى

فلقد حطمت الجيوش المصرية جموع التتار المخيفة لأول مرة فى تاريخها منذ خرجت على العالم تذيقه العذاب والوبال ؛ وكانت وقفة مصر فى عين جالوت حماية للاسلام والمدنية والانسانية

محمد فريد أبو حديد

تحية العام الجديد :

آمال وآلام

للاستاذ محمود غنيم



شُقَّ الفضاء بنورك المُتَجدِّدِ   يا ليت شِعرى ما تُخَبِّئه فى غدِ

ولقد مضى عامٌ عرفتُ صروفَه   وعَييتُ بالغيب الذى لم يُوجَد

رَصَدُوا النجومَ ورحتُ أرصُد شيخها

شيْخَ النجوم الزهرِ علَّكَ مُرْشِدى

يا ابن الظلام أما تعبتَ من السُّرى   أبداً تروحُ على الأنام وتغتدى

شيبتَ ناصيةَ القرونِ ولم تزل   طفلاً تُطالعُنا بوجـهٍ أمردِ

تمضى الحياةُ فلا تعودُ إذا مضت   وأراك تختتم الحياة وتبتدى

حتَّامَ تضربُ فى الدياجى هائماً   تهدى الأنامَ ولا إخالُكَ تهتدى

رَقَدَ الأنامُ خليُّهم وشجيُّهم   وظلِلْتَ وحدك ساهراً لم ترقد

ولقد حسبتُكَ بالسلام مبشِّراً   فبرزتَ مثل الخنجر المتجرِّد

الشرق مُضطَرِمُ الجوانح ثائرٌ   والغربُ يهدِر كالخضمِّ المزبد

إنى أرى ناراً أُعِدَّ هشيمُها   وثقابُها لكنها لم تُوقد

* * *

عامٌ وآخرُ مقبلٌ ومودِّعٌ   شيَّعتُ نعشاً واحتفلتُ بمولِد

ولىَّ القديمُ فما ظفرتُ بطائلٍ   وأتى الجديدُ فهل تُرى هو مُسعدى

ولقد تشابهت السنونَ كأننى   ما عشتُ عمرى غيرَ عامٍ مفرد

قالوا عجبنا ما لشعرك نائحاً   فى العيد ما هذا بشَدْوِ معيِّد

ما حيلةُ العصفور قصُّوا ريشه   ورَمَوْهُ فى قفصٍ وقالوا غرِّد

* * *

يا ليت شعرى يا هلالُ أعائدٌ   للمسلمين بنصر دين محمد

أتعيدُ للجُمُعات سابق عهدها   أتعيد للاسلام مجد المسجد

أدركتَ عهدَ الراشدين «بيثرب»   وحسدتها بين النجوم الحسَّد

وشهدتَ دولة «عبد شمس» حينما   بلغ «الوليدُ» بها عنان الفرقد

ولقد طلعتَ على بنى العبَّاس إذْ   جلس «الرشيدُ» مع السُّها فى مقعد

لهفى عليها دولةً قد أوشكت   تمتدُّ حتى ساحِل المتجمِّد

للشرق ماضٍ كلَّما عرضت له   ذكراهُ يزفر زفرة المتنهد

الشرق يأمُل أن تحلَّ وثاقه   جرت الشعوب وسار سير المقعد

لهفى عليه منسَّبًا لم يُجْدِهِ   طيبُ النجار ولا كريمُ المحتد

بتنا نعيش على حساب جدودنا   هيهات ليس الحرُّ كالمستعْبَد

أين الجبالُ من التلال أو الربى   أين القوىُّ من الضعيفِ القُعْدَد

لا القوم منِّى لا ولا أنا منهمُو   إن لم أفقْهُمْ فى العلا والسؤدد

كان الجدودُ لهم شرًى يأوُونَهُ   ولنا وكورٌ من يَرِدْها يَصْطَدَ

كانوا مغاوِرَ يعتدون على الورى   فإذا بنوهم عرضةٌ للمعتدى

صالوا برمحٍ ذابلٍ ومهنَّدٍ   عَضْبٍ ونعجز أن نصولَ بمِبْرد

أين الذى نظم الجيوش؟ من الذى   نظمَ الكلامَ قلائداً من عسجد

قد كان همهم الفتوحُ وهمنا   أن نغتذِىَ أو نرتوِىَ أو نرتدى

إرثٌ على يدنا تبدَّد شملُه   يا ليت هذا الإرثَ لم يتبدَّد

يا من رأى أرضاً أُبيحَ حرامُها   بالأمس كانت فى قداسةِ مَعْبَد

أُممٌ تباعُ وتُشترى فى السوق مِنْ   يَدِ سيِّدٍ تمضى إلى يد سيد

الحربُ حولَ الشرق شَبَّ أُوارُها   والشرق يرقبُ من يَقُدْهُ ينقد

مالى أرى الشرقَ المهيضَ جناحُه   رغم اتحاد الهم غيرَ موحَّد

وإذا تفرقت الشعوب مواقعاً   وتقاربت غاياتها لم تبعد

ولقد تهان أمامنا جاراتُنا   وشكاتهنَّ تُذيب قلبَ الجلْمَد

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

هجرة الرســــل

للاستاذ عبد الوهاب النجار



لقد قتل الناس مسألة الهجرة النبوية بحثاً وغاصوا فى أعماقها ، ولم يتركوا زاوية من زواياها الا أخرجوا خباياها ؛ فأنا لا أريد أن أكتب على غرار ما كتب من قبل فأعيد ما بداه غيرى وأنا مولع بمعاداة المعادات

والذى أريد أن أكتب هو هجرة الأنبياء الذين عبروا قبل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأنه ليس بدعا من الرسل عليهم الصلاة والسلام

أول الرسل الكرام هجرة هو نوح عليه السلام فكانت هجرته حياة له وهلاكا لأعدائه

دعا نوح قومه الى عبادة الله تعالى وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان وصار يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظات ألف سنة الا خمسين . وهم لا يزدادون منه الا بعداً ونفوراً الى أن ضاق صدره بما يلاقى منهم . ولم يجد باباً لهدايتهم الا طرقه ، ولا منفذاً لنصحهم الا قصده . ولم يجد قومه باباً للنكاية به الا ولجوه ، ولا منفذاً لأغاظته الا سلكوه . فتراهم يقولون له : (ما نراك الا بشراً مثلنا ؛ وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ؛ وما نرى لكم علينا من فضل ؛ بل نظنكم كاذبين) فهم يرون أن الرسالة لا تكون للبشر بل للملائكة ، والهداية لا يمكن أن ينالها الفقراء وذوو الأعواز ، ولكنها وقف على ذوى الوجاهة والقوة . وأن الذى يريد الله أن يصطفيه إنما يكون من أهل الثراء والغنى . ولقد رد عليهم نوح بقوله : إنه لا يسألهم على الهداية التى يزفها اليهم أجراً . فهو لا يجر بذلك لنفسه نفعاً ولا يحوز مالاً ، وانما يريد أجره من الله ، ولم يقل لهم إن عنده خزائن الله ليس عنده شىء من علم الغيب ، ولم يقل لهم إنه ملك ، ولا يقول للذين تزدرى أعينهم من أتباعه لن يؤتيهم الله خيراً وهو الهدى والاستقامة على الجادة ، وأن علم ما فى أنفسهم عند الله لا عنده الى أن ضاق بالقوم وضاقوا به . فقالوا له ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . ودعا نوح عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً » فأنبأه الله أن العذاب سيحل بهم ، وأمره ألا يخاطبه فيهم وأنهم مغرقون . وأوحى اليه أن يصنع الفلك لينجو بها من العذاب النازل بهم وليهاجر بها عنهم

صنع نوح الفلك وكان قومه يسخرون منه وهو يسخر منهم لغفلتهم عن أنفسهم وتفريطهم فى حياتهم وعيرهم بعدم اتباعه الى أن جاء أمر الله وفار التنور ، وتفجرت ينابيع الأرض ، وحلت عزاليها السماء ، وجاء الطوفان وأبادهم بعد أن نزل نوح والذين آمنوا معه فى السفينة ، وسلك فيها زوجين اثنين من كل ذى حياة ، وانتهت هجرته من الأرض بعد سنة وعشرة أيام بعد أن استقرت السفينة على الجودى . فكانت هجرته ميمونة عليه وعلى من معه فى السفينة وهلاكا لأعدائه

فترى ونسمعُ صامتين كأننا ... لم نستمعْ وكأننا لم نشهد
فإذا تحمسنا مَددْنا نحوَهمْ ... كفَّ الدعاء وغيرها لم نَمْدُد
عذرا بنى أعمامنا ! أغلالنا ... قعدتْ بنا عن نجدة المستنجد
أعْزِزْ علينا أن نرى جيراننَا ... يُتَخَطَّفون ونحن مكتوفو اليد

***

من لى بجيل مستجدٍ لم يرثْ ... إلا عنِ الجدِّ القديم الأبعد
يرثُ «ابنَ هندٍ» فى أصالة رأيه ... أو « خالداً » فى عزمه المتوقِّد
لم يعتــــد الضيمَ الذى نعتادهُ ... أهْوِنْ بكلِّ أذًى على المتعوِّد
إن قام يثبتُ حقَّه فدليله ... قصفُ المدافع أو صليلُ مهنَّد
لا خير فى حقٍّ يقالُ ومنطقٍ ... عذبٍ بحدِّ السيف غيرِ مؤيَّد
جيلٌ إذا سِيمَ الهوانَ أبى وإن ... يطلبْ إليه البذلُ لم يتردَّد
يهوى الحياة طليقةً ويعافُها ... ذلاًّ ويُدعى للفداءِ فيفتدى

كوم حماده — محمود غنيم

لوط عليه السلام

آمن بعمه ابراهيم واستجاب الى عبادة الله تعالى وهاجر مع عمه ابراهيم كما قال تعالى : « فآمن له لوط وقال إنى مهاجر الى ربى » وقد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال عن عثمان حين هاجر الى الحبشة ومعه زوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول مهاجر الى الله بأهله بعد لوط عثمان بن عفان

يعقوب عليه السلام

كان بينه وبين أخيـه عيسو شىء من الخلاف ، فهاجر الى بلاد ما بين النهرين عند خاله لابان ، ومكث عند خاله يرعى عليـه غنمه ، وتزوج من ابنتيه ليئـة وراحيل ، ومن جاريتيهما زلفى وبلها ، ورزق منهن أولاده جميعا . وكانت هجرته خيراً وبركة عليه ، فقد صار رب أسرة عظيمة كثيرة العدد ، وأموال وماشية كثيرة وعاد الى فلسطين بعد ذلك ، وولد له فى هجرته جميع أولاده الا بنيامين

يوسف عليه السلام

هاجر مرغما حين ألقـاه اخوته فى غيابة الجب ، ثم التقطه بعض السيارة وأسروه بضاعة وباعوه فى مصر بثمن بخس ، واشـتراه عزيز مصر أو رئيس الشرطة بعاصمة الديار المصرية ، وهى مدينة صان فى الشرقية ، ثم امتحن بامرأة العزيز التى راودته عن نفسه فاستعصم ، ثم بهتته فى وجهه واتهمته بأنه راودها عن نفسه « وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قُبل فصدقت وهو من الـكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال » العزيز لها : « انه من كيدكن ؛ ان كيدكن عظيم » ، والتفت الى يوسف وقال له : « يوسف أعرض عن هـذا » ، والتفت الى زوجه وقال : « استغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين — الى أن بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ، وفى السجن ظهرت آيات فضله ، وفسر لساق الملك وخبازه منامهما ، وأوصى الذى ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند ربه الملك فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين الى أن رأى الملك سبع بقرات سمان حسان يأكلهن سبع بقرات عجاف مهزولة ، وسبع سنبلات خضر غلبتهن سبع سنابل يابسات . وحار العلماء والسـحرة والعرافون فى تفسير ذلك المنام فذكر الذى نجا من الفتيين شأن يوسف وتفسيره للمنام ؛ فاستأذن الملك وأتى الى يوسف واستفتاه فيما رآه الملك . ففسر له الرؤيا على وجهها . وجاء الساقى وقص القصص على الملك ، وكان ما كان ، الى أن اصطفاه الملك لنفسه ، وجعله على خزائن الأرض ، ودبر أمر مصر الى أن جاء سـبع سنوات مخصبة خزن فيها مازاد على الحاجة ؛ ثم جاء السنين المجدبة ففتح مخازن الادخار ، وأطعم الناس ، وجاء اخوته فداعبهم ودبر عليهم تدبيراً حتى جاءوه بأخيه بنيامين ، ثم عرفهم بنفسه وقال : « ائتونى بأهلكم أجمعين » فـكانت هجرته القسرية وتغربه خيراً عليه وعلى أهله وعلى الناس أجمعين ؛ ولولا تدبير الله له وتدبيره لأمر الأغذية لهلك الناس

موسى عليه السلام — وهجرته

لا نريد أن نتكلم عن أولية موسى عليه السلام . وانما نقول إنه نشأ فى بيت فرعون عزيز الجانب ؛ ولـما بلغ مبلغ الرجال لم يخف عليـه أنه دخيل فى ذلك البيت وأنه من العنصر العبرانى ؛ وعرف العبرانيون ذلك فاستعزوا به وانتفعوا بجاهه

وسار فى المدينة يوماً على حين غفلة من أهلها فوجد رجلين يقتتلان أحدهما عبرانى من شيعة موسى والثانى قبطى من عدوه ، فاستغاثه العبرانى على القبطى ، فأغاثه موسى وعمد الى القبطى فوكزه فقضى عليه ، وهو لم يرد قتله ، وانما أراد كف عاديته عن العبرانى ، ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها

لم يشاهد أحد هـذه الحادثة سوى العبرانى . وعاد موسى باللائمة على نفسه وقطع على نفسـه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين

ظهر أمر القبطى ولم يعلم قاتله . فلما كان اليوم الثانى خرج موسى فى مثل ذلك الوقت فوجد ذلك العبرانى بنفسـه فى معركة مع قبطى آخر يريد أن يسخره وهو يأبى ، فاستغاثه كما استغاثه بالأمس فقال له موسى انك لغوى مبين . وأراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ويكف عاديته عنـه . فظن العبرانى أنه اياه أراد . فقال له : ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ان تريد

إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وصالح القبطى واتخذ موسى خصما

حينئذ ظهر قاتل القبطى وهو موسى وانتهى الخبر الى فرعون فاجتمع ملأ فرعون وقومه على قتل موسى . فجاء اليه رجل من آل فرعون من أقصى المدينة يسعى وقال له إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، ونصح له بالخروج لينجو بنفسه فخرج من المدينة خائفاً يترقب قائلاً رب نجنى من القوم الظالمين

ولى وجهه شطر مَدْين على خليج العقبة . ولعلها كانت أقرب بلاد يجد فيها مأمنه لخروجها عن قبضة الحكومة المصرية — ولما كان خروجه على عجل لم يترو فى الأمر ولم يأخذ معه زاداً ولا ما يساعده على قطع المسافة من مطية ولا رفقة له فى هذا السفر الشاق ولا دليل لأنه انما يريد أن ينجو بخيط رقبته . فلما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهديني سواء السبيل . فحقق الله تعالى أمنيته وبلغ ماء مدين بعد الجهد الشديد والجوع المضنى فوجد على الماء أمة من الناس يسقون ووجد امرأتين تذودان غنمهما عن الحوض ، فلم يعجبه أن يتقدم أولو القوة ويتأخر المرأتان فسألهما عن شأنهما . فقالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء لأننا ليس بنا قوة على التقدم والمزاحمة ، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على رعى ماشيته ولا سقياها . فنحى الرعاء بما بقى له من فضل قوة وسقى لهما ثم تولى الى الظل يشكو الى الله حاجته الى القوت وما به من مخمصة قائلاً : (رب إنى لما أنزلت الى من خير فقير)

أراد الله أن يكافئ موسى جزاء توكله عليه وفعله الخير ابتغاء وجه ربه فلم يلبث أن جاءته احدى المرأتين تمشى على استحياء حتى وقفت عليه وقالت له فى خفر : (إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا)

لبى موسى الدعوة ؛ وجاء الى أبيها الشيخ وقص عليه قصصه . فقال له الشيخ لا تخف نجوت من القوم الظالمين

أرادت احدى بنتى الشيخ أن يقوم موسى عنهما برعى الماشية لأنه أقدر على ذلك لما رأته من قوته فى النزع بالدلو وأمانته اذ أخرها وقل لها اسى ورائى وانعتى لى الطريق ؛ فقالت لأبيها (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين)

نشط الشيخ لما أشارت به ابنته ، وطلب الى موسى أن يستأجره ثمانى حجج على أن يزوجه من احدى ابنتيه ؛ فاذا رضى أن يتم الثمانى عشرا كان ذلك على أن يكون بالخيار فى قضاء أحد الأجلين

تقول التوراة إنه بقى عنده الى أن كانت سنه ثمانين سنة ؛ والقرآن الكريم ليس فيه تحديد قاطع فى المدة التى أقامها

والمهم فى الأمر أنه لما قضى الأجل وصار حرا صادفه أن أبعد فى الرعى وضل الطريق فى ليلة مظلمة باردة ؛ وحاول أن يقدح نارا فصلد زنده ولم يور نارا ؛ وبعد لأى (آنس من جانب الطور نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو أجد على النار هدى) . فلما جاء الى النار نودى (يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى ؛ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) وبعد حوار أرسله الله نذيرا الى فرعون وملئه لاخراج بنى اسرائيل ؛ فكان ما كان مما قصه القرآن من شأنه مع فرعون وشأنه مع بنى اسرائيل ؛ فكانت هجرته خيرا وبركة عليه وعلى بنى اسرائيل ؛ كما أجاب فرعون بقوله (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين)

هجرة داود عليه السلام

هو داود بن يسى من سبط يهوذا . كان له إخوة يحاربون الفلسطينيين مع طالوت الذى هو شاول أول ملك من ملوك بنى اسرائيل . وكان فى الفلسطينيين جندى جبار اسمه جالوت قد هابته الأبطال وتحامت الشجعان لقاءه خوف الهلاك

وكان لداود إخوة فى الحرب ؛ فأرسله أبوه بطعام لاخوته ولينظر حالهم ويعود الى أبيه بما يطمئنه عليهم . فبينا هو سائر الى اخوته نظر فى البرية الى أحجار ملس راقته فوضعها فى كنفه (الكنف كيس الراعى) ولما ذهب الى اخوته والحرب على قدم وساق نظر الى الفلسطينى وهو يعير بنى اسرائيل احجامهم عنه ، فاستشاط الفتى داود غضبا وسأل ما الذى يناله من قتل هذا الأغلف الفلسطينى . فأجيب بأن الملك يغنيه ويغدق عليه ويزوجه ابنته ويجعل بيته أكبر بيت فى اسرائيل . فذهب الى الملك واستأذنه فى لقاء جالوت فضن به الملك أن يقتل فى غير فائدة وهو صغير السن لا يقوى عليه . فقال له داود : إن عبدك

(يعني نفسه) قتل أسدا تعرض لغنم أبي وقتل دبا أيضا . فأذن له وأعطاه لأمة حربه فلم يحسن داود المشى فيها فخلعها وذهب الى جالوت بمقلاعه وأحجاره . وقد هزأ منه جالوت ونصحه أن يعود من حيث أتى فلم يفعل ، ووقف قبالته ووضع حجرا من تلك الأحجار في المقلاع رماه به فارتز الحجر في جبهة جالوت وخر لليدين وللفم ، فأخذ داود سيف جالوت وفصل رأسه به وجاء به الى الملك وانهزم الفلسطينيون شر هزيمة

ولكن طالوت ضن على داود بابنته التي وعد أن يزوجها من قتل جالوت وزوجه من ابنة له أخرى وقدمه على رؤساء جنده

تغير بعد ذلك طالوت لداود وعمل على اهلاكه بيد الأعداء، خوفا من أن يوليه بنو اسرائيل الملك ، فكان يكلفه بالقدوم الى الحرب وكان داود يظفر دائما . فعمد الى اهلاكه بنفسه ، ونجا داود منه مرات وهو يتبعه في كل مكان ، وتمكن داود من قتل الملك مرات ولكنه لم يفعل ويخبره بتمكنه من قتله وأنه أبقى عليه ، فيندم الملك ثم يعاوده خوفه على الملك فيطارده الى أن خرج داود من ملك اسرائيل وأقام مع الفلسطينيين برضاء ملكهم الى أن قتل طالوت وابنه . فجاء الى قرية أربع وهي مدينة الخليل وبويع فيها بالملك . وكان لطالوت ولد بويع بالملك أيضا الى أن قتل ابن طالوت الملك وانفرد داود بالملك واشترى قلعة صهيون التي عند باب الخليل وسماها مدينة داود ، ثم اشترى جبل الموريا الذي عليه الحرم القدسي ومدينة أورشليم القديمة المعلومة اليوم بأسوارها وحدودها

وفي أواخر أيام داود نزا على الملك ولده ابشالوم وبايعه العدد العظيم من بني اسرائيل . ورحل داود الى شرق الأردن وجلس ابشالوم على كرسي الملك وحارب أباه فقتل أبشالوم وعاد داود الى مقر ملكه . فهاتان هجرتان لداود وكانت العاقبة له على خصومه فيهما

هجرة المسيح عليه السلام

أما المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فله هجرة ليست كهجرة سائر الأنبياء الذين هاجروا من بلادهم

ذلك أنه لما ولد كان هناك مملك من قبل الرومان أخبر أن ملك اليهود ولد في بيت لحم ، فجد في قتل الأولاد الذين ولدوا في بيت لحم في تلك الأيام . فأمرت مريم بأن تهاجر بابنها ومعها خطيبها يوسف النجار فذهبت الى مصر وأقامت فيها مدة قيل إنها كانت سبع سنين أو أقل ، الى أن أمرت بالرجوع الى فلسطين ، لأن الذي كان يطلب نفس ولدها قد هلك ، فعادت

وهـــذه الهجرة نص عليها في انجيل متى وانجيل برنابا ولا وجود لها في سائر الأناجيل الثلاثة الأخرى المعروفة؛ فهجرة المسيح كانت تابعة لهجرة أمه خوفاً عليه ولم تكن بارادته

محمد عليه السلام

من ذلك كله نرى أن محمداً لم يكن بدعا من الرسل الذين هاجروا من قبل ، فقد جاهد جهاد الأبطال في اذاعة دعوته بين الناس ، وقد أوذي في الله تعالى هو وأتباعه . حتى اذا لم يبق في قوس تصبرهم منزع سهل الله تعالى اسلام أهل المدينة فأقبلوا على الدين بمحض اختيارهم ، حتى اذا كثروا جاءوا اليه وبايعوه على النصرة ، فأذن لأصحابه في الهجرة وبقي هو وأبو بكر وعلى والمستضعفون . فلما مكر به كفار مكة ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه وصحت منهم العزيمة على ما بيتوا ، أمره الله تعالى بالهجرة (وكان أبو بكر يعد لها العدة) فامتثل الرسول أمر ربه وآذن أبا بكر بذلك ففرح وحاول أن يدعو صهيب بن سنان للسير معهما فلم يقدر له ذلك ، وخرجا الى غار ثور فأقاما به ثلاثا . وقد جهد كفار قريش في العثور عليهما فصرفهم الله عن ذلك ، وقد كانا منهم قاب قوسين أو أدنى ؛ ثم ذهبا الى المدينة بعد أن هدأ الطلب يدل بهما عبد الله بن اريقط وهو على شركه الى أن وردا قباء ثم المدينـة هاربين بدينهما . فبدل الله خوف رسول الله والمؤمنين أمنا ، ومكن لهم في الأرض ، وأرى كفار قريش منهم ما كانوا يحذرون ، وأتم الله نعمته على أهل الاسلام ، مكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم الى أن مضى رسول الله لسبيله ، وقام خلفاؤه من بعده يحملون عبء تبليغ الرسالة والتمكين للدين ؛ وانتشر الاسلام شرقا وغربا ؛ وكانت الهجرة على رسول الله وعلى أمته خيرا وبركة كما كانت هجرة الأنبياء خيرا وبركة عليهم من قبل ؛ ولله عاقبة الأمور ؛ لا مبدل لكلماته ، ولا معقب لحكمه : وهو العزيز الحكيم

عبد الوهاب النجار

(٥)

الأزهر والحياة الفكرية في العصر الفاطمي

للأستاذ محمد عبد الله عنان



عرضت لنا من قبل فرصة للتعريف بنشأة الأزهر الجامعية، وكيف أنه أنشئ في البداية ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية، ثم نشأت صفته الجامعية في ظروف عرضية، ولم تلبث أن استقرت بعد ذلك وتأثلت؛ وذكرنا ما كان للوزير ابن كلس من كبير أثر في اسباغ هذه الصفة العلمية الجليلة على الأزهر، وكيف أنه يعتبر منشئ الجامعة الأزهرية في معنى من المعاني

والآن نذكر طرفا من الآثار الفكرية التي ترتبت على قيام هذه الجامعة الاسلامية الكبرى في عصرها الأول، أعني في العصر الفاطمي، ونذكر أيضاً بعض أعلام التفكير في هذا العصر ممن تولوا التدريس في هذا المعهد الجليل أو تخرجوا فيه أو اتصلوا به وبحلقاته اتصالاً كان له أثر في تكوينهم الفكري والعلمي

لم تبلغ العلوم والآداب في ظل الدولة الفاطمية من التقدم والازدهار ما كان خليقا أن تبلغه في ظل هذه الدولة القوية الباذخة؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت ظروفها الدينية والسياسية ترمي الى الانشاء في كل شيء، ولم ترد أن تقوم على تراث الماضي أو أن تستأنف السير به؛ ولم يعد لها في عهد الانشاء الفتي، فلم يأت منتصف القرن الخامس حتى سرت اليها عوامل الانحلال والوهن

وقد كان هذا شأن الحركة الفكرية، فانها لم تلبث طويلاً في قوتها وازدهارها. وكان الأزهر، وهو يومئذ الى جانب دار الحكمة والمسجد الجامع، من صروح الحركة الفكرية، يتبع مصاير هذه الحركة من قوة وضعف. فلم يبلغ في هذا العصر — عصر الانشاء والنمو — ما بلغه في العصور التالية من التقدم والأخذ بزمام الحركة الفكرية؛ ومن ثم فانا لا نستطيع أن نحصي في هذه المرحلة من تاريخ الجامع الأزهر كثيراً من الأعلام الذين تخرجوا في حلقاته أو درسوا فيها. والواقع أنه من الصعب أن نعين بالتحقيق من تخرج في الأزهر من أعلام التفكير والأدب في هذا العصر، وإن كنا نستطيع أن نعين بعض الأساتذة الذين تولوا التدريس في حلقاته؛ ذلك أن الأزهر لم يكن ينفرد يومئذ بتنظيم الدراسة العالية، بل كان إلى جانبه دار الحكمة تنافسه وتتفوق عليه أحياناً، والمسجد الجامع يحتفظ دائماً بحلقاته القديمة؛ ومن المرجح أن معظم العلماء والأدباء الذين ظهروا في هذا العصر كانوا ينتفعون بالدرس في المعاهد الثلاثة؛ ومن المرجح أيضاً أن الأزهر كان له في تخريج أولئك العلماء والأدباء أوفر نصيب، لأن دار الحكمة لم تتمتع دائماً بكثير من الثبات والاستقرار، وقد أغلقت فيما بعد؛ ولم يكن المسجد الجامع معهداً منتظماً للدرس، وكان الأزهر أكثر المعاهد الثلاثة انتظاماً واستقرارا

كان في مقدمة الأساتذة الذين تولوا التدريس والاقراء بالأزهر منذ إنشائه بنو النعمان قضاة مصر؛ فكان القاضي أبو الحسن علي بن النعمان أول من درس بالأزهر، فعقد أول حلقاته في صفر سنة ٣٦٥ هـ وقرأ فيها مختصر أبيه في فقه آل البيت، وكان فوق تضلعه في فقه آل البيت أديباً شاعراً، وتوفي سنة ٣٧٤ هـ؛ ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضي محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ، ثم ولده الحسين بن النعمان قاضي الحاكم بأمر الله (١)؛ ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) كان بين الذين تولوا الدرس بالأزهر يومئذ، فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته، ثم صديق ولده العزيز، ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمي الجديد

ويجب ألا ننسى أن الوزير ابن كلس نفسه كان في مقدمة العلماء الذين تولوا التدريس في الأزهر. وقد رأينا في بحثنا السابق كيف كان هذا الوزير العلامة أيام العزيز بالله يعقد حلقاته الدراسية

(١) ابن خلكان — ج ٣ ص ٢١٩ — ٢٢٣، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٨ — وذيل القضاة (ملحق كتاب الكندي) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١

أحياناً بالأزهر وأحياناً بداره ، ويقرأ فيهـا محاضراته فى الفقه الشيعى ولا سيما رسالته الشهيرة المعروفة « بالرسالة الوزيرية » وقد كانت من أقدم كتب الدراسة التى درست بالأزهر

ونستطيع أن نذكر من أعلام التفكير والأدب فى هذا العصر عدة ، وهم بلا ريب ممن كان للأزهر فى تكوينهم العلمى أثر كبير ؛ فمنهم المسبحى الكاتب والمؤرخ الأشهر ، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ، ولد بمصر سنة ٣٦٦ ﻫ وتوفى سنة ٤٢٠ ؛ وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية ؛ تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ؛ وأخذ بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ، وشغف بتـدوين التاريخ ، وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » وهو تاريخ مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء وما بها من العجائب والأبنية ، وذكر نيلها وخواصها ومجتمعاتها حتى فاتحة القرن الخامس الهجرى . ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذى يلقى بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين ، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته ؛ وكتب المسبحى كتباً أخرى فى التاريخ والأدب والفلك ولكنا لم تلق شيئاً منها[1]

ومنهم ، القضاعى الفقيه والمحدث والمؤرخ ؛ وهو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ؛ ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع ، وتوفى بها سنة ٤٥٤ ﻫ : كان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ؛ تولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهـد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأوفده المستنصر سـفيراً إلى تيودورا امبراطورة قسطنطينية سنة ٤٤٧ ﻫ (١٠٥٥ م) ليحاول عقـد الصلح بينها وبين مصر ، وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ منها « الشهاب » و « مسند الصحاب » وهما فى الحديث وكتاب « مناقب الامام الشافعى » ، و « أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء » ، و « عيون المعارف » وهما مختصران فى التاريخ ، وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره[1]

(١) راجع فى ترجمة المسبحى وذكر مؤلفاته ابن خلـكان — ج ١ س٦٥٣ — وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

ومنهم الحوفى النحوى اللغوى ، وهو أبو الحسن على بن ابراهيم ابن سعيد كان من أئمة اللغة فى عصره ، واشتغل أعواماً طويلة بالتدريس فى مصر والقاهرة ، وألف كتباً كثيرة فى النحو والأدب منها كتاب « إعراب القرآن » وكانت وفاته سنة ٤٣٠ ﻫ

ومنهم أبو العباس أحمد بن على بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين ، واشتهر حيناً بتدريس علم القراءات وتوفى سنة ٤٤٥ ﻫ

ومنهم ابن بايشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر ابن أحمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى اللغة والنحو ، وألف فيهما عدة تصانيف ضخمة ، واشتغل حيناً بديوان الانشاء فى عهد المستنصر بالله ، وتوفى سنة ٤٦٩ ﻫ

ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى ، تلميذ القضاعى . كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو ، وتوفى سنة ٥٢٠ ﻫ

ومنهم الفقيه العلامة الحسن بن الخطير الفارسى ، كان من أقطاب الفقه الحنفى والتفسير ، وكان أيضاً عارفاً بالرياضة والطب وعلوم اللغـة والتاريخ ، وله عدة مصنفات فى التفسير والفقه . واشتغل زمناً طويلاً بالتدريس بالأزهر ، وتوفى سنة ٥٩٨ ﻫ

* * *

هذا وأما أعلام الوافدين على القاهرة وأزهرها فى ذلك العصر فنستطيع أن نذكر منهم عدة أيضاً . فمنهم العلامة الأندلسى أمية ابن عبـد العزيز بن أبى الصلت ، وفد على مصر فى أوائل القرن السادس أيام الأفضل شاهنشاه ، وأقام حيناً بالقاهرة يتصل بمعاهدها وعلمائها وأدبائها ؛ وكان ماهراً فى الرياضة والفلك والموسيقى والعلوم الطبيعية ، وكان أيضاً أديباً شاعراً بديع النثر والنظم ؛ ألف كثيراً من الـكتب فى مختلف العلوم . ووضع رسالة عن علماء مصر وأدبائها فى هذا العصر[2] ، وتوفى سنة ٥٢٨ ﻫ

(١) راجع فى ترجمة القضاعى (ابن خلـكان ج ١ ص ٥٨٥ — والـبكى طبقات الشافعية — ج ٣ ص ٦٣ — وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ — وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨

(٢) انتهت إلينا قطعة من رسالة ابن أبى الصلت هـذه ، وهى ضمن كتاب مخطوط لابن زولاق (كتاب أخبار سيبويه المصرى) محفوظ بدار الـكتب المصرية

ومنهم العلامة المقرىء الشهير أبو القاسم الرعيني الشاطبي الضرير، ولد بشاطبة من أعمال الأندلس في سنة ٥٣٨ هـ، وبرز في علوم القرآن، واشتهر بالأخص بالتضلع في علم القراءات، وقدم إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية (سنة ٥٧٢ هـ) يسبقه صيته، وتصدر للاقراء والدرس بالقاهرة بدرس القرآن وعلوم اللغة، فهرع إليه الطلاب من كل صوب، وكان أمام القراءات في عصره. ووضع في علم القراءات قصيدته الشهيرة المسماة «حرز الأماني ووجه التهاني»، وأنشأ بمصر مدرسة حقة للقراءات؛ وتوفي سنة ٥٩٠ هـ

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر أيام الدولة الفاطمية، واتصلوا بمعاهدها وأدبائها، أبو حامد أحمد بن محمد الانطاكي المعروف بأبي الرقعمق الشاعر المتفنن الماجن، وفد على مصر في أوائل الدولة ومدح المعز لدين الله وولده العزيز والوزير ابن كلس وتوفي سنة ٣٩٩ هـ؛ وأبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي المعروف بصريع الدلا، قدم الى مصر أيام الحاكم بأمر الله ومدحه، وتوفي سنة ٤١٢ هـ وهو صاحب المقصورة الهزلية الشهيرة التي يعارض فيها مقصورة ابن دريد؛ ومنهم الشاعر الأشهر عمارة اليمني، وهو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن، قدم إلى مصر سنة ٥٥٠ هـ في خلافة الفائز بن الظافر، وكان فقيهاً أديباً شاعراً فائق النثر والنظم، شهد سقوط الدولة الفاطمية ورثاها، واتهم بالتآمر مع آخرين على السلطان صلاح الدين، وأعدم سنة ٥٦٩ هـ، ومن آثاره كتاب أخبار اليمن، وكتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية

ومن الرحل الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر، الرحالة الفارسي ناصري خسرو، قدم اليها سنة ٤٣٩ هـ في خلافة المستنصر بالله، وشهد أزهرها. وأشار اليه خلال وصفه لمدينة القاهرة[(١)]

***

كان للأزهر بلا ريب أثره في توجيه الحركة الفكرية المصرية في هذا العصر، فقد كان مذ بدأت مهمته الجامعية موضع الرعاية الرسمية. كان يشترك في عقد حلقاته الدراسية أقطاب العلماء، من رجال الدولة، كبني النعمان قضاة مصر، والوزير ابن كلس، وداعي الدعاة؛ وكانت هذه العناية تسبغ على حلقاته ودروسه أهمية خاصة؛ بيدأن هذا الأثر كان محدوداً، خصوصاً منذ قيام دار الحكمة، جامعة الدولة الرسمية، وتبوئها مقام الزعامة في توجيه الحركة الفكرية؛ وقد كان أثر الأزهر أقوى وأشد ظهوراً في نشر العلوم الدينية، وتخريج علماء الدين، لأنه كما قلنا كان موئل الثقافة الدينية، بينما كانت دار الحكمة موئل الثقافة المدنية؛ وعلى أي حال فان مؤرخ الآداب العربية لا يسعه الا أن ينوه بما كان للأزهر من أثر في سير الحركة العلمية والأدبية أيام الدولة الفاطمية، وان كان هذا الأثر لم يبلغ يومئذ ما بلغه فيما بعد من الأهمية والخطورة

ونلاحظ من جهة أخرى أن أثر الأزهر في توجيه الحياة العامة في تلك المرحلة الأولى من حياته لم يكن عظيما. ذلك أن الدولة الفاطمية كانت تحرص على سلطانها السياسي أشد الحرص وتمعن في التمسك بعصبيتها، ولا تفسح كبير مجال لنفوذ العلماء ورجال الدين، ولم تكن عنايتها بنشر دعوتها الدينية الا توطيداً لدعوتها السياسية، ولم يكن للدعاة من العلماء ورجال الدين من النفوذ المستقل الا ما يتجه نحو هذه الغاية ويخضع لسياسة الدولة العامة. كذلك لم يكن للفقهاء والمشترعين المستقلين كبير أثر في سير التشريع في ذلك العصر، لأن الدولة الفاطمية كانت تهتدي في صوغ شرائعها بمبادئها المذهبية الخاصة، ومن ثم فإنا لا نستطيع أن نلمس أثراً يذكر لرجال العلم والدين في توجيه الحياة والشؤون العامة في العصر الفاطمي

محمد عبد الله عنان

(١) راجع الترجمة الفرنسية لرحلة ناصري خسرو

الفتوح الاسلامية

وأثرها فى تقدم المدنية

للدكتور حسن ابراهيم حسن

إذا حاولنا أن نذكر فى هذه الكلمة ما كان للحكومات الاسلامية من أثر فى تقدم المدنية ، لم يكن ذلك إلا تكراراً لأمر قد فرغ منه منصفو المؤرخين شرقيين وغربيين

اتسعت رقعة الاسلام حتى زادت فى السعة على الأمبراطورية الرومانية . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أول من وضع أساس السياسة الخارجية للعرب ، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والايمان برسالته ، وغزا بلاد الروم وحارب الغساسنة على حدود الشام لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه . وقد جهز قبل وفاته حملة لغزو أطراف الشام . غير أن وفاته قد حالت دون إنفاذها . ولما ولى أبو بكر الخلافة شرع فى إتمام هذا الفتح ؛ وجاء بعده عمر فعمل على توسيع رقعة الدولة الاسلامية . وإذا ماتتبعنا ماقام به الرسول من الغزوات والسرايا ، وما قام به الخلفاء من بعده من الفتوح ، وجدنا أنه كان لهذه الغزوات والفتوح أثر كبير فى نهضة بلاد العرب من النواحى الاجتماعيـة والسياسية والأدبية وغيرها ، كما كان لها الفضل الأكبر فى نشر الاسـلام فى أرجاء الجزيرة العربية ، ووضع الأسس والمبادىء العامة فى تنظيم المعاملات بين أفراد الجماعة الاسلامية . ذلك أن الاسلام قد حرص على أواصر القرابة من أن تعبث بها الغيرة ، كما سوى بين المرأة والرجل فى جميع الحقوق تقريباً ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، وحث على التمسك بالفضائل ، وعنى بأسرى الحروب أيما عناية ، وحاطهم بسياج من عدله ورحمتـه . ولم يذكر لنا التاريخ أن إماما من أئمة المسلمين أمر بقتل الأسرى ، اللهم إلا من كان يخشى خطره على المسلمين . ولا غرو فان الاسلام قد سوى بين الناس على اختلاف أجناسهم ؛ فسوى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، وبين الرجال والنساء .

انظر الى المسلمين وهم فى مسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة يحجون البيت الحرام ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام ، أفتجد فيهم من فاضل ومفضول ؟ وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك الديمقراطية التى جاء بها الاسلام ، والتى تلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التى طالما مزقت شمل العرب ، وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عنـد الله أتقاكم) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى »

ولقد وضع الاسلام من الأصول والنواميس ما هو كفيل بالقضاء على الاسترقاق ، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك — على ما نعلم — من شدة التمسك بهذا النظام . وبدهى أنه لا يستطيع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يزيل أمرا ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء ، على أن هذا الاستيلاء لم يغفل تعبيد الطريق لألغاء الاسترقاق ، فما فتئ الرسول يرغب الناس فى العتق . وقد أبقى عليه الصلاة والسلام الرق لسببين :

أولهما : حفظ التوازن بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول كالفرس والروم ، حتى يستفيد العرب من أسرى الأمم ، كما استفادت هذه الأمم من أسرى العرب

وثانيهما : لحماية الضعفاء من نساء أكلت الحرب رجالهم ، ولو تركن وشأنهن لكن عالة على المجتمع ومصدرا للشرور

على أن الاسلام ، وان لم يجد بداً من اباحة الرق ، فانه لم يترك الارقاء هملا ، فقد نظم شؤونهم ، وأخذ بأيديهم فى طريق الحرية . وقد وصف أحد الفرنجة معاملة الاسلام للرقيق بقوله : « لقد وضع للرقيق فى الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الانسانى النبيل ، ففيها تجد من محامد الاسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها الى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة . نعم ! ان الاسلام لم يلغ الرق الذى كان شائعاً فى العالم ، ولكنه عمل كثيرا على تحسين حال الرقيق ، وأبقى الأسر ، ولكنه أمر بالرفق بالأسير . ومما يدل على صحة هـذا القول أنه لـما جىء بالأسرى بعد غزوة بدر الكبرى فرقهم

الرسول على أصحابه وقال لهم استوصوا بهم خيرا »

وعندما بسط الاسلام ظلاله خارج الجزيرة وجدنا أهل هذه البلاد المفتوحة يرحبون به بل ويحثون على اعتناقه لما فيه من الحرية والمساواة ؛ فكان العرب أثناء حكمهم بلاد فارس والشام ومصر وغيرها من البلاد يقومون بحماية أهلها مقابل مبلغ معين ، يدفع عن كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية ، وهى ضريبة شخصية يدفعها أهل الذمة مقابل اعفائهم من خدمة الجيش ؛ وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الاسلام ؛ وكانت الأرض ملكا للفاتحين ، غير أن العرب كانوا يتركونها للأهالى يزرعونها على أن يؤدوا جزءا من غلتها ضريبة عقارية تسمى خراجا

ولما استولى العرب على بلاد فارس والشام ومصر اتخذوا لأنفسهم طرازا للعمارة خاصاً بهم ، يتناسب وطبيعتهم وحالة معيشتهم ؛ وقد فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطى والفارسى من حيث الرقى وجمال التنسيق والاتقان . والعرب — كما لا يخفى — مولعون بالتقليد ، كما أنهم معروفون بالابتكار المبنى على هذا التقليد ؛ وهم فى ذلك أشبه بالأمة الانجليزية . كذلك عنى العرب بتخطيط المدن وشق المجارى لتوصيل الماء الصالح للشرب اليها . فشرعوا على أثر انتصارهم فى موقعة القادسية (١٥ هـ) فى تخطيط مدينتى البصرة والكوفة ، كما أسسوا على أثر فتحهم مصر مدينة الفسطاط

وكان لاختلاط العرب بالأمم التى تغلبوا عليها أثر كبير فى تقدم المدنية . فقد بلغت النهضة العلمية أوجها فى صدر الدولة العباسية بفضل تشجيع المنصور والرشيد والمأمون . فكانوا يبعثون البعوث للتنقيب عن الكتب القديمة فى الكنائس والأديرة ، وأرسل المأمون بعثات علمية إلى الهند والقسطنطينية لنقل الكتب النفيسة ، ونشطت حركة الترجمة فى ذلك العصر نشاطاً عظيما . فنقلت الكتب الفارسية والهندية والأغريقية إلى العربية ، من بينها فلسفة أرسطو وهندسة أقليدس وجغرافية بطليموس ، وغير ذلك من الكتب فى الطب والفلك ، وكان من أشهر المترجمين حنين بن اسحق ، ويعقوب بن اسحق الكندى . وقد نهج الفاطميون والأيوبيون فى مصر ، وأمراء بلاد الأندلس فى الغرب نهج العباسيين . كذلك اهتم العرب اهتماماً كبيراً بدور الكتب العامة حتى بلغ عدد المجلدات فى مكتبة القاهرة فى عهد الفاطميين خمسمائة ألف مجلد ، وفى مكتبة قرطبة أكثر من أربعمائة ألف مجلد

ولم تقتصر علوم العرب على ما نقلوه عن غيرهم . فقد فاقوا أساتذتهم من الفرس والأغريق ، ولا غرو فقد شجع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وانتشار التجارة فيها على رقى علم الجغرافية . ولا عجب فالعرب بدو رحل بطبيعتهم . ومن أشهر الرحالة من العرب المسعودى وابن جبير وابن بطوطة الذين طافوا الأقطار ووصفوا الجهات المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدات ومهدوا بذلك سبيل الكشف الجغرافى . كذلك اهتم العرب بعلم التاريخ فوضعوا فيه المؤلفات القيمة ، كما نبغوا فى الشعر والأدب . ولا غرو فقد أثرت فيهم بلاغة القرآن ، وساعدت مظاهر الحضارة المادية وجمال المناظر الطبيعية ، وبخاصة فى بلاد الأندلس على رقى الخيال ورقة الشعر ، كما برع العرب فى فن الغناء والعزف على الآلات الموسيقية ، وممن نبغ منهم فى الموسيقى والغناء اسحق الموصلى ببغداد ، وتلميذه زرياب بقرطبة ، حيث أسس مدرسة للموسيقى تخرج فيها كثير من مشاهير الموسيقيين

كانت الدول الاسلامية فى الشرق ومصر وبلاد الأندلس مركز الفنون والصناعات ، ومنار العلوم والآداب ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى بحار الجهل . وقد اتصل الأوربيون بالعرب واقتبسوا من علومهم واستفادوا من حضارتهم عن طريق مصر والشام أثناء الحروب الصليبية التى قامت فى القرن الحادى عشر الميلادى

فقد نزح الى بلاد الأندلس طلاب العلم من أنحاء أوربا ، فالتحقوا بمدارسها وجامعاتها ، وانتفعوا بدور الكتب الكثيرة بها . فلما عادوا الى بلادهم نشروا فيها علوم العرب . وبلغ من اهتمام الغربيين بالعلوم العربية أن أنشأوا فى باريس فى القرن الثانى عشر الميلادى مدرسة لتعليم اللغات الشرقية ، وقد ظهر من الأوربيين علماء تشبعوا بعلوم العرب وطرق أبحاثهم . نخص بالذكر منهم العالم الانجليزى رودجر بيكون (Roger Bacon) الذى دعا الناس الى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والاعتماد على التجارب للوصول الى الحقائق العلمية ، فبدأ الأوربيون يبحثون العلوم بحثاً علمياً كان له أثر عظيم فى قيام النهضة العلمية فى أوربا ورقى الحضارة العربية . وقد نقل الأوربيون العلوم الطبية عن

ابن زهر وابن البيطار ، وعرفوا بصفة خاصة طرق معالجة الجدرى والحصبة . وطالما كان يستدعى ملوك أوربا وأمراؤها الأطباء من العرب لمعالجتهم . وأسس الفرنسيون مدرسة للطب فى مدينة مونبلييه (Montpellier) قام بالتدريس فيها أساتذة من بلاد الأندلس ؛ كذلك استفاد الأوربيون من نبوغ العرب فى الكيمياء . ولا تزال بعض المركبات الكيميائية ، كالكحول (Alcohol) والكافور (Camphor) والقلويات (Alkali) والأشربة (Syrops) تدل على أصلها العربى

وقد أخذ الأوربيون عن المسلمين كثيراً من أنواع النبات . كالأرز ، وقصب السكر ، والخرشوف ، والمشمش ، والبرتقال والزعفران ، وأنواع الورد والياسمين ؛ كما أخذوا عنهم الطواحين الهوائية لطحن الغلال ، ورفع الماء ، وأقاموا أول طاحونة منها فى مقاطعة نرمندية سنة ١١٠٥ م ، كما أقاموا غيرها فى هولنده . ولا تزال سهول بلنسية فى اسبانيا تروى إلى الآن بطرق الرى الفنية التى ابتكرها العرب . وقد نقل الأوربيون عن العرب كثيراً من الصناعات كصناعة السكر والحرير والورق كما عرفوا عنهم البوصلة التى كان لاستعمالها فضل كبير فى توسيع نطاق الملاحة وتشجيع الكشف الجغرافى . وقد نبغ العرب فى الفنون الحربية وصناعة السفن حتى أصبحوا أساتذة أوربا فى ذلك المضمار . فكانت أساطيل الدول الاسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط نماذج تحتذيها البلاد المسيحية فى صنع أساطيلها . ولا يزال كثير من الاصطلاحات العربية البحرية شائعاً على ألسنة البحارة فى جنوه حتى اليوم . من ذلك كلمة Cable المحرفة عن لفظ حبل ، وكلمة (Darsonal) الايطالية المحرفة عن لفظ دار الصناعة

ولم تقتصر استفادة الأوربيين من العرب على العلوم والصناعات ، فقد تأثر طلاب العلم من الأوربيين بالأدب فى اسبانيا ، وبخاصة الشعر والموسيقى ، فنقلوا إلى بلادهم أشعار العرب وأناشيدهم وأغانيهم مما كان له أثر كبير فى الآداب الأوربية . ولا عجب فقد كان العرب حلقة اتصال بين المدنية القديمة والمدنية الأوربية الحديثة

حسن ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية
وكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية

من مناظر الهجرة

أم سلمة *

بقلم ناجى الطنطاوى

— ١ —

(فى البادية ، قبل الفجر ، أم سلمة ممتطية بعيراً وابنها فى حضنها وأبو سلمة آخذ بخطام البعير يسوقه ، فى طريقهم إلى المدينة مهاجرين)

أم سلمة

« أبا سلم » حث امطى فانى   أخاف من القوم المكيدة والغدرا
إذا أدركونا اليوم كان نصيبنا الرّ   دى وغدت هذى الرمال لنا قبرا
وإنىَ لا أخشى على نفسىَ الردى
ولا أرهب الموت الزؤام ولا الأسرا
ولكن طفلى سوف يصبح إن أمت
يتيماً ، ويمسى طعم عيشته مرا

(*) هى هند بنت سهيل القرشية المخزومية أم المؤمنين ، كانت زوج ابن عمها أبى سلمة بن عبد الأسد ، فلما مات عنها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة سنة أربع . وكانت ممن أسلم قديماً هى وزوجها وهاجرا إلى الحبشة فولدت له سلمة ، ثم قدما مكة ، وهاجرا إلى المدينة ، وفيها ولدت له عمر ودرة وزينب وقيل إنها أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة وأول ظعينة دخلت المدينة

وحين بعث إليها النبى صلى الله عليه وسلم يخطبها بعد سنتين من الهجرة حين مات زوجها وانقضت عدتها ، اعتذرت بكبر السن والأولاد وكونها غيوراً ، فذكر النبى صلى الله عليه وسلم أنه كبير أيضاً وذو أولاد ، ثم قال : وأما الغيرة فأدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك ، فكان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يتحاكمن إليها لعلمهن ببراءتها من الغيرة . وكانت موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب ، وهى صاحبة المشورة المباركة يوم الحديبيـــة . توفيت على الأكثر فى آخر سنة ٦١ وهى آخر أمهات المؤمنين موتاً

أما زوجها أبو سلمة ، فهو عبد الله بن عبد الأسد المخزومى من السابقين الأولين إلى الاسلام ، أسلم بعد عشرة أنفس ، وكان أخا النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاعة وابن عمته ، وروى ابن أبى عاصم من حديث ابن عباس : أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد ، وأول من يعطى كتابه بشماله أخوه سفيان بن عبد الأسد

شهد بدراً . وتوفى فى سنة أربع من الهجرة بعد منصرفه من أحد ، انتقض به جرح كان أصابه بأحد فمات منه

إذا صاح «أمي» لم يجد من يجيبه   فتذري أحر الدمع مقلته الشكرى

لنسرع فإني قد شعرت بوحشة   وذعر

أبو سلمة —

دعي يا أم سلمة ذا الذعرا

ألم تعلمي أن المقدر كائن   إذا عاندته النفس أعقبها خسرا

سننجو معاً إن يكتب الله نجوة   ويلحقنا ضر إذا كتب الضرا

ألا في سبيل الله كل مصيبة   إذا نزلت فينا ادّرعنا لها الصبرا

تق أن ما نلقى من البؤس والضنى   سيجعل رب العرش فيه لنا أجرا

دعانا إلى الدين القويم محمد   فقلنا له لبيك رمت بنا خيرا

أطعنا وآمنا بك العمر كله   فمرنا فانا قد بذلنا لك العمرا

وقفنا على نصر النبي نفوسنا   وأرواحنا لا نبتغي الحمد والشكرا

سلام على عهد بمكة سالف   لهونا به لم نعرف الحزن والضيرا

مهاجر من أرض غدانا تبيرها   لو انا استطعنا مانوبنا لها هجرا

فهل يكتب الله المؤمل عودة   لنا أم ستبقى في خيالتنا ذكرى

أم سلمة : أرى الطفل قد أغفى

أبو سلمة: لينعم بنومه   ولا توقظيه ربما نقطع القفرا

أما ذاق طعم النوم بالأمس ؟

لا

اذن   دعيه يتم ماشاء ولنرقب الفجرا

(يتطلعان إلى السماء لرؤية الفجر ، وبعد لحظة يسمعان جلبة وصوت حوافر خيل ، وتعلو أصوات من حولهما قائلة :)

قفا

استسلما

اياكما أن تقدما

سيقتل حالاً من عصى الأمر أوفرا

أبو سلمة — وقفنا فمن أنتم ؟

مطاعين من بني المغيرة قد سقنا لكم عسكراً مجرا

«أبا سلم» دع حفظ نفسك اننا   غلبنا عليها ما استطعنا لها قهرا(١)

وضم الينا أم سلمة مرغماً   وإلا فانا سوف نستصرخ السمرا

(يقف أبو سلمة حائراً ، واثقاً أنه إذا أراد المقاومة ، قتل هو وزوجته وابنه جميعاً بينما يتقدم القوم فينزعون خطام البعير من يده ويأخذون أم سلمة)

(١) نص العبارة . « هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه على م نتركك تسير بها في البلاد ؟ »

أم سلمة —

الى أين ؟ يا رباه ! ماذا يراد بي ؟

أيتركنا زوجي بأيدي العدا أسرى ؟

أأفصل عنه وهو دوني ماثل   يراني ولا يبدي حراكاً ولا أمرا ؟

(يسحبونها ويسيرون بها)

دعوني يا رهط اللصوص فليس لي   من العزم ما أرجو به لكم دحرا

شجاعتكم جبن اذا هي أعلنت   على امرأة مثلي مولهة حرى

أباداتكم بالشر أول مرة ؟   أأضمرت طول العمر يومالكم شرا ؟

سألتكم بالله الا عطفتم   عليّ لعل الله يجزيكم خيرا

(يسخرون منها ويضحكون)

أقالت لعل اللات ؟

اني سمعتها   تقول لعل الله

أبلغ بذا كفرا !

لقد صبأت

لا بد من قتلها اذن

أوافق

لا ، فالسجن قبل بها أحرى

ستسجن حينا ثم تردى قتيلة

أم سلمة —   حنانيكم يا قوم . . !

لا تطلبي غفرا

(يمرون في طريقهم على بني عبد الأسد رهط أبي سلمة ، فلا يكاد هؤلاء يعرفون الخبر حتى يهجموا عليهم قائلين :)

على رسلكم يا عصبة الشر

مالكم ؟

ألم تأخذوا بالأمس صاحبنا قسرا ؟

كذبتم لقد أمسى طليقاً

ولم ينل بسوء.

إذن خلوا لنا طفله حرا

وما شأنكم بالطفل ؟

ما شأننا به ؟ وهل ينتمي إلا إلى أمه الكبرى (١) ؟

(يهجمون عليهم ، ويتجاذبون سلمة حتى يأخذوه بعد أن تخلع يده ويذهبون به)

(١) كناية عن القبيلة

أم سلمه (تصيح) —

أغثنىَ يا ربى وهب لى مخرجا
من البؤس وارفع عنى السوء والضرا

(يغمى عليها)

— ٢ —

(بعد عام كامل ، أم سلمة جالسة وحدها بالأبطح (١) فى حى بنى المغيرة تبكى وتقول)

أم سلمة —

— سقى الله عهداً عاله الدهر لم يكن
سوى حلم عذب شهى بنا مرا

شربنا به كأس المسرة والصفا ورفرف طير الحب من فوقنا دهرا

ولم نك ندرى فيه مالوعة النوى
وما حرقة الحزن التى تقصم الظهرا

أحن الى أهلى حنين موله وقد ينقضى يوم فأحسبه عشرا

ألا هل أرى زوجى وطفلى قبلما أموت وألقى فى الثرى جسداً قرا

لقد نفد الدمع الذى كان سلوتى فمن لى بدمع يذهب الشجن المرا

أقول لقلبى والأسى يتبع الأسى
هداديك(٢) قد أفنيت شطراً فدع شطرا

« أبا سلم » اذ كرنى فانى مقيمة
على العهد لا أنساك صبحا ولا عصرا

أعندك أنى منذ عام سجينة أقاسى من الآلام مايصدع الصخرا

وأنى لا أدرى إلام يطول بى عذابى ، أيوما بعد عامى أم شهرا

الى الله أشكو ما ألاقى من الأسى
ومنه أرجى العون والغوث والنصرا

(يدخل عليها رجل من بنى عمها ، وهو أحد بنى المغيرة ، كان قد عرف حالها ، وكلم قومه فى أمرها ، فرضوا باطلاق سراحها ، ويكون قد سمع شكواها)

— أقلى من الشكوى ، ولا تكثرى البكا

— ومن أنت ؟

— واستبقى الجلادة والأزرا

— ومن أنت ؟

— لا تخشى فديتك زائرا أتاك على وهن به يحمل البشرى

(١) بين مكة ومنى ، وهو مسيل وادى مكة

(٢) تمهل

— وأية بشرى ؟

— أبشرى بالخلاص من اسارك

— دع عنك التهزؤ والسخرا

— لقد قلت حقا ، ماالتهزؤ شيمتى ولا أعرف المين المعيب ولا الهذرا

— أأصبحت أستطيع الخروج الى . . .

(يدخل نفر من القوم ، ويصيحون بها قائلين)

— أخرجى ، فانا عفونا عنك

— شكراً لكم شكرا !

(تخرج من الأسر وهى تقول فى نفسها)

— أيارب حمدا لا انتهاء لحده ويارب شكرا لا أطيق له حصرا

(تذهب فى طريقها سائرة وحدها إلى المدينة) .

— ٣ —

(تمر فى طريقها على بنى عبد الأسد ، فيراها القوم فيسألونها عن خبرها فتخبرهم بما وقع لها من الخلاص من الأسر ، وانها ذاهبة لزوجها فيواسونها ويردون عليها سلمة ، فتأخذه وتذهب فى طريقها مسرورة تضمه وتقبله وتقول له :)

— حبيبى أحقا عدت لى اليوم بعد ما
فقدتك عاما ما عرفت به البشرا

أسائل عنك الريح عند هبوبها
وأستنطق الأفلاك والسحب والبدرا

وكم كنت أخشى أن تمد يد الردى
اليك شبا كما تقنص الليث والنسرا

فسل مقلتى هل داعب النوم جفنها
وسل قلبى الولهان هل نسى الذكرا

أحقا تراك العين يا من سلبتها لذيذ الكرى ، أم ذاك وهم بها قرا

لحا الله من أقصاك عنى ، انه
— ولم يدر — أقصى عنى الأمل النضرا

لقد خلعوا يمناك شلت يمينهم فياليتها اليمنى بجسمى واليسرى

وياليت ما قاسيت من ألم سرى الى وحملت الأسى عنك والبهرا(١)

قضى الله أن نشقى فكان الذى قضى
فهل كتب الله السعادة واليسرا ؟

(١) الاهانة والنكبة

(تابع سيره دون أن ترى أحـداً فى طريقها ، ثم تصل إلى التنعيم[١] ، فتلمح عن بعـد رجلا قادماً نحوها . لا تكاد تقرب منه حتى تنظر إليه فتعرفه وإذا هو عثمان بن طلحة (٢) أخو بنى عبـد الدار)

عثمان — الى أين ؟

— قصدى أرض يثرب

— منذ كم تسيرين ؟

— لى يومان أضرب فى الصحرا

— تسيرين فى الصحراء وحدك ؟

— ما معى سوى الله وابنى ذا ، وأنعم به ذخرا

— فمالك يا أختاه والله مترك ولا بد لى من أن أبلغك الو كرا[٣]

(يعود معها إلى المدينة ، فتذكر له ما جرى لها . ويتابعان السير حتى يصلا إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء (قرب المدينة) فيدخلانها ، ويعلمان من أهلها أن أبا سلمة فيها ، فيذهبان إليه)

— ٤ —

(أمام داره ، تطرق أم سلمة الباب)

أم سلمة — أأدخل ؟

— من ذا يطرق الباب ؟

عثمان — زائرٌ

— على الرحب يا من جاءنا يبتغى زَورا

— تفضل إذا شئت

(يدخل عثمان ووراءه أم سلمة متلثمة ، وولدها معه لا يظهر إلا وجهه)

عثمان — السلام عليكمْ

عليكم سلام الله منهملاً ثرّاً

(١) موضع بمكة فى الحل وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة ، سمى بذلك لأن جبلا عن يمينه يقال له نعيم ، وآخر عن شماله يقال له ناعم ، والوادى نعمان

(٢) هو عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدرى من بنى عبـد الدار ، حاجب البيت ، أمه أم سعيد بن الأوس . أسلم مع خالد بن الوليد فى هدنة الحديبية ، وهاجر معه ، وشهد الفتح مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فأعطاه مفتاح الكعبة ، وفى الصحيحين من حـديث ابن عمر قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم الكعبة ، ودخل معه بلال وعثمان بن طلحة وأسامة ابن زيد ، توفى بمكة نحو سنة ٤٢

(٣) نص العبارة : (هل معك أحد ؟ فقلت لا والله إلا الله وابنى هذا ، فقال والله مالك من مترك)

فقدناك دهراً يا ابن طلح فما الذى عناك ؟

— نضالى العيش والجوع والفقرا

— عذرت ، وقاك الله كل مصيبة

وأذهب عنك السوء والضيق والعسرا

(يلتفت إلى أم سلمة ويقول له :)

— ومن هذه ؟

— أختى

(ينظر إلى الطفل طويلا ، ولا يدرى أهو ابنه أم لا)

— ألست ترى ابنها ؟

— بلى

— إن لى ابنا مثله كان بى مغرى

— وما زال ؟

— لا أدرى فانى فقدته وأما له من خيرة الناس

— هل فرا ؟

— يفران ؟ كلا ، بل أحاط بنا بنو المغيرة واستاقوهما معهم قهراً

— متى كان هذا ؟

— منـــذ عام تفتتت به كبدى ، والدمع سال به نهرا

أبيت فلا يعتاد مقلتى الكرى وأصبح لا أستطيع نطقا ولا سيرا

أم سلمة — (بصوت متكلف)

— ولم لم تدافع عنهما حين أقبلوا

— أيستطيع غرقى البحر أن يدفعوا البحرا

أم سلمة — أتعرفنى يا عم ؟

— (بدهشة) انك أخته

— (ترفع اللثام) أتعرفنى ؟

— ماذا ؟ أأنت التى أقرى[١] ؟

(يقوم إليها ويعانقها طويلا ويضم ابنه ويقبله)

أبو سلمة — لك الحمد يا من ليس يحمد غيره

جمعت شتيت الشمل فى الأنفس الحيرى

بلوت فكان الصبر أكبرهمنا فشكرا على عفو غمرنا به غمرا

(دمشق) ناجى الطنطاوى

(١) أبحث وأفتش . (حاشية) : قالت أم سلمة : والله ما أعلم أهل بيت فى الاسلام أصابها ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة

الاسلام والمدنية والعلم

للاستاذ محمد أحمد الغمراوى

— ١ —

هذا العدد الممتاز ينظر فى أثر الاسلام فى المدنية ، وقد يسبق الى النفس من هذا أن المدنية غاية عليا ونظام كامل نشأ من عدة عوامل أحدها الدين ، وأننا اذ أردنا أن نحتفل فى (الرسالة) بالحادث الأكبر ، حادث الهجرة ، الذى ثبت الله به الدين الكامل ، أحببنا أن نثنى على الاسلام بالاشادة بنصيبه فى تشييد صرح المدنية التى هى أعم وأشمل ، وقد يقال أكمل ، من الاسلام ؛ ولو كان هذا هو المراد ، أو كان هذا ينتج من الاحتفال بالهجرة على هذا النحو ، لكان احتفالنا احتفالا معكوسا ، ولكانت اشادتنا بما نريد أن نشيد به ذما له وانتقاصا . لكن ليس الغرض من الاحتفال بالهجرة على هذا النحو هو الاشادة بالمدنية ثم بالاسلام بالتبع ، انما الغرض هو شبه دراسة اجتماعية مرماها إن أمكن تحديد الصلة بين هذه المدنية القائمة وبين الاسلام . أو بالأحرى تحديد ما هنالك من توافق وتفاوت بين المدنية الواقعة كما نراها اليوم والمدنية الغائية كما جاء بها الاسلام



وفى الحق أن هذه المدنية بعيدة جدا عن أن تكون مثلا أعلى للمدنيات قد جاد بتحقيقه الزمان ، فان المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها فى الواقع جزءا من الفطرة التى فطر الله عليها الكون ، وآية ذلك أن يكون فيها ما فى سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك والاتزان والهدوء ، وهذا لا يتحقق لأية مدنية من المدنيات الا اذا قامت على الحق فى جميع نواحيها ، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التى فطر الله عليها الناس أفرادا وجماعات وشيوع الخلل والاضطراب فى النواحى الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيوع الباطل فى هذه النواحى ، ودليل بُعد هذه النواحى عن الفطرة . لكن اذا كان الباطل قد شاع فى أكثر نواحى هذه المدنية فان هناك ناحية واحدة قد عزت على الباطل أن يكون له فيها مقام ، ودانت للحق فهو فيها الحاكم المطاع . تلك هى الناحية العلمية التى أثمرت للمدنية هذه القوى المادية التى فتن بها الناس فظنوا هذه المدنية أفضل المدنيات حين قدرت على ما لم تقدر عليه المدنيات قبلها من طيران فى الهواء ، وغوص فى الماء ، وتسخير للبخار والكهرباء ؛ وغفلوا عن أن تفاضل المدنيات ليس أساسه القوة ، ولكن إحسان استعمال القوة فى سبيل الحق : سبيل الله ، والا انقلبت تلك القوى على المدنية المغترة فزلزلتها وصيرتها الى ما يصير اليه الباطل من الزوال

هذه الناحية العلمية هى فخر هذه المدنية الحديثة ، بها ستذكر فى المدنيات اذا ذكرت المدنيات بأنبل ما فيها وأفضله وأصدقه ، بعد أن تصبح كما أصبحت المدنيات قبلها أحاديث . ثم هى الناحية الواحدة التى اتحدت فيها هذه المدنية بالفطرة ، واذ كان الاسلام دين الفطرة فهى الناحية الواحدة التى تم فيها الاتصال بين المدنية الحديثة وبين الاسلام

هذه دعوى قد تحتاج عند بعض الناس الى تفصيل وتحديد : أو — ان شئت — الى دليل وبرهان مادام الناس ليسوا كلهم قد درسوا العلم ، وما دام من درسوا العلم ليسوا كلهم يعرفون شدة الصلة بينه وبين الاسلام

أما إن الاسلام يؤيد العلم عامة ويحض عليه ويكبر منه فأمر يعرفه كل من له إلمام ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة فى العلم . فالذى يقرأ من الحديث الصحيح مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وقوله : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » ، والذى يعرف ما فعله الرسول صلوات الله عليه بعد بدر من جعله فداء بعض فقراء الأسرى تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة ، يعرف من غير شك أن الاسلام هو دين العلم والتعلم . فاذا تلا من كتاب الله مع ذلك مثل قوله تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (شهد الله

أنه لا إلـه إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إلـه إلا هو العزيز الحكيم) ، والآيات الكثيرة التي جعل الله سبحانه العلم فيها حكماً بين النبي ومجادليه مثل قوله تعالى على لسان نبيه : (إيتونى بكتاب من قبل هـذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) — إذا تدبر الانسان هذه الآيات الكريمة وأمثالها بعد تلك الأحاديث أدرك أن العلم على اطلاقه لم يُكبَر فى دين من الأديان كما أكبر فى الاسلام ، وأن ديناً لم يلزم أهله بالعلم والتعلم كما ألزم الاسلام المسلمين

هذا التأييد التام للعلم على إطلاقه يشمل طبعاً التأييد التام للعلم بمعناه الخاص : معناه الطبيعى المستعمل فيه اللفظ اليوم ؛ لكن ليس هناك من حاجة الى مثل هذه الحجة على قوتها فى اثبات أن العلم بمعناه الحديث مطلوب مأمور به فى الاسلام ، فان الآيات القرآنيـة الكثيرة الواردة فى الحض على تطلب آيات الله فى الكون وتعرف أسرار الخلق هى فى الواقع توجيـه للعقل الى مجالات العلم الذى يسميه الناس بالعلم الطبيعى ، بل هى أوامر من الله بطلبه ، لأن آيات الله فى الكون التى ندبت تلك الآياتُ القرآنية الكريمة إلى طلبها ليست بأكثر ولا أقل من أسرار الفطرة التى هى مطمح العلم ومرماه . فأنت إذا قرأت مثـل قوله تعالى : (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشى الليلَ النهارَ ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرعٌ ونخيل صنوانٌ وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) (وسخر لكم الليـل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلقَ) (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) — إذا قرأت هذا وأمثاله فى القرآن لم تشك فى أن العلم الحديث قرآنى فى موضوعه ، إذ هذه العلوم الطبيعية إنما تبحث عن أسرار هـذه الظواهر الكونية التى نبه اليها وأمر بالبحث فيها القرآن

فاذا أنت استقريت الآيات القرآنية الكونية لترى هل ورد فى بعضها مادة (علم) اللغوية ، وجدت أن هناك أكثر من آية وردت فيها هذه المادة إن لم يكن فى صيغة المصدر ففى صيغة مشتقاته ، مثل قوله تعالى من سورة الأنعام (وهو الذى جعـل لكم النجوم لتهتدوا بهـا فى ظلمات البر والبحر ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعلمون) وقوله سبحانه من سورة الروم : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين) وإذن فهذا العلم الطبيعى ليس فقط قرآنيا بموضوعه بل هو قرآنى باسمه ، واذا كان الناس قد اصطلحوا اليوم على تلقيبه بالحديث فقد آن لهم أن يتذكروا أن فاطر الفطرة سبحانه قد أمر به الانسان لمـا أنزل القرآن هدى للناس كافة منذ نيف وأربعة عشر قرنا من الزمان .

وفى الحق أن الانسان ليأخذه العجب من كثرة ما لقيت هذه الناحية من التوكيد فى القرآن ، ثم من تراخى المسلمين برغم ذلك فى طلب هذا العلم ، ولو للانتفاع به فى تفسير ذلك الجزء من القرآن . إن الآيات الواردة لتلفت الانسان إلى أسرار الفطرة وتحثه على تفقهها ، لا تكاد تقل إن قلت عن خُمـس آيات القرآن ، ولم تلق ناحية من نواحى المدنية مثل هذا التوكيد فى الاسلام إلا ناحية الأخذ بالعدل والاحسان فى المعاملة ؛ فكأن المدنية فى الاسلام شطران : شطر يقوم على العلم وشطر يقوم على العدل ، ومن وراء ذلك كله مخافة الله ومحبته ، لا غنى لأهل المدنيـة عن هذين إن أرادوا لها البقاء . وعلى كل حال فان حث الانسان فى نحو خمس القرآن على دراسة الفطرة أريد به على الأخص حثه على عبادة الله عن طريق تلك الدراسة وعن طريق شكره سبحانه على ما ستثمر تلك الدراسة من ثمرات . وهذا لا يقلل شيئاً من شأن العلم فى الاسلام بل يزيده ، ثم هو أبلغ فى الدلالة على أن العلم فى الاسلام جزء من الدين .

على أن أمر التوافق بين العلم والاسلام قد جاوز الاجمال الى التفاصيل : جاوز قرآنية الموضوع والاسم الى قرآنية الروح والطريقة . فروح العلم وطريقته منطبقة تماما على ما جاء به القرآن

فأما روح العلم التى هى فى صميمها التجرد للحق والصدق فيه والاستمساك به والتعاون عليه ، فهى من روح الاسلام من غير شك ، إذ الاسلام كله ليس إلا أمرا بالحق وتجردا له وجهادا فيه ، وما لقيه الحق من الاكبار فى العلم لا يزيد شيئا عما لقيه الحق من الاكبار فى القرآن

وإذا كان هناك فرق بين الاثنين فهو لا يتعلق بذاتيهما ولكن بامتداد سلطانهما ؛ فروح العلم مقصورة طبعا على الميادين التجريبية

التى قصر العلم عليها نفسه ؛ لكن روح الاسلام تشمل بسلطانها كل ميادين حياة الانسان العلمى منها والاجتماعى ، ما يمكن اخضاعه لتجارب العلمية منها وما لا يمكن

وأما طريقة العلم فى طلب الحق فاليها يرجع فضل العلم فى هذا العصر على مثله فى سابق العصور . لقد كان من بين علماء تلك العصور من يحبون الحق ، ويعملون له ، ويحرصون عليه . كما يحبه ويعمل له ويحرص عليه علماء اليوم ، لكنهم لم يوفقوا الى نظام علمى شامل يضمن الوصول الى الحق ويضمن على الأخص عدم قبول باطل على أنه حق . فهذا النظام الذى يحسن التمييز بين الحق والباطل ، ويضمن من نفسه أن ينفى الباطل ويثبت الحق . هو الفارق المميز بين العلم الحاضر والعلم الماضى ، وهو المفخرة الحقيقية للعلم الحديث

هذا النظام لم يضعه شخص ولم تضعه هيئة ، ولكن نشأ بالتدريج بنشأة العلم الحديث حين أخذ العلماء يجعلون وجهتهم ابتغاء الحقيقة لا ابتغاء المنفعة ، وحين أرادوا فى تلمسهم سنن الفطرة أن يتجنبوا مناشئ الخطأ فى العلم القديم ، ويصححوا الوجهة فى العصر الذى ظهر تطور العلم فيه

وللمقارنة بين الأصول التى قام عليها هذا النظام والأصول التى تناظرها فيما جاء به الدين يحسن تقسيم أصول النظام العلمى إلى قسمين : قسم يتعلق بنفس الفطرة التى ستكون موضوع العلم . وقسم يتعلق بطريقة النظر والبحث عن أسرار تلك الفطرة

فأما ما تعلق بنفس الفطرة فقد وجد العلماء أنفسهم مضطرين إلى القول بأصول ثلاثة : أصل استقلال الفطرة . وأصل اطراد الفطرة . وأصل انسجام الفطرة أو استحالة الخلاف بين جزئياتها . فأصل استقلال الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الانسان ، فلا يستطيع ساحر ولا كاهن أن يغير من مجراها أو يعدل من قوانينها ، ولا تتغير هى تأثراً بما يجرى لأى إنسان ؛ وأصل اطراد الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الزمان ، فما يثبت من سننها فى وقت فلابد أن يكون موجوداً من قبل ، وسيظل موجوداً فى المستقبل ، لا يلحقه تبديل ولا تغيير ؛ وأصل انسجام الفطرة يعلن استحالة التناقض بين الحقائق ، فلا يمكن أن ينقض حق حقاً أينما كان وكيفما ظهر . فى الأرض أو فى السماء ، وما يناقض حقاً إذن فهو باطل يجب أن ينبذ ولا ينظر اليه

فأما الأصل الأول فكان ضرورياً لصيانة العلم وتحرير العقل من دجل الدجالين ، وإعداده لطلب الحق وتلقيه ، وهو أصل ليس هنالك اليوم من يجادل فيه . وأما الأصلان الآخران فهما كما ترى ضروريان لوجود العلم واطراد نموه ، لا يمكن بدونهما نظر ولا بحث ولا استقراء ولا استدلال . لكن من العجيب أن العلم عاجز عن إثباتهما . إذ أقصى ما يستطيع أن يقوله هو أنه اعتمد عليهما قروناً معدودة فبررت النتائج الباهرة التى وصل اليها ذلك الاعتماد ، فهو لذلك سيستمر معتمداً عليهما إذ ليس هنالك ما يدعو إلى الشك فيهما فيما يتعلق بالمستقبل أو الماضى . لكن الفلسفة لا تقنع من العلم بهذا الجواب ، وتواجهه بما فيه من ضعف ، وتزعم له أن نجاح الاعتماد على ذينك الأصلين قروناً لا يثبت صحتهما إلا فى تلك القرون . وأما فيما قبل ذلك وما بعد ذلك فلا يستطيع العلم أن يجزم بصحتهما ، وإذن فلا يحق له أن يطمئن كل الاطمئنان اليهما . لكن العلم يمضى على اطمئنانه لا يبالى بما توجهه الفلسفة إلى أصليه هذين من نقد وتشكيك ، لأنه من ناحية لا يرى فائدة عملية فى الاصغاء إلى هذا النقد ، ولأنه من ناحية أخرى يرى وجوده ذاته منوطاً بصحة هذين الأصلين ، لو شك فيهما لحكم على نفسه بالفناء

ومن البديهى أن الحكم بين العلم والفلسفة فى هذه القضية لا يستطيعه إلا الذى بيده أمر الماضى والمستقبل . فاطر الفطرة وخالق الخلق سبحانه ، وقد حكم سبحانه للعلم منذ أنزل القرآن

هذان الأصلان وما يتعلق بهما يقررهما القرآن فى غير تردد ولا ابهام ؛ ومبدأ هذين الأصلين أصل آخر لم يقرره العلم إلا ضمناً ، ولو قرره لما سلمته له الفلسفة ، لأنه أصعب اثباتاً حتى من ذينك الأصلين : ذلك هو أن هذا الكون قائم كله على الحق . فإنه لا بد من تقرير ذلك ولو لحظة حتى يمكن بعد هذا أن يقال إن كان الكون سيستمر على ذلك أو لا يستمر ؛ وأنى للعلم أو الفلسفة تقرير ذلك بغير الافتراض والظن الذى لا يستند إلى برهان . لكن الله فاطر الكون قرر للانسان الحق فيما لا يستطيع أن يثبته الانسان ، قرر فى غير ما آية أن الكون قائم على الحق (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) . (خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى ، ألا هو العزيز

الغفار). وقرر سبحانه أنه لا تبديل لسننه فى الخلق ولا تحويل (فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبـديل لخلق الله)، (فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) ، (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) . وهذا المبدأ ، مبدأ ثبوت الفطرة من غير تبديل ، الذى أعلنه الله سبحانه للناس فى القرآن ، مبدأ عام يشمل جميع ميادين الفطرة ، ما تطاول العلم الى بحثه فى ميدان المـادة ، وما لم يتطاول إلى بحثه فى ميدان الاجتماع ، كما هو مقتضى سياق تلك الآيات فى القرآن

أما أصل انسجام الفطرة فقد قرره الله سبحانه حين قال جل وعلا : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير) . وارتفاع التفاوت يستلزم حتما ارتفاع التناقض الذى هو أكبر التفاوت ؛ وقد تقرر نفس الأصل فى صورته الأخرى : صورة انتفاء الباطل بالحق فى قوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغـه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) . فالاسلام يؤيد العلم تأييدا تاماً حين تخون العلم قدرته ، وتضعف حجته . ويستطيع العلم فى يقين المسلم أن يمضى فى سبيله مطمئناً على وجوده، غير مبال باعتراض الفلسفة ، اعتمادا على ما أعلنه رب الفطرة للناس فى القرآن .

أما أصل استقلال الفطرة عن الانسان فقد أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم للناس يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت الشمس فتحدث الناس أنها كسفت لموت ابراهيم ، فخطبهم صلى الله عليه وسلم فيما روى البخارى خطبة قال فيها : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحـد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا » ؛ ثم زاد القرآن الكريم ذلك الأصل تقريرا وتوضيحاً فى قوله تعالى : (أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) . فأنت فيما يتعلق بأصول الفطرة ترى تمام الاتحاد بين ما قام عليه العلم وما قرره الاسلام

(يتبع) **محمد أحمد الغمراوى**

العقيـــــدة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور



غذاء القلب وطمأنينة الروح ، ملجأ الضعيف وسلاح القوى . هى حقيقة امتزجت بحلاوة الخيال ، أو خيال لبس أحياناً ثوب الحقيقة . وما هذا الخيال وتلك الحقيقة إلا صرح كثيراً ما شدناه بأنفسنا لأنفسنا كى نكمل ما فى عالم الواقع من نقص ، ونحقق بعض ما نصبو إليه من ميول وآمال . فان ما فينا من قلب خافق وعواطف متأججة ، ينزع الى أمانى ورغبات لا حصر لها . ولذتنا فى تصور هـذه الأمانى وسعادتنا فى السير وراءها . فان لم نجد السبيل الى تحقيقها حيث نرى ونسمع رسمنا لها مملكة سامية فوق مملكة الحس والمشاهدات، وآمنا بهـا إيماناً لا يقل عن إيماننا بالمرئيات والملموسات . على أن ما فينا من عقل يحلل ويبرهن ويعلل يدفعنا الى الاعتقاد والاستمساك بآراء نتعصب لها وندين بها . فالعقيدة حاجة إنسانية وأثر من آثار قوى النفس على اختلافها . وهى فوق هذا ضرورة اجتماعية وركن هام من أركان التعاون والارتباط . ولا يمكن أن نتصور جمعية بشرية لا يخضع أفرادها لمبدأ واحد وعقيدة مشتركة . واتحاد الدين والعقيدة من أول الخصائص التى يتميز بها الشعب والأمة . وليست العقيدة المتحدة مجرد رمز وشارة للأمة فحسب ، بل هى مصدر تأثير كبير وقوة لا نهائيـة . هى مبعث حرارة تدفئ القلوب فتدفعها الى الأمام وتملؤها بالأمل والرجاء . ومستودع كهربائية عظمى يرسل فى الأفراد ما يرسل من موجات سالبة وموجبة فيتجاذبون ويأتلفون ، ويلتقون عند غاية واحدة وغرض أسمى . وإنا لنسير فى الحياة غالباً بدافع من عقائد مختلفـة بين دينية ووطنية وعلمية

وفلسفية . والعقيدة كالأمل الحلو إن لم تبلغك الغاية فقد آنستك ونعمت بها زمناً . على أنها فى ساعة الفشل خير عزاء ، وعند اشتداد الخطب أقوى ركن تطمئن إليه إن وهنت الأركان كلها . وإذن فالعقيدة للفرد عون ونصير ، وللجمعية باعث ومثير وهاد ومرشد

ومن حسن حظ الانسانية أن المرء ميال الى الاعتقاد بفطرته ، ومدفوع إليه بغريزته ؛ فالتسليم أصلى والشك عرضى ، ولا أدل على هذا من أن حياة الانسان الأول كانت سلسلة من العقائد يرتبط بعضها ببعض ، وقد توارثها الخلف عن السلف وأذعنوا لها دون بحث وتعليل . والطفل وهو صورة مصغرة للانسانية فى أول نشأتها يسلم بكل شيء يلقى إليه ، ويعتقد فى السحرة والمشعوذين والجن والشياطين . ولا تبدأ حيرة الشك لديه إلا حين يصطدم عالم الفكر بعالم الواقع ، ويتعارض أمامه أمران كان يؤمن من قبل بثبوتهما . فترتاب نفسه وتشعر بشيء من الخيبة لم تكن تتوقعه . ويظهر أن الشك كان فى أول أمره ظاهرة عاطفية قبل أن يكون مناقشة عقلية وحساباً منطقياً . وليس الشك شراً كله ، بل قدر منه مدعاة البحث ومفتاح الحقيقة ، وقديماً قالوا : الشك مبدأ الحكمة ومدرسة الحقيقة . وقد استطاع سقراط بين الاغريق بشيء من الشك التهكمى أن يستخرج المعارف من نفوس محدثيه ومناقشيه . ثم جاء ديكارت فى التاريخ الحديث فاتخذ من الشك طريقة فلسفية ومبدأ علمياً . للشك حكمته ومنفعته ، فهو ينبه الفلسفة إلى أخطائها ويقف العقل عند حده ويرشده إلى نقصه . غير أن قيمة الشك فى طريقة استعماله ووضعه فى موضعه . فالشك فى كل شيء قضاء على المعرفة من أساسها وهدم للحقائق على اختلافها . وقبول المعلومات من غير بحث وتمحيص انقياد أعمى واستسلام مرذول وضعف فى التفكير . وغنى عن البيان أن الشك ضرب من الحرية واستقلال الرأى . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الشكاك القدامى والمحدثين لفتوا نظر الانسانية إلى أخطائها الشائعة وكشفوا الغطاء عن كثير من أباطيلها المسلمة . وكل ما يؤخذ عليهم أنهم أرسلوا للشك العنان ، وجالوا به فى كل ميدان ، فقضوا على ما كان فيهم من عبقرية ، وأصبح شكهم داء بدل أن يكون دواء ، وهدموا بالشمال ما بنوه باليمين . وليس فى الشك المقبول امتهان للحقيقة أو اعتداء عليها ، بل هو اعتداد بها وتقدير لها وجد فى طلبها . حقاً إن الشك حيرة وحمى قد تخشى على النفس مغبتها ؛ بيد أنه قل أن يقدر اليقين قدره من لم يغرق فى بحار الشك قليلاً . والضال إذا وجد الطريق كان له بهذا فرحة تملأ العين والقلب

اليقين كلمة عذبة الجرس حلوة الرنين سامية المعنى رفيعة المدلول ؛ تطرب الأذن لسماعها ، وتتوق النفس دائماً إلى أن تحظى بحقيقتها . ينشده العالم فى بحثه . ويرمى إليه الفيلسوف فى درسه ، كلاهما يبغى أن يصل إلى الحقيقة الثابتة التى يذعن لها الجميع فى مختلف الظروف والأمكنة . وإذا كان الشك اضطراباً وحيرة فاليقين هدوء وطمأنينة . هدوء لأنه راحة بعد عناء ، ووصول بعد مجهود . وطمأنينة لأنه حصن حصين . وركن أمين ؛ وكيف لا وهو قوة تستمد سلطانها من نور الحقيقة ، وحال يشعر المرء فيها بأنه لا يسمع إلا صوت الحق ولا يصغى إلا لندائه . ولو تأملنا لوجدنا أنا فى مرحلة اليقين أقوياء ضعفاء : أقوياء لأنا نحس بأنا نفذنا إلى قلب الأشياء ووصلنا إلى قمة العالم وتجردنا من قيود المادة والزمن واتصلنا بكل ما هو باق أزلى ، وضعفاء لأن جلال الحقيقة التى نعتنقها أسكت كل صوت فينا ، فألغى هواجسنا وخواطرنا ، وقضى على ميولنا وأهوائنا ، وأضعف شخصيتنا أو محاها بحيث نصبح ولغة العالم والانسانية جمعاء ديدننا وشعارنا

هذا هو اليقين فى ظواهره وأثره وشدته وبأسه . فهو إذن العقيدة فى أكمل صورها والايمان فى أسمى أشكاله . وكثيراً ما حاول بعض الباحثين فصل اليقين من العقيدة ، والمباعدة بين العلم والدين ؛ ووضع حاجز بين العقل والعاطفة ؛ إلا أن اليقين لا يتحقق إلا بعد عقيدة سابقة ، والعقيدة إن سمت وكملت أضحت يقيناً . والعلم برهن غير مرة على أن له نطاقاً لا يتعداه وحدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها ؛ فليدع الدين يتكلم فيما أعد له ويتصرف فى دائرته . والانسان عقل وقلب وتفكير وعاطفة ؛ ومن العبث أن يهمل أحد هذين الجانبين أو يلغى ، فان ذلك خروج على الطبيعة وعكس لنظام الأشياء . وليس من عار أن يكون فى الأديان قدر كبير يرضى العواطف الانسانية ، بل العار كله أن تخلو من ذلك .

ابراهيم بيومى مدكور

سمو الانسانية

فى قلب الرسول الأعظم

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)
« قرآن كريم »

للاستاذ خليل هنداوى

« لا يحسبن قارىء المقال أننا أردنا أن نعطل حدود الشرائع بدرسنا للعاطفة الانسانية السامية فى قلب الرسول ، وإنما هو بحث جرى على القلم جواباً لمن يزعم أن تعاليم الاسلام تعاليم صارمة قاهرة لا تفيض — كالشريعة المسيحية — رحمة ومحبة وحناناً »

« خ ، هـ »

لا تزال علة الآثمين الخارجين على حدود الشرائع علة مستحكمة ، لا يبت فيها فريق حتى يهب إلى نقضها فريق . وكلا الفريقين له الحجة الساطعة . فمن الشرائع ما يرى فى الأثيم العدو للانسانية ، والمريض الذى يخشى انتقال جراثيمه إلى غيره ، لأن الأمراض النفسية حكم أكثرها كحكم الأمراض السارية تعصف بالأجساد عصفاً . وهذا المريض — فى حكمها — لا يرجى شفاؤه ، وإن فكرة الاجهاز عليه هى خير فكرة تتق بها منه !

وقد تفننت الشرائع الحديثة فى تعيين هؤلاء الآثمين والمجرمين وفى عزلهم عن طبقات الناس . ومن الشرائع ما تنظر إلى هؤلاء بعطف ورحمة . لا تنظر إلى الأثم — كالكل فى الأثم — وإنما تنظر إلى الظروف التى صاحبته ، والعوامل التى ساعدت على خلقه . وهى بعد هذا كله لا ترى فى الآثم إلا إنساناً ، جبل على طينة الانسان ، يخطىء ويصيب ، ويفعل الشر ويصنع الخير . هذه الشرائع التى غلبت العاطفة الانسانية على كل عاطفة ، واستمسكت بالمبدأ الانسانى الذى يعلو على مصطلحات الخير والشر . وهذه فكرة تطير بجناحين من السمو والعلو . ولكن علماء القانون لا يعتقدون بهذه الفكرة المجنحة لأنها تظهر بغير حدود ، وتنتشر على أبعاد دونها أبعاد الفضاء . وهم يريدون أن يحددوا لكل موقف شأنه ، فاذا سرق السارق فما عسى يكون جزاؤه ؟ وإذا زنى الزانى فما عسى يعامل به ؟

مثل هذه الفكرة الانسانية قد تجلت فى موقف السيد المسيح حين قدموا له زانية ليرى فيها حكم الشريعة — وما كان حكم الشريعة إلا الرجم — وما كان للمسيح أن يعطل هذا الحكم ، وهو لم يجىء لنقض نواميس الأنبياء ؛ ولكنه تسامى فى هذه المرة ما شاء له التسامى ، فأمر بأن يحفروا لها حفيرة ووقف قائلاً :

— ليرمها كل من لم ترتكب نفسه خطيئة بحجر !

فوقف الجمع ولم يرموا ، وغادروا المرأة وشأنها . ولكن هذه الفكرة تظل جميلة ما ظلت منطلقة حرة من غير قيود ، فاذا شئنا حصرها وإخضاعها للعمل ضاع رونقها وفشت الشرور بحجة أن كل نفس فيها من طينة الشر شىء . ولذلك لم يقدر المسيح نفسه على القول بالعفو عن كل زانية وزان وسارقة وسارق ، ولم يقدر غيره على القول بذلك . ولكن المسيح أراد بضرب هذا المثل أن يحفظ للآثمين هذه الانسانية التى تربطهم بغير الآثمين ، ويقرر بعد ذلك أن هؤلاء الذين يحكمون على الآثمين هم ملوثون مثلهم ، حتى تكون العاطفة الانسانية عندهم هى العاطفة الغالبة على كل عاطفة

نظرت الشريعة الاسلامية إلى هؤلاء الآثمين كما نظر غيرها ، وفرضت القصاص وفى القصاص حياة ، وقام الشارع بأحكام ما تنزل ، ورأى أن دفع القتل بالقتل أنفى للقتل . وهذه الشريعة هى شريعة من جاء قبله ، وهى الشريعة التى يحض عليها العقل ويبعث اليها الانصاف

ولكن الرسول — برغم لوثة هؤلاء الآثمين — قد ارتفع معهم فى كثير من المواقف بعاطفة الانسانية فوق حدود الشريعة ، ونظر إلى هؤلاء المرضى نظرة ملؤها الرأفة والاشفاق ، وعطف على كل نفس ضالة — لأن الهدى والضلال على بعدهما متقاربان متلاصقان — وأن إهمال درس هذه العاطفة الانسانية عند الرسول مما يترك ناحية العواطف الأخرى قاسية صارمة . وأن على أرباب الفقه أن يرتبوا العقود والحدود كما رتبوها أبواباً أبواباً ، وأن على آخرين أن يحللوا هذه العاطفة التى تجعل من الرسول قلباً نقياً وعاطفة إنسانية متسامحة

ما عسى تبلغ اليه هذه العاطفة الانسانية فى صدر الرسول ؟ أذكر عبارة تلوتها فيما كتب « رينان » عن المسيح « إن

المسيح هو أول من سلك فى تفهم الله مسلكا جديدا ، إذ جعل علاقة الله مع الناس كعلاقة الأب مع أبنائه ، علاقة كلها رأفة ومحبة وحنان » وبهذه الرحمة الشاملة تفهم الرسول معنى الألوهية فقال : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ! »

وإنى لأجد الرسول فى الصلاة ، ومن ورائه أعرابى يدعو فى صلاته : « اللهم ارحمنى وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً » . فقال له الرسول : « لقد حجرت واسعاً » وكأنه أراد أن يقول له : « قل اللهم ارحمنى وارحم جميع الكائنات ، لأن رحمة الله أوسع من جميع آثامهم وذنوبهم »

وإنى لأراه وهو يفكر فى هذه الرحمة التى يرجو أن تشمله ، وهى الرحمة التى ملكت عليه مشاعره . أراه « وقد وجد امرأة من السبي تحلب ثديها تسقى ، إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فالتفت إلى أصحابه وقال :

— أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟

فقالوا : لا . وهى تقدر على ألا تطرحه ؟

فقال : — وقد طغت على قلبه هذه الرحمة الشاملة :

— الله أرحم بعباده من هذه بولدها »

ولقد تتمثل هذه الرحمة فى كل جزء فيه ، حتى ليحسب أن الكائنات كلها قد اندمجت وأحاطت بها رحمة الله ... « فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة » وهو لا يفسر الرحمة تفسيراً ضيقاً يمنحها أناساً ويحرمها على أناس لأن الرحمة الشاملة إذا دخلت فى قلب غيرت فيه كل الأساليب الموروثة فى تفهم الوجود ، وجعلته ينظر إلى الوجود كشىء كلى ممتزج فقير إلى هذا البلسم ! وجردته من كل الأهواء ليتحد مع الكائنات اتحاداً تاماً بكل شىء فيه ، لا يهدأ قلبه ما دام يتعذب هنالك إنسان ! وهو لا يفسر الرحمة تفسيراً رمزيا ، وإنما يرى مختلف الأمثلة إلى تمثيل هذه الرحمة تمثيلاً واضحاً تكاد تتبينه العين وتتقراه اليد باللمس ! وقد أثر هذا الفهم فى نفسه تأثيراً واضحاً ؛ فهو تنهمل عيناه إشفاقاً على قومه ، وهو يتحمل بلاءهم بقلب صابر ولسان شاكر ويقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » وهو يستمهل الله فيهم عند ما نودى : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك » . فقال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً »

وقد ملك عليه شعور الرحمة حتى كاد يغلب على كل عاطفة فيه . « يرى الرجل الاسرائيلى الذى قتل تسعة وتسعين رجلاً ثم خرج يسأل ، فأتى راهباً فسأله فقال له : « هل من توبة ؟ » فقال : « لا » فقتله ، فجعل يسأل ، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموت ، فناء بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فاوحى الله إلى هذه أن تقربى ، وأوحى الى هذه أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجده إلى هذه أقرب بشبر فغفر له . » وهل غفرت لهذا الفاتك إثمه إلا عاطفة الرسول الانسانية التى قدرت فيه قلبه النادم ونيته الساعية وراء التوبة ؟ وقلب الرسول مفعم رحمة وشفقة على هؤلاء — مع قوله فى معاقبتهم — ولا يستطيع الفكر أن يوفق بين الاثم الكبير البالغ تمحوه حسنة صغيرة ! فمن ذلك « امرأة مومس مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك ! » ذلك أن قلب الرسول يحاول أن ينقذ هذه الكائنة الشقية ، ويلقى فى النفس معنى الاحسان إلى الحيوان « وإن لفى كل كبد رطبة أجرا »

وقد تسمو نفس الرسول فى النظر إلى هؤلاء الآثمين ، فهو لا يفر منهم ولا يزور عنهم لأنه يطمع فى صلاحهم

« قال رجل : لأتصدقن بصدقة ؛ فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : « تصدق على سارق » ! فقال : « اللهم لك الحمد ! » لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : « تُصدق الليلة على زانية ! » . فقال : « اللهم لك الحمد ! » على زانية ! لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : « تصدق على غنى ! » فقال « اللهم لك الحمد ! » على سارق وعلى زانية وعلى غنى ! ولقد يظن المرء لأول وهلة أن هذه الصدقات باطلة لأنها لم تقع فى مواضعها ، ولكن الرسول حلها من الناحية الانسانية ، فأتى فقيل له : « أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن

تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله »

فلم يمنع الرسول الرفق بهؤلاء الآثمين ولم يجعل التصدق عليهم حراما . وإذا كان السيد المسيح أطلق الزانية لأنه لم يجد من يأخذ على نفسه معاقبتها فالرسول أطلقها وأطلق السارق وأطلق الصدقة عليهما ليستعفا . . . وبهذا أشفق على المريض وحارب جراثيم مرضه ! وهو خلال ذلك ينتظر أن يغمرهم نور التوبة ويصرفهم عما فيه وازعُ الضمير

وقد يعجب المرء من هذه العاطفة التي لو أخذنا بها لعطلت الحدود . إذ كيف نتصدق على سارق أوجب الشرع قطع يده ، أو على زانية أوجب رجمها ؟ ذلك أن الرسول يدرك أن الغاية من الشريعة الهدى والرحمة ، وأن القصاص سبيل يسلكه الشارع إذا عز الوصول إلى الهدى إلا به

فهو بهذا دل على إنسانية سامية تفهم الوجود رحمة ومحبة ، وإن روحه لتتصل بالمذنب اتصالها بالبرىء ، وأنه يحب الناس مهما فعلوا ، وأنه يجد في نفسه ميلا إلى الرفق بالآثمين ، وهذا الميل جعله يسلك السبل المتعددة ليدفع عنهم آثامهم ويطهرهم من أرجاسهم . ونرى بعد هذا كله — هذه الكتلة من الرحمة والمحبة تقف أمام الرحمة الشاملة تدعو ربها :

« اللهم باعد بيني وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب

اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الابيض من الدنس

اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد »

أليست هذه الانسانية بأسرها تتمثل في شخص الرسول تطلب إلى الله أن يشملها برحمته ؛ ويغسل خطاياها برأفته حيث تغسل الأوزار وتضيع حدود العقاب في عالم تعمره الرحمة وتسكنه المحبة ، لا نهايات له ولا حدود ؟

(دير الزور) **خليل هنداوى**

ذكريات يجتليها محرم

لشاعر السودان الاستاذ عبد الله عبد الرحمن

هو الشوق في أحشائنا يتضرم ... الى ذكريات يجتليها محرم
الى ذكريات هن بعث ويقظة ... وهن لآلام الجراحات مرهم
بني الشرق ، والاسلام في كل موطن ، ... يحييكمو مني على النأى مسلم
تعالوا نجدد من عهود تصرمت ... وما الشأن في عهد الكرام التصرم
تعالوا نجمع من نفوس تفرقت ... شعاعاً ولا نغضى كما نتوهم
ونطَّرِح الواشين تنفث بيننا ... سموماً — وفي الواشين أربد أرقم
ونفزعْ الى التنزيل نبني نفوسنا ... فليس لما يبني الكتاب مهدم

***

وفي الهجرة الزهراء قربى قريبة ... تمت بأسباب الحنيف إليكمُ
فان نحيها نحي الزمان تقدمت ... أوائلنا أهليه وهو لهم فم
وإن نحيها نحي النفوس كبيرة ... وإن جعلت في أرضها اليوم تهضم
وإن نحيها نحي المروءة والندى ... وبأساً من الفولاذ أمضى وأصرم
ألا ليت شعرى ماده العرب إنني ... أرى الجو في آفاقها يتسمم
أكل بنساء غيرهم متساند ... وكل قبيل غيرهم متقدم
أجل كل قوم فرطوا في لغاتهم ... غدوا وصروف الدهر فيهم تحكم

***

أرى الغرب يعنى باللغات رجاله ... ونمشى الى أعلامها نتعلم
هم يكبرون من رجال توفروا ... عليها إلى أن أكبر الناس منهمُ
وفي كل يوم يخرجون مؤلفاً ... نفيساً وبحثاً ينشر الفضل عنهمُ
ولا يهجرون للجديد قديمهم ... وذلك خلق عن رقى يترجم
وما ذاك إلا أن حباً يهزهم ... الى وطن هاموا به وترنموا

***

أرى أمم الشرق استفاقت من الهوى ... وعاودها سلطانها المتقدم

فجدت وهمت للحياة طموحة   وحطمت الأغلال فيما تحطم

رعى الله فى أرض العراقين نهضة   أبت لهمُ أن يستذلوا ويهضموا

بنوا دولة أما حماها فمانع   لحوزتها والمستقلّ بها همُ

على العلم والخلق المتين توطدت   دعائمها والعــلم بالخلق يدعم

وقامت فلسطين ترد حقوقها   ومافى طلاب الحر للحق مأثم

وحرك من سورية العسف فانبرت

تغالبــه والشر بالشر يصــدم

فان لم تنل ما قد أرادت نواله   فمن كَثَبٍ منها النجاح المحتم

وهاجت بنا الذكرى لخضراء تونس

فأبصرت ثكلى نال منها التأيم

وفى مصر أخذ بالذى هو واقع   وروح وفاق للحقيقــة تألم

وغيرة لاوانٍ ولا متخشع   ونشء الى سود النوائب يبسم

* * *

هوت أنجم بالأمس كن ثواقبا   إلى ضوئها يعشو الجهول فيعلم

حسين بن والى قد أقض مماته   مضاجع فى السودان فهى تألّمُ

هو المرء أدى للعروبة واجباً   وعاش لوجه الله يشقى وينعم

وأودى المطيعى حجة الله فى الورى   فغاب به كنز من العلم قيم

قضى بعلاً الدنيا علوماً وحكمة   فويلى على ركن الهدى يتهدم

وأودى رشيد ذو المنار مدافعاً   جريئاً على رد الضلالة يقــدم

ومات الأديب الـكاظمى وانه   لرزء من الابداع فى الشعر يثلم

وبغداد من بعد الزهاوى أصبحت   خلاء وكانت من قوافيه ترحم

مضوا وقرنّا بالترحم ذكرهم   وليس بمجدينا عليهم ترحم

* * *

بنى وطنى ان قمت للضاد داعياً   فانىَ أدعو للتى هى أقوم

لقــد وثق الله الروابط بينكم   فلا تنقضوا بالله ما الله مبرم

أرى الضاد فى السودان أضحت غريبة

وأبنــاؤها أضحت لهــا تتجهم

تولت وما دمعٌ عليهــا بفائض   وما أحد منهم لهــا يتألم

وساءت مقاماً فهى ثكلى حزينة   وعيّت جواباً فهى لا تتكلم

وذلك يفضى لانقــراض وذلة

ويفضى إلى أن فى سوى العرب ندغم

عزيز علينا أن تلين قناتها   وأبناؤها فى صحوة العمر تهرم

عزيز علينا أن نراها هزيلة   وجاراتها فينا تزيد وتعظم

كفانا هوانا أن ريباً يحوطنا   وانا إذا رمنا الحديث نجمجم

وانا برغم العلم فى كل بلدة   يحيط بنــا هذا الظلام المخيم

تبدلت الأحوال حتى لقائل   يقول على قدر التدلى التقدم

ونبتت فى السودان قوماً تآمروا

على اللغة الفصحى فساءوا وأجرموا

وبالأدب القومى قالوا سفاهة   وما لمحوا حقاً ولـكن توهموا

الا نحن عرب قبل أن لعبت بنا

صروف الليــالى والجهول الغشمشم

أما والليالى العشر والفجر طالعاً   وما الفجر فى الاسلام إلا بمجرم

إذا لم تحسوا داءها وهو فاتك   تهونوا وفى غير العروبة تدغموا

فعضوا عليها بالنواجذ إنهــا   صلاحكم ان تخلعوه هزمتم

سلام عليكم إن عدمتم بيانها   سلام على الفصحى سلام عليكم

عليك رسول الله نلقى رجاءنا   فقد جعلت منا الحوادث تهدم

ونستنزل الارشاد من روحك التى

على كل من يلقى السلام تحوّم

أصلى عليــه ثم أذكركم بمــا   يقربكم منه فصلوا وسلموا

(لحب ابن عبــد الله أولى فانه   به يبدأ الذكر الجميل ويختم)

(الخرطوم)   **عبد الله عبد الرحمن**

نظر محمد إلى الأديان

للاستاذ مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب

كان ما تسرب إلى بلاد العرب من اليهودية والنصرانية قبل الإسلام قد نضحت عليه الوثنية الضاربة هناك يومئذ أطنابها ، ولم يكن المجوس والصابئة أهل توحيد خالص وإن ألحقوا بأهل الكتاب

قال الشافعي : بعثه والناس صنفان :

أحدهما أهل كتاب بدلوا من أحكامه وكفروا بالله فافتعلوا كذباً صاغوه بألسنتهم فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم . فذكر تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من كفرهم فقال :

« وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »(١)

ثم قال عز ذكره :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »(٢)

وقال تبارك وتعالى :

« وقالتْ اليهودُ عزيرٌ ابنُ اللهِ ، وقالتْ النصارَى المسيحُ ابنُ اللهِ ، ذلكَ قولهمْ بأفواههمْ يضاهئونَ قولَ الذينَ كفرُوا منْ قبلُ قاتلهمْ اللهُ أنَّى يؤفكونَ ؛ اتخذُوا أحبارهمْ ورهبانَهمْ أرباباً منْ دونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ وما أُمرُوا إلاّ ليعبدُوا إلهًا واحداً لا إلهَ إلاّ هوَ سبحانهُ عمّا يشركونَ »(٣) . وقال تبارك وتعالى :

« ألمْ ترَ إلى الذينَ أوتُوا نصيباً منَ الكتابِ يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ ويقولون للذينَ كفرُوا : هؤلاءِ أهدَى منَ الذينَ آمنُوا سبيلاً ، أولئكَ الذينَ لعنهمْ اللهُ ومنْ يلعنِ اللهُ فلن تجدَ له نصيراً »(١)

وصنف كفروا بالله فابتدعوا ما لم يأذن به الله ونصبوا بأيديهم حجارة وخشباً وصوراً استحسنوها ، ونبزوا أسماء افتعلوها ودعوها آلهة عبدوها ، فإذا استحسنوا غير ما عبدوا منها ألقوه ، ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه ، فأولئك « العرب »

وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا وفي عبادة ما استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره ، فذكر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم جواباً من جواب بعض من عبد غيره من هذا الصنف فحكى جل ثناؤه عنهم قولهم : « إنَّا وجدنَا آباءنا على أمةٍ وإنَّا على آثارهمْ مقتدونَ(٢) » وحكى تبارك وتعالى عنهم أنهم قالوا : « لا تذرُنَّ آلهتكمْ ولاَ تذرنَّ ودًّا ولا سواعا ، ولا يغوثَ ويعوقَ ونسراً وقد أضلُّوا كثيرًا(٣) » (كتاب الرسالة ص ٢ — ٣)

ويبين من كلام الشافعي أن الأديان التي كانت تظل بلاد العرب وما والاها عند ظهور الاسلام كانت ما بين دين وثني يقوم على الشرك من أساسه ، وما بين أديان تقوم على الوحي الذي لا يأتي بغير التوحيد ، لكنها انحرفت عن سبيل الوحي فأصابها شوب من الشرك

وكان محمد صلوات الله وسلامه عليه يدعو الناس كافة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، لا يميز في هذه الدعوة بين مشركين وأهل كتاب

وإذا كان القرآن ينادي :

« قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلَى كلمةٍ سواء بيننَا وبينكمْ ألاَّ نعبدَ إلاَّ اللهَ ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً

(١) سورة ٣ آل عمران مدنية آية ٧٨
(٢) سورة ٢ البقرة مدنية آية ٧٩
(٣) سورة ٩ التوبة مدنية آية ٣٠ — ٣١

(١) سورة ٤ النساء مدنية آية ٥١ — ٥٢
(٢) سورة ٤٣ الزخرف مكية آية ٢٣
(٣) سورة ٧١ نوح مكية آية ٢٣

مِنْ دونِ الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [١] »

فإن القرآن يقول أيضاً :

« إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخرِ وعمِلَ صالحاً فلهمْ أجرُهمْ عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا همْ يحزنون [٢] »

لا تختلف دعوة محمد حين توجه إلى أهل الشرك الصراح من وثنيّ العرب ، أو إلى أهل الكتاب بلا نزاع من اليهود والنصارى ، أو إلى من يشتبه أمرهم ويختلط الرأى فيهم من الصابئة والمجوس

دعوة محمد إلى كل أولئك هى الدعوة إلى الدين الحق الواحد الذى لا يتغير بتغير الأنبياء والذى هو هدى أبداً

ولما كان دين الحق واحداً أوحاه الله إلى جميع أنبيائه وبينه فى كل كتبه المنزلة فقد كان من الطبيعى أن يعتبر محمد أتباع الوحى ممن لهم كتاب أو شبهة كتاب أدنى إلى دعوته وإن حرفوا فى دينهم ، وأرجى أن يثوبوا إلى ما فى أصول مللهم من اخلاص العقيدة لله وحده

من أجل هذا اختلف حكم الاسلام فى بعض المعاملات بين المشركين وأهل الكتاب ، فالمشركون لا تؤكل ذبائحهم ولا يتزوج لمسلم منهم ، وإذا غلبهم المسلمون فى الجهاد لم يأخذوا منهم جزية ولم يكن لهم سبيل إلا أن يخرجوا من شركهم إلى حظيرة التوحيد

أما أهل الكتاب فتؤكل ذبائحهم ويتزوج المسلمون منهم ، وإذا هزموا فى الحرب واستولى المسلمون على ديارهم فللمسلمين أن يأخذوا منهم الجزية ليحموهم مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم ثم يتركوهم فى دينهم أحرارا

ولا خلاف بين المسلمين فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ، وأن وثنيّ العرب فى الجاهلية مشركون

واختلفت الروايات والأقاويل فى حكم الصابئة والمجوس هل يلحقون بأهل الكتاب أم يلحقون بالمشركين

ولا شك أن ما عرف من أديان البشر بعد ذلك مما لم يكن معروفاً للعرب ، فيه للرأى والاجتهاد مجال من جهة إلحاقه بالشرك أو بأديان أهل الكتاب

وجملة القول أن محمداً يرى التوحيد دين الله الحق ، وفطرة الله التى فطر الناس عليها ، فالمشركون عبدة الأوثان منحرفون عن فطرة الله ، ضلون عن صراطه المستقيم ، ومن عداهم قريبون من الإسلام الذى جمع الرسول صلوات الله وسلامه عليه جوهره فى قوله لمن سأله عنه : « قل آمنت بالله ثم استقم »

مصطفى عبد الرازق

(١) سورة ٣ آل عمران مدنية آية ٦٤
(٢) سورة ٢ البقرة مدنية آية ٦٢

زوجـــة وفت !..

للاستاذ محمد سعيد العريان



همّ الفتى (أبو العاص ابن الربيع ... : ابن عبد شمس) ينصرف من مجلس خالته (خديجـة بنت خويلد) رائحاً إلى داره، وإن فى نفسه لحديثاً ما ان يحاول بيانه ولا طاقة له بأن يكتمه .. ونظرت خديجةُ فى وجه الفتى الذى اتخذته ولداً، وقد ثـكلت الولد، فأنـكرته وما نـكِرتْ حديث عينيه؛ ثم عادت تنظر إلى ابنتها (زينب) فتطيل النظر، فما لبثت أن ألهمت الرأى مما نظرت فى وجه الفتى والفتاة ...

وسعت خديجة الى زوجها تستعينه وتشير عليه: « يا محمد! أرأيت الى ابن أختى (هالة) — أبى العاص بن الربيع — إنه لذو جاه ومال وأمانة، وهو منا ومنك حيث علمت، نعم الفتى القرشىّ ... أفترى أن تتخذه ختَناً وولداً فتزوجه زينب ... ؟ »

وافتر ثغر النبىّ الكريم عن ابتسامة الرضى، فما كان ليخالف خديجة فى رأى تراه؛ ولها فى نفسه ما لها من الحب والاعزاز، وهى فى نفسها مَن هى فى أصالة الرأى وحسن التقدير . . .

وزفت زينب بنت محمد، الى أبى العاص بن الربيع ..

ومضت خديجة الى الزوجين المتحابين تبارك لهما وتدعو، أطيب ما تكون نفساً وأهنأ فكراً ... ومدت يمناها الى طوقها تخلع قلادتها لتجعلها فى عنق زينب، هديةَ عروس ..

ونعم الزوجان بالسعادة حيناً فى دنيا من الحب والوفاء والايثار ... :

***

وأشرقت الأرض بنور ربها، وانبثق الفجر من غار حراء، يسعى محمدٌ فى نوره داعياً الى دين الله والى نبذ الشرك وعبادة الأوثان؛ فصدّق من صدّق واتبعه على هدى وبصيرة، ولجّ من لج فى الطغيان والعناد، وآمنت زينب فيمن آمن، ولكن أبا العاص لم يَهُن عليه أن يخلع دينه ... وضرب الزمن ضربته بين القلبين المتحابين فباعد بينهما الى حين

أسفت زينب، ونال منها اصرار أبى العاص على الكفر أى منال، وأسف أبو العاص، ونال منه اسلامُ زوجته مثلَ ما نال منها كفره؛ وشعر كلا الزوجين أن قوة أكبر من الحب تحاول أن تفصم عروته وتحلّ وثاقه: أما أحدهما فأعلن التمرد والعصيان، وقال لصاحبته: « لن ينال مما بيننا يا زينب أن تكونى على دينك وأثبت على دينى، فلن أسلمك للفراق .... ! » ، وأما هى فقالت: « قليلا يا صاحبى، لست حِلاً لك وأنت على ذاك الدين، فأسلمنى لربى أو أسلم معى .. لن تكون زينب لك بعد اليوم إلا أن تؤمن بما آمنت ! »

واصطرعت فى نفس الزوج المحب قوتان تتجاذبانه: حفاظه على ذلك الدين الذى أورثه آباؤه، وذلك الحب الطاغى المستبد الذى يحاول أن ينتزع امرأة مسلمة من دينها الذى آمنت به .. وأطرق الزوجان ساعة، ثم التقى النظران ... وفرق الدين بينهما جسدين، وظل قلباهما مؤمنين بالحب؛ وعاشا يظلهما سقف واحد ولا يلتقيان إلا نظرات ... وتصرمت سنون ..

***

ودعت قريش الى النفير العام: « يا أهل مكة، الى بدر، الى بدر؛ إن محمدا وأصحابه قد وقفوا لتجارتكم على الطريق بين الشام ومكة، فرُدوا عليهم كيدهم ... ! »

وخرج أبو العاص فيمن خرج من المشركين إلى لقاء محمد وأصحابه فى بدر، ليُجازوهم بما اعتدوا؛ وظلّت زينب فى دارها تنتظر . . . إن هنالك قوتين تصطرعان، وموجتين تتدافعان،

ما تدرى لأيهما تتمنى الغلبة ، بلى ؛ إنها لتدرى ، فهنالك أبوها محمد ، لو لم تحببه وتتمنَّ له النصر لأنه أبوها ، لأحبته وتمنت لأنه رسول الله ، لأنه قائد جيش الاسلام ، لأن إلى جانبه فى الصف إخوتها فى الله . . . ولكن . . . ولكن زوجها . . .

وجلست تدعو الله : اللهم اجعل الدائرة على المشركين ، ولكن نجِّ أبا العاص . . . !

وعاد الركب المهزمون ينبئونها : « يا زينب ، لقد دارت علينا الدائرة ، ونال منا المسلمون كلَّ منال ، يا زينب ، ولكن أبا العاص فى الأسرى ، لا ندرى ماذا سيفعل بهم أصحاب محمد . . . ! »

فما توانت الزوجة الوفية هنيهة ؛ لقد كان لديها من مال زوجها ما تفتديه به ، لديها المال والنعم ، ولكنها نظرت أمراً . .

ورفعت يدها إلى صدرها فخلعت قلادتها ، ثم شيعت بها الرسول يفتدى بعقد خديجة ابن أخت خديجة وختَنَ محمد . . . وجعلت هدية عرسها من أمها مهر الحرية للزوج الذى فقدته مرتين . . .

وذهب رسول زينب يسعى عن أمرها حتى وقف على محمد : « يا محمد ، هذا مال من مال أبى العاص ، وهذه قلادة خديجة بنت خويلد ، بعثتنى بهما زينب فى فداء أبى العاص . . . ! »

ونظر رسول الله إلى القلادة نظرةً جمعت له الزمان كله فى لحظة فكر ، واحتشدت صور الماضى أمام عينيه من خلال حبات العقد الغالى ، ورفّت فى ذهنه صورٌ حبيبة اليه ، فكأنما نشرت خديجة من موت ، وكأنما انطوت البيداءُ بزينب ، فاجتمعتا اليه تسألان العفو عن هذا الأسير . . . ونظر محمد فى أصحابه فقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها فافعلوا . . ! »

وعاد أبو العاص إلى مكة ، وفى نفسه صورة أكثر إشراقاً لهذه الزوجة البرة الكريمة ، ولكنه عاد لا ليشكر لها ما منّت عليه ، بل ليقول : « عودى إلى أبيك يا زينب ! » وفاء بما أخذ عليه رسول الله من عهد بأن يطلقها تسير إليه . . . وخنقته العبرة فما استطاع أن يتمالك ولا أن يشيعها إلى طرف البادية ؛ ومن أين له أن يجد فى نفسه القدرة على توديع من يحب ، وإنه ليعلم أنه الوداع الأخير ما دام سلطان هذا الدين قائماً بين القلبين . . . .

ومضى يقول لأخيه كنانة ابن الربيع : « يا أخى ، إنك لتعلم موضعها من نفسى ، فما أحب أن لى بها امرأة من قريش ؛ وإنك لتعلم أن لا طاقة لى بأن أفارقها ، فاصحبها عنى إلى طرف البادية ، حيث ينتظرها رسولا محمد (ببطن يأجج) ، وارفق بها فى السفر ، وارعها رعاية الحرمات ولو نثرت دونها كنانتك ، لا يدنو منها رجل حتى تبلغ . . . ! »

وافترق الزوجان فلا سبيل إلى لقاء ؛ وأقام أبو العاص بمكة لا يعيش فى أيامه ، وأقامت زينب عند رسول الله بالمدينة معتلّة البدن واهنة القلب ، لولا الايمان والتقى يشدان من عزمها ويربطان على قلبها لأعجلها الموت ولم تظفر بلقاء . . .

* * *

ومضت سنوات وسنوات ؛ وخرج أبو العاص فى تجارة الى الشام ، يحمل من أموال قريش وبضاعتها فوق ما يحمل من ماله وبضاعته ، وبلغ حيث أراد ، فباع واشترى وتعوض ، ثم قفل راجعاً بمال كثير وربح جم ؛ وفيما هو على الطريق إذ لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابوا ما معه وأعجزهم هارباً ؛ وآب المسلمون إلى المدينة فرحين بما أفاء الله عليهم ، ووقف أبو العاص على رأس شاهقة يتلفّت صِفر اليدين ، فما وجد إلا الصحراء تبرق بالحصى ، ومد النظر إلى بعيد ، فما عرف له طريقاً يسلك ، وخُيّل اليه أن وراء كل ثنيةٍ فارساً معلماً يتربص به لقد فقد ماله ومال الناس ، ولا سبيل إلى أن يرد الأمانات إلى أصحابها ، وإنه لوشك أن يفقد حياته بعد ما فقد ماله وأمانته ؛ واجتمع عليه الهم فما درى أين النجاة لنفسه ولعرضه مما عرض له . إن النحس ليلاحقه فى كل مسير . . . وعادت اليه الذكرى ، ورجع الزمانُ القهقرى أمام عينيه ، كما يجتمع التاريخ بزمانه ودنياه فى لحظة ومكانٍ لعينَى محتضر ؛ وتذكر من قريب تلك الحبيبة التى أحبته مرتين : حين وهبت له الشعور بالحياة فى الحب ، ثم حين وهبت له الحياة نفسها وافتدته عند أبيها بقلادة خديجة . . . وخُيل إليه أنه يراها ، وأنه يحدثها فتستمع اليه ، فهمس : « أتهبين لى الحياة ثالثةً يا زينب . . . ! »

وأقبل أبو العاص إلى المدينة تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ؛ فاستجارها وطلب إليها أن تعينه على رد ماله ، فأجارته . . .

وأصبح الناس يسعون إلى المسجد ، وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر الناس معه ؛ وإذا صوت يهتف من وراء جدار : « أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع . . . فهو فى حمايتى وأمنى ! » وكانت زينب هى التى تهتف . . .

وفرغ النبى من صلاته فأقبل على الناس فقال : « أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ . . . أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم . انه يجير على المسلمين أدناهم . . . ! » ثم دخل على ابنته فحدثها وحدثته . وأكبر محمد أن يرى فى ابنته هذا الوفاء لزوجها الذى فارقته لأمر الله ، وامتنعت عليه لأمر الله ، وقطعت ما بينه وبينها من شهوات النفس لأمر الله ؛ ثم ما برحت مع كل أولئك تمنحه البر والوفاء والمعونة ؛ برّ المسلمة ، ووفاء الصديقة ، ومعونة الانسان . . . ونال من نفس النبى ما سمع وما علم ، فأضمر فى نفسه رجاء الى الله . . .

ثم بعث الى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص ، فقال : « ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ؛ فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فانا نحب ذلك ؛ وان أبيتم ، فهو فىء الله الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحق به . . . » قالوا : « بل نرده عليه . . . » . وقال نفر منهم : « يا أبا العاص ، هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال ؟ فانها أموال المشركين . . . » فقال الرجل : « بئس ما أبدأ به اسلامى أن أخون أمانتى . . . ! » واستعانت كبرياؤه وأمانته وهو بين ذلة المستجير وأسر الفقر ، وأطلت نفسه المؤمنة بفطرتها من وراء ظلمات الشرك الذى يجهر به ، مستكبراً أن يبيع دينه بالمال . . . !

وردوا اليه ماله ، كرامة لرسول الله واكباراً لزينب ، وعاد الرجل الى مكة بماله ومال الناس ، ونفسه تفيض بمعان شتى ، وبين عينيه صورة لا تفارقه ، وفى قلبه وجيب لا يهدأ ، وعلى طرف لسانه كلام . . . فلما بلغ أدى الى كل ذى مال ماله ، ثم قال : « يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال ؟ »

قالوا : « لا ، فجزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفياً كريماً . »

قال : « فأنا أشهد أن لا آله الا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . والله ما منعنى من الاسلام عنده الا تخوف أن يظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله اليكم وفرغت منها أسلمت . . . »

* * *

وخرج أبو العاص بن الربيع الى المدينة يهديه نوران فى قلبه وأمام عينيه ، وسار فى مثل موكب العروس تتدافعه المنى على رمال الصحراء ، الى حيث يجد نور اليقين وأنس الحبيب ، فى حديث محمد وفى وجه زينب ، وتلاقى الزوجان المتحابان مرة ثانية ، بعد فراق طويل مر من دونه سنوات وسنوات وسنوات ، ولكن الزوجة الوفية كانت قد أدت واجبها وفرغت من دنياها حين هدت الرجل الذى أحبته ووفت له بمقدار ما أحبها ووفى ؛ فما مضى زمان بعد هذا اللقاء استكمل فيه الرجلُ أسباب دينه ، حتى كانت هى قد استوفت أنفاسها على الأرض ؛ وماتت زينب ولكنها خلفت ذكرى أطيب الذكرى ، وضربت المثل أبلغ المثل ، فى وفاء الزوجة ، واخلاص المحبة ، وصدق الايمان

محمد سعيد العريان

على أبواب المدينة

ثنيـــة الوداع*

للاستاذ على الطنطاوى



مضت ساعة كاملة ، ونحن نعالج السيارة لنخرجها من الرمل ، رفعها طوراً بالآلة الرافعة وطوراً بأيدينا ، ونزيح الرمال من طريقها ، ثم نمدّ لها ألواح الخشب لتمشى عليها ، ونجرّها بالحبال ، وندفعها بالأيدى حتى إذا سال منا العرق ، ونال منا التعب مشت على الألواح ، حتى إذا وصلت إلى نهايتها ، عادت فغاصت فى الرمل الى الأبواب ... ...

فأيسنا وبلغ منا الجهد ، وهدّنا الجوع والتعب والحرّ والعطش ، فألقينا بأنفسنا على الرمل صامتين مطرقين . حيارى قانطين

وتلفتّ فلم أر إلاّ الرمال المحرقة ، تمتد الى حيث لا يدرك البصر ، متشابهة المناظر ، متماثلة المشاهد ...

فى مَهمهٍ تشابهت أرجاؤه ، كأن لون أرضه سماؤه ، فرحت أفكر فى هذه السبعة عشر يوماً ، وماقاسينا فيها من الجزع والتعب والجوع والعطش ، وأتصور الغد الرهيب الذى ينفد فيه ماؤنا وزادنا ، ويلفحنا فيه سموم الحجاز وشمسه المحرقة ، فأرتجف من الرعب

وجعلت أحدّ النظر فى هذا الأفق الرحيب ، لعلى أرى قرية أو خياماً ، فلا أرى إلاّ لمع السراب ، ولا أبصر إلاّ هذه الجبال التى طلعت علينا أمس فاستبشرنا بها وابتهجنا وظنناها قريبة منا ، فسرنا مائة وعشرين كيلاً وهى قيد أبصارنا ، تلوح لنا من بعيد كأنها بحر معلّق حيال الأفق ضائع بين السماء والأرض... لم تضح ولم تقترب

فشققت هذا السكون وصحت بالدليل (محمد العطوى)

— يا محمد ! إيش تكون هذه الجبال ؟

— فقال : هذه يا خوى جبال المدينة ، وحنّا (ونحن) إن شا الله الظهر فيها

— قلت : ما تقول ؟

ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتق ، وأحسست كأن قد صبّ فى أعصابى عزم أمة ، وقوة جيش ، وظننت أنى لو أردت السحاب لنلته ، ولو غالبت الأسد لغلبتها ، ولو قبضت على الصخر لفتّته ، وجعلت أقفز وأصرخ ، لا أعى ما أنا فاعل . فقد استخفنى الفرح ، وسرّنى من هذه الكلمة أكثر ما يسرّنى أن يقال لى : أنت أمير المؤمنين

وصحت بأصحابى فقاموا كالأسود

* * *

عالجنا السيارات حتى أخرجناها من الرمل ، وملنا بها عن هذه الكثبان حتى ألقيناها عن ايماننا ، وانتهينا الى أرض شديدة درجت عليها السيارات ، فاستندت الى النافذة ، وأطلقت نفسى تطير فى سماء الأمانى ، فلم أدع صورة للمدينة إلاّ تصورتها ، وأقمتها أمام عينىّ ، وأفضت عليها ما أستطيع من الجمال والجلال ، فلا أطمئن إليها ، ولا أجدها إلاّ دون مافى نفسى ... ولم يكن يربطنى بالأرض إلا صوت الدليل ، وهو يهتف بالسائق :

— سر يميناً ، مل شمالاً ، لج بين هذين التلّين ، دع هذه القارة على اليمين ، احترس من هذا الشعب ، تنكب هذه الرملة.. ثم يعود السكون

سرنا أربعين كيلاً أخرى ، ولا تزال هذه الجبال تلوح فى الأفق كأنها خيال حلم بعيد ، يشعّ منها نور غريب ، يومض من وراء القفر ، كما يومض الأمل المشرق فى ظلمة اليأس ، وكنا قد شارفنا سكة الحديد فتخطيناها مستعبرين ، ودخلنا فى أودية ما لها آخر غابت عنا فيها الجبال التى كنا نراها ، فنستأنس بمرآها وقاسينا فيها الشدائد من التواء الأرض وكثرة الأحجار وتشابه المسالك ، ولم يكن فينا من ينبس ، الاّ أن يعرض لنا جبل أو شعب فأسأل الدليل عن اسمه لأكتبه فى دفترى الذى سُرق منى فى آخر الرحلة ... ثم أرجع الى صمتى الطويل

(*) انظر مقالينا (فى طريق المدينة) الرسالة ٩٧ والرسالة ١٢٨

فلما زال النهار ، صاح بى الدليل :

— هيه . انت يالْ كاتب . اكتب : هذا أحد :

— فصحت : اذن قد وصلنا

— فقال : ما قلت لك الظهر ، هذا أحد ، بقى نصف ساعة .

لم يكن يدرى الدليل الاعرابى أىّ ذكريات انبعثت فى نفسى حين قال : هذا أحد ! وأىّ عالم تجلى لعينىّ ، فرأيت المعركة قائمة والمسلمين ظافرين ، قد منحهم الله أكتاف العدوّ ، ورأيت الرّماة اذ يزلون عن أماكنهم ، يبتدرون الغنائم ، وخالداً حين يرتد بخيله على هؤلاء الذين عصوا أمر الرسول وغرتهم الدنيا ، ورأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم ثابتاً مثل أحد ، وحوله صحابته الغرّ الميامين ، يذبون عن الدين ، ويحمون حمى النبوة ، ثم أبصرت هنداً قائمة على جثة البطل السميدع ، سيد الشهداء ، وكان قد أكل فى بدر كبدها ، فأرادت أن تأكل كبده ، فشقت عنها فاستخرجتها فلا كتها ، فلما وجدت بفيها صلادة الصوان لفظتها

وأبصرت النبى صلى الله عليه وسلم واقفاً عليه يبكى ، فلما رأى ما مثل به شهق ، ولم يكن منظر أوجع لقلبه منه ، ثم قال :

رحمك الله ياعم ، فلقد كنت وصولاً للرحم ،فعولاً للخيرات ، فوالله لئن أظفرنى الله بالقوم لأمثلن بسبعين منهم ، فما برح حتى هبط عليه الوحى ، فقام يتلو قول الله جل وعزّ :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » فانصرف وقد عفا

ورنّ فى أذنى صوت أبى سفيان : أعل هبل ، فتلفت ، فما رأيت هبل ، ولا شيعة هبل ، وإذا هو قد درج مع من درج ، لم يبق إلاّ الله الأعلى الأجل ، ثم سمعت صوت أبى سفيان يرنّ فى أذنى مرة ثانية ، يخرج من هناك من أرض الشام ، التى فتحها لهم سيد العالم ، قوياً شديداً ، ينادى فى المعركة الحمراء ، بصوت سمعه كل من فى اليرموك :

يا نصر الله اقترب ، الثبات الثبات ، يامعشر المسلمين . فثبتوا وجاءهم النصر وملكوا سورية من أقصاها إلى أقصاها فهى لهم ولأبنائهم الى يوم القيامة ، ورأيت مئات من مثل هذه الصور ، فأحسست كأنما انتقلت الى العهد الأول ، أشهد هبوط الوحى ، وأرى جلال النبوة وعزة الاسلام . . .

ونظرت ، فاذا أحد لا يزال بعيداً ، يعترض هذا الوادى الذى نسير فيه مشرقاً بهياً ، تومض عروقه المختلفة الألوان من الأخضر البهىّ ، إلى الأحمر المشرق ، الى الأزرق اللامع ، فتمتزج هذه الألوان وتختلط ، فيكون لها فى العين أبهى منظر ، وفى القلب أسمى شعور ، فازداد بى الشوق ، فأقبلت أحثّ السائق وأستعجله ، أود لو تطوى له الأرض طياً أو يطير بنا الى المدينة طيراناً ، فلا أرى السيارة تريم مكانها ، وأجد أحداً لا يزال بعيداً ، فأعود فأستحث السائق . . . ومالى لا أسرع إلى أحد وأحبه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحد جبل يحبنا ونحبه . ومالى لا أزداد شوقاً الى المدينة ، وليس بينى وبينها إلاّ ربع ساعة ؟

وأعظم مايكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

***

ولما خرجنا من الوادى ، وانتهينا الى الفضاء الرحب ، رأينا وجه أحد وعلى سفحه النخيل والبساتين ، ورأينا سلعاً وهو جبل أسود عال ، يقوم حيال أحد فيحجب المدينة وراءه ، فلا يبدو منها إلاّ جانب الحرة ، وطرف النخيل ، فذكرت قول محمد بن عبد الملك وقد ورد بغداد فحنّ إلى المدينة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بسلع ولم تغلق علىّ دروب
وهل أحد بادٍ لنا وكأنه حصان امام المقربات جنيب
يخب السراب الضحل بينى وبينه فيبدو لعينى تارة ويغيب
فان شفائى نظرة ان نظرتها الى أحُدٍ والحوتان قريب
وانى لأرعى النجم حتى كأننى على كل نجم فى السماء رقيب
وأشتاق للبرق اليمانى إن بدا وأزداد شوقاً أن تهب جنوب

***

وكان علينا أرطال من الغبار والأوساخ ، فاستحيينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ندخل مدينته ونسلم عليه ، ونحن على مثل هذه الحال ؛ وكانت البساتين والحيطان قريبة منا ، فسرنا اليها ، نخب فى الرمل ، فلما دنونا من أحدها ، سمعت غناء موقعاً على ناى ، كأشجى وأطرب ما سمعت من الغناء فتعجبت ، ثم ذكرت أن أهل المدينة مذ كانوا أطرب الناس وأبصرهم بالغناء ، وهممت بالدخول ، ثم أحجمت وقلت :

لعل المغنى امرأة ، فلقد كان الذى سمعت صوتاً طرياً رقيقاً لا يكون إلاّ لامرأة أو غلام ، ثم حانت منى التفاتة ، من فرجة

الباب ، فاذا المغنى عبد أسود كالليل ، واذا الذى حسبته نايًا ناعورة يديرها جمل ، لها مثل صوت النواعير فى حماه لكن صوتها أرق وأحلى ، واذا هذا السور الذى تلطمه الصحراء برمالها كما تضرب الأواذىّ صخرة الشاطئ ، قد عرش على جانبه الآخر الياسمين ، وأزهر عليه الفلّ ، وظللته الأشجار وحنا عليه النخل ، ورأينا الماء يهبط على الساقية ، كأنه ذوب اللجين ، ثم يجرى فيها صافيًا عذبًا متكسرًا ، فجننا برؤية المـاء الجارى ، ولم نكن قد رأيناه منذ سبعة عشر يومًا ، الا مرة واحدة فى العلا ، واقتحمنا الباب ، وأقبلنا على الماء نغمس فيه أيدينا ، وأرجلنا ، ونضرب به وجوهنا ، ثم لا نشبع منه ولا ننصرف عنه ، حتى أرحنا رائحة الحياة ، فاستلقينا على الأرض ننظر الى الصحراء الهائلة ، التى أفلتنا منها وضرب بيننا وبينها بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب

* * *

اغتسلنا ولبسنا ثيابًا بيضاء نظيفة ، وتطيبنا ، ثم ركبنا فى السيارات الى المدينة ، فلم نقطع سلعًا حتى بدت لنا المدينـة كصفحة الكف ، يحف بها النخيل ، وتكتنفها الحرار ، وتقوم فى وسطها القبة الخضراء ، تشق بنورها عنان السماء ، وتكشفت لنا دنيا كلها خير وحقيقة وجمال ، وعالم كله مجد وفضيلة وجلال

من هنا خرج جنـد الله الثلثمائة الى بدر ، فدكوا صرح الاستبداد والجهالة ، ورفعوا منار الحرية والعلم ، أقاموه على جماجم الشهداء ، وسقوه هاتيك الدماء ، فأضاء نوره الجزيرة كلها ، ثم قطع الرمل ، فأضاء الشام والعراق ، ثم قطع البحر فأضاء الهند واسبانية ، فاهتدى به الناس الى طريق الكمال الانسانىّ

من هنا خرج الأبطال الذين هدموا وبنوا وعلموا : هدموا الدول المتفسخة الجاهلة التى وقفت فى طريق الحضارة ، فلا هى تتقدم بها ولا هى تدعها تمشى فى طريقها . وبنوا الدولة التى ألفت بين فلسفة يونان وحضارة فارس وحكمة الهند ، وجعلتها جميعًا سِفرًا واحدًا فاتحته القرآن ، وروحه الاسلام ، ثم جلسوا على منابر التدريس فى جامعات بغداد ومصر وقرطبة ليعلموا العالم ، فكان من تلاميذهم ملوك أوروبا وباباواتها ...

من هنا خرج أبو بكر وعمر ، وعبد الملك والمنصور والرشيد وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين وسليمان القانونى

من هنا خرج أبو حنيفة ومالك وسفيان والنووى والغزالى والفارابى وابن سينا وابن رشد

من هنا خرج خالد وسعد وقتيبة وطارق وسيف الدولة والغافقى

من هنا خرج حسان والفرزدق وجرير وأبو تمام والمتنبى والمعرى

من هنا خرج الجاحظ وأبو حيان وابن حزم

من هنا خرج الف ألف عظيم وعظيم

تقدست أيتها المدينة ... أم المدن ، وظئر العظماء ؟

* * *

وكنا قد بلغنا هذا المضيق الصخرى ، بين هضبتى سلع ، فنظرت فى خريطة للمدينة كانت معى ، وقلت للدليل : أما هذا ذِبِب ؟ قال : بلى والله فمايدريك أنت ؟

قلت : أما هذا مسجد الراية ؟ قال : بلى . قلت : هذه هى ثنية الوداع ، وخفق قلبى خفقانًا شديدا ، وخالطنى شعور بالهيبة من دخول المدينـة ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما فى نفسى من الفرح والسرور ، وجعلت أتأمل المدينة ، وقد دنونا منها ، حتى لقد كدنا نصير بين البيوت ، وأحدّق فى القبة الخضراء التى يثوى تحتها أفضـل من مشى على الأرض وقد شخص بصرى وكدت لا أرى ما كان حولى لفرط ما أحس من جيشان العواطف فى نفسى ... حتى غامت المشاهد فى عينىّ ، وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها المـاء ، وأحسست كأنى قد خرجت من نفسى ، وانفصلت من حاضرى وذهبت أعيش فى عالم طلق لا أثر فيه لقيود الزمان والمكان ، فسمعت أصواتًا آتية من بعيد ... من بعيد ، وسمعتها تزداد وتقوى ، حتى تبينت فيها قرع الطبل ، ووعيت أصوات الولائد ، يضربن بالدفوف وينشدن :

طلع البـدر علينا   من « ثنيات الوداع »

وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

ورأيت المدينة قد سالت بأهلها ، فملأ الناس الحرّة وسدّوا الطرق ، وغطى النساء الأسطحة ، ولم يبق فى المدينة أحد إلا خرج لاستقبال سيد العالم ، وهو قادم ليس معه صلى الله عليه وسلم إلا الصديق الأعظم ، لا يلمع على جبينه التاج المرصع ، ولا يحمل فى يده صولجان الملك ، ولا تسير وراءه العساكر والجنود ، ولكن يضىء على جبينـه نور النبوة ، ويحمل فى يده هدى القرآن ، وتسير وراءه الأجيال ، ويتبعه المستقبل ، وتحف به الملائكة ، ويؤيده الله !

ثم سار وسارت وراءه هـذه الجموع إلى القرية التى لبثت قروناً ضائعة بين رمال الصحراء ، لا يدرى بها التاريخ ، ولم تسمع بها القسطنطينيـة ، ولم تعلم بوجودها روما ، فجاء هذا الرجل ليهزها وينفخ فيها روح الحياة ويجعلها أم الدنيا وعاصمة الأرض

إلى العشر الثمانين الذين جعلوا بأمهم بينهم ، فلم تمتد عيونهم إلى أبعد من هذه الحرار ، ولم يطمعوا من المجد بأ كثر من أن يسحق بعضهم بعضاً ، لينشئهم بالقرآن خلقاً آخر ، ويسلمهم مفاتيح الأرض ، ويضع فى أيديهم القلم الذين يكتبون به أعظم تاريخ للبطولة والعلم والعدالة ، فأطاعوا ولبوا ، ثم مشوا إلى القادسية واليرموك ، ثم أصبحوا سادة العالم ، ورأيت الأنصار يستبقون إلى إنزاله صلى الله عليه وسلم والتشرف به ويصيحون به :

هلم يا رسول الله إلى القوة والمنعة ، فيقول : خلوا سبيلها فانها مأمورة ، ويدعها تمشى وقد أرخى لها زمامها ما يحركها وهى تنظر يميناً وشمالاً ، حتى أتت دار بنى مالك النجار فبركت عند باب المسجد ، ثم ثارت وبركت فى مبركها الأول

فنزل عنها صلى الله عليه وسلم وقال : ههنا المنزل إن شاء الله ، وكان المسجد مربداً لغلامين يتيمين فى المدينة ، فاشتراه صلى الله عليه وسلم وانطلق يحمل الأحجار بيده الكريمة ليضع أسس أ كبر جامعة بثت الهدى فى الأرض !

***

ونظرت فاذا السيارات أمام باب السلام ، فاشرأبت الأعناق وبرقت الأبصار ، ودمعت العيون ، وخفقت القلوب ، وتعالى الهتاف ، وكانت حال لا سبيل الى وصفها قط

فنزلنا ودخلنا المسجد نسلم على رسول الله صـلى الله عليه وسلم ... ...

على الطنطاوى

علم الحيل عند العرب

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لقد أصبح علم الطبيعة من العلوم التي لها اتصال وثيق بالحياة، وشأن عظيم في تقدم المدنية الحديثة القائمة على الاختراع والاكتشاف، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن علم الطبيعة هو الأس الذي شيد عليه صرح الحضارة الحالية. وهو لم يتقدم تقدماً محسوساً إلا حينما أشرف القرن التاسع عشر للميلاد على ختامه. وفي هذا القرن — القرن العشرين — دبت اليه عوامل التحول واعتنى به علماء عصرنا عناية فائقة، فأنشأوا المختبرات وأنفقوا عليها المبالغ الطائلة، وبلغوا في إتقانها درجة كبيرة استطاعوا بواسطتها أن يحلوا بعض المشاكل العلمية، وأن يجيبوا على مسائل كثيرة غامضة؛ وظهرت من ذلك عجائب الكون بصورة أوضح وأتم، واستخدم الانسان ما اكتشفه من نواميس الطبيعة والحياة فيما يعود عليه بالتقدم والرقي، فلولا بعض هذه النواميس ولولا فهمه إياها فهماً مكنه من الاستفادة منها لما كانت السابحات في السماء والعائمات على الماء، ولما كان في الامكان الغوص إلى أعماق البحار وجعل المولدات والمحركات الكهربائية في متناول الانسان، ولما استطاع أن يطوق القارات بالأسلاك الكهربائية، وأن يملأ الجو بعجيج الأمواج اللاسلكية، وقد حملت على أجنحتها الأنباء والأخبار والحوادث... ولما نمت الصناعة هذا النمو الغريب. وازدهرت هذا الازدهار العجيب. وعلى كل حال يمكن القول إنه بفضل البحث العلمي وبفضل ما اكتشفه الانسان من القوانين الطبيعية وعلاقاتها مع بعضها سيطر الانسان على عناصر الطبيعة هذه السيطرة القوية، سيطرة جعلته يعمل من المستنبطات قوى يستخدمها في قضاء مآربه المتنوعة المتعددة، ويخضعها لتقوم بأعمال المدنية الحديثة المختلفة المعقدة، سيطرة أحدثت انقلاباً بعيد الأثر خطير الشأن في الحياة والحضارة... إن علم الطبيعة وهذا شأنه وتأثيره وهذه خطورته لجدير بنا أن نهتم به وأن نتعرف عليه ونقف على تطوره وتاريخه وأثر الأمم في تقدمه، ويهمنا بصورة خاصة أن نعرف مآثر أسلافنا وما أحدثوا فيه من النظريات والآراء. وسنتناول في هذا المقال المجهود العربي في علم الحيل — أي علم الميكانيكا — محاولين تبيان فضلهم عليه وما قدموه من جليل الخدمات في هذا الميدان

... إن علم الطبيعة من العلوم التي اعتنى بها الأقدمون فقد كان معروفاً عند علماء اليونان، واليهم يرجع الفضل في اكتشاف كثير من مبادئه الأولية ولهم مؤلفات عديدة ترجم العرب أكثرها. ولم يكتف العرب بنقلها بل توسعوا فيها وأضافوا اليها إضافات هامة تعتبر أساساً لبعض المباحث الطبيعية. وهم الذين وضعوا أساس البحث العلمي الحديث وقد قويت عندهم الملاحظة وحب الاستطلاع، ورغبوا في التجربة والاختبار فأنشأوا (المعمل) ليحققوا نظرياتهم وليتأكدوا من صحتها. ومن الفروع التي أصابها شيء من اعتناء العرب واهتمامهم بحوث الميكانيكا أو علم الحيل، ومع أنهم لم يبدعوا فيه إبداعهم في البصريات الا أنهم استنبطوا فيه بعضاً من المبادئ والقوانين الأساسية التي كانت من العوامل التي ساعدت على تقدمه ووصوله إلى درجته الحالية.

لقد ترجم العرب كتب اليونان في الميكانيكا ككتاب الفيزيكس لأرسطوطاليس، وكتاب الحيل الروحانية، وكتاب رفع الأثقال لايرن، وكتاب الآلات المصوتة على بعد ستين ميلاً لمورطس، وكتب هيرون الصغير في الآلات الحربية، وقطيزنيوس وهيرون الأسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وغيرها. اطلع العرب على هذه المؤلفات ودرسوها ووقفوا على محتوياتها ثم أخذوها وأدخلوا تغييرات بسيطة على بعضها وتوسعوا في البعض الآخر، واستطاعوا بعد ذلك أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساساً لبحوث علم الطبيعة المتنوعة. وليس في الامكان أن نجول كثيراً في هذا العجالة حول مآثر العرب في الميكانيكا، ولكن سنأتي على ذكر شيء من مجهوداتهم فيه وما قدموه من الخدمات لهذا الفرع من المعرفة، وما كان لهذه المجهودات ولتلك الخدمات من أثر بيّن في تقدمه ورقيه.

لقد كتب العرب في الحيل، وأشهر من كتب في هذا البحث محمد وأحمد وحسن أبناء موسى بن شاكر «ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد..»[1]

وهي — أي الحيل — شريفة الأغراض، عظيمة الفائدة،

(١) ابن خلكان — كتاب وفيات الأعيان — ج ٢ ص ٧٩

مشهورة عند الناس [١] ويحتوى هذا الكتاب على مائة تركيب ميكانيكى عشرون منها ذات قيمة عملية [٢] . وكان علماء العرب يقسمون علم الحيل الى قسمين : الأول منهما يبحث فى جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته . والثانى فى آلات الحركات وصنعة الأوانى العجيبة . وألف العرب فى علم مراكز الأثقال ، وهو « علم يتعرف منه ثقل الجسم المحمول ، والمراد بمركز الثقل حد فى الجسم يتعادل بالنسبة الى الحامل » [٣] ، ومن الذين ألفوا فيه أبو سهل الكوهى ، وابن الهيثم ، وبنو موسى

وكذلك للعرب فضل فى علم السوائل ، فلأبى الريحانى البيرونى فى كتابه الآثار الباقية شروح وتطبيقات لبعض الظواهر التى تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، ووضعوا فى هذا كله مؤلفات قيمة . وقد استنبطوا طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الوزن النوعى وكان لهم فيه ميل خاص ، وقد يكون ذلك آتياً من رغبتهم الشديدة فى معرفة الوزن النوعى للأحجار الكريمة وبعض المعادن ، وهم أول من عمل فيه الجداول الدقيقة فقد حسبوا كثافة الرصاص مثلا فوجدوها ١١,٣٣ بينما هى ١١,٣٥ والفرق بين المقدارين ضئيل

وفى كتاب عيون المسائل من أعيان المسائل لعبد القادر الطبرى جداول فيها الأثقال النوعية للذهب والزئبق والرصاص والفضة والنحاس ، والصفر ، والحديد ، ولبن البقر ، والجبن والزيت ، والياقوت ، والياقوت الأحمر . والزمرد واللازورد والعقيق ، والماء والبلخش والزجاج ؛ واستطاعوا أن يحسبوا أثقال هذه المواد النوعية بدقة أثارت اعجاب العلماء . وعمل البيرونى تجربة لحساب الوزن النوعى ، واستعمل لذلك وعاء مصبه متجه الى أسفل ، ومن وزن الجسم بالهواء وبالماء تمكن من معرفة انقدار المزاح ، ومن هذا الأخير ووزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعى . وقد وجد الوزن النوعى لثمانية عشر عنصراً ومركباً من الأحجار الكريمة والمعادن ، ويعترف سارطون بدقة تجارب البيرونى فى ذلك

واخترع الخازن آلة لمعرفة الوزن النوعى لأى سائل ، واستعمل بعض علماء العرب قانون أرخميدس فى معرفة مقدار الذهب والفضة فى سبيكة ممزوجة منهما من غير حلها . وعلى كل حال فالذين كتبوا فى الوزن النوعى كثيرون ، منهم سند بن على والرازى وابن سينا والخيام والخازن وغيرهم ، وكانت كتاباتهم مبنية على التجربة والاختبار ، واستعمل البعض موازين خاصة يستعينون بها فى ايجاد الكثافة ، فقد استعمل الرازى ميزاناً سماه الميزان الطبيعى [١] وله فى ذلك كتاب محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعى . وللخازن كتاب ميزان الحكمة كتبه سنة ١١٣٧ م وفيه وصف دقيق مفصل للموازين التى كان يستعملها العرب فى تجاربهم ، وفيه أيضا وصف لميزان غريب التركيب لوزن الأجسام بالهواء والماء [٢] ، ونجد فيه جداول الأوزان النوعية لكثير من المعادن والسوائل [٣] والأجسام الصلبة التى تذوب فى الماء [٤] وهذه الجداول دقيقة جداً ومستخرجة بطرق متنوعة . ويقول سارطون إن ابن سينا والخيام أوجدا طرقاً عديدة لايجاد الوزن النوعى . وكتاب ميزان الحكمة المذكور من الكتب الرئيسية المعتبرة جدا فى علم الطبيعة إذ هو أكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا ، وقد يكون الكتاب الوحيد الذى ظهر من نوعه فى القرون الوسطى . واعترف بلتن فى خطاب ألقاه فى أكاديمية العلوم الأمريكية بأهمية هذا الكتاب . ومن هذا الكتاب يستدل على أنه كان لدى الخازن آلات مخصوصة لحساب الأوزان النوعية ولقياس حرارة السوائل [٥] . وفى الكتاب نفسه بحث فى الجاذبية [٦] وبأن هناك علاقة بين سرعة الجسم الساقط والبعد الذى يقطعه والزمن الذى يستغرقه ، وبأن قوى التثاقل تتجه دائماً الى مركز الأرض [٧]

ولم ينفرد الخازن ببحوثه فى الجاذبية ، فقد بحث غيره من قبله ومن بعده من علماء العرب فيها وفى الأجسام الساقطة ، ووضعوا قوانين لذلك ، وقد كنا وفينا هذا الموضوع بعض حقه فى مقال لنا فى (الرسالة عدد ٧٢ عنوانه « المهدون للاكتشاف

(١) القفطى — كتاب إخبار العلماء بأنباء الحكماء — ص ٢٠٨
(٢) كتاب تراث الاسلام — ص ٣٢١
(٣) الانصارى — ارشاد القاصد إلى أسنى المقاصد — ص ١١٠

(١) ابن أبى أصيبعة — طبقات الأطباء ج ١ ص ٣١٧
(٢) كاجورى — تاريخ الفيزياء — ص ٢٣
(٣) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — مج ٢ ص ٢٦
(٤) مجلة المقتطف — مج ١ ص ١٦٤
(٥) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — مج ٢ ص ٢١٦
(٦) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — مج ٢ ص ١٢٨
(٧) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — مج ٢ ص ٢١٦

والاختراع » ، ولا نرى الآن ضرورة لاعادة ما كتبناه فى هذا الموضوع . ويحتوى الكتاب المذكور على بحث فى الضغط الجوى وبذلك يكون العرب قد سبقوا اتورشيللى فى هذا البحث. ويحتوى أيضاً على المبدأ القائل إن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل الى أعلى على أى جسم مغمور فيه ، ومن هذا استنتج أن وزن الجسم فى الهواء ينقص عن وزنه الحقيقى [(١)] وكل هذه المبادئ والحقائق هى كما لا يخفى الأسس التى عليها بنى (فيما بعد) بعض الاختراعات كالبارومتر ومفرغات الهواء

وللعرب بحوث فى الروافع وقد أجادوا فى ذلك كثيراً ؛ وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية تمكنهم من جر الأثقال بقوى يسيرة ، فمن هذه الآلات التى استعملوها المحيطة والمخل والبيرم وآلة الكثيرة الرفع والأسفين واللولب والأسقاطولى وغيرها ، وقد يطول المطال إذا أردنا أن نبين ماهية كل منها ، ويمكن لمن يريد الوقوف على ذلك أن يرجع إلى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ففيه بعض التفصيل. ومن الطريف أن العرب عند بحثهم فى خواص النسبة أشاروا إلى أن عمل القبان هو من عجائب النسبة ، فقد جاء أن : — « من عجائب خاصية النسبة ما يظهر فى الابعاد والأثقال من المنافع . من ذلك ما يظهر فى القرسطون أعنى القبان ، وذلك أن أحد رأسى عمود القرسطون طويل بعيد من المعلاق والآخر قصير قريب منه ، فاذا علق على رأسه الطويل ثقل قليل ، وعلى رأسه القصير ثقل كثير ، تساويا وتوازنا متى كانت نسبة الثقل القليل إلى الكثير كنسبة بعد رأس القصير إلى بعد رأس الطويل من المعلاق ... » [(٢)] والمقصود من المعلاق هنا نقطة الارتكاز

واستعمل العرب موازين دقيقة للغاية وثبت أن فرق الخطأ فى الوزن كان أقل من أربعة أجزاء من ألف جزء من الجرام . وكان لديهم موازين أدق من ذلك ، فقد وزن الأستاذ فلندرس بترى ثلاثة نقود عربية قديمة ، فوجد أن الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الجرام ، ويقول الأستاذ المذكور تعليقا على هذه الدقة : « إنه لا يمكن الوصول إلى هذه الدقة فى الوزن إلا باستعمال أدق الموازين الكيميائية الموضوعة فى صناديق من الزجاج (حتى لا تؤثر فيها تموجات الهواء) وبتكرار الوزن مراراً حتى لا يبقى فرق ظاهر فى رجحان أحد الموازين على الآخر .

(١) كاجورى — تاريخ الفيزياء — ص ٢٣

(٢) رسائل اخوان الصفاء — ج ١ ص ١٩٣

ولذلك فالوصول الى هذه الدقة لما يفوق التصور ، ولا يعلم أن أحداً وصل إلى دقة فى الوزن مثل هذه الدقة ... » [(١)] ومن هنا يظهر أن العرب درسوا مسألة الميزان دراسة دقيقة ؛ وقد ألفوا فى ذلك مؤلفات قيمة جداً ، فثابت بن قرة ألف كتابين فى ذلك : أحدهما فى صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك ؛ والثانى فى القرسطون ، ولا تزال من هذا الكتاب الأخير نسخة فى برلين وأخرى فى وكالة الهند بلندن . ومن الذين كتبوا فى الموازين والأوزان نظرياً وعملياً الكوهى والفارابى وابن سينا وقسطا بن لوقا البعلبكى وابن الهيثم والخازن والجلدكى وغيرهم ... وعلى ذكر الجلدكى نقول إن هذا النابغ حلق فى الكيمياء ووصل فيها درجة لم يصلها أحد من معاصريه ، وهو الذى يقول إن العناصر يفعل بعضها ببعض على نسب محدودة ؛ فكأنه اتصل الى المبدأ الجوهرى قبل دلتون [(٢)] . واستعمل العرب لموازينهم أوزاناً متنوعة ، وأحسن كتاب فى هذا البحث الكتاب الذى وضعه عبدالرحمن بن نصر المصرى للمراقب (المحتسب) العام لأحوال الأسواق التجارية فى أيام صلاح الدين الأيوبى . وتوجد كتب أخرى تبحث فى هذا الموضوع ككتاب ابن جامع وغيره

وفوق ذلك فقد كتب العرب فى الأنابيب الشعرية ومبادئها وتعليل ارتفاع الموائع وانخفاضها فيها ، وهذا طبعاً قادهم إلى البحث فى التوتر السطحى (Surface Tension) وأسبابه وبحث فى هذا كله الخازن . . . وقد يجهل كثيرون أن ابن يونس هو الذى اخترع بندول الساعة (الرقاص) واعترف بذلك سيديو وشيدويك وبيكر ونايلر وغيرهم . وكان عندهم (أى العرب) أيضاً فكرة عن قانون الرقاص . يقول سمث : «ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين لاحظه وسبقه فى معرفة شىء عنه . وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد ... » [(٣)] وسبق لنا أن كتبنا شيئاً من هذا فى (الرسالة) عدد (٥٧)

. . . هذا مجمل ما عمله العرب فى علم الحيل أو الميكانيكا وهو يدل كما قلنا — فى أول المقال — على أنهم أخذوا ما عرفه اليونان وغيرهم فى هذا الفرع الجليل وتوسعوا فيه ثم زادوا عليه زيادات هامة يعد بعضها أساساً لبعض البحوث والمواضيع والنظريات فى علم الطبيعة

(نابلس — فلسطين) قدرى حافظ طوقان

(١) مجلة المقتطف — مج ٦٨ ص ٣٠٣

(٢) مجلة المقتطف — مج ٦٧ ص ٣٠٤

(٣) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ٢ ص ٦٧٣

ذكرى الهجرة

بقلم عبد الحكيم عابدين

على هامة الدنيا وقد فقتِها قدرا　　وفى ذمة التاريخ ، أيتها الذكرى
أطلّى على رأس الليالى منارةً　　وفى غسَق الأحداث شعّى لنا فجرا
وقومى على الإسلام تاجاً يزينه　　وسيفاً يردّى من يُريد به الضرا
وأحيى عزاء القلب عما أصابه　　لما دهَم الإسلام من محن كبرى
أعيدى،ولوطيفاً ، من الغابر الذى　　تموت عليه النفس والمهجة حسرى
وقصّى على سمعى ولو فى رُؤى الدجى　　أحاديثَ يَعيى الدهر ترديدُها بهرا
يُجشّم داء أخدعيه مُعادُها　　كأن بأذنيه إذا تُليت وقرا
أحاديث عن طه وحسبيَ ذكره　　بلا لقب إذ ضقت عن قدره ذكرا
وصحبٍ أباةٍ ما رأى المجد مثلهم　　ولم يرضَ إلا بين أنفسهم وكرا
غطاريفَ بُلج لا يجوز عديدُهم　　لدى أرهبو الدنيا ، أصابعك اليسرى
ومن قلّد الإيمان درعاً ومغفرا　　فلا غرو أن أعيا ـ وحيداً ـ به الدهرا

رُويدكِ يا ذكرى . لكم تضرمين بى　　مشاعرَ كاد الدهر يغرى بها القهرا
وآمالَ نفس أوشكت حادثاته　　إلى اليأس أن تدْنِى نواهضَها قسرا
طلعتِ على الدنيا فأذكرت آلما　　مواقف للإسلام ما برحت غُرّا
وما الهجرة البلجاء إلا صحيفةٌ　　تُتوّج من دين الهدى ذلك السِّفرا
سُرىً فى سبيل الله والخطب كالح　　وللبيض لمْعٌ فى حواشى الدجى افترّا
بأيدٍ تلظّى للدماء تعطشا　　وترقب أن تُسقى دم المصطفى هدرا
فما هاله أن الأسنة شُرّعٌ　　تبارى لكى يرجعن من دمه حُمرا
سَرى بين صحب تسقط الشّيم سجّدا　　لإيمانهم . لو أن منه لنا نزرا !
عقائدُ تدعو المستحيل توهماً　　ولا ترتضى إلا لخالقها أمرا
جوارف للأطواد إن زُمّن صدها　　قوانع بالأشواك أن تكسوَ السيرا
تساوِمُ بالأرواح كل مهند　　على عزة الإسلام تعلو بها الشعرى
ليثرب شدو الرحلَ يسعى يقينهم　　سنابين أيديهم إذا افتقدوا البدرا
لهم منه عزم الأسد فى لمعة القنا　　وحسب الفتى السارى بمثلهما ذخرا
يُذلل وعثاء الطريق كأنما　　يرون صياخيد الفلا بُسُطاً خُضرا
إلى حيث شاء الله للحق رفعة　　وآثر للاسلام فى صُبحه نشرا
فلا يحسبن مرضى القلوب رحيلهم　　توقّىَ شركٍ كان يمطرهم شرا
ولا وهناً عن دعوة الله . إنما　　مضاء بأمر الله أن هاجروا سرا
مضوا ليعودوا فاتحين أعزة　　كراماً كإقعاء الهزبر إذا استشرى
وكان . فلم يبعد بمكة عهدهم　　من العمر حتى عاودوا فتحها قهرا
وحطمت الأصنامُ دون هوادة　　وصال الأذان العذب فى الكعبة الزهرا
ونودى فيها « الله أكبر » بعدما　　شكت جهل قوم كبّروا بينها الصخرا

وما فتئ الإسلام تعلو بنوده　　ويأتيه طوعَ السيف من لم يجئْ حرا
ودانت له الأرض الجزيرة . لم يدع　　بها معهداً إلا استقلّ به نصرا
ولم تلبث الأعوامُ أن بهرت به　　عُلا قيصر واستنصرته على كسرى
فدالا ودالت عنهما دولتاهما　　وعمّ الهدى فاستخلص البر والبحرا

فمالى أراه اليوم ـ واحسرتا ـ هوَى　　وأشمتَ فيه ذلُّ أبنائه الكفرا
وأطمع فيه كل أحمقَ لم يكن　　ليجلد يوماً أن يُطيق له ذكرا
ومابالُه ـ واخطبَ ـ ذلت شعوبه　　وحكّم فيها ضعفُها الأهوجَ الغرا

متى أشهد الإسلام يرجع مجده　　وتُرفع راياتٌ له طُويت قسرا
ألا ألمعىٌّ من سلالة (أحمدٍ)　　يقلّده الفاروق من رُوحه الشُمرا
فيبعث للإسلام ماضىَ صولة　　شأت فى شباب الدهر أنجمه الزُهرا

ويامعشر الإسلام ، والحق قوة ،　　ألا قومة للحق يحيا بها حُرّا
فما الحق إن لم تمنع البيض حوضه　　بأخلق أن يُعطى الحياة ولا أحرى
وأكفلُ منه للسيادة باطلٌ　　تقوم عليه السمهرية لا يُفرى

بنى وطنى ، والشرق أجمع موطنى　　ومثلىَ ـ ممن لا يدين بذا ـ يبرا
تعالوا افهموا الإسلام فالناس إخوة　　منى آمنوا ، لا الشام ندرى ولا مصرا
وما أمم الإسلام إلا كتيبةٌ　　وقائدها القرآن عزّت به دهرا

لجنة التأليف والترجمة والنشر

اعتزمت اللجنة إحياء رسائل قيمة من الأدب القديم وقد بدأت ذلك بنشر رسالة (نسب عدنان وقحطان لأبي العباس المبرد) وهي رسالة لطيفة الحجم تبحث في أنساب العرب وتبين تسلسلهم ، وقف على نشرها الأستاذ عبد العزيز الميمني وثمنها قرشان صاغا عدا أجرة البريد وتطلب من اللجنة بدارها رقم ٩ شارع الكرداسي بعابدين ومن المكاتب الشهيرة

وزارة المعارف العمومية

اعلان

ظهر الجزء الثاني من مجلة مجمع اللغة العربية الملكي وثمنه ٨٠ مليما وأجرة البريد ٣٠ مليما ويمكن الحصول عليه من المخازن العامة للوزارة بدرب الجماميز بالقاهرة ومن مخازنها الفرعية بالاسكندرية وطنطا والزقازيق وبني سويف وأسيوط ويخصم ٢٣ ½ من الثمن عند شراء خمسين نسخة فأكثر .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أتمت لجنة التأليف طبع « الجزء الثاني » من كتاب « الاسلام والحضارة العربية » للأستاذ محمد كرد على ، وهو يبحث في العلوم والمذاهب والادارة والسياسة في الاسلام

وقد طبع في مطبعة دار الكتب الأميرية ، ويقع في نحو ستمائة صفحة من القطع الكبير ، وثمنه عشرون قرشاً عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة ومن المكاتب الشهيرة

الرجل الذي يحصل على المرتب الكبير
والفتاة الجميلة

من الذي يتقدم في عمله ؟ ذلك القصير النحيف ؟ أو البدين الضعيف الذي لا يثير في النفس ميلاً ولا اعجاباً . كلا . بل هو الرجل الذي تتوفر فيه كل صفات الرجولة .. الرجل ذو العضلات الفولاذية والأعصاب الحديدية والشخصية القوية الجذابة هذا هو الرجل الذي يحصل على الفتاة الجميلة ، ولكن كيف يمكن أن تكون هذا الرجل ؟

لا يوجد الا جواب واحد عرفه وعمل به كل الأقوياء الكاملي الجسم والشخصية والذين تراهم فلا تمالك نفسك من الاعجاب بهم تماماً كما تعجب الفتيات . أن السر هو التربية البدنية والعقلية المبنية على الأسس العلمية الصحيحة . فلا تقعد حيث أنت ملوماً محسوراً . بل اطلب الآن كتاب (الانسان الكامل) يريك في ١٠٠ صفحة كبيرة ماذا أستطيع أن أفعله لك في جسمك وشخصيتك لست أريد نقوداً . فقط املأ هذا الكوبون

معهد الجوهري للتربية البدنية والعقلية

أرجوا أن ترسلوا لي نسخة من كتابكم المجاني الانسان الكامل في تحسين الصحة وتقوية الجسم والشخصية وعلاج الأمراض المزمنة والعيوب الجسدية والنفسية بالطرق الطبيعية ، وقد وضعت سطراً تحت ما يهمني مما يلي . النحافة . السمنة . قصر القامة . ضعف الأعصاب . الضعف التناسلي . العادة السرية . الاحتلام . الأرق . الهم والكآبة . الخجل . ضعف الذاكرة . الارادة . شرود الذهن . الثقة بالنفس الامساك . الصداع . القلب . الرئتين . الكبد . الشعر . النظر . الجلد . الدفاع عن النفس . عيوب الوجه

الاسم ________ السن ________ الصناعة ________

العنوان ________ (الرسالة)

أكتب باسم محمد فائق الجوهري ١٠ شارع قنطرة غمرة مصر تليفون ٥٠٣٥٩

مصلحة التنظيم

تقبل عطاءات لغاية ظهر يوم الخميس ١٤ مايو سنة ١٩٣٦ عن توريد الآتي إلى شوارع مختلفة بمدينة القاهرة وضواحيها .

١) ٢٠٠٠٠ عشرون ألف متر طولى بردوره بازلت

٢) ١٩٠٠٠ تسعة عشر ألف متر طولى بردوره من محاجر الهرم

٣) ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألف متر طولى بردوره بيضاء

٤) ٢٠٠٠ وكذا ألفين متر طولى بردوره بيضاء الى شوارع مختلفة بمصر الجديدة وثمن شروط المناقصة ١٣٠ مليما بخلاف ٣٠ مليما أجرة البريد

محكمة فوه الجزئية الأهلية

إعلان بيع

فى القضية المدنية نمرة ١٨٦٨ سنة ٩٣٤

نشرة ثانية

فى يوم السبت ١٦ مايو سنة ١٩٣٦ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بسراى المحكمة بقاعة المزايدات سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد المملوك الى الحرمه زينب سعد زلهف من منية الأشراف مركز فوه وهذا البيع بناء على طلب الحرمه حافظه ابراهيم بدوى من بندر فوه ومحلها المختار مكتب الأستاذ مأمون أفندى الفوال المحامى بفوه

وهذا البيع بناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ ومسجل بمحكمة طنطا الابتدائية الأهلية فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٤ تحت نمرة ١٣٤٠ صحيفة ٩٢و٩٤ جزء سادس سنة ١٩٣٤

وهذا بيان العقار

١٤/١ قيراط ونصف من أربعة وعشرين قيراطا مشاعا فى ماكينة طحن غلال ودرب الأرز كائنة بزمام منية الأشراف مركز فوه غربية بما فيها العدد والآلات للطحن ودرب الأرز مكلفه نمرة ٣٢١ سنة ١٩٣٤ ومسطح هذه القطعة الموجود فيها الماكينة المذكورة هو ١ ط و ١٨ س من ضمن القطعة نمرة ١٧ بحوض غرب الترعة نمرة ٢ بحدود أربع البحرى القطعة نمرة ١٦ ملك أسعد عوض ومخائيل سعد وطوله ٤ قصبه والغربى القطعة نمرة ١٦ ملك أسعد عوض ومخائيل سعد وتمامه نمرة ١٧ وطوله ٦ قصبه والقبلى باق القطعة نمرة ١٧ بحوضه ملك عبد الحميد أبو بكر والورثه وطوله ٤ قصبة والشرق جسر ترعة القضابه عمومية وطوله ٦ قصبه

وهذا البيع وفاء لمبلغ ٢٦ ج و ٩١٠ مليم ستة وعشرين جنيهاً وتسعمائة وعشرة مليم خلاف المصاريف والثمن الأساسى الذى يبنى عليه المزايدة مبلغ ٢ ج و ٥٠٠ مليم اثنين جنيه وخمسمائة مليم خلاف المصاريف التى سيعلن عنها بالجلسة

وشروط البيع وحكم نزع الملكية وكافة الأوراق مودعة بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها وهذا العقار هو الجزء الباقى بعد ما حكم به فى دعوى الاستحقاق ن ١٩٢٧ سنة ٩٣٥ فوه

فعلى من له رغبة فى الشراء الحضور فى اليوم والساعة والمكان المحددين بعاليه للمزايدة قانونا ومن يرسى عليه آخر عطاء يدفع عشر الثمن وكامل المصاريف فوراً وان تأخر يعاد البيع على ذمته ويلزم بالفرق

كاتب البيوع

فى يوم ٢٣ أبريل سنة ١٩٣٦ من الساعة ٧ صباحا والأيام التالية له بناحية بندر طهطا مركز طهطا سيباع علف الخردوات الموضحة بمحضر الحجز ١٧ مارس سنة ١٩٣٦ ملك رياض جورجى من بندر طهطا نفاذا للحكم ن ١٧٥٨ سنة ١٩٣٦ طهطا وفاء لمبلغ ٤٦٥ قرشا صاغا كطلب دهيس محمد فرغل التاجر بطهطا

فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأربع ٢٢ أبريل سنة ٩٣٦ من الساعة ٨ صباحا بزاوية جروان مركز منوف وفى يوم الاثنين الذى يليه من الساعة ٨ صباحا بسوق كفر الناجور سيباع ماكينة خياطة ماركة سنجر تدار بالرجل ن ٨٦٢٩١٠٣ ملك امام عبدالواحد الدهشورى ومحمد حسن منتصر من الناحية نفاذا للحكم ن ١٠٤٧ سنة ١٩٣٦ وفاء لمبلغ ٢١٣٢ قرش صاغ بخلاف رسم هذا وما يستجد والبيع كطلب البير رودرنج التاجر بطنطا فعلى راغب الشراء الحضور

سفائن الصحراء

للدكتور أحمد زكى

هَلَا ، هلا ، هيّا إطوى الفَلَا طيّاً وقرّبى الحبّا للنازح الصبّ
هلا، هلا ، سيرى وامضى بتيسيرى طيرى بنا طيرى للماء والعشب
« شوقى »

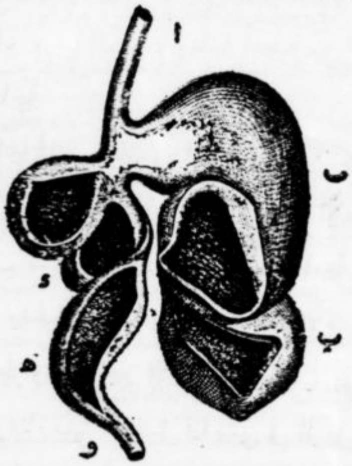


الجمل سفينة الصحراء ، اذا أنت ذكرت الصحراء ذكرته ، واذا ذكرته ذكرت الصحراء ، وما وجوده فى غير الصحراء إلا عبث ودعابة ، يزيد حسك بهما كلما تأملت خَلقه ، ودرست خُلقه ، وقرنت ما تجد من ذلك بطبيعة السواد من الأرض الذى يخرج اليه الجمل أحياناً ، أو بطبيعة المدن التى يضلّ اليها بحكم المصادفة الخاطئة والتوجيه الجائر ؛

فكما قد ينبو فى نظر الرجل العادى مرأى العمامة فى متحف اللوفر ، ومظهر القبعة فى الأزهر . كذلك قد تضيق نفس عالم الأحياء بمنظر الخفّ على زلق المدينة . ورؤية السنام يسير بين الوفير الكثير من طعامها

فى الصحراء معنى الجوع ، ومعنى الحر ، ومعنى المشقة والصبر ، وفيها معنى الجدب والقحط والجفاف . وفى الجمل تركزت كل هذه المعانى

أول ما يصفه الحيوانىّ ، يصفه بأن يضعه لك فى قائمة الحيوانات ، فتجده فى خانة المجترات ، وأميز ما تمتاز به هذه الحيوانات أن أمعدتها تنقسم الى أربعة أقسام ، أو ان شئت تتركب من أربعة أكياس



أقسام المعدة الأربعة فى الحيوانات المجترة

الكيس الأول وهو أكبرها ويسمى الكرش . واليه ينزل الطعام من المرىء (ا) بعد أن يكون قطّعه الحيوان بأسنانه تقطيعاً هيّناً هو دون المضغ بكثير ؛ والكيس الثانى ويسمى بالقلنسوة (ح) وبغشائه المخاطى تَشَنٍّ من خلايا ذات أضلاع عدة ، وإلى هذه القلنسوة يخرج الطعام من الكرش تدرّجاً ، وفيها يتكوّر الى كرات ليست بصغيرة الحجم تندفع الى أعلى فى مرىء الحيوان الى فمه فيأخذ فى مضغها حتى تصير عجينة لينة ؛ وحركة اندفاع الطعام هكذا حركة طبيعية لا كحركة القىء . فاذا تم المضغ بلعه الحيوان فذهب الطعام هذه المرة الى الكيس الثالث ويسمى بذى اللفائف (ء) ذلك لأن حائطه به ثنيات مستطيلة تشبه أوراق الكتاب وهو مفتوح ، ومن ذى اللفائف يخرج الطعام الى الكيس الرابع واسمه الانفحة (هـ) وفيها يحدث الهضم الحق

* * *

ولن تستعيد الأمر إلا بوحدة تقرب نائيهم وتنسيهم الإصرا
لعمرىَ ما أزرى بنا غير جهلنا حقيقة هذا الدين أو روحه الكبرى
وإكبارنا منه القشور وهجرنا لبابا وروحا ما أساغا لنا هجرا
لعمرىَ ما الاسلام إرسال لحية ولا صلواتٍ تُنتضَى للريا سِترا
ولكنما الإسلام مجدٌ . وعزةٌ تباعُ الدماء الفيحَ والأنفسَ الغرّا
فدونكمُ القرآنَ دستورَ مجدكم تصولوا على الدنيا بعزته كِبرا
تربوا به واسقوا العقائد روحه وربوا عليه النش، وابغوا به النصرا
صِلوا بين أرواح الشباب وبينه ولا يكُ حظ القارئ الطىَّ والنشرا
إذن يعلموا أن الجهاد فريضةٌ وأن سنام الأمر أن تفدِىَ الأمرا
وأن أخا الإسلام ليس بمسلم إذا ما لكَ الأعداء من أرضه شبرا

(الجامعة المصرية) عبد الحكيم عابدين الفيومى

على وجهه المألوف فى الحيوانات الأخرى ؛ فى الانفحة تفرز العصارات الهضمية ، وهى التى تستخدم فى تجبين اللبن على ما هو معروف

فانك تجد فى تركيب معدة المجترّات ، ومنها الجمل ، ان صانعها خلقها وَفقاً لحاجاتها وملاءمة لطور معيشتها ، فالكرش الكبير الذى يملأ جانباً عظيماً من البطن يقذف اليه الحيوان بالطعام الأخضر الذى يقتطفه من الشجر قذفاً ، اما على عجل لأنه يخشى أن ينزل عليه عدو من أعدائه المفترسة ، أو اختزاناً له كى يعود اليه عند حاجته لطعام . فإذا هو ذهب الى أمنه ، أو جاءته شهية الطعام عمد الى هذا المخزون فأكله من جديد . والأكل أوله المضغ

أما الماء فانك واجد فى معدة الجمل خلايا عديدة كالجيوب ، واقعة فى جدرانه ، بها الماء ، وعليها أغطية من العضل تنسد وتنفتح عند الحاجة

وتنتهى قوائم الجمل : رجلاه ويداه ، بأصبعين ككل المجترات ، كالمعز والأبقار والوعل والغزلان . الا أن هذه الأصابع تنتهى فى هذه بأظلاف تساعدها الآن أو ساعدت آباءها بالأمس على تسلق الصخور والجبال . أما فى الجمل فينتهى الأصبعان بوسادة بها رخاوة وبها طراوة هى خير الأحذية للسير السريع الهين فوق الرمال لا سيما الوعثاء منها . والفيل اذا مشى فى الرمل فقد حيلته فيه ، والحصان لا يلبث أن تُنهك قواه . كذلك حال ربيب المدينة اذا هو خرج بحذاء ذى كعب عال (أو الأولى ربيبتها) . والسيارات تغوص فى الرمال ، ثم تدور عجلاتها وتدور فلا تزيد فيها الا غوصاً . إلا اذا هى شابهت الجمال فاحتذت أخفافاً ، وتلك بالونات جديدة صنعت حديثاً قطرها تسع بوصات وضغط هوائها تسعة أهواء فهى عريضة رخوة . وقطر البالونات العادية نصف هذا القطر ، وضغطها ضعف هذا الضغط أو ثلاثة أمثاله

والجمل يحمل غذاءه فوق ظهره ، حملته الطبيعة إياه ، واختزنته تحت جلده حيث لا يصل اليه سواه : هذا سنامه ، وهو كتلة كبيرة من الدهن تجىء بمجىء المطر والعشب وتذهب بذهابهما ، وهى تزيد ويعتلى بها ظهره وتتخذ شكلاً أقرب ما يكون إلى الهرم الرباعى ، والجمل معشب مرتو هانئ ، فاذا خرج الى الصحراء على سفر طويل مجهد ، فأعوزته الخضرة والماء ، رجع الى ما على ظهره ، يحرق منه لغذائه ، ويصمد به لغيلة الجوع حتى يذهب كله ويخلو منه جلده . ولكنه لا يلبث أن يعود من سفره حتى يأخذ فى الادخار من يوم النعيم والوفرة ليومه العبوس الآخر ، فيثقل بالدهن ظهره ، ويشتد عليه جلده . والأعرابى قبل الترحل الطويل يمتحن سنام راحلته كما ينظر ذو السيارة فى خزان بنزينه ؛ والحيوانات الثديية الأخرى تدخر الدهن ، ولكنه يتوزع على كل جسمها . كذلك تدخره الحيوانات التى تنام طول شتائها ، وتصحو فى الربيع لتأخذ مع الأحياء نصيبها من العيش وطيب الحياة ، وتدخر من الدهن لحين تنام مرة أخرى

والجمل له جسم ضخم ليس فيه جمال كثير ، تحمله قوائم طويلة تتراءى كأنها تعجز عن حمله ، ولكنها غاية فى الصلابة . وعظام هذه القوائم فوق متانتها بيضاء ناصعة حتى ليستعيض بها الهنود فى شمال الهند عن سن الفيل فى تلقيم بعض مصنوعاتهم . وطال الجمل لينال الشجر فبعد عن الأرض ، فكان لا بد له من طى قوائمه لينالها . وهو حين يبرك على الأرض يبرك على كتل خمس متصلبة فى جسمه يقال لها الثَّفِنات ، واحدة فى صدره واسمها السَّعدانة ، واثنتان فى ركبتيه ، واثنتان فى أصول فخذيه . والثفنات تولد مع الجسم ليستتم به خلقه كالأذن والعين

وللجمل رقبة حنواء طويلة تحمل فى أعلاها رأساً صغيراً ، لا يحمل القرون التى هى من خصائص المجـــترات ، وله عينان نجلاوان ناعستان . وله أنفان يغلقهما إذا شاء ويفتحهما



رأس جمل

إذا شاء ، وفضل هـذا ظاهر فى الريح السافية ؛ وفتحتا أنفه بعيدتان بعداً كبيراً عما بداخلهما من غشاء وغدد مخاطية ، فهى لا تتحلب مخاطا كالبقر وسائر المجترات . كذلك تطول شفته العليا وتتدلى على شفته السفلى فتحجبها أو تكاد . وشفته العليا مشقوقة شقين كالأرنب يحركهما أو يحرك أحدهما على هواه وهو يأكل حتى كأنهما يدان

وغذاء الجمل فى مواطنه الأولى أفرع الشجر وأوراقها ، وهو يأكل الشوك ولا يبالى ، ويأكله دون أن تدمى شفتاه . وهو يأكل الحب والتمر ، ولكنه لا يستغنى عن الأخضر من الطعام . وله صبر على الجوع والظمأ ، فهو يقضى أياماً قد تطول إلى العشرة دون طعام ولا شراب . وقد يقضيها حاملاً المعهود من أثقاله . وقد يحدث كثيراً أن يفرغ المـاء من القافلة فتعقر الجمال طلباً للمـاء الذى فى أكراشها . وللابل إحساس غريب بالمـاء تشمه من بعيد ؛ كثيراً ما نجَت القوافل بسببه ، وقد يحدث أن يأبى على الناقة صاحبها فلا يفهم معنى تشبثها باتجاه خاص فى الصحراء ، فتقطع الرسن وتركب رأسها ، فاذا بلغت المـاء كرعت منه لأمسها ويومها وغدها



(الجمل فى الحرب)

والأعراب تشرب من الأبل لبنها ، وهو بالغ فى دسمه ، وتأكل لحمها ، وتلبس من وبرها . ولكن الخدمة الكبرى التى أداها الجمل للانسانية من قديم هى وصله لأقطار فصلت بينها قفار كالمحيطات ما كان لغير الجمل أن يجتازها ، فأثره فى تجارة الأمم العتيقة كبير . وقد كان وحده وصلة ما بين الشرق والغرب

والجمل إن كان فى جسمه القدرة على الحمل ، ففى خلقه الأناة والصبر . يكتسبهما ولادة وبالمران . وهو برغم نفعه من أغبى الحيوانات . أو لعله لغبائه كان نافعاً ذلولاً صبوراً ، وإنك تجد هذا فى الناس . وهو لا يألف صاحبه ألفة الحصان والكلب . وهو كالبدو يكره البحر . وأكثر الثدييات إذا ألقاها الرجل فى الماء وجد لديها من طبيعتها فهماً للعوم أو بعض فهم . أما الجمل فاذا غُصب على المسير فى ماء غير ضحل كالنهر ففقدت رجلاه الأرض لم يحاول أن يعوم ، وإنما يدور جسمه ويسلم نفسه للغرق

والجمل على صبره ذو غضبة منكرة ، وهو حقود ذكور . حكوا أن جملاً كان يساق فى إدارة عصارة للزيت فضربه سائقه ضرباً موجعاً . ومضت أشهر بعد ذلك ، فظهر كأن الأساءة أُنسيت . وفى ليلة قمراء جاء الجمل يتلصص الى حيث يرقد السائق فوجد ما يشبهه وهو نائم فانقض عليه بكلكله وأخذ فى الثياب تمزيقاً يحسب الرجل فيها ، فلما فرغ تحدث اليه الرجل من بعيد ، فاغتاظ الجمل اغتياظاً شديداً ، وغضب لخيبته غضبة نكراء ، ضرب فيها الحائط برأسه ضربة أردته قتيلاً

أحمد زكى

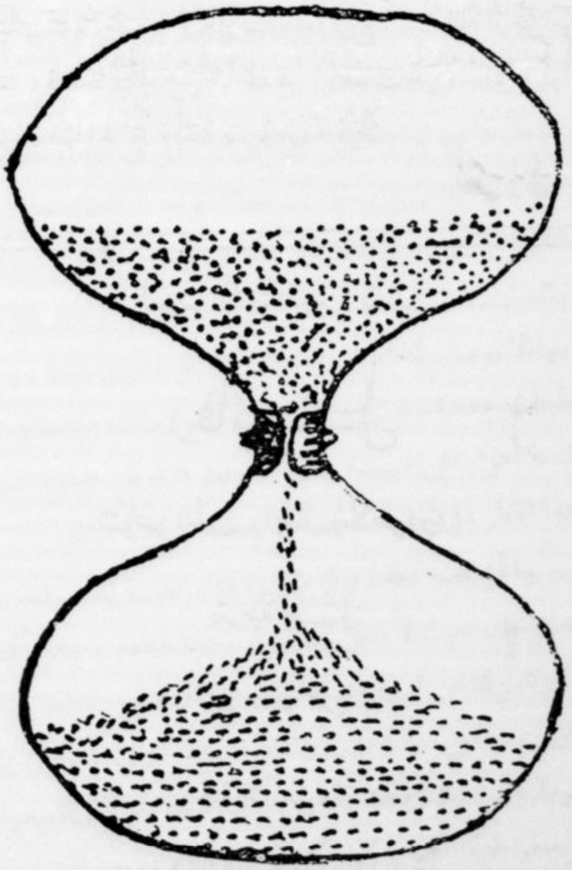
الساعات العربية

بقلم السيد أحمد دهمان

لما شعر الأقدمون بحاجتهم الماسة الى معرفة الأوقات ، اهتدوا بعد التأمل والتفكير الى اختراع الساعة الرملية ، وهى ساعة بسيطة التركيب ، تتركب من قارورتين قد ألصقت فوهة احداهما بفوهة الأخرى بواسطة الشمع . وملئت العليا رملاً ، فينزل الرمل بالتدريج الى السفلى من ممر بينهما صنع بنسبة مقدرة ، وتقلب الساعة عند ما تفرغ العليا من الرمل ، وهكذا دواليك

فاذا أرادوا معرفة الوقت نظروا الى مقدار الرمل الباقى فى العليا ، أو الى مقدار ما نزل منه الى السفلى

ولبثت هذه الساعة شائعة الاستعمال عند بعض قرويى دمشق حتى قبيل الحرب العامة . وقد أدركنا أحد الشيوخ المسنين



(شكل ١) الساعة الرملية

يصنعها ويبيعها فى حانوت له خارج باب دمشق الغربى « فى سوق المسكية »

أما الساعة المائية التى شاعت عند الكلدان والهنود فهى كالساعة الرملية ، بابدال الرمل بالماء ، وكانت أقل دقة منها ، لأن اختلاف الجو برداً وقيظاً كان ينقص مقدار الماء

وكان ألفرد الكبير عاهل الانكليز يأمر باتخاذ شمع طول الواحدة منه اثنتا عشرة أصبعاً ، مقسمة بعلامات خاصة الى أربعة وعشرين قسما ، عدد ساعات الليل والنهار . وكانت توقد ليلاً ونهاراً ، ويجعل أمامها جسم شفاف وقاية لها من الريح

أما العرب فقد تفننوا فى صنع الساعات مستندين الى فن الهندسة ، واخترعوا لها آلات عجيبة أصبحت فيما بعد أساساً للساعات التى نراها اليوم

وقد بدأ شيوع استعمال الساعات فى البلاد العربية منذ القرن السادس للهجرة وبقى حتى الثامن ، فكان فى مراكش وتلمسان والأندلس ومصر وبغداد ودمشق عدة ساعات تنصب فى الأماكن العامة لمعرفة الأوقات ، وسنأتى على ذكرها مفصلاً

مهندسو الساعات

اشتهر فى تلك العصور كثير من المهندسين العرب الذين تخصصوا فى صنع الساعات ، وكانوا يديرون آلاتها بواسطة الماء ، الى أن جاء ابن الشاطر المهندس الدمشقى فسعى فى ترقيتها وتوصل لجعلها صغيرة الحجم بالنسبة لغيرها من الساعات (٢) ، وأصبحت تعلق على الجدران ولا تحتاج آلاتها الى الماء ، فكانت أقرب ما تكون الى الساعات المستعملة اليوم . واليك تراجم أشهر من اشتغل بصنع الساعات :

محمد رستم الساعاتى — أصله من خراسان قدم دمشق وأقام بها ، وكان أوحد أهل زمانه فى علم الفلك وصنع الساعات . قال ابن أبى أصيبعة : وهو الذى صنع الساعات التى عند باب الجامع بدمشق ، صنعها فى زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، وكان له الانعام الكثير والجامكية والجراية لملازمته صنع الساعات الى أن توفى — ولم يذكر سنة وفاته

أبو عبد الله القيسرانى — هو محمد بن نصر بن صُغَير ، ولد بعكا سنة ٤٨٧ أديب شاعر ، كان بينه وبين ابن منير الشاعر

الطرابلسى المشهور مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، ومع ذلك فقد كان بارعاً فى العلوم الرياضية من حساب وفلك وهندسة ، تولى ادارة الساعات بدمشق ، ثم رحل الى حلب ، ثم رجع الى دمشق وتوفى بها فى ١١ شعبان سنة ٥٠٨

محمد بن عبد الكريم الحارثى — لقبه مؤيد الدين ، وكنيته أبو الفضل ، كان معروفاً بالمهندس ، ولد ونشأ بدمشق ، وكانت حياته نادرة من نوادر الدهر تجلى فيها النبوغ الشرقى ، فقد كان فى أول أمره نحاتاً ينحت الحجارة ، ثم صار نجاراً فبرّز على النجّارين فى حسن الصنعة ؛ وأبواب البيمارستان النورى بدمشق من صنعه ؛ ثم تعلم الهندسة لتزداد براعته فى التّجارة . وقد وصف المدرسة التى تعلم فيها الهندسة بقوله : « كنت أشتغل فى مسجد خاتون الذى تحت المنيبع [1] غربى دمشق . وكنت لا أصل الى المسجد الا وقد حفظت شيئاً من كتاب أقليدس وحللت بعضاً من مسائله الى أن أتممته حفظاً وفهماً » . ثم قرأ المجسطى وحلّ مسائله أيضاً ، وانصرف الى الهندسة انصرافاً تاماً ، حتى اشتهر بعد ذلك بالمهندس

وقدم دمشق الشرف الطوسى وكان إماماً فى العلوم الرياضية فقرأ عليه ما نقصه من الحساب والهندسة والفلك

وقرأ بعد ذلك علم الطب على أبى المجد محمد بن أبى الحكم ، الى أن برع فيه . وتعين طبيباً فى البيمارستان النورى ، مهندساً لساعات المسجد الأموى وكان يتقاضى مخصصات منهما

وفى زمنه تخربت ساعات المسجد الأموى فأصلحها أحسن تصليح : من مؤلفاته . رسالة فى معرفة رسم التقويم ، مقالة فى رؤية الهلال ، اختصار كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، عشرة أجزاء وقفها فى المسجد الأموى بدمشق وجعلها فى مشهد عروة ، كتاب الحروب السياسية ، كتاب فى الأدوية المفردة مرتبة على حروف الهجاء ، توفى بدمشق سنة ٥٩٩

ابن الشاطر — هو أبو الحسن علاء الدين ، على بن ابراهيم ابن حسان الأنصارى الدمشقى ، نشأ يتيما فتعلم صنعة تطعيم العاج من زوج خالته ، ثم تعلم العلوم الرياضية والفلكية ، فلقب بالمطعم وبالفلكى

رحل الى مصر والاسكندرية ليأخذ العلوم الرياضية عن أربابها وكان صاحب ثروة . ويقول ابن العماد ان داره من أحسن الدور وضعاً وغرابة . ويقول الصلاح الصفدى : « دخلت منزله فى شهر رمضان سنة ٧٤٣ لرؤية الاسطرلاب الذى أبدع وضعه فوجدته قد وضعه فى قائم حائط فى منزله داخل باب الفراديس بدرب الطيار ، ورأيت هذا الاسطرلاب فأنشأ لى طرباً ، وجدد لى فى المعارف رأياً ، وقلت ان من تقدمه من الأفاضل عند جبل علمه الراسخ هباء ... « الى أن قال : « وصورة هذا الاسطرلاب المذكور قنطرة نصف أو ثلث ذراع تقريباً يدور أبداً على الدوام فى اليوم والليلة من غير ماء وعلى حركات الفلك . لكنه قد رتبها على أوضاع مخصوصة تعلم منها الساعات المستوية والساعات الزمانية . »

ومما ذكره الصفدى وسماه اسطرلاباً يعلم أن ابن الشاطر أول مخترع لساعات الجدران وأن ما سماه اسطرلاباً ليس بالاسطرلاب المشهور ، لأن اختراع الاسطرلاب المعروف قديم جداً ، وإنما هو اختراع جديد من وضع ابن الشاطر

ومن أعمال ابن الشاطر البسيط الذى وضعه فى منارة العروس احدى منارات المسجد الأموى ؛ وقد زينت دمشق يوم وضعه وبقى فيها الى سنة ١٢٩٣ فاختل وضعه من مرور السنين عليه ومال أحد جوانبه ، ولما أريد اصلاحه انكسر فصنع بدلا منه العلامة المرحوم الشيخ محمد الطنطاوى ، جدّ بنى الطنطاوى بدمشق ، وجعل حسابه على الأفق الحقيقى ، وزاد فيه قوس الباقى للفجر ، فجاء فى غاية الضبط والاتقان ، جزاه الله خير الجزاء . وقد قال الشيخ عبد المجيد الخانى من قصيدة مؤرخاً له :

ما قال أهل الشام فى تاريخه　　　تم البسيط بنفحة القدوس

ولابن الشاطر المذكور اختراعات عديدة من آلات فلكية وهندسية ، وله آراء ونظريات فى الحساب والجبر والهندسة والفلك ، أضحت مصباحاً مشرقاً لمن جاء بعده . وتولى فى المسجد الأموى وظيفة التوقيت ورياسة المؤذنين ، وله مؤلفات عديدة ذكر أكثرها فى كشف الظنون . توفى سنة ٧٧٧

على بن ثعلب الساعاتى : — هو نور الدين على بن ثعلب الساعاتى ، تولى تدبير ساعات المدرسة المستنصرية فى بغداد ؛

(١) محلة كانت عامرة قرب التكنة الحميدية فى منتصف طريق الربوة

وكان مولده سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٨٦٣

***

واليك بعد هذه التراجم بعض ما وقفت عليه من وصف تلك الساعات

١ – ساعة هارون الرشيد

ذكر فولتير وغيره من المؤرخين الفرنسيين أن أول ساعة عرفت فى أوروبا هى الساعة التى أهداها أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا سنة ٨٠٧ وكانت بدعاً فى ذلك العصر ، حتى أنها أورثت رجال الديوان حيرة وذهولا ؛ كان لها اثنا عشر باباً صغيراً بعدد الساعات ، فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات ، وتبقى الأبواب مفتوحة ، وحينئذ تخرج صور اثنى عشر فارساً على خيل تدور على صفحة الساعة . ولم نقف لهذه الساعة على ذكر فيما اطلعنا عليه من الكتب العربية

٢ – ساعة مسجد مراكش

ذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى فقال : وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين ، طوله مائة وعشر أذرع ، وعلى بابه ساعات مرتفعة فى الهواء خمسين ذراعا ، كان يرى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم تتحرك لنزولها أجراس تسمع على بعد

٣ – ساعة الملك الكامل

ذكرها القليوبى فى نوادره فقال : ان السلطان الكامل كان عنده شمعدان فيه أبواب ، فكلما مضت ساعة يخرج من باب منها شخص يقف فى خدمته الى مضى ساعة ، وهكذا الى تمام الأبواب اثنتى عشرة ساعة ، فاذا تم الليل خرج شخص فوق الشمعدان ويقول : أصبح السلطان ؛ فيعلم أن الفجر قدطلع فيتأهب للصلاة . وهذه الساعة مصرية لأن اقامة الملك الكامل كانت فى مصر

٤ – ساعة المدرسة المستنصرية ببغداد

جاء فى مجلة – الزهراء – السنة الثالثة – ص ٢٥٤ ما نصه « من مخطوطات الخزانة التيمورية بالقاهرة جزء قديم (فى كتب التاريخ رقم ١٣٨٣) من كتاب مجهول الاسم والمؤلف . رتبه مؤلفه على السنين ، وما فى هذا الجزء من سنة ٦٢٦ الى ٧٠٠ وقد جاء فى حوادث سنة ٦٣٣ منه وصف للساعة التى وضعها أمير المؤمنين المستنصر فى مدرسة الطب والمستشفى التابعين لمدرسته العظمى المعروفة باسم « المستنصرية » وقد أدخل العلامة أحمد تيمور باشا وصف هذه الساعة فى كتابه (التصوير عند العرب) الذى لم يطبع بعد . فآثرنا التعجيل بنقل ذلك الى قراء الزهراء :

« وفيها – أى فى سنة ٦٣٣ هـ – تكامل بناء الايوان الذى أنشىء مقابل (المدرسة المستنصرية) وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب ، وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم

وبنى فى حائط هذه الصفة دائرة . وصوّرت فيها صورة الفلك ، وجعلت فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة : وفى الدائرة بازان (١) من ذهب ، فى طاسين من ذهب . ووراءهما بندقتان من شبه لا يدركهما الناظر

فعندمضى كل ساعة ينفتح فما البازين ، وتقع منهما البندقيتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب مذهب فيصير حينئذ مفضضاً . واذا وقعت البندقتان فى الطاسين تذهبان الى موضعهما . ثم تطلع أقمار من ذهب فى سماء لازوردية فى ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها ، فاذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء فى دائرة القمر ، ثم يبتدىء فى الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فتعلم بذلك أوقات الصلوات »

ثم أورد صاحب هذا التاريخ المخطوط أبياتاً لشاعر من شعراء ذلك العصر الذهبى يذكر بها هذه الساعة :

« يا أيها المنصور يا مالكاً ... برأيه صعب الليالى يهون
شيدت لله ورضوانه ... أشرف بنيان يروق العيون
ايوان حسن وضعه مدهش ... يحار فى منظره الناظرون
صور فيه فلك دائر ... والشمس تجرى مالها من سكون
دائرة من لازورد حكت (٢) ... نقطة تبر فيه سر مصون
فتلك فى الشكل وهذى معاً ... كمثل هاء ركبت وسط نون »

وجاء فى حوادث سنة ٦٠٣ من هذا المخطوط أن نور الدين

(١) تثنية بازى الطائر المعروف
(٢) يظن سعادة الأستاذ تيمور باشا أن صواب هذه اللفظة « حوت »

على بن ثعلب الساعاتى توفى فى تلك السنة ، وكان يتولى تدبير الساعات التى تجاه المستنصرية ، وأن مولده كان سنة ٦٠١ هـ

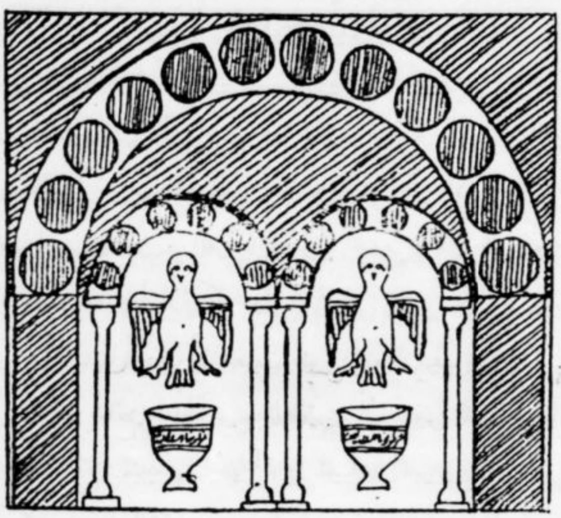
٥ — ساعة المدرسة القيمرية بدمشق

نسبة لمنشئها الأمير سيف الدين على بن يوسف القمرى ، أنشأها فى نصف القرن السابع الهجرى ، ثم نسبت المحلة التى فيها المدرسة للمدرسة ، فقيل حى القمرية ، والقمرى نسبة لقيمر قلعة بين الموصل وخلاط . وكان سيف الدين القيمرى أميرا كبيرا وشجاعاً باسلا ، وهو الذى أسر « لويس التاسع » امبراطور فرنسا سـنة ٦٤٨ بين المنصورة ودمياط . وله فى دمشق أعمال خيرية ، فقد بنى فيها مارستاناً عظيما ومسجدا ومدرسة تسمى القيمرية الـكبرى ، وتعرف الآن بمدرسة القطاط ، وكان على باب هذه المدرسة ساعة مهمة بلغت مصاريفها كما يقول العلموى أكثر من أربعين ألف درهم . وهذه الساعة وان لم نطلع على وصف لها ، فانا نستفيد من نص العلموى مقدار المصروف عليها

٦ — ساعة باب جامع دمشق الشرقى

يعرف هذا الباب بباب جيرون ، وقد شاهدها ابن جبير الرحالة المشهور فوصفها بقوله : « وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صُفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صِفر من فمى بازين مصورين من صفر (نحاس) قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما . أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثانى تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً ، وعنـد وقوع البندقتين فى الطاسـتين يسمع لهما دوىّ وينغلق باب تلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، ولا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ثم تعود إلى حالها الأول

ولها بالليـل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطبقات المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة مدبر ذلك كله خلف الطبقات المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به المـاء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها بعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها »



(شكل ٢) ساعة باب جيرون

وهناك ساعة ثانية على باب جامع دمشق القبلى ويعرف هذا الباب بباب الزيارة ، ويقول النعيمى إن مكانها فى العنبرانية — المشهورة فى عصرنا بالعمرانية ، ويقول ابن كنان إنها من عمل أبى الفضل الحارثى الدمشقى المهندس ، وقد تقدمت ترجمته — وصفة هذه الساعة هى : بيكار (لعله بنكام) عليهـا عصافير من نحاس ، وحية من نحاس ، وغراب من نحاس .

فاذا تمت الساعة خرجت الحية ، وصفرت العصافير ، وصاح الغراب ، وسقطت حصاة فى الطست

٧ — ساعة ابن الشاطر

تقدم ذكرها فى ترجمته ، ويمكن القول بأن ساعة ابن الشاطر آخر طراز وصلت اليه الساعة العربية ، وقد أخذ الغربيون هذا الطراز عنها فى ساعات الجدران ، وقد اطلعت على ساعة قديمة أوروبية ترجع فى تاريخ صنعها الى ما قبل ثمانين سنة ، اذا مضت ساعة من الوقت يخرج عصفور من باب فى أعلاها ويصيح

دمشق — أحمد دهمان

البريد الأدبي

عبرات جوار لا حرار

سألني السيد (محمد حصار) من فضلاء المغرب الأقصى فى العدد (١٤٤) من (الرسالة) عن رأيي فى قول الخنساء :

(من كان يوماً باكياً سيدا فليبكه بالعبرات الحرار

فقد وصفت الخنساء دموعها بالحرار مع أنه سبق منى القول فى مقالتى (تعريب الأسالب) المنشورة فى الجزء الأول من مجلة مجمعنا المصرى أن العرب يصفون الدمع والعين بالسخونة ، ولا يصفونهما بالحرارة كما يفعل الأفرنج

وأنا انما أردت أن العرب ليس ذلك الوصف من شأنهم ، أى أنه غير شائع فى أساليب بلاغاتهم : أن يصفوا الدمع بالحرارة لا أنه لا يقع ذلك منهم أحياناً ، والشاهد الصحيح على وقوعه فى كلامهم قول الشاعر

بدمع ذى حرارات على الخدين ذى هيدب

راجع ذلك فى اللسان والتاج مادة (حرّ) وهيدب السحاب ما تراه كأنه خيوط عند انصباب مطره

أما ما ذكره المعترض الفاضل من شعر الخنساء فلا يصلح شاهدا لسببين :

(الأول) أن (حرارا) لا تكون جمعاً لحارة حتى يصح أن نقول فى (عبرة حارة) عبرات حرار ، ولم ينقل هذا الجمع أحد من أرباب المعاجم ، ولم يذكروه فى جملة ما شذ من الجموع ، وانما صرحوا أن (حرار) تكون

جمعاً للحَرّة : وهى الأرض ذات الحجارة السود

وجمعاً للحرّان : وهو الشديد العطش

وجمعاً للحر : وهو ضد العبد (وهذا الجمع حكاه ابن جنى) يعنى يكون شاذاً

(ثانياً) لا يجوز أن يقال : ان أرباب المعاجم قد يهملون ذكر كلمات لغوية فصيحة وردت فى أشعار العرب : من ذلك فعل (تبدى) فى قول عمرو بن معدى كرب

(وبدت لميس كأنها بدر السماء اذا تبدى)

فليكن جمع (حارة) على (حرار) من هذا القبيل ويكون الشاهد عليه قول الخنساء المذكور وكفى بها حجة

لا يقال ذلك لأنه يجب قبل كل شيء الاستيثاق والتثبت من صحة ألفاظ الشاهد ، وأول طرق هذا الاستيثاق عدم احتمال تحريف كلماته

فكلمة (الحرار) تحتمل احتمالا قريباً جداً أن تكون محرفة عن (الجوار) بفتح الجيم وبعدها واو أى (العبرات الجوارى) جمع « جارية » اسم فاعل مؤنث من فعل (جَرى) الدمع اذا سال على الخدين

ووصف الدموع بالجوارى صحيح من حيث قواعد العربية ، فصيح من حيث شيوع استعماله فى كلام البلغاء

أما كلمة (الحرار) فليست بهذه المثابة : لامن حيث القواعد ولا من حيث شيوع الاستعمال

ونسخة ديوان الخنساء التى بين أيدينا انما هى من طبعة الأب لويس شيخو اليسوعى وهو — رحمه الله — لم يشتهر بالدقة فى ضبط نصوص ما ينشره من الآثار الأدبية ، ولا فى تحقيق كلماتها اللغوية

فلعل الفاضل (محمد حصار) وقعت اليه مثل هذه المطبوعة أو مخطوطة قديمة أخرى يسرع الى مثلها هذا التحريف

وفى مكتبتى نسخة شرح مخطوط على ديوان الخنساء كتبت سنة ١١٤٥ هـ لمؤلف مجهول ؛ ومالى لا أقول إن هذا الشرح لثعلب كما يمكن استنتاجه من خاتمة المخطوطة ؟ وقد سقط منها بعض أوراق فلم أجد قصيدة (العبرات الحرار) فيها . فلعل القصيدة برمتها غير موجودة فى رواية تلك النسخة أو هى فى ضمن الأوراق الساقطة

وتوجد نسخة من هذا الشرح نفسه في دار الكتب المصرية كتبت سنة (٦٢٠ هـ) كما يفهم من الفهرس العام (جزء ٣ نمرة ٢٠٣)

فلعل أحداً من قراء (الرسالة) ممن تهمهم أمثال هـذه البحوث وهم كثيرون — يزور دار الكتب المصرية ويراجع لنا بيت الخنساء ويتثبت من قافيته : أهي (الحرار) أو (الجوار أو يراجع ما هو أوثق من ذلك كله وهو نسخة ديوان الخنساء بخط اللغوى الكبير المحقق العلامة الشنقيطى التركزى رحمه الله ، وإن له على نسخته هذه تقييدات كالشرح لها . وهذه النسخة أيضاً من نفائس ما حوته دار الكتب المصرية . راجع فهرسها العام (جزء ٣ ص ١٢٨)

(دمشق) عبد القادر المغربي

المكتبة العربية في الاسكوريال

تشتمل المجموعة العربية بمكتبة الاسكوريال بمدريد على مجموعة نفيسة جدا من الكتب العربية والاسلامية فى مختلف العلوم والفنون ، يبلغ عددها ١٩٥٢ مجلداً ، ومعظمها كتب أندلسية هى التراث الأخير لآداب اسبانيا المسلمة ؛ ولم ينشر الى اليوم من هـذه المجموعة سوى بضع عشرات من الكتب قام على إخراجها جماعة من المستشرقين ، ومنها المكتبة الأندلسية التى تضم عدة مجلدات ، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، والحلة السيراء لابن الآبار ، وبضعة كتب أخرى ؛ وكان آخر ما نشر من هذه المجموعة النفيسة مجلد من تاريخ الأندلس لابن حيان ، أخرجه الدون انتونيو مدير مكتبة الاسكوريال وهو يتناول قسماً من عصر بنى أمية بالأندلس

وقد لفتنا الأنظار غير مرة الى هذه المجموعة النفيسة ، وتمنينا على دار الكتب المصرية أن تبذل وسعها لتصوير أو نسخ أكبر عدد من هذه المجموعة ، ولكنها لم توفق حتى اليوم الى تحقيق هذه الغاية بصورة مرضية ؛ وكل ما استطاعت أن تحصل عليه حتى اليوم هو صور لخمسة كتب فقط من مجموعة الاسكوريال ، هى كتاب البديع لابن المعتز ، ومختصر طبقات الشعراء له أيضاً ، وطيف الخيال للشريف الرضى ، وكتاب الفلاحة لابن العوام ، ومجموعة فلسفية فى شرح بعض كتب الفارابى ؛ وتسعى دار الكتب منذ حين فى الحصول على صور أو نسخ لعدة كتب أخرى من هذه المجموعة ، ولكن الظاهر أنها تجد فى ذلك السبيل عقبات مالية لا تستطيع تذليلها

وفى ذلك ما يبعث الى أشد الأسف ، ذلك أن مجموعة الاسكوريال هى بلا ريب من أنفس المجموعات العربية المعروفة ، هذا فضلاً عن أن لها فوق نفاستها العلمية صفة خاصة ، فهى فى الواقع بقية التراث الاسلامى فى الأندلس ، وتكاد تحظى فى نظر العالم الاسلامى بنوع من القدسية المؤثرة

ويوجد بين محتويات هذه المجموعة عدة كتب فريدة فى بابها ، فى السياسة والفلسفة والأخلاق والطب ، مثل كتاب آداب الفلاسفة (رقم ٧٦٠ من المجموعة) وكتاب عن سياسة الأمراء وولاة الجنود (رقم ٧١٩) وكتاب فى السفارات النبوية عنوانه المصباح المضىء (رقم ١٧٤٢) ؛ هذا الى عدة كتب من تأليف أكابر العلماء المصريين مثل كتاب الشهاب القضاعى (رقم ٧٥٢) وكتاب القول التام فى فضل الرمى بالسهام ، للسخاوى (رقم ٧٦٥) وكتاب فى تاريخ المعز لدين الله (رقم ١٧٦١) ، وكتب نفيسة أخرى يضيق المقام عن ذكرها

وقد حصلت الجامعة المصرية على صور عدة كتب أخرى من هذه المجموعة النفيسة ، ولكن ما حصلت مصر عليه حتى الآن لا يعتبر شيئاً مذكوراً

ولهذا نعود فنتمنى على دار الكتب المصرية وعلى مكتبة الجامعة ، وعلى ولاة الأمر جميعا أن يشملوا هذه المجموعة الفريدة بكثير من عنايتهم وألا يدخروا فى سبيل الحصول على نفائسها جهداً أو مالا

الكتب

نفسية الرسول العربي

محمد بن عبد الله

السوبرمان الأول العالمي

تأليف السيد لبيب الرياشي

بقلم الاستاذ عبد الفتاح السرنجاوي

هذا هو العنوان الذى جعله الأستاذ « لبيب الرياشي » لسلسلة من الرسائل فى فلسفة الاسلام . أخرج منها الرسالة الأولى التى نقدمها الآن لقراء « الرسالة » . والأستاذ الرياشي كاتب مسيحي له مكانته بين أدباء سورية الشقيقة ، ثم هو فوق ذلك فخور بعربيته متحرر من قيود التعصب ؛ ولعل هذه الميزات هى التى تجعل من الرياشي وصحبه مدرسة جديدة هى (مدرسة المتجردين المتطهرين) التى تعلى للحق منبراً تدأب على حمايته ورعايته . وانك لتلمس سمو هذه المدرسة ونبلها فى مقالة الرياشي فى كشافة الكتاب الأول ، إذ يقول :

« لنتجرد .... ولنتطهر .... لنتجرد ولنتطهر أيها الانسي من جذام التعصب وأثرة الجنسية »

والرجل بهذا ينسى كل شىء سوى أنه من طلاب اليقين ، وليس من شك فى أن هذه الدراسة البريئة للسيرة النبوية الشريفة هى التى حفزت الرياشي على تحليل نفسية الرسول الكريم ، وجملته يعترف فوق ذلك بفضائل هذه الدراسة إذ يقول :

« ما ندمت على شىء فى حياتى ندماً عصبياً ساحقا مثل ندمى على جهلى نفسية الرسول العربي والامام الأعظم العالمى محمد ابن عبد الله » . ذلك مايقوله رجل يمثل الأقلية الدينية المندمجة فى ذلك الشرق العربي ، الذى ترفرف فوق ربوعه راية التسامح فى الدين وتسوده روح الأخاء فى القومية العربية العزيزة ، والرياشي يصف محمداً بأنه (السوبرمان الأول العالمى) مستعيرا كلمة (السوبرمان) من الفيلسوف (نيتشه) وهذا الأخير أطلقها على الانسان الأكمل الذى يجمع إلى مشاركة البشر فى خصائص الجسم سمو العقل والروح إلى حد يجعله حلقة الاتصال بين الله والناس ، ويعمد الكاتب الفاضل إلى الموازنة بين عظمة محمد وغيره من قدة الانسانية ، فهو يقرر فى مستهل بحثه أن العظماء سرعان ما يفقدون هيبتهم إذا هم خالطوا الناس طويلاً ، أما محمد فلم تكن مخالطته للناس وتبسطه فى معاملتهم إلا عاملاً على رفع مكانته وإعلاء شأنه بينهم . وينتقل المؤلف إلى ما كان من توسط أبى طالب بين قريش ومحمد فى أن يسودوه عليهم ويزوجوه أحسن بناتهم على أن يترك تسفيه دياناتهم والدعوة إلى الله ، ويحلل جرأة محمد فى رده التاريخى الخالد ، ويقارن بينها وبين جرأة ميرابو خطيب الثورة الفرنسية ولوثر زعيم الاصلاح الدينى وأبى بكر وعمر ، والرياشي فى ذلك التحليل موفق أحسن التوفيق ، فهو يوضح أن جرأة بعض الزعماء والمصلحين تستند إلى قوة الجماهير وصولة الجماعات ؛ بينما ترتكز جرأة البعض الآخر على جلال الامارة وهيبة السلطان ، أما محمد ابن عبد الله فلم يتح له من ذلك شىء ، فجرأته لا تقاس بها جرأة . وإقدامه لا يعدله فى التاريخ إقدام

وبرغم ذلك التوفيق الجلى لاحظت أن الأستاذ وهو يعالج بعض النواحى يجتهد فى ضرب من التحليل أرى أنه ليس من التاريخ ولا من فلسفة التاريخ فى شىء ، فهو يتساءل عن السر فى خرس الجماهير مرات وسنوات إزاء الرسالة المحمدية ، وعن السر فى عدم إراقتهم دماء فى هذا السبيل ، ويقرر أن ذلك وقع برغم صياح أبى لهب وضجيجه ، وان ذلك كان لمعجزة ، وأن هذه المعجزة هى أن شخصية النبى أحلت فى نفوس القوم إيماناً جعلهم « يحترمون ويهابون ويؤمنون » . ليس ذلك يا سيدى هو الواقع ،

وإنما الواقع الذى لا يقبل الجدل هو أن العرب حين جهر النبى بدعوته آذوه واستغربوا فى إيذائه حتى أخرجوه من عشه مهاجراً إلى المدينة ، وأنهم كانوا فى ذلك معاندين مكابرين لا يحترمون ولا يهابون ولا يؤمنون ، وأن شخصية النبى لم تغن من ذلك الايذاء شيئاً . وليسمح لى الأستاذ الجليل أن أؤكد له أننا لو ذهبنا مذهبه من أن الرسول جهر بدعوته فاستجابت له الجماهير لأن تأثيره على محدثيه ومعاشريه تأثير المنوم المغنطيسى فى المنوَّم كما يقول : لو صح يا سيدى أن ننسب ذلك لمحمد لهيأنا للمعترضين فرصة للطعن فى دعوته فيقولون إن هذه القوة لا شك تبهر العرب بالباطل كما تبهرهم بالحق ، والواقع يا سيدى أن العرب سخرت من محمد ومن دعوة محمد وليس يخفى خبر المستهزئين بالرسالة من قريش أمثال أبى جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى وأبى لهب بن عبد المطلب وعقبة بن أبى معيط والوليد بن المغيرة عم أبى جهل والعاصى بن وائل القرشى والد عمرو بن العاص والنضر بن الحارث العبدرى وغيرهم ممن روى البخارى أخبارهم وحفلت بها بطون التواريخ

***

وفى موضع آخر من الرسالة يتناول المؤلف الكلام عن عدل الرسول الكريم فيسوق بعض الحوادث التاريخية التى تشهد بحبه للحق وانتصافه للناس حتى من نفسه . ثم يجاوز هذا الى تحليل صفة العفو والغفران فى نفس محمد ، وهنا يمحو تلك المعجزة التى كان قد أثبتها للنبى ، ويقرر بما ناله من الأذى على يد قريش إذ يقول :

« أباحوا دمه ودمهم ، وعلقوا فى ذلك الحصار وتلك الاباحة صحيفة فى جوف الكعبة طمأنة للمقتدرين على الأذية ، وزادوا بأن أجازوا المعتدى بثروة » (ص ٩١)

ويجيد الأستاذ فى تحليل ما كان من شأن الرسول الكريم مع قريش بعد فتح مكة من تسامح وغفران عظيمين ، ويوازن بقوة بين هذا التسامح وذلك الغفران وبين ما أتاه برتوس قائد الغال بعد دخول روما وما صنعه بونابرت بعد دخول بولونيا ، فيبدع فى تحليل نفسية الرسول ويثبت سموه على غيره من قادة البشر وعظماء الانسانية ، ولعل أجمل ما ساقه فى ذلك الموضع تصويره الرسول غالباً ظافراً يقف من المغلوبين فيضرب للتاريخ أعظم أمثلة التسامح والديموقراطية إذ يردد قول الله سبحانه وتعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »

ثم يجاوز ذلك إلى مخاطبة الخائفين من المغلوبين بقوله :

« إذهبوا فأنتم الطلقاء »

هذه لمحة سريعة لذلك الكتيب الذى يقول مؤلفه الفاضل إنه الأول من الثلاثين التى يعتزم إخراجها فى فلسفة الاسلام . ونحن نهنئ الكاتب بجهده الجميل الذى يعد نوعاً جديداً فى أدب السيرة المحمدية الشريفة ، ونرجو للمؤلف التوفيق فى إخراج بقية الأجزاء

السنجارى

نظام الطلاق فى الاسلام

تأليف الأستاذ الشيخ محمد شاكر

للاستاذ عبد المتعال الصعيدى

رأت وزارة الحقانية فى هذه الأيام أن تسير فى إصلاح أحكام الأصول الشخصية ، فنشرت على رجال القضاء الشرعى وغيرهم كتابا فى ١٣ نوفبر سنة ١٩٣٥ م تدعو من شاء منهم أن يقترح ما يراه من أحكام المذاهب الأخرى سبباً للتخفيف عن الناس ، ورفع الحرج عنهم

فكان الأستاذ الجليل ، والعالم المجتهد ، الشيخ احمد محمد شاكر القاضى الشرعى ، وأبو الأشبال أيضاً ، حفظه الله لهم وحفظهم له ، أول من بادر إلى إجابة هذه الدعوة ، ولا غرو فالولد سر أبيه ، ونشاطه من نشاطه ، وإذا كان فى الأزهر والمعاهد الدينية الآن شىء من النشاط ، فهى مدينة فيه لوالد الأستاذ أبى الأشبال الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر شيخ معهد الإسكندرية ووكيل الجامع الأزهر ، والعضو الآن فى هيئة كبار العلماء ، فهو منشئ النظام الحاضر بالمعاهد ، وهو باعث هذا النشاط الموجود الآن فيها

وإذا قلت عن الأستاذ أبى الأشبال « العالم المجتهد » فذلك هو ما يستحقه بطريقته فى تأليف هذا الكتاب ، إذ سار فيه على طريق السلف الصالح من الرجوع فى استنباط الأحكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يعول فى ذلك على أقوال أئمة المذاهب كما يعول عليها غيره ، ولا يتعداها إلى النظر الصائب الخالى عن التعصب فى كتاب أو سنة

وهو مرة يأخذ بأحد أقوال الأئمة الأربعة إذا وجده متفقاً مع كتاب الله وسنة رسوله ، ومرة يأخذ بقول الشيعة أو غيرهم إذا كان متفقاً عنده مع ذلك ، كما ذهب إلى الأخذ بقول الشيعة فى وجوب الاشهاد على الطلاق لقوله تعالى : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله) فالظاهر من سياق الآية أن قوله (وأشهدوا) راجع إلى الطلاق وإلى الرجعة معاً ، وهو قول ابن عباس ، فقد روى عنه الطبرى فى التفسير : إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضى عدتها أشهد رجلين كما قال الله (وأشهدوا ذوى عدل منكم) عند الطلاق وعند المراجعة ، وهو قول عطاء أيضا . فقد روى عبد الرازق وعبد بن حُمَيد قل : النكاح بالشهود والطلاق بالشهود ، والمراجعة بالشهود ، نقله السيوطى فى الدر المنثور

وقد اختار الأستاذ أبو الأشبال بطلان الرجعة إذا قصد بها الرجل المضارة ، لقوله تعالى : (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) وقوله (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) وإذا كان للمرأة أن تطلب الطلاق للمضارة ، فأولى أن يكون لها الحق فى طلب الحكم بابطال الرجعة للمضارة أيضاً

ولكنه كما ترى ترك ذلك لنظر المحاكم ، ولا يخفى أن هذا يجر إلى منازعات لا طائل تحتها ، والأولى من هذا أن تكون الرجعة برضا المرأة ، لأنها إذا لم تكن برضاها فالمضارة حاصلة قطعاً ، وإذا كانت تستأمر فى النكاح ، فلتستأمر فى الرجعة أيضاً

ومما ذهب اليه الأستاذ أبو الأشبال أن الطلاق الثلاث الذى اختلف فى أنه يقع ثلاثاً أو طلقة واحدة إنما هو أن يطلق الرجل امرأته مرة ، ثم يطلقها مرة ثانية فى عدتها ، ثم يطلقها مرة ثالثة فيها ، سواء أكان ذلك فى مجلس واحد أم فى مجالس متعددة ، أما الطلاق بلفظ الثلاث فليس هو محل ذلك الخلاف ، وإنما يقع واحدة قطعاً ، لأن قول القائل « أنت طالق » يوجد به حين القول حقيقة معنوية واقعية هى الطلاق ، ووصفه بعد ذلك هذا الفعل بالعدد (مرتين أو ثلاثاً) وصف باطل غير صحيح ، لأن الذى تحقق بقوله (أنت طالق) مرة واحدة لا مرتان ولا ثلاث ، ولا يتحقق ذلك إلا بنطق ثان أو ثالث كسابقهما

وهذا مذهب له خطورته لولا أن العمل الآن على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلقة واحدة ، فلندع ذلك الماضى إلى رحمة الله ، ولنفكر فى حاضرنا وحده

هذا وكتاب الأستاذ أبى الأشبال جدير باقبال المسلمين عامة ، وطلاب العلوم الدينية خاصة ، لينتفعوا بما فيه من فقه صحيح ، واجتهاد نافع ، واطلاع واسع

عبد المتعال الصعيدى

4 ^me^ Année, No. 147.

Lundi - 27 - 4 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٤٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ صفر سنة ١٣٥٥ — ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

ترجمة معانى القرآن

رأى صاحب السعادة الأستاذ محمد على علوبه باشا وزير المعارف فى رحلته إلى الشرق الأقصى قوماً من اليابان ينظرون فى الأديان ليختاروا من بينها طريقهم إلى الله ، وهم لذلك يتلمسون الوسائل لفهم القرآن فلا يجدون إلا ما كتب المستشرقون والمبشرون وأولو العِلاَّت من الجهل والغرض . وكل ما فى أيديهم من ذلك ترجمتان : ترجمة أوربية لم تصدر عن معرفة ، وترجمة (أحمدية) لم تصدر عن عقيدة ؛ فالأولى تشويه من زور العلم ، والأخرى تمويه من خداع السياسة . والدعوة الدينية اليوم فضلاً عن آثارها الروحية وسيلة من وسائل الاستعمار فى الأمم الضعيفة ، ونوع من أنواع التحالف فى الأمم القوية

رأى الأستاذ ذلك وسمع أمثال ذلك فكان من أمانيّه أن تصدر عن مصر كنانةِ الله وموطن الأزهر ومعقل العربية ، ترجمة رسمية لمعانى القرآن تكون فى الترجمات كما كان مصحف عثمان فى المصاحف . فلما تولى وزارة المعارف كان من أول ما أمضى النية عليه أن طلب إلى مجلس الوزراء « ترجمة معانى القرآن ترجمة رسمية

بحسب ترتيب سوره وآياته ، وبأسلوب موجز واضح يمكّن المترجم من نقله إلى اللغة الأجنبية بالتدقيق الواجب توخيه في ترجمة رسمية ؛ على أن يبدأ بترجمة القرآن إلى اللغة الانجليزية بمعرفة لجنة أحد عنصريها جماعة من المستشرقين أو غيرهم من الأجانب ، يراجع عليها كاتبان أحدهما مصري والآخر انجليزي ، يراجعان الترجمة مراجعة نهائية » . وجعل الغرض لهذه الترجمة : « نشر هداية الاسلام بين الأمم التي لا تتكلم العربية ، والقضاء على الأثر السيئ الذي أحدثته الترجمة الخاطئة » . فعرض هذا الأمر صاحبُ الدولة رئيس الحكومة على صاحب الفضيلة رئيس الأزهر ، فاستفتى فيه جماعة كبار العلماء فأفتوا بجوازه ، وعلى ذلك أقره مجلس الوزراء وانقطع القول فيه

* * *

ما كان لنا إذن بعد أن أفتى كبار العلماء وأقر مجلس الوزراء أن نتكلم فيما فرغ الناس منه وتبين الحق فيه ، ولكن « الرسالة » من واجبها أن تلاحظ ومن حقها أن تسجل . والجدل الذي قام على هذا المشروع المفهوم بالضرورة ، بين من أيَّده وبين من فنّد ، إنما دل على مغمزين في بعض رجال الدين لا يتجدد بهما حبل الاسلام ولا تبلغ عليهما رسالة الأزهر . دل على أن في العلماء من لا يزالون يعتقدون أن من سنة الدين إلغاء العقل بالغاء الرأي . فهم فيما يوردون وفيما يصدرون عبيد للنقل ، لا يفتون إلا بقول قيل ، ولا يحكمون إلا بنص كتب ، وقد لا يكون من الفروق بينهم وبين صاحب هذا القول أو كاتب هذا النص إلا أنه سبقهم إلى الوجود بقرن أو أكثر !

صفحوا أوراق الأسفار الضخمة لعلهم يقعون على نص فقهي يحظر أو يبيح ترجمة المعاني القرآنية إلى اللغة الانكليزية ، فلما أعياهم المحال بالطبع تقارعوا بالنصوص الحمّالة ، وتراشقوا بالنقول المبهمة ، وفاتهم حين فاتوا الاجتهاد أن دعوة الاسلام عامة ، ومن مقتضيات هذا العموم أن يترجم كتابها إلى كل لغة ، وأن الداعي الأعظم (ص) الذي كان يجيب كل وفد بلحنه ، ويخاطب كل إنسان على قدر عقله ، ويهوّن على الفارسي فيكلمه ببعض لسانه ، ويسهّل على قارئ القرآن بأن يقرأه بلهجته ، ويوافق سلمان على ترجمته الفاتحة لقومه ، لو نسأ الله في أجله حتى تفتح الفرس وتغلب الروم لأمر في أغلب الظن أن ينقل كلام الله إلى كلام الناس ليتصلوا به من غير حجاب ، ويتفقهوا فيه من غير وساطة

إن في جعل بعضهم تعلم العربية شرطاً في فهم القرآن واعتناق الاسلام صداً عن سبيل الله وإبطالاً لدعوته . وإن إغفال الترجمة الاسلامية لآيات الله لم يحمل الفرس والترك والهنود على أن يتعربوا ، وإنما ظلوا إلى اليوم يكابدون اختلاق الدعاة وتضليل الجهلة ، وما تعرب منهم من تعرب إلا ابتغاء الرزق أو الجاه أو العلم في دولة العرب . وعدم الترجمة في مصر لم يحل دون وجودها في غير مصر ؛ فان الناس في الشرق والغرب يقرأون القرآن في أكثر اللغات بأسلوب مفكك وبيان قاصر ، وواجب العلماء أن يغيروا هذا المنكر بالمحو وهو محال ، أو بالتصحيح وهو ممكن . وليس في ترجمة معاني التنزيل استحالة ما أمكنت القدرة . والقول بأن المسلمين ما برحوا عاجزين عن فهم القرآن قول بأن الاسلام يقوم على أساس غير واضح . ولعل ترجمة المفهوم من لفظ القرآن أسلم من ترجمة المراد من معناه ؛ فان الأولى تفسير لغوي للنص ، والثانية تقييد رسمي للرأي . وفي ذلك وشبهه مجال لعقل الفقيه اذا خلص من قيود التقليد لحظة

* * *

كذلك دل هذا الجدل على أن في العلماء من يلبسون الدين بالهوى ابتغاء لعرض الدنيا أو استشفاء من مرضٍ القلب ، فقد تحدث الناس عن رجلين معروفين بمرونة الرأي قاما يحاربان المشروع بنية مدخولة ، حتى بلغ الأمر بأحدهما أن أهاب بدافعي الضرائب أن يحولوا بين الحكومة وبين الانفاق على هذا العمل الباطل !!

يا ورثة الأنبياء فيم ورثتموهم ولم يتركوا ضياعا ولا قصورا ولا مراكب ؟؟ إنكم ورثتموهم في الدعوة إلى الله فلا تبطلوها ، وفي تنفيذ الشريعة فلا تعطلوها ، وفي نشر الفضيلة فلا تطووها طي المتاع الكاسد

لقد شعر المصلحون بأن الدين جوهر كل إصلاح ، فساعدوهم على كشف الطريق بنور الحق ، وبلوغ الغاية بهدى الله ، وإلا فليس على الدين مسيطر ، ولا على الناس لله وكيل !

الربيـــــع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

خرجتُ أشهدُ الطبيعةَ كيف تُصبح كالمعشوق الجميل ، لا يقدِّم لعاشقه إلا أسبابَ حبه :

وكيف تكون كالحبيب ، يزيد فى الجسم حاسةَ لمس المعانى الجميلة :

وكنت كالقلب المهجور الحزين ، وجد السماء والأرض ، ولم يجد فيهما سماءه وأرضه

ألا كم من آلاف السنين وآلافها قد مضت منذ أخرج آدم من الجنة !

ومع ذلك فالتاريخ يعيد نفسه فى القلب ؛ لا يحزن هذا القلب إلا شعر كأنه طُرد من الجنة لساعته

* * *

يقف الشاعر بإزاء جمال الطبيعة فلا يملك إلا أن يتدفق ويهتزّ ويطرب

لأن السرّ الذى انبثق هنا فى الأرض ، يريد أن ينبثق هناك فى النفس

والشاعرُ نبى هــذه الديانة الرقيقة التى من شريعتها إصلاحُ الناس بالجمال والخير

وكلُّ حُسن يلتمس النظرةَ الحيةَ التى تراه جميلاً لتعطيه معناه

وبهذا تقف الطبيعة محتفلة أمام الشاعر ، كوقوف المرأة الحسناء أمام المصور

* * *

لاحت لى الأزهارُ كأنها ألفاظُ حب رقيقة مُنَشّاة باستعارات ومجازات

والنسيمُ حولها كثوب الحسناء على الحسناء ، فيه تعبيرٌ من لا بِسَتِه

وكل زهرة كابتسامة تحتها أسرارٌ وأسرارٌ من معانى القلب المعقّدة

اهى لغةَ الضوء الملوّن من الشمس ذاتِ الألوان السبعة ؟

أم لغةُ الضوء الملوّن من الخد ، والشفة ، والصدر ، والنحر والديباج والحلى ؟

* * *

وماذا يفهم العشاقُ من رموز الطبيعة فى هذه الأزاهر الجميلة ؟

أتشير لهم بالزهر إلى أن عمر اللذة قصير ، كأنها تقول : على مقدار هذا ؟

أتعلمهم أن الفرق بين جميل وجميل كالفرق بين اللون واللون وبين الرائحة والرائحة ؟

أتناجيهم بأن أيام الحب صُوَرُ أيام لا حقائق أيام ؟

أم تقول الطبيعة : إن كل هــذا لأنك أيتها الحشرات لا تنخدعين إلا بكل هذا [1] .... ؟

* * *

فى الربيع تظهر ألوانُ الأرض على الأرض ، وتظهر ألوان النفس على النفس

ويصنع الماءُ صُنعَه فى الطبيعة فتُخرج تهاويلَ النبات ، ويصنع الدم صنعه فيخرج تهاويلَ الأحلام

ويكون الهواءُ كأنه من شفاهٍ متحابّة يتنفس بعضُها على بعض

ويعود كل شىء يلتمع لأن الحياة كلّها ينبض فيها عرقُ النور

ويرجع كل حى يغنى لأن الحب يريد أن يرفع صوته

* * *

وفى الربيع لا يضىءُ النورُ فى الأعين وحدها ، ولكن فى القلوب أيضاً

ولا ينفذُ الهواءُ إلى الصدور فقط ولكن إلى عواطفها كذلك

ويكون للشمس حرارتان إحداهما فى الدم

ويطغَى فيضانُ الجمال كأنما يراد من الربيع تجربةُ منظر من مناظر الجنة فى الأرض

والحيوان الأعجم نفسُه تكون له لفتَاتٌ عقلية فيها إدراكُ فلسفة السرور والمرح

* * *

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما فى ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات إليها كى تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة

وكانت الشمسُ في الشتاء كأنها صورةٌ معلقة في السحاب

وكان النهارُ كأنه يضيء بالقمر لا بالشمس

وكان الهواءُ مع المطر كأنه مطرٌ غير سائل

وكانت الحياة تضع في أشياءَ كثيرة معنى عبوس الجوّ

فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم من السفر

* * *

وينظر الشباب فتظهر له الأرض شابة

ويشعر أنه في معاني الذات أكثر مما هو في معاني العالم

وتمتلئ له الدنيا بالأزهار، ومعاني الأزهار، ووحي الأزهار

وتخرج له أشعةُ الشمس ربيعاً وأشعةُ قلبه ربيعاً آخر

ولا تنسى الحياةُ عجائزها، فربيعُهم ضوءُ الشمس . . .

* * *

ما أعجب سر الحياة! كل شجرة في الربيع جمال هندسي مستقل

ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياةُ في جمال هندسي جديد كأنك أصلحتها

ولو لم يبق منها إلا جذر حيّ أسرعت الحياة فجعلت له شكلا من غصون وأوراق

الحياة الحياة. إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائماً هداياها

وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن

* * *

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها »

وانظر كيف يخلق في الطبيعة هذه المعاني التي تبهج كل حي، بالطريقة التي يفهمها كل حي

وانظر كيف يجعل في الأرض معنى السرور، وفي الجو معنى السعادة

وانظر إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التي تملأها وتطمئن؟

انظر انظر! أليس كل ذلك رداً على اليأس بكلمة: لا

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

الاسلام كعامل في المدنية

[بقية ما نشر في العـــدد الماضي]

للأستاذ أحمد أمين

والمسألة الثانية هي « الثقافة الاسلامية » وأثرها في المدنية وأريد أن أكرر هنا ما أشرت اليه من أن الثقافة الاسلامية كانت أثراً من آثار العقيدة الاسلامية التي ألمت بها. فالقرآن رفع مستوى العقل الى درجة يستطيع فيها التفكير الصحيح بما حارب من خرافات وأوهام، وعبادة أصنام. وبما حث على النظر في الكون ومراقبة تغيراته، واختلاف مظاهره، ودوام حركاته، وبتوجيه العقل الى أن وراء كل المظاهر المختلفة وحدة. فالناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم يرجعون الى أصل واحد هو آدم وحواء، والبحار والأنهار المختلفة كلها ترجع الى ما أنزل من السماء من ماء، والعالم كله يرجع الى وحدة الخالق « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ». فهذه الوحدة في العالم تحمل على التفكير الصحيح والثقافة العميقة والنظر الفلسفي الروحي. فالقرآن من ناحية فك قيود العقل، وهذا هو العامل السلبي؛ ومن ناحية أخرى أخذ بيده ليشرف على العالم من مرقب عال، وهذا هو العامل الايجابي

من أجل هذا كانت الثقافة الاسلاميـة نتيجة العقيدة الاسلامية لا نتيجة شيء آخر، فان هي اتجهت الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية، فلأن الدين حملها على ذلك وطلب منها أن تتطلب العلم حيث كان ومن أي كائن كان

وقد بذر الاسلام في نفوس أصحابه بذوراً تأصلت فيهم فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليدا صرفاً، إنما كانوا دائماً يُعملون العقل فيما نقلوا، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرأوا. فاذا نظرنا الى ما كتب الفارابي وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم يقفوا موقف التلميذ فحسب، بل نقدوا وزادوا ووفقوا بين الفلسفة والدين وأمدوا كل شيء أخذوه بروح من عندهم، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بهـا — حتى هذا المنطق اليوناني الذي دانت له كل الأمم زاد الغزالي في بعض كتبه فصولاً عن القرآن؛ وابن تيمية وابن حزم وغيرهما نقدوا منطق اليونان وعدوه منطق شكل لا منطق مادة. وكان

شأنهم فى كل فرع ٍ هذا الشأن تقريباً . فدعوى أن المسلمين فى ثقافتهم كانوا حفظة للثقافة اليونانية أكثر منهم مبتكرين لثقافة خاصة دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الاسلامية دراسة وافية

والحق أن فضلهم على المدنية الحديثة كان من الناحيتين جميعاً : من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ولولاهم لضاع كثير منها ، ومن ناحية ما أنشأوا وابتكروا وبثوا من روح فى الثقافات القـديمة . وقد بدأ علماء أوروبا يبحثون نواحى تأثير الثقافة الاسلامية فى الثقافة الأوروبية ؛ وكان من آخر ما أظهروا فى هذا الباب كتاب ما خلفه الاسلام Legacy of Islam تناولوا فيه أثر الثقافة الاسلامية فى الجغرافيا والتجارة ، وفى القانون والاجتماع والفن والعمارة وفى الأدب ، وفى التصوف وفى الفلسفة واللاهوت ، وفى العلم والطب . وفى الهيئة والرياضيات . وهذا البحث وإن كان آخر ما ألفوا فهو أول ما كتشفوا من طريق يشرف على آثار قيمة ضخمة لا تزال تنتظر مكتشفين أبعد مدى ، وأقوى على تحمل مشاق الطريق

ولعلنا لـكى نقرب من موضوعنا نسأل هـذا السؤال : هل كان العالم يستطيع أن يقف على درجة السلم التى يقف عليهـا الآن لولم تكن مدنية الاسلام ؟ هل لولم يكن فى الوجود مدنية بغداد ومدنية قرطبة والحروب الصليبية كانت المدنية الحديثة تبلغ ما بلغت الآن ؟ هل كانت النهضة الأوربية الحديثة تحدث فى الزمن الذى حدثت فيه لولم ترتكز على المدنية الاسلامية ؟

هذا سؤال واحد فى أوضاع مختلفة والاجابة عنه يسيرة ، وهى إجابة بالنفى القاطع . ولا يعـلم إلا الله كم كانت تتأخر المدنية الحديثة لولم ترتكز على المدنية الاسلامية وتطير من على عاتقها ، فالمتتبع لتاريخ المدنيـات يرى أنه حلقات يسلم بعضها إلى بعض ، ويستفيد لاحقها بما وصل إليه سابقها . وقد كانت المدنيـة الاسلامية هى التى فى الذروة قبيل المدنية الحديثة ، ولم يكن يضارع بغداد وقرطبة مدينة أخرى فى العـالم فى مدنيتهما وثقافتهما وصناعتهما ، ونظمهما الادارية والحربية . ولتوضيح ذلك ننظر فى أسس المدنية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس بالمدنية الاسلامية

لقد بنيت النهضة الحديثة فى الثقافة على أساسين وهما الشك والتجربة — كانت الثقافة فى القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد على آراء اليونان وتقدس ما قال أفلاطون وأرسطو كل التقديس . فاذا قال أرسطو قولاً فلا يمكن إلاّ أن يكون صحيحاً ، وإذا كان الحس يدل على غير ما يقول وجب أن نعتبر الحس خدّاعاً . والحقيقة ما قال أرسطو . لقـد قال أرسطو إن الجسم إذا كان أثقل كان إلى الأرض أسرع ، ولـكن صعد بعضهم من مكان عال ورمى فى وقت واحد حديدتين وزن إحداهما ضعف الأخرى فوصلا إلى الأرض معاً ، ومع هذا قالوا إن الحق ما قال أرسطو ، ويجب أن يؤول الواقع وهكذا . وكانوا يعتمدون كل الاعتماد على القياس المنطقى وحده يؤيدون به المذاهب والآراء ، والقياس المنطقى وحده وسيلة عقيمة لأنه يجعلك تسلم بالمقدمات تسليماً أعمى وتعنى فيه بالشكل . فجاءت النهضة الحديثة تشك فى هذه المقدمات العامة وتمتحنها وتجرى التجارب عليها ولا تؤمن بشىء حتى تدل التجارب على صحته ، وكان هـذا دعامة النهضة الحديثة . والحق أن هذه طريقة لم تكن بعيدة عن المسلمين ولا خفيت عليهم ؛ فالتاريخ يحدثنا أن النـظّام ألف فى نقد آراء أرسطو ، وأن تلميذه الجاحظ فى كتابه الحيوان يطلع اطلاعاً واسعاً على أقوال أرسطو ثم لا يمنحها هـذا التقديس ؛ بل ينقدها نقداً جريئاً ويقول قد جرّبنا قول أرسطو فلم نجده صحيحاً . ويقول : « إن قوله هـذا غريب » ، و « هو قول لا يجيزه العقل » إلى كثير من أمثال ذلك ، وربمـا فضّل على قوله قولاً آخر قاله عربى جاهلى فى بيت من الشعر ، لأنه أقرب إلى العقل . فهو بهذا قد جعل عقله حكماً على أرسطو ، على حين أن فلاسفة القرون الوسطى فى أوروبا جعلوا أرسطو حكماً على العقل ، والبيرونى يحكم عقله فى الرياضيات ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند . ويفضل هذه حيناً وهذه حيناً فى كتابه الآثار الباقية ، وحيناً لا يقبل هذه ولا تلك ويعتمد على عقله الصرف ، ويقف الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » الموقف الذى وقفه بعدُ ديكارت فيقول : « إنه رأى صبيان النصارى ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام ، وأنه لم يقنع بهذا الدين التقليدى التلقينى ، وطلب أن يعلم حقائق الأمور وأن يبنى دينه على يقين ، وقال إنه بدأ بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ، ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته » وقال : « كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ،

فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني » ، وابن خلدون نظر إلى المجتمع الانساني هذا النظر الحر الطليق فاستفاد مما قال أرسطو وغيره ولكنه لم يتقيد به ، ونظر فى مجتمعات لم يصل إليها علم أرسطو وهى القبائل العربية والدول الاسلامية ، واستنتج من ذلك كله نظرياته التى كانت ولا تزال محل تقدير علماء الاجتماع والتاريخ من الأوروبيين وإعجابهم

وعلى الجملة فهذه الأسس التى بنيت عليها النهضة الحديثة فى أوروبا من تحرير العقل من قيود الأوهام ، ومن عبادة العظماء أمثال أرسطو ، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة ، وبعد الشك فيما اتخذه الأقدمون قضايا مسلمة ، كله كان منبثاً فى الثقافة الاسلامية فى عصورها الزاهية . وكل ما فى الأمر أن الذين بنوا على هذه الأسس القيمة هم الأوروبيون لا المسلمون ، وأن من سوء حظ المسلمين أن وضعت فى سبيلهم عقبات ليس منشؤها دينهم حالت بينهم وبين أن يتموا ما بدأوا ، وأن يشيدوا فوق ما أسسوا . ولكن من الحق أنا إذا أردنا أن نقوّم بناء لا نكون سطحيين فنقوم ظاهره ، ولا نقوم باطنه ؛ ونقوم أعلاه ، ولا نقوم أساسه

ووجه آخر بجانب هذا ، وهو أن ثقافة المسلمين لم تكن جميعها متجهة اتجاه الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية ؛ فقد كانت لهم مناح فى الثقافة خاصة بهم لم يعتمدوا فيها على غيرهم إلاّ اعتماداً ضعيفاً غير مباشر ؛ فما أنشأوا من علوم لغتهم كالنحو والصرف والبلاغة وأدبهم الذى رقوا به أدب جاهليتهم وساروا به على منهج خاص بهم ، لا على المنهج اليونانى ، ولا على المنهج الفارسى ؛ والعلوم الغزيرة التى أنشأوها حول دينهم من تفسير للقرآن والحديث ، ومن فقه قابلوا به قضاياهم ونظامهم وحياتهم الاجتماعية الخاصة ، وما أسسوا له من « أصول الفقه » الذى لم يجروا فيه على منوال سبق — كل هذه وأمثالها كانت مظهراً من مظاهر الاختراع العقلى للمسلمين ، وكل هذه كانت عوامل فى بناء المدنية الاسلامية التى بنيت عليها المدنية الحديثة

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الصلات التى ربطت بين المدنية الاسلامية والمدنية الأوروبية ، وأبان لنا كيف استمدت الثانية من الأولى ، وكشف لنا عن بعض الجداول التى كانت تتسرّب من المدن الاسلامية تصب فى المدن الأوروبية ، وإن كان بعضها لم يزل مطموراً إلى اليوم ولم يستكشف بعد

فقد اتصل الأوروبيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالاً وثيقاً ، واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية ، وهى لغة الأدباء والعلماء فى القرون الوسطى ، حتى أن كثيراً مما بقى من مؤلفات ابن رشد حفظت الى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد أصلها بالعربية ، وكان من أشهر من قام بهذه الحركة « ريموند » Raymond الذى كان مطراناً لطليطلة من سنة ١١٣٠ — سنة ١١٥٠ ، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية الى اللغة اللاتينية ، فنقلوا من العربية أهم كتب أرسطو وما علقه عليها العرب من شروح ، كما نقلوا أهم كتب الفارابى وابن سينا ، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا منطق أرسطو المترجم من العربية الى اللاتينية يقرأ فى باريس بعد ثلاثين سنة من عمل هذه الجمعية . وقد مرت حركة استفادة الأوربيين من الثقافة اليونانية فى ثلاثة أدوار ، الدور الأول : نقل الفلسفة اليونانية والكتب العلمية من العربية الى اللاتينية ، والدور الثانى : النقل من اليونانية مباشرة بعد سقوط القسطنطينية . والثالث : نقل الشروح العربية الى اللاتينية

وجاء فردريك الثانى سنة ١٢١٥ ، واتصل بالمسلمين اتصالاً وثيقاً فى صقلية وفى الشام فى حروبه الصليبية ، واقتبس كثيراً من آرائهم وعاداتهم وعقائدهم ، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان يعجب بفلاسفة المسلمين ، وكان يعرف اللغة العربية ويستطيع أن يقرأ بها الكتب الفلسفية فى مصادرها الأصلية . وأنشأ سنة ١٢٢٤ مجمعاً فى نابلى لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اللاتينية والعبرية لنشرها فى أوربا . وبفضل فردريك ذهب « ميكائيل سكوت » الى طليطلة وترجم شروح ابن رشد على أرسطو ، وقبل ذلك كانت قد نقلت الى اللاتينية جمهرة من كتب ابن سينا واستعملت فى باريس حول سنة ١٢٠٠ م

وفى القرن الثالث عشر كانت كل كتب ابن رشد تقريباً قد ترجمت الى اللاتينية ما عدا كتباً قليلة ، منها كتاب تهافت التهافت الذى رد به على تهافت الفلاسفة للغزالى ، فقد ترجمت فى القرن الرابع عشر

وكان أهم مركز لتعاليم ابن رشد فى جامعة بولونيا وجامعة

بادوا Padua فى ايطاليا ومنهما انتشرت هذه الثقافة فى ايطاليا الشمالية الشرقية الى القرن السابع عشر ، واستمرت كتب ابن سينا فى الطب سائدة الى ما بعد هذا العصر

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسون على هذه الكتب ، أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، فروجر بيكون الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه أخذ ثقافته العلمية من الأندلس ، ودرس فلسفة ابن رشد ، والقسم الخامس من كتابه فى البصريات Optics مستمد ومساير لكتاب ابن الهيثم فى هذا الموضوع نفسه

وطالما ارتفعت شكوى رجال الدين فى الأندلس من أن المسيحيين يدرسون علم العرب المسلمين ، وعابوا مطران أشبيلية لأنه يدرس فى جد فلسفة الكافرين ، يعنون المسلمين

وعلى كل حال فجملة الأمر فى مدنية المسلمين كما لخصها الأستاذ لِكى Lecky خير تلخيص إذ قال :

« لم تبدأ النهضة الفكرية فى أوربا إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة الى الجامعات ، وإلا بعد أن حطمت العلوم الاسلامية ، والأفكار اليونانيـــة ، والاستقلال الصناعى ، سلطان الكنيسة »

***

هذا هو موقف المسلمين أمس من المدنية ، ولا بد أن نلق نظرة على موقفهم اليوم من المدنية الحديثة . ومما يؤسف له حقاً أن نقول إن المسلمين لا يشتركون اليوم فى بناء صرح المدنية اشتراكا كبيرا ، لأن حديثهم هو تقليد للمدنية الحديثة ، وقديمهم هو مدنية القرون الوسطى ، فهم فى الصناعات والمخترعات ونظم الحكومات والادارات ، وفى كتبهم التى تؤلف فى العلوم الحديثة من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وما اليهما ، ونظام مدارسهم الحديثة ومحاكمهم وقوانينهم ؛ كل هذا يقلدون فيه المدنية الغربية . وكلما زاد التقليد فيها عدت أقرب الى الكمال ؛ وقديمهم من مثل دراسات علومهم كالنحو والصرف والفلسفة الاسلامية ، ومن مثل قضائهم فى المحاكم الشرعية ، ومن مثل مدارسهم الدينية ، ونحو ذلك ، كلها على نمط مدنية القرون الوسطى . فهم — فى ظاهر الأمر — لا يضعون أحجاراً كبيرة فى بناء المدنية الحديثة ، ولا يلونونها بلون خاص . ولكن هل الذنب فى ذلك ذنب الاسلام والمسلمين ؟ اذا عرضت نفسك لتبنى فمنعك صاحب البناء بالقوة فالذنب ذنب من منع لا من مُنع ، وهكذا الشأن فى موقف المسلمين . لقد سبقهم الغربيون باستخدام العلم فى قوة تسلحهم الى أقصى حد يمكن فيه استخدام العلم ، فوجهوا هذه القوى الهائلة الى الشرق ، ولم يكن قد صحا بعد من سباته الذى سببه ما فسد من عقيدته ، وما فسد من سياسته ، وما فسد من شؤونه الاجتماعية ، فسلط عليه الغرب كل قوته ، فانتبه مذعورا ؛ ونظر اليه الغرب نظرة استغلال ، فساعده على كل ما يفيد الاستغلال ، ومنعه عن عمل كل شىء يفيد الاستقلال ، فهو اذا أراد أن يتثقف كما يشاء ، أو يرقى شؤونه الاجتماعية كما يشاء ، أو أن يحكم نفسه كما يشاء ، أو أن يرقى أخلاقه كما يشاء ، منعه الغرب من ذلك حرصا على فائدته فى هذا الاستغلال ، والشرق لا يستطيع أن يقاوم إلا بالقوة ، والقوة محرمة عليه . فهل بعد ذلك هو الذى يتحمل تبعة عدم اشتراكه فى البناء

إنى لأرجو أن الزمن ورقى الأفكار السياسية التى تخطو فى هذه الأيام خطوات سريعة تجعل الغربى ينظر الى الشرق نظرة تعاون ، فيدرك أن طريقة الاستغلال ليست أصلح الطرق حتى من الناحية الاقتصادية ، وأن رقى الشرق والسماح له بالبناء يزيد فى صرح المدنية ويرفع بناءها ، ويسرع فى علو شأنها . وكما تبين للناس أن نظام الأقطاع وتسخير الملك للعبيد لم يكن فى مصلحة الملاك ولا العبيد ، فحطموا هذا النظام من أساسه ، وأسسوه من جديد على تحرير العبيد وتعاون الملوك والمستأجرين ، وأرباب الأموال والعمال ، فكذلك سيكون الشأن مع الحاكمين والمحكومين يتعاونون ولا يتقاتلون ، ويتفاهمون ولا يتنازعون ، ويتحاكمون إلى الرأى والعقل لا إلى القوة والسلاح . وأرجو ألا يكون ذلك بعيداً

على أن من العدل أن نقول إن التبعة فى ذلك كله لا تقع على الغربيين وحدهم ، فان هناك عوامل فى المسلمين أنفسهم جعلتهم فى هذا الموقف الحرج . فهناك علماء جامدون ضيقوا العقل ، وقفوا موقفاً مزرياً فى تاريخ المسلمين ، وعاقوا رقيهم وتقدمهم ، فكان كلما حاول الاصلاح محاول ثاروا عليه باسم الدين ، إن أراد إصلاح المحاكم ثاروا عليه ورموه بالمروق ، وإن أراد تنظيم الادارة الحكومية قالوا لا عهد لنا بهذا ، ويجب أن نتتبع آباءنا وإنا على آثارهم مقتدون .

النهضات القومية العامة

فى أوروبا وفى الشرق

للأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

المحاضرة الثانية*

الفاشية :

رأينا فى المحاضرة السابقة كيف قامت الفاشية والنازية سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف . ونقول فى هذه المحاضرة كلمة عن هاتين الحركتين ؛ وقد كتب الشىء الكثير عنهما ، ونحن لا نحاول الأحاطة بكل ما كتب ، بل نتوخى الايجاز الذى يقتضيه هذا المقام

يمكن أن نصف الفاشية بأنها رد فعل عنيف للحركة الاشتراكية التى قامت فى إيطاليا عقب الحرب الكبرى ، وهددت مرافق الحياة فى هذه البلاد بالشلل والنضوب ، حتى أصبحت إيطاليا فى حالة لا تحسد عليها ، وحتى كادت وحدتها الوطنية تتفكك . فقام مؤسس الفاشية ، وكان اشتراكياً فى مبدإ أمره ، فوفق بين مبدئه الاشتراكى ونزعته الوطنية ، وأسس الحكم الفاشى قائماً على فكرة الوطنية ، معارضاً لفكرة الطبقات . وهكذا انتكصت الاشتراكية فى ايطاليا ، ورجع مبدأ الوطنية للانتصار

فالفاشية ، كنظام من نظم الحكم ، ليست إلا مقاومة عنيفة للبلشفية . وهى ليست مقصورة على ايطاليا ، بل امتدت منها الى غيرها من البلاد ؛ فهى تسمى فى ايطاليا بالفاشية أو الموسولينية ، وتسمى فى ألمانيا بالنازية أو الهتلرية ، وتسمى فى تركيا بالكمالية وهكذا . وهى ، أين تسود ، تقف سداً منيعاً دون تفشى البلشفية .

ولما كانت الفاشية قد نشأت فى أول أمرها وترعرعت فى ايطاليا ، فنحن نبدأ بالفاشية الايطالية ، لننظر كيف نشأت ، ثم نستعرض المبادىء التى قامت عليها ، والوسائل التى تذرعت بها فى العمل ، والطرق التى اتبعتها فى التنظيم

نشأتها :

أما كيف نشأت الفاشية فى ايطاليا ، فلأجل أن نعرف ذلك يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، لنستعرض ايطاليا فى مبدإ الحرب الكبرى ، وهى مترددة هل تدخل الحرب الى جانب ألمانيا أو الى جانب الحلفاء . ثم تدخل الى جانب الحلفاء ، فتكاد تكتسحها الدول الوسطى ، وتعانى من أهوال الحرب ورزاياها ما يكاد ينوء بها . ثم يبسم الحظ للحلفاء ، فينتصرون وتنتصر معهم ايطاليا . ولكنها تخرج من الحرب فى حالة من الفوضى الاقتصادية والاضطراب المادى ؛ هى شر من الحرب . فالبلشفية قد تفشت فيها ، والعمال أخذوا يثيرون القلاقل والفتن ، والشعب ساخط غاضب على حكومته ، يتهمها بالضعف والعجز ، فهى لم تنل فى مؤتمر فرسايل من الأسلاب والغنائم ما يتفق مع الجهود والتضحيات التى اعتقدت ايطاليا أنها بذلتها أثناء الحرب ، ولا ما يتفق بنوع خاص مع طموح ايطاليا الفتاة ومطامعها الاستعمارية . فاذا أضفنا الى هذا كله أن النظم الدستورية والنيابية لم تكن قد تأصلت فى الحكومة الايطالية ، وأن روح الديمقراطية لم تكن قد استقرت فى الشعب الايطالى فى المدة القصيرة التى

* ألقيت فى بهو أمانة العاصمة ببغداد يوم ٨ أبريل سنة ١٩٣٦

وإن أراد تعليم المرأة قالوا ما بهذا أتى الدين ! وهكذا كانوا حجر عثرة فى سبيل كل مصلح حتى عظم الخطب ، واشتد الكرب ، وأولو الأمر فى المسلمين إذ ذاك لم يكن يهمهم إلاّ شهواتهم وتفخختهم الكاذبة ، ومظاهرهم الخادعة . أما الاتجاه الصحيح إلى ترقية رعيتهم وتثقيفهم ، وتنوير أذهانهم ، ونشر العدل بينهم فكانوا قلما يأبهون له . فهؤلاء وأولئك كانوا السبب فى أن يقف المسلمون هذا الموقف الذى شكونا منه من قبل

ومع هذا فتنبه المسلمين اليوم ، وسير حركات الاصلاح بينهم سيراً حثيثاً ، يدعونا أن نؤمل قرب اليوم الذى يتبوأون فيه مكانتهم اللائقة بهم . فاذا قارنت هذه النهضة الداخلية فى رقى الفكر السياسى عند الغربيين ، وتعديل نظرتهم نحو المسلمين كان من وراء ذلك كله نهضة جدية يبنى فيها المسلمون فى المدنية بناء صالحاً مصبوغاً بعقيدتهم وأفكارهم ، فنرى إذ ذاك فلسفة خاصة وثقافة خاصة ، وروحانية خاصة ، قد تلون المدنية الحديثة عامة بلون خاص غير لونها الحالى

أحمد أمين

مرت عليه منذ استقلاله ، وأن هـذه البلاد لم تنس بعدُ عهد الجمعيات السرية ولا المؤامرات التي تدبر في الخفاء ، واذا عـدنا للاشـارة مرة أخرى الى ما انتشر من الفوضى والاضطراب في البلاد بسبب تفشى البلشفية ، نستطيع بعد كل ذلك أن نتصور لو أن رجلاً جريئاً مغامراً ، ذا إرادة صلبـة ، وعزيمة قوية ، وطموح بعيد ، يقود طائفة من الفتيان تدفعهم حماسة الشباب ، وحمية الوطنية ، وأحلام المجد والعظمة ، والأيمان العميق بمستقبل الوطن ؛ نستطيع أن نتصور ، لو أن رجلاً بهذا الوصف ، ومن ورائه الشـباب المتوقد عزيمة وقوة ، برز الى الميدان ، وتقدم الى شعب من الشـعوب ، لينقذه من حالة الفوضى والاضطراب ، ويعيد إليه مجده القديم ، ويسـوقه إلى ساحات العظمة والمجد ، فينال حظه من كل ذلك ، بعد أن أنكره عليه حلفاؤه بالأمس . فان هذا الرجـل لابد أن يقابل بالترحيب ، ثم بالاعجاب ، ثم بالتحمس . وأنه لا بد واجد من هذا الشعب جنوداً يبذلون نفوسهم في سبيل تحقيق هذه الغايات الوطنية الشريفة . وقد كان الشعب ، وكان الرجل . أما الشعب فهذه الأمة الايطالية الشابة الفتية ، الحساسـة المسرفة في الحساسية ؛ وأما الرجـل فهو موسوليني ، بطل الفاشية وزعيمها الأ كبر

وقد بدأت الفاشية ، بعد زحف موسوليني على روما وقبضه على ناصية الحكم بالقوة ، حكماً تجريبياً ، ليست له خطة مرسومة ولا مذهب مقرر . وكان موسوليني في مبدإ أمره اشـتراكياً متحمساً ، ثم انقلب جندياً باسلاً ، ورجع وطنياً غيوراً . وصار من اعتنق الاشتراكية وآمن بمبادئهـا ، نقمة الاشـتراكية وخصمها الألد . وتقدم موسوليني الى الحكم وليست له خطة مرسومـة كما قدمنا ، إلا اذا كانت الرغبة الملحة في الاصـلاح وإعادة مجد الوطن يصح أن تسمى خطة . فالفاشية بدأت تجريبية شعارها العمل ، والعمل الايجابي العنيف في سبيل الاصـلاح الوطني . لذلك اشتهرت الفاشـية بصبغتها العملية ، وباقدام رجالها ، واقتحامهم أشد الأخطار هولاً ، دون تردد ولا هوادة . فالقضية عندهم هي بعث الأمة الايطالية من جديد . أما المبادئ والنظريات فقد كان موسوليني يسخر منها ، ويرى أنها سـلاح خطر ، قد يرتد الى صاحبه فيرديه . فالبلشفية قد بدأت إذن عملاً لا مبـدأ ، وحركة لا فـكرة . ولم يكن لديه منهج مرسوم يريد تحقيقه . ويوم ارتقى موسوليني منصة الحكم لم يكن لديه الا ارادة وعزيمة ، فأكب على العمل بهذه الارادة وهذه العزيمة ، واضعاً نصب عينيه مجد الأمة الايطالية وعظمتها

ثم أخذت الفاشية تمر بمراحل متعاقبة من التجارب العملية زهاء عشر سـنوات . تهذبها الأحداث ، وتنضـجها الأيام . وتطورها مقتضيات الضرورة ، حتى استنار طريقهـا ووضحت معـالمه . وارتسمت الفاشـية مبادىء ينتظمها مذهب معروف مقرر . وصارت نظاماً عالمياً له نظرياته وقواعده . وسرت مبادئها من بلد الى بلد . ودخلت في دور علمى فلسـفى ، تقرر نظرية للدولة ، ونظرية لعلاقة الفرد بالمجموع ، ونظرية لأثر العوامل الاقتصادية في الحالة السياسية ، ونظرية لعلاقة المسائل الروحية بالمسائل المادية ، ونظرية للتربيـة والتعليم . ولـكن الفاشية بقيت محتفظة بصبغتها العملية الأولى ، فهي تبدأ بالوقائع تبحثها وتحللها ، ثم تصوغها بعد ذلك نظريات سياسية واقتصادية ، بخلاف البلشفية فانها تبدأ ببسط النظريات ، ثم تطبقها بعد ذلك على الوقائع

ولننظر إلى الفاشية كمبدأ علمى فلسفى ، وكنظام عملى من نظم الحكم القائمة . فالفاشية بهـذا الوصف لها مبادئ تقوم عليها ، ووسائل للعمل ، وطرق للتنظيم

مبادئها :

أما المبادئ التي تقوم عليها فتتلخص في عبارة واحدة هي « مجد الوطن وعظمته » . فالفاشية حركة تقوم على القومية ، وتعادى كل نزعة من شأنها أن تكسر حدة الوطنية . أما الجامعات الدولية كالبلشفية فتحاول أن تحقق اتحاد العمال في جميع أنحاء العالم ، وكعصبة الأمم تحاول أن تدمج القوميات في جامعة واحدة ، فالفاشية تعادى بعضها ، وتنظر إلى البعض الآخر نظرة المرتاب ، فالوطن ، والوطن وحده ، هو الذي تخصص له الفاشية جهودها

فهي حركة وطنية تقوم في وجه البلشفية ؛ أي أن الرابطة التي تقوم على فـكرة الوطن لا تزال تجاهد في أوروبا جهاد المستميت ، وهي في كفاح عنيف مع الرابطة التي تقوم على فـكرة الطبقات

وسائلها في العمل :

وللفاشية وسائل للعمل . وتتلخص هـذه الوسائل في قيام أقلية صالحة باعباء الحكم . فهناك هيئتان : الهيئة الحاكمة ،

والهيئة المحكومة . ويجب أن تتضامن هاتان الهيئتان تضامن أعضاء الجسم الواحد . أما المساواة الديمقراطية فلا تعترف بها الفاشية . إذ النـاس فى الواقع من الأمر غير متساوين ، وهم يتفاوتون فى القوة والكفاية والصلاحية ، ولا عبرة بالمساواة النظرية مادامت المساواة الفعلية غير متحققة . وقد رفع الله الناس درجات بعضهم فوق بعض ، فيجب الاعتراف بهـذه الحقيقة والأذعان لها . وتستخلص الفاشية من ذلك أن فى الأمة أقلية صالحة للحكم ؛ ومعيار الصلاحية الكفاية وتغليب المصلحة العامة والقدرة على تحقيقها . وهذه الأقلية هى التى يجب أن تحكم . وهى لا تستمد سلطانها من انتخاب الهيئة المحكومة لها ، ولا من ثقة هـذه الهيئة بها ، بل تستمده من كفايتها وقدرتها على القيام باعباء الحكم . وترتب الفاشية نتيجة خطيرة على ما تقدم ، فهى تبيح الثورة على الحكومة العاجزة ، إذ المبرر لبقاء الحكومة فى الحكم إنمـا هو كفايتها ، فاذا انعدمت هذه الكفاية ، انعدم حقها فى البقاء ؛ فاذا بقيت بالرغم من ذلك ، وجب الانتقاض عليها ، ونزعها من كراسيها . وقد طبقت الفاشية هذا المبدأ عملياً ، قبل أن يتقرر مبدأ نظرياً ، عندما زحفت على روما ، وقبضت على ناصية الحكم بالقوة

على أن هذه الأقلية الحاكمة التى تتميز بالكفاية ، تتدرج هى الأخرى فى السلطان حسب درجة كفايتها . فالكفاية هى الكرسى الذى يتركز عليه الحكم . وتعلو طبقة فوق طبقة . وتخضع الطبقة الدنيا للطبقة العليا ، حتى ينتهى الأمر كله إلى زعيم واحد ، تلقى فى يده أزمة الحكم ، وترجع إليه كل الأمور ، فيفرض ارادته على أفراد الهيئة الحاكمة ، كما تفرض الهيئة الحاكمة إرادتها على أفراد الهيئة المحكومة . وبذلك يقوم ركن الدولة على أسس متينة ، وترجع الأمور كلها إلى رأى واحد ثابت لا يضطرب ، ويتوطد سلطان يخضع له الجميع ويذعنون لارادته . فالفاشية ، كما قال بعض الكتاب ، تبدأ بتغليب الجماعة على الفرد ، ولكن الجماعة تندمج فى الأمة ، والأمة تندمج فى الدولة ، والدولة تندمج فى الحكومة ، والحكومة تندمج فى الزعيم

ومن هنا ندرك أن الفاشية هى من أشد ضروب الدكتاتوريات تركيزاً للسلطة ، وأبعـدها عن النظام الديمقراطى ، فالديمقراطية تقوم على سلطان الأمة ، وعلى الحرية والمساواة ما بين الأفراد . أما الفاشية فتنكر سلطان الأمة ، وتقيد من الحرية ، ولا تعترف بالمساواة ما بين الأفراد . ولا يعبأ موسولينى ، وهو قابض على ناصية الحكم ، أوثق به الشعب الايطالى أم لم يثق ، فهو لا يستند إلى هـذه الثقة ، ولا يستمد سلطانه من سلطان الأمة ، وإنمـا يستمده من كفايته للحكم وقدرته على تحقيق المصلحة العامة . وسواء عليه لو أن الاثنى عشر مليوناً من الناخبين أعطوه أصواتهم أم لم يعطوه شيئاً . وقد صرح السكرتير العام للحزب الفاشى بهذه الحقيقة فى عبارة جارحة ، إذ يقول : « لو أن الاثنى عشر مليوناً الذين قالوا نعم تحولوا إلى أربعة وعشرين مليوناً قالوا لا ، لمـا غير هذا من الأمر شيئاً ، ولبقى موسولينى فى قصر ڤينيسا ، ولبقيت ثورة القمصان سائرة فى طريقها . . . ولو قدر أن يصوت أربعـة وعشرون مليوناً ضد الفاشية ، لكان هذا معناه أن جمهور الناخبين قد أصيبوا بالجنون ، وأن البلاد الايطالية قد أصبحت مستشفى لهؤلاء المجانين ، ولكان هذا سبباً أدعى لأن يبقى العقلاء فى أماكنهم »

وتختلف الديمقراطية عن الفاشية أيضاً فى أنها تركز السلطان فى الأمة ، وتقيم الدولة على سلطان الأمة ؛ فالأمة هى التى تنشىء الدولة . أما الفاشية فتذهب الى العكس من ذلك . وعندها أن الدولة هى التى تنشىء الأمة ، وأن الأمة ليس لها أى سلطان ، بل ليس لها وجود قانونى ، والسلطان كله للدولة . وقد كتب موسولينى فى هـذا المعنى فى دائرة المعارف الكبرى الايطالية التى أمر بوضعها ، يقول : « ليست الأمة هى التى تخلق الدولة ، بل الدولة هى التى تخلق الأمة ، وتعطى للشعب الذى يشـعر بوحدته الأدبية ، ارادة فوجوداً قانونياً » . وتقضى المادة الأولى من دستور العمل الفاشى بأن الأمة ، وهى وحدة أدبية وسياسية واقتصادية ، تتحقق فى الدولة

فالفاشية تقوم إذن على تقديس السلطة ، وعبادة الدولة ، أى الهيئة الحاكمة وشعارها فى الحكم : العمل الايجابى . فهى لا تقنع للدولة بموقف سلبى ، يقر الأمور دون أن يسيرها ، بل يجب على الهيئة الحاكمة أن تدفع الأمور دفعاً إيجابياً عنيفاً ، فى غير رفق ولا هوادة . وهنا تظهر نزعة الشباب والفتوة التى تميز الحركة الفاشية ، فقد كان أكثر القائمين بها شباناً عندهم طموح وهمة ، وفيهم اندفاع وتوثب

صور من القرن الثامن عشر

٣ـ جاكومو كازانوڤا

جوّاب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هبط كازانوفا لندن يبحث وراء طالعه ، ويلتمس الوسائل لخوض مغامرات ومشاريع جديدة ، ولكنه ما لبث أن شعر بأن المجتمع الانكليزى الرصين لا يغزى بسهولة ، وأن الأفق لا يتسع لمزاعمه المريبة ، وأن محاولاته الغرامية تلقى مهادا صلبة ؛ وشعر بالأخص بأن تلك الخلال والمؤثرات السحرية التى اجتذبت اليه من قبل عشرات الحسان لم يبق لها قوة فى التأثير والاغراء . وهو يشير فى مذكراته إلى ذلك الفشل فى حزن ومرارة : « لقد سجلت هذا التاريخ — سبتمبر سنة ١٧٦٣ — باعتباره لعنة من لعنات حياتى ، ولقد شعرت من بدء بأن تيار الكهولة يحملنى مع أننى كنت فى الثامنة والثلاثين » . وهكذا اضطر كازانوفا بعد بضعة أشهر ارتكب خلالها كالعادة عدة محاولات وأعمال مريبة ، أن يغادر لندن مثقلا بأعباء الخيبة والفشل

وأم كازانوفا برلين ، واستطاع أن يقابل ملك بروسيا — فردريك الأكبر — ولكنه استقبله ببرود وتحفظ ، ولم يظفر منه بطائل

عندئذ قصد إلى روسيا حيث تروج سوق المغامرة ، وهنالك تعرف بالأمير كارل فون كورلاند ، وهو أمير مرح فاسد السيرة ينغمس فى مجالى اللهو والخلاعة ، ويلتمس اكتساب المال بأى الوسائل ، فتفاهما وتوثقت بينهما عرى الصداقة ، واستطاع كازانوفا أن يجوز بواسطته إلى المجتمعات الرفيعة فى ريغا وبطرسبرج وموسكو ، وأن يستعيد فيها شطراً من حياة السرور والبهجة . ثم ذهب إلى بولونيا ، وهنالك فى وارسو خاض نفس الغمار المرحة المريبة مماً ، ولفت اليه أنظار البلاط والسلطات بمشاريعه فى عالم النساء والمقامرة ، ومزاعمه فى التأثير والشعوذة ، واضطر غير بعيد إلى مغادرة وارسو ؛ فتركها إلى فينا ، ولكنه لم يستطع مكثاً بها ، لأن عين الشرطة كانت ترقبه ؛ فذهب الى باريس كرة أخرى ، ولكن العاصمة الفرنسية كانت تعرفه حق المعرفة ، وترغب عن قبوله وإيوائه ؛ فغادرها إلى اسبانيا ، فلقى فيها نفس الرفض والمطاردة ؛ وكان صيته المشين قد غمر يومئذ جميع العواصم الأوربية ، فلم يبق أمامه سوى الرجوع إلى ايطاليا

فعاد اليها يتجول فيها من مدينة إلى مدينة ، والنحس يسايره أينما حل ، والفاقة تفت فى عزمه وفى آماله وأمانيه ، وشبح الجوع يزعجه ، ونذير الكهولة يروعه ؛ لقد كان يومئذ فوق الأربعين ، وقد خمدت جذوة اضطرامه ، ولم يبق من ذلك الفتى المرح ، والمغامر الجرئ ، سوى طلل متهدم ؛ يقول لنا كازانوفا فى مذكراته مشيرا إلى ذلك العهد : « لقد فكرت يومئذ ، وربما لأول مرة فى حياتى ، فى أيامى الخالية ، ورثيت مسلكى ، ولعنت الخمسين التى شارفت بلوغها ، والتى قضت على جميع أحلامى ، وحز فى نفسى ألا أرى أمامى سوى بؤس الشيخوخة ، والعطلة والفاقة ، وألا تغذينى سوى شهرة مريبة ، وحسرات عقيمة » . أجل كان كازانوفا يومئذ كهلا ، تغلق فى وجهه جميع الأبواب وترغب عنه النساء ؛ وكان أشد ما يحز فى نفسه المكلومة أن يرى تلك المخلوقات الساحرة التى اعتاد أن يجذبها بروائه وسحره وذلاقته ، تفر من كهولته الى أحضان الشباب النضر !

ولما بلغ به اليأس مبلغه فكر فى العودة الى البندقية وطنه ومسقط رأسه ؛ فسعى فى استصدار العفو اللازم ، ولم يدخر

والفناء فى الدولة والوطن هو الظاهرة البارزة فى الفاشية . ولهذا الفناء مظهران : مظهر سياسى يتمثل وطنية ، ومظهر اقتصادى يتمثل تعاوناً . أما الوطنية فتتركز فى تربية الفرد تربية فاشية ، أى تربية وطنية ؛ وتغرس فى الطفل حب الوطن ، حتى ينشأ على ذلك ، موفقاً ما بين الحرية والنظام ، فهو حر ليستكمل شخصيته ، وهو خاضع لنظام يكفل التضامن . أما التعاون فيقوم على تنظيم اقتصادى دقيق ، أساسه النقابات ، فالنقابات فى إيطاليا الفاشية منتشرة انتشاراً واسع النطاق ، وسنعود إلى ذلك بعد قليل

(البقية فى العدد القادم) عبد الرزاق أحمد السنهورى

وسماً فى التقرب إلى السلطات والتضرع اليها ، وعاونه على ذلك رسالة كتبها ردا على تاريخ للبندقية ظهر من قبل بالفرنسية بقلم « املو دى لاهوسى » وفيه مطاعن شـديدة ضد الجمهورية ونظمها ، وهى مطاعن يفندها كازانوفا فى رسالته بحماسة ؛ وكان لرسالته وقع حسن لدى السلطات ، فاستمعت أخيرا لتضرعه ومنحته جوازا أميناً بالعودة إلى وطنه فى أوائل سبتمبر سنة ٧٧٤

***

ولـكنه عاد شيخاً يجرجر أذيال البؤس والخيبة ، ويلفظه المجتمع الرفيع ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين قد توفى ، ولم يبق له عون ولا عضد ، فلبث مدى حين يعانى مضض الفاقة ؛ وبعد جهد جهيد عطفت عليه محكمة التحقيق وعينته مخبرا سريا بمكافآت تتناسب مع عمله وتقاريره ، ثم منحته مرتباً شهرياً قدره خمس عشرة دوقة ، فاطمأن نوعا إلى هذا المركز المتواضع ، واستطاع أن يغشى بعض الحفلات والمسارح ، وكان لا يزال يثير حوله بعض العطف بذكائه وظرفه ، وتعرف عندئذ بامرأة تدعى فرنشيسكا بوشينى ، وعاش معها فى نوع من الهدوء والاستقرار

بيد أنه كان يلعن تلك الحرفة الوضيعـة التى ألجئ إلى احترافها ؛ أجل لقد كان كازانوفا جاسوسا زرياً لمحكمة التحقيق التى يمقتها من صميم قلبه ، وكان بحكم عمله مكلفا بالتحرى عن المسائل السياسية والجرائم الأخلاقية والدينية ، التى طالما أمعن فى ارتكابها ؛ وكانت تغمر البندقية يومئذ موجة من الالحاد والانحلال الخلقى ، فكان من سخرية القدر أن يسهر كازانوفا على مراقبة الفساق والملحدين ؛ وكان يمضى تقاريره بامضاء مستعار وهو مع ذلك يضطرم سخطاً لذلك الدرك الأسفل الذى هبط اليه . وفى أواخر سنة ١٧٨١ رأت محكمة التحقيق أن تستغنى عن خدماته وقطعت مرتبه ، فتولاه يأس قاتل ، ورأى شبح الجوع ماثلا أمامه ، ورفع يومئـذ إلى محكمة التحقيق ذلك الالتماس المؤثر الذى يدل على ذلاته وحسن بيانه :

« إلى حضرات العظماء الأجلاء سادتى القضاة المحققين :

« أتقدم اليكم ، أنا جاكومو كازانوفا ، وقد غمرتنى الحيرة ، وسحقنى البؤس والندم ، معترفاً بأننى لست أهلا على الاطلاق لأن أرفع اليكم التماسى المتواضع ، أتقدم جاثياً بطلب الرأفة من الدولة ، وأسألها أن تمنحنى بطريق العطف والجود مالا تستطيع بعد التأمل أن تأباه على بطريق الانصاف

وانى لأضرع الى الجود العـالى أن يقوم بمونى حتى أستطيع الحياة ، وأستطيع فى المستقبل أن أقوم بالخدمات التى درجت عليها

وان حكمتـكم لتأنس فى هذا التضرع الجليل صـادق اهبتى ونياتى »

ولـكن محكمة التحقيق لم تصغ الى تضرعه ؛ فزاد يأساً وبؤساً ، وعول على الرحيل معتصما بما بقى له من جلد وعزم ، فسافر الى فينا ووصلها فى يناير سـنة ١٧٨٣ فى حال مؤلمة من الاعياء والفاقة ؛ ولبث يتجول حيناً فى فينا وباريس وهولندة فى ظروف نكدة مثيرة ؛ ومع ذلك فانا نراه أحياناً يحلم بمشاريع مدهشة فيفكر وهو فى باريس فى شق قنال أو اصدار جريدة ؛ بيد أنها كانت أحلام يائس مخرف ؛ وأخيراً استقر به المطاف فى فينا . وهنالك تعرف بسفير البندقية السنيور فوسكارينى فعطف عليه وعينه سكرتيراً له ؛ واستعاد الطريد البائس شيئاً من بهجة الحيـاة ، واتصل مدى حين بالمجتمع الرفيع ، وظهر فى المآدب والمراقص ؛ ولـكن فوسكارينى لم يلبث أن توفى ، فتولاه اليأس القاتل مرة أخرى

وأقام مدى حين فى تبلتز فى شرحال حتى ساقته المقادير إلى التعرف بالـكونت فون فالدشتاين ، فتأثر لفقره ويأسه ، وأعجب بذكائه وخلاله فعينه أميناً لمـكتبة قصره فى « دوكس » من أعمال بوهميا بمرتب حسن ؛ وكانت الـكونت فتى طروباً طيب القلب يعشق حيـاة اللهو والخلاعة ويجوب أنحاء أوربا فى طلب المسرة والمتاع ؛ وكانت خلاله مزيجاً من الشجاعة والضعف ، والـكبرياء والخجل ، والبذخ والجود ، فأغدق عطفه على المحب الشيخ الذى خاض غمار حيـاة باهرة مؤثرة وألفى نفسه بعد طول التجوال فريسة البؤس واليأس

***

وكان قصر دوكس مقاماً بديعاً فخماً ينبئ بما لآله من النبل التالد والغنى الباذخ ، وكانت مكتبته الشاسعة المنيرة تضم أربعين

ألف مجلد فخم فى مختلف العلوم والفنون ؛ فكان ذلك المقام النائى الذى يجد فيه المفكر الفيلسوف ضالتـه ، هو المستقر والمثوى الأخير لذلك الذى ضاق به وطنه ؛ وضاقت به عواصم أوروبا

ولـكن كازانوفا لم يلق الهدوء الذى ينشد ؛ ذلك أنه أثار سخط الحشم والخدم بكبريائه وصلفه وجفائه ، فكانوا يعكرون صفاءه بخبثهم ودسهم ، وكانت نفسه تفيض مرارة من ذلك الصراع الوضيع الذى يجعله مع الخدم على قدم واحدة . وكان كلما شكا أمره الى الـكونت أجابه بابتسامة رقيقة ، فاذا شكا الى الـكونتة والدته هدأت روعه وصرفته بأطيب الوعود

وكان يخفف من وقع ذلك الجدل النكد على نفسه ما كان يغمره به الـكونت من العطف ؛ ذلك أنه كان حين مقامه بالقصر يدعوه دائماً الى مائدته ، والى مختلف الحفلات والمآدب . وعندئذ يستطيع كازانوفا أن يمتع نفسه بقسط من الترف الناعم ، ويبدى ما كمن من خلاله ومواهبه الساحرة ، ويشعر بشىء من السعادة والغبطة

وكان الدرس أشد ما يؤنسه ويملأ فراغه . ذلك أن كازانوفا كان مفكراً واسع الاطلاع ، وكان يعشق القراءة والدرس ، ولـكن تجواله المتواصل كان يحول دون أمنيته ؛ فلما استقر فى هذا المثوى الهادئ الحافل بصنوف الآثار الممتعة ، ألفى فرصته ، وانكب على القراءة يترع من مناهلها ؛ ويدون ما عن له من زبدها . ومنذ سنة ١٧٨٦ يتحفنا كازانوفا بطائفة من الـكتب والرسائل الممتعة منها . « مناجاة مفكر » Soliloque d,un penseur (سنة ١٧٨٦) ، و « قصة ادوار والزابيث » Hist. A'Eoouard et Elizebeth (سنة ١٧٨٨) ، وهى مزيج عزيب من الفلسفة والمغامرة والدين والتهكم . وفى سنة ١٧٨٨ ، أخرج كازانوفا كتاباً ممتعاً عن سجنه وفراره الشهير عنوانه « قصة فرارى من سجون جمهورية البندقية المسماة بالرصاص » L'Hist. de ma Fuite des Prisons deala République de Vcniae etc ؛ وفى سنة ١٧٩٠ نشر رسالتين فى مسائل رياضية ؛ وفى سنة ١٨٩٧ نشر رسالة فلسفية أخلاقية عنوانها « خطاب الى ليونار سنتلاج » Lettre à Léonard Snetlage ، هذا الى رسائل أخرى ما زالت مخطوطة محفوظة الى يومنا فى مكتبة « دوكس » الشهيرة

بيد أن أعظم أثر شغل فراغ كازانوفا ، وخلد اسمه فيما بعد ، هو مذكراته الشهيرة التى بدأ كتابتها منذ سنة ١٧٩١ ، والتى نرجئ الـكلام عليها الى الفصل القادم

وكان مما يعتز به أيضاً ويؤنس أعوامه الأخيرة اشتغاله بمكاتبة بعض العظماء الذين عرفهم مثل الـكونت دى لانبرج ، والأمير دى لينى ، والأميرة كلارى ، والأمير بيلوزولسكى سفير روسيا فى درسدن ، والـكونت كينج ، والأميرة لوبكوفتز ، والأب ديلا لينا ، وغيرهم ؛ وكذلك بعض صـديقاته الذين عرفهم فى أواخر حياته مثل فرنشيسكا بوشينى آخر صاحباته فى البندقية ، وسسليا روجندورف ، والبزافون در ريكى وغيرهن ؛ وكان يزور مكتبة « دوكس » كثير من العظماء والـكبراء من كل فج ، فيسر بلقائهم ومحادثتهم ؛ وكان كازانوفا يثير بذكائه ووفرة عرفانه حوله كثيراً من الاعجاب والعطف ؛ وقد أعجب به كثير من كبراء عصره ، وقدروا مواهبه وتنوع معارفه وطرافة تفكيره ، وبثوه اعجابهم وتقديرهم شفاها وكتابة ؛ وكان ذلك يغمره سعادة وغبطة ورضى

بل لقد كان كازانوفا فى تلك الأعوام الأخيرة الهادئة من حياته الحافلة ، يتصور حول نفسه أفقاً من العظمة والشهرة ؛ وكان أيام تجواله قد زار الفيلسوف الأكبر فولتير فى قصره ومستقره المنعزل فى فرنى ، وأعجب بحياته الهادئة وشيخوخته الجليلة ، فكان يتصور نفسه فى أيامه الأخيرة ، فى نفس الأفق والظروف التى شهد فيها فولتير ، فتغريه تلك المقارنة الخلابة ، وتثير فى نفسه الهائمة طائفة من الأحلام اللذيذة الرائعة

وفى أوائل سنة ١٧٩٨ مرض كازانوفا وتفاقم مرضه بسرعة وشعر باقتراب أجله ؛ فتوالت عليه زيارات الأصدقاء والمحبين يغمرونه بعطفهم وعنايتهم ويرسلون إليه الأطباء والهدايا ؛ وفى الرابع من يونية قضى نحبه واختتم حياته العجيبة فى جو من العطف الذى طالما حرم منه أيام حياته ؛ ودفن على الأغلب فى مقبرة قصر « دوكس » ؛ بيد أن قبره لبث مجهولاً لم يكشف عنه البحث

(الخاتمة تأتى)

محمد عبد الله عنان

ليلة وداع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

قال لي صاحب : « أين نقضي سهرتنا الليلة ؟ »

قلت : « سهرتنا ؟ ؟ فهل كتب علينا أن نسهر الليلة ؟ »

فقال برقة ابليسية الاغراء : « انه آخر أيام المعرض ، أفلا يحسن أن نودع مدينة الملاهي ؟ »

فقلت : « من ذا تودع فيها يا شيخ ، وقد ودعت شبابك ؟ »

فلم ينهزم وقال : « نودع من خلقهن الله في أحسن تقويم »

فقلت : ولكن فيهنّ من خُلقن على صور الأبقار والجواميس ، فهل نحتفل بوداع هؤلاء أيضاً ؟ »

فلم يصدّه حتى هـذا ، فلم يبق إلا أن نتوكل على الله ونستودعه نفوسنا ونذهب إلى مدينة الملاهي كما أراد ، وحسناً فعلنا ، فما كان يمكن أن نرى حشداً أعظم من هذا في مكان أضيق من تلك التي سموها مدينة الملاهي ؛ وكانت النساء أكثر من الرجال ، وهن وحدهن معرض كامل ، فما يخطر للمرأة صورةٌ من صور الخلق في المرأة إلا وهي موجودة ، وكانت الكثرة من العذارى الخود ، والخرّد الحسان ، اللواتي يترقرق الماء في وجوههن من نضرة النعيم ، ويتثنين من اللين في غير استرخاء ، أما القلة فكانت من الخدلّجات الممتلئات الأذرع والسيقان ، العظيمات الأوراك والبطون ، المترجرجات اللحم ، المستديرات كأنهن البراميـــل ، فلو أرقدتهن على جنوبهن ودفعتهن لتدحرجن بلا توقف

وكنت كلما رأيت واحدة من هؤلاء وقفت كالجندي ، ورفعت يدي إلى جبيني بالتحية العسكرية ! فيسألني صاحبي عما أفعل ؟ فأقول : « هذه تحية العظمة ياسيدي ! ! إلى متى نظل نبخس الناس أشياءهم ونغمطهم في مصر ؟ ؟ لقد آن جدا أن نقر لكل انسان بحقه ومزيته »

والتقينا بأصحاب لنا ، فصرنا جماعة ومضينا تتنقل من مكان إلى مكان ، وإذا بي أرى قريباً لي ومعه صديقة له ، ما رآني قط مقبلا عليه وهي معه إلا نهض بها زاعماً أن عليه أن يفعل كيت وكيت ، أو أن يقابل فلاناً أو علاناً من خلق الله الذين يتحرى أن ينتقي لهم أسماء لا أعرفها لانها مخترعة لا وجود لها ، فأكاد أتميز من الغيظ ، ولكن ماذا أصنع ؟ غير أني في هذه المرة أدركته قبل أن يقوم — أعني قبل أن يراني ، وكان جالساً معها — كما لا أحتاج أن أقول ، فحملت كرسياً إلى حيث هما ، ووضعته وقعدت عليه أمامهما ، ثم حييتهما أحسن تحية وأرقها — تحية تلين الصخر ، لا بل تذيبه — ولكنّ قريبي ، وقاك الله ، أصلب من الصخر والحديد ، فما كاد يراني أصافحها حتى قال لها وهو يجذبها من ذراعها : « تفضلي فقد تأخرنا جدا »

فابتسمت — وهل كان يسعها إلا ذلك وهي ترى هذا منه في كل لقاء ؟ — فتشجعت وقلت : « يا أخي حرام عليك ! ! ما هـذا العنف ؟ — هذا ذراع غض بض ياسيدي ، وليس بعصا شرطي ... »

فابتسمت مرة أخرى ، فقلت في سرى هذه علامة الرضى ، وإنها والله لراغبة في البقاء ، وتذكرت قول زميلنا القديم : « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » فقلت لها : « العجلة من الشيطان يا مولانا . . ومازلنا في أول الليل ، ومايدريك ويدريني أنها ليست مشتاقة أن تركب معي واحداً من هـذه القطر التي تشبه الترام وتجري بالكهرباء وتتـدافع وتتصادم فتتعالى الصيحات والصرخات وتجلجل الضحكات ، وتنشرح الصدور . . . قومي ياستي معي أركبك واحداً منها »

فصاح بي وهو يدفع ذراعه أمامها ليمنعها أن تقوم : « معك ؟ تقول معك ؟ . معك انت ؟ . يا خبر اسود ! . إنتَ مجنون ؟ »

فلم تفزعني هذه الثورة ، لأني أعرف سببها وباعثها ، وقلت له وأنا أبتسم : « صحتك . . صحتك . . لا تهج هكذا فاني أخاف على قلبك . . ألم ينصحك الطبيب بالابتعاد عن كل ما يهيج أعصابك ؟ . أقعد . . أقعد ساكناً واشرب ماء بارداً حتى نعود اليك . . لن يطول غيابنا عنك . . قومي ياسيدتي . . لا تقلقي عليه . . إنه بخير ما اجتنب ما يورثه اضطرابَ الأعصاب »

فنهض هو بدلاً منها وقال بلهجة المغيظ المحنق : « أعصاب ؟. قلب ؟ . طبيب ؟ . عن أي شيء تتكلم ؟ . كيف تسمح لنفسك أن تقول إني مريض بقلبي ؟ . »

فضحكت وقلت : « لا مؤاخذة ! . لقد نسيت أن عقلك لا قلبك هو المريض . . على كل حال . . عقلك . . قلبك . . سيان . . والخطأ مردود . . والآن وقد انتهى الخلاف وحسمنا

النزاع فيحسن أن ندعك وحدك قليلاً حتى تثوب اليك نفسك الوديعــة الرقيقة الـكريمة الجمة المروءة ا... ا.. . ماذا أيضاً يا بارد يا أنانى ! ؟ »

فأرسلتها الفتاةُ ضحكة مجلجلة تجاوبت نفسى بأصــدائها ، فصار رنينها فى قلبى لا فى الفضاء . ولـكنه قطع عليها الضحك يمين أقسمها ألا تقوم معى ، فوجمتْ وشعرتُ بقلبى يبكى لها ، فقد كان من الواضح أنها تشتهى أن تركب هذا الترام ، وقريبى يأباه عليها لأنه يؤثر الاحتشام والتلفع بالوقار ، ثم قلت لها : « لا بأس .. لا بأس .. ما لا يدرك كله لا يُترك كله . . أنظرى إلى وأنا أركب وسأترك مكانك إلى جانبى فيها خالياً ، فنى وسعك أن تتصورى نفسك جالسة فيـه كما سأفعل تماماً . . وإلى اللقاء القريب ، وعسى أن تتمتّى بهذه اللعبة التى ألعبها إكراماً لسواد عينيك . . أم تراها زرقاوين ؟ ؟ أرنيهما بالله قبل الركوب حتى لا يغلط خيالى . . »

فقال قريبى على سبيل التوديع : « اذهب ، اذهب ولا تعد ! »

فقلت : « يا شيخ حرام عليك ! أنا شاب . . »

وركبت وحدى احتفاظاً لها بمكانها ، وكان يكنى أن أصون لها مكانها فى قلبى ، ولـكن الوفاء — صانك الله — داءٌ مكتسبٌ . وكان الميدان هادئاً ، والراكبون يتحاورون ، ويهرب بعضهم من بعض ، ويتّقون التصادم ، وإن كان لا خوف منه ، فجريت أنا على نقيض ذلك ، وجعلت وكَدى أن أصــدم الذى يروقنى ، وكنت كلمــا أقبلت بسيارتى على أخرى لأصدمها أصيح براكبيها — وأنا أدفع بقبضة يدى فى الهواء — بُمممم ! فعلا الصخب — كما ينبغى أن يحــدث — وكثر الضحك واللغط والصياح والصراخ ، وانتهى الدور فنسيت صاحبتى التى تركتها مع قريبى ، وشغلنى ما أنا فيه عنها ، وألهانى عن ذكرها كما هى عادتى ، فان اللحظة الحاضرة تذهلنى عن كل ما مضى وكل ما عسى أن يجىء ، ولعبت دوراً آخر ، ثم غيره ، وغيره ، حتى أضنانى الجهد المتواصــل ، وابتلت ثيابى من كثرة العرق المتصبب ، فتذكرت قريبى وصديقته ، وقلت أجلس معهما برهة أستريح فيها وعسى أن يهديه الله ويرق قلبه القاسى ، وعدت إلى حيث تركتهما فاذا بهما قد ذهبا . .

أى والله يا ناس ! ! خطفها قريبى — قريبى لا أحد الغرباء — وطار بها وخلفنى أتلهف عليها وأسخط عليه ، وأذم الغدر والخيانة والأنانيــة والأثرة وألعن أمثاله من الأقرباء الذين يعمر قلوبهم الحسدُ والحقدُ لا الحب والاخلاص والتعاون على البر والتقوى

ولمحت صديقنا الدكتور م . فقلت أسلم عليه ، وكان حوله سربٌ من الناعمات اللينات ، المترسلات الأعطاف ، المستغنيات بالجمال عن الزينة ، المُبَتّلاتِ الحسن على الأعضاء فلا ترى لشىء فى أجسامهن الحلوة أوفر من حظه أو أقلّ ، فدنوت من إحداهن — وكانت طويلة العنق مسمورةً لا رخوةً ولا مترهّلة — وقلت لها : « ماذا يقول لـكن دكتورنا الساحر ؟ . هل لك فى رهانى ؟ . »

قالت : « على أى شىء ؟ »

قلت : « على أن عينه زائغةٌ وأنه يريد أن يتزوجكن جملة وإن كنتن سبعاً ؟ »

فضحكت وقالت : « صدقت »

قلت : « هاتى إذاً ، وليعوضك الله خيراً . . واحذرى أن تراهنينى مرة أخرى »

قالت : « ولـكنى لم أفعل »

قلت : « بلى .. هاتى !. ما هذه المماطلة ؟. إنه خلقٌ لا يليق بمثل هذا الجمال المشرق »

قالت : « أما إن هذا لغريبٌ . . والله ما راهنتك »

قلت : « لا فائدة . . تفضلى معى إلى هــذا الترام واركبيه بجانبى ، فان ركوبه موصوف لابراء الذمة »

فضحكت وسألتنى : « ولـكن من أنت . . »

قلت : « أنا صاحب الدكتور الذى يريد أن يتزوجك على كل هذه الضرائر ... تعالى واكسبى صداقتى لتفوزى به وحدك »

ولمحنى الدكتور وأنا أمضى بها فصاح : « اللص .. اللص .. أدركوه . خطف البنت .. الحقونا يا ناس »

وخفت أن يصدق بعض البلهاء فأقع فى مأزق ، فجعلت أصيح مثله : « اللص .... أدركوه .... خطف البنية .... اجروا وراءه »

وانحدرنا الى الملعب ونحن نكاد نسقط على الأرض من كثرة الضحك . وقبل أن يبدأ اللعب وتدور السيارات تآمرت مع زميلتى على الدكتور واتفقنا أن نركبه سيارة وأن نوسعه بعد

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

الدفتريا

بين واجد سمها الفرنسى ، وكاشف ترياقها الألمانى

وصل الفائت

اكتشف لفلار مكروب الدفتريا ، ووجده فى حلوق الأطفال ، ولم يجده فى أى جزء آخر من أجسامهم . فتعجب كيف أن المكروب لا يفارق هذه الحلوق ؛ ومع هذا يسرى بالموت فى الأجسام . فتراءى له أن المكروب لابد يفرز سماً هو الذى يدور فى الجسم فيميت . فجاء أميل رو بعد ذلك فحقق رؤيا لفلار فكشف عن هذا السم ، واستخلص وعرف خواصه ، وأن الأوقية منه تقتل ٧٥٠٠٠ كلب

— ٣ —

ولكن كان فى مكان آخر بعيد عن باريس أميل آخر قائمٌ فى مثل هذا العمل ناصبٌ فيه . هذا أميل أغسطس بارنج Emil August Behring . كان يشتغل فى معمل كوخ ببرلين ، فى ذلك البناء المهدّم الذى يسمى المثلث Triangel فى شارع شومان . فى هذا البناء أخذت الحوادث تتمخض عن أمور جليلة ، وكان به كوخ ، ولم يكن الآن دكتور القرية الصغير الخامل ، بل كان السيد الأستاذ ، ومستشاراً من مستشارى الدولة صاحبَ جاه وربَّ ذكر ، ولكن برغم هذا لم تضق قبعته برأسه وكان ينظر على عادته من خلال نظارته المعهودة ولا يتكلم إلا قليلاً ، وكان نصيبه من احترام الناس كبيراً هائلاً ، وكان عندئذ مشغولاً بأمر علاج للسلّ خال أنه اكتشفه . فكان يحاول أن يقنع نفسه على الرغم منها بأنه علاج صادق ، وكان هذا بسبب إلحاح السلطات عليه فيه ، (والعلماء يلعنون السلطات بحق أحياناً على الرغم مما يكون من جودهم وسابغ كرمهم) ، أو على الأقل بهذا يتحدث اليوم شيوخ صيادى المكروب الذين حضروا ذلك العصر ولا يزالون يذكرون أحداثه المجيدة

« لقد أسبغنا عليك الشارات ، وأعطيناك المكرسكوبات والخنازير الغينية وما إليها ، فلا أقل من أن تردّ الجميل فتكشف لنا عن علاج كبير يدوى خبره فى الآفاق ، فيبنى للوطن الألمانى مجداً كالذى بناه بستور لوطنه الفرنسى » . هذا ما كان يسمعه بستور كل يوم . هذا صوت الغواية الذى يطرق أذنه كل حين ، وإلى هذا الصوت استجاب كوخ أخيراً ، ومن ذا الّذى يلومه ؟ وأى إنسان يقوى على الثبات على طريق العلم السوىّ ، وإلزام نفسه أسلوبَ البحث الحق ، والحكومات إلى يمينه تصيح به أن يجد لها مكانة فى السماء ، والأمهات إلى يساره تصرخ له عسى أن يجد لأولادهن الهالكين مكاناً بين الأحياء . نعم إلى هذا الصوت استجاب كوخ ، فكشف عن حتفه بظِلْفه ، وأعلن للدنيا اكتشافه التوبركولين Tuberculin علاجاً للسل ورحمة للمسلولين ، فكان من إخفاقه الذى كان ، ولكن ما لبث كوخ أن قام يكفّر عن هذا باعانة الشبان من أعوانه فى الكشوفات البارعة التى كانوا فيها ، ومن هؤلاء الشبان أميل بارنج ، وكان باحثاً شاعراً أعانه كوخ بقريحته النقّادة الباردة ، صوّب ضوء مصباحها الهائل على أعماله ، فاستعرف بارنج فى نورها الساطع على

ذلك صدما وخبطاً ، فانا نعرفه يخاف الرجات ويشفق من عواقبها — لا ندرى لماذا — وقد كان . حاولنا اقناعه بالحسنى أولاً فلم يقتنع ، فلم يبق إلا أن نحمله قسراً على الركوب ، فجرته أربع فتيات فظل يقاومهن حتى قلت له : « أظنك استحليت هذا الجرّ ... تفضل يا ... »

فكف عن المقاومة استحياء ، وقال لى وهو يركب السيارة : « الله يلعنك يا شيخ ... أخجلتنى والله !

قلت : « لا عليك يا مولانا ... تفضل وأرنا همتك »

وصدمته صدمتين ، ثم تركته لمن هن أولى بذلك ، فلما خرج نظر الىّ وقال : « وصلتنا منك زقات يا سيدى .. نشكرك »

فقالت له احدى الفتيات : « لو كنتَ ركبتَ معى يا دكتور ؟ ؟ ... »

فقاطعها وقال : « إذن لكانت الزقات قد كثرت يا ستى .. كلا ! الخيرة فى الواقع »

وهكذا ودعنا مدينة الملاهى ..... فليتها تعود لنودعها مرة أخرى ....

ابراهيم عبد القادر المازنى

ما يأخذ به ، واستعرف فيه على ما يَدَع

أى بيت لصيادة المكروب كان بيت « المثلّث » هذا . كان قذراً معتماً كالقبر ، ولكن اجتمع فيه رجال كوخ الشباب فبثوا فيه الحياة بتجاربهم المتواصلة ، وهزوا جدرانه هزاً بصراخهم وحجاجهم فيه ، وكان من بينهم بول إرليش Paul Ehrilch ، يُعقب السيجارةَ أختَها ، ويلوث يديه وثيابه حتى وجهه بكل صبغة من كل لون من ألوان الطيف ، وكان قائماً بتجارب طموح ، يحاول بها أن يعرف كيف ترث أطفال الفئران عن أمهاتها الحصانة من بعض سموم النبات .. وكان من بينهم كيتاساتو Kitasato ، وكان يابانياً ذا وجه أقور كالدائرة ، وكان قائماً يحقن بَشِلاّت كُزاز الفك فى ذيول الفئران ، ثم هو يصبر حتى تصبّ البشلات سمها فى الفأر ، ثم يقط ذيولها الويشة ليرى هل يقتلهما السم وحده وهى بتراء .... وكان من بين من كانوا فى هـذا البيت رجال آخرون ، بعضهم ذهب الزمن باسمهم ، وبعضهم اشتهروا وخلد ذكرهم ، واختصاراً قامت هـذه العصابة الألمانية تبنى هزيمة الفرنسيين تحت وابل من التجارب هائل ، وتريد أن تسبقهم إلى تخليص بنى الانسان من أرزاء دنياهم

والآن نريد أن نخص بالذكر من بين هؤلاء أميـل بارنج . كان شاباً عدا الثلاثين من عمره ، وكان طبيباً فى الجيش ، وكانت له لحية آنق من لحية كوخ ، ولكنها كانت أقل دلالة على فتق الحيلة وابتكارها ؛ مع هذا وبرغم أسلوب لحيته المُرسل ، كانت له رأس الشاعر ؛ وبرغم حبه للفصاحة وإغرامه بفنون البلاغة ، لَزِم خوان معمله بقدر مالزمه أى باحث آخر . وبينا هو يكشف فى دم الفئران عن مادة تقتل بشلة الجمرة ، كان يصف كشف أستاذه كوخ لبَشلة السل بأنه فى المجد مثل قمة جبله الحبيب بين جبال الألب ، وهى فى بياض الثلج ولون الورد ، ولازمته فكرتان ما فتئتا تطوفان برأسه . فكرتان علميتـان ومع ذلك تَمُتّـان إلى الشعر بنسب قريب . إحداهما أن الدم أبدع سائل يدور فى جسم حىّ ، والثانية أنه لا بد من وجود مواد كيميائية تقتل فتمسح المكروبات من أجسام الانسان والحيوان مسحاً دون أن تضرّ بها وهذه الفكرة الأخيرة سبقه آخرون إليها

قال « سأجد مادة كيميائية تُبرِئ من الدفتريا ! » ، وحقن طوائف عديدة من الخنازير الغينية بزريعات قتالة من مكروب الدفتريا . فلما مرضت ، وازدادت مرضاً ، حقن فيها كثيراً من المركبات الكيميائية . فجرّب فيها أملاح الذهب ، وهى أملاح غالية ، وجرّب النفتيل أمين Naphtbylamine ، وحقنها بما يزيد على عشرين مادة بعضها عادىّ مألوف ، وبعضها غريب نادر . عرف أن هذه المواد تقتل المكروب فى أنبوبة الاختبار دون أن تضرّ بزجاجها ، فآمن فى سذاجة أنها لا بد تقتل هذا المكروب تحت جلد الخنزير الغينى دون أن تضرّ به ، ولكن خاب إيمانه وأسفاه . وامتلأ معمله بالخنازير الميّتة والتى هى فى سبيل الموت فكان كبيت الجزارة ، وكان فى ذلك مايكفى ليقنعه بأن الفرق بين عقاقيره والمكروب فى الأذى غير كبير ، وأن كليهما يفتك بالخنازير ، وزادت أكوام الجثث حوله ، ومع هـذا لم ينقص إيمانه بأن هذا العُقّار العجيب الذى سيَشفى من الدفتريا لا يزال مختبئاً بين صفوف المواد الكيميائية ، وهى ألوف فى الوجود ، وأخيراً وقع من بحثه الذى أفرغ فيه كل عزمه وخبط فيه على غير هدى ، وقع على مادة ثالث كلورور اليود

ضرب بمحقنه جرعات عـدة من بشلة الدفتريا تحت جلود بضعة من الخنازير ، وكانت جرعات تكفى لقتلها . ومضت ساعات قليلة فأخذ المكروب يفعل فعله ، فتورم الجلد حيث ضرب المحقن ، وأخذت الحيوانات تميل برءوسها : فلما مضت ست ساعات حقن بارنج فيها كلورور اليود . وانتظر ما يحدث لها فقل رجاؤه فيها وظن أن الاخفاق جاءه مرة أخرى . ومضى النهار ولم تتحسّن الحال . وجاء الغد فبدأت الخنازير تخور . فأخذها وأرقدها على ظهرها ثم أخذ يَخزُها باصبعه ليرى هل تعود فتقف على أرجلها . قال لأعوانه وهم فى دهشة مما يسمعون : « إذا أنتم وخزتم الخنزير وهو على ظهره فاستطاع القيام ، علمتم أن الرجاء لم ينقطع فيه بعد » هذا هو محك الأمل عنده ! هـذا هو مقياس الرجاء ! مقياس تعوزه الدقة إعوازاً شديداً ، وينقصه التهذيب نقصاً كبيراً . تخيّل ما يكون الحال لو أن طبيباً اتخذه وسيلة يعلم بها أيطيب مريضه أم يموت . وقلّت حياة الخنازير المحقونة بالكلور فقلّت حركتها عند الوخز حتى انقطع منها الرجاء

وذات صباح جاء بارنج معمله فوجد الخنازير واقفة على أرجلها !

كانت لا تكاد تستقر عليها ، وكانت نحيفة غاية فى النحف ، ولكنها كانت آخذةَ فى الشفاء ! نعم آخذة فعلاً فى الشفاء من الدفتريا بعد أن هلك قبلها من رفقائها ما هلك

وهمس بارنج لنفسه ! « لقد شَفَيتُ من الدفتريا ! »

وتملكته رغبة حادّة أن يشفى بهذه المادة اليودية خنازير أخرى . فكانت هذه الحيوانات المسكينة تموت أحيانا من المكروب ، وأحيانا كان يقتلها هذا الدواء . وفى القليل النادر كان يُشفى خنزير أو اثنان فيقومان من المرض على حال كالموت . لم يكن فى هذا العلاج الفظيع يقين ، ولم يكن فيه منطق ولا توافق وانسجام . والخنازير التى اشتفت به لاشك ودّت أنها ما اشتفت ، ذلك لأن الكلورور بينما كان يُبرِئُها مما بها ، كان كذلك يحرق جلودها فتتخرّق خروقا تظل متقرّحة لا تلتئم ، فلا تلبث أن تصطدم بشىء حتى تَصِيت هـذه الحيوانات المسكينة من ألمها الشديد . تلك حال مفجعة لا ترضاها القلوب

ومع هذا فالحقيقة الواقعة أن بارنج كان بين يديه قليل من تلك الخنازير لولا هذا اليود لقتلتها الدفتريا ، لولاه ما سعت بين يديه كما تسعى . إنى أفكـر كثيراً فى أمر هذه القوة الخفية الدفاعة التى لا تفتأ تغرى بارنج وأمثال بارنج بعلاج الأمراض . فبارنج وأمثاله لم يجروا فيما صنعوا وراء الحقيقة ، ولم يدأبوا ما دأبوا ليجنوا المعرفة ، بل هم انما مارسوا التجربة طلباً للعلاج ، وتسلّط عليهم طلب العلاج فطلبوه جنونا ، فأجازوا قتل الحيوان حتى الانسان بداء ليخلّصوه من داء آخر .... لم يقفوا عند حدّ ، ولم تنههم عما طلبوا مخافات .... من ذلك أن بارنج قام يجرب هذا الكلورور النفّاط الكاوى فى الأطفال المرضى بالدفتريا وليس لديه من دليل على صلاحه غير تلك الخنازير القليلة النحيلة الهشيمة

وعاد من تجربته يقول : « لقد جربت كلورور اليود فى أطفال مرضى بالدفتريا ، واتبعت فى ذلك الحذر والحيطة ما استطعت ، فخرجت على نتائج لا تُشجّع أبدا ... »

ولكن تلك الفئران الضعيفة التى نجت من الدفتريا بفعل هذه المادة كانت لا تزال بين يديه ، كانت لا تزال تقع عليها عيناه فتعلّق بارنج من أجلها بوهمه القديم ، أنه لابد خارج من هذه المجازر ببعض غايته . وتعطّفت عليه المقادير ، فأخذ يتفكّر ، وإذا به يخرج من الفكر فيتساءل : أتكون هـذه الفئران قد تحصّنت الآن من الدفتريا بعد الذى جرى لها . ومالبث أن جاء بها وحقن فيها جرعات هائلة من بشلة الدفتريا — فاحتملتها ! نعم احتملتها فلم تستقم شعرة واحدة على جلودها برغم هذه الملايين من المكروبات وهى كفيلة بقتل عشرة منها . إنها حصينة كما خال !

وكانت عندئذ ثقته فى المواد الكيميائية ضاعت ، فلم يعد يطلب من بينها علاجاً للدفتريا . وكيف لا تضيع بعد هذا العدد الهائل من جثث الحيوانات الذى أرسله إلى أسفل البناء ليقوم الخدم باحراقه . أضاع أمله فى الكيميائيات ، ولكنه تمسك برأيه القديم عن الدم ، فكان لا يزال يرى أنه أبدع سائل يدور فى جسم حىّ . أُعجِب به حتى عبده . واتقد خياله فارتأى له فضائل لا تُرَى وخصائص غريبة لم تُسمع . فقام إلى فئرانه العاجزة الضعيفة التى برئت من الداء فمص شيئاً من دمها ، مصّه بمِحقنه من شريان فى رقبتها ، ثم أودع هذا الدم أنابيب من الزجاج ، ثم ترك هذه الأنابيب حتى انفصل من الدم مصله الرائق الأصفر ، فصعد مخلّفاً فى أسفل الأنبوبة قطعه الحمراء ؛ ثم مصّ هذا المصل فى أنبوبة صغيرة ، ثم خلطه ببشلات الدفتريا الفاتكة

وتفكّر بارنج : « لا شك أن دم الفئران به شىء يحصّنها من الدفتريا . لا شك أن به شيئاً يقتل بَشِلاّت الدفتريا ... »

ثم نظر إليها فى هـذا المصل من خلَل مجهره وهو يؤمّل أن يراها تنضمر ثم تموت ، فلما حدّق فيها وجدها تَرقص وتَربو ، إذن هى لا تموت بل تزيد وتربو ، أو على حد قوله الأسيف فى بعض ما كتب « تتكاثر فى وفرة عظيمة » . ولكن مع هـذا فالدم سائل عجيب بديع . ولابد إليه ترجع حصانة هذه الخنازير . وهتف فى نفسه هاتف يقول : « وعلى كل حال ألم يثبت هـذا الفرنسىّ رو Roux أن البشلات لا تقتل بل الذى يقتل هو السم الذى تصنعه ؟ ألم يثبت أن سم الدفتريا لا بشلاتها هو الذى يقتل الأطفال والحيوانات ؟ . . . إذن فلعل هـذه الخنازير الغينية التى شفاها الكلورور قد تحصّنت من سم الدفتريا ! »

وأخذ فى التجربة . وبعد زمجرة وأفأفة ، وبعد تبلّل وتقذّر قمينين بكل شاعر عالم ، جهّز بارنج حساء احتوى سم الدفتريا وخلا من مكروبها . وأخذ من هذا الحساء لحقن جرعات هائلة تحت

جلود خنازيره الحصينة وكان قد تناقص عددها . فاذا بها حصينة تجاه السم . وأخذت قروحها الماضية تلتئم ، وأخذت تكبر سِمَنا . هذا أمر لا شك جديد فى علم المكروب . أمرٌ ربما كان ارتآه رو ولكنه لم يتحقق على يديه . حمى بستور الشياه من داء الجمرة ، وحمى الأطفال وحصّنها من عضة الكلاب المسعورة ، ولكن هذا الذى أتاه بارنج غير هـذا وذاك . هذا أمر طريف يقف العقول حيرى . بارنج يصيب الخنازير بالدفتريا ، ثم هو يشفيها منها بعلاج فظيع كاد يوردها الموت ، ثم هو بذلك يحصّنها من سم الدفتريا الفتاك ، من ذلك السم الذى تقتل الأوقية منه ٧٥٠٠٠ كلب

« صاح بارنج : « فى هـذا الدم لا شك يوجد الترياق الذى يحمى هذه الخلائق ، وفيه لابد أنا واجده ! »

وكان لا بد له من الحصول على شئ من هذا الدم ، ولكن لم يبق لديه من هـذه الخنازير الحصينة شئ ، أو لم يكد يبقى منها شئ ، فعمد إلى خنزير قديم منها كان استنزف دمه مراراً ، فشق رقبته يبحث عن الشريان الذى يمص منـه الدم فوجده انبدم ؛ أو كاد من كثرة ما عاوده . فأخذ ينكش حتى حصل على بقية قليلة من الدم جاء بها من شريان فى رجل هذا الحيوان . له الله من حيوان جدير بنا أن نذكره بالحسنى . لقد قاسى بارنج فى أيام هذه التجارب ألماً نفسياً كبيراً ، كما قاست حيواناته ألماً جثمانياً كبيراً . فلو أن رحمتنا تُقسّم بينهما ، بين بارنج وحيواناته ، ما درينا أيهما أحق بأ كثرها . كان يستيقظ كل يوم فيذهب تواً إلى معمله وهو متوتّر الأعصاب ليطمئن على حياة هذه الخنازير الحصينة ، هذه الخنازير القليلة المتناقصة التى لا تُشترى بمال ....

وعلى كل حال حصل أخيراً على قطرات قليلة من مصل حصين . فزجها فى أنبوبة من الزجاج بمقدار كبير من حساء كان ربّى فيه مكروب الدفتريا لكى يبث فيه من سمه . ورشح الحساء قبل مزجه بالمصل ليخلص من المكروب

وحقن من هذا الحساء الخليط فى خنازير غينية جديدة غير محصّنة — فاذا بها لا تموت

صاح بارنج : « صدق جوتيه Goethe الشاعر العظيم حين قال : « إن الدم غصير غريب »

وأخذ يستعد بعد ذلك لتجربته الحاسمة الشهيرة ، وعين كوخ الامام الأكبر لا تبرح تنظر اليه ، وتجمعت حوله تلك العصابة الصغيرة المجنونة من رفقائه فى ذلك المعمل ، وازدحموا وقد انحبست أنفاسهم فى انتظار ما قد تتمخض عنه هذه التجربة الكبرى ، فخلط سم الدفتريا بمصل أتى به من دم خنزير سليم لم تصبه الدفتريا يوما ، ولم يتحصن منها أبدا . ثم حقن بهذا السم الخليط فى خنازير جديدة ، ففعل فعله المنتظر فيها . ولم يعقه عن ذلك المصل الذى خالطه ، فساء حالها بعـد ثلاثة أيام وسرى فيها برد الموت . ووضعها على أظهرها ووكزها ولكنها لم تبد حراكا ، ولم تمض ساعات حتى لفظ آخر أنفاسها وذهبت إلى حيث يذهب الأموات

فصاح بارنج : « إن مصل الخنازير الحصينة — مصل الخنازير التى أصابتها الدفتريا ثم اشتفت منها — هذا المصل وحده هو الذى يقدر على محو سمّها . وكأنى بك تسمعه يتمتم لنفسه وهو المداوى الكبير : « والآن فلعلى قادر على تحصين حيوانات أكبر ، فاستخراج مقادير أكبر من هـذا المصل الذاهب بسم الدفتريا ، وعندئذ آخذ فى تجربته فى الأطفال المصابين ..... إن الذى يشفى الخنازير الغينية لا بد أن يشفى الأطفال »

فى العدد القادم : بارنج يجرب مصل الدفتريا فى الأطفال — أحمد زكى

حِيَلُ الضمير

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

الضمير عند بعض الناس ترس الخائف الذى يحتمى بمجنه ، وهو عند غيرهم سلاح الصائل ، وعند آخرين آلة نصب واحتيال ، وعند غيرهم بمنزلة الثياب الجدد التى يلبسونها أيام الأعياد والمواسم والصلوات ويخزنونها فى الأيام الأخرى وهو تارة كالمصباح المنير وترى كثيراً من الناس يكثرون من ذكر ضمائرهم أو يفعلون ما هو أدهى من ذلك فيكثرون من ذكر العدل والحق ، وهى لقيمات يطربها كل منهم ويود أن يضعها فى فم غيره ، وهى أحمال وأثقال يمدحون الاضطلاع بها وكل يود أن يضعها على كتف غيره أو على عنقه ، وما ذلك إلا لأن الناس ينشدون السعادة ، والسعادة لا تكون إلا إذا اصطلح شر الحياة وضمير الانسان ، وإذا اصطلح المثل الأعلى ومثل الحياة الدنيا ، وقد يكون فكر المرء وقوله خيراً من خلقه وفعله ، لأن أعمال المرء رهينة باحساســه لا بفكره وقوله ، وقد يكون فكره نبيلاً وقوله جليلاً ولـكن إحساسه يدفعه إلى سبيل غير سبيل هذا النبل والجلال فى القول والفكر

ولـما كانت الرذيلة أحوج الأشياء إلى مظاهر الفضيلة عم الـكذب والرياء بين الناس انتفاعاً بمظاهر الفضيلة وحقيقة الرذيلة من كسب أو متعة . وهذه المظاهر تجوز على الناس ويحسبونها فضيلة أو هم يدعون الانخداع لهـا رغبة فى التقرب إلى صاحبها والانتفاع برضائه عن انخداعهم بظواهر نفسه ، وهذا منشأ انقلاب أوضاع الحياة ، وهم يطلبون منه أن يدعى الانخداع بظواهر نفوسهم كما ادعوا الانخداع بظواهر نفسه ، والمسألة كلها مسألة كسب يتبادل فيتعاونون على الحياة بتزكية كل منهم الآخر

وللضمير وسائل أخرى لتزكية النفس كأن يخلع صاحبه عيوب نفسه على غيره ، ويلج فى معاداته كى يبرئ نفسه فتكون لجاجته فى خلع عيوبه على غيره دليلاً على عيوبه كما تكون لجاجة الأجرب فى الحك دليلاً على موضع الجرب منه فى نظر الطبيب

وكثيراً ما يتمحل الضمير الأعذار من أجل رغبة صاحبه فى الأذى ولذته فى الاساءة إلى الناس ، وعوامل الشر فى نفس المسىء قد لا تكون فى حاجة لمسوغ يثيرها ولكنها تكون فى حاجة إلى فرصــة تستخدمها حتى ولو لم يكن لهـا مسوغ ، فان مسوغ الاساءة فى كثير من الأحايين فى نفس المسىء لا فى عمل من أسىء إليه لأن كثيراً من النفوس بها شهوة إلى الأذى إذا أرضتها أحست راحة وسعادة فى إرضائها ، غير أن بعض شهوات الأذى لا يرضيها إلا ما أرضى نفوس قدماء الرومان عند رؤية الوحوش تفتك بالأجسام ، وبعض شهوات الأذى تكتفى بالغيبة والنميمة والـكذب ، وعواقب هذه قد لا تقل عن عواقب تلك جرماً وجناية وإن كان صاحبها لا ينعت بالمجرم الجانى وإن كان ضميرها أهنأ الضمائر بالاً وأروحها خاطراً

والضمير كثيراً ما يكون فى الحياة كالسفينة الصغيرة فى البحر المحيط الذى هاجته الأعاصير فقـد لا تغرق السفينة كما لا يغرق الضمير ولـكنها تضطر أن تسير فى مهب الأعصار كما يسير الضمير فى مهب أعاصير الميول النفسية وما تقتضيه من كذب ونفاق

والـكسب والجاه والصداقة والغرور هى العقاقير التى تخدر الضمائر بها ، وهى البلسم الذى تداوى به آثار وخزاتها ، وهى المادة اللزجة التى تطلى بها الضمائر كى يصطاد بها أصحابها طيور السعادة واللذات والمكاسب كما تطلى الغصون بتلك المـادة اللزجة التى تلتصق بها العصافير على غصون الأشجار ثم يأتى الصائد فيجمعها أو هى المـادة اللزجة الأخرى التى يطرد بها الذباب اللاذع المسمى بخواطر التأنيب والوخزات

ومن أجل ذلك كثيراً ما ترى ضمير المرء عوناً للجانى الذى يرجى نفعه أو جاهه أو وده أو يرجى منه ارضاء غرور صاحب الضمير الناصر له . والناس فى سرائرهم يعرفون أن ضمائرهم ليست دائماً مصباح الهداية الذى يدعونه ، والانسان يتجنب فحص نفسه والبحث عنها ، وإذا كلف أو دفع إلى ذلك حاول التخلص من فحص نفسه فيقلب فحصها إلى حديث فيحدث نفسه أو يحدثه ويمنيها أو تمنيه ، ثم يعود فيقول إنه فحص نفسه وهو قلما يفعل ذلك إلا إذا دهمته مصيبة تجعله يشك فى نفسه فيفحصها فاذا لم تدهمه مصيبة تجنب فحص نفسه إلا إذا كان مريضاً بداء الخوض فى النفس وفحصها وقد يكون مرضاً إذا اسـتفحل وعم وتطلب منه كل وقته ، ولـكن مرض البحث فى النفس هذا مرض نادر فى الناس وأكثرهم لا يبلغ به البحث فى نفسه منزلة صغيرة

أو كبيرة ولو أن هذا البحث فى النفس أصبح عادة لقل شرهم من غير أن يمنعهم بحثهم من الاقدام فى الحياة إلا إذا استفحل وهو قلما يستفحل فيدعوهم استفحاله إلى الشك والتردد والاحجام واتهام النفس فى كل أمر

ولولا أن الناس يعلمون عن عيوب ضمائرهم وضمائر الناس الشيء الكثير الذى يحاولون إخفاءه ما كثر سوء ظنهم بالنفس الانسانية ، ومن العجيب أنهم يحاولون جعل حسن الظن بالنفس الانسانية مبدأ عاماً وهم فى سريرتهم يسيئون الظن بكل نفس من نفوس الناس ، وهذا الاختلاف بين المبادئ النظرية والمعتقدات العملية أمر تشوق دراسته ، والقصد من تلك المبادئ النظرية حمل الناس عليها للانتفاع بها لأن كل إنسان يود أن يحسن غيره به الظن وأن يسيء هو الظن بغيره ، ومن عجائب الضمائر أنها قد تغرى أصحابها بأن يعتقدوا إذا حلت بأعدائهم مصيبة أن المصيبة حلت بهم لأنهم أعداؤهم

والخبرة بالضمائر ينبغى أن تحذر المرء إذا رأى متخاصمين فلا يقول إن أحدهما فاضل ذو حق والآخر ناقص ذو باطل ، فقد يكون كل منهما على حق أو على شيء من الحق أو على باطل ، وقد يكون الأكثر حقاً هو الأكثر حظاً من الفضيلة ، أو بالعكس قد يكون الأكثر حقاً هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، وقد يكون الناصر للحق والفضيلة بشعوره وعواطفه وبيانه هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، ولكن النفوس قلما تتقصى كل هذه الأمور ولا أهون عندها من أن تحكم بغير علم وأن تورط ضمائرها فيما حكمت فيه بغير علم ، ومع هذا التورط فان الناس قد يعرفون أن جليسهم غدار مغتاب بذيء اللسان فلا يمنعهم يقينهم وعرفانهم من مؤاخاته ، وتتغابى ضمائرهم وتتعامى عن عيوبه وعن شره وقبح نفسه مادام مرجو النفع ، فضمائرهم تتورط فى الحكم بغير علم وتمتنع عن الحكم على علم

وفى الخليقة صنف آخر من الضمائر تكون أسقاماً عند أصحابها وتعظم عيوبهم فى أعينهم ، وهذا مرض نادر مثل مرض إيغال المرء فى فحص نفسه

وضمير صاحب الشعور النبيل له أن يطالب بألا يعاقب على نبل شعوره ولكن ليس له أن يطلب جزاء أو شكوراً ، اذا كان جزاؤه فى نبل شعوره واذا كانت مسرته فيه وشقاؤه فى غيره

عبد الرحمن شكرى

النيـــــل

أبرز «شخصية» فى العالم

عن مجلة «آمال» الفرنسية

إن المشكلة الحبشية مهما يكن حلها هى فى الحقيقة وليدة معضلة النيل وذيولها الخفية

سُئل مرة الكولونيل لورنس : «أية شخصية فى العالم أكبر نفوذاً وأعظم شأناً ؟» فأجاب هذا الرجل الغريب الذى يعد أكبر مخاطر فى عصرنا بكلمة واحدة هى : النيل

إن فى جواب لورنس ما يدعو لأول وهلة إلى الاستغراب لأنه أنزل النهر منزلة العاقلين وجعل منه «شخصية» بارزة ، ولكنه لم يخرج بتحديده وتعريفه عن اعتقاد قدماء المصريين فى النيل ، فضلاً عن أن للكولونيل لورنس ولكل انكليزى سبباً يحمله على مجاراة الأقدمين فى اعتقادهم . وهذه الرواية التى تمثلها إيطاليا وانكلترا ويخشى أن تنتهى بمأساة عالية ، أليس بطلها هذا النيل ، بل هذه الشخصية المقدسة التى عبدها الانسان قديماً ولا يزال يعبدها إلى اليوم ؟

ما فتئت بريطانيا العظمى منــــذ أنشأت امبراطوريتها الاستعمارية تطمع فى السيادة على البحار ، وفى التسلط على أهم المعابر البحرية حتى تم لها ذلك ؛ ففى قبضتها الآن كل المغاليق التى تؤمن مواصلاتها بتلك الامبراطورية المترامية الأطراف ، وأخصها الهند كبرى مستعمراتها وأغناها وأصعبها مراسا

أدركت انكلترا منذ حملة بونابرت على مصر أن تأمين طريق الهند يقضى ببسط نفوذها على بلاد الفراعنة دون أن يشاركها فيه أحد . ثم جاء فتح قنال السويس باعثاً آخر على تشبثها بهذا النفوذ . ومن تدبر سياسة انكلترا فى خلال قرن كامل رآها تدور كلها على محور واحد ، هو سلامة طريق الهند . فكل شبح تتخيل فيه ما يمس هذه السلامة عاجلاً أو آجلاً حاذرته وسعت إلى طمسه . هكذا فعلت وكذا تفعل الآن فى موقفها السلبى تجاه الغزوة الايطالية

إن الانكليز الذين يقبضون فى السويس وعدن على مغلاق

البحر الأحمر لم يزعجهم وجود إيطاليا فى اريتريا ، ولكنهم وجفوا إذ رأوا موسوليني طامعاً في البلاد التي ينبثق منها النيل الأزرق ، ولذلك نراهم يلجأون الى كل الوسائل لاحباط مساعي الرجل الذي يحلم باعادة الامبراطورية الرومانية

النيل واهب الخيرات

النيل اذن شخصية كبيرة كما عرفه الكولونيل لورنس ، وقد يكون أكبر شخصية في تاريخ الشعوب التي عمرت شواطئ البحر المتوسط . قال هيرودوت قديماً : « مصر هبة من هبات النيل » وهذه حقيقة لأن مصر قيمتها بنيلها ، ولولاه لكانت مفازة قاحلة لاشأن لها ، فهي شقة من الأرض تمتد من النوبة الى الدلتا ويجري فيها خط طويل دائم الاخضرار ، ولولا هذا المجرى الحيوي الذي ينساب في أحشائها ويروي غليلها لما كان للانسان والنبات والحيوان حياة فيها ، لأنها لا تعرف المطر إلا نادراً

في شهر يونيه ترتفع مياه النيل فتفيض على الأراضي ناثرة عليها طبقة من الغرين الذي يعد من أحسن أنواع السماد . ويبلغ معظم فيضانه في أول أسبوع من شهر أغسطس ، فترتفع مياهه إلى ستة أمتار ، ثم تتناقص تدريجاً فيأتي الفلاح ويشق وجه الأرض بسكته التاريخية التي تشابه سكة سلفه منذ ألوف السنين ويستغل خيراتها في شهري ابريل ويونيه

جعل النيل من مصر بلداً خصباً غنيا ، فلا غرو أن سبق المصريون الأقدمون شعوب الأرض في ميادين الحضارة والثقافة . كانت مصر موطناً لثماني عشرة سلالة من الفراعنة قبل ظهور موسى ، وكانت مسرحاً للحوادث التاريخية الكبيرة قبل أن تظهر للوجود أشور والفرس واليونان . ثم كانت مقصداً لطلاب العلم والفلسفة والثقافة من جميع الأنحاء ، فهي إذن كانت مهذبة الانسانية وحاملة نبراس المدنية في العصور القديمة

ولكن الى أي شيء يعزى تفوقها في تلك العصور التي كانت شعوبها في حالة البربرية ؟ كلمة واحدة تجيب على هذا السؤال ، وهي : النيل

لقد تعلم المصري القديم كل شيء من نيله ، ولأجل نيله استنبط علم الفلك لكي يحدد أوقات الفيضان ، واخترع التقويم والحساب ، وعلم الهندسة والمساحة ، وانشاء السدود وشق الترع ، لكي يستثمر النيل وينتفع بخيراته . واننا لنجد ذكر النيل ورسومه في أساطير مصر وفي كتب دياناتها ، وفي كل شأن من شؤونها ، فهو من مصر كالروح من الجسد

منبع النيل :

أين منبع هذا النهر العجيب واهب الخيرات ؟

كان في اعتقاد الأقدمين أن مخرج النيل من جبال القمر ، وهذا الاعتقاد الذي يظهر لأول وهلة أنه وليد الخرافات مبني على حقيقة عرفت يوم اكتشف منبعه الأصلي ، وهي أن أصول النيل تخرج من أعالي « أوجاموازي » ، وهذه اللفظة معناها « بلاد القمر » . وقد ظلت هذه الأصول مجهولة حتى أواسط القرن الماضي ؛ وحاول كثيرون من الرحالة أن يهتدوا الى منبع النيل فلم يظفروا بطائل ؛ فمحمد علي أوفد ثلاث بعثات بين سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤٢ ، فكان نصيبها الاخفاق ؛ والفرنسي دارنو لم يصل الى أبعد من الدرجة ٤٢ من العرض الشمالي ؛ والايطاليان مياني ودبونو ، والانكليزي بتريك ، والفرنسي لاجان ، لم يجاوزوا الدرجة الثلاثين . وظل منبع النيل سرا مجهولاً الى أن اكتشف الرحالة الانكليزي سبيك بحيرة تانجانيقا بين سنتي ١٨٥٧ و ١٨٥٩ فاذا هي مصدر النيل . وفي سنة ١٨٦٠ عاد يرافقه جرانت فحدد بتدقيق مخرجه . فمنبع النيل الأبيض اذن هو بحيرة تانجانيقا العظيمة التي تزيد مساحتها على ٧٠ ألف كيلو متر مربع ، وموقعها يعلو عن سطح البحر نحو ١٣٠٠ متر

يتألف النيل الأبيض من شلالات ريبون ، ويسير قاطعاً المستنقعات والقفار والبحيرات ، وضاما اليه بعض الأنهر الصغيرة حتى يصل أرض الفراعنة ، فينساب بين سهولها وحيدا لا يعترضه شيء الى أن يصب في البحر المتوسط . وطوله من منبعه الى مصبه ٦٢٨٠ كيلو مترا ، وهو أعرض من نهر الأمازون في البرازيل ، وأطول من المسيسيبي في الولايات المتحدة

أما النيل الأزرق فمصدره بحيرة تانا في الحبشة ، ويتصل بأخيه النيل الأبيض عند الخرطوم عاصمة السودان . وهو غزير المياه ولا سيما في فصل الأمطار في الحبشة . ومدته من يونيه الى أواخر أغسطس . ولولا النيل الأزرق لما أروى النيل الأبيض وحده أراضي السودان ومصر ، فهو اذن عامل كبير في حياة تلك

البلاد الواسعة ؛ ولا يمكننا أن نتصور مبلغ نكبة مصر بفقدانها هذا المجرى الحيوى

الحبشة والنيل الأزرق

إن بلداً كمصر يتوقف عمرانها بل حياتها على نهر، لا بدع أن يهتم أولو أمره قديماً وحديثاً بالموضع الذى يخرج منه هذا النهر ويراقبوه بعين يقظى . وكما يشغل اليوم بال الانكليز خطر تحويل مجرى النيل الأزرق إذا ما استولت على الحبشة دولة قوية ، كذلك كان يشغل أفكار الفراعنة منذ ألوف السنين مثل هذا الخطر . فكانوا يحاولون دائماً التسلط على الحبشة التى كانوا يدعونها بلاد كوش لكى يأمنوه . ولم يكن الأحباش أنفسهم غافلين عن هذه الفكرة ولكنهم لم يستطيعوا إخراجها إلى حيز العمل الكبير لافتقارهم الى الأدوات اللازمة ، وحتى اليوم لا يزال ضعف الامبراطورية الحبشية وتأخرها فى مجالى الحضارة ضمانة لسلامة مجرى النيل الأزرق . أما إذا استولت على الحبشة دولة أوربية صناعية مثل ايطاليا ، فما يمنعها غداً إذا أرادت أن تستثمر — كما تشاء — الثروات الطبيعية فى بلاد مساحتها نحو ضعفى مساحة فرنسا أن تحول النيل الى غير مجراه الحالى ؟

إن هذه الفكرة وحدها كافية لأن ترعب انكلترا التى ترى فى تحقيقها خراب السودان ومصر ، ولا عجب إذا رأيناها فى موقف الجد والحزم ازاء المشكلة الحبشية التى هى فى الحقيقة معضلة النيل وذيولها الخفية ؟

(ترجمة العصبة)

بعض ما يذكر

بعد الزهاوى !

بقلم عبد الوهاب الأمين

أصبح « الزهاوى » الآن فى رحمة التاريخ الذى لا يرحم ! ودخلت « كان » الخالدة عليه ، فليس يشار اليه الا بها . وذهب فى عالم الشعر والخيال ، بعد أن كان بشعره مرآة للحوادث المهمة فى حياته وحياة عصره

ولقد كان فى حياته — وما أشد وقع « كان » هذه ! — يتمتع بعطف شديد من طبقة الأدباء ، بقدر ما كان مغضوباً عليه من الطبقات المتعصبة ، ولقد يكون من المناسب أن أذكر الآن أننى كنت ممن نقدوا شعر « الزهاوى » بشدة ، وقد ساقنى الى ذلك وقتئذ اختلاف عصرى عن عصره بطبيعة الحال وبعد شقة التفاهم بين عاطفة شيخ من أدباء القرن التاسع عشر وميول شاب فى القرن العشرين لم يطمئنه ويرضه أدب لا يعبر عن ميوله ؛ وكنت فى ذلك الحين أترقب التشجيعين المعنوى والأدبى بنقدى ذاك ، فما راعنى الا ذلك اللوم والعتاب الذى فجأنى من جماعة كثيرين كانوا مجمعين على أحقية النقد ، غير أن ذلك لم يمنعهم من أن يقابلوه بشىء غير قليل من التذمر ! حتى لقد بلغنى أن أحد من كان بيدهم الأمر حينئذ أشار الى رئيس تحرير الجريدة التى كنت أشتغل بها أن يطلب منى الكف عن نقد « الزهاوى » ! وكنت فى ذلك الوقت اشتغل بالصحافة ، فلم يسعنى الا النزول على ذلك الطلب ، وكففت عن الكتابة فى تلك الجريدة ، غير أنى تابعت نقده فى غيرها !

***

لقد أوخذ « الزهاوى » على بعض عقائد له جاهر بها فى حياته ، وعرف له فيها كثير من الاغراق والتطرف ، كما أنه كان يجد على تطرفه هذا كثيراً من المشجعين . وفى رأيى أن المؤرخ الذى سيكتب تاريخ حياة «الزهاوى» جدير به أن ينظر فى هذا الأمر بدقة عند كتابته حياة الفقيد ، فعلى فهم هذه الناحية من

حياة « الزهاوى » يتوقف تقدير أدبه ومدى تأثيره . وماله وما عليه ، فلقد كان فقيدنا متطرفاً بالرغم منه . إذ أن ما اعتوره من الأمراض العصبية والأمراض الجسدية المزمنة ، جعله كذلك ؛ ومن هنا يدرك القارئ أن رأيه فى « اللذة والألم » الذى ناقشه فيه الأستاذ العقاد قبل سنين ، لم يكن مجرد اغراق منه كان يقصده للظهور بمظهر المخالف ، بل كان فى الحقيقة يمثل حالته النفسية والعصبية ، فقد كان يرى أن الألم فى الحياة أمر قائم بذاته ، وأن اللذة هى انعدام الألم ، وذلك طبيعى بالنسبة له ؛ فما كان يشعر باللذة فى حياته إلا فى الوقت الذى ينصرف فيه الألم الجسدى عنه !

وقد تنبه الأستاذ العقاد الى هذه الناحية عند التعقيب على تلك المناقشة (١) فأشار الى أنه لا ينكر أن « الزهاوى » يكابد من حياته ما له دخل كبير فى تمكين هذه العقيدة من نفسه

فالتطرف اذن هو الظاهرة التى تتركب عليها نفسية الزهاوى فى حياته الشخصية وحياته الأدبية ؛ واذا أدرك الناقد أو المؤرخ علة ذلك فى تكوينه وفى أعصابه ، فسيدرك بطبيعة الحال أن الاغراق والتطرف فى شعره قد يؤديان فى بعض الأحيان الى ظهوره بمظهر المنقلب على نفسه ، وعلى ذلك فليس فى شعر « الزهاوى » تناقض أو رجوع ، بل هى حالات نفسية جارفة تقلبت عليه فى وقتها فأنطقته بما خيل اليه أنه لا يتعارض وآراءه السابقة ، أو للتخلص من الضيق الذى سببته له بعض آرائه الجريئة ، كان يريد به تخفيف وطأة الطبقات المتعصبة عليه ؛ وفى هذه الناحية كان يبدو على شعره الشىء الكثير من التعمل الظاهر فيه حمله على نفسه ، وهنا لا يصح اعتبار مثل هذه الحالات ميزاناً للحكم على آثاره الأدبية والشعرية

* * *

يخطىء أشد الخطأ من يفاضل بين الزهاوى ومعاصريه من شعراء العراق ، فانه فضلاً عن سخافة فكرة المفاضلة لن تتوفر فيها الشروط الأساسية المطلوبة ، فانهم ليسوا « معاصريه » حقاً ولا يمتون اليه بصلة العصر . بل كان عمره المديد الملىء بخدمة الشعر والمساهمة فيه مثار الأشكال فى فهم شعره وحياته . فهو من بقايا القرن التاسع عشر ، وليس من رجال القرن العشرين ، وما كان بوسعه أن يخرج على نفسه فى هذا الأمر طيلة حياته

واذا كانت خطوات البشرية فى عصورها السابقة للقرن التاسع عشر قريبة المدى من بعضها ، واذا كان التشابه والتقارب بين تلك العصور موجودين فهما فى هذا العصر قد بلغا آخر درجات التباعد . وقد مرت مئات السنين على البشرية فى « عصور الظلام » فما كان لتلك السنين المديدة أن تؤثر تأثير بضع سنوات فى نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العشرين ، فيكاد هذان العصران يمثلان « سن الرشد » للبشرية والدهر ، ففيهما استيقظ الانسان وأحس وأدرك ، وظل كذلك يخطو بسرعة فائقة فى تقدمه حتى لقد كاد أن يكون من المشكل التفاهم بين الولد وأبيه ، كأن بضعة السنين التى بينهما قد أقامت بين تفاهمهما حواجز العصور :

من هنا يدرك القارئ السبب فى وجود هذا البعد الكبير بين نفسية « الزهاوى » وبين نفسية شباب اليوم (١) وسبب نقمتهم على أدبه ، ومع كل ذلك فقد أرضى « الزهاوى » كثيرا من نزعات الشباب وأفكاره ، ودافع عن تلك الرغبات دفاعاً شغل حياته الطويلة ووسمها بسمات لا يستطيع مؤرخه اهمالها ، فقد كان من مناصرى المرأة والسفور والتجدد ، وظل كذلك الى آخر حياته ، برغم ما جرته عليه هذه الأفكار من المتاعب له ، ومن هنا أيضاً تتضح لنا أهمية الرجل فى العصرين اللذين كان له نصيب الحياة فيهما ، ومدى تأثيره فى كليهما

* * *

وبعد فهل يحق لنا أن نتفاءل بهذه الحركة التى قام بها بعض المعجبين بأدب الزهاوى ؟ وهل لنا أن ننتظر منهم غير ما تعودنا انتظاره فى مثل هذه الحال من دراسة منتظمة لعصره وحياته وآثاره ، أم لا تزيد هذه الهيجة على نصب تمثال له فقط ؟

على كل حال ، اننا ننتظر ونأمل أن تتشكل لجنة من المعجبين بشعره من الأدباء لتدوين تاريخ حياته ، لأنه والحق يقال ، قد كون فى حياته فصلا كاملاً لحياة العراق فى ملتقى عصرين مهمين من حياة البشرية

(بغداد) **عبد الوهاب الامين**

---

(١) راجع فصل « اللذة والألم » فى كتاب مطالعات فى الكتب والحياة للاستاذ عباس محمود العقاد

(١) فى هذا الكلام نظر ؛ فان الزهاوى كان حريصاً على أن يساير شعره باطراد نزعات العصر . وقد جرؤ على أن يقول ما لم يقله شيخ ولا شاب . وللرسالة رأى فيه ستنشره عما قليل (الرسالة)

الحياة الأدبية فى فلسطين

للسيد محمد تقى الدين النبهانى

مدارس الأدب فى فلسطين مدرستان . مدرسة الشيوخ ومدرسة الشباب . ولا تستطيع وإن أجهدت نفسك أن تعثر بثالثة اللهم الا أثفية سفعاء . وهذا التقسيم قد يكون طبعياً بل قد يكون عاما لا يمتاز به قطر ولا تستأثر به بلد ؛ غير أنه فى فلسطين غيره فى سواها ؛ فأدب الشيوخ فى أكثر الأقطار مطبوع بطابع المحافظة على القديم حتى لدى المجددين منهم ، وأدب الشباب كلف بالجديد حتى لدى المعتدلين من هؤلاء . واليك مصر زعيمة الأدب العربى تكاد تخضع لهذا المبدأ بالقوة إن لم يكن بالفعل ؛ فالزيات وطه حسين وهما من دعاة التجديد لا تقرأ لهما لغة ولا تمر بفكرة حتى تقرأ ما بين السطور المحافظة على التراث القديم . أما فلسطين فأدباؤها الشيوخ مشتجرون وأدباؤها الشباب منشقون ، ولا تستطيع أن تلمس فرجة تتاح لك منها فرصة التوفيق ، وإنه ليهون عليك أن تجد بعض الجامع بين الشيوخ والشباب ويعتاص عليك التوفيق بين رأى الشيوخ أو رأى الشباب . ولعل ذلك ناجم عن جرثومة هذا الأدب وأن نهضته أسست على التقليد من غير أن تكون ملكة الاستقلال والنقد بارزة تميز صائب الرأى وتنفث خطله

ترى طائفة من الشيوخ أن الأدب فى رفض هذا النحو المألوف لدى العرب فى دراسة الأدب من إلمام بالقواعد ودراسة لجيد النثر ورصين الشعر ، وتذهب إلى أن كتب النحو وأسفار البلاغة من أمثال كتب الجرجانى والقزوينى حتى اليازجى وأسفار ابن هشام وابن مالك حتى الشرتونى والجارم يجب أن تحرق وينبغى أن تمحى ، وأن هذا الشعر وتلك الخطب التى قرضها أمثال حبيب ودبجها زملاء زياد لا يجوز أن نجعلها ثقاف أدب لعقول الأدباء ، وان لغة الصحف والكلام العادى الذى يكتب بعيداً عن الفن نائياً عن مقياس الأدب القديم هو التأدب الحق فكفى المرء أدباً أن يقرأ حتى لو أخطأ رفع المبتدأ ونصب الحال ما دام هو أو السامع قد فقه مغزى ما يريد . ويرضى من الكاتب أن يخط حروف الهجاء بكلمات تبين عن المعنى ولو مجملا حتى يضحى بعد مدة كل عربى قادراً أن يفهم الأدب اذا ما قدر أن يتلو الكلمة بعد معرفته ربط الحروف . وهذا رأى ينادى على نفسه بالخطل ويجعل القارىء فى شك من عقل صاحبه أو حسن نيته . ومن المؤسف أن نقول إن من القائلين به مفتشين فى المعارف وطائفة فى أيديها أمر اللغة العربية فى المدارس ، ولا نود ذكر الأسماء لأنا نخشى أن يظن ذلك منا هجاء

وتزعم طائفة أخرى أن الأدب فى التضلع من غرائب الكلم من مثل مبرنشق ومصمئل ، وأن من لم يحط علماً بذلك ويستوى على شعر تأبط شراً وذى الرمة ويستظهر خطب المأمون الحارثى ومقامات الحريرى لا يسمى أديبا

هذان رأيان من آراء الشيوخ وهما متناقضان ، فى أحدهما الهدم ، وفى الآخر الجمود ، لا تقوم بهما نهضة ، ولا يؤمل منهما إصلاح ، لولا أن هناك طائفة ترى وجوب السير فى نهج القديم والاستضاءة بضوء الحديث كرأى جمهرة الأدباء الذين أخذوا على عاتقهم حمل مشعل الأدب . وهذه الطائفة لها أثرها ولها أنصارها ، منها ذوو الطرابيش وأصحاب العمائم . غير أنه على غبطتنا بالطائفة الأخيرة ومقتنا للطائفة الأولى نقول : إن هذه الطائفة المعتدلة تقصر عملها وتحصر نهضتها فى غرف الدرس وحلقات السمر ، لم تخرج بعد ثمرة ولم تقم بمجهود ، وأن الاكثار انما هو لأولئك الهدامين ، يكتبون ويتحدثون بما يرون بما لا يكاد يصح أن يسمى لغة عربية ، ولا يكادون يقيمون لسانهم لحناً اذا ما تحدثوا دقيقة أو دقيقتين ، ولكنهم على ذلك مكثرون وعاملون ما سمحت لهم المقادير

وطائفة الغريب منتجة غير أنه قليل ، وعلى قلته لا يجد رواجا ولا ينفق الا فى سوق الراسخين

أما الشباب ففرقتان : فرقة كان موطن ثقافتها مصر ، وفرقة رضعت لبان الأدب فى فلسطين ولبنان ، وبذلك تباينت عقليتهما وانشقت آراؤهما

فالذين تثقفوا فى مصر يرون أن خير طريق لانهاض الأدب هى الطريق التى تسير فيها جمهرة أدباء مصر ، وهى أن تربية ملكة

الأدب فى دراسة نصوصه ونقد هذه النصوص وبحثها على المقياس الذى وضعه أولئك العلماء الذين أشفقوا على اللغة أن تضيع وخشوا فسادها على ضوء ما يجد من الآراء الصائبة وما يشرق من طرق البحث الأدبى القويمة . ولذلك تجد هؤلاء يتقلبون بين صفحات الأسفار ويأرقون لتحبير الرسائل والكلمات وينتقلون بين المدن والدساكر ، يستملحون البيت من الشعر ، ويهشون للفقرة من النثر ، ويهتزون طرباً لرؤية كتاب حديث يلتهمونه التهاماً ، ثم يوسعونه نقداً ، وينتقون ما يصح من رأى حصيف . وهؤلاء هم الذين يجاهدون فى النهضة ويضعون أنفسهم حراس الأدب . يحيطون علماً بسيره فى سائر الأقطار ويستلئمون لرد غارة دعى ، وصد هجمة متطفل على الأدب يكيد له . ومهما لاقوا من عنت ووجدوا من قسوة ، لا يأبهوا لما يكون حتى من أشد الشظف ، ويؤيدهم فى ذلك جمهرة من إخوانهم الذين تثقفوا فى لبنان ، وإن كان يكون بينهم نزر الخلاف

أما الفرقة الأخرى فهى تقصر الأدب على رقيق الغزل وبارع الخيال فى الكلم ، وما يدع من مقالات الصحف السيارة . حتى ليعدون رئيس تحرير جريدة أديباً إذا ما أنشأ كلمة فى علاج شؤون البلاد ؛ وهؤلاء يريحون أنفسهم من عناء الدرس ، اللهم إلا فى كتاب حديث أو جريدة يومية ، أو مجلة فكاهية ، وجل مجهودهم قصيدة غزلية أومقالة اجتماعية ينشرونها فى نهر جريدة ما . وهؤلاء لا نشك فى عقلهم ولا نرتاب فى نيتهم ، وإنما ننقد رأيهم وندعى أن الميل الى الراحة ومتابعة الأهواء والجرى وراء غرائزهم هو الذى حدا بهم أن يسيروا فى هذا النحو ، وأن يعتنقوا هذا المبدأ ، ولعلهم بعد يؤوبون إلى الحق أثناء سيرهم فى قافلة النهضة السائرة ، وانه وان كثر أنصارهم باتخاذهم أصحاب الصحف أصدقاء ، وباعتبالهم فرصة هذه الصداقة لجعلها بوقاً لهم يرضون به غريزتهم وينشرون رأيهم ؛ فهم أمام قوة الأدب الصحيح يضعفون ويضمحل معين أدبهم فانه سينضب ، وحينذاك يعلمون حق العلم انهم كانوا فى وادى الضلال يعمهون ، ومن ملح أجاج كانوا يشربون ويسقون

ولا يعجبن القارىء من عرض هذه الصورة ولا يدهش لهذا الاضطراب فى الحياة الأدبية فان المقادير تضافرت على خلق هذا الاضطراب ، وإن اختلاف السياسة خلق هذا التباين . ففلسطين كان أدبها معدوماً وكان أدباؤها غير مخلوقين قبل سنين ، فالأتراك كانوا يتآمرون على الأدب العربى حتى فى مصر ، فما بالكم فى فلسطين ؟ والأزهر كان حرباً على الأدب ذاك الوقت وخاصة مع الأغراب ، وجامعات مصر كانت تقفل أمام الفلسطينيين ، والحرب العامة كان لها أكبر الأثر ففتحت البلاد عينها على بقية من القدماء وجمهرة من الدخلاء ثم أصبحت فلسطين منتدباً عليها أومستعمرة ، وقام على شؤون التأديب غرباء عن الأدب ، فكان ذلك الركود ووجد ذاك السكون فى أوائل العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجرى إلى أن فتحت جامعات مصر على مصراعيها لأبناء فلسطين واتجه الأزهر يعنى بالأدب ليتاح له تأدية رسالته ، وحضنت لبنان أبناء هذا البلد فرجعت جمهرة من الشباب اصطدمت بالقدماء واصطدم بعضهم ببعض فكان هذا الاضطراب وكانت هذه الحياة الأدبية المضطربة التى أظهرنا لك صورة مصغرة ذاتية من الحقيقة وإن كانت المقادير لم تسمح بأن تكون هذه الصورة أقرب إلى الحقيقة وأوضح مما قدمنا

. . . بيد أن هذا الاضطراب والاحتكاك يلمع ببرق أمل فى النهضة الأدبية ويبشر بانتظام حياة أدبية يجهد الشباب لايجادها ويستميلون معتدلى الشيوخ وأنضجهم آراء ، وما هى إلا لمحة حتى تتغير الحياة غير الحياة وتزهر رياض الأدب فى هذه البلاد العربية وتؤتى أكلها ثمراً شهياً

(حيفا) **محمد تقى الدين النبهانى**

شكوى الى الله

وداع . . .

هذه خطبة معلم فرقوا بينه وبين أولاده فودعهم بها ووصاهم وبكاهم ، وإنى لآسف أن يكون فى صاحبنا المعلم الأديب هذا الضعف وهو يدعو إلى أدب القوة ، ولـكن ما ذا يصنع ؟ أليس له قلب ؟ أليس بإنسان ؟ . . .

أولادى !

انتظروا ! لاتخرجوا كتبكم ، ولا تفتحوا دفاتركم ، فما جئت لألقى عليكم درساً ، وإنما جئت لأودعكم . إن الوداع صعب يا أولادى لأنه أول الفراق . وما آلام الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق : فالموت فراق الحياة ، والثكل فراق الولد ، والغربة فراق الوطن ، والفقر فراق المال ، والمرض فراق الصحة . . .

إن الوداع صعب ولو الى الغد ، فكيف إن كان المودَّع صديقاً عزيزاً ، فكيف إن كان ولداً ، فكيف إن كانوا أولاداً ؟

أنتم أولادى ، أولادى حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء ، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال ، ولـكن تنطق بها كل جارحة فى ، وأحسها من أعماق قلبى !

ولم لا ؟ ألستم تحبوننى وأحبكم ؟ ألم أفكر فيكم دائماً وأخاف عليكم ؟ ألم ترونى آلم إذا تألم أحدكم ، وأثور إذا تعدى أحد عليكم ؟ ألم أفتح لـكم قلبى حتى اطمأننتم إلى وأنستم بى ، وخرقتم حجاب الخوف الذى كان بينى وبينكم ، كما يكون بين كل معلم وتلاميذه ، وغدوتم تدعوننى لأشاركـكم فى ألعابكم ، وتقصون على أخباركم وتبثوننى أحزانكم ، وتنبئوننى بأسراركم ، وتشكون الى مايصيبكم من آبائـكم وأهليكم ؟ فأى صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة ، وأى سبب أقوى من هذا السبب ؟

أنتم أولادى . فهل رأيتم أباً يودّع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه ؟ لقد شغلتم نفسى زماناً ، وأخذتم علىّ مسالكى فى الحيـاة ، فلا أرى غيركم ولا أفـكر إلا فيكم ، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة ، عن الصداقة الـكاذبة ، والود المدخول

فكيف أقدر أن أملك نفسى وأنا أقوم بينكم لألقى عليكم كلماتى الأخيرة ، ثم أمضى لطيتى لا أدرى أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبداً ؟ . . .

أما أنتم فاملكوا أنفسكم — لا تحزنوا ولا تأسفوا ولا تبكوا لأنى علمتكم كيف تكونون فى طفولتكم أكثر منا فى شبابنا رجولة وصبرا — ونشأتكم على القوة التى فقدناها ، والبعد عن العاطفة التى ربينا عليها ، وانكار الألم الذى لا نزال نهرب منه ، والمغامرة التى نكرهها ونجهلها لأرى صبركم فى مثل هذا اليوم

انكم الآن تجتمعون حولى ، ولـكنكم ستتفرقون فى المستقبل ، وستنثرون على درجات السلم الاجتماعى نثراً ، وسيكون منكم الغنى والفقير ، والـكبير والصغير ، والتاجر والصانع ، والموظف الـكبير ، والمدير والوزير . ولـكن قلبى سيتبعكم . وحياتى ستمتد فيكم ، ومبادئى ستبقى فى قلوبكم ، لا تستطيعون أن تتناسوها ، وكلماتى سترن فى آذانكم لا تقدرون أن تتغافلوا عنها ، وستسمعونها تدعوكم باسم الواجب فى ساعات الهوى ، وباسم الحق فى جولة الباطل ، وباسم الفضيلة فى غمار اللذة . فطوبى لمن لبّى وسمع واستجاب ، وويل لمن نسى وأنكر وأعرض واستكبر !

إننى لقنتكم مبادئ الحق والفضيلة ولـكنكم ستجدون فى تطبيقها عناء كبيراً ؛ ستجدون أول خصومها معلميكم فى المدرسة وأهلكم فى البيت ورفاقكم فى الطريق ، فالسعيد السعيد من ثبت على الحق ، وأوذى فى سبيله ؛ والبطل من درأ بصدره السهام عن أمتـه ، وأطفأ بدمه النار التى تحرق وطنه . ان فى إمتكم طاعوناً أخلاقياً مروعا أصيبت به منذ خمسمائة سنة فذلت واستكانت ، وفقدت عزتها وصبرها وقوتها ، وقد جاء الوقت الذى تبرأ فيه الأمة . انها لن تبرأ إلا على أيديـكم . . .

لقد دللتكم على الطريق ، ووضعت فى أيديكم مفتاح النجاح ، فعلمتكم فضائلى كلها مع ما عرفت من فضائل ، وجنبتكم نقائصى كلها مع ما عرفت من نقائص ، فاحترمتكم لتحترمونى ، وأخطأت أمامكم لتردونى ، ورجعت عن خطئى لتتعلموا منى ، وأنصفتكم من نفسى لتنصفوا الناس من نفوسكم ، وعلمتكم معارضتى إذا جرت لتتعلموا المعارضة لـكل جائر ، ولم آت

فى ذلك بدعا . فهذه مبادئ الاسلام الذى علمتكم اتباع سبيله ، والوقوف عند أمره ونهيه والفخر به ، والجهر باتباع شعائره ، وربيتكم على الطاعة فى غير ذل ، والعزة فى غير كبر ، والتعاون على الخير ، والثبات على الحق ، والقوة فى غير ظلم ، والنظام الكامل من غير أن يفقدكم النظام شخصياتكم واستقلالكم

كنت أذكر ما كنت أستاء منه فى المدرسة مما كان يصنع معنا معلمنا ، فلا أصنع معكم منه شيئا : كنا نفر من المدرسة لأننا لا نجد فيها إلا جباراً عاتيا ، عبوس الوجه ، قوى الصوت ، بذىء الكلمات ، فجعلتكم تحبون المدرسة لأنكم تلقون فيها أباً باسماً شفيقاً يحبكم ويشفق عليكم ، ويحرص على رضاكم كما يحرص على نفعكم

وكنا نكره الدرس لأننا نجده شيئاً غريبا ، وطلاسم لا نفهمها ولا ندرك صلتها بالحياة ، ونعاقب على إهماله ، ونجازى على الخطأ فيه ، فجعلتكم تحبون الدرس لأنكم ترونه سهلاً سائغا ، تدركون صلته بحياتكم ، وفائدته لكم ، وتحفظونه لأنه لازم ومفيد لا خوفاً من العقاب ولا هرباً من الجزاء

وكنا ننتظر المساء لننجو من المدرسة ، لأننا نسجن فيها سجنا ، لا نستطيع أن نميل أو نتلفت أو نتكلم ، ولا نسمع من الأستاذ إلا عبارة الدرس المبهمة وألفاظ الشتائم المؤلمة . فجعلتكم تكرهون المساء لأنه يفصلكم عن المدرسة التى تقولون فيها ما شئتم من طيب القول ، وتفعلون ما أردتم من صالح العمل ، وتقرأون مازلتم نشيطين للقراءة ، فاذا مللتم من الدرس سمعتم قصة لطيفة ، ونكتة حلوة ، هى أيضاً درس من الدروس ، ووجدتمونى أحادثكم كما أحادث الرجال لا الأطفال . كنا نشعر بأننا أذلاء فى المدرسة لأننا لا نقدر أن ندافع عن حقنا ، أو نطالب بما لنا ، وإذا قلنا كلمة فالعصا نازلة على رءوسنا ، أو رددنا على المعلم لفظة ، فالبلاء مستقر على عواتقنا ، فجعلتكم أعزة أحرارا ، تدافعون عن حقكم ، وتطالبون بما لكم ، ولكن بأدب واحترام ، واتباع لقوانين المجتمع وأنظمة المدرسة ...

* * *

أتذكرون يوم جئتكم كيف كان أكثركم يأتى إلى المدرسة بادية أفخاذه ، مرجلاً شعره ، فى جيبه مشطه ومرآته ، وكمّته (بيريه) على رأسه . تفخرون برقتكم ، وتمتنون بجمالكم ، وتتخلعون فى مشيتكم ، ولا تجدون من معلميكم إلا إقرار ما تفعلون ، واستحسان ما تأتون ، لا تربطكم بالاسلام إلا رابطة الاسم ، ولا بالعروبة إلا صلة الجنسية ، ولا تعرفون من تاريخكم ما تعرفون من تاريخ الحثيين والآراميين الذى قرأتموه مفصلاً قبل أن تدرسوا سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن تعلموا من هو أبو بكر ، وقبل أن تسمعوا باسم معاوية . فعلمتكم أن فخر الرجل بقوته وعلمه ، واعتزازه بدينه ولغته . فاشتدت أعصابكم ، وقويت نفوسكم ، وتنبهت عزائمكم وصرتم تمشون كالأسود ، وتلعبون كالعفاريت . وتطالعون كالعلماء وتفكرون كالفلاسفة ، وتراقبون الله كالصديقين ، وصرتم وأنتم فى هذه السن تهيئون محاضرة فى عشرين صفحة عن عمرو بن العاص ، أو عبد الملك ، أو عبد الرحمن الناصر ، وسمعتم أن فى الدنيا علوماً اسلامية ، واستقر فى نفوسكم أن هذه العلوم وهذه الحضارة وهذا المجد ، لا بد لها من بعث كالبعث الأوربى (الرينسانس)

ولكنكم لا تستطيعون يا أولادى أن تفهموا التضحية التى قدمتها من أجلكم . لأنكم لم تعرفوا قبلى هذا الطراز من المعلمين ، فحسبى أن أخبركم أننى أشتغل بالأدب . أعنى أن لى نفساً تشعر وتحس ، وتألم وتسر ، وتغضب وترضى ، وتثور وتهدأ ، وتأمل وتقنط ، وأن لى غاية فى الحياة أكبر من هذه الوظيفة . وأننى أهم بأشياء غير صفّارة الناوب ، وعصا التأديب ، وحفظ النكات الباردة لتقطيع الوقت بها ، ولف رجل على رجل فى عظمة جوفاء لانتظار الدرس . . .

ذلك أننى أغدو إلى المدرسة كل يوم وفى نفسى عشرات من الصور والأفكار ، أبنى منها هياكل فخمة لآثارى الأدبية القيمة التى لم أكتب منها شيئاً بعد فاذا بلغت المدرسة ونشقت هذا الهواء الملىء بجراثيم البلادة والخمول ، طار من رأسى كل شىء ، وأحسست أنى غدوت حقيقة معلماً أولياً

أجل . لقد ضحيت من أجلكم بفكرى ونفسى . . خسرتهما من أجلكم ، وهأنذا أخسركم أنتم أيضاً

إنكم لا تعلمون أىّ فراغ سيدع فى نفسى فراقكم ،

وتحسبون معلمكم واحداً من هؤلاء البشر الآليين الذين يذهبون ويجيئون ويعملون ويتركون ، ولكن بلا قلوب . فسأقصّ عليكم قصة وقعت لى منذ أسبوع :

كان اليوم عطلة وكنت أرقبه من زمن بعيد لأستريح فيه من هذا العناء الذى هدّنى هدّاً وطمس بصيرتى ، وبلغ بى إلى الحضيض الفكرى ، فلما أصبحت عمدت إلى المطالعة فلم أفهم شيئاً ، ووجدت شيئاً يدفعنى إلى الخروج . فارتديت ثيابى وأنا لا أدرى أين أقصد ، فاذا أنا أمشى فى الطرقات التى أمشى فيها كل يوم . وإذا رجلاى تقودانني إلى المرجة حيث ركبت السيارة إلى حىّ السفح (المهاجرين)[1] إلى باب المدرسة . هنالك انتبهت ، وعدت إلى نفسى ، فاذا أنا لم أقدر أن أعيش يوماً واحداً بعيداً عنكم ، وإذا صوركم وبسماتكم الحلوة ، وشيطنتكم البريئة ، وصداقتكم الخالصة ، وأصابعكم الممدودة للسؤال قيد بصرى حيثما ذهبت !

ولكن لا عليكم منى يا أبنائى ، لا تفكروا فىّ ولا تحملوا همّى ، بل فكروا دائماً فى مبادئ علمتكم إياها ، واذكروا فى المستقبل أنى كنت أستاذكم ، وأنكم أحببتمونى وأحببتكم ، ولا تحقدوا علىّ أنى كنت أحياناً أقسو عليكم أو أعاقبكم ، فانما كان ذلك لفائدتكم

وبعد . فقوموا يا أولادى ، ودّعوا أباكم الذى لن تلقوه بعد اليوم ... ...

***

وخرج صاحبى من المدرسة ، مهدود الجسم ، خائر القوى ، فالتى عليها النظرة الأخيرة . فرآها من خلال دموعه ، مشرقة بهية ، كأنها ماسة تلمع فى شعاع الشمس ، ثم ولّى ... يفكر تفكيراً مضطرباً

***

هذه هى حياة المعلم ؛ يغرس غصون الحب فى قلبه فتمزقه بجذورها ، فاذا أزهرت جاءوا فنزعوها من قلبه ، فمزقوه مرة ثانية بنزعها : يأخذ المعلم أولاداً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، فلا يزال يجهد فيهم ، ليفهم طبائعهم ، ويألفهم ويحبهم ، ويقوّم اعوجاجهم ويصلح فاسدهم ، حتى إذا أثمر الحب الفائدة وآتى العطف بالمنفعة ، جاء ولاة الأمور فقطعوا بجرّة قلم واحدة هذه الأسباب كلها . وفرقوا بنقطة من حبر بين الأب وأولاده ، لا لشىء . بل لوشاية سافلة أو مؤامرة دنيئة . أو لاخلاء مكانه ليبوّأه بعض الملتمسين من ذوى الوساطات

وانطلق صاحبنا يهمس فى أذن نفسه :

إنى أشعر بالانحطاط والضعف ، وأحسّ كأنى شمعة قد انطفأت ، لم يكف أنهم أضاعونى وألقونى فى هذا الطرق حتى جعلونى أسبح فيه ، ثم أغوص إلى أعماقه ، بينما يمرح الأدعياء واللصوص بالعيون الصافية ويقطفون وردها وزهرها !

لم يبق لى أمل ... لقد سقطت فى المعركة قبل أن أنال ظفراً ، لقد بعت نفسى ومستقبلى وآمالى بتسعة جنيهات فى الشهر ثمناً لخبز عيالى ... أفكان حراماً أن أجدها من غير هذا الطريق ، ألم يكن بد من أن أموت لأعيش ؟ ..

استغفرك اللهم . فلا اعتراض ولا انتقاد ، ولكنما هى شكوى . أفيخسر المرء ماله فيشكو ، ويفقد حبيبه فيبكى ، ويرى آماله تنهار أمام عينيه ونفسه تذوب وحياته تنضب ومواهبه تذوى ولا يقول شيئاً ؟

إننى أشكو ، ولكن إلى الله ؛ فليس فى الناس من يشكى اليه !

(دمشق) (ع)

(١) كذلك كانت تسمى الصالحية قديماً

الألم ...

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

لست أسطيع أن أغير طبعى
يخلق الطبع مكرهاً يوم تخلق

أَنَا فى عُزْلَتِى يُطِيفُ بِىَ الرُّعْـ
ـبُ فَأَبْكِى مِنْ طُولِ شَجْوِى وَأَفْرَق

تَعْتَرِينِى الهُمُومُ فالطَّرْفُ حَيْرَا　نُ مُنَدًّى مِنَ الدُّمُوعِ مُؤَرَّق

وَجَنَانِى وَلْهَانُ يُرْمِضُهُ الحُـ　ـبُّ وَيَذْكُو بِهِ الجَوَى إِنْ تَشَوَّق

تَتَرَاءَى لِىَ الحيــاةُ قَتَامًا　ما بِهَا مَسْرَبٌ يَبِينُ فَيُطْرَق

وَيَلُوحُ الوُجُودُ قَفْرًا يَبَابًا　عَجَّ فى سَاحِهِ العَفَاءُ وَأَطْبَقْ

صُوَرٌ مِنْ كَآبَتِى لَيْسَ تُمْحَى　أَنَا مِنْهَا مُشَتَّتُ النَّفْسِ مُصْعَقْ

مِنْ شُجُونِى أَنِّى أَرَى الْوَهْمَ يَحْيَا　وَلَقَدْ صَاغَهُ خَيَالِى وَنَمَّقْ

لِى عَذَابُ اثْنَتَيْنِ نَفْسِى التى تَشْـ　ـقَى وَنَفْسِى التى أُحِبُّ وَأَعْشَقْ

عِشْتُ مِنْ طُولِ حَسْرَتِى أَتَشَكَّى　مِثْلَمَا يَشْتَكِى الحَمَامُ المُطَوَّق

ضَاعَ عُمْرِى كما تَضِيعُ اليَنَابِيـ　ـعُ وَتَخْفَى أَمْوَاهُهَا وَتُغَلَّقْ

وَانْطَوَى مِثْلَمَا تَمُرُّ الضَّبَابَا　تُ وَيَفْنَى خَيَالُهَا وَيُمَزَّق

* * *

أَيُّهَا اللَّائِمِى أَتَلْحُو المَقَادِيـ　ـرَ وَتَهْجُو الدَّهْرَ الذى لَيْسَ يَرْفَقْ

هُوَ جُرْحِى عَرَفْتُ كَيْفَ أُدَارِيـ　ـهِ وَأَحْنُو عَلَيْهِ عُمْرِى وَأُشْفِقْ

لَسْتُ أَسْطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَ طَبْعِى　يُخْلَقُ الطَّبْعُ مُكْرَهًا يَوْمَ تُخْلَقْ

أَنَا قِيثَارَةٌ تَنُوحُ عَلَى الدَّهْـ　ـرِ وَدَمْعٌ عَلَى المَدَى يَتَرَقْرَق

أَنَا لَحْنٌ مُضَرَّجٌ بِالمَآسِى　كَادَتِ النَّفْسُ مِنْ تَشَكِّيهِ تَزْهَقْ

هُوَ فى الصَّدْرِ لَاعِجٌ يَتَنَزَّى　وَهُوَ فى الفِكْرِ جَدْوَلٌ يَتَدَفَّقْ

* * *

يَا رَجَائِى يَا بَسْمَةَ الزَّهْرِ النَّضْـ　ـرِ وَيَا رَوْعَةَ النَّشِيدِ المُرَقَّقْ

أَنْتَ دُنْيَايَ أَسْتَرِيحُ إِلَيْهَا　كُلَّمَا طَافَ بِى الشَّقَاءُ وَأَحْدَق

طَيْفُكَ الحُلْوُ زَارَنِى فى ذُهُولِى　فَارْتَوَتْ مُهْجَتِى وَعُمْرِى أَوْرَق

وَتَطَلَّعْتُ لِلْخُلُودِ أُنَاجِى　مَلَكًا فى مَعَارِجِ الغَيْبِ حَلَّقْ

الأَسَى دَمْعَةُ الحَنَانِ عَلَى الأَرْ　ضِ وَكَنْزٌ مِنَ المَرَاحِمِ مُطْلَقْ

تَتَسَامَى الأَرْوَاحُ فيهِ إلى اللّـ　ـهِ وَتَنْدَى مِنَ الطُّيُوبِ وَتَعْبَقْ

البَلَاغَاتُ سَطْعَةٌ مِنْ سَنَاهُ　وَالفَصَاحَاتُ نَفْحَةٌ مِنْهُ تُنْشَقْ

وَالغَمَامَاتُ رَجْفَةٌ مِنْ رُؤَاهُ　وَالخِضَمَّاتُ قَطْرَةٌ مِنْهُ تُهْرَقْ

نَهَرٌ لِلْبُكَاءِ سَالَ عَلَى السُّحْـ　ـبِ وَوَشَّى الأُفْقَ البَعِيدَ وَزَوَّقْ

تَسْتَحِمُّ النُّفُوسُ فيهِ مِنَ الإِثْـ　ـمِ وَتَنْقَى مِنَ العيوبِ وَتَأْلَقْ

يَدْرُجُ الحُبُّ فى حِمَاهُ عَنِيفًا　نَاصِعًا كَالضِّيَاءِ إِنْ هُوَ أَشْرَقْ

كُلُّ عَهْدٍ لم يَنْتَظِمْهُ مُضَاعٌ　كُلُّ وُدٍّ لم يَعْتَمِدْهُ مُفَرَّقْ

أنور العطار

عبرة الموت

جميل صدقى الزهاوى

بقلم عبد السلام رستم

يأيها المسلوب من أنسه　مصفد الجسم الى رمسه

وتارك الدنيــا على حالها　لم تصدق العائف(١) فى حدسه

فى الموت لو فكر مستعبر　فيما يصيب الحى من مسه

تشابه النـــاعم فى لهوه　بالعابد الطوّاف فى حبسه

وبات من يجمع أمواله　كالمعدم المحروم فى بؤسه

تلاحق الآتى بمن قبله　وتابع اليوم خطى أمسه

فما ينال المرء من حظه　الا بريق النور من شمسه

يشب مشغوفاً باغراســه　وليس يدرى منتهى غرسه

ويخطب الدنيا ، وقد شاقه　ما يفتن الناظر من عرسه

ويرشف الكأس على نهله　والموت — لو يعلم — فى كأسه

* * *

يا شاعرا ظل مدى عمره　فى حيرة المشدوه أو يأسه

يسائل المجهول عن أمره　وينظم الشعر صدى نفسه

ما ذا أفاد الحس فى عالم　لا يدرك المعنىّ من حسه

الكون ما انفك بأوزاره　يغترف الأحياء من رجسه

---

(١) العائف : المتكهن بالطير

قد غلب الطبع على خلقهم ومرجع الشىء إلى جنسه
وكلهم فى عيشه ناسج ثوباً يقيم الدهر فى لبسه
والموت من خلفهم دائب يسدد النبل الى نكسه
كم عجز الباحث عن كنهه وإن أطال الفكر فى درسه
فدونك الحق الذى تبتغى وخل عنك الروح فى قدسه

(القاهرة) عبد السلام رستم

سهرة ابريل

الشاعر والربيع

بقلم محمد رشاد راضى

الشاعر:

طير الربيع أعدت ذكرى بلبلى
أأراه فى فرح الربيع المقبل

قذف الحسام فكان مقبضه على شفتى وآخر حدّه فى مقتلى
ومضى كما يمضى السحاب كأنه ظِلُّ الغريب وهدأة المتأمل
أجتاز أنواء العواصف تائها ويروح يرفل فى الغلائل والحلى
الأرجوان العذب فى وجناته ظللته بخيالىَ المتهلل
رقرقت فى عينيه بارق أنجم يهدى فكان لحيرتى كمضلل
حلو كما احلولت طفولة ناهد طلق طلاقة بسمة لمقبل
شرب السماء جميعها بعيونه ورمى بقيَّتها لماء الجدول
يمشى فيخضرُّ الثرى من خطوه وتذوب أحجار الجديب الممحل

الربيع:

نهب الكون ابتسامى إنه فى كل ثغر
ونجومى البيض رفّت فى الثنايا مثل درّ
وكراكىّ وطيرى رفرفت فى كل صدر
الصبا الصارخ يسرى فى الدم القانى ويجرى

* * *

إن وردى يا أميرى صِبغةٌ من شفتيها
وغديرى عبرات هربت من مقلتيها
وحياة الحب والفتنة رسم من يديها
أوحت الدنيا إلى اللـه فأهداها اليها ...!

* * *

هى حلم لا يراه المرء حتى فى الكرى
هى كأس دون خمر هى خمر قد جرى
هى أحيتنى فجئت اليوم كىْ أحيي الورى
إن نور الشمس من أعينها السود سرى

* * *

جمع الخالق حسن الأرض فيها يا هزارْ
فلك الدنيا تراه كلما دارت يُدار
هى فى النور ظلام وهى فى الليل نهار
هى ماء أيها الشاعر كم يحرق نار !

* * *

أرسلتنى اليوم ياصدّاح كىْ آتى إليكا
أرسلتنى بدَلا منها لأروى شفتيكا
كلما ترنو إلى مرآتها أبدو لديكا ... !!
إنّنى لوحتها تعرضها اليوم عليكا
إرسم اللوحة واحفرها على لوح الخلودْ
هأنا صورتها العذراء أنوار الوجود
خذ من الصورة أعلى الفن والحسن الفريد
وأتم الرسم منها فهى يوماً ستعود ... !

الشاعر:

كلما مرت يا ربيع النور أتهادى من جدول لغدير
كخيال يطوف بين القبور خلت أن الشذى ومرج الزهور
هو للكون ليس لى أنا وحدى
هو ظلٌّ منها يزيد شجونى إن كأس السراب لا ترويني
ولهذا يلجُّ عصف جنونى أنا أبغى الدنيا وإن تك دونى
لا بساطا يناله كل فرد ......!
أنا أبغى عيناً ترى بعيونى أنا أبغى قلباً يدين بدينى
أنا أبغى بلهفة وجنون أن تكون الحياة ملك يمينى
ما انتفاعى بالطيف والطيف عندى ..؟!

استدراك

ذكر سهواً فى مقال الأستاذ عبد الحميد العبادى المنشور بالعدد الممتاز أن زوج زينب بنت النبى (ص) هو سعد بن الربيع ، والصحيح أنه « أبو العاص بن الربيع »

القصص

دراماتان من اسخيلوس

ليلة فى الفردوس (١)

« وإلى الأبد فى جهنم ! »

آخرة المتضرعات

للأستاذ دريني خشبة

خلاصة الدرامة الأولى

كان لأيجبتوس ، أمير مصر السفلى ، خمسون ابناً ، وكان لأخيه دانوس خمسون ابنة ، وكان الزواج من بنات العم فى ذلك الزمن محرما بل كان يعد نوعاً من الزنى ؛ وبالرغم من هذا أراد إيجبتوس أن يزوج أبناءه من بنات أخيه ، وكان هذا الأخ ، دانوس ، قد رأى فى منامه أن أحد أزواج بناته يذبحه ، فلما ذهب إلى الكهنة يستفتيهم فى هذا أكدوا له صحة الرؤيا ، ولذلك رفض تزويج بناته ، وهرب بهن على فلك إلى آرجوس ، وهناك ، فى حرم الآلهة ، لقى يلاسجوس ملك آرجوس ، وتقدمت كبرى بناته إلى الملك تحدثه عن منشئها وما تمت به من وشائج القربى إلى آرجوس عن طريق يو حبيبة سيد الأولمب وصفيته ، وتضرعت إلى الملك أن يحميها واخواتها وأباها من ملك مصر ، وألا يردهم عليه أبدا ؛ ولم يستطع الملك أن يعدها حتى يستشير شعبه ، فهددت بأن تشنق نفسها ، هى وأخواتها فى جذوع الآلهة إن لم يفعل — وذهب الملك يحتال ليكسب أصوات شعبه وتأييده لقضيتهن — ولكن ظهرت سفينة فى البحر فى هذه الآونة ، فاذا هى مركب مصرى ، وإذا فيه جند وقائد أتوا يستردون البنات وأباهم قسراً ... وانقض الجنود على البنات ، وطفقوا يجرونهن من شعورهن لينزلوهن إلى السفية ، وكادوا يفعلون ، لولا عودة ملك آرجوس فى آخر لحظة ، فحماهن من القائد المصرى ، واحتدم الجدال بين الملك والقائد ، حتى عد القائد أن ملك آرجوس ، بمخاشنته التى أبداها قد أعلن الحرب على مصر ... فعاد أدراجه إلى السفينة ليبلغ مولاه ...... أما البنات فنزلن فى حصن آرجوس مكرمات آمنات

— ١ —

فى فجر يوم من أيام الصيف ، انشق الأبيض المتوسط عند ساحل آرجوس ، عن أسطول لجب ما عتم أن انتشرت سفائنه فوق الماء كأنها الدَّبى ، وخَشْخَشَت خلال أواذيّه كأنها الأساود ، ثم نفثت سمومها فوق الشاطئ جنوداً من شياطين فرعون ، مستلئمين فى الدروع ، مقنعين فى الحديد ، يلاعبون السمهريات ، ويرهفون الرقاق البيض !

وكانت آرجوس الخالدة نائمة حالمة ، غارة فى غفوة الفجر ؛ وكان الأرجيف الأشقياء غارّين كذلك ، تداعب أجفانهم الوسنى أطياف الآلهة ، وتمرح فى قلوبهم ومضات من السعادة يكاد الأولمب يمضى بها ... حين ينبلج الصباح اللماح عن فوهة بركان ... ما تلبث حتى تكون وهدة من وهاد جهنم ! ...

— ٢ —

وأطل الحراس فى شعاف الجبل ، فبهتوا !! وزاغت أبصارهم ! ... وأوقدوا النيران ! ... واستيقظت آرجوس عجلى ، تنظر الى الموت المفاجئ يتربص بها ، ويكاد ينقض عليها ! ......

« المصريون ! المصريون ! المصريون ! .... »

وذهبت الصيحة فى أرجاء المدينة تهز قلوب الأبطال ، وتداعب ألباب الصناديد ، وتزلزل فرائص دانوس ويلاسجوس ! وهرعت الجماهير إلى هيكل الآلهة تصلى وتبتهل ؛ وجمع الملك مجلس شوراه ليروا فى ذلك الحدث المدلهم رأيهم ، فأجمعوا على وجوب الدفاع عن المدينة ، وعدم تسليم ضيفهم الشيخ وعذاراه اللاجئات مهما كلفهم الذود عنهم من جهد ، ومهما طال حصار المصريين :

— « أفهذا رأيكم إذن ؟ »

— « أجل أيها الملك ! ولا رأى لنا غيره ! إن شرف آرجوس وكرامة الأرجيف معلقان بما نصنعه من أجل هؤلاء

(١) ليس هذا عنوان الدرامتين ولا عنوان إحداهما ، ولكنا آثرناه لأن أحدا لا يجزم بصحة اسميهما ، ومؤرخو الأدب اليونانى على أن اسم الدرامة الثانية هو (مصلحات فراش النوم) أو الايجبتيون — وهى لا تعنى المصريين — والثالثة (الدانايديز)

العذارى ! لِنَتَفَنَّيَنَ جميعاً دونهن ، ولا يقولن أحد فى هيلاس إننا منعناهن أولاً ، ثم أسلمناهن أخيراً ! »

— « إذن لتكن حرب ! ولندفع عن شرف آرجوليس ! »

— ٣ —

وكانت الحرب الزبون التى شابت من هولها نواصى الأرجيف ، والتى أوقفهم هيجاؤها حيارى فى أبراجهم كاظمين ! ثم ... سقطت آرجوس !

وجاست خلالها شياطين فرعون ! وانطلق أبناء إيجبتوس فى عرصاتها تحف بهم أعلام النصر ، وترف فوق هاماتهم أكاليل المجد ، حتى كانوا فى هيكل المدينة الخالدة ، حيث تماثيل السادة النجب من آلهة الأولب ... ف ... صلوا لآلهة النيل ، وشكروا لرع ... وأثنوا على أمون ، وعقروا القرابين لأزوريس ! !

ويمموا شطر الحصن المنيف فوق رُبى آرجوس فاقتحموه على دانوس وبنات دانوس ؛ وكان أبوهن قد نصح لهن بالانصياع لما أراد القضاء : « ... فلا راد لما قُدِّر ، ولا دافع لما وقع فى صحيفة المرء ... ولننحر يا بناتى البائسات إلى مصر ، وليكن لنا ثمة شأن غير هذا الشأن ، ولتتم المأساة ، ولتندلع النيران ، وليكن أبناء أخى أول ما تأكل من حطب ، وخير ما يلقى فيها من حصب ، وتغتذى به من أشلاء ! ! »

وظهر القادة الخمسون ، أبناء إيجبتوس ، ومن حولهم الجند شاكى السلاح ، فأسقط فى يد دانوس وأرتج عليه . واسودت الدنيا المشرقة فى عيون بناته ، وظلن متناثرات هنا وهناك فى ردهة الحصن ، ضافية عليهن جلابيبهن السود ، وأرديتهن الحزينة السادرة تزيدهن جمالاً على جمالهن ، وتجعل منهن ربرباً من الفاتن بدا فى هذا المرمر المترقرق فى أكفهن ووجوههن ، وأجيادهن وثديهن ، وفى هذه السيقان الناعمة التى كان بحسبها أن ترد عادية الجيش المغير ... وإن كانت الجن من ورائه ظهيراً ! !

— ٤ —

ذهل أبناء إيجبتوس ! وانقدح شرر الهوى فى قلوبهم ، وتدفق الدم العاشق فى عروقهم حاراً ... ثم انهمرت أرواحهم الوامقة من عيونهم دموعاً سخينة ... فسجد كل منهم عند قدمى واحدة من بنات عمه ... ولبثوا لحظة لا ينبسون ! ...

وحملق دانوس فى بناته وفى أبناء أخيه قليلاً ثم قال : « قِفْنَ لأبناء عمكن يا فتيات ! قفن للأبطال المذاويد أبناء إيجبتوس ! رباه ! لم نجم هذا الشر بيننا ؟ ! لقد كنت أحب أخى ، وكان أخى يحبنى . فأى شيطان أغرى هذه العداوة بيننا ؟ ! قضاء ! ... أجل ... قضاء ... قضاء ... »

وما كاد أبناء أخيه يسمعون هذه الكلمة المصنوعة من فم عمهم ، حتى تقاطروا اليه يقبلونه ويتمسحون به ويترضونه ... وظل هو يتلطف بهم ، ويهش لهم ، ويربت فوق أكتافهم ، وكأن شيئاً من الأحقاد التى أكلت الأفئدة ، وأراقت الدماء لم يكن ! ...

— ٥ —

وفُزِّع عن قلوب العذارى ، ونهضن فتلقين أبناء عمهن بالبشاشة والبشر ، ثم تلطفت كبراهن فشفعت لبيلاسجوس الملك الكريم المأسور فأطلق سراحه ورد عليه عرشه وألبس تاجه ، وعقد مع الأرجيف صلح نبيل دل على جود المصريين وسماحهم

وأقلع الأسطول ، وهمت انفلك واحتواها الماء ، وانتثر فى أذيالها وشى رجراج من الثبج ، وغابت آرجوس عن الأنظار قليلاً قليلا ، حتى إذا طوى الأفق آخر شاهق من أبراجها ، أوى الأبناء الخمسون إلى البنات الخمسين يباسطونهن ويسامرونهن ويسَرون عنهن آثار ما نزغ الشيطان بينهم وبينهن

وأقبل الليل وانجاب ، وبزغت ذكاء وتوارت بالحجاب ... وكرت أيام ... ثم بدا الشاطىء المصرى ، وهبت نسمات الوطن وتبسمت الشمس فوق الأرض البنفسجية تحيى أبناءها الغزاة المنتصرين ، وأطل من قرصها الكبير ، رَعْ الكبير ، يبارك أبطاله ويغدق عليهم نفحاته . وخرج الشعب العظيم يهتف للجيش الظافر ، ويردد هذا النداء المحبب القديم : « المجد لمصر ! »

— ٦ —

وأقبل إيجبتوس على دانوس يلاومه ، ثم غفر له : « هذه النزغة التى أشمتت بنا الأعداء ، وأغضبت علينا أرباب السماء ، وسممت ما بيننا من محبة وصفاء ... » واتفقا على العرس ... وذهب كل يعد له عدته !

وخلا دانوس إلى شيطانه فقال إنى معك ! !

ثم جمع إليه بناته فخطبهن خطبة طويلة نضحها بالدمع ، وصهرها بنار الفؤاد ، وأودعها أحزانه وأشجانه . وذكرهن

بشرائع السماء ، ونواهى الآلهة ، والزنى البغيض الذى يستتر فى هذا الزواج القهرى ، لا عن نحلة ، ولا عن رضى، ولا سلطان مبين ! ...

وذكر لهن أمهن المتوفاة وما كان بينها وبين زوجة عمهن من إحن وبغضاء ، فحرك فيهن هذا الماضى الأسود بجميع سخائمه ، وأثار فى قلوبهن الرطبة أشجانهن القدامى ... حتى إذا آنس فيهن الطاعة له والائتمار بأمره . أخرج لكل منهن سكيناً مسنونة مرهفة الحدين ، تقطر المنايا من أشفارها فيردها غمدها الذهبى المرصع بأغلى الجواهر واليواقيت

— « فاذا حان الحين يافتيات ، ونامت أعين الرقباء فاذكرن شقاءكن الذى لا شقاء مثله ، واذكرن كيف قضت أمكن بغصة العداوة بينها وبين زوجة عمكن ، ثم اذكرن أباكم هذا الشيخ الفانى المتهالك كيف ذل ، وكيف وضع أنفه الأشم فى الرغام ... واذكرن أخيراً أنكن تحمين شرائع السماء من هذا الاعتداء ... فالآلهة معكن ، وستضرب بأيمانكن ، وستغمد هذه الخناجر فى أحشاء أعدائها بوساطتكن ... بورك فيكن وكانت السماء فى عونكن ! »

— ٧ —

وأخذتْ ممفيس زُخرفها وازّينت ، وتبرجت عمائرها الفرعونية فى حُلل من النُّور والنَّوار وأفواف الزهر ، وضفائر الورد والرياحين ؛ وانطلق كهنتها يرسلون فى جميع الأرجاء ألسُن الند ، وفَغمة العنبر ، وشذى الكافور والصندل ، من مجامرهم الفضية المقدسة ، واجتمعت أسراب الحسان فى ساحاتها وباحاتها بسيقانهن المصرية الفرعونية يتلاعبْن ويتطربن ، ويتغنيْن ويتناشدْن ، ويهزأن بعرائس الماء التى خالتها قريحة هيلاس ؛ وسار ربربهن يخطر فى كل حنية ، ويميس فى كل ميدان ، وينساب فى كل فردوس ، حتى كُن عند قصر الملك ، منزل العز ومناط المجد ، ونحر مصر وقلبها الخفاق ، فرقصن رقصات ما كان أشبهها بنبضاته ، وتغنين الأغانى كأنها تخرج من فمه ، وتنبعث من جوانحه وتجلجل موسيقاها عن حناياه ... ثم شارك الشعب فى الأفراح الملكية ، فعج النيل المقدس المعبود بالطوّافات والحراقات ، وهرعت عند حفافيه أمة بأسرها تفرح كما يفرح الملك ، وتسعد كما يسعد التاج ،وتنتشى بنشوة العرسين

وأقبل الليل ، وأسفر خونسو (١)

ورقصت ممفيس فى لجة من خمر ، ورفرف حوريس (٢) فوق المسلات الشاخصة فى الميادين ، ولم يعلم أحد أنه كان يرى غير ما ينظر الناس ، وأن عينه كانت تذرع الوادى الوادع السعيد وتكاد تضج مما أجن هذا الليل الرهيب ... لا ... بل كان الناس ينهلون أفاويق الحبور فى صحراء ممفيس ... فى ليبيا العجيبة ... ليبيا التى تصفر فيها الرياح . وتتكلم فوق كثبانها ألسن الألغاز والأسرار ! : ...

— ٨ —

وغرق القصر الملكى فى أثير الموسيقى ، وفى فيض من النور الذى يشبه الفجر الكاذب ؛ ثم أخذت الركبان تنصرف والولدان تتفرق إلى مخادع اللهو ، وأخذ الكرى يعقد أجفان ممفيس الصاخبة ، التى كانت منذ هنيهة تعج بالألوف ، وتضج بالجماهير

وعادت آية الليل ... رهيبة كشأنها منذ الأزل ...

وافتر خونسو مرة أخرى عن ابتسامة هى إلى العبوسة أدنى ، وإلى السخرية أقرب !! يا لرهبة الأقضية ! ويا لصرامة المقادير !

لقد أوى أبناء إيجبتوس كل إلى مخدعه ، بعد إسراف طويل ، ولذات لم يكن يخطر على بال أحد أنها تنتهى ، وبعد قصف أيما قصف ، وخلاعات ليست كمثلها خلاعات ... فما كادت رؤوسهم تمس ديباج الطنافس حتى غطوا فى سبات عميق ، وحتى انطلقت أبالسة الشر من أغماد خناجر دانوس ، التى بدت أظمأ ما تكون إلى الدماء الحارة الشابة ، تجرى فى عروق أبناء إيجبتوس

— ٩ —

ولقد كان أبوهن قد اتفق معهن على هذه الغدرة الصفراء ، وجعل لكل منهن علامة حين تأفد ساعة النفاذ ، أن تطفىء السُّرُج إلا واحداً تدعه مطلاً من إحدى الكوى التى تواجه قاعته ، إذ كان فى هذه الليلة الليلاء ضيفاً على أخيه ، وشريكه فى مخدعه ، ومنتوياً هو الآخر إنفاذ الغدرة الوحشية فى شقيقه ، ليخلوَ له وجه مصر ! ...

واضحكى أيتها الأقدار !! ...

(١) إله القمر عند المصريين القدماء

(٢) ابن آزوزيس وكان المصريون يحبونه حباً جماً وكانوا يرمزون له بالبازى الأشهب

— ١٠ —

وأخذت السُرُج تومض ثم تنطفيء ، وأخذ دانوس يلحظ الكوى ويعد : « واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... خمسة ... » حتى عد تسعة وأربعين ... ووقف العد ... وأبطأ الحساب ، وتلكأ الجلاد ! ...

— « ماذا ؟ لقد ذبح الجميع أزواجهن إلا واحدة ! ... ما الذى منعها ؟ لعله لم ينم الخبيث ... ! ويلاه ! انطفئى أيتها السرج ... ولتنطق حياته فى إثركن ! ... »

وذكر هو أنه لم ينفذ غدرته ، فهب الى سرير أخيه ، وأغمد خنجره فى صدره ! ... وغدر إيجبتوس يتشحط فى دمه ... وراح يحلم بالتاج والعرش والصولجان ! . .

حلم قصير جميل ... ولكنه نظر الى الكوة الخمسين فوجد أضواءها تتألق ... ورأى إلى نورها يكاد يضيء ممفيس كلها ... فكاد حنقه يقضى عليه ...

— « هلمى يا غبية ! البدار الى دمه البدار ! »

ولكن السرج تتألق وتتألق ... ولا تنطفئ منها شعلة واحدة !

— ١١ —

وقفت الفتاة الجميلة تلقاء الفتى الجميل تقبله ، بعد أن كادت تقتله ... !

أجل ... ! وقفت هيبرمنسترا [١] تلقاء ابن عمها لنسيوس [٢] تعبده ، وقد شغفها الشاب الجميل النائم حباً ...

— « يا لأهدابه المراشة ، ويا لجبينه المشرق ، ويا لمنكبيه الجبارين ، ويا للوجه البريء ! أأطيع أبى ... هذا الشيخ القاسى المتحجر ... الذى لا قلب له ... الذى فرغت مآربه من الشباب ومن الحياة جميعاً ... وأسطو بخنجرى على هذا الشباب الذى أخلد إلى ... ونام ملء عينيه بين يدى ... وحملنى أمانته كلها ... لا وأرباب الأولمب ! لا يكون هذا أبداً ! ... إن قبلة واحدة على جبينه المتبلج خير من جنة أبى ، ومن الدنيا والآخرة جميعاً ... نم يا لنسيوس ! نم يا حبيبى ! إنى سأقف عند سريرك طول الليل أحرسك ، وسأغمد خنجرى فى صدر من تحدثه نفسه باغتيالك ولو كان أبى ! ...

(١) Hypermnestra (٢) Lynceus

— ١٢ —

ولبث دانوس يحرق الأرم ويلحظ السرج ... ولكنها باقية كما هى ... لا تنطفيء ...

وانبلج الفجر ... ثم تنفس الصبح ... وأشرقت ذكاء ... وهب لنسيوس من نومه فما راعه إلا فتاته الجميلة واقفة إلى جانبه ضعيفة واهية ... تبكى ... وبيدها السكين المشحوذ يتلمظ ... ويتلمظ ... !

— « ماذا ؟ هيبرمنسترا ؟! مابك واقفةً هكذا يا حبيبتى ؟! »

— « لا شيء ... أنا أحرسك ... فقط أحرسك ! ... »

— « تحرسيننى ؟ ... يا للهول ! ومم يا ابنة العم ؟ ... »

— « من ... لنسيوس !! من أبى يا أعز الناس علىّ ! ... »

— « ماذا ؟ تحرسيننى من أبيك ؟ من عمى ؟ ... »

— « أجل ... أحرسك من الغادر الذى قتل إخوتك ! ... إنهض يا لنسيوس ! خذ عليه طريقه ... أحسبه قد قتل أباك أيضاً ... البدار البدار ! ... ... ويلاه ... وى ... »

وسقطت الفتاة لا تعى ...

— ١٣ —

وانطلق لنسيوس كالمجنون فى غرفات القصر المشيد ... ونفذ إلى مخادع إخوته ... فلم ترد عليه جثثهم ... صرعى فوق ديباج العرس ... مضرجة بدم الشباب الحار ... البارد كزمهرير الموت ! ...

وصعد الدم إلى رأسه ، فهرول إلى غرفة أبيه ؛ فما راعه إلا أن رآه قد لقى حتفه كما لقى إخوته حتوفهم ... وما راعه إلا أن رأى دانوس الجبار يحملق فى الكوة ... التى ما فتئت أضواؤها تنبعث منها ، برغم الفيض الذى ترسله الشمس ، مركب رع ... فى العالمين ...

وانقض عليه وذبحه

وجلس فوق أريكة يبكى ...

وهكذا قتل دانوس أحدُ أزواج بناته ، وصدقت الرؤيا ... لأن الآلهة لا تكذب ! !

— ١٤ —

واضطرب الأولمب [١] من هول الفاجعة ، واجتمع الأرباب

(١) لا ندرى لم لم يترك إسخيلوس عقوبة بنات دانوس لآلهة النيل ؟ ألأنهن لا يؤمن إلا بآلهة الأولمب ؟

البريد الأدبي

العبرات الحرار

رجا الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى عضو المجمع اللغوى الملكى بالقاهرة من قراء الرسالة الغراء فى (العدد ١٤٦) الرجوع إلى نسخة شرح ديوان الخنساء المكتوبة سنة ٦٢٠ هـ المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، لعلها تكون أوفى من نسخة مكتبته الخاصة المكتوبة سنة ١١٤٥ هـ لأن نسخته لم تذكر قصيدة « العبرات الحرار » وربما تكون ساقطة من نسخته من الشرح المذكور. ثم رجا الرجوع إلى نسخة الديوان المكتوبة بقلم العلامة اللغوى الكبير الشنقيطى التركزى وذلك للاستيثاق من صحة رواية البيت :

من كان يوماً باكياً سيداً فليبكه بالعبرات الحرار

لأنه يحتمل احتمالاً قوياً أن يد التحريف عملت فى البيت عملها فغيرت « الجوار » إلى « الحرار » . وإجابة لرجاء شيخنا المغربى رجعت إلى نسخة الشرح التى فى دار الكتب المصرية (« ٥٧٠ » آداب اللغة العربية) فوجدتها لا تشتمل على قصيدة « ياعين جودى بالدموع الغزار » التى منها بيت « العبرات الحرار » والظاهر أن نسخة دار الكتب من هذا الشرح هى أصل نسخة الأستاذ المغربى وأن قصيدة « العبرات الحرار » ليست فى رواية الشرح

ورجعت إلى نسخة الشنقيطى من الديوان (« ٤٠ ش » آدب اللغة العربية) وهى — بحق — نسخة نفيسة مكتوبة بقلم العلامة التركزى بالخط المغربى الدقيق مع ضبط أكثر قوافيها والكلمات الغريبة منها بالقلم مع تقييدات على الحاشية لأكثر الأبيات فوجدت البيت هكذا :

من كان يوماً باكياً سيداً فليبكه بالعَـبَرَات الِحرار (١)

بضبط الحاء من الحرار مكسورة مما يقطع بأن الرواية « الحرار » لا « الجوار » ونسخة الديوان هذه كتبها الشنقيطى فى مكة سنة ١٢٨٨ وفى دار الكتب المصرية نسخة ثانية من ديوان الخنساء (« ٥٣٦ » آداب اللغة العربية) كتبت سنة ١٢٨٩ هـ بمكة أيضاً بقلم أحمد بن محمد الخضراوى بخط عادى واضح ورد فيها عجز البيت «العبرات الِحرار» بكسر الحاء أيضاً. ويغلب على الظن أن نسخة الخضراوى منقولة عن نسخة الشنقيطى السابقة وإن لم يصرح ناسخها بذلك فانه اقتصر على القول بأنه كتب نسخته من الديوان عن نسخة بالخط المغربى الردىء الذى يصعب على المشارقة قراءته

والذى يؤيد هذا الظن أن الشنقيطى كتب نسخته بمكة سنة ١٢٨٨ هـ والخضراوى كتب بعده بسنة بمكة أيضاً وأن نسخة الخضراوى تشتمل على جميع التقييدات التى على نسخة الشنقيطى بنصها كما يلاحظ الاتفاق التام بين النسختين فى ضبط بعض الكلمات فما كان مضبوطاً من هذه فلابد وأن يكون مضبوطاً فى تلك بنفس الشكل

وأظن أن ما تقدم كاف فى الاستيثاق من صحة رواية «العبرات الحرار» وأستاذنا المغربى عليم بأن عدم ذكر الحرار جمعاً لحارة فى المعاجم التى بين أيدينا لا يدل على عدم وروده

برهان الدين محمد الداغستاني

(١) فى الوجه الثانى من الورقة ٤٣ من الديوان

فى ذروة جبل إيدا ، وقر رأيهم على أن يذهب هرمز فيأتى ببنات دانوس ، إلازوج لنسيوس ، ثم يذهب بهن إلى المدخل ... الى هيدز ... إلى أعماق الجحيم ... حيث يكلَّفن بملء جرار مثقبة من نهر شيرون ، لا تمسك المهل ... إلا كما تمسك الماء الغرابيل ... فاذا جد بهن السير ، ونال منهن النصب ، وجلسن على عدوة النهر يستجممن ... أمطرتهن السماء ناراً ... فهرولن إلى النهر ليأخذن فى ملء الجرار ... ولن تمتلىء الجرار ولو صب فيها أشيرون كله ...

دريني خشبة

المعجم الوسيط

تأليف الهيئة الرسمية لوضعه

وقع حضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا وزير المعارف العمومية قراراً وزارياً بتأليف الهيئة التى يعهد إليها بوضع معجم فى اللغة العربية ، وهى تتألف من لجنتين تمثل إحداهما وزارة المعارف والثانية المجمع الملكى للغة العربية

وهذا نص القرار :

بعد الاطلاع على القرار الذى أصدره المجمع الملكى للغة العربية بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٦ وبناء على الاتفاق الذى تم مع معالى رئيس المجمع على اختيار لجنتين تمثل إحداهما وزارة المعارف وتكون الأخرى ممن ندبهم المجمع لتعمل اللجنتان معاً على وضع (المعجم الوسيط) فى اللغة العربية

قرر : —

المادة الأولى : تؤلف الهيئة التى يعهد اليها بوضع معجم فى اللغة العربية يسمى (المعجم الوسيط) على الوجه الآتى :

أولاً — أعضاء اختارتهم وزارة المعارف العمومية :

الدكتور طه حسين بك — الأستاذ بكلية الآداب

الأستاذ خليل مطران

الدكتور أحمد عيسى بك

الدكتور محمد والى — الأستاذ بكلية العلوم

ثانياً — أعضاء ندبهم المجمع الملكى للغة العربية

أحمد العوامرى بك

الأستاذ أحمد على الاسكندرى

على الجارم بك

المادة الثانية — يراعى فى وضع هذا المعجم ما يأتى : —

١ — أن يكون ترتيبه على خير نمط بحيث لا يقل نظامه عن أحدث المعجمات الأجنبية وبحيث تسهل فيه المراجعة على الطلاب الذين لم يعتادوا المراجعة فى المعجمات القديمة . ويتبع فى ترتيب مواده طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة

٢ — وأن يتبع فى شرح ألفاظه أسلوب واضح جلى يلائم العقلية الحديثة ويؤدى إلى تصوير المعنى على أدق وضع وأسهله

٣ — وأن تحقق فيه أسماء النباتات والحيوانات وغيرها بقدر الامكان مع الاستعانة بالخبراء فى هذه العلوم عند ما تدعو الحاجة

٤ — وأن تصور فيه الأشياء أو أجزاؤها مما يحتاج شرحه إلى تصوير ولا يكفى الوصف البيانى فى إيضاح حقيقته

٥ — وأن يؤتى فيه بأمثلة غريبة من أفصح الكلام وأبلغه من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والتراكيب العربية البليغة والشعر العربى . وذلك عند كل مناسبة لتوضيح استعمال اللفظ مع الاشارة بقدر الامكان إلى عصور ما استشهد به

٦ — وأن يفصل فيه بقدر الامكان بين المعانى الحقيقية والمجازية فى المادة مع تقديم الحقيقة على المجاز

٧ — وأن يشار فيه أحياناً إلى التقلبات التاريخية التى انتابت بعض الكلمات فغيرت من معانيها بتغيير العصور

٨ — وأن يختار من الكلمات التى أقرها المجمع فى الشؤون العامة والعلمية ما يتفق أعضاء الهيئة على ملاءمته لما يتسع له هذا المعجم

٩ — وأن تكون مواد المعجم من الألفاظ العربية الصحيحة أو مما عربته العرب

١٠ — وأن يشتمل على ملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن مع مراعاة ما أقره المجمع فى هذا الشأن

١١ — وأن يشتمل على اصطلاحات العلوم والفنون والآداب عند العرب

١٢ — وأن يترك فيه الغريب المهجور إذا أغنى عنه مرادفه الصحيح

١٣ — وأن يضبط ضبطاً دقيقاً لا محل فيه للبس

المادة الثالثة — تبدأ هذه الهيئة عملها اعتباراً من أول مايو سنة ١٩٣٦ على أن تتمه فى ثلاث سنوات على الأكثر ويمنح أعضاؤها مكافأة نظير قيامهم بهذه المهمة

ترجمة معانى القرآن

قرر مجلس الوزراء بالموافقة على ترجمة معانى القرآن الكريم : ونص قراره :

بعد الاطلاع على كتاب فضيلة شيخ الأزهر وكتاب سعادة وزير المعارف العمومية بشأن ترجمة معانى القرآن الكريم

ومع تقدير مجلس الوزراء لمشقة هذا العمل وصعوبته ومنعاً لاضرار التراجم المنتشرة الآن رأى بجلسته المنعقدة فى ١٦ ابريل

سنة ١٩٣٦ الموافقة على ترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة رسمية تقوم بها مشيخة الجامع الأزهر بمساعدة وزارة المعارف العمومية وذلك وفقاً لفتوى جماعة كبار العلماء وأساتذة كلية الشريعة

الشعر القبطى القديم

ألقى الدكتور هرمن يونكر مدير معهد الآثار بالجامعة المصرية ومدير المعهد الألمانى للآثار المصرية محاضرة فى « الشعر القبطى القديم » هذه خلاصتها :

يرجع الشعر القبطى الى القرن التاسع بعد الميلاد ، وهو شعر شعبى وطنى لا أثر له فى الكتب الثمينة والدواوين الأدبية ، بل يوجد فى كراسات متفرقة من الورق ، وهو يمثل روح الشعب وعقليته ، وتظهر فيه جلياً الروابط التى تربطه بشعر العصور الفرعونية كما تظهر علاقته بألحان الشعب فى العصر الحاضر

ويؤلف الشعر القبطى من قصص للعامة مثل أغانى الفلاحين وهم يؤدون أعمالهم ، وأناشيد تتلى فى أيام الأعياد . وهو على مثال الشعر الفرعونى لم يتقيد بقاعدة القوافى ؛ وأبياته لم تراع فيها قواعد الوزن المتبعة فى الشعر العربى أو اللاتينى فهو غناء نسق روحى فى كل بيت منه انسجام خاص فى الكلمات والتوقيع يوصل إلى نغمة موسيقية ، وهذه الطريقة نفسها المتبعة فى شعر مصر القديمة

وكانت الأشعار القبطية تلقى بطريقة موسيقية على ألحان متعددة لكل لحن اسم ، وكان هذا الاسم مكوناً من الكلمات الافتتاحية لأغنية مشهورة (مثلا : الباب ، الحديقة ، سمعت السر المقدس ... انظر إلى فوق ...) كما تلقى اليوم أغانى العامة على وزن موال كذا وكذا

وكانت الأغانى فى أغلب الأحوال مؤلفة من دورين فى كل دور أربعة أبيات ، وكانت بين الدورين رابطة معنوية ، فكان الدور الثانى مثلاً يحوى ردا على سؤال ورد فى الدور الأول ، وتوجد أيضاً قصائد تمثيلية تشتمل على مقدمة ثم نشيد للمغنى ، وبعد ذلك دور غنائى غير موزون ، يليه رد الجمهور ، وكانت تكرر هذه السلسلة مرة أو أكثر على حسب موضوع القصيدة

وفى أحوال أخرى توجد قصائد تشبه كل الشبه الروايات التمثيلية الغنائية فيلقى كل ممثل فى دوره دورا غنائياً كما يرى فى رواية « اركليتيس ووالدته »

معاهدة ثقافية

عقدت أخيراً بين فرنسا والنمسا معاهدة ثقافية لتقوية الروابط والصلات الثقافية والفنية والاجتماعية بين الأمتين ، خلاصتها أن تتبادل الحكومتان الآثار العلمية والفنية ، وأن تتبادلا إقامة المعارض الفنية وتنظيم الحفلات الموسيقية والتمثيلية كل فى بلد الآخر ؛ وقد نص أيضاً على أن المعهد الفرنسى الفنى الذى أنشىء منذ حين فى مدينة فينا يجب توسعته وتنظيمه ، بينما تنشىء النمسا معهداً نمسوياً مماثلاً فى باريس ؛ كذلك نص على أن تتبادل الحكومتان انتداب العلماء والأساتذة كل فى النواحى التى تحتاج فيها إلى معاونة علمية من الطرف الآخر ، وأن تنظم كلتاهما كل فى بلد الآخر رحلات علمية ورياضية لطلبة المدارس الثانوية ، هذا إلى تفاصيل أخرى ترمى كلها إلى تقوية الصلات العلمية والاجتماعية بين البلدين

هذا ومن المعروف أن النمسا قد عقدت مثل هذه المعاهدة الثقافية من قبل مع المجر وإيطاليا ؛ وهى تبغى من وراء ذلك الى كسب المعاونة الخارجية للاحتفاظ بمستوى ثقافتها ؛ وهى تبذل فى ذلك السبيل جهوداً عظيمة داخلية وخارجية

وفاة علامة كبير

من أنباء السويد أن الطبيب والعلامة المجرى الشهير الدكتور روبرت بارنى قد توفى فى أوبسالا فى الستين من عمره ، وكان مولده فى المجر سنة ١٨٧٥ ؛ ودرس الطب فى فينا ، ثم زاول مهنته فيها أعواماً طويلة ، واشتهر بالأخص بالتخصص فى أمراض الأذن وجراحتها ، وفى أثناء الحرب الكبرى انتظم فى سلك الجيش ، وحارب فى الميدان الشرقى ، ووقع فى أسر الروس ، وأمضى فى الأسر حيناً فى روسيا . ولكن حكومة السويد تدخلت فى أمره تقديراً منها لكفاياته العلمية ، وسعت لدى روسيا حتى أطلق سراحه ، وانتدبته الحكومة السويدية للتدريس فى جامعة أوبسالا ، وفى أثناء الحرب أيضاً منح الدكتور بارنى جائزة نوبل للطب ، وأضحى علم الأعلام فى طب الأذن ؛ وله فى هذا الميدان بحوث علمية شهيرة ؛ وقد أنفق حياته منذ إطلاقه من الأسر كلها فى السويد حتى توفى فيها

الكتب

نابليون : المائة يوم

للسنيور موسوليني والسنيور فورزانو

نقلها إلى العربية الأديب يوسف تادرس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ما زال عظماء الرجال موضع تفكير الانسانية وبحثها ، ومهما كتب الكتاب فى عظيم لم يستوعبوا أسراره بل تبقى فى نواح منه مواضع فسيحة للأجيال المقبلة وبحثها ، ولقد كان نابليون أعظم من ظهر فى الانسانية فى تلك القرون الأخيرة من رجال الحرب والسياسة ، ولئن نفس عليه الأدباء عظمته وأبوا عليه الزعامة فيهم ، فلن يستطيعوا أن ينكروا أنه قد كان أديباً ، وأنه كان شاعراً ، لا بأنه كتب الكتب وألف القصائد ، بل لأنه كان له فن الكاتب وخيال الشاعر . ولقد حاول أن يجول فى ميادين الأدب الخالص كما حاول من قبله قيصر ، فلم تترك له مشاغل المممة ومشا كل السياسة فراغاً لذلك

وقلما نجد لغة من اللغات الحية ليس فيها ذكر لذلك الرجل العظيم ، ولم تكن القصة مقصرة فى ذلك عن التاريخ ، فان كتاب القصص وجدوا فى حياته مواطن كثيرة يخرجون منها إلى خيال رائع أو تحليل بديع . فقد كان نابليون على شهرته وتطلع العيون اليه محاطاً بجو من الغموض يجعل فى حياته مسارح لقناص الرواية وصيادى الحكاية

وقد اختلفت نظرات الناس فى نابليون اختلافاً لا ينم عن شىء تميمته عن عظمته واتساع شخصيته . ولكن لم يكن فى مقدور البشرية أن يدرك شخص كنه شخص آخر . فما زال تقدير الناس لنابليون تقديراً يقرب بهم الى الحقيقة ولا يلمسها . فكل من كتب فيه قارب ولم يصب ، ودنا ولم يصل . غير أن بعض الواصفين أقدر من بعض على قصد المرمى وبلوغ المدى ، وذلك أن يكون الواصف فيه شىء من طباع الرجل وخلقه وآرائه . فاذا تحقق ذلك كان الوصف أدنى ما يكون من الحقيقة

وقد كتب هذه القصة التى بين يدينا الآن رجل عظيم تدنيه من نابليون علاقات كثيرة ومشابهات متعددة وذلك هو موسوليني ، فكلاهما إيطالى ، وكلاهما رجل حرب ، وكلاهما رجل سياسة ، وكلاهما فيه هذه المغناطيسية العجيبة التى تخلق الأصدقاء المخلصين والأعداء المتحمسين ، وكلاهما انحنت له هامات كبيرة وعقول حصيفة . فاذا كتب موسوليني قصة عن نابليون ، كان أليق الناس أن يصف نبضات قلبه وخلجات صدره . وها هى هذه القصة تدل على ذلك أكبر الدلالة

يظهر نابليون فى هذه القصة عقب أسره الأول وارساله الى جزيرة « البا » ويظهر فيها فى فترة المائة يوم إلى أسره الأخير وإرساله إلى « سنت هيلانة » ولعمرى لهى أيام القصة من حياة نابليون . هى الأيام التى تتجلى فيها مأساة بشرية رائعة :

دسائس ثائرة حوله ، ومجهودات جبارة تحاول صد تيار أتىّ فتصرع دونه ، وأصدقاء يفر بعضهم ويثبت أقلهم ، ثم أنانية لا تنظر إلا إلى النفس ونفعها أو خلاصها ، والرجل العظيم فى وسط ذلك كله تنعكس فيه كل تلك العيوب وتشع منه كل تلك البواعث

صور موسوليني نظام الحكم وأسسه ، ونطق عن لسان نابليون فى تصوير عيوب الديمقراطية واحتقارها فقال :

نابليون — « . . . . . عند ما أبرح باريس إلى الميدان ، لا أريد أن يهاجمنى البروسيون والانجليز فى وجهى بينما يطعننى مجلس النواب الفرنسى من خلف »

فوشيه — « مولاى إن المجلس هو الأمة »

نابليون — « (ترتفع نبرات صوته) لا ... ليس هو الأمة (يبحث فى مكتبه كالمحموم) إن صانع البنادق فى مارسيليا الذى وهب لنا مائة بندقية ، وصانع السروج الفقير فى بولون سيرمار الذى قدم ثمانين سرجاً للفرسان ، وعمال فيسول

وفلاحى أرجون الذين حفروا الخنادق وأبوا أن يتناولوا أجرا ، وجنود الفرقة التاسعة والسبعين الذين رفضوا الرشوة لأنهم عقدوا العزم على أن يتبعونى ... وكل امرأة كنت أنتظر منها رسالة استجداء فاذا بى أتسلم بدلاً من ذلك رسالة تقدم فيها ما ادخرته من مال . (يريهم لفة مربوطة بشريط وسام جوقة الشرف) هذه هى الأمة يا مسيو فوشيه ، وليس الخمسمائة من المحامين الذين يستطيع أربعة من رجال حرسى أن يفرقوهم بمؤخرة بنادقهم »

وصور موسولينى شخص نابليون فلم يترك دقيقة لم يصورها : رجل ينام فى أى وقت شاء ، ويدرك فى دقيقة ما يفوت الافهام فى ساعات . فاذا عزم فانما عزيمة البرق ، وذلك حتى بعد أن فل حده وترهل جسده وضعفت عزيمته بعض الضعف . ثم صوره والداً تغلبه العاطفة وزوجاً يذكر حبه الأول ويحنق على زوجة خائنة حنقاً مكتوماً وإنساناً يتعذب ولكنه يحتمل العذاب والاحقاد احتمال الجبار

ثم صور موسولينى الموقعة الأخيرة ، فكان فى وصفه القائد الواقف على نشز من الأرض يرقب جنوده من منظاره ، ويحرك الفيالق عن علم ودراية ، حتى لكأننا ننظر من ثنايا وصفه ميدان « كاتربرا » و « واترلو » . ونسمع أصوات القواد والساسة فى مفاوضاتهم بعد النصر الأخير

فالقصة مثل رائع من أمثلة التأليف القصصى التاريخى ، يكاد الانسان لا يبصر فيها موضع القصص لصدقها التاريخى ، ويكاد لا يلمح التاريخ لصدق تصويرها القصصى

وقد أحسن حضرة الأديب يوسف أفندى تادرس الناقد المسرحى لجريدة السياسة الغراء ، فى إخراج هذه القصة الى اللغة العربية التى ماكان لها أن تفقد قصة موضوعها نابليون ومؤلفها موسولينى . وقد نقلها عن الترجمة الانجليزية للشاعر الانجليزى المعروف « جون درنكووتر »

وقد قرأت التعريب كما قرأت الترجمة الانجليزية التى عربها المعرب ، فاذا بى حيال قصة عربية سلسة حلوة الأسلوب سهلة اللفظ ، قد أبرز المعرب روحها إبرازاً لم يدع فيها موضعا لغموض مع الصحة والدقة

فعلينا أن نشكر لحضرة المعرب الأديب مجهوده العظيم الذى أضاف به كنزاً كهذا إلى اللغة العربية المجيدة

محمد فريد أبو حديد

مكتبة القراءة والثقافة الادبية

بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعى

مدير ادارة المطبوعات

لا حاجة بنا أن نقدم إلى القراء الدكتور أحمد فريد رفاعى فهو ذو الشهرة الطائرة والصوت البعيد فى عالم الأدب ، وفى طليعة الجمهرة المستنيرة المثقفة فى مصر ، يجمع إلى نشاطه الوثاب عزيمة لا تفتر وهمة لا تكل ، وهو جد معنى بأن يظهر أبناء العربية على طريف البحوث وشائق التآليف فى مختلف مناحى الثقافة العربية ، فقد أصدر منذ سنوات قليلة مؤلفه الكبير « عصر المأمون » ونال ما يستحقه من الرضا والاقبال ، كما أصدر سلسلة « الشخصيات البارزة » ؛ وها هو ذا الآن لا يشغله منصبه الرسمى الكبير عن أن يتحف أبناء العربية بسلسلة جديدة فى أربعة أجزاء تشمل دراسة موضوعات مختلفة فى الثقافة العربية أصدرتها مطبعة المعارف فى حجم لطيف وهى « المقدمة ، والتعقيب ، والتذييل ، والتعليق » وهى تشمل بحوثاً مستفيضة فى نواح مختلفة تلذ حقاً وتنفع حقاً ، فمن حديث عن حاجة العربية الى التجديد ، الى كلام عن فن القراءة ، الى درس البرامج الدراسية العربية والأفرنجية ، الى مطلب عن القراءة ، الى حديث عن موقف المؤلف بين العربية والانكليزية ، الى فذلكات عن ابن الجوزى والبغدادى وياقوت الحموى والفارابى وابن سينا وقيس بن رفاعة والزجاج وابن مسكويه وعمر بن الخطاب وأبى موسى الأشعرى وأبى عبيدة الجراح ومعاذ بن جبل وأبى حيان والأشتر النخعى والبصرى والمهدى وطاهر بن الحسين وابن طيفور والصابى وابن زيدون والأسكافى وابن سعيد المغربى وابن صخر الهذلى ، الى غير ذلك من الأحاديث الشيقة والدراسات الممتعة

وقد صدره المؤلف الفاضل بمقدمة بليغة ، شرح فيها غرضه من تأليفه وهو حرصه على توجيه الشباب توجيهاً نافعاً إلى الطريق الأقوم . فعسى أن يكون اقبال القراء عليه مكافئاً لجهده ومحققاً لقصده

(س)

4 me Année, No. 148. | Lundi - 4 - 5 - 1936

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٤٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٣٥٥ — ٤ مايو سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

الملك العالم فؤاد الأول



سبحانك اللهم مالك الملك ! تدبِّر أمرك فى سمو على مدارك العقل ، وتنفذ حكمك فى استقلال عن هوى الناس ! فلا حرص الوالد على وحيده يلطِّف قضاءك فيه . ولا حاجة الشعب إلى مليكه تردّ بأسك عنه . حكمة ضلّت فيها الفطنة ضلال الأفَن ، وقوة ضاعت فيها القدرة ضياع العجز ، وسلطان خضع له الملَك خضوع السُّوقة !

كان الملك فؤاد رحمه الله مظهراً من مظاهر القدَر فى الأرض . يجلس على عرش من أعرق العروش نسباً فى الملك ؛ ثم يأمر

فيطيع شعب، ويقول فيسمع عصر. ويعمل فيسجل تاريخ. ويضع حكمه فى الأمور موضع الإرادة السماوية فيكون شريعة لا تخالف، وعقيدة لا تنكر. وتلك طريقة المُلك بمعناه الشرقى الموروث. تصلح ما دام لها من هدى الله دليل ومن رَوْح العدالة سند؛ وشبل إسماعيل كان ملكاً بنشأته ومصلحاً بطبعه: رُبى تربية ملكية، ونُشِّىء تنشئة عسكرية، وثُقِّف ثقافة حديثة؛ ثم تقلب بين ملكية رومة، وخلافة الآستانة، وخديوية القاهرة. فارتسم على صفحة ذهنه صور من كلّ. ولكن عبقريته الفنية وعقليته العلمية ورجولته العملية، جعلت منه ملكاً فيه خصائص المُلك، وليس فيه نقائص الملوك. وإذا قلت إن الشرق لم ير قبل فؤاد ملكاً واسع الإحاطة شامل الثقافة قوى الإدراك لا تبعد عن الصدق

كانت مواهب الأمير فؤاد تأبى عليه إلا أن يكون كخالد ابن يزيد رجلَ علم إن لم يكن رجل مُلك. لذلك لم يصبر طويلاً على أن يكون حاشية للسلطان فى سراى عبد الحميد أو قصر عباس. فعاد فاتبع إحدى سبيلى المجد؛ وأقبل يذكى النهضة المصرية بالعلم النافع والعمل المنتج والقوة المحركة؛ فكان رئيساً لتسع عشرة جمعية أو مؤسسة ما بين علمية واقتصادية وخيرية، كلها من اقتراح رأيه أو من ثمرة سعيه. فلما بوّأه الله عرش مصر فى ساعة مضطربة وحالة مبهمة، كان يرى لطول ما خبر الشعب، وكثرة ما عالج الأمور، ووفرة ما عرف من الوسائل، وكفاية ما تزود للإصلاح، وقوة ما ضمن لتوزيع العدل، أنه أول الناس وأولى الناس بقيادة أمته فى أشد مراحلها تعرضاً للضلال والخطر؛ وهذه القيادة نوع من أنواع الحكم المطلق، يعتمد على وحى العقيدة وإخلاص الرأى كالخلافة، أكثر مما يعتمد على استبداد الزعامة وقوة الجمهور كالدكتاتورية؛ ومن ذلك كان منشأ النزاع الثلاثى الذى قام بين العرش والاحتلال والدستور حيناً على حين؛ ومن طبيعة هذا النزاع أن يتجاذب أطراف الأعنة الثلاثة فتنبسط لتنقبض، وتتسع لتضيق، ولكن القوة التى كان الملك يستمدها من صبره وحكمته وجرأته وخبرته وذكائه كانت فى الكثير الغالب تشد الطرف الراجح إلى يده، فيسير فى الإصلاح بالقدر الذى يبقى على هذا التجاذب من الإمكان والقدرة. ومع ذلك كان التقدم فى عهده على محافظته وأناته محسوس الأثر: فلقد تعهد منابت الثقافة فغذاها بعونه، وتفقد منابع الثروة فرفدها بعنايته، وبسط رعايته على كل أمر من أمور الدولة وكل شأن من شئون الأمة حتى لا تجد عملاً من الأعمال العامة إلا كان فيه بسطة من لسانه أو يده

ولعل أشرق وجوه الإصلاح فى عهد المليك الراحل ما اتصل منها بالجمعيات الاقتصادية والمؤسسات العلمية والمؤتمرات الدولية والمتاحف الأثرية والمرافق العامة؛ أما الأعمال الفردية والجهود الأدبية فكان نصيبها من حكمه السعيد كنصيبها من حكم جده الأعلى محمد على. على أن عناية المليك العظيم بها قد بدت بواكيرها المرجوّة فى مثل بنك التسليف ومجمع اللغة؛ فلو مد الله فى عمره الحافل المبارك حتى تنضج لكان عصره أشبه بعصر لويس الرابع عشر

كان الملك فؤاد بالرغم من عوامل نشأته، وعلى النقيض من ميول أبيه، شديد التعلق بدينه، قوى الحرص على شرقيته؛ يكره أن يجعل من مصر قطعة من أوربا، ويحب أن تظل دولة إسلامية شرقية لها تقاليدها الخاصة، وأسانيدها المتصلة، وسِماتها المميزة، فساعد الحجاب، وأيد الطربوش، وعضّد الدين فى كل خلاف بينه وبين التطرف؛ وكان من ذلك شىء من التصادم المكبوت بين الرغائب الوثابة الشابة، وبين هذه الأناة الملكية الحكيمة

إن من العسير على المنطق النزيه أن يحكم اليوم على أعمال مليكنا العالم العامل الكفء، فإنها إنما بدت للناس على ألسنة رجال البلاط، وعلى أيدى رجال الحكومة؛ والبلاط قد يتأثر بشهوات الناس، والحكومة قد تتأثر بنزوات الساسة. ومهما يقل التاريخ فى العصر الفؤادى فسيسجل بالخط البارز أنه عصر الرخاء للنيل، وعهد الاستقلال للأمة، وفجر النهضة فى مصر

عز الله مصر عن ملكها العظيم الفقيد، وبارك الله لمصر فى ملكها العزيز الجديد

احمد حسن الزيات

مقياس الشـــــباب

للأستاذ أحمد أمين

أما الأطباء وعلماء الأحصاء فيقدرون الشباب بالسن ، فمن بلغت سنه العشرين أو قبل ذلك قليلا أو بعد ذلك بسنين فشاب وإلا فلا ؛ فتحديد السن هو مقياس الشباب ، كما هو مقياس الطفولة والهرم ، فان شئت أن تعرف المخلوق أطفل هو أم شاب أم شيخ فأغمض عينك وعدّ السنين ، ولا تنظر إلى قوة أو ضعف ، ولا إلى صحة أو مرض

وسار على هذا النمط علماء اللغة ، فقالوا : ما دام الانسان فى الرحم فهو جنين . فاذا ولد فهو وليد ، ثم ما دام يرضع فهو رضيع ، ثم إذا قطع عن اللبن فهو فطيم ، فاذا كاد يجاوز العشر سنين أو جاوزها فهو ناشئ ، فاذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق ، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ، ثم هو كهل إلى الستين

ولكن هناك شاعراً أراد أن يخرج على هذه التقاليد ، وأراد أن يقيس الشباب والفتوة بالمعنى لا بالمبنى ، وبالقوة لا بالسن ، فقال :

يا عزُّ هل لكِ فى شيخ فتىً أبدا وقد يكون شبابٌ غيرُ فتيانِ ؟

فهو لا يريد أن يعترف بأقوال الأحصائيين ، ولا أقوال اللغويين ، فقد يسمى الشيخ شاباً متى حاز صفات الشباب ، وقد يسمى الشاب شيخاً إذا حاز صفات الشيوخ ، فالعبرة عنده فى التسمية الصفة لا السن ، وهى من غير شك نظرة جريئة ومذهب جديد ينظر فيه إلى الكيف لا إلى الكم ، وإلى النتائج لا إلى المقدمات ، وإلى الغاية لا إلى الوسيلة ؛ فاذا عرضْتَ عليه رجلا قد ناهز الستين أو جاوزها ، قد لبس فى حياته العمائم الثلاث : السوداء ثم الشمطاء ثم البيضاء ؛ وعرضت بجانبه من يسمونه شاباً ، لم يلبس فى حياته إلا العمامة الأولى . ثم سألت صاحب هذا المذهب : ما قولك دام فضلك فى هذين ؟ هذا أربى على الستين ، وهذا فى سن العشرين . فأيهما الشاب ، وأيهما الشيخ ؟ لم يستسخف سؤالك ، ولم يعده بديهية من البديهيات ، بل عده مجالاً للنظر الطويل والتفكير العميق ، وقال : ليس الأمر بالسن أيها السائل ، فمن رأيته منهما متهدماً قد نضب ماؤه ، وذهب رواؤه ، وذوى عودُه ، وخَوَى عمودُه ، ورق جلده ، وانخرع متنه ، وحطمته اللذات ، وأنهكت قوته الشهوات ، حتى صار لا يحمل بعضه بعضاً ، فهو الشيخ وإن كان ابن العشرين ؛ ومن امتلأ قوة ، وبلغ كمال البنية ، واستوت قامته ، واعتدل غصنه ، وحفظت جدته ، وأحكمت مِرّته ، وبجلت رجولته ، واكتمل نشاطه ، فهو الشاب ولو جاوز الستين . إنما يلجأ إلى السن فى تحديد الشباب والشيخوخة من قصُرَ نظره ، وضعفت قوة حكمه ، وأراد أن يعالج الأمر من أسهل طرقه ، وأقرب مسالكه ، وذلك شأن الغر الأبله ، لا الفيلسوف الحكيم ، ولمَ كنا إذا قسنا العلم وقسنا الكفاية ، وقسنا الخلق والصلاحية للأعمال لم نرجع فى شيء من ذلك إلى السن ، وإذا قسنا الشباب والشيخوخة رجعنا إلى السن ؟ ليست السن مقياس الشباب ، وإنما أحسن أحوالها أن تكون علامة الشباب ، وقد تتخلف العلامة كحكمنا على الرجل بالعلم لأن لديه شهادة الليسانس فى الآداب أو الليسانس فى الحقوق ، وقد يكون معه الليسانس أو الدكتوراه وليس بعالم ، كما يكون فى سن العشرين وليس بشاب . إن الشباب أو الشيخوخة معنى لا مادة ، وقد علمتنا قوانين الحياة أن المادة تقاس بمادة ، والمعنى يقاس بمعنى . فنحن نقيس الحجرة المادية بالمتر المادى ، ونكيل القمح المادى بكيلة مادية ، ونزن التفاح المادى برطل مادى ، ولكن من السخف بمكان أن تقيس الفضيلة أو الجمال أو القبح بمتر أو رطل أو قدح ، فلم نقيس الشباب وهو معنى بالسن وهى مادة ؟

بل لو تعمقنا أكثر من ذلك لوجدنا أن حسن الرواء وجمال المنظر ومرح النشاط ليست هى المقياس الصحيح للشباب ، إنما الشباب مزاج ، هو محصّل لمجموع قوى نفسية ، هو حاصل جمع لصفات خلقية ، إن شئت فقل هو الارادة قوية تعزم العزم لا رجوع فيه ، وتزمع الأمر لا محيد عنه ، وترمى الى الغرض لاسبيل إلا اليه ، تعترض الصعابُ فلا تأبه لها ، وتخر السماء على الأرض فلا تتحوّل عنه ؛ قد تعترف بأن هناك عقبة ، ولكن لا تعترف بعقبة كئود ؛ وقد تقر بصعوبة الامر ، ولكن لا تقر

باستحالته — والشباب هو العاطفة القوية المتحمسة الصحيحة ، ومظاهر صحتها أنها ثابتة فليست « قشاً » تشتعل سريعاً وتخمد سريعاً ، وليست مضطربة تذهب مرة يمينا ومرة يسارا من غير غرض يحدد اتجاهها ، وليست مائعة تحب فتذوب فى الحب ، وتغضب فتجن فى الغضب ، إنما ألجمها بعض الالجام العقل والمصلحة والغرض — والشباب هو الخيال الخصب الواسع الأفق المترامى الأطراف الذى يرسم الأمل ويبعث على الطموح ، ويحمل المرء على أن يتطلب لنفسه ولأمته حياة خيرا من حياتها الواقعية — هذا المزاج الذى يتجمع من إرادة قوية وعاطفة حية وخيال خصب هو الشباب ، وبمقدار قوتها وتلاؤمها تكون قوة الشباب ، وبمقدار نقصها تكون الشيخوخة ، فالشباب موجب والشيخوخة سالبة ، والشباب اقدام والشيخوخة احجام . والشباب نصرة والشيخوخة هزيمة

وإذا كان الناس قد اعتادوا أن يصطلحوا على علامات للشيب والشباب حسب تفسيرهم الباطل فان لنا علامات أخرى على تفسيرنا الصحيح

لقد جعلوا الرأس موضع أهم الأمارات ، فسواد الشباب وبياض الشيب أكثر ما دار عليه القول فى الشيخوخة والشباب ، وهو مركز القول فى ذلك عند الأدباء والشعراء ، حتى ألفوا فى ذلك الكتب الخاصة من أشهرها كتاب « الشهاب فى الشيب والشباب » جمع فيه الشريف المرتضى تسعة وثلاثين بيتاً فى الشيب لأبى تمام ، ومائة وأربعين للبحترى ، وثلثمائة وأربعة عشر للشريف الرضى ، وأربعمائة وثلاثة وستين للمرتضى ، وستة وأربعين لابن الرومى . وقد التفت مؤلف هذا الكتاب فى مقدمته إلى فكرة جليلة ، ولكنه لم يحسن تعليلها ، قال : « إن الاغراق فى وصف الشيب والاكثار فى معانيه ، واستيفاء القول فيه ، لا يكاد يوجد فى الشعر القديم ، وربما ورد لهم فيه الفقرة بعد الفقرة ، فكانت مما لا نظير له ، وإنما أطنب فى أوصافه واستخراج دفائنه والولوج إلى شعابه الشعراء المحدثون »

وعلة ذلك فى نظرى أن الحياة فى الجاهلية وصدر الاسلام لم تكن غالية ، كانت تتطلب المجد وتسترخص الموت ، غير أن المجد فى الجاهلية كان مجد الذكر وحسن الأحدوثة والخوف من العار واتباع التقاليد ، وكان فى الاسلام ذلك ، وعند بعضهم الاستشهاد فى سبيل الدعوة وبيع النفوس لله برضاه وجنته ، فليست الحياة تستحق البكاء الطويل عليها . أما فى العصر العباسى فكانت أشبه بحياة الرومانيين ؛ من أهم أغراضها اللهو واللعب ، ومن أهم أغراضها القرب إلى النساء ، والتحبب اليهن ، وذلك يستدعى حب الحياة ؛ فنذير الموت وهو الشيب بغيض إلى النفس ، والنساء يكرهن الشيب فيجب أن يكره ، ويعيرن به فيجب أن يبكى ، ويمدحن الشباب ويحببنه فيجب أن يرثى . لهذا كثر القول فى الشيب فى العصر العباسى وما بعده ، وقل فيما قبله

أما علامات الشباب والشيخوخة فى نظريتنا : فليس موضعها الرأس ، إنما موضعها القلب ، فاليائس شيخ لأن اليأس ضعف فى الارادة وضيق فى الخيال ، وبرودة فى العاطفة ، والشيب شيب القلب لاشيب الرأس ، فمن لم ينفعل لمواضع الانفعال ، ولم يعجب لمواضع الاعجاب ، ولم يستكره فى مواضع الاستكراه ، ولم ينازل فى مواضع الكفاح ، ولم يطرب للموسيقى الجميلة والمنظر الجميل ، ولم يهتج للأحداث ، ولم يأمل ولم يطمح ، فهو شيخ أى شيخ ، شاب قلبه ، وإن كان أسود الرأس حالكه

إن أردت أن تعرف أشيخ أنت أم شاب ، فسائل قلبك لا رأسك ، هل ينبض بالحب : حب الجمال ، وحب الطبيعة ، وحب الفضيلة ، وحب الانسانية ، وهل ينفعل لذلك انفعالاً قوياً فيهيم ويغار ويدافع ويضحى ؟ هل يتصل قلبه بالعالم فيتلقى أمواجه الأثيرية من الناس ، ومن الأرض ، ومن البحر ، ومن الجبل ، ومن السماء . ثم يلقى بأشعته — كما تلقى — على كل من حوله ، فينفعل ويفعل ، ويتأثر ويؤثر ؛ فهو كالقمر يتلقى من الشمس ضياء وهاجا ويعكسه على الأرض نوراً وضاء ؟ هل يبادل من حوله حباً بحب ، وعاطفة بعاطفة ، وخيراً بخير ، وأحياناً شراً بشر ؟ وهل يترك العالم خيراً مما تسلمه ؟ أو أن قلبه بارد كالثلج ، جامد كالصخر ، لاطعم له كالماء ، ميت كالجماد ، مغلف كالخرشوف ؟

إن كان الثانى فشيخ ، وإن كان الأول فشاب

قالت كَبِرْتَ وشِبْتَ قُلْتُ لها
هَــذَا غُبَارُ وَقَائِعِ الدَّهْرِ

أحمد أمين

النهضات القومية العامة

فى أوروبا وفى الشرق

للأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

بقية المحاضرة الثانية

طرقها فى التنظيم :

وللفاشية طرق للتنظيم . والحكومة الفاشية تتألف من الملك والمجلس الأعلى والوزراء ومجلس الشيوخ ومجلس النواب والمجلس الوطنى للنقابات . ومن وراء هذا الحزب الفاشى على درجة عليا من التنظيم ، وهو القيم على الحكومة الفاشية كما أن الحزب الشيوعى هو القيم على الحكومة البلشفية . ومن وراء هذا وذاك الزعيم . وهو رئيس الحزب الفاشى ، ورئيس المجلس الأعلى ، ورئيس الوزراء ، ورئيس المجلس الوطنى للنقابات . وفى يده تتركز كل السلطات

والجديد فى هذا التنظيم أمران :

الأمر الأول هو أن أعضاء مجلس الشيوخ والنواب لا يأتون بطريق الانتخاب كما فى الدول الديمقراطية ، بل يأتون بطريق التعيين . فأعضاء مجلس الشيوخ يعينهم الملك بناء على ترشيح الحكومة . وأعضاء مجلس النواب يعينهم المجلس الأعلى ، ويصدق على التعيين الناخبون بطريق القائمة . والناخب يصوت لا كفرد سياسى ، بل كشخص اقتصادى ، فيفرق بين أصحاب الأعمال والعمال والقائمين بالأعمال الفكرية

والأمر الثانى هو أن هـذه الهيئات المختلفة التى تتألف منها الحكومة الفاشية فيها هيئتان جديدتان لا نظير لهما فى الدول الديمقراطية : المجلس الأعلى والمجلس الوطنى للنقابات . أما المجلس الأعلى فهو اللجنة التنفيذية للحزب الفاشى نجح موسولينى فى إدماجها فى الحكومة الايطالية . ويتألف هـذا المجلس من نحو عشرين عضواً برأسهم الزعيم . وفيهم أعضاء معينون لمدة غير محدودة ، وأعضاء لمدة محدودة ، وأعضاء بحكم وظائفهم . ويختص هذا المجلس بالنظر فى المسائل التشريعية الكبرى ، كسن القوانين الدستورية . وهو الذى تتركز فيه السلطة التنفيذية بعد الزعيم ويعين أعضاء الهيئات التى تتألف منها الحكومة الفاشية والحزب الفاشى . أما المجلس الوطنى للنقابات فيتألف من ممثلين لأصحاب رؤوس الأموال وممثلين للعمال ويرأسه الزعيم . وهو ينقسم إلى فروع تتمشى مع النواحى المختلفة للنشاط الاقتصادى . فتمثل فيه الصناعة الكبرى ، والصناعة الصغرى ، والزراعة ، والتجارة . والنقل ، والمصارف وغيرها . ذلك أن أصحاب رؤوس الأموال والعمال فى كل ناحية من هذه النواحى منتظمون فى نقابات متدرجة من محلية إلى إقليمية إلى مركزية إلى هذا المجلس الوطنى للنقابات ويتناول اختصاصه بنوع خاص توجيه النشاط الاقتصادى فى البلاد

ومن هذا نرى أن الفاشية ، بحكم المبادئ التى تقوم عليها ، والوسائل التى تتذرع بهـا فى العمل ، والطرق التى تتبعها فى التنظيم ، خصم للاشتراكية من جهة ، وللفردية من جهة أخرى ؛ فموقفها بالنسبة للفرد موقف وسط ، لا تدمجه فى الدولة كما تفعل الاشتراكية ، ولا تطلق له الحرية كما تفعل الفردية

النازية :

وإذ فرغنا من التحدث عن الفاشية فى إيطاليا نقول كلمة موجزة عن النازية فى ألمانيا . وحتى نختصر الطريق نكتفى فى الكلام على النازية بأن نقارن بينها وبين الفاشية ، فالحركتان تتفقان فى المبادئ ووسائل العمل . ذلك لأن النازية تقدس القومية ، ولـكن القومية عندها لا تقوم على رابطة الوطن كما فى الفاشية ، بل تقوم على رابطة الجنس . فالجنس الجرمانى كله ، لا الأمة الألمـانية وحدها ، هو الذى يجب أن يتحد . والنازية كالفاشية توفق ما بين المبادئ الاشتراكية والنزعة الوطنية ، فهى وطنية اشتراكية ذات صبغة عملية . والنازية كالفاشية لا تؤمن بالجامعات الدولية ، فهى ترى عصبة الأمم جامعة خيالية ، وتقيم حرباً عواناً على البلشفية . وقد انتظم هتلر الشيئين فى خطبته التى ألقاها منذ شهر عقب الحوادث السياسية الأخيرة ، فهو يقول : « إن الأمم كانت فريسة للخيالات والأوهام عند ما آمنت بعصبة الأمم ،

وإن السلام الذى كان يجب أن يكون حجراً يقفل به ضريح الحرب إلى الأبد أصبح مباءة تنمو فيها بذور ارتباكات جديدة، وإن الثورة الشيوعية لم تقتصر على وضع طابعها على امبراطورية من أعظم الامبراطوريات فى العالم، بل اتجهت أيضاً إلى الشعوب المجاورة. فهنالك جيوش مؤلفة من ملايين من الرجال تذهب إلى الحرب لاشعال ثورات عالميــة من أجل الشيوعية، وتجند هذه الملايين بدعوى السعى إلى إبطال الحروب . . »

والنازية كالفاشية تجعل الحكم للأقليــة الصالحة، ويقول هتلر فى هذا المعنى: « نريد رجالاً قليلين من الطبقة الحاكمة الجديدة، هم الذين يؤمنون بأن لهم الحق فى أن يحكموا لتفوقهم، ويبسطون سلطانهم دون تردد على السواد من الجماهير » . على أن هذه الأقلية الحاكمة تدين كلها بالخضوع والولاء للزعيم الأكبر

والنازية كالفاشــية فى نزعتها الاستعمارية العسكرية . فهى تذهب إلى أن العلم الحديث يولد إيماناً لا يتزعزع فى القيمة الخلقية العليا للحرب . ويقول الدكتور جوبلز: « إذا حاولت أن تقمع الحرب، فانك تكون كمن يحاول أن يقمع حركات الطبيعة »

والنازية كالفاشية فى الظروف التى نشأت فيها . فقد قامت النازية عقب خروج ألمــانيا من الحرب مهزومة . وكان للاضطرابات التى أحدثها الاشتراكيون الألمــان، والاضرابات التى نظموها، أثر حاسم فى هــذه الهزيمة . وقد سام الحلفاء المنتصرون ألمانيا المهزومة فى شروط الصلح خسفا جرح كبرياءها، وفى وسط هذه الغيوم المتلبدة سطع نجم مؤسس النازية، بعــد أن أقام حركته لمقاومة البلشــفية، ولانقاذ الوطن الجرمانى، وبعثه من جديد

والنازية كالفاشــية أخيراً فى شخص الزعيم . ففى إيطاليا موسولينى القائد المحرك (Duce)، وفى ألمانيا هتلر القائد المرشد (Tührer)، هــذا ووراءه النازى فرقاً منظمة وهم ذوو القمصان السمراء، وذاك ووراءه الفاشستى أى فرق الــكفاح، ذوو القمصان السوداء . وقد لجأ الرجلان إلى أساليب واحدة فى تنظيم معسكريهما: خضوع مطلق لسلطان الزعيم، ونظام عسكرى دقيق، وروح وطنية حربية، وشبان يحتشدون بالألوف، ويدخلون أفواجاً فى هذا الدين الجديد . وكل من الفاشــية والنازية دين ينطوى على إيمان عميق . ولهــذا الدين فرائضه ومناسكه، تتمثل أوضاعاً ورسوما، فمن حركات عسكرية، إلى أعلام خفاقة، إلى إشارات رمزية، إلى شارات موضوعة، إلى أناشـــيد محفوظة، إلى لباس خاص

والرجلان قد رزقا موهبة الخطابة وقوة البيان، والقدرة على اجتذاب شعور الجماهير . وهما إنما يبشران بدين وإيمان، وقوة الايمان يغذيها سحر البيان . والرجلان من رجال العمــل لا من رجال الفكر، فهما لا يترددان ولا يتمهلان، بل يسيران قُدُماً إلى الأمام

والرجلان يتشابهان نشأة وتربيــة وقوة وسطوع نجم . نشآ فى التربة والمســغبة، موسولينى أبوه حداد، وهتلر أبوه مستخدم صغير فى الجمارك النمساوية . وعاش الاثنان عيشة الــكفاف ثم هجرا بلديهما، فذهب موسولينى إلى جنيف، حيث اشتغل عاملاً فبناء؛ وذهب هتلر إلى فينا، حيث اشتغل عاملاً فرساما . وقد تربى كل منهما فى مدرسة واحدة، هى مدرسة البؤس والشقاء، تلك المدرسة التى كثيراً ما تنبت عظماء الرجال . فتعلما فيها صلابة العود، وقوة العزيمة، ومجالدة الفاقة، ومنازلة الأخطار، وتخرج كل منهما قوى الشكيمة شديد المراس . وأتما تربيتهما معاً فى مدرسة أخرى، هى مدرسة الحرب الــكبرى، إذ تقدم كل منهما إلى هذه الحرب، نخاض غمارها، واصطلى بنارها، وعانى أهوالها، وجرح فى معاركها، وأبلى فيها بلاء حســنا، وخرج منها وقد استكمل النضوج، واستوفى الرجولة، وسار إلى ما هيأته له الأقدار

وأسس موسولينى أول فرقة للــكفاح (fascio di combattimento) فى ميلان ســنة ١٩١٩ من مائة وأربعين رجلاً، وتزايدت فرق الــكفاح، ونظمت تنظيماً عسكرياً دقيقاً، فأمكنه أن يحشد بعد ثلاث سنوات مائتى ألف من الرجال، استولوا على إيطاليا الوسطى وسبعين ألفاً زحفوا على روما، وقبضوا على ناصية الحكم بالقوة . وهو الآن فى قصر فينيسيا يصرف أقدار أمة كبيرة ويحكمها حكماً دكتاتورياً . وذهب هتلر بعد الحرب إلى مونيخ، وهنالك انضم إلى حزب صغير غير معروف، فأخذ يقويه، وينفخ فيه من روحه حتى حشد فيــه الآلاف من الرجال . وسجن عقب إخفاقه فى

ثورة أراد بها قلب الحكم فى بافاريا ، وكتب فى السجن كتابه الذى أسماه : « جهادى Mein Kampf » ولما أطلق سراحه ، جمع شتات حزبه وكان قد تفرق . وعاد إلى الجهاد ؛ ثم أخذ يستولى على مشاعر الأمة الألمانية شيئاً فشيئاً ، حتى ضمها تحت لوائه ، وأصبح الآن هو المسيطر على سبعين مليوناً من البشر من أعظم الشعوب وأرقاها ، يخضعون لاشارته ، ويدينون له بالولاء

بقى أن نقول إن الفاشية والنازية تنازلان البلشفية بنفس سلاحها . فهما كالبلشفية تحكمان حكما دكتاتوريا ، وهما كالبلشفية أيضاً تخضعان النظام السياسى للنظام الاقتصادى . والمعركة قائمة بينهما وبين البلشفية ، فأى المعسكرين يكتب له الانتصار ؟ هذا هو السر المخبوء فى عالم القدر . على أن الحوادث السياسية الأخيرة وبنوع خاص تلك المحالفة التى عقدتها فرنسا مع روسيا البلشفية والتى أثارت سخط خصوم البلشفية حتى بين الفرنسيين أنفسهم ، قد تعجل بالمعركة الفاصلة ، وقد تغرق أوروبا من جديد فى بحار من الدماء

على أنه سواء تغلبت البلشفية فى المعركة القادمة ، أو انتصرت الفاشية والنازية ، فالواقع من الأمر أن كلا الخصمين مشبع بروح الدكتاتورية البالغة فى التطرف ، وأن الصريع بينهما هى الدمقراطية على كل حال . وقد صار واجبا على الديمقراطيين أن يراجعوا أصول الديمقراطية من جديد ، حتى تتمشى مع ما يقتضيه هذا التطور السريع

***

والآن وقد انتهينا من استعراض الحركتين الفاشية والنازية وانتهينا بذلك من استعراض النهضات القومية فى أوروبا منذ العصور الوسطى إلى الآن ، نختم هـذه المحاضرة بايراد بعض النتائج العامة التى نستخلصها من تطور هذه النهضات ، ونـكتفى منها بثلاث :

النتيجة الأولى : هى أن رابطة الدين التى كانت تسود فى العصور الوسطى قد زال سلطانها فى العصور الحديثة . وقد انفصلت الـكنيسة عن الدولة . ولا نعنى بذلك أن سلطان الدين قد زال من القلوب ، فان الانسانية لا غناء لها عن الدين مهما بلغ حظها من التقدم . ولـكن عرش الدين مكانه القلوب والضمائر . أما الروابط الاجتماعية فتتصل بالدين من جانبه الاجتماعى ، لا من جانبه الاعتقادى

والنتيجة الثانية هى أن الفرد فى أوروبا لم يتحرر إلا بعد أن تحرر المجموع . والديمقراطيـة التى حررت الفرد لم تقم إلا بعد أن تدعمت الوطنية التى حررت الأمم . وليس فى هذه النتيجة العملية خروج على المنطق ، ولا انحراف عن طبيعة الأشياء ، فالفرد جزء من المجموع ، فـكيف يكون الجزء حراً إذا كان المجموع مقيداً فى ربقة الأسر ؟

والنتيجة الثالثة والأخيرة هى أن القوميات فى أوروبا عندما تكونت أسرفت فى التعصب ، وتطرفت فى الاستئثار . وتقهقر الجانب الايجابى من الوطنية ، وهو حب الانسان لوطنه أمام الجانب السلبى وهو بغضه للأوطان الأخرى ، وحل التعصب للدين ، فـكان من ذلك أن هزت الحروب أركان أوروبا ، واندلعت نيران التعصب للوطن بعـد أن نشأت الوطنية وترعرعت ضيقة هوجاء ، وأصبحت لا تتسع للاندماج فى روابط الجنس والدم . وتعانى أوروبا الآن من تقطع وشائج القرابة ما بين الأمم الأوروبية ما تقف أمامه عصبة الأمم عاجزة دون حول . فما كان أولى برابطة الوطن أن تتوثق فى ظل رابطة الجنس ! وما كان أولى برابطة الجنس أن تتوثق فى ظل رابطة أوسع ! وهكذا تدعم كل رابطة أختها ، فتحقن الدماء ويسود السلام ؟

عبد الرزاق احمد السنهورى

صور من القرن الثامن عشر

٤ـ جاكومو كازانوڤا

جوّاب مجتمع ومغامر مرح

خاتمــــة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والآن وقد استعرضنا سيرة ذلك الجوّاب المرح والمغامر الجرىء ، نحاول أن نستعرض جوانب شخصيته ومناحى نفسه ، وأن نقرأ فى حوادث حياته لمحة من خلال العصر الذى عاش فيه :

كان القرن الثامن عشر عصر تطور فكرى واجتماعى عميق ، وكان أيضاً عصر انحلال فكرى واجتماعى ، وكان المجتمع الأوربى القديم ينحدر يومئــذ إلى نوع من الخمول والدعة ، ويجنح إلى تذوق متاع الحياة المادى بكل ما وسع من رغبة وهوى ؛ وكان كازانوڤا يمثل روح عصره وخواص عصره ، بل كان يمثل رذائل عصره أتم تمثيل وأصدقه ؛ وكان يمثل بالأخص الجانب المادى من هذه الخواص والرذائل ، فكانت خلاله مزيجاً من الاستهتار والمرح ، والجرأة والطموح ، والعزم والخمول ؛ وكانت غاية الحياة عنده هى الحياة ذاتها بما فيها من متاع ولذائذ وترف . كان كازانوڤا يحب الحياة حباً جما ، وهو يصفها فى مذكراته « بأنها هى الشىء الوحيد الذى يملكه الانسان حقا » ، ويشبهها « بغانيــة حسناء يعشقها الانسان ، ويهبها ما شاءت ما دامت باقية عليه » ؛ وهذه الفلسفة المادية المحضة هى التى تغمر حياة كازانوڤا وتوجهها

وهذه النظرة المادية إلى الحياة ، وهذه الفلسـفة المستهترة المرحة ، وهذه الخواص السقيمة المنحلة ، تقدمها إلينا مذكرات كازانوڤا بصورة بارزة ؛ والواقع أن هذه المذكرات الشهيرة التى تشغل عدة مجـلدات كبيرة ، إنمـا هى صورة قوية جامعة لمجتمع القرن الثامن عشر وخواصه وفضائله ورذائله ؛ وهى ليست قصة كازانوڤا فقط ، ولـكنها قصة جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية فى هذا العصر ؛ ففيها نرى حياة المغامر الجرىء ، والمشعوذ الأفاق ، والعاشق المضطرم ، والسيد المنعم ، والشريد البائس ؛ وقد كان كازانوڤا كل أولئـك ، وكان له كل خلالهم ورذائلهم ، وهؤلاء جميعاً يملأون فراغ حياته

وهــذه المذكرات الشهيرة هى أسطع ما فى حياة كازانوڤا ، وهى التى خلدت ذكره . ذلك أن كازانوڤا لم يكن فى ذاته شخصية هامة ولم يكن من رجال التاريخ ، ولـكن حياته العجيبة تقدم إلينا مزيجاً مدهشاً من الفلسفة المادية والاجتماعيــة يستحق الدرس لذاته ؛ وقد عنى فى أواخر أيام حياته أن يدون سيرته بكل ما فيها من حوادث مدهشة ، وفلسفة مرحة ، وفضائح مزرية ، وكل ما فيها من شذوذ وخبائث . وقد رأيناه فى أواخر حياته يستقر فى قصر دوكس ، فى ذلك المقام النائى المنعزل ، ويقطع أوقاته بالقراءة والـكتابة ؛ وكان كازانوڤا أديباً مفكراً ، حسن البيان والأسلوب ؛ وكان تدوين سيرة حياته أعظم عزاء له فى شيخوخته ؛ فقــد كانت هذه الصحف المتعة تحمله من ذلك القصر النائى ، ومن غمار الشيخوخة والعزلة والبؤس ، إلى المـاضى الباهر ؛ إلى الأيام الخالية بكل ما فيها من متاع وترف ، إلى أمسية الحبور والمرح ، إلى المدن والمجتمعات التى جابها ، وإلى مختلف النساء اللائى ظفر بهن . وكان أثناء حياته الحافلة قد جمع كثيراً من المذكرات والمواد لـكتابه ، ومنها رسائل من أصدقائه وصاحباته ، ومذكرات كان يدونها على الأثر ، هذا إلى ما تعيه ذاكرته القوية من الحوادث والتفاصيل

وقد بدأ كازانوڤا كتابة مذكراته فى سنة ١٧٩١ ، واستمر فى كتابتها عدة أعوام ، ولبث يستعيدها ويهذبها حتى سنة ١٧٩٨ ، قبيل وفاته بأشهر قليلة ؛ وكان يكتبها بشغف وتأثر ، إذ كان يرى تلك الحياة الساطعة الذاهبة تمر أمام عينيه وتبعث إليه ذكريات المجد والصبا ؛ وكان يعتزم إصدار الجزء الأول منها منذ سنة ١٧٩٧ ، ولـكن الموت عاجله ، ولم يتح له تنفيذ أمنيته

ولم تظهر مذكرات كازانوڤا الا بعد وفاته بحين ؛ وكان ظهورها حادثاً أدبياً كبيراً . ذلك أنها لم تكن فياضة بالسير العجيبة

فقط ، ولكنها كانت أيضاً قطعة فنية بديعة تنعكس عليها جميع أحوال العصر الذى عاش فيه صاحبها ، أعنى القرن الثامن عشر ، وجميع صوره وأحوال مجتمعه . وتشغل هذه المذكرات الممتعة عدة مجلدات كبيرة ، وهى عمدتنا الأولى فى سيرة كازانوفا وفى تفهم نفسيته وخلاله ، وفيها يقص حياته منذ مولده بإفاضة ، ويستعرض جميع وقائعه ومغامراته الغرامية مع نساء العصر من كل الطبقات ، ويصف رحلاته العديدة إلى مختلف البلاد ، ويصف لنا مجتمعات العصر وأحواله وأخلاقه وعاداته ؛ كل ذلك بقوة وإفاضة وبيان شائق ؛ وقد كان كازانوفا فى الواقع رحالة عظيما ، وكان يتمتع بمواهب بديعة فى الملاحظة والدرس والوصف وفى تفهم عقلية الأفراد والطبقات ؛ هذا إلى خيال خصب يسبغ على قصته كلها طابعاً من السحر ؛ وقد يطبع بعض أقواله ومزاعمه أحيانا طابع من المبالغة ، ولكن ذلك لا ينتقص من متاع قصته وسحرها

وقد لفتت مذكرات كازانوفا منذ ظهورها فى أوائل القرن التاسع عشر أنظار النقد الأدبى ، فنوه بعض النقدة بقيمتها الأدبية ، وحمل عليها البعض الآخر ؛ وأبدى سانت بيف أستاذ النقد نفسه عطفه عليها وعلى مؤلفها ذلك المحب الأمثل الذى لم يسمح قط للمرأة بأن تسوده ؛ ولكن چول چانان وهو ناقد آخر يحمل عليها ولا يرى فى مؤلفها سوى دعى أفاق تحدوه شهوات مضطرمة ؛ وكذلك يرى فرانسوا ماسون فى كتابه عن « الأب برنى » أن هذه المذكرات ليست سوى مزيج من الأكاذيب المزرية ؛ بيد أن النقد المعاصر يرى فى مذكرات كازانوفا أثراً جديرا بالتقدير ، ويرى فى صاحبها شخصية جديرة بالعطف رغم عيوبها ومثالبها ؛ ومن ذلك ما يعلق به مسيو أوكتاف أوزان على المذكرات فى فصل نقدى كتبه فى هذا الموضوع : « لماذا ننحى باللوم على ذلك المحب المعاصر للويس الخامس عشر ، لأنه أرانا وعرض علينا خلال عصره المنحل ، وهى خلال كانت تعتنقها أعظم الشخصيات التى كتب عنها ؟ وهل يحق لنا أن نمعن فى الانتقاص من ذلك السرور الذى يتحفنا به عند قراءة « المذكرات » ، وأن نحمل على تلك الأخلاق الفردية المثيرة ؟ ... إن كازانوفا لم يكن أفضل ولم يكن أسوأ من أعظم الشخصيات التى ظهرت على مسرح العالم فى القرن الثامن عشر » (١)

***

وتقدم الينا هذه المذكرات الحافلة الممتعة كازانوفا فى جميع صوره ومناحيه ؛ فى صورة المحب المضطرم الذى يطارد المرأة بكل ما وسع من شغف وجوى ، ويأسرها بظرفه وسحره ، ويظفر بها فى كل المواطن ؛ وصورة المغامر الجرئ الذى يتسلح بذكائه وخبثه ومزاعمه ليغزو المجتمع ويعيش على هامشه بأى الوسائل ؛ وصورة السائح المتجول الذى يجوب أوربا من أقصاها إلى أقصاها باحثاً عن المال والمتاع أنى استطاع ؛ وصورة السيد الذى ينعم بالمال والثراء ، أو صورة الشريد الذى لا يملك قوت يومه ؛ وأخيرا صورة المفكر الأديب الذى يلتمس النسيان فى القراءة وتسطير الماضى

وتبذ صورة المحب المضطرم فى شخصية كازانوفا كل صوره الأخرى ، وهى بلا ريب أبرز صور حياته كما هى أبرز الصور فى مذكراته . أجل كان كازانوفا محباً شغوفا ملتهب الجوانح ، وكانت المرأة عنده غاية الغايات ، وقد حبته الطبيعة كما أسلفنا بكل ما ينبغى أن يتسلح به المحب الظافر من خلال وصفات خلابة ، ويندر أن نجد بين غزاة المرأة من غص بالظفر فى هذا الميدان كما غص به كازانوفا ، وما زال اسم كازانوفا إلى يومنا لقب المحب الظافر ؛ ولقد كان كازانوفا مادياً فى حبه كما كان فى سائر وجهات حياته ، ولم تكن العاطفة عنده شيئاً مذكورا ، وكان قلباً فى الحب لا يكاد يظفر بغزو حتى يسعى إلى غزو آخر ، وكان يرتفع فى طموحه إلى أرفع البيئات والشخصيات ، وينحط إلى أسفل البيئات والمواطن ، فنراه يظفر بطائفة من أكابر السيدات فى جميع المجتمعات التى تقلب فيها من نبيلات ونسوة متزوجات وممثلات ومغنيات وغيرهن ، ونراه يهبط أحياناً إلى مجتمع الشعب المتواضع فيغزو عاملة أو خادمة ؛ واليك مثلاً مما يقصه علينا فى مذكراته مما يوضح فلسفته فى الحب ، ففى ذات يوم كان ينتظر جياداً لمركبته فى طريق رومه ، فمرت به عربة تحمل مغنية حسناء ذائعة الصيت يومئذ ، وكان كازانوفا يعشق المغنيات والممثلات بنوع خاص ، ولكنه يقول لنا : « ومع أنها كانت فتية وكانت

(١) وقد ترجمت مذكرات كازانوفا من الايطالية الى معظم اللغات الأوربية

حسناء ، فانها لم تثر فى نفسى رغبة ما ، ذلك أنها كانت حسناء جداً ، بادنة جداً . ولكن خادمتها كانت بالعكس فتاة سمراء ساحرة ذات قد ممشوق وعينين وضاءتين ، فوقعت فى حبها على الأثر »

ويذكر لنا كازانوڤا فى مذكراته عشرات وعشرات من النساء اللائى ظفر بهن خلال حياته الغرامية الحافلة . وهو تعداد لا يتسع له المقام هنا ، وقد ذكرنا فيما تقدم طائفة من الأسماء التى غزاها ابان ازدهار مغامراته ؛ والظاهر أن كازانوڤا لم يتأثر فى حياته بحب امرأة وسحرها قدر ما تأثر بحب راهبة حسناء من « ميران » يرمز لها فى مذكراته بحرفى « م . م » ؛ وهو يصف لنا روعة قوامها وروعة جمالها بحماسة مؤثرة ؛ وقد كانت م . م فى الواقع امرأة ساحرة الخلال تضطرم شغفاً وجوى ، وكانت تخفى تحت ثيابها الكهنوتية نفساً ناعمة نواقة ملتهبة ، وكانت تقتحم أروع الأخطار لتحيا تلك الحياة المزدوجة ؛ حياة التقشف فى الدير ، وحياة اللهو والقصف خارج الدير ؛ وبينما ترى بالنهار فى ثياب راهبة محتشمة ، إذا بها تسطع بالليل كالحلية فى مرقص أو منتدى وتبذ بفائق حسنها وأناقتها كل حسناء أخرى ؛ وقد كانت تطلق العنان لشهواتها المضطرمة ماشاءت ، ولكنها كانت قوية النفس تضبط هواها متى وجب ؛ ويصورها كازانوڤا بأنها المحبوبة المثلى فى حسنها وفى خلالها وسحرها ؛ وقد ترك هواها فى نفسه بلا ريب أعمق الآثار وأبقاها

ثم يأتى بعد صورة المحب ، صورة السائح ؛ وقد كان كازانوڤا سائحاً عظيماً يجوب أرجاء القارة بلا انقطاع ؛ وكان يعشق التجوال فى عصر كان السفر فيه مشقة حقيقية ؛ وقد رأيناه يجوب أرجاء القارة مراراً ؛ وكان كازانوڤا يجد فى السفر لذة عظيمة ، ويتخذ أثناء تجواله مظاهر السيد العظيم فيستأجر أفخر المركبات والجياد ، وينزل فى أفخم الفنادق ، وينثر المال والعطاء من حوله ، ولكنه كان فى رحلاته مغامراً ، لا تغريه سوى رغباته وأمانيه ، ولا تغريه مشاهد الطبيعة الرائعة ؛ ولهذا نراه فى مذكراته يعنى بسرد مغامراته أثناء الطريق ، وسرد ملاحظاته عن الأشخاص والحياة والنساء بنوع خاص ؛ وقلما نراه يعنى بوصف البلاد أو مشاهد الطبيعة ؛ بيد أنه يبدى فيما يصف من أحوال المجتمعات والأشخاص دقة تدلى بقوة ملاحظته وحسن أدائه

ويقدم كازانوڤا إلينا خلال حياته صورتين قويتين متباينتين ؛ فتراه إما سيداً كبيراً ينعم بالجاه والثراء ، وإما شريداً بائساً يتخبط بين براثن الفاقة ؛ وفى الحالة الأولى نراه يقتحم المجتمع الرفيع ، وينعم بكل ما فى الحياة من متاع وبذخ ، ويصل الى مجالسة الملوك والأمراء والعظماء من كل ضرب ؛ ألم يجالس لويس الخامس عشر وفردريك الأكبر ، والامبراطورة كاترين ، والبابا ، وڤولتير ، وغيرهم من أكابر العصر ؟ ثم نراه فى كهولته شريداً بائساً يتقبل فى سبيل القوت مضض المهانة والمذلة ؛ بيد أنه فى الحالين يحتفظ بقوة نفسه ، وأثرته ، وأمانيه ؛ ذلك أن كازانوڤا كان فيلسوفاً يقصد إلى الحيـاة بأى الوسائل ، ولا يروعه أن يحقق متاعها بأى السبل ، ولم يكن المـال فى نظره إلا وسيلة من وسائلها

وقد كان كازانوڤا منذ نشأته رجلاً مثقفاً واسع المعرفة بالنسبة لمجتمع عصره ؛ وكان فى أواخر حياته يعتز بمواهبه العلمية والأدبية ويأنس سعادة عظيمة فى اطلاق العنان لقلمه ؛ ولم تكن المذكرات كل ما يكتب ، فقد كان يتصل بالمكاتبة بجماعة من أعلام عصره ، وكانت له آراؤه الخاصة فى أحوال العصر وأحداثه ؛ وكان يسخط على الثورة الفرنسية ويعتبرها حركة جنونية وقد كتب برأيه الى روبسبيير فى رسالة مستفيضة

والخلاصة أن كازانوڤا ، كان رغم رذائله ، شخصية عجيبة ؛ وكانت حياته صورة صادقة للعصر الذى عاش فيه ، وهى من هذه الناحية تستحق التحليل والدرس ؛ ولقد كانّ لهذا المغامر المرح أصدق سلف وشبيه فى مواطنه بنڤونوتو تشلليني ؛ فقد خاض كلاهما حياة مماثلة ، واشتركا فى كثير من الخـلال والخواص النفسية ، وسطر كل منهما حيـاته بقلمه ؛ ولكن تشلليني كان علماً من أعلام الأحياء ، وبطلاً من أبطال الفن ؛ أما كازانوڤا فلم يعش إلا لنفسه ، ولم يتبوأ فى مجتمع عصره سوى مكان ثانوى وكانت حياته مزيجاً من الأهواء الجامحـة ، والأثرة العميقة ، والشهوات المـادية ، والمرح العقيم [1] م؟

(تم البحث — النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

---

(١) نرى أن نشير هنا إلى أننا انتفعنا فى كثير من نواحى هذا البحث بالأثر القيم الضخم الذى وضعه عن كازانوڤا الـكاتب الفرنسى الـكبير مسيو Joseph Le gras وعنوانه :

L'Extravagante Parsonalité de Jaeques Caṣanova

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الدفتريا

بين واجد سمها الفرنسى ، وكاشف ترياقها الألمانى

وصل الفائت : وجد لفلارمكروب الدفتريا ، ووجد رو أن هذا المكروب يحتل زور الطفل ، ولا يخرج عنه ، وإنما يفرز سما يدور فى الجسم فيقتل ، وحقن بارنج مادة كيميائية هى كلورور اليود فى خنازير غينية . ثم حقن مكروب الداء فيها فصمدت له . فأخذ من مصل دم هذه الخنازير المحصنة وحقن به خنازير أخرى حقنها بعد ذلك بالمكروب فصمدت له . فعرف أن هذا المصل الحصين يحتوى ترياقاً . فاتجه إلى الشياه يفعل بها ما فعل فى الأرانب ليحضر مقادير كبيرة من المصل الواقى بترياقه

بهذا بلغ بارنج من بحثه حداً لا ينفع فيه التثبيط . فقد كان كأمير الجند غزا الأعداء فسفك وهزم ، فلأنه فتوحاته الأولى ثقة بنفسه . فلم يعد يثنيه عن بغيته شىء . فأخذ يضرب بمحاقنه فى الأرانب والشياه والكلاب ، وهى مليئة بمكروب الدفتريا تارة ، وبسمها تارة ، وبكلورور اليود تارة أخرى ، وحاول أن يتخذ من أجسام هذه الحيوانات وهى حيّة مصانع تصنع له هذا المصل الواقى ، هذا المصل الذى يقتل سم الدفتريا ، وأسماه الأنـتيتُكْسين Anti-toxin ، ولْنسمّه نحن الترياق ، ونجح فى الذى حاوله ، ولكن بعد أن قتل من هذه الحيوانات ما شاء ، وقطّع من أوصالها ما أراد ، وبعد أخطاء أتاها كثيرة هى دائماً مقدّمات النجاح ، ولم يمض طويل من الزمن حتى نجح فى تحصين الشياه تحصيناً قوياً ، واستدرّ منها دماً كثيراً واستخلص منه مصله ، ثم قال : « لا شك أن الترياق الذى بهذا المصل يقى من الدفتريا » ، ولم يكن يعلم عن حقيقة هذا الترياق ، ولا عن كيميائه شيئاً

وحقن مقادير صغيرة من هذا المصل فى عدد من الخنازير الغينية ، وفى اليوم الثانى حقن فيها بشلة الدفتريا ، وهى حية قاتلة ، فما كان أجمل مرأى هذه الخنازير بعد ذلك وهى تنط وتلعب ولا أثر للداء فيها ، كذلك كان مرأى صويحباتها الأخريات التى حُقنت بالبشلة دون المصل ، وهى تموت بعد الحقنة بيومين أو ثلاثة ، فموت هذه الأخيرة هو الذى أقنع بأن المصل فيه الوقاية وفيه الحصانة ، وأجرى بارنج مئات من هذه التجارب الجميلة ، وكان الآن يحذق التجريب فلم يكن فى يده تذبذب واضطراب كالذى كان بها قديماً . وتساءل أعوانه فى قنوط متى يفرغ سيدهم من هذه المجزرة المتكررة ، متى يفرغ من تحصين طائفة من الخنازير ثم اعطائها الداء ، ثم من قتل طائفة أخرى ليثبت بها حقاً أنه خلّص بمصله الطائفة الأولى ، ولكن بارنج لم تعوزه العلة يفسر لنا بها كثرة ما قتل من هذه الخنازير . قال فى أحد تقاريره الأولى : « لقد جربنا من هذه التجارب عدداً كبيراً لنثبت لكوخ ، وهو المحقق المدقق القليل التصديق ، إلى أى حدّ بلغ بنا الايمان بحصانة هذه الحيوانات »

نجح بارنج فيما أراد إلا أمراً واحداً أفسد عليه طعم الثمرة التى اجتناها . ذلك أن حصانة الخنازير لم تدم طويلاً ، فالخنازير لم تكن تَصْمُد للحقنة الكبيرة من سم الدفتريا من بعد تحصينها إلا أياماً معدودات ، فاذا مضى على التحصين أسبوع أو أسبوعان لم تَعُدْ تصمد لها ، وكلما استطال الزمن أخذت حصانتها تقل تدريجا ، وأخذ مقدار السم الذى يكفى لقتلها يصغر تدريجا . وعمد بارنج إلى لحيته يشد شعراتها وهو يتمتم لنفسه : « ليس هذا من العملىّ الممكن فى شىء ، فليس بالمستطاع الطواف بكل أطفال ألمانيا لحقنهم بمصل الشياه كل أسبوعين أو ثلاثة » . ومما يؤسف له أنه نفض يده بعد ذلك من البحث الجميل الذى هو فيه ، وترك المطلب الاسمى الذى كان يطلب به طريقة لمنع داء الدفتريا أن يحدث واستئصاله فلا يكون ، واستعاض عنه بطلب دواء له اذا هو كان ، فنزل بنفسه منزلة دنيا رجاء أن يأتى بأمر جليل تفتح له السلطات من الدهش أعينها واسعة

قال : « إن هذا الكلورور اليودىّ له أثر سىء فى الخنازير

الغنينية لا ينقص كثيراً عن أثر المكروب ذاته . ولكن هـذا المصل الواق ليس له أثر سيء فيها ، فهو لا يلهب جلدها ولا يحدث خُرّاجات فيه ... وأنا على يقين أنه لا يؤذيها ... وأعلم غير هذا أنه يحصنها فيقتل فيها سم الدفتريا إذا هو جاءها بعد التحصين ... فليت شعرى أيقتلها كذلك إذا هو جاءها قبله ؟ ... واختصاراً أيـكون فى هذا المصل شفاء من الداء بعد كينونته ؟ »

وجاء بارنج بطائفة كبيرة من الخنازير الغنينية وحقن بثلاث الدفتريا فيها . فلما كان الغد وجد المرض قد دبّ فيها ، وأصبح الصباح التالى فاذا بها ساقاة على أظهرها فى همود منذر وهى تتنفس جاهدة . عندئذ قام بارنج فحقن فى بطونها مقادير وافية من مصل الشياه الحصينة . فوقعت المعجزة الكبرى ، فأخذت الخنازير ، إلا القليل الأقل منها ، تسترجع أنفاسها بعد برهة قصيرة . ولما جاء الغد أرقدها بارنج على ظهرها ، فاذا بها تنط فتقوم على أرجلها ، وعلى أرجلها ثبتت . وفى اليوم الرابع تمت سلامتها فكأن الداء لم يصبها أبدا . أما الأخريات التى حقنت بالمكروب دون المصل فحملها الخادم هامدة باردة إلى حيث تحمل الميّتات .

إذن لقد شَفَى المصل من الدفتريا !

وزاط المعمل العتيق من أجل هذا الفتح الجـديد التى أتاه بارنج العالم الشاعر ، الخاطىء الصائب ، العاثر الناهض . وملأ الأمل القلوب بأنه لابد سـيشفى الأطفال من بعد هذا . وأخذ يعدّ أول مصل يحقنه فى طفل على وشك الموت بالداء . وبينا هو يتجهز لهذه التجربة الخطيرة جلس يكتب تقريره الشهير ويصف فيه كيف تأتى له أن يخلص حـيواناته من الموت بحقنها بمادة جديدة عجيبة غريبة اصطنعها لها فى أجسام أخوات لها جازفت بحياتها فى سبيل ذلك من أجلها . كتب بارنج : « ليس لدينا طريقة مؤكدة لتحصين الحيوانات » . وكتب « وهذه التجارب التى قيّدتها لاتتضمن مجهوداتى الناجحة وحدها » . وصدق فى هذا ، فهو قد أثبت فيها مجهوداته الفاشلة وأظانينه الخاطئة إلى جانب ما حباه به الحظ من توفيقات صائبة نال بها هـذا النصر الدموىّ العظيم

لشد ما أعجب كيف استطاع هذا الشاعر أن يسبق الى كشف ترياق الدفتريا ، وأن يفوز بهذا المجد الخالد ! ولكنى أفكر فأجده انما تحسس فاهتدى كما تحسس من قبله واهـتدى رجال قدماء ، لا نعرف لهم اليوم أسماء ، اخترعوا الأشرعة التى تحمل السفائن عَبْرَ البحر فى سرعة البرق الخاطف . هؤلاء الرجال الأبطال المجهولون ، كم منهم من انقلب به السفين ، وكم من جثثهم ما أشبع البحار ! أليست هذه دائما هى سبيل الكشوفات جميعها ؟

وفى أواخر عام ١٨٩١ كان فى شارع إبريك Brick ببرلين دار للتمريض تُدعى دار برجمان Bergmann . وكان بها أطفال فعلت الدفتريا بهم فعلها فهم ينتظرون الموت القريب . وكانت الليلة ليلة عيد الميلاد . فى هذه الليلة دخلت إبرة صغيرة لحقن ملء بالمصل لأول مرة فى جلد طفل لم يعد له فى الشفاء رجاء . فصرخ الطفل ورفس برجله قليلا

ما أبهر النتائج التى جاءت من هـذه الحقنة الأولى ومن أخوات تَبِعْنَها ! نعم بعض الأطفال مات . ونعم كذلك مات طفل كان ابن طبيب شهير فى برلين ميتة غريبة غير منتظرة عقب الحقنة مباشرة فحصل من جراء ذلك أخذ ورد وجلبة كبيرة . ولـكن لم تمض الأيام حتى قامت مصـانع كيميائية كبيرة بألمانيا تصنع هذا المصل فى قطعان كثيرة من الشياه . ولم تمض ثلاث سنوات حتى بلغ الأطفال الذين حقنوا بهذا الترياق عشرين ألفا . وسار الخبر سريعاً كالشاعة فى الناس . وكان بِجْز Biggs مدير الصحة الأمريكى الشهير فى أوروبا ، فلما اطلع على أمر الترياق ، هزّه ما وجد منه فبعث البرقية الآتية وهو متأثر ثائر الى الدكتور پَرْك Park بنيويورك :

« ترياق الدفتريا ناجح . ابدأ بصنعه »

وكان كوخ أساء إلى ناس كثيرين بسبب علاجه الفاشل القاتل للسل ، وبسبب الأرواح الكثيرة التى ضاعت من جرائه . وكانت أقوام كثيرة لا تزال فى حزن قريب بسبب من فقدوا . ولـكن كشف بارنج أنساهم ماهم فيــه ، فغفروا لكوخ الشيخ زلته لأنه أنجب هذا الصبىّ البارع

(يتبع)

أحمد زكى

الاسلام والمدنية والعلم

طريقة النظر فى العلم وفى الاسلام

بقية ما نشر فى العدد الممتاز

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

بقى أن نقارن بين طريقة العلم فى دراسة الفطرة والطريقة التى شرعها الاسلام للانسان فى النظر لنرى إن كان بينهما من التطابق مثل الذى تبين فى المقال السابق أنه موجود بين العلم والاسلام

والأصل الأول عند العلم فى النظر هو العقل ، وكذلك هو فى الاسلام . إن القرآن الكريم كله ينطق بأن الاسلام قام على العقل ، وحاكم إلى العقل ، وأمر باتباع العقل ، بمختلف أساليب البيان ؛ فتارة يتلطف ويرغب فى استعمال العقل والفكر : (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) ، (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) . وتارة يظهر التعجب الشديد والتأفف من تعطيل العقل : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ، (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عُمُرا من قبله ، أفلا تعقلون) . وتارة يمدح أهل العقل ويخصهم بالخطاب : (وما يذّكر إلا أولو الألباب) ، (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) ، (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ؛ ثم تارة يسلك سبيل الذم البالغ لمن يهملون عقولهم ويعطلونها : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) ، (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) وفى هذا ما فيه من توكيد ناحية العقل وتنبيه الانسان إلى أن من أخص خصائصه التفكير والتدبر والفهم والتعقل ، فلا ينبغى له التنزل عن أخص خصائصه بتعطيل عقله وإلا فقد تنزل عن انسانيته وصار فى الأنعام أو شرا من الأنعام

ولقد بلغ من إكبار الاسلام العقل وتوكيده واتخاذه أصلاً ومرجعاً أن أباح للمسلم إذا تعارض العقل والنص أن يؤول النص إلى ما يقضى به العقل . والعقل هنا طبعاً ليس هو عقل الفرد ، ولكن عقل المجموع ؛ ليس هو العقل الخاص الذى يجوز عليه الخطأ ، وكثيراً ما يخطئ ، ولكن هو العقل العام الذى يستحيل عليه الخطأ ، والذى لا يقتنع بشىء إنه الحق إلا إذا قام عليه الدليل القاطع . فتشريع الدين تأويل النص إلى ما يوجبه العقل أو بالأحرى إلى ما يطابق ما ثبت عند العقل بالدليل القاطع ، هو التنفيذ العملى فى الاسلام لمبدأ استحالة التناقض بين الحقائق ولمبدأ وجوب الأخذ بالحق كيفما ظهر وأينما كان . فالحق فى العلم وفى الاسلام أحق أن يتبع لذاته لا لغيره ، وفى سبيل الحق يجب أن يجاهد الناس ، وعلى الوصول اليه يجب أن يتعاونوا ، وبه إذا وصلوا اليه يجب أن يستمسكوا . هذا هو أخص خصائص الروح العلمية فى ميدانها ، وهو فى الوقت نفسه أخص خصائص المؤمن حتى فى المعاملة . فان الصفات التى ضمن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلم بها الجنة إذا هو ضمنها من نفسه فى الحديث الكريم : « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ؛ إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف : غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » هذه الصفات ليست فى صميمها إلا أخذاً بالحق فى أعم صوره ، واحتراماً له ووقوفاً عنده

لكن فخر العلم الحديث ليس هو جعله العقل أصل الأصول فى النظر ، ولكن هو ضبطه طريق النظر العقلى ، حتى صار العقل به فى مأمن من الضلال . إن قدماء العلماء والفلاسفة كانوا أيضاً يكبرون العقل ويتحاكمون اليه ، وهذا المنطق القياسى الذى يعين الطريق الذى يجب أن يسلكه العقل فى الاستنتاج ليكون بمأمن من الخطأ ، هو من وضع أولئك القدماء . فليس للعلم الحديث على العلم القديم فى هذا فضل ، بل الفضل فى توضيح طريق الاصابة فى الاستنتاج ، هو للعلم القديم أو للفلسفة القديمة كما تشاء أن تقول . لكن الذى غفل عنه القدماء ؛ وانتبه اليه المحدثون ، هو وجوب الاستيثاق من صحة المقدمات قبل القول

بصحة النتائج ، ولو صحت طريقة الاستنتاج . كان القدماء يعنون كل العناية بالاحتياط من الخطأ فى الاستنتاج ، ولو أنهم عنوا بصحة المقدمات عشر معشار تلك العناية لتغير تاريخ العلم ، ولتغير تاريخ العالم بالتبع ، ولما تأخر الرقى العلمى كل تلك القرون ، لكن أكثر القدماء كانوا فيما يظهر يتغالون فى الاعتماد على العقل وحده حتى جعلوه كل شىء ، وجعلوه مستغنياً عن كل شىء . فالعالم أو الفيلسوف كان يرى كافياً فى طلب الحقيقة أن يجلس ويفكر ، ثم يفكر ، كأن الحقائق كلها موجودة كامنة فى النفس أو الروح ، وكأن ليس على الانسان إلا أن يستثيرها بالتفكير . من أجل ذلك لم تعش الفلسفة القديمة أو العلم القديم إلا بصحة التفكير على الأخص ، وهى العناية التى أدت به إلى اكتشاف قوانين التفكير ووضع علم المنطق القياسى . أما المقدمات فكان العالم أو الفيلسوف يكتفى من الاستيثاق منها بالاقتناع النفسى والرجوع بها إلى ما يبدو له أنه بديهى لا يحتاج إلى برهان . ومن هنا دخل فى العلم القديم أو الفلسفة القديمة الشىء الكثير من الباطل ، أو على الأقل مما هو غير ثابت ؛ دخل فيها على أنه حق لا شك فيه ، فكان عبئاً ثقيلاً على العقل عاقه عن التقدم الحقيقى طوال تلك القرون

ولقد جعلت تلك الطريقة أمر تمييز الحق من الباطل فى العلم القديم من الوجهة العمليـة بيد المصادفة لا بيد العقل ، فكان الانسان إذا صادف الصحة فى مقدماته الأولى أو بديهياته التى يُرجع اليها مقدماته نجا من الخطأ بعد ذلك لاجتماع ركنى الاصابة لديه : صحة المقدمات وصحة التفكير . ومن هنا كانت علومه الرياضية أصح تراث منه وصل الينا . أما إذا أخطأه التوفيق فى المقدمات فلا تسل عن العجائب والغرائب التى كان يؤدى به اليها قياسه الصحيح من مقدماته العليلة . أنظر اليه وهو يحكم على شكل العالم أنه كرى لأن شكل الكرة أكمل الأشكال ، أو يحكم على العالَم أنه حى عاقل لأن ما هو حى وعاقل خير مما ليس بحى ولا عاقل . وتأمل ما جر اليه القول بحياة العالم وعقله من القول بأفلاك ذات نفوس وعقول كل فلك منها نشأت نفسه وعقله عن نفس الفلك الذى فوقه وعقله ، وأشباه هذا مما يعجب له العلم اليوم كيف أمكن أن يتورط فيه العلم بالأمس ، إذ العلم والفلسفة كانا شيئاً واحداً فى العصر القديم

هذا النوع من التفكير الوهمى قد سد العلم الحديث بابه ، وقطع أسبابه بإيجابه أولا عدم قبول شىء على أنه حق حتى يقوم عليه البرهان القاطع ، وبرجوعه ثانيا الى التجربة والمشاهدة فى تمحيص المقدمات . هذان هما المبدآن اللذان قامت عليهما الطريقة العلمية الحديثة ، واللذان يرجع الى التزامهما والتشدد فى تطبيقهما كل ما وصل اليه الانسان من تقدم فى ميادين العلم الحديث

فأما المبدأ الأول مبدأ اشتراط قيام الدليل القاطع على صحة القضية قبل ادخالها فى دائرة الحق فهو مبدأ سلبى ، ولكنه فى غاية الخطورة لأنه حال دون الخلط بين الحق والباطل ، وميز دائرة الشك من دائرة اليقين ، وجعل العلم على بينة من أمره فصار يعرف تماما أين هو من الحق ومن الباطل : صار يعرف أى القضايا هو فوق الشك وأيها فى حاجة الى التمحيص

لكن هذه المعرفة لم تكن لتغنى عنه كثيرا لو لم يجد العلم وسيلة صادقة لتمحيص ما هو منه فى شك ، فيزيد باطرادٍ فى دائرة الحق المعلوم ، ويُنقص باطراد من دائرة المجهول . لكنه وجد هذه الوسيلة فى مبدئه الثانى مبدأ التجربة والمشاهدة . وهو كما ترى مبدأ إيجابى يقوم بجوار مبدئه السلبى الأول : يحرس الأول منطقة الحق أن يدخلها باطل ، ويوسع الثانى حدود المنطقة باستمرار . ولقد اقتضى هذا أن يقصر العلم نفسَه من ميادين البحث على ما يمكن الاحتكام فيه الى التجربة والمشاهدة ، أو كما عبر بعض العلماء فأحسن التعبير على الميادين التى يستطيع أن يسأل فيها الانسان الفطرة فتجيب . والفطرة على حد تعبير عالم آخر دائماً تجيب إذا أحسن الانسان سؤالها . وأكبر الفرق من الناحية العملية بين العلم القديم والعلم الحديث أن هذا عرف كيف يحسن استجواب الفطرة ، وأن ذاك فى الأوقات القليلة التى خطر له أن يسترشد بالفطرة لم يعرف كيف يحسن سؤالها باجراء التجارب المنظمة ، وإن عرف أحياناً كيف يسمع لها بمشاهدة بعض ما يجرى حوله . وبالجملة فان أكبر ما يميز العلم فى عصره الحديث عن مثله فى العصر القديم هو اجماع أهله على

اتباع ذينك الأصلين : أصل التفرقة التامة بين اليقيني وغير اليقيني ، وأصل تمحيص غير اليقيني بعرضه على التجربة والاختبار

هـذان الأصلان اللذان هما قوام الطريقة العلمية ، واللذان اليهما يرجع كل ما أدرك العلم في ميدانه من تقدم ، ما شأنهما في الاسلام كما يتجلى في القرآن ؟

إن الذي أنزل القرآن روحاً من أمره وهدى يهدي به الانسانية سبل الحياة شاءت رحمته بعد أن جعـل العقل أصل الأصول في النظر ألا يكل الانسان إلى عقـله من غير أن يبين له معالم الطريق ويحذره مهاوي الخطأ والضلال . فهو أولاً يوجب على الانسان في القرآن ألا يُدخل في الحق إلا ما قام عليه البرهان والدليل أنه من الحق (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) . (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) وفي هـذه الآية الكريمة نرى كيف ينبه الله الانسان إلى أن الظن والتخمين ليسا من العلم والبرهان في شيء ، وهو معنى لقي توكيداً عظيما في القرآن بوروده صريحاً في أكثر من آية . (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) . (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً . إن الله عليم بما يفعلون) ، وهـذا بالضبط هو ما اهتدى اليه العلم الحديث وشدد من أجله في وجوب التفرقة بين الثابت الذي لا شك فيه ، وغير الثابت الذي هو في حاجة إلى التمحيص ، ومن هنا ترى أن التطابق تام في هـذه الناحية أيضاً بين العلم وبين الاسلام

على أن هذا ليس هو كل ما وضح به القرآن سبيل الحق أمام الانسان ، فانه كما حذره من الخلط بين الحق والباطل ، ومن إنزال الظن والتخمين منزلة البرهان واليقين ، دله على الطريق العملي الذي يتبين به وجه الحق فيما هو منه في شك : طريق استعمال العقل لا السمع والبصر . ومن العجيب أنك لا تكاد تجد في القرآن ذكراً للسمع والبصر إلا والعقل مقرون بهما مذكور معهما كأنما يريد الله أن ينبه الانسان إلى ما بينهما وبين العقل من ترابط ، فالعقل لا يتم إلا بأثرهما وهما لا ينفعان نفعهما إلا إذا كان العقل من ورائهما يوجههما وينظم عملهما ، أو كأنما يريد الله سبحانه أن ينبـه الانسان إلى أن ما يكسب من علم أو معرفة راجع في صميمه إلى هذه الثلاثة ، وأن عليه إذن أن يحسن استعمالها ويحذر إهمالها . على أن الانسان لم يترك في هـذا إلى مجرد الاستنتاج . فقد أنبأه الله صراحة في القرآن في معرض المن عليـه أن علم الانسان مصدره السمع والبصر والعقل كما ترى في آية النحل : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ، وأوجب عليه في آيات كثيرة أن يحسن استعمال سمعه وبصره وعقله ، نذكر منها آية واحدة هي فصل الخطاب في هـذا الباب ألا وهي قوله تعالى من سورة الأعراف : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) فانه ليس هناك أكثر حضاً على إحسان استعمال العقل وأدواته من هذه الآية الكريمة التي لم تكتف بتسوية الانسان بالبهيمة أو جعله شراً منها إذا هو أهمل عقله وسمعه وبصره ، بل أنذرته أبلغ إنذار أنه إن فعـل ذلك فقد هلك إلى الأبد وحشر نفسه في زمرة أهل النار

فهذا أصل التجربة والمشاهدة قد لقي في صميمه من التوكيد في الاسلام ما يصغر بجانبه ما لقي من التوكيد في العلم وإن كان هو قوام العلم الحديث . والسر في هذا أن العلم لا يزال في الدور الذي يدرس فيه الفطرة ابتغاء الوقوف على أسرارها فحسب ، أما الدين فيأمر باستكناه أسرار الفطرة ليزداد الانسان بها هدى إلى رب الفطرة الذي فطرها وفطره ، والانسان إن لم يهتد إلى ربه فانه لا محالة من الهالكين . ومهما يكن من اختلاف الغاية بين الدين والعلم فان كل غاية العلم هي بعض غاية الدين ، والطريق الذي يسلكه العلم إلى غايته هو جزء من الطريق الذي يأمر بسلوكه الاسلام

على أننا نحب أن نزيد هذا التطابق بين الطريقين توكيداً بالتنبيه إلى آية واحدة في القرآن جمعت للانسان أصول النظر العلمي وأثبتتها من الدين مجتمعة بعد أن أثبتتها من الدين متفرقة ، تلك هي قوله تعالى من سورة الأسراء : (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) فانها

من ناحيـة تأمر الانسان بالوقوف عند حد ما يعلم (ولا تقف ما ليس لك به علم) ومن ناحيـة أخرى تدله على طريق استبانة الحق فيما لا يعلم ، والاستمساك بما يتبين له من الحق عن ذلك الطريق ، طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) وفى قوله سبحانه (كل أولئك كان عنـه مسئولاً) فى موقعها من الآية تقرير مسئولية الانسان عند ربه عن حواسه وعقله كيف لم يستعملهن عند الشك حتى يتبين وجه اليقين ، وكيف حين استعملهن لم يحسن استعمالهن ، أم كيف وقد أحسن استعمالهن لم يستمسك بما وصل اليه من الحق عن طريقهن حتى صار هو ومن أهملهن سواء . ولو حاول العلم أن يزيد فى توكيد أصوله على هـذا ما استطاع ، ثم هو ليس يبالغ شأو الدين فى هذا التوكيد لأنه لا يملك لمهمل أصوله حساباً ولا عقاباً

***

وبعد ، فلعلنا نـكون قد وفينا هذا الموضوع الخطير بعض حقه من البحث ، وبلغنا الغرض الذى بدأنا هـذا البحث من أجله ، وأثبتنا أن العلم الحديث بينه وبين الاسلام كل ما بين الجزء والـكل من تطابق ما دام قد ثبت أنه قرآنى الموضوع والاسم والروح والطريقة ؛ فهو بجملته وتفصيله قطعة من الاسلام ، حتى فروضه العلمية ونظرياته التى يتلمس بها سنن الفطرة لها فى الاسلام متسع ، لأنها ليست الا ضربا من الاجتهاد الذى يثبت الله عليه المجتهد ، أخطأ أم أصاب . وهـذا التطابق العجيب بين العلم والاسلام هو الذى كان متوقعاً ما دام الاسلام هو دين الفطرة ، وما دام العلم قد أصاب الفطرة وإن فى بعض نواحيها . وليس يمنع العلم أن يصيب الفطرة فى بعضها الآخر المتعلق بحياة الانسان الاجتماعية . الا أن هذه الحياة خارج نطاقه ، وستظل كذلك لامتناع إخضاع الفرد بله الجماعة للتجربة العلمية والاختبار . فليس هناك للانسانية إذن أى أمل فى أن تصيب سنن الفطرة فى الاجتماع عن طريق العلم ، فهى لن تزال فى مدنيتها بعيدة عن سنن الفطرة وعن سبل السلام حتى تقيم وجهها للدين حنيفاً (فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله)

محمد أحمد الغمراوى

أعلام الاسلام

محمد بن شهاب الزهرى

بقلم السيد ناجى الطنطاوى

محمد بن شهاب الزهرى ، علم من أعلام التابعين ، وامام جليل من أئمة المسلمين ، روى الحديث عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبناء أصحابه . وكان نادرة فى الذكاء وقوة الحافظة والصبر على طلب العلم ، ثقة ، أميناً فى الاسناد شهد له الخلفاء والعلماء بالتفوق والفضل حتى قال ابن تيمية : حفظ الزهرى الاسلام نحواً من سبعين سنة ، وكان مع ذلك سخياً كريماً يبذل ماله فى سبيل العلم

اسمه ونسبه ومولده

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله ابن الحارث بن زُهرة بن كلاب بن مرة(1) ، أبو بكر القرشى الزهرى . سمى بالزهرى نسبة الى زهرة بن كلاب ، كان أبو جده عبد الله بن شهاب شهد مع المشركين بدرا ، وكان أحد النفر الذين تعاقدوا يوم أُحُد لئن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلنّه أو ليقتلنّ دونه . وقد سئل الزهرى مرة : هل شهد جدك بدرا ؟ قال نعم ، ولـكن من ذلك الجانب ؛ أى من جانب قريش

وانتسب الزهرى مرة أمام هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام : ان كان أبوك لنفّارا فى الفتن ، فقال : يا أمير المؤمنين عفا الله عما سلف

وقال : نشأت وأنا غلام ، ولا مال لى ، منقطع الديوان ، فـكنت أتعلم نسب قومى من عبد الله بن ثعلبة ، وكان عالماً بنسبهم وهو ابن أختهم وحليفهم

وقال ابن حيويل : لم يكن له كتاب الا كتاب فيه نسب قومه ، أما سنه وولادته فلم تعلم على وجه الصحة لاختلاف

(1) مرة أبو قبيلة كبيرة من قريش ، منها آمنة بنت وهب والدة رسول الله صلى الله عليه وسلم

المؤرخين فيها فهى إما سنة ٥٠ أو سنة ٥١ أو سنة ٥٢ ، وقيل بل سنة ٥٨

صفته :

قال سفيان[١] : رأيت الزهرى أحمر الرأس واللحية ، وفى حمرتها انكفاء[٢] قليل ، كأنه يجعل فيها كتما[٣] ، وكان أعيمشاً[٤] وعليه جميحة[٥] وكان رجلا قصيرا ، قليل اللحية ، له شعرات طوال ، خفيف العارضين

طلبه العلم

دخل مرة على عبد الملك بن مروان ، فذاكره عبد الملك ، فرأى فيه نباهة فوصله ، وأمر له بشراء دار قطيعة بالمدينة ، وبرزق يجرى عليه ، وأعطاه خادماً وقال له : اذهب فاطلب العلم ، فانى أرى لك عينا حافظة ، وقلبا ذكياً ، وائت الأنصار فى منازلهم . قال : فأتيت المدينة ، فاذا عند الأنصار علم جم ، فأخذته عنهم

وقال ابراهيم[٦] بن سعد : ماسبقنا الزهرى بشىء من العلم إلا أنه كان يشد ثوبه عند صدره ويسأل عما يريد ، وكنا تمنعنا الحداثة

وقال أبو الزناد : كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع ، فلما احتيج اليه علمت أنه أعلم الناس بعد أن كنا نطوف نحن وإياه معنا الألواح والصحف ونحن نضحك به ، وكان يكتب الحديث فيحفظه ثم يمحوه

وقال صالح بن كيسان : كنت أطلب العلم أنا والزهرى فقال : تعال نكتب السنن فكتبناها ماجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : تعال نكتب ما جاء عن الصحابة فكتب ولم أكتب فأنجح وضيعت

قوة حافظته

كان يقول : ما استودعت قلبى شيئاً قط فنسيته ، وكان يكره أكل التفاح وسؤر الفأر ويقول إنه ينسى ، وكان يشرب العسل ويقول إنه يذكر . وقال : كتب عبد الملك الى أهل المدينة كتاباً فى طومارين يعاتبهم به ، فقرىء على الناس عند المنبر ، ولم يكن سعيد بن المسيب حاضرا ، فلما انفض الجمع قال سعيد لجلسائه : ما كان فى ذلك الكتاب ؟ ليت أنا وجدنا من يعرف لنا ما فيه ، فلم يتكلم أحد . فقلت له : أتحب أن تسمع كل ما فيه ؟ قال نعم قال : فقرأته له من أوله الى آخره لم أنس منه كلمة

وقال : ما استفهمت عالماً قط ، ولا رددت شيئاً على عالم قط يعنى أنه كان يحفظ ويفهم من أول مرة

وقال الامام مالك : حدثنى الزهرى بحديث طويل فلم أحفظه فسألته عنه مرة ثانية فقال لى : أليس قد حدثنا كم به ؟ فقلت : بلى ، فأردت أن أستخرجه ، فقلت له : أما كنت تكتب ما تسمع ؟ فقال : لا فقلت : أما كنت تستعيد ؟ فقال : لا

وقال مالك حدثنا الزهرى بمائة حديث ، ثم التفت إلى وقال : كم حفظت يا مالك ؟ فقلت : أربعين حديثا ، فوضع يده على جبهته ثم قال : إنا لله ، كيف نقص الحفظ ؟

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل هشام بن عبد الملك الزهرى أن يملى على بعض ولده ، فدعا بكاتب فأملى عليه أربعمائة حديث ثم إن هشاماً قال له : ان ذلك الكتاب قد ضاع ، فدعا الكاتب فأملاها عليه ، ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفاً

منزلته عند الخلفاء

كان عمر بن عبد العزيز يقول : عليكم بابن شهاب ، فانكم لا تلقون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه . قال معمر وإن الحسن وضرباءه لأحياء يومئذ . وقال عمر بن عبد العزيز أيضاً : ما ساق الحديث مثل الزهرى ، وما أتاك به الزهرى بسنده فاشدد يدك عليه

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى . محدث الحرم كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبير القدر . قال الشافعى : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، وكان أعور وحج سبعين سنة . ولد بالكوفة وتوفى بمكة سنة ١٩٨

(٢) الانكفاء : تغير اللون

(٣) الكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر

(٤) العمش : ضعف رؤية العين مع سيلان دمعها فى أكثر أوقاتها

(٥) تصغير جمة وهى ما سقط على المنكبين من شعر الرأس

(٦) هو ابراهيم بن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، أبو اسحاق الزهرى ، من أهل المدينة ، نزل بغداد وأقام بها إلى حين وفاته ، وأكرمه الرشيد وأظهر بره . كان محدثاً ثقة ، وكان من أكثر أهل المدينة حديثاً فى زمانه ، وكان أبوه على قضاء المدينة من جلة المسلمين ، توفى سنة ١٨٣

وقد تقدم قول عبد الملك بن مروان له : إنى أرى لك عيناً حافظة وقلباً ذكياً

وقال : لما توفى عبد الملك لزمت الوليد (١) ، ثم لزمت هشاماً بعده وحججت معه سنة ١٠٦ فكنت مع ولده أعلمهم وأفقههم وأحدثهم ولم أفارقهم حتى مات هشام بالمدينة

منزلته عند العلماء

قالوا : كان الزهرى ثقة كثير الحديث والعلم والرواية فقيهاً جامعاً وقال الليث عن جعفر بن ربيعة : قلت لعراك بن مالك من أفقه أهل المدينة ، فذكر سعيد بن المسيب ، وعروة (٢) وعبد الله بن عبد الله ، قال عراك : وأعلمهم عندى جميعاً ابن شهاب لأنه جمع علمهم إلى علمه

وقال مكحول (٣) : ما بقى على ظهرها أعلم بسنة باقية من الزهرى وقال أيوب (٤) : ما رأيت أحداً أعلم من الزهرى . فقال له صخر بن جويريه : ولا الحسن ؟ قال : ما رأيت أعلم من الزهرى وقال عمرو بن دينار : مثل هذا القرشى ما رأيت قط ، وقال سعيد ابن عبد الرحمن بن جنبل : لولا ابن شهاب لضاعت أشياء من السنن ، وقال سفيان بن عيينة : جالست الحسن وغيره ، فما رأيت مثل الزهرى وقال الامام مالك : بقى ابن شهاب ، وماله فى الناس نظير ، وكان إذا دخل المدينة ، لم يحدث بها أحد حتى يخرج منها . وقد اتفق الأئمة على أن الزهرى مات يوم مات وهو أعلم الناس بالسنة ، واتفقوا على أنه كان أفقه من الحكم وحماد وقتاده وقال

(١) ذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء أن الزهرى كان يقدح أبدا عند هشام فى الوليد ويعيبه ، ويقول ما يحل لك إلا خلعه فما يستطيع هشام ، وأنه لو بقى الزهرى إلى أن يملك الوليد لفتك به

(٢) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدى القرشى ؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، كان عالماً بالدين ، صالحا كريماً ، لم يدخل فى شىء من الفتن ، وقدم مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين ، وعاد إلى المدينة فتوفى فيها ، وبئر «عروة» بالمدينة منسوبة اليه ، توفى سنة ٩٣

(٣) هو مكحول بن شهراب (وقيل ابن عبد الله) بن شاذل ، فقيه الشام فى عصره ، من حفاظ الحديث ، كلفه مولى لامرأة من هذيل ، وأعتق فسكن دمشق ، وتوفى بها سنة ١١٢ ، قال عنه الزهرى : لم يكن فى زمنه أبصر منه بالفتيا

(٤) هو أبو بكر أيوب بن أبى تميمة كيسان السختيانى البصرى ، سيد فقهاء عصره . تابعى ، من حفاظ الحديث . كان ثبتاً ثقة ، توفى سنة ١٣١

السمعانى (١) : كان من أحفظ أهل زمانه ، وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار ، وكان فقيهاً فاضلاً

قال ابن عيينة : ما رأيت أنص للحديث من الزهرى

سعة علمه

قال على بن المدينى : له نحو ألفى حديث . وقال أبو داود (٢) : جميع حديث الزهرى ألفا حديث ومائتا حديث نصفها مسند

وقال مالك : لقد أدركنا فى مسجد المدينة سبعين ممن يروى الحديث وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أميناً ، فما أخذت منهم شيئاً ، لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، وقدم علينا الزهرى وهو شاب فازدحمنا على بابه

وقدم أحمد (٣) بن صالح العراق من مصر ليرى أحمد ابن حنبل (٤) ، فاستأذن اليه فأذن له ، وقام اليه ورحب به وقرّبه وقال له : بلغنى أنك جمعت حديث الزهرى ، فتعال حتى نذكر ما روى الزهرى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلا يتذاكران ولا يغرب أحدهما على الآخر حتى فرغا ، قال الراوى : وما رأيت أحسن من مذاكرتهما . ثم قال أحمد بن حنبل لأحمد ابن صالح : تعال حتى نذكر ما روى الزهرى عن أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلا يتذاكران ولا يغرب أحدهما على الآخر ، الى أن قال أحمد بن حنبل : عن الزهرى عن محمد بن جبير ابن مطعم ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن عوف ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : ما يسرنى أن لى حمر النعم ، وأن لى حلف المطيبين . فقال أحمد بن صالح سألتك بالله إلاّ أمليته علىّ . وقال : لو لم أستفد

(١) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزى السمعانى التميمى أبو المظفر ، مفسر من العلماء بالحديث ، من أهل مرو توفى سنة ٤٨٩

(٢) هو سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير الأزدى السجستانى إمام أهل الحديث فى زمانه ، أصله من سجستان ، ورحل رحلة كبيرة ، وتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥

(٣) هو أحمد بن صالح ، أبو جعفر المصرى ، كان حافظاً للأثر ، عالماً بعلل الحديث ، ثقة ؛ ورد بغداد ثم رجع إلى مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٢٤٨

(٤) هو أبو عبد الله ، أحمد بن محمد بن حنبل ، إمام المذهب الحنبلى ، وأحد الأئمة الأربعة ؛ ولد فى بغداد ونشأ مكباً على طلب العلم ، وسافر فى سبيله أسفارا كثيرة ، وسجنه المعتصم ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن ثم أطلقه ، ولم يصبه شر فى زمن الواثق ، ولما تولى المتوكل أكرمه وقدمه ومكث مدة لا يولى أحدا إلا بمشورته ، توفى فى زمن المتوكل سنة ٢٤١

بالعراق إلا هذا الحديث كان كثيراً

وقال الليث بن سعد : ما رأيت عالماً قط أجمع للعلم من ابن شهاب . لو سمعته يحدث فى الترغيب ، لقلت ما يحسن إلا هذا ؛ وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتب ، لقلت ذلك ؛ وإن حدث عن الأعراب والأنساب لقلت ما يحسن إلا هذا . قال ابن إسحاق (١) : سألت الزهرى عن شىء ، فقال ما بقى أحد فيما بين المشرق والمغرب أعلم بهذا منى

وكان يقول : مكثت خمسا وأربعين سنة أنقل أحاديث أهل الشام إلى الحجاز ، وأحاديث أهل الحجاز إلى الشام ، فما أجد أحدا يطرفنى بحديث لم أسمعه

سخاؤه

قال الليث : وكان من أسخى الناس ، كان يعطى كل من جاءه وسأله ، حتى كان يقترض من عبيده ولا يرى بذلك بأساً ، فقيض الله له على قدر صبره واحتماله : إما رجلاً يهدى له ما يسع السائلين ، وإما رجلاً يبيعه بنظرة ، وكان يطعم الناس الثريد فى الخصب وغيره ويسقيهم العسل ، وكان يسمر مع أصحابه على العسل

ونزل بماء من المياه مرة ، فقال له أهل الماء : إن لنا ثمانى عشرة امرأة مسنة ليس لهن خادم ، فاستسلف ثمانية عشر ألفاً فأخدم كل واحدة منهن خادماً بألف ، وقضى عنه هشام سبعة آلاف دينار وقال له لا تعد لمثلها تدان ، فقال الزهرى يا أمير المؤمنين حدثنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين

وأخدم الزهرى فى ليلة واحدة خمس عشرة امرأة من بنى زهرة خمس عشرة وليدة ، اشترى كل وليدة بثلاثين ديناراً

وقيل له إن الناس لا يعيبون عليك إلا كثرة الدين ، فقال : وكم دينى ؟ إنما دينى عشرون ألف دينار ، وليس يرثنى إلا ابن أخى هذا ، وما أبالى ألا يرث عنى شيئاً

وكان يقول : وجدنا السخاء لا تنفعه التجارب

وقال الامام مالك : كان الزهرى من أسخى الناس ، فلما أصاب تلك الأموال قال له مولى له وهو يعظه : قد رأيت ما مر عليك من الضيق والشدة ، فانظر كيف تكون وأمسك عليك مالك . فقال له : ويحك ، إنى لم أر الكريم تحنكه التجارب فقال الحسين بن عبد الله الكاتب فى هذا المعنى :

له سحائب جود فى أنامله ... أمطارها الفضة البيضاء والذهب
يقول فى العسر إن أيسرت ثانية ... أقصرت عن بعض ما أعطى وما أهب
حتى إذا عاد أيام اليسار له ... رأيت أمواله فى الناس تنتهب

ومر به رجل من التجار وهو فى قريته ، والرجل يريد الحج ، فابتاع منه بزاً بأربعمائة دينار الى أن يرجع من حجه ، فلم يبرح عنه الرجل حتى فرقه . . . فعرف الزهرى فى وجه الرجل ما كره . فلما رجع من حجه قضاه ذلك وأمر له بثلاثين ديناراً ينفقها فى سفره . فقال له الزهرى كأنى رأيتك يومئذ ساء ظنك فقال : أجل . فقال : والله لم أفعل ذلك إلا للتجارة : أعطى القليل فأعطى الكثير !

وكان يخرج الى الأعراب يفقههم ويعطيهم فجاءه رجل وقد نفد ما فى يده ، فمد الزهرى يده إلى عمامة عقيل فنزعها وأعطاها الرجل ، وقال لعقيل : أعطيك خيراً منها .

وقال له زياد بن أسعد : إن حديثك ليعجبنى ، ولكن ليست معى نفقة فأتبعك . فقال له : اتبعنى أحدثك وأنفق عليك !

وفاته

كان له ضيعة فى شغب : وهى أول عمل فى فلسطين ، وآخر عمل الحجاز ، توفى فيها فى رمضان سنة ١٢٤ على أصح الروايات ودفن فى نشز من الأرض ، وقبره قائم على الطريق ليدعو له كل من مر عليه . قال الأوزاعى : رأيت قبره هناك مسنماً مجصصاً مبيضاً فقلت : يا قبر كم فيك من حلم وعلم ؟

(١) هو محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى المدنى ، أبو بكر ، من أهل المدينة ، زار الاسكندرية وسكن بغداد فمات فيها سنة ١٥١ قال ابن حبان لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن اسحاق فى علمه أو يوازيه فى جمعه ، وهو من أحسن الناس سياقاً للاخبار

رســـالة الأزهر

فى القرن العشرين

للأستاذ المسيحى لبيب الرياشى

مؤلف كتاب « نفسية الرسول العربى »

رسالة الأزهر فى هذا القرن ، القرن العشرين المسيحى : .. أم القرن الرابع عشر المحمدى ؟ — هى تصير رسالة الرسول العربى العالمى المقدسة فى القرن الأول المحمدى منذ ألف عام وثلثمائة عام وستين عاما وثمانية أعوام « ١٣٦٨ »

أجل هى تصير رسالته مذ تحنث وتعبد فتجرد الى أن غطه الوحى فعلم ، الى أن حمى التنزيل وتتابع — فجاهد وعلم وأنذر وبشر — فبلغ بشر بالحكمة والموعظة الحسنة الناس جميعاً « قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً »

أنذر وبشر وعلم — بفؤاد وادع وقلب سليم وسريرة طاهرة — فبلغ : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » الى أن أكمل جهوده وأتم رسالته واستودعها الفرقان الحكيم . وجعل قيمين على تنفيذها سرائر صحابته وتضحية المؤمنين بنبوءته ليعملوا بما أوحى اليه وأنزل عليه ويجاهدوا وينيروا

يجاهدوا وينيروا — البشر جميعاً بدين الفطرة ، والأخاء ، والشورى ، والمساواة ، والعدل ، والعلم ، والحكمة ، والحجة ، والضمير ، والحرية ، والجرأة ، والصراحة ، والاستقلال ، وقرة أعين فى الدنيا « ورضوان من الله أكبر » فى الآخرة

إذن على أسس هـذا الواجب العادل ، وهذا التمثل الحق ، يُرفع هيكل مجيد لرسالة الأزهر فى القرن الرابع عشر المحمدى أو القرن العشرين كما أسمته وزارة المعارف المصرية الجليلة

إذن يرفع هيكل رسالة الأزهر فى هذا القرن كما رفع هيكل الانسانية الالـهى فى القرن الأول المحمدى — فيقابل الدور الأول دور التحنث والتعبد والتجرد والعلم ، بتحنث وتعبد ودراسة من ينتخبهم الأزهر أم يتجندون للعلم فى الأزهر على أن ينتخب الأزهر طلابا من أولى الشعور الخصب وأولى العزم والذكاء العميق ، والتحسس الضميرى ، عشاق التضحية وعشاق الحق ويثقفهم ثقافة كاملة شاملة

ينتخب الأزهر طلابه من الشبان ممن اكتملت صفاتهم تلك ليتعلموا مع علم الدين وشرعة الرسول وسنته وسيرته واللغة العربية اللغات الحية العالمية ، ويدرسوا الأديان العالمية وتاريخها وفلسفتها وأساطيرها

كل فريق يتخصص للغة حـية ، ويتخصص لفرع من فروع العلوم ليعلموا عن كل علم جوهره الحق فيكون علمهم علما حقا « وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا »

قلت ينتخب الأزهر طلابه من الذكور والأناث فلا يحتكر العلم والتبشير الذكور عملاً بالآية الكريمة « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة . . . » ولأن واجبهم فى التبشير العالمى واجب الذكور والأناث على سواء

وقلت ينتخب الأزهر طـلابه من ذوى الشعور الخصب والذكاء العميق والتحسس الضميرى وعشاق التضحية والحق لكى لا يقولوا الله ما لم يقل فى كتابتهم سيرة الرسول ، ويعمّلوا الرسول ما لم يعمل فى تبيان حياته ، ويضعوا فى فمه ألفاظا تطهر منها فمه

فيقولون مثلاً « غزوة » لكل واقعة انتصافية ، أو تهذيبية ، أو تبشيرية

إن الغزوة كتبت بعقلية من كتب بعد مائتى سنة من وفاة الرسول مع ما فى الغزو من ظاهرة السلب وحب القتال غير المعقول وغير الحق

إن المفهوم والمعقول من الآيات المنزلة عند ما أذن الرسول بالقتال كانت للانتصاف والتهـذيب والتبشير لا للغزو (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتـدوا إن الله لا يحب المعتدين) فهل يحب الغزاة الناهبين ؟

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً)

(الذين إن مكناهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور)

(وقاتلوا حتى لا تكون فتنة)

تلك هي الآيات الحكيمة المنصفة التي نزلت على الرسول ، فمن أين جاء كتاب السيرة ومن تابعهم بالغزو ... وبالغزوات

ولكي لا يقول الرسول هكذا : تذهب الكثرة من المؤرخين إلى أنهم ـ أي الصحابة ـ فكروا وفكر محمد (ص) على رأيهم في الانتقام من قريش لأنفسهم ومبادأتهم بالعداوة والحرب

ولكي لا يقولوه الطعن والشتم والسباب ، بقولهم : طعن آلهة قريش ، شتمها ، سبها ، ولكي ، ولكي

إن الرسول لم يكن منتقما ، وقد حذر الانتقام ، ولم يكن سباباً ، والحديث الصحيح والقرآن الحكيم ينفيان عنه حب الانتقام والشتم والسباب ؛ فمن أي مصدر قرآني ، أو حديث صحيح وضعوا في صدر الرسول الانتقام وفي فمه السباب ؟ ؟ ...

إن الرسول فكر في الانتصاف من أعداء الله وأعدائه . فكر في حرية التبشير ، فكر في تعليمهم الحق ، وعلم بما فكر . فلما لم يدعنوا بالحسنى بعد ثلاثة عشر عاما أذن له في القتال الانتصافي ، ولم يسب آلهة قريش ، بل عابها . لم يسبها لأن حديثه مشهور : لا تكن سبابا

« ليس المسلم بالسباب ولا بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش ولا بالبذيء »

« إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً »

للأسباب المتقدمة التي صهرناها صهراً ننادي الأزهر بيت العلم المحمدي الأول ، ونقول : إن واجب رسالته الواجب . الواجب كتابة سيرة للرسول تتفق والقرآن الحكيم ؛ وعقلية الرسول البريئة وأعماله الحقة . وقلنا على طلاب الأزهر أن يثقفوا ثقافة جامعة شاملة ، لكي لا يرموا قلب الحق بما رماه به كاتب مشهور تعلم في الأزهر ، واتصل بالشيخ محمد عبده اتصالاً وثيقاً ، وكان من المؤمنين برسالة الرسول ونبوة الرسول !

لكي لا يرموا قلب الحق وإن تعريباً وإن نقلا بقولهم في تأبين من اشتهر بالبخل وحب المال اشتهاره بالذكاء والدهاء

لكي لا يرموا قلب الحق بقولهم

« في مثل هذا اليوم منذ مائة سنة مات الرجل العظيم . مات الرجل الخالد . مات ڤولتر . ما مات ڤولتر حتى احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال وأثقال جلائل الأعمال وأثقال الأمانة العظيمة التي عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها فحملها وحده ، ألا وهي تهذيب السريرة الانسانية فهذبها فاستنارت فاستقام أمرها . . »

وڤولتر هذا الذي هذب السريرة الانسانية فاستقام أمرها ، ڤولتر هذا الذي عظمه مسلم مؤمن وسكب عظمته في صدر كل عربي مسلم . ڤولتر هذا هو كاتب القصة التمثيلية بعنوان « محمد » ولقد أهداها إلى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات « فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس اعجاباً بالفضيلة إذا تجرأ فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية . والى مَنْ غير وكيل رب السلام ، والحقيقة أستطيع أن توجه بنقدي فسق نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة وإني مع الاجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القديستين

في ١٧ أغسطس سنة ١٧٤٥ « ڤولتر »

ترى لو كان المعرب الذي استعار بلاغة القرآن تثقف الثقافة الحقة الجامعة الشاملة وفهم نفسية من كتب عنه وأعماله وأقواله

ترى لو كان مثقفاً ثقافة صحيحة أ كان يقول عن ڤولتر قوله سواء أ كان يقول إن ڤولتر هذب السريرة البشرية فاستنارت فاستقام أمرها ، وإن أمانة هذا التهذيب عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها فحملها وحده ؟ ويكون تهذيبه للبشر بهذا الشكل الفاسق غفر الله لمن عرب ولمن ثقف هذه الثقافة

إذن لتكن رسالة الأزهر تعليم اللغات الحية ولتكن رسالته الثقافة الجامعة الشاملة ليطلع طلابه على أهم المسائل فيظهروا الحق حقاً والباطل باطلاً

لتكن رسالة الثقافة الشاملة ، فلا يصاب طلاب الحق بأمثال من ذكرت ، وبأمثال عالم كتب حياة محمد (ص) وعند ما شاء أن يصور كيف خشيت قريش البعث ورعبت من جهنم قال : « أما الجنة التي أعدت للمتقين ، وجهنم التي أعدت للظالمين . أما ذلك كله فلم يكن يدور بخاطرها ، وذلك كله قد سمعوا به في دين اليهود ، وفي دين النصارى » . وقال في صفحة ثانية : « والموسوية والعيسوية تصفان حياة الخلد ورضا الله »

لا أعلم أين قرأ المؤلف وصف الخلد ، ووصف الجنة وجهنم فى الدين الموسوى !

لا جنة ولا جهنم أيها المؤلف الفاضل فى الدين الموسوى ولم يرد وصفهما لموسى . إن التوراة اكتفت بقولها : (إن الله له منتقم يفتقد ذنوب الآباء فى البنين الى الجيل الرابع ، ومن ثمة يفتقد خطايا الخاطىء وذنوبه بجسمه ونسله وأنعامه ومواشيه فحسب)

مثل هذا القصور فى الثقافة لا يليق بمن يكتب حياة أعظم من سار على قدمين من بنى البشر — حياة الرسول — لذا ترى أن أول واجبات رسالة الأزهر توسيع دائرة المعارف وتثقيف الطلاب ثقافة جامعة شاملة قبل أن يكتبوا عن الرسول وقبل أن يحللوا الحكمة السامية التى تجسدت فى شخص محمد ، والأدب الرفيع الذى جلل أقواله وأعماله

جهلت قومه عليه فاغضى ... وأخو الحلم دأبه الأغضاء

وقلنا بالتخصص ليخرج من طلابه نوابغ فى أى فرع من فروع العلوم ، فاذا تخصصوا ونبغوا حق لهم أن يفسروا القرآن الحكيم لأنهم يومئذ ، ويومئذ فقط ، يفهمون الآيات الطبية والتشريعية العالمية الدولية والنفسية البشرية ، وعلوم الفلك والطبيعيات وو . . . . إن فى القرآن مجموعة العلوم البشرية فأنى لغير مجمع كبير على اخصائى فى أى العلوم يفهمه ويفسره ؟ فاذا تخصصت كل فئة لفرع أجادت فهم القرآن وأجادت تفسيره

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر »

هذه الأطوار الستة وردت فى القرآن الحكيم منذ أربعة عشر قرناً أثبتها الاكتشافات الحديثة أمس « واتخذها الفلاسفة الطبيعيون حجة على أطوار خلق الجنين توافق الأطوار التى نشأت فيها أصول الحيوانات فى الأزمنة العريقة فى القدم قبل خلق الانسان بادهار طويلة ، وذلك لأن الانسان يكون فى الطور الأول من إنشائه نطفة أشبه بالحيوانات السافلة المسماة بذوات الجوف ، ثم يستحيل إلى علقة فيصير أشبه بالسمك ، ثم ينسلخ مضغة فيكون شبيهاً بالحيوانات المائية البرية ذوات العمرين ، وبعد ذلك يتحول إلى مشابهة أدنى مراتب الحيوانات اللبون وهو حينئذ فى بدء الطور الذى ينمو فيه خلقاً سوياً متميزاً بخصائصه النوعية »

أنى لغير الطبيب الحكيم أن يفهم عظمة القرآن وعلوم القرآن إذا مرت أمامه الآية الطبية تلك وأمثالها وأنى له أن يفسرها ؟

وأنى لغير المشترع أن يعلن بسرعة أن أعظم لجنة ألفتها جمعية الأمم فى القرن العشرين مؤلفة من أكبر مشترعى العالم منذ أشهر معدودة لتحكم بين دولتين هما من أعضاء جامعة الأمم

لقد قالت اللجنة التشريعية : مادام أن مجلس الثلاثة عشر قال إن إيطاليا هى المعتدية على الحبشة ، ولما كان كلاهما عضوا فى جامعة الأمم فعلى جامعة الأمم أن تناصر المعتدى عليها

ذلك كان حكمها . فلنسمع حكم القرآن فى مثل هذا الموقف ولنعتبر ولنحترم

لنسمع للحكم السامى الرفيع الذى جاء به الفرقان منذ أربعة عشر قرناً ، الحكم الجامع الشامل ، الحكم الذى عجز عن الاتيان بمثله أعظم علماء الشرع فى القرن العشرين :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين »

* * *

فاذا اكتملت الثقافة واكتمل التخصص وتعلم اللغات فقد ابتدأ دور الجهاد فأصبحت رسالة الأزهر الثانية والثالثة . أما الدور الرابع فالترجمة وإرسال الوفود تحت كل كوكب للتعليم والانذار والتبشير بالحكمة والموعظة الحسنة بفؤاد وادع وقلب سليم

وأن يكون من جهاد الأزهر طبع المؤلفات النفيسة عن الرسول وعن القرآن وعمن نصروا الرسول متشرفين بحكمة امامته العظمى ، وليكن من جهاده نشرها

حسب الأزهر أن يقوم بما تقدم لينقل للانسانية رسالة سامية تطمئن الأصغرين وتسعد فى الدارين

الخلاصة عن رسالة الأزهر

١ — أن ينتخب طلابه من ذوى الشعور الخصب وعشاق الحق ليتعلموا مع العلوم الشرعية الأزهرية كلها تاريخ الأديان وفلسفة تلك الأديان وأساطيرها

٢ — ليتعلموا اللغات الحية

٢ — وأن يكونوا فئات فى التخصص كل فريق يتخصص

لعلم من العلوم حتى يجيدوا فهم القرآن الحكيم الجامع لكل العلوم ويجيدوا تفسيره

٤ — أن يترجم الأزهر خيرة المؤلفات العربية ذات العلاقة بالدين الاسلامى والرسول العربى الى اللغات الحية

٥ — أن يبعث ارساليات تبشيرية تحت كل كوكب تبشر بالحكمة والموعظة الحسنة للناس جميعا

٦ — أن يكتب سيرة الرسول العظيم كتابة تتفق مع ماورد فى الفرقان الحكيم والأحاديث الصحيحة ، ورأى المؤرخين السياسيين المنصفين

٧ — أن يترجم تلك السيرة ، أم الحياة ، الى اللغات الحية جميعها وأن يطبع ما صُنف من المؤلفات النفيسة عن الرسول وعن الدين

(دمشق) لبيب الرياشي

الحياة الأدبية بالمغرب

بقلم محمد عبد المجيد بن جلون

لقد حان أن نتكلم نحن أيضاً عن الحياة الأدبية فى بلادنا ، فا(لرسالة) سائرة تتحدث عن الأدب فى الأقطار العربية ، التى — وإن بدّدتها الأطماع السياسية — ستظل تجمعها لغة الضاد إلى ماشاء الله . ونعنى بالمغرب المغرب الأقصى ، وبالأدب الأدبَ الحديث ؛ أما الأدب القديم فنود أن نرجع إليه فى مناسبة أخرى لما شاع فى المشرق من أن المغرب قطر لم يساهم فى الأدب العربى ، وتلك حقيقة اكتشفها مؤلفا كتاب : «المطرب فى تاريخ الأندلس والمغرب » محمد عجاج ، وعلى سعد ؛ ومصدر ذلك هو الجهلُ بالمغرب وتاريخه . والمؤلفان معذوران — إلى حد ما — لأن تاريخ المغرب — والأدبى منه بنوع خاص — لا يزال فى ظلمات المكاتب ، إلا قليلاً ؛ على أن هذا القليل نفسه لا يسمح لنا أن نحكم بأن المغرب ليس له أدب قديم ؛ وما نريد أن نزيدها على ما كتب فى هذا الموضوع أستاذنا محمد علال الفاسى (المغرب الجديد — عدد ٣ — السنة الأولى)

وبعد ، فما هى حالة الأدب العربى بالمغرب اليوم ؟ لقد أجهدت نفسى فى أن أصل إلى جواب أطمئن إليه عن هذا السؤال ، فما وجدتُ الحقيقة إلا فى أنها حالة ضعيفة ؛ فما هى الكتب الأدبية — بالمعنى الصحيح — التى يصدرها المغرب ؟ . . . . . أعفنى بربك أيها القارىء ، فالحقيقة مرة ، وقلبى يضطرب عند ذكرها اضطراباً

وإذ عَدِمنا الكتب فلْنتساءل عن الصحف . إن كل ما يصدره المغرب مجلتان أدبيتان : الأولى « مجلة المغرب » للأستاذ محمد الصالح ميسة برباط الفتح ، والثانية « المغرب الجديد » للأستاذ محمد المكىّ الناصرى بتطوان ، اجتازت الأولى مرحلة أربع سنوات ، والثانية أتمت سنتها الأولى منذ قريب . فما قيمة ما تنشر هاتان المجلتان ؟ ذلك ما نريد أن نتحدث عنه الآن باختصار

فأولاً يجب أن تعلم أن المجلات المصرية — ياللمجلات المصرية ! — طغت عليهما إلى درجة أن إحداهما لا تباع فى فاس ، لأنها فقدت المشترى بالمرة وهما معاً تصدران شهرياً ، فلننظر الآن ما فى هاته المجموعات

أما ما يسمى بالبحث الأدبى ففيها الكثير ، خصوصاً حول الأدب العربى فى المغرب قديماً ، فهذا البحث الذى يتابع نشره الأستاذ محمد علال الفاسى على الطريقة الحديثة ، عن أبى على اليوسى ، وبحثه القيم يبهر القارىء ؛ وهو يكتب الآن بحثاً عن أثر شعر المتنبى فى المغرب بمناسبة ذكراه الألفية ، وموضوع كهذا ، فى وقت بالمغرب كهذا ، يصدر بهذا العنوان الخطير ، يكاد لا يصدقه العقل ، وأحكم على البحث بالبراعة والالمام بالموضوع لأننى اطلعت على جزء منه

وأما إذا بحثت عما يسمى بالانتاج الأدبى ، فذلك ما لا تعثر عليه ، فليس يدور بخلد المغربى أن يعالج القصة ، بل القصة عنده لهوٌ وعبث يجب أن يضنّ عليه بوقته الثمين . . . وهناك شعرٌ قليل ولكنه نظم ليس إلا ، ذلك أن المغاربة يجهلون الشعر تماماً ، اللهم إلا قواعد جافة لا تسمن ولا تغنى من جوع . والذين يزعمون أنهم شعراء يزعمون كذلك أنهم أعلى من أن يحدثهم طه حسين مثلاً عن فن الشعر . يقلدون القدماء ويقفون ويستوقفون ، مما كان سائغاً فى العصور الغابرة أيام الناقة والجمل ، أما اليوم فكل هذا محاكاة لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، وليست من الشعر فى شىء . كذلك يفقدون المثل الأعلى ، وإنما هو هذيان يجرى إلى

غير غاية ، ومعان مفككة ، وهم ضعفاء الخيال ، والحقيقة أن حالة المغرب الاجتماعية لها الأثر الفعال فى هاته الناحية ، وهنا أستثنى شاعر شبابنا الأستاذ محمد علال العباسى فاسمع هاته النغمات الحلوة يرسلها قلب عليم قد امتلأ حباً لهذا الوطن العزيز :

وإذا متُّ عليـــه فأنا مطمئن لرضاه الثمن
فاغسلوا بالماء منه بدنى واجعلوا نسج بنيه كفنى
وادفنونى فى ثراه وضعوا فوق قبرى منه زهر السوسن
واكتبوا فوق ضريحى بدمى هاهنا قبر شهيد الوطن

واذا تصورت الشاعر منفياً عن مهد صباه ، بعيداً عن الأهل والوطن ، فى باريس ، طلبت منه أن تعيد النظر فى هاته الأبيات ؛ وهو لا زال لم ينشر ديوانه « روض الملك » بعد ؛ وله قصائد رائعة — عند ما كان فى باريس تجدها فى مجلة السلام ، يوم كانت مجلة السلام !

وأكثر ما ينشر ويذاع من قصائد للمغاربة ردئ سقيم ، أشفق على قارئه وسامعه أكثر مما أشفق على قائله . . .

والآفة التى تستولى على المغاربة هى الكسل ، وماذا يتطلب قول الشعر . . . هل يحتاج الى اطلاع فى التاريخ أو تحصيل شىء من الفنون . . . هكذا يظنون ، فينشأ الكسل

والنهضة المغربية تقوم على أكتاف الشباب الناشىء ، فهناك شباب يكتبون لأنفسهم ، ويقولون الشعر لها أيضاً ، وربما أطلعوا بعض أصدقائهم على ذلك ، وبعد هذا فالى ظلمات الدرج ، حيث يعلم الله وحده ماذا يكون بها ، وكاتب السطور يعرف جماعة من هؤلاء فى فاس اطّلع لهم على قصص لا بأس به ، وشعر له حظه من الجودة يبشران بمستقبل حافل . اذن فالأمل فى الشباب الناشىء الذى يقرأ بنهم ما يكتبه أفذاذ الشرق ، فاعتدلت بذلك أفكاره نوعاً من الاعتدال ، ويوشك ان هو استمرّ على اجتهاده أن يكون منه ادباء ، يبذرون فى الأرض المغربية الخصبة بذور الأدب الصحيح ، بل إنى أؤكد أن هؤلاء الناشئين لابد أن يكون لهم شأن ، فما كانت هاته الجهود لتضيع هباء

بهذه اللمحة الموجزة تستطيع أن تتبين ما فى المغرب من أدب ، وأن تستنتج أنه فى الحالة الحاضرة ضعيف الأدب ، وأنه وإن لم يكن ميتاً فهو قريب من ذلك ، وأن حالة الناشئة تبشر بمستقبل زاهر قريب ، لما لهذا الشباب الطموح من عزيمة والعقلية المغربية أقرب الى العلم منها إلى أى شىء آخر ،

ولو كنا نتحدث عن الحالة العلمية لطال بنا الحديث ، خصوصاً ما يلقى فى جامعة القرويين من دروس جامعة مع اعترافنا بما فيها من نقص وما تحتاج اليه من تهذيب

ولعله استرعى نظرك أننا ما ذكرنا غير الأستاذ محمد علال العباسى فليس معنى ذلك أنه ليس فى المغرب غيره ، ولكن معناه ، أنه — فى نظرى — أعدل إخوانه الأدباء رأياً ، وأقربهم إلى الصواب ، فهو أديب حقاً ، وله نفسية الأديب ، ويحيا حياته ، وكل من يعرف وداعته وأخلاقه يطمئن إلى ما نقول ، بيد أنه لا يصرف كل أوقاته — ولا جلّها — فى الأدب ، بل اشتغاله به محدود ضيق الدائرة ، ولو كان يفعل لكان أديباً جباراً فما خُلق إلا ليكون أديباً

بقى أن نقول إن القرويين والمدارس القومية والحكومية كلها تحمد وتعاب ، غير أن أفضل معهد للدرس هو القرويين ، ولو كان أبناء « الكولج ومولاى ادريس » يشتغلون بالعربية ، لكانوا أنجب من أبناء القرويين ، ولكن كل همهم فى الأدب الفرنسى والتفرنج ، وهم زيادة على ذلك يعيشون فى ظلام لا يستطيعون السير فيه وحدهم

وهنا ننوّه بما (للرسالة) الغراء على أبناء المغرب من فضل ، فاليها يرجع طموح الناشئة ، على هداها يسيرون ، وبنورها يهتدون ؛ فشكراً لك (يا رسالة) الحياة ، ولك أنت يا مصر الشقيقة ، فلن تجدى فى المغرب نكراناً للجميل

فاس — محمد عبد المجيد بن جلون

نهاية المجد الانسانى

لدانيل ديفوا Daniel Defoé

(١٦٦١ – ١٧٣١)

رسالة كتبها لاحدى الصحف بمناسبة موت الدوق مارلبرو

سيدى :

لقد أكببت أخيراً على درس التاريخ ، وطالعت حياة عظماء القرون الماضية كالاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر وأوغسطس العظيم ، وكثيرين غير هؤلاء وهؤلاء ممن تواردوا بعدهم حتى لويس الرابع عشر الكبير ، بل وحتى أعظمهم وأكبرهم « جون دوق مارلبرو » ! ! ، ولقد مررت فى طريق بتيمورلنك حصاد الرؤوس ، وبتمور نبيجوس المصرى ، وبسليمان الكبير ، ثم بغير هؤلاء من سلاطين آل عثمان ، فاذا قد كتب عنهم جميعاً الواحد تلو الآخر بعد الآثار العظيمة التى خلفوها : « ثم مات » ! ! ! ؛ جميعاً أموات ! ؛ أموات ! ؛ أموات ! ؛ ؛ و « الموت » هو نهاية كل منهم ! ! فالبعض يرقد فى مهد الشرف ! والبعض على سرير الخضوع الذليل ! هـذا قد مات شجاعاً فى ساحة الشرف ! وذاك قد تردى فى هوة المجـد أثناء عاصفة الهجوم ! البعض هنا والبعض هنـاك ! تختلط عظام الشجاع الصنديد منهم بعظام الجبان الرعديد ! وبقايا البطل الجرىء ببقايا النكرة الدنىء ! يرقدون هناك فى أكفان النسيان تحت أنقاض الثرى ؛ لا يتميز واحد من الآخر ولايباينون التراب فى شىء ! »

« ترقد هذه الساعة الدقاقة الفاخرة مختلطة بالأقذار ؛ وهى التى كانت « عظيمة » فظنت نفسهـا عارفة مقتـدرة ! »

كم آلاف من الأبطال يرقدون فى هذا العالم أكواماً متناثرة ؟ كم يجرف الريفيون عظامهم بمحاريثهم وكم يسحقها العمال بفؤوسهم ؟ بل لكم تحول الأرض أنبـل وأسمى أعضائهم إلى ما يستعمل فى أحط المنافع ! لكم مزجنا رماد الأبطال بطلاء منازلنا ؟؛ ولكم خلطنا رماد قائد رومانى بملاط حظيرة للخنازير ! أين رفات (قيصر) ؟ أين بقايا (بومبى) وانقاض (سيبيو) و (هنيبال) ؟ ؟ كلهم قد تلاشوا ! ! اندثر رمادهم ولم يعد مكانهم يعرفهم ! لست تراهم إلا فى الكتب الباقية لشعرائهم ومؤرخيهم ؛ والرسائل الكثيرة لمداهنيهم ومتملقيهم الذين صوروا لنا الأشخاص لا كما كانوا حقاً ! بل كما كان يحلو لهم أن يصوروهم ! ! ! . . .

***

وما يقع لأعظم الناس يقع لأطولهم عمراً ! فقوم نوح انتهوا جميعاً بشىء واحد ؛ عاش منهم (متوشالح) تسعمائة سنة وتسعا وستين ! وأعقب أبناء كثيرين وبنات كثيرات ! ثم ماذا كان ؟ كان أن مات . . ! « الحياة حلم ، والموت نهر طام يجرفنا »

***

نحتفل الآن بجناز مارلبرو « العظيم » ! ! فكل انتصاراته ، وكل مفاخره ، وكل خططه الحربية التى دبرها ، وكل فتوحاته المتسلسلة المطردة ، كل ذلك الذى يخصونه به كما لو كان وحده قد حارب وانتصر ، وفاز وكسب ، دون أن عده الكثيرون بأرواحهم ودمائهم ! كله قد انتهى حيث ينتهى آخرون ! بل حيث ينتهى الناس جميعاً ! انه مات ! ! فلا ثروته الضخمة ، ولا أسلابه من أعدائه ، ولا سخاء حبيبته البارة وكرمها ، ولا الكنوز المتراكمة فى الحرب وفى السلم ، ولا كل هاته الكتلة العظيمة من الذهب التى لا أعنى بتعيين ضخامتها كما قد يعنى البعض ! ! شىء من ذلك لم يستطع أن يهبه الحياة ؛ ولا أن يطيل له أمدها لحظة ؛ لقد انتهى وكفى . . . !

لا ، بل يقول البعض إن الكنز العظيم الذى امتلكه فى هذا العالم ذو خاصية غريبة عالقة به كانت تكون جد منفعة لصاحبه لو اعتنى بالتفكير فيها قليلاً ! وهى أنه لايستطيع أن يأخذ شيئاً منه الى قبره ... !!!

لم يبق لنا شىء من ذلك « العظيم » تتحدث عنه غير تاريخه وتمثاله ؛ لقد عُدّ الآن فى الماضيات ، وأصبحت صور جنازته ومعاركه جديرة بأن تتزين بها منازلنا كسائر القطع الفنية التى

تعادلها زهواً وبهاء ، وتساويها فى النظر اليها بسرور وارتياح !!!

***

هكذا نهاية المجد الانسانى ! وقليلاً ما تستطيع الدنيا القيام به لأعظم من يلجونها ! بل ولأعظم قدر يصل اليه هؤلاء الرجال . . ! !

فما وظيفة الحياة إذاً ؟ وما أثر العظماء الذين يمرون على مسرح الدنيا فى حلل النصر كهؤلاء الذين ندعوهم « أبطالاً » ؟ ؟ أهو أن يكبروا وينفخوا فى بوق الشهرة ويشغلوا صفحات كثيرة من التاريخ ؟ ؟ وا أسفاه ! ! ليس هذا بأكثر من وضع قصة يقرأها الخلف فيما بعد ويصورها خرافة ورواية ! ! أم هو أن يقدموا للشعراء موضوعا يعيشون به فى أشعارهم الخالدة كما يدعون ؟ ؟ وذاك أيضاً سيؤول بهم إلى قصة شعرية يتلوها العجائز لأسكات الأطفال ، أو لجمع مساعدة للفقراء والمساكين على قارعة الطريق . . !

أم أن أثرهم هو أن يضيفوا الفضيلة والتقوى لمجدهم ؛ وهما العنصران اللذان يأخذان بهم إلى النعيم ويجعلانهم حقاً خالدين ؟ ؟ وما المجد من غير فضيلة ؟ ؟

ليس العظيم من غير تقوى بأكثر من دابة ضخمة من غير نفس !

ثم ما الشرف بغير قدر واستحقاق ؟ ؟

وماذا يمكن أن يدعى قدراً حقيقياً غير ما يجعل الشخص تقياً كما هو عظيم ؟ ؟

إنا إذا كنا نؤمن بحالة مستقبلة للحياة ، بمكان يكافأ فيه الفضلاء ، ويعاقب بين جدرانه السفلة ، فكم من الرؤوس المتوجة سيلبس تاج السعادة والخلد ؟ ؟

لا يحسدن أحد « العظماء وذوى المجد » كما نسميهم ! !

فانا إذا استطعنا الآن أن نراهم وجدنا أكثرهم يستحق الرثاء لا التهنئة ! ! ؟

هذه الخطرات القليلة أبعثها اليك ياسيدى لتهيء عقول قرائك قبل أن يذهبوا لمشاهدة الجناز الفخم للطيب الذكر « دوق مارلبرو » . . . . ؟

ترجمة محمد حسن ظاظا

الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينه جارد

للسيد اسكندر كرباج

فى عام ١٨٤٦ قصد الشاعر الفرنسى لامرتين إلى مرسيليا لقضاء بضعة أسابيع فى أحد أحيائها الهادئة ، بعيداً عن متاعب السياسة وضوضائها ، وكان لامرتين وقتئذ فى أوج مجده الأدبى وعظمته السياسية ؛ فاحتفت به أندية العلم والاجتماع فى تلك المدينة البحرية ، وأكرمه الأدباء والشعراء ، ونظموا فيه القصائد البليغة

وفى ذات يوم ذهب لامرتين وزوجه للنزهة على ساحل البحر ، فلما عاد مساء قيل له إن فى الرواق المطل على الحديقة امرأة وضيعة الهيئة بسيطة الهندام تنتظر رجوعه منذ الصباح . فتوجه لامرتين إلى الرواق المذكور ليرى تلك المرأة الغريبة ويقف على حقيقة أمرها ؛ وبعد أن يشاهدها ويحدثها ويصف ملامحها ونظراتها واشاراتها بتلك الرقة الساحرة وذاك البيان الخلاب الذى اشتهر به مؤلف رواية غرازيلا ورفائيل يسألها عن الغرض من قدومها لزيارته ، فتجيبه أنها خياطة فى اكس ، وقد قرأت رواياته ومنظوماته ، وأعجبت بجمال تعابيره ورقة شعوره وسمو خياله ، فلما اطلعت فى الصحف على خبر قدومه إلى مرسيليا واحتفاء دوائرها الأدبية به تولدت فى نفسها رغبة التعرف به والتحدث اليه ، وانها على الرغم من فقرها وخمولها تجرأت على ترك عملها والقدوم سرا الى مرسيليا تحقيقا لرغبتها

فيتودد اليها لامرتين ويلاطفها ويقول لها انه يشك فى أنها تركت عملها وتحملت مشاق السفر يومين كاملين ، وقضت معظم النهار فى انتظار رجوعه من نزهته لكى تراه وتحدثه وتتعرف اليه فقط ؛ بل يجب أن يكون هنالك سبب آخر لقدومها لا تريد ذكره ، أو إنها لا تجرؤ على التصريح به ، ولذلك فهو يسألها أن تخاطبه بحرية وتبوح له بما فى قلبها من غير تكلف

فتفقد هى إذ ذاك شيئاً من خجلها واضطرابها ، وتخبره أن فى إكس أسرة كريمة تعرف شدة ميلها إلى المطالعة وعجزها عن شراء الكتب فتعيرها ما تقتنيه منها ، فاستطاعت بذلك أن تطالع

عددا كبيراً من الروايات النفيسة والمنظومات الرقيمة ولاسيما رواياته ومنظوماته التى تطرب المسامع ، وتحرك القلوب ، وتستذرف الدموع

فيقاطعها لامرتين مبتسما : عرفت الآن ! إنك شاعرة كالنسمات التى تهبُّ بين أشجار الزيتون ، أو كالندى الذى يبلل أثمار التين !

فتجيبه : لستُ شيئاً من ذلك ياسيدى ؛ إنى خياطة وضيعة لا أبرح غرفة عملى إلا نادرا ، وسلوتى الوحيدة الدرس والمطالعة ، وليس يؤنسنى فى وحشتى وانفرادى إلا عصفور غرِّيد ، ولكن هذا كله لا يهمك أمره ، لقد سألتنى عن سبب قدومى إلى مرسيليا وكيف عرفت بقدومك اليها ، فأجيبك أنى قرأت منذ أيام فى صحف هذه المدينة أبياتاً من الشعر الرقيق ليوسف أوتران فى مدح لامرتين والترحيب به ، فشوقتنى هذه الأبيات إلى رؤية الشخص الذى أوحى إلى شاعر مقاطعتنا نظم تلك الأبيات الجميلة ، وبتُّ لا أستطيع صبراً على ذلك . وبعد وثوق من وجودك هنا قدمتُ لزيارتك دون أن أهتم بملبسى أو بغيره مما يجعلنى أهلا للمثول فى حضرة رجل مثلك ؛ وهأنا أمامك الآن لا أدرى ماذ أقول ولا ماذا أفعل ، وربما حملتك حالتى هذه على الاعتقاد بأنى امرأة جسور مغامرة أتت تخدعك وتدعى ما ليس فيها ، مع أن الحقيقة هى ما أوردته لك بالتمام ، وبعد أن شاهدتك وعرفتك وحدثتك وحظوت منك بهذا الاستقبال اللطيف سأعود إلى قريتى حاملة أجمل ذكرى لهذه الزيارة

فيقول لها لامرتين : خففى عنكِ أيتها الآنسة ! لم يمر فى خاطرى قط أنكِ لست كما تذكرين ، فملامحكِ أنصع دليل على صدقكِ وسلامة طويتك ، وإذا كانت الألسنة تخدع أحياناً فالعيون لا تضلِّل أبداً ؛ ففى عينيك بريق يشفُّ عن براءة ونقاوة لا يمكن أن تكونا برقعاً لامرأة كاذبة نمامة . إن الطبيعة لم تخلق الملامح كذوبة ، فأنا أثق بكِ كما لو كنت أعرفك منذ الصغر ، ولذلك لا أسمح لكِ بالانصراف ما لم تحدثينى طويلاً وتشاركينا فى العشاء ؛ لقد ذهبت زوجتى لتغيير ثوبها ولا تلبث أن تأتى لاستقبالك والقيام بواجب الضيافة نحوك . وقبل أن يحين وقت العشاء أخبرينى كيف تولد فيكِ هذا الميل إلى المطالعة ، وهذا الهيام الشديد بالشعر والشعراء ، والتعرف إلى الأدباء الذين طالعتِ رواياتهم

فتروى له قصتها قائلة : إسمى رينه جارد ، وقد وُلدت فى قرية قريبة من إكس ، ودخلتُ صغيرة فى خدمة السيدة ... ورافقت نشوء الأولاد ، ونعمت بعطف الأبوين وصداقة الصبايا ، وكنت أصغى إلى ما يتعلمنه على الأساتذة وأطالع كتبهن فى أوقات الفراغ ، فتوصلتُ بهذه الواسطة إلى تحصيل بعض العلوم ومعرفة القراءة والكتابة والخياطة والغسل والكىّ وغيرها مما تحتاج إليه الفتاة ويكلفها تعلمه نفقات كبيرة . وكنت أتولى خياطة ثيابهنَّ ، وأعدهن لحضور الحفلات فى إكس ، وأنتظر رجوعهن من المراقص حتى الساعة الثانية والثالثة بعد نصف الليل ، ومكافأة لى على ذلك كن يدفعن إلى كتاباً أو رواية لكى أطالعها فى غيابهن ؛ فكنت أجلس بها إلى جانب الموقد وآخذ فى مطالعتها مرتين وثلاثاً ولا أتركها من يدى إلا بعد أن أكون قد استوعبت معانيها جيداً ؛ وهكذا طالعتُ قصة السكينة لورانس فى روايتك الشعرية جوسلين ، وقد قلت لنفسى وقتئذٍ : هل يسعدنى الحظ برؤية كاتبها ومحادثته ؟ لا ريب أنك تعرف أنشودة البحرى التى مطلعها : من هو ناظم النشيد ؟

فيجيبها لامرتين : نعم أعرف تلك الأنشودة التى يضع ناظمها اسمه تحت آخر بيت منها كما كان فيدياس يضع اسمه على قاعدة تماثيله ، وڤانديك فى ذيل رسومه لكى يخلد بخلودها . ولكن أخبرينى كيف انفصلت عن تلك الأسرة الكريمة ، وأى عمل تمارسين الآن ؟

فتقول له رينه : بعد أن تزوج البنات وتوفيت الأم لم يعد من حاجة إلى بقائى فى البيت ، فغادرته على ألا أدخل فى خدمة غيره ؛ وقد ساعدنى الأب بمبلغ من المال على تدبير أمورى ، وقال لى البنات : اطمئنى فلن نحوجك إلى الاستجداء

وكنت محبوبة معتبرة فى بيئتى ، فاستأجرت حانوتاً تعلوه غرفة صغيرة للنوم ، وانصرفت إلى احتراف الخياطة ، ولكثرة الاقبال علىّ كدت لا أستطيع تلبية الجميع ؛ وأنا أعيش اليوم من إبرتى ، وما يفيض عن نفقاتى أختزنه ليوم الضيق أو لأيام شيخوختى . وكانت لى عصفورة تسلينى فى وحدتى ففقدتها وحزنت عليها كثيرا ، وأنا أخصص أيام الآحاد والأعياد للمطالعة . وفى المدينة أشخاص من الطبقة العالية مثلك ، وعلماء وأدباء حتى وبعض أعضاء المجمع العلمى يعرفون ميلى إلى المطالعة والنظم فى بعض الحفلات ، فلا يخجلون من دخول مصنعى ومحادثتى واعارتى بعض الكتب

فيقول لها لامرتين مبتسما : أتنظمين الشعر أيضاً يارينه ؟ كدت استشف ذلك من عينيك الحالمتين ، إذ لا سماء بدون غيوم ، والأحلام والنظم هي غيوم تينك العينين الجميلتين ؛ ولكن هلمى بنا ، لقد هجرت أنا النظم ، ولكنى لم أزل أحن إلى سماع رنانه والاستمتاع بروائع صوره ومعانيه . فما أجمل زمن النظم ! وما أشد شوقنا اليه ! هل تتذكرين يا رينه شيئاً من نظمك فتسمعيني إياه ؟ انظرى ما أبدع هذا المكان وألطفه لانشاد الشعر ! فالشمس على وشك المغيب ، والبحر يحمل إلى مسمعنا هدير أمواجه وخشخشة أصدافه التي هي أشبه بغناء صغيرة تضرب على الصنج ، والنسيم يداعب أشجار الليمون وينثر أزهارها العذرية على شعرك الأسود ، وأنا ، هذا الغريب الذى كان شاعرا فيا غبر من الأيام ويجلس وحيداً أمامك ليسمعكِ وقد أعجب بنبرات صوتك ، ألا يساوى كل هذا فى نظرك جمهوراً من السامعين حتى ولو كانوا من أعضاء المجمع العلمى ؟

فتجيبه رينه : لا جرأة لى على ذلك ياسيدى ، ولكننى أحتفظ بمقاطيع من الشعر كنت قد نظمتها فى إحدى ساعات كآبتى ، فأفضل أن تقرأها أنت من أن ألقيها أنا على مسامعك . ثم تخرج من جيبها بضع أوراق وتدفعها اليه

فيأخذها لامرتين ويقرأها لنفسه ، وكانت هى فى أثناء ذلك تمسح وجهها بحزمها وتحول نظرها عن وجه لامرتين مخافة أن تقرأ فيه ما يدل على استهجانه

ثم يصف لامرتين تأثير تلك القراءة فى نفسه فيقول له :

لقد أعجبت وتأثرت جداً بما قرأت ، انه التعبير الساذج اللطيف المؤثر بكل قوته ومعانيه ، بل خلجات قلبٍ هادئة تصل الى السامع بصورة شجية متناسقة ، بل صورة ملامحها المتواضعة التقية اللطيفة بكل خطوطها وعلاماتها ؛ وبكلمة واحدة ، انه شعر حقيقى لامرأة تحاول التعبير عن عواطفها بالضرب على أوتار آلة تجهلها

لم تكن الأبيات التى طالعتها شديدة أو رنانة كشعر راول ، ولا حماسية وهاجة ، أو ندية فضفاضة كالياسمين ، بل كانت هى نفسها : نغمة مملة كئيبة تنشدها عاملة فقيرة لنفسها وهى تحرك أناملها أمام نافذة غرفتها لكى تخفف تعبها من عمل الابرة

كان فى الأبيات نغمات حادة تجرح القلب ، وأخرى لا تحتوى إلا نبرات غامضة لا تلفظ كأن التنفس وقف فى منتصف الاستنشاق ، غير ان هذا كان قوياً وتاماً ومتغلغلاً حتى القلب وحتى السماء ؛ وكان التأثر فيها يفوق الاعجاب . وعلى الجملة أنها الشعر فى حالة التكوين ، الشعر الذهبى كما هو فى كل مكان حيث يبتدئ فى الشعب ولو خلا من صوت الفن ، ان نغمة واحدة مملة كئيبة ، وقصة تتألف من حادث أو حادثين ، وسبع أو ثمانى صور كافية للتعبير عن اللانهاية !

ثم يرجع لها الأوراق قائلاً : إن فى منظوماتها أشياء خلابة وأن الله منحها موهبتين ساميتين : الشعور بدقة ، والتعبير بظرف ؛ وهما موهبتا المواهب ، أو موهبة الدموع فى الصوت ، ولكنه أبعد من أن يشير عليها بنشر تلك المنظومات التى هى مثل المياه لا تستعذب الا اذا نهلت من ينبوعها

فتجيبه رينه : ماذا تقول ياسيدى ؟ انى لم أفكر قط فى أمر كهذا ، إن اقدامى على نشر الكتب يحمل حتى ملاكى الحارس على السخرية بى . لقد نظمت ما قرأته الآن يوم الأحد الأخير على سبيل التسلية فقط ، ولا أحد يعلم به فى اكس . ومتى كان الانسان يعيش وحيداً مثلى يضطر الى التكلم عالياً كى يستوثق من وجوده ، فالمنظومات التى قرأتها هى مناجاتى لنفسى

(العصبة)

اسكندر كرباج
من العصبة الأندلسية

نحن والزمن

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقـــدمة :

الزمن كما يفهمه الانسان فكرة من أفكاره ، ونسبة ومقياس من صنعه ، فهو يقيسه باحساسه بأمور نفسه وبالمرئيات والمحسوسات وما يعتريها من تحول ؛ وفكرة الزمن هذه أمر نسبى شأنها شأن الاحساس بالحرارة والبرودة ، أو بالابعاد والحجوم والألوان والأشكال ، ومن المستطاع أن يتصور العقل مخلوقاً آخر غير الانسان يختلف فى حواسه ، فتختلف كل هذه الأمور فى نظره عنها فى نظر الانسان ، وهى أيضاً قد تختلف فى نظر الانسان فى حالاته المختلفة من شقاء أو سعادة أو مرض أو صحة . والعجيب أن الانسان فى خياله ينسب إلى الدهر مثل هرمه لقدمه ، فيصوره كأنه شيخ مفن فى يده منجل يحصد به الناس والخليقة جيلا بعد جيل ، والدهر خليق أن يمثل بفتى فى ريعان الشباب . فالانسان يهرم والدول تشيخ وتفنى ، والأجيال تنقرض ، والدهر هو الدهر ، ومن أجل ذلك تصور بعض المفكرين الدهر كأنه زمن حاضر لاماضى فيه ولامستقبل ، وأما الماضى والمستقبل ففى الناس ، والحقيقة أن هذه الفكرة فى كنه الزمن لا تختلف عن الأولى مادام الزمن نسبة يقيسها الانسان باحساسه ، وإذا كان الزمن كذلك فمعاداة الناس للزمن معاداة لأنفسهم ، ونسبتهم الحيف والظلم إليه هى نسبة الظلم إلى أنفسهم (الناظم)

القصيدة : —

يُنْشِدُ البَحْرُ خَرِيرَ الحِقَب   أم خفوقُ القلب نبضُ الزمنِ (١)
أم ترى الأفلاكَ فى دوراتها   رَتَّلَتْ منـــه خَفِيَّ اللَّحَنِ
فَرَش الناسُ له منهم وُجُوهاً   خَدَّدَ الدهر بها ما خَدَّدَا
أثَرٌ فى سيره مِنْ قدم   جَعَّدَتْ ما كان بَضًّا أمردا (٢)
زعم الناس إذا أمضاهمُ الـ   ـدهر أنْ أمضوا من الدهر سنينْ
يستطيع البذل من يقوى على   خَزْنِهِ هيهات ذا من هالكين
كم ملوك ودهم لو تُشْتَرَى   منه عند الموت بالذخر التليدْ
سَنَةٌ أو ســاعة أو طرفة   فإذا الدهر قضاء لا يحيدْ
إيه يادهر لقــد شاطرك الـ   ـحُكْمَ فى الناس قضاء لايحول (٣)

(١) فى البيت تشبيه للدهر بالبحر ، وكأن له خريراً من تعاقب أجياله كخرير البحر من تعاقب أمواجه ، وكأن الدهر أيضاً قلب نبضاته كدقات الساعة التى يقاس بها الزمن ، أو كنبضات قلب الإنسان الذى يقاس الزمن باحساسه

(٢) كأن أخاديد التجعد فى وجه الانسان آثار قدم الدهر وهى كآثار قدم الانسان فى الرمال

(٣) القضاء لا يحول عما يراد بالخليقة

أرْدِهِ يا دهر واعتمـــد غيره   إنما القِرْنُ على القِرْنِ يصول
كم شــقىٍّ أبطأ الموت له   ودَّهُ أن لو يلاقى الأسرعا
سَلَّمَ الدهر عليــه مثقلاً   ثم ما أبطأ حتى هــرعا
وسعيد يجتنى من عيشه   زَهَرًا يرجو لو الدهر تأبَّى
فسواء مُتْعَسٌ أو مُسْعَدٌ   أين مَنْ يحمد خَطْوَ الدهر أيْنا
نحن نبغى من زمان فسحة   هل ربحنا من زمان قد قضى (١)
لو يعود الدهر مردود الخُطَى   لفعلنا فعلنا فيما مَضَى (٢)
وصفوا الدهر بشيخ حاصد   أشيب فى يده كالمنجــل
وهموا فى شيب دهر يافع   ذى فَتَاءٍ خالدٍ لم يَنْصُل
يسرق الدهر بهاء رائعاً   ويعير النُّؤْىَ حُسْناً أروعا
فهو كالرسام يمحو صورة   ثم يســتنبط رسماً أبدعا
وترَى الدَّهْرَ مُغِيراً آسيا   يده تأسو وأخرى تجرح
والذى فى القوم بالرزء يصول   يمنح السلوان فيما يمنح
ولعل المُضْمَرَ المخبوء من   مصرع الدهر يُرَى بالأعين
مصرع الدهر ممات للدُّنَى   كيف يبغيه الورى بالإحَنِ
موته موت لمن قد قاسه   باتصال الفكر أو خفق القلوب
عجباً نحن خلقناه فمــا   نسبة الظلم إليه والعيوب (٣)

عبد الرحمن شكرى

(الرسالة) ربما كان للعروضيين فى بعض أبيات القصيدة رأى لا يتفق مع حرية الناظم

(١) فسحة من الزمن : أى زيادة منه ، وقضى : أى مات واندثر ومضى

(٢) كثيراً ما يمنى الانسان نفسه بأنه لو عاد إليه ماضى عمره لفعل به غير ما فعل ، وهذا وهم ولا يغير أفعاله إلا إذا تغيرت نفسه

(٣) خلقناه بمعنى أنه فكرة نسبية يتخذ الانسان لها مقياساً من حواسه وهى ليست كل ما يمكن أن يكون من الحواس

مَواجعُ شاعر

[مهداة إلى رفيقى الأستاذ أنور العطار]

للأستاذ زكى المحاسنى

إن أشعارك المآتم فيها
كل بيت بصيب الدمع يشرق

إن حياة صفت فأنتَ مُوفَّقْ ... تترك الحزن والبكاء وتَعْشَق
والشكاة التى تدوم ملالٌ ... رُبَّ قَلْبٍ لا يَشْتكي يتمزَّقْ
هل حلفتَ اليمين أنك فى النَّوْ ... حِ ستغدو مثل الحمام المُطوَّقْ
إنَّ أشعارك المآتمُ فيها ... كل بيتٍ بصَيِّبِ الدَّمْعِ يَشْرَق
أنا أدرى بسرِّ نفسك فى الهَـ ... ـمِّ وعندى لك الدواءُ المُفوَّقْ
أَقْتُلِ الهَمَّ بالسلوِّ لتحيا ... خالص النفس كالذى اليوم يُخلق
واهدم البيت واتْرُكْه يباباً ... فى يَدِ الرِّيحِ عنده اليوم ينعق
وَابْنِ فى نَفْسِكَ الجديدة بيْتاً ... بالأمانىِّ والسرور تزوَّقْ
كيف تحنو على الذى ليس يحنو ... وينامُ الدُّجى وأنت مؤرَّقْ
الهَوَى بالبديلِ . وهو شقاءٌ ... إنْ عَلِقنا الذى بنا ما تعلَّقْ

يا حبيبى يا من فديتك أبصرْ ... نى مَليًّا وفى فؤادى تعمَّقْ
رُبما قد شَمَمْتُ زهرك فى عُنْـ ... ـفٍ ويا ليتنى به أترفَّقْ
أنتَ نغَّصْتَ بالفتون حياتى ... فإذا لاحَ لى جمالُكَ أشْهَقْ
كم تأمَّلْتُ فى بهائكَ حتى ... ضِعْتُ عنى وكادت العين تزهق

يا رفيق الذى ألومك إنِّى ... فى شجونى بلوم نفسىَ أخْلَق
فيمَ لا أستطيعُ أكْتُبُ شعراً ... عن دماء فى مطالب الحق تُهرق
أنا طيرٌ خلقتُ فى القفصِ الحُلْـ ... ـوِ وموتى يجيئنى حين أُطلق
لِى عذابٌ متى تفكرت فيه. ... صار دمعى فى مقلتى يترقرقْ
إنْ أتاحَ الزمانُ تغييرَ حالى ... سرْتُ مِنْ هِمَّةِ الزمان بفيْلَقْ
وتعاليتُ فى عظيم المعالى ... مثل نسرٍ فى قبةِ الجوِّ حلق

دُونكَ الوَجْدَ فابكِ ما اسطعتَ شعراً ... قصفاتُ الأزهارِ أن تتفتَّقْ
يُشْبهُ الشاعرُ البخورَ فلا ينْـ ... ـشُرُ طيباً حتى على النار يحرق

إلى النسيم ...*

بقلم العوضى الوكيل

هُبَّ وافتح مغالق النفس فتحا ... وامسِ فى مهجتى مساء وصبحا ..
وتهامس إلىَّ ؛ ياما أحيلى ... لغةً منك فى المسامع فصحى !
وتحمل من البحار قطاراً ... وتحملْ من الأزاهرِ نفْحا

***

واشمل الكون يا نسيمُ وجىء قلـ ... ـبى ، فخدُّ المَطافِ قلبٌ بصيرُ
مُقلتاىَ اللتان لا تريان الـ ... ـكونَ إلا كما يراه كثيرُ
لا تُعدّان خاطرى نَمَّانٍ ... لذَّ فيها الأسى ، ورقَّ السرورُ
ليس بالكون ما تراه عيونى ... إنما الكونُ ما يراه الشعورُ !

***

مُرَّ بى عابساً ، ومُرَّ ضحوكاً ... وأتنى بائساً ، وجئنى سعيدًا
رُبَّ شاكٍ نقلتَ شكواه عندى ... فتهادتْ بين الضلوع نشيدا ..
وأخى صبوةٍ يبثُّ حنيناً ... بتَّ أشدو بما يحنُّ قصيدا !
إن قلبى كمرصد ترسم الأنـ ... ـسامُ فيه على الشغافِ الوجودا

***

أيهذا النسيم ، وانقل سلاماً ... من حبيبٍ إلى حبيبٍ ناءِ ..
إن أسرَّا إليك يوماً بأمرٍ ... فالى الكتم .. لا إلى الافشاءِ ..
ونعِمّا النسيم فى الصيف يهفو ... لفؤادى الحزين كلَّ مساءِ ..

العوضى الوكيل

(*) من ديوان « تحية الحياة » يصدر بعد ثلاثة أسابيع . . .

غـيرة

بقلم السيد الياس قنصل

أىَّ معنى فيك من سرِّ الهوى ... بث فى نفسىَ أطياف الألم
فغدا حبيبى منها ظمئاً ... لا لخا ليس يرويه قسم ؟
اننى أعرفُ ما تورثه ... فيك نجواىَ من الدل الثمين
فاذا كان حديث الحب من ... فم غيرى ، فبماذا تشعرين ؟

القصص

قصة عراقية واقعية

الشفاء ..

بقلم سعيد عبد الاله الشهابي

جلست على أريكة فى سهوم أخاذ تطالع عيناها كتاباً بقى مفتوحاً على مائدة صغيرة أمامها زهاء الساعة دون أن تتلو حرفاً أو تقلب صفحة . كانت عيناها السوداوان الساجيتان العميقتا المعنى تنظران وتطيلان النظر فى لا شىء كمن يريد أن يستشف ما وراء حجب المادة . وتناولت سيكارة صغيرة مذهبة من علبة جميلة من العاج حمراء ، وتنهدت عميقاً كمن ازاح عن صدره ثقل ، وراحت تنفث الدخان ذاهلة ، وربما ظنت أن الغرفة لا تضم سواها

تلك كانت حالها منذ حلت هذا البيت .. بيت كبرى اختيها ، وكانت هذه متزوجة برجل من ذوى القربى الأبعدين ، وهو من موظفى الدرجات المتوسطة فى الحكومة

***

تقدمت منها خادم تحمل فى صينية قدحاً من البلور الصافى صغيراً فيه شاى كانت تفضل الشرب منه ، ووضعته أمامها على المائدة الصغيرة وانسحبت بهدوء

بقيت زهاء ربع ساعة ساهمة كالحالة ثابت بعده إلى نفسها والتفتت إلى جليساتها ، وهن من صديقات اختها الحميات وبعض قريباتها ، وكن يتحادثن بصوت خفيض حرصاً على تركها فى تفكيرها إذ كانت إلى نفوسهن أقرب وإلى قلوبهن أحب .. فلقد وجدن فيها شابة مكلومة الفؤاد خائبة الأمل .. والمرأة بطبيعتها تعطف على المرأة

***

أحبت فتى من ذوى قرباها لم تعرف سواه . يوم لم تكن سنها تتجاوز السادسة عشرة . بادلها الحب فأخلصت له وأحبته بأقصى ما تستطيع المرأة أن تحب .. حتى إذا أوشكا على الزواج عافها وولاها ظهره .. واختص نفسه بواحدة سواها .. كانت صديقة لها . ربما كان له بعض الحق فيما فعل لو لم يبادلها الحب فى أول الأمر ، لكنه انغمر وإياها فى لج بحره الطامى جنباً إلى جنب ، حتى إذا بعدا عن شاطئه فأضناها التعب وأضحت مكدودة تخشى الغرق فى قاعه عاد وتركها لينجو بنفسه .. وقد مرت على ذلك سنتان ؛ فيا للقسوة ويا للظلم !

لم تعد تستطيع العيش حيث نكبت فى قلبها ، فما لبثت أن حزمت متاعها وزمت حقائبها واستقلت القطار السريع من البصرة مسقط رأسها .. إلى بغداد حيث أختها . فلقيت حنواً وعطفاً لا مزيد عليهما

***

شربت قدح الشاى بأسلوب خاص ورشاقة فذة .. ثم شرعت فى محادثة جليساتها بصوت موسيقى رخيم تخللته ضحكات صافية الرنين لكنها قصيرة يختفى تحتها ألم مكبوت وهم دفين وجذبت نفساً طويلاً من سيكارتها ، والقت على متكأ

كلما افترَّ محيّاكِ انجلى ... كلُّ ما فى الحسن من شكل وفنٍّ
أفتبقى هذه الفتنةُ فى ... هذه البسمةِ ان أبعدتِ عنى ؟
ويظلّ السحرُ فى عينيك إن ... كان غيرى فى مرامى نظراتك
وإذا حدّثتِ ، مثلى يجتنى ... متعاً رائعة من كلماتك ؟
إنّ للغيرةِ فى صدرى يداً ... جعلتْه مذبحاً للشُعلِ
خبرينى كيف أدرى ان بدا ... لكِ فكر أو خيال ليس لى ..

(عاصمة الأرجنتين) **الياس قنصل**

الأريكة برأسها الجميل فبدت تقاطيع وجهها الرائع الفتان وجيدها الأتلع ، وتناثرت خصل شعرها الكستنائى السبط فبان جبينها الأسمر العاجى الوسيع . . ونفثت الدخان ناظرة إلى السقف ، كان صدرها يعلو ويهبط باتزان ، وكانت عيناها الجميلتان تشعان شعاعاً ينم عن ذكاء متقد وحس دقيق وعاطفة فياضة متوثبة وروح حزين وثقة بالنفس نادرة عند النساء . لم يكن شأن من شؤون الحياة ، غير ذكرى حبها ، ليشغل بالها . فليس سبب قلة كلامها وطول تفكيرها وإيجازها ان تحدثت إلا تلك الذكرى ، فموارد عيشها كانت وفيرة برغم كثرة مصاريفها ، فهى فى حرز ومأمن من هذه الوجهة . فلقد كان ماتدره عليها أملاكها الموروثة عن الجدود ما يفيض عليها النعمة

***

ودار بخاطرها طائف من الشك : لماذا هجرها حبيبها ؟ أهى غير جميلة ؟ وبدا لها أن تخرج من الغرفة ، فاستأذنت عجلى ودخلت غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح وأقبلت على المرآة الكبيرة فى خزانة الملابس وراحت تحدّق فيها . فاطمأنت وزال شكها وأخذها شبه غرور . لكنها سرعان ما أحست بألم يرمض فؤادها وبنار تحرق وجهها ورأسها ، وتخاذلت تخاذل المرأة المطعونة فى كرامتها ، وألقت نفسها على السرير قبالة المرآة ، وراحت تناجى نفسها : إيه أيتها الطبيعة ! هل أوجدت هذا الجمال الفتان ليقاسى هذا العذاب ؟ فهل مثل هذا الشباب الغض يستحق هذا العقاب ؟ وهل مثل هذه الروح الفتية تستحق خيبة الأمل ، وتابعت محادثة نفسها ، وهى تنظر إلى صورة لأفروديت كان الحبيب الغادر أهداها لها ، وأنت يا آلهة الحب . ربطت بروابطك قلبى بقلبه فأخلصت وخان . . ولبيت نداءك وصم هو أذنيه . . فما بالك أيتها القاسية تعاقبين المخلص وتتركين الخائن . أفما كنت ترحمين المخلصة بأن تحليها من العقود التى ربطتها بها . أنظرى إلى هذا القد الأهيف المياس ما أشد نحوله . أنظرى إلى هـذه الصفرة التى ليست من ظاهرات الشباب الحى . . أفيكفى أن يكون الوجه ساحراً والعينان فتاكتين لتكون دليل الحيوية والنشاط . إن هذا السحر العظيم فى تقاطيع هذا الوجه ، وهذا المعنى البليغ العميق فى هاتين العينين ، ليسا إلا ظواهر الحب الدفين ، فجردها منه تجدى شبحاً من الأشباح

***

دق باب غرفتها فأذنت ودخلت (فيروز) وهى مربيتها وخادمتها الخاصة ... تدعوها فعادت معها إلى حيث كانت أختها والرفيقات . . لقد خشين عليها الوحدة فدعونها . . لكن نفسها كانت تزخر بشتى العوامل . . الحب ، البغض ، الغـــيرة . . ولكن كرامتها أخذت تتيقظ فتعمل على اخماد هذه العوامل . . ودعـت (فيروز) وطلبت منها أن تغنى الأغنيـة التى تحبها . فاتخذت هذه وضع من يريد الغناء وشرعت فى الأغنية الشعبية العراقية المعروفة :

جَلْبَـكْ صَخَرْ جلمود ما حَنْ عَلَيَّـهْ
وأنت بِطَرب وبكيف والبِيَّـــــهْ بِيَّـهْ

وما أتت فيروز على الأغنية حتى شرعت تبكى . . وشاركتها الجليسات . وفيما هن فى ذلك دق الباب الخارجى . . فهرعت اليه فيروز وعادت تحمـل رسالة حمراء اللون عرفت من لونها أنهـا رسالة برقيـة وكانت باسمها . كانت البصرة مصدرها . . من البصرة . . . يالله . . فضتها بيد مرتجفة وقرأت :

« ماتت زوجتى بالتيفوئيد منـذ أسبوع . أسفت كثيراً على ما فعلت . . إنى قادم اليكم بعد يومين . . » .

تغيرت سحنتها تماماً بعد تلاوة (البرقية) وتألقت عيناها بعزم ثابت ونظرت باحتقار إلى البرقية التى كانت لا تزال مفتوحة ومزقتها قطعاً صغيرة وألقتها فى الموقد الذى كان بالقرب منها . وقالت تتمتم :

ماتت زوجته ! . إنه قادم بعد يومين ! . ما أسخفه وما أقل عقله ! ماذا حسبنى ؟ هل يظن أنى سأبقى محبة له بعد الآن ؟ . . إن هذه البرقية خاتمة آلامى . . فلأسعد ولتعد الى الحياة . . ألا تباً له من رجل جبان . . يريد أن يسلو بى زوجته . فيا للذلة ! ويالسخرية القدر ! ليذهب وليلحق بها . . فاعدت أراه إلا خنزيراً فى عينى

واشتدت ثورة نفسها وعظم سخطها فجاءت برزمة من الخطابات وبعض الصور مربوطة بأنشوطة حريرية حمراء وألقتها كما هى فى نار الموقد . وناولت البرقية لأختها ورفيقاتها مجيبة بها على نظراتهن المتسائلة

(بغداد — ضاحية الأعظمية) سعيد عبد الاله الشهابى

اعتـــذار !

للأديب حسين شوقى

عزيزتى :

أبادر بتقديم اعتذارى الحار من مشهد الغيرة السخيف الذى مثّلته أمامك أمس ! . . وما زلت أشعر بخجل شديد كلما فكّرت فيه . . فى الواقع لم يكن الذنب ذنبى ، بل هو ذنب قلبى الضعيف ؛ ولقد عاقبته على فعلته إذ عنّفته تعنيفاً شديداً ، ولكن هذا القلب قد يستحق أيضاً عطفك وحنانك ، إذ هو آلة ليس غير فى يد تلك القوة الجبّارة القاهرة ، قوة الحب ! مسكين قلبى ! إنه مطارد دائماً بنار حامية تدفعه إلى خلق مثل هذه الريب والظنون ، ولكنها فى الوقت نفسه نار طاهرة مثل نار المجوس ، لأنها نار الحب المقدّس ! كم كنتُ غبيّاً فى غيرتى تلك ! فما الضرر فى أنك تحدّثتِ إلى س . ! ألا تتحدثين إلى مئات من أمثاله كل يوم أثناء عملك ؟ كذلك كان يجب علىّ أن أراجع نفسى فأقول إنه لا يهمك لأنك تبغضين مثل هذا النوع من الرجال المغرورين بجمالهم . فكم كانت ثقيلة متكلفة تلك الابتسامة التى علت شفتيه أثناء تحدّثه إليك !

عزيزتى إذا كان قد أزعجك قليلاً ما بدر منى بالأمس ، فان ما حدث لى أنا فيه العقاب الكافى على فعلتى ، إذ رأيت الهول ليلة أمس فى حلم فظيع . .

شاهدتك فى غابة عظيمة ، لعلها من غابات الهند ، لضخامة أشجارها وكثافة أدغالها . كنت تتنزهين فيها مع شاب لم أتبيّن شخصيته ، لأنه لم يلتفت وراءه قط أثناء السير ؛ أما أنت ! فقد عرفتك من فورى يا عزيزتى ، من شعرك الذهبى الرائع ، من مشيتك الأنيقة التى تفردت بها دون نساء العالم أجمع ! . . ولكن الغابة كانت أثناء هذا تحترق ، والدخان الكثيف يتصاعد من كل مكان . . بادرتُ إلى مناداتك لتخرجى من الغابة ، ولكنك التفت إلىّ دون أن تجيبينى ، كأنك لا تأبهين بالخطر المحدق ، بل تؤثرين التنزّه مع ذلك الشاب وتفضلينه على كل شىء ! . . أردتُ أن أعدو نحوك لانقاذك بالقوة ، ولكن ساقىّ اللعونتين أبتا علىّ ذلك كأنهما تحجّرتا . . .

أما النار فقد أخذت تزداد عنفاً حتى اضطرت الوحوش إلى الهرب من الغابة ، والمدهش فى هذا الحريق أن ألسنة النار المنبعثة من الأدغال اتخذت أشكالاً مروعة ، بعضها كان على صورة الثعبان والبعض اتخذ شكل التنين . . على رغم هذا كله ، كنت تتابعين نزهتك فى اطمئنان مع ذلك الشاب الذى تأبط ذراعك اليسرى فى حرارة واشتياق . . . أخذت أناديك مراراً ولكن بلا جدوى ! إذ كنتِ تلتفتين إلىّ ثم تستأنفين حديثك الشائق مع صديقك ! ولكن هذه الحال المؤلمة لم تدم طويلاً ولله الحمد ! إذ سقطت إحدى لوحات سريرى الخشبية من تحتى فأيقظتنى من النوم ، وخلصتنى من هذا الكابوس !

هنا . . أشعلت سيجارة وخرجت إلى النافذة لأستنشق الهواء لأنى كنت متعباً من هذا الحلم كأن ما حدث لى وقع فعلاً . . . وكنت فى الوقت نفسه شديد الرغبة فى استئناف النوم للعودة إلى هذا الحلم برغم بشاعته لمعرفة شخصية ذلك الشاب السخيف المستهتر الذى كان يدعوك إلى النزهة فى وسط النار !

عزيزتى ! هذا هو حلمى المروع ، ألا ترين أننى عوقبت به عقاباً كافياً ؟ ألا تصفحين الآن ؟

الرد

عزيزى :

وصلتنى رسالتك ، ولقد تولّتنى الدهشة لكل هذه الضجة التى أثرتها لتتبين شخصية رفيقى فى نزهة الغابة . لقد كان فى امكانك الاتصال بى وقتها بالتليفون لأخبرك باسمه ، فأوفر عليك مجهودك .. أتريد أن تعرف من هو ؟ اعلم أن هذا الشاب هو (س) بعينه الذى تمت خطوبتى اليه ليلة أمس على أثر المشادة التى وقعت بيننا ، لأنى آسفة أيها العزيز على أنى لا أستطيع التزوج من مجنون مثلك !

(كرمة ابن هانئ) حسين شوقى

البريد الأدبي

المعجم الوسيط

أصدر صاحب السعادة وزير المعارف العمومية قراراً بتعيين الأستاذ أحمد أمين عضواً في لجنة تأليف المعجم الوسيط وقد قرأت في العدد الماضي ممن تتألف ؛ ولكن الأستاذ رفع إلى معالي الوزير استقالته منها ، والسبب المباشر لهذه الاستقالة أنه جعل ساعات فراغه من عمله الرسمي على ما بقي من سلسلة كتابيه (فجر الاسلام) و (ضحى الاسلام) وهو يخشى إذا أرهق نفسه بالعمل أن يعيا عن إخراجه ، ولكن معالي الوزير ما زال بالأستاذ يحاوره ويداوره حتى أقنعه بسحب الاستقالة

بشرى لعشاق الأدب — ديوان بشار موجود

أحس بشار بحسن اختراعه ، وجميل ابتداعه وغزارة بحره ، ففتن ببنات فكره ، وأعجب بثمرات لبه وذهب يخايل ويفاخر حتى قال : إن لي اثني عشر ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت فرد

ولو فرضنا أن الاثني عشر ألف قصيدة هي كل ما لبشار من شعر ، وفرضنا أن كل قصيدة عدتها سبعة أبيات فقط — وهو حد القصيدة الأدنى عند العروضيين — وحسبنا ذلك لكان مجموع شعره أربعة وثمانين ألف بيت ! وهذا مقدار لم يك لشاعر في القديم ولا في الحديث . ولكن أين هذه الثروة الضخمة ؟ لقد ذهب بها الزمان فيما ذهب به من روائع الآثار وجميل الأشعار ، ولم يبق منها إلا نتف مبعثرة في الكتب جهد الأدباء في جمعها وزفها إلى جمهور القراء المتعطشين لشعر بشار . وأول مجموعة ظهرت هي مجموعة الأستاذ « أحمد حسنين القرني » التي سماها « بشار ابن برد — شعره وأخباره ، طبعت عام ١٩٢٥ م ، وقفاه الأستاذ « حسين منصور » بكتابه : « بشار بين الجد والمجون » الذي طبعه عام ١٩٣٠ م ، وفي العام الماضي ١٩٣٥ طبعت لجنة التأليف والترجمة والنشر مجموعة هامة من شعره باسم « المختار من شعر بشار اختارها من مختار الخالديين شارحها الأستاذ « اسماعيل القيرواني » أحد علماء القرن الخامس ، وكان القائم بنشر هذا الكتاب الأستاذ « بدر الدين العلوي » المدرس في كلية عليكرة بالهند ، وقد أثار طبع هذا الكتاب الصغير كوامن الأشواق إلى شعر بشار ، وتساءل الناس بحسرة ولهفة عن ديوانه وكثرت حوله الأقاويل وأجمع الناس أو كادوا على أنه انسلك في سلك الفناء

وقد أخبرني فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين عضو مجمع اللغة الملكي أن جزءاً كبيراً من ديوان بشار موجود في تونس عند صديقه الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الاسلام المالكي ، وأطلعني على الخطاب الذي ورد اليه حديثاً من صديقه يخبره فيه بوجود الديوان عنده ، وأنه ورثه عن جده المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز أبو عتور . وهو يشتمل على سبعة آلاف وثلثمائة بيت مرتبة على حروف المعجم مكتوبة بخط مصري جميل . وذكر الأستاذ ابن عاشور أنه عني بشرح غريب ألفاظه ، وتبيان دقائق معانيه ، وذيله بمجموعة من شعر بشار لم ترد فيه وعددها ثمانمائة بيت معزوة إلى مواضعها من كتب العلم والأدب وأنبأ أنه عازم على طبعه في مصر طبعة أنيقة تليق بما لبشار من المكانة السامية في الأدب العربي . وقد استخبر الأستاذ من صديقه عن شؤون تتعلق بالطبع فأخبره مستنجزا ...

ويا حبذا لو عنيت لجنة التأليف وعلى رأسها الأستاذ أحمد أمين بأمر هذا الديوان ، وتولت هي طبعه بمعونة الأستاذ أو وحدها . إنها لو فعلت لأسدت إلى الأدب العربي خدمة جليلة تكون قلادة فخار لها

ولا ريب في أن نشر هذا الجزء الكبير سيلقي كثيراً من الضوء على تاريخ بشار وشعره وشاعريته . ولا ريب في أنه سيغير من أحكام التاريخ عنه ، ويقلب تلك الآراء الظنية الشائعة رأساً على عقب . وسيكون ظهوره — وأرجو أن يكون قريباً — فتحاً جديداً في تاريخ الأدب العربي

السيد احمد صقر

« عودة الروح » فى اللغة الروسية

من الأنباء التى تقع من مصر الأدبية موقع الرضا والغبطة أن الكاتب الروسى النابه « ميشيل سالير » نقل إلى الروسية قصة « عودة الروح » للقصصى المصرى النابغ توفيق الحكيم، ثم نشرها فى لينتجراد عاصمة روسيا، وجعل ثمن النسخة منها خمسة روبلات وخمسين كوبك، وذلك يساوى ستين قرشاً مصرياً

ولاشك أن اختيار الكاتب لهذه القصة من غير تعرف لمؤلفها ولا استئذان منه، انما يدل على تقديره الفن فيها لذاته، وقياسه إياها بمقياس عالمى يرفعها الى مستوى الأعمال الأدبية العظيمة. وستكون عودة الروح وأمثالها الوحدات الأولى التي يساهم بها الأدب العربى فى الجهاد العالمى المشترك لنشر الوئام والسلام والخير من طريق الثقافة القصصية

تطور نظم التربية الألمانية

تتطور نظم الحياة والحضارة كما تتطور أساليب التفكير والتعليم والتربية فى ألمانيا فى ظل النظام الهتلرى بسرعة مدهشة؛ والمحور الأساسى الذى يقوم عليه هذا التطور فى جميع مناحى الحياة الألمانية هو صبغ هذه الحياة بالصبغة الجرمانية المحضة وتحريرها من جميع المؤثرات الأجنبية؛ ويجرى فى ميدان التعليم والتربية تطور حاسم أيضاً يقوم على تكوين الجسم الألمانى تكويناً صحيحاً وتنمية القوى الجسمية الى جانب القوى العقلية. والانجيل الذى تطبق تعاليمه اليوم على الشعب الألمانى هو كتاب هتلر المعروف « كفاحى »؛ فنى هذا الكتاب يتحدث هتلر عن التربية ويحمل بشدة على تفضيل تنمية الذكاء فى الفرد، ويقول إن النظام القديم يرمى إلى خلق عقول وأفراد فقط؛ ولكننا نريد أن نخلق قبل كل شىء أجساماً قوية وإرادات ثابتة. ويكفى أن نخصص فى الأسبوع ساعتين فقط للرياضة البدنية. ومذ تولى هتلر الحكم وهو يعمل لانشاء هذا النظام الرياضى؛ ففى سنة ١٩٣٣ صدر قانون « تحسين النشء »، ومبناه اتخاذ جميع الاجراءات التى يحسن اتخاذها لتقويم صحة الشباب وعقله وتفكيره؛ ثم صدر بعد ذلك قانون « السنة الخلوية » وهو يحتم على التلاميذ تمضية عام فى الريف والحقول عقب انهاء الدراسة الابتدائية؛ وهنالك أيضاً نظام « الخدمة العامة » الذى يحتم على كل رجل أعزب وامرأة عزباء الاقامة ستة أشهر مع أبناء أو بنات الشعب فى معسكر ريفى فى العراء؛ ثم تنتقل مدارس المعلمين فى القرى أو المدن الصغيرة؛ وكذلك انتقال أساتذة المدارس الابتدائية بين حين وآخر الى الريف للاشتغال ببعض الأعمال القروية. والقصد من ذلك كله هو أن يعد الشباب والنشء بروح العزم، وضبط النفس، واحتمال الشاق. وللفتاة الألمانية أيضاً نصيبها الوافر من التعليم الرياضى الذى يهيء لها الجسم الصحيح ويعدها أماً صالحة للشعب الألمانى

وكذلك يتجه النظام الجديد إلى تجنب الثقافة الجنسية التى يعدها عاملاً فى إفساد الفتى والفتاة؛ فليس بين برامج التعليم الحاضر شىء من مسائل الثقافة الجنسية التى كانت تلقى بكثرة فى ظل النظام القديم؛ وعلى الآباء والأمهات أن يلقنوا أبناءهم وبناتهم ما يحسن تلقينه من المسائل الجنسية المحتشمة، كذلك يرغب النظام الجديد عن نظام اختلاط الفتى والفتاة فى ميدان التعليم ويعتبره تقليداً ضاراً بمستقبل النشء

ولم تبق الجامعة فى نظر النظام الجديد مكاناً تحشد فيه المعلومات فى الرءوس، ولا موطناً يعد الشباب للكسب الفردى؛ فالفرد إنما يجب أن يعمل للمجموع، وأن يستخدم فى ذلك السبيل أى موهبة أو كفاية؛ ولا يريد النظام الجديد بعد شباباً ذابلاً تملأ رأسه المعلومات المختلفة، فذلك الضرب من الشباب يجب أن يختفى

وقد أدخلت تعديلات كثيرة على نظم القبول فى المدارس والجامعات، وأضحى العامل العقلى والتعليمى أقل شأناً مما كان من قبل، وأضحى العامل الجسمى والخلقى فى مقدمة العوامل التى تؤهل الطالب للقبول.

وقد اتخذ تعليم التاريخ وسيلة لتكوين العقلية الألمانية الجديدة؛ فلم يعد يلقن الشباب تلك التفاصيل التاريخية المسهبة، وإنما يلقن التاريخ موجزاً من الناحية العامة، وتخص الناحية الجرمانية بكل عناية؛ وتتخذ نظرية السلالة الألمانية أهمية خاصة: سلالة الجنس الشمالى وتطورها ونقاؤها والأخطار التى تتعرض لها. هذا أهم ما يلقن الشباب الألمانى، وهذا ما يشير اليه هتلر فى كتابه بقوله إن غاية التربية الأخيرة هو أنه يجب أن يغرس فى عقل النشء أن الجنس الجرمانى هو أرفع أجناس الخليقة

وهكذا تفيض جميع نظريات التربية الألمانية القديمة التى عمل العلماء الألمان لاستخدامها على ضوء التجارب والأصول

العلمية المقررة ، وتحل مكانها نظريات جديدة جل غايتها أن تقوى الفكرة العسكرية فى الشباب الألمـانى تحت ستار التربية الرياضية وأن تخلق من الشعب الألمـانى قبل كل شىء شعباً عسكرياً يعتز بقواه وكفاياته المـادية

ميشيل آنجلو

ميشيل آنجلو بطل من أعظم أبطال الفن ، وعلم من أعظم أعلام عصر الأحياء ؛ وقد كتب عنه مدى العصور عشرات من أكابر الكتاب فى كل أمة وكل عصر ؛ ولـكن العبقرية الساطعة تبقى أبداً مثاراً للبحث والتقدير . وقد صـدر أخيراً كتاب جديد بالانكليزية عن ميشـيل آنجلو عنوانه « ميشيل آنجلو الراحل » Michel Angels The nax بقلم الدكتور دونالد فنليسون D. Finlayson ؛ وهو علامة أمريكى يحاول أن يبحث هذا العبقرى من نواح جـديدة وعلى ضوء جديد ؛ وهو يمهد لبحثه بتصوير إيطاليا فى عصر الأحياء ، ذلك العصر الذى كانت تموج فيه العبقريات من كل ضرب ، ولاسيما فى التفكير والفنون . ذلك أن ميشيل آنجلو قد عاش فى نفس العصر الذى عاش فيه أعلام مثل ليوناردو دافنشى ، وبوتشللى ؛ وسافونارولا ، ومكيافيللى ، ورافائيل سانزيو ، ولى تسيان ، وبنفونو توتشلليني ، وجورجو فسارى وغيرهم ، وكان عصراً ذهبياً من أروع ما عرف التاريخ

ولقد كانت ايطاليا تضطرم يومئذ بثلاث قوى سياسـية متجاذبة . قوة آل مديتشى فى فلورنس ، وهم يحاولون حكم المدينة الجمهورية بنظام طغيـان مستنير ، وقوة البابوات ، وهم يحاولون تقوية نفوذهم المدنى والدينى ، ودفع أطماع ملوك فرنسا ؛ وقوة الدولة الرومانية المقدسة ، وكانت قوة البابوات أبرز هذه القوى ؛ وكان البابوات يومئذ مزيجاً مدهشاً ، فمن اسكندر السادس الحبر الفاجر ، ولـكن الطاغية القوى ، إلى جوليوس الثانى البطل المحارب ، الى بولس الثالث نصير الفنون والآداب . وفى هذا الأفق المضطرم بمختلف القوى والاتجاهات ولد ميشيل آنجلو فى كابرزا سـنة ١٤٧٥ وتوفى فى رومه فى التاسعة والثمانين من عمره ، ولـكنه عاش طوال حياته نقياً منزهاً عن مثالب عصره ، بعيداً عن ضروب الملق والزلفى التى ألفها البابوات وأمراء العصر ، بعيداً عن صنوف الفساد والخلاعة التى كانت خاصة المجتمع فى هذا العصر ؛ ولم يكن للمرأة أثر فى حياته إلا حينما بلغ الـكهولة ، وعندئذ عرف الحب الرفيع وتعلق بأجمل وأنجب سيدة فى هذا العصر ، وهى فتوريا كولونا مركيزة بسكارا ، ونظم لها مقطوعات من الشعر البديع ، وكتب لها رسائل ممتعة ؛ وفيما عدا هذه العاطفة الرقيقة كان ميشيل آنجلو مثل الرجل الأعلى ، بارا بأهله ، مترفعاً عن الدنايا ، معتدلاً فى أهوائه ورغباته

وكانت عبقرية ميشيل آنجلو تتفتح فى نواح عدة ، فقد كان مثالاً من أروع ما عرف التاريخ ، وكان مصوراً ، وكان مهندساً ، وكان شاعراً ؛ وفى هذه الميادين كلها يترك لنا ميشيل آنجلو آثاراً خالدة ؛ وقد قام بعد أن أربى على الثمانين بأعظم أعماله الهندسية ، فوضع تصميم قبة كنيسة القديس بطرس أعظم آثار النصرانية وأشرف على صنعها بنفسه ، وأنفق أعواماً فى نقش جدران المصلى السكستونى ، وهو أروع مافى الفاتيكان من آيات الفن ؛ وتوفى بعد أن ترك للفن مالم يتركه بشر ، سواء فى الروعة أو المقدار

ولميشيل انجلو ناحية لم يلق عليها كبير ضوء هى ناحيته الشعرية ، ذلك أنه كان شاعراً رقيقا ، ينظم مقطوعات بديعة تحمل كلها طابع العظمة ؛ ولـكن ينقصها التنوع وبروز الغاية

وقد أنفق الدكتور فنليسون أعواما طويلة فى البحث والدرس واستطاع أن يجد لمؤلفه مادة بديعة ، وأن يضع أمام القارئ صورة واضحة من شـخصية ميشيل انجلو فى جميع نواحيها ؛ وقد زين الـكتاب بطائفة من الصور البديعة

وفاة مؤلف موسيقى شهير

توفى أخيراً فى باريس المؤلف الموسيقى الروسى الذائع الصيت اسكندر جلازونوف ؛ وكان مولده فى بطرسبرج سنة ١٨٦٥ ؛ وفى سن الثامنة عشرة وضع أول قطعة موسـيقية من تأليفه فأحرزت نجاحاً عظيما وذاعت على أثرها شهرته . ثم رحل إلى ألمانيا حيث التقى هناك بالموسيقى النمسوى الأشهر لزت وتلقى عليه وتخصص بارشاده فى التأليف الموسيقى . وفى سنة ١٨٨٩ ظهرت مقطوعته الشهيرة « ستنكا رازين » ، ووضع من بعدها تباعاً طائفة كبيرة من المقطوعات والأناشيد والأغانى والقطع الراقصة ، وأحرز بتآليفه العديدة مكانة عظيمة فى دوائر الموسيقى الرفيعة . ومن بين قطعه الراقصة الشهيرة « ريموند » « الفصول » « حيلة غرامية » . ولما نشبت الثورة البلشفية آثر الهجرة إلى فرنسا ، وعاش فى باريس أعواماً طويلة ، وتوفى هنالك فى دار الغربة بين جماعة المهاجرين البيض فى سن الحادية والسبعين

العالم المسرحي والسينمائي

على مسرح الأوبرا

السيد Le Sîd

تأليف كورني وتعريب مطران

ملاحظات لفنانين ارلنديين على الاخراج والتمثيل

لناقد «الرسالة» الفني

هي مأساة رائعة خلدت على الدهر ، ألفها زعيم المسرح الفرنسي وخالق المأساة الحديثة الشاعر كورني ، وقد كان لظهورها ضجة كبيرة ، ذلك أنها وإن خالفت قاعدة الوحدات الثلاث فقد نجحت نجاحاً باهراً وظفرت من النظارة باعجاب عجيب

وقد كان لنجاح هذه المأساة أثر سيء في نفس الوزير الفرنسي الخطير الكاردينال ريشليو . وكان هذا الوزير من هواة التأليف المسرحي ، وقد مثلت له قصتان فلم تنجح منهما واحدة ، في حين أن « السيد » كانت تلقى النجاح بعد النجاح والفوز تلو الفوز . ولقد كظم الوزير غيظه — رغم أن القصة كانت تشيد بالمبارزة التي حرمها هو — ولكنه حرك رجاله في الخفاء ينقدون القصة نقداً عنيفاً ، وكان يريد بذلك أن يحط من قدر كورني ، فقامت من أجل ذلك خصومة أدبية شديدة انتهى أمرها إلى تحكيم المجمع الفرنسي في القصة . ولم يصدر الحكم في جانب المؤلف لأن الوزير تدخل بنفوذه ، ولكن القصة رغم ذلك خلدت ، وها هي ذي تنقل الى العربية للمرة الثانية بقلم شاعر القطرين الأستاذ خليل مطران في ترجمة عربية بديعة ارتفع أسلوبها الى الأصل الشعري الذي كتبت به ، وها هي ذي الفرقة القومية تختارها بين ما اختارت من روائع الأدب الغربي لتقدمها إلى الشعب المصري

ملخص القصة

ليست القصة جديدة على قراء الأدب العربي ، فقد سبق أن ترجمها المرحوم الشيخ نجيب الحداد ومثلت باسم « السيد ، غرام وانتقام » ، وسبق للأستاذ الزيات أن لخصها في « الرسالة » ونشر هذا الملخص في كتابه « في أصول الأدب » ، فمن أراد الاطلاع عليه فليرجع اليه

الاخراج

كنا نظن أن الفرق التمثيلية الأوربية التي تزور مصر وتمثل على مسرح الأوبرا تترك بعض الأثر في نفوس الفنانين المصريين ، ولكن يبدو أن الأمر على العكس ، فهذه الفرق تأتي وتعود دون أن نحاول أن نأخذ عنها شيئاً

زارت مصر في الشهر الماضي فرقة « دبلن جيت » الارلندية وأخرجت عدة قصص لشكسبير وغيره ، فكان الاخراج أهم ظاهرة لهذه الفرقة ، وقد أبدى جميع المخرجين المصريين اعجابهم بعظمة هذا الاخراج ، فالمستر هيلتن ادواردز مخرجها يعمد الى الطريقة الايحائية ويستخدم منظراً واحداً لجميع فصول القصة ، ويستعين بالاضاءة وستار صغير في تبديل المناظر مع تباينها

وأخرج الأستاذ زكي طليمات قصة السيد وكنا نظنه سيقتبس طريقة تلك الفرقة ، ولكنه لم يحاول بذل أي جهد ، وعمد إلى الطريقة التي ألفناها منذ سنوات طويلة ، واستخدم المناظر المتعددة والستائر الكثيرة . والحق أن هذا الاخراج إذا قيس إلى إخراج الفرقة الارلندية بدا هزيلاً ضئيلاً

يرى النقاد أن الوحدة إذا توفرت في العمل الفني كان ذلك من دواعي الكمال والنجاح ، ولكن رجالنا لا يرون هذا الرأي ، وإلا لما كانت طريقة الالقاء متباينة . فحسين رياض وزينب صدقي وعزيزه أمير وزكي رستم يلقون إلقاء شعرياً Poetical ،

ومنسى فهمى وفردوس حسن وغيرهما يلقون إلقاء عادياً ، وهذا التباين مما ينفر النظارة ، والمخرج فى رأيى مسؤول عن هذا الخلط والاضاءة عادية ، ولكننا فى منظر قاعة العرش كنا نرى الضوء يسقط على جدار للقصر من يمين النظارة إلى اليسار فى حين نرى الضوء يسقط على وجوه الممثلين من يسار النظارة إلى اليمين ، وهذا مما لا يرضى الفن ولا الأستاذ المخرج

وفى المنظر الثانى من الفصل الثالث نرى والد رودريج حائراً يبحث عن ولده ويقول : « فى هذا الظلام الدامس » بينما ضوء القمر يغمر وجه الممثل وينير الأرض حواليه . ولا يفوتنى أن أبدى إعجابى بالاضاءة فى الموقف بين شيمين ورودريج فى النصف الأول من الفصل الثانى ، فقد كان الضوء ملائماً للحوار ، وكان له أثر ووقع كبيرين فى نفوس النظارة

والملابس فاخرة تنطبق على روح العصر ، ولكن الذى حيرنى أن شيمين عند ما بلغها خبر موت والدها سارت إلى قصر الملك فى ثياب الحداد بينما وصيفتها تتبعها فى ملابس زاهية ؟ ! كما أن ملابس الملكين الأسيرين لا تصلح لرجال أسروا فى موقعة

التمثيل

قبل أن أتحدث عن التمثيل أبدى أسفى الشديد لاهمال الممثلين استظهار أدوارهم مما جعل صوت الملقن يرتفع فيفسد على النظارة خيالهم

مثلت السيدة زينب صدقى دور شيمين ، وقد نجحت كثيراً فى أداء هذه الشخصية ، وأذكر لها مع الاعجاب موقفها مع رودريج فى الفصل الثالث ثم مع وصيفتها وهى تبدى الجزع خيفة أن يقتل حبيبها ، ولكنى آخذ عليها الالقاء الخافت فى بعض المواقف مما جعل الألفاظ غامضة على السامع

ومثل حسين رياض دور رودريج ، فكان القاؤه شعرياً ونجح فى دوره إلى حد غير قليل ، وموقفه مع شيمين بديع . أما موقفه مع الملك وهو يصف المعركة فيحتاج إلى عناية أكثر ؛ وأرجو أن يعنى « بالمكياج » ، وأن يختار لوجهه لوناً خمرياً يكون قريباً إلى البشرة الأندلسية

ومثل زكى رستم دور والد شيمين فأخرجه على خير ما يكون : كان الرجل المتكبر فى إشاراته وإلقائه مما طابق الشخصية

ومثل منسى فهمى دور الملك فكان ناجحاً ؛ ولكنه لم يحاول أن يسمو بهذا الدور كعهدى به فى أدواره السابقة

أما السيدة عزيزة أمير فلم تنجح كثيراً فى أداء شخصية ابنة الملك ؛ وكان القاؤها على نسق واحد دون تلون أو تعبير عما فى نفسها من إحساسات ؛ ويبدو لى أن اللغة الرصينة مما يصعب عليها أداؤها

ومثلت بهجة ابراهيم دور وصيفة شيمين فوفقت ، وفى رأيى أنها أصلح لدور ابنة الملك من غيرها من فتيات الفرقة

ومثل سراج منير دون سانش ، فكان حديثه مع الملك هو نفسه حديثه مع شيمين التى يهواها

ملاحظات لفنانين ايرلنديين

شهد هذه الرواية فى الليلة الأولى لتمثيلها بعض أعضاء فرقة « دبلن جيت » الايرلندية ؛ وقد أبدى مخرج الفرقة المستر هيلتن ادواردز وممثلها الأول المستر ميكائيل ماك ليمور إعجابهم بتمثيل السيدة زينب صدقى وحسين رياض وزكى رستم ، كما أبديا بعض الملاحظات على الأخراج . وسننشر حديثهما كاملاً فى العدد القادم

يوسف

فى السينما

العصر الجديث

فيلم شارلى شابلن الجديد

أما إن شارلى شابلن عبقرى وفيلسوف فهذا ما لا شك فيه ، وأما إن فلمه الجديد « العصر الحديث » عظيم فمسألة فيها نظر

فنحن إذا نظرنا اليه على أنه عمل رجل عبقرى لا تنطبق عليه القواعد المألوفة والمقاييس المعروفة وجدنا عملاً عظيما حقا يحس الانسان أثناء عرضه بسرور ولذة ، ويستمتع بأفكار شارلى وطريقته الفكهة فى عرض هذه الأفكار ، ولكننا إذا حاولنا تطبيق المقاييس الفنية الدقيقة نجده لا يسمو على غيره من الأفلام التى تعرض بين حين وآخر ، بل ربما تنقصه بعض العوامل الفنية التى تتوفر فى تلك الأفلام

والفكرة الرئيسية التى يقوم عليها الفلم جليلة ، فهو ينقد العصر الحديث ، ويسخر من سيطرة الآلات على الانسان ويبين أنها لا تسعد الانسانية ، بل تستعبد البشرية ؛ وقد أفلح شارلى فى مزج الفلسفة بالقصة . ولكن الفلم طويل فى غير حاجة الى الطول ، وإن الناقد ليحس أن هناك فصولاً Sequences جىء بها لتسد فراغ الوقت حتى لا ينتهى العرض فى زمن قصير

بدأ شارلى فلمه بمنظر قطيع من الغنم يسير إلى الحقول ، وأعقبه بمنظر العمال يتدافعون الى المصنع ، وكأنه يرمى بهذا إلى أن العمال قطيع من الغنم يقودهم الرأسماليون

ويظهر لنا شارلى تلك الشخصية الانسانية ، أو قل الرمزية التى تعيش بأسلوبها الخاص فى مشيتها وملابسها وقبعتها وعصاها ، هذه الأشياء التى أصبحت جزءاً متمماً للشخصية — تعمل فى مصنع كبير — تؤدى عملا ، وكأنها جزء من تلك الآلة ، يرهقها العمل المضنى المتشابه الذى يبعث السأم ، ويؤدى بها إلى نوع من الهستيريا . وترسل إلى مستشفى الأمراض العقلية حيث يعاودها الهدوء والسكينة . وعند ما يسمح الطبيب لها بمغادرة المستشفى نراه ينصح بالابتعاد عن كل ما يثير الأعصاب ؛ ولكن لا تكاد تتصل بالحياة حتى نرى تيارها الزاخر الصاخب ، وحركات المرور ، وكل ما هو وليد المدنية والعصر الآلى

ثم يصور شارلى بؤس العامل العاطل ، وكيف تقسو الحياة على أطفاله ، فيغدون لصوصا وماهم بلصوص ، وإنما هم طلاب قوت . ونرى المظاهرات ومقاومة رجال الشرطة للعمال واقتيادهم إلى السجن ، وحيث يقدم اليهم الطعام والشراب . وهنا تبدو سخرية شارلى من النظم الاجتماعية ، فان العامل يأسف على مغادرة السجن ويود لو بقى فيه ، فالطعام والشراب خير لديه من الحرية التى يتغنى بها الناس !!

وتتصل أسباب الصداقة بين شارلى وابنة أحد العمال الذين قتلوا فى مصادمة مع رجال الشرطة ، ونرى شارلى جالساً يحدثها ويعرض على الشاشة حلم اليقظة ، فنراهما يعيشان معاً فى كوخ جميل ، وشارلى على مقعد يمد يده دون جهد فيتناول حبات العنب من عناقيدها المدلاة ، ويمد يداً ثانية فيتناول فاكهة أخرى ، ثم يسير إلى بقرة ويضع تحت ثديها آنية فتدر اللبن وحدها دون أن يبذل هو أى جهد فى حلبها . وإنما يرمى شارلى بهذه الصور جميعاً إلى أن العامل لا يحلم إلا بالراحة ؛ فهو فى حلمه لا يريد حتى أن يبذل أى جهد ، وينقضى الحلم ونراهما فى اليقظة بعد أسابيع قليلة فى كوخ متداع حقير ، لا يصلح مأوى لأحقر الحيوانات ، ومع ذلك فهما سعيدان معا . فالعاطفة التى بينهما كافية لأن تبعث السعادة فى نفسيهما وتعوضهما عن كل شىء آخر

هذه الآراء التى صورها شارلى والتى جئنا على ذكرها خير ما فى الفلم ، ولو أنه اقتصر عليها وأحكم الرابط بين أجزائها لجاء الفلم قوياً . فالبقية ليست إلا حشواً وتكراراً

فهو فى عمله كحارس ليلى يلبس النعل ذا العجلات Scating Shoe ويتزلج معصوب العينين يلهو ويمرح ، لم يفلح فى بعث السرور إلى النفس ، وهؤلاء العمال الذين تسللوا فى الظلام إلى حيث يجدون الطعام ترديد لفكرة سبق أن صورها ، وكذلك هو مع رئيسه فى المصنع الجديد يصلح الآلة ، ثم وهو فى مصنع السفن انما يعرض حالة لا ترتبط بسياق القصة الرئيسية كبير ارتباط والفلسفة كانت أكثر مما يحتمل الفلم ، ففى النهاية نجد

شارلى يعمـل خادماً فى مطعم كبير وتراه يحمل الطعام مخترقاً الراقصين ، وعنـد ما يصل إلى المكان المقصود يجرفه تيار الراقصين ويسير به إلى حيث بدأ ، وأخيراً وبعد الجهد يصل ولـكن يجد الطعام قد سقط منه ! ! وكذلك بعد أن ألقى قطعته الغنائية وتقبل تهانى مدير المطعم ووعدا بالعمل المستمر وأحس بأن السعادة مقبلة ، نرى القدر يعاكسه إذ يرسل اليه رجال الشرطة يطلبون فتاته فيهرب معها تاركا السعادة بعد أن كانت بين يديه . فهذا الامعان فى الفلسفة فيه بعض الارهاق لرواد السينما ، وهؤلاء قد يضحكون من الحركات ولـكنهم لا يفهمون ما يرمى اليه المؤلف والمخرج . وفى رأيى أن واجب رجل السينما تبسيط الآراء ما استطاع

والناحية الفكهة فى الفلم لا بأس بها ، ولـكنها ليست قوية إلى الدرجة التى كنا نتوقعها ونرجوها ؛ وخير ما أذكر له جلسته أمام الآلة التى تناول الطعام ، لا سيما وهو يحاول أكل الذرة ثم وهو يقفز إلى المـاء ليغوص ، فاذا بالمكان الذى يسقط فيه ضحل فيتألم ويعود أدراجه دون أن يتم الاستحمام

يبدو لى أن جهود شارلى الموزعة هى السبب الأول فى ضعف الفلم . وقد تحدثنا عن ضعف الرابطة بين كل جزء وآخر ، وعن الحشو والتكرار ، وهذا ما جعلنى أنظر الى هذا الفلم كأنه نوع من الاستعراض ، فليس هو بفكرة واحدة متسقة تعالج علاجا فنيا والتصوير بدائى Primitive وليس هذا الذى شاهدناه بالمستوى الذى يليق بفلم كبير كهذا ، فلم تـكن هناك مهارة فى اختيار زوايا التصوير ، كما أن شارلى قد عمد فى جميع الصور المتابعة إلى التقاط الصور المتوسطة Medium Shots وكأنه ليس فى التصوير السينمائى غيرها

وحاول أن يرسم صورا متباينة Contrast لحالة العمال والرأسماليين فجعل فتاته الجائعة المحرومة تقف ذاهلة ثم تنقض على الفطائر ثم تنتقـل إلى قسم الأزياء وتختار معطفاً ثمينا من الفرو الأبيض فترتديه وترقد على فراش وثير ، ولـكن الصورة ضعيفة وأثرها فى النفس غير عميق

والتمثيل عادى ، ولقد مثلت بوليت جودار دور الفتاة فلم تبد تلك المهارة والمقدرة التى تحدثت صحف السينما عنها وهى لا تزال ممثلة مبتدئة

والصورة الأخيرة التى يظهر فيها شارلى وفتاته يسيران فى طريق مجهول يتهيئان لـكفاح جديد من أحسن الصور وأوقعها أثراً ، ولقد فـكرت كثيراً ثم قلت لنفسى ، ألم يكن من الخير أن يسمى هذا الفلم . . . « الأمل » ؟ !

والفيلم فى مجموعه مقبول وفيه جمال ، ولـكنه يقل كثيراً عن فيلم شارلى السابق « أنوار المدينة » وان اختلف موضوع كل منهما ، الا أن « أنوار المدينة » كعمل فنى ترجح كفته على كفة الفلم الجديد ؟

يوسف تادرس

4 me Année, No. 149.

Lundi - 11 - 5 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع البدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٤٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ صفر سنة ١٣٥٥ — ١١ مايو سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

صاحب الجلالة فاروق الأول



لم تر مصر فى أرجح الظن قبل احتفالها بتقدم فاروق ، قلبها يخفق بالحب عن إخلاص، ونفسها تفيض بالإجلال عن حقيقة، ولسانها يجأر بالدعاء عن عقيدة، وسوادها يتسابق إلى الاحتفال عن طواعية !

فقد كان ملكها الشاب منذ عودته من دار علمه إلى دار حُكمه مهوى أفئدتها ونجوى ضمائرها ومجمع أمانيها وموضع إعجابها، لا تصدر فى ذلك عن رياء ، ولا تنقل عن تقليد ، ولا تعمل عن تكلف ؛ إنما الطرقات والشرفات والنوافذ كانت مسايل روحية تزخر

بعواطفها الكريمة لملك نَشَّأته على طبعها وحسها . وأعدته لعرشها بنفسها ، وعقدت على تاجه المصرى الخالص أمانيها فى السلطان الحر والحياة العزيزة

أرأيت إلى الشعب الشكور كيف وقف صفين من رأس التين إلى قصر عابدين ، ومن سراى القبة إلى مسجد الحسين ، يلقى على مليكه المحبوب الولاء مبثوثاً فى النظر ، والرجاء مكنوناً فى الهتاف ، والإعجاب معلناً فى التصفيق ، فيلتقى شعوره بشعوره ، ويمتزج هواه بهواه ، فيصبح الشعب جسماً رأسه فاروق ، ويصبح فاروق رمزاً مدلوله الشعب ؟

أرأيت إلى الشعب الفخور كيف احتشد مساء الجمعة حول آلات الراديو فى الدور والأندية والمقاهى يستمع إلى مليكه الجديد وهو يقرأ فاتحة مُلكه السعيد بلغة عربية مبينة ، ولهجة مصرية فصيحة ، فانفعل بحزن الملك البار ، وبكى من هذا الانفعال ، وتأثر بشعبية الملك الحر ، وابتهج من هذا التأثر ، وأحس وهو يحييه أن روحاً قدسية تبعث فى هيكله الواهن القوة والفتوة والأمل

والحق أن تحية فاروق للوطن على هذا النحو الجميل ، وصلاته لله فى هذا المظهر المتواضع ، ورسالته إلى الشعب على هذه الصورة الصريحة ، ونزوله عن ثلث مخصصاته للأمة الشاكرة ، كانت أبرع استهلال لعهده الموموق الخصيب

***

إذا كان من الحق أن بعض الأسماء ينزل من السماء ، فإن اسم فاروق وضعه القدر وضعاً لهذه الساعة المشهودة من تاريخ مصر . ولعلها أشبه بالساعة التى لقب فيها الرسول (ص) عمر بالفاروق : فقد كان الإسلام قبل عمر ذليلاً فعزّ ، وقليلاً فكثر ، ومستخفياً فاستعلن . وهذه مصر تُرَتّقُ على ثراها الأحداث من كل جانب : فالاحتلال الغاصب ينتقص ببغيه سيادتها فى التملك ، وعدتها للدفاع ، وحريتها فى التصرف ؛ والاستعمار الجشع يرصد الأُهَب على حدودها بالعين الخؤون والمنطق المسلح : والناس من إلحاح الذل وإفراط الظلم وامتياز الدخيل وقصور القانون فى حال من الخمود لا ينفع فيها تذكير ولا تبلغ عليها دعوة ؛ وسياسة البلاد تسير فى تيه من الأرض فتضطرب، لتنقلب وتعود لتبدأ .

فلما أراد الله لطريقها أن تتضح ، ولقافلتها أن تسير ، ألقى بأزمتها فى أيدى الشباب : والشباب يسيرون بهداية الله ، ويجاهدون بقوة الإيمان ، ويبلغون بكرم التضحية : فأعادوا للأمة حياتها الدستورية خالصة من الخداع والكذب ؛ ثم جعل الله على الأمة ملكاً من الشباب تساير أهواؤهم إلى هواه ، وتتلاقى آراؤهم عند رأيه ، فيقول لهم فى منطق فصيح صريح : « إننى أستقبل حياتى الجديدة بعزم وثاب وإرادة قوية ، وأعاهدكم عهداً وثيقاً على أننى سأقف حياتى على العمل لنفعكم ، وموالاة السعى فى سبيل إسعادكم . لقد رأيت عن كَثَب حبكم لى ، وتعلقكم بى ؛ لذلك أرى لزاماً علىّ أن أعلن ما اعتزمته من التضامن معكم فى سبيل مصر العزيزة ، فإنى أومن بأن مجد الملك من مجد شعبه »

***

ذلك هو ملكنا العظيم بعقيدته السليمة ونفسيته الكريمة وخطته الواضحة ؛ وهذا هو دستورنا القديم أعادته إرادة رشيدة ، وأعدته وزارة نزيهة ، وجمعته انتخابات حرة ؛ وأولئك هم شبابنا الخلص تمردوا على حياة الجمود وعقدوا نيتهم على أن يعيشوا كراماً أو يموتوا أعزّة . فمن أين إذن تُؤتَى النهضة المصرية ؟ لا تؤتَى النهضة المصرية إلا من جهتين كانتا فى كل زمان ومكان مصدر الشرور للأمة : جهة الفساد فى الحاشية ، وجهة الخلاف فى الزعامة . فأما الفساد فى الحاشية — ومعاذ الله أن يكون — فوباله أن يزيف فى البلاط حقيقة الأمة بميوله ، أو يشوّه فى الأمة صورة الحكومة بفضوله . وفى ذلك ما فيه من انفراج الحال بين الشعب وملاذه الأعلى . وأما الخلاف فى الزعامة فبلاؤه تمزيق الوحدة وتفريق الكلمة وتوزيع الجهد وتغليب الشهوة وتمليك الخصم . وما فتّ فى أعضائنا وهدّ من قوانا إلا هذا الخلاف الباغى لا يراد به إلا اقتناص المال أو الجاه أو الحكم . على أن فى الحب الأصيل المتبادل بين الملك الديمقراطى البر وبين شعبه الوفى المخلص ، ضماناً يرفع الحجب المسدولة ، ويمنع الوساطة المدخولة ، ويديم جُمعة ما بين النفوس الزعيمة .

ثبت الله عرشه بالسلام ونضر عهده بالوئام وجمل حكمه بالاستقلال والمشورة

احمد حسن الزيات

الملك فــــؤاد [١]

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

مات الملكُ العظيم ، فرأى الناسُ من ذهولهم كأنما زيدت فى الموت زيادة

وكأن يوماً ليس من الدنيا وقع فى الدنيا فترك الحياة فى غير معناها

وكأن العيونَ انفتحت فجأةً على شكل محزن من هذا الوجود .

وكأن حادثاً عظيما انتهى من التاريخ المصرىّ إلى نقطة انقلاب ؛

ورأى الناسُ كأن غيمةً فوق مصر تجتمع من حزن ستة عشر مليون قلب !

* * *

مات فؤاد العظيم ، فعرفت مصرُ أن معجزةً فارقتها

وأنه لم ينقض رجل ؛ ولكن ذهب قَدَرٌ كان فى خدمة حوادثها المضطربة

ولم ينته عمر ؛ ولكن انتهت سعادةٌ كانت من حظ أيامها ؛

ولم ينطو تاريخ ؛ ولكن انطوت قوة كانت تعمل فى حل مشاكلها

فارقت معجزة ، وذهب قدَر ، وانتهت سعادة ، وانطوت قوة . ما أفدح خطبك يا مصر !

* * *

وكيف لا يكون معجزةً من خُلقت مواهبُه على قدر أمة تنال به التاجَ بعد أن فقدته ألفَى سنة ؟

وكيف لا يكون قَدَرا من بُعثت عزيمتُه لحل الزمن السياسى المعقَّدِ منذ دهور ودهور ؟

وكيف لا يكون سعادةً هذا الذى مرّت آثارُه على فقر التاريخ مرورَ الغنى ؟

وكيف لا يكون قوةً وإرادتُه الجبارة كانت مظهر السر الذى يعمل وينتصر ؟

أيتها الحقيقة العظيمة ! هل كانت النبوَّة فى شكل سياسى ؟

* * *

مرض الملك رحمه الله ، فكانت أخبارُ مرضه رواية أحزان الشعب

وعرف كل مصرى أن هذا الملك هو الوطن فى صورة رجل ،

واتجهت العاطفة الوطنية فى البلاد كلها إلى رمزها الحى ،

وأثبت الشعبُ فى سمو أخلاقه أن ملكه العظيم هو الذى ارتقى به إلى هذا السمو

وأُصلحت غلطةٌ كانت السياسة الأجنبية تسميها التفرق ..

* * *

ومات الملك رحمه الله ، فأتمَّ موتُه عمَل حياته العظيمة

جمع الأمةَ كلها على أسمى أخلاقها من الحب والوفاء والاتحاد ؛

وأظهرها حوله كأنها فى صلاة تتدفق منها الروحانية العظمى ؛

وراع بها العالم السياسى كأنه يقول للدنيا : هـذه مصر كما أنشأتُها

وترك لأمته الدرسَ الأخير فى هذه الصورة كأنه يقول : هكذا عيشوا

* * *

وبكاه الشعبُ من كل عين ، حتى لو كان يبكى من نهر لبيس ؛

وأصبحت القلوبُ من الحزن كأن كل قلب اجتمعت فيه أمواتُه ذلك اليوم

وبرزت فجأة من النسيان همومٌ وهمومٌ وهموم

ودنت الآخرة حتى لا يذكر الناسُ غيرها ، كأن الخلد يتسلم الراحلَ من أيدى الشعب

وحكم الملكُ يومَ موته حكما آخر كما تحكم على الناس جميعاً طبيعةُ الخير

* * *

(١) [الرسالة] : لجلالة الملك فؤاد رحمه الله فضل عظيم على الأستاذ الرافعى ، وقد رفع الأستاذ إلى سدته العالية أكثر من ألف بيت من الشعر ، وكان جلالته يعجب به ويكبر أدبه ، وقد أمر بطبع كتابه اعجاز القرآن على نفقته الخاصة

« فى ذمة الله يا فؤاد » . هـذا هو صوتُ الشعب يوم وفاة الملك

صوتُ الفطرة على سجيّتها مع نفسها ؛ لا من سياسةٍ ولا رياءٍ ولا مجاملة

صوت الايمان على طبيعته مع القلب ، لا من غرضٍ ولا تصنّع ولا خديعة

صوت الوطنية على عقيدتها مع الحب ، لا من خوفٍ ولا كذب ولا اضطرار

وما عسى أن يقول من فقد أباه العزيز ، إلا أن يقول : فى ذمة الله يا أبى ؟

* * *

فى ذمة الله ذلك الملكُ الذى كان كالأنبياء محصوراً فى واجبه ورسالته

ولم يكن بين فكره وعمله أحلامٌ تفسد الفكر أو تضعف العمل

وكان يقول : « ليس شيئاً يذكر أن يكون المرء أميراً ؛ ولكن الشيء الجدير بالذكر أن يكون نافعاً »

ومن أجل ذلك استمر يعمل كأنه مؤتمر ملوك لا ملك واحد ؛

وتألفت مدةَ حكمه اثنتان وعشرون وزارة ، فكانت له على مصر بركةُ اثنين وعشرين ملكا

* * *

وكان بنشأته واختباره وعلمه ودينه تصحيحاً لأغلاط من سبقوه فى الملك

وبذكائه وبصيرته كان يسوس رعيتين فى مصر : إحداهما الحقائق

وكان موفقاً بقدر ما هو قوى ؛ يخدم الشعبَ عقله وحظّه

تراه دائماً بحكمته وحزمه فى عمله للحاضر ، ودائماً بصبره وإيمانه فى عمله للمستقبل

هو ملك الصبر والايمان (١) ؛ وبهاتين القوتين كم من مرةٍ جعل ما لا يمكن يمكن

* * *

وكان من أكبر همه أن يألف العالم اسم مصر وأن تعرف ممالكُ الدنيا جِدّتها

فحرّك اسم مصر فى كل أمة لأنه وحده الاسم الذى يخاطب كل تمدن بلغة خياله

إن المجد المصرى إذا انبعث كان قوة من قوى الجلال فى الدنيا ؛

إن السحر المصرى إذا عرف كان قوة من قوى الحب فى العالم ؛

إن فن الاعجاب بمصر ليخرج من درس آثارها كما يخرج علم الفلك من درس النجوم

* * *

فى ذمة الله يا فؤاد ، وعزاءً يا مصر :

لقد أعطاك من الفاروق المحبوب أكبر حسناته :

أعطاك فيه أسرار عظمته تتجلى بادئة بنشاطها

غابت الشمس ليبدأ الفجر الجديد

مات الملك ؛ يحيا الملك

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) كان شعار الملك فؤاد (الصبر) وكانت هـذه الكلمة مكتوبة بخط جميل منوطة إلى المصباح الذى فوق مكتبه

فى ليـــــلة مقرورة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

« انفخى النار أو أذكيها فانى بردان ، ولست أجد حرّها »

وكان الوقت شتاء ، والبرد قارساً ، والرياح متداركة الهبوب تقشر الحصى عن وجه الأرض ، وتهيج بالغبار نحو السماء كالعمود . ولـكن الغرفة كانت دافئة ، والنار فى مواقدها تتسعر ، فعجبت الزوجة ، ونظرت من زوجها إلى الموقد ، وقالت : « بردان ؟ بردان والغرفة كجهنم ؟ لقد ألقيت عليها منذ دقائق خشباً كثيراً لا يزال يفرقع من شدة التلهّب ، فـكيف لا تحسها ولا تسمعها ؟ مالك ؟ أبك شىء ؟ »

فهز الرجل رأسه هزة خفيفـــــة ، وقال وهو يمد يده : « لا ..، !! خذى أشعلى لى هذه »

وناولها سيجارة كان يقلبها بين أصابعه ، فوضعت طرفها على النار ونفخت فيه حتى صار كالجمرة المتلظية ، ووضعتها بين أصابعه وهى تقول : « سأعود اليك قبل أن تفرغ منها »

وخرجت وردت الباب وراءها ، فتنهّد الرجل وأطرق . وفرغت السيجارة ، وشعر بحرّها على أصابعه ، فأراد أن يطفئها أو يرى بها ، فمد يده الفارغة يتحسس حتى لمست أصابعه حرف منضدة صغيرة ، فأجرى راحته عليها ، حتى التقت أنامله المرتعشة بشىء فرفعها اليه يريد أن يتبينه ، فانقلب وتحطم ، فرد يده بسرعة ، وقد تجهم وجهه : ثم تنهد ، ورفع قدمه وانحنى على الأرض ، ووضع السيجارة تحت حذائه

وكان الذى يراه وهو جالس على الكرسى ، ورأسه مثنىّ على صدره ، خليقاً أن يتوهمه نائماً من فرط السكون . ولـكنه لم يكن نائماً ولا ذاهلا ؛ وإنما كان مُرهفاً أذنه لحركة الاقدام فى غرفة ابنته ، ولما عسى أن يتأدى اليه من الأصوات غير ذلك على الرغم من الباب الموصد عليه . وكانت زوجته لا تزال تعود اليه كل بضع دقائق لتطمئن عليه على زعمها ، فقد أقلقها عليه قوله إنه بردان فى هذه الغرفة التى يُشتكى حرُّها ؛ ولا يُعقل أن يشتكى بردها فكان يبتسم ويقول لها : « لا تخافى على فانى بخير ، ولـكن طمئنينى على فردوس ، كيف هى الآن ؟ ألا أصعد معك اليها ؟ »

وكان يعلم أنها أبت ذلك عليه من قبل مرات ، فهو على يأس كبير ، ولم تكن لجاجته فى الطلب كلما دخلت عليه إلا ليرى كيف يكون جوابها فى كل مرة ؛ وكان يؤكد أنه سيدخل على أطراف أصابعه ، ثم لا يتكلم ولا يتحرك ولا يمد يده ليلمس الفتاة ، فضاق صدرها بهذا الالحاح ، وقالت له : « إذن لماذا تريد أن تصعد اليها ؟ ؟ أكل مرادك أن تزعجها والسلام ؟ »

وأسفت لأنها احتدت فانقلبت تعتذر اليه بما تكابده من العناء ، وتوزع القلب والجهد بينه وبين ابنتهما ، فقبل اعتذارها ، أو لعل الأصح أنه لم يجعل باله إلى ما بدر منها . وما ظنت أنه ساءه من حدة اللهجة وقال :

« لا تشغلى نفسك بى ، واذا احتجت إلى شىء فان فى وسع الخادمة أن تقضيه لى . أليست الممرضة مع فردوس ؟ إذن دعى لى الخادمة فهى حسبى إلى أوان النوم »

فأبت عليه حتى الخادمة ، وقالت : إن فردوس لا تستغنى عنها ، وأن فى وسعه أن يصفق إذا أراد شيئاً فتجىء هى — زوجته — اليه . فترك الالحاح ، وعاد إلى جلسته وإطراقه وسهومه وكفّ حتى عن أن يرفع رأسه — على عادته — حين تدخل زوجته عليه ، كأنما لم تعد به حاجة إلى سؤال ، أو كأنما لم يعد يعنيـه من الأمر كله شىء ، وكانت زوجته تقف حياله هنيهة ، ثم لا تأنس منه استعدادا لـكلام ، أو تتوهمه أغفى فتنسلل راجعة من حيث جاءت . وكأنما اطمأنت أو خشيت أن تزعجه أو توقظه ، فصارت تترك الباب مواربا ، ولا تكلف نفسها عناء إيصاده — كما كانت تفعل — من قبل اتقاء لما يحدثه ذلك من الصوت

ومضت ساعة وبعض ساعة ، والدنيا أتم ما يكون سكوناً ، لو لا الرياح العواصف ؛ وإذا بالباب يدق دقاً مزعجا ، وإذا بالخادمة تنحدر على السلم ، كأنما هى فى سباق ، أو كأنما وراءها الذى تهرب منه وتمضى إلى الباب فتفتحه ثم تغلقه ، وإذا بالبيت يملأه بكاء وليد يصيح : « واء واء واء » ولا تمضى دقائق حتى يكون كل من فى البيت قد أحاط به ما خلا فردوس المريضـة التى لا تستطيع أن تبرح سريرها أو تنهض عنه ، ويدخل هذا الجمع الحافل ـ سيدة

البيت والممرضة والخادمة ورجل غريب يحمل بين يديه طفلاً ملفوفاً فى أشياء كثيرة وعلى وجهه شف أرجوانى رقيق جدا –

وتتقدم الزوجة من بعلها وتقول : « ماذا تظن ؟ لقد وجد هذا الرجل طفلاً ملقى على مقربة من عتبة البيت ! مسكين إنه وليد ! ابن ساعة أو ساعتين على الأكثر ! ماذا ينبغى يا ترى أن نصنع به ؟ لا نستطيع أن نرده إلى حيث كان ... ولا أحسبنا نستطيع أن نستبقيه ... كلا ! هذا أيضاً عسير علينا . ما رأيك ؟ أشر كيف نصنع ؟ »

فيرفع وجهه إلى الناحية التى يجىء منها صوتها ويقول : « المهم الآن إرضاع الطفل – والوقت بعد ذلك فيه متسع للتفكير فى مصيره ، فانظرى من ترضعه ، إبعثى فى طلب واحدة ... إصنعى شيئاً ... لا تقفى هكذا »

ولم يكن ثم ما يدعوه أن ينهرها على هذا الوجه ، فما كانت قصرت أو تلكأت ، ولا كان مضى على دخولها عليه بالطفل إلا مسافة ما ألقت عليه خبر العثور عليه ، ولكنه كان ضيق الصدر بما أجن لا بما حدث من التباطؤ ، وكان يثقل عليه وجود الرجل ولا يرتاح الى الحديث على مسمع منه فى أمر هذا الوليد . ورأت زوجته منه هذا النفور ، وأحست له سبباً باطناً غير ظاهره . فقالت صحيح . أين نجد مرضعة يا فاطمة ؟ (الخادمة) أتعرفين واحدة قريبة من هنا أو جارة نستعين بها الليلة حتى نهتدى الى مرضعة صالحة ؟ (ونظرت الى زوجها الذى لا يراها وقالت بسرعة كالمستدركة) أو ترى لنا فى الطفل رأيا آخر

فقال الرجل بلهجة السأمان « أرضعيه أولا . . اذهبى ، فما ندرى كم ساعة له وهو ملق ، وإن كان الذى يبدو لى من سكونه أنه لا يشكو شيئاً وأنه على الأرجح – كما قلتِ أنتِ – حديث عهد بالولادة .. على كل حال يحسن أن تعنى به الليلة كعناية الأم »

فانصرفوا عنه ، ومضت الليلة بسلام ، وجاءوا فى الصباح بمرضعة للطفل ، فقد أصر الرجل على اتخاذه وتبنيه ، وكانت زوجته حين رأت منه هذا الاصرار قد راحت تنكر عليه هذا العزم ، وتخوفه ما لابد أن يعانى من جراء وجوده فى البيت ، وتنذره الضجات والضوضاء وغير ذلك ، فان الأطفال فى سن الرضاع لا يوقرون كبيراً ، ولا يعنون براحة أحد ، ولا يألون ما يكون منهم ، ولكن هذا لم يثنه عما صح عليه عزمه

ومضى عام ثم آخر ، وحبا الطفل ومشى ، ولم يفتر حنو الرجل عليه ، بل صار هو سلوته ، فكان يخرج به كل يوم ساعة فى الصباح وأخرى فى المساء . ولم يكن يبعد عن البيت لأنه مكفوف ، فكان يتمشى فى الحديقة الواسعة والطفل أمامه فى مركبته الصغيرة ، فاذا غادر البيت اكتفى بالطواف حول السور ، وكان كلما التقى بفردوس والطفل معه ، يتركه لها وينصرف عنها ، ولا يبقى معهما فى مكان ، وكان ذلك يسر فردوس فى أول الأمر لأنه يسمح لها بأن ترسل نفسها على سجيتها مع الغلام ، ولكنه لما تكرر من أبيها ، أزعجتها منه دلالة العمد فيه ، ولكن ماذا تقول أو تفعل

وكانت زوجته كثيرا ما تشير فى حديثها معه الى فردوس وأنه لا يبدو لها خاطب بين الأقرباء والأصدقاء العديدين ، فلا يقول الرجل شيئا ، ولكنها أضجرته مرة فقال لها « دعيها ، ولا تقلقى عليها ، فانى أحسب الطفل سلوة كافية لها » فسألته زوجته بلهفة « ماذا تعنى ؟ كيف يمكن ؟ »

فابتسم الرجل وقال « أعنى أن فى وسعها أن تفيض عليه من أمومتها الكامنة ؛ وكفى بهذا الطفل عزاء وسلوة مادام لا بعل لها»

وطال الأمر ، وشق على الزوجة أن الحبائل الكثيرة التى ألقتها لم تقنص أحداً ، ونفد صبرها وعجزت عن الكتمان فقالت بشجوها لزوجها ، وكان هو أيضا قد مل هذه الأحاديث التى لا تنتهى فسألها « هل يسمعنا أحد . . انهضى وانظرى ».

ففعلت وعادت فطمأنته فقال « إذن اسمعى — لقد كنت أوثر أن أظل ساكتاً لا أتكلم ، ولكنك اكرهتنى على الكلام . وإنى لضرير ولكن رأسى لم يعطله شىء ، فهل تذكرين كيف سافرت ابنتنا وقضت شهورا عند خالها فى ضيعته ؟ إنى ما زلت أذكر ذلك لأنى أعلم أنها لم تكن عنده ولا عند أحد غيره من أقرباء أبيها أو أمها ، وإن كنت أجهل أين أقامت كل هذا الزمن . . انتظرى . فلست ألومك ، بل أنا على العكس أثنى على حكمتك ، وحسناً صنعتِ ، وقد عادت بعد ذلك فجأة وأوت الى فراشها ساعة وصولها ، وظلت مريضة حتى كانت الليلة التى دق علينا فيها الباب ، وجاءنا الرجل بهذا الطفل . ومن حسن الحظ أن

الرجل لا يعرف شيئا — ولست أدرى كيف دبرتِ الأمر، ولكنك على كل حال أحسنت التدبير ، ولولا هذه القابلة التى زعمتِها ممرضة لاطمأن قلبى ، وأمنت الافتضاح ، ولكنها على ما يظهر استطاعت أن تكتم السر فالحمد لله . والآن وقد أحوجتنى الى الكلام أفلا يحسن بعد ذلك أن تعفينى من حديث الزواج التى لا تملينه ؟ »

فلم تقل شيئا حتى سمعته يحدث نفسه ويقول « مسكينة . مسكينة »

فنهضت وسألته « أتعطف عليها »

فأشار بيده إشارة من يريد أن تذهب عنه وهو يقول « بلهاء »

ولم يدر بينهما بعد ذلك كلام فى الموضوع

ابراهيم عبد القادر المازنى

المسألة الحبشية

بين ايطاليا وانكلترا

بقلم باحث دبلوماسى كبير

يجزع الكثيرون من خصوم الاستعمار وأبناء الامم المغلوبة لما أصابت ايطاليا بوسائل العنف الشائن من ظفر وتقدم فى غزو الحبشة ، وما أصاب الحبشة من خذلان وتضعضع فى مقاومتها للمعتدين على حرياتها ؛ ويجزع الكثيرون من أنصار السلام لما ينذر به ظفر ايطاليا على هذا النحو ، وما تنذر به المشكلة الحبشية كلها من خطر داهم على السلام

وقد يلوح لأول وهلة أن الفريقين على حق فى هذا الجزع ؛ ذلك أن ما أبدته ايطاليا الفاشستية من إقدام وجرأة فى انتهاك العهود والمواثيق ، وما ارتكبته فى سبيل مشروعها الاستعمارى من ضروب السفك والعنف ، وما لجأت اليه لسحق الأحباش من وسائل مجرمة مثيرة كاستعمال الغازات وغيرها ، ينذر بالويل كل أمة ضعيفة لا تقوى على مقاومة الاعتداء بمثله ، ويبعث اليأس فى نفوس الأمم المغلوبة ، لأنها ترى الاستعمار يثبت أقدامه ، ويزيد جرأة وعدواناً وعنفاً ؛ ولأن ما تثيره المشكلة الحبشية من خلاف بين بريطانيا العظمى وايطاليا ، وما يثيره فوز ايطاليا فى شرق افريقية من مخاوف على مصالح الامبراطورية البريطانية ومستقبلها ، ينذر بانفجار قد لا تقف عواقبه عند الخصومة الانكليزية الايطالية ، بل قد يؤدى إلى حرب أوربية عامة ينكب العالم كله بويلاتها وعواقبها

بيد أنه يجب ألا نبالغ فى تقدير الموقف بهذا المعيار القاتم ، فهنالك ظروف واعتبارات كثيرة يجب تقديرها إلى جانب هذه الظواهر المزعجة . ولنبدأ ببحث الموقف فى الحبشة ؛ فقد تقدم الايطاليون داخل الحبشة فى الأسابيع الأخيرة ، واستولوا على ولاية تجرى كلها ، وهى التى تقع فيها بحيرة تانا والنيل الأزرق ، وتقدموا أيضاً فى الجنوب ، وأصابوا الجيوش الحبشية بعدة هزائم شديدة ، وهم يزحفون بسرعة نحو العاصمة الحبشية ، وقد تسقط فى أيديهم قبل أن يظهر هذا العدد من (الرسالة) ؛ وفى الأخبار الأخيرة أن النجاشى قد غادر الحبشة مع أسرته إلى فلسطين على بارجة انكليزية بعد أن فقد كل أمل فى الدفاع والمقاومة ، ولكن هل يعنى ذلك كله أن قوى الحبشة الدفاعية قد أبيدت نهائياً كما يزعم الايطاليون ، وأن ايطاليا قد حققت ظفرها كاملاً شاملاً ، وأنه لم يبق عليها إلا أن تملى شروطها على الحبشة وعلى عصبة الأمم ؟ إن نظرة إلى خريطة الحبشة تنقض هذا الزعم ، فان التقدم الايطالى لم يجاوز حتى الآن المناطق الأمهرية ، ولم يتوغل الايطاليون فى الحبشة الأصلية بعد ، ولا زالت أمامهم دون الاستيلاء عليها مناطق وعرة ؛ والجيوش الحبشية لم تسحق كلها ولم تبد ، ولكنها اضطرت أن تتراجع أمام الغازات الخانقة وغيرها من الوسائل الفتاكة التى لم يحجم الايطاليون عن الالتجاء اليها خلافاً لكل قانون وميثاق حينما رأوا عجزهم عن التقدم بوسائل الحرب المشروعة ، وهى ما زالت تصمد للايطاليين فى الجنوب وحيثما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ؛ وإذا قارنا ما استولت عليه ايطاليا حتى الآن من أراضى الحبشة بما كان مقترحا أن يعطى لها فى مشروع « لافال — هور » ألفينا أنها رغم انتصاراتها المتوالية لم تحقق بعد كل ما كان يراد أن يعطى لها بمقتضى هذا المشروع غنيمة باردة ؛ والفرق بين الحالتين أنها تدفع اليوم لتقدمها ثمناً فادحا من المال والرجال

هـذا ومن الخطأ أن نعتقد أن مجرد استيلاء الايطاليين على الأراضى الحبشية يكفل تحقيق الأمانى الايطاليـة ، ويعتبر حلاً نهائياً للمسألة الحبشية ؛ ذلك أنه يجب على إيطاليا إذا أرادت أن تستغل ثمار ظفرها ، أن تحتفظ بما استولت عليه من الأراضى ، وأن تسحق كل مقاومة من جانب الأحباش ؛ ولـكن المعروف أن دون هذه الغاية صعاباً جمة ، وأن إيطاليا ستلقى مدى حين مقاومة مستمرة من الأحباش ، وستضطر إلى أن تتكبد فى هذا السبيل جهوداً ونفقات قد تعجز عن الاستمرار فيها إذا طالت مقاومة الأحباش ؛ بل يرى بعض الثقات اليوم أن إيطاليا قد استنفدت بالفعل فى هذه الحروب الاستعمارية العنيفة كل موازدها القائمة ، وأنه إذا بدأ فصل الأمطار فى الحبشة قبـل أن تسحق مقاومة الأحباش بصورة حاسمة ، فإن مركزها وخططها فى الحبشة تعرض لأشد الأخطار

ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك عاملاً حاسماً آخر ، وهو موقف انـكلترا من المسألة الحبشـية ومن إيطاليا ، وهو موقف ستكشف الأيام القريبة عن حقيقته

***

وعصبة الأمم ماذا كان موقفها إزاء هـذا الاعتداء الشائن ؟ لقد بدأت العصبة بداية حسنة ، فأسندت تبعة الاعتداء إلى ايطاليا ، وقررت تطبيق العقوبات الاقتصادية ضـدها ؛ وكان للسياسة البريطانية أكبر نصيب فى تنظيم هـذه الحركة الدولية الخطيرة ؛ ولـكن فرنسا التى تربطها بإيطاليا معاهدة صداقة خاصة واتفاقات سرية ذاع أمرها فيما بعد ، قاومت سياسة العقوبات رغم موافقتها نظريا على تقريرها ، ووقفت الى جانب ايطاليا موقفاً كان له أكبر الأثر فى شل سياسة العقوبات ، وعجز عصبة الأمم عن تقرير عقوبات أخرى كانت تزمع فرضها كتحريم اصدار الزيت والحـديد الى ايطاليا ؛ هذا ولم يبق سرا أن فرنسا تشد أزر ايطاليا فى هذه الحرب الاسـتعمارية بصفة إيجابية ، وانها تعاونها بالقروض السرية ؛ وهى من جهة أخرى تعرقل تصدير السلاح الى الحبشة من طريق جيبوتى ، خلافا للاتفاقات المعقودة فتزيد بذلك فى اضعاف المقاومة الحبشية وتمهيد السـبيل لتفوق الجيوش المعتدية

ولقد كان موقف العصبة إزاء هاتين السياستين المتناقضتين يدعو الى الرثاء ، فلا هى استطاعت رغم تأييد السياسة البريطانية أن تسير فى تطبيق العقوبات الاقتصادية على ايطاليا بالحزم الواجب تأييداً لمبدأ السلامة الاجماعية الذى تعمل باسمه ، ولا هى استطاعت بأية وسيلة أن تحمل ايطاليا على وقف اعتدائها الصارخ ، أو قبول الصلح فى الحدود التى رسمتها منذ بداية الاعتداء ؛ بل ولا استطاعت أن تحمل ايطاليا على احـترام أبسط قواعد الحرب الشرعية ، والعدول عن الالتجاء الى الوسائل الهمجية الفتاكة من غازات قاتلة ومحرقة وغـيرها ضد شعب يكاد يكون أعزل إزاء وسائل التسليح الحـديثة ؛ وما زالت عصبة الأمم منـذ أشهر تجتمع وتسوف على غـير طائل ، وايطاليا تمضى فى اعتداء هو أشبه بالقرصنة المجرمـة منه بالحرب المشروعة ، فتمزق الأحبـاش محاربين ومسالمين بغازاتها وطياراتها ، وعصبة الأمم لا تكاد تجد ما تقوله إزاء هذه النذالة التى تثير استنكار العالم المتمدن بأسره ، إذا استثنينا بعض الجهات الاستعمارية الجشـعة التى ترى فوز ايطاليا عاملاً فى تثبيت أقدام الاستعمار فى أفريقية

***

على أن ظفر ايطاليا الحربى فى الحبشة لا يكفى لتسوية المسألة الحبشية مهما كان مدى هذا الظفر ؛ ففى وسع ايطاليا أن تستولى عسكريا على الحبشة كلها ، ولـكن الاحتلال العسكرى لا يمكن أن يعتبر مستقرا أو نهائيا ، ولا يمكن بأى حال أن يعتبر خاتمة المشكل ، ولابد أن تحسب ايطاليا أعظم حساب لموقف السياسة البريطانية ؛ ذلك أن بريطانيا العظمى ترى فى اسـتيلاء ايطاليا على الحبشة وتوسع الاستعمار الايطالى فى شمال افريقيه خطرا عظيما على سيادتها ونفوذها فى وادى النيل وشرق أفريقيه ، وترى فى نهوض ايطاليا الاسـتعمارية وفى اضطرام الروح الفاشستية بالأطماع والمشاريع الاستعمارية خطرا أعظم على سيادتها فى البحر الأبيض والبحر الأحمر وعلى مواصلاتها الاسـتعمارية التى تسهر على حمايتها بيقظة متناهية ، فالمسألة الحبشية فى ذاتها تحتل فى نظر بريطانيا مكانا ثانوياً ، ولـكن المسـألة الجوهرية هى ما يترتب على فوز ايطاليا واعتزاز الروح العسكرية الفاشستية بهذا الفوز ، وهى روح اعتدائية أخذ يبدو خطرها فى البحر الأبيض ظاهرا ملموسا ؛

والسياسة البريطانية تعمل منذ بدء المشكلة الحبشية وراء عصبة الأمم ووراء مبدأ السلامة الاجماعية ؛ وقد كانت تتوقع عند فوزها بتقرير سياسة العقوبات الاقتصادية أن هـذه العقوبات ستحدث أثرها فى أهبة إيطاليا وفى مواردها بسرعة ، فتقبل الصلح على الأسس التى وضعتها عصبة الأمم ؛ ولـكن السياسة الفرنسية المماذقة التى تعمل من وراء الستار لشد أزر إيطاليا حالت كما رأينا دون تحقيق هذه الغاية ، واستطاعت إيطاليا أن تحرز بوسائلها العسكرية المجرمة فى الحبشة انتصارات خطيرة ؛ فالسـياسة البريطانية تجد الآن نفسها بعد فشل سياسة العقوبات ، وانهيار المقاومة الحبشية ، فى موقف حرج ؛ وإذا كانت خطتها التالية لم تتضح بعد ، فانه مما لا ريب فيه أن وجهة نظرها إلى الموقف لم تتغير بل ربما كان اهتمامها اليوم بقمع الخطر الايطالى على مصالحها ومواصلاتها أشد منه فى أى وقت آخر

ومن المحقق أن السياسة البريطانية تؤثر العمل بوسائل لا تدفعها إلى الحرب ؛ والظاهر من تصريحات مستر إيدن وزير الخارجية البريطانية فى جنيف ، وتصريحات مستر بلدوين رئيس الوزارة ، وأقوال الصحف البريطانية ذات الرأى ، أن انكلترا ما زالت ترى المضى فى سياسة العقوبات الدولية ، مستظلة بعصبة الأمم ومبدأ السلامة المشتركة ، وأنها ستقوم بمحاولة أخرى فى هذا السبيل قبل أن تفكر فى الالتجاء إلى وسيلة أخرى ؛ والظاهر أيضاً أن أنصار هذه السياسة يرون أن الانتصارات الايطالية الأخيرة فى الحبشة لا تقوم على أسس مستقرة ؛ وأن إيطاليا لا تستطيع المضى طويلاً فى الاضطلاع بهذه الاعباء والتضحيات الفادحة التى تضطلع بها ، وأن أحوالها الاقتصادية الداخلية بلغت مأزقا خطراً ، فاذا استطاع الأحباش أن يصمدوا فى الجنوب وأن يحتفظوا بنوع من المقاومة بضعة أسابيع أخرى حتى يبدأ فصل الأمطار ، وإذا ظفرت انكلترا أثناء ذلك بحمل عصبة الأمم على تقرير عقوبات جديدة أخصها حظر الزيت ، فان الخبراء يرون أن خطط ايطاليا العسكرية تعرض فى هذه الفترة الى أشد الأخطار ، فقد يستطيع الأحـباش فى فترة الأمطار أن ينظموا قواهم مرة أخرى ، وتكون موارد ايطاليا قد نفدت أو أوشكت على النفاد فتضطر الى وقف الحرب وقبول الصلح ؛ وتؤمل السياسة البريطانية أن تسنح الفرصـة لتقرير العقوبات الجديدة عقب الانتخابات الفرنسية الجديدة ، فقد ظهر منها أن فرنسا تميل هذه المرة الى أحزاب اليسار ، وأحزاب اليسار تؤثر تأييد عصبة الأمم ومبدأ السلامة المشتركة ، وترى أن هـذه السياسة أقرب الى تحقيق السلام من سياسة التلون والمماذقة التى جرت عليها فرنسا إزاء المشكلة الحبشية ، وهى سياسة دفعت ثمنها غالياً فى مسألة الرين ونقض ألمـانيا لمعاهدة لوكارنو ، حيث خذلتها انكلترا فى هذا المأزق ، وألقت عليها درسا عميق الأثر

ويرى بعض أقطاب السياسة البريطانية فوق ذلك أنه يجب على إنكلترا إذا اقتضى الأمر أن تلجأ إلى إجراءات الحصار العسكرية ، فتغلق قناة السويس بموافقة عصبة الأمم ، وتقطع بذلك مواصلات إيطاليا مع شرق إفريقية ، وهذا إجراء قد يؤدى إلى نشوب الحرب بين إيطاليا وانكلترا ، لأن موسولينى ما فتىء يهدد بانه يعتبر إغلاق قناة السويس إجراء عدائياً عسكريا يجيب عنه بالمثل ، ولـكن أصحاب هذا الرأى يرون أنه خير أن تضطلع انـكلترا بعبء حرب محلية فى البحر الأبيض من أن تترك الفاشستية تمضى فى تهديدها للسلام حتى تنشب حرب أوربيـة أو عالمية ؛ ويقولون إنه ليس لايطاليا أن تحتج بخرق المعاهدات الدولية فى مسألة اغلاق القناة بعد أن خرقت هى كل العهود والمواثيق الدولية ، وهذه النظرية تلقى اليوم كثيرا من التأييد فى انكلترا ، بيد أنه يلوح لنا أن السياسة الانكليزية الرسمية مازالت بعيدة عن الأخذ بها

إن السياسة الانكليزية تعتمد كثيراً على الزمن وعلى تطور الحوادث والظروف ؛ وإذا كانت الظروف لم تحقق إلى اليوم تقديراتها وأمانيها ، فليس من ريب فى أن استطالة الحرب الحبشية تستنفد قوى ايطاليا ومواردها ، وتضعف مركزها فى أوربا ؛ وقد حققت الحرب الاستعمارية الطاحنة التى تدور فى الحبشة منذ سبعة أشهر كثيرا من دواعى هذا الانهاك ؛ ولا عبرة بمظاهر النصر الخلابة التى تهول ايطاليا بها ، فانها تدفع فى سبيلها أفدح الأثمان ؛ وما زال الزمن عاملاً حاسما فى اخماد الجذوة الاستعمارية الفاشستية وردها إلى الصواب

***

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الدفتريا

بين واجد سمها الفرنسيّ ، وكاشف ترياقها الألمانيّ

وصل الفائت : بعد أن أثبت بارنج أن المصل المأخوذ من دم الشياه الناقهة من الدفتريا يقى الحيوانات من هذا الداء إذا هو حقن فيها ، حقنه فى الحيوانات المريضة فعلا لعله يشفيها فشفاها . ففعل مثل ذلك فى الأطفال المرضى فكان النجاح باهراً . وبدأت المصانع تصنع هذا المصل والأطباء يستخدمونه وذاع أمره واهتز الناس له

— ٤ —

ومع هذا النجاح فقد صدرت من الناس شكيّات ، وقد صدرت منهم انتقادات . وهذا أمر طبيعى ، فالعلاج الجديد لم تكن مؤكدة نتائجه كل التأكيد . فهو لم يَشْفِ من الأطفال المائة مائةً عدًا . وكيف يُرجى منه ذلك وهو لم يكن شفى من مائة الخنازير الغينية مائة كاملة . وكان كذلك لبعض علماء الأطباء رأى نقّاد فيه ، فقد ذكروا أن الذى يحدث من الداء تحت جلد الخنزير ليس بحكم الضرورة واللزوم هو عينه الذى يحدث منه فى حلوق الأطفال . وشاع أمر الحقنة ، وجرى المصل فى دماء الألوف من الأطفال ، ولكن برغم ذلك مات بعض الأطفال من الداء شرّ ميتة . (ولو أن عددهم ربما كان دون الذى كان يموت قبلا) . وأخذ الأطباء يتساءلون عن السبب . وفقدت آباء وأمهات آمالاً كبيرة تفتّتت بفقدها أكبادهم

وهنا عاد أميل رو إلى العمل ، عاد إلى ساحة القتال يحتل مكانه فى صدرها . فاكتشف اكتشافاً مجيداً : طريقة سهلة هينة يحصّن بها الخيل من سمّ الدفتريا ؛ طريقةً لا يموت فيها حصان ولا يطفح على جلده منها خُراجات أليمة ذميمة ؛ وخيرٌ من هذا أنها طريقة تأتى بالكثير الوفير من ذلك المصل الحصين وبه ذلك الترياق الغالى الثمين . وكان مصلاً قوىّ المفعول يذهب القليل منه بالسم الكثير الذى يقتل عدّة من كلاب كبيرة

وآمن رو بأن هذا الترياق سيشفى الأطفال لا محالة . وآمن به قبل أن يجهزه إيماناً كإيمان بارنج أو أشدّ منه تأكداً . تركّز فكره على علاج الداء ، واجتمع مقصده على شفائه ، فلم يفكر قط فى منعه . ونسى ما كان وَصفَ من غرغرات . وظل يتردّد على عجل بين معمله ومَربِط خيله ، تارة ضارباً محاقنه فى أعناقها وهى صابرة ، وتارة حاملاً قوارير عظيمة البطون ملأى من دمائها وفى هذه الفترة كان نوع من الدفتريا شديد الخبث (هكذا ظن رو) يكتسح بيوت باريس . وفى « مستشفى الأطفال » كان يُحمل خمسون فى المائة من مرضاه إلى بهو الأموات زُرْق الوجوه (أو هكذا أثبت الاحصاء) . وفى مستشفى تروسو Trousean كان يموت ستون فى المائة (ولو أن السجلات لم تذكر فى جلاء أن الأطباء استيقنوا أن الذين ماتوا إنما ماتوا من الدفتريا لا من غيرها) . وفى الأول من فبراير عام ١٨٩٤ جاء رو إلى « مستشفى الأطفال » بوجهه المسنوف وأنفه الأقنى وصدره الضيّق وقلنسوته السوداء ، فدخل إلى رواق الأطفال المرضى بالدفتريا وهو يحمل قوارير ملأى بهذا السائل الأصفر المعجز من المصل

وفى هذه الساعة ، فى المعهد الشهير بشارع ديتو ، فى حجرة المكتب هنالك كان يجلس رجل شيخ مشلول ينتظر خبراً ساراً يأتيه من رو . . . . وكان هذا الشيخ تبرق فى عينيه بوارق الأمل فينسى أحبابه وأعزاؤه أن الموت انتقاه وأعله ثم تركه وعن قريب يعود فى طلب التروك تاركه . . . . . هذا بستور جلس فى غرفة مكتبه من ذلك البيت العتيق لا يود أن يبرحها ويُسلِم للفناء زمامه حتى يأتيه الخبر اليقين بأن تلميذاً من تلاميذه تمكن من محو داء آخر من الأدواء الخبيثة بهذه الحياة الدنيا

وغير بستور كان حول رو أمهات باريس وآباؤها يرجونه الاسراع فى تجهيز علاجه رحمة بأولادهم من مرضى ومريضات — فقد كانوا سمعوا بذلك العلاج العجيب الذى ابتدعه الدكتور بارنج . وقالت طائفة منهم أنه يكاد يحيى الموتى ويستخلص

الأطفال من براثن هذا الداء بعد أن تنقطع فيهم الآمال . وكان رو يتلفت حوله فيستطيع أن يرى الناس رافعة أيديها إليه تطلب الرحمة والغياث

جهّز رو محاقنه وقواريره بذلك الهدوء وذلك البرود اللذان أثارا اعجاب الفلاحين فى تلك الأيام الخوالى حين قام رو فى حقولهم يضرب لقاح الجمرة فى بهائمهم فى قرية پويبى لوفرت . وقام عوناه مرتان Martin وكايو Chaillou فأشعلا مصباح الكحول وأسرعا اليه فى لهف وتأهب لاجابة الأمر تنفتح عنه شفتاه ، ونظر كوخ إلى الأطباء وهم فى حَيْصَ بيص لايدرون ماذا يصنعون . ونظر إلى الوجوه الصغيرة وهى فى زرقة الرصاص ، وإلى الأيدى الرقيقة وهى تُهبّش فى ألحفة الصوف ، وإلى الأجسام وهى تتلوّى فى الفراش تطلب أنفاساً قليلة من ذلك الهواء الغالى فلا تكاد تجدها . ثم نظر إلى محاقنه ممعناً وسأل نفسه : أحقاً فى هذا المصل خلاص هذه الأرواح ؟ فما أسرع ما انشطرت نفسه شطرين عند هذا السؤال ، فكان منها نفسان : النفس الأولى نفس الانسان الحنّان ، والنفس الأخرى نفس العالم البحاث

قالت الأولى تجيبه بقوة : « نعم ، نعم فيه خلاصها »

وقالت الثانية فى همس وخفوت : « لا أدرى ، والحكم للتجربة ، فهيّا بنا اليها »

قالت النفس الحنون ، وقال معها الآباء القانطون وكلهم يتوسلون ويرجون : « لا تفعل ! لا تفعل ! فان التجربة تقضى باعطاء المصل لبعض الأطفال وحبسه عن بعضهم ، وهذا فى شرعة القلب حرام »

قالت النفس الباحثة : « نعم إنه عمل غير هيّن وقساوة تتلذع منها القلوب . ولكن ما الذى أنا صانعته ؟ ! إن هذا المصل شفى الأرانب فما الذى يدرينى أنه يشفى الأطفال والانسان ؟ لا بد إذن من العلم ، لا بد من كشف الحقيقة ، والحقيقة لا تكشف إلا إذا نحن حقنا به نصف الأطفال المرضى وأعفينا النصف الآخر ، ثم قارنا عدد من يموت فى النصف الأول بعدد من يموت فى النصف الثانى ؛ بهذا ، وبهذا وحده ، نستطيع أن نعلم الأثر الحق الذى للمصل فى شفاء هذا الداء »

قالت النفس الحنون : « ولكن هبْ أنك وجدت المصل يشفى ، فانظر ما تكون مسؤوليتك عن مئات الأطفال الذين يموتون لأنك حبست عنهم هذا المصل ، هذا الترياق »

إنه تخيير مؤلم لاشك بين خُطتّين صعبتين . على أن رو ذا العقل الصرف فاتته حجة ما كان أولاه بإيرادها فى هذه المناظرة بينه وبين رو ذو العاطفة الصرف ؛ لقد كان فى استطاعته أن يقول : « إننا إذا لم نتبع طريقة العلم ، طريقة التجربة ، إذاً لانخدع الناس فظنوا أنهم وقعوا من هذا المصل على علاج كامل للدفتريا ، وإذن لكفّ البُحّاث عن طلب علاج جديد لها ، ثم تتوالى السنون بموت ألوف من الأطفال بسبب هذا العلاج المزعوم ، ألوف كان فى الامكان اعفاؤها من الموت لو أننا اتبعنا طريقة البحث الصحيح على ما بها من قساوة . . . »

إن فى هذا الحجة جواب العلم الدامغ لكل ذى رأى يقوده قلب . ولكن رو لم يُصغ إليها ، ومن ذا الذى يلوم هذا القلب أن يتنكّب الطريق القاسية التى تؤدى وحدها الى علم الحقيقة . وتجهّزت المحاقن ، وجرى مصلها اندفاعا تحت جلود الأطفال فانتفخت به ، بدأ رو فى أداء رسالة الرحمة ، ولعلها رسالة الخلاص كذلك ، فحقن فى المستشفى فى الخمسة الأشهر التالية من الأطفال المهدّدين بالموت زيادة على ٣٠٠ طفل . ثم ظهرت النتائج ! ألا حمداً لله فقد كانت نصراً لرو ذى القلب الانسانى الرحيم ، فما انتهت تجاربه فى هذا الصيف حتى قام فى مؤتمر جمع نوابه الأطباء وخيرة العلماء من أصقاع الدنيا فقال لهم : « إن حالة الأطفال إذا حُقِنوا بالمصل تتحسن سريعاً . . . فلا يكاد يقع الناظر فى عنابر المستشفى على وجه فاقد اللون أزرق كالرصاص . . . بل على النقيض يجد الأطفال فى نشاط وابتهاج »

واستمر يصف فى بودابست للمؤتمرين كيف يذهب المصل بهذا الغشاء المخاطىّ الرمادىّ الذى يتكون فى حلوق الأطفال وعليه تتكاثر بشلة الداء ومن فوق بساطه ترمى بسمها القاتل ، ووصف لهم كيف يذهب هذا المصل بحُمّاهم كذلك : كان كنسمة باردة هبّت من بحيرة شمالية على مدينة جنوبية فرّت على أقارزها وهى تتقد ناراً . فهتف له هذا المؤتمر الوقور ، وقام له أطباؤه الأشهرون على أرجلهم إكباراً له وإعجاباً بالذى أتاه

ومع هذا — ومع كل هذا — وبرغم هذا المصل العجيب ،

فقد مات من مرضى رو ستة وعشرون فى كل مائة ! !

ولكن اعلمْ أن ذلك العصر كان عصراً تغلب فيه العاطفة . واذكرْ أن هـذا المؤتمر لم يجتمع ، ورو لم يذهب إليه ، لخدمة الحقيقة وإنما ليحتفلوا بخلاص الأرواح وليناقشوه ويختطوا له الخطط ، وكان الناس عندئذ قليلى الاهتمام بالأرقام ، وكانوا أقل اهتماماً بالنُّـقَّاد الثقلاء الذين يُلحون فى طلب مقارنتها ، وكانوا فى تأثر شديد عند ما استمعوا لرو وهو يصف لهم ما كان من تبريد المصل لجباه الأطفال بعد اشتعالها . على أن رو كان فى مقدوره الرد على نقّاده بين تصفيق العظماء الناابهين من سُماعه بأن يقول لهم : « وما ستة وعشرون يموتون فى المـائة ! يجب أن تذكروا أنه قبل هذا العلاج كان يموت خمسون فى المـائة »

ومع هـذا أيضاً فأنا أقول — أنا الذى أودّ أن أومن بهذا الترياق وبحسن أثره فى علاج الدفتريا — أقول بعد أن مضى على ذلك الزمان بضعة عقود : إن الدفتريا داء غريب ، يزيد خبثه أحياناً ، ويقل أحياناً . فنى بعض الأحقاب يبلغ الموت فى مرضاه ستين فى المـائة ، ثم هو يحل به أمر خفىّ غريب يُضعف من مكروبه فاذا بالستين تنزل إلى عشرة ، وهكذا كان الحال فى عصر البطولة الفائتة ، عصر رو وبارنج . ففى هـذا العصر فى بعض مستشفيات انجلترا نزل معدّل الموت من أربعين إلى اثنين وعشرين فى المـائة — وهذا بالتحقيق قبل أن يُستخدم المصل !

ولـكن الأطباء الـكبراء لم يأذنوا للأرقام أن تدخل فى تفكيرهم ، وحملوا خبر الترياق إلى أركان الأرض الأربعة ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى استقر المصل فى الأدوية علاجاً للدفتريا . واليوم لن تجد طبيباً فى الألف لا يحلف لك بأنه علاج بديع . والدفتريا اليوم ليست على خبثها الذى كان لها فى العقد التاسع من القرن الماضى ، والأطباء لا يفتأون يعطون المصل لـكل طفل تناله تلك البشلات الفاترة الجارية الآن حاسبين أن به الشفاء...

والطبيب الذى يمتنع عن إعطاء المصل يُعَدّ بحق مذنباً اعتماداً على القدر الذى نعلم من أمر هذا العلاج اليوم . وأنا نفسى لو أن طفلاً لى أصابه هذا الداء لـكنت أول مسرع إلى الطبيب ليحقنه بهذه الحقنة نفسها . ولم لا ؟ فلعل الصبى يشفى حقاً . أنا لا أدرى أنه لا يشفى ، ولا يدرى غيرى أنه لا يشفى ، وقد فات الأوان لاثبات أنه يشفى أو لا يشفى ، فالدنيا الآن تؤمن به ، فلا يوجد فى الرجال رجل تبلغ به قسوة القلب ، أو جرأة النفس أن يقوم بالتجربة التى يتطلبها العلم لاثبات اليقين

واليوم يؤمن البحاث بالذى آمن به رو من أمر هذا المصل ، فهم فى شغل شاغل بمباحث أخرى . وكل الذى أرجوه أن يكون رو صادقاً فى الذى آمن به ، حتى إذا هبّت على العالم هبّة من وافدة خبيثة من الدفتريا ، وافدة فى خبث تلك التى كانت فى العقد التاسع من القرن المـاضى ، يكون للناس من هذا المصل وقاء صادق يدفعون به شرها غير مخدوعين فيه

على أنه حتى إذا لم يكن فى هذا المصل شفاء الدفتريا — ولو أن الأرجح فيـه الشفاء — فالتجارب التى قام بها رو وبارنج لم تضع سدى على ما نعلم اليوم . بالطبع قصة ذلك لا تزال حديثة ، لا تزال تلوكها الجرائد كثيراً ، فلم تتهيأ بعد لتبوئ مكانها فى التاريخ ، ولـكن مع هذا ففى نيويورك ، وفى كل أمريكا ، وفى ألمـانيا مئات الألوف من الأطفال وتلاميذ المدارس تتخذ أجسامهم مصانع يُصنع فيها هـذا الترياق فى حذق كبير وأمْن بالغ كى لا تأتيهم الدفتريا أبدا . وذلك بحقن هؤلاء الصغار تحت جلودهم بمقادير قليلة من سمها يكفى القدار منها لقتل عدة كلاب كبيرة — ولـكن بعـد تدويره وتحويره وتغييره تغييرا عجيبا حتى لا يتأذى منـه الطفل يُحقن به بعد أسبوع من ولادته

والأمل اليوم كبير فى مغالبة الدفتريا حتى لا يكون منها ذلك الداء الفتّـاك الذى دوّخ الأجيـال ، وذلك بأن تقتنع الأمهات والآباء فيرضون بأن تُرشق بناتهم وأبناؤهم ثلاث رشقات من من إبرة محقن . إذن لحمدنا العاقبة وشكرنا للفلار ورو وبارنج أبحاثهم الأولى وإن فاتها التهذيب والتمام

(تمت الدفتريا) أحمد زكى

التربية الوطنية الاستقلالية
وأثرها فى بناء الأمة

للأستاذ محمد عبد البارى

عماد الامة

عماد الأمة أفرادها . ومتى كانت مواد البناء متينة التكوين سليمة الوضع كان البناء قوياً على احتمال تصاريف الأيام ، والتغلب على صدمات الحادثات . وما مادة البناء فى الجماعة سوى الفرد . فكيف يكون قوياً لتقوى به الأمة ؟

شاهدات الحاضر

يلوح لى أن استعراض الوقائع لاستخراج الحقائق أقرب سبيلاً إلى صحة الحكم ، وآمن عاقبة من التحليل النظرى المجرد . وأخذا بهذا فانى أضرب بالانجليز مثلاً للأمة القوية . وأحاول باستعراض بعض الظواهر للوصول إلى سر هذه القوة . وإنى إذ أفعل هذا لست مأخوذاً بقوة المسيطر ، ولكنى إنما أتعرف سر قوة الغير لنحتذى مثاله ، ومن قبل احتكت اليابان من نحو خمسة وثمانين عاماً بالغرب ، وآنست منه قوة لاقبل لها بها فداورته ، ثم حرصت على تعرف سر قوته واتخذت سبيله . فلما أحست من نفسها القوة تحررت مما فرض عليها الغرب من قيود ، ثم صارت موضع خشيته ورهبته . والقوى يتقى دائماً التصادم بالقوى .

من أشهر حوادث التاريخ الدستورى ما يسميه الانجليز بالعهد الأعظم ؛ وهو مجموعة قواعد غير منمقة ؛ هى فى الواقع شروط يتقيد بها الحاكم ، وهى تنبئ عن روح استقلالية أصيلة ، ودرجة حرص القوم على المحافظة على ذلك العهد تؤكد أنه وضع عن عقيدة ، وأنه يعبر عن شعور الأمة بحقها وكرامتها وقوتها . فلما هوجم دافعت عنه الأمة عن عقيدة راسخة فانتصرت . حدث أن أحد ملوك انجلترا ، وكان متشبعاً بتعاليم الفيلسوف الانجليزى « هوبز » نقض ذلك العهد باصدار أوامر تخالفه . غير ان أحد الكافة أبى أن يعترف بحق الملك فى المخالفة ، فامتنع عن تنفيذ الأمر . فلما أوذى المعترض ثارت الأمة ، وتخلصت من ناقضى عهدها استمساكا بدستورها ومحافظة على كرامتها

والمعترض لم يصدر إلا عن عقيدة . وكان مستقل الرأى أبى النفس شجاعا بدليل أنه لم يرهب جسامة ما أقدم عليه . ولم يك بالشاذ فى بلده بدليل أن سواد الشعب جاراه وانتصر للحق إلى النهاية . وهذا العمل الخطير لا يمكن أن تأتيه جماعة إلا إذا كانت الروح الاستقلالية قوية فيها ، وكان الشعور بكرامة الانسان غالباً فى أفرادها والاعتداد بالنفس صفة غالبة فى بنيها . كان الفيلسوف « هوبز » ينادى بحق الملك المقدس فى الحكم طبقاً لمشيئته لا استنادا إلى إرادة الأمة . وكان مربياً للملك المشار اليه ، ولكن النفسية الانجليزية لم تهضم هذه التعاليم ؛ وكان يعجبها ما قرره الفيلسوف « لوك » ؛ وهو أن الأمة مصدر السلطات ، وأن الملك يستمد سلطته منها ، وليس صاحب حق مقدس يحكمها طبقاً لهذا الحق المقدس فلا يتقيد بارادتها . فلما تعارضت الفكرتان عملا كانت الغلبة لما يدين به سواد الانجليز ، لأن تربيتهم الاستقلالية أبت عليهم الخضوع لما لا يتفق مع الكرامة الانسانية ، فثاروا دفاعاً عنها وانتصروا لأنهم عملوا عن إيمان راسخ

التربية الاستقلالية مصدر الشجاعة الأدبية والاقدام والشجاعة توحى للمرء بأن يقول « لا » كلما وجب أن يقولها ، و « نعم » كلما وجب أن يقولها ، سواء أكان مخاطباً نفسه أم غيره . والاقدام يدفع المرء الى العمل بما يعتقد مهما كانت النتيجة وقد دلت التجارب على أن العامل عن عقيدة قلما يخفق لأن الايمان الراسخ فى ذاته قوة يعز التغلب عليها

لو لم تكن روح الاستقلال متغلغلة فى نفوس الانجليز لرسخت فيها تعاليم « هوبز » دون تعاليم « لوك » ، ولمر نقض العهد وهو الدستور كأنه حادث عادى ، ولاعتاد الحكام التصرف طبقاً لمشيئتهم ، ولكانت الجماعة عرضة من حين لآخر للاحتكاك بين أنصار الطغيان وأعوان الحرية ، ولبطؤ سيرها الى الأمام

لكن النفوس كانت متشبعة بالحرية والاستقلال فدافعت عما وضعته من شروط لتولى حكمها . وأظهرت وجودها المستقل

بعملها التاريخي . وعرف الحكام منها ذلك فلم يحاولوا نقض العهد وعاشت وعاشوا فى هدوء . فاستطاعت الأمة التمتع ببركة الهدوء فى ظل الحرية ، وانصرفت بكل قواها الى ترقية شؤونها ورفع مستوى الفرد فبلغت قمة المجد ، وكانت عزيزة الجانب بوجه عام حتى اليوم . تلك حادثة من أبلغ حوادث التاريخ الانجليزى فى الدلالة على أن قوة الأمة فى تغلغل روح الاستقلال بين الأفراد وفيما ينشأ عن التربية الاستقلالية من شجاعة واقدام

وانا أورد مثلا آخر أدلل به على ما تربح الأمة من تشبع الفرد بروح الاستقلال . ففى الحادث المتقدم كان العمل شعبياً ، وفى الحادث التالى كان العمل فرديا

فى سنة ١٨٣٩ نجحت انجلترا فى تأليب قوى أوروبا على مصر لتأمن الخطر الذى توهمته من قيام جماعة قوية على ساحلى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط . انتهزت الفرصة السانحة بتهديد الجيوش المصرية الآستانة نفسها فأقنعت طائفة من قوى دول أوروبا بالاشتراك معها فى حمل « محمد على » على قبول شروط فرضتها عليه ، وهو الغالب نحد من قوته ، ونجحت بهذا وببث الثورة فى سوريا ضد المصريين فى الاستيلاء على عكا وفى ضرب الجيوش المصرية بسوريا ضربة حاسمة

فلما تم ذلك بعث القائد العام وهو انجليزى ضابطاً بحرياً انجليزياً لاستطلاع قوة المصريين بالاسكندرية ، وأبحر الضابط فاقتنع عند ما وصل المياه المصرية أن من السهل ضرب الاسكندرية ، ولكنه فى نفس الوقت علم من ثقة أن البر يموج بقوة مسلحة تسلحاً عظيما ، وفكر أن الاشتباك مع محمد على بمصر قد يجر إلى مثل موقعة رشيد سنة ١٨٠٧ ورأى أنه من الممكن التفاهم مع محمد على على الشروط التى فرضها المتألبون ورفضها محمد على ، إذا ضمن له الضابط جعل حكومة مصر وراثية ، لما استوثق من ذلك دخل رأساً فى مفاوضات مع محمد على واتفق الطرفان .. ولما أنبأ القائد العام بذلك احتج عليه وأرسل إلى حكومته يحتج ، ولكن الضابط استمسك بوجهة نظره لأنه أيقن بأنه خدم بلاده ودافع عن هذا الرأى لدى الحكومة الانجليزية رأساً وانتصر له وزير الخارجية الانجليزية وأبرم الاتفاق الذى وضع أساسه هو فكان معاهدة لندن سنة ١٨٤٠

والحادث يدل على أن الضابط البحرى لم يفهم أنه مجرد أداة بل فهم أنه عنصر فعال فى بناء مجد أمته . فلما رأى الفرصة سانحة انتهزها بالرغم من مخالفة هذا التصرف للواجبات العسكرية ؛ فلما لم يرض رئيسه عن هذا لم يرهبه سخط الرئيس ولم ييئس غرضه ولم يتقهقر وتغلب رأيه أخيراً

نظر الضابط الصغير كما نظرت حكومته إلى جوهر الموضوع لا إلى شكله ، والحادث بالنسبة للحكومة الانجليزية وبالنسبة للضابط البحرى دليل على تأصل الروح الاستقلالية وعلى عظم أثر هذا التأصل فى صحة الحكم على الأشياء

تلك الروح الانجليزية التى استعرضنا بعض مظاهر عظمتها هى التى أبت عليهم الخضوع لتهديد اسبانيا ، فلم يخرجهم هول قوة الأرمادا « اسم الأسطول الاسبانى » عن رباطة جأشهم وكانت الغلبة لهم ، وهى نفسها التى أبت عليهم الخضوع لنابليون ، وهى التى تلهمهم قبول حكومة المحافظين تارة وقبول حكومة العمال تارة أخرى مع ما بين مبادئ الحزبين من تفاوت ، وهى التى جعلت القاضى الانجليزى مضرب المثل للقاضى الصالح ؛ وهى بالاختصار التى وضعت الانجليز للآن هذا الوضع الممتاز فى التاريخ العصرى

عبر التاريخ

ضربت المثل بالانجليز عامدا لأنا نخاطب القوم اليوم فى تحديد علاقاتنا بهم . وأضرب المثل بالعرب لأنى أكتب هذه الكلمة يوم الاحتفال بمستهل العام الهجرى

نشأ العرب على الحرية والاستقلال لا يشوبهما إلا خضوعهم لأوهام باطلة وعادات مرذولة ؛ فلما تطهرت نفوسهم باعتناق الدين الحنيف تحرروا من قيود العادات والأوهام التى لا تتفق والكرامة الانسانية

إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم من أروع أمثلة التاريخ فى استقلال الرأى والصلابة فى الحق ؛ ولكنه نبى يعمل فى حدود رسالته بما يوحى به الله ، بيد أنه بث فى أصحابه تعاليمه المطهرة للنفس ، والملهمة لروح الاستقلال ، فكان هذا مع نشأة العرب الحرة السبب فى سرعة تقدمهم بعد اعتناق الاسلام

فى أولى غزوات النبى ارتأى وهو فى مركز القائد الحربى أن ينزل بقوته فى نقطة معينة ، ولكن أحد أتباعه اعترض

على هـــذا فى أدب وكياسة ، فلما تبين للرسول صواب رأى نصيره أخذ به

إن الروح التى أملت على التابع المتفانى فى حب نبيه اعتراض رأى هذا النبى ، والتى دعت النبى إلى قبول رأى أحد أتباعه ، هى روح استقلالية ، فلا خشية فى الحق من جانب الصحابى ولا تعصب للذات من جانب النبى

لما قبض النبى لم يتحيز أتباعه لأهل بيته ويختاروا أحدهم خليفة ، بل اختاروا أبا بكر لأنهم رأوا صلاح الجماعة فى ذلك الاختيار ، والروح التى أملت هذا إنما هى روح الاستقلال والحرية

خطب أعظم خلفاء محمد فى الناس فدعاهم جهرة إلى تقويم اعوجاجه إذا رأوه أعوج ، فرد أحد الحاضرين بقوله : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيوف »

رأى عمرو بن العاص أن تفتح مصر ، ولم يكن الخليفة عمر ابن الخطاب يرى رأيه . ولكن القائد أقنع الخليفة بصواب الفتح فزوده بالرجال ليمضى فى تنفيذ مشروعه ، ولكنه تخوف ثانية ، وبعث له يسترجعه ، وقدر عمرو ما فى الرسالة ، فلم يفضها ، ومضى فى سبيله حتى نزل أرض مصر . وأصبح مضيه أمراً لا بد منه

والحادث يدل على عدم الاستبداد من جهة الخليفة ، وعلى الاستقلال والاعتماد على النفس والثقة بها من جانب القائد

ويطول بنا القول إذا ما حاولنا تقصى الحوادث التى من هذا النوع . فلنكتف بهذه الأمثلة للدلالة على أن نشأة العرب المستقلة ، وتعاليم الدين الحاضة على الحرية والمساواة والاعتماد على النفس ، جمعت فى العرب الاستعداد الفطرى بحكم النشأة الأولى والتعليم الرشيد ، والإيمان القوى بالعقيدة الاسلامية ، وحسن تفهمها ؛ فسادوا العالم فى سرعة أدهشت المؤرخين ، ونشأت أمة عربية ، قوية الأركان ، شامخة البناء

وفى كل عصر ، وفى كل بيئة تنجح الجماعة إذا سادت الحرية فى تصرفاتنا مع الغير وفى تناول ذواتنا ، أعنى حرية الجهر بالرأى والانطلاق من قيود التعصب للذات . بهاتين الصفتين نجح العرب وتقدموا وسادوا ، وبهما تقدم الانكليز وقويت شوكتهم وسادوا ، وبالاستمساك بهما نقوى ونسود ؛ فالتاريخ القديم والحديث مزدحمان بالأدلة على أن التربية الاستقلالية هى أقوى دعائم الأمم ، وإذا كان هذا أمرها فما سبيلها ؟

« يتبع » **محمد عبد البارى**

الملك أحمد فؤاد الأول

كمسلمٍ وعالمٍ

للأستاذ عبد الله مخلص

عضو المجمع العلمى العربى

لما نعى الناعى المغفور له الملك أحمد فؤاد الأول عاهل مصر العظيم ملك الحزن على مشاعرى وأخذ اليأس من نفسى كل مأخذ ، لا لأنى من الذين تربطهم به أو بمملكته رابطة شخصية فيريد أن يفى بعض حقهما عليه ، ولا لأنى أبتغى من وراء اصطناع الأسى أجراً أو شكوراً ، بل لأنى من أولئك المسلمين الذين يقدرون مصر الاسلامية حق قدرها ويعتبرونها اليوم أم البلاد وقبة الاسلام ومنبثق النور وبلد العلم فى العالم العربى ، وأن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها مدينون لها ولمسجدها الأزهر منذ ألف عام فهم يستنيرون بنورهما ويستهدون بهديهما ، ولذلك يرون لزاماً عليهم أن يعنوا بشؤون مصر ومصيرها وأن يشاركوها فى سرائها وضرائها ، ولأنى بدافع من هذه الدوافع الكثيرة من الذين سمعوا وعرفوا من خلال الملك الراحل وخصاله الغر الميامين ما يستحق الاجلال والاكبار من الناحيتين الاسلامية والعلمية فلم أتمالك عن كتب هذه السطور التى هى نفثة مصدور فأقول :

الملك أحمد فؤاد كمسلم

منذ نصف قرن ونيف والاسلام تتجاذبه عوامل الأخذ والرد بسبب هذه الثقافة الجديدة التى يظن حملتها أن لا بأس من ادخال التطور فى جميع مناحى الحياة حتى فيما يتعلق بالعقائد والأديان والعرف والعادة حتى رأينا من بعض الأمم الاسلامية بعض الشذوذ تحت ستار التمدن فصار الالحاد مدنية ونبذ العقيدة رقياً ، وأخذنا نسمع بما لم نألفه من نظريات علمية هدامة تنكر الله والرسل وسارت بعض الأمم شوطاً فى هذا المضمار الشائك الذى سينتهى بها حتماً إلى الهاوية وبئس المصير

فى مثل هــذه الحوانق اعتلى عرش مصر الملك المرحوم فلم

تبطره بهرجة الملك ، ولم تؤثر على عقيدته تلك النزعات والنزغات بل ظلّ على اسلامه الصحيح وعقله الرجيح

وإذا اعتبرنا أنه رحمه الله تعالى قضى أيام شبابه فى بيئة أجنبية أيام دراسته فى معاهد الغرب الكبرى التى لا تمت إلى الاسلام بصلة فان بقاءه مستمسكاً بعروة دينه محتفظاً بيقينه كان من نعم الله عليه وحجته على قوة إرادته

وإن ننس فلن ننسى له المحافظة على زيه الشرقى فى عواصم الغرب بينا نرى بعض ملوك المسلمين وأقيالهم يقلدون الغربيين تقليداً أعمى حتى بلغ من بعض ملكاتهم النسج على منوال الملكات الغربيات والظهور بمظهر المدنيات الراقيات ، وليس فى ذلك من رقىٍ ولا مدنية ، بل فيه خروج على التقاليد واللياقة وطعن فى صميم الكرامة وتبذّل غير محمود

فالملك فؤاد اقتعد الذروة فى هذا الخلق الاسلامى الكريم وضرب مثلاً أعلى للمسلمين ملوكهم وسوقتهم

الملك أحمد فؤاد كعالم

لو أننا تركنا جميع مآثر الملك المرحوم العلمية جانباً واقتصرنا فقط على أثره الخالد وهو لا يزال فى الامارة نعنى به الجامعة المصرية التى كان أول العاملين لها والحادبين عليها لكفاه شرفاً ونبلاً

فهذه الجامعة التى ترأسها وتعهّدها وصرف من قوى نفسه ونفيسه على نموّها وازدهارها هى مفخرة المفاخر بما قدّمته لمصر من الخدم العلمية الجلىّ . وها نحن أولاء نرى ثمارها دانية القطوف على أيدى أساتذة جهابذة يخرجون لنا فى كل عام مئات من الناشئين يملأون أرض الكنانة وبلاد العرب علماً وحكمة

والحق أن الجيل المصرى الذى عاصر أيام حياة الملك المرحوم كان سعيد الحظ بما وجد أمامه من المسهلات والمشوقات والمرغبات العلمية الكثيرة

وأنا كرجلٍ يُعنى بالتاريخ الاسلامى أذكر للمليك الراحل عمله المشكور فى تدوين تاريخ رسمى للدولة المصريّة ، فقد أمر رحمه الله تعالى بتأليف لجنة لهذا الغرض ووضع تاريخ يستخرج من الدفاتر والوثائق الرسميّة ، وكان صديق المرحوم أحمد تيمور باشا من أعضاء هذه اللجنة ، وهو الذى أعلمنى بذلك فى حينه

وكان من دواعى الغبطة للمؤرخين الاسلاميين ظهور مجموعة عزيزة المنال ، تتضمن الأوامر الصادرة من حكام مصر إلى عامل الواحات من زمن الفاطميين إلى زمن الخديو اسماعيل رحمه الله تعالى ، وهى الأوامر نفسها لا صورها

يقول المرحوم أحمد تيمور باشا فى كتابه لى : « ولا أظنّ نظيراً لهذه المجموعة فى الدنيا ، وقد بحثت عن سبب حفظ هذه الأوامر جميعها كل هذه المدة فى تلك الجهة النائية ، فأخبرت أن العادة فيها من القديم أن يُحفظ كل ما يصدر من الحكام إلى عاملها فى مكان خاص بالمحكمة الشرعية ، وبهذا تيسر حفظها . وقد رأيت بها من توقيعات الملوك كالغورى وغيره الشىء الكثير ، وكذلك توقيعات حكام الفرنسيس مدة احتلالهم لمصر وهى بالأفرنجية ، ولكن الأوامر بالعربية ، ولا أخفى عليكم أنى متلهف إلى الآن إلى صورة شمسية من هذه المجموعة ، ولكن « فيا دارها بالخيف » . اه

إن من حسن توفيق الله ظهور هذه الوثائق الاسلامية على يدى المرحوم الملك ، فلولا تفكيره فى تدوين تاريخ رسمى للدولة المصرية لما استطعنا الوصول اليها ، ولا الوقوف على تفكير أول قاض شرعى وضع الأساس فى جمع هذه الوثائق والمستندات القيمة فى تلك البلاد النائية البعيدة عن العمران الزورّة عن مدنية هذه الأيام

وأظن أن المساعى المتواصلة التى بذلت فى شأن هذا التاريخ قد أنتجت نشر أجزائه الأولى باللغة الفرنسية وستتبعها النسخ التركية والانكليزية والعربية طبعاً

إن مثل هذا الملك القوى العقيدة ، الراسخ الايمان ، العالم العامل البعيد مدى التفكير ، مما يُبكى عليه ، ويُحزن لفقده . ولكن فى خليفته وخلفه جلالة فاروق الأول خير عوض ، وأحسن عزاء لنا ، ورحم الله الشاعر العربى الذى قال فى حالة تشبه حالتنا هذه :

هَناءٌ محا ذاك العزاء المقدما ... فالبث المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع ... شبيهان لا ينفكّ ذا الشبه منهما

عبد الله مخلص
عضو المجمع العلمى العربى

ملخص محاضرة

اسبانيا العربية

ألقى الدكتور استانسلاو كيروخا اى دى اباركا استاذ الآداب الاسبانية فى جامعة صوفيا محاضرة قيمة باللغة الاسبانية فى مدرج الجامعة السورية بدمشق عنوانها « أسبانيا العربية » وقد لخصها الأستاذ لبيب الرياشى فيما يلى :

***

قسم المحاضر الكريم المنصف بحثه هكذا :

١ — نظرة عامة فى الفتوح العربية العالمية
٢ — افتتاح اسبانيا وتكوين مملكة عربية اسبانية
٣ — العلوم العربية والعمران ونوابغ العرب فى العلوم
٤ — سقوط الدولة العربية وأسبابه
٥ — الآثار الثمينة التى تركها العرب فى أسبانيا

المدنية العربية

إن اسبانيا بعد مرور خمسة قرون لا تزال عربية بدم سكانها وآدابهم وموسيقاهم ورقصهم وميولهم وحضارتهم

***

والمدنية العربية فى أسبانيا لا تزال إلى اليوم أسمى مدنية بريئة عرفها العالم

والكوكب الذى استنارت منه هذه المدنية أشعتها السامية هو « القرآن » وسيرة الرسول العربى

الفتوحات فى الاسلام

الخليفة فى الاسلام هو بمثابة قائد الجيوش العام ، والملك ، والبابا ؛ ورسالة الاسلام للعالم هى التبشير بالله واحد ؛ ولما كان المسلمون يعتقدون أن من مات مجاهداً فى سبيل الله وهدى العالم يكون جزاؤه الخلد ، كانت الجنود الاسلامية تضحى دون ما خوف ولا رهبة ، فتقاتل قتال البطل الباسل ، وبهذا افتتحوا سورية سنة ٦٣٨ ، ومصر سنة ٦٤٠ ، وتغلبوا على امبراطور القسطنطينية وافتتحوا الدولة الفارسية سنة ٦٤٢

كما افتتحوا قسماً كبيراً من الهند سنة ٧٠٧ ، واكتسحوا الغرب وتونس والأرخبيل ومراكش ، ومن ثمة دخلوا اسبانيا منتصرين سنة ٧١١

ولم يذكر التاريخ أن امبراطورية بلغت من السعة فى الملك والكبر والمجد ما بلغته هذه الدولة الفتية

فتوح اسبانيا

لنبحث عن اسبانيا الآن : بعد أن افتتح العرب اسبانيا سنة ٧١١ على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد « ٩٢ هـ » بقيت مقاطعة أو إمارة تأتمر بأمر الخليفة ، ولكن فى عام ٧٥٦ استقلت المملكة العربية الاسبانية عن الخليفة الكبير

واتخذت هذه المملكة المستقلة « قرطبة » عاصمة لها فأصبحت أغنى عاصمة فى العالم وأوفر مكانة بعناية مؤسس هذه المملكة « عبد الرحمن الأول » ، ورغم الثورات الكثيرة والاضطرابات العديدة ظلت هذه المملكة وطيدة الأركان من القرن الثامن إلى القرن الحادى عشر

وفى اسبانيا هذه كان يعيش قسم كبير من المسيحيين ترك لهم الاسلام حرية معتقداتهم وعاداتهم وحافظ على كنائسهم

ملوك اسبانيا

ويعد أفضل من حكم اسبانيا العربية الملوك الثلاثة :

« عبد الرحمن الأول ، وقد أسس قرطبة الجميلة الجيدة

عبد الرحمن الثانى ، وقد مهد الطرقات وشاد الأبنية العمومية الفخمة وأسال الأمواه فى المجارى الهندسية حيث لم يكن فى أوربا شىء من هذا

عبد الرحمن الثالث ٩١٢ — ٩١٦ عرف أنه كان أفضل ملك مثقف يحب العلم ويعمل على نشره ، وأقوى من جميع الملوك الذين عاصروه ، فقد نال انتصارات باهرة على الملوك المسيحيين الذين تحرشوا به حتى كان عدد كبير من الملوك الذين عاصروه يلتجئون اليه ويحتمون به

والحكم الثانى امتاز بحب العلم ونشر الثقافة ، ولقد أنشأ فى قرطبة مكتبة تحتوى أكثر من أربعمائة ألف مصنف

وفى عهد الخليفة هشام الثانى الضعيف الارادة تمكن المنصور وزيره الأول من محاربة الامارات المسيحية الثائرة

وسنة ١٠٠٢ اجتمع ملوك كابتجاليون وفقارا وباجتماعهم وتضامنهم تغلبوا على هذا القائد الجبار فى واقعة « كلا ثانياسير » عاصمة شوريا وهكذا لم يبق للعرب سنة ١٠٣١ سوى إمارات صغيرة أشهرها سافيجا وتولوزا

العلم والعمران

لم يشتهر العرب بالبطولة الحربية فحسب ، ولكنهم اشتهروا بالعلم والشعر والاقتصاد ، وعرفوا بتنشيط العلوم ونشر الثقافة

اقتبس العرب جذوة من علوم اليونان والفرس — فأشعلوا من تلك الجذوة منارة مضيئة

أسسوا مدارس علمية فى بغداد ودمشق ، أما فى اسبانيا فقد أنشأوا كلية « سالرنو » فى قرطبة ، وهى الكلية التى كانت لغتها عربية ، وعلومها عربية ، وأخلاقها عربية ، وكل ما فيها عربى ، وهى أقدم مدرسة طبية فى أوربة كلها

وهكذا ابتدأ العرب يشتغلون فى الكيمياء فاستكشفوا الكحول ، وأسسوا قصورا ومساجد وجنائن ، وجعلوا الأرياف بساتين زاهرة زاهية ، جروا اليها المياه فى أقنية هندسية ؛ لذا نقول بحق إن العرب كانوا أكثر مدنية فى القرون الوسطى من أوربا كلها

وإنى لأقول بحق إن المدنية العربية الاسبانية ، نعم المدنية العربية ، كانت جوهرة ثمينة فى ثقافتها وعلومها الاجتماعية وعمران مدنها وازدهارها فى جميع نواحى الحياة ، حتى إن مدينة باريس ولندن فى هذا العصر لم تمتازا عن حضارة العرب فى تلك العصور

إن قرطبة كانت تحتوى على مائتى ألف منزل ذى بناء شاهق وفن متقن ، وعلى ٦٠٠ مسجد ومستشفى وقصور فخمة ، وعلى ٩٠٠ حمام وجنائن هندسية زاهرة ، وأكثر من نصف مليون من السكان ، ولقد أسس ملوكها مدارس فى كل مزرعة وقرية ومدينة ، وعلموا الذكور والأناث القراءة والكتابة حتى لم يبق فى أسبانيا العربية أمى واحد

وقد كان فى قرطبة جامعة رئيسية ؛ والى هذه الجامعة كان يقصد عشاق العلم وطلابه ، ومن مفاخر هذه الرسالة العربية أن النساء كن يثقفن ثقافة كاملة شاملة

نعم النساء المخدرات كن يجدن القراءة ويعرفن التاريخ والفلك و . . .

وهكذا كان العرب الاسبانيون يشتغلون فى كل العلوم ، وعن العرب الاسبانيين صدرت شعلة الكيمياء والرياضيات

وأكثر الفنون التى أجادها العرب الاسبانيون : الهندسة والموسيقى والشعر . ومن الأبنية الكبرى التاريخية مسجد قرطبة وقصر غرناطة ، وتميز كل منهما بأقواسه وأعمدته وزخرفه

من النسل العربى هذا نحن أبناء اسبانيا ، نحن الذين لا نزال نستعمل حتى اليوم الطبل والغناء والموسيقى العربية والرقص العربى

الزراعة والصناعة :

وعناية العرب فى الزراعة كانت بالغة الحد الأقصى والعناية التامة ، فهم الذين زرعوا النخل ، والرز ، وقصب السكر ، والقطن ، الخ ...

أما الصناعة فقد تفوقوا فيها ، وأسسوا معامل للجلد فى قرطبة ، والورق فى البندقية ، وهذه المعامل كانت أول معامل من نوعها فى العالم

وفى عهد المنصور شعت المدنية العربية فأنارت أشعتها العالم . أما الأسس التى ارتكزت عليها هذه المدنية ، أما القطب الذى كونها وأدارها وعززها فهو « القرآن » وسيرة الرسول العربى ليصلوا الى أمنيتهم السامية فى تكوين حضارة صحيحة

وهنا عدد المحاضر أسماء عشرات من نوابغ العرب فى أسبانيا ونابغات العرب فى العلوم والفنون

ثم تطرق بعد ذكرهم إلى تغلب النصرانية عليهم بسبب تفرقهم وتخاذلهم وتضامن الأمراء المسيحيين واتحادهم سنة ١٤٩٢

ولقد عرض مشاهد القصور والمساجد والجنائن بالفانوس السحرى ، فاذا هى من الروائع التى تخلب الألباب ، وقال :

نور الدين الاسلامى

المادة الأصلية فى المدنية الاسلامية العربية الاسبانية هى نور الدين الاسلامى ، الدين الذى يجارى المدنية والحضارة فى أرق وأسمى معانيهما

وأستطيع أن أصارحكم مؤكداً أن المدنية العربية هى فى الجوهر مدنية شعب يستوحى من الله

(قل هو الله أحد ، الله الصمد)

على أسس هذه العقيـــدة رفعت أمجاد الجامعة العربية الاسلامية ؛ إنها عقيدة دينية ، نعم ، ولكنها فى نفس الوقت أسمى قوة اجتماعية

وختم المحاضرة قائلاً :

انتهى الحكم العربى فى أسبانيا منذ خمسة قرون ، أجل :

الأدب بين الخاصة والعامة :

لامرتين ورينه جارد

للسيد اسكندر كرباج

تابع لما نشر فى العدد الماضى

فيسأل لامرتين ضيفته : هل أصابكِ فى حياتكِ ما أحزنكِ يصدع قلبك ؟ فتجيبه : مراراً قليلة ياسيدى لأنى خالية البال من حمد الله . غير أن لكلّ أتراحه على هذه الأرض ، ولا سيما إذا كان فتاة مثلى لا أسرة لها ولا أقارب ولا زوج ولا بنين ، تنام وحيدة وتستيقظ وحيدة لا تسمع فى داخل غرفتها إلا سقسقة عصفورتها فى القفص . ولكن شاء القدر أن يحرمنى هذه الرفيقة اللطيفة بعد أن ألفتها فلقيتها صباح يوم ميتة وقد ضمَّت قائمتيها وفتحت منقارها وأطبقت أجفانها ، وبموتها حلَّت الكآبة فى الغرفة فلا سقسقة ولا فرح ولا صداقة ، فما أحزن هذه الحالة ياسيدى . ثم تجفف دمعتين كانتا تترقرقان فى محاجرها وتزيد على قولها :

إذا لم يكن للانسان مَن يحبه ويعطف عليه من أبناء جنسه فانه يميل الى الحيوانات وعشرتها . كانت عصفورتى تحبنى ، وكثيرا ما داعبتها وتحدثت اليها كأنها تنطق وتعقل . يقولون ليس للحيوانات أرواح ، ولكن لو لم يكن لعصفورتى روح فبماذا كانت تحبنى ؟ أبريشها وقوائمها ؟ وسمعتُ أيضا أن فى الفردوس أشجاراً تتفيؤها الأطيار . فأنا لا أرى أقل بدعة فى هذا القول ، أيمكن أن يكون الله مع صلاحه وعدله مخاتلاً ؟

فيسألها لامرتين : هل كتبتِ شيئاً فى موضوع حزنك ؟

فتجيبه : نعم كتبت لما نظرت القفص فارغاً والنبتة جافة على شباك النافذة ؛ طفر الدمع فى عينى ، فجلست الى المنضدة ونظمتُ قصيدة ناجيت بها تلك العصفورة الرقيقة كأنها لا تزال حية تسمعنى ، ولكننى لم أستطع تكملتها لفرط حزنى

فيقول لها لامرتين : أسمعينى هذه القصيدة أو ما تتذكرينه من أبياتها ، ولا بأس إذا جاءت متقطعة فبغيتى أن أقف على مبلغ ما فيها من الشعور لا على تناسق قوافيها

فتعمل فكرتها قليلاً ، ثم تنشد بصوت رقيق ولهجة مؤثرة أبياتاً من الشعر فى وصف عصفورتها وما كان بينهما من الصداقة والألفة

فيشكرها لامرتين على ثقتها به واظهارها له مكنونات قلبها . ثم تأتى زوجته ، وبعد أن تستقبل رينه بشىء من تلك الدالة ، وذاك العطف الذى يفقد الغريب بعض حيائه وارتباكه تدعوها إلى العشاء تحت شجرة تداعب أغصانها نسمات البحر محدثة فيها حفيفاً لطيفاً ، كان يذكر رينه بحفيف جناحى عصفورتها

ثم يقصدون إلى شاطئ البحر القريب ، ويجلسون على مقاعد زورق ، ويعودون إلى التحدُّث ، فتقول زوجة لامرتين لرينه : يظهر لى أنك ولوع بالمطالعة ، وهى التى جعلتك تتكلمين اللغة الوطنية بهذه البراعة ، والتعبير عن عواطفك بمثل هذا الشعر الشجى

فتجيبها رينه : نعم ياسيدتى ، إن المطالعة من أكبر أسباب غبطتى ؛ فبعد اشتغالى النهار كله ، وقيامى بواجب الصلاة لله ، لا أجد لذة إلا فيها ، فمن ينهض باكراً ويخيط حتى المساء يضطر إلى راحة أنامله وتسلية نفسه . إن علاقاتنا مع الجيران لا تتعدى تبادل التحية ، لأن النساء ينصرفن إلى إعداد الطعام ، أو إرضاع الأطفال ؛ والرجال بعضهم يرقد سريعاً لينهض باكراً إلى مواصلة عمله ، وبعضهم يصرف وقته وماله وصداقته فى الملاهى والمقاهى ؛ فماذا تفعل الفتاة المحتشمة مثلى لتمضية الليالى ، ولا سيما ليالى الشتاء الطويلة ؟ فاما أن تطالع ، أو أن تقف جامدة كالصنم

ولكن أسبانيا لا تزال عربية ، حتى فى القرن العشرين لا تزال شرقية ، لا فى جوامعها وأبنيتها وجنائنها فحسب ، بل وفى أخلاقها وعاداتها وموسيقاها ، ورقصها وشعرها ، وفى تهذيبها ومزروعاتها

ولهذا السبب تعلمون الآن أنى عند ما شاهدت دمشق شعرت أننى أشاهد أسبانيا ، وإذا ذهبتم لمشاهدة أسبانيا شعرتم أنكم فى دمشق

من هذا تعلمون أيها العرب أننا إخوة : العرب والاسبان إخوة ، نعم إخوة لأن سلالتهم سلالة واحدة ، ودمهم دم واحد ، وهم من نفس واحدة تكونوا ، وثقافتهم ثقافة واحدة وتاريخهم تاريخ واحد ، وحضارتهم حضارة واحدة

تنظر إلى جدران الغرفة ، أو الى ارتفاع دخان الموقد

فتقول لها زوجة لامرتين : ولكن ما هى الكتب التى يمكن مطالعتها ؟

فتجيبها رينه : هنا البلية يا سيدتى ، نريد المطالعة ولكن لا ندرى ماذا نطالع . لقد وضعت الكتب للذين من غير طبقتنا فاذا استثنينا الانجيلين وكاتب تقليد المسيح لا نجد بين المؤلفين والمنشئين من فكر فينا وجعل قسما من أدبه لنفعنا . من الطبيعى أن يفتكر الانسان فى الذين من طبقته ، فواضعو الروايات والمآسى والمهازل ، وناظمو القصائد والملحمات ، هم من طبقة أعلى من طبقتنا ، أو بالحرى خرجوا من بيئتنا الخاملة العاملة ودخلوا فى بيئات الملوك والأمراء والأشراف والأغنياء والسعداء وغيرهم من الذين يصرفون أوقاتهم عبثاً وأموالهم على الأباطيل

فيقاطعها لامرتين : لا لوم عليهم إذا هم نسوا الطبقة التى خرجوا منها ، أو تركوها جانباً ، وانصرفوا إلى ارضاء أهل البيئة التى دخلوها ، فمثلوا أفكارهم ، وتكلموا لغتهم ، وصوروا عاداتهم وأذواقهم ، فهذا الذكاء وهذه المعرفة وهذا الذوق المكتمل الدقيق الأنيق فى الطبقات العالية ، وهذه اللغة والعادات لا يمكن أن تكون كلغة وعادات الطبقات الفقيرة قبل أن تسمو بالتربية إلى ادراك كنه هذه الأشياء الجميلة . كان للقدماء كتّاب وفلاسفة وشعراء عبيد كايبكتاتو واسابو وتارنسيو ، ولكنهم لم يخصصوا أدبهم بالعبيد ؛ وكان لهم سقراط ، ولكن أفلاطون اضطر الى شرحه لهم كما اضطر تلاميذ هذا ، وهم أكثر منه معرفة الى تفسيره . وكان لهم شيشرون ولكنه خصص معظم أدبه بأفراد أسرة السيبيون ؛ ثم فرجيلوس الذى كان ينشد قصائده الرعائية فى حضرة أميرات بلاط أوغسطس قيصر ، ولكن الرعاة الحقيقين لم يتفهموه ؛ ثم هوراسيو وقد كان ينشد الخمرة والحب المباح بقصائد من الشعر الحافل بالمعانى الملتبسة والصور المأخوذة عن اليونان والتاريخ ، غير أن شعوب عصره لم تكن تنشدها وتدركها

فتقول له رينه : هذا حق يا سيدى إذا استثنينا روبنصن وحياة القدسيين فما هى الكتب التى وضعت لنا ؟ ؟ نعم إن لدينا كتابين آخرين هما « تلماك » و « بول وفرجينى » ، ولكن الأول كتب لتهذيب حفيد الملك ، وهو مما لا يهمنا أمره لأننا لسنا من أحفاد الملوك ، والثانى يحرك قلوب الجميع ، لأنه يصف لنا جمال الحب وروعته فى قلبى حبيبين رفيقين لا يستطيعان الحياة منفردين ، وكيف أن مطامع أهليهما حالت دون اتحادهما واكتمال سعادتهما . إن فرجينى ابنة جنرال ، وكان لها عمّة نبيلة أرادت أن تجعلها سيدة راقية ممتازة فأدخلتها الدير . إنها حوادث عجيبة ومشاهدات رائعة ، ولكنها حوادث لم تجر فى منازلنا وبين أفرادنا ، ومشاهد لم تقع عليها أبصارنا . فمن يكتب لنا الروايات والقصائد ؟ لا أحد ! أنا لا أدخل فى عداد الكتاب والشعراء والمؤلفين ، أولئك الذين يجمعون تقاويم تحمل بين ثناياها سخافات الأعوام الغابرة ونكاتها ، ويضعون روايات لا تستطيع العذراء مطالعتها إلا خلسة عن أمها ، وينظمون أناشيد تترفع الشفاه النقية عن التلفظ بها ، ولا أستثنى من هؤلاء إلا بيرانجر الذى أظهر آخرا جمال روحه فى رباعياته البديعة . فمتى يكون للفقراء مكتبة ؟ من يشفق علينا ويؤلف لنا كتاباً ؟

أبدت رينه نظريتها تلك برزانة تفوق معارفها ، وبلهجة تشفّ عن اعتقادها بفقر طبقتها الأدبى مما حمل لامرتين على الافتكار قليلا فى حقيقة ملحوظاتها وأهميتها . وبعد قليل قال لها لامرتين : لقد افتكرت فى كل ذلك يارينه ، أما الآن فقد تغيّرت أفكارى بعد أن سمعت أقوالك . حقاً إن الشعب الذى يريد التعلّم بالدرس والتسلية بالمطالعة والانتفاع بالخيال والتأثر بالشعور والارتفاع بالفكر ، إما أن يموت جوعا وإما أن يشمل بالفساد إذا لم ينتبه لنفسه . لذلك وجب أن تهتم الهيئة ، أو أن يخلق الله للشعب هوميروس عاملاً وميلتون مزارعا وطاسين جندياً ودانتى صناعياً وفنلون كوخياً وكورنيل وراسين وبوفون من رجال المعامل لكى يضعوا له ما لا تريد الهيئة الأثرة الكسول وضعه : أى أدبا يمثل عاداته ويعبر عن شعوره . إنى أعرض بالفكر ما فى المكاتب من المؤلفات النفيسة لأشهر الكتاب وأختار مجموعة صغيرة منها يمكن لأسرة نزيهة من المزارعين والعمال والخدم رجالاً ونساء كهولاً وشباناً أن تغذى بها حياتها الروحية ، وأن تتركها على الخوان بغير خوف ، وأن تطالع ليلاً وفى أيام الآحاد دون أن يعوزها مترجم أو مفسر ، فماذا وجدت ؟ وجدت التوراة كتاباً بديعاً حافلاً بالحكايات الشعبية كطفولة النوع البشرى ولكنها ملتحفة بالأسرار والعادات الشائنة والغيرة

والشرور وغيرها مما يفسد الروح والقلب والعادات فيما لو وضعت في يدى ولد أو تحت نظر الشعب الجاهل دون أن يوجد من يفسر معانيها ويهذب ألفاظها . ثم وجدتُ هوميروس وأفلاطون وسوفكلس وأسكيلوس ، ولكنهم عاشوا فى عصر غير عصرنا ، وكتبوا بلغة غير لغتنا ، ووصفوا عادات غير عاداتنا ؛ ثم وجدتُ فرجيلوس وهوراسيو وشيشرون وجوفنال وتاسيت ، ولكنهم كتبوا باللاتينية والشعب لا يعرفها ؛ ثم وجدتُ ميلتون وشكسبير وبوبى ودرايدن وبيرون وكرابله ، غير أنهم من الانكليز ؛ ثم تاسو ودانتى وبتراركا ، وهم ثالوث الشعر الايطالى ؛ ثم شيلر وجيته وفيلند وجزنر ، ففى كتبهم صفحات بديعة للشعب لأن الشعر الألمانى ينزل الى درجة الشعب والشعب يرتفع اليه ولكنها بالألمانية ؛ ثم سرفنتس وكالديرون ولوبس فيفا ، غير أن كتاباتهم هى من النوع الحماسى الذى لا يمكن تجديده الآن ؛ ثم الشعر الشرق السامى بحكمه ومعانيه من هندى وفارسى وعربى ، إنها كنوز مستورة من الخيال البشرى ، ولكن هذه الكنوز الثمينة هى باللغات السنسكريتية والفارسية والعربيــة ، ولا يوجد من يكتشفها وينقلها الينا

ثم وجدت شعراءنا الفرنسيين القدماء وجل منتوجهم من النوع الروائى الحماسى ، وفى المغامرات الغراميــة الوقحة والقوافى الأنيقة ، وكلها فى وصف حوادث البلاط والطبقات العالية . هذا بسكال ، فكتاباته إما مناظرات اكليريكية حول جوهر العقيدة لا يفهمها البسطاء ، وإما أفكار عميقة لا يسبر غورها إلا القليلون . وهــذا بوسويه ، فقد اشتهر ببلاغة تعابيره وقوة عارضته فى الخطابة ، وكان يسره أن يرعد ويبرق فوق الرؤوس المتوَّجة وفى قاعات البلاط ، ولكن بروقه لم تكن تصعق إلا الشعب الذى كان يستسلم روحا وجسدا إلى سيروس العصر ، فهو مجموعة رواميز فى اللغة والخطابة لا أكثر . وهذا أيضاً فنيلون ، ففى كتابه « تلماك » وفى المراسلات كثير من الأفكار السامية والمبادئ القويمة كالنفس المتدينــة والفلسفة الانسانية والظرف والعطف وروح الفضــيلة ، ولكنها صفحات بسيطة لا كتاب للشعب . ثم كورنى فهو سياسى مختصر ، وقد وقف فى مستوى لا يبلغه القلب البشرى ، وأدبه كناية عن عدة مشاهد وأمثال واندفاعات شعرية لا ترضى الشعب الذى يريد الحياة بالاسهاب فى شرح العواطف لا باختصارها ، والنفس فى نظره هى العبقرية ، ونفس كورنى كانت فى الكلام كنفس تاسيت . ثم راسين ، فهذا ولد ليكون شاعر الشعب ؛ غير أن شعب عصره لم يكن خليقاً به لسوء الحظ ، لأن البلاط الذى اجتذبه اليه احتفظ به ضد الشعب ، ولا يوافق هذا من أدبه إلا مأساتاه : « أستير » و « ثعاليا » بالنظر إلى صبغتهما الدينية ، وما عداهما يخص الأبهاء . ثم ڤولتير وهو روح جبارة استوعبت كل المعارف والعلوم ، ولكن لم يخرج عن كونه مزيجاً من روح وعقــل ونور ونقد ونعومة وخشونة وهزء وجــدل وأحياناً وقاحة . إنه لم يكن قط نفساً وحناناً وحباً وعطفاً وشــفقة على البائسين ؛ كان فيلسوف السعداء ونبيل الأذكياء وشاعراً ضئيل النور لا يتبينه جداً بسطاء القلوب ، يضىء فى المكاتب ليخبو فى الحقل أو فى مسكن الفقير

وإذا نظرنا إلى مؤرخينا لا نجد بينهم من كتب للشعب ، فونتيسكيو كثير العلو ، ورولين صالح ولكنه شديد الأمانة فى ترجمة الماضى فلا يستطيع مطالعته من كانت ساعاته محدودة

وكذلك روائيونا فانهم اتخذوا أشــخاص رواياتهم من الطبقات العالية وعبروا عن العواطف بلغة الأبهاء المنمقة لا بلغة الطبيعة الساذجة . فلا يصلح منها شىء للشعب

ثم فلاسفتنا كديكارت وملبرنش وكوندياك وكل الحديثين ، فهما أعيد طبع مؤلفاتهم فلا أعتقد أن الشعب يقبل على مطالعتها ، لأن فلسفة الشعب هى فى الشعور لا فى الادراك ، فمنطقه غريزته ، وبرهانه تأثره ، واستنتاجه دموعه . ومن مؤلفات جان جاك روسو لا يصلح للشعب إلا الصفحات المائة الأولى من كتابه « خورى سافويا » وبعض فصول من « الاعتراف » ؛ وكذلك شاتوبريان لا يقرأ من مؤلفاته إلا « رينه » و « اتالا » حيث امتزجت الفلسفة بالدموع ، والحنان بالحب

أما مسارحنا فلا يمثَّل عليها إلا ما كتب للملوك أو الطبقات المتأدبة بدليل انصراف الشــعب عنها الى تمثيل الروايات الغنائية التى اخترعها لنفسه . وكذلك علماؤنا فقد كتبوا فى الجبر بلغة واصطلاحات تجعل العــلوم الطبيعية فى حالة الغموض لمن لم يتمرَّن عليها ، فالذى يجب أن يعبر عن العلوم بلغة الشعب البسيطة لم يخلق بعد . إنه خلق ولكن فى انكلترا ؛ هو ابن هرسكل

لعبرة فى وفاة الملك

ديمقراطية الموت

للأستاذ محمود غنيم

الموت آية ، ولكن موت الملوك آية كبرى ؛ والموت عظة ، ولكن موت الملوك عظة بالغة

بالأمس تهجم الموت على ذلك الحرم المقدس ، واقتحم أسوار هذا الحصن المنيع الذى تغضى العيون حياء من مهابته ، ولا تلجه الشمس إلا بعد استئذان ؛ اقتحم الموت بلاط ابن اسماعيل ، وحفيد ابراهيم ، والجالس على عرش فرعون ، فلم يحدّد للزيارة ميعاداً ، أو لم يحدَّد له ميعادٌ ، ولم يلزم الباب حتى يُسمح له بالدخول كما تقضى المراسيم عند زيارة الملوك ، ثم مد يده فى أناة ورفق ، بل فى عنف وقسوة ، فسل روح الملك من جسمه ، كما تُسل كل روح من كل جسم ، ثم انصرف هادئاً مطمئناً ، كأن لم يفعل شيئاً ، فاذا الحرس واجم ، والسلاح كليل ، والطب يطرق حياء ، وجبين العلم يتصبب عرقاً ، وإذا الشرارة تنطلق فى القصر ، فيندلع لهيبها فى مصر ، ويسمع دويُّها فى الخافقين !

يالله ! أيمرض فؤاد كما يمرض أى فرد ممن يظلهم عرش فؤاد ؟ كنا نظن عرشه حمى تتحاماه الأسد ، وتتقيه عوادى الدهر ، فما بال جراثيم المرض تنفذ إلى ذلك الحمى ، وما بال ميكروباته تتسرب إليه ، وما بال أهون خلق الله شأناً يفتك بأعظم خلقه شأناً ؟ حقاً إنه الموت ! ديموقراطى ، لا يميز بين الملوك والسوقة ، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

يمرض الفقير ، فيرمى أهله بالتقصير ؛ يقولون : تهاونوا فاستفحل الداء ، أو أساءوا اختيار الأطباء ، فما بال الملوك يتقلبون على فراش المرض ، ويقاسون ألم النزع ، ويتجرعون كأس الحمام ؟ أيها البرق . توعك مزاج الملك فطير الأنباء . أيتها الطيارات ، احملى من مختلف الأصقاع نطس الأطباء . أيها العلم هات أحدث ما تمخضت عنه معامل الكيمياء . وأنت أيها الموت مالك جامداً فى مكانك لا تريم ، هازا كتفيك استخفافاً ، مفتر الثغر عن ابتسامة مروعة ، تسرح طرفك بين هؤلاء وهؤلاء ، فى سخرية واستهزاء ؟

أهكذا يُفعل بالملوك ؟ لك العزاء والسلوة أيها الفقير ! ليس المرض وقفاً عليك ، وليس الموت وقفاً عليك . إنك لا تتعذب وحدك أيها المسكين ، ولكن الملوك أيضاً يتعذبون ! الملوك الذين تنظر اليهم نظرة التقديس ، وتخلع عليهم ثوب الألوهية ، وتغبطهم فى يقظتك ، وتحلم بنعيمهم فى منامك ، والذين تعتبرهم مثلك الأعلى ، وتعتقد أن الخطوب لا ترق إليهم ، وأن لهم عيشاً أنعم من الحرير وألين من الماء : هؤلاء يمرضون أيضاً ويموتون ، ولعلهم فى عيشهم محسودون بما هم منه با كون !

هذا هو ابن اسماعيل ، وحفيد ابراهيم ، تُستأصل نواجذه بلا مخدر ، فيحتمل راضياً أو كارهاً تعلقا بالحياة ؛ وتُشق لثته ثم تخاط بلا مخدر ، فيحتمل راضياً أو كارها تعلقا بالحياة ؛ ويُحرّم عليه الأسرة ، فينطرح على كرسيه ثم ينام أو لا ينام ، فيحتمل راضياً أو كارها تعلقا بالحياة ؛ وأخيرا ها هى ذى الحياة ، تتدلل تدلل الهيفاء ، وتجفو فتسرف فى الجفاء . وها هو ذا شبح الموت يقتحم البلاط ، رغم كل احتياط !

ماذا تقول النشرات الطبية ؟ — القيح ! التعفن ! التسمم : أسماء تتداولها ألسنة العامة ، وكأننا كنا نخالها وقفاً على أبدانهم ، وما كنا نظن أنها تعرف الطريق الى ذوات الملوك ، ذوات الملوك المصونين عن العبث ، الموضوعين فوق القوانين ، الذين لا تنالهم الألسن إلا بالهتاف ، ولا الأفواه إلا باللثم ، ولا تطأ الشفاهَ أسماؤهم إلا همسا ، ولا تنالهم الأيدى إلا بالسلام إيماءً من بعيد ؛ فى هذه الذوات المقدسة تسرى سموم الموت ، وينشب أظفاره الموت ، والموت ديمقراطى لا يميز بين الملوك والسوقة ، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

« لا أريد أن أموت » هكذا يقول الملك ؛ والملك إذا قال

فمن كل ما كتب بالفرنسية لا توجد إلا خمسة أو ستة كتب تصلح للطبقات الجاهلة فى المدن والقرى

يعلّمون الشعب القراءة ، ولكنهم لا يضعون له الكتب اللائقة به ، فهم إما أنهم يقدمّون له مؤلفات كتبت لغيره أو أوراقاً محشوة بالنقائص والوقاحة كمن يقدّم سلاحا لطفل ليجرح به نفسه

« العصبة » يتبع

اسكندر كرباج
من العصبة الأندلسية

فكلمته مرسوم نافذ ، واذا أشار فاشارته قانون محترم ، وإذا أومأ فايماءته أمر واجب الطاعة ، ولـكن الموت — قاتل الله الموت — لا يحسن الخضوع للمراسيم ، ولا يعرف كيف ينفذ القانون ، ولا ينحنى أمام أوامر الملوك

مات الملك فى الشرق وكان ابنه فى الغرب ، وقد فصل القضاء بين الاثنين بحر وبرين ، أليس من حق الراحل أن تكتحل رؤية ابنه عيناه قبل أن يفارق الحيـاة ؟ أمنية يظفر بها المغمور الصعلوك ، بله الأمراء والملوك ؛ أمنية يظفر بها المحكوم عليه وهو من حبل المشنقة قاب قوسين ، ولـكن الملوك يتمنونها فلا يجدون اليها سـبيلاً . إيه أيها الموت ! هلا تريثت قليـلا حتى يؤوب الغائب ؟ إيه يا جنود سـليمان ! هلا حملت النازح البعيد على أجنحتك التى حملت عرش بلقيس ؟ لا هـذا ولا ذاك ، إذن فليتعز الراحل العظيم ، بكتاب ابنه الـكريم ، ولـكن كتاب الولد البار لا يكاد يصـل الى الوالد الواقف على حافة الأبدية حتى يضن الموت أخيرا كما ضن أولا ، وحتى ترتعش اليد رعشة الموت ، فيتدحرج الخطاب ، وينسدل بين البصر وبينه حجاب ، ويلفظ القارىء نفسه الأخير ، ويكون آخر ما قبضت عليه يمينه كتاب ابنه المحبوب ، وآخر ما فاه به اسم ابنه المحبوب ، وآخر ما انطبع فى مخيلته صورة ابنه المحبوب

ها هو ذا الملك مسجى على سرير من ذهب لا يرد اليه الحياة ، مغطى بأكفان من الحرير لا تخفف من خشونة الموت شيئاً ؛ أمامه مباخر من عنبر لا تنفس من سكرة الردى ! النعش هو النعش ، حملته الأعناق ، أم جرته الخيول العتاق ؛ والقبر هو القبر من طين وماء ، أو من مرمر ورخام ، فى صحراء جرداء ، أو فى جوف هرم من الاهرام . أطلقوا المدافع ، ونظموا المواكب ، وأعلنوا الحداد ، ونكسوا الأعلام ، فلن تغيروا من حقيقة الموت شيئا . الموت هو هو ، ديموقراطى لا يميز بين الملوك والسوقة ، ولا يدين بالفروق بين الطبقات

مات الملك فورث ولى عهده تاجا وصولجانا ، ونهراً عذبا ، ومملـكة فيحاء ، وأمة مطيعة مخلصة ، ولـكنه بجانب ذلك فقـد عطف الأب البار ، وحنان الوالد الرحيم ؛ فليت شعرى أخاسرة تلك الصفقة أم رابحة ؟ وأية الـكفتين هى الراجحة ؟ ، لست أدرى ، ولـكن الذى لاشك فيه أن كل شىء يمضى ويعود ، حتى العروش والتيجان ، ولـكن الميت لا يعود ، وأن الملك الجديد لو بذل عرشه فى سبيل نظرة من أبيه أو كلمة يسمعها من فيه ما سمح الموت ، لأن الموت ديموقراطى لا يميز بين الملوك والسوقة ولا يدين بالفروق بين الطبقات

هكذا تتساوى الرؤوس عند الموت بالرؤوس ، أو تتساوى الرؤوس بالأذناب ، كما تســاوت الرؤوس بالرؤوس ، أو الرؤوس بالأذناب عنـد انحدارها من الأصلاب . الـكل من التراب ، والـكل إلى التراب . ومالى لا أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأزعم لك أن الناس كما يـستوون فى طرفى الحياة ، يستوون فى الحياة ؛ وأزعم أن فى الحياة نصيباً مشتركا من السعادة ، وآخر من الشقاء ، كل الناس فيهما سواء . وما دام كل إنسان لا يقنع بما هو فيه ، بل يمتد نظره إلى أبعد منه ، ويتمنى على دهره الأمانى ، فيبسط له الدهر إحدى يديه ، ويقبض الأخرى ، فلا يقنع الانسان عند البسط ، ولا ييأس عند القبض ، فهو أبدا آمل ، كادح ، مخفق ، ناجح ؛ أقول مادام أنه لا سبيل إلى الكمال المطلق ، إما لأنه غير موجود ، أو لاستحالة الوصول اليه ، فالناس فى الحقيقة سواء ، وما اختلافهم فى الجاه والمـال والمراكز الاجتماعية إلا أمور اعتبارية

لا أستطيع أن أعرف السعادة ما هى ، غير أن الذى لا أشك فيه أنها ليست المـال وحده ، وليست الجاه وحده ، وليست الجمال وحده ، قد تـكون مزيجاً من ذلك كله ، وقد تـكون غير ذلك كله ، وقد يكون الألم جزءاً من ماهية السعادة ، أو شرطا من شروطها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فـكيف تستطيع أن تضع الفوارق بين السـعادة والشقاء ، أو تومئ بأصبعك إلى شخص معين فتقول : هذا شقى ، وإلى سواه ، فتقول : هذا سعيد

أيها الراحل العظيم ، لقد تبوأت سرير الملك
فى ساعة يذر الأمرة نحسها مثـل النجوم طوالعاً وأفولا

ولقد خلفت سرير الملك ، وما تزال الجدود عاثرة ، والأسرة متناثرة ؛ ولـكنك عشت ملـكا ، ومت ملـكا . والآن قر فى مضجعك ، فلا قرار مع الحياة ؛ والتمس فى باطن الأرض الراحة التى خانتك على ظهرها . إن للملك لهما ، وإن للشعوب من الأحمال الثقال ، ما تنوء بحمله ظهور الرجال ؛ وإن لك فى جوار ربك لعوضاً أى عوض . أحسن الله عزاءنا فيك ، وبارك لنا فى خلفك المحبوب

كوم حمادة — محمود غنيم

الحياة الأدبية فى الحجاز

للأستاذ عبد القدوس الأنصارى

نشر الأساتذة : على الطنطاوى وعبد الوهاب الأمين وسامى الشقيفى وغيرهم فى مجلة (الرسالة) الغراء بحوثاً ممتعة عن الحياة الأدبية فى أوطانهم ، فأجادوا وأفادوا ، وجلوا لنا بأقلامهم المرهفة حقيقة هذه الحياة

ولما كانت هذه البحوث عبارة عن جزئيات يتألف من مجموعها موضوع كلىّ عام ، هو الهدف الاسمى ألا وهو (تصوير الحياة الأدبيــة فى البلاد العربية) رأيت — والحالة ما ذكر — أن أدلى بدلوى وأقول كلمتى عن الحياة الأدبية فى الحجاز ، استكمالاً لحلقات البحث ، ووفاء بحق هذا القطر الذى هو مهد الأدب العربى الأول

كانت الحياة الأدبية عندنا فيما قبل الحرب العامة الماضية تجرى على سنن أدباء القرون الوسطى جريا تقليدياً محضاً ، ميكانيكياً خالصا ؛ قصائد غزل ورثاء ، ومدح وهجاء ، وتطريز وتشجير ، ورسائل معذرة وإطراء ، وعتاب وتواصل وتقاطع ... وكانت كل هــذه الرسائل وهاتيك القصائد منهوكة القوى المعنوية بما تحمّله دواماً من أغلال السجع المرهقة ، وأثقال المحسنات البديعية الجافة ... للألفاظ فى الأدب عامةً المقام الأول : أما المعانى فهى فى الدرجة الثالثة أو الرابعة فى الأهمية . بقدر اقتدار الأديب ناثراً أو شاعراً على تنميق الألفاظ يقاس أدبه ، وبموجبه يصدر له أو عليه الحكم

هكذا كان الجو الأدبى هنا محاطاً بسياج من الجمود ... فلما وضعت الحرب العامة أوزارها استيقظ فى نفر من ناشئة الحجاز المتعلمين روح النهوض ، وشعروا أن أدبهم قد أخنى عليه التقليد وأفسده داء الجمود ، فتركه هيكلاً عظمياً نخراً باليا ، نابياً عن الحياة ، بعيداً عن مطالبها ، فاقداً روح الحياة ، فاشمأزوا من هذه الحالة المزرية . وهنا ابتدأ دور العمل فى الانقاذ ، ومن هنا ابتدأ عصر التجديد

إلى أين نتجه ؟ كيف نجدد هذا الأدب الرث البالى ؟ أين الطريق ؟ وأين الدليل ؟

هنا شاهدنا سبيين ممدودين الينا من أقطار العروبة الناهضة ، وكل منهما له مغرياته ، هذا الأدب المصرى يجذبنا بنصاعة أسلوبه وقوة تركيبه ، وهــذا الأدب المهجرى يسحرنا بمرونة أسلوبه وسهولة تعبيره . كان طبعيا — والحالة كذلك أن يحصل انقسام فى اتجاه حياتنا الأدبية . فنى المدينة كان منا إجماع على اعتناق الأدب المصرى أسلوبا وتفكيرا ، وفى مكة وجدة تمسكت طائفة بذيول الأدب الهجرى ، وأخرى اعتنقت الأدب المصرى . وكل سار فى اتجاهه يكتب ويفكر ، ويفكر ويكتب ، حتى كان تفاعل فكرىّ فى الآونة الأخيرة أنتج « توحيـــد » مناهج الأدب الحجازى فى انتهاج سبيــل الأدب المصرى وحده . ومن هنا وبسبب تضافر الجهود وقوة الاتحاد رأينا الأدب الحجازى يخطو إلى الأمام خطوات سريعة تشف عن استعداد عظيم

على أن حياتنا الأدبية بسبب حداثة عهدها ولكونها نتيجة ثقافة محدودة فانها ما تزال بحاجة الى الاصلاح والتغذية ، وإلى التنظيم والنضوج . فالاضطراب الفكرى والارتجاج الكتابى ، ظاهرتان ما تزالان تلازمانها فيما تنتجه من ثمار . ومع كل هذا فاننا لعلى اعتقاد أكيد باضمحلال هاتين الظاهرتين متى تضافرت الجهود فى سبيل الاصلاح

وحياتنا الأدبية انما تستمد كيانها وعناصرها من الأدب العربى الاسلامى القديم ، كمؤلفات الجاحظ وقصائد المتنبى ، ومن نتائج قرائح أدباء مصر المعاصرين ؛ وقلما تأخذ أية فائدة أو تستمد أية فكرة عن الأدب الغربى رأساً لعدم المام الأكثرية الساحقة من القائمين بها باللغات الأجنبية الماماً يؤهلهم للافادة والاستفادة

ولقد خطت حياتنا الأدبية خطوات مباركة فى سبيل النشر والتأليف ، فمع وجود كثير من العقبات والحوائل قد ظهر فى عالم المطبوعات كتب أدب حجازية منها : كتاب أدب الحجاز ، وكتاب آثار المدينة المنورة ، ورواية التوأمان ، واصلاحات فى لغة الكتابة والأدب ، والتحفة الشماء فى تاريخ العين الزرقاء ، وحياة سيد العرب ، والانتقام الطبعى

وفى الحجاز اليوم صحيفة أدبية هى الأولى من نوعها ، وهى

أندلسيات :

أبو الفضل بن شرف
الشاعر الفيلسوف
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

« الناظم الناثر ، الكثير المعالى والمآثر ، الذى لا يدرك باعه ، ولا يترك اقتفاؤه واتباعه ؛ إن نثر رأيت بحراً يزخر ، وإن نظم قلد الأجياد دُرًّا تباهى به وتفخر ، وإن تكلم فى علوم الأوائل بهرج الأذهان والألباب ، وولج منها فى كل باب ؛ وقد كان أول ما نجم بالأندلس وظهر ، وعُرف بِحَوْكِ القريض واشتهر . تُسدّد اليه السهام ، وتنتقده الخواطر والأوهام ، فلا يصاب له غرض ، ولا يوجد فى جوهر احسانه عَرَض ؛ وهو اليوم بدر هذه الآفاق ، وموقف الاختلاف والاتفاق ، مع جرى فى ميدان الطب الى منتهاه ، وتصرف بين سماكه وسهاه ، وتصانيف فى الحكم ألف منها ما ألف ، وتقدم فيها وما تخلف ، فمنها كتابه المسمى يسر البر ، ومنها الكتاب الملقب بنجح النصح وسواها ، من تصانيف اشتمل عليها الأوان وحواها » ... هذا هو كل ما قاله الفتح بن خاقان فى ترجمته لهذا الأديب الشاعر ، الفيلسوف النطاسى [1] أبى الفضل بن شرف . وقد جرى الفتح فى هذه الترجمة على شنشنته فى سائر تراجمه ، فلم يذكر اسم المترجم له ، ولا اسم أبيه ولا منشئه ، فضلاً عن أنه أغفل تاريخ مولده ووفاته .. وكذلك لم نر لغير الفتح ترجمة لهذا الأديب الكبير يصح أن تسمى ترجمة يعول عليها [1] ... ولكنا مع هذا أترانا لا نعرض لترجمة أمثال هذا الأديب البارع المتفنن الذى نبغ منه شعرٌ شاعر وحكمة بالغة وكان إلى ذلك نطاسياً عظيما ، كما يؤخذ من كلام الفتح ، ومن ثم يعد بحق من مفاخر الأندلس ؟ وما قيمة عملنا إذا نحن ضربنا الذكر صفحاً عن مغمورى أفاضل الأندلس أولئك الذين لم يوف المؤرخون تراجمهم حقها . . ؟ وإياك والظن أنا نعنى بقولنا مغمورين أنهم لم يكونوا مشهورين فى عصورهم ، وإنما نعنى أنهم مغمورون فى نظر أدباء هذه الأجيال . وقليل لعمرى من سمع منا بهذا أبى الفضل بن شرف سماعه مثلاً بابن هانئ وابن خفاجة وابن زيدون وابن عمار وابن وهبون وابن عبدون وأمثالهم ممن اضطرب ذكرهم وكانوا من المشهورين

« وأما بعد » فهل تدرى من هو أبو الفضل بن شرف هذا ؟ أظنك لا تجهل أديب القيروان وكاتبها وشاعرها أبا عبد الله محمد ابن أحمد بن شرف الجذامى القيروانى قرين ابن رشيق ومنافسه فى خدمة المعز بن باديس ومنادمته والمتوفى سنة ٤٦٠ هـ ؛ إذن فلتعلم أن المترجم له هو ابن هذا الأديب القيروانى العظيم واسمه جعفر بن أبى عبد الله محمد بن أحمد بن شرف المذكور . دخل الأندلس مع أبيه ، وهو ابن سبع سنين ، وقيل إنه ولد فى الأندلس بعد أن نهد اليها أبوه وأقام بقرية من قراها تسمى بَرْجَه [2] ومن ثم يقال للمترجم أبو الفضل بن شرف البرْجى . وللمترجم ابن فيلسوف شاعر مثله هو أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل المذكور — وهو القائل :

وكريم أجازنى من زمان ... لم يكن من خطوبه لى بُد
منشد كلما أقول تناهى ... مالمن يبتغى المكارم حد

هكذا يحدثنا المقرى عند إيراده قفيَّة المترجم التى يمدح بها المعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف والتى ستمر بك قريباً . ومن هذا ومن قول الفتح فى كلمته التى صدرنا بها هذه الترجمة ، « وهو اليوم بدر هذه الآفاق » يستنتج أن المترجم أبا الفضل بن شرف هذا أدرك ملوك الطوائف ودولة المرابطين ، أى أنه عاش فى أواخر

(١) الطبيب

(١) ويؤخذ من خطبة الذخيرة أن ابن بسام ترجم له ، ولكن ترجمته إنما هى فى الأجزاء المفقودة

(٢) مدينة من أعمال ألبيرة

(صوت الحجاز) التى تصدر بمكة ، وهذه الصحيفة هى المنبر الوحيد الذى يتبارى من فوقه حملة الأقلام فى الحجاز ، وفى نية بعض اخواننا من أدباء المدينة وشبابها انشاء صحيفة فى المدينة كصوت الحجاز ، ونرجو لهم التوفيق ، لأن الصحافة كما أنها عنوان رقى البلاد فانها الباعث الوحيد لانهاضها وانعاشها فى هذا العصر

وخلاصة القول أن فى الحجاز اليوم حياة أدبية ، واحساساً أدبياً ، زاخرين بالآمال فى مستقبل أدبى مجيد رائع لهذه البلاد . والآمال هى مصابيح الحياة ؛ وما دامت حياتنا الأدبية تحمل بين يديها هذه المصابيح ، فانها ولا ريب بالغة قمة النجاح

(المدينة المنورة — الحجاز) **عبد القدوس الأنصارى**

القرن الخامس وأوائل القرن السادس

وقد حدثنا الفتح فى كلمته بأنه شاعر وأنه فيلسوف وأنه طبيب . أما أنه طبيب فلم نقف له على أثر فى الطب ويبدو أنه كان يحترف الطب ويتكسب به وإن لم يؤلف فيه ، وربما ألف وضاعت تواليفه فيما ضاع من شتى التواليف . وكذلك الحكم فى أنه فيلسوف إذ لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً من آثاره فى الفلسفة ، ولعلهم يعنون بفلسفته ما أثر عنه من الحكم مثل هذه الكلم الجوامع ، والحكم الروائع التى أثرت عنه وهى : « العالم مع العلم كالناظر للبحر ، يستعظم منه ما يرى وما غاب عنه أكثر . الفاضل فى الزمن السوء كالمصباح فى البراح ، قد كان يضىء لو تركته الرياح . لتكن بالحال المتزايدة أغبط منك بالحال المتناهية ، فالقمر آخر ابداره ، أول إدباره . لتكن بقليلك أغبط منك بكثير غيرك ، فان الحى برجليه وهى ثنتان ، أقوى من الميت على أقدام الحملة وهى ثمان . المتلبس بمال السلطان كالسفينة فى البحر إن أدخلت بعضه فى جوفها أدخل جميعها فى جوفه . التعليم فلاحة الأذهان ، وليست كل أرض منبتة . الحازم من شك فروّى ، وأيقن فبادر . قول الحق من كرم العنصر كالمرآة كلما كرم حديدها أرت حقائق الصفات . ليس المحروم من سأل فلم يعط ، وإنما المحروم من أعطى فلم يأخذ . يا ابن آدم ! تذم أهل زمانك وأنت منهم ، كأنك وحدك البرىء ، وجميعهم الجرىء ، كلا بل جنيت وجنى عليك ، فذكرت ما لديهم ونسيت ما لديك . اعلم أن الفاضل الذكى لا يرتفع أمره أو يظهر قدره ، كالسراج لا تظهر أنواره أو يرفع مناره ، والناقص الدنىء لا يبلغ لنفعه إلا بوضعه ، كهوجل السفينة لا ينتفع بضبطه ، إلا بعد الغاية فى حطه » . . . . إلى أمثال هذه الكلمات البديعة الحكيمة الشاعرة الناصعة البيان ، المنيرة البرهان ، التى لا تصدر إلا عن حكيم جهبذ من الراسخين ، وأديب بارع من ذوى القرائح المطبوعين . ويشبه هذه الكلمات من شعر المترجم له قوله :

إذا ما عـدوك يوماً سما ... إلى رتبـة لم تطق نقضها

فقبل ـ ولا تأنفن ـ كفه ... إذا أنت لم تستطع عضها

وإذ قد وصلنا إلى شعر هذا الشاعر الفيلسوف كما يطلق عليه الأندلسيون فلنذكر أن شعره الذى وقع الينا ينم على أنه شاعر متفنن رفيع الطبقة رصين الشعر ، دقيق الفكر ، لطيف التمثيل . ومن قصائده الفائقة قصيدته القافية التى أنشدها المعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف ، وكان قد قصر أمداحه عليه ، وكان يفد عليه فى الأعياد وأوقات الفرج والفتوحات . ولما وفد عليه وأنشده هذه القصيدة كان فى زى تظهر عليه البداوة بالنسبة إلى أهل حضرة الملكة [1] واليك هذه القصيدة :

مَطَلَ الليل بوعـد الفلق ... وتَشكّى النجم طول الأرق

ضربت ريح الصبا مسك الدجى ... فاستفاد الروض طيب العبق

وألاح الفجر خـدا خجلا ... جال من رشح الندَى فى عَرَق

جاوزَ الليـــل إلى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورق

واستفاض الصبح فيه فيضة ... أيقن النجم لها بالغرق

فانجلى ذاك السنا عن حلك ... وامحى ذلك الدجى عن شفق

بأبى بعد الكرى طيف سرى ... طارقا عن سكن لم يطرق

زارنى والليل ناع سُدْفَه ... وهو مطلوب بباقى الرمق

ودموع الطَّلّ تَمريها الصبَا ... وجفون الروض غرقى الحدق

فتــأنى فى إزار ثابت ... وتثنى فى وشــاح قلق

وبجلى وجهه عن شعره ... فتجلى فلق عن غسق

نهب الصبح دجى ليلتــه ... فحبا الخـــد ببعض الشفق

سلبت عيناه حَدَّى سيفه ... وتحلى خــده بالرونق

وامتطى من طرْفه ذا خبب ... يلثم الغبراء إن لم يعتق

أشوس الطرف عرته نخوة ... يتهــادى كالغزال الخرق

لو تمطى بين أسراب المهـا ... نازعته فى الحشا والعُنق

حسرتْ دُهمته عن غُرة ... كشفت ظلماؤها عن يقق

لبست اعطافه ثوب الدجى ... وتحلى خـنده باليقق

وانبرى تحسبه أجفل عن ... لسعة او جِنة أو أوْلَقِ

مدركا بالمهل ما لا ينتهى ... لاحقا بالرفق ما لم يلحق

ذو رضى مستتر فى غضب ... ذو وقار منطوٍ فى خرق

وعلى خَدّ كعضب ابيض ... أذن مثل سنان أزرق

كلما نصبها مستمعاً ... بدت الشهب الى مسترق

حاذرت منه شبا خَطيّـــة ... لا يجيد الخط ما لم يمشق

كلما شامت عذارى خده ... خفقت خفق فؤاد فرق

فى ذرى ظمآن فيه هيف ... لم يدعه للقضيب المورق

يتلقانى بكعب مصقع ... يقتفى شأو عـذار مفلق

إن يدر دورة طرف يلتمح ... أو يجل جول لسان ينطق

(١) عاصمتها وكانت عاصمة مملكة المعتصم بن صمادح مدينة المرية

الطفل

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مِنْ عالمِ الروح وهو الخلد والقِدَمُ ... وكان بالأمس يطوى جسمه العَدَمُ
سِرُّ الحياةِ وسر الموت ما برحت ... تطويه عن فِكَرٍ هَمَّتْ به الظُّلَمُ
يُطِلُّ من عينه معنى يزاوله ... معنى التَّفَهُّمِ لم ترْصَدْ به كَلِمُ
وحيرة هى بعض اللب يبرزها ... صفو من العين لا خِب فتنكتِمُ
صفو الغرارة أبهى ما رأى بَشَرٌ ... ما رَنَّقَ العينَ لا شر ولا ندم
ولم تَشِبْهُ تجاريب الحياة بما ... يدجوله اللحظ والأفكار والشِّيَمُ
ضعف الوليد وهل فى القلب مُنْبَعِثٌ
نَبْعَ الحنان كضعف ليس يُتَّهَمُ
لِأيِّ أمرٍ بدا يَفْتَرُّ مبسمه ... وما حباهُ بزَعْمِ الأشيبِ الفَهِمِ
وكلما بدرت للشر بادرة ... قلبُ المُسِنِّ لها حيرانُ يضطرم
يود كل رجيح العقل مكتهل ... أن لو يعود وليداً أمره أَمَمُ
وليس يبصر أن الشر مُقْتَبَلٌ ... يعود منه إليه الهم والهرمُ
لكنها مهلة للقلب يَنْشُدُها ... حيث الصفاء وعيش ماؤه شَبِمُ
فلا عداء ولا مكر ولا حِيَلٌ ... ولا حقودٌ ولا غدر ولا جُرُمُ
حيث الحياة كبيت الله طاهرة ... لدى الطفولة وهى المَعْبَدُ الحَرَمُ
أو جنة الخلد لا إِثْمٌ لساكنها ... وما تَجَاوَرَ ذو عجز ومُجْتَرِمُ
إنَّ الأزاهر والأطفال ما اجتمعا ... صنوان والحسن فيها طُهْرُهُ عَمَمُ
مرأى يُطَهِّرُ ما بالنفس مِنْ دَنَسٍ ... حتى يعود بها والخير مُغْتَنَمُ
كم ناقم سَلَّ منه الطفل عادية ... من الضغائن إذ يرنو وَيَبْتَسِمُ
قد يُحْزِنُ الزهر إذ يذوى أَمِنْ شَبَهٍ
بمصرع الطفل رائيه له بَجِمُ
ما أعظم الفقد لو أن الورى خُلِقوا ... خلق الرجال وكالأطفال ما وُسِمُوا
لما تَمَلَّى أُناسٌ طُهْرَ ما فقدوا ... ولا أحبوا ولا حنوا ولا رحموا

عبد الرحمن شكرى

عصفت ريح على أنبوبه ... وجرت أكعبه فى زئبق
كلما قلبه باعد عن ... متن ملساء كمثل البرق
جمع الصرد قوى أزرارها ... فتآخذن بعهد موثق
أوجبت فى الحرب فى وخز القنا ... فتوارت حلقا فى حلق
كلما دارت بها أبصارها ... صورت منها مثال الحدق
زلّ عنه متن مصقول القوى ... يرتمى فى مائها بالحرق
لو نضا وهو عليه ثوبه ... لتعرى عن شواظ محرق
أكهب من هبوات أخضر ... من فرند أحمر من علق
وارتوت صفحاه حتى خلته ... بحيا من لكفيك سقى
يا بنى معن لقد ظلت بكم ... شجر لولا كم لم تورق
لو سقى حسان إحسانكم ... ما بكى ندمانه فى جلق
أودنا الطائىُّ من حيكم ... ما حدا البرق لربع الأبرق
أبدعوا فى الفضل حتى كلفوا ... كاهل الأيام ما لم يطق

« يتبع »

عبد الرحمن البرقوقى
منشىء البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

دمعة على الصورة..!

للأستاذ أبى السمح الفقيه

أغلاماً أرى هنا أم ملاكا ... وجد العيش فى سوى الخلد عجزا ؟
فمضى للنعيم غضاً غريرا ... مستبداً بروحه مستعزا !
نظرات بريئة وصفات ... فاق أترابه بهن وبزا
وفؤاد يسيل فى كلمات ... لك فيه هزت فؤادى هزا !
لا أعزيك لا أقول تصبر ... مثل هذا بفقده لا يُعَزَّى !
لا أعزيك فيه إلا بدمعى ... وبحزن يئز فى الصدر أزا !
لهف قلبى عليه وهو ينادى ... مستغيثاً أباه والغوث عزا !
قد رضينا له ربى الخلد مغنى ... ولو أن الفراق فى الوصل حزا !
كنت بالرزء مستهيناً فلما ... شاهدته العيون ظلت تنزى !
عجبى يضحك الخلى ويلهو ... والمنايا تجز فى الناس جزا !
يبتلى المؤمنون مثلك فيما ... وهبوه فيسلبون الأعزا !

مكة المكرمة

عبد اللطيف ابو السمح الفقيه
أستاذ اللغة العربية بدار الحديث

إلى الاستاذ أنور العطار

بقلم علي محمد الشلق

أيها الشاعر الذى سال حزناً وجرى ذائباً ولم يتدفقْ
أنت همسٌ ورقَّةٌ وهباء ليت هذا القريض عطر فيعبق

***

يا شباب الشآم أنت فخار الدهـــر لا بل أعزُّ منه وأعرق
يا شباب الشآم يا وثبة الشر ق ويا بسمة الرجاء المحقق
ما ترجى بالله من أدب با كٍ حزين واهى الأمانى مُمزق ؟
ليت شعرى ماذا دهاك لتبكى ؟ فى شباب ضافى الذيول مُنمَّق
ليت شعرى ماذا دهاك لتذوى ؟ فى رياض الحياة، والعيش أورق
شاعر الدمع خل عنك قريضاً جاء نوعاً من الكلام المرقَّقْ

***

قد كفى الشرق ما بكى من دموع كاد لولا الرجاء بالدمع يغرق
قد كفى الشرق وقع تلك المآسى غمرت عيشه بنوم مؤرَّق

***

ألاسى خطَّةُ الضعيف على الأرْ ض وسجن على الذليل مُغلَّقْ
« ليس دمعاً من الحنان على الأرْ ض وكنزاً من المراحم مطلقْ »

***

أين عهد « الأعشى » بغرٍّ طوال ؟ ترفع المجد فوق هام « المحلق »
أين عنا شعر ابن شداد ؟ مالا ن ، وما كان بالضعيف المزوّق

***

نحن نبكى على الهباء وهذا الغرْ بُ ، نشوانُ بالنجوم تعلَّقْ
« نحن لحن مضرَّجٌ بالمآسى » وهو لحن يولى الخلود فيُعشق
نحن نحبو مع الخشاش ثقالاً وهو فوق السماء بالعلم حلَّقْ

***

يا رجال القريض أين القوافى ؟ تتلظّى من الشعور فتحرق
يا شباب الحياة ، هاتوا قريضاً كجبين الصباح إن ذرَّ أشرق
وابعثوها شعواء تزجى الأمانى ساميات على الكواكب تخفق
أيقظوا الشرق من سبات عميق أدلج الركبُ وهو بالذل مُوثق
ما عهدناك أيها الشرق خوَّا راً ، وما كنت فى الميادين تُسبق
هُب فالصبح لاح والطير شادٍ صفَّق الروضُ ، والضياء تألَّقْ

كلية اللغة العربية — علي محمد الشلق

القبـــلة الاخيرة

للسيد اليـاس قنصل

و إذ أدركتْ أن الهنا مرَّ حينُه وأن القضا أفتى ببعـد فتاها
أ كبَّتْ عليه وهو حيرانُ واجم وأدَّتْ معـانى حبِّها شفتاها
وعادتْ لتشكو دهرها بدموعها وتجلوَ بالآهاتِ بعض شقاها ..
أُهنِّيك من قلبى وأحسدُ برهةً وددتُ لها أختاً وروحى فداها
فقد أبعدتْ عنى البحارُ حبيبتى ولم أستطعْ يوم النوى أن أراها

***

الآلام

لا تعنُ للشكوى ولا تحزنْ إذ جارتْ عليك بصرفها الأيامُ
فالمرء يلبث طينــة مجبولةً حتى تشرف نفسَه الآلامُ

عاصمة الأرجنتين — الياس قنصل

تنبيـــه

نرجو التفضل بتصحيح نص الآية الواردة فى مقالة الاسلام والمدنية والعلم فى العدد الممتاز ص ٦٤٨ عمود ٢ بوضع [قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون] بدلاً من [إن فى ذلك لآيات لقوم يعلمون] كما إنه وقع فى المقال الثانى فى العدد الماضى بعض أخطاء مطبعية نوردها مع تصحيحها :

ص ٧٣٤ سطر ١٠ عمود ١ : لم تعش — لم تعن
ص ٧٣٥ » ٥ من أسفل : العقل لا السمع — العقل والسمع
ص ٧٣٥ » ٣ » : بعد أن أثبتها — بعد أن أثبتناها
ص ٧٣٦ » ١١ » : يثبت الله عليه — يثيبه الله عليه

القصص

جاسوسة !

« Elle est de la police »

لمدير الأكاديمية الفرنسية هنري بردو

ترجمة الأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

لم يبق لمدام (سرمزل) أمل فى أن تُحَب ، فأصبحت لا تطيق أن ترى قلبين يتناجيان

***

فلقد ودعت المسكينة جمالها إثر حادث سيارة ، وعمل الجراح فى وجنتيها خير ما هيأت له عبقرية الطب ، ورمم أنفها الدقيق رسمه الأنيق السابق ، لكن الفن والطب معاً قصرا عن أن يمسحا من صفحة وجهها تلك الشيات المهينة التى ما برحت تشير إلى الحادث . . فعينها التى لم يجسر الطبيب على أن يدنو منها قد اتسعت بعض الانساع فصارت نظراتها مما يتجمد له الدم فى العروق . . وعشيقها الذى حنا عليها فى محنتها وسربلها بصنيعه لم يستطع تلقاء هذا (البعث الناقص) إلا أن يطلب نقله إلى وظيفة نائية ! . . . ولا يصبر على القبح الجسمانى إلا رجل سمت به فضيلته إلى أرفع ذروة ، أو رجل يغمر الايمان فؤاده . . والصديق العزيز لم يكن إلى هؤلاء ولا الى هؤلاء . . .

كانت ما تزال تدعى إلى الأوساط التى كانت تغشاها من قبل ، لما عرف عنها من الملاحظة اللاذعة والروح المبتكر . . وفى ابان هذه الدعوات شهدت — وهى تكاد تُجن — ميلاً يبديه المسيو (ريانس) إلى (المدام دى نيج) وكان الداعون والداعيات يفطنون الى هذا الهوى الناشئ فيجعلون كرسى كل منهما إلى كرسى الآخر . . وهكذا فى كنف تلك التقاليد التى تواضعت عليها الارستقراطية المعاصرة (!) تآمرت كل الظروف على أن يترعرع هواهما الوليد فى هوائها الطلق الصافى

كانت مدام دى نيج مشغولة بزخرفها مشغوفة بنجاحها فى ذلك الوسط الرفيع الذى كانت تتأرجح كالقمرى الغريد فوق أفنانه ، وكان زوجها منكباً على وجهه فى عالم السياسة لا يجد الساعات التى يمنحها فيها الحنان أو يهبها فيها الحب . أما المسيو (ريانس) فقد وفد حديثاً من الريف . . ومعه ثروة الأقاليم وملاحة التبسط وقسمات بديعة كلها اغراء ، لكنه كان يضيف إلى تلك المؤهلات جهلاً تاماً بفن (الرجال مع النساء)

وذات يوم وقع خطأ فى (بطاقة الاسم) فجاء كرسى مدام سرمزل بدلاً من كرسى مدام دى نيج بجوار المسيو ريانس . فقنعت الصديقة بمجلسها النائى وأخذت تبعث الى صديقها من أقصى المائدة شعاعاً كله الكهرباء . . . فتطلعت (سرمزل) فوقع بصرها على ذلك التيار الذى يروح ويجىء بين القلبين فهمست فى أذن جارها تقول :

— حقاً إنها جميلة . . وسكت ريانس ، فعادت تقول :

— ولكن يا للخسارة ! قال أى خسارة ؟ قالت ألا تعرف ؟ قال أى شىء أعرف ؟

قالت إنها « فى خدمة البوليس » ! ! قال : « إنك تمزحين يا مدام » قالت كيف أمزح ؟ أو لم تقرأ كتاب (فوشيه) الذى قبلته الأكاديمية أخيراً ؟ وحسبها قد أخذت بطرف من الحديث جديد ، فقال كلا لم أقرأه ، فاستطردت الجارة تقول : (هو مؤلف من جزءين ، وإن المرء ليتعلم منه أشياء كثيرة وفيه تفاصيل عن نظام الجاسوسية فى عهد الامبراطور ... كان فى خدمتها سيدات من الطبقة الراقية . . جوزفين نفسها كانت جاسوسة فى عهد الديركتوار (حكومة الادارة) !!! وفى العصر الحاضر سيدات كثيرات من ذلك الطراز تجرى عليهن الوزارة أجوراً ليطلعنها على فضائح المعارضة كما تخضع المعارضة للوزراء . . .)

— ولـكن كيف عرفت هذا يا مدام ؟

— لا . لا . . . لن أبوح لك بمصادرى . . وحسبك أننى أخبرتك

— إذن فهل تسمحين لى بألا أصدق ؟

— ولِمَ لا أسمح لك ؛ ليس المرء مكلفاً بأن يصدق كل ما يُلق اليه ، لـكن عليه — على الأقل — أن يفتح عينيه

وتنقلا فى شجون شتى وشؤون متشابهة ، حتى إذا فرغ الطاعمون ونهضوا انتبذ من القاعة مكاناً قصياً وبقى فيه . . . . فلم يكن بد من أن تسعى اليه مدام دنيـج تسأله ما ذا دهاه ؟ فأجابها : لا شىء ، وأراد أن يُبدى لها بعضاً مما كان يُبدى من محاياه أو من فيوض هواه . . . فـكانت دعابته شوهاء ، وحديثه بلا روح

وتعاقبت الأيام وهبط البارومتر ، وهدأ التيار ، وعملت مدام دى نيج جاهدة لتظهر عدم الا كتراث بمـا يظهره هو من عدم الا كتراث ، ثم جمعت كل ما منحتها السماء من فتون الانوثة وخلاعة الاغراء ووجهتهما عليـه جميعاً كالتيار الدافق . فلم يُلق اليها بالاً . . . ولـما غلبها بأسه غلبها يأسها ، فشاهت فى وجهها الحياة

لـكن الاعجاب الذى مال بكل منهما إلى الآخر ، والذى تنضج به غريزة كامنة فى أعماقنا جميعاً — غريزة تلك الميول المستعدة لأن تصبح حباً جارفاً عندما تقاوم — هذا الاعجاب جعلهما أوثق اتصالاً كلما حاولا الانفصال . فأخـذ الرجل يسائل نفسه : ما علة هذا الجفاء ، وكيف يؤمن بالسيدة سر مزل مع أن الملأ طراً قد وصموها بأن الحقد يفرى كبدها من سعادة السعداء ؛ وتملكه الريب فيما ألقت اليه ... لـكن الـكلام كان كالسهم قد نفذ فاستقر فى أعماقه ... وإذن فليس يمكن أن يعلق فؤاده بغرام جاسوسـة ... وشرع يزين لنفسه أشياء ويقبح أشياء ... وأخذ يقول لنفسه ما يقوله كل ريفى هبط حديثاً إلى العاصمة : « لا ، لا يمكن أن تستغفلنى باريس ! » . بلى : فمن أين لها هذه الفراء الفارهة ، وهذه اليواقيت ، وكل تلك الأعلاق ! وراح يحقق أثمان ما يقتنيه الحسان من نفائس ومجوهرات ؛ فلـما أدركه التعب أخذ يقول لنفســـه : « أو لست أنا الذى أصبحت جاسوساً ؟ ! »

وغدا المسكين نهباً مقسما بين الشك والقلق المساور ، وغاض من كيانه معين الشباب ومرح الفتوة اللذان إذا أحدقا بغانية سدا فى وجهها الأفق ولم يتركا لها منهما منفذا إلا كما تترك خروق (الشبكة) الضيقة للفراش الرشيق

أما هى فقد ذهبت جهودها كلها بددا ، فعـكفت على قلبها تتسمع خفقاته وتستعذب فيه لذع الحريق

وذات يوم سمعته يخبر الأصدقاء بأنه مسافر ، فلم تمالك نفسها وسألته : الى أين ؟ فأجابها بتحفظ : (عندى)

— أين عندك ؟

— فى چكس

— قريباً من چنيف ؟ فأجابها فى سخرية لاذعة :

— هنيئاً للجغرافيا بكعبك العالى يامدام ! . وأنت الى أين ؟ قالت إننى لم أعتزم بعد أمرا . . وهذا يتوقف عنـدى على أشياء كثيرة

فكرّ على عقبيه ورجع يقول لنفسه : أشياء كثيرة ! طبعا .. طبعا ! ومن يدرى فهى (مأموريات كثيرة) من يدرى أيضاً ... لا . لا . يجب أن أغادر الديار وأفلت من قبضتها . . . . وظل يأتمر بها مع نفسه وانتهى بأن قال (ستحسبنى رحلت فلأراقبْها إذن ... لأراقبْها أنا)

* * *

وتلمـذ حينا من الدهر على (شرلوك هولمز) وأتاحت له الظروف فرصاً باهرة . . .

ما هـذا : إنها فى السيارة والسيارة تنهب الأرض نهباً إلى (المحافظة) ! . . . الله ! الله ! . . . إن السيارة تطير بها إلى الوزارة ! . . وزارة الداخلية ! ! الله أكبر ! ما كان أصدقك يا مدام سر مزلْ ! ! . . ما هذا أيضاً : إن السيدة لم تنتظر فى غرفة الانتظار . بل انفتح لها رِتاج الوزير فور الساعة ! ! . . . لا . لا ، إنها ذات عهد بتلك المعاهد بلا مراء . . يالله ! . . ماذا كان مصيره لو هوى فى ذلك الشرك . . ولو لم توح السماء إلى الناس فيخطئوا مرةً واحدةً ويضعوا بجانبه (النقذة سر مِزلْ) وهكذا بعد أن اطلع عليها ولى فراراً وملىء منها رعباً

وكان قصره فى الريف يشرف على عتبات جنيف ! وكان اتصال البلد الذى هو فيه بالبلد الذى فيه عصبة الأمم يُسبغ عليه من جو الدبلوماسية ومن مراسيمها ، وكانت أول دعوة وجهت اليه دعوة المركيزة « دى بريل » وهناك . . . هناك . . ماذا . . ! هنا ألفى نفسه وجهاً لوجه أمام من ؟ أمام المدام دى نيج نفسها . . بلى ، إنها هنالك تقتفى آثاره فيمن تقتفى آثارهم ، ما فى ذلك ريب ، ولم يكن بد من أن يتحدثا فتحادثا

— أنت هنا يا مدام ؟ أية مصادفة ! أية مصادفة ! . فحدقت فى عينيه ، وكان جلدها قد وهى ، بل كان قد انتهى ، وقالت :

— لا ليست مصادفة . ألم تقل لى إنك قادم إلى چكس ؟ قال :

— كم أنت ظريفة يا مدام ! وأظنك لهذا جئت إلى چنيف ؟ وشرع يتهكم فجذبته بقوة وقالت :

— لا تسخر منى وقل لى هنا . . هنا على الأقل . . لماذا كنت تتخلص منى ؟ وحارت الدموع فى مآقيها كالسحاب عند ما يتجمع فى زوايا السماء الصافيـة . فجرؤ صاحبنا وتشجع وقال : بل أجيبى أنت

س : ماذا كنت تصنعين فى المحافظة فى ١٠ يوليو ؟

ج : فى ١٠ يوليو ؟ . . دعنى قليلاً أفكر . . فى ١٠ يوليو ذهبت إلى المحافظة أبحث عن جواز سفر إلى چنيف . . لأحضر إلى هنا . . قريباً منك

س : وفى نفس اليوم بوزارة الداخلية ؟

ج : كنت أعرف الوزير فقصدت إليه أطلب تصريحاً بزيارة عصبة الأمم . وقالت « لكأنك قد تجسست على » ... « إنك إذن من رجال البوليس »

قال : كلا ياسيدتى ، لست أنا ... ومسح جبينه وهو يتفصد عرقه ، وأضاف : ولا أنت أيضا

— إذن هل قال لك أحد شيئاً ؟ أوَ صدقت الذى قيل ؟

ولم يكن بقيله من عثرته إلا أن يقول – كالشهود – الحق ، وكل الحق ، قال : (مدام بِسْ مِزِلْ) فتنهدت الحسناء وقالت : « أفتصدق تلك الفرية فتلوث هذه التى كنتَ ... التى كنتَ . »

— التى كنت أحبها ، ومازلت أحبها كثيرا ، كثيراً جدا ، جدا ، أما هى فلن يتفتح لى قلبها أبدا ...

***

أفرَخ روع المدام دى نيج ، وشاعت فى وجهها نضرة النعيم ، وتمشيا معاً فى ممر يعطره أرج الربيع ، لكأنهما الفكرة البديعة تروح وتغدو فى خيال الشاعر . قلت : أرأيت إلى هذا الكم الذى لم يتفتح بعدُ عن الزهرة : انظر ماذا فعلت بى ... لقد لوثتنى ؛ فهل أهبك بعد هذا قلبى ؟ خذ هذا الكم ذكرى من ذكرياتى ... لقد وقع ولكن أثره ما يزال

فأخذ الكم بقوة كأنه ينزعه وقال : « وإذا أنا طهرته بفمى من هذا الأثر أتغفرين لى ؟ » ثم قضم بأسنانه لفائفه فبدا الطلع من ثناياها وضيئاً مشرقا . قال : « أما الزهرة ياسيدتى فلم تمس بسوء . فهلا تغفرين ؟ » وازدحم الدمع فى موقيه كطفل غرير ، وتطلع اليها كأنه يلتمس منها أن تهبه الحياة ، فأطرقت فى دلٍ وخَفَرَ وقالت : « أما الزهرة فانها لك » ثم عادت لتقول : « لكن عليك أن تغسل شفتيك قبل أن تقبلنى »

هنرى بردو

دراسات من اسخيلوس

الفرس (١)

Persae

للأستاذ دريني خشبة

اشترك إسخيلوس فى الحروب الدامية التى نشبت بين فارس وهيلاس ، وكان ميدانها وطنه والبحار المحيطة به ، وقد اشترك كذلك فى موقعة سلاميس البحرية التى تحطم فيها أسطول إجزرسيس ثم ظل متصلا بالجيش اليونانى إلى ما بعد انتصاره فى بلاتيه وميكالى ؛ ولذلك تعتبر هذه الدرامة مصدراً هاماً من مصادر هذه الحروب ، ويعدها مؤرخو الأدب اليونانى أصدق مما ورد فى تاريخ هيرودوتس بصدد الحرب الفارسية . ذلك لأن أسخيلوس كان شاهد عيان لوقائع هذه الحرب بينما كان المؤرخ اليونانى ما يزال طفلا لا يزيد عمره على خمس سنوات . وقد مثلت الدرامة بعد موقعة بلاتيه بسبع سنوات

— ١ —

ينقلنا إسخيلوس إلى فارس سيدة الأرض ، ويطوف بنا دارات عاصمتها « سوس » حتى نقف عند القصر الملكى المنيف ، مقر الأكاسرة ، وقلب الأمبراطورية النابض . فنحن إذن بعيدون عن ميادين القتال فى البر والبحر ، لا نشهد الطعن والضرب ، ولا نرى إلى فتك الحراقات اليونانية بأساطيل الأعداء ، ولا تهولنا هرولة الكتائب الفارسية فوق تلك القنطرة الضخمة من السفن المتراصة بين عُدْوَتَى الهلسبنت تنساب فوق بطائح هيلاس كأنها سيل العرم . . . ثم لا يبهرنا عاهل العجم البائس وقد وقف فوق أكمة تشرف على أبيدوس وما يجاورها من شطئان الهلسبنت ، يطل على جيوشه الجرارة تعبر البحر الزاخر . . . ويبكى . . . فاذا سأله وزيره : « فيم بكاؤك أيها الملك ؟ » شهق شهقةً عميقة وقال : « أنظر أيها الوزير : هذه طروادة : وهؤلاء جندى ! ويكفينى ألا يكون أحد من هذه الألوف عائشاً بعد حقبة واحدة من الزمان ! أليست هذه طروادة ؟ ؟ »

لن نرى إلى شىء من ذلك ، ولكن نرى عصبة عتيدة من مشايخ فارس وساداتها النُّجُب يتناجون فى حديقة القصر ، متلهفين إلى خبر يذهب بهذا القلق العظيم الذى يساورهم من جراء انقطاع أخبار الجيش . . . وهم يذكرون دارا الأول ، والد الأمبراطور ، بخير ما يذكر به ملك شاد دعائم ملكه على العدل ، وقاد جيوش بلاده إلى النصر . ورتع فى ظله رعاياه فى بحبوحة من العز وبلهنية من النعيم . . . وهم (١) كذلك يصفون لنا أبهة جيش أجزرسيس وعظمة جحافله ، وهذه الآلاف المؤلفة من الفرسان والمشاة والكماة والرماة ، من مشارق الأمبراطورية الكسروية ومغاربها . . . من حفافى السند إلى ضفاف النيل ، ومن أعالى دجلة والفرات إلى أسافل النوبة وإثيوبيا . . .

وهم لا يخفون ما يساورهم من قلق ، ويخامر قلوبهم من شك فى مصير هذا الجيش العرمرم الذى قذفت به آسيا ليهلك فى ربوع أوروبا ، ويجوع ويعرى فى مشارق جبالها ، وتلتقمه الأسماك فى بطون البحر المضطرب . . . لا سيما ومنهم من نصح للأمبراطور ألا يجازف بهذا العدد العديد ضد هيلاس ، فكان جوابه أن أقام إلى جانبه رجلا من أمنائه يقول له فى كل لحظة : « مولاى ! لا تنس الأثينيين ... مولاى : لا تنس الأثينيين (٢) »

— ٢ —

وبينا هم فى تناجيهم إذ تقبل آتوسا — الأمبراطورة الأرمل — زوجة دارا ، وأم إجزرسيس ، والتى قست عليها المقادير فناءت على قلبها بأحزان امبراطورية بأسرها ! !

تقبل آتوسا فيصمت القوم ، ويهرعون اليها يسائلونها عما آل اليه أمر الجيش ، وهل أفاءت عليه الآلهة بالنصر المرجو والغَلَب المنشود ؟

فتقول أتوسا : « مواطنىَّ الأعزاء ، وأبنائى الأوفياء ! تسائلوننى عما أقبلت فيه ، وهرعت اليكم من أجله . . . فوالله لقد ضقت بغرفات هذا القصر على سعتها ، وخلتها جحيما على أنها جنة نعيم ، أليس فيها كنت أحلم بالخلد فى حضن دارا ، وأجيل الطرف من شرفاتها معه على أمة سعيدة هادئة ناعمة ، عيشها مخفرج ، وجانبها

(١) الدرامة الباقية من ثلاثية رائعة ما يزال جزآها الأول Phineus والأخير Glaucus of Potniae مفقودين وتعتبر هذه الثلاثية أول قطعة رومانتيكية فى التاريخ إذ لا تستند إلى شىء من الأساطير كما لاحظنا فى درامات إسخيلوس

(١) هؤلاء الأشياخ هم خورس الدرامة

(٢) هذه النبذة غير موجودة فى الدرامة وقد استعرناها من هيرودوتس

عزيز ، وسلطانها قوى ، وظلها ممدود ، وسؤددها يطوى السهل والجبل ، وثروتها زاخرة وافرة ؟ ! فماذا أرى اليوم ؟ أليس ابنى قد جمع خير كل ذلك ، ومضى لِطِيّتِه التى لا يعلم ما وراءها أحد ؟ ها هى ذى الرياح تصفر فى هذا القصر الذى نأى عنه سيده ، فكأنه خراب على رغم خزه وديباجه ، وشتى تماثيله وتصاويره ... ويحى ! لقد جئت اليكم يا سادات فارس ألقى اليكم بعبء الوساوس التى تجثم على صدرى ، وتثقل كاهلى ، فهل أجد لديكم السكن الأمين ، والمشير الوفى ، والناصح الذى إذا نصح أخلص النصح ؟ »

— « أيتها الملكة ؟ ... نحن عبيدك وبعض رعاياك .. ولك فى أعناقنا الولاء والوفاء ... تكلمى بما تشائين وثقى من اخلاصنا ومحض نصحنا »

— « إذن فما هـذه الأحلام المروعة والرؤى المفزعة التى تجتاحنى كل ليلة حين آوى إلى الفراش ، منـذ أن انطلق ابنى بهذا الجيش اللجب ليغزو بلاد اليونان ؟ على أن رؤيا أمس لم تـكن مثلها رؤيا قط . ذلك أنها كانت واضحة بينة حتى ما تكاد تحتاج إلى تفسـير أو تفتقر إلى تأويل ... رأيت فتاتين هيفاوين ممشوقتى القد ، احداها دورية[1] ناهدة تميس فى حلى وفى حلل ؛ والأخرى فارسية سمهرية ، تختال فى برد ووشى وأفواف ... رأيتهما تقبلان إحداهما على الأخرى ، ثم تأخـذان بتلابيب بعضهما البعض ، ويكون شجار بينهما ، لأن إحداها بغت على أختها ، وحاولت الاستئثار بدارها من دونها . ورأيت ابنى إجزرسيس مشرفاً عليهما من مرتقى صعب ؛ فلما استحر القتال بينهما نزل إلى حيث حاول أن يجعل نيره فى عنقيهما معاً ... وذلت إحداها واستكانت ، ولـكن الأخرى ، ولـكن الدورية أبت وأنفت ، ودفعت النير بكل ما أوتيت من قوة ، فغاصت الفارسية فى لجة من دم ، وتحطمت عربة ولدى الأمبراطور فوقف حيث كان قبل أن يتدخل بينهما ، وأخذ يبكى وينشج ، ويشق الأردان ويمزق الجيوب ... وهنا وقف إلى جانبه أبوه ... الأمبراطور البكى ، دارا ، وطفق يرثى له ويهون عليه

هذه رؤياى يا سادات فارس النجب ... ولـكن ... ما تزال بقية ... فانى حينما هببت من نومى ، عسيت أن تكون رؤياى أضغاث أحلام ، فقلت أتوجه إلى مذبح الآلهة مانعة الضر ، أقرب لها وأضحى ، عسى أن تنفعنا ، وما كدت أغمس يدى فى النبع المقدس ، وأنثر بخور الند فى المجمرة ، حتى لمحت نسراً مهيض الجناح لائذاً بقدس أبوللو.[1] . . ثم ينقض عليه باز باشق ، فما يزال به يوسعه ضرباً وتجريحاً حتى ينتفض النسر ويلوذ بالفرار ... ويلاه ! إن الرؤيين ... فى المنام وفى اليقظة ، تفسر إحـداهما الأخرى ، فياترى ؟ هل هما نبوءتان على إجزرسيس ؟ وهل أعيش حتى أرى ولدى إن كان ما يزال حياً يرزق ؟ ! »

— ٣ —

وشده سادات فارس ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم أشاروا على الملكة المحزونة أن تذهب إلى قدس الآلهة فتقرب لها وتضحى ثم تسأل عن رؤياها ، وتتضرع أن تتلطف الأرباب بابنهـا وجنوده ومملكته ، إن كانت الرؤيا حقاً ... وإلا ... فلترق الخمر باسم دارا العظيم الذى زارهـا فى رؤيا أمس حين وقف إلى إجزرسيس يرثى له ويهون عليه ، فاذا بدا طيفه لها فلتسأله أن يبارك ابنه ، ويغدق البركات على فارس كذلك

ويتحول مجرى الحديث فجأة ، فتسأل الملكة عن هذه الحرب ما سببها ؟ ويجيب السادات أن الأمبراطور أراد أن تخضع له أثينا

— « فاذا خضعت له أثينا ؟ »

— « خضعت له هيلاس كلها ! ! »

— « وهل هيلاس من القوة بحيث تحشد لمحاربتها كل تلك الجحافل ؟ »

— « وكيف لا وهى أقوى دولة فى العـالم بعد فارس ؟ وهل نسينا أنها دمرت جيش دارا ؟ »

— « أو غنية هى ؟ »

— « غنية جدا ، وفى بطنها ثروة من الفضة لا تقدر بثمن »

(لها بقية) دريني خشبة

(١) من إحدى القبائل اليونانية

(١) هكذا بالأصل (فوبوس) ولا ندرى لم يخلط اسخيلوس هذا الخلط فالمعروف أن الفرس كانوا يدينون بإلهين اثنين : إله الشر وإله الخير ولم يعرفوا الآلهة اليونانية

البريد الأدبي

سجموند فرويد فى تمام الثمانين

يحتفل العالم هذا الأسبوع بالعالم السيكولوجى الكبير سجموند فرويد لبلوغه الثمانين . . . وقد يبتسم القارئ حين يذكر بيت شاعرنا العربى الخالد (إن الثمانين وبُلّغتها ... ...) لا سيما إذا علم أن فرويد المحتفل به ، والذى يعتبر واحداً من أعظم علماء العصور الحديثة إن لم يكن أعظمهم جميعاً ، هو رجل ضعيف البنية هزيل الجسم ، قد تحالفت عليه الأمراض . ولكنه بالرغم من ذلك يملك عقلاً جباراً لا يكل من التفكير ، ولا يفتر نشاطه أمام ما ينتاب بدنه من الأوصاب

ولد فرويد فى مايو سنة ١٨٥٦ من أبوين يهوديين فى مدينة فريبرج من أعمال مورافيا ، والامبراطورية النمسوية إذ ذاك فى عنفوان مجدها . وبعد أربعة أعوام ذهب به أبوه إلى ڤينا حيث تعلم فى مدارسها وقضى صدر شبابه فى ربوعها ؛ ولما بلغ من العمر التاسعة والعشرين غادرها إلى باريس (١٨٨٥) بقصد التزود من الثقافة العالية التى كانت باريس مثابتها فى هذه الآونة — ولكنه — لأمر ما — لم يلبث فى باريس غير سنة واحدة عاد أدراجه بعدها إلى ڤينا

وكانت نفسه تجيش بآمال كبار ، وكان ينظر إلى أساليب التفكير السائدة فى أوروبا فى ذلك الوقت كأنها أصبحت أساليب عتيقة لا تليق برقى الانسانية التى تتيه بعصرها الحديث على جميع العصور القديمة والوسطى . وكانت عوامل الثورة فى نفس فرويد الشاب تنفجر فى الفينة بعد الفينة ، ولكنها كانت تكبت بقوة وقسوة تلقاء التيار الرجعى الجارف الذى كان يكتسح النمسا فى ذلك الوقت . فلقد حدث أنه ألقى أولى محاضراته بعد أن عاد من باريس عن الهستريا ومسبباتها النفسية الباطنية ، وكان ذلك فى جمعية الأطباء بڤينا ، فما كاد ينتهى من محاضرته حتى ثارت فى الصالة عاصفة هوجاء من الضحك منه والسخرية به وبآرائه ، وحتى انصرف العلماء الأفاضل يتهكمون به ويلمزون آراءه لمزاً شديداً قاسياً ! ولقد كان لهذه الصدمة صداها الشديد فى نفسه ، فآثر أن يعتزل هذا الجمهور الفظ من العلماء الجهلة — إن صح هذا التعبير — وأن يعمل للعلم وحده بعيداً عن ضجيج هؤلاء الأصنام ، وبمعزل من صخبهم . بيد أنه لم يسلم ، برغم هذه العزلة من خصومة ولدد يثيرهما عليه كثير من الدوائر العلمية وغير العلمية لا بحجة آرائه المتطرفة فيما هو بسبيله من مباحث ونظريات فقط ، ولكن بسبب يهوديته أيضاً

ولم يثر أحد من العلماء حوله من الخصومة مثل ما أثار فرويد ، ولكنه ألح بآرائه على خصومه إلحاحاً عجيباً حتى سحرهم بها وحتى جعلهم من أشد المعجبين بها والمتحمسين لها . وبحسبك أن تعلم أنه ما من قصة حديثة أو درامة يقدمها كاتب إلى مسرح من المسارح إلا ولفرويد أثر كبير فى صاحبها . فليس فى العالم الآن كاتب لم يدرس نظريات فرويد فى العقل الباطن ، وليس فى العالم الآن باحث سيكلوجى أو مرب لم يهتد فى أبحاثه أو فنه بمجهودات فرويد وتحليلاته العجيبة لهذه النفس الانسانية التى لم نكن قبله نعرف منها إلا جانباً قليلاً :

ولقد كتب فرويد — هذا الأسبوع — بمناسبة بلوغه الثمانين — كلمة جاء فيها :

« العقل الانسانى فى نظرى عبارة عن جبل من الجليد طاف فى الماء ، لا يبرز منه فوق السطح غير سبعه فقط ، أما الأسباع الستة الأخرى فهى دائماً تحت السطح . . . » وكأنه يريد أن يقول إننا لا نعرف من العقل إلا سبعه فقط ، أما ستة أسباعه الأخرى — وهو ما يسميه العقل الباطن — فمضمرة ، لا نعرف منها إلا القليل . وفرويد على حق فى هذا التشبيه الغريب للعقل لأنه هو قد أثبت أن العقل الباطن إن هو إلا خزانة عجيبة اختبأت فيها غرائز الانسانية الأولى وميولها الفطرية التى هى تراث

الأحقاب والآباد والتي تطفو على السطح فتكون ذات أثر بليغ في عقلنا الواعي

وبالرغم مما لهذا الباحث العبقري من آراء ونظريات في الأيحاء والأحلام والاستهواء والمركبات والعُقد النفسانية فانه ينفي عن نفسه في كلمته التي أشرنا الينا أنه صاحب نظرية أومذهب أو أنه استحدث علماً جديداً ... فهو يقول : « يخطئ من يزعم أنني صوفي أعطف على الانسانية أو أحب الخير للبشر ، أو أنني عالم صاحب نظريات استحدثها بعد أن كانت خافية على الناس .. لا .. لست شيئاً من ذلك .. بل أنا أدع الناس يحلمون أحلامهم وقد أتركهم يستغرقون أنفسهم في مستقبلهم ... ثم أقف منهم عن كثب ألاحظ وأشاهد وأتفرج ... ثم أقيد ملاحظاتي ، وأقارن وأعلل وأؤلف : »

وعلى ما بلغه فرويد من الثقافة العالية فانه ما يزال يهزأ من مدارك الانسان ويدعوها قشورا لا غناء فيها ... أو فيها غناء قليل : « ما ثقافتنا هذه ؟ ماذا عرفنا من النفس الانسانية ؟ ماذا كشفنا من سر هذه الحياة ؟ »

والعجيب أن فرويد ما يزال مؤمناً بالانسانية إلى حد كبير ، وهو يتشوف لها عن مستقبل باهر برغم تلك المجازر التي تلطخ وجه الأرض بالدماء من أجل أطماع وضيعة . وهو يقول إن الحرب ستعجل بهذا المستقبل الجميل ، لأنها وحدها ستثير الكراهية في نفوس الناس منها فيمقتونها الى الأبد ، ويعدونها كلما فكروا فيها نكسة منهم الى الوحشية

ولقد عاش فرويد مخلصاً لأبحاثه اخلاصاً مدهشاً ، فكان يكب عليها إكباباً يذيب الصبر الجميل ، وكان يمقت كل من يصرفه عنها إلى غيرها ، وكان كثيراً ما يتمثل بما كان يقوله أناطول فرانس إذا حدثه أحد بهراء لا شأن لأبحاثه به :

« Ce n'est pas dans ma vitrinei ? »

ولعل أحسن مكافأة لهذا الرجل العالم أن تجتمع لجنة لتكريمه مؤلفة من بعض خصومه بالأمس ، وأشد المعجبين والمتأثرين به اليوم ، نذكر منهم الكاتب العالمي الأشهر هـ . ج . ولز ، ورومان رولان ، وستيفن زديج ، وجول رومان ، وتوماس مان . . وغيرهم وغيرهم . . . ولا ندري هل تشترك كل من روسيا وأمريكا في تكريمه ؟ فهو معجب بروسيا وقد تأثر إلى حد كبير بتحليلات دستويفسكي واضرابه . أما أمريكا فما نحسبها تشترك في هذا التكريم ، فهو قد هجا مدنيتها كثيراً ، ولم يفته أن يلذعها في كلمته الأخيرة من طرف خفي

ويقال إن لجنة تكريمه ستقترح على لجنة جائزة نوبل أن تمنحه جائزتها عن هذا العام لمناسبة بلوغه الثمانين . ونحن نشك في أن تستجيب لجنة نوبل لهذا الرجاء ، فقد عرف أعضاؤها بكراهية فرويد ، وهذا هو محل الدهشة

دريني

المعجم اللغوي الوسيط

اجتمعت بمكتب صاحب السعادة وزير المعارف لجنة المعجم اللغوي الوسيط للمرة الأولى وقد رحب بالأعضاء سعادة الوزير وألقى فيهم الكلمة الآتية : —

أحييكم أطيب تحية ، وأشكر لكم تلبية دعوتي للاشتراك في عمل المعجم اللغوي الوسيط ، وقد أردت ان أنتهز فرصة الاجتماع الأول لأبين لحضراتكم مبلغ عناية الوزارة وحرصها على هذا العمل الجليل ، ولأتشرف بالتعرف إلى من لم يسبق لي رؤيته من حضراتكم

وإنه لحظ سعيد لي فوق كونه حظا عاما أن يشرع في هذا العمل وأنا وزير المعارف ، فقد عنيت بهذا الموضوع من سنوات ، وكنت أنادي بضرورة وضع هذا المعجم ، فهو واجب وطني يفرضه الاخلاص للغة والعلم والدين

ومما يزيدني سرورا أن يكون في تنفيذ هذا المشروع استجابة لقرار المؤتمر الاسلامي الذي انعقد في سنة ١٩٣٠ ، وتحقيقاً لرغبة العالم العربي أجمع . وإنه ليحق لمصر أن تفخر بتلبيتها نداء العالم العربي فوق ما فيه من فائدة خاصة لها

وإني لأعد هذا العمل من أجل الأعمال وأخلدها ، بل اعتقد أنه لا فرق بين خلود هذا العمل الجليل وخلود الاهرام إن لم ير بعض حضراتكم أنه أعظم ، ففي تحقيقه احتفاظ بهذه اللغة الشريفة ، لغة القرآن وتهذيبها من الدخيل ، وتحقيق لوحدة الأمم العربية بهذه الوسيلة وهي المعجم

وقد ساعدت العناية الالـهية مركز مصر الجغرافي أن تكون

مصر زعيمة الثقافة الاسلامية فى العالم العربى ، وقد رضيت لها الأمم العربية هذه الزعامة وأقرتها

وإن المشروع الذى أريد أن نبدأ به هو هذا المعجم الوسيط مترسمين فى وضعه المنهاج الذى ذكر فى قرار تأليف اللجنة حتى يسد حاجة طلاب اللغة ورجال الثقافة من أمثال خريجى دار العلوم ومن فى طبقتهم ، فاذا ما وفقكم الله وأتممتم المعجم الوسيط شرعتم فى وضع معجم مدرسى للجيب يسد حاجة الطلاب المبتدئين ، وبعده تفرغون لمعجم بسيط يجمع شوارد اللغة ويسد حاجة الأدباء والعلماء . ثم تأتى بعد هذا مرحلة أخرى هى وضع موسوعة عربية تكون مرجعاً عاماً يتناول الفنون والعلوم والآداب وغيرها ، فاذا وفقنا إلى إنجاز هذا كله حق لنا أن نفخر بأن مصر أصبحت بحق عضواً نافعاً فى الهيئة الاجتماعية ، وأنها قد أدت رسالتها كاملة عن اللغة العربية

هذا هو برنامج وزارة المعارف الذى أرجو أن يكون برنامجاً قومياً يأخذ كل وزير فيه بنصيب ، وهذا هو اعتقادى وأملى الذى أرجو أن يتحقق على أيديكم وبفضل معونتكم الصادقة حتى يكون لكم شرف وضعه وإتمامه ، ولى بعدكم الثواب من الله على مثل هذا العمل الجليل

وإن الوزارة حريصة على أن تيسر لكم مهمتكم وهذا هو صديق وكل وزارة المعارف خير ضمان لتنفيذ ما تطلبون فان لى فيه الأمل الكبير والثقة العظيمة

كتاب عن مكيافيللى

صدر أخيراً كتاب جديد عن مكيافيللى وعصره - Machiavelli and his times بقلم الدكتور ارسكين موير E. muir . وقد صدرت كتب كثيرة عن مكيافيللى وعصره ، أهمها وأشهرها المؤلف الجامع الذى وضعه المؤرخ الايطالى فيلارى عن « حياة مكيافيللى وعصره » ولكن شخصية مكيافيللى وآراءه السياسية والاجتماعية ما زالت تشغل البحث فى عصرنا ؛ بل إن فكرته فى الدولة وفى الحكم تتبوأ مكانة هامة . ذلك أن فكرة الدولة تغدو فى أوربا مسألة اليوم ، ولاسيما الدولة التى تتجسم فى شخص طاغية كما هو الشأن فى ألمانيا وايطاليا . ومن المعروف أن الفكرة الفردية قد قضى عليها اليوم فى ظل النظم الطاغية الجديدة كالهتلرية والفاشستية ، وأن فكرة الدولة تسود كل شئ فى هذه النظم ، وأن الدولة وكل مرافقها وقواها هى أداة فى الأيدى الطاغية التى تشرف على النظام وتحركه ؛ ونحن نلمس فى فلسفة مكيافيللى أصول هذه النظريات الطاغية ، فالكتابة عنها اليوم مسألة لها خطرها . ومما يذكر فى ذلك أن موسولينى طاغية ايطاليا درس فى شبابه كتاب مكيافيللى (الأمير) دراسة عميقة ، وأنه ما زال يردد اليوم « أن مكيافيللى يعيش اليوم أكثر مما كان يعيش منذ أربعة قرون » ومن أقوال مكيافيللى المأثورة فى كتابه السالف قوله : « إذا كان الحكام جميعاً من الطراز الصالح فعليك أن تفى بعهودك ؛ أما وهم خونة لا يفون بعهدهم فعليك من جانبك ألا تفى لهم بعهد » ، وهذه النظرية تشتد وطأتها اليوم فى أوربا

والواقع أن مكيافيللى أراد فى كتابه أن يحلل نفسية أبناء وطنه فى عصره وأن يحاول بملاحظاته الدقيقة أن يجد ذلك الطراز من الطغاة الذى يستطيع أن يجمع الكلمة ، وأن يسبغ على الوطن نعمة الحكم المستنير ؛ ولكن الآراء والمبادىء الجافة الخطرة التى تتخلل مباحث مكيافيللى قد طبعت عقيدته فى الحكم بطابع أسود ، وجعلتها مضرب الأمثال للسياسة الفادحة الخطرة ؛ على أن بعض الباحثين يرون أن هذه النزعة ترجع الى حكم مكيافيللى على مجتمعات عصره ، والى اعتقاده بأن الانسانية تقوم على مبادىء وضيعة ، وهو اعتقاد لم يشاركه فيه كثير من أعلام عصره ولاسيما المؤرخ والسياسى الكبير جيشار دينى

ويستعرض الأستاذ موير فى كتابه آراء السياسى الفيلسوف فى الدولة والحكم ويقارنها بآراء جيشاردينى ؛ ثم يورد كثيراً من آراء مكيافيللى فى خطبه ورسائله التى تلت كتابه « الأمير » ، ويستخلص من المقارنة أن مكيافيللى قد عدل فى أواخر حياته كثيراً من آرائه ، وأنه كتب الأمير فى وقت نقمة ويأس ، وأن هذه الروح أملت عليه كثيراً من الآراء المتطرفة التى عدلها فيما بعد

العالم المسرحي والسينمائي

آراء فنانين ارلنديين في الممثل والمخرج المصرى

لناقد « الرسالة » الفنى

« أوه يا صديق ! إنني سعيد حقاً إذ أقضى ليلة فى مصر أشهد فيها الممثلين المصريين يقومون بتمثيل رواية معروفة كان من حظى أن أقرأها وأن أشهد تمثيلها قبل ذلك فى باريس فى الهواء الطلق . »

هذا ما نطق به المستر هيلتن ادواردز مخرج فرقة « دبلن جيت » الأرلندية التى عملت على مسرح الأوبرا الملكية خلال شهر مارس الماضى بعد أن صافحنى فى فترة الاستراحة الأخيرة من رواية السيد التى أخرجتها الفرقة القومية المصرية فى الأسبوع الماضى . ولقد بادرته بالسؤال : « وما رأيك فى تمثيل المصريين ؟ »

فأجاب بحرارة « اسمح لى يا صديق أن أقول لك إن المصريين يتمتعون بميزة طيبة ، هى جمال الصوت ، وإنه ليخيل إلى أن اللغة العربية من أصلح اللغات للمسرح . إنى أطرب لها ؛ ولكم وددت لو أعرف العربية حتى يكون استمتاعى بالتمثيل أكثر منه الساعة »

« إن بين الأفراد الذين يعملون أمامى مجموعة قوية ، مما يدل على أن فى المصريين استعداداً قوياً للتمثيل ، فلقد علمت أن ليس فى مصر معهداً للتمثيل ، بل إن نبوغ هؤلاء الأفراد نتيجة جهد شخصى ، واستعداد فطرى ، وهذا فخر كبير لهم . ولقد قرأت هذه الرواية وشهدتها قبل ذلك تمثل ، ولكن لم أدرسها ومع ذلك أستطيع أن أقول إنى مرتاح جداً إلى قدرة الممثلين المصريين »

قلت : هل لك أن تدلى برأيك فى أداء الممثلين الذين يعملون أمامك الآن ، وعن ملاحظاتك ؟ إنهم يرحبون بكل ملاحظة تبديها وكذلك قرائى يودون أن يعرفوا رأيك

فابتسم المستر ادواردز وقال : « قلت لك إننى لا أعرف العربية فحكمى لن يكون صادقاً . على أننى أستطيع أن أقول إننى كثير الاعجاب بالسيدة التى تقوم بدور شيمين حبيبة السيد (زينب صدقى) إنها ممثلة قديرة ويبدو لى أنها تفهم دورها تمام الفهم ، وهى تجيد مواقف الكبرياء ، وأرجو أن تبلغها إعجابى »

« وإننى كذلك معجب بالملك (منسى فهمى) وأعتقد أنه ممثل قدير ، وكذلك أنا معجب بالسيد (حسين رياض) ، ومع جهلى باللغة العربية أحس أنه يجيد الالقاء ، وأنا مرتاح الى تمثيله . والدون جوميز (زكى رستم) أدى دوره الذى يحتاج الى الصلف والكبرياء أحسن أداء ، وهو يليق لهذه الشخصية »

قلت وما رأيك فى السيدة التى تمثل دور ابنة الملك (عزيزه أمير) ؟ فأجاب « إنها لا تليق لهذا الدور ، وإنها تبدو فى مستوى أقل كثيراً من مستوى الممثلة التى قامت به فى باريس حتى ليخيل إلىّ أنها لم تفهم دورها »

ثم سألته عن رأيه فى الاخراج فأجاب « هل من الضرورى أن أجيب عن هذا السؤال ؟ » فقلت أجل ، إنه يهمنا كثيراً أن نعرف رأيك .. إن إخراجك قد حاز إعجاب جميع رجال الفن والأدباء من المصريين ، وإن من دواعى السرور أن تفصح لنا عن رأيك

أطرق المستر ادواردز قليلا ثم رفع وجهه وقال : « لقد حدثتك من قبل عن رأيى فى طريقة الاخراج التى أفضلها . لقد جعلت السينما أى جهد فى اخراج الروايات بطريقة نقل الطبيعة ومحاكاتها Realism عبثاً ، لأن مجال المسرح محدود ؛ والأمر على العكس من ذلك فى السينما ، ولهذا وجب علينا ألا نعنى بالأشياء الحقيرة والتفاصيل العادية The Vulgarity of Detail فهى مجال السينما ، ولهذا فأنا غير مرتاح الى اتباع طريقة الريالزم ؛ وأفضل الطريقة الايحائية Suggestive لأنها تجعل رواد المسرح يشتركون

مع الممثل والمخرج فى نجاح الرواية والاهتمام بحوادثها . بدل أن تعرض عليهم عرضاً سهلا يبعث النوم الى جفونهم ، ولذلك لم يعجبنى اخراج هذه الرواية »

« إن المسرح الحديث يعتمد أكثر ما يعتمد على الاضاءة ؛ ولقد رأيت كيف عاونتنى فى اخراج هملت ، وروميو وجوليت وغيرهما ، ولكنى أرى مخرجكم (زكى طليمات) لم يقصد من الاضاءة إلا أن يكشف الناظر والممثلين للنظارة ، ولم يستخدم الاضاءة فى غرض أو فكرة خاصة ، واستخدامه للضوء يظهر فى موقف واحد فقط بين السيذ وحبيبته »

« وقد يكون استعمال المناظر المتعددة والستائر الكثيرة مما يلجأ اليه المخرجون الفرنسيون ، ولكنى أرى أن ما يصلح لفرنسا يجب ألا يفرض على مصر أو غيرها ، بل يجب على المخرج أن تكون له شخصية تبرز فى اخراجه وتعبر عن نفسيته ، وتكون رجع الصدى للبيئة والقومية التى هو منها ؛ ويبدو لى جلياً أن مخرج هذه الرواية لم يهتم بدراستها دراسة اخراج »

***

وكان أول ما صرح به المستر ميكائيل ماك ليمور الممثل الأول لفرقة « دبلن جيت » وواضع تصميم مناظر الروايات ، إعجابه بممثل شخصية الملك (منسى فهمى) فهو فى رأيه ممثل قدير ، وقد أبدى إعجابه أيضاً بالسيدة زينب صدقى فى دور شيمين ، وهو يتفق مع زميله فى أن للمصريين صوتا جميلاً وأن طريقتهم فى الالقاء الشعرى بديعة

وقد سألته عن رأيه فى الاخراج فأجاب « إن هذا اختصاص زميلى المستر ادواردز فهو يستطيع أن يحدثك عنه حديثاً طيباً ، ولكن أقول لك انه يجب على الفرقة أن تعنى باختيار المناظر وعملها فتضع تصميما لكل منظر تختاره بحيث تسود المناظر روح واحدة وطريقة واحدة . وانتهاج مثل هذا السبيل يعاون المخرج والممثلين على الوصول إلى غور نفوس النظارة . »

« إن فرقتنا قبل أن تخرج أى رواية تعهد بها إلىّ وإلى المستر ادواردز فنقوم بدراستها ونضع الفكرة الاساسية التى سيقوم عليها الاخراج وبعدئذ أفكر فى وضع تصميم مناظرها » ولو لجأت الفرقة المصرية إلى هذه الطريقة لما رأينا أسلوب تصوير منظر Style يختلف عن أسلوب المنظر الآخر

فن السينما

بقلم يوسف تادرس وظريف زكى

مقدمة

لا حاجة بنا إلى التنويه بانتشار فن السينما حتى طغى على المسرح ، ولا بانشغال الناس به ، من نظارة يقبلون على ارتياد دوره ، إلى ممثلين يعرضون أنفسهم للظهور على شاشته البيضاء ، إلى أدباء ينشئون له القصص والروايات

ذلك على حين أن فن السينما لا يزال فى مهده لم يشتد عوده ، وأن قواعده لم تخرج إلا بقدر من طور مجرد الاحساس بماهيتها إلى طور الاستقرار والتحديد

على أن ذلك القليل من قواعده الذى استقر وتحدد ، لا يزال جمهور النظارة يجهله كل الجهل ، ولا يزال الأدباء بعيدين عن درسه وهضمه . ولو عرفه الجمهور ولو بعض المعرفة لزاد استمتاعه بمشاهدة آثاره ، ولو درسه الأدباء وهضموه لأفادوا منه الغنى ونباهة الذكر

ونحن إذ نكتب هذا الكلام نمثل أمام أعيننا المشاق التى لابد أن تكابدها الآن شركة مصر للسينما فى مراجعة الروايات التى قدمت إليها فى المباراة التى عقدتها ؛ ونتصور الجهد الجهيد الذى يبذله رجالها فى درس تلك الروايات وتنسيقها واعدادها

لذلك وطدنا النفس وعولنا على بيان قواعد فن السينما والتعليق عليها بالشرح والتمثيل على صفحات « الرسالة » الغراء . متوخين الموضوع قبل كل شىء ، نابذين المعقد الجاف من اصطلاحاتها ، ساعين وراء فائدة أوفر عدد من الجمهور

وقد وقع اختيارنا على كتاب « ف . ا . بودوفكين » عن حرفية الفلم واتخذناه نبراساً نهتدى به فى بحثنا ، وكنزاً نغترف منه ونجود به على غيرنا

بودوفكين

وإذا اخترنا كتاب بودوفكين ، فلأنه — على وضوح معناه وسهولة عبارته — قد فتح به فتحاً هز أرجاء القارتين الأوربية والأمريكية ، ولا غرو فقد تضافرت جميع العوامل لتنصيب بودوفكين متشرعاً للفن السينمائى

الكتب

الخطرات

كتاب فى الأدب والأخلاق والاجتماع

تأليف السيدة وداد سكاكينى

السيدة وداد سكاكينى مربية سورية لها فى ميدان الأدب والاصلاح الاجتماعى جولات موفقة ، وهذه الخطرات التى خطرت لها فى مرافق المجتمع العربى عامة والسورى خاصة لا ريب تشهد أنها شاعرة متألمة لا تملك غير قلمها وسيلة لاظهار ما تشعر به ، وهذا القلم يبدو من خلال هذه الخطرات بليغاً صريحاً حكيما عزيزاً ، ومن بين الموضوعات الكثيرة التى حفلت بها هذه الخطرات (الفن القصصى) وفيه تبين الكاتبة مقدار اهتمام الغربيين بذلك النوع من الأدب ، وتعيب على القصة المعربة أنها لا تتمشى مع تقاليدنا ، ولا تصف طرق معايشنا ، ولا تتناسب مع أخلاقنا ؛ وتهيب بأدباء العربية أن يكتبوا عن بيئاتهم قصصاً يحللون فيها ما يعتور ظواهر الاجتماع من التطور والانقلاب

وتفرغ الكاتبة عواطفها فى مقال جميل عن ذكرى النبى الكريم ، تنوه فيه بجهوده كنبى وشارع ومثل أعلى لمكارم الخلق ؛ وهى ترى أن ما اعتاده المسلمون من الاحتفال بذكرى مولده بقراءة القصة المعهودة لا يفى بالغاية من الاحتفال والتكريم ، بل يجب أن يعنى بتلاوة سيرة من طراز يناسب العصر الحديث ، توصف فيها الأخلاق المحمدية والتعاليم الاسلامية وما أحدثته من الانقلاب الخطير فى تاريخ الانسانية

أما إصلاح المرأة فترجعه الكاتبة إلى أحوال المدرسة ، فهى تصرح بأن الفوضى فى مناهج الدراسة تجعل المدرسة عاجزة عن بث روح النشاط والهمة والتهذيب والثقافة فى نفوس النشء ، بل تجعل التلميذات « يدخلنها صباحاً بقلوب واجفة وأقدام تصطك خوفاً ورعباً ، ويخرجن منها مساء كالعصافير وجدت بعد طول الأسر حريتها المسلوبة » هذا ما تقوله فى وصف المدرسة ، ولعلها بهذه الصراحة قد وفقت إلى لفت أنظار القائمين بشؤون التعليم إلى أن الاتجاهات الحديثة فى التربية تعنى قبل كل شىء بأن تكون المدرسة مكاناً يحبه التلاميذ ويجدون فيه مجالاً فسيحاً لارضاء غرائزهم وإظهار مواهبهم وتنظيم رغباتهم فى جو يسوده المرح والاطمئنان

وهكذا وبمثل هذه الروح الطيبة تعالج الكاتبة كثيراً من الموضوعات التى أهمها الأدب العربى ، والتجديد فى الشرق ، والجرأة الأدبية ، وشاعرية الخنساء . ونحن نهنىء الكاتبة الفاضلة بذلك الجهد الموفق ، ونرجو أن يستجيب المصلحون إلى ذلك النداء الصادق البرىء

عبد الفتاح السرنجارى

فانه ولد ويعيش فى روسيا ، وكانت روسيا ولا سيما فى السنين الأولى التى تلت الثورة السوفيتية ، محرومة من الاتصال بالعالم المتمدن ؛ وكانت فقيرة فى المواد الأولية التى تغذى بها الصحف والمجلات السينمائية ، فانكب رجال الفن هنالك على البحث النظرى وعلى التجارب ، فأتوا فى هذين الميدانين بالمعجب العجاب

وبودوفكين يجرى فى عروقه الدم الروسى ، ممتزجاً بالدم التترى ، فكأننا به قد جمع إلى المزاج السلافى الذى يفنى فى الفن الخالص ، ذلك الجموح وتلك الجرأة اللذين قد وسم بهما الجنس التترى

وهو متزوج من ممثلة سينمائية ، سعيد فى حياته ، مستريح البال مطمئن الخاطر . يستنشق فى منزله نسيم الفن الذى جعل حياته له . ناهيك من عقل جبار ، واحساس مرهف ، وقدرة على تبسيط العلوم الجافة مما لا يجتمع إلا للأفذاذ أمثال بودوفكين وقليل ما هم (يتبع)

القياس فى اللغة العربية *

للأستاذ محمد الخضر حسين
عضو مجمع اللغة العربية الملكى

للأديب سيد أحمد صقر

القياس فن واسع الأطراف ، متشعب المسالك ، يمت الى كل باب من أبواب اللغة بصلة ، ويكاد يجرى ذكره عند كل مسألة ، ولولاه لضاقت الفصحى على أبنائها ، وقعدت بهم عن مسايرة ركب الحياة . لم يؤلف فيه — على ما أعلم — غير هذا الكتاب . وسبب تأليفه أن مؤلفه البحاثة الأستاذ محمد الخضر حسين كان يمر أثناء دراسته لعلوم العربية على أحكام تختلف فيها آراء العلماء فيقصرها بعضهم على السماع ، ويراها آخرون من مواطن القياس ، وقد يحكى بعضهم المذهبين دون أن يذكر الأصول التى قام عليها ذلك الاختلاف . فرأى فضيلته أن التمسك بمثل هذه الأقوال من المتابعة التى لا ترتاح إليها نفس العالم الحر — ولاسيما أن الكتب التى اعتمد عليها أصحاب هذه الأقوال قد أصبحت فى متناول أيدينا — فأخذ يوجه نظره الثاقب الى الأصول العالية التى يراعونها فى أحكام القياس والسماع حتى ظفر بقواعد صريحة أضاف اليها غيرها مما استنبطه أو ابتدعه فكان من ذلك (كتاب القياس) . شرح الأستاذ فى هذا الكتاب حقيقة القياس ، وفصل شروطه ، وجمع أصوله وضم أشتاتها ، وأبرزها فى ثوب قشيب ، سهلة القطاف للراغبين ، وقدم له بمقدمة رائعة فى فضل اللغة العربية ونشأتها ومسايرتها للعلوم المدنية ، وحاجتها الى المجتمع ، وتأثيرها فى الفكر ، وتأثير الفكر فيها ، الى غير ذلك من الأبحاث الموجزة الشائقة ، ثم تكلم عن القياس ووجه الحاجة اليه ، وذكر أقسامه وخص منها بالبحث القياس الأصلى وقياس التمثيل ، وتكلم عن الأمور المشتركة بينهما كالقياس فى الاتصال ، والترتيب والحذف والفصل إلى آخر تلك المباحث التى طبق فيها المؤلف مفاصل السداد ، وأصاب شوا كل المراد ، ودل بها على تبحره فى علوم اللغة ، وتمكنه من ناصيتها . بيد أنى كنت أحب أن يطلق الأستاذ لبراعته العنان ، ويبسط القول بعض البسط ، ويكثر من المثل والشواهد لتكون الفائدة بكتابه أعم وأعظم . وإن كان للأستاذ العذر فيما ذهب اليه من الايجاز

السيد أحمد صقر

* هذا الكتاب مطبوع فى المطبعة السلفية ويقع فى ١١٥ صفحة من القطع المتوسط وثمنه أربعة قروش

سلسلة القصص التهذيبية

عنى الأستاذ أحمد فؤاد الصحن بوضع هذه القصص التهذيبية وأخرج منها حلقتين : الأولى (قصة البخيل) ، والثانية (قصة الصياد الصغير والسلحفاة) ، وفى ختام الحلقة الثانية قصة قصيرة وحكاية مصورة وبعض مشاهدات فى مبادئ الطبيعة ومسائل حسابية ومسابقة لطيفة للأطفال ، وهذه كلها قصد بها الأستاذ تسلية الأطفال وتزويدهم بطائفة من المعلومات العامة فى قالب سهل ؛ والكتابة للأطفال لا ريب تحتاج إلى جهد عظيم وعناية فائقة ، ثم هى تقيد الكاتب بكثير من القيود ، ولعل هذا هو السر فى أن الأطفال فى مصر ظلوا طويلا محرومين من الكتب التى تناسب مداركهم . وليس من شك فى أن الأستاذ بكتابة هذه الحكايات قد أضاف إلى مكتبة الأطفال آثاراً لها قيمتها فى تهذيبهم وتثقيفهم وتوسيع مداركهم وتقوية الخيال فيهم . ورجاؤنا أن يعنى الأستاذ فى الحلقات القادمة بالاكثار من الصور وجعلها أكثر وضوحاً وأقرب إلى النوع الذى يحاول الأطفال أن يرسموه بأيديهم ، فان ذلك له أثره فى تقريب الحكايات وجعلها جميلة سائغة

تاريخ الكشف فى مصر والعالم

وضع هذه الرسالة الصغيرة الأديب مصطفى أفندى محمد حسين الرفيق الأكبر لرهط جوالة مدرسة بورسعيد الثانوية ، وقد بدأها بترجمة موجزة لحياة (بادن باول) الكشاف الأعظم ، ثم تناول الكلام عن تاريخ الكشف مستعرضاً الأنظمة الشبيهة به فى التاريخ القديم ، فهو يصف فى ايجاز شديد النظام الأسبرطى ، ثم ينتقل إلى القرون الوسطى ، فيصف الفروسية عند العرب والأوربيين ؛ ثم يجاوز هذا إلى حركة الكشف الجغرافى فى بداية التاريخ الحديث ، ويوازن بين أنظمة الكشف القديمة والحديثة ، وأخيرا يعرض للكشافة فى مصر ، وينقد الفرق الأهلية والكشافات المدرسية ؛ ويختم رسالته بفصل عن المعسكرات الكشفية العالمية ؛ ورغم ما فى هذه الرسالة من الأخطاء اللغوية الكثيرة فانها جهد يشكر عليه صاحبه (ع)

4 me Année, No. 150.

Lundi - 18 - 5 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

مص

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولي رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة « القاهرة في يوم الاثنين ٢٧ صفر سنة ١٣٥٥ — ١٨ مايو سنة ١٩٣٦ » العـــدد ١٥٠

فهرس العـــدد

النقـــد المزيف

كاد الأدباء الناشئون في مصر وفي غير مصر ينصرفون عن الانشاء إلى النقد . وأريد بالنقد هنا معناه العامي أو مدلوله الأعم ؛ فان النقد المنطقي بمعناه الأخص إنما هو ملكة فنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة . والناقد بهذا الاعتبار يشارك المشترع في صدق التمييز ، والفيلسوف في دقة الملاحظة ، والقاضي في قوة الحكم . ومن ثم كان نوابغ النقد في العالم أندر من نوابغ الشعر والكتابة . وهذا الذي تقرأه في الصحف العربية من حين إلى حين لا يدخل في هـذا الباب إلا كما يدخل المجون في نطاق الجد ، أو العبث في سياق المنطق ؛ كالرجل يقعد به العجز عن اللحاق بالقادرين ، فيقف نفسه موقف القائد الحصيف ، يلمز هذا ، ويتنادر على ذاك ، ويزعم أنه وحده المسيطر على ثمرات الذهن ، فيحكم بذوقه الخاص على هذه بالقبح ، وعلى تلك بالفجاجة ؛ وأمره كله لا يخرج عن مألوف الطباع الساخرة الفكهة : تصور الحق بلون الباطل لتُضحك ، وتبرز الجميل في مظهر القبيح لتُسيء . وعيب الناس طبيعـة في بعض الناس ، لا يكلفهم إلا تحريك اللسان إذا لقوا سامعاً ، أو تحرير القلم إذا وجدوا صحيفة

هـذا طالب فى ثانويات القاهرة يملى خطةً فى الكتابة على الجامعة ؛ وذاك معلم فى ابتدائيات بيروت يلقى درساً فى الصحافة على القاهرة ؛ وذلك صحفى فى مطارح الهجرة يقضى بالموت على الأدب العربى كله !

علام اعتمدت يا بنى فى إنشاء خطتك ؟ وإلام رجعت يا أخىَ فى إعداد درسك ؟ وبم اتخذت يا زميلى أسباب حكمك ؟ وهل تظفر من هؤلاء بجواب ما دمت فى الزمن الذى ترى فيه الناظم ينظم ولا يعلم العروض ، والكاتب يكتب ولا يدرس النحو ، والمجادل يجادل ولا يفقه الأصول ؟ إنهـا فوضى تتولد فى عصور الانتقال وتفشو فى ابتداء اليقظة ، حين لا يسكن أمر إلى قرار ، ولا يطمئن نظام على وجه ، ولا يخلص رأى من حيرة ، ولا يصدر حكم عن اختصاص !

* * *

إن هـذا الضرب من النقد إما أن ينبعث من مكامن الحقد فيرمى إلى التجريح ، وإما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى إلى الهدم . كان منذ قريب يعمد إلى الكتاب القيم فى الفلسـفة أو التاريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحمق ينقد فى بعض صفحاته فعلا تعدى بغير حرفه ، أو اسماً جمع على غير قياسه ، وقد يكون لكل منهما وجه ، ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخيف لا يقرأ ، وضعيف لا يعيش ! . ثم أصبح اليوم يعرض للموضوع فيقول : هذا قديم لأنه يدور على بحث فى تاريخ الشرق ، أو على معنى من معانى الدين ، أو على أثر من آثار البلاغة ؛ وهذا جـديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب ، أو على رجـل من رجال الأكاديمية ، أو على غانية من غوانى المسرح ؛ هـذا مقلد لأن أسلوبه شريف ممتنع ، وهذا مجدد لأن أسلوبه مبتذل ممكن ! ثم تعصف بأقلامهم اللينة نخوة الحفاظ وحماسة الفتوة فيصيحون :

أميتوا أدب العاطفة وأحيوا أدب القوة !

أبيدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب !

انبذوا أدب المقالة والزموا أدب القصة !

صيحة قرارها حق ومقامها باطل ! فان إجماع الناس واقع على أن خلو الأدب الحديث من أدب القوة وأدب الشعب وأدب القصة خلل لا بد أن يسد ، ونقص لا بد أن يكمل ؛ ولكن من الذى يقول ويعنى مايقول : إن وجود هذه الأنواع يقتضى عدم الأخرى ؟ إن لكل فن من الأدب طبقة من الناس تتذوقه ، فاذا منعتها إياه طلبته . والناقص لا يكمل برفع نقص ووضع نقص ؛ والبناء لا يتم بهدم ركن وإقامة ركن

أرأيتك[1] إذا كان الأدب كله قوياً يخشن الصدور ، وحماسياً يؤرّث الحفائظ ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذى يصور ألوان الحياة المريرة ، ويترجم أشجان القلوب الكسيرة ، ويرقق حواشى الأنفس الجافية ؟

أرأيتك إذا كان الأدب كله شعبياً يعبر بألسنة السوقة ، وينقل عن عواطف العامة ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذى يرضى أذواق الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الأسلوب فى صورة من الفن الرفيع تسمو بالنفوس إلى المثل الأعلى ، وتغمر الشعور بالجمال الخالد ؟

الأدب صورة النفس فلا بد أن ترتسم فيـه مشاعر الفرد ؛ والأدب مرآة الحيـاة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع . وما دام فى الناس الحساس والبليد ، والخوار والجليد ؛ وفى الدنيا التفاوت الذى يوجد التمايز ، والألم الذى يفجر الدموع ، واللذة التى تبعث المسرة ، والمدنية التى تخلق التنوع ، فلا بد أن يكون الأدب الصحيح صدى لكل ذلك

ليست وظيفة النقد أن يهدم أو يميت أو يشتـرع . تلك وظيفة الطبيعة التى تطور كل شىء ، وتغير كل نظام ، وتسد كل عوز ، وفق قانون ثابت . انما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود وينبه الأذهان إلى الفاقد . أمّا أن يحاول تغيير الطباع بقانون ، وقلب الأوضاع بمقالة ، ومحو الثابت بنكتة ، فذلك عبث لا يخلق بكرامة إنسان ، وتهريج لا يذكر بضمير فنّان !

* * *

أما بعد فلعل فى هذا الاجمال يا صديقى (نجيب) بعض الجواب عن مقالك (فوضى النقد) ، ولعلك تكتفى منى بذكره عن نشره ؛ فانك سميت أشخاصاً وعينت كتباً وحددت حوادث ، وفى بعض ما قلتَ مشابهُ مما يقول هؤلاء ! ومن خلُق الرسالة كما تعلم أن تكتفى بالتلميح وتتأبـه عن التجريح وتعوذ بفطنة قرائهـا من شر ذلك .

احمد حسن الزيات

(١) أرأيتك اسم فعل بمعنى أخبرنى

إنســـان ناجح

للأستاذ أحمد أمين

صخرى الوجه ، صُلب الجبين ، لم يعرف يوماً حمرة الخجل ، ولا برقع الحياء ، لا يتوقى شيئاً ، ولا يبالى ما يقول

إن كان لكل الناس وجه ولون ولسان ، فلهذا المخلوق أوجه وألسنة وألوان

هو صديقك وعدوك حسب الظروف الخارجية : لا حسب ما يصدر منك ، وهو مادحك وذامك حسب ما يدور فى المجلس ، لا حسب رأيه ، وهو عابس لك يوماً باسم يوماً حسب ما يقدر هو أنه فى مصلحته ، لا حسب ما تستحق أنت منه

له حاسة زائدة عن حواس الناس الخمس هى سر نجاحه ، ولهذه الحاسة خصائص : فهو يدرك بها أى نوع من الوزارات ستتولى الحكم ليحول نفسه على وفقها ، وليتجهم لاعدائها ، ويتقرب من أحبابها ؛ ويشم بها مواطن المال فى كل ظرف ، ويرى بها من يجلب له النفع ، ويؤقلم وفق ذلك نفسه ، فيتشكل بأشكال فى منتهى الظرف والطلاوة ، فاذا عدوه الألد بالأمس صديقه الحميم اليوم

ويعرف بها — فى مهارة عجيبة — موضع الضعف من كل انسان يهمه ، فان كان يعبد النساء حدثه أعذب الحديث فى النساء والجمال وحسن الشكل ، وبدع المحاسن ، وجمال الملامح ، واستعرض نساء البلد ونساء الفرنج ، وأية حوراء العينين ، كحلاء الجفون ، ساجية الطرف ، فاترة اللحظ ، وأية أسيلة الخد ، ممشوقة القد ، وأية بيضاء اللون ، شقراء الشعر ، زرقاء العين . وأية سوداء العين ، سمراء اللون سوداء الشعر . وأية ممتلئة البدن ؛ ضخمة الخلق ، شبعى الوشاح ، وأية دقيقة الشبح نحيلة الظل مرهفة الجسم ، وتفنن فى ذلك ما شاء أن يتفنن حتى علك لبه ، ويستعبد عقله ، فاذا هو طوع بنانه ومستودع أسراره

وإن كان سكيراً حدثه الحديث الممتع فى الشرب والشراب ، والكؤوس والأكواب وآداب النديم ، وروى له أحسن الشعر فى الخمر وحدثه عما يمزج وما لا يمزج ، وخير الخمور ومواردها وتواريخها وما يلذ صبوحا وما يلذ غبوقا — وتعرف ما يستحسنه صاحبه فأفرط فى مدحه وادعى الاعجاب به ، وأنه لا يفضل عليه غيره ، وأن ذوقه من ذوقه وشرابه من شرابه ومزاجه من مزاجه ، وأسكره من حديثه كما أسكره من كأسه ، فاذا هما صديقان وثقت بينهما الكاس والطاس

وان كان شرها فى المال حدثه عن الضياع ومحاسن الأراضى وكيفية استغلالها ، والعمارات وجباياتها ، ووازن بين أنواع العقار وكم فى المائة يمكن أن تغل ، وأعانه فى مشاكله وبذل له كل أنواع معونته ، فوجد فيه صديقه النافع وخليله المواتى

وهدته حاسته هذه أن يعمد إلى عدد من الرؤوس الكبار ذوى النفوذ فينصب لهم حبالته ، ويوقعهم فى شبكته ، بما يبذر من حب ذى أشكال وألوان ، فاذا تم له ذلك خضع له الصغار من تلقاء أنفسهم وطوع ارادتهم ، وضرب لهم مثلاً بقضاء حوائج لبعضهم ما كانت تقضى من غيره ، فهو مقصد جميعهم ومحط آمالهم وموضع الرجاء منهم ، يعملون كلهم فى خدمته على أمل أن ينالوا شيئاً من جاهه ، فاذا هو سيد على الصغار والكبار ، وإذا هو عظيم حيث كان ، يقابل بالاجلال والاعظام ، ويملق من أتباعه وإخوانه ، ويحسب حسابه فى دائرته وأوسع من دائرته

الى جانب هذه الحقائق القليلة قدر كبير من التهويش ، فهو يزعم أنه فى كل ليلة جليس الكبراء والوزراء ، كم يتغزلون فيه ويطلبون القرب منه وهو يتأبى عليهم ، ويبتعد عنهم ، وهو لو شاء لكفت إشارة منه لأن يرفع من شاء فى أعلى عليين ، ويخفض من شاء الى أسفل سافلين — الوزارات فى يده ، ومصالح الحكومة فى أصبعه — والانجليز يخشون بأسه ، والفرنسيون يقضون مصالحهم على يده — وبريده كل يوم من خارج القطر ينوء السعاة بحمله ، ثم لا أدرى كيف اتصل بالجرائد فهى تشيد دائماً بذكره ، فاذا تحرك حركة أعلنتها على الناس كما تذاع حركات الملوك ، فهو مسافر الى الأسكندرية ، وقادم من الاسكندرية ، ومبحر الى أوربا ، ومتنقل فى عواصم البلدان ، وعائد الى مصر بعد أن رفع شأنها ، وأعلى مكانها ، حتى لم يبق إلا أن تخبرنا ماذا أفطر ، وكيف أفطر ، وفى أى ساعة تناول غداءه ، وماذا كانت

أصنافه ، وهل غفا قليلاً بعـد الغداء أو تحدث قليلا الى زوجه وأولاده

وهو يستغل هذا كله فى قضاء مصالحه ، فطلباته ناجزة نافذة ، والمستحيل لغيره جائز له ، والأموال تكال له كيـلا ، والهدايا تنهال عليه انهيالا ، وهو مع كل ذلك لا يشبع ، كلما نال مطلبا تفتحت له مطالب ، فهو فى طلب دائم ، ومن بيـدهم الأمور فى إجابة دائمة ، حتى ليوشك — إذ لم يتعود الرفض — أن يطلب النجوم تزين غرفته ، والسحاب يمطر فى الصيف حديقته ، والحر والبرد يتأدبان فى حضرته ، والشمس تكسف لطلعته

ومن غريب أمر الناس فيه أنهم يكرهونه من أعماق نفوسهم ، ويمقتونه من صميم قلوبهم ، ويرون فيه السخافة مركزة ، واللؤم مجمعاً ، فاذا لقوه فترحيب وتهليل ، واعظام وملق ، يبسطون ألسنتهم فيه بالسوء غائبا ، ويطنبون فى مدحه حاضرا ، فهو معذور إذ يشعر أن الناس مجمعة على حبه ، حتى ليخشى عليهم أن يموتوا به غراما أو يُجَنُّوا به هياما ، شهدته مرة وقد أتى عملا شنيعا حتى كان مضغة الأفواه ومعرة القوم ، وظننت الناس إن رأوه ازدروه — على الأقل — بعيونهم ، وكلموه ببعض شفاههم ، واستهانوا بمقدمه ، وأقل ما يفعلونه ألا يحفلوا به ، ولا يأبهوا بمقدمه ، فما كان أشد عجبى أن رأيتهم — إذ حضر — قد انتفضوا من أماكنهم ، وأفسحوا له مجالسهم ، وأجلّوا شأنه ، وأعظموا قدره ورفعوا منزلته فوق من يقدرون فضله ويجلون خلقه

فهو — حتى فى هـذا — ينتفع بأعظامهم وإجلالهم ، ولا يضره كرههم الذى لا يعدو قلوبهم — فكرههم لأنفسهم ، وإعظامهم له ، وماذا يضره كرهٌ محتقن وخير منه حب مصطنع . وماذا يضيره سب صادق فى إسرار ، وخير منه مدح كاذب فى إعلان ؟ لا شك أنه فى كل ذلك ناجح حتى فى الكره والذم

***

قال صاحبى : وهل تعد ذلك نجاحا ؟ لو كان النجاح بقضاء المصالح والأغراض والحصول على المال نجاحا ، لعددنا السارق يجيد السرقة ويفلت من العقوبة ناجحاً ، ولعددنا الذى يتاجر بشرفه وعرضه ناجحاً ، ولكان أنجح الناس من حصل على المـال من أقرب الوجوه ولو كان من أخسها — إن هذا الذى ذكرت قد كسب المال وخسر الشرف ، حييت مطامعه ومات ضميره ، وخدم من يظنهم كبراء أو عظماء بضعة نفسه وموت حسه ، بأى مقياس أخلاقى قسته لم تجـده شيئاً ، إن قسته بمقياس الفضيلة البانّة الحاسمة لم تجده فاضلاً ، وإن قسته بمقياس السعادة لم تجده سعيداً ، إنه يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام ، فان كان الحمار أو الخنزير سعيداً فهذا سعيد ، وأين منه لذة ذى الضمير الحى ينعم بمواقف الشرف والنبل ، ويلذهما لذة لا تعدلها ما ذكرت من مال وجاه ؛ إن الرجل الفاضل سعيد حتى فى آلامه لأنها آلام لذيذة خصبة ، هى كالنار تنضج النفس ولا تحرقها ، أما لذة صاحبك فسم فى دسم ، ونار تحرق ولا تنضج — وبعد قليل من حياته يفقد حتى لذة المـال والجاه ، وتصبح لذتهما كلذة من يتناول الحلوى صباح مساء تتهوّعُ نفسه وتتقبض شهيته — فان اللذة الباقية الدائمة هى لذة الروح لا الجسم ، ومن عجيب أمر الروح أن لذتها لذة صافية ، وألمها ألم مشوب بلذة ، ثم لذة هذا المخلوق لذة مشروطة بشروط ، فهو يعتقد أن لذته مرتبطة ببقاء صاحبه فى الوزارة ، وصديقه فى الوكالة ، وحميمه فى منصبه ، لأن قيمته مستمدة منهم وليست مستمدة من نفســه ، إذ ليست له قيمة ذاتية ، ونجاح مثل هذا فى أمة عنوان فشلها وسوء تقديرها ، وضعف الرأى العام فيها — وهو مثل سيء يشجع البذور السيئة على النماء والبذور الصالحة على الخفاء — قد يكون هذا المثل فى كل أمة ، ولـكنه فى الأمة الصالحة نادر ، ويحتاج فى نجاحه إلى كثير من الطلاء حتى يخدع الناس ويوهمهم بصلاحه . أما أن يجرؤ ويظهر بمظهره الحقيقى ثم ينجح فذلك فساد الأمة وسبة الدهر

قلت : ربما كان ما تقول صحيحاً فدعنى أفكر

أحمد أمين

العــجوزان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال محدِّثي : التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة ، وكانت مثابتهما (١) ذلك المكانَ القائم على شاطئ البحرْ فى اسكندرية فى جهة كذا . وهما صديقان كانا فى صدر أيامهما — حين كانت لهما أيام ... — رَجُلى حكومة يعملان فى ديوان واحد ، وكانا فى عيشهما أخَوَيْ جد وهزل وفضائل ورذائل ، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلةُ أحدهما من الآخر ؛ وكأن بينهما فى الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة ، والدمعة من الدمعة

ولبثا كذلك ما شاء الله ثم تبددا ، وأخذتهما الآفاقُ كدأب (الموظفين) ينتظمون وينتثرون ، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، وكأن «الموظف» من تفسير قوله تعالى : « وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت »

وافترق الصديقان على مضض ، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض (موظفيها) — هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض ؛ ثم تصرَّفت بهما الدنيا فذهبا على طرفى طريق لا يلتقيان ، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذى مضى ، يُحفظ ولا يُرى

***

قال المحدِّث : وكنت مع الأستاذ (م) ، وهو رجل فى السبعين من عمره ، غير أنه يقول عن نفسه إنه شابٌ لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنة ... ويزعم أن فى جسمه الناموسَ الأخضر الذى يحيى الشجرة حياة واحدةً إلى الآخر

رجل فارهٌ ، متأنق ، فاخر البزَّة ، جميلُ السَّمْت ، فارعُ الشَّطاط (٢) كالمصبوب فى قالب لا عوج فيه ولا انحناء ، مجتمع كله لم يذهب منه شىء ، قد حفظته أساليبُ القوة التى يعانيها فى رياضته اليومية . وهو منذ كان فى آنِفَتِه وشبابه لا يمشى إلا مستأخر الصدر (١) ، مشدود الظهر ، مرتفع العنق ، مسندا قفاه إلى طوقه ؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد ، وكلما سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله : إن هذا من عمل إسناد القفا (٢) ....

وهو دائماً عَطِرٌ عبق ، ثم لا يمسُّ إلا عطرا واحدا لا يغيره ، يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبى ، وأنه يبقى للأيام رائحتها

وله فلسفة من حسِّه لا من عقله ، ولفلسفته قواعد وأصول ثابتة لا تتغير ؛ ومن بعض قواعدها الزهر ، ومن بعضها الموسيقى ، ومن بعضها الصلاة أيضاً . وكل تلك هى عنده قواعد لحفظ الشباب . ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هى لم تتغير اتصل الشبابُ فيها واطَّرد فى الروح ، فتكون من ذلك قوة تحرس قوة اللحم والدم ، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى

وهو يزيد فى حكمة الصلاة فكرةً رياضيةً عملية لم ينتبه إليها أحد ، هى رياضة البطن والأمعاء بالركوع والسجود والقيام ؛ ويقول إن ثروة الصلاة تُكنَز فى صندوقين : أحدهما الروح لما بعد الموت ، والآخر البطن لما قبل الموت . ويرى أن الاسلام لم يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصبُّ فى الروح كل يوم

***

قال المحدِّث : وبينما نحن جالسان مرَّ بنا شيخٌ أعجفُ مهزولٌ موهونٌ فى جسمه ، يدلُفُ متقاصِرَ الخطوْ كأن حمل السنين على ظهره ، مُرْعشٌ من الكِبَر ، مستقدمُ الصدر منحنٍ يتوكأ على عصا ، ويدل انحناؤه على أن عمره قد اعوجَّ أيضاً . وهو يبدو فى ضُعفه وهُزاله كأن ثيابه ملئت عظاماً لا انساناً ، وكأنها ما خيطت إلا لتمسك عظما على عظم . . .

قال : فحملق اليـه (م) ثم صاح : رِينا ، رِينا . فالتفت العجوز ، وما كاد يأخذنا بصره حتى انفتل الينا وأقبل ضاحكا يقول : أوه رِيت ، رِيت

ونهض (م) فاحتضنه وتلازما طويلا ، وجعل رأساهما

(١) أى المكان الذى اجتمعا فيه بعد التفرق (٢) ممتد الطول

(١) يقال مستقدم الصدر للهرم المحنى الظهر ، فأخذنا منها مستأخر الصدر ، وذلك بروزه حين يكون مشدودا ، فيكون أعلاه إلى الوراء

(٢) هذه حقيقة رياضية ، وهنا أقوى الأثر فى شد الجسم وانتصاب القامة إذا اعتادها الانسان . والمراد بالطوق الينقة (الياقة)

يدوران ويتطوحان ، وكلاهما يقبل صاحبه قبلاً ظامئة لا عهد لى بمثلها فى صديقين ، حتى خيّل إلىّ أنهما لا يتعانقان ولا يتلاثمان ولكن بينهما فكرة يعتنقانها ويقبلانها معاً . . .

وقلت : ما هذا أيها العجوزان ؟

فضحك (م) وقال : هذا صديق القديم (ن) تركته منذ أربعين سنة معجزةً من معجزات الشباب ، فها هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم ، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمه . . .

ثم التفت اليه وقال : كيف أنت يارينا ؟

قال العجوز (ن) : لقد أصبحت كما ترى ؛ زاد العمر فى رجلىَّ رجلاً من هذه العصا ، ورجع مصدرُ الحياة فىَّ مصدراً للآلام والأوجاع ، ودخلت فى طبيعَتَى عادة رابعـــة من تعاطى الدواء

فضحك (م) وقال : قبح الله هذه الدخيلة ، فما هى العادات الثلاث الأصلية ؟

قال العجوز : هى الأكل والشرب والنوم . . . ثم أنت يا ريت كيف تقرأ الصحف الآن ؟

قال (م) : أقرؤها كما يقرؤها الناس ، فما سؤالك عن هذا ؟ وهل تقرأ الصحف يوما غير ما تقرأ فى يوم ؟

قال : آه ! إن أول شىء أقرأ فى الصحف أخبارُ الوفيَات لأرى بقايا الدنيا ، ثم (اعلانات الأدوية) . . . ولكن كيف أنت ياريت ؟ إنى لأراك ما تزال من وراء أربعين سنةً فى ذلك العيش الرَّخِىّ ، وأراك تحمل شيخوختك بقوة كأن الدهر لم يحزمْك من هنا ولا من هنا ، وكأنه يلمسك بأصابعه لا بمساميره ، فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث ؟

قال : نعم

قال : ناشدتك الله ، أى معجزات العلم الحديث معجزةٌ لعظمى ؟

قال (م) : ويحك يا رينا . إنك على العهد لم تبرح كما كنتَ مزبلة أفكار . . . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى بمنزلة بين العظم والخشب . . . ؟

***

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ثم قلت للأستاذ (م) : ولكن ما (رينا وريت) وما هذه اللغة ؟ وفى أى معجم تفسيرُها ؟

قال : فتغامَزَ الشيخان ، ثم قال (م) : يا بنى هـذه لغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها ، فهى كتلك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى

قلت : ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما . . . ولا يزال كل شاب فى هذه الجاهلية الأولى ، وما أحسب (رينا ، وريت) فى لغتكما القديمة إلا بمعنى (سوسو ، وزوزو) فى اللغة الحديثة ؟

فقال (م) : اسمع يا بنى . إن رجل سنة ١٩٣٥[1] متى سأل فىَّ رجل سنة ١٨٩٥ : ما معنى رينا وريت ؟ فرد عليه : إن (رينا) معناها (كاترينا) ؛ وكان (ن) بها صباً مغرماً ، وكان مُقْتَتَلاً قتله حبها . أما (ريت) فهو لا يعرف معناها

فامتعض العجوز (ن) وقال : سبحان الله ، اسمع يا بنى : إن رجل سنة ١٨٩٥ فى يقول لك : إن (ريت) معناها (مرغريت) وكانت الجوى الباطنَ ، وكانت اللوعةَ والحريق الذى لا ينطفىء فى قلب الأستاذ (م)

قلت : فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥ فكيف تريان الحب الآن ؟

قال العجوز (ن) : يا بنى إن أواخر العمر كالمنفى . . . ونحن نتكلم بالألفاظ التى تتكلم بها أنت وأنتما وأنتم ... غير أن المعانى تختلف اختلافاً بعيداً

قلت : واضربْ لهم مثلاً

قال : واضرب لهم مثلاً كلمة (الأكل) فلها عنـدنا ثلاثة معان : الأكل ، وسوءُ الهضم ، ووجع المعدة ... وكلمة (المشى) فلها أيضاً ثلاثة معان : المشىُ ، والتعب ، وغمزاتُ العظم . . . وكلمة (النسيم) ، النسيم العليل يا بنى ؛ يزيد لنا فى معناها تحرك (الروماتزم) . . .

فضحك (م) وقال : يا « شيخ » . . .

قال العجوز : وتلك الزيادة يا بنى لا تجىء إلا من نقص ، فهنا بقيةٌ من يدين ، وبقية من رجلين ، وبقية من بطن ، وبقية من ومن ومن ، ومجموع كل ذلك بقية من انسان

قال الأستاذ (م) : والبقية فى حياتك . . .

(١) كانت هذه القصة فى صيف سنة ١٩٣٥ فى اسكندرية

قال (ن) : وبالجملة يا بنى فان حركة الحياة فى الرجل الهرم تكون حول ذاتها لا حول الأشياء ؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركتى الأرض حول نفسها كذلك ، وإذا قال الشاب فى مغامرته : ليمض الزمن ولتتصرمّ الأيام ، فان الأيام هى التى تتصرم والزمن هو الذى يمر . أما الشيوخ فلن يتمنوه أبداً . فمن قال منهم : ليمض الزمن فكأنما قال فلأمض أنا . . .

فصاح (م) : يا شيخ يا شيخ . . .

ثم قال العجوز : واعلم يا بنى أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم فيصبح مثله ضعيفاً لا غناء عنده ولا حيلة له ، وكل مصانع لنكشير ومصانع بنك مصر واليابان والأمريكتين ، وما بقى من مصانع الدنيا ، لا فائدة من جميعها فهى عاجزة أن تكسو عظامى . .

***

قال المحدث : فقهقه الاستاذ (م) وقال : كدتُ والله أتخشّب من هذا الكلام ، وكادت معانى العظم تخرج من عظامى . لقد كان المتوحشون حكماء فى أمر شيوخهم ، فاذا علت السنُّ بجماعة منهم لم يتركوهم أحياءً إلا بامتحان ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم الى شجرة غضة لينة الهزَّة فيكرهونهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلّوا منها وقد علِقت أيديهم بأغصانها ؛ فاذا صاروا على هذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجونها وينفضونها ساعة من نهار ؛ فمن ضعفت يداه من أولئك الشيوخ أو كلّت حوامل ذراعيه فأفلت الغصن الذى يتعلق به فوقع ، أخذوه فأكلوه . ومن استمسك أنزلوه فأمهلوه الى حين

فاقشعر العجوز (ن) وقال : أعوذ بالله هذه شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، ولعلها الله من حكمة ، فانما يطبخونهم فى الشجرة قبل الأكل ، أو هم يجعلونهم كذلك ليتوهموهم طيورا فيكون لحمهم أطيب وألذ ، ويتساقطون عليهم من الشجرة حمائم وعصافير

قال (م) : إن كان فى الوحشية منطق فليس فى هذا المنطق « باب لِمَ » ، ولا (باب كيف) ، ولو كان بهم أن يأكلوهم لأكلوهم ، غير أنها تربية الطبيعة لأهل الطبيعة ؛ فان رؤية الرجل هذه الشجرة وهزَّها وعاقبتَها يبعد عنه الضعف والتخلخل ، ويدفعه الى معاناة القوة ، ويزيد نفسه انتشارا على الحياة وطمعاً فيها وتنشّطا لأسبابها ، فيكون ساعدُه آخر شىء يهرم ، ولا يزال فى الحِدّة والنشاط والوثبان ، فلا يعجز قبل يومه الطبيعى ، ويكون المتوحشون بهذا قد احتالوا على الطبيعة البشرية فاضطروها الى مجهودها ، وأكرهوها على أن تبذل من القوة آخر ما يسع الجسم

قال (ن) : فَنَعِم إذَنْ ، ولعن الله معانى الضعف . كدت والله أظن أنى لم أكن يوماً شاباً ، وما أراك إلا متوحشا تخاف أن تؤكل فتظل شيخاً رجلا لا شيخا طفلا ، وترى العمر كما يرى البخيل ذهبه مهما يبلغ فكثرته غير كثيرة

***

قال المحدث : وأضجرنى حوارهما إذ لم يعد فيه إلا أن جسم هذا يرد على جسم هذا ؛ وإنما الشيخ من أمثال هؤلاء زمان يتكلم ويقص ويعظ وينتقد ، ولن يكون الشيخ معك فى حقيقته إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمة . فقلت لهما : أيها العجوزان ! أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ . . .

(لها بقية) (طنطا) مصطفى صادق الرافعى

إلى م . ش : يا بنى إن الزبال يتزوج ويعيش ويهنأ ما دام فى طبقته وحقيقته ، فاذا خرج من هذه الطبقة وتسامى عن هذه الحقيقة وقال سأنتظر ، بقى طول عمره ينتظر . وكل شاب عزب تراه فهذه علته : زبال يطمع فى بنت أمير ... وهو لا يدرى أنه زبال . ينتظر العصفور حدأة ، أتصغر الحدأة أم يكبر العصفور ...؟ الرافعى

من روائع عصر الإحياء

قصص الأيام العشرة

بقلم جوفانى بوكاشيو

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من آثار عصر الأحياء الخالدة قصص بوكاشيو الشهيرة المسماة « ديكامرونى » . وقد مضى على ظهور هذا الأثر الرائع زهاء ستة قرون ؛ بيد أنه ما زال حتى عصرنا يحتفظ بروعته وسمو خياله وفنه ، وما زال يتبوأ مكانه بين الآثار العالمية الخالدة

وقد أوحت إلى بوكاشيو كتابة أثره حوادث مروعة شهدها وهزت نفسه إلى الأعماق ، فأذكت خياله ، وانتزعت من قلمه تلك القصص الساحرة التى تصور لنا كثيراً من روح العصر وخلاله أصدق تمثيل وأمتعه

كتبها بوكاشيو وأشباح الفناء تحتشد من حوله ، والموت الذريع يقطف أزاهير المجتمع من كل الطبقات والأعمار ؛ والتمس بكتابتها عزاء لنفسه وعزاء لمجتمعه عما نزل به من أهوال الفناء ، ولتكون باعثاً إلى النسيان والمرح . وكان بوكاشيو يومئذ فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، فى ذروة الفتوة والنضج ، فجاءت هذه القصص أروع آثاره ، وعنوان مجده ، واتخذت مكانها بين أعظم آثار عصر الأحياء

ولد جوڤانى بوكاشيو فى سنة ١٣١٣ م فى باريس من أب ايطالى وأم فرنسية ، ونشأ فى فلورنس موطن أسرته ، وتلقى فيها تربيته ، وشغف منذ حداثته بالشعر والأدب ، وتأثر أيما تأثير بشعر ڤرجيل ؛ وكان أول آثاره قصة غرامية عنوانها « فياميتا » وهى فتاة حسناء يظن أنها تمثل فتاة حقيقية هام بها بوكاشيو ، وأظهرها فى شخص فياميتا ، والمظنون أيضاً أنه يصف حبيبته هذه فى شخص بطلة قصته الأخرى « فلسكوبو » . وتجول بوكاشيو فى المدن الايطالية ، وعاش حيناً فى نابل ، فى عهد ملكها روبرتو وملكتها الفتية الحسناء جوفانا (جنه) ، واتصل ببلاطها الساطع المنحل معا ، وكتب فيها بعض قصائده وقصصه ؛ ومنذ سنة ١٣٤٢ نراه يستقر مع أسرته فى فلورنس ، ويحاول أن يفوز بمنصب فى الحكومة أو مركز أدبى يعيش منه ؛ وقد لفتت كفاياته الحكومة غير بعيد ، فأوفدته سفيرا إلى حكومة « رومانيا » فى سنة ١٣٤٦ ، ولكنه اضطر بعد ذلك بنحو عام إلى العودة إلى فلورنس على أثر موت أبيه ليعنى بشؤون أسرته ، واشترى بمعظم ميراثه كتباً لاتينية ويونانية ، وانقطع للكتابة والتأليف

ولم يمض قليل على ذلك حتى نكبت إيطاليا وفلورنس ونكب العالم بأسره بتلك الكارثة العظمى التى تعرف فى الرواية الغربية بالوباء الأكبر ، وفى الرواية الاسلامية باسم مماثل هو « الفناء الكبير » ، ذلك أن الفناء الكبير قد اجتاح أمم الشرق والغرب معاً ، وحمل منها إلى القبر عشرات الملايين ، وعصف بجميع المجتمعات الزاهرة أيما عصف ؛ وبسط على العالم المتمدن كله ريحاً من الرهبة والروع ؛ وقد شهد بوكاشيو أحداث الوباء فى فلورنس منذ بدئها ، وترك لنا عنها وصفاً مروعاً مؤثراً ؛ واليك ما يقوله فى أصل الوباء وأعراضه :

« إنه فى سنة ١٣٤٨ ميلادية حل الوباء الفاتك بمدينة فلورنس الزاهرة ، أجمل المدن الايطالية ، بعد أن لبث قبل ذلك بأعوام يعصف بالمشرق ، إما لتفاعل الكواكب والاجرام ، وإما لغضب الله الحق لما يرتكبه عباده من الخطايا ، ولأنه أرسل اليهم صواعق عقابه ، فعصف بكتل من البشر لا حصر لها ؛ وانتقل الوباء مسرعاً من مكان إلى مكان حتى حل بالغرب يحمل الفزع والروع . . . وكانت أعراضه سواء بالنسبة للرجال أو النساء ، فيظهر أولاً فى شكل أورام تصيب الأبط أو أسفل البطن ثم تنتشر فى جميع أجزاء الجسم ، ثم تتحول إلى بقع سوداء أو ممتقعة تملأ الذراعين والفخذين ، ثم سائر أعضاء الجسم ؛ وكان المصاب يموت عادة فى اليوم الثالث دون حمى ودون مضاعفات أخرى »

واجتاح هذا « الفناء الكبير » أمم الشرق والغرب معاً ، فعاث فى الأمم الاسلامية أيما عيث ؛ وعصف بمجتمعاتها الغنية الآهلة ، وسرى إلى جميع الأمم الأوربية ، وبسط عليها رهبة الدمار والموت ، وحمل من سكانها نحو الثلث فى أشهر قلائل ؛ وكان فتكه أشد ظهوراً ، وأعمق أثراً فى مجتمعات إيطاليا ، وبخاصة فى فلورنس التى كانت تتمتع يومئذ بحضارة زاهرة ؛ وهنالك أفنى

جيوشا برمتها ، وأهلك عدداً كبيراً من الأمراء والعظماء والقادة .
ويقول لنا بوكاشيو إنه استطال هنالك من مارس إلى يونيه سنة ١٣٤٨ ، وحمل من فلورنس وحدها مائة ألف إنسان »

ويصف لنا بوكاشيو أهوال الوباء ومناظره المروعة وصفاً ضافياً مؤثرا ، فيقول : « كان الناس يجتنبون بعضهم بعضاً ، وقلما يتزاور الأقارب أو لا يتزاورون أبدا ؛ وألقت الكارثة الرعب فى قلوب الناس جميعاً ، رجالاً ونساء ، حتى أن الأخ كان ينبذ أخاه نبذ النواة ، والأخت أخاها ، والمرأة زوجها ؛ بل أروع وأبعد عن التصديق أن الآباء والأمهات أضربوا عن رؤية الأبناء أو تعهدهم ، كأنما ليسوا من ذويهم »

« بل لقد هجر الناس الجيران والأقارب والخدم حتى اضطروا الى ارتكاب عادات لم يسمع بها ؛ من ذلك أن المرأة مهما كانت من الجمال أو النبل ، إذا أصابها مرض واضطرت الى استخدام رجل ، شيخا كان أو شابا ، فانها تكشف له دون خجل كل أجزاء جسمها إذا اضطرتها ظروف المرض ، وربما كان ذلك هو السبب فى انحلال الحشمة والحياء عند أولئك اللائى ينجون »

ثم يقول : « وكان يعنى بدفن الناس بادىء ذى بدء ، فيلقى بهم دون احتفال فى أول مقبرة ؛ فلما اشتد الوباء ، كان الموتى يحملون جماعات ، ويلقون فى الطرق ؛ وقد تموت أسر برمتها فلا يبقى منها انسان ؛ وأزواج وآباء وأبناء معا ، ويلقى الجميع بلا تميز فى حفر كبيرة »

***

تلك هى الأحداث والمناظر المروعة التى أذكت خيال بوكاشيو ، وأوحت اليه بكتابة أعظم آثاره ، وهيأت له فى نفس الوقت ذلك الأفق المعنوى الحر الذى جرى فى ظله قلمه ، ويلخص لنا بوكاشيو غايته من تأليف ذلك الأثر فى قوله : « ولقد رأيت ترويحا للسيدات العاشقات وتعزيتهن — وتكفى فى ذلك لغيرهن الأبرة والمغزل — أن أقص مائة خرافة أو رواية أو تاريخ أو ما شئت أن تسميها »

ثم يقول : « ومن ذا الذى ينكر أن الأفضل أن نقدم ذلك العزاء للسيدات العاشقات لا للرجال العاشقين ؟ ذلك أن السيدات العاشقات يفضن خجلاً وخوفا ؛ ويرغمن على إخفاء جوى الحب فى صدورهن ، ويحملهن رغبات الآباء والأمهات والأخوة والأزواج . وأهواؤهم وأوامرهم ، على أن يقضين معظم أوقاتهن معتقلات فى غرفهن الضيقة ، فيجلسن عاطلات ويستعرضن فى أذهانهن أفكارا مختلفة لا يمكن أن تكون مرحة أو سارة »

وكتب بوكاشيو قصصه الساحر فى ذلك الأفق الذى تعمره أشباح الفناء ، والناس ينظرون الى الحياة كأنها لعب طائر ، ويودعون بعضهم بعضا ، واختار لكتابه هيكلا طريفاً خلاصته ، أنه فى ذات يوم ثلاثاء ، وعصف الوباء فى أشده ، اجتمع فى كنيسة القديسة « ماريا نوفيلا » فى فلورنس ، سبع فتيات هن بامبنيا ، وفيامتا ، وفيلومينا ، وأميليا ، ولوريتا ، ونيفيلى ، وأليزا ؛ وكانت أكبرهن بامبنيا فى الثامنة والعشرين ، وأصغرهن أليزا فى الثامنة عشرة ، واقترحت بامبنيا أن يغادرن المدينة فراراً من الوباء والموت أسوة بأصدقائهن ؛ فاعترضت فيلومينا ، وقالت إن النساء ينقصهن التفكير السليم ، ويغلب عليهن التقلب والشك والخور ، ولذا وجب عليهن أن يخترن مرشدا ؛ فأيدت قولها اليزا وقالت إن الرجال هم أصحاب الرشاد والنصح ، واقترحت أن يستدعين بعض رجال يقومون بالارشاد

وفى تلك اللحظة يدخل الكنيسة ثلاثة فتيان ، أصغرهم يناهز الخامسة والعشرين ، وهم بانفيلو ، وفيلوستراتو ، وديونيو ، وكان من غرائب الاتفاق أن كلا منهم كان يعشق إحدى الفتيات السبع ، وأنهم جميعاً أقارب للأربع الباقيات ، فأشارت اليهن بامبنيا ، وقالت إن العناية تحقق أمنيتهن بحضور أولئك الفتية الكرماء الأمناء ، فاعترضت نيفيلى ، وكانت حبيبة أحدهم ، خشية الافتضاح ، وناقشتها فيلومينا مؤيدة بامبنيا ؛ فغلب رأيها واستدعى الفتيان الثلاثة ، واتفق الجميع على ارتياد قصر خاص ، ومعهم الخدم وكل ما يحتاجون اليه ، وهنالك يقيمون حتى ينصرف الوباء ؛ وفى صباح اليوم التالى ذهب الجميع الى هذا المحل المختار ، وهنالك اتخذوا مجلسهم تحت الأشجار الظليلة على أرائك وثيرة ، وأمامهم الاطعمة والأشربة الشهية ، وجعلوا يترددون بين الطعام والسباحة فى بركة صغيرة بالقصر ؛ وهنالك أيضاً بدأوا سرد القصص

وكانت صاحبة الفكرة بامبنيا ، فقد اقترحت أن ينتخب أحدهم حاكما للمجلس كل يوم ، وأن يضطلع فى هذا اليوم بتدبير شؤون الجماعة وتسليتهم ؛ وتولت هى منصب الملكة فى اليوم

الأول ، واقترحت لتسلية الجماعة أن يقص كل منهم قصة ، وأن يختتم واحد منهم بانشاد أنشودة ؛ فوافق الجميع متحمسين ؛ واستثنى الجماعة من أيام الأسبوع اثنين ، يوم الجمعة ، ويوم السبت ، وخصصا للراحة والتجمل والصلاة ؛ وعلى ذلك أصبحت أيام القصص عشرة خلال اسبوعين ، وفى كل يوم تقص عشر قصص ، فالمجموع مائة قصة ؛ هى محتويات مجموعة بوكاشيو الشهيرة ، وهى التى يسميها « ديكامرونى » Decamerone وهى كلمة مؤلفة من مقطوعين يونانيين ومعناها « الأيام العشرة »

هذاهو التمهيد الذى يقدم به بوكاشيو لمجموعته ، وهو تمهيد يمتاز ببساطته وطرافته ، ويدلى بكثير من روح العصر ؛ لقد كان المجتمع الذى كتب فيه بوكاشيو قصصه يعيش من يومه إلى غده ؛ وكان بوكاشيو نفسه يجوز هذه الحياة ؛ وكان يملأ هذا الفراغ المتصدع بالتجوال فى عوالم الخيال الممتع ، وكان يرى أن يقدم ثمرة هذا التجوال إلى إخوانه فى المجتمع ، أولئك الذين يرون أشباح الفناء ماثلة فى كل آونة وكل مكان

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

أدبنا الجديد

وحظه من الاتصال بثقافتنا التقليدية

للأستاذ اسماعيل مظهر

ركدت الحركة الأدبية فى مصر ركوداً أشبه بأن يكون سباتاً عميقاً . ولقد حدث هذا الركود إثر نشاط عظيم فى الانتاج والنقد والترجمة ، وإثر شعور قوى بأن الشباب أحق بأن يتزعموا حركة الأدب ، وأن ينتزعوا الزعامة الأدبية من أدباء الشيوخ . ولقد اصطبغت حركة الشباب بألوان مختلفة ، مهما يكن فيها من مظاهر التطرف حيناً ، ومن مظاهر التفريط حيناً آخر ، فانها دلت فى بعض أطوارها على حيوية قوية ، وطموح ، وتطلع إلى إحياء ما قيل إنه أدب جديد . وما من شك فى أن حدوث هذا الركود عقيب ما أبدى الشباب من نشاط ، ظاهرة جديرة بالبحث ، خليقة بأن تدرس من نواح مختلفة ، وأن تحلل فى ضوء الحقائق التى أحاطت بها ، والحقائق التى أحاطت بأدبنا الحديث على وجه عام . ذلك بأن شباباً يعجز عن تكوين فكرة جديدة فى الأدب ، أو تقعد همته عن خلق تصور جديد فى الفن . انما هو شباب ينذرنا من الآن بأن أدبنا سوف يبقى جيلاً آخر فى داخل الحدود التى رسمها للأدب أولئك الذين سماهم الشباب أدباء الشيوخ

وإنى لآمل ألا يتبادر إلى الشيوخ من أدبائنا أنى أعنى بذلك أن أدبهم لم يؤد لأهل هذا الجيل شيئاً جديداً ، أو أن وقوف الأدب عند الحد الذى بلغوا اليه دليل على جمود الأدب ، وانما أعنى بذلك أن وقوف حركة الأدب ، وركود التصور الفنى عند حد بلغه شيوخنا من غير أن يعقب عليهم الشباب بأدب جديد له صبغة خاصة وفن له تصورات ذات طابع مستقل عن طابع الفن الذى عرفناه ، دليل قاطع على أحد أمرين : إما أن الشباب عاجز عن الابتكار ، وإما أن الأدب الذى روج له الشيوخ أدب غير منتج ؛ وكلا الأمرين يحفزنا إلى أن نبحث الأمر من وجهيه : علاقة أدب الجيل الجديد بأدب الجيل السابق ، وعلاقة الأدبين بالنظرية التى نروج لها : نظرية أن الأدب الثابت والفن الأصيل انما يجب أن يتجه دائماً إلى إحكام الرابطة بين الصور التى يتشكل فيها ، والصور التى قامت عليها ثقافتنا التقليدية

ولقد عبرت عما أعنى بالثقافة التقليدية فى المقالات التى نشرتها لى (الرسالة) بعنوان « التعليم والحالة الاجتماعية فى مصر » ، وصورت على قدر ما أتيح لى مجمل ما أدركت من هذه النظرية . ولقد عرفت الثقافة التقليدية بأنها مجموعة الحالات والملابسات التى ينشأ شعب من الشعوب مكتنفاً بها من حيث طبيعة الأرض والاقليم ، وما يتطلب ذلك من العكوف على فن خاص من فنون الحياة ؛ وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التى ورثها شعب من الشعوب على مدى الزمان من طريق التأثر الطبيعى بالبيئة والمحيط ، كما تدل على مجمل ما ثبت فى عقليته باللقاح السلالى من عادات وأساطير وعلوم وآداب نشأت بنشأته فى مرباه الأصيل . وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب انما هى فى الواقع جماع ما يرث من صفات حيوية ، ومعتقدات ، وفنون عن أسلافه الأولين

ولا شك عندى فى أن ما يبدو على أدبنا الحديث ، أعنى الشيوخ صدر أم عن الشباب ، انما يرجع الى ضعف علاقتنا بثقافتنا التقليدية . فان أكثر الذين اتصلوا بهذه الثقافة لم يتصلوا بها اتصال تفهم لروحها ومعناها وأغراضها ومثلها العليا ، وإنما اتصلوا بها اتصال استيعاب لظاهرها دون حقيقتها . وهذا أمر لا سبيل إلى نكرانه . كذلك نلحظ أن هؤلاء ، على أنهم لم يتصلوا بثقافتنا التقليدية إلا اتصالا ظاهرياً ، فانهم عجزوا عن أن يدركوا روح العصر الذى يعيشون فيه ليكون ذلك عوناً لهم على تلوين ما استوعبوا من آثار ثقافتهم القديمة بلون يرضاه أهل هذا الزمن وتقره البيئة التى خلقت من حولها خضوعاً لتطورات العصر نفسه . وهذا أيضاً أمر لا سبيل الى الشك فيه . أضف إلى ذلك أن الذين لم يتصلوا بثقافتهم التقليدية ، وعكفوا على الأخذ عن الثقافة الأوربية وحدها ، قد عجزوا عن أن يخلقوا مما أخذوا عن أوربا أدبا جديداً له طابع معين ، بحيث يختلف عن الأدب الأوربى على مقتضى ما فى الثقافة من روح ومعنوية ، ويختلف أيضاً عن الثقافة القديمة على مقتضى ما تتطلب روح العصر الحديث من فنون وتصورات وأخيلة . ذلك بأن دعوتنا الى الثقافة التقليدية لا ينبغى أن يدرك منها أننا نريد الرجوع الى القديم بذاته ، وأن نحييه ثانية بصفاته التى عرفناها والتى واءمت العصر الذى خلقت فيه ، وإنما نعنى بها أن الثقافة التقليدية يجب أن تكون الأصل الذى يلقح بثمار الآداب الحديثة ، حتى تقوى على هضم ما يصل الينا عن أوربا هضما يمكننا من تكييف الآداب الدخيلة تكييفاً يلائم وراثاتنا العديدة . وبعبارة أخرى نقول إن ثقافتنا القديمة هى المزدرع الذى نلقى فيه بذور الأدب الحديث ، فما عاش منه فيه فذلك ما نكون قد هضمنا ومثّلنا ، ومنه نخرج الأدب الجديد الملائم لطبائعنا وميولها وتصوراتنا وأخيلتنا ، وما مات فى ذلك المزدرع من الآداب الحديثة فذلك ما يبعد عن طبعنا ولا حاجة لنا به . وعلى الجملة نقول إن ثقافتنا التقليدية هى بمثابة حقل التجارب الذى يمتحن فيه المجربون قوة البذور الدخيلة على الأنبات والحياة . وما السبب الصحيح فى كثرة ما نقع عليه فى أدبنا المنقول من الآثار الميتة إلاّ أننا لم نمتحن فيما نقلنا قوة الاستمرار والبقاء فى بيئة جديدة . تلك البيئة التى يجب أن تكون من عناصر تستمد من ثقافتنا التقليدية أول شىء

قد ينكر علينا بعض الذين يودون إرضاء ناحية العزة فى أنفسهم شيئاً مما نقرر فى هذا البحث ؛ غير أنى أريد لهؤلاء أن يكونوا أكثر تشاؤماً مما هم ، ذلك بأن بيئاتنا الأدبية قد تولاها منذ أول نشأتها روح رمت بها فى أحضان التشاؤم المرير ، ولم يسعدها الزمن بيوم واحد تفاءلت فيه بحسن المستقبل . ذلك بأن معسكرى الأدب والتفكير لم يتصل أحدهما بالآخر مطلق اتصال خلال كل ذلك الزمن الذى نفخر فيه بأننا كوّنا نهضة جديدة . فالناحية التى اتصلت بالثقافة القديمة متهمة فى عين الناحية الأخرى بالجمود عن ادراك ما فى الآداب الحديثة من تصورات ، والناحية التى لم تتصل بالثقافة التقليدية متهمة فى عين الناحية الأخرى بالزيغ عن التراث القديم . ومن ثَمّ كان التشاؤم . وما لهذا التشاؤم من سبب إلاّ أننا لم ندرك السر فى عدم اتصال الناحيتين

وإنما أدعو هؤلاء لأن يكونوا أكثر تشاؤماً لأنهم بذلك يكونون أدنى الى تفهم الحقيقة كما هى واقعة . ولأضرب لهم مثلا بشرقيين اتصلا بالثقافة الأوربية ، وأوربيين اتصلوا بالثقافة الشرقية ؛ وبالأحرى بالمستأربين منا ، والمستشرقين منهم . لنسأل أى الفريقين استطاع أن يهضم من آداب الآخر أكبر قسط يمكن هضمه ؟

ولنبدأ أولاً بالمستأربين منا ولنتخذ ناحية معينة من نواحى الأدب موضوعاً لبحثنا ، كالقصة أو التاريخ مثلاً . أما القصة فقد يقال بأن آدابنا القديمة لم تعن بها العناية الكافية ، وأننا لذلك إنما ننقل عن أوروبا أدباً جديداً لا أصل له فى ثقافتنا ؛ وإذن ينبغى لنا أن نتخذ التاريخ محكا للحكم ، وقد ظهر من أوائلنا من كتب فيه أمتع المؤلفات ، سواء أفى التاريخ العام ، أم فى تاريخ الأدب . وأنت تعلم فوق ذلك أن فن كتابة التاريخ ونقد الشواهد التاريخية ومقاييس الحكم فيها وروح التفقه التاريخى ، إنما هى خلق جديد من مخلوقات القرن التاسع عشر فى أوروبا ؛ وتعلم فوق ذلك أننا اتصلنا بهذا الوجه من الأدب فى مدارسنا وجامعاتنا ، وتعلم فوق هذا وذاك أن الأروبيين قد كتبوا تاريخنا على أوجه انتحيت فيها نظريات اجتماعية أو اقتصادية أو جنسية ، وبخاصة تاريخ العرب والاسلام . وأنت بعد هذا كله تعلم علم اليقين أن كثيراً ممن أرخ للعرب أو الاسلام قد أخطأوا التقدير أو شطوا فى الأحكام ، أو أن النظرية التى بنوا عليها تواريخهم لم تواتهم بالحقائق التى تلبس ما كتبوا ثوب الاقناع . فهل استطعنا الانتفاع

بهذا الوجه الجديد من أوجه الأدب ؟ هل ألفنا فى تاريخنا كتباً قامت على نظريات جديدة تتصل بالثقافة الحديثة أو بفروع منها بحيث تبين لنا عن الاتجاهات الفكرية والتصويرية التى اختفت وراء الحوادث الظاهرة ، وصححنا بذلك الأخطاء التى وصلها بعض الكتاب بماضينا ؟ كلا وكفى

ولنعد بعد ذلك الى المستشرقين منهم ، ونمتحن فى ضوء العقل والاتزان الآثار التى صدرت عنهم متصلة بثقافتنا القديمة ، ونعنى بالمستشرقين كل من اتصل بالشرق سواء أكان ذلك من طريق اللغة أم من طريق الدرس باللغات التى نقلت إليها آثارنا القديمة . أما إذا اتجهنا ذلك الاتجاه فان أول ما نلحظ فى الآثار التى صدرت عنهم عكوفهم فيها على أسلوب البحث العلمى وهو أسلوب يتلقونه فى معاهدهم وتلازمهم آثاره بعد ذلك . فهم يكتبون التاريخ بأسلوب البحث العلمى ، ويكتبون الأدب بأسلوب البحث العلمى ، ويتكلمون بأسلوب البحث العلمى ؛ وهو أسلوب أخص ما امتازت به ثقافتهم التقليدية . ثم نلحظ بعد ذلك أثر البحث الأكاديمى من حيث الاكباب على الفهم العميق لأشياء قد تلوح أول شىء تافهة غير جديرة بالبحث ولا هى خليقة بالدرس ، ومقارنتها بمجموع الحقائق التى تتعلق بها . وهو أسلوب من البحث عاش بين جدران الأزهر أزماناً ، وكاد الأزهر يفقده الآن مع الأسف ، مع ما فقدنا من تقاليدنا القديمة . وتشهد بعد ذلك فى آثارهم ما تضفى الأناة والصبر والاستقلال فى الرأى على الآثار العلمية من مظاهر الروعة والجلال . هذا الى المظهر العام الذى يلابس ما يؤمنون من جماع هذه الأشياء . وبذلك استطاع هؤلاء المستشرقون أن يهضموا ما أخذوا عن الشرق ليخرج من بين أيديهم لابساً صورة أوربية رسيسة . ولقد يخطئون ، ولقد يشط أكثرهم أكبر الشطط ، ولكنه خطأ واشتطاط تلابسه روح البحث والدرس ، ويحوطه الأسلوب الأكاديمى بروعة البحوث العلمية

وبعد . فما هو السبب فى الفرقة بين مستأرب عاجز عن كتابة تاريخه بروح جديدة ، ومستشرق يكتب تاريخ غيره بروح مستمدة من طبعه ؟ السبب أن الأول بعيد عن ثقافته التقليدية التى يتخذ منها مادة للدرس والبحث والاستنتاج والصياغة ، وأن الثانى يكتب تاريخ غيره مستهدياً بفطرة مستمدة من ثقافته التقليدية . وإنى لواثق أن هذه المقارنة سوف تجعل الذين يجنحون إلى إرضاء ناحية العزة والأنفة فى أنفسهم يخففون شيئاً من غلوائهم ، وتنزع بالذين لا يتشاءمون من أدبنا الحديث بقدر يجعلهم يرون الحقائق كما هى واقعة ، إلى درجة من التشاؤم تنير أمامهم السبيل

* * *

لقد بدأت نهضتنا الأدبية الحديثة باندفاع نحو الآداب العالمية ، واستمداد من وحى أوربا الجديدة ؛ ولو أننا تذرعنا مع الاتجاه الجديد بركيزة تقوم على ثقافتنا التقليدية وورائاتنا المختلفة ، إذن لكان لنا أن نقول إننا أخذنا نشيد بناء ثابتاً على أساس مستمد من فطرتنا . أما وإننا لم نعن العناية الواجبة بماضينا ، فأهملنا أمر اللغة حتى خرج المتعلمون من أبنائنا وأكثرهم يجهل القواعد الأولية من لغة العرب ؛ ونبذنا آداب العربية ، حتى نشأ الجيل الحاضر بعيداً عن استذواق الأدب العربى والوقوف على أسراره ، فان دفعتنا الأولى نحو التزود من الآداب العالمية الجديدة هى التى أحدثت ذلك الركس الشديد الذى يتجلى الآن فى عجز أدباء الشباب عن خلق صورة من الأدب فيها من قوة الحياة ما يجعلها خليقة بان تصبح عنوانا على روح العصر الذى نعيش فيه

على أننا لا يجب أن ننسى فى هذا البحث أن نشير إلى علاقة الآداب من الناحية العلمية بطبيعة الأرض والاقليم والمناخ من حيث أنهما بيئة طبيعية ، كما أننا لم ننس أن نشير إلى اللغة والآداب القديمة والتاريخ والأساطير والحالات الاجتماعية من حيث أنها بيئة عقلية . أما العلاقة بين البيئتين فبينة لا سبيل إلى انكارها ، أو نكون قد أنكرنا أخص العلاقات التى تفرضها الطبيعة فرضاً على الأحياء وتصبغ بها طبائعهم وأخلاقهم وميولهم وأخيلتهم ، وعلى الجملة جماع مافيهم من الصفات العقلية والنفسية . وإلى جانب هذا ينبغى لنا أن نضع فى ميزان الحكم والتقدير عند النظر فى مثل هذه العلاقات أن الآداب التى أنشأتها شعوب قديمة إنما هى بنت البيئة وربيبة الوسط ، بل إنها خلاصة الطبع وعصارة النفس ؛ وإنما تتشكل هذه الآداب بمقتضيات العصور ، وتتكيف بحكم ما يستجمع العقل من مختلف التصورات . أما الروح التى تظهر متجلية فى هذه الآداب ، فذلك ما لا سلطان

لمقتضيات العصور عليه ، ولا أثر لنا يستجمع العقل فيها إلا بمقدار ماتظهر ملابسة لآراء جديدة أو تصورات حديثة أو ميول معينة ، تسرى فيها تلك الروح سريان القوة فى الأجسام المادية ، تظهر وهى خفية ، وتتجلى وهى كامنة ، كأنما هى السيال الذى يخرج من جسم مشع فى أقصى أغوار الكون ليصل إلى عالم آخر فى صورة أشعة ، هى بذاتها الأشعة التى كان يبعثها ذلك الجسم منذ أبعد الأزمان ، وإنما ينتفع بها أقوام على الأقوام الأول ، وتستهديها شعوب غير الشعوب الغابرة ؛ هى فى جوهرها وروحها نفس الأشعة القديمة ، ولكن تكييفها مرهون بالقدرة على استخدامها أو الحاجة اليها . وإذن ينبغى لنا ألا نقطع الصلة بيننا وبين ذلك السيال الخالد الذى تصلنا أشعته من ماضينا ؛ من لغتنا وآدابنا وتاريخنا وأساطيرنا ونظمنا الاجتماعية ، تلك التى جادت علينا بها طبيعة الأرض التى حملتنا والسماء التى أظلتنا منذ أبعد عصور التاريخ الانسانى

اسماعيل مظهر

الشيخ محمد النجار
صاحب الأرغول
للأستاذ عبد الوهاب النجار

لمناسبة ما ذكره الأستاذ حسين شفيق المصرى عن صاحب الأرغول فى محاضرته القيمة فى تطور الصحافة الأسبوعية

الشيخ محمد النجار شخصية غير مجهولة فى عالم الأدب فى غروب القرن الماضى وفجر القرن الحاضر

كان المرحوم طالباً بالأزهر الشريف نابهاً بين إخوانه ، يجمع الطلبة الذين هم أقل منه ويدرس لهم من العلوم الأزهرية ماهم فى حاجة اليه

فلما جاء الشيخ محمد العباسى المهدى شيخاً للأزهر لم يجد به نظاماً يتبع فى إعطاء أجازة التدريس ولا دفتراً يضم أسماء العلماء بالأزهر ، بل كان كل من آنس فى نفسه قوة وأهلية للتدريس أعد نفسه لتدريس أحد الكتب ودعا الطلبة والعلماء لحضور ابتداء درسه ، فاذا أداه حق الأداء وأجاب على كل الأسئلة التى وجهت اليه والاعتراضات التى اصطدم بها من الطلبة والعلماء عد عالماً ، وذلك بتهنئة العلماء إياه وثنائهم عليه ، وعليه بعد ذلك أن يدعو جلة العلماء والفضلاء إلى مأدبة يعملها لهم شكراً على نجاحه وفلاحه أما إذا لم يسدد إلى سداد ، ولم يوفق فى درسه إلى صواب ، فان العلماء ينصرفون عنه دون تهنئته ؛ وحينئذ يتبين الجمهور أنه أخفق ولم يوفق

عزم الشيخ العباسى المهدى على أن يسجل أسماء العلماء الذين يدرسون فى الأزهر لذلك العهد وألا يدخل فى زمرتهم أحد بعد ذلك إلا إذا اجتاز امتحاناً يعقد لذلك ، وعين العلوم التى على الطالب أن يمر فيها بنجاح فى ذلك الامتحان

كان فى ذلك العهد يوجد عالم بالأزهر قد بلغ من الكبر عتياً اسمه الشيخ محمد النجار (غير صاحب الأرغول) وقد ذهب ذلك الشيخ إلى بلده ومات بها ولا يعلم بذلك أحد

فلما شرع الشيخ المهدى فى تسجيل أسماء العلماء المدرسين بالأزهر أملى بعض العلماء اسم الشيخ محمد النجار ، وكان الكبير الذى يحمل ذلك الاسم قد مات قبل ذلك الوقت بقليل ولا يوجد ممن يدرس للطلبة بهذا الاسم سوى الشيخ محمد النجار (صاحب الأرغول فيما بعد) ، فتلقف هذه الوظيفة النجار الفتى إذ لا يوجد بازاء الوظيفة ما يميز نجاراً من نجار

بهذا أخبرنى العلامة الأديب المرحوم الشيخ محمد أبو راشد إمام المعية فى عهد الخديو السابق عباس حلمى باشا الثانى

عين بعد ذلك الشيخ محمد النجار مدرساً بالمدارس الأميرية مع بقائه مدرساً بالأزهر إلى ان كان مدرساً بمدرسة الفنون والصنائع الأميرية ببولاق

وقد كانت نظارة المعارف فى ذلك العهد ليس بها درجات للمدرسين ولا نظام للعلاوات وإنما كان ينال من العلاوات من يصادفه الجد ويسعده الحظ . وقد غبر الشيخ النجار على ذلك مدة من الزمن ، وكلما آنس أن العلاوة ستسعده بعدت وأخطأته أو تخطته . فلما كان عهد تولية على مبارك باشا نظارة المعارف عمل له زجلاً يشكو به حاله وقدمه اليه . وهأنذا أنص ما وعته ذاكرتى منه

الدهر دايماً غدار لكنوع العاقل أكتر

والســــعد يأتى بالأقدار   والرزق مقسومْ ومقــدر

الدهر دِيماً مع الاحرار   يقول حاورينى يا طيطـه
تلقى الردِى بختـه طيب   والحر لو بخت قليطـــه
ودا غنى بيتو فشـــبرا   ودا ازرع فى التبليطه
ودا حمار وراكبلو حمار   مبسوط بأنه مى بعجر

الناس خـدامتها سهلة   وانا خدامتى فى اتعاب
فى كل يوم الصبحيـــه   أمشى الى بولاق قراب
واللى أبات فيه أصبح فيه   رايح وجى من الكُتاب
خوجـه وعايز حق حمار   ولى ماهيَّــــه لا تذكر

امتى أفوت مشوار بولاق   واعرف أنا الآخر بختى
وأفوت بتوع حياك الله   وبتوع حبرتك ياستى
كتب علينا (قل سيروا)   فيها مصيِّف ومْشَتى
الشمس فيها زى النـار   وفى الهوا دايماً تعفر

يا اهل المعارف والأنصاف   أنا جرالى معــاكم إيه
تأخــرونى بالمســرة   وتقـــدموا الغير عنى ليه
البيه يقول روح للباشا   والباشا يأمر روح للبيه
وأنا كدا واقف محتـار   زعلان ومغموم ومكدر

قالوا الديوان عامل ترتيب   وبالزيادة لك جـــادوا
يا حلم وان صحت الأحلام   وطلعت انا فى اللى زادوا
ورحت أرجوسيدى فلان   والعبد يترجا اسيـــادوا
وضع أمام اسمى أصفار   حتى بقى حالى يصـــفر

لا نا مساعد فى الساحل   ولا قريب الشيخ قفه
ولا صـــعيدى بياع دوم   خالى حمـد سرق الزلفه
ولا مراكبى لى مركب   عويلها مربوط بالدفـــه
الاشريف جدى المختـار   عالم مدرس بالأزهر

فلما قدم هذا الزجل إلى المرحوم على مبارك باشا أعجب به وأمر بنقله إلى مدرسة القربية وزيادة جنيه ونصف على مرتبه، وما كان يحلم أن يصل إلى ذلك فى ثلاث علاوات

وكان رحمه الله راسخ القدم فى فنون الأدب، فكان ينظم المواويل الحمر ويساجل أبطالها

كان يوجد زجل بمديرية المنيا اسمه الشيخ عبد الله لهلبها ينظم المواويل، وقد ذهب المرحوم الشيخ محمد النجار إلى المنيا وبحث عن الشيخ عبد الله فلم يجده

فترك له موالاً عند عبد القادر أفندى ادريس وهو:

والله ما حرق الأحشا ولَهْلِبْها
ولا أذاب مهجتى إلا ولَهْلبها (١)
ونزلت فى أرض لا ناسى ولهلبها (٢)

وجيت أدور على مواوى يواويلى
قالوا ما فيش إلا أبو كراع فى بلده ولهلبها

أما ما رد به عبد الله لهلبها على هذا الموال فعند عبد القادر أفندى ادريس

وكان النجار رحمه الله يبتدئ الموال ويتحدى الأدباء يريد منهم تكملته فلا يجد. وربما زاد قسما آخر بعد ذلك فى الموال. فيعيي الأدباء عن ذلك

من هذا قوله:

مغزل حماتك سقط ضاعت تقاقيله

فلما لم يظفر بتكملته زاد عليه:

ما تنظر الديك والفرخة تقاقى له

ومن ذلك أيضاً قوله:

مغزل حماتك سقط ضاعت سنانيره — ثم زاد —:
فضل المدل يعدل فى سنانيره (٣)

وكان رحمه الله سريعاً إلى النكتة، حاضر البديهة. فمن ذلك أنه مر بصديق له، فقال له الصديق: يا شيخ محمد، ازاى الأرغول؟ — فأجابه بقوله: (بِنَفَسك ماشى)

ويا حبذا لو أتحف أصدقاؤه وخلانه قراء (الرسالة) بشيء عنه

عبد الوهاب النجار

---

(١) وله لى بها (٢) ولا أهلى بها (٣) فى سنة نيرة

للتاريخ السياسي :

اليوم السابع من مارس

ضربة مسرحية في برلين

للدكتور يوسف هيكل

تمهيد

مما يجدر ذكره أن حكومة برلين تتخذ عادة يوم السبت قرارات هامة ، وتقف العالم أمام حوادث دولية عظيمة . وكانت حكومة القيصر تعمل على هذه السياسة ، وقد سارت عليها جمهورية « ويمر » وتبعتها حكومة الهر هتلر !.. وكانت آخر هذه الأعمال الدوليـة الخطيرة النتائج ، رفض حكومة برلين معاهدة لوكارنو واحتـلالها أراضي الرين يوم السبت الموافق ٧ مارس من هذا العام . والمرء يتساءل عن السبب الذي من أجله تختار حكومة برلين يوم السبت لأعمالها الجليلة الخطرة في وقت واحد عليها وعلى السلام

إننا نعتقد أن هناك سببا واحدا ، وهو أن عطلة « نهاية الأسبوع » — Week end — متبعـة في بلاد الانكليز وفي جميع دوائرها الرسمية . وفي نهاية كل أسبوع يترك معظم كبار ساسة لندن وأولي الأمر فيها العاصمة لقضاء « نهاية الأسبوع » في الضواحي وعلى شواطئ البحار . وفي هذه الحالة يكون من الصعب جـداً اجتماع الذين في يدهم زمام أمور الحكومة حين حدوث طارئ جلل يوم السبت أو الأحـد . وفي هذه الحالة يتعسر جـداً ، إن لم يكن محالاً ، على حكومة باريس الاتصال بحكومة لنـدن ، لتبحث معها في التدابير التي يجب اتخاذها أمام الخطب السياسي الجديد الذي أحدثته حكومة برلين ، ولإعاقة اجتماعهما وتبادلهما الآراء تختار الحكومة الألمـانية يوم السبت لايقاف العالم على قرارها الدولي الصبغة ! .

وقبل أن نحاول تحليـل ضربة برلين المسرحية والأزمة التي نجمت عنها يجدر بنا التحـدث أولاً عن معاهدة لوكارنو وإبانة الغرض الذي من أجله عقدت ، والنقط الهامة التي تحتوي عليها ، تسهيـلاً للوقوف على تطور الحوادث الدولية ، وتمييز الصواب من الخطأ . ويتلو ذلك عرض حوادث ٧ مارس وما تبعها في ألمـانيا ، وتفنيد ادعاءات حكومة الهر هتلر ضد المعاهدة الفرنسية الروسية ؛ وشرح موقف دول لوكارنو إزاء هذه الحوادث وقرار مجلس عصبة الأمم . وهذه النقط تكون القسم الأول من هذه المقالات

ثم نأتي على عرض الجلسات الهامة لمؤتمر دول لوكارنو وتحليل « اقتراحات لندن » و « منهاج السلام الألمـاني ، أو اقتراحات الهر هتلر » و « المنهاج الفرنسي أو اقتراحات فرنسا السلمية » . وهذه الأمور تـكون القسم الثاني من هذه الدراسة السريعة

وأخيراً نحاول إبانة حقيقة سياسـة الهر هتلر الخارجية ، والهدف الذي يرمي اليه

من لوكارنو إلى ٧ مارس

معاهدة لوكارنو

أظهرت ألمانيا في السـنين التي تلت الحرب رغبة في التفاهم مع جاراتها ، وتوطيد السلام في أوروبا الغربية ، فاقترحت عام ١٩٢٢ إيجاد اتفاق بين الدول التي تحد أراضي الرين ، تمنع بموجبه الحرب وتحسن العلاقات الدولية بين ألمـانيا وجاراتها الغربية — فلم يلق هذا الاقتراح أذناً صاغية . . . . . وقد جدد « المستشار كينو Cuno » مثل هذا الاقتراح عام ١٩٢٣ فاعتبره مسيو بوانكاريه دسيسة ألمـانية جديدة . . .

وفـكر اللورد دابرنون D' Apernon سفير بريطانيا في برلين عام ١٩٢٤ في أن الوقت مناسب لعقد مثل هذا الاتفاق ، ففاتح الهر ستريزمان بذلك ؛ وبعد درسهما الموضوع أرسل ستريزمان في ٩ فبراير سنة ١٩٢٥ بواسطة سفيره في باريس الهر هيس Haesch مذكرة إلى الحـكومة الفرنسية مقترحاً على الحـكومات التي تحد الرين عقد اتفاق بموجبه تمنع الحرب خلال أجل مسمى ، وتحل الاختلافات المدنيـة والسياسية بموجب التحكيم ، وتتعهد فيه ألمانيا بعدم تسليح أراضي الرين . حض سفير بريطانيا على عقد مثل هذا الاتفاق ، على رغم أن بريطانيا لا تحب أن تتحمل مسؤوليات دولية ، لأن توطيد السلام في أوروبا الغربية يفيد السياسة

البريطانية ، ولأن بريطانيا تريد إرغام فرنسا بوسيلة ما على تخلية أراضي « الرور » . . . . . وتحول دون اجتياز الجنود الفرنسية الحدود الألمانية . . . .

كان مسيو هريو رئيس الوزارة الفرنسية حينئذ ، وبرغم أنه كان على رأى القائلين بسياسة التفاهم مع ألمانيا فقد خشى أن يكون فى مذكرة ستريزمان مكيدة ، ثم دعاه انهما كه فى المشاكل الداخلية والمالية إلى إهمال المذكرة وعدم إعطائها الأهمية التى تستحقها . وفى ذات يوم اطلع عليها مسيو بريان ، وبعد أن قرأها السياسى الكبير ، أبدى رأيه فيها قائلاً : إنها عظيمة الأهمية

فقال رئيس الوزراء : إنها « لمصيدة »

فرد مسيو بريان : إن الثعلب الماهر يأخذ اللحمة ويترك المصيدة

ولما عاد مسيو بريان فى ابريل من العام نفسه الى ال « كى دورسى » أعطى المذكرة أهميتها وأخذ يتحادث مع بريطانيا بشأنها . ولما تمت هذه المحادثات التمهيدية ، قدم السفير الفرنسى فى برلين فى ١٦ يونيه إلى الهر ستريزمان جواب فرنسا وحلفائها ، وكان جواباً ايجابياً . ثم شرع الفنيون فى درس الموضوع ووضع المبادئ العامة . . .

وفى لوكارنو — وهى مدينة سويسرية صغيرة واقعة على بحيرة ليمان — تقابل بريان وستريزمان واستين شمبرلين ؛ وأخذوا يدرسون دقائق المعاهدة ، ووصلوا الى الاتفاق الأخير فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٥ ، ووافقت فرنسا وألمانيا وبلجيكا وبريطانيا وإيطاليا عليها

وتفيد لوكارنو الدول الثلاث الأولى مباشرة ، أما بريطانيا وايطاليا فضامنتان فيها

وتتألف معاهدة لوكارنو من خمس مواد :

فى المادة الأولى تعترف الدول الموقعة على المعاهدة بالحدود التى وضعتها معاهدة فرساى ، بين ألمانيا وبلجيكا من جهة ، وبين ألمانيا وفرنسا من جهة ثانية . وتعترف هذه الدول أيضا بمحتويات المادتين ٤٢ و ٤٣ من معاهدة فرساى ، أى الأقليم غير المسلح : أراضى الرين

وفى المادة الثانية تتعهد ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا بعدم الالتجاء الى الحرب لحل أى خلاف . على أن هذا التعهد لا يعمل به فى الأحوال الآتية :

(١) فى حالة « الدفاع عن النفس » — Légitime défense

— أى عند مخالفة المادة ٤٢ أو ٤٣ من معاهدة فرساى « مخالفة ظاهرة » — Contravention flagrante — غير محرض عليها ؛ ولسبب تجمع قوى حربية فى الاقليم غير المسلح ، والعمل الفورى ضرورى فى هذه الحالات

(٢) عند القيام بعمل ناجم من المادة ١٦ من صك العصبة

(٣) عند القيام بعمل حسب قرار العصبة أو حسب المادة ١٥ بند ٧ من صكها

ومع اعتبارات محتويات المادة الثانية فان المانيا وفرنسا من جهة ، والمانيا وبلجيكا من جهة ثانية ، تتعهد فى المادة الثالثة بتصفية أى خلاف يحدث بينهما عن طريق سلمى : ففى الخلاف المدنى يُرفع القضية الى قاض يعمل الغرماء حسب قراره . وفى أى خلاف آخر يرفع الخلاف الى « لجنة توفيق » ، وإن لم يقبل الغرماء قرار اللجنة يرفع الى مجلس عصبة الأمم

والمادة الرابعة تنص على أنه :

(١) إن اعتقد أحد المتعاهدين بأن تعديا قد وقع على المادة الثانية أو على المادة ٤٢ أو ٤٣ من معاهدة فرساى رفع دعواه الى العصبة

(٢) وحينما يقرر مجلس العصبة تلك المخالفة يخطر المتعاهدين بقراره ، وعلى كل منها أن تمد يد المساعدة حالا الى الدولة الموجه اليها العمل المحرَّم

(٣) وعند تعدى إحدى الدول المتعاهدة « تعديا ظاهراً » — Violation flagrante — على المادة ٢ من هذه المعاهدة أو « المخالفة الظاهرة » على المادة ٤٢ أو ٤٣ من معاهدة فرساى ، فان كل دولة من الدول المتعاهدة الأخرى تتعهد من الآن على مد يد المساعدة حالا الى الفريق الذى كانت موجهة ضده المخالفة أو التعدى ، ابتداء من تَيَقُّن تلك الدولة أن التعدى كان عملا عدائياً غير محرض عليه ، أو لسبب اجتياز الحدود ، أو الابتداء بالعداء ، أو جمع قوى حربية فى الاقليم غير المسلح فان العمل الفورى ضرورى . وعلى كل فان مجلس العصبة الذى

استلم الدعوى حسب البند الأول من هذه المادة يعلم نتيجة قراره . والمتعاقدون فى هذه الحالة يتعهدون على العمل بموجب قرار المجلس الذى أخـذ بالاجماع بغض النظر عن أصوات ممثلى المتخاصمين

أما المادة الخامسة فتقول : « إذا رفضت إحدى الدول المذكورة فى المـادة ٣ اتباع الحلول السلمية أو تنفيذ قرار التحكيم أو القرار القضائى واعتدت على المـادة ٢ من هذه المعاهدة أو خالفت المادة ٤٢ أو ٤٣ من معاهدة فرساى ، فتنفذ ، إذ ذاك محتويات المـادة ٤ من هذه المعاهدة

وفى الحالة التى ترفض فيها الدول المذكورة فى المادة (الثالثة) اتباع الحلول السلمية أو تنفيذ قرار التحكيم أو القرار القضائى ، دون أن تـكون قد اعتدت على المـادة الثانية أو خالفت المـادة ٤٢ أو ٤٣ من معاهدة فرساى ، فان الفريق الثانى يرفع الدعوى إلى مجلس العصبـة الذى يقترح الاجراءات الواجب اتخاذها : وأن المتعاقدين يعملون حسب هذه الاقتراحات

***

قبلت ألمـانيا فى هـذه المعاهدة عدم المساواة فى الحقوق ، ووافقت على الحدود التى بينها وبين بلجيكا وفرنسا ، وتخلت بذلك عن طيب خاطر عن الالزاس واللورين ، ووافقت أيضاً على بقاء الأقليم غير المسلح . وهذه الشروط ليست جديدة ، بل هى مدونة فى معاهدة فرساى . وظن حينئذ أنه من الأنسب قبول ألمـانيا اختيارياً بها ، لأن المعاهدات الموقع عليها عن طيب خاطر لها حرمة أقدس من المعاهدات المرغم عليها ، وهذه المعاهدات تمزقها الأمة التى أرغمت عليها عنـد ما تجد فى نفسها القوة والجرأة الـكافيتين للقيام بذلك . والمعاهدات ، فى الواقع على نوعين : قانونية كفرساى ، وأخلاقيـة — moral — كلوكارنو ، وكان لهذا النوع الأخير من المعاهدات قيمة كبرى من الوجهة العملية قبل ٧ مارس ١٩٣٦

وقد دفعت فرنسا ثمن هـذه المعاهدة باخلائها أقليم كولون وأراضى الرين ، أى أن فرنسا قد تركت سياستها المبنية على الضغط على ألمـانيا للوصول إلى حقوقها ، وأقامت مكانها ثقتها فى ألمـانيا السلمية . وقيل حينئذ إن كانت هذه الثقـة قد وضعت فى غير مكانها فان فرنسا تصبح تحت رحمة جارتها الجبارة ؛ وهذا ما وقع فى السنين الأخيرة

وانتقد كثير من الفرنسيين معاهدة لوكارنو قائلين : ألا يعنى ذلك أن فرنسا قد تركت كل محاولة فى جعـل ألمـانيا عزلاء ، وتركت مراقبة الرين وحقها فى التعويض ؟ أليست هذه المعاهدة إنشاء للتفاهم بين ألمـانيا وبريطانيا ، لا بين ألمـانيا وفرنسا ؟ وقيل أيضاً : هل من الأكيـد أن بريطانيا ستقف مع فرنسا حين هجوم ألمـانيا عليها ؟ ! أوليس من الممكن أن تحابى بريطانيا ألمـانيا وتؤيد عملها ؟ ! ثم لبريطانيا وحدها الحق فى التقرير فيما إذا كان اعتـداء ألمـانيا دون تحريض أم لا ، وعلى ذلك فيمكنها تأويل كل قانون وتفسير كل عمل حسبما تقتضيه سياستها ؛ فساعدة بريطانيا ليست أمراً واقعاً ... ولقد حاربت بريطانيا النفوذ الألمانى فى أوروبا ، وهى الآن جادة فى محاربة النفوذ الفرنسى فيها . ألا تعيد فى عملها هذا السيطرة الجرمانية على أوروبا ؟

وتـكون هذه الانتقادات فى محلها إن كانت نية ألمـانيا سيئة ، وقيمة الميثاق تتوقف على مقدار انتشار روح التسامح والوئام بين الجارتين وتوثيق العلاقات الودية بينهما ؛ وإن فقدت هذه الروح فى إحدى البلادين فلوكارنو تصبح ورقة بالية

ولتقدير قيمة هذه المعاهدة يجب معرفة عقلية كل من البلادين

مما لا شك فيه أن الفرنسيين محبون للسلم ، فهم يكرهون الحرب دون أن يخافوها ، ولا يفكرون فى الاستيلاء على بلاد أوربية ، غير أنهم يسيئون الظن فى الغير ، ووهم حريصون جدا على حريتهم وسلامة بلادهم . وإن حاول الغير التعدى عليهم أصبحوا كالرجل الواحد ، يدافعون حتى النفس الأخير فى سبيل حريتهم ووطنهم . وهم يودون التفاهم مع ألمـانيا وايجاد سلام أبدى بين البلادين ، غير أنهم يعتقدون اعتقادا راسخاً بأن ألمـانيا تريد غدرهم والايقاع بهم ، وهى تستعد لحرب ثانية وتعمل لهـا ، ونتيجة لهذه الفـكرة المختمرة فى رءوسهم يعملون على تقوية مركزهم الحربى ، ويسعون فى ايجاد حلفاء لهم ضد ألمـانيا ، ونتيجة ذلك حصر ألمـانيا والظهور بمظهر العدو لها ...

والشعب الألمـانى شعب «ديناميكى» يحب الحرب ويصبو إلى الفتح ، ولا يقبل إلا أن يكون له المركز الأول فى أوربا ... وهو ينظر إلى فرنسا كالحاجز الذى يحول بينه وبين غرضه ، فيبغضها ويعمل على كسر هذا الحاجز ؛ ثم إن الشعب الألمـانى فخور ، يأبى العار ويعمل على غسله حتى بالدماء ؛ وهو لن يرضى

عن فرساى بل يبذل جهده فى تمزيقها ...

فلوكارنو لم تحل هذه المعضلات ، ولم تزل أسباب العداء الذى بين الجارتين ؛ فهى لم تؤمن فرنسا على سلامتها ، ولم تعط ألمـانيا بعض ما تصبو اليه ، فهى اذن عاجزة عن ايجاد السلام وتوثيق روح الصداقة والوئام بين أكبر عدوين

أما قيمتها الأخلاقية فقد زالت بضربة ٧ مارس ، ووضع الهر هتلر المعاهدات الأخلاقية فى دائرة المعاهدات القانونية التي ترغم الدول على التوقيع عليهـا ؛ وقال بعدم قانونيتها مادامت تخالف مصالح إحدى الدول التى وقعت عليها

وسنرى فى المقالات التالية أن لا قيمة لكفالة بريطانيا وايطاليا ، وأن هاتين الدولتين لم تقوما بما تفرضه عليهما نصوص معاهدة لوكارنو

***

وعندما دعت ضربة ٧ مارس إلى تطبيق المعاهدة ، اختلف فى تفسيرها ولا سيما البند الثالث من المـادة الرابعة

فأخذ فريق من ساسة الانكليز ورجال الحقوق فيها يقول بأن عبارة « تلك الدولة » تعود إلى « الفريق الذى كانت موجهة اليه المخالفة والتعدى » ، لا إلى عبارة « كل دولة من الدول المتعاهدة الأخرى » ، وإن الحكومة البريطانية غير مقيـدة بمساعدة فرنسـا لمجرد احتلال أراضى الرين ؛ ومساعدتها واجبة فقط عندما يكون هذا الاحتلال على شكل يوجب القيام فورا باجراءات صارمة ، وهو يريد بهذا التفسير أن بريطانيا لم تخالف المعاهدة ، لأن فرنسا لم تعتبر عمل ألمـانيا « تعدياً ظاهرا » ، ولم تقم باجراءات عاجلة... ولأن بريطانيا تعتقد أن عمل ألمـانيا لا يوجب القيام باجراءات حربية

ويرد فريق آخر على هذا التفسير ، وعلى رأسهم السير استن شمبرلين ، وهو أحـد الذين وضعوا المعاهدة بأن عبارة « تلك الدولة » ترجع إلى عبارة « كل دولة من الدول المتعاهدة الأخرى » لا إلى عبارة « الفريق الذى كانت موجهة ضـده المخالفة أو التعدى » . وأن لوكارنو تعتبر اجتياز الحدود واشهار الحرب وجمع قوى حربية فى الاقليم غير المسلح عملاً هجومياً يقضى على جميع الموقعين على المعاهدة القيام باجراءات صارمة حتى الحرب لاعادة الستاتيكو إلى ما كان عليه قبل وقوع التعدى ، وأن السبب الذى لم يدع إلى اتخاذ الاجراءات العسكرية فى حالة ٧ مارس يعود إلى الموقف السلمى الذى وقفته فرنسا وبلجيكا

إن تفسير الفريق الأول خطأ ، وهو قائم على دعائم هوائية ، ولا يراد منه إلا التهرب من واجبات المعاهدة . أما تفسير السير استن شمبرلين فصحيح متين :

فلو أن عبارة « تلك الدولة » تعود حقاً إلى عبارة « الفريق الذى كانت موجهة اليه المخالفة أو التعدى » لما قبل السير استن شمبرلين بذلك ؛ ولمـا وافقت حكومة لندن وبرلمانها على هـذه المعاهدة . إذ الحكومة البريطانية أشـد الحكومات حرصاً على عدم ارتباطها بمعاهدات ترغمها على دخول الحرب بمجرد إرادة غيرها . ولو أن هذا التفسير صحيح لمـا رأينا فرنسا تقف واجمة أمام ضربة ٧ مارس ، بل لرأيناها تجتاز الحدود وتحتل أراضى الرين ، إذ كان فى إمكانها أن تقول لبريطانيا : إننى أعتقد بأن عمل ألمانيا عمل عدائى غير محرض عليـه ، ولذا يجب عليك أن تتخذى إجراءات عسكرية صارمة ضدها . وواقع الأمر أن فرنسا لم ترغم ألمـانيا عسكرياً على سحب قواها الحربيـة من أراضى الرين إلا لأنها لم تكن واثقة من موقف بريطانيا إزاء ضربة ٧ مارس من جهة ، ولأنها لم ترد تعقيد المعضلة من جهة ثانية

(لندن) **يوسف هيكل**

من الموضوعات التى نالت الجائزة فى المباراة الأدبية

التربية الوطنية الاستقلالية
وأثرها فى بناء الأمة
للأستاذ محمد عبد البارى

— ٢ —

النشأة الأولى

لست أدخل فى مناقشة مسائل التربية وعلم النفس وأنا أحاول كتابة كلمة مفروض أنها للكافة كما هى للخاصة ، ولهذا فانى أستعرض الأدوار التى تمر بنا جميعاً مجرد استعراض قصد توجيه النظر العادى

« من شب على شىء شاب عليه » جملة قصيرة شائعة بين الخاصة والكافة هى جماع ما أريد تقريره

يولد الطفل طليقاً من كل قيد . ومن المستطاع تربيته على الفضائل الاجتماعية منذ نشأته الأولى إذا ما تركناه على سجيته متناولين حركاته بالتقويم الرشيد دون افساد طبيعته

هذا يقتضى بلا ريب أن يكون لدى الأم فكرة عامة ؛ وهذا الادراك الضرورى للأم ليس من الأمور الهينة فى مثل بيئتنا ، لكن هذا لا بد منه ؛ وما دام لا بد منه فلا سبيل إلى اهماله . أما كيف تصل اليه فلا يتسع له مجال القول هنا ، ويكفى القول بأن الأمر من الأهمية بحيث يرخص فى سبيل تحقيقه كل غال ، ويسهل فى سبيل الوصول اليه كل صعب . وهل هناك غرض أسمى من بناء الأمة بناء متيناً ؟

أول ما تجب العناية به فى أمر الطفل تربية جسمه طبقاً لقواعد الصحة ، والعناية بغذائه وبنظافته ؛ يتلو هذا فى الأهمية ويقترن به فى التبكير عدم تقديم كل ما يريد بغير تكليفه السعى اليه . يجب أن يربى على السعى لتتكون لديه فكرة الاعتماد على النفس . فاذا أشار إلى شىء ليحصل عليه ، يجب أن يقرب اليه بحيث لا يتسنى له الحصول عليه إلا بمحاولة جسدية . وإذا ما كان فى مقدوره أن يحبو فيجب أن يوضع الشىء بحيث يحبو اليه ليصل اليه ؛ فاذا تظاهر بالاعياء فلتغض الطرف عنه ليسعى ثم يسعى . ومن يتأمل ير على الطفل أمارات الارتياح إذا ما وصل إلى غرضه بعد كد وسعى

وإذا ما سقط وهو يمشى فلا نظهر انزعاجنا ونسرع اليه نلتقطه مظهرين الحنو عليه ، بل نتركه ينهض بنفسه . فبهذا وبأمثاله تربى فيه صفة الاعتماد على النفس والثقة بها ، وهما من أقوى عوامل النجاح فى الفرد ، وأمتن أسس البناء فى الأمة

يلى هذا وذاك فى الترتيب ، ويتقدمه فى الأهمية ، أمر أعصاب الناشئ . ينبغى عدم الالتجاء بحال إلى تخويف الطفل لحمله على الاذعان برسم صور خيالية مرعبة فى مخيلته . هذه الصور الخيالية المرعبة هى شر ما يحطم النفس البشرية ؛ هى الجرثومة الخبيثة لمرض الجبن ، أعصى الأمراض الاجتماعية على العلاج وأشدها فتكا بالجماعات

لست أقول بترك الطفل يعمل بلا تقويم ، ولكنى أقول بأنه يجب تقويمه فى عناية وبغير افساد خياله « بالمرهبات » . فاذا تقدم فى السن فلا بأس باشعاره بسوء عاقبة الخطأ بحرمانه أو بضربه بالقدر الكافى مع الهدوء التام والقصد . ومن الواجب أن نظهر استحساننا واستهجاننا فى مناسبات ذلك

بهذا يمكن أن نربى فى الطفل قوة الاعتماد على النفس وحكم الأعصاب والشجاعة والمثابرة . وإذا ما ترك المنزل إلى المدرسة أو المصنع على هذا فانه يكون مزوداً بالقدر الكافى للحياة الكريمة

وفى المكتب أو المدرسة وفى المصنع وفى الشركات ومصالح الحكومة ودار العمدة يمكن تناول هذه الصفات بالتقوية . ولكن أقوى الدعائم ما يكتسبه الطفل فى المنزل سواء بالتقويم والتعويد ، أو بالمثل والقدوة .

فالأولاد يكسبون كثيراً إذا ما شاع فى البيت شعور المحافظة على الكرامة والقيام بالواجب والتمسك بالحق . إذا احترم كل من الزوجين الآخر ، ولم يتحكم الكبير فى الصغير ، ولم يستغل ضعف الخدم لارهاقهم وظلمهم ؛ وبالجملة إذا حرص رب الدار على ألا يكون فى بيته إرهاب أو إذلال أو استكانة ، ينشأ مع الأولاد شعور بالعدل والعزة ، ونفور من الظلم والعدوان

والنشأة المنزلية الملهمة للحرية والاستقلال تهون ذيوعهما فى الجماعة . فالغالب فيمن لم يألف الاهانة فى صغره عدم قبولها إذا ما كبر . وإذا آنس المعتدى من فريسته المقاومة فكر كثيراً قبل الاعتداء . فاذا ما قوبل الاعتداء بمثله كف المعتدون مع الزمن . فتشيع فى الجماعة روح الاعتدال نتيجة هذا التفاعل ، ويشع فى جوانبها نور الحرية ويصلب عودها وتقوى ويصعب النيل من حريتها واستقلالها

إيجاد هذه الروح فى الجيل الحاضر وتربيتها فى الجيل الناشىء ليس من الهين فى بلادنا مثلاً . لكن الأمر كما قلت عظيم . فليكن من أغراض دعاة الاصلاح تحقيق هذه الغاية بكل الوسائل . فبناء الأمة قوية مستحيل إذا لم تغلب روح الاستقلال والحرية والاعتماد على النفس والأباء . وكل بذل فى هذا السبيل له ما يبرره

خلاصة ما تقدم أن البذرة الأولى للتربية الاستقلالية فى البيت ، فاذا ما نمت به تعهدت خارج البيت بالمدرسة والمصنع ودواوين الحكومة ومكاتب الشركات والمنشآت الاجتماعية بوجه عام ، وكانت بذرتها القوية فى البيت مما يهون نموها وذيوعها وانتشارها فى الجماعة

حرية الجهر بالرأى

إذا نشأت غالبية أفراد الجماعة على الاعتماد على النفس والأباء ، فان الغالبية تجهر بالرأى فى غير خشية ولا خجل . والرأى يسمع فى غير اشمئزاز ويناقش فى غير تعصب أو تحامل غير طبيعى . وبذا تسير الجماعة فى غير كثير من الاحتكاك

أما إذا لم تكن الشجاعة والاعتماد على النفس والاقدام هى الصفات الغالبة ، فان حرية الجهر بالرأى تعز من جهة ، وقبول النقد النزيه يندر من جهة أخرى ، فيكثر العسف وتنتشر الاخطاء وتنحط الجماعة

التربية الاستقلالية ترفض بطبيعتها المداراة . وفى الأوساط الحرة لا تحرج ولا إحراج ، بل يأتى النقد النزيه بالطبع ويقابل كذلك . والحقيقة تظهر بتلاقى الآراء . أما فى الأوساط غير الحرة لانعدام التربية الاستقلالية أو ندرتها ، فالاقدام يندر ويندر معه النقد ومقاومة الظلم ، فيكثر الغرور وتكثر الأخطاء وينحط المستوى الفكرى والخلقى تبعاً لذلك ، وتضعف أداة السير إلى الأمام وتهن قوة المقاومة فتفقد الجماعة وجودها المستقل وتمسى خاضعة لمشيئة الغير

علاقة الحكام بالمحكومين

أدوات الحكم مهما اختلفت ألوانه هى — ا — التشريع ب — القضاء — حـ — الادارة

ا — والمثل الأعلى للتشريع ، فى رأيى ، هو أن يكون أقرب ما يمكن الى التعبير عن الارادة المشتركة . وأعنى بالارادة المشتركة فى جماعة ما ملتقى الارادات الجزئية أو الارادات الفردية نتيجة تبادل الآراء وتعديل بعضها بعضا . وكلما كانت حرية الرأى مكفولة كبر مجال تمحيص الآراء وقربت ارادة الدولة ، مجمع الارادات ، من ارادة الجماعة وصدق تعبيرها عنها . وإذا كان القانون ، وهو ارادة الدولة أساسه هذا ، فانه يسهل تطبيقه كما يسهل تعديله بما يساير تطور الجماعة ، لأنه يعبر تعبيراً صادقاً — بقدر ما تقبله طبيعة الانسان — عن ارادة المجموع

هذا النحو فى التفكير يقودنا إلى تقرير أن الحكم النيابى أقرب أشكال الحكومات المعروفة إلى التعبير عن ارادة الجماعة أصدق تعبير ممكن . وهنا لا بد لى من الاشارة إلى اعتراضين :

قد يتساءل البعض : كيف السبيل الى سيادة الحكم النيابى فى الجماعات المتأخرة ما دام القانون هو ارادة الدولة ، وما دام مثله الأعلى هو أن يكون نتيجة ملتقى الارادات الجزئية ، وكانت الأغلبية جاهلة ؟

وجوابى على هذا أن هناك رغبة مشتركة بين مختلف الطبقات ، أو ارادة مشتركة مهما بعدت النسبة بين درجات التفكير . وأعنى بهذه الارادة المشتركة ارادة توفير أسباب العيش والأمن على النفس والمال . فاذا عملت على ترقية مدارك الفلاح ، ويسرت له سبيل الرى والصرف ، وأمنته على نفسه وعلى ماله ، فانك انما تحقق رغبته أو تنفذ ارادته . والشرائع التى تؤدى إلى هذا تعبر عن ارادته . وبالعكس إذا صدر قانون باقامة دور فخمة للتمثيل وقاعات للتصوير فى قلب الريف مع شدة حاجته للمستشفيات العامة والمدارس العامة ، فانك لا تعبر عن رأى سكان القرى بل تخالف ارادتهم . ويقال مثل هذا عند جميع طبقات الأمة . فاذا أبدى نائب رأياً عن جماعة فانه ، طبقاً لما تقدم ، لا تناقض بين فكرة

الارادات الجزئية وبين الحكم النيابى فى الجماعات المتأخرة ، ولو لم تظهر الارادة الجزئية مستقلة منفصلة . وبتقابل ارادات الطبقات المختلفة يعدل بعضها بعضاً حتى تلتقى فى نقطة تحقق الارادة المشتركة بالقدر العملى اللازم لسير الجماعة إلى الأمام

أما الاعتراض الثانى فنشأ عن وقائع ما بعد الحرب ، تسمعه من أفواه أساتذة الجامعة كما تسمعه ممن يهتم للكلام فى الشؤون العامة من بين معلمى المدارس الأولية ، ويتردد صداه بين أوربا وأمريكا وآسيا ، ذلك هو الاعتراض على صلاحية الحكم النيابى بنجاح نظام الحاكم المستبد العادل . يقولون إن المستبد النزيه انتشل ايطاليا من مخالب الفوضى ووضعها فى مصاف الدول المرهوبة الجانب فى زمن قصير . وفى مثل هـذا الزمن انتزع المستبد النزيه تركيا من أحضان الموت وأوقفها على قدميها يخطب الأقوياء ودها اليوم بعد أن كانوا يتنافسون فى اقتسامها بالأمس ، ويقولون عن جماعات أخرى مثل هـذا . ويخرجون من المقارنة بأن الحكم النيابى لم يعد المثل الأعلى لنظم الحكم فى وقتنا هذا

غير أن المستبد العادل من خوارق الطبيعة . ولا يصح وضع قاعدة عامة على أساس الشذوذ . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالمستبد لا يقبل معارضة . ولابد أن تفقد الجماعة روح النقد فى مثل هـذا الجو . فاذا ما انقضى عهد سحر الزعيم لسبب ما ، سارت الأمة نحو الضعف بأسرع مما سار بها سحر الزعيم المستبد الى القوة

هذا الى أن إحاطة الزعيم بكل شىء أمر مستحيل . ولا بد له من مجلس يرجع اليه ، وإن لم يتقيد بما يبدى فيه من آراء . فاذا لم يكن هناك ، فى ذلك الحيز الضيق ، حرية رأى فان الزعيم لا يسمع فى الواقع إلا صدى صوته . ولما كانت الاحاطة بكل الأمور متعذرة كان خطأ التصرف هنا أمرا لابد منه فى حالات كثيرة . وإذا قدر للحكم النيابى ، بشكله الحالى ، أن يتلاشى ، فلا ينفع الجماعة نظام المستبد العادل . بل ينفعها نظام النقابات (Syndicaliam) . وفى هذا النظام لا بد من استقلال الرأى والحرية لتمحيص الأمور قبل إبرامها

لنعد الآن إلى تناول موضوع التشريع لنقول إن حرية الجهر بالرأى ألزم ما تحتاج اليه أداة التشريع . هذه الحرية لازمة داخل الأحزاب لزومها خارجها . فنقد رأى الزملاء والزعماء فى حزبة لا غنى عنه لتقرير أقرب الآراء للسداد وأقلها تعرضاً للسقوط إذا ما هاجمها خصوم الحزب ، والامساك عن النقد مصانعة أو جبناً قد يؤدى إلى قرار خاطىء تسهل معه المهاجمة من الخارج . وهـذه الحرية لازمة كذلك فى مجالس التشريع وعلى صفحات الجرائد وفوق المنابر خارج هذه المجالس . وإبداء الرأى فى غير مواربة من أقوم سبل تغيير هذه الهيئات برغبات الجماعة وبمواطن الصواب . ولن يكون هـذا ما لم تكن غالبية الجماعة قد نشأت نشأة استقلالية . فلا يجهر برأيه إلا من قويت عنده روح الاستقلال وكانت لديه الشجاعة وفى خلقه الأقدامُ

ب — والمثل الأعلى للقاضى هو من يتعرف وجه الصواب ويحسن تطبيق روح القانون على حالة الجماعة التى يطبق فيها ، ويدرك حق الادراك رسالة القاضى وأثره فى المجتمع فلا يخضع لغير القانون والحق والعدل . هو الذى يتحرر من نزعات نفسه ومن المؤثرات الخارجية فى تصرفه كقاض . هو الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم

والتربية الاستقلالية هى أقوى حصون القاضى ضد نزعات النفس . والكرامة الذاتية والثقة بالنفس هما أقوى دافع يدفعه إلى الدرس المستمر والتفكير غير المنقطع فيما يحيط به ليستطيع إبلاغ رسالتـه على خير وجه . وهما اللتان تلهمانه رفض الايحاء الخارجى مهما كان مصدره

وإذا آنس القاضى المدرك لسمو رسالته ضعفاً فى روح الجماعة أو شيوع عوج فى خلقها — وهو بحكم مركزه ميزان حساس — عالج النقص فى أسباب أحكامه تارة ، وباسداء النصح إلى الماثلين أمامه تارة أخرى . وما أشد وقع النصيحة المقترنة بالعبرة !

وإذا آنس ، بحكم المارسة ، نقصا فى التشريع أو عيباً أو غموضاً جعل من أغراضه ، فى قراراته ، اكمال القانون إذا ما اتسعت لذلك النصوص دون ارهاق المعنى . فاذا لم يكن هذا مستطاعاً فانه يخاطب الجهات التشريعية لاستكمال القانون ويعمل لتحقيق هذا الغرض بكل ما يستطيع

(يتبع) محمد عبد البارى

ملاحظات متواضعة على مشروع

ترجمة معانى القرآن الكريم

بقلم المستشرق المجرى
الدكتور عبد الكريم جرمانوس

طالعت والغبطة تفعم قلبي المرسوم الصادر بترجمة معانى القرآن الكريم استناداً إلى الفتوى الشرعية المقدمة من هيئة كبار العلماء ، إذ يبدأ العمل بمقتضاها قريباً فى هـذا المشروع الخطير الذى يعد أول حادث له قيمته فى تاريخ الاسلام

لقد ترجم مسيحيو القرون الوسطى كتاب الله الكريم إلى عدة لغات أوربية . وكانت أول ترجمة ، على ما أعرف ، هى تلك التى قام بها كلونى الى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر . ثم أقبلت طائفة من القسس والرهبان على نقله الى بقيـة اللغات الحيـة ، حتى أن بعض الأمم الصغيرة ساهمت فى هذا العمل ، ولا تزال تفتخر بوجود نسخ من هذه التراجم البدائية فى متاحفها . وتوجد فى اللغات الألمـانية والانجليزية والفرنسية والايطالية عشرات التراجم ، القديمة والحديثة ، بحيث يمكن للمرء أن يختار منها ما يوافقه . على أن معظم هذه التراجم تكاد تكون حرفية لآيات الذكر الحكيم ، برغم حرص القائمين بترجمتها على وضعها فى قالب صحيح يتفق والمعنى الذى أنزلت به ، لأنه من المعلوم أن فصاحة القرآن وبلاغتـه أمران لا سبيل إلى انكارهما . وهذا لعمرى مما حارت فيه عقول العلماء والفلاسـفة واللغويين . ولو سلمنا جدلاً بأن معظم هذه التراجم خال من الاخطاء — وهذا ما لا يمكن الجزم بصحتـه — فالتفسير لا يكون مؤدياً تماماً لنصوص الذكر الحكيم . ومن المتيسر أن يصل المترجم الى الأصل الذى يخلع على كتاب الله جلالة وروعة . فمعجزة القرآن فى أسلوبه وبلاغته ، مما لا يجعـل الأجانب يفقهون معناه أو يشعرون بلذة عنـد تلاوته ، نظراً لأن بعض المترجين أطلقوا لأنفسهم العنان فى ترجمته

ويلوح لى أن هذه التراجم أشبه ما تكون بالصور القاتمة التى تمثل الطبيعة الحية ، فالنشوة الروحية العميقة التى يحس بها المسلم لدى تلاوة القرآن ، يكاد أمرها يكون معدوما لدى طائفة من الأفرنج وهم يطالعونه فى لغاتهم . فمن هذه الناحية نرى أن القرآن الكريم غير قابل للترجمة ، ولا يمكن أن يصل كاتب مهما بلغت عبقريته الى مثل هذا السمو . والتاريخ على ما فيـه من الحوادث الجسام والعظات البالغات ، كذلك الفن فى أنبل وأسمى معانيه ، لا يمكن مقارنة أحدهما بآية واحدة من آيات الكتاب المنزل الحكيم

وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو كلام الله القديم الأزلى ؟ وهو معجزة ليس من السهل تفسيرها فى ضوء الحوادث ، أو شرحها بمنطق التدليل ، والمفروض أن الانسان يؤمن به حسب نزوله

إن فلسفة التاريخ بمناهجها الصحيحة ، حاولت عبثاً أن تحلل تفاصيله وتواريخه وترده إلى أصوله ، ولكنها برغم الجهود الجاهدة التى بذلتها أجبرت على الخضوع لأحكامه ، ورضيت من الغنيمة بالاياب ، وأيقنت أنه أمر ليس فى طاقة البشر أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ففى وسط ظلام الانسانية الحالك ، انبثق ذلك القبس الآلهى ، وأضاء الكون ليمهد للانسانيـة طريق الهداية والرشد . مما أدى الى وضع الأصول الاجتماعية والقوانين والشرائع وتحديد علاقة الناس بعضهم ببعض . بل أصبح القرآن قاعدة موطدة لثقافات علمية واسعة النطاق ، وحلقة كونية لم يظهر لها نظير فى كل أحقاب التاريخ

ولقد كان طبيعياً أن يكون القرآن باعثاً على خلق الوحدة العربيـة والاخوة الاسلامية ، سواء فى اللغة أو فى الفكر والعاطفة ، وبتأثيره امتدت حضارة الاسلام من قلب الجزيرة العربية إلى أطراف العالم ؛ وكان امتداد هذه الحضارة مما لم تشهده مدنية من المدنيات الانسانية العظيمة الأخرى . فاقامة الصلاة يرن صداها اليوم من مراكش إلى اليابان حول قارات ثلاث . كذلك كان القرآن سبباً فى احكام رابطة الوحدة بين ثلثمائة مليون مسلم ، سلاحهم التقوى ومخافة الله ، ودينهم مستمد من القانون السماوى المقدس الذى رفعهم إلى السمو الروحى . ولقد طغى القرآن على الفوارق المادية التى بين المسلمين ، حتى أصبحوا بفضله إخواناً ، وأزال البغضاء والنقائص من نفوسهم ،

ونفى عن قلوبهم الأدران والعوامل الشعوبية واللغوية والجغرافية حتى صاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً .

* * *

إن تفشى النزعة المادية كانٌ من أقوى البواعث لزعزعة العقائد الدينية فى عالم الغرب . وهذه الظاهرة بدت مائلة قوية الأثر فى القارة الأوربية عند ما حاولت أن تشيد لها صرحا فوق أنقاض الدولة الرومانية ، هنالك بدأت حركة الاصلاح التى قام بها مارتن لوثر ، وكان من أقوى عواملها ترجمة الأنجيل ، فكانت ترجمة هذا الكتاب المقدس سبباً فى تقدم الحضارة الجرمانية ، وسبيلاً الى إدماج لهجات ولغات متباينة بعضها فى بعض ، حتى غدت منها لغة واحدة هى الآن لسان للأدب الألمانى الكبير

من ذلك ترى أن ترجمة الانجيل من اللاتينية أحدثت فى الحضارة الأوربية بعض الأثر الذى أحدثه القرآن الكريم فى تكوين حضارة اسلامية راقية مؤسسة على قواعد ونظم ثابتة . أضف الى ذلك أن اختراع الطباعة جاء فى نفس الوقت الذى سارعت فيه الأمم والشعوب الجرمانية لتلم شعثها . فاخضعت الطباعة للغة والفكر والدين ، وازدهر الأدب الجرمانى وانتشرت ضروب الثقافات ، وبفضل ترجمة الانجيل اندثرت اللغات واللهجات ، ومحيت الفوارق السياسية التى كانت إحدى نتائج الجهل المؤدى الى العبودية

فى ذلك الوقت كانت طائفة صغيرة من العلماء فى الشرق الاسلامى ، قد احتكرت علوم القرآن وتفسيره ، وأصبحت اللغة الفصحى على وشك التدهور والانهيار ، وتفشت الأمية والجهل الى حد مخيف ، وأصبح المسلمون الذين كانوا قادة الأمم فى العلوم والآداب فى حالة تأخر وانحطاط بالنسبة لأسلافهم . أما الكتاب الكريم ، ينبوع الحضارة الاسلامية الزاهرة ، فكان غير مفهوم لأكثر من الناس

فى هذه العصور المظلمة كانت طائفة العلماء فى عزلة تامة عن الشعب ، يحتكرون القرآن فى صدورهم ، فانتشرت الجهالة وعمت الفوضى ؛ على أنه من توفيق الله ، كان لا يزال ألوف من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يحفظون القرآن وان لم يفقهوا معانيه . فالاسلام فى حد ذاته هو التشبع بالمبادىء الروحية السامية المركزة على طهارة النفس ونقاوتها مما يشوبها . فهل يمكننا فى هذه الحالة أن نعترف بأن الالهام السماوى ، مهما بلغ من التقديس ، يؤثر فى نفوس من لا يفقهون معناه ؟ إن الاسلام ليس سحراً ولا طلسما ، ولكنه دين الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وإذا اعتقدنا بأنه صالح لكل زمان ومكان ، فيجب علينا إذن أن نعمل جهدنا لشرحه وترجمة معناه وجعله فى أيدى ألوف الناس الذين يتحرقون شوقاً للدخول فيه أفواجاً وأفواجاً

نحن لا نحارب فى هذا العصر مثلا بنفس الأسلحة التى كان آباؤنا يلجأون إليها للدفاع عن أنفسهم — من أقواس ونبال ورماح — بل نقاتل بالدبابات والطيارات وسائر الآلات الحديثة ، كذلك يجب علينا فى هذا العصر ألا ندخر وسعاً فى الالتجاء إلى كافة الوسائل الأدبية والروحية لاظهار فضائل الدين الحنيف والتبشير به فى أرجاء الأرض

لقد كان القرآن محصوراً فى بدايته فى بضع نسخ خطية ، فلما انتشرت المطابع الحجرية استخدمت لنشره وجعله فى متناول أيدى ألوف المسلمين . كذلك كان الأمر فى المطابع الرحوية والحديثة ؛ وهو الآن يذاع فى الراديو ويفسر على موجات الأثير . أما الذين يحفظون كتاب الله ولا يفقهون معناه ، فهؤلاء شأنهم شأن غريق يلتمس النجاة ، محاولاً التعلق بحزمة من القش . وليس فى وسعهم أن يفقهوا الشطر الروحانى منه الذى يؤهلنا للرشد والتقدم والتسلح بأسلحة من العلم واستقامة الفهم

إن العالم الاسلامى الذى يقف اليوم فى مفترق الطرق ، فيه أكثر من ثمانين فى المائة يحفظون القرآن عن ظهر قلب ولا يفقهون معناه ، فالى هؤلاء الملايين نوجه الأسئلة الآتية :

١ — هل تميلون إلى حفظ القرآن فى صورته الحاضرة دون أن تفقهوا معناه فتظل نفوسكم ظامئة إلى هذا الشراب الروحى ؟

٢ — هل تريدون أن يكون وقفاً على طائفة من العلماء يحتكرون معانيه فى صدورهم مع أن الله عز وجل أرسله الى كافة البشر ؟

٣ — ماذا يكون لو أن الكتاب الكريم نقل الى لغاتكم حتى ترتوى منه النفوس الظامئة التى تتلهف عليه كينبوع تفجر من الألوهية العظيمة ؟

(البقية فى العدد القادم)

(بودابست) عبد الكريم جرمانوس

من الموضوعات التي نالت الجائزة في المباراة الأدبية

استثمار نهضة المرأة لخير البلاد

للسيدة إحسان أحمد القوصى

لـما قام المرحوم قاسم أمين منذ ربع قرن ونيف يطالب بتعليم المرأة وتحريرها من أسر عادات بالية ، وقيود تقاليد عتيقة شلت نصف الأمة ، وحالت دون انتفاع البلاد بجهودها ... لم يكن يحلم أشد أنصار المرأة تفاؤلا أن المصرية ستخطو هذه الخطوات المباركة فى تلك الفترة القصيرة ، وتسير سيرها الحثيث ، لتحتل المكانة التى سمت إليها من آلاف السنين فى حضارة مصر القديمة ، وأيام ازدهار مجد العرب . وإذا كنا اليوم نغتبط عـا نلمسه من دلائل نهضتنا الرائعة ، وما تقوم به المشتغلات بالحركة النسوية من نواحى الاصلاح وجلائل الأعمال ، فوق ما رفعن به شأن بلادهن فى شتى بلاد العالم ، ومختلف المؤتمرات النسوية الدولية ... فذلك لـما تبعثه فينا هذه النهضة من قوة الأمل وكبير الرجاء ؛ فى مستقبل زاهر تستكمل فيـه المصرية نهضتها ، ويظهر أثر ذلك الكمال فى نهضة البلاد

وإذا رأيت من الهلال نموه   أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

وإذا كان بيننا اليوم المحامية والطبيبة والصحفية والكاتبة والمعلمة والممرضة ، والكثيرات من حاملات الشهادات وكاتبات المقالات ، فليس معنى ذلك أننا بلغنا غايتنا ، واستوفينا نهضتنا ، فما زالت الأغلبية الساحقة من نسائنا يخيم عليهن ظلام الجهل ، وما زالت الألوف المؤلفة من أطفالنا تقع فريسة للأمراض ، وتقضى ضحية الجهالة ؛ وما زالت بلادنا تفوق بلاد العالم فى نسبة العمى ، وما زالت سوق الخرافات رائجة ، وما زال الكثير من عاداتنا فى حاجة إلى التهذيب والاصلاح . ويطول بى الشرح لو أردت أن أستوعب أمراض المجتمع التى تستطيع المرأة أن تساهم فى علاجها بنصيب كبير إذا مهد لها الطريق فتكون المتعلمة قد أدت حينئذ رسالتها ، وقامت بواجبها من خدمة لبلادها . نعم إن طريق الاصلاح شاقة وعرة ، والعقبات جمة ، والمصاعب كثيرة ؛ ولكن كل صعب يهون أمام صدق العزائم ، وشحذ الهمم ، وتضافر الجهود ، وتوحيد قوى المتعلمات ليهذبن ويدبرن ويصلحن شأن أمتهن ، وينهضن على الأخص بأخواتهن من مختلف الطبقات صحياً وخلقياً وأدبياً ، فيكن قد عالجن الداء من أساسه ، فالمرأة ليست نصف الأمة فحسب ، بل هى مربية النصف الآخر منها كذلك . ومما يزيدنا تفاؤلاً أن فى البلاد اليوم روحا تفعل فى نفوس الأفراد والجمعيات فعل الخمير ، متجهة بها من الوحدات الجزئيـة إلى وحدات كلية مما يساعد على استثمار نهضة المرأة

واستثمار نهضة المرأة يقوم على تعاون ثلاث قوى : جمهور المتعلمات ، والحكومة ، والشعب

أما واجب المتعلمات فالمبادرة بالاستعداد لعقد مؤتمر نسائى تمهيدى تشمله الحكومة برعايتها ، تشترك فيـه كافة الجمعيات النسائية على اختلاف مذاهبها وغاياتها ، ويدعى إليه أكبر عدد ممكن من فضليات السيدات والآنسات المتعلمات ، ليكون واسطة للتعارف وتوحيد الجهود ، ووضع الأسس لخطةٍ عملية منتجة بعد المناقشة والبحث فى خير الوسائل لمعالجة نواحى الضعف التى توكل كل منها إلى لجنـة تقتلها بحثاً ودرساً ، ثم تقرر الوسائل الكفيلة بعلاجها . فتؤلف لجنـة مثلاً لبحث خير الذرائع لرفع مستوى أخلاق النشء ، ولجنـة ثانية لتحسين الصحة العامة ، وثالثة لمحاربة الخرافات والعادات الذميمة ، ورابعة لتنظيم الاحسان وتخفيف ويلات البؤس ، وخامسة لتوفير السعادة العائلية وإصلاح حال الأسرة ، وسادسة للعناية بالولد صحياً وخلقياً ، طفلاً ويافعاً ، وسابعة للشؤون القومية والاقتصادية ، وثامنة لنشر الثقافة والفنون بين المتعلمات ، إلى آخر ما يراه المؤتمر من الموضوعات جديراً بتأليف لجنة لبحثه ، وبعد أن تنتهى اللجان من أبحاثها الدقيقة وتكون قد دعمتها بالأدلة والاحصاءات كلما أمكن ، واستعانت على استيفاء ما ينقصها من المعلومات باستقائها من مصادرها فى مختلف مصالح الحكومة والمؤسسات الوطنيـة والأجنبية التى تشتغل بالشؤون الاجتماعية فى مصر أو فى الخارج ، تكون قراراتها بمثابة الخطة الحكيمة لقيادة جيوش المتطوعات إلى حرب صامتـة فى مظهرها ، مصلحة طموح فى جوهرها ، عدتها التعاون والهمة ، وسلاحها الايثار والتضحية ، ثم يبدأ زحف كتائب المتطوعات على الأحياء الفقيرة فى العواصم ، ثم يتقدمن بزحفهن إلى البنادر ، ثم إلى الريف ، لنشر الدعاية الصحية والتهذيبية ، وإرشاد الفقيرات وتعليمهن النظافة والعناية بالأولاد الخ

ولما كانت الاطالة فى شرح أعمال تلك اللجان واستيعاب النقط التى تدخل فى لجنة كل منها تتطلب إفاضة لا يتسع لها مقال كهذا، كما أنه يكون استباقاً للحوادث وإحلالاً لرأيى الفردى محل رأى سيكون ثمرة شورى الجماعات التى تنصرف إلى بحث كل نقطة ، وتتفرغ لدراستها على ضوء ما يتوفر لها من الأدلة والبيانات ، لهذا أكتفى بايراد النقط التى تدخل فى بحث لجنة أو اثنتين على سبيل المثال تنويراً للأذهان وتوخياً للاختصار : فاللجنة التى يوكل اليها رفع مستوى الأخلاق مثلاً يصح أن تتناول الأمور الآتية :

١ — أفعل الوسائل فى بث روح الفضيلة فى النشء وتعويدهم العادات الحسنة

٢ — محاربة الرذائل والعادات الذميمة كالبغاء والمخدرات وبجرائم اللسان والخلاعة والاستهتار

٣ — توجيه الشباب للقيام بالخدمة الاجتماعية

٤ — الأماكن التى يصح أن يرتادها الشباب ، والكتب التى يجب أن يقرأها

٥ — مقاومة مساوىء المدنية ، والمحافظة على الحسن من تقاليدنا وعاداتنا

٦ — توفير أسباب اللهو البرىء ليقضى الشباب وقت الفراغ فى المسلى المفيد

٧ — مساعدة المتعطلات على الارتزاق حفظا لهن من السقوط

واللجنة التى تتخصص فى تخفيف وطأة البؤس يصح أن يتناول بحثها النقط الآتية :

١ — تنظيم الاحسان

٢ — توفير وسائل العلاج للمرضى من الفقراء

٣ — تعليم الفقيرات صناعات تزيد فى رزقهن

٤ — تحديد نسل الفقراء

٥ — الاكثار من ملاجىء للأطفال المتشردين

٦ — العناية بذوى العاهات

٧ — التأمين للعمال

٨ — النسج على منوال ألمانيا فى الاكتفاء بغذاء رخيص يوماً فى الشهر وتأدية الفرق للفقراء

٩ — إيجاد أماكن صحية للناقهين والضعفاء بأجور زهيدة

هذه أمثلة من المواضيع التى يمكن أن تتناولها اللجان العاملة بأبحاثها ، ويبنا تشعبها وترابطها مدى أهميتها ، وأثر تحقيقها فى مداواة أمراض المجتمع

أما الحكومة فيقع عليها النصيب الأكبر من هذا الواجب، واجب الأخذ بيد العاملات على تنفيذ البرامج الاصلاحية التى رسمنها بعد الدرس والتمحيص ، لأنها المسئولة عن صالح المجتمع بصفتها الهيئة الحاكمة ، ولأنها تملك سلطة التشريع وفى قدرتها تدبير الأموال ، ولها من وسائل التنفيذ ما لا يتوفر لغيرها من الهيئات ، ولهذا يكون اشتراكها وإشرافها ضروريين لضمان نجاح العمل وتحقيق الاصلاح ، لا سيما وهو فى مرحلة التأسيس والانشاء . فلابد من تعيين بعض الموظفات الى جانب المتطوعات لينتظم العمل ويطرد سيره فى سبيل النجاح ، كما لا بد من مساعدة الحكومة للعاملات لخير المجتمع مادياً وأدبياً ، فتمدهن بعونها ونفوذها بسن القوانين الكفيلة بالاصلاح ، وتسهل لهن سبل العمل ، كأن تخول لعدد من المتطوعات السفر بالسكة الحديدية مجانا ، وتسمح بمبيتهن فى مدارسها فى مختلف البلاد ، وتسهل لهن زيارة المؤسسات الاجتماعية من ملاجىء وإصلاحيات ومستشفيات الخ ، إلى غير ذلك من وسائل المساعدة . وهذه أمثلة بسيطة ذكرتها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر والتحديد

ومن أهم ما يجب على الحكومة لاستثمار نهضة المرأة ، البادرة الى تعديل مناهج تعليم البنات ، وإرسال بعثات للتخصص فى الخدمة العامة فى كلية سيمونز Simmons College ببسطن Boston ، وهى أهم معهد بالولايات المتحدة لدراسة الخدمة العامة الطبية والسيكولوجية الخ ، أو فى مدرسة الخدمة العامة بشيكاغو أو كلية سمث Smith بمساشوستس أو غيرها ، حتى إذا عادت البعثات ساعدت المدارس على تربية روح الخدمة العامة فى الناشئة ، وجندت منها فرقاً للعمل تحت إشرافها ، وأفادت المشتغلات بالشؤون الاجتماعية وتوجيههن الى أنجع الوسائل وخير الطرق لتحقيق الغايات التى يسعين اليها . وغريب أن الحكومة لم تفكر حتى الآن فى هذا النوع من البعثات ، مع وفرة عدد البعثات التى أوفدتها وتنوعها ، ومع شدة حاجة بلادنا اليها

أما تعليم البنات فواجب الحكومة أن تستغل رغبة الآباء فى

تعليم بناتهم وإقبال البنات على التعليم بمختلف مراحله ، لتجعل من تلك الآلاف المؤلفة زوجات فاضلات يحسن تدبير البيوت ويملأنها بهجة وسرورا ، وأمهات صالحات ينشئن رجالاً صحيحى الأجسام ، قويمى الأخلاق ، كريمى النفوس ، وذلك بتعديل البرامج ، لأن البرامج الحالية قاصرة جداً عن تحقيق هذه الغاية . ومن المسلم به أن غاية التربية الصحيحة أن تعد المرء للحياة ، وتسلحه بما يكفل له النجاح فى كفاحها ، وتؤهله للدور الذى ينتظره وتنتظره الانسانية منه . والمدارس التى تعلم الطبيب كيف يحارب العلل وينقذ المرضى ، وتعلم التاجر كيف يُروج بضاعته ويزيد ربحه ، والزارع كيف يجود حاصلاته وتسلم من الآفات ، والصانع كيف يتقن صناعته ويرقى بفنه ، فتعد كلا منهم لمركزه الخاص . . . جديرٌ بها أن تعد الفتاة (ووظيفتها تختلف عن وظيفة الرجل) للقيام بدورها الخطير . فما لا شك فيه أن الفتاة أحوج إلى درس نفسية الأطفال فى مراحل نموهم ومعرفة طرق العناية بهم جسمياً وخلقياً منها الى دروس الميكانيكا ، وهى أحوج إلى علم الاقتصاد منها الى حساب المثلثات ، وهى أحوج الى تدبير المنزل والحياكة والتفصيل منها الى الهندسة الفراغية ، وهى أحوج الى علم الصحة والموسيقى منها الى الكثير مما تدرسه الآن .

لست ضد ثقافة المرأة ، ولا أريد الحد من حرية الراغبات فى الدراسة العالية ، ولكنى أريد أن يميز التعليم بين حاجة الجنسين ، وأن يفرق بين من تتعلم لتحترف الطب أو المحاماة مثلا وبين الأغلبية من سواد الشعب اللواتى ينتظرهن البيت المصرى جنوداً يعملن على حمايته ورفع مستواه ، وأن يعنى بالمواد النسوية عناية كافية تستفيد منها المرأة فى حياتها العملية ، وإلا ضاع معظم جهدها وما ينفق على تعليمها فيما لاطائل تحته ، وصدق علينا قول الشاعر :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

ونظرة نافذة ترينا أننا فى حاجة ماسة تبلغ حد الظمأ إلى تحسين نوع تعليم البنات منا إلى إكثار المدارس لهن . فما أكثر حاملات الشهادات ، ولكن ما أكثر الصدف وما أقل الدر فيه ، وما أكثر الزهر وما أقل العطر منه ، وإن يوماً تعدل فيه مناهج تعليم البنات تعديلاً يهيىء لهن الدراسة التى تتفق مع وظيفتهن ، وتوضع القيود والضمانات لقصر عدد من يدرسن مناهج البنين على الراغبات فعلاً فى الدراسة العالية حتى لا تتحول الأغلبية اليها . . . لهو اليوم الذى نكون فيه قد وجهنا التعليم النسوى وجهته المنتجة ، وخدمنا البلاد أجل خدمة

هذا واجب الحكومة مجملاً : أما واجب الجمهور فأن يساعد العاملات مادياً وأدبياً ، ويشد أزرهن بعطفه وتشجيعه ، فيناصرهن الغنى بماله والكاتب بقلمه ، والخطيب بلسانه ، والمصور بريشته ، والفقير بتطوعه للعمل ، والمعلمون والآباء بما يبثونه من المبادىء الطيبة فى نفوس الصغار ؛ لأن المرأة فى حاجة ، حاجة ماسة ، إلى تعضيد الرجل لها فى نهضتها ، والرجل والمرأة يجب أن يكونا فرسىْ رهان فى ميدان الاصلاح يندفعان جنباً إلى جنب فى سيرهما لترقية المجموع وخدمة الانسانية دون أن يعترض أحدهما سبيل الآخر فى عدوه ، وأن يبادر كل منهما لعون الآخر فى جهوده النافعة ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ويا سعد يوم يتم لنا فيه التآزر الكامل على العمل الصالح . إننا لا شك بالغون فيه غايتنا باذن الله

امسابه أحمد القوصى

الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينيه جارد

للسيد اسكندر كرباج

تابع لما نشر فى العدد الماضى

يأسف لامرتين إذ يرى اليأس مخيماً على وجه رينيه ، والأسى يغمر نفسها التوّاقة الى إرواء هذا الظمأ الطبيعى فى الناس من ينابيع الحبّ والمعرفة . ثم يقول لها : هل وجدت يا رينيه بين كل ما ذكرت لك من الكتب ما يوافق الطبقات العاملة مثلك ؟

فتجيبه : صفحات قليلة يا سيدى ، لأن كل ما فى لغتنا كُتب لكم ، لذلك يجب أن يخلق الله من يكتب لنا

فيقول : لقد حان الوقت الذى يجب أن يُكتب فيه لكم يارينيه ، لأن ارتقاء عقليَّة الشعب وشدَّة ميله إلى المطالعة سيحملان الكثيرين من الأدباء علَى تخصيص الوقت الذى يصرفونه فى أماكن اللهو لوضع الكتب الشعبية . وفضلاً عن ذلك فالارتياح العام إلى اشتداد حركة الصناعة والعمل فى البلاد سيدفع الحكومة إلى التوسُّع فى نشر الاصلاح ودعوة كل من أفراد الأمة إلى القيام بقسطه من خدمتها . وهذا يضاعف عمل الفكر فى كل الطبقات الاجتماعية ؛ وبما أن الكتب هى أدوات هذا العمل فسيوضع منها للعمَّال ما يوافق أيديهم

وقد ازداد عدد الكتَّاب على ما كان عليه فى الماضى زيادة كبرى ، لأن قسماً كبيراً من النفوس الهاجعة استيقظ بعد الثورة واندفع إلى ساحة العمل والانتاج ، ولأن خريجى المدارس العالية تحوَّلوا عن خدمة الامبراطورية والدين إلى التوظُّف فى دوائر الحكومة والاشتغال بالأدب ، فكثر عدد الكتَّاب وأصبح ما ينشر فى السياسة والشعر والأدب والاجتماع يومياً كافياً لوضع المجلدات الضخمة ، وتزاحمُ هذا العدد الكبير من الأدباء على أبواب الشهرة يحول دون معرفة العباقرة الحقيقيين

لم يعمل رأس الانسان وقلبه فيما غبر من عصور الانسانية ما يعملانه فى هذا العصر ، فهما كناية عن معملين للأدب دائمى الحركة ، وهذا العمل المتواصل يبحث عن وجهة ينصرف إليها فلا يجد ، لذلك نراه قلقاً مضطرباً . غير أن الطبيعة التى أوجدت التبادل بين الأعمال والحاجات ستوجد لهذا العمل حاجته ، وهذه الحاجة هى وضع الكتب للجمهور

ثق يا رينيه أن عهد الأدب الشعبى قد دنا ، وأعنى بالأدب الشعبى الأدب السليم المكتمل ، لأنى أفهم من كلمة شعب ما يفهمه الله والفلسفة ، أى القسم الأكبر والأهم من البشرية لا ما يفهمه المتطرفون ؛ وإذا لم يطرأ على الأنظمة الحديثة فى هذه السنوات العشر ما يعرقل سيرها ، أو يحولها الى طغيان مؤقت ، فسيكون للشعب مكتبته وعلومه وفلسفته وروايته وشعره وأدبه وتاريخه وفنه

فتسأله رينيه دَهِشة : ومن يضع لنا كل ذلك ؟

فيجيبها : الكبار بين العلماء والشعراء ، فكما أن تربية الأمراء والتحدث إلى الملوك والتقرب من رجال البلاط كانت إلى الأمس القريب تعدُّ شرفاً كبيراً فان تثقيف الصغار والتحدُّث إلى الوضعاء وخدمة الطبقات العاملة ستعد فى الغد القريب لا شرفاً كبيراً فحسب ، بل فضيلة عظمى ، وهكذا يتحول مجد الكتَّاب من القصور الى الأكواخ ومن العواصم الى القرى . وبما أن العبقرية تتجه بطبيعتها نحو المجد ، فالمجد سيكون تردید اسم الكاتب فى أفواه الملايين من النساء والرجال صغاراً وكباراً . لماذا يؤلف الأديب ويكتب وينظم ؟ ليُقرأ ويُدرك ويُشارك فى شعوره وتأثره ، ويُحب ويُكرم ويُطرى ، أفليس الأفضل للشاعر أن تنقش منظوماته على صفحات قلوب أربعين مليوناً من أن تُصف على رفوف ستة آلاف مكتبة ؟ أو لا يفضل الكاتب أن ينتسب الى هذه الأسرة الكبرى المؤلفة من أربعين مليوناً ، يعيش فى أفكارها وتذكاراتها ويقاسمها عواطفها وميولها ، من أن يكون عضواً فى مجمع علمى لا يجاوز عدد أعضائه الأربعين ؟ فما هو رأيكِ يا رينيه ؟ ماذا تؤثرين : أن تتردّد منظوماتك فى أفواه الملايين من الصغار ، ينشدونها فى نهاية كل صلاة أو فى أحضان أمهاتهم ، أو أن تطبع وتجلّد بدقّة وجمال ، وتوضع فى مكتبة بعض هواة الشعر ؟

فتجيبه : آه يا سيدى ! أوثر أن تردد فى أفواه الصغار والوضعاء لأنها تكون طبعة شعبية تختلج بالحياة ، فالمجد الذى لا يدعمه الود هو حبة لا تنبت ، ونور لا يدفىء

وأراد لامرتين أن يذهب الى أبعد من ذلك فى معرفة حقيقة ذوق الشعب وميله الأدبى بواسطة هذه الفتاة التى نشأت بين

الخدم وتعيش مع العمال فاستأنف قائلاً : أنت يا ربنيه تعرفين أصناف الكتب التى توافق أهل طبقتك وتنطبق على عاداتهم وميولهم ، فما هو الكتاب الذى يجب أن يؤلف أولاً للذين لم يقرأوا شيئاً أو أنهم قرأوا قليلاً ؟

فتجيبه : لا رأى لى فى ذلك إذ لا يتذوق الأدب إلا من كان ثقيفاً

— ولكن لا بأس أن تجاوبى عن نفسك ، أى نوع من الأدب كان بامكانه أن يستهويكِ ويؤثر فى نفسك قبل أن تتيسر لك المطالعة ؟ أهو الفلسفة الدينية والوجدانيــة التى تصلح لأن تكون دستوراً لأفكار البشر وانجيلاً يعبر بأمثال قصيرة سامية وجلية كأشعة الشمس ، عن مبادئ العلوم الانسانية الكبرى وفضائلها المكملة بالذكاء والمعرفة على ممر العصور ؟

— هذا لا بأس به ، غير أن برودة الأمثال لا توافق حرارة قلوبنا ، فهى كناية عن أفكار تشع فيما نقرأه ، ولكنها فوق مستوانا العقلى

هل يرضيك تاريخ عام جلىّ العبارة ، رائق الأسلوب ، ذو فروع عديدة كأغصان هذه الشجرة التى تسمعنا ، تخرج فيها الأصول من الأرض ، والجذع من الأصول ، والأوراق من الأغصان ، بحيث تستطيعين أن ترافقى بنظرك نشوء كل هذه الأسرة البشرية الكبرى من أقدم الأزمنة إلى اليوم بما رافقها من ارتقاء وانحطاط ، ومن سلالات ظهرت ثم انقرضت مع أفكارها وأديانها وأنظمتها وفنونها وأعمالها ؟

— هذا لا يرضى إلا الشبان المتعلمين والشيوخ الميالين الى أشياء الماضى ، أما سواهم من النساء والعذارى والأولاد فلا يميلون إلى مثل هذا الموضوع لارتفاعه عنهم ، فهو يمر أمامنا كالسيل العظيم يبهر عيوننا ويغرق أرواحنا ، لذلك نفضّل عليه وشلة من ينبوع قريب . ان العظيم عظيم ، ولكنــه غامض كالسماء لا يرى فيها سوى النجوم

— ما قولك فى كتاب يفسر كل العلوم والفنون بطريقة سهلة بسيطة تقفك على كل ما اكتشفه الانسان واخترعه وتصوره وحسّنه فى كل أنواع الحرف والصناعات وغير ذلك مما يريك الحقيقة ويهدم كل ما قام حول العجائب الطبيعية والاصطناعية المنسوبة الى الراقيات من الأفكار الكاذبة ؟

— لا نزال فى مكاننا يا سيدى ، فهذا الموضوع لا يهم إلا المثقفين وما أقلهم بيننا وأقصر وقتهم لمطالعته ، وعدا ذلك فماذا يبقى فى النفس بعد مطالعة كل ذلك ؟ غيمة من الألفاظ والخطوط والأشياء والحوادث والأدوات وغيرها مما يبلبل أرواحنا ! يكفينا ما نعرفه من أسرار حرفنا فلا حاجة بنا الى معرفة أسرار حرف الغير !

— وما رأيك فى القصائد والملاحم ، كقصائد وملاحم هوميروس وفرجيليوس وطاسو تصف مواكب الأبطال وفتوحات الشعوب وما قامت بها من الحضارات ودكتــه من الحصون وأحرقته من المدن وأفنته من الجيوش ؟

— لقد مضت نشوة تلك الأيام ياسيدى . أيام اليونان والرومان حيث لم يكن للأمم غير فكرة الاقتتال والتطاحن والاعتقاد بكل أشكال الخرافات وبآلهة ومخلوقات تنزل من السماء وتحارب مع هؤلاء ضد أولئك ، فالشعب اليوم لا يثق كثيراً بخيال الشعراء ، ويريد منهم أن ينشدوا له الحقيقة والفضيلة والصلاح وإلا تخلّف عن سماعهم ومطالعة منظوماتهم

— وفى رواية لطيفة رقيقة تتضمّن وصف حوادث رجال ونساء يتحابون ويتخاطبون ويتراسلون ويتواشون ويتخاصمون ثم يعودون فيتصالحون ويتشاكون ، وبعد كثير من المغامرات يتزاوجون ليعيشوا أغنياء سعداء فى أحد فنادق لندن أو باريس ؟

— نكون كمن يقرأ بالصينية أو اليابانية لجهلنا معانى هـذه الحوادث وأسرارها ، إننا لا نقرأ إلا روايات الخادمات والخائطات إذا روعيت فى كتابتها شروط الحشمة والأدب كى لا تضطر ربات الأولاد إلى نزعها من جيوب البنين والبنات وطرحها فى النار

— ما قولك فى هـذه القصص الحقيقية البسيطة التى تصف بيوت الشعب وعاداته واصطلاحاته وميوله وأخلاقه وصدقه وبؤسه وسعادته وحوادث أفراده بلغة سهلة كلغته وتعابير ساذجة كتعابيره

— فى اعتقادى يا سيدى أن هذه هى الكتب التى تستهوى العمال ولاسيما زوجاتهم وبناتهم ، لأن المرأة تمثل كل شعور الأسرة فمتى قرأت ربة البيت أو ابنته كتاباً ما ، فكأن الأب والأخوة قرأوه أيضاً ، فنحن أرواح المسكن ، فما نحبه تحبه حتى الجدران ، إن النفس تهذّب فى البيت أما العقل فيثقف فى المدرسة

— يجب أن تكون حوادث هـذه القصص حقيقية ، أليس كذلك ؟

— نعم لأننا نحيا الحياة الحقيقية ، والحقيقة هى شعرنا

الأناشيد القومية المصرية

التى نالت الجوائز فى المباراة الأدبية

[ننشرها على ترتيب لجنة التحكيم]

نشيد الأستاذ محمود محمد صادق

بلادى بلادى فداك دمى   وهبت حياتى فدى فاسلمى
غرامك أول مافى الفؤاد   ونجــواك آخر مافى فمى

سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

غرامك يا مصر لو تعلمين   قصارى شعورىَ دنيا ودين
فمنك حياتى وفيك مماتى   وحبك آخرتى واليقين

سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الموطن

حياتك يا مصر فوق الحياةِ   وصوتك يا مصر وحى الإله
تعاليت يا مصر من موطن   على الدهر يبقى وتفنى عداه

سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

لك المجـد معجزة الأولين   وما زال تاجك فوق الجبين
فتيهى بمجدك فوق الوجود   ومدى اللواء على العالمين

سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

مآثر مجدك تحت الثرى   تشيد بذكرك بين الورى
وهذى فتوحك فى المشرقين   تعالت بمجدك فوق الذرى

سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

أيا مصر هـذا لواء الهـرم   على النيل يخفق منـذ القدم
تمر عليه جيوش الزمان .   تحيى اللواء تحيى العلم

سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

لك الشرق ألقى زمام القياد   فنعم الزعامة بين البلاد
فيومًا حملت لواء الفنون   ويومًا حملت لواء الجهاد

سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

يظلك عرش المليك الكريم   وترعاك عين العلى العظيم
ألست الكنانة فى أرضه   وموعود جنته والنعيم

سأهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن

بلادى بلادى إذا اليوم جاء   ودوّى النداء وحق الفداء
فحيى فتاك شهيد هواك   وقولى سلامًا على الأوفياء

سأهتف باسمك ما قد حييت .
تعيش بلادى ويحيا الوطن

— وأن تكتب بلغة نثرية ؟

— نعم لأنها أسهل علينا ونحن لا نحب إلا الذين يتكلمون مثلنا ، يجب أن ينظم الشعر للطبقات العالية فقط لأنها أقدر على تفهم معانيه وحل رموزه ، أو فى الذكريات والحنين كما أفعل أنا ، لأن الشعر لا يتكلم عن حوادثنا ولا يقصها ، بل هو ينشد لأنه صوت لا يخرج من النفس الا فى أشد حالات التأثر

(العصبة)   اسكندر كرباج

نشيد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى

حُمَاةَ الِحمْى ، يا حُماةَ الِحمْى   هَلُمُّوا ، هَلُمُّوا لِمَجْدِ الزمَنْ
فقد صرخَتْ فى العُروقِ الدِّمَا :   نموتُ ، نموتُ ، ويَحْيَا الوطن
هَلُمُّوا ، هَلُمُّوا

لِتَدْوِ السماواتُ فى رَعْـدِهَا   لِتَرْمِ الصواعِقُ نِيرَانَها
إلى عِزِّ مِصْرٍ ، إلى مَجْدِهَا   رِجالَ البلادِ وَفِتْيَانَها
فلا عاش مَنْ لَيْسَ مِنْ جُنْدِها   ولا عاش فى مِصْرَ مَنْ خانَها
نموتُ ونَحْيَا عَلَى عَهْدِها   حياةَ الكرامِ وموتَ الكرام
حُمَاةَ الحِمْى ، يا حُمَاةَ الِحمْى   ... ...

* * *

بلادي احكمي واملكي واسعدي ولا عاش من لم يعش سيدا
بحر دمي ، وبما في يدي أنا لبلادي وعرشي فدا
لك المجد يا مصر ، فاستمجدي بعزة شعبك طول المدى
ونحن أسود الوغى ، فاشهدي وثوب أسودك يوم الصدام
حماة الحمى ، يا حماة الحمى ... ...

***

ورثنا سواعد باني الهرم صخورا ، صخورا كهذا البنا
سواعد يعتز فيها العلم نباهي به ، ويباهي بنا
وفيها كفاء العلى والهمم وفيها ضمان لنيل المنى
وفيها لأعداء مصر النقم وفيها لمن سالمونا السلام

***

حماة الحمى ، يا حماة الحمى هلموا ، هلموا ، لمجد الزمن
فقد صرخت في العروق الدما : نموت ، نموت ، ويحيا الوطن
هلموا ، هلموا

نشيد الأستاذ محمد الهراوى

دعت مصر ، فلبيننا كراما ومصر لنا ، فلا ندع الزماما
قياما تحت رايتها ، قياما أمامكم العلا ، فامضوا أماما

هناك المجد يدعوكم فهبوا وليس يروعكم في المجد خطب
لعمر المجد ما في المجد صعب تردى الذل من يخشى الحماما

فنحن أولو المآثر في العصور وبين يدى أبي الهول المصور
وفي الأهرام ، أو فوق الصخور ترى آثار أيدينا جساما

لنا مجد على الدنيا تعالى «بناه الله يوم بنى الجبالا»
رسمنـاه برايتنا هلالا وننشرها على الدنيا سلاما

لنا التاريخ ، فياض المعاني لنا الأسرار ، معجزة البيان
لنا علم الأوائل في الزمان لنا الأخلاق ، نرعاها ذماما

لنا ذكر مع الماضي ، مجيد لنا أمل ، يجدد بنا ، بعيد
كذلك مثلما سدنا نسود ونرفع فوق هام النجم هاما

فيا وادي الكنانة لن تزولا وفيك النيل يجري سلسبيلا
يطوف بمائه عرضا وطولا ويبسط فيضه عاما فعاما

بساطك سندس ، وثراك تبر وجوك مشرق ، وشذاك عطر
ونهرك كوثر ، وبنوك غر أبوا في الله والوطن انقساما

فإن لم نستعز بمصر حولا ونبسط ظلها صولا وطولا
وإن لم نحمها فالموت أولى نعم : فالموت ، أو نحيا كراما

نعز ضيوفنا ، ونقر عينا فلا نعدو ، ولا يعدى علينا
فإما مسنا ضيم ، أبينا وندكيها على العادي ضراما

فيا ابن النيل ، هز لواء مصرا وهيئ في النجوم له مقرا
وأطلع بالهلال عليه فجرا وعش في ظله العالي إماما

أغنية ..

إلى الحلم* ..

بقلم العوضي الوكيل

إذا خدرت عيني من طول ما أرنو وأتعب هذا الجفن إمعان إيماء ..
إذا ما استبانى في مطالعك الفن وبت لديه ساهرا دون إغفاء ..
إذا ظمئت روحي فأغرقها دن من الحسن ممزوج سناه بأعضائي.
إذا ما عراني من مطالعتي وهن وبات كياني ، من عياء ، كأشلاء
فدعني أحلم لحظة بك في نفسي !

إذا ماجت الدنيا ، وجن جنونها وثارت براكين ، وهاجت كواكب
وغال جميع الناس فيها منونها ولاحت بقاع الأرض وهي خرائب
وصوحت الدنيا ، وبادت فنونها فلا شيء إلا وهو في الرمس غائب
فدعني أحلم لحظة بك في رمسي !

دار العلوم العالية : العوضي الوكيل

(*) من ديوان تحية الحياة ، يصدر اليوم

القصص

هواجس

بقلم حبيب الزحلاوى

قلت لصديق : لك الله من رجل غريب الأطوار ! لقد أضفتنا الليلة ودعوتنا الى تناول العشاء معك ، فأين المطعم وأصناف الطعام المطبوخ من هذه الحانة والزجاجات والأقداح « والمزات » آليت على نفسك مخالفة المألوف واتباع هوى النفس وبداواتها في كل شيء ؟؟

— : خل عنك يا صاح الملاحظات والمعارضات لأننا فى ليلة خمر وانتهاب لذة ، هيا أيها الرفاق الى الأقداح الدهاق نقرعها ، والى الزجاجات نفرغها فى أجوافنا ، فتمشى فينا الحميا ، فتدور رؤوسنا فتسابق الدورات الزمنية ، وبذلك نطوى الصفحة القاتمة من تاريخ الحزن الماضى وعقابيله المؤلمة ، ونستقبل حياة جديدة بنفس مشعشعة وفرحة وضاءة

— أى حزن تعنى ؟ لأن أحزان هذا العصر تشملنا من كل صوب وتغمزنا كل مغمز ! !

على رسلكم أيها السادة ، جئنا لنشرب ونطرب لا لنتزمت ونتفلسف ، لندع عنا تقعرات صاحبنا هذا الذى يود مسابقة الدورة الزمنية ليطوى الحزن وعقابيله ! ! أما أنا فوالله العظيم لا أعرف كلمة عقابيل هذه ولا سمعت بها ، انما أعرف ماركات زجاجات الوسكى كلها ، وأتذوق شرابها وأميزه ، وأحسن الفتك بأفراخ الحمام والدجاج ، ولا أتورع عن البطش بهذا الديك الرومى نكاية بفنزيلوس

وقال آخر : اشربوا واطربوا أيها الرفاق ، فوالله ما عرفت سر عجيبة السيد المسيح الأولى وقد حول الماء الى خمر ، إلا وقما صرت أنكر قول الحكيم سليمان : « قليل من الخمر يفرح قلب الانسان »

— ليس الحق فى جانب سليمان الحكيم ، لأن القليل من الخمر يفرح القلب الضعيف . أما الكثير منه والعبّ الوفير من ذوبه الذهبى فيحيى العقل والقلب والروح ! ! !

— راعوا أيها الاخوان حرمة وسدانة الحانة التى أنتم فيها وصونوا ألسنتكم عن الاستشهاد بالآيات وذكر العجائب فى مكان آيته الكبرى خمرته البكر وعجيبته الغادرة ، دعوة صاحبنا اليه ، وأنا الذى تعرفنى حانات المدينة كلها ، ولا يجهلنى إلا هذه البؤرة التى لا يسكنها سوى شيطان مثله ليتوارى عن أعين الناس

— صه أيها الخبيث ولا تحاول نبش أسرار الناس ، فقد يقودك الحظ الى هذه الحانة فترى الهناء يبسط أجنحته عليك وحدك ، عليك وحدك . أفهمت أيها الخبير الفنى بحقوق الاتصال ؟؟

كلا لم أفهم بعد ! ! إنما يبدو لى أن مفتاح سر تعاطيك المسكر والتدخين فى شهر معلوم ثم انقطاعك عنهما ، انما هو مدفون فى هذه الحانة التى لا يعرفها سوى الراسخين فى علم التستر والتخفى

ضحك الرفاق لهذه المداعبة الظريفة وسأل أحدهم الداعى قائلاً : ما معنى أنك لا تشرب الوسكى إلا من ماركة « كناديان » ولا تدخن السجاير إلا من ماركة « لكى ستريك » ؟ وسأل الثانى : لماذا تند الليلة عن الشرعة الشاذة التى اشترعتها لنفسك فى الخمر والتدخين وموعد تعاطيك إياهما لم يئن بعد ؟ وقال الثالث : أحسب أن دعوة الليلة إنما هى لتوديع الشباب والكهولة وقد ذبل ويبس منها الورد والثمر والغصون

فصاح صائح : اسكتوا اسمعوا ، لنشرب هذه الكأس على ذكر داعينا وقد ودع الخمسين من عمره السعيد منذ عشر سنوات خلت . . . فقاطعه آخر وقد انتصب على الكرسى قائلاً : بل نشرب نخبه وقد عاد إلى العاشرة من عمره لأن التقدم بعد الخمسين إنما هو نكوص وتراجع ! ! ! وهكذا كان الرفاق بين ضاحك وناقد وظريف لطّف دبيب الخمرة ذوقه ، وبين صامت يشتف ما فى الكأس روية ، ومالئها مترعة ، هذا يشرب بلا انقطاع ،

وذاك يهمش اللقمة ويمضغها ويضحك ، وذلك يفتك باللحم يلته بالتوابل ويزدرده ، وواحد غمه الطعام والشراب فثقلت معدته وجاشت نفسه فانتحى الزاوية ولبد ، والظريف فى هذا الحفل أنهم كانوا يتكلمون جملة ، ويضحكون ويقهقهون بجرس واحد ، ولا يستمعون إلا إذا صاح بهم صائح جاف ، وهكذا أنصتوا للقائل بصوت أجش

لكم الله من ضيوف كثيرى الجلبة واللغط ، اشربوا واطربوا لخير الشراب ما كان كغناء المغنى يعبر عن حزن دفين وإن كان يبدو أنه يعرب عن الطرب والسرور

وقعت العبارة فى نفوس الشاربين موقع الجمرة فى الماء ، تنطفىء ولكنها تترك أثرها ، وتصعد بخارها ، وتئن أنة الموجع كاد السكوت يسود المجلس ، ويعترى المتنادمين فتور السكير وكظة الآكل لو لم يقل أحدهم : حقاً إن الغناء يجاوب وجدانى لحزن دفين وذكريات مؤلمة كانت فى الأصل نتيجة لوقائع خاصة أو طوارىء مفاجئة طرأت على الانسان فغيرت سير حياته فجعلته رهين قيود وأسير أوهام لم يقو على التخلص منها والافلات من إسارها وعبوديتها ! !

هل وراء هذه المقدمة حديث غرام ؟

بلى يا صديق ، حادث غرام قديم ، عبثاً حاولت الانعتاق منه وكنت إذاءه كفراشة تفتش عن طريقها فى نور المصباح وهى تجهل أنها صائرة إلى الاحتراق

لكن حديث الليلة إذن عن الوقائع الغرامية وطوارئها ذات الأثر فى النفس ، وأحسب أن طبيعة اجتماعنا ومفاجأة صديقنا إيانا بالشراب ، ودعوتنا إلى الاشتراك معه ، على حد قوله ، فى طى تاريخ الحزن ونشر أعلام حياة جديدة على أضواء الخمرة المتلألئة مهيئة لحكاية غريبة نادرة يقصها علينا ، وقد تكون حكاية تعاطيه الخمر والدخان فى شهرين فقط من شهور السنة ، أليس حدسى صادقاً يا صاحبى ؟

سكت صاحبنا ولم يشر بحركة تدل على النفى أو الاثبات

قال أحدنا : من منا لم تصدمه حادثة غرام حولت سير حياته وبدلت نظامها المألوف ؟ انما لبعض صدمات الحب قوى عجيبة ودوافع غريبة تنتقل بالمرء من حال الى عكسه ، ويتوقف ذلك على نحيزة الانسان لا على طبيعة الصدمة

موضوع لذيذ ، إى والله إنه لموضوع مستحب . يجانس طبيعة نفوسنا الدافئة بنار الخمر ، إنى لأقترح عليكم أيها الرفاق ، وكلكم لوى عنقه عن الشباب ، وطوى كشحه عن .. الكهولة عفوا عفوا ، أريد أن أقول كلكم فتى القلب ، شاب الروح و..

صه يا ثرثار ، ودع عنك اللغو فليس وقته الآن

سكت ، وأنصت الجميع للراوى الأول حكاية مغامراته فى شبابه وهى تحمل نطفة الموت مع جرثومة الحياة كذكور النحل ، وأنصتوا للمتكلم الثانى ، وقد أظهر وقائع بطولته فى الاغراء وانتصاراته على المرأة بالخداع . وتكلم الثالث عن غرامياته وقد أوحت اليه نظم الشعر وتأليف الحكايات

وقص الرابع والخامس قصصاً فردية كسابقتها لا صلة لها بصميم الحياة ومشاكلها ، فلما انتهى الأمر الى صاحب الدعوة قال : أقص عليكم قصة طريفة نادرة ، فيها درس وقد لا تخلو من لذة

« يسرنى أيها الأصدقاء ، وقد دعوتكم الى الاشتراك معى بفرح وحزن لا شأن لكم بهما ، أن أطلعكم على سرهما وقد لزمانى خمس عشرة سنة ، ولأن فى الأفراح كما فى الأحزان انبثاقات من نور تهدى الانسان الى سمت الوجود ، وتجعل الحياة نفسها عذبة مشتهاة ، فاصغوا إلى قصتى واعلموا أن الحياة هى الحياة فى الفتى والشاب والكهل والشيخ ، إنما الفارق هو فى قوة الشعور وخصائص الوعى ، قد يحب الكهل بقوة وحرارة تماثلان حب الشاب ، وقد يعشق الشيخ ببراءة وسذاجة عشقا يضارع عشق الفتى ، انما الرجل من يحتفظ بتوازنه ، فلا يشتط فى أطوار الحب وهى مرافقته ولا بد حتى اللاحد ، ومن يستضىء بنورنفسه لا يضل السبيل ، وبذلك تسعده شاعريته ويفرحه روحه وينعم بلذة وجوده الانسانى »

المقدمة بارعة ، والاستهلال حسن ؛ فهات القصة فكلنا لك سامعون

« رن جرس التلفون ، تناولت السماعة وأثبتها على أذنى ، وإذا بى أسمع صوت امرأة تنادينى باسمى وتقول إنها قادمة من أمريكا لزيارة الشرق واستعادة ذكريات طفولتها فيه ، وإن اسمى فى مقدمة أسماء من وطدت الأمر على مقابلتهم ، وانها ستكون سعيدة إذ ترانى يوم الاثنين بعد غد فى القاهرة ، فقلت لها : انه يسعدنى لقياها الليلة فى الاسكندرية لأنى أسافر فى قطار مساء اليوم ، فأقضى نهار الأحد فيها كعادتى فى فصل الصيف ، وسألتها

عن اسمها فأجابت : ستعرف اسمي قريباً ، وقالت : إن لقياك بي في الاسكندرية تعطل على خطة الريادة ؛ وتفسد طريقة الاستكشاف التي رسمتها لنفسي . فقطعت عليها الكلام وقلت مازحا : إني لست واحة في صحراء مجهولة ، وإنك لست « روزتا فوربس » تقتحم الصحارى لتصف الحياة فيها تحت أطناب الخيام ومضارب الأعراب الأشداء ، فأجابت قائلة : أرجوك الاحتفاظ بهذه الاعتراضات إلى حين اللقاء في القاهرة ، وألا تزاحم المرأة في فضولها وبداواتها ، وودعت فانحبس الكلام

أرجعت السماعة إلى مكانها ، وأخذت أستعيد في ذا كرتي وخيالاتي نبرات الأصوات ، وصور النساء اللواتي عرفتهن ، فلم أهتد الى واحدة يوائم صوتها صوت المرأة المجهولة التي حدثتني

امرأة من أمريكا تعود الى الشرق لاشك أنها سورية ، ولقد هاجرت من سورية منذ نيف وعشرين سنة ولما أبلغ العشرين بعد ، ولم يكن لي فيها علاقة غرام بسوى فتاة حالت الحوائل دون استمرارها وديمومتها ، وأنها تزوجت برجل تقيم معه في سلام ووئام في لبنان ، فمن هي هذه السيدة المتأمركة يا ترى ؟

أف للمرأة المشغلة المعطلة ، لم لا أركب قطار الظهر الى الاسكندرية فأشبع ناظري برؤية البرية الخضراء المنبسطة ، وأبهج نفسي بمشهد الشمس حين المغيب ، تخضب الزاخر من موج البحر بدمها المسفوك وذهبها المذاب ونارها المتقدة ؟ ! لم الذهاب الى رئيس عملي أقف بين يديه وقفة المستجدي ، وقد يستجيب رجائي بعد أن يغمرني بفيض من المنة أو يرفض ويتأبه ويتعالى ، ألأجل كلمات سمعتها بالتلفون من امرأة مجهولة قد تكون من المغامرات وقد تكون شيئاً آخر لا أملك وصفه أو الحكم عليه ؟ ! أمن أجل هذه المرأة أنقض قانون العمل وأعرض نفسي لما لا قِبَل لها على احتماله من الرؤساء ، أبلبل ذهني وأضني أعصابي بتفكير سخيف ، وشهوة باطلة ، وأوهام أنسج خيوطها من اللاشيء تحقيقاً لبداوات امرأة لا أعرفها وأجهل مقرها ، وقد رفضت أن تتلقاني في الاسكندرية « كي لا أعطل عليها خطة الريادة وأفسد طريقة الاستكشاف التي رسمتها لنبش قبر « توت عنخ آمون » حي هوانا ؟ ؟ ! !

لا لا . . . سأواصل عملي حتى موعد الانصراف ثم أسافر الى الاسكندرية أقضي راحتي الأسبوعية فيها كالعادة

***

امرأة ممشوقة العود ، عريضة الجبين ، عسلية العينين ، هدباء وادعة النظرات ، آثار صباها بادية واضحة ، وقفت هذه المرأة تجاهي في محل عملي المكتظ دائماً بعشرات بل بمئات السيدات من كل جنس ولون ومدّت لي كفاً ناعمة الملمس ، طويلة الأصابع وقالت بصوت كسير ليّن أغن بعد أن تعملت ابتسامة رقيقة بدت في ركني فمها دلالة تحرك النفس « جود مورنن » ، وضغطت على كفي بكل ما في وسع المرأة التعبير عن المودة بالمصافحة

مرحبا بك ياسيدتي الأمريكانية وأهلا بهذه الطلعة البهية ، قد رأيت صبحها منذ زمن بعيد . . . ولكن أين كان ذلك ؟ في مصر ، في الشام ، في الطريق ، في الكنيسة ، أوه أ كاد أقول لا أدري ، هل لك أن تحرضي ذا كرتي على التذكر ؟ ؟ !

أحسب أن من كان مثلك في محل عملك هذا المتألق بأنماط من أنواع الجمال الخليط قد تضيق ذا كرته ، فتهمل الأسماء والكنى مكتفية بالملامح والصور ، وإني لعاذرتك على نسيانك إياي وقد افترقنا بالفعل منذ زمن بعيد

— كان افتراقنا قبل ثلاثين سنة أو أزيد . أليس كذلك يا سيدتي ؟

— لا تعرف السيدات أعداد السنين التي تحصي أعمارهن بالضبط

— عفواً ياسيدتي ما الى هذا رميت ، انما لأتذكر ، ولكن أين كان افتراقنا ؟

قالت : أتذكر فلاناً . . . (وقد ذكرت اسمه) وقد كنت معه في مدرسة النهضة الأولية في دمشق ؟

قلت : نعم أذكر ذلك

قالت : هل نسيت أخته سلمى وقد كانت تمزق لك أوراق « المزامير » فتضطرك الى استحفاظ « المزمور » غيباً عن كتاب أخيها وكنت تتظاهر أمام معلم الكتّاب أنك تقرأ في الكتاب لا عن ظهر قلبك ؟

قلت : إني لأذكر ذلك ، وأحسب أنك ابنة خالتها وقد كنتما سوية في المدرسة السكوبية

قالت : كنت أخالك قوى الذاكرة قديراً على استعادة ماطبعته الطفولة في لوحة حوادثها النقية ، ولفظت عبارتها هذه برزانة وتأمل

شاعت أحاسيس مضطربة مؤلمة في جوانب نفسي فشعرت بضني الخيبة والفشل ، وفجأة تيقظت فيّ عوامل الانتباه بعد إذ توجه شعوري وتمركز فأصبح الخاطر الغامض واضحاً جلياً لديّ ، فقلت بعد أن مررت بأطراف أصابعي على جبهتي الندية في صياح :

دراسة من اسخيلوس

٢ ـ الفـــرس

Persae

للأستاذ دريني خشبة

— ٤ —

وتبدى الملكة مخاوفها على ابنها حينما تذكر اندحار جنود زوجها فى حربه مع هيلاس ، ثم يصمت الجميع حينما يلمحون فى ظلام البعد فارساً أعجمياً يطوى الأفق ، مقبلاً من الغرب ، وهو مقبل لا شك من ميدان القتال ...

(يدخل الرسول)

— « السلام على كرام سوس و ... و ... بلاط الأ... »

— « ماذا بك أيها الرسول ؟ ! تكلم ... ما وراءك ؟ »

— « ... يا لشؤى ! ... أشأم من الشؤم نقل أخبار الشؤم يا سادة ! ... »

— « أى شؤم أيها الرسول ؟ ... تكلم ... تكلم ... »

— « الجيش ... ! »

— « الجيش ؟ ما للجيش ! »

— « تبدد ! ... استؤصلت شأفته ... وشالت نعامته ! »

— « يا للكارثة ! ... أسعدى يا دموع الفرس ! يا للجد العاثر ، والمجد الغابر ، والسلطان المهيض ! »

— « طاشت الآمال ، وخابت الأمانى ... والتهمت النيران عزة فارس ! »

— « يا ويح لنا ! ! يا رحمة لك يا دارا ؟ أهكذا خلقتنا لنشيخ مع الزمان ، وليرزح مشيبنا تحت هذا الضغث من الأشجان ؟ ... يا للهم الفاجئ ، والضربة اللازبة ! »

— « لقد رأيت كل شىء ! وخضت المعمعة مع الخائضين .. يا للشجو ... يا للشجو ! »

— « الجيش ؟ تحطمت قوة فارس ! ويلاه ! ألهذا الدمار حشدت زهرة بنينا ؟ ... الحول والطول ، والقوة والجبروت ، والعَدد والعُدد ... طاشت جميعاً ؟ ... »

— « لقد طفت جثثهم فى اللجة الدامية عند سلاميس ! ولم تنفعنا الجحافل ذات العَدد والعُدد ! ما أبغض هذا الاسم ! سلاميس ... سلاميس ! وآثينا ! يا للذكريات السود ! »

وعيل صبر أتوسا ، فسألت الرسول أن يقص الخبر كاملاً كما وقع ، فانطلق يروى المأساة ، ويصور الهزيمة ، برغم تفوق الفرس على اليونانيين فى العدد ، وبرغم أن لهم أسطولاً ينيف على ألف سفينة كاملة العدة ، فى حين لم يكن لهيلاس كلها غير ثلثمائة .... « ... ثم انقضت سفنهم على أسطولنا الضخم فأوقعت به وأعملت النيران فيه ، وكنا ننظر فى الأرض فنجد جندا ، وفى البحر فنجد جندا ، وفى السماء فنجد جندا ... وأنا لا أقول إلا أن آلهة أثينا كانت تدافع عن أوطانها مع الأثينيين ... وهكذا تمت هزيمتنا ... وقتل كل قادتنا ، ولاذت الفلول القليلة التى أفلتها القتل بالفرار ... » ... وكان الرسول بارعاً أيما براعة حينما ذكر هتاف اليونانيين بجنودهم فوق الشاطئ : « أيها اليونانيون هلموا ... ! أنقذوا هيلاس ، وخلصوا أطفالكم ونساءكم ، واحفظوا قبور آبائكم ، واحموا هيا كل أربابكم ،

الآن تذكرت ، الآن تذكرت ، أنت الفتاة اللعوب أنيسة .. وكنا جيرانكم فى بيت واحد وقد قبضت عليك مرة متلبسة بسرقة رمانتى وقد استبدلتها بتفاحة من عندك ، وفى مرة أخرى رأيتك تدسين فى محفظة كتبى قلماً رصاصياً وصورة بديعة للعذراء مريم

تضاغطت شفتاها فكتمتا ابتسامة حلوة وقالت : نعم أنا هى أنيسة وقد كنت لا تنفك تتحداها بتلاوة الكلمات الفرنسوية وتركيب جمل منها

أوه يا أنيسة كم أنت طيبة القلب فقد وضعت اسمى فى مقدمة الأسماء التى أزمعت على مقابلة أصحابها بعد الغياب الطويل ، أما أنا فقد نسيتك لتقادم العهد وجور السنين ، وقد طوحت بنا فى قطرين متباعدين . . . . . وكدت أخب فى الحديث معها وفى استعادة ذكريات الطفولة ، لولا نظرة مستسرة غامضة لمحتها فى عينى صاحب العمل وقد مربنا فى هذه الفترة فطويت الكلام واختزلت الحديث ورجوتها أن تدلنى على الفندق لأقابلها فى المساء لنتعشى معاً

أدركت موقفى فمدت يدها للوداع قائلة : أنتظرك على شرفة « الكونتنتال » وقد قرأت على قسمات وجهها أمارات عاطفة رقيقة حلوة فيها هدوء النفس المطمئنة وخلوص السريرة »

(البقية فى العدد القادم)

حبيب الزحلاوى

وأقداس آلهتكم ... من العبودية ! ! قاتلوا ! وفى سبيل الوطن من استشهد منكم ! ! »

— ٥ —

وكان الرسول لم ينته من سرد قصته بعد ، حين صرخت أتوسا المرزأة ، وحين تناوح المشائخ النجب من هول ما سمعوا

قال الرسول : « وليس هذا فقط يا سادة ، بل هناك مصيبة المصائب لما يجيء ذكرها بعد . . . »

— « وأية مصيبة أهول مما سمعنا أيها الرسول ! . . . قل ، تكلم ! »

— « ذؤابة الجيش . . . النبلاء . . . مجلس شورى الأمبرطور ... لقد كانوا يشرفون على المعركة من ربوة فى جزيرة عند سلاميس . . . وما كادت النهاية المحزنة تتم حتى أحدق بهم اليونانيون من كل فج ، فمزقوهم إرْباً إرْباً ، وساروا برؤوسهم فوق أسنة الرماح يتغنون وينشدون ويهتفون . . .

— « والأمبراطور ! »

— « لاذ بالفرار يا سادة ، فى بعض الكواكب التى نجت قبيل النهاية ! »

— « وفلول الجيش ! »

— « من لم يذق كأس الردى فى المعركة ، تشرد فى آفاق هيلاس ، ومات من جوع ومن ظمأ . . . لقد كانت الفصائل تهيم على وجهها فى برية موحشة ، فاذا بلغت إحدى مدائن اليونان أبى أهلها أن يطعموها . . . فتموت جوعاً ! »

— « ثم ؟ . . . »

— « ثم عبرت البقية الباقية المنهوكة مياه الهلسبنت ، على أن الأكثرين ماتوا ثمة غرقاً . . . لأن آلهة الأولمب أرسلت العاصفة على قنطرة السفن الضخمة فغاصت عن عليها فى الأعماق . . . »

وتكون الأمبراطورة المحزونة قد بلغ بها الجهد ونال منها الأسى ، فتذهب لتقرب للآلهة وتصلى لأربابها عسى أن تخفف من أثر الفاجعة ، وتوصى ، إذا وصل ابنها الأمبراطور قبل أن تعود أدراجها ، أن يتلقوه بالبشاشة ، وأن يهونوا عليه قدر ما يستطيعون

— ٦ —

ويفتأ النشدون — السادة الأشياخ النجب — يبكون حظ فارس العاثر ، وينعون على أجزرسيس سوقه زهرة شبابهم الى المهالك ، ويذكرون بالخير والأسف امبراطورهم الراحل — دارا ، الذى صان البلاد ووقاها هذه العاقبة السوداء ، التى ردّاها فى أغوارها ولده من بعده ... الأمبراطور الطائش الذى ذهب على وجهه بعد الهزيمة ميمما شطر الهلسبنت ليهرأه البرد ، ويعصره شتاء أبيدوس القارس . : . ثم يستهولون العاقبة التى تتبع الهزيمة المروعة من غير ريب ... وإنها لابد آتية ... فسينتقض الناس على عرش فارس وستثور الولايات . . . وتستقل مصر . . . وتخلع ليديا نير الأعاجم ... وتنتثر حبات العقد . . . وقد تتحطم الواسطة نفسها

وفيما هم يتناجون ويتباكون ، إذ تقبل آتوسا البائسة ! وهى تقبل هذه المرة لتذرف دموعها كرة أخرى . . . وهى تقبل مترجلة . . . لا تحملها عربتها الملكية المسرجة . . . ولا تجرها الخيول الفارسية المطهمة . . . « لأنه لا أبهة لهذا البلاط بعد اليوم ، ولا صولة ولا صولجان . . . إن المخاوف تحدق بى . . . والوساوس تصرخ فى وجهى ، وتملأ صيحاتها المنكرة أذنى ... وقد حملت اضحية لروح زوجى ، وقرباناً من اللبن الأبيض ، وشهداً اشتاره نحل آذار . . . وخمراً . . . عتقتها أحداث المجد التالد ... وزيتاً من تلك الزيتونة الشرقية الوارفة ... التى يا طالما تفيأ ظلالها دارا . . . ووروداً ورياحين ، ومن كل ما تنبت الأرض . . . »

— ٧ —

ويصلى الجميع على روح دارا . . .

وينشدون نشيداً طويلا كله ثناء وكله حمد ... ويبتهلون الى روح عاهلهم الراحل أن تطلع عليهم من عليائها لتخفف من أحزانهم ، وترفه عنهم من أشجانهم

— « هلم ! هلم يا مولانا العظيم الينا ! إن ظلمات الأسى تغشى قلوبنا فاقشعها بسنى فضلك وضياء حكمتك ! هلم فقد أودى شبابنا فى العاصفة الهوجاء ! هلم ! إننا نركع أمام قبرك ، فابدُ لنا ، وأدرك امبراطوريتك ! »   (يبدو شبح دارا)

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

كتاب البديع لابن المعتز

كانت دار الكتب المصرية قد حصلت فى العهد الأخير على نسخة فتوغرافية من كتاب « البديع » لعبد الله بن المعتز الخليفة والشاعر العباسى الأشهر ، وذلك نقلاً عن النسخة الوحيدة الموجودة من هذا الكتاب والمحفوظة بمكتبة الأسكوريال بمدريد تحت رقم (٣٢٨ أدب) (فهرس الغزيرى — وفهرس ديرنبور) وحصلت أيضاً على نسخة فتوغرافية لأثر آخر من آثار ابن المعتز وهو كتاب مختصر طبقات الشعراء المحفوظ أيضاً بمكتبة الأسكوريال رقم (٢٧٩ . أدب) (من الفهرسين المذكورين)

وقد ظهر الأثر الأول أى كتاب البديع أخيراً مطبوعا عن نسخته الوحيدة المذكورة ، وقام باخراجه المستشرق الروسى الكبير الأستاذ اجناس كراتشكوفسكى عضو أكاديمية العلوم فى لننجراد ، ومهد له بمقدمة بالانكليزية ، وصححه وعلق عليه ، وذيله فى طبعة بديعة ، وقامت باصداره « لجنة تذكار جب » ، الانكليزية الشهيرة ، وهو المجلد الثالث والعشرون من مجموعة جب . وقد قامت لجنة جب حتى اليوم على اخراج طائفة نفيسة من الآثار العربية المخطوطة ، نذكر منها بالأخص كتاب أخبار مصر وفتوحها لعبد الرحمن بن عبد الحكم المصرى ، (ومهد له وعلق عليه المستشرق تشارلس تورى) ، وكتابين لأبى عمر الكندى ، هما : أخبار أمراء مصر ، وأخبار قضاة مصر (ومهد لها وعلق عليهما المستشرق جست) مع مختارات من كتاب رفع الأصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى

وكتاب البديع لابن المعتز يعد من أمهات الكتب فى موضوعه ، وهو أيضاً من أشهر وأنفس آثار ابن المعتز

وعسى أن نسمع قريباً بأن هنالك من يعنى باخراج كتاب « مختصر طبقات الشعراء » فتصبح بين أيدينا مجموعة قيمة متنوعة من آثار ابن المعتز

ذكرى أدبية شائقة

للانكليز ولع شديد باحياء بعض الذكريات القومية الغريبة ، وقد احتفل أخيراً فى لندن باحياء إحدى هذه الذكريات الشائقة ، وهى ليست ذكرى عظيم أو حادثة شهيرة ، وإنما هى الذكرى المئوية لصدور كتاب ما زال يتمتع بين آثار الأدب الانكليزى بشهرة واسعة ، ذلك هو كتاب « أوراق نادى بكويك » The Pickwick Papers بقلم الكاتب الشهير تشارلس دكنز

ففى مارس سنة ١٨٣٦ صدر القسم الأول من هذا الأثر الأدبى الخالد ؛ وكان تشارلس دكنز فى ذلك الحين ما يزال فتى مغموراً فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وكان قد بدأ حياته الصحفية وأحرز شيئاً من النجاح برسائل كان ينشرها فى « المجلة الشهرية » Monthly Magazine بعنوان « صور » بقلم بوز Sketches by Boz يصف فيها خلال العصر وعاداته بأسلوب طريف ، وكان من الظواهر الأدبية فى ذلك العصر أن تصدر دور النشر قصصاً رياضية مصورة بأسلوب فكاهى ، وكان هذا النوع من القصص ذائعاً جداً . فتقدمت دار النشر المعروفة باسم « تشابمان وهول » إلى الكاتب الفتى تشارلس دكنز بأن يضع لها قصة من هذا النوع تتعلق ببعض المغامرات الرياضية ، ولكن دكنز اعتذر بعدم خبرته فى الشؤون الرياضية وبأنه لا يستطيع أن يضع أية قصة من هذا النوع فعدل عن هذه الفكرة وتركت الصفة الرياضية ، واتفق على وضع مذكرات قصصية شائقة تمثل الحياة اللندنية الصميمة ، وأن يشترك فى تصوير مناظرها الرسام الشهير « فيز » ، وهكذا صدرت النشرة الأولى من أوراق نادى بكويك ومعها مقدمة بقلم سام ويلر ؛ وتصور هذه القصة الشائقة شخصية مدهشة غريبة الأطوار هى شخصية « بكويك » ، وتصور حياة المجتمع الانكليزى المتوسط فى هذا العصر وبخاصة حياة المجتمع اللندنى تصويراً بديعاً شائقاً ، ويقدم إلينا دكنز مستر

بكويك فى ألوان طريفة مضحكة جداً ؛ وقد اشتهر أمر هذه السلسلة منذ ظهورها ، وكان القراء ينتظرونها بفارغ الصبر ؛ وكانت فى الواقع فاتحة مجد دكنز ، وفى سنة ١٨٣٧ طبعت هذه السلسلة لأول مرة فى مجلد واحد ؛ وذاعت ذيوعاً عظيما

وقد احتفلت أخيراً فى لندن جماعة تشارلس دكنز باحياء هذه الذكرى الشائقة ونظمت موكباً تاريخياً استعادت فيه شخصية مستر بكويك وصحبه ، وارتدوا ثياب ذلك العصر ، وركبوا مركبات مما كان يستعمل فى ذلك العصر ، وشقوا شوارع لندن ؛ فكان احتفالاً ظريفاً شائقاً

عميد كلية العلوم

اجتمع مجلس كلية العلوم بالجامعة المصرية فى الأسبوع الماضى لانتخاب عميد الكلية ، فحصل صديقنا الدكتور احمد زكى أستاذ الكيمياء ووكيل الكلية على تسعة أصوات ، وهى أصوات جميع الأساتذة — مصريين وأجانب — وحصل الأستاذ حسن أفلاطون بك على ستة أصوات ، والدكتور على مصطفى مشرفة على خمسة أصوات

وستعرض هذه النتيجة على حضرة صاحب المعالى وزير المعارف لاختيار أحد هؤلاء الثلاثة لعمادة الكلية

ومما يجمل ذكره أن الدكتور أحمد زكى كان أول مصرى يجمع أساتذة الكلية المصريون والأجانب على انتخابه عميداً للكلية منذ انشائها ، وكان قد انتخب للعمادة منذ ثلاث سنوات إلا أن وزارة المعارف فى ذلك العهد البغيض حالت دون اقرار الانتخاب

تعليقات أدبية : درامات شو فى مصر

تمثل الفرقة الأرلندية التى تزور مصر هذه الأيام نخبة من الدرامات العالمية ومنها بعض درامات شو ، ونحن نتساءل : هل تنجح درامات شو إذا نقلت الى العربية وأديت على المسرح المصرى ؟ وللاجابة على ذلك نضع بين يدى القارئ هذه الملاحظات التى أخذناها على الكاتب الأرلندى الكبير :

١ — يتبع برنرد شو فى حواره أسلوباً فلسفياً قد يستطيل حتى يغمض ، والحوار الفلسفى الممل يقضى على الحياة فوق المسرح ويجعلها مملولة الى حد ما ، إن لم يكن كل الملال . ولهذا قد يكون من الخير أن تقرأ شو لا أن تراه على المسرح . ويكفى أن تلقى نظرة على دراماته Misalliance ، والأسلحة والانسان ، وقيصر وكليوبطره ، ثم على ملهاته The Philonderer ليتأ كد لك ما نقول

٢ — يتقمص شو الفيلسوف جميع شخصيات دراماته فينطقهم بكلام فلسفى ، ويرهقهم بألوان من التفكير لا تحسب أن مثلها يصح أن يدور فى خلد أحد منهم . وهذا تعسف لا يطيقه المسرح ولا سيما فى مصر . ودرامته The Lhewing up fo Blanco Posnet دليل واضح على ذلك . فى هذه الدرامة القديمة التى كتبها منذ ٢٥ سنة تسمع الفكرة السامية المعقدة من لسان (عربجى) كما تسمعها من لسان (المتشرد) كما تسمعها من لسان رجل الدين — وفى فم كل من هؤلاء تسمع صوت چورچ برنرد شو وتلقى فكرته

٣ — كثيراً ما يعرض شو بالدين ويستهزئ برجاله وإن كان من رأيه أن التدين ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى للبشر عنها ، وفى روايته (بلانكو بوسنت) التى هاج بها الرأى العام عليه منذ نحو ربع قرن والتى استدعى من أجلها لمناقشته أمام مجلس العموم البريطانى بعد احراقه الأعداد المطبوعة شاهد على ذلك . وهو يبدو متعسفاً فى كثير من مآخذه على الأديان والمتدينين

٤ — يتبع برنرد شو فى أكثر دراماته طريقة الكاتب النرويجى الكبير هنريك إبسن وهى (الهدم ولا بناء — وتشخيص الداء ... ولا دواء) وهى طريقة وعرة تثير التشكك فى أذهان النظارة وتتركهم حيارى على غير هدى . على أن ابسن يفضل شو فى بيانه السلس وطريقته السهلة وعدم حشو دراماته بتفلا لزوم لها

جيمس جويس والأدب الجنسى

كان الكاتب الانجليزى الشهير د . ه . لورانس زعيم الأدب الجنسى إلى ما قبل بضع سنين فى انجلترا، فلما مات تربع جيمس جويس على عرشه ، وإن كان الكاتب الروائى ألدوس هوكسلى يرنو الى هذا العرش وهو فى نظرنا أشرف من أن يتربع عليه

ولقد أمعن كل من لورانس وجيمس جويس فى نشدان اللذة وتحبيبها إلى الشباب والتمتع بكل ما فى الحياة من نعيم جسمى والاستهانة بأوضاع الدين وتقاليده ، فلورانس فى روايته الوضيعة (عشيق لادى شاترلى) يبيح للزوج الأشل أن يسمح لزوجته أن تأتى لهما بولد من رجل آخر ... وهكذا تنتصر الدعارة على الزوجية ، وينقض المنزل السعيد الهانئ على من فيه

وقد كتب جويس قصته الأخيرة (أولسس) وجرى فيها

على شرعة لورانس ومنهاجه ، فهو يتناول العورات المستورة وما خلقها الله له بأفحش أسلوب ، وأخس تصوير ، وكل من لورانس وجويس يثيران فى نفس القارئ أحط ضروب الشهوات ؛ ولذا كان مذهبهما فى الأدب لوناً من الدعارة المكشوفة وقفت له الحكومة البريطانية بالمرصاد ، فلم تسمح بطبع كتبهما فى المطابع الانجليزية ، ولم تبح تداول هذه الكتب فى انجلترا ، وخيرا فعلت

أما نحن ... فنقرأ لورانس وجويس فى مصر ... ولا رقيب على شبابنا من الحكومة !

د . خ

نتيجة المباراة الأدبية الرسمية

انتهت ثمانى لجان من لجان الحكم فى المباراة الأدبية الرسمية من الفصل فى ثمانية موضوعات ومنحت المكافآت للفائزين فيها ، وبقيت ثلاث لجان لم تفصل اللجان المختصة فيها وهى :

١ — أثر الحافز الشخصى

٢ — عدة النجاح لرجل القرن العشرين

٣ — علاج مشكلة البطالة

وننشر فيما يلى أسماء الناجحين فى الموضوعات الثمانية التى فصلت اللجان فيها وقيمة الجوائز التى منحت لكل منهم :

الموضوع الأول — رسالة الأزهر فى القرن العشرين

الفائزون : الأساتذة : أحمد خاكى المدرس بمدرسة الأمير فاروق ومنح ثمانين جنيهاً ، وأحمد توفيق عياد ومنح عشرين جنيهاً ، والأساتذة مصطفى صادق الرافعى ، وعبد الله عفيفى ، ومحمد المهياوى ومحمد عرفه ، وقد منح كل منهم مكافأة قدرها خمسة عشر جنيهاً . وبلغ مجموع الجوائز فى هذا الموضوع مائتى جنيه

الموضوع الثانى — اللغة والدين والعادات

الفائزون فى هذا الموضوع ثلاثة منح كل منهم ٢٥ جنيهاً وهم الأساتذة : أحمد وفيق ، وزكى مبارك ، ويوسف محمد

الموضوع الخامس — التربية الوطنية الاستقلالية

الفائزون فى هذه المباراة أربعة وقد منح كل منهم ٢٥ جنيهاً وهم الأساتذة : محمود مسعود ، ومحمد جلال ، ومحمد عبد البارى ، والآنسة إيريس حبيب المصرى

الموضوع السابع — تدعيم الحياة الدستورية : قالت لجنة التحكيم فى هذا الموضوع ورئيسها سعادة بهى الدين بركات بك إنه لم يتقدم اليها أية رسالة تستحق أية جائزة

الموضوع الثامن — ترقية الفلاح اجتماعياً : والفائزون فيه أربعة وهم الآنسة ابنة الشاطىء ومنحت الجائزة الثانية وقدرها ٥٠ جنيهـا ، ومنح الثلاثة الآخرون كل منهم ٢٥ جنيها وهم الأساتذة عزيز خانكى بك المحامى ، وعبد الوارث كبير الصحفى ، ويوسف فهمى حلمى

الموضوع التاسع — استثمار نهضة المرأة المصرية للخير العام الفائزات فيه أربعة :

١ — الآنسة سيزا نبراوى وقد فازت بالجائزة الأولى وقدرها ١٠٠ جنيه

٢ — الآنسة نور الهدى الحكيم وقد فازت بالجائزة الثانية وقدرها ٥٠ جنيها

٣ — السيدة إحسان القوصى وقد فازت بالجائزة الثالثة وقدرها ٢٥ جنيها

٤ — الآنسة إيفا حبيب المصرى وقد فازت بالجائزة الرابعة وقدرها ٢٥ جنيها

الموضوع العاشر — النشيد القومى : فاز بالجائزة الأولى وقدرها مائة جنيه الأستاذ محمود محمد صادق ، ومنح الجائزة الثانية وقدرها ٥٠ جنيها حضرة الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، ومنح الجائزتين الثالثة والرابعة وقيمة كل منهما ٢٥ جنيها الأستاذ محمد الهراوى والأستاذ محمد فضل اسماعيل

وقد لاحظت اللجنة فى تقريرها أن أجود الأناشيد التى عرضت عليها لم تخل عن أبيات أو فقرات ضعيفة الى جانب أبيات أو فقرات جيدة ، ولهذا أخذت كل نشيد بمجموعه لا ببعض أجزائه . ثم قالت اللجنة « إنها لم تر حرمان المتبارين من الجوائز بالترتيب الذى وضعته ، لأن المباراة تستلزم بطبيعتها إعطاء الجوائز المقررة للمتفوقين من المتبارين سواء أدركوا الغرض كله أو لم يدركوا إلا بعضاً منه » وقد خالفت بذلك أكثر اللجان

الموضوع الحادى عشر — سلامة الدولة فى حفظ النظام :

فاز فى هذه المباراة اثنان ، ومنح كل منهما ٢٥ جنيها وهما الصاغ على حلمى أحد مأمورى المراكز ، والأستاذ محمود كامل المحامى

العالم المسرحي والسينمائي

٢ - فن السينما

بقلم يوسف تادرس وظريف زكى

فن السينما وفن المسرح

هذا الفن الحديث ما شكله ؟ ما هى الفوارق بينه وبين غيره من الفنون ؟ وما هى أوجه الشبه ؟

إنه يشبه المسرح أكثر مما يشبه أى فن آخر ، فهذا وذاك يؤديان رسالتهما عن طريق ابراز المناظر وتمثيل الممثلين

وقد ذهب بعضهم الى تعداد الفوارق الآتية بينهما وهى :

أولاً — إن التمثيل السينمائى أقرب إلى الطبيعة ، وأبعد عن التكلف

ثانياً — إنه ليس فيه فترات « استراحة » بالمعنى الصحيح تفصل بين منظر ومنظر ، وتتيح للمخرج اعداد المنظر اللاحق

ثالثاً — إنه أقل حاجة إلى الحيل التى يتوسل بها لايهام الناظر ، وأقل لجوءاً إلى المبالغة فى الحركات وفى تغيير ملامح الوجه للتعبير عن مختلف الاحاسيس

رابعاً — انه فى مكنته أن يريك وأنت جالس فى كرسيك المنظر الواحد من نواح مختلفة ومن أبعاد متباينة

خامساً — انه لا يقيده حد من الزمن والمكان

سادساً — المسرح يعتمد على التحليل النفسى والحوار

على أن جميع هذه الفوارق على صحتها لا تعدل فى نظرنا الفارق الأساسى بين الفنين وما اختص كل منهما به ، فان بين ممثل المسرح والنظارة تجاوباً فى الاحساس وتبادلاً فى التأثير ، لا تجد لهما شبيهاً على الشاشة البيضاء

وإذا كان ممثل المسرح كثيراً ما يرضى لنفسه الاكتفاء بأن يسرد عليك فى حديث مع زميله بعض الحوادث التى تقوم عليها القصة ، فان المدير الفنى فى السينما يريك تلك الحوادث متحركة أمام عينيك ؛ وهذا الفارق لا زال صحيحاً حتى الآن وقد نطق الفلم

الكتابة للسينما

لاحظ (بودوفكين) أن كتاب السينما قد اعتادوا أن يحصروا عنايتهم فى سرد الحوادث وأن يلبسوها ثوباً قشيباً من الأسلوب الجميل مستعينين بالوسائل المعهودة فى كتابة الأدب ، غافلين عن امكان تطبيقها على السينما

هذا على حين أن لكل فن وسائله وأصوله ، وأن معالجة الموضوع بحيث يكون صالحاً للاخراج السينمائى أمر من الأهمية بمكان عظيم

زعم بعض الناس أن الكاتب للسينما ما عليه إلا أن يخط مجملاً عن الحادث ، أما التحوير والتبديل فيما خطه بقلمه ، أما جعله صالحاً للسينما ، فمن شأن المدير الفنى وحده ومن واجباته هو دون سواه

ما أبعد هذا الزعم عن الصواب

ومتى جاز أن يقطع العمل الفنى تقطيعاً ! ! وأن يفصل بين مرحلة ومرحلة ! وأن يجعل كل وحدة مستقلة عن الأخرى ، لا تمت اليها بسبب ! !

ألست وأنت تقدم على تناول موضوع بالكتابة تفكر فى نفس الوقت — ولو تفكيراً سريعاً غير واضح — فى كيفية معالجتك له وعن سيرك فيه ؟ بل إن مجرد عقد نيتك على العمل يفرض فيه اتجاه ذهنك نحو بعض خصائصه وتفاصيله

لا نقول إنه يتعين على من يكتب للسينما أن يرشد المدير الفنى عن كيفية التصوير والطبع ، وأن يأمره بما يصور وما يطبع ، إنما لا بد له من معرفة أولية يستطيع معها أن يأتى بموضوع يصلح للاخراج ، وأن يتجنب عوائق قد لا يتيسر تذليلها

ولعله يعثر على مثل تلك المعرفة الأولية فيما ننشر على صفحات « الرسالة » الغراء

(يتبع) يوسف تادرس — ظريف زكى

الفرقة القومية المصرية والمسرح المحلى

لناقد « الرسالة » الفنى

باعد المسرح ما بينه وبين الأدب والأدباء ، لأن أصحاب الفرق التمثيلية — فيما مضى — جعلوا مثلهم العليا الروايات الثائرة العنيفة التى لا تمت إلى الفن الرفيع بسبب ، وكانوا بصفتهم ممثلين ومخرجين يوجهون الفن حسب أهوائهم ، حتى إنه كان لبعضهم مؤلفون من نوع خاص ، وهـذه السياسة التى ساروا عليها جعلت النظارة من المثقفين الذين يطلبون الفن ينفضون عن دور التمثيل ، مفضلين السينما ، وكانت هذه الجناية من أكبر الأسباب التى قعدت بالمسرح وأتت عليه

ومدت الحكومة يدها إلى المسرح لتقيله من عثرته ، وتكونت الفرقة القومية المصرية ، وعملت موسماً متقطعاً على مسرح الأوبرا عرضت خلاله عدة روايات من روائع الأدب الغربى

على أن ما عرضته وإن كان جديراً بالتقدير ، لن يؤدى إلى الغاية المقصودة ، فان المسرح إذا عنى بالترجمة والنقل فقط ، لن يكون إلا صدى للمسارح الغربيـة ، والحياة المصرية على تقدمها لن تشبه ولن تبلغ الحياة الغربية ومجتمعاتها وعاداتها

حقاً إن الروايات المسرحية فى كل الأمم غربية أو شرقيـة ترمى إلى بذر الخير فى النفوس واقتلاع الشر من الرؤوس وتغذية القلوب بالعواطف النبيلة بتصوير المثل العليا وتمجيدها وتقويم المعوج من الأخلاق والعادات ، كما تعنى بدقائق الحياة الداخلية ومشاكلها الاجتماعية والتجديد للمستقبل وتوجيـه التطور إلى الناحيـة التى تجدى على الشعب والانسانية ، إلا أن التباين فى العادات يضعف أثر التمثيل فى نفوس النظارة ، ولهذا فان ما تبذله الحكومة من جهد ومال لن يكون له الأثر المنشود مادامت الفرقة تعرض الروايات الغربية

نحن لا ننكر أن اللغة والأدب قد اكتسبا الكثير من نقل هذه الروايات إلى العربيـة ، ولكن المسرح المحلى والاهتمام بتكوينه ليعالج مشاكلنا الاجتماعية ، أهم لدينا من كل ما عداه ، فالمسرح وهو فن من فنون الاجتماع ، يجب أن يؤدى رسالته مستعيناً بالأدب ، لا أن يكون أداة للغة فحسب

والمسرح وهو وسيلة من وسائل الاصلاح يجب ألا ترتفع لغته كثيرا حتى يمكن الشعب أن يتفهمها ، فالمسرح ليس للمثقفين وإنما هو للشعب أولا ، ولذلك فان أكثر الروايات التى أخرجتها الفرقة القومية كانت عويصة على الجمهور مما أدى الى عدم الاقبال المنتظر على حفلات الفرقة

ورب قائل يقول إن الفرقة لم تجد الروايات المحلية التى تتوفر فيها الشروط الفنية حتى تعرضها ، ومعنى هذا أننا سنبقى الأعوام الطويلة ننقل عن الغرب روايات لا تتفق مع عاداتنا وأخلاقنا حتى يبعث الله لنا مؤلفاً عبقرياً موهوباً يقـدم للفرقة الروايات المحلية ، ويومئذ ، ويومئذ فقط ، تقام دعائم المسرح المحلى ! ! !

لا أظن أحدا يرى هذا الرأى أو يقره

إن واجب اللجنة التى تشرف على الفرقة القومية أن تشجع الأدباء والكتاب المسرحيين ، فتدرس رواياتهم وتنبههم الى المآخذ لكى يعملوا على تلافيها ، وإلى مواضع الضعف لكى يعملوا على تقويتها ، ثم تخرج هذه الروايات بعد ذلك على المسرح . ويجب أن يكون لدى هذه اللجنة من الشجاعة ما يجعلها تغامر باخراج الروايات العصرية ما دامت لها بعض المزايا الخاصة

وإن التشجيع المادى والأدبى والمران لمن بين الأسباب التى تدفع الكتاب المسرحيين إلى أن يشقوا طريقهم نحو الكمال ، وبهذا تكون الفرقة قد أدت رسالتها نحو خلق المسرح المحلى والأدب المصرى الحديث

فهل تعنى اللجنة والفرقة بهذا الاقتراح ؟

سنحاول فى كلمة أخرى التحدث عن الروايات التاريخية والروايات العصرية من حيث التأليف ، ونرجو أن يتسع صدر « الرسالة » الغراء لهذا البحث الصغير ، فقد يكون فيه بعض الفائدة لمن يحاول الكتابة للمسرح